د. عبد المنعم الحفنى

موسوعة القرآن العظيم

جزئين (الجزء الأول)

الموسوعة
الشاملة لمصطلحات
القرآن، ولقصصه، وأمثاله، وسُوَره، وأسباب نزول آياته، وشبهات المستشرقين من اليهود والنصارى والمسلمين، والردود عليها، وعلى اتهاماتهم للنبى ﷺ فيما يخص القرآن، والشروح فى مسائل الزواج والطلاق والميراث، وما فى القرآن من اقتصاد وقانون جنائى، وتجارى، والحدود والآراء فيها، و المرأة ومكانتها وحقوقها، وحقوق الإنسان عموماً، والمقارنة فى كل ذلك بين القرآن والتوراة والأناجيل.. والموسوعة بيان لعلوم القرآن، وما ينبغى للمسلم عند تلاوته، وحفظه، وتقييم كتب التفسير السابقة، وأوجه العظمة فى القرآن عموماً، وأنه لا ينافى العلوم، ولا التقدم، ولا السلام، ويدعو إلى التفاهم بين الشعوب، والتعارف فيما بينها.

مكتبة مدبولى

موسوعة القرآن العظيم

الموسوعة الشاملة لمصطلحات القرآن، ولقصصه، وأمثاله، وسُوَره، وأسباب نزول آياته، وشُبهات المستشرقين من اليهود والنصارى والمسلمين، والردود عليها، وعلى اتهاماتهم للنبىّ ﷺ فيما يخصّ القرآن، والشروح فى مسائل الزواج والطلاق والميراث، وما فى القرآن من اقتصاد وقانون جنائي، وتجارى، والحدود والآراء فيها، والمرأة ومكانتها وحقوقها، وحقوق الإنسان عموماً، والمقارنة فى كل ذلك بين القرآن والتوراة والأناجيل.. والموسوعة بيان لعلوم القرآن، وما ينبغى للمسلم عند تلاوته، وحفظه، وتقييم كتُب التفسير السابقة، وأوجه العظمة فى القرآن عموماً، وأنه لاينافى العلوم، ولا التقدم، ولا السلام، ويدعو إلى التفاهم بين الشعوب، والتعارف فيما بينها.

تأليف

دكتور عبد المنعم الحفنى

جـــزءان

الناشر

مكتبة مدبولى



الـكـــتـــاب : موسوعة القرآن العظيم

جـزءان

التـــأليف : دكتور عبد المنعم الحفنى

الطبـــعـــة : الأولى عام ٢٠٠٤

النـاشـــــر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

رقـم الإيـــداع : ٢٠٠٣/١٤٥١٢

التـرقـيم الدولى : ISBN - 977-208-442-2

موسوعة القرآن العظيم

الإهداء

إلى القاريء اللبيب..

كنت أظن أن بوسعى أن أجمع ما فى القرآن من حكمة، وأمثال،وقصص، وأحكام، وآداب، وفلسفة، وعلم فيزياء، وعلم فلك، وعلم نفس، وجغرافيا، وتاريخ، ولغة، وأخبار وغير ذلك مما لايُحصَى ولا يعد، فى كتاب واحد أعطيته اسم الموسوعة، ولكن تبيّن لى وأنا أكتب، وافكر، وأجمع، وأحلل، وأستنبط، وأدلل، وأردّ على مفتريات المستشرقين والنصارى واليهود، أن من المستحيل أن ألمّ بالقرآن كله فى كتاب واحد، ولأول مرة أعرف تمام المعرفة، وعن معاناة، معنى قوله تعالى: **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾**(الكهف)، فالذى يشتمل عليه القرآن أكبر وأجَلّ وأعظم من أن يستوعبه مفكر واحد، ويحتويه كتابٌ واحد، فكلماته لاتنفد، ولانهاية لها، وصدق تعالى إذ قال: **﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾**(لقمان)، ومقصود الآيتين الإعلام بكثرة معانى كلمات الله، وهى نفسها غير متناهية، وإنما قربّها الله تعالى فى القرآن ليفهمها الناس بحسب ثقافاتهم وأزمانهم، بما يتناهى لهم من العلم، لأنه غاية ما بوسعهم، وما أوتى الإنسان من العلم إلا القليل، وتفسير القرآن وتأويل آياته يحتاج إلى جهد الإنسانية كلها، لاجهد فرد وحده، وإنى لأعتذر للقرّاء عمّا قد يجدونه من نقص، ولكنه بالتأكيد ليس تقصيراً، فما قصرّت والله على ذلك شهيد، وإنما هو جُهد المقلّ، وغاية ما استطعت، وكل إنسان له وسع، ومما أفدت من رحلتى مع القرآن أنه تعالى يكلّف على قدر الوسع، ولقد أردت أن أرضى ربّى بهذا العمل، وكنت أكتب وكأنى أصلىّ، ومع ذلك استشعرت العجز وأنا حيال القرآن، وإنى لأستغفر الله عمّا يمكن أن أكون قد أخطأت فى فهمه، أو تعثّرت فى الإحاطة بمراميه، وإلا يغفر لى ويرحمنى لأكونن من الخاسرين، وإنى لأطمع أن يغفر لى خطاياى، ولهذا كان تأليفى لهذا الكتاب المبارك بإذن الله. وفقنى الله وإياكم ورحمنا أجمعين.

عبد المنعم الحفنى

الباب الأول

﴿القرآن﴾

★★★

١. ﴿مجمل فى التعريف بالقرآن﴾

تسمية القرآن مختلف فيها، قيل هو اسم علم غير مهموز، وغير مشتق، خاص بكلام الله؛ وقيل بل هو مشتق من قران الشيء بالشيء، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه؛ وقيل هو مشتق من القرائن، وبه همزة، ونونُه أصلية؛ وقيل إن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف، وقد نُقلت حركتها إلى الساكن قبلها؛ وقيل هو مصدر لقرأ، سمى به الكتاب المقروء، من باب تسميته بالمصدر؛ وقيل هو وصف على فعلان، مشتق من القرء بمعنى الجمع.

والقرآن اسمه كذلك عند أهل السنة والجماعة؛ وهو الفرقان لأنه يفرّق بين الحق والباطل؛ وهو الكتاب ، والذكر ، والتنزيل؛ نورٌ، وهدى ، وشفاء ، ورحمة، وموعظة؛ وهو مبين، ومبارك، وعزيز، ومجيد.

والقرآن كلام الله، مكتوبٌ فى المصاحف، ومحفوظٌ فى القلوب، ومقروءٌ بالألسنة، ومسموعٌ بالآذان. ومع أنه كلام إلا أنه ليس من جنس الحروف والأصوات، فهذه حادثة، وكلام الله معانٍ قائمة بذات الله تعالى، ولكنها تُلفظ بألفاظ، وتُسمع بنَظْم خاص، وتُكتب بنقش موضوع، كالشيء له وجود فى الأذهان، ووجود فى الكتابة، والكتابة تدل على العبارة، وهى على ما فى الأذهان، وما فى الأذهان هو على ما فى الأعيان . وحين نصف القرآن فنقول «كلام الله» ، فالمراد حقيقته الموجودة فى الخارج، فإذا وصفناه بما هو من لوازم المخلوقات، فالمراد الألفاظ المنطوقة المسموعة، كأن نقول قرآنا نَصِفُ القرآن؛ وقد نقصد من القرآن شكله، كأن نحرّم مسّه ككتاب. والقرآن ككلام الله يشترك بأنه معانٍ نفسية إلهية، فى ألفاظ حادثة مخلوقة له تعالى، وليس من تأليفات المخلوقين ، وإعجازه إنما باعتبار دلالته على المعانى. ولا نزاع فى إطلاق اسم القرآن على كلام الله باعتباره معانٍ إلهية تخصّه تعالى، قد صيغت فى كلام حادث يتعارف عليه العامة والقرّاء والأصوليون والفقهاء، وقامت عليه علوم توفّر عليها العلماء لخدمة القرآن، ومن ذلك علم تفسير القرآن، ومن علمائه: ابن هارون السلمى، وابن الحجاج، وابن الجرّاح، وابن عُيينة، وابن همّام، والطبرى. والمؤلفون كثيرون فى غير علم التفسير، ومنهم: ابن المدينى، وله «أسباب

النزول»، وابن قتيبة، وله «مشكل القرآن»، والسجستاني، وله «غريب القرآن»، والباقلاني، وله «إعجاز القرآن»، والعزّ بن عبد السلام، وله «إعجاز القرآن»، والزركشي، وله «البرهان في علوم القرآن»، والسيوطي، وله «الإتقان في علوم القرآن»، والقائمة لا تنتهي.

وإنزال القرآن كان في شهر رمضان؛ قيل: نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجّما في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، هي مدة إقامة النبيّ ﷺ بمكة بعد البعثة، وبالمدينة بعد الهجرة. وقيل: نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر، وهي الليلة العشرون أو الثلاث والعشرون أو الخمس والعشرون، على مدار مدة العشرين أو الثلاث والعشرين أو الخمس والعشرين سنة، في كل ليلة ما يقدّر الله إنزاله في كل سنة، ثم نزل بعد ذلك منجّماً. وقيل ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات. وقيل: إن الحفظة نجّمته على جبريل في عشرين ليلة، ونجّمه جبريل على النبيّ ﷺ في عشرين سنة، والمعتمد أن جبريل كان يعارضه في رمضان بما ينزل عليه طول السنة. وقيل كان إنزاله منجّماً، لأن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة، فإن نزول القرآن يكون أقوى للنبيّ ﷺ وللمؤمنين، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَك إليه، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة.

وفي كيفية الإنزال أو الوحي اختلف العلماء، فقيل: إن الله تعالى ألْهَم جبريل وهو في السماء، وعلّمه قراءته، ثم نقله جبريل إلى الأرض؛ وقيل: إن النبيّ ﷺ ليتلقاه، انخلع من صورته البشرية إلى صورة ملكية، أو أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول عنه؛ وقيل: إن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة، وأنه ﷺ علم تلك المعاني وعبّر عنها بلغة العرب، لقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾(الشعراء)؛ وقيل: إن جبريل أُلقي عليه المعنى، وعبّر عنه بلغة العرب، وقرأة لأهل السماء بها، وبها نزل كذلك.

وقيل: القرآن قسمان، قسمٌ قال الله تعالى لجبريل: قل للنبيّ إن الله يقول افعل كذا وكذا، فنزل جبريل ونقل له ما قاله ربّه، ولم تكن العبارة هي نفسها تلك العبارة التي قالها الله تعالى؛ وقسمٌ آخر قال الله تعالى لجبريل اقرأه على النبيّ، فنزل به جبريل لم يغيّر فيه شيئاً. وقيل: القرآن هو القسم الثاني، والقسم الأول هو السُّنّة، وكان جبريل ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى، لأن جبريل أدّاها بالمعنى. ولم تجز قراءة القرآن بالمعنى لأن جبريل أدّاه باللفظ، والمقصود بذلك التعبّد به بلفظه، وأن يأتي

لفظه معجزاً، وأنه مع كل قراءة تتحصّل بها تجلّيات لمعان. ولو جُعل القسمان بحيث يروونهما باللفظ، لشقّ على الأمة، وتخفيفاً عليها جُعل قسمٌ للرواية باللفظ، وقسمٌ للرواية بالمعنى.

وللوحي كيفيات، الأولى : أن يأتيه **المَلَك في** مثل صلصلة الجرس، وهذه الحالة أشد حالات الوحي عليه، وقيل: إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد؛ **والثانية** : أن ينفث في روعه الكلام نفثاً؛ **والثالثة** : أن يأتيه في صورة رجل فيكلمه، وهذا أهونه؛ **والرابعة** : أن يأتيه في النوم.

والقرآن منه **المكي**، ومنه **المدني**، **والأول** : ما نزل عليه قبل الهجرة ولو كان في غير مكة، **والثاني** : ما نزل بعد الهجرة ولو كان في غير المدينة.

وقيل ان **علوم القرآن** تنتظم : **علم التفسير**، **وعلم القراءات**، **وعلم الرسم العثماني**، **وعلم إعجاز القرآن**، **وعلم أسباب النزول**، **وعلم الناسخ والمنسوخ**، **وعلم إعراب القرآن**، **وعلم غريب القرآن**، إلى غير ذلك. وقيل: **علوم القران** ٧٧٤٥٠ علم، على عدد كلمات القرآن، مضروبة في **أربعة**، **لأن** كل كلمة لها ظهر وبطن، وحدّ ومطلع.

والقرآن كتاب هداية وإعجاز، ولم ينزل ليدلل على نظرية، ولا ليقرر قانوناً علمياً، وان كان يدعو إلى تعلّم النظريات والقوانين والعلوم، ويحثّ على استكناه الكون، ومعرفة الأسباب فيه، وصنائع **الله** وبدائعه، ولذا كثر العلم فيه، وكثر التنبيه إلى آيات الكون والإعجاز فيها، والتدليل بالعقل والبرهان على صحة ما يقول، واستخدام الحجاج والجدل والحوار، فكان كلامه في ذلك إعجازاً علمياً وفلسفياً لا شك فيه. وعلوم القرآن موضوعها كل ذلك، وتتعرف إلى ناحية من نواحيه،وأول العلوم هو **علم التفسير** ، وهو **أبو العلوم القرآنية**، ومن أوائل الكاتبين فيه : **شعبة بن الحجاج**، **وسفيان بن عيينة** ، **ووكيع بن الجرّاح** في القرن الثاني الهجري، ثم **ابن جرير الطبري**، المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وكتابه من أجلّ التفاسير وأعظمها. وفي **أسباب النزول**، كان في مقدمة المؤلفين : **علي بن المديني**؛ **وأبو عبيد القاسم بن سلام** في الناسخ والمنسوخ، وهذان من علماء القرن الثالث؛ **وفي غريب القرآن** : **أبو بكر السجستاني** من علماء القرن الرابع؛ **وفي إعراب القرآن** : **عليّ بن سعيد الحوفي** من علماء القرن الخامس؛ **وفي مبهمات القرآن** : **أبو القاسم عبد الرحمن** ،المعروف **بالسبيلي**، من علماء القرن السادس، **وفي مجاز القرآن** : **ابن عبد السلام**؛ **وفي القراءات** : **عَلَم الدين السخاوي** من علماء القرن السابع. وفي القرن الثامن كان **بدر الدين الزركشي**، ثم **محمد بن سليمان الكافيجي** في القرن التاسع، **والسيوطي** في القرن العاشر، **وطاهر**

الجزائري في القرن الرابع عشر، ومن علماء عصرنا : **محمد بخيت، والعدوي، ومحمد خلف الحسيني، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد مصطفى المراغي**.



٢. ﴿أسماء القرآن﴾

قيل أسماء القرآن كما وردت به في مواضعها منه خمسة وخمسون اسماً، سمّاه بها الله تعالى، ومنها: **كلام الله** (التوبة ٦)، **والكتاب المبين** (الدخان ٢)، **والقرآن الكريم** (الواقعة٧٧)، **والنور المبين** (النساء ١٧٤)، **والهدى** (لقمان ٣)، **والرحمة** (يونس ٥٨)، **والفرقان** (الفرقان ١)، **والشفاء** (الإسراء ٨٢)، **والكتاب المنير** (آل عمران ١٨٤)، **والكتاب المحكم** (هود ١) ،**والذكر** (الأنبياء ٥٠)، **والعليّ** (الزخرف ٤١)، **والحكمة البالغة** (القمر ٥)، **والكتاب الحكيم** (يونس ٢)، **والكتاب المهيمن** (المائدة ٤٨)، **والكتاب المبارك** (ص ٢٩)، **وحبل الله** (آل عمران ١٠٣)، **والصراط المستقيم** (الأنعام ١٥٣)، **والكتاب القيم** (الكهف ٢)، **والقول الفصل** (الطارق ١٣)، **والنبأ العظيم** (النبأ ٢)، **وأحسن الحديث** (الزمر ٢)، **والتنزيل** (الشعراء ١٩٢)، **والروح** (الشورى ٥٢)، **والوحي** (الأنبياء ٤٥)، **والمثاني** (الحجر٨٧)، **والقرآن العربي** (الزمر ٢٨)، **والقول** (القصص ٥١)، **والبصائر للناس** (الجاثية ٢٠)، **والبيان** (النساء ١٣٨)، **والعلم** (الرعد ٣٧)، **والقصاص بالحق** (آل عمران ٦٢)، **والهادي** (الإسراء ٩)، **والقرآن العجيب** (الجن ٢٩)، **والتذكرة** (المدثر ٥٤)، **والعروة الوثقى** (لقمان ٢٢)، **والكتاب المتشابه** (الزمر ٢٣)، **والكتاب المفصّل** (الأعراف ٥٢)، **والصدق** (الزمر ٣٣)، **والعدل** (الأنعام ١١٥)، **والإيمان** (آل عمران ١٩٣)، **وأمر الله** (الطلاق ٥)، **والبشرى** (النمل ٢)، **والقرآن المجيد** (البروج ٢١)، **والبشير النذير** (فصلت ٤) ، **والكتاب العزيز** (فصلت ٤١)، **والبلاغ** (إبراهيم ٥٢) **والصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة** (عبس ١٣ / ١٤).

وقيل : لما جمع **أبو بكر** القرآن سمّوه **المصحف** وأخذوا بالاسم، لأنه **يصحّف** الآيات والسور، ولأنه مكتوب على **صحائف**؛ وسمّوه **كتاباً** لأنه يجمع الحروف لمعان وموضوعات وأحكام وقصص وآيات؛ وقيل: سمّوه **قرآناً**، لأنه جمع السور وأنواع العلوم ويسّرها للقراءة ، ولأنه **يُقرأ** ويتلى. وقيل القرآن مشتق من **قرنتُ** الشيء بالشيء، يعني ضممته، **لقران** السور والآيات والحروف فيه؛ وسُمّي **النور**، لأنه يبين الحلال من الحرام؛ وسُمّي **البشير والنذير**، لأنه يبشّر بالجنة وينذر بالنار، وهكذا في كل اسم.



٣. ﴿غريب القرآن﴾

غريب القرآن: هو ما استغلق الإحاطة بمعانيه ، لقلة ما يعرف الباحث من موضوعات اللغة وحقائقها، ففى **سورة عبس** ترد لفظة **الأب**، كقوله: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا** (٣١)﴾، قال فيها عمر : الفاكهة وقد عرفناها، فما **الأب** ؟ فعاب عليه **أبو بكر**، واعتبر سؤاله من التكلّف، وقال : ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** (٧)﴾ (آل عمران)، وقال : ما كُلّفنا بهذا ! ولم يكن ذلك عن جــهل من عمـــر أو أبي بكر لمعنى **الأب** ولكنهمـــا حارا فى المعاني الكثيـــرة للكلمة ، فخشيا إن فسراها بمعنى، أن يكون المراد غــيره، فلذلك اختلف المفسرون فى معنى «**الأب**» إلى سبعة أقوال. وهذا نموذج **لغريـــب القرآن**، وكانوا يتحرّون **الشعر** لأنه ديوان العرب، فينظرون إن كانت الكلمة قد وردت عند أحد الشعــراء من القدامى؟ والمفسّر للقرآن يحتاج إلى معــرفة مــدلول الغريب من القــرآن، ويقتــضى ذلك معــرفتــه للغات العــرب. وكان **الأصـمـعى** ـ وهو إمام اللغة ـ يخشى التصدّى لغريب القرآن ولا يحاول تفسيره، وسئل ما معنى: ﴿ **شَغَفَهَا حُبًّا** (٣٠) ﴾ (يوسف) فسكت ، ثم تذكر قولاً لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعــها، أتبيــعونها وهى لكم شــغاف ؟ ولم يزد على هذا، ولهــذا كان النبىّ ﷺ يحثّ المسلمين على تعلّم إعراب القرآن ومعانى كلماته العربية.



٤. ﴿اختلاف المتكلمين عن الأصوليين فى تعريف القرآن﴾

الخــلاف بين الاثنين ظاهرى، **فالمتكــلمون** ـ بما أنهم متكلمون ـ فــقد اهتموا بالكلام القرآنى من ناحيته النفــسية أو الذهنية أو الباطنية، أى قبل أن يخرج كلامــاً على الحقيقة. ومن الكلام من هذا النوع النــفسى فى الحــديث عن أم سلمــة ، قول الرجل لرســول الله ﷺ : « إنى لأحــدّث نفسى بالشىء لو تكلــمت به لأحبطتُ أجــرى»، فقــال له النبىّ ﷺ : « **لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن**». رواه الطبرانى. والنبىّ ﷺ سمّاه **كلاماً** مع أن الرجل لم ينطق به، وإنما هو حديثٌ نفسى، أو خواطر ذهنية باطنية لم ترْقَ أن تكون كلاماً منطوقاً، وقد جاء عن المتكلمين أنهم اعتبروا كلام القرآن قديماً، وغير مخلوق، ومنزّه عن الأعراض، وأزلياً، وليس مجرد ألفاظ متراتبة، مصورة الحروف والأصوات، وإنما كان من أول الفاتحة إلى آخــر سورة الناس كلمات حكميــة ، أى قديمة قِدَم الله سبــحانه وتعالى، فلأنــه تعالى قــديم فكلامه كــذلك قديم وليس حــادثاً، وقولهم ذلك لأنــهم اعتــقدوا أن مذهبهم ينزّه الله تعالــى ولا يفصل صفاته عنه، فهو تعالى لم يتــصف بصفاته من يوم أن مورست هذه الصفات، ولكنهــا صفات قديمة فيه، فــالصفات هى عين الذات ، والذات هى الصفات.

وأما **الأصوليون** فكان اهتمامهم بالأحكام والاستدلال عليها ، وطريق ذلك الألفاظ، واهتم علماء اللغة بها كدليل على إعجاز القرآن، ولإثبات نبوة محمد ﷺ بإثبات أن القرآن معجزة اختص بها، ولو لم يكن نبياً ما كان القرآن الذى أتى به معجزة، فأبانوا وأفصحوا عن أن القرآن هو كتاب الله لا نزاع في ذلك.

●●●

٥. ﴿كتابة القرآن﴾

يقول **ابن عباس** : كان رسول الله إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال: «**ضعوا هذه السورة في الموضوع الذى يذكر فيه كذا وكذا**». يعنى أنه ﷺ اتخذ كُتّاباً للوحى، فكلما نزل عليه شيء من القرآن أملاه عليهم ليسجلوه توثيقاً وضبطاً، لتظاهر الكتابة الحفظ لآيات القرآن، وليكون النقش مؤيداً للفظ. ومن هؤلاء الكُتّاب : **أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ، ومعاوية، وإياس بن سعيد، وخالد بن الوليد، وأُبىّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس، وأرقم بن أبىّ، وحنظلة بن الربيع**.

وكان يدلهم على موضع ما يمليه عليهم من السورة التى يتبعها، فيكتبونه على **العُسُب** جريد النخل، وكانوا يكشفون الخصوص ويكتبون فى الطرف العريض، **واللّخاف** جمع **لَخَفة** وهى الحجارة الرقيقة المبسوطة كالصحيفة، **والرقاع** جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق عريض، **وقِطَع الأديم** وهو جلد الحيوان المدبوغ والمبسوط، **وعظام الأكتاف والأضلاع - وعظم الكتف والضلع** هو أعرض عظام الحيوانات، وكانوا يختارون عظام أكتاف الجمال بخاصة، لعرضها أكثر من غيرها. ثم يُحفظ المكتوب فى بيت الرسول ﷺ . وعن **زيد بن ثابت** قال : « **كنا عند رسول الله** ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع»، أى يؤلفون بين الآيات بحسب ما يقول عن الوحى، وكان من الصحابة من يكتب لنفسه، ومنهم من يعتمد على الحفظ. وكانت هذه العبارة دائماً فى فم الرسول ﷺ عند كل نزولٍ للوحى: «**أئتونى بالكتف والدواة**».

●●●

٦. ﴿رسم المصحف﴾

الأصل فى الكتابة أن يجىء المكتوب موافقاً للمنطوق، غير أن **عثمان** اتبع قواعد فى رسم القرآن وحفظه وخطّه بحيث أتت بعض الكلمات على غير مقياس لفظها، وهذه القواعد ست، هى: **الحذف، والزيادة، والهمز، والفصل، والوصل، وما فيه قراءتان جعلت قراءته على أحدهما**.

فأما الحذف : كأن تحذف الألف من حرف النداء مثل : «يأيها الناس»، ومن «ها» ، مثل «هأنتم»، ومن اسمه تعالى «الله»، و«إله» و«الرحمن»، و«سبحن»؛ ومن كل عدد، مثل «ثلث» يعنى «ثلاث»، ومن البسملة عموماً وهكذا. وتحذف الياء من كل منقوص منون، نحو «غير باغٍ ولا عاد». ومن ذلك حذف الواو مثل «لا يستون» (لا يستوون)، واللام نحو «اليل» (الليل)، والألف من مالك لتصبح «ملك»، والياء من إبراهيم لتصبح إبراهم.

وأما الزيادة: فتزاد الألف بعد الواو فى آخر الجمع، مثل: ملاقوا ربّهم، وأولوا الألباب؛ وبعد الهمزة: نحو «تالله تفتأ» فتصبح «تالله تفتؤا»، وفى كلمات مثل «مائة» و «مائتين» وهكذا، وتزاد الياء فى كلمات، مثل «نبأ» فتصبح «نبإى»، وآناء فتصبح «آناءى»، وهكذا.

وأما الهمزة: فإذا كانت ساكنة تكتب بحذف حركة ما قبلها ، نحو «ائذن»، و«البأساء»؛ والهمزة المطلقة إذا كانت فى الأول تكتب ألفاً ، نحو: «أيوب»، و«أولوا»؛ وإن كانت وسطاً تكتب من جنس حركتها، نحو: «سأل»، و«سُئل»؛ وإن كانت متطرفة تكتب بحركة من جنس ما قبلها، نحو «سبأ»، و«شاطئ».

وأما البدل: فهو أن تكتب الألف واواً للتفخيم، مثل «الصلوة» بدلاً من الصلاة، و«الزكوة» بدلاً من الزكاة، و«الحيوة» بدلاً من الحياة. وكذلك ترسم الألف ياء فى الكلمات: إلى، وعلى، وأنّى، ومتى، وبلى، ولدَى. وترسم النون ألفاً فى كلمة «إذن» فتصبح «إذاً»،وهاء التأنيث، مثل «رحمة» تصبح «رحمت» بتاء مفتوحة، و«نعمة» تصبح «نعمت».

وأما الوصل والفصل: فإذا جاءت «لا» بعد «أن» توصل بها ، إلا فى عشرة مواضع مثل: أن لا تقولوا ، وأن لا تعبدوا وهكذا. وتوصل كلمة «من» بكلمة «ما» بعدها، إلا فى «من ما ملكت»، و«من ما رزقناكم». وكلمة «من» توصل بكلمة «مَن» مطلقاً، و«عن» و «ما» ، و«إن» و «ما» ، و«كل» و «ما»، وهكذا، إلا فى حالات.

وما فيه قراءاتان: فتكتب الكلمة برسم إحدى القراءتين إذا كانت الكلمة لها قراءتان، كالكلمات الآتية «ملك (مالك) يوم الدين»، و«يخدعون الله» (يخادعون الله)، و«وعدنا موسى» (واعدنا).

ولهذا الرسم مزايا أنه يصلح للقراءة بالوجوه الأربعة عند نافع، وابن كثير، وحفص، وابن عمرو؛ فعند نافع يشددون إن ويخففون الألف فى «هذان»؛ وعند ابن كثير تخفف

النون فى «إن»، وتشدّد فى «هذان»، وفى قراءة حفص تخفف النون فى «إنّ» وفى «هذان» بالألف؛ وفى قراءة ابن عمرو تشدد «إن» وتخفف النون فى «هذين».

•••

٧. ﴿هل رسم المصحف توقيفى أم اصطلاحى؟﴾

هو اصطلاحى وإن كان البعض قالوا إنه توقيفى، بدليل حديث النبىّ ﷺ لمعاوية وهو من كتبة الوحى: «ألق الدواة (يعنى أصلح مدادها)، وحرّف القلم (يعنى رقّع سنّه)، وانصب الباء، وفرّق السين، ولا تعوّر الميم، وحسّن الله، ومُدّ الرحمن، وجوّد الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك»، إلا أن الحديث ليس للرسم وإنما لتجويد الخط، ولا شك أن الرسم العثمانى الآن مدعاة للبس فى القراءة، والإجماع على أنه تجوز مخالفته، ولم يحدث أن اصطلح الصحابة على هذا الرسم، والمصحف الآن يجب كما يقول العزّ بن عبد السلام: أن يكتب لعامة الناس باصطلاحات معروفة لهم، وشائعة عندهم، ولا تجوز كتابته بالرسم العثمانى. (انظر أيضاً عن اللحن فى القرآن ضمن باب «الإسرائيليات والشبهات والإشكالات فى القرآن).

•••

٨. ﴿توقيفية قراءة القرآن﴾

فى الحديث عند البخارى، أن النبىّ ﷺ قال: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف، كلها شافٍ كافٍ، فاقرأوه كيف شئتم». والأحرف: هى القراءات التى يتوجب قراءة القرآن بها، وهى بوحى من الله إلى النبىّ ﷺ، وفى الاصطلاح: هى قراءات توقيفية، منصوص عليها من الله تعالى بطريق نبيّه ﷺ. والصحابة وقفوا عند الألفاظ المنزّلة ولم يتجاوزوها، ولم يقرأ كل واحد منهم بحسب هواه، ولكنهم كانوا يردّون ويصوّبون بعضهم البعض، حتى أنه كادت تحدث بسبب ذلك فتنة أثناء غزوة أرمينية، وشهدها حذيفة بن اليمان، فجاء إلى عثمان يحذّره وقال: إن الناس قد اختلفوا فى القرآن، حتى أنى والله لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف!

والاختلاف كان منذ عهد النبىّ ﷺ، وفى الرواية عند البخارى ومسلم وغيرهما، أن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة (يعنى أثب عليه)، فتصبّرت حتى سلّم، فلببته بردائه (أى أخذته من طوق ردائه)، فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول

الله ﷺ . فقلت: كذبت ! فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما أقرأك! . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: يا رسول الله ! إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حرف لم تقرأنيها؟ فقال رسول الله ﷺ : «**أرسله**» (يعنى أطلقه). وقال له: «**اقرأ يا هشام**». فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرؤها، فقال رسول الله ﷺ : «**وكذلك أُنزلت**». ثم قال لى : «**اقرأ يا عمر**» ! فقرأت القراءة التى أقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ : «**وكذلك أنزلت**». وقال: **إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه**». وفى رواية قال: «**فأى ذلك قرأتم أصبتم.**» وفى رواية قال: «**كلها**» أى الأحرف السبعة «**كاف شاف**». فكأن هناك إذن أكثر من قراءة، ويشرح ذلك النبىّ ﷺ فيقول فى الحديث عن ابن عبّاس عند البخارى: «**اقرأنى جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف**». وفى رواية قال: « **الله يأمرك أن تُقرأ أُمتك على سبعة أحرف، فأيّما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا** ».

ومفاد كل هذه الأحاديث: أن القراءات ليست على هوَى أىٍّ كيف شاء، فيغيّر فى ألفاظ القرآن، ويبدّل فيها بمرادفها فى لغته إذا أحب ذلك أو ارتآه، وينزع منه لفظةً هنا أو هناك، ليضع مكانها لفظةً أخرى من لغته، ظناً منه أنه بذلك يجعل القرآن مفهوماً أكثر عند قومه، أو أنه ييسر بها نطق الكلمات، أو يزيد من بلاغة العبارات، وإنما الأحرف السبعة قراءات ثابتة ومتواترة عن رسول الله ﷺ ، تعلّمها من جبريل، وعلّمها لصحابته، وتلقيناها عليهم، ولا خلاف فى صحتها، وهى كما أنزلها الله على نبيّه، ولم يكن للهوَى فيها نصيب، وتوارثناها عن الرسول ﷺ ، وأجمعت عليها الأمة.

ومن ثم يتبين كذب المستشرقين وأهل الكتاب، بأن المسلمين الأوائل قبل عثمان، كانوا يقرأون القرآن بحرية وعلى هواهم، وكانوا يغيّرون فى الألفاظ كيف يشاءون، طالما أنهم يحافظون على المعنى أو الفكرة! والعكس هو الصحيح، فكل مسلم كان يقرأ سابقاً ـ وما يزال المسلمون يقرأون للآن ـ على نفس المنوال الذى علّمهم النبىّ ﷺ ، ويحذون فى قراءاتهم حذو المشايخ، ولديهم دليل للقراءات فى كل مصحف، ولا سبيل إلى الخطأ طالما أنهم يعرفون ما عليهم أن يفعلوه لتسلم قراءاتهم، ولتخلو من اللحن، وليصحّ فهمهم، فيبلّغ به الواعى منهم غير الواعى، يتأسّون ببعضهم البعض، وقانا الله شر الخطأ وبلية النسيان، ويساعد على ذلك **رسم المصحف العثمانى**، وهو الرسم المتفق عليه بإجماع الأمة، فيكون من الأمور **التوقيفية فى القراءات**، وكانت كتابة حروف القرآن بهذه الطريقة نفسها فى عهد النبىّ ﷺ ، وكان كُتّابه يسجّلون ما يبلّغهم أولاً بأول، وكان يرشدهم على

موضع المكتوب من السورة فيقول لهم: ضعوا هذه السورة بجانب تلك السورة، وضعوا هذه الآية في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وقبل وفاته ﷺ **عرض القرآن كاملاً على جبريل مرتين**. فلما أمر عثمان بكتابته، واستقر ذلك في العرضة الأخيرة، كان هناك عدد من المصاحف بحسب عدد من ساعدوا عثمان على إتمام هذا العمل، وكان منهم **زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام**، وقيل في أصح الأقوال أن عدد المصاحف كان ستة، هي: **المصحف البصري، والكوفي، والشامي، والمكّي، والمدني العام، والمدني الخاص**، والأخير هو الذي اختص عثمان به نفسه، ويسمى **المصحف الإمام**، واشتمل مصحفه على ما يحتمله رسم الألفاظ من الأحرف السبعة، خالية من النقط والشكل، فكان الرسم لذلك محتملاً للأحرف السبعة. ولما سمع **أبو الأسود الدؤلي** رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾ (التوبة ٣)، فجرّ اللام في رسوله، قال أبو الأسود: معاذ الله أن يتبرأ الله من رسوله! فبدأ أبو الأسود في **إعراب القرآن**، بوضع نقط يخالف مداده مداد المصحف، وجعل للفتحة نقطة فوق الحرف، وللضمة نقطة إلى جانب الحرف، وللكسرة نقطة أسفل الحرف، وجعل للمنوّن نقطتين متجاورتين؛ ثم أُدخلت التحسينات على هذا التنقيط الإعرابي، وأجريت عليه التعديلات حتى صار إلى ما صار إليه الآن؛ ثم وضع **نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر**، نُقط الإعجام كطلب **الحجّاج**، بناءً على أوامر الخليفة **عبد الملك** بن مروان، لضمان سلامة القرآن من التحريف والتغيير؛ ثم غيّر **الخليل بن أحمد** طريقة النقط وطورّ فيها، فجعل الضمة واوا صغيرة فوق الحرف، والفتحة ألفا صغيرة مبطوحة فوق الحرف، والكسرة ياء صغيرة تحت الحرف، وجعل الشدّة علامة رأس الشين، والسكون علامة رأس الخاء، وعلامة للمد، وعلامة للرَّوْم والإشمام، واستمرت التحسينات على ذلك إلى أن صار الحال على ما نراه الآن. **فأين هذا الاضطراب، أو التردّي، أو اختلاف الروايات الذي يُنسَب إلى كتابة القرآن؟ وأين الحق فيما زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة حرّفوا القرآن، وحذفوا منه كلمات وسوراً؟** والحق ما قاله واحدٌ منهم - وهو **سير وليام موير**، قال: **والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرناً بنصٍّ هذا مبلغ صفاته ودقّته**.

●●●

٩. ﴿الاختلافات في القراءة﴾

في الحديث عن ابن عباس ﷺ: « **لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم** »، فقد يختصم المسلمان ويستشهد كل منهما بآيات، فيبدو كما لو أن

القرآن يخالف بعضه بعضاً. وعند البخارى بطريق جندب بن عبد الله، عن النبىّ ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه».

وقد نهى الرسول ﷺ عن التمادى فى الاختلاف، لما يمكن أن يجرّه من الشر، كما فى قوله تعالى ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ (١٠١)﴾ (المائدة)، والمسلمون مطالبون على ذلك بأن يقرءوا ويلزموا الائتلاف، فى الأداء وفى المعنى، فإذا وقع الاختلاف، أو عرض عارض شبهة يقتضى المنازعة الداعية إلى الافتراق، يتركون القراءة، ويتمسكون بالمحكم الموجب للألفة، ويعرضون عن المتشابه المؤدى إلى الفرقة، كقوله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فاحذروهم». وعند البخارى عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقرأ آيةً سمع النبىّ ﷺ قرأ خلافها، قال: فأخذتُ بيده، فانطلقت به إلى النبىّ ﷺ فقال: «كلاكما محسن، فاقرآ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم». والمختلفون إذن ينبغى أن يتفرقوا إخواناً، ويستمر كل منهم مع ذلك على قراءته.

والاختلاف عن حق فيه خير، وهو سعة للمسلمين. والأوْلى أن نحذر الفرقة لاختلاف الرأى، وأن نلزم الجماعة والألفة، وأن نتوسل بالنظر، وندقق فى الآية المختلف بشأنها، ونتجنب اللجاج فى التأويل وحمل القرآن على الرأى.



١٠. «القرآن نزل على سبعة أحرف»

فى الحديث: «أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، كلها شاف كاف»، وأنه ﷺ لما أقرأه جبريل القرآن، اقرأه على حروف، فظل يستزيده تيسيراً على الأمة، حتى انتهى إلى سبعة أحرف. ولقد أرسل النبىّ ﷺ إلى أُمة أُمّية، فيهم الرجل، والمرأة، والجارية، والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتاباً، والعجوز الكبيرة، والغلام، وما كانوا يطيقون ذلك لو قرأوا القرآن على أقل من سبعة أحرف، والمقصود أن الأُمّة بينها اختلاف فى اللهجات والأصوات، وطريقة الكلام، وشهرة نطق بعض الألفاظ والتراكيب، فلو أن القرآن قُرىء بطريقة واحدة ونُطق واحد، لشقّ ذلك على الناس. وكانت الديانات قبل الإسلام تُقرأ بحرف واحد، لأن من نزلت عليهم كانوا أقواماً مخصوصين، وأما أمة الإسلام ففيهم العرب والعجم، فلو كُلّف الجميع أن يعدلوا عن لهجاتهم، لكان فى ذلك تكليفهم بأكثر مما فى استطاعتهم، فتنوعت لذلك القراءات، وتنوّعها كان ضرباً من البلاغة، وذلك لأن القراءات على كثرتها لم تؤد إلى تناقض فى المقروء، ولا إلى تهافت فى المعنى، ولكنها صارت تصدّق بعضها بعضاً، وتبيّن بعضها بعضاً، وتشهد لبعضها البعض، ودلّ ذلك أنه مهما تنوعت القراءات فإن الإعجاز واحد على كل حرف ووجه ولسان، وأيّما حرف قرءوا

عليه فقد أصابوا، وأنها جميعاً من عند الله، فهكذا قصد من إنزالها، فلا ينبغي لأحد أن يمنع آخرين من أن يقرأوا بأي حرف من الأحرف السبعة، وأن المراد بالأحرف وجوه في الألفاظ، كأن نقرأ الآية: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ⑧﴾ (المؤمنون)، مرة نقول لأماناتهم، ومرة لأمانتهم؛ أو نقرأ الآية: ﴿**رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ⑲﴾ (سبأ) مرة بنصب لفظ «ربَّنا» منادى، ولفظ «**باعد**» فعل أمر، ومرة نضم اللفظ باعتباره دعاء فنقول «ربُّنا»، و«بَعَّد» بدلاً من «**باعد**». وقيل الأوجه السبعة التي يقع بها التغاير في القراءة هي: **أولاً**: تغيير الحركة مثل «**ولا يضار كاتب**» (البقرة ٢٨٢) مرة بفتح الراء، ومرة بضمها؛ **وثانياً**: تغيير الفعل مثل «بَعَّد» و«باعِدْ»؛ **وثالثاً**: تغيير اللفظ مثل: «ننشزها»، و«**ننشرها**» في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة؛ **ورابعاً**: تغيير حرف مثل «**طلح منضود**»، نغيرها «**طلع منضود**» الآية ٢٩ من سورة الواقعة؛ **وخامساً**: تغيير التقديم والتأخير. مثل: «**وجاءت سكرة الموت بالحق**»، و«**وجاءت سكرة الحق بالموت**» الآية ١٩ من سورة ق؛ **وسادساً**: تغيير بالزيادة والنقصان، مثل «**وما خلق الذكر والأنثى**» «**والذكر والأنثى**» بنقص لفظ «**ما خلق**» الآية ٣ سورة الليل؛ **وسابعاً**: تغييرٌ بإبدال كلمة بأخرى مثل «**كالعهن المنفوش**» و «**كالصوف المنفوش**» الآية ٥ من سورة القارعة .. إلخ. وتشتمل المصاحف العثمانية على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة جميعها، وقيل المراد بالأحرف السبعة **سبع لغات من لغات العرب**، أي أن القرآن لم تخرج قراءته عن إحدى هذه اللغات السبع من لغات العرب، وهي: لغات **قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن**، وهي أفصح لغات العرب، ولا يُفهم أن كل كلمة في القرآن تقرأ بسبع طرق أو لغات، وإنما أن اللغات السبع مفرّقة في القرآن، فبعضه بلغة **قريش**، وستجد فيه من لغة **هذيل**، ومن اللغات الأخرى. فمثلا لفظ «**سامدون**» (النجم ٦١) هي لفظة **حميْرية**؛ و«**خمراً**» (يوسف ٣٦) لفظة **عمانية**؛ و«**بعلاً**» (الصافات ١٢٥) أي رباً بلغة **أُزد شَنُوءة**؛ و«**لا يلتكم**» (الحجرات١٤) أي لا ينقصكم بلغة **بني عبس**؛ و«**فباءوا**» (البقرة ٦١) بلغة **جُرْهُم**؛ و«**رفث**» (البقرة ١٩٧) بلغة **مذجج**؛ و«**تسيمون**» (النحل ١٠) بلغة **خَثْعم** إلخ، حتى قيل إن في القرآن قراءات من أربعين لغة عربية، هي لغات: قريش، وهذيل، وكنانة، وخثعم، والخزرج، وأشعر، ونمير، وقيس عيلان، وجُرْهم، واليمن، **وأزد شنُوءة**، وكندة، وتميم، وحمير، ومدين، ولخم، وسعد العشيرة، وحضرموت، وسدوس، والعمالقة، وأنمار، وغسّان، ومَذْجح، وخُزاعة، وغطفان، وسبأ، وعُمان، وبنو حنيفة، وثعلب، وطيّ، وعامر بن صعصعة، وأوْس، ومُزَينة، وثقيف، وجذام، وبلِيّ، وعُذرة، وهوازن، والنَّمِر، واليمامة.

●●●

١١. ﴿السور التى نزلت بكل من مكة والمدينة﴾

السور التى نزلت بالمدينة من القرآن بحسب المصحف هى : البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد ، والحج، والنور ، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، والتحريم،والإنسان، والبيّنة، والزلزلة، والنصر، وعدد هذه السور المدنية ٢٨ سورة؛**وعدد السور المكية ٨٦ سورة** ، وهى : الفاتحة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، والنحل، والإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والفرقان، والشعراء، والنمل ، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، وسبأ، وفاطر، ويس، والصافات، وص، والزمر، وغافر، وفصلّت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والواقعة، والملك، والقلم، والحاقة، والمعارج، ونوح، والجن، والمزمل، والمدثر، والقيامة، والمرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس، والكوثر، والتكوير، والانفطار، والمطففين، والانشقاق، والبروج، والطارق، والأعلى، والغاشية، والفجر، والبلد، والشمس، والليل، والضحى، والشرح، والتين، والعلق، والقدر، والعاديات، والقارعة، والتكاثر، والعصر، والهمزة، والفيل، وقريش، والماعون، والكوثر، والكافرون، والمسد، والإخلاص، والفلق، والناس.

وقيل: السور المدنية بالاتفاق **عشرون** ، والمختلف فيها **اثنتا عشرة** سورة، والمكية **اثنتان وثمانون** سورة، **فيصير المجموع مائة وأربع عشرة سورة**؛ وقيل: السور المدنية منها بالاتفاق هى : البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور ، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والجمعة، والمنافقين، والتغابن، والطلاق، والتحريم، والنصر. والمختلف فيها هى: الفاتحة، والرعد، والرحمن، والصف، والتغابن ، والتطفيف، والقدر، والبينة، والزلزلة، والإخلاص، والمعوذتان.

وقد تكون السورة كلها مكية أو مدنية، أو مكية ماعدا آيات منها، مثل **الأعراف**، فإن آياتها من ١٦٣ حتى ١٧٠ مدنية، **والمائدة** مدنية إلا الآية ٣ منها نزلت بعرفات، وسورة **طه** مكية، إلا الآيتين ١٣٠ ، ١٣١ وهكذا، فإذا غلبت فى السورة الآيات المكية فإنها تُدرج مكية، وإذا غلبت الآيات المدنية تُدرج كسورة مدنية.

ومن أشرف علوم القرآن **علم نزول الآيات وجهات النزول**، وما نزل بمكة فحكمه

مكى، وما نزل بالمدينة فحكمة مدنى، ويتضمن كـذلك ما نزل بغيرهما : كبيت المقدس، والطائف، والحديبية، والجحفة، ومنى، وعرفات، وعسفان، وبدر، وأُحد، وحِراء، وحمراء الأسد؛ وما نزل ليلاً وما نزل نهاراً؛ وما نزل مجملاً أو مفصلاً؛ وما اختلفوا فيه أنه مكى أو مدنى. وتتميز السور المكية عموماً بأنها تقرر لأصول الدعوة، من توحيد لله، وتقرير للبعث والجزاء، وللوحى والرسالة، وأحوال يوم القيامة؛ وأما السور المدنية فتعنى عموماً بجوانب التشريع، وبالغزوات، والجهاد فى سبيل الله، وتعالج النواحى الحربية. وما ينبغي على المسلمين فى قتال أعدائهم، وجوانب السلم والحرب، وأحكام الأسْر والغنائم، والتربية، وبناء المجتمع على العقيدة والخُلق؛ وعموماً فإن الآيات التى فيها حدّ أو فريضة فهى مدنية، والتي فيها ذكر للأمم والعذاب فإنها مكية.



١٢. ﴿ترتيب سور القرآن بحسب التنزيل﴾

السور المكية:

١	العلق
٢	القلم
٣	المزمل
٤	المدثر
٥	الفاتحة
٦	المسد
٧	التكوير
٨	الأعلى
٩	الليل
١٠	الفجر
١١	الضحى
١٢	الشرح
١٣	العصر
١٤	العاديات
١٥	الكوثر
١٦	التكاثر
١٧	الماعون
١٨	الكافرون
١٩	الفيل
٢٠	الفلق
٢١	الناس
٢٢	الإخلاص
٢٣	النجم
٢٤	عبس
٢٥	القدر
٢٦	الشمس
٢٧	البروج
٢٨	التين
٢٩	قريش
٣٠	القارعة
٣١	القيامة
٣٢	الهمزة
٣٣	المرسلات
٣٤	ق
٣٥	البلد
٣٦	الطارق
٣٧	القمر
٣٨	ص
٣٩	الأعراف
٤٠	الجن
٤١	يس
٤٢	الفرقان
٤٣	فاطر
٤٤	مريم
٤٥	طه
٤٦	الواقعة
٤٧	الشعراء
٤٨	النمل
٤٩	القصص
٥٠	الإسراء
٥١	يونس
٥٢	هود
٥٣	يوسف
٥٤	الحجر
٥٥	الأنعام
٥٦	الصافات
٥٧	لقمان
٥٨	سبأ
٥٩	الزمر
٦٠	غافر
٦١	فصلت
٦٢	الشورى
٦٣	الزخرف
٦٤	الدخان
٦٥	الجاثية
٦٦	الأحقاف
٦٧	الذاريات
٦٨	الغاشية
٦٩	الكهف
٧٠	النحل
٧١	نوح
٧٢	إبراهيم
٧٣	الأنبياء
٧٤	المؤمنون
٧٥	السجدة
٧٦	الطور
٧٧	الملك
٧٨	الحاقة
٧٩	المعارج
٨٠	النبأ
٨١	النازعات
٨٢	الانفطار
٨٣	الانشقاق
٨٤	الروم
٨٥	العنكبوت
٨٦	المطففين

السور المدنية:

١	البقرة
٢	الأنفال
٣	آل عمران
٤	الأحزاب
٥	الممتحنة
٦	النساء
٧	الزلزلة
٨	الحديد
٩	محمد
١٠	الرعد
١١	الرحمن
١٢	الإنسان
١٣	الطلاق
١٤	البينة
١٥	الحشر
١٦	النور
١٧	الحج
١٨	المنافقون
١٩	المجادلة
٢٠	الحجرات
٢١	التحريم
٢٢	التغابن
٢٣	الصف
٢٤	الجمعة
٢٥	الفتح
٢٦	المائدة
٢٧	التوبة
٢٨	النصر

مجموع السور المكية والمدنية: ٨٦ + ٢٨=١١٤ سورة



١٣. ﴿ترتيب سور القرآن بحسب المصحف والتنزيل﴾

المصحف		التنزيل
١	الفاتحة	٥
٢	البقرة	٨٧
٣	آل عمران	٨٩
٤	النساء	٩٢
٥	المائدة	١١٢
٦	الأنعام	٥٥
٧	الأعراف	٣٩
٨	الأنفال	٨٨
٩	التوبة	١١٣
١٠	يونس	٥١
١١	هود	٥٢
١٢	يوسف	٢٣
١٣	الرعد	٩٦
١٤	إبراهيم	٧٢
١٥	الحجر	٥٤
١٦	النحل	٧٠
١٧	الإسراء	٥٠
١٨	الكهف	٦٩
١٩	مريم	٤٤
٢٠	طه	٤٥
٢١	الأنبياء	٧٣
٢٢	الحج	١٠٣
٢٣	المؤمنون	٧٤
٢٤	النور	١٠٢
٢٥	الفرقان	٤٢
٢٦	الشعراء	٤٧
٢٧	النمل	٤٨
٢٨	القصص	٤٩
٢٩	العنكبوت	٨٥

المصحف		التنزيل
٣٠	الروم	٨٤
٣١	لقمان	٥٧
٣٢	السجدة	٧٥
٣٣	الأحزاب	٩٠
٣٤	سبأ	٥٨
٣٥	فاطر	٤٣
٣٦	يس	٤١
٣٧	الصافات	٥٦
٣٨	ص	٣٨
٣٩	الزمر	٥٩
٤٠	غافر	٦٠
٤١	فصلت	٦١
٤٢	الشورى	٦٢
٤٣	الزخرف	٦٣
٤٤	الدخان	٦٤
٤٥	الجاثية	٦٥
٤٦	الأحقاف	٦٦
٤٧	محمد	٩٥
٤٨	الفتح	١١١
٤٩	الحجرات	١٠٦
٥٠	ق	٣٤
٥١	الذاريات	٦٧
٥٢	الطور	٧٦
٥٣	النجم	٢٣
٥٤	القمر	٣٧
٥٥	الرحمن	٩٧
٥٦	الواقعة	٤٦
٥٧	الحديد	٩٤
٥٨	المجادلة	١٠٥

المصحف		التنزيل
٥٩	الحشر	١٠١
٦٠	الممتحنة	٩١
٦١	الصف	١٠٩
٦٢	الجمعة	١١٠
٦٣	المنافقون	١٠٤
٦٤	التغابن	١٠٨
٦٥	الطلاق	٩٩
٦٦	التحريم	١٠٧
٦٧	الملك	٧٧
٦٨	القلم	٢
٦٩	الحاقة	٧٨
٧٠	المعارج	٧٩
٧١	نوح	٧١
٧٢	الجن	٤٠
٧٣	المزمل	٣
٧٤	المدثر	٤
٧٥	القيامة	٣١
٧٦	الإنسان	٩٨
٧٧	المرسلات	٣٣
٧٨	النبأ	٩٠
٧٩	النازعات	٨١
٨٠	عبس	٢٤
٨١	التكوير	٧
٨٢	الإنفطار	٨٢
٨٣	المنافقين	٨٦
٨٤	الانشقاق	٨٣
٨٥	البروج	٢٧
٨٦	الطارق	٣٦
٨٧	الأعلى	٨

المصحف		التنزيل
٨٨	الغاشية	٦٨
٨٩	الفجر	١٠
٩٠	البلد	٣٥
٩١	الشمس	٢٦
٩٢	الليل	٩
٩٣	الضحى	١١
٩٤	الشرح	١٢
٩٥	التين	٢٨
٩٦	العلق	١
٩٧	القدر	٢٥
٩٨	البينة	١٠٠
٩٩	الزلزلة	٩٣
١٠٠	العاديات	١٤
١٠١	القارعة	٣٠
١٠٢	التكاثر	١٦
١٠٣	العصر	١٣
١٠٤	الهمزة	٣٢
١٠٥	الفيل	١٩
١٠٦	قريش	٢٩
١٠٧	الماعون	١٧
١٠٨	الكوثر	١٥
١٠٩	الكافرون	١٨
١١٠	النصر	١١٤
١١١	المسد	٦
١١٢	الإخلاص	٢٢
١١٣	الفلق	٢٠
١١٤	الناس	٢١

●●●

١٤. ﴿دلائل السور المكية والسور المدنية﴾

الدليل الأول : دليل مكان النزول، فالسور المكية : هى التى نزلت بمكة ولو بعد الهجرة، والسور المدنية : هى ما نزل بالمدينة. **ومنى وعرفات والحديبية** من مكة، وبدر وأحد من المدينة، غير أنه يستثني من ذلك الآيات التى نزلت في آماكن أخرى ، كقوله تعالى : ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ** (٤٢)﴾ (التوبة) فإنها نزلت فى تبوك، فى غير مكة والمدينة، وقوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا** (٤٥) ﴾ (الزخرف) قيل نزلت فى بيت المقدس، فى غير مكة والمدينة.

والدليل الثانى : دليل الخطاب ، فما وقع خطاباً لأهل مكة فهو مكى، وما وقع خطاباً لأهل المدينة فهو مدنى، وعليه فإن ما ابتدأ بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ مكى، وبقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ مدنى، وذلك لأن الناس من مكة غالباً كانوا كفاراً، فهم مجرد ناس، بينما هم في المدينة مؤمنون فلا أقل من مخاطبتهم بـ «**يا أيها المؤمنون**» ، ويلحق بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ صيغة : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ** ﴾ . وبالطبع فإن هذا ليس دائماً ، فهناك آيات مدنية فيها «**يا أيها الناس**» ، وآيات مكية صدرت بـ «**يا أيها الذين آمنوا**» ، كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ** (٢١) ﴾ (البقرة) مع أن السورة مدنية؛وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا** (٧٧) ﴾ (الحج) مع أن السورة مكية. وقد يكون الخطاب خارجاً عن الصيغتين ، كقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** (٦٥) ﴾ (الأنفال)، وكل ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** ﴾ مدنى. وهناك عشر آيات تبدأ بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ مكية، بينما هناك أربع عشرة آية بهذه الصيغة مدنية. وأيضاً هناك خمس وسبعون آية مدنية تبدأ بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بينما الآيات المكية من هذا النوع ست آيات فقط.

والدليل الثالث ، **الدليل الزمانى** : أن المكى ما نزل قبل الهجرة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة، وهذا دليل أكيد لا تثريب عليه، وضابط، وحاصر، ومطرد.

•••

١٥. ﴿ضوابط السور المكية والمدنية﴾

تتميز السور المكية والسور المدنية بضوابط وعلامات، فكل سورة فيها « **كلا** » مكية ، ويتكرر لفظ «كلا» فى القرآن ٣٣ مرة فى ١٥ سورة، كلها سور مكية، لأن «كلا» فيها نفى قاطع، وإنكار، وتهديد، وتعنيف ، كقوله تعالى : ﴿**كَلَّا سَيَكْفُرُونَ** (٨٢) ﴾ (مريم)، وقوله ﴿**كَلَّا وَالْقَمَرِ** (٣٢) ﴾ (المدثر)، وإيرادها فى الكلام يناسب كفار مكة أكثر من يهود المدينة.

وأيضاً فإن أغلب السور التى تبدأ **بحروف الهجاء المقطّعة** مكية، ماعدا ثلاث سور، هى: البقرة، وآل عمران، والرعد. وكذلك فإن أغلب السور التى فيها قصص عن **الأنبياء** مكية، إلا البقرة، ؛وكل سورة فيها عن **آدم وإبليس** مكية، سوى البقرة؛ وأغلب السور التى فيها **﴿يأيها الناس﴾** مكية، والتى فيها **﴿ىأيها الذين آمنوا﴾** مدنية. وأغلب سور المفصّل مكية.

وكل سورة فيها **الحدود والفرائض** مدنية، وكذلك **الجهاد وأحكامه**، **والمنافقون**، ماعدا **العنكبوت**، فإن فيها **إحدى عشر** آية فى أولها، جاء فيها عن المنافقين، وهى آيات مدنية.

●●●

١٦. ﴿معنى السورة والآية والكلمة والحرف فى القرآن﴾

السورة: من السُّور كقوله تعالي: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ** (١٣) ﴾ (الحديد)، وهو المرتفع من الأرض، والسورة هى التى ارتفعت إلى المنزلة الشريفة، ومن يقرأها يشرف على ما لم يكن يحيط به من علوم ومعارف. ثم هى سورة والجمع سُوَر كقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ** (١٣) ﴾ (هود)، لتمامها وكمالها، والعرب تسمى الناقة التامة سورة.

والآية: هى العلامة، تُعلّم الكلام الذى قبلها من الذى بعدها، وتفصلهما، وكل آية لذلك تبَين من أختها وتنفرد، والعرب يقولون «**بيني وبين فلان آية**» ـ أى علامة، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ** (٢٤٨) ﴾ (البقرة)، يعنى علامة مُلكه؛ وسميت آية، لأنها مجموعة حروف تكوّن معنى بذاته، كقوله تعالي: ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (١١٨) ﴾ (البقرة)، كما نقول خرج القوم بآياتهم أى بمجموعهم. والآية هى العجيبة يعجز البشر عن الإتيان بمثلها كقوله تعالي: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ** (١٢) ﴾ (الإسراء).

والسورة: مجموعة من الآيات، كقوله ﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** (١)﴾ (النور)، ولها وحدة عضوية تُحكمها، كقوله تعالي: ﴿ **فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ** (٢٠)﴾ (محمد). وأما **الآية**، فهى فى القرآن: مجموعة من الكلمات تتكون من حروف، وقد تكون الكلمة وحدها آية، مثل ﴿**وَالْفَجْرِ** ﴾، و﴿**وَالضُّحَىٰ**﴾، و﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، وكذلك ﴿**الٓمٓ**﴾، و﴿**طه**﴾، و﴿**مُدْهَامَّتَانِ**﴾.

والحرف: شُبهة من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة، وقد تسمى الكلمة حرفاً، مثل ﴿**ص**﴾، و﴿**ق**﴾، و﴿**ن**﴾، من فواتح السور، وهى كلمات، لأنها منفردة وحدها فى السورة، وسُكت عليها، ومنفصلة.

والآية **توقيفية**، وقد اعتبرت ﴿**المص**﴾ ، و﴿ **المر** ﴾، و﴿**يس** ﴾ آيات، ولم تُعَدّ ﴿**طس**﴾ آية، وعُدّت ﴿ **حم عسق** ﴾ من سورة الشورى آيتين، ولم يعدوا نظيرها ﴿**كهيعص** ﴾ من سورة مريم آيتين بل آية واحدة، وعدّوا كلمة ﴿ **الرحمن** ﴾ في سورة الرحمن، آية، وكلمة ﴿**مُدْهَامَّتَانِ**﴾ آية؛ واعتُبرت **الفاتحة** سبع آيات، وهى السبع المثانى، بينما اعتبرت **آية الكرسى** آية واحدة؛ وتُسمَّى السورة التى تزيد على **الثلاثين** آية: **الثلاثين**، وسورة المُلك ثلاثون آية؛ وما وقف عليه النبىّ ﷺ هو **فاصلة؛ وبعض الآية قد** يقال له كذلك آية.



١٧. ﴿ترتيب سور القرآن فى المصحف عن توقيف من النبىّ ﷺ﴾

ما صحّ وثبت هو أن تأليف (أى ترتيب) سور القرآن على ما هى عليه فى المصحف كان عن **توقيف** من النبىّ ﷺ ، وقيل : ولكن **أُبىّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعلىّ بن أبى طالب** كان لهم ترتيب مختلف فيما اختطوا من مصاحف لهم ؟ والجواب : **أن ذلك كان قبل عرض النبىّ ﷺ للقرآن على جبريل العرض الأخير، وقبل وفاته رتّب تأليف** السور **بعد أن لم يكن قد فعل ذلك**. ولم يؤلف **عثمان** المصحف من نفسه، وإنما كان تأليف القرآن على ما كان **الصحابة قد** سمعوه من النبىّ ﷺ . فلما أُنزل القرآن جملة الى السماء الدنيا، فُرّق على النبىّ ﷺ **فى عشرين** سنة، وكانت السورة تتنزّل فى الأمر بحدث، وتتنزل الآية جواباً لمستخبرٍ يسأل، فيوقف **جبريل** الرسول ﷺ على موضعهما من القرآن، فكان اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، وجميع ذلك تم على يد النبىّ ﷺ ، عن ربّ العالمين ، فمن أخّر سورة أو آية ، أو قدّمها، أفسد نَظْم السور والآيات، وغيّر فى المعانى، كمن يزيد فى العبارات كلمات، أو فى الكلمات حروفاً. ولا تثريب مِن ثَمّ أن تتقدم البقرة على الأنعام فى المصحف مع أنها فى التنزيل كانت متأخرة عنها. والعمدة فى ذلك أن الرسول ﷺ أخذ عنه هذا الترتيب، وكان ﷺ يأمر حالما تتنزل السورة أو الآية، أن يضعوها فى موضع كذا وكذا من القرآن، وكان **جبريل** يوقفه على مكان كل سورة واسمها، وكل آية. فمن يعمل على ترك الأثر، ونَظْم السور على منازلها بمكة والمدينة، يردّ محمدً ﷺ على ما حكاه عن ربّه تعالى. وكان منطقياً فى ترتيب السّور فى المصحف أن يكون الابتداء **بالفاتحة**، ثم تأتى **السور الطوال**، وهذه أغلبها مدنى وأقلّها مكى، ثم تكون السور متوسطة الطول، ويُختَم **بالسور القصار**، وآخرها المعوذتان، **وكأنهما الحافظان للكتاب**.



١٨. ﴿كيف تكون تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس ؟﴾
﴿وهل يجب أن تكون على حسب ترتيب المصحف ؟﴾

الجواب : لم يُعلم أن أحداً من الصحابة قال بذلك ولا عمل به، وفى ذلك قالت **عائشة** ﵂ : لا يضرك أية قرأتَ قبل. وقد كان النبىّ ﷺ يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها. وروى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ الناس القرآن **منكوساً**، وقالا فيمن يفعل ذلك أنه منكوس القلب، أى يقرأ السورة منكوسة، يبتدئ من آخرها إلى أولها، كعادة بعض الناس الذين يجرّبون أنفسهم فى الحفظ والتذكر، ولا يُعقل ذلك فى الصلاة، لأن الكلام آنئذاك لن يكون له معنى.

•••

١٩. ﴿فهل يجب أن يكون على حسب ترتيب النزول ؟﴾

والجواب : أن بعض السور المكية ضُمّت إليها آيات نزلت فى المدينة، وبعض السور المدنية أُضيفت إليها آيات مكية، وبديهى أن القراءة بحسب ترتيب النزول مستحيلة، وفى ذلك قالت **عائشة** ﵂ : ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ (تعنى فى المدينة)، وقد قُدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألفوه (يعنى رتّبوه) على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السور.

•••

٢٠. ﴿قراءة القرآن بين الجواز والمنع﴾

قيل: لايجوز استعمال القرآن بدلاً من الكلام، لأنه استعمالٌ له فى غير ما له. ويجوز قراءة القرآن فى الحمام؛ وإذا أذّن المؤذن أثناء القراءة يقطعها القارىء ليقول مثل ما يقول المؤذّن؛ ولابأس بالقراءة عند القبر، وفى الطريق، وأثناء الاضطجاع؛ ولاتستحب القراءة بالألحان، وتستحب بالترتيل والتحسين والتحزين. ويجوز قراءة سورتى «الكافرون»، و«قل هو الله أحد» فى ركعتى الفجر، والآية: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا**(١٣٦)﴾ (البقرة)، والآية: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**(٦٤)﴾(آل عمران)؛ **وسورة الكهف** يوم الجمعة. ولاتسن القراءة زيادة **على الفاتحة** فيما بعد الركعتين الأولين، **ولايجهر بالفاتحة** فى الركعتين الأخيرتين حتى فى صلاة الجهر. ويستحب أن يقرأ **المتهجد** جزءاً من القرآن فى تهجده، وهو مخيّر بين الجهر بالقراءة والإسرار بها. ولاتجب القراءة على **المأموم** فيما جهر به الإمام من القراءة، وعليه أن ينصت، وإن لم يسمع القراءة

فله أن يقرأ. ويكره أن يقرأ المصلى القرآن فى **الركوع** أو **السجود**، ويشرع السجود فى **التلاوة**، ويكره للإمام قراءة السجدة فى صلاة لايجهر فيها، لأن المأموم لن يعرف أنه قرأها، وربما لايتبعه فى السجود.

•••

٢١. ﴿أحزاب القرآن وأجزاؤه﴾

الأجزاء التى اشتهرت للقرآن هى **الأجزاء الثلاثون**. والثابت أن الصحابة كانوا يحزّبون القرآن : ثلاثاً ، وخمساً، وسبعاً، وتسعاً، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، **وحزب المفصل** وحده من «ق» حتى يختم؛ **فالثلاث** : البقرة ، وآل عمران، والنساء، **والخمس** : المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة؛ **والسبع** : يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وابراهيم، والحجر، والنحل؛ **والتسع** : سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان؛ **والإحدى عشرة** : الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس؛ **والثلاث عشرة** : الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم فصلت، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، ومحمد، والفتح، والحجرات؛ ثم بعد ذلك **الحزب المفصّل**.

•••

٢٢. ﴿السور الطوال والمئين والمثانى والمفصّل﴾

أقل السورة: ثلاث آيات، وهى سورة **الكوثر**، وكل سورة لها **مطلع ومقطع**؛ **وأطول سورة: هى البقرة** ، وآياتها ٢٨٦ آية، وأكثر آياتها من الطوال، وفيها **آية الدَّيْن**: أطول آية فى القرآن؛ والسور أربعة أنواع : **الطوال ، والمئين، والمثانى، والمفصّل**.

فالطوال : سبع سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة، والأنعام ، والأعراف. فهذه **ست**، واختلفوا **فى السابعة** : أهى **الأنفال والتوبة معاً**، لعدم الفصل بينهما بالبسملة، أم هى **سورة يونس** ؟

والمئون : هى السورة التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها

والمثانى : هى التى تلى المئين فى عدد الآيات، وقيل : هى التى آياتها أقل من مائة آية، وسميت **مثانى لأنها تُثنى** ـ أى تكرر ـ أكثر مما تثنى الطوال والمئون.

والمفصّل : هو أواخر القرآن، وأوله سورة ق، وقيل : أوله سورة **الحجرات**، وسمى **المفصّل**، لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل : لقلة المنسوخ منه، ولهذا يسمى «**المُحْكم**» أيضاً.

والمفصّل ثلاثة أنواع : طوال ، وأواسط ، وقصار؛ **فطواله** : من أول الحجرات إلى سورة البروج؛ **وأواسطه** : من سورة الطارق إلى سورة البينة؛ **وقصاره** : من الزلزلة إلى آخر القرآن.

•••

٢٣. ﴿عدد آيات القرآن وعدد كلماته وحروفه﴾

قيل **عدد آيات القرآن** ٦٢٠٠ وكسر، واختلفوا في الكسر ، فقيل : ٦٢٠٤ ، أو ٦٢٠٥، أو ٦٢١٠ ، أو ٦٢١٤ ، أو ٦٢١٧ ، أو ٦٢٢٠ ، أو ٦٢٢٦ ، أو ٦٢٣٦ ، وسبب هذا الاختلاف أن النبيّ ﷺ كان يقف على رؤوس الآى تعليماً لأصحابه أنها رءوس آيات، فإذا علموا وصل الآية بما بعدها ليستقيم المعنى ويتم، فيظن البعض أن ما وقف عليه ليس فاصلة، فيصلها بالذى بعدها ويعتبرهما آية واحدة، والبعض يعتبر كل واحدة آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها.

وآيات القرآن مختلفة في **الطول والقصر** ، **فأطول آية هي آية الدَّيْن** من البقرة، **وأقصر آية هي «يس»** في صدر سورة يس.

وتبلغ **عدد كلمات القرآن** ٧٧٩٣٤ كلمة، **وعدد حروفه** ٣٢٣٠١٥ حرفاً. وقيل إن معرفة عدد كلمات القرآن يمنع أن يزيد أحد عليها شيئاً أو ينقص منها شيئاً. ولما كان الله تعالى قد تحدّى الناس بقوله: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** (٢٣) ﴾ (البقرة)، والسورة يمكن أن تكون طويلة أو قصيرة، وكانت أقصر سورة هي سورة الكوثر، وآياتها ثلاث آيات، فثبت أن أقل الإعجاز ثلاث آيات قصار. وفي الحديث : «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول «الم» حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**».

•••

٢٤. ﴿تنزيل القرآن﴾

قيل : أُنزل القرآن كله من **أم الكتاب** إلى بيت العزّة من سماء الدنيا في **ليلة القدر**، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** (١)﴾ (القدر)، وليلة القدر من شهر رمضان: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** (١٨٥) ﴾ (البقرة)، فنصّ على أن ميقات نزوله كان رمضان، ثم عيّن من زمانه الليل، فقال: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ** (٣)﴾ (الدخان). وأنزله الله تعالى على نبيّه في الليالي والأيام، في **ثلاث وعشرين سنة**. وقيل : كان ينزل في كل ليلة قدر ما ينزل في سائر السنة، كقوله: ﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** (٤)﴾ (الدخان)، أي يقضي الله فيها كل خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها. وقيل: إن

صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، جميعها أنزلت فى شهر رمضان، أو ما يقابله من تقويم الأمم.

●●●

٢٥. ﴿ أبو بكر وعمر جمعا القرآن، وعثمان كتب المصاحف﴾

كان القرآن أيام النبىّ ﷺ فى صدور القرّاء متفرّقاً، وكتب الناس منه فى صُحف، وجريد، ولُخُف(جمع لخاف وهى الحجارة البيض الرقاق)، وظُرر (جمع ظرار وهى الحجارة الرفيعة)، وفى الخزف، فلما استحرّ القتل بالقرّاء فى يوم اليمامة زمن الصدّيق، وقُتل منهم فى ذلك اليوم ـ كما قيل ـ سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بجمع القرآن، مخافة أن يموت أشياخ القراء، أو يستحر القتل فيهم فى الغزوات، أو فى المواطن، فجمعه غير مرتّب السور، وكلّف بذلك زيد بن ثابت، وتتبعه زيدٌ، وجمعه من الرقاع (جمع رقعة، وقد تكون من الجلد)، ومن صدور الرجال، وأودع ما جمع عند أبى بكر، فلما قارب أبو بكر الموت، أودعها عند عمر، فلما حانت وفاة عمر، أودعها عند حفصة ابنته وأم المؤمنين.

●●●

٢٦. ﴿هل صحيح أنه عند وفاة النبىّ ﷺ لم يكن قد جمع القرآن إلا أربعة فقط؟﴾

هذا الكلام قال به أنس بن مالك، وكان عند وفاة الرسول ﷺ فى نحو العشرين من عمره، وقال: « مات النبىّ ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: **أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد**». وأبو زيد هذا الذى يذكره أنس كان اسمه قيس بن السكن. وأنس وهو مسلم ـ قد أشنع فى الخطأ إذا كان قد قال ذلك، ويقصد بجمع القرآن حفظه أو حتى كتابته، فلقد كان حُفّاظ القرآن كثيرين، يرتلونه بألسنتهم، وتعيه عقولهم، ويضعونه من أنفسهم بين حنايا الصدور. وأين من كلام أنس أمثال: أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وطلحة، وابن مسعود، وابن عباس، وحذيفة، وسالم، وأبى هريرة، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وابن الزبير، وابن السائب، وأُبىّ بن كعب، ومجمع بن حارثة؟ وكان النبىّ ﷺ يأتمن على القرآن أربعةً يخصّهم بالمرجعية فيه، قال: «**خذوا القرآن عن أربعة: عن عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبىّ بن كعب**» رواه البخارى. وعن أبى داود برواية محمد بن كعب قال: جمع القرآن على عهد رسول الله خمسة من الأنصار: **معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبىّ بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصارى**». ولما كانت وقعة بئر مؤتة فى حياة الرسول ﷺ، قتل من الحفاظ

سبعون، وفى السنة الثانية عشرة ـ أى بعد وفاة الرسول ﷺ ، وفى يوم اليمامة أُحصى من قُتل من الحفاظ فقيل بلغوا سبعين، وقيل أكثر من ذلك حتى الخمسمائة. . وفى الحرب بين علىّ والخوارج، وبينه وبين معاوية، قتل الآلاف من الحفاظ. وقد هال الرسول ﷺ ذلك فى حياته، وهال أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً بعد وفاته ، وبعد أن كان الرسول ﷺ قد قال : «لا تكتبوا عنى» ـ يقصد الحديث، «ومن كتب غير القرآن فليمحُهُ، وحدِّثوا عنى فلا حرج، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» مخافة أن يلتبس ما يقوله من حديث ويختلط بالقرآن، رأى عثمان أن يجمع القرآن من الآحاد ، فمن الممكن أن يحفظ هذا آيات لا يحفظها ذاك، أو ينسى أحدهم، ووحّد عثمان المصحف مشتملاً على كل ما عند الحفّاظ الثقاة، بشرط أن يُجمع الغالبية عليه، وجعله مصحفاً إماماً تستنسخ عنه المصاحف، ويُبعث بها إلى أقطار الإسلام، ووضع عثمان بذلك أساس علم جديد هو «علم رسم القرآن» أو «علم الرسم العثمانى». فهذه حكاية جمع القرآن، فلم يحدث أن تخلّف المسلمون عن حفظه وكتابته، ولم تكن هناك فترة زمنية بين النزول وبين التدوين، كما فى التوراة ـ فقد كانت الفترة بينهما فى التوراة نحو ٣٥٠ سنة ـ أو كما فى الأناجيل ـ وقد كان هناك ما بين ثمانين سنة إلى مائة سنة وعشرين. ولم يقل بالقرآن آحاد كما فى التوراة والأناجيل ، ولم يدوّنه أناس نكرات لا نعلم عنهم شيئاً كما فى التوراة والأناجيل، وإنما كل صحابى من الحفّاظ له تاريخه المرصود، وسيرته المحفوظة، وعُنعنت رواياته، وقورنت بالآخرين، ولم يُرصَد من كل الروايات فى كتاب واحد إلا المُجمَع عليه والمتواتر. فمن يتهم المسلمين بأنه قد سقط من كتابهم شيء، أو حُرِّف منه شيء، فهو حاسد حقود مُتخرِّص، قاتلَ الله المُتخرِّصين.

●●●

٢٧. ﴿عدد مصاحف عثمان﴾

قيل :إن عثمان استنسخ ستة مصاحف : المكى ، والشامى، والبصرى، والكوفى، والمدنى العام للناس كلهم، والمدنى الخاص لنفسه ـ وهو المسمى بالمصحف الإمام. وقيل مصاحف عثمان ثمانية : الكوفى، والبصرى، والشامى، والمدنى العام، والمدنى الخاص، والمكى، ومصحف البحرين، ومصحف اليمن. وقيل إنه أنفذ إلى مصر مصحفاً. وقيل إنه مع كل مصحف أنفذ من يوافق قراءته، فكان زيد بن ثابت يُقرئ أهل المدينة، وعبد الله بن السائب لأهل مكة، والمغيرة بن أبى شهاب لأهل الشام، وعبد الرحمن السلمى لأهل الكوفة، وعامر بن عبد القيس لأهل البصرة. وقرأ أهل مصر على التابعين ممن قرأوه على الصحابة، ثم تخصّص قومٌ فى القراءات فنُسبت إليهم.

●●●

٢٨. ﴿ الزعم بوقوع تغييرات في مصحف عثمان ﴾

زعم المبطلون بأن مصحف عثمان استحدثت به تغييرات ولم يشتمل على جميع القرآن، وأنه أسقطت منه آيات، ومن يزعم ذلك أبطل الإجماع على صحة ما توارثناه من نسخة القرآن، وردّ قوله تعالى ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** (٨٨)﴾ (الإسراء).

ومما ادّعوه : أن سورة العصر كانت «والعصرونوائب الدهر» ، فسقطت « ونوائب الدهر»؛ وكانت الآية: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٢٤) ﴾ (يونس) ، «**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها.. كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهكلها إلا بذنوب أهلها**»، فسقط منها هذا الجزء الأخير : «**وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها**»؛ وقرأوا ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ بإسقاط «قل هو»، وغيّروا لفظ «أحد» وجعلوه «الواحد»؛ وكذلك سورة ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾، جعلوها «**قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون**»؛ وادّعوا الخطأ في مصحف عثمان في الآية: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١١٨)﴾ (المائدة) بزعم أن الحكمة والعزة لا تشاكل المغفرة، وأن الصواب أن تكون الآية هكذا: «**وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم**»؛ وكذلك الآية: ﴿ **وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** (٦٩)﴾ (الأحزاب) ادّعوا أن صوابها «**وكان عبداً لله وجيها**»؛ والآية: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** (١٧)﴾ (القيامة) قرأوها «**إن علينا قراءته**»؛ والآية: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ** (١٢٣)﴾ (آل عمران)، جعلوها «**ولقد نصركم الله ببدر بسيف عليّ وأنتم أذلة**» ؛ والآية ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ**(١١٦)﴾ (المائدة) عدّلوها «**أليس قلت للناس**»؛ كما عدّلوا ﴿**إِنْ هَٰذَانِ** (٦٣)﴾ (طه) إلى «**إن هذين**»، بزعم أن هناك خطأ نحوياً؛ و﴿**فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن** (١٠) ﴾ (المنافقون) إلى « **فأصدق وأكون**»؛ وقوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ** (١٧)﴾ (الزمر) إلى «**وبشّر عبادى**»؛ وقوله: ﴿**فَمَا آتَانِ اللَّهُ** (٣٦) ﴾ (النمل) إلى «**فما أتاني الله**»؛ وأشياء أخرى كثيرة قال بها أبّي بن كعب وآخرون، ونسبوا ما قالوه إلى صحابة كبار، فمثلاً زعموا أن عمر بن الخطاب قرأ سورة الفاتحة هكذا «**غير المغضوب عليه وغير الضالين**» !! ، ونحلوا على النبيّ ﷺ أنه قرأ في سورة المسد هكذا : «**تبت يدا أبي لهب وقد تب، ما أغنى عنه ماله وماكسب، سيصلى نارا ذات لهب، ومريّته حمالة الحطب، في جيدها حبل من ليف**»؛ وحرّفوا قوله تعالى: ﴿**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ** (٣٥) **وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ** (٣٦) **لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ** (٣٧) ﴾ (الحاقة) إلى: «**فليس له اليوم هاهنا حميم، وليس له شراب إلا من غسلين، من عين تجرى**

من تحت الجحيم، لا يأكله إلا الخاطئون»، فذكروا أن الشراب يؤكل !! وزادوا في الآية وأفسدوا المعنى، فظهر بطلان ما يقولون وما يفترون، وما أفلحوا فيما خطّطوا له وادّعوه، وكانت معجزة القرآن حقاً أنه محفوظ في الصدور، ومكتوب في المصاحف، ومقروء بالألسنة، ومعلومةٌ على الاضطرار سُوَره وآياتُه، مبرأةٌ من التحريف والتغيير والتعديل.

•••

٢٩. ﴿القراءات وأشهرها﴾

القراءات جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر سماعي لقرأ، وفي الاصطلاح مذهب أحد أئمة القُرّاء في النطق بالقرآن، واتفاق الروايات والطرق عنه. وأحوال الإسناد إما قراءة أو رواية، أو طريق، أو وجه؛ **فالقراءة**: ما اتفقت عليه الروايات والطرق؛ فإن كان للراوي عنه **فرواية**؛ أو لمن بعده فنازلاً **فطريق**؛ وإن كان بحسب تخيير القارئ **فوجه**.

والقراءات: علمٌ بكيفية أداء كلمات القرآن؛ **والمقرئ**: العالم بها؛ **والقارئ المبتدى**: من شرع في إفراد ثلاثاً من القراءات، **والمنتهى**: من نقل أكثر القراءات وأشهرها. والاختلاف في القراءات في حدود **السبعة** أحرف التي نزل عليها القرآن، والاعتماد في نقل القرآن على **الحُفّاظ**، والمشتهرون منهم من الصحابة: **عثمان، وعليّ، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري**؛ والمشتهرون من التابعين: **ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، وابن شهاب الزهري، وعبد الرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ**. وجميعهم كانوا بالمدينة. وأما من كان بمكة فهم: **عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وابن أبي مُليكة، وعبيد بن عُمَيْر** وغيرهم. وكان بالبصرة: **عمّار بن عبدالقيس، وأبو العالية، وأبورجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة**، وغيرهم. وبالكوفة: **علقمة، والأسود، ومسروق، وعبُيْدة، والربيع بن خيثم، والحارث بن قيس، وعمر بن شُرَحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزرٌ ابن حُبَيْش، وعبيد بن فضلة، وأبو زرعة بن عمرو، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي**. وبالشام: **المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، وخُلَيْد بن سعيد**، وغيرهما. وتفرّغ بعضهم للقراءات يضبطونها، مثل: **أبي جعفر يزيد بن القعقاع**، ثم **شيبة بن نضاح**، ثم **نافع بن أبي نعيم**، وكانوا بالمدينة؛ وبمكة: **عبد الله بن كثير**، **وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيصن**؛ وبالكوفة: **يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجوى، وسليمان الأعمش**، ثم **حمزة**، ثم **الكسائي**؛ وبالبصرة: **عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن**

العلاء، وعاصم الجُحدى، ثم يعقوب الحضرمى؛ وبالشام: عبد الله بن عامر، وعطيه بن قيس الكلابى، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن محارب الذّمارى، ثم شريح بن يزيد الحضرى.

واشتهرت سبع قراءات، وقيل عشر، وقيل أربع عشرة، وأحظاها جميعاً القراءات السبع المنسوبة للأئمة السبعة المعروفين : نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلىّ الكسائى. فإذا جعلنا القراءات عشراً فيزيد على من سبق : أبو جعفر، ويعقوب، وخلف. وجاءت شهرة الأئمة السبعة على رأس المائتين، ولم يبدأ تدوين القراءات إلا فى نهاية القرن الثالث على يد إمام بغداد ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس، فلم يتيسر له إلا هؤلاء السبعة، وإن كان هناك غيرهم كثيرون أجلّ منهم وأعظم؛ وجاءت القراءات العشر بزيادة : يعقوب، وأبى جعفر، وخلف؛ والأربع عشرة، بزيادة: الحسن البصرى، وابن مُحَيْصن، ويحيى اليزيدى، والشنبوذى. وكل قراءة توافق المصحف العثمانى ولو تقديراً، واللسان العربى ولو بوجه، وصحّ إسنادها إلى واحد من القرّاء، فهى صحيحة.

والرسم العثمانى أنواع ثلاثة : قياسى : يوافق الألفاظ تحقيقاً؛ وسماعى : يوافقها تقديراً؛ واحتمالى: يوافقها احتمالاً. والقرآن محل القراءات: هو ما نُقل بين دفتى المصحف نقلاً متواتراً، والتواتر شرطٌ فيه. والقراءات ستة، أصحّها المتواترة : التى قرأها جمعٌ لايمكن تواطؤهم على الكذب؛ والمشهورة : التى رواها العدول الضابطون عن مثلهم، ووافقت العربية، وأحد المصاحف العثمانية، واشتهرت عند القرّاء؛ وغير هذه قد تكون القراءة صحيحة السند وتخالف الرسم أو العربية، أو لم تشتهر، فلا يُقرأ بها؛ أو تكون قراءة شاذة لم يصح إسنادها، أو تكون قراءة موضوعة منسوبة إلى قارئ من غير أصل؛ أو تكون زيدت على وجه التفسير وظُنت قراءة. وأسلم القراءات: المتواترة. والمعول عليه أن ما نقل آحاداً فليس من القرآن قطعاً، والتواتر شرط ما هو من القرآن. والقراءات العشر كلها متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القرّاء.

ولمزيد من العلم بالقرّاء السبعة الذين سبق التنوية بهم، نقول بحسب ورودهم التاريخى: إن ابن عامر : هو عبد الله اليحصبى، من يَحْصُب، وكان تابعياً، وأخذ عن المغيرة بن أبى شهاب، عن عثمان، عن النبىّ ﷺ، وتوفى بدمشق سنة ١١٨هـ؛ وابن كثير : هو أبو محمد عبد الله بن كثير، الدارى، المكى، روى عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبىّ بن كعب وعمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ، وتوفى سنة ١٢٠هـ؛ وعاصم :

هو أبو بكر عاصم بن أبي النّجود الأسدى، قرأ على زرّ بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ ، وتوفي بالكوفة سنة ١٢٧هـ، ومن تلاميذه: حفص، أبو عمرو، المتوفي سنة ١٨٠هـ؛ وأبو عمرو : هو زبّان بن العلاء عمّار البصري، روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ ، وكان أول من جمع القراءات، وتوفي سنة ١٥٤هـ؛ وحمزة : هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيّات الكوفي، قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش، على يحيى بن وثاب، على زرّ بن حبيش، على عثمان وعليّ وابن مسعود، على النبيّ ﷺ ، وتوفي بحلوان سنة ١٥٦هـ؛ ونافع : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة، وتوفي ـ سنة ١٦٩هـ، ومن تلاميذه: قالون ، سُمّي كذلك لجودة قراءته، لأن قالون تعني الجيد، وتوفي سنة ٢٢٠هـ؛ وورش : أبو سعيد، ويلقبّ بورش لشدة بياضه، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بمصرٌ، وتوفي سنة ١٩٧هـ؛ والكسائي : أبو الحسن على بن حمزة، توفي سنة ١٨٩هـ، وتتلمذ عليه الدوري، أبو عمرو حفص، إمام القرّاء في عصره، ونسبته إلى «الدور» محلة في بغداد، وتوفي سنة ٢٤٦ هـ فهؤلاء هم القراء السبعة.



٣٠. ﴿أليس القرآن نصاً موحداً؟ هل له صياغات مختلفة؟﴾

أقوال المستشرقين في ذلك كثيرة، وأكثرهم انتشاراً جولدتسيهر اليهودى المجرى، وأقواله في الإسلام والقرآن خاصةً، فيها عداء سافر وكراهية لا تخفى على خافٍ، واشتهر هذا المستشرق بتوليده للنصوص التي يتصيّدها، ويغالط في تحميلها المعاني التي لا تحتملها، ومن أبرز مؤلفاته في ذلك كتاب «العقيدة والشريعة في الإسلام»، و «مذاهب التفسير الإسلامي».

ومما يثيره من شبهات قوله في كتب الديانات أنها لم يحدث أن ادّعى مُدّعٍ أن نصوصها منزّلة أو موحى بها إلا القرآن، ولذلك فإن هذه الكتُب تحفل بالاضطراب وعدم الثبات. وأما القرآن فعمر ادّعى أنه صواب كله ـ يعني لا اضطراب فيه، وقال ـ أي عمر: هذا كافٍ شافٍ، ما لم تجعلوا آية رحمة آية عذاب، أو تجعلوا آية عذاب آية رحمة، فما دام لم يحدث اختلاف أساسي في المعاني فاختلاف الألفاظ لا يهم. ويستخلص جولدتسيهر من وجود قراءات متباينة على أن هذه القراءات كان يمليها أن يرى الناس النص على وجه يفهمونه بها ويتفق مع صورته الأصلية. والنتيجة أن صارت هناك نصوص عدة للقرآن كانت بمثابة محاولات أولى للتفسير، وأما النص الحالي المتداول ـ والقراءة به هي القراءة المشهورة

ـ فهو الذى قام على جمعه ونشره **عثمان بن عفان**، أراد به أن يمنع وجود قراءات متعددة مختلفة الألفاظ قد تضرّ بالمعاني. ورغبته هذه في إيجاد نصّ موحّد كان نتيجتها هذا النصّ الحالي، ويصفه **جولدتسيهر** بأنه نصّ غير موحّد الأجزاء. ولم ير في محاولة جمع القرآن ونشر نسخة واحدة متيقنة الثبوت، إلا أنها ترسيخ للقراءات المتعددة للصحابة، ولاختياراتهم الشخصية، وإنكارهم لوجود قراءات متعددة. والقرآن لم يحدث أن كان مشاعاً يقرأه أىٌّ من كان، بطريقته الفردية وبحرية، ولكنه منذ اللحظة الأولى كُتب في حياة النبيّ ﷺ ، وجزّأه آيات وسوراً، وأشرف على ضبطه، ولم يمت الرسول ﷺ إلا وقد كان للقرآن حُفّاظ وعوه بقلوبهم، وردّدته ألسنتهم، وكتبوه سطوراً على الرقاع وقطع الأديم والعسب والأكتاف. وفي عهد **أبي بكر** حدثت الردّة، وجرت موقعة **اليمامة** في أواخر **سنة إحدى عشرة** للهجرة، واستشهد فيها ـ كما قيل ـ **سبعمائة** من القرّاء، فخشي أبو بكر على القرآن، وقرر أن يجمعه، وكلّف **زيد بن ثابت** بهذه المهمة، فكان يجمع السور والآيات، ويوازن بين أقوال القرّاء، ويشرف عليه **أبو بكر وعمر**، وانتهت كتابته للقرآن، كما هو، متلواً ومتواتراً، على ورق، وقد رتبت الآيات في السور على ما وقف عليه الرسول ﷺ ، وأجمعت الأمة على هذه النسخة، وحفظها بعده **عمر**، وعهد بها إلى ابنته **حفصة**، فحفظتها إلى أن طلبها **عثمان**، وقرأها على الصحابة مجتمعين فأقرّوها، والتزم كل من شارك في هذا العمل غاية الدقة، يمليها عليهم الإيمان بالله، والخوف منه تعالى، لأن القرآن كلامه.

وكانوا لا يقرّون إلا المتواتر دون ما ينقله الآحاد، وما كان متلواً دون ما نسخت تلاوته، وفرّقوا بين ما يكون مكتوباً في الهوامش كتفسير وما يكون متناً، وراعوا ترتيب الآيات والسور على ما وقفهم عليه النبيّ ﷺ ، وأن يكون بلسان قريش، وخطّوا منه عدداً من النسخ أرسلوا كل واحدة إلى الأمصار. **فكيف يُقال بعدئذ أنه كانت هناك اختلافات، وأن النسخة التوحيدية كانت معتسفة ؟!**



٣١. ﴿ من وَضَعَ الأعشار للمصحف؟ ﴾

الأعشار أَمَرَ بها **المأمون العباسي** ، ويقال **الأعشار والعشور** أيضاً :وهي العلامات بالطّيب، أو الأحمر، أو الألوان. ثم عُشّر المصحف بالحبر، وكُتب به عند خواتم السور عدد ما فيها من آيات؛ ويُعشَّر المصحف الآن بأحبار المطابع. والمسلمون بدءوا **فنقّطوا** ، ثم خمّسوا، ثم عشّروا. وكان القرآن **مجرّداً** في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه: النُّقَط على

الباء والتاء والثاء، ثم أحدثوا النقط عند منتهى الآيات، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم. وكل ذلك من عمل الصحابة والتابعين، قادهم إليه الاجتهاد.

●●●

٣٢. ﴿ من قام بشكل المصحف ونقطه وتجزئته؟ ﴾

روى أن الذى قام بتشكيل المصحف وتنقيطه وتجزئته كان عبد الملك بن مروان، أمر به ونفّذه ، وتجرّد له الحجّاج بواسط ،وجَدّ في القرآن وزاد فى تحزيبه، ونشر أول كتاب فى القراءات، جمع فيه ما اختلف الناس فيما وافق الخط القرآنى، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات.

وكان أول من نقّط المصحف : أبو الأسود الدؤلى، وكان قد سمع قارئاً أعجمياً يقرأ الآية: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ③ ﴾ (التوبة)، فقرأها بجر اللام فى كلمة رسوله، فأفزع هذا اللحن الشنيع أبا الأسود، فجعل علامة الكسرة نقطة أسفل الحرف، وعلامة الفتحة نقطة فوقه، وميّز عبد الملك بن مروان ذوات الحروف من بعضها بواسطة الإعجام، والنُّقط، واستبدل بالنقط علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون حتى لا تختلط نقط الحروف مع نقط الشكل، واستحب المسلمون الإعجام والشكل صيانةً من اللحن فى القرآن، وجزّأ الناس المصاحف أجزاء، وقسّموها ثلاثين قسماً، سمّوا الواحد الجزء، وأطلقوا على الأجزاء ربعات، فالجزء ربعة، وقسّموا الجزء إلى حزبين، ووضعوا كلمة خمس عند نهاية كل خمس آيات من السورة، وكلمة عشر عند نهاية كل عشر آيات، وهكذا، وكتب بعضهم حرف الخاء بدلاً من خمس، ورأس العين بدلاً من عشر، وبعضهم جعل للآيات أرقاماً توضع عند رءوسها.

وأما أول من أعجم القرآن ، ونجح فى ذلك ، فكان : نصر بن عاصم الليثى، ويحيى بن يعمر العدوانى، بتكليف من الحجّاج، وهذان هما اللذان نقّطا جميع الحروف المتشابهة، والتزما ألا تزيد النقط فوق أى حرف عن ثلاث.

ومن الذين سبقوا إلى ذلك ابن سيرين ، فكان له مصحف منقوط، ونقّطه يحيى بن يعمر. وقيل إن أبا الأسود نقّط المصحف بصفة فردية، ثم تبعه ابن سيرين. وكان عبد الملك بن مروان أول من نقّط المصحف بصفة رسمية عامة، فذاع ذلك عنه وانتشر، دفعاً للبس والإشكال فى قراءة القرآن.

●●●

٣٣. ﴿ فى فواتح السور ﴾

تفتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام ، فإما بالثناء، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

(الفاتحة)، و﴿تَبَارَكَ﴾ (الفرقان)؛ أو بالنداء، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحجرات)، و ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (الأحزاب)، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر)؛ أو الجمل الخبرية، كقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ (الأنفال)، و﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة)؛ أو بالقسم كقوله : ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾، ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ ، ﴿وَالطُّورِ﴾؛ أو بالشرط، كقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾؛ أو بالأمر، كقوله : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أو بالاستفهام كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ ، و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أو بالدعاء، كقوله : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، و ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ أو بالتعليل كقوله : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾؛ أو بحروف التهجي، كقوله ﴿الم﴾ ، ﴿المص﴾ ، ﴿المر﴾ .. إلخ.

●●●

٣٤. ﴿الحروف المقطعة فى أوائل السور﴾

عدد هذه الحروف ٧٨ حرفاً، يتكرر بعضها في مختلف السور التى أوردتها وهى ٢٩ سورة، وبدون تكرار فهى ١٤ حرفاً، ويرى البعض أن العدد ١٤ ضعف العدد ٧ وهو من الأعداد التى ربما لها دلالات خاصة، وشغلت المفكرين المسلمين كشغلهم بالحروف المقطّعة، وكثيرون تكلموا فى هذه الحروف وذهبوا فى تفسيرها مذاهب شتى، ومنها التفسير العددى لها، بحساب الأعداد التى تمثلها الحروف ، فيكون حاصل جمعها هو عُمر الإسلام وهو ما ذهب إليه اليهود! وبعض السور لا تبدأ إلا بحرف واحد مثل : «ص»، أو بحرفين مثل «حم»، أو بثلاثة أحرف مثل: «الم»، أو بأربعة، مثل : «المص» ، أو بخمسة، مثل «كهيعص». ونلاحظ أن أساليب الكلام فى اللغة العربى على نفس المنوال، فمنها ما هو على حرف، ومنها ما هو على حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة، ولا أكثر من ذلك. ولأنها حروف مقطّعة فإنها تقرأ كحروف التهجّى، وليس كأسماء متمكنة ، ولا كأفعال .

وابتداء السور بها حيّر كثيرين ، ويجعل المختصين عاجزين عن مجاراة القرآن ومحاولة معارضته بمثله. وربما معنى هذه الحروف أنها ابتداء الحروف التى منها يبنى العرب كلامهم، ومع أنهم يملكون ناصية استخدامها وتأليف المخاطبات بها، إلا أنهم يعجزون عن مضاهاته، وذلك أبلغ فى الحجة عليهم، لأن القرآن المؤتلف من هذه الحروف لا يخرج فى ألفاظه وعباراته ودلالاته عمّا اصطلحوا عليه فى كلامهم. ويخطىء من يذهب إلى القول بأنه لا تفسير لهذه الحروف، وأنها من أسرار القرآن، وأنها من المتشابه الذى لا يعلم تفسيره إلا الله، وأنه لا يجب أن نتكلم فيها، ولا نخوض فى مراميها، ولا نتصدّى لها

بالتفسير أو بالتأويل، وأن من الواجب علينا بإزائها أن نسلّم فيها، ونؤمن بها كما هى، ونقرأها كما عُلّمنا أن نقرأها. **والصحيح أن هذه الحروف لها معنى**، ككل شيء في القرآن، فلا يُعقل أن يكون القرآن هو رسالة الله إلى الناس وتكون بعض مكوناته من الأسرار، أو محظوراً تناولها بالدرس والبحث، واللافت للنظر في هذه الحروف أنها تبدأ السور التى تستفتح بآيات الله فى الكون، فالحروف آيات مثل الآيات الفيزيائية فى الكون، ومن الحروف يكون التعبير عن الفكر، وتكون الجمل والعبارات والأسماء والأفعال، وهى الأبنية التى تقوم عليها القراءة والكتابة، فإذا كانت الحروف تبدأ بها بعض السور فإنما للفت الانتباه إلى عظمة تأثير الحروف والكلمة فى حياة البشرية والأمم والحضارات، كلفتة الانتباه إلى كافة الكائنات والموجودات فى الكون كآيات وبراهين ودلائل على وحدانية الله وعلى قدرته وعلمه، ومن ثم فإنه إذا كان يقول أنه سيبعث الموتى، وستكون لهم قيامة، ويعقد لهم حساباً، وسيجازى المؤمنين المحسنين، ويعاقب الكافرين المفسدين، فهو يستطيع ذلك فعلاً بما نراه وندركه من وجوه عظمته وتفرّده. ومن هذه الحروف صار الإنسان كاتباً وقارئاً، وهما ما يميزانه كإنسان، وبهما صار له تاريخ، وتراكمت لديه المعارف؛ وأبدع القراءة والكتابة، وتغنّى بالكلمات والمعانى، وميز الأصوات والأشكال، فالحروف آيات، وربما لهذا كان قسَمُه تعالى **بمعجزاته الكونية الفيزيائية**، كالشمس والقمر، والليل والنهار، والأرض والسماء، والوديان والجبال، والماء والسحاب والمطر، والأنهار والبحار، وقسَمُه أيضاً **بمعجزاته الفكرية**، كالقرآن وآياته فيه فى مختلف العلوم والمعارف، كالطب والهندسة، والقانون، والجغرافيا، والتاريخ، والاجتماع، والسياسة، والزراعة، والصناعة، والفنون، والآداب ... إلخ.

ولاحظ بعضهم من القدامى أن اسمه تعالى « **الرحمن** »، لو قُطّع ثلاثة أجزاء، لكان: «**الر**»، و«**حم**»، و «**ن**»، وهذه الأجزاء الثلاثة تبدأ بها **ثلاث عشرة** سورة من القرآن، منها **خمس** سور بداياتها «**الر**» ، **وسبع** سور بدايتها «**حم**»، وسورة **واحدة** بدايتها «**ن**».

وقال آخرون : إن الله تعالى فى الآية ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ① ﴾ (القلم) ضمّن النون جُماع الحروف التى منها أسماء الموجودات ، لأن النون حرف احتواء ، وداخلها كل الموجودات فى حالة إمكان. وفى التفسير الحديث لهذا الكلام القديم، أن كل موجود له **شفرة أبجدية فى** حالة كمون، هى **الشفرة الأبجدية الجينية**، فيثبت بذلك أن الحروف المتقطّعة فى أول السور ليست من **المتشابه**، ولا من **المكتوم** الذى لا يُفسَّر، ولا من المستور معانيه، اختباراً من الله، وامتحاناً لعباده طُلاّب العلم والعلماء، وبناءً عليه فإن القول بعدم الخوض

في تفسير هذه الحروف هو عجز لا يليق ، والله تعالى يقول: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل)، وإذن فليس من شيء يغمض في القرآن. وإنه لأمر ذو بال ، أن يقترن ظهور هذه الحروف باسمه تعالى أو بكتابه القرآن، كما في قوله: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (الأعراف)، وقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ (يونس)، وقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ (هود)، وقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (إبراهيم)، وقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ (الحجر)، وقوله: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ (الرعد)، وقوله: ﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾ (مريم)، وقوله: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ (طه)، وقوله: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ (النمل)، وقوله: ﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ (الشعراء)، وقوله: ﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ (القصص) ، وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ (العنكبوت)، وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ (ص)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ (غافر)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ (فصلت)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ (الشورى)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ (الزخرف)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ (الدخان)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ (الجاثية)، وقوله: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ (الأحقاف)، وقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ (ق)، وقوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ (القلم). ولعل هذا الارتباط بين الحروف واسمه تعالى، أو بينها وبين كتابه المعجز، هو الذي دفع بالبعض إلى أن يقولوا إن الحروف هي بعض أسمائه تعالى يُقسم بها، أو بعض أسماء من لهم صلة مباشرة به تعالى ، كقول القائل في ﴿الم﴾ : الألف من الله ، واللام من جبريل، والميم من محمد؛ أو : الألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسم لطيف، والميم مفتاح اسم مجيد؛ أو أن: ﴿الم﴾ بمعنى واحد، وهو : أنا الله أعلم؛ و﴿الر﴾ : أنا الله أرى... إلخ، وكلها اجتهادات لا تستقيم مع وجود هذه الحروف في

أوائل السور، ولا يستقيم معناها مع السياق العام للسورة. وكذلك فإن هذه الحروف ليست فواصل بين السور، ولا هي لجذب الانتباه للكلام بعدها، لأن الذى يستمع إلى الحروف فى بداية السورة سيعجب، ويتأفف، ويتساءل، ويبدى الاشمئناط، فينصت غضباً إلى ما بعدها، لعل ما حصّله عن الحروف، وما ذهب إليه تفكيره فيها يكون صحيحاً، ويفاجأ بالمعانى تترى، والبراهين تُساق، والكلام يُطرَح بجدية لا هزل فيه، بل إن القلب ليميل إلى الكلام كلما بَشَّر ورقّ وطاب، ويستشعر الخوف إذا هدّد وتوعّد وأنذر. ولو كانت الحروف فواصل لكانت كالأسماء، والأسماء تُعرب، وهذه الحروف غير مُعربة.

وفى القرآن أن الكائنات والموجودات كانت قبل أن توجد ممكنات، وأنها بكلمة «كن» تحقق لها الوجود، فالعبارة «كن» هى أساس الخلق ، وبها صار الممكن متحققاً . و«كن» ليست سوى حروف، وأى كائن فى الوجود عبارة عن حروف، أحصاها علماء الوراثة فى الخلية البشرية الواحدة بثلاثة مليارات حرف، وبمائة وعشرين مليون حرف فى خلية ذبابة الدروسوفيل. ومن هذه الحروف يتألف الجين gene أو المورّث، وهو بمثابة الكلمة، وهناك نحو أربعين ألف چين عند الإنسان. وكل كائن له چينوم خاص بنوعه، والجينوم هو تسلسل الحروف بشكل معين يحدد الشفرة الوراثية. والمادة الوراثية DNA فى أية خلية عبارة عن جزئ داخل نواة الخلية. ومن هذه المادة يتكون الشريط الوراثى على هيئة حلزون مزدوج، والمكونات الأساسية للمادة الوراثية للحامض النووى أربعة مكونات تتوالى على الشريط وتمثل الحروف الأربعة للشفرة الوراثية A,C,T,G، وهذه الحروف على اختلاف تسلسلها تكوّن كلمات الشفرة التى تحدد وظائف الجسم وتتحكم فيها.

فيا أيها القارئ، هل ترى الآن عظمة هذه الحروف، وأن الله تعالى ينبّه بها إلى آياته، فإن كان الأوائل يفسّرونها تفسيرهم البسيط فهو جائز بالنسبة لهم؛ وإنْ كنا نذهب فى تفسيرنا مذهباً آخر أقرب إلى العلم، فذلك يناسب عصرنا، والقرآن جاء لكل العصور، ولتجد فيه كل الشعوب فى كافة الأزمان مبتغاها من الإيمان الشافى المطلوب، والمريح للصدور، والكافى للأذهان.

●●●

٣٥. ﴿فى خواتم السور﴾

الخواتم فى القرآن كالفواتح للفت الانتباه، وهى آخر ما يقرأ القارئ أو يسمع السامع من السورة، ولذا كانت فى الحُسن كالفواتح، مع إيذان القارئ أو السامع بأن الكلام قد انتهى. مثل: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ (٥٢)﴾ من سورة إبراهيم، يُجمِل بها المطلوب فى السورة؛

وكخواتيم سورة البقرة وكلها دُعاء، وخواتيم سورة آل عمران، وتحضّ على الصبر والمثابرة؛ ووصايا وفرائض سورة النساء، وكان الختام بها حَسَناً لأنها آخر ما نزل من الأحكام بعد حجّة الوداع؛ والوعد والوعيد الذى خُتمت به سورة الأنعام. ومن محاسن مناسبة الفواتح مع الخواتم، فاتحة سورة المؤمنين التى تقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾، وفى الخاتمة قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)﴾، فكانت الفاتحة نقيض الخاتمة.

•••

٣٦. ﴿إلى أى حرف نصف القرآن، وثلثه، وسبعه، وربعه ؟﴾

أحصى ذلك الحجّاج بن يوسف الثقفى، فقد سأل القراء والحفّاظ والكُتّاب : إلى أى حرف نصْف القرآن ؟ فقالوا : عند حرف الفاء من سورة (الكهف) الآية ١٩، من كلمة ﴿وليتلطف﴾.

وقيل: إن الثلث الأول : ينتهى عند حرف الميم من كلمة ﴿العظيم﴾ من الآية ١٢٩ من سورة براءة؛ والثلث الثانى : عند حرف الميم من كلمة ﴿حميم﴾ من الآية ١٠١ من سورة الشعراء؛ والثلث الثالث : ما بقى من القرآن.

وقيل السبع الأول : ينتهى عند حرف الدال من كلمة ﴿صديد﴾، من الآية ٥٥ من سورة النساء؛ والسبع الثانى : عند حرف الباء من كلمة ﴿حبطت﴾، من الآية ١٤٧ من سورة الأعراف؛ والسبع الثالث: عند حرف الألف من كلمة ﴿أكلها﴾، من الآية ٣٥ من سورة الرعد؛ والسبع الرابع: عند حرف الألف من كلمة ﴿منسكاً﴾ من الآية ٣٤ من سورة الحج؛ والسبع الخامس: عند حرف الهاء من كلمة ﴿مؤمنة﴾، من الآية ٣٦ من سورة الأحزاب؛ والسبع السادس: عند حرف الواو من كلمة ﴿السوء﴾، من الآية ٦ من سورة الفتح؛ والسبع السابع : ما بقى من القرآن.

وأما الربع الأول فينتهى بخاتمة سورة الأنعام؛ والثانى : عند كلمة ﴿ليتلطف﴾ من الآية ١٩ من سورة الكهف؛ والربع الثالث: بخاتمة سورة الزمر؛ والربع الرابع: ما بقى من القرآن.

•••

٣٧. ﴿تكرار العدد ٧، والعدد ١٧ ومضاعفاتهما فى القرآن﴾

يأتى العدد سبعة صريحاً فى القرآن ٢٤ مرة: فالسموات سبع (البقرة ٢٩)؛ والآيات فى ذلك سبع : البقرة ٢٩، والإسراء ٤٤، والمؤمنون ٨٦، وفصلت ١٢، والملك ٣، والطلاق ١٢، ونوح ١٥؛ والطرائق فوقنا سبع (المؤمنون ١٧)؛ والمثانى سبع (الحجر

٨٧)، **وفاتحة الكتاب** آياتها سبع آيات، وبها كل حروف الهجاء إلا **سبعة** أحرف، هي: ث ـ ج ـ خ ـ ز ـ ش ـ ظ ـ ف؛ وكلمة **الإنسان**، عدد حروفها سبعة؛ ويمر الإنسان بسبعة أطوار في قوله تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر﴾** (المؤمنون١٤)؛ **وصيام** من لم يجد الهَدْى سبعة أيام إذا رجع (البقرة ١٩٦)؛ **وجهنم** لها سبعة أبواب (الحجر ٤٤)؛ **وأهل الكهف** سبعة (الكهف ٢٢)؛ **والبحر** يمده من بعده سبعة أبحر (لقمان ٢٧)؛ والأراضين سبع (الطلاق ١٢)؛ **وآيات خلق السموات والأرض** سبع: الأعراف٥٤، ويونس ٣، وهود٧، والفرقان، ٥٩، والسجدة٤، وق٣٨، والحديد٤؛ وبعد خلق السموات والأرض يأتي **استواؤه تعالى على العرش** في سبع آيات: طه٥، والرعد ٢، والحديد٤، والسجدة٤، والفرقان٥٩، ويونس٣، والأعراف٥٤؛ والقسم في الآيات **السبع** الأولى من سورة الشمس **بسبعة** أشياء، وكلمة «**لا أقسم**» تتكرر في سبع آيات: الواقعة٧٥، والمعارج٤٠، والقيامة١ـ٢؛ والحاقة ٣٨، والتكوير١٥، والانشقاق ١٦، والبلد١؛ وكلمة «**لاتقتلوا**» في سبع آيات: النساء ٢٩، والمائدة ٩٥، والأنعام ١٥١، والأنعام ١٥١، ويوسف ١٠، والإسراء ٣١، والإسراء ٣٣؛ **والحبة** سبع سنابل (البقرة ٢٦١)؛ **وحلم الملك** سبع **بقرات عجاف**، وسبع **بقرات سمان** (يوسف ٤٣)؛ **والسنبلات الخضر** سبع، **واليابسات** سبع (يوسف ٤٣)؛ **وسنوات الشدة** سبع (يوسف ٤٨)؛ **وسنوات الرخاء** سبع (يوسف ٤٧).

والعدد **سبعون** من **مضاعفات** السبعة، **فسلسلة النار** ذراعها سبعون ذراعاً (الحاقة ٣٢)؛ واختارموسى من قومه سبعين رجلاً (الأعراف ١٥٥)، **والاستغفار** سبعون مرة (المنافقون).

ومن معجزات **آية الكرسي** أن **الأفعال** فيها سبعة، **والأسماء الموصولة** سبعة، **وحروف العطف** سبعة؛ وترتيب كلمة «كرسيه» **الثانية والأربعون**، وهو حاصل ضرب ٦ X ٧، وفي الآية اسم إشارة واحد هو «ذا»، وترتيبه **الواحد والعشرون** يعني حاصل ضرب ٣ X ٧. وهكذا في آيات وسور كثيرة، ففضلاً عن **المعمار الهندسي** للسور، هناك **الهندسة الرياضية، ولغة الرياضة** المستخدمة بكثرة في القرآن، **والحروف المقطّعة** عددها ٧٨، وغير المكرر منها ١٤، يعني ٧ X ٢.

واختلف المفسرون في عدد آيات القرآن بحسب الوقف، فقال بعضهم عددها ٦٢١٤، وقال آخرون ٦٢١٩، وبعضهم جعلها ٦٢٢٥، وفي المصحف الآن ٦٢٤٤، فأي عدد منها الصحيح؟ وغالباً أنه العدد **٦٢٤٤** لأنه يقبل القسمة على ٧.

●●●

٣٨. ﴿أول سورة أنزلت، وما تلاها﴾

عن عائشة رضي الله عنها : أن أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ هى : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق** ①﴾ (العلق) ، ثم بعدها : ﴿**ن والقلم وما يسطرون** ①﴾(القلم) ، ثم بعدها : ﴿**يا أيها المدثر** ①﴾ ، ثم بعدها : ﴿**والضحى** ①﴾(الضحى).

وعن الزهرى : أول ما نزل سورة العلق، وتنزّل منها قوله تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق** ①﴾ إلى قوله ﴿**علم أما لم يعلم** ⑤﴾ ، فحزن رسول الله ﷺ ، وجعل يعلو شواهق الجبل، فأتاه جبريل، فقال له : «**إنك نبىّ الله**» ، فرجع إلى خديجة، وقال : «**دثرونى، وصبّوا علىّ ماءً بارداً**» ، فنزلت: ﴿**يا أيها المدثر** ①﴾(المدثر).

والصحيح والثابت أن : **أول سورة نزلت بمكة هى ﴿اقرأ﴾؛ وأول سورة نزلت بالمدينة هى ﴿البقرة﴾؛ وآخر سورة بمكة هى ﴿المطففين﴾؛ وآخر سورة بالمدينة هى ﴿النصر﴾**؛ وقيل: **أول سورة بالمدينة هى ﴿المطففين﴾**.

●●●

٣٩. ﴿أول آية نزلت من القرآن؟﴾

إذا كنا قد حددنا **أول آية نزلت من القرآن وهى ﴿اقرأ﴾**، فإنه تتبقى شبهة أخرى إضافية عن موعد هذا النزول أو تاريخه ؟ والجواب : أن القرآن قد ذكر أن الله تعالى أنزل أولى آياته فى **رمضان**، فقال: ﴿**شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ١٨٥﴾ (البقرة)، ووصف ذلك فقال: ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ③﴾ (الدخان) ، وحدّد التاريخ فقال: ﴿**إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ①﴾ (القدر) ، وليلة القدر كما فى الحديث عند أحمد عن عبادة ابن الصامت : « **فى رمضان فالتمسوها فى العشر الأواخر فإنها فى وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين، أو فى آخر ليلة**».

وروى عن ابن قلابة أنه قال : «**ليلة القدر تنتقل فى العشر الأواخر**»، وعند الشافعى والحسن البصرى أنها ليلة غزوة بدر كما فى القرآن: ﴿**وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ④١﴾ (الأنفال) ، وهى ليلة ١٧ من رمضان، وفى صبيحتها كانت **وقعة بدر**.

●●●

٤٠. ﴿أول وآخر ما نزل من آيات القرآن؟﴾

يزعم **المستشرقون من النصارى واليهود** أن هناك شُبَه حول أول وآخر ما نزل من القرآن، ويشككون فى مصداقية علماء المسلمين ، بدعوى أنه حتى فيما نزل من أوائل القرآن أو أواخره فهم لا يعلمون شيئاً !! ويسوقون كدليل على ذلك أن **عائشة قالت**: إن

أول سورة : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، وروى ذلك عنها البخاري ، ومسلم، والحاكم، والبيهقي، ويؤيدها أبو موسى الأشعري كما جاء عند الطبراني. إلا أن الشيخين يرويان أيضاً عن جابر بن عبد الله : أول ما نزل إطلاقاً كان قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾، وكذلك روى البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل : أن الفاتحة كانت أول ما نزل من السور. وعن عكرمة والحسن : أن أول ما نزل من القرآن : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ①﴾(الفاتحة)؛ وأن أول ما نزل من السور: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾(العلق) .

والمنطقي أن يأتي في رواية عائشة في المقدمة قولها: أن المَلَك جاء الرسول ﷺ وهو يتحنث أو يتعبّد مجاوراً في غار حراء، فقال له : «اقرأ» ، فقال : «ما أنا بقارىء» ؟ فكرر عليه ذلك، وفي كل مرة يقول النبيّ ﷺ : «ما أنا بقارىء» ؟ فيقول له الملك : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ①﴾ (العلق)ـ حتى يبلغ في السورة إلى ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ⑤ ﴾ . ثم إن النبيّ ﷺ يخرج من حراء، فيسمع من خلفه النداء عليه : يا محمد! يا محمد ! فيَهمّ أن ينطلق هارباً، فيقول له : لا تفعل. قل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ① الحمد لله رب العالمين ②﴾، حتى يبلغ: ﴿ولا الضالين﴾. ثم إن النبيّ ﷺ يتوجه إلى بيته يرجُف فؤاده، فتأمر زوجته أن يدثّروه، فينُزل الله عليه: ﴿يا أيها المدثر ① قم فأنذر ②﴾.

وأما شُبهة آخر ما نزل من القرآن، فالخلاف حول ما إذا كانت الآية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ③ ﴾ (المائدة) هي آخر ما نزل من القرآن، لأن الآية صريحة تعلن أن الدين قد اكتمل، وأن كلمة الإسلام قد تمّت، صدقاً في الإخبار عن الله ، وعدلاً فيما أنزله من أوامر ونواهٍ، وقال اليهود لعمر في نزولها : «لو نزلت هذه الآية فينا لاتخذناها عيداً» ! ـ غير أن الآية عن إكمال الدين، وليست عن إكمال القرآن، وكان نزولها في عرفة، يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة سنة عشر هجرية، وعاش النبيّ ﷺ بعدها ٧٢ يوماً، استمر القرآن يتنزّل عليه فيها.

وفي الرواية عن البراء: أن آخر ما نزل من القرآن: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ١٧٦﴾ (النساء). وعن ابن عباس ، فيما أخرجه النسائي، قال : إن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ٢٨١ ﴾. وقال سعيد بن جبير: آخر ما نزل من القرآن كله : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾، فقال جبريل للنبيّ ﷺ : «يا محمد، ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة». قال : وعاش النبيّ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين

خلتا من ربيع الأول. وقال ابن جريج : آخر آية نزلت : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ (البقرة) . وقال: إن النبيّ ﷺ عاش بعدها تسع ليال، وبدأ المرض به يوم السبت، ومات يوم الاثنين. ولم ينزل بعدها شيئ. وقيل : إنها نزلت قبل موته بسبع ليال؛ وروى بثلاث ليال، أو ثلاث ساعات.

•••

٤١. ﴿ أجمل قول في القرآن ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ (آل عمران) هو أجمل قول فى القرآن، لأنه قولٌ يُبقى رجاء الراجى.

•••

٤٢. ﴿ أرجى آية في القرآن ﴾

لمّا أنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ (النور)، العشر آيات حتى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة من الذين اشتركوا فى الإفك، وكان إنفاقه عليه بسبب قرابته له وفقر مسطح، قال : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال عن عائشة، فأنزل الله تعالىٰ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾، إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقيل : هذه أرجى آية فى كتاب الله ـ أي هذه الآية الأخيرة: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقيل أن أبا بكر لما سمعها قال: والله لأحب أن يغفر الله لى ، أو قال : لا أنزعها منه أبداً، فأرجع إلى مسطح النفقة.

وقيل : هذه أرجى آية في كتاب الله من حيث لطف الله بالقذفة. وأما أرجى آية عموماً فهى قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) ﴾ (الأحزاب)، والآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾ (الشورى)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)﴾ (الشورى).

•••

٤٣. ﴿ أرجى آية للموحدين ﴾

قال ابن عباس : أرجى آية هى الآية: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ

وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾ (طـه)، لأنها تُقصر العذاب على المكذّبين للأنبياء وللبعث والحساب، المعرضين عن الإيمان، فأمّا من وحّد الله وآمن ، فله الجنة، فالآية لذلك أرجى آية للموحّدين.

•••

٤٤.﴿أوسع وأرجى آية فى القرآن﴾

هى الآية : **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾** (الزمر) ، قال علىّ بن أبى طالب: هى أوسع آية في القرآن؛ وقال عبد الله بن عمر: هى أرجى آية في القرآن، فردّ عليهما ابن عباس ، وقال: أرجى آية فى القرآن: **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾** (الرعد).

وقيل : إن عليّا قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله : **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾** (الزمر)، قالوا : إنا نقول ذلك. قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾** (الضحى).

•••

٤٥.﴿أرجى وأحسن آية فى القرآن﴾

فى الرواية أن الصحابة تذاكروا القرآن، فقال أبو بكر الصدّيق ﷺ : قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: **﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ (٨٤)﴾** (الإسراء) ، فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالربّ إلا الغفران.

وقال عمر بن الخطاب : قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: **﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)﴾** (غافر)، فإنه تعالى قدّم غفران الذنوب على قبول التوبة.

وقال عثمان بن عفان : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: **﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾** (الحجر).

وقال علىّ بن أبى طالب: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر أحسن وأرجى من قوله تعالى : **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾** (الزمر).

وقال أحدهم معلقاً : قرأت القرآن من أوله إلي آخره، فلم أر أحسن وأرجى من قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام).

●●●

٤٦. ﴿أحبُّ آية إلى عليّ بن أبي طالب﴾

عن الترمذي، عن عليّ بن أبي طالب، قال : ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٨﴾﴾ (النساء).

●●●

٤٧. ﴿آية في القرآن لم يعمل بها أحد إلا عليّ بن أبي طالب﴾

هي الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (المجادلة) . قال عليّ: في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا بعدي». وكان لعليّ دينار جعله دراهم، فإذا ناجي الرسول ﷺ تصدّق بدرهم إلي أن نفدت الدراهم.

●●●

٤٨. ﴿آية هي رحى آي القرآن﴾

هي الآية : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٣١﴾﴾ (النساء)، فجميع آي القرآن يدور عليها ، وهي لذلك رحى آي القرآن.

●●●

٤٩. ﴿آية كان يجب أن يتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيداً﴾

هي الآية : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ (المائدة)، ويُروى أن جماعة من اليهود جاءوا إلى عمر فقالوا : يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها ، لو علينا أُنزلت معشر اليهود ، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال : أي آية ؟ قالوا : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...﴾ الآية، فقال عمر : إني لأعلم اليومَ الذي أنزلت فيه، والمكانَ الذي أنزلت فيه : نزلت على رسول الله ﷺ **بعرفة في يوم جمعة**. وقيل نزلت يوم فتح مكة. وقيل : لما نزلت بكى عمر، فسأله الرسول ﷺ : « ما يبكيك» ؟ ، قال : أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا، فأمّا إذا كَمُل فإنه لم يُكمَل شيء إلا نقص. قيل : وبعدها نزل قرآن كثير، ونزلت آية الربا، وآية الكلالة إلى غير ذلك الأمر الذي يدل على أن الدين لم يكمل ، وإنما كمال الدين كان عندما أُمِر بالحج بهذه الآية.

●●●

٥٠.﴿أعظم آية في اشتياق المحب لحبيبه﴾

هي الآية: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ (طه)، وهي أعظم آية في التعبير عن اشتياق المحب لحبيبه، فقد قال الله لموسى ذلك وهو يعلم السبب، فأجابه موسى بأجمل ردّ من حبيب لمحبوبه، قال: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ (طه)، فقد اضطرب موسى وهو في الحضرة الإلهية، فأجاب بغير الجواب على السؤال، فقد سأله عن السبب الذي أعجله، فأخبر عن مجيئهم على أثره، وقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فكنّى عن الشوق، وأنه ما ابتغى إلا الرضا. ومثل ذلك روى عن عائشة ﵂، إذا أوت إلى فراشها، كانت تقول: هاتوا المجيد. ـ تُكنّي عن المصحف، وتأخذه إلى صدرها، وتنام معه ساكنةً، راضيةً، مطمئنة. وكان الرسول ﷺ يقول ويفعل مثل ذلك، فإذا أمطرت خلع قميصه يتلقى المطر على جسمه ويقول منشرحاً: «**إنه حديث عهد بربّي**» يقصد المطر يقدم من السماء من عند ربّه، فيحبه حبّه لربّه، ويطلبه طاهراً قبل أنْ يُدنّس. فهذا من الرسول ﷺ ومن حواريته **عائشة** ﵂ أم المؤمنين، وفي الحديث القدسي أنه تعالى قال: «**طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق**».

•••

٥١.﴿آية القرّاء العاملين العالمين﴾

هي الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ (فاطر)، وهي فيما ينبغي أن يتخلّق به قارئ القرآن.

•••

٥٢.﴿أحكم آية في القرآن﴾

هما آيتان: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة)، اعتبرهما ابن مسعود آية واحدة، وقال: هذه أحكم آية في القرآن. وقال فيهما **كعب الأحبار**: أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصُّحف.

•••

٥٣.﴿الآية الجامعة الفاذة﴾

هما آيتان: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة)، والوصف جعلهما آية، وقال عنهما النبيّ ﷺ كما جاء في الصحيح: «**هي الجامعة الفاذّة**»، فلأنها تجمع العلم كله هي جامعة، وهي الفاذة لفرادتها.

وعن عائشة أنها كانت ترى في حَبّة العنب الواحدة مثاقيل ذرّ كثيرة، فلا غرابة أن تكون الآية الواحدة جامعة وفاذة. وعن سعد بن أبى وقاص، أنه كان يرى فى الثمرة مثاقيل ذرّ كثيرة. واستهول الأعرابى أن يحاسبنا الله على مثقال الذرّة فقال : واسوأتاه ! فعقب النبىّ ﷺ وقال : «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان»، أو قال : «قد فقه». وقال فى الآية الصعصعة عمّ الفرزدق : لا أبالي الا أسمع من القرآن غيرها ! حسبى ، فقد انتهت الموعظة !

إن من يعتدى ويكسب إثما .·. وزن مثقال ذرة سيراه

ويُجازَى بفعله الشرّ شراً .·. وبعض الجميل أيضاً جزاه

•••

٥٤ ﴿آية من جوامع الدعاء﴾

هى الآية : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ (البقرة)، وهى تعمّ الدنيا والآخرة، وحسنتا الدنيا والآخرة هما ما فيهما من نعَم، وقوله تعالى ﴿حَسَنَةً﴾ تحتمل كل الحسنات على البدل، ومن ذلك : العافية، والصحة، وكفاف المال، والعلم، والعبادة، والزوجة الطيبة، والذرّية الصالحة إلخ؛ وحسنة الآخرة هى الجنة، وقوله ﴿وقنا عذاب النار﴾ دعاء مؤكد لطلب دخول الجنة، كقول الصحابى للرسول ﷺ : أنا إنما أقول فى دعائى : «اللهم ادخلنى الجنة وعافنى من النار» . وقيل لأنس : أدع الله لنا، فقال : «اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». قالوا : زدنا ؟ قال : «ما تريدون ؟ قد سألت الدنيا والآخرة». وكانت هذه أكثر دعوة يدعو بها النبىّ ﷺ ، وكان يأمر أن تكون أكثر ما يدعو به المسلم فى المواقف.

•••

٥٥ ﴿أجمع آية فى القرآن﴾

هى الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ (النحل)، قال فيها ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يُمتثَل، ولشرّ يُجتنَب. وقال فيها أبو طالب لما سمع أنها نزلت على ابن أخيه : اتّبعوا ابن أخى فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق.

وقال عثمان بن مظعون: ما أسلمت ابتداءً إلا حياءً من رسول الله ﷺ ، حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده، فاستقر الإيمان فى قلبى، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يابن أخى، أعد ! فأعدت ، فقال : والله إن له لحلاوة (يقصد القرآن)، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر !

والعدل في الآية: هو الإنصاف؛ **والإحسان**: هو فعل كل ما هو مندوب إليه؛ **وإيتاء ذي القربى**: أي القرابة، مثل قوله: **﴿وآتِ ذا القُربى حقَّه (٢٦)﴾** (الإسراء)، يعني صلته. وخصّ **ذوي القربة** لأن حقوقهم أوكد، وصلتهم أوجب، لتأكيد حقّ الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته؛ **والفحشاء**: هي الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل؛ **والمنكر**: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعمّ جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها؛ **والبغي**: هو الكِبر، والظلم، والحقد، والتعدّي، وحقيقة تجاوز الحدّ، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصّه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره.

●●●

٥٦. ﴿أجمع آية لمكارم الأخلاق﴾

هي الآية: **﴿خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عنِ الجاهلين (١٩٩)﴾** (الأعراف)، وهي من **ثلاث كلمات** وتضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. وقيل فيها: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس، وأن النبيّ ﷺ لمّا سمعها من جبريل سأله عنها، فاستأذنه ليسأل ربّه، ثم رجع فقال: «**إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**»؛ وقال فيها **جعفر الصادق**: أمر الله نبيّه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، **وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية**، وفي الحديث: «**بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق**» أخرجه الحاكم.

●●●

٥٧. ﴿آية جمعت كل ما في كتب الأنبياء

هي الآية: **﴿ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ ويَخشَ اللهَ ويَتَّقْهِ فأولئكَ هُمُ الفائزون (٥٢)﴾** (النور)، فهي في الفرائض بقوله: **﴿ومَن يُطِعِ اللهَ﴾**؛ وفي السنن بقوله: **﴿ورسولَه﴾**؛ وفيما مضى من العمر، بقوله: **﴿ويَخشَ اللهَ﴾**؛ وفيما بقي من العمر بقوله: **﴿فأولئكَ هُمُ الفائزون﴾**، فالفائز من نجا من النار وأُدخل الجنة، فهذه آية جمعت كل ما في كتب الأنبياء، وهي خلاصة كل الرسالات، ومما يقال له «جوامع الكلم».

●●●

٥٨. ﴿آية تكفي الناس جميعاً﴾

هي الآية: **﴿ومَن يتَّقِ اللهَ يجعل لهُ مخرجاً (٢) ويرزقْهُ من حيثُ لا يحتسبُ ومَن يتوكَّلْ على اللهِ فهوَ حسبُهُ (٣)﴾** (الطلاق)، اجتزأها أبو ذرّ وقال: إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم، هي قوله تعالى: **﴿ومَن يتَّقِ اللهَ يجعل لهُ مخرجاً (٢) ويرزقْهُ من حيثُ لا يحتسبُ﴾**.

●●●

٥٩.﴿آية العز فى القرآن﴾

هى الآية: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ (الإسراء)، فلأنها نفت أن يكون لله ولد أو شريك أو ناصر يُذَل له إذا احتاجه، سُمِّيت «آية العزّ»، فالله عزيزٌ بنفسه، والتكبير هو قول «الله أكبر» وهى أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال.

●●●

٦٠.﴿أكبر آية فى القرآن فرجا﴾

هى الآية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (٣) ﴾ (الطلاق)، فبالتقوى يجعل له مخرجاً من كل شئ ضاق على الناس، ومخرجاً من شبهات الأمور، ويخصّه بالفرج من كل شدة وضيق وكرب، ويرزقه من حيث لا يدرى، ومن حيث يرجو ولا يأمل.

●●●

٦١.﴿أطول آية فى القرآن﴾

هى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ (البقرة)، وهى المسماة «آية الدَّين»، وتتناول جميع المداينات، وتشتمل على ثلاثين حكماً. والدَّين عبارة عن كل معاملة يكون أحد العوضين فيها نقداً، والآخر فى الذمة نسيئة. والعين نقيض الدين، والعين: ما كان حاضراً؛ والدين: ما كان غائباً. والكتابة مأمورٌ بها فى الدَّين والأجل، ويكتبان بجميع صفتهما المعربة عنهما، والمُعرِّفة للقاضى بما يحكم به. والأمر بالكتابة: لحفظ الأموال وإزالة الريب. والتقىّ لا تضره الكتابة. وقيل: من أدان فليكتب، ومن باع فليُشهد. والآمن قد يُعفى من الكتابة، إلا أن الكتابة فى الدين أفضل، وتُحاجّ صاحب الحق. والإشهاد حزمٌ، والائتمان فى الحل والسعة، والإشهاد فى حالة عدم

الكتابة، وهو طلب الشهادة، وشرطه معاينة الشاهد لما يشهد به لا من يشهد بالاستدلال. وسبيل الشهادة اليقين، وتُقضَى باليمين مع الشاهد، ولذلك كانت شهادة المرأتين كشهادة رجل واحد، لأن المرأة أكثر نسياناً، والنساء عموماً أقل خبرة بالحياة، وأدنى تعليماً، وأبعد عن شئون المال، ولم يعرف أن النساء يقترضن أو يقُمن بالتجارة لأنفسهن، وإلا ففى المسائل غير المال فإن المرأة الواحدة قد تشهد وشهادتها صحيحة، والأولى الكتابة فهى أثبت للحق وأعدل من الإشهاد الشفهى، وهى أصحّ من الشهادة، وأذهب للريبة.

●●●

٦٢. ﴿أشد آية على رسول الله ﷺ﴾

هى الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ (٣٧)﴾ (الأحزاب)، وعن عائشة قالت: ما أنزل الله على رسوله آية أشد عليه من هذه الآية. وقالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية.

●●●

٦٣. ﴿الآية الأصل فى الشركة بين المخلوقين ونفيها عن الله»

هى الآية: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ (٢٨)﴾ (الروم)، يعنى أنكم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم فيما تملكون، لهم ما لكم، فإن كنتم لا ترضونه لأنفسكم، فكيف ترضونه لله ؟! وجوابهم: ليس عبيدنا شركاءنا فيما نملك. فقال لهم: فكيف يتصوَّر أن تنزّهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم، وتجعلوا عبيد الله شركاء له فيما خلق؟ - كقول النصارى: إن المسيح ابن الله، أو هو الله، فجعلوه شريكاً له وهو من خلقه، فحُكمهم فاسد.

●●●

٦٤. ﴿آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن﴾

هى الآية: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (٤)﴾ (غافر)، والآية: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾ (البقرة).

●●●

٦٥. ﴿آية عظيمة من أمهات الأحكام﴾

هى الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ (البقرة)، وهى من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة ، هى : الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته؛ والنشر والحشر؛ والميزان؛ والصراط؛ والحوض؛ والشفاعة؛ والجنّة والنار؛ والملائكة؛ والكتُب المنزّلة وأنها حقّ من عند الله؛ والنبيين؛ وإنفاق المال فيما يعنّ من الواجب والمندوب؛ وإيصال القرابة وترك قطعهم؛ وتفقد اليتامى والمساكين؛ ومراعاة ابن السبيل المنقطع به والسُّؤّال وفكّ الرقاب؛ والمحافظة على الصلاة؛ وإيتاء الزكاة.

•••

٦٦. ﴿آية التيمم﴾

هي الآية: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ (٤٣)﴾ (النساء) ، نزلت لما فقدت عائشة قلادةً لها فتوقفت القافلة للبحث عنها، وحضرت الصلاة وليس معهم ماء، فنزلت الآية ترخّص لهم التيمم.

•••

٦٧. ﴿آية اليتامى﴾

هى الآية: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾(النساء)، والإيتاء الإعطاء، واليتيم هو من لا أب أو أم له، أو توفى والده وكان طفلاً، ولا يُتم مع البلوغ، وكان يقال للنبىّ ﷺ «يتيم أبى طالب» باعتبار ما كان. وفى الآية النهى عن إبدال أموال اليتامى بالردئ من أموال الوصىّ على اليتيم، والمعنى: لاتأكلوا أموال اليتامى - وهى محرّمة خبيثة، ولا تدعوا الطيب من أموالكم، وكان أهل الجاهلية لايورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر من الأولاد الميراث كله . .

•••

٦٨. ﴿آيه الفرائض﴾

هى الآية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ

يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾ (النساء)، قيل إنها ثلث العلم، أو نصفه، وأنها عمدة الأحكام، وتسمى آية الفرائض، وفي الحديث: «تعلموا الفرائض وعلّموه الناس فإنه نصف العلم، وهو أول شيء يُنسَى، وأول شيء يُنزَع من أمتي» أخرجه الدارقطني.

●●●

٦٩. ﴿آية الاستئذان﴾

هي الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾**(النور)، خُصّ بها أكثر الناس للاستئذان، ويروى أن رسول الله ﷺ أرسل غلاماً من الأنصار يقال له مُدْلج إلى عمر بن الخطّاب ظهيرةً ليدعوه، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب، فدقّ عليه الغلام، فناداه عمر ودخل، فاستيقظ عمر، وانكشف منه شيء؛ فقال: وَددتُ أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ، فوجد هذه الآية قد أُنزلت، فخرّ ساجداً لله.

●●●

٧٠. ﴿آخر آيه نزلت من السماء﴾

هي الآية **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾** (الكهف)، ختم بها الله تعالى البيان، قيل: ومعنى **﴿لا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ شيئا﴾** أن لا يرائي بعمله أحداً. وقال ﷺ: «**أتخوّف على أمتي من بعدي الشرك والشهوة الخفية**»، وسُئل: أَوَ تُشرك أمتك من بعدك؟ قال: **لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، لكنهم يراءون بأعمالهم**». قيل: والرياء، أشركٌ هو؟ قال: «**نعم**». قيل: فما الشهوة الخفية؟ قال: «**يصبح أحدهم صائماً، فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر**». وقيل الشهوة الخفية مِن قِبلَ النساء. وقال ﷺ: «**من صلّى صلاةً يُرائي بها فقد أشرك، ومن صام صياماً يرائي به فقد أشرك**» ثم تلا: **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾** (الكهف). وفي الحديث عن أبي بكر أن

الرسـول ﷺ قال : «ذَكَرَ الله الشرك ، قال : هو فـيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلتـه أذهَبَ عنك صغار الشرك وكـباره. تقول : اللّهم إني أعـوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستـغفرك لما لا أعلم، تقولهـا ثلاث مرات» ، ودواء الرياء من قول لقـمان : كتـمان العمل.

●●●

٧١.﴿آيه الحجاب﴾

هى الآيـة : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴿٥٣﴾ (الأحـزاب)، وسببها أمـر قعود بعض المدعوين فى بيت زينـب لمّا تزوجها الـرسول ﷺ بعد زيد بـن حـارثة، فإن زينب تأذّت من جلوسهم ،وكانت تقعد غير بعيد ووجهها إلى الحائط، فلما انصرفوا قامت وقام النبيّ ﷺ ، وأسدل الستار على بابه ، ونزلت الآية.

وقيل: إن الآية نزلت فى غير ذلك، فقد أُثر عن عمر بن الخطاب قوله : وافقت ربّى فى ثلاث : فى مقـام إبراهيم ، وفى الحجـاب ، وفى أسرى بدر. وفى رواية عـمر : قـلتُ يـا رسول الله ، لو ضـربتَ على نسائك الحـجاب، فـإنه يدخلُ عليهن البّـر والفاجـر، فأنزل الله الآية. وكـان نزولها يوم بـنىَ النبىّ ﷺ بزينب. والمتـاع فى الآية هو أى شيء يمكن أن يستـعيره الناس منهم من مـتاع الدنيا، كـالأوعيـة، أو متاع الدين كـصحف القـرآن، فأذن الله فى مسألتهن من وراء حجاب فى حاجة تعرض، أو مسألة يستفتين فيها.

والحجاب أنفى للريبـة، وأبعد للتهمة، وأقوى فى الحـماية، وأطهر لقلوب المؤمنين، ولقلوب نساء النبىّ ﷺ ، من الخـواطر التى قد تعرض للرجال فى أمر الـنساء، وللنساء فى أمر الرجال.

●●●

٧٢.﴿آية الامتحان﴾

هـى الآيـة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ (الممتحنة).

●●●

٧٣.﴿آية الكلالة اسمها آية الصيف﴾

الكلالة تأتى فى القرآن مرتين ، فى المرة الأولى : ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴿١٢﴾﴾ (النساء)، وفي المرة الثانية: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴿١٧٦﴾﴾** (النساء).

والكلالة هو الرجل (أو المرأة) يموت وليس له ولد، ولا زوجة، وله إخوة وأخوات. وهذه الآية الأخيرة هي التي يقال لها **آية الميراث في الكلالة**، وقيل هي آخر آية نزلت من القرآن بسبب جابر بن عبد الله، وكان النبي ﷺ يتجهز لحجة الوداع، وكان جابر قد أغمي عليه واحتار كيف يفعل في ماله وهو كلالة. وقيل بل آخر آية هي: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾** (البقرة)، وأما آية الميراث في الكلالة فهي التي يسمونها **آية الصيف**، لأن نزولها كان في **الصيف**، بينما آية الكلالة الأولى كان نزولها في الشتاء.

●●●

٧٤. ﴿آية الوضوء﴾

هي الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾** (المائدة) وفيها رخصة التيمم.

●●●

٧٥. ﴿آية التوحيد﴾

هي الآية: **﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾** (البقرة)، وفيها وجوب إظهار التوحيد وعدم جواز كتمانه، وأنه على من يضطلع بذلك أن يقدّم البرهان على ما يقول، وثنّى به في الآية: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾** (البقرة)، فدعا إلى النظر والتفكّر والتدبّر في عجائب صنع الكون، ليعلم كل منكر وجاحد أن الكون لا بد له من فاعل لا يشبهه في شيء.

وفي الرواية: أن كفار قريش قالوا: يا محمد، انسب لنا ربّك، فأنزل الله تعالى سورة الإخلاص **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**، وأنزل هذه الآية التي صار اسمها **آية التوحيد**، وقيل: كان للمشركين **ثلثمائة وستون صنماً**، فبين الله تعالى أنه واحد. وقيل لما نزلت: **﴿وَإِلَٰهُكُمْ**

إلهٌ واحدٌ﴾ قال كفار قريش: كيف يسع الناس إلهٌ واحد ؟! وما الدليل على ذلك ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفيها دليل التوحيد، وأن هذا العالم بناءٌ عجيب لابد له من بانٍ وصانع، **وجمع فيها السموات لأنها أجناس مختلفة، ووحّد الأرض لأنها أرض واحدة. وآية السموات**: أنها بغير عمد ظاهر، ولا علائق من فوقها، خرقاً للعادة والقوانين، فدلّ ذلك على القدرة. **وآية الأرض**: بحارها وأنهارها، ومعادنها، وشجرها، وسهلها، ووعرها. **وآية الليل والنهار**: اختلافهما في الأوصاف من النور والظلمة، والطول والقصر. **وآية الفُلك**: أنها تجرى في البحار. **والفلك هي السفن**. والفلك مذكر ومؤنث، ومفرد وجمع. ووجه الإعجاز في الفلك تسخيرها لتجرى على وجه الماء، ووقوفها فوقه مع ثقلها. وقيل: أول من صنع الفلك على غير مثال **نوح**، بوحيٍ من الله، فصنعها على هيئة جؤجؤ الطير ـ أي صدره، فتكون عريضة من أمام ونحيفة من الخلف. والآية دليل على وجوب ركوب البحر لتجارة أو غيرها. **وآية المطر**: إنعاشه الأرض فيخرج الزرع وتكون الأرزاق، ويسيل المطر فيصنع الأنهار، ويسكن الأرض لتكون الينابيع يرتوى منها الناس والحيوان في غير وقت المطر. وحيثما كان الزرع كان الحيوان من كل نوع. **وآية الرياح**: تصريفها وإرسالها عقيماً وملقّحة. وصِراً، وصرصراً، ورخاءً، وطيبة، ومبشّرة،، وحارةً، وباردةً، ولينةً، وعاصفةً، وقاصفة، واختلاف طبائعها من اختلاف طبائع فصول السنة. **وآية السحاب**: أنه مسخّر بين السماء والأرض، وسمى **سحاباً** لانسحابه في الهواء، وتسخيرُه بعثه من مكان إلى مكان، ولولا السحاب ما كان المطر. فهذه الآيات شملت **الأصول الخمسة**: المكان من سماء وأرض، والأرض، التى هى التراب؛ والزمان من ليل ونهار؛ والماء؛ والهواء، وهى دلالات على وحدانيته تعالى وقدرته، ولذلك أعقبها بقوله: **﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾** ليدل بها على صدق الخبر عمّا ذكره قبلها من وحدانيته ورحمته ورأفته بخلقه، وفي الحديث: «**ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها**» أى لم يحفل بها ولم يعتبرها.

•••

٧٦. ﴿آية الكرسي أعظم آية في القرآن﴾

هي الآية: **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾** (البقرة)، وكلماتها خمسون كلمة تشملها عشر جمل مستقلة، وتبدأ باسم الله، وهو أجلّ أسمائه

تعالى، ويتكرر فيها ظاهراً ومضمراً، تمجيداً للواحد الأحد ثمانى عشرة مرة، وقيل: هى ثلث القرآن، أو ربعه، ويندُب المؤمنون إلى قراءتها دُبُر كل صلاة، وبالمقارنة بغيرها من الآيات هى سيدة آى القرآن، وأعظم وأشرف آية فيه، لأنها تحتوى جميع العلوم فى التوحيد؛ والفاتحة بالمقارنه إليها هى أم القرآن، باعتبار القرآن توحيد، وعبادة، ووعظ، وتذكير، فهى أوسع من آية الكرسى وأشمل، بينما آية الكرسى أعمق فى تناولها للتوحيد، وأعظم من ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ التى فيها التوحيد كله، وتعدّ مثلها ثلث القرآن، ومن ثم قيل: إن مَن يواظب على قراءة آية الكرسى يصبح من الصدّيقين أو العابدين، ويسمونها كذلك ولية الله، وقارئها من أولياء الله، وله أجر الشاكرين، وثواب النبيين، وعطاء الصدّيقين. وكان نزول آية الكرسى على النبى ﷺ ليلاً، فاستدعى زيداً ليمليها عليه. وقيل: إن اسم الله الأعظم فيها هو ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، ويأتى فى القرآن ثلاث مرات، فى البقرة فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٥٥﴾﴾، وفى آل عمران وفى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾، وفى طه فى قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

والله فى الآية مبتدأ، و«لا إله» مبتدأ ثان، و«إلا هو» بدل من «لا إله»، أو أن «الله لا إله إلا هو» ابتداء وخبر، فأخبر أنه تعالى المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق؛ و«الحىّ القيوم» بدلٌ من «هو» ونعتٌ لله، أو خبرٌ بعد خبر على إضمار مبتدأ. واليهود يدعون بالعبرانية فيقولون: «أياهيا شراهيا»، يعنى «يا حىّ يا قيّوم».

والله تعالى حىّ قيوّم كما وصف نفسه، لأنه لا يموت، ولا يحول، ولا يزول، وببقائه حياً تبقى الأشياء بمقاديرها، وتستمر الأمور فى مصاريفها. وهو «القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم»، لأنه يقوم بتدبير ما يخلق، ويقوم على كل نفس بما كسبت، ويعلم بها ولا يخفى عليه شيء منها. ومن تمام القيومية أنه لا تعترية سِنَة ولانوم، وفَرْقٌ بين السِنَة وهى من الرأس، والنعاس ويكون فى العين، والنوم الذى هو فى القلب، ولايصاب به الإنسان إلا اعتراه الفتور، ولحقه الملل، وأصابه التعب والرهق، ولو كان الله ينام لم تمسك السماء ولا الأرض، وإنما كل ما فيهما ملك يمينه، ورهن مشيئته. وقوله «ما فى السموات وما فى الأرض» يقصد به جملة الموجودات، وليس الإنسان وحده كما يدّعى المستشرقون، وإلا لكان استخدم مَنْ بدلاً من ما، كما فى قوله «من ذا الذى يشفع عنه إلا بإذنه»، فإن مَنْ للعاقل. وقيل: الآية دليل على وجود الشفاعة، وأن الله يأذن بها لمن يستحقها، ويرضى أن يتولاها مَنْ له عنده تعالى عهدٌ بذلك، كما فى قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ

عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ (مريم)، والعهد هو الإذن، كما في قوله: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾** (النجم)، فهؤلاء الملائكة أوكل الله بهم الشفاعة، كما في قوله: **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾** (الأنبياء)، فمن تقبل توبته من قبل أن يأتيه الموت، يرضى له أن يُشفَع فيه.

وقيل: **الشفاعة للمؤمنين شفاعتان**: شفاعة فيمن لم يصل إلى النار، وشفاعة فيمن وصل إليها ودخلها. وقيل **شفاعة نبيّنا محمد ﷺ ثلاث شفاعات**، وقيل **اثنتان**، وقيل **خمس**، وكل ذلك من الغيب ولا علم لنا به إلا الظن، ولا يعلم الغيب إلا الله، وعلمه به كعلمه بالشهادة، ولا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ملكاً كان أو نبياً.

والكرسي في قوله تعالى **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾** هو علمه تعالى الذي وسع كل شيء، كقوله: **﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴿٧﴾﴾** (غافر). وقال بعضهم الكرسي هو العرش، وكلاهما مصطلح متميز عن الآخر، فكيف يكون أيهما الآخر؟ والكرسي الذي يسع السموات والأوض كناية عن عظم مُلكه تعالى، وجلال سلطانه، يقرّب الله تعالى به ما لا يمكن أن يتصوره أو يتخيله أو يعيه ذهن الإنسان، بما هو محسوس ومشاهد من حياته اليومية، وإلا فما حاجته تعالى إلى الكرسي؟ هل هو ليجلس عليه مثلنا؟ أم أن المعنى أنه تعالى أكبر وأعظم حتى أنه لو كان له كرسي لكان في وسع السموات والأرض. وفي الحديث: «**ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة**». والآية يستفاد منها: عظم قدرة الله الذي لا يئوده حفظ هذا المُلك العظيم، فهو العليّ فوق خلقه، وهو الكبير المتعال. وهذا هو ما تنبّه إليه **آية الكرسي**، مما جعلها **سيدة آيات القرآن**.



٧٧. ﴿آية التصوير﴾

هي الآية: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾** (آل عمران)، وفيها التعظيم لله تعالى، ومن ضمنها الردّ على النصارى في قولهم أن عيسى من المصوِّرين أي الخالقين، يشبّهونه بالله. وذلك مما لا يوافق عليه عاقل. وفي الآية الردّ على **الطبائعيين** الذين يجعلون الطبيعة فاعلة مستبدة.



٧٨. ﴿آية السيف﴾

هي الآية: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ⑤﴾ (التوبة)، والآية: ﴿**فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ٩١﴾ (النساء). (انظر باب الحرب والسلم في القرآن).

●●●

٧٩. ﴿آية القتال في القرآن﴾

هي الآية: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا** ١٩٠﴾ (البقرة)، والآية: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ** ٢٩﴾ (التوبة)، والآية ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ٣٦﴾ (التوبة).

●●●

٨٠ ﴿آية الوصية﴾

هي الآية: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ١٨٠﴾ (البقرة)، وليس في القرآن ذكر للوصية إلا في ثلاث آيات: في هذه الآية، وفي سورة النساء في قوله تعالى ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ** ١١﴾، وفي سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿**حِينَ الْوَصِيَّةِ** ١٠٦﴾، وآية الوصية في سورة البقرة أتمها وأكملها، ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث.

●●●

٨١ ﴿آية من الآيات الأمهات﴾

هي آيتان وليست آية واحدة، باسم آية المواريث، تقول: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ١١ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ١٢﴾ (النساء)، وهي من الآيات الأمهات، التي هي ركن الدين وأساس الأحكام، والعلم الذي تبشّر به من أهم وأعقد علوم القرآن، وهو أول ما يتركه الناس من

علوم القرآن، لأنهم يتركون العمل به فيُنسى، وفى الحديث «تعلمّوا القرآن وعلّموه الناس، وتعلّموا الفرائض وعلّموها الناس»، ومعنى «يوصيكم» يفرض عليكم، وعِلْم هاتين الآيتين هو علم الفرائض. وقيل إن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون إلا من لاقى الحروب وقاتل العدو، فكانوا على ذلك لا يورثون النساء والأطفال، فنزلت هذه الآية كى تبيّن أن لكل صغير وكبير حظه ونصيبه من التركة. وقيل نزلت فى ورثة سعد بن الربيع، أو فى ورثة ثابت بن قيس بن شماس، والأول أصحّ، وكانت امرأة سعد، وهى المشهورة بأم كجّة ، قد شكت إلى الرسول أن سعداً مات وترك بنتين وأخاه، فقبض أخوه ما ترك سعد. وقيل نزلت الآية فى الجميع ولذلك تأخر نزولها. وكان الميراث يُستَحق فى الإسلام بأسباب، منها: الحلف، والهجرة، والمعاقدة، ثم نسخ لقوله ﷺ : «ألحقوا الفرائض بأهلها» أخرجه البخارى - يعنى الفرائض الواردة فى كتاب الله. (انظر الفرائض ضمن باب المصطلحات وباب الإسلام الاقتصادى: المواريث).

●●●

٨٢.﴿آية الظهار﴾

هي الآية الأولى من سورة المجادلة، تقول : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ①﴾، وتتناول الظهار، ويشمل ذلك ست آيات من السورة لبيان أحكامه. وسورة المجادلة فى ترتيب المصحف الثامنة والخمسون.

٨٣﴿آية الموادعة﴾

هى كل آية فى القرآن تأمر بالصفح ومكارم الأخلاق، حتى مع المشركين والمكذّبين، وبعدم التعرّض لهم وبالصفح عن إساءاتهم، مثل الآية: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴿٩٦﴾﴾ (المؤمنون) فإنها آية موادعة.

●●●

٨٤﴿القرآن العظيم هو الفاتحة﴾

فى الآية : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (الحجر) نصٌّ على أن الفاتحة هى السبع المثانى باعتبارها ست آيات بالإضافة إلى البسملة، فيصير المجموع سبع آيات، يصفها بأنها القرآن العظيم إما اعتبارها أم القرآن، لأنها تتضمن جميع علومه، وإما أن مقصود الآية أنه أوتى الاثنين: الفاتحة والقرآن العظيم، أو أن القرآن العظيم كما قال فيه : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر)، أى تُثنّى فيه المواعظ والأحكام

والقصص، يعني تتكرر فيه، ويجمعها جميعاً السبع الطوال، وهي سور : البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً (أو الكهف)، **وتلخصها الفاتحة وتوجز القرآن كله**، وعلى ذلك فهي بمثابة القرآن العظيم؛ أو أن القرآن عظيم لأنه **متشابه** من وجه، **ومثاني** من وجه، ومجموعه في السبع الطوال، أو في الفاتحة المشتملة على سبع آيات.



٨٥ ﴿السبع المثاني أعظم سورة في القرآن﴾

السبع المثانى، وتُترجَم **The seven oft-repeated verses**، وهي ترجمة قاصرة. وقيل إن السبع المثانى هى **فاتحة الكتاب**: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** (٨٧)﴾ (الحجر) هو القول الصحيح، **والمثانى** سميت بذلك لأنها تُثنىَّ فى كل ركعة، أى تُتلى، ولاتصح الركعات إلا بها، والبناء القرآنى قوامه **المنطق الجدلى**، يعنى إذا ذُكرت النار تُذكر الجنة ،وإذا ذُكر الليل يُذكر النهار، **والعقاب** يقابله الثواب، والله تعالى هو المنتقم الجبّار، وهو أيضاً العفوّ والرحمن الرحيم الغفّار، كقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ** (٢٣)﴾ (الزمر). وفى الحديث: « **ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى**»، أن **الفاتحة** هى السبع المثانى، ويؤكد ذلك الحديث الآخر: «**الحمد لله ربّ العالمين ـ هى السبع المثانى، وللقرآن العظيم الذى أوتيته**» أخرجه البخارى، والحديث: «**هى أعظم السور فى القرآن**».

وقيل سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة، فلم تنزل على أمة أخرى مثلها. وقيل السبع المثانى هى **السور السبع الطوال** : **البقرة**، **وآل عمران**، **والنساء**، **والمائدة، والأنعام، والأعراف**، و«**الأنفال والتوبة**» معاً، وقيل **الكهف** بدلاً من «الأنفال والتوبة». وسميت مثانى، لأن العبرَ والأحكام والحدود ثُنيّت فيها. والقول بأن السبع المثانى هى السبع الطوال يقدح فيه أن آية **الحجر** التى ذكرت **السبع المثانى**، نزلت بمكة ولم تكن السور الطوال قد نزل منها شيء بعد. وقيل لذلك: **المثانى هى القرآن كله**، ونقول : ولماذا قال السبع إذن ؟ وقيل المراد بالسبع المثانى **أقسام القرآن السبعة** : **الأمر، والنهى، والتبشير، والإنذار، والأمثال، وتعديد النّقم، وأنباء القرون**. وفى آية سورة الزمر : أن «**أحسن الحديث**» المقصود به القرآن ، لأنه كان يحدّث به أصحابه، وهو «متشابه» لأنه يشبه بعضه بعضاً، وهو «**مثانى**» : تُثَنَّى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وتُثنَّى تلاوته فلا يُمل. وقيل: السبع المثانى هى **الفاتحة**، لأنها سبع آيات، منها **ست آيات، والبسملة** هي الآية **السابعة**.

ومن الغريب أن المستشرقين لا يملون ترديد أن هذه المصطلحات الإسلامية البحتة مأخوذة من اليهودية، وأن مثانى هى نفسها المثنا misna اليهودية. وقال جايجر إن أصل الكلمة فى العربية والعبرية «مثنيثا mathnitha الأرامية، وكذلك ذهب نولدكه وشفالى، وجولدتسيهر، وبحسب هؤلاء فالمثانى هى القرآن كله، ويمكن أن تكون كذلك الفاتحة، لأن مثنا أو كلمة مشنا اليهودية تعنى التوراة كلها وتعنى كذلك السِّفر، أو الفصل، أو العبارة الواحدة منه. وقال شبيرنجر: إن المثانى من الكلمة العبرية «شنّى shena»، وهى نفسها الكلمة العربية «ثنى» أى يكرر، ووافقه على هذا الرأى ميللر، وورود وكاناكيس، وهوروفيتس. وكأن النبىّ ﷺ كان يعرف الأرامية والعبرية!! مع ملاحظة أن المشنا لم تكن قد ترجمت إلى العربية، وحتى الآن لا توجد ترجمة عربية لها، وحتى العربية ما كان النبىّ ﷺ يعرف كتابتها ولا قراءتها أصلاً. وحسبنا الله.

•••

٨٦ ﴿السور الحواميم﴾

هى السور التى تبدأ بالحرفين المُقطّعين ﴿حم﴾، وتُسمّى أيضاً «العرائس»، وفى الحديث عن أنس أنه ﷺ قال: «الحواميم ديباج القرآن»، ومعنى ديباج القرآن: زينته، ولأنها مجموعة سور سميت «آل حم»، كقولنا آل فلان، كأنه نسب السور كلها إلى «حم»، وفى قول الشاعر: «وجدنا لكم فى آل حاميم»، وقوله: «وبالحواميم قد سُبِعت»، ذكر أنها سبع سور متجاورات، هى بترتيب النزول: غافر، وفصّلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

•••

٨٧ ﴿السور الطواسين﴾

هى التى تبدأ بالحروف المُقطّعة طس أو طسم، وهى ثلاث سور على ترتيب النزول والمصحف: الشعراء، ثم النمل، ثم القصص، وموضوعاتها متشابهة، وروحها العامة، والمزاج النفسى الذى يسودها، والحالة العقلية التى هى عليها، واحدة.

•••

٨٨ ﴿السور المسبحات﴾

هى السور التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، أو ﴿يُسَبِّحُ﴾، أو ﴿سُبْحَانَ﴾، وهذه سبع سور، ثلاث منها تبدأ بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هى الحديد، والحشر، والصف؛ واثنتان تبدءان بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾،

وهي: الجمعة، والتغابن؛ وواحدة تبدأ بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وهي سورة الأعلى؛ وواحدة تبدأ بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾، وهي سورة الإسراء.

والمشهور في كتب التفسير أن المسبّحات خمس سور هي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، وأن آخر هذه السور هي «التغابن»، والصحيح أنها سبع سور، وآخرها بحسب عموم التنزيل: «الصف»، وترتيبها التاسعة بعد المائة، وأما التغابن فهي السادسة والثمانون.

●●●

٨٩.﴿سورة النجم أول سورة فيها سجدة﴾

في قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ (النجم)، قيل المراد به سجود تلاوة القرآن أثناء الصلاة، وهي أول آية يأتي فيها سجود التلاوة.

●●●

٩٠.﴿سورة ثلث القرآن﴾

هي سورة الإخلاص، وتبدأ هكذا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكانوا يتقالونها، أي يعتبرونها قليلة، فقال فيها النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، أنها لتعدل ثلث القرآن» أخرجه البخاري، فذلك إذن هو السبب أنها ثلث القرآن؛ وقال لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»؟ فشقّ ذلك عليهم، وقالوا: أيّنا يطيق ذلك؟ فقال: «الله الواحد الصمد ـ ثلث القرآن» أخرجه البخاري، وقيل: إنها تعدل ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذي هو «الصمد»، فإنه لا يوجد في غيرها من السور، وكذلك «أحد». وقيل: القرآن أُنزل أثلاثاً، ثلثاً منه أحكام، وثلثاً منه وعد ووعيد، وثلثاً منه أسماء وصفات، وجمعت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أحد الثُلث الثالث الخاص بالأسماء والصفات، وفي الحديث: «إن الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن» أخرجه مسلم.

●●●

٩١.﴿خواتيم سورة البقرة آخر آيتين بها﴾

هما الآيتان: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ (البقرة)، قال فيهما الرسول

ﷺ : «أُعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبيّ قبلي»، وفي رواية ابن عباس أن ما تفرّد به النبيّ ﷺ : فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، قيل: أُعطيت له لمّا عُرِّج به في الإسراء إلى سدرة المنتهى ـ إلا أن الإسراء ترتيبها في النزول الخمسون، في حين أن الفاتحة ترتيبها الخامسة! والبقرة ترتيبها مائتان وست وثمانون، ورواية ابن عباس لذلك مشكوك فيها. وروى عن ابن عباس قال: جميع القرآن نزل به جبريل على محمد ﷺ، إلا الآية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ (البقرة)، فإن النبيّ ﷺ هو الذى سمعها ليلة المعراج، فلما وصل إلى سدرة المنتهى. لم يجاوزها جبريل، وجاوزها النبيّ ﷺ إلى حيث شاء الله، فأشار إليه جبريل أن سلّم على ربّك، فقال النبيّ ﷺ : «التحيات لله والصلوات الطيبات»، فقال الله تعالى: «السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته» ، فأراد النبيّ ﷺ أن يكون لأمته حظٌ فى السلام، فقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فقال جبريل وأهل السموات كلهم : «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله »، فقال الله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾، فأراد النبيّ ﷺ أن يشرك أمته فى الكرامة والفضيلة فقال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾وهكذا إلى آخر الآية. وهذا كلام عجيب، والله أعلم!

•••

٩٢.﴿العشر الخواتم من سورة آل عمران﴾

هي الآيات من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ (آل عمران) ، حتى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾، وكان الرسول يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده.

•••

٩٣.﴿خواتيم سورة الحشر﴾

هى الآيات : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ (الحشر)، وفيها من أسماء الله الحسنى اسم الله الأعظم.

•••

٩٤.﴿التوصية بآخر سورة النحل﴾

أوصى الرسول ﷺ بالآيات من آخر سورة النحل بدءاً من: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) ﴾، حتى ختام السورة: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (١٢٨)**﴾.

●●●

٩٥.﴿سورة هود وأخواتها﴾

أخوات سورة هود هي : الواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، والقارعة، والحاقة ، وسأل سائل، وإذا الشمس كوّرت؛ وفي حديث رسول الله ﷺ : «شيّبتني هود وأخواتها»، لما فيها من الفزع ، والفزع يورث الشيب، ويُذهل النفس، ويُفصد الجسم عرقاً، فتحت كل شعرة منبع يعرق، فإذا انتشف الفزع رطوبته يبست المنابت، فييبس الشعر ويبْيضّ، كالزرع يُسقى بالماء فيخضر، فإذا جفّ الماء ذهبت خُضرته ويبس. وفي القرآن : ﴿**يوماً يجعل الولدان شيباً (١٧)**﴾ (المزمل)، فإنما شابوا من الفزع. وفي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطان الله تعالى وبطشه، فتذهل منه النفوس، وتشيب منه الرءوس.

ومن سورة هود هذه الآية: ﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير (١١٢)**﴾ ، قال ابن عباس : **ما نزل على رسول الله آية هي أشدّ ولا أشق من هذه الآية عليه**. والخطاب فيها للنبي ﷺ ، والمراد أمّته. ومعنى استقم : اطلب الإقامة على الدين من الله ، واسأله ذلك. ولما سئل النبيّ ﷺ : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ؟! قال : «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم.

●●●

٩٦.﴿آيات سورة البقرة في المؤمنين والكافرين والمنافقين﴾

في سورة البقرة أربع آيات في المؤمنين، واثنتان في الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين. فلما ذكر الله تعالى المؤمنين أولاً ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين في مقابلهم، إذ الكفر والإيمان طرفان، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم، لنفي الإيمان عنهم.

●●●

٩٧.﴿الأحاديث في فضل سور القرآن أغلبها موضوع﴾

الوضّاعون والمختلقون افتروا الأحاديث والأخبار في فضل سور القرآن، فمنهم الزنادقة، قيل وضعوا جملةً من الأحاديث بلغ عددها أربعة عشر ألف حديث! منها مثلاً الحديث: «أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدي إلا ما شاء الله». فزادوا الاستثناء على الحديث

الأصلي، وقولهم « إلا ماشاء الله» يعارض صريح القرآن : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** (٤٠) ﴾ (الأحزاب). ومن **الزنادقة الوضّاعين : المغيرة بن سعيد الكوفي، ومحمد بن سعيد الشامي، والحارث الكذّاب** الذى ادّعى النبوة. ومن **الخوارج** مَن وَضَع الحديث فى فضل سور القرآن، فكانوا يزيدون في الأحاديث من الكلمات بقدر ما ينحرف بها إلى المعانى التى تنتصر لأفكارهم، فكلما هووا أمراً صيّروه حديثاً. ووضع بعض المتعبّدين الأحاديث فى فضل السور للترغيب أو الترهيب، فكان **أبو عصمة نوح بن أبى مريم المروزى**، ينسب ما يروى إلى عكرمة عن ابن عباس، ويحتج أنه رأى الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بالفقة والمغازى، فوضع ما وضع حسبةً ،ليُقبلوا على قراءة القرآن وحفظه. ونسب بعض المحدّثين أسباب نزول الآيات إلى **عليّ بن أبى طالب** مثلاً ، أو إلى غيره، تقرّباً إلى أصحاب النفوذ والسلطان، ومن ذلك الحديث الطويل عن **أبيّ بن كعب** عن النبىّ ﷺ ، فى فضل القرآن سورة سورة، **فحذار أيها القارئ اللبيب، من أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، من وُضّاع الأحاديث،** وخاصة فيما ينسبونه إلى القرآن ولم يقل به الرسول ﷺ ، وصدق إذ قال : «**اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» أخرجه أحمد والترمذى.

والحقّ أن القرآن كله كتاب الله، وفى الحديث الصحيح : «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، بل ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميم حرف**» أخرجه الترمذى، وقال تعالى فى القرآن: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** (٤٤) ﴾ (فصلت)، وهذه البركة فى القرآن كله فرائضه وأحكامه، وأمثاله، وقصصه، وأخباره.

•••

٩٨. ﴿أعظم شهادة فى القرآن﴾

لمّا دخل حبران من الشام على رسول الله ﷺ يسألانه : ما أعظم شهادة في القرآن ؟ نزلت الآية : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١٨) ﴾ (آل عمران)، والآية دليل فضل العلم وشرف العلماء، ولو كان أحد أشرف من أهل العلم لقرنهم الله باسمه تعالى واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء. وفى الحديث : «**العلماء ورثة الأنبياء**».

•••

٩٩. ﴿القرآن أحسن ما أنزل الله﴾

أنزل الله تعالى كتبه الثلاثة : **التوراة، والإنجيل، والزبور**، ثم أنزل **القرآن**، وأمر باتباعه، فهو الأحسن وهو المعجز، كقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** (٥٥)﴾ (الزمر)، والقرآن كله حَسَن، فوجب التزام طاعته، واجتناب معصيته. «**والأحسن**» هو الامتثال لما أمر الله به في كتابه، يعنى **المحكمات**، وأن يوكل **علم المتشابه** إلى مَن يعلمه. **والأحسن** هو القرآن كله، مُحكمه ومتشابهه، لأنه نسخ كل ما سبقه من كتب، وكل الكتب قبله صارت به منسوخة. وما علّم الله نبيه من السُّنّة فهو حسن، وما أوحى إليه من قرآن هو **الأحسن**. وقيل **أحسن ما نزل من القرآن**: القصص، وأخبار الأمم السابقة.

●●●

١٠٠. ﴿القرآن برهان الله إلى الناس﴾

البرهان : هو الدليل القاطع للعذر ، **والحجة**: هي المزيلة للشُّبَه، يقول تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** (١٧٤)﴾ (النساء)، والخطاب للناس كافة، والقرآن هو برهانه تعالى على نفسه، لأنه يدل عليه بإعجازه، وما يدعو إليه هو نور وهدى للناس، لا لبس فيه ولا خلط، وفى الحديث : «**القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين**». والدليل على أن القرآن من عند الله أنه لايدعو إلا إلى الله، فلا هو يؤله محمداً كما فى الأناجيل من التأليه لعيسى، ولا هو يدّعى أن العرب خير أمة، وأنهم أحباء الله وصَفْوة خَلْقه، كما زعم اليهود عن أنفسهم فى كتبهم، **وإنما الدعوة فى القرآن لله خالصة**، فذلك دليل على أنه كتابٌ **منزل من عند الله**، وأما الدليل أنه **نور مبين**، فلأن المسلمين به استناروا، وعرفوا الحق واختاروه، وصار لهم منهج حياة وسلوك، وغايةٌ تُرجَى للعيش فى الدنيا، وللأمل فى الآخرة.

●●●

١٠١. ﴿فى القرآن خطاب المؤمنين كخطاب المرسلين﴾

فى القرآن يخاطب الله تعالى الذين آمنوا بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا»، ويتكرر ذلك ثمان وثمانين مرة، وفى الحديث : «إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين».

●●●

١٠٢. ﴿القرآن يحفظه الله﴾

عن القرآن قال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩)﴾ (الحجر)، وعن

التــوراة قــال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ (المائدة) ، والذكـر هو القرآن، أوكل تعالى حفظه إلى نفســه، وأما التوراة فأوكل حفظها إلى أنبيـاء اليـهود والربّـانيين والأحبـار، وهم بشر، فضيّعوها وبدّلوا فيها، وغـيّروا. وقيل في ذلك حكاية لطيفة : أن يهودياً دخل على المأمـون فأغراه المأمون أن يُسلم، فقال الرجل: ديني ودين آبائي . وبعـد سَنَة عاد الرجل نفســه إلى المأمـون وذكر أنه أسلم، واخـتبـره المأمون فوجده عالماً، فسأله عن سبب إسلامه فـقال : انصرفت المرة السابقة من عندك فأحببت أن امتحن هذه الأديان، وكان حظي حـسناً، فعمدت إلى التـوراة، فكتبت منـها ثلاث نسخ، فزدتُ فيهـا وأنقصت، وأدخلتها البيعـة (كنيسة اليهود)، فـاشتروها مني، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ، فزدتُ فيها وأنقصت، وذهبت الى الكنيسة، فاشتروها مني، ولم يجدوا في كل ذلك زيادة ولا نقصاناً، سواء في التوراة أو في الإنجيل، ثم عمدت إلى القرآن، فكتبت ثلاث نسخ، وزدت فيها وأنقصت، وأدخلتها الورّاقين ـ مكان بيع الكتب، فتصفّحوها، واكتشفـوا الزيادة والنقصان، فلم يشتروها. فعلمتُ أن هذا الكتاب ـ القرآن ـ محفوظٌ، فكان هذا سبب إسلامي !!



١٠٣.﴿القرآن يحسم ما اختلف فيه بنو إسرائيل﴾

اختلف بنو إسرائيل في كل شيء فيما روى أنه جاءهم على رسُلهم،خاصةً موسى ، وقالوا في ذلك روايات شتّى، وكانت لهم أحكام متباينة امتلأت بها كتُبهم الخمسة المسماة بالتوراة، وكتابهم التلمود، وكتابهم المشناه، وكتابهم الزوهار ، وسائر أسفارهم، وكانت لهم مدارس في ذلك افترقت عن بعضها البعض حـتى كفّروا بعضهم البعض. والقرآن تعرّض لأغلب ما اختلفوا فيه، سواء في القـصص، أو في الأحكام، وفي الحـلال والحرام، والطلاق والزواج، والبيع والشراء، وفي ذلك نزلت الآيات: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨)﴾(النـمل) ، فكشفت الآية عن مزايا أخرى لـلقرآن، وأبانت أنه يتعرّض لقضايا يصحّح فيها بنى إسرائيل، ويا حبذا لو كانت هناك دراسات إسلامية مقارنة، تتناول هذه القضـايا بالتحليل والتفـسير، فـمثل تلك الدراسات هى التي يمكن أن تكون مـدخلاً سليماً للدعوة للإسلام، وجلاء تهافت كتُب اليهود والنصارى.



١٠٤.﴿كل عسى فى القرآن واجبة﴾

حيثما وقعت عسى من القرآن فهي واجبة، كقوله تعالى لنبيّه: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) ﴾ (الإسراء)، يعني سيبعثك مقاماً محموداً، وهو الشفاعة؛ وقوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا (٨٤) ﴾ (النساء) وهو وعدٌ من الله بكفّهم، وعسى من الله تفيد التحقيق، وقد كفّهم الله تعالى فعلاً بهزيمتهم؛ وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ (١٢٩)﴾ (الأعراف)، وقد أهلكهم فعلاً - قوم فرعون؛ وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ (التوبة)، قال الطبراني: وعسى من الله واجب، ومعناه: سيتوب الله عليهم؛ وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا (٨٣)﴾ (يوسف)، وقد أتاه الله بهم فعلاً - يعقوب وابنه يوسف وأولاده؛ وقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ (٨)﴾ (الإسراء)، يعدهم بأن يرحمهم؛ وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ (الكهف)، وقد هداه فعلاً. وفي القرآن يتكرر ذلك أربع عشرة مرة، وفي كل مرة يكون المعنى إما أنه حدث فعلاً، أو أنه وعدٌ من الله بذلك.



١٠٥.﴿القرآن حبل الله﴾

في الحديث: «إن هذا القرآن هو حبل الله»، والحبل هو السبب الذى يوصل به إلى البغية والحاجة، وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا (١٠٣)﴾ (آل عمران): الاعتصام هو المنعة، وعن الآية قال ابن عباس وابن مسعود: حبل الله القرآن. وقالوا: حبل الله هو الجماعة والتمسُّك بها، وفي الشعر: إن الجماعة حبل الله فاعتصموا، والصحيح أن القرآن هو حبل الله...



١٠٦.﴿القرآن يدعو إلى الحوار بين الأديان﴾

القرآن كله حوارات، والحوار وسيلته لبلوغ الحق، والأصوب أن نقول: إن المحاجاة هي وسيلة القرآن، وأنه كتاب يقوم على الحجاج، وخير أدلتنا على ما نقول الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (آل عمران)، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وخاطبهم بذلك لأنهم لا يدعون إلى الله، فاليهود يقدّسون شعبهم ويدعون له، ويريدون أن تكون لهم الحكومة العالمية، لأنهم فى زعمهم صفوة خلق الله، ثم إنهم صدّقوا عزرا أو عزير، فيما ادّعى أنه التوراة، وفيه غيّر وحرّف ما شاء له ذلك؛

والنصارى عبدوا المسيح، وألّهوا القديسين، والكلمة السواء هى «**لا إله إلا الله**»، فمن ينكص عن ذلك فإنه لا يكون مسلماً لله، ويكون المسلمون هم فقط هؤلاء الذين يأخذون بالقرآن.



١٠٧. ﴿الفاتحة فى الإنجيل وفى القرآن﴾

لايوجد فى كل أسفار اليهود مثل **الفاتحة**، وأما عند النصارى فالقريب منها ما يذكُره متّى فى إنجيله فى الفصل السابع، ابتداءً من العبارة ٩ حتى العبارة ١٣، يقول المسيح: «أنتم فصلّوا هكذا: **أبانا الذى فى السموات ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، لكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزُنا كفافنا، اعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء إلينا. ولاتُدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير. آمين.**

فأنت ترى أن المسيح سمىّ هذه الكلمات **صلاة**، وفى الحديث القدسى عن الفاتحة: «**قَسَمتُ الصلاة بينى وبين عبدى**» فسمى الفاتحة **صلاة** أيضاً، وقوله فى الصلاة المسيحية: «**أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك**» تشبه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ فى الفاتحة. ثم تتكون الصلاة المسيحية بعد ذلك من آيتين تختصان به تعالى، **وأربع** آيات للعبد، فيكون المجموع ست آيات. **وفى الفاتحة**: عدد الآيات سبع، **ثلاث** منها لله، ثم الآية **الرابعة** بين الله والعبد، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات دعاء من العبد. **وحال المصلّى** فى الصلاة المسيحية هى **حال الرضا**، وبعد ذلك يكون طلبه الرزق والمغفرة، وأن لا يواجهه الله باختبار، وأن ينجّيه من الشرير، ومقامه فيها جميعاً مقام الفقير المتذلل المحتاج اللائذ. وفى الفاتحة: حال المُصلِّى **هو حال الحامد الشاكر المسبِّح**، والمقرّ بالعبودية لله والحاجة إلى معونته، ثم يسأله الهداية، وأن يُنزله منزله المُنعَم عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

والمفاضلة بين **فاتحة أو صلاة النصارى، وبين فاتحة أو صلاة المسلمين**: إنما هو بالمعانى وكثرتها، وتتضمن فاتحة المسلمين ـ حتى بالنسبة لبقية سور القرآن ـ من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل إن الفاتحة وحدها تشتمل على جميع القرآن، وبالنسبة لفاتحة النصارى فإنها لا تتضمن كل معانى النصرانية.

وكلمات فاتحة النصارى، بما فيها ما يشبه البسملة وآمين: ٣٨ كلمة؛ **وفاتحة المسلمين**، بالبسملة وآمين: ٣٠ كلمة، يعنى وإن كانت فاتحة المسلمين أقل كلمات فإنها أكثر فى المعانى، وتتضمن علوم القرآن وليست كذلك فاتحة النصارى، ووصفُها بأنها **السبع**

المثاني لغةٌ اصطلاحيةٌ تدل على حضارة بلاغية أوسع، وثقافة فكرية أعرض. وقسمها بين العبد وربّه، والوعى بهذه القسمة من النبىّ ﷺ والشُرّاح، فيه إدراك كبير من أهل الإسلام لما يمكن أن تُصنّف إليه الفاتحة. وفي الحديث عن الله تعالى يجيء: «قسمتُ **الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله ربّ العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال العبد: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي؛ وإذا قال العبد: مالك يوم الدين، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين، قال الله تعالى: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**».

فهذه الحِرَفية في التكوين والتقسيم والتصنيف في الفاتحة عند المسلمين، تجعل لها عقلانية، وتقيم منها بناءً معمارياً له سمتٌ وأصولٌ في التكوين، وله غاية يترسّمها المعمار، وهى أشياء تُفتقَد في فاتحة النصارى، ومن أجل ذلك وصف الرسول ﷺ الفاتحة بأنها: **أعظم سورة في القرآن، وأنها القرآن الذى آتاه الله**، وأُطلق عليها اسم **الفاتحة**، لأنها أولاً **فاتحة الكتاب**، وتفتحه لفظاً وخطاً، وتُفتح بها الصلوات قراءةً؛ وهى **أم الكتاب**، فيبتدأ بها كتابة المصحف؛ **وأم القرآن** لأنها أوله وفيها كل علومه؛ وهى **المثاني** لأن المُصلىّ يثنّى بها في كل ركعة، أو لأنها استثنيت لأمة الإسلام فلم يكن مثلها عند اليهود ولا النصارى. ثم إن لها معزّة خاصة عند المسلمين ليست لفاتحة النصارى عند النصارى، فهى يُستشفى بها للمريض، وتستخدم كرقية يرقى بها، وهى مدخل القرآن الذى يؤسسه، وأساسها «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وهى الواقية فلا تختزل، والكافية فتكفى عن سواها. وليس في تسميتها **بالمثاني وأم الكتاب** ما يمنع من تسمية سور غيرها بذلك، وفي القرآن: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴿٢٣﴾﴾** (الزمر) فأطلق الله على القرآن أنه مثاني، يعنى تُثّنى فيه الأخبار، وأطلق على السور **السبع الطوال** أنها مثاني، لأن ما بها من فرائض وقصص يُثنّى. والفاتحة قال بها القرآن: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾** (الحجر)، وكما سبق هى سبع آيات، وهى مثاني لأن الله قسمها مناصفة بينه وبين عبده، وهما اثنان. وبديهى أن تكون الفاتحة من القرآن، إلا أن بعض المتنطّعين ذكروا أنها ليست منه، وشأنها في ذلك شأن المعوذتين ؟!! .. وكان نزول الفاتحة في مكة، وقيل هى مدنية، وقيل: نصفها مكية ونصفها مدنية، والثابت أنها مكية لأنها من سورة الحجر، والحجر مكية بالإجماع، وكانت مناسبتها فرض الصلاة، والصلاة فُرضت بمكة، والفاتحة بدونها لا تكون صلاة. وكان نزولها بعد **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴿١﴾﴾** (العلق)، و**﴿يَا أَيُّهَا**

الْمُدَّثِّرُ ①﴾ (المدثر). وقراءة الفاتحة تجب فى كل ركعة، وإن لم يقرأ المصلى بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن باعتبار عدد الآيات والحروف، ومن تركها ناسياً يعيد الصلاة أو يسجد سجدتى السهو، وإذا قرأ بها مرة واحدة فى الصلاة أجزأه. والإمام يحمل عن المأموم قراءتها، ويقرأها لو أدركه قائماً، ولا يدع قراءتها خلف الإمام فى صلاة السرّ، وفى قول أن الصلاة لا تجوز إلا إذا قُرئ بالفاتحة فى كل ركعة، إماماً كان المصلى أو مأموماً، وفى قول أن الإمام إذا أسرّ يقرأ المأموم، وإذا جهر لا يقرأ. وفي الحديث : « **من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج**» أى باطلة . وفيه أيضاً : « **فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جهرتم إلا بأم القرآن**» .

وسميت **الأنفال** من المثانى لأنها تتلو الطوال فى القدر، أو أن الطوال تعنى التى تزيد آياتها على المفصّل وتنقص عن المئين، **والمئون** هى السور التى تزيد كل واحدة عن مائة آية.

وسُنّة القراءة أن يقرأ المصلى فى الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة، وفى الآخرين بفاتحة الكتاب. وقيل يجزئه أن يقرأ بغيرها. وقيل لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن، وحدُّه آية أو آيتان، ومَن تعذّر عليه أن يتعلم الفاتحة أو شيئاً من القرآن، ولا علق منه بشيئ، يذكر الله فى موضع القراءة ويدعو لنفسه، وإن عجز عن ذلك أيضاً، فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده، والإمام يحمل عنه ذلك، ويترجم لمن لا يعرف العربية، وتجزئ الصلاة بغيرها مع العلم بها إذا كان المأموم غير عربى، والله أعلم.

وكما ترون، فإنه لامشابهة بين الفاتحة عند المسلمين، وبين ما يُظن أنه فاتحة عند النصارى، ففاتحة المسلمين علمٌ قائم بذاته، وله علماؤه المختصون.

●●●

١٠٨.﴿الحمد لله﴾

لايرد فى التوراة والأناجيل ، أى حمد لله ، ولكنه يرد فى مزامير داود كما فى المزمور ٨ / ١٧ ،وليس صحيحاً إذن أن القرآن أخذ «الحمد لله» كاصطلاح، ضمن ما أخذ من كُتب اليهود والنصارى، كما يدّعى المستشرقون. وفى القرآن ترد الحمد لله ٣٨ مرة ، وفى الحديث : «**إذا قال العبد الحمد لله ، قال الله تعالى : صدق عبدى الحمد لى**» رواه أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى، وفيه برواية مسلم عن أنس : «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يُشربه الشربة فيحمده عليها**»، وما من نعمة إلا والحمد لله أفضل

منها، وفي الحديث برواية٢ ابن ماجة : «**ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ**». والدنيا كلها لو أخذها العبد فإنها فانية، والحمد لله باقية، وهي من **الباقيات الصالحات**، والدنيا والكلمة من العبد كلاهما من الله ، والله قد أعطى الدنيا يغنينا بها، وأعطى الكلمة يشرّفنا بها، وفي الحديث «**ياربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك**»، وفيه :«**الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ ما بين السماء والأرض**» أخرجه مسلم.

وسأل سائل : أيهما أفضل : قول العبد «**الحمد لله ربّ العالمين**» ، أو قوله «**لا إله إلا الله**»؟ قيل الحمد لله أفضل لأن التوحيد ضمنها، فهي توحيد وحمد، و«**لا إله إلا الله**» توحيد فقط. وقال النبيّ ﷺ : «**أفضل ما قلت أنا والنبيّون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»، ومن قال بذلك ذكر أن لا إله إلا الله تدفع الكفر والشرك، وعليها يقاتل الخلق، وفي الحديث :«**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**» أخرجه البخارى ومسلم.

والحمد نقيض **الذم**، ومعناه كامل الثناء، والألف واللام لاستطراق الجنس من المحامد، فالله مستحقٌ للحمد بأجمعه، وهو لذلك له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

ومن **الحمد**: **الحميد، والمحمود، والتحميد**؛ والحمد أعمّ من **الشكر**، ومحمّد من كثرت محامده، وبذلك سمي رسول الله ﷺ .

والحمد لله كلمة كُلٌ شاكر، والشكر لذلك أعمّ من الحمد، فالشكر باللسان وبالجوارح والقلب، والحمد باللسان خاصة، وقيل بل الحمد أعمّ من الشكر، ويوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع **الحمد**. والحمد يقال للممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، **والشكر** يستلزم الإحسان أولاً، وفي الآيات: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (٢٨)﴾ (المؤمنون)، و﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ** (٣٩)﴾ (إبراهيم) ، و﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** (٣٤)﴾ (فاطر)، و﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا** (١١١)﴾ (الإسراء)، يُذكر الحمد بمعنى الرضا، فلما بلوا الله حمدوه، أي رضوا به. ومن حَمَد الله بصفاته كما وصف نفسه فقد حَمَد. والحمد **حاء وميم ودال**، **والحاء** من الوحدانية، **والميم** من المُلك، **والدال** من الديمومة، فمن عرفه تعالى بهذه الصفات ، فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد، **أنك عرفت الله**. ويفيد الحمد لله أنك تعرف أولاً من أعطاك النعمة، وأنك ثانياً قد رضيت بها، وأنك بالامتنان له والإقرار بالفضل له لن تعصى له أمراً. فأين مثل هذه الفلسفة للحمد للّه في كتُب اليهود والنصارى؟

والحمد مدح، والمدح مكروه إلا لله، فقد افتتح كتابه بالحمد ولم يأذن بذلك لغيره فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم)، وقال نبيّه: «احثوا فى وجوه المدّاحين التراب» أخرجه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جعل الحمد له من نفسه قبل أن يحمده أحد من العالمين، فقد كان محموداً فى الأزل بلا علّة، وأما أن يحمده خلقه فإنما بالعلل. ولمّا علم سبحانه عجز الناس عن حمده، حمد نفسه بنفسه ولنفسه، فاستفرغ طوْق الناس لعجزهم عن حمده. والنبىّ ﷺ قد أظهر العجز عن حمده فقال: «لا أحصى ثناء عليك» أخرجه أحمد. فلما علم سبحانه كثرة نعمه على عباده، وعجزهم عن حمده، حمد نفسه عنهم فأسقط عنهم ثقل المِنّه. فأين هذه الفلسفة للحمد للّه عند اليهود والنصارى؟

والحمد لله بضم الدال، وبعضهم قال بنصبها، ومن قال بالنصب كما لو كان هناك فعل مضمر، وأما بالرفع فمبتدأ وخبر، وفائدة الخبر أنك تخبر بأنك والخلق جميعهم تحمدون الله، ومن ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله، والراجح أنه تعالى مدح نفسه لنفسه ليعلّم عباده، فالمعنى: قولوا الحمد لله. فالحمد للّه أن كان كتابنا القرآن لامثيل له فى أىّ من الملل، ويبطل الزعم أن القرآن يأخذ من التوراة والأناجيل!



١٠٩. ﴿الاستعاذة من فرائد القرآن﴾

فى القرآن ترد مادة العوذ سبع عشرة مرة، منها ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ (الدخان)، و﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ (مريم)، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ (المؤمنون)، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ (الفلق)، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ (الناس)، و ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ (الجن)، ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (آل عمران)، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ (الاعراف)، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ (النحل)، و ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف). فهذه صيغ الاستعاذة أو العياذة بالله كما فى القرآن، والمعنى فيها جميعاً اللجوء إلى الله، ولا شىء من ذلك البتة فى اليهودية ولا فى النصرانية، وليس صحيحاً ما قاله المستشرقون أن القرآن أخذ الاستعاذة من هاتين الديانتين. والعوذة، والمعاذاة، والتعويذ، كلها بمعنى، وأكثر الاستعاذة من الشيطان، نقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»،

أي استجير بجناب الله مِن الشيطان الرجيم، مِن شرّه ، ومن شرّ كل ذى شر. **والعياذة**: لدفع الشر؛ ونقيضها **اللياذة**: لطلب الخير. وللعياذة أصل علمى، وتعنى الانتصار على وسوسة النفس بالتخاذل والخور والاستكانة والخضوع ، والشحن النفسى بالقوة والمقاومة حفزاً للقوى المعنوية والعقلية. والتعوذ قبل قراءة القرآن وفى الصلاة، من الأصول الإسلامية، ولا شيء من ذلك فى **اليهودية** ولا فى **النصرانية**. وفى صلاة المسلمين يكون التعوذ فى **الركعة الأولى**، ولم ير جماعةٌ التعوذ فى الصلاة المفروضة، ورأوها فى **قيام رمضان**. وقالوا نهى الرسول ﷺ عن التعوذ بأية صيغة بخلاف **«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»**، وتعوذ مع ذلك فقال ثلاثاً : **«أعوذ بالله من الشيطان، من نفخه ونفثه وهمزه»**؛ وقال : **«أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم»**. وقال بعضهم : **«أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد»** . والشيطان المتعوذ منه هو ما يشغل عن الخير والحق، ولكل واحد شغله الشاغل عن ذلك، وقد تتسلط النفس فتشغل صاحبها عن ربّه، ولو بشهود طاعته، واستجلاء عبادة، أو ملاحظة حال، فذلك هو الشيطان. والاستعاذة على الحقيقة تكون بالله من الله، كما قال ﷺ : **«أعوذ بك منك»**، وقال : **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك»** أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والنسائى والترمذى، أراد أن نعبده بالاستعاذة به من الشرور وأخصّها **النفس الأمّارة بالسوء**، وأن يحكمنا الهوى.



١١٠. ﴿هل البسملة مأخوذة من التوراة والانجيل ؟!﴾

البسملة : هى قول «بسم الله الرحمن الرحيم»، ولا يوجد من ذلك شيء لا فى أسفار **التوراة** ولا فى **الأناجيل** ورسائل **الأنبياء**، غير أن **المستشرقين** ومنهم **تولدكه** يزعمون أنها قد وردت بصيغة مشابهة فى الإنجيل، والعجيب أنهم يوردون عبارات من أسفار العهد القديم والجديد بعيدة كل البعد فى معناها ومبناها عن البسملة العربية ، وكان الأحرى بهم أن يستشهدوا بعبارات وردت فى هذه الأسفار فى مواضع أخرى لم يتطرقوا إليها ، كما فى **المزمور الثالث والخمسين**، العبارة ٣ : **«اللهم باسمك خلّصنى»**، **والمزمور الثاني والستين** ، العبارة : **«وباسمك ارفع كفى»** ومع ذلك ما أبعد هاتين العبارتين عن **«بسم الله الرحمن الرحيم»** ، وأيضاً فإنه فى الصلاة التى شرعها المسيح للنصارى فى **إنجيل متّى**، الفصل السابع ، العبارة ٩ : **«أبانا الذى فى السماء ليتقدّس اسمك»** تبدو كما لو كانت قريبة الشبه من **«بسم الله الرحمن الرحيم»**، إلا أنها مع ذلك بعيدة كل البعد فى المبنى والمعنى عن العبارة السالفة. وكذلك زعم المستشرق **نولدكه** أن العبارة السابعة عشرة من الفصل الرابع

من رسالة القديس بولس إلى أهل كولسي، والتي يقول فيها : «فليكن الكل باسم الربّ يسوع المسيح، شاكرين به لله الآب »، تشبه «بسم الله الرحمن الرحيم»، مع أن العبارتين تختلفان تماماً من ناحية الاستخدام، فضلاً عن تباينهما في الصياغة.

والنتيجة: أن «بسم الله الرحمن الرحيم» عبارة قرآنية وعربية صميمة وليس لها مثيل أو ضريب فيما سبق الإسلام من ديانات أو ملل أو مذاهب. ومع ذلك ينسب القرآن إلى سليمان أنه أول من كتب أو استعمل «بسم الله الرحمن الرحيم»، إلا أنه يرد عن سليمان في سفر الملوك الأول، وفي صموئيل الثاني، وفي أخبار الأيام الأول والثاني عبارات فيها التبرُّك باسم الله، وليس فيها أي شيء عن «بسم الله الرحمن الرحيم»، والعبارة على ذلك قرآنية محضنه. وقبل أن تنزل البسملة في القرآن كان النبيّ ﷺ يستفتح بقول : «باسمك اللهمّ»، فلما نزلت ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴿١١٠﴾﴾ (الإسراء) كتب «بسم الله الرحمن»، ثم نزلت ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ (النمل) فكتبها.

واصطلاح «بسملة»، مثله مثل اصطلاح حوقلة - أي - لا حول ولا قوة إلا بالله، وسبحلة أي سبحان الله، وحمدله أي الحمد لله، وحيصلة أي حيّ على الصلاة، وجعفلة أي جُعلتُ فداك، وطبقلة أي أطال الله بقاءك، ودمعزة أي أدام الله عزّك، وحيفلة أي حيّ على الفلاح.

وقال بعضهم: إن البسملة آية من كل سورة إلا التوبة، وآخرون ذهبوا إلى أنها ليست من الفاتحة أو من غيرها، إلا في سورة النمل، الآية ٣٠ ؛ والنبيّ ﷺ قرنها بالحمد لله ربّ العالمين، وقال إذا قرأتم ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ ، فاقرءوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقال إنها إحدى آيات فاتحة الكتاب. وقيل: يجوز أيضاً عدم الاستفتاح بها وهذا غير صحيح، وبعضهم يقرأها في النوافل دون المفروضة، أو يقرأها سراً لا جهراً، والمسألة في كل ذلك اجتهادية لا قطعية، والأصل في الاختلاف أن المشركين كانوا قد استمعوا للصلاة من النبيّ ﷺ بالمسجد، فقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا : محمد يذكر رحمان اليمامة - يعنون مسليمة الكذاب، فأمر النبيّ ﷺ بعدها أن يُخافت المسلمون بسم الله الرحمن الرحيم ، ونزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ (الإسراء)، فمنذ ذلك اليوم صار هذا هو المتبع، ونسى الناس السبب أو المناسبة، ولم يذكروا إلا ما كان من المسلمين الأوائل، ومثل ذلك حدث في الرمل في الطواف، فقد زالت العلّة وبقى الرمل، وكذلك بحال البسملة، ولذا نرى قراءتها، وأنه ما من شيء يمنع ذلك، وإنما هي زيادة في البركة.

والبسملة يجوز كتابتها في أوائل الرسائل والكتب، ورفض البعض ذلك في الشعر، وآخرون رسموا التسمية في أول كتب الشعر. ثم إن المسلمين مندوبون للبسملة في أول كل فعل، كالأكل والشرب، والنحر، والجماع، والطهارة، وركوب المراكب والدواب إلخ. قال تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** (١١٨)﴾ (الأنعام)، وقال: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** (٤١)﴾ (هود)، وفي الحديث: «**اغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله، وخمّر إناءك واذكر اسم الله، وأوْكِ سقاءك واذكر اسم الله**»، وفيه: «**إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله قال بسم الله**»، وفيه: «**يا غلام سَمِّ وكل بيمينك**»، وفيه: «**فليذبح باسم الله**»، وفي الأوجاع قال: «**وقل بسم الله ثلاثاً**...» إلخ.

وبسم الله فيها ردٌ على **القدرية** الذين يقولون إن الأفعال مقدورة علينا، ومعنى بسم الله، بتوفيقه وبركته. وتكتب «بسم **الله**» بدون ألف، استغناءً بالباء عن الألف، لكثرة ترديد البسملة قبل الأقوال والأفعال، بخلاف الآية: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** (١)﴾ (العلق)، فإن الألف ثابتة لم تحذف، لأننا قليلاً ما نستخدم هذه الآية.

وفي تشكيل «**اسم**» بعد الباء، فيه الكسرة والسكون. وأصل «**الاسم**» اشتقاق من **السمو**، لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره، والاسم إطلاقاً سمي كذلك لأنه يعلو بقوته على قسمي الكلام: الحرف والفعل، والاسم أقوى منهما. وقيل الاسم من **السمة**، وحجة من قال بالاشتقاق من العلو، ان اسمه تعالى لم يزل موصوفاً بالعلو والسمو، قبل الخلق، وبعد وجودهم، وعند فنائهم؛ ومن قال إنه من **السمة**، لأنه تعالى كان في الأزل قبل الخلق والوجود، فكان بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له الأسماء والصفات. والأولون دلّوا بالاسم على **الذات**، فالاسم هو **المسمى**، والآخرون نفوا الصفات باعتبارها مدلولات للتسميات إلا الذات، فالاسم غير المسمى، فمن أثبت التسميات أثبت الصفات باعتبارها أوصاف الذات. وقولنا «بسم **الله**» يعني بسم **الإله**، وحُذفت الهمزة وأُدغمت اللام الأولى في الثانية فصارتا «لاماً» مشدّدة: «**الله**». وتسميته تعالى «**الله**» هو اسمه المختص به باعتباره الموجود الحق الجامع للصفات الإلهية، والمنعوت بنعوت الربوبية، والمتفرّد بالوجود الحقيقي، ومعناه الذي يستحق أن يُعبَد، مشتق من ألَه الرجل إذا تعبّد، وتألّه إذا تنسّك، فالله تعني المقصود بالعبادة، وقولنا **لا إله إلا الله**، يعني لا معبود إلا هو، و«**إلا**» لا تفيد الاستثناء وإنما معناها «**غير**». فإذا كانت الله من أله، فأصله أله «له»، وأصل «له» "**الهاء**" التي تفيد الغائب، باعتباره تعالى الموجود بالفطرة في العقول، ويشار إليه بالهاء، يعني هو صيغة الغائب الحاضر، ثم زيدت لام الملك على الهاء

فصارت «له»، أي أنه الغائب مالك الملك، ثم زيدت الألف واللام تعظيماً وتفخيماً فصارت «الله».

وقيل بل الله اسم أصلى، والألف واللام فيه ليستا زائدتين، والدليل على أنهما من بنية الكلمة، جواز دخول حرف النداء على الله فى قولنا «يا الله»، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام المعرّفتين، فلا نقول يا الرحمن، أو يا الرحيم.

وفى قوله «بسم الله الرحمن الرحيم»: أن الرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة، فيقال الله رحمن بعبادة ورحيم بعباده، ولكن العرب تعجبت من اسم الرحمن فى الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴿٦٠﴾﴾ (الفرقان)، وفى الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴿٣٠﴾﴾ (الرعد)، وقد جعل ذلك بعض المفسرين ممن يأخذون بالإسرائيليات، يذهبون إلى القول بأن الرحمن اسم عبراني وهذا سخف وباطل!! وفى التفسير: أن الرحمن مبالغة للرحيم، والرحمن خاص بالله تعالى، فلا يُثنّى ولا يجمع كما فى الرحيم؛ أو أن الرحمن والرحيم قد جُمع بينهما للتوكيد من باب التفضّل بعد التفضّل، والإنعام بعد الإنعام، أو أن الرحمن خاص الاسم، عام الفعل، والرحيم عام الاسم، خاص الفعل؛ أو أن الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ويختص به الله، والرحيم من جهة المؤمنين؛ أو أن الاسمين رفيقان، أحدهما أرفق من الآخر. والجمهور على أن الرحمن هو اسم الله الأعظم، والرحيم صفة مطلقة للمخلوقين.

وفى رواية موضوعة عن عثمان فى تفسير النبىّ ﷺ للآية: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ذهب إلى تفسيرٍ قلّده عليه الصوفية من بعد، قال: «أما الباء بهاء الله ورَوْحه ونضرته، وأما السين فسناء الله؛ وأما الميم فمُلك الله؛ وأما الله فلا إله غيره؛ وأما الرحمن فالعاطف على البرّ والفاجر من خَلْقه؛ وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة».

وعن كعب الأحبار - وربما هو صاحب الحديث السابق أيضاً - قال: الباء بهاؤه، والسين سناؤه، فلا شيء أعلى منه؛ والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعاذّه.

وقيل: إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه، فالباء مفتاح اسمه بصير؛ والسين مفتاح اسمه سميع؛ والميم مفتاح اسمه مليك، والألف مفتاح اسمه الله؛ واللام مفتاح اسمه لطيف؛ والهاء مفتاح اسمه هادى؛ والراء مفتاح اسمه رزّاق؛ والحاء مفتاح اسمه حليم؛ والنون مفتاح اسمه نور؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شىء.

فكما ترى أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: اصطلاح قرآنى أصيل، له فلسفته وأصوله، ومقاصده وغاياته، ولم ينقل اعتباطاً عن ديانة أخرى، ولكنه الحسد، وكما يقول النبىّ ﷺ: «إن اليهود والنصارى يحسدوننا على «بسم الله الرحمن الرحيم»».

●●●

١١١. ﴿قالوا: بسم الله سقطت من أول سورة براءة﴾

ترد سورة براءة في مصحف عثمان بدون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وقيل لأنهم لما كتبوا المصاحف زمن عثمان اختلفوا في سورتي الأنفال وبراءة ـ هل هما سورة واحدة أو سورتان ؟ فالذين رأوا أنهما سورة واحدة لم يجعلوا ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في أول سورة براءة، والذين قالوا إنهما سورتان شرطوا أن تبدأ السورة بالبسملة كغيرها.

ولما سأل ابن عباس علياً في ذلك قال : لأن البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان!! ـ **وأقول : وهل ذلك مبرر أن تُحذَف البسملة من السورة ؟**

وما أكثر السور التي يأتي فيها ذكر القتال، ومع ذلك تبدأ بالبسملة ؟ **فقول عليّ لا يستقيم**. وقيل: إن براءة خلت من البسملة لأن الذين كتبوا القرآن لم يكونوا متأكدين : هل الأنفال وبراءة سورتان أم سورة ؟ ـ **وأقول : وماذا في البسملة يمنع أن توضع في أول السورة طالما جعلت براءة سورة والأنفال سورة، فنصحح بذلك قصوراً في عمل كتبة القرآن ؟**

وقيل : إن العرب في الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه، كتبوا لهم كتاباً ولم يكتبوا فيه البسملة، فلما نزلت براءة بنقض العهد للكفّار، قرأها عليهم عليّ، ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم ـ **وأقول : فنحن غير ملزمين باتباع عليّ في ذلك، أو تقليد العرب في الجاهلية، وهناك عهود أخرى نقضت ولم تحذف البسملة من سورها، فلماذا نفعل الغلط كغيرنا؟**

وقيل : الأنفال من أوائل ما نزل، وبراءة من آخر ما نزل، وقصتاهما متشابهتان، ومات النبيّ ﷺ ولم يبين للمسلمين أن براءة من الأنفال، فظنوا أنها منها، ثم إن عثمان فرّق بينهما ولم يكتب البسملة لذلك ـ **وأقول : طالما لم يبين، وهذه السورة من زمن، والسورة الأخرى من زمن ثان، فلا صلة بينهما، فلماذا تحكيم الظن، والمنطق وواقع الحال يقضيان بغير ذلك ؟**

اعتقد أنه يجب التنويه والتصحيح.



١١٢. ﴿تعداد أسماء السور﴾

لبعض سور القرآن أكثر من اسم، وبعضها له اسمان أو أكثر، كسورة البقرة : يقال لها أيضاً **فسطاط القرآن** للمشابهة بينها وبين الفسطاط في عظمته وبهائه؛ **والنحل** : يقال لها سورة **النّعم**، لأنه عدّد فيها النّعَم على عباده؛ وسورة الشورى يقال لها **حم عسق**؛ وسورة **الجاثية** يقال لها سورة **الشريعة**؛ وسورة **محمد** يقال لها سورة **القتال**. وهكذا.

وســـورة الفــاتحة، قيل: لها بضعة وعــشرون اسماً، أشهرها أم القــرآن، وأم الكتــاب، والسبع المثـانى، والحمد، والوافيـة، والكافية، والشافـية. وهذه الاسمــاء الكثيرة لهـذه السورة بمناسبة ما تحتـويه من معان وموضوعات. غير أن كل سورة لها الاخــتصاص الذى سُميت وعُــرفت به، فسورة الـبقرة لقريـنة ذِكْر قصة البقرة فيها، وهى قصة عجـيبة استحقت أن تسمى السورة بها؛ وسورة النــساء سميت كذلك لكثـرة ما بها من أحكام النساء؛ وســورة الأنعـام لما ورد فيها من تفصيل عن الأنعـام لم يرد بغيرها من السور؛ وســورة ق سميت كذلك لتكرار كلمــات بها بلفظ القــاف؛ وكذلـك سورة ن؛ وفى السور التي افــتتحت بالحروف المُقطّعة لوحظ أن هذه الحروف أو ما يماثلها هى أكثر ما ترد فى السورة.

•••

١١٣. ﴿السؤال﴾ من علوم القرآن

السـؤال استخــبار، من سـأل أى استخبــر واستعلم؛ ومنه المسـألة وهى القضــية أو الدعوى، والجـمع المســائل وهى من أجزاء العلوم الثلاثة: الموضــوعات، والمبادئ، ثم المسائل. ومنه المسئولية وهي التبعة على المسئول؛ ومنه المساءلة. وباب السؤال في القرآن من أوسع الأبواب وتشمله ٢٩ آية، وكلهـا آيات تطرح إجابات، فليس القرآن كتـاباً يثير أسئلة ويتركها معلّقة بلا ردود، وليس كــتاب أوامر ونواه، الله تعالى والنبيّ ﷺ فيهما، هما الأمران الناهيان اللذان لا رادّ لأمرهما ونهيهما، وإنما النبىّ ﷺ مُبلّغٌ عن ربهّ، وهو تعالى يخاطب العقول والألباب والأفهام. والأسئلة فى القرآن لذلك أنواع، فمنها الفلسـفى الذى يدعو للتفكيـر وإعمال الأذهان، كأن يكون السؤال تـنبيهٌ إلى ذات الله، وبرهانٌ على وجوده ووحدانـيته، كسؤال الـيهود: **﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾** (النساء) وسؤالهم يُدحض أنهم من العارفين كما يدّعون، فالعارفون لا يسألون سؤالاً كهذا فيظهر أنهم من الجاهلين، والحكيم ينأى بنفســه أن يَسأل فيما لا يفهم، كقوله تعــالى: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾** (هود). وقد يكون السؤال للعلم به تعالى، عن طريق الإلمام بصفاته كصفة القُرب، كقوله: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾** (البقرة)، والقُرب هنا هو القُرب المعنوى والقُرب المكانى أيضاً، وهو تعــالى قريبٌ بعلمه، يعلم السّــر وأخفى، وقريبٌ بفـضله ونعمه؛ كـقوله فى صفة الخلق: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾** (العنكبوت)، وقوله: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾** (العنكبوت)، وقد جاء السؤال

للعاقلين وليس للغافلين، **ولأهل الحجى والبرهان** وليس لأهل التباجح والبطلان، **فهل للكون من خالق سوى الله ؟** وكما أنه الواحد في ملكه فيكون الواحد في عبادته، **فكيف يكون أحد ثلاثة كما يقول النصارى ؟ وكيف يكون هو هذا الربّ الحقود الغيور الناقم الظالم الذي يتعبّده اليهود**، ولو كان كذلك لاختل الكون واضطرب، ولما ارتفعت السماء وانبسطت الأرض. وطريقة القرآن فى **السؤال والجواب**، هى الطريقة المثُلى للعلم والمعرفة والتعليم، والنبىّ خير معلّم ، والقرآن خير الكتب للتعليم، وكان **السوفسطائية** يعلّمون فى اليونان بالأجر ، والعلم والمعرفة سلعتان بمنطق العصر، وبلغة الاقتصاد والسوق، وكان أحبار اليهود وقساوسة النصارى يتقاضون **الأجور** فى مجتمع مكة والمدينة، ولكن النبىّ ﷺ بُعث **معلماً بلا أجر**، أو أن أجره عند من بعثه، وسؤال الأجر معنى آخر للسؤال، كقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٧٢)﴾ (يونس) وهى إشارة إلى **أن الداعى إلى الله لا ينبغى أن يتقاضى أجراً من مال أو دنيا لقاء دعوته وتعليمه**، والدعوة إلى الله عبادة وقربى إليه تعالى، وتعليم القرآن بهذه المقولة من نوع التأديب لهم، فمن الأسئلة ما لاينبغى أن يُوجّه ، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** (١٠١)﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿ **فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٤٦)﴾ (هود)، وكأنه تعالى **ينهى عن السؤال**، مع أن السؤال عمدة التعليم فى **الإسلام**، وهو أساس الحوار الذى هو منهج التعليم، إلا أن الأسئلة قد تكون من باب الإعنات والعناد، فتلك هى المنهىّ عنها ، وقد تكون للعلم والاستزادة منه، ولترسيخ الإيمان ، ولاستجلاب اليقين، وقطع دابر الشك، وإنهاء العلم بالظن، وهذه هى الأسئلة التى يجب أن يسألها المؤمنون، وقد سألوا النبىّ ﷺ يطلبون العلم، وسأله المكذّبون مكابرةً، وبعض ما قيل من أسئلة جاء بصيغة: ﴿**يَسْأَلُكَ**﴾، يقول ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ** (١٥٣)﴾ (النساء)، و﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ** (٦٣)﴾ (الأحزاب)، أو بصيغة ﴿**يَسْأَلُونَكَ**(١٨٩)﴾(البقرة) وهى الصيغة الأغلب والأعم، وتأتى **اثنتى** عشرة مرة، وتوهم بالعدد الكثير للسائلين وتعظيم أسئلتهم، وبعض السائلين كانوا أفراداً، كسؤال عمرو بن الجموح، **أو** عبدالله بن رواحة، عن النفقة : كم تبلغ، وإلى مَن تُصرَف؟ فكان الجواب على قدر السؤال، فعدّد مصارفها، قال: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**(٢١٩)﴾(البقرة)، وقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (٢١٥) ﴾ (البقرة)، وقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ**

فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾ (البقرة) ، وبعض السائلين كانوا اثنين كسؤال أسيد بن حُضير وعبّاد بن بشير، قال: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾** (البقرة)، وسؤال عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل، قال: **﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾** (المائدة). وبعض السائلين كانوا جماعة ، وقد يكونون من غير المسلمين، كسؤال المشركين من قريش،قال: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾** (البقرة)، فلما قُتل لهم عمرو بن الحضرمى، وكان ذلك فى أواخر شهر رجب ـ وهو من الأشهر الحُرم، سألوا النبىّ ﷺ : أتجيزنّ القتال فى الأشهر الحُرم؟ فسقط فى أيدى المسلمين، وتفاءل اليهود أن تكون فتنة بين العرب جميعاً ومحمد ﷺ ، وقالوا : واقدٌ وَقَدت الحرب، وعمروٌ عمرت الحرب، والحضرمى حضرت الحرب؛ فنزلت الآية عليهم أن الأكبر من القتال فى الشهر الحرام، أن تصدّوا المسلمين عن المسجد الحرام أن يصلّوا فيه، ويحجّوا إليه، ويعتمروا، وأن تعذّبوهم وتسجنوهم وتحبسوهم أن يهاجروا، وأن تكفروا بالله، وأن تُخرجوا المسلمين من ديارهم وعن أموالهم وتفتنوهم فى دينهم .

وبعض السائلين للنبىّ ﷺ كانوا من اليهود، قال تعالى : **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ (١٨٩)﴾** (البقرة)، وكانوا بهذا السؤال يعترضون على النبىّ ﷺ ويتحدّونه أن يعرف الجواب، والجواب عند الله تعالى فهو خالق الأهلة، والله هو المعلّم للرسول وللمؤمنين، والآية فيها الجواب على سؤالهم ، وفيها التعليم للمسلمين بأن الأهلة ـ هى الشهور أيضاً، لأن الأيدى تشهر بالإشارة إلى الأهلة لدى رؤيتها، وهى مواقيت للحج وللناس تزول بها إشكالاتهم فى الآجال والمعاملات، وعند الصوم والفطر، وخلال الحمل، وفى غير ذلك مما له صلة بمصالحهم، وبها يُعلم عدد السنين والحساب. وبمثل هذا النوع من الأسئلة أرغى اليهود والمشركون وأزبدوا، واليهود بصفة خاصة ظهر منطقهم جلياً فى مسألة الساعة، وكتابهم يخلو من أى شىء عنها، ولذلك كان إصرارهم وإلحاحهم أن

يسألوا ويكرروا السؤال : متى هذه الساعة ؟قال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (١٨٧)**﴾ (الأعراف) فكان سؤالهم عنها عظيماً كسؤالهم أن يروا الله جهرة، فاستوجب الأمر أن يكون الجواب عظيماً، قال: ﴿**عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي**﴾، فلما سألوا نفس السؤال، كان سؤالهم هذه المرة استهزاءً، فكان الجواب عليه استهزاءً مثله، كقوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥)**﴾ (النازعات)، فقوله ﴿**فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا**﴾ كأنه تعالى يسأل النبيّ ﷺ : في أي شيء أنت يا محمد من ذكر الساعة والسؤال عنها ؟ وأين أنت من الساعة، وأين هم منها ؟ وكأنهم لمّا سألوه، سأل بدوره ربّه، فأنكر عليه ما ليس له أن يسأل؛ أو كأنه أنكر عليهم أن يسألوه هذا السؤال وليس هو ممن يعلمه، **والعلم بالساعة** علمٌ بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، فإن لم يعلم محمد عن الساعة فليس بالجاهل، وإنما الجاهل من قصر علمه عن المعلوم لغيره، والأنبياء دورهم في الرسالة هو النذارة لمن يخافون الساعة، ولذلك فهم يتّبعون الذكر ويخشون الله بالغيب، واليهود والمشركون سواء، فلا هم يذّكرون، ولا هم يخشون الله والآخرة، ولذلك لا يجدى معهم أن يكون للسؤال جواب، فلم يقل في الجواب «**قل**» كغيره ضمن باب «**يسئلونك**»، واكتفى بالتبكيت والتوبيخ . ويُعَدّ باب «**يسئلونك**» من أبواب السؤال الهامة، ويحفل بالتعليم، وفيه يعلمنا عن الغنائم أو الأنفال وغيرها، كقوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ (١)**﴾ (الأنفال)، ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ (٨٥)** ﴾ (الإسراء)، وعن تاريخ بعض الشخصيات: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ (٨٣)**﴾ (الكهف) ، وعن تكوينات الطبيعة في الآخرة: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)**﴾ (طه)، وبعض ما نتعلمه من الغيب هو من أبواب التعلّم بالسؤال، وبعضه من الفقه.

ومن أقوى الحجج في القرآن أن يكون دحض الفرية أو إسقاط الحجة، بإحالة صاحبها إلى شاهد يُسأل فيها فيشهد بتهافت ما يقال ، وصيغة ذلك «**اسأل**» ، و«**اسئلوا**» كقوله: ﴿**فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ (٩٤)**﴾ (يونس)، وقوله: ﴿**فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠١)**﴾ (الإسراء)، وقوله: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ (١٦٣)**﴾(الأعراف)، وقوله: ﴿**فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣)** ﴾ (الأنبياء)، وقوله: ﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ (٢١١)**﴾ (البقرة).

ومن الأمثال الجارية مفتتحةً بالسؤال، قوله: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)**﴾ (النحل)، وقوله: ﴿**سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)**﴾ (القلم)، والزعيم هو القائم بالحجة والدعوة . وفي مجال التبكيت والتوبيخ يأتي السؤال: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ**

قُتِلَتْ (٩) (التكوير)؛ومن ذلك النهى عن السؤال: **﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾** (البقرة)، وكأن المعنى: لا تُسأل عنهم لأنهم فى أسوأ حال:

ومن السؤال مبدأ المسئولية، وهو من المبادئ التعليمية التى يقوم عليها الإسلام، والإنسان فى القرآن مسئولٌ عمّا يقول **﴿لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾** (النحل)، وعمّا يفعل: **﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾**(النحل) ولا نسأل عن غيرنا فيما يخصّهم وحدهم: **﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾** (البقرة) وأما ما يخصّنا ويخصّ الغير فنحن فيه شركاء فى المسئولية: **﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾** (الزخرف). وكل إنسان كما هو مسئول عن ذاته، فهو كذلك مسئول عما آل إليه من أملاك الله: **﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾** (التكاثر)، لأنه المستخلّف عليها استخلافه على الأموال، وفيها حقٌّ لنفسه وللغير من السائلين والمحتاجين: **﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾** (الذاريات)، بل إننا لمسئولون عمّا نملك من أنفسنا: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾** (الإسراء). ومصارف نصاب السائلين تُعدّدها الآية: **﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ (١٧٧)﴾** (البقرة)، ومسئوليتنا تتجاوز الماديات إلى المعنويات: **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤)﴾** (الإسراء) ، وليس أقوى فى باب المسئولية من هذه الآية فى القرآن: **﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾** (الصافات). والله أيضاً مسئول: **﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦)﴾** (الفرقان)، ومسئوليته تعالى تجاه ذاته وليست تجاه عباده، وهى مسئولية وعَدْ وليست مسئولية مساءلة، ووعده تعالى هو الوعد الحق، فأمّا فعلّه وقوله، والقول فعل، فيصدق عليهما: **﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾** (الأنبياء)، فلا يسأله شخص عمّا خلق ولماذا خلق، وهو يسأل الخلق عن عملهم، ولا يؤاخذ على افعاله وهم يؤاخذون.

فهذا ما فهمنا ضمن باب السؤال من أبواب القرآن ، والحمد لله رب العالمين.

●●●

١١٤. ﴿ما أدراك﴾ و ﴿ما يدريك﴾ فى القرآن

كل ما فى القرآن من قوله تعالى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** فقد أدراه؛ وما كان من قوله: **﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾** فلم يُدره. وتتكرر **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** فى القرآن ١٣ مرة، وتتكرر **﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾** ثلاث مرات.

●●●

١١٥. ﴿ماكان﴾ تأتى على وجهين فى القرآن

تـأتـى «مـا كـان» مـرة على النفي ، كقـولـه: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴿٦٠﴾﴾ (النمل)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١٤٥﴾﴾ (آل عمران)، وتأتي مرة بمعنى النهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب)، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة).

•••

١١٦. ﴿كل شيء في القرآن ﴿قتل﴾ فهو لعن﴾

هذا قول ابن عباس ، ومنه قوله تعالى ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الذاريات) يعني لُعن الكذّابون المرتابون، يقصد بهم الذين ينكرون البعث؛ ومنه قوله : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ (المدثر)، يحكى عن الوليد بن المغيرة المخزومى، أنه فكر فى أمر النبىّ ﷺ والقرآن، وقدّر في نفسه الردّ عليهما، فملعون هو لعناً بعد لعن على ما فكر وقدّر ،كيفما كان تفكيره وتقديره؛ ومنه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ (البروج)، وأصحاب الأخدود هم يهود نجران، من أصحاب ذى نواس الذى أحرق نصارى نجران عندما رفضوا أن يتهوّدوا، وقوله: «فقُتلوا دعاءٌ عليهم، بمعنى لُعنوا؛ ومنه قوله : ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ (عبس) ، نزلت فى عُتبة بن أبى لهب، وقد كان آمن وارتد، فأنزل الله: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾، أى لعن عُتبة بكُفره بالقرآن. وقال ابن عباس : ما كان في القرآن «قُتِلَ الْإِنسَانُ» فإنما عُنى به الكافر. ولا أدرى لماذا قال ابن عباس ذلك، وكأنما هذا التعبير يتكرر في القرآن، مع أنه لم يأت فيه إلا مرة واحدة هى هذه التى فى سورة عبس ؟

•••

١١٧. ﴿كل ﴿ألم يسيروا في الأرض﴾ دعوة للتفكير والتأمل﴾

في القرآن يـأتي قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴿١٠٩﴾﴾ (يوسف)، ثلاث مرات؛ وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴿١٠﴾﴾ (محمد) أربع مرات، بمعنى الدعوة للنظر، والتفكّر، والتعقّل، والتـدبّر، والاتّعاظ، وكذلك يأتى قوله: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴿٣٦﴾﴾(النحل) أربـع مرات، وقـوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴿١٣٧﴾﴾ (آل عمران) ثلاث مرات، وقوله: ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴿١١﴾﴾(الأنعام) مرة واحدة، وكلها بنفس المعنى، والسير ليس بقطع المسافات ولكنه بالنظر بالأبصار والقلوب والأذهان. فالبصر ليدرك المشاهدات ، والقلب ليرى ما خلف ذلك من عِبَر وعظات، والذهن ليعى الدرس فلا ينساه. وفى السير زيادة فى المعرفة، وعقد للمقارنات، وممارسة للاستقراء

والاستنباط. والسيرة هي الهيئة، والسُّنّة، والطريقة ،والمذهب، وهى حُسن السلوك بين الناس، ومنه قولهم : من طابت سريرته حُمدت سيرته. والسيرة :القصة، نقول سيرة عنترة ،أي قصته؛ والسير والمغازى من أبواب الأدب في الإسلام، وقولهم الإنسان مُخيّر لا مُسيّر، أي يذهب فى الحياة حسبما يختار لنفسه، فلا جبر فى الإسلام.



١١٨. ﴿لولا نزّل القرآن على محمد جُملة واحدة؟!﴾

يأتى فى التنزيل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (٣٢)﴾، والجواب فى نفس الآية: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ (الفرقان) وفى التفسير وأغلبه إسرائيليات تدعمها أحاديث منحولة، أن التوراة والأناجيل نزلت جملةً. والحقّ أن عبارات ما يسمى بالتوراة والأناجيل الحالية لم تخطر على رءوس مؤلفيها: عزرا، ومتّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، إلا من بعد الأحداث التى وقعت لموسى وعيسى بزمان بعيد، فبين كتابة أسفار موسى الخمسة ووفاة موسى نحو ٣٥٠ سنة، وكذلك بين وفاة المسيح وكتابة الأناجيل، ما يتراوح بين خمس وستين سنة ومائة سنة، فربما يعنى أن المؤلفين وضعوا هذه الكتب مرة واحدة حكايةً عمن سبقهم، وهذا هو تفسير روايتها جملة واحدة، وإلا فإن أحداث اليهودية والمسيحية وقعت لموسى وعيسى فى حينها، وعالج كلٌّ منهما المناسبات بما يتلاءم معها من تشريعات وأقوال، وحْياً عن ربّهما. والقرآن نزل على محمد، بألفاظه، بطريق جبريل، بلاغاً عن ربّه، منجّمًا، أى متفرّقاً على مدار الأيام والشهور والأعوام فى ثلاث وعشرين سنة، بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه الناس من الأحكام، ليثبّت الله به قلب النبىّ ﷺ ، فيؤنسه على الدوام، ويشدّ من أزر المؤمنين، كقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٢)﴾ (الإسراء)، أى يُذهب ما فى القلوب من أمراض الشك والنفاق، والشرك، والزيغ ،والميل، وتتأتى رحمته مما يتحصّل لهم من الإيمان، ويرين على أذهانهم ويطبع أفئدتهم من الحكمة، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ (٤٤)﴾ (فصّلت)، يقول: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦)﴾ (الإسراء). ومن شأن التفريق تجديد الوحى، وتيسير الحفظ والفهم على الناس، فيتعرفون أحكامه كلما تنزّلت، ويتداولون الحكمة فيها حتى يستوعبوها، وتستغرقهم مواعظها، فيرى الرسول ﷺ أثر تعليم الله عليهم، فتنتعش نفسه، وكلما جاء خصومه بمَثَل - أى حُجّة - أتاهم بما يدْحضها، ليُظهر ضلالهم، ويكشف عن بطلانهم، ويفضح عجزهم، ويبين فشلهم وخذلانهم، ومن شأن

ذلك أن يشدّ من أزر الرسول ﷺ، ويُرهف من عزم المسلمين. وجديد الكلام يقوّي أصحاب الحق، وما أشبه القرآن بالسلاح في يد الجندي، فكلما أتى العدو بالجديد، أتى الله المسلمين بجديد أحسن منه وأشد فتكاً، وإنما الفرق أن الحرب بالقرآن من قبيل ما يسميه علماء النفس **حرب الكلام**، أو **حرب الكلمات**، **وحرب المنشورات والمؤلفات**، وأقوى ذلك هو الحوار وإن كان بين خصمين متباعدين. وأمريكا تفعل ذلك الآن بالجديد من المصطلحات، مما يستغرق فكر المتفكرين لاستيعابه، ويلهيهم عن الردّ عليه، وما كان القرآن يمهل العدو إلا أن يفحمه بالحجة الداحضة والبرهان الساطع، ولذلك كان نزوله متفرقاً، فكلما تلمّ الشدائد وتتعدّد أوقاتها نزل القرآن تسليةً و«تعزيةً» للمسلمين، كأن يورد حكايات عن المرسلين والأنبياء الأولين للمقارنة والمماثلة، كقوله: ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** (١٢٠)﴾ (هود)، أو يعظ نبيّه وينصح له ويعدُه النصر والتأييد والحفظ، كقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** (٦٧)﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ** (٤٨)﴾ (الطور)، وقوله: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (١٢٧)﴾ (النحل)، وقوله: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** (٣٥)﴾ (الأحقاف)، وقوله: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** (١٣)﴾ (فصلت)، و قوله: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** (٤٥)﴾ (القمر)، وقوله: ﴿**فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** (٨)﴾ (فاطر)، وأمثال هذه المواقف، أكانت الآيات المتعلقة بها ينزّلها جملةً أم متفرقة؟ وكيف كان يقول له: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٣)﴾ (الشعراء) قبل أن تكون هناك مناسبة مثل هذا القول؟ وكيف يسبق الأحداث وينزّل عليه آية كهذه: ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٥) **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** (٣٦)﴾ (الأنعام)؟ وإنه لأجْوَد للقرآن أن ينزل لما يستدعيه فيكون معلّماً للناس، وتفرقتُه أيسر عليهم لحفظه واستيعابه، والناس أوعى لما يحفظون، وأمة الإسلام كانت أمية، والحفظ لها أيسر، فإذا فهموه سهل عليهم أكثر، فكلما استوعبوا آية تهيأوا لاستقبال أخرى واستظهارها، ومع المدة تنفك عن الناس عقائدهم القديمة، وعاداتهم الرذيلة، فيسهل تخلّيهم عنها، وتتدرج الأمور معهم فيهون عليهم المهم ثم الأهم، ومع التخلّي يكون التحلّي، وما يُزال ويُمحى عنهم من الباطل، يحلّ محله الجديد الحقّ، فيطهّرهم بلا عنت ولا حرج، ولذلك بدأت الدعوة بالتوحيد والإعلام بالبعث والحساب، ثم فُرضت الصلاة،

وبعد عام فُرضــت الزكاة والصيام، ثم فُرض الحج في السنة السادســة. وحتى فى العادات بُدىء بالصغائر وتدرّج الأمر إلــى الكبائر، ولقد كانت الخــمــر مستحكمــة ومنتشرة، فلم يحرّمها دفعة أو جملة، وإنما على تفريق، ونظّم الزواج والطلاق على مراحل. ولقد سأله اليهــود عن مسائل لم يجب عنها دينــهم، فهل كان سيــجيب عنها القرآن قــبل أن تُسأل، فمثلاً سألوه عن الروح، فنزلت: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥)﴾ (الإسراء)، وسألوه عن اليتامى، فنزلت: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ...** (٢٢٠)﴾ (البــقرة)، وقد وردت فى التنــزيل ضمن باب «**يســألونك**» خمس عشــرة مسألة، **فالقرآن كان كتاباً فيما يستجد من أقضية ووقائع، وكان يجارى المجتمع فى عصره**، وآيات **الإفك** مثلاً ما كانت تتنزل إلا فى وقــتها، وما كان التيــمم يفرض إلا لمسببــاته، وكذلك سورة **المجادلة** فى المرأة التى تشتكى من زوجــها، وكانت هناك **أخطاء** ارتكبهــا المسلمون فنزل القرآن لتصحيحها، **ومفاهيم** لم يخطر خطؤها على بال أحد، فقوّمها وشذّبها القرآن وعدّل فيها، وكان هناك **منافقون** أظهرهم الوقت، وكشفتهم الأحداث، فأظهر القرآن مخبوءهم، وهتك أستارهــم كما فى **ســورة التــوبة**. ثــم إن **نزول القرآن مـفرّقاً أبان أنه كتــاب لم يؤلّفه محــمــد**، فكان منذ البداية وحــتى انقضاء السنوات الثلاث والعشــرين مدة نزوله ـ بنفس الأسلوب المحكم، والسبك الــدقيق، والإعجاز المبــهر، والتناسق البــديع، والنظم المتين، فأشهد أنه قد تنزّل من لَدُن عــزيز حكيم، كقوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** (٨٢)﴾ (النســاء)، والقــرآن **على ذلك برهــان من براهين إثبات وجود الله**، كــقوله: ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** (٦)﴾ (الفرقان)، ولا يعلمه إلا هو الواحد الأحد الذى لا شريك له.



١١٩. ﴿القرآن محدث ولكنه غير مخلوق﴾

نعت الله تعالى القرآن فى الآية ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ** (٢)﴾ (الأنبياء) بأنه ذِكْر مُحدَث، **والذكْر** هو ما يذكّرهم به النبىّ ﷺ مما يتنزل عليه من ربّه، **ومُحدَث** يعنى كان تنزّله سورة بعد ســورة، وآية بعد آية، وفى وقت بعد وقت، ولا يعنى ذلك أن القرآن **مــخلوق**. ووعظه ﷺ ذكرٌ مُحدَثٌ من ربّه، لأنه لا ينطق إلا بالوحى، والذِكر يتجدّد، وكلمــا جددّ الــنبىّ ﷺ الذكر استــمروا على عــدم الإنصــات والاســتمــاع، وأنكروه وجحدوه، وتشــاغلوا عنه بالقدح فيه والاعــتراض عليه، وبقوا على حــالهم من الجهل به يستهــزئون، ومع كل مُحدَث وجديد يتنــاجون بالتكذيب، وما أثيرت قــضية **المُحــــدَث**

والمخلوق إلا لأنهم كان يغيظهم من القرآن أن يُذكَروا فيه، وأن يتحدّث بقضاياهم، فكانوا يريدونه جملة واحدة، وأن يكون مخلوقاً وانتُهِيَ منه، لكي يُسقطهم من حسابه، فلا توبيخ ولا تقريع لهم.

•••

١٢٠. ﴿القرآن ليس مُحدثاً﴾

من يسمع قوله تعالى: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ (٢٣)﴾** (الزمر)، وقوله: **﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾** (المرسلات)، وقوله: **﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩)﴾** (النجم)، وقوله: **﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾** (الكهف)، وقوله: **﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾** (القلم) قد يظن أن الحديث من الحدوث، وإذن يكون كلامه تعالى في القرآن كلاما محدثاً، وذلك وَهْمٌ، لأنه تعالى لايريد لفظ الحديث على ما في قوله: **﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ (٢)﴾**(الأنبياء)، يعني أن هذا المحدث كان نزوله توا، وليس قديماً، وطالما أنه ذِكْر، أي أنه يتنزل في مناسبات يذكّر بها، وكل ذكر مُحدَث، لأن وقائع الأحداث التي يتناولها لها ملابساتها التاريخية. والصحيح أن كلام الله ليس محدثاً، لأنه صفة لذاته تعالى، وذاته تعالى قديمة. وعلمه تعالى بهذه الأحداث علمٌ قديم وليس جديداً. والقضية إذن محسومة، بسبب علمه تعالى المطلق، الشامل للقديم والجديد، وبذلك تكون قضية المحدث والقديم قضية مفتعلة، ولا تعني شيئاً في الحقيقة، وأول من أظهرها **الجعد بن درهم، وبشر بن غياث المريسي**. وكان المعتزلة يقولون إذا كان القرآن غير محدث فكيف نفسر ما فيه من الأوامر والنواهي وهي محدثة؟ والسلف على الرأى المخالف، واعتقدوا ظاهر ما ورد في القرآن، والتزموه من غير تكلّف التأويل وإخراج الألفاظ عما وُضعت له، إلا إذا وضحت القرينة في المجاز، من غير سباحة في اليابسة، بتسليط العقل فيما لا مراد فيه. وفي الصدر الأول من الصحابة والتابعين لم يُثر أحد مسألة إحداث القرآن وأنه مخلوق أو غير مخلوق مما أثير بعدهم، ولم يُؤثر عن النبيّ ﷺ معنى من المعاني التي اخترعوها لإثبات ما رأوه. والخلاصة: **أن هذه القضية لا أساس لها؛ وليست من الفلسفة في شيء، والغاية من إثارتها هو بلبلة فكر العامة خصوصاً، وزعزعة إيمانهم، وتشكيكهم في دينهم، وحسبنا الله.**

•••

١٢١. ﴿هل كلمة فرقان عبرية؟﴾

المشكلة مع المستشرقين هو تحاملهم المزرى وتعصُّبهم المقيت، ومن هؤلاء **جيجر**

اليهودى صاحب كتاب : «ماذا اقتبس محمد من اليهودية ؟» ونولدكه النصرانى، وشفالى، وهيرشفيلد، وهوروفيتس، وآرثر جيفرى، وآخرون كثيرون، قالوا جميعاً إن كلمة فرقان العربية الواردة في القرآن هى نفسها كلمة «فرقانا» السريانية، واستخدمها محمد فى القرآن بنفس المعنى المستخدمه فيه الكلمة المقابلة فى العبرية، فكأنه ﷺ كان مطّلعاً على اللغتين السريانية والعبرية، وضليعاً فى مصطلحاتهما الدينية!!

ونسأل: ولماذا يلجأ إلى المصطلحات غير العربية، ويحاول تطويعها للّسان العربى وكلمة فرقان العربية تغنيه عن ذلك، وكانت معروفة فى اللسان العربى قبل نزول القرآن ؟ وفرقان من فَرقَ والمصدر فرقان، بمعنى فَصَل وميّز أحدهما عن الآخر؛ نقول فَرَق بين الخصوم، أى حكَم بينهم وفَصَل. وفى القرآن يأتى منها ستة عشر اشتقاقاً، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝٤﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ (الفرقان) فسمّى الله تعالى القرآن فرقاناً، بما يحوى من حجج وبيّنات، ودلائل واضحات، وبراهين قاطعات. ومرة تأتى لفظة فرقان بالإضافة ،كقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۝٤١﴾ (الأنفال)، ويوم الفرقان هو يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وهو أول مشهد شهده الرسول ﷺ، وكان ذلك ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان . ومرةً تأتى فرقان كوعد للمؤمنين، كقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ۝٢٩﴾ (الأنفال) أى عرفاناً، تفرقون به بين الحق والباطل. ومرةً تأتى كدعاء، كقوله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝٢٥﴾ (المائدة) يعنى اقضِ، وافتح بيننا وبينهم، كما قال الشاعر :

يارب فافرق بينه وبينى . . . أشد ما فرقتَ بين اثنين

ومرة تأتى كوصف للحال، كقوله: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾ (طه) أى أشعتَ الفُرقة فيهم ، وكقوله: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۝١٥٩﴾(الأنعام)، بمعنى فارقوه،وصاروا فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات؛ وقوله: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤﴾ (المرسلات) تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغى، والحلال والحرام. وأمثال هذه الاشتقاقات تتكرر اثنتين وسبعين مرة. وأما كلمة الفرقان نفسها فتأتى سبع مرات، مرتين فيما أنزل الله على موسى وهارون، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ (البقرة) ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ (الأنبياء) ، فالكتاب هو التوراة، والفرقان هو المعرفة بالتمييز. وفى كل هذه الاستخدامات فى القرآن، يأتى المعنى المشترك فيها جميعاً هو «التفرقة بين الحق والباطل»؛

وأما كلمة فرقانا Furkana السريانية بمعنى Yesha العبرية، فمعناها الخلاص Erlösung كما فى الألمانية، و Salvation كما في الإنجليزية، و Salut كما فى الفرنسية، وما أبعد المسافة بين المعنى العربي للمصطلح، ومعانى الألفاظ الأجنبية؟! ومن ثم كان افتئات المستشرقين البيّن، وحُمق ما ذهبوا إليه، وتخبُّطهم فما يدرون كيف ينتقدون القرآن ويطعنون الإسلام، كالذى يتخبّطه الشيطان من المسّ، فضلّ عنهم ما كانوا يفترون، فاحذرهم يا أخي المسلم فهم العدو، واذكر قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** (١٢٠)﴾ (البقرة)، ولا تتخذ منهم مرجعاً ليعلمك، فهؤلاء لن يألونك خبالاً، والله المستعان.



١٢٢.﴿الكتاب المبين والقرآن المبين﴾

يأتي عن القرآن أنه الكتاب المبين ثماني مرات، كقوله تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** (١)﴾ (يوسف)، والكتاب هو القرآن، وفى الآية يجمع بين الصفتين، بأنه ﴿قرآن﴾، وأنه ﴿كتاب﴾، لأنه ما يظهر بالكتابة، وما يظهر بالقراءة. وفى سورة أخرى قال تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ** (١)﴾ (الحجر)، فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة، والقرآن بلفظ النكرة، وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يُجعَل معرفة، وأن يُجعَل صفة، ووصْفُه بالمبين، لأنه بيّن فيه أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، ووعده ووعيده، وحدوده وأحكامه، وهُداه وبركته.



١٢٣.﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾

تتكرر هذه العبارة فى القرآن أربع مرات، كما في سورة **يوسف** الآية ١، يشير «بتلك» إلى ما وعد الله تعالى به من الآيات يتكون منها القرآن، **وتلك** بمعنى هذه. وقيل: إن «**تلك الآيات**» كان الله تعالى قد وعد بها في التوراة وأنزلها لذلك في القرآن، وهذا تفسير من **الإسرائيليات**، لأنه لا شيء من ذلك فيما يسمى الآن باسم **التوراة**.



١٢٤.﴿لماذا القرآن لسانه عربى وأحكامه عربيه؟﴾

يأتى فى القرآن ثماني مرات أن القرآن عربي اللسان، ففى سورة يوسف يقول تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** (١) **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** (٢)﴾، واللغات تتفاضل كتفاضل الناس والأماكن والأيام والشهور والسنين؛ **ولغة العرب** هى أوسع اللغات مفردات ومفاهيم، وتراكيبها أبين التراكيب، وعباراتها ومصطلحاتها هى الأفصح

والأوفى، وهى اللغة الأكثر تأدية للمعاني التى تقوم بالنفوس، ولهذا أُنزل بها أشرف الكتب وهو القرآن، بأشرف اللغات، وعلى أشرف الرسُل، بسفارة أشرف الملائكة وهو جبريل، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض مكة؛ وابتدأ نزوله فى أشرف شهور السنة رمضان، فكمل من كل الوجوه. وفى سورة الرعد يأتى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴿٣٧﴾﴾، أى أنزلنا القرآن مُحكماً معربّاً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت). ويأتى فى سورة طه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾، فلما كان يوم المعاد والجزاء واقعاً لا محالة، أنزل الله القرآن عربياً للعرب أصلاً، متضمناً الكثير من الوعيد والنذير، لعلهم يعقلون ما فيه ،و يتدبرونه، ويتذكرونه فيتقون. ويأتى فى سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وأمثلة القرآن يضربها الله تعالى للناس، تبياناً لكل شىء، ومن باب تشبيه المجرّد بالمحسوس، وجاء القرآن بالعربية التى لا لبس فيها ولا اعوجاج ولا انحراف، حتى تكون مراعاته فى متناول مفهوم الجميع. وفى سورة فصلت قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾، أى بيُنّت معانيه، وأُحكمت أحكامه، وكانت لغته عربية لتبيّن وتوضح. وقال فى سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾، أى جعل الله لغته العربية الجلية ليكون الإنذار بها لأمّ القُرى وما حولها، وهى مكة وأرباضها وسائر البلاد، جنوبها وشمالها، وشرقها وغربها، ينبّه إلى يوم القيامة الذى يُجمَع فيه الأولون والآخرون. وهذه إذن أسباب النزول بالعربية، لأنها لغة بيان، فيكون فهم الناس كافةً لمعانى القرآن فيتدبرونه.



١٢٥. ﴿لغة القرآن لغة قريش﴾

اللغة العربية هى لغة القرآن، وكان نزول القرآن بها ضماناً إلهياً ببقاء اللغة العربية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾(الحجر). وكغيرها من اللغات مرت اللغة العربية بأطوار، ولم تكن فى مراحلها الأولى على الصورة التى عليها الآن، وكانت لها لهجات مثلما لها لهجات الآن، باختلاف الشعوب والقبائل العربية، وإختلاف الحواضر والبوادى، ومن ذلك قديماً نُطق اللام بالميم، ومنه حديثاً نُطق السين شيناً، وكانوا قديماً - وما يزالون - ينطقون الكاف شيناً، كقولهم عيناش بدلاً من عيناك. وكانت للكلمات

دلالات بحسب الاستعمال، فصارت لها دلالات أخرى وافدة مع التطور. وقديماً كانت من معانى كلمة «أَدْفَأ» القتل؛ فصارت إلى معنى استجلاب الدفء، وتعددت المعانى لكلمة عين، فصار منها الجاسوس، وأعيان القوم هم كبراؤهم، وكانت العين قاصرة على آلة البصر وعلى البئر. وبالتلاحم، والتقارب، والتصاهر بين القبائل، والتجارة بين الناس، تواجدت لغة مشتركة يُقاس إليها حُسن القول، ولم تتوفر هذه اللغة إلا لقريش، لأنهم سكان مكة حيث الكعبة يتوافد عليها العرب جميعاً للحج، فكانت مكة لهذا مركزاً للتجارة، ومجمعاً للقبائل، ينطلقون منها فى رحلتى الشتاء والصيف. وكان القرشيون أهل حكمة ووقار، ويتحاكم إليهم المختصمون، ويقيمون الأسواق كسوق عكاظ، وفيها تُعقَد المضاربات، والمباريات في الشعر والخطابة بلغة قريش، ولم يكن بهذه اللغة عيوب لهجات البدو، كالعنعنة عند بني تميم، والتلتلة عند البهراء، والكشكشة عند ربيعة، والكسكسة عند مضر، والعجرفة عند الضبة، والاستنطاء عند أهل اليمن، والعجعجة عند قضاعة. ولم يكن القرشيون على مقربة من شعوب أخرى تؤثر على نطقهم وتدخل عليهم الغريب، فكانوا بعيدين عن لغات الأعاجم ولم يخالطوهم، فسلمت لغتهم، وذلك معنى قول أبى بكر: وقريش هم أوسط العرب فى العرب داراً، وأحسنهم جواراً، وأعربهم ألسنة».



١٢٦. ﴿الألفاظ الأعجمية، ما حكايتها فى القرآن؟﴾

وإلحاقاً بما سبق، فإذا كان القرآن عربياً مبيناً، لماذا هذه الألفاظ الأعجمية التى يزعم البعض أن القرآن يحفل بها ؟ وحكاية هذه الألفاظ بزعمهم أن أعجمياً كان يعلّم النبىّ ﷺ، ولقد أجبنا على هذا الزعم الأخير ضمن «باب النبوة والقرآن»، وبقيت حكاية الألفاظ الأعجمية. ومن الغريب أن هناك من المسلمين من أخذ عن اليهود، وذهب مذهبهم، وردد أقوالهم، مثل : عبد الله بن عباس، وتلميذه عكرمة، وهذان اشتهرا بالإسرائيليات، وتفسيرهما لآيات القرآن فى الكثير خاطئ أيما خطأ. ومن الذين ذهبوا إلى إثبات الكلمات الأعجمية بالقرآن الزركشى، وقد جمع منها خمساً وعشرين كلمة، وكذلك السيوطى جمع منها ١١٩ كلمة، وغير هؤلاء تاج الدين السبكى، وابن حجر، والأول زعم أن كلمات القرآن الأعجمية ٢٧ كلمة ، والثانى زعم أنها ٢٤ كلمة، وأضاف الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى ما سبق سبع كلمات أخرى، وكل هؤلاء ذهبوا إلى القول أن هذه الكلمات مصادرها يونانية، ولاتينية، وعبرية، وسريانية، وآرامية، وقبطية، وهندية، وحبشية، ونبطية، وتركية، وبربرية ـ ويسمونها أحياناً لسان أهل المغرب، وأحياناً لسان أهل إفريقيا، أو

لغة الزنج. وأطلق المستشرقون على هذه الكلمات مرة اسم الكلمات الأجنبية، ومرةً اسم المفردات المحولة عن الأصل، ومرة اسم الكلمات الخليط، وذهب أحدهم وهو «منجانا»، إلى زعم أن السريانية طبعت الأسلوب القرآني بأسره ! ولم يكن أيٌّ من هؤلاء من علماء اللغويات، ولم يعرف عن عبد الله بن عباس، ولا عكرمة، معرفته بأيّ من اللغات الأجنبية، وإنما أحبار اليهود في المدينة - وهم الذين كان يستقى منهم إسرائيلياته - أعلموه بما قال، فردد ما قالوا، وهو ما فعلوه أيام الرسول ﷺ، وردّ عليهم الله فيما أوردنا من آيات. وتخريج المستشرقين لهذه الكلمات عن غير أصول عربية فيه افتئات واعتساف، والتشابه بينها بعيد الإمكان، فما دخل كلمة مثل **Justidia** اللاتينية بالعدل العربية، أو كلمة قسطاس العربية بكلمة **dikastes** اليونانية بمعنى قاض. وقسطاس معناها الميزان، ومنها قَسَط يعنى عَدَل، والمقُسِط من الأسماء الحسنى لله تعالى، ولا عبرة بأن تكون قسطاس نهايتها بالسين على طريقة العرب فى ترجمة الألفاظ اليونانية، كسقراط يقولونها سقراطيس ! ولو كان قسطاس وقسط غير عربيتين، فلماذا أتيا فى القرآن بمختلف أشكال التصريف، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ③﴾ (النساء)، وقال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨﴾ (الحجرات)، وقال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ٢٨٢﴾ (البقرة)، وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٨﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ١٨٢﴾ (الشعراء)، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ١٤﴾ (الجن)، والقاسط هو الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط وهو العادل، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨﴾ (الحجرات). ولو كانت الكلمتان غير عربيتين، أكان يكثر استخدامهما بهذا الثراء والتوسع ؟ والمعول عليه في كل اللغات أنه إذا تشابهت كلمتان فى لغتين وأحببنا أن نعرف أيهما الأقدم، وأى اللغتين اقتبست عن الأخرى، فإننا نتابع استخدامات الكلمة واستعمالاتها فى اللغتين، وفى كلمتى قسطاس وقسط لا يوجد مثل هذا الاستخدام والاستعمال الثرى فى أى من اللغات التى قيل إن القرآن اقتبس منها. والاستخدام الكثير للكلمة وتصريفها على مختلف وجوه الصرف، هما الفيصل في اعتبارها من الكلمات الأصول فى اللغة أو الكلمات المستوردة.

وكلمة أخرى هى برُج، قيل أصلها **burgus** اللاتينية، فهل للكلمة اللاتينية مثل الاستخدامات والاستعمالات والتصريفات التى للكلمة العربية ؟ ومن استخداماتها مثلاً: بَرَج يعنى ظهر وارتفع، وبَرِجت العين بمعنى أحدق بياضها بالسواد كله، وبرج فلان بمعنى

تباعد ما بين حاجبيه، فهو أبرج، وهى برجاء، والجمع بُرج؛ ونقول أبْرَجَ بمعنى بنى بُرجاً، **وأبرج الله السماء** أى جعلها ذات بروج وزينّها بالكواكب، **وتبرّجت السماء** تزيّنت بالكواكب، **وتبرّجت المرأة** أظهرت زينتها، **والبُرج** الحصن، والبيت يُبنَى على سور المدينة، وبروج السماء اثنا عشر، **وبُرج الحمام** مسكنه يأوى إليه، **والبارجة** الذى يُعرَف بشرّه، والبَرَج ظهور الجمال وحُسن الوجه، ومن ذلك الكثير فى لغة العرب. ومن القرآن من مادة برج يأتى قوله: **﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾﴾** (الأحزاب)، وقوله: **﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴿٦٠﴾﴾** (النور)، وقوله: **﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾﴾** (النساء) وقوله: **﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾** (البروج)، ولذلك أرى أن **الدكتور عبد الرحمن بدوى** الذى جعل لكلمة برج العربية **أصلاً لاتينياً** قد أخطأ خطأ شنيعاً. ومن مثل ذلك قوله إن كلمة **كهف** من **Cavea** وكلمة صراط من **Strata**، من أصول لاتينية وهما كلمتان دارجتان فى العربية، وتستخدمان يومياً. وتأتى **كهف** فى القرآن ست مرات فى **سورة الكهف**، كما تأتى صراط ٤٥ مرة! والملاحظ فى علم اللغات أن الكلمة المستورَدة (بفتح الراء) لا ترد فى اللغة المستورِدة (بكسر الراء) بهذه الكثرة، وفى كتاب واحد كالقرآن. وكلمات مثل: **قنطار quintale**، **ومجوس، وعدن، ومرجان، وياقوت، ويهود، وآزر، وجبريل، وميخائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وإسرائيل، وعمران، ودينار، ودرهم، واستبرق، وسندس، وطور، ورقيم، ونصارى، وعيسى، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وإدريس،** ويونس إلخ، من الممكن أن تكون لها أصول غير عربية، ومن نبت ثقافات أخرى، ولكنها دخلت فى المصطلح العربى بحكم الاطّلاع على تلك الثقافات، وما دامت الإشارة إلى تلك الثقافات فلا بد من اللجوء إلى مصطلحاتها، ولا تثريب فى ذلك. **والتلاقح الثقافى**، والتثاقف، من مفردات علميّ الاجتماع والأنثروبولوجيا، وفى القرآن عن ذلك: **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴿١٣﴾﴾** (الحجرات)، والتعارف بين الشعوب يترتب عليه **التلاقح الثقافى**، ومن غير المعقول أن أعرّب اسم **تشرشل**، أو **هتلر**، أو **لندن**، ولم يحدث أن نقل الإنجليز أو الفرنسيون كلمة مثل: **مسلم**، أو **شافعى**، أو **حنفى** إلى لغاتهم بترجمتها، وإنما هم يوردونها بأشكالها ومعانيها. ومن الغريب أن يزعم **الزركشى** أن كلمة مثل **طفق** يونانية، وأن **أليم** بمعنى موجع عبرية، وأن **كفلين**، **وناشئة الليل** حبشيتان، وكذلك **قسورة** بمعنى أسد، **ومشكاة** بمعنى طاقة، وأن **سندس** هندية ؟! ولم يُحلنا الزركشى إلى أصول هذه الكلمات، وهل كان يعرف هذه اللغات ؟ وأى **هندية** يقصد، فلغات الهند كثيرة تزيد على المائة والخمسين ؟

وحتى إذا كانت هذه الكلمات وغيرها من أصول غير عربية، فماذا يعيب أي لغة في ذلك، وكل لغات العالم بها المستورَد والأصيل ؟ أم أنهم يقصدون بذلك، إلى أنه طالما أن هذه الكلمات غير العربية في القرآن، فالقرآن كاذب في قوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾**﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ (الزمر)، وقوله: ﴿**وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴿١٢﴾**﴾ (الأحقاف) ؟ ثم إنه كاذب إذ ينفى عنه العُجمة في قوله: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴿٤٤﴾**﴾ (فصلت) ؟! فذلك هو مرادهم وليس مجرد البحث العلمي، ولو كانت هذه الكلمات وغيرها من أصول غير عربية، فإنما استخدمها القرآن لأنها **صارت عربية بالاستعمال**، وفي النظريات الحديثة في اللغويات فإن أصالة الكلمة تقاس باستخداماتها، **والكلمة المستعملة** أصل من الأصول اللغوية، والقواميس في اللغات الأوروبية توضع بحسب الشائع المستعمل يومياً من الكلمات، شكلاً، ونطقاً، ومعنى. والعرب إن استخدموا هذه الكلمات في كتاباتهم ومحادثاتهم، فإنما لأنها رسخت في وجدانهم وعقولهم، وتجنّست بالجنسية العربية. وكلمات مثل **سلسبيل**، **وسنا**، **وسيد** بمعنى زوج، **وشطر**، **وصلات**، **وطوبى**، **وغساق**، **وفردوس**، **وقوم**، **وقراطيس**، **وقسورة**، **وقمل**، **والقيوم**، **وكنز**، **ولينة**، **ومتكأ**، **وراعنا**، **ودرست**، **والتنور**، **وحدب**، **وجهنم**، **والجبت**، **وأوّاب**، **وأسباط**، **وأبّ**، **وأرائك**، جميع ذلك كلمات عربية قُحّ ولم تؤخذ من أي لغة كانت، بخلاف ما ذكر **السيوطي** في كتابه «**المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب**»، وهذه الكلمات في رأيه معرّبة، وفي رأينا هي **كلمات عربية لها مشتقاتها واستخداماتها ومعانيها**، وعلى عكس ما ذكر **السيوطي**، فقد راجعناها عند أصحاب هذه اللغات التي زعم أنها أصولها، فلم نجدها عندهم. ومن الكلمات التي زعم أنها **قبطية** وراجعتها على أساتذه هذه اللغة في مصر : **وراء**، **وهيت لك**، **ومناص**، **واليّم**، **وقطّنا** بمعنى كتابنا، **وطور**، **وسنين**، **والأولى والآخرة**، **وأكواب**، فتبين كذب هذا الزعم، كما تبين أن **دفاع الدكتور عبد الرحمن بدوى المزعوم عن القرآن** دفاع متهافت، وكان الأحرى به أن يطالع هذه الألفاظ في لغاتها المزعومة، ويطالعها في المعاجم والقواميس العربية ليعرف أنها عربية صميمة.

وكان **الطبرى** على القول بأنه لا وجود لألفاظ غير أعلام من غير كلام العرب في القرآن. وأما أن توجد بعض ألفاظ غير الأعلام في القرآن، وفي العربية عموماً، وفي لغات أخرى غير العربية، فإنما ذلك لأن اللغة العربية وغيرها من اللغات تستقى ربما من أصول واحدة تأخذ عنها جميعاً، ونحن نعرف أن علماء اللغات يقسمونها إلى أصول،

ويقولون بتشابه اللغات التى تندرج معاً فيما يسمي **باللغات السامية**، كما تتشابه اللغات التى تنتمى إلى **مجموعة اللغات الهندوأوروبية**. وكلمة مثل «**العرب**» التى تطلق على الجنس العربى، وعلى الشعوب العربية، أصلها من لغة أم، كانت العربية أهم روافدها، واشتق الاسم نسبةً إلى **يعرب بن قحطان**، أو نسبةً إلى بلادهم **العربات**، ومنهم **العرب العاربة** أى الخُلّص، **والعرب المستعربة** أى الذى تجنّسوا من غير العرب بالجنسية العربية وصار لسانهم عربياً، وهؤلاء جلبوا بعض الأسماء معهم من ثقافاتهم وأدخلوها إلى العربية، كما أن العرب العاربة كانوا «رُحّلاً» **يشتغلون بالتجارة** وغيرها، **فكانوا يحتكون** بغيرهم، ويعرفون عنهم، ويصاهرونهم، وروى القرآن عن **رحلة قريش في الشتاء والصيف** إلى الشام وغيرها، فكان العرب يخالطون سائر الألسنة، وكثر **الموالى** من غير العرب، ومن المحتم أن يتأثر اللسان العربى بألسنة الموالي. ونعلم من التاريخ العربى كثرة هجرة العرب إلى **الحبشة**، وهناك من المؤرخين من غير العرب ينسبون الأصول العرقية وراء حدود الجزيرة العربية إلى العرق العربى، فكلما كثر عدد العرب بالجزيرة كان ذلك إيذاناً بهجرة إلى خارجها، ولم تكن **الفتوحات العربية** إلا هجرة كبرى من هذه الهجرات المتوالية، والقرآن قنّن الهجرة بقوله: ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** (٩٧)﴾ (النساء)، وحضّ عليها فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ** (٧٢) ﴾ (الأنفال)، وكانت الهجرة في **الشعوب السامية**، ومعنى **العبرانيين** أنهم المهاجرون المرتحلون، وكان **إبراهيم ولوط وإسرائيل** من الذين هاجروا، وفى الهجرات يتمثّل الأفراد ثقافات الآخرين، وتغلّبت **ثقافة الغزاة**، ولذلك طبعت العربية بلاد الإسلام بالطابع العربى، وفى العصور الوسطى انتقلت الكثير من المصطلحات العربية إلى اللغات الأوروبية، ولا تثريب فى ذلك، وقد تنتقل حتماً مصطلحات وألفاظ غير عربية إلى العربية، ولو قلنا إن القرآن به مصطلحات غير عربية، وحسبنا ذلك عيباً فيه، لكان العيب فى فهمنا نحن **لقوانين الحضارات والثقافات**. وفى المصطلح الإنجليزى مثلاً يوجد لفظ **anglicize**، وترجمته يؤنجلز، كقولنا **يُعرِّب**، وفى كل اللغات تأخذ إحداها من الأخريات ولكنها تطبع **naturalize** ما تأخذ بلسانها، وفعل العرب نفس الشيء، وكانوا يطبعون الكلمات الأعجمية بالطابع العربى ليخففوا من عُجمتها، وهذه هى الكلمات التى لم يكونوا يُنوِّنونها، وهى أسماء غالباً، إلا أن هذه الكثرة من الكلمات التى يقول المستشرقون والشعوبيون أن القرآن يحفل بها إنما هى عربية صميمة، مثل كلمة «**فاطر**» التى ادّعى **ابن عباس** أنها غير عربية، فلماذا لا يكون العكس، ويكون وجود هذه الكلمات فى اللغات

الأخرى نتيجة لغلبة العربية كرافد حضارى وافد ودخيل على هذه اللغات ؟ **والغزو العربى** لبلاد هذه اللغات لم يأت فجأة، فلابد أنه كانت له إرهاصات، وأن العرب كثروا بهذه البلاد حتى صار للسانهم تأثير فى أهلها. ولا معنى للقول بأن العرب تتخاطب بألفاظ، حتى أن كتابهم الرسمى والمقدس ينقل بعض هذه الألفاظ، من غير أن تكون هذه الألفاظ من صميم لغتهم. وما كان من الممكن أن لا تكون هذه الألفاظ من لغة العرب ثم يخاطبهم بها الله ؟ وما فائدة أن يخاطبهم بألفاظ لا يفهمونها ولا يعرفونها ؟ ومن التعريف بالمنطق أنه العلم الذى يستخدم **اللغة المنطوقة** للتفاهم. ولو كان القرآن قد أتى بألفاظ غير منطوقة - أى لا يُتحدَّث بها، لسقطت حجته على العرب ومن يكفرون بالله. وكل ما ادعى المدّعون أنه من غير كلام العرب - بخلاف الأعلام - هو باطل ويدحضه أن هذه الكلمات الدخيلة فى زعمهم هى على **أوزان كلام العرب**، **ويتداولونها فى أشعارهم وأمثالهم وأحاديثهم**.

ونخلص من ذلك إلى أن القرآن كما قال ربّ العالمين: **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾** (الشعراء)، أى بلسان شامل العربية، وكامل الفصاحة، لا لبس فيه ولا عُجمه، ليكون بيّناً واضحاً ظاهر الوضوح، وقاطعاً للعذر، ومقيماً للحُجّة على الكافة، وحسبنا الله.

●●●

١٢٧. ﴿ليس فى القرآن ما ليس من لغة العرب﴾

الكلمات التى يتصور البعض أنها غير عربية مثل سندس واستبرق فى قوله تعالى: **﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ (٣١)﴾** (الكهف) هى وفاق بين اللغات، **والسندس** الرقيق النحيف، واحده سندسة، **والاستبرق** ما ثخن منه، وهو الحرير، أو الديباج، وقيل الكلمتان **فارسيتان معرّبتان**، غير أن **استبرق** من **استفعل**، من البريق، والكلمتان عربيتان، **وليس فى القرآن ما ليس من لغة العرب**.

●●●

١٢٨. ﴿أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال﴾

هى «الله أكبر»، تصفه تعالى بأنه أكبر من كل شىء، وفى الآية: **﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾** (الإسراء) هى قول «الله أكبر»، وكان النبىّ ﷺ إذا دخل فى الصلاة قال: «الله أكبر». وقال عمر بن الخطاب: **قول العبد «الله أكبر» خيرٌ من الدنيا وما فيها**.

●●●

١٢٩. ﴿علوم القرآن﴾

قيل: إن علوم القرآن بقدر عدد كلماته مضروبة فى أربعة، أى أنها **سبعون ألف علم**،

وسبعة آلاف وأربعمائة وخمسون، وذلك لأن كل كلمة لها ظاهر وباطن مما لا نعرف له حدوداً. غير أن **أم علوم القرآن ثلاثة** أقسام : **التوحيد، والتذكير، والإحكام؛ فالتوحيد** : هو العلم المختص بمعرفة الخلق والخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ والتذكير : هو الوعد والوعيد؛ **والأحكام**: هى التشريعات، والأوامر والنواهى، ومطلوبات الإيمان والتكاليف على المؤمن، والعبادات.

وكلٌّ من هذه الثلاثة يشكّل إذن **ثُلث** التفسير، ولذلك قيل إن الآية: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** تعدل **ثُلث** القرآن، أى فى المعنى، وأما **الثُلث الثانى** فهو التذكير، **والثلث الثالث** الأحكام. وجمعت **فاتحة الكتاب** الأقسام الثلاثة، ومن ثم كانت **جامعة للقرآن، وأم القرآن**، ففيها من التوحيد الآيات من أولها حتى **﴿يوم الدين﴾**، وفيها من الأحكام: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**، وفيها من التذكير **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** إلى آخر السورة، فصارت الفاتحة بهذا **أم الكتاب**. وقيل غير ذلك من أقسام القرآن، ففيه مثلاً **علم النبوة وبراهينها، وفيه القصص، والديانات**. وقيل القرآن فيه: إخبار واستخبار، وإعلام وتنبيه، وأمر ونهى، ووعد ووعيد، ووصف للجنة والنار، وعلم أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، والإقرار بنعمه، والجدل مع المنكرين، والرّد على الملحدين، وبيان وجوه الخير والشر، والظلم والعدل، والحق والباطل، والحَسن والقبيح، والكون وعظمته واتساعه، وإعجاز مكوناته ومخلوقاته، وعلم الإنسان ، وكيف هو ولماذا كان، والمعرفة وفضلها، والحكمة ونعتها، وتصنيف الناس الى مؤمنين وكافرين ومشركين، ومتّقين وأبرار ومفسدين وفجّار، وأحداث التاريخ القديم وإحالاتها على الحاضر والمستقبل، والساعة وعلاماتها، والبعث والحساب، وأحوال الكون والناس في الآخرة، والموت والحياة، وعلوم الأخلاق والجمال والكمال، والعلم بأسباب النزول، وبالأمثال، والألفاظ، وبالناسخ والمنسوخ، والمتشابه والمحكم، ونظم القرآن وأسلوبه، وإعراب ألفاظه وتصريفها والبحث في أصولها، وعلم الاعتبار وهو الاستنباط والاستدلال، ومن المستحيل إحصاء علوم القرآن ، فهذا شيء لا حدود له، ويتوقف على ثقافة المُحصى، والقرآن لا يُستَدَرك، ولا تُحصَى علومه، ولا فنونه، ولا آدابه.



١٣٠. ﴿ترجمة القرآن: هل هي ممكنة؟ وماذا بشأن اللغة المعجزة فيه؟﴾

لقد تُرجم القرآن فعلاً إلى خمسين لغة مختلفة، ولا يرقى هذا العدد إلى ما تُرجمت إليه الأناجيل، فقد قيل أنها ترجمت إلى ١٧٦ لغة، سواء من اللغات الكبرى المعروفة، أو

لغات أقوام من الأقليات المنتشرة فى العالم. ويساعد على ترجمة الأناجيل حركة التبشير التي تعم البسيطة كلها، واشتغال القساوسة الدعاة بالوعظ بلغات الناس التى يتكلمونها يومياً، ولذلك فقد ترجموا الأناجيل إليها دون أن يحفلوا بما نسميه **بلاغة الترجمة** ، فالمهم نقل المعنى بأبسط أسلوب يمكن أن يفهمه الناس. والقرآن اشتغل بترجمته **المستشرقون** أولاً ،ليطعنوا فيه، ويردّوا على ما جاء به من تصحيحات للديانات. وكان أول من بدأ الهجوم على القرآن **يوحنا الدمشقى** (نحو ٦٥٠ ـ ٧٥٠م)، وتوجه نقده للنسق العام للقرآن، وتابعه **إيثومس زيجابنيوس فى** كتابه «**العقيدة الشاملة**». وكانت أول ترجمة للقرآن بين سنتى ١١٤١ و ١١٤٣م، وكانت اللغة اللاتينية هى لغة القساوسة والمشتغلين بالدراسات الإنسانية والأدب، وتُرجم القرآن بها بناءً على توصية من **بطرس المبجّل** راهب دير كلونى بفرنسا، وقام بالترجمة **روبرت لرتينى** الإنجليزى، **وهيرمان الهركاشى** الألمانى، وراهب أسبانى عربى، ولم تنشر هذه الترجمة إلا بعد أربعة قرون.

وتسبب هذا الهجوم على القرآن والإسلام من قبل إمبراطور بيزنطه **جان كانتا كوزين**، فى إقدام كثيرين من النصارى على نقد القرآن بمختلف اللغات، حتى باللغات السريانية والأرمينية والعربية. ولم يتوقف هذا الهجوم المدفوع إليه من قبل الدولة البيزنطية إلا بسقوط هذه الدولة وفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، واستمرت الهجمات النصرانية، تحضّ على كراهية القرآن، وتضرم نيران البغضاء لأهله ولنبيّه، وكان للكنيسة الكاثوليكية قصب السبق فى ذلك، وتزعم هذه الحملات **الكردينال نيقولا دى كوسا** ـ وهو المعدود من فلاسفة النصرانية (١٤٠١ م ـ ١٤٦٤م)، بإيعاز وتشجيع بابا روما **بيوس الثانى**، ونشر رسالته الشائهة «**غربلة القرآن**» سنة ١٥٤٣م، وتوجه اهتمامه إلى استخراج الإقرارات الواردة فى القرآن بالنصرانية وبالمسيح والأناجيل، واستعرض مخالفات القرآن للنصرانية كما تطرحها الكاثوليكية، ونبّه إلى ما ظنه **تناقضات** وردت فى القرآن. وتوالت الكتب المعادية تباعاً، يحبّرها قساوسة **الدومينكان والجزويت**، ومن ذلك بالفرنسية كتاب **ميشيل نان** «**ضد القرآن والقرآنيين دفاعاً وبرهاناً**» سنة ١٦٨٠م، غير أن أشرس النصارى هجوماً كان **لودفيجو ماراتش** الإيطالى (١٦١٢ ـ ١٧٠٠م) فى كتابه «**عالم النصّ القرآنى**» سنة ١٦٩٨م فى مجلدين، أعطى الأول اسم «**مقدمة فى دحض القرآن**»، وقصر الثانى على ترجمة القرآن إلى اللاتينية، وضّمن الكتاب حواشى للتفسير والشرح والنقد، وأرفق بالترجمة النص العربى، وفيما يبدو فإن **ماراتش** هذا كان يعرف العربية وإنما **معرفة عرجاء**، فجاءت ترجمته سيئة للغاية، وحافلة بالأخطاء، ونقده ساذجاً وغير منطقى ويعتمد على المغالطات.

وترجم القرآن **شفيجر النورمبرجي** إلى الألمانية سنة ١٦١٦م، ثم ترجمه **سيور دوريز** إلى الفرنسية سنة ١٦٤٩م، وعن هذه الترجمة قدّم الإنجليزى **الكسندروس، قسيس كاريسبورك**، سنة ١٦٤٩م، أول ترجمة إنجليزية، ثم ظهرت ترجمة لاتينية ثانية للأب **مارتشي البادوى** سنة ١٦٩٨م، وطبعت هذه الترجمة في انجلترا أربع مرات في السنوات ١٧٣٤ ، و١٧٦٤ ، و١٨٠١م، وصدرت أول ترجمة روسية سنة ١٧٧٦، ثم نشرت ترجمة ثانية بالفرنسية سنة ١٧٨٣م، وترجمة ثالثة سنة ١٨٤٠، وأعيد طبعها سنة ١٨٤١، ثم سنة ١٨٦٧ . وتعتبر الترجمة الألمانية الصادرة سنة ١٨٤١ أول ترجمة يمكن أن توصف بالجودة وقد توفر عليها **فلوجل**، وتميزت الترجمة الإنجليزية التى أصدرها **رودويل** سنة ١٨٦١ بترتيب السور بحسب نزولها تاريخياً. وفى سنة ١٩٢٩ صدرت ترجمة أخرى إيطالية **لبونللى**، ثم ترجمة تشيكية **لنيكل** ١٩٣٤ ، ثم ترجمة **شير علىّ** الباكستانى الإنجليزية سنة ١٩٥٥، وترجمة **بالتيمور** الإنجليزية سنة ١٩٥٦، وهناك غير ذلك ترجمة **خالد شلدريك** الإنجليزى المسلم بلغة الاسبرانتو سنة ١٩١٤ ، وتوفر **مجمع البحوث** الإسلامية فى مصر على إصدار ترجمات إنجليزية وألمانية وروسية، وكانت هناك محاولات ترجمة إلى التركية والأوردية والفارسية والجاوية والملوية والصينية، بخلاف ترجمات أخرى كثيرة صدرت مؤخراً مثل ترجمة **جاك بيرك** الفرنسية. وكانت أكثر الترجمات بالإنجليزية، ثم الفرنسية، فالألمانية، فالإيطالية، وياليت هناك ترجمات بالسواحلية، ولغات جمهوريات آسيا الوسطى، ودول أوروبا الشرقية والغربية، ودول أمريكا اللاتينية. وأُحصيت خمس ترجمات بالفارسية وبالتركية، وأربع بالصينية، واثنتان بالأفغانية، وواحدة بالجاوية، وأخرى بالأوردية.

ولوحظت في كل هذه الترجمات عيوب خطيرة وأخطاء فاحشة مما رجّح الرأى الذى يدعو إلى عدم ترجمة القرآن، وكثير من هذه الأخطاء متعمدة. **والترجمة فى الاصطلاح تفسير بلغة المترجم**، إلا أن شرط الترجمة أن تفى بجميع معانى النصّ القرآنى وبكل مقاصده. والترجمة كعلم إما حَرفية **وإما تفسيرية؛ والحرفية** هى التى يراعى فيها الأصل من حيث نظم الكلام وترتيبه، وتقوم على اختيار المرادفات للألفاظ الأصلية، وأما **التفسيرية فهى** ترجمة للمعانى، ولذا تسمى كذلك **الترجمة المعنوية**، وإنما تسميتها **بالتفسيرية لأنها** تشبه **التفسير** . ويقتضى حُسن الترجمة أن يكون المترجم ملماً إلماماً واسعاً باللغة التى يُترجم منها، واللغة التى يترجم إليها، وأن يحيط علماً بأساليبهما وخصائص كل لغة، فإذا ترجم استوفى المعانى بأصولها ومقاصدها، وراعى أن لا تكون الترجمة حرفية أى محاكية

للأصل، وإنما تستقل بنفسها، كأنما قد أُلّفت بهذه اللغة ولم تنقل عن لغة أخرى، مع الأمانة فى النقل وعدم التزّيد فى الشرح أو التفسير، وإنما الاقتصار على الأصل دون استطرادات. والمقصود بمعانى القرآن **معانيه الأصلية ومعانيه التابعة**، والترجمة التفسيرية هى التى تلزم المعانى جميعها، ومقاصد القرآن التى ينبغى المحافظة عليها فى الترجمة، مداها أنه كتاب فى الهداية، وأن آياته يُتعبّد بها، وأنه معجزة تشهد بنبوة محمد، وأنه صاحب رسالة، وعلى ذلك فإن الترجمة التى تراعى معانى القرآن ومقاصده باعتبارها أداة تبليغ للرسالة، وتعريف بأحكام الإسلام، وبيان للناس بمرادات الله بالقرآن، **هى ترجمة مشروعة**، فإذا كانت الترجمة تراعى اللفظ أولاً دون إخلال بالمعانى ولا المقاصد فإنها جائزة. وقد تكون الترجمة تفسير للقرآن بمفهوم المفسّر لكتاب الله، وباللغة التى يتقنها وينقل إليها، أى أنه يحكى عماً فهمه من آياته، وما يعرفه من تاريخه، ومن حياة النبىّ ﷺ، والمجريات التى وقعت فى مختلف المشاهد، وهذا جائز كذلك، لأن التفسير فى اللغة هو البيان والتوضيح، والمترجم استوفى ذلك. وفى كل هذه الأحوال ينبغى التنبيه بأن يكون العنوان الوارد على الكتاب هو **«ترجمة معانى القرآن»** أو **«تفسير القرآن بلغة كذا»**، وأن ينبّه إلى ذلك فى المقدمة، فبمثل ذلك يمكن تفادى اللبس على القارئ، ويتيسر عليه فهمه، وبذلك يمكن دفع شبهات المتخرّصين على الإسلام وأعدائه، وتنوير الراغب فى التنوير منهم، وإزالة السدود والعوائق التى زادت وربت على مرّ السنين بتأثير المبشّرين القوّالين. ومن الواجب أن يعرف العالم عن القرآن، وأن نسهّل قراءته على الناس بلغاتهم. والدعوة للإسلام لا تقتصر على العرب، والله تعالى ربّ العالمين، وهو تعالى خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، والأولى أن يعرف الآخر عن الديانه التى نلتزمها، **والتبليغ واجب على كل مسلم، والمسلمون أمة بلاغ**، وإذا تعذرت الترجمة على المسلم **لمعانى القرآن التابعة**، فلا تثريب عليه لو اقتصر على **ترجمة المعانى الأصلية**، وإن كان الاقتصار على المعانى الأصلية دون التابعة فإنها لا تسمى ترجمة، فشرط الترجمة كما قلنا استيفاء **المعانى كلها أصلية وتابعة**.

وقد روى أن سلمان الفارسى كتب لأهل فارس ترجمة للفاتحة بالفارسية، فكانوا يقرأون بترجمته فى الصلاة، فمن كان لا يعرف العربية ويتعتع فيها فلا تثريب عليه أن يكون كلامه بالقرآن فى الصلاة ترجمةً. غير أن مختلف المذاهب الإسلامية تحرم ذلك، فالشافعية قالوا لاتجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، وقالت المالكية والحنابلة نفس الشىء، وكذلك الحنفية. ومن رأى الشافعى أن قراءة الفاتحة فى الصلاة لابد أن تكون بالعربية، فإذا

لحن المصلى الأعجمى بلهجته الأعجمية فى غير ذلك من القرآن لا تبطل صلاته، يعنى أن اللسان **الأعجمى** بعد قراءة المفروض من القرآن وهو الفاتحة، لا يُبطل الصلاة، وقد عُمّم ذلك فصارت أسماء الله وصفاته والمتشابه من الحديث لابد فيها أن تُقرأ كما هى بالعربية، ولا يجوز ترجمة معانيها.

•••

١٣١.﴿ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازى﴾

هذا كلام **أحمد بن حنبل**، وفى رواية أخرى قال: **ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازى، والملاحم، والتفسير**. ويقصد بذلك أن ينبّه إلى الوضع فى أحاديث هذه الأبواب الثلاثة، وكذلك ما تخلل هذه الأحاديث والتفسيرات من **إسرائيليات**. وكلام **الإمام أحمد** فيه ما يجعل المتلقى للتفسير والملاحم والمغازى لا يأمن الكذب فيها، إلا أنه قد أورد فى مسنده أحاديث كثيرة فى التفسير، فكيف ينفى مصداقية الأحاديث فى التفسير وهو نفسه قد اعتقد فيها وأورد عنها وأخرجها؟ ومن غير المعقول أن كل ما ورد بشأن **المغازى والسِّيَر** مكذوبٌ ومنتحل، وفيما يبدو فإن مقصود **الإمام أحمد** أن ما جاء عن هذه المغازى والسير، وما ورد من التفاسير للقرآن، كان مكذوباً فى كتب بعينها. وقول القائلين إن **هذا الحديث لا يصحّ، أو لم يثبت**، هو من اصطلاحات الإمام. وكلامه محمول على كُتب بعينها، أشهرها تفسير **الكلبى، وتفسير مقاتل بن سليمان**، وقال فى الأول: من أوله الى آخره كذب لا يحل النظر فيه. وعلى ذلك لا يجوز الاستشهاد بعبارة الإمام أحمد للتشكيك فى **أحاديث التفسير كلها**،وإنما فى بعضها.

•••

١٣٢.﴿هل يحتاج القرآن إلى تفسير؟ وهل كانت كتب التفسير مصدر للبس والخلط ونشر الخرافة والترويج للإسرائيليات؟﴾

القارئ للقرآن، الطالب لفهمه واستيعاب معانيه، فى حاجة إلى القراءة فى كتب التفسير، والتفسير مطلب عام لكل الكتب الدينية؛ وكان **لليهود والنصارى** فيه باعٌ طويل، إلا أن كتب **النصارى** أقل عدداً من كتب **اليهود فى** التفسير، لأن الأناجيل صغيرة الحجم، والتصدّى لها بالتفسير قد يكشف عن تناقضها وتخالفها.

وأسفار العهد القديم تفرض على القارئ لها أن يلجأ الى ما يعينه على فهمها، إلا أن طول الأسفار جعل من الصعب المجازفة بتفسيرها، والكتب التى تصدّت لذلك قليلة.

وفى الإسلام تكثر كتب التفسير، وأصبح **التفسير** عند المسلمين علماً من العلوم،

وقالوا فيه: إنه العلم الذى يُعرَف به نزول الآيات وشئونهـا وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيّـها ومدنيّها، ومُحكمها ومُتـشابهها، وناسخها ومنسوخـها، وخاصها وعامّها، ومطلبها ومقصدها، ومُجملها ومفسّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها إلخ.

وذهب آخرون الى أن التفسير : هو علم كيـفية النطق بألفاظ القـرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتـركيبية، ومعانيـها التى يحمل عليها حالة التـركيب وتتمّات ذلك. وقيل التفسير : علم يُفهَم به كتاب الله المنزّل، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكمه، واستمداد ذلك من علوم اللغة، والنحو، والصـرف، والبيان، وأصول اللغة، والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ.

وكلما بعـد الناس عن اللغة العربية ظهـرت الحاجة أكثـر إلى التفسير، ومـثلما على المؤمن أن يقرأ القرآن امتثالاً لآيات كقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ**﴾ (العلق)، وقوله: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** (٢٠)﴾ (المزمل)، وقوله: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** (٢٠)﴾ (المزمل)، وقوله: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** (٩٨)﴾ (النحل)، وقوله: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** (٤٥)﴾ (الإسـراء)، وقـوله: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً** (١٠٦)﴾ (الإسراء)، فكذلك عليه أن يقرأ فى التفسير ليتدبر معانى القرآن وأحكامه، كقوله: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** (٢٩)﴾ (ص)، وقوله: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** (٢٤)﴾ (محمد)، والله تعالى خاطب الناس بما يفـهمونه، وأرسل إليهم الرسل بألسنة أقوامهم، وأنـزل كتبه على لغاتهم، وإنما احتـيج إلى التفسير والشـروح على مرّ الزمان كلما عسـر فهم مراد الآيات، فيكون من الواجب إظهار المعانى الدقيقة. وقـد تكون هناك تتمات للمسائل وشروطها من علوم تغيرت مضـامينها وتوسعت مجالاتها، فـيحتاج الشارح لبيان المتـروك. وقد يحتمل اللفظ معان عدة فيحتاج الشارح إلى بيان الغرض من اللفظ فى سياقه. والقرآن نزل بلسان عربى مبين فى زمن فصحاء الـعرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، وأما بواطنه فكانوا يسألون عنها الرسول ﷺ فى الأكثر، وأما نحـن فما أحوجنا إلى الشروح لقصورنا عن مدارك أحكام اللغـة. ولهذا كان علم التـفسيـر من أشرف العلوم عند المسلمـين، ويحتل عندهم مكانة لا يعرفها عند اليهود والنصارى. ويتأتى شرفه من أن موضوعه هو كلام ربّ العالمين، أصل كل حكمة وفـضيلة. وغرضه من أشرف الأغراض وهو الاعـتصام بكتاب الله، والأخذ بما حرّم وحلّل، وما أمر ونهى . وعلم التفسير عسير يسير، فأما عسره فلأن

القرآن كلام متكلم لـم نصل إلى مراده بالسماع منه، وتفسير القـرآن على وجه القطع كان الأحرى أن يُسـمَع به من الرسول ﷺ ، أو يُسمَع ممـن سمع منه، وهو متـعذّر في كل القرآن، ولم يبق إلا العلم بـالمراد بالاستنباط بالأمـارات والدلائل، والحكمة في ترك ذلك إلى العباد إنما لكي يتفكّروا فيه، ولذلك لم يأمـر الله نبيّه ﷺ بالتنصيص على تفسيرات دون تفسـيرات، وإنما كان الرسول ﷺ يصـوّب رأي المفسرين، فصـار ذلك دليلاً على جواز التفسير من غير سماع من الله تعالى ورسوله ﷺ .

●●●

١٣٣.﴿من يجوز له الاضطلاع بالتفسير؟﴾ ﴿وهل ذلك جائز لكل أحد؟ ومن هم أشهر المفسرين؟﴾

لمّا كان التفسير علمـاً فالمضطلع به لابد أن يكون من أصحاب هذا العلم، وإلا فليس له أن يتقوّل في التفـسير إلا بما هو مأثور عن السلف. والتفسـير على أقسام، **الأول** : أن يعرف المسلم الحلال والحـرام مما ورد في القرآن، وهذا لا يُعذر أحد بجـهالته؛ **والثـاني**: التفسير للألفاظ والعبارات بالمعهود منها في اللغة؛ **والثالث** : تفسير العلماء. وهذه الأقسام الثلاثة مـحدودة المجال، ويتجـاوزها التفسـير الذي يهدف إلى تجلية هدايات القـرآن وبيان تعاليمه، وحُكمه ما اشترعه الله على الناس، يدفع به المفسر إلى الاهتداء بهدْى الله، وهو التفسـير الخليق باسم التفسيـر، وبمثله تنكشف كنوز القرآن وذخائره، ويتوفر فـهمه وتدبُّر آياته، واستلهام رشده، وانطباع مطلوباته في النفوس، ونقشها بالعقول، فتعلو بها الهمم، وتتهذب بها الأخلاق، ويكون التذكّر والاعتبار.

وقد ذهب البعض إلى تـعديد المفسرين بحسب مـا ذهبوا إليه في تفاسـيرهم، فالذي يلجأ إلى بيان ما في القرآن بروايات من السُنّة، أو كلام الصحابة فتفسيره **بالمأثور**، وكانت لكبار الصحابة تفسيرات للقرآن، واشتهر من هؤلاء عشرة مفسّرين ، هم: **أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ**، ثـم **ابن مسعود، وابن عـباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو مـوسى الأشعـري، وعبـد الله بن الزبير**. وكان هناك آخرون مـن الصحابة أدلوا بدلوهم في التفـسير ولكنهم مقلّون. وليس كل ما يُذكر عن الـتفاسير عن **عليّ وابن عـبـاس** قد صدر منـهما فعلاً. فـالمتقوّلون عليهـما أكثروا في ذلك، والوُضّـاع أسهبوا في الوضع، والصـحيح مما نسب إلى الصحابة قليل بالنسبـة لغير الصحيح. والرواة عن **ابن عـبـاس** لم يكونـوا على درجة كبيـرة من الإتقان، وفي ذلك قال **الشافـعي** : **لـم يثبت عن ابن عبـاس إلا شبيه بمائة حديث. وعليّ أسرف الشيعة بشأنه، فنسبوا إليه ما هو بريء منه، ودسّوا عليه الكثير.**

وكان لمكة مفسروها الذين اشتهرت بهم من التابعين، وهؤلاء رووا عن ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس وغيرهم. وكان للمدينة مفسروها المشهورون، ومنهم : زيد بن أسلم، ومالك، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم. واشتهر من علماء العراق: مسروق بن الأجدع، وقتادة، والحسن البصري، وعطاء، ومُرّة الهمذاني الكوفي وغيرهم. ويعيب تفسيرات هؤلاء التابعين أن الرأي فيها كثير، واشتملت على الكثير من الإسرائيليات والخرافات . وكان التفسير بالمأثور فرصة لأعداء الإسلام من اليهود والفرس، أن يدسّوا ما يشاءون من المرويات، ولفّق أصحاب المذاهب ما يروّجون به لآرائهم، واختلط الصحيح بغير الصحيح، وهيأ لذلك أن العرب كانوا حديثي عهد بالإسلام، وكانوا أُمة أُميّة غلبت عليهم البداوة، فصدّقوا أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الله بن سلام، من اليهود الذين أعلنوا إسلامهم، وأخذوا عنهم مروياتهم بسلامة نية، ونسب هؤلاء تلك المرويات للتوراة ، ولم نجد منها شيئاً في التوراة !! وتمثّل إسهام التابعين في التفاسير المشهورة المنسوبة لأمثال: ابن عيينة، ووكيع الجرّاح، وابن راهوية، والبخاري وغيرهم. وتتابعت المصنفات الكبيرة كما عند: الطبري، وابن أبي حاتم، وابن ماجة، والحاكم، وابن مردوية، وابن حبّان، وأبي الليث السمرقندي، وابن كثير، والبغوي وغيرهم. وكانت هناك تفاسير أهل الأهواء والبدع كالجبائي، والقاضي عبد الجبّار. وتروج الآن التفاسير التي تعتمد على الاجتهاد، وذلك لازم مع تغيّر حاجات المسلمين ، والمجتهد مهما كان، مأجورٌ وإن أخطأ، وهو يطلب المعنى من القرآن والسُّنّة والمأثورات، ويطابق بين سياق الآيات وما هو معروف من العلوم، بهدف بيان المعنى والأحكام بحسب العصر. ومن أهم تطبيقات الاجتهاد: تفاسير الجلالين، والبيضاوي، والرازي، والطحاوي، والألوسي، وتفسير الخازن، والنيسابوري، والنسفي وغيرهم. وهناك تفاسير أخرى للفرق المختلفة، وللصوفية: كتفسير ابن عربي، وتفاسير المعتزلة، مثل الكشاف، وتفاسير الشيعة، كتفسير الكازلاني، المسمى مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار.

ومع غلبة التوجهات العلمية الحالية بدأت تظهر الكثير من التفاسير التي تمازج بين معاني القرآن والكشوف العصرية والنظريات الكونية مثل تفسير الدكتور مصطفى محمود، وأخذ فيه بما يتقن من ثقافة عصرية، ولغات أجنبية، واطّلاعات موسوعية، وما يعرف من العلوم، والسنن الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، والتشريعات المدنية والجنائية. ونحا الدكتور زغلول النجّار منحى علمياً محضاً يفسّر به الآيات الكونية ويستخدم فيه أحدث ما

وصلت إليه علوم الفضاء والجيولوجيا، أطال الله في عمره وأثابه عنا خير الثواب. وكان **الشيخ طنطاوي جوهري** قد بدأ هذا الاتجاه، ووجد صدى كبيراً لدى المثقفين والمستشرقين وأساتذة الجامعات، وكان محل دهشة غير المسلمين. ولم تتوقف حركة التفسير مع استمرار تقدّم العلوم، وستظهر شروح جديدة مع كل تقدم جديد، وعلى مدار الأحقاب وتسلسل الأزمان، **وهو الدليل على إعجاز القرآن، فمثلما كتاب الكون المنظور لا تنتهي عجائبه، فكذلك كتاب الله المقروء لن تنتهي عجائبه، وسيجد أهل العلم في ألفاظه وآياته صدى لمعارف** الكون وعلومه: **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾** (فصلت)، **فشرط المفسر للقرآن**: هو المعرفة الواسعة، والصدق في النية والقصد، والاطّلاع على وجوه النقد التي يتولاها المستشرقون خاصة والعلمانيون، ممن يقال في تسميتهم الآن أنهم **مستشرقون محليون**، أي ميولهم استشراقية وإن كانوا محسوبين على الإسلام، ولسانهم عربي، ولهم أسماء مسلمين، وهؤلاء جعلوا هدفهم الاستخفاف بالقرآن والنبوة، وانتقاص التراث. وصار على القارئ أن يحذر في كتب التفسير القديمة الخرافات والإسرائيليات، وفي كتب التفسير الحديثة أن يخرج المفسّر عن النص، ويقنع بالاستطراد في شرح المعارف الجديدة.



١٣٤. ﴿رشيد رضا وتفسير ﴿المنار﴾﴾

السيد محمد رشيد بن السيد علي رضا، من مواليد القلمون من جبل لبنان سنة ١٢٨٢ هـ، نشأ في طرابلس الشام، وهاجر إلي مصر، واتصل بالشيخ **محمد عبده** سنة ١٣١٥ هـ، وكان أول ما اقترح عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن بطريقته التي عرفت عنه، والتي كان يكتب بها في جريدة **العروة الوثقى**. وبدأ الشيخ في إلقاء دروس التفسير على طلاّب الأزهر، وكان الشيخ رشيد يحضرها ، ويكتب بعض ما يسمع ويزيد عليه، ثم قام بنشر ما كتب في **مجلة المنار**، وطبعة في أجزاء تحت اسم « **تفسير القرآن الحكيم** »، واشتهر باسم «تفسير المنار»، وظهر منها حتى وفاته سنة ١٣٥٤ اثنا عشر جزءاً، انتهت عند قوله تعالى: **﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾** (يوسف).

ولم يتقيّد الشيخ بأقوال السلف من المفسرين، ولم يستعن بالإسرائيليات، ولم يحاول أن يتعرّض للمبهمات في القرآن بالحكايات، واكتفى بشرح الآيات، والرّد على الشبهات، واهتم أن يصل بين معاني الآيات والأوضاع الاجتماعية العصرية، بدعوى أن السابقين

عليه انصرفوا إلى أشياء أخرى تشغل عن هذه المعاني وإحالاتها على الواقع، كاهتمامهم بمباحث الإعراب أو غيره، مما يحجب مضمون ومقاصد القرآن الحقيقية. وانتقد الشيخ رشيد انغماس الصحابة فى الإخبار عن القصص مما توحى به مجريات الآيات، وهو ما كان يرويه أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وجمع منها السيوطى فى كتابه «الدُّر المنثور» ست صفحات من القطع الكبير، ليس منها شىء تصحّ عليه التسمية أنه من الدُّر. فمثلاً ذكر فى تفسير الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴿١٦٠﴾﴾ (الأعراف): أن كُتب التفسير تروى أن موسى كان يحتفظ معه بحجر كان يضرب به الأرض فتنفجر العيون، فقال رشيد: إن ذلك كان من الخرافات التى اختلقها وهب، وليس لها أصل عند المسلمين ولا عند اليهود. وقال فى تفسير الآية: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة): أن المفسرين لم يألوا فى تفسير هذه الكلمات التى أتمها إبراهيم والخبط فى تعيينها، وقال ابن عباس: إنها ثلاثون خصلة من خصال الإسلام؛ وقال آخرون: إنها مناسك الحج؛ وقال آخرون: هى خصال الفطرة العشر؛ وقال رشيد: إن الأولى الأخذ بما أخبر الله كما هو، ولا ينبغى تعيين المراد. ومنهج الشيخ رشيد فى التفسير عقلانى، حتى أنه لينكر الإسرائيليات، والكثير من القصص، كقصص الجسّاسة، والدجّال، ونزول عيسى، وأحاديث الفتن، وأشراط الساعة. ولجأ فى تفسير الآيات المتعلّقة بالبقرة، مثل: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة) إلى المجاز، فقال: إن الإحياء معناه يحييها بالشريعة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة)، فالإحياء هنا ليس إحياء حقيقياً بعد موت تُسلب فيه الروح، ولكنه إحياء حُكمى، بمعنى الاستبقاء، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴿٧٣﴾﴾(البقرة)، يعنى بما يفصل بها فى الخصومات، ويزيل أسباب الفتن والعداوات، كما فى الآية: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء)، فالغرض إذن من قصة كقصة البقرة: هو ضرب المثل الحسّى للإحياء المعنوى بالشريعة، وقصص القرآن على ذلك إنما لتقريب المعانى وتصويرها تصويراً يقرّبها إلى الأفهام.

●●●

١٣٥. ﴿ القشيرى والتفسير الصوفى للقرآن ﴾

يُعدّ كتاب «لطائف الإشارات» من أروع الكتب فى التفسير الصوفى للقرآن، وصاحبه عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة، ولقبه زين الإسلام، وشهرته القشيرى، المولود

سنة ٣٤٦ هـ، والمتوفى سنة ٤٦٥ هـ، ونسبه إلى قبيله قشير العدنانية المتصلة **بهوازن**، وعاش فى نيسابور من فارس. والتفسير الصوفى سبق إليه **سهل بن عبد الله التسترى**، المتوفى سنة ٢٨٣ هـ، وكتابه هو «**تفسير القرآن العظيم**» فيما لايزيد على مائتى صفحة، **وأبو عبد الرحمن السلمى**، المتوفى سنة ٤١٢ هـ، وكتابه هو «**حقائق التفسير**» يقول فى دوافعه إلى تأليفه : لمّا رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا فى أنواع فرائد القرآن من قراءات وتفاسير، ومشكلات وأحكام، وإعراب ولغة، ومجمل ومفصل، وناسخ ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة إلا آيات متفرّقات، أحببت أن أجمع حروفاً استحسنها من ذلك، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتّبه على السور حسب وُسعي وطاقتي. واتّهم أهل التفسير «**السلمى**» بالزيغ والابتداع والتحريف، وبالقرمطة، والتشيع، والتأويلات الباطنية، ووصفه **ابن تيمية** بالكذب، وعدّه السيوطى من **أهل البدع**. ثم كان كتاب «**عرائس البيان فى حقائق القرآن**» **لروزبهان البقلى** المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، وكتاب «**التأويلات النجمية**» **لنجم الدين داية**، المتوفى سنة ٧٣٦هـ، أبرز كتابين فى التفسير الصوفى. وأما كتاب **لطائف الإشارات** للقشيرى، **فهو الأفضل فى** بابه، من حيث التوفيق بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة، وباعتبار **المصطلح الصوفى** الذى أفلح القشيرى فى ردّه إلى أصوله القرآنية، فلا تملك إلا أن تحكم **بأن علوم الصوفية هى علوم مستقاة من القرآن**، وأما ما يكون من الآيات خالياً من المصطلح فإنه **يعمد** إلى أن يستخرج منه إشارات فى الصُحبة الصوفية، والصاحب، والشيخ والمريد، والرياضات والمجاهدات والمواصلات، والكشوفات.

ورغم أن **القشيرى** اشتهر **بالرسالة**، إلا أن كتابه فى التفسير الصوفى للقرآن قمة من القمم. وقيل فى تسمية الكتاب: إنه «**لطائف الإشارات فى حقائق العبارات**»، ومنهجه فيه يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ، والكشف عن معانيها المجردة، ولطائف أسرارها، وخفيّ رموزها، تصعيداً من القلب، إلى الروح، إلى السّر، ثم إلى سرّ السرّ، أو عين السرّ، متقيداً مع ذلك **بالعلوم العقلية والنقلية**، والحرص على النصّ القرآنى، مستخرجاً الإشارات الثمينة مما فى الآيات من الأحكام والعبارات، وأسباب النزول، والأخبار والقصص. والعبارات فى الآيات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص، فمثلاً استقبال **القِبْلة** إشارة إلى أن تكون **القبلة** مقصود النفس، **والله تعالى** مقصود ومشهود القلب، فلا يتعلق القلب بالأحجار والآثار، وإنما يتفرّد لله. وأيضاً **فإن الحج** على لسان العلم هو القيام بأركانه وسننه وهيئته، ولكنه على لسان أهل الإشارة هو القصد، فقصدٌ إلى بيت الحق، وقصدٌ إلى الحق، والأول **حجّ العوام**، والثانى **حجّ الخواص** وهكذا.

وفي الصيام يقول القشيري : الصوم على ضربين، صوم ظاهر هو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية، وصومٌ باطن هو صون القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السرّ عن الملاحظات. وهكذا . . والخلاصة أن تفسير القشيري للقرآن فريدٌ في بابه، إلا أنه للصوفية وليس للناس، كل الناس، واهتمام القشيري فيه بالمعاني النفسية للألفاظ دون المعاني العقلية، والقارىء لهذا التفسير لايخرج منه بشيء مفيد، وخاصة إن كان من أهل العصر المتخصصين في العلوم، والذين اعتادوا على المنهج العلمي دون سائر المناهج النفسية التي يعوّل عليها التصوف. ولايخلو الكتاب مع ذلك من الشطحات والتهويمات.

•••

١٣٦. ﴿كم استغرقت "مدة الوحي" بالقرآن؟﴾

يقول ابن عباس: نُبّيء نبيكم ﷺ يوم الاثنين : ويقول عن أنس: استنبأ النبيّ ﷺ يوم الاثنين . وعن أبي جعفر قال: نزل المَلَك على رسول الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ٤١ من مولده ﷺ . ويؤرّخ لنزول أولى آيات القرآن من سورة ﴿اقرأ﴾ بهذا اليوم، وتؤكد ذلك الآية ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ (الأنفال) ، وكان لقاء الجمعان يوم بدر في ذكرى يوم نزول القرآن ويوافق ١٧ رمضان. وسئل أبو أيوب الأنصاري عن يوم بدر فقال : إما لسبع عشرة خلت، أو لثلاث عشرة بقيت، أو لإحدى عشرة بقيت، أو لتسع عشرة خلت. يعني إما يوم ١٧ ، أو ١٩ من رمضان.ـ وهذا عن يوم بدر، ومثله يوم حراء، إلا أن يوم حراء كان سنة ٤١ من مولده ﷺ . فإذا كانت آخر آية من القرآن نزلت هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ (البقرة)،وكان نزولها قبل وفاته بتسع ليال، وكانت وفاته في يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول، فإن تاريخ نزول آخر آية يكون ٣ من ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده ﷺ ، فتكون مدة البعثة في مكة اثنتى عشرة سنة وخمسة شهور وثلاثة عشر يوماً، ومدة الوحي في المدينة تسع سنوات، وتسعة أشهر ، وثلاثة أيام، ويوافق ذلك القول بأن مدة رسالته في مكة كانت نحو ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة نحو عشر سنوات، وأن مدة الوحي جميعها استغرقت نحو ثلاث وعشرين سنة.

•••

١٣٧. ﴿معنى النزول﴾

في الآية : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الإسراء) يسخر

المستشرقون من القول فى الإسلام بأن القرآن منزّلٌ على محمد من الله ؟ ويتعجّبون من استخدامنا اصطلاح «التنزيل» هذا، ومقصدهم الخبيث تقويض هذا القول الذى هو أساس الإيمان بالقرآن، وأساس التصديق بنبوة محمد، وأساس الاعتقاد بأن الإسلام هو الدين الحق، فلو أنهم استطاعوا زعزعة هذا اليقين عند المسلمين لتمكنوا من القضاء على الإسلام. والنزول تأتى فى القرآن بمعان شتى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** (٢٩)﴾ (المؤمنون)، وقوله: ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** (٥٣)﴾ (طه)، وليس كذلك معنى نزول القرآن، وإنما نزوله بالمعنى المجازى والاستعارى، بمعنى الإعلام به.

ويُروى عن ابن عباس أنه قال: **أُنزل القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك فى عشرين سنة**، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** (٣٣)﴾ (الفرقان)، وقوله: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا** (١٠٦)﴾ (الإسراء). أخرجه النسائى والحاكم البيهقى. وعن ابن عباس أيضاً، قال: **أُنزل القرآن جملةً واحدة إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله يُنزّله على رسوله ﷺ بعضه فى أثر بعض**. أخرجه الحاكم والبيهقى. فلما قيل لابن عباس أن القرآن جاء فيه قوله: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** (١٨٥)﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** (١)﴾ (القدر)، وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ** (٣)﴾ (الدخان)، أى أن نزوله كان فى ليلة القدر، فكيف يستقيم ذلك مع ما يعرفه المسلمون من أن نزوله تعاقب على الشهور المختلفة ؟ قال ابن عباس: **إنه** ـ أى القرآن ـ **أُنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملةً واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رِسلاً فى الشهور والأيام»**. أخرجه ابن مردوية والبيهقى. **ورسلاً** يعنى رفقاً، وعلى **مواقع النجوم**، أى نزل على مساقطها مفرقاً، أى منجماً على مدار الشهور على النبىّ ﷺ. وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع: أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشر خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**».

والسؤال الآن: من أين أنزلت هذه الكتب، ومنها القرآن ؟ والجواب عند الأوائل تفسيرًا للآية: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ** (٢١) **فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** (٢٢)﴾ (البروج)، وفى **اللوح المحفوظ** يجىء عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من دُرّة بيضاء، صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ﷺ، فيه كل يوم ستون وثلاثمائة**

لحظة، يخلق ويرزق، ويميت ويحيى، ويعزّ ويذل، ويفعل ما يشاء» أخرجه الطبراني. ـ وهذا اللوح المحفوظ هو الكتاب المقصود بالآية: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)**﴾ (الحديد)، ، وهو المسطور فيه كل شيء كما في الآية: ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)**﴾ (القمر)، فهو كتاب جامع لكل ما قضى الله وقدّر. والقرآن تنزّل من اللوح إلى السماء الدنيا جملةً في ليلة القدر في رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تنزّل من بعد على النبيّ ﷺ مفرّقاً على مدى عشرين أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين سنة، وفي ذلك يقول ابن عباس: فُصل القرآن من الذكْر، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبيّ ﷺ. أخرجه الحاكم. ويأتي في القرآن: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦)**﴾ (الإسراء)، ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)**﴾ (الشعراء). ولقد تعلمنا أنه كلما كان التفسير بسيطاً ومختصراً كلما كان أقرب إلى الصدق، وهذه التفسيرات موقوفة على ابن عباس وابن الأسقع، وفيها الكثير من الإسرائيليات، والأكثر معقولية أن هذه التنزيلات كما جاء في القرآن هي سجل للأحداث، وتكتب في الألواح وتُحفظ، لتنشر يوم القيامة كتباً لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وتحصيها، وأنها كقرآن يُتعبَّد به، وفيه الحكمة للناس، ينزل كل ليلة قدر بما يناسب السَنَة، ثم ينزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة، والأكثر معقولية من ذلك أن يقال: إن بداية نزول القرآن كان في الليلة المباركة ـ ليلة القدر ـ من رمضان، ثم تتابع من بعد على الشهور: شوال، وذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع.. فهذه إذن هي حكاية النزول أو التنزّل للقرآن، وليس من ذلك شيء، لا في التوراة، ولا في الأناجيل إطلاقاً، فالتوراة أو الناموس ألّفه عزرا، وساعده رجال المجمع الكبير وكان ذلك بعد السبي الثاني وعودة عزرا إلى أورشليم سنة ٤٥٨ قبل الميلاد، وبقية كتب العهد القديم وهي: أسفار يشوع، والقضاة، وصموئيل، والملوك، أول وثان وثالث ورابع، والأخبار أول وثان، وإشعيا، وإرميا، وحزقيال، والمزامير، والأمثال، وأيوب، والنشيد، والجامعة، وراعوث، ويهوديت، واستير، ودانيال، وعزرا، ونحميا، والأحبار ـ وعدد هذه الأسفار ٢٤ سفراً ـ وضعها مؤلفوها بعد سنة ٤٥٨ ق.م ونُسبت إليهم وحملت أسماءهم. وأما الأناجيل الرسمية فهي أربعة، وتُنسب لواضعيها: متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. وكلٌ من هؤلاء كتب قصة المسيح من وجهة نظره، فمتّى كتبها من وجه نظر يهودية؛ ومرقس كتبها من وجهة نظر الرومان؛ ولوقا كان يكتب للمثقفين من اليونان؛ وأما يوحنا فكان داعية بسيطاً

يكتب للناس العاديين. فأن يأتى القرآن وينسبه محمد إلى الله، فهذا ما أوغر صدور اليهود والنصارى على محمد، ثم كان كتابه فى النقد على اليهود والنصارى، فزاد من بغضائهم. وكان إنجيل لوقا هو أول الأناجيل المكتوبة، ووجّهه لوقا إلى شخص يدعى ثاوفيلس من غير اليهود، ويقدّر النصارى كتابته نحو سنة ٦٠ ميلادية، وكتابة إنجيل متى نحو ٦٥ ميلادية، وإنجيل مرقس نحو سنة ٦٨، وإنجيل يوحنا حوالى سنة ٩٠ أو ما بعدها، فلا مجال إذن لمقارنة نزول القرآن وجمعه ورصده بتآليف اليهود والمسيحيين الدينية، وإظهارها باعتبارها كتباً سماوية تُضاهَى بالقرآن وحسبنا الله.

●●●

١٣٨. ﴿جبريل أخذ القرآن عن الله، فكيف أخذه عنه؟ وما الذى أخذه؟﴾

فى الحديث عن النواس بن سمعان، عن الرسول ﷺ قال: «إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجداً، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهى به إلى الملائكة، فكلما مرّ بسماء سأله أهلها: ما قال ربّنا. قال: الحق. فينتهى به حيث أمر» أخرجه الطبرانى. وفى الحديث أن الله يكلم الملائكة وجبريل وحياً، وفى القرآن: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ ⑫﴾ (الأنفال)، وفيه أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ㊿①﴾ (الشورى)، و﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ⑥﴾ (فصلت)، فإن كان القرآن هو كلام الله فقد تنزّل منه تعالى على جبريل، ثم من جبريل على محمد، وقد وَهِمَ من قال إن جبريل كانت معانى القرآن تتنزل عليه فينقلها معانٍ إلى محمد، فيعبرّ عنها محمد بلغته؛ أو أن جبريل كان يترجم المعانى إلى لغة ويلقيها على محمد، وتلك أفكار اليهود والنصارى والمستشرقين، فلو أن جبريل أو محمداً نقل أىٌّ منهما المعانى إلى لغةٍ من إنشائه، لما انتسب القرآن لله، ولما كان معجزة الإسلام، وإنما هو معجزة الإسلام لأنه كلام الله، وما من فضل فيه لجبريل إلا أنه نقله إلى الرسول ﷺ، وما من فضل فيه للرسول ﷺ إلا أنه وعاه، وحفظه، وبلّغه، وقام بتفسيره، وأجرى أحكامه على الناس، وما كان له أن يبدّل فيه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ⑮﴾ (يونس)، ولا أن يتقوّل على الله ما لم يقله، كقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ㊹ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ㊺﴾ (الحاقة).

●●●

١٣٩. ﴿الفارق بين ﴿القرآن﴾ و﴿الحديث القدسى﴾ و﴿الحديث النبوى﴾﴾

القرآن، والحديث النبوى، والحديث القدسى، جميع ذلك من عند الله، والفرق بين

الثلاثة: أن القرآن كلام الله بألفاظه، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ⁦(٦)⁩﴾ (النمل)؛ **والحديث النبوي**: كلام الله بمعانيه يتنزّل به جبريل أيضاً، ويؤدّيه وحياً بالمعاني وليس بالألفاظ، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى** ⁦(٣)⁩﴾ (النجم)، فشمل ذلك كل ما ينطق به من قرآن وأحاديث يؤديها بألفاظه، وبعض هذه الأحاديث يشتهر باسم **الأحاديث القدسية**، يحكيها النبيّ ﷺ عن ربّه، وأوحيت إليه ألفاظها من الله على المشهور؛ إلا أن القرآن يتميّز عليها بإعجاز ألفاظه وعباراته، فإذا لم تكن ألفاظ القرآن وعباراته من الله لذهب إعجازه. وعلى عكس **كُتُب العهد القديم اليهودية**، **وكتب العهد الجديد النصرانية**، **والتلمود**، **ورسائل أنبياء النصارى**، فجميعها ألفاظ ومعانى لم تتنزّل من عند الله، ليس فيها أى إعجاز، والكثير منها مُملِ وركيك فى التركيب، ومعانيه متهافتة ويرفضها العقل. ونحن نعلم أن **أسفار موسى الخمسة** كتبها **عزرا الكاتب** وآخرون، وأن بقية الأسفار كتبها أصحابها، **كسفر حزقيال كتبه حزقيال**، وسفر **إرميا كتبه إرميا**؛ وأن الأناجيل روايات تُنسَب لمؤلفيها الأربعة: **متىّ**، **ومرقس**، **ولوقا**، **ويوحنا**؛ وأن **الرسائل** أملاها أصحابها الرسُل متضمنة أحكاماً صاغوها بأنفسهم. وهذا هو الفرق، فلم يكن فى كتب اليهود والنصارى **تواتر ولا إسناد**، على عكس القرآن والحديث.

والقرآن: هو المُسجّل بين دفتى المصحف، وتحدّى به النبيّ ﷺ المكذّبين، ولم يحدث ذلك مع التوراة والأناجيل، والمسلمون يتعبّدون بتلاوة القرآن، وهو معصوم من الله لم يلحقه تحريف، وسيظل كذلك إلى أبد الدهر، على عكس **الأحاديث القدسية**، فمع أنها من الله تعالى، إلا أنها ليست معجزة في ألفاظها ولا عباراتها، ولا يتعبّد المسلمون بتلاوتها، ولا تصحّ بها صلاة، ولم تصلنا بالتواتر القطعى، وبعضها صحيح أو حسن، وبعضها ضعيف أو موضوع، كالحديث: «**عبدى أطعنى أجعلك ربّانياً تقول للشىء كن فيكون**». ومن نماذجها الصحيحة ما أخرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالى! يا ابن آدم! لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى. ولو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى (أو أتيتنى) لا تشرك بى شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة**». وموضوعات هذه الأحاديث كما ـ ترى ـ تتميز بأنها عن الله تعالى؛ بينما **الأحاديث النبوية** تشتمل على نفس موضوعات القرآن: فى التوحيد، ومعانى الإيمان والأخلاق، وأخبار الأمم، وأنباء الغيب، وآيات الكون، والجنة والنار، ويوم القيامة، والحشر والنشور، والحساب والصراط، والعبادات وثوابها،

والتوبة والذكر، والجهاد والصبر، والتحاب فى الله والأخوة؛ فكأن **الأحاديث النبوية** تشرح القرآن وتفسيره، وتؤكد معانيه، والجميع ـ سواء كانت قرآناً، أو أحاديث قدسية أو نبوية، فيوضات موحى بها، إلا أن **الوحى بالقرآن بالمعنى واللفظ معاً. وبالحديث القدسى بالمعنى دون اللفظ**، والنبىّ ﷺ يعبّر عن المعنى ببيانه المفرد، وأما الأحاديث النبوية **فهى** ما ينسب إلى رسول الله ﷺ، من قول أو فعل أو حكم أو تقرير ، ومن ذلك **مثلاً** قوله ﷺ : «**خيركم من لم يترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه**»، فالكلام فى الحديث النبوى جامع لشروط البلاغة، وفيه الحكمة العالية، إلا أنه أقل بلاغة من القرآن، وكلاهما القرآن والأحاديث النبوية يشكلان معاً الإسلام.

والفرق بين **التناول القرآنى** وبين **التناول النبوى** للموضوعات الواحدة، أن القرآن يأتى مجملاً، وأن السُّنّة مجملة ومفصّلة، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١٠٤) ﴾ (آل عمران)، ونفس المعنى يأتى به الحديث : «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» رواه مسلم. ومعانيه استلهمها النبىّ ﷺ من القرآن من هذه الآية، ومن غيرها من الآيات التى يحفل بها القرآن وتتطرق إلى نفس الآداب؛ ولا غناء عن السُّنّة لمعرفة القرآن، ولا مندوحة عن الرجوع إلى القرآن لبيان أصل السنة.



١٤٠. ﴿ميزة القرآن على سائر الكلام﴾

القرآن قُرَّة عين المسلم، وفى الحديث القدسى عن أبى سعيد الخدرى : «**من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتى أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين**». وفى الحديث عن أبى هريرة «**فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**». وعن أبى سلمة عن عثمان: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**». وفى الحديث عن أبى موسى الأشعرى : «**مثل الذى يقرأ القرآن كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والذى لا يقرأ القرآن كالثمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مُرّ. ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مُرّ ولا ريح لها**». فأقسام الناس من القرآن ـ وهم مسلمون ـ **أربعة**: منهم **اثنان مؤمنان، واثنان فاجران**، فأما **المؤمنان**: **فأحدهما** على الإيمان ويقرأ القرآن ويعمل به، وعمله لذلك طيّب وما يقوله طيب، **والثانى** على الإيمان ولكنه أمى لا يقرأ ولا يكتب، ومن ثم لا يعرف ما عليه عمله، فلأنه مؤمن فما يصدر منه

طيب، ولأنه أُمى لم يقرأ فهو لا يعرف، وليست له أقوال طيبة تُؤثر عنه؛ وأما الفاجران: فالذى يقرأ منهما القرآن له أقوال طيبة، ولكن لا يعمل بها، والفاجر الذى لا يقرأ لا قول له يؤثر عنه، ولا عمل يُحتسَب له. والتشبيه **بالأترجة** لأن مذاقها حلو، ورائحتها طيبة، ولحمها وقشرها وحبّها جميعاً ينتفع به. **والحنظلة** مُرّة المذاق ولا رائحة لها. والتمثيل فى الحديث ليس عن الذى يقرأ القرآن وكفى، وإنما يقرأه ويعمل به، وتقسيم الناس جاء على هذا الأساس، والفاجر هو المنافق قد يقرأ ولا يعمل، وقد لا يقرأ ولا يعمل. وفى الحديث **فضل حامل القرآن، وفضل العمل به.**

وعن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن النبىّ ﷺ، قال: «**إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس: أوتى أهل التوراة، التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً؛ ثم أوتى أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس، فأُعطينا قيراطين قيراطين. فقال أهل الكتابين: أى ربّنا، أعطيتَ هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن أكثر عملاً؟ قال الله عز وجلّ: هل ظلمتكم من أجركم من شىء؟ قالوا: لا. قال: فهو فضل أوتيه من أشاء**»، يعنى أن من أفضال القرآن أن من يعمل به أجره أكبر من أجر من عمل بالتوراة أو بالإنجيل، وأنه قد يستحق بعمل البعض أجر الكل، مثل الذى يُعطَى على عمله من العصر إلى الليل أجر النهار كله.

•••

١٤١. ﴿قيل إن الرسول ﷺ أوصى بالقرآن، فكيف ذلك؟﴾

فى الحديث عن طلحة: أن النبىّ ﷺ «أوصى بكتاب الله»، أى أن يحُفَظ حسّاً، ومعنى، فيُكرم ويُصان، ويتّبع ما فيه، فيُعمل بأوامره وتُجتنب نواهيه، ويُداوَم على تلاوته وتعلّمه وتعليمه. وهذه هى الوصية.

•••

١٤٢. ﴿القرآن معجزة محمد ﷺ، مقارناً بمعجزات السابقين من الأنبياء﴾

معجزات موسى كما توردها أسفار اليهود عشرون معجزة، هى: ١- معجزة أن يكلّمه الربّ فى حوريب؛ ٢- معجزة العصا الثعبان (الخروج ٧/ ١١)؛ ٣- معجزة انقلاب ماء النهر والخلجان والمناقع دماً (الخروج ٧/ ٢٠)؛ ٤- معجزة إصعاد الضفادع أرض مصر كلها (الخروج ٨/ ٧)؛ ٥- معجزة إطلاق البعوض على جميع أرض مصر (الخروج ٨/ ١٨)؛ ٦- معجزة الذباب يملأ أرض مصر بالوباء (الخروج ٨/ ٢٢)؛ ٧- معجزة قتل

البهـائهم فى جميع أرض مصـر (خروج٩ / ٦) ؛٨ ـ معـجزة إصابة المصريين وبهـائمهم بالقروح والبثـور (تكوين٩ / ٩)؛ ٩ ـ معجزة البرد والمـطر فى كل مصر، وإتلاف الزروع (تكوين ٩/ ٢٢)، ١٠ـ مـعجزة الجـراد يملأ مـصر ويأكل مـا تبقى من زروعهـا (تكوين ١٠/ ١٥)؛ ١١ـ معجـزة ضرب مصر بالظلام ثلاثة أيام (خروج ١٠/ ٢٣)؛ ١٢ـ مـعجزة موت كل بكر فى أرض مصر، يستوى فى ذلك أبكار البشر أو الحيوان (خروج ١١/ ٥) ؛ ١٣ـ معجزة انشقاق البحر لموسى وانفلاقه على المصريين وغرقهم (خروج ٢٤/ ٢٧)؛ ١٤ـ مـعجـزة المن والسلوى (١٥/ ١٣)؛ ١٥ـ معـجزة ضـرب الصخـرة وخروج الماء (خـروج ١٧/ ٦)؛ ١٦ـ معـجزة كلام الله فى برية سـيناء (خروج ١٩/ ٣)؛ ١٧ـ معـجزة رؤية الله ١٨ـ معجزة كلام الله على جبل سيناء (خروج ٢٥/ ١٦)؛ ١٩ـ معجزة اللوحين كتبهما الله (خـروج ٣١/ ١٨)؛ ٢٠ـ معـجـزة كـلام الرّب فى الخبـاء (خـروج ٣٣/ ٣). وكل هذه المعجزات وقـتية ، ومقصورٌ الإيمـان بها على من عاينها، وهؤلاء مـاتوا ولم يحدثنا أحد منهم بما عاين، ولم يرو عنهم أحد بالتواتر ممن يُعرَف عنـهم الصدق، والتصديق بها محل خلاف، ولا يوجد ما يجعلنا نصدّقهـا أو نؤمن بها لأنها من الغيب، ولم يوجد منها شيء على الآثار المصرية، والمؤكد أنهـا قد جرت على أرض جاسـان من أقاليم مصـر (محافظة الشرقيـة الآن)، وأن المقصود بالمصريين هم المستوطنون من الأشـوريين الآسيويين، وهؤلاء لم تكن لهم آثار.

وأما **معجزات المسيح**، كما توردها الأناجيل الأربعة، **فهى تسع وعـشرون معجزة**، كـالآتى : ١- ولادة المسيـح من عذراء بلا أب (لوقـا ١/ ٢٦/ ٣٨)؛ ٢- تحـويل الماء إلى خـمر (يوحنا ٢/ ١-١١)؛ ٣- شـفاء رجل به روح نجس (لوقـا ٤/ ٣١-٣٧)؛ ٤- شفـاء حماة بطرس (متى ٨/ ١٤-١٥)؛ ٥- شفاء كثـيرين من كفر ناحوم (مرقس ١/ ٣٢-٣٤)؛ ٦- شـفاء الأبرص (يوحنا ٥/ ١٢-١٦)؛ ٧- شـفاء المفلوج (مـتّى ٩/ ١-٨)؛ ٨- شفـاء مريض بيت حسـدا (يوحنا٥/ ٥) ؛- ٩- شفاء الرجل ذى اليد اليابسـة فى السبت (مرقس ٣/ ١-٦)؛ ١٠ ـ شفـاء عبد قائد المئـة (لوقا ٧/ ١)؛ ١١- شفـاء من به روح نجس (متّى ١٢/ ٢٢-٣٧)؛ ١٢- معجزة إسكـات العاصفة (لوقا ٨/ ٢٢-٢٥)؛ ١٣- شفـاء الأعميين (متّى ٩/ ٢٧-٣١)؛ ١٤- شـفاء الأخرس المجنون (مـتى ٩/ ٣٢-٣٤)؛ ١٥- مشـيه على الماء (متى ١٤/ ٢٢-٣٣)؛ ١٦ـ شفاء ابنة الكنعانية (متى ١٥/ ٢١-٢٨)؛ ١٧ـ شفاء الأصم الأخرس (مرقس ٧/ ٢٤-٣٠)؛ ١٨ـ إطعام الأربعة آلاف (متّى ١٥/ ٣٢-٣٨)؛ ١٩ـ شفاء الأعـمى (مرقس ٨/ ٢٢-٢٦)؛ ٢٠ شـفاء الصـبى الممـسوس (لوقـا ٩/ ٣٧/ ٤٣)؛ ٢١ـ

إخبـاره بموته وقيامـتـه (متّـى ١٧/ ٢٢/ ٢٣)؛ ٢٢؛ شفـاء المرأة المريضـة المنحنيـة (لوقـا ١٣/ ١٠/ ١٧)؛ ٢٣- شفـاء البُرص العـشرة (لقـوا ١٧/ ١١)؛ ٢٤ ـ إقامة لعـازر (يوحنا ١١/ ٤٤)؛ ٢٥ نبوءته بسـقوط أورشليم ومـجيئـه الثاني (متّـى٢٤/ ١-٣١)؛ ٢٦- التنبؤ بإنكار بطرس وتشتت التـلاميذ (متّى ٢٦/ ٥٨)؛ ٢٧ ـ شـفاء الأعميين بالقـرب من أريحا (مـتى ٢٠/ ٢٩)؛ ٢٨- ظهـوره لتـلامـيـذه (مـرقس ١٦/ ١٤)، ويوحنا ٢٠/ ٢٥-٢٩ ، ٢١/ ١-٢٣)؛ ٢٩ الصـعود (مـرقس ١٦/ ١٩ـ٢٠، ٢٤/ ٥٠ـ٥٣). وكـمـا ترون فإنهـا معجزات لا تلزم من لم يعاينها في غير مكانها وفي غير وقتها.

وأما مـعجزة مـحمد ﷺ فهي الـقرآن، وسيظل القـرآن أبداً يتحدي المكذّبين والمشـركين، وسيبقى شاهداً عليهم، وحجةً ضدهم، فمن لم يعاصر محمداً ﷺ ويسمع منه، فهذا هو القرآن الذي بلّغه وفيـه كل ما جاء به! فإن لـم يكن يعـرف العربية لغة القرآن، فليـقرأه مترجمـاً إلى كافة لغات العالم! وحسبنا الله.



١٤٣. ﴿القرآن يثبت إعجازه ويتحدى أهل زمانه وغير زمانه﴾

المعجزة للأنبياء: من **الإعجاز**، وهي في الشرع أمرٌ خارق للعادة مقرونٌ بالتحدّي، مع عدم المعارضة في شاهد الدعوى، فإذا لم تكن مقرونة بالدعوى فهي **كرامـة، والكرامـات للأوليـاء**. والسحر والـشعوذة من الخـوارق إلا إنهما من كَـذَبة في دعوى الرسالة: ومن شروط **المعـجزة**: أن لا يقدر عليها إلا الله، وألا يأتي أحد بمثلهـا، وما جرى من معجزات للرسُل قبل النبيّ ﷺ مضى عصرها بموت هؤلاء الرسُل، ولم يتبق لنا سوى **أخبـارها**، ولم نشهد صحتها وحصولهـا فلا تلزمنا، على عكس معجزة محمد ﷺ وهي **القـرآن**، فإنه مـا يزال قائمـاً، وتواتر إلينا بسند صحـيح، من شهود لم يُعـرَف عنهم الكذب فيـما ينقلونه ويسمعونه، وكانوا كُثراً، فوقع لنا العلم به ضرورة، وتحدّى القرآن الناس في زمن تنزّله فقال: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** (٣٤)﴾ (الطور)، وتحدّاهم أكثر من ذلك، فقال: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** (١٣)﴾ (هود)، فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السور القصار، فقال: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** (٢٣)﴾ (البقرة)، وأُفحموا عن الجـواب، وتقطّعت بهم الأسـباب، وعَـدَلوا إلى الحـروب والعناد، ولو قـدروا على المعارضة لكان أبلغ في الحجـة، ومايزال التحدى قائماً باستـمرار القرآن وبقائه، **فـالقـرآن معجزة دائمة**، على عكس معجزات الأنبياء وخاصة **موسى وعيسى**، فإنها كانت وقتية، ولا تلزم المعاصـرين لأنهم لم يعاينوها، والـقرآن ما نزال نعـاينه، وسيسـتـمـر كذلك إلى أبد

الآبدين، فَعلـمَ السابقون، ويعلم الحـاضرون، أن القـرآن ليس من نظم محـمـد، ولا من اختـراع بشر، وأنـه لايمكن إلا أن يكون من لدن الله. فمـا كان نظمُـه معـهوداً كـالنظم السابق، فلمـا وضعوه على أقـراء الشعر لم يلتـئم على لسان أحد أنه شـعر، ولم يكذّبه الكهنة، وسمعه السحرة فأقروا بأنهم لم يسمعوا مثله قط. وقد تكلم المستشرقون والأحبار والقسـاوسة فى القرآن من جهة الأسلوب، فأجزموا بأنه مـخالف لجميع الأساليب الماضية والحـاضرة، وأن جـزالة لفظه لم تصحّ لمخلوق. واجـتمع فى كل سـورة وآية من النَّظْم، والأسلوب، والجزالة، ما أذهل السـابقين واللاحقين. وامتلأ القـرآن بأخبار الأمم الغابرة، وقصّ القصص عن الأنبياء، فلم يقل إلا حقاً، وما من وعد وعد به إلا تحقق، وأخبر عن أمور من المستقبل، ووعد بإظهار الدين فحدث. وذكر أطرافا من العلوم فما جاء منها أثبته العلم الحديث ولم يعـارضه، وتوافق ما ظهر منه ومـا بطن، فلم يدعْ لشيء ظاهراً وابطن نقيضه. فلما عارضه المعارضون فشلوا، لأن ما شغلهم هو الأسلوب. وأما المعانى والأخبار فقد حـاروا فيها، فكيف يأتون بهـا وعلْمهم هو علم بشر، وما كـانت لديهم من قصص وأخبار عن السابقين. ولنتأمل سورة مثل سورة الكوثر، وهى أقصر سور القرآن، فلم تزد عن ثلاث آيات قصار، ومع ذلك أخبرت عن مغيّبين هما الكوثر، والوليد بن المغيرة الذى كـان يكن البُـغض لرســول الله ﷺ، وكان الوليـد هذا عند نزول الآية صـاحـب مـال وعيال، فنـزل فيه : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ⑫ وَبَنِينَ شُهُوداً ⑬ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ⑭﴾ (المدثر)، فأنبأ أنه يهلَك ماله وولده وينقطع نسله، وقد كان. وكان الخـبر عن أبى لهب وامـرأته تحدياً لهم، وكان باستطاعتـهما أن يكذّبا السورة بإعلان إسلامهما، فلم يفعلا، وصدق قوله تعالى فى القرآن فيهما علماً وعدلاً.

وانظر إلى آية من الآيات، ولتـكن مثـلاً: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ⑦﴾ (القصص)، فقد جمعت في كلماتها القليلة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، فدلّت على أن بلاغة القرآن في القـمة، ولو كان القرآن من تأليف محمـد ﷺ كما ادّعى المدّعون، لكان أسلوب القـرآن أقل مرتبة، فلمّـا كان يتجـاوز الإرباء والزيادة، فلابد أنه من تأليـفه تعالى وليس من تأليف بشر.

وقارن بين آخر مـا يمكن أن يبلغه علْم محمد ﷺ وملكتـه، وبين حال القرآن فى العظمة والسمو والرفعة، فمحمد ﷺ، قال مثلاً عن الجنة : «فيها ما لاعين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر» أخرجه مسلم ، بينمـا قال تعالى في القرآن: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ⑦①﴾ (الزخرف)، ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ⑰﴾

(السجدة)، فكان كلام القرآن أقل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأقل حروفاً، فإن كان ذلك فيما جاء من آية واحدة، فما بالك فيما يكون من السورة؟ وبمثله قامت الحجة على العرب السابقين - وهم أرباب الفصاحة، وتقوم الحجة على أهل العلم المعاصرين، بما في القرآن من علوم ومعارف ومعان ودلائل، **وهذا هو الفرق بين معجزة القرآن عند محمد ﷺ، ومعجزة غيره من الأنبياء السابقين : أن معجزة القرآن مستمرة، وتحدّيه أبدى.**



١٤٤.﴿أسلوب القرآن﴾

أسلوب الكلام : هو طريقة تأليفه واختيار ألفاظه؛ **وأسلوب القرآن** هو طريقته المتفردّة فى التعبير، وذوقه العالى فى اختيار الألفاظ وصياغة التراكيب بما يناسب المعنى ويقصد إلى الغرض، فلغة الوعد بخلاف لغة الوعيد، وعبارات القصة بخلاف عبارات الأحكام، وألفاظ يوم القيامة نقيض ألفاظ يوم من أيام الزينة، وفى هذين المثلين المتقاربين فى الآية: **﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ (٥٨)﴾** (البقرة)، والآية: **﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ (١٦١)﴾** (الأعراف)، ففى الآية الأولى استخدم الفاء، فى كلمة «**فكلوا**»، واستخدم الواو فى نفس الكلمة «وكلوا» فى الآية الثانية، غير أن المعنى فى الآية الأولى أن الأكل معطوف على دخول القرية، ومتعلق به تعلق الجواب بالابتداء، أو تعلق الشرط بالجزاء، فكان استخدام الفاء، لأن الأكل شرطه الدخول، بعكس الآية الثانية فإن الأمر فيها ليس مجرد دخول ولكنه سكنى، والسكنى طول مقام، وفيها التريث والتفكير، وربما البحث عن الطعام، وربما اتباع وسائل للسكنى ثم وسائل إلى الطعام، فليس هناك مجال للعطف، ولذلك وجب أن يكون العطف بالواو وليس بالفاء، **لأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب**، واما **الواو فتفيد الحال**، والأحوال كثيرة بحسب مناسباتها، وجميعها تحتشد فيها الصور وتصلح لها ألفاظ وعبارات دون ألفاظ وعبارات، **والأسلوب هو الصورة الفنية التى يأتى عليها وصف هذا الحال دون ذاك**، والكلام يتفاوت فى البلاغة فى ذاته ولدى القارئين أو المستمعين، وفى كلام القرآن تأتى الألفاظ وقد اختيرت اختياراً، والعبارات وقد صيغت بإحكام، فيسمعه أو يقرأه الناس فى عصر ومصر فيفهمون منه أشياء، ويتذوقونه بطريقة تلائمهم، فكأن القرآن قد جاء ليتذوقه كل الناس، فالألفاظ فيه منظومة نظاماً صوتياً له جرسه الجميل، وائتلافه فى الحركات والسكنات، وفى المدّات والغنّات. وللقرآن توقيعه الخاص، وكأنه شعر وهو ليس بشعر، وله إطلاق النثر وإرساله، وليس من السحر ولا الكهانة، لأنه يدعو إلى الخير والحق، ويرسّخ معانى الجمال والجلال والكمال، وقيل

فيــه : إن له لحلاوة، وعليه طــلاوة، أعلاه منير، وأســفله مشرق، وإنه ليــعلو ولا يُعلى عليه، ويُرضى كل الأذواق، خاصةً وعامة، وكل العقول، وينفُذ إلى القلوب، ويرتبط فيه الفكر مع الجــمــال، والمعنى مع الســياق، وجــودة الســبك مع إحكام الســرد، وإنه لشيء عجيب أن يتُــناوَل الموضوع الواحد في عدد من الســور فلا تحس بالتكرار، لأن اللقطة في هذه الســورة خلاف اللقطة في تلك، وإن كــان المشهــد واحداً، والعظة هنا خــلاف العظة هناك، من غيــر تفكيك للمعاني، ولا تنافــر للموضوعات، والتناسب يربط بين الجــميع، بطرق تتعــدد بين الإنشاء والإخــبار، والإظهار والإضــمار، والتكلم والغــيبة، والحــضور والاستــقبــال، والاستــفهام والإقــرار، والوصف والسرد، والاســميــة والفعليــة، والوعد والوعيد، والكلام فيها جميعاً يتحوّل من النمط إلى النمط بسرعة لا تُجارى، فلا تضطرب المعاني، ولا تتعثر المقاصد، فيجتــمع الإجمال مع البيان مع تقابلهما، ولا يزيد اللفظ على المعنى ولا يقصــر، ولا يقتر ولا يسرف. وأسلوب القــرآن ولغته من وجوه إعــجازه، وفي القرآن آلاف المعجزات!



١٤٥. ﴿تحداهم فعجزوا عن الإتيان بمثله﴾

في القرآن: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)**﴾ (الأنفــال)، فهل فعلوا؟ وهل أتوا بمثله؟ أم أنهم فشلوا وعجــزوا وضعفوا؟ والقول هو قول كــفّار قريش زمن النبيّ ﷺ، وهو نفسه قول من جــاءوا بعدهم وحتى اليــوم، من أمثــال ابن الراوندي، وعبــد المســيح الكندي، وجمــاعة العلمانــيين والعولميين والتنويريين، من الوزراء والصحفيين والمثقــفين، وبدلاً من الردّ الصريح بتأليف شيء مواز للقرآن في قصصــه وأحكامه وتشريعاته وحججه ودعوته إلى إله واحــد، لم ينهضوا بعمل واحد جّدي واكتفوا بالقول: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا**﴾. وفي الأدب الفرنسي شيء من ذلك عن شخصية اسمها مسيو جوردان يتحدث في الأدب، والرواية، والشعر، ويَحكي أنه لو فقط يُفرغ نفــسَه لكتب شيئاً لم يســبقه أحد إليه، وأثناء ذلك لم يحــاول ولو مرة أن يُفرغ نفسه، وكــذلك هؤلاء المدّعون من مستشــرقين أجانب وعرب، وفي الخــبر أن عبــد المسيح الكندي هذا قال في القرآن : إن الأنباط، والأسقاط، والعَجَم، والمغفلين، والأغبياء الذين لا معرفة لهم باللسان العربي، هم الذين ينخدعــون بدعوى إعجاز القرآن ـ يعني أمثاله لا تخدعــهم هذه الدعوى، فــأين ما كتــب ؟ لا شيء. وكذلك كان يقــول أحدهم واســمه النضر بن الحارث في زمن الرسول ﷺ، وذهب من أجل مشروعه للردّ على القرآن إلى

فارس ـ يجمع المراجع والكتب، ويتعرّف أخبار الملوك، وكان فيما يزعم يقول إن القرآن أساطير أولين، فلما عاد إلى مكة كان كلما سمع أن محمداً يقرأ من القرآن على الناس، جلس إليهم بعده يحدّثهم بما يعرف من هذه الأساطير، ويختم كلامه متسائلاً: بالله أيناً أحسن قصصاً ـ أنا أو محمد؟ ووقع النضر هذا فى الأسر يوم بدر، وقتل صبراً، وكان الذى أسره المقداد بن الأسود. ومعنى قوله إن القرآن أساطير الأولين، أن محمداً يقتبسها ويتعلّم منها ويتلوها على الناس كما قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦)**﴾ (الفرقان).

●●●

١٤٦. ﴿إعجاز القرآن لا يدل على أنه من كلام الله﴾

يصر المستشرقون على أن القرآن ليس من عند الله، وأن محمداً هو مؤلفه، غير أننا نعرف أن كل أديب له أسلوبه الخاص الذى ينفرد به، والنابع من شخصيته ومزاجه وثقافته وظروف حياته وبيئته التى نشأ فيها، ولايمكن أن يتشابه أديبان ولا أن يقلد أحدهما الآخر، أو أن يأتى أحدهما بمثل ما كتب وصنّف الآخر، ويفسّرون إعجاز القرآن تفسيراً عجيباً، فيزعمون أن إعجاز القرآن المزعوم هو أن كل متأدّب يعجز عن الإتيان بأسلوب كأسلوب غيره، وأسلوبه لذلك مُعجز، والقرآن من هذا السبيل معجز، فالقول بأن القرآن لا يمكن لبشر أن يأتى بمثله لا يدل على أنه كلام الله، وأنه مقدّس !!

ويخطئ المستشرقون من اليهود والنصارى والملاحدة، والمستشرقون الجدد من العلمانيين والتنويريين المسلمين والمصريين، إذا فهموا أن تحدّى القرآن لهم بأن يجيئوا بسورة منه، أنه **يلزمهم أن يكون ما يجيئون به صورة للقرآن، وبنفس مناهجه وأسلوبه، فالتحدّى لم يقصد إلى هذا**، بل أراد أن يصنّفوا شيئاً من عندهم، وبأسلوبهم، مهما كان شكله أو نمطه، أو المزاج الذى صيغ به، أو المنهاج الذى اتبعوه فيه، بشرط **أن تكون له قيمة كقيمة القرآن**، وأن يستحدث ما استحدث القرآن فى الناس والمجتمعات من تغييرات ثورية، وما صنعه فى التاريخ من انقلابات، وأن تكون له قيمة بيانية وجمالية كالتى للقرآن، فيجتمع عليه الكبير والصغير، والنساء والرجال، والناس جميعاً من مختلف الأمصار والأزمان، فهذا معنى التحدى، ومجاله أن يتنافس أهل الصفوة، فيتماكنون أو يتفاضلون فيما بينهم، ولكل منهاجه وشرعته ومراده وأسلوبه وصنعته، فإن كانوا للنبىّ ﷺ أكفاء، فسيأتون بمثل ما يدّعون أنه جاء به، فإذا كانوا أفضل منه، كان ما سيأتون به هو الأحسن، وحتى لو كانوا

أدنى لن يشق عليهم أن يكونوا قريبين منه. والتحدى مفتوح من البعثة وحتى اليوم ! وما انبرى أحد أبداً أن يبارى القرآن، ولم يتصدوا له مجتمعين ولا منفردين، علماً بأن المنافسات هى دأب العصر، ونسمع عن مثلها فى مجال الرياضة، وفى المسابقات الفنية، وتدعى إليها المكاتب الهندسية، وما جعلت الجوائز الكبرى كجائزة نوبل وغيرها إلا لمكافأة المميّزين، الذين يتقدمون بمشاريع متباينة بحسب الأشخاص، ولكنها فى المجال الواحد. والتحدى الذى يطرحه القرآن هو من هذا القبيل، فهو ليس بدعة، ولم يأت القرآن فيه بجديد، وأئمة البيان فى العالم بالآلاف، والمبدعون فى الفكر الدينى كُثر، والمستشرقون يدّعون العلم بالعربية، ولم يكن من شروط التحدى مع ذلك أن يكون المثيل للقرآن بلغة العرب، فليكن بأى لغة كانت، ومن أى قوم من الأقوام. ولقد مضى على طرح هذا التحدى نحو **ألف وخمسمائة عام**، ولم نسمع عن متقدم واحد أو عدد من المتقدمين، والقرآن يتحداهم أن يظاهروا بعضهم البعض، وأن يكون معهم الإنس والجن لو استطاعوا، وأن يكونوا لبعضهم البعض ظهيراً. وحتى الآن فإن ذلك **دليلٌ وأى دليل على أن القرآن من لدن عزيز حكيم، وليس بكلام محمد ولا غير محمد من المخلوقين.**



١٤٧. ﴿ما القول فى أن ادعاء "إعجاز القرآن" هو نفسه ادّعاء إعجاز الكلام النبوى، فلماذا يكون القرآن المعجز هو كلام الله، والكلام النبوى هو كلام محمد؟﴾

الصحيح أن كلام القرآن معجز وكذلك الكلام النبوى، ولكن معنى الإعجاز فى الحالين ليس واحداً، ففى القرآن يعنى الإعجاز أن من يشأ مماثلة القرآن، لابد أن يفشل، ولن يستطيع أن يأتى بسورة من مثله، لا من حيث الموضوع ولا الصياغة. وفى **الكلام النبوى** فإن الإعجاز يعنى البلاغة، وكلامه ﷺ كلام بشر، ومحمد ليس إلا بشراً يوحى إليه، وما يوحى إليه يتعلق بالموضوعات، وأما الكلام فمن عند محمد، ولذا فقد تكون للحديث الواحد روايات شتى، وفى بعضها زيادة، وفى بعضها نقص، وقد تتغير فيها الألفاظ، وطالما اتفق الناس على الموضوع الواحد فإن تعبيراتهم عنه تتشابه فى أشياء وتتماثل فى أشياء. وقد تشابهت أقوال النبىّ مع أقوال الصحابة فى أشياء حتى ليحار الباحث المدقق، هل هو من أحاديث النبىّ أم أنه من أحاديث الصحابة؟ ولو كان كلام القرآن قد صدر عن محمد كالأحاديث التى صدرت عنه لتشابه الاثنان وتماثلا، ولا تملك وأنت تسمع الكلام النبوى إلا أن تقول هذا كلام بشر، ورغم أنه عالى البيان ويتفوق على كلام الناس، إلا أن تفوقه من باب أن الكلام قد يكون بليغاً، وقد يوجد الكلام الأبلغ

منه، وكلاهما كلام بشر، وأما كلام القرآن فالبلاغة فيه في القمة، ولا تدانيها بلاغة بشر، ولو كان الكلامان صادرين عن محمد لكان له أسلوبان مختلفان ينبثان بشخصيتين مختلفتين، ومزاجين متباينين، وثقافتين متباعدتين، وذلك هو المحال.



١٤٨. ﴿القرآن وروح العصر: فرية أن القرآن يمثل روح عصره أصدق تمثيل﴾

المستشرقون اليهود والنصارى، والمستشرقون الجدد من المسلمين المثقفين ثقافات غربية، ومن دعاة التنوير والعلمانية والعولمة إلخ، هؤلاء هم الذين يفترون هذه الفرية، وهم ملاحدة أصلاً، وفي زعمهم أن القرآن هو الأثر الوحيد الباقي من عصره، وأنه انعكاس لكل ثقافة ذلك العصر، يريدون بذلك أنه نبتة طبيعية للعصر وليس فيه شيء من الوحي، ولم يُوحَ به لمحمد، وإنما ما به من نظرات ونظريات، ومعلومات ومعارف، وحِكم ومأثورات، جميعها من إملاء العصر. والرّد على هؤلاء : فلماذا إذن لم يؤمن أهل هذا العصر به ؟ ولماذا كذّبوا محمداً وهو لم يفعل - فى زعمهم - إلا أن جمع التراث، وحشد مفرداته، وترجم عنه أصدق ترجمة كما ادّعوا ؟ ولماذا حرصوا على تبهيته وتكذيبه، وافتروا أن ما جاء به القرآن هو من تعاليم بحيرا الراهب أو غيره؟ ولم يردعهم أن بحيرا وغيره لا يعرفون العربية، وألسنتهم ودياناتهم أعجمية، فهل الذى يقول بالإسلام يكون قد سرق، أو سطا، أو استعار، أو استفاد من مفردات لغات غريبة، وديانات عجيبة، مغايرة للإسلام كل المغايرة ؟ وتتأبّى طبيعة هذه الديانات وتلك اللغات أن تكون مصدراً لهدايات القرآن وأسلوبه البليغ وتعبيراته المتسامية، ولنقارن بين فصل من فصول أى من الكتب المشهورة كأسفار موسى، أو أسفار العهد القديم أو الجديد، لنرى الاختلاف فى التعاليم وفي المنهج، وفى اللغة والأسلوب، وأجملها القرآن جميعها في وصف واحد فذكر أنها جهالات وضلالات، وانبرى يصحّحها ويقوّم معوجها، ونبّه إلى المنكرات فيها، واستحث الناس أن يطرحوها عنهم، وينبذوها من اعتقادتهم.

ولو كان بحيرا الراهب أو الحدّاد الرومي جبرا، أو سلمان الفارسي، أو أى ممن افتروا أن محمداً تلقى عليه - هو مصدر كل هذه التعاليم فى القرآن، وكل هذه الأحكام والهدايات، وهذا الفيض المعجز من الفلسفات والنظريات، والمفاهيم والدلالات، والأسماء والمعلومات، لكان الأحرى أن يكون بحيرا أو سلمان، أو غيرهما، هو النبىّ، وأن ينهض دون محمد بالرسالة، وأن يُنْدَب لها أو ينتدب لها نفسه ! وهل كان من المعقول أن يحصّل محمد كل هذه المعارف ويُصقل بها لسانه فى هذا الوقت القصير ، وهو

الذى بدأت بشارته وهو فى الأربعين، ولم يكن متفرغاً تماماً ليتتلمذ على أحد، لانشغاله بتجارة خديجة، وكان أُمياً لم يقرأ كتاباً، فكيف يتسنّى له رغم كل هذه المعوّقات أن يُنضج نفسه ثقافياً، ويعلّم نفسه ويتعهدها كل هذا التعهّد والعلم، الذى أثمر معجزة القرآن، ومعجزة النبوة معاً. فأما القرآن فقد تحدّى أن يأتوا بعشر سور مثل سوره، أو حتى بمثل سورة واحدة من سوره؛ وأما النبوّة فقد صار بها محمدٌ من أُميّة بليدة إلى أستاذية رشيدة، يصحّح الضلالات السائدة والأغاليط المنتشرة ! وأى ثقافة هذه التى نقلها محمد من البيئة والعصر إلى القرآن، وهو الذى يصحّح ويقوّم، ويطلق على السائد من الأفكار والتقاليد اسم الجاهلية ؟ وكلامهم يرقى الى أن القرآن صورة من هذه الجاهلية، وذلك محض افتراء وأى افتراء !!

●●●

١٤٩. ﴿أسلوب من أوصاف القرآن﴾

لما كان القرآن جليل القدر، وفيه بيان كل شىء، وشفاء لما فى الصدور، ومعجزة للنبىّ ﷺ، أقسم به الله تعالى فقال: ﴿ **وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ①** ﴾ (ص)**والواو** هى واو القسم، وذى الذكر، قيل: أى ذى الشرف، فمن آمن به كان له شرفاً فى الدارين، كقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ⑩**﴾ (الأنبياء) أى فيه تشريفكم. ثم إن القرآن شريف فى نفسه، لإعجازه واشتماله على ما لم يشتمل عليه غيره. وقيل: ذى الذكر، أى ذى البيان، ففيه ذكر ما يُحتاج إليه فى أمر الدين. وفيه ذكر أسمائه تعالى التى نعرفه بها، وفيه الموعظة تذكّر وتحذّر وتبشّر.

●●●

١٥٠. ﴿القرآن فيه شرف المسلمين﴾

يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ⑩**﴾ (الأنبياء)، **والكتاب** هو القرآن، وفيه ذكركم أى فيه شرفكم، أو فيه أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب، أو فيه الحديث عنكم، وعن مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم، أو فيه العلم بما فيه حياتكم، لقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ⑭**﴾ (الزخرف). والقرآن شرفٌ للنبىّ ﷺ، لأنه معجزته، وشرفٌ لنا إن عملنا بما فيه، ودليلُ ذلك قوله ﷺ: « **القرآن حجة لك أو عليك** ».

●●●

١٥١. ﴿فى القرآن من كل مثل﴾

يحفل القرآن بالعبر وأخبار القرون الخالية، وبدلائل الربوبية، وهو فى جانب منه

زجر، وفى جانب بيان، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ (٥٤)﴾ (الكهف)، أنه تعالى بيّن فيه الأمثال، وكرّر الحجج والمواعظ.

●●●

١٥٢ ﴿القرآن تبيان لكل شيء﴾

الآية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ (٨٩)﴾ (النحل)، نظيرها: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨)﴾ (الأنعام)، يعنى ما ترك الله شيئاً من أمر الدين إلا وقد دلّل عليه فى القرآن، إما دلالة مبيّنة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها الرسول ﷺ، أو يتفكّر فيها المسلمون بمرجعية القرآن، وينتهون فيها إلى رأى يُجمعون عليه، أو يتدبّرها العلماء قياساً على ما ثبت من الكتاب، ومنه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ (الحشر)، فأجمل فى هذه الآية ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه لم يفرّط فى الكتاب من شيء إلا ذكره، تبياناً له، وتفصيلاً أو تأصيلاً، فصدق إذ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا (٣)﴾ (المائدة).

●●●

١٥٣. ﴿الاستهزاء بالقرآن وبآيات الله﴾

الاستهزاء هو السخرية، يقال هزأ هُزْأً وهزواً، والاستهزاء توجّه منذ البداية إلى الله والقرآن وآياته، والصلاة، والرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)﴾ (التوبة)، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا (٤١)﴾ (الفرقان)، ومصدر كل ذلك التكذيب، كقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾ (الأنبياء).

●●●

١٥٤. ﴿القرآن وطريقته الأصوب والأعدل﴾

القرآن كتاب المسلمين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)﴾ (الإسراء)، والأقوم: هى طريقته التى هى أشد طريقة وأعدلها وأصوبها، وهى السواء، والوسط، وبشارته للمؤمنين الصالحين أن لهم الجنة، ونذارته للكافرين بالبعث، وأن لهم النار، وهذا وعد ووعيد، والقرآن فى الكثير منه وعدٌ ووعيد.

●●●

١٥٥.﴿السواء كمنهج قرآني﴾

السواء : هو العدل والمساواة في الاعتدال : ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴿٥٨﴾﴾ (الأنفال) كقول الشاعر:

فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء ∴ حتى يجيبوك الى السواء

والسواء: هو الوسط كقوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ (الصافات)؛ وهو التوسط بين الجهر والسرّ، كقوله: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴿١٠٩﴾﴾ (الأنبياء). وهذا السواء إذن، أو هذه الوسطية هي منهج القرآن.

•••

١٥٦.﴿الوسطية منهج القرآن﴾

القرآن يدعو إلى الوسطية في كل شيء، كقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴿٨٩﴾﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (القلم)، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿١٤٣﴾﴾(البقرة)، ووسط الشيء: خيره وأعدله. ولما كان الوسط يجانب الغلو والتقصير كان محموداً، والأمة الوسط: أمة الإسلام، لأنها لا تعلو علو النصارى، ولا تقصر تقصير اليهود. وخير الصلوات **الصلاة الوسطى**، تنبيهاً إليها حتى يكون الالتزام بها. **وأوسط الطعام**: يعنى الملائم والمناسب. **وأوسط الإخوة**: لا هو بالصغير الغر، ولا بالكبير الأحمق، وفي الحديث : «**خير الأمور أوسطها**»، وعن عليّ بن أبي طالب : «**عليكم بالنمط الأوسط، فإليه ينزل العالى، وإليه يرتفع النازل**»، **والنمط** هو الطريقة، ويقال هو **أوسط القوم**، **ووسط القوم**، أى من خيارهم. **والوسط** يكون بين شيئين. وكل موضع أو موقف قيل فيه بين كذا وبين كذا فهو وسط، وقال أحدهم يعظ صاحبه :

لاتذهبن فى الأمور فَرَطاً ∴ ولا تسألن إنْ سألتَ شَطَطاً
وكن من الناس جميعاً وسطاً

•••

١٥٧.﴿هل من اللازم تعلم القرآن من الصغر؟﴾

علماء التربية وعلم النفس يؤكدون على تدريب الذاكرة الحافظة في سن مبكرة، والرأى مع القرآن أن يُبدأ بتعليم قراءة رسم الخط فيه، وتعويد الطفل على جرس ألفاظه، وأن يفهم أن للألفاظ معان. وكان الأوائل يكرهون أن يعلموا أطفالهم القرآن حتى يعقلوا،

والطفل إن تعلم ما لا يفهم يملّه ويزهد فيه، وأنسب الأعمار للبداية بالتعلّم فى السن بعد السابعة، والبكور فى التعلّم أدعى إلى ثبوت ما نتعلم ورسوخه، كما يقال: التعلّم فى الصغر كالنقش فى الحجر. ومنهج تربية الطفل يُستحب له أن يُترك أولاً فى ألعابه يتعلّم منها، ولأصحابه يتكيّف معهم، ثم يؤخذ بالجدِّ على التدريج، ومع ذلك فالأمر فى بداية الجدّ وكيفيته وكميته متروكٌ بحسب كل طفل. ويروى عن ابن عباس أنه حفظ القرآن وقد ناهز الاحتلام وكان ختيناً، ولم يكن الأوائل يختنون الطفل حتى يُدرك، والاحتلام لا يكون إلا لمن قارب الثالثة عشرة من عمره.

●●●

١٥٨. ﴿فضل القراءة بالنظر والقراءة بالحفظ﴾

فى رواية أن الرسول ﷺ زوّج صحابياً بما يحفظ من القرآن، وجعل مهر المرأة أن يعلمها الصحابى ما يحفظ منه. ولمّا سأله عمّا يحفظ من السور، قال له: «**أتقرأهن عن ظهر قلبك** »؟ قال نعم، قال : «**اذهب، فقد ملكتكها بما معك من القرآن**». وقد يكون معنى ذلك أن **تلاوة القرآن عن ظهر قلب** أفضل من **تلاوته نظراً من المصحف**، أو لاستثبات أنه يحفظ هذه السور عن ظهر قلب ليتمكن من تعليمها لزوجته، وفى الحديث عن عبيد الله بن عبد الرحمن قال : «**فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظهراً، كفضل الفريضة على النافلة**»، ومن طريق ابن مسعود قال : «**أديموا النظر من المصحف**»، لأن القراءة فى المصحف أسلم من الغلط، ومع ذلك فالقراءة عن ظهر قلب أبعد من الرياء، وأمكن للخشوع، وعلى الجملة فإن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والمهم قراءة القرآن على أى حال، وكما فى الحديث عند أبى داود عن أبى أمامة : « **فإن الله لا يعذّب قلباً وَعيَ القرآن**». والسبيل إلى الوعى بالاستذكار والتعاهد.

●●●

١٥٩. ﴿فهل من الضرورى تكرار القراءة والحفظ ؟﴾

استذكار القرآن يعنى المداومة على القراءة نظراً من المصحف، أو عن ظهر قلب، وفى الحديث عن ابن عمر : «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**»، وعن عبد الله بن مسعود، قال: «**واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النَّعم**»، وفى رواية أخرى : «**تعاهدوا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصياً من الإبل من عُقلها**»، **وتعاهد القرآن** يعنى تجديد العهد به بملازمة تلاوته، وصاحب القرآن هو الذى يألفه بالمداومة على قراءته، فيذل له لسانه، ويسهل عليه

استذكاره، فإن هَجَره ثقلت عليه القراءة. **والإبل المعقّلة** المشدودة بالعقال أى الحبل، شبّه درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير يُخشَى منه الشراد، وطالما أن التعاهد للقرآن موجود فالحفظ موجود، كما أن البعير طالما بقى مشدوداً بالعقال فهو محفوظ، وخصّ الإبل بالذِّكر لأنها أكثر الحيوانات الأليفة نفوراً، وفى تحصيلها بعد شرودها صعوبة. وقوله **أشد تفصّياً** أى تفلُّتاً وتخلُّصاً، والإبل تطلب التفلُّت ما أمكنها، فإن لم يتعاهدها بربطها تفلتت ، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت. والمسلم الجيد إذن هو الذى يداوم على الاستذكار ما استطاع.



١٦٠.﴿فهل للقراءة مكان مشروط أو وقت معلوم ؟﴾

القراءة جائزة فى كل مكان، بوضوء ومن غير وضوء، وفى الحمام، وفى الطريق، وعند البخارى، عن ابن مغفّل قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته **سورة الفتح**». وعن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ اضطجع فنام حتى إذا انتصف الليل استيقظ، فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ **العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران**، ثم قام إلى شَنّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلى». **والشَّنّ** هى القربة للسقاء. والقراءة مطلوبة، فى الحمام أو غيره، والاستكثار منها مطلوب، وكل منا يكثُر أن يأتيه الحدث، أفكلما كان الحدث توقفت القراءة ويفوت بذلك الخير الكثير. والمسلم الجيد لايرى بأساً ولا كراهة بالقراءة فى أى مكان.



١٦١.﴿وماذا بشأن نسيان القرآن ؟ وهل يمكن أن ينساه النبىّ ﷺ ؟﴾

إن نسيان القرآن يدل على عدم الاعتناء به والتهاون فى استذكاره وتعهّده. والذى يحفظ القرآن تعلو رتبته، فإذا ما وعاه وعمل به بلغ تمام الحُسن. وتَرْكُ معاهدة القرآن يفضى إلى الرجوع إلى الجهل، والرجوع إلى الجهل بعد العلم أمرٌ شديد. وعن عبد الله بن مسعود فيما أخرجه البخارى : أن النبىّ ﷺ قال : «**بئس ما لأحدهم، يقول نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّيَ**»، يقصد بذلك أن يزجر الناسي، **والنسيان** منه عضوى كما فى الشيخوخة مثلاً، أو للإصابة بتصلب فى شرايين المخ إلخ، ومنه **نفسى**، بسبب ضغوط الحياة، أو كراهة ما لانحب أن نذكره، وقد ينسى المرء لاشتغاله بالصيام أو الاعتكاف أو الجهاد. **والنسيان المكروه** تتسبب فيه ضغوط الأمور الدنيوية، والمسلم الجيد هو الذى لا يمر عليه **أربعون يوماً** إلا وقد راجع القرآن مرة، وهذه الأربعون يوماً هى التى ينصح بها علماء

النفس فى أمور الذاكرة. وقد ورد في حديث ابن مسعود فى السهو : «**إنما أنا بشرٌ مثلكم أنسى كما تنسون**»، وعن عروة، عن عائشة فيما رواه البخارى قالت : سمع النبىّ ﷺ رجلاً يقرأ فى المسجد فقال : «**يرحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا**»، وعن هشام زاد : «**أسقطهن من سورة كذا**»، وفى رواية أخرى لعروة عن عائشة قال : «**كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا**»، وفى هذه الروايات حُجة لمن يجيز **النسيان على النبىّ** ﷺ، فيما ليس طريقه البلاغ، وكذلك فيما طريقه البلاغ. وطالما أنه نسيان فلابد أن يكون قد بلّغه أولاً ثم نسى، ولكنه يتذكره من بعد، إما بنفسه، وإما بغيره، فكأنه **ليس نسياناً على الحقيقة، وإنما كأنه النسيان أو أن له صورة النسيان وليس النسيان، أو أنه ينسى ليعلّم** ... وفى القرآن : ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)**﴾ (الاعلى)، معناه لا تنسى ما نقرئك إياه، ومعنى «**إلا ما شاء الله**»، ما قضى أن تُرفَع تلاوته، فهذا هو النسيان المقصود، وقد يقال إن معنى «**فلا تنسى**» أى **لا تترك العمل به**، إلا ما أراد الله أن ينسخه، ويدخل فى قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (١٠٦)**﴾ (البقرة)، قرأها ابن مسعود «**ننسأها**» أى نؤخرها ونرجئها، وكذلك قرأها عمر بن الخطاب. وعن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبىّ ﷺ الوحى بالليل وينساه بالنهار؛ وعن قتادة قال : كان الله عز وجل يُنسى نبيّه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء». وما يشاء من نسخ أو نسيان إنما هو لمصلحة الناس ولخيرهم، أو رفقاً بهم. والصحيح أن آيات مثل: «**سنقرئك فلا تنسى**» نزلت للمسلمين جميعًا وليس للنبىّ وحده ﷺ. والنسيان فى الآية ليس هو النسيان المعهود، ولكنه زيادة تنبيه، بمعنى تنبّه وكن فى قمة وعيك أثناء القراءة ليثبت فى ذاكرتك.

●●●

١٦٢. ﴿فما شأن من لا يقرأ القرآن ؟﴾

المرء مع من يحب ، والمسلم الذكى مع الله دائماً، والقرآن كلام الله، وعند أهل الحكمة فإن من يحب حكيمه يلازمه ويحفظ كلامه، والله يقول: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠)**﴾ (المزمل)، **واقرأوا** فعل أمر كأقيموا الصلاة واءتوا الزكاة، وكان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من القرآن : ﴿**إقرأ**﴾ ، وكتاب الله أعطاه الله اسم القرآن ، من القراءة، وقوله تعالى: ﴿ **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)**﴾ (الإسراء) فيه تحبيذ للقراءة فى الفجر، فهى أجلى للصوت، وأفضل فى النفس، وشحنة وعظية

وإيمانية لمن يريد أن يكون يومه مباركاً. والمسلم الذكي عليه أن يتعلم القراءة والكتابة، وأن يهجر الأميّة، ليكتمل إيمانه ويربو علمه، والإسلام علم ، وطريقة العلم القراءة، والقراءة تبدأ من الصغر، وليست العبرة بعدد ما نقرأ من كلمات أو كتب، وإنما العبرة بما يتخلّف لدينا من علم نافع وحكمة بالغة، وفي القرآن علم وحكمة، والصغير لو تعلم القرآن حُفظ من الزلل، واستقام لسانه، وانصلحت عقيدته، وسلم طريقه.

●●●

١٦٣.﴿إثم من يراءى بالقرآن، أو يأكل به، أو يفجر به﴾

إذا كانت قراءة القرآن لغير الله فهى للرياء، أو للتأكُّل به، ومن الناس فى زماننا من يفجر بالقرآن، وفى الحديث عند أبى عبيد، عن أبي سعيد وصحّحه الحاكم : «تعلموا القرآن واسألوا الله به، قبل أن يتعلمه قومٌ يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر : رجلٌ يباهى به، ورجلٌ يتأكل به، ورجل يقرأه لله». وعند أحمد وأبى يعلى، عن عبد الرحمن بن شبل : «اقرأوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به»، والغلو هو التشدّد، والجفوف عن القرآن هو الانصراف عنه، والمباهاة بالقرآن هي فعل المرائى ليستعظم به على الناس، والذى يتأكّل به هو الذى يقرأه على الناس استدراراً لأموالهم، أو تكسُّباً على القبور أو فى المياتم. وعند أبى عبيد عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ، قال : «سيجيء الزمان يُسألُ فيه بالقرآن، فإذا سألوكم فلا تعطوهم»، والسؤال يعنى الشحاذة. والنفاق بالقرآن أشدّ المحاذير، وعن سويد بن غفلة فى المنافقين بالقرآن أنهم : «سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لايجاوز إيمانهم حناجرهم»، وفى رواية أبى سعيد الخدرى : «ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم».

●●●

١٦٤.﴿جواز الأجر على تعليم القرآن﴾

لايجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نية التقرّب والإخلاص، فلا يؤخذ عليه أجرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ (البقرة). وأجاز البعض الأجرة، وفى الحديث عن ابن عباس : « إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » أخرجه البخارى.

●●●

١٦٥.﴿هل للقرآن فضلٌ على من يتعلمه ؟﴾

القرآن أصدق كتاب من عند الله تعالى، وحافظ القرآن قد يُنفَس عليه، وفى الحديث

عند البخارى عن ابن عمر : **«لا حسد إلا على اثنين : رجلٌ آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار»**، وعن أبى هريرة : **«لا حسد إلا فى اثنتين : رجل علّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال : ليتنى أوتيت مثلما أوتى فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه فى الحق، فقال رجل: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان، فعملت مثل ما يعمل»**. والحسد هنا ليس تمنى زوال النعمة ولكنه الاغتباط بصاحب القرآن الذى يتلوه ويعمل به، والاغتباط بصاحب المال الذى ينفقه فى الحق. ولا حسد إلا على اثنتين ، أى لا رخصة فى الحسد إلا فى خصلتين، أو لا يَحسُن الحسد ـ إن حَسُن ـ إلا فى هاتين.

•••

١٦٦. ﴿متعلم القرآن ومعلمه أفضل الناس﴾

عند البخارى عن عثمان ﷺ عن النبىّ ﷺ قال : **«خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»** وفى رواية أخرى : **«إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه»**، وفى الرواية عند أبى داود والدارقطنى: **«خيركم من قرأ القرآن واقرأه»**، وتأتى الخيرية من أن القرآن أشرف العلوم، وعِلْمه هو العِلْم الحاكم على كل العلوم، يوجهها ويضبط تصرفاتها، ويسمو بداوفعها ويرقى بغاياتها، فيكون من يتعلمه ويعلّمه لغيره أشرف ممن يتعلم غير القرآن وإن علّمه. والجامع بين تعلّم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره، ويجمع بين النفع القاصر والنفع المتعدّى، ولهذا كان هو الأفضل، وهو الداعى الذى عناه الله تعالى بقوله **﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا (٣٣)﴾** (فصلت) ، والدعاء إلى الله يمكن بوسائل كثيرة منها، تعليم القرآن وهو أشرف الجميع. والقرآن خير الكلام، ومتعلّمه خير المتعلّمين، وخير هؤلاء جميعاً من يتعلمه ويُعلّم غيره ولايقتصر على نفسه. والقارئ أو المقرئ المحض للقرآن، الذى لا يفهم شيئاً من معانى ما يقرأه أو يُقرئه، ليس هو المقصود بالخيرية، وإنما الخيرية لمن يفقه ما يقرأ، ويدرى معانيه، ويعمل بها ويعلّمها؛ بحُسن قراءته عن فهم ودراية. وفى الحديث عن سهل بن سعد فى قصة التى وهبت نفسها، أنه ﷺ زوّجها للرجل الذى طلبها ولم يكن يملك ثوباً يعطيه لها، ولا خاتماً من حديد، فاعتلّ له وقال : **«ما معك من القرآن؟»** قال الرجل : كذا وكذا . فقال ﷺ : **«فقد زوجتكها بما معك من القرآن»**، فجعل للقرآن مقاماً كمقام المال، به يبلغ صاحب الغرض إلى غرضه وكأنه يمتلك المال، وزوّجها له على أن يعلّمها، فتحقق بالقرآن خيرٌ كثير.

•••

١٦٧.﴿القراءة التى يقول بها القرآن﴾

تعلُّم القراءة والكتابة واجبٌ دينى، بقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)**﴾ (العلق)، وفى الآية تعلُّم القرأءة يأتى أولاً، ثم يكون تعلم الكتابة. وللقراءة والكتابة طقوس، فلابد فيهما أولاً من الاستعاذة بالله: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)**﴾ (النحل)، وصيغة ذلك أن تقول: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وبعد الاستعاذة يأتى الدخول فى القراءة، وأولها أن تقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهو مفهوم قوله تعالى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾. وقراءة القرآن وكتابته من الأعمال، والمعنى على العموم أن نبدأ كل عمل بالاستعاذة وباسم الله، فهذا هو منهج القرآن، والقراءة والكتابة يرفعان من قدر القارئ والكاتب، فالله خلق الإنسان من علقة مهينة، ثم كرّمهُ بتعلّم القراءة والكتابة، وكل امرئ بما يقرأ ويكتب، والقراءة المأجور بها لكُتب الله وكلماته هى القراءة بإيمان وتصديق لما تقرأ، كقوله: ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)**﴾ (التحريم)، وللكتب القيّمة، كقوله: ﴿**رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣)**﴾ (البينة). والقراءة من قرأ أى نَطَق المكتوب، ومنها تقرّأ أى تفقّه، والأقرأ هو الأفصح قراءة، وتقرّأ أى تنسّك، والقارئ هو الناسك المتعبّد، والجمع قُرّاء وقرّاءون، والقرآن هو الكتاب المقروء، فأنت ترى أن القراءة فى الإسلام والمأمور بها فى القرآن هى القراءة لآيات الله المخلوقة والمسطورة، أى أن نفهم عنه فى الكون من حولنا، وفيما أنزل من كتُب. وما سُمّى القرآن قرآناً إلا ليُلهج بقراءته، ويُزّين بالأصوات، ويُتغنّى به. والترتيل فى قراءته هو التأنىّ فيها، والتمهُّل، وتبيُّن الحروف والحركات، وحُسن إعرابه، والعمل بأوامره، والأخذ بنواهيه، وتدبُّر آياته ومعانيه، وللتذكرة، كقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٢٩)**﴾ (ص). وفى الحديث أنه ﷺ حذّر من القُرّاء المرائين، وفى التعريف أنهم الذين يقرأون القرآن يريدون بقراءاتهم عَرَض الدنيا.

والمعلّم عموماً، ومُعلّم القرآن من باب أولى، ينبغى أن يكون ربّانيًا، كقوله تعالى: ﴿**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ (٧٩)**﴾ (آل عمران) أى أن يكون تعليم المعلّمين للقرآن لله وبالله. والقراءة إذا كان شرطها التدُّبر والفهم، فحقٌ على كل من يتعلمها أن يتفقّه، ولا يقدر على القراءة المتفقهة كل أحد، فالقُرّاء درجات، وفوق كل ذى علم عليم، وقارئ القرآن له الدرجات العلى، وللمقلّ ما يتيسر منه، كقوله: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠)**﴾ (المزمل)، وأيسر القراءات ما كانت استماعاً وإنصاتاً: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ**

الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ (الأعراف)، فالاستماع أولاً، والاستماع يُغرى على الإنصات، **والإنصات** هو الفهم والتدبُّر، وبذلك يكون لدينا **قراءة بالعين**: كقوله: **﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ (٩٣)﴾** (الإسراء)، وقوله: **﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ (٧١)﴾** (الإسراء) والقراءة تكون عادة بالنظر؛ **وقراءة بالأذن**: كقوله: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦)﴾** (الأعلى)، وقوله: **﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾** (القيامة)، يعنى ينبغى عندما يُقَرأ عليك القرآن أن تستمع له وتنصت، وتتفهم عبَره، وتحيط بآياته، فليس القرآن لتردد ما قرأتَ أو قُرئ عليك، ولا هو أن تجُرِى به لسانك مع القارئ أو مع السطور، وإنما القراءة لاتباع قرآنه، أى شرائعه وأحكامه، ومع مداومة القراءة يأتى بيان الأحكام وتفسير الشرائع، والمعرفة الحقّة للحدود، وللحلال والحرام، والوعد والوعيد. ومثل هذه القراءة لن تتأتى إلا إذا كانت **قراءة ترتيل**، فكما أنزل القرآن مفصّلاً، وشيئاً بعد شىء، فكذلك تكون قراءته، والفهم عنه، والأخذ به، كقوله: **﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾** (الإسراء)، قيل تنزّل عليه فى عشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين سنة، ليقرأه ﷺ، ولتقرأه أنت كذلك، على ترسُّل فى التلاوة والترتيل، فتعطى للقراءة حقّها من التحسين والتطييب، بلا تغيير فى الألفاظ بزيادة أو نقصان. فهذه هى القراءة **خصوصاً**، وهى كذلك القراءة عموماً، والله هو المعين فى الحالتين، لايغبن القارئ المُحسن حقّه فى الثواب، ويحفظه أن يلحقه تلف أو أذى، كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾** (الإسراء). فهذه هى القراءة عند المسلمين وبمنهج القرآن، ولله الحمد والمنّة.

●●●

١٦٨. ﴿ما هو أقل ما نقرأ من القرآن؟﴾

يُجزئ من القراءة فى كل يوم وليلة جزء من أربعين جزءاً من القرآن. وعن عبد الله بن عمرو فيما رواه البخارى: أن النبىّ ﷺ قال له: «**واقرأ القرآن فى كل شهر**»، فلما اعترض أنه يطيق أكثر من ذلك، قال له: «**واقرأ فى كل سبع ليال مرة**». وعند الدارمى قال: «**اختمه فى شهر**»، فلما قال له: إنى أطيق، قال: **اختمه فى خمسة وعشرين**»، فقال له: إنى أطيق، فقال: **اختمه فى خمس عشرة**»، فعاد يقول: إنى أطيق، فقال: **اختمه فى خمس**»، ثم رفض أن يقلل عن ذلك. وعند أبى داود والترمذى، عن عبد الله بن عمرو، قال: «**لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث**»؛ وعن ابن مسعود، قال: «**اقرءوا القرآن فى**

سبع ولا تقرءوه في أقل من ثلاث»؛ وعن عائشة : أن النبيّ ﷺ كان لايختم القرآن فى أقل من ثلاث». والأمر إذن يختلف بالأشخاص، فمن كان من أهل الفهم والتدبر استحب له أن يقتصر على ما لا يختل به المقصود من التدبر واستخراج المعاني؛ ومن كان له شغل بالعلم أو غيره، من المهمات الإدارية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وغير ذلك من مصالح المسلمين العامة، يُستحب له أن يقتصر من القرآن على القدر الذى لا يخل بما يضطلع به من مهام. ومن لم يكن له مثل ذلك من المشاغل، فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير أن يصيبه الملل، أو أن يتورط إلى العجلة فى القراءة فيقرأه هذرمةً.



١٦٩.﴿أتكون القراءة بسرعة أم بترتيل؟﴾

تأتي التوصية بقراءة القرآن ترتيلاً مرتين: مرة فى الآية الثانية والثلاثين من سورة الفرقان: ، ﴿ورَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾، ومرة فى الآية الرابعة من سورة المزمل: ﴿ورَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)﴾. والترتيل هو القراءة بتؤدة. وفى سورة القيامة الآية السادسة عشرة يأتي: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)﴾، أي لا تكن قراءتك بسرعة. وكان ابن مسعود يكره من يهذّ القراءة كهذّ الشعر، والهذّ هو الإسراع المفرط، ومن شأنه إخفاء حروف، أو أن بعض الحروف لا تخرج من مخارجها. وقيل لابن عباس : إنى لأقرأ القرآن في ثلاث ؟ فقال: لأن أقرأ البقرة، أرتلها فأتدبرها، خيرٌ مّن أن أقرأ كما تقول». وقيل له: إنى رجل سريع القراءة وإنى لأقرأ القرآن فى ليلة ؟ فقال : لأن أقرأ سورةً أَحَبُّ إليّ. إنْ كنتَ لابد فاعلاً، فاقرأ قراءة تُسمعها أذنيك، ويوعُها قلبُك». فكأنه للإسراع فضلُ، وللترتيل فضلٌ ، بشرط أن لا يُخلّ المسرع بالحروف والحركات والسكنات الواجبات، وحينئذ لا يفضل الترتيل الإسراع، ولا يفضل الإسراع الترتيل. وفى الحديث عن حفصة أم المؤمنين، أخرجه مسلم، قالت : كان النبيّ ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها». وعند أبى نعيم فى المستخرج عن علقمة أنه قرأ على ابن مسعود فقال له : رتّل، فداك أبي وأمي، فإنه زينة القرآن».



١٧٠.﴿القرآن تبينه السنة ولا تتعارض معه﴾

السنّة هى ما جاء عن النبيّ ﷺ من قول أو فعل بسند صحيح، وفى الحديث: «ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه» أخرجه أحمد وأبو داود

والترمذى، والمعنى أنه ﷺ أوتى الكتاب وحياً يتلى، وأوتى من البيان مثله، أى أذن له أن يبينّ ما فى الكتاب، فيعمّ ويخصّ، ويزيد عليه، ويشرع ما فى الكتاب. وقوله «**يوشك رجل شبعان**» الحديث، يحذّر من مخالفة السنن، مما ليس فى القرآن، على ما ذهبت إليه **الخوارج والشيعة والروافض والصوفية، والمجتهدون من العقلانيين العلمانيين والليبراليين المعاصرين**، المقلّدين للثقافة الغربية اليهودية المسيحية، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)**﴾ (التغابن)، وفي القرآن عن عمل النبيّ ﷺ: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)**﴾ (النحل)، فنبّه إلى أنه ﷺ المبيّن لما فى القرآن، وقال تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)**﴾ (النور) أى أمر رسول الله ﷺ، فليست مخالفته من الدين، وقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)**﴾ (الحشر)، فأوجب الطاعة له، وقال: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)**﴾ (الأحزاب)، فألزم المؤمنين والمؤمنات بما يختاره تعالى لهم ورسوله ﷺ، فصار **الكتاب والسنّة متلازمان**، وصارت السنّة هى الشارحة للكتاب، والكتاب أصل للسنة، ورغم تضعيف هذا الحديث: «**إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافقه فخذوه، وإن لم يوافقه فردّوه**»، إلا أن العقل لا يردّ هذا الحديث، لأنه يضع منهجاً قويماً لقبول أو رفض الأحاديث، **فما وافق منها الكتاب فهو فعلاً عن النبيّ ﷺ وإن كان ضعيفاً**، فالسنة بيان لمجمل الكتاب، وفيها البيان الكامل للصلاة وأحكامها وطريقتها، والزكاة ومقدارها ووقتها، وبيان مناسك الحج، والنكاح، والمطعم والمشرب، والشهادة ... إلخ. **والقرآن عن حق لا يستغنى عن السنة، وكذلك السنة لابد فيها من مرجعية القرآن**، وليس صحيحاً كما يقول القائلون: إن السنة قاضية على القرآن، كيف؟ كما ليس من المعقول أن يستغنى الكتاب عن السنة.

●●●

١٧١. ﴿هل يتغنّى بالقرآن؟﴾

قول الله هو الأصدق، وهو تعالى يقول: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)**﴾ (العنكبوت)، وفى الحديث عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة: «**لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبيّ أن يتغنى بالقرآن**».

وعن ابن شهاب: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»، أو «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». والتلاوة خلاف التغنّي، فالتلاوة تجويد. والتغنّي بالقرآن: هو أن تجوّده وتتلوه بصوت جهير حسن، قيل يتحزّن به. وقيل: التغنى بالقرآن: هو أن تقوم عليه وتتشاغل وتتلذذ به وتستحلى له، كما يلتذ أهل الطرب بالغناء، وتجعله هِجيراك، أى دأبَك وعادتك، كما يجعل المسافر والفارغ هِجيراه الغناء. والعرب كانوا إذا ركبوا الإبل، أو جلسوا فى أفنيتهم تغنّوا. فكأن التغنى هو الحثّ على ملازمة القرآن، وقد يعنى التغنّي: الاستغناء بالقرآن، بأن نصدّق بما فيه ونؤمن به، ولا نصدق أو نؤمن بغيره. والتغنّي قد لايستطيعه كل الناس، وعندئذ يكون معناه أن نرتاح لقراءته، ونسكن لسماعه من الآخرين يتغنون به. والتغنّي: أن نغتنى به نفسياً ونقنع. وكان الشافعي يحب أن يقرأ القرآن حدراً وتحزيناً. وفى اللغة حَدَرتُ القراءة أدرجتها ولم أمططها، والتحزين ترقيق الصوت وتصييره كصوت الحزين يرقّق القلوب. والشافعى على الرأى بأن التغنّي هو تحسين الصوت.



١٧٢. ﴿ما هو حُسن الصوت فى القراءة؟ وما هو الترنُّم بالقرآن؟﴾

عند الطبرى عن ابن شهاب قال: «قد أُذن للنبيّ ﷺ بالترنُّم»، والترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسّنه القارئ وطرب له. وعند ابن ماجة والحاكم وابن حبانّ عن فضالة بن عبيد قال: «الله أشد أُذناً - أى استماعاً - للرجل الحسن الصوت بالقرآن، من صاحب القينة إلى قينته»، والقينة هي المغنية. وعند أبى داود، من طريق ابن أبى مسجعة، قال: كان عمر ابن الخطاب يقدّم الشاب الحسن الصوت لحُسن صوته بين يدّى القوم».

وعند ابن أبى شيبة من حديث عقبة بن عامر، قال: «تعلّموا القرآن، وغنوا به وأفشوه»، والتغنيّ هو الترجيع بالصوت. وربما التغنى بمعنى تكلُّف القرآن، أى نطلبه ونحمل أنفسنا عليه ولو شق ذلك علينا. ويؤيد ذلك قوله ﷺ فى حديث سعد بن أبى وقاص عند ابن عوانة: «فإن لم تبكو فتباكوا»، وقيل من يقرأه ويرفع صوته فقد تغنى. وعن عبيد بن عمير قال: «كان داود عليه السلام يتغنّي - يعني حين يقرأ - ويبكى ويبكى». وعن ابن عباس: أن داود كان يقرأ الزبور بسبعين لحناً، ويقرأ قراءة يطرب منها المحموم، وكان إذا أراد أن يبُكى نفسه، لم تبق دابة فى بر ولا بحر إلا أنصتت له واستمعت وبكت» وفى الحديث: « إن أبا موسى أُعطَى مزماراً من مزامير داود». والحاصل أنه يمكن الجمع بين هذه التأويلات كلها، وهو أن يُحسّن صوته إذا قرأ، جاهراً به، مترنماً على طريق التحزُّن، مستغنياً بالقراءة، طالباً بها غنى النفس، وراجياً غني اليد. والنفس أكثر طلباً للقراءة

بالترنُّم، لأن للتطريب تأثيراً فى رّقة القلب وإجراء الدمع. **والقراءة بالألحان** جائزة إذا لم تكن بإخراج بعض الألفاظ عن مخارجها، وكذلك **التمطيط فى القراءة** إذا لم يشوّش النظم.

●●●

١٧٣.﴿وماذا بشأن القارئ الذى لا يُحسِن الصوت ؟﴾

الأدلة على أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن القارئ حسن الصوت فليحسّنه ما استطاع، ومن ذلك **مراعاة قوانين النغم**، والصوت يزداد حُسناً بذلك، وبمراعاتها ينجبر غيرُ حَسن الصوت، ما لم يخرج عن الأداء المعتبر عند أهل القرآن، فإن خرج عنه لم يعوِّض تحسين صوته قُبْحُ أدائه.

●●●

١٧٤.﴿النبىّ ﷺ كان يمدُّ القراءة، فكيف المدّ ؟﴾

عند البخارى عن قتادة: سئل أنس: كيف كانت قراءة النبىّ ﷺ ؟ فقال: **كانت مدّاً**. ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ ببسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم». وفى رواية أخرى قال: يمدّ **باللام** التى قبل الهاء من اسم الجلالة «الله»، **والميم** التى قبل النون من الرحمن، **والحاء** من الرحيم».

والمدّ فى القراءة نوعان: **أصلى** فيه إشباع الحرف الذى بعده ألف، أو واو، أو ياء، **فالمتصل**: ما كان من نفس الكلمة، **والمنفصل**: ما كان بكلمة أخرى؛ **وفى الأول**: يؤتى بالألف والواو والياء ممكّنات من غير زيادة؛ **وفى الثانى**: يزاد فى تمكين الألف والواو والياء، زيادة على المدّ الذى لايمكن النطق بها إلا به، من غير إسراف. والأعدل أن يُمدّ كلّ حرف منها ضعفى ما كان يُمدّه أولاً، أو قد يزاد على ذلك قليلاً، والإفراط غير محمود. وقيل المدّ هو أن يُمَدّ الصوت مدّاً، ولايكون إلا فى القراءة.

●●●

١٧٥.﴿قالوا إنه ﷺ كان يُرجّع فى القراءة، فكيف الترجيع ؟﴾

الترجيع: أصله الترديد. وعند البخارى عن عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبىّ ﷺ يقرأ من سورة الفتح، وهو على ناقته وهى تسير، قراءةً لينةً، يقرأ وهو يُرجّع». وعند الترمذى عن أم هانئ، قالت: كنت أسمع صوت النبىّ ﷺ وهو يقرأ، وأنا نائمة على فراشى، يُرجّع القرآن». **والترجيع** يزيد على الترتيل، وكان ابن مسعود يرتّل القرآن ولا يرجّع. وقيل: ليس الترجيع هو الترديد وإنما هو **تحسين التلاوة**، لأن القراءة بترجيع تنافى الخشوع الذى هو مقصود التلاوة.

●●●

١٧٦.﴿هل من السنة عرض القرآن ؟﴾

عَرْضُ القرآن أى قراءته على الغير، أو أن نستمع القرآن من غيرنا. وعن ابن مسعود فيما رواه البخارى قال : قال لى النبىّ ﷺ : «**اقرأ علىّ القرآن**». قلت: عليك، وعليك أُنزل ؟ قال: «**إنى أحبُّ أن أسمعه من غيرى**». وسماع القرآن من الغير إنما لعرضه، وقد يكون لتدبُّره وتفهُّمه، لأن الذى يسمع يتفرّغ للسماع، فيقوى على التدبُّر، وينشط لفهم ما يُقرأ عليه، ويخلى نفسه لِعِبَره، أكثر من القارى الذى اشتغاله بالقراءة وأحكامها.

•••

١٧٧.﴿هل يستحب البكاء مع قراءة القرآن ؟﴾

البكاء عند قراءة القرآن سُنّة العارفين، وشعار الصالحين، وعن ابن مسعود أن النبىّ ﷺ سأله أن يقرأ عليه القرآن، فقال له ابن مسعود : **اقرأ عليك، وعليك نزل؟** قال رسول الله ﷺ : «**إنى اشتهى أن أسمعه من غيرى**». وقال ابن مسعود، فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾﴾، قال لى : "**كُفَّ**" أو "**أمسك**" أو "**حَسْبُكَ الآن**"، فالتفت إليه، فرأيت عينيه تذرفان». وفى القرآن: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴿١٠٩﴾﴾ (الإسراء)، ويقول: ﴿**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴿٥٨﴾﴾ (مريم)، **والبكاء** يستحب مع القراءة، وعند القراءة، والقارىء بوسعه تحصيله، بأن يحضُر قلبه الحزن والخوف، بتأمل ما فى القرآن من تهديد ووعيد، واستذكار ما يتضمنه من وثائق وعهود، ثم ينظر تقصيره فى ذلك، فإن لم يحضره الحزن، فليبك على افتقاده، وإذا افتقد المسلم التأمل والخوف والحزن، فهذه مصيبة من أعظم المصائب. وفى رواية ابى حاتم والطبرانى من طريق ابن فضالة أن النبىّ ﷺ لما قُرئت عليه الآية : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾﴾(النساء) بكى حتى ضرب لحييه ووجنتيه فقال : «**ياربِّ! هذا على مَن أنا بين ظهريه، فكيف بمن لم أره!**».

ولم يكن بكاؤه إلا لأنه مثّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدّة الحال الداعية له إلى شهادته لأُمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له بسببه طول البكاء، رحمةً لأمته. والمسلم الجيد يبكى طلباً للرحمة لنفسه. ومع ذلك فليس كل أحد قادر على استحداث البكاء أو الانفعال به، والناس فى الأحوال الانفعالية أصناف، وهذا الذى ينفعل هو «**الانفعالى**»،وهناك آخرون لاينفعلون وهم «**العقلانيون**»، وطريق هؤلاء

التفكير والتأمل والتحليل والشرح، وربما كان الناس فى حاجة إلى هؤلاء أكثر من الأولين، والمزاج الانفعالى أليق بالصوفية.

●●●

١٧٨.﴿علامة أهل العلم إذا تلى القرآن﴾

يقول تعالى: **﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨)﴾** (الإسراء)، ويقول: **﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾** (الإسراء)، وقوله: «**إذا يتلى عليهم**» يعنى القرآن، وتسبيحهم ـ كما أُثر عن النبىّ ﷺ هو أن يقولوا: «**سبحانك اللّهم وبحمدك. اللهّم اغفر لى**»، وقوله: **﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾** مبالغةٌ فى صفتهم، ومدحٌ لهم، فحقّ على كل متعلم أن يفعل نفس الشىء، فيخشع عند استماع القرآن، ويذل، وفى الحديث: «من أوتى من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتى علماً، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: **﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ..﴾** (الآية). ومع ذلك ما نزال نرى أنه لاموجب للبكاء إلا للبكّائين، وهذه طبقة مخصوصة عُرفت بالبكاء، كان منهم **محمد بن واسع، ويحيى البكّاء، ومطرف بن طريف**، وكانوا يقولون على القارىء الذى يقرأ ويبكى إنه من قُرّاء الرحمن، تمييزاً لهم عن قرّاء الدنيا.

●●●

انتهى باب القرآن والحمد لله

ونبدأ بإذن الله «باب النبوة والنبىّ فى القرآن».

●●●

الباب الثانى
«النبوة والنبىّ ﷺ فى القرآن»
مقدمة

●●●

١٧٩. «النبوة هل هى ضرورة؟»

هل من الممكن أن نؤمن بالله دون وساطة نبىّ؟ وهل يمكن لعقولنا أن تحيط علماً بما أخبرنا به الأنبياء دون أن تكون لنا حاجة إليهم؟

والعقل فعلاً يمكن أن يهدينا إلى وجود إله لهذا الكون ثم يتوقف عن التفكير فيما هو وراء ذلك، والدين وحده ـ كعلم ـ هو الذى نعرف بواسطته عن الآخرة والحساب والجنة والنار، والدين لابد فيه من النبىّ أياً كان هذا الدين. وفى القرآن فى وظائف النبىّ وضرورته للناس قوله تعالى: أنه شاهد ومبشّر ونذير(الأحزاب٤٥)، وأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير (فاطر ٢٤)، ورسولنا أُرسل بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله (التوبة٣٣)، ورسالات الأنبياء الكبار تضمنتها كتُبهم، ونبيّنا ﷺ أُنزل عليه الكتاب: «تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)» (النحل)، ليتلو عليهم آياته، وليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور (الطلاق١١) والرسول إذن ضرورة، وإرساله منّة من الله، ليزكّينا، ويعلّمنا الحكمة وما لم نكن نعلم(البقرة١٥١). ولأنه من أنفسنا يعزّ عليه أن نعنت ويحرص علينا (التوبة١٢٨)، ويرأف بنا ويرحمنا. ولو كان غليظ القلب لانفض الناس من حوله(آل عمران١٥٩)، ولكنه دائم العفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم فى الأمر(آل عمران ١٥٩)، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويُحلّ لهم الطيبات، ويُحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم(الأعراف١٥٧). ولو كان رسولاً مَلَكاً لما اتبّعوه، ولكنه كان بشراً مثلهم(الأنعام٩)، وهو لذلك قدوة لهم، وما يستطيعه هو، فبوسعهم فِعْله.

●●●

١٨٠. «اتباع النبىّ ضرورة»

فإذا كان لابد من نبىّ معلّم، كقوله تعالى: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)» (الرعد)، فإن طاعته تكون واجبة، والرسول ﷺ يقول: «**من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله**»، لأن النبىّ لا يقول إلا بما يعرفه، ومعرفة الرسل ربّانية، وعلمهم علم ربّانى، وكلامهم تبيان وتفصيل لما أمر به الله موجزاً. وخلاصة تعليم الرسول ﷺ «**أوصيكم بتقوى الله**»، وأن يكونوا على سنته، وأن يجتنبوا مُحْدَثات الأمور من البِدَع والضلالات،

ومَن كان على سنّته، وأصبح وأمسى وليس فى قلبه غشٌ لأحد، فهو المسلم حقاً، ومن يحب سُنّته، فقد أحبه شخصياً وكان معه حيثما كان فى الآخرة. وإنه لمن قوانين الله أن تبدأ الأمة على الإيمان ومع الزمن تفسد، والرسول ﷺ يقول: «**من تمسك بسنتى عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد**». ويقول : «**المستمسك بسُنّتى عند اختلاف أمتي كالقابض على الجمر**».

●●●

١٨١. ﴿فما المقصود بالمصطفى؟ وما هو الاصطفاء فى النبوة؟﴾

ولعظم رسالة النبيّ كان لابد له من مواصفات ينفرد بها، ورسول الله ﷺ كما قال عن نفسه **لم يخرج من سِفاح، وهو من خيار قريش، وقريش كانوا خيار العرب**. ومعنى أنه من الخيار أو الصفوة: أنه يؤدى شرط الله منه، وعن ابن مسعود قال : **إن الله نظر فى قلوب العباد فاختار محمداً ﷺ، فبعثه برسالته، وانتخبه بعلمه**». ولكن لماذا اختاره أو اصطفاه ؟ يقول ابن مسعود : **كان رسول الله ﷺ دائم البِشْر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مزّاح، يتغافل عمّا لا يشتهى، ولا يوئس منه راجية. وكان لا يذمّ أحداً، ولايعيّره، ولايطلب عورته، ولايتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده. يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، ولايقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه**». وكلها صفات بشر ولكنه فيها فى القمة، وهو المثال والقدوة.

وعن سكوته يقول ابن مسعود : **كان سكونه على أربع : الحلم، والحَذَر، والتقدير، والتفكّر؛ فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس؛ وأما تذكّره أو تفكّره ففيما يبقى ويفنى. وجُمع له الحِلْم، والصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجُمع له الحذر فى أربع : أخْذُهم بالحسنى، والقيام لهم فيما جَمَع لهم الدنيا والآخرة**. ـ وهذه صفات لا تجتمع لإنسان إلا إذا كان من صفوة الصفوة. وفى علم النفس التكاملى قد نجد صفة من هذه الصفات فى إنسان ويكون بها أميراً أو وزيراً أو قائداً أو زعيماً، وقلّ أن تجتمع كل الصفات فيه، فذلك ما لا يكون إلا للأنبياء والرسل.

●●●

١٨٢. ﴿دعوة محمد ليست لدنيا يكسبها﴾

فى الحديث عن ابن عباس : أن دعوة محمد ﷺ مدارها **أن يؤمن الناس بالله** ـ يقول: «**أريدهم على كلمة واحدة :لا إله إلا الله**». وأخرج الطبرانى والبخارى عن عقيل بن

أبى طالب أن النبىّ ﷺ قال لعمه: «**يا عم ! لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه**». وأخرج عبد بن حُميد عن ابن أبى شيبة عن جابر: أن عتُبة بن ربيعة قال للنبىّ ﷺ: «**أيها الرجل ! إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رَجُلاً، وإن كان إنما بك الباءة، فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً**». وفى رواية البيهقى عن الحاكم زاد: **وإن كنت إنما بك الرئاسة،عقدنا ألويتنا لك، فكنتَ رأساً ما بقيت**». وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر أن عُتبة قال له: **يا ابن أخي: أراك أوسطنا بيتاً، وأفضلنا مكاناً، وقد أدخلت على قومك ما لم يُدخل رجل على قومه مثله، فإن كنت تطلب بهذا الحديث مالاً فذلك لك على قومك، أن يجمعوا لك حتى تكون أكثرنا مالاً؛ وإن كنت تطلب شرفاً، فنحن نشرّفك حتى لا يكون أحدٌ من قومك أشرف منك، ولا نقطع أمراً دونك، وإن كان هذا عن ملُم يصيبك فلا تقدر على النزوع منه، بذلنا لك خزائننا حتى نعذر فى طلب الطب لذلك منك، وإن كنت تريد مُلْكاً ملكناك**». فبعد كل هذه العروض: المال، والنساء، والمُلك، والرئاسة، والشرف، وأن يعالج من مرضه إن كان ما به بسبب مرض عضال، ماذا كان جواب النبىّ ﷺ؟: «**أفَرَغتَ يا أبا الوليد**» ؟ ثم قرأ عليه اثنتى عشرة آية من سورة فصّلت: ﴿**حمٓ ⁽١⁾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ⁽٢⁾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⁽٣⁾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ⁽٤⁾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⁽٥⁾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ⁽٦⁾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⁽٧⁾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⁽٨⁾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⁽٩⁾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⁽١٠⁾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⁽١١⁾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⁽١٢⁾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⁽١٣⁾**﴾. فارتج على عتبة ولم يستطع الاستمرار فى الاستماع، وأمسك بفىّ الرسول ﷺ، وناشده الرحم أن يكف لمّا خاف الصاعقة، وقال فى كلامه لمّا استعادته قريش الكلام: **والله ما هو بسحر** - يقصد القرآن - **ولابشعر، ولا كهانة**» وإذن فالنبىّ ﷺ لم يقصد إلى أعراض الدنيا، وكانت دعوته إلى الله، وفى الأخبار عنه، وعن أحواله ﷺ فى الدعوة، أنه ﷺ عاش ٢٣ سنة ينادى أن لا إله إلا الله، وإلى أن توفاه الله **لم يحدث أن شبع هو ولا أهله**

خبزاً، وكان يمر عليهم الشهر والشهران لايطهون طعاماً، ولا يجدون إلا التمر والماء، وكان **يخصف نعله، ويرتق جلبابه، وينام على فراش من اللباد**. وليس أصدق للداعى من أن تكون هذه هى حياته مع الدعوة، فعهدنا بالزعماء والقادة والرءوساء والملوك والأمراء أن تعود الرئاسة عليهم بالخير والأبهة والعزّ والجاه، وما كان فى حياة محمد ﷺ شىء من ذلك. وفى الرواية عن ابن اسحق أن رسول الله ﷺ : لمّا فتح مكة، **نظر أبو سفيان إلى** جموع المسلمين وقال للعباس: يا عباس ! مَن هؤلاء ؟ قال : هذا **رسول الله ﷺ فى** المهاجرين والأنصار. قال : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل، لقد أصبح **مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً** ! قال العباس : يا أبا سفيان ! **إنها النبوة!**» وفى الحديث أن النبى خُيِّر بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً مَلكاً، فالتفت إلى جبريل، فأشار إليه أن تواضع، فقال : «**بل نبياً عبداً، أشبع يوماً، وأجوع يوماً**». وهذه هى النبوة إذن، وهؤلاء هم أصحاب الرسالات حقّاً ! وحسبنا الله!

●●●

١٨٣. ﴿الناس لا يحاسبون إلا إذا بعثت الرسل﴾

قالت المعتزلة : إن العقل يُقبِّح ويُحسِّن، ويُبيح ويحظر، **ولا داعى للنبوة والأنبياء**، ولكن الله يقول : **﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾** (الإسراء)، وفى ذلك دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع. والله تعالى لا يُهلك أمة إلا إذا أرسل إليهم وأنذرهم، والذى عليه **العقل** أنه مع الإيمان بوجود خالق للكون، ومع رسالة الرسُل بالتوحيد، وبثّ المعتقدات فى الناس عبر الأجيال، ونصْب الأدلة الدالة على الصانع، ومع سلامة الفطرة وعدم فسادها، يتوجب على كل أحد من العالمين الإيمان واتباع شريعة الله.

●●●

١٨٤. ﴿كل رسول نبيّ وليس كل نبيّ رسولاً﴾

الرسول بخلاف النبيّ: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (٥٢)﴾** (الحج)، وعند البعض فإن الأنبياء فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين، وعند غيرهم أنه لايجوز أن يقال نبيّ حتى يكون مرسلاً، ومعنى «نبيّ» أنه الذى ينبئ عن الله، **والإنباء** هو الإرسال، غير أن **الرسول**: يُرسَل إلى الخلق عياناً بإرسال جبريل، بينما النبيّ تكون نبوته **إلهاماً** أو **مناماً**، **فكل رسول نبيّ**، وليس كل نبيّ رسولاً.

●●●

١٨٥. ﴿عدد الأنبياء إجمالاً لا يعلمه إلا الله﴾

الرسُل كثيرون، بعضهم ذكره القرآن، وبعضهم لم يذكره، ومن لم يذكرهم لا نعلم عنهم، ولانعلم عن عدد الرسُل إجمالاً، كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** (٧٨)﴾ (غافر)، وقوله: ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** (١٦٤)﴾ (النساء) وفي الحديث عن أبي ذر أن عدد الأنبياء ثلثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ.

●●●

١٨٦. ﴿أنبياء القرآن خمسة وعشرون نبياً﴾

الأنبياء الذين ذكرهم القرآن هم: آدم، وإدريس، ونوح، وصالح، وهود، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد، فهؤلاء عددهم خمسة وعشرون.

●●●

١٨٧. ﴿ما جعل الله الرسل إلا من الرجال﴾

ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ** (٧)﴾ (الأنبياء) وهو ردٌّ على الذين قالوا معترضين أن يكون النبيّ بشراً: ﴿**هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** (٣)﴾ (الأنبياء)، أي قبل النبيّ ﷺ لم يكن الرسل إلا رجالاً، فليس للمنكرين أن يبدأوا إنكارهم بقولهم ينبغى أن يكون الرسول ملكاً طالما هو قادم من طرف الله وبِبلاغ من السماء، ولا يصحّ تفسير «رجال» بالملائكة، لأن الرجل يقع على ما له الضد من لفظه، فتقول رجل وامرأة، ورجل وصبي، فقوله «إلا رجالاً» يعنى من البشر.

●●●

١٨٨. ﴿ما جعل الله الرسل جسداً لا يأكلون الطعام﴾

الرسُل قبل النبيّ لم يكونوا إلا بشراً، لهم طباع البشر، ولم يخرجوا عليها، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** (٨) ﴾ (الأنبياء) والنصارى أخطأوا الخطأ كله عندما ادّعو أن عيسى وهو الرسول، كان ابن الله، فأخرجوه عن البشرية، ودليل بشرية عيسى: انه لم يستغن عن الطعام والشراب، ولا عن الغائط والتبوّل، وكذلك كل الأنبياء. وقوله «جسداً» اسم جنس، ولهذا لم يقل أجساداً، وجعل الله تعالى الأنبياء أجساداً، والجسد هو البدن، تقول تجسّد من الجسد، كما تقول تجسّم من الجسم. والجسد

هو المتجسّد الذى فيه الروح فيحتاج للطعام ، وأن يأكل ويشرب، ويتغوّط، وله حاجاته الفسيولوچية، وأما الذى لا يأكل ولا يشرب فهو مجرد جسم، فالجسم هو التمثال، والجسد هو هذا التمثال قد دبّت فيه الحياة، ويحتاج للطاقة، وأن يحرق طعاماً ليكون له سُعرات معينة تعينه على الحركة والتفكير ...إلخ. والجسد على ذلك هو ما نسميه النفس. والآية تعنى أنه تعالى لم يحدث أن أرسل نبياً لا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام، فكلهم كذلك بلا استثناء، ومحمد ﷺ من هؤلاء.

•••

١٨٩.﴿كلامه تعالى للأنبياء﴾

أغلب كلامه تعالى للأنبياء وحى، والوحى: إعلام فى خفاء، وأنواعه: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفى. والوحى فى الطب النفسى : كل ما تلقيه على غيرك بغرض التأثير عليه. يقال : وحَيْتُ إليه الكلام، وأوحيت، ووَحَى وحْياً. والوحى يكون للإنسان ولغيره، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ** ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء)، ويقول: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴿٦٨﴾﴾ (النحل)، ويقول: ﴿**وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** ﴿١٢﴾﴾ (فصلت). وفى قوله تعالى ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴿٥١﴾﴾ (الشورى)، أى ينفث الكلام فى قلبه فيكون إلهاماً، ومنه قوله ﷺ : «**إن روح القدس نفث فى روعى**». والوحى للرسُل، إما من وراء حجاب ككلامه تعالى مع موسى، وإما أن يرسل رسولاً هو جبريل، فيوحى الرسول بإذنه ما يشاء، فيكون الوحى خطاباً من الرسول إلي النبىّ يسمعه نطقاً، ويراه عياناً، وكان جبريل ينزل بالوحى على النبىّ ﷺ فلا يراه أحد. والأنبياء الذين كان الوحى إليهم رسولاً أربعة : محمد، وعيسى، وموسى، وزكريا، فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً فى المنام.

•••

١٩٠.﴿أوحَى إليه روح﴾

الوحى للنبىّ ﷺ كان جبريل، وفيه قال تعالى : ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، وسمّاه الله تعالى أيضاً ﴿**بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة)، و﴿**الرُّوحُ الْأَمِينُ** ﴿١٩٣﴾ ﴾ (الشعراء)، وروح الله، قال: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ﴿٩١﴾﴾ (الأنبياء)، وقال: ﴿ **وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴿٩﴾﴾ (السجدة)، وقال: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى)، والروح من أمر الله هو جبريل.

•••

١٩١. ﴿ما كان يدرى من قبل ما الكتاب ولا الإيمان﴾

الأنبياء معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وبصفاته، وبالتشكّك في شيء من ذلك. والآثار والأخبار تتعاضد بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا. ونشأة كل الأنبياء على التوحيد والإيمان، وإشراق نور المعارف، ونفحات ألطاف اليقين. ومن يطالع سِيَر الأنبياء منذ صباهم إلى مبعثهم يتحقق من ذلك، وهو ما عرفناه من أحوال إبراهيم، وموسى، وعيسى، ويحيى، وسليمان، فقال تعالى في يحيى: **﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾** (مريم)، أى أن يحيى أُعطى العلم بالله منذ صباه، ووصفه فقال: **﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴿٣٩﴾﴾** (آل عمران)، يعنى أنه صدّق بعيسى وهو مايزال صبياً؛ وقال تعالى فى عيسى أنه كلّم أمه لما ولد، قال: **﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴿٧﴾﴾** (القصص)، وقال: **﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾** (مريم)، وقال فى سليمان وكان صبياً: **﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾﴾** (الأنبياء)، وأما إبراهيم فقد أُلقى فى النار وهو ابن ست عشرة سنة، وإسماعيل ابتلى بالذبح وهو صبى يافع؛ وكان استدلال إبراهيم بالكواكب والشمس والقمر وعمره خمس عشرة سنة؛ وأوحى إلى يوسف وهو صبى.

غير أنه فى هذه الآية: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾** (الشورى)قد يُظَن أن الله تعالى قد نفى أن يكون نبيّنا ﷺ كان يدرى شيئاً عمّا يكون معنى أن يتنزل كتاب من عند الله، أو معنى الإيمان بالله، **فهل كان هذا صحيحاً ؟ وهل النبىّ ﷺ وحده بين الأنبياء الذي لم يكن يدرى ذلك؟** والمتأمل لسيرة النبىّ ﷺ لايجد أن ذلك حق، والنبىّ ﷺ يقول: «**لمّا نشأت بُغِّضت إلىّ الأوثان، وبُغِّض إلىّ الشعر، ولم أهمّ بشئ مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمنى الله منهما ثم لم أعد**». فلم يحدث فى كل ما رمته به قريش من تُهَم وأكاذيب، أن قال واحدٌ منهم أن النبىّ ﷺ كان يصلى معهم يوماً إلى الأصنام، ولو كان قد فعل، لكانوا أول من يبادرون إلى إعلانه وتعييره به. **فبماذا كان يتعبّد النبىّ ﷺ إذن فى الجاهلية ؟**والجواب من السيرة النبوية ، فلم يُنسَب النبىّ ﷺ إلى واحد من الأنبياء كموسى وعيسى، بحيث يكون من أمته، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى، ولاشرب الخمر، ولا كانت له مع المشركين مسامرات وسهرات، ولاحضر حلفاً من أحلاف الجاهلية، **كحلف المطر، وحلف المطيبين.فبماذا إذن كان يؤمن قبل**

الإسلام ؟ نقول : إنه كان على ملة إبراهيم، يعنى حنيفاً لا يتابع أياً من الديانات، فآمن بالله من غير شريعة، وكثيرون كانوا مثله، وعدم درايته بالإيمان ولا بالكتاب، المقصود بهما الإيمان بطريقة اليهود والنصارى، والمقصود بالكتاب التوراة والإنجيل، وما كان يعرف مضمون ذلك، ولا الشرائع ولا الفروض والأحكام، فلما بُعث رسولاً عرف الإيمان بالله على طريقة الإسلام، وتلا كتاب الله وهو القرآن، وأحاط بالأحكام والفروض لمّا تنزلت عليه تباعاً. **والإيمان الذى لم يعرفه الرسول ﷺ وهو يافع هو الإسلام**، وعرفه بعد النبوة، وكان من قبل ذلك أُمياً، **والأميون** ما كانوا يعرفون الإيمان، ولا كان عندهم كتاب، ومثله قوله: **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾** (العنكبوت)، فلما عرف، وتحصّلت له المعارف بالكتاب، جعله الله نوراً يهدى به الناس، وإنه ليدعوهم ويرشدهم إلى الدين القويم، وكان كتاب الله هو القرآن، ودينه تعالى هو الإسلام، ونسبتهما إليه تعالى لأنه ربّ كل ما فى السموات وما فى الأرض، وإليه تصير الأمور. فهذا هو إيمان النبىّ ﷺ بربّه وبدينه وكتابه، وكان فى البداية **إيماناً حدسياً وفطرياً**، ثم صار من بعد الرسالة إيماناً حقيقياً واقعياً، له مضمون، ومضمونه هو رسالته، فإن قال عنه تعالى قبل المبعث ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، فهذا حقّ، فما كان يدرى بذلك كله قبل المبعث، فلما كان المبعث صار يدرى.

•••

١٩٢. ﴿دعوة الرسل جميعاً، لا إله إلا الله﴾

تشهد أدلة العقل أنه **لا إله إلا الله**، وثبت **بالنقل** عن جميع الأنبياء أنه تعالى موجود، ودليل ذلك إما **معقول وإما منقول**، ولم يُرسَل نبىّ إلا بالتوحيد، كقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾** (الأنبياء)، فجميع ما جاء به الرسل من شرائع فى التوراة والإنجيل والقرآن، على الإخلاص والتوحيد.

•••

١٩٣. ﴿الرسل استهزئ بهم من قبل محمد﴾

يقول الله تعالى لنبيّه: **﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾** (الأنبياء)، والآية **لتسليته وتعزيته**. فلقد استهزئ بالرسل من قبله، فليصبر كما صبروا، ووعده النصر.

•••

١٩٤. ﴿سموه ابن أبى كبشة استهزاء﴾

كان العرب يعبدون كوكب الشِّعْرى، ومن لم يكن يعبدها كان يعظّمها، وقيل أول

من دعا إلى عبادتها رجل يقال له **أبو كبشة**، وقيل: كان **أبو كبشة** أحد أجداد النبيّ ﷺ من جهة الأمهات، فلما أراد مشركو قريش أن يستهزئوا بالنبيّ ﷺ سمّوه «ابن أبي كبشة»! يذكّرونه بجدّه هذا الذى خرج على إجماع العرب ودعا إلى عبادة الشعرى، مثلما فعل النبيّ ﷺ ودعا إلى الله من باب الآية: **﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ (٧٧)﴾** (يوسف)، يعنى ليس هذا بجديد فى عائلته ! وكانوا كلما يسألون عن أخبار النبيّ ﷺ يجعلون سؤالهم تحقيراً وازدراء، يقولون : **ما لقينا من ابن أبي كبشة ؟!** ويوم فتح مكة قال **أبو سفيان** بينما عساكر رسول الله ﷺ تمر عليه : **لقد أَمُر أَمْرُ ابن أبي كبشة !** - أى صارت له الإمارة! فلم يفهم أبو سفيان كدأبه، فما كان ما أعطاه الله لابن أبى كبشة إمارة وإنما نبوة، وشتّان بينهما، الإمارة والنبوة! وحسبنا الله.

●●●

١٩٥. ﴿حجة الكافرين ضد الرسل﴾

يقولون إن الرسل بشرٌ، وماكان لبشر أن يدعوا إلى الله : **﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾** (إبراهيم). ودليل الرسل على الله: **الفطرة السليمة**، فهى التى تشهد بوجوده، وجُبلت على الإقرار به، والاعتراف به ضرورة لهذه الفطرة، إلا أن الشك قد يعرض لها اضطراراً فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصّل إلى وجوده، والرسُل أرشدوا الأمم إلى هذا الدليل، فهذا العالمَ الماثل أمامهم، وهذه الأرض والسماء، وشواهد الحدوث والخلق والتسخير التى لا أول لها ولا آخر فى الكون، كلها تقضى **بأن لابد لهذا الكون من صانع**، وهو الله لا إله إلا هو، دعا الناس إليه ليغفر لهم، ولم يعجّل عذابهم. وكانت **الحجة الثانية** للمتكرين: **أن الأنبياء بشر**: أفبشرٌ وتعرفون الله وهو من ليس ببشر ؟ وطالبوهم **ثالثاً بالدليل** : **أن تكون لهم معجزة**، مع أن مطلبهم داحض، بأنهم ليسوا سوى بشر مثلهم، وليست لبشر معجزات إلا أن يأذن له الله بها. والرسل منهم أصحاب المعجزات، ومنهم من يُخاطِبون الفطرة، والمعجزات **لا تُلزِم إلا من رآها رأى العين**، ودليل **الإقناع أولى وأهم**، فكيف **إن كان هذا الدليل مكتوباً فى كتاب ليقرأه الدانى والقاصى، والمستقدم والمستأخر** ؟! وذلك **هو القرآن، وهو الدليل هنا**.

●●●

١٩٦.﴿ما من نبىّ إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة﴾

كل الأنبياء إما أخطأوا أو همّوا بخطيئة، ومنهم موسى، وعيسى، ونبّينا محمد ﷺ، وقيل إن يحيى بن زكريا لم يخطئ، إلا أن خطأه كان نقده الشديد لهيروديا وهيرودس بلا روية وباندفاع، واتهامه لهيروديا بالزنا، فتسبب ذلك فى قتله على النطع بالسيف، وفصلوا رأسه عن جسده وقدموها لهيروديا فى طبق.(متى١٤ / ٣ـ١١، لوقا ٣ / ١٩ـ٢٠، مرقس ٦ / ١٦ ـ ٢٨). ولأن الأنبياء كانوا جميعاً من البشر، بما فيهم عيسى، وبدءاً من آدم، فكان عليهم أن يخطئوا، وإلا ما كانوا بشرًا، ووصّف الله تعالى خطأ الأنبياء وهو يوصّف خطأ آدم، فقال: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾** (طـه) فأطاع إبليس وانصاع لهواه، ومع أنه عاهد الله فلم يحفظ العهد، فالسبب إذن فى خطأ الأنبياء أنه لم يكن لهم العزم، أى القوة والمثابرة على الالتزام والوفاء بالعهد، إلا أنه شتّان بين خطأ نبىّ وخطأ إنسان عادى، وعلى العموم فإن آفة الإنسان تهافت العزم.

●●●

١٩٧.﴿أخطأ كما يخطئ الناس﴾

أخطأ النبىّ ﷺ، وهذه حقيقة، وخطؤه ﷺ لأنه بشرٌ، وهذا واقع، والقرآن سجّل فى بعض آياته أخطاء للنبىّ ﷺ، ووجّه إليه بسببها العتاب، فأحياناً يشتد العتاب ويقسو، وأحياناً يلطف ويرق، والعتاب فى القرآن للنبىّ ﷺ دليل على أن القرآن ليس من عند محمد، فلو كان هذا العتاب من كلامه لما عاتب نفسه ونشر خطأه على الناس يقرأون عنه فى كل وقت، ويرتلونه فى المساجد وعلى الملأ. وكانت أخطاؤه من نوع أخطاء الأحكام ، كهذا الخطأ الذى تحكي عنه هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾** (التحريم)، قيل إنه حلف أن ماريا القبطية عليه حرام، وأقسم أن لا يقربها؛ وقيل حلف أن لايشرب العسل عند زينب بنت جحش ولا عند غيرها؛ وما كان له أن يحرّم على نفسه ما أحل الله له. وفى حكاية خولة بنت ثعلبة حرّم عليها زوجها أوس بن الصامت لمّا ظاهرها، وقال لها رسول الله ﷺ : «حَرُمت عليه»، فمازالت تراجعه ويراجعها وهو يقول : «هو ما قلت لك»، فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله !. فنزلت الآية: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾** (المجادلة). وأمثال هذين الخطأين من دلائل بشريته وعبوديته لله، ورغم مقامه المحمود عند ربّه، إلا أنه لم يخرج عن أن يكون عبداً لله،

وكان يقول لأصحابه إذا أطروه : «لا تُطرونى كما أطرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا : عبد الله ورسوله». رواه البخارى، وقال : «إنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله، فلن أكذب على الله» رواه أحمد وابن ماجة. وقال : «إنما أنا بشر تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن (يعنى أبلغ) بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضى له على نحو ما أسمع. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها». رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن.

وليست أخطاؤه من النوع الفاحش، ولا المبتذل، ولا القبيح، ولا المرذول، ولا هى مخالفة لأوامر الله، وإنما هى أخطاء ليس فيها نصّ قرآنى، وأعمَل فى أحداثها نَظَره فحكَمَ بما وسعه، ومن ذلك ما رواه الحسن البصرى قال : جاءت امرأة إلى النبىّ ﷺ تشكو زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ : «القصاص»، فأنزل الله : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ (النساء)، فأبطلت الآية حكم الرسول ﷺ، فثبت أنه تعالى لا يقرّه على الخطأ، وأنه ﷺ كان يخضع فوراً لحكم الله ويأخذ بالصحيح، ويفرح به ويُسَرّ. ولمّا أذن لبعض المنافقين أن يتخلّفوا عن غزوة تبوك حين استأذنوه فأعذرهم، عاتبه الله شديد العتاب فقال : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ (التوبة) وعلمّه ان يتحرّى ويتثبت ولا ينخدع بظواهر ما يقولون، فوراء أعذارهم مقاصد دنيّة بيتّوا لها.

وفى وقعة بدر استطاع المسلمون أن يأسروا سبعين من أشراف قريش، وكان من رأى عمر أن يُقتَلوا، فالحرب لم تضع أوزارها، ورأى الرسول ﷺ أن يرضَى منهم الفداء، لعل المسلمين ينتفعون بالمال، فنزلت الآية تعتب عليه بشدة إطلاقه سراح الأسرى، وقال له ربّه يعلّمه : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾ (الأنفال).

واشتهر عتاب سُورة عبس، وقوله تعالى له فيه : ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ فهذا أكبر تعنيف للنبىّ ﷺ فى القرآن كله، وسبب ذلك أنه ﷺ انشغل يوماً مع جماعة من أشراف قريش يحاجيهم ويناقشهم ويحاورهم لعلهم يهتدون، وجاءه عبد الله بن أم مكتوم، وهو يجادلهم ، وكان أعمى يتلمس طريقه، ودخل على النبىّ ﷺ بلا استئذان، وقاطع

النقاش يـريد أن يسأله فى دينه، فلم يرّد عليـه النبيّ ﷺ واستـمر فى كـلامه، وابن أم مكتوم من حـين لآخر يأتيـه من شماله ثم من يمـينه ويقطع عليه كـلامه، ولا شيء على لسانه إلا عبارة «يارسول الله، علّمني مما علمّك الله»، وفى السورة يقول تعالى يصف الموقف: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪﴾ (عـبس)، فنفهـم أن الرسول ﷺ عَبّس فى وجهه، وابن أم مكتوم أعمى، ولن يرى العبوس، فلابد إذن أنه ظهر فى كلامه، ونفهم أنه تولى عنه وانصرف لا يجيبه، فكان هذا العتاب القاسى من الله تعالى لنبيّه، لأنه مـا كان له أن يُقبِل على كفّارٍ لدرجة أن يُـهمل المؤمن، ولا أن يعـرض عن هذا المؤمن الضعـيف من أجل كفرة عتـاة فى الكفر، ولا أمل فى هدايتـهم، فكان النبيّ ﷺ كلما التقى بابن أم مكتوم من بعد، يقول له هاشاً باشاً: «أهلاً بمن عاتبنى فيه ربّى»، وكان من عتابه تعالى لنبيّه ﷺ أن أنزل عليـه هذه الآية، يعلّمه أن لا يعرض أبداً عن مؤمن يطلبه للدين، قـال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ㉘﴾ (الكهف).

●●●

١٩٨. ﴿أوذى كما أوذى موسى﴾

مـوسى كثيراً مـا أوذى، وكذلك النبيّ ﷺ، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ㊾﴾ (الاحزاب)، وموسى اتهموه بأنه آدر (يعنى له خصية منتفخة) وأبرص، وأنه تزوج حبشية وحلّل حراماً، وأنه لم ينفّذ كلام ربّه فى ضرب الحجر ليخرج منه الماء، وأنه شكّ فى قدرة الله على أن يُؤكل بنى إسرائيل، ولم يعظهم قبل نزول السلوى، وأنه خاصم هارون ودعاه إلى الجبل ليقتله هناك. والنبيّ ﷺ آذوه فكانوا يرفعون صوتهم على صوته، كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ②﴾ (الحجرات)؛ وكانوا ينادون عليه باسمه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④﴾ (الحجرات)، ويدخلون بيته بلا استئذان، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ㊿﴾ (الأحزاب)، وقالوا إذا مات محمد سنتزوج أزواجه، فنزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا

رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ (الأحزاب)، وقالوا إنه سمّاع للناس، فرد تعالى عليهم يقول: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾**﴾ (التوبة)، ومن أذاهم قولهم فيه أنه «ساحر»، و«شاعر»، و«كاهن»، و«مجنون»، وشجّوا رباعتيه ووجهه يوم أُحد، وألقوا السلَى (خلاص الحيوانات بعد ذبحها) على ظهره في مكة وهو ساجد، وطعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حُيي، وفي تأميره لزيد بن حارثة، ثم لأسامة بن زيد، ونزلت فيمن يؤذونه في زمنه أو مستقبلاً، الآية العظيمة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾**﴾ (الأحزاب).

●●●

١٩٩. ﴿محمد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً﴾

ما كان محمد ﷺ إلهاً، وما تميّز عن الناس إلا بأنه رسول، كقوله تعالى: ﴿**قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾**﴾ (الأعراف)، وهو رسولٌ بشر، لايملك أن يجلب إلى نفسه خيراً، ولا يدفع عنها شراً، إلا ما يشاء الله أن يملّكه ويمكّنه.

●●●

٢٠٠. ﴿كل أمّة همّت بنبيّها﴾

في القرآن أن كل الأمم سواء، وأنهم جميعاً أرسل إليها الرسُل فحاولوا العدوان عليهم وألحقوا بهم الأذى، كقوله تعالى: ﴿**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴿٥﴾**﴾ (غافر)، قيل: «**الأخذ**» هو السجن والتعذيب، والعرب كانوا يسمون الأسير الأخيذ، أخذوه لتعذيبه أو فدائه أو قتله. وقيل **الأخذ**: هو الإهلاك، بمعنى القتل، يعنى أن كل أمة حاولت قتل نبيّها، ونبيّنا حاولوا قتله عشر مرات كما سيجيء لاحقاً. و«**أَخْذُ** كل أمة لرسولها»، يكون إما في أول الدعوة، وإما عند نزول العذاب بهم.

●●●

٢٠١. ﴿مكروا به ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه﴾

في الآية: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾**﴾ (الأنفال)، إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبيّ ﷺ في دار الندوة، فاجتمع رأيهم على قتله، فبيّتوه، ورصدوه على باب منزله طوال

ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبيّ ﷺ **عليّ بن أبي طالب** أن ينام على فراشه، ودعا أن يعمَى عليهم أثره، فطُمس على أبصارهم وغشَى عليهم النوم، فخرج ، فلما أصبحوا فتح لهم عليّ، فعلموا منه أنه قد رحل، والخبر مشهور في السيرة، ومعنى «**ليثبّتوك**» يقال أثبته إذا حبسه وسجنه، و«المكر» التدبير في الأمرخفية، **والمكر من الله** هو إفشال مخططهم.

●●●

٢٠٢. ﴿ابن جَحّاش اليهودي يحاول قتله﴾

هو **عمرو بن جَحّاش من بني النضير**، وكان النبيُ ﷺ قد جاء **بني النضير** يستعينهم في دية فهمّوا بقتله، وحاول ذلك **ابن جحاش**، تقدّم واخترط سيف النبيّ ﷺ - أي اختطفه وجردّه منه، وقال : من يعصمك مني يا محمد ؟ فعصمه **الله** منه، وقيل ضرب اليهودي من بعد برأسه في ساق شجرة حتى مات.

●●●

٢٠٣. ﴿حاولوا قتله عشر مرات؟﴾

المؤامرات على الإسلام قديمة وليست بنت اليوم، وما يفعله اليهود والمسيحيون، والإمبرياليون، والمستشرقون، والعلمانيون، والملاحدة، اليوم وغداً، من التنكيل بالمسلمين، وإيقاع الفتن بينهم ، والتأليب عليهم، والغدر بهم، إنما هو تكرار لما فعله أجدادهم بالأمس. فلما كان الرسول ﷺ بين المسلمين حاولوا قتله كرمز للإسلام، وبلغ عدد محاولاتهم **عشر مرات**:

● ففي **المرة الأولى** لمّا عرفوا أن الإسلام انتشر اعتناقه ، وكثر أتباعه، خافوا أن تصير للمسلمين منعة، فأجمعوا على الكيد لهم، وأن يحاربوهم نفسياً، وسياسياً، وعسكرياً، واقتصادياً، فوضعوا أعينهم على النبيّ ﷺ ، فلو قتلوه لتفرّق أشياعه أيدي سبا، وتحلّقوا لذلك في دار كانت لقريش اسمها **دار الندوة**، وهي دار **قُصَيّ بن كلاب** التي كانت اجتماعتهم تُعقد فيها، وتشاوروا هناك فيما يصنعون في أمر هذا **الدعيّ** - كما كانوا يسمونه، وكان مجيئهم من كل حدب وصوب، وكانوا جميعهم من الكبار، منهم من بني عبد شمس: **عُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب**؛ ومن بني نوفل بن عبد مناف : **طُعيْمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل**؛ ومن بني عبد الدار بن قصيّ : **النضر بن الحارث بن كَلَدة**؛ ومن بني أسد بن عبد العزى: **أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن الحطاب، وحكيم بن حرام**؛ ومن بني مخزوم: **أبو جهل بن هشام**؛ ومن بني سهم، : **نُبيْه ومُنبَّه ابنا الحجاج**؛ ومن بني جُمَح: **أمية بن خلف**، وغيرهم كثير وإن

كانوا نكرات، وبلغ عدد كبار المتآمرين **أربعة عشر**، وتداولوا فيما بينهم، وأشار عليهم **أبو جهل** أن يأخذوا من كل قبيلة فتى، شاباً، جليداً، نسيباً، وسيطاً، ويعطون كلاً منهم سيفاً صارماً؛ فيعمدون إليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيستريحون منه، فإن فعلوا ذلك تفرّق دمه بين القبائل جميعاً فلم يقدر أهله بنو **عبد مناف** على حرب قومهم جميعاً. واجتمع من اختاروهم على بابه يقودهم **أبو جهل**، وخرج عليهم رسول الله ﷺ، وفي يده حَفْنة من تراب، فجعل ينثرها في وجوههم ويتلو: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** ﴿٩﴾﴾ (يس)، فلم يبق منهم من لم يصبه التراب، وانسلّ هو من بينهم إلى حيث أراد، وتطلّعوا حولهم وقد شاهت وجوههم وكساها التراب، وتسلقوا الجدار يفتشون عنه بعيونهم، فرأوا **علّي بن أبي طالب** ينام مكانه، ويتسجّى ببُرده. ونزل القرآن في هذه المؤامرة التي أفشلها الله تعالى قال: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، وقال ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ** ﴿٣٠﴾ **قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ** ﴿٣١﴾﴾ (الطور). **والبُرد** عباءة ويلتحف بها، **وتسجّى** تغطّى؛ **وتربّص** انتظر؛ **والمنون** الموت؛ **وريب المنون** ما يريب ويعرض منها.

● وكانت **المحاولة الثانية** أثناء خروجه ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، يصحبه **أبو بكر** ومولاه **عامر بن فهيرة**، وكان المتربصون به قد جعلوا **مائة ناقة** جائزة لمن يردّه عليهم، فخرج **سُراقة بن مالك بن جُعْشُم** على فرسه وراء ركب الرسول ﷺ، وقد لبس لأمته، واشتد في أثرهم، واستقسم بقداحه يقرأ طالعه، فخرج السهم «لايضرّه»، وعثر به فرسه وأسقطه عنه، وعاد إليه يشتد في أثرهم، واستقسم قداحه مرة ثانية فخرج السهم في هذه المرة أيضاً «لايضره»، وعثر الفرس من جديد وسقط سراقة، ثم عاد إلى الركوب، واستقسم قداحه فخرج السهم للمرة الثالثة «لايضره»، واشتد مع ذلك في أثرهم، فعثر الفرس، وسقط سراقة عنه، وتعجّب، ولكنه أصر السعي خلف الرسول ﷺ، إلى أن تراءى له ركبهم، فعثر به فرسه وغاصت رجلاه في الرمال، وسقط هو على الأرض، وقام يستنهض الفرس، ونظر فرأى دخاناً كالإعصار قد حال بينه والركب، فنادى بأعلى صوته: أنه **سراقة بن جُعشُم**، لا يريبهم ولا يأتيهم منه شيء يكرهونه، وأنه يريد أن ينظروه ليكلّمهم، وطلب أن يكتب له الرسول ﷺ كتاباً يكون آية بينهم وبينه، وكتب له الرسول ﷺ الكتاب على عظم أو في رقعة، أو خِرْقة، وألقاه إليه، فجعله سراقة في كنانته ثم رجع. فلما كان فتح مكة، ثم حنين والطائف، خرج إلى الرسول ﷺ يلقاه في الجِعرانة، وأسلم سراقة وحَسُن إسلامه.

• **والمحاولة الثالثة لقتله** ﷺ قام بها **عمير بن وهب الجُمَحي**، وكان من شياطين قريش، وممن آذوا الرسول ﷺ أشد الأذى، ولقى منه أصحابه من مكة أشد العنت، وخطط لها معه **صفوان بن أمية** بعد مصاب أهل بدر من قريش. وكان ابنه **وهب بن عُمَير** من أسارى بدر، فقال لصفوان: لولا دَيْن عليّ، له عندى قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى قبلهم عِلّة: ابني أسير فى أيديهم! واغتنمها صفوان وقال: عليّ دينُك أقضيه عنك! وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا، لايسعنى شئ ويعجز عنهم! فقال له عمير: فاكتم شأنى وشأنك! ـ وتمت المؤامرة. وشحذ عمير سيفه وسمّه وقدم المدينة، فرآه عمر يُنيخ على باب المسجد متوشحاً السيف، وللتو قال: هذا الكلب عدو الله **عمير بن وهب**! والله ما جاء إلا لشر، وهو الذى حرّش بيننا وحَزَرنا للقوم يوم بدر! (يعنى أفسد بيننا وبينهم وحدد لهم عددنا تخميناً). وأسرع إلى رسول الله ﷺ يعلمه بالأمر، ولم يفعل الرسول ﷺ إلا أن قال له: «**أدخله عليّ**». وأقبل عمر على عمير، وأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببّه بها، وأمر بعض الأنصار أن يدخلوا على النبيّ ﷺ ويحيطوا به حذر هذا الخبيث، ثم إنه أتى به إلى الرسول ﷺ. وأمر الرسول ﷺ عمر أن يرسله، وخاطب عمير قال: «**إدْنُ يا عمير**»، فدنا وقال له: انعموا صباحاً! وهى تحية الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: «**أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام ـ تحية أهل الجنة. فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير فى أيديكم فأحسنوا فيه. قال رسول الله ﷺ: «**فما بال السيف فى عنقك؟**» قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً! قال: «**أصدقنى ما الذى جئت له**»؟ قال: ما جئت إلا لذلك. قال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَيْن عليّ وعيالٌ عندى، لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلنى له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك**»! قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله! فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق، ثم إنه شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «**فقّهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره**»! ففعلوا، ثم إن عمير استأذن رسول الله ﷺ أن يقدم مكة يدعو الناس إلى الله لعلّهم يهتدون، وإلاّ آذاهم كما كان يؤذى أصحاب النبيّ ﷺ فى دينهم، وأذن له، فكان يدعو الناس بمكة إلى الإسلام، ويؤذى من يخالفه أذى شديداً، وأسلم على يديه ناس كثير.

● وجرت **المحاولة الرابعة يوم أُحد**، وقام بها ثلاثة: **عُتبة بن أبي وقّاص**، رمى رسول الله ﷺ فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وهى السن التى بين الثنية والناب، وجَرَح شفته السفلى؛ **وعبد الله بن شهاب الزهري** شجّه فى جبهته؛ **وعبد الله بن قمئة** جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته؛ **والمَغْفَر** درع من حديد يوضع عند الرأس ليحميه من ضرب السلاح فى الحرب. ووقع رسول الله ﷺ فى حفرة كانوا قد احتفروها ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون. واجتمع **خمسة من الأنصار** يزودون عن رسول الله ﷺ ، رأسَهُم **زياد بن السكن**، أو **عمارة بن يزيد بن السكن**، وقُتلوا دونه، وقاتلت عنه **أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية**، وكانت تذُبُّ بالسيف، وترمى عن القوس، حتى أصابها بن قمئة، وكان قد أقبل على رسول الله ﷺ يقول : دلّونى على محمد فلا نجوتُ إن نجا! فاعترضت له **أم عمارة ومصعب بن عمير**، وأناسٌ ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ ، وضربها ابن القمئة وجرحها جرحاً غائراً، وترّس دون رسول الله ﷺ **أبو دجانة**، ورمى **سعد بن أبي وقاص** دون رسول الله ﷺ ، وكان الرسول ﷺ يناوله النبل وهو يقول : **إرم فداك أبى وأمى!»** حتى كان يناوله السهم ما له نصل فيقول : **«إرم به»** .

ورمى رسول الله ﷺ عن قوسه حتى اندقّت، وظن **أنس بن النضر**، عم أنس بن مالك، **أن الرسول ﷺ قد قُتل، وذهبت الإشاعة أنه قد قُتل**، ورآه **كعب بن مالك فأشار إليه**، وزعق يبشّر المسلمين، واندفع رهط من المسلمين إلى حيث أشار، ومنهم **أبو بكر، وعمر، وعلىّ بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله، ومالك بن سنان، وأبو عبيدة الجرّاح، والزبير بن العوام، والحارث بن الصِّمّة**، وأسرع إليه **علىّ بن أبى طالب** يأخذ بيده، وأنهضه **طلحة**، ومسح **مالك بن سنان** الدم عن وجهه وكان يلعقه ويزدرده تبركاً، ونزع **أبو عبيدة** بثنيته إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ ، فسقطت الثنية، ثم نزع الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت هى أيضاً، فكان أبو عبيدة **ساقط الثنيتين**.

● وأما **المحاولة الخامسة** لقتل رسول الله ﷺ فقد جرت فى **الشِّعَب يوم أُحد**، ذلك أن **أُبيّ بن خلف** كان يقابل الرسول ﷺ أيام مكة فيقول له : يا محمد ! إن عندى العَوْذ، فرساً أُعلفه كل يوم فَرَقاً (والفرق مكيال) من ذُرة، أقتلك عليه ! فيقول الرسول ﷺ : **«بل أنا أقتلك إن شاء الله !** فلما كان يوم **أُحد** وما جرى فيه، وتراجع المسلمون إلى الشِّعب، والنبىّ ﷺ مثخن بالجراح وقد أسندوه، أدركه ابن خلف هذا وهو ينادى عليه : أى محمد ! لا نجوتُ إنْ نجوتَ! فقال القوم : يارسول الله ! أيعطف عليه رجلٌ منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : **«دعوه»**. فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث

بن الصِّمة، واستقبله بها وانتفض بشدة ثم طعنه في عنقه، وخدشته الطعنة ولم تقتله، ودأدأته عن فرسه، فلما كان في طريق عودته إلى مكة مات من الجرح بِسَرِف وهم قافلون إلى مكة.

• وجرت المحاولة السادسة لقتله ﷺ في العام الرابع الهجري، وقام بها بنو النضير من اليهود. وكان النبيّ ﷺ قد أرسل بعثةً من أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين إلى أهل نجد يدعوهم إلى الإسلام، فغدر بهم عامر بن الطفيل وقتلهم، إلا عمرو بن أمية الضَّمْري ورجلاً من الأنصار، وكان ابن طفيل قد حاول أن يستعين عليهم أولاً ببني عامر، فرفضوا للعقد الذي بينهم وبين النبيّ ﷺ، فلجأ إلى بني سليم فقاموا معه وأجهزوا على البعثة. وصمم عمرو بن أمية على الانتقام، وقد ظن أن بني عامر هم الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة، والتقى قرب المدينة برجلين من بني عامر نزلا في ظلٍ هو فيه فقتلهما، وخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فطبقاً للجوار الذي كان قد عقده لبني عامر يحقّ لهم الدية عن القتيلين. وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ويحق له من ثم أن يستعينهم. فلما أتاهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الأمر رضوا، ثم إنهم خلوا إلى بعضهم البعض، وكانت فرصة لهم أن يقتلوا رسول الله ﷺ عندهم وهو في نفر من أصحابه قليل، منهم أبو بكر وعمر وعليّ، وكان رسول الله ﷺ قد قعد إلى جنب جدار من بيوتهم، فأتّمروا أن يعلو رجل البيت الذي يقعد تحته فيلقي عليه صخرة، وانتدبوا لذلك عمرو بن جَحّاش بن كعب أحدهم، «ليريحهم منه» كما قالوا، ولكن الله ألْهَم رسوله ﷺ أن ينهض راجعاً إلى المدينة، وأعلمه بأمرهم، فلما بلغ المدينة أخبر أصحابه وأمرهم بالتهيئو لحرب بني النضير جزاءً وفاقاً، ثم سار بأصحابه لحصارهم، وكان ذلك في شهر ربيع الأول، واستمر الحصار ست ليال، وكانت جماعة من الخزرج - منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي نوفل، وسويد، وداعس قد بعثوا إلى بني النضير: أنْ اثبتوا وتمنّعوا فإنا لن نُسلمكم. إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم»، وأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ⑪ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ⑫ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ⑬ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ

بأنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)﴾ (الحشر) وهو ما حدث، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، ففعل ، وكان قوله: ﴿**كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (١٥)**﴾(الحشر)، يعنى بنى قينقاع الذى كان الرسول قد أجلاهم قبل هذا. واحتمل بنو النضير من أموالهم ما استقلت الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته ويستولى على بابه يضعه على ظهر بعيره. وانطلقوا فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

● **والمحاولة السابعة** قام بها رجلٌ من **بنى محارب** يقال له **غَورَث**، قال لقومه من غَطَفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ! ـ فأقبل إلى رسول لله ﷺ وهو جالس وسيف رسول الله ﷺ فى حجره، فقال : يا محمد ! أنظرُ إلى سيفك هذا ؟ قال : «نعم» ـ وكان مُحلّى بفضة، فأخذه فاستلّه، ثم جعل يهزّه، ثم قال : يا محمد ! أما تخافنى ؟ قال : «**لا، وما أخاف منك**»، قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال: «**لا، يمنعنى الله منك!** » فكفّ الرجل وعمد إلى سيف رسول الله ﷺ يردّه إليه، وأنزل الله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)**﴾ (المائدة)، قيل وربما أنزلها الله فى **عمرو بن جحّاش** متآمر بنى النضير وما همّ به، والله أعلم.

● وكانت **المحاولة الثامنة لقتله عام الفتح**، قام بها **فُضَالة بن عُمَيْر**، أراد الفتك بالنبى ﷺ وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : «**أفضالة**» ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله، قال : «**ماذا كنت تحدّث به نفسك**» ؟ قال : لا شىء ! كنت أذكر الله ! فضحك النبىّ ﷺ ثم قال : «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله، ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحبُّ إلىّ منه !

● وكانت **المحاولة التاسعة لقتله يوم حنين**، قام بها **شَيْبة بن عثمان بن أبى طلحة**، أخو بنى عبد الدار، وكان أبوه قد قُتل يوم أُحد، فأراد أن يأخذ بثأره، وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد فرّوا أمام هوازن، حتى لم يبق معه منهم إلا ثمانية، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال : «**أين أيها الناس؟ هلموا إلىّ ! أنا رسول الله ! أنا محمد بن عبد الله**»! وعندئذ تقدّم شيبة يدور حول رسول الله ﷺ ، وأتاه من خلفه، فلمّا همّ به التفت

إليـه النبىّ ﷺ وعرف الذى أراده وتبسّم له، ومسح صدره فـذهب عنه الشك، وفى رواية أخـرى أن شيـبة لما نظر إليه وانقبض فؤاده تغـشّاه شئ، ولم يطق أن يفتك بالرسول ﷺ، يقول : وعلمتُ أنه ممنوعٌ منى!

● **وأما المحاولة العاشرة لقتله فكانت من تدبير عامر بن الطُّفَيْل** عدو الله، **وزيد بن قيس،** وكانا ضـمن وفد بنـى عامر إلى رسـول الله ﷺ، وقال عـامر لأربد : إذا قـدمنا على الرجل - يقصـد رسول الله ﷺ - فإنى سـأشغل عنك وجـهه، فإذا فـعلت ذلك فاعلُه بالسيف ! فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال له : «**يا عامر ! إن الناس قد أسلموا فأسلم** ! فجـعل يقول للنبىّ ﷺ : خالنى - يعنى اتخـذنى خليلاً، وجعل يـكلّمه وينتظر من أربـد ما كان أمَره به، فجعل **أربد** لا يحير شيئاً. فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال : يا محمد ! خالنِى ! قال : «**لا، حتى تؤمن بالله وحـده لا شريك له**». وألحّ على النبىّ ﷺ وهو يأبى عليه، فقال له : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً. وَوَلّىّ عامر فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم اكفى عامر بن الطفيل**». ثم إن عامراً التقى **بأربد** فعاتبه وقال : أين ما كنت أمـرتُك به ؟ قال له : لا تعـجل علىّ : مـا هممـتُ بالذى أمرتنى به من أمـره إلا دخلتَ بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك. أفأضـربك بالسيف ؟ - وخرجا راجعيْن إلى بلادهما، فلما كانا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل **الطاعون** فى عنقه، فقتله فى بيت امرأة من بنى سلول، وهو يقول : أغَدةٌ كغدة الإبل، وموتاً فى بيت سلولية !! - وبعد مـوت ابن الطفيـل توجه أربد إلى أرض بنى عـامر وكـذب على قومه عـن الرسول ﷺ، وقال فى حـقه : لوددت أنه عندى الآن فأرمـيه بالنبل حـتى أقتله ! فخـرج بعد مقـالتـه بيوم أو يومـين ومعـه جمل له يتـبعـه، فأرسل الله عليـه وعلى جملـه صاعـقة فأحرقتهما. وأنزل الله تعالى فى ابن الطفيل وأربد : ﴿**سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ⑩ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ⑪**﴾ (الرعـد). وقـيل إن الله أنزل فى أربد وابن الطفـيل: ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ⑬**﴾ (الرعد)، وأن ابن الطفيل وأربد لمّا قدما المدينة سألا النبىّ ﷺ أن يجعل لهـما نصف الأمر، فأبى عليهـما، فقال له عـامر : أما والله لأملأنها عـليك خيلاً جُرداً ورجالاً مُرداً. فـقال له رسول الله ﷺ : «**يأبى الله عليك ذلـك وأبناء قَيْلَة**» يعـنى الأنصار. ثم إنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ، فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل

سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا فى أحياء العرب يجمعان الناس لحربه ﷺ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما ابن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون ومات.

•••

٢٠٤. ﴿الردّ على من قال أن الأنبياء تعلم الغيب﴾

كان هذا الردّ من طائر صغير الشأن، كبير القدر، هو الهدهد، وكان هو قول الهدهد لسليمان: **﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾** (النمل)، فأعلمه ما لم يكن يعلمه سليمان. وفى الآية دليل على أن العلم ليس احتكار العلماء، ولا الأنبياء، وأنه لا النبيّ ولا العالِم يمكن أن يعلما الغيب إلا ما يأذن به الله.

•••

٢٠٥. ﴿محمدٌ لا يعلم الغيب﴾

ما كان محمد ﷺ يعلم ما تخبئه المقادير، ولا ماذا يجرى له غداً، ولو كان يعرف ما يُراد منه من قبلِ أن يعرفه لفعله، كقوله: **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ (١٨٨)﴾** (الأعراف)، والقائد إذا تسنّى له أن يعرف الغيب انتصر فى الحروب، وبعض الحروب خسرها النبى ﷺ، والتاجر الذى يعرف الغيب يتاجر بثقة ويعرف متى يقبل على الاتجار ومتى ينكص، ومحمد ﷺ ما كان يجد قوت يومه، وكان أصحابه يشكون الجوع فما يملك ما يسدّ به جوعهم، إلا أن يطلب منهم أن يصبروا. ولو كان يعلم الغيب لكانت الساعة ضمن علمه، ولاستكثر من عمل الصالحات. ولو كان علم الغيب من علومه لاستطاع أن يجيب على كل ما سألوه عنه، ولما استطاع أحد أن يؤذيه أو يكيد له، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل.

•••

٢٠٦. ﴿محمد ﷺ بشرٌ﴾

فى التراث الإسلامى أن إبليس رفض أن يسجد لبشر: **﴿قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣)﴾** (الحجر)، وورث الناس عن إبليس هذه الدعوى، ورفضوا أن يكون الرسُل من البشر: **﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾** (يس)، وشكّكوا فى رسالاتهم، قالوا: **﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا (٦)﴾** (التغابن)، واستكبروا أن يتّبعوا رسولاً من البشر: **﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)﴾** (القمر)، وقالوا عن كل نبيّ: **﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا (٢٧)﴾**

(هود)، وزادوا فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ (المؤمنون)، وزادوا أكثر فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (المؤمنون)، وأقرت الرسُل ببشريتهم ولم يدّعوا خلاف ذلك: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿١١﴾﴾ (إبراهيم)، وأكد النبىّ ﷺ ذلك عن نفسه فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف)، وقال أهل مكة عنه: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿٣﴾﴾ (الأنبياء)، يعنى أنه لا يتميز عنهم بشىء، فما ينبغى أن يكون لهم نبياً، وما علموا أن الله تعالى ما كان ليرسل إلى البشر إلا بشراً مثلهم، ليفهموا عنهم ويعلّموهم، ولو كان الناس ملائكة لأرسل إليهم مَلَكاً، ولكنهم بشرٌ من بشر، فكان النبىّ ﷺ - وكل نبىّ - منهم وإليهم.

●●●

٢٠٧. ﴿النبىّ ﷺ أليس بشراً؟ فلماذا هذه الصفات ينسبها إليه البعض فتخرجه عن البشرية؟!﴾

ذلك دأب العامة فى الديانات المختلفة، وفى المذاهب المتباينة، أن ينسبوا لأنبيائهم وكبرائهم وعظمائهم، أفعالاً وأقوالاً وصفات تخرجهم عن البشرية، ويطلق علماء النفس والطب النفسى على ذلك اسم «عبادة البطل»، واليهود ألّهوا نبيّهم عزير: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة)، وكذلك فعل النصارى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة)، و﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة)، وإنما محمد ﷺ أكد على بشريته وقال: «أنما أنا بشر أضيق بما يضيق به البشر» رواه أحمد بطريق عائشة، وفى رواية أخرى قال: «إنى بشر أغضب كما يغضب البشر». والله تعالى لم يرسل إلى الناس رسلاً إلا من البشر، يقول: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿١١﴾﴾ (إبراهيم)، وأمر الله تعالى نبيّه أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴿٦﴾﴾ (فصّلت)، وقال له: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف)، وقال عنه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران)، فإذا كان النبىّ ﷺ يخبر أحياناً ببعض الغيوب، فإنما يخبر بها بإعلام الله تعالى إياه، لأنه تعالى يستقل بعلم ذلك، كما وصف نفسه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الجن). والمسلم الذكى هو الذى يتحرّج أن يقع فى الخطأ الذى وقع فيه اليهود والنصارى،

وإنه لأمرٌ جلل أن ننسب إلى رسولنا ﷺ ما ليس فيه، ونحسب أننا بذلك نكرمه، أو نجلّه، أو ننزله المنزلة الواجبة، والرسول ﷺ من كل ذلك براء.

●●●

٢٠٨. ﴿محمدٌ واحدٌ من العرب وبشرٌ مثلهم﴾

عن عائشة ﵂ أن قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)**﴾ كان للعرب خاصة»، وقال آخرون: الآية لكل المؤمنين أينما كانوا، ينبّههم أن نبيّهم ﷺ من أنفسهم، أي واحد منهم، وبشرٌ مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي، وخصّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به، فالمنّة عليهم أعظم.

●●●

٢٠٩. ﴿النبيّ ﷺ خليله الله تعالى﴾

في الحديث: «**وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً**» أخرجه مسلم. يعني اصطفاه الله خليلاً، والخليل هو الذي يوالي في الله، ويعادي في الله، والنبيّ ﷺ كانت هذه أبرز صفاته، فلما اتخذه الله خليلاً استحال عليه أن يُشرك في نفسه أحداً مع الله، فقال: «**لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» أخرجه مسلم، يعني لم يكن له خليل إلا الله، شأنه شأن إبراهيم الخليل: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥)**﴾ (النساء).

●●●

٢١٠. ﴿الردّ على من قال إن النبيّ ﷺ أختص أحداً بشيء قبل مماته﴾

الدليل عليه قوله ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» أخرجه مسلم، أي: لو كنت مختصاً أحد بشيء، لاختصصت أبا بكر، وفي هذا ردٌّ على من زعم أن النبيّ ﷺ اختص بعض الصحابة ـ وبالتحديد علياً ـ بشيء من الدين.

●●●

٢١١. ﴿محمد ﷺ أول من أسلم أمره لله من امّته﴾

لمّا أصرّوا على تكذيب النبيّ ﷺ، أنزل الله تعالى عليه سورة **الأنعام**، يسلّيه عن تكذيب مَن كذبه، فصار خطابه له «بقُل» تتكرر كل حين، ومن ذلك: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ (١٤)**﴾ (الأنعام)، يعني الأول من هذه الأمة، كقول موسى: ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)**﴾ (الأعراف)، والإسلام هو أن تُسلم أمرك لله، وأول المسلمين يعني أول من يُسلم أمره لله، وزيد له الأمر وضوحاً فقيل له أن يقول: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا**﴾ (الأنعام

١٤)، وأن يقول : ﴿**لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**﴾ (الأنعام)، وانتقد المستشرقون هذه الآيات، بأن إبراهيم والأنبياء قبله كانوا من المسلمين، ومن الدعاة كذلك، وكانوا تاريخياً قبل النبى ﷺ ، فكيف يكون هو أولهم مع أنه آخرهم ؟ والجواب : أن الآية من التعليم الإلهى له، بأن يردّ على المكذّبين إذا جادلوه وكذّبوه، بأنه آمن بالله لا شريك له، وأنه أول المسلمين إعلاناً وتأكيداً له، ونشراً لعبادته وتوحيده، فإن كان إبراهيم قد سبقه فلم تكن له جماعة سوى عشيرته، وموسى اقتصر على بنى إسرائيل، وعيسى قال عن نفسه : إنه ما جاء إلا لخراف بنى إسرائيل الضالة، وكلّ نبىّ كان له قومه يدعوهم بدعوته، إلا محمداً ﷺ ، فإنه أول من دعا إلى ربّ العالمين، وأول من ينزل عليه كتابٌ مدوّن محفوظ، وأُمته من بعده خلفاء له، وهى الأمة الشاهدة على الأمم، وأمة البلاغ عنه، والمسلمون فرداً فرداً، ورثوا عنه الرسالة والتبليغ، فكل من يقوم مقامه فى التبليغ فهو أول المسلمين مثله - أى فى المقام الأول من حيث الاعتبار بما قد كُلّف به، وما أدّاه منه. وفى الحديث عنه ﷺ لفاطمة ، أنه أمرها أن تقول ما خُصّ به أن يقوله هو عن نفسه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**﴾ (الأنعام)، ولما سأله عمران عن هذه الآية : يا رسول الله ! هذا لك ولأهل بيتك خاصة ، أم للمسلمين عامة ؟ قال : «بل للمسلمين عامة»، فكل من يؤمن به تعالى، ويدعو إليه، ويؤدى تكاليف الإيمان، فهو من «أوائل المسلمين»، وفى صفّهم. وفى الحديث عن أبى هريرة أنه ﷺ قال : «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»، يعنى إن كان النبىّ ﷺ هو آخر الأنبياء، وأمته هى آخر الأمم، فإنه وأمته إن شاء الله ، هم الأولون يوم القيامة وعند دخول الجنة، بأعمالهم وصلاحهم، وإخلاصهم، وبرواية أبى حذيفة قال : «نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق»، وبالتعبير القرآنى أنهم ﴿**السابقون (١٠)**﴾ (الواقعة)، سبقوا الأمم بالإيمان، وكانوا أول الناس رواحاً للصلاة، وجهاداً بالنفس والمال، وأخذاً بالتوبة، وعملاً بالبر والإحسان، فلما أسلموا لله كانوا من الأولين، وكان النبىّ ﷺ أولهم فى السبق، لأنه نبىّ الأمة ورسوله تعالى.

•••

٢١٢. ﴿محمد ﷺ أول الخلق أجمع﴾

قالوا فى قوله تعالى : ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**﴾ (الأنعام)، أن النبىّ ﷺ أول الخلق أجمع، وفى نداء الفجر يقال : «يا أول خلق الله»، والمقصود أنه فعلاً أول الخلق

معنى، كما قال: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة» أخرجه مسلم، و«نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق» أخرجه مسلم. وهو أول الخلق لتقدّمه على الخلق، وأول المسلمين فى أمة الإسلام، ولما سئل فى الآيــة: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** (١٦٣)﴾ (الأنعام)، هل هذه لك خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال: «**بل للمسلمين عامة**» أخرجه الحاكم، فالأولية جائزة لكل مسلم يقوم بفروض دينه وطاعة ربّه ونبيّه، وهى أولية على الخلق وعلى سائر المسلمين الأقل منه التزاماً بدينهم وبالطاعة لربّهم، ولرسوله.

●●●

٢١٣.﴿محمد أرسل بلسان قومه﴾

النبىّ ﷺ عربىٌّ بُعث باللسان العربى، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** (٤)﴾ (إبراهيم)، يعنى أنه تعالى يرسل الرسل بلغات أقوامهم، ليبيّنوا أمر دينهم، ومع ذلك فلا حجة للأقوام الأخرى، لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبىّ ﷺ، ترجمةً يفهمها، لزمته الحجة، ولاتكون ملزمة إلا أن يسمعوا به وتبلغهم رسالته، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٢٨)﴾ (سبأ)، وقال ﷺ: «**أرسل كل نبىّ إلى أمته بلسانها، وأرسلنى الله إلى كل أحمر وأسود من خَلْقه**»، وقال: «**والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني - ثم لم يؤمن بالذى أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**» أخرجه مسلم، يعنى رغم أنه أرسل باللسان العربى، إلا أنه للكافة، وفى ذلك دلالة على أن العربية ستصبح لغة دولية وقد صار لسانها - اللسان العربى - لساناً عالمياً، ولله الحمد والمنّة.

●●●

٢١٤.﴿محمد رسول لكافة الناس﴾

كل الرسل أُرسلوا إلى أمم بعينها ولم يُرسَلوا لغيرها، ولما أتت الكنعانية إلى عيسى ليشفى ابنتها، رفض ولم يُعرها التفاتاً، ثم قال: «**لم أُرسَل إلا إلى الخراف الضالة من بنى إسرائيل**»، وقال: «**ليس حَسَناً أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى للكلاب**» (متّى ١٥/ ٢٤ - ٢٦)، وكذلك كان نوح، وإبراهيم، وهود، وصالح، وشعيب، ويعقوب، وموسى، أُرسلوا جميعاً إلى أقوام لا يتعدّوهم، إلا محمداً، فإنه الوحيد الذى أُرسل إلى العالمين، يقول ربّنا: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٢٨)﴾ (سبأ)، أى إلى جميع الخلائق والأمم والشعوب، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**

(١٥٨)﴾ (الأعـراف)، ولما سئل ابن عبـاس : فيم فَضَل محمد عن الأنبـياء ؟ قال: إن الله تعالى ذكر الرسل، فقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (٤)** ﴾ (إبراهيم)، وقـال لـلنبىّ ﷺ : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨)**﴾ (سبـأ). وفى الحديث، قال النبىّ ﷺ ، أنه أعطى خمسـاً، لـم يُعطَهن أحـدٌ من الأنبيـاء، وذكر من بيـنها : «**وكان النبـىّ يُبعث إلى قومـه خاصـة، وبعثت إلى الناس عـامة**» أخرجـه البخارى ومـسلم. وقال: «**بعُثت إلى الأسـود والأحمـر**» ـ يعنى للناس عـامـةً، يجمـعهم جميـعاً بالإنذار والإبلاغ، ويكفهّم جـميعاً عـمّا هم فيه من الكفـر، ويدعوهـم جميعاً إلى الإسلام.

●●●

٢١٥.﴿النبىّ ﷺ خاتم النبيين﴾

فـى الآيــة : ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (٤٠)**﴾ (الأحزاب) نصٌ على أنه **لا نبىّ بعده** ﷺ ، وفى الحديث : «**لا نبوة بعدى إلا ما شاء الله**» زيدت «**إلا ما شاء الله**»وهى تناقض بداية الحديث، لأن معناها أن بعده سيكون أنبياء والذين وضعوا هذه الزيادة كـانوا يرجون بها أن يقنعوا الناس بأنه بعـد النبىّ ﷺ سيكون هناك أنبياء، يقصدون بهم أئمة الشيعة والروافض. وفى الحديث الصحيح: «**مثلى ومثل الأنبياء كمـثل رجل بنى داراً فأتمهـا وأكملها، إلا مـوضع لَبنة، فجـعل الناس يدخلونها ويتـعجّبـون منها ويقولون : لولا مـوضع اللبنة**» ! قال رسـول الله ﷺ : «**فأنا موضع اللبنة، جـئت فختمت الأنبياء**» أخرجه مسلم . أو قال : «**فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

●●●

٢١٦.﴿كان خُلقه القرآن﴾

قـالت عـائشـة عن خُلقه : ما دعاه أحدٌ من الصـحابة ولا من أهل بيته إلا قال : «**لّبيك**»، وقالت : كان خلقه سورة «**قد أفلح المؤمنون**» إلى عشر آيات. وفى الحديث : إن الله بعثنى لأتمم مكارم الأخلاق». وشرح ﷺ ذلك فقال : «**أدبّنى ربى تأديباً حسناً إذ قال** : ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)**﴾ (الأعراف)، فلما قبِلتُ ذلك منه قال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)** ﴾ (القلم).

ومن تعليـمـه : «**اتق الله حيـثما كنت، واتبع السيـئة الحسنة تمحُهـا، وخالق الناس بخُلق حسن**». وقال : «**ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حَسَن، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذىء**». وسُئل عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة ؟ فقال : «**تقوى الله، وحُسن الخُلق**». وسُئل عن أكثر ما يُدخل النار ؟ فقال " «**الفم والفَرْج**»؛ وقال : «**إنّ من أحبكم**

إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدّقون، فما المتفيهقون ؟ قال : «المتكبّرون». والثرثارون : هم المتكلمون فى الكلام خروجاً عن الحق؛ والمتشدّقون : هم المتوسّعون فى الكلام من غير احتراز ولا احتياط، وهم المستهزئون بالناس يلوون أشداقهم؛ والمتفيهقون : المُدَّعون العلم والحذق.

•••

٢١٧. ﴿محمد رحمة للعالمين﴾

فى الحديث : «إنما أنا رحمةٌ مهداة» رواه أبو هريرة، ومثله الحديث عند ابن عمر: «إن الله بعثنى رحمةً مهداة. بُعثت برفع قوم وخفض آخرين» ، وأصل ذلك فى القرآن الآية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ (الأنبياء) وقوله هذا بلاغ لقوم عابدين، جعل من قوله : ﴿الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ بلاغاً عاماً، وقضية مسلّمة صحيحة، فيها بشارة للصالحين ، والمبلّغ وهو محمدٌ كان المبشّر، ولأنه كذلك فقد كان رحمةً لهم، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨)﴾ (الأنبياء)، فأصل الدعوة كلها أن لا إله إلا الله، وهى مضمون الوحى إلى محمد ﷺ ، والإيمان بلا إله إلا الله هو التسليم بالوحى ومضمونه، والبشارة أن يرث المؤمنون الأرض، يعنى أن يئول إليهم الحكم وتصبح لهم الغلبة والسيادة. وإذن فالقول فى النبىّ ﷺ : ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ هو من علم السياسة الإسلامية، لأنه برحمة من الله بشّر المستضعفين، وكما فى الحديث : «بُعثت برفع قوم وخفض آخرين». والحديث : «إنى رحمة بعثنى الله ولا يتوفانى حتى يُظهر الله دينه». ويُظهره فى حياته وبعد مماته، معناه من الناحية السياسية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ (المائدة)، ومعناه من الناحية الأخلاقية : أن من آمن بالله كَتَب له الرحمة، ومن لم يؤمن عوقب مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وفى هذه الناحية أيضاً قال : «أيّما رجل سببته فى غضبى أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما تغضبون، وإنما بعثنى الله رحمة للعاملين، فأجعلها صلاةً عليه يوم القيامة»، يعنى سبباً لأن تُحط عنه بعض سيئاته. وفى ذلك رحمة وأى رحمة؛ ولأنه رحمة قال : «وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر»، يعنى من يؤمن به فإن إيمانه يكون له رحمة. والآية إذن: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ (الأنبياء) تؤكد القول بأن الإسلام دين ودولة، وأن ما فى القرآن ويخصّ السياسة هو من الدولة، وما فيه يخصّ الأخلاق هو من الدين.

•••

٢١٨.﴿محمد أولى بالمؤمنين﴾

في الحديث: «إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقع فيه، وأنا آخذ بحُجُزكم، وأنتم تقحَمون فيه»، ومعنى بحُجُزكم أي يمنعهم عنه، وهذا مثل لاجتهاده ﷺ في نجاة أمته، وحرصه على تخليصهم من الهلكات، فوصفه ربّه فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ⁽٦⁾﴾ (الأحزاب)، فقال ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى وعليه دين، فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»، فإن ترك المتوفى مالاً يسلّم لورثته، وإن ترك ديناً قضاه عنه الرسول ﷺ، فهذه هي الولاية ـ من أولى المذكورة في الآية بمعنى نَصَر، وبتفسيره ﷺ بمعنى أدعى وأحفظ لهم من أنفسهم، وفي الأمثال: لا عطر بعد عروس، وهو أولى بهم من أنفسهم، لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو يدعوهم إلى النجاة، وهذه هي ولاية النبوة، وإن شئت فهي الأبوة الدينية.

●●●

٢١٩.«النبيّ ﷺ أذن خيراً»

قال المنافقون في النبيّ ﷺ أنه أذن، يعني سماعٌ لكل أحد، وكانوا يسطون ألسنتهم بالوقيعة في أذيته، فيقولون: إن عاتبنا حلفنا له فيصدّقنا ويقبل منّا، فإنه أُذن سامعة. والإنسان الأذن هو الذي يسمع كلام كل أحد، وقد ردّ الله عليهم فقال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⁽٦١⁾﴾ (التوبة)، فأمّن الله تعالى على قولهم، واستثنى فقال هو أذن خير لا أذن شر، فيسمع الخير ولا يسمع الشر، وهو يستمع للمؤمنين ولا يصدق الكافرين، وسماعُه للمؤمنين رحمة لهم.

●●●

٢٢٠.﴿وعظه لهم بواحدة﴾

الرسالة بلاغ، والنبيّ ﷺ أتم الحُجّة على المشركين، بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ⁽٤٦⁾﴾ (سبأ)، والواحدة التي يَعظهم بها، وينصحهم أن يأتوها، هي أن يتفكّروا، سواء أكانوا وحدهم أم مع غيرهم، هل جرّبوا على صاحبهم الذي يدعوهم إلى الإسلام، كذباً، أو رأوا فيه جنوناً أو انحرافاً، أو شاهدوا عليه فساداً، أو وجدوه يختلف إلى من يدّعون العلم بالسحر أو القصص، أو عرفوا فيه الطمع إلى المال، أو قدروا على معارضته ولو بسورة واحدة؟ فإذا تحققوا من صدق ما يقول، فلماذا العناد وهو ليس إلا نذيراً بما ينتظر الكافرين من العذاب الشديد؟ وقيل: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

الأقربين (٢١٤)﴾ (الشعراء) خرج رسول الله حتى صعد الصفا فهتف : يا «صباحاه» !!(يقسم بالصباح تنبيهاً) فقالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصدقيّ» ؟ قالوا : نعم. ما جرّبنا عليك كذباً. قال : «فإنى نذير لكم بين يديّ عذاب شديد».

●●●

٢٢١.﴿أجره على الله﴾

جُعل البلاغ على الأنبياء بلا أجر لهم عند المشركين، كقوله تعالى: **﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)﴾** (سبأ)، وإنما أجرهم عند ربّهم، وقوله: **﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾** يعنى لو كان له أجر عندهم فهو متنازلٌ عنه لهم، **لأنه أصلاً لا أجر له على المشركين.**

●●●

٢٢٢.﴿له المقام المحمود﴾

يأتى مصطلح «المقام المحمود» فى القرآن مرةً واحدة فى قوله تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾** (الإسراء)، والخطاب فى الآية للنبىّ ﷺ ، وقوله تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾**، من للتبعيض؛ و«**التهجد**» من **الهجود**، أى النوم، وهو من الأضداد، يقال هَجَد أى نام، أو على الضد سَهَر. **والتهجُّد** هو التيقُّظ والصلاة بعد رقدة، وهو القيام إلى الصلاة من النوم، وأما **القيام كل الليل** فليس تهجداً، والذى يقوم من النوم إلى الصلاة هو المتهجّد؛ و«النافلة» هى الفريضة الزائدة، اختص بها النبىّ ﷺ كرامةً له فى قوله ﴿لك﴾، وفى الحديث : «**ثلاثٌ علىَّ فريضة ولأمتى تطوعٌ : قيام الليل، والوتر، والسواك**»، وفى رواية أخرى : «**ثلاث هن علىّ فريضة، وهن لكم سُنَّة : الوتر، والسواك، وقيام الليل**». وعلى ما جاء فى **سورة المزمل : أن صلاة الليل** كان النبىّ ﷺ يؤديها وطائفةٌ من المسلمين على **جهة الوجوب، فأُمر** بالتنفّل على **جهة الندب**، لأنه مغفور له، فإذا تطوع بما ليس بواجب عليه، كان ذلك زيادة فى الدرجات، ولغيره كفاةٌ وتداركٌ لما يمكن أن ينتقص من الفرض، وعلى هذا كان **قيام الليل** بالنسبة له سبباً لنيله **المقام المحمود** عند البعث. وقد يكون معنى **يبعثه مقاماً محموداً**، يبعثه من نومه عند يقظته ليؤدّى قيام الليل، فلأنه عندئذ يكون دون الناس فى خلوة ومناجاة مع ربّه، فقد أُعطى بهما **مقاماً محموداً**، وفى مقام القُرب منه تعالى يتفاضل الناس بحسب درجاتهم، ونصيب النبىّ ﷺ من الدرجات العُلَى هو النصيب الأوفى، وقيل إنه لذلك **مقام الشفاعة**، فلا أحد يمكن أن يشفع لأحد يوم القيامة إلا النبىّ ﷺ ، وفى الحديث : «**المقام المحمود هو**

المقام الذى أشفع فيه لأمتى»، فالمقام إذن هو الموضع الذى يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة، كالمقامات بين يدىّ الملوك، وليسّ أرفع من مقام الشفاعة يُعطاه عبدٌ من عباده تعالى. وعن ابن عمر فى صحيح البخارى، قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً (أى جماعات)، كل أمة تتبع نبيّها، تقول: يافلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبىّ ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. ـ وفى الحديث عن أنس أن النبىّ ﷺ حدّثهم، قال: «إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم عليه السلام، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى كليم الله؛ فيُوتى موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته؛ فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ، فأُوتى فأقول أنا لها»، وفى الحديث عن أبى هريرة: أنه ﷺ سئل فى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ (الإسراء) فقال: «هى الشفاعة». وقيل إن للنبىّ ﷺ ثلاث شفاعات: واحدة عامة؛ وشفاعة فى السبق إلى الجنة؛ وشفاعة فى أهل الكبائر. وقيل له شفاعتان: واحدة عامة للأنبياء فى إخراج المذنبين من النار، وأما الشفاعة الثانية فإنها له، وللأنبياء، والملائكة، والعلماء. وقيل بل شفاعات النبىّ ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات: واحدة عامة؛ والثانية فى إدخال قوم الجنة دون حساب؛ والثالثة فى قوم من موحّدى أُمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم؛ والرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيشفع فيهم وغيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنون؛ والخامسة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها. وفى الحديث برواية البخارى: «من قال حين يسمع النداء: اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً ﷺ الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلّت له شفاعتى يوم القيامة». وبحسب هذه الأحاديث فإن المقام المحمود: مقام الشفاعة، يؤتاه النبىّ ﷺ دون الأنبياء جميعاً، ولايتوافق ذلك مع الكثير من آيات القرآن، ومع مقتضيات العقل، فعلى أى أساس شرعى أو عقلى يُشفَع لمذنب يورده ذنبه النار؟ وما الشأن إذن مع الذنوب؟ وكيف تكون المساواة والعدل بين الناس؟ ولماذا يكون الحساب إذن؟

وقال بعض المفسرين: إنهم يكرهون الشفاعة لأنها لا تُعطَى إلا للمذنبين، وهم لا يحبون أن يكونوا منهم. واستنكر المعتزلة والخوارج الشفاعة على أساس قاعدة الاستحقاق العقلى المبنى على التحسين والتقبيح. وفى الآيات: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ (مريم)، فالذين لا يملكون الشفاعة ولا تجوز لهم هم العصاة، وقوله: ﴿إِلَّا مَن

اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فيه أن العهد هو الشفاعة، وأنه تعالى قد وعد البعض أن يكونوا شفعاء للناس، وهؤلاء هم الأنبياء والعلماء والمكرمون، وفى الحديث: «**لا أزال أشفع حتى أقول يا ربّ شفّعنى فيمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فيقول: يا محمد! إنها ليست لك ولكنها لى**»، أى أن الشفاعة لا تكون إلا لمن يأذن له الله، كقوله تعالى: **﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (٢٣)﴾** (سبأ)، فمقام الرسول ﷺ **المحمود - بحسب ذلك - هو هذه الشفاعة المأذون بها له**. وغالى بعض المفسرين فى معنى المقام المحمود، حتى قالوا هو أن يُجلس الله تعالى محمداً على كرسيه !!! وهذا أغرب التفاسير، لأن إقعاد النبىّ ﷺ على عرشه تعالى لا يوجب له ربوبية ولا ينزع عنه عبودية!!! والصحيح فى كل ما سبق: **أن المقام المحمود هو الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة**، وليس العرش والجلوس عليه. ولا يُعقل أن تكون **صلاة الليل**، كما فى الآية السابقة على آية المقام المحمود، سبباً لأن يكون للنبىّ ﷺ المقام المحمود بمعنى الشفاعة. وأما الآية اللاحقة على آية المقام المحمود، وهى: **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾** (الإسراء) فهى عبارة عن دعاء أن يميته الله إماتة صدق، ويبعثه يوم القيامة مبعث صدق، وبذلك يتصل المعنى بقوله تعالى: **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾** (الإسراء)، فلما وعده ذلك، أمره أن يدعو لينجز له الوعد. والمدخل والمخرج الصدق هما أن يُدخله فى المأمور ويُخرجه من المنهى، أو هو بالمعنى المادى التاريخى: خروجه من مكة يوم الهجرة، ودخوله يوم الفتح آمناً؛ وأصحّ من ذلك متوافقاً مع معانى الآيتين: **أن المقام المحمود هو أن يكرمه بإتمام النبوة عليه** وذلك هو مدخل الصدق، **ويكرمه عند موته وبعثه يوم النشور**، وذلك هو مخرج الصدق، على ذلك فالمعنى الإجمالى للمقام المحمود هو كقوله: **﴿أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا (٢٩)﴾** (المؤمنون). ومن المقام المحمود أن يجعل له نصيراً، أى حجة ثابتة، أو أن يؤتيه النصر والعزّ، ولذا كان قوله بعدها مباشرة: **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾** (الإسراء). فذلك إذن هو المقام المحمود بحسب السياق القرآنى وليس من ذلك شيء عن الشفاعة.

●●●

٢٢٣. **﴿قوله ﷺ ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ (١١٢)﴾ (الأنبياء)﴾**

كان الأنبياء يقولون: **﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ (٨٩)﴾** (الاعراف)، وأُمر نبيّنا أن يقول **﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ (١١٢)﴾** (الأنبياء)، فكان إن لقى العدو يقول - وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل **﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾** - أى اقض به.

●●●

٢٢٤.﴿إن كان لله ولد فمحمد أول العابدين﴾

ما كان لله ولد؛ فإن كان له ولد على سبيل الافتراض فالناس جميعاً له عابدون، وفى الآية: ﴿قُلْ إن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)﴾ (الزخرف)، والخطاب للنبىّ ﷺ، أن يقول لهم إن كان لله ولد، فالنبىّ ﷺ أول من يعبد ولده، لأن تعظيم الولد تعظيمٌ للوالد، ولكن يستحيل أن يكون له ولد، ولا دليل على أن الله تعالى له ولد. وقوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ مبالغة فى الاستبعاد، أى لا سبيل إلى اعتقاده.

•••

٢٢٥.﴿أسماء ستة للنبىّ ﷺ فى آية واحدة﴾

هى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)﴾ (الأحزاب)، وفيها ستة أسماء من أسمائه ﷺ، فهو النبىّ، والشاهد، والمبشّر، والنذير، والداعى إلى الله بإذنه، والسراج المنير. والسراج المنير استعارة للنور الذى يتضمنه الشرع الذى جاء به.

•••

٢٢٦.﴿لو كان هو مؤلف القرآن لما امتنّ على نفسه﴾

الآيات كثيرة فى القرآن تمتن على الرسول ﷺ، وذلك دليل على أنه لم يؤلّف هذا الكتاب، فلو كان هو المؤلف لما امتن على نفسه، وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾ (النساء)، وقوله ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ (الشورى)، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ (القصص)، وقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)﴾(الإسراء)، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ (الإسراء). فهل يُعقل أن يكون هو مؤلف القرآن ويأتى فيه بعبارات يدين بها نفسه؟

•••

٢٢٧.﴿استتاره ﷺ بأربع آيات﴾

قيل كان النبيّ ﷺ يستتر من المشركين بأربع آيات : الآية التي في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾؛ والآية التي في سورة النحل: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛والآية التي في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ والآية التي في أول سورة يس: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ، وألزمُ الآيات الأربع للاستتارة هي آية سورة يس، وكان النبيّ ﷺ إذا قرأ هذه الآيات لم يمكّن الله المشركين من رؤيته، ولمّا عزم الهجرة وخرج يقصد المدينة، كان المشركون من حول بيته، فجعل يتلو آية سورة يس، وينثر التراب على رءوسهم، ثم انصرف إلى حيث أراد الذهاب.

•••

٢٢٨.﴿ضربوا الأمثال للرسول ﷺ ﴾

عجب النبيّ ﷺ من صُنع أهل مكة ، فمرة يقولون هو ساحر، ومرة يقولون هو مجنون، وتارة يقولون هو كاهن، وتارة يقولون هو شاعر، فقال تعالى يخاطبه: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ (الإسراء)، فسمّوه الأسماء لا تصدق عليه، حتى لم تعد لهم حيلة فيه يصدّون الناس بها عنه.

•••

٢٢٩.﴿ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد ﷺ ﴾

قال : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر)، ولعمرك تعني و«حياتك»، فأقسم تعالى بحياة محمد، وهذا نهاية التعظيم، وغاية البرّ والتشريف، وما أقسم الله بحياة أحد غير محمد ﷺ ، لأنه أكرم البرية عنده. ولقد أعطى الله تعالى لإبراهيم الخُلّة، ولموسى التكليم، وأعطى هذا الشرف لمحمد فأقسم بحياته.

•••

٢٣٠.﴿أمر أن يقسم بربه ثلاث مرات﴾

في القرآن أن النبيّ ﷺ أمر أن يقسم بربّه ثلاث مرات ـ قسمَ إيجاب وتحقيق وتأكيد، في الأولى: سأله الذين كفروا عن البعث، ووعدُ الله تعالى به: هل هو حقّ؟ فأعاد عليهم ـ تأكيداً ـ أنه حق، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾(يونس)، فأقسم بقوله «إي وربّي»؛ وفي الثانية: أنكروا أن تأتي

الساعة، فأمره أن يقسم لهم أنها آتية لاريب فيها، وهو قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**﴾(سبأ) فأقسم بقوله: ﴿**بَلَىٰ وَرَبِّي**﴾؛ وفى المرة الثالثة : عادوا إلى إنكار البعث، فأمره تعالى أن يقسم لهم أنه واقعٌ وحق، وهو قوله تعالى: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)**﴾(التغابن)، فأقسم بقوله :«بلي وربّى» وكما ترى، كان قسمه أن قال:«إي وربى»، و«بَلَى وربى»

●●●

٢٣١. ﴿قولهم: الساحر الكذّاب﴾

هذه الفرية قالها الكافرون أيام الرسول ﷺ، ويرددها النصارى الآن ويطبعونها فى كتيبات يوزعونها، ويصفه بها المستشرقون، وعند مكدونالد: أن العرب كانوا يخلطون بين أسماء النبىّ، والكاهن، والساحر ، ومكدونالد لم يعتبر النبىّ ﷺ نبياً ، ولم يعدّه من الكُهّان ، وتحدّث عنه كساحر كذّاب . ويحكى القرآن عن هذه التهمة التى الصقه بها العرب أولاً ، يقول تعالى : ﴿ **وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)**﴾ (ص)، يقصدون بساحر أنه يجىء بكلام مموّه يخدع به الناس، وقالوا «كذّاب» لأنه ادّعى النبوة، ووجه العجب عندهم أنه وصف نفسه بأنه منذر وهو منهم يعرفونه، وبشر من بشر، والمنذرون طالما أنهم من السماء فلا أقل أن يكونوا ملائكة، وردّ كل الآلهة إلى إله واحد وهذا لا يجوز، فقُوَى الطبيعة متعارضة وغير متوافقة، ولكل قوة إله يتحكم فيها، وبقدر عدد قوى الطبيعة بقدر عدد الآلهة، فأن يجعل محمد كل القوى واحدة، وكل الآلهة إلهاً واحداً، فهذا شيء عجيبٌ يُعجَب منه فيقال عجبٌ وعُجَاب ، ولمّا مرض أبو طالب ذهب الرسول ﷺ يعوده والتقى هناك بكبراء قريش، وقام إليه أبو جهل، ومنعه أبو طالب، وسأل أبو طالب النبىّ ﷺ، قال : ابن أخي، ما تريد من قومك ؟ قال : «**ياعم، إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب، وتؤدّى إليهم بها الجزية العجم**»، فقال : «وما هى ؟ قال : «**لا إله إلا الله**»، فقالوا: أجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً، فنزل بها القرآن، وفيه : ﴿**صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)**﴾ (ص). والحقّ أن النبىّ ﷺ لم يحدث أن قال يوماً: أن **لا إله إلا الله يُذلّ بها العرب لقريش، ويؤدى بسببها العجم الجزية لهم!!** وهو كلام منحول يجعل للإسلام أهدافاً أخرى سياسية بخلاف الدعوة، ويجعل الدعوة وسيلة للأهداف السياسية، وهذا قول المستشرقين! وما كانت الدعوة لقريش أو للعرب وإنما لله تعالى!

●●●

٢٣٢. ﴿قولهم: محمدٌ الساحر المبين﴾

يقول تعالى منكراً على تعجّب الكفـار ـ والمستشرقين منهم : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ②﴾ (يونس)، فقد تعجبوا أن يكون الرسول بشراً، كقول القرون الماضية : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑥﴾ (التغابن)، وكقول هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑥③﴾ (الأعراف)، وكذلك لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكروا عليه أن يكون الرسول بشراً، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد! فنزلت الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ ..﴾ ، وكأنهم كانوا يريدون أن يدعوا لمحمد دعوى النصارى لعيسىٰ، فيزعمون أنه الربّ، وأنه ابن الله. ووصفوا دعوى النبيّ ﷺ بأنها سحر، لأنه ينتحل لنفسه مقاماً ليس إلا للآلهة، وهذا لا يفعله إلا السحرة، وخصّوه بأنه ساحر مبين، لأن البيان صنعته، والقرآن بيانه، والبيان في اللغة ما يتبين به الشيء من الدلالة والفصاحة والمنطق المعبر، وإن من البيان لسحراً، ولذا كان النبيّ ﷺ في اعتبارهم ساحراً مبيناً.



٢٣٣. ﴿قالوا عنه: مجنون، ومفتون، وشاعر، وساحر، وكاهن﴾

كان كفار مكة يزدرون النبيّ ﷺ بأعينهم، ويؤذونه بألسنتهم، وقالوا له : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥﴾ (الحجر)، وقالوا : ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ③⑥﴾ (الصافات)؛ وقالوا ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ①④﴾ (الدخان) أى علّمه بشر أو علّمه الكهنة والشياطين، ووصفوه بالجنون وهو زوال العقل أو فساده؛ ونفى الله تعالى أن يكون كما وصفوه، فلا هو بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا مُعلَّم من تلاميذ الكهّان، كقوله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ②⑨ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ③⓪﴾ (الطور)، وقوله: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ⑤①﴾ (القلم) ؛ وفى نوح قال قومه مثل ذلك : ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ⑨﴾ (القمر) يعنى زجروه عن أن يدعو كنبيّ؛ وفى موسى قال قوم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ②⑦﴾ (الشعراء)، وقال تعالى فى فرعون: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ③⑨﴾ (الذاريات)، وقال تعالى فى استقبال كل الشعوب لرسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ⑤②﴾ (الذاريات)، وأما عن نبيّنا ﷺ فقد نفى الله عنه الجنون تماماً، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ②②﴾ (التكوير).



٢٣٤.﴿هل كان محمد نبياً أمّياً؟﴾

قيل إن الدليل على نبوّته ﷺ **أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب**، ولم يكن بمكة أهل كتاب ليعلّموه، وفي القرآن: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت)، أى ما كنت قبل القرآن تقرأ الكتب، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، وإذن لارتاب المبطلون أنه تعلّمه منهم ومن الكتب. وقيل: إن النبى لم يمت حتى كَتَب، وأنه قَرأ صحيفةً **لعيينة بن حصن**. وقيل إنه فى **صُلح الحديبية** رفض علىّ أن يمحو أنه ﷺ **رسول الله**، فطلب النبىّ ﷺ أن يريه مكانها، فأراه فمحاها، وكتب بدلاً من «**محمد رسول الله**»: **محمد بن عبد الله**، وقال بعضهم: إن الرسول ﷺ أخذ الكتاب فكتب بيده، وليس معنى قوله: «**إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»، أنه هو نفسه أُمّى لا يكتب ولا يحسب. وقيل. أجل، كان يقرأ ويكتب، وإنما كان ذلك بعد نزول القرآن، ونفهم ذلك من ظاهر الآيات: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك**﴿٤٨﴾﴾(العنكبوت)، وقوله: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ** ﴿٣﴾﴾ (العلق)،وقوله: ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا** ﴿١٠٦﴾﴾ (الإسراء)، وقوله: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴿٩٨﴾﴾ (النحل)، وقوله: ﴿**عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴿٢﴾﴾ (الرحمن)، وكلها تثبت إنه **كان يقرأ ويكتب وإنما بعد القرآن**. وقيل: كتب وقرأ من الله من غير تعلّم ولا تعاط لأسباب الكتابة والقراءة، وإنما أجراهما الله على يده وقلمه، **فكان ذلك خارقاً للعادة، وليس فيه معجزة**، فنحن نصادفه في الحياة العامة للموهوبين وخارقى الذكاء من الموصوفين بالعباقرة؛ أو أنه تعلّمهما بمعجزة، كتعلمه لعلم الأولين والآخرين من غير تعلّم ولا اكتساب. وليس **الأمى** فى الآية: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ** ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف) أنه الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، **فالأمى فى السياق القرآنى فى هذه الآية وغيرها من الآيات، يعنى أنه الرسول النبىّ «الأغيار»**، أى « **من غير اليهود والنصارى**»، وليس بمعنى الذى لا يعرف القراءة والكتابة، والثابت **أنه كان يعرف القراءة والكتابة بعد نزول القرآن عليه**، ولا يعتد بالقول بأنه كان له الكُتّاب يكتبون ما يمليه، فذلك لا ينفى أنه كان يكتب ويقرأ، ومع ذلك يكون له كَتَبة للوحى، قيل: بلغ عددهم **ستة وعشرين** كاتباً. وكان **معاوية** منهم، فكان ﷺ يأمره فيقول: «**أقم الباء، وحَرِّف السين، ولاُ تعوِّر الميم، وحَسِّن الله، ومدّ الرحمن، وجَوِّد الرحيم**»، فهل هذه وصايا أُمّى لايعرف القراءة ولا الكتابة؟!! أم هى إرشادات عارف متعمّق المعرفة؟! ولما ذكر ﷺ الدجّال قال: « **مكتوب بين عينيه: ك ا ف ر**» يعنى أنه تهجّى كلمة «كافر». **فكيف لا يكون إذن كاتباً وقارئاً؟!**

●●●

٢٣٥. ﴿النبىّ ﷺ: كيف تكون له كل هذه الأحاديث، وجميع ذلك العلم، ويقال إنه أمىّ؟!﴾

عند الكثير من المفسرين والمستشرقين أن كلمة أمىّ التى ترد فى وصفه ﷺ فى الآيـة: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)** ﴾ (الأعراف)، والآية التى تليها: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)**﴾ (الأعراف) تعنى الجهل بالقراءة والكتابة، فهل كان الرسول ﷺ جاهلاً بالقراءة والكتابة؟ والحقّ أن منطق الحال يُدحض هذا الزعم، وقد قال ﷺ عن نفسه: «**أنا أفصح العرب**»!! وقال له أبو بكر: يا رسول الله! ما رأينا مَن هو أفصح منك! وقالت عنه عائشة: كان يتكلم بكلام بيّن فَصْل، يحفظه من جلس إليه! وقالت عنه أم معبد: هو حلو المنطق. والمنطق لايكون إلا للعارف بأصول الكلام، كتابةً وقراءةً. ووصف القاضى عيّاض بلاغته، فقال: أوتى جوامع الكلم، وخُصّ ببدائع الحكَم، وعُلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها فى منزع بلاغتها، ومن نماذج بلاغته قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»؛ و«**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور متشابهات**»؛ و«**من يَحُم حول الحمَى يوشك أن يقع فيه**»؛ و«**من حُسن إسلام المرء تركُه ما لايعنيه**»؛ و«**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» ومن كان هذا هو حاله من البلاغة والحكمة فكيف يكون أمياً؟!!

وما المقصود إذن من كلمة أمىّ فى الآيتين؟ والكلمة تفسرها ثلاث آيات أخرى من القرآن، الأولى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢)**﴾ (الجمعة)؛ والثانية: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)**﴾ (آل عمران)؛ والثالثة: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)**﴾ (آل عمران). وفى الآيات الثلاث فإن الأميين هم المقابل لأهل الكتاب، وهؤلاء الأخيرون هم اليهود والنصارى أصحاب التوراة والإنجيل وإذن فمعنى الأمى: أنه من كان من غير هؤلاء، ويصف ذلك القرآن فيقول: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ**

﴿الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت)، والكتاب فى الآية هو الكتاب المقدس - أى التوراة أو الإنجيل، والآية تنفى أن يكون قد قرأ أياً من الكتابين، أو نقل عنهما كتابةً نصاً من النصوص. وفى الآية: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ (البقرة) يعنى من أهل الكتاب مَن هم كالأمّيين، لا يعلمون الكتاب، وإن كان من المفروض أن يعلموه، وعِلْمهم به مجرد دعوى وليس حقيقة، وعن ابن عباس، قوله: ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ يعنى يقولونه بأفواههم كذباً. وقيل: هؤلاء جماعة من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً - أى أنهم والأميون أو الأغيار سواء، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما فى كتاب الله، ويقولون هو من الكتاب، مجرد أمانى يتمنونها. والتمنّى هو التخلُّق بالكذب وتخرُّصه. أو أن قوله: ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ يعنى كانوا يعرفون الكتاب تلاوةً فقط من غير فهم للمعنى ولا عمل بمقتضاه كما فى الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ (الجمعة)، فتوعدهم الله فى الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة).

وهذا إذن هو حال الأميين من أهل الكتاب، ومحمد ﷺ لم يكن من أهل الكتاب، وكان مع ذلك من الأُمّيين - واختير نبياً مرسلاً للناس كافة، ولو كان من أهل الكتاب لأرسل إليهم مكملاً للتوراة والإنجيل عندهم، وإنما هو من الأغيار - مفرده الغير **nokri** - أو كما يقول اليهود من الأمم **gentiles**، أو الجويم، مفرده جوى **goi**، وهم من ليسوا من الجنس العبرانى، فالناس قسمان: عبرانيون وهم الصفوة، وغير عبرانيين، وهم «الأمم»، ومحمدٌ ﷺ من الأمم، ومرسلٌ إلى الأمم، وهو لذلك النبىّ الأُمّى، ومن ثم فقد جاء يبشّر بربّ العالمين، يتوجه بدعوته إلى العالمين أو الأمم، أو الأغيار، يعنى للكافة، كما فى الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ)، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ (النساء)، والناس يعنى الجميع كما فى الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأعراف). والأمية إذن بالنسبة للرسول هى الأممية أو العالمية، ويشرحها الرسول ﷺ فيقول: «بعثت إلى الناس كافة، الأحمر والأسود»، ويقول: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة - يهودى أو نصرانى - ثم يموت ولا يؤمن بالذى أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه أحمد. واختصاصه ﷺ بأنه أمى يشرحه فى الحديث عن جابر قال:

«وكان النبيّ يبُعث إلى قومه ، وبُعثت إلى النـاس عامة». وقد أرسل الله الرسُل قبل محمد ﷺ ، كُلاً إلى قومه، فنوح أرسله إلى قومه(قوم نوح ـ الأعراف ٦٩) ، وهود إلى عاد (هود ٦٠) ، ولوط، وصالح، ويونس ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، أرُسلوا إلى أقوامهم ، إلا محمداً فكان نبيّ الكافة، والجميع، والناس كلهم، ولذلك أرسل سنة ٦٢٨ ميلادية إلى ملوك العالم الأربعة ، وهم الذين كانوا على سُدّة العالم في زمنه : ١ـ هرقل الثانى إمبراطور بيزنطة، ٢ـ وكسرى أنو شروان ملك فارس، ٣ـ والمقوقس حاكم مصر، ٤ـ وملوك الحبشة، وعُمان، واليمامة، والبحرين، والشام، واليمن، وأوصى مبعوثيه إليهم فقال : «إن الله بعثنى رحمةً وكافةً».

والخلاصة: أن كلمة «أمى» تعنى «الأممى» أى «العالمى»، وما كان الله الذى يدعو إليه محمدٌ هو «ربّ اليهود» كما فى التوراة، أو «ربّ عيسى» كما فى الإنجيل، وإنما هو «ربّ العالمين».



٢٣٦. ﴿ما وجه الامتنان أنه كان أمياً ؟﴾

فى الآية : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ (الجمعة)، والأُمّيون هم العرب، مَن كتب منهم ومَن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، وكانوا أغياراً، أى غير يهود، واسمهم فى التوراة أميون، والنبىّ ﷺ كان عربياً خالصاً، لم يخالط دمه دم أممى، وكان أمياً لم يقرأ الكتاب أى التوراة و الإنجيل، فإن قيل : وما وجه الامتنان أن يُبعث نبىّ أُمّى ؟ والجواب من ثلاثة أوجه : أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء؛ والثانية : لمشاكلة حاله لأحوال العرب فيكون أقرب إلى موافقتهم؛ والثالثة : لينتفى عنه سوء الظن بأنه تعلّم مما قرأ من الكتب السابقة على القرآن، ووعى ما فيها من حِكم وقصص وأخبار وأحكام. ومصطلح «أُمّى» إذن يعنى أنه كان من ثقافة مختلفة عن الثقافة اليهودية النصرانية. وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته: وأن القرآن لم يكن مسبوقاً، وأن محمداً لم يتلق علومه عن أحد سوى الله.



٢٣٧. ﴿هل افترى القرآن ؟﴾

البرهان العقلى على كذب هذا الادعاء تُنبّه إليه الآية : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ ⟨٨⟩ ﴾ (الأحقاف)، فإن النبىّ ﷺ وحده لا يقدر على افترائه، **فالمطلوب كتيبة من العلماء، ومن أهل اللغات المختلفة، ومكتبات كاملة من المراجع، للقيام بالمطلوب**، وحتى لو تحقق لهم ذلك فلن يستطيعوه، لأنه لن تكون به **الوحدة** التى هو عليها الآن، ولن يكون على **هذا النسق الواحد**، والقدر العالى من **البيان**، فإذا كانت **أمة العرب بأسرها قد عجزت** أن تأتى بمثله، ولو حتى بآية، وكان هو وحده الذى استطاع أن يقوم به، فإن ما فعله يكون **معجزة لا شك فيها**، وشيئاً خارقاً للعادة. وإذا كان كاذباً وافتراه، فكيف صدّقته غالبيتهم وكانوا من الحكماء، وعهدُنا بالحكماء أن لا يصدّقوا الكذّاب؟! **ولو كان قد افتراه** فماذا عاد عليه ؟ لا أصبح سلطاناً، ولا صارت له الأموال! وعاش **فى ضنك وفى مسغبة** وتعب لا ينتهى! وكيف يكذب عليهم وعلى نفسه وهو يؤمن بإله سيحاسب الكذّاب، أفلا يخشى الحساب ؟! وإذا كان يؤمن بإله ويؤمنون بآلهة، فالله يشهد بينهما، وهو الأعلم بما يقولون، وبما يفيضون فيه، وكفى بالله شهيداً.

●●●

٢٣٨. ﴿دعواهم بتقوّله﴾

قالوا : إنه ﷺ ليس بنبىّ ولا رسول : ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ⟨٤٣⟩**﴾ (الرعد) يقصدون أنه متَقوِّل.

●●●

٢٣٩. ﴿أليس طول انتظاره لنزول القرآن دليلاً على أنه ليس كلامه ؟﴾

من دلائل نبوة محمد، وأنه لم يؤلف القرآن، وإنما القرآن منزّلٌ عليه من عند الله، أنهم كانوا يسألونه ﷺ عما يريدون أن يعرفوه، فيستأذنهم أن يسأل ربّه، ويطول انتظارهم وقد أبطأ عليه الوحى، **فلو كان هو الذى يؤلف القرآن فلماذا ينتظر ؟ وماذا ينتظر ؟ وما الذى يجعله يقلق كل هذا القلق أثناء ذلك حتى ليستبطىء الوحى**، بينما الكفار يسخرون منه وقد أبطأ عليهم، ويهزأون به، وأصحابه قد استبدّ بهم القلق كذلك، وبعضهم ذهبت به الظنون بعيداً ،وبدأت تساوره الشكوك فى النبىّ ﷺ وأنه يوحى إليه فعلاً ؟ والانتظار شاق، وخاصة إذا تعلق الأمر بالعقيدة.

وفى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، نزل قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ⟨١٤٤⟩**﴾، وكان النبى يستقبل المشرق فى صلاته فى مكة، وظل على ذلك **بضعة عشر**

شهراً، وكان المأمول أن تؤمن اليهود فما آمنوا، وكره أن يولى وجهه إلى بيت المقدس، وطمع أن تكون قبلته عربية، وتمنّى لو ولّى وجهه للبيت الحرام، وكان يقلّب نظره فى السماء عسى ربّه يهديه إلى ما ينبغى ، وأضمر رجاءه أن يتوجه إلى الكعبة، فكانت ضربة قاصمة لليهود، ونزل قوله: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (١٤٤)** ﴾ (البقرة). وقيل : كان يحب قِبْلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، وظل يصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ولكنه كان يتمنى لو يصلى إلى الكعبة، فلماذا انتظر إذن مدة سنة ونصف ليتحول إلى البيت الحرام لو كان التشريع بيده، وكان القرآن من تأليفه؟ ولو فعل لكان قد نفّس عن رغباته المكبوتة، وحقق ما يصبو إليه ويحبه العرب منه، لاعتزازهم بالكعبة وافتخارهم بها. وهذا التأخير إذن يدل على أن القرآن من عند الله، وأن محمداً ليس بيده شيء من الأمر.

وحادثة الإفك التى اتُّهمت فيها زوجته: الحصان، الطاهرة، عائشة بنت أبى بكر، وظلوا يتهمونها أربعين يوماً، وكانوا أثناءها يلوكون سيرتها، ويهتكون عرضه ﷺ ، فلو كان هو الذى يؤلف القرآن فما أحراه أن يسرع بآيات تنفى هذه الشبهة عن حليلته؟ وما كان الأمر بيده، فلمّا نزل القرآن يبرئها فرح بما جاء به كفرحة عائشة ومَن حولها، وجاءت البراءة من القرآن بعد هذه المدة الطويلة، يقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ**

منكُمْ وَالسَّعَةِ أن يُؤْتوا أُولِي القُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ (النـور). ولو كان محـمد هو مؤلف هذا الكلام الشديد العنيف القاسي، لكانت له مواقف مع عـائشة ومع عُصبة الإفك، ولكن ما أُثِر عنه من أحاديث، كان فيها شديد التحفظ، ولما سئل عما يعلم من هذا الأمر قبل نزول البراءة قال: «**إني لا أعلم إلا خيراً**»، وقبل نزول هذه الآيات مباشرة سأل هو نفسه عائشة في تؤدة: «**يا عائشة، أما إنه قد بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله**» فشتّان بين أسلوب الآيات وأسلوبه ﷺ مع عائشة، وطريقة القرآن في عرض الواقعة، والجزاء المقترح، وطريقته هو في استقبال الحدث، ويظهر جلياً أن قائل القرآن بخلاف قائل هذه الأحاديث، وأن القرآن ليس من تأليف النبيّ ﷺ.

وسألوه عن أصحاب الكهف وذي القـرنين، والـروح، فقال لمن سأله: «**ائتونـي غداً أخبـركم**»، ولم يـقل «**إن شـاء الله**»، فأبطأ عليه الوحي حتـى كذّبته قريش، وشقّ على المؤمنين الأمر، وقال المنكرون: قلاه ربّه ـ أي تركه، فأنزل الله: **﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾** (الضحى)، وجاء تعليمه تعالى: **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾** (الكهف). ولمّا نزل عليه جبريل بعد هذا الإبطاء عاتبه، فأفهمه جبريل وقال بلسـان القرآن: **﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾** (مـريم)، ومرة أخرى فلو كـان هو مؤلف القرآن لأسرع بالردّ عليـهم كما وعدهم، ولما انتظر كل هذه المدة الطويلـة، فأحرج نفسه ومن معه، ولما ردّ على نفـسه هذا الردّ المفحم على لسان جبريل!

وفي سـورة البقـرة نزلت الآية: **﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾** (البـقـرة) فذعر أصحـابه أن يحاسبهم الله على ما في ضـمائرهم، وما يكون من وساوسهم وهـواجسهم، وما يجـول بخواطرهم، فشكوا إليه أن الآية تكلّفـهم من أمرهم عنتاً، ولا يطيـقون تكاليفها، فـقال لهم النبيّ ﷺ: «**أتريدون أن تقـولوا كـما قـال أهل الكتاب مـن قبلكم: سمعنا وعصـينا، بل قولوا: سـمعنا وأطعنا غـفرانك ربنا وإليك المصـير**».
أخرجه مـسلم، فجعلوا يضرعـون بها إلى الله حتى نزلت الآية من أواخر سـورة البقرة: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ**

أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)، فما قاله لهم النبىّ يختلف عمّا جاء فى الآية، فلم يبين لهم هذا البيان، ولو كان هو المؤلف لما كان هناك فرق بين الكلامين، وهذا دليل آخر على أن القرآن ليس من لدن محمد ﷺ، ولو كان كل ما فى الآية فى باله وقتها لقاله وما كان يكتمه.

ونحن نعلم عن عبد الله بن أبى بن سلول أنه كان رأس النفاق فى المدينة، فتوفى فكفنه النبىّ ﷺ فى قميصه، وأراد أن يصلى عليه ويستغفر له، فاعترضه عمر وقال : أتستغفر له وتصلى عليه وقد نهاك ربُّك ؟! فقال له : «إنما خيّرنى ربّى فقال : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٨٠﴾﴾ (التوبة)، وسأزيده على السبعين»، ثم صلى عليه، فأنزل الله تعالى الآية يأمر فيها من بعد: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (التوبة)، فترك الصلاة عليهم. ولو كان محمد هو مؤلف هذا الكلام، أكان من الممكن أن يدين نفسه به ؟ ولقد فهم من الآية خلاف ما فهم عمر، وثبت أن عمر كان فهمه هو الأدق والأضبط، وجاءت الآية موافقةً مع رأيه، فهل كان عليه أن يذيع ذلك ويعرّف به الناس، لو كان هو مؤلف القرآن ؟ وهل كان ينتظر نزول الآية ليعرف الصواب من الخطأ وهو المؤلف ؟ !

ومن أجل ذلك، وبالنظر إلى كل ما سبق، فإن طول انتظار نزول القرآن، لدليلٌ على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، ولكنه تنزيلٌ من ربّ العالمين.

●●●

٢٤٠. ﴿النبىّ ﷺ لا يغلّ﴾

الغُلول هو الخيانة فى المغانم، ويَغُلّ يعنى يخون، وكان المنافقون قد دأبوا مع الكفار واليهود على أن يشنّعوا على النبىّ ﷺ، فقالوا إنه ساحر، وقالوا إنه كاهن، وشاعر، ومجنون، وبعد وقعة أحد جاء التشنيع عليه بأنه غلول، يعنى يؤثر نفسه ببعض المغانم ويخفيها عن المسلمين، فنزلت الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ (آل عمران). فالغُلول لا يناسب النبوة، وفى الحديث : «لا إغلال ولا إسلال». أى لا خيانة ولا سرقة، ويقال : ولا رشوة، وقال : «ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن». والآية تردّ عن النبىّ ﷺ مزاعم الكفار، وتنهى

المسلمين عن الغلول، وتتوعدهم عليه. وكما لايجوز أن يخون النبيّ ﷺ، لا يجوز أن يخونه غيره، ولا يجوز أن تمارس الخيانة أصلاً بين الناس جميعاً. والآية تنفي بالكلية الغلول عن الأنبياء.

•••

٢٤١. «لم يكن النبيّ ﷺ بدعاً من الرسل»

قالوا عن النبيّ ﷺ أنه يدّعي أنه يُوحَى إليه، ويدّعي العلم بالغيب، والمعرفة بتواريخ الأمم البائدة، والأنبياء السابقين، فنزلت الآية: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ⑨﴾ (الدخان)، تثبت أن ما ينسبونه إليه لم يكن فيه بدعاً من الرسل، فإنه يوحَى إليه، وما يُوحَى إليه يبلّغه، ولا يعلم الغيب، ولا يدري شيئاً إلا ما يُوحَى إليه، ولا يقول شيئاً من نفسه ويزعم أنه مُوحَى إليه به، وإنما هو رسول نذير مبين، يشرح ويفسّر ما أُمر بتبليغه والإنذار به.

•••

٢٤٢. «محاجة اليهود بشهادة يهودي في نبوته»

اليهودي هو عبد الله بن سلام، نزلت فيه الآية: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ⑩﴾ (الأحقاف)، قيل: أنه شهد على أن رسول الله ﷺ مذكورٌ في التوراة، وأنه نبيّ من عند الله. وقال: أيها الناس، كان اسمي في الجاهلية فلان، فسمّاني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله ـ فنزلت فيّ: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ⑩﴾ (الاحقاف)، ونزلت فيّ: ﴿**قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ㊸﴾ (الرعد). والآيتان في محاجة اليهود، وهما مدنيتان. ووجه الحجة في الآيتين أن ابن سلام لما جاء مسلماً من قبل أن تعلم اليهود إسلامه، قال: يارسول الله، اجعلني حكَماً بينك وبين اليهود. فسألهم النبيّ أولاً عن ابن سلام: «أي رجل هو فيكم؟» قالوا: سيدنا وعالمنا. ورضوا بحكم ابن سلام، وقالوا: إن شهد لك آمنا بك. ـ فسئل، فشهد ابن سلام، وأسلم، فقال لهم النبيّ ﷺ: «إنه قد آمن بي» فأساءوا القول عندئذ في ابن سلام!! فهذا هو وجه الحجة في الآيتين.

•••

٢٤٣. «نزول القرآن متفرقاً من أدلة نبوة محمد ﷺ»

أُنزل القرآن متفرّقاً، وأراده كفّار قريش لو أنزل على النبيّ ﷺ دفعة واحدة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان)، وبدأ نزوله في ليلة القدر : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ (القدر)، وكان من الأفضل أن ينزل منجماً على عشرين سنة، كقوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان)، فلو أنزله جملةً واحدةً ثم سألوه، لم يكن عنده الجواب، ولماً تسنّى له أن يرسّله ترسيلاً، أي شيئاً بعد شيء، فيمكّنه، ويمكّنهم، أن يستوعبوه ويفهموه ويحفظوه، فإذا سأل سائل فيه الرسول ﷺ، استطاع أن يجيب، وذلك من علامات النبوة ، لأنهم ما كانوا يسألون عن شئ من الماضى أو الحاضر، أو الغيب، إلا أجيبوا عنه، وهذا لايجوز إلا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده ولأفئدتهم، بقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴿٣٣﴾﴾ (الفرقان). ولو نزل جملةً بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وكان نزوله مفرّقاً زيادة لهم فى التنبيه، ولو نزل جملةً واحدةً لزال التنبيه.

•••

٢٤٤.﴿آية المباهلة من أعلام نبوته﴾

آية المباهلة هي الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ (آل عمران)، و«الابتهال: هو الضراعة لله، والاجتهاد فى الدعاء باللعن؛ والمباهلة من ذلك وفعلها بَهَلَ أى لعن، تقول: بهله الله يبهله، أى يلعنه، والذين دعاهم الرسول ﷺ للمباهلة هم أهل نجران، والآية من أعلام نبوة محمد ﷺ، لأنه دعاهم للمباهلة فأبوا ورضوا بالجزية. ولم يرفضوا المباهلة إلا لأنهم فى أعماقهم لديهم الشك فى أنهم على حق، وأن محمداً على باطل، فلو كانوا متيقنين أنهم على الحق لسارعوا لقبول مباهلته، ولكنهم نكصوا خوفاً.

•••

٢٤٥.﴿قدر نبينا وشرفه﴾

تذكره الآية: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء)، فرتّب هؤلاء الأنبياء بحسب تكليفهم زمنياً إلا نبيّنا وعيسى، وبدأ بنبيّنا فقدّمه في الذكر على سائر أنبيائه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾(الأحزاب)، فقدّم عيسى على قوم كانوا قبله لأن الواو تقتضى الترتيب، وأيضاً فيه تخصيص عيسى رداً على

اليهود، تحقيقاً لنبـوته، لأنهم أنكروا نبوته، وأنكروا أنه وُجد أصلاً شخصٌ اسمه يسـوع المسيح، فقطع ما رأوه فيه، ودفع اعتقادهم، وعظّمه عندهم، ونوّه باتساع دائرته.

•••

٢٤٦. ﴿ما ضلّ أبداً وما تكلم بالباطل﴾

يشهد الله تعالى للرسول ﷺ بأنه ما ضلّ عن الحق وما حاد عنه، فقال: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾** (النجم)، فأقسم بصدق ما يقول، فأن تهوي وتسقط النجوم هو آية من آياته الكبـرى، وسقوطها هو غيابهـا، أو هو انطفاؤها في الدنيا أو يوم القيامة، وانتهاؤها تماماً وتلاشيـها. والله تعالى يقسم بأن محمداً ما غوى، **والـغـي** ضد الرشـد، وهو أن يتكلم بالباطل، وهـذا إخبار عن أنه ﷺ كـان دائماً أبداً مـوحّداً سواء بعد بعثته كنبيّ أو قبلها.

•••

٢٤٧. ﴿هل كان النبيّ ﷺ مزواجاً كما يقول المستشرقون؟﴾

النبيّ لم يتزوج للمرة **الأولى** إلا وهو في **الخامسة والعشرين**، وكانت زوجته **خديجة بنت خويلد في الأربعين**، فكانت تكبره **بخمس عشرة سنة**، وهي التي خطبته من نفسه، فقد تعاملت معه وأعجبتها أمـانته وطهارته بشهادة الشهود، فتوسطت لها عنده **نفيسه بنت أمية التميمية**، وما كـان لديه ما يتـزوجهـا به، فكفته ذلك، وهـي ذات المال والشرف والكفاية، وبررت عرضهـا الزواج منه فقالت: **قد رغبت فيك لقرابتك، وَسطَتك في قومك (يعني فـضلك)، وحُسن جمالك، وصِدْق حديثك**». وكانت خديجة نِعْم الزوجة له، وساعدته بمالها وحَسَبها ونسَبها، وآزرته بقـوة نفسها ورجاحة عقلها، وكان له منها الولد، وتوفيت بمكة قبل الهجرة **بثلاث** سنوات، وقد بلغت من العمر **خمساً وستين** سنة، أي أنه ظل **خمساً وعشرين سنة** زوجاً لها لم يعرف امرأة غيرها. ولمّا توفيت كان عمره **خمسين** سنة. ونعـرف من علوم الطب النسـائي والفسـيولوچيـا والطب النفسـي: أن المرأة تبـدأ شيخوختها أو إياسها **في الأربعين**، وخديجة كانت **في الأربعين** يوم أن تزوجته، ولم تكن قد أيست بعد، وأنجبت منه الأولاد، ومـهما قيل عن جمالها فإنه بكل المقـاييس جمالٌ قد ذبل، ولم تكن جميلة أصلاً، لأنها ظلت قبل زواجـها منه عشرين سنة بلا زواج لا يتقدم إليها خاطب برغم مـا قيل عن ثرائها، ومهما قيل عن مالهـا فماذا يغني المال لو كان طالب الزواج ينشد الجمال أولاً ويبحث عن المتعة الجسدية؟ وفي التحليل النفسي يقال: إن زواج شاب مثل النبيّ ﷺ من كهلة مثـل خديجة ﵂، إنما لأن الزوجة في هذه الحالة، هي

فى واقع الأمر، زوجة وأم، والزوجة الأم هى مطلب أمثال النبىّ ﷺ الذين يحرمون من أمهاتهم فى سن التكوين، أى بين الرابعة والثامنة من العمر، ورسول الله ﷺ توفيت أمه وهو فى السادسة، وتوفى أبوه وأمه حامل فيه، أو وهو ابن شهرين، وقيل ابن ثمان وعشرين شهراً، أى فى السن التى يفتقد الطفل فيها أمه، بشدة أكثر من افتقاده لأبيه، ويظل به المنزع أن يتعامل مع كل امرأة كبيرة تبدى العطف عليه كأنها أمه. ومن ذلك أن الدكتور القوصى عالم التربية النفسى الكبير، يقصّ عن نفسه أنه كان لا يدرى كلما دعى إلى اجتماع وكانت فيه سيدات، يختار أن يجلس إلى جوار أكبرهن سناً، التى تُظهر احتشاماً فى لبسها، وتؤثر اللون الأسود فى ثيابها، وتبين له مع استمرار تحليله لمواقفه، أنه يفعل ذلك لأنه فى أعماق نفسه يرفض الإقرار بأن أمه قد ماتت، وكانت كبيرة السن، ومحتشمة، وتؤثر السواد فى لباسها، وكان موتها فى صغره، فافتقدها، وكأنه بجلوسه إلى جوار السيدات كبيرات السن، المحتشمات، المتّشحات بالسواد، يُطمئن نفسه بأن أمه ـ وإن كانت قد توفيت فى الواقع ـ فإنها فى الحقيقة تعيش فى وجدانه، وفى ذهنه، ولا تفارقه صورتها. وعلماء النفس يطلقون على ذلك اسم الحضور النفسى، وشبيه به برهان يوسف الذى رآه لما هَمّ بامرأة فرعون وهمّت به، وبرهانه هو صورة أبيه يعقوب عليه السلام، وكان يأخذه بالتربية المثلى، ويتعهده بالتعليم الحىّ.

وكانت خديجة بمثابة الأم الرؤوم للنبىّ ﷺ، وبها تعود أمه إلى الحياة ـ متمثلةً فى هذه السيدة الفاضلة، ولمّا تزوجّها وقصّ عليها قصته مع الوحى، ورأته وقد ارتج عليه من الخوف، وارتعدت فرائصه، سارعت إليه وأدخلته بينها وبين درعها، وأجلسته على فخذها، وهدأت من روعه فقالت: الله يرعانا يا أبا القاسم ! أبشر يا بن عم واثبت، فالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً ! إنك تصل الرحم، وتصدُق الحديث، وتحمل الكلّ، وتُقرى الضيف، وتُعين على نوائب الحق». وكانت أول من آمن به، وبيتها أول بيت فى الإسلام. وجزاء ذلك بشّرها رسول الله ﷺ ببيت فى الجنة، فعوّضها الله به عن بيتها، على غرار الحديث: «من كسا مسلماً على عُرْى كساه الله من حلُل الجنة، ومن سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله على الرحيق»، ويذكرها رسول الله ﷺ بعد موتها ويردّ غيبتها فيقول: «والله ما أبدلنى الله خيراً منها! آمنت بى حين كذّبنى الناس، وآنستنى بمالها حين حرمنى الناس، ورُزقت منها الولد وحُرمته من غيرها». وتروى السيدة عائشة فى ذلك أنها لمّا اغتابت خديجة، وسمعته يزجرها بهذه الحدّة، أمسكت وهى تقول فى نفسها: «والله لا أذكرها بعد ذلك أبداً». وقال لها يومها: «إنها كانت وكانت، وكان لى

منها الولد»، وقال: «**إني قد رزقت حبّها**» وقال: «**إني أحب حبيبها**» أى كل من يمت لها بصلة أو بقربى. وتقول عائشة: **ما غرتُ من امرأة لرسول الله ﷺ ، ما غرت من خديجة ، لما كنت أسمع من ذكره لها. وما تزوجنى إلا بعد موتها بثلاث سنين»**. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**». **والكمال - في** الطب النفسى - من المباحث الشريفة، وهو مقصد ما يسمى **علم النفس التكاملى، وفيه** أن من صفات الكامل أنه: معطاء، كريم، سخىّ، يجود بما معه ولا ينتظر الردّ، ولا يأخذ العوض، وأنه مسامح، غفور، رحيم، عطوف، شفوق، ليس فيه التجبُّر ولا الاستبداد، يستمع إلى الرأى الآخر، ويأخذ به فى حالة الصواب، ويثبت عليه ويمتدحه، ويسعى إلى الحق، ويستهدف العدل، ويدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يفحش، ولا يسبّ، ولا يغضب، ويحب الناس، وليس للبُغض سبيلٌ إلى قلبه. وخديجة كانت كذلك، ولم يعرف لها المصطفى ﷺ نقيصة، فوصفها بالكمال، وقضى معها زهرة شبابه، فلم يَشْكُ منها، ولم يتأفف، ولم يطلب الزواج عليها حتى بلغ من العمر عتياً؛ وما كانت خديجة إلا وزير صدق له، تشير عليه، وتُصدقه، وتخفف عنه، وتهّون عليه، مثلما تفعل **الأمهات**، وليس ذلك من دأب الزوجات وإنما هو **دأب الأمهات**. ولم يثبت أن لخديجة ثروة طائلة كما قيل، تبريراً لهذا الزواج بالماديات، وإلاّ فأين ذهبت هذه الثروة حين هاجر؟ ولم يحدث أن طالب بها حينما عاد إلى مكة فاتحاً، ولم يشهد شاهد، ولا روى راو، أنه باع من أملاك خديجة فى مكة شيئاً، ولم ترث بناته عنها شيئاً، اللهم إلا حلية ذكّرت زينب أباها بها عندما أرادت أن تفتدى زوجها ابن العاص ! وفى رواية لعائشة قالت يوماً لرسول الله ﷺ عن خديجة: **ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين هلكت فى الدهر** ؟ وقولها **حمراء الشدقين**، يعنى أنها قد خلعت أسنانها ولم يبق فى فيها إلا اللثة بلونها الأحمر، وقولها **هلكت فى الدهر يعنى أنها** كانت مُسنّة، وأن سنها كان بادياً عليها. وعائشة لم ترها رأى العين ولكنها سمعت عنها، وروت ما سمعته. **وإذن تسقط دعوى أن النبيّ ﷺ كان مطلبه النساء، أو أن يرتزق من ثروتهن، ويبقى أنه كان ينشد طيب الصحبة ، وكريم العشرة، وحُسن الأحدوثة**، وأن يُرضى مَن حوله، حلاً لكثير من المشاكل كما سنرى.

ولما ماتت خديجة تزوج **بسودة بنت زمعة**، وكان قد سبق لها الزواج كخديجة، وإنما خديجة تزوجت مرتين قبل أن يتزوجها المصطفى، وسودة تزوجت **مرة واحدة**، وكانت

سابقة وزوجها إلى الإسلام، وتوفى عنها زوجها وهى كبيرة السن، وكانت عاطلة من الجمال، ضخمة الجثة، ثبطة، وبها حُمق، ولا مال لها، فلما اقترحتها عليه **خولة بنت حكيم**، زوجةٌ بعد خديجة، قبلها لعله يتعزّى بها عن خديجة. ولم يتزوجها إلا لأنها كانت أرملة وجاهدت فى الإسلام، ولأن الناس قد عزفوا عن الزواج منها. ومن دأب العرب أن لا تترك النساء بلا زواج بعد وفاة أزواجهن، والمصطفى طلب سودة للزواج أنيساً له ولابنته فاطمة التى كانت فى نحو الخامسة عشرة من عمرها وقتذاك، وكانت تستوحش أخواتها اللائى تزوجن وتركنها. ولسوف نرى أن التعلاّت كانت دأبه مع من يتزوجهن، وما كان بسودة حرصٌ على الأزواج، فقد بلغت الإياس من زمن، وكان زواجها من الرسول ﷺ لا عن رغبة فيه كزوج، وإنما كرسول، وأرادت أن تُبعث يوم القيامة وهى من أزواجه، ومع ذلك لم تحدّث عنه إلا حديثين أو ثلاثة ، فلم تكون موهوبة فتحدّث أو تعى قيمة ما يقوله الرسول ﷺ فى الإسلام، وما كانت ترغب فيما يرغب فيه النساء من الأزواج، وما كان الرسول يرغب فيها كأنثى، ولذا كفّ عن معاشرتها، **ولم تعد زوجة له على الحقيقة** حتى قيل أنه طلقها، وما طلقها ، ولذا لنا أن نتسأل: **هل سودة تحتسب عليه زوجة ؟!**

ولعل كلام المستشرقين وأهل الكتاب كثير فى عائشة، بل هو أكثر ما يكون فيها عن غيرها، فقيل خَطَبها وهى فى **السادسة**، ودخل بها فى **التاسعة**، **وأي شيء يمكن أن يلفت الرسول إلى صبية فى هذه السن والنساء كثيرات، على الأقل المسلمات منهن، ويتمنين لو تزوجهن ؟!** وعائشة بالذات كانت ضعيفة البنية، مهزولة، ولكن المصطفى وقد اقترحتها عليه **خولة بنت حكيم** ـ ما كان له أن يرفضها وهى ابنة صاحبه فى الدعوة. ولم يحدث أن ذكَرت عائشة شيئاً عن **الحيض** جاءها وهى فى بيت رسول الله ﷺ ، الأمر الذى يقطع بأنها قد حاضت قبل أن يبنى بها، **وأن زواجها منه ما كان فى التاسعة من عمرها كما هو مشهور وإنما بعد ذلك.**

وفى **حديث الإفك** تعجّبت عائشة ممن اتهمها، ومما اتهموها به، وكان مصدر عجبها أنها ما كان **بها شيء مما يشتهى الرجال فى النساء!** وكان عمرها وقتذاك **خمسة عشرة عاماً؟!**ـ وتذكر فيما روته عن علاقتها بالمصطفى، أنه **ما كان يستكثر منها، وكان كثير المرض، وكثير الأسفار**، وتشغله أمور الدعوة، وأن يحدّث الناس ويستمع إليهم ويعظهم، ويُقرأهم القرآن، ويجلس إلى العرب الوافدين عليه. ولم يكن يأكل فى اليوم إلا **مرة واحدة**، وأغلب أيامه يعيش على **الماء والتمر**، وإذا أكل خبزاً لم يأكل تمراً، ولم يعرف إلا خبز

الشعير، فمن أين تتهيأ له القوة على مباشـرة النساء ؟ أو يتوفر له الوقت على مسامرتهن ؟! وإنما هي العشرة، وأن تحتمي به من لا تجد زوجاً، وأن تأوي إليه من تترمل من المسلمات.

وتحكي عـائشة أنهـا ما نظرت عـورة النبيّ ﷺ أبداً، وما نظر عورتها، فـالحياء صفـته، والتعفف مسـلكه. وليس معنى أنه تزوج تسع زوجات أو أكثـر أنه زئر نساء، أو مزواج، وإنما هي طيبة القلب، وصـدق النية، والمودة، وطلب القربى، والتراحم، والتـماس المعروف. ثم إنهـن لم يكـنّ تسـعاً على الحقيقة برغم مـزاعم مؤلفي السيرة، فالواقع أنهن كن أربعـاً لاغير كما سنرى من بعد. وزواجه من عائشة كأنما كان يعدّها لتكون داعيـة الإسلام في حياته ومن بعده، فكانت في حياته تعظ النساء، وتؤذّن للصلاة، وتؤمّهن، وتفسّر القرآن. وبعد وفاته ﷺ كان بيتها مثابة للناس وأمناً، ومدرسة للدعوة، وتلقيّ عليها ما يزيد على الثلاثمائة والخمسـين من الرجال والنساء، وكانت مرجعاً في الدين يسألهـا مشايخ الصحابة، ومصدراً وحيداً للكثير من التـفاصيل عن حياة رسول الله ﷺ ، وروت عنه نحو السـتة آلاف من الأحـاديث، فكانت أكـثر من روى عن النبـيّ ﷺ ، سواء من الرجـال أو من النسـاء، وهذه هي الزوجة الحقيقة بلقب زوجة نبيّ، فكانت وارثة عـلمه، وأسهمت في بناء الإسلام بما لم يقدر عليه أعتى الرجال، وكانت كـما قال فيها «حواريتـه» من النساء، يعني تلميذته وصاحبتـه ونائبته، حتى ليمكن أن نقـول إن الرسول ﷺ لم يتزوج في الحقـيقة ـ وليس في الواقع ـ إلا عـائشة، فكانت نعْم الزوجة.

وأما زواجـه ﷺ من حفـصة بنت عـمر، فما كان إلا رأفةً بهـا، وإرضاءً لأبيها، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها عندما مات زوجها خنيس بن حذافة، فعرضها أبوها ـ بعد انقضاء عدتّها ـ على أبي بكر وعثمان، وبدا كـما لو كانا قد رفضاها بأدب، فتزوّجها الرسول ﷺ ، تطييـباً لخاطر أبيها. غيـر أنه كان بحفصة حـدّة في الطبع، وأفشت سرًا أئتمنها عليـه، وفيها نزلت الآية: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ (التحريم)، وكانت تراجعه وتهجره اليـوم بطوله إلى الليل، حتى قيل أنه طلّقها مع من قيل أنه طلقـهن من نسائه قبل نـزول آيات التحريم، وقـيل في ذلك روايات، منها أن عمر لما سمـع بطلاقها أول مرة، كان يحثـو التراب على رأسه حزناً وكمداً وغـضباً ! وما كان النبيّ ﷺ قد طلقّها، ولمّا سأله عمر نفى أن يكون قد طلقها أو طلق أياً من نسائه، ولو كان من الممكن أن يطلقـهن، لكان زواجه منهم لأسباب مما يطلق لهـا الناس زوجاتهن، وإنما كان زواجـه بهن جميـعاً «من أجل الدعـوة وتثبيت أركـانها»، فمـا تزوجهن ليطلقـهن، وكان إذا

استغضبنه يعظهن ويهجرهن. وكان لحفصة دورها المحفوظ فى الدعوة وإن كان صغيراً، فقد جمع أبو بكر المصحف الشريف، ولم يشأ أن يودع نسخته الخطية عند عائشة ابنته، وآثر - بمشورة عمر- أن تحفظه حفصة، فبقيت لها هذه المأثرة، فلما ولى عثمان طلبه منها واستنسخه، ووزّعه على الأمصار. ومع ذلك، فهل كانت حفصة تُقارَن بعائشة ؟ وهل كانت مواقفها مع النبىّ ﷺ هى مواقف زوجة نبىّ ؟ وهل تُحتسب زوجة كعائشة؟ وما كان لها باعٌ فى الدين، ولاطاقة على الدعوة، وما حدّثت وعلّمت كعائشة . فهل تُحتسب زوجة؟!

وقيل تزوج الرسول ﷺ فى السنة الثالثة للهجرة خامسة زوجاته: زينب بنت خزيمة بن الحارث، وكانت أختاً لميمونة بنت الحارث من الأم، وميمونة تزوجها النبىّ ﷺ فى السنة السابعة، واستشهد زوج زينب فى بدر. ولم تكن على شىء من الجمال، وكبيرة السن، ومريضة، ولكنها كانت تحب المساكين وتعطف عليهم وتطعمهم، فلقبوها منذ الجاهلية بأم المساكين. وكانت هى نفسها من المساكين، فقد كانت ضعيفة مهزولة لا تقوى على شىء، وما كان فيها مطمع لرجل، ولكنها طِيبة قلب المصطفى ﷺ على أرامل شهداء الإسلام، فآواها، وحَدَب عليها، ورعاها، حتى توفيت فى ربيع الآخر سنة أربع، بعد شهرين أو ثلاثة شهور من زواجها. فهل كان مزواجاً أو شهوانياً بزواجه منها، أم أنه كان يفعل الخير، فآثر أن يضمها إلي أهل بيته، فيرحمها من أن تدخل تجربة الترمّل وتعانى هوانها، وأن تضطر إلى أن تتزوج من لا يصونها ؟

وكانت السادسة من زوجاته هند بنت أمية بن المغيرة، أول ظعينة دخلت المدينة، وشهرتها أم سلمة، فقد كانت متزوجة من الصحابى الجليل أبى سلمة، ابن عمة النبىّ ﷺ وأخيه من الرضاع، وكان من أصحاب الهجرتين، وغزا مع الرسول فى ذى العشيرة، وشهد بدراً، ثم أحداً وفيها أصيب، وبعثه النبىّ ﷺ على رأس سرية إلى قَطَن، وهو جبل بناحية فَيْد، وانتكأ جرحه فى القتال، وظل به حتى توفى بسببه، وحضر موته المصطفى، وسمعه يدعو لها: اللّهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى، لا يُحزنها ولا يؤذيها! وتسابق الصحابة يعرضون على أم سلمة الزواج، وهمّهم أن يعولوا أبناء أبى سلمة: سلمة، وعُمر، وزينب، ودُرّة، وخطبها أبو بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم جاءها النبىّ ﷺ ، وكانت أم سلمة تعتذر بأنها مُسنة، وغيور، وذات عيال، فكان الصحابة ينصرفون عنها، إلا النبىّ ﷺ ، فقد أجابها: «أمّا أنك مسنة فأنا أكبر منك ! وأما الغيرة فيُذهبها الله عنك ! وأما العيال فإلى الله ورسوله!» وتزوجها فى شوال سنة أربع. وكانت قوية

الشخصية، وصاحبة مواقف كعائشة، وفي بيتها نزل الوحي كما نزل في بيت عائشة، وهي التي أشارت عليه بعد صلح الحديبية أن يخرج وينحر ولا يكلم أحداً، فلما فعل تبعه المسلمون ونحروا بعد أن كانوا يرفضون. وكان أزواج النبيّ ﷺ حزبين، حزب عائشة وحزب أم سلمة، وكانت تؤلب على عائشة، وتراجع النبيّ ﷺ ، ورأته مرة يتحدث إلى صفية في يومها - أي يوم أم سلمة - فقالت له في صلف: تتحدث مع ابنة اليهودي في يومي وأنت رسول الله؟ وانضمت إلى شيعة عليّ حتى في حياة رسول الله ﷺ ، وكانت ضد خلافة أبي بكر وعمر وتدعو لعليّ، وفي الفتنة الكبرى آزرت علياً وآله وتمنت لو تخرج تجاهد معه، لولا أنها تعصى الله لو فعلت، وتستحي من الرسول في الآخرة أن تهتك الحجاب الذي ضربه عليها، وما كانت تستطيع لو فعلت، فقد كانت مسنة. وحاولت أن تمنع عائشة ، وجاءت إلى عليّ تعتذر إليه عن عجزها عن الخروج معه وقدمت بدلاً منها ابنها عمر، وكان حبها لعلي وآله قوياً، فقيل إنها توفيت لدى سماعها نبأ موت الحسين. وكانت تقول إن النبيّ ﷺ لم يكن يستكثر منها وإنما من عائشة، وكان عائشة هي الأخرى تقول إنه لم يكن يستكثر منها وإنما من أم سلمة، ويبين الحق من الشهادتين أنه ﷺ ما كان يستكثر من واحدة من نسائه، فليس الاستكثار من النساء عمله؛ وإنما عمله الدعوة، ولم يكن جمعه لهذا العدد من النساء عن شهوة، ولكن عن طيب طوية، ورغبة في عمل الخير، وأن ينأى بالنساء عن الحاجة أو الذل أو أن يمتهنهن الأغمار. ولم تمت أم سلمة إلا سنة تسع وخمسين، وكانت منذ وفاته ﷺ حتى وفاتها - أي نحو تسع وأربعين سنة تشتغل بالدعوة، وتروى عن الرسول ﷺ ، وكانت برواياتها مقلّة مع ذلك، وبلغ ما روى عنها في كتب الأحاديث ثلاثمائة وثمانين (أو سبعين) حديثاً، وكانت تعلّم النساء، وتفتي في الدين كعائشة، وترسل إلى عائشة تسألها وتستفتيها، ويدخل عليها الصحابة يسألونها عن سُنّته ﷺ ، فكانت لها المكانة العالية، وإن كانت أقل مكانةً من عائشة التي انفردت بلقب أم المؤمنين، وكانت أُمّاً من الفضليات اللائي يستظل تاريخ الإسلام بذكرهن كمعلّمة وداعية. فهل كان اختيار رسول الله ﷺ لها كزوجة لأنه يريدها شهوةً فيها، أم كان لأهداف أسمى وأكبر وأشرف وأسمق ؟ وليست النتائج إلا البرهان على النيّة، والعبرة بما حدث وليس بضمائر هؤلاء المستشرقين الخبثاء من أهل الكتاب ومن المسلمين على السواء، ولا بأقوال عملاء المبشّرين أصحاب الدهاء.

وكانت السابعة من زوجاته زينب بنت جحش، بنت عمة النبيّ ﷺ ، أمرها النبيّ ﷺ أن تتزوج دعيّه ومعتوقه زيد بن حارثة، أراد بذلك أن يقرّب بين طبقات المسلمين،

ويرسّخ إمكان اختلاط الأدعياء بالأشراف مصاهرةً ونسباً، فأبت زينب هذا الزواج، وأيّدها أخوها عبد الله، وقال هو وزينب: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا عَبْدَه ! فنزل حُكم الله: ﴿**مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)**﴾ (الأحزاب)، وحينئذ أطاعت زينب على مضض، وتزوجها زيد فكانت تزدريه، وتستصغر شأنه، وتتعاظم عليه على زعم أنها خير منه حسباً، واشتكى مراراً لرسول الله ﷺ، فكان يجيبه: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، ثم طلقها زيد فتزوجها رسول الله ﷺ ونزل القرآن: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)**﴾ (الأحزاب) . ومن رأى البعض فى تفسير ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾ أن ما أخفاه رسول الله هو حبّه لزينب، فبرواية الطبرى وهو ينقل عن الإسرائيليات، أنه ﷺ جاء يطلب زيداً، فرفعت الريح الستارة عن الباب، فانكشفت زينب في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب رسول الله ﷺ، ودعته إلى الدخول فأبى وهو يهمهم، «سبحان الله العظيم! سبحان الله مُصرِّف القلوب!»، وكأن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف زينب ابنة عمته! وكأنه لم يخترها لزيد عن دراية؛ ولم يشترك من قبل فى أن يصلح بين الزوجين ! ـ والرواية عجيبة حقاً من مسلم كالطبرى، فلم يعرف عن النبىّ ﷺ أنه يهوى النساء، وما كانت له حكاية هوى فى شبابه حتى تكون له حكاية هوى فى كهولته !

ولقد طالعنا الرسول ﷺ حتى سن الخمسين لم يتزوج إلا العجوز خديجة، ثم العجوز سودة بنت زمعة حتى الثالثة والخمسين، أفبعد ذلك يقال أنه وقع في الهوى وهو فى سن الثامنة والخمسين ؟ ومن الغريب أن تنسخ هذه الرواية المتهافتة التفسير الصحيح لهذا الشطر من الآية: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾، فما كان يخفيه ليس هو الحب لزينب، وإنما كان غضبه لإصرار زينب على رفضها لزيد، وما كان يجدر أن يغضبها على الزواج ممن تكره وهو القائل: «البكر تُستأمر فى نفسها» رواه ابن ماجه، فبدعواها أن زيداً كان بالأمس عبداً، فكيف تتزوجه وهى الشريفة المضرية ؟ وقيل إن الآية: ﴿**مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)**﴾ (الأحزاب) نزلت فى زينب وأخيها الرافضين لهذا الزواج الذى اختاره الرسول ﷺ لزينب، فلما نزلت الآية أذعنت زينب حينئذ

وتزوجته وهي رافضة. وقيل: بل الآية نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، وكانت قد وهبت نفسها للنبىّ ﷺ، فزوّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هى وأخوها. وسواء كانت الآية في هذه أو تلك، فإنها كانت لأسباب واحدة، فقد قيل: أن النبىّ رأى بتزويج زينب من زيد: أن الكفاءة في الزواج لا تعتبر بالأحساب، وإنما تعتبر بالأديان، ولذلك تزوج المقداد بن الأسود وهو من الموالى ـ ضباعة بنت الزبير، وزوّج أبوحذيفة مولاه سالماً من فاطمة بنت الوليد بن عتبة، وتزوج بلال مولى أبى بكر من أخت عبد الرحمن بن عوف. والنبىّ ﷺ قد رأى هذا الرأى تطويراً للنظام الاجتماعى الإسلامى، وتسريعاً للحراك الاجتماعي في المدينة، ورأت زينب وأخوها غير ذلك، وأصرّت على رأيها حتى قالت: لا أتزوجه أبداً! والمستشرقون يقولون إن زينب لذلك ظلت بكراً حتى تزوّجها الرسول ﷺ. فلما طلقها زيد لم يكن ثمة سبيل لإصلاح هذا الوضع الذى وُضعت فيه زينب إلا أن يتزوجها النبىّ ﷺ نفسه، والعرب ليس من عادتهم أن يتزوجوا مطلقات الموالى، غير أن التقاليد تمنع كذلك زواج الأب من مطلقة ابنه، وزيدٌ هذا ابن محمد وإن كان ابناً بالتبنى. وما كان هناك ما يرفع هذا الحرج ويلغى هذا التفكير إلا أن ينزل تشريع بذلك من السماء، فنزلت الآية: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)**﴾ (الأحزاب)، والآية ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ (٤)**﴾ (الأحزاب)، احترازاً من الابن الدعىّ، وإباحةً للنبىّ ﷺ الزواج من مطلقة دعيّه، بقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)**﴾ (الأحزاب)، أى فيما أحلّ الله لنبيّه ﷺ من تزوجه زينب التي طلقها دعيّه زيد بن حارثة. والمستشرقون غلطوا إذن عندما ذهبوا إلى أن إباحة زواج الزوجة السابقة للابن الدعى إنما شرّعت فقط لأن محمداً ﷺ كان يريد الزواج من زينب حليلة ابنه لأنه أحبها!ـ ولقد جاء النفى باتاً من عند الله، أن يكون النبىّ ﷺ أباً لزيد: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠)**﴾ (الأحزاب)، وبطل لذلك زعمهم أنه حلّل حراماً لمصلحته. وما كانت له مصلحة وهو الشيخ الكبير، وزينب لم تكن الجميلة التى تستحق كل هذا العناء، فقد ظلت بلا زواج قبل زيد حتى أشفق عليها النبىّ ﷺ وزوّجها منه رغم تضرّرها. ولمّا طلقها زيد كانت في الخامسة والثلاثين، وقيل كانت فى الثامنة والثلاثين، وكانت بشهادة عائشة قصيرة، وإذا

وقعت فى أحد استطالت، وفعلت ذلك مع عائشة بحضرة المصطفى ﷺ وانتصر لعائشة عليها، ووصفتها عائشة بأن بها سورة من حدّة، أى من شدة خُلق، وهو ما كان يشكوه فيها زيد بن حارثة والنبىّ ﷺ، وعائشة تقول إنها وقعت بهـا أي سبّتها، وفى رواية: أن زينب قالت للنبىّ ﷺ: حَسْبُك إذا برقت لك بنت أبى قحافة ذراعـيها ! إعدل بيننا وبينها». وفى حديث زينب عن خصام رسول الله ﷺ لها بسبب صفية، أنه تركها شهرين أو ثلاثة لا يأتيها، قالت: حتى يئستُ منه وحولّت سريرى!» وزينب هي صاحبة العسل فى الرواية المشهورة والتي قيل أنه بسببها نزلت الآية: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)﴾ (التحريم)، وواضح مـن حكاية الـعسل هذه، أن إفشاءها ما كـان يشكّل جرماً يستوجب نزول آيات من القرآن، والأرجح أنها ملفقة كسبب للنزول. والصحيح: أن زينب ما كانت تستحق أن تكون زوجة للرسول ﷺ، فقد كانت كثيرة المفاخرة، والمفاخرة سلوك عدواني، فكانت تقـول لزوجات الرسول ﷺ: إني والله ما أنا كـأحد من نسـاء رسول الله ﷺ ! إنهن تزوّجهن بالمهور، وزوجهن الأولياء، وزوّجني الله رسوله، وأنزل فيّ الكتاب يقرأ به المسلمون، لا يُبدل، ولا يُغـيّر قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ (الأحـزاب٣٨)، الآيـة ! ولم تكن زينب داعية للإسلام، ولا راويـة للحديث، ولم يذكر لها إلا أحد عشر حديثاً لا غير. وإذن، فكما سبق، لم يكن زواجه ﷺ منها لمحبة يكنّها لها، ولا لأنه اشتهاها فجأة، وإنما كان زواجه منها كزواجه من سابقاتها ولاحقاتها، لصالح الدعوة ولصالح المسلميـن، وبسببـها نزلت آيات وتشـريعات، وظهر أن النـبيّ ﷺ هو القدوة، فقـد كان يمـتثل لتشـريع من السـمـاء فيـه الخيـر للناس، وبه يرفع الكثيـر من الحـرج عنهم في أدعـيـائهم وفى حياتهم. وما كانت زينب تقارن بعائشة التى كانت الزوجة فعلاً بكل المقاييس، فهل تحتسب زينب زوجة له فى مستواها؟!

وكانت ثامنة الزوجات جـويرية بنت الحارث، تزوجها النبىّ ﷺ فى العام السـادس الهجرى وهى ابنة عشرين سنة، ولم تر فيها عائشة إلا أنها حلوه مليحة، تأخذ بنفس كل من يراها، ولم تكن الملاحة سـبباً لزواج النبىّ ﷺ منها، وإنمـا لأن زوجها مـسافع بن صفوان، قُتل يوم المريسيع، وكان أبوها سيد قومه، وسُبيت جويرية، وخرجت من نصيب ثابت بن قيس الأنصارى، فكاتبها على مقدار من المال ليفك أسرها، وكانت بها جرأة فدخلت على النبىّ ﷺ تطلب أن يعـينها، فقـال لها: «أؤدى عنك كـتـابك وأتزوجك»؟ فلمـا رأى المسلمون أن قومها بنى المصـطلق صاروا أصهاراً للنبىّ ﷺ أعتقوا كـل سَبْيهم، فاعتنقوا

جميعاً الإسلام، فكانت جويرية عليهم وعلى الإسلام بركة، إلا أنها ما كانت تقرأ، ولم تشتغل بالدعوة كعائشة وأم سلمة، ولم يُذكر أنها روت سوى ستة أحاديث عن رسول الله ﷺ ولم يكن النبيّ ﷺ يأتيها غالباً، ولمّا توفي لم يعاملها أيٌّ من الخلفاء كأرملة لرسول الله ﷺ، وظهر أن بركَتها على الإسلام أن اعتنقه قومها، وكان ذلك هو مقصوده ﷺ من الزواج بها وقد تحقق. فهل كان زواجاً لشهوة؟ أو لأن النبيّ ﷺ كان مزواجاً كما ادّعوا؟!! وهل ترقى جويرية لمستوى عائشة الزوجة عن حق للرسول ﷺ - لتُحتسَب هذه الزيجة من جويرية على الرسول ﷺ؟ وإنما كانت عائشة هي زوجته في الدنيا والآخرة.

وأما تاسعة الأزواج فكانت صفية بنت حيي بن أخطب، تزوجها سنة سبع هجرية، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، ومع ذلك سبق لها الزواج مرتين، وكان قد قُتل زوجها كنانة بن الربيع، وسباها المسلمون في خيبر، ووقعت في سهم دحية الكلبي، وجيء بها إلى الرسول ﷺ فأشفق عليها، فقد كانت ابنة سيد قومها، فخيّرها أن تعتنق الإسلام وتصبح حرة، أو تبقى يهودية وهي سبيّة، فقيل اختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها، لعل قومها يسلمون، فما فعلوا، ولقد طعن المسلمون عليه أن تزوجها، وقال ابن عباس: إن الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ (الأحزاب) نزلت في هؤلاء،وما كانت صفية على شيء من الجمال، وإنما على هيئة قومها اليهود، وكانت كما وصفتها عائشة: قصيرة يلفت قصرها النظر، وما كان الرسول ﷺ يستكثر منها، وكانت تتعلل اعتذاراً عن ليلتها، وكثيراً ما وهبتها لعائشة، وكان النبيّ ﷺ يُسرّ لذلك، وما كان يُقسم لها كعائشة، ولما توفى أنكرت منها أُمّتُها أشياء، وأبلغت عمر بن الخطاب أنها على دين قومها وليست على الإسلام، وأنها تحفظ السبت مثلهم، وتصل أرحامها من يهود المدينة، ولم يحدث أن حدّثت عن النبيّ ﷺ إلا ثلاثة أحاديث لا شيء فيها، ولما قاربت الموت أوصت لابن عمها - وكان على دين اليهود - بثلث ما تركته، ورفض أولو الأمر إعطاءه ميراثه لأنه يهودي وهي مسلمة، ولا يرث الذميّ مسلمة أو مسلماً، وتدخلت عائشة بدعوى أن ما تركته صفية هو وصية، وأنه يجوز أن توصى المسلمة بجزء من تركتها لا يتجاوز الثلث لغير المسلم. ووجود أهلها وابن عمها في المدينة في عهد عمر دليل كذب الرواة الذين قالوا أن النبيّ قتل الذكور، حتى الصبيان من اليهود في خيبر! وقد نسأل: هل كانت صفية ما تزال على دين أهلها كريحانة، وهي الأخرى كانت يهودية وسبيّة، وادّعوا أنها أسلمت وتزوجها المصطفى؟ وفي عهد عمر فرض أعطية سنوية للجميع ستة آلاف

، وفُرضت لأزواج النبىّ ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، وخصّ عائشة باثنى عشرة ألفاً، وهذا ما يجعلنا نفرد عائشة ﷺ كزوجة وحيدة للرسول ﷺ، وخصّ عمر صفية وجويرية بستة آلاف لكل. فهل كانت صفية تُحتسب حقاً زوجة للنبىّ ؟ وهل تزوجها لتكون زوجة، أو لشهوة، أم أن زواجه منها أملته السياسة واقتضته الحكمة، فربما يسلم قومها، كقوم جويرية ، وقد تصنع المصاهرة ما لم تصنعه الحرب، وتلك كانت طريقة المصطفى ﷺ، وذلك منهجه مع خصومه. والمصاهرة هى وشيجة العرب لحلّ المنازعات وإنهاء الخصومات.

وكانت عاشرة الأزواج: رملة بنت أبى سفيان. وزواجه منها برهان ساطع على أن تلك الزيجات جميعها كانت من أجل نشر الإسلام، ولعزة المسلمين، وكان زواجه منها فى العام السابع الهجرى، وكان يناديها أم حبيبة ، باسم ابنتها حبيبة من زوجها عبد الله بن جحش، ابن عمة النبىّ ﷺ، الذى قد هاجرت معه إلى الحبشة فى الهجرة الأولى، ولكن عبد الله تحوّل إلى النصرانية، وترك الإسلام، وتمسكت أم حبيبة بدينها، ولا تدرى كيف تتصرف فى الغربة بعد أن صارت وحيدة وابنتها، ولم تكن تجرؤ على العودة إلى مكة مخافة أبيها رأس الشرك وعدو الإسلام الأول، فأرسل إليها النبىّ ﷺ يطمئنها ويخطبها لنفسه، لعله بذلك يستميل أبى سفيان إلى الإسلام، وربما كان ذلك هو الحل الوحيد المتاح الذى يضمن لها المأوى والحياة الكريمة التى تليق بمثلها، وما كان عند الرسول من حلّ سواه. وعادت إلى المدينة فى السنة السابعة من الهجرة زوجة لرسول الله ﷺ ، وكانت فى نحو الأربعين أو أقل قليلاً، بينما الرسول فى نحو الستين، ومع ذلك فلما بلغ أبا سفيان نبأ زواجهما قال: ذلك الفحل لايُجَدع أنفه !ـ يسخر من كثرة زواج المصطفى وينبّه إلى ذكورته، وهو كلام غير صحيح، لأن أبا سفيان كان يعلم أن النبىّ ﷺ ما كان يرغب فيها كامرأة، ولا فى غيرها، ونزلت الآية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑦﴾ (الممتحنة)، قال ابن عباس إنها نزلت فى أبى سفيان بن حرب، عسى الله أن يؤدم بين الشتيتين، ويوفّق بين الضدين، فتكون المحبة بعد البغضة، والمودة بعد النفرة، والألفة بعد الفرقة، وهذا هو السبب الحقيقى لزواج رسول الله ﷺ من كل زوجاته، وليس لشهوة، ولا لحبّ كما يدّعون. وكان الزواج فى حياة الرسول ﷺ إما لأسباب اجتماعية كزواجه من سودة، وحفصة، وإما لأسباب سياسية كزواجه من صفية اليهودية، وجويرية بنت الحارث، وأم حبيبة. والآية حسمت هذه المسألة وبيّنت أن المودة المطلوبة هى المصاهرة. فلماّ علم أهل مكة أن المسلمين ينوون غزو مدينتهم، أرادوا أن يرسلوا إلى الرسول ﷺ ، ولم يكن هناك من يتوسط لهم لديه

إلا حماه أبو سفيان، واختاره المشركون لهذه المهمة، لعله يفلح أن يوسّط ابنته لدى زوجها، ودخل أبو سفيان بيتها وتوجه ناحية سرير رسول الله ﷺ يريد أن يجلس عليه، فطوته دونه، فسألها: أرغبت يا بنية بهذا الفراش عنى، أم رغبت بى عن الفراش ؟ فما كان منها إلا أن أجابته: بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ مشرك نجس فلم أشأ أن تجلس عليه ! فأجابها الأب بغيظ: لقد أصابك يا بنية بعدى شرّ ! ثم انصرف مغضباً. ولم يكن زواج ابنته من محمد ﷺ شراً، ولا كان الإسلام الذى اعتنقته، ولكنهما كانا خيراً عاد على أبى سفيان والقرشيين جميعاً، وأهل مكة كلهم، وما كانوا يعلمون. فلما دخل النبىّ ﷺ مكة والتقى أبا سفيان وأهله مسالمين، أكرمه النبىّ ﷺ فقال: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» (الحديث)، ووقف أبو سفيان يستعرض كتائب المسلمين ويقول للعباس: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً! وردّ عليه العباس: إنها النبوة يا أبا سفيان ! ـ ولقد كانت النبوة هى دافعه ﷺ إلى كل ما صنع، وما تزوج من تزوج عن رغبة ، أو شهوة ، وإنما ترسيخٌ منه للإسلام، واستمالةٌ للقلوب، وتأليفٌ للقبائل، واستتبابٌ للأمن، وإعزازٌ للمسلمين، وذلك هو ردّنا على المستشرقين والعلمانيين وأهل الكتاب من أصحاب الجدل. وأما ما كان من أم حبيبة فما كان هناك شىء يرشحها زوجة لنبىّ، فلم تحدّث عن النبىّ ﷺ إلا ثلاثة وعشرين حديثاً، وكانت تتعالى على زوجاته وخاصة عائشة، يدفعها لذلك أنها ابنة أبى سفيان، وكانت وراء عفو النبىّ ﷺ عن أبيها، وقرّبت أخاها معاوية كاتباً للرسول ﷺ .

والحادية عشرة من زوجاته كانت ميمونة بنت الحارث، وهذه أرغى أعداء الإسلام فيها وأزبدوا ، فقالوا إنها التي وهبت نفسها للنبىّ ﷺ ، والتى نزل فيها قول الله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ۝٥٠﴾ (الأحزاب)، وهو تفسير المرجفين، فلما قيل لعمرة بنت عبد الرحمن. إن ميمونة وهبت نفسها لرسول الله ﷺ ، أجابت: تزوجها رسول الله ﷺ ، على مهر خمسمائة درهم، وولى نكاحه إياها العباس بن عبد المطلب». والعباس هو زوج شقيقتها الكبرى أم الفضل ،أولى النساء إيماناً بعد خديجة، وأخواتها من الأم: زينب بنت خزيمة زوجة رسول الله التى ماتت عنده، وهى المشهورة بأم المساكين، وأسماء بنت عميس التي تزوجت جعفر بن أبى طالب، فلما مات عنها تزوجها أبو بكر، فلما مات عنها تزوجها علىّ بن أبى طالب، وسلمى بنت عميس زوج حمزة بن أبى طالب، وكانت لها أختان أخريان، والأخوات الخمس كان النبىّ ﷺ يطلق عليهن اسم «الأخوات المؤمنات». فما كان من المعقول أن تكون ميمونة إذن من اللاتى وهبن أنفسهن: وقد

وصفت عائشة اللاتى وهبن أنفسهن فقالت: ألا تستحى المرأة أن تهب نفسها ؟ وفي رواية قالت: أتهب المرأة نفسها ؟ وعن ابن أبى حاتم قال: إن التي وهبت نفسها «**خولة بنت حكيم**». وعن عروة قال: كنا نتحدث أن **خولة بنت حكيم** كانت قد وهبت نفسها لرسول الله ﷺ ». والحق أن اللاتى وهبن أنفسهن كثيرات، **وقد نفى ابن العباس أن يكون رسول الله** ﷺ **قد قبل واحدة منهن**، وقال: **لم يكن عنده امرأة واحدة وهبت نفسها له**». وميمونة كانت من العابدات، ومع ذلك حاول المرجفون مرة أخرى أن ينسبوا لها أن رسول الله ﷺ أخذ بها وهو مُحرِم، والثابت - قبّحهم الله - أنه خطبها حلالاً، وبنى بها بسرف حلالاً. ثم حاولوا أن يطعنوا في خُلقها، فقالوا إن النبىّ تأخر في ليلة من الليالى فجاء إلى بيتها في ليلتها، فوجدها قد أغلقت الباب دونه! ورفضت أن تفتح له! فقال لها: «**أقسمتُ إلا فتحته لي!**» فقالت: تذهب إلى أزواجك في ليلتى هذه ؟! قال: **ما فعلت، ولكن وجدت حقناً من بولى!**» - (أى حبساً في البول)، مع أن ميمونة هذه بعد وفاة النبىّ ﷺ ، وكان عمرها **تسعاً وعشرين سنة، ولم تعاشر الرسول** ﷺ **إلا ثلاث سنوات فقط، أبت إلا أن تتبتل**، وحلقت رأسها! وحدّثت عن الرسول ﷺ ، ولها في كتب الحديث نحو الخمسين حديثاً، وماتت وعمرها سبعون سنة، فلما دفنوها كان رأسها مجمماً ! أى أملساً. وكانت أوصت ابن العباس أن يدفنها **بسرف**، في المكان الذى تزوجت فيه الرسول ﷺ ، **إجلالاً للمكان، ولذكرى زواجها من المصطفى** ﷺ ، فحملها ابن عباس من مكة إلى سرف ودفنها كوصيتها !

وبعد ... فلقد كانت هذه أخبار زوجات النبىّ ﷺ ، **الإحدى عشرة**، التى قيل إنهن كن زوجاته، **اثنتان توفيتا في حياته**، ومات هو عن تسع كما قيل، ولقد رأينا أنه من كل هؤلاء لم تكن له زوجة إلا **خديجة** التي توفيت ولم يتزوج عليها طيلة حياته، ثم كانت **عائشة** ، **وهذه هي الزوجة فعلاً**، فقد تعلّمت عليه، وأخذت عنه الفقه، واشتغلت بالدعوة، وجاهدت، وغزت معه، ونصّبها **حوارية** له، فكانت الداعية إلى الإسلام، والمؤرّخة ، والمحدّثة والمفسّرة للقرآن، والرسول ﷺ بعائشة **أوحد الزوجة**، فإن توسّعنا في معنى الزوجية، فمن الممكن إدراج **حفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش مع عائشة**، فهؤلاء **أربع** طبقاً للشرع، وهؤلاء اللاتى **آواهن**، وأما غيرهن فقد **أرجاهن**، ولم يقسم لهن كغيرهن. وأما **ريحانة اليهودية ومارية القبطية** فكانتا **ملك يمين**. وأما من خطبهن ، مثل الكلابية ، والكندية، وأم شريك، وبنت الهذيل، والجندعية، والغفارية، **وبنت عامر**، **وبنت** بشامة، وبنت الخطيم، فهؤلاء لم يدخل عليهن. وأما خولة بنت حكيم فهذه وهبت له نفسها

فزوّجها عثمان بن مظعون. وما كان الرسول ﷺ يحب النساء كالحديث المزعوم عن أنس، وما كان يهمه إلا الدعوة إلى الله، وأن يدخل الناس فى الإسلام، وأما المستشرقون ومزاعمهم فسيظل ذلك دأبهم، ولن يتوقفوا عن اللغط فى سيرته ﷺ وسيرة زوجاته ماداموا يستهدفون الإسلام، وحسبنا الله!

•••

٢٤٨.﴿ردّ القرآن على فرية أنه مزواج﴾

حسد اليهود العربَ أن تكون فيهم نبوة، وحسدوا النبيّ ﷺ على القرآن والحديث، وحسدوه على ما أحلّ الله له من النساء، فردّ عليهم الله حسدهم، فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)**﴾ (النساء)، يعنى أن الملك والكتاب كانا فيهم فلم يحسدهم أحد، وكان مُلك داود وسليمان مضرب الأمثال، وكانت لإبراهيم وداود، وسليمان، كثرة من النساء، وبلغ عددهن عند سليمان: ألف امرأة: ثلاثمائة مهرية (يعنى بمهر)، وسبعمائة سرّية؛ وعند داود مائة امرأة، وعند إبراهيم ثلاث، وعند يعقوب أربع، فهل فعل النبيّ ﷺ إلا ما فعل هؤلاء؟ وكان اليهود، ومن بعدهم المستشرقون من اليهود والنصارى، يعيبون على النبيّ زواجه من تسعة، وحُجّتهم: لو كان نبياً، ما رغب فى كثرة النساء، ولشغلته النبوة عن ذلك؟ وما يقدمونه من تبريرات لزواج داود وسليمان هى نفسها تبريرات زواجه ﷺ، ولكنهم يقبلون مبررات زواج داود وسليمان وحتى إبراهيم، ولا يقبلون نفس التبريرات للنبيّ ﷺ. قالوا: إن هؤلاء - يقصدون إبراهيم وداود وسليمان - أرادوا بالزواج المصاهرة وكثرة العشيرة، فكل امرأة يتزوجونها لها قبيلتان، واحدة عن طريق الأب، وواحدة عن طريق الأم، فكلما تزوّج أيٌّ منهم امرأة توجهت قبائلها إليه، وكانوا له عوناً على أعدائه. فلماذا يصحّ ذلك مع أنبيائهم ولا يصحّ مع نبيّنا؟! والذى حدث أن النبيّ ﷺ كان فى بعض زيجاته يتألّف أعداءه، وفى بعضها كان يأوى المسلمات المترمّلات باستشهاد أزواجهن وهم أصحابه. والآيتان السابقتان الآن لا تنصرف معانيهما إلا إلى ما تعظان به عموماً من النهى عن الحسد.

•••

٢٤٩.﴿أغلب الرسل لهم أزواج وذرية﴾

عاب اليهود على النبيّ ﷺ الزواج بأكثر من واحدة، وعيّروه بذلك، وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همّة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله

الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾ (الرعد)، أي أنه تعالى جعل رسله بشراً يقضون ما أحل الله، وإنما الفرق بين الرسل والبشر أنه تعالى خصّ الرسُل بالوحي. والآية ترغّب في النكاح وتحضّ عليه، وتنهَى عن التبتل وهو ترك النكاح، والسُّنّة واردة في معنى الآية: قال ﷺ: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم»، وقال: «من تزوج فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الثاني»، وقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم».

●●●

٢٥٠. ﴿نساؤه هن أهل بيته ولسن كأحد من النساء﴾

في الآيات: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾ (الأحزاب) تقريرٌ بأن نساء النبيّ ﷺ هن أهل بيت النبوة، وهن زوجاته المقصودات بقوله ﷺ: «وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي»، قاله مرتين، يوصي بهن. وفي قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ فيه إفراد لهن على النساء جميعاً منزلةً وشرفاً وفضلاً، وقوله: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾، ليس شرطاً تتوقف عليه هذه الرفعة في المنزلة والشرف والفضل، فهن بالفعل لسن كأحد من النساء، يعني لا يشبههن أحد، باعتبار تقواهن قولاً وفعلاً، والتقوى هي التي تفاضل بين العربي والأعجمي، فلا يتميز هذا عن ذاك إلا بها، وكذلك فضل بيت النبوة، لأنه البيت المؤسس على التقوى، وأهله لهن الآداب المرعية والتعاليم المقضية، فهن لا يخضعن في القول بما يُطمع فيهن منَ في قلبه دَغَل، ومن يتشوف الفجور ويتطلّع للفسق والغزل. وقوله ﴿كَأَحَدٍ﴾ فيه نفيٌ من المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، فهن بلا ضريب في الآداب، مما يجعلهن مثلاً يُحتَذي، وقدوة تُقتَدى، فإذا تكلمن لا يقلن تهريفاً ولا ينطقن هذراً، وحديثهن هو الحديث الجزل، وكلامهن هو الفَصْل، لأن المرجعية فيه للسُنّة، ومداره الشروح على القرآن، وحياتهن لذلك جدّ لا هزل فيه، فواجباتهن جسام؛ وكانت عائشة تؤم المسلمات، وتؤذّن للصلاة، وتفسّر القرآن وتعلّم الحديث؛ وكذلك كانت أم سلمة؛ وكانت زوجاته إما مصليات، أو صائمات، أو ذاكرات قانتات، وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ تنبيهٌ إلى أنه ما كان قبل الإسلام كان جاهلية، وذلك معنى وصفها بالأولى، أي السابقة على

نزول القـــرآن، **والتـــبرّج** هو أن تُظهر المرأة زينتـها للأجانب، ويسـمونه في علم النفس **الاستـعراضية وحب الظهور، والمرأة الاستـعراضـية** هي المتبّـرجة، تعرض محـاسنها على المتطلّعين والمتنظّريـن، تلفت إليها انتباههم لحاجة مـرضية في نفسـها، ولذلك وعظ الله المؤمنات ونساءه ﷺ خصوصاً، أن ينأين بأنفسهن عن ذلك، **والخروج للـمرأة** مشروط بالتستّر، وأن لا يكون تبذُّلاً، والنساء عفائف، ونساء النبيّ ﷺ خصوصاً عليهن واجب الأمـر بالمعـروف والنهـي عن المنكر، **فهن المعلّمات المصلحات بمـا حباهن الله من مـصاحـبة للرسول** ﷺ، **واستـماع دائم لتـلاوة القرآن**، وأقواله ﷺ في الدين . ويذكـر التاريخ أن **عائشة أم المؤمنين** كان بيتها **مدرسة للعلم، ومنتدى أدبياً** تُلقى فيه الحكمة، ويُتذاكر التاريخ، ولّما خرجت **إلى العراق**، ما دفعها إلى ذلك إلا لتصلح بين الناس، وتردّ الرعاع، وتطالب بدم **عثمان** ممن قتلوه، وكان **أهل المظالم** قد تعلّقوا بها، وشكوا إليها ما صاروا إليه من فتنة عظمى، ومـا آل إليه الحـال من تهـارج الخصـماء، ورجـا الناس بركـتهـا، وطمعـوا في الاستحيـاء منها، فخرجت مقتـويةً بقوله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)**﴾ (النساء)، وبقوله تعالى ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا(٩)**﴾ (الحجـرات)، والأمر بالإصلاح مخاطَبٌ به الناس جـميعاً من ذكر وأنثى، **وعائـشة**، بـل وزوجاته جـميـعاً ﷺ، كن يجتـهدن ويتأوّلن الـقرآن والسُنّة، وهو ما ينبـغي على كل مسلمـة، وإنما الخروج من البيت لا يكون إلا براً، وتـقوى، وجهاداً، وسـعياً وراء لقـمة العيش، وتحـصيلاً للعلم، وأمـراً بمعروف أو نهيـاً عن منكر، وبمثل ذلك التحـرّج فَضُلت نسـاء النبيّ ﷺ على نساء العالمين، فأذهب الله عنهن **الرجـس** ـ وهو كل قول أو عمل قبيح، وطهّرهن تطهـيراً، وكانت بيوتهن طاهرة بما يتلى فيهـا من آيات الله، فذكّرهن بها مخاطبةً ، فقال: ﴿**وَاذْكُـرْنَ**﴾ على جهة الموعظة، وتعديد النعمة بما يتلى في بيوتهن من آيات الله، وما يقال فيهـا من أحاديث رسوله ﷺ ، وهي المقصودة بالحكمـة، فكـان عليـهن أن يشكرن الله ويحـمـدنه، وهو اللطيـف الذي لطف بهن، وخـصـّهن بكل هذا الفضل، وكان خبيراً بهن، فاختارهن لرسوله أزواجاً، واستحققن بذلك أن يقول فيهن كل مسلم وهو يسلّم في صلاته: «**اللّهم صلّ وسلّم وبارك على محمد وعلى آل محمدّ**»، **وآله** هم أهل بيته، وهم أزواجه ﷺ .

•••

٢٥١. ﴿أهل بيت الرجل هن نساؤه﴾

في سورة هود حيّت الملائكة سارة زوجة إبراهيم، فقالوا: ﴿**رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ**

﴿... أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ (هود) فدلّت السورة على أن زوجة الرجل أو زوجاته هن أهل بيته، كما دلت على أن أزواج الأنبياء هن أهل البيت، ومن ثم كانت السيدة عائشة وغيرها من زوجات النبي ﷺ هن أهل بيته، ممن خاطبهن بقوله تعالى: **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢)﴾** (الأحزاب) وقوله **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾** (الأحزاب) إلى قوله **﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾** (الأحزاب)، وكلها آيات تثبت: أن أهل البيت هم نساء النبيّ لاغير.

●●●

٢٥٢.﴿هل تزوج خديجة قسراً عن أهلها وخداعاً لهم؟﴾

رواة الإسرائيليات، الذين يتخرّصون على النبيّ ﷺ حتى صارت تخرّصاتهم مؤلفات وكتباً، روّجوا تشنيعات اليهود ومن لَفّ لفّهم وادّعوا: **أن خديجة بنت خويلد** زوجة النبيّ ﷺ **تآمرت مع أختها على التدليس على عمّها كي تتزوج من محمد الفقير المُعدَم، الذي لا يكافئها يساراً ومكانةً، وأنها سقت أباها خمراً حتى فعلت فعلها فيه، فجعلته يدعو محمداً وزوّجه منها، وأن محمداً** سنّ على الشيخ حُلّة، فلما صحا من سُكره قال: ما هذه الحلّة؟ قالت خديجة وأختها: كساكها خَتَنُك محمد (أي زوج ابنتك) ! **فغضب أبوها، وأخذ السلاح، وانتصر بنو هاشم لمحمد وأخذوا السلاح بدورهم، وقالوا لآل خديجة: ما كانت لنا فيكم رغبة! ثم اصطلحوا بعد ذلك!!!**

وهذه الرواية اخترعها **أوباش مكة** لما بدأ النبيّ ﷺ دعوته في **السنة الثالثة عشر قبل** الهجرة، أي بعد زواجه من خديجة **بخمس عشرة سنة!** وروّج لها سفهاء المشركين، وأشاعها يهود المدينة من بعد، وبثّها المفسّرون والمؤرخون في مؤلفاتهم!. وللأسف منهم الكثير من المسلمين! وقالوا في رواية أخرى: إن **خديجة سقت أباها الخمر حتى ثمل، ونحرت بقرة، وخلّقته بخَلوق، وألبسته** حُلّة حَبِرة (والخلوق هو الطيب، والحبرة هي البردة الموشاة)، **فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟** (والعقير: متاع البيت، والعبير: الطِّيب، والحبير: الجديد من الملابس) **فقالت خديجة: زوّجتني محمداً! قال منزعجاً ينفي ذلك بشدة: ما فعلت! أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل؟!**

والروايتان محض افتراء وغلط ووَهْل، والثابت المحفوظ عند أهل العلم: **أن أباها خويلد** بن أسد **مات قبل حرب الفجّار !!** وأن **عمّها عمرو** بن أسد هو الذي زوجها رسول الله ﷺ !!!

وإزاء بطلان هاتين الروايتين نزع الوشاة الحاقدون من أهل الكتاب والمشركين، ومن بعدهم المستشرقون من اليهود والنصارى، ومن المسلمين أنفسهم أصحاب الدعوات العلمانية الليبرالية، إلى رواية يطعنون بها زواج النبىّ ﷺ، **ويصنعون منه ومن خديجة قصة،** أظهروا فيها النبىّ ﷺ مخادعاً يدبّر الزواج من **أرملة ثرية،** وصوّروا خديجة امرأة تبحث عن المتعة لدى شاب يصغرها سناً. وقالوا: إن عمّ خديجة عمرو بن أسد الذى زوّجها، كان يومئذ شيخاً كبيراً لايدرى، ولم يكن له أولاد يدفعون عنه، وأن خديجة ومحمد ﷺ خدعاه، وأحضراه العرس وهو لايفهم ولايعى !!...هكذا!!!

فذلك ما افتأتوا به على النبىّ ﷺ وعلى خديجة في زواجهما، وردّده من قريب **ذلك المستشرق اليهودى رودنسون،** وتقرر كتابه فى الجامعة الأمريكية باسم حرية البحث، ووزّعت منشورات عن ذلك فى مصر يتقوّلون فيها نفس المقالة، وما كانت سيرة النبىّ ﷺ **إلا امتثال القرآن،** ولو فرضنا ما افترضوا أن القرآن من وضْعه، فلابد أن يكون نتاج طبعه الجبلّى، وقد تصوّره بسجيته وخُلقه كما تعلمنا **فى علم النفس وفى التحليل النفسى،** وليس فى القرآن إلا الحقّ والخير والجمال والعدل، وهو حيّ يشهد له لا عليه، وجميعه مواقف، ومن دأبها أن تكشف عن باطن أصحابها، ومكنون صدورهم، والمكبوت من مشاعرهم وأحاسيسهم، والدفين من مواجيدهم، وما تكشّف من مواقف القرآن من شخصية الرسول ﷺ هو الحياء الشديد وكريم المحتد، والحلم والصفح، والشجاعة، وميله الغالب إلى المسالمة والسلام، ويشهد له المحيطون به والذين عملوا معه، فما قال لأنس بن مالك، خلال عشر سنوات خَدَمه فيها: أفٍّ قط؛ ولا قال لشىء فعله لِمَ فعلته ؟ ولا لشىء لم يفعله ألاّ تفعله؟ وشهدت زوجاته أنه ما شتم إحداهن يوماً، ولا لعنها، ولا ضربها، وما ضرب خادماً ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قطّ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا خُيّر بين شيئين إلا كان أحبَّهما إليه أيسرهما، إلا أن يكون إثماً، ولا انتقم من شىء يُؤتَى إليه إلا أن تُنتهك حرمات الله.

وأما خديجة: فكانت امرأة حازمة، وجَلدة، وشريفة، فلما تزوجته كان اختيارها صائباً، ودللت على رجاحة عقل، ووَعتْ عنه طبعه وميوله، واكتشفت أنه ينشد **الوحدة** أحياناً، ويروم **التأمل، فهيأت له أسباب ذلك،** وكانت تعدّه لرحلته إلى حِراء يتحنّث فيه الليالى، وكان نزول الوحى عليه حدثاً وأى حدث، فخشى أن يكون قد أصيب فى عقله وتشتتت نفسه، فطمأنته، لعلمها عنه، وقالت مقالتها الشهيرة: **إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ! إنك تصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتصل الرحم.** ـ ولما اضطهده أهل مكة،

ما تركته يجاهد وحده، وشاركته فيما يعاني، وظلت وفيةً صادقةً ، وكلما شهدته يتألم، فيسألها وبه خشية أن يكون على غير الحق، فتقول له ـ تستحثه وتشجعه وتصبّره: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله !

فهل مثل هذين يمكن أن يخادعا ويصانعا ويمكرا ويحتالا كما تقول الرواية الإسرائيلية ؟ والعقول خلقها الله أجهزةً أعدّها لنوعيات من الإنتاج يناسبها، والعقلية والمزاج النفسي ونمط شخصية الرسول ﷺ لم يكن منها المخادعة على ما رووا، فمثل ذلك أليق **بالعقلية اليهودية**، وفي **سفر التكوين** حكاية مشابهة يرويها **عزرا** كاتب التوراة في **الفصل العشرين**، عن **ابنتي لوط**، فقد أسكرا أباهما وضاجعتاه، فذلك الشيء إذن من **التراث اليهودي** وليس من التراث العربي، وهو دليل أي دليل، على أن مخترع القصة عن النبيّ ﷺ يهودي، يستحضر **لا شعوره الجمعي**، ويكشفه هذا المكبوت فيه فيما يتقوّل ويختلق من قصص وروايات، فيكاد المريب يقول خذوني!



٢٥٣.﴿هل طلق زينب من زوجها ليتزوجها؟﴾ ﴿وهل كانت بينه وبينها قصة حب؟!﴾

كلام المستشرقين في قصة زواج النبيّ ﷺ من زينب كثير، ومؤلفاتهم حول هذا الموضوع بالعشرات، بدءاً من **القرن السادس عشر** وحتى الآن! ولم يتفقوا فيما بينهم في شيء بقدر اتفاقهم في هذا الموضوع بالذات، فكان زواجه من زينب تُكأتهم في الطعن على نبيّ الإسلام، والاستدلال بذلك على كذب نبوّته، فقد ورد في القرآن **في آية تحريم** المحارم من **النسب والصهر والرضاع**، أن الأب يحرُم عليه أن يتزوج **مطلقة ابنه**، بقوله تعالى: **﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣)﴾** (النساء)، ولكن النبيّ ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، المعروف بأنه ابنه، واشتهر باسم **زيد بن محمد**، ويقول عطاء في تفسير الآية: كنا نحدّث أن النبيّ ﷺ لما نكح **امرأة زيد**، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله عزّ وجل: **﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾** وكان يقال لزيد أنه «زيد بن محمد»، والصحيح أن زيداً لم يكن ابنه على الحقيقة، ولكنه بالتبني، فنزلت الآية: **﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)﴾** (الأحزاب)، والآية: **﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾** (الأحزاب). والأدعياء جمع دعيّ، وهو الملتحق بنسب غيره، فاشتُرط للتحريم: أن يكون

الابن من الصلب وليس بالتبنى، وبذلك ينتفى ركن اتهامه ﷺ بأنه انتهك التحريم، ويتأكد هذا الانتفاء بالآية: ﴿**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴿٣٨﴾﴾ (الأحزاب). ومعنى ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ**﴾ أى حكمه تعالى فيمن سبقه من الأنبياء، فما كان الله تعالى يأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حرج، وهو ردٌّ على من توهم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد، مولاه ودعيّه الذى كان قد تبنّاه، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب)، فنهى أن يقال بعد ذلك عن زيد أنه «**زيد بن محمد**»، فهو ليس أباه وإن كان قد تبنّاه، ولم يحدث أن عاش للنبىّ ﷺ ولدٌ ذكر حتى بلغ الحلم، فأولاده الذكور من **خديجة** ماتوا صغاراً، وابنه من **مارية القبطية** (أى المصرية) مات رضيعاً. ولما حُرِم زيد من شرف أن يقال عليه ابن محمد **عوّضه الله أن ذكر اسمه فى القرآن**، وصار يُتلى اسمه فى المحاريب، ونوّه به غاية التنويه، فكان فى هذا تأنيسٌ له. والإنعام الذى أنعم به الرسول ﷺ على زيد بن حارثة كما فى الآية هو أنه **أعتقه من الرّق**، فعندما كان زيد طفلاً يَفَعَة قد أوْصَفَ، أغارت خيلٌ **لبنى القَيْن بن جسر** فى الجاهلية على أبيات بنى معن من طىء، وكان زيد وأمه عندهم فى زيارة لقومها، فاحتملوه، ووافوا به سوق **عكاظ**، فباعوه لحساب **خديجة بنت خويلد**، فلما تزوّجها رسول الله ﷺ وهبته زيداً، فنشأ فى كنف النبىّ ﷺ، وكان بينهما **عشر** سنوات، وأحبه الرسول ﷺ لما فيه من خصال طيبة، حتى كان يكنيه «**الحِبّ**»، ويكنّى ابنه أسامة: «**الحِبّ ابن الحِبّ**»، وقالت فيه عائشة: ما بعثه رسول الله ﷺ فى سرية إلا أمّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه.

وخطب الرسول ﷺ لزيد **زينب بنت جحش**، ابنة عمته **أميمة بنت عبد المطلب**، وكانت قد هاجرت مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهنا يبدأ الاختلاف فى الروايات حول بعض الآيات، وكلها **روايات من الإسرائيليات** التى دلّسها اليهود على رواة المسلمين الأوائل، أو أن هؤلاء الرواة أخذوا هذه التفسيرات مباشرةً من اليهود، من أمثال **كعب الأحبار، وابن سلام، وابن منبّه**، والذين نقلوا هذه الروايات عن السلف نقلوها من غير منهج ، وبلا تمحيص ولا مناقشة، ويبدو أن طريقتهم كانت تعتمد أساساً على **سرد كل الروايات، وللقارئ أن يأخذ بها أو يرفضها، غير أن بعضهم كانت تفسيراته منكرة، وعُرف عنه الكذب!!**

وفى رواية ابن عباس عن الآية: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب): أن

رسول الله ﷺ خطب زينب لزيد بن حارثة فاستنكفت منه، وقالت: **أنا خيرٌ منه حَسَباً**، وكانت امرأة فيها حدّة، فأنزل الله تعالى الآية ـ يعني أنها **رفضت الخطبة، وبحدّة، واستنكرتها**.

ومع ذلك ففي تفسير الآية السابقة روايات أخرى تختلف تماماً عن الرواية السابقة، **فعبد الرحمن بن أسلم** قال فيها: نزلت الآية في **أم كلثوم بنت عقبة بن معيط**، وكانت أول من هاجر من النساء، **فوهبت نفسها للنبيّ** ﷺ، فقبل ذلك منها، وزوّجها **لزيد بن حارثة** بعد فراقه زينب، فسخطت هي وأخوها، وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوّجنا عبده !! فنزلت الآية.

وفي رواية أخرى عن **أنس**: أن النبيّ ﷺ خطب امرأة لصحابيّ يقال له **جليبيب**، فلم يردّ عليه أبوها، وذهب يستشير زوجته وابنته، فأما زوجته فعابت على هذا الاختيار ـ وقالت: ما وجد إلا جليبيباً وقد منعناها من فلان وفلان ؟! والابنة في خِدْرها تسمع، وانطلق الأب يريد أن يخبر رسول الله ﷺ، فقالت الابنة: أتريدون أن تردّوا على رسول الله ﷺ توصيته بصاحبه؟ إن كان رسول الله ﷺ قد رضي صاحبه لكم فأنكحوه. فنزلت هذه الآية.

وفي رواية أخرى: أن **ابن عباس** قال في هذه الآية: إنها عامة في جميع الأمور، فإذا حكم الرسول ﷺ بشيء، فليس لأحد من مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا، ولا رأي ولا قول.

وهذا الرأي الأخير في أسباب نزول الآية هو الأصّح، والقول بغير ذلك طعنٌ في النبيّ ﷺ، وهو الذي قضى بأن يُؤخذ رأي المرأة في زواجها، وأن لا تكره على زواج لا ترضاه!؟

وأما الآية: **﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾** (الأحزاب) فهي الأخرى تعرضت لمختلف التفاسير من **الإسرائيليات**، مع أن المراد بها واضحٌ تماماً. وفي رواية ابن كثير: أن رسول الله ﷺ زوّج زيداً بابنة عمته زينب، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً وملحفة ودرْعاً، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله، فجعل يقول له: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**».

وأما قوله تعالى ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ** ﴾ ، ففى رواية ابن أبى حاتم عن علّى بن الحسين: أن الله تعالى قد أعلم نبيّه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها! فلما أتاه زيد يشكوها قال له: «أمسك عليك زوجك» ـ والرواية كما ترى، أخفّ الروايات وطأة، وسن الميثولوجيا الدينية. وعند ابن جرير أن الوطر فى الآية هو الحاجة وقيل هو الزواج، وقيل هو الجماع، والمعنى عموماً أن زيداً لمّا تزوجها زيد وفشل زواجهما وفارقها، أمرناك بالزواج منها بعد انقضاء عدّتها.

وفى رواية أنس غير ذلك، فقد ذكر أن الرسول ﷺ لما طلقها زيد، طلب منه أن يذهب إليها ويذكرها عليه ـ أى على النبيّ ﷺ ، وقد ولِيَ زيد تزويجها منه! ويذكر أنس شيئاً عجيباً، يقول: إنه لما ذهب إليها كانت تخمّر عجيناً، فلما رآها عظمت فى صدره حتى ما يستطيع أن ينظر إليها ! فولآها ظهره ونكص على عقبيه، وقال لها: يا زينب أبشري، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكُرك. قالت زينب: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤمر أو أُوامر ربيّ عزّ وجل (يعني تصلي لله تستخيره في هذا الزواج)، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن. وأطعم رسول الله ﷺ الخبز واللحم احتفالاً لأول مرة بزواج له. ولما رأى رسول الله ﷺ أنساً يلازمه كظله ألقى الستر بينهما، ونزلت آية الحجاب: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** (٥٣)﴾ (الأحزاب)، ووعظ الناس الذين ظلوا في البيت بعد الوليمة بالآية ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾ (الأحزاب).

وفي رواية الزمخشرى قال: إن رسول الله ﷺ أبصرها بعدما أنكحها زيداً، فوقعت فى نفسه، فقال: «**سبحان الله مقلب القلوب**»!! ويبرر الزمخشرى قوله ذلك بأنه كان قبل ذلك يجفو عنها ولا يريدها! ويستطرد الزمخشري: وسمعت زينب تسبيحته ـ أى قوله سبحان الله ـ فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله فى نفسه كراهة صُحبتها والرغبة عنها لرسول الله! وقال مثل ذلك الثعلبي، والنسفي، والجلال المحلي وغيرهم!

وروى القرطبى عن مقاتل: أن زينب تزوجت من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه ﷺ أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، وكانت بيضاء، جميلة، جسيمة، من أتم نساء قريش!! فهويها، وقال: «**سبحان الله مقلب القلوب**»! فسمعت زينب التسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن

زيد، فاستأذن رسول الله ﷺ في طلاقها، وذكر أسباب ذلك فقال: **إن فيها كبْراً وتتعظّم عليّ، وتؤذيني بلسانها**، فقال النبيّ ﷺ: **أمسك عليك زوجك واتق الله**. وقيل: إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب متفضّلة في منزلها ـ (أي في ملابس البيت)! فرأى النبيّ ﷺ زينب، فوقعت في نفسه! ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبيّ ﷺ، وذلك لما جاء يطلب زيداً، فلمّا جاء زيد أخبرته، فوقع في نفسه أن يطلقها. وإذن فقوله تعالى: ﴿ **وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه** ﴾ هو الحب لها!!

وفي رواية ابن سعد: أن النبيّ ﷺ جاء يطلب زيداً لأمر، فجاء منزله فلم يجده، وقامت إليه زينب عَجْلى **فضلاً** (يعني في ملابس البيت)، تريد أن تلبس لمّا قيل لها رسول الله، وأعرض عنها رسول الله ﷺ، وأجابت: أن زيداً ليس هنا وطلبت إليه أن يدخل، ولكنه ولّى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يُفهم منه، ربما كان: **سبحان الله العظيم! سبحان مصرّف القلوب!** فجاء زيد إلى منزله، وأخبرته زوجته، وسألها: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: أبيَ. وقالت سمعته حين ولّى يتكلم بكلام لا أفهمه، يقول: **سبحان الله العظيم! سبحان مصرّف القلوب!** فذهب إليه زيد فقال: يا رسول الله! بلغني أنك جئت منزلي، فهلا دخلت؟ بأبي أنت وأمي يارسول الله! لعل زينب أعجبتك فأفارقها؟ فقال له: **أمسك عليك زوجك واتق الله**. قيل: فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم (يعني لم يقربها)، واعتزلها ثم فارقها، وحلّت (يعني انقضت عدتها)، وقيل: فبينما رسول الله ﷺ يتحدث مع عائشة، أخذته غشية، فلما سرّي عنه، ابتسم وقال: من يذهب إلى زينب يبشّرها أن الله زوّجنيها من السماء؟ وتلا الآية. فكانت زينب تفخر على سائر زوجاته بأن **زواجها كان من السماء**، وقالوا: لما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد، ولا صداق، وهذا من خصوصياته!! وكما ترى أن الرواية متهافتة، ولا يمكن أن يحلل النبيّ ﷺ حراماً، ولاينقض القرآن بسلوكه.

وفي روايات لقتادة، وابن عباس ومجاهد: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظنت أن الخطبة لنفسه، فلما تبين أنه يريدها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت. فنزلت الآية: ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا (٣٦)** ﴾ (الأحزاب)، فأذعنت وتزوجته، وفي رواية: فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله، لنسبها من قريش، وقال: أن زيداً كان بالأمس عبداً... إلى أن نزلت هذه الآية. ونسب المدّعون إلى عائشة أنها قالت: إن آية: ﴿ **وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه** ﴾ ليس أشدّ على الرسول ﷺ منها»!!! يعني أن

الرواية التى يتقولونها صحيحة، ونزلت قرآناً، ولم يكتمه الرسول ﷺ ، وقالوا: إن زيداً لمّا سمع من رسـول الله ﷺ أوى إلى فراشه، وقالت زينب: ولـم يستطعنى زيد ـ يعنى أنه لم يستطع أن يأتيها بعـد ما عرف من رغبة رسول الله ﷺ فيهـا!! وقالت: ما أمتنع منه غيـر ما منعه الله منى، فلا يقـدر عليّ. وفى بعض الروايات: أن زيداً تورّم ذلك منه حين أراد أن يقربهـا ـ يعني أغضبه أن يعـجز عن إتيانها، ولذلك فإنـه توجّه من بعد إلى رسول الله ﷺ ، يشكو إليه زينب تؤذيه بلسانها وتفعل وتفعل، وأنه يريد طلاقها!!

وفى رواية **القرطبى**: أن قتادة وجماعة من المفسّرين، ومنهم **الطبرى** وغيره، ذهبوا إلى أن النبيّ ﷺ وقع منه استحسان لزينب وهي في عصمة زيد، وأنه حرص على أن يطلقها منه ويتزوجها، وأنه أخفى الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا معنى ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ** ﴾؛ وقـوله: ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ** ﴾ أى تستحييهم، وتخاف لائمة المسلمين، فيقولون أمَر أحد أصحابه أن يطلق امرأته ليتزوجها هو!!

وفى تفسـير **الزهرى وابن العـربى**: أن المراد بقـوله: ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ** ﴾ هو إرجـاف المنافـقين بأنه نهى الآباء عن الـزواج من نساء الأبناء، وتزوّج مع ذلك زوجـه ابنه! وروى أيضاً: أن النبيّ ﷺ **هوى** زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المجان لفظ عَشِقَ. وليؤكد أنس الرواية قال: ما رأيت رسول الله **أَوْلَم** على امـرأة من نسائه ما أوْلَم على زينب، فإنه ذبح شاةً !! والـغالب أن رواية أنس وغيـرهم قد دُسّت دسّـاً فى كتُب المسلمين، وكـلها أراجيف، وقيل: إن زينب كانت في **الخامسـة والثلاثين**، وكانت ما تزال **بكراً لم تتـزوج**، يعنى **أنهـا صارت من العـوانس**، ومن عادة العرب أن تتزوج البـنت صغيرة السن، وربما تُطلّق فتُزوّج بعد انقضاء عـدّتها مباشرة. وأما زينب **فلم تكن قـد تزوجت قط، ثم إنهـا اشـتهـرت بحدّة الطبع، وسلاطة اللسـان، حتى كانوا يخافون بأسهـا، ونالت من عائشة ومـن** الرسول ﷺ بعـد زواجها منه، وكثـيراً ما كان يهـجرها لذلك. وكشأن الضـرائر، فإن عائشة قالت إن **النبيّ كان يستكثـر منها وأم سلمة** ـ ولا يمكن طبعاً أن تقول عائشة مثل ذلك عنها وعن أم سلمة والرسـول ﷺ ! ومن أين لها أن تعرف أنه يستكثـر أولا يستكثر من هذه أو تلك؟ وقيل ضمن رواية المؤرخين: وربما السبب من استكثاره من زينب وأم سلمة أنهما كانتا أقرب إليه عمراً، فزينب تزوجها فى السنة **الخامسـة** من الهجرة فى مرجعه من **غزوة المريسيع** أو بعدها بيسير، وظلت معه **ست سنوات**، وكان النبيّ وقت أن تزوجها فى **السابعة والخمسين**، بينما زينب فى **الخامسة والثلاثين**، وفى رأى فى **الثامنة والثلاثين**. وحتى عمـر نسبوا لزينب أنها نالـت منه، ولم يكن يعجبهـا ما يرسله إليهـا من رواتب. وكانت

زينب من حزب أم سلمة ضد عائشة وحفصة، وطالبت بحقها في هدايا المسلمين للنبيّ ﷺ . هكذا قالوا. وعند ابن سعد أنها توفيت وعمرها ٥٣ سنة، يعني تزوجته وكانت في الثامنة والثلاثين كما قلنا. ولم تكن جميلة كما قالوا، فقد كانت سمينة، وقصيرة، ولم يكن زيد مناسباً لها فعلاً، فرغم أن سنه كان متقارباً معها، فقد كان في السابعة والأربعين، إلا أنه كان قصير القامة، وآدم شديد الأدمة - يعني شديد السُّمرة، وفي أنفه فَطَس، ولهذا قالت زينب أنه كان بالأمس عبداً، بينما كانت هي بتعبيرها أيِّم قريش - يعني أنها كانت الوحيدة من قريش التي لا زوج لها ولكنها موسرة تعول نفسها. وكان من رفض أخيها لهذا الزواج، أنه ترك المدينة، وكانت غاية النبيّ ﷺ من هذا الزواج أن يسترها بزوج هو أعرف الناس بخُلقه الطيب، وأراد الرسول أن يكافئ زيداً بأن يزوجه ابنة عمته ، فكان كما قيل، بعيد النظر، وحسب أن زينب ستتلقى اقتراحه بالترحاب، فلمّا غُصبت على الزواج، كانت تسبُّ زيداً، ويبدو أنه من كثرة تطاولها عليه أصيب بالعُنّة النسبية معها فكان يعجز أن يأتيها، وفي ذلك كانت تقول: لم يستطعني، وما امتنعُ منه غير ما منعه الله مني، فلا يقدر عليّ !

وفي الرواية كما سبق نسبوا لزينب أنها قالت: تورّم زيد ذلك - يعني غضب لما أراد أن يقربها فعجز. وقيل : ومع ذلك حاول الرسول ﷺ أن يصلح بينهما ، وافتروا وقالوا: إنه كان حريصاً على أن يطلقها من زوجها: ونتساءل: فمن أين علموا ذلك، وما جاءت كلمة الطلاق على لسانه ؟! وقوله «سبحان الله ، سبحان مُصرِّف القلوب» إنما هو قول المتخرّصين ، قيل: إن زينب هي التي صرّحت به، وهو كلام مرسل ومنقطع، ولا يعني سياقه إنه يتمنّاها، وربما كان معني مُصرّف القلوب أنه صرف قلب زينب عن زوجها، فلماذا يكون المعنى صرف قلبه إليها ؟ وكانت زينب تطالعه دوماً بحكم القرابة، وإنه لأعرف الناس بشكلها وسمتها، فكيف يُعجب بها فجأة وكأنه ما رآها من قبل؟! وطبيعي أن يؤرقه حال زينب إذا طُلّقت، وهو يعلم أن أحداً لن يتزوجها بعد زيد، لأنه عبد، والعرب لا يتزوجون مطلقات العبيد، وما كان هناك إلا حلٌ واحدٌ: هو أن يتزوجها هو ويضمها إلى حريمه، فيحفظ عليها مكانتها، وما كان يمنعه من تنفيذ ذلك فوراً، بعد شكوى زيد المستمرة واعتزاله امرأته وفراقها، إلا أن يقول العرب إنه تزوج امرأة ابنه، وليس من منقذ من هذه الورطة إلا أن ينزل حلّها بالقرآن، وهو الحل الذى تعنيه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾، وهو الذى ارتآه فوراً، وهو الزواج بها فيريح ويستريح، وليس ثمة مبرر لافتراض أنه تزوّجها لأنه كان يحبها كما أشاعوا! وفي حياة الرسول ﷺ ما ذَكَر

يوماً الحب إلا مع عـائشة ، فهى حبيبتـه وزوجته فى الدنيا وفى الآخرة. وإن قيل فلأى شىء قـال النبىّ ﷺ : أمسك عليك زوجك ؟ قلنا إنه من أجل أن تبقى زينب متزوجة، لأن البديل صعب وهو أن يتزوجها هو. وإن قيل وما معنى «فلما قضى زيد منها وطراً» أليس معناه أن زيداً دخل عليـها وجـامعـها ؟ قلنا إن المعنى هو: فلمـا استنفـد زواج زيد من زينب كل أهدافه، ليتنزّل بسببه تشريـع جديد، زوجناكها، أى زوّجها له الله تعالى، ليس زواجـاً من السماء كما قالوا، وإنما بالآيات التى حللت له أن يتزوجها، ففى ضوء التشريع الجديد صار له أن يتزوجـها ولا تثريب عليـه. ويكفى أن نقول: إن زينب مـا كان يمكن أن يتـزوّجهـا ويتحملها آخر بخلاف النبىّ ﷺ ، بدليل ما كانت تقوله له مما لاينبغى لها، كقولها: إنى لأدلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امـرأة تدلّ بهن: أن جدّى وجدّك واحد ! وأن الله أنكحك إياى من السماء ! ـ(يعنى أنزل التشريع الذى مكّن لك الزواج منى)، وأن السفير فى ذلك جبريل ! (لأن جبريل كان هو الوحى الذى ينزل إليسه بالقرآن). وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ (٣٨)﴾ (الأحزاب) يقصد بها تحليل الزواج للأنبياء، فمحمد لم يأت نكراً، ولا كان بدعاً بين الرسل، وإنما تزوج على سنة الله.

فهـذه هى قصـة زينب وزيد، وما كان من ذلك مع النبىّ ﷺ ، وليس فـيها أىّ ما يعيب على الثلاثة ، أو يطعن فى الرسول ﷺ كما ادّعى الأولون والآخرون. وليس فى زواجه ﷺ من زينب معجزة من السماء كما ادّعت زينب، وما كان يشغل النبىّ أمر النساء وإنما كان شغله بالدعوة، وقد قيل: ما أفلح من جعل وسـادته أفخاذ النساء، وهذا النبىّ كان بمنأى عن كل ذلك، وكان سيد الأنبياء، واهتماماته كانت أكبر من اهتمامات أى نبىّ، وما كان عمله مجرد الهداية، وإنما تكوين أمة، وخلق مجتمع، وإنشاء إنسان جديد ، وحسبنا الله.

●●●

٢٥٤. ﴿ما أحلّ له من النساء﴾

ما حلّله الله تعالى لنبيّـه ﷺ من النساء تتضمنه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠)﴾ (الأحزاب)، والمعنى أن الله تعالى أحلّ له هؤلاء النساء ويستطيع أن يتزوج منهن، ومن يتزوجها عليه أن يمهرها، وقد أمهر زوجاته جمـيعاً، باستثناء أم حبيبـة ، قيل: أمـهرها عنه النجـاشى! لماذا؟ ربما

لتناسب الفرية مع مكانة أم حبيبة وأنها بنت أبي سفيان. وجويرية أصدقها بأن أدّى عنها كتابها إلى ثابت بن قيس بن شماس، لماذا وهي سبيّة، وابن قيس أخذ سبيّة أخرى عوضاً عنها؟ وصفية: أصدقها بإعتاقها، لماذا أيضاً وهي سبيّة وملك يمين وليس لها صداق؟ وجميع مَن تزوج الرسول ﷺ إحدى عشرة، توفيت منهن خديجة، وزينب بنت خزيمة في حياته، وتوفى هو عن تسع زوجات كما قيل. وبالمقارنة فإن النبي داود كانت له بحبرون سبع زوجات بخلاف السراري، وفي أورشليم تزوج بأخريات واتخذ السراري، وكانت لسليمان: سبعمائة زوجة وثلاثمئة سرية! وفي الآية أبيح للنبيّ ﷺ التسرّي ممن أخذ من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، لماذا؟ وملَك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم وكانتا من السراري، ولا يوجد في الإسلام، ما يسمي سراري الآن والحمد لله ولا ملْك يمين. وفي قوله: ﴿ **وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ** ﴾ الآية، أن النبيّ ﷺ لم تكن تحته واحدة من بنات عمه، ولا من بنات عمّاته، ولا من بنات خاله، ولا من بنات خالاته، فثبت أنه أُحل له التزوج بهذا ابتداء، قيل: لذلك خطب من بعد نزول هذه الآية أم هانئ ابنة عمه، ولكنها اعتذرت إليه، وقالت عن ذلك: فلم أكن أحلّ له، فلم أكن ممن هاجرن معه، وكنت من الطلقاء»، وهو تفسيرها للآية ﴿اللاتي هاجرن معك»، وهن قريباته ممن أسلمن وهاجرن، وأمّ هانئ لم تكن قد أسلمت ولا هاجرت معه، وكان إسلامها عام الفتح فكيف يخطبها وهي لم تكن معه في المدينة؟ وكيف يخطب مشركة؟. وقولها أنها كانت من الطلقاء، أي الذين أطلق سراحهم يوم فتح مكة ومَنّ عليهم بقوله: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وفي الآية بنات خاله وبنات خالاته، ولم نجد مرجعاً يذكر أن له بنات خال وبنات خالات! وربما الآية لأنها تحلل وتحرّم عموماً وليس للنبيّ وحده ﷺ.

وكان من زواج الأقارب عند النصارى أنهم لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، بينما كان اليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فتوسطت هذه الآية بين إفراط النصارى وتفريط اليهود، وأباحت ما حظره النصارى وهو الزواج من بنت العم والعمّة، وبنت الخال والخالة، وحرّمت ما جرى عليه اليهود وهو الزواج من بنت الأخ والأخت. والإحلال في الآية يقتضي أن يتقدمه الحظر، مما يدل على أن ذلك كان محظوراً في السابق: وقوله ﴿أحللنا لك﴾ يعني أزواجك، لأنهن أخترنه زوجاً في الدنيا والآخرة، ولو تزوج كان يشق عليهن، فلما نزلت الآية وحرّمت عليه النساء إلا من سمى، سررن بذلك. وفي قوله: ﴿ **وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن**

يستنكحها خالصة لك (٥٠)﴾(الأحزاب) أن من تفوّضه الزواج منها له إن شاء أن يتزوجها، والوهب هو أن تتزوجه بلا مهر، وذلك خصيصاً له دون غيره، ومع ذلك كما قال ابن عباس: **لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له»، وقال: لم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين، فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد».** ولم يكن النبي ﷺ يقبل واحدة ممن وهبن أنفسهن له وكن كثيرات، منهن **أم شريك غزية بنت جابر الدوسية، وخولة بنت حكيم، والمرأة التي حكى عنها أنس** والتي جاءت إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا نبّي الله ! هل لك فيّ حاجة ؟ وعلّقت ابنة أنس على قول أبيها: ما كان أقلّ حياءها! **والمرأة التي روى عنها سهل بن سعد الساعدي:** أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله ! إني وهبتُ نفسي لك»، وظلت قائمة طويلاً، إلى أن طلب أحد الصحابة أن يتزوجها، ولم يكن معه من مال ليمهرها فزوّجها له بما يحفظ من قرآن يعلّمه لها.

والخلاصة: أن هذه الآية لبيان مَن يحلّ أن يتزوجهن الرسول ﷺ، وهي مرتبطة بالآية التي بعدها والتي تقول: ﴿ **لا يحلُّ لكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أن تَبدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أزْوَاجٍ وَلَوْ أعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢)** ﴾ (الأحزاب)، وتؤكد أن من أُحللن له هن زوجاته **اللاتي في عصمته وما ملكت يمينه**، وحُرّم عليه ما سوى ذلك من النساء.

●●●

٢٥٥.﴿زوجاته يخيّرن﴾

مبدأ تخيير الزوجة بين أن يفارقها زوجها فتذهب إلى غيره، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، من مبادئ الإسلام التي ينفرد بها عن بقية الأديان والأعراف الوضعية في الزواج، والرسول ـ وهو القدوة ـ نزل تخيير الله لأزواجه بين الاستمرار معه أو الطلاق في الآية: ﴿ **يَا أيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإنَّ اللَّهَ أعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)**﴾(الأحزاب)، وقد ثبت أن البكر تُسأل عند الزواج، وأن الثيّب لها أن تزوّج نفسها، وفي هذه الآية يثبت أن المسلمة لها أن تبقى مع زوجها أو أن يطلقها إذا شاءت، إذا كان في استمرارها معه ضررٌ لها، يعني **أن المرأة المسلمة مخيّرة في الأول والآخر في كل** الأحوال.

ومناسبة هذه الآية أن نساءه ﷺ ـ قيل إن واحدة منهن سألته أن يصوغ لها حلقة من

ذهب، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب أو بالزعفران، فأبت إلا أن تكون من الذهب: يعنى **سألته شيئاً من عَرَض** الدنيا، وقيل: سألته **زيادة فى النفقة**؛ وقيل: آذينه بغيرة بعضهن على بعض. وهذه الخلافات وأمثالها هى من الأمور العادية بين الأزواج، وقد تكره المرأة زوجها لسوء معاملته، ولكن الرسول ﷺ ما أساء لزوجة، ولا كرهته أىٌّ منهن، وهو الذى قال: «**خيركم خيركم لأهل بيته، وأنا خيركم لأهل بيتى**». ولم يحدث أن شتم زوجة أو ضربها، وكان يعدل بينهن، وأوصى بالنساء خيراً فقال: «**واتقوا الله فى النساء فإنهن عندكم عوان**» أى فى رعايتكم وكنفكم، وكان يعطيهن كل ما يملك، وما كان يملك من الدنيا شيئاً، وهو الذى خيّره ربُّه بين أن يكون نبياً مَلِكاً وبين أن يكون نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً - أو مسكيناً. ولما أفاء الله عليه بعد خيبر، كان يوزع عليهن **الفىء فيعطيهن على السواء**. وفى الحديث عند أحمد: أن عمر بن الخطاب ذكرت له امرأته أن النبىّ ﷺ **تراجعه أزواجه**، فسأل فى ذلك ابنته **حفصة**، قال: أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ **قالت**: نعم. وسألها: وتهجره إحداكن؟ قالت: نعم. - ومعنى **المراجعة** المحاورة، وأن تستعيده الرأى والنظر فيه. وفى قول حفصة: **أن زوجاته كن يغاضبنه**، يعنى يهجرنه. وفى مناسبة هذه الآية عند أحمد برواية جابر، أن أبا بكر وعمر أقبلا، يستأذنان رسول الله ﷺ، وقد جلس حوله نساؤه وهو ساكت، وقال عمر يضاحكه: لو رأيت ابنة زيد - امرأة **عمر**- سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! (أى كسرتُه يقول ذلك مداعباً)، فضحك النبىّ ﷺ وقال: «**هن حولى يسألننى النفقة**»! فقام أبو بكر إلى **عائشة** ليضربها، وقام عمر إلى **حفصة**، كلاهما يقولان: تسألان النبىّ ﷺ ما ليس عنده ؟ !! **فنهاهما** رسول الله ﷺ، فقلن - أى نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ! فأنزل الله عز وجلّ الخيار، فبدأ النبىّ ﷺ بعائشة، يقول لها مترفقاً: «**إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك**». قالت: وما هو ؟ فتلا عليها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ..**﴾ الآية، قالت عائشة: أفيك استأمر أبوى ؟! بل اختار الله تعالى ورسوله ! - وكذلك قالت كل نسائه.

وإذن **فتخيير النساء فى البقاء على الزوجية أو الطلاق من آداب الزواج فى الإسلام**، فربما كانت الزوجة تكره المقام مع زوجها على الشدّة. **ومشاورة المرأة لأبويها أو استئمارهما إذا** اعتزمت الطلاق واجبةٌ، بحسب قوله ﷺ لعائشة، ومعنى **المشاورة أو الاستئمار**: أن لا تُحمَّل المرأة وحدها مسئولية فراق زوجها دون إعمال فكر ونظر بمساعدة من أهلها. وقوله تعالى ﴿**أمتّعكن**﴾ يعنى أن **تُعوَّض المرأة إذا طُلّقت**، وتعويضها هو عمّاً يلحقها أو يفوتها بالطلاق، بحسب حال الزوج، وعلى المُوسع قدره، وعلى المقتر قدره. **والسراح الجميل فى**

الآية: هو أن يعطى الرجل مطلقته حقوقها كاملة؛ وقيل: هو أن يطلقها طلاقاً بائناً من غير ضرار ولا منع واجب لها؛ وقيل: هو التسريح البات، أى الطلقة الثالثة، والاختيار الموجب لذلك هو أن يقول الرجل لزوجته: **اختاريني أو اختارى نفسك**، فإذا اختارت نفسها يقتضى ألا يكون عليها سبيل، ولا يملك منها شيئاً. وقوله تعالى: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾**(الأحزاب) دليل على أن لزوجاته ﷺ مراتب متفاوتة، أعلاها مرتبة الإحسان، وفى الحديث عن أبي موسى الأشعرى وصف الرسول ﷺ زوجته خديجة بالكمال، وقال عن عائشة: «**وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» ومن ثم فهاتان هما المقصودتان بالمحسنات اللاتى لهن الأجر العظيم.

●●●

٢٥٦.﴿ما معنى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴿٦﴾﴾ (الأحزاب)﴾

بهذه الآية شرّف الله تعالى المؤمنين بأن نسبهم إلى أزواج النبىّ ﷺ كأمهات، وشرّف أزواجه بأن جعلهن أمهات المؤمنين، ومثلما الشأن بين الأمهات والأبناء من وجوب التعظيم، والبرّ، والإجلال، وحرمة النكاح، فكذلك الحال بين المؤمنين وأزواجه ﷺ اللاتى صرن لهم كالأمهات، فشفقة المؤمنين على أزواجه ينبغى أن تكون كشفقة الأبناء بأمهاتهم، ويتوجب عليهم أن ينزلوهن منزلة الأمهات، وهى أمومة أخرى خلاف الأمومة الرحمية أو الرضاعية،أو أمومة التبنى، ولكنها أمومة دين، كقوله تعالى فى المؤمنين وعلاقاتهم ببعضهم البعض **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾﴾** (الحجرات).

وقيل فى قوله تعالى **﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾**، يعنى للرجال، فهل هن أمهات الرجال فقط دون النساء؟ أم أنهن أمهات للجميع ؟ وقيل: لمّا نادت امرأةٌ عائشة أم المؤمنين وقالت لها: يا أمّه، قالت عائشة: لستُ لك بأم، إنما أنا أُمّ رجالكم». والصحيح أن الآية عامة، وكذلك حُكمها، واختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء لا يفيد الرجال ولا أمهات المؤمنين، والأكثر معقولية أنهن أمهات الجميع، فإذا كن أمهات للرجال فَلِمَ لايكنّ أمهات للنساء أيضاً ؟ وهل يمكن أن تكون عائشة أماً لرجل ويناديها يا أمّه، ولاتكون أمّاً لشقيقة هذا الرجل ويُحرَّم عليها أن تناديها : يا أمّه؟ وأمومتهن إذن للجميع : شيوخاً وولداناً، رجالاً ونساءً، وهو التعظيم لحقهن على الجميع، وتدل عليه الآية: **﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴿٦﴾﴾** (الأحزاب)، فولاية النبىّ على الجميع، ومثلها أمومة أزواجه للجميع، وقرأ ذلك أبيّ بن كعب فقال : **وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم**» وهو تفسير ظنه البعض ضمن المتن، ونسبوا لأبىّ بن كعب مصحفاً به هذه العبارة كآية!! وكذلك قرأ ابن

عباس الآية : النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه أمهاتهم»، فظنوه يتلو قرآناً، وأن هذه القراءة من مصحف خاص به، وهي روايات تصلح كتفاسير ولكنها ليست قرآناً. والدليل أن البعض لم يكن يرى أن يسمَّى النبيّ ﷺ أباً لقوله تعالى: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾** (الأحزاب)، ولكنه «مثل الأب» كما في الحديث : «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد...» أخرجه أبو داود؛ وفي الآية نفيٌ أن يكون محمد أباً لرجال المؤمنين بالنسب، وفي الحديث هو أب لهم في الدين، كقول لوط في الآية : **﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي (٧٨)﴾** (هود) لم يقصد بناته على الحقيقة، وإنما بناته جوازاً يعني المؤمنات، يدعو الناس الذين اجتمعوا عليه وعلى الملائكة ضيوفه، أن يتزوجوا من بعضهم البعض، يعني من البنات المؤمنات، بدلاً من ممارسة اللواط، فاعتبر المؤمنات بنات له. وأيضاً فإن البعض كان يقول عن معاوية إنه خال المؤمنين، باعتباره أخاً لأم حبيبة زوجة الرسول ﷺ، يقصدون بذلك أنه خالٌ لهم في الدين لا في النسب. وبالمثل في أمهات المؤمنين، فهن أمهات في الدين.

●●●

٢٥٧. ﴿ما معنى المشيئة مع زوجاته﴾

نزلت الآية: **﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾** (الأحزاب) في تعامل الرسول ﷺ مع زوجاته، وكان يقسم بينهن بالعدل، لكل واحدة منهن يومٌ وليلة، أو ليلةٌ دون النهار، ولا يسقط هذا الحق لهن في مرض أيّ منهن، ولا في مرضه، وكان يعدل في المقام عندهن في أي من أحواله، ولا يجور على حق واحدة بدعوى أنها أَمَة أو كتابية، وما كان يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن، وإذا دخل عند إحداهن في يوم الأخريات وليلتها، ذهب يساوي بينهن ويزورهن جميعاً. وكان يعدل في النفقة والكسوة. وفي مرضه الذي توفى فيه كان يُطاف به محمولاً على بيوت أزواجه إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت عائشة، لأنها الأقدر على تمريضه لصغر سنها، ولأنه لم يعد يستطيع أن يُحمَل كل يوم إلى بيت من البيوت مع كل هذا الألم الذي يتألمه والأوجاع التي كانت تأتيه، حتى كان يقول : «أين أنا اليوم ؟ أين أنا غداً ؟ استبطاءً ليوم عائشة. وكان هذا العدل كأنما هو مفروض عليه وليس نابعاً من ذاته، وكأنما لم تكن له المشيئة فيه. والتربية الإسلامية تتوجه إلى الضمير أولاً، وليس الخير ولا الحق ولا العدل بالقيم المفروضة دائماً، ولكنها مع الأخذ بالخُلق المسلم تكون من مقوّمات الشخصية

الإسلامية، وتنبّه الآية إلى ذلك، وتجعل من حالة الرسول ﷺ قدوة للمسلمين. ولم يكن زواجه ﷺ من زوجاته إلا لأسباب اجتماعية وسياسية شرحناها فى مكانها، فلا أقل من أن ينبّه الله زوجاته ﷺ إلى أن ما يفرضه الرسول ﷺ على نفسه من الالتزامات والأدبيات إنما مرجعها إليه ولم يفرضها الله عليه. ومعنى ترجى فى الآية أى تؤخر، وتئوى أى تضم إليك، وممن ابتغيت ممن عزلت، أى ممن طلبت من زوجاتك بعد أن عزلتهن عن القسمة، فلك المشيئة أن ترفع عنهن العزلة وتقسم لهن كأخواتهن. وتنفى الآية أن المشيئة تعنى الجناح أو الميل، وتؤكد على العدل الذى توخّاه مع زوجاته دائماً، فالعدل جزء من شخصيته، ومن العدل أن يُحَطن علماً بأن عدله فيهن مرجعه لمشيئته، أى ضميره الخالص وخُلقه، ولم يُفرَض عليه، وبذلك يصير العدل مع الزوجات هو بالتبعية من الخُلق الذى يتميّز به الإسلام على الديانتين الكتابيتين الأخريين. وفى اليهودية لا يندب الرجل للعدل مع زوجاته حيث تعدد الزوجات معمولٌ به، ومن ثم يكون من الأفضل أن لا يستكثر الرجل من النساء لئلا يزيغ قلبه (تثنية الاشتراع ١٧ / ١٨)، وفى المسيحية لا طلاق للمرأة مهما اشتكت (بولس الثانية ٧/ ١١)، ويخضع النساء للرجال خضوعاً كاملاً (بولس الخامسة ٦/ ٢٣ ، والسادسة٣ / ١٩). وفى الإسلام النموذج فى المعاملة الزوجية هو الرسول ﷺ مع زوجاته ، وهذه الآية إنما نزلت لتقرّ بها أعينهن، وللتأكيد على أن العدل لم يُفرَض عليه ولكنه مشيئته ﷺ ، فإذا كان يعدل بينهن فلأنه عادل بطبعه وبخُلقه المسلم، ولأنه يدعو إلى العدل كركن من أركان الإسلام الاجتماعى. فإذا علمت زوجاته أن الله تعالى قد فوّض الأمر إليه فى أحوال أزواجه رضين، لأنهن لو علمن أن لهن الحق فى هذا العدل لم يقنعن بما أوتين، وتشتد غيرتهن عليه، ويجد المشقة فى أن يعدل بينهن، وأما المسألة قد تركها الله له، فذلك أدعى إلى أن يقبلن بما يسمح لهن ولا تتعلق قلوبهن بما هو أكثر منه. ومن ناحية أخرى فإنه ﷺ إذ يعلم أن المسألة صارت موكولة إليه فقد شدّد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن، تطييباً لقلوبهن، ولذلك قال فيما أخرجه النسائى : «اللهم هذه قدرتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك». وما يملكه ﷺ هو أن يحاول العدل، وما يملكه الله تعالى هو قلبه ﷺ ، أى الحب والبغض، والشعور الوجدانى بأنه مع هذه يستريح نفسياً، ومع تلك لا يحسّ راحة نفسية، وإلى ذلك أشارت الآية : ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴿١٢٩﴾﴾ (النساء)، والآية : ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الأحزاب) وفيها تذكير على علم الله من الميل إلى البعض من النساء دون البعض، وهو سبحانه العالم بكل شيء، كقوله : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا**

فِي السَّمَاءِ ⑤﴾ (آل عمران)، وقوله: **﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦﴾** (طه) غير أن من الميل ما لا يُكره ولا يستهجن، ومنه المنفّر، وميل رسول الله ﷺ وإن كان هناك ميلٌ إلى عائشة أو غيرها كما يدّعى البعض، فهو من النوع الأول، وأما الثاني فهو الذى يصفه رسول الله ﷺ بقوله فيما يرويه أبو داود عن أبى هريرة : «**من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل**». والدليل على أن الرسول ﷺ كان عادلاً كل العدل مع زوجاته ولم يكن يميل فى القسمة لهن، قوله تعالى: **﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾**، أى أن عمله معهن كان فيه الرضا لجميع الزوجات بلا استثناء، طالما أن محبة هذه أو تلك لا تمنع أن يعدل بينهن. **فالمحبة شيء من الله، وأما العدل فهو من البشر**. وقد سئل الرسول ﷺ عمّن يحب من النساء فقال : **عائشة**. وليس صحيحاً أن عائشة عندما سمعت آية **الإرجاء والإسواء هذه** قالت كما أتى فى الصحيحين: **والله ما أرى ربّك إلا يسارع فى هواك»** ! فعائشة تعرف حدودها معه ﷺ ، وكانت معلّمة، ومؤدّبة، وداعية، فكيف تقول ذلك وهى تعلم أن الله قال فيه ﷺ : **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③﴾** (النجم)؟ وكانت أعرف الناس بذلك، **والحديث على ذلك موضوع، وهو من الأحاديث التى تعجب المستشرقين كثيراً**، وبه ينال الشيعة من عائشة وينقدونها بشدة.

والخلاصة: أن الآية تفيد أن النبىّ ﷺ : كان مخيّراً فى أزواجه، إن شاء أن يقسم قسم، وإن شاء أن يترك القسم ترك، فالأمر موكولٌ إليه، **إلا أنه كان يقسم مع ذلك من قبَل نفسه دون** أن يُفرض عليه ذلك، تطييباً لنفوس زوجاته، وصوناً لهن عن أقوال الغيّرة. وليس صحيحاً ما يقوله رواة الإسرائيليات : أن القسم كان واجباً على النبىّ ﷺ ثم نُسخ الوجوب عنه بهذه الآية فذلك لم يثبت ؟! **ومن الكذب البيّن أن يقال : أنه** ﷺ **همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له: أقسم لنا ما شئت** ؟! وافتروا عليه ﷺ : **أنه آوى عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب**، فكان يقسم لهن من نفسه وماله سواء بينهن، **وأنه أرجى** سودة، وجويرية، **وأم حبيبة، وميمونة، وصفية**، فكان يقسم لهن ما شاء ؟! وكذلك ليس **صحيحاً أن المرجئات هن اللاتى وهبن أنفسهن له، فتزوج منهن، وترك منهن، وما علمنا أنه** ﷺ **أرجأ أحداً من أزواجه، بل آواهن كلهن، ولا أنه تزوج من امرأة وهبت نفسها له حتى يقال فيه ما** قيل.



٢٥٨.﴿هل كان بوسعه أن يعدل بين زوجاته وهن كثيرات ؟﴾

فى الكتب فى التاريخ والسِّيَر أن الرسول ﷺ توفى عن تسع زوجات، واثنتين من

السرارى، بينما الله تعالى يقول: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ** ③ ﴾ (النساء) فحصَر الزواج فى أربع نسوة، ويقول: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ③ ﴾ (النساء)، ويقول: ﴿ **وذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا** ③ ﴾ (النساء)، ويقول: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ⑫⑨ ﴾ (النساء)، فنفى أن يكون العدل فى استطاعة من يتزوج بأكثر من واحدة. ومعنى ﴿**أَلَّا تَعُولُوا**﴾ ألا تجوروا، فمن يخاف أن لايعدل بين النساء فليقتصر على واحدة، وقيل: استثنى الله تعالى النبىّ ﷺ من قصر التعداد على أربع، فقال ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** ⑤⓪ ﴾ (الأحزاب) فكان الجمع بين التسع بالإضافة إلى السرارى رخصةً له. ونزلت الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ②⑧ **وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ②⑨ ﴾ (الأحزاب) فخيّرهن بين أن يفارقنه فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله الثواب الجزيل، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فنزلت الآية: ﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا** ⑤② ﴾ (الأحزاب) مجازاةً لهن على حسن صنيعهن فى الاختيار، فقصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، وقيل: فلما حصلت لهن الطمأنينة والسكينة بعد هذه الآية أنزل الله: ﴿**تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا** ⑤① ﴾ (الأحزاب)، يعنى أنه كان **يقسم لهن عدلاً**، فلم يعد القسم واجباً عليه، وصار له أن يقدّم يوم هذه أو تلك بلا تثريب، فيؤثر من يشاء منهن، ويؤجل من يشاء، ويؤخر من يشاء، ويقسم لمن يشاء، ويترك من يشاء، ولكنه مع ذلك لم يفعل، فإن اضطر يوماً أن يغيّر يوم إحداهن، كان يستأذنها بعد نزول هذه الآية، والنتيجة أنهن وقد علمن أن الحرج قد وضع عنه، وأن القسم لهن مستمر مع ذلك، عن اختيار منه لهن، إيثاراً وحباً فيهن، وعدلاً منه لهن، وتَقْوَى لله فيهن، قد أثلج ذلك صدورهن، وأرضاهن، وأفرحهن، لإنصافه وعدله فيهن. وقيل: أنه مع حرصه على العدل فإنه كان يميل إلى بعضهن دون البعض، وليس بوسعه دفع هذا الميل عنه تماماً، ولذلك كان يقول اعتذاراً: «**اللّهم هذا فعْلى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك**» أخرجه أصحاب السنن، يعنى بقوله: «**فيما تملك ولا أملك**» قلبه ﷺ، أى **أن عدله بينهن كان بقدر استطاعته**، وماكان

يستطيع إلا العدل ، فعند ابن ماجه عن عائشة قالت : «كان رسول الله ﷺ يقسم لكل امرأة من نسائه يومها وليلتها»، يعنى كان لايضيمهن. وعن أبى داود عن عائشة قالت : «قلّ يوم لا يطوف على نسائه جميعاً، فإذا جاء إلى النبى هى يومها بات عندها». أو قالت: «ثبت عندها». ـ وعن عائشة أيضاً قالت: «كان رسول الله ﷺ لا يفضّل بعضنا على بعض فى القسم»، وقالت : «كان خُلق رسول الله ﷺ فى أهله أحسن الخلق: لم يكن فاحشاً، ولا متفحّشاً، ولاصخّاباً، ولا يجزى السيئة مثلها، ولكن يعفو ويصلح» رواه أحمد. وقالت : «كان رسول الله ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه» رواه أبو داود، والقرعة دليلٌ أنه لا انحياز ولامحاباة معهن.

●●●

٢٥٩. ﴿لماذا حُرِّم الزواج من نسائه ﷺ بعد وفاته ؟﴾
﴿وهل بقين أزواجه أم زالت الزوجية بالموت ؟﴾

كثر كلام المستشرقين فى الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب)، واعتمدوا فى هجومهم بها على النبىّ ﷺ ، على الإسرائيليات المنتشرة فى كتب التفسير الإسلامية التى نقلها المفسرون عن الرواة من المنافقين بلا تمحيص ولا مناقشة، من أمثال قتادة والسدى ومقاتل وغيرهم، قالوا: إن رجلاً قال: لو قُبض رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة، فأنزل الله تعالى الآية، ونزلت كذلك : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴿٦﴾﴾ (الأحزاب)، وطالما هن أمهات المؤمنين، فالزواج منهن محرّم بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴿٢٣﴾﴾ (النساء). وقيل: إن الذى أشاع هذه الفرية هو مقاتل بن سليمان ونسبها لابن عباس، مع أن ابن عباس كان وقتها ما يزال صبياً فلم يشهدها بنفسه، ولم يقل لنا مصدرها، وربما لم يقل ابن عباس هذا الكلام أصلاً ونُحل عليه، وربما قاله فلم يكن يحب طلحة لخلافه مع علىّ، غير أن مقاتل بن سليمان كان معروفاً بالإسرائيليات، وهو الذى جزم بأن قائل هذه العبارة هو طلحة بن عبيد الله، ونسب إلى ابن عباس قوله: إن طلحة ندم على ما حدّث به نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه، وحمل على عشرة أفراس فى سبيل الله (يعنى جاهَد)، واعتق رقيقاً، فكفّر الله عنه. ـ يريد مقاتل بهذا الكلام أن يثبت التهمة على ابن عباس وعلى طلحة. وفى رواية قيل: إن ابن عباس قال: إن الآية نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : «لو مات رسول الله لتزوجتُ عائشة»، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فتأذّى به. ـ فجعلت الرواية ابن عباس يكنّى عمّن قيل إنه قال ذلك، ببعض الصحابة. ولم نسمع فى أى من هذه الروايات أن

هذا الصحـابى هو **طلحـة**. وقيل: إنه واحـد من السادات ومن **العـشرة** ـ يعنى المبشّرين بالجنة»، وبذلك تصادر البـشارة على الإشاعة، وتـؤكد على نقدنا لهذه التـهمة **بأنها غـير معقولة** في حق هذا الصـحابى الجليل الذى أطلق عليه النبىّ ﷺ اسم **الفـيّاض** ـ يعـنى يفيض كرماً، وقال فيه : «**من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشى على ظهر الأرض وقد قضى نحبه، فلينظر إلى طلحة**». وقد زاد طلحة عن رسول الله ﷺ **يوم أحد**، ووقاه بيده حتى أصابته السيوف، ثم احتمله بعيداً، فكان رسـول الله ﷺ كلما التقى به يحييه ويقول : «**أهـلاً بسلفى فى الدنيـا وسلفى فى الآخـرة**». وكان طلحـة سلفه فـعلاً. وفى الحـديث قال : «**احفظونى فى أصـحابى**»، وقـال : «**عليكم بأصحابى**». فأن يقول طلحـة هذه المقالة أمرٌ مستبعد. فإذا كانت هذه الفرية قد قيلت فلربما افتراها أحد المنافقين، وفى رواية أخرى عن ابن عباس : أن الرجـل الذى قال ذلك كان **ابن عم لعـائشة**، وأنه كلّمهـا، فكره الرسول ذلك، فقـال الرجل: يمنعنى من كـلام ابنة عمى؟! لأتزوجـها من بعـده!! فنزلت الآية. وعند ابن أبى حاتم قال : نزلت الآية فى **طلحة** بن عبيد الله، قال: **أيحجبنا محمد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا ؟! لئن حَدَث به حَدَثٌ لنتزوّجن نساءه بعده**»، فأنزل الله هذه الآية. وفى رواية أن أحدهم قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعـد أبى سلمة، وحفصة بعد خنس بن حذافـة، ما بال محمـد يميت رجالنا فيـتزوج نسـاءنا ؟ والله لو قـد مات لأجَلْنا السهـام (يعنى تقـارعنا) على نسائه ! (يعنى لنـتزوجهن مـقارعـةً بيننا بعد وفـاته). وفى الآية: ﴿**إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾، يعنى خطيراً، وليس ذلك فقط فهو أيضاً دليل على حقارة وتدنّى نفسيـة القائل، وعدوانيته تجاه الرسول ﷺ، ورغبـته الدفينة فى الانتقام، فكيف يكون مـسلماً، وهذه هى مشاعره المكبوتة تجاه نبيّه ؟ **فلا شك أنه من المنافـقين، وليس هو بكل تأكيد طلحة الذى افتدى الرسول ﷺ** بنفسه.

والآية تحرّم نكـاح زوجاته من بعده، وفى الآيـة الأخرى جعل الله تعـالى لهن حكم الأمهات، تمييزاً للرسـول ﷺ، لشرفه، وتنبيهاً على مرتبتـه، وهو أمر شائع عرفناه عن زوجات أنبيـاء بنى إسرائيل، وأزواج رسول الله ﷺ هن أزواجه فى الجنـة كما كن فى الأرض، ولذلك فزواجهن بآخرين محـرّم، والمرأة فى الجنة لآخر أزواجها. ومن يمكن أن يتزوجهن ليكون موضع مقارنة مع رسول الله ﷺ ؟

والسؤال الذى يثيره المستشـرقون ، وكذلك الكثير من المسلمين : **هل بقـيت أزواجـه ﷺ بعد الموت أزواجاً له ؟ أم أن الموت فـصم الزوجية ؟ وإذا كانت الزوجيـة قد انتهت بالموت فهل على زوجاته عدّة أم لا ؟**

والجواب كما نفهم من مضمون الآية : أن الموت لا ينهى الزوجية بالنسبة للرسول ﷺ ، وأن الزوجية تنتهى فقط فى حالته إذا تزوجت أىٌّ من نسائه بعد وفاته. وزوجاته ﷺ كما جاء على لسان سودة : **أريد أن أُبعث يوم القيامة زوجةً لرسول الله ﷺ** . ولمّا خيّرهن بين أن يسرحهن إيثاراً منهن للدنيا، أو يبقيهن مع ضيق عيشه، تفضيلاً منهن لله ورسوله والدار الآخرة، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ووعدهن الله الأجر العظيم، **فهن إذن على موعد معه ﷺ فى الدار الآخرة، ولم تنقطع الزوجية بموته**. فما زالت مستمرة فى الدنيا، وستستمر كذلك فى الآخرة. وأمّا عن عدّتهن، فإنهن بموته عليهن العدّة، لأن العدّة فى حالتهن عبادة وليست مدة تربص انتظاراً لإباحة الزواج. وقد أبقى الرسول ﷺ لهن النفقة والسكن طالما هن أحياء، لأنهن لا يزلن فى عصمته، وقال : «**ما تركتُ بعد ، نفقة عيالى**»، يعنى هو **نفقةٌ لزوجاته**، وكنّى عنهن بلفظة عيالى، ورُوى **أهلى**، وهذان اسمان للزوجية ، وهن إذن نساؤه أو أزواجه، ومن ثم كنّ محرّمات على غيره، وذلك معنى **أن النكاح أو الزواج بهن مازال قائماً فى حقّه وحقّهن، والموت بالنسبة له بمنزلة مغيب الزوج عن زوجاته، وهذا يقين فى حق النبىّ ﷺ ، وزوجاته بخلاف الناس جميعاً، فنحن لا نعلم إن كنا سنكون أو لا نكون مع زوجاتنا فى الآخرة، فربما يكون أحد الزوجين فى الجنة والآخر فى النار، فالسبب فى حقّ الخَلْق منقطع، ولكنه فى حقّ النبىّ ﷺ وزوجاته باقٍ**، وهو القائل : **زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة**»، وقال : «**كل سبب ونسب ينقطع إلّا سببى ونسبى، فإنه باقٍ إلى يوم القيامة**». وتأتى الآية ﴿**إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** (٥٤)﴾ (الأحزاب) بعد الآية السابقة لتحسم المسألة فيمن قال ذلك، سواء قاله علنا، أو أسرّه فى نفسه فلم يعرف به أحدٌ سواه، أو أنه لم يكن هناك أصلاً قائل افترى ذلك، وإنما هو التشريع القرآنى يأتى تباعاً عن زوجات النبىّ، كأحكام وآداب تنتظم بها حياة الناس وعلاقاتهم بنبيّهم وزوجاته، فشدّد الله على من يمكن أن يقول ذلك، وأما من يخفيه فى نفسه ويضمره لوقته، فالآية الأخيرة تنبّه إلى أن الله يعلم ما فى الضمائر، وما تنطوى عليه السرائر، وهو العليم بكل شىء: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** (١٩)﴾(غافر).

●●●

٢٦٠.﴿آية تحريم الزواج على النبىّ ﷺ ،﴾

﴿لو أن أزواجه توفين، أما كان له أن يتزوج ؟﴾

آية التحريم هى : ﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ**

حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا (٥٢)﴾ (الأحزاب)، نزلت مكافأة لزوجات الرسول ﷺ بعد آية التخيير التى تقول : ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا (٢٨) وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما (٢٩)**﴾ (الأحزاب) ، فكن جميعاً، محسنات واخترن الله ورسوله والدار الآخرة لمّا خيّرهن، فكان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن. وليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض أن حديث عائشة عند أحمد والترمذي والنسائى : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء»، أو حديث أم سلمة عند ابن أبى حاتم :لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله تعالى : ﴿**ترجي من تشاء منهن**﴾ (الأحزاب)، فقد جعلت أم سلمة هذه الآية، أى آية الإرجاء، ناسخة للتى بعدها، أى آية التحريم، وم٢٢٦,٢٤ ل ذلك غلط، ويغلط أكثر من يعترض بالآية : ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠)**﴾ (البقرة)، بدعوى أنها ناسخة للآية قبلها التى تقول: ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣)**﴾ (البقرة)، فليس صحيحاً أن العدّة فى الآية الأولى سنّة، وتنسخها العدة فى الآية الثانية أربعة أشهر وعشر، لأن الكلام فى الأولى ليس على العدة وإنما على السكنى، ويوصى الزوج فيها أن تستمر أرملته فى بيته بعد وفاته حولاً كاملاً ، وفى الآية الثانية العدة أربعة أشهر وعشر، فإذا انقضت أو وضعت حملها، فلها أن تختار الخروج والانتقال من بيت الزوجية إلى بيت أهلها ولا تُمنع من ذلك، فموضوع الآيتين مختلف إذن، ولا يُستشهد بآية سابقة على بطلان آية لاحقة، وآية الإرجاء قبل آية التحريم فكيف تنسخها ؟ والقرآن كالجملة الواحدة، فهكذا نزل إلى السماء الدنيا فى شهر رمضان، فمحال أن تنسخ آية الإرجاء الآية التى بعدها وهى التحريم.

والتحريم المقصود فى الآية شامل، فليس صحيحاً أنه على اليهوديات والنصرانيات دون المسلمات ، لأنه تأويل ليس فى الآية من يجيزه على الإطلاق. ومعنى ﴿**ولا أن تبدل بهن**﴾ يعنى لا تطلّق زوجة لتستبدل بها زوجة أخرى، وليس صحيحاً تفسير البعض أن التبديل هو أن ينزل عن زوجته لآخر، لينزل له الآخر عن زوجته، فهذا لم يُعرف عن العرب، وما كان البدل فى الجاهلية بهذا المعنى، وافترى من شنّع على النبىّ ﷺ ، أن

عيينة بن حصن الفزاري دخل عليه ﷺ وعنده عائشة، فسأله عنها، وقال له : «هذه عائشة أم المؤمنين»؟ قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟! قالوا : يعني يتبادلون الزوجات، فقال له الرسول ﷺ :«يا عيينة ! إن الله حرم ذلك»، فما كان عَرْض عيينة تبديلاً، وما كان ذلك ما يريده على الحقيقة، وإنما أراد أن يحقّر من عائشة، لأنها لم تكن إلا صبية ! ـ فالتفسير إذن بالبدل غالط، والقول هو ما ذكرنا: أنه قد حُرِّم عليه أن يطلق إحداهن ليُحلّ أخرى محلها، فمنذ اخترنه لا يحلّ له أن يطلّق أياً منهن، وهو ما حدث على الحقيقة، فهو لم يتزوج ولم يطلّق. وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يعني مهما كان حسنهن، فليس الحُسن مبرراً لأن يطلق واحدة ويتزوج الجميلة، فمن أصول الشريعة كراهة مطالعة النساء حتى ولو كان للزواج، والمطالعة هي إدامة النظر.

ونعود إلى السؤال : فلو أن أزواجه ﷺ توفين، أفما كان له أن يتزوج ؟ والجواب : لا، لأنه في جميع الأحوال تحكمه الآية: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾.

●●●

٢٦١. ﴿إذا كان نساؤه ﷺ قد فرض عليهن الحجاب فكيف يكلمهن آباؤهن أو إخوانهن ؟ هل يكون ذلك من وراء حجاب أيضاً؟﴾

لمّا نزلت آية الحجاب في حقّ زوجاته ﷺ تقول : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ (٥٣)﴾ (الأحزاب)، سأل الآباء والأبناء والأقارب رسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نكلمهن ـ أي زوجاته ـ من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾ (الأحزاب)، فبيّنت أن هؤلاء الأقارب لايجب الاحتجاب منهم، كقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾ (النور)، والآيتان الأولى والثانية تتكاملان، والثانية فيها زيادة عن الأولى، وبلغ عدد المحارم في الآيتين ثلاثة عشر، وهؤلاء يجوز للمرأة أن تظهر عليهم بزينتها من غير تبرّج، في الآية الأولى منهم سبعة، وفي الثانية ستة علاوة على ما في الأولى، ومن ثم كانت الآية الأولى بعض الآية الثانية، ولا تعارض

البتـة بين الآيتين. ومعنى: ﴿**وَلَا نِسَائِهِنَّ**﴾ فى الآية الأولى: عدم الاحتـجاب من النساء المؤمـنات. و﴿**مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**﴾ هن الخادمـات الإناث؛ و﴿**وَاتَّقِينَ اللَّهَ**﴾ أى فى الخـلوة والعلانية، لأنه الشهيد لا تخفى عليه خافية. وفى الآية الثانية: ﴿**أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ**﴾ كالأُجراء والشغّالين، فهؤلاء لا همّة لهم إلى نساء أسيادهم ولا يشتهونهن؛ ﴿**أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ**﴾، لصغرهم فلا يفهـمون عن أحوال النساء شيئاً؛ فهؤلاء **الثلاثة عشر** هم محارم زوجات الرسول ﷺ مثلما عند سائر المؤمنات.

•••

٢٦٢. ﴿الحجاب خاصٌ بزوجات النبيّ ﷺ، والجلابيب بزوجاته وبناته وسائر المؤمنات﴾

تخـصّ آية الحـجـاب نساء النبيّ ﷺ، وتقـول للمؤمنين: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ**﴾ (٥٣) (الأحزاب)، ورووا فى أسبابها عدة آراء، فالأمر فيما دعا إليها ليس مؤكداً ولكنه على **الاستحسان**، فقال أنس بن مالك وجماعة: أن سببهـا قعود بعض الثقلاء فى بيت النبيّ ﷺ لما تزوج **زينب بنت جحش**، وكان النبيّ ﷺ قد دعا الناس، فلما طعموا جلس بعضهم يتسامرون، بينما ولّت زينب وجههـا إلى الحائط، فثقلوا على النـبيّ ﷺ. ولمّا خرجوا أخيراً أخـبر أنس النبيّ ﷺ بخروجهم، وكـان أنس فى خدمته، فانطلق النبيّ حـتى دخل البيت، وذهب أنس يدخل معه، فحـجزه النبيّ ﷺ، وألقى الستر بينهما، ونزل الحجـاب. وعند الثعلبى من أقوال **عائشة**: أن سبب آية الحجاب أن **عمر بن الخطاب**، قال لرسول الله ﷺ: **إن نساءك يدخل عليهن البِّر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن**؟ فنزلت الآية. وفى الصـحـيح عن ابن عمر: أن **عمـر** وافق ربّه فى **ثلاث** (يعني أنه طلب ذلك ولبّت السماء طلبه): فى مقام إبراهيم، وفى **الحجاب**، وفى أسارى بدر. ويروى ابن مسعود رواية مختلفة، فيقول: إن عمر أمر نساء النبيّ ﷺ بالحجاب، فقالت **زينب** له: يا ابن الخطاب! إنك تغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا! ـ يقول: فأنزل الله آية الحجاب!

ومن الروايات أيضـاً: أن الرسول ﷺ كان يطعم ومـعه بعض أصـحابه ومـعهم عائشة يأكلون، فـأصابت يد رجل منهم يد **عائـشة**، فكره النبيّ ﷺ ذلـك، فنزلت آية الحجاب.

وهذه الروايات كما ترى واهية، كالقـول بأن عمر هو الذى أمر نساء النبيّ ﷺ أن يحتجبن، أو القول بأنه أمرهن بالحجاب وجادلته **زينب** فى ذلك، (وهذا يعنى أن الحجاب نزل بعد عرس زينب)، أو القول بأن **عائشة** وهي تأكل لامست يد رجل، وقيل هو عمر نفسه. وأمثال هذه الروايات ضعيفة.

والمؤكد أن: الآية نزلت فى صبيحة عرس رسول الله من زينب، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة من الهجرة. ويقول أنس : إن رسول الله ﷺ دخل حجرته فمكث يسيراً، وأنزل الله عليه القرآن، فخرج يتلو هذه الآية وآيات أخرى.

وتشرح الآية نفسها فى السياق العام لما قبلها ولما بعدها، وما قبلها كان قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾، فنهاهم النبىّ ﷺ عن الدخول إلا لهذا السبب، فإذا انتهوا فليستأذنوا، فإن بقاءهم لأكثر من ذلك كان يشق عليه ويتأذى به، وكان يكره أن ينهاهم من شدة حيائه، فلهذا نزل النهى. **وكما نهاهم عن الدخول على نسائه، نهاهم عن النظر إليهن، فإن استوجب الأمر الحديث معهن لحاجة، فليكن هذا الحديث دون التنظّر، وليكن ذلك من وراء حجاب.** ويذكر القرآن السبب فى الحجاب: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، فأمرهم بحفظ الأدب فى الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام، فإذا أُذن لهم فليدخلوا على وجه الأدب، وحفظ أحكام الحضرة، فإذا طعموا فلينتشروا فإن حُسن خلقه كان يجرّهم إلى المباسطة والتنظُّر إلى نسائه، ولذلك نزلت آية الحجاب؛ **والحجاب**: هو الستر، وهو أطهر للطرفين، فالنفس أمّارة بالسوء، ولهذا كان التشديد منه ﷺ، بألاّ يخلو رجل بأمرأة ليس بينهما محرمة.

وما نريد أن ننبّه إليه هو: أن **الحجاب** هنا لا يعنى الخمار يغطى الرأس كما هو شائع عند العامة، وليس هو النقاب، ولكنه «الستر» يتكلّمن من خلفه. ثم إنه خاص بزوجات النبىّ ﷺ، وأما ما يخصّهن ويخصّ زوجات المؤمنين وبناتهم فهو آية الجلابيب التى تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب)، والخطاب لكل هؤلاء، فهو عام ولايخص فئة بعينها، والجلباب: هو الرداء فوق الخمار، يكون بمنزلة الإزار اليوم؛ وزيادة التكاليف بالحجاب على نساء النبىّ ﷺ، إنما لزيادة المكانة والشرف من الدعوة، فكلما زادت المكانة كلما زادت التكاليف، **فخصّ جميع النساء بآية الجلابيب، وخصّ نساء النبىّ ﷺ بآية الحجاب**، ولكل منهما أسبابه المطروحة فى الآية نفسها، وهو ما نسميه بأسباب النزول. ولايدخل فى آية الحجاب جميع النساء بالمعنى كما قيل، فذلك تحميل للآية فوق ما تحتمل، وإنما **جميع النساء تخصّهن آية الجلابيب**، ولقد توفى نساء النبىّ ﷺ اللاتى كانت الآية تشملهن، وأما **نساء المؤمنين فهن باقيات ما بقيت الدنيا**، وسبب نزول آية

الجلابيب كما جاء هو أن يُعرف أنهن من المسلمات المؤمنات، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.



٢٦٣.﴿لماذا مضاعفة العذاب أو الأجر لنساء النبىّ ﷺ دون سائر المؤمنات؟﴾

في الآيــة : **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾** التحذير من أن تأتي زوجـاته الفاحشة المبينة، مع أن ذلك يسـتحيل عليهن لمّا عصمـه الله وأهل بيته، ومع ذلك فالآية تذكر عقاب هذا الفـعل الشائن لبيان أن **بيت النبـوة ليـس كسـائـر بيـوت المؤمنين**، فنســاء النبىّ ﷺ لهن شـرف المنزلة، وفـضل الدرجة، وهو شيء عادى تُرفع إليه نساء أصحاب المراتب العليا، والمقامات السنية فى كافة الديانات والحضارات، وفي كل الأزمنة والأمصـار، وبيت الرسول ﷺ كسواه من بيوت الرسل والأنبياء. والآية تـنبّه إلى تقدُّم نساء النبىّ ﷺ على سـائر النسـاء، وفي الإسلام فإنه كلما تضاعفت الحُرمات فَهُـتكت، تضاعفت العقوبات، ولذلك ضوعف حدّ الحر عل العبد، والثيّب على البكر. ولمّا كان أزواج النبىّ ﷺ في مهبط الوحى، وفى منزل أوامر الله ونواهيه، شُدِّد فى الأمـر عليهن، ولزمنهن ذلك أكثر مما يلزم غيـرهن، فضوعف لهن الأجر، وكذلك ضوعف العـذاب، فإذا أحسّن عظُم إحسانهن واستحـققن ضعف الأجر، وإذا أسَأْن عَظُم الضرر، لأنهن يـصرن سُبّة فى جبـين الإسلام، وفى شرف النبىّ ﷺ، **فكانت العقوبة على قَدْرِ عظَم الجريمة، وهو مبدأ قـانونى فى كل التشريعات الوضعية والسماوية على السواء**.ولو قُدِّر الزنا من واحدة من نسائه ﷺ ـ وقد أعاذهن الله من ذلك ـ لكانت تُحَدّ حدّين لعظيم قَدْرها، كما يزاد حدّ الحُرّة على الأمة. ومع ذلك فنساء النبىّ ﷺ لا يأتين بفاحشة تُوجب الحدّ، وما بَغَت امرأة نبىّ قط، وإنما كما قال ابن عباس : خانت فى الإيمان والطاعة . **والفاحشـة المبينة**: هى كل المعاصى. ومعنى الضـعفين هو المثلين، سواء فى العـذاب أو الأجر، **فعذاب أو أجر فى الدنيا**، وعذاب **أو أجـر فى الآخرة**، وهذا غـاية العدل، ومنتهى السموق فى التشريع، **فهل هناك تشريع وضعى أو سماوى فى الديانات أو القوانين كهذا التشريع العادل غاية الـعدل ؟ وإن لم يكن ذلك قمة الحضارة فهل يجوز أن يقال بعد ذلك، سـواء من المستشرقين أو من الســاسة من أهل الكتاب: أن **الإســلام دين همجى أو بربرى**، وأن شرائعه متخلّفة ؟!



٢٦٤. ﴿النبىّ ﷺ هل كان إذا جاءه الوحى يتشنج ؟ أو هل كان مريضاً بالهيستريا أو بالصرع ؟﴾

المشكلة فى هجوم المستشرقين على الإسلام، أنهم يستشهدون **بكُتب السُّنّة، وهذه تحفل بأخبار ومعلومات شائنة ليس منها شيء فى القرآن**، ومن ذلك ما كتبوه فى مسألة الوحى، فابن إسحق مثلاً المتوفى سنة ٧٦٩ م يتناولها باستخفاف كأنها خرافة، لا لشيء إلا لأنها من قصص الإسلام، ولو كانت قصة من قصص النصارى، كإحياء المسيح للموتى، وإشفائه للعميان، وقيامه من القبر بعد الموت، لصدقها وتناولها باحترام؛ ولو كانت من قصص اليهود، كأن تتحول العصي إلى حيّة، أو ينفلق البحر، أو ينصدع الجبل، لصدّقها وكتبها بلا استهزاء. وابن إسحق يحكي أن النبيّ ذهب إلى غار حراء فى شهر رمضان فى السنة التي بُعث فيها، ونسب إليه قوله: «**ذات ليلة كنت نائماً وأتانى جبريل بلوح عليه كتابة، وقال ﴿اقرأ﴾**، فقلت: «**ما أنا بقارئ**»، **فضمّنى حتى خشيت أن أهلك، ثم أرسلنى وقال: ﴿اقرأ﴾**، فقال النبى ﷺ: «**ما أنا بقارئ**» مرتين، فخفف الملك من شدّته معه، فسأله النبيّ ﷺ: «**وماذا أقرأ**» ؟ فأجابه الملك: ﴿**اقرأ باسْمِ ربِّكَ الَّذى خَلَقَ**﴾ يقول الرسول: «فاستيقظت وكأن شيئاً ما قد نُقش فى قلبى، فخرجت . ولما أصبحت فى قلب الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: «يامحمد ! أنت رسول الله، وأنا جبريل»، فرفعت بصرى نحو السماء لأراه، فإذا جبريل على شكل رجل يجلس عند الأفق ورجلاه القرفصاء، ويقول «أنت رسول الله وأنا جبريل». يقول النبيّ ﷺ: «فوقفت ورأيته، ولكن حيث تقدمت أو تأخرت أو قلّبت وجهى فى أى مكان فى السماء كنت أراه». والقصة كما يرويها ابن اسحق لم يقدّمها كما ينبغى، ومع ذلك فهى لاتتعارض مع القرآن، وتتوافق تأكيداً مع سورة العلق، تقول: **﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾**، ثم مع سورة النجم، فى قوله تعالى: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾**. والذى رآه النبيّ ﷺ فى السورتين هو جبريل، وهو الذى كان يُوحى إليه، ولكن هل كانت رؤيته للملَك حقيقية أم كانت **هلاوس بصريةوسمعية** ؟وفى وصف الصحابة وعائشة لما كان يتتابه

إذا جاءه الوحى، قال زيد بن ثابت: أنه **سقط مرة على صدره** ـ أى صدر زيد ـ **بشكل عنيف**، وقال : **كانت تصيبه حمى عنيفة حين ينزل عليه الوحى ويتصبب عرقاً، حبّاته مثل حبات اللؤلؤ**». وقال عكرمة : كانت **تصيبه نوبةٌ لبرهة كما لو كان ثملاً**» وقال عبادة بن الصامت : **كان يطأطئ رأسه حتى إذا ذهب الوحى رفع رأسه من جديد**». وقال ابن عباس: **كانت شفتاه تضطربان، وكذلك لسانه، وتضطرب حركاته**» وقال : **كان يكون في حالة ترقب ويحرّك شفتيه ويتمتم حتى لا ينسى، ولهذا أنزل الله عليه** : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ⁽١٦⁾﴾ (القيامة). وقال النبىّ ﷺ للحارث بن هشام عن كيفية استقباله للوحى: «**إن الوحى يأتى أحياناً مثل صلصلة الجرس، وكان يشق علىّ، ثم تنتهى الصلصلة ، وأعيد ما قاله لى جبريل. وأحياناً أخرى يأتينى المَلَك ويكلمنى وأفهم ما يقول**». وقالت عائشة : **كان جبينه يتصبّب عرقاً**». وجميع ذلك أوصاف لما يُسمى «**حالة الوحى**»، وهى حالة فريدة يقدمها الإسلام للدرات النفسية، وليست أعراضاً من **أعراض الفصام**، ولاهى **أعراض ذهانية**، ولا تُدرج ضمن **الحالات المرضية النفسية**. ومن أبرز المستشرقين تعريضاً بالنبىّ: **شبرنجر** ، وقد شخص حالته بأنها «**هستيريا عصبية**»: **ومن أعراضها النوبات التى تظهر على المريض فى شكل ترنّح، وتشنّج، وتضطرب شفتاه ولسانه كأنه يريد أن يلعق شيئاً، وتدور عيناه، ويتحرك رأسه عشوائياً، وقد يصلح أن يسيطر على الرعشة فى النوبات الخفيفة، وقد يعانى فى النوبات الحادة آلاماً فى الرأس، وقد يتخشّب جسمه ويسقط على الأرض كالثمل، ويحمر وجهه، ويثقل تنفُّسه، ويغط مثل البعير. إلا أنه فى حالة محمد ما كان يفقد الوعى**». ولقد شخّص البعض هذه الحالة بأنها صرعٌ، ومن قالوا إنها هيستريا ذكروا أنها كانت تأخذ شكل الحمّى، وهو المرض السائد فى المدينة فى زمنه، وقد يشحب وجهه، وتشمله قشعريرة، ويعرق مع نهاية الأزمة. ويقول شبرنجر: إن المصابين **بالهيستريا**، وخاصة من النساء، يستشعرون عقب النوبة **بالشبق الجنسى**، وكان ذلك ما يستشعره النبىّ بعدها !! **ولا أدرى ما مصدره العلمى إن كان له مصدر علمى، فلم يُعرَف فى مرضى الهيستريا مثل ذلك، بل على العكس فإنهم يصابون بالعجز الجنسى؟ ثم من أين تأتّى له العلم أن رسول الله ﷺ ، كان يأتيه بعد النوبة شبق جنسى**؟! مع أن الآيات فى سورتىّ المدثر والمزمل تثبت أنه بعدها يحتاج للنوم، ويصيبه الخوف، وليس هذا الشبق الجنسى الذى يقول به شبرنجر! والغريب أكثر من ذلك أنه ذهب إلى أن النبىّ كان **يستمنى بيده بعد هذه النوبات**!! وكان يداوم على **العادة السرية**، يريد أن يقول أن النبى ﷺ كان مصاباً **بالغُلْمة**. وقد رفض مستشرقون مثل **تور أندريا** تشخيص الحالة **بالصرع**، وانتقد هذا المنهج العلمى فى الكشف عن حالة محمد، واستنكر أن يُتّهم

بالصرع، وخطأ هذا التشخيص، لأنه فى الصرع لايكون المريض فى وعيه أثناء النوبات كما كان الحال مع النبىّ ﷺ. ومن الجلىّ أن تشخيص شبرنجر للحالة كان هو نفسه تشخيص اليهود لها زمن النبىّ ﷺ، وفى ذلك قال القرآن: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)**﴾ (النجم)، وقال: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥)**﴾ (التكوير) فنفى أن يكون ما رآه محمد هو من زيغ البصر الذى يُشاهَد عليه مرضى الصرع، أو أن يكون ذلك لأنه مجنون، أو لأنه مسحور، تُوحى إليه الشياطين، ونتساءل: فهل من المعقول أن مريضاً يعانى الصرع أو الجنون أو السحر يتكلم بمثل ما يتكلم به فى القرآن عن نفسه هكذا؟ وهل يمكنه أن يصف ما يحدث له أثناء النوبة بهذا الوضوح ؟

فليس هكذا يكون المصروع ولا مريض الهيستريا، وقد دفع ذلك مستشرقاً مثل بول فرانتس أن يرفض هذه الأحكام، وأن يصفها بأنها سطحية ومتعجّلة، ويؤكد أنه لا المصروع ولا الهيستيرى يمكن أن يدمن العادة السرية، ولا أن يتلو قرآناً بعد النوبة، أو يتكلم بالأحاديث النبوية، ولم يعرف عن محمد إلا الخُلق القويم، والشخصية المثالية! ولا مندوحة إذن أن نقر بأن هذه النوبات كانت نوبات وحى فعلاً وليست نوبات مرض، وأن نَحذر روايات المؤرخين من المسلمين، فلربما تكون لهم أغراض من رواياتهم المشينة كأغراض سلمان رشدى، وربما كانوا من المنافقين ولم يكن إسلامهم حقيقياً، ويبدو أن اتهام محمد بالصرع أو الهستيريا أو المرض النفسى عموماً قد انتهى أمره بعد الحرب العالمية الثانية. ولم يكن من المناسب أصلاً أن يغالى الصحابة فى وصف أحوال النبىّ ﷺ عند نزول الوحى، وقد ربطوا نزول جبريل ـ وهو حدث غير عادى ـ بظواهر غير عادية تأتيه ﷺ، مع أن الأمر كان عادياً وطبيعياً، فهل من غير الطبيعى أن ينضح العرق من جبينه فى اليوم البارد عندما تنتابه هذه الحالة الانفعالية المصاحبة لظهور الوحى ؟ وإنه لأمر طبيعى وعادى جداً أن يصحب انشغال النبىّ ﷺ بالوحى أن تضطرب للحدث جوانبه، وأن يأتيه مثل صلصلة الجرس فى أذنيه، وهى ظاهرة معروفة عند الأسوياء، وتأتى الكثيرين منهم فى حالات الاهتمام الشديد. ومن الاصطلاحات المعروفة عند المشتغلين بالطب النفسى ما يعرف باسم تاريخ الحالة، ولم يصلنا من أى من المؤرخين، أن محمداً قبل البعثة كانت تأتيه نوبات هستيريا أو نوبات صرع، وعلمياً فإن هذه النوبات إذا كان لها أن تظهر فموعدها منذ الطفولة، وتظهر جلية فى الشباب، وليس موعدها السنوات بعد الأربعين حينما واتته البعثة!! ولا يصلح الهستيرى ولا المصروع البتة لقيادة جماعة، ولا لإصدار الأحكام، ولعل أهم سمة للهستيرى أنه استهوائى من السهل التأثير عليه، وهو كثير الترديد للكلمات التى

ينتهى بها حديث الآخرين له، ويحاكى المتعاملين معه، وينكص أن تكون له مبادأة، أو أن يبدى امتعاضاً أو عدم رضا، أو أن يدخل فى نزاع أو جدال مع أىٍّ من كان، وكذلك المصاب بالصرع. والشخصيتان ـ الهيستيرية والصرعية ـ تبديان الكثير من الجبن، وعواطفهما متقلبة، ومزاجهما سريع التغيّر، ويتميزان بالأنانية المفرطة، ويتصرفان طلباً للحماية ممن حولهما. وكل ذلك بعيد عن شخصية النبىّ ﷺ، فلم يكن من السهل استغضابه، ولم يعرف عنه أنه يتابع أحداً، وهو ـ كنبىّ ـ صاحب رسالة وديانة، واشتهر برحابة صدره، وقوة فهمه، وسعة أفقه، ومحبة من يعاشره، ودماثة خلقه، حتى وصفه عالم الاجتماع الأشهر «ماكس فيبر» بأنه شخصية كاريزمية نموذجية، أى شخصية محبوبة ومطلوبة من الآخرين، فقد كان حدبه وعطفه على الناس شديدين، ونبّه إلى ذلك القرآن فجاء به: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفتح)، كما قال: ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة)، وهذه صفة الإنسان الكامل لا الإنسان المريض: أن يكون شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً فى وجه الكافر، بشوشاً فى وجه المؤمن، كما قال القرآن: ﴿ **وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴿١٢٣﴾ ﴾ (التوبة)، وكما قال النبىّ ﷺ نفسه: «مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»، وفى الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. فهل هذا سلوك أو كلام مريض بالهستيريا أو بالصرع؟! ولقد عهدنا فى هذين النوعين من الأمراض أن المصاب بأيهما يصاب كذلك بالعجز الجنسى، ولم يحدث أن كان هناك مريض يشكو أيا من المرضين ويستشعر الغُلمة، أو يأتى النساء على طريقة الغليم ـ وهو المفرط فى الجنس أيّما إفراط، فأيهما نصّدق: أنه غليم كما يقول شبرنجر، أم أنه هستيرى أو مصروع وإذن مصاب بالعنّة أو العجز الجنسى كما يقضى بذلك العلم؟ وكانت الحياة الجنسية للرسول ﷺ عادية وطبيعية، فلا هو الُمقلّ المقصّر، ولا هو الُمفرط الُمكثر، وإنما هو بيْن بيْن، ولم تشكُ منه أىٌّ من زوجاته فى هذه المسألة بالذات، ولم يَصُدق أبو سفيان عندما وصفه بأنه فحل، عندما نما إليه الخبر أنه تزوج ابنته أم حبيبة التى كانت مهاجرة إلى الحبشة، فكيف يكون فحلاً وهو لم ير أم حبيبة ولا عاشرها وكانت فى الحبشة وهو فى المدينة؟!! وكذلك لم يصدّق أنس بن مالك عندما قال عنه إن له فى الجنس قوة ثلاثين رجلاً!! والأول كان عدوه، والثانى كان شاباً لم يخبر الدنيا وظن أنه ينصف نبيّه لو ذكر عنه ذلك، إعمالاً لما نعرفه فى الطب النفسى باسم عبادة البطل، وأما عائشة فكانت تقول إنه لم يكن يستكثر منها، وقالت أم سلمة نفس الشىء، فأين هو الإفراط أو التفريط؟!!

وأيضاً فإن الهستيرى دائم الكذب والتهويل ويضخّم الأمور، ويميل إلى الدخول فى تفاصيل لا لزوم لها، ويزعم أنها من الذاكرة، ولا تسعفه ذاكرته، لأن الوعى فيها منصرف عن الواقع ومشغول بأمور أخرى، ولأن مخزون الذاكرة ليس فيه إلا التهيؤات والتهاويل والانطباعات الخاطئة والوقائع المشوّهة والمحرّفة، ولذلك يلجأ الهستيرى إلى التأليف وتلفيق الذكريات، فهل تصلح مثل هذه الشخصية لرواية القرآن ووعظ الناس وتذكيرهم بالحساب والآخرة؟!! وكذلك المصروع، فإن نوبات الصرع إذا أتته تمحو ذاكرته، وكلما زادت النوبة كلما كان تأثيرها الذهنى عليه شديداً حتى يبدو كأنه معتوه أو أبله، ويفقد التركيز، ويتشتت انتباهه، ويصاب بسوء التوجّه، وقد يؤذى نفسه أثناء النوبة، وقد يبول على نفسه، ولم يحدث أن ذكر أحد من أصحابه ﷺ شيئاً من ذلك عنه، لاقبل نزول الوحى ولابعده!

وأيضاً فقد انتهى علماء التحليل النفسى من بحوثهم على شخصيات مثل دستويفسكى، ونيتشه، وبودلير، وفان جوخ، أن هناك نوعاً من الجنون المبدع، يبدى المرضى به عبقريات خاصة فى مجال من المجالات، وهذا الكلام قد رفضه الطب النفسى التكاملى، فليس صحيحاً أن دستويفسكى كان يشكو الصرع، أو به جنون ما، وهؤلاء الذين اختارهم علماء الطب النفسى ليدللوا بهم على نظريتهم كانوا يشكون توترات عصبية هائلة، وكان لظروف حياتهم وطأة شديدة على مسارهم الفكرى، فليست عبقرياتهم لأنهم مجانين، وجنونهم إذا كان بهم جنون هو حالة قد ألمّت بهم، وكان يمكن أن تلم بأى إنسان آخر سوىّ، والجنون لا يقدح العبقرية ولكنه يمنع ظهورها ويحدّ منها. وأما دراسات الطب النفسى التكاملى، فقد أثبتت أن العباقرة كانت شخصياتهم نموذجية ومتكاملة، واستمرارهم فى الإنتاج والإبداع هو النتيجة الطبيعية لتواصل توافقهم النفسى، والرسول ﷺ لا يندرج ضمن الشواذ وإنما ضمن الكاملين، وكانت الدراسات عليه، من الإسلاميين ومن غير الإسلاميين، كشخصية متكاملة، وأدت هذه الدراسات إلى صياغة مصطلح جديدة من مصطلح الفلسفة هو مصطلح «الإنسان الكامل» كصفة للنبى ﷺ، ودليل عليه. وتنفرد الدراسات الإسلامية بالبحث فى صفات «الإنسان الكامل»، وبدأت هذه الدراسات قبل دراسات علم النفس التكاملى، ومصطلح الإنسان الكامل من مصطلحات الفلسفة أو الثقافة الإسلامية النبوية، وأوحت به حياة النبىّ ﷺ وصفاته.

●●●

٢٦٥. ﴿هل كانت حالته فيما ادّعى أنه يُوحَى إليه كحالة چان دارك التى ادّعت أن السماء تكلمها﴾

هؤلاء المستشرقون المنكرون أرغو وأزبدوا فى النبىّ ﷺ، واتهموه بالمرض النفسى،

فلولا أنه **مريض نفسياً** ـ هكذا قالوا ـ لما ادّعى أن القرآن يأتيه من الغيب، ولما أورد هذه الصور والمشاهد التي حفل بها القرآن عن **الجنة والنار، ويوم القيامة**، وجميعها من الغيب. ولم يثبت الغيب علمياً، وما كانت هناك تجارب علمية فيه تنفيه أو تثبته، وبذلك لا يحق لأحد أن يؤمن بالقرآن المدّعى أنه من الغيب. وقالوا: **إن حال محمد كحال الفتاة الفرنسية جان دارك التي عاشت في القرن الخامس عشر، وكانت منذ صغرها تدّعي أنها تسمع أصواتاً تكلمها، ولأن توجهاتها كانت دينية فلقد ادّعت أن هذه الأصوات إلهية تأتيها من الغيب**، ولما كانت بلادها واقعة تحت الاحتلال الإنجليزي، وكرهت أن يعاني قومها ذلك، فقد ادّعت أن السماء أوفدتها مبعوثة إلهية لإنقاذ بلادها وأهلها، وأن تحضّ الناس على القتال، وأن تخرج بهم لمحاربة الإنجليز وطردهم، ولقد فعلت ذلك وصدّقها الناس، وجرّدت الحملات وقادت الجيوش تنشد التحرير والخلاص، إلا أنها لم تكن تتقن العسكرية، فانكسر رجالها بعد لأي، ودارت الدوائر عليها، ووقعت أسيرة في أيدي أعدائها، وحاكموها بدعوى **التجديف الديني**، والزعم بمزاعم يلحقها بها الموت، وقضوا أن تُحرق حيّة، فصلبوها وأضرموا في جسمها النيران، وماتت ميتة الأبطال، حتى أنهم نادوا بها **قدّيسة**. وقدّم الدارسون من بعد مباحث في حياتها، أثبتوا فيها أنها كانت **واسعة الخيال**، وأنها كانت تعيش **أحلام يقظة دائمة**، تفصلها عن الواقع، وتباعد بينها وبين الحقيقة، وتأتيها منها تهيؤات بأنها ترى وتسمع مالا يراه ولا يسمعه الآخرون، وأن الأصوات تأمرها أن تكون المخلّصة كالمسيح، **فكان المسيح للخلاص الروحي، وهي لخلاص بلادها من الاحتلال**، والاحتلال شرٌ محض، يصيب قومها منه الأمراض، ويلحقهم به الفقر، وما يستحدثه في النفوس أنكى وأشدّ مما يستحدثه في الجسوم. وكانت جان دارك لا تنام، ولا يرقأ لها جفن، وابتليت **بالأرق والضَّوْر**(الجوع الشديد)، وكانت تتهيج وتثور لأتفه الأسباب. **فهل كان بمحمد مثل ذلك حتى تُعقد مشابهته بجان دارك** ؟ وهل تصلح نتائج دراسة على جان دارك كتحليل لشخصية محمد ؟! وما كان محمد ﷺ شتّاماً، ولا لعّاناً، وكان مثالاً للوقار والصلاح، وإذا غضب الناس كان هادئاً، وإن أخطأوا عفا وغفر، وكان واقعياً لا يتوهم أشياء، ولا يتصوّر غير الواقع، ويطلب الحق، وينشد العدل، ويريد الإصلاح بين الناس، ويحتكم إلى العقل، وما كان يزكّي نفسه على أحد، ولم يكن بدعاً من الرسل، وكان يؤكد أنه بشر من بشر، وابن امرأة تأكل القديد، وما كان شاعراً كالشعراء يتبعه غاوون، ولا يتلو إلا القرآن، كله آيات محكمات ذكرى لأولي الألباب، **فأين ذلك من جان دارك** ؟ وما كان حديثها إلا عن توهّمات، وانعكاساً لاضطراب عقلي، وكانت تشكو

حالات من تقلّب المزاج، فمرة تثـور، ومرة تهدأ، وما كانت تتصرف كـامرأة، وما كانت لها أشواق النسـاء، وشتّان بين هذه الحال وبين مـا كان عليه النبيّ ﷺ، **فـهـو يصـوم ويأكل، ويقوم الليل وينام، وينكح النساء، ويحـيا حياة طبيعيـة مثالية،** فإن أكل لايـشبع، وإن صام لم يسـرد، وإن ضاجع النساء فـهو الوقور المحـتشم، فهل مَن كـان هذا حاله يكون مريضاً نفسياً؟ وهل يمكن أن يزعم أنه يتصل بالغيب، ويعرف أخبار السماء، ويوحى إليه؟ وهل يمكن أن تعـد رواياته عن القيـامة والحـساب، وأخبـار بداية الخلق، ونهاية الـدنيا، وأوصاف الله تعالى إلخ، من قـبيل الاضطرابات النفسيةَ، والتشـوّش العقلى، والهُذاءات كالتى يشكو منها المرضى النفسيون ؟!

•••

٢٦٦. ﴿الجن: هل يقول الإسلام بوجودهم؟ وهل رآهم الرسول؟﴾

نفـهم من الآية: **﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ①﴾** (الجن) أن الجن من عالم الغيب، وكذلك نفهم أن النبيّ ﷺ لم ير الجن، ولم يبصر بجنيّ لقوله **﴿اسْتَمَعَ﴾**، وقوله فى الآية الأخرى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ㉙﴾** (الأحقاف)، والمعنى: أنه لا قرأ عليهم، ولا رآهم، وأما قوله: **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ⑲﴾** فالمعنى أنهم حضروه دون أن يدرى بهم، وتكأكأوا حوله يسـتمعون إليه، ولاشىء أكثر من ذلك، وفى الأول والآخر فإن الجن من الغيب، والدلائل الفيزيائية تنبىء عن أن هذا الكون المُدَرك جزء بسيط جداً من الكون العام، ومن المحتمل جداً أن توجد كائنات أخرى بأسماء مُعرّبة كالتى وردت فى القرآن، أو غير معرّبة، وهو احتمال فوق الظن، ويرقى إلى اليقين، وحينئذ يكون من المنطقى أن نؤمن بظاهرة كظاهرة الجن التى أخبرنا عنها القرآن، ولا نكون مغالين، أو أسطوريين، أو نابذين للمنهج العلمى.

•••

٢٦٧. ﴿هل انشق القمر بأمره ﷺ ؟﴾

المفسرون مخـتلفون حول الآية: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾** (القـمر)، وقال عامتهم أنه قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، باستدعاء النبيّ ﷺ، حين طَلبَ إليه حمزة بن عبد المطلب أن يريه آية يزداد بها يقيناً فى إيمانه، وكان أبو جـهل قد انتقص منه ومن إيمانه، وأظهر أنه لايصدّق بـالنبىّ ﷺ وليس هناك من سبب ليصدقه، فأراد أن يستوثق من النبىّ ﷺ أنه مبـعوثٌ من ربّه، قيل فأراهم النبىّ ﷺ: انشـقـاق

القمر إلى فلقتين! غير أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، ومسخّران لأجَل مسمّى، كقوله: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ②﴾ (الرعد)، يعنى سيظلان دائبين حتى يوم القيامة على ما هما عليه، فأن يفلق النبيّ ﷺ القمر لبعض الوقت، فذلك مستبعد، لأن الكون كله يضطرب به. ومع ذلك فمثل الذى تقوّله المفسرون، يأتى فى سفر يشوع من أسفار اليهود: أن **يشوع بن نون كلّم الشمس والقمر** فى حربه مع الأموريين، وأمرهما فقال: **يا شمس قفى على جبعون، ويا قمر أثبت على وادى أيالون، فوقفت الشمس وثبت القمر، إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم. فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تَمِل للمغيب مدة يوم كامل**» (الفصل العاشر ١٢/ ١٣)، فإذا كان ذلك مستبعد فى حالة النبيّ ﷺ، فلِمَ هو غير مستبعد مع **يشوع**؟! أخيارٌ وفقّوس؟!!

وفى بعض الأقوال أن معنى الآية: أنه عندما تقترب **الساعة** يكون من علاماتها أن ينشق القمر، مثلما من علاماتها أن تتكوّر الشمس وتجمع إليها القمر، وأن تتكدر النجوم وتنطمس، وتنتثر الكواكب، وتنشق السماء، وبانشقاقها ينشق القمر. والذين قالوا بأن انشقاق القمر وقع وشاهده الناس وقتها فى غير مكة، حتى أن بعضهم آمن، وبعضهم كذّب، يحتجّون بالآيات بعد آية الانشقاق: ﴿**وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ② **وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ** ③﴾ (القمر)، يعنى أن القمر ظل منشقاً وفلقتاه ظلتّا متباعدتين عدة ساعات، ثم التحمتا، فقال الكفّار: لقد سَحَرنا محمد، وأنه لا يتوقف عن السحر! وقال المؤمنون من أهل العلم: إن السحر لايمكن أن يطول كل الناس، **فكيف اتفق كل الناس على أن ذلك ما حدث**، فقال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ** ④ **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** ⑤﴾ (القمر). ويستشهد **أهل العلم الحديث بصدق آية الانشقاق كمعجزة للرسول** ﷺ، **بما أكده رواد الفضاء من أن القمر قد انشق فى يوم من الأيام ثم التحم**، ففى التركيب الداخلى للقمر حزامٌ من الصخور المتحوّلة، يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كان قد انشق فعلاً فى يوم من **الأيام ثم التحم، وبذلك يُثبت العلم صدق ما أخبر به القرآن منذ نحو ألف سنة**. ويقول غيرهم من أهل العلم أيضاً: بأن **الحضارة الهندية القديمة** يؤرخ فى تاريخها القديم لحادثة انشقاق للقمر، وما يؤرخ له كان قبل دعوى انشقاق القمر بأمر النبيّ ﷺ، وكذلك ليس فى أقوال رواد الفضاء أن انشقاق القمر المقصود هو هذا الانشقاق على يد النبيّ ﷺ، والمعقول أن هذا الانشقاق المنذر به فى القرآن هو من **علامات الساعة**، ويرتبط بها ولا

يحدث إلا مع النفخ في النفير، وهو انشقاق لا يكون فيه الْتحام، ولكنه ينذر **بنسف القمر** وسقوطه من حالق قطعاً كمركبة الفضاء مير. وأما **الآيات التي كلما رآها الكفار أعرضوا عنها فقالوا سحر مستمر**، فهي المشاهد التي ما تزال بينهم وتراها عيونهم، كمساكن هؤلاء الذين كذّبوا رُسلَهم، أمثال **عاد وثمود**، وهي مشاهد يمكن أن تكون زجراً للاحقين، وفيها من الحكمة البالغة ما يغني عن كل النذر، ومع كل ما سبق **فإن النبيّ** ﷺ **قد نفى البتة أن يكون لأحد سلطان على الشمس والقمر إلا الله تعالى، وأنهما آيتان ستظلان حتى الساعة**، ولايمكن لنبيّ ولا لغيره أن يكون له سلطان عليهما. ثم إن نبيّنا **لا معجزة له إلا القرآن، فهو المعجزة الباقية بعد عصره ولكل العصور**.

•••

٢٦٨.﴿في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٥٧﴾﴾ (الأحزاب)، كيف يمكن أن يؤذى الله ورسوله؟!﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾** (الاحزاب): أن الآية نزلت في **الذين طعنوا على النبيّ** ﷺ **في زواجه من صفية بنت حيي**. وصفية كما نعرف، كانت **يهودية**. فربما كان الأمر في أسباب نزول الآية كما يقول ابن عباس، إلا أن الواقعة لا ترقى إلى أن يلعن الله في الدنيا والآخرة من يتعرّض لها بالنقد من قريب أو بعيد، وأن يكون جزاؤه في الآخرة العذاب المهين. وكذلك نستبعد أن المقصود بالآية **المصوّرين الذين كانوا يرسمون اللوحات** كما قال البعض، فهذا وإن كان في ذلك الوقت محرّماً، إلا أن العقاب لمن يمارسه بحسب الآية أكبر من الذنب. وأيضاً فإن من يصرف معني الآية إلى من **يسبّون الدهر**، فقد أسرف وتجنّى، وبحسب الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجلّ: يؤذيني ابن ادم: يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، أقلّب ليله ونهاره**»، وكان سبّ الدهر من **عادة أهل الجاهلية**، فكانوا يقولون: **يا خيبة الدهر! فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبّونه**، مع أن الفاعل هو الله، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك، وهذا حسن إلا أن الآية لا يمكن أن يكون ذلك هو المقصود بها، **فهي آية عامة، والأذى فيها عام. وأذى الرسول** ﷺ قد يكون طعناً فيه شخصياً، وقد يكون إساءةً إلى نسائه وأصحابه، أو **تجريحاً** يتناوله في مواقف بعينها، وذلك هو كل ما جرى النقد فيه على الرسول ﷺ، ولا بأس بالنقد البنّاء، وهو غالباً نقدٌ **يتناول روايات بعينها ولا يتناول الرسول نفسه**، ومن ذلك الروايات من الإسرائيليات ومن الأحاديث الموضوعة، فذلك مجال من العلم وليس من

سوء الطوية، وسياق السورة التى تتضمنها الآية حافل بالمواقف التى يُنهَى فيها المؤمن أن يسيء التصرف أو الظن أو القول بالرسول ﷺ . وجاءت التوصية بذلك فى رفقة توصية أكبر، بعدم الإساءة أو التعرّض للمؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال تعالى **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)﴾** (الأحزاب) أى ينسبون إليهم ما هم بُرآء منه ولم يصدر عنهم لا قولاً ولا فعلاً. فهؤلاء هم الذين يحتملون البهتان والإثم المبين، ومن ذلك ما يسمى **البُهْت الكبير**: وهو أن يحكى المرء أو ينقل عن المؤمن أو المؤمنة ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقّص لهم، ومنهم الذين اشتهروا فى التاريخ الإسلامى باسم **الرافضة**، الذين كانوا ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه، وكانوا يصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، وفى الحديث عن **عائشة**، عن رسول الله ﷺ ، قال : **أربىَ الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم**»، فذلك على الجملة حرام، بينما **أذى الرسول** ـ كما **قيل** ـ **من الكبائر، وأما أذى الله فهو الكفر** أعاذنا الله منه!

ولكن كيف يمكن أن يؤذى إنسانٌ اللهَ تعالى ؟ والجواب بأن يكفر به، **أو ينسب له صاحبةً أو ولداً أو شريكاً، أو يصفه بما لا يليق**، كقول اليهود: **يد الله مغلولة**؛ وقول النصارى: المسيح ابن الله؛ وقول المشركين: **الملائكة بنات الله**؛ وقول الكفار: **الأصنام زلفى إلى الله**، يعنى جعلوهم شركاء له، وفى الحديث من ذلك قوله تعالى فى الحديث القدسى: **كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك**».

ومن أمثلة **الأذى للرسول** ﷺ ، قولهم عليه أنه **ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، والإفك** الذى شنّعوا به على نسائه، وقيل وهذا هو **الأذى بالقول**. وهناك **الأذى بالفعل**، ففى مكة كانوا يهيلون على ظهره **السلَى** ـ وهو ساجد ـ أى أحشاء الحيوانات، وفى **أُحد** كسروا رباعيته، وشجّوا وجهه، ثم إنهم حاولوا قتله عشر مرات!

●●●

٢٦٩. ﴿هل عاتب النبىّ ربُّه لأنه كان يمالئ اليهود ؟﴾

فى الآيــة : **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾** (الأحـزاب)، أن تقوى الله، وعدم طاعة الكافـرين والمنافقين ينبغى أن يكونا مـن **القواعد العامة اليومية فى سلوك المسلم والمسلمة**، وتَقْوى الله: هى أن نعمل بطاعته على نور منه، ورجاء فـى ثوابه، وأن نترك المعصـية على نور منه، ومـخافـة عذابه. وعـدم طاعة الكافرين والمنافقين هي البديل عن طاعـة الله تعالى فى حالة الزيغ والضلال، ومعنى أن لا

يطيعهم : أن لايسمع منهم ولا يستشيرهم، والله هو العليم الحكيم، أي الأحق بأن تتبع أوامره. لأنه العليم بعواقب الأمور، والحكيم فيما يريد، ولذا قال بعد ذلك : ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)** ﴾ (الأحزاب). وهذا هو التفسير الصحيح لهذه الآيات، إلا أن رواة الإسرائيليات ذهبوا بعيداً، وربطوا نزول هذه الآيات بمناسبات تُرجع القرآن إلى أسباب تتعلق باليهود خاصة، وتهُمّ اليهود أن تنتشر هذه الأسباب ليجعلوا مَردّ آيات القرآن لأحداث ترتبط بهم، فذكر **أبو حيان فى البحر المحيط**: أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، **كان يحب إسلام اليهود : قريظة، والنضير، وبنى قينقاع**، وتابعه أناس منهم على النفاق، وأنه ﷺ كان يلين لهم جانبه، ويكرم صغيرهم وكبيرهم! وإذا تحصّل منهم قبيحٌ، تجاوز عنه! وكان يسمع منهم! فنزلت هذه الآية تنهاه عن ذلك!! وكل ذلك غير صحيح، والدليل عليه، أن الروايات تباينت فى ذلك، ففيما يذكر الواحدى، والقشيرى، والثعلبى، والماوردى، وغيرهم، أن **أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبى جهل، وأبا الأعور عمرو بن سفيان**، نزلوا المدينة بعد أُحد، على **عبد الله بن أبى بن سلول** رأس المنافقين، وقد أعطاهم النبىّ الأمان على أن يكلّموه ـ أى يكلموا النبىّ ﷺ ، فقالوا له وعنده **عمر بن الخطاب** : **ارفُضْ ذكْر آلهتنا اللات والعُزّى ومناه، وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها، وندعك وربّك!** . **(أنظر حكاية الغرانيق من سورة النجم)** قيل : فشقّ على النبىّ ما قالوا. فقال عمر : ائذن لى يارسول الله فى قتلهم، فقال النبىّ ﷺ : «**إنى قد أعطيتهم الأمان**». فالتفت إليهم عمر مغضباً وقال : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه. فأمر النبىّ ﷺ أن يخرجوا من المدينة، فنزلت الآية. وفى رواية أخرى يذكر **الزمخشرى فى الكشاف** : أن **أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبى جهل، وأبا الأعور السلمى**، قدموا على النبىّ ﷺ فى الموادعة التى كانت بينه وبينهم، وقام معهم **عبد الله بن أبىّ، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس**، فقالوا للرسول : **ارفض ذكر آلهتنا**... القصة، وأن الآية نزلت فى نقض العهد ونبذ الموادعة. وفى روايات أخرى يذكرها **السيوطى فى الدرر**، وأبو حيان فى **البحر** : أن أهل مكة دعوه إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، ويزوّجه **شيبة بن ربيعة** بنته، وخوّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع، فنزلت الآية. ومن الغريب أن بعض المفسرين يذكر: أن رسول الله ﷺ كان يميل إليهم بدعوى أن يستدعيهم إلى الإسلام ! ولذلك قالوا فى التفسير فى معنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)** ﴾(الأحزاب) أنه تعالى لو علم أن ميله إليهم فيه منفعة لما نهاه عنهم. وفى رواية أخرى: أن النبىّ ﷺ قَدِم عليه وفدٌ من ثقيف،

فطلبوا منه أن يمتّعهم **باللات** سَنَة، وهى **الطاغية** التى كانت ثقيف تعبدها، وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا عندك، فَهَمّ النبىّ ﷺ **بذلك** !! فنزلت الآية.

وكل تلك الروايات تطعن فى النبىّ ﷺ، وهى من **الإسرائيليات**، أى التفاسير التى ابتدعها اليهود **والمنافقون**، وروّجوا لها حتى ردّدها أصحاب التفاسير وأدرجوها فى مؤلفاتهم، **والصحيح أن هذه الآيات من القواعد الأخلاقية التى يستنها الله تعالى للنبىّ وللمسلمين من بعده، والخطاب فيها للنبىّ ولأفراد أمة الإسلام من بعده: ألاّ يسمعوا لأعدائهم، فالعدو لايريد بنا سوى الهوان والخذلان، وأن يكون سلوكنا مع أعدائنا بوحى كلام ربّنا، نأخذ به ونتوكل على الله، وهو يكفينا ما نخافه منهم**، ومن تعاليمه تعالى للمسلمين توعيةً وتحذيراً وإنذاراً، قوله: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة) وقوله: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴿٨٢﴾﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴿٥١﴾﴾ (المائدة). ونشهد ان الله تعالى قد بلّغ، وقد أعذر من أنذر.

●●●

٢٧٠. ﴿أذنب ذنبين﴾

ذَنْبٌ قديم وذنب أقدم جمعتهما الآية: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴿٢﴾﴾ (الفتح)، فما تقدّم كان يوم بدر، وما تأخّر كان يوم حنين، ففى يوم بدر جعل يدعو : **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد فى الأرض أبداً**» فأوحى الله إليه: من أين تعلم أنى لو **أهلكت هذه العصابة لا أُعبَد أبداً** ؟ فكان هذا هو الذنب المتقدّم. ولمّا انهزم الناس قال لعمه العباس وابن عمه علىّ: «**ناولانى كفاً من حصباء الوادى**»، فناولاه، فأخذه بيده ورمى به فى وجوه المشركين وقال: «**شاهت الوجوه، حم لا يُنصرون**»، فانهزم القوم ولم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملاً، ثم نادى على أصحابه فرجعوا، وقال لهم: «**لو لم أرمهم لم يُهزَموا**» فأنزل الله: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴿١٧﴾﴾ (الأنفال)، فكان هذا هو الذنب المتأخّر.

●●●

٢٧١. ﴿قولهم: الذى له قلبان يعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد﴾

من الإسرائيليات قول مجاهد : إن آية ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴿٤﴾﴾ (الأحزاب) نزلت فى رجل من قريش كان يُدعَى «ذا

القلبين» من دهائه، وكان يقول : إن لى فى جوفى قلبين، أعقل بكل واحد منهما، أفضَل من عقل محمد»، وكان الرجل من فهر. وفى رواية الواحدى والقشيرى وغيرهما سمّياه «ذا القلبين»، وقالوا : نزلت الآية فى جميل بن معمر الفهرى، وكان رجلاً حافظاً لما يسمع، فيقال عنه: ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان، وكان يقول عن نفسه معرّضاً بالنبى ﷺ : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد !! فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل هذا، ورآه أبو سفيان فى العير وقد علقّ إحدى نعليه فى يده، والأخرى فى رجله، قال له: ما حال الناس ؟ قال : انهزموا. قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال: ما شعرت إلا أنهما فى رجلىّ ! فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده ! وقيل: الرجل هو جميل بن معمر الجمحى، وكان يُدعَى ذا القلبين، فنزلت فيه الآية. وقال الزمخشرى: هو جميل بن أسد الفهرى. وقيل هو عبد الله بن خطل . ـ والقصة كما ترى مُختلقة، ولا أساس لها، وجميل هذا أو عبد الله غير معروف واختلفوا فى اسمه، ولكنهم ألّفوا القصة ليعرّضوا بالنبىّ ﷺ . وفى رواية ابن عباس : أن المنافقين قالوا : إن محمداً له قلبان ـ يعنى نسبوا مسألة القلبين هذه المرة للنبىّ ﷺ ، فيكون فى شىء فينزع إلى غيره، ثم يعود إلى شأنه الأول !ـ يعنى كان متردداً لا يستقر على رأى ولا حال، ولم يكن الرسول ﷺ من ذلك فى شىء، فلو كان به هذا التردد لما تجمّع الناس حوله، ولما نجحت الدعوة، وللحقت به الهزيمة، وإنما كان صاحب عزم، ولذا قال له ربّه : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ (آل عمران)، وقال : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ (آل عمران)، وقال : ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم(٣٥)﴾ (الأحقاف)، فلو لم يكن له عزمٌ ما خاطبه الله به، ولكنه كان موفور العزم، على عكس آدم الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ (طه).

وللزهرى وابن حبّان تفسيرٌ آخر مرتبط ببقية الآية، وبقصة زيد بن حارثة لّما تبنّاه النبىّ ﷺ ، فكما لا يكون لرجل قلبان، كذلك لا يكون ابنٌ واحد لرجلين. ولكن الآية أكبر من أن تُضرَب كمثل لحالة زيد، ففيها أيضاً تكذيب للمُظاهر لأُمّه. فكما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لاتكون للمُظاهر لأمه أُمّان؛ وفى الآية أيضاً تكذيبٌ للمنافق ذى القلبين أو الوجهين. والصحيح أن الآية لا هى لهذا ولا لذاك، ولكنها لتأكيد هذه الحقيقة : أنه لايمكن أن يجتمع ضدان فى القلب الواحد، كالكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار؛ و أن يدّعى أحدهم الإسلام، وهو يضمر اليهودية أو النصرانية، فإنما للإنسان قلب واحد، فإما فيه إيمان أو فيه كفر، ونفى الله تعالى التوسط بين الإيمان والكفر، والنفاق من

ذلك. والآية من خير ما يتمثل به المسلمون في مثل هذه المواقف، فيقولون لصاحب الاتجاهين والمتراوح بين الأمرين : **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.**

●●●

٢٧٢. ﴿هل كان النبيّ ﷺ أفاكاً؟ وهل كتابه القرآن ليس سوى أساطير؟﴾

كان النبيّ ﷺ منذ بداية المبعث أفاكاً عند اليهود العرب، واتهمه أهل الكتاب في أوروبا منذ بداية العصور الوسطى بالإفك، وما يزال أفّاكاً عند مفكرين من أمثال رودنسون اليهودي، وقد تناول القرآن ذلك في سورة الفرقان، قال: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا** (٤) ﴾، وكنا عندما نقرأ هذه الآية نحسب أن ما يقولون به هو نفسه ما كان يظنه الأولون في النبيّ ﷺ، وعجبنا أن يذهب إلى نفس المذهب رغم الفارق الزمني، المُحدَثون من الأوروبيين، ورغم مقالة القرآن فيمن رأى رأيهم، قال: ﴿**جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا**﴾. **والإفك**: هو الكذب، **والحديث الإفك**: هو الذى لا أصل صحيحاً له. وأول من قال ذلك في النبيّ ﷺ : **النضر بن الحرث**، ورغم أنه عربي وابن خالة النبيّ ﷺ، إلا أن ثقافته لم تكن عربية، وكان يقرأ بالفارسية، وقرأ تاريخهم في الحيرة، وكان أول من غنّى على العود بألحان فارس. ولمّا أظهر النبيّ ﷺ الإسلام وتلا على الناس القرآن، كان الشِّرك الفارسي مستحكماً فيه، فبادر النصّ القرآني بالعداء، واختصمه، وهزأ به، وندّد بالقرآن، وتزعّم معسكر المخالفين، وكان صاحب لواء المشركين في بدر، وكان النبيّ ﷺ إذا جلس مجلساً للتذكير بالله والتحذير من مثل ما لحق الأمم الخالية من نقمة الله تعالى، جلس النضر بعده فحدّث بأخبار ملوك فارس ورستم وإسفنديار، يقول : **أنا أحسن من محمد حديثاً، وهو في حديثه لا يأتيكم إلا بأساطير الأولين !** ـ ونحن كثيراً ما نسمع اليوم مثل ذلك النقد للقرآن. وقيل إن المسلمين لما أسروا **النضر**، قتلوه صبراً بعد انصرافهم من بدر، فقالت ابنته قتيلة :

ما كان ضرّك لو مننتَ ، وربما . . . مَنّ الفتى وهو المغيظ المحنق

تريد بذلك لوم النبيّ ﷺ على قتله، وقال الجاحظ : إنها استوقفته وهو يطوف بالكعبة، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته أبياتها هذه، فرقّ لها حتى دمعت عيناه، وقال: **لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لوهبته لها !** ـ **والجاحظ كاذب، فلا وجود لقتيلة التي أطلق عليها اسم ليلى ابنة النضر، ولا قتيلة هذه قالت شعراً فيه، والقصيدة كلها ملفقة، وشعرها مصنوع، والنضر لم يقتل صبراً وإنما أصابته جراحٌ، وامتنع عن الطعام والشراب لا يتناوله من أيدي المسلمين، فمات !**ـ وقيل: إنما قتيلة كانت **أخت النضر**، والنضر لم يكن

وحده الذى يتهم النبى ﷺ هذا الاتهام، سواء في الماضي أو في الحاضر. فلقد كان هناك أبو جهل أيضاً، وهذا لقبه، وكان اسمه عمرو بن هشام المخزومى، ويكنونه «أبا الحكم»، فدعاه المسلمون «أبا جهل»، وكان من أشد الناس عداوة لمحمد ﷺ، ولما سأله الأخنس بن شريق الثقفى ـ وكان قد استمعا شيئاً من القرآن : ما رأيك يا أبا الحكم فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعتُ ؟! تنازعنا الشرف نحن وبنو عبد مناف: أطعَموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تحاذينا على الرّكب، وكنا كفرسىّ رهان، قالوا منا نبىّ يأتيه الوحي من السماء ! فمتى ندرك هذه ؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! ـ وشارك في وقعة بدر وقتل. وهو الذى نسب إلى محمد أن جبراً مولى الحضرمى، وعدّاساً غلام عتبة يمليان عليه !! ومَن ثم كانت الآية: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ (الفرقان)، يعنى أنه ينقل من كتب الأولين ويستنسخها في أول النهار حتى آخره. وفى الأثر عن مجاهد فيما ذكر الماوردى، ثم أبو حيان: أن اليهود هم الذين اتهموه هذه التهمة، ولذا قال بعضهم لبعض فيما روته الآية: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦﴾ (البقرة). وقال ابن عباس: المراد «بالقوم الآخرين» فى الرابعة من سورة الفرقان: الذين أعانوه وأملوا عليه : أبو فكيهة مولى بن الحضرمى، وعدّاس، وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب. ويقول القرطبى فى الآية : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ (النحل) أنهم اختلفوا فى اسم هذا البشر الذى يعلمه، فقيل هو غلام «الفاكه بن المغيرة» واسمه جبر، وكان نصرانياً وأسلم. وكانوا إذا سمعوا من النبىّ ما مضى وما هو آت ـ مع أنه أمى لم يقرأ، قالوا إنما يعلمه جبر ـ وهو أعجمى، فقال الله تعالى : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ (النحل)، أى كيف يعلّمه جبر ـ وهو الأعجمى، هذا الكلام الذى لم يستطع أحد أن يعارض منه ولو سورة واحدة؟ وقالوا: أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمداً ! فيقول : لا والله، بل هو يعلمني ويهديني !ـ وقال ابن إسحق: كان النبىّ ﷺ ـ فيما بلغنى ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصرانى يقال له جبر، عَبْدُ بنى الحضرمى، وكان يقرأ الكتب، فقال المشركون : والله ما يعلّم محمداً ما يأتى به، إلا جبر النصرانى ! وقال عكرمة : اسمه «يعيش» كان عبداً لبنى الحضرمى، وكان الرسول ﷺ يلقنه القرآن. وذكر الثعلبى عن عكرمة وقتادة : أنه غلام لبنى المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنما يعلّمه بشر، فنزلت الآية. وقال المهدوى عن عكرمة : هو

غلام لبني عامر بن لؤى، واسمه يعيش». وقال عبد الله بن مسلم الحضرمى : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر»، وقال الثعلبى : يقال لأحدهما «نبت»، ويكنى «أبا فكيهة»، والآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف (يعنى يشحذانها)، وكانا يقرآن كتاباً لهما». قال الثعلبى: يقرءان التوراة والإنجيل». وقال الماوردى والمهدوى : يقراءن التوراة». فقالوا: كان رسول الله ﷺ يمر بهما ويسمع قراتيهما. وقال المشركون : يتعلم منهما - فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم. وقيل عنوا «سليمان الفارسى». ذكره الطبرى والبخارى وابن عطيه والشوكانى وأبو حيان. وقال الضحاك : الذي يعلمه كان نصرانياً بمكة اسمه بلعام، وكان غلاماً يقرأ التوراة. وقال ابن عباس : وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ حين يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا : إنما يعلمه بلعام. وقال القتبى : كان بمكة رجل نصرانى يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله ﷺ فاتهمه به الكفار، وقالوا : إنما يتعلم محمد منه، فنزلت الآية. وفى رواية أنه عدّاس غلام عُتبة بن ربيعة. وقيل هو : عابس غلام حويطب بن عبد العُزّى، ويسار - أبو فكيهة مولى ابن الحضرمى، وكانا قد أسلما. والخلاصة أن رسول الله اتُّهم بكل هؤلاء، وربما يكون قد جلس إليهم ليعلّمهم مما علمه الله، ويدعوهم بدعوته، فقلبوا الأوضاع وقالوا إنه تعلّم منهم بدلاً من أن يقولوا يعلّمهم، وكأن الأدنى يمكن أن يعلّم الأعلى، وكأن النصرانى المشرك يمكن أن يعلّم المُسلم الموحّد !. ولا تناقض بين كل هذه الأقوال، لأن المشركين متفرقون، وكلٌّ اتهمه بواحد من هؤلاء فزعموا أنهم يعلّمونه، ويسقط من ذلك قول القائلين بأنه سلمان، لأن سلمان لم يلتق الرسول ﷺ إلا بالمدينة!! وكل ما سبق حدث بمكة! وهذه الآية : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ . . ﴾ مكية ! فكيف يعلمه سلمان ؟! ثم كان وقتنا هذا، فشهد على كذب الأقدمين والمحدثين، أمثال رينان، الذى قال : لقد كتب المسيحيون تاريخاً عجيباً، ملؤه الحقد والبغض للإسلام ولمحمد ! - فشهد شاهد من أهلها!

ومن هؤلاء المحدثين المؤرّخ البيزنطى ثيوفانس **Theophanes** (٧٥٢ - ٨١٨م) قال: إن محمداً ارتحل إلى فلسطين وتحدّث إلى اليهود والنصارى، وتعلّم منهم مما تحويه كتبهم. وساعد ثيوفانس على هذه الفرية ما هو موجود للأسف فى الكتب العربية، ففى طبقات ابن سعد حكايات كالأساطير، قال: لمّا بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة، خرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بَحيرا، فقال لأبى طالب فى النبىّ ﷺ أن يبْقى محمداً معه، فرفض أبو طالب وردّ محمداً إلى مكة

وفي رواية أخرى: أن أبا طالب في مسيرته إلى الشام مرّ ببلدة بُصْرَى، وبها راهب يقال له بحيرا، وكان كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم، حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريباً من صومعته كانوا ينزلونه كلما مروا ، التقوا به فدعاهم الى الغداء، وصنع لهم طعاماً، وسبب ذلك أنه رأى فوقهم غمامة تظلل رسول الله ﷺ من بين القوم، إلى أن بلغوا الشجرة التي ينزلون تحتها، ونظر بحيرا فرأى الشجرة تَخْضلّ أغصانها عليه(أي تكثر) حتى أظلته ، فدعاه إليه وحادثه، ثم قال لعمه : ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف، لَيَبْغُنّه عنتاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا ! ـ وقال لأبى طالب : لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ههنا، فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبيّ هذه الأمة، وهو من العرب، واليهود تحسده، تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن اخيك ! ـ فهذا إذن ما كان من بحيرا بحسب رواية ابن سعد؛ وأما رواية ثيوفانس عن بحيرا فقد نسب إليه أنه علّم محمداً ما تحويه الكتب المقدسة، وما كان ثيوفانس من علماء المسيحية، وكان شخصية مكروهة كمسيحي، وكتابه **Chronographis** لا يعدّ أبداً كتاباً علمياً في التاريخ بأى مقياس من المقاييس، وكان ما أخذه على محمد إنكاره التثليث، وتحريمه للصور والتماثيل، وكان شغل ثيوفانس الشاغل أن يحارب أعداء الصور والتماثيل حتى من بين المسيحيين، وشدّد على أن اليهود وهم أيضاً أعداء للصور والتماثيل ـ سمموا أفكار محمد، واشترك عشرة منهم في تسميمه ! والنصارى واليهود تلقفوا ما قال ثيوفانس عن بحيرا، وظهرت سلسلة من مؤرخيهم وكتّابهم، تحدّثوا جميعاً عن أن «بحيرا» هو معلّم محمد، وأن محمداً فى الحقيقة كان نصرانياً تلقّى النصرانية على بحيرا، وترهّب، ولكنهم طردوه، فأراد أن ينتقم من المسيحية بالدعوة إلى ديانة جديدة تنافسها، فكانت دعوته للإسلام، فالإسلام فى حقيقته لا يصحّح المسيحية ولا اليهودية كما يدّعي محمد، وإنما الإسلام هرطقة يهودية نصرانية!!! والإجماع بين هؤلاء المتخرّصين على أن بحيرا ـ واسمه الحقيقي سيرجيوس، كان من النساطرة الهراطقة، ولجأ لذلك إلى الهروب إلى بلاد العرب، فالتقى بمحمد ولقّنه هرطقته النسطورية الإسلامية، وعلمه اللغات والأساطير، وتعلم محمد منه تحريم الخمر، وامتهن قطع الطرق على القوافل ، وصار تجمُّع أصحابه على البغى والعدوان باسم الدعوة لله، وعلّمه بحيرا السحر والشعوذة، وأن يزعم ان الوحي يأتيه هديراً فى أذنه، وزعم أنه يصاب من ذلك بحالة تخشّب كالصرع، وتلقف ذلك علماء اليهود، فأطلقوا على هذا النوع من الصرع!!! اسم «صرع الأنبياء»، يقصدون به صرع محمد ! والغريب أنهم استطاعوا أن يروّجوا لهذا الاسم، وأن

يبثوه فى المراجع العلمية فى الطب النفسى حتى أصبح من أصناف مرض الصرع، مع أنه لم تُرصَد حالة واحدة يمكن أن ينطبق عليها ، ولم يكن لهم من مرجع إلا سرجيوس المزعوم، وقالوا: أن بحيرا أو سرجيوس كان شهوانياً استباح النساء باسم **تعدّد الزوجات**، وتابعه محمد وأصحابه حتى صار **لمحمد ثماني عشرة زوجة وسرية !** وقال أحد مؤرخيهم واسمه **باسكاسيو** (١٢٢٨ ـ ١٣٠٠): إن سيرجيوس كان من الموتورين، فقد أراد أن يتقلد المناصب فى الكنيسة ولكنهم حرموه ، فذهب يثأر من المسيحية. وادّعى آخر هو «**تاما سوتو سكا**» (١٤٨٨) أن محمداً كان كاردنيالاً مسيحياً يسمى **نيقولا**!! وكان عالماً باللغات وبالكتب، فأرسل إليه البابا ليخلفه، فلما مثل أمامه لم يُظهر الاحترام له، فغضب عليه البابا، وفرّ **نيقولا أو محمد** إلى بلاد العرب، وألّف ديانة تنافس المسيحية، إلا أن **اليهود** فى بلاد العرب قتلوه ـ أى قتلوا محمدًا الذى هو نيقولا، والقاتل واحدٌ منهم يدعى **مرزوقًا** (يقصدون **سالم بن مشكم**)، وكان محمدٌ يؤثر أصغر زوجاته وتدعى **كاروفا** (يقصدون **عائشة**)، فقتل أصحاب محمد **مرزوقاً وكاروفا** انتقاماً لمحمد. وما قتل اليهود محمداً إلا لأنه أحب إحدى بناتهم (يقصدون **زينب بنت الحارث**)، وكانت قد دعته إلى خدرها فقامت هى وأهلها بقتله. وراجت هذه الفرية وتطورت برواية الآخرين، فقالوا **إن السمّ الذى دسّته اليهودية لمحمد آتى أكُلَه بعد سنوات حينما توفّى به**، وراجت هذه الفرية بين المسلمين بسبب **مؤرخي المسلمين ووضّاع الأحاديث**، وفسّروا **المعرّاج** بأنه اختراع لمحمد قبل أن يموت، جعل أصحابه يحملون جثته على سفينة محمولة على الهواء !! فكما ترى أن هؤلاء الناس بلغوا القمة فى كراهية الإسلام والنبىّ ﷺ ، وأنهم ذهبوا يؤلّفون أى شيء ينتقص منهما، وقد قيل إن **المسلمين يهوون المخدرات**، وهذا الكلام الذى لفّقوه لأحطّ من أى كلام يمكن أن يلفقه مدمنو المخدرات، ويبدو أن العقلية الأوروبية لهؤلاء المتخرّصين جعلتهم يقولون عن كل من يصف عيسى بأنه مجرد نبىّ وليس ابناً لله، وأنه محال أن يكون لله ابنٌ، **أنه محمدى النزعة، وأطلقوا على بحيرا أو سرجيوس** اسم **ورقة بن نوفل** !!وتعددت صفات محمد عندهم فقيل هو «**الموحِّد**»، و«**المطاع**»، و«**مناجى الأرواح**»، و«**المنجِّم**»، و«**مريض الصرع**»، و«**الساحر**»، و«**حارس ذهب بنى قريظة**» ولذلك تزوج أرملة أميرهم (يقصدون صفية) **لعله يعرف منها مخبأ الذهب!!!**

وهكذا استمر هذا السيل الجارف من الأكاذيب والخرافات حتى أن **فرنسيس بيكون** ـ وهو من نعتبره الفيلسوف الشهير ومؤسس المذهب التجريبى (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، قال عن النبى ﷺ : أنه كذب على شعبه، فادّعى أنه يستطيع أن ينادى على الجبل فيحضر الجبل،

ولما نادى ولم يمتثل الجبل لجأ إلى المغالطة فقال : إن لم يحضر الجبل إلى محمد فإن محمداً سيذهب إلى الجبل» !ـ وذهب **هوجو دوجروت** مؤلف الرسالة المشهورة «**قانون الحرب والسلام**» إلى أن محمداً كان **قاطع طريق، ومغتصب نساء**، وله **فضائح ومهازل**، وزعم أنه ساحر، **وطبيب مزيف**، وادّعى أن **حمامة** تطير إلى أذنه وتهمس فيه أطلق عليها اسم **الوحي**. وزعم أن **البعير** ركع له، وأن الماء يفر من بين أصابعه، وأنه أسرى به إلى أورشليم، وعُرّج به الى السماء، وأن ديانته لم تَرُج إلا بالسيف، وكان شديد التعطش إلى دماء مخالفيه، وما كان يتيح لأتباعه أن يخالفوه أدنى مخالفة. وكان من بين الذين كتبوا عن القرآن ومحمد وقدحوا فيهما أشدّ القدح : **هوتنجر** (١٦٥١)، **وبالنجر** (١٥٧٥)، **وبريدو** (١٦٩٩)، **وأدريان رولاند** (١٧١٨)، **وكيتاني، وفلهوزون، وجولدتسيهر، وجريم، وفوستفلد، ورودنسون، ووات، وزويمر، وبارت، وباريز، وتشامبر، ونولدكه**، وعشرات غيرهم، وأطلق هؤلاء عليه اسم **المخادع، والنصّاب، والثرثار**، وهكذا ... وكما ترى أن كل هذه الصفات والترهات تطعن في أصحابها وتشينهم، وتكشف عن تعصُّبهم المقيت، وزيغهم عن الحق، وبُعدهم عن الموضوعية والعلمية، وأن المغالطات هي دأبهم، وأبرز مغالطاتهم أنهم تركوا الدعوة الإسلامية وما يتطرق إليه القرآن من موضوعات إلى الطعن في محمد وخُلقه، والتشهير به فيما لا طائل منه، وما لم تثبت صحته، والتجافي عن الحق الصراح إلى الباطل الشائن، يحاولون أن يُظهروه على الحق، والحقّ أبلج، وفي القرآن : **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾** (آل عمران)، وسيظل هذا شأنهم ، يكتمون الحق، ويكفرون بالإسلام، وبالقرآن وبمحمد، ويغلون في دينهم، ويتّبعون أهواءهم، ويتكبّرون في الأرض، ويحكمون بالطاغوت، ويجادلون في الله، ويبتغون الفتنة، ويمترون، والله بالغٌ أمره، وسيقذف الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، حتى يكون الدين لله.

●●●

٢٧٣. ﴿الفرق بين «يا أيها النبي» و«يا أيها الرسول»﴾

في القرآن صيغتان يخاطب بهما الله تعالى نبيّه ﷺ ، **الأولى**: **﴿يا أيها النبيّ﴾**، ويتكرر ذلك **ثلاث عشرة** مرة، ولم يحدث أن خاطبه ربّه باسمه مجرداً مثلما خاطب إبراهيم، ونوحاً، وموسى، وعيس ابن مريم، فقال **«يا إبراهيم»، و«يانوح»، و«ياموسى»، و«ياعيسى ابن مريم»** وكل خطاب فيه **«يا أيها النبيّ»**: المقصود بالخطاب النبيّ، وجماعة المؤمنين، وأهل الإسلام جميعهم؛ وكل خطاب فيه **«يا أيها الرسول»**: المقصود به الرسول ﷺ بشخصه، يُخاطَب باللفظ والمعنى جميعاً، ويتكرر ذلك في القرآن مرتين.

●●●

٢٧٤. ﴿الكفّار لا يعذّبون والنبيّ بينهم﴾

في القرآن كله لم يحدث أن عذّب الله قوماً إلا بعد أن يُخرَج النبيّ من بينهم والمؤمنون، ويتوجهوا إلى حيث أُمروا، وذلك ما حدث مع الرسول ﷺ وأهل مكة، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾** (الأنفال)، فلولا أنه ﷺ يساكنهم، ومنهم من آمن أو سيؤمن، وعندئذ سيستغفرون، لأنزل بهم العذاب، وقال: **﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾** (الأنفال)، يعنى أنهم استحقوا العذاب، فقد صدو المسلمين عن المسجد الحرام، ولم يتّقوا الله في أنفسهم ولا في المؤمنين، وفي تفسير الآية قال ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾**(الأنفال). وقيل: كان رجلٌ في المدينة أيام النبيّ ﷺ وقد أسرف على نفسه، ولم يكن يتحرّج، فلما أن توفى النبيّ ﷺ، زهَد وتاب، وأظهر الدين والنُّسك، فقيل له: لو فعلتَ هذا والنبيّ ﷺ حيّ لفرح بك! قال: كان لي أمانان، فمضى واحد، وبقي الآخر، فقوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴿٣٣﴾﴾** (الأنفال) فهذا أمان، ومضى بوفاته ﷺ، وقوله **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾** (الأنفال) أمانٌ ثان، وهو ما بقي للرجل، فلزم أن يستغفر وإلا عُذّب. وأما أهل مكة فإن الله عذّبهم بالسيف بعد خروج النبيّ ﷺ.

●●●

٢٧٥. ﴿لماذا لم يحاكم الرسول ﷺ المنافقين مع علمه بنفاقهم؟﴾

أمسك النبيّ ﷺ عن قتل المنافقين، رغم أذاهم الشديد له، وعلمه بنفاقهم، وفي سورة البقرة وحدها ثلاث عشرة آية فيهم، والسبب في عدم قتلهم أنه يقصد إلى تأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه، قال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي» أخرجه البخاري ومسلم، وكان يعطي المؤلفة قلوبهم ما يتألف به قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم. وفي قوله تعالى: **﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾﴾** (الأحزاب) أنهم يقتلون إذا أعلنوا النفاق، والنفاق أيام الرسول ﷺ يعادل أقوال المدّعين للعلمانية والتنوير اليوم، وكفّ رسول الله ﷺ عنهم ليبيّن لأُمته أن القاضي لا يحكم بعلمه بدون شهادة الشهود، ولم يشهد على عبد الله بن أُبي إلا زيد بن أرقم، ولا على الجلاس بن سويد إلا ربيبه عمير بن سعد، والواجب أن يكون الشهود اثنين، والذي يعلن

الإيمان ويتبرأ من كل دين سوى الإسلام لا يعتبر منافقاً، وهذا هو ما منعه من إيذائهم : أنهم كانوا يُظهـرون الإسلام، والأحكام بين الناس على الظاهر، **وليـس لأحـد أن يحكم بخلاف ما ظهر**، لأنه يكون حكماً بالظنون.

●●●

٢٧٦.﴿محمدٌ حجة وبرهانٌ من الله﴾

فـي الآيـــة : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾** (النساء) أن **النبيّ** ﷺ **هو حجة الله على الناس كافة**، وهو معجزته تعالى، سمّاه **برهاناً**، وأنزل عليه القرآن وسمّاه نوراً، لأنه به تتبين الأحكام، ويُهتَدى من الضلالة، **فالقرآن نورٌ مبين، وأما محمد فهو برهانٌ مبين**.

●●●

٢٧٧.﴿لا تقولوا «راعنا» للنبيّ ﷺ﴾

كان من جهالات اليهود أن يقولوا للنبيّ ﷺ **«راعنا»** كما في قوله في سورة النساء الآية٤٦ : **﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾**، فنزلـت الآية : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾** (البقرة)، تنهى المسلمـين عن تقليد اليـهود ومـخاطبة النبـيّ ﷺ بهذا الخطاب الدال على جـفاء الطبع. وحقيقة «**راعنـا**» فى اللغة: **أرعنا سـمعك**، والأمر فى الآية يتضمن أن يتخيّر المسلم من الألفاظ أحَسـنَها، ومن المعانى أرقهـا إذا تناول اسم الرسول ﷺ فى شيء. وكان اليهود يعتبرون «راعنـا» سبّاً للرسول ﷺ ، ويسـبونه جهراً، وكان **سعد بـن معاذ** يعرف لغتهم، فنهاهم عنها، ونهى المسلمين، ونزلت الآية فى سورة البقرة فى ذلك.

●●●

٢٧٨.﴿أهل الكتاب يؤمنون بعيسى رسولاً قبل موتهم﴾

فى **الآخرة** تتوقف الظنون ويكون اليقين، وفى **الآخرة** يدرك اليهود أن عيسى كان رسولاً من عند الله ولكنهم أنكروه وجـحدوه، ويدرك **النصارى** أنه رسولٌ بَشَـرٌ ولكنهم ألّهوه، وفى الآية: **﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾** (النساء) أن ليس أحدٌ من أهل الكتاب من **اليهود والنصارى**، إذا حان الأجل، إلا ليؤمن قـبل أن يموت، بعيـسى بشراً رسولاً ، وليس إلهـاً كما قـالت النصارى، يعنى أن **النصرانى يظل يكابر طالما هو حيّ**، فإذا جاء الموت ذهبت عنه المكابرة، وينقشع الظن، ولا يبقى إلا اليقين، ويوم القيامة يكون **عيسى** عليهم شهيداً، يشهد على اليهود بأنهم كذّبوه، وعلى النصارى بأنه دعوه ابن **الله** مرة، و**الله** مرة.

●●●

٢٧٩.﴿مثلٌ للكذب على الرسول ﷺ ﴾

لما نـزلت ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢)﴾ (النصـر)، قال جـابر عن الرسول ﷺ ، وكـان يبكي ـ أي الرسول ﷺ : «إن الناس دخلوا في دين الله أفـواجاً، وسيخرجـون من دين الله أفواجاً»، والذي نقل عن جابر كاذب، فالإسلام يدخله كل يوم مؤمنون جدد، وتتسع رقعة بلاده، ويزيدون عدداً حتى زادوا على المليار نسمة !!

●●●

٢٨٠.﴿ الكثير من أحاديثه نبوءات، فلِمَ لم يكن بوسعه أن يُعلمنا عن الساعة ؟﴾

النبيّ ﷺ لم يكن إلا عبداً رسولاً، وبشراً من بشر، فلا نصدّق من يزعم أنه كان عنده علم السـاعة، وعائـشة زوجته ﵂ تقول فيمـا أخرجه الترمذي : مَن أخـبرك أن محمداً يعلم الخمس التي قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ (لقمان) فقـد أعظم الفرية»! وهذه الخـمس أسمـاها الرسول ﷺ مفـاتيح الغيب، لا يعلمها إلا هو الله تعالى، فالساعة لا يجليّها لوقتها إلا هو؛ وكذلك الغيب قد يتنبأ به متنبـيء الطقس، وقد يتوقـع الأمطار الغزيرة ولكنه لا يعـرف مقدارها، ومـاذا يكون من أمرها؛ وكذلك ما في الأرحام، قد ييسر العلم للأطباء أن يروه ذكراً أو أنثى، ولكنهم لا يعلمون إذا كان شقياً أم سعيداً؛ وكذلك الكسب ، فقد تتوقع مكاسب الدنيا، ولكن هل يمكن أن تجزم بذلك؟ ولا أن تحدد مقدارها؟ ولا أن تعرف ماذا تكسب لآخرتك؟ وكذلك الموت ،فلا تدري أنموت ببلادنا أو في غيرها؟ وقد تحاول الانتحار، أو تترقب الموت وتتنبأ به في المرض، وإنما يستحيل أن تحدد وقـته ولامجرياته. وروى مسروق عن عـائشـة ﵂ أنها قالت : مَن حدّثك أنه ـ أي الرسول ﷺ ـ يعلم ما في غدٍ فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان٣٤).

●●●

٢٨١.﴿«آية المباهلة من أعلام نبوة محمد ﷺ ﴾

هي الآيـة : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾ (آل عمران)، فإنه لمّا شابه النبيّ ﷺ بين عيسى وآدم من حيث الخلقة من غير أب بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩)﴾(آل عمـران)، وجادله

النصارى، ذهب أبعد من **المشابهة** ودعا إلى **المباهلة**، فأبوا منها، ورفضوا المباهلة، وهى **الابتهال إلى الله والتضرع فى الدعاء له، والرضا باللعن للمبتهل إن كان كاذباً**.

•••

٢٨٢. ﴿أشد وأشق آية على الرسول ﷺ﴾

هى الآية ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** (١١٢)﴾ (هود) والخطاب فيها للنبىّ ﷺ، ومعنى «**استقم**» يعنى اطلب الإقامة على الدين، وامتثل لله. ولمّا سئل عن قول فى الإسلام لا يُسأل عنه أحدٌ بعده، قال: «**قل آمنتُ بالله ثم استقم**» أخرجه مسلم، ولذلك قال ابن عباس: **ما نزل على رسول الله ﷺ آية هى أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه**». ولذلك قال لأصحابه ـ أى النبىّ ﷺ ـ حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! ـ قال: «**شيّبتنى هود وأخواتها**»، وهذه الآية من سورة **هود** التى وصفها هذا الوصف.

•••

٢٨٣. ﴿الكوثر: هل هو نهرٌ وعد به النبىّ ﷺ﴾

سورة **الكوثر** مكية، وبعض القراء قالوا إنها مدنية كما سيأتى عن ذلك فى «باب **سُوَر القرآن**». وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** (١)﴾ روى أنس وعائشة **أن الكوثر نهر فى بطنان الجنة، اختص الله به نبيّه ﷺ، وبُطنان الجنة هو وسطها، وحافتا النهر قصور اللؤلؤ والياقوت، وترابه مسك، وماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل**، إلى غير ذلك من الأوصاف. وإنّا لنتساءل: **وماذا يفعل النبىّ ﷺ بالنهر؟ وهل هو يحتاج إلى نهر بكامله ليشرب منه ويرتوى؟** ثم إن القول بذلك مادى بحت، وحسّى للغاية، وقد آن الأوان للمسلمين أن يفيقوا من أمثال هذه التفسيرات والأحاديث المتعلقة بها، والحق أن **الكوثر** كما قال البخارى عن ابن عباس: هو الخير الذى أعطاه الله للنبىّ ﷺ. ولما قيل لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهرٌ فى الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه. وروى سعيد عن ابن عباس قال: **الكوثر الخير الكثير**. وهذا التفسير لأن الكوثر من **الكثرة** وهى الخير الكثير. وقال مجاهد: الكوثر هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: الكوثر منه **الكثرة**، وهى النبوة والقرآن وثواب الآخرة. وقال عطاء: الكوثر حوض فى الجنة ـ يقصد حوضاً يرد عليه المسلمون يوم القيامة. والحق أن السورة كلها كما يرد فى سياقها نزلت فى **العاص بن وائل**، وقيل فى **عُقبة بن مُعَيْط**، وقيل فى **أبى لهب** أو **أبى جهل**، وذلك أنه لما مات **إبراهيم** ابن رسول الله ﷺ من مارية، ذهب **أبو لهب** إلى المشركين فقال: **بُتِر محمد الليلة !** فأنزل الله فى ذلك: ﴿**إِنَّ**

شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣)﴾ أي مبغضك هو الأبتر، **والأبتر**: منقطع الذرية، فلا أحد من صُلبه بعد مماته يُذكّـر به، يتوهّم **أبو لـهب** أنه بوفاة ابنه سيبُـترَ النبيّ ﷺ وينقطع ذكرُه، قيل فعوّضه الله تعالى وأعطاه الكوثر، أي **الكثـرة** ـ وهى **أمـة الإسلام، تمتد من الصين إلى القارة الأمـريكية، ومن أوروبا إلى أفريقـيا، فهي كثـرة كاثرة**، كلمـا ذُكر اسـمه ﷺ، جلّوه، وعظّموه، وصلّوا عليه، وسلّموا تسليماً، فـهؤلاء هم بنوه حقاً وصدقاً، يذكرونه على رءوس الأشهاد، ويوجـبون شرعه على كافة العـباد، وبهم يظل اسمه خفّـاقاً كالعلم على دوام الآباد، وإلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

●●●

٢٨٤.﴿أصرح دليل على عموم بعثه﴾

من أصرح الدلالات على عموم بعثة النبيّ ﷺ إلى جميع الخلق، هذه الآية: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (١٥٨)﴾** (الأعراف)، والآية: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾** (الفرقان)، وفي الصحيحين ثبت أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله مـلوك الآفاق، وطوائفَ بني آدم، من عـرب وعَجَم، سواء كـانوا من أهل الكتاب أو من الأميين، امتـثالاً لأمر الله تعالى، وقال: «**والذى نفسي بيـده، لايسمع بي أحد من هذه الأمـة، يهودي ولا نصـراني، ومات ولم يؤمن بالذى أُرسلـت به، إلا كان من أهل النار**»، وقال: «**بُعثت إلي الأحمر والأسود**»، وقال: «**كان النبيّ يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة**».

●●●

٢٨٥.﴿هل رأى ربّه ؟﴾

ينسب بعض المسلمين إلى النبيّ ﷺ صفات تُخرجه عن البشرية، وهو القائل: «**أنا بشر مـن بشر**»، ومن مزاعم أصحاب هذه الدعـوى، تفسيرهم للآيات من سـورة **النجم**: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾**. ومن هؤلاء **ابن عـباس** قال: «**وقد رأى ربهّ مـرتين**» أخرجه الترمذى، وقـال: «**إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمـد وموسى، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مـرتين**»!! ومن يقل ذلك فقد أغرب. والشيخ **الشـعراوي** ذهب إلى ذلك. وعن عـائشة زوجة الرسـول ﷺ برواية مسروق: أنه دخل عليهـا وسألها: هل رأى محـمد ربّه؟ فقالت: **لقد تكلمت بشيء وقف له شَعْري!** قال: قلت: رويداً، ثم قرأت: **﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾** (النجم)، فقالت: أين **يذهب بك ؟! إنما هو جبريل !! مَن أخبرك**

أن محمداً رأى ربّه . . فقد أعظم على الله الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره فى صورته إلاّ مرتين : مرة عند سدْرة المنتهى، ومرة فى أجياد». ولقد وهم ابن عباس عندما قال : «رأى محمد ربّه مرتين»، ووهم عكرمة إذ يقول مؤكداً: قد رآه، ثم قد رآه !! ـ وعائشة كذّبت ذلك، وقالت الحق فيما أخرجه الشيخان عندما سألها مسروق هذا السؤال : سبحان الله ! لقد قَفَّ شعري لما قلتَ ! أين أنت من ثلاث، من حدّثكهن فقد كذب ؟ : من حدّثك أن محمداً أُسرى به ببدنه وفي اليقظة فقد كذب ـ ثم قرأت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ (٦٠)﴾(الإسراء) والرؤيا هى ما يتراءى فى المنام، وتكون بالنفس وليس بالجسد؛ ومَن حدثك أن محمداً رأى ربّه فقد كذب ـ ثم قرأت: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ (الأنعام)، و﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ (الشورى)؛ ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ (٦٧)﴾ (المائدة). ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. وفيما أخرجه أحمد، أن مسروقاً قال لعائشة : «أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ (التكوير)، و﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾ (النجم) ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سألتُ رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنما ذاك جبريل»، لم يره فى صورته التى خُلق عليها إلا مرتين: رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظَم خلقه ما بين السماء والأرض» أخرجه الشيخان. وهو ما ينبغى أن يكون عليه اعتقادنا، وإلا كنا نؤّله نبيّنا ﷺ كما فعل النصارى مع عيسى عليه السلام ! ثم إن عائشة أنكرت شرعاً أن يرى محمد ﷺ ربّه رأى العين، لأنه تعالى قال : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ (الشورى) وهو دليل ثان على نفى الرؤية عن النبىّ ﷺ ، إذ أنه تعالى حصر تكليمه للبشر فى ثلاثة أوجه : إما بالوحى، أو الكلام من وراء حجاب، أو يرسل إليه رسولاً فيبلّغه عنه، وفى جميع الأحوال يستلزم ذلك نفى الرؤية عنه حال التكليم، ومن ثم نفى الرؤية مطلقاً. ولا موجب من ثم أن يقول كعب الأحبار: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين !!

•••

٢٨٦.﴿كيف يكون نبياً بينما الشيعة يؤكدون أنه كتم بعض ما أمر به ولم يُطلع عليه أحداً سوى علىّ ؟﴾

أيما رسول فهو مبلغٌ عن ربّه، وفى القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة)، وأخرج البخارى عن **عائشة** فى تفسير هذه الآية : **مَن حدثك أن محمداً كتم** شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب. وفى الصحيحين عنها أيضاً قالت : **لو كان محمد كاتماً** شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية : **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴿٣٧﴾﴾** (الأحزاب). وقد نفى ابن عباس ذلك ـ فيما يرويه ابن أبى حاتم ـ لما جاءه الرجل فقال له : إن ناساً يأتون فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يُبده رسول الله ﷺ للناس ؟! فقال ابن عباس : ألم تعلم أن الله تعالى قال : **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾** (المائدة) ؟

وفى صحيح البخارى عن وهب بن عبد الله قال : قلت لعليّ بن أبى طالب : هل عندكم (يقصد الشيعة) شيء من الوحى مما ليس فى القرآن ؟ قال : **لا والذى فلق الحبّة وبرأ النسمة، إلا فَهْماً يعطيه رجلاً فى القرآن !** ـ يعنى أنه **لا عليٌّ ولا فاطمة كان عندهما شيء من القرآن كتمه النبيّ ﷺ واختصهما به كما يزعم بعض الشيعة**. والرسول ﷺ قد مَنّ الله عليه بالرسالة، وعليه البلاغ، وعلينا التسليم. والأمة الإسلامية قد شهدت للرسول ﷺ أنه أبلغ الرسالة وأدّى الأمانة، وقد استنطقهم هو نفسه بذلك فى أعظم المحافل وهو **خطبته يوم حجة الوداع**، وكان هناك من أصحابه نحو **الأربعين ألفاً**. وكما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قد قال فى خطبته تلك : «**أيها الناس ! إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون**» ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فجعل رسول الله ﷺ يرفع إصبعه إلى السماء وينكّسها إليهم ويقول: « **اللهم هل بلّغت** » ؟

●●●

٢٨٧.﴿هل على المسلم، مهما علا فى العلم، أن يمتثل أقوال النبيّ﴾

فى القرآن : **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾** (الحشر)، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قال : «**إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**». وأهل السنة على القول بوجوب الامتثال.

●●●

٢٨٨.﴿ألا يمكن أن يستغنى المسلم بالقرآن عن السنّة ؟ هل للسنّة ضرورة؟﴾

تشرح السُّنّة القرآن وتفسّره، ومن يطالب اليوم بالاستغناء عن السُّنّة بالقرآن، فقد

يدعو غداً إلى الاستغناء عن القرآن **بالعقل والعلم والحضارة**. ولا يعيب السُّنّة أن يكون ضمن أحاديث الرسول ﷺ **عددٌ من الأحاديث الموضوعة والمنسوبة إليه**، والتى غايتها إحداث البلبلة، وصرف الأمة الإسلامية عن دينها ومقصود هذا الدين فى الحياة، وأن: تقسم المسلمين طوائف وشيعاً وفرقاً. وأحكام القرآن جامعة وعامة، وحتى ما كان منها مفصّلاً، فإنه يحتاج أن يُصرف إلى ما يناسب الأمصار والأحوال والأزمان، والسنة هذه وظيفتها، وذلك هو عمل الرسول ﷺ: أن يشرح، ويفسر، ويبيّن، ويبلّغ، وينافح عن الدين. وفى القرآن يأتى عن النبىّ ﷺ: **﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴿٩٩﴾﴾** (المائدة)، **فأى بلاغ عليه؟** يقول تعالى: **﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴿٥٢﴾﴾** (إبراهيم)، يعنى بالبلاغ القرآن، ويقول: **﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾** (الجن) يعنى ليس علىّ النبىّ إلا التبليغ عنه تعالى، وإلا ما أوكله بإبلاغه. ويُشرط هذا التبليغ بأن يكون مبيناً، كقوله تعالى: **﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾** (المائدة) ولم يختص النبّى ﷺ بالبيان دون الرسُل كافة: **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾** (النحل) أى البلاغ الذى يفصح ويظهر ويوضح، وأصل **أبانَ**: وضّح، تقول: هذا الشىء بيّن: أى واضح، **والبيان**: هو الكلام الذى يكشف عن حقائق الأمور، والبيّنة: هى الحجة الواضحة، فإذا قال الله تعالى: **﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾** (الكهف) وقال لرسوله ﷺ: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾** (الفتح) فإن عليه أن يبيّن هذه الشهادة وتلك البشارة والنذارة، وهو ما تناوله ﷺ فى أحاديثه، وفيما يقال له السنة **النبوية**؛ والسنة: هى الطريقة والسيرة؛ **وسنة الله**: هى فطرته التى خَلَق الخَلْق عليها، وهى حُكمه السارى فيهم، **وسُنّة النبىّ** ﷺ هى ما يُنسَب إليه من قول أو فعل أو تقرير، وهى طريقته ﷺ: **فى فَهم** نصوص القرآن، وهى طريقة مرضية من غير افتراض ولا وجوب، **ونسبة السُّنّة إلى القرآن كنسبة القوانين إلى الدستور، والسُّنّة** تفصّل **مُجمل القرآن**، وتقيّد مُطلَقه، وتوضّح متشابهه، وتشرح ما فيه من تعاليم وما جاء به من حكَم، والرسول ﷺ قال عن نفسه: «**بُعثت معلماً**»، وجاء عنه فى كتاب الله: **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾** (النجم)، إعداداً له لرسالته التى يقول فيها: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾** (البقرة)، فأما **آياته تعالى** فهى القرآن، وأما **التزكية** فهى تعاليمه ﷺ فى الآداب التى مفادها اكتساب مكارم الأخلاق وتطهير النفوس من أدناسها ومن أفعال **الجاهلية**، ويندرج ذلك تحت

الحكمة: وهي السنة النبوية المطهرة، ووصفُنا لها بالمطهرة تنقيةً لها من الأحاديث الموضوعة، وهي التي تخالف القرآن، وتتخالف والعقل، وينكرها القلب المؤمن. وقوله تعالى: ﴿**ويُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ أنه ﷺ وسّع مداركهم حتى صاروا أعمق الناس علماً، وأبرّهم قلوباً، فكانت تعاليمه أو سُنّته ﷺ كما قال: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)**﴾ (آل عمران). فكأن السُنة منّة من الله تعالى، ومَن لم يعرف قدر هذه النعمة فهو المذموم المدحور، ويقول فيه الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)**﴾ (إبراهيم) يعنى بنعمة الله محمداً المجسِّد للسُنة المُطهّرة، ولهذا ندب المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة وأن يقابلوها بالذّكر والشكر، فقال ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)**﴾ (البقرة) ـ ولماذا؟ والجواب: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ (١٥١)**﴾ (البقرة)، يعنى كما فعلت ذلك فاذكرونى. **والمسلم إذن عليه الأخذ بالسُنّة فهذا من الإيمان بالله**، والرسول فى تعاليمه هو الأسوة لنا بنصّ القرآن: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١)**﴾ (الأحزاب)، والأنبياء عموماً قدوة، كقوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ (٨٩)**﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (٩٠)**﴾ (الأنعام)، **والقدوة** اتباعٌ للهدى، وهدى نبينا هو السُنة، ونبينّا ليس عمله التبليغ فقط، وإنما هو **المقيم للإسلام**، وهو **يجسّد** القرآن، وكانوا يسألون عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ، فتقول: «**هو القرآن**»، وكان المسلمون الأوائل يقولون: إنهم لا يقرأون القرآن قراءة وإنما يتدبرونه ويعايشون آياته، كما كان يفعل رسول الله ﷺ، فقد كان ربّانياً يعايش القرآن في حياته وواقعه، فيساوى بين **النظرية والتطبيق**، ويحيل الآيات واقعاً ممكناً.

والسُنة **نظرية وعملية**، وهى واقع فكرى واعتقادى، وفلسفى، وأخلاقى وجمالى، واقتصادى واجتماعى، وتربوى وقانونى، وتشمل كل مجالات الحياة ونواحي الحضارة. والأخذ بها طاعة لله أولاً ولرسوله ثانياً، وقد ورد الأمر **بطاعة الله ورسوله معاً سبع مرات** فى القرآن، ووردت **طاعة الله فقط خمس مرات**، **وطاعة الرسول ست مرات**، وقُرنت طاعته ﷺ بتقوى الله **إحدى عشرة مرة**، وجاء الأمر باتّباعه **تعالى واتباع رسوله** ﷺ بالإضافة إلى أولى الأمر مرة واحدة **فى قوله**: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)**﴾ (النساء). وعدم الطاعة لله تعالى ولرسوله تؤذن بالتنازع والفشل (الأنفال ٤٦)، والطاعة لهما على العكس مردودها الرحمة (آل عمران ١٣٢)، وفيها الفوز العظيم

(الأحزاب ٧١)، وثوابها الجنة (الفتح ١٧)، والذين يطيعون: هم الذين أنعم الله عليهم (النساء ٦٩)، وعدم الطاعة مآلها العنت (الحجرات٧)، وطاعته ﷺ من طاعة الله (النساء ٨٠)، والأمر بها لأن الرسول هو الأمين على دعوة الله (النساء ١٢٦)، والسمع والطاعة واجبة على الجميع (التغابن ٦)، وهي على النساء كما على الرجال (الأحزاب ٣٣)، ولم يكن إرسال الرسُل إلا ليطيعهم الناس بإذن الله (النساء ٦٤)، والرسُل صادقون لأنهم لا يتقاضون أجراً على البلاغ، وإنما أجرهم على ربّ العالمين (الشعراء ١١٠)، وبرهان محبة الله اتّباعه ﷺ: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾** (آل عمران)، والسمع والطاعة والاتّباع لتعاليم الرسول ﷺ هو الأخذ بالسُّنَّة، **فالسنة على ذلك هي لب الإسلام، وجوهر الدين، ومناط المسلم**، والاعتقاد فيها، والعمل بمقتضاها **ضرورة قرآنية**، وإنكارها أو إهدار العمل بها هو إنكار للإسلام، وإهدار للقرآن نفسه، وتضييع للدين. وقانا الله شرّ ذلك، وجعلنا من أوائل العاملين بها آمين.

●●●

٢٨٩ ﴿طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله﴾

يقول تعالى: **﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)﴾** (النساء)، فاعلم يا أخي أن طاعة رسوله طاعةٌ له تعالى، وفي الحديث: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**».

●●●

٢٩٠. ﴿أحكامه وأحاديثه الصحيحة واجبة﴾

من دلائل ضرورة السُّنَّة الصحيحة ووجوب الأخذ بأقوال وأحكام الرسول ﷺ، الآية: **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢)﴾** (آل عمران) فقرن طاعته تعالى بطاعة رسوله؛ والآية: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ (٦٤)﴾**(النساء)، فقضى بطاعة كل الرسل، وقال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (٤)﴾**(إبراهيم)، فحدد مهمة الرسول بأنها لبيان ما أنزله الله، **فال الله تعالى** فرض الصلاة، **فطاعة الله أن يصلي الناس، والرسول ﷺ بيّن لنا ماهية الصلاة، وعدد الصلوات، وكيفيتها، ومايقال فيها، والتجهيز لها، وعدد ركعاتها، وطاعة الله إذن تكملها طاعة رسوله ﷺ**، كما في قوله تعالى: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾**(النساء)، فَشَرطَ الإيمان بالرضا بأحكام النبيّ ﷺ، والتسليم بأقواله، والمصادقة

على ما حدّث به ، وكل من طعن فى حكم أو حديث صحيح للنبيّ ﷺ فهو ردّة ويُستتاب. وكان نزول هذه الآية الأخيرة لنفى الادعاء بأن النبيّ ﷺ يحكم على الناس من أجل قرابته، وفى الآية: ﴿ **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩)** ﴾(النساء) كادت تُقطع يد يهودى فى سرقة أتُّهم بها ظُلماً، فقضى الله تعالى بأن يحكم رسوله بما أراه الله ـ أى بقوانين الشرع، وبالنصّ المُوحَى به، أو بالنظر الجارى على سُنَن الوحى، فاستنّ بذلك أصلاً للقياس، وهو دليلٌ على أنه ﷺ **إذا رأى رأياً وقضى بحُكم أصاب**، لأنه الله تعالى أفهمه إياه ووعّاه به، وضمن له العصمة كأنبيائه. وفى الآية إضمار، وهو أن يمضى الرسول ﷺ على ما عرّفه ربّه من غير اغترار باستدلال الآخرين، وفى ذلك **دستور للقضاة** من بعد الرسول ﷺ ، ليحكموا بين الناس بما أراهم الله، **وللمحامين فلا يجادلون** عن الخائنين، ولايعاضدون أهل التُّهم ويدافعون عنهم بالحجج، وفى هذا دليل على أن **النيابة عن المتهم فى الخصومة** لاتجوز، إلا إذا عُلم أنه محق. **والمحامى الذى يدافع** عن **خصْم خوّان**، يأثم أشد الإثم، وكذلك **شهود الزور** الذين يبيّتون ما لايُرضى الله من القول، والله يعلم بما يبيّتون.

●●●

٢٩١.﴿الطاعة لله وللرسول وأولى الأمر﴾

الآية : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)**﴾ (النساء) **دستورٌ إسلامى**، وللأمم دساتير ترجع إليها فى أحكامها، والدستور **مبادئ عامة**، ودستور أمة الإسلام هو القرآن والسُّنّة، ومن هذين يستنبط أولو الأمر، وعلى هَدْى ما فيهما يقيسون، وإلى نصوصهما يحتكمون ويقضون بما فهموه عقلاً وموضوعاً. **والطاعة للحاكم إذن، ولأية قوانين تصدرها المجالس النيابية، واجبة فيما كان لله فيه طاعة، ولا تجب فيما كان لله فيه معصية. وأولو الأمر هم أهل الاختصاص** الذين يدبّرون أمور الناس وسياسة الحكم، ويصدرون القوانين وينفذونها ويقضون بين الناس، ويفرقون بين الحق

والباطل، والصواب والخطأ، ويهدون الناس ويعلّمونهم ويبصّرونهم ويوعّونهم. وفى الحديث: «**لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق**». وسؤال **أهل العلم وأصحاب الحلّ والعقد** واجبة، وهم **الأدرى** بما فى كتاب الله وسُنة نبيّه. **والطاعة لله**: أى لما فى كتاب الله، **وللرسول**: أى لما أتت به السُنّة الصحيحة المؤكّدة الموافقة لكتاب الله وللعقل السليم. **والطاعة لأولى الأمر**: أى لما يقضى به العلم والخبرة والحنكة والدراية والحكمة. **والطاعة** امتثال للأوامر، **والمعصية** ضدها. ومعنى أن يطيع أن ينقاد، والمعصية مأخوذة من **عصى** يعنى اشتدّ؛ **وأولو** واحدهم «ذو» على غير قياس؛ **والتنازع** فى الشيء من النزع أى الجذب، **والمنازعة** مجاذبة الحجج، **والتنازع** التجادل والاختلاف. وردّ الشيء إلى هؤلاء إن كان المنازع فى هذا الشيء يؤمن بالله والرسول أصلاً، ويثق فى أولى الأمر. **والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل**، ويقوم **الاجتهاد والاستنباط** على مصداقية هذه المراجع الثلاثة: «الله، والرسول، وأولو الأمر»، كقوله: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ (٨٣)﴾** (النساء)، وأما ما كان الله يستأثر بعلمه ولم يُطلع عليه أحداً من خَلقه، فذلك الذى يُفتى فيه بقول: «**الله أعلم**». وفى الرواية أن الرسول ﷺ مدافعاً عن السنة قال: «**أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرّم شيئاً إلا ما فى هذا القرآن، ألا وإنى والله قد أُمرت ووُعظت ونُهيت عن أشياء، إنها لَمثل القرآن أو أكثر**» أخرجه أبو داود والترمذى.

•••

٢٩٢. ﴿دفاعاً عن السنة﴾

من أقوال رسول الله ﷺ: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحُسْن، المغيّرات خَلْق الله**» روى ذلك ابن مسعود، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت لابن مسعود: بلغنى أنك لعنت كيت وكيت! قال: وما لى لا ألعن ما لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله؟! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين (أى صفحتى غلاف المصحف) فما وجدت فيه ما تقول؟! فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأت: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾** (الحشر). قالت: بلى. قال: فإنه **قد نهى عنه**. وكما ترى أنها سألته سؤالاً فلم يجبها عمّا سألت، فمن قال إن الرسول ﷺ قال هذا الحديث؟ والحديث يتعارض مع أحاديث أخرى للنبىّ ﷺ **يأمر المرأة التى مدّت يدها لتسلّم عليه بأن تزيّنها حتى يعرف أنها يد امرأة وليست يد سبع**؛ وأحاديث لعائشة **تأمر النساء أن يتزيّن**

لأزواجهن حتى لو بلغ الأمر أن تقلع عيناً من عينيها لتضع مكانها أخرى، ونفت عائشة أن يكون الرسول قد قال هذا الحديث الذي ذكره ابن مسعود. وأمثال هذه **الأحاديث الموضوعة** تلبّس على معاني القرآن ولا تفسره. والمرأة أصابت وأخطأ ابن مسعود.

•••

٢٩٣. ﴿ما معنى الصلاة على النبيّ؟!﴾

في **التوراة اليهودية** يأتي في **تثنية الاشتراع**، الفصل الثاني والثلاثين: أن الله يميت موسى غير راض عنه، لأنه لم يقدّس الله بين بني إسرائيل؛ وفي **الأناجيل**، يتخلى الله عن المسيح لأنه قال عن نفسه أنا ابن الله، فيصرخ المسيح: **إلهي إلهي، لماذا تركتني ؟!**

وأما نبيّ الإسلام فقد شرّفه الله بالآية: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾** (الأحزاب)، فأمر الله المؤمنين أن يصلوا على النبي تشريفاً له، لأنه بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وجاهد في سبيل الله، وعلّم فكان نِعْم المعلّم، وأرشد فكان نعم المرشد.

وصلاة الله عليه: هي ثناؤه عليه، مثل هذا الثناء الذي في الآية: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾**(الأنبياء١٠٧)؛ **وصلاة الملائكة عليه**: هي أن يدعوا له عند ربّهم؛ **وصلاة المؤمنين عليه**: هي أن يذكروه دوماً ويتأسّوا به. وليست الصلاة عليه تعبّداً له، وتأليهاً وتقديساً، كما فعل **اليهود في** تأليههم وتقديسهم **لشعبهم**، وكفعل **النصارى** مع نبيّهم فجعلوه ابن الله، وإنما الصلاة عليه هي مكافأة ينالها كلّ عبد صالح بالدعاء لمن أرشده إلى الصلاح. والصلاة على النبيّ ليست وقفاً على رسول الله ﷺ، ولم يكن النبي بدعاً بين عباد الله، والله تعالى يقول: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾** (الأحزاب)، يعني أنه تعالى يصلي كذلك على المؤمنين، أي يذكرهم، فوجب عليهم أن يذكروه، وأن يشكروا له صلاته عليهم، كقوله: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾** (البقرة)، وفي الحديث عن الله تعالى: **«من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»**، **والصلاة من الله** هي هذا الذكر وذلك الثناء، وهي منه تعالى **على النبي وعلى** المؤمنين سواء، بمعنى الرحمة، وهي من **الملائكة**: الدعاء والاستغفار للنبيّ أو للمؤمنين كما في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)﴾** (غافر). وقوله تعالى **﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (٤٣)﴾**

(الأحزاب) أي بسبب رحمته بالمؤمنين وثنائه عليهم ، وبسبب دعاء الملائكة والناس لهم، يكافئهم بأن يخرجهم من ظلمات الجهل والضلال، والغي والهوى، والظلم والطغيان والضياع، إلى نور الهدى واليقين والعلم والعقل. وقوله تعالى في الآية: **﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١٥٧)﴾** (البقرة)، أي عليهم الثناء من الله وفي الحديث : «**إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف**». **فالصلاة من الله تعالى على النبيّ أو على المؤمنين جائزة**، وهي على المؤمنين كما هي على نبيّهم، بحُسن الذكر له، والأخذ عنه، والدعوة إلى ما كان يدعو، والتحلّي بما كان يتحلّى به، والتزام سُنّته الصحيحة. **والفرق بين الصلاة على النبيّ، والصلاة على المؤمنين**، أن الصلاة على النبيّ من الله **تعالى والملائكة والمؤمنين**: بينما على المؤمنين **من الله تعالى والملائكة والرسول** ﷺ ولقد نعلم أن نطلب المغفرة للمؤمنين إن جاء ذكرهم، والبعض قد يفرد بعض المؤمنين **بالسلام**، وكثيراً ما يقال : **عليّ** عليه السلام، وعادةً **يُفَرد الأنبياء بالسلام**، كقوله تعالى: **﴿وسلام على عباده الذين اصطفى(٥٩)﴾**(النمل) ،فيقال نوح، أو عيسى، أو موسى، **عليه السلام**، كقوله تعالى: **﴿سلام على موسى وهارون (١٢٠)﴾**(الصافات)، وأما محمد فيقال : صلى الله عليه وسلم، فيُفرَد بالصلاة والسلام، كقوله: **﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦)﴾**(الأحزاب). وفي الأحاديث المتواترة أنه قيل له ﷺ : يارسول الله ! أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة ؟ قال: «**قولوا، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**» - يقصد بذلك الصلاة كما في التحيات ، وأما **السلام** فهو ما تعلمناه عنه ﷺ في التشهُّد ، نقول : **السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته**».

ومن الروايات في الصلاة على النبيّ ﷺ ما هو صحيح، ومنها ما هو سقيم يدخل في حيز الكذب على رسول الله ﷺ ، وقد يتزيّد البعض، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص، وربما الخسران. ومع أن هذه الصلاة على النبيّ التي في التحيّات من السنن والمستحبات، إلا أنها غير واجبة التشّهد، بدعوى ما كان عليه السلف، **فابن مسعود** لم يكن يصليّ على النبيّ في تشهُده، **وابن عمر** قال : إن **أبا بكر**، كان يعلّمهم التشهُد وهو على المنبر كما يُعلّم الصبيان في الكُتّاب، وليس فيه ذكر الصلاة على النبيّ، ولم يكن عمر يعلّم الناس الصلاة على النبيّ في التشهد.

وهذا كلام منكر، وربما منحول. والصحيح أن الصلاة عليه ﷺ ذكرٌ له، وإذا كان

الله تعالى وملائكته يصلون عليه، وقد دعانا تعالى للصلاة عليه، **أفلا يكون ذلك أدعى لأن نفعل ذلك** ؟ وعن النبيّ ﷺ قال : «**البخيل من ذُكرت عنده ثم لم يصلّ عليّ**» ، وقال : **إن أبخل الناس مَن ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ**»، أو قال : **بحسب أمرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصلىّ عليّ**». وذلك دليل على وجوب الصلاة عليه كلما ذكر نقول : **اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه**» ، أو «**صلّى الله عليه وسلم**». وهو مذهب طائفة من أهل العلم، أو قد يُصلّى عليه في المجلس الواحد مرة واحدة ثم لا تجب في بقية هذا المجلس بل تُستحب. **ولم يطلب الله من المؤمنين الصلاة على أحد إلا على النبيّ** ﷺ ، وعن **عمر بن عبد العزيز** أنه كتب لولاته : إن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عَدْل الصلاة على النبيّ ﷺ . فلتكن الصلاة على النبيين، وليكن الدعاء للمسلمين عامة، ويَدَعوا ما سوى ذلك»، فنبّه إلى أن **الصلاة لا تكون للحاكم ولا تكون للمؤمنين من المؤمنين، وإنما هي خاصة الأنبياء** ـ وحتى الأنبياء لم يطلب منا الله تعالى أن نصلّي عليهم، وجعل الصلاة على النبّي خصيصة له وحده، وهي مكرمته عند الله تعالى، وأما الأنبياء فكلما ذكرنا نبياً نقرن اسمه بقولنا «**عليه السلام**». وشَرَط البعض أن يُجمع في الصلاة على النبيّ ﷺ بين **الصلاة والتسليم**، فلا نقتصر على أحدهما، **ولا نقول صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط**، وذلك مفهوم الآية ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٥٦)﴾(الأحزاب).

•••

٢٩٤.﴿أول غزوة غزاها﴾

هي غزوة **ودّان**، غزاها بنفسه في **صَفَر**، وذلك أنه وصل إلى المدينة **لاثنتى عشرة ليلة من ربيع الأول**، وأقام بها بقية ربيع الأول وباقي العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة، ثم خرج في صفر واستعمل على المدينة **سعد بن عبادة**، حتى بلغ **ودّان**، فوادع (يعني صالَح) **بني ضَمْرة**، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً، وهي المسماة **بغزوة الأبواء**.

•••

٢٩٥.﴿بدر أول قتال قاتله﴾

يقول تعالى : ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (١٢٣)﴾ (آل عمران)، وبدر كانت يوم سبعة عشرة من رمضان، **يوم جمعة، بعد الهجرة بسنة ونصف**، وهي ماء سُمّي به الموضع، وكان لرجل من جُهينة اسمه بدر، وكان المسلمون **ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو أربعة عشر، أو تسعة عشرة رجلاً**، وكان عدوهم ما بين **التسعمائة إلى**

الألـــف، فنصرهم الله يوم بـدر، وقُتل فيـه صناديد المشركين، وعلى ذلـك اليوم ابتُنى الإسلام، وكان أول قتال قاتله النبىّ ﷺ، وحضرته الملائكة ولم تقاتل، **لأنها لا تقاتل،** وكانوا **ثلاثة آلاف،** ووعدهم ربهم إن صبروا أن يكونوا **خمسة آلاف،** وكانت الفائدة فى حضور الملائكة أن تسكن قلـوب المؤمنين، فذلك قوله: **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ⑨﴾** (الأنفال)، فقد استقبل النبىّ ﷺ القبلة ومدّ يديه وجعل يهتف بربّه: «**اللّهم انجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد فى الأرض**».

●●●

٢٩٦.﴿كم غزوة قاتل فيها﴾

غزا رسول ﷺ **سبعاً وعشرين غزوة**، وكانت سراياه **ستاً وخمسين**، وقيل **ستاً وأربعين**. وقاتل فى تسع منها، وقيل فى **اثنتى عشرة**، وهى: **بدر، وأُحد، والمريسيع، والخندق، وخيبر، وقريْظة، والفتح، وحنين، والطائف،** وقيل: قاتل أيضاً فى **بنى النضير**، وفـى **وادى القـرى**، منصرفه من خيبر، وفى الغـابة، وهى موضع قرب المدينة من ناحية الشام.

●●●

٢٩٧.﴿نعيت إليه نفسه﴾

كان نعيُّه الآية: **﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ㉚﴾** (الزمـر)، **والميّت** بالتشـديد الذى سيموت، **والميْت** بالتخفيف من فارقته الروح، وقيل الآية لما نزلت **نَعَتْ إلى النبىّ** ﷺ **نفسَه، ونَعَت إلى الناس أنفسهم،** يعنى الموت مقدرٌ على الإنسان فى الدنيا، سواء كان نبياً أو كان من عامة الناس وسوادهم، وهدفها **التحـذير من الآخرة،** والحثّ على العمل فى الدنيا، والتذكير توطئةً للموت، **ولئلا يختلفوا فى موته** كما اختلفت الأمم فى غيره، حتى أن **عمـر بعد ذلك** لما أنكر موته، احـتج عليه **أبو بـكر** بهذه الآية، فـأمسك. ثم إن الآية تسوّى بين النبىّ ﷺ والناس إزاء الموت، ولا تجعل منه أسطورة **كأسطورة النصارى عن موت عيسـى وقيامه،** وإذا استشعر الناس أن لا تفاضل بينهم فى الموت، كثرت فيه السلوة وقلت الحسرة.

●●●

٢٩٨.﴿سورة الفتح نعته إلى نفسه﴾

نزلت **سورة الفتح** بِمنًى فى **حِجّة الوداع**، فقرأها النبىّ ﷺ على أصحابه، ومنهم

أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص، ففرحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبيّ ﷺ : «ما يبكيك يا عمّ؟ قال : نُعيتْ إليك نفسك. قال : «إنه كما تقول». فعاش بعدها ستين يوماً. وقال ابن عمر: نزلت بعدها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا (٣)﴾ (المائدة)، فعاش بعدها النبيّ ﷺ ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾ (النساء) فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ (التوبة) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ (البقرة) فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً.

●●●

تمّ الباب الثاني بحمد اللهّ ومنّته، ويتلوه الباب الثالث فى «الإيمان والإسلام فى القرآن».

●●●

الباب الثالث
﴿الإيمان والإسلام﴾
﴿أولاً: الإيمان في القرآن﴾

●●●

٢٩٩. ﴿ماهية الإيمان﴾

يأتى عن الإيمان فى القرآن خمساً وأربعين مرة، وله فلسفة خاصة عند أهل الفكر من المسلمين استنبطوها من آيات القرآن. والإيمان قولٌ وفعل، واعتقادٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، ويغلط من يقول إنه اعتقاد ونطقٌ فقط، أو نطقٌ فقط، وإنما الإيمان هو العمل والنطق والاعتقاد جميعاً، والعمل شرط فى صحته وكماله. ويطلق البعض على الإيمان إقرار المقر، فمجرد الإقرار إيمان، فإذا نفوا الإيمان فبالنظر إلى كماله، يعنى بالنظر إلى أنه ليس إيماناً كاملاً، ومن يطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه يفعل فعْل الكافر، وأهل الرأى - ومنهم المعتزلة - وسط، وعندهم الفاسق لامؤمن ولاكافر. والإيمان - كتصديق - يزيد وينقص بكثرة النظر، كقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ (٤)﴾ (الفتح)، وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١)﴾ (المدثر)، وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا (١٢٤)﴾ (التوبة)، وقوله: ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا (١٧٣)﴾ (آل عمران). ويزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية. والحب والبُغضُ فى الله من الإيمان، وأفضل الأعمال الحبّ والبُغض فى الله، ولايجد الواحد «صريح الإيمان» حتى يحب ويبغض لله.

وللإيمان فرائض وشرائع وحدود وسُنن، من يستكملها يستكمل الإيمان، والفرائض هى الأعمال المفروضة، والشرائع هى العقائد الدينية، والحدود هى المنهيات، والسنن هى المندوبات.

والإيمان يقين، ولذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾ (البقرة)، يعنى ليزداد يقينى، ويزداد إيمانى. وفيما يُروَى عن معاذ بن جبل قوله لصاحبه: اجلس بنا نؤمن ساعة»، فيجلسان فيذكران الله ويحمدانه، فالإيمان يزيد بذكر الله، والذكر يجددّ الإيمان، والمؤمن يؤمن أولاً فرضاً، ثم يكون أبداً مُجدّداً كلما نظر أو فكر، وتجديد الإيمان إيمان. وفى الدعاء: اللّهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً، واليقين هو أصل الإيمان، وإذا أيقن القلب انبعثت الجوارح للقاء الله بالأعمال الصالحة. وحجة القائلين أن الإيمان لا يستلزم العمل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ (٣١)﴾ (إبراهيم)، فسمّاهم مؤمنين قبل إقامة الصلاة. وقيل الإيمان بمعنى التصديق لايزيد ولاينقص، وحجة من قالوا ذلك

وأنكروا أن يزيد وينقص، أن التصديق لايقبل الزيادة ولا النقصان، لأنك فيه **إما تصدّق أو لا تصدّق**، ولذلك يطلق عليه اسم «**الإيمان المطلق**»، بعكس« **مطلق الإيمان**»، حيث يُطلق على الناقص والكامل من الايمان، ولهذا نفى رسول الله ﷺ **الإيمان المطلق** عن الزانى وشارب الخمر والسارق، ولم ينفِ عنهم **مطلق الإيمان**.

والإيمان بمعنى **الإقرار** يسمى «**الإيمان المجمل**»، لأنه يجعل الإيمان فى الشهادة، **والتصديق** فيه بمعنى الحكم، أي الإقرار. و«**الإيمان الكامل**» هو بلا خلاف القائم على **التصديق والإقرار والعمل**، ويسمى «**الإيمان المنُجى**» أيضاً، لأنه يُنجى من دخول النار. **والإيمان الإرادي**: موضوعه مسائل الدين التى تتجاوز العقل وتخرج عن نطاق العلم، ولايكون الاعتقاد بها إلا بالإرادة التى يوجهها الله بهداه. **والإيمان الواجب**: إيمانٌ اعتقادى حيث لايمكن البرهنة على وجود الله، ومع ذلك هناك مصادر الإيمان الضرورية التى يرتكز عليها اعتقادنا بوجود الآمر الخُلقى وهو الله. **والإيمان الفطرى**: هو الذى لا أساس له، وإنما تقتضى الحكمة أن نأخذ به ونعوّل عليه، طالما أنه لايوجد ما يمكن البرهنة به على وجود الله.

وعموماً فالإيمان فى القرآن يمكن إجماله على خمسة أوجه : **فإيمان مطبوع**: هو إيمان الملائكة؛ **وإيمان معصوم**: هو إيمان الأنبياء؛ **وإيمان مقبول**: هو إيمان المؤمنين؛ **وإيمان موقوف**: هو إيمان المبتدعين؛ **وإيمان مردود**: هو إيمان المنافقين. **والإيمانية**: وجهة النظر التى تبنى الاعتقاد فى الدين على الإيمان وليس على الدليل والبرهان. والإنسان لايبلغ حقيقة التقوى حتى يدع ما يحيك فى صدره، ومعنى ذلك أن بعضنا يبلغ كنه الإيمان وحقيقته، بينما بعضنا الآخر لا يبلغهما، وفي الحديث : «**لايكون الرجل من المتّقين حتى يدع مما لا بأس به حذراً لما به البأس**» ، وفى تفسيره أن التقوى التامة ـ وهى الوقاية عن الشرك وسيىء الأعمال، والمواظبة على الصالح منها ـ هى أن نتقى الله حتى أننا لنترك ما نرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً . وفى الآية: ﴿**مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**(٧٧)﴾(الفرقان)، قيل معنى «دعاؤكم» إيمانكم، والدعاء عمل، ومن ثم يكون **الإيمان عمل**. وفى الحديث: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**» ـ وفى رواية «**بضع وسبعون شعبة**»، **والشعبة** هى الخصلة، و«**الحياء**» خصلة فهو شعبة من الإيمان كما سنرى من بعد، لكونه باعثاً على معنى الطاعة، وحاجزاً عن فعل المعصية. غير أنه فى المثل: **رُبَّ حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير**؛ وهذا الحياء ليس هو الحياء الشرعى، لأنه فى الحياء الشرعى، يخاف الحيِّى فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر. **وشُعَب الإيمان** تتفرع عن

أعمال القلب واللسان والبدن؛ **فأعمال القلب**: **هي المعتقدات والنيّات**، وتشتمل على **أربع وعشـرين خصلة**، هي: الإيمـان بالله، وبذاته وصفاته، وتوحيده؛ والإيـمان بملائكته، وبكتبه وبرسُله؛ والإيمان بالقدر خيره وشـرّه؛ والإيمان باليوم الآخر؛ وبالبعث والنشور؛ وبالحساب والميزان؛ وبالصراط؛ والجنة والنار. ومن خصل الإيمان: مـحبة الله ومحبة النبيّ ﷺ؛ ومنها الإخلاص بمعنى ترك الرياء والنفاق؛ والتوبة؛ والخوف؛ والرجاء؛ والشكر؛ والوفـاء؛ والصبـر؛ والرضـا بالقـضاء؛ والتـوكل؛ والرحـمة؛ والتـواضع؛ وترك الكبـر والعُجب؛ وترك الحسد؛ وترك الحقد، وترك الغضب. فهذه **أربع وعـشرون خصلة**. وأما **أعمـال اللسان**: فتشتمل على سـبع خصال، هي: التلفظ بالتوحيد؛ وتلاوة القرآن؛ وتعلُّم العلم؛ وتعليمه؛ والدعاء؛ والذكر وفيه الاسـتغفار؛ واجتناب اللغو. وأما **أعـمال البـدن**: **فخصالها ثمان وثلاثون؛ مايختص منها بالأعيان خمس عشرة**، هي: **التطهُّر حسّاً وحُكماً**، ومنه اجتناب النجاسات؛ وستر العورة؛ والصـلاة فرضاً ونفلاً؛ والزكاة؛ والعتق؛ والجود - ومنه إطعام الطعـام وإكرام الضيف؛ والصيـام فرضاً ونفلاً؛ والحج؛ والعـمرة؛ والطواف؛ والاعتكاف؛ والتمـاس ليلة القدر؛ والفرار بالدين والهجرة من دار الشـرك؛ والتحرّي في الإيمان؛ وأداء الكفّارات. **وما يختص منهـا بالاتباع: ست خصال**، هي: التعفف بالزواج؛ والقيـام بحقوق العـيال؛ وبِرّ الوالدين واجـتناب العقوق؛ وتربـية الأولاد؛ وصلة الرحم؛ وطاعة الأكـابر. **ومايختص بالجـماعة والدولة سبع عـشـرة خصلة**، هي: العـدل بين الناس؛ ومتابعة الجماعة؛ وعدم الخروج على الحكومات؛ والإصلاح بين الناس؛ والمعاونة على البر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وإقامة الحدود؛ والجهاد والمرابطة؛ وأداء الأمانة؛ وأداء الضرائب العامة؛ والوفاء بالديون، وإكرام الجار؛ وحُسن المعاملة؛ وجمع المال من الحلال، وإنفاقه في الحـلال، وترك التبذير والإسراف؛ وردّ السلام؛ وتشمـيت العاطس؛ واجتناب اللهو؛ وإماطة الأذى عن الطريق.

فهذه **تسع وستون** خصلة، وقد يُضم بعضها إلى بعض أو يُفرد بعضها دون البعض، فتـصبح **تسعـاً وسبـعين** خصلة، أو أقل من ذلك أو أكثـر من ذلك. وأعلى هذه الخصال جميعها إقرارك **بأن لا إله إلا الله**، **فهذه هي كمال الخصال** التي ينبّه إليها القرآن كما سنرى من بعد، **وأدناها** إماطة الأذى من الطريق.

ومن الإيمان **أن**: **يحب المرء للناس ما يحبه لنفسه**، وفي الحديث عن أنس: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه**»، وفي رواية: «**مايحب لنفسه من الخير**». والحديث يتناول **حقيـقة الإيمان**، أي **الكمـال**، فالذي يحب للناس ما يحبه لنفسه هو هذا الذي بلغ

حقيقة الإيمان. والمحبة هي إرادة ما نعتقد أنه خير، وميل إلى ما يوافق المحب، وقد تكون المحبة بالحواس أو بالفعل، أو بالإحسان كجلب نفع أو دفع ضرر. وظاهر الحديث طلب المساواة بين الناس، والمساواة هدف من أهداف الإسلام، وركن من أركان الإيمان، وحقيقة المساواة تستلزم التفضيل، فإذا أحب لأخيه مثله فقد دخل في جُملة المفضولين. ومن مفهوم الحديث: أن من الإيمان كذلك: أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر.

ومن الإيمان في الإسلام حب الرسول ﷺ، وفي الحديث: «فوالذى نفسى بيده، لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده». وفي رواية عند أنس: «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». ومقصوده ﷺ هو حب الاختيار وليس حبّ الطبع. ومن لا يجد من نفسه ذلك الحب للرسول ﷺ لايكمل إيمانه، فلما قال له عمر: لأنت يارسول الله أحبّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي! قال: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك!» وهذا النمط من المحبة هو المحبة الراجحة، أي التي ترجح على غيرها. وعنه ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار». رواه أنس. ومحبة اللّه على قسمين: فرض وندب؛ فالفرض: المحبة التي تبعث على امتثال أوامره تعالى والانتهاء عن معاصيه، والرضا بما قدّره؛ والندب: أن يواظب على النوافل، ويتجنّب الوقوع في الشبهات. وكذلك محبة الرسول ﷺ على قسمين كما تقدم، فلا يسلك إلا طريقته - أي طريقة الرسول ﷺ - ويرضى بشريعته. ومن يجاهد نفسه على ذلك يجد حلاوة الإيمان. فهل للإيمان حلاوة؟ أجل: هي استلذاذ الإيمان، فتحصل له من خلال الطاعة محبة اللّه، وكذلك الرسول. وحقيقة الحب في الله أن لا يزيد البر ولاينقص بالجفاء.

والإيمان بالقول وحده لايتم إلا بانضمام الاعتقاد إليه، والاعتقاد فعل القلب. وفي الآية: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(٢٢٥)(البقرة) أي بما استقر فيها، فلا مؤاخذة إلا بما ينعقد به القلب، والقلب مناط العلم، والعقل للإدراك، فما ندركه لايدوم إلا إذا استقر في القلب، وباستقراره فيه يصبح علماً، وكان الرسول ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا: إنا لسنا كهيئتك يارسول اللّه. إن اللّه قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر. فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» - فيظهر من قوله أن العلم باللّه درجات، وأن البعض فيه أفضل من البعض، وأن النبيّ ﷺ في أعلى الدرجات، وأن العلم باللّه هو العلم بصفاته وأحكامه ومتعلقاتهما، وهذا هو الإيمان حقاً.

ومعرفة الله واجبة. والقلب مناط المعرفة، والإسلام على مذهب أن أفعال القلوب يؤاخذ بها إن استقرت، ولاينافي ذلك قوله ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي عمّا حدّثت به أنفسها، ما لم تكلم به أو تعمل**» - يعني ما لم يستقر في القلب.

وغضب رسول الله ﷺ في الحديث الأسبق من جهة أن حصول الدرجات لايوجب التقصير في العمل، بل يوجب الازدياد شكراً للمنعم، على قدر الطاقة والوسع، مما يسهّل عليهم الدوام عليه، يقول: «**أحَبُّ العمل إلى الله أدومه**». وعلى ذلك فإذا كان العلم كما في السابق يرقّي صاحبه، فكذلك الأعمال الصالحة ترقّي صاحبها إلى المراتب السنية، وليس أدعى للإنسان إذا بلغ الغاية في العبادة أن يواظب عليها استبقاءً للنعمة، واستزادة للشكر عليها، وطلباً للكمال الإنساني، والرسول ﷺ له هذه الرتبة العلية، فقد قال في العلم «**أعلمكم**»، وقال في العمل «**أتقاكم**»، وفي رواية قال: «**وأعلمكم بالله لأنا**» وقال «**والله إنّ أبركم وأتقاكم أنا**» قالهما تأكيداً.

ومن الإيمان: الحياء كما سبق، وفي الآية: ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ** (٥٣)﴾(الأحزاب)، والحياء كالإيمان يمنع من ارتكاب القبائح فلما مرّ رسول الله ﷺ على الرجل يعظ أخاه في الحياء، قال: «**دعه، فإن الحياء من الإيمان**» وفي رواية: «**الحياء شعبة من الإيمان**» فسمّاه إيماناً كما يسمى الشيء باسم ما يقوم مقامه، فإن قلنا الحياء من الإيمان فهو مجاز، وفي علم النفس الحياء من خصائص الإنسان دون الحيوان، ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي فلايكون كالبهيمة، وهو انقباض النفس خشية ارتكاب ما تكره. وهو إن كان في محرم فهو واجب، وإن كان في مكروه فهو مندوب، وإن كان في مباح فهو العرفي. والحياء المباح هو الذى على وفق الشرع إثباتاً ونيةً. والمعاصي مذلة، وتركها مروءة، ومن اعتاد تركها صارت له ديانة. وفي الأمثال: **خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قُربه منك**..

والبرّ اسم آخر للإيمان، وفي الآية: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (١٧٧)﴾(البقرة)، أن التصديق وحده لايكفي في الإيمان، ولكنه التصديق مع هذه الأعمال التي حددتها الآية، وكلها تدخل في الإيمان مع انضمامها للتصديق في مسمى البرّ الذى هو الإيمان، وكان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً

رسول الله، ومات على ذلك، وجبت له الجنة، فأنزلت هذه الآية لتغيّر من هذا المفهوم. والصواب أن الآية نزلت فيمن شقّ عليه التحول من بيت المقدس إلى الكعبة فى الصلاة بعد أن نزل الأمر بذلك، فأنزل الله بيان حكمته من هذا التغيير وكان اليهود والمسلمين يتوجهون إلى المغرب قِبَل بيت المقدس، والنصارى يتجهون إلى المشرق، وتكلم الثلاثة فى مسألة القِبْلة وتحويلها، والمسلمون على القول بأن يظلوا على توجّههم لبيت المقدس، فقيل لهم: ليس البرّ ما أنتم فيه، ولكن البرّ من آمن بالله الآية، والكلام فيها ليس فى القِبْلة وإنما فى الإيمان، **وحقيقة الإيمان** العمل، ويشمل الإيمان خمس خصال، هي: الإيمان بالله، وباليوم الآخر، والملائكة ، والكُتب المنزلة، والنبيين. وأما العمل فيشمل: **أولاً**: **الإنفاق** حباً فى الأقارب واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين، ومساعدة المُكاتبين قديمًا ممن لايجدون ما يؤدونه ليتحرروا، وحديثاً **مساعدة الطلبة ممن لا يجدون المال للتعلّم**؛ **وثانياً** : إقامة الصلاة؛ **وثالثاً**: إيتاء الزكاة . وفي الحديث : «**فى المال حقّ سوى الزكاة**»، يعنى أن إيتاء المال حباً فى الفئات الست السابقة ليس من الزكاة، فالزكاة بخلافه؛ **ورابعاً**: الموفون بالعهد، ونقيضهم المنافقون؛ **وخامساً**: الصابرون على الفقر وفى حال المرض وعند نزول الشدائد والحروب، فالذين يعملون ذلك هم الكاملون كمسلمين، صدقوا فى إيمانهم بالأقوال والأفعال، وهم المتّقون، ثبت الإيمان فى قلوبهم طاعةً لله.

●●●

٣٠٠- ﴿موانع الإيمان﴾

الإيمان فطرة في الإنسان، وإنما يعوق الفطرة شيئان أو مانعان، كقوله: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾**(الكهف)، وسُنّة الأولين أن يهلكوا بأمر الله، فما كانوا يصدّقون أن العذاب حاق بالأولين، وقالوا: **﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾**(المؤمنون)، وقالوا: **﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾**(القصص)؛ والمانع الثاني عن الإيمان كان تحدّيهم أن يتنزل عليهم العذاب فيعاينوه مواجهةً، فبهذا وحده يؤمنون، وهو قوله تعالى: **﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴿٥٥﴾﴾**(الكهف) أي حالاً، كقولهم : **﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾**(الانفال).

●●●

٣٠١- ﴿لا إيمان بالإكراه﴾

في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾**(يونس) دليل على أن الإسلام لايُجبَر عليه الناس؛ ومثل ذلك قوله

تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾(الشعراء) فقد كان حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره اللّه تعالى أن الإيمان ليس بالإكراه ولكن بالامتناع، وليس قسراً ولكنه اختيار؛ وباخعٌ نفسك يعنى قاتلٌ نفسك يامحمد لتركهم الإيمان، ولو أراد الله للناس الإيمان إكراهاً لأنزل من السماء معجزة يُذلّون بها، ويلوون إليها أعناقهم إكباراً ورهباً، وذلك هو إذلال الرقاب، وإذا ذلت الرقاب ذلّوا.



٣٠٢- ﴿الإيمان: هل هو العمل؟﴾

القائلون أن الإيمان هو العمل يدللون على قولهم بالآيات: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑦② ﴾(الزخرف)، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ⑨② ﴾(الحجر)، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ⑥① ﴾(الصافات)، وهذه آيات عامة في الأعمال، وفى الحديث لمّا سُئل ﷺ : أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان باللهّ ورسوله» فدلّ على أن الاعتقاد والنطق من جملة الأعمال. فإن قيل وكيف الجمع بين هذا الحديث وتلك الآيات. والحديث الآخر الذى يقول: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»؟ والجواب أن الثابت في الآيات والحديث أن دخول الجنة بالعمل المتقبّل، بينما فى الحديث الأخير نفى أن يكون دخولها بالعمل المجرّد عن القبول، والقبول إذن شرط العمل فى الحالتين.



٣٠٣- ﴿حجة من قال: الإيمان قولٌ باللسان﴾

فى الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⑧ ﴾(البقرة)، فإن قوله تعالى﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ردٌ على من يقول: إن الإيمان قولٌ باللسان وإن لم يعتقد بالقلب ونسمع ذلك من كثير من المهنيين والصحفيين والمتعلّلين بالنطق بالشهادتين، وقديماً كانت هناك فِرَق إسلامية كالكرامية قالت بذلك، ويبدو أن أمثال أصحابنا الدكاترة فى الصحف المصرية من نسل هؤلاء الكرامية، وأكرمونا من تعاليمهم وأقوالهم بالكثير، مع أن فلسفات العمل في الفكر الأوروبى لا تُحصى ولا تُعَد. ومن الكرامية قديماً خرجت الطرايقة، والإسمافية، والهيصمية، والقائمة طويلة وتنتهى إلى أصحابنا اليوم ورأسهم المستشار إياه، ويحتج من يعرف منهم القرآن، كاحتجاج المستشرقين بالآية: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ⑤⑧ ﴾(المائدة)، يعنى المسألة عندهم مسألة قول فقط، وهذا قُصور فى الوعى وأى قصور، وجمود فى الفهم وأى جمود، وإهمالٌ لما أكده القرآن وجاءت به السنّة من العمل

مع القول والاعتقاد، وفي الحديث: «**الإيمان معرفةٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان**»أخرجه ابن ماجه، وما قاله ابن كَرام قديماً، وأصحابه التنويريون والليبراليون والعلمانيون من صحفيي هذا الزمان، هو النفاق وعين النفاق.



٣٠٤- ﴿الردّ على من قال إن الإيمان قولٌ باللسان﴾

الفِرق التى قالت الإيمان قولٌ باللسان كثيرة، وما يزال البعض حتى اليوم يردد أقوالهم دون تمحيص. قالوا: «**إن الإيمان قولٌ باللسان وإن لم يعتقد القلب**». ومن هؤلاء الفرقة التى كانت تدعى الكرامية، وتتبع **أبا عبد الله محمد بن كرام**، وكان من الزاهدين، إلا أنه انحرف عن جادة الإسلام والإيمان، واعتقد رأيه كثيرون وقالوا مقالته. وفى الآية: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾**(البقرة) ردٌّ داحض عليهم، والآية تنفى عنهم صفة الإيمان**﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾**، وفى الحديث ردٌّ آخر عليهم، قال: «**الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان، وعمل بالأركان**». وبالطبع فإن الكرامية وأمثالهم كانت لهم دفوعهم، واحتجوا بقوله تعالى: **﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ۝٨٥﴾**(المائدة)، ولم يقل «**بما قالوا وعملوا**»، أو «**بما قالوا وأضمروا من النية**»، فأسقط العمل واقتصر على القول، كما احتجوا بالحديث: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم**» أخرجه الأئمة الستة، يعنى مجرد الشهادة تعصم دماءهم، **والشهادة قول**. غير أن استشهاد هؤلاء بما استشهدوا به، وبما خلصوا إليه، فيه قصور وجحود، وتجاوزٌ لما فى القرآن، وما فى السُّنّة، من **ربط العمل بالقول والاعتقاد كأساس للإيمان**.



٣٠٥- ﴿الإيمان والإسلام والإحسان﴾

يأتى عن **الإيمان** فى القرآن ٤٥ مرة، وعن **المؤمنين والمؤمنات** ٢٠٧ مرة،وعن **الإسلام** ١٠ مرات، وعن **المسلمين والمسلمات** ٤١ مرة، وعن **الإحسان**١٣مرة، وعن **المحسنين والمحسنات** ٣٤ مرة، وقوام كل ذلك بالإيمان. وفى الحديث عن الرجل الذى سأل الرسول ﷺ: ما **الإيمان** قال: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، ورسُله، وتؤمن بالبعث**» فسأله: ما **الإسلام**؟قال: «**الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدّى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**» فسأله: ما **الإحسان**؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

والرسول ﷺ جعل **الإسلام**: اسماً لما ظهر من الأعمال،**والإيمان**: اسماً لما بطن

من الاعتقاد؛ **والإحسان**: اسماً لإتقان العبادة. والثلاثة: **الإسلام، والإيمان، والإحسان** قوام الدين، والتفريق بينها تفصيل لجملة الدين، وفي القرآن: ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**(٣)﴾ (المائدة)، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**(٨٥)﴾(آل عمران)، فالدين: أساسه التصديق الذى هو **الإيمان**، وعُمدته **الأعمال** التى هى **الإسلام**، وحُسن **العبادة** الذى هو **الإحسان**. وكان السؤال عن كلٍّ على حدة، فكان عاماً، فردّ عليه النبيّ ﷺ رداً خاصاً. والحديث من **جوامع كلم الرسول** ﷺ، وأصلٌ عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة للمسلمين، وهو مرجع الصدّيقين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين. وحُسن إسلام المرء من الإيمان، وفي الحديث: «**إذا أسلم العبد فحَسُن إسلامه يكفّر الله عنه كل سيئة كان زلفها**»، **وحُسن الإسلام** ـ وهو درجة الإحسان، هو الإخلاص فى الدين والدخول فيه بالباطن والظاهر. وللإيمان حلاوة، وإفشاء السلام، و الجهاد، وصوم رمضان احتساباً، والصلاة، والزكاة، واتباع الجنائز، كل ذلك من الإيمان، ومتّبعها هو **المؤمن المُحسن**.

●●●

٣٠٦- ﴿الغَيْبُ من الإيمان﴾

يأتى عن **الغيب** فى القرآن ٤٨ مرة، والغيب فى كلام العرب كل ما غاب عنك، ويقال **أغابت** المرأة فهى **مغيبة** إذا غاب عنها زوجها، **والغيبة والغيابة** الهبطة من الأرض، والغيابة الأجمة وهى جماع الشجر يُغاب فيها. ويسمى المطمئن من الأرض **الغيب** لأنه غاب عن البصر. والغيب فيه عدة تفاسير، منها أنه الله، ومنها أنه القضاء والقدر؛ **والغيب** كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدى إليه العقول، من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر، والنشر، والصراط، والميزان، والجنة، والنار، ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ**(٢٤)﴾ (التكوير) أى ليس متهماً وإنما مصدَّق: **والإيمان بالغيب** هو الإيمان الشرعى كما فى حديث جبريل عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدر خيره وشره. وقال عبدالله بن مسعود: ما آمن مؤمن **أفضل** من إيمان بغيب، وقرأ: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**(٣)﴾(البقرة). وفى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ**(٧)﴾(الأعراف) يعنى أنه تعالى وإن كان غائباً عن الأبصار، وغير مرئى فى هذه الدنيا، فهو غير غائب بالنظر والاستدلال؛ والمتقون هم: ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ**(٤٩)﴾ (الأنبياء)، يعنى يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس، لعلمهم باطلاعه عليهم، أو أن خشيتهم له بالغيب أى بضمائرهم وقلوبهم:

وبالغيب آمنا وقد كان قومُنا .·. يصلّون للأوثان قبل محمد

والله وحده عالم الغيب فإذا اطلع أحد على شيء منه فإنما بأمره: **﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ (١٢٣)﴾**(هود) وهو تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾** (الرعد)، و**﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾**(الجن)، وهو **﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾** (المائدة). **وغيب السموات والأرض** كل ما غاب عن العباد فيهما، وقد ينصرف المعنى إلى علم ما غاب فيهما، وعلمه تعالى بالغيب والشهادة أي بما غاب عن الخَلق وبما شهدوه، فلا يظهر علمه إلا لمن ارتضى من رسول - قيل الرسول هو جبريل، أو أنه يُظهره لأنبيائه بما يدعّم موقفهم ويقوّيهم على رسالاتهم، كقول يوسف: **﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ (٤٩)﴾**(آل عمران)، فهذه آيات جعلها الله **معجزة يوسف ودلالته على النبوة**. وقوله علامّ الغيوب أي كان وما يزال ولن يزال عالماً بالغيوب. وليس المُنجّم، ولا من يضاهيه، كالذي يضرب بالحصى، وينظر في الكتُب، ويزجر بالطير، كمن ارتضاهم الله من رسول فيطلعه على الغيب، بل المُنّجم كاذبٌ في حدسه وتخمينه، وما كان للنبيَ ﷺ منجّم. والذي يصدّق المنجّم في مسائل الغيب كمن يتخذ من دون الله نداً أو ضداً. وعن الرسول ﷺ: «**اللهم لاطير إلا طيرك، ولاخير إلا خيرك**». ومما قال عليّ بن أبي طالب: أيها الناس، إياكم وتعلُّم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، وإنما المنجّم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار. وقال: يا أيها الناس، توكلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي مما سواه.

●●●

٣٠٧. ﴿الحياء من الإيمان﴾

في الحديث: «**الحياء شعبة من الإيمان**»، أي أثر من آثار الإيمان. **وحقيقة الحياء** خوف الذمّ بنسبة الشر إلى صاحب الحياء. والحياء في محرّم واجب، وفي مكروه مندوب، وفي المباح عُرفي، وفي الحديث: «**الحياء لايأتي إلا بخير**»، وفي الخبر قيل: **رأيت المعاصي مذلةً، فتركتها مروءةً، فصارت ديانة**. يعني انغرست في النفس وصارت فطرة فيها. والمؤمن الذي يتقلّب في نعم الله يستحي أن يستعين بها على معصيته، وفي المثل: **خفْ الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قُربه منك**. وفي التنزيل: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (٢٦)﴾**(البقرة)، أي لايخشى، وفي قوله: **﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ (٣٧)﴾**(الأحزاب)، بمعنى تستحي، وعن **أم سلمة** أنها جاءت إلى الرسول ﷺ تقول: إن الله لايستحي من الحق - يعني لا يأمر بالحياء في الحق، وفي التنزيل: **﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (٥٣)﴾**(الأحزاب) إثباتٌ أن الاستحياء علّة في البشر، ولكنه ليس في الله تعالى.

●●●

٣٠٨. «كيف يمكن الإيمان بالقرآن والتوراة والإنجيل مع تنافى أحكامها؟»

لما نـزلت: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (البقرة) قال الناس: «كيف يمكن الإيمان بالقرآن والتوراة والإنجيل مع تنافى أحكامها؟

والجواب: أن الإيمان هو أنها جميعها نَزلَت من عند الله، غير أن المسلمين لم يُأمروا بالتعبُّد بما تقدم من الشرائع، وجُعل إيمانهم بالتوراة والإنجيل فيما لايختلف عمّا فى القرآن، وفيما لم يحرّفوه منهما ويغيرّوا فيه، ومالم يُنسَخ منهما بالقرآن.

•••

٣٠٩. «الواهمون أن الجاهلية تعود»

الناس عرفوا الله بالأنبياء، ولماّ عرفوا أسلموا، والجدال فى الله من بعد أن ترسّخ الإسلام وصار هناك مسلمون عبثٌ، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿١٦﴾ ﴾(الشورى)، يعنى هؤلاء الذين يريدون الناس على الكفر من بعد ما أسلموا، حجتهم باطلة، ويتوهمون إمكان أن تعود الجاهلية، فبعد الإسلام يستحيل أن تكون جاهلية، ولذا فمن ذهبوا إلى أننا نعيش جاهلية ثانية غالطون.

•••

٣١٠. «الشرك نقيض الإيمان»

لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأنعام)، شقّ ذلك على أبى بكر وعلىّ وسلمان وحذيفة فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنون. إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾(لقمان)». والذين لم يُلبسوا إيمانهم بظلم، فئة وحدها أفردها الرسول ﷺ فى الحديث عن الرجل الذى سأله عن الإيمان، فقال له الرسول ﷺ: «أن تشهد أن لاإله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، فقال الرجل: قد أقررت، وبعد إقراره هوى من فوق ناقته فمات، فقال فيه الرسول ﷺ: «هذا من الذين قال الله عزّوجلّ فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية.

ولقد فهم الصحابة من قوله تعالى «بظلم» عموم أنواع المعاصى، ولم ينكر النبىّ ﷺ فهمهم وبيّن لهم أن المراد أعظم أنواع الظلم وهو «الشرك»، فدلّ على أن للظلم مراتب، وأن الآية من العام الذى أريد به الخاص وهو: الشرك أعلى مراتب الظلم.

•••

٣١١. ﴿الكفر ضد الإيمان﴾

كلما يُذكَر المؤمنون في القرآن يُذكر **الكافرون**، والكفر **ضد الإيمان**، يقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾**(البقرة)، فالكفر إذن هو المقابل للإيمان، وقد يكون الكفر بمعنى جحود النعمة والإحسان، ومنه قوله ﷺ في النساء: «ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء» ، قيل: بِمَ يارسول الله؟ قال «بكُفرهن»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفُرن العشير،ويكفرُن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط» أخرجه البخارى. وأصل الكفر فى كلام العرب الستر والتغطية.

●●●

٣١٢. ﴿الإيمان نصفان﴾

الإيمان فى قوله تعالى: **﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾**(إبراهيم) **نصفان: نصفٌ** صبر، **ونصفٌ** شُكر. **والصبّار**: هو كثير الصبر على طاعة الله؛ **والشكور**: هو كثير الشكرعلى نِعَم الله وآلائه.

●●●

٣١٣. ﴿كمال الإيمان﴾

فى قوله تعالى: **﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾﴾**(الأعراف)، وقوله: **﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴿٦﴾﴾**(ق)، فإن **«أفلم ينظروا»** و**«أولم ينظروا»** أسلوب **للنظر والاستدلال على وجود الله تعالى وقدرته وكمال علمه**. والنظر والاستدلال هما أول طرق المعرفة لله، لأنه تعالى لايُعلَم ضرورة، وإنما يُعلم بالنظر والاستدلال، أى بالأدلة التى نصبها لمعرفته. ومن لم يعلم الله نظراً واستدلالاً فهو جاهل، والجاهل بالله كافر. ومن أقوال البعض: أن الإيمان يصحّ باليقين المتحصَّل بالتقليد والاعتبار بما قال الله، والناس اصطلحوا على تسمية العامة المقلّدين «مؤمنين»، ولو كان النظر والاستدلال لازمين للإيمان لما صحّ أن يسمى مؤمناً إلا من عنده علم **بالنظر والاستدلال**. وعندنا أن **الإيمان بالتقليد** إيمان على حَرْف، وإيمان منقوص ومعيب، فحتى العامة لايخلو الأمر عندهم من النظر أو الاستدلال، وقولهم أنهم عرفوا الله **بالبديهة** هو نوع من الاستدلال لم يُفصِحوا عنه ولكنهم أحسّوه، فقد عرفوا أن لكل مُحدَث (بالفتح) لابد من مُحدِث (بالكسر)، ولكل فعل لابد من فاعل، وأنه فى النهاية فلا فاعل ولامُحدِث ولاخالق إلا الله. **ولكمال الإيمان أوصافٌ**، أجمع أهل العلم

عليها. كأن يقول المؤمن: **أشهد أن لاإله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن كل ماجاء به حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام، فذلك هو المسلم**، فإن أظهر الكفر من بعد فهو مرتد: والناس على القول: أن أول الواجبات: الإيمان بالله، وبرسوله، وبجميع ما جاء به، ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله، فيتقدم وجوب الإيمان على المعرفة بالله، لأنه لو كانت المعرفة بالله مقدمة على الإيمان لأدّى ذلك إلى تكفير الناس، فهل يعرف الله إلا القليل! فالنظر والاستدلال فى علم الإسلام، ليس ما نقصد إليه فى علوم الفلسفة، ولكنه نوع **النظر والاستدلال اللازم للحياة**، ولقد عرف الأعرابى الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان، فقال: **البعر تدل على البعير**. ولمّا سأل الرسول ﷺ المرأة العجوز السوداء: «أين الله» قالت: فى السماء، فقال لها: «من أنا»؟قالت: أنت رسول الله ﷺ. قال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**»، فكان هناك **نظر واستدلال ولكنهما من النوع البسيط المعروف باسم الإدراك البسيط common sense** أو الفطرة، فإن كان النظر والاستدلال عند العامة بسيطان، فإنهما أعلى بكثير مما عند سائر الحيوان، وذلك هو ما يميز الأحمق والمجنون من الإنسان العاقل، **والله تعالى بأبسط مقاييس النظر والاستدلال موجود**، والإيمان به واجب وضرورة، ومن لايؤمن بالله فهو الجاهل حقاً، والمحروم صدقاً.

●●●

٣١٤. ﴿الكامل الإيمان﴾

الآية: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** (٢٢)﴾(الزمر)، يشرحها الحديث لمّا سئل رسول الله ﷺ كيف ينشرح صدر المؤمن للإسلام؟ قال: «**إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح**» فسئل: يارسول الله، وما **علامة ذلك**؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»، فذكر ﷺ **خصالاً ثلاثة**، فمن كانت فيه فهو **الكامل الإيمان**، لأن **الإنابة**: هى أعمال البرّ، وما جُعلت **دار الخلود** إلا جزاءً لأعمال البر، فإذا خمد حرصه عن الدنيا، ولم يطلبها حثيثاً، وأقبل على ما يغنيه عنها فاكتفى وقنع، فقد تجافى عن **دار الغرور**، فإذا أحكم أموره بالتقوى، وتأدّب فى كل شىء متثبتاً حذراً، يتورع عمّا يريبه إلى ما لا يريبه، فقد استعد للموت. فهذه العلامات الثلاث هى علامات الإيمان الأكيد، وما صار له هذا الإيمان إلا لمّا صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية الموت تدفع إلى الانصراف عن الدنيا، والتعامل معها باعتبارها دار غرور، وكل ذلك لايصير إليه إلا بالنور الذى يلج قلبه إذا انشرح قلبه للإسلام.

●●●

٣١٥.﴿القضاء والقدر من الإيمان﴾

القضاء: هو العلم بوجود الموجودات جملة؛ والقدر: عبارة عن وجودها الوجود الخارجي مفصلةً واحداً بعد واحد؛ وأما العناية: فهي علم الله بالموجودات على أحسن النظام والترتيب. وفي قوله تعالى ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** (٣٧) ﴾(الأحزاب): أنّ **القضاء** هو الأصل المقصود، **والقدر** يتبعه، مثل الذي يقصد مدينة فينزل في الطريق ليستريح في قرية، فلم يكن قصده القرية، وإنما المدينة، ولكنه دخل القرية، وهو خير. **وكل ما في العالم من خير فهو بقضاء، وكل ما فيه من شر أو ضرر فهو بقدر**، مثل النار فهي مخلوقة للنفع، فلما اجتمعت الأسباب لاحتراق بيت من البيوت كان ذلك بالنار، وهو قدر. **ومن قضائه تعالى**: أن أي شيء يمكن أن يحترق بالنار فإن النار تحرقه لو مسّته، وما يجري منه تعالى على وجه يدركه العقل نقول إنه بقضاء، وما يكون على وجه لانفهمه لقصور عقولنا عنه نقول أنه بقدر. **والقضاء من الله: وهو الأمر أولاً**، **والقدر**: هو التفصيل بالإظهار والإيجاد. **والقضاء**: وجود كل الموجودات في الكتاب المبين وفي اللوح المحفوظ على سبيل الإبداع، في شكلٍ مشروعٍ أو خطة؛ **والقدر**: هو وجود الموجودات مفصّلة ومتعينة ومتحققة بعد توفر شرائط ذلك؛ والمَثَل على الاثنين قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** (٢١) ﴾(الحجر). **والقضاء** : هو ما في علم الله، **والقدر**: هو ما يتحقق من هذا العلم بالإرادة. وفي الآية: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾ (يس)، هناك إرادة وقول، **والإرادة قضاء، والقول قدر**. ثم القضاء قسمان: **قضاء محكم، وقضاء مبرم**، **والأول**: هو القضاء الذي لاتغيير فيه ولاتبديل، **والثاني**: هو الذي يمكن فيه التغيير والتبديل، كقوله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** (٣٩) ﴾(الرعد)، بخلاف **القضاء المحكم**: فإنه المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** (٣٨) ﴾(الأحزاب). **ومن موجبات الإيمان**: تَرْكُ الاعتراض على الله تعالى، والرضا بقدر الله المقدّر، وبقضائه المبرم. **(انظر أيضاً القضاء ضمن باب الأسماء والمصطلحات، وكذلك القدر والقدرية).**



٣١٦.﴿حلاوة الإيمان﴾

يستشعر المؤمن للإيمان حلاوة، وغيره قد لايجد فيه إلا المرارة، وحالهما كحال الصحيح الذي يستطعم العسل ويتذوق حلاوته، ومريض الصفراء الذي يجد للعسل مرارة، وشبّه الله تعالى الإيمان بالشجرة الطيبة: ﴿ **أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ** (٢٤) **تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ** ﴾(إبراهيم)، **فأصل الشجرة**: هو الإيمان، **وأغصانها** مستتبعاته ومطلوباته.

وورقها الطاعات، وثمرها الثواب، وحلاوة الثمر لمن كان الإيمان ملء حياته وقلبه وتفكيره، فكلما زاد ذلك فيه كلما اشتدت حلاوة الإيمان. وفى الحديث: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..**» ومن هذه الثلاث: **محبة اللهّ ورسوله**، أخرجه البخارى والحديث يشبّه رغبة المؤمن فى الإيمان، وطلبه له، والشغف به، بالرغبة فى الشيء الحلو، يسعى إليه، ويتكلّف له. وينقص الإيمان بنقص الصحة، فكلما نقصت الصحة كلما نقصت قدرة المتذوّق على التذوّق، وكذلك المؤمن لو نقص إيمانه، ينقص تذوقه لحلاوة الإيمان. والاستعارة فى مجملها فى الآية والحديث تخيلية، والتعبير بالمشاهد، واللذائذ المحسوسة للإيمان، إنما لتقريب المعنى. والمؤمن فى أول أمره قد يستثقل تكاليف الإيمان، كالمريض قد تعاف نفسه الدواء، ولكن عقله يفرض عليه تناوله، فكذلك الإيمان يفرض أن يأخذ المؤمن بالأوامر والمنهيات فى الدين، لأنهما لا يأمران ولاينهيان إلا بما فيه الصلاح العاجل أو الخلاص الآجل، والعقل يقتضى رجحان جانب يتمرس على الائتمار به، فيصير هواه معه، ويلتذ لذلك التذاذاً عقلياً، وهو أن يدرك ما هو كمال وخير من حيث هما كذلك ويأمر بهما. وفى الآية والحديث إشارة إلى التحلّى بالفضائل والتخلّى عن الرذائل. ومحبة المؤمن كما فى الحديث، شاملة لله تعالى ولرسوله ﷺ، فمن أحبهما كانت لإيمانه حلاوة يتذوقها ويعرفها، ومحبة الله فرض وندب، والفرض: المحبة التى تحمل على الطاعات، والندب: المحبة للنوافل وتجنّب الشبهات. وكذلك محبة الرسول ﷺ، فرضٌ وندب، والفرض أن لايتلقى المؤمن شيئاً إلا من مشكاته، ولايسلك إلا طريقته، والندب أن لاينهج إلا نهجه، ولا يتبع إلا سيرته، ومن يجاهد نفسه على ذلك يجد حلاوة الإيمان. والحديث كما ترى أصل من أصول الدين، كقوله: ﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴿١٠٨﴾﴾(البقرة).

●●●

٣١٧.﴿مذهب الإحباطية فى الإيمان﴾

يأتى عن الإحباط فى القرآن ست عشرة مرة، وحَبِط بمعنى ذَهَب سُدَى، وأَحْبَط عمله أبطله، وفى الآية: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** ﴿٥﴾﴾(المائدة) فالكفر بالإيمان يحبط العمل، والمؤمن لايخشى شيئاً بقدر خشيته أن يحبط عمله، وكان أصحاب النبىّ ﷺ يعرضون أقوالهم على أعمالهم خشية أن يكونوا مكذّبين أو منافقين فتحبط أعمالهم، أى يُحرَمون ثوابها، لأنه لا يُثاب إلا من يُخلص العمل. والإحباطية أو أصحاب مذهب الإحباط يذهبون إلى القول بأن الإحباط إحباطان، أحدهما: إبطال الشيء للشيء، وإذهابه

جملة، كإحباط الإيمان للكفر، وإحباط الكفر للإيمان؛ **وثانيهما**: إحباط أن توازن بين الحسنات والسيئات، بأن تجعل الحسنات فى كفّة والسيئات في كفّة، فمن رجحت حسناته نجا، ومن رجحت سيئاته وقف في المشيئة، فإما أن يُغفَر له، وإما أن يُعذَّب. **والتوقيف** إبطال، لأن توقيف المنفعة في وقت الحاجة إليها إبطالٌ لها. وكذلك **التعذيب** إبطال أشدّ من التوقيف، لأنه يستمر إلى حين الخروج من النار، وفي كل منهما إذن إبطالٌ نسبيّ، أطلقوا عليه اسم **الإحباط** مجازاً، وليس هو **إحباطاً حقيقياً**، لأنه إذا خرج من النار وأُدخل الجنة عاد إليه ثواب عمله. ويسوِّى الإحباطية بين الإحباطين، ويحكمون على العاصى بحكم الكافر، وهؤلاء هم معظم القدرية.

•••

٣١٨ ﴿حب الرسول ﷺ من الإيمان﴾

محبة جميع الرسُل من الإيمان، لكن **الأحبية** يُختَص بها الرسول ﷺ، وفي الحديث: «**فوالذى نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتي أكون أحَبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**».فاختار **الولد والوالد** لأنهما أدخل فى المعنى وأعزّ على العاقل من الأهل والمال. والمراد بالمحبة «**المحبة عن اختيار**» وليس «**المحبة عن طبع**». وفي الرواية أن عمر بن الخطاب قال للنبيّ ﷺ: لأنت يارسول اللّه أحبّ إلىّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال له رسول الله ﷺ «**لا والذى نفسي بيده، أكون أحب إليك من نفسك**»، فهذه هي المحبة الحقيقية: **أن تؤثر محبوبك على نفسك**، وهذه المحبة هي جوهر الإيمان الحقّ. وعلامة حُبِّه الله حُبّ القرآن، وعلامة حُبّ القرآن حبُّ النبيّ ﷺ، وعلامة حُبّ النبيّ ﷺ حبُّ السُّنّة، وعلامة حبُّ الله، وحبّ القرآن، وحبّ النبيّ، وحبّ السُّنّة، حبّ الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه،وعلامة حُبِّه لنفسه أن يبغض الدنيا.

•••

٣١٩ ﴿الخيرة ليست للإنسان﴾

الإنسان مخُيرّ فيما يخصّ «**افعل ولاتفعل**»، أى فى مجال التكاليف، فإذا كُلّف بأن لايسرق ولايزنى، وسرق وزنى، فإنه يكون قد اختار ذلك ومن ثم يكون مسئولاً عما اختار، لأنه كان حراً أن يختار، وأن يفعل، وفي غير التكاليف **فالإنسان** مسيّر، يقول تعالى: ﴿**مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**(٦٨)﴾(القصص)، والآية نفى عام أن يكون للعبد فيها شيء فى المقادير، كالميلاد، والجنسية، والشكل، والذكاء، والقدرات، والنسب إلخ، فليس له شيء، فمن منا يمكن أن يختار لنفسه شكلاً معيناً، أو أباً أو أماً بذاتهما، أو أن تكون له قدرات خاصة دون قدرات؟ وما عدا ذلك فهو من اكتسابه، وحتى ذلك فإن اكتسابه فى

حدود ما خلقـه اللّه به، وما هيّأه له، واللّه إذ يختـار فإنه يختار ما يشـاء، والخيرة له فى أفعـاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فـيما يفـعل ويخلق ويقسم، وليس لأحـد من خلقه أن يختار عليه، كأمـر النبوة مثلاً، فهو الذى يصطفى من عباده الأنبـياء ولا أحد غيره. وهو يختار للهداية من خَلْقه مَن سبقت له السعادة فى علمه.

•••

٣٢٠. ﴿القلب فى الإيمان والكفر﴾

القـلب للإنسان ولغيره. وخـالص كل شىء وأشرفه قلبُه، وهو مـوضع **الفكر**؛ وفـى اللغة: القلب من قولنا: **قلبتُ الشىء، أقلبه قلباً**، إذا رددته على بداءته؛ **وقلبت الإناء** رددته على وجهـه، ونُقل اللفظ فسُمّى به هذا العضـو الذى هو أشرف ما فى الإنسان، لـسرعة الخـواطر إليه، ولتـرددها عليه، وهو المنـوط به، بتعـبيـر العصـر، الجهـازان السمـبثـاوى والباراسمبثاوى، والشاعر يقول:

ماسُمِّى القلب إلا مِنْ تقلُّبه .·. فاحذر على القلب من قَلْب وتحويل

وفى الحديث عن تقلّب القلب: «**مَثَلُ القلب مَثَل ريشة تقلّبها الرياح بفلاة**» أخرجه ابن ماجة، **والفلاة** هى الصحراء الواسعة، وكان ﷺ يقول: «**اللهم يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعـتك**» أخرجه ابن مـاجة، وفى القرآن: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**(٢٤)﴾ (الأنفال).

وقد يُعـبَّر عن القلب فـى القرآن بالفـؤاد، كقـوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**(٣٢)﴾(الفرقان)؛ وبالصدر، كقوله: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**(١)﴾(الانشراح)، وقد يُعبَّر به عـن العـقل، كقـوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**(٣٧)﴾(ق). وعند الكثـيرين القلب يحلّ محل العقل، وكذلك الفؤاد يحلّ محل القلب، كما يحلّ **الصدر** محل **الفؤاد**. وفى الآية: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**(٧)﴾(البقرة) أن خَـتْم القلب يمنعه من الإيمان. وقلوب الكفار موصوفة من ذلك بعشرة أوصاف: **بالختم**: كما فى الآية السابقة؛ **وبالطبع**: كقوله: ﴿**عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**(١٤)﴾(المطففين)؛ **وبالضيق**: كقوله: ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**(١٢٥)﴾ (الأنعـام)؛ وبالمـرض: ، كقـوله: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**(١٠)﴾ (البقرة)؛ **وبالرَّين**: كقوله: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**(١٤)﴾(المطففين)، أى ما يكسبون صدأ به القلب وتجمّع عليه فحصره وعزله؛ **وبالموت**: كقوله: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**(١٢٢)﴾ (الأنعام)؛ وبالقساوة: كقوله: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ**(٧٤)﴾ (البقرة)؛ **وبالانصـراف**: كقوله: ﴿**صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ**(١٢٧)﴾(التوبة)؛ **وبالحمية**:

كقوله: ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية**(٢٦)﴾(الفتح)، والحمية هي الأنفة، يقصد بها حمية الجاهلية؛ وبالإنكار: كقوله: ﴿**قلوبهم منكرة**(٢٢)﴾(النحل).

والخَتْم أو الطبع على القلوب يعنى عدم وعيها بأن للكون إلهاً، ويخطىء من ينسب إلى الله تعالى أن الختم معنى يخلقه الله في القلب ليمنعه من الإيمان به، وإنما الختم يتأتى من معصية الله وتأثير ذلك على القلب، وتراكم التأثيرات حتى يكون القلب كأنما خُتم أو طبع بها، كقوله تعالى: ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه**(٢٥)﴾(الأنعام)، يعنى مع طول كُفرهم صنع الكفر للقلب مثل الكِنّ، أي الواقي، فلم تعد المعاني تصل إلى القلب. **وقوله** تعالى: ﴿**نسلكه في قلوب المجرمين** (١٢) **لا يؤمنون به**(١٣)﴾(الحجر)، يعنى أن الكفر من شأنه إذا تسلل إلى القلب لم يعد القلب يؤمن، فهكذا خلقــه الله، وهذه هي صفته، وإذن فلا جبر، بل اختيار ومسئولية. وأما هذه الأوصاف للقلب فهكذا خلقه الله، أن يتأثر وينطبع، ويضيق، ويمرض، ويقسو إلخ، إذا سمح صاحبه للكفر أن يدخله، وليست هذه الآيات إذن رداً على القدرية كما يّدعي البعض. والقلب كالكفّ، يُقبَض منه بكل ذنب إصبع ثم يُطبَع. وفي الحديث: «**إن الرجل يصيب الذنب فيسوِّد قلبه، فإن هو تاب صقل قلبه**» أخرجه الترمذي، يعنى عاد لصلاحه، **فالسواد** لم يكن قبل الذنب ولكنه بعد الذنب، والله لم يصنع القلوب سوداء من البداية، ولكنه جعل من صفاتها أنها تسوّد إذا أذنب صاحبها، **فالمسئولية على صاحبها** وليست على اللهّ - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. (**انظر الكفر والكافرون ضمن باب الأسماء والمصطلحات**).

●●●

٣٢١. ﴿إيمان المفلحين﴾

يقرن الله تعالى الإيمان بالركوع والسجود، قال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** (٧٧) ﴾(الحج)، فجعل للإيمان أربعة أوجه ربط بينها، **فالركوع والسجود** المراد بهما **الصلاة المفروضة**، وخصّ «الركوع والسجود» تشريفاً للصلاة؛ وأما «**عبادة الله**» فهي توحيده وتعظيمه وامتثال أوامره ونواهيه؛ و«فعل الخير» هو العمل الصالح شرط الإيمان الصحيح؛ «**وتفلحون**» تفوزون، **والمفلحون** هم الفائزون الناجون، وإيمان المفلحين هو **الإيمان المُنجّي**، يدركون به ما طلبوا، وينجون من ما منه هربوا.

●●●

٣٢٢. ﴿المؤمنون إذا أصابتهم مصيبة﴾

من دلائل الإيمان الصبر عند المصائب، يقول تعالى: ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا**

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾(البقرة)، **والمصيبة**: هى كل مايؤذى، وروى أن مصباح رسول اللّه ﷺ أنطفأ ذات ليلة فقال: «**إنّا للّه وإنّا إليه راجعون**» فقيل له: أمصيبةٌ هى يارسول اللّه؟ قال: «**نعم، كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة**» أخرجه مسلم. وقال: «**ما يصيب المؤمن من وَصَب، ولا نَصَب، ولاسَقَم، ولا حَزَن، حتى الهَمّ يَهُمُّه، إلا كُفِّر به من سيئاته**» أخرجه مسلم . ومن أعظم المصائب **المصيبة فى الدين** ـ كالذى يحدث فى فلسطين الآن. وفى الحديث : «**من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث استرجاعاً**» (أى قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون) «**وإن تقادم عهدها، كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب**» أخرجه ابن ماجة. وفى كلمات **الاسترجاع** ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين ، «**فإنّا للّه**» توحيدٌ وإقرار بالعبودية، «**وإنا إليه راجعون**»: إقرار بالهلاك على أنفسنا، والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه. وقيل: إن «**إنّا للّه وإنّا إليه راجعون**» لم تُعط نبياً قبل النبىّ ﷺ ، ولو عرفها **يعقوب** لما قال: «**يا أسفَى على يوسف**»! (يوسف ٨٤)! و«**إنا لله وإنا إليه راجعون**» تنبيهٌ على قوله تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)** ﴾ (البقرة) إما بالخَلَف تعويضاً لهم، وإما **بالثواب** الجزيل، ومنه **صلواته عليهم ورحمته بهم**، وهى نعمٌ من اللّه على الصابرين المسترجعين. **وصلاته عليهم** أن يعفو عنهم، ويبارك لهم، ويثنى عليهم. **والصلاة على الميت** من ذلك لأنها ثناءٌ عليه ودعاءٌ له . **والرحمة** هى كشف الكُربة وقضاء الحاجة. وفى ذلك قال عمر: نِعمَ العدْلان ونِعْمَ العلاوة»، أراد **بالعدلين**: الصلاة والرحمة. **وبالعلاوة** الاهتداء إلى استحقاق الثواب، وإجزال الأجر، وتسهيل المصائب، وتخفيف الحزن.

●●●

٣٢٣.﴿من صفات المؤمن المرور الكريم باللغو﴾

يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)** ﴾(الفرقان)؛ **واللغو** مصدر **لغا يلغو ويلغَى. ولَغىَ يلغى لغياً**، إذا أتى بما لايُحتاج إليه فى الكلام، أو بما لا خير فيه. واليمين التى هى لَغو هى قول الرجل فى كلامه: لا واللّه، وبلى واللّه . وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ(٢٢٥)** ﴾(البقرة)، **والأيمان** جمع **يمين** وهى الحَلف؛ **والكرام** الذين لا يلغون لا يدخلون فى الباطل، ولايرضونه، ولايمالئون عليه، وينكرونه، ولايجالسون أهله. فلما سمع رسول اللّه ﷺ أن **عبداللّه بن مسعود** يفعل ذلك، قال: **لقد صار ابن أم عَبْد كريماً**» يعنى لايتوقف عند لغو ولايرضاه. وفى القرآن فإن المؤمنين المفلحين: ﴿**عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)** ﴾ (المؤمنون). أى ينأون بأنفسهم عنه ولايقربونه.

●●●

٣٢٤. ﴿الاستقامة على الدين﴾

لمّا سُئل النبى ﷺ قولاً فى الإسلام لايُسأل عنه أحد بعده، قال: «قُل آمنتُ بالله ثم استقم». وفى التنزيل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴿١١٢﴾﴾(هود)، وعن ابن عباس قال: عليك بتقوى الله والاستقامة. اتّبع ولا تبتدع. وقال: ما نزل على رسول اللّه ﷺ آية أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ـ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴿١١٢﴾﴾(هود).

•••

٣٢٥. ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾

هو الدين المستقيم، أو دين الملّة المستقيمة، أو دين الأمة القيمة بالحق، أى القائمة بالحق. والقيّمة جمع القيّم، والقيم والقائم واحد، وإضافة الدين إلى القيمة بنعت الدين من باب إضافة الشيء إلى نفسه.

•••

٣٢٦. ﴿الاتباع والتقليد غاية الفساد فى الالتزام﴾

غاية الفساد في الالتزام أن يقول الناس نتّبع آباءنا ولو كانوا لايعقلون، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾(البقرة). وقوة ألفاظ الآية تبطل الاتّباع والتقليد، ونظيرها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿١٠٤﴾﴾(المائدة)، وتعلّق الناس بالآيتين فى ذم التقليد، لذّم اللّه تعالى الناس باتباعهم لآبائهم فى الباطل، واقتدائهم فى المعاصى. وأما التقليد فى الحق فهو أصل من أصول الدين، وعصمةٌ من عصَم المسلمين، وهو ملجأ المقصّر عن دَرْك النظر والجاهل بأمور الدين.

والتقليد حقيقته قبول القول بلاحجة، وعلى هذا فمَن قَبِل تعاليم وشروح النبىّ ﷺ من غير نظر فى معجزته يكون مقلداً، وأما مَن نظر فيها فلايكون مقلداً. والتقليد مأخوذ من قلادة البعير، فإن العرب تقول: قلّدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلاً يُقاد به، فكأن المقلّد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء.

والتقليد ليس طريقاً للعلم، ولايوصّل إليه، لا فى الأصول ولا فى الفروع. والمفروض فى العامة من الناس الذين لايشتغلون باستنباط الأحكام من أصولها، أن يقصدوا من يعلمون فيسألونهم، كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(النحل)، والمسلمون على الإجماع بإبطال التقليد فى العقائد، ولاتقليد فى التوحيد، فكل مكلّف مفروض عليه أن يتعلم التوحيد والقطع به.

وقيل: إن المتمسكّين بالكتاب والسُّنّة مقلّدون، وهذا خطأ، لأنه فرقٌ بين من يقلّد من كان على الحق وبين مَن يقلّد مَن كان على الباطل، وقد أثنى اللّه على يوسف لمّا قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ (٣٨)﴾(يوسف) فهو مقلّد ولكنه في الحق،والحق أبلج، والمخاصمة والجدال بالدليل والبرهان من طرُق القرآن.

•••

٣٢٧. ﴿الإرادة غير الرضا﴾

لايرضى ربنًا لعبادة المؤمنين الكفر، قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (٧)﴾(الزمر)، يخبرعن نفسه أنه الغنيّ عمّا سواه من المخلوقات، كقوله تعالى في الحديث: «ياعبادي، لو أن أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً» أخرجه مسلم، فهو لايريد الكفر أصلاً من أي إنسان، ولايرضاه له، فإن كفر فهو بإرادة هذا الإنسان، واللّه يريد أن يكون كُفر هذا الإنسان بإرادة هذا الإنسان وإن كان لايرضى له بالكفر، فهو يريد ما لا يرضاه، وقد أراد اللّه تعالى خلق إبليس وهو تعالى لايرضاه، فالإرادة غير الرضا، وهذا مذهب أهل السنّة. وهو تعالى يرضَى الشكر من الناس، ورضاه يعني أنه يثيب عليه، والرضا: إما أنه ثوابه تعالى، فيكون صفة فعل، كقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾ (إبراهيم)، وإما أنه ثناؤه تعالى على نفسه، فهو صفة ذات.

•••

٣٢٨. ﴿النفس والروح﴾

الروح من أمر الله، يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾(الإسراء)، والإجابة كما ترى مبهمة، لأن الروح شيء عظيم من شئونه تعالى، ومن الغيب، فكانت الإجابة مبهمة ليعرف الإنسان عجزه عن القطع عن علم حقيقة نفسه، وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة المخلوق الأقرب إليه وهو الروح، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ هو العلم بالروح وما شابه، سواء من الغيب أو عالم الشهادة.

وقال بعضهم الروح هي السرّ الإلهي، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ (٩)﴾ (السجدة)، فنسب الروح له، وجعلها سرّه يودعه في مخلوقاته فتكون لها به الحياة

والفـردية. وإذا قلنا إن الروح هي النـفس يكون معنى الآية أنه بالنفخ تصبح لكل مخلوق ذاتية، ـ وهي نفسه التي يحّس بها ويستشعر، ويتوهم، ويتخيّل، ويتصوّر. ويصبح الجسم وأعضاؤه وسائل للنفس، وكذلك العقل، فعند الوفاة يلحق الموت بالنفس، لأن متعلق النفس بالجسد، فإذا مات الجسد انتهى منه الإحساس، وانتفى التعقل، وكل نفس مقدّر عليها الموت، كقوله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**(١٨٥)﴾ (آل عمران). والنفس ـ كما نعرف ـ يجري عليها القتل، كقوله تعالى: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**(٣٢)﴾ (المائدة)، والنفوس تتوالد، كقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**(٩٨)﴾ (الأنعام)، وتعمل وتكسب وتوفّى ما عملت، وتُجزىَ بما كسبت، وتجادل عن نفسها، ولها وُسعها. وبعض النفوس **مطمئنة** (الفجر٢٧)، وبعضها **لوّامة** (القيامة٢). وفي الفرق بين الموت والنوم يقول تعالى في النفس: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٤٢) ﴾(الزمر)، ويتوفاها أي يقبضها عند فناء آجالها، فتخرج الروح من الجسد وتموت النفس، وأما في النوم فإن الروح ما زالت في الجسد، فالجسد حيّ، ولكن النفس **مقبوضة عن العقل**، وفي الحالتين فإن الله هو الذي يقبض **الأرواح** حين الموت، ويقبض **النفوس** حين **النوم**، ويطلقها عند اليقظة. **وفي النوم دليل على أن البعث حقيقة، لأنه مثلما يُبعث النائم، فكذلك يُبعث الميت**، وفي الحديث: «**كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تبعثون**»، غير أن: **ما يجرى للنفس لايجرى للروح، لأن النفس مائتة، والروح لاتموت ولا تفنى**.

●●●

٣٢٩. ﴿الله ودلائل وبراهين وحجج وجوده﴾

لاشأن لأسفار **التوراة الخمسة** وهي: **التكوين، والخروج، والأحبار، والعدد، وتثنية الاشتراع**، بأية أدلة أو براهين على وجود الله، وموضوع هذه الكتب **تاريخ بني إسرائيل**، وتمجيد هذا الشعب، والتأكيد على أنه **شعب الله المختار**، وتحفل التوراة لذلك بالحروب شنّها **ملوك وقضاة إسرائيل** على شعوب الجوار، والفلسفة التي تصدر عنها: أن شعب إسرائيل لايمكن أن يكون له ولغيره العلو والتمكين في الأرض، فإما أن تكون السيادة للأمم، وإما أن تكون لشعب إسرائيل، وهم الصفوة، ومن ثم هُم الأولى بالحُكم، وأن تنعقد لهم السيادة على العالم. وهذه **العنصرية** هي نفسها التي بشّر بها **المسيح**، فعنده أن الإسرائيليين **أبناء الله**، وغيرهم من الأجناس **خنازير**؛ وعند **بولس** فإن المسيحية حررت أبناء **الأَمَة**، أي الأمم، ومن لم يؤمن بأن المسيح ابن الله فهو لايزال **ابن الأمة** ولم يصبح بعد

كأبناء الحرّة، والأمة المقصودة هى هاجر، والحرّة هى سارة، ولاتحفل الأناجيل الأربعة، ولارسائل الرسُل، بإثبات وجود الله، ولم يوجد كتاب، سواء فى اليهودية أو فى النصرانية، كان شغله الشاغل، وهمّه المقيم إثبات وجود الله، والبرهنة على وحدانيته، إلا القرآن، ويحفل لذلك بالأدلة والحجج على أنه تعالى الواحد الأحد الذى لاشريك له، وكان شعار القرآن: «لاإله إلا الله»، خلاصةً لما دعا إليه، وناقشته آياته، وطرحته قضاياه. ويَجْمع هذه الأدلة والحجج ما يسمى« براهين وجود الله»، ومنها: «برهان الخلق والإبداع»، و«برهان القصد والنظام»، «وبرهان الكمال أو الاستعلاء، أو برهان المثل الأعلى، وكلها براهين قرآنية محضة؛ تسوقها آيات القرآن كى لا يكون للناس على اللّه حجة من بعد، وكى لايحاجّوا فى اللّه حُجَجَهم الداحضة.

فأما الآيات التى يقوم بها «دليل الخلق وبرهان الإبداع»، فمنها، كمثال، قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (٢٢)﴾(الروم)، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾(النبأ)، وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾(الروم)، وعشرات الآيات غيرها، وكلها براهين وأدلة وحجج على وجود الله، وتزيد على المائتى آية، وبعضها أدلة فيها التحدّى والسخرية من المكذّبين، كقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩)﴾ (الواقعة)، وقوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) ﴾(الصافات)، وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ (١٦)﴾(الرعد)، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾(النحل)، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٦١)﴾(العنكبوت).

ونخلص من القرآن إلى أن اللّه تعالى قد أبدع الإنسان والكون، وكل مُختَرَع (بفتح الراء) لابد له من مُخترِع (بكسر الراء) من قِبَل غيره بالضرورة، وكل مُختَرَع له نظامه ونَسَقُه وطريقة عمله وتشغيله، والإنسان والكون كالمختَرعات، غير أن الحياة تدّب فيهما، وهى لذلك موجودات وليست مخترعات، وكل موجود لا بد له من مُوجِد (بكسر الجيم)، كما أن كل مُحدَث لابد له من مُحدث، وذلك هو دليل الاختراع أو الإيجاد، واللّه تعالى لم يخلق ما خلق وتركه دون سند، وإنما أضفى عليه من عنايته، وتعهده ورعايته، وذلك

هو «دليل العناية». وتأتي آيات القرآن على ثلاثة أنواع، فإما أنها «أدلة اختراع»، وإما أنها «أدلة عناية» وإما أنها تجمع الأمرين معاً، فمن النوع الأول: قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦)﴾ (الطارق)، وقوله: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧)﴾ (الغاشية)؛ ومن النوع الثاني: قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً (٦)﴾(النبأ)، وقوله: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً (٦١)﴾(الفرقان)؛ ومن النوع الثالث قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً(٣٢)﴾ (الأنبياء).

ونطلق على دليل القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿يخرج الحي من الميت (١٩)﴾ (الروم) وقوله: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨)﴾ (النحل): «برهان ظهور الحياة في المادة»، وهو برهان يُبطل قول القائلين بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها، ونختصره باسم «برهان الحياة». ونطلق على الدليل من مثل قوله تعالى: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً(١١)﴾ (الشورى)، وقوله: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧)﴾(ق): «برهان التناسل بين الأحياء لدوام البقاء»، ونختصره باسم «برهان النسل».

وينبّه القرآن إلى صورة الإنسان نفسه، وهي أكبر حجة لله على خلقه، وأقرب وأوضح وأصحّ الأدلة. والقرآن على القول بأن طريق معرفة وجود الله عند الإنسان هو السمع والعقل معاً، فالإيمان يكفي فيه أن يتلقى الناس بالسمع عن صاحب الشرع، وأن يؤمنوا به، وأما من يشاقق في الشرع فله طريق العقل، وبالعقل عرف العرب قبل الإسلام أن الله موجود، يقول تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله (٢٥)﴾ (لقمان)، وقولهم هذا نسميه «الدليل البديهي»، فالله تعالى لايحتاج إلى البرهنة على وجوده، والإيمان به فطرة، والعلم بوجوده علمٌ بديهي، والإنسان على العهد بأنه كلما أصابته مصيبة أظهرت عجزه، فإنه ينطق تلقائياً بالدعوة إلى الله يتضرع إليه. والمؤمنون لايعتمدون على العقل ولا النقل ليؤمنوا بالله، فالإيمان بوجوده تعالى يُلقَى في القلب، ويعيه العقل عندما يتجرّد الإنسان من عوارض الشهوة، وفي القرآن أمثلة على ذلك كثيرة، كقوله: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً(٢٩)﴾(الأنفال) والمركوز في الإنسان أنه لكي يصحّ اجتماعه فلا بد من الأخذ بالجزاء والعقاب، والاعتقاد بالآخرة والبعث والحساب، وذلك وازعٌ لنفسه يكبحها عن الشر والفساد، ويوجهها للصلاح، ويحول بينها وبين العدوان، وما لم يعتقد الإنسان بوجود الله فلن يكون اجتماع ولا حضارة، ولن تكون مدنية، ولن تستقيم المعاملات، ولا تخلص النوايا بين الناس والشعوب، ونسمي ذلك «البرهان

الاجتـمـاعي على وجـود الله .» ومنه في القـرآن قـوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (١٣)﴾(الحجرات)، وقـوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ (١٧٨)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٧٩)﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠)﴾(الرحمن). والإنسان بِحُكم تجاربه وخبراته بوجوده تعالى كموجـود أعظم يقوم عليه وجود الكون، قـد نبّه إلى برهان آخـر هو «برهان الوعى»، قوامه هذا الوعى اليقينى بحقيقـة الله الذاتية وبالحقيقة الكونية، والوعـى لا يتنـاقض مع العـقل، وهو أعمّ من العـقل في إدراكه، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله، ومن ظاهره وباطنه، وبتعبير القرآن: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾ (الحاقة) ، والأذن الواعية هى الذاكرة، والذاكرة أداتها العقل، وهى أكبر من العقل، والذاكرة الجماعية للإنسان ـ لنفسه ولغيره ـ إجمالية، ويبقى التـفصيل للعقل. والإنسان الواعى هو «الحـرّ» (البقـرة ١٧٨)، والحرية انفكاك من قيود العبودية، ومن العوارض والشهوات والعلائق، والإنسان الذى يصير إلى ذلك هو «المحـرّر» بتعبير القرآن (آل عمران ٣٥) أى الخالص لله، و«برهان الحـرية» على وجود الله يقوم على القول: بأن الإنسان إذا تحرر واستشعر أنه حرّ، وأن له أنْ يعتقد أو لا يعتقد، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾(الكهف)، يأتيه اليقين بوجود الله ، فالحـرية والاعتقـاد بالله لاينفصـلان ، ولا اعتقـاد بالله بلا حرية، وكل حـرية حقيـقية فـمآل صاحـبها إلى الاعتـقاد، ويقين الحر أنه من حـيث كونه حراً، لايوجـد بواسطة ذاته، ولكنه مُعطى لذاته، وحريته من غيره ، من موجود أكبر وأعظم ـ حريته من ذاته. والإنسان لايستخلص الحرية لنفسه بالقوة، وإنما تتأتى الحرية له بالعُلوّ، وترتبط بالتحرر من العلائق الدنيوية والحاجات اليومية، ومن يحقق لنفسه ذلك العلو يخلص بحريتـه لذاته، فإذا استشعر أنه حر، فعندئذ يعى أنه مخلوق لموجود هو الذى منحـه الذات، كقوله: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨)﴾ (القيـامة)، وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ (٣٧)﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ (٩)﴾ (السجدة) أى أعطاه الـذات، فالمُعطىَ هو الذات، وهو معنى فسـوّى، والذى له ذات هو الكـامل، ولايكون الإنسان كاملاً إلا باكتماله بالذات، والذات هى تمام كماله. وعندما يكون الإنسان حراً لاتوجهه الأهواء ولا الأضاليـل، يعى أنه مخلوق لموجود هو الذى منحه هذه الذات، وهيأ له العلو، وأوجد له المثـال أن يصوغ نفسه على المنوال، والمثال ـ كمـا يذكره القرآن ـ هو النبىّ ﷺ الذى خُلُقـه القرآن، فالإنسـان الكامل محكوم عليـه منذ البداية أن يكون ربّانيـاً، وحريته تعنى أن الله مـوجود. وليس أدل على وجود الله من الوازع الخُلـقى فـى الإنسـان، وهو النفس اللّوامة، وهو الضمير، والشعور بالواجب وبالمسئولية، وبأن للإنسان

دون سائر المخلوقات مشيئة وإرادة، وأنه حرّ أن يختار، فمن أين عرف الإنسان الحق والعدل إن لم يكن فى الوجود قسطاس ومعيار لهذا الحق وذاك العدل، يغرسُ فى نفسه معنى الحرية، ويمنحه الوعى بالواجب والمسئولية، وينمّي لديه الضمير يزعه خلقياً؟ ومن أين قرّ فى طبع الإنسان، أن الواجب الكربه لديه، أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه؟ وآيات القرآن كثيرة في النهي عن الهوى، كقوله : ﴿ **فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا** (١٣٥) ﴾(النساء) ، وقوله: ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا** (٧٧) ﴾(المائدة). والوازع الخلقى أو النفس اللّوامة، أو الضمير، هو المقصود بالآية: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** (٤) ﴾(القلم)، والخُلق هو الضمير، أو علامة الواجب فى الإنسان، والبرهان الخُلقى فى القرآن يجزم بأن للخُلق فى الإنسان حاسة تضاف إلى بقية حواسه، وفقدان هذه الحاسة جنون خُلقى ، فمثلما المجنون عقلاً هو من لا تمييز له، فكذلك المجنون خُلقاً لايصدر عن حق(المؤمنون ٧٠)، واسمه فى علوم النفس والطب النفسى «السيكوباتى» ، وكان أبو جهل من المجانين خُلقياً، وسيكوباتياً من الطراز الأول، فكان يُلبس الحق بالباطل، ويكتم الحق، واليهود يعانون هذا الجنون الخُلقى، فقتلوا النبيين بغير حق، وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس، وما يزال ذلك دأبهم ، وبوش الابن مثله مثل شارون وهتلر، لا خُلق له ولاضمير، ومثل ذلك الطغاة فى العالم قاطبة: شارون، وبوش، وبلير، وبوتين. والخُلق، أو الضمير، أو الوازع الخُلقى، أو النفس اللّوامة، قبسٌ من اللّه فى الإنسان، ودليل على أن الإنسان أرقى الكائنات، وما كان رقيُّه إلا بالضمير الممثِّل لله فى كل إنسان، وفى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** (٢١) ﴾ (الذاريات) . والمسلم ذو خلق عال، وترتيبه فى مَدْرج الرقى الحضارى فى الذُرَى، وأقواله وأفعاله هى الحُسنى (البقرة).

وشبيه بالبرهان الخلقى: «برهان الحق والجمال والخير» ، فالإنسان والطبيعة حافلان بمحاسن الجمال وأوجه الخير والحق، وما أكثر الآيات عن ذلك فى القرآن، والإنسان نفسه آية من آيات هذا الجمال والخير والحق، وصدق اللّه العظيم حين قال: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** (٤) ﴾(التين)، وحين قال: ﴿**صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** (٦٤) ﴾(غافر)، وحين قال: ﴿**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** (١١٤) ﴾(آل عمران)، وحين قال: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ** (٣) ﴾(العصر). وفى القرآن أن الإنسان يفاضل بين الخيرات ووجوه الجمال فيما يقول ويفعل، وماكانت المفاضلة تتسنّى له لو لم يكن لديه قسطاس شامل يقيس إليه ما يعنّ له من المفاضلات بين أوجه الحق والخير والجمال، وهى تتراتب صعوداً إلى مصدرها الأصلى وهو الله، وليس شرطاً أن يكون كل شيء فى الكون خيّرا

وجميلاً لنبحث فيه عن ذلك القسطاس، ويكفى أن يكون فى العالم أقل الحق والخير والجمال، لنتحرى ونفتش ونبحث فى أذهاننا عن ذلك القسطاس، الذى هو المرجع الأعلى لنا فى الحكم على الأشياء بالحقّية، أو الخيريّة، أو بالجمال، والثلاثة وجوه لموجود واحد هو اللّه، ولولم يكن حُبّ ذلك فى الإنسان مركوزاً لما درى ما الحق، وما الخير، وما الجمال، ولما عرف أن يقيس ، ولا أن يحكم، ولا أن يفاضل، وفى القرآن ثبت ذلك كله وأكثر منه. وقول الملحدين، أو المنكرين، أو اليهود، أو الشيوعيين، أو العلمانيين، والتنويريين، أو الليبراليين إلخ، بأن الحق والباطل والخير، والشر، والجمال، والقبح، مسائل نستمدها من طبيعة الأشياء، وأنه من طبيعة الأفعال أن الفعل السيء يعود على صاحبه بالعقاب، والفعل الخيّر يعود عليه بالخير، وأنه لاشأن لوجود اللّه أو عدم وجوده بذلك، هو ضحالة فى التفكير المادى المسرف، وعجز عن القدرة على التجريد، وقصور فى الوصول بالقضايا إلى أصولها، فالطبيعة من حولنا، وفى الأشياء، لاتجازى من نفسها على الخير، ولاتعاقب على الشر، ولاتستحسن الجمال، ولاتستهجن القبح، ولاتُبطل الباطل، ولاتحقّ الحق، ويكون من الضرورى إذن القول بأن **فوق الطبيعة أو وراء الطبيعة**، لابد من **موجود عادل** يجازى على الخير، ويعاقب على الشر، وينصر الحق، ويصنع الجمال صُنعاً، وأنه الذى يخلق فيبدع، ويمايز بين الحق والباطل، والخير والشر، والجمال والقبح، وأن الشر، والظلم والقبح جميعها عن نقص فى الأشياء وفى الأفهام، ولولا أن القبح والشر والباطل أشياء موجودة، لما عرفنا وقدّرنا، وطلبنا الخير والجمال والحق، ولولا ذلك لما علمنا عن **العدل** فى بحثنا عنه وسعينا إليه وطلبنا له، وهذه القيم هى **الميزان** للوجود بأسره، كقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** (١٧) ﴾(الشورى)، وقوله: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** (٢٥) ﴾(الحديد)، وقوله: ﴿ **وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** (٧) **أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ** (٨) **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** (٩) ﴾(الرحمن). وإذن ـ وطبقاً للقرآن، فلكى تكون هناك **سعادة** لابد من وجود خير، وفضيلة، وحق، وجمال، وعدالة، وإجمالاً لابد من القيم، وجميعها تترابط ويستلزم بعضها البعض، وتواجدها مترابطة ليس استنباطاً تحليلياً، ولكنه تركيب **متعال**، يقتضى وجود **علّة عليا** تتجاوز الماديات بالذهن والإرادة، وتتطابق مع النية الأخلاقية، ويكون لها العلم كله، والقدرة كلها، أى يقتضى **وجود اللّه**، ولم توجد القيم إلا لأنها تُستمد من قيمة **عليا مطلقة**، والقيمة التى بالمعنى الأتمّ هى الله، وليس المطلق فى القرآن إلا **القيمة المطلقة**، ومن أجل ذلك كان اللّه **واحداً لاشريك له**، فالقيمة المطلقة يجب أن تكون لها **شخصية إلى**

أسمى درجة، وطالما أننا نعدّ **الشخصية هي القيمة العليا**، وهي بمثابة روح الروح أو الذات، فإن المطلق ليس سوى الإله **المتشخصن**، والذي نعرفه باسم الله، وهو ذات محض. وليس معنى المطلق أنه المستبّد بلا معقولية ولا خيرية، فالمطلق الذي هو اللّه **ليس ضد الحرية**، ولا تعارُض بين سلطته وبين الحرية، وسلطته تعالى هي ما نسميه **بالشريعة الإسلامية**، وهي شريعة لأن اللّه تعالى بخيريته شرعها واستنّها **لتعزيز الحرية وخدمتها وضمانها**. **والحرية** في جوهرها **أخلاقية**، وهي أن **نفعل أو لانفعل**، وكل فعل في حدود الشريعة ـ يتوخاه **الإنسان الحر**، صاحب الضمير الحرّ، والمقدِّر للمسئولية، والذى لايُصدر عن هوى، والذى يستلهم القيم، ويعايش كل آية في القرآن؛ وهو **الرباني** الذى اختار الطريق إلى الله، ويتمثّله تعالى فيما أمر ونهى، والله أو **المثل الأعلى الإلهى**، يجب أن يكون في وعى كل مسلم حرّ، لأنه تعالى **الموجود لذاته** أو المطلق، ونوره المشع الذى هو **القرآن**، عندما تستضيئه الضمائر الجزئية، فإن حرية هذه الضمائر تظهر في ممارساتها على موضوعاتها، ويتبدّى نورها على أنفسها، ونكون بذلك قد حذونا حذَو الله، أى نكون **ربانيين**، ونعيش اللّه في أنفسنا، وفى العالم المحيط بنا، أى يكون **الأنا الجزئى** فينا صورة أو أنعكاساً **للأنا الإلهى الأعلى**. والربّانيون لايقضون إلا بما يقضى به الله، وهم دليل وجوده تعالى، لأنهم خلفاؤه(المائدة٤٤)، وما كانوا كذلك إلا لأنه تعالى موجود فكانوا خلفاءه. والموجودات في هذا العالم واحدة من **ثلاثة**: فإما أنها **واجبة الوجود**، أى أن وجودها من ذاتها، أو أنها **ممكنة الوجود**، أى وجودها من غيرها، فلا توجد إلا بسبب، ولا تنعدم إلا بسبب، أى أن وجودها يكون مُحدَثاً، والمُحدَثات إذا كانت تحتاج **لأسباب لوجودها، فهى** محتاجة أيضاً **لأسباب لبقائها**، وفي جميع الأحوال تحتاج لُموجِد لها، سواء **في إيجادها الابتدائي**، أو في **حفظ بقائها** بعد ذلك، أو في **إعدامها**. **ووجود الممكن** يقتضى بالضرورة **وجود الواجب**، وهو الذى **وجوده من ذاته ولذاته**، وبدون سبب، وليس بعَرَض، ولاعلّة له، ويتّصف بصفات الكمال كلّها، وهو واحد لايتعدد، وهو الله، لم يلد، ولم يولد، ولاشريك له، ولم يكن له كفو، وله الأسماء الحسنى والصفات العُلى. وكل الموجودات التى ذكرها القرآن أو لم يذكرها لها **علل فاعلة**، والله هو الموجود الوحيد في القرآن الذى هو **علة نفسه** وليس علّة لغيره، وهو **العلّة الأولى** التى تنتهى إليها كل العلل، فهو **علّة العلل**. وكل آيات الخلق في القرآن تجزم بوجود الكون على نظام، وأنه كله يشمله الانسجام، وهو نسق من الوسائل والغايات، فكيف حدث ذلك والمادة عاجزة عن تدبير نفسها بنفسها إن لم يكن الذى أحدثها هو اللّه علّة العلل، والمحُدِث الأول؟ وتتحدث

الآيات الكونيـة فى القرآن عن «**دليل غـائى**»، **قوامـه أن وراء هذا التناسق والتناغم والنظام** لابد من **علّة عاقلة** تتولى الخلق والتدبيروالتنظيم. والإنسان وهو قمة الموجودات والمخلوقات ، كلما يتصـور للأشياء علّة، يذهب فى تصوره إلى ما هو أبعـد منها وهكذا، وكل ماهو عظيم فى لحظة يأتى على الإنـسان أن يجد لـه الأعظم منه، وما من شىء يظن به العـقل الكمال إلا ويتطلع أن يجد ما هو أكمل منه، إلى نهاية النهايات، **أى المطلق الكامل** الذى لاشيء أكمل منه، ولا مزيد على كماله، ولانقص فيه. وهذا التصّور لهذا الموجود الأكمل والأعظم والأجمل هو واقـعٌ نأتيه فعـلاً، وليس وجوده فى الحقـيقـة بأقل من وجوده فى التصور، وهذا الموجود الأكمل هو الله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** (11) ﴾(الشورى)، والبرهان على وجوده تعالى نسميه «**برهان الكمال**»، لأننا به ننشد «**الكمال**» ولانقنع بالأدنى، وهو أيضاً «**برهان الاستكمال**»، لأننا به **نستكمل** النقص بما هو أكمل، وهو كذلك «**برهان الاستعلاء**»، لأننا به **نستعلى** على النقص ونصّاعد علواً إلى الكامل الأمثل. وشبيهٌ بذلك أن الفكرة قد تطرأ وتلح على عقولنا حتى نستكملها موضـوعياً، وحتى يصبح لها وجودها فى تصوّرنا، فعندئذ نعرف أن هذا الوجود أو الكمال للفكرة لم يكن على جهة الصورة، ولم نكن نحن علّته، ويلزم بالضـرورة أن نستشـعر وندرك ونعى، أننا لسنا فى العـالم وحدنا، وأن هناك موجود آخر أسمّى هو **علّة هذه الفكرة** . **وفكرة الـلّه** من ذلك، فكلما نتأملها ونفكر فيما قيل فـيهـا وعنها، ندرك إدراكاً قـوياً لا يخامـره الشك، أن هذه الفكرة لايمكن أن تكون نحن وحدنا مصدرها، ولايمكن إلا أن يكون **لها ما يقابلها فى عـالم الواقع والحقيقة** ، ولا بد إذن أن اللّه موجود، وأنه واحد لاشريك له.

وهذه البراهين جميـعها يحفل القرآن بالأمثلة لها، بعضـها مباشر وأوردنا نماذج له، وبعضـها غير مـباشر نبّهـنا إليه بإيراد السورة ورقم الآية ولم نوردها بألفـاظها. وكل هذه الحجج والبراهين والأدلـة لها هدف واحد، هو **إبطال حجـة الناس** أنهم ما بلغتـهم رسالته تعالى، أو أنهم لم يعـثروا على ما يدُحض جحـودهم ويهديهم. ونحمـد اللّه تعالى على القرآن الذى علّمنا ونورّنا وهدانا ، فـأين منه **التـوراة** التـى تشتتنا، وتثيـر فينا النعرات، وتضللنـا عن الله؟ وأين منه **الأناجـيل** التى تفتـرى على اللّه أعظم فرية، وتضل الناس، وتطفىء فيـهم نور العقل، وتدخلهم فى متـاهات وتلفيقات، لاهى من الفلسـفة، ولامن العلم، ولا من الدين فى شىء؟!، وحسبنا اللّه!

●●●

٣٣٠ ﴿برهان الخلق﴾

الله يخلق، ومـا دونه، ومن دونه، لايخلقون ولكنهم مـخلوقون، وهذا هـو الفرق.

وعندما نقول إن الإنسان خالق، نعنى أنه مخترع، لأنه لايخلق من عدم، ولم يخلق المادة التى صاغـها، ولا القوانيـن التي سار علي نهجـها. ويقول تعـالى منكراً دعوى الخـالقين المزعومين: ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)**﴾ (النحل)، يعنى بهم الأصنام لاروح فيها، وحتى إن قيل كان عيسى يخلق، نقول بإذن الله، وإلا فـأين هو عيسى؟ وأين خلقـه؟ وإذا قيل إن علماء الاستنساخ وإنما الله خلقُه مستمر وللأبد، وما كان عيسى ولاعلماء الاستنساخ يخلقون من عدم، والله تعالى يخلق من عـدم، كقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)**﴾ (النحل)، وقوله: ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ(١١)**﴾(لقمان)، وقوله: ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ(٤٠)**﴾(فاطر).

●●●

٣٣١. ﴿خلق الإنسان دليل على البعث﴾

فى قـوله: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)** ﴾(الطارق) أن ابن آدم لو تأمل مما خلق لأدرك أن مَن قَدرَ على ذلك قادرٌ على أن يبعث الموتى، فالإنسان قـبل الخلق لم يكن شيئاً مذكوراً، وما كـان إلا ماءً تدفق من بين صلـب الرجل وترائب المرأة، وهو بعـد الموت لايصبح شـيئـاً مذكـوراً، فهـذه كتلك، والقادر على الخـلق من العدم فى الحاليـن هو الله، وهو يقدر أن يعيد الموتى إلى الحياة بعد بعثهم فى الآخرة.

●●●

٣٣٢. ﴿برهانٌ على البعث﴾

هو قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)**﴾ (الإسـراء)، يعنى: قل لهم يامحمد، كونوا على جهـة التعجيز، حجارة أو حديداً، أو أى شيء مما هـو كبيـر عندكم بدلاً من أن تكونوا عظاماً، فلن تـفوتوا اللّه إنْ أرادكم، وسيبعثكم كما خلقكم أول مرة، وسيلوون رءوسـهم عجباً، ويسألون مستهزئين: متى هذا البعث؟ فقل عسى أن يكون فى القريب. وعسى واجب، يعنى أن البعث سيكون قَصُر الزمن أو طال.

وفى الآية: ﴿ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)** ﴾ (الزخرف)، يدلل على قدرته تعالى على بعث الموتى، وشبهّت الآية الموتى بالأرض الميتة، ينزل عليها المطر فتُبعث الحياة فـيها، وتخضر وتُخرج الزرع، ومن يقدر على البعث الثانى

يقدر على البعث الأول، كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)**﴾ (الأعراف)، والرياح المبشّرة هي التي تبشّر بالمطر، والبلد هو الموضع من الأرض، تصفه الآية بأنه ميّت، أي غير عامر لا يسكنه أحد، فإذا سقط عليه المطر أخرجت أرضه الثمرات، فيأتي الناس ويعمُر بهم، فمثل ذلك إحياء الموتى وإخراجهم من القبور. ورُوى أن رسول الله ﷺ سُئل: كيف يعيد الله الخلق؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «**أما مررتَ بوادي قومك جَدْباً، ثم مررتَ به يهتز خَضِراً**»؟ قال : نعم. قال: «**فتلك آية الله في خلقه**».



٢٣٣. ﴿دليل حدوث العالم وأن له صانعا﴾

فى الآية: ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)** ﴾(الانشقاق) دليل على أن العالم مُحدَث، **فالطبق** هو الطور، والمخلوقات والكائنات جميعاً تعيش وتتواجد فى الدنيا فى أطوار، فالإنسان مثلاً كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، وحيّاً، ثم ميتاً، ويكون سعيداً ثم شقياً، ثم سعيداً. وفى يسر، ثم عسر، ثم يسر، وفى غنى ثم فقر، ثم غنى، والأيام والليالى تتعاقب، فلا النهار يبقى إلى الأبد، ولا الليل يستمر سرمدياً، ولا الشتاء ولا الصيف يدومان، ولا الفصول كما هى، ولا القمر، ولا الشمس، ولا البرد، ولا الحرور، ولا الشباب، ولا الطفولة، وفى الحديث: «**إن قدّامكم أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم**»، والأمور العظيمة هى **التغيّرات والتقلّبات** من حين يُخلَق إلى حين يُبعَث. وفى الحديث أيضاً: «**لتركبن سنَن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبّ لدخلتموه**»، قالوا: يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»؟ يعنى أن ذلك مقدور على الجميع، **فالأطوار سُنّة أو فطرة أو قانون للوجود**:

كذلك المرء إنْ يُنسأ له أجل .·. يركب على طبق من بعده طبق

والملاحظ أن الطور مدته عشرون عاماً، أى جيل، تتغير فيها الأمور حتماً عمّا كانت عليه، مَنزلةً بعد منزلة، وطبقاً بعد طبق، وليس التغيير إطلاقاً ولكنه مما يكون، فكل شيء يجرى إلى شكله، ومن كان على صلاح دعاه صلاحٌ فوقه، ومن كان على فساد استماله الفساد فوقه، والناس فى النهاية تصير من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة، والعرب يقولون فى الأمر الشديد: «**وَقَع فى بنات طبق**»، وسموا الداهية الشديدة «**أم طبق**»، و«**بنت طبق**»، وأصلها الحيّة، واسمها أم طبق لتحوّيها، وكل ذلك دليل على أن العالم مُحدَث، وأن له

مُحِـدِث، فكل مُحـدَث لابد له من مُحـدِث، ومن كان اليوم فى طـور، وغداً فى طور، فليعـرف أن أمره ليس من نفسـه، وأن تدبيره ينظمه له سـواه. وقيل لأحد الحكمـاء: ما الدليل على أن لهذا العـالم صانعاً؟ فـقال: **تحويل الحـالات، وعجز القوة، وضـعف الأركان، وقهر النية، ونسخ العزيمة.**

•••

٣٣٤. ﴿حجتهم فى إنكار الصانع﴾

الآية: **﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٥)﴾**(الرعد) فى إنكار البعث، وتعنـى أن العجب حقـاً هو إنكارهم أن يُبعَث الناس من جـديد بعدما يصـيرون تراباً، وإنكار البعث مـعناه إنكار الصانع الذى يصنع البعث، فمع الأدلـة الواضحة بأن كل متغيّر لابد له من مغيّـر، فإنهم ينكرون أن يكون للخلق خالق، وأن يكون فى استطاعته أن يعيد خلقهم كما بدأهم، فهذا هو مصدر العجب حقاً.

•••

٣٣٥. ﴿دليل: المتغيرات لابد لها من مغيّر﴾

تلفت الآية: **﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾**(الأنعام) النظر إلى التغيرات من حول الإنسان، فالماء الذى ينزل مطراً، ويسقى الزرع، ويُنبت النخل والأعناب والزيتـون والرمان، مـتشـابهاً وغـير مـتشـابه، يحثّ على النظر والتفكُّر، وهو نظر اعتبار لا نظر إبصار مجرّد عن التفكُّر، والناظر ينظر ببصره وقلبه معاً، والآية دليـل على أن المتغـيرات لابد لها من مغـيّر، وهو فى النهـاية الله، وإلا كنا فى دَوْر وتلاحق اللغة العربية بعبـقريتها الفذة أطوار هذا الإثمار للـنخـل حتي يكون الثمر، ففى البداية يكون طَلْعاً، ثم إغْرِيضاً إذا انشق عنه الطَّلع، والإغريض يسمى ضَحْكاً أيضاً، ثم بلحاً، ثم سَيَاباً، ثم جَدَالاً إذا اخضر واستدار قبل أن يشتد، ثم بُسْراً، ثم زَهْواً إذا أحمر، فإن كان كذلك من جهة الذَّنَب فهو مُذَنِّبة، وهو التَّذْنُوب، فإذا لان فهو ثَغْدة، فإذا بلغ الإرطاب نصفه فهو مُجَزِّعة، فإذا بلغ ثلثيه فهوحُلقانة، فإذا عَمّه الإرطاب فهو مُنْسَبِتة، فيقالُ رُطَب مُنْسبت، ثم ييبس فيـصير تمراً؛ فهذه الأحوال يلحظها مـن له دقة بصر وبصيرة، وتغيُّرها تنبيـه للناس أن يروا فعل الله فيها، فلا بد أن هناك مُحِـدث لكل هذه التغيرات، وهو وحده الذى يمكن أن يوجـدها ويرسم خطوطها ويسـتحدث أحـوالها، ولايمكن أن

يتيسر ذلك إلا لإله من صفاته أنه واحد، وقادر وصانع وعالم، والآية دليل على جواز البعث وأنه من الله تعالى.

وفي الآية: ﴿ **وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**(١٤١)﴾(الأنعام)، دليل على أن الله تعالى خلق الثمار **مختلفة في الطعوم**، وسمّاها **أُكُلاً** لأنها تؤكل، وقدّر فيها **الاختلاف**، وبعضها يتشابه وبعضها لايتشابه، وفي ذلك اجتمعت الأدلة على **طلاقة قدرته ووحدانيته**، لأن كل متغيرات لابد لها من مغيّر، والمُحدَثات لابد لها من مُحدث، ولقد خلقها غذاءً لنا، وكان بوسعه أن يخلقنا ولايخلق لنا الغذاء، وخَلَقَه جميل المنظر، طيب الطعم، وسهل الجنى، وما كان عليه أن يفعل ذلك ابتداءً، لأنه لايجب عليه شيء، وخلَق له الماء والغذاء لينمو ويونع، والمفروض أن الماء ينزل إلى أسفل، **فخلق خاصية صعوده في النبات إلى أعلى** حتى الفروع السامقة، وجعل له الأوراق مختلفة الشكل، وأنبت منه الثمر، له الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين من قالوا أن الأشياء توجد بطبيعتها وأجناسها؟وأين أصحاب الفلسفات الذين زادوا وعادوا وما قالوا شيئاً إلا تحصيل الحاصل؟ وهل كان في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب؟! وما يفهم ذلك إلا عاقل، يدرك أن الخلق لايخلقه إلا خالق حيٌّ، عالمٌ، قادرٌ، مريدٌ، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية!

●●●

٢٣٦. ﴿حجة نفي الشريك﴾

الآية: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** (٤٢)﴾(الإسراء) متصلة بسابقتها: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**(٣٩)﴾(الإسراء)، والمعنى: أنه تعالى لو شاركته آلهة في مُلكه لطلبوا معه المنازعة والقتال كما تفعل ملوك الدنيا الشركاء فيما بينهم، وإذن لطلبوا طريقة للوصول إليه لينزلوه عن عرشه طالما أنهم شركاء، أو لالتمسوا الزلفة عنده وابتغوا القربة وكانوا مثل بقية خلقه وليسوا شركاء.

●●●

٢٣٧. ﴿التكذيب أن لله شريكاً وولداً﴾

هو قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** (٨٤)﴾(الزخرف)، يعني هو واحد لاشريك له، مستحقٌ للعبادة في السماء والأرض، ويُعبَد واحداً فيهما.

●●●

٣٣٨. ﴿حجته البالغة تبين أنه الواحد﴾

في قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**(١٤٩)﴾(الأنعام) أن الحجة البالغة هي التي تقطع عذر المحجوج، وتزيل الشك عمّن نظر فيها، وحُجّته البالغة على ذلك تبيّن أنه الواحد، وقد ذمّ الذين جعلوا شِركهم عن مشيئته، وتعلقهم بهذه المقولة باطل، وقد ذمّهم على ترك اجتهادهم في طلب الحق، بدعوى أنه لو شاء ما أشركوا، وأنه لو شاء لهداهم، وما يقولونه حجة له عليهم، لأنه جعل لهم أن يختاروا الهدى أو الضلال، وأن تكون مسئوليتهم على اختيارهم، وأرسل إليهم الرسل والأنبياء، وأيدهم بالمعجزات، ونبّههم إلى الآيات في الكون وفي أنفسهم، وألزم أمره كل مكلّف، فذلك قوله له الحجة البالغة.

●●●

٣٣٩. ﴿ربُّ الشعرى﴾

يقول تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ** (٤٩)﴾(النجم) ينفي أن الشّعرى ربٌّ، فالشعرى ليست سوى كوكب مضيء، وهي مربوبة وليست بربّ؛ وطلوعها بعد الجوزاء، وكان العرب يعبّدونها، وقيل عبدتها حِمْيَر وخُزاعة، ومَن لم يكن يعبدها من العرب كان يعظّمها. والشعرى شعريان: **العَبُور والغمْيصاء**، وفي خرافات العرب أن **سهيلاً والشعرى** كانا زوجين، فانحدر **سهيل** فصار يمانياً، فاتبعته «**الشعرى العَبُور**» فعبرت المجرة فسميت **العبور**، وأقامت الغُمَيصاء، فبكَت لفقد سُهَيْل حتى غَمصت عيناها، فسميت **غميصاء** لذلك، **والغميص** هو المادة البيضاء تفرزها العين المريضة وتخرج من مجرى الدمع. وقيل: الذي دعا إلى عبادة الشعرى كان مَن يُدعَى **أبا كبشة**، من أجداد النبيّ ﷺ من جهة الأمهات، ولمّا كانت المشابهة بينه وبين النبيّ ﷺ، حيث خرج **أبو كبشة** على إجماع العرب ودعا دعوته، فكذلك خرج النبيّ ﷺ على إجماع العرب ودعا إلى عبادة الله، فسمّوه«**ابن أبي كبشة**» لهذا السبب، وكانوا يقولونها استهزاءً.

●●●

٣٤٠. ﴿بروج السماء من دلائل الوحدانية﴾

البروج هي المنازل، وفي الآية: ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** (١٦) **وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ** (١٧)﴾(الحجر) تنبيهٌ إلى كمال قدرته تعالى، ليُستَدل بها على وحدانيته، والبروج في السماء آية وإعجاز، وهي منازل الشمس والقمر، وهي: الحَمَل، والثّوْر، والجَوْزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوْس، والجَدْي، والدّلو،

والحوت، فهذه اثنا عشر برجاً تكوّن معاً ما يسمى بالفَلك. وأصل البروج الظهور، ومنه تَبرُّج النساء، وسميت بها المنازل لأنها تظهر فى السماء، ومن منافعها معرفة مواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم. وتزيين السماء بالنجوم، وهى مصابيح تسُرّ الناظرين، وذكرى للمعتبرين والمتفكرين، وحفظاً من الشياطين، أن يسترقّوا السمع فيُرجَمون بالحجارة عقاباً وصداً لهم.

●●●

٣٤١ ﴿اسمه تعالى «الله» ليس له سمىّ﴾

فى الآية: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ (مريم) أنه تعالى ربّ كل شيء ومالكه، لأنه خالق كل شيء، فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان، ولايمكن صرف ذلك إلا إليه تعالى، المتفرّد باسمه «الله»، والمستحق للعبادة والصبر عليها، فهل يعلم أيُّنا أحداً سُمِّى باسم الله، أو يقال له اللّه، إلا هو؟

●●●

٣٤٢. ﴿الله هو اسمه تعالى الأعظم﴾

الاسم «اللّه »هو رأس الأسماء الربّانية جميعها، وهو عَلَمٌ على ذات الحق، وجامعٌ لكل صفات الجلال والكمال، وهو اسمه الأعظم، لأنه الذى استفتح به فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ (الفاتحة١، وهود٤١، والنمل٣٠) وذكر أنه إذا دعى به أجاب: ﴿ادْعُوا اللَّهَ(١١٠)﴾ (الإسراء)، وإذا سُئل أعطى، كقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ(٢٩)﴾(الرحمن)، ولم يوجد من سُمّى به سواه، كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾(مريم). وهو اسمٌ يوصف بكل الصفات ولاتوصف به الصفات، فلا يقال مثلاً: «الرحمن الرحيم الله»، وإنما يقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وفى التنزيل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)﴾(الحشر)، فأجرى الأسماء ـ التى هى صفاته ـ بعد اسمه اللّه كصفاتٍ له، كما قال: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾(طـه)، فالأسماء الحسنى تصفه ولايصفها.

والاسم «اللّه »من الجوامد، يعنى ليس له اشتقاق، وقيل مشتقٌ من: أَلَه، يألَه، أُلوهةً، والجمع آلهةٌ، وإلَهٌ. وقيل مشتق من ألِهتُ إلى فلان، أى سكنتُ إليه، فهو اللّه لأن العقول لاتسكن إلا إلى ذكره تعالى، فهى تألّهُ إليه، وهو لذلك الله، كقوله تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾(الرعد). أو أنه اللّه لأن له الإلاهية، ويستحق نعوت الجلال، فإذا قلنا

«بسم الله» نقصد باسم من تفرّد بالقوة والقدرة، فبسماعنا لاسمه تعالى «الله» ندرك معنى الإلهية، فنستشعر الهيبة والاصطلام. وإذا تكلمنا فى اسمه تعالى، فإنه تعالى ليس مجرد اسم، وإنما هو موجود بذاته، ونعرفه بأفعاله، وبالعقل والمنطق عن أهل العلوم والحكمة، وبالنقل عن الأنبياء، وبالدلائل أو الحجج أو البراهين على وجوده وجوداً عينياً وليس وجوداً اسمياً اصطلحنا على تسميتها باسم دلائل أو حجج أو براهين وجود الله - عن العلماء؛ وهى علمٌ قائم بذاته. واسمه الله يتردد فى القرآن ٢٦٩٧ مرة، وأفعاله وآياته الدالة على وجوده عينياً لاتعد ولا تحصى. ومن صفات الاسم «الله» سهولته فى النطق وفى التذكُّر، وجرّبتُ ذلك بنفسى على طلاّب من الجامعات فى موسكو وفرانكفورت وباريس ولندن ونيويورك وروما، فكان تذكُّرهم للاسم ونطقهم له من أسهل الأمور عليهم، وكان يعسر نطق الاسم التوراتى «ألوهيم» وهو المقابل العبرى لاسم اللّه العربى، وفى ذلك بيان بفضل العربية على العبرية، فكان اختياره تعالى للعربية لغةً للقرآن لصفات فيها ليست فى العبرية، ولهذا لم تتنزّل التوراة من اللّه مباشرة وإنما كتبها الكتبة،وكذلك الأناجيل، فأما القرآن فكان نزوله مباشرة من الله، وكان حفظه منه تعالى،لأنه كلامه المباشر، ومن ثم فالدعوة فيه للّه وليست لشعب اليهود كالتوراة، وليست للمسيح كالأناجيل، وهذا دليل ثبوتى على أن القرآن من عند الله. ولأن الله فيه يدعو لنفسه فكَثُر اسمه تعالى فى القرآن حتى بلغ هذا العدد الكبير الذى له فيه، وبالمقارنة لم يزد عدد مرات المذكور من اسمه تعالى العبرى «ألوهيم» فى التوراة عن مائة وخمسين مرة أو نحو ذلك، وتكاد الأناجيل يكون مدارها على اسم المسيح وقلما يُذكر اسم الله، والسبب أن التوراة ينصبّ فيها التأليه لشعب إسرائيل وليس للّه، وكذلك فإن الأناجيل لم تكن تحفل بذكر اللّه وإنما دعوتها للمسيح. وكذلك يرد فى التوراة اسم «يهوه» أكثر من اسم «ألوهيم»، و«يهوه»، يعنى «هو» يشيرون بها إلى اللّه تعالى بضمير الغائب،وفى القرآن مثل ذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ (القصص ٧٠)، و﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ (٢٢)﴾(الحشر)، والفرق فى العبرية بين «ألوهيم» وبين «يهوه»، أن «ألوهيم»تعنى «ربّ العالمين» أى ربّ الأمم أو ربّ الأغيار ،و«يهوه»، تعنى «ربّ اليهود»، تمييزاً له عن ربّ الأمم أو ربّ العالمين. وكذلك يرد اسمه تعالى فى العبرية «أدوناى» بمعنى «ربّنا» أو «ربّى» ، فإن أردتَ أن تشير إليه باعتباره «ربّ الناس» قلت «ألوهيم»، وإنْ أردتَ الإشارة إليه «كربّ بنى إسرائيل» فهو «يهوه»،وإن أردتَ أن تدعو به لنفسك أو تدعوه به جماعة، تقول «أدوناى». «وصوفية المسلمين» الذين هم على علم بهذه الأسماء العبرية: «ألوهيم»و«يهوه»و«أدوناى» يعظّمونها، وعندهم «الهُوَ»

الغير، وفي حق الله هو إشارة إلى الله ذاته، ويقولون «هو بلا هو» يعني أنه المتفرّد المتوحّد، وكأنما الذي يكتب أو يقول: «هو» لايقولها نطقاً ولا يكتبها أحرفاً، بالهاء والواو، وإنما يكتبها أو ينطقها إشارةً، يقصده تعالى بها بدون حاجة إلى التنبيه إليه باسم أو حرف، ومن ذلك تشتق «**الهوية**»: ، وهي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق. فشتّان إذن بين مفهوم اليهود من قولهم «هو»، ومفهوم متصوّفة الإسلام، **وهوية الحق** عند متصوفة المسلمين هي عينه التي لايمكن ظهورها إلا باعتبار جملة الأسماء والصفات، فكأنها إشارة **إلى باطن الأحدية**. وفي القرآن فإن الإشارة إلى اسم الله تعالى تأتي بضمير الغائب «**هو**» تعبيراً عن مضمون اسمه تعالى «**الله**»، وعلى ذلك فقوله تعالى **﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ (٢٢)﴾**(الحشر) تنبيه إليه تعالى باعتبار اسمه «هو» مرة، وباعتباره «الله» مرة، فإن أردناه تعالى **كهوية أو كمعنى باطن**، قلنا «**هو**»، وإن أردناه كعلمية قلنا «**الله**»، «**فالله**» هو الاسم المستحق لصفات الإلهية التي نعلمها، وما لا نعلمه منها فاسمه «**هو**»، ويقابل ذلك في العبرية «**ألوهيم**» و«**يهوه**». واسم «**الله**» على ذلك من أسماء الأعلام، لأنه مظهر الربوبية، واسم «**هو**» باطن الربوبية. والاسم «**الله**» يُنطق **خماسياً**، مع أنه في الكتابة رباعي، والنطق حاكم على الكتابة، ولذلك كانت بداية القرآن بقوله تعالى: «**اقرأ**»، ولم يقل «**اكتب**»، وكتابه المنزّل اسمه «**القرآن**»، أي المخصوص للقراءة، وهو اسمه الشائع وليس الاسم «**الكتاب**»، واسم «**القرآن**» على ذلك حاكم على اسمه «**الكتاب**». واللطيفة في الاسم العربي: أن **الحرف الأول** من اسمه تعالى «**الله**» المنطوق هو: «**الألف الأولى**» وتأويلها الواحد في الحساب، إشارة **للأحدية**؛ **والحرف الثاني** هو: «**اللام**» **الأولى** تلتوي عن الألف فتعطيها جلالاً، والجلال أعلى تجليات الذات وأسبق من الجمال، وفي الحديث: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**»، ولا أقرب من الرداء والإزار إلى الشخص، فثبت أن **صفات الجلال** أسبق إليه تعالى من **صفات الجمال**، **والحرفُ الثالث**: «**اللام الثانية**»: تأكيدٌ للأولى، وإظهارٌ لما في جلال اللام الأولى من الجمال، والجمال الظاهر للخلق هو **جمال الجلال**، كما أن الجلال الباطن هو **جلال الجمال**، والاثنان **الجلال والجمال** متلازمان في الاسم «**الله**»؛ «**والحرف الرابع**» **هو** «**الألف الثانية**» التي تُنطق قراءة وتُنسى كتابةً، ولكنها ثابتة في **اللفظ الملفوظ** باللسان، وهي إذن **ألف الكمال**»، لأن ثبوت الألف في اللفظ إظهارٌ للكمال في ذاته تعالى. **والحرف الخامس** هو: «**الهاء الأخيرة**» إشارةً **إلى الهوية**، **أو الهُوَ هُوَ** في قوله: «**هو الله**». **والهو** هو الباطن، وهو الذات، وهو عالم الغيب. وتستدير **الهاء** تحوط بالغيب عالم الخلق والشهادة، إشارةً إلى أنه تعالى هو الخالق، والحافظ،

والرحمن، والرحيم، والوليّ، والحميد إلخ، فتجتمع في الاسم «الله» كل صفات الألوهية أو الإلهية، ولايتحقق هذا الاجتماع إلا لذات واجبة الوجود. والخلاصة أن «الألف» في الله» بها الابتداء، «والهاء» بها الانتهاء، فهو تعالى «الأول والآخر»، وقولنا، «هو» كمقابل لاسمه «الله»، مقابلة الباطن للظاهر، فاسمه «الله» إشارة إلى ظاهر الذات، واسمه «هو» إشـارةٌ إلى الذات نفسها، فذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**(٣)﴾ (الحديد). **واعتقاد أهل السنّة في الله**: أنه تعالى واحد أحد، قائمٌ بنفسه، ومستغنٍ عن خلْقه، ليس له محل، ولا مكان، سميعٌ، بصير، ليس كمثله شيء، ولا يجوز عليه الحدّ ولا النهاية، قديمٌ، ليس بجسيم، ولابجوهر، ولابعرَض، يستحيل عليه الولد والزوجة، ولايجوز له الشريك، ولا الحركة والسكون، ولا الذهاب والمجيء، ولا الاجتماع والافتراق، والقرب والبُعد، والاتصال والانفصال، والحجم والجَرْم، والجثة والصورة، والحيّز والمقدار، والنواحي والأقطار، والجوانب والجهات، ولاتجوز عليه الحوادث على ذاته، ولايجوز عليه النقص، والآفة، والكيفية، والكمية، والأينية، وهو حيٌّ، قادرٌ، عالمٌ، مديدٌ، وصفاته له، وموجودةٌ به، وقائمة بذاته، وعلْمُه بكل شيء، وقُدرته في كل شيء، وحكمتُه في كل شيء. فهذا بعض ما نعرف عن الله، وعرفناه بالقرآن، وعايناه بالعقل، والحمد لله على نعمة القرآن والإيمان والإسلام والعقل، وعلى أن محمداً ﷺ كان نبيّنا ورسوله تعالى إلينا، وكان مُعلّمنا ومرشدنا وهادينا.



٣٤٣. ﴿الله والربّ والإله﴾

في القرآن: ﴿**رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**(١٤)﴾(الكهف)، يعني أنه تعالى المالك المتصرف، والمدّبر لكل أمر في السموات والأورض، خلق كل شيء، ويتعهده ويكفله، وبنفس المعنى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**(١٣٢)﴾(النساء)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ**(٨٤)﴾(الزخرف). والفرق بين الله والربّ والإله: أن **الله** عَلَمٌ على الإله المعبود بحق، وأصله أَلِهَ، دخلت عليه **أل**، ثم حذفت همزته وأُدغم اللامان. غير أن الله **لايجمع**، لأنه لا إله إلا هو، بينما الجمع **لإله** هو **آلهة**، والإله هو كل ما يُتخذ معبوداً؛ وكذلك **الربّ** تُجمع على **أرباب وربوب**، من رَبَّ بمعنى تعهد ونمّى وحفظ وأصلح، والربّ هو المالك، والسيد، والمُربى، والقيّم، والمُنعم، والمدبّر والمُصلح. واسم الله تعالى ينفرد به المسلمون، وله ما يقابله في العبرية وهو «**ألوهيم**»، بينما **الرّب في العبرية «يهوه»**. وكان للمصريين آلهة أو أرباب بلغت نحو العشرين، وفي قولٍ نحو المائة، ومن أشهرهم رع،

وآمون، وأتون. وكان لليونانيين آلهتهم كذلك، وكبيرهم ربّ الأرباب زيوس. وفى التوراة فإن آلهة إسرائيل بلغت الخمسين إلهاً، ومنهم بعل، وأدونيا أو أدونيس، وعشتار. وأرباب النصارى ثلاثة ، ومن أربابهم قديسون ورهبان، ومن أرباب اليهود أحبار، والربّ هو الذى يحلّل ويحرّم، فجعل الرهبان والأحبار لأنفسهم ما لله. وعند استخدام «الله» ـ فالمقصود به «ربّ العالمين»، فلا ينسب لهذا أوذاك من الناس أو الأقوام، على عكس «الرّب» و«الإله»، فيقال ربّى، وربُّكم، وربُّنا،وربّ الناس،وربّ الشعْرى، وربّ العرش العظيم، وربّ المشارق والمغارب، وربّ المشرقين، ورب المغربين، كما يقال إلهى ، وإلهنا، وإلههم. وفى الدعاء: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ (٢٨) ﴾(نوح)، ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ (١٠١) ﴾(يوسف). وفى اليونانية الله **Theos**، والاعتقاد فى الله **Theism**، والرّب **Deos**، وفى اللاتينية **Deus**، والربوبية **Deism** . وللربّ بمعنى الله كل صفات أو أسماء الجلاله. ومن الربّ تشتق الربّيون والربّانيون، والفرق بين الاثنين هو أن الربّيين هم العلماء العبّاد المجاهدون، كقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ (١٤٦) ﴾(آل عمران)، والربّانيون هم العلماء الراسخون فى العلم كقوله تعالى: ﴿ لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ ﴾(المائدة ٦٣)، فالربّيون رسالتهم العلم، وتحقيق التعليم، والدعوة إلى القتال؛ والربّانيون رسالتهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم علماء الأمة ، والفرق بين الربّانى و الحَبْر، أن «الحَبْر» عالم متضلّع يعيش للعلم، بينما «الربّانى» عالِم متألّه،سلوكه وفق علْمه. والربوبية التى لله شاملة لكافة المجالات التى يكون بها المؤمن مؤمناً يترقّى فى الإيمان، ليكون من المُخلَصين الصدّيقين المجاهدين فى سبيل إعلاء دينه وكلمته. وغاية الربوبية تعليمية، وتربوية، واجتماعية، وسياسية،واقتصادية، وفكرية، وعقلية، ونفسية، وروحية، وتتوخى إصلاح البدن، والعقل، والقلب، والنفس، والروح، والبيت، والشارع، والمصنع، والحقل، والمجتمع ، والدولة، والعالم بأسره، ويتهيأ بها الإنسان ليكون جديراً بخلافة الله فى الأرض. وربوبية الله فى قوله «ربّ العالمين»، أنه تعالى هو السيد، والعالمين جميع المخلوقات. واختصاص هذا الجمع بلفظ «العالمين» لاشتماله على العقلاء والجمادات، فهو تعالى مالكُ الأعيان ومنشؤها، ومُوجِد الرسوم والديار بما فيها. واسم الربّ فيه تربية الخَلق، فهو تعالى مُربّى نفوس العابدين بالتأييد، ومربّى قلوب الطالبين بالتسديد، ومربّى أرواح العارفين بالتوحيد، ومربّى الأبدان بوجود النعَم، ومربّى الأرواح بشهود الكرم. والزاهدون يربيّهم بجميل رعايته،والعابدون يُربيهم بحُسن كفايته، والواجدون يُربيهم بتقديم عنايته. وفى الدعاء ميّز الله تعالى أمة محمد بأن جعل دعاءهم منهم له مباشرة،

كقوله: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**(٦٠)﴾(غافر)، بينما جعل دعاء بني إسرائيل، أنهم طلبوا من موسى أن يتوسط لهم عند ربّه، فقالوا: ﴿**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ**(٦٠)﴾(البقرة)، وفارقٌ بين أمة لها التقريب وتدعو الله مباشرةً، وأمة بوعدٍ بينها وبين ربّها فليس لها إلا الرجاء بالوساطة.

●●●

٣٤٤.﴿الإله الحق لايتعدّد﴾

لايتعدّد الإله الحق وكل إله يُزعَم أنه يتعدد فليس بإله، وفي الآية: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**(٥١)﴾(النحل) يقتصر النفي على وجود إلهين اثنين، والمقصود نفي التعدد إطلاقاً، فإنما هو إله واحد، والواحدية وصفٌ لذاته المقدّسة. **والدليل العقلي والشرعي على وحدانيته**: هو عجائب صُنعه، فلابد لها من فاعل أو صانع أو مُحدِث أو خالق لايشبهه شيء، وفي قوله «**هو إله واحد**» إثباتٌ للوحدانية، على عكس «**لا إله إلا الله**» ففيها النفي والإثبات معاً، وأولها كفر، بقوله: «**لا إله**»؛ وآخرها إيمان، بقوله: «**إلا الله**»، بينما: «**هو إله واحد**» كلها إيمان.

●●●

٣٤٥.﴿التوحيد﴾

التوحيد مصدر وحّد يوحّد، ومعنى «**وحّدتُ الله**» اعتقدته متفرّداً بذاته وصفاته، لا نظير له ولاشبيه، كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** (١٩)﴾ (الأنعام)، وقيل: معنى وحّدته: علمتُه واحداً، كقوله: ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**(١٦٣)﴾(البقرة)، وقيل: **الواحدية** تعني أنه قد سُلبت عنه الكيفية والكمية فهو واحد في ذاته لا انقسام له، وفي صفاته لاشبيه له في إلهيته ولا شريك له في مُلكه وتدبيره، ولا شريك له، ولا ربّ سواه، ولا خالق غيره، كقوله: ﴿ **وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**(٥٢)﴾ (إبراهيم) .

●●●

٣٤٦.﴿لا إله إلا الله﴾

في «**لا إله إلا اللّه**»: نفيٌ قاطع بالألوهية لغير اللّه، قيل في الآية: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** (٨٩) ﴾ :(النمل) أن الحسنة هي قول «**لا إله إلا اللّه**» يومَ الفزع، فمن قالها فقد أحسن. وسأل أبو ذر الرسّول ﷺ، قال: يارسول الله: أمِنَ الحسنات: «**لا إله إلا اللّه**»؟قال: «**من أفضل الحسنات**» ، وفي رواية قال: «**نعم، هي أحسنُ الحسنات**».وقيل الحسنة في قوله تعالى «**من جاء بالحسنة**» وذلك يوم القيامة ـ هي الإخلاص والتوحيد .ولمّا اجتمع النبيّ ﷺ بأكابر قريش عند أبي طالب قرُب موت أبي طالب، قال

لهم: «قولوا لا إله إلا اللّه تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم»، فأبوا وأنفوا، وفيهم أنزل اللّه تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** (٣٥) ﴾(الصافات)، وقال: ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** (٢٦) ﴾(الفتح)، وقيل «كلمة التقوى» هي: «لا إله إلا الله» استكبر عنها المشركون يوم الحديبية، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على الهدنة، وأوصى اللّه تعالى بها نبيّه فقال: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** (١٩) ﴾(محمد)، فأخبر أنه تعالى أعلمَ بها نبيّه لما عَلِمها استدلالاً أولاً، فأعلمه بها يقيناً ثانياً. والعلم بها للمسلم أن يذكرها، عبّر تعالى عن الذِكْر بالعِلْم، لأن الذكْر يترتب على العلم، والذِكر عملٌ، فإذا عَلِم المسلم وتيقن أنه «لا إله إلا الله»، فعليه عندئذ بذكره تعالى، أي بشُكره على نعمه والثناء عليه، وأن يتوجّه بالعبادة له، ومن العبادة عمل الصالحات وإعمار الأرض. وكما أنه لا إيمان من غير عمل، فكذلك لاعمل إلا من بعد معرفة وعلم. والكافر لو عرف الله لافتخر بعبوديته له، ولما استكبر أن يقول «لا إله إلا الله»، كقوله تعالى: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ** ﴾(النساء ١٧٣)، ومن عَرَف الله لا لذة له إلا في طاعته، والانقطاع إليه عن الخلق، كما كان نبيّنا ﷺ يفعل. ومن قال «لا إله إلا الله» بعلم، فإنه يذكر معناها، ويتحقق بحقيقتها، وذلك هو الإخلاص، فالعبد يعلم أولاً ربّه بدليل وحجة، وعِلْمُه كسبي، وهو أصل الأصول، وينبني عليه العلم الاستدلالي، ثم تزداد قوة عِلْمه بزيادة البيان والحجج.

●●●

٣٤٧. ﴿شهادة الحق لا إله إلا الله﴾

لايشهد بالحق إلا الملائكة والأنبياء والمؤمنون، وهؤلاء هم الذين يعلمون ولذلك يشهدون، وشهادتهم هي الحق، كقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٨٦) ﴾(الزخرف)، وشهادة الحق هي قولهم: «لا إله إلا الله»، يقولونها عن علم، كقوله تعالى: ﴿ **وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** (٢٥) ﴾(النور) وعلمهم بـ«لا إله إلا الله» هو علم بحقيقتها. وفِقْهُ ذلك: أن شرط سائر الشهادات في الحقوق أن يكون الشاهد عالماً بها.

●●●

٣٤٨. ﴿إله المسلمين إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾

قيل: إن كفّار قريش سألوا النبيّ ﷺ أن ينسب لهم ربّه، فأنزل اللّه تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ**

اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾(الإخلاص)؛ وسأله مسلمو المدينة أن ينسب لهم ربّهم، فنزلت الآية: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)**﴾(البقرة) و«لاإله إلاهو» نفيٌ وإثبات، أولها كفر: «**لا إله**»، وآخرها إيمان: «**إلا اللّه**»، و معناها: لامعبود إلا اللّه. وكان بعضهم يذكر اللّه فلا يقول: «**لا إله**»، ويقول: «**اللّه**»، ويبررون ذلك بقولهم: نخشى أن نُقبَض ونحن نقول كلمة الجحود: «**لاإله**» ولم نصل إلى كلمة الإقرار: «**اللّه**»،وفي الحديث :«**من كان آخر كلامه** (يعني في الدنيا) **لا إله إلا اللّه، دخل الجنة**» أخرجه مسلم، ولذا أوصى **أحمد بن حنبل** ابنه أن يكون معه في الحشرجة، فإن نسي أن يقول «**لا إله إلا الله**» ذكّره واستصرخه أن يقولها. وقول «**لا إله إلا الله**» مقصوده القلب لا اللسان، فلو قال المؤمن «**لا إله**» ومات، ومعتقده وضميره **الواحدية** وما يجب لله تعالى من الصفات، لدخل بها الجنة. وقوله تعالى للمسلمين «**وإلهكم**» ، غاية التشريف، ولقد قيل: علامة من يَعدّه الله من خاص الخواص أن يقول له «عبدى»، فأما من قصدهم بإلهكم، فإن «**إلهكم**» أتمّ من «**عبدى**»، لأنه في قوله «عبدى» أضاف **العبد** إليه، بينما في قوله «**إلهكم**» أضاف **الإله** إليهم. ، وهذا تشريفٌ ما بعده تشريف. ووصفهُ بأنه «**الواحد**» يعني أنه لامثل له يدانيه، ولاشكل يلاقيه، ولا قسيم يجانسه، ولاشريك يعاضده، ولا مُعين يساعده، ولا منازع يعانده، فهو الأحديّ الحق، الصمديّ العين،الديمومي البقاء، الأبديّ العزّ، الأزليّ الذات. والآية فيها أنه: «**الرحمن الرحيم**»، ألحقها **بلا إله إلا هو**،والاسمان «الرحمن» و«الرحيم» من **الرحمة**، والرحمن،أبلغ وأشدّ، وهو **الرحمن** بما أوْلى المسلمين من الإيمان؛ وهو الرحيم بما أسدى إليهم من العرفان. والحمد للّه.



٣٤٩.﴿الكفر﴾

الكُفْر خلاف **الإيمان**، وهو إنكار وجود اللّه،من كَفَر ضد آمن، **والكافر**: الجاحد لنعَم اللّه، والكفّار في جَمْع **الكافر** وهو المضاد للإيمان، أكثر استعمالاً في القرآن، **والكفرة** في جمع كافر **النعمة** الأكثر استعمالاً. وفي القرآن من ذلك كمثَل على الكُفر: ﴿**الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾ (البقرة٢٥٨) في قوله تعالى : ﴿ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴾(البقرة٢٥٨). والناس صنفان: إما مؤمنون وإما كفّار، كقوله : ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ(٢٥٣)**﴾(البقرة)، والنصارى من الكفّار بقوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ(٧٢)** ﴾ (المائدة)، وبقوله: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ(٧٣)**﴾(المائدة). وفي القرآن عن الكافرين: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا(٥٥)**﴾(الأنفال)، وتوعدهم اللّه تعالى

فقال: ﴿إنَّا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ④﴾(الإنسان). والكافرة مؤنث الكافر، وجمعها كوافر، كقوله: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر ⑩﴾(الممتحنة)، والكُفر عليه أغلب الناس، كقوله: ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ⑤⓪﴾(الفرقان)، والكُفور (بالضم) شدّة الكفر، والإنسان عموماً مطبوع على الكفر، كقوله: ﴿إن الإنسان لكفور مبين ①⑤﴾ (الزخرف)، والكَفور (بالفتح) شديد الكفر، سُمّى كذلك لأنه وُلد من خطيئة، هى عصيان آدم وحواء لربهما. ومع كُفره فإن جسم الكافر وعرقه طاهران، ولو غمس يده فى الماء لا تزول طهورية الماء، ما لم تكن على يده نجاسة. ولايكلَّف الكافر بالصلاة؛ ولايصحّ أن يُغسِّل المسلم، ولو لم يوجد من يغسله من المسلمين يُيَمّم؛ ولايصحَ لمسلم أن يغسِّل كافراً ولو كان قريباً، فإذا خاف الضرر ببقائه، أو أن يُعيِّر به، فلا بأس أن يغسّله ويواريه التراب، ولكن لايصلّى عليه، ولا على أطفاله لو ماتوا؛ ولايصلَّى عموماً على أهل الحرب من الكفار، ولايُستغفر لهم. وإذا أسلم الكافر فى رمضان، فعليه الصيام بقية الأيام، ولا قضاء لما مضى قبل إسلامه. وكفّارته فى الظهار بالتصدّق بما يساوى عتقاً أو بالإطعام، ولايجوز بالصيام. ولا تُعطى زكاة الأموال لكافر والمسلمون فى حاجة إليها، إلا أن يكون الكافر من المؤلفة قلوبهم وقد انتهى أمر هؤلاء. ويجوز استئجاره ليتولى حاجةً للمسلمين، كبناء مسجد أو قناطر، إذا لم يوجد المسلم الصالح لذلك، وإن أجّر مسلمٌ نفسه من ذمىّ لعملٍ صَحّ، وإن استأجره لمدة صحّت الإجارة؛ وإن وكّلَ مسلم كافراً صحّ توكيله، سواءً كان ذمياً، أو مستأمناً، أو حربياً، أو مرتداً؛ ويَحْرم نكاح المسلم للكافرة والمشركة، والكافر والمشرك للمسلمة، لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ②②①﴾(البقرة)، والكفر والشرك يستويان. ويُكره الارتضاع بلبن المشركة، ولاحقّ لكافر فى حضانة مسلم. وللكافر أن ينظر إلى قريبته المسلمة ويحرُم سفره معها؛ وليس له ولاية تزويج مسلمة. وفى الدعاوى يصحّ الحكم للمدَّعى عليه بيمينه إن كان كافراً، فاليمين من الكافر صحيحة، وإن حَنَث وجبت الكفّارة عليه. وتثبت له الشفعة؛ ويحرم التوارث بين الكافر والمسلم، ويُقتَصّ للكافر من المسلم - أى كافر كان، ويقتل به، كقوله تعالى: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس ⑦④﴾(الكهف)، وقوله: ﴿ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ⑥⑧﴾(الفرقان)، وقوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ④⑤﴾(المائدة)، وقوله: ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ③②﴾(المائدة) فلم يفرّق بين كافر ومسلم فى القتل. ولا ديّة فى قتل الحربىّ الكافر، وتجب الدية على الكافر

سواء كان المقتول مسلماً أو كافراً. **ولقيط** دار الإسلام محكوم بإسلامه، فإن كان أهل البلد جميعاً أهل ذمة حُكم بكفره، وإن كانت البلد أصلها للمسلمين وغلب عليها الكفّار فاللقيط مسلم. ويحرم صيد المشرك على المسلم، لأنه ليس من أهل الزكاة. ويكفر المسلم إن ترك **الصلاة** أو أياً من مباني الإسلام، جاحداً لوجوبها، وإنْ اعتقد حلّ شيء أُجمع على تحريمه كلحم الخنزير، والزنا، والخمر، وإن ادّعى النبوة أو صدّق من ادّعاها، أو سبّ اللّه، أو **استهزأ** بآياته ورسُله وكُتبه، أو تعلم **السحر** ومارسه واعتقد إباحته. ويثبت **إسلام الكافر** بنطق الشهادتين، والإقرار برسالة محمد ﷺ، والتبرؤ من كل دين يخالف دين الإسلام؛ ولايُحكَم بإسلامه بأداء **الزكاة والحج وممارسة الصيام** دون الشهادتين؛ وكذلك **المرتد**؛ وإنْ أُكره الذميّ أو المستأمن على الإسلام فأسلم ، لم يثبت له الإسلام، حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً. وأما **المرتد والحربى** إذا أسلما، فإن إسلامهما **ظاهرى**. ومَن **أُكره على الكفر** فأتى **بكلمة الكفر** لم يصر كافراً، ومتى زال عنه **الإكراه** أُمر بإظهار إسلامه وإلا فهو قد كفر حقاً، والأفضل لمن يُكره على الكفر أن يصبر على الأذى.

●●●

٢٥٠. ﴿الشرْك﴾

أصل الشرك: أن تعتقد أن للّه شريكاً في ألوهيته، وهذا **هو الظلم العظيم أو الشرك العظيم** في الآية: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣) ﴾(لقمان)، وهو الشرك الذى لايغفره اللّه كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** (١١٦) ﴾(النساء) . والشرك مراتب، وكان شرك **الجاهلية الأولى** من أعظم الشرك، وكذا **شرك الجاهلية الثانية** في **عصر العولمة والأحكام الليبيرالية** ، يليه في الرتبة أن يعتقد المشرك أن **للّه شريكاً له في فعله**، من ثم يستحق العبادة مثله، **كشرك النصارى**، فقد عبدوا المسيح وجعلوه نداً لله، وادّعوا أنه ابنه، وقالوا إنه يخلق ويغفر ويقضى بين الناس مثل اللّه، كقوله: ﴿ **جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** (١٦) ﴾(الرعد)، ويليه في الرتبة **الشرك الأفكارى أو الإيديولوجي**، وهو شرك اليهود، فجعلوا أنفسهم **أحباء الله وأبناء له**، وادّعوا أنهم **شعب اللّه المختار**، وأنه **اصطفاهم** على العالمين، **واختصّهم** بنعمه، وحصر فيهم **الجاه والسلطان والعقل والعلم**، وانتقاهم ليعبدوه إلها واحداً، فجعلهم شعبه الأوحد، واللّه تعالى نفى شرك النصارى وشرك اليهود، فقال: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** (١١١) ﴾(الإسراء). ومن الشرك ما هو ظاهر وماهو باطن أو خفيّ، كقوله تعالى في الفواحش وهي من الشرك الظاهر : ﴿ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** (١٥١) ﴾(الأنعام)،

وفى الإثم: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ (١٢٠)﴾ (الأنعام). والشرك الخفى: من مصطلحات الرسول ﷺ، قال: «الشرك الخفى أن يقوم الرجل يصلى فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل» أخرجه ابن ماجه، يقصد شرك المرائين والمنافقين، ومنه عبادة أبطال التاريخ، كتأليه الأتراك لكمال أتاتُرك، وتأليه الرعاع للطغاة والحكّام المستبدّين، كفرعون موسى. ودليل القرآن على نفى الشرك عن الله تعالى قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ (٣٥)﴾ (يونس).

ويقال لمن يعتقد الشرك «مشرك». والشرك نَجَس، أى قَذَر، وفى التنزيل قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٢٨)﴾ (التوبة)، وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (٣)﴾ (التوبة)، والمشركون يحقّ قتالهم لو قاتلوا المسلمين، كقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (٣٦)﴾ (التوبة). والمسلم منهيٌّ عن الزواج من المشركة، كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ (٢٢١)﴾ (البقرة)، والمسلمة من المشرك كقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا (٢٢١)﴾ (البقرة)، ولا يقبل الزواج من المشرك أو المشركة إلا الزانية أو الزانى، فمن لايؤمن بالله يستوى عنده أن يزنى أو يتزوج من زانية، أو أن تزنى أو تتزوج من زان، كقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾ (النور).

•••

٣٥١. ﴿البرهان على تزييف طريقة المشركين﴾

الدليل على تفرّده تعالى بالخالقية واضح، يقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٣٨)﴾ (الزمر)، وفى الآية البرهان الكافى على تزيف طريقة المشركين. فالعلم بوجوده تعالى لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق سواء كانوا مشركين أو غير مشركين، وفطرة العقل تشهد بصحة هذا العلم.

•••

٣٥٢. ﴿برهان إبراهيم لمَن حاجّه فى ربّه﴾

يقول تعالى مخاطباً الرسول ﷺ، تعليماً بطريقة السؤال والجواب عند الجدل فى الدين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ (البقرة)، ومعنى «ألم تر» الألف للتوقيف، والكلام للتعجب، يقول هل رأيتَ الذى حاجّ إبراهيم، يلفته إلى قصته، وقيل

إن الذى حاجّه هو النمـرود وكان جباراً فى الأرض، والناس يدخلون عليه ساجدين له، ولـم يفعل إبراهيـم، واعتلّ بأنه لايسجد إلا لربّه، فسأله عن ربّه، فوصفه إبراهيم بأنه الذى يحيى ويمـيت، قيل أتى النمرود برجلين فأمـر بقتل أحدهما وأرسـل الآخر، وقال: وأنا أحيِ وأميت، فقد أحييتُ هذا وأمتُّ هذا. وهذه مغالطة، فاعتراضه لم يكن دحضاً لقول إبراهيم، ولا جوابـاً على ما قاله، ولا هو في مـعناه، ولايمنع من وجود الـصانع، ومع ذلك ضرب إبراهيم صفحـاً عن عوار الجواب، وحُمقه، واعتبر النمـرود لم يفهم، فساق إليه دليلاً ومـثالاً آخرين أوضح من الأولين، وآثر أن يسوق دليـلاً مفحماً لايحـتمل سوء فهـم المعاند، فكان دليل الشمس: أنها تأتى من المشرق فأتِ بها من المغرب. والدليل ـ كما ترى ـ مُبهت، أى قـاطع للحجة، فمـا كان بوسعه ولابوسع أحـد أن يأتى بالشمس من المغرب، إلا أن النمـرود كذلك لم يكن مجـادلا ، لأنه كان بوسعـه أن يطلب أن يسأله: وهل يسـتطيع ربُّك أن يأتى بها من المغـرب؟ وأن يتحـدّاه أن يطلب ذلك من ربّه، وهكذا تستمر المناظرة بلا نهاية، إلا أن الرجل اقتنع، لأن ما لايقدر أحد على استحداثه، لابد أن يكون له مُـحدِث يتـولى إحداثه وحـفظه، فـإن كان دأب الشـمس أن تظهر من المشـرق وتخـتفى فى المغـرب، فذلك لأن مَن صنعـها جـعلهـا على هذه الهيـئة واستن لهـا هذا الناموس. والنـمرود بوسعـه أن يأمر بقتل إنسـان أو يعفـو عن آخر ولكنه ليس بوسـعه أن يخلق من عدم، واللّه وحـده هو الخالق من عدم. **والآية تدل على إثبات المناظرة والمجـادلة وإقامة الحجة.**

•••

٣٥٣. ﴿الاحتجاج بدليل العقل على أن الجماد لايخلق أحياء ولا أشياء﴾

ينفى العقل أن يكون اللّه جمـاداً، وأن يكون هناك إله دون اللّه ـ يقول تعالى: **﴿قُـلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾**(الأحقـاف)، وقـوله: «**مَـاذَا خَلَقُـوا**» هـو **احـتجـاج بدليل العـقل**: أن الصنم الحجـر يصحّ أن يكون إلها من دون اللّه، لأن الحـجارة لاتضر ولاتنفع. و«**الأثارة من عـلم**» هى الأثر مما كان يعلمه الأقدمون، مما يقال له **العـلم المـأثـور**، أو مـأثـور العلم. ودعاوى الألوهية لغير الله أو أنهـم شركاؤه فى خلق السموات والأرض، دعاوى متهافـتة لأنه لم يحدث أن أياً مما يدعون آلهة خلقت شيئـاً، فلا عيسى خَلَق، ولا اليـهـود خلقوا، ولابوذا، ولا كـونفـوشـيوس خلق، ولا أى ممـا يزعمـون، باستطاعته أن يخلق كائناً تدب فيه الحياة ويتكاثر ويصبح له نسل وذرية.

•••

٣٥٤. ﴿بطلان الزعم بتعدد الآلهة﴾

يثبت هذا البطلان شرعاً وعقلاً بقوله تعالى : ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** (٢٢)﴾(الأنبياء)، يقصد بذلك السموات والأرض، فلو كان فيهما غير اللّه يُعبَد لفسد التدبير، لأن أحدهما إنْ أراد شيئاً والآخر ضده، كان أحدهما عاجزاً، ويقع التنازع بالاختلاف بين الشركاء، فسبحانه نزّه نفسه، وأمر عباده أن ينزّهوه عن أن يكون له شريك أو ولد.

•••

٣٥٥. ﴿دليل الألوهية أنه لا يسأل وهم يسألون﴾

اللّه تعالى لايسأله الخلق عن قضائه فى خلقه، وهو يسأل الخلق عن أعمالهم: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** (٢٣)﴾(الأنبياء)، وإذن فالمسيح والملائكة والأنبياء لايصلحون للإلهية، لأنهم مسئولون غداً.

•••

٣٥٦. ﴿ضلّ من ظنّ أن الله من جنس النور المحسوس﴾

معنى ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** (٣٥)﴾(النور) أنه الهادى لأهل السموات والأرض، يدبّر الأمر فيهما، نجومهما وشموسهما وأقمارهما. ونوره تعالى هدى، فالذين يتوهمون أن الله تعالى من جنس النور والضياء المحسوس ضلّوا، فهو متعال عن مشابهة المحسوسات، وهو منوّر السموات والأرض، يعنى أن كل نور منه تعالى خَلْقاً وإنشاءً.

•••

٣٥٧. ﴿صفات الله عزوجل﴾

وَصْف الشئ يعنى نَعْتَهُ بما فيه؛ **والصفة** هى النعت، وهى ما يقوم بالموصوف، كالعلم والجمال. **والصفة:** هى الأمارة التى يُعرَف بها الموصوف؛ **والصفاتية:** فرقة ينكرون أن للّه صفات، ولايقرّون إلا بذات **الألوهية**. وإنكار صفات **الله** تعالى هو ما يسمى **بالتعطيل، والصفاتية هم المعطّلة.** والصفات ليست بأجسام ولا أعراض ولاجواهر. والمسلمون على القول بأنه تعالى سميعٌ بصيرٌ على الحقيقة، ولكن ليس كسَمْع وبَصَر البشر، وإثبات الصفات له لايعنى أنه يحتاجها، وأنه يفعل بها، وإنما معناه نفى أضدادها، وإثباتها فى نفسها له، وأنها قائمة به. وما يتضمنه القرآن من الصفات لله تعالى على أربعة أقسام، فقسمٌ منها **صفات جمال**، مثل: العليم، والرحيم، والسلام، والمؤمن، والبارئ، والمصوّر، والغفّار، والوهّاب، والرزّاق، والوكيل، والحميد، والمبدئ، والمُعيد، والمحيى، والمميت، والواجد، والدائم، والباقى، والبرّ، والمُنعِم، والعَفُوّ، والغفور، والرءوف،

والمغنى، والمعطى، والنافع، والهادى، والبديع، والقريب، والمجيب، والكفيل، والحنّان، والمنّان، والكامل، والجميل، ولم يلد ولم يولد، والكافى، والجواد، وذو الطَّوْل، والشافى، والمعافى؛ وقسمٌ منها **صفات جلال**، مثل: الكبير، والمتعال، والعزيز، والعظيم، والجليل، والقهّار، والقادر، والمقتدر، والماجد، والولىّ، والجبّار، والمتكبّر، والقابض، والخافض، والمذلّ، والرقيب، والواسع، والشهيد، والقوى، والمبين، والمهيب، والمعيد، والمنتقم، وذو الجلال والإكرام، والمانع، والضّار، والوارث، والصبور، وذو البطش، والبصير، والدّيان، والمعذّب، والمفضّل، والمجيد، ولم يكن له كفواً أحد، وذو الحَوْل، والشديد، والقاهر، والقهّار، والغيور، وشديد العقاب؛ وقسمٌ منها **صفات كمال وفيها من صفات الجمال والجلال معاً**، مثل: الرحمن، والملك، والربّ، والمهيمن، والخالق، والخلاّق، والسميع، والبصير، والحكَم، والولىّ، والقيوم، والمقدّم، والمؤخّر، والأول، والآخر، والظاهر، والباطن، والوالى، والمتعالى، ومالك المُلك، والمُقسط، والجامع، والغنىّ، والذى ليس كمثله شىء، والمحيط، والمريد، والمتكلّم. وتتعلق **الصفات الجلالية** بالقهر، والعزة، والعظمة، والسعة، بينما تتعلق **الصفات الجمالية** باللطف والرحمة. وأما **الصفات الذاتية** فيوصف بها ولايوصف بضدها، كالقدرة، والعزة، والعظمة؛ ويجوز فى **الصفات العقلية** أن يوصف بها وبضدها، كالرضا وضده السخط، وفى القرآن الكثير منها، مثل: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** (١١٩)﴾(المائدة)، ﴿**وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** (٦)﴾(الفتح)، ﴿ **وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ** (٦٨)﴾(التوبة)﴿**يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ** (٧٤)﴾ (غافر) و﴿**سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**(٨٠)﴾(المائدة)، و﴿**آسَفُونَا**(٥٥)﴾(الزخرف) ﴿ **لَمَقْتُ اللَّهِ**(١٠)﴾ (غافر)، وكلها أفعال يراد لازمها وليس ظاهرها، وتتعلق بإرادته ومشيئته، فأن يرضى معناه أن يريد الخير للعباد، وأن يغضب ويسخط معناه أن يريد للمسيء العقاب. ومنهما صفة المجيء فى مثل قوله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾(الفجر٢٢)، وصفة الإتيان فى مثل قوله: ﴿**يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ**(٢١٠)﴾ (البقرة)، وصفة الاستواء فى مثل قوله: ﴿**اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**(٥٤)﴾(الأعراف)، وصفة القول فى مثل قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**(٣٠) ﴾(البقرة)، وصفة الكلام فى مثل قوله: ﴿**وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**(١٤٣)﴾(الأعراف)، وصفة الإباء فى مثل قوله: ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ**(٣٢)﴾ (التوبة).

ومن صفاته تعالى مايخص الأعضاء، كصفة الوجه: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ**(٢٧)﴾(الرحمن)، وصفة اليد: ﴿ **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** (٦٤)﴾(المائدة)، وصفة السمع والبصر: ﴿**اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** (٦١)﴾(الحج)، وصفة المعية: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ**(١٢)﴾(المائدة) وأهل السنّة على الاعتقاد بهذه الصفات جميعاً كما جاءت بلا تأويل، فهو تعالى كما

وصف نفســه فى القرآن، وكمــا وصفه أنبيــاؤه ، فهو يجىء، وينزل، ويأتى، ويســتوى، ويحب، ويكره، وله الوجه، واليــدان، والبصر، والســمع، وإنما كل ذلك ليس مما نعرف منه لنا وللحيوان، وليس من باب التــشبيه، ولا التجسيم، فهــو تعالى عند المسلمين، وإن كانت له هذه الصفات، إلا أنه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**(١١)﴾(الشورى)، والمتشابهات في القرآن: هي الآيات التى تعرضت لصفــات اللّه، كقوله تعالى: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**(٧)﴾ (آل عمران)،وهي التي يحاول الكثيرون أن يتعرضوا لها بالتـأويل. والمسلمــون على الاعــتقــاد بأن المحكم والمتشــابه كـلاهمـا من القرآن، وجـمـيـعـهــمـا من اللّه: ﴿**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** (٧)﴾ (آل عمران). والأولى أن نعتقد أن التشبيه للّه تعالى بأفعال أو أعــضاء الإنسان هو من باب التمثيل بما نستطيع أن نفهــمه، وأحرى بمن يعقل: أن يفكر فى آلائه تعالى من أفعاله وصــفاته المرئية والمشاهدة، من أن يفكر فى ذاته تعالى، أو أن يتــساءل هل للّه يد؟ وهل له مقعَــدة يستوى بها؟ وهل له عينــان يرى بهما؟ وأذنان يسمع بهما؟ والتــساؤل فى مثل ذلك مما ورد فى القرآن من نوع المتــشابهــات ،قــد يؤدى إلى الشك، وقد فعل ذلك بالكثيرين، ومثله هذا الشك الإيجابى عند إبراهيم، عندما قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**(٢٦٠)﴾(البقرة)، والشك السلبى عند الآخر فى قوله تعالى: ﴿**كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** (٢٥٩)﴾(البقرة)، وعند موسى، كقوله تعالى: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**(١٤٣)﴾ (الأعراف) ، فمثل هذه الأسئلة عند هؤلاء الثلاثة، ما كان من الممكن أن ترد أصلاً على خــواطرهم، لأن الاستدلال على أن اللّه خالق، ممكنٌ من غــير طريق البــيــان العــمــلى، وذلك باســتخبار إبداعــه فى الكون، وما أكثــر آيات الخلق فى القرآن، وليس استجلاء هذه الآيات فى الكون أو فى القــرآن هو عمل أهل العلم وحدهم، بل إن الطفل الصغير ليعبر عن الدهشة إزاء ما يرى من إبداع فى الكون، وقد يلجأ إلى الرسم ليصوره، وإنما «**الراسخون فى العلم**» هم المنوط بهم استجلاء حقيقة هذه الآيات والتنويه بما فيها من إعجــاز . فمــاذا عن «**العــامــة**» وهم الناس البسطاء الــذين ليست لهم عقــول العلماء ولا أدواتهــم؟ وتَدبُّر القــرآن هو ما يناسبهم، والقــرآن فى آياته يكتفى بالإشارة إلى آيات اللّه المقروءة، ويلفت إليها الأسماع والأنظار، ويستثــير بها التفكير. وآياته تعالى دليل صفاته، وصفــاته دليل وجوده وتصديرٌ له، ومن يعرف صــفاته يعرفــه تعالى، فكأن اللّه تجلّى له، تماماً كبراهين «إبراهيم» و«موسى» و«**الذى مرّ على القرية** » مما عاينوه فعرفوا اللّه به. والناس عموماً فى معرفته تعالى أصناف، وهم إما أهل تقليد: يقلدون آباءهم، فالنصرانى نصرانى

لأنه وُلد هكذا، وعرف النصرانية بالوراثة، ومعرفته بالله خبرية، كذلك اليهودى، وكذلك المسلم، وطالما أننا نتكلم عن الإسلام والقرآن، فإن المسلم المقلّد دليله القرآن، كقوله: ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** (١٦٣)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** (١)﴾(الإخلاص)، وقوله: ﴿**لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** (٨)﴾(طه) وغير ذلك من الإخبار عنه تعالى وعن صفاته وأسمائه وأفعاله. فمعرفته باللّه تكون عن هذا الطريق، ومن خلال التربية فى البيت والتلقى على الأبوين. وهناك صنف آخر هم أهل النظر، وهؤلاء طريقهم مختلف، ويستدلون بالصنعة على الصانع ومعرفتهم جدلية، أو يستدلون بالصانع على الصنعة ومعرفتهم قياسية. وأهل النظر من المسلمين على الزعم بأن طريقتهم هى المثلى، فما أكثر الآيات التى تحضّ على التفكُّروالتدبُّر فى القرآن، كقوله: ﴿**أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ** (٥٠)﴾(الأنعام)، وقوله: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**(١٩١)﴾(آل عمران)، وقوله: ﴿**نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٢٤)﴾(يونس)، وقوله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (١٧٦)﴾ (الأعراف). وبقدر ما يشاهد هؤلاء ويرون ويفهمون من عظمة الخلق، بقدر ما يعقلون عن عظمة الخالق، وبقدر ما يقدّرون اللّه بالقياس على مخلوقاته، واللّه موجود لاشك فى ذلك، فما كانت السموات والأرض وما بينهما، والشمس والقمر، والفُلك والأنعام، والذكر والأنثى، والإنسان والبيان، والموت والحياة، والزروع والنبات، والحيوان والطير، والجبال والسحاب والمطر، والماء والعيون، والأنهار والبحار، والليل والنهار، إلى آخر ما نعرف ـ وما لم نعرف ـ ما كان كل ذلك باطلاً، ولم يوجد فى الكون عبثاً، وما كان هذا المخطَّط الكبير للكون إلا ووراءه مخطِّط، وما كانت له كل هذه العمارة إلا لأنه مهندس كبير بتعبير العصر، فاللّه موجود، وهو واحد وإلا لاختلف الآلهة وتصارعوا، ودلائل وجوده ووحدانيته وصفاته كلها فيما حولنا، وما تحتنا، وما فوقنا، وما يحيط بنا من كل جانب، فلا سبيل إلى إنكاره تعالى، أو تجاهل صفاته. **فالذى خلق هو خالق، والذى أوجد هو واجد، والذى يرزق هو رازق وهكذا.** وأهل **النظر** إذن: هم طبقة أرقى وأعلى وأسمى، ومنهم من يبلغ تفكيرهم إلى الذُرَى، فينزّهون اللّه عن كل اللواحق، كقوله: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** (٣) **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (٤)﴾(الإخلاص)، وهؤلاء صنف ثالث هم أهل التنزيه، والنصارى ليسوا منهم لأن تفكيرهم أدنى من أن يتسامق بهم، فهم ماديون يكتفون بما يشاهدون ثم يلجأون إلى التأويل، ويتوهون فى الخرافات والخزعبلات والتلفيقات، وكذلك اليهود، هم أهل ماديات، وليست عبادتهم للعجل إلا كرمز للمادة؛ والمادة جعلوها مجالهم واختصاصهم، فانتهوا إلى أن عبدوا أنفسهم واعتقدوا أنهم أولاد اللّه، وشعبه المختار،

وصفوة الخَلق والبشرية. وأما المسلمون فهؤلاء أهل التنزية عن حقّ، كانوا كذلك، منذ إبراهيم، وكل الأنبياء دعوا إلى الإسلام، والمسلمون عن حق هم الذين يقولون فى اللّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۝١١﴾(الشورى)، ويتبرأون مما يقوله النصارى واليهود، يقولون: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾(المؤمنون)، ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۝٣٢﴾(البقرة)، ويقولون: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾(النور). وأهل العلم والدراية يسمون اليهود والنصارى أهل تشبيه، وهؤلاء لايرون أنهم يدركون الله إلا إذا شبهوه، ويقولون: فكما آثر يعقوب ابنه يوسف، فكذلك آثر إبراهيم ابنه إسحق دون إسماعيل، وكذلك آثر اللّه إبراهيم دون الناس جميعاً، وكذلك آثر شعبَ إسرائيل، فهو شعب الله سواء اتقى أو فسق، وسواء عَبَد العليم أو عبد نفسه. وعندهم أن الله خلق آدم على صورته، أى على صورة الله، فكما الله كان آدم، وآدم له صاحبة وولد، وكذلك كان الله، فاتخذ مريم صاحبةً، والمسيح ابناً، وعبد النصارى الله فى الثالوث، وقالوا المسيح ابن الله، ودليل كل هؤلاء المشبهيّن مادى، فإن قال الله إن له يداً فله يد وتُشبه أيدينا، وإن قال له وجه فله وجه يماثل وجوهنا، والمعرفة عندهم مادية تشبيهية، أى تمثّل عياناً ما لا يمكن معرفته حساً وعقلاً. وهؤلاء نسميهم، نحن المسلمون، أهل العجز، يعنى عجزوا عن معرفته تعالى عن بحث ونظر واستبصار، وحجتهم أن الله قد أورد أن المعرفة به لاتكون إلا خبرية، وأن الإيمان به تصديق، وأن التفكير فيه إنما هو تفكير فى آلائه دون ذاته، فذاته غيب، والتفكير فى ذاته يثير الشكوك، والعجز عن دَرْك الإدراك هو إدراك. ولهذا صاروا أهل حلول واتحاد، فلم يفرّقوا بين اللّه وخلقه، فاللّه عند اليهود هو الكون قد حلّ فيه واتحد به ، فلا وجود لإله إن حلّ فى شىء ليجسّمه ويوجده فعلاً، ولاوجود مُتشخّصن لإله مفارق، فاللّه هو مصنوعاته، والعالم الذى يضجّ بالحياة هو من فيوضه، ومتخارج منه وامتداد له، وفلاسفتهم على أن معرفة الله من طريق معرفة العالم من حولنا، فهو تعالى فيه، وفيك أنت نفسك، وفى قلبك، وفلاسفة الوجودية منهم على هذا الاعتقاد، ولكن أهل التحقيق من بين المسلمين، يجمعون بين الخبر والنظر ، وبين النقل والعقل، وبين الدين والفلسفة، فاللّه تعالى هو كما يقول عن نفسه، وكما أخبر عنه أنبياؤه فى القرآن، وكما ينتهى إليه العقل والتفكير فى الخلق. والقرآن دون التوراة والأناجيل، له خطاب، والخطاب القرآنى يتوجه إلى أصحاب العقول، وأولى الألباب والنُهَى، الذين يتفكّرون ويتعقّلون. فإن أنت يا أخى المسلم، فعلتَ فعْل الفلاسفة المحض ولم تأخذ بالدين، أو قلت كما يقول اليهود، أو قلّدت النصارى، وقلت مثل هؤلاء وهؤلاء: فأين

هذا الإله المشخصن الذى يقول بـه القرآن؟ فإنك تكون قد طالبت القـرآن، أو طالبته تعالى، بالأينية. وإنْ قلتَ مثلهم: فكيف؟ فقد طالبته تعالى بالكيفية. وإن قلتَ: فمتى كانت بداية العالم والخلق، أو متـى تكون الساعة؟ فقد زاحمته تعالى بالوقتية. وإن قلت: «ليـس»، فقد عطّلته عن الكونية. وإنْ قلتَ: «لو»، فقد قابلته بالنقصية. وإنْ قلت: «لِمَ»؟فقد عارضته فى الملكوتية. وإذن فماذا يقول المسلم؟ . .

المسلم يقول: سبحانه وتعالى، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفـواً أحد. ستـارٌ للعيوب، غـفّارٌ للذنوب، قـادرٌ، قديرٌ، مقـتدرٌ، حكَمٌ، عَدْلٌ، صادقٌ، متكلم، لاخالق لكلامه، تنزّه عن الزيف، وتقدّس عن الحيف، خَلَق خَلْقَه فى أحسن فطرة، ويميتـهم، ويعيدهم للحساب كما بدأهم أول مرة. فـهذا ما أُخبرنا به، وما عقلناه مما نرى ونشهد ونسمع ونعـقل، وما تحصّل لنا بالبحث بالمناظير والتلسكوبات، وبالعلوم والمنطق، وكلما زدنا علماً، نزداد إيماناً به تعالى كما يخبرنا القرآن، فالقرآن هو كتـابنا، ونصدقه فـى كل ما يقول، وله إشـراقات بقدر عـقل كلّ منا، فهـو الكتاب الذى يخاطبنـا ويناسبنا جمـيعاً، لأنه مـن ربّ العزة إلى الناس كافـة، عربيّهـم وأعجمـيّهم، وشيـوخهم وشبابهم، ونسـائهم ورجالهم، ونحن نؤمن به تعـالى كما قال عن نفـسه فى القرآن، وبما له من صفات وأفعال وأقوال طرحها وشرحها وفسّرها القرآن.



٣٥٨. ﴿النفس والوجه والعندية والمعية صفات لله﴾

مَن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (٣٠)﴾(آل عمران)، وقـوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ (١١٦)﴾(المـائـدة)، وقـــوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (٥٤)﴾(الأنعـام)، وقـوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾(طـه)، وقول النبـىّ ﷺ يخاطب ربّه: «أنت كمـا أثنيتَ على نفسك»، وقوله تعالى فـى الحديث القدسى: «إنى حـرّمتُ الظلم على نفسى»، وقوله ﷺ: «سبحان الله رضا نفسه»، قد يظن أن الله تعالى له نفس ـ وهو ـ المنزّه عن الإثنينية. والنفس فى اللغة الاصطلاحية على أوجه، كقولك: «فى نفس الأمر»، مع أن الأمر ليس له نفس. وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ (١١٦)﴾ معناه تعلم مـا أُسِرّه ولا أعلم ما تُسِرّه عنى، وذكْـر النفس للمقابلة والمشـاكلة. وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(آل عمران ٣٠) يعنى يحذركم إياه. وإذن فالمراد بالنفس شيء آخر: وقـد يكون المراد بهـا ذات اللّـه، وذاته ليست بـأمر مزيد عليـه بل هى هو. وبالمثل فى الحديث: «أنا عند ظن عبدى بى»: «العند» فى اللغة المكان، ومع ذلك فاللّه منزّه عن الحلول

في المواضع، لأن الحلول عَرَض حـادث، والحادث لايليق بالله. و«العند» يستعمل في الاعتقاد، تقول: عندى كذا، أي في رأيى، أو ما اعتقده؛ ويستعمل فى المرتبة، ومنه: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(آل عمران١٦٩)، ومنه: ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾(الأنفال٣٢) فمعناه من حُكمك. وإذن فالعندية كما نعرفها مستحيلة في حق الله، ولابد لها معان أخرى. وكذلك المعية كما فى قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴿١٠٨﴾﴾(النساء)، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ (طه٤٦)، وهذه المعية أخصّ من المعية في قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المجادلة ٧) - إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (المجادلة٧) أي في ذكرهم طالما ذكروه. ومثل ذلك الآية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، (القصص٨٨) ، والله تعالى ليس له وجه كالوجه المعروف، فتعين التأويل أو التفويض. والآية: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾(طه)، والآية: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر١٤)، ليس المقصود عضو العين، وإنما المعنى تجرى بحفظى، والمراد نفى النقص عنه تعالى، وجميع ذلك صفات من صفات ذاته تعالى.



٣٥٩. ﴿هل لله تعالى يدان؟﴾

يقول تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴿٧٥﴾﴾(ص)، ويقول: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر٦٧)، وفي الحديث: «وبيده الأخرى الميزان»، وفي ذلك إثباتُ «يديْن» للهّ، وهما صفتان من صفات ذاته وليستا بجارحتين.



٣٦٠. ﴿أسماء الله الحسنى﴾

يأتى عن الله تعالى فى القرآن قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾(طه)، وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(الحشر)، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴿١٨٠﴾﴾ (الاعراف)، وقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿١١٠﴾﴾ (الإسراء). وحُسن الأسماء يقتضى لها أفضل الأوصاف وأشرف المعانى، ولكل اسم مسمى وتسمية يصدقان عليه. والأسماء جمع اسم، وكان النبىّ ﷺ وسلم يقول: «لى خمسة أسماء...» الحديث. والاسم من أسمائه تعالى هو المسمى، ولو كان غيره لكانت أسماؤه تعالى لغيره كذلك. ويقال المراد بالاسم التسميات، لأنه سبحانه واحد والأسماء جميع. والإجماع على أن الأسماء بمعنى التسميات، وقوله: «له الأسماء الحسنى» يعنى التسميات الحسنى، وهى «حُسنى» لأنها حسنةٌ فى الأسماع والقلوب، ودالةٌ على توحيده،

وكرمه، وجُوده، ورحمتــه، وإفضاله. وعن أبي هريرة في الحديث المشهور: «**إن لله تسـعاً وتسعين اسـماً، مائة إلا واحداً**» ، وقــال: «**هو اللهّ الذى لا إله إلا هو، الرحـمن، الرحيم، الملك، القدوس، السـلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارىء، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّـاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، السميع، البصير، الحكَم، العـدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليّ، الكبيـر، الحفـيظ، المُقيت، الحسـيب، الجليل، الكريم، الرقـيب، المجـيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيـد، البـاعث، الشهـيد، الحق، الوكيل، القـوى، المتين، الولىّ، الحمـيد، المُحصى، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القـيّوم، الواجد، الماجد، الواجد، الصـمد، القــادر، المقتـدر، المقـدّم، المؤخّر، الأول، الآخـر، الظاهر، البـاطن، الوالى، المتـعالى، البَـرّ، التواب، المنتقم، العفُوّ، الرءوف، مالك المُلك، ذو الجلال والإكرام، المقُسط، الجامع، الغنى، المُغنى، المانع، الضـار، النافع، النور، الهادى، البـديع، الباقى، الوارث، الرَشـيد، الصـبور**».
وهذه الأسماء جميعها لها أصولهـا فى القرآن، غير أن لله تعالى أسماء أخرى تتجاوز هذه الأسماء **التسعة والتسعين**، وجمعها بعضهم فتجاوزت **ألف** اسم، وكل اسم منها يدل عن كون اللّه تعالى على أوصــاف شتّى، ومنها ما يستـحقه لنفسه، ومنهـا ما يستحقـه لصفة تتعلق به. وأسماؤه العائدة إلى نفســه هى هو، وما تعلّق بصفة له هى أسماء له. ومن هذه الأسماء **صفات لذاته**، ومنها **صفات أفعال**. والدعوة بها هى أن نطلب منه تعالى ما نتمنى من حوائج بهذه الأسمــاء، ولكل اسم ما يليق به، تقول: «**يا رحـيم ارحـمنى، ويا حكيم احكُم لى، ويارزّاق ارزقنى، ويا هادى اهدنى، ويا فتّـاح افتح لى، ويا توّاب تُب علىّ** إلخ» فإنْ دعونا **باسم عام** قلنا: «**يا مالك ارحمنى، ويا عزيز احكُم لى، ويا لطيف ارزقنى**». وإنْ دعونا بالأعمّ الأعظم قلنا: «**يا اللّه**»، واسمه تعالى «**اللّه**» متضمن لكل اسم. ولايصحّ أن نقول: يارزّاق اهدنى، إلا أن نريد: **يا رزّاق ارزقنى**».

ومن أسمائه تعالى بخلاف ما سبق: **متمّ نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والمعلّم**، ومن ذلك الكثير من الأســماء من القرآن ومن الحديث، وفى الحديث القدسى: «**وأنا الدهر بيدى الأمر، أقلّب الليل والنهار**» ، أن من أسمائه تعالى «**الدهر**»، ومعنى: «**أنا الدهـر**»: أنا مصرّف الدهر وخالقه، وخالق الحوادث فيه، وخالق أيامه وليـاليه. وهو تعالى يُحب ويُحَب، كـقوله: ﴿ **إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** (٣١) ﴾(آل عمران). وأورد «مسلم اسم «**الطيّب**» ولم يرد فى التنزيل ولا فى السُّنّة. وعند الترمذى ورد اسم **النظـيف**. وبعض الأسماء يجوز أن يسمى بها ويدعى، وبعضها

يجوز أن يسمى بها ولا يُدعى، وبعضها لايجوز أن يسمى بها ولا يُدعى. وفي سبب نزول الآية: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(الأعراف ١٨٠) يروى ابن عباس أن بعضهم ادّعى أن اسم «اللات» مشتق من اسم «الله» تعالى، وكذلك اسم «العُزّى» مشتق من اسمه تعالى «العزيز»، واللات والعزّى صنمان لقريش، فجاء ردّ القرآن: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ(١٨٠)﴾ (الأعراف).

وفي التنزيل والسُنّة من أسمائه وصفاته وأفعاله بخلاف ما سبق: الخلاّق، أحسن الخالقين، بديع السموات والأرض، الجميل، المجمِّل، الأبقى، الأعلى، ذو الرحمة، أرحم الراحمين، خير الراحمين، المَلك، المليك، الجليل، ذو الحول والطول، أحكم الحاكمين، خير الحاكمين، الدّيان، التوّاب، الغفور، غافر الذنب، قابل التوب، خير الغافرين، أهل المغفرة، ذو المغفرة، الحنّان، المنّان، القدير، العالم، العلاّم، المعلّم، علاّم الغيوب، عالم الغيب والشهادة، الرازق، الرزّاق، خير الرازقين، الفاتح، الفتّاح، خير الفاتحين، الفاعل، الفعّال، الفاصل، خير الفاصلين، الخيّر، خيرٌ حافظاً، خير الماكرين، خير المُنزلين، الخفيّ، الحافظ، الحفيظ، الحسيب، الحق، السميع، البصير، الآمر، الناهي، الكريم، الأكرم، الأعلم، الأعلى، القريب، الأقرب، أهل التقوى، الحليم، الحميد، القائم على كل نفس، القائم بالقسط، القاسط، ذو الفضل، ذو القوة، المتين، القوى، ذو العرش، ذو انتقام، ذو العقاب الأليم، ذو المعروف، ذو المعارج، ذو مرّة، ذوالرحمة، الإله، إله العالمين، ربّ العالمين، ربّ العزة، ربّ الفلق، ربّ العرش، ربّ المشارق والمغارب، ربّ المشرقين، ربّ المغربين، ربّ الناس، ربّي، ربُّنا، ربُّكم، ربُّهم، ربّ الشّعرى، ربّ السموات والأرض، ربّ كل شيء، الرشيد، الرقيب، السبُّوح، القُدّوس، سريع الحساب، سريع العقاب، رفيع الدرجات، الشاهد، الشاكر، الشكور، شديد العقاب، شديد العذاب، شديد المحَال، العاصم، العاطي، القاهر، القهّار، الغالب، الفاطر، فاطر السموات والأرض، الفاصل، المفصّل، مولج الليل والنهار، مخرج الحيّ من الميّت، ومخرج الميّت من الحيّ، فالق الإصباح، فالق الحَبّ والنوى، القاضي بالحق، الدّيان، الكافي، الكريم، الأكرم، المُكرِم، اللطيف، المجيب، المصطفي، المحيط، الممحي، الطيب، الشافي، المعافي، المثبت، الرشيد، المرشد، المشيء، مُرجع الأمور، ممحِّص القلوب، المبيِّن، المنبيء، المؤيِّد، المتفضّل، الواسع، الموسّع، مقلّب الليل والنهار، المُهلك، المُعذّب، المُرجيء، المُؤجِر، المعبود، المنعّم، المُنجّي، المَولي، مَولى المؤمنين، مُخزى الكافرين، مُحق الحق، الموفّق، المُكرم، المُيسّر، المُمِدّ، محبّ المتّقين، محبّ

المحسنين، محبّ المقسطين، محبّ المتطهرين، المغيث، الغيّاث، المستعان، المُجزى، وليّ المؤمنين، الواقى، خير الوارثين، الواهب، الودود، الهادى.

●●●

٣٦١. ﴿ولله المثل الأعلى﴾

في الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴿٦٠﴾﴾(النحل)، أن أعلى الأوصاف لا تكون إلا له، وقيل أعلى وصفٍ له هو ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴿٣٥﴾﴾(الصافات)، فهذا هو معنى الآية.

●●●

٣٦٢. ﴿لا أمثال لله﴾

الله تعالى وحده لاشريك له ولامثيل، ولاند، والعرب عبدوا ما دون الله وشبّهوها به، فجاء القرآن ينهى عن ذلك قال: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴿٧٤﴾﴾(النحل).

●●●

٣٦٣ ﴿ليس كمثله شيء﴾

يأتي فى القرآن في وصفه تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾(الشورى)، يعنى ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولاكصفته صفة، ويستحيل أن تكون لذاته القديمة صفة حديثة، ولا أن تكون للذات المُحدَثة صفة قديمة.

●●●

٣٦٤. ﴿معنى الاستواء فى حق الله﴾

يأتي عن الله تعالى أنه﴿اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴿٢٩﴾﴾(البقرة)، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴿٥٩﴾﴾(الفرقان)، والناس مختلفون في «الاستواء»، لأن الاستواء يعنى الاستقرار وهو صفة للجسمية، **فهل لله تعالى جسم؟** والقرآن يحفل بأسماء وصفات لله لايسع أحد ردّها، وعلمها لا يُدرَك بالعقل ولا الرؤية والفكر، والمؤمنون على إثبات الصفات وينفون عنه التشبيه كما نفاه عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، ومذهب أهل السُّنّة فى تفسير: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾(طه) أن الاستواء بلا كيف، والآية ليست تشبيهاً كما يقول المشبّهة، وإنما يكون التشبيه لو قيل: يدٌ كيد، وسمعٌ كسمع. وذات الله لا تشبه الذوات، وصفاته لا تشبه الصفات، لأن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته، ولذا يخطىء أيضاً من يفسّر «الاستواء» بما يُفسَّر به عند البشر فيقول إنه **الاستيلاء**، ويقول عن «**يد الله**» إنها القدرة ونحو ذلك.

●●●

٣٦٥. ﴿سمّى نفسه تعالى شيئاً﴾

يقول تعالى فى الآية: ﴿ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ**(١٩)﴾(الأنعام)، فسمّى نفسه شيئاً إثباتاً لوجوده ونفياً للعدم عنه، ولم يجعل لفظ «شيء» من أسمائه، ودلّ على نفسه أنه «شيء» من باب: «**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**»، فأخرج نفسه وكلامه من **الأشياء المخلوقة**، وإنما كل صفة له تسمى شيئاً، بمعنى أنها موجودة، وهذا ردٌّ على كل من يزعم أنه لايجوز أن يطلق على الله «**شيء**»، وأن المعدوم «شيء»، وأهل العلم على أن لفظ «**شيء**» يقتضى إثبات موجود، وأن لفظ «**لاشيء**» تقتضى نفى موجود، وأما قولهم «**ليس بشيء**»فإنه بطريق المجاز ويعنى الذمّ.

●●●

٣٦٦. ﴿الله لاتدركه الأبصار﴾

قيل فى الآية: ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** (٢٣)﴾(القيامة)، أن المؤمنين يوم القيامة **ينظرون إلى ربّهم نظراً**، يعنى يرونه؛ والناس فى ذلك مختلفون بين **منكر للرؤية ومثبت لها**.وقيل الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك**» فيه إشارة إلى انتفاء الرؤية، والمثبتون يقولون بل الانتفاء فى الدنيا لأن الحديث عن الدنيا. وفى الآية عن المنافقين فى الآخرة: ﴿ **إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** (١٥)﴾(المطففين) دليلٌ على أن **المؤمنين يرونه فى الآخرة، ويُحجب عن** ذلك المنافقون، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**(٧٧)﴾(آل عمران) **والنظر** بمعنى الرؤية هو الذى يتعدى **بإلى**، فيثبت أن **ناظره** بمعنى رائيه، وطالما أن الله موجود فيصحّ أن يُرىَ على سبيل التنزُّل، وإلا فصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين. ومن **ينكر الرؤية يقول**: إن من شرط المرئى أن يكون فى جهة، والله منزّهٌ عن الجهة، فالرؤية لاتتحقق فى معناها. **ومَن يثبت الرؤية يقول**: إن الرائى يحصل له العلم بالله برؤية العين، كما فى المرئيات، كما فى الحديث النبوىّ فى الرؤية: «**كما ترون القمر**»، إلا أنه تعالى منزهٌ عن الجهة والكيفية. وقيل: المراد بالرؤية العلم **بالله**،وهى حصول حالة فى الإنسان نسبتُها إلى ذاته المخصوصة كنسبة الإبصار إلى المرئيات. وقيل: رؤية المؤمن لله من نوع **الكشف**، والكشف أوضح وأتم من العلم. ويذهب **أهل السنة** إلى جواز رؤية **الله** فى الآخرة، وأنكر عليهم المنكرون بدعوى أن الرؤية توجب كون المرئى مُحدَثاً وحالاً فى مكان، وهذا محال على الله، وهو تعالى القائل عن نفسه : ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** (١٠٣)﴾(الأنعام)، وأخبر عن موسى لمّا قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي**(١٤٣)﴾ (الأعراف). وردّ **المثبتون** هذه الحجة بأنه تعالى لاتدركه الأبصار فى الدنيا، إلا أن نفى

الإدراك لايستلزم نفي الرؤية، لإمكان رؤية الشيء من غير إدراكه، أي من غير الإحاطة بحقيقته . وقوله لموسى «لن ترانى» يعنى فى الدنيا. وعاب المثبتون على المنكرين شروطهم العقلية للرؤية، كالنظر المخصوص، والمقابلة المخصوصة، واتصال الأشعة، وزوال الموانع كالبُعد والحجب. ولايشترط أهل السنة شيئاً من ذلك سوى وجود المرئى، ويقولون: إن الرؤية إدراك يخلقه الله تعالى للرائى فيرى المرئى، بدليل الأحاديث مثل: «ستُعرضون على ربكم فترونه»، ومثل: «إنكم سترون ربكم عياناً»، ومثل: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» . وأمثال هذه الأحاديث قالها النبىّ ﷺ يخاطب بها العرب بما تفهم، ويُخرج لها بها الأشياء المعنوية إلى الحسّ، ليقرّب تناولهم لها، فعبّر مثلاً عن زوال الموانع عن الرؤية ورَفْعها عن الأبصار برفع الحجاب من على الوجه. والعرب كانوا يستعملون الاستعارة كثيراً، وهى من أرفع أدواتهم فى الفصاحة والإيجاز، ومخاطبة الرسول ﷺ للناس بهذه الأحاديث من هذا المعنى، ومن لم يفهم ذلك تاه، ومن أجرى الكلام على ظاهره أفضى به الأمر إلى التجسيم، ومن لم يتضح له أن الله منزهٌ عن الذى يقتضيه ظاهر الأحاديث، إما أن يُكذّب نقلتها، وإما أن يؤوّلها، كأن يقول عن رداء الكبرياء كحجاب، أنه استعارة لضعف إدراك أبصار البشر عن رؤيته تعالى، فإذا شاء تقوية أبصاهم وقلوبهم كشف عنهم حجاب هيبته وموانع عظمته. والمراد **بالوجه**: الذات، والمراد **بالرداء**: صفة من صفات الذات المنزّهة له تعالى عما يشبه المخلوقات. وقيل: تأويل الرداء أنه الآفة الموجودة لأبصار المؤمنين تمنعهم من رؤيته فيزيلها الله تعالى، وإزالتها فعلٌ من أفعاله يفعله في محل رؤيتهم، فطالما ذلك المانع موجود لا يرونه، فإذا فعل الرؤية زال ذلك المانع .

●●●

٣٦٤. ﴿رؤية الله بالقلب أو بالإيمان؟﴾

قال تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** (١٠٣)﴾(الأنعام) والإدراك إحاطة، وأساسه الرؤية، والله تعالى لايُرىَ في الدنيا، لأنه تعالى باق، والباقى لايُرَى بالفانى، فإذا كانت الآخرة ورُزق المؤمنون أبصاراً باقية رأوا الباقى بالباقى، فذلك جائز عقلاً ولذلك كانت الآية: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** (١٥)﴾(المطففين) فالمراد الكفار يحجبون عن الله، يعنى عن رؤيته، بدليل قوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** (٢٢) **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** (٢٣)﴾ (القيامة)، وهؤلاء هم المؤمنون ينظرون الله فى الآخرة مكافأةً لهم. واستحالة الرؤية لله تعالى فى الدنيا من حيث القدرة، فإذا أقدر الله من شاء من عباده عليها فى الآخرة لم

يمتنع. وفى الحديث عن أبى أمامه فى صحيح مسلم وأخرجه ابن خزيمة قال ﷺ: «**واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**» ، وإذن فالرؤية لا تكون إلا فى الآخرة. وقد اختلف الصحابة فى رؤية النبىّ ﷺ للّه تعالى **فى الدنيا**، فذهبت **عائشة وابن مسعود** إلى إنكارها، وذهب **ابن عباس وعكرمة** إلى إثباتها، وحكي عبدالرزاق عن معمر عن الحسن أنه حلف **أن محمداً رأى ربّه**، وجزم به كعب الأحبار، والزهرى، وهو قول الأشعرى وغالب أتباعه. والاختلاف حول الرؤية: **أكانت بالعين أم بالفؤاد**؟ وقال ابن عباس: رأى ربّه **بفؤاده** مرتين. وفى **رواية** أخرى قال: رآه **بقلبه**. وقال كذلك: لم يره **بعينه**، وإنما رآه بقلبه. **والرؤية بالقلب أو بالفؤاد** جائزة لأنها **رؤيا أو حلم**، وما نفته عائشة جزماً هى **الرؤية بالبصر**، ومحصلة الرأيين من العلم الصميم. وعندما يؤمن الإنسان على الحقيقة فإنه يرى **بنور اللّه**، **ورؤيته كالعلم**. ومراد ابن عباس بالقطع أن **الرؤية بالقلب** أو **بالإيمان** تخلق عند صاحبها انطباعاً كالرؤية بالعين. ولما سأل أبو ذرّ النبىّ ﷺ: هل رأى ربّه؟ قال: «**نورٌ أنّى أراه**» ،أو قال: «**رأيت نوراً**»، ولابن خزيمة عنه قال: **رآه بقلبه ولم يره بعينه**، **والخلاصة**: أن رؤيته تعالى سواء فى الدنيا أم في الآخرة هى رؤية بالإيمان وليست بالبصر، وقد نفى اللّه تعالى إمكان أن يراه إنسىٌّ بالبصر بقوله كما سبق: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** (١٠٣)﴾(الأنعام) والحمد للّه ربّ العالمين.

●●●

٣٦٥. ﴿الدليل على أن الله لا يُرى يوم القيامة﴾

قيل: الآية: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** (١٥)﴾(المطففين) دليل على أن الكفّار لا يرونه عزّ وجلّ يوم القيامة، ولكن ذلك لايعنى أيضًا أن المؤمنين يرونه، - وقيل الآية: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** (٢٢) **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** (٢٣) ﴾(القيامة) دليلٌ على أن المؤمنين ينظرون اللّه تعالى يوم القيامة، ولكنهم لا يرونه، **والنظر بخلاف الرؤية**، والنظر تفكُّر، والرؤية مشاهدة. وقيل: إنه تعالى لمّا حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى رأوه، ولما حَجَب قوماً بالسخط، دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا، ولمّا حجبهم فى الدنيا عن نور توحيده، حجبهم فى الآخرة عن رؤيته، بل عن رحمته، فلا ينظر إليهم برحمته، ولايزكّيهم، والآخرون وقد رضى عنهم فهم ناظرون نعَمه، وما أعدّ لهم من لطائفه. والخلاصة: أن النظر إليه يوم القيامة هو **نظرٌ إلى نعَم اللّه وآلائه، وليس نظراً إلى اللّه، وهل اللّه يُنظَر، سبحانه، وإنما ما يُنظر هو أفعاله وخَلْقه وآيات عظمته**.

●●●

٣٦٦. ﴿إشكال المشيئة والإرادة بالنسبة لله وللإنسان﴾

﴿وهل للإنسان مشيئة حيال مشيئة الله ؟ وهل له إرادة؟﴾

يأتى عن المشيئة فى القرآن ٢٣٦ مرة، بمعنى: أن للّه تعالى مشيئة وإرادة، وكذلك للإنسان، وفى مشيئته تعالى قوله: **﴿إن يَشأ يُعذبْكُم (٥٤)﴾** (الإسراء)، وقوله: **﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (٨)﴾** (الشورى)، وقوله: **﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ (٢٦)﴾**(آل عمران)، وقوله: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا (١٠٧)﴾**(الأنعام)، وفى مشيئة الإنسان: **﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾**(الكهف)، وقوله : **﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ (١٥)﴾** (الزمر)، وهناك مع ذلك آيات تنفى المشيئة للإنسان وتثبتها لله وحده، كقوله: **﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٣٠)﴾**(الإنسان)، وقوله: **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤)﴾** (الكهف). **والمشيئة** فى الأصل: إيجاد الشيء وإصابته، **والإيجاد** من الله **والإصابة** من الناس؛ والمشيئة تُستعمل عرفاً فى موضع الإرادة. وأهل السُّنّة على القول بأن اللّه شاء فخلق الطين تماثيل مثلاً، وأراد أن يخلق منه الخَلْق فكان. والإنسان شاء كذلك أن يخلق من الطين، فكان له ما شاء وأراد. وما كان يمكن أن تكون للإنسان مشيئة ولا إرادة لو لم يخلقهما اللّه فيه، ولو لم يخلق له الأدوات التى يحقق بها مشيئته وإرادته، والله تعالى فى النهاية هو خالق كل شيء، شاء ذلك وأراد، وما من مخلوق يستطيع أن يخلق شيئاً بدون مشيئته وإرادته تعالى، فمشيئته وإرادته شرطٌ فى الخلق، ويستحيل ثبوت المشروط بدون شرْطه، والمشكلة فى الناس أنهم **لايفهمون أن الله بخلاف خلقه، ويقيسونه** وهو الخالق بمقاييس خلقه **وهم المخلوقون**، وقياسهم لذلك باطل. واللّه تعالى لوعاقب من يطيعه لا يُعدّ ظالماً، لأن الجميع ملكه، فله الأمر كله، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عمّا يفعل، وكل أمر موقوفٌ على مشيئته، وأفعال العباد متعلقة بها. والمشكلة بين أهل السُّنّة وغيرهم، أهل السُّنّة قالوا إن المشيئة والإرادة بمعنى واحد، فإرادته صفة من **صفات ذاته**، بينما غيرهم يرون أنها صفة من **صفات فعله**، فيعنى ذلك أن **إرادته محدَثة**، أى أنه يحدثها فى نفسه، وهو تعالى ليس محلاً للحوادث، وإذا كانت لغيره إرادة بَطُل أن تكون لله الإرادة الكاملة، وإذا كان للغير العلم بَطُل أن يكون هو العالم علماً كاملاً، وحقيقة المريد أن تكون إرادته منه دون غيره، فلا مندوحة من الإقرار بأن الله تعالى ـ كما يقول أهل السنة ـ **مريد بإرادة قديمة هى صفة قائمة بذاته**، وأنه سبحانه خالق أفعال العباد، وأنهم لايفعلون إلا ما يشاء، وقد دلّ على ذلك قوله: **﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾**(البقرة)، فثبت بهذه الآية أن كَسْب العباد بمشيئته تعالى وإرادته، ولو لم يرد وقوعه ما وقع. وقال

بعض أهل السنة: **الإرادة** قسمين: **إرادة أمر وتشريع، وإرادة قضاء وتقدير، فالأولى**: تتعلق بالطاعة والمعصية سواء وقعت أم لا، كقوله: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** (١٨٥) ﴾(البقرة)، **والثانية**: شاملة لجميع الكائنات، ومحيطة بجميع الكائنات الحادثات، طاعةً ومعصيةً، كقوله: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** (١٢٥) ﴾ (الأنعام).

●●●

٣٦٧. ﴿القرآن كلام الله﴾

القرآن **كلام الله**: وكلام الله صفة من صفات ذاته، وليس شيءٌ من صفات ذاته مخلوقاً، ولامُحدَثاً، ولاحادثاً، وهو تعالى يقول: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٤٠) ﴾ (النحل)، فلو كان القرآن مخلوقاً لكان مخلوقاً بكُن، ويستحيل أن يكون قول الله لشيء بقوْل، لأنه يوجب قولاً ثانياً وثالثاً، فيتسلسل ويفسد. وفي قوله تعالى: ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** (٢) **خَلَقَ الْإِنسَانَ** (٣) ﴾ (الرحمن) فخصّ القرآن بالتعليم، لأنه كلامه وصفته، وخصّ **الإنسان** بالتخليق، لأنه خلقُه ومصنوعه، ولولا ذلك لقال: **خلق القرآن والإنسان**. وقد أنكر الله تعالى قول المشركين: ﴿ **إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** (٢٥) ﴾ (المدثر)، ولايُعترض بأنه قال: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** (٤٠) ﴾(الحاقة) لأن معناه قولٌ تلقّاه رسول كريم عن الله، كقوله: ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ** (٢) ﴾(الأنبياء) فالمراد أن تنزيله إلى الناس هو **المُحدَث لا** الذكر نفسه. وعن **عليّ بن أبي طالب قال**: القرآن كلام الله وليس بمخلوق. وفي الحديث: لمّا سألوه ﷺ: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ قال: «**ليس كلامي ولاكلام صاحبي، ولكنه كلام الله**».

●●●

٣٦٨. ﴿أعظم الذنب أن جعل لله نداً﴾

سُئل النبي ﷺ: أيّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، وقرأ: ﴿ **فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٢) ﴾(البقرة). والندّ: هو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره؛ وندّ الشيء مَن يشاركه في جوهره، وهو ضربٌ من المِثْل، ولكن المثْل يقال في أي مشاركة، على ذلك يكون كل ندّ مِثْل، من غير عكس. وأما الضدّ: فهو أحد المتقابلين ـ وهما الشيئان المختلفان اللذان لايجتمعان في شيء واحد، ففارق الند في المشاركة، ووافقه في المعارضة. ونفي النِدّية لله معناه أن لاينسب شيء من الخلق لغير الله، فيكون شريكاً ونداً ومساوياً في نسبة الفعل إليه.

●●●

٣٦٩. ﴿كل يوم هو فى شأن﴾

اللّه تعالى كما قال: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** (٢٩)﴾(الرحمن): ومن شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين، ويجيب داعياً، ويحيي ويميت، ويعزّ ويذل، ويرزق ويمنع، ويقرّ فى الأرحام ما شاء، ويولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، ويشفى سقيماً، ويُسقم سليماً، ويبتلى معافى، ويعافى مُبتلَى، ويُفقر غنياً، ويُغنى فقيراً. قيل: وكيف يكون كل يوم هو فى شأن، والقلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة؟ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى؟ والجواب: أنه فى شأن بما جفّ به القلم، وبما هو من سعى الإنسان، فإنها شئونٌ يبديها ولايبتديها.

•••

٣٧٠. ﴿للّه الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾

فى الآية: ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** (٥٤)﴾(الاعراف): أنه تعالى الذى خلق، فله الأمر: خلق المخلوقات وأمرهم بما أحب، وأقامهم بأمره، وأمْرُه هو كلامه القديم الأزلى غير المخلوق، ولو كان الله مخلوقاً لما صحّ أن يخلق المخلوقات، لأن الخلق لا يُخلَق بالمخلوق. وفى القرآن قوله: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا** (١٧١)﴾(الصافات)، وقوله: ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي**(١٣)﴾(السجدة)، إشارة إلى السبق فى القول فى القدم، وذلك يوجب لذاته وكلامه الأزل فى الوجود.

•••

٣٧١. ﴿طاعة الله واجبة أبداً﴾

الدين هو الطاعة، من دانَ بمنعى أطاع. وفى قوله: ﴿**وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** (٥٢)﴾ (النحل) أن واصباً يعنى واجباً، من وَصَبَ الشيء يَصب وصوباً، أى دام، ووصَبَ على الأمر إذا واظب عليه؛ وفى الآية: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ** (٩)﴾(**الصافات**) أى دائم، والآية على ذلك بمعنى: **أن طاعة اللّه واجبة أبداً**.

•••

٣٧٢. ﴿حجّة من قال إن الله يريد العذاب للناس!﴾

المستشرقون والملحدون على القول بأن اللّه كما جاء فى القرآن يريد عذاب الناس ويتفنن فيه، وأنه نزّاع إلى العذاب، وأن الجنة والنار أمور حسّية لا تناسبه كما ينبغى له، والقرآن يردّ على هؤلاء، يقول: ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ** (١٤٧)﴾(النساء) والاستفهام فى الآية بمعنى **التقرير**، وتقديره: أى منفعة له فى عذاب هؤلاء إن شكروا

وآمنوا، فنبّه تعالى إلى أنه لايعذّب الشاكر المؤمن، وأن تعذيبه لعباده لايزيد فى مُلكه، وأن تَرْكه عقوبتهم على كُفرهم وإلحادهم لايُنقص من عظمته، ولايطعن فى هيبته، ومن كانت له هذه الخصال الأربع فهو حبيب الله: **الشكرله، والإيمان به، والدعاء إليه، والاستغفار** منه - يقول تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** (٣٣)﴾ (الأنفال) ، ويقول: ﴿ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ** (٧٧)﴾(الفرقان)، ويقول: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ**(١٤٧)﴾(النساء).

●●●

٣٧٣. ﴿الله رازق حقيقة وابن آدم رازق تجوزًا﴾

الرزق هو الغذاء، والناس جميعاً مرزوقون، والله هو الرازق، ولا رازق ولارزّاق سواه، يقول: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾(فاطر)، ويقول: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**(٦)﴾(هود)، فالله تعالى رازقٌ حقيقةً، وهذا قاطع، وابن آدم رازق تجوّزاً، لأنه يملك ملكاً منتزَعاً، وهو مرزوق حقيقة كالبهائم، وما هو مأذون له فهو حلال حكماً، وما كان غير مأذون له تناوُله فهو حرام حكماً، وجميع ذلك رزق، وهو تعالى يرزق الناس جميعاً، ويوفر الرزق للناس جميعاً، فلو كانوا متساوين فيه لكفاهم جميعاً،ولكن بعضهم يحوز أرزاق العشرات والمئات والآلاف من الناس ويحرمهم حقّهم فيه، وكذلك الدول الغنية تستأثر بعطايا الله دون الدول الفقيرة، فيكون هذا التفاوت فى الأرزاق بين **الأغنياء والفقراء، من الأفراد والدول**، والإسلام اشتراكيته **اشتراكية تكافل**، فالغنى يتكفل بالفقير، والدولة الغنية تتكفل بالدولة الفقيرة، كقوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (٣)﴾ (البقرة) يعنى مما **أعطيناهم، والإنفاق**: هو الحقوق الواجبة العارضة فى الأموال، سواء على الأفراد أو الدول أو الجماعات، وبالإنفاق يكون شُكره تعالى على نعمه، كقوله تعالى: ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** (١٥)﴾(سبأ)، فأيّما إنسان أو دولة لاتنفق فهى لاتشكر الله، وهى ليست على الإيمان،كقوله : ﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** (٨٢)﴾(الواقعة) أى شُكركم **التكذيب**، أى تكذيب رسالات الله إليكم، وتكذيب نِعمَه عليكم.

●●●

٣٧٤. ﴿الله يعلم ما تخفي الصدور﴾

يقول تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** (١٩)﴾(غافر)، فمن صفاته تعالى علمه بهذه الدقائق؛ **وخائنة الأعين** مسارقة النظر إلى ما نَهيَ الله عنه؛ ومن ذلك **اللّمز**

بالعين، والإشارة والرمز بها ، والتجسُّس بالنظر، والنظرة بعد النظرة؛ **وما تخفي الصدور** هي السرائر، وما تكنّه القلوب وتُضمره، وما يلم بالخاطر من الأفكار، وعلى النفس من الخطرات؛ و في الحديث: «**إن النبيّ لاتكون له خائنة أعين**» أخرجه أبو داود والنسائي.

●●●

٣٧٥. ﴿حجة البداءة الأولى﴾

حُجة البداءة الأولى هي إحدى الحجج التي يُحج بها على الناس كافة إذا تشككوا في الإعادة، كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)**﴾(الحج)، وفي هذه الآيات يورد أن الخَلق كان أولاً من تراب، وما يزال ما نأكله وننمو عليه أصله الزرع وهو من التراب، وإذا متنا تحللنا إلى ستة عشر عنصراً هي نفسها عناصر التراب، ولمّا تزاوجنا كنا نطفة من الدم ، ثم علقة أي الدم غير المتخلق، ثم مضغة أي لحماً، وقوله «مخلقة» يعني ظهرت فيها الصورة والتخطيط، أي صارت مخلوقاً، كقوله: ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ(١٤)** ﴾ (المؤمنون)، فإن لم تكن قد ظهرت الصورة فهي غير مخلّقة، ونعرف ذلك من السقط، فالمخلّقة لها الأعضاء كلها، وغير المخلّقة هي الخديج الناقصة. وهذه الأطوار تتم في أربعة أشهر، ثم تنفخ الروح في العشرة أيام بعد الأربعة أشهر، وهذه نفسها هي عدة المتوفى عنها زوجها: بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٢٣٤)**﴾(البقرة) ولاحظ المشابهة. فإذا قرّ الجنين في الرحم وأكمل مدته، خرج طفلاً ، يقال على الولد والبنت، وتكون مراحل النمو إلى البلوغ وكمال القوة والعقل، وقد يعمر ويُنكَّس في الخلق ثم يموت ويستحيل تراباً كما هو في الأصل. فذلك دليل الخلق من تراب، وهناك الدليل الأقوى على البعث: وهو دليل إحياء الأرض بعد همود ويبوس وجفاف، فبدون الماء- ماء الرجل وماء المطر - لا حياة ولانبات، فإذا نزل المطر وتشرّبته الأرض، اهتزت وتحركت وانتفخت، وأنبتت من كل زوج بهيج، والبهجة هي الحُسن، وشبيه بذلك إحياء الموتي، وهو القادر علي ذلك؛ فيثبُت مما سبق أنه موجود، وأن قدرته مطلقة، وأنه حقيقة كل شيء؛ وأنه المطلق الوجود، الغني بكُلّيته، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده.

وهو الحق، أي الموجود الثابت الذى لايتغير ولايزول، وهو الحيّ الذى يُحيي ويميت. ولقد كانت للعالم بداية وحتما ستكون له نهاية، وهى التى تحين مع الساعة، والساعة آتية لاريب فيها، ومعها يكون الإحياء الثانى، والبعث من القبور، ولاجدال فى ذلك.

•••

٣٧٦. ﴿الله الخالق البارىء المصوّر﴾

كذب من قال: أن الخالق البارىء المصور فى الآية: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ (٢٤)﴾ (الحشر) ألفاظٌ ثلاثة مترادفة، والصحيح أنها ألفاظ متباينة، وأسماء موضوعية، فكل اسمٌ له معنى، فالخالق: من الخلق وأصله التقدير، ويطلق على الإبداع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال، كقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن٣)؛ وعلى التكوين كقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ (العلق)؛ والبارىء:من البُرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره ،فنقول برأ فلان من مرضه أو من دَيْنه. والبارىء: البرىء من التفاوت والتنافر وهما اللذان يخلاّن بالنظام؛ والمصوِّر: مبدع الصور للمخترعات، ومُرتّبها بحسب مقتضى الحكمة؛ والمعنى إذن أنه تعالى الخالق لكل شيء: بمعنى أنه موجود من الأصل ومن غير أصل، وأنه القادر والعالم، ومن ثم خَلَق الخلق والموجودات؛ وهو البارىء لهذا الكون بما حوى واشتمل: بحسب ما اقتضته الحكمة من غير تفاوت ولا اختلال؛ وهو مصوِّره: فى صُوَرٍ تترتب عليها خواصه ويتم بها كماله. وقيل: الخالق: معناه الذي جعل المبدعات أصنافاً، وجعل لكل صنف منها قدراً؛ والبارىء: معناه الموجد لما كان في معلومه؛ والمصوّر: هو المهيء للأشياء على ما أراده من تشابه وتخالف.

•••

٣٧٧. ﴿الإلّ هو الله بالعبرية﴾

قيل ذلك فى تفسير الآية: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)﴾(التوبة)، والآية: ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)﴾(التوبة)، وهو تفسير من الإسرائيليات، وروّجه المفسّرون الذين تلقوا على اليهود، قالوا: الإلّ اسمٌ عبرى من أسماء الله، والصحيح أن الإل هو العهد والجوار والقرابة. والإل بالكسر، وأما الأل بالفتح فهو من الأليل وهو البريق، يقال: ألّ يؤلّ ألاً، أى صفا ولمع؛ أو أنه الحدّة فيقال للحَرْبة الألة، ومنه أذن مؤللة أى محدّدة. وقد يسمى العهد الأ بالفتح لصفاء ظهوره.

•••

٣٧٨ـ ﴿الله تعالى يكلم البشر﴾

فى القرآن: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾(النساء)، وكلّم الله تعالى أنبياء دون أنبياء بحسب مقاماتهم، كقوله: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ(٢٥٣)﴾(البقرة)، وغالى السواد فتمنوا لو يكلمهم الله ليصدّقوا الأنبياء: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ(١١٨)﴾(البقرة). وكلامه تعالى مع البشر حدّده تحديداً علمياً يجيزه العقل، وجعله لذلك مقامات، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ(٥١)﴾ (الشورى)، فتارة يقذف الله تعالى فى روع النبى وحياً لايتمارى فيه أنه منه تعالى، كما قال نبينّا ﷺ بإخراج ابن حبان: «إن روح القدس نَفَث فى روْعى أن نفساً لن تموت حتي تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». وقوله «نفث فى روْعى» يعنى قذف فى قلبى. وقوله تعالى «أو من وراء حجاب»، أى كما كلّم موسى عليه السلام، فإنه لما سأل الرؤية بعد التكليم حُجب عنها. وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «ماكلمّ الله أحداً إلا من وراء حجاب». وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ(٥١)﴾: (الشورى) أى كما كان جبريل وغيره من الملائكة إلى الأنبياء. فهذه هى المقامات الثلاثة تحديداً ولاشيء بعدها.

•••

٣٧٩ـ ﴿دعواهم أن الجن شركاء الله﴾

فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ(١٠٠)﴾(الأنعام) أنهم ـ أى الكفّار ـ جعلوا الجن شركاء الله مع أنه الذى خلق الجن وخلَق البشر، فكأنهم جعلوا من خلقه أنداداً وشركاء له يطيعونهم كطاعة الله. والآية نزلت فى الزنادقة، قالوا: إن الله وإبليس أخوَان، فالله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الجان والشرّ والأشرار فى الكون، وقولهم كقول المجوس، قالوا: للعالم صانعان، الإله القديم، وهو إله الخير والنور، والآخر مُحدَث، وهو إله الشر والظلام.

•••

٣٨٠ـ ﴿اختلاقهم البنين والبنات لله﴾

يقول الله عزّوجلّ مخبراً عن النصارى واليهود: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾(الانعام)، فإنهم لمّا لم يستوعبوا التوحيد، وفكرة أن الله لاشريك له، افتعلوا له البنين والبنات، فقال النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ (٣٠)﴾(التوبة)، وقال اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ (٣٠)﴾(التوبة) وقال النصارى: من يؤمن بالمسيح ابناً لله على

الحقيقة يصبح هو الآخر ابناً لله على المجاز، والنصارى كلهم لذلك أبناء الله، وكذلك اليهود قالوا مثلهم: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ**(١٨)﴾(المائدة). ومثلما جعلوا لله الأبناء جعلوا له البنات، كقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ** (٥٧)﴾(النحل)، فادّعوا أن الملائكة بنات الله، وهؤلاء من العرب: «**خزاعة، وكنانة، وجهينة. وبنو مُليح، وبنو سلمة**، وبنو عبد الدار، وكانوا يقولون **الملائكة مؤنث، فهم بنات**، ويُلحَقن بالبنات، فجعلوا لأنفسهم البنين، واختاروا له البنات اللاتي يأنفون منهن، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ** (٥٨)﴾ (النحل)، يعني إذا وُلدت له أنثى تغيّر وجهه واغتّم للخبر، والعرب يقولون لمن يلقى مكروها: **قد اسودّ وجهه**، ولهذا وبّخهم فقال: ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ** (١٤٩) **أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ** (١٥٠) **أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ** (١٥١) **وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** (١٥٢) **أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ** (١٥٣) **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** (١٥٤)﴾ (الصافات)، وشبيه به قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ** (٣٩)﴾(الطور)، وقوله: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ** (١٥) **أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ** (١٦)﴾(الزخرف)، والجزء هو الولد يولد منه، سواء كان ذكراً أو أنثى، وأمثال هذه الأقوال تدل على حُمق أصحابها، وضحالة تفكيرهم، والشطط في أفهامهم، والضلال الذي يملأ حياتهم، وفي كل هذه الآيات، تسفيهٌ بأحلام من ذهبوا هذا المذهب، وتوبيخٌ لهم وتقريع، سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

●●●

٣٨١. ﴿قولهم الملائكة بنات الله﴾

تجيء لفظة **الملائكة في** القرآن في صيغة المذكر مرات، وفي صيغة **المؤنث**، مرات، كقوله تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ (آل عمران)، فظنوا الملائكة إناثاً لتأنيث «نادته»، غير أن العرب تقول: **قالت الرجال**، وتقول أيضاً: **قال الرجال**. وكذا في **النساء**. ومثلما قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ**(٤٥)﴾(آل عمران)، قال: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ**(٤)﴾(المعارج)، وقال: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا**(٣٤)﴾ (البقرة)، وقال: ﴿ **وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ**(١٦٦)﴾(النساء)، وقال: ﴿ **وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ**(٩٣)﴾ (الانعام)، وكما ترى فإن قوله: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ جائز على تأنيث الجماعة، وقوله: ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ**﴾ جائز على تذكير الجمع، وعلى ذلك كان استنباطهم خطأ، أو أنه كان مغرضاً. وفي قوله: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ** (٥٧)﴾(النحل)، أي لهم الأولاد بينما له البنات، فنزّه نفسه وعظّمها عما نسبوه إليه من **اتخاذ الأولاد إطلاقاً سواء البنات أم الصبيان**.

●●●

٣٨٢. ﴿الملائكة المعقبات﴾

فى الآيـة: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١)﴾(الرعـد) أن الملائكة أصنـاف، ومنهم **المعقبات، يتعاقبون** بالليل والنهار، فإذا صـعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. والملائكة ذُكران، فيقال في المفرد مَلَكٌ مُعقّب، وفى الجمع ملائكة مُعَقِّبة، وفي جمع الجمع ملائكة مُعقّبات. **والتعقبُ** هو العود بعد البدء كقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ (١٠)﴾(النمل) أى لم يرجع. وفى الحديث: «**مُعقبـات لايخيب قائلهن**» يقصد **التسبيح والتحميد والتكبير**. والملائكة المعقبات وظيفتهم: حفظ العباد إلا من القدر، فإذا جاء القدر خلّوا بين المرء وبين قدره؛ و«**من أمر اللّه**»، أى بأمر اللّه.

●●●

٣٨٣ـ ﴿الملائكة لايستكبرون عن عبادته تعالى﴾

قال الكافرون: الملائكة بنات الله، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾(الأنبياء) فالملائكة والخلق جميعاً للّه، فلايجوز أن يُشرك به ما هو عَبْدُه وخَلْقه، **ولايستكبر** الملائكة ولايأنفون عن عبادته، **ولايستحسرون ويعيون**، من **الحسير** وهو المنقطع بالإعياء والتعب، يقال حَسَر **ويحسر حُسوراً** يعنى أعيا وكَلّ، وأحسرتُه فهو حسير، قيل: لايملون ولايستنكفون من عبادته، ولايفترون ولايسأمون.

●●●

٣٨٤ـ ﴿الملائكة يسبحون الليل والنهار﴾

يخبرنا اللّه تعالى أن الملائكة فى تسبيح دائم له: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ (الأنبياء) وتسبيحهم **إلهـام**، يُلهمَونه كما يُلهَمون النَّفَس، والتسبيح لهم بمنزلة النَّفَس: قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (٣٠)﴾ (البقرة)، والتسبيح تنزيهٌ عمّا لايليق على وجه التعظيم،ويُشتق من السَّبح وهو الجرى والذهاب، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ (المزمل)، يعنى هم يجرون على التسبيح دوماً، وتسبيحهم رفع الصوت بالذكر، يقولون: «**سبحان اللّه**»، وفى الحديث أنه تعالى اصطفى لملائكته ولعباده أن يقولوا: «**سبحان اللّه وبحمده**»، وفى ليلة **الإسراء** كان رسول الله ﷺ يسمع تسبيحهم: «**سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى**». والتسبيح ـ صنو **الحمد والتقديس**، ويفيد التعظيم والتمجيد والتنزيه، وهو صلاة: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)﴾ (الصافات)، **والمسبّحون** هم المصلّون. وكان الرسول ﷺ فى ركوعه وسجوده يقول: «**سُبُّوح قُدّوس**

ربُّ الملائكة والروح»روته عائشة وأخرجه مسلم. والملائكة لاتمل التسبيح ولاتسأمه، كقوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** (٣٨)﴾ (فصلت)، وقوله: ﴿**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ** (٥)﴾ (الشورى)، وقوله: ﴿**وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** (٧٥)﴾ (الزمر)، وقوله: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** (٧) **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٨) **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٩)﴾(غافر)، قيل حملة العرش هم أفضل الملائكة، ومن فضلهم أن يستغفروا لبنى آدم، فهم أفضل من كل بنى آدم، قيل هم أنصح عباد الله لعباد الله، وإبليس أغشّى عباد الله لعباد الله، ولو أن ملكاً واحداً استغفر للمؤمنين لغُفر لهم، فكيف وجميع الملائكة يستغفرون لهم؟! فهذا هو تسبيح الملائكة: تنزيهٌ وحمدٌ وتقديسٌ لله تعالى، ودعاء للمسلمين.

●●●

٣٨٥. ﴿أيهما أفضل الملائكة أم البشر؟﴾

الذين يقولون الملائكة أفضل، حُجّتهم قوله تعالى عنهم: ﴿**عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** (٢٦) **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (٢٧)﴾(الأنبياء)، وقوله: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** (٦)﴾ (التحريم)، وقوله: ﴿**لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**(١٧٢)﴾ (النساء)، وقوله: ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**(٥٠)﴾ (الأنعام)، وقوله في الحديث: «من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرمنهم»، وذلك ملأ الملائكة.

والذين يقولون البشر أفضل حُجّتهم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** (٧)﴾(البينة)، وقوله ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًى طالب العلم»، والحديث في أهل عرفات: ﴿**وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة**﴾(الأنبياء)، وبهم هم المؤمنون، وهم أفضل لأنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. واحتج البعض مع ذلك إثباتاً لاعتقادهم بأن والملائكة أفضل، بقولهم لله تعالى: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**(٣٠)﴾ (البقرة).

●●●

٣٨٦. ﴿الغيب والشهادة﴾

الغيب: كل ما غاب عنك، يقال **غابت الشمس تغيب؛ وأغابت** المرأة فهي مُغيبة، إذا غاب عنها زوجها؛ ووقعنا **في غيبة وغيابة**، أي هبْطة من الأرض، **والغيابة** الأجمة، وهي جماع الشجر يُغاب فيها؛ ويُسمَّى المطمئن من الأرض: **الغيب**، لأنه غاب عن البصر. **والغيب**: الأمر الخفي الذي لايدركه الحسّ ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو **قسمان**: قسمٌ لا دليل عليه، لا عقلي ولا سمعي، وهذا هو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ (الأنعام٥٩)؛ وقسمٌ نُصب عليه دليلٌ عقليٌّ أو سمعيٌّ، كالصانع وصفاته، واليوم الآخر وأحواله، كما في قوله: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ (البقرة ٣)، وفي الحديث: «**مفاتيح الغيب خمس لايعلمها إلا اللّه: لايعلم ما تغيض الأرحام إلا الله؛ ولايعلم مافي غد إلا الله؛ ولايعلم متى يأتي المطر إلا اللّه؛ ولاتدري نفسٌ بأي أرض تموت إلا الله؛ ولايعلم متى تقوم الساعة إلا الله**» أخرجه البخاري. وفي صحيح مسلم قالت عائشة: من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعْظم على اللّه الفرية، واللّه تعالى يقول: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**(٦٥)﴾ (النمل)وأقول: وعلى ذلك فكل الأحاديث عن عمار وعليّ، والحسن، والحسين، إلخ **وما يجري لهم، باطلة**. وقوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ**(١٧٩)﴾ (آل عمران)، وكذلك قوله: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**(٢٧)﴾ (الجن)، المراد **يُطلعهم من الغيب ما يخصّ** الرسالة كأوصاف الجنة والنار، وأحوال الناس فيهما، والحساب والثواب والعقاب، وليس متى يموت عمّار، ومن يقتله، وأين يموت الحسين! وقيل في **مفاتح الغيب**: أنها خزائن الرزق، أو أنها الآجال ووقت انقضائها، وعواقب الأعمار، وخواتم الأعمال. والغيب الذي يُراد منا الإيمان به هو اللّه، فهو تعالى غيب، وكلُّ ما يُختص به تعالى من أمور وشئون هو من الغيب، فالقضاء والقدر غيب، وكل ما أخبر به الرسل ﷺ مما لاتهتدي إليه العقول، كأشراط الساعة، والحشر والنشر، والصراط، والميزان، غيب. **والإيمان بالغيب لذلك هو الإيمان الشرعي**، وفي الحديث أن الإيمان: «**أن تؤمن باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسُله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**». وقوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**(٩)﴾ (الرعد) فعالمٌ بما غاب عن الخَلْق، وعالمٌ بما شهدوه. وفي قوله: ﴿**رَجْمًا بِالْغَيْبِ**(٢٢)﴾ (الكهف) هو القول بالظن، **وهو غاية مايقدر عليه الإنسان في الغيب**.

●●●

٣٨٧. ﴿وصية إبراهيم لبنيه﴾

قال الله تعالى: ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٣٢﴾ ﴾(البقرة)، ووصيته إلى بنيه هي قوله في الآية السابقة على هذه الآية: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٣١﴾ ﴾(البقرة)، يعني أن وصيته كانت بالإسلام، وقبل ذلك قال تعالى في إبراهيم: ﴿ **وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا**﴿١٣٠﴾ ﴾ (البقرة) يعني اصطفاه بأن قال له أسلم، فأخلصه بالتوحيد وقول «لاإله إلا الله». والإسلام الذى أوصى به إبراهيم بنيه هو الإسلام الباطن، أكمل الإسلام، لأن الإسلام هو الخضوع والانقياد لله، وهو معنى الإيمان، فوصية إبراهيم هى الإيمان، والإيمان أو الإسلام الباطن هو ما اختاره الله ديناً لإبراهيم، فاختاره بدوره لبنيه، والدين هو الإسلام، وقوله: ﴿**فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٣٢﴾ ﴾(البقرة) أوجز وأبلغ وصية. ومعنى قوله ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ** ﴿١٣٢﴾ ﴾ (البقرة) أن الوصية كانت من إبراهيم لبنيه، وانتقلت من أبنائه إلى أولادهم ـ أى أحفاد إبراهيم، وهم هنا يعقوب، ثم انتقلت من يعقوب إلى أولاده وهكذا، فوصية إبراهيم إذن هى وصيته للأجيال ولكل الناس بعامة.

•••

٣٨٨. ﴿وصية يعقوب لبنيه﴾

فى الآية: ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٣٢﴾ ﴾(البقرة) أن الوصية صارت إلى يعقوب من أبيه إسحق أو من جده إبراهيم مباشرةً، وهى نفسها وصية يعقوب لبنيه: ﴿**إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴿١٣٣﴾ ﴾(البقرة)، فلمّا كان يعقوب فى النزع الأخير أوصى أولاده ـ وهم الأسباط الاثنى عشر، وكانت وصيته تعليمية وليست وعظاً كوصية إبراهيم، والفارق هو فارق فى الأجيال، وطريقة يعقوب عن طريق السؤال والجواب، فسألهم: «ما تعبدون من بعدي؟»: أراد أن يتأكد أن تعليمه لهم قد أثمر، فكانت إجابتهم هى نفس ما توقع، وهى نفسها ما كان يريد أن يوصيهم به، فقالوا: نعبد إلهك الذى هو إله الآباء، وهو الإله الواحد، فاعتقادنا هو التوحيد، وديننا هو الإسلام.

•••

٣٨٩. ﴿وصيته تعالى لقوم نوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى﴾

فى الآية: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ**

وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (١٣)﴾(الشورى)، أن وصيته تعالى إلى هؤلاء فيما شرع لهم من الدين هو توحيده تعالى، عبّر عنه بقوله: «**أن أقيموا الدين**»، **وإقامة الدين** هي طاعته تعالى فيما شرع، أي فيما نهج وأوضح وبيّن من المسالك، وشدّد عليهم **فقال**: «**ولاتتفرقوا فيه**»، أي لاتختلفوا في غايته أو الطرق الموصلة إليها والمحققة لها، **فالدين واحد وإن اختلفت المسميات، والأصول واحدة وإن تعددت المعاني، والمصدر واحد وإن كثرت الفروع، والأوْلى أن يقال لشرْعة كلّ نبيّ: ملّة، وأن يُقصَر اسم الدين على الأصل الذى ترجع إليه جميعها وهو الإسـلام**. والأصول الواحـدة في كل الملل هي: **التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزلف إليه بما يردّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزني والأذية للخلق، وتحريم الاعتداء على الإنسان الحيوان، واقتحام الدناءات، وإسقاط المروءات**. فهذا كله مشروعٌ في كل الملل، وهو الأساس للدين الواحد والملل المتحدة، وقال به هؤلاء خصيصاً: **نـوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد**، سلامُ الله عليهم أجمعين، ولم يحدث أن أرسل الله نبياً قط إلا أوصاه بإقامة الصلاة، وإيتـاء الزكاة، و الإقرار بطاعته تعالى، **وذلك** هو الدين الذى شرعه لهم، وهو وصيته تعـالى لأقوام كل الأنبياء، وموجزه: **تحليل الحلال وتحريم الحرام**.

●●●

٣٩٠. ﴿وصيته تعالى للمسيح﴾

لما نطق المسيح في المهد كان أول ما أخبر عنه، هو عبوديته للّه تعالى، قال: ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)**﴾(مريم)، فوصيته تعالى **خصوصاً للمسيح، وعموماً للناس جميعهم**: ١ـ أن يلتزم الصلاة يؤديها في وقتها وبفروضها عندما يدركه التكليف ويمكنه القيام بها؛ ٢ـ وأن يفي بالزكـاة إذا صارت له القدرة على الكسب؛ ٣ـ وأن يواظب عـليهـما: الصـلاة والزكاة طالما هو حيٌّ يرزق؛ ٤ـ وأن يبرّ والدته، ولم يقل والديّ، لأن ميلاده كان من الأم أمراً منه تعالى ولم يكن من والدين؛ ٥ـ وأن لايكون جبّاراً متعظماً متكبّراً، (**والجبّار** هو من لايرى لأحد عليـه حقاً)؛ ٦ ـ وأن لا يكون شقـياً فاعلاً للشـرّ والأذى، ومنقطعاً عن الرحمة، وعاقاً عاصياً لربّه، تاركا لأمره، **فإبليس** كان تاركاً لأمر الله، **فشقى** الشقاء كله، وهكذا بنو آدم، **فآدم** مثل **عيسى**، وآدم خلقه تعالى بلا أم ولا أب، وعيسى خلقه من أم

بلا أب؛ فآلت إلى بنى آدم كل وصـايا عيسى من ربّـه للتماثل بين آدم وعـيسى. ثم تأتى آخر وصـية وهى **السـابعة** : أن يسأل اللّه دوماً السلام لنفسـه وللناس، وأن يسأل الناس الدعـاء له بالسلام. فكمـا هو مطلوب منا أن نصلى ونسلم ونـبارك على نبـيّنا كلما ذُكـر اسمه، كذلك يلزمنا أن نسأل للمسيح **السلام**، فنقول: «**عليـه السلام**» كلما ذُكر اسمه، فالسـلام عليه من تعاليـمه لأتباعـه، وللناس كافة من المؤمنين به رسـولاً نبياً. فـهذه هى وصاياه تعالى للمسيح، ووصايا المسيح لنا سبع وصايا مباركات.

•••

٣٩١. ﴿الإيمان بالقدر﴾

القَدَر من **قَدَر ومقدرةً**، تقول **قَدَر على الشىء** قوى عليه، **وقَدّر اللّه فلاناً على كذا**، يعنى جعله قادراً عليه، ومنه **القادر والـقدير** وهما من أسماء الله الحسنى. وإذا **ذُكر القدر ذُكر القضاء** وهو الفصل، من **قَضَى يقضى** أى حكَم وفَصَل، فإذا كان **القضاء** هو الحُكْم فإن القدر هو القدرة على تنفيذ الحكم، وفى الآية: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾**﴾(القمر) أى بقُدرة، وقوله: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾**﴾(الأحزاب) يعنى نافذاً لأنه يقدر عليه وهـو القـادر. وقـيل: هاتان الآيتان نزلتـا فى **القـدرية** وكانوا يخاصـمون الناس فى القَدَر، ولاشىء فى الآيتين يمنع أن يكون الإنسان مخيّراً ومسئولاً ، وفى «**افعل ولاتـفعل**» فإن الإنـسان **مخيّر ومسئول**، ولمّا سأل أحدهم الرسول ﷺ: أيُعرَف أهل الجنة من أهل النار؟ قال : «**نعم**»، قال: «فلِمَ يعمل العاملون؟ قال : «**كلٌّ يعمل لما خُلق له ـ أو لما يُسّر لـه**» ، وفى هذا الحديث أن علِم الله محيط وسـابق، وليس فيه أدنى تشكيك أن الإنسان مخـيّر ومسئـول. ومثل ذلك الحديث، قـيل: يارسول اللّه، فيم العـمل؟ أفيمـا جفّت به الأقلام وجرت به المـقادير؟ قال: «**إعلم أن القلم جفّ بما هو كـائن**»، والحديث كـما ترى فى علم اللّه السابق ولايتـعارض مع القول بمسـئولية الإنسان وبـحريته: أن يختـار ويفعل عن اختيار. ومثله الحديث: «**جفّت الأقلام وطويت الصحف**»، وقوله ﷺ: «**كلٌّ يعمل لما خُلق له أو لما يُسِّر له**»، جميعها دليلٌ على أنه لا قسر على الإنسان ولاجبر، إلا أن يعمل فى حدود إنسانيته، وأن يفكر ويقـارن ، ويستنبط، ويستدل، ويختار لنفسـه، وكلٌّ له اختياراته، وله تفكيره وسلوكه، وعمله أمارة ودليل وإشارة على ما سـيئول إليه أمره، وأن من أراد لنفسه النجاه فعليه أن يبذل جهده، ويجاهد نفسـه فى عمل الطاعات والصالحات، كقوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾**﴾(الشمس)، أى عرّفها طريقى الفجور والتقوى، والطاعة والمعصية، ولها أن تختار لنفسـها أيهما ـ كما تشاء، ثم قال بعد ذلك:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾(الشمس) أى قد فاز من زكّى نفسه بالطاعات، وخسر من دسّ نفسه في المعاصي وأضلّها وأغواها، **فالإنسان هو المسئول، وله الخيار**، والله قد هداه النجدين، ولذا فإنه ﷺ لمّا سُئل: ألا نتكل؟ قال: «**لا، اعملوا فكل ميسّر**»: ثم قرأ ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠**﴾(الليل) أى أن الهداية ضربان: **هداية دلالة**، فيدل الله بأنبيائه وكتُبه على الحق والخير، **وهداية معونة، فيعين من يريد السير في طريق الحق** وأن يتوخى الخير، وهو معنى نيسّره لليسرى أو للعسرى بحسب اختياره. وهذا جميعه من قَدَر الله، أى بتقديره، **والإيمان بالقدر** هو أن نؤمن بكل ماسبق.

●●●

٣٩٢. ﴿من تفسيرات القدرية﴾

قال الجبرية في الآية: ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۝٥٦**﴾(هود): أن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، وبصر الخالق قد نفذ في جميع حركات الخلق، فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التى نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها، والإنسان على ذلك مُجبَر ومقدورٌ عليه قدره، ولا قُدرة له أصلاً، لامؤثرة، ولاكاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات! والصحيح أن الآية تعني أن الله لاخلل في تدبيره، ولاتفاوت في خَلْقه، وأنه خلَقَ الخلق ويقدر على كل شيء، ومن قُدرته تعالى أن جعل الاختيار في التكاليف والأعمال للإنسان، وهو حُرّ، وبناءً عليه فهو مسئول، ويتهافت على ذلك **فَهْم القدرية** وتفسيرهم للآية.

●●●

٣٩٣. ﴿الإنسان مخيّر فيما يفعله بإرادته، ومُسيّر فيما كان بإرادة الله﴾

هو تفسير الآية: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ۝٥١**﴾(التوبة)، ونحن لاحيلة لنا ولا اختيار في أبوينا، وبلاد ميلادنا، وأشكالنا التى نحن عليها، وما لنا من قُدرات وملكات، ومن ذكاء وسمات، فهذه جميعها من أفعال الله، **كتبها على عباده ولم يُقدرهم على كسبها**، ودون ذلك مما يدخل في **التكاليف فهو من أفعال البشر، وباكتسابهم لها مختارين**. **والقضاء المُمضَى** يشمل هذه الأفعال الأولى، وهو مضمون الآية.

●●●

٣٩٤. ﴿الدعوة إلى الله باللين﴾

الدعوة إلى الله لاتكون إلا باللين، بقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا**

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾(طه)، والآية دليل على وجوب **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** وإنما باللين، واللين هو القول الذى لاخشونة فيه؛ وإذا كان موسى قد أُمر بالدعوة باللين، فمَن دونه أحرى بأن يقتدوا به، كقوله تعالى: **﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا(٨٣)﴾** (البقرة)، والحُسْن هو المعروف، والصدق، والطيّب من القول. والدعوة باللين من أصول السياسة، ومن مكارم الأخلاق، والقائم بالدعوة مهما يكن ليس بأفضل من **موسى وهارون**؛ والملحد، والعلمانى والليبرالى وأىٍّ من كان ليس بأخبث من فرعون.

●●●

٣٩٥. ﴿الأعمال بالخواتيم﴾

قال رسول الله ﷺ فى قصة الرجل في وقعة خيبر أصيب ولم يطق ألمه فانتحر: «لايدخل الجنة إلا مؤمن»، والله تعالى يقول: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (١٩٥)﴾**(البقرة)، ويقول: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ(٢٩)﴾**(النساء). ومعنى الحديث أن من يقتل نفسه ليس مؤمناً، فالإيمان والانتحار لايلتقيان، وذلك أن الرجل استعجل الموت فقتل نفسه، فقال ﷺ: «**إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم**»، وقال: «**إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه**»، وقال: «**لا تعجبوا لعمل عامل حتى تنظروا بم يُختَم له**»، يعنى أن المرء قد يُفسد على نفسه إيمانه بارتكاب حماقات تدرجه ضمن ناقصى الإيمان، **والعبرة بخواتيم الأعمال**، أى نهاياتها ونتائجها وليس بما تبدو ظاهرياً فى أول أمرها.

●●●

٣٩٦. ﴿هدم الكعبة﴾

الأحاديث في هدم الكعبة ضمن ما يسمى «**أحاديث آخر الزمان**»، تعارضها الآية: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا(٦٧)﴾** (العنكبوت)، والآية: **﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا(٥٧)﴾**(القصص)، ومن واقع التاريخ أنه تعالى حَبَس عن مكة الفيل، ولم يمكّن أصحابه من تخريب الكعبة، ولم تكن وقتها قِبْلةً للمسلمين، فكيف يُسلّط عليها من يخربها بعد أن صارت قبلة للمسلمن؟ وفى الحديث: «**يغزو جيشٌ الكعبة فيخسف بهم**»، وربما يقال: إن الأيتين تحكيان عن وضع الحرم فى أيام النبىّ ﷺ، وليس فى المستقبل، فأمّا **فى آخر الزمان**، قرب قيام الساعة، فالمفروض فعلاً أن تخرب الكعبة، وخرابها من علامات الساعة، ووقتها **لا يبقى في الأرض أحدٌ يقول الله الله**، كما ثبت فى صحيح مسلم: «**لاتقوم الساعة حتى لايقال فى الأرض الله الله**»، وفي البخارى عن هدم الكعبة:

«يقلعها حجراً حجراً»، وبرواية أخرى: «لايعمر ـ أى المسجد الحرام ـ بعده أبداً»، وقد فعل ذلك فعلاً القرامطة بعد سنة ٣٠٠ هـ، فقتلوا من المسلمين فى المطاف من لايحصى كثرةً، وقلعوا الحجر الأسود فحوّلوه إلى بلادهم، ثم أعادوه بعد مدة طويلة، ثم غُزى البيت الحرام مراراً من بعد، ولايتعارض ذلك مع قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾، لأن الغزو والتخريب إنما وقعا بأيدى المسلمين، وهو مطابق لقوله ﷺ: «ولن يستحل هذا البيت إلا أهله»، فوقع ما أخبر به النبىّ ﷺ وهو دليل على نبوته، ودليل على أن ما أُنزل عليهم من القرآن صدق.

•••

٢٩٧. ﴿الفتن وعذاب العامة بسبب منكرات الخاصة﴾

الفتن جمع فتنة، وأصلها إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته، وتطلق الفتنة على العذاب، كقوله: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (الذاريات)، وعلى الاختبار، كقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٤٠﴾﴾ (طه)، وعلى الابتلاء، كقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾﴾ (الأنبياء). والفتنة كما تكون من الله تكون من البشر، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٠﴾﴾ (البروج)، وأصل الفتنة إذن هو الاختبار، ثم استعلمت فيما يؤدى إليه الاختبار من مكاره، ثم أطلقت على كل مكروه. وفى الحديث: «اللهم إنا نعوذ بك أن نُفتَن»، وفى التنزيل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال)، والآية تأمر بأن لايقر المسلمون المنكر بين أظهرهم فيعمّهم العذاب، وفى الحديث: «إن الله لايعذّب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك ـ أى لم ينكروه ـ عذّب الله الخاصة والعامة».

•••

٢٩٨. ﴿التعارض بين الكثير من أحاديث الفتن والقرآن؟﴾

الكثير من أحاديث الفتن يتعارض مع القرآن، فالآية تقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴿١٩٣﴾﴾ (البقرة)، والمعنى لاينحصر في مناسبة نزول الآية، ولا يقتصر على مقاتلة الكفار وأهل الشرك، وإنما قتال الظلمة والطغاة والمستبدين، ومنازعة هؤلاء تفرضها آيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأحاديث النصح لأصحاب السلطة. وقد سأل المسلمون النبىّ ﷺ: يارسول الله، إن كان علينا أمراء يأخذون بالحق الذى علينا، ويمنعونا الحق الذى لنا، أنقاتلهم؟ قال: «لا، عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم». وقال: «سيكون أمراء فيعرفون ويُنكرون، فمن كره برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضى وتابع...»، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما أقاموا الصلاة»؟! وفى رواية قالوا: يارسول الله، أفلا ننابذهم عند

ذلك؟ قال: «لا، ما أقاموا الصلاة، وقال: «وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله، ولاتنزعوا يداً من طاعة»؟!! فهل نطيع فى الظلم والشرّ والمفسدة؟!وفى الحديث: أن جبريل قال للنبىّ ﷺ: إن أمتك مفتتنة من بعدك. فقال: «من أين»؟ قال: من قِبَل أمرائهم وقُرّائهم (أى علمائهم). يمنع الأمراء الناس الحقوق، فيطلبون حقوقهم فيفتنون. ويتبع القُرّاء هؤلاء الأمراء فيفتنون. قال: «فكيف يسلم مَنْ سَلِم منهم»؟ قال: بالكفّ والصبر. إنْ أُعْطَوْا الذى لهم أخذوه، وإن مُنعوه تركوه» ـ وأقول: أليست تلك دعوة إلى السلبية؟ وأين تاريخ الأمم فى النضال؟ والتاريخ ليس إلا تاريخ منازعات المضطهدين والمظلومين لظالميهم من سائر المجتمعات والدول والأنظمة والحُكّام؟! وفى حديث آخر قال ﷺ: «إنكم سترون بعدى أثرة وأموراً تنكرونها»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «أدّوا إليهم حقّهم وسَلوا اللّه حقكم»، وأقول: فكيف نؤدى إليهم حقّهم، وهم لايكتفون بحقهم، وإنما يستولون أيضاً على حقنا؟! وقال ﷺ: «مَن كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه مَن خَرَج من السلطان شبراً مات ميتةً جاهلية»!! وقال: «من خلع يداً من طاعة لَقِى اللّه ولاحُجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية»، يعنى مات على ضلال وعاصياً، وخلاصة هذه الأحاديث: وجوب طاعة الحاكم، وتَرْك الخروج عليه، والكفّ عن استنكار أعماله، ونبذ المصادمة مع الشرطة حقناً للدماء، وقيل: مسالمة أمراء الجور إنما لتسكين الدهماء ـ وهذا هو تفسير الفقهاء، فعامة الناس وجموع الشعب دهماء فى عُرفهم! ولم يستثن هؤلاء من هذا الإذعان المشين إلا فى أحوال الكفر الصريح، فلا تجوز فى الكفر طاعة الحاكم ونظامه وحكومته، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها، ولم يعرّف لنا الفقهاء الكفر الصريح فى بلاد المفروض أنها تدين بالإسلام، ويجعل ذلك الكثيرين يتشككون فى أحاديث الفتن هذه ويرتابون أن قائلها هو الرسول ﷺ حقاً، حتى قيل إنه قال: «اسمع وأطع إلى أن يصل إليك حقك بغير خروج عن الطاعة!!» وزيد فى الحديث: «وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك»؟!! فهل الرسول ﷺ قال ذلك فعلاً؟ ومن ناحية أخرى هناك أحاديث تُحقّ الحق وتوافق مطالب الناس وما يرجونه من الإسلام، كما فى الرواية: «إلاّ أن يكون معصية للّه بواحاً»، والرواية: «مالم يأمروك بإثم بواح»، والرواية: «فلا طاعة لمن عصى اللّه» . وقيل: إنه لايجوز الخروج على الحكام الطغاة، ما دام فعلهم يحتمل التأويل. وقيل: الشأن فى أمراء الجور أنه إن قدر الشعب على خلع الرئيس الجائر بغير فتنة وجب خلعه، وإلا فالواجب الصبر. وقيل: إن عقد الرئاسة لطاغية مستبد لايجوز ابتداءً، فإنْ أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فإنه لاجدال يجب الخروج عليه والدعوة لإسقاط حُكمه، لعموم مصلحة المسلمين. وفى الحديث: «هلاك أمتى على يد

أُغيلمة سفهاء»، والأغيلمة تصغير أغلمة، ومفردها غلام، ويطلق على الرجل المستحكم القوة المستبد، تشبيهاً له بالغلام في قوته وتقلُّب مزاجه. وقيل إنه ﷺ استعاذ من إمارة الصبيان، فسألوه: وما إمارة الصبيان؟ قال: «إنْ أطعتموهم هلكتم، وإن عصيتموهم أهلكوكم»، فشبّه حُكم الطاغية الظالم بحكم الصبي، لأنه اعتبره غير ناضج فكرياً ونفسياً، ولذلك يلجأ إلى العنف ويميل إلى الأثرة، والاستحواذ. وفي رواية أنه ﷺ قال: «لو أن الناس اعتزلوهم» ، والمراد باعتزالهم أن لا يداخلوهم، ولاينضموا للجيش ولا للشرطة، ولايسمعوا لهم، ولايقاتلوا عنهم، ولايتعاونوا معهم، ولايجتمعوا بهم، ولايحادثوهم، والأفضل اللجوء إلى الهجرة، وترك البلاد التي تكثر فيها المظالم والإشاعات والفتن والصراعات والمعاصي، والمنكر عموماً، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا (٩٧)﴾(النساء)، وقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً (١٠٠)﴾(النساء)، والآية دليل على أنه ليس لأحد المقام بأرض فيها الظلم والاضطهاد ويُعمل فيها بغير الحق.

●●●

٣٩٩. ﴿ظهور الفتن من علامات الساعة﴾

للساعة علم لايعرفه إلا الله، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا (٦١)﴾ (الزخرف)، ولها علاماتها التي تسبقها، والأحاديث فيها كثيرة، منها قوله ﷺ: «يتقارب الزمان، وينقص العمل ويُلقى الشُحّ، وتظهر الفتن ويكثر الهَرْج» (أي القتل)، وقوله: «إن بين يديّ الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويُرفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج»، وقوله: «لاتقوم الساعة حتى يظهر الفُحش والبُخل، ويخون الأمين، ويؤتمن الخائن، وتهلك الوعول وتظهر التحوت»، قالوا: يارسول الله، وما التحوت والوعول؟ قال: «الوعول وجوه الناس وأشرافهم، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس ليس يُعلَم بهم». وقيل في قوله: «يتقارب الزمان» يعني تقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لايكون فيهم من يأمر بمعروف ولاينهى عن منكر، لغلبة الفسق وظهور أهله. وجاء في الحديث: «لايزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساووا هلكوا» وهو حديث غريب يدعو إلى اللامساواة بين الناس ويحبّذها، ويناقض تعاليم الإسلام والرسول ﷺ، وقيل في معناه: لايزال الناس بخير ما كان فيهم أهل فضل وصلاح وخوف من الله، يُلجأ إليهم عند الشدائد، ويُستهدَى بآرائهم، ويُتبرّك بدعائهم، ويؤخذ بتقويمهم وآثارهم، وإلا فإنهم إن تساووا في الخسّة والدناءة، هلكوا.

●●●

٤٠٠. ﴿إذا اقتربت الساعة تنزع البركة من كل شىء﴾

من حديثه ﷺ : «لاتقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة»، أى كأنها لمحة، والمراد نزع البركة من كل شيء حتى الزمان، فتقصر الأيام، وتمضى الشهور والسنون سراعاً، وهذا القِصَر معنوى، وقال: «فإنه لايأتى عليكم زمان إلا والذى بعده أشَرّ منه»، وقال: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى. من تشرّف لها تستشرفه، فمن وَجد منها ملجأ أو معاذاً فَلْيَعُذْ به» ، ومعنى تستشرفه تُهلكه بأن يشرف منها على الهلاك. وهذه الأحاديث ينبغى أن نقابلها بالشك، والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المُنكَر واجبٌ على كل من قدر عليه، فمن أعان المُحقّ أصاب، ومن أعان المخطىء أخطأ.



٤٠١. ﴿الإسلام والقرآن فى آخر الزمان﴾

فى الحديث أن الإسلام فى آخر الزمان: «يَدرُسُ كما يَدرُسُ وشْى الثوب، حتى لايُدرَى ما صيام، ولاصلاة، ولا نُسُك، ولاصدقة، ويُسرَى على الكتاب - يعنى القرآن - فلا يبقى فى الأرض منه آية»؛ والقرآن: «ينزع من بين الظهور ويُسرَى عليه ليلاً فيذهب فى أجواف الرجال فلا يبقى فى الأرض منه شىء»، «فمن أنكر برىء، ومن كره سَلِم». ومن علامات الساعة: «أن الهداة فى آخر الزمان يهدون بغير هَدْى، وتَعرفون منهم وتنكرون»، فإذا عاينا ذلك: «فلنلزم جماعة المسلمين وإمامهم، وإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، فلنترك تلك الفرق كلها، ولو أن نعض بأصل شجرة حتى يدركنا الموت ونحن على ذلك» ولزوم الجماعة: لأنه كما قال الرسول ﷺ :لم يكن الله ليجمع أمة محمد على ضلالة» والجماعة التى تلزمها ليست أى جماعة، وإنما المقصود أنها الجماعة المستنيرة، أو جماعة أهل العلم الرافضة للظلم، والمطالبة بالإصلاح والتغيير وسُئل ﷺ : فكيف إذا بقينا فى حثالة من الناس، قد مرجَت (أى فسدت) عهودهم وأماناتهم واختلفوا؟ قال: «عليك بخاصتك ودع عنك عوامهم». وسئل: فكيف تأمرنا؟ قال: «تأخذ بما تعرف وتدع ما تنكر، وتقبل على خاصتك، وتدع عوامهم» وكما ترى فالفتن فى آخر الزمان ابتلاء واختبار، وفى الحديث: «لاتكرهوا الفتنة فى آخر الزمان، فإنها تبير المنافقين» أى تهلكهم، وربما كنا الآن فى زمن الفتنة التى تموج مَوْج البحر، والتى يصبح الناس فيها كالبهائم لاعقول لهم، وفى زماننا هذا ذهبت عقول أكثر الساسة وأولى الأمر، والمسلم لاتضرّه الفتنة ما عرف دينه، والفتنة لاتقوم إلا إذا اشتبه الحق والباطل، والذين

يثيرونها هم أهل الباطل، أهل النفاق. وقد تشتد الفتن وتزيد وطأتها، وربما يتمنى الناس لو ماتوا، وقد يغبطون أهل القبور، فإذا عاينت ذلك أيها المسلم، فربما ما تعاينه من علامات الساعة، وأنه من الفتنة، وأن الناس ما ملأها الخوف إلا أن يروا دينهم قد ذهب، بغلبة الباطل وأهله، وظهور المعاصي والمنكر فلا أقل حينئذ أن يتمنوا الموت.



٤٠٢. ﴿ذهاب الدين من علامات الساعة﴾

يقول تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** (٣) ﴾(سبأ) قيل: إن أبا سفيان في زمنه كان يقول: **واللات والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نُبعث**»، ولذلك نزلت الآية ، وكل وقت وفيه مثل أبي سفيان، والآية يردّ الله بها على من ادّعى بطلان الساعة عامةً، وأبو سفيان يحلف باللات والعزى، وأهل الباطل يقسمون بالباطل، وفي ذلك الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى تُعبَد اللات والعزّى**» أي عندما لايكون القسم إلا بالباطل تقوم الساعة، وكأن الباطل سينتصر، وكأننا ما فعلنا شيئاً، وكأن من مات في سبيل الله مات من أجل قضية خاسرة، فالانتصار مرة أخرى وعلى المدى الطويل، وفي نهاية الأمر، للاّت والعزّى ـ أي للباطل والضلالة ! وفي القرآن غير ذلك، لأن الله قد وعد المسلمين أهل الحق أن يكون النصر لهم ولدينهم، فكيف يعود الناس لعبادة الضلال من جديد؟ والثابت في القرآن أن أهل الحق مستخلفون في الأرض كقوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** (٥٥)﴾ (النور)، وقوله: ﴿**إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** (١٧٢) ﴾(الصافات)، وقوله: ﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** (٥٦)﴾ (المائدة)، فكيف إذن يعود الناس لعبادة اللات والعزّى؟ وقال الفقهاء: ربما المعنى أن الدين لاينقطع بالكلية من جميع أقطار الأرض، فيبقى منه شيء، إلا أن ما يبقى يكون مع ذلك ضعيفاً، ويعود الإسلام غريباً كما بدأ. ويناقض ذلك الحديث الآخر: «**لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على مَن ناوأهم...**»، والمغزى العام أن **الإسلام يبقى إلى قيام الساعة** ، وأن القرآن **لايمكن أن يضيع** من السطور، ولا أن ينمحي من الصدور. وهناك الحديث: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرّ من أهل الجاهلية**»، ولايعني الحديث أن كل الناس أشرار، ويقابله الحديث: «**لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لايضرهم مَن خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**»، وفي القرآن في وصفهم: ﴿ **أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ**

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾. وفى الحديث: إذا حانت الساعة يبعث الله ريحاً كأنها المسك، ومسّها من حرير، فلا تترك أحداً فى قلبه مثقال حبّة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة». فربما المراد بالحديث: «لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرٌّ من أهل الجاهلية» يقصد إلى هذا المعنى، وربما معنى حتى تأتيهم الساعة» هى ساعتهم هم، وهى وقت موتهم. (انظر علامات الساعة ضمن باب «الموت والقيامة والساعة والحشر والجنة والنار».



٤٠٣. ﴿أحاديث الدّجّال من أحاديث آخر الزمان﴾

الدّجّال: من الدجل وهو التغطية، وسمّى الكذّاب دجّالاً لأنه يغطى الحق بباطله. وقيل: ظهور الدجّال من علامات الساعة، والأحاديث فيه متخالفة فى عدة أمور، منها تسميته، وأصله، ومتى يخرج، ومن أين يخرج، وما صفته، وما الذى يدّعيه، والخوارق المصاحبة لظهوره، ومتى يهلك، ومن يقتله؟ والاختلاف يصل إلى حدّ التضارب، ويرد الدجّال عند اليهود كعلامة من علامات آخر الزمان، والأحاديث النبوية أو بالأحرى المنسوبة للنبى ﷺ - تجعل المسحاء الدجّالين ثلاثين، وربما أكثر، وفى أسفار اليهود أن المسحاء الدجّالين كانوا أربعة وعشرين، أشهرهم بار كوكبة الذى عاش فى أول القرن الثانى، وادّعى أنه رئيس الأمة اليهودية ومَلِكُهم، وتمرّد على الدولة الرومانية، ومات فى هذه الفتنة خلقٌ كثير بالآلاف. ويعتبر اليهود المسيح عيسى ابن مريم من المسحاء الدجّالين. وفى القرن الثانى عشر بعد المسيح ظهر نحو عشرة مسحاء دجّالين. وعقيدة المسيح الدجّال إذن عقيدة يهودية نصرانية، يعنى غير إسلامية، ومصدرها أنهم قالوا إن إيليا رُفع إلى السماء، ومن يُرفَع لابد أن يعود ليموت ميتة البشر، ومن ثم فإيليا هو المسيح العائد، ولن يعدم الأمر أن يأتى أناس كذبة يدّعون أنهم هذا المسيح، وميّزوهم باسم المسحاء الدجّالين أى الكذّابين. وكذلك قال النصارى، فبما أن المسيح رُفع فسيعود حتماً، وباسمه، ومن بين النصارى ظهر مسحاء دجّالون كثيرون. وأحاديث الدجّال فى الإسلام لاتنسجم مع العقيدة الإسلامية، ولذا لم يرد عن الدجال شىء فى القرآن، ولو كان الدجّال حقيقة لكان الأولى أن يرد عنه فى القرآن. وقد حفل القرآن بوقائع من حياة النبّى ﷺ أقل أهمية من هذا الحدث الجلل - حَدَث الدجّال! والحكايات فيه كثيرة ترقى إلى الخرافات، ومنها أنه كان موجوداً فى العهد النبوى، وأنه محبوس فى بعض الجزائر، وأنه يخرج عند فتح القسطنطينية، ويخرج من غضبة يغضبها، وخروجه من قِبَل المشرق، من أصبهان - يعنى

من إيران، ويدّعى أولاً الإيمان والصلاح، ثم النبوة، ثم الإلهية، وبعد ذلك ينزل **عيسى** فيقتله. ومن ذلك أشياء كثيرة كالتى اخترعوها عن **المهدى المنتظر** وكلها من الخرافات!

●●●

٤٠٤. ﴿لماذا لم يذكر الدجّال فى القرآن؟﴾

هذا سؤال مشهور ووجيه، فمع شهرة الدجّال وما ذُكر عنه من الشرّ وعظم الفتنة به، والتحذير منه، والأمر بـالاستعاذة منه حتى فى الصلاة، فلماذا أهـمل القرآن أمره؟ وقيل: إنه مذكورٌ في الآية: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** (١٥٨) ﴾(الأنعـام)، وفى ذلك أخـرج الترمذي الحـديث عن أبى هريـرة: «**ثلاثة إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمـانها لم تكن آمنت من قبل: الدجّال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**». وليس هناك سبب يمنع التنصيص عليه فى القرآن، سوى أنهم قالوا إن من ذُكرت أسمـاؤهم في القرآن من المفسدين إنما هم ممن مضى وانقـضى أمرهم، وأما من لم يجيئوا بعد فلم يُذكر منهم أحد. وقيل: إنما تُرك ذكره احتقاراً: ونقول: **كيف، والنتائج المترتبـة عليه خطيـرة غاية الخطورة**؟! وقيل: الدجّال مـذكور فى القرآن في الآية: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** (٥٧) ﴾ (غافر)، والمراد بالناس **الدجّـال**، من إطلاق الكل على البعض، وعلى ذلك كان الدّجال من جـملة ما تكفّل النبىّ ﷺ بالتعريف به والتنبيه إليـه! وهذا تبرير مـتهـافت، والصحـيح أن **قـصـة الدجـال والأحــاديث فـيـه** من الإسرائيليات، وتنافي العقيدة الإسلامية تماماً، ومنقولة عن أسفار اليهود والنصارى.

●●●

٤٠٥. ﴿أحاديث نزول عيسى من أحاديث آخر الزمان﴾

أحاديث نزول عيسى عندمـا تحين الساعة مثل **أحاديث الـدجّال**، كلها ملفّـقة، ونزول نبّى مثل عيسى حَدَثٌ لايمكن أن يغفله القرآن لو كـان حقيقياً. وقيل: بل أورده في قوله تعـالى: ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ** (١٥٩) ﴾(النساء)، وقـوله: ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ** (٦١) ﴾(الزخـرف)، قيل في مـعنى الآيتين: أنه ينزل فى آخر الزمان. والأحرى بكم أن تتّبعوه وتؤمنوا به، وفى الآية: ﴿ **الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ** (١٥٧) ﴾(النسـاء) أن هذا الإيمان به ليس باعتباره ابن اللّه، وإنما باعتبـاره نبياً لاغير، ويرتبط الإيمان به بهـذا الاعتبار بالقرآن وما جـاء فيه عنه، والآية إذن إخبارٌ بأن النصارى في آخر الزمان سـيؤمنون بالقرآن وبما جاء به عن عيسى: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** (١٥٧) **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** (١٥٨) ﴾(النساء). وأما آية سورة الزخرف: ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا**

تمترُنَّ بها واتَّبِعُونِ(61)﴾ فليس فيها أي دليل على نزول عيسى، وقالوا الآية تُقرأ: «وإنه **لَعَلَمٌ للساعة**» أي أمارة، يعنى أنه من **علامات يوم القيامة**. والذى قال ذلك هو الحبر ابن **عباس**. وأما الجمهور فمع قراءة النبىّ ﷺ **«لعلمٌ للساعة»** (بالكسر)، والمقصود أن **القرآن** هو علم الساعة، لأنه الكتاب الذى أجاب عن الساعة الجواب القاطع، ووصف أهوالها وأحوالها، وما قاله فيها بمثابة العلم ـ **علم الساعة** وليس المقصود نزول عيسى .وقد اقتضى تفسير الآية بحسب معتقد النصارى، أن كانت هناك أحاديث كثيرة تخالف القرآن وتجعل من عيسى **النبىّ الخاتم** وليس محمداً ﷺ، فبنزول عيسى يصبح **هو آخر نبىّ** يحكم فى الدنيا، وتسود **شريعته** هو وتنتهى شريعة الإسلام. وأكثر من ذلك أن الأحاديث تجعل من عيسى **قاتلاً**، فيقتل الدجّال، وتجعله **محارباً** يمسك بالسلاح ويقتل الأعداء، وهى صورة مخالفة **لطبيعة المسيح**، فهل يجوز أن تكون له الطبيعة التى نعرفها ثم يتغير هكذا تغيراً كلياً إلى الضد؟ وفى الحديث: «**أن عيسى أول نازل، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقاتل الناس على الإسلام**»، وقيل: إنه **يرفع التكليف !!** مع أن البقاء فى الدنيا يقتضى ويُحتّم التكليف! وفى الحديث: أن عيسى يؤم المسلمين **بكتاب ربّهم وسُنّة نبيّهم** ﷺ، وبناءً عليه قال الفقهاء، إن الحديث نصٌّ على أن عيسى ينزل **مجدِّداً** لدين النبىّ ﷺ، للذى دَرَس منه، لايشرّع مُبتَدأ، والتكليف باق!! وهذا جميعه تلفيق من نوع **الإسرائيليات**. والصحيح أن **العَلَم على الساعة**، أى الدليل والأمارة، إما أنه **القرآن** باعتباره **الكتاب الخاتم**، أو أنه النبىّ ﷺ باعتباره **النبىّ الخاتم**، فالقرآن **بشارة ونذارة** بالقيامة، وكذلك محمد ﷺ، فإن كان هناك كتاب يتحدث عن الساعة، ونبىّ أقرب إلى الساعة، فهو القرآن والنبىّ ﷺ، وعلى ذلك فلا شيء فى القرآن ينبىء عن نزول عيسى أو يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد! ويكذب من يقول بغير ذلك.



٤٠٦. ﴿ما اختصاص النبىّ بالتنبيه إلى الدّجال ونزوله؟﴾

قيل: إن سبب تنبيه النبىّ ﷺ إلى الدجّال ونزوله، مع أن ما تنزّل عليه من القرآن بهذا الخصوص، لدليلٌ أقوى دليل على تكذيب الدجّال، بأنه إنما يخرج فى أمة محمد دون غيرها من الأمم. وقالوا: إن علم خروجه بهذه الأمة كان مطوياً عنها كما طوى عنها **علم الساعة**، فاختص النبىّ ﷺ بتنبيه أُمته، كما اختص بالجواب عليها فى السؤال عن علم الساعة. والأحاديث تترى تعرّف بالدجّال أنه **أعور العين اليسرى**، وبعينه اليمنى **عِنَبة ناتئة**، أو **ظَفْرة غليظة**، و مكتوبٌ بين عينيه كافر! ومن فتنته أن معه مثل **الجنة والنار**،

يُمنّي بالجنة من يصدّقه، ويتوعّد من يكذّبه بالنار، والتي يقول إنها الجنة هي أيضاً نار، والمؤمنون يلقون منه شدّة، وهو مختص ببلاد الإسلام، ويدخلها جميعاً إلا مكة والمدينة ؟! وأخيراً يقتله المسيح فى بيت المقدس ويخلّص الناس منه، وكل ذلك خرافات من الإسرائيليات.

●●●

٤٠٧. ﴿أحاديث يأجوج ومأجوج من أحاديث آخر الزمان﴾

يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان، وقصتهما فى هذه الموسوعة ضمن باب القصص فى القرآن، وفى الحديث أن سدّ يأجوج ومأجوج يفتح وحينئذ يكون الويل للعرب، الصالحين والطالحين، فالهلاك للجميع عندما يكثر الخبث، وهذا هو المعنى وليس كما يروّجون له من الإسرائيليات. ويأجوج ومأجوج كما فى التنزيل: ﴿مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ(٩٤)﴾(الكهف) وقصتهما مع ذى القرنين. ونبوءة النبىّ ﷺ هى قوله: «ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب»، فخصّ العرب لأنهم كانوا حنيئذ المسلمين، إلا أن الحديث يعنى كل المسلمين ـ الأفغان والإندونيسيين والنيجيريين إلخ، والمراد بالشر مثلما يقع الآن، فإن الفتن تحاصرهم وتأخذ بتلابيبهم حتى يصيروا بين الأمم كالقصعة بين الأكلة، لقوله: «يوشك أن تَداعَى عليكم الأمم كما تَداعَى الأكلة على قصعتها»، فالأحاديث وآيات القرآن للتحذير، وليست تنبؤات لأحوال المسلمين مستقبلاً كما يقولون. وهى اختبار لإيمان المؤمنين، ومن يصدّق مثل هذه الأحاديث من الإسرائيليات فلن يصمد فى الاختبار وسيفشل، ومن يحذرها ولا ييأس فلن يحبط عمله وسيكون من الناجين، والإيمان دائماً منجٍ.

●●●

﴿ثانياً: الإسلام فى القرآن﴾

٤٠٨. ﴿ما هو الإسلام﴾

في الآية: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ(١٤)﴾(الحجرات)، أن الإيمان أخصّ من الإسلام، ومن ذلك حديث جبريل حينما سئل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقىّ من الأعمّ إلى الأخصّ، فكان الإسلام أولاً، ثم يكون الإيمان، ثم يأتى الإحسان فى القمة. وكذلك فى الحديث رداً على سعد بن أبى وقاص حينما قال: يا رسول الله! أعطيتَ فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن؟ فقال النبىّ ﷺ: «أوَ مسلم»؟ (يعني أوَ مسلم هو؟) فأعاد سعد السؤال، وأعاد النبىّ ﷺ الجواب: أو مسلم؟ ففرّق النبىّ ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدلّ على أن الإيمان أخصّ من الإسلام، وفي الآية اللاحقة على الآية السابقة يأتى تعريف الإيمان بتعريف المؤمنين، يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا

وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿١٥﴾(الحجرات)، فالأعراب أسلموا ولكنهم لم يصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد، ثم فى الآية اللاحقة أن **المؤمنين الكُمَّل** هم الذين لم يتشككوا، ولاتزلزلوا، ولكنهم ثبتوا وصدّقوا، ومقامهم **مقام التصديق المحض**، ولذلك جاهدوا بالمال والأنفس فصدقوا أنهم مؤمنون، ولم يتجاوزا الصدق عندما قالوا إنهم مؤمنون. فكل من توقف عند الإسلام ولم يترقّ إلى الإيمان فهو من **الأعراب**، وأما تاريخياً فهؤلاء كانوا رهطاً من **بنى أسد بن خزيمة**، قدموا إلى المدينة فى سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين حقاً، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وقالوا للرسول ﷺ: أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فقال: «**إن فقههم قليل والشيطان ينطلق على ألسنتهم**» أو قالوا: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله هذه الآية والتى تليها، قال: **﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٧﴾**(الحجرات) . وسواء نزلت الآية فى هؤلاء من **بنى أسد**، أو فى أعراب **مُزَيْنة وجُهَيْنة وأَسْلَم وغفار والدّيل وأشجع**، ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفروا تخلّفوا، فإن هذه الآيات عامة يُقصَد بها **المنافقون** الذين يُظهرون الإيمان ولم تؤمن قلوبهم، **فحقيقة الإيمان**: التصديق بالقلب؛ وأما **الإسلام**: فحقيقته قبول ما أتى به النبىّ ﷺ. وفى الحديث عند البخارى: «**بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لاإله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم رمضان**»، والمراد **بالشهادة** تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به. **وصحة الإسلام** لاتقوم إلا بالإقرار بالتوحيد. والإسلام لغةً هو الطاعة والانقياد، وفى الحديث فإن **حاصل الإسلام شرعاً** هو الأعمال الظاهرة، والتلفُّظ بالشهادة، والإتيان بالواجبات، والانتهاء عن المنهيّات. والإسلام والإيمان **متلازمان** فى المفهوم، سوى أن **الإسلام علانيةٌ، والإيمان فى القلب**. أو أن **الإسلام والإذعان** مترادف، لأن الإسلام هو الخضوع والأنقياد للأحكام، أى قبولها والإيمان بها، وذلك نفسه **حقيقة التصديق**، ومن ثم فإن الإسلام والإيمان يترادفان، وكلما أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودلّ انفراده على ما يدل عليه الآخر، وإن قُرن بينهما تغايراً.

وأصل الإسلام: أن المسلم هو الذى يحفظ الشىء سالماً بتجديده وصيانته، أى صيانة التوحيد، وتجديد الإيمان بالله الواحد. وفى **التصوف الإسلامى**: المسلم هو المستسلم لله، والمُسلم نفسه لله.

والخلاصة: أن الإسلام هو خلوص العقيدة. غير أن مفهومه كان دائم التطور مع

الاستعمال، فشمل القول بالإسلام الأصول الاعتقاديه والفروع العملية. والأصول يقينيه، والفروع ظنية، والآراء فى المعتقدات تسمى مذاهب، وكل أصحاب المذاهب وأتباعهم يعتقدون أنهم على صواب يحتمل الخطأ، وغيرهم على خطأ يحتمل الصواب، وقد يرى البعض أن الحقّ يتعدد فى المسائل الاجتهادية.

والإسلام يفرّق بين الجاهلية والعالمية، فقبل الإسلام كان العرب فى بداوة جاهلية، وبعده صاروا إلى حضارة عالمية.



٤٠٩. ﴿الدين واحد والفرق كثيرة﴾

كان الناس أمة واحدة، أي على دين واحد، أو رأيّ واحد، اجتمعوا عليه وأخذوا به: أنه لا إله إلا الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)﴾(الأنبياء) فاختلفوا وتفرقوا، لمّا تباين فهمهم، وعندما تشعبت مفاهيمهم، فقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣)﴾ (الأنبياء)، يعنى تفرّقوا، وادّعى كل منهم أنه على الحق وغيره على الباطل. وقوله «تقطعوا» يعنى جعلوا ماكان واحداً قطعاً صغيرة، وقنع كل واحد بقطعة بعد أن كان معه الكل، فالموحّد هو من معه الكل، واليهودى والنصرانى، أو المجوسى، أو الصابئ، إلخ، كلٌّ منهم قد اجتزأ جزءاً واعتقد أن معه كل الصواب، بل أن النصارى مثلاً اختلفوا فيما بينهم فصار منهم الأرثوذكسى، والكاثوليكى، والبروتستانتى إلخ، وكفّر بعضهم البعض وكل هؤلاء مآلهم فى النهاية إلى الله فيقضى بينهم فيما فيه يختلفون. والآية عامة، والحق ليس فى الدين وحده ولكنه فى كل شىء، والتباين فيه قد يكون ظاهرة صحية، وقد يجلّيه، غير أن هناك اختلافاً وليس تبايناً، وفيه يكون الصراع والحرب والمكيدة.



٤١٠. ﴿كان الناس أمة واحدة﴾

لمّا نزل آدم إلى الأرض عمرت بالبشر، وكانوا أمة واحدة، وقيل كان ذلك بعد نوح، وكانوا على الإسلام لله، ثم بعد وفاة نوح اختلفوا، فبعث الله النبيين، يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾(البقرة ٢١٣)؛ وقيل: كان الناس أمة واحدة فى خلّوهم من الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا أن مَنّ الله عليهم بالنبيين؛ وقيل: كان النبيّون كُثراً، وقيل: جملتهم مائة وأربعة وعشرون ألفاً، ولاندرى مصدراً لهذا العدد؛

وقيل: الرسُل منهم ثلاثمئة وثلاثة عشر ، وما من مصدر لهذا العدد أيضاً، والمذكورون فى القرآن بالاسم خمسةٌ وعشرون، أولهم آدم، وقيل: نوح، وقيل: إدريس؛ وكان لكل رسول كتاب أو وصية، واختلفت الأمم والشرائع بغياً بينهم، إلا أمة محمد، وذلك لأن كتابهم ظل بلا تغيير، فى الوقت الذى حُرّفت فيه الكتبُ الأخرى. وقيل إن الأمم كذّبت بعضها البعض، إلا أمة محمد، فإنها تصدّق بها جميعاً . وقيل: إن الله هدى أمة محمد لمآ ضل الآخرون، فاليهود قالوا: نحن أصفياء الله؛ وصُحّح ذلك مع أمة محمد، فقال تعالى: إن أصفياءه هم المتقون، ولافرق بين أعجمى وعربى إلا بالتقوى؛ والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ولقد خلّصنا من كل خطايانا، فلا أحد منا إلا ويدخل الجنة، فصحّح الله تعالى ذلك مع أمة محمد فقال: إنه تعالى لا ولد له ولا زوجة، وأنه لا يُدخِل الناس الجنة إلا أعمالهم، وأن المسيح عبدٌ من عباد الله آتاه النبوة، فذلك هو الحق الذى أعطاه الله تعالى أمة محمد وهداهم إليه.

●●●

٤١١. ﴿الإسلام هو الخضوع والانقياد لله﴾

فى قوله تعالى لإبراهيم: ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة ١٣١): أن الإسلام: هو إخلاص الدين لله بالتوحيد. «وأسلِم» يعنى اخضع واخشع. وما جرى لإبراهيم فى إسلامه ينفرد به القرآن دون التوراة ، فليس من ذلك شيء فى التوراة. والإسلام فى كلام العرب: هو الاستسلام. وإسلام إبراهيم لذلك على أتم وجوهه، لأنه استسلام لله. وليس كل إسلام إيماناً، وليس كل إيمان إسلاماً، لأنه من يؤمن يستسلم لله، ولكن ليس كل من يستسلم يؤمن، فلربما يبدى الإسلام نفاقاً، أو لغرض كالزواج من مسلمة، أو خوفاً على حياته، فلا يكون ذلك إيماناً. وفى الآية : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ (الحجرات١٤)، فأخبر أنه ليس كل من أسلم مؤمناً. ولما قال سعد بن أبى وقاص للنبىّ ﷺ : أعطِ فلاناً فإنه مؤمن. قال له: «أوَ مسلم؟» الحديث، (يعني أوَ مسلمٌ هو؟) فدلّ على أن الإيمان ليس الإسلام، لأن الإيمان باطن، والإسلام ظاهر. ومع ذلك فقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام ويراد به الإيمان، للزوم أحدهما الآخر. وصدوره عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(آل عمران ١٩).

●●●

٤١٢. ﴿أسلمت لرب العالمين ووصية إبراهيم﴾

لما قال الله تعالى لإبراهيم: «أسلِم» قال: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة ١٣١)، فكان

الإسلام ميراثه لذريته، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(البقرة١٣٢)، ووصيته كانت بقوله : ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فوعظهم أن يقولوا «أسلمنا» .وقوله وصّى فيه تكثير، فظل يردد عليهم ذلك ويُكثر من التوصية. وفي الآية أن يعقوب زاد على إبراهيم توصيفاً لهذا الدين، أنه الإسلام: الدين الصافي المصفّى، أي الخالص من كل شائبة، والمستصفَى، أي المختار لصفائه من أي شرك. وقوله «فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون» إيجازٌ بليغ وفيه جُماع الخير كله، والمعنى : الزموا الإسلام، وداوموا عليه، ولاتفارقوه حتى الموت، والخطاب توجيه يتضمن الوعظ والتذكير بالموت، وأن تكون ملازمتهم للإسلام من وقت أن أمرهم به دائباً، فلا يفاجئهم الموت إلا وهم مسلمون. وهذا الكلام عن إسلام إبراهيم ووصيته إلى بنيه لاشيء منها في التوراة، والاهتمام في التوراة ليس بالدين وإنما بتاريخية شعب اليهود.



٤١٣.﴿وصية يعقوب بالإسلام﴾

وفي الآية : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة ١٣٣). رصدٌ ديني لمشهد موت يعقوب، والاهتمام فيه بالملّة وليس بشيء آخر، على عكس ما يرد من ذلك في سفرْ التكوين، الفصل التاسع والأربعين: أن يعقوب أوصى بنيه، أن كل واحد منهم، بحسب شخصيته يكون نصيبه من الدنيا، وباركهم وأوصاهم أن يدفنوه في القبرالذي دفن به إبراهيم وسارة وإسحق في مكفيلة من أرض كنعان: «فلما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه ضم رجليه على السرير وفاضت روحه وصار إلى قومه (تكوين ٤٩ / ٢٩)، فالاهتمام بهم كجماعة وليس بالدين، ولاحظ قوله «وصار إلى قومه» وليس «وصار إلى اللـه»؟! ولانجد من مؤلف التوراة في موقف الموت أي اهتمام بالديانة وماهيتها،وأما في القرآن فالقضية مختلفة تماماً، والاهتمام منصبٌ على الدين دون غيره. والآية القرآنية ليست للتأريخ ليعقوب، ولكنها لتصحيح الفكرة عن يعقوب كما يطرحها التوراة، ثم إنّ أي قصة ترد في القرآن إنما هي للوعظ والتفكُّر والتدبُّر، والآية احتجاجٌ على يهود المدينة: بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، قد ذكر قومه ولم يذكر الله ، ووصيته لايمكن أن تكون وصية نبيّ. وكاتب التوراة نسى هذه الحقيقة، ولم يذكر سوى أن يعقوب مؤسس أُمة يقال لها بنو إسرائيل. فلما كانت بعثة محمد ذّكر اليهود بالرسالة وهي التوحيد ، وفي الآية القرآنية خير تذكير، والتوحيد هو فحوى شهادة الأنبياء ومضمون كلامهم. وقول أولاد

يعقوب: «ونحن له مسلمون» تأكيدٌ علي أصل رسالة محمد، وأنها الإسلام، جعله الله الـديـن: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾(آل عمـران٨٣)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾(النسـاء١٢٥)، فكان الإسلام إذن ديانة إبراهيم، ثم ديانة إسماعيل وإسحق ويعقوب بوصية أبيهم إبراهيم، ثم بوصية يعقوب. والتذكير لليهود فى المدينة ربما يفيـد. ولم يَدْعُ محمد ﷺ إلابالتوحيد، فلماذا ينكرونه؟والشرائع قد تتباين ولكن الملة واحـدة عند كل الأنبياء، وهكذا كانت عند الآباء: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وهى كذلك عند محمد ﷺ، ومحمدٌ ﷺ إسماعيليٌ من نسل إسماعيل، فهو من النسل الكريم، والدعوة ما تزال فى سلالة إبراهيـم الذى جاء فيه قوله تعالى: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾(الأنعام١٤). وفى الحديث: «نحن معشر الأنبـياء أولاد عَلاّت، ديننا واحد» ، وأولاد عَـلاّت: بنو أمهات شتى، والعَلّة هى الضَّرّة، والجمع عَلاّت، سميت كذلك لأنها تُعَل بعد صاحبتها، والمقابل لأولاد أو بنى العَلاّت: أولاد أو بنو الأخياف، أى أمهم واحدة والآباء شتى، يقال: خَيّفت المرأة بأولادها، أى جاءت بهم أخيافاً، من آباء شتى. وقول النبىّ ﷺ: «الأنبياء أولاد عَلاّت ودينهم واحـدٌ» هو قول موجزٌ مـعجز ويلخص قضية الكلام فيهـا يطول. فلما ذكرالقرآن ليهود المدينة أصل التوحيد ثنّى فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة١٣٤)، فنبّههم إلى أن انتسابهم لأسلافهم لن ينفعهم إذا لم يُظهروا الإيمـان ويفعلوا الصـلاح، فالأسلاف أمـة، ويهود المدينة أمـة، ولكل أمة أعمالها، ولايسئلون عن أعمالهم، فما جدوى أن ينسبوا أنفسهم لإبراهيم ويعقوب دون أن يظهـروا بأعمالهم أنـهم مؤمنون؟ وفى الأمـثال: « من أبطأ به عـمله لم يسـرع به نسبـه». واليهودية والنصرانية ليستا فى الحـقيقة ملّة، كردّه تعالى عليهم فى الآية: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(البقرة: ١٣٥) ، يعنى: يا أيها اليهود والنصـارى: إن التعلّل باليهودية أو النصرانية كمنجـاة لن يفيد ما لم تكونوا على الملّة الصحيحة: ملة إبراهيم وهى الحنيفية، وماكان إبراهيم مشركاً كشرككم. فهذه إذن وصية يعقوب من بعد إبراهيم، وهى وصية محمد ﷺ من بعد الآباء.

•••

٤١٤. ﴿الحنيفية ملة إبراهيم هى الإسلام﴾

لـم تكن اليهـودية ولاالنصرانية ديانة إبراهيم كقـوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(البقرة ١٣٥)، وكان اليهودى

عبدالله بن صوريا يقول للرسول ﷺ :ما الهُدَى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد! وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله الآية، بطريقة الحوار الذى هو منهج القرآن فى التعليم والتعلّم، على شكل سؤال وجواب، والسؤال هو دعوتهم إلى اليهودية أو النصرانية، والجواب: هو دعوةٌ مضادةٌ للعودة إلى دين الآباء الذى هو ملة إبراهيم، سُمّى حنيفاً لأنه حنف إلى دين اللّه وهو الإسلام. والحنف: هو الميل، ومنه رِجْلٌ حنفاء، ورَجُلٌ أحنف، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها. والحنف إذن: هو الاستقامة، وسمّى المعوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما يقال للمهلكة: المفازة. وإبراهيم الحنيف لذلك: هو المائل عن دين الضلال إلى دين الحق؛ والحنيفية: هى الديانة التى اشتهرت منسوبة إلى إبراهيم أبى الأنبياء، وهى الإيمان بما جاء به ودعا إليه ومن سبقه وخلفه من الرسُل، من أولهم إلى آخرهم.

●●●

٤١٥. ﴿الحنيفية ديانة الفطرة﴾

يقال للمؤمن: الحنيف، والجمع حنفاء كقوله تعالى:﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(البينة٥)، أى مائلين عن الأديان كلها إلى الإسلام، والتحنُّف إلى الإسلام هو الميل إليه كقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم٣٠)، والدين الحنيف: هو فطرة الله التى فَطَر الناس عليها، وسميت الفطرة ديناً لأن الناس خُلقوا ليعبدوا الله، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات٥٦)، والعبادة ديانة، وأنت لن تعبد إلا ما تعرف، والعبادة معرفة أولاً، ومستحيل أن تعرف ذات الله،أو تعرف الله، ولكن يمكنك أن تعرف «عن» اللّه، و«عن» أوصافه، والمعرفة «عنه» تكون بتتبع مخلوقاته وإبداعاته،وباستكناه أسبابه فى الكون. «وإقامة الوجه للدين حنيفاً» يعنى أن تتوجه بجميع حواسك إلى هذه المعرفة التى هى حق، فالحنيقية ميلٌ عن الضلال إلى الحق، وهى ملّة المؤمنين.

●●●

٤١٦. ﴿صبغة الله الإسلام﴾

وفى الآية: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(البقرة١٣٨) سُمّى الدين صبغة، من حيث تظهر أعماله وسَمْتُه على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب، ومثلما يقال الدين فطرة الله، فكذلك هو صبغة الله . وصبغة فى الآية منصوبة على تقدير «اتّبعوا»أو «الزموا»، ولو قرئت بالرفع لجاز.واليهود والنصارى يولد لهم، فيصبغون

أبناءهم يهوداً أو نصارى، أى يطبّعونهم، وأما «صبغة اللّه» فهى الإسلام، لأنه دين الفطرة، فكان ابتداء الخلق بالإسلام: يستسلمون للّه. وأصل استخدام اصطلاح «صبغة» ، أن اليهود والنصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء، وهو ما يسمونه المعمودية بمختلف اللغات: **Baptismus; baptismos; baptism; baptisme;**، ثم آلت المعمودية للنصارى دون اليهود، وكان هؤلاء وهؤلاء يقولون إن المعمودية تطهير للأبناء، والنصارى يفعلون ذلك بعد سبعة أيام من الولادة، بغمس الطفل فى الماء: ماء المعمودية، فيطّهر به، فإذا فعلوا ذلك صار الطفل نصرانياً حقاً، فردّ الله تعالى ذلك بأن الماء لا يطهّر طفلاً فيجعله على دين معين، وأن الإيمان بالدين يكون فى الرشد، وجعل الإيمان فى الإسلام بنطق الشهادة لمن بلغ سن النضج، فمن أراد الإسلام فليقل: «لا إله إلا الله» فهذه هى الصبغة، وقوله لا يصح منه إلا إذا رشد وصارت له الإرادة، وأصبح له الاختيار، ومن ثم انتهت الآية بقوله: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾ (البقرة١٣٨)، حيث العبادة لاتكون إلا عن فهم ووعى ورشد، وبعد النطق بالشهادة.

●●●

٤١٧. ﴿الله تعالى سمّى المسلمين﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾(الحج٧٨): أنه تعالى سمّى المسلمين بهذا الاسم، وأجراه على لسان الأمم (الأعراف ٢١٦، والأنبياء١٠٨، والمائدة١١١، والجن ١٤)، وحتى فرعون شهد بأنه من المسلمين (الأعراف٩٠)، ودعا إبراهيم وإسماعيل ربّهما أن يجعلهما مسلمين له، ومن ذريتهما أمة مسلمة له(البقرة ١٢٨). غير أن سَبْق التسمية «بالمسلمين» كان لأمة محمد، وكان محمدﷺ «أول المسلمين»، قال: ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(الأنعام١٦٣) . ومعنى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ (الحج٧٨): أنه أعطاهم هذا الاسم قبل أية أمم أخرى، فلم يكن لأتباع أى نبىّ اسم إلا أتباع محمدﷺ، ولم يذكر أى كتاب سماوى اسماً لاتباع ديانة هذا الكتاب إلا القرآن، وقبل القرآن لم يأت ذكر لاسم أية ديانة. وفى القرآن أيضاً ورد لأول مرة اسم الإسلام: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾(آل عمران١٩).

●●●

٤١٨ ﴿الإسلام يعولم الديانة﴾

الديانة العالمية هى دعوة المسلمين والإسلام؛ وعالمية الإسلام توجزها الآية: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى**

وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة١٣٦)، والخطاب فيها **لأمة الإسلام**، يعلّمهم ربُّهم **الإيمان**، وكما فى الشعار «الدين لله»، فإن الإيمان هو التصديق بكل **الأنبياء والرسُل** الداعين إليه تعالى، وعن ابن عباس أنه جاء إلى النبىّ نفرٌ من اليهود يسألونه عمن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية **تُعَولم الدين globalizing religion**، أى تجعله واحداً وعالمياً **universal**؛ قيل: البراهمة أتباع إبراهيم؛ **والسماعله**: أتباع إسماعيل؛ **والأساحقة**: أتباع إسحق؛ **واليعاقبة أو الإسرائلة** أتباع يعقوب أو إسرائيل؛ **والموسوية** أتباع موسى؛ **والعيسوية أو النصارى** أو **المسيحيون**: أتباع المسيح عيسى الناصرى؛ فأما **أتباع محمد**: فهم الذين يؤمنون بالله، وما أُنزل إلى محمد، وإلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى وسائر النبيين، لايقدّمون أحدًا منهم على أحد، ولايعلون أحداً منهم على أحد، وهم **المسلمون** لله، ودينهم لذلك جُماع كل الديانات السابقة، ويوجزها ويحيط بها ويختمها، وهو **الإسلام**، ونقول: **إن الإسلام يُعَولِم الديانات**، أى يجعلها **ديانة واحدة، عالمية، وجامعة شاملة**، ويجعل إلهها واحداً.



٤١٩. ﴿أمة الإسلام شهداء على الناس﴾

فى الآية: **﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**(البقرة ١٤٣) أن **أمة الإسلام تتوسط الأمم**، فهى بين اليهودية التى قصّرت، وبين النصرانية التى فرّطت، ولذا كانت هى الأمة التى يمكن أن تشهد فى الآخرة على غيرها من الأمم، كما أن الرسول ﷺ يكون هو الشاهد على أمة الإسلام. وعن أنس أن النبىّ ﷺ مرّت به جنازة، فأثنى الناس على صاحبها خيراً فقال النبى ﷺ: «وجبت» ثلاث مرات؛ ثم مرّت جنازة فأثنوا على صاحبها شراً، فقال: «وجبت» ثلاث مرات، ثم قال: «**أنتم شهداء الله فى الأرض**» قالها ثلاثاً: «**مَن أثنيتم عليه خيراً وجبَت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار**»، وتلا قوله تعالى: **﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾** (البقرة ١٤٣). وقال: «**أعطيتْ أمتى ثلاثاً لم تُعطَ إلا الأنبياء: كان الله إذا بعث نبياً قال ادعنى استجب لك، وقال لهذه الأمة: ادعونى استجب لكم؛ وكان الله إذا بعث نبياً قال له: ليس عليك فى الدِّين من حرج، وقال لهذه الأمة: وما جعل عليكم فى الدِّين من حرج؛ وكان الله إذا بعث نبياً جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس**». أخرجه الترمذى. فإن كانت أمة الإسلام آخر الأمم فى المجىء إلا أنها **أول الأمم فى الأفضلية**، وكما قال

بلسانهـا النبىّ ﷺ : «**نحن الآخـرون الأولون**». والقول بشـهادة هذه **الأمـة الوسط** ، لأن **وسطيتـها** تعنى عدولهـا ، ولا تكون الشهادة إلا **للعـدول** من الناس، أى المعـروف عنهم العدل، وبإجماعهم، يعنى أن يشهد ثقات العصر ككل على من بعده من العصور ، فقول الصحابة حُجّة على التابعين، وقول التابعين حُجّة على من بعدهم، وهكذا.



٤٢٠.﴿أركان الإسلام الخمس﴾

في الحديث عند البخاري عن ابن عمر: **بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لاإله إلا الله، وأن محمداً** رسول الله، **وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج،** وصوم رمضان» وهذه **الخمس** هى الأركان، أو **الأصول**، وتستفاد من الآيات المتناثرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾(آل عمران١٨)، وقوله: ﴿**نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ**﴾(المنافقون١)، وقوله: ﴿ **قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾(إبراهيم٣١)، وقـوله: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ (البقرة٤٣)، وقوله: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾ (البقرة١٨٣)، وقوله: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾(آل عمران٩٧). والركـن **الأول** هو أهمها جـميعاً، لأن الأربعة الأخرى سواه مبنيه على الشـهادة، فلا يصحّ شىء منها إلا بعد الشهادة، ومجمـوعها غيرٌ من حيث الانفراد، وهى عينٌ من حـيث الجمع، ومثال ذلك بيت الخـيمة، يُجـعَل على خمسة أعمدة، أحدها **أوسط**، والبقية **أركان**، وما دام الأوسط قائماً فمسمى البيت موجود ولو سقط مهما سقط من الأركان ، فإذا سقط الأوسط سقط مسمى البيت، فالبيت بالنظر إلى مجموعه شىء واحد، وبالنظر إلى أفـراده أشياء، والأساس فيه يسمى **الأسّ**، وغيـر الأساس هو **الأركان**، وهى تبع وتكملة. والمراد **بالشهادة**: تصديق الرسل فيما جاءوا به، فيستلزم جميع ما ذُكر من المعتقدات، كالجهاد في سبيل اللّه، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعَمل الصالحات؛ واقتصاره على هذه الخمس من باب تسـمية الشيء ببعضه، كما تقول قرأتُ **الحمد** وتقصد الفاتحة، أو تقول: **شهدت بمحمد** وتريد جميع ما ذكر. **وإقامة الصلاة** تعنى المداومة عليها، أو مطلق الإتيان بها؛ **وإيتاء الزكاة** إخراج جزء من المال على الوجه المخصوص لذلك؛ **والحج**: قُدّم في الحديث على **الصوم**، وعند مسلم **قُدّم** الصوم على الحج، ولما قال رجلٌ لابن عمر: والحج وصـيام رمضان، قال له: لا، «**صيام رمـضان والحج**»، هكذا سمعتُ رسول الله ﷺ.

والخلاصـة: أن الحديث يخصص عموم مفـهوم السُّنّة بخصوص منطوق القرآن، فمن يباشر ما عدّده الحديث فإسلامه صـحيح، ومن لم يباشره لم يصحّ إسلامه، وهذا العموم

مخصوص بقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم**﴾(الطور٢١)، وبقوله: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ**﴾ (آل عمران٣٤).

●●●

٤٢١. ﴿الإسلام: أيُّه أفضلُ؟ وأيُّهُ خيرٌ؟﴾

فى الحديث عن ابن عـمرو أن النبّى ﷺ قال: «**المسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر مَن هَجَر ما نهى الله عنه**» رواه البخـارى، وقيل **الألف واللام** فى المسلم: للكمال، كقولنا: «**زيد الرجل**» أى الكامل الرجولة. وفى الحديث: أن من يسلم الناس من لسانه ويده ـ مع مراعاة باقى أركان الإسلام ـ فهو من أفضل المسلمين؛ أو أن من علامات المسلم التى يستدل بها على إسلامه أن يسلم الناس من لسانه ويده؛ أو أن الحديث تنبيه إلى أن من يُحسن التعامل مع اللّه فأولى به أن يُحسن معاملة الناس. والحديث يخصّ المسلمين بهذه المعاملة الكريمة من المسلم، لأنه وقت الرسول كان الكفار يؤذون المسلمين ولم يكفّوا عن إيذائهم، فقصر القول على المسلمين دونهم، وفى غير ذلك فإن **الحديث عام ويشمل الناس جميعاً** ومنهم المسلمون. والإتيان **بجمع التذكير** فى الحديث لاينفى شموله **للمسلمات وللنسـاء جميعاً**، وليس اقتصاره على جمع التـذكير إلا للتغليب، حيث الذكور أكثر من الإناث دائماً. واختصاص **اللسان** بالذكر لأنه المعبّر عمّا فى النفس، وكذلك **اليد** دون بقية الجوارح لأن أكثر الأفـعال بها. **واللسـان** يقول فى الماضين والموجودين والحادثين؛ **واليـد** تشارك اللسان بالكتابة؛ وقـد يضرب بها صاحبها دفاعـاً عن نفسه أو زوداً عن حق؛ وقد يخرج المرء لسانه دون القول استهزاء؛ ومن معانى اليد المعنوية الاستيلاء على حق الغير.

وفى معنى «**المسلم المهاجر**» أن الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، **فالباطنة** هى ترك ما تدعو إليه النفس الأمّارة بالسوء، **والظاهرة** هى أن يفر المرء بدينه فرار المسلمين الذى هاجروا من مكة إلى المدينة، أو فرارهم عـموماً بدينهم من الفتن أياً كانت. والحـديث ينبّه إلى أن حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه. وفى رواية أخرى عند ابن حبان: «**المهاجر من هجر السيئات، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده**»، والمراد «**بالناس**» هنا كل الناس، مسلمين وغيرهم، وإنْ كان الإطلاق يُحمَل عادةً على الكامل وهم المسلمون، لأن الكمال فيهم، والأوْلى أن يُحمَل المعنى على العموم.

وفى رواية أخرى للحـديث عند البخارى ومـسلم عن أبى موسى، وعن أبى ذر عند ابن حبّان، قال: قالوا: يـارسول الله ـ أىُّ الإسلام أفضل؟ قال: «**مَن سَلِم المسـلمـون من لسـانه ويده**»، فبحـسب الجواب فإن سؤالهم كان: أى المسلمـين أفضل؟ لأنه فى الإسلام

يتفاضل الناس، وأعلاهم مرتبة مَن كان محسناً، كقوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾** (النساء١٢٥)، و«ديناً» يعنى إسلاماً، والجواب على هذه الآية يأتى فى الآية الأخرى، تقول: **﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾** (البقرة١١٢)، و«**الوجه**» هو الذات، وإسلامها هو درجة **الإحسان** بعينها، وهى أرفع درجات الإسلام، وصاحبها هو الأفضل، ومن أولى خصاله: **أن يسلم المسلمون من لسانه ويده.**

وفى رواية أخرى عن عبدالله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ سُئل: أى الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفتَ ومَن لم تعرف**»، وتلك خصال من خصال المسلم، ويرتبط الحديثان: **حديث سلامة اليد واللسان، وحديث إطعام الطعام وإفشاء السلام،** فالطعام يستلزم سلامة اليد، والسلام يستلزم سلامة اللسان. وكان السؤال عن الأفضل أو عن الخير بحسب موضوع السؤال، **فالفضل** معناه كثرة الثواب فى مقابلة القلّة، والخير بمعنى النفع فى مقابلة الشر، والأول من الكمية، والثانى من **الكيفية**، ولذا اختلف السؤالان. ويدخل فى الإطعام الضيافة وغيرها.



٤٢٢.﴿المسلم: من هو؟﴾

الذين يقولون إن المسلم هو من يُظهر الإسلام وإنْ لم يُعلَم باطنه يحتجّون بالآية: **﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾**(الحجرات١٤)، فلايكون مؤمناً بمجرد أن ينطق الشهادتين، لأنه لم تصدق عليه **الحقيقة الشرعية**، لأن الأولى إطلاق اسم المسلم لا المؤمن على من لم يختَبر حالهُ خبرةً باطنة، وما يُعلَم به الإسلام هو الظاهر وليس الباطن، والمرء يُحكم بإسلامه ويسمَّى **مسلماً إذا تلفّظ بكلمة الشهادة، ولايُسمّى مؤمناً إلا بالعمل،** والعمل يشمل عمل القلب واللسان والجوارح، ولا يدل من كل ذلك على صدقه إلا عمل الجوارح لأنه العمل الظاهر.

والذين يقولون **الإسلام قول وعمل،** يحتجون بالآية : **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**(فصلت٣٣)، والدعوة إلى اللّه من العمل، والمسلم داعية إلى الله، ودعوته إليه بالدعوة إلى الإسلام: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾**(آل عمران١٩)، **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾** (آل عمران٨٥)، والإسلام هو أن يُسلم المرء ذاته لله: **﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾**(آل عمران ٢٠)، وإسلام الوجه لأن الوجه تعبيّر عن سائر الذات، ولأنه أشرف الأعضاء وأجمعها للحواس،

والشاعر يقول:

أسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ .·. له المُزنُ تحمل عَذْباً زُلالا

وكذلك إسلام الصدر، كقوله: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾(الأنعام١٢٥) فدليل إسلام المسلم هو تلك الهداية تظهر على الوجه، وذلك الانشراح يملأ الصدر. ولمّا سُئل النبىّ ﷺ: وهل ينشرح الصدر؟ قال: «**نعم، يدخل القلب نورٌ**» وهو معنى الآية: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ (الزمر ٢٢)، ونقيض ذلك القاسية قلوبهم، كقوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (الزمر٢٢)، وسأل ابن مسعود الرسول ﷺ: كيف ينشرح الصدر ؟ قال: «**إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح**». فقال ابن مسعود: وما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**» ، فهذه خصال ثلاث فى المسلم، مَن كانت فيه فهو الكامل الإسلام. ومن لم ينشرح قلبه للإسلام فهو قاسى القلب من نوع أبى لهب، وليس أعظم عقوبة للإنسان من أن يكون قاسى القلب! وما غضب الله على قوم كغضبه على اليهود إلا لأنهم نزعوا الرحمة من قلوبهم فراحوا يظلمون ويكذبون، كقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾(الصف).

●●●

٤٢٣.﴿حُسن الإسلام﴾

فى الحديث: «**إذا أسلم العبد فحَسُن إسلامه...**» ، وحُسن الإسلام يعنى حُسن الاعتقاد وإخلاصه، ودخول المسلم فيه بالباطن والظاهر، وأن يستحضر عند عمله قُرب ربّه منه واطّلاعه عليه، لقوله تعالى: ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ** ﴾(الإسراء٧) أى نَفْعُ إسلامهم وحُسنه يعود عليهم، كقوله: ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾(آل عمران١٧٢)، وقوله: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(المائدة ٩٣)، والإسلام مراتب، ومرتبة المحسن هى الأفضل، لأن المحسن يتميز بعمل الصالحات وتقوى الله ولذلك يفضّله الله بأجر الإحسان، وفى الحديث «**الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**».

●●●

٤٢٤.﴿هل كلمة «مسلم» من «مسيلمة»؟﴾

الغيْرة من الإسلام، والحقد على المسلمين، هما أكثر ما يظهر من المستشرقين من الصفات

النفسية، ومن هؤلاء مرجليوث **Margoliouth** الإنجليزى، وهو يهودى متنطّع يتمسح فى البروتستانتية، وحقيقة اسمه **دافيد صمويل مرجليوث**، وانطلى زيفه على العرب والمسلمين حتى أنهم عيّنوه عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق، وكان عضواً بالمجمع اللغوى البريطانى، وجمعية المستشرقين الألمانية، ومولده سنة ١٨٥٨ ووفاته سنة ١٩٤٠، وكان رئيساً لتحرير مجلة الجمعية الآسيوية الإنجليزية، وأستاذاً للعربية بجامعة أكسفورد، ونشر بحوثاً وكتباً بالإنجليزية والعربية عن الإسلام والمسلمين واللغة العربية استبان فيها تحامله على الإسلام وكراهيته للمسلمين وآدابهم، وفضحه جهله، ومن ذلك ادّعاؤه أن كلمة «مسلم» يرجع الفضل فيها **لمسيلمة الكذّاب**، فلقد كان أتباع مسيلمة يسمون مسلمين! هذا هو ما يدّعيه ولم يسبقه إليه أحد قبله! ومسيلمة هذا قتله **خالد بن الوليد** سنة ١٢ هـ فى خلافة أبى بكر، وكان متنبئاً من المعمرين، والعرب تتمثل به فى الكذب فتقول «**أكذب من مسيلمة**»، **ومرجليوث** كان أكذب من مسيلمة! وكان مسيلمة يدّعى النبوة قبل الإسلام، ولمّا بُعث النبىّ ﷺ كان مسيلمة يضاهىء القرآن ويضع أسجاعاً على منواله، والذى دعا مرجليوث إلى هذه الفرية أن **مسيلمة** كان هذا هو لقبه، وكان اسمه **مسلمة** وصغّره المسلمون **مسيلمة** تحقيراً لشأنه ووضعاً لحاله، فقد كان ضئيل الجسم، وقالوا فى وضعه: كان رويجلاً، أُصيغر، أُخَينس. والدليل على أن اسمه الحقيقى مسلمة أن **عمارة بن عقيل** أنشد فيه:

أكان مَسلمة الكذّاب قال لكم ... لن تدركوا المجد حتى تُغضبوا مُضراً

ومن كلمة «مسيلمة» أو بالأصح «مسلمة» ادّعى مرجليوث أن أتباعه اسمهم «المسلمون»، والواحد «المسلم»، ففضح جهله وعرّى نواياه، لأن النسبة من **مسيلمة** هى **مسيلمى**، ومن مسلمة مسلمى، والجمع **المسيلميون والمسلميون**، وليس المسلم، والمسلمين! وهو شىء لايمكن أن يخطىء فيه تلميذ يدرس **النسبة** من **النحو العربى**، فما بالك بهذا العظيم من عظماء المستشرقين وهو يدلّس على العرب وعلى إخوانه من الدارسين ليوهمهم بأن محمداً ﷺ سرق الاسم من آخر كانت دعوته أسبق من دعوة النبىّ ﷺ! فهل كان تدليسه هذا عن جهل، أو كان متعمداً يغالط به! وكلمة «مسلم» من الإسلام وليست من مسيلمة أو مسلمة، وفى القرآن: ﴿ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ (الحج٧٨)، يعنى الله سمّاكم المسلمين، «**ومن قبل**»- أى من وقت إبراهيم عليه السلام، كقوله: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾(البقرة ١٣١)، وبناءً عليه قال النبىّ ﷺ فيما أمره ربّه: ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا**

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام)، فلخّص معنى الإسلام، وفارق بين دعوة يدعو إليها مسيلمة الكذّاب ويوجزها فى كتاب إلى رسول اللّه ﷺ، يقول: «**من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد فإنى قد أُشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون**»، فرغم أنه يدّعى الإيمان بالله وأنه مرسل من لدنه، إلا أنه يطالب بالشراكة مع الرسول ﷺ فى الأمر، وأن يقتسما فيما بينهما الأرض، فيكون لمسيلمة نصفها ولمحمد ﷺ نصفها، **فهى إذن دعوة دنيا ومُلك** وليست دعوة لله تعالى، فانظر بما أجابه رسول الله ﷺ، قال: **من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب. السلام على من اتبعّ الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين**»، فكان ردّه ﷺ أن دعاه للإيمان ولله، وشرط له السلام بأن يكون على الهدى، وذكّره بأن الأرض يرثها الله تعالى ويُعقبها للمتقين! فكان كما قال له ربّه فى القرآن: **﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(الأنعام٧١)، **وإسلام المسلمين لربّ العالمين**: بإخلاص العبادة له وحده لاشريك له. **ودعوة إبراهيم ـ قبل** مسيلمة الكذّاب، وقبل رسول الله ﷺ: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾** (البقرة:١٣٨). وكلمة «الإسلام» تأتى فى القرآن **ثمانى** مرات، وكلمة «مسلم» مرتين، وكلمة «مسلمون» **خمس عشرة** مرة، وكلمة «مسلمين» **إحدى وعشرين** مرة، وكلمة «**مسلمات** »مرتين، وإذن فهى من **الكلمات الأصول**، ولم يخترعها لنا مسيلمة الكذّاب ولامرجليوث اليهودى، فتأمّل ذلك أيها المسلم واحفظه عن ربّك، واسمنا هو «**المسلمون**»، أسمّانا به اللّه تعالى وليس مسيلمة ولا مرجليوث اليهودى!!

●●●

٤٢٥.﴿الإسلام ليس دين محمد ﷺ وحده﴾

يقول تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** (آل عمران١٩)، فمن يظن أن الإسلام هو دينٌ دعا إليه محمد ﷺ وحده فهو مخطىء، وفى هذه الآية يخبر اللّه تعالى: «**أنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتّباع الرسُل جميعاً فيما بعثهم الله به فى كل حين**، حتى خُتموا بمحمد ﷺ. والإسلام هو عنوان كل الرسالات منذ بدء الخليقة حتى اليوم، فما يوجد إنسان **يُسلم وجهه لله** إلا وسُمّى **مسلماً**، وما اختلاف الديانات إلا كما قال تعالى: **﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾**(آل عمران: ١٩)، أى ما اختلفت الديانات إلا لمّا اختلفوا فى الحق وبغوا على بعضهم البعض، فتحاسدوا

وتباغضوا: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(الروم٣٢)، وعندئذ قالت اليهود: ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾(البقرة ١١٣)، يعنى كذّبوا بعضهم البعض وجاءوا بآيات من كتُب بعضهم البعض يكذّب كل منهما الآخر، فاليهود كفروا بعيسى مع أن عندهم التوراة وفيها البشارة بعيسى، والنصارى كفروا بالتوراة مع أن الأناجيل فيها التصديق بها، وكلاهما يعلم ما أتت به التوراة والأناجيل وأن لا تخالُف بينها، ومع ذلك تجاحدوا فيما بينهم، عناداً وكفراً ومقابلةً للفاسد بالفاسد: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥)، فالذى ينبغى أن يكون الأمر عليه هو الدعوة فقط للإسلام، فلا يهودية ولانصرانية، فكلاهما فكر اليهود أو فكرالنصارى، والدعوة بخلاف الفكر، فالدعوة لله، والفكر للبشر؛ ومضمون الدعوة أن لا إله إلا الله، فهذا معنى الإسلام الذى كان ينبغى أن يدين الناس به، وأن يقرّوا به جميعاً منذ آدم وحتى إبراهيم وما بعده: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة ١٣١)، فكانت وصيته الإسلام للكافة من بعده: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(البقرة ١٣٢)، و«بها» أى بكلمة «لا إله إلا الله»، فماكان إبراهيم : ﴿يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(آل عمران٦٧). والحنيف المسلم: هو المتحنّف عن الشرك المستمسك بالإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة ١٣٠) ويسفّه نفسه أى يظلمها، وملة إبراهيم هى قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة١٣١)، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾(الزخرف٢٨) أى إسلامه لله، جعله شهادة دائمة فى ذريته، واصطلاح الإسلام جاء من ذلك: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج٧٨)، والضمير عائد إما على إبراهيم بقوله «أسلمتُ لرب العالمين»، وإما إلى الله تعالى بأن أطلق على المؤمنين بهذا الدين اسم المسلمين. ومع ذلك لم يظهر الاسم جلياً صريحاً إلا فى دعوة محمد ﷺ، فكان أول من نبّه إلى اسم الإسلام لمسمى الدين، قال: ﴿ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام)، فكان محمدﷺ وليس غيره، يدعو ويقول: «أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص وملة أبينا إبراهيم وما كان من المشركين» فلما سألوه عن الإسلام الذى هو ملّة إبراهيم، قال فى التعريف به: «الحنيفية السمحة». وكلمة الإخلاص فى الحديث هى «لا إله إلا الله»، «والحنيفية السمحة» هى التحانف عن الشرك كما قلنا، ووَصْف هذه الملّة بأنها

سمحة، يعني لاتعصُّب ولاتزمُّت فيها كالذى عند اليهود والنصارى. والإسلام هو الوسطية، وأمة الإسلام هى **الأمة الوسط**، كقوله تعالى: **﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** (البقرة ١٤٣)، فهى **الأمة السمحة التى تتوسط** بين إفراط اليهودية وتفريط النصرانية، **والوسط** في الفلسفة هو الخيار والأجود؛ وفى الشهادة **الوسط** هو العدل، فلأن الإسلام هو هذه الحنيفية السمحة كان أهله هم **أهل الشهادة على الأمم**.

والخلاصة: أن الإسلام هو العنوان الكبير لكل الديانات التى تدعو إلى الله بالحقّ، فمن كانت تلك دعوته **فهو** مسلم، ولذا جاء فى القرآن عن التوراة قبل تحريفها: **﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾** (المائدة٤٤)، فقال فيها قولاً حسناً، وجاء كذلك عن الإنجيل قبل أن يعبث به الرواة والكاتبون: **﴿الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾** (المائدة ٤٦)، فساوى بين التوراة والإنجيل، وجعل فيهما الهداية لليهود والنصارى، وجعلهما نوراً يستضيئون بهما ويمشون على هديهما، ولكن المشكلة أنهما ما عملا بالتوراة والإنجيل، ولذا قال لهم: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾**(المائدة ٦٨)، وقال: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** (المائدة ٦٦)، ولولا ذلك ما أنزل القرآن ولابعث محمداً ﷺ. فلمّا بعثه قال فى الكتُب الثلاثة: **﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾**(التوبة١١١) فقرن بينها؛ وساوى بين دعواتها، فهى جميعاً نسخاً من أصل واحد هو **الإسلام**، وهو الدين الذى يدعو إلى الله: **﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**(الأنبياء٢٥)، وفى الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت، ديننا واحد**»، يعنى أن الدين عند جميع الأنبياء هو الإسلام، وهو الدعوة إلى الله، وإن اختلفت الشرائع وتنوعت المناهج» والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٤٢٦. ﴿الإسلام يئس منه أعداؤه﴾

الآية: **﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾**(المائدة٣) نزلت حين فتح الرسول ﷺ مكة **لثمان** بقين من رمضان سنة **تسع** أو **ثمان**، ونادى فيها مناديه: «**من قال لا إله إلا الله فهو آمن؛ ومن وضع السلاح فهو آمن؛ ومن أغلق بابه فهو آمن**»، وحينئذ استشعر أعداء الإسلام **اليأس** من أن يتحول المسلمون عن دينهم، أو يداخلهم إزاءه الشك كما يتمنون، ومنذ البداية كانت تلك أمنيتهم، وذلك هدفهم، فعملوا على أن لايكون المسلمون على ثقة من أسرهم، فى أيّ من شئون دينهم، وما تزال تلك غايتهم من منافحاتهم المستمرة، ومنازعاتهم الدائبة مع المسلمين، وأخصهم «**المستشرقون**»، سواء من

الأوروبيين وغيرهم من أهل الكتاب، أو المستغربين من العرب والمسلمين من أهل النفاق، الذين نهلوا من الثقافات الغربية، وتركوا ثقافتهم وهويتهم العربية والإسلامية ومن هؤلاء أصحاب دعاوى **العلمانية والعولمة والتنوير والعقلانية**. وترتب يأس هؤلاء منذ عهد الرسول ﷺ، من إصرار المسلمين على طريقتهم. واليأس فيه لغتان، تقول يئس وييأس يأساً، كما تقول أيس ويأيس إياساً. وهم قد يأسوا أو أيسوا من أن يُغروا المسلمين أن يرجعوا عن دينهم، وأن يتركوا طريقتهم. وفى الحديث فى الصحيح: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم**»، وخصّ المصلين لأن الصلاة هى خصيصة المسلمين الأولى وطريقتهم المثلى فى دينهم، وقد عمّ الإسلام الجزيرة العربية، أو بالأحرى المعمورة، فحيثما كانت للصلاة قائمة كان يأس أعداء الإسلام أن يحوّلوا المسلمين عن دينهم، فلم يبق لهم إلا أن يحرّشوا بينهم، ويؤلّبوهم على بعضهم البعض، يقال حرّش بين القوم، يعنى أغرى بعضهم ببعض، لهذا كان أمره تعالى للمؤمنين بالصبر والثبات، وأن لايداخلهم الخوف من أعداء الإسلام، كقوله: «**فلاتخشوهم واخشون**» (المائدة٣)، أى لاتخافوهم فى مخالفتكم إياهم، واخشونى انصركم عليهم، وأؤيدكم، وأُظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم فى الدنيا والآخرة، قال: **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** (القصص٦)، وقال: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾** (الأعراف١٣٧)، وقال: **﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾** (الأحزاب٢٧).

●●●

٤٢٧. ﴿المسلم لا يكفَّر إلا بالشرك﴾

القرآن والحديث واضحان فى ذلك تمام الوضوح، فاللّه تعالى يقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾**(النساء٤٨). وفى الرواية عند الطبرى: أن النبىّ ﷺ تلا: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾** (الزمر٥٣) فقال له رجل: يارسول الله! والشرك؟ فنزل: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** (النساء٤٨)، والآية من المحكم الذى لا اختلاف فيه، **والذنوب** من أمور الجاهلية، ولايُكفَّر صاحبها بارتكابها إلا **بالشرك**، ومن ذلك قول النبىّ ﷺ لأبى ذرّ لمّا عيّر الرجل بأمه: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»، لأن ما فعله، من الذنوب، **والذنب** يتأتىّ: مِنَ تَرْكِ واجبٍ أو القيام بِفعْلٍ مُحرَّم. والذنوب من أخلاق الجاهلية، **والشرك** أكبر الذنوب، ولهذا استثناه، فقال: **﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن**

يشاء﴾ فيجعل ما دون الشرك تحت إمكان المغفرة، وفى مشيئة اللّه ـ إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه. والشرك أخصّ من الكفر، وقد ميّز اللّه تعالى بينهما فقال: **﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾**(البينة١)، ومَن بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لايخرج عن الإيمان، سواء كانت من الصغائر أم الكبائر. والمؤمن إذا ارتكب ذنباً لايُكفَّر، وقد أبقى الله عليه اسم المؤمن. فقال: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾** (الحجرات:٩)، ثم قال: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾**(الحجرات ١٠) . وفى الحديث: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما**» فسمّاهما مسلمين وإن توعدهما بالنار. وقوله ﷺ **لأبى ذرّ**: «**فيك جاهلية**»، أى **خصلة جاهلية** . مع أن أبا ذر كان فى الإيمان فى الذروة، ولكنه حذّره، لأن وقوع ذلك من مثله يُستعظَم أكثر ممن هم دونه.

●●●

٤٢٨. ﴿المرتد عن الإسلام﴾

الارتداد عن الإسلام: هو الرجوع عنه إلى غيره. **وأهل الردّة** كانوا بعد موت النبىّ ﷺ ، **وآيات الردة فيها إعجاز، لأنها أخبرت عن شىء لم يكن قد وقع بعد أثناء حياته**، فكان ذلك إخباراً عن غيب. والذين ارتدوا قسمان: قسمٌ نبذ الشريعة كلها وخرج عنها، وقسمٌ نبذ وجوب الزكاة وعمل بغيرها من أركان الإسلام، وقالوا: نصوم، ونصلى، ونحج، ولا نزكّى. فقاتلهم أبو بكر جميعاً، وقيل لم يكن على أبى بكر أن يقاتلهم، لأنه **لا إكراه فى الدين**. والمرتد ـ فى التحليل النفسى الإسلامى إنسان **مضطرب الوجدان** ، لا هو مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، **ويتوجه همّ اليهود والنصارى إلى أن يردّوا عن المسلمين دينهم بالكلية**. وقام **التبشير الكاثوليكى** بدءاً من سنة ١٦٣٤ بأكبر **عملية غزو فكرى** لعقول المسلمين البسطاء، بهدف أن ينبذ المسلمون شهادة: «**لاإله إلا اللّه**» ويقرّوا بدلاً من ذلك بأن **المسيح ابن اللّه**، وينشط اليهود، وتحتال مخابرات الأطلنطى ومخابرات أمريكا إلى إلغاء دراسة الدين فى المدارس، وإغلاق المعاهد الدينية، والقرآن سبق إلى توصيف هذه الحالة **بأنها اضطهاد دينى**، فقال: **﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾**(البقرة ١٢٠)، وقال: **﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**(البقرة٢١٧). والمرتد عن دينه بحسب الإسلام، يحبط عمله أى يفسد، لتشوّش تفكيره وعدم استقرار انفعالاته، والحَبط: هو الفساد يلحق بكل شىء حتى يقضى عليه، والآية تحضّ المسلمين ليثبُتوا على الإسلام، وتهدد من ينتوى الردّة. وقيل:

المرتد يُستتاب فإن لم يتب يقتل، وليس فى الآية من ذلك شىء، بل فيها أن يظل حياً إلى أن يحاسبه الله. وقيل: المرتد يعامل كالحربى وليس كواحد من أهل الذمة، فإنما جُعلت للذمى الذمة على الدين، والمرتد لم يعد صاحب دين، فلا هو صار يهودياً حقاً، ولانصرانياً صحيحاً، ولامسلماً مؤمناً. والمرتدة: تُعامل نفس المعاملة. ومن قال إن المرتد يُقتل لم يقل وتقتل المرتدة. والنساء والصبيان منهىٌ عن قتلهم أصلاً فى الإسلام، وقوله ﷺ: «لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كُفرٌ بعد إيمان...» الحديث، لايعنى أن قتله لارتداده وإنما لأنه صار من الأعداء، فطالما هو كافر سيكيد للمسلمين، وسيحاول أن يوقع بهم. وقد يرتد المسلم، ثم يعود إلى الإسلام. وقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(الزمر٥٦) خطابٌ للنبى ﷺ، والمراد أمّته، لأنه يستحيل منه الردة شرعاً. والآية فيها تغليظ على الأمّة وبيانٌ أن النبىّ ﷺ على شرف منزلته، لو أشرك لحبط عمله، فكيف بقية الناس؟! وفى هؤلاء قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾(محمد٢٥)، والمقصود بهم المنافقون، فلا يحبط عمله إلا المنافق، ولايرتد عن دينه إلا منافق، وهؤلاء زينّت لهم نفوسهم المريضة أن يناقضوا أنفسهم، ومدّ لهم الشيطان فى الأمل. وتُمنّى جماعات التبشير من يرتد من المسلمين فى بنجلاديش وفى أفغانستان، وفى مثل ذلك كانت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة٥٤)، فكأن الآية إرهاصٌ وبشارة بما حدث من بعد النبىّ ﷺ لما ارتدّ المرتدّون، فقد جىء بقوم آخرين أسلموا خير إسلام، قيل هم أهل اليمن والأشعريون، فجاهدوا وفتحوا الفتوح، ووصفتهم الآية أنهم أذلة على المؤمنين وأعزّة على الكافرين، يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهم ويلينون لهم؛ ويغلظون على الكافرين ويعادونهم، . وما من مرة ارتدّ فيها مرتدّون عن الإسلام إلا ودخل الإسلام آخرون كانوا أفضل وأحسن ، وصفهم ربّهم فقال: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح٢٩) ، وأبرز ما يَسِمهم هو حبُّهم للجهاد وحرصهم عليه، لايخافون فيه لومة لائم، بخلاف المرتد المنافق الذى يخاف الدوائر ويطمع فى الدنيا.

●●●

٤٢٩. ﴿الإسلام يهدم ما قبله﴾

الحديث: «أما علمتَ أن الإسلام يهدم ماكان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ماكان قبله»؟ رواه مسلم، يفسّر الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ

وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾(الأنفال٣٨)، وفيها يأمر الله تعالى نبيهّ ﷺ أن يقول للكفّار هذا المعنى بذات العبارة أو بغيرها، ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم فى الدين، وأدْعَى إلى قبولهم لكلمة الإسلام. ولو علموا أنهم يُؤاخذون على ما كان منهم فى وقت كفرهم لما تابوا ولا أسلموا. والقرآن على التيسير لمصلحة الناس، ومقولة اللّه تعالى: أن التنفير مفسده للخليقة. ولمّا جاء إلى ابن عباس رجل لم يحدثه أنه قَتَل أحدًا، ولكنه سأله: هل لقاتل من توبه؟ فقال له: «لاتوبه له» ـ يخوّفه تحذيراً: فلمّا جاءه مَن قتل نفساً وسأله: هل لقاتل من توبة؟ قال له ابن عباس: أجل لك توبة، قال ذلك تيسيراً وتأليفاً.

•••

٤٣٠.﴿أول من أظهر الإسلام سبعة﴾

ومعنى «أظهروا الإسلام» جاهروا به وأعلنوه. والمسلمون كُثُر، وتجاوزوا الآن المليار، ولكل شىء بداية، وفى بداية الإسلام كان عدد الذين أضمروا الإسلام قليلاً جداً، ومع ذلك فإنهم كانوا أكثر ممن آمنوا بموسى أو بعيسى فى بداية الدعوة، ويذكر التاريخ أن المسلمين الأوائل ممن جمعوا بين الإيمان والإسلام كانوا سبعة، هم: رسول الله ﷺ ، وأبو بكر، وبلال، وخبّاب، وصُهَيْب، وعَمّار، وسُمَيّة أم عمّار، فهؤلاء هم الأوائل المؤسسون، وكانوا مؤمنين ومسلمين.

•••

انتهى الباب الثالث بحمد اللّه ومنّته، ويليه الباب الرابع «الإسرائيليات»

•••

«الباب الرابع»

٤٣١ .«الإسرائيليات والشبهات والإشكالات»

●●●

الإسرائيليات: ما المقصود بها ؟ ومن هم واضعوها ؟ وهل أضرّت بالإسلام أم أنها أثرته ؟ وهل هي مباحة ومسموح بها ؟

والإسرائيليات مفردها **إسرائيلية** ، وهي الخبر يُروىَ عن مصدر **إسرائيلي**، والنسبة إلى «**إسرائيل**» المشهور باسم «**يعقوب بن إسحق بن إبراهيم**»، والإسرائيليون يُنسَبون إليه ، وتُنسَب إليه مختلف الأقوال التي أدخلها المسلمون وغير المسلمين في الإسلام، عن مصادر أو مزاعم يهودية أو نصرانية، حيث أن كتُب «**العهد القديم**» هي المرجع لكل ما استدخله اليهود والنصارى على السواء . واشتهر عند الغيورين من الإسلاميين أن يطلقوا على جميع ما يُستدخل من أفكار أو حوادث أو روايات يدسّها اليهود أو النصارى اسم **الإسرائيليات**، ودأبت الكتُب التي تناقش الإسرائيليات على أن تمايز بين ما كان منها صحيحٌ **في إسناده ومتنه**، وما كان ضعيفاً. ولكننا وقد تعلمنا اللغات ومنها العبرية، وصارت لها كليات يتخرّج منها المئات من الطلبة والطالبات سنوياً، قد رجعنا إلى كتب التوراة والأناجيل فما وجدنا مما يُنسب إليها أنه صحيح الإسناد أو المتن، أنه صحيح فعلاً، ومن ذلك الكتُب الثقات **كالبخاري** ، وفيه مثلاً عن الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥)**﴾(الأحزاب٤٥) أنها في التوراة: «**يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق،ولا يدفع السيئة بالسيئة،ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً**» ـ ولا يوجد من ذلك شيء البتة في التوراة!! وحتى ما ذُكر في أشعيا (٤٢/ ١ ـ ٤) بعيدٌ كل البُعد! والحديث من الإسرائيليات، لأنه يحيل إلى التوراة حتى لو كانت إحالته زائفة.

ومثال آخر عن **الإسرائيليات ضعيفة الإسناد أو المتن**، هذا الحديث،رواه **ابن كثير** عن **كعب الأحبار** وأبدى موافقته عليه: **أن الملائكة اختاروا منهم اثنين ليهبطا إلى الأرض يرصدان ما يأتي البشر من الذنوب، فاختاروا «هاروت وماروت» ، وحذّروهما أن لايزنيا ولايشربا الخمر ولايشركا بالله. فما أمسيا من يومهما الذي أُهبطا فيه حتى كانا قد ارتكبا كل ذلك!** ـ وانتقد الكثيرون الإسرائيليات لمخالفتها للعقل ، وما كان أحرى بالمسلمين أن يعرضوا كل ما يُقال على العقل أولاً، بدلاً من الاكتفاء بتوثيقه عن طريق العنعنة والنقل عن الرواة الموثوقين.

وبعض هذه الإسرائيليات يتوافق مع الشـريعة ولكنه مع ذلك منحول وليس من التوراة في شيء، وبعضها مخالف للشريعة كالحديث عن الزانى والزانية، وما قال به عبدالله بن سلاّم، وتأكيده على آية الرجم، مما ترتب عليه أن وُضعت أحاديث في الرجم، والرجم يخلو منه القـرآن،وليس من الإسلام فى شيء. وما كان من المعـقول أن يرد عن جلد الزانى والزانية في القرآن ولايرد الرجم، فالأوْلى والأهم أن يأتى عن الرجم لا عن الجلد!

وبعض هذه الإسرائيليات فـيه تنطّع ولافائدة منه إطلاقاً، كالقـول فى أسماء أهـــل الكهف، وعددهم، واسم كلبهم، أو القول في اسم الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، والإدعاء بأن الله عاقبه، بأن أدخل بعوضة في منخرة ثم خياشـيمه ودماغه، فصارت ترف بأجنحتها فيه فيتعذّب أشد العذاب!

وإنما نحن في زمـاننا هذا ومنذ ابن حـــزم وغيره، لدينـا ما يسمى «علم المقــارنة بين الأديان»، فنعرض النصوص عندنا وعندهم لنرى أيهما الأفضل أوالأولى بالاتّباع وما تحصّل من تطور فى الفكر والتطبيق. وليس ذلك ضمن ما اصطلحوا عليه باسم الإسرائيليات التى هي مُـستـدخلات في الإســلام، عن طريق يهود أو نصـارى أو زنادقة أو رواه مـدلّسين، أسلموا أو لم يسلموا، وأذاعها عنهم مسلمون، كـما كان الصوفية يفعلون، وهؤلاء نشروا عن أنبياء اليهود والنصارى وأحبارهما حكايات، يمـكن الموافقة عليها والقبول بها،لو كانت ضمن باب الحِكَم والأمثـال، والتربية الأخلاقية، أو غيـر ذلك من الموضوعات، مما يوسّع الأفق ويزيد المعارف؛ أما إنْ كانت تفسيراً للقرآن، أو أن تُنسب إلى الرسول ﷺ، فهذا هو المرفوض، فلم تـكن الإسرائيليات مـرجعيـات دينية ولاتاريخيـة ولا علميـة، ولكنها مدلّسات وخـرافات، بعضها كتُب اليـهود، وبعضها لا أصل له سوى شـروح اليهود على كُتُبهم ثم استدخلت فى الإســلام. ومما نُسب إلى الرسول ﷺ أو الصحابة، أحاديث أو خرافـات الدجّال الأعور، ورجوع المسـيح، والمعركة الوهمية التي سيقـودها، وحكومته العادلة، وألفـيّتــه الموعـودة، فذلك تراث يهـودى ونصراني محض وليـست له أصول إسلامـية من العقيدة، ولم يتنزّل به القرآن، ولو كان صحيحاً لكان الأولى أن يتنزّل به بدلاً من كثير من القصص الأقل أهمية فى القرآن.

وساعـد على نشر الإسرائيليـات أن المجتمع العربـى أو الإسلامى كان قريب العـهد بالإسلام، والأقرب إلى ذهنه أن يتقبّل ما يُروىَ له مما يعرف من سالف عقائده باعتباره من عقائد الإسلام. وقد كانت العرب أُمّة أُميّـة، ولم تُؤخذ بالتربية الناقدة التى تتعلم منها أن تمايز بين الأشياء، وتمحّص الوقائع، وتختبر الكلام، وتنحىّ الزائف المنتحل منه، فذلك ما

روّج للإسرائيليات، و بعض الذنب يقع على العرب والمسلمين، وكل الذنب يقع على المُغرضين من أصحاب هاتين الديانتين اليهودية والنصرانية الذين غرروا بالمسلمين .

ولقد آن الأوان أن يشمّر المسلمون عن سواعدهم ويغربلوا كتُب التراث ويستبعدوا من طبعاتها اللاحقة كل هذا الوَسَخ من الإسرائيليات. وإن المرء ليحار: لماذا لم يتعهد بذلك **الأزهر** حتى الآن؟ ولماذا لم تتوجه رسالات الماجستير والدكتوراه فيه إلى تنقية وتطهير التراث مما يشينه من هذا العار؟؟.. هذا سؤال يحتاج إلى الجواب!

ويبدو أن البعض قد حلّ الإشكال بأن استمسك بأحاديث تجيز أن يستعين بالإسرائيليات وأن يستشهد بها، ويحضّ على القراءة فى كتُب اليهود والنصارى، ومنها أن الرسول ﷺ قد حكى عن **تميم الدارى** ـ وكان نصرانياً ـ أنه حدّثه حديثاً يوافق ما كان يتحدّث به الرسول ﷺ عن المسيح الدجّال، وأنه ﷺ قال: **بلّغوا عنى ولو آية، وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**. ونحن نشك فى الجملة الاعتراضية «**حدّثوا عن بنى إسرائيل**»، لأنها زائدة على النصّ، ولاتتوافق مع بدايته ونهايته، فكأنما هى محشورة قصداً، وموضوعة عمداً. وجواز اللجوء إلى الإسرائيليات شرْطُه أن تكون هذه الإسرائيليات صحيحة ومن كتُب اليهود فعلاً، ولاتكون تلفيقات وتهاويم وخرافات. وإيراد الإسرائيليات يحكمه أن يتحصّل من روايتها فائدة، وأن يكون الحال يستدعيها . والاطّلاع على كتُب الديانات الأخرى لابد أن يكون مباحاً وميسراً، والنهى عنه مضاد للعلم، والسماح به يوسّع المدارك ويزيد المعرفة ويعمقّ الفهم . وقد وردت أحاديث تحذّر من الإسرائيليات كالحديث الذى رواه أحمد والبزار، يقول: «**لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا، وأنكم إما أن تكذّبوا بحق أو تصدّقوا بباطل**»، وفى البخارى عن أبى هريرة قال: **لاتصدّقوا أهل الكتاب ولاتكذّبوهم وقولوا : ﴿ آمنّا بالله ومَا أُنزِلَ إلَيْنَا ....﴾**(الآية ـ البقرة ١٣٦).

والأحسن فى باب النظر أن يقرأ المسلمون فى اليهودية والنصرانية فيعرفوا بأنفسهم أوجه النقص فيها وما يكتنفها من معايب، وفى الجدل مع أهل الكتاب ليس من سبيل إلا أن نعرف عنهم من مصادرهم ومراجعهم فنرد عليهم بما يعتقدون صحته، ونلزمهم الحجة بعباراتهم. وإن المرء ليتشكك فى حديث كهذا الحديث عن الرجل الذى جاء إلى الرسول ﷺ يقول له: إنى قرأت القرآن والتوراة . فقال له: **اقرأ هذا ليلة وهذا ليلة!** ومثل ذلك لايقال لآحاد الناس وإنما للثقاة، ثم إنه قد ثبت موضوعياً وعلمياً **تحريف التوراة والأناجيل** فلا يستوى القرآن بهما . وربما الرسول ﷺ يحضّه على القراءة فى التوراة ليعلم المحرَّف

فيها مقارنةً بالقرآن، ويتبصّر فيمـا تقوم به الحجة على اليهودية من عباراتها، وليزداد علماً بمجالتهم من معتقدهم. والعلم أفضل من الجهل. وإذا كان الحديث الذى يقول: «حـدّثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج» صحيحاً فمعناه حتماً: حدّثوا عنهم بما تعلمون صدْقه، وبما يوافق القرآن والسُّنّة الصحـيحة . ولا يمكـن أن يكون المعنى حدّثوا عنهم بكل حـديث حق أو باطل. وأما قوله ﷺ : «إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولاتكذّبوهم» فذلك حتمًا فيما لايتناقض مع الإسلام، وليس من سماعه ضرر ولا نفع . وقيل إن النهى عن الرجوع إلى كتُب اليـهود والنصـارى كان فى أول الإسلام، فـلما رسخ الناس فى علوم الشـريعة وتمكنوا من مـعرفة أصـولها، وصـار لديهم من قوة النظـر ما يؤهّلهم للتـمييـز بين الحق والباطل، وتنـامى به لديهم المناعة ضـد الخطأ، أُبيح لهم الأخذ عنهم ومطالعـة كتـبُهم. ولاشك أن النهى كان للتنزيه لا للتحريم . ومـا كان الرجوع إلى كتُبهم المحرّفـة وفيها ما فيها من الزيادة والنقص، إلا سيُحدِث البلبلة ويؤدى إلى كثير من الفساد.

وفى الحـديث : «لاتسألوا أهل الكتـاب عن شىء، فيخبروكم بحقّ فـتكذّبوا به، أو بباطل فتصدّقوا به»، أن الخشية من أن يكذّب المسلم بحق، أو يصدّق بباطل ، إلا لو كان عالّماً، فهـذا هو الذى بمأمن من ذلك. والجائـز الرواية عنهم فيـه هو المحمول علـى ما يمكن أن يكون صحيحاً؛ وما يُعلم أو يُظن بطلانه لمخالفته الحق، هو المتروك المردود عليه، أو الذى لايُعرَّج عليه. والنهى عن سؤالهم هو نهىٌ عن الاهتـداء بهم لتحريفهم بعض ما عندهم، ونسيانهم بعض ما أُنزل عليهم. وقد نهى عمر كعب الأحبار عن رواية الإسرائيليات، لأنه خشى على سـواء الناس إنْ سـمعـوا أحاديث كعب، أن لايميـزوا فيهـا بين الحق والباطل، فتتشوّش عقيدتهم ويهتز إيمانهم.

ويروى ابن تيمية أن ترديد الإسرائيليات إنما للاستشهاد لا للاعتقاد، فما نعلم صحته مما بأيدينا ويشهد له بالصدق فهو صحيح، ومـا نعلم كذبه بما عندنا مما يخالفه فهو متروك مردود. ومـا لا ضرر منه ولا نفع، نسكت عنه فـلا نؤمن به ولا نكذّبه ولاننقله، وإن كنا نسمعه. ويذهب ابن كثير إلى نفس الرأى كأستاذه ابن تيمية، ويبيح النقل من الإسرائيليات فى حدود ما أذن الشارع فى نقله مما لايخالف الكتاب والسُّنّة. والإمام البقـاعى لايحظر النقل طالما المقصـود الاستئناس لا الاعـتماد، والأسلم هو أن نقـرأ وأن نلم بمعتقد اليـهود والنصـارى ولاننقـل البتـة، وإنما نقـارن ونوازن. والمعـروف عن اليــهـود أنهم أدخلوا الإسرائيليات فى الإســلام للهيمنة على هذا الدين الجديد بعد أن عجـزوا عن دحره بالقوة المادية. وأدخلوها عن طريق مسلمـين كبار ينكر الكثيرون أنهم قـالوا بها أو ذكروها، ومن

المتهمين بالإسرائيليات ابن عباس ، قيل أنه كان يرجع إلى كعب الأحبار وعبد الله بن سلام اليهـوديين، ويسألهم فى معانى ألفـاظ القرآن، ومع ذلك فإن ابن عـباس أُثر عنه ـ برواية البخارى ـ أنه حذّر من الأخذ عن اليهود، فقال: **كيف تسألون أهل الكتـاب، وكتابكم الذى أُنزل على نبـيكم ﷺ، فيـه أحدث الأخـبار بالله تقرءونها عن كـثب، وقد حـدّثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا مـا كتبه الله، وغـيرّوا بأيديهم الكتاب، وقـالوا إنه من عند الله ليشتـروا به ثمناً قليلاً؟ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم. ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أُنزل عليكم؟!**

وفـى الحـديث كما فى القرآن تسَرّبت الإسرائيليات، مثل الحديث: «**عُمر الدنيـا سبعة آلاف سـنـة**» ، والحـديث: «**بين كل أرض والتى تليها خـمسمائة عام، والعليـا منها على ظهر حوت**»، والحديث : «**فى الجنة شجرة يخرج منها خيل بلق**»، والحديث: «**من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه مرجان**»!

وقيل: إن مُدخل الإسرائيليات فى الأحاديث هم الزنادقة ، وكانوا يدسّون الأحاديث المستشنعـة، فمثلاً يقولون أنـه ﷺ سُئل: مِمّ ربُّنا؟ قال: «**من مـساء ممرور، لا من أرض ولاسماء، خَلَقَ خيلاً فأجراها فعرقت، فخلق نفسه من ذلك العرق**»!!!

وكذلـك فإن القـصّـاصين أدخلوا على الإسلام حكايات نسـبوها إلى النبىّ ﷺ ، يستميلون بها العامة، ويستدرّون ماعندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب.

وأيضاً فإن بعض علمـاء المسلمين كانوا يتورطون فى مثل ذلك دون أن يدروا، برفـع **الموقوف على الصحابة والتابعين إلى رسول الله ﷺ**، ولقد كان الصحابى أو التابعى ينقل ما مصدره الإسرائيليات من غير بيـان، فيغتر بعض الناس، فيظنون أنه لابد أن يكون الحديث **له أصل مرفوع إلى النبىّ ﷺ** ، فيعدّون الحدّيث من **الموقوف الذى له حُكم المرفوع**، حتى لقد قال بشر بن سعيد وقد استشنع ما يسمع : **اتقوا الله وتحفّظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريـرة، فيحـدّث عن رسول الله ﷺ، ويحدّثـنا عن كعب الأحبـار، ثم يقوم، فـأسمع بعض من كـان معنا يـجعل حـديث رسول الله ﷺ عن كـعب، وحـديث كعب عن رسـول الله ﷺ ، فاتقوا الله وتحفّظوا فى الحديث!**

وفى تفسيـر القرآن من أمثلة ذلك تفـسير الآيتين : ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)**﴾(الأعـراف) ومعناهما: أن الله يجـعل الانجذاب بين الاثنين ـ

الذكر والأنثى ـ بمثابة النفس الواحدة، وهو تعالى خلق النفس الواحدة ويشقّها إلى اثنين، فجعل الأول زوجها، والأصل الذكورة ومنها الأنوثة، وسكينة الذكورة بالأنوثة، والسكينة تصنع المحبة، فإذا كانت المحبة كانت التغشية، فيكون الحمل الخفيف، وتمر به الأنثى، ثم يثقل. فيدعوان الله أن يكون طفلهما سوياً، فإذا خرج كذلك كان الأولى أن يشكرا الله، ولكنهما أشركا في طفلهما غير الله، بتعليم مناف لتعليم الله. وعند الإمام أحمد عن الحسن عن سمرة عن النبيّ ﷺ قال: «**لما ولدت حواء طاف بها ـ إبليس وكان لايعيش لها ولد ـ فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمّته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**»، فنسب الحديث إلى النبيّ ﷺ، وأورده الإمام أحمد طالما أن إسناده إلى الحسن. والحديث من **الإسرائيليات**، وهو موقوف على صاحبه سمرة، فرفعه الإمام أحمد إلى النبيّ ﷺ . والحديث يطعن في آدم وحواء مع أن الآية لا تقول ذلك، والمقصود بها أن الناس عموماً صار هذا دأبهم: أن يشركوا بالله برغم ما يأتيهم من النِّعَم. وقال ابن كثير عن مثل ذلك الحديث: هذه الآثار يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب!!

وهذه الإسرائيليات أو هذا الانتحال، والتفسير بمنهج الإسرائيليات، انتشر حتى عَمّ وطمّ، ولمسناه في كتب التاريخ وفي السِّيَر، وتساهل الإخباريون والمؤرّخون فيما تناقلوه من روايات إسرائيلية مكذوبة، حتى أن الإمام أحمد علّق على ذلك فقال: «**ثلاثة كتب ليس لها أصل: التفسير، و الملاحم، والمغازي ـ يقصد أن مصادرها غير مدقّقة** ، وخاصّة فيما قيل من أحاديث وتفاسير عن بدء الخلق، وأسرار الوجود، وأحوال الأمم السابقة، والملاحم ، والفتن المنتظرة.وما أكثر الأحاديث حول الجنة والنار، والساعة، والدجّال، وآخر الزمان، ونهاية الإسلام، وكلها من تأليف أهل الكتاب أو بوحْيهم ، ومن ذلك أيضاً **قصة زينب بنت جحش، وحديث الغرانيق، واستدانة الرسول**ﷺ من اليهودي، **وبشارة اليهودي بمولده، ورؤية اليهودي لقدومه إلى المدينة، وقصة السحر له، وقصة وضع السمّ له، وقصة زواجه من صفيه** ودخوله بها. **فيا أخي احذر الإسرائيليات، ولتكن لديك حاسة سادسة خاصة بها، تعرفها بها بحسّك المسلم وإيمانك الموحِّد، وأعانك الله!**

•••

٤٣٢ـ ﴿ الإسرائيليات اشترك فيها اليهود والنصارى ﴾

المروّجون للإسرائيليات من اليهود: **عبدالله بن سلام، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار**، والأخيران من **التابعين**، والتابعون الذين رووا الإسرائيليات كثيرون وكانوا تلاميذ لهؤلاء، منهم: **قتادة، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والضحّاك، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم وعطاء، وطاووس**، وغيرهم، **وكعب الأحبار** هو رئيس المدلّسين، وخفي كذبه على كثير من المحدثّين وأخذوا عنه، **ووهب بن منبه** كان دعياً كاذباً وليس من شيء يقوله بصادق أبداً.

ومن أتباع التابعين اشتهر بالإسرائيليات ابن جريج وكان نصرانياً رومياً، وكان قبيح التدليس ولا يدلّس إلا فيما يسمعه من المجروح.

والكلبى والسدى كلاهما كذّاب ساقط، وعُرفا فى الكوفة بهذه الصفة، وكان الطبرى يتجنب النقل عن الكلبى ومقاتل بن سليمان لأنهما متهمان. وكان ابن إسحق (المتوفى سنة ١٥١هـ) يدلّس مع كونه عمدة فى المغازى ووثّقه فيها قومٌ ووهّاه آخرون، وقيل فيه إنه ليس بحُجَّة وتضعه روايته عن أهل الكتاب، وكان مرجعه أمثال وهب بن منبه، واعتاد أن يقدّم تفاسيره بهذ العبارة: و«عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب»، أو «يزعم أهل التوراة».

وبلغ من استشراء النفوذ الإسرائيلى فى الإسلام، والغزو الفكرى اليهودى للعقلية المسلمة، أن أحمد بن عبدالله بن سلام ترجم التوراة ليجعلها فى متناول الناس، فتركوا القرآن إليها، فكانت ترجمته طامة كبرى، وأضيفت كمصدر مباشر للإسرائيليات يطلبها المغرمون بالتفيهق وإظهار العلم بما هو غير مطلوب ولا لازم. وحتى صهيب الرومى - بحكم ثقافته غير العربية - شارك فى التفسير بالإسرائيليات، ونسب القول بها إلى الرسول ﷺ، منها: قصة الملك والساحر والراهب، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى، وحديث جريج العابد، والثلاثة الذين التجأوا إلى الغار، ولربما يمكن تقبّل هذه القصص لما فيها من مواعظ وعِبَر توافق آداب الإسلام، والمشكلة فيما دُسّ من القصص التى لاهدف لها ورفعت بعد ذلك إلى الرسول ﷺ !!

●●●

٤٣٣. ﴿ ابن مقاتل وكتابه «التفسير الكبير» ﴾

هو: مقاتل بن سليمان، المتوفى سنة ١٥٠ هـ (٧٦٦ م)، وله كتاب «التفسير الكبير»، مملوء بالإسرائيليات، كأنما قد استمدّ مقاتل علمه بالقرآن من اليهود والنصارى، وكان ينسب ما يقول إلى وهب بن منبّه اليهودي الذى أسلم، فقال مثلاً فى تفسير الكرسى فى قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾(البقرة٢٥٥): أن الكرسى يحمله أربعة ملائكة، لكل واحد منهم أربعة وجوه، وأقدامهم تحت الصخرة التى تحت الأرض السفلى مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل أرض مسيرة خمسمائة عام، وأحد الملائكة وجهه على صورة إنسان يسأل الله الرزق للبشر، والثاني وجهه كالثور سيد الأنعام، يسأل الله الرزق للبهائم، والثالث وجهه كوجه النسر سيد الطيور، يسأل الله الرزق للطيور، والرابع وجهه كوجه سيد السباع، يسأل الله الرزق للسباع!!

وكما ترى - فإن التفسير غارق فى الخرافات والأباطيل، وكلها بتأثير اليهود عن وهب

ابن منبــه كما أسلفنا، وأقواله فيهــا لافائدة منها ولادليل عليها من قرآن أو سُنَّة، وإنما هي من الموضوعات الإسرائيلية.

ومن أسوأ مــا تطرّق إليه مقــاتل تفســيره لآيات زواج النبيّ ﷺ من زيــنــب بــنــت جــحش، في قوله تــعالى : ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)**﴾ (الأحزاب) قال: إن النبيّ ﷺ أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب بيضاء جــميلة جسيــمة! وقال إن الهواء رفع ستــرها، وكانت زينب متــفضّلة (يعني تلبس ملابس البيت) في منزلها ،فرآها فوقعت في نفسه! ـ وهذا الكلام ظل المستشرقون يردّدونه عنه، وردّده اليهود والنصارى، والعلمانيــون والتنويريون، وأصحاب الملل والنحل، وأعداء الإسلام جمــيعاً، وذلك لأن تفســير مقاتل هو أقدم تفسير معروف، فكان لــه هذا التأثير المدمّر، وتناقل المُبغضون للرسول ﷺ كــلامه ونشروه وشنّعوا به، مع أنه فرية أعظموها عليه، وليس لها سند واحد من حقيقة، كما سيجيء من بعد عند مناقشة هذه التشنيعة عن الإسلام. وإني لأعجب كــيف يقول **الإمام الشــافعي** من بعد عن مقــاتل: الناس عيال في التفسير على مقاتل!!؟ وكيف يمتدحه عبدالله بن المبارك فيقول عن علِمه: يا له من علم لو كان له إسناد!! ويقول: ما أحسن تفسيره لو كان ثقةً!!

وأقــول: ما هو العلــم فيــما يقــول؟ ومــا الحُسْن فــيــما يفــتــرى ويكذب وينقل من الإسرائيليات؟ ولقد ورد عنه أنه مجسّم ومشبّه، وكذّاب، ووضّاع، ولا ثقة فيه!



٤٣٤.﴿ الطبري وكتابه «جامع البيان في تفسير القرآن» ﴾

هو: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، نسبةً إلى طبرستان، حيث وُلد بآمل سنة ٢٢٤هـ، وتوفي ببغداد سنة ٣١٠هـ، وكان مؤرّخاً ومفسّراً وفقيهاً جامعاً لأشتات العلوم؛ قيــل: كان كالقــارىء الذي لايعرف إلا الــقرآن، وكالمحــدّث الذي لايعرف إلا الحــديث، وكالفقــيه الذي لايعرف إلا الفقه، وكالنحــوي الذي لايعرف إلا النحو، وأشهر ما اشــتهر به: الفقه والتفسير والحديث والقراءات. وتفســيره من أقدم التفاسير، وهو مرجع المفسرين النقليين والعقليين على السواء؛ ومن **أقوال النووي**: أن كتابه «**جامع البــيان**» قد أجمعت الأمة أنه لم يؤلّف مــثله، وهو أصحّ التفــاسير، ودائرة معــارف، ومع ذلك فلم يخلُ من الإسرائيليات، بل إنه يُكثر منهــا، ولكنه يسندها إلى أصحابها، وقد يناقشهــا أحياناً. وعدّ

النقاد من عيوبه الإغراق في الإسرائيليات، فللأسف فإن التأثير اليهودي متمكن من تفكيره الإسلامي. وابن جرير الطبرى بعد أن يذكـر إسناده، كأن يقول حدّثني موسى بن هارون، عن أسباط، عن السدى، في خبر ذكـره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أو عن ابن مسـعود، وعن آخـرين من أصحـاب رسول الله ﷺ: أنه كـان رجلان... إلخ، ثم يعقّب: فإن كان ذلك صحيحاً ـ ولست أعلمه صحيحاً، إذا كنت بإسناده مرتاباً، فإن القول الذى روى عنهما هو القول، وإن كان غـير صحيح فأولى بتأويل الآية ما قلنا!ـ أو يسوق الطبرى كل الروايات الواردة، ويعقّب عليها فيقول: إن مثل هذه المرويات لم يرد فيها نصٌ صريح من كـتاب أو سنّة، ففى خبر البقرة التى ضُرب ببعضـها القتيل فى سورة البقرة الآية ٧٣، ذُكر أن بعضهم قال إنهم ضربوه بفخذها، وبعضهم قال بذنبها، وبعضهم قال بالبضعة بين الكتفين، ولاشيء تقوم به الحجة على أى أبعاضها أُمروا أن يضربوا القتيل به، وكل أبعاضها جائز، ولايضر الجهل بأى ذلك ضربوا القتيل ولاينفع العلم به. وكذلك فى سورة يوسف الآية ٢٠ يقول: لا خبر عن مبلغ المال الذى شروه به، وليس فى العلم به نفع، ولا الجهل به فى ضرر، ولكن الإيمان بظاهر التنزيـل فرض. وأيضاً فى الكلمات التى ابتلى بهـا إبراهيم فى الآية ١٢٤ من سورة البقـرة، يقول: لايجوز أن يـنوّه بكلمات بعينها دون كلمات. وبالمثل فى الآية ٢٤ من سورة يوسف، فبعد أن يورد الطبرى مختلف الروايات فيـها، ينبّه إلى أن أولى الأقوال فى ذلـك بالصواب أن يقال: إن كلا منهـما هَمّ بصاحبه لولا أن رأى يوسف برهان ربّه، فيـصحّ أنه صورة يعقوب، أو صورة الملك، أو آيات الوعـيد عن الزنا، والأصـح أن يقال مـا قاله الله فـى ذلك وترك ما عـداه. ومنهج الطبرى، سـواء في التفسـير أو فى التاريخ ـ وكـلاهما يتصل بـالآخر بأوثق الروابط، هو الاعتـماد على النقل والرواية، ولا يهمـه نقد الرواية وإنما عمله هو أن يؤدّى الرواية كـما نقلت إليه، وذلك هو سبب تردّيه فى حـمقة الإكثار من الإسرائيليـات، مع ما فى الكثير منها من الـغرائب والخرافـات، ولم يعقب عليـها. وهناك روايات عن الأنبيـاء تتنافى مع عصمتهم ولم يناقشها. كما كانت هناك حكايات لايقبلها عقل، كقوله عن وهب بن منبـه: إن ثعبان موسى حمل على الناس فمات منهم ٢٥ ألفاً ! وهو كثير الإسناد للأخبار الكاذبة لابن عباس الذى قال عنه إنه يتلقى عن أهل الكتـاب. ومن فرط سذاجة الروايات عن ابن عباس ذهبت الظنون بأصحاب العـقول من النقاد إلى أن أهل الكتاب كانوا يضـحكون على ابن عـباس ويكذبون عليـه، وكان الأحرى بالطبرى وهو المـؤرّخ المدقق أن يتحرّى الصواب

فيما يروى وينقل، وخاصةً إذا تعلّق الأمر بهؤلاء الدهاقين من رواة الإسرائيليات ومروّجيها، كابن عباس، وابن إسحق، والسديّ، والضحّاك، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الله بن سلام وغيرهم.

●●●

٤٣٥. ﴿الثعلبي من المكثرين في الإسرائيليات﴾

من أكثر كتُب التفسير إيراداً للإسرائيليات كتاب الثعلبي النيسابوري، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبي إسحق، المعروف باسم «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»، قال ابن خلكان يمتدح صاحبه دون تمحيص: كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنّف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير. وقال ابن تيمية ينقده عن حق: كان الثعلبي حاطب ليل ينقل ما يوجد في كتُب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع. وتلميذه الواحدي له التفسير البسيط، والوسيط، والوجيز، وفيه غثٌّ وكثير من المنقولات الباطلة. ـ وكانت وفاة الثعلبي سنة أربعمائة وسبع وعشرين. وفي تفسيره للآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف ٨٠)، قال: إن إخوة يوسف لما يئسوا من أن يجيبهم يوسف إلى ردّ أخيهم، قال بعضهم لبعض: تعلمون أن أبانا قد أخذ علينا ميثاقاً غليظاً، وقد عجزنا عن الإتيان به من جهة المسالة، فلا بد أن ندخل على الملك، فإما أن يردّ علينا أخانا، وإما أن نقاتل بالقوة التي ركّبها الله فينا، وذلك أن بني يعقوب كانوا من القوة بحيث إذا غضب واحد منهم اقشعر جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب حتى يقطّر من كل شعرة قطرة دم. وإنْ ضَرَب الأرض برجليه تزلزلت وتهدّم البنيان، وإن صاح لم تسمعه حامل من الإنس والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها، فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دماً أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب! فإذا مسّته يدٌ من نسل يعقوب سكن غضبه، وذهبت قوته، وصار كرجل من الناس. قال: وقال يهوذا لهم ـ وكان أشدّ إخوته غضباً: إما أن تكفوني الملك ومن معه فأكفيكم أهل مصر، وإما أن تكفوني أهل مصر! فبعث واحداً من إخوته، فعدّوا أسواق مصر، فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقاً. ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال: يأيها العزيز، إنْ رددتَ عليّ أخي حمدناك وشكرناك، وإن لم تردّه بالحسنى صِحْتُ صيحةً لاتبقى بحضرتك حامل إلا وضعت ما في بطنها، ورأيتَ منا ما تكره!ـ وأغضبه يوسف وأسمعه كلمةً فظيعة، فغضب يهوذا واشتد غضبه، وانتفخ جسده، وصار من الحمية والانتفاخ بحيث لا يشبه الناس، فلما علم يوسف أن غضبه قد تمّ، قال لابن له صبي: يا بنيّ، إذهب إلى ذلك الرجل القائم فأتني به؛ فلما

أخذ الغلام بيد يهوذا سكنت نفسه، وذهب غضبه، فالتفت يميناً وشمالاً لعله يرى أحداً من إخوته فلم ير، فخرج مسرعاً إلى إخوته، فقال لهم: هل حضرني أحد منكم؟ قالوا: لا. قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل. فخرج، فلقيه وقد احتمل صخرة عظيمة. قال: ما تصنع بهذه؟ قال: أذهب إلى السوق الذى وقع فيه نصيبى أشدخ بها رءوس كل مار فيه. قال: فارجِع فردّها أو ألقها فى البحر، فوالذى اتخذ إبراهيم خليلاً، لقد مسّتنى كفٌّ من نسل يعقوب! - ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشد منهم بطشاً، فقال: يا معشر العبرانيين، أتظنون أنه ليس أحدٌ أشد منكم قوة؟! ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركله برجله، ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه، وقال بعض خدمه: هات الحدّادين حتى أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم. ثم صعد على سريره - سرير المُلك - وجلس على فراشه، وأمر بصواعه، فوُضع بين يديه، فنقره نقرةً فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبيهم همّ ولاغَمّ ولا كرب إلا بسببهم ... إلخ. - ومثل هذا الكلام يعدّ من المصادر الكبرى للإسرائيليات فى التفاسير القرآنية. والثعلبى ينقل عن وهب بن منبه اليهودى الذى قيل إنه أسلم، ووهب - كما رأينا - شَطَح بعيداً فى تفسير الآية، وذهب مذاهب عجيبة، ومن الواضح أنه يقصد إلى أن يبثّ الرعب من اليهود فى نفوس المسلمين، ويجعل من الإسرائيلى شخصية بطولية خرافية ينسب إليها الخوارق كأبطال السينما الأمريكية. وقد يكون لوهب عذره بالنظر إلى أنه يهودى، ولكن ما عذر الثعلبى فى أن يروى عن وهب بلا تمحيص ولا مناقشة ولاتكذيب، وكأنه عميل إسرائيلى قد أُجرى له غسيل مخ، فراح يردد كالإنسان الآلى ما يُملَى عليه؟! ولنحذر إذن أمثال هذه التفاسير، وفى علم النفس يقال في تشخيص ذلك أنه «التعيُّن بالعدو»، بمعنى أن الثعلبى قد تعيّن باليهود حتى لكأنه قد صار منهم. وكثيرٌ منا حالياً يفعل نفس الشيء فيما يسمى «عقدة الخواجة»، فيقلّد الأجانب والمستشرقين فيما يفعلون، ويردّد أفكارهم حتى لو كانت تزرى بنا وبلُغتنا وديننا وهويتنا!



٤٣٦. «البغوى تلميذ الثعلبى فى الإسرائيليات»

يقال عن البغوى أنه مُحيِّى السُّنّة، وركن الدين، وأنه الإمام الجليل، والمحدّث المفسّر الجامع بين العلم والعمل، واسمه الحسين بن مسعود بن محمد، أبو محمد، وشهرته الفرّاء، والبغوى، ووفاته سنة خمسمائة وعشر هجرية، وكتابه فى التفسير «معالم التنزيل» مختصر من الثعلبى، ومن ينقل عنهم فيه، منهم: مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والكلبى، والضحّاك،

ومقاتل بن سليمان، ومحمد بن كعب القرظى، والسدّى، وابن عباس، وهم المعروف عنهم الميل إلى الثقافة العبرية والأخذ بما يسمى الإسرائيليات.

ومن غرائب تفاسيره ما قاله فى الآية: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾(البقرة) . قال: كان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل عُرس لهم، فأهلك الله فرعون، وبقيت تلك الحلىّ فى أيدى بنى إسرائيل، فلما فصل موسى قال السامرى لبنى إسرائيل: إن الحلىّ فى أيدى بنى إسرائيل التى استعرتموها من قوم فرعون، غنيمة لا تحلّ لكم، فاحفروا حفرة وادفنوها فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه. وقال السدى: إن هارون أمرهم أن يلقوها فى حفرة حتى يرجع موسى، ففعلوا، فلما اجتمعت الحلىّ صاغها السامرى عجلاً فى ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التى أخذها من تراب فرس جبريل، فخرج عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، فخار خواره. وقال السدى: كان يخور ويمشى!!

وقال البغوى فى تفسير الآية: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾(النمل٨١)، ناسباً ما يقول إلى علىّ بن أبى طالب: الدابة ليست كالدواب لها ذيل ولكن لها لحية ـ كأنما هى رجل فى الحقيقة وليست دابة. وقال ابن جريج ينسب وصفها لابن الزبير: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، وبين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتته فى مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضىء بها وجهه، ولايبقى كافر إلا نكتت وجهه بخاتم سليمان فيسْوَد وجهه !!!

وهذه الخرافات يسميها البغوى تفسيراً ويسوّد بها الصفحات ليقرأها الناس ويتثقّفوا بها، ولاشىء مما قاله فى كتابنا «القرآن»، فعلى أى شىء اعتمد فى روايته؟ ولماذا لم يناقشها وهو المحدّث المعتاد على منهج البحث فى الأحاديث وإسنادها؟ ومن غرائب ما قال فى الآية: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾(البروج)، نقلاً عن ابن عباس كما يدّعى: أن اللّوح من درّة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق إلى المغرب ، و حافتاه الدّر والياقوت،و دفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه قديم، وكل شىء يه مستور، وأعلاه معقود بالعرش، وأصله فى حِجر مَلَك!!! ـ فهل من ذلك شىء فى القرآن؟!!!والبغوى لم يبحث ولا محّص، ولاناقش، ولافنّد، وإنما سرد علينا هذا الغثاء سرداً!

وعن كعب الأحبار نقل البغوى عن الآية: ﴿ **إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾ (الكهف٩٤): أن يأجوج ومأجوج هم نادرة ولد آدم، وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم !! ـ وهذا أغرب كلام، فلم يبين لنا كيف امتزجت النطفة بالتراب؟ هل احتلم وألقى بها وهو يحتلم على الأرض؟ ولماذا خلق الله من هذه النطفة بالذات يأجوج ومأجوج؟ وهل كان في حاجة إلي مثل هذه النطفة ليخلقهما؟ ـ وقال البغوى نقلاً عن مجاهد في الآية: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾(يوسف٢٤)، قال: حلّ سراويله وجعل يعالج ثيابه!ـ وعن الضحّاك قال: ضرب الشيطان فيما بينهما. فضرب بإحدى يديه إلي جيد يوسف، وباليد الأخرى إلي جيد المرأة، حتى جمع بينهما!ـ ونقل عن السديّ: أن المرأة ظلت به تراوده وتزيّن لـه اللذة، وهو شاب ويجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهى امرأة حسناء جميلة، حتى لان لها مما يرى من كَلَفها به، وهَمّ بها، لو لا أن تداركه ربّه بالبرهان! ـ وقال قتادة فى البرهان : رأى صورة يعقوب يلومه. ـ وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج سقف البيت فرأى صورة يعقوب عاضاً على إصبعه، فضرب بيده على صدره، فخرجت شهوته من أنامله!ـ وعن ابن عباس قال: إن يوسف حلّ الهيمان (يعنى السراويل)، وقعد منها مقعد الرجل من امرأته، فإذا بكفّ قد بدت بينهما بلا معصم ولاعضد، مكتوب عليها: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫**﴾(الانفطار)، فقام هارباً، وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهرت تلك الكفّ مكتوباً عليها: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ㉜**﴾(الإسراء)، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهرت تلك الكفّ مكتوباً عليها: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾(البقرة٢٨١) ، فقام هارباً وقامت. فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عزّ وجل لجبريل: «**أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة**»! فانحط جبريل عاضاً على إصبعه يقول: «**يا يوسف! أنت تعمل عمل السفهاء، وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء**». ومسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله!!!

فهذا النوع من الكتابات في تفسير القرآن هو الذى يسمونه **الإسرائيليات**، باعتبار صاحبه يتوخى ثقافة أخرى بخلاف الثقافة الإسلامية،وهى **الثقافة الإسرائيلية**، نتيجة قراءاته الكثيرة فى تفاسير اليهود للتوراة، وهى تفاسير تتبع نفس المنهج،وليست لهـا مرجعية من القرآن ولا السُّنّة،وكثير منها ينافى العقل والشرع، وتجافى الطبع العربى، وأصحابها يقال

لهم الوضّاعون. والتفسير المعقول للآية والمتوافق مع الدين أنه: لولا أن يوسف رأى برهان ربّه لكان هَمّ بها. ويأوّل جعفر الصادق البرهان بأنه النبوّة التي اختصه بها الله، فهى التي حالت بينه وأن يخطىء. غير أن البغوى لم يدرك ذلك، فماذا يمكن أن نفعل والكثير من الشطح يرتكبه أمثاله ويشيع عنه بين العامة فتكون جهالة بالإسلام تستوى والجهل؟ والبغوى هو المسئول عن شيوع هذا التفسير للآية: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** (٥٥) ﴾(المائدة)، قال: نزلت الآية فى علىّ حين مرّ به سائل وهو فى الصلاة فطرح له خاتمه. والبغوى روى ذلك عن السدىّ. وأورد ابن كثير تفسير السدىّ وقال إن الآية نزلت فى عبادة بن الصامت وليس فى علىّ، وذلك حين تبرأ عبادة من حلف اليهود ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا تجىء الآية بعد ذلك: ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** (٢١) **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٢٢) ﴾ (المجادلة).

فكما ترون إن تفسير البغوى حاد عن الصواب، بسبب ثقافة صاحبه الإسرائيلية، فاحذره يا أخى المسلم، ولا تجعله من مراجعك فى تفسير القرآن، وحسبنا الله!



٤٣٧. ﴿ ابن عطية وكتابه «المحرّر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» ﴾

هو عبد الحق بن غالب بن عطية، أبو محمد، الأندلسي الغرناطي، مولده سنة أربعمائة وإحدى وثمانين، ووفاتة سنة خمسمائة وست وأربعين هجرية، قيل فيه أنه أجلّ من صنّف فى علم التفسير، وكتابه منقول عن الكتب السابقة، ولكنه هجر فيه الإسرائيليات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، غير أنه لم يتركها تماماً، إلا أنه تحرّى منها ما هو أقرب إلى الصحة، ولذا أعجب كتابه ابن خلدون، واعتبره ملخصاً لما سبق عليه من التفاسير، واعتبره ابن تيمية «أفضل» من تفسير الزمخشرى، وأنه ابتعد فيه عن البدع وإن اشتمل على بعضها، وأنه إذا ساق بعض الإسرائيليات فإنه غالباً ينبّه إليها، كأن يقول فى شأن هدية بلقيس إلى سليمان: أكثر بعض الناس فى وصفها ورأيت اختصار ذلك لعدم صحته؛ أو يقول فى فتية أهل الكهف: أكثر المؤرخون فى ذلك ـ أى فى الحديث عنهم ـ ولكنه يختصر من حديثهم ما لا يُستغنَى عنه؛ أو يقول بشأن سفينة نوح: ورُوِى غير هذا مما لم يثبت فاختصرتُ ذكره. وعلّق على تفسير وهب بن منبه للآية: ﴿ **إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** (١٨) ﴾ (مريم): أن تقياً اسم فاجر معروف فى ذلك الزمن ـ زمن مريم، فقال إنه رأىٌ

ضعيف وافتراض ذاهب مع التخرّص. وقال في قصة سرقة اليهود بقيادة موسى لذهب المصريين كما ترد في التوراة: هذا ما رواه المفسرون. وقال في عذاب يوم الظُلّة: إن الناس لهم تطويلات لاتثبت، وأورد رأي الطبري عن ابن عباس، قال: مَن حدّثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب. وقال في قصة قارون: إن الناس أكثروا في شأنه وذلك كله ضعيف، والنظر يشهد بفساد هذا الرأي . وقال في قصص سفينة نوح: إنها قصص لا تصحّ. إلا أن ابن عطية ينسى أن يعلّق أحياناً، ويورد التشنيعة الإسرائيلية دون أن ينبّه إليها، كما فعل في هدية بلقيس، فقد سَرَدَ روايات نُكراً ولم يعقّب عليها ويبطلها. ونفس ما ذكره ابن عطية قاله ابن كثير إلا أنه عقبّ عليه يقول: منكرٌ غريب جداً، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها منتقاة من روايات أهل الكتاب مما وجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب، سامحهما الله فيما نقلاه إلي هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حُرّف وبُدّل ونُسخ، وقد أغنانا الله عن ذلك بما هو أصحّ منه وأنفع وأوضح: القرآن!

فهذا إذن تقييمنا لكتاب ابن عطية مقارناً بغيره، نقرأه ونحذر منه أحياناً.



٤٣٨.﴿ الزمخشري وكتابه «الكشاف» ﴾

هو: محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم، الزمخشري، الحنفي المعتزلي، الملقب بجار الله، والمتوفى سنة خمسمائة وثمان وثلاثين هجرية. وله كتاب «الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»، وليس أبدع ولا أبرع من الزمخشري يمكن أن يكشف عن سحر بلاغة القرآن لولا أنه من المعتزلة، وله مكامن وانحرافات عن السُنّة، والاعتزال مذهب عقلي ومع ذلك فإن الزمخشري ينحو نحو التفسير القصصي الأسطوري برغم عقلانيته.. وكان النظّام معتزلياً كالزمخشري، إلا أنه لم يكن يتسامح مع من يورد أساطير أو خرافات إسرائيلية في التفسير، ويصف هؤلاء بأنهم «المفسرون القصصيون»، ويقول فيهم: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسّر عندهم أغرب، كان أحبّ إليهم، ومن هؤلاء عكرمة، والكلبي، والسديّ، والضحّاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ.

والزمخشري لم يكن يرى بأساً أن يورد أسطورة أو خرافة أو قصة غير مستيقنة، فمثلاً في الآية: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) ﴾ (الشعراء)، يروى أن الثعبان كان ذَكَراً أشعر فاغر الفم، وبين لحييه ثمانون ذراعاً، ولمّا توجه ناحية فرعون وثب عن عرشه وهرب وأحدث !!

ويقول في الآية: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ(٢٤٨)﴾ (البقرة)، أن السكينة صورةٌ كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، وبها رأس كرأس الهرّ، وذنب كذنبه، وجناحان!! وينسب الزمخشرى لعليّ أنه قال في وصف السكينة هذه: كان لها وجه كوجه الإنسان، وفيها ريح هفّافة !!

وأورد ابن كثير رواية الزمخشرى منسوبة لمحمد بن إسحق عن وهب بن منبه، مما يدل على أنها من الإسرائيليات. ويبدو أن سند الزمخشرى كان حديث أُسيْد بن حُضيْر عن رؤيته لظل وهو يقرأ، نفرتْ منه فرسه ثم سكنت، فأخبر النبيّ ﷺ، فقال له: «تلك السكينة تنزّلت لقراءتك، ولو قرأتَ لأصبحتْ يراها الناس لا تستتر منهم»، يعنى أن «السكينة» جسمٌ يُرى، مع أن الحديث من مجاز الحذف، وتقديره أن ذلك من أثر السكينة. وحقيقة السكينة سكون القلب، فحين تلا أُسيْد نزلت السكينة قلبه، فتنوّر داخله، فرأى المكان بنوره متنوراً، فهى مسألة نفسية وليس فيها زبرجد ولا ياقوت! وكما ترى فإن الزمخشرى قد يورد ما لايرى فيه بأساً، إلا أن تكون القصة فيها مساس بالأنبياء، فهنا يتصدّى لها ويفنّدها ويكذّبها، فعن الآية: ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ(٢٤)﴾ (يوسف)، أنكر الزمخشرى أن يكون يوسف قد حلّ لباسه وانطرح عليها لولا أن ظهرت له صورة أبيه يعقوب ثلاث مرات، وفى الثالثة ضربه بيده فخرجت شهوته من أنامله! ويقول فى ذلك إنها مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بُهْت الناس لله ولأنبيائه، وأما أهل العدل والتوحيد - أى المعتزله الذين هو منهم، فيتبرأون من مقالاتهم ورواياتهم.

•••

٤٣٩. ﴿ الفخر الرازى وكتابه «مفاتيح الغيب» ﴾

هو: محمد بن عمر بن حسين بن الحسن بن عليّ، أبو عبد الله، الملّقب بفخر الرازى، المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية، وله كتاب «مفاتيح الغيب» فى التفسير، ويُعتبر موسوعة علمية، جمع فيه من كل شيء، وملأه بأقوال الحكماء والفلاسفة، وكان يرفض الطعن فى عصمة الأنبياء، ولم يقبل ما يُروَى من الإسرائيليات عن داود، وأنه قَتَل أوريا ليبنى بامرأته، وقال إن هذه التهمة لو نُسبت إلى أفسق الخَلْق وأشدّهم فجوراً لاستنكف منها. إلا أنه كان يروي الإسرائيليات مع ذلك. وفى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ(٣٥)﴾ (البقرة) لما اختلف المفسرون فى الشجرة ما هى، روى عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس، أنها البُرّ والسنبلة، وقال السُدّى عن ابن عباس وابن مسعود أنها الكَرْم، وعن مجاهد وقتادة أنها التين، وآثر الرازى أن يذهب مذهباً آخر، فلم يجد من النص القرآنى ما

يدل على التعيين أو الحاجة إلى بيانه. وفي مسألة **عصا موسى**، اختلف الوضّاعون في نوع خشبها وطولها، فأورد الرازى عنهم، وأكد أن نصّ القرآن يدل على أن مقدارها يجعل من الممكن التوكؤ عليها، وأن تنقلب حيّة، فعيّن لها طولاً وغلظاً يصلحان للمهمتين. ومن رأى الرازي مع ذلك السكوت على أمثال هذه المسائل التى لا تقدّم ولا تؤخر، إلا أنه كان يتساهل فيما دون ذلك مما لا ضرر منه، ولا يطعن فى نبىّ، ولا يتعارض مع أحكام القرآن، وفى هذه الحالات كان ينقل عن **مقاتل، ووهب، والكلبى، والسُدِّى**، وأمثالهم، **ولاينسب إليهم مع ذلك!** وكان يكتفى بأن يقول رُوِى، فمثلا فى تفسير قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)**﴾ (الفجر) قال: روى أنه كان **لعاد** ابنان: **شدّاد وشديد**، فملكا وقهرا، ثم مات **شديد**، وخلص الأمر **لشدّاد**، فملك الدنيا ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة، فقال: **أبنى مثلها**، فبنى **إرَم** فى بعض صحارى عَدَن فى ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائه سنة! وهى مدينة عظيمة سورها من الذهب والفضة، وأساطينها (يعنى أعمدتها) من الزبرجد والياقوت. والقصة كما ترى من **الإسرائيليات**، وتورد تفاصيل لا دليل عليها، وواضح أن الرازى لم يرفضها كقصة، ولم يمحّصها، وقَبِل ما تقول به من التفسير، باعتبار أن **العماد** هي الأساطين أى العمدان، بما يعنى أن المدينة كانت من المبانى الضخمة، مع أن السياق يدل على أن العماد هى **عماد الخيام**، وأنها من ثم مدينة خيام، وربما المعنى أن أهلها هم أهلُ عُمُد، أى كانوا طوال القامة. وقوله تعالى: ﴿**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)**﴾ (الفجر) إنما لتخويف المعاندين، بأنه تعالى قد أهلك مَن قبلهم وإن كانوا أشد منهم قوة. فحتى الرازى كانت له انحرافات فى التفسير.



٤٤٠. ﴿القرطبى و«الجامع لأحكام القرآن»﴾

يعتبر كتاب **«الجامع لأحكام القرآن»** من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، وصاحبه **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح**، الأنصارى، الخزرجى، الأندلسى، القرطبى، المفسّر، توفى سنة ٦٧١ هـ، وكان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين والزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، وبلغ من زُهده أن طرح التكلّف، واكتفى بثوب واحد يمشى به بين الناس، وعلى رأسه طاقية، وخصّ وقته كله للعبادة والتصنيف حتى أخرج للناس ما أخرج من مؤلفات، منها كتابه هذا الذى أسماه: **«الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّن من السنّة وآى الفرقان»**، أسقط منه **القصص والتواريخ**، وأثبت عوضها **أحكام القرآن، واستنباط الأدلة**، وذكر **القراءات والإعراب والناسخ**

والمنسوخ. وكان شرطه فيه إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنّفيها، وعنده أن من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، إلا أنه قد لجأ إلى **التفسير القصصي الأسطوري**، ولم ينجُ من مزالقه، وتورط كالباقين فضمّن تفاسيره الكثير من الإسرائيليات التي لم **يناقشها ولم يمحّصها، حتى ليعجب المرأ من سكوته عن مناقشتها، رغم ثقافته الواسعة، وعقليته الاستدلالية الراجحة**، فمثلاً في الآية: ﴿**قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ** ①﴾ (ق) قال: واختُلف في معنى «ق» ما هو؟ فقال **ابن زيد وعكرمة والضحّاك**: هو جبل محيط بالأرض (جبل قاف)، من زمردة خضراء، اخضرّت السماء منه، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مقبية، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل: وقال **وهب**: أشرف ذو القرنين على جبل قاف، فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف. قال: وما هذه الجبال حولك؟ قال: هي عروقي، وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحرّكت عرقي ذلك، فزلزلت تلك الأرض. فقال له: يا قاف، أخبرني بشيء من عظمة الله. قال: إن شأن ربّنا لعظيم. وإن ورائي أرضاً مسيرة خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً. لولا هي لاحترقتُ من حرّ جهنم، قال: زدني. قال: إن جبريل واقفٌ بين يديّ الله ترعد فرائصه، يخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوفٌ بين يديّ الله تعالى، منكّسو رءوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا الله! ـ وكما ترى فإن القرطبي يأخذ بالخرافات، ويعتمد الإسرائيليات!

وفي الآية: ﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ①﴾ (القلم) يروي **حكايات عجيبة فيها جهل فاضح، وجرأة على طرق تفسير الظواهر الكونية بالخرافة**، فيقول عن **مجاهد** ـ وكذا عن مقاتل، والهمداني، وعطاء، والسُّدِّي، والكلبي: «ن» **هو حوت تحت الأرض السابعة يحمل الأرضين**!! وعن **ابن عباس قال**: إن **القلم** هو أول ما خلق الله، فجرى بما هو كائن، ثم رفع الله تعالى بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق **النون** (الحوت)، فبسط الأرض على ظهره (ظهر الحوت)، فمادت الأرض، فأُثبتت بالجبال، وإن الجبال لتفخر على الأرض! وعن **الكلبي، ومقاتل**، قال: الحوت اسمه **البهموت**! وعن **أبي اليقظان، والواقدي**، قال: اسمه **ليوثا**، وعن كعب اسمه **لوثوثا أو بلهموثا**، وإبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس في قلبه وقال: أتدري ما على ظهرك يا لوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها؟ لو ألقيتهم عن ظهرك أجمع! فهَمّ لوثوثا أن يفعل ذلك، فبعث الله إليه دابة فدخلت منخره، ووصلت إلى دماغه، فضجّ الحوت إلى الله، فأذن الله لها

فخرجت. وقال كعب: فوالله، إنه لينظر إليها وتنظر إليه، فإن همّ بشيء من ذلك عادت كما كانت!

وكلمة **البهموت** هذه عبرية أساساً، وصحيح نُطقها **بَهيموث**، وترد ضمن سفر أيوب، الفصل الأربعين، العبارة ١٥، والفصل ٣٥ العبارة ١١، **والمزامير** ٧٣ العبارة ٢٢، وقيل هي **كلمة مصرية قديمة** وتعنى **ثور الماء** أو **فرس النهر** مما كان موجوداً بكثرة في مصر، إلا أن المعنى في العبرية ينصرف إلى حيوان كالحوت، كبير الحجم. وأما **لوثوثا** أو **بلهموثا**، أو **ليوثا**، فهي تحريف **للوياثان** العبرية، وتفيد أيضاً معنى الحوت الضخم الهائل من نوع التنانين، **وأسفار التوراة حافلة بأمثال ذلك من الأساطير والسخافات، ولم يكن بالمناسب للقرطبى أن يصدق روايات كهذه وأن يوردها كحقائق، حتى ليجعل كل من قرأها يسخر من عقلية علماء الإسلام. وكان الأجدر بمن يسخر من المسلمين، أن يسخر أولاً من اليهود وكتُبهم لأنهم أصحاب هذه التخرّصات!**

وفي الآية: **﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴿٢٢﴾﴾** (المائدة) ذكر القرطبي وآخرين نقلاً عن اليهود: أن هؤلاء الجبارين كان منهم **عوج الأعنق**، قالوا: طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً، وكان يحتجن السحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس، ويرفعه إليه ثم يأكله، وأنه حضر **طوفان نوح** ولم يجاوز الطوفان ركبتيه، وكان عمره آنذاك ثلاثة آلاف وستمائة سنة، وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى ليرضخهم بها، فبعث الله طائراً فنقرها ووقعت في عنقه فصرعته، وأقبل موسى عليه، وكان طول موسى عشرة أذرع، وطول عصاه عشرة أذرع، وترقى في السماء عشرة أذرع، فما أصاب موسى إلا كعب عوج! وأجهز عليه موسى فمات، ووقع على نيل مصر فجَسَرهم سَنَة، أى صار لهم جسراً يعبرون عليه!!

وكل **هذه الترهات تخالف القرآن والسنة، وتنافي العقل، وفي القرآن أن نوحاً دعا على أهل الأرض** من الكافرين فقال: **﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾** (نوح)، فأغرقهم الله ونجّاه ومن معه (الشعراء ١٢٠)، **فكيف يبقى عوج هذا بعد الطوفان وهو من الكافرين؟** والقصة كلها ملفقة - قيل: هي من الأدب اليهودى الأسطورى، وانطلت على القرطبى كحقيقة فأوردها مصدّقاً!!

وفي الآية: **﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾** (مريم) عن إدريس، يروى القرطبي عن **وهب** بن منبه، **مقالةً عنه غاية في الغرابة، ينقلها عن كتب اليهود،** وفحواها: أن ملك الموت زار إدريس زيارة عادية، فطلب منه إدريس أن يذوق الموت ويقبض روحه لمدة ساعة، ففعل

ملك الموت، ثم طلب إليه أن يرفعه إلى السمـاء لينظر الجنة والنار، ففعل، فلما رأى النار صعق، فلما أفاق أدخله الجنة، فتعلق بها ورفض الخروج منها، ووسّط ملك الموت الملائكة ليخرجـوه، فرفض إدريس بإصرار، واحتج قـائلاً لقد قال الله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** (١٨٥)﴾(آل عمران)، ولقد ذقته، وقال: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** (٧١)﴾ (مريم) عن النار، وقد وردتها، وقال: ﴿ **وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ** (٤٨)﴾ (الحجر) عن الجنة، فكيف أخرج منها ؟ فقال ربّ العالمين لملك الموت : بإذنى دخل الجنة، وبأمرى يبقى، فتركوه هنالك حياً، فهو تارة يرتفع إلى الجنة، وتارة يعبد الله مع الملائكة، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** (٥٧)﴾ (مريم)! **والقصة كما ترى فيها نكارة، وأخلاق شخوصها مقبوحة**، فإدريس محتال، وملك الموت ساذج، ومـا كان يمكن أن تكون لإدريس هذه المكانة العـلية بسبب كـهذا!! وروى **ابن كـثير** عـن **كـعب** قصة مشابهة، والقرطبي أو غـيره قد أخطأ إذ يفسر القرآن بالإسرائيليـات، وإذ ينقل عن **وهب بن منبـه** وهو المعروف عنه هذا المذهب فى التفسير، وكان له كتاب اسمه «**قصص الأنبـياء**»، لم يصلنا لما فيه من أكاذيب، وكان له تأثير سيء على **ابن عباس**، وأغراه بالانزلاق إلى طريق الإسرائيليات، ولازمه **ثلاث عشرة** سنة، وكان يزعم أن ما يكتبه من مثل هذه الأساطير **تاريخ**، ويقول عن نفسه أنه **مؤرِّخ**، وتوفى سنة ١١٤ هجرية، وكان قدرياً، وبسبب هذه الترهات التى كان يرويها حبسه **يوسف بن عـمـر** فى كِبَره، وقيل وأمر بضربه حتى مات !

•••

٤٤١.﴿النسفى وكتابه «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»﴾

كان **النسفى** إماماً كاملاً عديم النظير فى زمنه، واسمه **أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود**، ونسبته إلى **نَسَف** ببلاد السند من باكستان الآن، ووفاته سنة ٧١٠ هـ، **بإيذج** من كور **أصبهان بإيران**، وله المصنفات ، منها كتابه فى التفسير «**مدارك التنزيل وحقائق التأويل**» اختصره من تفسيرىّ **البيضاوى والزمخشرى**، وتجنّب ما ورد بكتاب **الزمخشرى** من دعاوى **المعتـزلة**، والتـزم بمنهج **أهل السُّنة**، وجاء كتابه وسطاً فى التـأويلات، يحوى البديع من الإشارات، والدقيق من أوجه الإعراب والقراءات، ويحفل بأقوال **أهل السُّنة**. ولم يكتبه طويلاً مملاً ولا قصيـراً مخلاً، إلا أنه كذلك **أورد الكثيـر من الإسرائيليات، وفسّـر العديد من الآيات بالخرافات والأساطير التى مرجعها كتب اليهود ورواتهم**، ومع ذلك فإنه كان مقلاً فى النقل عنها بالقياس إلى غيره، **وهو يوردها ولا يبحث فيها ولايتعقّـبها، مع أنها تخالف العقل والنقل مخالفـة صريحة**، ومن ذلك مثلاً ما رواه فى تفسير الآية: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ**

مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النمل)، قال : كان معسكره مائة فرسخ، خمسةٌ وعشرون للجن، وخمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسةٌ وعشرون للوحش! وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحة (أي زوجة)! وسبعمائة سرية (يعنى أمَة)، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم، فرسخاً فى فرسخ، وكان منبره يوضع فى وسطه، وهو من ذهب وفضة، يتصدر هذا الحشد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لايقع عليه حرّ الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر !!!

وكما ترى فإن النسفي تابعَ المفسرين أصحاب الإسرائيليات على ما ذهبوا إليه، إلا في بعض الحالات التى تطعن فى عصمة الأنبياء، فكان يبين تهافتها، وينبّه إلى عدم صحّتها، وأحياناً يفوته ذلك فلا يتعرّض للفرية من قريب أو بعيد!



٤٤٢. ﴿الخازن وكتابه «لباب التأويل»﴾

الخازن من مفسّرى القرآن، ميلاده ببغداد سنة ٦٧٨ هـ، وسكن دمشق مدة، وكان خازن الكتب بالمدرسة السُّمَيْساطية فيها، نسبةً إلى أهل سُمَيْساط من الأناضول، وتوفى بحلب سنة ٧٤١ هـ، واسمه: على بن محمد بن إبراهيم الشيحي، نسبةً إلى شيحة من أعمال حلب، وله التصانيف، منها كتابه «لباب التأويل فى معانى التنزيل»، ويُعرف بتفسير الخازن، جمع فيه بين مسنديّ الشافعي وأحمد، والكتُب الستة، والموطأ، وسنن الدارقطني، ورتّبه على الأبواب. واختصره من معالم التنزيل للبغوى، وأضاف إليه ما استطاع من تفاسير من سبقه، وأكثرَ من رواية الإسرائيليات فيه حتى أغرب، ولم يكن فى الغالب يتعقّب ما يروى منها، ونادراً ما يتناولها بالنقد، وهو أميل إلى النقل بسبب مهنته، فقد كان «خازن كتب»، وبوسعه الاطلاع كما يشاء، كما كان صوفياً يحب القصص، وأكثر ما تأثّر به تفسير الثعلبي، وفي تفسيره مثلاً للآيات: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ

داوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ (ص) يورد الخازن الكثير من الخرافات، ويحكى عن حمامة من ذهب فيها من كل لون حَسَن، وجناحاها من الدُّر والزبرجد، تطير وتسقط بين رجلىّ داود، كما يحكى عن المرأة التى رآها داود فوقعت من نفسه فتآمر على زوجها حتى قُتل لتسلم له. ثم بعد أن يتورط فى هذا الحمق يعقد فصلاً فى تبرئة داود! وكثيراً ما لايعقّب على ما يروى من حكايات، كما فعل فى الرواية عن ابن عباس عن كلب أهل الكهف، فنقل أنه أغر(أى أبيض)، وفوق العَلَطى (أى شديد البأس)، ودون الكرزى (أى ليس فرّاراً)؟! أو أنه كلب صينى أصفر اللون يضرب إلى الحمرة، واسمه قطمير، أو ريّان، أو صهبان إلخ !!! وقال الخازن فى حكاية وادى النمل فى قصة سليمان: إنه بوادى السدير فى الطائف، أو بالشام! ووصف النملة القوّالة بأنها كانت عرجاء وذات جناحين، واسمها صاحية أو جرس !! وفى حكاية الأَرَضة التى أكلت منسأة سليمان، قال: إن سليمان دخل المحراب يصلى وله كوة فى السقف، فأثناء قيامه مات متكئاً على عصاه، فكان الجن كلما نظروا من الكوة يرونه واقفاً فيعملون ويجدّون، فظلوا هكذا حولاً كاملاً بعد موته، إلى أن أكلت الأرضة عصاه، فخرّ ساقطاً، فعلموا بموته، وقال ابن عباس: فشكرتْ الجن الأرَضة، فهُم يأتونها بالماء والطين فى جوف الخشب!!!

وفى قوله تعالى: **﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾**(ص)، قال الخازن: يقال إن «الحجاب» جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه ؛ و«ردّوها علىّ» أى الخيل، **فطفق مسحاً بالسوق والأعناق** أى جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف. وقال إن هذا القول لابن عباس وأكثر المفسّرين، فلما نسى سليمان الصلاة بسببها وهو ذنب، عاقب نفسه بذنب آخر وهو عقر الخيل أسفاً لما فاته من الفرض، وقيل إنه ذبحها وتصدّق بلحومها، وقيل حبسها وكوى سوقها وأعناقها بكىّ الصدقة. وحكى الخازن عن علىّ بن أبى طالب، أنه قال فى معنى **﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾** أن المقصود الشمس، يأمر الله أن تعود القهقرى فيحضر وقت الصلاة، ويستطيع أن يصلى ما فاته!! وقال الرازى بل التفسير المطابق لألفاظ القرآن أن رباط الخيل كان مندوباً إليه، واحتاج سليمان إلى الغزو، فأمر بإحضار الخيل وإجرائها أمامه، وذكر أنه لا يحبها من أجل الدنيا وإنما لأمر الله وتقوية دينه، ثم أمر بإعادتها حتى توارت بالحجاب، أى حتى غابت الحين عن نظره، وحينئذ أمر بردّها، وهذا هو قوله تعالى **﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾**، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها. ولم يرجّح الخازن أياً من الروايات السابقة الصحيحة والباطلة.

وكذلك فعل فى تفسير: **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾**

(ص) فذكر قصة وهب بن منبه وأقوال المحققين النافية لتسلّط الشياطين عليه. وفى قصة يوسف فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾(يوسف ٢٤) نقل أقوال السلف القبيحة، وأقوال المحققين المنزّهة. وفى مسألة بلقيس ذكر أن أمرها انتهى عند إسلامها ولا علم لنا بما جرى بعد ذلك، وأن بعضهم قال إن سليمان تزوجها، وكره شعر ساقيها، وأشار عليها البعض بالموسى لإزالته، وأنها كرهت ذلك، وسأل الشياطين فنصحوا بالنُّوْرة والحمّام، فكانت النورة والحمامات من يومئذ، وأن سليمان تزوّجها بعد ذلك وأحبّها حباً شديداً. فكان مذهب الخازن أن يأتى بالتفاسير وضدها ولا يرجّح أياً منها. وربما كان الخازن لذلك أفضل من غيره الذين اكتفوا بالروايات الفاسدة وتركوا الصحيحة فأضلوا الناس.



٤٤٣.﴿ابن كثير و«تفسير القرآن العظيم» وأقواله عن أهل الكتاب﴾

لعل تفسير ابن كثير هو الأكثر شيوعاً بين الناس، حتى لا يكاد يخلو بيت مسلم منه فى مصر مثلاً، وفى غير ذلك من بلاد الإسلام، والكتاب متداول بين المطابع فى العالم الإسلامى كله، وضعه الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشى، الدمشقى، الشافعى ، تلميذ ابن تيمية، وكان مولده سنة سبعمائة أو بعدها، وتوفى سنة سبعمائة وأربع وسبعين هجرية، وقبره بمدافن الصوفية خارج باب النصر من دمشق، وكتابه «تفسير القرآن العظيم» من أجود كتب التفسير بعد تفسير القرطبى، ومنهجه فيه: تفسير القرآن بالقرآن أولاً، ثم بالسُّنّة الصحيحة، ثم بأقوال السلف، وهو غالباً ما يسند أحاديثه ويكتفى بالصحيح منها دون الضعيف. ويهتم بالإسرائيليات ويحذّر منها، وينبّه إلى بطلانها ويعرض عن إيرادها لما تشتمل عليه من أكاذيب ومضيعة للوقت، إلا أنه كثيراً ما يسرد بعضها، ولكنه يعقّب عليها بما يفيد بطلانها، أو لا يعقّب عليها، ففى الواقع أن كل المفسرين القدامى سواءٌ فيما يخصّ الإسرائيليات، إلا أن بعضهم قد يورد اللامعقول والخرافى، والبعض كابن كثير قد يورد ما لاضرر منه، فمثلا فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ (يس)، قال عن ابن إسحق، فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، قالوا : إن الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى كان اسمه «حبيب»، وكان يعمل الحرير، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصَدَقة يتصدّق بنصف كسبه، مستقيم الفطرة. وعن مجاهد عن ابن عباس قال : صاحب يس هو حبيب؛ وعن الثورى عن ابن مجلز: اسمه حبيب بن مُرّى، وعن عكرمة عن ابن عباس: اسم صاحب يس حبيب النجّار، وكان قصّاراً وقتله قومه. وعن عمر بن الحكم: كان إسكافاً.

وفى الآية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴿١٣﴾﴾ (يس)، عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه، قال عن القرية: أنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له أنطيخس بن انطيخس بن انطيخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل هم: صادق، وصدوق، وشلوم. وعن وهب بن منبه: كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية.

وأمثال ذلك كان يرويه ابن كثير عن أهل الكتاب وأشباههم، وكان ينهى كلامه بمثل ما يقول: وهذا الأثر والله أعلم إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب، وهي وَقفٌ لا يصدّق منه إلا ما وافق الحق، ولايكذّب منه إلا ما خالف الحق، والباقى لايصدّق ولا يكذّب. ـ أو كان يقول: وما قصّه كثير من المفسرين وغيرهم فعامتها أحاديث بنى إسرائيل، فما وافق الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة، لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً. وما كان من الضرب منها فقد رخّص كثير من السلف فى روايته، وكثير من ذلك مما لافائدة فيه ولاحاصل له مما يُنتفع به فى الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلَّفين فى دينهم لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة.

•••

٤٤٤.﴿السيوطى وتفسيره «الدر المنثور»﴾

قيل فى السيوطى: إنه أعلم زمانه بعلم الحديث وفنونه؛ وقال عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حديث! وقال: ولو وجدت أكثر لحفظت، فسُمّى الحافظ جلال الدين أبو الفضل؛ وهو السيوطى لأنه من أسيوط أصلاً، وإن كان قد ولد سنة ٨٤٩ هـ بالقاهرة، واسمه عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد، وكان شافعياً، وتوفى أبوه وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وختم القرآن وهو ابن ثمانى سنين، وصارت له من المؤلفات ما يزيد على الخمسمائة مؤلف، وتوفى سنة ٩١١ هـ، وله من العمر ٦٢ سنة. وكان قد وضع كتاباً سمّاه «ترجمان القرآن»، جمع فيه تفاسير النبىّ ﷺ، عبارة عن بضع عشر ألف حديث، ما بين مرفوع وموقوف، فى أربع مجلدات، فرأى اختصاره ورفع الأسانيد، والاقتصار على المتون، وسمّاه «الدر المنثور فى التفسير المأثور».

ومع جلال قَدْر السيوطى فإنه لم يتحرّ الصحة فيما جمع، ورَصَد من الروايات ما ليس بصحيح، وتطرّق إلى موضوعات قُضى فيها ببطلانها. والكتاب جامع فقط يروى تفاسير السلف، وينقلها من البخارى، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وأحمد، وأبى داود، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وعبد بن حميد، وابن أبى الدنيا وغيرهم، ولا يستنكف السيوطى أن يورد

الإسرائيليات ، فلا يفحصها ويدقق فيها، ويروى الصحيح منها والباطل، ولايميز بينهما ، فمثلاً في الآية: ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)** ﴾ (المائدة)، قال عن ابن جرير وابن عساكر عن سالم بن أبى الجعد : أن آدم لمّا قَتل أحد ابنيه الآخر، مكث مائة عام لا يضحك حزناً عليه، حتى كان رأس المائة فبشّروه بغلام، فعند ذلك ضحك. وروى عن ابن جرير منسوباً إلى علىّ بن أبى طالب : لمّا قَتل ابن آدم أخاه، بكى آدم وقال:

تغيّرت البلاد ومَن عليها ... فلون الأرض مُغْبَرٌ قبيح

تغيّر كلُّ ذى لون وطعم ... وقلّ بشاشة الوجه المليح

فأجيب بهذه الأبيات :

أبا هابيل قد قتلا جميعاً ... وصار الحىّ كالميت الذبيح

وجاء بشرةٌ قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

والسيوطى لم يراجع هذا الكلام، ولم يطعن فيه، وهو كلام مطعون فيه حقاً، لأن آدم لايعرف الشعر العربى، وشكّك فى الرواية أحمد والجوزجانى والبخارى، ونقد الشعر الزمخشرى والقرطبى والآلوسى ورشيد رضا، وقالوا الشعر منحول ملحون، وقال ابن كثير: هذا الشعر فيه نظر، فقد يكون آدم قد قال كلاماً يتحزّن به فألّفه بعضهم شعراً. وقال القرطبى: آدم ما قال الشعر، وقال الآلوسى عن ابن عباس: من قال إن آدم قد قال شعراً فقد كذب. ـ ولم ير السيوطى بأساً أن يذكر هذه الروايات المكذوبة، وأن يسرد من الإسرائيليات الباطلة فى قصص أيوب وداود ما جعله موضع نقد شديد، وإن كان قد نبّه فى تخريج الأحاديث إلى أنها إسرائيليات عن أهل الكتاب.

وفى قصة يأجوج ومأجوج، يورد السيوطى حديثاً لحذيفة قيل هو عن النبىّ ﷺ : أن يأجوج أُمّة، ومأجوج أمّة، وكل أمة أربعة آلف أُمة، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه، كلٌّ قد حمل السلاح. قال: قلت يارسول الله : صفهم لنا. قال: هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرْز. قلت: وما الأرز ؟ قال: شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع فى السماء. وصنفٌ منهم عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع. قال رسول الله ﷺ : وهؤلاء الذين لايقوم لهم جبل ولا حديد. وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف الأخرى، لا يمرون بفيل، ولا وحش، ولا جمل، ولا خنزير، إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام، وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق فى بحيرة طبرية !! وأمثال ذلك كثير من الأحاديث الموضوعة عند السيوطى ولا ينبّه إليها، ولا يحذّر منها، والحذر واجب من كتب التفسير من أمثار «الدر المنثور».

٤٤٥.﴿الآلوسى وتفسيره «روح المعانى» ﴾

الآلوسى، شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الحسينى، وينسب إلى جزيرة **آلوس** فى وسط نهر الفرات على مقربة من بغداد، فرّ إليها جدّ هذه الأسرة من وجه **هولاكو** التترى عندما هاجم بغداد، وكان ميلاده سنة ١٢١٧ هـ ببغداد، وتوفى بها سنة ١٢٧٠هـ عن عمر يناهز الثالثة والخمسين، وكان علاّمة، محقّقاً، واشتغل بالإفتاء، واشتهر كشيخ لعلماء العراق، وله مصنفات، أبرزها كتابه «**روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم**»، قيل إنه من أجلّ التفاسير وأوسعها وأجمعها، وله مفاهيم بطريق **العباره والإشارة**، وكان فيه على نهج السلف، واهتم بتفنيد دعاوى **المعتزلة والشيعة والمذاهب الأخرى**، وقيل لو جمعنا ردوده عليها لاجتمع لنا منها الشيء الكثير، وردّ على النصارى من أقوالهم، وفنّد عقائدهم، وهو ينقل عن التفاسير السابقة وبخاصة البيضاوي، **وابن عطية، وأبي حيان، والكشّاف، وأبي سعود، والفخر** الرازى وغير ذلك، وغالباً ما **يرفض الإسرائيليات ويمحّص الروايات، ليُخليها** من أية أباطيل، **فلا تشتمل إلا على حقائق ودقائق، يجمع بين المنقول والمعقول**.ويسمّى **رواة الإسرائيليات** باسم «**أرباب الأحبار**»، وقد يرصد الرواية ولكنه ينقدها فيقول : **ويا ليت كُتُب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التى لايصدقها العاقل لأنها أضغاث أحلام**. وفى تفسيره مثلاً للآية : ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ** (١٠٢)﴾ (البقرة)، ينقل مما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى، عن **عائشة** أنها قالت : قَدِمت علىّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته، تسأله عن شيء فيه أمر **السحر** ولم تعمل به. قالت: كان لى زوج غاب عنى، فدخلت علىّ عجوز فشكوتُ إليها، فقالت : إن فعلت ما آمرك أجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين فركبتُ أحدهما، وركبتْ هى الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، فإذا أنا برجلين معلّقين بأرجلهما، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلّم السحر. فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفرى وارجعى. فأبيتُ وقلت لا . قالا: فاذهبى إلى ذلك التنوّر فبولى به ... إلى أن قالت : فذهبت فبلتُ فيه، فرأيت فارساً مقنّعاً بحديد خرج منى، حتى ذهب إلى السماء، وغاب عنى حتى ما أراه، فجئتهما وذكرت لهما، فقالا : صدقت، ذلك إيمانك خرج منك ! وينبّه الآلوسى فيقول : إن اتهام هذه المرأة أولى من اتهام العقل فى قبول هذه الحكاية التى لم يصحّ منها شيء عن رسول الله ﷺ .

ولكن الآلوسى **مع ذلك قد يعمد** إلى إنكار التفسير لظاهر الآية ثم يفسّرها **تفسيراً إشارياً** يعنى **صوفياً**، وفى الآية السابقة ينقل **قصة إسرائيلية** فى معنى الآية السابقة فقال :

إن الملائكة لـمّا تعجبت من مخالفة بنى آدم وقالوا لو كانوا مكانهم ما عصوا الله، فأمرهم ربّهم أن يختاروا اثنين منهم فيهبطان إلى الأرض ويحكمان فى الناس، فاختاروا هاروت وماروت، وجاءا الأرض، فعرضت لهما امرأة يقال لها زهرة، فطلباها فامتنعت، إلا أن يعبدا صنماً، أو يشربا خمراً، أو يقتلا نفساً، ففعلا. ثم تعلّمت منهما كلمات صعدت بها إلى السماء، فمُسخت إلى نجم الزُهَرَة جزاء صعودها. وأما الملكان فخيّرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا، فهما الآن يعذّبان فيها. ولم ينكر الألوسى القصة ولكنه اختار لها معنى إشارياً، وقال إن المراد بهاروت وماروت العقلين: العملى والنظرى، وهما من عالم القدس، وأما المرأة المسماة زهرة فهى النفس الناطقة. ولو لم تكن نزعة التصوف عند الألوسى ما انحرف ذلك الانحراف عمّا كان عليه من إنكار الإسرائيليات، وإيراده لهذه القصة كما يقول: إنما للمعنى الإشارى أو الصوفى بها، ولولا ذلك لما تعرّض للقصة أصلاً. وقريباً من ذلك إيراده لقصة عن كعب الأحبار وقيس بن خرسة، فقد مرّا على مكان بالعراق قرب صفّين قبل أن تجرى الوقعة فيها بين علىّ ومعاوية، وتوقف كعب وقال متنبئاً: ليهراقن هنا من دماء المسلمين شىء لا يهراق ببقعة من الأرض! فقال له قيس: ما يدريك، فإن هذا من الغيب الذى استأثر به الله؟! فقال كعب: ما من الأرض شبر إلا مكتوبٌ فى التوراة الذى أنزل الله على موسى: ما يكون عليه، وما يخرج منه إلى يوم القيامة؟!!ولم يرفض الألوسى القصة، ولم يسخر منها كعادته، ولكنه تعلّل لها وقال: لعلّ ذلك من باب الرمز كما ندّعيه فى القرآن!!! - فأولاً: قال ندّعيه، ونحن لا ندّعى مثل هذا التفسير، وثانياً أنه فى القرآن لايمكن أن يقال فيه ما قاله كعب فى التوراة، أنه ليس فى العالم ولا فى الأرض شبرٌ إلا قد كتب فيه - أى القرآن - ما يقع فيه، وما يخرج منه، فكيف يصدّق ذلك عن التوراة ويسكت عليه؟!! وشبيهٌ به سكوته عن ماهية ألواح موسى: كم عددها، ومن أى خشب كانت؟ وبيّن أنهم اختلفوا فى عددها بين اثنين وسبعة وعشرة، وأنها كانت من الزمرد أو الزبرجد، أو من ياقوتة، وروى الحديث الذى ينسبونه إلى النبىّ ﷺ: «الألواح التى نزلت على موسى كانت من سدر الجنة، وكان طول اللوح اثنى عشر ذراعاً» - ونقول: وهل كان موسى يقدر أن يحملها إذن؟ وقالوا: إن الألواح كانت من صخرة صماء، لينّها الله له، وقطّعها بيده، وكتب عليها - أى الله - بأصابعه! كل ذلك من الأباطيل كما ترى، ولولا أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه، ما عرفها الصحابة البسطاء، ولأنهم كانوا بسطاء صدّقوا، ولم يمحّصها الرواة من أمثال الألوسى. ومن ذلك ما ذكره أهل الكتاب عن عصا موسى التى ضربت الحجر فانفجرت

منه اثنتا عشرة عيناً، وقالوا إن العصا من آس الجنة، وطولها عشرة أذرع هى طول موسى، ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة، وأنه ورثها عن شعيب الذى ورثها عن آبائه، وليس من ذلك شيء فى القرآن ولا فى الحديث، ولكن الآلوسى أورد الرواية ولم يكذّبها ولا ناقشها، **الأمر الذى يجعلنا نتشكك في قدرته كمفسّر، على الوفاء بوعده الذي بذله في أول الكتاب، بأنه لن يورد الإسرائيليات لأنها من الخرافات، ويبدو أن كل المفسرين ليس بوسعهم أن يمتنعوا عن إشباع محبة الناس للأخبار**، ومن ثم فقد يبذل المفسّر الوعود بأنه سيتخلّص من الأخبار، ولكنه ينسى وعده، وينخرط في النقل لها، لأنه يحب ذلك هو نفسه. ويقرّ الآلوسى بذلك فى تفسير الآية: **﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ (٨٢)﴾** (النمل) فبعد أن يذكر صفات الدابة بحسب الإسرائيليات، يعتذر قائلاً: وإنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطّلاع على شيء من أخبارها صدقاً كان أو كذباً!!



٤٤٦.﴿ابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأمة؟!﴾

اشتهر ابن عباس بأنه من المُدْخلين للإسرائيليات في تفسير القرآن، وهو العمدة في ذلك ورأس الرواة للإسرائيليات، فهل كان كذلك حقاً، أم أن الوضّاعين نسبوا إليه ما لم يقله، لأنه من بيت النبوة أولاً، فلو نسبوا إليه أى شيء فلن يكذّبهم أحد، ثم إنه من العباسيين، والوضّاعون كانوا يتقربون إليهم بأن ينسبوا الأحاديث لعميدهم، وكذلك فإن ابن عباس كان كثير الرواية حتى لتختلط الأمور على الناس: هل قال ذلك حقاً أم لم يقله؟

وابن عباس اسمه بالكامل: **عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف،** فهو ابن عمّ النبىّ ﷺ، ولد والنبىّ بمكة، ولمّا توفى النبىّ ﷺ، كان لابن عباس **ثلاث عشرة سنة**، وتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ. والروايات حوله كثيرة لا حدود لها، ومن ذلك الحديث الذى نسبوه للرسول ﷺ عنه: «**اللهم فقّهه فى الدين وعلّمه التأويل**»، فكأنما كان الرسول يستقرئ **الغيب**، مع أن الله تعالى يقول على لسان الرسول ﷺ: **﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (٥٠)﴾** (الأنعام)، ويقول: **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ (١٨٨)﴾** (الأعراف)، وما كان النبىّ ﷺ يعلم من الغيب إلا ما يفيد الرسالة، كقوله تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾** (الجن)، وكذلك قال: **﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (٤٤)﴾** (آل عمران)، والتنبؤ بمستقبل ابن

عباس ليس من الرسالة في شيء، والكثير من هذه الأحاديث قيل فى عدد هائل من الصحابة يروّج لهم أتباعهم وأصحاب المصلحة، وحديث: «**اللهم فقّهه فى الدين وعلّمه التأويل**» من ذلك، **وأي تأويل أو دين هذا الذى تعلّمه ابن عباس برواية الإسرائيليات، وإفساد تفسير القرآن على المسلمين**؟! ومع ذلك قد كانت هناك محاولات لتبرئته، فأحصوا له ١٦٦٠ حديثاً من روايته. منها ٢٣٤ أخرجها الشيخان، واتفقا منها على ٧٥، وكان نصيب البخارى وحده من أحاديثه ١١٠، ولمسلم منها ٤٩، وعُرفت له الكثير من الروايات، ونُسب إليه تفسيرٌ للقرآن باسم: «**تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**» ذكره **الفيروزابادى**، صاحب **قاموس المحيط**، فى أربعمائة صفحة من القطع الكبير، وإذا كان صحيحاً ما يقوله الشافعى نفياً لذلك، فإنه لم يثبت له إلاّ **نحو مائة حديث**، ومع ذلك أذاعوا أن عمر بن الخطاب قال فيه: «**إن ابن عباس فتى الكهول، له لسان قئول، وقلب عقول**»؟ وكان ابن عباس وقت أن توفى عمر فى **الخامسة والعشرين** من عمره، ووقت أن توفى الرسول ﷺ **فى الثالثة عشرة!** وربما كانت لابن عباس موهبة النقل منذ صغره، وقد يشتهر لذلك بالتفسير فعلاً ويعلو ذكره فيه، وربما لذلك قال فيه **شيخ** كبير مثل **ابن تيمية**: «**إن أهل مكة أعلم بالتفسير لأنهم أصحاب ابن عباس**»! ويبدو أن واقع الحال يثبت ذلك فقد كانت له مدرسته واتباعه، وروى عنه كثيرون مثل: **علىّ بن أبى طلحة، وسعيد بن جبير، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، والضحّاك** بن مزاحم، **وعطيه العوفى، وابن صالح، وابن مالك، والكلبى**. وعن أهل الكتاب أمثال **عبد الله** بن سلام، **وكعب الأحبار** وغيرهما أخذ ابن عباس علمه بالتفسير، وقيل: كان رجوعه إليهم لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى كثير من المواضع!! وهؤلاء كانوا يعلمون من **الأدب الشعبى الدينى** ما يزيد على التوراة والأناجيل، وإلا كان ابن عباس قد اكتفى بالرجوع إلى هذه الكتب دون هؤلاء الناس، فأحاديث **سليمان مع بلقيس والجن**، والروايات حول **داود ويوسف وأهل الكهف وموسى** وغير ذلك، مكانها الأدب الشعبى الدينى (**الفولكلور الدينى**) وليس التوراة، وكانت أكثر الكتب اليهودية فيه وقتذاك، مثلما نجده الآن عن الجنة والنار وعذاب القبر ... إلخ، من الكتب الذائعة عند سواد الناس عن الإسلام، وليس شيء منها فى القرآن ولا فى الحديث الصحيح. **وتُنسَب لابن عباس روايات من الإسرائيليات فى غاية السذاجة**، حتى أن بعض **النقاد قالوا إن أهل الكتاب كان يضحكون على ابن عباس ويكذبون عليه، وكان يصدّقهم وينقل عنهم**! ومصطلح **الإسرائيليات** لم يكن أصلاً عن الاجتهادات فى تفسير آيات القرآن القريبة من الروايات فى التوراة، ولكنه كان عن **القصص الشعبى الإسرائيلى** القريب من هذا

القصص الموجود فى القرآن، وأكثره كان يؤلف خصيصاً لتفسير القرآن. والذين رووا الإسرائيليات كروايات للتفسير، احتجوا بأن القرآن نفسه مليء بالقصص الإسرائيلي، وأطلقوا على رواياتهم اسم **الإسرائيليات**، وادّعوا أن نشأة الاسم كانت بسبب الحكايات والمسائل اليهودية في القرآن، ثم واصلها هؤلاء. **وكان ابن عباس يرى أن القرآن لا يحوى فقط قصصاً إسرائيلياً ولكنه يتضمن كذلك مصطلحات إسرائيلية**. وقد تكون أصولها عبرانية محضة! ولذلك لم يكن يرى - كما يقول **جولدتسيهر** - أية غضاضة فى الرجوع إلى اليهود وخاصة **كعب الأحبار وعبد الله بن سلام** يسألهما في ذلك، ومن هذه الكلمات مثلاً: **جبريل، وميكال، وإسرافيل، واليَمّ، وأم الكتاب** ... إلخ، وهناك مسائل أخذ فيها ابن عباس موقف أهل الكتاب باعتبار أنهم الأحسن فهماً للمعاني الدينية، والأدرى بالأصول، كما فى مسألة **ذبيح إبراهيم** : هل هو إسماعيل أم إسحق ؟ وروى ابن عباس أحاديث عن الرسول ﷺ مفادها أنه **إسحق**! وكان من رأيه الشخصى أنه **إسحق!** وفي روايات أخرى قال إنه **إسماعيل** وأن اليهود تكذب إذ تقول إنه إسحق !

ومن الروايات الشائنة المنسوبة لابن عباس أنه الذى اذاع التفسير القبيح للآية: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** (٣٧)﴾(الأحزاب) وقال: إن الذى أخفاه هو حبُّه ﷺ لزينب وهى فى عصمة زيد. وهذا التفسير أخذه عنه **قتادة**، وتلقفه منهما **يوحنا الدمشقي**، وعنه أذاعه المستشرقون. **وابن عباس** توفى سنة ٦٨٨ م، وقتادة سنة ٧٣٦ م، بينما **الدمشقى** توفى سنة ٧٤٩م. والكثيرون يلقون باللوم على الدمشقى، بينما اللوم يقع على ابن عباس فى الأساس، وما كان ابن عباس قد رأى الواقعة أصلاً، لأن الرسول ﷺ تزوج **زينب بنت جحش فى السنة الخامسة للهجرة**، وكان ابن عباس آنذاك **فى السابعة** من عمره !

وتكثر الروايات المتناقضة عن تفسير ابن عباس للآية الواحدة من القرآن، وبالقطع فإن السبب فى ذلك هم أصحاب التفاسير الذين ملأوا كتبهم بروايات الوضّاعين والإسرائيليين، **وقد يحدو ذلك بالبعض إلى طرح كل تفاسير ابن عباس، والأولى أن لا نحفل منها بما يتضمن إحالات للتراث الدينى اليهودى، وما يشتمل على أخبار ما كان يتسنى لابن عباس أو غيره أن يعرف بها، وأن نكتفى من تفاسيره بما يقتصر على آيات القرآن لا غير بدون زيادة.**

●●●

٤٤٧. ﴿هل كان أبو هريرة تلميذاً للإسرائيليين ؟!﴾

أبو هريرة، عبد الرحمن بن صخر، أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله ﷺ، وكنيته

أبوهـريرة، لأنه تعـهـد قطيطة عثر عليها وهو طفل فكنّـوه هكذا لهذا السبب. والذى يثير التساؤلات حول أبى هريرة هو: أنه لم يُسلم إلا فى السنة السابعة من الهجرة؟! وقيل إنه أكْثَرَ من رواية الحديث لأنه لازم الرسول ﷺ من وقت إسلامه فى السنة السابعة حتى وفاة الرسـول ﷺ فى السنة الحادية عـشرة، وكانت له ذاكرة حـافظة، وبينما كان الناس ينصرفون عن الرسول ليـأكلوا أو ليشتروا ويبيعوا، فـإن أبا هريرة لم يكن يبارحه، وخلال الاربع سنوات التى لازمه فيـها، وعى عنه الكثير من الحديث، جاء منهـا فى مسند أحمد ٣٨٤٨ حديثـاً، وفيهـا المكرر الكثيـر باللفظ أو المعنى؛ وفى مسند بقـى بن مخلد ٥٣٧٤ حديثا، وفى الصحـيحين ٣٢٥ حديثاً فقط، منها ٦٣ عـند البخارى، و١٨٩ عند مسلم. ومات أبو هـريرة سنة ٥٧ هـ، يعنى ظل يروى بعد الرسـول ﷺ ٤٦ سنة! **وليـست المشكلة فى كثرة رواياته، وإنما المشكلة أنه كان من تلاميذ كعب الأحبار الذى ادّعى الإسلام ودسّ الإسرائيليات فى تفاسير القرآن، وكـان من تلاميذه كذلك ابن عباس، ومن خلال هذين تمت - فى رأى كثير من المستنيرين - أكبر حركة تغلغل للفكر اليـهودى فى التفاسير الإسلامية، سواء للقرآن أو للحديث، من نوع التـفسيـر بالأخبار، وهو مـا تحب العامة والسواد أن يسـمعوه من المفـسرين والمحدثين.** وكان أبو هريرة إذا حدّث كعب الأخبار، عن الرسول ﷺ لم يتجاوب معه كعب الأحبار وإنما يحدّثه عن التـوراة، حتى صار أبو هريرة **يحفظ عن التـوراة** كأنمـا قد قرأه. فكان كـعب الأحبار يقول فـيه : **ما رأيت أحـداً لم يقرأ التـوراة أعلم بما فيـها من أبى هريرة!!!**

وكان أبو هريرة من فقراء الصُفّة، وبسيط التفكير للغاية، ولا طموحات له، وفيه غفلة وغِرّة استغلهما كـعب الأحبار أسواء استغلال، وما كانت سذاجـة أبى هريرة تستطيع شيئاً إلى جـوار دهاء **كـعب**. وقد تنبّـه أهل العلم من المسلمين من قديم لمؤامـرة كعب ضد الإسلام من خلال شخصيات مثل **أبى هريرة**. ومن هؤلاء: **النظّام، والمريسى، والبلخى**؛ ومن المُحدَثين رشيد رضا، **وأحـمد أمين، وعبد الحسين الهاملى، ومحمود أبو رية، ومصطفى محمود**. ويبدو أن أول من انخدع من الصحابة فى **كعب هو أبو هريرة، فوثق فيه**، وروى عنه وعن اليهود الآخـرين الذين أعلنوا الإسلام تَقيّة. وإنه لأمـر غاية فى العجب أن يعلّم أبو هريرة التوراة وهو لم يقرأها، وذلك دلـيل الصُحبة الشديدة، والملازمة العـتيدة لكعب الأحبار، ولم يكن كعب بالحُـمق فيعارض أبا هريرة فى الصغيرة والكبـيرة، فإذا وجد من أبى هريرة رفضاً لكلامـه سايره فيما يذهب إليه تألّفاً له، ومـن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر **يوم الجمعة** فقال : **فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو**

قائم يصلى، يسأل الله تعالى شيئاً، إلا أعطاه إياه». واختلف السلف في تعيين هذه الساعة، وهل هي باقية أم أنها رُفعت ؟ وإذا كانت باقية فهل هي في جمعة واحدة في السنة أو في كل جمعة منها ؟ وسأل أبو هريرة كعباً عن ذلك، فأجابه بأنها في جمعة واحدة من السنة، فردّ عليه أبو هريرة قوله، وبيّن له أنها في كل جمعة. وهنا رجع كعب ... كما قال ـ إلى التوراة، فرأى أن الصواب مع أبي هريرة!! والحقيقة أنه ليس شيء من ذلك البتة في التوراة، وأن الحديث أصلاً من إيحاء كعب وجعله الرواة على لسان أبي هريرة، وأذاع كعب هذه الحكاية عن الحديث ليوثقه، وليصدّقه الناس، وفي ذلك يقول بشير بن سعيد: اتقوا الله وتحفّظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدّث عن رسول الله ﷺ، ويحدّثنا عن كعب الأحبار، ثم يقوم، فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب، ويجعل حديث كعب عن رسول الله ﷺ. ومن ذلك الحديث عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، فيما زعم أنه قال: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، اقرأوا إن شئتم وظل ممدود»، إشارة إلى الآية من سورة الواقعة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠)﴾، فقال كعب: والذى أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد ... إلخ، يعنى أنه وافقه. والقول في أوصاف شجر الجنة من الغيب ولا يعلمه إلا الله، ولا نعلم عن ذلك إلا ما جاءنا به القرآن، وما أوحي إلى محمد ﷺ من العلم الذى يخدم إبلاغ الرسالة، كقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾ (الجن).

والرأى إذن أن نتحفظ في كل ما نسمع من الحديث أو التفسير، وخاصة عندما يتعلق الأمر بأمثال كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، ووهب بن منبه، من اليهود السابقين الذين دخلوا الإسلام، وظهر جلياً أنهم إنما فعلوا ذلك تقية، أو بمن تلقى على هؤلاء وكان به ولعٌ بالثقافة العبرية وعُرف عنه تأثره بها، أمثال ابن عباس، وأبى هريرة وغيرهما.

●●●

٤٤٨.﴿هل عبد الله بن عمرو بن العاص إسرائيلى الميول ؟!﴾

أسلم عبد الله قبل أبيه، وروى عنه كثيرون، منهم سعيد بن المسيب، وعروة، وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن، ومسروق وغيرهم، وتوفى غالباً بمصر سنة ٦٣ هـ.

وعند البخارى عن أبى هريرة قال: ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله ﷺ منى، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»، يعنى كانت لابن عمرو صحيفة يكتب فيها كل ما يسمعه بخلاف أبى هريرة، وعابوا على عبد الله أن يكتب عن النبيّ ﷺ «كل شيء»، لأنه قد يغضب وقد يرضى، فلا يصحّ أن يكتب كل ما يسمع،

وقال عمرو إنه نقل ذلك إلى الرسول ﷺ، فأومأ بإصبعه إلى فيه، وقال: «**أكتب فوالذى نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق**». والحديث يتناول ما يقوله الرسول ﷺ عن ربّه وليس أى كلام يقوله، مثلما أوضح فى حديثه عن تأبير النخل، فليس كل ما يقوله الرسول ﷺ **يمكن إذن كتابته**. ومع ذلك فليس هناك ما يشير إلى أن ابن عمرو كان يكتب «**كل شيء**»، إلا أنه كان يسمى صحيفته «**الصادقة**»، ويقول فيها : «**هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله** ﷺ **ليس بيني وبينه فيها أحد**». ومعنى ذلك أنه لايوجد من يشهد على صدق ما يروى!! وقيل: **إنه تعلم السريانية بعد فتوحات الشام، وأنه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك، وأنه كان يحدّث الناس بما فيها**، ولا يوجد ما يدل على صدقه فيما كان يقول، ولم يوجد من يختبره في علمه هذا، وكان **كلما تحدّث ينسب ما يقول إلى أهل الكتاب فملّه الناس وزهدوا فى أحاديثه!** وفى مسند أحمد أن أحد سامعيه قال له : **حدّثني ما سمعت من رسول الله** ﷺ، **ودعني وما وجدتَ فى وسَقَيْك يوم اليرموك** (يعنى الزاملتين أو الحافظتين)! وقال له آخر: **حدّثني ما سمعت من رسول الله** ﷺ **ولا تحدثنى عن التوراة والإنجيل!!** وعن ابن حزم أن ما رواه ابن عمرو عن الرسول ﷺ بلغ **سبعمائة** حديث، الأمر الذى يعنى أن أبا هريرة قد بالغ عندما قال إن ابن عمرو **أكثر رواية منه عن رسول الله** ﷺ ، لأن أحاديث أبي هريرة بلغت فى تقدير الكثيرين ٥٣٧٤ حديثاً. فأين ذهبت هذه الأحاديث؟ وعابوا على ابن عمرو: أن الناس كانت تجلس إليه ليحدّثهم عن رسول الله ﷺ، فلا يحدثهم إلا عن **التوراة والإنجيل**، وفى ذلك قال **معاوية بن أبى سفيان**: بلغنى أن رجالاً منكم يتحدّثون أحاديث ليست فى كتاب الله! ثم وجّه الحديث لابن عمرو واستطرد: ولا تُؤثَر عن رسول الله ﷺ»!! ثم إن ابن عمرو هذا صاحب حديث : « **عمّار تقتله الفئة الباغية**»، والرسول ﷺ بهذا الحديث **يتنبأ** مع أنه لا يعلم الغيب إلا ما كان من أمر الدعوة، ونحسب أن أمر عمّار ليس من الدعوة فى شيء! ولهذا وأمثاله قال ابن عمرو : **قد نُهينا عن الحديث**. يعنى أن معاوية نهاه عن الحديث عن رسول الله ﷺ . ومما كان يحدّث به: مكتوب في التوراة: من تجَر فجَر، ومَن حَفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها. والجزء الثانى من هذا الحديث في المزامير وليس فى التوراة كما يدّعى!!

على أن أعظم فرية قالها ابن عمرو، حديثه عن صفة رسول الله ﷺ التى جاء عنها فى القرآن فى الآية: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** (١٥٧)﴾ (الأعراف)، والآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** (٤٥)﴾ (الأحزاب)، فقد قال: أجل والله، إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن،

وقال: في التوراة : يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلفاً». وكلامه جانبه الصواب، لأنه ليس في التوراة التي هي كتب موسى الخمسة مثل هذا الكلام البتة، غير أنه قد ورد كلامٌ يقرب في المعنى من ذلك في سفر أشعيا، الفصل الثاني والأربعين، ونصُّه : هوذا عبدي الذي أعضُدُه، مختاري الذي سُرّت به نفسي، قد جعلتُ روحي عليه، فهو يُبدي الحُكم للأمم، لايصيح ولا يُجلِّب، ولا يُسمع صوته في الشوارع، قصبةً مرضوضةً لاينكسر، وكتّاناً مُدخّناً لايُطفئ، يُبرز الحُكم بحسب الحق؛ لايني ولا ينكسر، إلى أن يجعل الحكم في الأرض، فلشريعته تنتظر الأمم. هكذا قال الربّ» (١/ ٥)، فإن كان ابن عمرو يشير إلى هذه العبارات فقد تجاوز في النقل عنها، وقد أخطأ إذ يذكر أنها من التوراة. وأشعيا ليس سوى متنبيء، ونبؤته يفسّرها النصارى بأنها عن المسيح! وفسّرها ابن عمرو أنها عن محمد ﷺ ! تفسيراً لما جاء في القرآن، وهذا خطأ لأن حديث القرآن عمّا يرد عن مجيء النبيّ ﷺ في التوراة وليس في نبوءة لأشعيا ! ولقد جاء نحو حديث ابن عمرو عن كعب الأحبار، وعن عبد الله بن سلام، وهما يهوديان قبل إسلامهما، وثقافتهما إسرائيلية، وتُنسب إليهما الكثير من الإسرائيليات، وكان كعب يرعى ابن عمرو، وكان يقرّظه كلما يسمعه يرجع إلى التوراة فيما يقول، فكلما تكلم بفتوى أثنى عليه وقال: أنت أفقه العرب ! إنها لمكتوبة في التوراة كما قلت»! وقد نُسب إلى ابن عمرو أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يحدثنا عن بني إسرائيل حتى يُصبح، ما يقوم إلا على عُظم صلاة»!! والثابت غير ذلك تماماً، وحديث «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، لايعني جواز الدعوة إلى اليهودية! ناهيك عن أن الحديث أوله لا علاقة له بآخره، ثم إنه يناقض الحديث الآخر : «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم، وقولوا آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدّقوه، وإن كان حقاً لم تكذّبوه»، ولا تعني الآية: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴿٩٤﴾﴾(يونس) أن التوراة تهيمن على القرآن وأنها الأصل، وإلا ما ذكر الله تعالى أنها حُرّفت، وإنما تفسير هذه الآية يكون بالذي قبلها، والذي قبلها كان عن قصة موسى مع فرعون وما وافق ذلك من أحداث، وما ذكرت التوراة من القصة متوافق مع ما ذكره القرآن، وإن زاد القرآن هذه الأحداث تفصيلاً، ولو سُئل أهل الكتاب عمّا جاء منها في القرآن لأمنّوا عليه وما خالفوه، فذلك معنى الأمر: ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾(يونس٩٤) : غير أن ابن عمرو لم يكن يفسّر

القرآن **بالتوراة** ولكنه كان يفسّره **بالإسرائيليات**، ولذا قال الثقاة فيه: إن عبد الله بن عمرو كان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، وكان يرويها للناس . فتجنّب الأخذ عنه كثيرٌ من أئمة التابعين. وكان يقال له : لا تحدّثنا عن الزاملتين.

فيا أخي ، إن رأيتَ حديثاً به ما يخالف القرآن فلا تصدّقه مهما كانت مكانة صاحبه. وابن عمرو هو صاحب الحديث : **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا**»، وكما ترى الحديث به الكثير من العوَر، **لأن الله تعالى لا يقبض العلم**، ومع كرّ السنين يزداد وعى الناس. **وتطوُّر الروح** الذى قال به الفلاسفة هو تطورٌ **فى الوعى الإنسانى**، وما وُجد بلدٌ قطّ إلا والله تعالى يقيّض له علماء، والثقافات تتلاقح، والعلم ينتقل من البلد الأكثر علمًا إلى البلد الأقل علماً. **ويكفى فى هذا** الحديث **أن عائشة استنكرته أشد الاستنكار!!**

ومثل ذلك الحديث عن ابن عمرو : «**من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر**»، فلا سبب يدعو لأن يوقى هذه الفتنة، ثم إن **فتنة القبر** هذه لم يرد عنها شيء فى القرآن. وأيضاً حديث : «**لايُقتل مؤمن بكافر**»، فلماذا؟ والقرآن عكس ذلك تماماً، يقول: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴿٣٢﴾﴾ (المائدة)، فساوى الله تعالى بين نفس المؤمن ونفس الكافر، ونهى عن القتل كليةً، ولم يفرّق القرآن بين الكافر والمؤمن، طالما أن الكافر لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجهم من ديارهم، فقال: ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ** ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة) فلم يمايز بين المؤمن والكافر فى العقاب على الجُرم. ومن أحاديث ابن عمرو المعتبرة من الإسرائيليات ادعاؤه بأن رسول الله ﷺ قال: **يخرج الدجّال فى أمتي فيلبث فيها أربعين، لا أدرى أربعين يوماً أو شهراً أو سنةً، فيبعث الله عيسى ابن مريم فيظهر فيهلكه، ثم لا يلبث الناس بعده سنين سبعاً، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضه، حتى لو أن أحدهم كان فى كبد جبل. ويبقى شرار الناس، فى خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثّل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارّة أرزاقهم، حسنٌ عيشهم. ثم ينفخ فى الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجلٌ يلوط حوضه، فيُصعَق، ثم لا يبقى أحدٌ إلا صُعق، ثم يرسل الله قَطراً كأنه الطَّل أو الظِّل، نُعمان الشاكُّ، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال : يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسئولون. ثم يقال : أخرجوا**

بَعْث النار، فيقال كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، **فيومئذ يُبعث الولدان شيباً، ويومئذ يُكشَف عن ساق»** ! ـ فمثل هذا الحديث غريبٌ في بابه وصُوَره، ولا نشك أنه من الإسرائيليات، ومع ذلك فقد تجرأ عبد الله بن عمرو ونسبه إلى رسول الله ﷺ !

●●●

٤٤٩. ﴿عبد الله بن سلام ؟ هل تقبل رواياته ؟!﴾

ابن سلام إسرائيلي وقيل إنه أسلم، وكان اسمه قبل الإسلام «**الحصين**»، وسمّاه الرسول ﷺ بعد إسلامه «**عبد الله**» ، وتوفي في المدينة سنة ٤٣ هـ. وقيل في مكانته عند اليهود إنه كان من **الأحبار**، ولا شيء مؤكد من ذلك، وفيه نزلت الآية: ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ** (١٠) ﴾ (الأحقاف)، وروى عنه كثيرون، منهم: **أبو هريرة، وأبو بردة، وعطاء بن يسار**، وغيرهم، واتُّهم بأنه من مؤلفّي **الإسرائيليات** ومروّجيها بين المسلمين، كحديثه الذي نسبه إلى النبيّ ﷺ : «**خلق الله آدم يوم الجمعة، وأُهبط إلى الأرض يوم الجمعة، وقبضه يوم الجمعة، وفيه تقوم الساعة فهي آخر ساعة**» ! وفي قول آخر قال: «**هي فيما بين العصر والمغرب**» ! وكل ذلك من الغيب، ولايعلم الغيب ولا الساعة إلا الله!

●●●

٤٥٠. ﴿وما الشأن مع تميم الداريّ النصراني ؟﴾

كان تميم من نصارى اليمن، وأسلم سنة تسع هجرية، وروى عن النبيّ ﷺ ، وروى عنه **ابن عمرو، وابن عباس، وأبو هريرة، وعبد الله بن وهب، وشهر بن حوشب، وعطاء بن يزيد، وروح بن زنباع، وجميعهم متهمون بالإسرائيليات**، وكذلك تميم، ويبدو أن المسلمين الأوائل كانوا مغرمين بالتهويل، فقالوا عنه إنه **كان يختم القرآن في الركعة !!** وقالوا **هو أول من أسرج السراج في المسجد ؟! وأول مَن قصّ**، وكان ذلك في عهد عمر، ومن ذلك الفرية الكبرى التي اشتهرت باسم **قصة الجسّاسة والدجّال**، والتي قيل أنه هو الذي رواها للنبيّ ﷺ ووافقه عليها. واسم **الإسرائيليات** يسري على المستدخلات من الخرافات على الإسلام من أحاديث أو تفسير، سواء من **بني إسرائيل أو من النصارى**، وقال المفسّرون: إن **حديث الجسّاسة** يفسّر آية القرآن عن **دابة الأرض**، وإن خروج هذه الدابة لمن علامات الساعة، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ** (٨٢)﴾ (النمل)، وقد وردت في ذكر دابة الأرض أحاديث كثيرة، **جميعها موضوعة**، وسميت الدابة باسم **الجسّاسة، لتجسّسها** الأخبار للدجّال، وقيل: هي دابّة أهلَب ـ أي كثيرة الشعر،

فلا تدرى ما قُبُلها من دُبُـرها من كثرة الشعر! والقصة برمتهـا كأنها من ألف ليلة وليست من الدين، ولا تخبر عن شيء من عقيدة الإسلام، وواضح أن أهل الكتاب وعلى رأسهم تميم الداريّ هذا أرادوا بغرس قصة الجسّاسة ضمن البناء الدينى الإسلامي، أن يحيدوا بالإسلام إلى الأساطير والخرافة، ويطمسوا فيه الصفة العقلانية الواضحة، حتى ليكاد القرآن يكون كتاباً فى العلم وليس في الدين، الأمر الذى يؤكد أن أمثال هذه الأحاديث مدسوسة، ولم يكن تميم فى حديث الجسّاسة إلا قصّاصاً مدلّساً وليس محدّثاً كالمحدّثين. فلتحذر يا أخى أشباه تميم، وأمثال قصتيّ الجسّاسة والدجّال!

•••

٤٥١.﴿شبهة أن يكون للقرآن أسلوبان، فالسُّوَر المكية لها أسلوب، والسُّوَر المدنية لها أسلوب؟﴾

الذين ادّعوا ذلك فسّروا ادّعاءهم بأن المناخ النفسى العام فى مكة لم يكن هو نفسه مناخ المدينة، وكذلك ثقافة مكة ليست كثقافة المدينة. والتكوين السكانى لأهل مكة ليس هو التكوين السكانى لأهل المدينة، ومن ثم اختلف تفكير الاثنين، وكان لابد أن تأتى آيات القرآن وقد طبعها ذلك التباين، ولذلك كانت الآيات المكية فيها العذاب والقسوة، والشدّة والعنف والحدّة، والوعيد، والتهديد، من أمثال قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ (المسد)، وقوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣)﴾ (الفجر)، والمقصود بذلك أن يثبتوا أن مؤلف القرآن هو محمد، وأنه تأثر بطريقة استقبال الناس له، وانعكس ذلك على كلامه معهم، والصحيح أن القرآن فى مكة هو القرآن في المدينة، فما قالوا إنه قسوة وشدة فى الآيات فى مكة، إنما مثله في المدينة، ففى سورة البقرة وهى مدنية يجيء أيضاً قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة٢٤)، والشَّبَه قائمٌ بينها وبين الآيات المكّية والأسلوب واحد، سواء فى مكة أو فى المدينة، ولكن الموضوعات اختلفت، لأنه فى مكة كان الانشغال بالدعوة وتقرير مبادىء الإسلام، وأما فى المدينة فالاهتمام بالتشريع، وفى الحالتين كان لابد من مراعاة أحوال المخاطبين أو حاجاتهم. ورغم قولهم أن الآيات المكية فيها قسوة فإنها تخلو من الحضّ على القتال، وتأمر بالتسامح والعفو والصبر الجميل، وبردّ الإساءة بالحسنة، والقول بالأحسن، بينما فى الآيات المدنية شُرّع القتال، واستُنفر المسلمون للجهاد، ومن ثم تتهافت هذه الشُبهة كتهافت غيرها.

•••

٤٥٢.﴿شبهة أن السُّوَر المكية أقل استنارة من السور المدنية؟﴾

قالوا فى الطعن على القرآن: أن محمداً ﷺ كان أمياً فى مكة وبين أمّيين، فكانت

مخاطباته للناس قصيرة موجزة تناسب أفهامهم، لأن ثقافتهم كانت ثقافة بدوية، وحضارتهم كانت حضارة وثنية متخلّفة، بينما كان الناس فى المدينة أهل كتاب غالباً، ولهم دراية بالتوحيد، وأصحاب تشريعات وفلسفة، وثقافتهم ثقافة عبرانية غالباً، فكان علي محمد ﷺ أن يرتقى إلى مستواهم، وأن يخاطبهم بما ينبغي لهم ،فهذا هو سبب اختلاف أسلوب السور المدنية عن السور المكية. وهذا غير صحيح، فهناك سور طويلة مكية مثل سورة: الأنعام والأعراف والكهف، فليست كل السور المكية قصيرة، وكذلك ليست كل السور المدنية طويلة، فالنصر مثلاً مدنية، وقيل إنها آخر سورة مدنية، وآياتها ثلاث آيات فقط! وبعض السور المكية فيها من الروح العامة من السور المدنية، وأيضاً فإن الروح المكية تنضح فى بعض السور المدنية، لأن الصلة معقودة بين السور هنا وهناك، والتناسب كذلك مطلوب فيهما، فكل سورة لها مقاصدها وما يناسبها من الأسلوب، بحسب موضوعاتها، والمهم أن القرآن على طوله، عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الآيات والسور المحكمة، كالعقد، حبّاته هنا أو هناك تكون أصغر أو أكبر لتكوّن معاً فى النهاية نَظْماً متكاملاً متناسقاً رضياً . ثم إن القصَر فى السور ليس دليل انحطاط ثقافى ، وإنما مظهرُ إيجاز لايتوفر إلا لقوم يمتازون بالذكاء والفهم، كما أن التطويل مظهر إطناب لايُقصَد به إلا أن يفهم الذين يتأبوّن على الفهم ويستعصى عليهم الإدراك بسرعة. واليهود فى التوراة يميلون إلى التطويل، واشتكى أنبياؤهم من شدّة غبائهم وعنادهم وجحودهم، وحاجتهم إلى الشرح الكثير، والتفسير المطنب، ولو كان أهل المدينة أذكى من أهل مكة، فلماذا لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل سورة من القرآن أو حتى آية، وقد أعيا ذلك أهل مكة منحطّي الثقافة؟!



٤٥٣. «شبهة أن الشريعة كانت فى المدينة بسبب اليهود»

من أكاذيب المستشرقين أنه لولا وجود اليهود فى المدينة لما كانت التشريعات التى حفلت بها السُّور المدنية .ولو كان هذا صحيحاً، وكان لليهود هذا الأثر الإيجابى الإنشائى على الإسلام، فلماذا لم يكن لهم هذا الأثر على عرب المدينة، وعلى عرب الجزيرة كلها قبل الإسلام؟ ثم إن القرآن لم يأخذ منهم، وإنما جاء لإصلاح ما هو قائم وفاسد عندهم، سواء فى العقيدة، أو فى التحليل والتحريم، فكيف يستدين المصيب من المخطىء؟ وكيف يرجع من هو على صواب إلى من هو على خطأ؟ والأصل فى الحضارات أنها تكون فى بدايتها بسيطة وتؤكد على الكليات، ثم تتفرع منها إلى الجزئيات والتفاصيل، وهكذا كان الإسلام فى مكة يهتم بالعقيدة، ثم فى المدينة استكمل التشريع؛ وحتى وهو فى مكة لم

ينس التشريع، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ (١٥١) ﴾(الانعام) .
وعندما يبدأ معلم في التعليم، فإنه أول ما يعطى تلاميذه المبادى، فكلما تقدّموا وزاد استعدادهم للتلقّي والاستيعاب، زادت مقرراتهم، وهذا ما جرى في مكة أولاً، ثم في المدينة ثانياً، مرحلة بعد مرحلة، ولكل مرحلة ما يناسب وسع الناس.



٤٥٤.﴿شبهة الانحطاط الثقافي في القسم بالحسيات﴾

قال المستشرقون: إن السُّوَر المكية فيها القَسَم بالحسيّات، مثل قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١)﴾(سورة التين)، و﴿وَالضُّحَىٰ (١)﴾(الضحى)، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢)﴾ (الليل) إلخ ، وهو دليل على أن المخاطبين بهذه الحسّيات هم حسّيون ، ومداركهم حسّية، على عكس الناس في المدينة فإنهم أميل إلى المجرّدات، واختلاف السور المكية عن السور المدنية دليل على أن محمداً هو مؤلف القرآن، لأنه تأثر بالمناخ الحسّي في مكة، ثم بالمناخ التجريدي في المدينة؟ والجواب: أنه لكى يفهم أهل مكة معنى التوحيد، لابد أولاً أن يعرفوا عن الله، وأنه خالق الكون وبديع السماوات والأرض، فكانت السور المكية حسّية كونية لهذا السبب، ثم لماذا الإقلال من شأن الحسّيات وهى أشياء بها من الأسرار والخبايا العلمية والإبداعية ما يحيّر ويذهل كل عاقل لبيب ، فالحسّيات عند التأمل تؤدّى إلى مسائل تجريدية وفكرية هائلة!

ولم يكن اعتباطاً اختيار هذه الحسّيات دون غيرها في هذه السورة أو تلك، فقَسَمُه تعالى بالتين والزيتون وطور سينين له دلالاته التأويلية، فالتين كانت به بداية الخلق، ويذكّر بورق التين الذى خصف آدم نفسه به ليُخفى عُريه لمّا عصى؛ والزيتون إشارة إلى بداية الحياة مع نوح بعد الطوفان فكانت أغصان الزيتون هى أول ما عثر عليه نوح من نباتات الأرض، وسيناء كان بها نزول شريعة موسى كأول شريعة مكتوبة، فهذه مراحل ثلاث من تاريخ الإنسانية كانت علامات كبرى فيها، ولم يكن القَسَم بالتين والزيتون وطور سينين لمجرد أنها حسّيات!



٤٥٥.﴿شبهة أن تكون الحروف المقطعة وضعها كتبة اليهود﴾

قالوا: إن القسم في القرآن بالحروف المقطّعة في أوائل السور، مثل قوله تعالى: «كهيعص»: (مريم)، ليس فيه بيان ولاهُدًى للناس، فحتى الراسخون في العلم لايعرفون ماذا تعنى هذه الحروف، والخطاب بها كالخطاب بالمهمل، وادّعوا أنه كان للنبيّ كتبة من

اليهود، وهؤلاء وضعوا هذه الحروف المقطّعة تنبيهاً إلى بداية السورة، ولها معناها عندهم، فقد يكون المعنى: قال محمد، أو يزعم محمد، أو بداية كلام، أو فى المبتدأ، وهكذا، فظن العرب أنها من القرآن وثبّتوها فيه!! وقالوا: ربما قصد محمد بها إلى التهويل على القارىء وإرهابه، أو التعمية عليه!!

والجواب على ذلك: أن النبيّ لم يستعن بأى كاتب يهودي، وكذلك فإن هذه الحروف المقطّعة لا معنى لها في أى لغة،ولا فى العبرية، وإنما هذه الحروف للتنبيه إلى أن القرآن كتابٌ من نفس هذه الحروف العربية المقطّعة ومع ذلك كان معجزاً، ولم يستطيعوا محاكاته ولو بسورة مع أنهم ملوك البيان، وكانت السور تبدأ بهذه الحروف، ثم بعدها تأتى الآيات تنوّه بالقرآن، أو تذكّر بآيات اللّه الكونية، فكأن الإشارة بهذه الحروف المقطّعة إلى آيات اللّه المقروءة أولاً، ثم المنظورة ثانياً، فاشتمال القرآن على هذه الحروف ليس إذن من لغو الكلام كما قال المستشرقون.

●●●

٤٥٦.﴿شبهة أن يكون القرآن قد أسقط بعضه أثناء الجمع﴾

قالوا: إن بعض الآيات فى القرآن تدل على أنه قد أسقط منه شيء، أو أن النبيّ ﷺ أُنسي بعض آياته، بدليل ما جاء فى سورة الأعلى عن ذلك، وهو قوله تعالى: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ⁦(٦)⁩﴾** (الأعلى)؛أو أن الصحابة حذفوا منه شيئاً،رأوا مصلحةً فى حذفه، ومن ذلك المتعة التي أسقطها عليّ وكان يضرب من يقرأها ـ هكذا قالوا، ونسبوا إلى عائشة أنها قالت عن عليّ: أنه يجلد على قراءة القرآن، وينهى عنه، وقد بدّله وحرّفه؛ وقيل إن الصحابة الذين كانوا يحفظونه قُتل الكثير منهم فى حروب الخلفاء الأولين، وأن العظام التى كان القرآن مكتوباً عليها، لم تكن منظّمة ولا مرتبّة ولامضبوطة وضاع بعضها؛ وأنه لما قام الحجّاج ينصر بنى أمية، جمع المصاحف وأسقط منها أشياء نزلت فيهم، وكتب نسخاً أخرى وزّعها بدلاً من الأولى!!؟

والجواب على ذلك: أن الصحابة كان منهم العدد الكافى الذى يضمن صحة النقل عنهم بالتواتر،وأن الآية: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ⁦(٦)⁩﴾**(الأعلى) لاتعنى أنه ﷺ نسى، وإنما المعنى أن ما سيُوحَى إليه لن ينساه، وأن النسيان منفيٌ عنه قصداً. وأما أن الصحابة حذفوا ما رأوا المصلحة فى حذفه فهذا باطل، لأن التواتر يمنعه، والشروط التى كان لابد أن تتوفر فى الحافظ، تجعل من المستحيل أن يتصرّف أى صحابى فى شيء ائتُمن عليه. وأما آية المتعة فلم يثبت أبداً أنها من القرآن؛ وما رووه من كلمات قيل إنها من القرآن ونسبوها إلى أُبَى بن كعب، ثم حذفت مع ذلك، لم تقم الحجة على أنها كانت من القرآن، بل إن أسلوبها

الذى صيغت به لايدل على أنها من القرآن البتة. وكان بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم ما يظنون أنه من القرآن، فإذا راجعوه على أصحابهم تبينّوا خطأهم وأسقطوه من كتاباتهم. وأما ترتيب الآيات فلم يكن اعتباطاً، وإنما تم **توقيفياً**، وأمر به الرسول ﷺ، وحفظه عنه الصحابة وكتبوه، ولم يكن تصريحهم بأن آية منه فقدت ووجدوها عند **خزيمة بن ثابت**، يعنى إمكان أن تضيع آية! فذلك كان مستحيلاً، لأن اعتمادهم أولاً وأخيراً على الحفظ، ولو لم يكن هذا الحفظ ما عرفوا أن إحدى الآيات مفقودة، وما سعوا إلى البحث عنها. ولم يكن بسبب ضياع بعض الآيات أن قال بعض الصحابة **بالنسخ**، فالنسخ مسألة أخرى مختلفة تماماً، وبابٌ مستقلٌ ضمن هذا الكتاب، فليرجع إليه القارئ. وأما **الأقوال عن الحجّاج**، فهى تخرّصات لا أصل لها ولا دليل عليها، وكيف يتسنّى للحجّاج أن يجمع المصاحف وهو مجرد عامل من عمّال الخليفة على بعض الأقطار؟ وإذا استطاع الحجّاج أن يجمع المصاحف ويغيّر فيها، فماذا عن الحفّاظ، وكيف يفعل بهم ويغيّر ما حفظوه وكانوا يعلّمونه للناس؟ وماذا يفعل الحجّاج وحده إزاء جموع الحفّاظ فى كل أقطار الإسلام؟



٤٥٧.﴿شبهة أن يكون القرآن قد زيد فيه عند الجمع؟﴾

قالوا: إن القرآن زيد فيه لمّا جمعه الصحابة، والدليل على ذلك، أن ابن **مسعود** لم يُضَمِّن المعوذتين **والفاتحة** مصحفه، فكأنها زيدت عليه، وهذا الزعم باطل وليس صحيحاً، وقال فيه **ابن حزم**: هذا كذب على ابن **مسعود** وموضوع. ولم يقل أحد أن ابن مسعود أنكر الفاتحة، وكيف ينكرها وهى **أم القرآن**؟ **وهى السبع المثانى** التى تُثَنّى وتُكرّر فى كل ركعة من الصلاة؟ ولو أنكرها **ابن مسعود** فماذا يضرّ فى ذلك، وهو واحد، وشرط صحة ما يدّعيه **التواتر والإجماع**؟

وقالوا: إن الآية: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴿١٤٤﴾﴾(آل عمران) من كلام **أبى بكر**!! ولذلك لمّا قالها أبو بكر عند إعلان وفاة النبىّ قال الراوى: لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ، فأخذها الناس من أبى بكر! والآية ليست من كلام أبى بكر وإنما هى من القرآن، وكان نزولها فى **واقعة أحد**، يعاتب بها الله المؤمنين الذين أصابهم اليأس، وقد ظنوا أن النبىّ ﷺ قد قُتل، فكادوا ينصرفون عن القتال. والآية بصياغتها هذه لايمكن أن تكون من كلام أبى بكر بل من القرآن.

وقالوا كدليل على أن الآية السابقة لأبى بكر، وأنه من الممكن أن يؤلّف كلاماً كالقرآن ويضاف إليه، أن **عمر بن الخطاب** أيضاً له من العبارات ما صار قرآناً وعُدّ من

القرآن، كالآية: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى(١٢٥)﴾(البقرة) قالوا: هى من وضعه، والثابت أن عمر اقترح على الرسول ﷺ اقتراحاً وقال له: ماذا لو صلينا فى مقام إبراهيم؟ فنزلت الآية: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ توافق رأى عمر، ومع ذلك فهناك فرق بين كلمة عمر التى كانت سبباً فى نزول الآية، وبين عبارة القرآن التى نزلت بها الآية، ومنذ البداية كانت الآية موجودة فلم تُضف. ومن ذلك ترى أنه لازيادة فى القرآن، كما لم يكن هناك نقصٌ فيه كما ادّعوا.

•••

٤٥٨.﴿شبهات غلاة الشيعة فى القرآن﴾

هؤلاء قالوا: إن **عثمان وأبا بكر وعمر** حرّفوا القرآن، وأسقطوا بعضه، وأن ما نزل على محمد ﷺ منه كان **سبعة عشر ألف آية**؛ وأن سورة البيّنة كانت تحوى أسماء **سبعين** رجلاً من قريش فحُذفت الأسماء؛ وأن الآية: ﴿**أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ(٩٢)**﴾(النحل) حُرِّفت وكانت «**أئمة هم أذكى من أئمتكم**»؛ يقصدون بالأئمة الأذكى **أئمة الشيعة**؛ وأن القرآن كانت فيه سورة تسمى «**سورة الولاية**» أُسقطت بكاملها؛ كما أُسقط **أكثر سورة الأحزاب**، وكانت فى طولها كسورة الأنعام، فأسقطوا **فضائل أهل البيت**؛ وأن الآية: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ(٢٤)**﴾(الصافات) كانت فى الأصل «**وقفوهم إنهم مسئولون عن ولاية علىّ**» فحذفوا «**ولاية علىّ**»؛ وأسقطوا لفظ «**ويلك**» من الآية: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا(٤٠)**﴾(التوبة)، أى أن الآية كانت هكذا: «**ويلك لاتحزن إن اللّه معنا**»، وأُسقطت منها «**ويلك**»؛ وأن الآية: ﴿**وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ(٢٥)**﴾(الأحزاب) كانت فى الأصل: و«**كفىَ اللّه المؤمنين القتال بعلىّ** بن أبى طالب، فأسقطوا «بعلىّ بن أبى طالب»؛ وأن الآية: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا(٢٢٧)**﴾(الشعراء) كانت فى الأصل: «**سيعلم الذين ظلموا آل محمد**»، فأسقطوا «**آل محمد**» إلخ. واتهامات هؤلاء مجردة من الدليل، والمستشرقون والنصارى واليهود، والتنويريون حالياً، يرددونها، مع أن إجماع الأمة على أنه **لا زيادة ولانقصان ولاتحريف** فى القرآن؛ وكذلك **التواتر** شككوا فيه، وفيما جمع **أبو بكر وعمر وعثمان** من القرآن بالتواتر، مع أن **علياً** نفسه قد أثنى على **أبى بكر لأنه جمع القرآن**، وقال إنه لو كان هو الوالى أيام عثمان، لفعل مثلما فعل عثمان، فلم يحدث إذن أن طعن **علىّ** فى جَمْع القرآن، ولا فى مصحف عثمان؛ ولمّا ولى علىّ الخلافة وكانت لديه الفرصة أن يظهر القرآن الحقيقى الذى تزعم الشيعة أنه فى حوزته، لم ينشر شيئاً من ذلك، وولى بعده ابنه فلم يُدْع عن ذلك، فبطلت دعاوى الشيعة مثلما بطلت دعاوى غيرهم فى القرآن.

•••

٤٥٩.﴿شبهة أن يكون القرآن متواتراً وكانت بعض آياته مفقودة؟﴾

لما عهد عثمان إلى زيد بن ثابت أن يجمع القرآن، تتبعه من الرقاع والأكتاف وسعف النخل وصدور الرجال، حتى وجد عند خزيمة بن ثابت الأنصاري آيتين من سورة التوبة لم يجدهما عند غيره، هما: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)**﴾ (التوبة)، فكيف يكون القرآن متواتراً مع قول زيد بأنه لم يجد هاتين الآيتين إلا عند خزيمة؟ وكذلك لم يجد الآية: ﴿**مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ (٢٣)**﴾(الأحزاب) إلا عنده وعند خزيمة؟

والجـــواب: أن قوله هـذا لايعني أنه لم يجد هذه الآيات مكتوبة، ولكنها كانت محفوظة. بدليل أنه كان يبحث عنها، فكيف يبحث عنها ولا أحد يعلم بأمرها؟ وإذن التواتر متوفر، لأن القرآن محفوظ في صدور الرجال وإن لم يكن بعضه مكتوباً.

•••

٤٦٠.﴿شبهة أن القرآن الحالي هو ما نزل على محمد ﷺ﴾

قالوا: إذا كان القرآن قد كُتب على الحجارة وسعف النخل والعظام، فلا بد أنه ضاع منه الكثير واندثر؟ والجواب: أنهم ظنوا أن الحجارة لم تكن مصقولة، والصحيح أنهم كانوا يكشطونها حتى كانت كالصحائف، وكانت الكتابة عليها سهلة كالكتابة على الجِصّ الآن، وأما سَعَف النخل والعظام فكان يُكشَط ويُصنع منه ما يشبه الورق السميك، فلماذا إذن تضيع الكتابة عليه؟ ثم إن الكتابة لم يكن يقوم بها واحد ولكن جمعاً كبيراً، كل واحد يكتب وحده وهذا أحرى أن يُحفَظ المكتوب. وقولهم أنه لابد أن يكون قد امّحى شيء منها، يحتاج إلى سند ودليل، ولاسند ولا دليل على أن شيئاً من هذه الكتابة ضاع أو امّحى، لأنهم بدأوها في حياة النبيّ ﷺ، وكان يراجعها عليهم، وجمعها أبو بكر ثم عمر، وأتمّها وأكملها عثمان، فمن أين يأتي القصور والفساد؟

•••

٤٦١.﴿شبهة أن لايكون ترتيب القرآن كله بتوقيف﴾

قالوا عن خزيمة بن ثابت أنه أتى بالآيتين: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)**﴾(التوبة) وقال: أشهد أني سمعتهما من رسول الله ووعيتهما فقال عمر: وأنا أشهد لقد سمعتهما. وقال عمر: فانظروا آخر سورة من القرآن

فألحقوهما في آخرها» . قالوا: هذا الحديث يدل على أن ترتيب القرآن كله لم يكن بتوقيف ، وإنما كان بحسب رأى الصحابة وعن تصرُّف من بعضهم لمن له الأمر؟

والجواب: الخبر لم يُجمَع عليه، ومعارضه لذلك ساقط عن الاعتبار، والذى أورده أبو داود، وأخرج ما يعارضه عن أُبىّ ، قال: فلما كانت سورة التوبة وقفوا عند الآية ١٢٧ ، وظنوا أنها آخر ما نزل منها، قال أُبىّ: إن رسول الله ﷺ اقرأنى بعدها آيتين - ١٢٨ و١٢٩» ، وعلى ذلك فالترتيب مضبوط، وكذلك السياق متوافق تماماً ، والآيتان متوافقتان مع ما قبلهما ما من الآيات، ويترتّبان عليها، ويختمانها خير ختام، وهذا دليل على كذب المتقوّلين بما تقوّلوا، لعنهم الله.

●●●

٤٦٢. ﴿الانتقاص من القرآن بين الزعم والحقيقة﴾

توفى رسول الله ﷺ فلم يترك إلا القرآن والسُّنة ، وعن محمد بن الحنفية: أن رسول الله ﷺ : «**ماترك إلاّ ما بين الدفتين**»، أى ما ورّث إلا ما فى المصحف. وفى رواية عن ابن عباس: «**لم يترك النبىّ ﷺ إلا ما بين الدفتين**». وليس المراد أنه ترك القرآن مجموعاً بين الدفتين، لأن ذلك يخالف أن أبا بكر، ثم عثمان ، قاما بجمع القرآن ، وإنما زعم كثير من المنافقين والشيعة - وكذلك الكثير من المستشرقين والعلمانيين ، أن الكثير من القرآن ذهب بذهاب حَمَلَته، واختلقوا هذه الفرية تمشياً مع اعتقادهم، بأن ما جرى على التوارة والإنجيل جرى على القرآن؛ وقال الشيعة إنه كان ثابتاً فى القرآن **استخلاف علىّ بن أبى طالب**، وكتم الصحابة هذه النصوص. وبرواية الإسماعيلى قال: «**لم يَدَع النبىّ ﷺ إلا ما فى هذا المصحف**»، أى لم يدع من القرآن ما يُتلى إلا ما هو داخل المصحف الموجود.

●●●

٤٦٣. ﴿إذن فما هى صحة ما زعمه بعض الصحابة من ذلك؟﴾

عن علىّ قال: «**ما عندنا إلاّ كتاب الله وما في هذه الصحيفة**»، أراد بالصحيفة الأحكام التى كتبها عن النبىّ ﷺ ، ولم يقل أن لديه «**قرآناً آخر**» خلاف القرآن الذى نعرفه. وأيضاً فللصحابة أقوال عن آيات من القرآن نزلت فنُسخت تلاوتها مثل الحديث المنسوب إلى عمر: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة**»، والحديث المنسوب إلى **أبىّ بن كعب**: **كانت الأحزاب** - أى سورة الأحزاب - **قدر البقرة**»، والحديث المنسوب إلى **حذيفة**: «**ما يقرأون ربعها**»، يعنى سورة براءة. وكل هذه الأحاديث مدسوسة ولا أصل لها، لا فى العقل ولا فى النقل! ونسب إلى ابن عمر أنه كان يكره أن يقول الرجل قرأتُ القرآن كله،

ويقول: إن منه قرآناً قد رُفع ـ وهذا غير صحيح فالمسلمون على الإجماع أن القرآن ما انتقص منه شيء، وما نُسخ منه شيء، وما رُفع منه شيء، وأن الموجود منه هو ما أراده الله للمسلمين أن يبقى!

•••

٤٦٤. ﴿كذب من قال إن عثمان قصد جمع الناس على تأليف المصحف﴾

عثمان هو الذي جمع الناس على مصحفه، وسبقه **أبو بكر**، ولم يقصد أن «**يؤلف**» مصحفاً خاصاً به، وإنما أرسل إلى **حفصة بنت عمر** يسألها المصحف الذي جمعه **أبو بكر** واعتمده أبوها، وبررّ ذلك بأنه يريد أن ينسخه ثم يردّه إليها، وكان الناس قد اختلفوا في قراءاتهم للقرآن بسبب تفرّقهم في الأمصار، حتى أنهم لما اجتمع نفر منهم في **غزوة أرمينية**، ظهر اختلافهم، وتنازعوا أمرهم، وكفّروا بعضهم البعض، وتلاعنوا، وتبرأ بعضهم من بعض، فأشفق **حذيفة** مما رأى، وحذّر عثمان، وقال له: **أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك!** ورأى عثمان أن يكون اجتماع الأمة على **قراءة واحدة**، وقيل إنه أمر **أربعة**: **زيد بن ثابت**، **وعبدالله بن الزبير**، **وسعيد بن العاص**، **وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام**، أن ينسخوا المصحف، فإذا اختلفوا في شيء فليكتبوه بلسان قريش، **فإنما نزل القرآن بلسانهم**. فلمّا انتهوا ردّ المصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل مصر بمصحف، وأحرق ما سوى ذلك، فأطلق عليه الحاقدون اسم «**حرّاق المصاحف**»، وكان رأيه مع ذلك سديداً. ولم يختر لجمع المصحف **عبدالله بن مسعود**، وآثر عليه **زيد بن ثابت**، لأن زيداً كان الأحفظ للقرآن، ووعاه كله ورسول الله ﷺ حيّ، وأما **عبد الله بن مسعود** فلم يكن حتى وفاة الرسول ﷺ قد حفظ القرآن، ولم يكمل حفظه إلا بعد وفاته. وقيل إن نُسخ عثمان من المصحف كانت **سبعاً**، وقيل **أربعاً** ـ وهو الأصح، وأنه أرسل بثلاث منها إلى **العراق**، **والشام**، **ومصر**، فاتخذها القرّاء فيها مراجع لهم، إلا من حروف قد يزيدونها أو ينقصونها في قراءاتهم فاعتبرت قراءات جائزة. ورحم الله عثمان، وأجزل له العطاء على ما أسدى للإسلام.

•••

٤٦٥. ﴿شبهة اختلاف ترتيب مصاحف الصحابة عن مصحف عثمان﴾

قالوا: **لو كان ترتيب سور القرآن توقيفياً عن النبيّ ﷺ، فلمَ كانت مصاحف بعض الصحابة مختلفة الترتيب**؟ وقيل: إن مصحف **أُبيّ بن كعب** كان يبدأ بالفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام. وقيل: إن مصحف **ابن مسعود** كان يبدأ بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران إلخ. وقيل: إن مصحف عليّ كان مرتباً على النزول، فأوله «**اقرأ**»، ثم «**المدثر**»، ثم «**ق**»، ثم «**المزمل**»، ثم «**تبّت**»، ثم «**التكوير**»، وهكذا.

والجواب على ذلك: أن جمع الآيات فى السور وترتيبها كان بتوقيف من النبىﷺ كما أُوحى إليه، وأما تقسيم السور إلى **طوال، ومئين، ومثانى، ومفصّل**، فهذا تولته الصحابة . وأما **اختلاف مصاحف الصحابة** عن مصحف عثمان فى ترتيب السور، فقد فعلوا ذلك **قبل علمهم بالتوقيف**. وأما عن السبب الذى من أجله جعل عثمان فَصْل سورة التوبة عن سورة **الأنفال**، وجعل التوبة فى المصحف بعد الأنفال، مع أن التوبة من المئين وليست من الطوال، ولم يضع أمام سورة التوبة: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فذلك لأن **الأنفال**، من أوائل ما نزل من السور بالمدينة، بينما **التوبة** من أواخر ما نزل، **فالتوبة ليست** جزءاً من الأنفال، إلا أن عثمان شابَهَ بين قصتيهما، ولمّا لم يجد الرسول قد أشار على الصحابة بشيء بشأن التوبة، قَرَن عثمان بين السورتين باجتهاد منه، ولا يعدّ ما فعله موضعاً لاتهام فهو معروف، **ويمكن لعلماء المسلمين فى أى وقت أن يعدّلوا فيه**، ولا نرى مضرة أن يُترك الأمر كما هو والكل يعرف هذا عن السورتين. ولمّا سُئل الصحابة كيف يحزّبون القرآن؟ قالوا: نحزبه **ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى** عشرة **سورة، وثلاث عشرة، وحزب المفصّل من ق إلى** آخر القرآن. وهذا يدل على أن هذا الترتيب كان فى عهد النبى ﷺ كذلك، وكان هو الذى أمر به، وعلى هذا ترك الصحابة ترتيبهم فى مصاحفهم وأخذوا بترتيب عثمان، لأنه الأصحّ، وكان ذلك **بالإجماع**، **والإجماع حُجة**. ولاينبغى أن يُستدل بقراءة سور قبل سور، على أن ترتيبها **كان كذلك**، فليس صحيحاً أن النساء تسبق **آل عمران**، لأن ترتيب السور فى القراءة ليس بواجب، ولكنه فى المصاحف لازم.

•••

٤٦٦.﴿شبهة الخطأ فى كتابه القرآن ورسمه﴾
﴿اللحن فى القرآن﴾

قيل: إنه بعد تمام كتابة المصحف، عثر عثمان على أخطاء فى الكتابة، إلا أنه تركها لقلّتها وقال: **إن فى القرآن لحناً، وستقيمه العرب بألسنتها**. وهناك شكوى عامة من هذه الأخطاء، وقيل إن **عكرمة** نبّه إليها، واستعرض رأى عثمان فيها. والبعض يرى أنه من غير المعقول أن يتبينها عثمان ويتركها للظروف والأيام واجتهادات الناس. ومن ذلك أن سعد بن جبير لم يعجبه نَصْب كلمة «والمقيمين» فى الآية: **﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ (١٦٢)﴾**(النساء)، فكان ينبغى أن تكون «والمقيمون»، لأنها

هكذا خطأ نحوى، وقد رأى جماعة أن يصححوا الخطأ، وقرأوها على ذلك بالواو، والذين خافوا أن يغيّروا فيها استمروا فى قراءتها بالياء، وقالوا مع سيبويه إنها منصوبة بالاختصاص. وكأن «**والمقيمون الصلاة**» اعتراضية، ومعناها. **وأخصّ** المقيمين **الصلاة** - ثم يستأنف الكلام. فهذا الرأى جائز وذاك الرأى جائز، ومع ذلك فنحن **مع التصحيح كما تنبّه** إليه عثمان. وقد شكا كثيرون من لحن آخر فى الآية : « **إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ(٦٣)**» (طـه)، وعرضوا الأمر على **عائشة**، وعرضوا عليها قوله تعالى : ﴿**وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ(١٦٢)**﴾ (النساء)، وقوله : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ(٦٩)**﴾(المائدة) حيث أنه كان ينبغي أن يقال «**إن هذين لساحران**» بدلاً من «**هذان**»، «**والمقيمون**» بدلاً من «**والمقيمين**»، «**والصابئين**» بدلاً من «**الصابئون**»، فقالت **عائشة** لمن سألها: هذا من عَمَل الكُتّاب فقد أخطأوا فى الكتابة - **يعنى**: أقرّت بأنها أخطاء فى الكتابة بسبب الكُتّاب قيل: إن عثمان نفسه قرأ: « **إن هذين لساحران**» ، وقرأها كذلك غفير من الصحابة، وقرأها البعض بتخفيف إن، فتجنبّت القراءة مخالفة المصحف وفساد الإعراب، ويكون معناها ما **هذان إلاساحران**. وأما «**الصابئون**» فقيل: إن الرفع محمول على التقديم والتأخير، فيكون المعنى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا، من آمن باللّه واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم، والصابئون والنصارى لاخوفٌ عليهم **كذلك**».

وقيل: إن **عائشة** سئلت أيضاً عن الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا(٦٠)**﴾(المؤمنون)، كيف كان رسول اللّه ﷺ يقرؤها؟ هل كان يقرأها «آتَوا» أم «أتَوْا» وهناك فرق كبير فى المعنى؟ وقال لها السائل: أنه يرجّح أنها «**ما أتَوا**» وليس «**ما آتوا**» فأقرّته على ما قال ، وقيل: إنها قالت :أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلت، ولكن الهجاء حُرِّف» !! وقال **ابن عباس مقالة عائشة**: أشهد أن النبيّ ﷺ قرأها كذلك: «**والذين يأتون ما أتَوا**» من **الإتيان**، أى يعملون ما عملوا: ويستنكر العرب أن يقال «**ما آتوا**»، **بدلاً من** «**ما أتَوا**». وكان **ابن عباس** من أكثر الناس نقداً للحن فى القرآن، وروى عنه أنه لم يصدّق أن الآية: ﴿**حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا(٢٧)**﴾(النور) نزلت هكذا، وقال: إن كاتب الآية لابد قد أخطأ، وأن الصحيح أن يقال «**حتى تستأذنوا**» فذلك مقتضى الآية وليس «**تستأنسوا**». وابن عباس لم يفعل شيئاً، فإنّ «**تستأنسوا**» معناها «**تستأذنوا**»، فأن يستأنسوا من صاحب البيت لا يعنى إلا أن يستأذنوه. ولم ير قارئو القرآن أن ابن عباس قد صحّح شيئاً ، أو أضاف شيئاً، ولذلك لم يأخذوا بكلامه ولم يجدوا فرقاً فى المعنى، ولا موجباً للتغيير والتبديل. وكذلك أخذ ابن عباس على الآية: ﴿ **أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ**

جَمِيعًا(٣١) ﴾ (الرعد)، استخدامها لكلمة «ييأس»، وقال إنها لاتصح في السياق، وتُعطى غير المعنى المراد، ثم قال أغرب كلام، قال: ويبدو أن الكاتب كتبها وهو ناعس! وأن الصواب أن يقال: «أفلم يتبين» بدلاً من «أفلم ييأس». ـ غير أن ابن عباس أخطأ، لأن معنى «أفلم ييأس» هو «أفلم يعلم»، يعنى أن «ييأس» معناها أن «يعلم» ، وهذه لغة هوازن، ومن ذلك في الشعر:

أقول لهم بالشِّعْب إذ يأسروننى .·. ألم تيأسوا أنى ابنُ فارس زَهْدَم

وقوله إذن: «ألم تيأسوا»، تعنى «ألم تعلموا»، وإذن فكاتب القرآن لم يخطىء كما ادّعى، والآية هكذا أُنزلت، ولامحل للمؤاخذة.

وعاب ابن عباس على كتبة المصاحف أنهم أخطأوا في الآية: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ(٢٣)**﴾(الإسراء)، وكان أحرى بهم أن تكون الآية: «**ووصّى ربُّك**..»، إلا أنهم فيما يبدو كتبوا «**ووصّى**» فلزقوا الواو الثانية بالصاد، فقرأ الناس الكلمة «**وقضى**» . غير أن الإجماع على أن الكلمة «**وقضى**» معناها «**ووصّى**» «**وأمر**»، وإذن لاموجب لردّ الكلمة المتواترة.

وقال ابن عباس: وثمة خطأ آخر في الآية : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨)**﴾(الأنبياء)، فإن **الواو** فى كلمة «وضياء» زائدة، وكان المفروض أن تُكتب الآية: «**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياءً وذكرا للمتقين**» . غير أن كلمة «وضياء»، مثلها مثل كلمة «وحفظاً» في الآية : ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا(٧)**﴾(الصافات)، وعلى ذلك لايكون ثمة خطأ ـ واللَّبس عند ابن عباس أنه فسّر كلمة «الفرقان» في الآية بأنه التوراة، وإنما «الفرقان» في الآية هو «النصر» مثل قوله تعالى: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ(٤١)**﴾ (الأنفال)، فيوم الفرقان هو يوم بدر، وهو **يوم النصر**، والفرقان هو **النصر**، فيكون معنى الآية أنه تعالى أنزل على موسى وهارون النصر، وعلى ذلك تكون كلمة «ضياء» بمعنى التوراة أو الشريعة، وتكون الواو للتغاير.

وأيضاً عاب ابن عباس الآية : ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ(٣٥)**﴾(النور)، وقال إنها خطأ من الكاتب ، فالله تعالى أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة، وإنما المقصود بالضمير في «نوره» المؤمن، فمثّل نور المؤمن بالمشكاة، وعلى ذلك ذهب ابن عباس بعيداً، لأن الآية تتحدث عن **نور الله** وليس **نور المؤمن**، ولا **نور النبىّ** ﷺ ، **ولانور القرآن**، وليس فى الآية مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثَّل به، ولكنها تمثّل **نور الله** الذى هو **هُداه**، بأنه كالنور الذى نعرفه نحن بصفاته، وهى أبلغ صفات عندنا عن النور عند الإنسان، وبذلك كملت الصورة ولم يكن فى الآية أى عيب!

وقيل : أنهم نبّهوا زيد بن ثابت إلى الخطأ فى كتابته للقرآن فى الآية : ﴿**فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ**(٣٩)﴾ (القيامة) وقالوا لزيد: يا أبا سعيد، أوهَمتَ! إنما هى ثمانية أزواج :من الضأن اثنين اثنين، ومن المعز اثنين اثنين، والإبل اثنين اثنين ، ومن البقر اثنين اثنين. يعنى أن **الزوج اثنان**، ولكنك كتبت في القرآن أن **الاثنين زوجان**، فقال زيد: لا ، إن الله تعالى يقول : ﴿**فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ**﴾(القيامة ٣٩) ، يعنى هما زوجان، وكل واحد منهما **زوج**، وليس أنهما الاثنين معاً زوج. وقال الغالطون: إن كتابة زيد لهذه الآية بشكلها يدل على أن النُسّاخ كانوا يتصرّفون باختيارهم، وبما شاءوا أن يكتبوه، وهذا منهم خطأ فاحش ، **لأن الزوج يقال للرجل، ويقال للمرأة أيضاً زوج، فهما زوجان، والقرآن هو الصحيح**، والغالطون على غير الحق.

وقالوا : خطأ آخر هو كتابة «**مالك يوم الدين**» من سورة الفاتحة هكذا: «**مَلِك يوم الدين**» ، فالنُّسّاخ فعلوا ذلك من أنفسهم»، وهذا خطأ، لأن النبىّ ﷺ قرأها «**مالك**» و«**ملك**»، بالألف وبدونها، وكذلك فعل الصحابة . ومن قواعد رسم المصحف **الحذف**، و«**مالك**» يصحّ فيها حذف الألف فى الرسم.

وبعد فهذه جملة ما أُخذ على كتابة المصحف من اللحن، وقد رددنا عليها جميعاً.



٤٦٧.﴿شبهة أن يكون إعجاز القرآن بسبب الصَّرْفة﴾

الصَّرفة : يعنى أن العرب **صُرفوا** أن يعارضوا القرآن، فلذلك بدا كما لو كان معجزاً، وإنما من اليسير معارضته، وقال **المستشرقون وكثير من المسلمين بالصرفة لمّا عجزوا** عن تفسير **قصورهم** عن معارضته بالأسباب المعروفة، فادّعوا أن العرب لم يكترثوا بهذه المعارضة، فلم يحاولوها، وينقض ذلك أن القرآن تحدّاهم غير مرة، والعرب معروفون بشدة الحمية لمن يتحدّاهم، وكانت صناعتهم البيان ، وأسواقهم الأدبية كثيرة، ليُظهروا فيها براعتهم، ويعلنوا عن تفوّقهم، فَلِمَ لم يعبأوا بالتحدّى إلا إذا كانوا عاجزين عن المعارضة؟ وكان الأحرى بهم أن يُولوا ذلك عنايتهم، لأن القرآن سفّه أحلامهم، واستهزأ بعقائدهم وعوائدهم، وقد اتفقوا جميعاً على مناهضته، ومحاربة الإسلام، وقتال الرسول ﷺ ، وألّبوا كل القبائل عليه، وأجبروه على الهجرة هو وأصحابه، واستولوا على أموالهم، وقبل ذلك قاطعوهم وسبّوهم، وساوموه أن يترك دينه فيجمعوا له الأموال، وينصّبوه مَلِكاً عليهم، ويزوّجوه من بناتهم، واتهّموه مرة بالسحر، ومرة بالكهانة، ومرة أنه شاعر، ومرة نسبوا إليه أنه مجنون، وتآمروا عليه، وحاولوا **عشر** مرات أن يقتلوه، وأهانوه فى عرضه، وتقوّلوا عليه، ثم قامت الحرب بينه وبينهم فجيّشوا له الجيوش، **فهل بعد ذلك يقال أنهم**

صرفوا همّتهم عن معارضة القرآن؟ ولماذا إذن كان القتال لو كانوا غير مهتمين؟ وربما يقال: **إنهم لم يعادوا القرآن ولكنهم كانوا يعادون محمداً؟** والواقع يقول إن علاقتهم بمحمد لم تنقطع، وإنما كان غضبهم من القرآن، وثورتهم عليه، فكان الأحرى بهم أن يعارضوه. **وربما يقال: أن ما غاظهم من القرآن هو مخالفته لعقيدتهم بقطع النظر عن إعجازه؟** والجواب: أنه كان بينهم النصارى واليهود على غير دينهم فلم يهمهم ذلك. وإذن فالسبب حقيقةً هو **القرآن نفسه**، وليس مخالفته لدينهم، ولقد حاولوا أن يعارضوه وفشلوا، لان **القرآن ليس بياناً فقط، ولكنه علوم وفنون، وتاريخ وأدب وقصص، وتشريع وقانون، وفيه من كل مَثَل**. فكيف يعارضونه؟! ولقد حاول المستشرقون أن يردّوا المعلومات في القرآن إلى مختلف اللغات والحضارات. فاستوجب ذلك أن يكون محمدٌ قد أحاط **بكل اللغات القديمة**، وقرأ كل المعارف والمؤلفات، ووعى كل العلوم والآداب! وثبت لهم من ذلك أن القرآن يحتاج إلى **مؤسسة علمية كبرى**، فيها من كل التخصصات، وينتظم في سلكها مئات من الخبراء ليكتبوا كتاباً مثله. والقول **بالصرفة** إذن - أي بأنهم **صرفوا** همّتهم عن معارضة القرآن، ولم يحفلوا بذلك، عجزٌ بَواحٌ لاشك فيه، من نوع مايقول به علماء النفس من "**تبرير العجز**" بأسباب **واهية وغير علمية**، كلما أعوزهم السبب الحقيقي.

●●●

٤٦٨. ﴿البدعة والضلالة﴾

في القرآن أن الرهبانية ابتدعها النصارى، كقوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**(٢٧)﴾ (الحديد)، أي كانت **لهم بدعة**. والبدعة: لاتصدر إلا من البشر، غير أنه لابد أن يكون لها أصل في الشرع أولاً، **والرهبانية** من ذلك، **فالاعتزال** كان في الدين، فطوّروه إلى **نظام الرهبانية**، فإذا كانت البدعة تحت عموم ما ندب الله إليه، **فهي في حيّز** المدح، ويعضد هذا قول عمر: **نعمت البدعة هذه!** يقصد **قيام رمضان**، لمّا كانت من الأفعال الحسنة وداخلة في حيز المدح. وإن كانت البدعة خلاف ما أمر الله به فهي في حيز الذّم والإنكار، وفي الحديث: «**وشَرُّ الأمور مُحدَثاتها، وكلُّ بدعة ضلالة**» أخرجه البخاري، «**فالبدعة الضلالة**»: هي ما يخالف الكتاب، أو السنّة، أو عمل الصحابة، وفي الحديث: «**مَن سَنّ في الإسلام سُنّةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومَن سَنّ في الإسلام سُنّة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» أخرجه مسلم.

●●●

٤٦٩ـ ﴿«المحكم» و«المتشابه» في القرآن، ما هما؟﴾

المستشرقون كثيراً ما يلغطون على القرآن ويسخرون من اضطراب معانى الآيات فيه، ومن ذلك أنه قد ورد عن القرآن أنه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**(١)﴾(هود)، وجاء عكس ذلك أيضاً: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**(٢٣)﴾(الزمر)، ثم ذُكر في القرآن الضّدان معاً: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**(٧)﴾ (آل عمران)، فقالوا: **إن الآيات الثلاث متعارضة**، مع أنه لاتعارض هناك البتة ولكنه نقص معرفتهم باللغة: فالمُحكم في **اللغة من الإحكام**، وهو المنع، يقولون **أحكم الأمر**، أى منعه أن يفسد، **وأحكمه عن الأمر** أى منعه منه، **وحكَم** نفسَه **وحكم الناس** ـ أى منع نفسه ومنعهم عمّا لاينبغى، **وأحكمَ الفَرسَ** أى جعل له حَكَمَة تشكمه وتمنعه أن يتهيّج، وأتاه الله **الحكمة**، أى المَنَعة أن يأتى السوء؛ **والمتشابه**: هو المُشاكل والمماثل المؤدّى إلى الالتباس، تقول: **تشابها، واشتبها، وأشبه** كل منهما الآخر حتى التبسا، **وأمور مشتبهة، ومُشَبَّهة** أى مُشكلة، **والشُبهة** الالتباس، **وشُبّه عليه** لُبّس عليه.

والقرآن فى الآيات الثلاث، فيه المحكم، وفيه المتشابه، فالآية **الأولى** تدل على أنه كله محكم، والآية الثانية أنه كله متشابه، والثالثة أن **بعضه محكم وبعضه متشابه**، والمعنى فى الآيات الثلاث واحد، إلا أنه مرة يؤكد على جانب منه، ومرة على جانب آخر وهكذا؛ **والإحكام** يعنى أنه لا يأتيه باطل ولا خلل كالبناء المحكم المتين الرصين؛ **والتشابه** يعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الإحكام، فلا يفضل بعضه على بعض وإنْ خَفِى هذا الإحكام على الناس، فلما كان بعضه ظاهر الإحكام، وبعضه خفياً إحكامه إلا على المدقق، فلهذا كان بعضه محكم وبعضه متشابه.

والمُحكم **اصطلاحاً** يكون بهذا المعنى السابق الذى يقابله المتشابه، وهو اصطلاحاً أيضاً يقابله المنسوخ. وسواء بهذا المعنى أو بغيره **فالمحكم** هو المنيع الذى لايتطرّق إليه النسخ، والذى ليس فيه التباس، ومعناه واضح لا خفاء فيه، ولا يحتمل إلا تأويلاً واحداً، ولا يتطرق إليه إشكال، وترجح دلالته، **والمتشابه** بخلاف كل ذلك، وهو المقابل له.



٤٧٠ـ ﴿فإن كان «المحكم» هو الأفضل والأوضح فلماذا «المتشابه»، وما الحكمة فيه؟﴾

نعلم أن المتشابه ما خفى مراد الشارع منه، وقد يكون لفظاً، أو يكون معنى، أو يكون لفظاً ومعنى. والخفاء فى اللفظ مثل قوله تعالى: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**(٣١)﴾ (عبس) فما هو **الأبّ**؟ واللفظة كما نرى مفردة، ومعنى **الأبّ** ما ترعاه البهائم، وقد عرفنا ذلك من بقية الآية:

﴿**مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** ﴿٣٢﴾﴾ (عبس)، وبذلك يرتفع التشابه أو اللبس. ومثل ذلك فى التشابه فى المركّب، كقوله تعالى ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ** ﴿٣﴾﴾(النساء) فالتحرّج من الزواج من اليتامى لم يذكر سببه، فتولد اللبس عن ذلك، وكان ذلك لأنهم كانوا يتحرّجون من ولاية اليتامى ولا يتحرّجون من الزنى، فأنزل الله الآية: فإن خفتم أن تجوروا على اليتامى فأقلعتم عن الزواج منهن، فخافوا الزنى أيضاً، وتبدلّوا به الزواج الذى وسع الله عليكم فجعله مثنى وثلاث ورباع. وأما **التشابه الراجع إلى الخفاء فى المعنى فقط**، فمثاله ما جاء فى القرآن وصفاً لله، أو للساعة، أو للجنة أو النار، فهذه أشياء لا يتسنى أن نحصل عنها على جواب محكم ندركه إدراكنا للمحسوسات. وأما ما كان **التشابه فيه لخفاء فى اللفظ والمعنى معاً**، فمثاله الآية: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا** ﴿١٨٩﴾﴾ (البقرة) فقد كانت عادة العرب إذا أحرموا أن لا يدخلوا ولا يخرجوا من الأبواب، وإنما ينقبون نقباً فى ظهر البيت يدخلون ويخرجون منه، فنزلت الآية أن ذلك ليس البِرّ، وإنما البرّ أن تتقوا الله. **والخفاء فى الآية مصدره اللفظ والمعنى معاً**. والمتشابهات عموماً إما أنها كذلك لأنها داخلة فيما لا يمكن العلم به كالساعة والقيامة، وإما أن العلم بها يتطلب إعمال الفكر والبحث كما فى الآية: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴿١٠٢﴾﴾(آل عمران)، وإما أنها تشتبه على العامة ولا تشتبه على الخاصة الراسخين فى العلم.

فإذا كانت المتشابهات هى الألفاظ الخفية المعنى والمعانى البعيدة والغامضة، فلماذا يأتى بها الله، والقرآن ينبغى أن ينبسط للجميع عامة وخاصة ؟ والجواب: أن الله تعالى قد أتى بها لأن الناس ليسوا سواء فى الذكاء والإدراك والمعرفة، فمثلاً **صفاته تعالى** كيف يدركها العامة ؟ فكان لابد أن يكون الكلام فيها من باب المتشابهات. والناس ليسوا سواء **فى الإيمان، فمن** صادفه متشابه وآمن به إيمانه بالمحكم فقد وعى الحقّ من ربّه، ومن اتبّع المتشابه وأرغى فيه وأزبد فهذا الذى يبتغى الفتنة، وإذن فالإتيان بالمتشابه مع المحكم إنما هو اختبار منه تعالى لإيمان المدّعين، وهو ابتلاء للمؤمنين، ثم إنه يناسب عقلية العوام وما تتخيله أو تتوهمه عن الله تعالى، فى حين أن **المحكم هو ما يناسب الخواص**، وهم الراسخون فى العلم، يأوّلونه التأويل الصحيح. ولو كان القرآن محكماً كله أو متشابهاً كله لكان المقصود به جماعة واحدة من الناس، والمتشابه أدعى لإعمال الفكر فيكون المزيد من الثواب للباحثين، وتحصيل المزيد من العلوم، وبذلك يكون الخروج عن التقليد، ويكون الاجتهاد فى التفسير، فله الحمد تعالى على ما أنعم وهَدَى، وله المنّة وكل الشكر.

●●●

٤٧١. ﴿الناس أتوا فى المتشابهات بكلام يحتمل الكفر والإيمان؟﴾

أكثرَ الناس فى موضوع المتشابه من القرآن، من أمثال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥﴾ (طه)، فالاستواء من المتشابهات فى الصفات، أى التى يصف الله تعالى بها نفسه، وآيات أو متشابهات الصفات كثيرة فى القرآن، وتحفل أسفار موسى الخمسة بها، ومنها الكثير أيضاً فى الأناجيل، واليهود والنصارى مع الرأى الذى يقول بِحَمْل المتشابهات على ظواهرها، مع بقائها على ما هى عليه مما هو فى واقع الناس، وبهذا الرأى أيضاً قال المجسّمة والمشبّهة، غير أن المعوّل عليه فى الإسلام فى أمور العقيدة: أن يكون الدليل على المعنى قطعى، والله تعالى فى التصوّر الإسلامى ليس جسماً، ولا يتحيّز، ولا ينجزئ، ولا يتركّب، وليس ناقصاً يكمله شىء أو أحد، ولا يحتاج إلى مكان ولا إلى زمان. ومن المتفق عليه عند المسلمين أن الاستواء على العرش - بمعنى الجلوس عليه، من التمكُّن والتحيّز - مستحيل فى حقّ الله، لأنه تعالى لا يشبه خلقه، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ١١﴾ (الشورى). ولقد تصوّر البعض أن فى الإمكان حلّ هذا الإشكال بتفويض الله تعالى فى تحديد معنى الاستواء الذى وصف به نفسه، وهو تعالى الأعلم بنفسه، وهؤلاء هم المسمون المفوِّضة. وفيهم آخرون ذهبوا إلى أن الآية إثبات صفة الاستواء لله بدون تعيين، ومَن عيّن منهم قال إن استواءه تعالى على العرش يعنى أنه سخّره وقهره لإرادته، والعرش هو الوجود كله، والقول بهذه التأويلات فيه إثبات للملزوم ونفى اللازمة، وهو تناقض صريح، فما من عاقل يمكن إن يقول إن الاستواء هو الاستواء، أى الجلوس المعروف الذى يستلزم أن يكون لله تعالى جسمٌ، وأن يتحيّز فى المكان! وأيضاً فإن القول بأن الاستواء مع ذلك ليس كما نعرف، نفيٌ للقول الأول وتناقضٌ معه، وكأننا به نقول مرةً أنه لا يمكن أن يستوى كاستواء الأجسام المتحيّزة، ومرة نقول إن هذا الاستواء ليس ما نعرف من الاستواء، فنثبت الصفة المتشابهة مرة وننفيها أخرى، فنقول شيئاً وننقضه. ولو قلنا إن الاستواء على ما يعلمه الله ولا نعلمه نحن، وهو من الغيب لأنه متعلق به تعالى، وصفاته كلها غيب، فما كان غيباً لا نقاش فيه ولا جدال، لأرحنا واسترحنا، وأقنعنا واقتنعنا، لأن المتشابه من الصفات من المجاز وليس من الحقيقة، ولأنه كذلك فلابد أن يُصرف عن ظاهره، طالما هناك قرينة تمنع من إرادة معناه الأصلى. ويفسد أن نقيس غائب بشاهد، وأن نتصورّ لله ما ندركه فى البشر بحواسنا وعقولنا، والله تعالى مجرّد، وتصوّر المجرّد مادياً لايجوز، وطالما أن الله تعالى كذلك فهو ليس بجسم، ولا مكان له ولا جهة، ولا يعنى القول بذلك أنه تعالى غير موجود، فهو لا يشبهنا والحكم عليه ليس كالحكم علينا،

وامتناع التحيّز عنه لا يمتنع مع وجوده، والقول بصفات متقابلة عن الله تعالى لايفيد التناقض، فلصفاته تعالى مظهران : الأول يظهر لنا فى عباده، والثانى هو المنسوب إليه تعالى. وفى القرآن الآية: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ (١٤)﴾ (التوبة)، فالتعذيب منسوب لله من خلال أيدى العباد، والآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ (١٠)﴾ (الفتح) تعنى أن البيعة وإن كانت فى ظاهرها للنبىّ فإنها فى الحقيقة لله الذى يدعو إليه النبىّ، والآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى(١٧)﴾ (الأنفال) تنسب فعل الجوارح إليه تعالى وإن كان الفاعل هو النبىّ صاحب الجوارح، وليس فى ذلك تشبيهٌ لله ولا تجسيمٌ له، وإنما جاء التعبير القرآنى تأنيساً للقلوب، وتقريباً للأفهام. ومع ذلك يطعن الملاحدة فى القرآن لاشتماله على هذه المتشابهات، وكانت فرصة هيأت لكل صاحب مذهب أن ينسب مذهبه إلى القرآن ويستشهد به، فالجبرى يتمسك بآية مثل : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (٢٥)﴾ (الأنعام)، والقدرى يتمسك بالآية: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ (٥)﴾ (فصلت)، والآية: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (٨٨)﴾ (البقرة)، بمعنى أن الكفر لم يفرضه الله عليهم وإنما اختاروه لأنفسهم؛ وكذلك يتمسك منكرو الرؤية بالآية: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (١٠٣)﴾(الأنعام)، بينما المُثبت للرؤية يتمسّك بالآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ (القيامة)، ومثبت الجهة يدفع عن نفسه بالآية: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ (٥٠)﴾ (النحل)، ورافض الجهة حجته مطلق الآية: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ (الشورى) وكل واحد من هؤلاء لديه ما يحتج به من القرآن، وكان من المفروض أن هؤلاء جميعاً يردّون المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية، وعلى ما تواضع العرب عليه، وعلى ما كان يفهمه الصحابة والتابعون من القرآن والسنة. والمحكم هو أم الكتاب، والمتشابه مردود إليه، ولا تنافى بينهما، وكلٌ له حكمه وله مزاياه، ومزية المحكم أنه أم الكتاب وتُرد إليه المتشابهات، ومزية المتشابه أنه اختبار لمدّعى الإيمان وابتلاءٌ للمؤمن، وشحذٌ لهمة العالِم ليقدح ذهنه، ويوسّع فهمه، ويُعمل اجتهاده. واللجوء لتأويل المتشابه ليس منطقياً وليس سليماً موضوعياً، وفى القرآن يأتى وصف التأويليين بأنهم: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ(٧)﴾ (آل عمران)، يعنى أنهم يحكمون بالهوى فى تفسير القرآن، وذلك الضرب من التأويل هو المنهى عنه، وأما التأويل السليم فهو الذى يقوم على البرهان والحُجّة، وعلى الهداية والرشد. وكان الظاهرية تأويليين يصرفون ألفاظ المتشابه عن ظاهرها المُوهم للتشبيه أو المحال، وكذلك فعل الإسماعيلية والباطنية، فقد اتّبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة وضلّوا عن الصواب والحجة والبرهان فأضلوا. نسأل الله الهداية وللمسلمين سواء السبيل.

●●●

٤٧٢.﴿كيف يقال للكفار «وأنتم تعلمون» مع وصفهم بالختم والطبع على القلوب وبالصمم والبكم والعمى؟﴾

هذا كلام المستشرقين وأهل الكتاب، قالوا : القرآن وصف المنكرين له بأن الله ختم على قلوبهم وسمعهم (الجاثية ٢٣)، وعلى أفواههم (يس ٦٥)، وطَبَع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم (النحل١٠٨)، فهم صمٌ بكمٌ عميٌ، لا يرجعون الى علم ولا عقل (البقرة ١٨) مع ملاحظة أن قوله تعالي : «وأنتم تعلمون» تأتى فى القرآن ٥٦ مرة خطاباً، فكيف يستقيم ذلك ؟ أليس القرآن يعارض بعضه بعضاً ؟ وكيف يكون لديهم العلم مع أنهم صمٌ بُكمٌ عُميٌ؟ والجواب من وجهين، أحدهما: أن «**وأنتم تعلمون**» يشير بها إلى العلم العام عند البسطاء، فهم يعلمون أنه تعالي خَلَق الخلق، وأنزل الماء، وأنبت الرزق، ولكنهم لا يعبدونه كمُنعِم ليس له كفء ولا ند،فهم يقولون بطريقة عفوية تقليدية نحمد اللّه، لمّا حاروا ولم يدروا جواباً، وعموا عنه كمعبود أوحد، فلم يُعملوا العقل، وأخذوا بالتقليد، وأشركوا كآبائهم، وعبدوا الأصنام والأوثان، كفعل المشركين والنصارى الذين قالوا بثلاثة آلهة، وكفعل اليهود الذين ألّهوا أسلافهم، ورفعوا شعبهم مكاناً عالياً، حتى صاروا يتعبّدونه دون الله. والثاني: أن علمهم بالله هو علمٌ بالإمكان، أى لو استخدموا عقولهم وتدبّروا ونظروا ولم يقلّدوا، لأمكنهم أن يعلموا، وفى ذلك أمر باستعمال حُجج العقول وبإبطال التقليد. فهؤلاء وأولئك قد يوصفون بالختم والطبع على القلوب إلخ وإن كانوا يعلمون، فعلمهم هو علم السُذَّج، أو علِم التقليد الذى مضمونه الشرك أو الإلحاد والكُفر، وهو علمٌ لايفيدهم ويضرهم أكثر مما ينفعهم.

●●●

٤٧٣.﴿هل تتعارض بعض آيات القرآن؟﴾

مثل الآية : ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴿٢٤﴾﴾ (فاطر)، والآية : ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** ﴿٦﴾﴾ (يس). فالأولى: تثبت النذير لكل أمة؛ والثانية: تقرّ بأن هؤلاء القوم ما أنذروا من قبل، يعنى لم يكن لهم نذير، والآيتان من ثم تتعارضان؟ فهل القرآن تتعارض آياته ؟ والجواب : أنه لا تعارض البتة بين الآيتين، فالأولى: تتحدث عن الأمم، وأن لكل أمة نذير، كقوله: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴿٧﴾﴾ (الرعد)، وقوله : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا** ﴿٣٦﴾﴾ (النحل)، والآيات فى هذا كثيرة؛ والثانية: الخطاب فيها للنبىّ ﷺ ، والإخبار فيها عن آبائه ﷺ من أمثال أبى جهل، فما من نذير قد جاءهم من قبل، وبقية الآيات بعد هذه الآية تروى عنهم، وأنه لا فائدة من إنذارهم، وإنما الإنذار

منك لمن يخشى الله فيتبعك؛ وبقوله: ﴿**لتنذر قوماً**﴾ تتحقق فيهم الآية الأولى : أن لكل أمة، أو لكل قوم نذيراً. وأما أنهم كأمة جاءتهم النذر من قبل، فهذا صحيح، والنذير الأول لأمة العرب كان **إبراهيم وإسماعيل**، وهذا في «**الزمن البعيد**»، وأما في «**الزمن القريب**» وهو المتضمن لقوله تعالى «**آباؤهم**» فما كان لهم من نذير قبل النبيّ ﷺ، ولذا قال له: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين** (٢١٤)﴾ (الشعراء)، وقال: ﴿**لتنذر أم القرى ومن حولها** (٩٢)﴾(الانعام) أى مكة وأرباضها حيث آباؤه الأقربون، وفى تفسير هؤلاء الأقربين من أهله أو عشيرته قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين** (٢١٤)﴾(الشعراء) أتى النبيّ ﷺ الصفا، فصعد عليه ثم نادى : «**يا صباحاه**» فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ : «**يا بنى عبد المطلب، يا بنى فهر، يا بنى لؤى ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدّقتمونى**»؟ قالوا : نعم. قال : «**فإنى نذير لكم بين يدّى عذاب شديد**». وفى رواية أخرى عند أحمد عن عائشة قالت: لمّا نزلت: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**(٢١٤)﴾(الشعراء)، قام رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة ابنة محمد ! يا صفية ابنة عبد المطلب ! يا بنى عبد المطلب ! لا أملك لكم من الله شيئاً ! سلونى من مالى ما شئتم**». وفى رواية أبى هريرة قال : دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ، فقال : «**يامعشر قريش، انقذوا أنفسكم من النار ! يا معشر بنى كعب انقذوا أنفسكم من النار ! يا معشر بنى هاشم، انقذوا أنفسكم من النار ! يا معشر بنى عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله ! يا صفية** (عمة رسول الله)، **وفاطمة** (بنت رسول الله)، **اشتريا أنفسكما من الله، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً ! سلانى من مالى ما شئتما**». وفى رواية أخرى عن أبى هريرة عن النبيّ ﷺ قال : «**يا بنى قصىّ ! يا بنى هاشم! يا بنى عبد مناف ! أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد**». فهذا إذن هو معنى قوله تعالى : لتنذر يا محمد قوماً لم يُنذَر آباؤهم، فهؤلاء القوم هم من عدّدهم فى ندائه حيث عمّ قريشاً، وبنى قصى، وبنى كعب، وبنى هاشم، وبنى عبد مناف، وبنى فهر، وبنى لؤى، وبنى عبد المطلب، وخصّ : فاطمة ابنته، وصفية عمّته. **والخلاصة**: أنه لا تعارض بين الآيتين ولو ظاهرياً. والحمد لله.

●●●

٤٧٤.﴿القول بتشابه خاتمة سورة هود وخاتمة التوراة﴾

اشتهر **كعب الأحبار** بالإسرائيليات، وكان يهودياً وقيل أنه أسلم. ومما ادّعاه من الإسرائيليات ودلّسه على المسلمين وخاصة أهل التفسير: أن خاتمة سورة هود،وهى قوله:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ هي خاتمة التوراة، وربما يقصد خلاصة التوراة، باعتبار الآية تتضمن الإخبار عن الله: أن له غيب السموات والأرض وشهادتهما، وأنه لا أمر لمخلوق إلا بإذنه، وأنه يجازى كلاً بعمله، فإذا عبدت فلا تعبد إلا الله. وإلا فالتوراة ليست لها هذه الخاتمة! وكعب الأحبار كاذب فى دعواه، وسيء النية، **فأولا**: لا وجود لكتاب اسمه **التوراة** عند اليهود، وقالوا: التوراة هي كتب موسى الخمسة : **التكوين، والخروج، والأحبار، والعدد، وتثنية الاشتراع**، وذلك غير حقيقى ، فما أوتى موسى هو **الألواح**، وعددها **لوحان**، حملهما موسى على يديه نزولاً من الجبل، وعليهما كتابات الشريعة والوصية، **حُفرت على** الحجارة بطريقة المصريين فى تسجيلاتهم على الحجر، **فكيف صار اللوحان خمسة كتب أو** أسفار ؟ **وهل معقول أن يكتب موسى يقول فى هذه التوراة المدّعاة: «ثم ذهب موسى»**؟ ويقول : **«ومات موسى وبكاه الشعب»** ؟! **وثانياً**: فأى كتاب من هذه الكتب الخمسة جاءت خاتمته مشابهة لخاتمة سورة هود، علماً بأن الكتب الخمسة ليست فيها خاتمة كخاتمة هود، لا من قريب ولا من بعيد ؟ **وكعب الأحبار** خبيث، أراد أن يقول: **إن القرآن يأخذ من التوراة ويعتمد عليه، وأن التوراة هى الكتاب الأم**، وهذا نفسه قال به **المستشرقون** افتراءً مِن بَعد : **أن القرآن يسطو على التوراة فى كثير من الأحيان** !! فاحذر يا أخى كلّ ما يقوله **كعب الأحبار** هذا، وخاصة أن **الطبرى وابن كثير** ، كثيراً ما ينقلان عنه بلا تمحيص، وحسبنا الله!

•••

٤٧٥. ﴿هل معنى « مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا (٤٧) » (النساء) أنه تعالى يجعل الوجه كالقفا على الحقيقة ؟﴾

الخطاب فى الآية لليهود، وكان منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم النبىّ ﷺ : **«يا معشر يهود ! اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق»**. قالوا: ما نعرف ذلك يامحمد! وجحدوا ما عرفوا، وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله فيهم : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا (٤٧)﴾** (النساء)، وطَمْس الوجه يعنى محوه، وليس المعنى أنه تعالى يطمس وجوه المكذّبين حقيقة فيجلعها كالقفا، فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين، وإنما هو تعبير عن الضلالة فى قلوبهم، وقد سُلبوا التوفيق؛ وربما المعنى من قبل أن تصل بكم الضلالة أن لا تهتدوا أبداً؛ أو أن الآية تمثيل، فإن لم يؤمنوا يفعل ذلك بهم عقوبة لهم، وهناك من يفسّر الآية بأن الله تعالى يُذهب أنوفهم وشفاههم وأعينهم وحواجبهم،

فلا تكون وجوههم معروفة، ويصبحون نكرات؛وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا (٤٧)﴾(النساء) يقوّى هذا المعنى فعلاً، فتُزال الأعين خاصةً بالطمس، وتُرّد فى القفا، فيكون ذلك رداً على الدبر، فيمشون القهقرى بدلاً من أن يمشوا للأمام. وقيل إن **كعب الأحبار اليهودى** كان يمشى بالليل فمر برجل يقرأ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا... (٤٧)﴾(النساء) الآية، فوضع كفيّه على وجهه ورجع القهقرى إلى بيته،وقال: خفت ألا أبلغ بيتى حتى يُطمَس وجهى! ـ وكلام كعب غير موثوق به وربما له خبئ. ويروّج اليهود أيضاً أن **عبد الله بن سلام** وكان يهودياً كذلك ـ جاء النبىّ ﷺ يبدى خوفه أن يحوّل وجهه فى قفاه. **والمستشرقون يعتبرون الآية زلة فى القرآن! فالله ـ كما يقولون ـ يهدد أهل الكتاب بالطمس إن لم يؤمنوا، وهم لم يؤمنوا، ولم يفعل بهم ذلك !** ـ واليهود والمستشرقون من ملّتهم على هذا القول، لأنهم ماديون، **والآية تمثيل**، والطمس كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ (٦٦)﴾(يس) يعنى أنهم وإن كانوا يرون، وأداة إبصارهم سليمة، إلا أن وظيفتها معطلة، فلم يعودوا يدركون الحق، مثل قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا (١٧٩)﴾ (الأعراف)، فهذا هو المعنى المراد، وأخطأ من قال فى التفسير أن من آمن منهم رفع الوعيد عن الباقين؛ ومن قال لابد من طمس ومسخ فى اليهود قبل يوم القيامة.

•••

٤٧٦.﴿هل كان الإسلام ناقصاً قبل آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (٣)﴾ (المائدة)؟ وهل كان الرسول ﷺ قبلها يدعو إلى دين ناقص؟﴾

يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (٣)﴾ (المائدة)، فالإسلام أكبر نعمه تعالى على هذه الأمة، فلما اكتمل لم يعودوا يحتاجون إلى دين غير الإسلام، ولا إلى نبىّ غير محمد ﷺ، وقبله كانت الأنبياء تترى يكملون بعضهم البعض، إلا الإسلام، فكان هو الدين الحاكم، ونبيّه النبىّ الخاتم، ولمّا كان بمكة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قَدِم المدينة، أنزل الله الحلال والحرام، إلى أن حجّ، فكمل الدين، فلا حلال إلا ما أحلّه، ولا حرام إلا ما حرّمه، وكل ما أخبر به هو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا (١١٥)﴾ (الأنعام)، وباكتمال الدين تمت على المسلمين النعمة، وفى الخبر عن ابن عباس قال: «**اليوم أكملت لكم دينكم**» أى الإسلام، أخبر الله نبيه والمسلمين أنه قد كمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة، وأتمه بلا نقصان، ورضيه فلا يسخطه. وكان نزول الآية يوم **عرفة، فى يوم جمعة، وبعدها لم ينزل لا حلال ولا حرام**، وتوفى رسول الله ﷺ بعدها

بواحد وثمانين يوماً. وقيل: كان نزول هذه الآية يوم الحج الأكبر، فبكى عمر، وسأله النبيّ ﷺ: «ما يبكيك»؟ قال: أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا، فأمّا إذا كَمُل فإنه لم يكمل الشيء إلا نَقُص. فقال: «صدقت»! - وفي خلافة عمر جاءه كعب الأحبار يقول: إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا (٣)﴾(المائدة) فقال عمر: قد علمتُ اليوم الذي أُنزلت فيه، والمكان الذي أنزلت فيه: في يوم الجمعة، ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد! وعند النسائي، قال: أنزلت ليلة جمعة. وعن عليّ بن أبي طالب قال: نزلت على النبيّ ﷺ وهو قائم عشية عرفة. والقول الصحيح: أن الآية نزلت في يوم جمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر، في حجّة الوداع، سنة عشر، ورسول الله ﷺ واقفٌ بعرفة على ناقته العضباء (أي مشقوقة الأذن). قيل: كاد عضُد الناقة ينقدّ (أي ينفتل وينهدّ) من ثُقل معاني الآية، حتى أن الناقة بركت! فالآية إعلان بتمام وكمال الإسلام، والدين الذي كمل هو الشرائع التي تتابعت بها الآيات نجوماً، فكان آخر ما تنّزل منها هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... (٣)﴾ (المائدة)، ولم ينزل بعدها حُكم. وقيل المراد «بالدين» معظم الفرائض والتحليل والتحريم، أمّا أنه نزل بعدها قرآن أو لم ينزل، فقد نزل بعدها قرآن كثير، ونزلت آية الربا، وآية الكلالة، إلى غير ذلك، وإنما كمل معظم الدين، وكمل أمر الحج، ولم يكن يطوف مع المسلمين في هذه السنة مشرك، ولا عريان، ووقف المسلمون معظمهم بعرفة، فقيل لهم: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (٣)﴾ (المائدة)، يعني أظهرته لكم على سائر الأديان، وقد دخلتم مكة وصرتم إلى بيت الله. ويتبقّى وجهٌ لنقد الآية روجَ له المستشرقون، وشنّعوا به على الإسلام، فالآية تعني عندهم: أن الدين كان قبل نزولها ناقصاً، ولم يكن قد اكتمل، وأن الله لم يكن قد رضى به ديناً بعد، وأن نعمته على المسلمين ما كانت قد تمّت. فهل مَن مات من المهاجرين والأنصار، ومن شهدوا بدراً والحديبية، ومن بايعوا الرسول ﷺ البيعتين جميعاً، وبذلوا أنفسهم لله، مع كل ما حلّ بهم من المحن، وحاق بهم من البلايا، ماتوا على دين ناقص؟ وأنه ﷺ كان يدعوهم إلى دين ناقص؟ والنقص عيب، ودين الله قيّم، فهل كان الإسلام قبل هذه الآية معيباً ولم يكن ديناً قيماً؟

والجواب: أن النقص ليس بعيب، فالشهر ينقص، والعمر ينقص، وصلاة المسافر تنقص، وأيام الحيض قد تنقص، وأيام الحمل، و المال قد ينقص، فما يقال إن ذلك عيب، فلمَ يكون عيباً في الإسلام؟ ثم إن الشرائع في الدين الواحد تتوالى وتتزايد

كالبنيان، فلا تعاب بذلك، فإن كان بها نقصان فهو **النقصان المقيّد**، يعنى أن كل تشريع فى كل ديانة يلحقه آخر وينضم إليه، فلا يقال أن الديانة كانت قبل التشريع الآخر ناقصة، كالإنسان يبلغ المائة، فيقال إن الله أكمل عمره، ولايقال أنه وقت أن كان فى الستين من عمره كان ناقصاً نقصَ **قصور وخلل**، وإنما قد يقال كان ناقصاً **نقصاً مقيّداً**، يعنى كان ناقصاً عمّا كان الله قد أعدّ له من العمر. وقد جعل الله تعالى صلاة الظهر أربعاً، وكذلك العصر والعشاء، **فهل تعتبر صلاة الصبح ناقصة نقص قصور وخلل، لأنها ركعتان وليست أربعاً** ؟ ولو قيل كانت ناقصة وحدها كصلاة دون أن تضم إليها سائر الصلوات، لكان صحيحاً، وهكذا شرائع الإسلام، فلقد أنزلها الله تعالى شيئاً فشيئاً إلى المنتهى الذى أصبح الدين عنده كاملاً.

وقد يكون معنى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (٣)﴾**(المائدة) أنه تعالى وفّقهم للحج الذى لم يتبق غيره عليهم من أركان الدين، فلما حجّوا تحقق لهم أداء كافة الأركان، وفى الحديث: «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**»، فلما كانوا قد سبق لهم **التشهّد، وصلّوا، وزكّوا، وصاموا، وجاهدوا، واعتمروا**، ولم يكونوا قد حجّوا، فلما حجّوا ذلك اليوم مع النبىّ ﷺ، أنزل الله تعالى وهم بالموقف عشية عرفة: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (٣)﴾** (المائدة)، يريد أنه قد اكتملت لهم أركان الدين، وبها يقوم الإسلام، ومن ثم أعلمهم برضاه بما تحقق لهم منه فقال: **﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (٣)﴾**(المائدة)، فى ذلك اليوم، وفى أى يوم، فلا يزال رضاه به علينا قائماً، ولا يزال الإسلام برضاه عنا باقياً بكماله. والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٤٧٧. ﴿الوصية وحكمة تقديمها على الدَّين فى آية المواريث﴾

المعقول فى الآية: **﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ (١١)﴾** (النساء) أن يأتى ذكر الدَّين قبل ذكر الوصية، والنبى ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وقال: «**الدَّين قبل الوصية**» أخرجه الدارقطنى، إلا أن **القرآن يأتى بالوصية قبل الدين من وجوه**: أنه لا يُعرف الدَّين إلا من الوصية، فالوصية أشمل والدَّين أخصّ، وفى الوصية يُنَصّ على الدين، ثم إن الوصية ألزم للميت، وليس كل ميّت له أو عليه دين، فالدّين شذوذ، وقد يكون أو لايكون، **فبدئ بذكر ما لابد منه**، وعُطف بالذى قد يقع أحياناً، فكان العاطف **بأو** وليس **بالواو**، ولو كان الدّين راتباً لعطفه بالواو. والوصية حظ أهل الميت من الوالدين والأقربين، وهم

الضعفاء، فَقُدِّموا، وأُخِّر الدّين، لأنه حظ الأقوياء الأغنياء، والدائن صاحب قوة وسلطان ومعه القانون، والوارث مسكين وأمره متروك للوصية. وأيضاً فإن كتابة الوصية مكلفٌ بها الموصي، وهو ينشئها من قِبَل نفسه، فلذلك قُدِّمت، وأما الدَّين فثابت وسيُؤدَّى حتماً فأُخِّر.

•••

٤٧٨. ﴿الزعم بأن بعض الفروض كانت على النبيّ خاصة وغير مُلزِمة بعده﴾

قالوا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ (١٠٢)﴾ (النساء) أن المقصود بالآية النبيّ ﷺ، فليس عليهم بعده ﷺ «صلاة الخوف»، لأن الخطاب في الآية كان خاصاً به وحده، بقوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، و﴿مَعَكَ﴾. فإذا لم يكن فيهم ومعهم لم يكن لهم ذلك، لأنه لا أحد مثله منهم، وكانوا جميعاً يتمنون أن يأتّموا به ويُصلّوا خلفه، وليس أحد يقوم في الفضل مقامه بعده.

والردّ على هؤلاء: أن الخطاب صحيحٌ للنبيّ ﷺ، ولكنه يتناول الأئمة بعده إلى يوم القيامة، ومثله قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (١٠٣)﴾ (التوبة)، فهل تسقط الصدقة بعده؟ أو أن المكلَّف بها بعده هم أولو الأمر؟ وكذلك هذه الصلاة وسائر العبادات التي كان الخطاب فيها للنبيّ ﷺ، لا تسقط بوفاته. وقد أمرنا باتباعه والتأسّي به، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ (٦٣)﴾ (النور)، وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» أخرجه البخاري، فلزم اتبّاعه. ولو كان ما قالوه دليلاً على الخصوص، للزم قصر الخطابات على من توجهت له، وحينئذ كان يلزم أن تقتصر الشريعة على من خوطب بها، وفي قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (١٠٣)﴾ لا توجب الاقتصار على النبيّ ﷺ وحده، فكان من بعده من قام مقامه.

•••

٤٧٩. ﴿في معنى قوله تعالى: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (٦)» (هود)﴾

ظاهر الآية العموم، ومعناها الخصوص، والكثير من الدواب تهلك قبل أن تُرزق، إلا أن الرزق أشمل وأعمّ من أن يقتصر على كل دابة لا ترزق ما تتعيش به، فقد رزقنا الأعضاء، والفطرة، والحيلة التي يمكن بها أن نتحصل الرزق، فعلى العصفور أن يطير إلى الجُرن ليجد رزقه فيه، وإلا فسيموت في عُشّه، والله تعالى أعدّ للجميع أرزاقهم. والدابة هي كل حيوان يدبّ، والرزق حقيقته ما يتغذى به الحيّ ويكون فيه بقاؤه ونماؤه. وقد قيل

لبعض الفلاسفة : من أين تأكل ؟ فقال : **الذى خلق الرَّحَى يأتيها بالطحين، والذى شدّق الأشداق** (يعنى جوانب الفم) **هو خالق الأرزاق** - وقيل لبعض العارفين : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر . **إن الله يرزق الكلب، أفلا يرزقنى ؟!** - وقيل للصوفى الكبير حاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله. فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن الله ليس له إلا السماء؟! يا هذا - الأرض له، والسماء له، فإن لم يؤتنى رزقى من السماء ساقه لى من الأرض، وأنشد :

وكيف أخاف الفقر والله رازقى ... ورازق هذا الخلق فى العسر واليسر

تكفّل بالأرزاق للخلق كلهم ... وللضّبّ فى البيداء والحوت فى البحر

والمشكلة أن الإنسان يسرق رزق أخيه الإنسان، وأن الرأسمالى يحصل على رزقه ويستولى على أرزاق الآلاف غيره، يسرقهم بخسف الأجور، وتسرقهم الدولة المستبدة بترسيخ سوء توزيع الثروة الاجتماعية، وعلى العكس تتدخل الحكومات الديمقوقراطية بالتشريعات لحماية الحقوق وتقريب الفوارق فى الدخول، وإلا اختل الميزان الاجتماعى، ومال العدل عن القصد، وساد الجور والظلم، وعمّ الفساد، والله يقول: ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴿٩﴾﴾ (الرحمن)، أى : اجعلوا «العدل أساس المُلك، وأساس علاقاتكم الاجتماعية، وأتوا الناس ما يستحقونه وجعله الله لهم رزقاً، ولا تبخسوهم منه شيئاً، وزنوا بالقسطاس المستقيم».

•••

٤٨٠. ﴿فى معنى قوله تعالى «يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٣١﴾»﴾

يُكثر المستشرقون من نقد القرآن من خلال آيات كهذه الآية: ﴿**يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴿٣١﴾﴾(المدثر)، وتتكرر فى القرآن سبع عشرة مرة، ويقوم نقدهم على أن القرآن متناقض فهو ينسب الضلالة والهدى لله، ومع ذلك يخيّر الناس أن يضلوا أو يهتدوا. والآية لا تعنى أن الله يضل أو يضلّل الناس عن هداه، ويهديهم عن هواه، أو أنه تعالى يُجبر من يُضلّ أو يضلّل، على الضلال، ويقسر من يهدى على الهدى، أو أنه يُكره الناس على سلوك سبيل الخير أو الشر، فالإكراه من هذا القبيل ينافى العدل الإلهى، ويناقض حكمة التشريع السماوى، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، ومؤدّاها أن كل الناس لهم حق الاختيار، وأنهم يملكون إرادتهم، ولهم مشيئتهم، والإرادة والمشيئة مناط التكليف والمؤاخذة، وفى ذلك يُروى أن رجلاً سأل على بن أبى طالب : أكان سَيْرُك إلى الشام - يعنى لقتال أهلها - بقضاء الله وقدره؟ فقال له علىّ : **ويحك ! لعلك ظننت قضاءً لازماً،**

وقدراً حاتماً؟ ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد ! إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، ولم يُنزّل الكتاب للناس عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ! ذلك ظنّ الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار!



٤٨١. ﴿تحريف التوراة، وحقيقة اتهام القرآن لليهود ؟﴾

لم يتنزل القرآن إلا لأن التوراة حرّفها اليهود، ويأتي اتهام القرآن بتحريف اليهود للتوراة في سُوَر: البقرة، والنساء، والمائدة، بحسب ترتيب التنزول؛ فمن ذلك في سورة البقرة: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)**﴾، يعني لا تطمعوا أيها المسلمون أن يؤمن اليهود بالإسلام وينقادوا للقرآن، لأن التحريف من طبعهم، يقصدون إليه لخدمة مصالحهم، فلا أسهل عندهم من أن يغيّروا في كلام الله ويتأوّلونه على غير معناه، ويفسّرونه بغير مراد الله قصداً. وفي سورة النساء: ﴿**مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ (٤٦)**﴾؛ ومنه في سورة المائدة: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ (١٣)**﴾، وقوله: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ (٤١)**﴾، يعني أن هؤلاء اليهود - بما هم كذلك - قد فسدت فهومهم، وساء تصرفهم، وتأوّلوا ما أنزل الله على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا فيه ما لم يقله الله، وتركوا العمل به رغبةً عنه، وأهملوا عُرى دينهم وما اختصّهم الله به، واختصّوا أنفسهم بغيره حتى قال الله فيهم: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (٥)**﴾ (الجمعة)، فذمّهم بأقسى ما يمكن أن يُذَمّ به شعب من الشعوب، وأمّة من الأمم، فلقد مُنحوا التوراة لعلّهم يهتدون بها وينصلح حالهم، فأولُوها ظهورهم ولم يعملوا بها، كمَثَل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيّاً ولا يدرى ما عليه، وما قيمته، وما الهدف منه، فكانوا أسوأ من الحمار، لأن الحمار لا فَهْم له، وهؤلاء لهم فُهوم لم يستعملوها، كما قال: ﴿ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ (الأعراف).

ويقول المستشرقون: إن القرآن يتناقض مع نفسه عندما يتّهم اليهود بتحريف التوراة، ثم يقول عنها أنها: ﴿**هُدًى وَنُورٌ (٤٤)**﴾ (المائدة)، ﴿ **وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)**﴾ (آل عمران، وفاطر ٢٥)، و ﴿**الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧)**﴾ (الصافات)، وكانت: ﴿**إِمَامًا وَرَحْمَةً (١٢)**﴾ (الاحقاف، وهود ١٧)، وبلغ المديح القمة في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي**

أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) (الأنعام)، وفي قوله: **﴿ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ (91)﴾** (الأنعام). فما حكاية هذا التناقض؟ ولماذا يهجو اليهود ومع ذلك يعلو بكتابهم التوراة إلى السماكين ؟

•••

٤٨٢.﴿التوراة والقرآن والتناقض بينهما﴾

يقول الله تعالى عن القرآن واعتباره للتوراة: **﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (89)﴾** (البقرة)، و **﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (92)﴾** (الأنعام)، و **﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ (41)﴾** (البقرة)، و **﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب (48)﴾**، يعني أنه ـ أي القرآن ـ يصادق على كل ما سبقه من الكتب السابقة عليه وهي التوراة والإنجيل، ومصادقته على ما كان منها قد أوحى به الله تعالى، وأما غير ذلك فيصادمه ولا يصادقه، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (15)﴾** (المائدة) يعنى أنه قد جاء يبين ما بدّلوه وحرّفوه وأوّلوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيّروه ولا فائدة في بيانه. فتلك واحدة؛ والثانية: أنه جاء مصادّقاً للتوراة **﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (48)﴾** (المائدة)، يعنى أن القرآن أمين على مضمون التوراة ومؤتمن عليه، فما وافق القرآن من التوراة أو الأناجيل فهو حق، وما خالفه فهو باطل، فالقرآن حاكمٌ على هذين الكتابين، لأنه أى القرآن ـ آخر الكتب، وخاتمها، وأشملها، وأكملها، فجمع الله فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره، ولهذا جعله مهيمناً، أى شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها؛ والثالثة: أن القرآن نزل ليصحّح غلو اليهود والنصارى، يقول: **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ(171)﴾** (النساء)، فاليهود غلوا فى دينهم بأن جعلوه خاصتهم، وزعموا أن الله اصطفاهم فى الأول، وسيظل هذا الاصطفاء لهم حتى لو ضلوا، وأنهم لذلك فى الجنة وإن أفسدوا؛ **﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾** (التوبة ٣٠)، و **﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾**(المائدة٧٣)، وقال القرآن: **﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ(171)﴾** (النساء)، فلفت إلى كفرهم وحاجاهم، وقال: **﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (70)﴾**(آل عمران) وقال: **﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ(71)﴾**(آل عمران)، وقال فى اليهود. **﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾** (آل عمران)، وقال فيهم وفى النصارى: **﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ**

اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ (آل عمران)، فحذّر من غِشّهم وخداعهم، ومعاييرهم **الأخلاقية المزدوجة double bind** - وهى التى نعانى منها ونعاينها فى حياتنا المعاصرة، ولذلك حرّفوا الكلم عن مواضعه، وكانوا أساتذة فى هذا العلم المقيت، وبدّلوا كلام الله وأزالوه عن المراد له، ليوهموا أن ما زيّفوه واخترعوه هو من كلام الله، ونسبوه إليه تعالى، وفضحهم كَذِبُهم، سواء فى كُتب **العهد القديم** أو فى **كتب العهد الجديد**، ومن أجل ذلك اختلفت **التوراة والأناجيل** عن القرآن، وما ورد عنهما فى القرآن ليس مقصوداً به هذه التوراة ولا هذه الأناجيل، والمقصود **بالتوراة فى القرآن شريعة موسى** وتعاليمه التى أنزلها ربّ العالمين عليه، ودوّنها الله كما يقولون، أو دوّنها موسى - كما نعتقد - فى اللوحين، ومن أجلها بقى فوق الجبل **أربعين يوماً**. **والتوراة** إذن تعنى **الشريعة أو التعاليم**، وهى ما اصطلح عليه باسم **الوصايا العشر**، وهى فى الحق أكثر من هذا العدد. غير أن اليهود ينسبون إلى موسى **أسفاراً** - جمع سِفْر - وهو الكتاب ، **عددها خمسة** أسفار، وواضح من سياقها أن موسى لم يكتبها، ولم تتنزل عليه، ولم تُوحَ إليه، ولم يُلهَمْها، لأن موسى لا يمكن أن يقول عن نفسه أثناء روايته «**إن موسى كيت وكيت**»، أو «**فعل موسى كذا وكذا**»، وبعض ما أوردته هذه الأسفار عن وقائع توردها بأسماء كانت لها فى زمان لاحق على موسى، ولم يشهد موسى من هذه الوقائع شيئاً، ولم يعرف من هذه الأسماء اسماً. واليهود عادة عندما يتحدثون عن التوراة لا يقصرون الحديث فيها على **الأسفار الخمسة**، والتى عُرفت فى اليونانية باسم **البانتاتيوكس**، وظل ذلك اسمها عند **اللاتين** ثم عند الأوروبيين، فهناك غير هذه الكتب **اثنان وأربعون** كتاباً يؤلفون مع الكتب الخمسة ما يسمى **بالعهد العتيق**، واليهود يؤمنون بها جميعاً إلا السامريين منهم، فلا يقرون إلا **بسبعة** كُتُب منها لا غير، هى **الكتب الخمسة** المنسوبة إلى موسى، بالإضافة إلى كتاب **يوشع بن نون**، وكتاب **القضاة**: **والسامريون** يختلفون مع اليهود حتى فى التوراة نفسها، ولهم نسختهم الخاصة التى تختلف عن نسخة اليهود. وكذلك يخالف المسيحيون اليهود فى اعتبار **أسفار أستير**، **وباروخ، ودانيال، وطوبيا، ويهوديت، والحكمة، والجامعة، والمقابيين أول وثان** من الكتاب المقدس، وكانوا حتى سنة ٣٢٥م يرفضونها بالإجماع، ثم لمّا انعقد مجلس كبرائهم لذلك فى تلك السنة أوجبوا التسليم بسفر **يهوديت**، وأبقوا الشك فى **الكتب الثمانية** الأخرى، ثم اجتمعوا مرة أخرى سنة ٣٦٤م، فأوجبوا التسليم مرة أخرى **بسفر يهوديت**، واجتمعوا للمرة الثالثة سنة ٣٩٧م فأقرّوا أيضاً **أسفار الحكمة، وطوبيا، وباروخ، والجامعة، والمقابيين الأول والثانى**. وظل الحال على هذا الوضع إلى أن ظهر

البروتستانت فردّوا هذه الكتب، ووصفوها بأنها مؤلفات محرّفة، سيما كتاب المقابيين الأول والثاني. والمهم أن هناك اختلافاً بشأنها، ومنازعات حول صدق أحكام السلف، فإما أنهم على صواب بشأن هذه الكتب وأسلافهم على خطأ، وإما أنهم على خطأ وأسلافهم على صواب، والحق أن أسفار التوراة كلها، وأسفار العهد القديم برمتها، مؤلفة، وتباين مؤلفوها فتباينت الروايات فيها، وقيل إن عزرا بن سرايا المشهور بالكاتب، قد بدأ تدوين التوراة، بإعادة صياغتها، وتنظيم عباراتها، بالأحرف الآرامية المربعة المعروفة بالخط الأشوري، وذلك بعد عودته من السبي، في السنة السابعة من حكم ملك الفرس أرتحشَشْتا نحو سنة ٤٥٨ ق.م.، وكان كلما كتب شيئاً قرأه على الأحبار وفسّره لهم، فيعدّلون عليه، أو يصلحون من شأن ما يكتب، ويوجّهونه، فبان أن أكثر من واحد هو الذي قام بوضع هذه التوراة، ومع ذلك نُسب هذا الجهد لعزرا، وبجّلوه لذلك، وأنزلوه من أنفسهم منزلة عالية. واعتبروه في المنزلة بعد موسى، فإن كان موسى قد شرّع لهم لأول مرة، فعزرا هو الذي حفظ الشريعة، وأحيا مواتها، وجلاّها، وذكره القرآن فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ (٣٠)﴾ (التوبة)، أي كان الأحرى بهؤلاء وهؤلاء أن يتحرّوا الصدق فيما نسبوه لموسى أو للمسيح، فحرّفوا كلامهما، وزادوا على شريعتهما، وأنتقصوا فيهما، وشابهوا عزير أو المسيح بالله، وضاهئوهما به تعالى، وليس كذلك الإسلام ولا القرآن، فلما التقى عدى بن حاتم وكان نصرانياً، بالرسول ﷺ، قرأ عليه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ (٣١)﴾ (التوبة) فقال عدى: إنهم لم يعبدوهم! فردّ عليه النبيّ ﷺ وقال: «بلَى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسول الله ﷺ: «يا عدّي، ما تقول؟ أيضرّك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ أيضرّك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟». ـ فهذا ما ينتقده الإسلام في اليهودية: أن عزرا كتب التوراة، وكتبها معه الأحبار، فحللوا وحرّموا، واستعلوا وتكبّروا، وأخفضوا من قدر الناس وبثّوا الكُره لهم. وما حرّفوه وبدّلوه وزيّفوه وشرّعوه هو ما نعانى منه الآن، وسبق أن عانت منه البشرية وكل الأمم عبر تاريخ تواجد اليهود بين شعوبها، ولقد ترك اليهود الدعوة إلى الحق والعدل والمساواة بين الناس، وأن يعبدوا الله، وبشرّوا بأنهم يحكمون العالم، وأنهم صفوة الخلق، والمصطفون من الله، وقد أخذ العهد على نفسه بذلك، ونسبوا إلى الله تعالى أنه أعطاهم أرضاً ليست لهم، وأموالاً ليست من حقهم، وذهبوا يعيثون فى الأرض فساداً، بالجنس والمخدرات والتآمر، وسيطرت المافيا اليهودية على أسواق المال، وعلى تجارات العالم ومصارفها، وصار اليهود سَدَنَة التجسُّس والوشاية والإيقاع

بين الشعوب، فذلك ما يأخذه الإسلام عليهم، وكان سبب ذلك كله «عزرا وأعوانه» وما شرّعوه من دون الله، فشاركوا الله في التشريع وتأوّلوا عليه، تعالى الله عن ذلك وتقدّس، وتنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه.

واليهود لا يسندهم فى دعواهم بربّانية التوراة والكتاب المقدس شيء، وتسقط دعواهم أن هذه الكتب مُلهَمة، فحتى لو سلّمنا بإلهام عزرا وغيره، يبقى على اليهود أن يثبتوا بالدليل القاطع أن كتابهم أو كتبهم هذه إنما كتبها بحق النبيّ الفلاني وليس أشخاصاً مجهولين، وأن يصل إلينا ما كتبه النبيّ بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل مثلما حدث مع القرآن. والقول بأن التوراة أو غيرها إنما كتبها شخص ملهم بمجرد الظن والوهم أنه كذلك، لا يكفى فى إثبات أن التوراة أو غيرها (وسنرى نفس الشيء في الأناجيل عند النصارى) من تصنيف هذا النبيّ أو ذاك. وكذلك مجرد الادعاء أن الذى اشترك في الصياغة ربّانيون وأحبار تعاقبوا على هذا العمل وتوافروا عليه لا يكفى أيضاً. والسامريون يكذّبون الربّانيين من اليهود فى صحة نسبة هذه الكتب للأنبياء، وكذلك يكذّبهم البروتستانت من النصارى. والربّانيون والكاثوليك والأرثوذكس يكذّبون السامريين والبروتسنت، وإذا كان الأمر كذلك فلا نعتقد أن مجرد إسناد هذا الكتاب أو ذاك إلى نبيّ أو وليّ أو صدّيق، يقضى بأن هذا الكتاب أو ذاك ملهمٌ أو موحى به، وأنه واجب التسليم والإقرار به. ومجرد ادعاء اليهود أو غيرهم لا يكفى بل يحتاج إلى دليل. وهم يعتذرون عن انقطاع السند بالنسبة إلى التوراة وكُتب العهد القديم كلها بحجة ما عانوا من اضطهاد ومصادرات طوال تاريخهم كله، وفى مختلف بلدان العالم. وتبقى الحقيقة الدامغة : أنه لا سند حقيقى من الواقع يمكن أن يجزم بصحة نسبة التوراة الحالية إلى موسى؛ وأن هذه التوراة قد انقطع تواترها من قبل زمان يوشيا بن أمنون، والنسخة التى عثر عليها بعد ثماني عشرة سنة من تولية يوشيا، لم تكن كذلك نسخة معتمدة موثقة، ومع ذلك فقد ضاعت هذه النسخة قبل حادثة بختنصر، وفى هذه الحادثة لم يعد للتوراة وجود، وانتفت سائر كتب العهد العتيق من الوجود تماماً. وحتى لما أعاد عزرا كتابة التوراة على زعمهم، اعتماداً على ما حفظته ذاكرة الأحبار، ضاعت كذلك نسخة عزرا فى حادثة أنتيوكس الذى حكم سوريا من سنة ١٧٤ إلى ١٦٤ ق.م، واضطهد اليهود وذبحهم!!

ومن الأمور المردود عليها أن اليهود يدّعون أن السفرين الأول والثانى من «أخبار الأيام» كتبهما عزرا بمعاونة حجيّ وزكريا الرسولين، ومع ذلك تناقض كلامهم فى البابين السابع والثامن من السِفْر الأول فى بيان عدد أولاد بنيامين وأسمائهم، وخالفوا فى ذلك التوراة، وجاء فى الباب السابع أن أبناء بنيامين ثلاثة، وفى الباب الثامن جاء أنهم خمسة، وجاء فى

التوراة أنهم عشرة، واتفق علماء اليهود أن ما جاء في «**سفر أخبار الأيام**» **خطأ**، وبيّنوا سبب هذا الخطأ : **أن عزرا ما حصل له التمييز بين الأبناء وأبناء الأبناء**، وان مراجعه في النسب التي نقل عنها كانت ناقصة، **وعزرا وحجيّ وزكريا** رسُل، وما كان يمكن في الحقيقة أن يخطئوا لو أنهم وجدوا التوراة الحقيقية وتابعوها بدلاً من المراجع المتقَصة التي لجأوا إليها وظنّوها صحيحة! ولو كانت هذه التوراة التي بأيدينا هي توراة موسى حقّاً، لما خالفوها، ولما وقعوا في الخطأ، ولما أمكن لهم أن يتركوها ويلجأوا إلى ما يخالفها. وكذلك لو كانت التوراة التي كتبها عزرا واعتمد فيها على الإلهام والوحي من الله على زعم أحبار اليهود، هي نفسها هذه التوراة التي بين أيدينا، لما خالفوها، **والخلاصة**: **أن التوراة الحقيقية التي أنزلت على موسى ليست هذه التوراة التي بين أيدينا، وليست هي التي كتبها عزرا**، والحق أن ما بأيدينا اليوم ليس سوى **حكايات وروايات كان اليهود يتداولونها فيما بينهم، ووعاها عنهم الأحبار**،وكأي شيء يُختزن في الذاكرة **فإن النسيان يلحق ببعضه، والتحريف يلحق بالبعض** الآخر، وهو ما تعلّمناه من دراساتنا في **علم النفس وفي الطب النفسي**، ولم يكن الأحبار يدققون فيما يقال لهم، وكان الغرض والهوى يتحكم فيما نقلوه من هذه الروايات، **فنسبوا إلى الله أنه عاهدهم بلا مقابل، ونسبوا إلى إبراهيم أن الله وعده أرض فلسطين، وجوّزوا القتل والنهب والسلب والفساد في الأرض، واختلفت رواياتهم وتناقضت**، فعلمنا من هذه التناقضات والمخالفات أن هؤلاء الأنبياء **الثلاثة: عزرا، وحجّي**، وزكريا ـ حتى مع تصديق نبوتهم كما يزعم اليهود فيهم ـ **ليسوا بمعصومين في التحرير والتبليغ!**

ويهمنا هنا أن ننبه إلى بعض أخطاء كتُب اليهود المقّدسة المسماة **بالعهد العتيق، فالباب الخامس والأربعين، والسادس والأربعين** من كتاب **حزقيال يتخالف** في الأحكام صراحةً مع **الباب الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر العدد** من أسفار التوراة. **وحزقيال** اتّبع التوراة في زمانه، فلو كانت تلك التوراة التي اتّبعها هي نفسها التوراة التي نعرفها الآن والتي بين أيدينا لما حدثت المخالفة. وكذلك وقع في التوراة التي بين أيدينا في مواضع عديدة أن **الأبناء يؤخذون بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال**، بينما في **العبارة العشرين من الباب الثامن عشر من كتاب حزقيال** : « **إن النفس التي تخطيء فهي تموت، والابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن، وبرّ البار عليه يعود»، ونفاق المنافق عليه يعود**، فعلمنا من هذه العبارة أن أحداً لا يؤخذ بذنب غيره، وهو الحقّ كما في قوله تعالى في القرآن: **﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾** (الأنعام١٦٤ ، وفاطر ١٨، والزمر ٧، والإسراء ١٥).

ونعلم من ذلك أن هذه التوراة التي بين أيدينا ليست هي التوراة الحقّة، ولو كانت هذه التوراة منزّلة، ولو كانت من تصنيف موسى، لكان الأمر مختلفاً بشأن عباراتها.

والمتبّع في هـذه التوراة التى بين أيدينا، أن مـؤلفها فـيما يزعـمه منسـوباً إلى الله، يذكره مسبوقاً بـ «قال الله»، وما يزعمه منسوباً إلى موسى يذكره مسبوقاً بـ«قال موسى»، فعبّر عن الله وعن موسى بصيغـة الغائب، ولو كانت التوراة من تصنيف موسى لكان عبّر عن نفسه بصيغة المتكلم. والذى يشهد عليه الظاهر أن هذه التوراة لا هى من وحى الله ولا بإلهامه، ولا هى من تصنيف موسى، وإنما من وضع الوضّاعين، ودليلنا ما فيها من تعارض وتخالف، وما حوته من أقوال عن الله لا تصـدر عن الله، وما نُسب منها إلى موسى ولا يمكن أن يصـدر عن موسى، لما فى ذلك من معـارف ومعلومات وأسمـاء وأماكن لم يعلمهـا موسى، وما كانت قـد حدثت فى زمنه بعد! وعلى عكس ذلك القرآن فالمعارف والمعلومات والقضايا والمسائل والأسماء والأماكن فيه، كلها تناسب وقتها، ولا تعارض أبداً مـا سيُكشف عنها فيما يلحق من الأزمان. وما ينسب إلى الله فى القرآن، هو أليق وأنسب إليه تعالى وليس محل نقد. وما ينسب من نقد إلى النبى ﷺ، ما كان يمكن أن يتنزّل ويُعلَن على المسلمين فى نفس الوقت ليبقى على مرّ العصور ويُتلى بينهم، لو كـان النبىّ ﷺ هو واضع القرآن. والقصص فى القرآن منه الكثير فى التوراة، وما فى التوراة فيه كـلام يسيئ إلى الأنبياء ويظهرهم كعامة الناس وأنهم ضد الفضـائل، وليس فى القصص فى التوراة أية مواعظ أو دروس فـى الأخلاق، والأمـر بخلاف ذلك تماماً فى القرآن، فـالقصص القرآنى مقاصده عالية وراقـية وسامية، ولم يأت اعتباطاً وإنما لأن له إحالات إلى الواقع فى حـياة المسلمين أيام الرسول ﷺ. والقصص والأحكام فى التوراة، من الواضح أن مؤلفـها لا يمكن أن يكون قبل زمن داود، ولابعـد زمن حزقيال، وأنها كتبت فى كنعان أو أورشليم، وليس فى الصحراء بتصنيف موسى. ومن المعوّل عليه فى التأليف أياً كان، أن المؤلف لو كان يكتب عن حالات ، وعن مواقف وأحوال تخصّـه، أو عاينها بنفسـه، فإنه يكتبـها بحيث يظهر أنه هو نفسـه الكاتب وليس غيره. ومـوسى فى هذه التوراة التى بين أيدينا يظهـر بجلاء أنه ليس كاتبهـا،وإنما آخرين يكتبون عنه، ولو كانت عبارة واحدة قد صدرت عن موسى بصيغة المتكلم لكانت للتوراة اعتبارات أخرى، وإنما كل ما جاء بها عن موسى تسبقه هذه العبارة : قال مـوسى. ويزعم علماء اليـهود أن الذى كـتب ذلك عن موسى هو نبىّ مـثله يروى عنه، وأنه يُلحق بكلام موسى كلاماً من عنده، أى من عند هذا النبىّ، وذلك ادعاء لا يسنده برهان، لأنه ما كتب نبىّ أنه ألْحَقَ هذه الفقرة أو تلك بالباب الفلانى، ولا كتب أن غيره كتب ذلك، ولم يثبت ذلك بالدليل. وأسلوب الكلام فى التوراة وفى غيرها من الكتب واحد، ولا فرق بينها فى ذلك، وكان الأحرى أن يكون هناك فرق فى الأسلوب بحسب الفرق فى الزمن، وقد يبلغ

هذا الفرق نحو تسعمائة سنة! وعلماء اليهود أنفسهم يجزمون بأن تأليف التوراة لابد قد حدث في عهد سليمان، أي قبل ألف سنة من ميلاد المسيح، وفي الزمن الذي كان فيه هومر، ولدينا دليل من دراسة الإنجليزية اليوم، ودراستها من ألف سنة، أن هناك فرقاً في الأسلوب ومعاني الكلمات في الزمانين، والفرق فعلاً كبير جداً، وكان مثله سيظهر حتماً في التوراة وسائر الكتب، ولكنه لم يظهر شيء من ذلك. وفي هذه التوراة التي بين أيدينا جاء في سفر تثنية الاشتراع، في الباب السابع والعشرين، العبارات الخامسة حتى الثامنة : «وتبنون هناك مذبحاً للربّ إلهكم من الحجارة غير المنحوتة، وتكتبون على الحجارة جميع كلام هذه التوراة كتابة واضحة»، فنعلم أن حجم التوراة كان بحيث لو كُتب على حجارة المذبح لكان المذبح يسع ذلك، فلو كانت التوراة هي هذه الأسفار الخمسة التي تستنفد من كتاب العهد العتيق ثلاثمئة وخمسين صفحة ،لما أمكن ذلك، ثم بأى خط كتّب موسى ؟ أبهذا الخط العبراني الحالي ؟ أبداً، فلم يعرف أنه كان للعبرانيين خطٌ خاص بهم، وإذن فكيف كتب موسى هذه التوراة ؟ ومن أين تأتّى له الخط؟ وأين هي النسخة بهذا الخط غير المعروف ؟ وحتماً فإن هذه النسخة الحالية من التوراة ليست هي توراة موسى. ولو كانت هي توراته التي كتبها ما وقع موسى وهو النبيّ كليم الله - في هذه الأخطاء الحافلة بها التوراة، كالخطأ في العبارة الخامسة عشرة، من الباب السادس والأربعين من سفر التكوين والتي تقول : «هؤلاء بنو ليّة الذين ولدتهم ليعقوب في فدان أرام مع دينة ابنته: جميع نفوس بنيه وبناته ثلاثة وثلاثون»، والصحيح أنهم أربعة وثلاثون نفساً، فلو عددنا الأسماء مع دينة صاروا أربعة وثلاثين، ودينة ابنته، لابد من عدّها!ومثل آخر لهذه الأخطاء في التوراة، هو الخطأ في العبارة الثانية من الباب الثالث والعشرين من التوراة سفر تثنية الاشتراع التي تقول: «من كان ولد زانية لا يدخل جماعة الربّ ولو في الجيل العاشر، لايدخل منه أحد في جماعة الربّ»، فطبقاً لذلك لايلزم أن يدخل داود ولا آباؤه إلى فارص بن يهوذا في جماعة الربّ، لأن فارص ولد زنا، فقد زنا أبوه يهوذا بأرملة ابنه وأنجبه منها، وداود هو الجيل العاشر من فارص كما جاء في إنجيل متّى عن بيت المسيح في الفصل الأول، في العبارات من العبارة الثانية حتى الخامسة، فهل يعقل ذلك ؟ وهل من المقبول أن يكون المسيح من بيت داود كما جاء في الفصل الثاني من إنجيل لوقا العبارة الرابعة، وداود نفسه يقال عنه إنه ولد زنا ؟ هل هذا معقول ؟ ولابد أن هذه العبارة من التوراة قد وردت خطأ لأنها شديدة التجافي مع قدسية هؤلاء الأنبياء، وموسى لا يمكن أن يخطيء في التشريع، والله تعالى لايمكن أن يوافقه على تشريع يعلم سلفاً أنه سينطبق على داود، وأن المسيح سيكون من نسل داود، وإذن فهذه التوراة التي بين أيدينا ليست من تصنيف موسى، وليست من وحي الله ولا إلهامه.

ومثلٌ آخر من الأخطاء في التوراة : الخطأ في سفر العدد، الفصل الأول، العبارات من ٤٦ حتى ٤٩ التي تقول : «هؤلاء المعدودون الذين عدّهم موسى من ابن عشرين سنة فصاعداً، المؤهلون لحمل السلاح في الحرب مع الإسرائيليين، كان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين، وأما اللاويون فلم يعدّوا، إذ كان الربّ قد كلم موسى قائلاً : أما سبط لاوي فلا تعدّهم، ولا تُحصِ جملتهم من بين بني إسرائيل». ونعلم من هذه العبارات أن عدد الشبان في سن التجنيد عند الخروج من مصر، وفي صحراء سيناء، كان أكثر من ستمائة ألف ليس منهم اللاويون الذكور والأناث، وكذلك إناث كل البيوت من غيرهم من الإسرائليين، وكذا ذكورهم الذين لم يبلغوا العشرين، ولا الشيوخ، فيكون الكل تقديراً نحو مليونين وخمسمائة ألف، وهذا كذب ! ـ لماذا ؟ لأنه مذكور في التوراة في سفر التكوين ، الباب ٤٦، العبارة ٧، وفي سفر الخروج، الباب الأول، العبارة الخامسة، وفي سفر تثنية الاشتراع، الباب العاشر، العبارة ٢٢ : أن الإسرائيليين الذكور من أولاد يعقوب بما فيهم يوسف وولداه كانوا سبعين فقط !! فهل هؤلاء السبعون أنجبوا مليونين وخمسمائة ألف من الذكور عند الخروج ؟ وفي سفر الخروج أيضاً العبارة ٢٢ يجيء : إن فرعون مصر أمر جميع شعبه أن كل ذكر يولد للإسرائيليين يغرقونه في النهر»، ونجا موسى من هذا المصير، وجرى له ما جرى، وعاد ينذر فرعون وموسى في الثمانين، أي أن هذا التقتيل لذكور بني إسرائيل كان يجري قبل مجيء موسى بثمانين سنة واستمر خلال ذلك، ورغم هذا التقتيل لكل الذكور مدة ثمانين سنة، كان هناك هذا العدد من الشباب دون العشرين؟!! فإما أن خبر هذا التقتيل كان فرية، وإما أن هذا العدد غلط كله من أوله لآخره!!! ثم نأتي إلى عدد سنين إقامتهم في مصر، منذ مجيء يعقوب إلى الخروج، ففي سفر الخروج أيضاً، الباب الثاني عشر، العبارة ٤٠ : «وكان مقام بني إسرائيل الذي أقاموه بمصر أربعمائة وثلاثين سنة»، ولكن في الباب السادس من سفر الملوك الأول، العبارة الأولى : «أن سليمان في السنة الرابعة من حكمه وبعد مرور ٤٨٠ سنة من الخروج من مصر بنى بيت الربّ»، فهل يعقل أنه قد مضى من موسى حتى سليمان خمسون سنة فقط ؟! وموسى هو ابن يوكابد بنت لاوي، وابن عمران بن قهات بن لاوي. وقهات جدّ موسى ولد قبل مجيء بني إسرائيل إلى مصر كما جاء في العبارة ١١ من الباب السادس والأربعين من سفر التكوين ، فلا يمكن أن ينقضي من مجيء الجد إلى خروج الحفيد ٤٣٠ سنة!؟ والمعقول لذلك أن تكون مدة البقاء في مصر هي ٢١٥ سنة، وهي المدة التي يقرّها مؤرخو اليهود ومفسرو التوراة عن النسختين السامرية واليونانية من التوراة، وفيهما صُححت عبارة التوراة عن الأربعمائة وثلاثين سنة التي

سكنها الإسرائيليون في مصر إلى أنها مدة بقاء العبرانيين وآبائهم وأجدادهم في أرض كنعان لا في أرض مصر، وربما ذلك صحيح لأن مدة بقاء إبراهيم منذ دخل كنعان إلى ولادة إسحق ٢٥ سنة، وإسحق كان ابن ستين سنة لما ولد له يعقوب، ويعقوب دخل مصر وكان ابن مائة وثلاثين سنة، فالمجموع ٢١٥، سنة، ومدة بقاء العبرانين في مصر ٢١٥ فيكون المجموع ٤٣٠ سنة، وعلى ذلك تكون عبارة سكن العبرانيون مصر ٤٣٠ سنة خطأ، ويكون رقم الشباب الحامل للسلاح خطأ كذلك، لأن عدد هؤلاء الشباب مرتبط بعدد سكناهم مصر.

ومن أمثلة الخطأ كذلك أن يأتي في التوراة في سفر الخروج، الباب السادس، العبارة ٢٠: «**فاتخذ عمرام يوكابد عمّته زوجة له، فولدت له هارون وموسى**»، ثم يكون هناك التشريع في سفر الأحبار، الباب الثامن عشر، العبارة ١٢: «**سوءة أخت أبيك لا تكشفها إنها ذات قرابة لأبيك**»، فكأنه بهذا الحكم قد جرّم القول السابق **بأن أباه تزوّج عمّته التي هي أم موسى**، ومع أن الشريعة الجديدة قد حرّمت ذلك إلا أنه يتبقى **أن موسى وهارون وُلدا من حرام**، وإن كان هذا الحرام قد جُلّي من بعد. وكذلك سبق في التوراة أن **داود من نسل فارص ولد يهوذا من تامار زوجة ابنه، فكأنه ولد زنا بحسب الشريعة اليهودية التي تمد التحريم إلى الجيل العاشر، مع التنبيه إلى أن المسيح من نسل داود كذلك**، وهي أمور منفّرة وغير مقبولة، بالمقارنة بما ثبت عن نبيّنا ﷺ، فقد روى ابن سعد، بطريق محمد بن عليّ بن الحسين عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «**إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، ولم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ولم أخرج إلا من طُهر**»؛ وعن عائشة، عنه ﷺ، قال: «**خرجت من نكاح غير سفاح**»؛ وعن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، قال: «**كتبتُ للنبيّ ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحاً، ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية**».

ومن أمثلة الخطأ كذلك في سفر التكوين، الباب الرابع، العبارة الثامنة من النسخة العبرانية، يأتي: «**وقال قابيل لهابيل أخيه لنخرج إلى «الصحراء»، فلما كانا في «الصحراء» وثب قابيل على هابيل أخيه فقتله**»، وفي النسخ السامرية واليونانية واللاتينية يأتي «**في الحقل**» بدلاً من «**في الصحراء**»!

ومن الأخطاء أيضاً: **العبارة السابعة عشرة من الباب السابع، من سفر التكوين** من النسخة العبرانية، وفيها يأتي: «**وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض**»، وفي النسختين اللاتينية واليونانية يأتي «**أربعين يوماً وليلة على الأرض**»، وفارق بين العبارتين!

وأيضاً العبارة **التاسعة عشرة من الباب السادس من سفر صموئيل الأول**، وفيها يأتى : «**وأهلك الرّب أهل بيت الشمس لأنهم فتحوا صندوق الرّب ورأوه، فأهلك منهم خمسين ألفاً وسبعين إنساناً**»، والتحريف واضحٌ فى العبارة، فإما قد سقطت منها بعض الألفاظ، وإما زيد فيها **خمسون ألفاً**، جهلاً أو قصداً! لأنه لا يُعلَم أن يكون أهل تلك القرية الصغيرة بهذا المقدار ! ومن السخف أن يُصحِّح محررو الترجمة هذا الخطأ كالآتى : «**وقُتل من الشعب سبعون رجلاً وكانوا خمسين ألف رجل**» !! وهو شىء يعدم الثقة تماماً فى نُسَخ التوراة جميعها، قديمها وحديثها، والاختلافات فيها فى هذه العبارة متباينة.

ومن أغرب الخطأ أن ترد **العبارة ٢٢ فى سفر التكوين فى الباب الخامس والثلاثين** كالآتى: «**وحدث أن كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض، أن رأوبين ذهب فضاجع بلهة سرية أبيه، فسمع بذلك إسرائيل**»، ورأوبين هو ابن إسرائيل البكر، وبلهة أنجب منها أبوه ولدين هما دان **ونفتالى**!! ورأوبين إذن ضاجع امرأة أبيه، فهل تكون هذه العبارة صحيحة ؟ **وهل أولاد الأنبياء ونساؤهم زناة ؟ إننا نعجب أن يشيع الزنا فى بيوت أنبياء إسرائيل** بهذا الشكل السافر والمستشرى : فى لوط، وموسى، وإسرائيل، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، ومريم، وعيسى !!!



٤٨٣. ﴿اليهود أنكروا القرآن لأنه ينسخ التوراة، وأنكروا النسخ لما تحوّل المسلمون بقبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة﴾

كان كفر اليهود منذ البداية حول هذه المقولة : أن نزول القرآن ينسخ التوراة، وهم لايمكن أن يكفروا بالتوراة، ومن ثم كفروا بالقرآن وألغوا فيه، وجحدوا أحكامه، لقولهم أنها تناقض أحكام التوراة، ولم يقرّوا بنبوة محمد ﷺ، وبنبوة عيسى عليه السلام من قَبله لنفس السبب، لأنهما نَقضَا **الناموس** - أى الشرع الموسوى، فأنزل الله تعالى : ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)**﴾ (البقرة). ومعنى أن ينسخ الآية أن يبدلها، أو ينقل حكمها إلى غيرها. والنسخ: **فى الأمر والنهى، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا نسخ فيها ولا منسوخ**. وأصل النسخ أن نقول نَسخَ الكتاب : أى نقله، فكذلك نَسْخ الحكم هو تحويله، والآية إذا نسخت، سواء فى حُكمها أو خطّها فهى فى الحالتين **منسوخة**. والنسخ عند علماء الأصول: هو رفع الحكم بدليل شرعى متأخر، ويندرج فى ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه، والنسخ بدون بدل. وقوله «نُنسها» فيه القراءة بالنون المضمومة أو بالنون المفتوحة، وفيه أيضاً «**ننسأها**» فمن يقرأها بفتح النون فمعناها نؤخرّها، ومن يقرأها «ننسأها» فمعناها نثبت خطّها ونبدّل حُكمها،

وكان عمر يقرأها «ننسأها» ويقول أى نؤخرها، فأما القراءة بضم النون، فكان قتادة يقول ادعاءً: كان الله يُنسي نبيّه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء»!ـ وقال الطبراني زاعمًا: قرأ رجلان سورة أقرأها لهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال: «إنها مما نُسخ وأُنسى فالهُوا عنها»! وفى قول الزاعمين أن قوله تعالى: «نأت بخير منها أو مثلها» تعنى فى الحُكم لمصلحة المكلّفين، فما كان أصلح فى الحُكم لهم قَضَى به الله تعالى ونَسخ ما قبله، والله تعالى ـ كما يقول ابن عباس ـ يحكم لنا بما فيه خير ومنفعة وبما هو أرفق بنا. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ (البقرة)، يعلّمنا بأنه تعالى المتصرّف وله الخَلق والأمر، يحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء، كقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ (الأنبياء). **والنسخ فى الإسلام** يا أخى المسلم الذكى المقصود بها ـ بمعنى أن بعضه ينسخ بعضه ـ غير موجود، **وآية النسخ** أن الإسلام ينسخ ما قبله من الديانات، أى اليهودية والنصرانية، واليهود أنكرو النسخ كما قلنا لهذا السبب، فأخبرهم الله بأنه تعالى له أن يقرر وأن ينهى، وأن يمحو وأن يثبت.

وما يزال اليهود حتى اليوم يحملون على النسخ، ويقلّدهم المسيحيون، والعلمانيون حاليـاً، واليهود لهم مصلحة وهى إنكار أن تنسخ النصرانية شريعتهم، والنصارى لهم مصلحة وهى إنكار أن ينسخ الإسلام ديانتهم، والعلمانيون دعاةٌ للتنوير والهيمنة الأوروبية والعولمة الأمريكية، ويدعون إلى إبطال الأديان والأخذ بالمنهج العلمى وإلغاء القيم كليةً، وكلهم معاند شديد العناد، والرّد عليهم ـ أخى المسلم الذكى ـ إنما بتذكيرهم **أن العقل لا يرفض النسخ فى الأحكام بما فيه المصلحة**، وفى القديم كان الله قد أحلّ أن يتزوج الأخ بأخته كما فعل إبراهيم، ثم نسخ ذلك؛ وأحلّ لنوح أن يطعم لحم أى حيوان، ثم نسخ الحل ببعضها وحرّمه؛ وكان نكاح العمة مباحاً كما فعل أبو موسى، وحرّمته شريعة التوراة؛ وأمر إبراهيم بذبح ولده ثم نُسخ الأمر، والأمثلة كثيرة فى ذلك يطول سردها. وكان أكثر ما يضايق اليهود من النسخ تحويل القِبْلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فذلك ما أغاظهم فى الإسلام وأضجّهم منه، فأخذوا يلغون فى النبى ﷺ، ويهزأون بالإسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾ (البقرة) والسفهاء هم اليهود، قالوا: ما لهؤلاء المسلمين يستقبلون تارة بيت المقدس، وتارة يستقبلون الكعبة؟ فكان جواب

الله تعالى: عليهم: ﴿**قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ يتضمن نفس الرّد السالف على النسخ: أنه تعالى المتصرّف وله الأمر كله ،وقال: ﴿**لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا**﴾(البقرة١٤٨)، **والوجهة هى** القبْلة، شرحها أكثر فقال: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** (٤٨)﴾ (المائدة)، يعنى يا أيها اليهود لكم قبلتكم التى ترضونها، وللمسلمين قبلتهم التى ارتضاها الله لهم، وللنصارى قبلتهم التى تابعوا اليهود عليها، وكل ملّة لها شرعة ومنهاج، أى سنن وطرائق ، والله تعالى **جعل الناس شعوباً وقبائل** (الحجرات ١٣)، **ولو شاء لجعلهم أمة واحدة** (المائدة ٤٨)، **وبعث فى كل أمة رسولاً** (النحل ٣٦)، وجعل لكل منها منسكاً هم ناسكوه (الحج ٦٧)، **وهذا هو الإقرار «بالتباين» فى الإسلام، و«احترام الغير أو الآخر، والقول بالديموقراطية الدينية!!**.

وكل ذلك أخى المسلم الذكى ـ يقوم عليه الإسلام ولاشىء منه فى اليهودية، ولا فى النصرانية، وأهيب بك - يا أخى المسلم الذكى ـ أن يكون ذلك منطلق حوارك مع الآخر، وأساس بلاغك له عن الإسلام، ودعوتك إليه أن يقّر بالحق، وأن يقول الصدق، وأن يقدّر الملل أقدارها. ولله الحمد والمنة.



٤٨٤.﴿آمين: هل هى مأخوذة من اليهودية والمسيحية؟﴾

لا توجد «آمين» فى النصوص اليهودية القديمة، وفى المزامير أضاف المرتلون «**آمين**» من عندهم، يثنّون بها مرتين على **المجموعة الثامنة من المزمور ٣١ حتى المزمور ٧٢**، ثم يقولون: **تمت صلوات داود بن يسّى**. ولخلو شعائرهم من «آمين»، قال الرسول ﷺ: «**حسدتكم اليهود على آمين**». **والنصارى** ينهون الصلاة **بآمين**. ويختمون الدعاء فى **سفر متّى، الفصل السابع، «بآمين»**.

وفى **الإسلام** «آمين» جزء ركين من **الفاتحة**، وهى سُنّة، وتقال عقب قراءة الفاتحة سواء فى الصلاة أو فى غيرها، والفارق بين الحالتين أنها فى الصلاة تقال بعد أن يدعو بها **الإمام**، وفى غير ذلك تقال عقب الفاتحة مباشرة. وفى الحديث : «**إذا أمّن الإمام فأمّنوا**». وآمين تقال عقب **كل دعاء** سوى الفاتحة، وهى كالخاتم على الكتاب، يقول ﷺ: «آمين **خاتم ربّ العالمين**»، أى هى الطابع على الدعاء، ومعناها: **اللهّم استجب، أو فليكن كما** دعونا، أو ربّنا افعل ما دعونا. وقول «آمين» عقب الدعاء له **تأثيره النفسى، فهى تعطى** الدعاء قوة، ويشعر الداعي أنه يستنزل بها البركة. وقيل : إن آمين **اسمٌ من أسماء الله**، والنطق بها كقولنا «يارب». ومن الخطأ تشديد الميم عند النطق بها، لأن الميم، المشددة تعنى شيئاً آخر مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ** (٢)﴾ (المائدة)، فآمين المشددة فيها الميم

تعني «قاصدون إليك». والإمام يجهر بآمين، وفي عهد النبيّ ﷺ كان إذا قرأ «ولا الضالين» قال: آمين - يرفع بها صوته ليسمعها أهل الصف الأول، فيقولها بعده كل من في المسجد، فيرتج بها المكان ارتجاجاً. والجهر بآمين إشهارٌ لها كشعار يُندَب العباد إلى إظهاره.

وفي الحديث أن الله أعطى أمّة الإسلام ثلاثاً، منها «آمين»، اختصّ بها المسلمين دون غيرهم، وفي الحديث عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على آمين، فأكثروا من قول آمين**». وموجب الحسد الذي لم يستوعبه المستشرقون: أن الفاتحة التي لا مثيل لها عندهم، أولها الحمد لله والثناء عليه، ثم الإقرار بعظمته وطلب الاستعانة به، ثم الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، وأن لا نكون من الضالين ولا من المغضوب عليهم. فآمين إذن تُذْكر قصداً، ولها فلسفة ومرجعية تاريخية، وليس الأمر كذلك عند النصارى خصوصاً وهم الذين يقولون آمين، ولا هو كذلك عند اليهود الذين لا يعرفون التأمين أصلاً. ولهذا يُتهّم المسلمون بأنهم سرقوا آمين من النصارى، وشتّان بين آمين عند النصارى الذين لا يقولونها إلا لماماً، وبينها عند المسلمين الذين تشكل بالنسبة لهم ركناً من أركان العقيدة ويلهجون بها دوماً وأبداً، وليس قول النصارى، بسرقة المسلمين لآمين إلا من باب الحسد والغيرة والحقد والاستعلاء. وحسبنا الله.



٤٨٥. ﴿أكاذيب اليهود في مناسبة الآية: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ»﴾

الآية: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ (الفرقان٢٧) صارت مثلاً سائراً، والظالم تاريخياً هو عُقبة من مُعَيْط، وخدْنُه أميّة بن خلف الجُمَحي، أو أنه أُبيّ بن خلف أخو أميّة، وكان عُقبة واقعاً تحت قهر أمية لسبب ما، ربما يفسره قولهم إنهما كانا خدْنين يعني متحابين، فربما أحدهما مأبون والآخر لوطي، ولما كان عُقبة قد اضطر أن يعلن إسلامه كي يحضر النبيّ ﷺ وليمة له أقامها لأشراف قريش، وكان أمية غائباً، فقد أجبره أمية بعد ذلك أن يرتد ففعل، فأنزل الله: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩)**﴾ (الفرقان).

وشنّع اليهود بتفسيرات أخذ بها بعض المفسرين من المسلمين للأسف، فقالوا: إن عقبة وأمية أُخذا أسيرين يوم بدر، وأن عقبة قتله عليّ بن أبي طالب، وأن **أمية** قتله الرسول ﷺ بنفسه!!! **ومعروف أنه ﷺ لم يحدث أن قتل أحداً، لا في معركة ولا في غيرها، وما أمر بقتل أسير قط!!!** وفي تشنيعة أخرى قالوا إن عُقبة قُتل صبراً في بدر، وذلك أيضاً لم

يأمر به النبىّ ﷺ ، وما كان يفعل ذلك مطلقاً! والصحيح أن عقبة قُتل فى وقعة بدر، وأن أمية قتل فى أحد! ومن أكاذيب اليهود فى مسألة عقبة هذا، أن أمية لمّا علم أن خدنه أسلم، قاطعه إلا أن يذهب إلى محمد ويبصق فى وجهه ويطأ عنقه ويسبّه قائلاً كيت وكيت، وأن عدو الله فعل ما أمره خليله !!! فهل هذا يُصدَّق ؟ أن يتركه النبىّ ﷺ يفعل فيه كل ذلك ؟ وأن يترك الصحابة رسولهم يكيل له هذا المأبون كل هذه الإهانات ؟!! وللأسف فإن هذا ما ورد عند الواحدى فى أسباب النزول! وفى تفسير الطبرى! وفى الدر المنثور !!! والظالم فى هذه الآيات عامٌ فى كل ظالم، والشيطان عامٌ فى كل مُحرّض على الإثم، وهو كل من يطيعه آخر فى المعصية، ويصدق فيه الحديث عن «جليس السوء والجليس الصالح»، فلما سألوا الرسول ﷺ : أى الجلساء خير؟ قال فى الجليس الصالح: «من ذكّرتكم بالله رؤيتُه، وزاد فى علمكم منطقُه، وذكّركم بالآخرة عملُه» أخرجه العسكرى فى الأمثال، والشاعر يقول:

وصاحب خيار الناس تنجُ مسلماً ∴ وصاحب شرار الناس يوماً فتندما

●●●

٤٨٦.﴿كذب اليهود أن محمداً أمر بصيام عاشوراء اقتداء بهم﴾

الكلام فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴿٥٠﴾﴾ (البقرة) لبنى إسرائيل، قالوا: إن نجاتهم كانت فى عاشوراء، وأن النبىّ ﷺ سألهم : «ما هذا اليوم الذى تصومونه»؟ فقالوا: هذا يومٌ عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال لهم النبىّ ﷺ : «فنحن أحق وأولى بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه. وهذا كذب وافتراء، يريد اليهود بأحاديث من مثل ذلك، الزعم بأن دينهم هو الدين المهيمن على الإسلام، والحقيقة كما قالت عائشة : كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه فى الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فُرِض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه». فمن غير المعقول أن يحاكى النبىّ ﷺ اليهود فيه، وهو الحريص أن يخالفهم فى كل شىء، فلمّا وجد اليهود تصوم اليوم العاشر مصادفةً مع المسلمين ـ يقول ابن عباس : أمر النبىّ ﷺ الناس فقال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود»، ثم إن التقويم اليهودى لا يتوافق مع التقويم الهجرى! فيا أخى المسلم، أذكرَ ذلك وادفع عن دينك، فهؤلاء الناس هم شرّ البرية، وأكذبُ خَلْق الله، وحسبنا الله فيهم!

●●●

٤٨٧. «الغرانيق في سورة النجم بحسب الإسرائيليات»

الغرنوق أو الغرنيق من طيور الماء الجميلة الشكل، ولذا قد يقال للشاب المليح أنه غرنوق من باب المدح، والجمع غرانيق، ويقال للأنثى أنها غرنوق وغرنوقة أيضاً، والجمع غرانيق أيضا وغرنوقات. وينهج المفسّرون للقرآن بالإسرائيليات على نهج يهود المدينة، ونهج اليهود بعامة، فالإسرائيليات لم يُختَص بهـا الإسلام، فقد فسّر اليهود بها الفلسفة اليونانية، واتهموا فلاسفة اليونانية بسرقة الأفكار من التوراة؛ واتهموا الحضارة المصرية القديمة بأنها عبرانية ونسبها المصريون لأنفسهم؛ وفي حربهم مع المسلمين حالياً ادّعوا أنه لا وجود لحضارة إسلامية، ولا لحضارة عربية، وأن الحضارة هى فقط الحضارة الغربية وأساسها يهودى وهو التوراة، وأن ما يسمى بحضارة إسلامية أو عربية منقولة عن العبرانية. وقديماً اختلفوا فى تفسيرهم للقرآن، ومن قبل ذلك وحتى الآن فى تفسيرهم للتوراة، ويذهبون إلى اختلاق الروايات المتناقضة مع القرآن، مما يوافق هواهم وأمزجتهم ونواياهم الخبيثة، ومن ذلك ما ذكروه فى تفسير بعض آيات من سورة النجم ، رووا فى تفسيراتهم عنها حكاية غريبة عرفت من بعد برواية الغرانيق، وكان أول من قال بها الحبر الأكبر عبد الله بن عباس، ونقلها عنه وروّج لها تلميذه سعيد بن جبير، ثم شاعت عنه إلى أن تداولها المستشرقون، ووجدوا فيها المناسبة المرتجاة للطعن فى الرسول ﷺ ، وفى القرآن، وفى الإسلام عموماً.

ومؤدّى الحكاية كما يروونها: أن الرسول ﷺ لما أنزلت عليه سورة النجم قرأها على من حوله، فلما بلغ الآيات: ﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤)**﴾، تلبّسه الشيطان، ودلّس عليه آيتين إضافيتين تصفان **اللات والعزى ومناة**، فتصير الآيات المتضمنة لها هكذا: «**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى**». فكأن الرسول ﷺ ـ طبقاً لهذه الرواية ـ يمكن أن يتلبّسه الشيطان ويدلّس عليه فى رواية القرآن، ولو كان ذلك صحيحاً، **فهل يمكن أن يوثق فيه إذن فى الرواية عن الله عموماً**، وفى أى شىء آخر يتعلق بالدين، طالما أنه عُرضة للتأثير عليه فى أهم أدوات الدين وهو كتاب الله؟ فهذه هى خطورة الرواية، وخطورة الاتهام الذى تتضمنه.

ونلاحظ ان ابن عباس لم يحضر نزول السورة، لأنه وقت وفاة النبيّ ﷺ كان فى

الثالثة عشرة من عمره، وكذلك ابن جبير، فإنه من مواليد سنة ٤٥ هـ. أى بعد وفاة الرسول ﷺ باثنتين وثلاثين سنة! ومع ذلك فقد اعتمد روايته السيوطى من بعد، ونشرها فى كتابه «الدر»، وكذلك كتب عنها ابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم، وابن مردوية، وفيما رووا أن ابن جبير قال عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قرأ بمكة سورة النجم، فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتهن لترتجى». وقال: عندئذ سجد الرسول، وسجد المشركون أيضاً، وقالوا: لقد ذكر آلهتنا بخير ولم يكن قد فعل ذلك من قبل. وانتشرت الحكاية عن طريق مَن سمعها من النبىّ ﷺ ممن كانوا حوله. ثم إن جبريل لما جاء بعد ذلك يسأل النبىّ ﷺ أن يعرض عليه ما جاءه به من قرآن، قرأ عليه النبىّ ﷺ ما عنده، فلما بلغ: «تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتهن لترتجى»، قال: لم آتك بهذا! هذا من الشيطان! ـ قال سعيد: فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ (الحج)! والزيادة التى قال بها ابن جبير ذكر قتادة أنها: «وأنهنّ لهنّ الغرانيق العُلىَ». وفى رواية الواقدى قال: سجد المشركون كلهم ـ أى عندما قُرئت هذه الزيادة ـ إلا الوليد بن المغيرة، وكان شيخاً كبيراً، فإنه أخذ تراباً من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه (أى أنه لكبره لم يستطع السجود)، وقيل إن الذى فعل ذلك أخاه سعيد بن العاص. وقال قتادة: حتى نزل جبريل فقرأ عليه النبىّ ﷺ، فقال جبريل: ما جئتك به! ـ وأنزل الله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤)﴾ (الإسراء).

فهذه حكاية الغرانيق التى يزعمونها والتى تصيّدها المستشرقون، وأنكروا بها على النبىّ ﷺ، وعلى القرآن والإسلام. والحكاية إما أنها حقيقية، وإما إنها ملفقة قال بها رواة غير موثوق بهم، لم يتحرّجوا أن ينقلوا الكفر، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء مناقشة هذه الروايات، كشأن المؤرخين الباحثين. ولقد جاءت رواياتهم مضطربة غير متوافقة مع بعضها، فقائل يقول: إن النبىّ أخطأ وكان يقرأ فى الصلاة؛ وآخر يقول: إنه أصابته سِنَة (أى غفوة) وهو يقرأ؛ وقال آخر: إنه سها؛ وقال آخر: ارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات، فنطق بتلك الكلمات، محاكياً نغمة كلام الآيات من قبلها، حتى أن من سمعه من المقربين، ظنوا أن ما قاله هو من القرآن فأشاعه! وكل هذه الروايات مرسلة ومنقطعة ولا يُحتَج بها، وطُرقها ضعيفة ومتهافته ومنُكرة، ولم يحفل بها البخارى ومسلم لهذا السبب. والمنكرون لهذه الروايات قالوا إن معنى «ألقى الشيطان»: أن الشيطان نطق بألفاظ سمعها

الكفار عند قول النبيّ ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠)﴾ فالتبس الأمر على من سمعها ممن كانوا بالقرب من النبيّ ﷺ، فظنوا أنه قائلها وليس الشيطان، فكان عُذرهم أقبح من ذنب الآخرين! والقرآن ينكر تماماً أن يكون للشيطان تأثير على المؤمن، ناهيك أن يكون هذا المؤمن هو النبيّ ﷺ! كقول ربّ العزة مخاطباً الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (٤٢)﴾ (الحجر)، وقوله عنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)﴾ (النحل)، وقوله عن النبيّ ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ (النجم)، ويقول بلسان النبيّ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ (١٥)﴾ (يونس)، وقوله عن عقوبة أن يتقوّل النبيّ ﷺ على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ (الحاقة). وإذن فحكاية الغرانيق لا تثبت من جهة النقل، فالقرآن لا يمكن أن يناقض بعضه، كما لا يمكن أن يُطعن فيه من طريق أحاديث في التفسير من المراسيل والمنقطعات ـ وهي التي دخل أكثر البلاء على الإسلام من خلالها.

ثم إن القصة من جهة السياق لا تستقيم مع ما قبلها، فاللات والعزى ومناة بحسب السياق هي مجرد أسماء سمّاها المشركون وآباؤهم ثم عبدوها، و«الأسمانية» مدرسة في الفكر تقول: أنه طالما أن هناك اسماً فإنه لابد أن يكون لشيء موجود في الواقع وإن لم يكن مرئياً ولا مسموعاً؛ ونقيضها «الوضعية المنطقية» التي تقول: «أن الاسم إن لم يكن موجوداً في الواقع فهو فارغ المعنى»، وأسماء اللات والعزى ومناة «فارغة المعنى»، لأنها ليست من الواقع في شيء. فإن قال قائل: إن الله تعالى ـ بالمثل ـ غير مرئي ولا مسموع، يعني أنه غير واقع ثم فارغ المعنى، فنقول: إنه تعالى مُدرَك بما له من أفعال نراها بالبصر، ونسمعها بالأذن، ونحيط بها بالعقل، فيما حولنا من مظاهر الكون، ما ظهر منها وما خفي، فالله تعالى اسمٌ كالأسماء، ولكنه على مُسمّى متعيّن ندركه بالحواس والعقول والأفهام. وأما اللات والعزى ومناة ـ فكما جاء في الآيات ـ هي أسماء فقط ما أنزل الله بها من سلطان، أي ليس لها واقع، والمعرفة بها معرفة ظنية، يعني إنْ سُئل الكفار عنها يقولون عنها أشياء بالظن ولا يوصّفون واقعاً، وظنهم بحسب هواهم، أي وفق أمزجتهم ورغباتهم. والآيات إذن تذم هذه الآلهة أو بالأحرى الإلاهات، لأنهم إناث وليسوا ذكوراً، والقرآن يعيب على الكفار أنهم جعلوا الآلهة شركاء الله إناثاً ولم يجعلوهم ذكوراً، مع أنهم لا يحبون أن تكون لهم الإناث ويؤثرون عليهن الذكور، فلماذا يجعلون لله ما

يكرهون لأنفسهم ؟ ويصف القرآن ذلك بأنه ليس عدلاً منهم، فهل بعد هذا الذم يأتى الله تعالى بمدح لهذه الإلاهات يناقض الذم السابق، فيصفها تعالى بأنها **غرانيق علا ترتجى شفاعتهن ؟!!**ومن جهة أخرى فلو أمعنا العقل فى هاتين العبارتين المضافتين «**تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى**» فقد لا نرى أن المعنى فيهما متعارض مع السياق، فالعبارتان تقالان من باب السخرية والازدراء لأسماء اللات والعزى ومناة، فيكون المعنى : اللات والعزى وهذه المناة الأخرى، اللاتى يقولون إن شفاعتهن ترتجى !! وهى طريقة فى الكلام نسمعها كثيراً فى العامية كلما أراد المتحدث التهوين من شأن شىء ما، وتكون العبارتان إذن ذماً شكلاً وموضوعاً، وليس بهن أى مدح ولو أقل القليل.

وهذه الفرية أو التشنيعة التى شارك فيها الأقدمون والمُحدَثون، أحزنت النبىّ ﷺ فى وقتها لما أثارته من الشبهات، وما سببته من الفتن. وقد ربط البعض لذلك بين هذه الحادثة وبين آيتين، الأولى: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)**﴾ (الإسراء)؛ والثانية: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)**﴾ (الحج)، والآيتان نزلتا فى أمور أخرى وليست لهما صلة بهذه الحادثة، فلا يحتج بهما على أن حادثة الغرانيق هذه قد جرت فعلاً، وسنتناول الآيتين بعد الانتهاء من حكاية الغرانيق، وسياقهما مختلف تماماً، وقوله تعالى فى **الأولى**: ﴿**كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ**﴾ ليس معناها أنهم قاربوا أن يحققوا لأنفسهم ذلك، وإنما أنهم حاولوا من خلال إنصاته لهم، ولم يفلحوا أن يفتنوه لأنه معصوم ومثبّت من الله. **فكما ترى الآية تحكى عن شىء آخر، ومع ذلك فهى بإزاء الحكاية التى نحن بصددها تؤكد استحالة وقوعها، لأنه مع العصمة والثبات لا يمكن أن يلقى شيطان على لسانه ﷺ شيئاً مخالفاً لمطلوبه تعالى.** وكذلك فإن **الآية الثانية** تؤكد أن محاولات شياطين الإنس والجن لم تتوقف عن التشويش على النبىّ ﷺ فى رسالته، ومعنى: ﴿**إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ**﴾ أى حدّث، ومعنى: ﴿**أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ أى فى حديثه، ﴿**فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ أى يبطله. والآية موضوعها ليس الغرانيق، **إلا أنها كذلك تؤكد أن حادثة الغرانيق هذه ما كان يمكن أن تحدث للنبىّ ﷺ بالطريقة التى رووا عنها،** ولذلك فقد حاول آخرون روايتها بطريقة مختلفة، فذكر الكلبى أن النبىّ لمّا بلغ : ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)**﴾ لبّس عليه الشيطان أن يضيف «**والغرانقة العلا وإن شفاعتهن لترتجى**»، وفسّر الغرانقة بالملائكة. ولم ير القشيرى هذا

التفسير، لأن الله يقول ﴿**فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ أي يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة.

ومن كل هذا التضارب كما ترى يتأكد أن **حكاية الغرانيق من أراجيف رواة الإسرائيليات**، وتلقّفها المستشرقون للتشنيع على الإسلام، أو أنها لو كانت قد جرت، فإنها لم تكن تعدو إشاعة أو تشنيعة، وفي **علم نفس الإشاعات** توصف أمثال هذه الإشاعة بأنها **مستبشعة**، ومن دأب العدو الذي يروّج لها أن يهوّل منها، فكلما زاد التهويل كلما كان للإشاعة مردود على الجماهير، ولو ببعض التأثير، ولن تكون عديمة التأثير أبداً، ومن تهويلهم في شأن حكاية الغرانيق - أنهم قالوا إن النبيّ ﷺ لمّا عرف ما قال، ندم عليه وقال: افتريتُ على الله وقلت ما لم يقل!

●●●

٤٨٨. ﴿آية الفتنة من سورة الإسراء مثل آخر كالغرانيق﴾

قال المستشرقون إذا كانت **قصة الغرانيق** في سورة النجم غير صحيحة، فلماذا كانت «**آية الفتنة**» إذن التي تقول: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)**﴾ (الإسراء)، **أليس ذلك لأن قصة الغرانيق صحيحة، وتثبتها آية الفتنة ؟**

ويقول راوي الإسرائيليات **سعيد بن جبير**، المولود سنة ٤٥ هـ، والذي لم يحضر أياً من أسباب نزول القرآن: كاد النبيّ ﷺ يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تَلُمّ بآلهتنا (أي تزورها). فحدّث نفسه (أي الرسول ﷺ)، وقال: ما عليّ أن ألِمّ بها بعد أن يَدَعوني أستلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره؟ فأبىَ الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية!- **فهذه رواية ابن جبير تطعن في أخلاقه** ﷺ، **ويريد منا هذا الملعون أن نصدقه فيها ! والمستشرقون يصدقونه ويروّجون** لمثل أقواله. ورواية سعيد جاء مثلها: عند **الطبري** في «**جامع البيان**»، **والماوردي** في **تفسيره**، **وابن عطيه** في «**المجرد الوجيز**». وجاء عند **الطبري والماوردي** عن **مجاهد وقتادة**، وفي رواية أخرى، نقلاً عن **ابن عباس**، والثلاثة من صُناع الإسرائيليات ورواتها : أن هذه الآية نزلت في وفد ثقيف لمّا أتوا النبيّ ﷺ فسألوه شططاً، فقالوا : متّعنا بآلهتنا سنةً حتى نأخذ ما يُهدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، فهمّ رسول **الله** ﷺ أن يعطيهم ذلك، فنزلت هذه الآية. وقوله «**هَمّ الرسول**» هو تأكيدٌ للمرة الثانية للصفة الزرية التي ينسبونها للنبيّ ﷺ : أنه كان من

الممكن أن يمالىء هذا أو ذاك، ولولا السماء لفعل ذلك!وفي رواية أخرى : أن أكابر قريش قالوا للنبيّ ﷺ : اطرد عنا هؤلاء السُقّاط المَوالى، حتى نجلس معك ونسمع منك، فهَمّ بذلك حتى نُهى عنه. وفسّر ذلك قتادة فقال: ذُكر لنا أن قريشاً خَلَوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح، يكلّمونه، ويفخّمونه، ويسوّدونه، ويقاربونه، فقالوا : إنك تأتى بشيء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سيدنا. ومازالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل هذه الآية!والرواية هنا أكثر نكراً، لأنهم يظهرونه فيها كما لو أنه ينطلى عليه تفخيمهم له وتسييدهم، حتى ليكاد يرضخ لهم !وبما يرويه قتادة أكثر من ذلك :أن الرسول ﷺ لما نزلت هذه الآية قال : **اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين**» رواه الطبرى وأبو حبان، وذلك بسبب قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ أى تميل إلى أقوالهم، لولا أن الله ثبّته على الحق، وعصمه من موافقتهم، وحال بينه وبينهم، ومنعه من أن يرضخ لهم ولرغباتهم وينقلب على أصحابه ومبادئه إرضاءً لهم !!وهذه الأقوال كلها باطلة، ولا تستقيم مع السياق ولا مع القرآن وتضاده تماماً. فظاهر الخطاب فى الآية للنبيّ ﷺ ، وباطنه إخبارٌ عن أهل ثقيف الذين كانوا موضوع الآية، وكانوا يتمدحونه، ويستميلونه إليهم، ولولا فضل الله عليه بالاصطفاء والنبوة والعصمة، لكان منه ميلٌ إلى موافقتهم، ولو فعل لأذاقه اللّه تعالى مثليّ عذاب الدنيا والآخرة، فكلما كانت الدرجة أعلى كلما كان العذاب عند المخالفة أشدّ وأنكى. كما جاء عن نساء النبيّ ﷺ : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** (٣٠)﴾ (الاحزاب). ومن ثم فلا صلة بين آية الفتنة وقصة الغرانيق التى تناولناها قبلاً، والتى ذهب فى تفسيرها رواة الإسرائيليات، مذاهب تحطّ من شأن الرسول ﷺ ، وتظهره بمظهر مشين، وللأسف فإن رواياتها قد صدرت أولاً عن منافقين مدلّسين كانوا مسلمين اسمًا، وقالوا بهذه التفسيرات، فلم يكن عجيباً أن يحتج بها المستشرقون وأعداء الإسلام من بعد للطعن فى النبيّ ﷺ طالما أن مروّجيها كانوا مسلمين ولو اسمًا!

●●●

٤٨٩.﴿الإسرائيليات فى آية الاستفزاز﴾

يقول الله تعالى: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا** (٧٦)﴾ (الإسراء). وكدأب ابن عباس غالباً عندما ينقل عن اليهود أسباباً لنزول القرآن، أو لتفسيره، من شأنها أن تهزّ صورة النبيّ ﷺ عند المسلمين وتجعله يبدو كما لو كان اليهود يتلاعبون به، قال : حسدت اليهود مقام النبيّ ﷺ بالمدينة، فقالوا:

إن الأنبياء إنما بُعثوا بالشام، فإن كنتَ نبياً فالحَق بها (أي بالشام)، فإنك إنْ خرجت إليها صدّقناك وآمنا بك. يقول ابن عباس: فوقع ذلك في قلب النبيّ ﷺ لما يُحب من إسلامهم! فرحل من المدينة على مرحلة (أي مسافة)، فأنزل الله هذه الآية وتسمى آية الاستفزاز. وقيل: إن الرسول ﷺ غزا تبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزلت الآية، فكان ذلك أمراً له بالرجوع. ومعنى «يستفزونك» يستخفونك ويزعجونك ويخرجونك من المدينة، فقد غاظهم استقراره بها، فلعله إن خرج تخلو المدينة لهم ويستتب لهم الأمر!

وابن عباس غلط، لأنه جعل الآية مدنية بينما سورة الإسراء مكية، وقال غير واحد من المفسرين أنها نزلت لما همّ أهل مكة أن يُخرجوا النبيّ ﷺ، ولكن الله أمره بالهجرة. ثم إن هذه الآية قد أتت الآيات قبلها عن أهل مكة، ولم يكن فيها ذكر لليهود، وليس قوله تعالى «**من الأرض**» إلاّ لأنه أراد بها أرض مكة، وجُماع الكفار بأرض مكة، ولذا قال تعالى: **﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾**، وفي قراءة «**لا يلبّسون**» بالباء المشددة، أي لا يدعهم الله على حالهم في مكة إلا لزمن قليل بعده، يقصد بالقليل المدة التي لبثوها بعده بعد إخراجهم له، واندحارهم يوم بدر.

ومن هذا ترى تهافت التفسيرات بالإسرائيليات، وغلط من قالوا بها، الأمر الذي يتحتم معه اطّراحها وتنزيه رسول الله ﷺ وكتاب الله مما يروّجون ضدهما من أراجيف، يريدون بها إظهار النبيّ ﷺ وكأنما كل ما يفعله لا يعدو ردود أفعال وليس مبادرات موحى بها، فاليهود يوعزون إليه ويؤلّبونه ويستثيرونه، وهو يرضخ لهم في مسألة مصيرية كهذه، وابن عباس تنطلي عليه تفسيراتهم التي قالوا بها، حتى ليقول فيها: فوقع ذلك في قلب النبيّ ﷺ لما يحب من إسلامهم، فرحل من المدينة! **وإني لأعجب كيف عرف أنه وقع في قلبه، وأنه يحب إسلامهم، وكان في ذلك الوقت** طفلاً غريراً بعد؟

●●●

٤٩٠. ﴿أيام الله: هل هو مصطلح إسلامي أم مسروق من التوراة؟﴾

المستشرق اليهودي يوسف هوورفيتس من أشد أعداء الإسلام، ولا يألو جهداً أن يذيع عن الإسلام الأكاذيب لعله يهزّ عقيدة المسلمين وينفّر الأوروبيين من اتّباع الإسلام، وتلك أماني المستشرقين والمبشرين، والله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره ويذيع الإسلام بنقدهم الذي ينتقدونه. وهوروفيتس يقول إن «أيام الله» في القرآن في الآية: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤﴾**

(إبراهيم)، والآية: **﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾** (الجاثية)، مأخوذة من التوراة، سفر العدد، الفصل الواحد والعشرين، العبارة ١٤، من قوله «كتاب حروب الرّب»، ويقصد به مجموعة الحروب التى دخلها اليهود فى فلسطين، ومنها حربهم مع الأموريين واجتياحهم لأراضيهم. وهذا إذن هو نصّ المصطلح، والسياق الذى ذُكر فيه، فأى عاقل يمكن أن يقول إن هذا المصطلح هو نفسه المصطلح القرآنى «أيام الربّ» ؟ وفى الآية الأولى التى ورد بها المصطلح فإن فى الحديث المرفوع عن النبىّ ﷺ فى قوله : «وذكّرهم بأيام الربّ» قال معناها ذكّرهم: «بنِعم الله»، وهو نفس المعنى فى الآية الثانية لقوله: **﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾**، حيث المعنى فيه إحالة إلى الآية الأخرى من سورة البقرة: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾** ، وكان ذلك فى الزمن الغابر طالما كانوا يتقون الله، فلما ضلّوا وأضلّوا ونقضوا العهد، صُرفت عنهم النعَم، ولذلك يذكّرهم الله بأيامه معهم التى كان فيها راضياً عنهم، وكانت له أيادٍ عليهم؛ وقيل هى أربع عشرة نعمة أحصاها القرآن، فأى صلة بين «حروب الربّ» التى فى سفر العدد، وبين «أيام الله» التى وردت فى القرآن ؟ ثم إن «حروب الربّ» ليست اصطلاحاً من الاصطلاحات بالمعنى المتعارف عليه، ولكن «أيام الله» اصطلاح أكيد، وعند العرب مثله، فهم يقولون عن النسّابين أنهم الأعلم «بأيام العرب»، يعنى بتواريخهم القديمة التي فيها أمجادهم. فكأن هذا المستشرق اليهودي الموتور هوروفيتس، أراد أن يستخرج شيئاً من لا شيء، ولم يفعل إلا أن أبان عن حقده وتعصّبه وجهله، وما أكثر ما يجهله هؤلاء المستشرقون !!

●●●

٤٩١. ﴿هل أخذ النبىّ ﷺ عن بولس ؟﴾

يقول المستشرقون : إن محمداً فسّر الآية : **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾** (السجدة) بالحديث عن ربّه فقال : قال الله عزّ وجلّ: «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»... ثم قرأ هذه الآية: **﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾** (السجدة) خرّجه الصحيح من حديث سهيل بن سعد الساعدى. ورغم أن المفسرين يستشهدون بهذا الحديث كثيراً، إلا أن البعض اعتبروه من الإسرائيليات التى استدخلت فى تفسيرات القرآن الكريم ونُسبت للنبىّ ﷺ ، ومن ثم فلا يُعتدّ به، وجاء عنه برواية ابن مسعود : **فى التوراة مكتوب** : على

الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر - ولم ينسبه ابن مسعود لبولس وردّه إلى التوراة، وهو غلط . والمستشرقون على القول بأن: حديث محمد أخذه عن بولس، عن الترجمة العربية لرسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتس، يقول فيها : «ولكن كما كُتب : ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يحبونه» (٢ / ٩). وكلام بولس ليس عن نفسه، وإنما عن مصدر آخر، قال «كما كُتب». والرسول ﷺ لم ينسب الحديث لنفسه، وإنما نسبه لربّ العزة، فهذا كلامه تعالى، في حين كلام بولس مجهّل، وحديث رسول الله ﷺ عن جزاء العباد الصالحين، وحديث بولس عن جزاء من يحب المسيح، ومع ذلك فالذى تسبّب في اعتقاد أخذ الرسول عن بولس هو مترجم الرسائل، فقد كان خبيثاً غاية الخبث، وأخذ حديث رسول الله ﷺ بكلماته - إن كان الحديث للرسول أصلاً - وترجم به كلام بولس، ليوحى إلى القارئ أن النبيّ ﷺ نَسَب إلى نفسه كلام بولس، وليجعله يشبه كلام بولس ليوهم بسرقته. ولنراجع معاً الحديث الأصلى باللغة الإنجليزية مثلاً لنرى الفرق بين الحديث فى الإنجليزية والترجمة العربية، والسرقة المفضوحة التى ارتكبها مترجم الرسائل العربية، تقول النسخة الإنجليزية :

"But as it is, Eye has not seen, nor ear heard, neither have entered into the heart of man, the things which God has prepared for them that love him"

وترجمة ذلك كالآتى : ولكن كما قيل: لم تر عين، ولا سمعت أذن، ولا استوعبها قلب إنسان، الأشياء التى أعدّها الله للذين يحبونه»، فأين هذا الكلام من الحديث النبويّ ؟ ولماذا ترجم المترجم هذا الكلام بنصّ الحديث النبوى إن لم يكن بنيّة إيهام القارئ بأن محمداً أخذ عن بولس؟! ولماذا لايكون كلام الرسول ﷺ أسبق من الترجمة العربية، وتكون الترجمة تقليد لكلام الرسول ﷺ ؟ومع ذلك فالحديث المنسوب إلى النبيّ ﷺ من أحاديث الآحاد ومشكوك فى راويه، وقيل إنه من الإسرائيليات، ثم إن رسائل بولس لم تكن قد تُرجمت إلى العربية ليعرف بها النبيّ ﷺ !

•••

٤٩٢. ﴿هل يحتاج الله إلى ملائكة لينصر المؤمنين ؟﴾

هكذا يقول المستشرقون تشكيكاً فى الإسلام، فنزول الملائكة فى قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (الأنفال)، وقوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤)﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾** (آل عمران)، كان سبباً في انتصار المسلمين، ولكن اللّه تعالى ليس في حاجة إلى سبب للنصر، وإنما يحتاج إليه المخلوق فيطمئن ويثق، فالله في ذاته هو الناصر بسبب وبغير سبب، والمخلوق لا يطمئن إلا إذا رأى السبب. ولا يقدح نزول الملائكة في التوكل، ولا يقوّى زعم القائلين بأن الملائكة لا تتنزل إلا لنصرة الضعفاء دون الأقوياء، والله تعالى يسخّر ما يشاء عندما يشاء، وقد يسخّر الطبيعة، أو يسخر الملائكة، والمهم أن يؤمن المؤمن بأن الله ينصر المستحق للنصر بطريقته.



٤٩٣.﴿سورة الأحزاب هل كانت كسورة البقرة في الطول، وهل كانت فيها آية الرجم؟﴾

سورة الأحزاب هي السورة **الثالثة والثلاثون** من سور المصحف، والرابعة فيما أُنزل من سور القرآن في المدينة، وكان نزولها بعد آل عمران، وآياتها **ثلاث وسبعون آية**، ونزلت في المنافقين وإيذائهم للرسول ﷺ، وطعنهم عليه، وعلى زواجه، وغير ذلك قيل: وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة، وكانت فيها آية الرجم، تقول: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم**»، وهو قول غريب ذكره كثير من المفسرين ولم يمحّصوه بحثاً وتحقيقاً، فإذا كانت الأحاديث الموضوعة، والأحاديث على اختلاف الروايات في الحديث الواحد، وكل المرويات في التاريخ، قد حفظت رغم ما فيها من أغاليط وتحريف وتشويه، واختلافات وافتراءات، فلماذا لو كانت سورة الأحزاب تعدل في طولها سورة البقرة - **لم يحفَظ لنا شيء من هذا الذي رُفع منها، فيما عدا هذه العبارة الهزيلة التي قيل إنها في الرجم**؟ والأدهى والأمر أن يقال أن سورة الأحزاب كانت تعدل على عهد رسول الله ﷺ **مائتي آية**، فلمّا كُتب المصحف لم يقدر منها (يعنى لم يجدوا منها) إلا ما هي عليه الآن! **فمن حذف الباقي؟ وهل يمكن أن ترفع منها ١٢٧ آية، دون أن يُخَلّ بالمعاني؟ وكيف رضي المسلمون بذلك؟ وإذا كانت سورة واحدة حذفت منها ١٢٧ آية، فمعنى ذلك أن القرآن لا يصدق عليه قوله تعالى**: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾** (الحجر)، يعني يحفظه الله من التغيير والتبديل والإنقاص والزيادة! والصحيح أن كل هذه الأراجيف من تشنيع المتخرّصين من المنافقين والمتعالمين، ومن الملاحدة والروافض وأهل الكذب وخاصةً اليهود، وإنه لشيء يتجاوز حدود المعقول، أن يُقال أن هذه الآيات المحذوفة كانت في **صحيفة في بيت عائشة، فأكلتها الداجن**!!! - أي الطيور والحيوانات المستأنسة؟!!

والسورة إذن هي كما نزلت: ثلاث وسبعون آية لا غير، وصدق الله تعالى أن أنزل في أولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ①﴾(الأحزاب). والخطاب كان للنبيّ ﷺ، ومن بعده للمسلمين كافة، فكأنه الردّ على من قالوا مثل تلك التقولات السابقة، فلا تسمعوا أيها المسلمون لمن يطعن في كتابكم بالنقص أو التحريف أو غير ذلك مما سنرد عليه في مكانه.

●●●

٤٩٤.﴿إشكالية الآية: «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» (البقرة٣٦)﴾

قالوا: كيف قال الله تعالى في هذه الآية: «عدو» ولم يقل «أعداء»؟

والجواب: أن «بعضاً» «وكلاً» يُخبَر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ⑨⑤﴾ (مريم)وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ⑧⑦﴾ (النمل). وكذلك فإن عدواً يفرَد في موضع الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ⑤⓪﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ④﴾ (المنافقون)، بمعنى أعداء.

●●●

٤٩٥.﴿إشكال الآية: «وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (البقرة١١٧)﴾

قيل: في أي حال يقول له كن فيكون؟ أفي حال عدمه؟ أم في حال وجوده؟ فإن كان في حال عدمه، استحال أن يأمر إلا مأموراً، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر. وإن كان في حال وجوده، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث، لأنه موجود حادث؟

والجواب: الآية خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود، يعني أن هذا الأمر لشيء موجود على حال أو هيئة، ثم يأمر أن يوجد على حال آخر أو هيئة أخرى؛ أو أن هذا هو قضاؤه في الأشياء، فإذا أراد، فإرادته قضاء. وأيضاً: فإنه تعالى يعلم بما هو كائن قبل كونه، فيأمر به أن يكون، فيكون بحسب ما يعلم، ويخرج الشيء من حال العدم إلى حال الوجود.

●●●

٤٩٦.﴿الإشكال في الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ⑨⓪» (آل عمران٩٠)﴾

الإشكال أنه تعالى قال في هذه الآية «لن تقبل توبتهم»، وقال في آيات أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ②⑤﴾ (الشورى)، فإذا كان المعنى لن

تقبل توبتهم إذا جاءهم الموت، كقوله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** (١٨) ﴾ (النساء) فلا إشكال هناك، والإشكال عموماً ينتفي إذا عرفنا سبب نزول الآية، وكان نزولها في قوم من أهل مكة قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة، رجعنا إلى قومنا، فأنزل الله الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾(آل عمران ٩٠)، أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر، فسمّاها توبة غير مقبولة، لأنهم لم يصحّ منهم عزم، والله لا يقبل التوبة إلا إذا صحّ العزم.

●●●

٤٩٧.﴿إشكال الآية: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)» (المائدة ٦٩)﴾

قيل: «الصابئون» في الآية كان ينبغي أن تكون منصوبة باعتبارها اسم إنّ، فيكون الصواب: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى» بدلاً من «الصابئون»، غير أن المعنى في هذه الحالة يختلف عن المعنى والآية كما هي، والمعنى الجديد هو أن هؤلاء المذكورين: الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئين، والنصارى، لا خوف عليهم؛ وأما في المعنى الحالي للآية كما هي، فإنه كالآتي: «﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا**﴾»، وهؤلاء هم الأصل، حيث المؤمنون هم المسلمون ويقابلهم اليهود، فأما النصارى والصابئون فهؤلاء ليسوا من الفرق الأصلية، فالنصارى يقولون إنهم فرقة يهودية، وكتابهم هو العهد القديم والعهد الجديد، والصابئة فرقة ثانوية، وديانتهم ديانة ثانوية، فيكون معنى الآية كما هي: إن الذين آمنوا والذين هادوا ـ وكذلك الصابئون والنصارى...، فذكر الصابئون والنصارى كتكملة، ومن ثم كانت الآية صحيحة عربياً ولا إشكال هناك كما يدّعي المستشرقون.

●●●

٤٩٨. ﴿إشكال الألف في بعض آيات القرآن﴾

في الآيات مثل قوله: ﴿ **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** (١٠) ﴾(الأحزاب)، وقوله: ﴿**وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا** (٦٦)﴾ (الأحزاب)، وقوله: ﴿**فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** (٦٧)﴾(الأحزاب)، ثبتت ألفاتها في الوقف، والعرب تفعل ذلك، مثل:

نحن جلبنا القرح القوافلا .٠. تستنفر الأواخر الأوائلا

فالألف أنزلت منزلة الفتحة ووجب الوقف بعدها، لأنها تقع في الفواصل.

●●●

٤٩٩. ﴿إشكال الآية: «ويَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (البقرة ٦١)﴾

قال المستشرقون : في قوله تعالى عن اليهود أنهم يقتلون النبيين بغير الحق، دليلٌ على أنه قد يصحّ أن يُقتَلوا بالحق ؟ **فهل ذلك جائز شرعاً فى الإسلام ؟ أليس الأنبياء معصومين من أن يصدر منهم ما يقتلون بسببه؟**

والجواب : لا إشكال في الآية، والمعنى فيها أن قتل النبيين ـ إن حدث ـ يكون ظلماً وليس بحق، واستخدام «بحق» بدلاً من «ظلماً» تعظيم للشنعة على اليهود، لأنهم الذين قتلوا النبيين، ولم تُعرف أمة قتلت أنبياءها إلا اليهود، ومعلوم أنه لا يُقتل نبيٌّ بحق، ولكن يُقَتل «على الحق»، مثل زكريا، ويحيى. فقد قُتلا على الحق وليس بحق، ولذا جاء التعبير فى الآية «بغير الحق» للتشنيع على الذنب، ولم يحدث فى تاريخ النبوّات أن أتى نبيٌّ قطّ بشيء يوجب قتله، فإن قُتل فإنما يُقتل بغياً وعدواناً، وهو قوله تعالى« بغير الحق». وقول النصارى إن عيسى قُتل، أن القتل تمّ على يد اليهود لاعتقادهم أنه خرج على الناموس، والخروج على الناموس يوجب القتل، وهو لم يخرج على الناموس، ولكنه جاء ليصحّح ما حرّفوه وبدّلوه منه، وليبشّر بشريعة جديدة، لأن لكل نبيّ شريعته، وقد تُخالف شريعته مَن قبله، ولكنها مخالَفة لا تستوجب قتله، فإن قُتل فهذا هو القتل بغير حق، ومن ثم فلا إشكال فى الآية.

●●●

٥٠٠. ﴿المستشرقون والآية: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» (البقرة ٢٣٤)﴾

قال المستشرقون كان الأصح أن تقول الآية ﴿**أربعة أشهر وعشرة**﴾ لأن العشرة تعود على **الأيام** وهي مذكر، ولا يجوز أن نقول «**وعشراً**» لأنها أنّثت الأيام. والصحيح أن **العشر مقصود بها «الليالى» وليس الأيام**، واليوم يبدأ من الليلة، وكذلك الشهر، فتغلب الليالى على الأيام إذا اجتمعت في التواريخ، نقول : صُمنا خمساً من الشهر، فتغلب الليالي وإن كان الصوم بالنهار. والمراد إذن «**الأيام والليالي**»، فلو عقد عاقد النكاح على المرأة وقد مضت أربعة أشهر «**وعشر ليال**»، كان نكاحه باطلاً حتى يمضي «اليوم العاشر».

●●●

٥٠١. إشكال الآية: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ» (البقرة ٢٥٣)

الآية مشكلة لأن الأحاديث ثابتة بأن النبيّ ﷺ قال: «**لا تخيّروا بين الأنبياء**»، وقال: «**لا تفضّلوا بين أنبياء الله**» رواهما الأئمة الثقات: مسلم، والبخاري، وأبو داود، وأحمد، والمعنى لا تقولوا هذا النبيّ خيرٌ من هذا النبيّ، ولا هذا النبيّ أفضل من هذا

النبيّ. وقيل في ذلك أن هذه الأحاديث ربما صدرت قبل أن تتنزل الآية، وربما قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم» لأنه كذلك يوم القيامة بوصفه الشافع يومئذ، وله لواء الحمد والحوض، وكان قوله: «لا تخيّروني على موسى» على طريق التواضع، وكذلك قوله: «لايقل أحد أنا خير من يونس بن متّى» على معنى التواضع، حيث الآية: ﴿ **وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ** (٤٨)﴾ (القلم) وهو يونس بن متى، فيها أنه أفضل منه فعلاً، لأن الله تعالى قال له: ولا تكن مثله، وإذن فهو خيرٌ منه، فدلّ على أن قوله: «**لاتفضّلوني عليه**» من طريق التواضع، ويجوز أن تكون الأفضلية من طريق العمل فلعله أفضل منه في العمل، ولا يعلم ذلك إلا الله، ولعله أفضل في البلوى والامتحان فإنه أعظم محنة منه. وربما قد نهى عن المقارنة بينه وبين الأنبياء، لأنه في المقارنة قد يُذكَر عنهم ما لا ينبغي أن يُذكر، ويقل احترام الناس لهم عند المماراة، فلا يقال لذلك: النبيّ ﷺ أفضل من الأنبياء كلهم، لما قد يُتوهَّم من النقص في المفضول، لأن النهي يقتضي منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد المعنى، فإن الله تعالى أخبر في الآية أن الرسل متفاضلون، إلا أننا انصياعاً لأمر نبينا ﷺ لا يحسن منا أن نقول أنه خيرٌ من الأنبياء، أو أفضل من فلان، تأدباً بالنبيّ ﷺ، وعملاً باعتقاد ما تضمنه القرآن من حجب أي الأنبياء أفضل، وعلى ذلك يكون الجواب على السؤال: **هل نبينا ﷺ هو الأفضل؟** أن القرآن اكتفى بأن الأنبياء متفاضلون ولم يذكر أسماء.

والأنبياء منهم **الرسُل**، ومنهم **أولو العزم**، ومنهم **الأخلاّء**، ومنهم مَن كلّم الله، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وآتى بعضهم الكتاب، وبعضهم العلم، ونبيّنا فضّله فقال له: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** (٢)﴾ (الفتح)، وقال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** (٢٨)﴾ (سبأ)، فلولا أنه الأفضل لما فتح عليه بكل هذا الفتح، ولما غفر له كل ذنوبه السابقة واللاحقة، ولما أرسله لكل شعوب الأرض، الأبيض والأحمر والأسود والأصفر. والحمد لله والمنّة.

●●●

٥٠٢ - ﴿مشكلة «ما» و«من» في بعض الآيات﴾

المستشرقون يقولون مثلاً في قوله تعالى: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ** (٣)﴾ (النساء): **كيف جاءت «ما» للآدميين في الآية بينما أصلها لما لا يعقل**؟ ومَن قالوا ذلك لا يعرفون العربية، لأن «ما» و«من» قد يتعاقبان، كقوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** (٥)﴾ (الشمس) أي ومَن بناها، وقوله: ﴿ **فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ** (٤٥)﴾ (النور). وفي الآية: ﴿ **ماطاب لكم من النساء** ﴾، «ما» لمن يعقل، يعني «مَن طاب». وقد تكون «ما» للنعوت لما لا يعقل، فيكون المعنى «**فانكحوا**

الطيِّب من النساء» أي «من الحلال»، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿٢٣﴾﴾ (الشعراء)، فأجابه موسى وفق ما سأل. وإذن فلا إشكال.

●●●

٥٠٣. ﴿لا إشكال في الآية: «وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ» (آل عمران ٧٣)﴾

قال المستشرقون إن الآية فيها اضطراب في المعنى، والتقديم والتأخير في بعض عباراتها أخلّ بالمفهوم، **والصحيح أن الآية لا إشكال فيها**، فهي من أقوال اليهود يعظون قومهم بمعنى: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يحاجيكم المسلمون بما يعرفون عن دينكم منكم، لأنهم لا حجة لهم فأنتم أصحّ منهم ديناً. ـ وأما: ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ**﴾ فهي جملة اعتراضية تنتقد ما يقولون. ـ وربما المعنى: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، لأنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.ـ أو أن المعنى: لا تصدّقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم. ثم يقال لمحمد ﷺ: ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ**﴾. ويحتمل أن الآية كلها خطابٌ للمسلمين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم، والتشحيذ لبصائرهم، ويكون المعنى: لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين، ولا تصدّقوا أن يحاجيكم في دينكم عند ربكم مَن خالفكم، أو يقدر على ذلك، فإن الهدى هدى الله، والفضل بيده تعالى.ـ وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «**إن اليهود والنصارى يحاجّونا عند ربّنا، فيقولون أعطيتنا أجراً واحداً وأعطيتهم أجرين، فيقول: هل ظلمتكم من حقوقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ذلك فضلي أوتيه من أشاء**».

●●●

٥٠٤. ﴿إشكال الآيتين: «لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» و«هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ»﴾

قال المستشرقون: إن الآية: ﴿**لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** ﴿٩٠﴾﴾ (آل عمران) مشكل، لقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ﴿٢٥﴾﴾ (الشورى) فكيف ذلك؟

والجواب: أنه لا إشكال وقد سبق الجواب في رقم ١٦٩، ففي قوله: ﴿**لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾، المقصود عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴿١٨﴾﴾ (النساء)، وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه الترمذي. والتوبة ما لم تكن بنية صحيحة فهي **توبة غير مقبولة، لأنه** لم يصحّ عزم أصحابها، وهو تعالى يقبل التوبة إذا صحّ العزم.

●●●

٥٠٥﴿إشكال الآية: إنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» (التوبة ١١١)﴾

قيل: إن الآية دليل على جواز أن يبيع المرء نفسه لمن يدفع له ثمن نفسه، ومقصد الآية ليس فيه هذا المعنى، فالكلام عن مبايعة المؤمنين لله وليس مبايعتهم للناس، ولذا لا إشكال فى الآية، ولزم التنويه.

●●●

٥٠٦﴿أشكلوا الآية: « مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ» (التوبة١٢٢)﴾

قال المستشرقون: إن «طائفة» مفرد ومؤنث، وخبرها «**ليتفقهوا ولينذروا**» جماعة مذكر، وهذا خطأ لايجوز، والصحيح أن معنى **الطائفة** هو القوم أو الجماعة من الناس، ومن ثم يكون الخبر بواو الجماعة. ومثل ذلك **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ⑨﴾** (الحجرات)، **فطائفتان** مثنى مؤنث، **واقتتلوا** بضمير الجماعة المذكر بحسب معنى **الطائفة** وهى الجماعة من الناس أو القوم، ومن ثم فلا إشكال.

●●●

٥٠٧﴿إشكال: « أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا» (الرعد٣١)﴾

قيل: **ييأس** بمعنى يعلم، فيكون المعنى: **أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله**، والالتباس تسبّب فيه المفسّرون من المسلمين، فقيل إن ابن عباس قرأ: «**أفلم يتبيّن الذين آمنوا**»، فقيل له: ولكن المكتوب «**أفلم ييئس**» ؟ قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس !!! ذكر ذلك الطبرى. وقال آخرون: رواية ابن عباس هى الأصح فى التلاوة. وهذا غلط وتصحيح مستقبح من ابن عباس وغيره.

●●●

٥٠٨﴿إشكال: «يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ» (النحل٥٩)﴾

الكلام فى المولودة الأنثى فكان يجب أن يقول: «**أيمسكها أم يدسّها فى التراب**»، والصحيح ما ذكر فى الآية لأن الضمير يعود على «ما».

●●●

٥٠٩﴿إشكال: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ» (النحل٦٦)﴾

قيل: كان يجب أن يقول «**مما فى بطونها**» تعود على الأنعام، غير أن العرب تخبر عن

الأنعام بخبر الواحد، وعلى ذلك يجوز أن نقول «بطونه» باعتبار الأنعام جميعها متماثلة وفي مقام الواحد.

•••

٥١٠. ﴿التعارض بين قوله: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى» (النحل ٦٠)، وقوله: «فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ» (النحل ٧٢)﴾

لا تعارض بين الآيتين، لأنه في قوله: «فلا تضربوا لله الأمثال» نهيٌ عن الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص، بمعنى: فلا تضربوا لله مثلاً يقتضي نقصاً وتشبيهاً بالخلق. والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير.

•••

٥١١. ﴿إشكال الآية: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ؟» (النحل ٧٥)﴾

لم يقل يستويان، غير أنه مع «من» يجوز يستوون. لأن «من» اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث.

•••

٥١٢. ﴿إشكال الآية: «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ» (الأنبياء ٩٥)﴾

قيل: الآية مشكلة، والصحيح أنه لا إشكال؛ وقيل ينبغي اعتبار «لا» زائدة حتى يستقيم المعنى، والصحيح أن المعنى مستقيم، فمن يهلكهم الله يحرم عليهم أن يرجعوا إلى الدنيا. فإذا كانت «يرجعون» بمعنى يتوبون، فإن من يهلكهم الله يحرم عليهم أن يتوبوا، لأنه لا توبة لهم بعد إذ أهلكهم.

•••

٥١٣. ﴿إشكال الآية: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾» (الشعراء ٢١٤)﴾

قيل: إن أصل الآية: «وأنذر عشيرتك الأقربيين ورهطك منهم المخلصين»، وقالوا إن الآية هكذا كانت قرآناً يُتلى ثم نُسخت فكان الإشكال، لأنه كان يلزم عليه أن لا ينذر إلا من آمن من عشيرته، وهؤلاء هم المؤمنون الذين يوصفون بالإخلاص. وهذا غير صحيح، فلم تثبت هذه الرواية فيما تواتر إلينا من روايات القرآن، ولا أُدرجَ ضمن المصحف؛ وفيما أورده من الزيادة لا يوصف مشرك مهما كانت قرابته بأنه مخلص، والنبيّ ﷺ دعا عشيرته كلها سواء من آمن ومن كفر، ومن ثم فلا صحة للقول برواية أخرى للآية.

•••

٥١٤. ﴿هل اليوم عند الله ألف سنة أم خمسون ألف سنة؟ وهل القرآن يعارض بعضه بعضاً؟﴾

المستشرقون على القول بأن القرآن يعارض بعضه بعضاً، فمرة يقول بأن اليوم عند الله مقداره ألف سنة من أيام الأرض: **﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾** (السجدة)، ومرة يقول: **﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) ﴾** (المعارج) فأيهما نصدّق؟ وقوله الأول مُشكل مع قوله الثاني، وهذه الأرقام لتصوير طول المدة، والعرب قد تعبّر عن المدة باليوم، وتصف أيام الحُزن بالطول، وأيام السرور بالقصَر، والزمن في القرآن هو الزمن النفسي النسبي وليس الزمن القياسي الكمي، وفي الآية الأولى فإن «الأمر» هو القضاء والقدر، أو هو جبريل الذى وكل بالسماء والأرض، يقطع المسافة بين العرش مكان التدبير إلى الأرض مكان التصريف فى يوم من أيام الله، بمقدار ألف سنة من أيام الأرض، والألف سنة للتمثيل على سبيل المجاز. ويأتي ذلك كثيراً في القرآن، كقوله تعالى: **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾** (القدر)، وقوله: **﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا (١٤)﴾** (العنكبوت)، وقوله: **﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ (٦٦)﴾** (الأنفال)، وقوله: **﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ (١٢٤)﴾** (آل عمران)، وقوله **﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ (١٢٥)﴾** (آل عمران)، وكلها تعبيرات عن الكثرة أو طول المدة من باب التمثيل، وقد يقول قائل: هل يمدّهم بثلاثة آلاف مَلك أو بخمسة آلاف؟ أيهما الرقم الصحيح؟ والتباين فى هذه الآيات ظاهريٌّ، حيث المهم أن تأتي الأعداد فردية وتدل على الكثرة، فمرة يكون الرقم ألفاً، أو خمسين ألف، أو ثلاثة آلاف، أو خمسة آلاف، فجميعها أعداد مفردة، والأعداد المفردة فى القرآن كثيرة، والله فرد، والزمن هنا هو الزمن النفسي النسبي، والتكاليف على الملائكة وجبريل متباينة فتتباين أزمانها بحسب أوقاتها المختلفة، ومواقفها المتعددة، وكل موقف وتكليف له وقته وزمنه، فلا تعارض بين الآيات وبين أن يكون «يوم الله» ألف سنة أو خمسين ألف سنة، ولا إشكال كما ترى.

•••

٥١٥. ﴿إشكال الآية: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى» (الإسراء ٤٧)﴾

قالوا الآية مشكلة، و«الباء» في قوله «به» زائدة، والصحيح أن يقال: **نحن أعلم ما يستمعونه إليك.** وكانوا يستمعون من النبيّ ﷺ إلى القرآن ثم ينفرون، فيقولون هو ساحر ومسحور، ويتناجون فى أمره. والصواب أن الباء ليست زائدة، **فليس فى كلام الله حرف زائد، وكلام الله منزّه عن مثل هذا النقد،** و على ذلك يكون المعنى: نحن أعلم بالذى

يستمعون به إليك وإلى قراءتك وكلامك. إنما يستمعون لسقطك وتتبُّع عيبك، والتماس ما يطعنون به عليك.

●●●

٥١٦.﴿الإشكال في الآية: «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (السجدة ١٣)﴾

قالت المعتزلة في تفسير هذه الآية : لو شاء الله لأكره الناس على الهداية، بإظهار الآيات الهائلة، ولكن ذلك لم يَحسُن منه، لأنه ينقض الغرض من التكليف، وهو الثواب الذى لايُستحق إلا بما يفعله المكلّف باختياره.

وقالت **الإمامية** من الفرق الإسلامية : يجوز أن المعنى أن الله يريد أن يهدي الناس جميعاً فى الآخرة إلى طريق الجنة، إلا أن القول حقّ منه أن يملأن منهم جهنم، فلم يعد عليه هداية الكل إلى الجنة، ولكنه يهدى الصالحين، ومن كانت عليه ذنوب تكون هدايته لهم إلى النار جزاء ما فعلوا.

وقالت **الجبرية** : إنه تعالى يهدى الناس على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه. وقال **آخرون**: إن الله تعالى يهدى المؤمنين إلى الإيمان والطاعة، على طريق **الاختيار**، حتى يصحّ التكليف، فمن شاء آمن وأطاع اختياراً لا جبراً، وهؤلاء **أصحاب مذهب الاختيار**، وفيهم قال تعالى : **﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾** (التكوير)، وقال: **﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾** (الإنسان)، فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم.

ومما سبق فإن **المجبرة** تكون قد فرطت لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان متوقفة على مشيئة الله، ولذلك قالوا : **الخلق مجبرون فى طاعتهم كلها**، التفاتاً إلى قوله تعالى : **﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٩﴾﴾** (التكوير): وكذلك فإن **القدرية** يكونون قد فرّطوا لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان متوقفة على مشيئة العباد، فقالوا : الخَلْق خالقون لأفعالهم، التفاتا منهم إلى قوله تعالى: **﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾** (التكوير). **والقرآن في مجمله لا** يقول بأي من تلك المذاهب، وإنما قوله هو **القول الوسط**، بين كافة المذاهب، **وخير الأمور أوساطها**، والاقتصاد في الاعتقاد من أصول الإسلام، وأهل الحق يفرّقون بين ما يضطرون إليه وبين ما يختارونه، ويدركون الفرق بين حركة الرئتين، أو القلب، أو ارتعاش اليدين عند مريض الشلل الرعّاش، وكلها حركات **لا إرادية**، أو نضطر إليها، وبين ما يختاره المرأ لنفسه، بتحريك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش. وأنا لم أختر أن أولد فى هذا التاريخ المعين، ولا أن يكون والداى هما هذين، ولا أن أكون مصرياً، ولا أن يكون طولى كذا ،

وإبصاري كذا إلخ، فهذه محدّدات كما يقول أهل الفلسفة، لا اختيار لي فيها، ولكن: أن أسرق، أو أزني أو أكذب إلخ فهذه أفعال يمكنني أن امتنع عن إتيانها، ويمكنني أن أمارسها باختياري الحر، وكذلك ارتعاش يدي في المرض لا ذنب لي فيه، ولكن أن تمتد يدي بالسرقة فالذنب هو ذنبي قطعاً. والله تعالى هدانا بأن وهبنا العقل، والتمييز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والحرام والحلال، وأرسل إلينا الرسل، وأنزل علينا الكتُب، وعلّمنا لنتبصّر ونعي ونعرف ونحكم بالحق، فهذا هو هداه، تماماً كما رزقنا نعمة الإبصار، ثم أنا حر أن استخدمها في الحلال أو الحرام، فكذلك هدُاه تعالى، آتاه كل نفس ولها أن تختار طريقها بعد ذلك، كقوله: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ⑩﴾ (البلد).

وكثير من الناس سيكون مصيرهم جهنم لأنهم تنكبوا هُداه، **والكسب** هو ما يعود على كل نفس من الذنوب أو الحسنات، كقوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** (٢٨٦)﴾ (البقرة). والكسب هو الذي يُدخلنا الجنة أو النار، وهو اختيار محض ويصدر عن شعور بالحرية، وإحساس بالمسئولية. والإسلام دين حرية، واختيار، ومسئولية.

●●●

٥١٧- ﴿التعارض والإشكال بشأن ملك الموت﴾

يزعم المستشرقون أن الآيات: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ** (١١)﴾ (السجدة)، و﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ** (٥٠)﴾ (الأنفال)، و ﴿**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا** (٦١)﴾ (الأنعام)، و﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** (٤٢)﴾ (الزمر) تتعارض مع بعضها البعض، فمرة مَلك الموت هو الموكول إليه الموت، ومرة هي الملائكة تتولى ذلك، ومرة هي رسل الله يبعث بهم لقبض الأرواح، ومرة هو «الله» يقضي بالموت على الخلق، ولا تعارض البتة بين هذه الآيات: فملَك الموت الذي هو عزرائيل هو المنوط به التوفّي؛ والملائكة تتولى التنفيذ؛ والرسُل تمهد للموت وتيسّره؛ و«الله» يقضي به ويصدر أمره، وهو تعالى خلف ذلك كله، وهو الفاعل الحقيقي لما سبق مع كل من سبق، وهو تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** (٢)﴾ (الملك)، ﴿**يحي ويميت** (٥٦)﴾؛ وعزرائيل يتولى ذلك بالوساطة؛ والملائكة والرسل تتولاه بالمباشرة، فلا تعارض ولا إشكال.

●●●

٥١٨- ﴿الإشكال في الآية: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ» (السجدة ١٨)﴾

قالوا: المقارنة في الآية بين المؤمن والفاسق وكلاهما مفرد مذكر، فكان الأصح أن يقال «لا يستويان»، فلماذا قال «لا يستوون» ؟ والجواب: أن لفظ «من» للواحد والجمع، ولهذا قال: «لا يستوون».

٥١٩.﴿إشكال الآية: «وترى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فيه»﴾

يقول تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ..(١٢)**﴾ (فاطر)ثـم يقول ﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ**﴾ (النحل١٤)، قيل كان الأصحّ أن يقول: وترى الفلك مواخر «فيهما» تعود على البحرين. غير أنه لا إشكال فى الآية مع ذلك، لأن الفلك هي السفن، وتمخر يعني تشق، والسفن لا تكون فى مياه الأنهار، وإنما فى الأنهار المراكب، كما أن المراكب لا تمخر البحار، وإنما السفن هي التي تمخر البحار، والمراد إذن هو البحر لا النهر، والبحر مفرد، ومن ثم قال «فيه» مفرداً.

●●●

٥٢٠.﴿إشكال الفلك في التذكير والتأنيث﴾

في الآية: ﴿**فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)**﴾(يس) تجيء الفُلك مذكراً، وفي الآية: ﴿**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ(١٦٤)**﴾(البقرة) تجيء مؤنثة، والمستشرقون يشككون في القرآن بحسب ذلك، وليس ثمة إشكال كما يدّعون، فالكلمة تحتمل الواحد والجمع. وفي الآية: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ (٢٢)**﴾(يونس) الفُلك: جمع مؤنث، والواحدة الفُلك أيضاً ، مثل أسد وأُسْد، وخَشَب وخُشُب. وأصل الفُلك من الدوران. وفَلك السماء الذي تدور عليه النجوم، وفلّكت البنت أي استدار ثدياها. ومنه فَلكة المغزل، وفَلكة الشيخ، وسُميت السفينة فُلكاً لأنها تدور بالماء.

●●●

٥٢١.﴿إشكال الآية: «قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» (الأحقاف٩)﴾

قالوا: كيف يكون النبي نبياً ولا يدري ما يُفعل به ولا بمن يتبعه ؟! ومعنى الآية لا ينصرف إلى هذا المعنى، لأن العبارة مشروطة بأنه لا يتبّع إلا ما يوحى إليه. ومع ذلك فالروايات التى تثير الشك في الآية كثيرة ومحاولات الردّ عليها منحولة. فقالوا: الآية فيما يخصّ الرسول ﷺ نسخها قوله: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ (٢)**﴾ (الفتح)، وفيما يخصّ من يتبعه من المسلمين نسختها الآية: ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(٥)**﴾ (الفتح)، وهذا غير صحيح، فلا نسخ هناك، ولا تعارض بين الآيتين اللاحقتين والآية موضوع الإشكال. وقوله تعالى: ﴿**قل ما أدرى**﴾ المقصود به ما رموه به من تهمة افتراء القرآن، ومعنى الآية: أنا لا أدرى أنى أفترى القرآن، وإنما أنا يُوحى إليّ به، وما أنا إلا نذير مبين. فأين الإشكال؟وواضح أن اليهود كانوا ينزعون الآية من السياق، ثم يقيمون عليها اعتراض وهمي، كأن ينتزع أحدهم: ﴿ **لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ** ﴾ (النساء٤٣)، من

سياقها، وينفى بها أن تكون الصلاة مقررة. وكانوا يقولون : **أنتّبع نبياً دعياً وهو لا يدرى ما يُفعل به ولا بأصحابه؟** وقالوا: هو إذن لا يفضلنا بشيء، فكلنا سواء لا ندرى! واستدلوا من ذلك على أنه مؤلف القرآن، وأن القرآن لم ينزل من عند الله. ومن المؤسف أن بعض المفسرين طاوعوهم على قولهم، وحصروا المعنى فى الآية دون السياق، حتى ذهب بعضهم إلى تصحيح نصّ الآية بأنه «**وما أدرى ما يفعل بهم**» وأنكروا أن يكون فيها «بى» و«بكم»، وقالوا: الخطاب فيما قبلها للمشركين فيجب أن تكون الآية على ما أوردوا به تصحيحها المزعوم. وأنكروا إمكان أن يقول النبىّ للمشركين : «**ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم**»، لأنه من بداية البعثة حتى مماته ما زال يخبرهم: **أن من مات على الكفر مخلّد فى النار، ومن مات على الإيمان واتّبعه وأطاعه فهو فى الجنة**، ولا يجوز أن يقول لهم «ما أدرى» حتى لايكون جوابهم: **وكيف نتّبعكَ وأنت لاتدرى!** وقال آخرون مصححين الآية: أنها لابد أن تكون : **ماأدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا**»؟ وقال آخرون إن المقصود بالآية: **ما أدرى أأخرج إلى الموضع الذى أريته فى الرؤيا أم لا ؟** وكان قد رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصّها على أصحابه واستعجلوه الهجرة، فسكت. وقال آخرون: ربما المعنى لا أدرى ما يفعل بى فى الدنيا، أأخرج كما أُخرجت الأنبياء قبلى، أو أُقتل كما قُتل الأنبياء قبلى؟ ولا أدرى ما يفُعل بكم، أتكونون أُمّتى المصّدقة أم المكّذبة، أم أُمّتى المرمية بالحجارة من السماء، أو المخسوف بها خسفا؟! وقال آخرون: إنه أُمر أن يقول للمؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم يوم القيامة؟ ثم بيّنت الآيات اللاحقة أنه مغفور له وللمؤمنين، كما فى قوله : ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ②﴾ (الفتح)، وقوله: ﴿**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ⑤﴾ (الفتح)، فكأن هاتين الآيتين نسختا الآية موضوع الإشكال.

والصحيح أن ذلك كله لا لزوم له، لأن الآية يحدد معناها **السياق**، ولا شىء مما قالوه فى السياق كما سبق، والآية محكمة كما أن الآيتين الأخريين محكمتان.



٥٢٢. ﴿إشكال الآية «وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» (الحجرات ٩)﴾

قال المستشرقون: أخطأ القرآن لما قال «**اقتتلوا**» بالجمع فى حين أنها ترجع إلى طائفتين وهى فى المثنى، وعلى ذلك كان ينبغى أن يقال «**اقتتلتا**» على لفظ الطائفتين؛ والصحيح أن طائفتين فى معنى القوم أو الناس، فتكون «**اقتتلوا**» صحيحة. ومثل ذلك فى قوله تعالى : ﴿**مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ** ⑫②﴾ (التوبة)، قيل: إن الطائفة مفرد

ومؤنث، فكيف يُعبّر عنها بقوله «ليتفقهوا ولينذروا» بضمير الجماعة المذكر ؟ والصحيح أنه برغم أن «الطائفة» واحدة، إلا أن خبرها يرجع إلى معناها وهو أنها الجماعة من الناس أو القوم، فيُعبَّر عنها بواو الجماعة.

•••

٥٢٣. ﴿لماذا التناقض في آيات الكلام عن يوم القيامة؟﴾

يقــول أهل الإلحـاد في يوم القيـامـة : إن بعض آيات القـرآن تقول إن الناس فـيه لا يتكلمون إلا لمن أذن له الله: **﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿١٠٥﴾﴾** (هود)، أي لا تتكلم بحجة ولا شفاعـة إلا بإذنه، فَلِمَ قال في موضع آخر: **﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾** (المرسلات)، وفي موضع آخر: **﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾** (الصافات)، وفي موضع آخر **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴿١١١﴾﴾** (النحل)، وفي موضع آخر **﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾** (الصافات)، وقال: **﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾** (الرحمن). وكأن الآيات تتناقض مع بعضها البعض ؟ والجواب : إنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض. ولا يؤذن لهم بالتكلم أو بالنطق بحجة لهم. ويوم القيامة يومٌ طويل، وله مـواطن ومواقف، يُمنعـون من بعضـها من الكلام، وفي بعـضـهـا يطلق لهم الكلام، فهذا يدل على أنه لا تتكلم كل نفس إلا بإذنه تعالى، ولا تناقض في الآيات.

•••

٥٢٤. ﴿شجر الزقوم في النار من المتشابهات﴾

لمّا نزلت الآية : **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾** (الواقعة) قال كفار قريش : ما نعرف هذا الشجر؟ فكيف يكون شجراً ويكون في النار؟ أفلا يحترق ؟ وثار الجدل في ذلك، واعتبروا أن النبيّ ﷺ يهرّف، فنزلت الآيات تقارن بين نُزل الجنة ونُزل النار، تقول : **﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾** (الصافات)، فأفصـحوا عن جهلهم، لأن أصحاب النار أو أهلها يكونون في النار وأحياء، وفيها أيضاً خـزنة النار ولا يحتـرقون، والذي خلق النار يخلق ما يضاد النار، فكانت هذه الشجرة فـتنة، وصارت آياتها من المتشابهات، أي مما يحتمل وجوهاً عدة في التفسير، كقولهم في الآية عن خزنة النار : **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾** (المدثر) : فلماذا هذا العدد بالذات ؟ حتى قال بعضهم : طالما أن

حراس النار تسعة عشر، فنحن نكفيكم منهم، ونقتلهم ونرتاح! **فجعل الله عدّتهم فتنة للذين كفروا، مثلما جعل شجرة الزقوم فتنة للذين ظلموا. وقال جماعة بالتأويل**، والتأويل فى هاتين الحالتين تأويلٌ باطل ولا يجوز، والمسلمون مجمعون على التصديق بهذه الأشياء من غير نظر إلى تأويل أو أخذ بعلم الباطن، فالعلم الحديث يكفينا، والعلم الحديث يفجأنا بمكتشفات لا نتخيلها، وهى أقرب إلى الأوهام ولكننا نصدقها، **فلماذا لا نصدق هذه الأشياء رغم أنها من الغيب؟ وما كان غيباً فكيف نفتي فيه ؟ (انظر المحكمات والمتشابهات فى** باب القرآن).

●●●

٥٢٥.﴿إشكال الآية: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» (المجادلة٣)﴾

قالوا : إن آيات **الظهار** بيّنت حُرمته ووجوب الكفارة فيه، ثم ألغت ذلك هذه الآية وجعلت الكفارة للظهار الثانى، يعني إذا عاد يظاهر زوجته مرة أخرى . **وهذا غير صحيح، فإن الآية تفيد أن العودة تعنى معاودة الزوجية، فلا تتحقق هذه المعاودة إلا بعد الكفّارة.**

●●●

٥٢٦.﴿وقوله تعالى: إن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» (التحريم٤)﴾

قال المستشرقون كان المفروض أن يقول القرآن «صغى قلباكما» طالما أنهما **اثنتان : عائشة وحفصة، ولكنه جمع فقال** «قلوبكما»؟ والصحيح هو ما ذكره القرآن، لأن العرب إذا ذكروا الشيئيين من **اثنين جمعوهما**، لأنه لا يُشكل، ومثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**(٣٨)﴾ (المائدة). وكلما **ثبتت الإضافة مع التثنية فلفظ الجمع أليق به، لأنه أمكن وأخف.**

●●●

وبهذا ينتهى الباب الرابع بحمد الله ومنّه،

ويليه الباب الخامس بعنوان «اليهود والنصارى فى القرآن»

●●●

الباب الخامس
«اليهود والنصارى فى القرآن»

●●●

٥٢٧. «لماذا انتقاد الإسلام لليهود؟ وما الذى ينقمه عليهم؟»

ما يأخذه الإسلام على اليهود هو نفسه ما أخذه أنبياؤهم عليهم بدءاً من موسى نفسه، فمنذ الخروج من مصر أوصاهم الله أن لايكون لهم آلهة أخرى بخلافه (الخروج ٢٠ / ١-٢٣،٢١ / ٢٠)، وحذّرهم من أن ينسوا عهد الربّ الذى قطعه معهم (التثنية٤ / ٩)، ولكنهم رغم كل هذه الأوامر والتحذيرات ظلوا طوال تاريخهم ـ ومنذ عهد موسى ـ يكفرون بالله ويشركون به شركاً صريحاً أو خفياً، وعبدوا الذهب والفضة والنساء، وظلوا يتشدّقون بأنهم **شعب الله المختار**، وغيرهم من الشعوب **أنجاس ملاعين**، مع أن التوراة نفسها نوهّت بأفراد من الأمم آمنوا بالله وعبدوه حقّ العبادة، مثل **ملكى صادق** ملك شاليم، ووصفته التوراة بأنه كان كاهناً لله العليّ مالك السموات والأرض (التكوين١٤ / ١٨-١٩)؛ **وأيوب** وكان كاملاً ومستقيماً، يحيد عن الشر ويتّقى الله (أيوب ١ / ١)؛ وحتى فرعون أعلن إيمانه ولم يعد كافراً (الخروج١٠ / ١٦-٢٠)؛ **وملكة سبأ** آمنت مع سليمان (الملوك الأول١٠ / ٩)؛ **ونعمان الآرامى** سجد لله (الملوك الثانى ٥ / ١٥)؛**وحورام** ملك حور أقر بالله الواحد(أخبار الأيام الثانى٢ / ١٢)؛**وقورش** ملك فارس (أخبار الأيام الثانى ٣٦ / ٢٣)؛ **ودار** ملك فارس(عزرا ٦ / ٧و١٢)؛ **ونبوخذ نصر** (دانيال٢ / ٤٧)،وكل هؤلاء وغيرهم آمنوا ووحّدوا الله، إلا اليهود فقد تمردوا على عبادته، حتى قال فيهم النبيّ إرميا: «**بعدد مدنك صارت آلهتك يايهوذا، وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزى والتبخير للبعل**» (إرميا ١١ / ١٠-١٣)، **فعبدوا البعل، ونسروخ، ومولوك، وتموز، وعشتار، وداجون، وكموش، ونرجل، وأشيما، ونبحز، وترتاق، وأدر ملك، وعنملك، وشمش، ونحشتان، وعبدره**، وجعلوا الله واحدا من هذه الآلهة (إرميا ٨ / ١٠ -١٢-١٩). وفى عهد موسى **صنعوا العجل من الذهب وعبدوه**، (الخروج ٢٤ / ١٢و١٨ -٣٢ / ١ -١٠)، ووصفهم الربّ بأنهم : **غلاظ الرقبة، وأشداء القلوب، وفسقة، وفَجَرة، وزُناة** (إشعياء ٢٦ / ٣-١٢)، **وعصوه كلهم وخانوه وصاروا ضالين وأهل باطل** (إرميا ٢ / ٤-٢٩و ٣ / ٦-١٠، ٢٠)، **وجعلوا من المعبد فى أورشليم وجرزيم مكان عُهر وقصف، وفسقوا فيه بالمأبونين، وضاجعوا النساء. وكانوا يحرقون أطفالهم أو يذبحونهم قرباناً للأصنام**، وحتى ملوكهم فعلوا ذلك **كآحاز بن يوناثان** (الملوك الثانى ١٦ / ١-٣)، وأحرق

«يهود السامرة» بنيهم بالنار **لأدرملك وعنملك** (الملوك الثانى ١٧ / ٣٠و٣٤)، وفعل منسّى ملك يهوذا مثلهم (الملوك الثانى٢١ / ١و٢و٦)، وجاء فى **سفر التثنية** (٨ / ١٠) فى الشريعة: **وغير مأذون لأحد أن يجيز ابنه أو ابنته فى النار**؛ وفى **سفر القضاة** جاء: **أن يفتاح القاضى قدّم ابنته الوحيدة ذبيحة لله**؛ وجاء فى سفر الملوك: أن **يوشيا ملك يهوذا هدم بيوت المأبونين التى كانت عند بيت الربّ!** وكانت عاهرات اليهود يصنعن فى كل سنة مناحة يبكين فيها على **تموز إلهة العُهر**(حزقيال ٨ / ١٤)، وكل ذلك نفسه كان يفعله اليهود فى الجزيرة العربية، فكانت عبادتهم لله وللأوثان، ومارسوا كل ألوان النجاسات وأشاعوها بين العرب، فلما جاء النبىّ ﷺ كان طبيعياً أن لا يروا فى مجيئه مصلحة لهم وقد نهى عن **الزنا، والسرقة، وشُرب الخمر، ولعب الميسر، واللواط**. وكاد يمنع تجارة الرقيق بما فرض من العتق لأوهى الأسباب، وحرّم على العرب أن يتزوجوا النساء كاليهود بلاعدد ولاحساب، فكان لسليمان مثلاً **سبعمائة زوجة وثلاثمئة سرية** وهو المعبر عنهن بما **ملكت يمينك**، وكانوا **يرثون النساء**، فإذا ماتت المرأة تزّوجها **أقرب** أقرباء زوجها، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك، وكان **الإسلام** نقيض اليهودية، فالحائض مثلاً كانوا يعتبرونها نجساً لايؤاكلونها، ولايجالسونها، ولا يدخلونها البيت حتى تطهر، ونهى الإسلام عن ذلك، وكان الرسول ـ من كراهيته لنفاقهم وفحُشهم يقول «**خالفوهم**»، وجعل للمسلمين سمتاً يخالف سمت **اليهود**، فهم يطلقون الشوارب ويقصرون اللّحى، فقال: «**حفّوا الشوارب وأطلقوا اللحى**». وقال المسلمون له إن اليهود يصلّون حفاة فقال: «**صلوا بالنعال**»، ولم يكونوا يتوضأون فجعل **الوضوء** من شروط الصلاة، وليست لصلواتهم طقوس، فاستنّ **الطقوس** لصلوات المسلمين. وكتابهم أملاه **عزرا** بعد نحو **أربعمائة** سنة من وفاة موسى، وهو حكايات لارابط بينها، وتختلط فيه الأحداث، ولغته ركيكة، والكثير من أخلاقياته يعاقب عليها أى قانون أخلاقى فى العالم، وليس كذلك **القرآن** فى رُقيّه وسموّه. وانتقد الله عليهم كُفرهم بنعمه تعالى وعددّها لهم **ستاً وعشرين** نعمة (البقرة: ٥٠ـ٦١) فلم يرْعووا، وآتاهم الكتاب فيه هدىً لهم فلم يهتدوا، واختصّهم بالأنبياء فلم يؤمنوا، ونجّاهم فلم يشكروا، وأورثهم الأرض فأفسدوا فيها، واختصّهم بالعلم فلم يعملوا به، ووهبهم المَثل الأعلى فى نبيّهم وأوليائهم فأنكروا عليهم(يونس ٩٠؛ والإسراء٢و١٠١و١٠٤؛ وطه ٨٠؛ والشعراء ٥٩و١٩٧؛والزخرف ٥٩) وحرّموا الحلال وحلّلوا الحرام (آل عمران٣٩)، وأخذ عليهم الميثاق فنقضوه (المائدة٧٠)، وقتلوا الأنبياء (آل عمران١٨١). وأنزل الله على النبىّ ﷺ أن يقول لهم: **﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾** (آل عمران٩٩) لمّا كانوا يحرضون على الكفر ؛ولمّا

قالوا إن اللّه يحبهم ويؤثرهم، أنزل عليه أن يقول لهم: **﴿فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** (آل عمران١٦٨)، ولمّا قالوا إنهم أحباب اللّه وليسوا كسائر البشر، ولن يدخلوا النار، أنزل عليه أن يقول لهم: **﴿ فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق﴾** (المائدة ١٨) ، ولمّا قالوا إنهم على الحق تحدّاهم أن يعملوا بالتوراة وأنزل عليه أن يقول لهم: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة﴾**(المائدة٦٨)، وكانوا يعملون الفحشاء فقال لهم: **﴿إن اللّه لا يأمر بالفحشاء﴾** (الأعراف٢٨)، ونبهّ إلى حقيقة كراهيتهم للمسلمين فقال: **﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا باللّه﴾**(المائدة٥٩)، وأكد حقيقة المسألة بيننا وبينهم أنهم يريدوننا على دينهم فقال: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**(البقرة ١٢٠). وسألوه أسئلتهم المعهودة فى الروح فقال: **﴿قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾** (الإسراء٨٥)، **وعن ذى القرنين**(الكهف٩٣)، **وعن الجبال**(طه ١٠٥)، وعن الساعة، وأسئلة أخرى كثيرة كانوا بها يحاجّون الرسول ﷺ فى كل شيء، وأجابهم عن كل شيء، ومع ذلك لم يؤمنوا، وذهبوا إلى أبعد من ذلك، فسحروا له وأبطل اللّه سحرهم، وفحشوا فيه فحيّوه قائلين: «**السام عليك**» فنزل فيهم القرآن: **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به اللّه﴾** (المجادلة٨)، وقال فيهم: «**إن اليهود قومٌ حُسّد، وإنهم لايحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على الإسلام وعلى آمين**، أخرجه مسلم عن عائشة، وقال: «**فإنهم حسدونا على القبلة التى هدُينا لها وضلّوا عنها، وعلى الجمعة التى هُدينا لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين**» أخرجه البخارى ومسلم. وفى رواية البيهقى قال: «**لم يحسدنا اليهود على شيء ما حسدونا بثلاث: التسليم، والتأمين، واللهم ربّنا ولك الحمد**»، فاشكُر اللّه أخى المسلم أنك مسلم ولست بيهودى، والإسلام نعمة حباك اللّه بها، وقد علمتَ لماذا يكرهنا اليهود، فخلاصة الأمر أنهم يكرهوننا لأننا نؤمن بحق وعن حق: **أن اللّه واحدٌ لاشريك له**، ونحن ننقدهم كما انتقدهم أنبياؤهم لمّا تركوا التوحيد، وجنحوا إلى الشر، وقتلوا الأنفس، واعتدوا، وأخرجوا الناس من ديارهم، ومنعوهم من عبادة اللّه وهى كبرى الكبائر، والإسلام ينقم عليهم ما يفعلونه بالمسلمين، وحبّهم للغدر والخيانة، وإيثارهم الخسّة والنذالة والفُحْش والتفحُّش، وعشقهم للتجسسّ، وإيقاع الفتنة، فاستحقوا عقاب اللّه فى الدنيا والآخرة كقوله: **﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من اللّه ﴾**(البقرة٦١)، أى أنهم أُلزموا الذلة والمسكنة شرعاً وقدراً، فلا يزالون مستذلّين، ومن يجدهم يستذلهم ويهينهم ويضرب عليهم الصغار؛ وفى فلسطين يستجلبون على أنفسهم ضرب الحجارة بسوء مسلكهم، وفساد تدبيرهم، وهوان سياستهم، وفى أنفسهم هم أذلاء مصابون **بالبارانويا أو ذُهان**

الاضطهاد بالوراثة، ودليل ذلك إصرارهم على مطلب الأمن مقابل الأرض، وتأكيدهم على الآمن هو لخوفهم. ولقد قال نبينا العظيم ﷺ «نُصرتُ بالرعب»، وليس فزع اليهود وتشددهم إلا لهذا الرعب الذى يغلب عليهم ويمسك بتلابيبهم ويحاصرهم كلما واجهوا المسلمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

•••

٥٢٨. ﴿مثل أهل التوراة وأهل الانجيل وأهل القرآن﴾

يناسب قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾(آل عمران: ١١٠) الحديث: «**إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس: أوتى أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً؛ ثم أُوتى أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين. فقال أهل الكتابيْن: أى ربَّنا، أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً؟ قال عزّوجلّ: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا:لا. قال: فهو فضلى أوتيه من أشاء**» أخرجه البخارى. وقوله: «كنتم خير أمة» فى تفسير النبىّ ﷺ: «**أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله**». والعدد سبعين افتراضى، وفى رواية أخرى قال ﷺ: «**مَثَل المسلمين واليهود والنصارى، كمَثَل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لاحاجة لنا إلى أجرك؛ فاستأجر آخرين، فقال: اكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت؛ فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا؛ فاستأجر قوماً فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين**»، فالأمتان اليهودية والنصرانية عجزوا، وعبّر بالعجز لكونهم لم يستوفوا عمل النهار كله، فأعطوا بقدر ما أنجزوا، ولم يتحقق الإنجاز إلا على أمة **الإسلام** وإن كان عملهم كعمل الآخرين، إلا أن الإنجاز تمّ على أيديهم، فاستحقوا بعمل البعض أجر الكل، وهذه ميزة **أمة القرآن** على أُمّتىّ التوراة والإنجيل، ولهذا يحسدنا اليهود والنصارى!

•••

٥٢٩. ﴿محاجة اليهود والنصارى فى الله﴾

قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**﴾ (البقرة ١٣٩) ، والآية تردّ على محاجّة اليهود: **أنهم شعب الله المختار**؛ ومحاجة النصارى: **أنهم أبناء الله وأحباؤه**، وأنهم لذلك ـ أى اليهود والنصارى ـ الأقرب إليه والأكثر حظوة عنده. وفى ردّه تعالى يوجه الخطاب إلى محمد ﷺ وأمته، وفيه تعليمٌ

للمسلمين: يقول: إنه تعالى ربّ الجميع، لا ربّ هؤلاء ولاربّ هؤلاء، والتمايز والتفاضل بين الجميع معياره الأعمال والتقوى، فمن أخلص عمله لله فهو الأولى به من الآخرين، والمسلمون هم الأخلص، لأنهم يعبدونه ولايريدون عن ذلك عوضاً ولاحظّاً!

•••

٥٣٠. ﴿المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى﴾

اختُلف حول «المغضوب عليهم» «والضالين» في الفاتحة ـ من هم؟ والجمهور على أن «المغضوب عليهم» هم: **اليهود؛ وأن «الضالين» «النصارى»**. وفي القرآن عن **اليهود**: **﴿وبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾** (البقرة٦١)، وقال: **﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾**(الفتح٦)؛ وقال في **النصارى**: **﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾**(المائدة٧٧). وقيل غير ذلك: أن «المغضوب عليهم» هم المشركون، أو «المتّبعون للبدع»؛ و«الضالين» هم الذين ضلّوا عن السُّنن. وتفسير النبيّ ﷺ: أن «المغضوب عليهم» هم اليهود؛ و«الضالين» هم النصارى، وهذا هو التفسير الأعلى والأولى والأحسن.

•••

٥٣١. ﴿اليهود أول كافر بالقرآن﴾

هذا خبرٌ عن اللّه تعالى في الآية: **﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾**(البقرة٤١)، والذى أنزله مصدقاً للتوراة فيما جاء فيها عن اللّه هو: القرآن، وكانت اليهود أول كافر بالقرآن.

•••

٥٣٢. ﴿اليهود أحرص الناس على الحياة﴾

قال فيهم ربُّنا: **﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾**(البقرة٩٦)، وقال: **﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾**(البقرة٩٦)، يودون لو يعمروا ألف سنة، لمعرفتهم بذنوبهم، وألاّ خَيْر لهم عند الله، فلم يعرفوا إلا هذه الحياة ولاعلم لهم من الآخرة، وكتابهم التوراة ليس فيه شيء إطلاقاً عن الآخرة. وفي فلسفتهم الدينية أن الثواب والعقاب لايستلزم آخرة، ويكون في الدنيا، ثم لاشيء بعد ذلك.

•••

٥٣٣. «اليهود قليلاً ما يؤمنون»

وصف القرآن اليهود فقال: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾** (البقرة٨٨)، كقوله تعالى: **﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾**(فصلت٥)، وغُلف جمع أغلف،

أي عليها غشاوة، ومطبوعة بالكفر، وبيّن تعالى السبب فى نفورهم عن الإيمان، أنهم لعنوا بكُفرهم واجترائهم ، وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه. وأصل اللعن الطرد والإبعاد، واليهود لايؤمنون إلا بما فى أيديهم، وإيمانهم مادى وقليل.



٥٣٤. «الإسلام دين فطرة وعقل واليهودية ديانة عنصرية»

فى القرآن : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾(الروم ٣٠)، والمعنى: أن الدين هو شرعة الله التى فطر الناس عليها. والحنيفية هى الدين الخالص لله، وهى الإسلام، بمعنى التسليم بوحدانية الله، والإقرار بفضله، والشكر له على نعمه، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه. فالدين من الفطرة السليمة، والدين علم كالعلوم، يمحّصه العقل، ويتفهّمه، ويعيه، ويهذّبه ويشذّبه، ويقيم مُعْوجّه إذا جنح به الجانحون أو تطّرف فيه المتطرفون، وما من إنسان على ظهر البسيطة إلا ويؤمن بقوة أعلى وأسمى، حاكمة على كل القوى، ويطلق عليها اسماً، والبعض يقول إن إيمانه عن طريق الرسُل والأنبياء، والبعض يقول إن إيمانه بالعقل، وكلاهما فطرى فى الإنسان، **فالإيمان فطرة، والتعقّل فطرة، والفطرة السليمة Common Sense** أساس العقل، **والدين فطرى**، أى يعتقده المعتقد بالفطرة، أي بالعقل فى أخص حالاته، وقبل أن يتشوّش، أو ينحاز، أو يميل عن هوى، قصداً أو عن غير قصد، وقبل أن يتثقّف ويستدخل مفاهيم المجتمع المدني والحضارة. **وفلاسفة الفطرة** في بلاد الغرب قالوا مثل ذلك، وعرّفوا الفطرة بما قلناه، قالوا: **Common Sense is mind before being sophisticated**. **والإسلام دين الفطرة** أى الدين الأساسى، أو **الديانة الأم**، أو الأصل، وهو عودة إلى **الحنيفية** أى للبُعد عن كل زيْغ وهوى، وهو للعالمين (بفتح اللام)، أى لكل الناس بلا تمييز، والمعرفة التى يتضمنها القرآن معرفة تستهدى الفطرة ويصوغها العقل الفطرى، على عكس **اليهودية** فهى دين اليهود، ولا أحد غير اليهود، **والتوراة** التى بين أيدينا **لاتخاطب إلا اليهود**، وتميزهم وترفع شأنهم على العالمين: ففى سفر الخروج يجىء: «**إسرائيل ابنى البكر**» (٤ / ٢٢)، وفى **سفر الأحبار** : «**الربّ إلهكم الذى فرزكم من بين الأمم**»(٢٠ / ٢٤)؛ وفى سفر العدد: **لا تلعن الشعب فإنه مبارك**» (٢٢ / ١٢)، وفى **سفر الملوك الثانى**: «**إسرائيل الأمة الوحيدة فى الأرض التى سار الله ليفتديها لنفسه شعباً، ويجعل لها اسماً، ويعمل لها تلك العظائم والمخاوف**» (٧ / ٢٣). وفى القرآن يأتى على العكس: أن الله ربّ العالمين نحو ٧٣ مرة، فلم يؤثر الله شعباً من الشعوب، **والمؤمنون: به هم المسلمون**

له: ﴿**هو سماكم المسلمين من قبل**﴾ (الحج٧٨)، وهم الذين يعبدونه ويتّقونه من كافة الشعوب والأعراق، (الحج٧٨)، اجتباهم، وجعلهم أمة تتوسط الأمم (البقرة١٤٣). واليهودية ـ بمصطلحات العصر ـ دين خصخصة، والإسلام دين عَوْلمة؛ واليهودى مواطن إسرائيلى، والمسلم مواطن عالمى؛ والإسلام دين منفتح، واليهودية ديانة منغلقة على نفسها؛ والتوراة كتاب فى القومية والحضّ على الغزو والفتح، إشباعاً للاستيلاء، واستكباراً فى الأرض، والقرآن كتاب فى التوحيد، ودعوة للخير، وللإخاء والمساواة، ولإحقاق الحق، ورفع الظلم، وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ والعلم الذى يدعو إليه التوراة علمٌ جزئى، يستهدى التعصّب، ويرسّخ التمييز والاستعلاء، والعلم فى القرآن نَظَرةٌ شاملةٌ، وبحثٌ متكاملٌ فى الطبيعة والوجود، بنور الفطرة والعقل؛ والمعرفة التى يتحصّلها اليهود تمنحهم معرفةً عنصرية مضلِّلة، يمليها الهوى والغرض، واتجاهها لذلك إلى السحر والاختراعات من نوع ما عرفه اللّه فيهم: أن يتحول العصا إلى حيّة، وأن ينفلق البحر، وأن يصنعوا قنبلة تميز العرب عن غيرهم وتقتلهم دون غيرهم؛ والديانة الوحيدة التى يقرّها التوراة هى اليهودية، وأما ديانات الأمم فهى أضاليل عند اليهود. وفى القرآن لايكتمل إيمان المسلمين إلا إذا أقروّا بما تنزّل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربّهم، والمسلمون لايفرّقون بين أحد من هؤلاء الأنبياء والرسل، والحاكم فى إيمانهم جميعاً هو الإقرار بوحدانية الله؛ وديانة اليهود لذلك ديانة خاصة بهم، وديانة الإسلام ديانة عامة للبشر جميعاً؛ والوحى فى اليهودية من اللّه مباشرة ووجها لوجه مع موسى، وفى الإسلام الوحى بالواسطة؛ ولم يدّعِ محمد ﷺ أنه رأى الله، ولجوؤه دائماً إلى العقل، واحتكامه للفهم والتمييز. وينكر اليهود أن يكون محمد نبياً، بدعوى أن النبوة فى اليهود وحدهم، وتلك أثرة مفرطة، فالنبوة حكمة، والحكمة ليست احتكاراً لشعب دون شعب. ويقول اليهود إن اللّه عقد معهم عقداً أبدياً، وأنه فضلّهم على العالمين، فمهما فعلوا وأفسدوا هم فى رعاية الله، وفى الإسلام أن اللّه يتعاقد فقط مع من يؤمن به ويعمل صالحاً، وطالما المؤمن مؤمناً فهو فى رعاية الله، فإذا أفسد فى الأرض زالت عنه رحمة اللّه وفُسخ التعاقد. وادعاء اليهود أنهم الأفضل، وأنهم يرثون الأرض وما عليها اعتقاداً منهم أنهم أولاد سارة: السيدة، بينما العالم كله أولاد هاجر: الأَمَةَ، يشبعون بذلك أثرتهم وأنانيتهم، وكأن الغُنْم كله قد قُدر لهم، والغُرم كله مقدور على غيرهم، وكأن السعادة هى حظُّهم فى الحياة وإلى الأبد، والحرمان هو حظّ العالمين، وفلسفتهم فى ذلك مادية، فكلما كانت مغانمهم أكثر كانت سعادتهم أكبر، والفرح بالسعادة لأنها ليست من نصيب

الآخرين مخرج عيالى يحدوه الحقد على الآخرين والحسد لما فى أيديهم. **والسعادة فى الإسلام**: هى تحصيل الحكمة، وهى الخير الأسمى، وهى مطلب لكل العاقلين لايُحرَمها جنس أو عرق، أو شعب أو أمة، ولكنها متاحة للجميع بقدر الرغبة فيها والسعى لها. **ومعرفة الله وطاعته سعادة**، والناس لاتكون أسعد لأنها أحكم من الآخرين، ولا لأن الآخرين حُرموا السعادة، ومن يفرح لسعادته ولشقاء الآخرين هو الحسود الشرير، **واليهود حسودون**، وتوراتهم تطفح بالحسد والحقد، وكانوا وما يزالون يحسدون كل الشعوب، وطمعوا فى أرض كل الأمم، حتى وعدهم **يشوع بن نون** بكل أرض تطؤها قَدَم يهودى، فلم يعرفوا السعادة الحقيقية منذ ذلك اليوم، ولم يذوقوا طمأنينة النفس، وراحة الضمير. ولقد كذب اليهود فى التوراة عندما وصفوا ما أعطاه اللّه لسليمان، بأنه الحكمة البالغة فقال: «**قد أعطيتك قلباً حكيماً فهيماً حتى إنه لم يكن قبلك مثلك ولايقدم بعدك نظيرُك**» (الملوك الثانى ٣ / ١٢) فكأنه لم تكن لأحد سواه حكمته، ولايمكن أن يوجد مستقبلاً من هو أعظم منه حكمة، وحتى كتاب «**الأمثال**» الذين يزعمون أنه كتابه (كتاب سليمان) ليس إلا تجميعاً للأمثال العامية المنقولة عن مصر وأدوم وأشور. وكذلك كتاب «**الجامعة**» فإنه رغم غموضه فإنه أبعد عن أن يكون من تأليفه، وليس تحفة فى الحكمة. وكذلك كتاب «**الأناشيد**»، لايمكن أن يكون سليمان هو واضعه لما فيه من كلمات إيرانية تجزم بأن تأليف الكتاب كان بعد السبى - أى بعد زمن سليمان . وهذه الكُتُب - حتى لو سلّمنا أن سليمان واضعها، فما علمنا منها ما هى حكمته، وماذا أفادت اليهود أو الناس أجمعين؟ بل إن اللّه يبدو قد غضب على سليمان، فأزال ما بنى، وهدم ما فاخر به. ودخلت الشعوب مدن إسرائيل، وعاد الفلسطينيون أهلها إليها. **فكأن العنصرية والأفضلية لم تُورِّث اليهود إلا الهَمّ وبغُض الشعوب والناس، وغضب اللّه.**

وفى الإسلام عن أنس بن مالك، أن رسول اللّه ﷺ فى حديث الإسراء قال: «**فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل أصبتَ الفطرة**»، والإسلام لذلك يحرّم **الخمر** وتحللها **اليهودية**، كقول التوراة: «**وأنفقها فى جميع ما تشتهى نفسك من بقر وغنم وخمر ومُسْكر**» (تثنية الاشتراع ١٤ / ٢٦). **والخمر تُذهب العقل**، واليهودى لذلك عنيف ووسيلته الدحر والخيانة والختل. وفى التوراة أن **اليهود أذلّوا سبع أمم** (تثنيه الاشتراع ٧ / ١)، وكل مدينة **فتحوها** دمّروها وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها (تثنية الاشتراع ٣ / ٧). **والخمر** تبدّل خَلْق اللّه، وليس كذلك اللبن. والناس يولدون على الفطرة، واللبن **طعام الفطرة** للطفل والمسنّ والبالغ، وللضعيف والقوى، وعن أبى هريرة

فيمـا أخرجه البخـارى، أن الرسول ﷺ قال: «ما مـن مولود يولد إلا على الفطرة، فـأبواه يهوّدانه، أو يُنصرّانه أو يمـجّسانه» ،وقـال: «لاتقتلوا ذرية !لا تقتلوا ذريـة ! كل نسمة تولد على الفطرة حتى يُعرب عنهـا لسانها، فأبواها يهوّدانهـا أو ينصّرانها» أخرجه أحـمد والنسائى وليس دين سوى الإسلام، والدين فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم ٣٠) هو التمسُّك بما أمر به اللّه، والانتهاء عما نهى عنه، والتـزام الفطرة والعقل السليمين وذلك هو الإسلام، وليس اليهودية ولا النصرانية.

●●●

٥٣٥ ـ ﴿القرآن أخبر عن تحريف اليهود للتوراة﴾

يخـبر اللّه تعـالى عن اليهـود بأنهم حـرّفوا فى كـتابهم، أى بدّلوا فـيه، فـأضافـوا وانقصوا، وأوّلوا فى معانيه وأخرجوها عن مرادات اللّه ومقصوده، فضلّوا وأضلّوا، ويبدو أن هذا هو دأبهـم: أن يحـيـدوا دومـاً عن الحق، ولايقـولوا الصـدق، وأن يمكروا ويخاتلوا. ويأتى فى التنزيل تحريفهم للتوراة ـ ولدعوة الإسلام خصوصاً ـ أربع مرات، ففى سورة النسـاء يقول اللّـه تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ (٤٦)، وفـى سـورة المائدة يقول: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(١٣)، ويقول: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (٤١)، وفى سورة البقرة يقول : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٧٥). فهؤلاء هم اليهود دائماً، عمدوا إلى ما أنزل اللّه على موسى، فغيّروا فيه، وحلّلوا وحرّموا، وألحقوا بها ما شاءوا، وتأوّلوا أوامر اللّه ونواهيه على غير ما أنزلها، وحـمّلوها بغير ما تحتمل، وقالوا عن اللّه، وعن موسى وأنبيائهم، ما لم يقولوه، ونسوا مـا ذُكّروا به، وتركوا العمل بالتوراة، ورغبوا عنها، ففسدت فِطْرتهم، وانحرفوا عن جادتهم، ولاتزال تطّلع على خائنة الأعين منهم.

●●●

٥٣٦ ـ ﴿عُزَيْر أو عزرا ابن اللّه﴾

عُزَيرْ هو التصحيف العربى لعزريا، والاسم عبرى ومعناه العون،وينطقه اليهود عزرا، وهو الكاهن ابن سرايا الذى قدّم لليهود الخدمات الجُلّى، ويأتى اسمه فى الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة ٣٠) تنويهاً به ككاتب للتوراة. ويسخر بعض المستشرقين من قول القرآن: إن اليهود تدّعى أن عزير ابن الله، ومن هؤلاء كازانوفا ويونج،

وكان **هوروفتس** أشدهم سخرية، واتهموا محمداً باعتباره مؤلف القرآن ـ بالجهل أو سوء الفهم، على زعمهم أن اليهود **أهل توحيد**، فمن غير المعقول أن ينسبوا بنوّة عزير إلى الله.

ومقالة القرآن رغم إنكارهم هي الصحيحة، **فعزير** أو **عزرا** لمّا كتب التوراة بعد أن كانت قد اندثرت وتنوسيت، بوّأه اليهود مكاناً علياً، ولقّبوه **بالكاتب، والكاهن**، وقالوا إنه فعل ما فعل بإلهام من الله، وأنه تعالى أوحى إليه أن يعيد كتابة التوراة كرامةً منه **لعزير، فهو** الذى عمل جاهداً لينال الحظوة عد الفرس، حتى حصل منهم على العفو عن اليهود، والإذن لهم بالعودة إلى فلسطين، وكانت عودته إلى القدس سنة **٤٥٨ أو ٤٥٧** قبل الميلاد فى حكم **ارتحتشتا الأول**، أو سنة **٣٩٨** قبل الميلاد فى زمن **ارتحتشتا الثانى**!!وأخلص للدعوة، وانكب على الكتابة، وأسّس **المجمع الكبير**،وجمع فيه **الربّانيين**، وجمع الأسفار ونظّمها وأعاد كتابتها، وأنشأ **الأبجدية العبرانية بالخط الأشوري**، فاعتبره اليهود رئيساً لهم، وقالوا بأنه لولا مكانته عند الله ما كانت له كل هذه التوفيقات، وأنه ما كان يمكن أن تتهيأ له كتابة التوراة وتاريخ اليهود، إلا لأنه ابن الله وأثيره وحبيبه وخاصته. وهذه البنوة التى يستنكرها هوروفتس وأمثاله، هى طبعٌ فى **اليهود**، ولولا أنها داءٌ فيهم ما قالوا عن المسيح أنه ابن الله، والفرق بين مقالة اليهود أن «**عزير ابن الله**»، ومقالة النصارى أن «**المسيح ابن الله**»، أن **اليهود**: قصدوا **بنوة الفضل والتكريم والحنو والرحمة**، بينما النصارى قصدوا بنوة النسل، ومثل ذلك قاله العرب عن **الملائكة** أنهم بنات الله، وكلها أقوال ساذجة لابيان فيها ولابرهان عليها، فذلك تفسير قوله تعالى «**ذلك قولهم بأفواههم**»، أنه مجرد قول بالفم لايحمل أى معنى ولا تعضده الأدلة،كقوله تعالى: ﴿**يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ**﴾(التوبة ٣٠)، أى يماثلونهم فيه بلا جدوى، وأهل المعانى على القول بأن الله لم يذكر فى القرآن **قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن** إلا كان إفكاً وقولاً زوراً.

وعزرا أو عزير له سِفرٌ وحده اسمّه «**سفر عزرا**» ضمن أسفار الكتاب المقدس لليهود، ويتضمن **سفر نحميا** بعضاً من أخبار **عزرا**. **وسفر عزرا** هو السفر **الخامس عشر** من أسفار العهد القديم، ولغته خليط من **الأرامية والعبرية**. وما كُتب عن حياة عزرا،بعضه منسوب إليه، وبعضه كتبه آخرون عنه، الأمر الذى يكشف أن هذه الأسفار ليست مقدّسة، ولم تكن تسميتها «**بالأسفار**» إلا لإضفاء صفة القداسة عليها، فلم يكن غريباً إذن أن يقال عن عزرا وقد كتب كل ذلك أو استكتبه، وقام بترتيبه وتنظيمه، وإلقاء الدروس فيه، وشرحه وتفسيره وتأويله ـ أنه **ابن الله**!ومن أغرب ما قيل فيه أن اسمه **عزرا** ليس اسماً **عبرانياً**، ولكنه **مصري** وأخذه بنو إسرائيل عن المصريين، ففى مدة بقائهم فى مصر بأرض جاسان

(محافظة الشرقية الآن) اتصلوا بالديانات المصرية، وعكفوا على بعضها بالعبادة، ومنها عبادة أوزيرس، وتسمّوا باسم أوزيرس كما ينطقه الفرنجة، أو عوزر كما ينطقه المصريون.، وعندهم أن عوزر هو ابن اللّه، وأطلق بنو إسرائيل في مصر على أولادهم اسم عوزر، وحرّفوه إلى آزر، أو عزرا، أو عزير كما يأتي في العربية. واسم عوزر في المصرية القديمة يعني الإله المعين، واليهود بإطلاقهم اسم عزرا على عزرا الكاهن إنما لتبجيله، بمعنى هو ابن الله أو حبيبه، أو أنه هو نفسه له من الصفات صفة الله المُعين، فصاروا ينادونه «عـزرا» كقولنا عند الحاجة «يامعين» ونقصد الله. والقرآن بهذا التفسير يعتبر سابقاً إلى التنبيه إلى حقيقة لم يقل بها أحد من قبل، وهو ما جهله هوروفتس، فراح يهزأ بالقرآن، وكان الأولى أن يبحث ويتحرى ويعرف!! ولو عرف لآمن بالإسلام!

●●●

٥٣٧. ﴿الردّ على اليهود والنصارى في مسألة ابن الله﴾

ردّ اللّه تعالى على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: «عـزير ابن الله»، «وعيسى ابن الله»، و«الملائكة بنات الله»، قال: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾(الإسراء١١١)، يؤكد أنه واحد لاشريك له في ملكه ولا في عبادته، ولم يخالف أحداً، ولا ابتغى نُصرة أحد، ولم يكن له ناصر يجيره من الذل ويدفعه عنه، ولاكان له وليّ من اليهود والنصارى، وكيف يكون له وليّ منهم وهم الأذلون، وادّعوا عليه كذباً فقالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(المائدة١٨)!

●●●

٥٣٨. ﴿سبينوزا اليهودي وشهادته عن تحريف التوراة﴾

سبينوزا (١٦٣٢ ـ١٦٧٧) فيلسوف يهودي حتى النخاع، ومن أشهر فلاسفة أوروبا بعد زمنه، وما زال مذهبه في الفلسفة شديد التأثير على الكثيرين. وما ذكره عن التوراة وكتُب العهد القديم اليهودية يصدق فيه قول القرآن: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾(الأحقاف١٠)، والشاهد في الآية هو عبد اللّه بن سلام، وكان يهودياً وأسلم، وشهد أن اليهود مزورّون، وكانت شهادته موضوعية ومن التوراة. وسبينوزا لم يُسلِم وشَهِد عليهم أيضاً بالتزوير، وشهادته موضوعية وموثّقة، وموضوعها التوراة وكتُب اليهود المقدسة بكاملها، ومن أقواله أن أسفار موسى الخمسة لم يكتبها موسى، وأن النقد التاريخي يثبت أن كاتبها هم آخرون عاشوا بعد موسى بمدة طويلة، والبراهين على ذلك كثيرة، فمثلاً لم يكتب موسى مقدمة سفر التثنية ـ وهو الرابع من أسفار التوراة، لأنه لم يعبر نهر

الأردن، أى أن التوراة حُرِّف فيها بالتدليس؛ وكذلك لم يكن مـجموع حوائط المعبد يتجاوز اثنى عشر حجراً فكيف تُكتب عليها التوراة بحجـمها الحالي البالغ ٣٩٥ صفحة؟ فلابد أن هذه التوراة في وقت كتابتـها على المعبد كانت أصغـر من ذلك بكثير، أى أنهـا من وقتها حتى الآن حُرّفت بالزيادة. وفي سفر التثنية يأتي أن موسى كتب التوراة، فكيف يقول موسى ذلك عن نفسه؟ ويأتي في سفر التكوين «وكان الكنعانيون في هذه الأرض»، بمعنى أن الوضع قد تغيّر من وقت كتابة هذا الكلام، ولايمكن أن يقول موسى ذلك في وقته، ولابد أن هذا الكلام كُتب بعد موسى وطرد الكنعانيين، أى أن موســى ليس هو الكاتب. ويأتي في سفـر التكوين أن جبل موريا هو جبل الله، وهذا الاسم الجديد لم يُطلق عليه إلا بعد بناء المعبد، أى بعد موت مـوسى!وفي قصة عـوج تُروى حكايات عن وقائع انتهى أمرها من زمن بعيد، ونسبتُها إلى الإسرائيليـين انتحال. ثم إن ما يقال:أنها التـوراة، كتبت جمـيعها بضـمير الغائب، وكان المفروض ـ وموسى هو الراوي ـ أن ينسبها إلى نفسه ويكتبها بضمير المتكلم. وليس من المعقول أن يكتب موسى عن نفسه، في الفصل الرابع والثلاثين من سفر التثنية، في العبارات من ٥ حتى ١٢ أنه مات في أرض كذا، ودُفن في الوادى في المكان العلانى! ومع تحديد مكان دفنه إلا أنه فيـما يبدو كذب وافتراء، لأنه لم يعرف أحـدٌ قبره إلى يومنا هذا! وكان عمره وقت أن مات ١٢٠ سنة، ومع ذلك لم يكل بصره، ولم تذهب نُضرته! وظل يكتب كمـا يدّعى عزرا. ورغم تقدمه في السن فإن بنى إسرائيل ظـلوا يبكون عليه ثلاثين يوماً، وأعجب العجب أن يؤبّن موسى نفسه فيقول عن نفسه:«ولم يقم من بعدُ نبىٌّ في إسرائيل كـموسى الذى عرفه الربّ وجـهاً إلى وجه، في جـميع الآيات والمعجزات التي بعثه الربّ ليصنعـها في أرض مصـر بفرعون وجمـيع عبيـده وجميع أرضــه، وفي كل يد قديرة وكل مخافة عظيمة صنعها موسى على عيون جميع بنى إسرائيل»!!! فهل قرأنا يوماً عن ميت يُقارن موته بموت آخرين جاءوا بعده وفي عصـور تاليه عليه؟ وإذا كان مـوسى قد توفى فكيف استمرت الرواية بعده في سفر يشوع؟ ومن الغريب أن يطلق موسى على الأماكن أسماءً لم تُعرف بهـا هذه الأماكن إلا من بعد، وأن يقـال إن الله كلم يشوع بعد وفـاة موسى، وأنه ظل يلازمه ويرشده ليغزو البلاد، ويطرد الناس، ويقتلهم من أمامه ـ شعوباً كاملة، وأمماً، وملوكاً، ويعطيه أرضهم يقسّمها بين الإسرائيلين. ويتساءل سبينوزا: تُرى، مَن كتب هذا السفـر؟ وهل أملاه يشــوع على آخرين؟ وهل أملى هذا الكلام عن نفسه يـمتدح نفسه، ويعدّد أفضاله؟ ويتسـاءل سبينوزا : أليست هذه التوراة كتاباً تاريخـياً وطنيا لبنى إسرائيل؟ أليست سجلاً قومياً لأمجاد انتحلوها ليقنعوا بها الناس فصدّقوها هم أنفسهم؟ ولايمكن أن

يظن أحد أن سفر القضاة كتبه القضاة أنفسهم، وإنما الظن أن كاتبه شخص واحدٌ، وأنه كتبه بعد زمن القضاة، لأنه فى نهاية **الفصل الحادى والعشرين** منه قال: **فى تلك الأيام لم يكن لبني إسرائيل ملك، وكان كل إنسان منهم يعمل ما حَسُن فى عينيه**»، ومثل هذا الكلام لايمكن أن يكون قد كُتب إلا بعد عهد الملوك وليس قبل ذلك! **وكذلك لم يكتب الملوك أسفار الملوك الأربعة**، وكاتبها جمع هذه القصص مما كان يُروَى من أخبار عن سليمان وملوك يهوذا وإسرائيل! وهذه الاسفار لايمكن أن يقال عنها أنها دينية، والحديث فيها ممل وجاف. ومن رأى **سبينوزا**: **أن عزرا ربما هو الذى صاغها هذه الصياغة فجاءت دون ترتيب** ولاتحقيق، بدليل أن الروايات نفسها تتكرر فى الأسفار بألفاظ مختلفة، وتضطرب أزمنتها وتتداخل، ويردّ سبينوزا ذلك إلى جبلّة فى اليهود: **أنهم يعجزون عن السرد الروائى المنظّم، وأن الزمان عندهم لاقيمة له، فالماضى كالحاضر، كالمستقبل، والجميع سواء، والسرد الروائى لذلك لايعرف الترتيب ولا التتابع الزمنى، ويجهلون البناء المنطقى للأحداث، وأن يكون لها نسقٌ**. وكُتّاب التوراة لم يُعرَف لهم منهج ولا قاعدة فى السرد والرواية، وليس لليهود كأمة أو كشعب «**ذات جماعية**» واحدة، فكل راوٍ يفسّر الأحداث على هواه، وينتقى منها ما يشاء، ولذلك فإن من يتصدّى بالتفسير لهذه التوراة سيجد الكثير مما يمكن أن يتشكك فيه، وسيتبين أن الكلام فى الكثير من الفقرات أبتر، وأن هناك الكثير من العبارات قد أُسقطت، وأن التعاليم الأخلاقية تُصادَم بشدة بالأفعال التاريخية التي يقوم بها الملوك، وأن **موسى ويشوع** استخدما السيف وأشبعا الشعوب قتلاً، وأزهقوا أرواح الأطفال والنساء، ولم يعفوا أحداً من الذبح، فكيف يمكن أن يقال عن هؤلاء أنهم دعاةٌ إلى الله، و أن لهم شريعة، وأنهم أولَى بحُكم العالم؟وأن التوراة حافلة بالأسرار والحكم،؟ وهو ما يدّعيه **القباليون** أو الأصوليون أو السلفيون من اليهود، وما يزعمه المتعصبون المتطرفون فى الوطنية؟ ويتطرق **سبينوزا** إلى كل سفر من الأسفار، ويثبت التدليس والتحريف فيه، ويعجب من إدخال سفريّ **أخبار الأيام** ضمن الكتاب المقدس، فالنص فيهما غير متسلسل، وفيهما تعميم وابتسار، ثم إن كاتبهما منحاز إلى ملوك يهوذا دون ملوك إسرائيل. والمعتقد أن سفر **نحميا** وسفر **عزرا** يماثلان فى التأليف سفريّ **أخبار الأيام**، والأرجح أن **الأسفار الأربعة** لمؤلّف روائى واحد، وأنه اتبّع فى تأليفه **لأخبار الأيام** ما وجده فى **أسفار الملوك** وأضاف تفاصيل أخرى وزيادات.

واستبعد **سبينوزا** من الكتاب المقدس الأسفار المنتحلة، وهذه الأسفار فى ظنه لم يكتبها **عزرا** وإنما ألفها **الفريسيون تأليفاً**، فاستبعدوا ماشاءوا، وأثبتوا ما شاءوا، واستنكر

الصدوقيون منها أسفاراً. وكان تأليف هذه الأسفار بعد عزرا بزمن طويل، ومن ذلك **سفرا أخبار الأيام، وسفر الحكمة، وسفر طوبيا، والمزامير، وأسفار الأنبياء**. ويُنسب **سفر الحكمة** إلى **سليمان** انتحالاً لإضفاء القداسة عليه، ومؤلفه مجهول، وفيه من الشواهد أنه **مصرى من الإسكندرية**، وكانت الإسكندرية مركزاً كبيراً من مراكز اليهودية فى العصور القديمة. ولم يُكتب **سفر المزامير** فى صيغته الحالية **إلا فى القرن الثالث**، وبعض المزامير فيه تعود إلى ما بعد السبى، وليس هناك ما يثبت أن **داود** هو مؤلفها، أو أنه من أصحاب الريادة فى هذا النوع من الأدب الدينى، وإنما هى عادة اليهود أن ينسبوا ما يضعونه هم أنفسهم إلى أسماء لهم كبيرة ليضفوا عليه القداسة. **وسفر أيوب لاشك** أن له أصلاً مصرياً ويأتى بعد سفر **حزقيال**، ولاشك أنه يستلهمه، والمظنون أن القصة كلها ملفّقة، وأنها تُضرَب كمثَل. ولاتتبع **أسفار الأنبياء** الترتيب الزمنى لظهور الأنبياء، ولاتضم جميع الأنبياء، وكل سفر ليس فيه كل النبوة وإنما جزء منها، والنصوص فيها بلا ترتيب، وهى مأخوذة من بعضها البعض، وبها نقص واضح، الأمر الذى يدل على أن فقرات قد سقطت وأضيفت فقرات. والمظنون أن أسفار **دانيال وعزرا وأستير ونحميا** مؤلفهم واحد، ومرجعه فيها **أسفار الأخبار والقضاة والملوك**، وربما كان للصدوقيين اليد الطولى فى تأليفها، ولذلك رفضها الفريسيون، وتحفل بالأساطير والأخطاء. ولم يحدث أى تقنين لأسفار العهد القديم قبل عصر المقابيين ، **وسفر المقابيين** مأخوذ من **أخبار الملوك وسفر نحميا. والمقابيون** هم الذين ألّفوا الأقوال التى تُتلَى فى الصلوات.

تلك إذن الحال مع التوراة بشهادة **سبينوزا اليهودى**، وفى شهادته يؤكد على تحريف التوراة، وأن هذه التوراة التى بين أيدينا ليست هى توراة موسى، كما أخبر بذلك القرآن فقال: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾(النساء٤٦)، وقوله: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ (المائدة١٣)، وقوله: ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾(المائدة٤١)، وقوله: ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ** ﴾(البقرة٧٥). وما كان النبىّ ﷺ يعرف هذه الحقيقة، لأنه وُلد نحو سنة ٥٧١م وتوفى سنة ٦٣٢م، وهذه السور السابقة من القرآن نزلت فى المدينة أى بعد ٥٣ سنة من مولده، يعنى نحو سنة ٦٢٤، وكانت التوراة وقت ذلك **بالعبرية واليونانية والأرامية والسريانية**، ولم تكن قد ظهرت ترجمة عربية بعد، وكانت أول ترجمة عربية هى التى توفر عليها **سعديا بن يوسف الفيومى المصرى**، وهو من الذين عاشوا فى **القرن العاشر الميلادى**(ميلاده نحو ٨٩٢م ووفاته ٩٤٢م)، يعنى كان بينه وبين النبىّ ﷺ ثلاثة قرون!! وكان يلزم للنبىّ ﷺ ليعرف

هذه الحقيقة ويؤكدها فى القرآن ـ لو كان هو مؤلف القرآن كما يقول المستشرقون ـ أن يكون قد قرأ التوراة إما **بالعبرية**، أو **باليونانية**، أو **بالآرامية**، أو **بالسريانية**، وأن يكون محيطاً بالنقد التاريخى للكتب المقدسة فى اليهودية، و هو علمٌ بدأ على **أوريجينوس** وغيره فى الإسكندرية فى القرن الثانى الميلادى، وكان يكتب باليونانية، فينبغى للنبىّ ﷺ أن يكون قد قرأه بهذه اللغة مع أنه كان أمياً! أو كان بدوياً يقرأ العربية بالكاد ولايكتبها، وفى القرآن عنه ﷺ : ﴿ **مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ**﴾(الشورى٥٢). يعنى أنه ما قرأ التوراة، ولاغيره من الكتب السماوية، وما عرف عن اليهودية ولاالمسيحية ولم يعتنق أياً منهما، **فمن أين له العلم بالتحريف إذن؟** وحسبنا الله، وله الحمد والمنة.



٥٣٩. ﴿اليهود والنصارى لن يرضوا عن الإسلام والمسلمين﴾

اليهود والنصارى توحّدت قلوبهم على التعنيت على الإسلام والمسلمين، واتفقوا على الكفر، يقول تعالى : ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾(البقرة ١٢٠)، فغاية هؤلاء ـ سواء كانوا يهوداً أو نصارى ـ هو أن يترك المسلمون دينهم، ويهجروا شهادة «**لاإله إلا الله محمد رسول الله**»، فلا **حوار الحضارات** يرضيهم، ولا الآيات كلها تقنعهم، وإنما هدفهم أن يخففوا من إيمان المسلمين بالتدريج ويقنعوهم بأن يعايشوا الثقافة اليهودية والنصرانية وأن يميلوا إليها وإلى أسلوب الحضارة الأمريكية الأوروبى، ولو بعض الميل، فيكون من ثم ميلهم إلى اليهود والنصارى، فيأخذون بطريقتهم فى الحكم والسياسة والاقتصاد، وفى الآداب والفنون، وفى أسلوب الحياة وتناول الأمور، وينفرون من طريقة المسلمين أهل ملّتهم، وتسقط بالتدريج عباداتهم. وفى هذه الآية نلاحظ أن **الكفر كله** سواء من اليهود أو النصارى هو **ملة واحدة**، قال تعالى «ملّتهم»، فوحّد **ملّة اليهود وملة النصارى**، وهما فعلاً متحدان من حيث الشريعة، والملة هى الشريعة، وملة المسلمين تخالف ملة اليهود والنصارى، فلما تخالفا تباين فعل أتباع هذه الملل فكان اختلاف الديانة، **فالملة** هى الشريعة، **والدين** هو الطريقة كقوله تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ⁦(٦)⁩﴾(الكافرون٦) و لذا قال النبىّ ﷺ : «**لايتوارث أهل ملّتين**» أخرجه أبو داود. واليهود والنصارى دعوا المسلمين إلى ما هم عليه: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(البقرة١٣٥)، وكانت **الحنيفية** هى ملّة إبراهيم، والحنيفية هى الملة التى حنفت إلى الحق، وإلى ما كان عليه إبراهيم. وسمى إبراهيم **حنيفاً** لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام. **والحَنَف**: هو الميل، ومنه رِجْلٌ حنفاء، ورَجلٌ **أحنف**:

وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها. وقيل الحَنَف الاستقامة، كقوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا** ﴾(آل عمران٦٧).

•••

٥٤٠. ﴿الإسلام وحرب الإشاعات التى يشنها اليهود والنصارى﴾

المنافقون والمستشرقون والعلمانيون جميعهم دأبو من فجر الإسلام وبداية المبعث، على التشنيع على القرآن، والرسول ﷺ، وعلى الإسلام والمسلمين، ولم توجد **إشاعة معادية للإسلام** إلاّ وهى من النوع **الهدّام** الذى يطلق عليه أهل العلم **الإشاعة السامة** بهدف التأليب ضد الإسلام. وكانوا زمن الرسول ﷺ يلجأون إلى الاجتماعات والندوات والمخاطبات، وصارت أدواتهم اليوم: الإنترنت، والصحافة، والإذاعة المسموعة والمرئية، والكتاب، والمحاضرات والمؤتمرات، يروّجون من خلالها تشنيعاتهم وإشاعاتهم وتخرّساتهم، ويستخدمون من الفنون ما يقال له «**التسوية**» أو «**الحذف**» أو «**اللوى**» يساوون بين الباطل والحق، والصواب والخطأ، والصدق والكذب، كتسويتهم بين الجاهل والعالم، أوبين المصلح والمفسد، ويحذفون من العبادات فلا يستقيم معناها، ويضطرب مبناها، كترديدهم لعبارات مثل «**لاتقربوا الصلاة**»، ويلوون الوقائع لياً يخدم أهواءهم، ويفسد على المسلمين إيمانهم، ويزعزع ثقتهم فى دينهم ونبيّهم ﷺ، كقولهم إنه «**تزوج إحدى عشرة زوجة، وتوفى عن تسع**، أو ترديدهم لإشاعة ينسبونها إلى **أبى أسيد**: أن النبى ﷺ أتُى له **بأميمة بنت النعمان بن شراحبيل** ومعها دايتها حاضنةٌ لها، فلما دخل عليها قال: «**هَبى نفسَكَ لى**»، قالت: «**هل تهَبُ الملكة نفسها للسُّوقة**»؟!!! - يقصدون بذلك تلميحاً لاتصريحاً أنه **مزواج، وزئر نساء**!! وأنه كان معتبراً من خاصة العرب من السُّوقة، **قبحّهم الله! والسوقة** فى اللغة: هم الرعية تقال للواحد والجمع، لأن الملك يسوقهم، فيساقون إليه، فيصرفهم على مراده. وفى اللغة **السوقى هو الواحد من أهل السوق** من العامة. وكأن **أميمة** هذه - أو كما أطلق عليها المؤرخون اسم **الجونية** استبعدت أن يتزوج الملكة مَنْ ليس بملك! وما درت أنه ﷺ خيّر بين أن يكون **ملكاً نبياً** كداود وسليمان، وأن يكون **عبداً نبياً**، فاختار **النبيّ العبد**، ليكون **على الفطرة**، وليكون دينه الإسلام **هو دين الفطرة**، وتلك حكمة غالية، وفلسفةٌ عالية، لايفهمها **الأوروبيون** والإسرائيليون والأمريكيون، ولو عقلوها ما شنّعوا عليه بها، ولتهجّموا على الإسلام من خلالها. والمسلمون **شعوب على الفطرة**، قد سامها الاستعمار صنوف العذاب، وأوصلها إلى الحضيض، وأشاع فيها الجهل والأُميّة، فلم تعد لديها المناعة ضد الإشاعات، وانعدمت عندها النخوة والشعور بالكرامة، وصارت

تتقبل بالتصديق كل ما تذيعه الإذاعات الإمبريالية والاستعمارية مثل الإذاعة البريطانية، وإذاعة مونت كارلو، وصار كتّابنا ومفكرونا مروّجين لافتراءات الكتُب والصحف والسينما الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، وانقلبوا عملاء للإنترنت، وتلاميذ للجامعات الأجنبية، وهو ما يُطلق عليه في علم الإشاعة اسم: «**حُرّاس الإشاعات**»،«**ومراسلو الإشاعات**» ولم يعرف هؤلاء أنه بكل مخابرات أوروبية وإسرائيلية وأمريكية **مصانع للإشاعة، ولجاناً للإشاعة**، مهمتها استمرارية **حرب الدعاية، والحرب** النفسية، **وحرب الصحافة والإذاعة والإنترنت والسينما، أو الحرب المسموعة والمرئية والمقروءة، أو الحرب الكلامية**، أو **العصبية**، بهدف زرع الإشاعات عن الإسلام، وعن نبيّ الإسلام، وجماعات المسلمين. وإشاعاتهم من النوع **الجامح**،تبرز النقائص أو ما ترى أنه كذلك، وتضخّم العيوب أو ما ترى أنه عيوب، وتحيل الحسن إلى قبيح، وتلجأ إلى التضخيم والتهويل. وبعض إشاعاتهم يجعلونها **حابية** تبدأ صغيرة، وتتنامى وتتسع دائرتها وتصبح **إشاعات مفرّقة**. ومهمة **عملاء الإشاعة** في بلاد الإسلام إثارة مسائل بسيطة وقضايا غير ملفتة، والطَّرْق عليها باستمرار لتكبر وتنشط، وتَستَغل في ذلك قصور **الوعي الإشاعي** لدينا، وتهافت **المناعة**، ولولا تحلّقنا وراء الإسلام، واستمساكنا به لذهبت ريحنا بالكلية وتحولنا كتركيا إلى دولة لا هي من هؤلاء ولا هي من أولئك، فلا هوية، ولا وطنية، ولا قومية، ولا دين، ولا عقيدة، ولا فلسفة حياة. ولقد كذبوا فافتروا على النبيّ ﷺ ومـا يزالون يرددون افتراءاتهم، وشنعّوا عليه أنه: **ساحر كذّاب**(ص٤)، **ومجنون** (الحجر٦)، **وساحرٌ** (الذاريات٥٢)، **وساحرٌ مبين** (يونس٢)، **وكاهن** (الطور٢٩)، **وشاعر مجنون** (الصافات٣٦)، **وشاعرٌ يتربصون به ريب المنون** (الطور٣٠)، **ومعلَّم مجنون** (الدخان١٤)، وما كان أياً من ذلك كله، ولم تكن له كهانة، ولاسحر، ولم يُشعِر، وما كان الشعر لينبغي له، إن هو إلا من الأنبياء المرسلين، وكان مبشّراً ونذيراً،وما كان بمجنون، وكيف للمجنون أن يكون له هذا الصرح العالي من الإسلام، وفقهه حار فيه الأولون والآخرون، وبلاغته أطارت الألباب، وحجّته أفحمت المناطقة والمجادلين؟!



٥٤١.﴿المماثلة بين ديانة المسلمين وديانات غيرهم﴾

يقول تعالى: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾(البقرة١٣٧)، والخطاب في الآية لمحمد ﷺ وأُمته، والمماثلة وقعت بين الإيمانين: إيمان وديانة أُمة محمد، وإيمان وديانات الأمم الأخرى،

قال: إنْ آمَنوا بأن الأنبياء جميعهم من عند الله، ورسالاتهم هي التوحيد ولارسالة أخرى سواها، ولم يفرّقوا بين الأنبياء وينكروا بعضهم، ويُعلوا بعضهم على بعضهم، ويؤلّهوا بعضهم، فقد اهتدوا كما اهتديتم، وإن أبوا إلا التفريق بين الأنبياء والرسالات، فهم الناكبون عن الدين إلى الشقاق، فسيكفيكهم اللّه وينصرك عليهم. **والشقاق**: هو المجادلة والمخالفة والتعادى، وأصله من الشَقّ وهو الصدع والخرق. وأُمة اليهود وأمة النصارى أكثر الأمم شقاقاً. وقيل الشقاق من فعل ما يشُقّ وما يصعب، فكأن كل أمة تحرص على ما يشق على أبنائها، وليس أشق من ديانة اليهود بما ابتدعوه فى **التلمود**، ولا أشق من **الرهبانية** التى ابتدعها النصارى، فتفرّق اليهود والنصارى بسبب ذلك إلى فرق متخالفة يكفرّ بعضها البعض، ويؤلب بعضها على بعض، حتى صار بأسهم بينهم شديد.

•••

٥٤٢. ﴿اليهود يزكون أنفسهم﴾

يخبر القرآن ـ بحسب ما هو مكتوب في كُتب اليهود ـ أنهم يزّكون أنفسهم، يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا** ﴾(النساء)، وتزكيتهم أنفسهم بأن قالوا فى كتبهم أنهم **شعب اللّه المختار** وأنهم الصفوة، وأن حُكم العالم ينبغى أن يئول إليهم، وأن **أورشليم** عاصمة العالم، والعولمة لذلك من مقولاتهم، وبها يحكمون العالم، فأطروا أنفسهم، ودللوا على أنهم قومٌ مرضى جماعياً **بجنون العظمة**، ومصدر جنونهم **عُقَد النقص** عندهم، وأن اللّه لعنهم، ومع ذلك ادّعوا أنه لاذنوب لهم، وأن ما يفعلونه ليلاً يغفره اللّه لهم نهاراً، وما يفعلونه نهاراً يغفره لهم ليلاً، وأنهم فى ذلك **كالأطفال** بلا ذنوب، وأن آباءهم الأولين: **ابراهيم، وإسحق، ويعقوب، والأسباط**، يشفعون لهم (أشعياء٢ / ٢) فردّ اللّه عليهم، قال: ﴿**بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾ (النساء٤٩)، وقال: ﴿ **فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ** ﴾(النجم٣٢)، والمزكّى لنفسه إنما يفعل ذلك بلسانه ادّعاءً، وأما الزاكى المزكَّى: فهو من حَسُنت أفعاله وزكّاة الله، فلاعبرة بتزكية المزكِّى لنفسه، ولن يسمع العالم لليهود بأنهم «**شعب اللّه المختار**»، لأن دعوتهم **عنصرية**، وفيها استكبار، وفعلهم منتقص وأعمالهم في فلسطين شاهدة عليهم وعلى بطلان مزاعمهم وزيف تفكيرهم.

•••

٥٤٣. ﴿اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾

يخبر اللّه تعالى عن اليهود فيقول: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ**

بالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(النساء٥١)، والجبت فى اللغة: هو كل ما يُعبَد من دون الله، إشارةً إلى عبادة اليهود لمعانٍ وعقائد ومبادىء فيها الكفر بالله. **والجبت** من ألفاظهم، قيل اللفظة حبشية انتقلت إليهم من يهود الحبشة، وقيل اللفظة عبرانية ودخلت اللغة الحبشية من طريق هؤلاء اليهود فى الحبشة، والقرآن لايستخدم الألفاظ الأجنبية، إلا ما كان اسماً أو مصطلحاً لشيء أجنبى، والأسماء لا تترجم. **والجبت** باعتباره سحراً أو ضلالاً يصرف عن الخير، ومارسه اليهود واشتهروا به، حتى أن كتابهم حظره عليهم،وتوعد ممارسيه بالعقاب الشديد (ملاخى٣ / ٥، وتثنية ١٨ / ١٠-١٢، وخروج ٢٢ / ١٨)، إلا أن طبيعتهم غلبتهم، وطلبوه، وطلبه **شاول** مَلِكُهم (صموئيل الأول ٢٨ / ٣ - ٢٠). وأما **الطاغوت**: فهم زُمرة الضُلاّل، الذين يمارسون السحر، ويدّعون الكهانة والعرافة، ويمسكون بالسلطة والسلطان، منْ طَغَى **يطغَى طُغياناً** إذا جاوز الحدّ، فيقال **طَغَى فلان** أى غلا فى العصيان، **وأطغاه المال والسلطان** أى جعله طاغياً، **والطاغية** هو العظيم الظلم الكثير الطغيان، **فالطغيان** مراتب، ورأس الطغاة **هو الشيطان**، واليهود **عَبَدة الشيطان**، وهم الذين يتزعمون هذه العبادة فى أمريكا،**وعبادة الشيطان**، هى ممارسة الشر **كفلسفة قوة**، وأصحاب هذه الفلسفة فى التاريخ جميعهم من اليهود (أشعيا ٣ / ٩،وحزقيال ٢ / ٣)، وفيهم يقول تعالى: **﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾**(النساء٦٠)، ويقول: **﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾** (البقرة٢٥٧)، يعنى وسائلهم وأدواتهم وأساليبهم كلها شيطانية، والذين يعاهدونهم ويواثقونهم ويوالونهم مِثْلُهم من **حزب الشيطان**،وقتالهم وحروبهم لأهداف غير مشروعة وظالمة يوحى بها إليهم **شيطان القوة** فيهم: **﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾** (النساء٧٦)،وأما المسلمون: فحزبهم هو **حزب الله**، وأولياؤهم الله والملائكة والمؤمنون، وقتالهم وحروبهم دفاعية مشروعة، ويهتدون بوصاية ربّهم، كقوله تعالى: **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**(النحل٣٦)، ولهم لذلك حُسن الجزاء: **﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾** (الزمر١٧). ومن أقوال رسول الله ﷺ فى ذلك: **«الطرق والطير والعيافة من الجبت» والطَّرْق** ضرب الرمل؛ **والطِّيرَة**: التفاؤل والتشاؤم بالأشياء؛ **والعيافة**: هى زجر الطير لتيامن بدل التياسر، ويقال **لذلك تيمُناً**، يعنى أن الإسلام ينهى عن طرُق اليهود ووسائلهم، ولكل أمة سَمْتٌ وخُلق، **والجبت** ليس من خُلق المسلمين، بينما هو من صميم سيكولوچية شعب اليهود.



٥٤٤.﴿دعوى اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله وأحبّاؤه﴾

لمّا كان النبىّ ﷺ يقرأ على اليهود القرآن ويخوّفهم، كانوا يقولون: نحن لانخاف!

ومما نخاف ونحن أبناء اللّه وأحباؤه؟! فنزلت الآية: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ**﴾ (المائدة١٨). وقولهم إنهم أبناء اللّه وأحباؤه ورد عند اليهود في عبادتهم عن اللّه تعالى فيما زعموا أنه قوله تعالى: «**إسرائيل ابنى البكر**» (الخروج٤ / ٢٢)، وفي العبارة: «**أنا أكون له** أباً، **وهو** (أى شعب إسرائيل) **يكون لى ابناً** (الملوك الثانى٧ / ١٤)، والعبارة: «كرأفة أبٍ ببنيه رئف الربّ **بالذين يتقونه**» مزامير ١٠٣ / ١٣). وتحولت هذه «**الأبوة**» أو «**البنوة**» عند **النصارى إلى** «**أبوة وبنوة**» حقيقية لامجازية، فيقال: **أبو ربّنا يسوع المسيحي** (الرسالة الثانية إلى أهل كورنتوس ١١ / ٣١)، **ويجيء في الصلاة عند النصارى**: «**أبانا الذى فى السموات، ليتقدّس اسمك**» (متى٦ / ٩).

وهذه الأبوة أو البنوة أصل في **الاعتقاد النصراني**، ولا تقال من باب المجاز، وأما بنوتهم لله فهى بنوة مجاز، اكتسبوها بالخَلْق، فلما آمنوا صارت لهم بالنعمة. المؤمن إن لم يعتقد فى أبوة الله للمسيح، وأبوته للمؤمنين، يكفر. وأبوته تعالى بالنسبة للمؤمنين اكتسبوها **بالميلاد الثاني** ـ أي لمّا آمنوا بعيسى (يوحنا١ / ١٢ ـ١٣)، ولذلك كان التبنيّ عندهم مشروع لأنه ضمن عقيدتهم، وفي الإسلام التبنّي محظور لأنه ليس من عقيدة الإسلام، وليس لأنه يخلط الأنساب كما يقول المفسرون، وإنما لأنه متصل ببنوة اليهود للّه وأبوته لهم، وببنوة المسيح للّه وأبوته له، وبنوة النصارى لله، وأبوته لهم. وهذه العلاقة بين اليهود والله، وبينه وبين النصارى ـ علاقة **البنوة**،أو **الأبوة**، أو الحُبِّية، هى امتياز لهم دون غيرهم من الشعوب، وليست اكتساباً بالأعمال، ولكنها **بالطبيعة** في حالة اليهود، لأنهم يهود وكفى!و**بالنعمة** في حالة النصارى، لأنهم لمّا تبعوا ابن اللّه صاروا أبناء للّه بدورهم. وهذا ما ينبّه إليه القرآن، فلو كان ذلك حقيقة فلن يُعذَّب لاهؤلاء ولا هؤلاء، ولكن كتُبهم تقول إنهم يُحاسبون وسيعذَّبون، وهم إذن بشر، ويمكن أن يخطئوا ويصيبوا، وسيُحاسبون على الطاعة والمعصية، وسيُجازى كلٌّ بما عمل، ولايشفع لأى منهما أنه يهودى أونصرانى!



٥٤٥.﴿اليهود والنصارى غلوا فى دينهم﴾

القرآن ينهى عن الغلو في الدين بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**﴾(النساء١٧١)، **والغلو** هو التجاوز في الحدّ؛ **اليهود** غلوا في عيسى فقذفوا مريم بأنها بغى، وقالوا إن المسيح ابن يوسف النجّار، وقالوا في عيسى إنه عنين يعانى

العجز الجنسي، وأنكروا نبوة عيسى واضطهدوه واضطهدوا الحواريين؛ **والنصارى غلوا فى** التوراة، فأبطلوا الكثير من الناموس، وغلوا فى عيسى فجعلوه إلهاً، والغلو هنا وهناك، سواء كان إفراطاً أو تقصيراً، كله سيء وكُفر، ولذا قال الشاعر:

ولاتغلُ فى شيء من الأمر واقتصد .·. كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقال آخر:

عليك بأوساط الأمور فإنها .·. نجاةٌ ولاتركب ذلولاً ولاصعبا

وفى صحيح البخاري قال ﷺ: «**لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى؛ وقولوا عبد** **الله** ورسوله».

●●●

٥٤٦. ﴿اليهود والنصارى متخالفون﴾

اليهود والنصارى كلاهما يدّعى أنه على الحق والثاني على الباطل، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾(البقرة ١١٣)، واليهود ينكرون الأناجيل تماماً، وبعضهم ينكر أنه وُجد أصلاً نبىٌّ باسم عيسى أو يسوع، والنصارى أنكروا على الفريسيين، وهدموا الناموس، وأبطلوا السبت، وقالوا إن الربّ يدين اليهود، وأن الشريعة للخُطاة فقط، وأنه فى الآخرة بعثٌ وحسابٌ، وجزاءٌ وعقابٌ، وجنةٌ وجهنم، على خلاف ما يقول اليهود.

●●●

٥٤٧. ﴿اليهود والنصارى إيمانهم مبتدع﴾

معنى الابتداع فى حالتي اليهود والنصارى أنهم أوجدوا شيئاً غير مسبوق ففصلوا بين الإيمان بالله وبين التصديق برسُله، وآمنوا ببعض رسُله وكفروا ببعضهم، فقال تعالى فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾(النساء). فاليهود كفروا بعيسى ومحمد، والنصارى كفروا ببعض موسى وبمحمد، فنصّ الله تعالى على أن التفريق بين الله ورسله كُفر، لأنه فرَضَ على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكان جَحْدُهم كجحد الصانع سبحانه، وجَحْد الصانع كُفر لما فيه من ترك الطاعة. وكان دينهم لذلك ديناً مبتدعاً طالما حقيقته الجحد. وأما المسلمون فقد علّمهم الله حقيقة الإيمان فقال لهم: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ**

وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة١٣٦)، فوقعت المماثلة بين الإيمانين.

•••

٥٤٨. ﴿اليهود والنصارى هم الأخسرون أعمالاً﴾

«**الأخسرون أعمالاً**» صفة القرآن لليهود والنصارى، ومن الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن ولكن سعيه في الحقيقة قد حبط. وما يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد، أو المراءاة. يقول تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**(الكهف)، والمقصود بهؤلاء: «اليهود والنصارى»؛ فأما اليهود فلأنهم لم يؤمنوا بالبعث، وفي كتبهم لايوجد أي كلام عن البعث؛ والنصارى لأنهم كفروا بالجنة فقالوا لاطعام فيها، ولا زواج ولا نعيم، فهؤلاء وهؤلاء لا قدْر لهم ولا وَزْن يوم القيامة، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة، واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾** (الكهف)، قيل: السِمَن المكتسَب من كثرة الأكل والشَّرَه والاسترسال مع النفس على شهواتها، كما في حالة «**شارون**»، فهو عَبْد نفسه لاعبد ربّه. والخلاف بين المسلمين وبين اليهود والنصارى هو خلافٌ في العقيدة يصنع خلافاً حول أسلوب الحياة، فهؤلاء عبيد رغباتهم، ولايهمهم من أين أتى المال، ويقبلون على الحياة ونعيمها كالأنعام، كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ(١٢) ﴾**(محمد)، فهذا هو الخلاف بيننا وبينهم: خلافٌ ثقافي حضاري، فنحن نأخذ بالقيم، وهم ينادون بنوع من التمدُّن لاقيم فيه ولامبادىء، ولو أخذوا بالقيم لعبدوا الله الواحد واتّقوه، ولكنهم يعبدون المال والشهوات، ولهذا كرهوا الإسلام والمسلمين.

•••

٥٤٩. ﴿برهان الخلف يلزم اليهود والنصارى﴾

الأصل في الآية: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾**(المائدة١٨) السؤال: «**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**»، وهو سؤال لايخلو من أحد وجهين: إما أن يقولوا هو يعذّبنا. فيقال لهم فلستم إذن أبناءه وأحباءه، فإن الحبيب لا يعذّب حبيبه، وأنتم تقرّون بعذابه، فذلك دليل على كذبكم، وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخُلْف؛ أو أنهم يقولون: لايعذّبنا الله فيكذّبوا ما في كتُبهم،

وما جـاء به رسُلهم، ويبيحـوا المعاصي ! ومن ثم فإنهم عقـائدياً في مأزق، يسمـيه أهل الجدل: **الإحراج**، ويقال له **القياس الأقرن dilemma**، وهو برهان ذو حدّين أو قرنين، يُكره الخصم على اخـتيار واحـد من بديلين كلاهما في غيـر مصلحتـه! وهكذا كل كلام اليهود مغالطـات وإحراجات وأكاذيب ـ حتى **سبـينوزا، وماركس، وفـرويد، ومـارتن بوبر** إلخ، كلهم كذبة ويتكلمون كلاماً غير منطقي، فلا تصدقوا اليهود!

●●●

٥٥٠. ﴿اليهودية والنصرانية بدعتان وليستا من الله﴾

دين اللّـه هو **الإسـلام**، وهو الذي لايُقبل غيـره، ولايُجزى إلا به، واللّه يقول لأهل الكتـاب: ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(البـقرة٤٢)، واللَّـبْس هو الخلط، يأمرهم أن لايلبسوا اليهـودية والنصرانية بالإسلام، لأنهما **بدعـة** وليسـتا من اللّه، وإلا فـأرونا اسـم **اليهـودية**، أو **النصرانية**، أو **المسيحية في التوراة أو الإنجيل**؟ أو ردّدوا علـى أسماعنا قولٌ **لموسى** أو **عيسى** فيه اسم **اليهودية أو النصرانية**، أو **المسيحية**؟ فهذه الأسماء: **اليهـودية، والنصرانيـة، والمسيحـية** من اختراعـهم. والناس في اليهودية والنصرانـية ملبوسٌ عليـهم، والحـق لايُعرَف بالكثرة أو بالقـوة المادية، ولكنه يُعرف بالحـق، فقـولوا لنا الحق تُعرَفون به، **فهل الحق أن اليهود أبناء الله، وشعب اللّه المختار، وصفوة البشرة؟ وهل عيسى ابن مريم هو ابن اللّه**؟ وهل من الحقّ أن تُسمّى فرقة موسى باسـم **الإسـرائيليين** أو **يعقوب**، أو باسم **اليهود** نسبةً إلى دولتهم المزعومة في الماضي يهوذا؟ أو تُسمّى فرقة عيسى باسمه فيقال «المسيحيون» أو «النصارى» نسبـةً إلى موطنه الناصرة؟ أم أن عباد اللّه ينسبون إلى الله، أو إلى المعبود الحـقيقي الذي يتعبـدونه؟ فأما المسلمون فـهؤلاء ورد اسمهم رسـمـياً في كُتب اللّه: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ**(٧٨)﴾(الحج)، ومعنى **الإسلام** أن المؤمنين به قد أسلموا بأن اللّه واحد، واستسلموا لمشيئته. ومثل هؤلاء اليهود والنصارى مثل هذا الشاعر يقول:

ترى الجليس يقول الحق تحسبه .:. رشُداً وهيهات فانظر ما به التبسا

صَدِّق مـقالته واحذر عـداوته .:. والبـس عليه أمـوراً مثـل ما لَبَّسا

●●●

٥٥١. ﴿ماكان الأنبياء هوداً أو نصارى﴾

اليهود: ويقال لهم هود أيضاً ـ نسبةً إلى **يهوذا** رئيسهم، وأحد الأسباط الاثنى عشر؛ **والنصارى**: نسبةً إلى **عيسى** الناصري، المنسوب إلى بلدة الناصرة من فلسطين. وفي الآية: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ**

أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (البقرة ١٤٠) أنهم ادّعوا أن هؤلاء الأنبياء كانوا **يهودا**، يعنى من أصول يهودية، لأنهم أولاً عبرانيون، وإسرائيليون ثانياً، فهم إذن **يهود** !ونازعهم النصارى ذلك، وزعموا أن هؤلاء الأنبياء كانوا يدينون جميعاً بالمسيح وينتظرونه ويبشّرون به، فهم مسيحيون أو نصرانيون؛ غير أن هؤلاء الأنبياء كانوا قبل اليهودية، وقبل النصرانية، فكيف يكونون يهوداً أونصارى؟ والآية لذلك تتوعدهم وتُعلمهم بأنهم مجازون على أقوالهم. والشهادة: هى علمهم بأن الأنبياء جميعا كانوا على الإسلام لله.

•••

٥٥٢.﴿لا توالوا اليهود والنصارى فيما يخص المسلمين والإسلام﴾

الآيـــة : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾(المائدة٥١) نزلت يوم أُحد حين خاف المسلمون الانكسار، حتى همّ قومٌ منهم أن يوالوا اليهود، أى يهادنونهم ويحالفوبهم، وتبرأ المؤمنون من موالاتهم، وكانت حجة الموالين أنهم يخافون أن تدور الدوائر على المسلمين، فحذّرت الآية من موالاة اليـهود وتعضيدهم على المسلمين فى الحـرب والسلم، وهذا الحُكم ليس على الواقعة وحدها، فإنها تحذير من مـثل ذلك مستقبلاً، يعنى أن هذا الحكم باق إلى يوم القيامة؛ ومثله قوله تعالى: ﴿**لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر**﴾(آل عمران١١٨)، والآية متصلة بما قبلها: ﴿ **إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين** ⦗١٠٠⦘﴾(آل عمران) ، **والبطانة** هم الخلصاء والمستشارون، فالحاكم المسلم لاينبـغى أن يكون له مستشار فى شئون المسلمين من أهل الكتاب، لأنه بطبيـعة الحال سينضم لأهل الكتاب من أعداء الإســلام إذا خُيِّر بين أن يُخلص للمسلمين أو لأهل ملّته.

•••

٥٥٣.﴿لا موالاة للمستهزئين بالإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم﴾

كثيرون يسخرون من طقوس الإسلام فى الحج والصيام والصلاة والزواج، فإن قلنا إن مثل ذلك موجود فى النصـرانية واليهودية، تركوا النقد لهمـا وركّزوا قولهم على الإسلام وحده، وغايتهم معروفة، وفى الآية: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾(المـائـدة٥٧) تأكيدٌ على أن مثل ذلك حدث أيام الرسول ﷺ ومـا يزال، ويتزعم هذا الهزو والسخرية

بالإسلام المستشرقون، وخاصة اليهود ، وقد نهى الله أن نواليهم. ومثل ذلك الآية: ﴿ **لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ** ﴾ (المائدة٥١)، والآية: ﴿ **لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ** ﴾(آل عمران١١٨)، والآيتان تضمنتا المنع من الانتصار والتأييد باليهود والنصارى. ورُوى أن النبى ﷺ لمّا أراد الخروج إلى أُحد، جاءه قوم من اليهود، فقالوا: نسير معك. فقال ﷺ «**إنّا لانستعين على أمرنا بالمشركين**» أخرجه مسلم. وقد رفض السادات أن يشارك السوفييت فى الحرب مع إسرائيل، وطرد ١٨,٠٠٠ خبيراً سوفيتياً قبل المعركة، ودول الخليج استعانت باليهود والنصارى على المسلمين، وتحررت الكويت من العراقيين ولكنها احتلت من أمريكا، واحتُلت معها دول الخليج، وترفض أمريكا الخروج من هذه الدول ومعها بريطانيا وفرنسا، وهذه عاقبةمن يعصى الله.

●●●

٥٥٤. ﴿لاتستفتوا النصارى ولا اليهود﴾

فى القضايا المصيرية ينبغى أن لا يراجع المسلمون أهل الكتاب كما فى الآية: ﴿ **وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾(الكهف٢٢)، وروى أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عن مسألة فنُهى عن السؤال، وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شيء من العلم. ويحضرنى أن طلبة الدكتوراة من بين المسلمين في جامعات اليهود والنصاى ممنوعون من تناول موضوعات معينة عصرية، وكذلك يمنع الضباط المسلمون من الإطلاع على الكشوف المستحدثة في المجال العسكرى، ولايُعطى المسلم إلا العلم المتخلف، وكثيراً ما يعطونه شهادة من غير علم حقيقى، والسبب أنهم يريدوننا أن نظل متخلفين! فلأى شيء نستفتيهم إذن؟!

●●●

٥٥٥. ﴿اليهود والنصارى إذا قرىء القرآن يكادون يسطون بالذين يتلونه﴾

يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾(الحج٧٢)، **والسطو** هو البطش، أى يقعون بقارىء القرآن ويبسطون إليه أيديهم، غَيْرةً وحسداً وعناداً.

●●●

٥٥٦. ﴿مخالفة اليهودية والنصرانية بشأن الحائض﴾

فى التوراة عن الحائض والمستحاضة: وأى امرأة كان بها سيلان بأن يسيل دمٌ من جسدها، فلتقم سبعة أيام فى طمثها، وكل من لمسها يكون نجساً إلى المغيب، وجميع ما

تضطجع عليه فى طمثها يكون نجساً، وجميع ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من لمس مضجعها يغسل ثيابه ويرتخص بالماء ويكون نجساً إلى المغيب، ومن لمس شيئاً مما تجلس عليه يغسل ثيابه ويرتخص بالماء ويكون نجساً إلى المغيب، وإن كان على مضجعها أو على ما هى حالة عليه شىء، فإن لمسه يكون نجساً إلى المغيب، وإن ضاجعها رجل بحيث يصير طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام، وكل مضجع يضجع عليه يكون نجساً، وكذلك المستحاضة، فإذا طهرت من طمثها أو استحاضتها فلتحسب لها سبعة أيام، وبعد ذلك تطهر، وتذبح ذبيحة خطاء وذبيحة أخرى محرقة تكفيراً عن طمثها أو استحاضتها(الأحبار١٥ / ١٩ـ٢٢).

وكان العرب قبل الإسلام، في المدينة وما والاها، يستنون بسُنّة اليهود، فى تجنب مؤاكله الحائض ومساكنتها، فنزلت الآية: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**(البقرة٢٢٢). وقيل الذى سأل هو أُسَيْد بن حُضَيْر وعبّاد بن بشر، وقيل هو ثابت بن الدحداح. وعن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم ويؤكلوها ولم يجامعوهن فى البيوت، فسأل أصحاب النبىّ ﷺ فأنزلت الآية، فقال رسول الله ﷺ «اصنعو كل شىء إلا النكاح» يعنى خالفوا اليهود، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: **ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه!**

والخلاصة: أن **الإسلام يخالف اليهودية**. وقيل فى الآية السابقة: إن سبب نزولها أن **اليهود والمجوس** كانوا يجتنبون الحائض، وكان **النصارى** يجامعون الحُيّض، فأمر اللّه بالقصد بينهما. وفى الإسلام لاتُجتنب الحائض، ولاتُؤتَى فى الجماع.



٥٥٧. ﴿كيف يجوز الإيمان بالتوراة والإنجيل مع تنافى أحكامهما مع القرآن﴾

فى قوله تعالى: **﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾**(البقرة)، وقوله **﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾**(البقرة١٣٦) ـ كيف يمكن الإيمان بهؤلاء الأنبياء جميعهم والكُتب كلها، مع تنافى أحكام التوراة وأسفارها والأناجيل والقرآن؟وكيف يستقيم قوله تعالى فى القرآن عن التوراة والإنجيل: **﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾** (المائدة٤٣)، وقوله: **﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾** (المائدة٤٤)، وقوله: **﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾** (آل عمران)،

وقوله: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ (المائدة٤٦)، وقوله مع ذلك أن اليهود: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾(النساء٤٦)، وقوله: ﴿**يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾(البقرة٧٥) ، والتحريف منه ما يشمل النصوص، ومنه ما يتوجه إلى العقيدة، كقول اليهود: ﴿**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**﴾(التوبة ٣٠)، وكقوله تعالى فى النصارى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾(المائدة)،وقوله: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾ (المائدة٧٣)؟! والجواب: أن الإيمان المقصود به أولاً أن نؤمن بأن هؤلاء الأنبياء من لدن الله، وأن هذه الكتُب من عنده تعالى، مع القول بأن الإسلام قد أسقط التعبُّد بما تقدّم من الشرائع؛ أو أن المقصود أن نؤمن بما لم يُنسَخ من هذه الشرائع. وعن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «**لاتصدّقوا أهل الكتاب ولاتكذّبوهم، وقولوا: «آمنا بالله وما أنزل..**» الآية، يعنى نحن نؤمن بكتُبهم تاريخياً ولانؤمن بما تتضمنه من أخبار اليهود والنصارى، وما حوته مما يخالف الإسلام.

•••

٥٥٨. ﴿معنى أن التوراة إمام ورحمة﴾

التوراة هى ألواح موسى، وأما هذه الأسفار الخمسة الموجودة حالياً فيسميها اليهود **كتُب الشريعة الخمسة** ولايسمونها **التوراة**. وكذلك يسمون **الأسفار الخمسة والأربعين** التى منها الأسفار الخمسة **كتُب العهد القديم**. وليس هناك شىء اسمه **التوراة** عند اليهود، وإن قالوا ذلك فهو تجوّزٌ منهم، ويقصدون به **الأسفار الخمسة**، **والسفر** هو الكتاب، وموسى لم تتنزّل عليه هذه الأسفار، ولكنها من كتابة عزرا الذى يرد اسمه معرّباً فى القرآن «**عزير**»، وهو يحكى فيها عن موسى فى حياته وبعد مماته، ومن غير المعقول أن يحكى موسى عن نفسه ميتاً ويقول«**لمّا مات موسى كان ذلك فى أرض مواب، ودفُن هناك، ولم يعرف أحد قبره، وبكاه بنو إسرائيل ثلاثين يوماً !** وإذن فالأسفار ليست من عمل موسى،ولاتدعو إلى الله، وإنما الدعوة فيها **لبنى إسرائيل**،**ولشعب إسرائيل**، والتألية فيها ليس لله وإنما للشعب، ومع ذلك نستطيع أن نستخلص بعض الأحكام مما يوافق العقل وخاصة فى المسائل الخاصة بالله تعالى وهى قليلة جداً، ونستطيع أن نقول بثقة أنها من أحكام التوراة وشملتها ألواح موسى. والقرآن عندما يأتى فيه عن التوراة: ﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ**﴾(الأحقاف١٢)، لايعنى هذه الأسفار السابقة، ولكنه يقصد إلى **التعاليم الأصول** لموسى. والآية تتحدث عن القرآن وتقول إنه قبل

القرآن كان كتاب موسى ـ ولم تذكر اسم التوراة تحرُّجاً كما شرحنا ـ **لأنه لاتوجد توراة في الواقع الملموس**، وكان هذا الكتاب **إماماً**، يعنى سابقاً على كل الكتب السماوية، بصرف النظر عن أنه كانت **لإبراهيم صحائف، فالكلام هنا عن الكتب وليس عن الصحائف**. وكان كتاب موسى رحـمةً للناس، لأنه نظَّم لهم حياتهم ورحمـهم من الاختلاف، ومن آمن به وجبت له الرحمة من العذاب فى الآخرة. والقرآن صادَقَ على كتاب موسى، ولم يصادق على الأسفـار الخمسة ولم يصـادر على القضايا الأصـول إن اشتملت عليـها هذه الكتب الخمـسة نقلاً عن كتـاب موسى، وهي: الدعوة إلى الله، والاعـتقاد بالآخـرة، والبعث، والحساب، والثواب، والعقاب، والجنة والنار ،والملائكة. والأسفار الخـمسة فيها من كتاب موسى ـ أي التـوراة ـ القليل من التنزيل والكثيـر من الزيف. وفى الآية : ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا**﴾(الأحقاف) أن القرآن صورة من **كتـاب موسى** هذا ـ أي التوراة ـ وإنما بلسان عربى، وهو صـورة لما كان فيه من **القـضايا الأصـول** دون التشريع، لأن الـقضايا الأصول واحدة دائماً، فإن أردت أن تعرف عن كتاب مـوسى فاقرأ القرآن، فالقرآن ترجمة عربية لكل الكتُب قبله، ولكل الدعوات التى سبـقته،وغاية التوراة والقرآن في النهاية **هـى إنذار الظالمين والبشارة للمحسنين**.



٥٥٩.﴿إحدى عشرة صفة لليهود﴾

هذه الصفات أحصتها الآيات من سورة النساء، من قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾(النساء٤٥) إلى قوله تـعالى: ﴿**أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾(النسـاء٥١)، وهـي: ١ ـ﴿**يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ**﴾(النساء ٤٤) أي يستبدلونها بالهدى،كقوله تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ**﴾(البقرة١٦)؛ ٢ـ ﴿**وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)**﴾ (النساء)، أي يريدون إضلالكم عن طريق الحق؛ ٣ـ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ (النساء٤٦)، أي يتأوّلونه ويزيدون فيه وينقصون؛ ٤ـ﴿**وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ (النساء٤٦)، أي سمعنا قولك وعصينا أمرك؛ ٥ ـ﴿ **وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ** ﴾ (النسـاء٤٦)، أي اسمع لاسمعت، أو اسمع غـير مسمع منك؛ ٦ـ﴿**وَرَاعِنَا**﴾ (النسـاء٤٦)،أي ارعنا سمعك، يقولونهـا للتنقيص والغض، وكان المسلمون يقلدونهم فيها، وقالوا للنبىّ ﷺ «راعنـا» فنزلت الآية تنهى المسلمين عنها، تقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾(البـقـرة١٠٤)؛ ٧ ـ ﴿**وَطَعْنًا فِي الدِّينِ** ﴾ (النساء٤٦)، يطعنون في مبادىء الإسلام وأحكامه؛ ٨ـ ﴿ **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)**﴾ (النساء) فكانوا يقولـون: بعض ما تخبـر به يا محمـد من شئون ديننا نحن نؤمن به، ولانؤمن بما

جئت به؛ ٩ـ **﴿يزكون أنفسهم﴾** (النساء٤٩) بأن قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه؛ ١٠ـ **﴿يفترون على الله الكذب﴾** (النساء٥٠)، بما حرّفوا من التوراة ، وبما رووا من روايات لم تكن ضمن كتابهم ونسبوها إلى الله؛ ١١ـ **﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾** (النساء٥١)، **والجبت**: الشيطان أو إبليس، **والطاغوت** أولياؤه، وقيل الجبت كل ماحرّم الله، ولذا الحديث «**الطَّرْق والطِّيرة والعيافة** من الجبت» . **والطَّرْق** : ضرب الحصى أو الرمل على سبيل التكهن، **والعيافة**: زجر الطير المسمى التطيُّر؛ **والطاغوت**: كل ما يطغى الإنسان؛ ١٢ ـ **﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾**(النساء٥١)، يعنى يقولون لكفار قريش أنتم أهدى من المسلمين الذين آمنوا بمحمد، والذى قال ذلك **كعب بن الأشرف**، قاله **لأبى سفيان** ليحقّ الكفّار، ويثّبتهم على كفرهم، ويوغر صدورهم ضد المسلمين، ويؤلّبهم عليهم قصداً إلى المزيد من الفتنة، وإشعالاً للحرب. فهذه اثنتا عشرة صفة منكرة فى اليهود كانت فيهم فى الماضى وما تزال ـ لعنهم الله.

•••

٥٦٠. ﴿ اليهود حمّلوا التوراة ولم يحملوها ﴾

فى الآية : **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين﴾**(الجمعة٥)، وصفٌ من أوصاف اليهود، كان وما يزال فيهم. **وحُمّلوا التوراة**، من **الحَمَالة** بمعنى الكفالة، أى ضمنوا أحكام التوراة، وأُعطوها ليعملوا بها ثم لم يعملوا بها، مَثَلُهم كمَثَل الحمار يحمل كتباً لايدرى ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولايدرى من معانى ما عليه شيئاً. فكذلك حال اليهود مع التوراة، حفظوها لفظاً ولم يتفهّموها ولاعملوا بمقتضاها، ولذا حرّفوها، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كقوله تعالى : **﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**(الاعراف١٧٩).

•••

٥٦١. ﴿جرائم اليهود ومخالفاتهم﴾

أثبت القرآن ما ارتكبه اليهود وما يزالون، فى مثل قوله تعالى : **﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً (١٥٧)﴾**(النساء)، وقوله : **﴿فبظلم من الذين هادوا**

حرّمنا عليهم طيّبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً (١٦٠) وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾(النساء)، فهذه عشر مخالفات وبعضها جرائم صريحة. ثم في قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا ممّا ذكّروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم﴾(المائدة٢٣)، فهذه أربع مخالفات أخرى، وكلها فعالٌ وخصال نشهدها اليوم بشكل جلي في فلسطين، فلا هم يحترمون مواثيق، ولاهم يحافظون على العهود، وتمتلىء صدورهم بالغل، وتملأ القسوة قلوبهم، وتشهد على ذلك كتبهم وأنبياؤهم، وشهدوا على أنفسهم بالتحريف والتلفيق، ولم يراعوا للّه عهداً، ولاتزال تطلّع على غدرهم ومكرهم وخيانتهم، فلكل ذلك لعنهم اللّه وأبعدهم عن رحمته.

•••

٥٦٢. ﴿اليهود قتلة الأنبياء﴾

يذكرالقرآن قتل اليهود للأنبياء في ثلاث سور، هي البقرة، وآل عمران، والنساء، وفي ثمانية مواضع، كقوله تعالى: ﴿ويقتلون النبيّين بغير الحقّ﴾(البقرة٦١)، وقوله: ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾(البقرة٩١)، وفي الآيتين يكذّبهما اللّه تعالى في حيثيات قتلهم للأنبياء، فالنبيّ لايفعل ما يستوجب قتله، وإن قُتل فقتلُه عن ظلم، وهذا هو معنى «بغير الحق»، ولا يتفق أن يقتل مؤمنٌ نبياً، فكيف يُؤمن إذن إن قَتَل نبيّه؟ وبماذا آمن؟ وكيف آمن ؟ وأية رسالة آمن بها؟ ومن بلّغه بها؟ وفي تاريخ اليهود كما يأتي في كُتب العهد القديم أنهم قتلوا النبيين والصالحين أيضًا، كقوله: ﴿ ويقتلون النبيّين بغير حقّ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾(آل عمران٢١)، وكانوا إذا قتلوا النبيين، قام أتباعهم يأمرون بالعدل بين الناس، ويدعون أن يقوم المجتمع على القسط، فيقتلونهم أيضاً، وقد قتل إيليا في يوم واحد أربعمائة وخمسين من الأنبياء دفعة واحدة بدعوى أنهم أنبياء زائفون ويدعون للبَعْل!(الملوك الثاني ١٨ / ٤٠)، وجاء في سفر الملوك الثالث أن إيليا أتمّ ذبحهم بالسيف فوق نهر جار، وغير إيليا كثيرون، وقد اتهمهم بطرس فقال لهم: أسلمتم المسيح وأنكرتموه وقتلتموه وعلّقتموه على خشبة؛ ورجموا بولس (١٤ / ١٨)، وتحالفوا لقتله وكانوا أكثرمن أربعين يهودياً (٢٣ / ١٣). وفي رسالة بولس إلى أهل رومية قال إنهم قتلوا أنبياءهم (١١ / ٣)، إلى آخر ذلك، ومنه كثير في كتب النصارى.

•••

٥٦٣. ﴿ الذلّ لليهود أينما وجدوا﴾

في الآية: ﴿ضربت عليهم الذلّة أين ما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب

مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾(آل عمران١١٢) أن هذا هو قدر اليهود جزاءً لهم على ما يفعلون من المظالم والسيئات، فأينما وُجدوا لقوا الذل إلا أن يمدّ الناس لهم أيديهم ويبقونهم في ذمتهم. وحتى في فلسطين فإنهم يحيون في مذلة ورعب ويحاربون من وراء جُدر.

٥٦٤. ﴿الله يقاتل عن اليهود﴾

اليهود بهم أنفة من القتال، وإياس من النصر، فهذه هي صفتهم الأزلية، وقالوا لنبيّهم موسى: **﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾**(المائدة٢٤)، فوصفوا الله تعالى بالذهاب والانتقال، وبالجسمية وهو دليل على أنهم ليسوا موّحدين وأنهم مشبّهة، ومعنى الآية أن موسى، بما أنه رسول الله، فنصرتُه له أحق من نُصرتهم، وقتاله معه إن كان رسوله، أولى من قتالهم معه، فلما رفض شكّوا في رسالته، وكانوا قد حرّفوا التوراة ونسبوا فيها إلى موسى قوله: «**الربّ يحارب عنكم وأنتم صامتون**» (الخروج ١٤ / ١٤)، وقوله: «**فإن الرّب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم كما صنع في مصر على عيونكم**» (تثنية الاشتراع ١ / ٣٠)، وبمثل ذلك أطمعهم موسى فيه وفي ربّه، ووافق هواهم، ووراء ذلك أنهم كانوا يكرهون الموت، ولايعرفون الاستشهاد، ويحبون الحياة.



٥٦٥. ﴿لماذا انصراف المسلمين عن بيت المقدس قبلة اليهود؟﴾

كل ما جاء به الإسلام كان على مراحل، وتمّ على مَهْل، واختيارُ **القِبْلة** من ذلك، وكانت في البداية إلى **بيت المقدس**، ثم تحوّلت إلى **البيت الحرام**، وجاء هذا التحوّل بعد الهجرة إلى المدينة، وكان اسمها **يثرب**، وأغلب سكانها من اليهود، وساعد اليهود النبيّ ﷺ في أول الأمر، وكانت أمانيهم أن تكون مدينتهم يثرب **مدينة الدعوة**، وأن يكون الدين الجديد هو التوحيد كديانتهم، وأن يكون نسخةً من الديانة اليهودية وإنما **نسخة أممية** أي للأُمم، وأكدوا أن محمداً ﷺ هو **نبيّ الأُمم** وليس من أنبيائهم، وذلك أن ديانتهم يهودية محضة، وكذلك أنبياؤهم يهودٌ خُلَّص، فإذا أفلحوا أن يجعلوا **يثرب** تنافس **مكة** بكعبتها، و تستقطب العرب إليها، فإنهم يكونون قد أفلحوا في تحدّيهم لعظمة قريش الفكرية والتجارية، وستكون مدينتهم يثرب هي مركز تجمّع العرب ثقافياً واقتصادياً، وفي ذلك كل الفائدة لهم. وعن ابن عباس قال كان أول ما نُسخ من القرآن **القِبْلة**، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها من اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب

قِبْلة إبراهيم، فكان يدعو اللّه وينظر إلي السماء، فأنزل اللّه: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾(البقرة١٤٤)، أى نحوه، فارتابت من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ **مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾ (البقرة١٤٢) فجاءهم الجواب، قال: ﴿**قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(البقرة١٤٣)، وقال﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ (البقرة١١٥)، وقال: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ (البقرة١٤٣). وقال ابن عباس كان النبىّ ﷺ إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله: ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ (البقرة١٤٤)، أى إلى الكعبة. .وعن ابن عباس أيضاً أن النبىّ ﷺ قال: «البيت قِبْلةٌ لأهل المسجد، والمسجد قبلةٌ لأهل الحَرَم، والحَرَم قِبْلةٌ لأهل الارض فى مشارقها ومغاربها من أُمّتى». وعن البراء فى رواية عبدالرزاق قال: ان رسول اللّه ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلىّ أول صلاة صلاّها قِبَل البيت صلاة العصر، وصلّى معه قومٌ فخرج رجلٌ ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال«أشهد باللّه لقد صليتُ مع النبىّ ﷺ قِبَل مكة»، فداروا كما هم قِبَل البيت. وكان الذى قد مات على القِبْلة قَبْلَ أن تُحوّل قِبَل البيت رجالٌ قُتلوا لم نَدْرِ ما نقول فيهم، فأنزل اللّه: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)**﴾ (البقرة١٤٣).

وعن البراء قال كان رسول اللّه ﷺ يصلى نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر اللّه، فأنزل الله: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾(البقرة١٤٤)، فقال رجالٌ من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قَبْل أن نُصرَف إلى القِبْلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل اللّه: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾(البقرة١٤٣)، وقال السفهاء من الناس(وهم اليهود): ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ فأنزل اللّه: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)**﴾(البقرة١٤٣).

والمقصود أن الرسول ﷺ رغم صلاته إلى بيت المقدس لم تفارقه أبداً الرغبة أن

تكون صلاته إلى الكعبة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾(البقرة١٤٤)، وهى ذاتها قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأُمِرَ بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ ، فأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاّها إليها صلاة العصر. وقيل إن تحويل القبلة نزل على رسول الله ﷺ . وقد صلى ركعتين من الظهر فى مسجد بنى سلمة، فُسمّى المسجد «مسجد القبْلتين»، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثانى، وعن ابن عمر قال: بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآنٌ، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها ـ وكانت وجوهم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، أخرجه الشيخان. ولمّا حدث ذلك حصل لبعض المسلمين من أهل النفاق شكٌ، وأرتاب اليهود فى نوايا الرسول ﷺ وقالوا: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ (البقرة١٤٢)، واستنكروا أن يستقبل المسلمون تارة بيت المقدس، وتارة الكعبة، فأنزل الله جوابهم: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ (البقرة١٤٢)، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾(البقرة١١٥)، وكان ذلك التوجّه هو التوجّه الحق، لأنه كان نحو أقدم بيت لله ، وهو البيت الذى بناه إبراهيم الخليل، فكان المسلمون به موصولين بأبيهم وأبى الأنبياء والملل، وأما بيت المقدس فقد صلى له داود، وبناه سليمان، وشتان بين عمل أتاه إبراهيم وعمل أتاه داود وسليمان، والأنبياء والرسل مراتب. وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ فى اليهود: «إنهم لايحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى القِبْلة التى هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين» رواه أحمد.

ولقد حوّلنا الله تعالى إلى قبلة إبراهيم واختارها لنا ليجعل من أمة الإسلام خير الأمم، وفى ذلك أنزل: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة١٤٣) ،يعنى لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، ففيكم تتمثل تعاليم وأعمال الآباء ، بدءاً من إبراهيم ومَن أتى بعده؛ والوسط هنا هو الخيار والأجود، كما يقال إن رسول الله ﷺ كان وسطاً فى قومه، يعنى أوثقهم نسباً، يتصل بهؤلاء وهؤلاء، فالوسط موصول بكل الأطراف، بينما الأطراف مقطوعة. وقد جعل الله هذه الأمة وسطاً ـ أى موصولة بالجميع، يقول: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(البقرة١٢٦)، ويقول: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(الحج٧٨)، فخصّ الله هذه الأمة بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، فاستحقّت أن تكون الشاهد على غيرها،واستحق نبيّها أن يشهد عليها، وعن النبىّ ﷺ قال: «**أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلاّ ودّ أنه منا، وما من نبىّ كذّبه قومه إلاّ ونحن نشهد أنه قد بلّغ رسالة ربّه عزّ وجلّ**» .رواه أحمد.

وإنه لشىء عجيب اختّص اللّه به هذه الأمة أن تجتمع جميعها على جهة واحدة، يقول: ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾(البقرة١٥٠)، فأمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً، فأية عظمة هذه!وأية نعمة!!ولايستثنى من هذا سوى النافلة فى حالة السفر، فإن المسلم يصليها حيثما توجه وقلبه نحو الكعبة، وفى ساحات الوغى يصلى على أى حال، وكذلك من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده وإن كان مخطئاً، فالإسلام أيسر الأديان، واللّه تعالى دائماً وأبداً لايكلف النفوس إلا وسعها.

وكان اليهود على ثقة من أن قبلة المسلمين حتما ستتغير لتكون قبلة الآباء التى عرفوها وحفظوا عنها ، وأكد اللّه تعالى ظنهم وقال: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾(البقرة١٤٤)، أى ليعلمون أنه تعالى سيوجه المسلمين إلى الكعبة: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾(البقرة١٤٨)، أى لكل أهل ديانة قبلتهم التى يرتضونها، فلليهود وجهة، وللنصارى وجهة، وهذه وجهة أهل الإسلام، كما فى قوله: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ (المائدة٤٨)، يعنى من الخطأ أن يُفرَض على الناس شرعةً ومنهجاً واحداً، وإنما لكل أمة شرعتها ومنهجها، وإلاّ لكانت أمم العالم أمة واحدة ولما كنا متباينين، وفى التباين تمايز بحسب حاجات الأمم وخصائصها.وفى التباين بوسع الأمم أن تفعل بما يريحها، وأن تستبق وغيرها فى الخيرات. واختيار الكعبة قبلة للمسلمين فيه ترسيخ لما اشتهر عن النبىّ ﷺ أنه على **الحنيفية السمحاء** ملّة إبراهيم، والإسلام هو الصورة العربية للحنيفية، وكان إبراهيم **أول المسلمين**، وهو الذى سمّى **المسلمين**، فلا أقل من أن يتوجه المسلمون إلى الكعبة بيت اللّه الذى بناه إبراهيم، كقوله تعالى: ﴿ **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ** ﴾(البقرة١٥٠)، أى بتوجّهكم إلى الكعبة تسقط مزاعم الناس عنكم، ولايصبح لأحد فضل عليكم، فلاتخشوا بعد الآن أن يتقوّل المتعنتون ، أو يتأوّل الظالمون، فلقد تمت عليكم نعمة اللّه، واستكمل لكم شريعتكم

من جميع وجوهها، وصارت ديانتكم ديانةً لها استقلاليتها، وذاتيتها، وفرديتها، وصارت لكم بذلك تسمتكم الخاص بين الأمم والديانات: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ (البقرة١٥٢)، فكلما صلّيتم إلى قبلتكم إذن اذكروا هذه النعمة من اللّه، واشكروه عليها، وعن زيد بن أسلم أنّ موسى عليه السلام قال: يا ربّ كيف أشكرك؟ قال له ربّه: «**تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني**»، وفي الحديث الصحيح يقول اللّه تعالى: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتهُ في ملأ خير منه**»، وعن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «**قال اللّه عزّوجل: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتُك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منه، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإنْ دنوتَ مني ذراعاً دنوتُ منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة**»، نعمةٌ من اللّه أي نعمة، نشكره عليها، ونصلي له إليها. ومن اللّه المنة وله الحمد.



٥٦٦.﴿ الخلاف بين اليهود والنصارى والمسلمين حول السبت والأحد والجمعة؟ ﴾

السَبت في العبرية والعربية والسريانية هو اليوم بين الجمعة والأحد، وهو الدهر أيضاً، ومنها **السبتة** أي البرهة من الزمان، بمعنى استراح، والكلمة أرسخ في العربية ويتخارج منها نحو **خمس وعشرين** لفظة بمعانٍ مختلفة، وليس الأمر كذلك في العبرية ولافي السريانية. ويأتي **السبت** بمشتقاته في القرآن تسع مرات. وفي التوراة لايأتي السبت إلا في معنى واحد هو يوم الراحة بين الجمعة والأحد، ومع ذلك فإن معنى السبت في اللغة يقتضي فعلاً أن يكون **يوم الراحة**، لأنه اليوم الذي يكون به السبوت من أيام الأسبوع، فأما **الأحد**: فهو اليوم الأول من أسبوع العمل بعد الراحة؛ **والاثنين** اليوم الثاني، **والثلاثاء** الثالث؛ **والأربعاء** الرابع؛ والخميس: الخامس؛ فأما **الجمعة** فهو يوم الجمع أي الصلاة جماعة، ويوم العيد عند المسلمين من أيام الأسبوع. وفي اليهودية **السبت** يومٌ مبارك، ويأتي في سفر التكوين: «**لذلك بارك اللّه يوم السبت وقدّسه، ولأن فيه استراح الربّ من جميع أعماله**»(الفصل الثاني/ ١ـ٣)، ويعادل ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأعراف٥٤)، إلا أن معنى **الاستراحة** هذا في التوراة ليس في القرآن، وإنما في القرآن أن اللّه انتهى من الخلق في **ستة أيام**، ثم إنه تعالى استوى على عرش الوجود، بمعنى أنه صار له الملكوت والتمكُّن، وآل إليه أمر كل شيء، يُعنىَ به ويتصرف فيه، فالنهار أتبعه بالليل، وسخّر

الشمس والقمر والنجوم، وفي آية أخرى قال: ﴿ **إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾(يونس٣)، بمعنى أنه صار له أمر التدبير بعد الانتهاء من الخلق، والتدبير فيه الحكمة ومطلق التصرف، ولاشفاعة في التدبير إلا لمن يأذن له. وفي آية أخرى قال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (هود٧) فأخبر أن ملكوته كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، أي لم يكن ثمة إلا الماء، فخلق الخلق ابتلاء. وفي آية أخرى قال: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً** ﴾(الفرقان٥٩)، أي أنه في ستة أيام انتهى من الخلق واستقرت له أحواله، والاستواء هو الاستقرار، والاستقرار المكانى محال على الله، والعبارة كناية عن استيلائه على المُلك وتصرفه فيه برحمته، فاسأل العلماء الخبراء عن تدبيره ورحمته بما خَلَق وسوّى، يطلعونك على ما يعرفون من عظمة ما خلق، وحُسن التدبير له والتصريف فيه. وفي آية أخرى قالت: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ**﴾ (السجدة٤)، أي أنه تعالى وقد خلق الكون كله بهذا التقدير الحكيم والتدبير النظيم لايمكن أن يكون إلا إلها واحداً سبحانه، فليس هناك من آخر يمكن أن تتوجهوا إليه وتتخذوه مولى وشفيعاً من دونه. وفي آية أخرى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾(ق٣٨)، واللغوب: هو التعب والإعياء، أى أنه تعالى خلق ولم يمسه التعب، ولم يلحقه الإعياء، فلماذا إذن يستريح كما تقول التوراة؟ والقرآن في هذه الآيات السابقة وفي هذه الآية، ينكر على التوراة المعنى الذي تقول به حول يوم السبت من أيام الله. وفي آية أخرى قال: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(الحديد٤)، أي أنه وقد خلق السموات والأرض له مطلق العلم بكل ما فيهما من مجريات، ومنه تتنزل التدبيرات بمقتضى الحكمة، وترجع إليه الأمور يقضى فيها ويتصرف بعلمه وتدبيره، وهو العليم بما يهجس فى الصدور، ويجيش فى النفوس، ويخطر فى العقول، سبحانه، فهو فى عمل دائب، لايكلّ ولايمل، سبحانه، فكيف يستريح؟؟ وإنما اليهود قالوا بذلك فى التوراة التى كتبها عزرا وآخرون ليشابهوا ذلك بالسبت فيجعلوه يوم راحة، ومنطقهم في ذلك أن الله استراح فى السبت بعد ستة أيام عمل، وكذلك ينبغى أن يفعل الإنسان بعد ستة أيام عمل، ثم يتأيد معنى الراحة يفرضه

اللّه على اليهود، فيمنع نزول المن لهم في يوم السبت حتى يستريحوا (الخروج١٦ / ٢٢ـ٣٠)، وبعد ذلك يتطور معنى السبت عندهم فلايعود يوم راحة وإنما يوم عذاب وشقاء. وفي الوصية الرابعة من وصايا موسى يأمره اللّه أن يحفظ السبت لأنه يوم مبارك ومقدس ـ لماذا؟ ربما تيمناً بما فعل اللّه فيه، واحتفالاً وإحياءً لفعله فيه وهو الراحة. إلا أنهم جعلوا قداسة السبت سيفاً مصلتاً على الرقاب، فلما كسر أحد اليهود يوم السبت رجموه بأمر موسى (العدد١٥ / ٣٢ـ٣٦) . ويقول علماء النصرانية: إن قداسة السبت نقلها اليهود عن البابليين، وكان البابليون يحفظون اليوم السابع من الأسبوع، وتقوم شرائعهم على أن لايتناولوا اللحم المطبوخ يوم السبت، ولايغيّروا ثيابهم، ولايلبسوا ثياباً نظيفة، ولايقدّموا ذبائح، ولايركبوا عربات، ولايتناولوا مسألة من المسائل، ولايتحدثوا في أمر من الأمور، ولايتعالجوا، ولايتطبّبوا، ولايستحموا. ومن العجيب أن يتهم اليهود الإسلام بأنه ديانة شكلية تهتم بالحرفية والطقوس ولاتهتم بالروح، مع أنهم حوّلوا السبت إلى عبادة شكلية ولم يحفظوه حفظاً روحياً. وفي الإسلام الجمعة هو يوم المسلمين، يجتمعون فيه كل أسبوع. والجمعة هو اليوم السادس من الأسبوع، أي اليوم الذى أتم اللّه فيه خلق العالم، فالأجدر أن يكون الاحتفال بنهاية هذا العمل العظيم في يوم الانتهاء منه، وأن يكون ذلك بالحمد للّه والشكر له جماعةً. ولقد اختار اليهود السبت ليقرُّوا فيه ويستريحوا، فألزمهم اللّه به ولم يلتزموا، وبيّنت أسفارالعهد القديم عدم التزامهم ونبّهت إليه (ملوك ثان ٤ / ٢٣) ـ وعاموس ٨ / ٥ ـ وهوشع ٢ / ١١ ـ وإشعيا ١ / ١٣ ـ وحزقيال ٤٦ / ٣). وفي فترة السبي نسوا السبت (نحميا ١٠ / ٣١ ـ و١٣ / ١٥ ـ٢٢)، واشتغلوا بالحرب يوم السبت (١مقابيون٢ / ٣٩ـ٤١)، وخالفوا العهد مع اللّه ونقضوا ميثاقه، وفي ذلك يقول القرآن ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ** ﴿٦٥﴾﴾(البقرة)، ويقول: ﴿ **وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴿١٥٤﴾﴾(النساء)، إشارةً إلي نقمة اللّه تعالى من أهل القرية اليهودية الساحلية لاحتيالهم في مخالفة السبت، قال: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴿١٦٣﴾ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴿١٦٤﴾ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴿١٦٥﴾ **فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴿١٦٦﴾﴾ (الأعراف). والقرآن يقرر ما قررته التوراة من قبل: أن اليهود انقسموا إزاء السبت

إلى ثلاث فرق، ففرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، **وفرقة** نهت عن ذلك واعتزلتهم، **وفرقة** سكتت فلم تفعل، ولم تنهم. ولكنها أضمرت الإنكار. فهذا ما أورد عنه القرآن عن الله تعالى حيث يقول: ﴿ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)** ﴾(النحل)، وما يزالون مختلفين في إسرائيل حتى اليوم وسيظلون كذلك إلى أبد الآبدين، فقد نسوا أن السبت كان رحمة للناس، وجاء المسيح فنازعهم فيه أشدّ المنازعة، فقد فهموا أن حفظ السبت **مسألة شكلية**، وصاروا عبيداً للسبت، وكان المسيح يعلّم: أن **السبت إنما جُعل للإنسان وليس الإنسان للسبت** (مرقس٢ / ٢٧)، وعالج مريضاً في السبت فعاتبوه، فقال أهو خيرٌ أم شرٌّ أن تعالج إنساناً يوم السبت؟ أيهما الأفضل، أن تتركه يهلك أو تشفيه؟ فكأن المسيح أراد أن يعيد للسبت معناه الحقيقي: أنه **يوم خدمة وشُكر للربّ** وليس يوم بطالة، وهو نفس المعنى الذي تنصرف إليه الآيات في القرآن أن الله ما كان يمكن أن يخلق العالم ويتركه دون عنايته ورعايته وحفظه وتدبيره، فإذا كان يوم السبت هو يوم الرّب، فليكن يوم رحمة وتواصل وتحابّ ومودة بين الناس أجمعين. واحتفل النصارى بعد ذلك **بالأحد** كبداية للأسبوع، لأنه في الأحد كانت **قيامة المسيح**، وفيه كان اجتماعه دائماً بتلاميذه. وفي الأحد يصلون للربّ عرفاناً بالجميل، مثلما فعل المسلمون بيوم الجمعة وهو آخر أيام العمل الستة عند الله، يصلون لله جماعةً، ويشكرونه ويحمدونه ويسبّحون له، ويذكرونه كثيراً، ويتواصلون ويتراحمون ويتعاهدون على الخير، بما فرض الله تعالى عليهم في قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)** ﴾(الجمعة) **والجمعة**: سميت **جمعة** لأنها مشتقة من الجمع ، **والجمع** هم **الأمّة**.والجمعة **عيد أمة الإسلام**، وكانوا في الجاهلية يسمونه **يوم العروبة**، **وفلسفة** الإسلام فيه أنه اليوم الذي أكمل الله فيه الخلائق، وفيه ستكون نهايتهم في الآخرة يوم ينفخ في الصور؛ **وفلسفة اليهود في السبت**: أنه اليوم الذي استراح فيه الله من الخلق؛ **وفلسفة النصارى في الأحد** أنه اليوم الذي ابتدأ الله به الخلق، وفي ذلك جاء عن النبيّ ﷺ ، قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد**» رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري ومسلم. فافهم يا أخي المسلم، وافهمي يا أختي المسلمة، كم أكرمنا الله، وله الحمد وله المنّة سبحانه وتعالى.

●●●

٥٦٧. ﴿الخلاف حول جبريل وميكال بين اليهود والمسلمين﴾

من أقوال اليهود للنبيّ ﷺ أنه ليس نبيٌّ من الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة وبالوحى، فمَن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: «جبريل»، قالوا: ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا! لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالقَطْر (أي المطر)، وبالرحمة، تابعناك. فأنزل اللّه الآية ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)** ﴾(البقرة).

والقرآن عمّ الملائكة وخصّ جبريل وميكال بالذكر كردّ على اليهود. وفى كتبهم لم يُذكر هذان الملكان إلا في سفر دانيال، وهو رؤيا ليهودى من يهود المهجر ممن سباهم نبوخذ نصر واقتيد إلى بابل، والسفر عبارة عن حلم يقظة، ويرى فيه جبريل يؤمر أن يبيّن لدانيال معنى الرؤيا التي رآها (٨ / ١٦). وفى نفس السفر يأتى أن ميكال هو رئيس الملائكة (١٠ / ٢١). ولاشيء أكثر من ذلك. وفى القرآن: أن جبريل هو روح القدس، يقول: ﴿ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ(٨٧)** ﴾ (البقرة) أى أيّد عيسى بجبريل، ونفخ جبريل فى مريم، ونزل بالقرآن على النبيّ ﷺ وفيه يقول الشاعر:

وجبريل رسول اللّه فينا .·. وروح القدس ليس به خفاء

وسُمّى روحاً وأضيف إلى القدس، لأنه كان بتكوين اللّه روحاً من غير ولادة والد ولا والدة، وكذلك سمى عيسى روحاً: ﴿ **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ(١٧١)** ﴾(النساء) لأنه لم يكن له والد وإن كانت له والدة. والقدس هو اللّه، والصفة منه القدّوس أى المطهّر. من أسمائه تعالى الحسنى.

●●●

٥٦٨. ﴿الجنة للمتقين وليست لليهود أو النصارى﴾

اليهود والنصارى علي الدعوى أنه لن يدخل الجنة سواهم: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)** ﴾(البقرة)، ودعواهم باطلة، لأنه لابرهان ولادليل لهم على صدقها، وطلب الدليل فى الآية يقتضى إثبات النظر ويردّ على من ينفيه، والآية تكذّبهم وتصحّح ما يقولون، وكأنهم سألوا: أما يدخل الجنة أحد؟ فقيل بلى، من أسلم وجهه للّه وأخلص عمله، فذلك الذى يدخل الجنة. وخُصّ الوجه بالذكر لأنه أشرف ما يُرى فى الإنسان، وموضع الحواس، وفيه يظهر العز والذل. **فالتقوى إذن هى الفيصل، ولاعنصرية فى الآخرة ولامحاباة.**

●●●

٥٦٩. ﴿قال اليهود كيف نتبع رجلاً لايدرى ما يفعل به؟﴾

قالوا ذلك لما نزلت الآية: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ ۝﴾(الأحقاف)، وفى الرواية من الإسرائيليات أن قولهم اشتد على النبىّ ﷺ ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۝﴾(الفتح). والصحيح أن الآية الأولى خاصة بنزول القرآن وحياً على النبىّ ﷺ ، وأنه لا يتّبع إلا ما يوحى إليه، وأنه لايدرى ما يُفعَل به ولابهم، فذلك من أمور اللّه سبحانه، وأنه ليس سوى نذير مبين كغيره من الأنبياء ممن سبقوه. وأما الآية الثانية فهى لطمأنة المسلمين حيث كانوا قد كرهوا صلح الحديبية، فنزلت سورة الفتح جميعها لبيان أن هذا الصلح يرقى إلى مقام الفتح، وأنه ليس إلا مقدمة لفتح أكبر وأكبر، لمكة، ثم لخيبر، ثم لكل بلاد الإسلام من بعد، شرقاً وغرباً فى كل أقطار الدنيا.



٥٧٠. ﴿الختان من ملة إبراهيم﴾

فى اليهودية والإسلام فإن إبراهيم أول من اختتن، وفى كتُب اليهود «وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عند ختنه لحم قُلفته» (التكوين ١٧ / ٢٤) واختتن معه ابنه إسماعيل وكل رجال منزله. وفى الحديث عن أبى هريرة «اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة» ، وفى كتُب اليهود أنه عاش مئة سنة وخمساً وسبعين (التكوين ٢٥ / ٧).

والختان وإن لم يكن فى القرآن صراحة إلا أنه ضمن قوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۝١٢٣﴾ (النحل)، وقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۝١٣٠﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء١٢٥)، وذلك دليل على وجوبه، ويباح عموماً لمصلحة الجسم بحسب رأى الطبيب، وفى الحديث: «الختان سُنّة للرجال، مكرُمة للنساء» أخرجه أحمد، والحديث فى إسناده ضعف، وعن أبى هريرة «الفطرة خمس...» أخرجه البخارى، أولها الاختتان. والحديث عن ختان النساء عن أم عطية: أن النبىّ ﷺ قال لها: «لاتنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحبّ للبعل» أخرجه أبو داود، وقال فيه ضعف حيث راويه مجهول، والنهك المبالغة فى كل شىء، وفى رواية أخرى قال لها: «لاتنهكى فإنه أنور للوجه وأحظى عند الرجل». وقد يولد الصبى مختوناً فيُكفى مئونة الختان، والنبى ﷺ وُلد كذلك، وقيل ختنه عبدالمطلب فى اليوم السابع من مولده، وجعل له مأدبة، وسمّاه محمداً. والحديث مسندٌ غريب.

وختان الصبى فى اليوم السابع، وخُتن إسحق بن إبراهيم فى اليوم السابع، وقيل هذا شأن اليهود فلماذا يلتزم به المسلمون؟ والجواب ما أسلفنا أنه سُنّة ويُفهم وجوباً من آيات القرآن السابقة. وفى الإسلام يختن الصبى ما بين سبع إلى عشر سنين، وقيل لم يكن يختن حتى يدرك أو يقارب الاحتلام. والمستحب من الكبير إذا أسلم أن يختتن، ويرخّص عدم اختتانه إذا لم يكن يقدر، والخلاصة: أن الاختتان للذكور واجب، وليس بواجب للإناث، وإذا اختتنت الأنثى فلا تُنهك، ولم يعرف عن بنات النبىّ ﷺ أنهن اختتن، ولاعن عائشة، ولازوجات النبىّ ﷺ، والاختتان عند اليهود قاصر على الذكور ولايسرى على الإناث، وفى سفر التكوين يأتى عن الربّ لإبراهيم: «فاحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك مدى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُختن كل ذكر منكم فتختتنون القلفة من أبدانكم ويكون ذلك علامة عهد بينى وبينكم» (١٧ / ٩-١١)، فقصر الختان ومن ثم العهد على الذكور دون الإناث، وذلك دليل على تدنّى مكانة المرأة فى اليهودية، وأنه لاعهد لها مع الله.



٥٧١. ﴿العداوة والبغضاء حظ النصارى إلى يوم القيامة﴾

النصارى سُمّوا كذلك لاتباعهم عيسى الناصرى - من بلدة الناصرة، وبعد عيسى انقسموا فرقاً بحسب حوارييهم، فكل جماعة اتبعت إنجيلاً، وكانت لهم تفسيرات وتأويلات، فقالوا المسيح ابن الله، وقالت جماعة هو نبىّ، وقال آخرون هو الله، وخالفوا بعضهم البعض، حتى فى الرواية عن عيسى كانت لهم مخالفات، وكثرت الأناجيل فأجازت الكنيسة أربعة، وحرّمت غيرها، كإنجيل يعقوب، وإنجيل نيقوديموس، وإنجيل الأبيونيين، وإنجيل المصريين، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل الناسيين، وإنجيل بطرس، وإنجيل توما، وإنجيل الطفولية إلخ، وأخبر القرآن بذلك كله، وما كان من الممكن لمحمد ﷺ أن يلم بها ويعلم عنها وهو العربى الأمىّ، وهذا دليل على نبوته، وعلى أن القرآن من لدن الله العليم، ومن ذلك وصفه الدقيق لخلاف النصارى حيث يقول: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المائدة)، والعداوة والبغضاء لاتوصف بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، وبين الكنائس الجديدة والكنائس القديمة، ووصل الحد إلى الاقتتال فى أيرلندا، وخلال الحرب العالمية الأولى والثانية، فالمحور كانوا بروتستانت، والحلفاء كانوا غالبا كاثوليك وهكذا، ولما جاء بابا روما فى زيارة لمصر رفض البابا شنودة لقاءه للعداء بين الكاثوليك والأرثوذكس.



٥٧٢.﴿قول النصارى المسيح ابن الله﴾

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ (٣٠) ﴾(التوبة)، وظاهر النصارى أنها «بنوة النسل» كما قال المشركون فى الملائكة أنهم «بنات الله» كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ (٥٧) ﴾(النحل)، وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾(الانعام) يعنى اختلقوا وافتعلوا له البنين والبنات. ومقالة النصارى أن المسيح إله وأنه ابن إله، هى أشنع الكفر، وقال بعضهم هى« بنوة رحمة» وليست بنوة نسل، وهو أيضاً كفر، وفى اعتقادهم أنه لايحق أن تطلق البنوة كلية على نسبة المسيح إلى الله. وهو قول ساذج كما ترى ـ قولهم بأفواههم ـ يعني أنه كلام، ولابيان فيه ولابرهان، ولامعنى تحته صحيح، لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولداً؟ وإن قالوا إن المسيح نفخةٌ من الله فى مريم، فهو من روح الله، وله من ثَمّ طبيعتان: طبيعة إلهية عن الله ، وطبيعة بشرية عن مريم، وأن الذى صُلب منه لذلك كان البشرى أو الناسوتى، وأمّا الإلهى أو اللاهوتى فقد ارتفع، فهو أيضاً كلام لامعنى له ولاسند، لأن آدم نُفخ فيه من روح الله، وكذلك حواء، وكل حيى لابد فيه من روح الله، فقول النصارى إذن متهافت، وهو قول لسانى فقط، بخلاف الأقوال الصحيحة التى تقصدها الأدلة ويقوم عليها البرهان.



٥٧٣.﴿قالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾

هؤلاء هم الذين قيل فيهم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ (الأنبياء)، وهم النصارى عبدوا المسيح، واليهود عبدوا أنفسهم وشعبهم، وعبدوا عُزْير وصدّقوا ما كتبه باعتباره التوراة، وأنه موحى إليه لأنه ابن الله يعنى حبيبه وصفيّه وخليله، وعبَد العرب من خزاعة الملائكة، فكاد الجواب عليهم بل هم عباد مكرمون وليسوا أولاداً لله، ولاتبنّاهم أولاداً، ووصفهم فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ (الأنبياء). ولمّا آدعى إبليس الشركة مع الله، ودعا إلى عبادة نفسه وهو من الملائكة، توعّده الله بعذاب مقيم، وهذا دليل على أن الرسل كالمسيح وإن أُكرموا بالعصْمة، إلا أن الناس يعبدونهم، ولاذنب للرسل فيما نسبه الناس إليهم.



٥٧٤.﴿النصارى جعلوا المسيح شريكاً لله مع أنه من عباده﴾

في الآيـة : ﴿**ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ(٢٨)**﴾(الروم)، والمَثَل يعنى أنكم لاترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم كـأنفسكـم فيـما تملـكون، ومع ذلك جعلتـم من عبـاد اللّه شـركاء له ـ وهو قـول النصارى: المـسيح ابن اللّه، أو هو اللّه. والآية أصل فى الشـركة بين المخلوقـين لافتـقار بعضـهم إلى بعض، ونفْى هذه الشركـة عن اللّه. وقولهم «المسـيح ابن الله»، يعـنى هـو «شريكه»، وهو حُكمٌ فاسدٌ، وقلة نظر، وعَمَى قلب.

●●●

٥٧٥.﴿النصارى اتخذوا إلهاً لايقدر على حماية نفسه ولا من معه﴾

هؤلاء قالوا «المسيح ابن اللّه»، وأنه «الرّب»، وما اسـتطاع المسيح أن يحمى نفسه ولا من معه، وهذا دليل على أنه **بشر من بشر**، ومثله مثل **آدم وحواء**. وفى **إنجيل متى** (٢٧ / ٢٦ـ٤٦) يجيء أن اليهـود جلدوا المسيح، ونزعوا ثيابه وألبـسوه رداء قرمزيـاً، ووضعوا. إكليلاً من الشوك على رأسه، وهزأو به، وبصقوا عليـه، وضربوه بالعصى، وسقوه خمراً مُرّة، وصلبوه، فلم يملك إلا أن يقول فى عجب: يا إلهى لماذا هجرتني؟ لماذا تركتنى؟ وفى ذلك دليل أى دلـيل على أن كل معجـزاته كانت بأمر اللّه وإذنه، وأنه ما كان يـستطيع أن يفعل شيئـاً من تلقاء نفسه، لأنه ليس إلا بشراً من بشر. وما استطـاع تلاميذه أن يحمـوه أو يدفعوا عنه، ولا هو نجىّ نفسه.

●●●

٥٧٦.﴿النصارى قالوا ثلاثة﴾

اعتقاد النصارى أن آلهتهم **ثلاثـة**، ويسمون ذلك التـثليث، يريدون بالتثليث: **الآب والابن وروح القدس**، ويقولون اللّه جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، ويجعلون كل أقنوم إلهاً، ويعنون بالأقانيم: **الوجود والحياة والعلم**؛ فالأب: هو الوجود؛ **والابن**: المسيح؛ **والروح**: الحياة؛ ومحصول كلامهم أن عيـسى إله بما أجراه اللّه على يديه من خوارق، ومذهبهم فيه مـذهب الهنود فى كـريشنا: أنه قُتل وصُلب ليخلّص الإنسان ويفتـديه من الخطيئة، فهو **المُخلّص الفادي** الذى يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ـ **فلا كريشنا خلّص الهنود، ولا المسيح خلّص النصارى!**

●●●

٥٧٧.﴿الأحبار والرهبان والربّانيون والرهبانية﴾

الأحبار: هم علماء اليهود، جمع حَبْر ـ وهو الذى يُحسن القول وينظمه ويتقنه بحسن

البيان عنه، ويقال في الواحد حِبْر بالكسر، والأصح حبر بالفتح، مأخوذ من **التحبير** وهو التحسين، والأحبار **يحبرّون العلم، أي يبينّونه** ويزيّنونه، وهو مُحبَّر في صدورهم؛ وأما الرهبان: **فهم** مجتهدو النصارى فى العبادة، جمع راهب، مأخوذ من **الرهبة. لأنه يرهب** اللّه ويخافه، وخوفه هو الذى يحمله على أن يُخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له، وعمله معه، وأنسه به. **والربّانيون**: هم علماء اليهود الحكماء، يسوسون الناس بالعلم، ويربونهم بدءًا من الصغار. وهؤلاء جميعاً استُحفظوا على التوراة، واستُودعوا من علمها (المائدة ٤٤) ، وأنزلهم الناس منازل عليّة، وجعلوهم كالأرباب (التوبة٣١)، حتى أطاعوهم فى كل شيء ، وسُئل حذيفة . عن معنى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**(٣١)﴾(التوبة) هل عبدوهم؟ فقال: لا، ولكن احلّوا لهم الحرام فاستحلّوه، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه. وفى الآية: ﴿ **إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**(٣٤)﴾ (التوبة). أن هؤلاء كانوا يأخذون من أموال أتباعهم فروضاً باسم الكنائس والبيع، ويوهمونهم أنهم ينفقونها شرعاً وتزلفاً إلى اللّه، فى حين كانوا يحجبونها. وقيل: كانوا يأخذون من غلات الناس وأموالهم فروضاً باسم حماية الدين. وقيل : كانوا يرتشون كالحكام. (انظر الرهبانية).



٥٧٨.﴿الرهبانية﴾

الرهبانية نسبةٌ إلى **الرهبان**، جمع راهب، سُمّوا كذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات بالامتناع من المطعم، والمشرب، والمنكح، وتعلّقوا بالكهوف والصوامع والأديرة، فلمّا أعمل الرومان القتل فى النصارى فى بداية الدعوة ، اعتزل الرهبان الناس ولحقوا بالبراري والجبال، ورفضوا النساء، وفيهم نزلت الآية: ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** (٢٧) ﴾(الحديد)، إشارة إلى أنهم أُمروا فى الإنجيل بالمحبة وعدم إيذاء الناس، وألان الله قلوبهم، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكلم. غير أن النصارى وقد أعطاهم اللهّ عبادته ـ غيّروا وابتدعوا، وحملوا أنفسهم على المشقات، وما كان الله ليأمرهم إلا بما يَرضَى عنه، ومع ذلك لم يرعوا رضاه تعالى وتسببوا بالترهّب إلى طلب الرياسة وأكل الأموال، وفسق منهم كثيرون ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**(٣٤)﴾(التوبة) وفى حديث أبى أمامة الباهلى: أن رجلاً أتى النبى ﷺ يريد

الرهبانية، فقال له: «إني لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بُعثت بالحنيفية السمحة. والذي نفس محمد بيده لَغدوةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خيرٌ من صلاته ستين سنة» أخرجه أحمد ، وفي الحديث عن ابن مسعود في تاريخ الرهبانية: أن رسول اللّه ﷺ قال له: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان، فقاتلوهم، فهُزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن أفتونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه، فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث اللّه النبيّ الأميّ الذي وعدنا عيسى، فتفرّقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه، ومنهم من كفر»، قال: ثم تلا «ورهبانية» الآية قال: «أتدري ما رهبانية أمتي؟ الهجرة، والجهاد، والصوم والصلاة، والحج والعمرة، والتكبير على التلاع»، وقال: «اختلف مَن كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم فرقة، وهلك سائرها. واختلف من كان قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرهم: فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى حتى قُتلوا؛ وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطّعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولابأن يقيموا بين ظهرانيّ قومهم فيدعوهم إلى دين اللّه ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترّهبوا فيها، وهي التي قال الله تعالى فيهم :«ورهبانية ابتدعوها» الآية، وحال الرهبانية الآن من أسوأ الأحوال، ومنذ فترة قريبة اشتهرت في مصر فضيحة كان لها دوي كبير في المحاكم وبين الناس.

●●●

٥٧٩. ﴿ميثاق النصارى﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ (المائدة)، وميثاق النصارى هوالتوحيد والإيمان باللّه، ففي إنحيل متّى (٤ / ١٠)، وإنجيل لوقا (٤ / ٨) يجيء: «للرّب إلهك تسجد؛ وإياه وحده تعبد». وكما ترى العبارتان تُقران أن اللّه واحد. وفي إنجيل مرقس (٢ / ٧)، وإنجيل لوقا (٥ / ٢١)يجيء: «فمن يقدر أن يغفر الخطايا إلا اللّه الواحد وحده»؟ وفي إنجيل مرقس (١٢/ ٢٩) وإنجيل متى (٢٢ / ٣٧ـ٣٨)، وإنجيل لوقا (١٠/ ٢٧) يجيء :«إن الرّب إلهنا هو ربٌّ واحد». وفي إنجيل مرقس (١٢/ ٣٢) يجيء: «إن الله واحد». وفي إنجيل يوحنا (٥ / ٤٤ ٥): «الله الواحد وحده». وفي الرسالة إلى رومية(٣/ ٣٠) يأتي : لأن اللّه واحد: وفيها أيضاً (١٠/ ١٢): «للجميع ربٌّ واحد »؛ وفي الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس يأتي : «لا إله إلا

واحد»(٨/ ٤)، « ولنا إله واحد» (٨/ ٦)، «والله واحد» (١٢/ ٦)؛ وفى الرسالة إلى غلاطية يأتى: الله واحد (٣/ ٢٠)؛ وفى الرسالة إلى أهل إفسس يأتى: «واحدٌ هو اللّه» (٤/ ٦)، وفى الرسائل إلى تيموثيئوس: «اللّه وحده» (١/ ١٧)، و- : «الله واحد» (٢/ ٥)؛ وفى رسالة يعقوب: «الله واحد» (٢/ ١٩)، و- : «واحد هو الديّان» (٤/ ١٢)؛ وفى رسالة يهوذا : «للإله الوحيد» (٢٥)، وفى رؤيا يوحنا : أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية (١ / ٨ - ٢٢ / ١٣)، و-«أنا هو الأول والآخر» (١/ ١٧) / وكما ترى فإن الواحدية هى الدعوة في كل ما سبق ولكن الأكثرية نسوا حظاً مما ذكّروا به - أى هذه الواحدية، واختلفوا فيما بينهم حتى صاروا فرقاً وشيعاً يكره بعضهم بعضاً، ويحرّم بعضهم أن يصلوا مع البعض ، أو يدخلوا كنائسهم، أو يتزوّجوا منهم، ومن هذه الفرق الكبرى عندهم: الكاثوليكية، والأرثوذوكسية، والبروتستانتيه، وليست الحرب بين الأيرلنديين إلا حرباً بين كاثوليك وبروتستانت، ولقد كفروا جميعاً لمّا قالوا بالتثليث: الآب، الابن، وروح القدس؛ فالآب أوالأب هو الإله الواحد، قالوا فيه إنه أحديّ الذات، مثلث الأقانيم أى الصفات، فالله هو الأصل ، وهو العقل، والمسيح حكمته، جسّدت العقل، فكان الابن، لابمعنى الابن، بل لأنه صورة الله، وهؤلاء الثلاثة واحد، والأب هو المرسِل، والروح القدس هو المرسَل، والابن سّر الإرسالية. وكما ترى هذه فلسفة وليست ديانة!ومضمونها كله ليس الأب ولا الروح القدس، وإنما الابن، ولم يكن من فراغ أن سُمّي المسيحيون بهذا الاسم لأنهم عبدة المسيح وليسوا عبّاد الله، ولذلك أخطأ المستشرقون حينما حاولوا أن يسموا المسلمين «المحمديين»، اعتقاداً بأنهم عبدة محمد مثلما المسيحيون عبدة المسيح، فهل حفظ النصارى ميثاقهم مع اللّه؟



٥٨٠. ﴿الحواريون: مصطلح إسلامى أم نصرانى؟﴾

يأتى مصطلح «الحواريون apostles » في القرآن والحديث معاً، والمفرد حوارى، من حار أى جادل وجاوب، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴿٣٤﴾﴾(الكهف) أى يخاصمه ويردّ عليه. والحوارى فى اللغة مبيِّضُ الثياب، ومجازاً هو الذى أخلص واختير ونُقّى من كل عيب. ويقال: هو حوارى فلان، يعنى من أصحابه وأنصاره - والحواريون أصلاً هم أنصار عيسى عليه السلام ، وفى الأناجيل المقصود بهم تلاميذه. ولايرد مصطلح «الحواريون» بنصّه فى الأناجيل وإنما الذى يرد هو مصطلح «التلاميذ»: وهم المتلقون عن معلّم؛ وأما الحواريون فهم أرقى من التلاميذ، لأنهم يناقشون ويحاورون ويتحاورون بغية

الوصول إلى الحق، فمصطلح «**الحواريون**» القرآنى أفضل من مصطلح «**التلاميذ**» الإنجيلى.
ثم إن من تلاميذ المسيح من غير الاثنى عشر من كانوا قصّارين أى مبيّضين وهو معنى لفظة «**حواريون**». والأكثر تداولاً فى القرآن وعند المسلمين مصطلح «**الأنصار**» ويقابله مصطلح «المهاجرون»، كقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ**(١٠٠)﴾ (التوبة). وحواريو المسيح أو تلاميذه كانوا فى المشهور عنهم: **إثنى عشر**، يرد عنهم فى **إنجيل متّى** فى الفصل العاشر٢/ ٥، أنهم: **سمعان المدعو بطرس، وأندراوس** أخوه، **ويعقوب بن زَبَدَى، ويوحنا** أخوه، **وفيلبس، وبرتُلُوماوس، وتوما، ومتّى العشّار ويعقوب بن حَلْفَى، وتَدّاوس، وسمعان القانوىّ، ويهوذا الإسخريوطىّ** الذى أسلمه، فهؤلاء **اثنا عشر** حوارياً أو تلميذاً، قيل: كانوا يرتدون **الملابس البيضاء**، فاسمهم **الحَوَاريين** لذلك، لأن الحَوارى هو الذى يبيّض ثيابه، من **حوّر الثوب** أى بيضه، والحَوارى بخلاف **الحُوَّارى** وهو الدقيق الأبيض أو أى شىء أبيض. وقيل الحوارى هو الصيّاد، وكان **بطرس، وأندراوس، ويعقوب بن زَبَدَى** من صيَّادى الأسماك.

واستخدم الرسول ﷺ مصطلح **الحوارى**، وفى الحديث فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لمّا ندب الناس **يوم الأحزاب**، انتدب الزبير فقال: «**لكل نبّى حوارىّ، وحواريّى الزبير**»، فهو حواريه من الرجال مثلما **عائشة** حواريته من النساء.

وفى الآية: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي**(١١١)﴾(المائدة)، أنه تعالى امتناناً على **عيسى** جعل له **الأصحاب والأنصار**، والوحى مع الحواريين أو الأنصار وَحْى **إلهام**، كقوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**(٦٨)﴾(النحل)، أى أُلهموا ذلك فامتثلوا، لأنهم القوم لايشقى بهم جليس، فلما انبسطوا فى إحدى المرات ـ كما يروى القرآن ـ طلبوا المائدة لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة، فقالوا: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**(١١٢)﴾(المائدة)، فعُذروا وأُجيبوا إليها، لأن مرادهم كان اليقين: ﴿**قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا**(١١٣)﴾(المائدة) وهذا هو **الحوار** بينهم وبينه، ولهذا سُمُّوا «**حواريون**»، لأنهم **يحاورونه** زيادة فى البصيرة، وكلٌّ يطلب سؤله على حسب ضرورته، فمنهم من سكونه بمائدة طعام يجدها، ومنهم من سكونه بفائدة من الموارد يَردُها، والعزيز منهم هو الذى يعلو على البرهان يتأمله، أو الدليل يطلبه. فذلك هو مقصود مصطلح **الحواريين** فى النصرانية والإسلام.

●●●

٥٨١. ﴿النصارى يحتجون بالمتشابه من القرآن ويتركون المحكم﴾

الذين فى قلوبهم زيغٌ يتبعون ما تشابه من القرآن، ليمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دامغٌ لهم وحجة عليهم، ودافعهم إحداث الفتنة والإضلال لتابعيهم، إيهاماً بأنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كاحتجاجهم بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله، كقوله تعالى: ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا**﴾ (التحريم١٢)، وقوله: ﴿ **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴿١٧١﴾ ﴾(النساء)، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴿٥٩﴾ ﴾(الزخرف)، وبقوله ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٥٩﴾ ﴾(آل عمران). فسبحان الله ولا إله إلا الله!



انتهى بحمد الله ومنّه الباب الخامس ويبدأ إن شاء الله الباب السادس:

«موجز سور القرآن».



«الباب السادس»

«موجـز سُـوَر القـرآن»

٥٨٢. «سورة الفاتحة»

سُمِّيت **الفاتحة** لأنها يُفتتح بها المصحف، ويُبدأ بقراءتها فى الصلوات، وهى **أول القرآن فى الترتيب لا فى النزول**، وكان نزولها بمكة، ولا تجزىء الصلاة بدونها، وهى **أم القرآن** وأساسه، **والسبع المثانى**، وعدد آياتها مع «**بسم الله الرحمن الرحيم**» سبع آيات، وما كان رسول الله ﷺ يعرف فصل السور حتى نزلت عليه: «**بسم الله الرحمن الرحيم**». وأول سورة الفاتحة: «**الحمد لله**»، وفى الحديث: «**إذا قال العبد الحمد لله، قال الله تعالى صَدَق عبدى الحمد لى**»، والحمد للّه من **الباقيات الصالحات**. وفى التعريف به تعالى أنه «**ربّ العالمين**، **والربُّ** من أسمائه، **وهو المالك للعالمين**، جمع عالم(بالفتح)، وهو كل موجود سوى الله؛ وهو تعالى: «**الرحمن الرحيم**»، فبعد أن يذكر أنه **ربّ العالمين** ترهيباً يأتى أنه **الرحمن الرحيم** ترغيباً، والرحمن عام، **والرحيم يخصّ المؤمنين**. وهو «**مالك يوم الدين**»، **ومالك** أقوى من **مَلِك**؛ لأنها بزيادة ألف، وهو تعالى المالك على تأويل المستقبل، أى **يملك** يوم الدين. وخَصص **بيوم الدين**، لأنهم فى الدنيا يتنازعون المُلك، وأما فى يوم الدين **فلا منازع لله** فى ملكه؛ وإن قلنا «**ملك**» كان ذلك من **صفات ذاته**، وإن وُصف بأنه **مالك** كان ذلك من **صفات فعله**. وقوله: «**إياك نعبد وإياك نستعين**»: رجعٌ من الغيبة إلى الخطاب على التلوين، ومن ينطق بها يقرّ بالربوبية ويحقق له تعالى العبادة، ويبرأ من الجبر والقَدَر، ولذلك **يحقّ** له أن يدعو: «**اهدنا الصراط المستقيم**»، راغباً إليه كمربوب إلى ربّه، وليس شىء أكرم على **الله** من الدعاء؛ **والصراط المستقيم** هو طريق الإيمان الذين أنعم به على النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. وفى سؤاله تعالى **الهداية** ردٌّ على **القدرية والمعتزلة والعلمانيين**، الذين قالوا إن الإنسان خالقٌ لأفعاله وغير محتاج فى صدورها عن ربّه، فلو كان الأمر بيد الناس لما سألوه الهداية. وقد سألوه أن يهديهم **إلى صراط المسلمين** لا إلى **صراط المغضوب عليهم** من المشركين، ولا **إلى صراط الضالين** من المنافقين، وربما **المغضوب عليهم هم اليهود**، علموا الحق وعدلوا عنه، وربما **الضالون هم النصارى**، **علموا العلم فلم يعُوه**، وأما طريقة **الذين أنعم عليهم** ـ وهم أهل الإيمان ـ فإنهم يتحرّون العلم بالحق ويعملون به. وكما ترى، تنقسم **الفاتحة بين العبد وربّه**، وتشتمل على حمد **الله** وتمجيده والثناء عليه، والاعتقاد فى المعاد، وتوحيده تعالى وتنزيهه، والدعاء بالعمل الصالح، والتنبيه **إلى** ثلاثة أصناف من

الناس: المُنعَم عليهم، والمغضوب عليهم، والـضالين،فما أصدق أن قيل إن الفاتحـة أساس القرآن كله.



٥٨٣.﴿سورة البقرة﴾

سورة البقرة اسـمها كذلك من حادثة البـقرة التى ورد عنهـا مع مـوسى، حينما قُتل واحد من اليهود، وجهلوا القاتل فأُمروا أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت بعظمها، فأحياه الله دليلاً على قدرته تعالى. والسورة جـميعها مدنـية إلا الآيـة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (٢٨١)﴾ فإنها نزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى، وكانت أول سورة تنزل بالمدينة، وترتيبها فى المصحف الثانية، وترتيبها فى النزول بالنسبة للقرآن كله السادسة والثمانون، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، فهى أطول سورة فى القرآن، وكان نزولها فى مدد شتى، وعنايتـها بالتـشـريع شأن كل السور المدنية، وتشتـمل على معظم الأحكام فى: العقائد، والعبادات، والمعامـلات، والأخلاق، والزواج والطلاق وما يترتب عليهمـا، وتبيّن حقائق الإيمان والكفر والنفاق، وصفات المؤمنين، وبدء الخليقة، وقصة آدم وحواء،وما جرى من أهل الكتـاب وخاصـة اليهـود، لمجاورتـهم للمسلمـين، ونبّـهت إلى صفـاتهم ومكرهم وافتراءاتهم ونقضهم للعهود. وكان المسلمون فى المدينة فى بداية تكوين الدولة الإسلامية، فكان اهتمام سورة البقرة بما يرسّخ قـيامها، وشرحت منهج الله فى ذلك، وتناولت أحكام الجهاد، وشئون الأسرة، والحلال والمحرم فى النكاح، وأحكام الرضاع، ومعاملة النساء فى المحيض، وأحكـام الصيام والحج والعُـمرة، وتحـويل القبْلة، وتطرّقت إلى الربـا وحملت عليه، وحذّرت من يوم القيـامة، ومن آياتها فى ذلك قوله: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ وهى آخر ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ بتسع ليال قبل أن يتـوفاه الله، ولم يـنزل بعدها شـىء، وقيل سـبع ليـال، أو بثـلاث ليال، أو بثـلاث ساعات، وأنه قال: «اجعلوها بين آية الربا وآية الدَّيْن»، أو قال: «جاءنى جبريل فقال اجعلها على رأس مائتـين وثمانين آية»، وبنزولها انقطع الوحى. والآية وعظٌ لجمـيع الناس، وتلتها فى الترتيب آيات الدَّين والشهادة عليه فى حال الحضر والسفر. وتختتم السورة ببيان طريق الإيمان، وأن الحساب عن كل مـا نبديه ونخفيه، وأنه تعالى يغفـر لمن يشاء، وكما بدأت السورة بالخطاب إلى المؤمنين والتعريف بهم، تختتم ببيان طريق الصلاح لهم، وتعلّمهم أن يَدْعُوا ربَّهم لما فيه صلاحهم فى الدنـيا والآخرة، وأن لا يؤاخذهم بالنسيان أو الخطأ، وأن لا يحمل عليهم إصر السابقين، ولا يحمّلـهم ما لا طاقة لهم به، وأن يعفو عنهم، ويغفر

لهم ويرحمهم، وينصرهم على الكافرين. والآيات فى ذلك يقال لها **خواتيم سورة البقرة**، وقيل فيها الكثير كما قيل فى **آية الكرسى**، وهى من آياتها، وقيل فى آية الكرسى أنها ربع أو ثلث القرآن، وآيات الربا فى نهايتها كانت من أواخر ما نزل من القرآن، ولكل ذلك كانت لهذه السورة بركات وأفضال، حتى قيل فيها أنها **فسطاط القرآن وسنامُه، ولبابُه**، لما فيها من كثرة الأحكام والمواعظ، وعددّها بعضهم: **ألف أمر، وألف نهْى، وألف حُكم، وألف خبر**، حتى أن عمر بن الخطاب ـ كما قيل ـ استنفد اثنتى عشرة سنة ليتعلم فقهها، وابنه عبد الله ثمانى سنين.

فهذه إذن سورة البقرة وعظمتها، وفي هذا الموجز لهذه السورة نبّهنا إلى أهم ما بها، وعلى الله قصْد السبيل.



٥٨٤. ﴿سورة آل عمران﴾

السورة مدنية ، من السور **الطويلة**، وآياتها **مائتان**، وأطول سورة فى القرآن هى البقرة، وتليها آل عمران، وترتيبها فى المصحف **الثالثة**، وفى التنزيل المدنى هى **الثالثة** أيضاً، وفى التنزيل عموماً هى **التاسعة والثمانون**، واسم السورة مأخوذ من الآية بها: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** (٣٣) ﴾، وآل عمران هم بيت عمران والد النبىّ موسى، وهو مؤسس هذا البيت، وتنسب إليه مريم **أم عيسى**، ولمّا كانت السورة تشتمل على ستين آية تتحدث عن النصرانية، وعن مريم وابنها عيسى، وهما من سلالة عمران، سميت السورة باسم آل عمران. **والاصطفاء** من مقولات القرآن، ومعناه اختيار **الصفوة**، وآدم، ونوح، وآل إبراهيم، وآل عمران كانوا من الصفوة، ومَن جاءوا من بعدهم ممن يُدرج ضمن الصفوة، كانوا من نسل هؤلاء، كقوله تعالى: فى سورة آل عمران: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ** (٣٤)﴾، لانتقال صفات الصفوة بين الأجيال بالوراثة. وتتضمن السورة **اسم الله الأعظم**، وقيل إن الاسم ضمن آية سورة البقرة: ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** (١٦٣)﴾ ثم آية سورة آل عمران، ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** (٢)﴾، يعنى أنه فى سورتى البقرة وآل عمران، ولذا سميتا **بالزهراوين**، **والنيّرتين**، لهدايتهما القارىء لهما بما يُزهَر له من أنوارهما، عندما يُدرك معانيهما.

وتبدأ السورة بالحروف المقطّعة «آلم» (ألف لام ميم)، مثلها مثل **خمس** سور أخرى، هى بترتيب النزول: **العنكبوت، ولقمان، والسجدة، والروم، والبقرة، وآل عمران**، وهى إشارة إلى أن آيات هذا القرآن مركّبة من **الحروف الهجائية** المعروفة للناس، ولكنها آيات معجزات فى معانيها وأحكامها وأمثالها وعباراتها. والقرآن كتابٌ نزل على النبىّ ﷺ بالحقّ،

والخطاب فى السورة إليه ﷺ ، ونزوله كنزول التوارة والإنجيل الأصليين، نَزَلا بحسب المناسبات ومطلوبات الديانة، وكتب عزرا التوراة بعد وفاة موسى بنحو ثلاثمئة وخمسين عاماً، مما وعته ذاكرته عن الأحبار والروايات الشفهية؛ والأناجيل كتبها: متى، ولوقا، ومرقس، ويوحنا، بعد المسيح بنحو ستين سنة أو أكثر من ذلك بكثير، مما وعته ذاكرتهم من الروايات الشفهية؛ وأما القرآن فكان نزوله على الرسول ﷺ منجماً على عشرين سنة، وكان الصحابة يحفظونه ويكتبونه، وجمعه أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، وأصدر عثمان المصحف المعروف باسمه، واعتمد علي حفظ صحابة الرسول ﷺ الذين حضروا نزول القرآن أو تلاوة الرسول ﷺ لسوره. وفى القرآن الكثير من الأوصاف الرائعة للتوارة والإنجيل الأصليين، ولا ينبغى أن نَظن أن هذه الأوصاف تصدق على كُتب العهد القديم والجديد من كتب وأسفار اليهود والنصارى الحالية، فهذه بوّبت، وصُنّفت، وزيد عليها، وأُنقص منها، وأُوّلت معانيها، وكُتبت بحسب تأويلها وليس بحسب نزولها. والتوراة تصحيف عربى للاسم العبرى تورا Tora، وتعنى «ناموس» أو «شريعة»، فهو «كتاب الشريعة». وكذلك الإنجيل تصحيفٌ عربى للفظ اليونانى أونجليون، ومعناه «الخبر الطيب» أو بالأحرى «البشارة» فهو «كتاب البشارة». ويتميز القرآن عن كتُب اليهود والنصارى أنه لا يناقض العلوم. في سورة آل عمران تأتى الآية: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ وتسمى آية التصوير، أى تصويره تعالى للبشر فى أرحام الأمهات، وفيها الرّد على الطبائعيين الذين يجعلون الطبيعة هى الفاعلة وليس الله. وفى سورة البقرة تأتى التفرقة بين آيات القرآن المحكمات وآياته المتشابهات؛ والمحكمات: هى التي يُعرَف تأويلها ويُفهم معناها وتفسيرها، ولا التباس فيها، ولا تحتمل إلا وجهاً واحداً؛ والآيات المتشابهات: هى التى لا يعلم تأويلها إلا الله، ويتشابه معناها ويلتبس، ويحتمل وجوهاً كثيرة. وقيل القرآن كله محكم، لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۝١﴾ (هود)، والراسخون فى العلم يقبلون النوعين من الآيات، لأنهما من عند الله، ورسوخهم فى العلم هو ثبوتهم فيه، وكل ثابت راسخ، ولولا وجود أمثال هؤلاء لكان القرآن كله محكماً، وإنما كان المتشابه لحكمة أن يظهر الفضلُ فى شرحه للعلماء. وللراسخين فى العلم دعاء جميل يقول: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾، وإزاغة القلب فساده وميله عن الدين. وكان آل فرعون من الذين أزاغ الله قلوبهم، ودأبوا على الكُفر، وأهل قريش فعلوا مع النبىّ ﷺ مثلما فعل آل فرعون مع موسى،

واعتادوا الإلحاد والإعنات لـلنبيّ ﷺ، كما اعتاد آل فرعون من إعنـات الأنبياء. وفعل اليهود أكثر مما فعله كفار قريش، وفي أُحد فرحوا بما أصاب المسلمين فنزلت الآية: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ** ﴿١٢﴾ ﴾، تحذّر اليهود أن يصـيبهم ما أصاب أهل مكة في بدر، وتعظ المسلمين أن لا يُقبلوا على الدنيا ويخافوا الآخرة، وأن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها، وأن النار لا يُنجى منها إلا ترك الشهوات، وعدّدتها الآيـــة: ﴿ **النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴿١٤﴾ ﴾ والخيل المسومة الآن هى السيارات الفارهة، والأنعام والحرث: هي العقارات والعزَب. ومن دعاء المؤمنين المأثورة فى ذلك: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴿١٦﴾ ﴾، وقد سأل حبران من أحبار أهل الشام الرسول ﷺ: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله؟ فأنزل الله تعـالى على نبيّه ﷺ: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١٨﴾ ﴾، والآية دليل على فضل العـلم، لأنه تعالى قرن العلمـاء باسمه تعالى واسم ملائكته. وفـى سورة آل عمران ثلاث شـهـادات، فالتوحيد شهادة أولى، والإسلام شهادة ثانية، شهدها الله تعالى فى قوله: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴿١٩﴾ ﴾ والشهادة الثالـثة: اختلاف أهل الكتاب فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴿١٩﴾ ﴾، والآية المراد بها وفد نصارى نجران، وهى توبيخٌ لهم. وفى محاجاتهم نزلت: ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ** ﴿٢٠﴾ ﴾، والمحاجـاة هي الجدال بالأقاويل المزورة والمغالطات، والأميون هم من لا كتاب لهم. وعن اليهود والـنصارى وتعنّتهم مع المسلمين نزلت الآية: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٢١﴾ ﴾، وبنو إسرائيل كما يجيء فى سفر الملوك الثـالث من أسفارهم، فى الفصل الثامن عشر، قتلوا أربعمائة وخمسين نبياً فى يوم واحد بالسيف، قتلهم إيليا، ويُروَى أن الأنبياء كانوا كُثراً عندهم بسبب عنادهم وجحـودهم، وكلما زاد عدد المرضى والأمـراض احتاج الأمر إلى زيادة الأطبـاء. وأنبياء بنى إسرائيل، كـانوا من نوع العرّافين، وفى عـهد الملك آحاب وحده كان هناك أربعمائة نبيّ، ومن القتلة المشهورين للأنبياء: إيزابيل، وكانوا إن لم يقتلوهم يسجنونهم، وقد سجن آحاب النبيّ ميخا. ومن مزاعم أهل الكتاب أنهم «أبناء الله وأحباؤه»، وأنهم لن يُعاقَبوا لذلك إلا أياماً معدودات، فنزلت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ** ﴿٢٥﴾ ﴾، والخطاب للنبيّ ﷺ وأمّته على جهة التـوقيف والتعجُّب. وكان وفـد

نجران يستدل بإحياء عيسى للموتى بأنه الله، فأنزل الله الخطاب على النبيّ ﷺ يقول: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾**، إخباراً له ولأمة الإسلام: بأنه تعالى المنفرد بالإحياء، فلو كان عيسى إلهاً، لكان له هذا مع نفسه على الأقل، أو مع قريبه النبيّ يحيى، فلا هو استطاع أن ينجّي نفسه، ولا استطاع أن ينجّي يحيى. وفي السورة أنزل الله تعالى أمره أن لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولا يتخذوا بطانة منهم، وأوضح أن اتباع النبيّ ﷺ هم اتباعٌ له تعالى، فمن كان يحب الله فليحب نبيّه ﷺ، وليُطعه.

وكان وفد **نصارى نجران** ستين راكباً، فيهم **أربعة عشر** من أشرافهم، **ثلاثةٌ** منهم كانوا من أكابرهم، قيل أن أسماءهم: **«عبد المسيح»** ـ وكان أميرهم وصاحب الرأي فيهم، و**«الأيهم»** ـ وكان صاحب مجتمعهم، **«وأبو حارثة بن علقمة»** أسقفهم وعالمهم، وتكلم الثلاثة مع النبيّ ﷺ إثر صلاته العصر، واستمروا معه يناظرونه أياماً، فمرة يقولون عيسى هو **«الله»**، لأنه كان يحيي الموتى، ومرة يقولون **«ابن الله»** لأنه لم يُعرف أن له أباً من البشر، ومرة يقولون هو **«ثالث ثلاثة»** حيث أن الله عندما يتكلم عن نفسه يقول: **«فعلنا وقلنا»**، ولو كان واحداً لقال: **«فعلتُ وقلتُ»**، فقال لهم الرسول ﷺ: **«ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا ويشبه أباه»**؟ قالوا: بلى. قال: **«ألستم تعلمون أن ربّنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك»**؟ قالوا: لا. قال: **«ألستم تعلمون أن الله لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم»**؟ قالوا: لا. قال: **«ألستم تعلمون أن ربّنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يُحدث الحدَث، وأن عيسى كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب، ويُحدث الحدث»**؟ قالوا: بلى. فقال: **«فكيف يكون كما زعمتم»**؟ فسكتوا، وأبوا إلا الجحود. فكان أن دعاهم الرسول ﷺ إلى **المباهلة أو الملاعنة**، فيجتمعون ويقولون: لعنة الله على الظالم منا». **فأول حوار بين الأديان**، مما يقولونه الآن سبق إليه الإسلام والقرآن.

وقيل **المباهلة** من **الابتهال** إلى الله لإظهار الحق، والدعاء أن يلعن الكاذب من الطرفين المتحاجّين المتباهلين؛ وقيل إن المباهلة، من البهل أي اللعن، والآية: **﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾** من أعلام نبوة محمد ﷺ، لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها، بعد أن أعلمهم كبيرهم أنهم إن باهلوه كان النبيّ ﷺ هو الفائز، فتركوا المباهلة، فدعاهم إلى **«كلمة سواء بينهم»**: **﴿أَلَّا**

نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ (٦٤) ﴾، والكلمة السواء: هي الكلمة العادلة المنصفة؛ فرفضوا دعوته، وتركوا المكان منصرفين إلى بلادهم، يعبدون عيسى والقديسيين والرهبان، على أن لا يقولوا لا إله إلا الله!

وتعرّضت سورة آل عمران لقصة مريم، وكيف نذرتها أمها لله، وكفلها زكريا، وتقبّلها ربُّها بقبول حسن، وكيف دعا زكريا ربّه أن يرزقه الولد، وكانت ولادة يحيى معجزة كولادة عيسى، فعيسى وُلد من غير أب، ويحيى وُلد وأبوه كهل وأمه عاقر. ومريم وزكريا ويحيى من المصطفين، أي المختارين، واصطُفيت مريم على نساء العالمين لولادة عيسى، وطهّرها الله استقبالاً لهذا الحدث الجليل، وكانت من القانتات والمصلّيات، وسَرْدُ القرآن لقصتها بما لم تقل به الأناجيل، دليلٌ على صدق نزول القرآن من عند الله، فمن أين كان يعلم النبيّ ﷺ بهذه التفاصيل إن لم يكن راويها هو الله تعالى، العالِم بكل شيء حتى خفايا الصدور؟ وعيسى تكلّم في المهد إعجازاً لقومه وإثباتاً لنبوته، ولما شبّ وكبر وتهيأ للرسالة دعا بني إسرائيل ليؤمنوا بالله، وكانت آياته لهم ست آيات: أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله؛ ويُبرئ الأكمه - وهو الأعمى بالميلاد؛ والأبرص؛ ويُحيي الموتى بإذن الله؛ ويُنبؤهم بما يأكلون؛ وبما يدّخرون في بيوتهم. واختار عيسى لنفسه أنصاراً سمّاهم الحواريين، وكانوا اثني عشر؛ والحواري: هو التلميذ الذي يتلقى العلم على مُعلّم يعلمه بطريقة السؤال والجواب، وكانت هذه هي طريقة المسيح ومنهجه في الدعوة. وقوله تعالى في عيسى: ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ استحضارٌ لما سيجري لعيسى، ووعدٌ منه تعالى بنصرته ونصرة أتباعه - وهم النصارى - على اليهود؛ ومعنى «متوفيك» مميتك ممات نوم، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (٦٠)** ﴾ (الأنعام) أي ينيمكم، والنوم أخو الموت مع الفارق، وعيسى توفّاه الله، لأنه رفعه في منامه من غير موت. وكما سبق فإنّ مَثَلَ عيسى كَمَثَل آدم، وعيسى لم يكن شيئاً، وكان عدماً، فجرت المشيئة بخَلْقه، فكان بكُنْ، وهي نفخة جبريل في فرج مريم، أي بشقّ ثوبها، وآدم كان تراباً فصنعه الله تعالى من الطين، ونُفخ فيه بكُنْ، وقصتا آدم والمسيح من القصص الدالة على طلاقة قدرته تعالى، فآدم ليس من أب ولا أم، وحواء من أب بلا أم، والمسيح من أم بلا أب، والإنسان عموماً من أب وأم!

ومثل هذه المحاجاة مع نصارى نجران كانت محاجاته ﷺ مع اليهود حول إبراهيم، فإنه لمّا نزلت الآيات عن أن ملّة إبراهيم هي ملة المسلمين، قال اليهود إنه انتحل إبراهيم

لنفسه، وتحاجّوا معه في إبراهيم، فنزلت: ﴿ **لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٦٥﴾ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴿٦٦﴾ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٦٧﴾ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٦٨﴾ ﴾ وفي هذه الآيات «دليل المنع من الجدل لمن لا علم له»، والحظر على من لا تحقيق عنده، وتنزيه النبيّ ﷺ من دعاويهم الكاذبة، وأنه على الحنيفية الإسلامية، ولم يكن مشركاً. **والحنيف**: هو المائل عن الأديان الضالة إلى الحق، وسُمّي إبراهيم حنيفاً، لأنه حَنَف إلى دين الله وهو الإسلام. **والمسلم** في اللغة: المتذلل لأمر الله تعالى، المنطاع له وكيف يمكن أن ينتسب إبراهيم إلى **اليهود**، أو أن ينتسبوا له، وأخلاقهم في الدرك الأسفل ولا إيمان لهم، فالأولى بإبراهيم هم المسلمون، وفي اليهود طائفة تودّ لو تضل الناس، وتُلبس الحق بالباطل، وتكتم الحق، ولا يُؤمَنون على شيء، ويحللون أن يسرقوا ويخدعوا ويحتالوا على من ليس مِن دينهم، ويقولون على الله الكذب، ويلوون ألسنتهم بالكتاب ليحسب السامع أنه من الكتاب، ويحرّفون كلامه، ويَعدلون به عن قصده. **والنصارى** مثل اليهود، وما كان من المعقول أن يؤتى الله المسيح الحُكم والنبوة ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله؟! والله قد أخذ الميثاق على النبيين، وصادق الجميع على **الإسلام** ديناً لله؛ والمسلمون شهادتهم: الإيمان بالله، وما أُنزل على محمد، وعلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا يفرّقون بين أحد منهم، والله لا يقبل غير الإسلام، ولا يهدي قوما كفروا بعد إيمانهم، إلا من تاب بعد ذلك وأصلح، ومحك الإيمان الحقيقي أن ينفق المؤمن في سبيل الله مما يحب من المال ولقد تأوّل اليهود وحرّفوا في التوارة، منهم وحرّموا أطعمة محللة، بدعوى أن **يعقوب** حرّمها، ويعقوب كان قبل التوارة؟! والمسلمون على اتباع مِلّة إبراهيم، وهي **الحنيفية السمحة**، وليس ملة اليهود المتعنتة المُضيّقة على الناس. وإبراهيم كان على الإسلام، وهو الذي بنى **الكعبة**، ومن الحرم **مقام إبراهيم**، ومَن دخله كان آمناً، **والحج** منذ إبراهيم **قد فُرض** على المستطيع؛ والمسلمون مطالبون بالتقوى، وأن **يعتصموا** بحبل الله، وأن لا يتفرّقوا، وأن يكون منهم نفرٌ يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، **وأمة الإسلام** لهذا كانت **خير أمة** أُخرجت للناس، ولن يضرهم أهل الكتاب. واليهود ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة حيثما ذهبوا وحلّوا، ويكنون البُغض للإسلام والمسلمين، ويفرحون كلما نزل بهم بلاء كما حدث في **أُحد**؛ والصبر

أليق بالمسلمين، وأن يتقوا الله من فورهم، ومن تقوى الله أن يتركوا الربا فهو مرض اليهود، وأن ينفقوا فى السرّاء والضرّاء، لأن الله يحب المحسنين. وعلامة إيمان المؤمنين أن لا يفعلوا الفاحشة، ويستغفروا لذنوبهم. وهذا القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ هو بيان للناس، وهدى، وموعظة للمتقين، وما أصاب المسلمين فى أحد لا ينبغى أن يفت فى عضدهم، والواجب عليهم أن يظلوا على قتال عدوهم ومجاهدتهم، ولهم العاقبة بالنصر والظفر. وما محمد الذى أشاعوا عنه فى أحد أنه قتل إلا رسول كالرسُل، فهل إذا مات أو قُتل ينقلب المسلمون على أعقابهم؟ وما يموت أحَد إلا بإذن الله، وكل نفس لها أجَلُها، والأنبياء يقاتل معهم الربّيون حتى الموت، والربّى نسبةٌ إلى الربّ، وهو المتألّه العابد لله، ولو أطاع الذين آمنوا الكفّار لردّوهم على أعقابهم. ولقد عفا الله عن المسلمين فيما جرى منهم فى أُحد، حينما أصعدوا فى الوادى فراراً، والرسول ﷺ دعاهم ليثبتوا ويقاتلوا، ثم من بعد ذلك رفق بمن تولى منهم، وعفا عنهم واستغفر لهم، ولم يعنّفهم الله، وأمره أن يشاورهم فى الأمر. وفى الشورى بركة، وما ندم من استشار؛ وليس للنبىّ ﷺ أن يسمح بالغلول بين المؤمنين، وفى الحديث: «لا إغلال ولا إسلال» أى لا خيانة ولا سرقة، ورسول الله ﷺ كان لعفوه وسماحته، مِنّةً من الله للمسلمين، فهو يتلو عليهم آيات الله، ويعلّمهم القرآن والحكمة، ولم تكن المصائب التى نزلت بالمسلمين بسببه، ولا من عند الله. ولكنها من عند أنفسهم، ولم تكن الحرب فى أُحد إلا بقضاء الله وقدره، والذين قُتلوا فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهّم يرزقون، ومن أصيب من المؤمنين لم يهن مع ذلك، وخرجوا بعد أُحد فى غزوة حمراء الأسد، ولم يخشوا جموع الكفار بل زادتهم إيماناً، والذين يسارعون فى الكفر لن يضرّوا الله، وهو يُملى لهم ليزدادوا كفراً، وما كان ليدع الناس يزعمون أنهم مؤمنون دون أن يُمتحنوا، ومن يبخل بماله عن الإنفاق فى سبيل الله يطوّق به يوم القيامة. ومن قال إن الله فقيرٌ كُتب له ما قال ويُحاسب عليه، وهؤلاء هم اليهود قتلة الأنبياء، ويُوَفّون أجورهم يوم القيامة. وتُذيَّل السورة بخطاب إلى النبىّ ﷺ وأُمته، بأنهم سيُختبرون ويُمتحنون فى أموالهم بالمصائب والأرزاء، وفى أنفسهم بالموت والقتل، ويصاحب ذلك توبيخ لليهود أنهم أنكروا النبىّ ﷺ، وللمنافقين أنهم يفرحون بما عندهم، ويحبون أن يُحمدوا على ما لم يفعلوا، للذين قالوا إن الله فقير وهم الأغنياء، أنه تعالى الغنى الذى له ملك السموات والأرض. وتنتهى السورة بعشر آيات هى خواتيم آل عمران كخواتيم سورة البقرة، وثبت أن الرسول ﷺ كان يقرأها إذا قام من الليل لتهجّده، وفيها الدعاء: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أنصار (١٩٢) ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار (١٩٣) ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١٩٤) ﴾، ثم تختم السورة بوصية جامعة: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢٠٠)** ﴾، فيها الظهور فى الدنيا على الأعداء، والفوز بنعيم الآخرة، والحض على الصبر على الطاعات، وعن الشهوات، ومصابرة الأعداء، والمرابطة، وهى الجهاد وقت الحرب ووقت السلم، فوقت الحرب بالقتال، ووقت السلم بمداومة الطاعات، وفى الوقتين معاً بالملازمة فى سبيل الله، ولا جهاد، ولا صبر ومصابرة، من غير تقوى، وبذلك وحده يتحقق للمسلم الرجاء والفلاح والبقاء. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٥٨٥. ﴿سورة النساء﴾ (٤)

نزلت سورة النساء بعد سورة **الفرقان بسبعة أشهر**، وترتيبها في المصحف الرابعة، وفى التنزيل المدنى **السادسة**، وفى التنزيل عموماً **الثانية والتسعون**، وآياتها **مائة وست وسبعون** آية، وهى من **السور الطوال**، وكان نزولها بالمدينة، وقيل إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في **عثمان بن طلحة** حاجب البيت، وهى قوله: ﴿**الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٥٨)**﴾ . وقيل إن سورة النساء نزلت عند هجرة النبيّ ﷺ من مكة إلى المدينة. وتبدأ السورة بقوله تعالى: : «**يا أيها الناس**»؛ وقيل إن قوله: «**يا أيها الناس**» إنما هو مكى، بينما «**يا أيها الذين آمنو**» مدنى، **وصدر السورة** إذن يشبه أن يكون مكياً، بينما ما نزل بعد الهجرة هو مدنى، والصحيح أن السورة مكية جميعها، وفى صحيح البخارى عن **عائشة** رضي الله عنها أنها قالت: **ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله** ﷺ» تعنى أنه كان قد بَنَى بها، ولا خلاف أنه بنى بها ـ أى تزوجها ـ بالمدينة. ثم إن أحكام السورة جميعها مدنية لا شك فيها ولا خلاف. وليس صحيحاً أن كل «**يا أيها الناس**» مكى، وكل «**يا أيها الذين آمنوا**» مدنى، لأن بعض آيات القرآن وفيها «يا أيها الناس» مدنية ونزلت بعد الهجرة، والآيات المكية التى بداياتها «**يا أيها الناس**» عددها **عشر** آيات ، بينما الآيات المدنية التى تبدأ هذه البداية عددها **أربع عشرة** آية، فكأن «**يا أيها الناس**» مدنية أكثر منها مكية، على عكس ما يقولون.

وسميت **سورة النساء** بهذا الاسم لكثرة ما ورد فيها من الأحكام المتعلقة **بالنساء**، وهو ما لم يحدث في سورة أخرى إلا سورة **الطلاق** بدرجة أقل، فسميت لذلك سورة النساء

«بسورة النساء الكبرى» في مقابل «سورة النساء الصغرى» وهي سورة الطلاق، ومن ذلك أنها أوصت بالبنات اليتيمات، والمحافظة على ميراثهن، وأن لا يتزوجهن من كن تحت وصايته طمعاً فى أموالهن، وله أن يتزوج من غيرهن مثنى وثلاث ورباع، والزواج عموماً من امرأة واحدة أفضل ، فمن العسير أن يعدل بين نسائه المتزوج من أكثر من واحدة. وللنساء نصيب فى ميراث الوالدين، وحظ الذكر من الميراث مثل حظ الأنثيين، ونصيب النساء عموماً بحسب موقفهن من المتوفى أو المتوفاة؛ وإذا المرأة أتت الفاحشة مع المرأة يُستشهد عليهما وتُحبسان فى البيوت إلى ماشاء الله، إلا أن يأتى أى واحدة منهما من يقبل الزواج بها؛ وإذا مات الرجل لا يحلّ أن تؤول امرأته بالإرث من واحد لآخر، وكانوا فى الجاهلية إذا مات الرجل فأولياؤه أحقّ بامرأته، إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوّجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج، ولا يحلّ منع الأرملة من الزواج، أو التضييق عليها لتضييع حقّها فى الصداق، إلا فى حال إتيانها الفاحشة، ولا تكون معاشرة النساء إلا بالمعروف، فإن كرهها زوجها فعسى أن يكره شيئاً ويجعل الله له فيه الخير الكثير، وفى الحديث «لايَفْرُك (أى لا يبغض) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضى منها آخر»، وأحرى بمن يريد الطلاق أن لا يطالب بإرجاع ما دفعه من مهر ولو كان قنطاراً، وإستحلاله بهتان وإثم، وكيف يستبيح مهراً أعطاه إياها وقد استمتع بها بالمعاشرة الزوجية، وكان بينهما ميثاق الزوجية الغليظ، أى عقد النكاح؟ وفى الحديث: «اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» ؛ ويقبح من المسلم أن يتزوج مطلقة أبيه أو أرملته، وهو فُحش ممقوت وساء سبيلاً، ومثل ذلك أن يتزوج الابن من أمه، أو جدتّه، أو ابنته، أوابنة ابنه، أو أخته، أو عمته، أو أخت جدّه أو جدته، أو بنت أخيه أو أخته، فهؤلاء جميعاً محرّمات بالنسب، وهن: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت. ويحرم الزواج من الأم، أو الأخت من الرضاع؛ فى السُّنّة المحرّمات من الرضاع سبع كالمحرّمات من النسب، وفى الحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»؛ والمحرّمات بالمصاهرة هن : أم الزوجة سواء دخل بابنتها أو لم يدخل طالما أنه عقد عليها؛ وبنت الزوجة التى يربيها فى كنفه، فإن لم يكن قد دخل بالأم فلا جناح عليه إذا تزوج ابنتها. وتحرم زوجة الابن من الصُّلب؛ ويحرم الجمع بين الأختين فى النكاح، وتحرم النساء المتزوجات؛ كما تحرم النساء الكوافر؛ والزواج لا يجوز إلا من الحرائر غير البغايا؛ والصداق فريضة، وللزوجة أن تهب بعضه لزوجها أو تسقطه عنه؛ وربما الزوجة الفقيرة خير من الزوجة الغنية، وربما الزوج الفقير خير من الزوج

الغنى، وقد فهم الشيعة من قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ(٢٤)﴾ أن **نكاح المتعة جائز**، وهو ما لا تتضمنه الآية وتخالفه السنة. وفى الرواية أن أم سلمة سألت النبىّ ﷺ قالت: يارسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ(٣٢)﴾، يعنى للنساء وسعهن وقدراتهن، وللرجال وسعهم وقدراتهم، وكلٌّ له جزاءٌ على عمله، ولكلّ نصيبه المقدور من الميراث، بحسب التزاماته فى الحياة وبالنسبة للأسرة، فالرجال هم القائمون على النساء، ويقومون بالإنفاق عليهن وعلى الأسرة كلها، وينهضون برعايتهن، بما فضل الله الرجال عموماً على النساء، من العزم والحزم والقوة العضوية والعقلية والبدنية، وبما خصّهم الله من الكسب، فكان عليهم لذلك الإنفاق، وفى مقابل ذلك ينبغى على الزوجة أن يُعرف عنها الصلاح، **والمرأة الصالحة هى الطيّعة** التى لا تعصى ربّها، وتتّقى الله فى زوجها وأولادها، وتصلّى فرضها، وتحفظ غيبة زوجها، وتصون أمواله عن التبذير، ولا تفشى له سراً. والنقيض للصالحة هى **المرأة الناشز**، وهى العاصية المتمردة، والمتكبرة المتعالية على طاعة زوجها، وعليه إزاءها أن يعظها، ويهجرها فى المضجع، يعنى أن لا يأتيها، فإن لم ترتدع فهذه امرأة من السِفْلة، ولا يجدى معها أن يخاطب عقلها، ولا أن يستنفر ذوقها وحسّها، وقد لا يملك نفسه وينبو لفظه أو تمتد إليها يده بالضرب، وقد تخاف من لا تستحى، وقد تعود إلى الطاعة، وعلى الزوج حينئذ أن يثوب إلى رشده، ويعاملها بالحسنى أو حتى بالمعروف، فالعقوبات تتراتب، ويحذَّر أن ينتشى الزوج وقد انتصر عليها فيزداد صلفاً، والله ولىّ المستضعف، وينتقم للزوجة إذا حاقها الظلم، فإذا ساءت الأمور أكثر فالأولى **الاحتكام** إلى اثنين من أهلها وأهله، ممن يُعرف عنهما العدل وعدم الانحياز، فإن أراد الزوجان إصلاح ذات البين بينهما، يوفق الله بينهما، بأن ينزعا إلى المودة، ويتراحما فيما بينهما. وذلك ما أوصى به الله بشأن النساء، وكان المسلمون قد استفتوا النبىّ ﷺ فيهن، فنزلت ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ(١٢٧)﴾، يعنى أن أحكامه تعالى الخاصة بالنساء موجودة فى القرآن يتلى عليكم. وقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ(١٢٧)﴾ هو الذى أعطى السورة اسمها «سورة النساء»، **والنشوز قد يكون فى الرجال كما هو فى النساء، والرجل الناشز هو المترفّع** على زوجته والمُعرِض عنها عن كُره لها، ربما لدمامتها، أو لكبر سنها، أو لفقرها، فلا حرج أن يصلح الحكمان بينهما صلحاً، ويعقدا اتفاقاً تستديم به المرأة مودة زوجها وصُحبته. وروى أن عائشة قالت فى الآية: **هذا الرجل يكون له امرأتان، إحداهما قد عجزت، أو هى دميمة وهو**

لا يحبها، فتقول:لا تطلقني، وأنت في حلٍّ من شأني»؛ والصلح خيرٌ من الفراق، والنفوس مجبولة على الشُّح. وهو شدة البخل، فالمرأة قد لا تفرط في حقها من النفقة أو في الزوجية والبيتوتة، والرجل قد لا يرضى أن يمسكها وهو غير راغب فيها، أو أن يعطيها سؤلها من النفقة، وأن يقسم لها، والله لا يرضى الظلم من أيهما، وحُسن معاملة النساء من الإيمان. ومن المستحيل أن يعدل الذى يتزوج بأكثر من واحدة، ولا أن يسوى بينهن في المحبة والأنس، رغم حرصه على العدل والمساواة، لأن المحبة تتنزل من عند الله، وليس بوسع أيناً أن يدفعها عنه طالما استبدت بالنفس وملكت القلب، والمطلوب فى هذه الحالة أن لايميل متعدّد الزوجات كل الميل، وأن لا يذر إحدى نسائه كالمعلّقة، لا هو يتقى الله فيها، ولاهو يسرّحها، وكأنها معلّقة بين السماء والأرض، ومن كان هذا حاله فعليه أن يصلح ما أفسد، وأن يستمسك بالعدل، وإن أصر الزوج والزوجة على الفراق فإن الله يغنى كلاً من سعته. فهذا ما تعرّضت له السورة من حقوق النساء واليتيمات خاصة، فصانت للنساء كرامتهن، وحفظت لهن مكانتهن، ودعت إلى إنصافهن.

والموضوع الثانى مما تعرضت له السورة هو أحكام المواريث، فكما أنها تعرضت لأحكام الأسرة المسلمة الصالحة، فإنها تعرّضت لأحكام المجتمع المسلم الصالح، ولعل قضية الميراث هى الصخرة الكأداء أمام إقامة مجتمع إنسانى مترابط ومتحاب، ومن ذلك أن الوارث إن كان سفيهاً وجب أن لا يُسلّم إليه ميراثه، بل يُرزَق فيما يؤول إليه من أبويه أو من غيرهما، وكذلك اليتامى حتى يبلغوا الرشد. وحالات الميراث كثيرة كأن يكون الورثة من الأناث فقط، وللأبوين نصيب، وللزوجة نصيب من مال زوجها، وللزوج نصيب من مال زوجته، وإذا كان لها أو له ولدٌ اختلف هذا النصيب، والرجل الكلالة يرثه أقاربه الأقربون، لهم أنصبة معلومة. وهذه الحدود بينّها الله ليتحقق بها الإحسان والتكافل والتراحم بين الناس، وليتناصحوا بها ويتسامحوا. ومن الوصايا فى ذلك: لا يبدّلوا الخبيث بالطيب؛ ولا يأكلوا أموال اليتامى إسرافاً وبداراً - يعنى يبكّروا إلى إنفاقها من قبل أن يطالب الأوصياء بها، وأن يَرزُقوا أولى القربى واليتامى والمساكين إذا حضروا القسمة فى الميراث، وأن تكون وصية الميت على رأس ما يُستمع إليه ويؤخذ به عند تقسيم التركة، والديون ضمن الوصية؛ والله تعالى يقبل التوبة لمن يصنع السوء بجهالة؛ ويحرّم أن تؤكل أموال الناس بالباطل، وأن تُؤتى الكبائر، والكبائر كما قيل سبع، وهى الذنوب المختومة بالنار أو اللعن أو الغضب، وقيل هى سبعمائة أقرب منها إلى السبع، ولا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. ومن عبادة الله: الإحسان إلى الوالدين، وإلى ذى القربى

واليتامى والمساكين، وإلى الجار وابن السبيل. **والبُخل** من أرذل الرذائل، وكذلك الإنفاق رياء الناس. وتبطل **صلاة السكران والجُنُب** إلا أن يكون عابر سبيل، وإذا لم يوجد الماء يتبدّل الوضوء بالتيمم. والحكم بين الناس لايكون إلا بالعدل. **والحاكمية** أبداً لله ولرسوله - أى للكتاب **والسُنّة**. **والولاية** للمؤمنين وليست للمنافقين أو لأهل الكتاب، ولا يُستنصر هؤلاء، ويُقاتَلون إذا قاتلوا المسلمين أو إذا لم يعتزلوهم، فإذا سالموهم فليس عليهم قتالهم، **ولا يقتل المؤمن مؤمناً إلا خطأ**، وعليه **الفدية** لأهله أو صيام شهرين متتابعين توبة من الله. ولا يُتّهم المؤمنون بالكفر جزافاً، وليس **القاعد** بلا سبب قهرى، **كالمجاهد**، ولا **كالمهاجر** فى سبيل الله؛ وفى السفر **يجوز القصر فى الصلاة**؛ وتُصلّى **صلاة الخوف** جماعة بعد جماعة، والذين يبيّتون للمسلمين ما لا يرضى الله أولئك هم الخائنون، فلا يُدافَع عنهم، ولو وجدوا من يجادل عنهم فى الدنيا، فمن يجادل عنهم فى الآخرة، ومِثْلهم الذين يفعلون الخطيئة ويرمون بها الأبرياء. ومع الرسول ﷺ لا مشاقة، ولا **نجوى** إلا إذا كانت لخير، والذين يعبدون الأصنام ويدعونها بأسماء الإناث ، إنما يدعون إلى **عبادة الشيطان**؛ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله واتبّع ملّة إبراهيم حنيفاً واتخذه خليلاً، ومن كان خليل إبراهيم **فالله** خليله، لأنه تعالى خليل ابراهيم. والمؤمن **ولىّ** المؤمن، ولا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن الأدب أن يردّ المسلم السلام بأحسن منه، وأن يحى الناس إذا حيوه؛ والمنافق في الدرك الأسفل من النار، والله لايحب الجهر بالسوء فى القول إلا من ظلم. فهذه جميعاً القضايا التى تناولتها سورة النساء وبيّنتها أحسن البيان. فلما انتهت مما يحقق **الأمن الداخلى**، انتقلت إلى ما يحقق **الأمن الخارجى**، فنبّهت إلى خطورة **أهل الكتاب** وما يدعون إليه، وبخاصة **اليهود**، وحذرت منهم، وبيّنت ضلالات النصارى، وغلوهم فى المسيح، وأختراعهم **للتثليث** حتى أصبحوا كالمشركين.

واليهود حرّفوا كتابهم، ولم يعملوا بما فيه، وطعنوا فى الدين، وزكوّا أنفسهم فقالوا إنهم أبناء الله وأحباؤه، وفعل النصارى مثلهم، واليهود عبدوا **الجبت والطاغوت - يعنى** المال والهوى، فإذا تحاكموا لا يتحاكمون إلى كتابهم وإنما للمال وللطواغيت منهم - أى أصحاب الأهواء من قومهم، وقد سألوا النبىّ ﷺ آية، وليس ذلك بمستغرب منهم وهم الذين سألوا موسى أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة، ولمّا امتنعوا عن قبول شريعة التوراة، رفع فوقهم الطور، وأمرهم أن يدخلوا بيت المقدس مطأطئين الرءوس فخالفوا، ودخلوا يزحفون على مقاعدهم، وشدّد عليهم أن لا يَعْدُوا فى السبت، وأخذ منهم الميثاق على ذلك، فنقضوه وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، واعتذروا بأن قلوبهم غُلف، واتهموا مريم بهتاناً، وزعموا أنهم قتلوا المسيح، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم، ورفعه الله إليه؛ وحرّموا الطيّبات، وتعاملوا بالربا، وأكلوا أموال الناس.

والحـــرب قد تُفَرض على المسلمين، وبخاصة مـن اليهود والنصارى، فإذا ابتلوا بها، فليخرجوا جميعاً إلى الجهاد سَرية بعد سرية، أو مجتمعين، والمنافقون دائماً يتخلفون، ويحمـدون حظّهم أن تخلّفوا إذا ظهـر أن المسلمين مـغلوبون، فلو انتصـروا ندموا أن لم يكونوا معـهم. والبعض قد يتـخلّف عن القتال خـشية الناس، والموت واحـد، وإذا حان الأجل لا فرار ولا منجاة، والموت يلحق الناس ولو تحصّنوا منه في البروج، وكل مسلم إذن عليه أن يقاتل ولو وحده، وعليه أن يحرّض المؤمنين على القتال، عسى أن يكفّ القتال بأس الذين كفروا.

وبعد، فـهذه خـلاصةٌ للسـورة، وما أشبه البارحة باليـوم، ومايزال اليهود والنصارى يكيدون للإسلام، فعلى المسلمـين أن يكونوا مُستَنفرين دوماً، «فالحـرب الدائمة» تبـدو من قضاء الله وقدره فيهم. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٥٨٦. ﴿سورة المائدة﴾

السورة مدنية بالإجماع، ومن السور الطويلة، وروى أنها نزلت منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، ومنها ما نزل فى حجة الوداع، ومنها ما نزل عام الفتح، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴿٢﴾﴾، وكان نزولها بعد سورة الفتح، وآياتها مائة آية وعشرون، وترتيبها فى المصحف الخامسة، وفى التنزيل المدنى هى السادسة والعشرون، وفى مجمل التنزيل هى الثانية عشر بعد المائة، وسميت «سورة المائدة» لما تضمنته من قصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسي، قالوا: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾، وقـــالوا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾، فدعا عيسى ربّه، قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾، فلما كانت هذه القـصة من أعجب ما ذُكر في سورة المائدة، سميت السورة بها، وقال تعالى: ﴿مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾، قيل: إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: اليـهود بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (البقرة)، وآل فرعون بقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ (غافر٤٦)، والكفرة من أصحاب المائدة.

وقيل فى سورة المائدة: أنهـا تتضمن تسع عشـرة فريضة ليست فى غيـرها، فقد جاء

فيها : تحريم **المنخنقة** : وهى البهيمة التى تموت خنقاً؛ **والموقوذة** : وهى البهيمة المقتولة من غير تذكية؛ **والمتردية** : التى تسقط من العلو فتموت؛ **والنطيحة**: وهى الشاة التى تنطحها شاة أخرى فتموت قبل أن تُذكّى؛ **وما أكل السبع** : بقايا ما افترسه ذو ناب وأظفار كالأسد والنمر والذئب إلخ؛ **وما ذُبِح على النُّصُب** : أى ما ذُبِح على حجارة الكعبة؛ **وأن يستقسموا بالأزلام** : **والأزلام** هى القداح تقسم لهم أرزاقهم؛ **وما علّموا من الجوارح مكلّبين** : وذلك؛ فى الصيد بالكلاب والصقور؛ **وطعام الذين أوتوا الكتاب؛ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب؛ والطهور** عند القيام للصلاة؛ وحُرِّمت **السرقة** سواء قام بها سارق أو سارقة؛ **وقتل الصيد فى الإحرام؛ والبحيرة**: وهى البهيمة المقصورة على الطواغيت؛ **والسائبة** : وهى الناقة تُخلّى لا قيد عليها ولا راعى لها؛ **والوصيلة** من الغنم: وهى التى تلد سبعة أبطن فإن كان السابع ذكراً وصلوها به فلم تذبح لمكانها؛ **والحام من الإبل**، وهو الذى انقضى ضرابه؛ **والشهادة على وصية من تحضره الوفاة**؛ فهذه ثمانى عشرة فريضة ، **والتاسعة عشرة** هى الأذان، لأنه لا ذكر للأذان **إلا فى هذه السورة** ، وأما ما ورد فى سورة الجمعة فهو مخصوص بالجمعة. وروى أن النبىّ ﷺ قرأ سورة المائدة فى **حجة الوداع** وقال : «**يا أيها الناس - إن سورة المائدة من آخر ما نزل، فأحلّوا حلالها، وحرّموا حرامها**».

والآية الأولى من سورة المائدة من أعجب القرآن، فقد تضمنت خمسة أحكام : فدعت إلى الإيمان، وأمرت بالوفاء؛ ونهت عن **النكث**، وحللت تحليلاً عاماً، واستثنت استثناءً بعد استثناء، وأخبرت عن الإحرام فقالت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ**﴾، ثم تطرّقت إلى قدرته تعالى فى خمس كلمات قالت: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** ①﴾(المائدة)، وكل ذلك من خلال أقل من سطرين اثنين، وجاءا فى شكل بيان للناس من الله ورسوله. والسورة عموماً تناولت موضوعات شتى، منها **أحكام العقود والوفاء بها؛ وأحكام الذبائح، وتحليل الأنعام**: وهى الإبل والبقر والغنم؛ **وتحليل الصيد** فى الإحلال دون الإحرام، وما لم يكن صيداً فهو حلال فى الحالين؛ **وأن لا يحلّوا شعائر الله، والشعيرة** هى البَدنَة التى تُهدَى، **وإشعارها** أن يجز سنامها حتى يسيل منه الدم فيُعلم أنها هَدْى؛ **ولا الهدى**: ما يُهدَى إلى **بيت الله** من ناقة أو بقرة، أو شاة؛ **ولا القلائد**: وهى البهائم المعلّمة أنها لله؛ **وتحريم ما لم يُذكّى** ، أى ما لم يَسِل منه الدم عند الذبح؛ ويشمل التحريم: **الميتة ولحم الخنزير والدم، وما أُهِلّ لغير الله**.
وفى السورة إعلامٌ **بالحلال من الطعام** : وهو **الطيّبات، والصيد** بعد ذكر اسم **الله** عليه؛ **وطعام الكتابيين، ونكاح الكتابيات**. وفى السورة الإخبار بصحيح الوضوء والغُسل والتيمم؛

والتزام العدل بين الناس، والاستمساك بميثاقه. وتحدثت السورة عن اليهود، فذكرت فيهم نقضهم لميثاقهم مع ربّهم، فاستحقوا اللعن، وقست قلوبهم، فحرّفوا التوراة وأوّلوها، وصرفوها إلى غير معناها، ونسوا ما ذكّروا به، وأكلوا السّحت، أى الحرام، واتخذو الخيانة ديدنهم، واستمعوا للأكاذيب والتشنيعات وروّجوها، وأوقعوا بين الناس؛ وتحدثت السورة عن النصارى: فذكرت نسيانهم لميثاقهم مع ربّهم. وانقسامهم فرقاً وطوائف بينها العداوة والبغضاء. ولقد كفروا إذا قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، ولو كان إلهاً لقدر أن يدفع عن نفسه ما نزل به، وما كان المسيح إلا مخلوقاً لله محدوداً ومحصوراً، ولو كان **اليهود والنصارى أبناء الله وأحباؤه** لما عذّبهم بذنوبهم، ولكنه توعّدهم بالعذاب، فثبت أنهم بشرٌ ممن خلق، يغفر لمن يشاء منهم، ويعذّب من يشاء، كشأنه دائماً مع كل البشر.

وبيّنت السورة أن النبىّ ﷺ قد أُرسل إلى **اليهود والنصارى** كما أُرسل إلى العرب، وأن الله تعالى نزّل **التوراة** على اليهود، كما نزّل **الإنجيل** على النصارى، **والقرآن** على المسلمين، وذلك ليستبق الجميع الخيرات؛ وذكّرت بموسى وقصته مع بنى إسرائيل، وعصيانهم له، ومجازاتهم **بالتيه أربعين سنة**؛ وذكّرت بابنىّ آدم: **قابيل وهابيل**، وما كان بينهما من صراع صار رمزاً للصراع بين قوى الخير وقوى الشر، وكانت جريمة قتل هابيل **أول جريمة فى الأرض يراق فيها دم**، وبسببها كان تجريم القتل وتشريع قصاص المِثل، وتجريم الحرابة أو المحاربة، وهى قطع الطريق على الناس ومكابرتهم عن أنفسهم وأموالهم، وتجريم السرقة وقطع يد السارق أو السارقة فى القليل مثل الكثير، **تحذيراً بالقليل عن الكثير**. وحذّرت السورة من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين، وأنذرت من يرتد عن دينه من المسلمين، ومن يتخذ شعائر المسلمين هزواً ولعباً، ونبّهت إلى مخاطر اليهود على الإسلام، وأنهم مَن لعنهم الله وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. واليهود هم الذين قالوا يد الله مغلولة، وأنه فقير يحتاج إلى القروض، ولو آمن أهل الكتاب وأقام اليهود التوراة، والنصارى الإنجيل، يعنى عملوا بهما، لوسّع الله فى أرزاقهم وبارك فيها. ومن اليهود معتدلون، وكثير منهم فاسقون، ولذلك كثرت الرسُل إليهم، ففريقاً كذّبوا، وفريقاً قتلوا. ولما جاءهم **المسيح** كفروا به، وآمن به النصارى، ثم كفر النصارى بالله من بعد إيمان، وقالوا: **الله ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس**، وما كان المسيح إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل، وكانت أمه صدّيقة، صدّقت بكلمات ربّها، وكانا بشراً يأكلان الطعام كالبشر. وتَنهى السورة النصارى عن أن يغلوا فى دينهم، ويتّبعوا أهواءهم. وتعلن للنبىّ ﷺ وأمة الإسلام: أن اليهود

أشـد الناس عـداوة لهم، وأن النصارى أقربهم مـودة، لأن قساوستهم ورهبـانهم يعلّمونهم المودة، فكلما سمعوا القرآن لانت قلوبـهم، وتحازنوا، وفاضت دموعهم. وتناولت السورة اللغو فى الإيمان والتكفير عنه، والنهى عن الأنـصاب والأزلام، وعن الخمر والميسر ـ أى القمار؛ **والأنصاب** جمع **نُصُب** يكون من الحجارة للآلهة، **والأزلام** هى استخدام القدح للاستقسام. وأحلت السورة صيد **البحر** وحرّمت **صيد البر** أثناء الإحرام، لتثبّت الإحرام فى قلوب المُحرمين، تعظيماً **للكعبة**، وقياماً لها، فلا يقع فيها أذى، ولقد أصلحها الله معاشاً للناس فى أمور الدنيا والآخرة، يلوذ بها الخائف، ويأمن الضعيف، ويربح التاجر، ويتوجه إليها الحجيج، وقد يحدث أن يمـرض فى الحج من يُخشَى موته، فعليه أن يُوصى ويُشهد اثنين ذوى عدل من رفاقه أو من غيرهم. **والوصية والموت** يذكّران بيوم **القيامة** عندما يُجمَع الناس للحساب، وسيُحاسَب النصارى عمّا قالوه عن عيسى . وتعرض السورة **لقصة المائدة** التى أيده الله بها، ودفاع عيسى عن نفسه أنه تعالى أعلم بما قاله لقومه، فلقد اتخذوه وأمه إلهين ـ ، فإذا كانت مريم أنجبت إلها، وكانت عـلاقتها بالله، فإنها تصبح إلاهة، ولو لم يصرّح النصارى بذلك، وعيسى وأمه بريئان مما زعمه هؤلاء عنهما، **ويوم القيامة هو يوم الصدق**، وسيظهر يومها أيهما الصادق، عيس وأمه أو هؤلاء الحواريون الذين أضلوا الناس بعد عيسى. والحمد لله ربّ العالمين.



٥٨٧.﴿سورة الأنعام﴾

السـورة مكيـة، قيل إلا آيتـين نزلتا بالمدينـة، الأولى قوله: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٩١)﴾**، نزلـت فى مالك بـن الصيف، وكعـب بن الأشرف، اليهـوديين، والأخرى قـوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾**، نزلت فى ثابت بن قيس شماس الأنصارى، وقيل نزلت فى معاذ بن جبل. والصحيح أن السورة أصل فى محاجة المشركـين والمبتدعين، والمكذّبين بالبعث والنشور، وهذا نقيض إنـزالها جملة واحـدة، لأنها فى مـعنى واحد من الحُـجّة وإن صُـرف ذلك بوجوه كثيرة. وفى السـورة آيات تردّ على أصحاب الفرق الإسلاميـة ولو أن هذه الفرق ما كانت قد تكّونت بعـد، إلا أن احتمالات ما تثـيره من شكوك ردّت عليه السورة مـقدّماً، وعلى ذلك **فهذه السورة من السور التى يعتز بها طلاب الحكمة والفلسفة الإسلامية**، وقال فيها عمر بـن الخطـاب : **الأنعـام من نجائب القـرآن** ـ أى من نفائسـه، فهى لم تـتناول كالسور المدنية

الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين، كالصوم والحج، وأحكام الأسرة، والاجتماع الإنساني، وأسس التشريع، ولم تذكر شيئاً من طرق الحرب ومناهج القتال، وشئون السلم والصلح، ولم تتحدث عن اليهود والنصارى، ولم تذكر المنافقين، وإنما تناولت قضايا العقيدة، ومبادئ الإيمان، وأصل التوحيد، ومسائل الوحي، وشئون الرسالة، ومشكلة البعث والحساب والجزاء. وآيات سورة الأنعام **مائة وخمس وستون آية**، وهى كما ترى من السور الطويلة، وكان نزولها **بعد سورة الحجر**، وجاء ترتيبها **فى المصحف السادسة**، وفى التنزيل **الخامسة والخمسين**، **وسميت سورة الأنعام** بسبب الآيات فيها التى تصف فعل العرب فى الجاهلية مع أنعامهم يهدونها إلى الله، وهذه التقاليد توجز أحوالهم الاعتقادية، **والأنعام** هى الإبل والبقر والغنم، سميت أنعاماً للين مشيها ووداعتها ، **فجعلوا** من ثم اسم السورة من اسم **الأنعام**، من قوله تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً (١٣٦)﴾**. ومحور السوره مداره هذا **الشرك** المتمثل فى **قسمة الأنعام**. ثم إن الأنعام لها دور آخر مع **اليهود** كذلك، فقد حرّموا على أنفسهم كلّ ذى ظفر، ومن البقر والغنم شحومها، فجازاهم **الله** بسبب هذا التحريم، ومن أجل ذلك كان للأنعام مغزاها فى السورة، فاستحقت أن تسمى السورة باسمها. والسورة تقوم على **الحوار، وتقرير الثوابت، والتعليم من خلال السؤال والجواب**. وفى البداية يكون الكلام لله تعالى مُعرِّفاً بنفسه، حامداً لذاته: أن خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ويتساءل : فهل بعد ذلك يعدلون به شركاء ويجعلون له أنداداً؟ ويخاطب الناس فيقول لهم: خُلقتم من طين وإلى أجل مسمى، وكذلك خُلقت الحياة إلى موعد الساعة، ثم أنتم تتشككون؟ وهو الذى يعلم سرّهم وجهرهم وما يكسبون. ثم يخاطب النبىّ ﷺ فيخبره أنه ما تأتيهم من آية إلا أعرضوا عنها، وكذّبوا بها، ويسأله مستنكراً : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم ؟ ويؤكد عنادهم، فلو نزّل عليهم كتاباً من عنده ولمسوه بأيديهم كما طلبوا لأنكروه واعتبروه سحراً، ولطلبوا طلباً آخر، كأن يكون الرسول مَلَكاً، فكيف يكون ملكاً وهم بشر ؟ والطبيعى والمعقول أن يكون بشراً مثلهم، وهذا أنت بشر ولكنهم لا يصدقوك ؟! ويأمر نبيّه أن يطلب إليهم أن يسيروا فى الأرض وينظروا إلى آثار من سبقهم، وكيف كان عاقبة تكذيبهم. ويملى عليه أن يقول لهم : أغير الله يتخذون ولياً، وهو فاطر السموات والأرض ؟ ويعلّمه أنه لو مسّه الضُّر فلن يكشفه عنه إلا الله، وأنه القاهر فوق عباده، لا إله إلا هو. ويخاطبه فيقول له : أنظر كيف كذبوا على أنفسهم؟ ويقول :لو ترى إذ وقفوا على النار، ولو ترى إذا وقفوا على ربّهم؟ ويقول : قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون،

وأنهم يطلبون أن تتنزل عليك آية كالتى كانت تتنزل على موسى وعيسى، وهذا القرآن هو آيتك ومعجزتك، وما فرط الله فيه من شيئ، والله يستدرجهم ثم يأتيهم العذاب بغتة وهم مبلسون. ويعلّمه أن يقول لهم : ما عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أنا مَلَك، وما أتبّع إلا ما يُوحَى إليّ، ويأمره أن ينذر الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع، وأن لايطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى، ويبشّرهم أن مَن عَمِل منهم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعد ذلك وأصلح فإنه غفور رحيم. والله عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعظه أن يعرض عن الذين يخوضون فى آياته حتى يخوضوا فى حديث غيره. ويضرب المثل بقصة إبراهيم، وإنكاره للقمر ثم الشمس، وتوجّهه إلى الله فاطر السموات والأرض، حنيفاً غير مشرك، ولمّا حاجّه قومه لم يخف وهو الأحق أن يخاف، لأنه لم يُلبس إيمانه بظلم، ووَهب اللّه له إسحق، ووهب إسحق يعقوب، وكلا ًهدى، وهَدَى نوحاً من قبل، ومن ذريته: إبراهيم، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع ، ويونس، ولوط، وكلاً جعله الله من الصالحين وفضّله على العالمين، ولو أشركوا لحبط عملهم، وآتاهم الكتاب والحُكم والنبوة، فبهداهم اهتدوا أيها الناس، وهذا كتاب موسى تُظهرون منه أيها اليهود ما تحبون، وتخفون منه ما تخفون، وما تفعلون إلا أنكم فى خوضكم تلعبون. ويخاطب النبيّ ﷺ : إن هذا القرآن مبارك ومصدّق لما سبقه، ولتنذر به مكه وما حولها، والله هو فالق الحَبّ والنوَّى، يخرج الحيى من الميت، ويخرج الميت من الحيى، فأنّى تصرفسون؟ وجعلوا له شركاء الجن، وهو بديع السموات والأرض، فكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شىء ، لا إله إلا هو، فاعبدوه، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. ولو أنه أنزل إليهم ملائكة، ودفع الموتى لتكلّمهم، وحشَر عليهم كل شىء، فلن يؤمنوا لأنهم قوم يجهلون، والله لا مبدّل لكلماته، وكلماته تّمت صدقاً وعدلاً. ويعلّم الله نبيّه أن لا يأكل إلا مما ذُكر اسمه تعالى عليه، وأن يذر ظاهر الإثم وباطنه، ويدع مجادلة المجرمين وهم فى كل قرية يمكرون فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد فى السماء، وما كان الله مُهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، ولكنه يرسل إليهم الرسُل يقصّون عليهم آيات الله وينذرونهم، وهو الغنى ذو الرحمة إن يشأ يُذهب الكافرين ويستخلف من بعدهم من يشاء، ويكفى من جهلهم أن يقتلوا أولادهم سفهاً بغير علم، وحرّموا على أنفسهم نِعَم الله بدعوى قسمتها مع أصنامهم،

وحرّموا على أنفسهم وحللوا من الأطعمة، وما حرّم الله سوى الشّرك، وقتل الأولاد خشية إملاق، والفواحش، وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق، ومال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وخسران الميزان والكيل، وأن تُكلّف النفس أكثر من وسعها، والظلم، وأوصى بالوالدين إحساناً، والوفاء بعهده تعالى، واتّباع صراطه المستقيم. وكما أنزل الله الكتاب على موسى تماماً على الذى أحسن وتفضيلاً لكل شيء، وهُدىً ورحمة، فكذلك القرآن أنزله مباركاً. ويأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول إن دينه هو ملة إبراهيم حنيفاً، وأن صلاتَه ونُسكه ومَحياه لله ربّ العالمين؛ وأنه أول المسلمين، لا يبغى غير الله ربّاً؛ وأن كل نفس مسئولة عما كسبت، ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ وإليه يرجع كل الخلق فينبؤهم بما كانوا فيه يختلفون؛ وهو الذى جعلهم خلائف تخلف كل أمة التى سبقتها، ورفَع درجات بعضهم ليبلوهم فيما آتاهم؛ وهو سريع العقاب وغفور رحيم. وهكذا تختم السورة خير ختام، ولله تعالى الحمد والمِنّة وهو حَسْبُنا.

•••

٥٨٨. ﴿سورة الأعراف﴾

السورة مكية، وهى أطول السور المكية، وقيل إن الآيات مدنية من قوله تعالى: **﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾** إلى آخر الآية: **﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾**، والصحيح أن السورة كلها مكية، ونسقها واحد؛ ويأتى ترتيبها فى المصحف السابعة، وفى التنزيل التاسعة والثلاثون. وسميت بسورة الأعراف لاشتمالها على معلومة جديدة لم تتضمنها أية سورة أخرى من سور القرآن، حيث يأتى الناس يوم القيامة إما أنهم أصحاب الجنة، وإما أنهم أصحاب النار، غير أن هناك مجموعة أخرى لا ينتمون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهم أصحاب الأعراف، والأعراف جمع عُرف، تقول عرف الديك، وعرف الفرس. والأعراف: سُوُر على الصراط له عُرف؛ وفى اللغة الأعراف هى المكان المشرف، فهى شُرَف الصراط؛ وأصحاب الأعراف هم: الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وفى الحديث: «توضع الموازين يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار». وأصحاب الأعراف على السور بين الجنة والنار، يقول تعالى: **﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾**، أى أصحاب الجنة

وأصحاب النار، ولكل سماته، فهؤلاء مبتهجون فرحون، وهؤلاء مكتئبون مغمومون، فإذا وقعت أعينهم على أهل الجنة حيّوهم يرجـون أن يكونوا مثلهم، وإذا صادفت أعينهم أهل النار تعوّذوا أن يكونوا مثلهم، وعـابوا عليهم أنهم كانوا يستكبرون فى الدنيـا، ويسخرون من المستضعفين، فهاهم المستـضعفون صاروا إلى الجنة، وعندئذ يؤذّن أصحاب الأعراف : لعنة الله على الظالمين.

ومشـهد أصـحاب الأعـراف من مشـاهد يوم القيامة، والحـوار الذى يدور بينهم وبين أصـحاب الجنة وأصـحاب النار يبـيّن مـا يكون فيـه أهل الحق ـ أى أصحـاب الجنة، من الشماته بالمبطلين أصحاب الـنار .وسورة الأعراف من السور التى تهتم بالصـراع بين قـوى الخيـر والنور، وبين قوى الشـر والظلام، وفيهـا قصة آدم مع إبـليـس، وخروجـه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض كنمـوذج لهذا الصراع، والله تعالى ينتـصر لقوى الخيـر فى الوجود، وقد انـتصـر لآدم وذريته، وهو قـد خلق آدم من طين، وصوّره، ونفخ فـيه مـن روحه، وعلّمه، وأمر الملائكة أن تسجـد له، فانصاعوا إلا إبليـس، أبى واستكبـر، فكان أول من استكبر فـى الوجود، وعصى الله فكان أول من عصـاه، وحاجّه فكان أول من حـاجّـه، وحَسَد آدم وغار منه، فكان أول من حسد وأول من غار، فكل الصفات السلبية كانت فيه، وادّعى أنه فعل ما فعل لأنه من نار وآدم من طين: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾، فكان أول من قاس فى الوجود، وأول من أخطأ فى القـيـاس، فالنار ليست الأشـرف لأنها جوهر مضيء، ولأنها مخـزن الطاقة، ولأنها الأخف وزناً، والأكثر ارتفاعاً وعلواً والأحدّ طبعـاً، ولأنها مصدر خوف ووسيلة عذاب، ومنافعهـا لا تنتهى، بينما الطـين محل قذارة وعطالة، ومصـدر أوبئة، كما ادّعى إبليس، ومن أجـل ذلك رأى أن أصله أفـضل من أصل آدم ! والحـق أن الطين أفـضل، لأنه سهل التـشكيل، ومطواع، وأداة فى الفنون، ولا زراعـة ولا قـوت إلا به، ولا حيـوانات بدون زراعة نبـاتات. والطين من التراب والماء، والتـراب طهور ومسجـد، وفى التراب مثوى الإنسان، والماء لازم للحياة لزوم الهواء. وفى الطين سكون وهدوء ووقار وسكينة، ومن التراب كـانت أرض الجنة، وترابهـا من الطيب والمسك الأذفر ـ أى الأطيب رائحـة. ولذا كـان خَلْق آدم من الطين خـيـر وبركـة. ومعنى أنـه من الطين أنه ينتـسب إلى الأرض، فالأرض مأواه ومأوى ذريته، بينما خُلِق إبليس من النار، والنار مأواه. والإنسان ليس كله من طين، وإنما جزء منه من نار هى الطاقة التى يتحرك بها وينفعل ويعمل ويشتهى، وهى أصل الشهوات فى الإنسـان. وإنها لنعمة كبـرى أن يرجع أصل الإنسان إلى أب واحد هو

آدم، وأن تكون قصة الخلق مدارها آدم، ولم يكن عجيباً أن يطلب لذلك من الملائكة أن تسجد له. وفى السورة أربعة نداءات متتالية لبنى آدم، بيّن الله لنا فيها نتائج غواية الشيطان لآدم وزوجته، فبعد أن طعما من الشجرة المحرمّة، بانت عورتاهما، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، ثم مَنّ الله على ذريتهما بلباسٍ خيرٍ من ورق الشجر، من الريش والشعر، ثم هداهم إلى لباس التقوى، ثم إنه تعالى حذّر بنى آدم : لا يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، وإن الشيطان ليرى بنى آدم هو وقبيله، وهم عراة من حيث لا يرونهم، ويدعونهم لذلك إلى الفحشاء. ثم إن الله هدى بنى آدم إلى الإيمان، فصاروا يعبدونه فى المساجد، فأمرهم أن يزّينوا كلما قصدوا المساجد، تأكيداً لبهجة الإيمان عندهم، وانتصاراً لعنصر الخير فيهم على وسوسة الشيطان، والتزيين أفضل للمساجد من التزيّن للفحشاء. ومثلما أردَى الطعام وشهوة طلبه أبويهم، فإنه تعالى أمر بنى آدم أن يأكلوا ويشربوا ولا يسرفوا، ونبّه عليهم أنه تعالى سيرسل إليهم الرسُل من بينهم، ليبيّنوا لهم الأحكام والشرائع، فمن اتّقى وأصلح فلاخوف عليهم ولا يحزنون. فهذه هى النداءات الأربعة التى خوطب فيها بنى آدم باعتبارهم ورثة أبيهم آدم، وهى نداءات خاصة بسورة الأعراف لم تتكرر فى سورة أخرى.

وسورة الأعراف تتوافق مع السور المكية، وتبدأ البداية المعهودة ، فتذكّر بالقرآن، وبأنه معجزة النبىّ ﷺ ، أنُزل عليه من الله تعالى، وتُفتتح السورة لذلك بالحروف المقطّعة ﴿الٓمٓصٓ ①﴾ (الأعراف) (ألف لام ميم صاد). وهى حروف من الأبجدية تأتى فى افتتاحيات بعض السور، تذكيراً بأن القرآن العظيم هو من هذه الحروف البسيطة التى يعرفها الجميع، ورغم ذلك لم يستطع أىٌّ من الذين أنكروا القرآن أن يأتوا بمثله، ولقد ضاق الرسول ﷺ بإصرارهم على الإنكار، وفى سورة الأعراف يرفع الله تعالى الحَرَج عن نبيّه ﷺ ، فليس عليه أن يؤمن المنذرون أو لا يأمنوا، وكل ما عليه هو البلاغ، ويوم القيامة يكون الحساب. وما كان تكذيب المكذّبين إلا لأن من طبع أغلب الناس أن لا يشكروا لله نعَمه، والكثير من اللوم يقع على الشيطان الذى أقسم أن يقعد لبنى آدم صراط الله المستقيم، ويأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، يوسوس لهم بالشرّ والمنكر، فكان عن حقّ الوسواس الخناّس، وكان عدو الإنسان وحَزَنه، والله قد حرّم ما يوسوس به من الفواحش، ما ظهر منا وما بطن، ومن الإثم والبغى بغير الحق، وأن يُشرَك به، وأن يُقال عنه ما لم يعْلمَ عنه، وما أظلم أن يُفتَرى على الله الكذب، أو يُكذّب بقرآنه، وهو الكتاب المفصّل على علم، هُدىً ورحمة للمؤمنين.

وفى سورة الأعراف عن **قصة الخلق للسموات والأرض فى ستة أيام** . وتناولت السورة **قصص الكثير من الأنبياء** بإسهاب، منهم **نوح** : الذى أنجاه الله ومن معه فى الفُلك وأغرق المكذّبين؛ **وهـود** : الذى أرُسل لقوم عـاد فجادلوه فى آلهتهم، فأنزل الله غضبه عليهم، وقطع دابرهم، وأنجاه والذين معـه برحمة منه؛ **وصـالح** : الذى أُرسل إلى قـوم **ثمـود**، فعقـروا الناقة، وعتوا عن أمـر ربهم، فأخذتهم الرجفـة، فأصبحوا فى ديارهـم جاثمين؛ **ولـوط** : الذى أنكر على قومه أن يأتوا الذكران، وما سبـقهم بها من أحد، فهددوه وأهله بالإخراج، لأنـهم يتطهرّون، فـأنجاه الله إلا امرأتـه، وأمطرهم حجـارة دمرتهم تدمـيراً؛ **وشـعـيـب** : الذى دعا قـومه إلى الله، وأن يوفّـوا الكيل والميـزان، ولا يبخسـوا الناس أشياءهم، ولا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها، فلما يئس منهم دعا عليهم: ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴿٨٩﴾ ﴾ ، فأخذتهم الرجفة فـأصبحوا فى ديارهم جاثمـين. فلو أن أهل كل هذه القرى آمنوا واتـقوا، لفتح الله عليـهم بركات من السـماء والأرض، ولكن كذّبوا، فأخذهم بما كانوا يكسبون. وبعث الله **موسى** إلى فرعون وملائه، فظلمـوا بهـا، فأخـذهم بالسـنين، وهو الجدوب ، وأرسل عـليهم الطـوفان، والجـراد، والقُمّل، والضـفادع، والدّم، آيات مفـصّلات، فكانوا قوماً مـجرمين، فـانتقم الله منهم وأغرقهم فى اليم بأنهم كذّبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين.

وتحكى السورة عن قوم مرّ بهم بنو إسـرائيل، وكانوا يعكفون على أصنام لهم، فأراد بنو إسـرائيل أن يكون لهم مثلهـا، وما دروا أن هؤلاء مُـتبّرٌ وهـالكٌ وباطل ما هم فـيه، وغاب عنهم موسى أربعين ليلة، وعاد ليجدهم قد صنعوا **عجلاً** من ذهب عبدوه، ثم عفا عنهـم، ونسخ **ألواح التـوراة**، وفيها من كل شىء مـوعظة، وتفصيلٌ لكل شيئ، هُدىً ورحمة للذين هم لربّهم يـرهبون، ولكنهم طلبوا أن **يروا الله جـهرةً**، فأخذتهم الصـاعقة، ودعا موسى ربّه أن يغفـر لهم ويرحمهم فقد هادوا إليه، فما كـان جوابه تعالى إلا قوله: ﴿ **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴿١٥٦﴾ ﴾ ، قيل سيكتبها، أى مستقبلاً، ويخصّ بها الأمة التى من أوصافـها: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴿١٥٧﴾ ﴾، فخلص هذا الوعد لأمـة محمد ﷺ ، رسول الله الأمى إلى النـاس كافة، من لَدُن ربّ العـالمين، لا إله إلا هو. وتقطّع بنو إسـرائيل اثنى عشـر سبطاً، وآتاهم من فضله، ولكنهم كانوا أنفـسهم يظلمون، ومنهم **قرية أصحاب السبت**، تحايلوا على شرع الله، ونسوا ما ذكّروا به، فأخذهم بعذاب بئيس، وصاروا قردة خـاسئين، وقطعـهم فى الأرض أمما، فخلفوا خَلَفاً يأخـذون عرض الأدنى، ويقولون إن الله واثقهم أن يغفر لهم مهما كان ما فعلوه !

وفى السورة قصة بلعام بن باعوراء، وكان مثلاً مخزياً لعلماء السوء، فصوّرته السورة بأشنع وأقبح ما يُتخيّل لعالم يبيع دينه لقاء أن يُرضي الحاكم، ويوظّف علمه لتبرير ظلمه، ولو شاء الله لأماته قبل أن يضل، ولكنه أخلد إلى الأرض بضلاله، وسكن إلى ملذات الدنيا، وهوى المضلين والكافرين، فكان مثله كمثيل الكلب، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو يلهث على كل حال، فكذلك الذى يترك الهدى ويُفتى للحكام الظلمة، فإن وَعَظْته ضلّ، وإن تركته ذَلّ، والناس فى حال الكلال تلهث، وفى حال الراحة لا تلهث، إلا الكلب فإنه يلهث فى كل حال، فى الكلال والراحة، وكذلك هذا العالم الذى لم يفد من علمه إلا غضب الله، فلا هو ترك نفسه للجهل، ولا هو هُدِى لما تعلّم، فكان فى الحالين سواء، وهذه أبشع صورة لمن يرزقه الله العلم النافع، فيستغله خزياً ووبالاً عليه، ويتبّع الشيطان فيكون من الغاوين.

وتُختم السورة بإثبات أن أمة محمد ﷺ، هى أُمة يهدون بالحق وبه يعدلون، وما كان محمد مجنوناً كما ادّعى اليهود، قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ (الحجر)، فنفته الآية ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)﴾، وكان أبلغ الردّ عليهم قوله تعالى للنبىّ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾، وفى هذه الكلمات السبع قواعد الشريعة كلها فى المأمورات والمنهيات، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. ويظاهرها فى الحديث: «بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» أخرجه الحاكم. ولما نزلت ﴿خذ العفو﴾ قال ﷺ: كيف يارب ـ والغضب ؟» فنزلت: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾، وتتابعت الآيات كلها تحضّ على الإيمان والخير والصلاح، قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾، رداً على قولهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ (فصلت)، وخاطب الله تعالى نبيّه ﷺ ـ والمقصود أمته كلها، قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾، وأخبره تعالى عن أهل السماء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾. والسجود فى هذه الآيةخاتمة الأعراف، وهو أول سجود فى القرآن، وكان آخر سجود فى خاتمة العلق. والله الموفق والمستعان، وله الحمد والمنّة.

●●●

٥٨٩. ﴿سورة الأنفال﴾

السورة مدنية إلا من الآية الثلاثين التى تقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ

يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾، إلى غاية الآية السادسة والثلاثين التي تقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)**﴾ فإنها مكية، وترتيب السورة فى المصحف **الثامنة**، وفى التنزيل المدنى **التاسعة والثلاثون**، وفى التنزيل بعامة **الرابعة والتسعون**، **وطابعها عسكرى**، وينبغى إقرارها ضمن **مناهج الكليات العسكرية الإسلامية**، أسوة بإقرار **سفر يشوع على الكليات العسكرية الإسرائيلية**، والسورة تُعنَى **بالحرفيات** العسكرية، وحِرفياتها من الثوابت العسكرية لا المتغيرات، **ومدارها غزوة بدر** التى كانت فاتحة الغزوات فى تاريخ الإسلام، وفيها كانت ممارسة القتال لأول مرة من قِبَل المؤمنين. وتناولت السورة تفاصيل هذه الغزوة بإسهاب، **وفيها تقرر أن يكون عذاب الله للمكذّبين بطريق القتال، بعد أن كان فى الأمم السابقة بطريق النوازل والنكبات والزلازل والفيضانات، فقوم نوح** أهلكهم **بالطوفان، وعاد الأولى** أهلكهم بالدَّبُور. وثمود بالصيحة، **وقوم لوط** أهلكهم بالخَسْف وبمطر الحجارة، وقوم شعيب بيوم الظُّلَّة، ولم يُشرَّع القتال إلا لموسى، ثم **لمحمد** ﷺ، **ولأمة الإسلام**. وسورة الأنفال هى: **بلاغٌ للمؤمنين، وبيانٌ بما يجب عليهم فعله مع أعداء الله** إذا نشبت الحرب معهم، وسلوكهم فيها، وماذا يقبلون منهم وماذا يرفضون. ولأن سورة الأنفال هى رصدٌ لكل ما جرى ببدر أطلق عليها البعض سورة بدر، واستنّت بدر حقائق عسكرية ثبّتتها فى أذهان المسلمين، **فالفئة القليلة قد تهزم الفئة الكثيرة**، مثلما هزم المسلمون فى بدر - وكان عددهم **ثلاثمائة وبضعة عشر**، صناديد قريش - وكان عددهم ألفاً وزيادة، **والكم العديد** لايهم مقارنة **بالكيف النفسى، والإعداد المعنوى** للجيش من أهم أركان **التعبئة**، وأن تكون للجيش **قضيةٌ** أفضل من أن لا تكون له قضية، وقضية **الحق** أولى بالنصرة من **قضية الباطل**. وفى الحرب إذا لقى المسلمون أعداءهم زحفاً فلا ينبغى أن يولّوهم **الأدبار**، إلا إن كان ذلك **فراراً خداعياً**، أو أن **يفاجئوا العدو** ويأتوهم من خلفهم على غِرّة، أو **لينضّموا** إلى فئة أو سرية من المسلمين تحتاج المعاونة. والإسلام فيه من يجتهد ويخطئ **فى** الحرب، ولا يسمى **فَرّاراً** من يرى أنه أخطأ بتركه للمعركة، وسمّاه النبىّ ﷺ **«العكّار»**، أى العرّاف الذى يُعمل عقله ويتصرف من نفسه. وفى الحديث: أن **التولّى يوم الزحف** من **الموبقات السبع**، ومن **يُولّى الدبُر** يبوء بغضب من الله، والجهاد فرضُ عين على المسلمين إذا تُهددت الدور وأُخذت الأرض والأموال، وهُتكت الأعراض. فهذه هى **الحرب الإسلامية المشروعة**. ومن دروس بدر أن **الأسرى** الأمر معهم على خيار، فإما **فداء**، وإما **قتل**، وإما **مبادلة** بأسرى من المسلمين، **وقتل الصناديد** من

العدو أفضل، لأنه يفت فى عَضُد إخوانهم، ويُحبط جبهتهم الداخلية، ويهزمهم نفسياً، ويشفى صدور المؤمنين. **وقائد المسلمين** من شروطه أن يبث الطمأنينة بين قواته، وفى بدر أنــزل الله **النعــاس** قبل المعركــة على المسلمين أَمْنةً من عنده. ومن خير حِرفيات القتال **الضرب فوق الأعناق، وضرب كل بنان** أى الأطراف، وفى الحديث: «**إنى لم أبعث لأعذّب بعذاب الله، إنما بعثت لضرب الرقاب وشدّ الوثاق**». والسورة تخاطب المجاهدين يوم بدر بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ **ست** مرات، تقويةً لنفوسهم، وإعلاءً لكلمتهم، ورفعاً من شأنهم، **والإيمان** الذى وُصفوا به هو الذى يميّزهم عن عدوهم، ويجعلهم الغالبين، ويُحفزهم أن يكونوا أكثر صبراً وثباتاً؛ وفى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أنه تعالى يكلّفهم بأشياء، وما يكلّفهم به فى بدر جميعه لصالح المعركة، فعليهم **أولاً**: أن لا يولوا الأدبار إلا لو كان ذلك لما يسمونه **الخداع الاستراتيجى**، وليأتوا العدو من مكان آخر على غرّة، أو لينضموا إلى مجاهدين من دينهم معاونة لهم؛ وعليهم **ثانياً**: أن يطيعوا الله ورسوله ولا يتولوا عنه أو يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وعليهم **ثالثاً**: أن يستجيبوا لله وللرسول لما يحييهم ويصلحهم، وفى **الإسلام** إحياؤهم، وأخصّ الإسلام الجهاد فى سبيل الله؛ وعليهم **رابعاً**: أن يتركوا الخيانة، والآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)** ﴾، قيل نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر، أو فى حاطب بن أبى بلتعة، والأحرى أنها **عامة** فيمن يخون المسلمين ممالأة لعدوّهم لمكاسب مادية، أو تأميناً للأهل والولد؛ **والأمانات** هى ما يُكلّف به زمن الحرب من أعمال عسكرية، وكان بعض المسلمين يسمعون الحديث من النبىّ ﷺ، فيفشونه حتى يَبْلُغ أعداءهم، فنُهوا أن يخونوا الله ورسوله كما كان المنافقون يصنعون، وفى الحديث: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يُلقَى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه**»، وحب الله ورسوله عند المؤمن مقدّم على الأولاد والأموال والنفوس؛ وعليهم **خامساً**: أن **يتّقوا الله فيجعل** لهم فرقاناً ويكفّر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم. **والفرقان** هو الفاصل بين الحق والباطل، ومن اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وُفِّق لمعرفة الحق من الباطل؛ وعليهم **سادساً**: أن **يثبتوا** إذا واجهو العدو، وفى الحديث: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**». وفى بدر قام النبىّ ﷺ وقال: «**اللهم مُنزّل الكتاب، ومُجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»،

وقال : «إن الله يحب الصمت عند ثلاث..» وذكر منها الزحف، إلا أن يذكر المجاهد ربّه كثيراً، فيدعوه ويستعينه، وليس أقرب من الله للمؤمن عند القتال، وليس أذكر لله من المؤمن إذا احتدمت المعركة، ولولا ذلك ما أمر الله بالصلاة أثناء القتال، وما أمر بالثبات والصبر، فلا يفروا ، ولا ينكلوا، ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله ولا ينسوه، ويتوكلوا عليه، ولا يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا، فيكون الخذلان والفشل، وتذهب ريحهم وقوتهم ووحدتهم، وبمثل ذلك فتح المسلمون الأمصار شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم، وامتدت بلاد الإسلام في المشارق والمغارب في أقل من ثلاثين سنة، عندما كان القرآن هو دستورهم، وسورة كالأنفال هي كتاب الحرب عندهم، يرجعون إليها ويستشهدون بآياتها، ويطبقون حرفياتها.

والأنفال التي أطلق على السورة اسمها، هي مازاد على المغانم، تستخلصها من أموال أهل الحرب جماعات من الجيش أو أفراد، ما كان من الممكن تحصيلها لولا همّتهم فيها. وفي بدر حدث الخلاف حول الأنفال لا حول الغنائم، لأنه منذ البداية كان معروفاً أن الغنائم توزع بالتساوي بين أفراد المتحاربين، فأما الأنفال فإن كل من حاز شيئاً منها اعتقد أنها ملكه، فأنكرت ذلك جماعة بدعوى أنهم شُغلوا بحرب العدو لا بجمع الأنفال، وكان في استطاعتهم أن يفعلوا ذلك لولا خوفهم أن يكرّ العدو على المسلمين، ولذلك وجب أن يُساوَى بين الجميع فيها، وقالت جماعة: لقد اضطررنا أن نبقى حول الرسول لئلا تغتاله يد آثمة، والحال معهم جميعاً ينبغي أن يكون على التساوي، فنزلت سورة الأنفال، وجاء اسمها في أولى آياتها في شكل سؤال موجه منهم للنبيّ ﷺ، والجواب من الله تعالى للتعليم والتوجيه، ولقد جعلها الله تعالى للنبيّ ﷺ يتصرف فيها وفق صالح المسلمين، فجعلها الرسول ﷺ بالتساوي بين الجميع، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)﴾. فهذه الآية خاصة بأن جعلت أمر الحكم في الأنفال للرسول ﷺ، ونزلت آية الخُمس بعد هذه الآية، لا لتنسخها وإنما لتبيّن أكثر، طريقة توزيع الغنائم والأنفال، قالت: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ (٤١)﴾ ، فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً. وفي الحديث : «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش» يعني المجاهدين، وقال النبيّ ﷺ : «نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم»، يعني ينفقه في مصالح المسلمين. ومنهم أقاربه ليغنيهم عن الصدقة ـ وصفها بغُسالة الأيدي، واليتامى الفقراء، والمساكين المحاويج، وابن السبيل المسافر وليس

معه ما ينفقه. وفي سورة الأنفال يأتي تسمية يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، سمي كذلك لأنه اليوم الذي يفرق بين الحق والباطل، والذي جرت فيه لأول مرة مصارع الطغاة ومهاوى الجبابرة؛ وفي بدر كان اشتراك النبيّ ﷺ لأول مرة في القتال، ولأول مرة قاد جماعته وتجلّى حبّه للشورى، وللقيادة الجماعية، وللرجوع للجماعة والأخذ برأيهم، فلما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك، أي أول ماء وجده، فتقدم إليه الحبّاب بن المنذر فقال: يارسول الله، هذا المنزل الذي نزلته، منزلٌ أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة»، فقال: يارسول الله، إن هذا ليس بمنزل، ولكن سِرْ بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض، فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك. وأنزل الله المطر عليهم فأطفأ به الغبار، وبه تلبدت الأرض، وطابت نفوسهم وثبتت أقدامهم. وليس في السورة أن الملائكة اشتركت في القتال في بدر ولكن ذِكْرها كان ملهباً لحماس المسلمين، ومثبّتاً للذين آمنوا، وربط على قلوبهم. وكان انتشار الإشاعة أن الملائكة تحارب مع المسلمين، مما بعث الخوف في قلوب الكافرين. وأرعبهم أكثر أن يقبض الرسول ﷺ من التراب ويحصب به وجوه الكافرين، فولّوا مدبرين، وكانوا كلما اقتربوا منه يقبض من التراب قبضة ويرمي به في وجوههم وهو يقول «شاهت الوجوه»، وفي مثل ذلك نزلت الآيات: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾، وفي الآية الكثير من الحكمة ويستشهد بها فلاسفة المسلمين الذين تكلموا في القدر والكسب، وهي تبين أنه تعالى خالق أفعال العباد، والمحمود على جميع ما يصدر منهم من خير يوفقهم إليه، ويعينهم عليه، يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ (آل عمران)، فالنصر غير مرهون بكثرة العدد والعُدد، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ (البقرة). ولقد كان هواهم يوم بدر أن يتركوا الأسرى لقاء الفدية، وأنكر عمر عليهم ذلك، واختار عمر النفير على العير، واختار النبيّ ﷺ الفداء لأنه كسبٌ بلا قتال، كقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾، وغير ذات الشوكة هي العير، وأما ذات الشوكة فهم الأسرى من الصناديد، ونزلت الآيات: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ

عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾ ، فأحلّ الله لهم الغنائم لأول مرة، وأن يتخذوا من إجراءات الحرب ما يبعث الرعب في قلوب الأعداء ولا يطمئنهم إلى مصائرهم. والفدية تطمئنهم، ولكن أن يعرفوا أنهم مقتولون، ثم يسمع قومهم بقتلهم، فهذا معناه كسب المعركة المعنوية قبل المعركة بالسلاح والعتاد، وفي الحديث عنه ﷺ يشرح ذلك أكثر فيقول: «**أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر؛ وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً؛ وأُحلت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحد قبلي؛ وأُعطيت الفاتحة؛ وكان النبيّ يُبعَث إلى قومه وبُعثت إلى الناس عامة**». وفي السورة تذكيرٌ بما كان مع النبيّ ﷺ يوم أن تآمروا عليه في مكة ليقتلوه: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾** . وكان عمّ النبيّ ﷺ أبو طالب قد أرسل إليه يحذّره، قال: هل تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال: «**يريدون أن يسجنوني، أو يقتلوني، أو يخرجوني**»، وكانوا قد أعدّوا لذلك غلاماً من كل قبيلة وسيطاً يُعطى سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيتفرّق دمه في القبائل كلها، فلم يبت ليلتها في بيته، وحلّ مكانه عليّ، وأُذن له في الخروج من مكة، وأنزل الله الأنفال في المدينة بعد بدر، **في رمضان من السنة الثانية للهجرة.**

وفي سورة الأنفال تأتي الآية العظيمة: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾** ، وفي شرح الآية قال ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي**» ، **والرمي الحديث هو الرمي بالمدفعية والصواريخ**، براً وبحراً وجواً، فالقوة الرئيسية في الحروب منذ خلقها الله وحتى الآن هي: «**الرمي**».

وتختتم السورة بالحضّ على أن يوالي **المؤمنون بعضهم البعض، وتوالي كل الفئات والطوائف بعضهم البعض، والأمة الإسلامية بأسرها**، وعليهم أن ينتصروا معاً لمن يستنصرهم من إخوانهم بأي أرض أو بقعة من الأرض، مثلما أن الكفار بعضهم أولياء بعض، وإن لم يفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. والحمد لله رب العالمين.

●●●

٥٩٠. ﴿سورة التوبة﴾

سورة مدنية، وقيل إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان، وآياتها **تسع وعشرون ومائة**، نزلت بعد **سورة المائدة**، وترتيبها في المصحف **التاسعة**، وفي التنزيل المدني **السابعة والعشرون**،

وفي التنزيل عموماً **الثالثة عشرة بعد المائة**، وكانت من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، وقيل: **آخر سورة نزلت من القرآن : سورة براءة**، أى «**التوبة**»؛ وقيل : إن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من **غزوة تبوك**، وفى تلك السنة بعث **أبا بكر الصدّيق** أميرًا على الحج ليقيم للناس مناسكهم، ويعلّم المشركين أن لا يحجّوا بعد عامهم هذا، وينادى فى الناس: ﴿**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**(١)﴾، فلما فعل اتبعه **بعلىّ بن أبى طالب** ليبلّغ ما فى السورة من الأحكام. وكان نزول سورة براءة فى **السنة التاسعة** من الهجرة، وهى السنة التى خرج فيها الرسول ﷺ ليغزو **الروم**، ورفض الرسول ﷺ أن يحج فى تلك السنة وأوكل أمر الحج إلى **أبى بكر**، لأنه كما قال : «**إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك**»، يعنى إلى أن يبطل حجّ المشركين وطوافهم عراة. وسورة براءة حرّمت ذلك بعد تلك السنة.

وتتناول السورة **أربعة أصناف من الناس**، هم : المشركون، وأهل الكتاب، والمؤمنون، والمنافقون، وهؤلاء الأربعة هم الذين تحدثت السورة بشأنهم، وكانت أغلب الآيات عن المنافقين، ثم المشركين، ثم المؤمنين، ثم أهل الكتاب. وسميت السورة «براءة» : باعتبار استفتاحها بقوله تعالى : ﴿**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ** (١)﴾، وهذا هو أهم ما تنزّلت به، ومن أجله أرسل أبو بكر إلى مكة فى موسم الحج حيث الوفود من كل مكان، ليُعلمهم أن الحج بعد هذا العام للمسلمين وحدهم ؛ وسُمّيت «**التوبة**»: بسبب قوله تعالى : ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** (١١٧)﴾، وقوله: ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (١١٨)﴾، وقوله: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (١٠٤)﴾؛ وسميت «**الفاضحة**» لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم. ولّما سئل ابن عباس عن سورة براءة قال : «**تلك الفاضحة**» !. وقال حذيفة بن اليمان :إنكم تسمونها **سورة التوبة**، وإنما هى سورة **العذاب** ! والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه !

وسورة براءة أو التوبة **هى الوحيدة فى القرآن التى سقطت فيها البسملة فى مصحف عثمان**، وقيل إن سبب ذلك أن العرب كانوا إذا نقضوا عهداً يكتبون لمن نقضوا عهدهم به، ولا يضّمنوا أول السورة «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فلما نزلت السورة بنقض العهد مع المشركين، وأرسل **علىّ** ليقرأها عليهم، لم يبسمل على ما جرت العادة به، وإذن **فعلّى** هو

الذى استنّ ذلك. وقيل : إن عثمان قرن بين سورتى الأنفال وبراءة، مع أن الأنفال من السور المثانى، وبراءة من السور المئين، ولم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» بين السورتين، ووضعهما كسورة واحدة ضمن السور الطوال، وتعلل بأن الأنفال كانت من أوائل ما أُنزل فى المدينة، بينما براءة من أواخر ما أُنزل، ومع ذلك فإن قصتيهما كانتا متشابهتين، وقُبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن أنها منها أو أنها غيرها، فظن عثمان أنها منها، ومن ثم قرن بينهما ولم يكتب بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم» ؟!! وإذن يكون عثمان هو السبب. ولكن الأغرب من ذلك أن يقول صحابى مثل سعيد بن جبير - إن كان قد قال ذلك ولم ينتحل عليه : إن سورة براءة كانت فى طول سورة البقرة ؟!! فأين ذهب الباقى إذن ؟! وقيل : إن كتبة القرآن انقسموا فريقين، ففريق اعتبر السورتين سورة واحدة، وفريق اعتبرهما سورتين، فاتفقوا أن يدرجوهما ضمن المصحف مع تثبيت الرأيين، فجعلوهما سورتين ولم يفصلوا بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم. وقيل : إن علياً قال إن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان ! وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم، رحمة، وبراءة نزلت سخطة. وقيل : إن السبب إن جبريل لم يتلها على النبىّ ﷺ ببسم الله الرحمن الرحيم ! وكما ترى فإنها جميعاً أسبابُ واهية، فما ضرر بسم الله الرحمن الرحيم لتُحذَف منها إن كانت السورة سخطة أو نقمة؟ وما معنى أن الرسول ﷺ توفى ولم يأمر ببسم الله الرحمن الرحيم فى بدايتها ؟ أليست العادة أن كل سورة تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم دون أن يُذكَر أن النبىّ ﷺ خصّها بذلك أو لم يخصها ؟ وكيف تكون قصة الأنفال شبيهة بقصة براءة، مع أن كل قصة وكل سورة لها مقاصدها وغاياتها وتوجهاتها، وكانت الأنفال لعموم المسلمين بشأن الحرب والمغانم، بينما براءة لإلغاء العهد مع المشركين، وإدانة أهل الكتاب وفضح المنافقين ؟!ومن الواجب إذن تصحيح هذا الوضع، فبسم الله الرحمن الرحيم تَشرُف بها سور القرآن، وهى جزء من كل سورة، وموجز لكل سورة مهما كانت موضوعات السورة، وتلخص دعوة الإسلام فى التوحيد، وتعرّف باسم الله، وبأشرف أسمائه تعالى. فماذا عليها أو على السورة لتُحرَم من هذا الشرف الكبير ؟! وربما يكون الإصرار على حذفها تذكيراً بتاريخ هذا الخلاف، فإن أُدرجت ضمنها «بسم الله الرحمن الرحيم» يُنسَى هذا التاريخ ويسقط من ذاكرة المسلمين.

وسورة براءة بلاغٌ للمشركين والكفار من أهل الكتاب والمنافقين، وتنبيهٌ لهم، وإعلانٌ للحرب على الشرك والكفر والنفاق، ولولا نزول سورة براءة لما استشعر المشرك أنه مشرك، ولا الكافر من أهل الكتاب أنه كافر، ولا المنافق أنه مفسدٌ فى الأرض، ولاستمر

كلٌ فى حياته العادية، وكأنما كان نزول الإسلام حركة انقلاب تحولت بها زعامة العرب من فئة الكافرين إلى فئة المؤمنين ولا أكثر من ذلك. ولكن سورة براءة وضعت حداً للمشركين والكفار والمنافقين، ونحّتهم عن الحياة العامة، ومنعت أن يكون لهم الغلبة على التكوين العام للعقلية العربية، وطبعت المجتمع بالطابع الإسلامى الصرف، وميّزت المسلمين عن غيرهم، وأوضحت بشكل لا لبس فيه أهداف الإسلام نحو إنشاء الدولة الإسلامية، والتأسيس لنوعية التربية والتعليم الإسلاميين. وفضحت السورة المعارضين، وأوجزت فى عبارات بليغة نقدها لفلسفاتهم، ودللت على تفاهة معتقداتهم وتهافت مذاهبهم التى يصدرون عنها، وأعلت من شأن الإسلام وكلمة الحق والدين، وجعلت السورة مهلة أربعة شهور لمن كانت بينه وبين رسول الله ﷺ عهود، ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر يتم له عهده، كقوله تعالى: **﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)﴾**، ولم يبدأ الرسول ﷺ بقطع العهد ولكن الذى قطعه كان أهل مكة، وذلك أنه كان قد تصالح وقريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب، فعدَت بنو بكر على خزاعة ونقضوا العهد، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح والرجال، فانهزمت خزاعة، فكان ذلك نقضاً لصلح الحديبية، وذهب الخزاعيون إلى الرسول ﷺ مستغيثين به، فقال: «لا نُصرتُ إن لم أنصر بنى كعب» - يعنى خزاعة، وتجهّز الرسول ﷺ إلى مكة ففتحها سنة ثمان هجرية، واتجه إلى هوازن وكانت وقعة هوازن يوم حنين فى أول شوال سنة ثمان، وحاصر الطائف، ثم انصرف إلى الجعرانة، وفى رجب من سنة تسع اتجه إلى غزوة الروم التى هى غزوة تبوك، ونزلت براءة قبل الغزوة وأثناءها وبعدها. والسورة فيها جواز نقض العهد، وقيل إن العهد قد نُسخ ولم يكن ذلك نسخاً وإنما نقضٌ له أسبابه، وأعلن النقض يوم الحج الأكبر - وهو مصطلح إسلامى، قيل هو يوم عرفة، وقيل هو يوم النحر، والصحيح أنه يوم النحر، وسمى يوم الحج الأكبر بقول النبىّ ﷺ فيه: «هذا يوم الحج الأكبر»، كمقابل لقول الناس الحج الأصغر، وبناءً على إعلان براءة الله ورسوله من المشركين، لم يحج مشركٌ عام حجة الوداع الذى حجّ فيه النبىّ ﷺ. ويوم الحج الأكبر: يهراق فيه الدم، ويوضع فيه الشَّعْر، ويُلقَى فيه التفَث (الوسخ)، وتحل فيه الحُرم، وهو يوم الحج كله.

وفى السورة أن الشهور الأربعة هى الشهور الحُرم، أو شهور العهد، وإذا انسلخت، يباح قتل كل مشرك باستثناء المرأة والراهب والصبى والزَمِن، وتُمنع المُثلة؛ وقيل إن الآية: **﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ**

كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾، هي آية السيف، وأنها تنسخ كل آية في القرآن في ذكر الإعراض عن المشركين، والصبر على أذى الأعداء. والصحيح أنها لم تنسخ أياً من هذه الآيات ولم تنسخها بدورها الآية: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً (٤)**﴾ (محمد)، يعني لا يُقتل أسيرٌ صبراً، فإما أن يُمَن عليه وإما أن يُفَادى. وقيل: إن هذه الآية الأخيرة من سورة محمد تنسخها آية السيف، فإنه لايجوز مع الأسارى من المشركين إلا القتل. والصحيح أن الآيات كلها محكمة، لأن الإعراض، والصبر على الأذى، والمن، والقتل، والفداء في الأسرى، كل ذلك لم يزل من حكم النبيّ ﷺ من أول حرب حارب فيها المشركين، وهي يوم بدر، بدليل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)**﴾، وهي حالات ليس فيها القتل المباشر، وفيها التخيير، والقتل فيها معلقٌ على الشرك، ومتوقف عليه، فإذا زال الشرك زال القتل بزواله. وكيف يكون القتل مباشرة وهو تعالى يقول: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦)**﴾، يعني أنه لا يُقتل، وأن الحربي إذا وجد في طريق بلاد المسلمين وطلب الأمان، فلا يؤذَى، ويُردّ إلى مأمنه، وكذلك التاجر لا يتعرض له حتى يبيع، ولاتجعل الآية: ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ(١٧)**﴾للمشركين تولّي أحكام المساجد ودخولها. ويثبت الإيمان لمن يعمر المساجد بالصلاة فيها ويصلحها وينظّفها.

وفي السورة عن يوم حنين أن المسلمين أعجبتهم كثرتهم فلم تُغن عنهم شيئاً، وانهزموا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وولّوا مدبرين، وأنزل الله سكينته على رسوله والمؤمنين، وأنزل ربّ الجنود جنوده وعذّب بهم الذين كفروا، قيل كان النبيّ يحصبهم بالحصيات، ويقول: «انهزموا وربّ محمد»، فانقلبت المعركة ضد الهوازيين، وفي هذه الغزوة أباح الرسول ﷺ سلب القتلى، ولهذا صارت لغزوة حنين أحكامٌ ضمن الأحكام. وحنين وادٍ بين مكة والطائف.

وفي سورة براءة: أن المشركين نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام، وذلك عام في سائر المساجد، وكان ذلك التحريم سنة تسع هجرية. وآية القتال في السورة لأهل الكتاب هي الآية: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)**﴾. والجزية لا تقبل إلا من أهل الكتاب خاصة. وهم أهل الذمة، وأقلها دينار عن الفرد البالغ الغني

والفقير الحرّ، ويخفف عن الضعيف. وأما أهل الصلح فما صُولحوا عليه، ومن يُسلم تسقط عنه الجزية، ومن يدفع الجزية يدفعها عن يد، يعني بنفسه غير مستنيب فيها. وأهل الكتاب هم النصارى واليهود، وهؤلاء هم الكفار، لأنهم قالوا مثلما قال الذين كفروا، فاليهود ألّهوا عزير، واعتقدوا ما كتبه من الأسفار هو توراة موسى وألواحه، وأنه مُوحَى إليه ولا ينطق عن الهوى، وما كان من الممكن أن يكتب الأسفار دون أن يكون بمثابة الابن لله وقد آثره الله بعلمه؛ والنصارى قالوا المسيح ابن الله، أرادوا بذلك عكس ما أراد اليهود، فاليهود أرادوا ببنوة عزير لله أنها بنوة رحمة، وأما النصارى فأرادوا ببنوة عيسى لله بنوة نسل، واتخذ اليهود أحبارهم أرباباً، واتخذ النصارى رهبانهم أرباباً، وما أُمرت الطائفتان إلا ليعبدوا الله الواحد لا إله إلا هو سبحانه عمّا يشركون، وكثير من هؤلاء وهؤلاء ليأكلون السُّحْت، ويشهدون بالباطل، وينكرون الحق. وقد أُمر المسلمون أن يقاتلوا المشركين كافةً لّما ثبت أن المشركين يقاتلونهم كافة، إلا فى الشهور الحرم، ولا يحاولون أن يؤخّروا شهراً منها أو يقدّموه، كما كان المشركون يفعلون. وتأخير الشهور أو تقديمها كان يسمونه النسيء. وتحضّ السورة المسلمين على القتال، وتستنفرهم، وتعيب عليهم أن يثاقلوا إلى الأرض. وتروى كيف نصر الله تعالى نبيّه إذ أخرجه المشركون ثانى اثنين، والأول هو أبو بكر، سمّته «صاحبه»، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا (٤٠)﴾، وذلك من فضائل أبى بكر، ودليل على أنه الخليفة بعد النبىّ ﷺ. وتعيب السورة على المسلمين قعودهم عن الانتصار للنبىّ ﷺ، واستصعابهم للسفر معه إلى تبوك، ولو كانت المسافة أقرب لاتّبعوه. وتأخذ على النبىّ ﷺ أن وافق على استئذانهم ولم يتبين صدقهم فيه، وما كان استئذانهم فى الحقيقة إلا لأنهم ما كانوا مؤمنين، وارتابت قلوبهم، ولو خرجوا مع المسلمين لأسرعوا فيما بينهم بالإفساد والإيضاع. ومن علامات هؤلاء المنافقين أنهم لا يأتون الصلاة إلا كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون، ويحلفون أنهم من المسلمين، وما هم منهم، ويلمزون النبىّ ﷺ فى الصدقات، أى يطعنون عليه، فإن أعطاهم منها رضوا، وإن لم يعطهم سخطوا، مع أن الصدقات لا يستحقونها ولها منصرفاتها؛ وبيّنت السورة سبع منصرفات للصدقات، والمقصود بها صدقات الفرض؛ وأوُلى هذه المنصرفات الفقراء، ثم المساكين: والفقير أحسن حالاً من المسكين، وله بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين لا شيء له ، وأشد حاجة من الفقير، ويستوى فى الصدقات أن يكون مستحقاً مسلماً أو ذمياً، فكلاهما تجوز عليه الصدقة. ومن المستحقين : العاملون عليها: وهم جُباة الصدقات، وكانوا يتقاضون على ذلك ثمناً لتعطيلهم أنفسهم لمصلحة

الفـقراء؛ **والمؤلفـة قلوبهم**: وذلك مصطلح لم يرد في القرآن لغيـر قسم الصدقات، وكانوا في صدر الإسلام **يتألّفون** بعض الناس، بدفع **سهم** من الصدقة إليهم، لضعف يقينهم، وكان هؤلاء لايُسلِمون بالإقناع ولا حتى بالقهر والسيف، إلا بالمال. وقيل المشركون **ثلاثة** : صنف يرجع بإقامة البرهان، وصنف بالقهر، وصنف بالإحسان. ومن هؤلاء الأخيرين: **المؤلفة قلوبهم**، وكان منهم **عيينة بن حصن**، وكان مغموزاً عليه؛ ومنهم متفاضلون **كالحارث ابن هشام، وحكيم بن حزام وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل** بن عمرو، ومنهم دون ذلك. وعُدّ من المؤلف قلوبهم **أبو سفيـان بن حرب**. ومن الصدقات يجوز أن تشترى الرقاب فتعتق، أو تُفَك، أو يعان في ثمنها. **والغـارمون** ممن يستحقون أن تشملهم الصدقات، هم الذين ركبـهم الدين ولا وفاء عندهم؛ **وفي سـبيل الله** : هم الغزاة ومـوضع الرباط، يعطون ما ينفقون في غزوهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء؛ **وابن السبيل**: والسبيل هو الطريق، وابن السبيل هو المسافر الذي تنقطع به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله.

وتعظ السورة النبيّ ﷺ والمؤمنين أن يـجاهدوا الكفار من أهل الكتاب والمنافـقين، وأن يغلظوا عليهم، فبعضهم من بعض، يأمـرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويقبضـون أيديهم، وبعضهم قال **كلمة الكفر** بعد إسلامه، أي سبّ النبيّ والإسلام، وبعضهم يلمز المطّوعين من المؤمنين فيمـا يقدمونه من الصدقات، وبعضهم قعـد عن القتال بدعوى شدّة الحر، وهؤلاء هم **الخوالف**، فلم يستعن بهم بعد تبوك، وأُمر المسلمون أن لا يصلّوا على الخوالف إذا مـاتوا، مثل **عبـد الله بن أُبيّ بن أبي سلول**، وتطلق السورة على المعتـذرين بغير عذر من الخـوالف اسم **المعـذّرون**، وأما الضعفاء والمرضى والذيـن لا يجدون ما ينفقون فهؤلاء لهم أعذارهم حـقاً ولا تثريب عليهم. **والأعـراب** أشد كفراً ونفـاقاً من المنافقين، وهؤلاء هم أهل الـبـوادي من حـول المـدينة ومن أهلهـــا، ومنهم من يؤمن بـالله وينفق بإخلاص قربات إلى الله. ومن المنافقين **أصحاب المسجد الضرار**، اتخذوه ليكون مركزاً لهم لنشر إشاعاتهم والتفريق بين المسلمين، فأحـرقه المسلمون وهدموه، وأُمروا أن لا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولي قربى، ومثلهم كمثل إبراهيم، فقد وعد أباه أن يستغفر له، فلما تبيّن له أنه عدو الله تبرّأ منه. ولقـد تاب الله على النبيّ ﷺ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في **ساعة العُسرة**، من بعد ما كاد يزيغ قلوب بعضهم؛ **وساعة العسرة** هي التي اشتد فيها القتال وبلغ الجـوع والعطش بالمسلمين مداهما. وكذلك تاب على **الثـلاثة المخلّفـين**، وهـم: **كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمـية الواقفي**. وما كـان على المسلمين أن ينفروا **كافة**، فالجهاد ليس على الأعيان، والرسول ﷺ يعزّ عليه معاناتهم،

ويحرص عليهم ويرأف بهم، فإن تولوا بعد كل ذلك - والخطاب للنبيّ ﷺ ولأمة الإسلام من بعده، فحسبه الله لا إله إلا هو، وهو ربّ العرش العظيم. والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٥٩١. ﴿سورة يونس﴾

السورة مكية، وكما قيل إلا الآية: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤)﴾، فإنها مدنية، ونزلت في اليهود، وهناك أقوال أخرى بأن آيات أخرى من السورة مدنية، إلا أن السورة في عمومها متناسقة، ومعانيها متوافقة، ويطبعها جميعها الطابع العام للسور المكية، من حيث الاهتمام بأصول العقيدة، ومناقشة معانى الإيمان بالله، والاستدلال على وحدانيته، والبرهنة على البعث والجزاء، والاستشهاد بقصص الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة، والتنبيه إلى عظمة القرآن، وأنه المعجزة التى انفرد بها النبيّ ﷺ. وهذه السورة فى المصحف هى العاشرة في الترتيب، وفى التنزيل هى الواحدة والخمسون، وكان نزولها بعد سورة الإسراء؛ واسمها سورة يونس، لأنها تحدثت ضمن من استشهدت بهم من الأنبياء كنوح وموسى وهارون، عن موقف النبيّ يونس مع قومه، ورغم أن نصيب يونس من السورة آية واحدة، وتأتى فى آخر السورة، إلا أن قوم يونس كانوا جميعاً من المؤمنين، على عكس قوم نوح وموسى وهارون، فاستحقوا مصيراً مختلفاً عن مصائر أقوام الأنبياء الآخرين، بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾، وفى الحديث الصحيح: «عُرض علىّ الأنبياء، فجعل النبيّ يمر ومعه الفئام (أى الجماعة) من الناس، والنبيّ يمر معه الرجل، والنبيّ معه الرجلان، والنبيّ ليس معه أحد ...» ثم ذكر كثرة أتباع موسى، وكثرة أُمته ﷺ، كثرة سدّت الخافقين. والغرض أن قوم يونس كانوا نسيج وحدهم، ومضرب الأمثال فى الإيمان، وهم أهل نِينَوَى بالعراق، فلما هجرهم يونس وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، أقرّوا بالتوبة، ولبسوا المسوح، ولجأوا إلى الله نادمين، فعاد إليهم يونس فكشف عنهم العذاب، فصاروا عبرة المعتبر، ولعل كفار مكة يتعظون بقصتهم.

وتبدأ سورة يونس بالحروف المقطّعة ﴿الٓر﴾ (ألف لام راء)، كخمس سور أخرى، هى بحسب ترتيب التنزيل: يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم إبراهيم. وهذه الحروف من حروف الأبجدية، إشارة إلى أن القرآن هو من هذه الحروف البسيطة التى

يعرفهـا الجميع، ولكن ما مـن أحد يستطيع أن يأتى بمثل سور القـرآن، أو حتى بآية، ولو ظاهر بعضُهم البـعض. وقوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ①﴾ قسمٌ بـهذه الحروف بأن آيات هذا القرآن المعجز منها، وفيها الحكمة كلها، كقوله: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ①﴾ (هود)، والحكيم هو المحكم: يحكمه الحلال والحرام والحدود؛ أو هو الحاكم: يحكم بالحلال والحرام، ويحكم بين الناس بالحق، كـقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ②①③﴾ (البـقرة)، أو هـو المحكوم فـيه ـ أى فـى الكتاب، يحكم الله فيه بالعدل والإحـسان، والنهى عن الفحشاء، والمنكر، ويحكم بالجنة للمطيعين، وبالنار للعاصين؛ والحكيم: هو المحكم من الباطل، فلا كذب فيه ولا اختلاف. ولهذا قيل إن قريشاً لم تستصغر القرآن، وإنما كـان استصغارها لمحمد ﷺ، فكبر عليها أن يكون هو بالذات مبعوث الله بهذا القرآن، كقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ②﴾، وفيه تعجُّبٌ من موقـفهم، وتوبيخٌ لهم، فليس عجباً أن يُوحَى إلى رجل منهم، ولكن اعتراضهم كـان لسبب آخر، قالوا: مـا وجد الله من يرسله إلا يتـيم أبى طالـب ؟! ولما استمعوا لنذارته وبشارته تعجـبوا أكثر ونسبوا إليه السـحر، وكأن مـا يقوله القرآن فى الله تعالى لايعدو كلاماً ساحراً، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ③﴾، ويعدّ كبرهان له آياتـه تعالى فى الكون، فهو الذى يبـدأ الخلق ثم يعيده، وجعل الشـمس ضياء والقمر نوراً، والناس حـيال هذه الآيات إما غـافلون ـ وهؤلاء إيمانهم فقط بهـذه الحياة الدنيا، وإما مؤمنون صـالحون ولهم الجنة: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ①⓪﴾، ولو عجّل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب لتوفّاهم، ولقد أهلك القـرون الأولى لمّا ظلموا وجاءتهم رسُلهم بالبينات، وهؤلاء الكفرة من أهل مكة تنزّل عليـهم القرآن فما آمنوا، وطلبوا تبـديله، وفرق بين تبديله وأن يأتى بقرآن آخر، فالقرآن الآخر لا يجوز أن يكون النبىّ المنزّل عليه محمداً، وأما التبـديل فيجوز. وتبديله يعني إسقاط ما فيه من تعييب لآلهتهم، وتسفيه لأحلامهم. ولو شاء الله ما أعلمهم بالقرآن أصلاً، وما أرسل النبىّ ﷺ إليهم، وليـتهم عبدوا إلهاً ينفعهم، أو ليت ما يعـبدون يشفـعون لهم حـقيقـة يوم القيامـة ؟! وما كان الـناس فى أول الخلق إلا أمة واحدة، وكانوا يعـبدون الله، ثم كثروا واختلفـوا، وأهل مكة طالبوا النبىّ ﷺ بآية من الله، ولـم يعجبـهم القرآن كآية، مع أن الآيات فى أنفسهم ومن حولهم، فلو مـسّهم الضر يصرخـون بالإيمان، أفليس فـى ذلك آية ؟ وإذا ارتفع عنهم الضر عـادوا للعصـيان؛ وإذا

كانوا فى البحر وعصفت الريح دعوا الله مخلصين، ولو أنجاهم عادوا للبغى في الأرض ! وكأنهم قد أطمـأنوا للدنيا مع كثرة ما تنزل بهم نوازلهـا، ولكنها محبة أن يعـيشوا وتطول أعمارهم، فالدنيا تعجبهم، ويجدون فـيها زخارفها وزيناتها، مع أنه كلما ازيّنت كان ذلك إيذاناً بنهايتها المرتقـبة، والله لا يدعو للدنيا وإنما لدار السـلام - أى الجنة، سـمّـاها «دار السلام» لأن من يدخلها يسلم من الآفات، والسلام لاينقطع عن أهل الجنة، وهو تحيتهم، ويسميـها لذلك «الحسنى» ، ويعد بها الذين أحسنوا فى الدنيا ويعدهم بالزيادة عليها بأن يغفر لهم من الله تعالى؛ وأما المسيئون فجزاء السـيئة بمثلها، ويحشرون جميعاً ويزال بينهم - أى يفرّق، وتُبلَى كل نفس ما أسلـفت؛ والله هو الرزّاق، والمحيى والمميت، وهو الحق، فهل فيمن يدعون من دون الله من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ وهل منهم من يهدى إلى الحق ؟ وليس ما يعبدون سوى الظن، والظن لا يغنى من الحق شيئاً. وهذا القرآن لو كان محمد قد افتراه، لكان من الممكن أن يفترى غيره مثله، فهل بوسع أحد من البشر أن يأتى بسورة مثله، ولو يستعينون بمن يشاءون ؟ ومحال أن يستطيعوا، لأنهم ما حصّلوا من العلم شيئاً، وما يعلمون تأويل القرآن ليقلدوه، وليسوا جـميعاً سواء حتى فى الكفر، ومع ذلك فليس كل أهل مكة كافرين، فمنهم المؤمنون وإن لم يصـرّحوا، ويكتمون إيمانهم، وليس من ردٍّ على أهل الكفر إلا أن يقـال لهم: إن لكل أعماله : المؤمنون والعصـاة، وأنّ كلاً لبرئ مما يعمل الآخر، وأن لكل أمـة رسولاً هو الشهيد عليها، والله لا يعـذّب حتى يبعث رسله، ولكل أمة أجل، فلا يستـعجلون آجالهم، ولا يتعجلون العذاب يـنزل بهم، فالعذاب قادمٌ لا محالة، وهـو عذابٌ أبدىّ. وأما أوليـاء الله فلا خوف عليـهم ولا هم يحزنون، ولهم البشرى فى الدنيا والآخـرة، ولا يفلح الذين يفترون على الله الكذب. وهذا نـوح كـذّبه قومه، فنجّاه الله ومن مـعه فى الفُلك، وبعث من بعده مـوسى وهارون إلـى فـرعـون، فاعتقدهما ساحرين، وأبطل الله سحر فـرعون، وكان فرعون من العالين والمسرفين، وقال موسى وقـومه: ﴿ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا (٨٥)**﴾، ودعوا ربّهم فـقالوا: ﴿ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)**﴾، ودعا مـوسى على فرعـون وقال: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)**﴾، واجيبت دعوته، وجاوز به الله وبقـومه البـحـر، وأتبعـه فرعـون وجنوده بغـياً وعـدواً، حـتى إذا أدركه الغـرق قال: ﴿**آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)**﴾، ونجّاه الله ببـدنه ليكون لمن خلفه آية يشهدها قومه. وهذا هو القصص الحق، وكل من يشك فى هذا القصص فليعد إلى كـتب

اليهود ويستشيرها، وسيجد أن قصص القرآن هي الحق، وما عداها باطل، فما أكثر ما حُرِّف في كتب اليهود، وما شوّه من القصص الديني فيها. فحقّت عليهم كلمة الله، أي غضبه وسخطه، وما كان كل الناس سواء في الإيمان بالرسُل. وما كان لإنسان أن يؤمن إلا لو عقل، ومن لايعقل عليه الرجس، وما تغني البراهين والدعوة والدلائل لقوم لا يؤمنون، ومن يشك في القرآن فليعبد من يرتضي أن يعبد، فالمسلمون لا يعبدون إلا الله، وهذا القرآن هو الحق، قد تنزّل من عند الله، فمن يؤمن به فقد اهتدى، وإنما يهتدي لنفسه، ومن يُضل فإنما يضل عليها. وتنتهي السورة بدعوة المؤمنين إلى أن يتبّعوا ما أُوحي إلى نبيّهم من القرآن والسُّنّة، وأن يصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

وفي هذه السورة يأتي الحلف من الله يعلّمه لرسوله ﷺ ، يقول تعالى: ﴿**وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** (٥٣)﴾، و«إي» كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم. والحلف منه تعالى بطريق نبّيه ﷺ في القرآن كله يأتي مرتين بخلاف هذه المرة السابقة ، يقول: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** (٣)﴾ (سبأ) ، ويقول: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ** (٧)﴾ (التغابن).

ومن فقه هذه السورة أنه في أوقات الفتن على الناس أن يتخذوا من بيوتهم مساجد كلما خافوا حاكماً كافراً أو حكومة مستبدة تجور على المسلمين بقوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** (٨٧)﴾. ومن براهين البعث: أن كل شيء له بداية ونهاية، ثم تكون بداية أخرى وهكذا ﴿**إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** (٤)﴾. ومن براهين حرية العقيدة للناس مقالة النبيّ ﷺ : ﴿**وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** (١٠٨)﴾، ونفى وكالته للناس يعني أنهم أحرار يختارون أن يؤمنوا أو يكفروا، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها. وفي قوله تعالى للنبيّ ﷺ : ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** (١٠٩)﴾ ، أن الوحي له في حياته، وبعد مماته النصّ ما يزال قائماً صالحاً ويخاطب المسلمين كلهم، وفَهْمُهم لخطاب القرآن ليس بوحي من جبريل، وإنما من ضميرهم - ضمير المسلم الذي شكّله القرآن وطبعته السُّنّة، وقوله: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** (١٠١)﴾، يعني عليهم البحث في كل العلوم بلا استثناء، والعلم في القرآن هو العلم الشامل. وفي قوله: ﴿**كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** (٣٣)﴾ ، قيل إن الآية دليل على القدرية ، والصحيح أن «حقّت كلمة ربك» لا تعني أن القضاء بالكفر سبَق عليهم، ولكن المعنى أنهم لما فسقوا وفعلوا أسباب الفسق صاروا فاسقين، فحقّ عليهم - أي صَدَق - أنهم لا يؤمنون. والحمد لله ربّ العالمين. على نعمة الإيمان دائماً أبداً.

●●●

٥٩٢. ﴿سورة هود﴾

السورة مكية، آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية، وكان نزولها بعد سورة يونس، وترتيبها في المصحف الحادية عشرة، وفي التنزيل عموماً هي الثانية والخمسون، وقيل إن الآيتين: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ (١٧)﴾، و﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ (١١٤)﴾مدنيتان، لأنهما تتحدثان عن موضوعات مدنية وربما كانت الآيات المدنية أكثر من آيتين كالآية: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ (١٢)﴾.

وفي سورة هود الكثير من الحديث عن: الظلم والطغيان، وعن قصص الأنبياء، وهلاك الأمم، ومن آياتها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾، قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه». وروُى أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! قال: «شيبتني هود وأخواتها»، وأخواتها من أمثال: «الحاقة»، و«سأل سائل»، و«إذا الشمس كورت»، و«القارعة»، مما يرد فيها من مشاهد العذاب، وصراع الخير والشر، والإيمان والكفر، ومما تحفل به من الأحاديث عن مصارع الجبّارين والعصاة. و«الاستقامة» في الآية: هي الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، وهي الامتثال على عبادة الله الواحد، وعدم الإشراك به، والتوبة مما سلف، وترك الطغيان والجبروت. والسورة تبدأ مثل خَمس سور أخرى - بالحروف المقطّعة ﴿الر﴾(ألف لام راء)، من حروف الأبجدية، تنبيهاً إلى إعجاز القرآن، وأنه مؤلف من هذه الحروف وأمثالها، ومع ذلك فإن آياته التي تتركب منها هي آيات لايمكن أن يركّب مثلها إنسان ولا أُمّة، لأنها من لدن الله الذي أحكمها وفصّلها على مقتضى إرادته تعالى، يبيّن بها الحق، ويُزهق الباطل، ويروى من القصص ما فيه حكمة وإرشاد وتوجيه، ويأتي بالأحكام بحسب الأحوال والوقائع، والهدف من ذلك إبلاغ الناس أن هذه الأكوان والأزمان، هي من خَلْق إله واحد لاشريك له، هو الله، القادر على كل شيء، والمدبّر لكل أمر، ولا تخفى عليه خافية، وكل شيء عنده في كتاب مبين. وكان الكافرون كلما قيل لهم إنهم مبعوثون بعد الموت يقولون: ما هذا إلا سحر مبين؛ وجواب الله تعالى: أنه خَلَق الخَلْق ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وليبتليهم بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث، وأن مَن خَلَق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، لقادر على أن يعيد الناس إلى الحياة بعد الموت. وكان بوسعه أن يخلق كل شيء بكُن، ولكنه خلقه في ستة أيام، ليحثّ

خلقه على التأنيّ في الأمور. وقبل السموات والأرض كان الماء، فهو الأسبق في الخلق. ومع **البعث** يكون **الحساب والعقاب والثواب**. وقد يستعجلون العقاب ويتساءلون: وماذا يؤخّره إلى أمة معدودة؟ **والأمة هي الجماعة**، عبّر بها عن السنين والمدة ، لأن الأمة تكون فيها والأمم لها آجال، ولكل أمة عمر ومدة، وحين وزمان، والتاريخ ليس سنوات تنقضي ولكنه أحداث تُعرف بها السنين، والعذاب مؤجل إلى الآخرة، والآخرة موعده المحتوم. فلعل الرسول ﷺ لعظَم ما يراه من الكفر والتكذيب، يتوهم أنهم يزيلونه عن بعض ما هو فيه، فيضيق به صدره، وقد كانوا يطلبون منه لو ينزل إليه كنز، أو يصحبه ملَك، وما هو إلا نذير يتنزّل عليه القرآن بعلم من الله وبوحْيه. **والقرآن** في مجمله كتابٌ يشرح **الإسلام** ، ويُثبت أنه «**لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله إلى الناس**»، ويشهد القرآن على رسالته، والقرآن بدوره تشهد **التوراة** قبل تحريفها وتزويرها على صدقه، والتوراة سابقة في النزول على القرآن، وكان نزولها رحمةً على المؤمنين بها، وكذلك القرآن، صار الكتاب **الإمام** في الدعوة إلى الله، وكان رحمة لمن يؤمن به، ومن يكفر به من الأحزاب - أي سائر الملل، فالنار موعده، ولا محل شك في القرآن، وهو الحقّ من الله.

وتقسم السورة الناس إزاء الدعوة إلى فريقين : **فالكافرون** : هم الذين كفروا بربّهم، وصدّوا عن سبيله، وعدلوا بالناس عن الحق إلى المعاصي والشرك، وجحدوا الآخرة، فخسروا أنفسهم، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون؛ **والمؤمنون** : هم الذين أخبتوا إلى ربّهم - أي خشعوا له وخضعوا ، وعملوا الصالحات.

والفريقان - الكافر والمؤمن - كمثل رجلين، أحدهما أعمى وأصم، والآخر سميع وبصير، هل يستويان مثلاً ؟ والكافرون يوم الآخرة هم **فريق الأشقياء** ، وهم في النار، **والمؤمنون هم فريق السعداء**، ومكانهم الجنة خالدين فيها.

وتقص سورة هود القصص عن بعض الأنبياء، ممن عانوا في الدعوة، وعن بعض الأقوام جميعهم كانوا مثلاً في الجحود والإنكار. **وقصصهم من الواقع، وآثارهم** تدل عليهم، وبعضها مايزال قائماً، وبعضها أصابه البلى والتلف الشديد، ولكنه ما يزال هناك، كجذور الزرع بعد حصده، ماتزال تعلق بها التربة. وتمتلئ هذه القصص بتفاصيل لا يوجد مثلها في كتب الأقدمين، بل إن أنبياء **كشعيب وصالح وهود** لا وجود لهم البتة ، لا في كتب اليهود، ولا في كتب النصارى، حتى أن المستشرقين ليعجبون: **ماذا كانت مصادر محمد التي استعان بها وعرف منها قصصهم** ؟ وما كان محمد مؤلف قصص ولا قصّاصاً، ولكن كان رسولاً نبياً يُوحَى إليه من ربّ العالمين. وفائدة **القصّ القرآني** كما قال

تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾، يعني أن هذه القصص لتعين النبيّ ﷺ والمؤمنين على الصبر على ما ينالهم من الأذى بسبب إيمانهم بالله، وما أكثر ما يحتاج المسلمون إلى هذه القصص الآن في هذا الزمن الذى اضطُهدوا فيه أبشع اضطهاد حتى فى بلاد الإسلام، ليزدادوا تثبيتاً ويقيناً، وتُشَدّ بها قلوبهم، ويُصبّرون حتى لا يلحقهم الجزع. وقوله: «وجاءك فى هذه الحق» أى فى سورة هود جاءك القصص الحق، أن فيها أخبار الأنبياء والجنّة والنار، وخصّها الله تعالى بالذكر وإن كان الحق فى كل القرآن، وفيها عظةٌ وذكرى للمؤمنين. وهذا تشريفٌ لهذه السورة، لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكرى، ولم تُخصّص أياً منها كما خُصصت سورة هود. **وقصة نوح فى السورة هى أولى القصص**، ونوح هو الأب الثانى للبشرية، وكان **أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً وصبراً، وأول من قيل له كيف تكون نبياً وأنت لست سوى بشر؟ وما نرى إلا أن الأراذل اتبّعوك!؟** والأراذل: هم الفقراء من الطبقات الكادحة، فعابوه وعابوهم. من حيث لا عيب فيه ولا فيهم، لأن الأنبياء عملهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير صور الناس وهيئاتهم، ويُرسَلون إلى الناس جميعاً، إلا أن فقراء الناس هم الأسرع إلى الإيمان، وهؤلاء الفقراء لشدة بؤسهم هم **أول المتبّعين للرسُل**، وهم جمهور المؤمنين بهم وسوادهم، لأن الكبراء تستولى عليهم دائماً الرياسة، ويصعب عليهم الانفكاك عنها، وفيهم أنفة من الانقياد للغير، وأما الفقراء فهم خليّون عن تلك الموانع، ويسارعون إلى الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا، فإذا أسلموا لا يلحق الأنبياء منهم نقصان، لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من يُظهر الإسلام. واشتهر نوح **بالطوفان**، وبأنه صانع الفُلك، ونجّاه الله ومن معه وأهله إلا ابنه، وقال الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٤٦)﴾، وقيل: لم يكن ابنه وهو وقد كفر بأبيه، وهو فى الآية قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي (٤٥)﴾، فهو ابنه على الحقيقة، وقيل: كان ابن امرأته ولم يكن ابنه، وقيل: بل لم يكن ابنه لأنه قد جاء عن امرأته وامرأة لوط: « **فخانتاهما (١٠)**».(التحريم)، ومع ذلك فإن الخيانة لاتعنى أن يكون الابن ولد سفاح كما يزعم المرجّفون!!

وقصة هود هى **القصة الثانية**، وبها سُمّيت السورة «سورة هود»: أرسله ربُّه إلى قوم عاد، وكانوا أتباع كل جبّار، فجحدوا بآيات الله، وعصوا رسله، فجاء أمره ونجّى هوداً والذين معه من العذاب الغليظ بالريح العقيم. وقول هود: ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا (٥٦)﴾، اتخذه القدرية برهاناً على صدق مذهبهم، فقالوا

سميت الناصية ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب، فصارت منصوصة في المقادير، يعني أن الله تعالى قد قدّر الأعمال وكتبها على جباه أصحابها، وسمى الجبهة ناصية، لأنها تنصّ حركات العباد بما قُدّر لهم، فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي قررها الله تعالى لكل كائن قبل أن يخلقه. وهذا كلام فيه الكثير من المغالطة، لأن القدر في المقادير والكميّات، ومعناه أن كل شيء عنده تعالى بمقدار، باعتبار الخلْق والتكوين، وأما أفعال الناس فهم فيها أحرار، وعلى هذا يحاسبون، وكانت التكاليف، ولذلك وصف تعالى ناصية أبي جهل، فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)﴾(العلق)، يعني أن ما كان يصدر عنه من أفعال وأقوال كانت جميعها كاذبة وخاطئة باختياره وإرادته، وتحت مسئوليته، وليس أن الله قد كتب عليه الكذب والخطأ!

والقصة الثالثة هي قصة النبيّ صالح مع قوم ثمود، ودعوته فيهم هي نفس الدعوة تتكرر مع كل نبيّ: أن: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ (٦١) ﴾، والاستعمار من مصطلحات هذه السورة المباركة، واستعمركم فيها: يعني جعلهم عُمّارها وسكانها، وأطال أعمارهم فيها، وأمرهم بعمارة ما يحتاجون إليه من زروع وبيوت، ومصانع ومساقي، وحرث وغرس، وحفر وتشييد، وخلقهم لعمارتها، فسكناهم للأرض من نوع السُكنَى العُمْرَى، أي مدى العمر، وللإعمار، بالمقارنة بسكنى آدم وحواء في الجنة، وكانت من نوع السكنى الرُقْبى، أي لمدة معينة تُرقَب نهايتها، فمنذ أن قال لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (٣٥)﴾(البقرة) كان ينبغي أن يعرف أنها سكنى مؤقتة ثم تنقطع، وفي الحديث: «العُمْرَى جائزة لمن أُعمرها، والرُّقْبَى جائزة لمن أُرقَبها». أخرجه ابن ماجه.

والقصة الرابعة قصة إبراهيم: وكان أول من أضاف من الأنبياء، وكان كريماً وعنه ورث العرب الكرم، وبشّره الملائكة وزوجه: ﴿ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾، فضحكت زوجه، قالوا: ضحكتْ يعني حاضت، فقد كانت آيسة، والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وقيل: ضحكت سروراً بالأمن، أو لفرح إبراهيم. وكانت هاجر قد ولدت إسماعيل لإبراهيم، فتمنت سارة أن تلد ولداً، وبشّروها بأن الولد سيلد هو الآخر ولداً هو يعقوب، وليس صحيحاً ما قاله المستشرقون أن القرآن أخطأ فجعل إسحق أخاً ليعقوب، بقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾؛ فالمعنى: وبشّرناها من وراء إسحق بيعقوب. وبهذه الآية: يستدل على أن الذبيح في قصة إبراهيم هو إسماعيل وليس إسحق، لأن سارة بُشِّرت بإسحق ثم يولد له يعقوب! فكيف

إذن يمكن أن يفهم إبراهيم أنه يذبح ابنه إسحق وهو يعرف أنه يعيش ويلد يعقوب؟!وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ (٧٣)﴾ وبركاته، تدل على أن البركة هي منتهى التحية أو السلام، فنقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ونردّ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وذلك من آداب الإسلام في التحية.

والقصة الخامسة : هي قصة لوط مع قومه، وكانوا يأتون الذكران، وسُمّي لذلك الشذوذ الجنسي عندهم باسم اللواط - على اسم قوم لوط،وهؤلاء عذّبهم الله وأمطر عليهم حجارة من سجيل، والسجيل هو الطين لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣)﴾ (الذاريات).

والقصة السادسة: هي قصة شعيب مع قوم مدين، فلما ظلموا أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين - يعني موتى لايتحركون. والقصة السابعة: هي قصة موسى مع آل فرعون، وماكان فرعون برشيد، فأورد آله النار وبئس الورد المورود، أي بئس مقرهم الذي استقروا فيه. وتُختتم السورة بالحكمة: أن الله تعالى ما كان يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، وتوعّد الذين كفروا فقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ثم قال مخاطباً النبيّ ﷺ : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾. وقيل إن كعب الأحبار قال: خاتمة التوراه هي خاتمة هود، من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة، ولم أجد ذلك في أيٍّ من كتب موسى الخمسة، وكلام كعب من الإسرائيليات، والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٥٩٣.﴿سورة يوسف﴾

سورة مكية، إلا أربع آيات منها قيل إنها مدنية وتُقدّم للسورة، وهي الآيات: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾، والآية: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧)﴾. وآيات السورة جميعها إحدى عشرة ومائة، وترتيبها في المصحف الثانية عشرة، وفي النزول الثالثة والخمسون، وكان نزولها بعد سورة هود. والسورة قطعة أدبية عالية الأسلوب، فذّة في ألفاظها، فريدة في تعبيراتها، وفي أدائها كمال وجلال وجمال، وفي أحداثها رواء، ولوقائعها وجيب في القلوب، وهي وإن كانت مكية والسور المكية منذرة وتحكي عن الأهوال - إلا أنها نزلت في وقت توالت فيه النكبات على

الرسول ﷺ، فمـات عمه **أبـو طالـب** وهو الذى كان يجـيره ويحميـه، وماتت زوجه **خديـجة**،وهي التى كانت له بلسماً فى حنانها وحدبها وطُهرها، فخففت السورة من وقدة الشدائد،ومن وحشة الدار بلا زوجـة، وكانت تسلية للنبيّ ﷺ **ـ وكل قـصص الأنبيـاء كانت لتسليته والتخفيف** عنه،إلا **سورة يوسف** فكانت فرجاً بعد شدة، فلقد كادوا ليوسف حتى بيع وامتُهِـن، وعانى ضروب الأسْر، وما يزال قلبه يتوجـع مما لحقه من إخوته، وإذا بامـرأة، ملتاعـة تتهـمه، ويُلقَى به فى الـسجن، ويُتّـهم فى شرفـه، ويُمتـحن فى دينه، فيستـمسك بإيمانه، ويصبرعلى بلائه، ثم إن الناس تحـتاجه لعلمه فيخـرج من سجن كان يعيش فيه فى جُبّ تحت الأرض، إلى قصر منيف، يـتبوأ فيه أعلى المناصب، ويتحكم فى أقدار الناس، ويشرف على خزائن المال والغلال،وهكذا يدلل الله على أنه لاينسى أولياءه، وأن للصابرين حُسن مآب! وقيل: أُنزل القـرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على المسلمين زماناً، فقالوا: لو قصصتَ علينا؟ فنزل: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ(٣)﴾**،وكانت سورة يوسف من **سور القصص**،غير أن أقاصيص الأنبياء ظلت تتكرر فى القرآن بمعنى واحد في وجـوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة على درجات البـلاغة، إلاسورة يوسف لم يـكررهـا، فومع ذلك لم يقـدر مخالفٌ على معارضة مـا تكرر من القرآن ولا ما لم يتكررمنه لا، وكان الإعجاز في الحـالين. كما قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١)﴾**، أى كـان فى **قصـة يوسف وأبيه وإخوته** فكرةٌ وتذكرةٌ وعظةٌ لأصحاب العقول، وماكانت حديثاً يُفترى ولكنها متوافقة مع ما جاء منهـا من قبل في **التـوراة** وسائركُتب اليهود، مع فـارق أن قصة القرآن كانت بكل **التفاصيل**، رحمةً لمن يقرأها، وهُدىً لمن يعتبر بها. وهذه التفاصيل هى التى صنعت الفرق بين قصة القرآن وقـصة التوراة، وفى هذه القصة الأخيـرة ـ قصة التوراة ـ لم يَدْعُ يوسف إلى الله كدعـوته فى القرآن وهو فى السجن،ولما وَلِي الأمـر بحسب قصـة التوراة ـ تسلّط وبَغَى، وجاء إخـوته إليه فـاتّهمهم بأنهم جـواسيس وحبـسهم ثلاثة أيام،واعـتاد يوسف السُكر، واحتال حتى اشترى الأرض الزراعية كلها من الناس، ثم باعهم الطعام لقاء كل ما يملكون، حتى حياتهم نفسـها، وكانت فترة حُكمه من **أسـوأ الفتـرات**. ولـم تَجْرِ قـصة يوسف فى **ممفيس** من أرض مصر، وإنما فى **أرض جاسان** من مصر، وهى **محافظة الشرقية** الآن، وأسماء **العزيز**،**وفرعون**، **وزليخا**، **وفوطيفار** التى أوردتها قصة التوراة، كلها أسماء أجنبية على المصريين، وكان ذلك أيام حُكم **الهكسوس** لمصر، وكانوا **أشوريين**، وقيل فيهم

إنهم **الآسيويون**، والأشوريون والعبرانيون توأمان، واللغة العبرية توأم السريانية لغة أشور والهكسوس، والأشوريون بسطوا نفوذهم من شرق الدلتا على وسط الدلتا، وكوّنوا الأسرتين الخامسة عشرة، والسادسة عشرة. وجرت **قصة يوسف**، ثم **قصة موسى** من بعد ذلك، مع ملوك **الهكسوس**، أو ملوك **أشور**، وظل العبرانيون رعاةً يعملون في **جاسان**، وعملوا في الأعمال الدنيئة التي لا تحتاج إلى علم أوخبرة، كصناعة الطوب اللبن من الطمي والتبن.

وتبدأ سورة يوسف بالحروف المقطّعة: ﴿**الـر**﴾(ألف لام راء)، كغيرها من السور الأخرى التي كانت لها بداية كهذه البداية، ومن ذلك أن «**الر**» تبدأ بها **خمس سور** هي بترتيب النزول: **يونس، وهود، ويوسف، والحجر، وإبراهيم**؛ وهذه الحروف هي حروف **الأبجدية**، تنويهاً بأن آيات القرآن العظيمة، وقصصه الكريمة، وأحكامه الفهيمة، ومواعظه الحكيمة، وكل ما ذُكر فيه، إنما رُكّبت من هذه الحروف البسيطة، تحدّياً للعرب وغيرهم في وقت نزول القرآن وبعده، أن يستطيعوا أن يصنعوا ولو آية من آيات هذا القرآن الذي جعله الله عربياً بالروح وباللغة، لتُعلّم معانيه، ويُفهَم ما جاء به، ومنه هذه القصة الفريدة عن يوسف، وقد انتهت فيها الأمور أحسن نهاية، والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٥٩٤. ﴿سورة الرعد﴾

السورة **مدنية**؛ وآياتها **ثلاثة وأربعون** آية؛ نزلت بعد سورة **محمد**؛ وترتيبها في المصحف **الثالثة عشرة**، وفي التنزيل هي العاشرة؛ **وموضوعاتها**: الإيمان بوجود الله وبوحدانيته، وبأن القرآن هو كتاب الله المنزّل على نبيّه ﷺ، وبأن آيات الكون الدالة على كمال قدرته لا تُحصَى ولاتعدّ، وأنه تعالى بعث النبيّ ﷺ منذراً، ولكل قوم هاد، وكان إرساله ﷺ في أمّة قد خلت من قبلها أمم، ليتلو عليهم ما أُوحي إليه. ولقد كفروا بالقرآن وبالرحمن، مع أنه لو وُجد قرآناً تُسيّر به الجبال، أو تُقطّع به الأرض، أو يكلَّم به الموتى، لكان هو هذا القرآن الذي تنزّل على هذا النبيّ ﷺ. ولقد استُهزئ برسُل من قبله، فأملى الله للذين كفروا ثم أخذهم أخْذ عزيز مقتدر، وجعلوا لله شركاء، كأنهم يعرفونهم بأسمائهم وأشخاصهم، وكأنهم على يقين مما يقولون. وهذا القرآن هو الحق، وأهل الكتاب يسمعون تلاوته، فبعضهم يُسَرّ لسماعه، وبعضهم ينكره، مع أنه لايدعو إلا إلى عبادة الله، وماكانت لغته إلا لغة مَنْ أُنزل عليهم، ومثْله في ذلك مثل ما سبقه من كتُب أُنزلت من عند الله تعالى لأقوام غير العرب، ولم يشذ النبيّ ﷺ عمّن سبقه من

الأنبياء. وكانت لهؤلاء الأنبياء الأزواج والذرية، ولم يحدث أن افترى أحدهم على الله ولو بآية،وهو وحده تعالى الذى بيده أن يضيف ويزيد، وأن يُنقص ويمحو من كتابه، وعنده **أم الكتاب**،والنبيّ ﷺ ليس عليه إلا البلاغ، والله تعالى عليه الحساب. وتُختم السورة بالبرهان بأن الله غالبٌ أمره، وبأن المؤمنين هم المنتصرون، فما من يوم يمر إلاّ وتنضاف بلادٌ جديدة إلى بلاد الإسلام، ويدخل أناس جدد في دين الله، ولسوف يعلم من يكفر به تعالى، وبالبعث والنشور والحساب، لِمَنْ عُقبَى الدار. ويكفى بالنبىّ ﷺ أن يشهد له الله تعالى بأنه رسول، وهو العليم برسُله،وهوعنده علم الكتاب.

وتتناول «**سورة الرعد**» ظارة **الرعد** كآية كبرى من آيات الله، تتجلّى فيها قدرته، ولقد طلبوا من النبّىﷺ آية منه تعالى، **والرعد من آياته**، ومن أعظم هذه الآيات ، والرعد فيه البرق والمطروالصواعق، ويشدّ إليه الأنظار، ويصمّ الآذان، وينبّه الغافل الوسنان، وفيه البرهان لمن يتوخى التفكير ويعقل الأمور، والخوف لمن لايؤمن إلابالوعيد والتهديد، والرجاء بالخير للطامع فى مزيد كرمه تعالى، فمع الرعد يكون هطول الأمطار، ونزول الماء للأحياء، وحدوث الصواعق للإفناء، فسبحان من يجمع النقائض ويؤلف بين الماء والنار، وبين الرحمة والعذاب؛ وكان النبىّﷺ كلما يسمع الرعد يقول:«**سبحان من يسبّح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وهو على كل شىء قدير**».

وتبدأ «**سورة الرعد**» بالحروف المقطّعة ﴿**الٓمٓر**﴾(**ألف لام ميم** راء)، إشارةً إلى إعجاز القرآن، وأنه يتألف من **حروف الأبجدية** البسيطة التى نعرفها،ومع ذلك كانت آياته التى رُكّبت منها، آيات عظيمة مُعجزة، لو اجتمع الجن والإنس ليأتوا بمثلها ما استطاعوا، لأنها تنزيلٌ من الله تعالى، الذى رفع السماء بلا عَمَد، وسخّر الشمس والقمر، وهو الذى يدبّرالأمر، ويفصّل الآيات، لعل الناس بلقائه يوقنون.وفى السورة **أربع عشرة** آية كلها آيات مجال العلوم، مما يجرى بحثه فى معاهد العلم ومراكزه، ولا تختلف معانيها عمّا يقوله العلماء من تفسيرات ونظريات وثوابت علمية، ولاتشذّ عمّا أثبتوه عنها قيد أنملة،وكلها براهين مما يشتهر باسم «**برهان أن لكل حادث مُحدثاً**»، فالمحدثات لم تُحدث نفسها، والمُحدث هو الصانع ، فلو أن لكل حَدَث مُحدثا، فلا بد أن نصل فى النهاية إلى **المُحدث** أو **الصانع الأول**: **وهو الذى يُحدث ولايُحدَث، ويَصنَع ولا يُصنع**، وإلا أصبحنا فى دَوْر، والدور مستحيل.

ومن مصطلحات السورة: «**المُعقّبات**» وهم الملائكة الذين **يتعاقبون** بالليل والنهار؛ و«**شديد المحال**»: وهو المكر، صفةٌ من صفاته تعالى، والمكر منه عزّوجل هو التدبير بالحق،

وقيل: «شديد المحال» أى شديد النقمة ، أو القوة، أو شديد الكيد والأخذ والغضب والهلاك؛ وله دعوة الحق»: أى دعوة الصدق، والحق والدعاء به هو دعوة الحق، وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق، وأنه الدعاءعند الخوف، فإنه لايُدعَى عند الخوف إلا اللهّ؛ وقوله : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ(١٦)﴾ يعنى يلزم لذلك أن يعبده كل شيء، والآية ردٌّ على القدرية والملاحدة والليبراليين، الذين يدّعون أنهم يخلقون كما يخلق الله، ويتباهون باستنساخ النعجة دوللي؛و«عُقبى الدار»: عاقبة الآخرة، وهى الجنة للمطيعين، والنار للعصاة، ومثل ذلك «سوء الدار» ، أى سوء المنقلب، وهو جهنم؛ و«طوبى لهم» : قيل : طوبى اسمٌ للجنة ، وقيل معناها حُسْنَى ونُعْمَى لهم، من الطِّيب ، أى لهم الحياة الطيبة المستطابة؛ وقيل: طوبى شجرة طيّبة فى الجنة ، ولله الحمد والمنّة، ونسأله تعالى أن لا يتوفّانا إلا على الكتاب والسُّنّة ، آمين.



٥٩٥. ﴿سورة إبراهيم﴾

السورة مكية، وآياتها اثنتان وخمسون، وترتيبها فى المصحف الرابعة عشرة، وفى التنزيل الثانية والسبعون، وسميت باسم «إبراهيم» ، لأن الكلام عن إبراهيم غالبٌ فيها ، ولأنه أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وهو الذى أسكن بوادى مكة ولده إسماعيل وأمه عند البيت الحرام، ليجعله بيتاً تهوى أفئدة الناس إليه. وتبدأ السورة بالحروف المقطّعة«الر » (ألف لام راء)، كأربعِ سور أخرى هى بحسب ترتيب النزول: يونس، وهود، ويوسف ، والحجر، ثم إبراهيم، إشارة إلى أن القرآن مؤلفٌ من مثل هذه الحروف البسيطة، ومع ذلك كانت آياته معجزة، ولم يستطع إنسٌ ولاجان أن يأتى بمثلها، تنبيهاً إلى عظمة القرآن، وأنه تعالى أنزله على نبيّه ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، على سبيل تمثيل الكفر بالكلام، والإسلام بالنور. وكان نزوله بلغة العرب، فالرسُل هكذا يُرسَلون بلغات أقوامهم، ليبيّنوا لهم بها، ولقد أُرسل موسى بالآيات ـ أى الحجج والبراهين، قيل هى تسع آيات، وذكّرهم بأيام الله، أى بالأحداث التى وقعت لهم على مرّ الأيام، والتى نجّاهم الله منها، لعلهم يواصلون على الصبر والشكر، وما يشكر إلا الصبّار والشكور، أى كثير الصبر الشاكر دائماً وأبداً لله، وهو الذى إذا أُعطى شكَرَ، وإذا ابتُلى صبر، وفى الحديث أن النبىّ ﷺ قال: «الإيمان نصفان:نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شُكر» ثم تلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٥)﴾(إبراهيم)، وخصّ الله تعالى الصبّار الشكور بالآيات، لأنه يعتبر بها، ولايغفل عنها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ

مُنذِرُ مَن يَخشَاهَا﴿٤٥﴾ (النازعات) وكان **آل فرعون** يسومون بنى إسرائيل سوء العذاب، ويذبّحون أبناءهم، و يستحيون نساءهم، ومثلهم أقوام **نوح وعاد وثمود**، ومن جاءوا بعدهم، فما أقرّوا بالفضل، وردّوا على الرسُل أقوالهم،وكذبّوهم بأفواههم ، وحاجّهم رسُلهم: أفى الله فاطر السموات والأرض تشكّون؟ وتعلل المكذّبون بأنهم لن يؤمنوا لبشر مثلهم، وهددوهم بالإخراج من أراضيهم، فأهلكَ الله الظالمين وأسكن المؤمنين أرضهم، وخاب كل جبار عنيد مثل **أبى جهل** وهو المتكبّر العاصى الحرون. ويروى أن **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** كان من هذا الصنف من العباد، فتفاءل يوماً فى المصحف، فخرج له قوله تعالى: **﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴿١٥﴾﴾**،فمزق المصحف، فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتل شرّ قتلة. وتتطرّق السورة لمصير أمثاله يوم الدين، **فجهنم لهم بالمرصاد**، وشرابُهم فيها ماءٌ صديد، يتحسّوه جُرُعات وقد أُحيط بهم، فلا يُقضَى عليهم فيموتوا، ولايُخففَّ عنهم العذاب. ،**أعمالهم** فى الدنيا كرماد تذروه رياح يوم عاصف، فيما يستفيدون شيئاً من ضلالهم. وتتوالى مَشاهد الآخرة، **ويجتمع فى المشهد الواحد الضعفاء والمتكبّرون والشيطان**، وكلهم يتجادلون ويتلاومون، ويلقون الذنب على بعضهم البعض، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة وتحيتهم فيها سلام. وتضرب السورة مَثَل **الكلمة الطيّبة بالشجرة الطيبة**، أصلها ثابت فى الأرض، يعنى باق، وفروعها فى السماء، يعنى أنها رُفعت وحازت القبول وعليها الجزاء نعْم الجزاء، ونقيضها **الكلمة الخبيثة**، ما لها فى الأرض من قرار، والله يثبّت المؤمنين **بالقول الثابت** فى الدنيا والآخرة، وهو القول الطيب، والأقوال أفعال، وتصدر عنها أفعال وتدفع إليها أفعال، وخير **الأفعال** الصلاة والزكاة، وبهما يكون شُكر الله على نِعمه، وإن يعدّوا نعمة لايحصوها. وخير الأقوال **دعاء إبراهيم لمكة وأهلها، ولبيت الله المحرّم، وأن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** ، وقيل: لو قال **أفئدة الناس** لازدحم العالم بأسره على مكة، ولكنه دعا **«من الناس» فهم المسلمون**. ولم ينس نفسه بالدعاء، فحمد الله أن رزقه **إسماعيل وإسحق** على الكِبرَ ، وسأله تعالى أن يجعله وذريته أُمّة فكانت **أمة الإسلام**»، سُموا كذلك لأنهم **أسلموا لله**، وأقاموا له الصلاة، ولم ينس إبراهيم فى دعائه أن يسأل اللّه أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين . وتوجّه السورة الخطاب إلى النبىّ ﷺ ، تسليةً له وللمؤمنين: **أنه تعالى غير غافل عن الظالمين**، وإنما يؤخّرهم لليوم المعلوم، وإنه لرسولٌ نذير، ويضرب له وللمؤمنين الأمثال بما كان ممن سبقهم، فأماتهم وأورثهم مساكنهم، ولقد مكروا مكراً لتزول منه الجبال، والله لايخلف وعده ، ويوم الحساب يُقرَن المجرمون فى الأصفاد، وسرابيلهم من قطران، وتغشى

وجوههم النار. وتُختَتم السورة بأن هذا القرآن بلاغٌ للناس، ولِيُنذَروا به، وليعلموا أنما هو إله واحد، وليتّعظ أولو الألباب، ولله الحمد والمنّة، ندعوه تعالى أن لا يتوفّانا إلا على الكتاب والسُّنّة، آمين.

●●●

٥٩٦. ﴿سورة الحجر﴾

السورة مكية، إلا الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ فمدنية، لأن السبع المثانى هى السبع الطوال من سور القرآن وهى: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً، لأنه ليس بينهما تسمية، وجميعها سور مدنية إلا الأنعام والأعراف، ومن ثم قيل إن الآية مدنية. ومن قال إن الفاتحة هى السبع المثانى فإن سورة الحِجْر تكون كلها مكية. وكذلك من قال إن القرآن كله قيل له «مثانى» لأن الأنباء والقصص ثُنّيت فيه، جعل هذه الآية مكية. ومن ثم تكون السورة كلها مكية. وسميت السورة سورة الحجر لأنها تضمنت أخبار أصحاب الحِجْر، وهم قبيلة ثمود قوم صالح، وديارهم فى الحجر بين المدينة والشام، وكانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها وكأنهم مخلّدون، فأنذرهم صالح، وجاءتهم صيحة العذاب فأخذتهم مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. وآيات السورة: تسع وتسعون آية؛ وكان نزولها بعد سورة يوسف، وترتيبها فى المصحف الخامسة عشرة، وفى التنزيل الرابعة والخمسون؛ وتبدأ السورة بالحروف المقطّعة «الر» (ألف لام راء)، كما فى سور أخرى هى بترتيب النزول: يونس، وهود، ويوسف، ثم الحجر، ثم إبراهيم، تنبيهاً إلى أنه من مثل هذه الحروف كانت آيات القرآن المعجزات، تتحدى الإنس والجان، فما استطاع أحد أن يأتى بمثلها، ويوم القيامة يتبين للمكذّبين لمعجزة القرآن، بطلان دعواهم، حينما يرون العذاب، فيحينئذ ربما يودون لو كانوا مسلمين. وتُسلّى السورة النبىّ ﷺ والمؤمنين، بمقارنة ما يفعله المشركون من أهل مكة بالرسول ﷺ، بما فعله آخرون من أمم سابقة مع أنبيائهم وأهلكهم الله، ولكل أمة أجلها، وكذلك أهل مكة لهم أجلهم، فليستهزئوا بالنبىّ ﷺ فسوف يعلمون، وليتقوّلوا عليه أنه مجنون، وليغالوا فى طلباتهم أن يكون النبىّ إليهم مَلَكاً ليناسب أن يبلّغ عن الله، والملائكة لا تُستحضر بطلب الناس، ولا تتنزّل إلا لمهام مخصوصية بأمر منه تعالى. وليس صحيحاً أن محمداً يغيّر فى القرآن كيف يشاء، وأن شيطانه كان يزيد فيه (أى فى القرآن) وينقص، فالقرآن هو كتاب الله، والله هو الحافظ له، وما من آية يمكن أن يؤمنوا بها طالما أنهم ضلّوا عن سبيله تعالى فلا جدوى معهم، وما الحاجة إلى آيات تتنزّل والكون

كله آيات تثبت أنه لا إله إلا الله؟ فهلا تأملوا السماء وقد امتلأت بالبروج ، يستدل بها الناس على الطرقات والأوقات والخصب والجدب؟ وهلاّ رأوا الأرض كيف مدّها الله وبسطها على وجه الماء، وكيف مهّدها ودحاها كالكرة، وألقى فيها الجبال الرواسى لئلا تميد، وجعل فيها المعايش والمطاعم والمشارب؟ والرياح أرسلها لواقحاً فأنزل من السماء ماء ليشرب كل حيّ، وتُروى المزروعات؟ وهو الله يحيي ويميت، ويعلم المستقدمين الذين جاءوا إلى الدنيا، والمستأخرين الذين لم يولدوا بعد، وهو الذى يحشرهم يوم الدين ويجمعهم إليه جميعاً للحساب . والبراهين على وجود الله كثيرة، والكون حافل بها، ولكن أهل مكة لاهون بالأمل، ولايعنيهم سوى أن يأكلوا ويتمتعوا .**وطول الأمل** داء عضال ومرض مزمن، وإذا تمكن من القلب لا يفيد فيه دواء، وحقيقة الأمر الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحبّ لها، والإعراض عن الآخرة؛ وفى الحديث: «**أربعة من الشقاء: جمود العينين، وقساوة القلب، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا**»، وأهل مكة اجتمعت فيهم الخصال الأربع، فاستهزأوا بالنبىّ ﷺ ، وبالدعوة، ونادوه فقالوا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ⑦**﴾ وما كان الرسول ﷺ بدعاً بين الرسُل ، فما من أمة إلا كان لها رسول، وما جاءهم من رسول إلا استهزئوا به، وما كانوا ليؤمنوا وهم مجرمون طَبَعَهُم الكُفر، ولو جاءتهم كل آية من السماء ما آمنوا، ولسكَّروا أبصارهم وادّعوا أنهم لايبصرون، وأنهم مسحورون. وتورد السورة **أربع قصص** تسريةً عن النبىّ ﷺ ، وحفزاً لهمَم المؤمنين، وتصبيراً لهم، وتربيةً. **وأولى القصص**: هى **قصة الخلق**، وكيف بدأت مع آدم وقد أنكره **إبليس**، وسجود الملائكة لآدم، وأنه **سجود تحية وتكريم**، واعتقده إبليس **سجود عبادة**، والله يفضلّ من يريد، وفضّل آدم على الملائكة، وآثره على إبليس، فاستكبر الشيطان الرجيم، وحسد آدم وغار منه، وأقسم أن يغويه وبنيه، والله تعالى خلق الجنة للمطيعين، وجهنم للعاصين، وموعد إبليس والبشر أجمعين هو **يوم القيامة**، وجهنم سبع دركات، لكل دَرْك باب بحسب العصاة، وفيها **الدرك الأعلى** للخطّائين، **والدرك الأسفل** للمنافقين وآل فرعون. وأما **المتّقون** ففى جنات وعيون، لايمسهم نَصَب وما هم منها بمخرجين. **والقصة الثانية**: هى **قصة ضيوف إبراهيم** المرسلين من الملائكة، جاءوا يبشرونه بإسحق كآية من آياته تعالى ، فقد كان إبراهيم هَرِماً وزوجه عاقراً، وكانوا فى طريقهم إلى قوم لوط يصيبونهم بالعذاب، جزاء ما كانوا يذنبون، وأنجوا آل لوط إلا أمرأته كانت من الغابرين، وقُطع دابر الظالمين مصبحين، وأخذتهم الصيحة وأُمطروا حجارة من سجيل، وفى ذلك آية **للمتوسمين** ـ أى المتفكّرين

الذين يتعظـون، وقراهم ما تزال آثارها باقـية على طريق الشـام؛ ومثلهم قـوم شـعـيب، أصحاب الأيكة الظالمين، والأيكة هي الغيضة، أي البستان. ومثلهم أصحابِ الحِجْر، وهم قوم ثمـود والنبيّ صالح. وتختتم السـورة بمواعظ للنبيّ ﷺ من ربّه، أن يصفح عن أهل مكة ويتجاوز عـنهم، ويعفو العفو الحـسن، وفي القرآن خير تعليم له وللـمؤمنين، وكان المسلمون يعانون أشد المعاناة، ويتمنون لو كانت لهم قوافل القرشيين، فذكّرهم ربّهم أنه أغناهم بالقـرآن، وكان النبيّ ﷺ شديد الحـزن لأن أهله وعشيـرته ما كـانوا مؤمنين، فأمره أن لا يحزن عليهم، وأن يولى عنايته بالمؤمنين، وأن يخفض لهم جناحه، وأن يترك أمر المقتسمين له تعالى، وهم الذين اقتسموا كتاب الله، ففرّقوه وبدّدوه وحرّفوه وجعلوه عضـين ـ جمع عضـةوهي السحر، أي اعـتبروه كـتاباً في السحـر وليس فيه إلا أسـاطير الأولين، وهؤلاءمسئولون يوم القيامة، فليعرض عنهم إذن وليصدع لأمره تعالى فيهم،وهو تعالى يكفيه المستهزئين،ولينصرف إلى التسبيح بحمد الله، وليكن مع الساجدين وليعبد الله طالما هو على قيد الحياة إلى أن يأتيه اليقين ـ أي الموت.

وفي السورة الكثيرمن المصطلحات: «فالمجرمون» في التعريف: هم المستهزئون بالدين من أهل الكفر والضلال والشرك؛ و«السماء ذات البروج»: المقصود بالبروج بروج الشمس والقـمر، أي منازلهـمـا،وهي أبراج: الحَمَل، والثـور، والجـوزاء،والسرطان، والأسـد، والسنبلة، والميزان، والعقـرب، والقوس،والجدى،والدّلو، والحوت؛ «والشـهـاب»: قـيل تُرمَى به الشياطين حتى لايسترقوا السـمع على ما يجرى في السماء، والشهاب على ذلك يشبه النار، وهو غير الكوكب؛ وفي قوله تعالى «الأرض مددناها»: دليل على أنها كروية، لأنها في حركتها حول الشمس تستطيل من أطرافها فتصبح كالدحية؛ و«الجبـال رواسـي»: دليل على أن ما في بطن الأرض منها أكـبرمما يظهر على سطحها، فكأنها الأوتـاد لتثبيت الأرض فلا تمـتد؛ و«الرياح لواقـح»: لأنها تنقل حبوب اللقـاح من النباتات الذكرية إلى النباتات الأنثوية، وأنواع الرياح في القرآن هي: المبشرّات بالغيث، والمثيرات للسحب، والـلواقـح لتلـقّح الزروع؛ و«الصلصـال من الحـمـأ المسنون»: هو الطين الأسود المتـغيرّ رائحته،وأما الصلصال نفسه فهو الطين المنتن؛ والجان: سمى جاناً لتواريه عن العيون، و«نار السموم»: هي التي خلق الله منها الجان قيل هي جزء من سبعين جزء من نار جهنم، والسموم: هي الريح الحارة التي تقتل، وهي نار لا دخان لها؛والرجيم: المرجوم بالشهُب والملعون المشـئوم؛ و«الغـاوون»: الضـالون؛ و«أبواب جهنم السـبعة» هي دركاتهـا، قيل هي:أولاً جهنم،ثم لظى، ثم الحُطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية؛

«**وضيف إبراهيم**» سمّاه ضيفاً لإضافته إلى المضيف ونزوله عليه؛ و«**الصيحة**»: التى تقتل وتبيد، لأن الصوت فيما إذا تجاوز الحدود يكون أشد فتكاً من القنابل؛ «**واليقين**»: هو الموت، وفي الحديث عن **عثمان بن مظعون**: «**فقد جاءه اليقين وإنى لأرجو له الخير**»، أى جاءه الموت، والموت هو الحق الذى لاريب فيه، وفي الحديث أن النبىّ ﷺ قال: «**ما أوحى إلىّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلىّ أن سبّح بحمد ربّك وكن من الساجدين، واعبد ربّك حتى يأتينى اليقين**». ولله الحمد والمنّة، وندعوه تعالى أن يحيينا ويميتنا على الكتاب والسُّنّة، آمين.

●●●

٥٩٧. ﴿سورة النحل﴾

السورة مكية، قيل: إلا الآية: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**(١٢٦)﴾فإنها نزلت بالمدينة في شأن التمثيل **بحمزة** عمّ النبىّ ﷺ ، وبقتلى أُحد؛ وقيل: الآية مكية لأن معناها متصلٌ بما قبلها ومتناسق مع معنى ما بعدها. وسميت السورة **سورة النحل** لأن النحل كان من آياتها بما اختصه الله من عجيب الصنع، وسمّاه **نحلاً** لأنه نَحَلَهُ العسل يخرج من بطونها شراباً سائغاً مختلف الألوان فيه شفاء للناس، فكان آية من أعظم الآيات على وحدانية الله المتفرّد بالصُّنع. **وعسل النحل** كلبن الأنعام يخرج من بين فرث ودم ، لا تشوبه شائبة، ولايخالطه كدر، فسبحان مَن خلق فأبدع. وترتيب السورة فى المصحف **السادسة عشرة**، وفى التنزيل **السبعون**، وآياتها **مائة وثمان وعشرون** آية. وتسمى أحياناً «**سورة النِّعم**» بسبب ما عدّد الله فيها من نِعمه على عباده، قال: «﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**(١٨)﴾. والسورة عموماً عن استعجال قريش للعذاب استهزاءً واستخفافاً بوعيد القرآن، مع أن الساعة قد اقتربت، واقترب الحساب فلا يستعجلونه، وفى الحديث قال النبىّ ﷺ : «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**»، وأشار بإصبعيه: السبابة والتى تليها، وهو الله لا إله إلا هو، يفعل ما يريد، ويوحى إلى من يشاء من عباده، فكان الأحرى أن يتّقوه ، لأنه تعالى الخالق لكل شىء: خلق السموات والأرض من عدم، والإنسان من نطفة، والأنعام خلقها فيها منافع وجمال، و تحمل الأثقال، والخيل والبغال والحمير للركوب والزينة، وأنبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، وسخر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وخلق البحر تُصاد منه الأسماك وتُستخرج الحلى، وتمخر فيه الفلك، وأرسى الأرض بالجبال، وشقّ فيها الأنهار والسُّبل، فهذا هو الله، **فهل مَن يخلق كمن لايخلق، هل يستويان**؟ وهو الإله الواحد، يميت ويبعث يوم القيامة، ومن كفر به قديماً أهلكهم، ويدخلهم جهنم يوم

القيامة، والذين اتقوا وأحسنوافى الدنيا لهم فيها حسنة وفى الآخرة حسنة. ولا عذر لمن يشرك فقد أناط بكل أمة رسولاً، ولكنهم أصّروا على الإنكار وأقسموا أن لابعث ولاحساب، وهو الله له المشيئة، وما يريده يكون. وما كان الرسُل إلا رجالاً يُوحَى إليهم. وهذا الذكر نُزّل على النبىﷺ ليبيّن للناس. ولايأمن الذين يحتالون على محاربة الإسلام، أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون، أو يأتيهم العذاب كقوم لوط من حيث لايشعرون، وما هم مسابقين لله ولا فائتيه، وهم له داخرون وصاغرون. ولقد دعاهم أن لايتخذوا إليهن، فإنما هو إله واحد، الطاعة له واجبةٌ أبداً، ويجعلون له البنات سبحانه، ولهم مَثَل السوء، ولله المثل الأعلى، ويجعلون له ما يكرهون. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، والذين لايؤمنون بآيات الله إنما يفترون الكذب. وتتابع السورة تذكّر الناس بنتيجة الكفر بالله وبنعمه وآياته، وعدم القيام بشكره، وتحذرهم العاقبة، وتضرب المثل بإبراهيم، فقد كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، قد جُمع الخير كله فيه، وأطاع الله وهجر كل ملة إلا الإسلام ، وكان من الشاكرين، فاجتباه وهداه،وأوحى إلى محمد أن يتّبع ملّته ، وأن يكون حنيفاً مثله فلا يشرك بالله، ولايدين إلا بالإسلام. وتُختم السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا جادل الكافرين أن يجادلهم بالتى هى أحسن، أى بالمنطق، وإن يعلّم المؤمنين أن لايعاقبوا إلا بمثل ما عُوقبوا به، ولو صبروا لكان خيراً لهم، ثم يأمرنبيّه ﷺ أن يصبر ولايحزن عليهم، ولايكُ فى ضيق مما يمكرون، فالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وفي السورة من أقواله تعالى: **﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ①﴾** يخبر بالماضى عن المستقبل، لأنه آت لامحالة؛ وقوله: **﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ②﴾**، الروح هى الوحى، وهى النبوة، ونظيره قوله: **﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** (غافر١٥)؛وقوله: **﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ⑤﴾** يدلّ على لباس الصوف ،وقد لبسه رسوله ﷺ والأنبياء قبله. وفى حديث المغيرة عنه ﷺ أنه غسل جُبّهة من صوف شامية،والحديث أخرجه مسلم، والصوف من الأنعام شعار المتّقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين،واختيار الزهّاد والعارفين، ويُلبَس ليّناً وخشناً، وجيداً ومقارباً ورديئاً، وإليه تُنسَب الصوفية، لأنه لباسهم فى الغالب؛ وقوله: **﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ⑨﴾**يبينّ أن المشيئة لله تعالى ويردّ على القدرية، وهو تعالى قد شاء أن يكون للإنسان الخيار، وقد هداه النجدين والسبيلين: الخير والشر، وبناءً على حرية اختياره تكون مسئوليته، وأما التكاليف فهو مأمور بها لأنه بدونها لايكون الاجتماع الإنسانى، ولاتصلح

الأرض للسكنى، والتكاليف تنظم العيش، والأخذ بها والانصياع لها ضرورة وواجب؛ وقوله: ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٥)**﴾ أوضح دليل على استعمال الأسباب، فقد كان بوسعه أن يجعل الأرض تسكن من غير جبال، ولكنه خلق الجبال كأسباب لسكونها؛ وقوله: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)**﴾ المقصود بعض النجوم، لأن من النجوم ما لايهتدَى بها إلا للعارف بمطالعها ومغاربها. ولله الحمد والمنّة، وندعوه أن يحيينا ويميتنا على القرآن والسُّنة، آمين.

●●●

٥٩٨. ﴿سورة الإسراء﴾

من السور المكية، وقيل إلا ثلاث آيات: هي قوله عزوجل: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ (٧٦)**﴾ نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف، وحين قالت اليهود ليست هذه بأرض الأنبياء؛ وقوله: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ (٨٠)**﴾ نزلت حين رجع من تبوك؛ و قوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ (٦٠)**﴾ نزلت في سنة الحديبية قبل أن يدخل مكة. و السورة آياتها **مائة وإحدى عشرة** آية، و ترتيبها في المصحف السابعة عشرة، وفي التنزيل **الخمسون**، وتسمى أحياناً سورة بني إسرائيل، لأنها تتحدث في بعض آياتها عن **بني إسرائيل وموسى والتوراة**، ويغلب تسميتها **بسورة الإسراء** لأن أهم الأحداث التي تتعرض لها هو حادث أو معجزة الإسراء، تقول: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا (١)**﴾ ، **وعَبْدُه** هو النبيّ ﷺ، **وما رآه من الآيات كان في المعراج**، من عَرَج يعرج، أي صعد، **والمعراج هو الصعود** إلى السماء. وأما **أَسْرَى** يعني سار **من الليل**، أي أن رحلة **الإسراء كانت في الليل** لم تتعدّاه؛ **والمسجد الأقصى** هو غاية الإسراء، وسُمّي كذلك لأنه بعيد عن **المسجد الحرام أقصى** بُعد؛ **والآيات التي أراه الله في الإسراء** هي العجائب التي أخبر بها النبيّ ﷺ، وأولها أن لا تستغرق الرحلة إلا ليلة، مع أن المسيرة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تستغرق شهراً؛ وقَطَعها **البُراق** ـ وهو دابة فوق الحمار ودون البغل، في لمح البصر، أو كالبرق، فسمي لذلك البراق، فلما أتى بيت المقدس ربطه النبيّ ﷺ بالحلقة التي يربط بها الأنبياء دوابهم، في الحائط المسمي **حائط البراق**، والذي يسميه اليهود الآن **حائط المبكى**. **وبيت المقدس** بناه سليمان، ولَمّا وصله النبي جاءه جبريل بإنائين، أحدهما فيه لبن والآخر خمر، فاختار النبيّ ﷺ **اللبن**، فقال له جبريل: **اخترت الفطرة**: ثم إن جبريل جاء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم، فعرج به إلى باب السماء الدنيا إلخ، فالتقى بالأنبياء تباعاً في

السموات بحسب مكانة كلّ. وقيل: الإسراء كان بالروح، ولم يفارق جسد النبيّ ﷺ مضجعه؛ وقيل كان ذلك في اليقظة وليس في النوم؛ وقيل كان الإسراء بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس، ثم بالروح إلى السماء. والذين قالوا الإسراء بالروح احتجوا بالآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ(٦٠)﴾، فسُمِّى الإسراء رؤيا؛ والذين قالوا فى اليقظة احتجوا بالآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً(١)﴾ ولايقال في النوم أسرى. والخبر جائز عقلاً، وكانت للنبيّ ﷺ معارج، ولايبعد أن يكون بعضها رؤيا، ويؤيد ذلك قوله «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان». الحديث. وقيل فى تاريخ الإسراء: أنه كان فى مكة قبل الهجرة بأعوام، وكانت خديجة قد توفيت؛ وقيل: توقيته قبل الهجرة بثلاث سنوات. ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء حين عُرّج به إلى السماء، ورُوى أنها فُرضت ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحَضَر فأُكملت أربعاً، وأُقرّت صلاة السفر على ركعتين، علّمه إياها جبريل، و عرّفه مواقيتها، وكان الوضوء والأذان فى مكة ـ وهو قول المؤذن «الصلاة جامعة»؛ وفى المدينة صرفت القبلة إلى الكعبة، وأُمر بالأذان المعروف؛ وأما الصيام والزكاة والحج وتحريم الخمر فلم يُفرضوا إلا في المدينة .وقيل فى الرؤيا التى رآها وكانت فتنة للناس: إنها بخلاف رؤيا الإسراء، فهذه رؤيا أخرى رأى فيها أنه يدخل مكة سنة الحديبية، فلما ردّوه افُتتن المسلمون فنزلت الآية. وحديث الإسراء والمعراج أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون، وينكره المستشرقون وخاصة جولدستيهر، ويتّهم النبيّ ﷺ بالتلفيق، ولايرى ضرورة أصلاً لرحلة الإسراء إلى بيت المقدس ، وأن هذه الرحلة اخترعها الأمويون وأضافوها من عندهم إلى القرآن! وأن النبيّ ﷺ لّما امتحنته قريش عن مسراه، لم يثُبت أشياء فكربُ كرباً ما كُرِب مثله، فرفع الله له بيت المقدس فوصفه لهم وصفاً دقيقاً. وكل ذلك مغالطات لم تثبت تاريخياً وعقلياً، وتظهر حقد جولدستيهر على النّبي ﷺ ، وأنه كان يتمنّى لو لم تكن الرحلة إلى بيت المقدس، ليظل لليهود دون المسلمين، ومن قبل ذلك تمنيّ جولدستيهر لو أن محمداً ما هاجر إلى المدينة وظل بمكة، وما نزل التشريع الإسلامى لينافس التشريع اليهودى. وفى السورة لماجاء ذكر النبيّ ﷺ جاء ذكر موسى، وفى القرآن كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى والنبيّ ﷺ ، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولذلك جاء بعد ذكر الإسراء قوله تعالى: «﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ(٢)﴾ يعنى التوراة، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ(٣)﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، وفى ذلك تهييج وتنبيه على المنّة، أى: يا سلالة من نجيّنا فحملنا مع نوح فى السفينة، تشبّهوا بأبيكم : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾، فاذكروا نعمة الله عليكم أن أرسل لكم محمداً

ﷺ؛ ولكن أهل مكة جحدوا كما جحد اليهود. وفي التوراة أن اليهود يفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبّرون ويطغون ويفجُرون، فإذا جاء وعد أولى **الإفسادتين**، سلّط الله عليهم قوماً من خلقه أولي بأس شديد ، فتملّكوا بلادهم، وجاسوا خلال ديارهم، وقيل كان هؤلاء جنود **بختنصر ملك بابل**؛ فإذا كانت **الإفسادة الثانية** فإن أعداءهم سيسوءون وجوههم ويدخلون بيت المقدس كأول مرة، ويدمّرون كل شيء ويُخرّبون ما علوا، ثم ينجّيهم الله، ويحذرهم إن عادوا إلى الإفساد عادت إدالته عليهم بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وذلك ما ينتظره المسلمون إن شاء الله. وهذا القرآن هو الذى يقول الصدق ويبشّر المؤمنين، وهو آية من آيات الله كآيتيّ النهار والليل، وكل عمل ابن آدم محفوظ كهذا الليل والنهار، قليله وكثيره، ويُكتب ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءاً ، ومن يهتدى فلنفسه، ولا أحد يحمل ذنب أحد، وما كان الله ليعذّب الناس إلا بعد أن يبعث إليهم الرسُل، **وفى ذلك دليل على أن الأحكام لاتثبت إلا بالشرع**، بخلاف من يقول من الليبراليين: أن العقل يقُبّح ويُحَسِّن ويبيح ويحظر؛ وما يهلك الله قرية ولا مدينة، ولايسقط دولة، إلا إذا فسق فيها أهلها، **وأهل الفسق فى كل قرية** مترفوها، فإذا فسقوا فيها حقّ عليها القول بالتدمير، وكم أهلكت قرى لهذا السبب من بعد نوح، وكانوا يتعجلون الآخرة فعجّلها لهم ربُّهم لمّا جعلوا معه آلهة أخرى، ولمّا أخلصوه بالبنات وادّعوا أنهن الملائكة. . وما يغادر القرآن شيئاً، وضمّنه تعالى **الأمثال، والعبر، والحكَم، والمواعظ، والأحكام، والأخبار** فما اتّعظ الكافرون ،ولو كان معه آلهة لنازعوه المُلك وقاتلوه عليه ، وهو الواحد الأحد، تسبّح له السموات والأرض ومن فيهن ، وإنْ من شيء إلا ويسبّح بحمده، وتسبيح الأشياء **تسبيح دلالة** لايفهمه الناس، والأشياء تدعوا الناظر إليها أن يقول سبحان الله، والقرآن ينبّه إلى ذلك، ولكن الكفار لاينصتون إليه إذا تلى عليهم، وكأنما يُنصَب بينهم وبين قارىء القرآن حجابٌ مستور، أو كأنما على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه، وفى آذانهم وَقْرأن يسمعوه، وكلما ذُكر الله ولّوا نفوراً، واتّهموا النبيّ ﷺ ، فمرة يقولون هو **ساحر**، ومرة هو **مجنون**، ومرة هو **كاهن**، أو **شاعر**، واستهزئوا أن يُبعثوا إذا صاروا تراباً، وما يعيدهم إلى الحياة إلا الذى فطرهم أول مرة، وعمّا قريب **تأتى الساعة**، ولعلها أقرب مما تصوروا، وما من قرية كافرة إلا ويهلكها الله قبل يوم القيامة. وما منع أن تكون للنبيّ ﷺ آيات إلا أن الأولين كذّبوا بها، وكان آدم آية، فاستكبر إبليس أن يطيع أمر ربّه فيه، ورفض السجود بدعوى أن آدم من طين وإبليس من نار، والنار أشرف من الطين فى زعمه، فطرده الله من رحمته، وسمح له أن يغوى الناس كما يريد، وأن يستفزز - من

استطاع منهم، وأن يجلب عليهم بخيله ورَجْله . ، ويشاركهم فى أموالهم على المعاصى وفى أولادهم على الحرام؛ وأما عباد الله المؤمنين فلا سلطان له عليهم. ولقد كرّم الله بنى آدم شرفاً وفضلاً، وآتاهم الفهم والتمييز والعقل، فما آمنوا ولا شكروا، ويوم القيامة تُدعى كل أمة بنبيّها وإمام وقتها، فلا يُظلمون فتيلاً، ومن كان في الدنيا أعمى، كان فى الآخرة أعمى، والعَمَى عَمَى القلب والعقل فلا يبصر ولايعى حُجج الله، ولقد كادوا يفتنون النبىّ ﷺ نفسه لولا أن ثبّته الله .وتتوالى المواعظ فى السورة فى كل المجالات، تحُث على عبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين، وإيتاء ذى القُربى حقّه، والمسكين، وابن السبيل، والاقتصاد فى الإنفاق، فلا تبذير ولا تقتير، ولا قتل للأولاد خشية الفقر، وأمرت المسلمين أن لا يزنوا، ولا يقتلوا من حرّم الله، ولا يسطوا على أموال اليتامى، ولا يتبعوا ما لا يعلمون، ولايوالوا ما لايعنيهم،ولا يمشوا مختالين ولا متكبّرين،وأن يقولوا التى هى أحسن. وتخاطب السورة النبىّ ﷺ، وتأمره بالصبر، والمحافظة على الصلاة من طلوع الشمس حتى اجتماع الليل وظلمته، وأن يقيم قرآن الفجر، ويتهجّد من الليل عسى أن يبعثه الله مقاماً محموداً، قيل يُعطَى الشفاعة،وأن يكون دعاؤه: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**(٨٠)﴾ وأن تكون قالته الدائمة: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**(٨١)﴾ واللّه يُنزّل عليه من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، يُشفى قلوبهم بزوال الجهل وإزالة الرِّيب، ويُفرّج الكروب، ويُظهر العيوب، ويُكفرّ الذنوب، ويرعوى به من يرعوى، وكلٌّ يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده، وما مَنع الناس أن يؤمنوا به إلا أن قالوا: أبَعَثَ الله بشراً رسولاً ؟ وألّحوا أن تتنزل عليه الآيات. وكانت لموسى الآيات فما آمن بها الكافرون. والقرآن ما أُنزل إلا بالحق، وما كان محمدٌ إلا مبشراً ونذيراً. وفرّق القرآن بين الحق والباطل،وأُنزل شيئاً بعد شيء، وعَلَى ترَسُّل في التلاوة وترتيل، وآمن به أهل الدين وما آمن أهل الدنيا،والله تعالى له الأسماء الحسنى يُدعَى بها، والصلاة لا يُجهَر بها ولا يُخافت، وللّه الحمد أنه لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في المُلك، ولا وليّ من الذل، وتُختتم السورة بقوله تعالى :﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**(١١١)﴾ أى عظّموه عظمةً تامة، وقيل: أبلغ عبارة للعرب فى التعظيم والإجلال هى: «**الله أكبر**»، فهو الأكبر من كل شيء. وقيل : الله أكبر خاتمة التوراة، قال ذلك المفسّرون الآخذون بالإسرائيليات!وهذا غير صحيح، لأن التوراة هى أسفار موسى الخمسة ، وليس فى أى منها هذه النهاية، كما ليس فى افتتاحياتها افتتاحية سورة الأنعام التى تقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**(١)﴾ و«الله أكبر»

اصطلاح إسلامى محض، وصَدَقَ من قال إن آية: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ هى آية العزّ فى القرآن، وروى أن النبىّ ﷺ كان يعلّم الغلام من بنى عبدالمطلب إذا أفصح، ختام سورة الإسراء التى تقول: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾. وفى الخبر أن من عانى ضائقة يقرأ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (١١٠)﴾ إلى آخر السورة، ثم يقول: **توكلت على الحىّ الذى لايموت** ـ ثلاث مرات. فللّه الحمد والمنّة أن كنّا مسلمين، ونسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على الإسلام. اللّهم آمين.

●●●

٥٩٩. ﴿سورة الكهف﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة **الغاشية**، وآياتها **مائة وعشر**، وترتيبها فى المصحف **الثامنة عشرة**، وفى التنزيل **التاسعة والستون**، وهى إحدى خمس سور تبدأ **بالحمد لله**. هى بترتيب النزول: **الفاتحة، وفاطر، والأنعام، وسبأ، والكهف**، تنبّه إلى أنه تعالى المحمود على كل حال، وله الحمد فى الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله القرآن على رسوله الكريم، فإنه أعظم نعمة، فلا اعوجاج فيه ولازيغ. وتتعرض السورة **لثلاث قصص** من روائع قصص القرآن، **الأولى: قصة أصحاب الكهف**: وفيها التضحية من أجل العقيدة، **وأبطالها** فتية مؤمنون خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم، ولجأوا إلى غار فى جبل، ومن ثم كان اسمهم **أصحاب الكهف؛ والقصة الثانية**: هى **قصة موسى مع الخضر**: وفيها تواضع طلاّب العلم ولو كانوا أنبياء، وأن العلم علمان: **علم حضورى** يعرفه موسى، ومنه الشريعة، **وعلمٌ غيبى أو لَدُنِّى** لايعرفه إلا أولياء الله، وله قوانينه الخاصة التى يحدّها الخير المطلق والشرّ المطلق، وتتجاوز مقتضيات العقل والشرع. **والشريعة فى** منظور العلم الحضورى أحكامها أخلاقية، وفى منظور العلم الغيبى أحكامها تتجاوز الأخلاق، فكأنه عندنا **ثلاثة أنواع من الأحكام**: النوع **الأخلاقى moral**، **وغير الأخلاقى demoral**، **والمتجاوز للأخلاق amoral**؛ **والقصة الثالثة**: هى **قصة ذى القرنين**، وكان تقياً ورعاً، فسادَ العالم، وبَسَط سلطة القانون على المعمورة، وأقام ميزان العدل بين الناس، وكان أن قام ببناء سدّ عظيم، يحجز الطاغين عن المستضعفين، ويمنع عنهم الظلم ولو إلى حين. واستخدمت السورة **أمثلة ثلاثة**، لبيان أن الحق لايرتبط بجاه ولامال ولاسلطان، وأن ارتباطه **بالعقيدة**؛ **والمثل الأول**: للغنىّ المزهوّ بماله، والفقير المعتز بدينه، والواثق من عقيدته؛ **والمثل الثانى**: للحياة الدنيا ومآلها للزوال، ومصيرها للفناء، وإنما هى **زينة، ومال وبنون**، ثم لايبقى من

ذلك شيء إلا الصالحات، وهى عند الله خير ثواباً وخير أملاً؛ والمثل الثالث: مثل مآل المتكبّر والمغرور المتغطرس، وهو إبليس الملعون وما كان من أمره مع آدم عندما رفض السجود لِخَلْق الله، فكان أن فسق عن أمر ربّه، فباء بالخسران المبين. وهذه القصص والأمثال عظات وعبر للمؤمنين، وما أظلم من يُذكرَّ بها فيعرض عنها وينسى ما قدّمت يداه. وهذا القرآن الذى احتوى على هذه القصص والأمثال، يبشّر المؤمنين وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، إنْ يقولون إلا كذباً، وما كانت الحياة على الأرض إلا ليبلو الله تعالى الناس أيهم أحسن عملاً، ويوم القيامة يجعل ما على الأرض من زينة حطاماً وركاماً. وقصة أصحاب الكهف، وبقية القصص والأمثلة، لتسلية النبىّ ﷺ والمؤمنين، ورفع معنوياتهم، لكى يصبروا ويصبر نبيُّهم معهم وهم الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، ويحمد الرسول ﷺ ربّه أنه لم يُمتّه حتى أمره أن يصبر نفسه معهم، فقال مقالته المأثورة: «معكم المحيا ومعكم الممات» وتبشّر السورة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات عدن - أى جنات الإقامة، وتؤكد على رسالة الرسُل، وأنه ما كان إرسالهم إلا مبشّرين ومنذرين، وأنه تعالى الغفور ذو الرحمة، وأنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا لعجّل لهم العذاب، وأن الأخسرين أعمالاً هم الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات الفردوس، والفردوس: هى سُرّة الجنة، وليس فى الجنات جنة أعلى منها، وقيل: هى نُزل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. وهذه السورة - والقرآن جميعه - حافلةٌ بالمواعظ، وما تنتهى مواعظ الله، ولو كان البحر مداداً لكلماته تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته ومواعظه. وما محمد ﷺ إلا بشرٌ مثل الناس وإنما يُوحى إليه بهذا القرآن العظيم وتختتم السورة بالآية الكريمة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(١١٠)﴾، قيل هى آخر آية نزلت من السماء، وآخر ما خُتم به القرآن. وفللّه الحمد والمنّة، ونسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على كتابه وسُنّة رسوله ﷺ، اللّهم آمين.

●●●

٦٠٠. ﴿سورة مريم﴾

السورة مكية إلا الآية: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾، والآية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(٧٢)﴾. وعدد آيات السورة ثمان وتسعون آية، منها أربع وثلاثون آية عن مريم وابنها عيسى، أى نحو ثلث

السـورة، ولهذا كان ترتيب السـورة في المصحف **التاسعة عشرة**،وفي التـنزيل **الرابعـة والأربعون**، وكان نزولها بعد سورة **فاطر**،**وغرضها** الردّ على أهل الكتاب، سواء اليهود أو النصارى، وتقرير **التوحيد** كرسالة للإسلام، وتصحيح الروايات **فى الأنبياء وفي مبعثهم** ودعواتهم. وتبدأ السورة بالحروف المقطّعة: «**كهيعص**»، وتُنطَق: «**كاف، ها، يا، عَيْن،صاد**» وهى حروف من الأبجدية تنبّه إلى ما فى القرآن من إعجاز لغوى وفكرى وسردى دلالى، وأنه كتاب فى آيات الله **الذهنية**، كآياته **الكونية**، فبمثل هذه الحروف يأتى القرآن ككتاب فى إثبات التوحيد والقدرة لله تعالى، مثلما الشمس والقمر والسموات والأرض آيات فى هذا الإثبات. وفى الخبر أن رسول الله ﷺ بعث **عمرو بن أمية الضمّرى** إلى **النجاشى** يدعوه إلى الإسلام، فجمع النجاشي الرهبان والقساوسة، وقُرىء عليهم من سورة مريم الجزء الخاص بمريم والمسيح، ففاضت أعينهم من الدمع، وفيهم نزلت الآية: ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)**﴾ (المائدة) وتناولت السورة قصص الأنبياء: **زكريا، ويحيى، وإبراهيم، وموسى، وإسماعيل، وإدريس**، ونوّهت **بإسرائيل**، وبدأت بقصة زكريا، تماماً كما فى **إنجيل لوقا**،ونعرف من قصة الإنجيل سبب هذا التقارن بين قصة **يحيى بن زكريا** وقصة **عيسى بن مريم**، فأُمّ يحيى كانت **اليصابات**، وتمتّ بصلة النسب إلى مريم،ولم تحمل اليصابات فى يحيى إلا بعد أن صارت وزوجها زكريا شيخين طاعنين فى السن، فلم تكن اليصابات تحيض، ولم يعد زكريا قادراً على الإنجاب، فكان ميلاد يحيى معجزة، سبقت معجزة ميلاد عيسى وقدّمت لها. وتشبه قصة لقاء المَلَك لمريم والحديث بينهما كما جاءت فى القرآن، نفس القصة فى **إنجيل لوقا** مع تفاصيل كثيرة تمتاز بها القصة فى القرآن، ففى القرآن مثلاً يأتى أن مريم: ﴿**انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا (١٧)**﴾والمكان **الشرقى** يعنى الذى تشرق عليه الشمس، من **الشَّرْق** وهو الشمس، وخُصّ المكان **بالشرق** لأنهم كانوا يعظّمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، والجهات الشرقية أفضل دائماً من سواها، وقيل من أجل ذلك **اتخذ النصارى المشرق قبلةً لهم**، وقِبْلَتُهم يسمونها المذبح أو **الهيكل altar**، أو **المحراب chancel**، وهو فى تصميم الكنائس يأتى جهة الشرق، وفى القرآن هو **المحراب**، من **الحَرَب** بفتح الراء، لأن من يأوى إليه ويلازمه يلقى من ملازمته نَصَباً وتعباً من كثرة التعبُّد، فهذا هو المكان الذى أوت إليه فى **كنيس بيت لحم**، وكان من قبل هذا الحدث مكانها المفضل. ولمّا جاءها المخاض انتذبت به ﴿**مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)**﴾، أى تركت الكنيس، وتوجهت إلى حيث لايراها الناس، وتصفه

الآية بأن به نخلاً وجدولاً جارياً، وخير الطعام للوالدة هو التمر لغناه بالسُّعرات الحرارية، فأكثر من نصف التمرة سُكّر، ٢٪ دهون وبروتينات ومعادن، فجعل ولادتها حيث يمكنها أن تهزّ النخل فيسّاقط عليها الرُّطَب أى البلح الناضج الطبرىّ، ومعروف أن النخل لايثمر فى فلسطين إلا فى **الصيف**، فنعلم من ذلك أن تحديد تاريخ ميلاد المسيح بأنه **٢٥ ديسمبر خطأ**، ورواية القرآن هى الأصدق لأنها أكثر تفصيلاً وأكمل، **وبيت لحم** حيث ولد المسيح قرية صغيرة بالقرب من القدس، وتكثر بها ينابيع المياه العذبة، والآبار، مصداقاً لرواية القرآن، ولقد هلل المستشرقون، وما يزالون حول مقولة القرآن أن مريم ﴿**أخت هارون** (٢٨)﴾، ومن هؤلاء **سايوس، وهوروفتس، وبيتَرز**، فقالوا كيف تكون مريم «**أخت هارون**» الأخ الأكبر لموسى بن عمران، مع أن ما بين مريم وهارون من الزمن نحو ٦٠٠ سنة، وقيل ألف سنة وأكثر! واللبس الذى تحصّل عند المستشرقين مصدره جهلهم بالعربية، فالمقصود **بأخت هارون أنها سليلة بيت هارون**، ولم تقل الآية أنها أخت موسى، لأن هارون دون موسى جُعل على رأس **الأحبار**، ومن ذريته كان **أحبار اليهودية**، والمعنى إذن أن مريم من **بيت دين عريق**، فكيف تحمل فى طفل سفاحاً؟ ونفس الطريقة تأتى قبل ذلك مباشرة فى قول زكريا: ﴿**يرثنى ويرث من آل يعقوب** (٦)﴾، **ويعقوب** المقصود هو **يعقوب بن إسحق بن إبراهيم**، والمشهور باسم إسرائيل، يعنى يرث **بيت إسرائيل** وليس بيت زكريا، فهذه الآيات تحرص على إلحاق هؤلاء الناس **بأصولهم**، أو **بالبيوت والعوائل** التى انحدروا منها. ومع ذلك فإن **إنجيل لوقا** يتحدث عن اليصابات أنها من **بنات هارون**، واليصابات قريبة لمريم، يعنى أن مريم أيضًا تكون من بنات هارون! ومثل ذلك يأتى فى قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** (٧٤)﴾(الأنعام)، فآزر لم يكن أباه، والناس فى بلادنا ينسبون أنفسهم للعمّ وما أشبه باعتباره أباً، فيقول الواحد: «**أبويا آزر**»، أو نقول: **أبونا آدم**» وكذلك يأتى عن هود، **وصالح، وشعيب** أنهم **إخوة للناس** فى بلادهم، وهذا ليس بصحيح على الحقيقة ولكنه يقال مجازاً، ومن ثم كان عجيباً نقد هؤلاء المستشرقين لقوله تعالى: «**يا أخت هارون**»! ومثله قوله تعالى: ﴿**ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها** (١٢)﴾(التحريم)، **فهى** ليست **ابنة عمران** وإنما **سليلة بيت عمران**، وعمران من نسل لاوى بن **يعقوب**، فكأن مريم طبقاً للقرآن **لاوية**، ولا تذكر الأناجيل بيت مريم، وإنما تنسبها ليوسف الذى تزوّجها، فيقول إنجيل متّى: «**يوسف رجل مريم من نسل يعقوب، ومن بيت داود**»، **وإنجيل لوقا** يذكر نفس الحكاية. فلا دخل لمريم إذن مع بيت داود ونسبها الحقيقى هو بيت عمران بن **لاوى**. وأما القول فى **إنجيل لوقا**: **أن الرّب سيعطى المسيح عرش**

داود أبيه (١ / ٣٣)، فذلك لأن المسيح كان يقال له يسوع بن يوسف (يوحنا ١ / ٤٥)، ويوسف من بيت داود كما ذكرنا، فنسبوا المسيح إلى أصول زوج أمه، كما نسبوا مريم إلى أصول زوجها، وهذا كله خطأ ويشيع الاضطراب في الأنساب. ورواية القرآن إذن أصدق الروايات، وسورة آل عمران هي أصدق ما قيل في حقيقة نسب مريم. وبعد أن تفصّل السورة مآثر كل نبيّ ممن ذكرتهم تفصيلاً أو إجمالاً واستغرق الحديث عنهم نحو ثلثي السورة، يبين أن الغرض هو إثبات أن الرسالة واحدة، وتلك ميزة القرآن على التوراة والأناجيل، فالأناجيل ألغت ناموس موسى، والنصارى اختلفوا من بعده حول طبيعته: أهو من طبيعة إلهية محضة، أو إلهية بشرية؟: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ (٣٧)﴾، فالويل لهم من يوم عظيم. وتورد السورة قصة تأخر الوحي على النبيّ ﷺ مدة تقرب من الأسبوعين إلى أن تنزلت الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾، ومعنى هل تعلم له سمياً؟ أنه لا نظير له، لا المسيح ولا غيره، ولا يمكن أن يكون له ابن، وليس له «اسم ذات» سوى أنه الله. وتأتي في السورة آية: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)﴾ والورود: هو الدخول، لا يبقى برّ ولافاجر إلا يدخل النار، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً، كما قال تعالى في بقية الآية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾(الأنبياء). وفي السورة أيضاً قصة العاص بن وائل مع خبّاب بن الأرتّ، فكان لخباب عند العاص دين، رفض أن يدفعه العاص إلا إذا كفر خبّاب بمحمد، فقال له خبّاب: لن أكفر به حتى تموت ثم تُبعث. قال: أوَ إني لمبعوث من بعد الموت؟ فسوف أقضيك إذن حين أُبعث! ووقتها سيكون لي المال والولد! قالها ساخراً هاذئاً مكذّباً، فنزلت الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾، وهو الردّ المُفحم، وفيه الوعيد لأمثال العاص. وتُختتم السورة كما بدأت، فكانت بدايتها عن الولد، ونهايتها نفيٌ أن يكون عيسى ابن الله، وهي فرية تكاد تنفطر منها السموات وتنشق الأرض، فما ينبغي لله أن يكون له ولد، وكل من في السموات والأرض هم عباده، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم ودّاً، وما كان هذا القرآن إلا ليبشر المتقين وينذر الظالمين، وكم أهلك الله من أمم جحدت، فأسقطهم التاريخ من حسابه فما عاد لهم ذكر. ومن التعابير الجميلة في السورة من أدب

الحوار قول إبراهيم لأبيه لما استنفد الجدل معه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴿٤٧﴾﴾، وقول زكريا وهو ينادي ربّه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴿٤﴾﴾، وقوله تعالى عن الكافرين: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴿٣٨﴾﴾ وهو أسلوب تعجُّب، ومقالة مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾، وهذه المقالة جاءت على لسان عمر قبل وفاته، ثم على لسان **عائشة** قبل أن تموت: ومن المصطلحات: **الموالى** أى أبناء العم؛ **والصدّيق**: وهو الكثير الصدق والبار الدائم التصديق؛ **والباقيات الصالحات** وهى الأعمال الصالحة التى تبقى للإنسان بعد وفاته وزوال ماله وجاهه وسلطانه. ولله الحمد والمنّة، نسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على الكتاب والسُّنَّة، آمين.

•••

٦٠١. ﴿سورة طه﴾

نزلت هذه السورة بعد مريم، وترتيبها فى النزول **الخامسة الأربعون**، وفى المصحف **العشرون**، وآياتها **خمس وثلاثون** آية، جميعها مكية إلا الآيتين ١٣٠ و ٣١ فمدنيتان، **وموضوعها: العقيدة** كأىٍّ من السور المكية، وتبدأ بحرفين هما: «طه» سُمِّيت السورة بهما، وتباينت الاجتهادات فى تفسيرهما، فمن قائل: أن طه اسمٌ **لمحمد**ﷺ، والمعروف أن له **عشرة أسماء**، منها طه، ويس؛ وقال آخرون: «طه» من اللغة **السريانية**، أو **النبطية**، أو **اليمنية**، أوهما بلسان الحبشة، بمعنى، «**يا رجل**»، أو بمعنى «**طأ الأرض**»، لأن النبىّ ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة قبل أن تنزل هذه السورة، حتى كادت تتورم قدماه، وكان إذا صلّى يرفع رجلاً ليريحها ويقوم على الأخرى، فأنزل الله ﴿طه ﴿١﴾﴾، يعنى: «**طأ الأرض يا محمد**»، ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾. وقال نفرٌ من المفسرين: إن «**طه**» قسَمٌ أقسم به، وقال آخرون: إن «**طه**» اختصار لكلمات، كأن تكون **الطاء** اختصار «**طوبى**»، **والهاء** اختصار «**الهاوية**»؛ والعرب تعبّر عن الشىء كله ببعضه، فيُحتمل أن **الطاء** افتتاح اسمه «**طاهر**» و«**طيّب**»، أو «**طالب الشفاعة للأمة**»؛ أو أن الطاء من **الطهارة**، والهاء افتتاح **هادي** من الهداية، كأن يكون المعنى خطاباً من الله إلى رسوله ﷺ يقول: **يا طاهراً من الذنوب،ويا هادى الخلق إلى علاّم الغيوب**؛ أو أن **الطاء**: «**طبول الغزاة**»، **والهاء: هيبتهم عند الكافرين**. وكل هذه اجتهادات لا مبرر لها، لأنه ليس فى القرآن ما يستغلق على الناس فهمه، فحتّى ما كان من الغيب عرّفه لنا، وإنما «**طه**» من الحروف المقطّعة، ومثلها مثل الّم، والّر، وهى إشارات إلى حروف **الأبجدية** التى كانت منها **الكتابة والقراءة**، وهما نعمتان كنعَمه الأخرى فى الكون، بل إنهما لأكبر من أى نعمة أخرى من النِّعَم الكونية، فلولا

الكتابة والقراءة ما كانت الحضارة، ولا كان التاريخ، ولما عرف الإنسان الله، فالحروف المقطّعة فى أوائل بعض السور تنبيهٌ إلى هاتين الآيتين ـ الكتابة والقراءة، كالتنبيه إلى آياته الكونية في بعض السور الأخرى. وسورة طه نزلت قبل إسلام عمر، وكانت سبباً فى إسلامه، فذلك من بركاتها، وفي الخبر أنه خرج يوماً يريد أن يقتل محمدا الذى كان يطلق عليه «هذا الصابىء» يعنى المرتد عن دينه، لأنه فى زعمه فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فقيل له: إن ختنه وأخته قد صَبَوَا، فتوجه إلى بيت أخته، وكان عندها خبّاب بن الأرتّ يقرأ لها ولزوجها سورة طه، ودنا من البيت فسمع هينمة القراءة، فلما أحسّوا به اختبأ خبّاب، و بطش عمر بختنه، و ضرب أخته فشجّها، ثم رقّ لها فطلب أن يرى الصحيفة، وكان يعرف القراءة، فأعجبه الكلام فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! وقال له ختنه سعيد بن زيد: ياعمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه، فإنى سمعته أمس يقول: «اللهم أيّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطّاب»، فالله الله ياعمر. فقال عمر: فدلّنى يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم.

وتبدأ السورة بحُسن استهلال، لتسلية النبىّ ﷺ، بقوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾، وتنبّه إلى رسالة القرآن، وأنها للتذكرة بالله تعالى، وتصفه بصفات الوحدانية، ثم تستطرد فى تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين، بأن تقصّ أطرافاً من قصة موسى، وتستهلها بالتشويق والحثّ على الإصغاء، تقول: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ (١٠)﴾، وفى القصة الكثير من المصطلحات، مثل: «الوادى المقدس طوى»، و«عصا موسى»، و«حيّة موسى»، و«يوم الزينة»، و«جنّات عَدْن»، و«السامرى»، و«لامساس»، و«الشفاعة»؛ والكثير من الحكم والأمثال والأدعيات، مثل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧)﴾، و﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) ﴾، و« ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾، و﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾، ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾، و﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾، و﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾، و« ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ (٧١)﴾، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)﴾ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾، و﴿يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي (٩٤)﴾، «﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾. ويتأدّى السرد فى القصة إلى وصف

يوم القيامة، وتتطرّق إلى سؤال قريش للنبيّ ﷺ عن الجبال فى ذلك اليوم، ويُضرب المثل بالجبال ونسفها على وصف الهول فى ذلك اليوم، والذى لا شفاعة فيه إلا لمن أذن له الرحمن، ومقصوده من كل هذا السرد عن القيامة، هو توعّد من يكفر بعد ما جاءه من العلم مما بيّنه القرآن وأنزله اللّه تعالى لذلك بالعربية، وأمر نبيّه أن لا يتعجّل قراءته من قبل أن يُقضَى إليه، ويضرب له المثل بآدم الذى تعجّل فأطاع إبليس ونسى ما وصّاه به ربّه، وترْوى السورة طرفاً من قصة آدم، وتسوق الآيات لعل فيها الهدى للناس، وتنذرهم بأن من يُعرض عمّا فيها فإن معيشته تسوء، بسبب اختياره الطريقة الدنيا على طريقة القرآن، وتشبّهه بمن يُؤتى البصر فى الدنيا ويُحرَم البصيرة، فيُحشَر فى الآخرة بلا بصر ولابصيرة، فهذه حال كل من يسرف ولايؤمن، وله المثل فيمن سبقه من الأمم، لعله يتّعظ بهم. وتنتهى السورة ببعض الوصايا للنبىّ ﷺ وللمؤمنين: أن يصبروا على تشنيعات الكافرين والمكذّبين والمتعنّتين ،وأن يشغلوا أنفسهم بذكر الله، وأن لايتمنوا ما فى أيدى غيرهم من النّعم، فرزقُ الله خير وأبقى ،وأنه على المسلم أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها ،وأن يحفظ ما جاء فى هذه السورة، فهى خيرٌ من كل آية مادية من آيات الكون والدنيا التى يطلبها الكفار كبرهان على صدق النبيّ ﷺ ، وهذه كُتب الأولين قبل القرآن تشهد بذلك، ولو أن الله حاسبهم على ما طلبوا كما حاسب من سبقوهم لأهلكهم، ولقالوا: مالنا ومن سبقونا؟ لولا أرسل اللّه لنا رسولاً خاصاً بنا فنتّبع آياته ؟! وها هو الرسول قد جاءهم فَلمَ لم يتّبعوا ما جاء به؟ولمَ لم يؤمنوا؟ وتُختتم السورة بأروع بيان: ﴿**قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى**(١٣٥)﴾ فهذه هى سورة طه التى أسلم بسببها عمر بن الخطاب ، قمةٌ فى الحكمة والقصّ، ودعوةٌ إلى التدبُّر والتفكُّر. ولله الحمد والمنّة.

●●●

٦٠٢. ﴿سورة الأنبياء﴾

السورة مكية، وآياتها اثنتا عشرة ومائة، وكان نزولها بعد سورة إبراهيم، وترتيبها فى المصحف الواحدة والعشرون، وفى التنزيل الثالثة والسبعون، وتعتبر من السور العتاق الأول، مثلها مثل مريم، وطه، والكهف، وتبدأ بداية غير معهودة، تقول: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** (١) **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** (٢) **لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**(٤)﴾ وفى هذه الآيات موجز للسورة جميعها، فكما يُوحى اسمها فإنها عن

«الأنبياء»، وفيها ذِكر «ثمانية عشر» نبياً ، هم بحسب ورودهم في السورة: **موسى وهارون، وإبراهيم ولوط، وإسحق ويعقوب، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون، وزكريا ويحيى ، وعيسى،** وتنذر السورة **باقتراب الآخرة**،وتنبّه إلى غفلة الناس وإعراضهم، واستغراقهم في الملذات، وكلما نزلت عليهم آية من ربّهم لم يستمعوا لها إلا وهم يتشاغلون ويتناجون بينهم بالتكذيب، وقالوا: وهل **محمد** هذا إلا مثل البشر ومن البشر؟ يأكل الطعام مثلهم،ويمشي في الأسواق كما يفعلون، فلماذا الإنصات له،والاحتفاء بما يقول، وهو لايتميز عن أهل مكة في شيء؟ وقالوا: كلامه سحر ولا يأتيه إلا شاعر، وهو نفسه ساحر، وقرآنه أخلاط كالهلاوس وأضغاث الأحلام. والردّ على هؤلاء: **أنه ما كان من الممكن أن يرسل الله رسولاً إلى الناس إلا إذا كان بشراً مثلهم**، وحُجتهم على ذلك داحضة، لأن من سبقه من أنبياء ما كانوا إلا بشراً رجالاً يوحى إليهم، وما كانوا يأكلون إلا **طعاماً** كما يأكل الناس. وقال كفّار مكة مثلما قال النصارى: أن الله اتخذ ولداً، وهم كاذبون **فلو كان يريد أن يتخذ ولداً لا تّخذه من أهل السماء**، يعنى الملائكة،وهو لم يكن له ولد، ولا اتخذ ولداً من الملائكة، ولاكانت له **بنات** من بينهم،وليس الملائكة إلا عباداً له مُكرمين،و هم يسألون **الله** سبحانه وهو لايَسأل ، فكيف يكونون له شركاء وهو الذى تشير كل الدلائل في السماء والأرض على أنه واحد لاشريك له، وله البقاء والخلود وحده ، وهم جميعاً ميتون، ولسوف يموت محمد، فلماذا الاستهزاء به وتعييره بأنه سيموت؟ ومن قبله استُهزئَ بالأنبياء وجرى عليهم الموت، وما كان محمد إلا مثلهم فليس عجيباً أن استهزأوا به؟ ثم تقص السورة قصصاً عن بعض الأنبياء، وبعض القصص يطول وبعضها يقصر، ومن هؤلاء : **موسى وهارون**، وكيف آتاهما **الله** الفرقان ضياءً وذكراً للمتقين، ومثله القرآن تنزلّ على محمد ﷺ . **وفرقان موسى هو التوراة**، وسمى **الفرقان** لأنه يفرق بين الحرام والحلال. ومن قبل موسى وهارون كان **إبراهيم** ، وتتحدث السورة عنه بإسهاب، وتعرض لبراهينه وحججه في أسلوب فيه نصاعة البيان. ولم يكن إبراهيم عندما بدأت قصته على العيان إلا فتًى، ولكنه لم يكن غريراً، فقد آتاه **الله** رشده قبل الأوان، يعني **أنضجه فكرياً**، وأعطاه **عمراً عقلياً** يسبق **عمره الزمنى**، كقوله تعالى في **يحيى**: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**(١٢)﴾(مريم)، والحُكم هو الرشد، وإبراهيم كان أبرز ما فيه قدراته على **الاستدلال والنظر**، فَعلِمَ عجز آلهة قومه، ودعاهم لنبذها، ولم يكتف بالمحاجاة باللسان، ولكنه ذهب إلى أبعد من **ذلك**، **فكسر الأصنام** التى يعبدونها، ووطّن نفسه منذ البداية على **مواجهة المكاره** وهو يذبُّ عن عقيدته، ويعلن عن إيمانه **بالله**، وحاكموه فكانت «**محاكمته أول محاكمة في التاريخ من نوع محاكمات محاكم التفتيش**»،

وحرّقوه بالنار، فكان «تحريقه أول تحريق holocaust أو auto - da -fé في التاريخ»، وقضى الله أن تُمنع هذه المهزلة، ويُرفع هذا الظلم، فعطّل قانون النار، فتحوّلت إلى الضدّ ﴿بردا وسلاما(٦٩)﴾، ونجّاه ولوطاً وأوعز إليهما أن يهاجرا، فكانا أول من هاجر من الأنبياء، وارتحلا بعائلتيهما إلى أرض فلسطين، وكان لوط من المؤمنين بإبراهيم، وكافأ اللّه إبراهيم فوهبه على الكِبَر إسحق، وأنجب إسحق يعقوب، وكلاهما كان نبياً، وكافأ لوطاً فجعله نبياً، ولوط هو ابن أخي إبراهيم، وهؤلاء كانوا الأئمة أو الآباء، أو البطارقة patriarchs الهداة الأولين. وامتحن الله لوطاً بقريتيّ سدوم وعامورة، ونجّاه وأهله وأغرق قوم السوء. ومن الأنبياء داود وسليمان: آتاهما الله الحكم والعلم، فقضيا في أصحاب الحرث والغنم، وفضّل الله سليمان فكان حُكمه هو الأفضل. ومنهم أيوب: وكان من الصابرين، فكشف الله ضُرّه، وآتاه أهله ومثلهم معهم، رحمةً به وذكرى للعابدين. ومن الصابرين: إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وكانو صالحين. وذو الكفل هو اليسع، سُمّى كذلك لأنه تكفّل بأن يُدخل الجنة من يؤمن باللّه، وقيل هو زكريا، سُمّى ذا الكفل لكفالته لمريم. ويونس: وكان من المؤمنين، وسُمّى ذا النون، لأن النون - أي الحوت - ابتلعه. و من دعائه المستجاب في ظلمات بطن الحوت: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧)﴾؛ وزكريا وزوجه: وكانا من الخاشعين ويسارعان في الخيرات، ويدعوان، الله رَغَباً ورَهباً، فآتاهما يحيى على كِبَر، وكان يحيى سيداً وحصوراً، ولم يكن له من قبل سمياً. ومريم البتول: وابنها عيسى الذي جعله الله آية وأعجوبة للخلق، وأوجده دليلاًعلى قدرته تعالى. وهؤلاء الأنبياء دعوا جميعاً إلى الله، فالذين آمنوا كانوا أمة واحدة هي أمة لا إله إلا الله، غير أن الناس اختلفوا وتفرّقوا في الدين، وسيظل اختلافهم إلى يوم الساعة عندما تُفتح يأجوج ومأجوج، فينسلون من كل حدب لكثرتهم، ويُحشَرون في أرض الموقف، ثم يوردون جهنم، وهم لها حَصَبٌ وما يعبدون، وينجّي اللّه من سبقت له الحسنى، وكما بدأ الخلق يعيده، وتُطوىَ السماء كطيّ السجل للكتب، وما كان إرسال محمد إلارحمةً للعالمين، وما كان قوله «لا إله إلا الله»، إلاّ يُوحى بها إليه منه تعالى. والله أعلم بالساعة، ويعلم الغيب وما يكتمون، ولايرث الدنيا والآخرة إلا عباد الله الصالحون، وهذا بلاغ للعابدين، لم يُخَصّ منهم أحد دون أحد، ولعل إمهاله تعالى للناس، وتأخيره عقابهم، امتحان لهم ليرى صُنعهم، وليُمتّعوا في الدنيا إلى حين، ثم يأتيهم عذابه الأليم. وتختتم السورة بأمر الله لنبيّه ﷺ أن يدعو ربّه: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ (١١٢)﴾، وأن يكون جوابه للمكذّبين في نهاية المطاف: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾. و الحمد لله ربّ العالمين..



٦٠٣. ﴿سورة الحج﴾

السورة مدنية، وقيل إلا آيات أربع، وهي: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)** ﴾ فإنها نزلت بين مكة والمدينة؛ وآيات سورة الحج ثمان وسبعون آية، وكان نزولها بعد سورة النور، وهي الثانية والعشرون في المصحف، والسابعة عشرة في ترتيب التنزيل. وبعض المفسرين يقولون إن السورة مكية إلا بعض السور المدنية، ولذلك فإنه يغلب عليها جو السور المكية ، مع أنها تتناول جوانب التشريع كالسور المدنية سواء بسواء، ويبرز فيها موضوعات كالتوحيد، والإنذار، والتخويف، والبعث والجزاء وتعرض لبعض مشاهد يوم القيامة وأهواله ، ولمعاني الإيمان، وكلها مما تعالجه السور المكية، إلى جانب أحكام الحج، والهَدْي، والإذْن بالقتال، والأمر بالجهاد، وهو ما استُحدث في المدينة، وسميت سورة الحج لتناولها موضوع «الحج» والإذن به، ابتداءً من الآية: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)** ﴾ حتى الآية ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ (٣٧)** ﴾، ومن مميزاتها أن بها سجدتين، الأولى عند قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ (١٨)** ﴾، والثانية: عند قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)** ﴾، والغالب أنها سجدة واحدة هي السجدة الثانية. وبداية السورة بداية عنيفة ، تقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)** ﴾، والزلزلة شدة الحركة، وهي إحدى شرائط الساعة، والمرويات فيها ترتجف لها القلوب، وتذهل من هولها العقول، فحتى المُرضعة تسهو فيها أن ترضع طفلها- وهو أشد ما تحرص عليه الأم ، وإنما تطيح الزلزلة بصوابها، حتى لتضع الحامل حملها لهول ما ترى. وقيل **في النفخة الأولى في الصور**: يكون قيام الساعة؛ وفي **النفخة الثانية**: تكون الزلزلة وتقع أهوال يوم القيامة، وعندئذ ترى الناس سُكارَى مِن هولها، ومن الخوف والفزع، وما هم بسُكارَى من خمر أو ما شابهها، ولكنه الموقف الرهيب. وتستطرد السورة، من مشاهد القيامة إلى

التدليل على البعث، وتقدّم دليلين على أن البعث واقع، **الأول**: أن كل إنسان لم يكن من قبل شيئاً، ثم كان نطفة، فعلقة، فمضغه مخلقة وغير مخلّقه، ثم طفلاً، ليبلغ أشُدّه، وقد يتوفى، أو يُردّ إلى أرذل العمر، فهذه الأطوار جميعاً تثبت أن الخلق ممكن من لاشيء. فهكذا البعث؛ والدليل **الثانى**: أن الأرض تكون هامدة فينزل المطر، فتهتز وتربو وتُنبت من كل زوج بهيج، فهذا دليل أقوى على البعث. ومن الدليل الأول قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ**﴿٥﴾﴾ فخاطب جمعاً؛ ومن الدليل الثانى قوله: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ**﴿٥﴾﴾ فخاطب واحداً، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكرى البعث، من قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ**﴿٤﴾﴾ حتى قوله ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴿٦﴾ **وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**﴿٧﴾﴾. وفيه تنبيه على أن كل ما سوى الله، وإن كان موجوداً حقاً، فإنه لاحقيقة له من نفسه، لأنه مسخّر ومُصرّف. والحق الحقيقى هو الله، وهو تعالى الموجود المطلق، والغنى المطلق، ووجود كل ذى وجود إنما عن وجوب وجوده، ولذا قال: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴿٦٢﴾﴾ ومعنى الحق أنه الموجود الثابت الذى لايتغيّر ولايزول، وهو الله. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهُدَى ولا كتاب يرجعون إليه، والبعض يعبده تعالى على حَرْف، يعنى فى شك دائم، أو يعبده نفاقاً باللسان دون القلب، ويوم القيامة يُفصل بين من آمن وبين من أشرك، وبين المؤمنين وبين اليهود والنصارى والصابئين والمجوس إلى غير ذلك من الملل والنحل. **والصابئون**: هم عبدة النجوم، **والمجوس**: هم عبدة النار، فهذه أديان **خمسة**، **أربعة** منها للشيطان، **وواحد** للرحمن، **وأصحاب ديانات الشيطان** هم الذين يصدّون عن سبيل الله، وعن **المسجد الحرام** قِبْلة **العاكف والبادي**، ومن يُرد فيه بإلحاد بظلم له العذاب الأليم. **والإلحاد بظلم**: هو الميل إلى الظلم؛ **والعاكف** هو المقيم بمكة؛ **والباد**: الذى يأتيها من خارجها؛ **والمسجد الحرام**: هو البيت العتيق، وقيل الحرم كله، وهو **عتيق** أى قديم؛ لأنه **أول مسجد** وضع فى الأرض، ولأن الله أعتقه أن يظهر عليه جبار، ولأنه يُعتَق فيه الخطّاءون من العذاب، ولأنه أعتق قوم **نوح** من الطوفان. ثم إن الله تعالى بوّأه **لإبراهيم**، وعرّفه بمكانه، وأجلىّ له عن أساسه، ليعيد بناءه ويطهّره للطائفين والمصلّين، وأمره أن يؤذّن فى الناس بالحج يأتونه من كل فج بعيد، راجلين وراكبين، ليشهدوا منافع لهم فى التجارة والعبادة، وليذكروا اسم الله فى **أيام معلومات**: قيل هى **ثلاثة أيام**، أو **أربعة**، منها يوم للذبح هو **العاشر من ذى الحجة**؛ ثم ليقضوا تفثهم:

يعنى مناسك الحج؛ وليوفوا نذورهم، وليطوّفوا. **وللحج ثلاثة أطواف: طواف القدوم، وطواف الإفاضة، وطواف الوداع**. وفى الحج يُجتنب **الرجس** من الأوثان، **وقول الزور؛ والرجس**: هو ما يزيل الطهارة؛ **والوثن**: هو الصنم، والأصنام رجسٌ لأنها نجسٌ حُكماً وإنْ لم تكن نجساً وصفاً ذاتياً. **والزور**: هو الباطل والكذب، وفى الحديث: «**عدلت شهادة الزور الشرك بالله**» أخرجه أحمد. وتعظيم الشعائر من تقوى القلوب، **والشعائر**: جمع **شعيرة**، وهى أعمال الحج والأضاحى التى مكان ذبحها مِنًى أو الحرم. ولكل أمة منسك: أى موضع تتردد عليه لعبادة الله، وللذبح عنده، شكراً له على ما رزقها من بهيمة الأنعام. وعلى المؤمنين أن يسلّموا بحقه تعالى، وأن يطيعوا له وينقادوا؛ **وللمخبتين** البشرى: أى المتواضعين الخاشعين، **والخبت** ما انخفض من الأرض، **وآية المخبتين** أن يخافوا من الله تعالى، وأن يرهبوا اسمه، وأن يصبروا على ما يصيبهم، وأن يقيموا الصلاة، وينفقوا مما رزقهم، وهذه أحوال **العارفين بالله**. **والضحايا فى الحج**: ليأكل منها أصحابها، ويُطعموا **القانع** والمُعترّ، **والأول** هو السائل، يقنع قنوعاً أى يسأل، أو تقنع قناعةً أى يتعفف؛ **والمُعترّ** هو الذى يعترّ، يعنى يتعرض للناس ويُطيف بهم سائلاً أو ساكناً. **والأضحية**: من تقاليد أهل الجاهلية، فكانوا يذبحون ويضرجون الكعبة بدماء الذبائح، والله لا ينال من لحومها ولا دمها، ولكن يناله التقوى من المُضحّين، فيعلون بدينهم، وهؤلاء الذين يدفع عنهم قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** (٣٨) ﴾، ودفاعه تعالى بالحجة مع من تُجدى معهم الحجة، ومن لم تُجد معهم أمر بقتالهم: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** (٣٩) ﴾، فشَرط قتالهم بأن الظلم قد حاق بهم، وقيل هذه «**آية القتال**» تنسخ كل آيات القرآن فى الصفح والإعراض والجدل بالحسنى، وقيل هى **أول آية نزلت فى القتال**، والصحيح أنها لم تنسخ آيات الجنوح للسلم والمعاملة باللين، فالقتال لايجوز إلا فى حالات معينة، منها فى هذه السورة: **إخراج المسلمين من ديارهم بغير حق**، ولولا أن الله قد شرّع أحياناً القتال للأعداء، لاستولى أهل الشرك على كل البلاد، ولعطّلوا الشعائر، وخرّبوا بيوت العبادة، والجهاد ضرورة ،ولولاه لما بقى الدين، وكأيّن من قرية ظالمة ومعادية لله وأهلها مشركون إلا أهلكها الله، ولقد كذّب أقوام **نوح، وعاد وثمود، وإبراهيم ولوط، وموسى، وأصحاب مدْين**، فأملَى لهم الله ثم أخذهم، فلعل فى الرواية لقصصهم تسليّة للنبىّ ﷺ، وهو النذير المبين، وما أرسل الله رسولاً ولا نبياً من قبله إلا وقد تمنّى لو يؤمن قومه، ولكن الشيطان يُلقى فى أمنيته، يريد أن يفسدها عليه، ولكن الله ينسخ ما يُلقى إليه الشيطان، ثم يُحكم آياته، وفى ذلك

تعريض بقصة الغرانيق التى نسبوها إلى النبى ﷺ، وفى زعمهم أن النبى ﷺ لما قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (20)﴾(النجم) لها، قال: «إن شفاعتهن لترتجى، وإنهن للغرانيق العلا» وهو افتراء محض فذلك لايجوز على النبىّ وهو المعصوم فى التبليغ، وقيل هذا مما ألقاه الشيطان فى أمنيته ﷺ، وأن الآية نزلت فى ذلك، والصحيح أن الآية نزلت تخبر أن الأنبياء حين يبلّغون عن ربّهم، أو يتلون وحياً أُنزل عليهم، فإنهم لم يعدموا مشاغبين يقولون عليهم ما لم يقولوه، ويحرّفون الكلم عن مواضعه، وينشرون ذلك بين الناس، ولايزال الأنبياء يجادلونهم حتى يُقيض لهم النصر عليهم، فينسخ الله ما يُلقى شياطين الإنس من تشبه، ويُثبّت الحق، وتلك سُنّة الله ليميز الخبيث من الطيب، فيُفتَن ضعاف القلوب، ويتمحّص الحق عند أهله، وهم الذين أوتوا العلم. ولايزال الذين كفروا فى شك من القرآن حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، وسُمّى اليوم عقيماً لأنه لا يتلوه يوم آخر، وليس يعقب بعده يوماً منه، والمُلك يومئذ لله وحده لامنازع فيه ولامدافع، وفيه يُفَصل بالعدل بين المؤمنين والكافرين، فمن يعاقب إذن فلا يغلو، لأنه تعالى أمر بالعدل، ومن يعاقب فليعاقب بمثل ما عوقب به، والله هو الحق ويُحق الحق، وما يدعونه هو الباطل، وهو العلىّ الكبير، والعالى على كل شىء بقدرته، وعن الأشباه والأنداد؛ والموصوف بالعظمة والجلال؛ وقيل هو الكبيرأى ذو الكبرياء، يحيى ويميت، وله ما فى السموات والأرض، ويمسك السماء أن تقع إلا بإذنه، وهو الرءوف الرحيم، وجعل لكل أمة شريعتها ومنهجها ومتعبّدها، وما للظالمين من نصير، وهو تعالى يصطفى الرسُل من الملائكة ليتوسّطوا بينه وبين البشر، ويصطفى رسُلاً من الناس لتبليغ شرائعه للعباد. والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر، وأما المؤمنون فليزدادو إيماناً، وليركعوا ويسجدوا ويعبدوا ربّهم، وليفعلوا الخير لعلهم يفلحون، وليجاهدوا فى الله حقّ جهاده، بأموالهم وأنفسهم، فهو الذى اجتباهم من بين الأمم لنُصرة دينه، وخصّهم بأكمل شرع، وأكرم رسول، ولم يضيّق عليهم ،ولا كلّفهم ما لايطيقون، وجعلهم على الحنيفية السمحاء، ملّة إبراهيم، وسمّاهم المسلمين، وأشهد عليهم بأنه قد بلّغهم، وأشهدهم على الناس أن رسُلَهم قد بلّغتهم، وإن كانوا قد اختارهم لهذه المهمة الجليلة، فلا أقل من أن يشكروه على هذه النعم: بالصلاة والزكاة، والاعتصام به تعالى، والاستمساك بحبله المتين. فللّه الحمد والمنّة، ونسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على الكتاب والسُنّة، آمين.

●●●

٦٠٤. ﴿المؤمنون﴾

السورة فى قول الجميع مكية كلها، ونزلت بعد سورة الأنبياء، وآياتها **ثمانى عشرة ومائة**، وترتيبها فى المصحف **الثالثة والعشرون**، وفى التنزيل **الرابعة والسبعون**. ولمّا قيل لعائشة: ما كان خُلق رسول الله ﷺ؟ قالت: أتقرأون سورة المؤمنين؟ قيل: نعم. قالت: اقرأوا - فقُرىء عليها: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾** حتى **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨﴾**. - فهذه أخلاق رسول الله ﷺ، وهى أخلاق المؤمنين المفلحين وقيل: إن النبىّ أُنْزِل عليه فسرى عنه بعد ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «**اللهم زدنا ولا تُنقصنا، وارضِنا وارضَ عنا**»، ثم قال: «**أُنزل علىّ عشر آيات مَن أقامهن دخل الجنة**»، ثم قرأ: **قد أفلح المؤمنون**» حتى ختم عشر آيات. ومن غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامةٌ فى الرجال والنساء، والخطاب للمؤمنين وهم يشملون المؤمنات، والسورة فى أغلبها عنهم، وتُستَهل باسمهم: «**قدأفلح المؤمنون**» فسُمّيت باسمهم، إشادةً بهم وبأفضالهم. وفلاحُهم: هو فوزهم وسَعْدُهم، وشرطُهُ لهم بست خصال: **الأولى: الخشوع فى الصلاة**، ومناطه القلب، ولمّا نزلت الآية كان المسلمون يلتفتون فى الصلاة، فأقبلوا من بعدها على صلاتهم ينظرون أمامهم. **والقلب إذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه، والخشوع هو أول علم يُرفع من الناس؛ والثانية: الإعراض عن اللغو**، وهو الثرثرة فيما لا يجوز ولا طائل وراءه؛ **والثالثة: فعل الزكاة**، وهو أن تعمل ليكون لديك المال لتزكّى منه، وهو أقوى من إتيان الزكاة، و«**الفعل**» فيه إرادة وقصد؛ **والرابعة: حفظ الفروج**، وذلك عام فى الرجال والنساء إلا على الأزواج، ويقتضى ذلك تحريم الزنى، والاستمناء، ونكاح المتعة. والاستمناء هو استفعال المنىّ، وكان ابن حنبل يجوّزه ويشبّهه بالفصد والحجامة! ونكاح المتعة: هو الزواج لأجَل، والمرأة كالمستأجَرة! ولا حقوق فيه لها، وهو ضد الشرع. وسمّت السورة مَن نكح ما لا يحل له **عادياً** وأوجبت الحدّ عليه لعدوانه، ومن ذلك **اللائط**، فهو عاد قرآناً ولغةً، بدليل قوله تعالى: **﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾** (الشعراء)؛ **والخامسة: مراعاة الأمانة والعهد**، وفيهما يجتمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه قولاً وفعلاً. **والأمانة أعمّ من العهد**، وكل عهد فهو أمانة؛ **والسادسة: المحافظة على الصلاة**، والصلاة عمود الدين، ومن أقامها فقد أقام الدين. وهؤلاء المؤمنون هم **الوارثون للجنّة، وجنة الوراثة**: هى هذه الجنّة التى يرثونها، وهى **الفردوس**، أعلى الجنة. ثم تعرض السورة **لدلائل قدرة الله**، فتناولت خَلْق الإنسان من **سلالة من طين، والسلالة هى النطفة** تُسَلّ من شىء، والسلالة أيضاً صفوة الماء وهو المنى؛ وأصل آدم من **طين خالص**، وأما ولده فمن **طين ومنّى**، ثم ينفخ **الله** فيه من

روحه فيكون خَلْقاً آخر، ويكون له النُّطق والإدراك وتحصيل المعقولات، فتبارك الله أحسن الخالقين، فذلك دليل من أدلة قدرته تعالى، ومن هذه الأدلة **خلق السموات السبع**، **والمطر** ينزل بقَدْر، وينمو به النخيل والأعناب والفواكه والزروع، وشجرة الزيتون المباركة التى تنبت من طور سيناء، وفيها الزيت دهاناً للعلاج، وغذاء للناس، **والأنعام** وألبانها، **والمراكب فى البحار**. وتستطرد السورة إلى بعض **قصص الأنبياء** الذين أبلوا بلاء حسناً وصبروا على الأذى، لعل فيها تسليةً للرسول وللمؤمنين، كنوح، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وعيسى وأمه، فكان كلٌ منهم يكرر نفس الدعوة، ونفس الكلام بلا فائدة، ويأتى الجواب على كل دعوة بنفس الألفاظ والدفوع، **فنوح قال**: ياقوم: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** (٢٣)﴾، وهود قال: ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** (٣٢)﴾ وهكذا، وكل قوم يكذّبون بنفس الدفوع: أن النبىّ المزعوم هو بشرٌ مثلهم، وأن **البعث** مستحيل، وأنه من **أساطير الأولين**، وأن **الداعى** كذّاب يفترى على الله، **ومجنون** به جِنّة، فاستحقوا أن ينزل بهم العذاب. وكان المعترضون دائماً «**المترفون**»، ومات من مات **بطوفان نوح**، **وبالصيحة** عند **عاد وثمود**، **والصيحة** تعنى أن يتجاوز الصوت حدّ القدرة على التحمّل، ومن شأنه حينئذ أن يدمر ما يصله؛ وعند **موسى** مات آل فرعون **غرقاً**؛ ولجأ عيسى وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين، قيل هى **الكنيسة** بتعبير **بطرس** أحد الحواريين. وما أُمر المؤمنون إلا بما أُمر به الرسُل: أن يأكلوا من الحلال ويتجنبوا الحرام، وأن لا يعادى بعضهم بعضاً، فالدين واحد والربّ واحد: ﴿**هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** (٥٢)﴾، إلا أنهم افترقوا، وجعلوا الدين الواحد أدياناً، والافتراق فى الفروع طبيعى، ولا يوجب تعديد الملل، وإنما الافتراق المحذور منه هو الذى موضوعه أصول الدين وقواعده. ومن افتراقهم أن وضعوا الكُتب واتّبعوها، وحرّفوا **التوراة** ووضعوها وضعاً، وألّفوا **الإنجيل** تأليفاً، وما هم فيه من مال وبنين ليس عن رضا الله عنهم ولكنه **استدراج وإملاء**؛ وأما **المؤمنون**: فلهم علامات أربع: **يخشون ربّهم**، **ويؤمنون بآياته**، **ولا يشركون بالله**، **ويتّقونه ويخافون أن لا تُقبل تقواهم**، وأولئك هم المسارعون فى الطاعات، والسابقون إليها، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وكل ما يفعلون فى **كتاب الإحصاء للأعمال**. وأما **الكافرون** فهم فى غمرة وغفلة وعماية، وأعمالهم دون ذلك، وكلهم «**مترفون**»، وفى يوم القيامة يُعذّبون، وكانوا من قبل يستأخرون كلما تُلى عليهم القرآن، وكانت لهم مسامرات ومجالس أباطيل وكُفر، **يهجرون فيها**، أى ينطقون بالفُحش، فإما أنهم لم يدبّروا آيات القرآن، أو أن ما جاء به كان جديداً عليهم تماماً ولم يأت مثله لآبائهم، أو أنهم لم يعرفوا رسولهم فهم فى شكّ منه، أم أنهم يظنون به الجنون؛

والصحيح أنه جاءهم بالحق، إلا أن أكثرهم يكره الحق، ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسد ما في السموات والأرض، ولتنافت الآلهة مع تعددها، و أراد بعضهم ما لا يريده بعض، وهذا هو «دليل امتناع تعدّد الآلهة». وما كان للنبيّ أجرٌ يحصّله منهم على دعوته حتى يكرهوه، وماكانت دعوته إلا إلى الصراط المستقيم، وهم لا يحبون الصراط المستقيم. وما كانوا يبالون مهما نوقشوا في دعاواهم. ومهما نُبّهوا إلى دلائل وجود الله وقدرته في الكون،فإنهم لايبالون، وأفرط وبعضهم ونسبوا لله ولداً، والولد شريك، ولو كان له شريك لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض.

وتحدد السورة منهج الدعوة للنبيّ ﷺ، فرغم كل هذه الافتراءات منهم، قال تعالى له: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** (٩٦)﴾، أي اصفح وجادلهم بالمنطق، وتسمى هذه الآية آية موادعة، لأنه فيها يوادعهم، وأي منهج للدعوة يقول به البعض خلاف هذا المنهج الذي استنّه ربُّ العزّة واتّبعه الرسول ﷺ، غير مقبول ومن إيعاز الشيطان، ولم يكن على النبيّ ﷺ حينئذ إلا أن يقول: ﴿**رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ** (٩٧) **وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ** (٩٨)﴾، وما كان لهم أن يعودوا إلى الدنيا إذا ماتوا مهما دعوا إلى الله، فبين الدنيا والآخرة برزخٌ لا يجتاز، ويوم يُنفخ في الصور لأول مرة يُبعثون فلا أنساب بينهم، وعند النفخة الثانية يسألون، والذين تثقل موازينهم هم المفلحون الذين بدأت بهم السورة. والذين خفّت موازينهم هم الخاسرون، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون، أي عابسون، وهيهات أن يُخرجوا من النار، وقد كانوا يسخرون من المفلحين في الدنيا، ويظنون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا قليلاً، وهو حقٌّ بحسابه تعالى، ولم نُخلق فيها عبثاً. وكان عليهم أن يدركوا منذ البداية أنهم كما جاءوا إليها سيخرجون منها ويعودون إلى ربّهم، وهو الذي لا إله إلا هو، وكما يقول: ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** (١١٦)﴾، قيل ليس في القرآن كله مثل هذه الآية في الكمال والبيان؛ ومن كانت دعوته إلى إله آخر خلافه تعالى فعليه أن يقدّم البرهان به، وإن لم يفعل فحسابه عند الله. وكما قال في أول السورة ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، يقول في نهايتها ﴿ **لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾. ثم أمر نبيّه ﷺ بالاستغفار لتقتدى به الأمة: ﴿**رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** (١١٨)﴾ .ولله الحمد والمنّة، ونسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على القرآن السنّة، آمين.

●●●

٦٠٥. ﴿سورة النور﴾

السورة **مدنية** كلها بالإجماع، وآياتها **أربع وستون** آية، وكان نزولها **بعد سورة الحشر**، وترتيبها **في المصحف الرابعة والعشرون**، وفي التنزيل **الثانية بعد المائة**. واسمها سورة النور

من قوله تعالى فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...(٣٥)﴾ وتستهل السورة بالتوصيف والتقديم لها: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾، ومقصودها أحكام الأسرة والسلوك، ولذا قالت فيها عائشة: علّموا بناتكم سورة النور». قالت ذلك لما فيها من آداب تهم البنات خصوصاً. وفرائض السورة كثيرة، وقوله تعالى إنها «سورة» لمنزلتها وشرفها، لأن «السورة» من السُّور الذى من شأنه أن يحوط الأشياء ويمنع عنها. والسورة تعليمية بالنسبة للنشأ، وتعرّف معنى البيت المسلم والأسرة المسلمة، وابتداء السورة بالكلام فى الزنى، وابتداء أى كلام فى الأخلاق يكون بالمسألة الجنسية، والمناسبة التى استدعت نزول هذه الآية: أن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوج امرأة كانت تسافح الرجال، فنزلت الآية فى عقاب الزنى وبيان حدّه، ثم فى تحريم الزواج من الزُناة الرجال والنساء على السواء. والزنى فى اللغة معروف قبل الشرع، وهو فى اليهودية، وحدّه عندهم الرجم، ولا حدّ له فى النصرانية ولا عقاب عليه، ولهذا دعوة العلمانيين من أهل الغرب أن لا يعاقبوا عليه، وأن يبيحوه، وأن يُسقطوا اسمه «الزنى» باعتبار العقاب عليه لا يتوافق مع القول بالحرية الشخصية. والزنى: هو وطء الرجل امرأة لا يحلّ له وطؤها بشرط مطاوعتها. وعقوبة الزنى الجَلْد، بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾، وكما ترى فليس من العقوبة الرجم ولا التغريب. والذَكَر فى العقوبة كالأنثى، والبدء فى الآية أولاً بالزانية الأنثى، لأن الزنى بالنساء كان فى كل العصور أفشى، وهو الآن كما كان فى السالف وكما سيكون فى الغد، والفرق بين الأمس واليوم، أن بغايا الزمن السالف كن ينصبن رايات على بيوتهن، وكن يتخذنها خارج الكتلة السكنية، وأما المرأة اليوم فترتكب الزنى فى بيتها وفى غير بيتها. والمرأة الزانية على أى حال تجاهر بالزنى أكثر من الرجل، وزينتها وتبرجها يعلنان عنها، والزانية أعرّ لأسرتها وأهلها، وثبت فى الطب النفسى أن شهوة المرأة أضعاف شهوة الرجل، وتدفعها دفعاً للزنى إن لم تحذرها، وإن كان الحياء قد رُكّب فى المرأة، وهو مع ذلك إعلان عمّا يدور داخلها من صراعات جنسية تفلح فى كبتها، وتظهر آثارها عليها فى احمرار الوجه وتلعثُم اللسان واضطراب المشية، فإذا ذهب عن المرأة حياءها فإنها تستغنى عن السمعة والشرف، وتُسرف فى الانحلال والتفريط فى نفسها. ولهذا قدّمت الآية الزانية على الزانى. والجَلْد للزنّى أشد من الجلد لتعاطى الخمر، وجلد شارب الخمر أشد من جلد القذف. وجلد الزانى أو الزانية مؤلم ولكنه لا يجرح ولا يَبْضَع، ويكون فى الظهر قائماً.

ولا يرضى **بالزواج** من الزانية إلا زانٍ أو مشرك، وكذلك الزانى، ولأنه لا ينكح الزانية إلا من يرضى بزناها؛ وقد جلَد أبو بكر زان وزانية كـلاً منهما **مـائة جلدة ثم** زوّجهمـا لأنهما أليق ببعضـهما؛ وأما **نكاح البـغايا فمحرّم** على المسلمـين. ولأن الزنى مُجرَّم، فإن **رَمْى المُحصَنات** واتهامهن بالزنا من **الكبائر**، وكان نزول حدّ القذف بسبب رمى المنافقين **لعائشة**، وفُرض شهادة أربعـة رحمةٌ من الله بعباده وسترٌ لهم، فإذا لم يكتمل عدد الشهود أربعة، يُجلَد من يشهـدون دون الأربعة ولا تُقبل شهادتهم أبداً إلا لو تـابوا. والذى يرمى زوجته ولم يكن له شهداء، عليه أن **يحلـف أربع** مرات بالله إنه لصادق، **والخامسة: أن لعـنة الله عليها إن كان كاذباً**؛ ولو أقسمت هى كذلك أربع مرات إنه لكاذب، **والخامسة: أن غضب الله عليها إن كـان صادقاً**، درأت عنها العذاب، ويُفرّق بينهما، ولا تحلّ مراجعتها. ويسمى ذلك «**اللعان**»، وهو قول الزوج: **علىّ لعنة الله إن كنتُ من الكاذبين. وأشهر رَمْى للمحصنات** فى تاريخ الإسلام ما أورده القرآن منه، وهو رَمْى أم المؤمنين **عائشة** فيما يسمى **حادثة الإفك**، والحديث فيها يطول. **والإفك** هو الكذب، **وعصبة الإفك** ممن ذُكروا: ثلاثة، هم: **حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنَة بنت جحش**، وقيل رأس الإفك: **عبد الله بن أُبىّ**. وقيل المتهمون به من **ثلاثة إلى عشرة**، وقيل **أربعون**، وقيل إن الذين حُدّوا **ثلاثة فقط**، وقيل لم يُحدّ أحد لأن الحدود لا تقام إلا بإقـرار أو بينة، والشاهد من تضارب الأقوال أنه **لم يُحَـدّ أحد** والعجيب أن الذى اتهموها به - وهو **صفوان بن المعطل** - كان **حصوراً** ولم يتزوج فى حياته. والإفك أرغى فيه المستشرقون وأزبدوا، وطعنوا فى أم المؤمنين ما شاء لهم الطعن، وبرّأها القرآن كما برّأ **مريم**، إلا أن مريم لم يكن لها زوج وحملت وجاءت بولد، وعائشة كان لها زوج ولم تحمل، ولم تنجب، **فأيهما أحرى بالتـهمة؟ التى حملت بلا زوج وأنجبت، أم التى لم تحمل ولم تنجب وكان لها الزوج؟!!** وأقوال المستشرقين وأضرابهم فى عائشة، ثم فى النـبىّ ﷺ، وفى زيد بن حـارثة إلخ، مـن باب **إشاعة الفاحشـة فى المسلمين، كقوله تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾**. وما كان يمكن أن تكون **عائشة** زوجة للنبىّ ﷺ وهى كما اتهموها، فالقاعدة فى السلوك: أن الخبيـثات للخبيثين، والطيبات للطيبين، والزانية لا يتزوجها إلا زان مثلها، وما كانت عائشـة إلا الطهارة مجسّدة، وما كان رسولنا الكريم إلا سيـد العالمين، **فكيف تكون عائشـة زانية؟!!** ونحن نعرف فى الدراسات النفسـية ما يسمى **بتاريخ الحالة**، وتاريخ **عائشة** كله طُهر وصلاح وتقوى وخشية، وكانت من أب هو الكمال بعينه، وأمّ هى القمة فى الطيبة، **فكيف تكون ابنتهما علـى عكسهما؟ وفى علم الوراثة** فإننا

نرث الطباع كما نرث الشكل، وهناك وراثة معنوية، **ووراثة بدنية**، وعائشة كانت مثلاً يُحتذى، وتاريخها في الإسلام من أعظم ما يمكن أن يكون تاريخاً لامرأة عظيمة. ومن حادثة الإفك تستطرد السورة إلي آداب الأسرة وقاية للأسرة المسلمة، فحظرت على المؤمنين والمؤمنات أن يدخلوا البيوت إلا بعد استئذان اهلها، وأمرتهم أن يغضّوا أبصارهم عمّا لا يحلّ لهم، وأن يستروا انفسهم ، وأن لا تبدى النساء زينتهن إلا ما ظهر منها، وليحتشمن فى لباسهن، وأن يساعد المسلمون فى زواج من لمّ يتزوج منهم من الرجال أو النساء، وأن لا يتعلل المؤمن أو المؤمنة بالفقر فالله يعد من يتزوج رغم فقره أن يغنيه أو يغنيها. والمهم أن يختار المؤمن والمؤمنةَ المسلمة الصالحة والمسلم الصالح، ومن لم يجد نكاحا فليستعفف.

ومن أبرز آيات السورة آية النور التي تقول: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ...**(٣٥)﴾ وليس المعنى أنه تعالى نورٌ كالأنوار، وجسمٌ كالأجسام، فهذا محال على الله عقلاً ونقلاً، وإنما المعنى أن لله قدرات أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقريب للذهن، وهو تعالى منوِّر السموات والأرض وسمّى الله صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن - نوراً، وسمّى كتابه القرآن نوراً، وسمّى نبيّه ﷺ نوراً، فقال: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً** (١٧٤)﴾ (النساء) يعنى كتاباً، وقال: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** (١٥)﴾ (المائدة) يعني رسولاً، ومثّل نوره بنور المصباح في زجاجة، يوقد من زيت شجرة مباركة، قيل هى الزيتون، لا شرقية ولا غربية، وهو مَثَل ضربه الله تعالى لنوره، فاجتمع ضوء المصباح، مع ضوء الزجاجة، مع ضوء الزيت، فصار لذلك النور على النور، وقيل: هذه الأنوار هي براهين وجود الله، فهى برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه، ورسول بعد رسول، وكتاب بعد كتاب، وموعظة إثر موعظة، تتكرر لعل الناس تتعظ بها وتعتبر. وفى آية النور كان لا يمكن أن يضرب الله المثل لنوره المعظّم إلا ببعض خَلْقه، ولولا ذلك ما عرف الله إلا الله، ولقصر فهم الناس. ومثلُ نور الله وهداه في قلب المؤمن كالزيت الصافى يضيء قبل أن تمسّه النار، فإنْ مسّته زاد الضوء، فكذلك قلب المؤمن يكاد ينطق بالهُدَى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم زاده هُدىً على هدى ونوراً على نور. والمساجد هى بيوت الله التي يتعبّد له فيها المؤمنون، يذكرونه بالغدو والآصال، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع. ومِثلُ أعمال الكافرين مثل السراب، يأتيه الظمآن فلا يجده شيئاً، ويجد الله عنده يستوفيه الحساب، أو مِثلُ الظلمات فى البحر اللجيّ، تغشاه الأمواج فوق بعضها، ثم السحاب، فهو فى ظلمات فوق ظلمات، نقيض النور على النور

عند المؤمنين. والدلائل كلها تثبت وجود الله، وصدق الدعوة إليه، إلا أن بعضهم يكفر بها، وبعضهم منافق يضمر الكفر ويظهر الإيمان، والإيمان له متطلباته، وأهمها طاعة الله ونبيّه ﷺ، وهؤلاء المنافقون كلما طُلب منهم شيء تولوّا، وكلما حُكّم فيهم الرسول ﷺ أعرضوا، ويقْسمون جهد أيمانهم مع ذلك أنهم سيخرجون معه لو أمرهم، وما أغناهم عن القسم، لأن طاعتهم معروفة وهي الكذب. والذين يطيعونه حقاً وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض، ويمكّن لهم دينه، طالما يقيمون الصلاة، ويأتون الزكاة، وأما الكافرون فإنهم لن يعجزوه تعالى في الأرض. ثم تعود السورة إلى استعراض بعض آداب الأسرة التي تصنع المسلم العامل بأوامر ربّه ونواهيه، والذي يتأسّى برسله، ومنها أن يعلّم أطفاله وأطفال المسلمين أن يستأذنوا على أبويهم ثلاث مرات في اليوم، من قبل الفجر، وحين يضعون الثياب في الظهر، ومن بعد صلاة العشاء، وأنه لا جناح على القواعد من النساء أن يضعن ثيابهن غير متبرجات، والقواعد واحدتها قاعد، بلا هاء، وهي العجوز التي قعدت عن الولد والمحيض؛ ولم يعد لأحد مطمع فيها كأنثى؛ وأنه لا حرج على الأعمى والأعرج والمريض أن يجالسوا الأسوياء وأن يؤاكلوهم؛ وأن على المسلم أن يلبي الدعوات إلى الطعام إذا دُعي؛ ولا يدخل أي بيت إلا إذا سلّم على أهله؛ والمؤمن حقاً هو من يدعى إلى اجتماع عام يخصّ المسلمين فلا يتأخر؛ وأن يستأذن لو كان سيتأخر أو لو اضطر إلى الخروج؛ وأن يراعي الأدب إذا خاطب الرسول ﷺ، أو ذكر اسمه بعد وفاته، وإذا ناداه أو ذكر اسمه، لاينادي عليه كندائنا لبعضنا البعض، أو يذكره كذكرنا لبعضنا البعض، والله عليم بالنوايا وما نقول ونفعل، وما نحن عليه اليوم، وما سنكونه في مقتبل الأيام. والحمد لله ربّ العالمين.



٦٠٦. ﴿سورة الفرقان﴾

السورة مكية، وآياتها سبعٌ وسبعون، وكان نزولها بعد سورة يس، وترتيبها في المصحف الخامسة والعشرون، وفي التنزيل الثانية والأربعون. وتتناول موضوعات: العقيدة والتوحيد، والبعث، والقيامة، والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والرسول ﷺ وأطرافاً من حياته وسيرته وأوصافه، وأبعاد الرسالة التي كُلّف بها، وبعض القصص عن موسى ونوح، وقوم لوط وعاد وثمود، وأصحاب الرس، والتنبيه لنعمَ الله وأفضاله وآياته في الكون، وأحوال المؤمنين والكفار في الجنة وفي النار، وتُختتَم بالحديث عن عباد الرحمن وصفاتهم وما لهم من أخلاق. و«تبارك» التي تُستهل بها من البركة،

بمعنى الكثرة من الخير، أو أنها الثناء الكثير على الله تعالى صاحب الأفضال والنِّعَم، وقد زاد عطاؤه وكثر، ومن **تبارك** يُشتق اسمه تعالى «**المبارك**»، اعتبره البعض من أسماء الله الحسنى، وهو تعالى الذى يملك الضَّر والنفع، والموت والحياة والنشور، وله مُلك السموات والأرض، ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك فى الملك، وخلق كل شىء فقدّره تقديراً، ونزّل **الفرقان** على عبده محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، ورغم ذلك اتخذ الكفّار من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، ولو نظروا حولهم فى الكون لوجدوا ألف برهان ودليل على وجوده تعالى، ووحدانيته، وقدرته وعلمه، فالليل جعله لهم لباساً، وجعل فيه النوم سباتاً - أى ثقيلاً، وجعل النهار نشوراً، أى ينتشر فيه الناس يبتغون من فضل الله، ومدّ الظل وأنقصه **دليلاً على حركة الأرض حول الشمس**؛ وأرسل الرياح بُشرَى، وأنزل من السماء المطر الطاهر ماؤه، فيحيى به الأرض الموات، وتُسقَى الأنعام والناس، ومَرَج البحرين وخلط مائيهما العذب الفرات الحلو، والمِلح الأُجاج شديد الملوحة، وجعل بينهما برزخاً وحاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه، وخلق من ماء الرجل والأنثى (المنى) بشراً وجعله نسباً وصهراً، ومع ذلك كفروا به سبحانه وعبدوا من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم واستظهروا بهم، مع أنه تعالى خالق السموات والأرض فى ستة أيام، وليُسأل عنه تعالى من يعرف آياته ونعمَه من أهل الخبرة والعلم. وإنهم ليستنكفون أن يسجدوا له وهو الرحمن، ويتساءلون على جهة الإنكار والتعجب؛ **وما الرحمن**؟ وهو الله، تبارك وتقدّس، الذى جعل فى السماء الشمس سراجاً وهّاجاً، والقمر منيراً، وجعل لهما المنازل والبروج، وأتبع الليل النهار، فتبارك سبحانه جلّ شأنه، وعزّ فرقانه، **والفرقان بخلاف القرآن**، والثانى هو الكتاب المقروء، والأول هو مضمونه الذى يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والظُّلم والعدل، والإيمان والكفر، والوعد والوعيد. وبسبب بركات هذا الفرقان على كل الناس، **سُمّيت السورة باسمه**، مع أنهم كذّبوه لمّا أنزله الله على نبيّه، ونسبوا إلى النبىّ ﷺ أنه الذى افتراه واختلقه، وأن آخرين عاونوه فى اختلاقه، قصدوا بذلك أمثال مَن اتهموه بهم، **كأبى فُكيهة مولى بنى الحضرمىّ، وعدّاس، وجبر**، ووصفوا ما فيه بأنها قصص من **الأساطير** التى كانت عند القدماء، تُملَى عليه ويكتتبها بكرة وأصيلاً. وعابوا عليه أن يدّعى أنه مبعوث السماء مع أنه مثلهم يأكل الطعام، ويرتاد الأسواق، ويشترى ويبيع ويحترف، ولو كان مبعوثاً من السماء لأُنزل معه مَلك يعينه ويؤيده ويؤازره، أو لأرسله ربّه فى أُبّهة من اللباس، ويملك الكنوز من الأموال والضياع والأملاك والبساتين، وإذن لبانت عليه النعمة وأكرم من حوله

من أتباعه. وفسّروا إخلاصه لدعوته بأنه مسحور. وكان بوسعه، تبارك اسمه وعزّ قدرُه، أن يؤتيه خيراً من ذلك لو يشاء، قصوراً وجنات. وما أرسل الله رسولاً من قبله ﷺ إلا كان يأكل الطعام ويرتاد الأسواق، ويتّجر ويحترف، وهذه الدنيا دار بلاء، ومشيئته تعالى أن يكون بعضنا فتنة لبعض، فالصحيح فتنة للمريض، والغنى فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنى المتأفّف، والغنى مُمتَحن بالفقير، والفقير مُمتحَن بالغنى، وكذلك الأنبياء يمتحنون بالضالين، والضالون يمتحنون بهم، والنبىّ - لأنه نبىّ، كان فقيراً، وليس كل فقير نبياً، والمهم أن يصبر الجميع على البلاء. ولقد طلبوا أن تتنزّل عليهم ملائكة بدلاً من النبىّ ﷺ وأصحابه، أو أن يريهم ربّهم نفسه عياناً، وأظهروا على النبىّ ﷺ كل الاستكبار والعتو، وكانوا مجرمين، ولكل نبىّ عدوٌّ من المجرمين. ويضرب الله الأمثال للرسول ﷺ برُسُلٍ غيره وأقوام غير قومه، تسليةً له ولأمّته، فهذا موسى آتاه الله الكتاب والفرقان هو وأخاه هارون فكذّبوهما، فدمّرهم الله تدميراً، وقوم نوح لمّا كذّبوا أُغرقوا، وعاد وثمود، وأصحاب الرس وكثيرون غيرهم تبّرهم ربُّهم تتبيراً - أى دمّرهم وجعلهم أمثالاً، وقوم لوط أمطرهم مطر السوء. وهؤلاء كفار قريش من أهل مكة استهزأوا بالنبىّ ﷺ وقالوا: أهذا المبعوث رسولاً؟! إنه ليضل الناس ولا يهديهم، وجحدوا الله وجعلوا إلههم هواهم. وما كان النبىّ ﷺ إلا مبشّراً ونذيراً، وما طلب أجراً منهم لينفروا منه، وما كانت دعوته إلا أن يعبدوا الله، ويخاطبه تعالى مسلياً: فتوكل يا محمد على الحىّ الذى لا يموت، وسبّح بحمده، وهو العليم بما أذنب هؤلاء، ولسوف يتولى حسابهم.

والفرقان الذى أنكروه أنزله الله تعالى نذيراً لهم، ولكنهم هجروه، وطلبوا أن يتنزّل جملة واحدة، قيل كما تنزّل التوراة، وكما تنزّل الإنجيل، وما علموا أن التوراة كتبت بعد نحو ثلاثمئة وخمسين سنة من نزولها، وأنها لم تعد ألواح موسى، وصارت أسفاراً بمئات الصفحات، وكذلك استكتب متى ولوقا ومرقس ويوحنا أناجيلهم بعد المسيح بما لا يقل عن ستين سنة، ولم يكتبوها جملة، وإنما بعد أن حدثت الأحداث، وجرت الوقائع بما حوته واشتملت عليه. والقرآن تنزّل متفرّقاً ليعيه المسلمون ويحفظوه، ويعملوا به ويتقنوه، وليظلوا على اتصال بالسماء أطول فترة ممكنة، فتقوى قلوبهم، فكان كلما نزل الوحى على النبىّ ﷺ تقوّى قلبه به وقلوب المؤمنين. والقرآن نزل جملة إلى السماء فى ليلة القدر، ونجّمَهُ السفَرة الكرام على جبريل فى عشرين ليلة، ونجّمه جبريل على النبىّ ﷺ فى عشرين سنة، فهذا - كما قيل - قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ (الواقعة) يعنى نجوم القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ (الواقعة)، وكان جبريل كلما

تنزّل به يرتّله على النبيّ ﷺ ترتيلاً، أى يرسّله، يقول شيئاً بعد شيء. ومع كل تلك البراهين والدلائل كذّبوا **بالساعة**، ولسوف تأتيهم فجأة ويرون الجحيم ويعاينونه ويسمعوا تغيّظه وزفيره، وسيعاينون ضيقه وهم مقرّنين في الأصفاد يصطرخون: ويلاه! وتشهد عليهم حتى الأصنام، وتمر بهم الملائكة لا تحييهم وتُحرّم عليهم البشرى، وما كان ما عملوه فى الدنيا إلا كالهباء المنثور، لا جدوى منه ولا فائدة، وما كانوا فى الدنيا إلا أنعاماً، لا يسمعون ولا يعقلون، وليس أعسر من يوم القيامة على الكافرين، يوم تتشقق السماء بالغمام، ويعض الظالم على يديه، ويُحشر المجرمون على وجوههم. وأما **المتقون** ففى جنة الخلد، لهم فيها ما يشاءون، وكانوا خيراً مستقَراً وأحسن مقيلاً - أى منزلاً ومأوى. وهؤلاء هم **عباد الرحمن**، كانوا على الأرض يمشون هَوْناً - يعنى كانوا فى حياتهم ومعيشتهم فى هدوء ووقار، وإذا خاطبهم **الجاهلون** قالوا سلاماً، ويقيمون الليل، ويدعون ربّهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم، ولا يسرفون ولا يقترون، ولا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون ولا يزنون، وإذا أذنبوا يتوبون ويعملون الصالحات ، ولايشهدون الزور، ولا يلعنون، ويسمعون للقرآن وينصتون، ويسألون ربّهم الأزواج الصالحات والذرّية الطيبة، فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ويُجزَوْن الجنة بما صبروا، ولهم فيها التحية والسلام؛وأما **الكفّار** فما يحفل بهم ربّهم ولا باستغاثاتهم فى الشدائد، ولسوف يعذّبهم ويلازمهم العذاب لأنهم كانوا يكذبون. وفى هذه الآيات فى وصف **عباد الرحمن**: **إحدى عشرة خصلة** هي أوصافهم الحميدة من التحلّي والتخلّي، وهى: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبُعد عن الشرك، والتنزُّه عن الزنا والقتل، والتوبة، وتجنُّب الكذب، وقبول العظات، والابتهال إلى الله، وجزاء ذلك أن ينالوا **الغرفة**: وهى أعلى درجات الجنة. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٠٧. ﴿سورة الشعراء﴾

آياتها **سبعٌ وعشرون ومائتان**، كلها مكية إلا الآية: ﴿ **أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)** ﴾ فقد نزلت فى المدينة توبيخاً وتقريعاً لكفّار مكة أنهم لم يؤمنوا بالقرآن، وقيل: فلما سمعه علماء بنى إسرائيل تبيّن لهم عن علم أنه ككتابهم التوراة، وقيل: هؤلاء مثل **عبد الله بن سلام**؛ وكذلك الآيات الأربع الأخيرة من أول: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)**﴾ حتى ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)**﴾ فإنها نزلت فى المدينة أيضاً. وترتيب السورة فى المصحف السادسة والعشرون، وكان نزولها بعد سورة

الواقعة، وترتيبها في التنزيل **السابعة والأربعون**، وبعدها مباشرة **سورة النمل**، ثم **سورة القصص**، وتسمى هذه **السُّوَر الثلاث**: **الطواسين**، لابتدائها بالحروف المقطّعة طس، أو طسم، شأن السور التي تسمى **حواميم** لأنها تبدأ بالحرفين المقطّعين **حم** (حاميم) ، وفي الحديث: «**إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المبِّين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضّلني بالحواميم والمفصَّل، ما قرأهن نبيٌّ قبلي**»، وقال ﷺ : «**طسم من ألواح موسى**». وكله كلام من **الإسرائيليات** لأن النبيّ ﷺ لم يقرأ أياً من هذه الكتب، وبمراجعتها مع هذه الآيات يتبين عدم صحة ما فيها، وبُعد القرآن عمّا فيها.

والاستفتاح بطسم - قيل - هو قسمٌ باسم من أسماء **الله**، أو باسم من أسماء القرآن، **ولم يثبت شيء من ذلك**، وقيل هو اسم السورة، ومن غير المعقول أن يكون لسورتين أو ثلاث سور نفس الاسم، والصحيح أن طسم إشارة إلى تركيب القرآن من **الحروف الأبجدية** من أمثال **الطاء والسين والميم**، فكما أن الكون يتركبّ من العناصر، ويُرمز إليها بالحروف أيضاً، فالنحاس نح، والحديد ح، والذهب ذ، والفضة ف، فإن من أمثال هذه **الحروف الهجائية** جاء تأليف القرآن المعجز، ومن أمثال هذه الحروف أيضاً - كرموز للعناصر - جاء تركيب الكون المعجز، وفي البدء كانت **الكلمة**؛ وفي المنتهى ستكون **الكلمة**، والقرآن إعجازه في المجال **المعنوي**، والكون إعجازه في المجال المادي، والاثنان من الإعجاز، وتبارك ربّ العالمين.

وهذه السورة: **سورة الشعراء**، في غاية العجب، بما فيها من تقاسيم وعبارات متكررة، كالتي يشار إليها في اللغات الأجنبية، باسم **الموتيفات motifs**، أو المكررات **Leitmotifs** ، كالتكرار في فن **الأربيسك** أو فن **المشبّكات** أو **المنمنمات**. وتشتمل السورة على **مقدمة وخاتمة**، وموضوعها **القرآن العظيم**، وأنه من عند الله، وإثباتاً لذلك ساقت السورة **سبع قصص، لسبعة من الأنبياء**، ولذلك كان اسمها **السورة الجامعة**. وأوردت من البيانات والمعلومات والأخبار الدقيقة والمفصّلة ما لا يوجد في كتاب قبل القرآن، حتى في التوراة - وهو الكتاب الحاوي لأخبار الأمم السابقة وصاغت السورة ذلك **صياغة أدبية فنية** عالية تناسب القرآن وأنه كتاب الله، وجعلت فواصل بين القصص، كأنها **الوصلات**، تصل بينها فيما يشبه **الإنترميتزو intermezzo** في علم الموسيقى، حتى ليحار السامع والقارىء في هذا الجمال المتدفّق، والحِكَم السيّالة، والعبارات المتناغمة المتسلسلة، فسبحان الله العظيم، فإن البيان مهما علا، ليعجز عن الوفاء بتوصيف القرآن. ورغم أن كل قصة في القرآن هي وحدة بذاتها، إلا أنها تتراكب مع الواحدات الأخرى، لتكوّن معاً شكلاً

جمالياً كلياً ـ أو جشتالت **Gestalt** ـ له معنى واحد لا غير: أن محمداً رسولٌ من عند الله، وأن القرآن هو معجزته، وهو أفضل وأشرف كُتبه تعالى، وأن رسالة محمد متواصلة مع رسالات السابقين، ومصدّقة لهم، فلم يكن بدعاً أن يدعو محمدٌ لعبادة الله، وإلى توحيده تعالى. وهذه السورة ـ **الشعراء** ـ كغيرها من السور قد تضمّنت أشتاتاً من أخبار الأمم، تسليةً للرسول ﷺ لَمّا أنكره كفّار مكة، فلئن جحدوه فقد جُحدت رسُلٌ من قبله، ومنهم: **موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب**، فليس شيئاً جديداً أن يُجحدَ النبيّ ﷺ .وفي السورة الكثير من **التحذير والتبشير**، كقوله تعالى أنه ما كان بمُهلك قرية إلا كان لها منذرون، وأن القرآن ما تنزّلت به الشياطين، وإنما نزل به الروح الأمين جبريل، على قلب الرسول ﷺ، بلسان عربي مبين، ولن تجده في إجماله مختلفاً عن الزُبر أو كتب الأولين. وما كان محمد ساحراً، وما كان من المسحّرين، ولا كان من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون، **واسم السورة: «الشعراء»**، بسبب هذه الآيات الخاتمة فيه عن نفي الشعر عنه، فالشعراء يهيمون في الأودية وليس كذلك محمد، وللشعر شياطين، وليس لمحمد شيطان، والشعراء يقولون ما لا يفعلون، وينسبون لأنفسهم ما لا يعملون، وليس كذلك النبيّ ﷺ . وهذه الآيات ليست ضد الشعر، ولكنها تخبر عن الشعراء في أحوالهم التي تخالف النبوة، وفي أفانينهم في الكلام يمدحون به الشيء ويذمونه في نفس الوقت، ولهم غوايات وهوايات وليس كذلك الأنبياء، إلا من آمن من هؤلاء الشعراء، وصَدَق في إيمانه، وأخلص العمل لله، ولم يشغله الشعر وتدبيجه عن ذكْره تعالى وعن قراءة القرآن، ولم يصرفه عن الانتصار للحق، فإنْ كَتَب الشعر أو قاله وهو مؤمن، فإنه لا يكتبه لذات الشعر، ولكن لخدمة الدين، وقضية الإيمان، وصالح المؤمنين، ولتبليغ الرسالة.

ودراسة القصص السبع التي تتضمنها السورة من أمتع الدراسات، وأطول هذه القصص ودُرّتها هي قصة موسى والفرعون، وبينها وبين المقدمة ترد الآيتان: **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾** ويتكرر ذلك في ختام كل قصة، وقبل هذا الختام يأتي الحُكم على قوم كل نبيّ بما يناسبهم، وأثناء القصة تتكرر آيات بعينها كقوله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾**. فهذه جميعاً تتكرر في بداية كل قصة مع فارق اسم النبيّ واسم قومه. ونلاحظ أن **قصة إبراهيم** جاءت في الترتيب قبل **قصة نوح**، مع أن

نوحاً كان الأسبق، إلا أن إبراهيم كان الأب الذى تخارج منه كل الأنبياء، فكان الأوْلى بالسبق، وأما موسى فأسبقيته لأنه **أول نبىّ يكون له كتاب منزّل من ربّ العالمين.**

وفى السورة الكثير من **المعلومات والمصطلحات**، كقوله: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ**(٣)﴾ أى: قاتل نفسك ومهلكها، **والبخع**: أن يبلغ بالمذبوح البُخاع، وهو الخرم النافذ فى ثقب الفقرات، وهو أقصى حدّ للذبح، والخطاب للنبىّ ﷺ، بمعنى: لعلك يامحمد مهلكٌ نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار؟ والكلام فيه تسليةٌ للرسول ﷺ، حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم، وإن يشأ الله لأنزل عليهم من السماء آيةً ـ أى معجزة: ﴿**فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** (٤)﴾، أى ظلت أعناقهم منقادة خاضعة للإيمان قسراً وقهراً. ولا يفعل الله ذلك، لأنه يريد إيمان المؤمنين اختياراً لا اضطراراً، ولذلك دلّ بالعقل على وحدانيته تعالى، بقدرته التى لا تُضاهَى على خلق النباتات مثلاً، أزواجاً كريمة الأصول، جميلة المنظر، جزيلة النفع، فمن يفعل ذلك سوى الله؟ **وفرعون ـ فى قصة موسى ـ** لقب الملوك من **الهكسوس**، أو **الأشوريين** ويعرفون أحيانا باسم **السِّريان**، وهؤلاء أغاروا على مصر، واقتطعوا منها **أرض جاسان** من إقليمها الشرقى، واستقلوا به، حيث كان بنو **إسرائيل** منذ يوسف؛ والأشوريون أو الهكسوس أو الفراعنة، أبناء عم العبرانيين، واللغة العبرانية ابنة عم اللغة الأشورية أو السريانية. وكان **الاستعمار الأشورى** لمصر استعماراً **استيطانياً**. وكان فرعون **يوسف** أشورياً، وكذلك **الفرعون** الذى ربّى موسى صغيراً، ولبث موسى فى بلاطه إلى أن بلغ **الثلاثين**، **ففعل فعلته** وقتل واحداً من **الأشوريين الغزاة**، فهرب موسى باتجاه آسيا لأنه **أسيوى الجذور**، وظل فى «**مدْيَن**» **عشر سنين**، ثم جاء الأمر بالتبليغ وهو فى **الأربعين**، فكان الفرعون وقتذاك قد صار كهلاً. ودافع موسى عن نفسه بأنه قد قتل **الأشورى** وكان وقتها **من الضالين**، وفى مدْيَن، تعلم شيئاً جديداً، وآتاه الله الحكم، وجعله من المرسلين. ورواية السورة القرآنية عن موسى والفرعون وحادثة القتل، مختلفة عمّا ورد عنها **فى التوراة**، **فابنة الفرعون** هى التى ربّت موسى وليداً فى التوراة، وكانت شابة، وإذن يكون الفرعون كبيراً فى السن وقتها، ويكون على ذلك طاعناً فى السن بعد أربعين سنة هى عمر موسى حتى المبعث. وكذلك فإن رواية التوراة تذكر أن موسى **قتل مصرياً**، يعنى أنه كان **فى منف** وليس **فى جاسان** التى عاصمتها **أفاريس** على بحيرة المنزلة، وعدم ورود أى شىء عن قصة موسى فى آثار مصر لدليل على أن أحداث القصة جرت فى مكان آخر بعيد عن منف ومساكن المصريين فى الوادى. **وجاسان** كانت مستعمرة **للهكسوس الذين اشتهروا عند المؤرخ اليهودى مانيتو** باسم **الملوك الرعاة**، وهؤلاء

استعبدوا العبرانيين، وكانوا يعملون لديهم خدماً في البيوت ويمتهنون أحقر المهن. ونلاحظ سؤال الفرعون عن ربّ العالمين، يقول: ﴿ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿٢٣﴾ ﴾؟ والسؤال دفعه إليه مقالة موسى عنه باعتبار الآية: ﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٦﴾ ﴾، وعرّفه موسى أنه تعـالى: ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴿٢٤﴾ ﴾. ثم يأتي الكلام بين موسى والفرعون حواراً دراميا كحوار المسرحيات، والفرعون يخرج عن الحوار أحياناً ويتوجه إلى المتفرجين ساخراً كما في الدراما الإغريقية، كقوله لمن حوله: ﴿ **أَلا تَسْتَمِعُونَ** ﴿٢٥﴾ ﴾؟! ويستمر موسى في الشرح، فيقول: ﴿ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴿٢٦﴾ ﴾، فيستهزىء به الفرعون ويقول: ﴿ **إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** ﴿٢٧﴾ ﴾، ولا يبالي موسى ويستمر في التعريف بربّه، قال: ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٢٨﴾ ﴾، فيحسم فرعون النقاش ويقول: ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾، ويستمر الحوار، ويعرض موسى بعض آياته: آيات العصا واليد، ويتهمه فرعون بالسحر، ويتدخل مستشارو الملك ينصحونه أن يبعث في المدائن حاشرين، يجمعون السحرة لميقات يوم الزينة، ولكن النصر كان لموسى، وقدّم أسطع برهان يثبت ما ادّعى، وتصل الدراما إلى ذروتها عندما يعلن السحرة عن إيمانهم ويلقون بأنفسهم ساجدين، ثم يكون تعذيبهم وصبرهم، لشدة إيمانهم بما عرفوا لمّا عاينوا الحق من ربّهم، واستشهدوا فكانوا أول شهداء دعوة موسى، وأول المؤمنين من أهل جاسان. وفي القرآن أن الفرعون كان يمُنّ على موسى أنه يستعبد بني إسرائيل، فقارن موسى نفسه بهم وحمد الله أن وهبه الحكم وجعله من المرسلين. وموسى لم يكن مرسلاً لهداية فرعون، وإنما لإطلاق سراح بني إسرائيل، قيل إنهم ظلوا في مصر أكثر من أربعمائة سنة. وأما الذين آمنوا من السحرة فلم يكونوا كثيرين كقول كتُب التفسير، وفي القرآن: ﴿**إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴿٥٤﴾ ﴾، وكان هروب موسى ببني إسرائيل في الليل، وهو معنى ﴿ **أَسْرِ بِعِبَادِي** ﴾، والإسراء في الليل، وقول فرعون أن قومه ﴿**لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ يعني مستعدون ومقوون، لأن السلاح كان مع جنوده، ولا شيء مع موسى وبني إسرائيل. والجنات والعيون في الآية هي الأرض بين خُلجان مصر السبعة، وكان في أرض جاسان منها خليجان. وكان خروج فرعون وراء موسى وقت الشروق: ﴿**فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ** ﴿٦٠﴾ ﴾ وكاد يبلغ قوم موسى لولا أن انفلق البحر وعبر بنو إسرائيل، فأراد فرعون اتباعهم فغرق ومن معه.

وفي قصة الفرعون أن قومه كانوا يعبدونه، ولم يُعرف أن المصريين يعبدون ملكهم، وإنما الذين كانوا يفعلون ذلك الأشوريون، ومن هؤلاء الملوك الآلهة النمرود الذي جرى

الصدام بينه وبين إبراهيم صاحب **القصة الثانية** بعد قصة موسى. ومعنى اسم إبراهيم أنه **أبو الجميع**، والذى ينحدر منه كل الموّحدين والمؤمنين، وأنه **أبو الأنبياء**. ولم يكن إبراهيم أول من دعا إلى ﴿**رَبَّ الْعَالَمِينَ** (٧٧)﴾ فى بلده، وفى السورة من هذا المعنى أن عبدة الآصنام عادوا إبراهيم، إلا من كان من قومه يعبد ربّ العالمين، فالدعوة إلى الله ووحدانيته كانت فى قومه من قبله، وفى تعريفه لله، كان إبراهيم **موضوعياً** أكثر من موسى. فتعريف موسى **كوني**، والله عنده إله الكون وخالقه، وأما عند **إبراهيم فالله** خالقه هو نفسه، وهو يهديه هو نفسه، ويطعمه ويسقيه، ويشفيه من الأمراض، ثم يميته ويحييه، وهو الذى يغفر له يوم الدين، **وكأن ملّة إبراهيم أكثر واقعية من ملّة موسى**، والله عند إبراهيم فى حياته ومن حوله، وفى كل ما يفعل ويقول، ولذلك دعا الدعوة لتناسب عقيدته: أن يهب الله له الحكم، ويلحقه بالصالحين، وأن تجتمع عليه الأمم، وأن يكون من ورثة الجنة، وأن يغفر لأبيه، وأن لا يفضحه على رءوس الأشهاد يوم الدين، وأن يُسلِم قلبه، وخصّ **القلب** لأنه إنْ سَلِم القلب سَلِمت الجوارح كلها.

وفى **قصة نوح** نعرف أنه كان أخاً لقومه، وأخوّته لهم **أخوة نَسَب ومجانسة**، لا أخوة دين. ولأول مرة يأتى أن المؤمنين بالنبوة هم ﴿**الأَرْذَلُونَ** (١١١)﴾، أى المستضعفون، وهم محترفو **المهن الوضيعة فى مجتمعهم**، وبلغة العصر هم **البروليتاريا**. وهذه التهمة ستستمر موجهة إلى كل الأنبياء حتى نبينا ﷺ، **والأرذلون أو المستضعفون**: هم حملة الإيمان، وهم فى الصف الأول خلف المفكرين والمصلحين، ولما أراد **ماركس** مثلاً أن يوجه إعلانه للعالمين، وجهه **للعمال**، وقال **فى منشوره: يا عمّال العالم اتحدوا**» ووجه النبىّ ﷺ إعلانه **للمستضعفين**، وكان اسم ربّه تعالى «**ربّ العالمين**»، ووجّه **الخومينى** إعلانه للفقراء، وكذلك **جيفارا، وبرودون**، وأصحاب المذاهب الاشتراكية والإصلاحية والفلسفية، جميعهم توجّهوا **للمستضعفين فى الأرض**. والصراع بين جند الله وجند **الشيطان**، يستوجب الصدام بين **الأنبياء والمصلحين**، وبين **أصحاب المصلحة فى استبقاء الأوضاع على ما هى عليه من السوء**. والسجن والقتل والنفى، والرجم من نصيب الأنبياء والمصلحين، لأن السلطة والحكم فى يد من يملكون، **وإبراهيم** حرّقوه، **ونوحاً** هددوه بالرجم، وكان أول نبىّ يدعو على قومه، فكان **الطوفان** المشهور **وسفينة** نوح مضرب الأمثال. ومن حكايات هؤلاء وغيرهم كعاد وثمود ولوط، كانت النصيحة للنبىّ ﷺ ثم لأمته من بعده: أن **لا يدعوا مع الله إلهاً** آخر، وحددت لهم السورة **منهج الدعوة**: بأن يبدأ الداعى **بدعوة الأقربين ومن حوله**، وأن يكون **ليناً** فى دعوته، **فإن عصوه فليتبرأ** منهم ولا شيء أكثر من ذلك، وأن

يكون قصده إلى الله بالدعوة، ويتوكل عليه، وأن يكون متنبّهاً واعياً لما يجرى حوله، فيرى بقلبه مَن خلفه ومَن قدّامه. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٠٨. ﴿سورة النمل﴾

سورة مكية، آياتها ثلاث وتسعون، وترتيبها في النزول الثامنة والأربعون، وهى إحدى ثلاث سور نزلت متتالية: الشعراء، ثم النمل، ثم القصص، وترتيبها فى المصحف السابعة والعشرون، وسميت النمل، لأنها تقص قصة وقعت فى وادى النمل، لنملة حذّرت النمل ليدخلوا مساكنهم حتى لا يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، وهذا النوع من النمل الحارس أو الديدبان حقيقى فى علم النمل من علم الحشرات، وتحذيره حقيقى كذلك كلما كان هناك خطر داهم على النمل جميعه، وتبدأ السورة بالحرفين المقطّعين «طس»، بينما البداية فى الشعراء والقصص بالحروف المقطّعة «طسم»، وكل الحروف المقطّعة فى أوائل السور للتنبيه على أن القرآن المعجز فى آياته وأحكامه وأمثاله مؤلّفٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية. وتتناول السورة القرآن ـ معجزة محمد الكبرى، وحجته الدامغة إلى يوم الدين، وتشير إلى أن ما يرد فيه من آيات عن الحياة والناس، وأخبار الأمم، ونعَم الله فى الكون، وقصص الأنبياء السابقين، قُصد به أن ينتفع بعظاتها المؤمنون، وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١)﴾ هو تفخيم للقرآن وآياته، وتعظيمٌ لشأنهما، ووصفُه القرآن بأنه كتاب مبين، لأنه يمكن أن يُفهَم مقروءاً يقرأه الغير على السامعين ويُتلَى عليهم، ويمكن أن يُقرأ مكتوباً يتمعّن فى آياته القرّاء ويتدبّرونها. والناس بحسب القرآن إما مؤمنون أو جاحدون، والجاحدون زُيّن لهم الجحود، أى كان لديهم الاستعداد له، وسواء استقبل المؤمنون القرآن بالإيمان، أو استقبله الكافرون بالجحود، فهو فى الحالين كتاب الله، أنزله على نبيّه ﷺ الذى تلقّاه وعرف ما فيه وبلّغه. ثم تبسّط الآيات بعضاً من القصص القرآنى، وتبدأها بقصة موسى، وتبيّن تكليف الله له بالتوجه إلى حيث بنى إسرائيل يسامون العذاب، وأوضحت أن عدو موسى هو فرعون، وأن الله تعالى قد أهّل موسى للقائه، وكان مشهد تكليف موسى بالرسالة عظيماً، فهناك النار ممسكة بالشجرة لا تحرقها، وصوتٌ منها يعلن أنه هو الله لا إله إلا هو، وأن موسى قد أوتى الآيات ليردّ بها على مزاعم فرعون، وأراه ربُّه منها آيتين: آية العصا تتحول إلى ثعبان، وآية اليد يُدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، والآيتان من تسع آيات جعلها الله ليبصرُها أهل الجحود والإنكار، وهى بخلاف ما سبق: الطوفان، والجراد، والقُمّل،

والضفادع، والدم، والسنون (أى الجدوب).

والقصة الثانية التى تقصها السورة هى **قصة سليمان**، وتبدأ بأن تنسبه لأبيه **داود**، وكلاهما آتاه الله العلم والحكمة والحُكم، وآتاها الله سليمان وراثةً عن أبيه. **وعِلْمُ داود** كان **علم سياسة الناس والمجتمعات، وتدبير الدولة، والأحكام**، وكانت له دراية **بالصنائع**، يربط بين المعرفة النظرية والتطبيق العملى، ويجعل المعرفة فى خدمة معيشة الإنسان، وأما **سليمان** فكانت له هواية بغرائب العلوم، فهو يعرف **منطق الطير**، وهو حركاته وأصواته كلما كانت له حاجة من الحاجات، والقرآن لا يقول **لغة الطير فليس للطير** لغة، ولكنه ينسب للطير **منطقاً**، وهو أن يكون للحركات والسكنات والأصوات غايات يستهدفها الطير والحيوان. وكانت لسليمان دراية **بالحشرات**، وقيل إنه لابد أن تكون هذه **النملة** من النوع **الطيّار** الذى له أجنحة، ولو لم تكن لها أجنحة، يعرف من حركاتها ما تريد إبلاغه للنمل من رسالات، لما عرف سليمان عن **قصتها**. وكذلك كانت له قصة مع **الهدهد**، وكانت الطيور من رعايا سليمان، وكان يتفقدها، فافتقد الهدهد مرة ولم يجده، ولما جاءه بعد أيام كان له معه كلام تميز بالحكمة وفيه عن فقه الحُكم والحُكّام. وأبلغه الهدهد عن **ملكة سبأ**، وهى مملكة كانت فى **اليمن**، والأسطورة تجعل لها اسم **بلقيس**، وهو اسمٌ **يونانى** أصلاً، ولم يكن شعب بلقيس **يعبد الله**، وسليمان نبىّ وداعية إلى **الله**، فأرسل إلى بلقيس بدعوته، وأظهرت ملكة سبأ حنكتها وحكمتها لما استشعرت عظمة سليمان، فماذا إذن يكون حال إلهه؟ لابد أنه كما قال فيه أنه **الرحمن الرحيم، الذى لا إله إلا هو، ربّ العرش العظيم**. وحُكم بلقيس لسبأ، ورضا سليمان عنها لمّا آمنت، واستمرارها فى الحُكم، لدليلٌ على أن **المرأة** يجوز لها أن تتولى الخلافة، وأن الحديث: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**» حديثٌ موضوع، وثبت أن المرأة اشتغلت قاضية، وعيّنها عمر على حسْبة السوق، والحديث من دسائس المبتدعة، **وكل ما يمكن للرجل فهو يمكن للمرأة**، ومن ذلك تدبير الأمور وحماية الدولة. وخطاب سليمان لها قمة، لأنه بدأ أشرف بداية **بيسم الله الرحمن الرحيم**، وفى الحديث: «**كل كلام لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم**» يعنى أقطع؛ ولجوء بلقيس إلى «**استفتاء**» شعبها هو «**منهج الشورى**» الذى تقول به الأديان، وتؤكده بقولها: ﴿**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** ﴿٣٢﴾﴾، وكان فى قولها: ﴿ **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴿٣٤﴾﴾ دراية كبيرة بالحُكم والحكّام، وبالتاريخ وما تكون عليه الدول عادةً والأمم والشعوب، واحتيالها **بالهدية** لتعرف إن كان سليمان **فى** حقيقته مَلِكاً أم نبياً، لدليلٌ على الذكاء والحنكة والدربة، والفهم

العميق لنفوس الناس وما هم عليه من مختلف الطبائع. وكان الرسول ﷺ يقبل الهدية ويرفض الصدقة، ولكنه ما كان يقبل هديةً إلا ويثيب عليها أحسن منها. وظهرت قدرات سليمان على الجن وعلى أصحابه من الصدّيقين فى مسألة بلقيس، ولما رأى عرشها قد نُقل كطلبه قبل أن يرتد إليه طرفه، لم يعلُ ولم يزهُ، واعتبر ما وهبه الله ابتلاء منه تعالى، فإمّا يشكر وإما يكفر ويستعلى، وقال موجزاً الدرس: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** (٤٠)﴾، وتنتهى القصة بإعلان بلقيس إسلامها مع سليمان لله رب العالمين.

ثم تقص السورة **حكاية النبىّ صالح مع قوم ثمود**، وانقسامهم فريقين، واستعجالهم للسيئة، وما كان من أمر **الرهط التسعة** فى المدينة وكانوا يفسدون، وتقاسموا أن يقتلوه ليلاً وهو نائم، ومكروا ومكَر الله، فكانت عاقبة مكرهم أن دُمِّروا وقومهم أجمعون، وتشهد عليهم آثار بيوتهم ما تزال خاوية، كيف كانوا ظالمين، ونجّى الله المؤمنين.

وحكاية أخرى عن **لوط وقومه**، وكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، دليلاً على أنهم قوم يجهلون، فلما وعظهم لوط أمروا بإخراجه وأهله بدعوى أنهم قوم يتطهّرون، وينأون بأنفسهم عن جريمة **اللواط**، ونجّاه الله وأهله إلا **امرأته** لمّا لم تطاوعه فيما أمره ربُّه، وأمطرهم الله مطراً قضى عليهم أجمعين. والحمد لله الذى يُهلك الظالمين، والخطاب فى ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** (٥٩)﴾ للنبىّ ﷺ، لأن القرآن منزّلٌ عليه، والذين اصطفى هم عباد الله المؤمنين. وتُعدِّد الآيات أفضاله تعالى والبراهين على وجوده وقدرته وعلمه، ومنها أنه تعالى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعل المؤمنين خلفاء الأرض، وهو عالم الغيب فى السموات والأرض. وتردّ على تشكيك الكافرين فى البعث، وقولهم بأنه من أساطير الأولين، بدعوتهم إلى أن يسيروا في الأرض فينظروا بقلوبهم وبصائرهم كيف عوقب المكذّبون لرسُلهم، فإذا كانوا يستعجلون الآخرة تكذيباً لها، فربما مجيئُها أقرب إليهم مما يتصورون. وهذا القرآن يردّ عليهم فيما اختلفوا فيه، والموتى فى الدنيا الذين أصمّوا آذانهم عن سماع الحق لا أمل فيهم، ولا نجاة للعُمْى الذين لا يبصرون الحق، وعندما يحين الحين ويحق القول عليهم أنهم لا يؤمنون وأنهم عادوا إلى جاهليتهم الأولى، فعندئذ يحقّ أن يُخرج الله إليهم **دابةً من الأرض** تكلّمهم، والأحاديث فيها مختلفة، وهى من أمر الغيب، **والدابة** فى اللغة ما دبّ من الحيوان، وهى ليست بحيوان، لأنها تكلّم الناس، وتكون آية لمن كان لا يوقن بآيات الله. وخروج هذه الدابة من **أشراط الساعة**، وحينئذ تُحشَر الأمم أفواجاً،

ويُوزع المكذّبون فلا ينطقون، ويُنفَخ في الصور **نفخة الفَزَع** فيأتى الناس داخرين، وتُسيّر الجبال بأمر ربّها الذى اتقن كل شيء صُنعاً، فمن جاء بالحسنة فله خيرٌ منها، ويأمنون فزع الآخرة، ومن جاء بالسيئة، كُبَّت وجوههم في النار جزاءً ما كانوا يعملون.

وتُختتم هذه السورة العظيمة بتذكيره تعالى للناس، بأن النبيّ ﷺ إنما أُمر أن يعبد ربّ هذه البلدة ـ مكة، التى حرّمها الله، وأن يكون من المسلمين، وأن يتلو القرآن، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فعليها، وليس النبيّ ﷺ إلا من الرسُل المنذرين، والحمد لله أن المؤمن يرى الآية فيعرف أنها من الله، والله لا يغفل عما يعمل الظالمون.

ومن مصطلحات السورة قوله تعالى: ﴿**شِهَابٍ قَبَسٍ** (٧)﴾: والشهاب عود في طرفه جمرة، **والقبس** اسمٌ لما يُقتبس من الجمر؛ وقوله: ﴿**مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ** (٢٠)﴾: الهدهد طيرٌ له هدهدة صوت، و«ما لى» من أقوال الصوفية: **إذا فقدوا مالهم تفقدوا أعمالهم؛ وعذاب الهدهد**: عذابٌ شديدٌ أو يذبحه: دليلٌ على أن الحدّ على قدر الذنب **لا على قدر** الجسد؛ وقال الهدهد: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** (٢٢)﴾: فيه ردٌّ على من قال إن الأنبياء تعلم الغيب؛ **وسبأ**: مدينة تُعرف **بمأرب** باليمن، بينها وبين صنعاء دقائق بوسائل المواصلات الحديثة؛ وكانت **عبادة قوم سبأ** للشمس، وكانت عبادتها مسيطرة على شعوب العالم القديم ومنهم أهل العراق زمن إبراهيم، وأهل مصر؛ وقول بلقيس: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ** (٢٩)﴾ مخاطبة شعبها مباشرة؛ وقول سليمان: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ** (٣٨)﴾ فيه أيضاً أن الملوك تلجأ إلى شعوبها ولا يستبدون بالرأى؛ **والعفريت من الجن**: جمع عفاريت، وهو من الشياطين المُرْد؛ الصَّرْح الذى طلب منها سليمان دخوله هو من أصناف عمارة الشام وبابل، واسمه عندهم «**البرج**»، وكانت **بابل** مشهورة ببرجها، وفى قصة موسى أن فرعون طلب من **هامان** أن يبنى له **صرحاً** يطّلع منه على إله موسى، وأن يبنيه من الطوب، وفى ذلك دليلٌ على **أن فرعون لم يكن ملكاً مصرياً**، لأن الصروح يَعرِف بها **الأشوريون**، وهم الذين عُرفوا فى حُكم إقليم **جاسان** من أقاليم **مصر الشرقية** بأنهم **الهكسوس**، وكانوا يلقبون كذلك **بالجبابرة** أى **الفراعنة**، وإنما لم يشتهر الاسم إلا لملوك مصر بسبب ما ورد عن ذلك فى **سفر الخروج** من أسفار التوراة؛ أما اسم فرعون فلم يكن مصرياً، ولم يتسمّ به ملكٌ مصرى. وأيضاً فإن **البناء بالطين معروف فى أشور**، وأما فى **مصر فكان البناء بالحجارة**. وصَرْح سليمان قيل فيه إنه مُمرّد من قوارير، يعنى صرحاً ضخماً مارداً بُنى من القوارير، وهى الآنية، والكثير من **الصروح فى بابل** كانت **تبنى من هذه القوارير**، وليس المقصود أنه بنى من الزجاج؛ وقوله: ﴿**لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**

الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ (٦٥) يُحتج به على من يصدّق منجّماً؛ وقوله: ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠)** ﴾ ردٌّ على من قال بأن الموتى فى القبور تسمع؛ وقوله: ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ (٨٧)**﴾ قيل النفخة نفختان، فالأولى نفخة الصعق، كقوله: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾(الزمر ٦٨)، والثانية: نفخة الفزع، إذ يخرجون من القبور سراعاً خائفين داخرين. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٠٩. ﴿سورة القصص﴾

من السور المكّية، وآياتها ثمان وثمانون آية، قيل إلا الآيات: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)**﴾، بدعوى أنها نزلت فى جماعة من اليهود كانوا يؤمنون بمضمون القرآن، ويعتقدون صدق ما فيه عن كتابهم، وأنه قد حُرّف وصُرفت آياته عن معانيها، ثم إنهم تمعّنوا أكثر فى القرآن فتبيّنوا أنه على الحق، وصدّقوا محمداً ﷺ، فهؤلاء مثل: عبد الله بن سلام، وكثير من النصارى، قيل هم أربعون قدموا مع جعفر بن أبى طالب إلى المدينة، وكان منهم اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية أقبلوا من الشام. وقيل: كان من النصارى الذين آمنوا بمحمد والقرآن: بحيراء الراهب، وأبرهة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا (٥٤)**﴾؛ وقيل نزلت فى: عبد الله بن سلام، وتميم الدارى، والجارود العبدى، وسلمان الفارسى، أسلموا فنزلت هذه الآية. وقيل منهم: رفاعة القرظى. والصحيح أن هذه الآيات مكية، وروحها العامة مكية، ونزلت فيمن كان يؤمن بالله من قبل القرآن، ثم بما جاء به القرآن، فلمّا سمعوه يتلى عليهم صدّقوا به، وقالوا: ﴿**إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣)**﴾، يعنى: إنْ كان هذا هو إسلام محمد، فإنّا كنا قبل محمد على دين الإسلام؛ أو يعنى: إنّ ما كنا عليه قبل محمد هو الإسلام إذن؟! وقيل أيضاً إن الآية: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥)**﴾ مدنية، باعتبار أن هذه الآية بشارة للنبىّ ﷺ بردّه إلى مكة قاهراً لأعدائه، فمعاد الرجل بلده، لأنه ينصرف منها ثم يعود إليها؛ وقيل: إن الآية نزلت بالجُحفة فى الطريق بين مكة والمدينة وهو فى الهجرة، ومن ثم فالآية ليست مكية ولا مدنية. وقال البعض: إن روح الآية

مكية، والمقصود بالمعاد يوم القيامة، والآية تخاطبه ﷺ كخطابه تعالى له في الآية التالية: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ** (٨٦)﴾، ونزول الكتاب بدأ في مكة، والكافرون مكانهم مكة، وكذلك المشركون في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٨٨)﴾ وكل ذلك مكّي، والآية من ثم مكّية، والسورة جميعها مكّية، ومنهجها كمنهج سورتي **الشعراء والنمل** - وهما مكّيتان، وكان نزولها بعدهما على الترتيب: **الشعراء** أولاً، وترتيبها في النزول **السابعة والأربعون**، ثم **النمل**، وترتيبها **الثامنة والأربعون**، ثم **القصص** وترتيبها **التاسعة والأربعون**، ومن يقرأ السور الثلاث يجد لها عبقاً واحداً، ويستشعر إزاءها بمزاج نفسي متشابه. ومدار سورة **القصص** هو: الحق والباطل، والصراع بين جُند الرحمن وجُند الشيطان، ويتمثّل ذلك في **قصص ثلاث** من نماذج الشرّ بميزان السلوك السوّي، ومن نماذج المرض النفسي والشواش العقلي بميزان الصحة النفسية. وقصص هؤلاء الثلاثة هي قصص **الطغيان بالحكم، والطغيان بالسلطة، والطغيان بالمال**. وتبدأ السورة بالحروف المقطعة «طسم»، تنبيهاً على إعجاز القرآن، وإشارةً إلى بيانه المركّب من حروف **الأبجدية**، كبيان مخلوقات الله في الكون من العناصر المادية. **وكتاب الكون وكتاب القرآن**، سواء بالعناصر أو بالكلمات، كلاهما من إعجازه تعالى، بدأ الخلق بكُنْ وهي **كلمة**، فكان **الكون** وهو آيات مادية، وكان أيضًا **القرآن** وهو آيات مكتوبة ومقروءة. واسم السورة «**القصص**» يعنى أنها تخبر عن وقائع وقصص جرت في الأزمان، وهي مع ذلك من آياته تعالى. وتتلو سورة القصص بالحق الذى لا ريب فيه **نبأ موسى مع فرعون**، وتتولى إبلاغه لقوم يصدّقون بالقرآن فينتفعون به، ولولا أنه تعالى لا يريد **للمستضعف** أن يظل مستضعفاً، **وللمستقوى** أن يظل مستقوياً، لما أرسل موسى، ولكنه جعل **الاستضعاف والاستقواء** فتنة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً. وتقع القصة في أربعة أجزاء. وفرعون كان من **المتجبّرين في الأرض**، وادّعى الربوبية، واستذلّ الناس، وأزهق الأرواح واستحيا النساء، فحان الحين أن يتغير كل هذا، ويبدأ **الجزء الأول** من القصة. واختار الله موسى لمهمة التغيير، ومنذ البداية جعله معجزة، وانقذه من أن يموت مع من يموتون من صبية الإسرائيليين، ونجّاه من أن يغرق، وكأنه وهو في **السلة البوص**، وقد ألقت به أمه في اليم، يتنبأ إرهاصاً بما سيكون عليه حال عدوه: **فرعون وهامان وجنودهما من الغرق في اليم!** والتقطه آل فرعون من الماء، وربّته **امرأة فرعون**، وأعطته اسمه **موسى**، وأرضعته أمه لمّا

رفض كل المراضع، وشبّ موسى ذكياً حكيماً مؤمناً ومتعصباً لقومه، وكانت حادثة تدخّله مرتين لصالح العبرانى ضد عدوه، وقتله لعدوه قتلاً خطأ، وهروبه إلى مدْيَن، حيث ستكون مدرسته فى النبوة مع حميّه، قيل إنه النبىّ شعيب وهذا هو الجزء الأول من السورة. فإذا كان الجزء الثانى من القصة فإنا نجد موسى قد وصل إلى مدين، وأظهر فيها منذ البداية شجاعةً وقوةً وأمانةً، وسقى للمرأتين، فأرسل أبوهما إليه ليجزيه، واختارته إحدى المرأتين زوجاً لها، وعرض عليه أبوها أن يزوّجه منها وقد كان، وأمهرها موسى أجره عند أبيها لمدة ثمانى سنوات، زادها إلى عشر، فلما انتهى العقد خرج وامرأته إلى البرية، وجاءه أمر تكليفه بالرسالة من الله تعالى، وشهد أن تتحول عصاه إلى ثعبان، وأن تخرج يدُه من جيبه بيضاء من غير سوء، واستعان ربّه بأخيه هارون لفصاحته عنه، وأبدى مخاوفه أن يقبض عليه الفرعون لقتله نفساً من شعبه، وأن يقتلوه به، وطمأنه ربّه أن سيجعل لهما سلطاناً فلا يصلون إليه وإلى أخيه. وفى مصر، أرض جاسان(محافظة الشرقية) حيث كان شعب إسرائيل، وفرعون الهكسوسى، وهامان الأشورى مساعده، بدأ الجزء الثالث من القصة، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا مصريين، واسم فرعون ليس اسماً مصرياً، ولا اسم هامان، وكانت جاسان أرض محتلة يستعمرها الأشوريون واستوطنوها، وجميع الحكايات قبل موسى، كحكاية إبراهيم، ويوسف، ويعقوب، جرت على أرض جاسان ومع هؤلاء الأغراب، ولهذا خلت الآثار المصرية من هذه القصص، وكانت تانيس عاصمة جاسان وتقع على بحيرة المنزلة. وشاهد فرعون معجزات موسى، ووصف ما شاهد بأنه سحرٌ مُفْتَرَى، وأنكر فكرة موسى عن الإله الواحد، وأمر هامان أن يصنع له بُرجاً كبُرج بابل يطّلع منه على إله موسى إن كان صادقاً، واستكبر، وكان الصدام بين قوى الشر وقوى الخير، وخرج موسى يقود الشعب، وخرج الفرعون يقود جنوده وراءهما، فأطبق البحر عليه وجنوده وغرقوا جميعاً، وجعل الله فرعون وهامان ومن تبعهما أمثلة للأئمة يدعون إلى النار، ولعنهم فى الدنيا، وهم مقبوحون يوم القيامة، أى مطرودون من رحمة الله. ثم يكون الجزء الرابع من القصة، وفيه يؤتى الله موسى التوراة، بصائر للناس وهدى ورحمة، أى ضياءً لهم ونوراً يتبصّرون به الحق، وهُدًى من الضلال، ورحمةً لمن آمن بها، يسترشدها فى حياته ويعمل بمقتضاها. وهذه التوراة ليست هى أسفار موسى الخمسة الحالية، فهذه توراة مزيفة ألّفها المدعو عزرا أو عزير. ويخاطب الله تعالى النبىّ ﷺ، أنه ما حضر تكليف موسى، ولا شهد الجانب الغربى من الطور، ولكن جاءه العلم به من خلال القرآن، وفيه خبر الغيوب، دليلاً على أنه من عند الله. وكان نزوله

عليه بعد ما طال العهد بالناس منذ آخر شريعة نزلت عليهم، فحرّفوها، ونسوها، وأهملوا العمل بها، فأرسل الله نبيّه ليجدد ما تُنوسي، ويعدّل ما حُرِّف. وما كان النبيّ ﷺ من أهل مدين ليعلم بما حدث لموسى مع شيخها الكبير شعيب، ومع وابنتيه، فيخبر به أهل مكة، ولكنه كان نبياً مرسلاً، أوحى له الله تعالى بما أوحى من ذلك القصص ليتلوه عليهم، لعلهم يهتدون، فما اهتدوا، وسألوه تعنّتاً وعناداً أن تكون له مثل حجج موسى، ونسوا أن أمثالهم كفروا من قبل بحجج موسى، ووصفوا موسى وهارون بأنهما **ساحران** تظاهرا، وها هم يصفون محمداً بأنه ساحر، وما نزل محمد بسحر ولا بمعجزات كمعجزات موسى، وإنما معجزته **القرآن** كمعجزة موسى التوراة لو لم تُحرّف، ويصفهما الله تعالى بأنهما لا كتاب أهدى منهما، فهما المعجزتان حقاً ـ التوراة والقرآن، ولا شيء مثلهما، تعجيزاً منه تعالى لكفّار مكة. والقرآن يصل التوراة. **ولكي نعرف المحرّف من غير المحرّف في التوراة علينا أن نميّز بين ما كان دعوة لتمجيد الله، وما كان دعوة لتمجيد بني إسرائيل، وكل تمجيد لبني إسرائيل في التوراة فهو مزيف منحول**. ومن أهل الكتاب من يعلم أن آيات التوراة حرّفت، وأن حقيقة هذه الآيات هي التي وردت بمعانيها آيات القرآن، وأنهم ـ أي أتباع موسى ـ كانوا مسلمين لذلك قبل الإسلام، فمن أسلم من أهل الكتاب ـ واليهود خاصة ـ بعد الإسلام، **لهم أجران**، لأنهم مرة آمنوا بكتابهم، ومرة آمنوا بالقرآن، ولأنهم صبروا، ويدرءون بالحسنة السيئة، وينفقون مما رُزقوا، ويعرضون عن اللغو، ويقولون لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، **سلامٌ عليكم**، لا نبتغي الجاهلين، وسلامهم **سلامُ متاركة**، لا يريدون به التحية، وإنما المباعدة، ولا يبتغون به أن يصاحبوهم ولا أن يخالطوهم.

ثم تتوالى الآيات في الردّ على المكابرين، كسقولهم للنبيّ ﷺ: لماذا لا تهدي من أحببت مثل عمك أبي طالب؟ وكان الردّ من القرآن: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (٥٦)﴾، يعني: هو أعلم بمن لديه الاستعداد للهداية فيهديه. وقالوا: إن اتبعوا النبيّ ﷺ، عاداهم العرب، وتمكّنوا منهم وتخطّفوهم؟ وكان الردّ من القرآن: أنهم كان عندهم الحرم الآمن وهم كفّار، أفلا يكون آمنا إذا آمنوا؟

وتتعاقب العظات: كم أهلك الله من قرية بطرت معيشتها؛ وما كان الله ليهلكها إلا بعد أن يبعث إليها رسولاً يتلو على أهلها آياته؛ وما كان يهلك أهلها إلا وهم ظالمون؛ وأن كل ما يخصّ الدنيا فهو من متاعها؛ وأن ما عند الله هو الباقي، وأن من يعدُه الله حُسناً فهو لاقيه؛ وأن من يتوب ويعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين، **والترجّي في القرآن بمنزلة التحقّق**، لأنه وعدٌ كريم من ربّ رحيم، ولمّا قالوا: لولا نُزّل القرآن على

رجل من القريتين عظيم؟ كان الردّ من القرآن: وربُّك يخلق ما يشاء ويختار، وما كان لهم الخيرة. فأكدت الآيات أنه تعالى هو الخالق وأن له المشيئة والخيار، فلما ذكرت الآيات أنه تعالى هو الخالق المختار عقّبت بذكر بعض الأدلة والبراهين على عظمته تعالى، تذكيراً للعباد بوجوب شُكر نعَمه، ومنها جَعْلُه الليل والنهار متعاقبين، فلم يجعلهما سرمداً إلى يوم القيامة، وجَعْلُهما لسكنى الناس ولمعايشهم، وأوردت السورة **قصة قارون**، كآية من آياته تعالى، وهى قصة **الطغيان بالمال**، وما كان من أمر انخساف الأرض به وبأمواله، وهى نهاية كل مستعلٍ مغرور. وكان **قارون** مضرب المثل فى الثراء المقيت، فكان يأخذ من الناس ولا يعطى، ويراكم المال ولا ينفقه فى سبيل الخير، ولذة **جمع المال** وهواية هذا الجمع اضطرابٌ نفسى وعقلى لا شك فيه، كهواية **جمع السلطة، وجمع القوة، والثلاثة: فرعون، وهامان، وقارون**، نماذج لأسوأ أنواع الطغيان، **والأول**: طاغية مستبد فى مجال الحكم؛ **والثانى**: طاغية فى مجال السلطة والنفوذ، وإرهاب الناس، وعسكرة الدولة؛ **والثالث**: طاغية فى مجال الاقتصاد والمال. وبلغت **ثروة قارون** حدّ الخرافة، حتى أن مفاتيح خزائن المال عنده كان حِملُها تنوء به العصبة أولوا القوة، **والعُصبة** كما فى سورة يوسف عشرة وهم إخوته بدونه، **فإذا كانت المفاتيح تحتاج لعزم عشرة من الأقوياء، فما بالك بالثروة نفسها؟** وكلما خرج **قارون** على الناس بهرهم موكبه وأتباعه، والزينة من حوله، حتى ليتمنى ضعاف الإيمان لو لهم مثل ما له من حظوظ! وردّ عليهم العقلاء من أهل العلم والفَهْم: **﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾**، **والويل** دعاء بالهلاك، والجنة درجة لا يبلغها إلا من صبر على مشيئة الله، وزادت فتنة قارون فاستغنى عنه الله لمّا استغنى قارون عن الله والناس، وبَخِلَ وشحّ، وأنكر الربّ والبعث والحساب، وتمادى، وخُسف به وبماله فما كان له من فئة تنصره من دون الله، وأصبح من تمنّوا مكانه بالأمس نادمين، يقولون: **﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾**، يعجبون من صُنع الله، وكيف أنه يوسّع الرزق لمن يشاء، لحكمة لا يعلمها إلا هو، لا عليه لمن يوسّع له رزقه، ويضيّق الرزق على من يشاء، لحكمة لا يعلمها إلا هو، قضى بذلك ابتلاءً لا لهوانه عليه. ولولا أن الله يمنّ على الناس ويلطف بهم، ويتفضّل عليهم، لكان مصيرهم مصير قارون!وإن المدقّق ليخلص مما يشاهد من صروف الحياة وأعاجيبها، إلى أن الجاحد بنعمَ الله، الكافر به، لا يجد السعادة فى الدنيا ولا فى الآخرة. وتنتهى **قصة طغيان المال**، وما تنتهى عظاتها وعِبَرها، ويعقبها مباشرة قوله تعالى تعليقاً، وتنبيهاً، وتحذيراً، وتعليماً:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ فالذى يأتى بالحسنة له خير منهـا، والذى يأتى بالسيئـة لا يُجزَى إلا ما كـان يعمل. ثم تُختتم السورة بخير تسلية للنبىّ ﷺ، وبوعد منه تعالى له: **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ (٨٥)﴾** أى لرادُّك إلى بلدك مكة كما أخرجك منها، فاتحاً منتصراً، بمنهج الله، ليتحقق به موعوده تعالى: بشرط أن لا يظاهروا الكافرين، ولا يعينوهم على دينهم وضلالهم، ولا يداروهم ويجـاملوهم، ولكن يخالفـوهم وينابذوهم. والمراد بالخطاب إلى النبىّ ﷺ أُمته، لئلا يظاهروا عدواً لهم، ولا يوافقـوهم، ولا يلتفتوا إلى ما يقولونه فى دينهم، فيـصدّوهم عنه، ولا يسـايروا المشركين عـلى أهوائهم، فإن من يرضَى بطريقـتهم يكون منهم، ولا يدْعُـوا مع الله إلهاً آخر، فـإنه تعالى واحـد، لا ندّ له ولا شريك، ولا أعلى منه ولا أكبر، وكل ماعداه هالك إلا ذاته تعـالى، له الحكم والقضاء النافذ فى خلقه وملكوته، وإليه يرجعون جميعاً يوم المعـاد. والحمد لله على نعمة القرآن، ونعمة الإيمان، ونسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على كتابه وسُنّة نبيّه ﷺ، اللّهم آمين.

•••

٦١٠. ﴿سورة العنكبوت﴾

السورة مكية كلها، وقيل إلا الآيات من الآية الأولى حتى الحادية عشرة فإنها مدنية، ومع ذلك فروح هذه الآيات وموضـوعها من المعهود فى السور المكيـة، وأصل السورة أنها تدور حول **الابتلاء**، وهذه الآيات فى الابتلاء. وآيات سورة العنكبوت كلها تسع وستون آية، وترتيبهـا فى المصحف **التاسـعة والعشرون**، وبحـسب النزول **الخامسة والثمانون**، وتسميتها **بالعنكبوت** لقوله تعالى فيها: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾** أى مـثل هؤلاء الذين ظنوا أن اعتقادهم فى أوليائهم ينفعهم، كـمثَل العنكبوت فى اتخاذها بيتاً لا يغنى عنها فى حر ولا برد، ولا مطـر ولا أذى. والمَثَلُ لمن اتخذ من دون الله آلهـةً لا تنفعـه ولا تضره، **كبيت العنكبوت** لا ينفع ولا يضر، وهو أتفه البيوت وأحقرها لأنه أضـعفها جميعاً. **وآيـة العنكبوت** توجز السورة جميعها، وهى بمثابة **العبارة الرئيسية Topic sentence** كما يقول أهل النقد. وتبدأ السورة بالحروف المقطّعة: **﴿الم﴾** تنبيهاً إلى حروف **الأبجدية** التى تتركب منها كلمات وآيات القرآن، لتصنع منه مـعجزة كالتى تصنعها **العناصـر** التى تتركـب منها الكائنات فى الكون، وبذلك يتـشابه **كتـاب القرآن وكـتاب الكون** فى الإعجـاز، فمع أن الحروف بسيطة فـإن معانى وآيات **القـرآن** الكبيرة كـانت منها، وكذلك **الكـون**، فـمع أن

عناصره بسيطة إلا أن الكائنات المركبة منها هائلة وعظيمة. وبعد أن يقسم الله تعالى بالحروف يأتي في جواب القسم السؤال الاستنكاري: **أيحسب الناس أن يُتركوا من غير افتنان لمجرد قولهم باللسان أنهم آمنوا، فإذا نزلت بهم المحنة انتكسوا وارتدّوا عن الإسلام؟** فليبيننّ الله الذين صدقوا فقالوا نحن مؤمنون، واعتقدوا مثل ذلك، والذين كذّبوا حين اعتقدوا غير ذلك. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، ولا ينبغي أن يمنعه شيء عن الله، فحتى الوالدان لو جاهدا ولدهما ليشرك بالله فلا يطعهما. ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذي في الله، جعل فتنة الناس كعذاب الله. وتسترسل السورة تتحدث عن **محنة الأنبياء** وما لاقوه من الشدائد، بدءاً من **نوح**، ثم **إبراهيم**، ثم **لوط**، ثم **شعيب**؛ **فنوح**، وهذا الأخير لبث في قومه **ألف سنة إلا خمسين عاماً**، فلما استيأس منهم أخذهم **الطوفان**، ونجّاه الله ومن معه، آيةً للعالمين؛ **وإبراهيم**: دعا قومه أن يعبدوا الله ويتركوا عبادة الأوثان، فما كان منهم إلا أن أمروا بقتله أو حرقه، وأنجاه الله من النار، وآمن به لوط، وهاجرا في أرض الله الواسعة، فكانا أول **مهاجريْن في الله**، وعوّض الله إبراهيم وآتاه الأبناء، وبارك في ذريته فآتاهم النبوة وجعلها فيهم. وكان نصيب **لوط** أرض **سدوم وعمورة**، وكان أهلها يأتون الفاحشة، واستغنوا بالرجال عن النساء، وكانوا **أول من ابتدع اللواط الجماعي** وبشكل سافر، ومارست النساء **السحاق**، وأُنزل عليهم العذاب، ونجّى الله لوطاً وابنتيه، وحُرّقت سدوم وعمورة، فكانت بقايا الدمار فيهما آيةً وعظةً لمن يتفكرون. **وشعيب**: كذّبه قومه، وأفسدوا، فأخذتهم **الصيحة**، وماتوا وهم جاثمون في دورهم. وأهل **عاد وثمود** كانوا من الظالمين، فأخذتهم **الرجفة**، فزُلزلوا وانهدمت مساكنهم على رءوسهم. **وقارون وفرعون وهامان**: جاءهم **موسى** بالبينات فاستكبروا، فأخذهم الله بذنوبهم، ولم يظلم الله أحداً ولكن ظلموا أنفسهم. وبعد ذلك الاستعراض لمحنة الأنبياء بيّنت السورة **عظمة القرآن** المنزّل على **محمد** ﷺ، ووعظت المسلمين أن يلزموا الصلاة والذكر، ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، ومن أهل الكتاب مَنْ يؤمن به، وما يجحد آياته إلا الكافرون. ولو كان **محمد** يكتب ويقرأ الكتُب من قبل القرآن، لكان معهم الحق أن يرتابوا فيه، أي في القرآن، أنه جمعه مما قرأ من الكُتب، ويتهافت هذا الادعاء أمام عظمة القرآن، فما كان من الممكن أن يكون القرآن محل ريبة، وآياته بيّنات، من غير أن تكون سحراً ولا شعراً، ولكنها أحكام وآداب وقصص يعيها ويحفظها أهل العلم. ولو نزّل الله بدلاً من القرآن آيات كآيات موسى، لقالوا إنها سحر وهم لا يعرفون السحر، ولاستعجلوا العذاب مع ذلك، مع أن العذاب قريب لو علموا، والساعة موعدهم.

وتنتقل السورة إلى تحريض المؤمنين على **الهجرة والجهاد**، وأن لا يخافوا عاقبة الخروج إلى أرض الله الواسعة، فالله هو الذى يرزق حتى الدواب، أفلا يرزق أنصاره؟ وهو الذى خلق الشمس والقمر والسموات والأرض، أيعجز عن أن يرزق عباده؟ وهو الله العلى القدير، فلا ينبغى أن يخشوا شيئاً فى كنفه وحفظه، ولو ماتوا فالجنة مصيرهم، وما الدنيا إلا لهو ولعب، والآخرة هى **الحيوان**، أى الدار الباقية. فما بالهم لو ركبوا الفُلك ولعب بهم الموج، يدعون الله مخلصين، فإذا نجّاهم أشركوا وكفروا بما آتاهم؟ وهذا الحرم أمّنه لهم وهم كفار، فبينما الناس يُتخطَّفون من حولهم كانوا هم آمنين، أفلا يكون أكثر أمناً لهم وهم مؤمنون؟ وتُختتم السورة ببيان جزاء الصابرين فى المحن، والمجاهدين بأنواع الجهاد فى سبيل الله، وبوَعْدٍ منه تعالى أن يكون مع المحسنين، فللّه الحمد والمنّة، وبه التوفيق والعصمة.

●●●

٦١١. ﴿سورة الروم﴾

السورة **مكية**، نزلت بعد سورة **الانشقاق**، وترتيبها فى المصحف **الثلاثون**، وفى التنزيل **الرابعة والثمانون**، وآياتها ستون، وسميت «الروم» لأن من أهم موضوعاتها تنبؤها بغلبة الروم فى الآيات: **﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ④﴾**وكانت فارس يوم نزلت هذه الآيات ظاهرةً على الروم، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك نزل قول الله تعالى: **﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤﴾**، وأما قريش فكانوا يحبون ظهور فارس على الروم، لم يكونوا أهل كتاب، ولا إيمان لهم ببعث، فلما أنزل الله هذه الآيات خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة: **﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ④﴾** ، فقال ناسٌ من قريش لأبى بكر: فذلك بيننا وبينكم. زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين! أفلا نراهنك على ذلك؟ وكان ذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان، وسألوه: كم تجعل البضع؟ ثلاث سنين أو تسع سنين؟ فَسَمٍّ بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه؟ فسمّوا بينهم ست سنين، فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السبع سنين ظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون، إلا أنهم عابوا على أبى بكر تسمية «بضع سنين» بست سنين، لأن البضع من ثلاث إلى تسع. وقيل: إن خبر انتصار الروم جاء إلى الرسول ﷺ يوم **الحديبية**، فقرح

المسلمون. وهذه الآيات من البيّنات، وتشهد بصحة نزول القرآن من لدن الله، وصحة نبوة النبىّ ﷺ، لأن خبر نُصرة الروم كان قبل وقوع هذه النصرة بتسع سنوات، وهى آيات معجزات لذلك، لأنها إخبار عن غيب، وفيها أن الله لا يُخلف وعده، وأن له الأمر من قبل ومن بعد لو يعلمون، ولو علموا لما عجبوا، لأنه تعالى الذى خلقهم وخلق السموات والأرض، وقد كان قبلهم مكذّبون عاقبهم الله، وآثارهم تشهد عليهم، وكما بدأ الله الخلق يعيده، ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون - أى تنقطع حُجّتهم، ويتفرّق الناس، فإمّا صالحون ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ⑮﴾وإما كافرون مكذّبون فى العذاب مُحضَرون. والروضة: هى البستان والجنة، والجمع الرياض: وهى الجنان؛ والحبور: هو السرور. وفى الجنات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والأوْلى إذن أن يقرّ الناس بوحدانية الله، وبقدرته وعلمه سبحانه، وأن يسبّحوه صبحاً ومساءً، ويحمدوا له عشيةً وظُهراً. وهو الله الذى لا إله إلا هو، يُخرج الحىّ من الميت، ويخرج الميت من الحىّ، ويُحيى الأرض بعد موتها، وآياته فى الكون لا تُحصَى ولا تعدّ، فهو الذى خلق البشر من تراب، وخلق لكل نفس زوجها، وخلق السموات والأرض، وخالَفَ بين الألسنة والألوان، وجعل الليل للنوم والنهار معاشًا، وينزّل من السماء ماءً يزرع الناس به، فليس من سبب إذن يجعل المنكرين ينكرون البعث والمعاد، فكما بدأ الخلق يعيده، وإعادته أهون من خلقه. وهو الله لا شريك له، ودينه هو الدين الحنيف المائل عن كل تحريف، وهو فطرة الله فى خلقه، فَطَرَ الناس عليه، وهو الدين القيّم الجاد، القويم المقصد. والخطاب للمؤمنين: أن يقيموا الصلاة، ولا يشركوا بالله؛ ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً؛ وأن يؤتوا ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل. وأن يمتنعوا عن الربا، وأن يحذروا الفساد الذى استشرى فى الأرض فعمّ البرّ والبحر، وأن يدركوا أن من يكفر عليه كفره، ومن يعمل صالحاً فلنفسه، والله نِعَمُه كثيرة وجلّى، فالواجب أن يشكروا، والله تعالى يرسل الرسُل بالبيّنات، فالمنكرون ينتقم منهم، وينصر المؤمنين، وكما يُحيى الأرض بعد موتها فكذلك النشور، والناس فى الدنيا أموات إذا كفروا، وأحياء لو آمنوا، والموتى لا يسمعون، وهو الذى خلق الناس من ضعف، ثم جعل من بعد الضعف قوة، ثم جعل من بعد القوة ضعفاً وشيبة، ويقدر على أن يحيى من فى القبور، ويوم الساعة يقسم المجرمون أن حياتهم فى الدنيا ما كانت سوى ساعة، قالوا: وفى ذلك ردٌّ لعذاب القبر، وكذلك الآية: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ⑱﴾ (المجادلة)، فلو كان هؤلاء رأوا عذاب القبر لما أقسموا كذباً يوم القيامة،

ولتعلموا أن لا يكذبوا على الله. ويوم القيامة لا ينفع لهم قَسَم، ولا معذرة، ولا يُستَعتبون - أي يُستَرضون. وتختتم السورة بإثبات أن هذا القرآن فيه من كل مَثَل ما ينبههم إلى توحيده تعالى، وإلى تصديق المرسلين، وأنه لا أمل مع المكذّبين حتى ولو تنزّلت عليهم معجزات كمعجزات موسى. والسورة برمتها تسليةٌ للمؤمنين وللرسول ﷺ، عمّا يلقاه من أذى المشركين، ليصبر على ما يقولونه عنه وما يفعلونه به.

ومن مصطلحات هذه السورة قوله تعالى: ﴿**أَدْنَى الْأَرْضِ**﴿٣﴾﴾ وهي أقربها، وهي في الآية إما أقربها إلى مكة، أو إلى فارس، أو إلى الروم، وقيل: كان انتصار الروم في أذرعات بالشام؛ و﴿**ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴿٧﴾﴾ هو معارفها عن المعايش والزراعة والحصاد، يعني أن علمهم كان بالقشور وليس باللباب؛ و﴿**السُّوأَى** ﴿١٠﴾﴾ من السوء على وزن فُعلى، تأنيث للأسوأ، أي الأقبح، كما أن الحسنى تأنيثٌ للأحسن، ويعني بها في السورة النار، وقيل: «السوأى» اسمٌ لجهنم، كما أن الحُسنى اسمٌ للجنة؛ **والإبلاس** في قوله: ﴿**يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ** ﴿١٢﴾﴾ هو انقطاع الحُجة، ومنها إبليس، لأنه أبلس وانقطعت حُجته؛ و﴿**الْبَرْقَ** ﴿٢٤﴾﴾ من آياته تعالى، يريه الناس خوفاً وطمعاً، فأما **الخوف** فهو من صواعقه، وأما الطمع ففي غيثه؛ **والقنوت**: في قوله: ﴿**كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴿٢٦﴾﴾ هو الإقرار بالعبودية، وقيل: كل قنوت بالقرآن يعني: الطاعة؛ والله ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ** ﴿٢٧﴾﴾: أي له أعلى الصفات، **والمثل** هو الصفة؛ **وذا القُرب**: هو القريب؛ **والمسكين** هو السائل الطوّاف؛ **وابن السبيل**: هو الضيف؛ **والربا**: ربوان، ربا حلال، وربا حرام، **والربا الحلال** فهو المال الذي يُهدَى ويلتمس ما هو أفضل منه عند الله، وأما **الربا الحرام** هو الذي يؤجَر صاحبه وعليه إثم؛ و﴿**الْمُضْعِفُونَ** ﴿٣٩﴾﴾ هم الذين يريدون بعمل الخير وجه الله يضاعف لهم الأجر؛ **وكِسْف السحاب**: قطعُه المتفرقة؛ **والوَدْق**: المطر؛ **والمُبطلون**: المتَّبعون للباطل. ولله الحمد والمنّة، وبه التوفيق والعصمة.



٦١٢. ﴿سورة لقمان﴾

سورة مكية، وقيل إلا الآيات ٢٧ و٢٨ و٢٩ فمدنية، ومع ذلك فهذه الآيات تتفق تماماً مع سياق السورة، ومع مضمونها ومضمون السور المكية ولا تخالفها في شيء، الأمر الذي يقضي بأن السورة **بأجمعها مكية**، وكان نزولها بعد **الصافات**، وترتيبها في المصحف **الواحدة والثلاثون**، وفي التنزيل **السابعة والخمسون**، وآياتها **أربع وثلاثون**، وتستمد اسمها «**سورة لقمان**» من اسم **لقمان الحكيم**، وتورد بعضاً من أقواله، ولمّا كانت هذه الأقوال من

أهم ما يرد فيها سميت السورة باسم **لقمان**؛ وتبدأ **بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾**، للتنبيه على أن القرآن يتركب من الحروف الأبجدية التي هي كالعناصر التى تتركب منها الآيات فى الكون، فكأن كتاب **القرآن** ككتاب **الكون**، وكلاهما معجز. والحروف المقطّعة **﴿الٓمٓ﴾** تبدأ بها ست سور، هى بترتيب المصحف: **البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة**، وهذه السور جميعها يُقسم فيها الله تعالى بهذه الحروف تنبيهاً إلى كتابه تعالى المُعجز، ولذا أعقبها بقوله: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝﴾، وتلك** للتفخيم، **والكتاب الحكيم** عرفهما **بأداة التعريف** إشارةً إلى أنه **القرآن**، وهو الكتاب الهادى، والذى به تتحصّل الرحمة لكل من يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه هو، فإنه تعالى يراه. والسورة تنقسم ثلاثة أقسام، فى **الأول**: يتوجه الكلام عن القرآن والكون تنبيهاً إلى قدرته تعالى ووحدانيته؛ وفى **الثانى**: يتحدّاهم الله تعالى أن يخلقوا كخلقه، ويبدعوا كإبداعه؛ وفى **الثالث**: تحذّر السورة من يوم القيامة. والناس بحسب القرآن عموماً، وفى هذه السورة، إما «**الموقنون المفلحون**»، وإما «**المرتابون الخاسرون**» وهم الذين كذّبوا بآياته، سواء آيات القرآن أم آيات الكون، وأقبلوا على ما يلهيهم عن طاعته تعالى، وما يصدّ عن سبيله، وليس بعد الحق إلا الضلال؛ و«**اللهو**» هو الباطل الذى يُلهى عن الخير، وعلامة هؤلاء «**اللاهين**» أنهم كلما سمعوا القرآن يُتلى ولّوا مستكبرين، لا ينصتون كأن فى آذانهم وقر، أو يدّعوا أنهم غير معنيين، وهؤلاء وأمثالهم مبشَّرون بالعذاب الأليم! وهو الله خلق السموات بغير عمد، وجعل فى الأرض رواسى حتى لا تميد، وخلق الكائنات والزروع، فماذا خَلَق الذين من دونه تعالى؟ وتضرب السورة المثل **بلقمان**، أوتى الحكمة فشكر لله، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن شُكره أن وَعَظ ابنه أن لا يشرك بالله، فهذا واجب الآباء نحو أبنائهم والناس جميعاً؛ والشرك ظلمٌ عظيم، وعقابه بقدر عِظَمه، وما ينبغى لإنسان أن يُشرك حتى لو حرّضه على الشرك أبواه، والتوصية بهما فى الدنيا من الدين، ومن يرحم أبويه ويعترف بفضلهما ويشكرهما فإنه حتماً سيشكر الله، لأن المقرّ بالفضل لهما، سيقر بالفضل لصاحب الفضل الأكبر عليهما وعليه، والإنسان فى حياته صغيراً وكبيراً أولى به أن يتّبع سبيل الصالحين والمؤمنين، وسبيلهم هو الموصّل إلى الله، والله لطيف بعباده خبير، ولا يظلم أحداً ولو بمثقال حبّة من خردل، وشُكره تعالى بأداء الصلوات، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والصبر على المصائب، وذلك من عزم الأمور - أى من حقيقة الإيمان. ومن يؤمن بالله لا يصعّر خدّه للناس، ولا يمشى فى الأرض مرحاً. والمؤمن من صفاته القصد فى المشى، وغضّ الصوت. ويبدو أن مواعظ لقمان لم تنته عند

هذا الحد، وأن الآيات من بعد هي من أقواله لابنه وللناس كافة، فالله سخّر السموات والأرض للإنسان، وأسبغ عليه نعمه، فلماذا الجدل في الله بغير علم ولا هُدَى؟ ولماذا اتّباع السلف والآباء حتى لو كانوا على الباطل؟ **والمؤمن المُحسن** هو الذي يُسلم وجهه لله، ويُخلص في عبادته وقصده إليه، ويستمسك **بالعروة الوثقى**، وهي شهادة **لا إله إلا الله**، والكافر يُمتّعه الله قليلاً ثم يضطره إلى العذاب الغليظ. ولو سُئل الكفرة: مَنْ خلق السموات والأرض؟ لقالوا: إنه الله. أفهي فقط السموات والأرض كل معجزات الله؟ بل معجزاته لا تُعدّ ولا تُحصَى، ولو أن الأشجار صارت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها الله تعالى عجائب صُنعه الدالة على قدرته ووحدانيته، لما نفدت تلك العجائب ولنفدت كل الأشجار والبحار. وإنه لأهْوَن على الله أن يعيد الخلق كما بدأه، وما خَلْقُ الخلق ولا بَعْثُهم إلاّ كخلق نفس واحدةٍ وبَعثِها، وهو القادر الذي يولج الليل في النهار، والنهار في الليل، وسخّر الشمس والقمر، والله حقٌ وما يدعونه باطل، وهو العليّ الكبير، عليٌّ في مكانته، وكبيرٌ في مُلكه وسلطانه. وهو الذي يُجري الفلك في البحر، ويلجأ إليه المضطر إذا غشيه الموج، وما يجحد بآياته إلا المكذّب الجاحد. وتختتم السورة بدعوة الناس إلى أن يتّقوا ربّهم، ويخشوا يوماً لا يُغني فيه الوالد عن ولده، ولا يُجزى فيه المولود عن والده. والبعث حقٌ فلينفضوا عنهم الغرور، وهو الله عنده علم الساعة، ويُنزّل المطر، ويعلم ما في الأرحام، ويعلم الغد، وبأي أرض تموت كل نفس، وهو العليم الخبير، كقوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** (٥٩)﴾ (الأنعام) وما كان لقمان نبياً وإنما عبدٌ صالح، كثير التفكُّر، وحَسَن اليقين، واختار الحكمة، وحِكَمُهُ كثيرة ومأثورة، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦١٣. ﴿سورة السجدة﴾

السورة مكية، إلا من ثلاث آيات نزلت بالمدينة، هي قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)** ﴾، قيل: نزلت في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، وذلك أنهما تلاحيا وتخاصما، فقال له الوليد: أنا أبسط منك لساناً، وأحَدّ سناناً، وأرَدُّ للكتيبة جسداً. فقال له عليّ: اسكت فإنك فاسق! فنزلت الآيات. وقيل: طالما نزلت في عليّ، وعقبة بن أبي معيط، فهذه الآيات مكية وليست

مدنية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وقتل فى طريق مكة فى منصرفه من بدر. والذين قالوا إن الآيات مدنية، حُجتهم أن الفاسق كان الوليد بن عقبة، والوليد كان بالمدينة، غير أن الوليد ما كان يستطيع أن يلاحى علياً بالمدينة، ومن ثم فالراجح أن الآيات مكية، والسورة كلها لذلك مكية، وترتيبها فى المصحف الثانية والثلاثون، وفى التنزيل الخامسة والسبعون، وكان نزولها بعد سورة المؤمنين، وسميت «السجدة» من قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾، حيث السجود هو السمة الكبرى للمؤمنين بالقرآن، وسورة السجدة، كسورة مكية، مدارها حول الإيمان بالقرآن ككتاب من عند الله، وبرسالة محمد كنبىّ مرسل من عند الله تنزّل عليه القرآن.

والسورة تستهل بالحروف المقطّعة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ (ألف لام ميم)، وهى الثالثة من ست سور تُستهَل بهذه الحروف، تنبيهاً إلى أن القرآن، وهو كتاب الله، يتركّب من أمثال هذه الحروف التى يعرفها كل أهل مكة، حقيرهم وكبيرهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يكوّنوا منها قرآنا كهذا القرآن. فالقرآن هو كتاب الله المعجز، وهو لا شك من عند الله، وليس بسحر، ولا بشعْر، ولا بكهانة، ولا بأساطير، ولا هو من اختلاق محمد وافترائه، وإنما هو نذير لقوم ما أتاهم من قبل نذير، فالعرب كانوا أمة أميّة، لم يتنزّل عليهم كتاب، ولا بُعث إليهم رسول، والقرآن نذير يعنى مُعلِّم مُخوِّف، ثم تُعرفهم السورة بالله الذى أنزل القرآن وأرسل محمداً: فهو الخالق القادر الذى أبدع وأوجد بعد العدم، وبعد أن لم تكن هذه المخلوقات والكائنات شيئاً، وقد خلقها فى ستة أيام من أيامه تعالى، ثم استوى على العرش، وهو الكوْن، وليست «ثم» للترتيب وإنما بمعنى الواو. وهو الله الذى يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، والأمر هو القضاء والقدر، يتنزّل به جبريل من «حول العرش» موضع التدبير، وأما «ما دون العرش» فهو موضع التفصيل، وما دون السموات موضع التصريف. ويتم التنزُّل والصعود فى يوم كألف سنة من أيام الأرض، والألف سنة للتشبيه، والعرب تعبّر عن طول المدة أو كثرة الشىء بالألف، وفى سورة المعارج عُبّر عن اليوم بخمسين ألف سنة. ولا تعارض، وإنما يُضرَب بهذه الأرقام الأمثال، وتفيد طول المدة كما ذكرنا، وكل ذلك من علم الغيب، ولا يعلمه إلا الله، وهو عالم الغيب والشهادة، أحسَنَ كل شىء خَلَقَهُ، وأحكمه، وجاء به على ما أراد، ومن ذلك خَلْقُه تعالى لآدم، فقد خلقه ابتداءً من طين، ثم جعل خَلْقَه من بعد ذلك من المنى المهين الضعيف، ولمّا صنعه من طين سوّاه، ثم ركّب فيه الروح، وجعل له الحواس، وعبّرت السورة عن الروح بالنفخ، لأن الروح من جنس الريح. ومع كل هذه القدرة له تعالى، فإنهم أنكروا البعث بدعوى أنه لا خَلْق جديد

بعد الموت، وفاتهم أن الموت ليس حدثاً كالأحداث، ولكنه فعلٌ موكول به مَلَك هو عزرائيل، يتوفى الناس، ويستوفى الأرواح ويقبضها. وتخاطب السورة النبىّ ﷺ، مخاطبةً لأمّته، تقول: لو رأيتَ هؤلاء المنكرين يوم القيامة لرأيتَ العجب، لأنهم يومها يتذللون ويدعون لو يعودوا للدنيا ليفعلوا الخير! والله قد آتاهم الفرصة ولكنهم ضيّعوها وكفروا، ولو شاء الله لهدى الناس ولكنه شاء أن يجعلهم مخيّرين، فلما اختاروا الضلال أُدخلوا جهنم ليذوقوا العذاب، فقد تركوا طاعة الله فى الدنيا، فتركهم الله فى الآخرة ولم يشملهم برحمته . ثم تعود السورة تذكّر القرآن، وأنه الكتاب الذى لا يؤمن به إلا من يترك الاستكبار، ويخضع لله ويطيع، وكان كفّار مكة يستعظمون أن يسجدوا لله، والمؤمنون تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويسهرون الليل يصلّون ويسبّحون بحمد ربّهم، خوفاً وطمعاً، وينفقون مما آتاهم. وهؤلاء لهم من وجوه النعَم يوم القيامة ما لا عين رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلاً، والجنة منازل، والمؤمنون أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى لهم ما فيه قُرّة أعينهم. وليس المؤمن كالفاسق، ولا يستويان، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات المأوى، يأوون إليها نُزُلاً ـ أى ضيافةً، والذين فسقوا لهم النار، كلما أرادوا الخروج منها أُعيدوا إليها. ولهم فى الدنيا العذاب الأدنى من المصائب والأسقام والابتلاءات، وفى الآخرة لهم العذاب الأكبر. ولا أظْلَمَ لنفسه ممن يُذكَّر بآيات ربّه ثم يُعرِض عنها. وتضرب السورة المثل فى الإيمان بموسى، تسليةً وتذكيراً للنبىّ ﷺ، بأنه سيلقى ما لقاه موسى من التكذيب والأذى، وأن القرآن سيلقى المعارضة كما لقى التوراة، وهو كتاب موسى، من المعارضة، فأما الذين آمنوا بموسى وكتابه فهؤلاء هم المهديون، وجعلهم الله أئمة للمؤمنين يقتدون بهم لأنهم صبروا؛ وأما الكافرون فقد أهلكهم الله، وآثارهم تملأ الدنيا، وتدل على ما لقوا جزاءً وفاقاً بما كانوا يجحدون، ودليل الآثار من أدلة وجود الله وقدرته. ودليل آخر على البعث هو دليل الماء، يسوقه الله إلى الأرض الجدباء فتُخرج الزرع، فذلك مثل البعث. ويوم البعث أو يوم القيامة، أو« يوم الفتح»، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم، ولا هم يُنظَرون ـ أى يؤخَّرون للتوبة، لأنه لا توبة يوم القيامة.

وتُختتم السورة كما بدأت، بالكلام إلى الرسول ﷺ: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾** يعنى أعرض عن سفههم، ولا تُجبهم إلا بما أُمرتَ به، وانتظر يوم الفتح، يوم يحكم الله لك عليهم، ويوم يهلكون، وإنهم لأحقّاء بأن يُنتظر هلاكهم. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦١٤. ﴿سورة الأحزاب﴾

السورة مدنية، نزلت في المنافقين وإيذائهم للرسول ﷺ، وطعنهم فيه وفي أزواجه، وتناولت الكثير من الجوانب التشريعية فيما يخصّ الأسرة والمجتمع، وتطرّقت إلى بعض الآداب الإسلامية، وأفاضت في الحديث عن **غزوة الخندق**، وهي المسماة «**غزوة الأحزاب**»، وسميت السورة بها، لأن المشركين **تحزبوا** على المسلمين، واجتمعوا عليهم من كل حدب: **القرشيون** من مكة، **وبنو غطفان، وبنو قريظة**، وغيرهم كثيرون. وآيات هذه السورة **ثلاث وسبعون**، وكان نزولها بعد **آل عمران**، وترتيبها في المصحف **الثالثة والثلاثون**، وفي التنزيل المدني **الرابعة**، وفي التنزيل عامة **التسعون**، وتكثر فيها **الإسرائيليات**، بزعم أنها كانت من السور الطوال، وكانت تعدل البقرة! وكانت بها **آية الرجم التي قيل أنها**: «**الشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم**»؟! وكل ذلك كذب وزور وبهتان، فالسورة كما هي، والأقوال المنسوبة إلى **عائشة فيما يخص** طول السورة، جميعها ملفقة، ومن الغريب أن يقال أن ما نسخ من هذه السورة كان في صحيفة في بيت **عائشة فأكلتها** الداجن! وهي تشنيعة من **تشنيعات اليهود والملاحدة والشيعة**. وتُفتتح السورة تخطاب النبيّ ﷺ أن لا **يطيع** الكافرين والمنافقين، وأن يتّبع ما يوحي إليه، وأن يتوكل على **الله**، فما يصحّ أن يكون للمرء قلبان، مثلما لا يصحّ أن تكون زوجة الرجل عليه كظهر أمه، فالأم أم، وكذلك الزوجة زوجة، وأيضاً لا يصحّ تسمية **الابن الدعيّ** - أي **بالتبني** - ابناً، والأحرى أن يُدعَى باسم أبيه أو باسم وليّه، والنبيّ ليس وليّ واحد من المسلمين بعينه دون سائر المسلمين، وإنما هو وليّهم جميعاً، وزوجاته **أمهات للمسلمين** جميعاً، والأولى أن يُنسَب كل ذي رحم إلى رحمه، فهكذا علمّ **الله** نبيّه، وأخذ ميثاقه على هذا التعليم، ولسوف يُسأل عنه. ثم بدأت السورة بعد هذه المقدمة في سرد وقائع **غزوة الخندق أو الأحزاب**، فقد أحاط الأعداء بالمسلمين من كل مكان، فمن فوقهم جاءت جنود **أسد وغطفان**، ومن أسفلهم أقبلت جنود **قريش وكنانة** وغيرهم، وأعان **هؤلاء يهود بني قريظة**، فنقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ، وبلغ الرعب في المسلمين منتهاه، وظنوا أن **الله** تخلّى عنهم، وابتلُوا وزُلزلوا، وانكشف أمر **المنافقين** فأرادوا الفرار، على زعمٍ أنهم تركوا أهاليهم بلا حماية ويريدون العودة لحمايتهم، وهؤلاء **المعوّقين** يعلم بهم ربهم. وتتوالى الآيات في وصف العلامات النفسية للمنافقين **المثّبطين** للهمم، الخائفين المذعورين من القتال، يودّون لو لم يحضروا. وأما **المؤمنون فَقَدْوتُهم** رسول **الله** ﷺ، ولما رأوا **الأحزاب** قالوا هذا ما وعدهم **الله** ورسوله، وزادهم ما هم فيه من بلاء إيماناً، ومنهم

صادقون أوفوا بعهدهم مع الله، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا ولا تحوّلوا. وانتهت الغزوة بدحر الغزاة، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال. وكان النبىّ ﷺ - لمّا رحلت الأحزاب - قد تجهّز لغزو بني قريظة، لنقضهم العهد معه، وعونهم للمشركين، فأنزلهم من حصونهم، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، وقتل المسلمون فريقاً منهم وأسروا فريقاً، وورثوا أرضهم وديارهم وأموالهم، وبذلك ينتهى الكلام عن غزوة الأحزاب. وهذا المال الذى كسبه المسلمون يذكّر بأحوال بعضهم التى كانت متردّية من قبل، والمَثَل على ذلك النبى ﷺ، وكان أزواجه قد طالبوه بزيادة النفقة فخيّرهن بين الطلاق وبين الاستمرار معه، ولهن الدار الآخرة ونعيمها، وسيجازي الله المحسنات منهن. وظنّ أن غنائم بني قريظة سيكون له فيها النصيب الأوفى، وأنه سيوسّع عليهن، فأنزل القرآن يحذرهن، فأيّما ذنب يُذنبن له عذاب مضاعف، فهن لسن كالنساء، ومن تقنُت منهن يؤتها الله أجرها مرتين، ووعظَهن أن لا يخضعن فى القول، ولا يترققن فى الكلام، فيطمع الطامعون فيهن، وأن يَقَرْن فى بيوتهن، ولا يتبرّجن تبرّج الجاهلية من الزمن الغابر، ولا ينبغى أن نفهم أن لزوم البيت يمنع من أن تشارك المرأة - حتى لو كانت زوجة للرسول ﷺ - فى الحياة العامة، فعائشة كانت تحضر معه ﷺ الغزوات، وكانت تمرّض المرضى، وتحمل السقاء، وكانت تؤم النساء فى الصلاة، وتؤذّن، وتخطب فى الرجال، وتشافههم فى الفتاوى، وتُرسلها إليهم فى رسائل، وتدخّلت فى كثير من القضايا لتحلّها وتيسّر على الناس حياتهم، وخرجت إلى البصرة لتصلح بين المسلمين، وهاجمها علىّ وجماعته، فلم تفر وصمدت. ونساء الرسول ﷺ كن يقمن الصلاة ويأتين الزكاة، ووعظتهن الآيات بطاعة الله ورسوله، وأن يذكرن ما يُتلَى فى بيوتهن من القرآن، وما يقال فيها من أحاديث الرسول ﷺ، وما يجرى من أفعاله، والله أعدّ لهن وللمسلمات عامة أحسن الجزاء. واستطردت الآيات إلى قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش، وما كان من أمر قَسْرها على الزواج من زيد، ثم ما كان من شكوى زيد منها، فلما طلّقها زيد تزوّجها الرسول ﷺ بأمر من السماء، والسبب ليس حبّه لزينب كما قال المُرجفون والمنافقون واليهود، وإنما كما يقول القرآن: **﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا(٣٧)﴾**، أى لإسقاط نظام التبنّى، ونظام تحريم زوجة الابن بالتبنّى، لأنه ليس ابناً على الحقيقة، فبنوته وَهْم. فلمّا حرّم الله على زيد أن يقدّم نفسه فيقول إنه زيد بن محمد، عوّضه فذكرهُ فى القرآن بالاسم، يتلوه المسلمون تكريماً وتشريفاً له، فذلك قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا(٣٧)﴾**، وكانت زينب تفخر بقوله تعالى:

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وتباهى نساء النبىّ ﷺ بأن الله أنكحها النبىّ ﷺ من السماء، وأن السفير كان جبريل، وأن جدّها وجدّ النبىّ ﷺ واحد. وانتهت مسألة التبنىّ فى الإسلام إلى الأبد، وانتهى أن يُنسَب زيد أو غيره للنبىّ ﷺ، فلم يكن أباً لأحد من الرجال وإنما هو رسول الله وخاتم النبيين، فهذه بركة من السماء تستحق أن نشكره تعالى عليها، ولذا تأتى الآيات تأمر بذكر الله وبتسبيحه بكرةً وأصيلاً، وكراماته تعالى كثيرة على المسلمين، ونعلم أنه تعالى يصلّى علينا وملائكته، وصلاته هى رحمته وبركاته، وأنه تعالى يوم يلقانا سيحيّينا تحية السلام، وسيجازينا الأجر الكريم. وكل ذلك الكرم من أجل نبيّنا، يخاطبه الله تعالى إبلاغاً للأمة، بأنه: **الشاهد، والمبشّر، والنذير، والنبىّ، والداعى إلى الله، والسراج المنير**، فأعطاه **ستة أسماء فى آية واحدة**، والآية تأنيس للنبىّ ﷺ وللمؤمنين، وبشّرهم ربّهم أن لهم منه الفضل الكبير، فلا ينبغى له ولهم أن يطيعوا الكافرين والمنافقين، وعليهم أن يتجاوزوا أذاهم، وأن يتوكلوا على الله وكفى به وكيلاً. وتتحدث السورة فى أمر **المطلّقات**، فتجعل لهن عدّة إذا دخلوا بهن، واللاتى لم يُدخَل بهن لا عدّة لهن، وينبغى إمتاعهن، **والمتُعَة**: مالٌ يدفع لهن بحسب الميسرة والعُسرة. وحدّدت الآيات اللاتى يحلّ للنبىّ ﷺ الزواج منهن، وهن قريباته اللاتى هاجرن معه، وأيّما امرأة تهب نفسها له إن أرادها، ولم تكن فى حياة النبىّ ﷺ نساء وهبن أنفسهن له، وجعل الله له أن يقسم لهن أو لا يقسم، ولكنه مع ذلك كان يقسم، ولم يعد له أن يتزوج ولا أن يُحل واحدة مكان أخرى يطلقها. ووعظت الآيات الناس فيما ينبغى منهم إذا دخلوا بيوت النبىّ ﷺ، فأولاً يجب أن يستأذنوا، وإذا سألوا نساءه شيئاً فليسألوهن من وراء حجاب، وأعلمت المسلمين أنه لا زواج من نساء النبىّ ﷺ بعد وفاته، وأن نساءه مباحٌ لهن أن يظهرن على آبائهن وأبنائهن وإخوانهن، وأبناء إخوانهن، وأخواتهن، ونسائهن - أى عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وأمرت المسلمين أن لا يؤذوا النبىّ ﷺ، والأولى بهم أن يصلّوا عليه ويسلّموا تسليماً، وأن لا يؤذوا المؤمنين ولا المؤمنات بغير ما اكتسبوا، وأن يُدنى النساء، سواء نساء النبىّ ﷺ أو نساء المؤمنين، من **جلابيبهن**، وحذّرت المنافقين والمرجفين صنّاع الإشاعات، **والإرجاف** هو إشاعة الكذب والباطل، وبيّنت أن **الساعة** لا يعلمها إلا الله، وأن الخسران للكافرين، وأنهم لا يُعذَرون بأنهم أطاعوا كبراءهم وساداتهم، وكررت التحذير من إيذاء النبىّ ﷺ كإيذاء بنى إسرائيل لموسى، فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، ودعتهم أن يقولوا القول السديد الرشيد، لتنصلح أحوالهم وتُغفَر ذنوبهم، وسمّت هذه التكاليف **بالأمانة**، وهى ثقيلة، ولو عُرِضت على السموات

والأرض والجبال لأبيْن أن يحملنها، والإنسان قَبِل ذلك، لأنه لم يحسب حسابها، فظلم نفسه لجهله بها، واختُتمت السورة بتوعّد المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وببشارة المؤمنين والمؤمنات. فهذه جملة ما في هذه السورة العظيمة من أخبار وروايات وآداب ومواعظ وحِكَم وتشريعات، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦١٥. ﴿سورة سبأ﴾

سورة مكيّة، وقيل إلا الآية: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴿٦﴾ ﴾ فإنها مدنية، والذين قالوا بذلك ساقوا الآية على معنى أن من أوتوا العلم هم **أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وغيره،** وهؤلاء كانوا **من أهل المدينة**، ومَن قال ذلك لم يعتبر أنه كان بمكة من أوتى العلم، وهذا تَجنٍّ وحَطٌّ من قدْر العرب، فكأن العلم كان وقفاً على اليهود بالمدينة لا غير؟! وفي رأينا أن الذين أوتوا العلم هم المؤمنون أصحاب النبيّ ﷺ، وكانوا بمكة، فمن يعلم حقّ العلم يؤدي به علمه إلى أن يؤمن، ومن يكفر هو الذى لا عِلْم له على الحقيقة، والآية إذن مكية كالسورة كلها، ومن بعد هؤلاء **المؤمنين أصحاب النبيّ** ﷺ، كان **العلماء** من أمة محمد ﷺ في كل مكان وزمان. والسورة نزلت بعد سورة **لقمان**، وترتيبها في المصحف **الرابعة والثلاثون**، وفي التنزيل هي **الثامنة والخمسون**، وآياتها **أربع وخمسون**، **وموضوعها**: الدفاع عن القرآن، والتعريف بالله تعالى، وبالساعة، والبعث، وتحفل بالبراهين على حقيقته، وترد على المنكرين الردود المُفحِمة، وتضرب الأمثال بقصص الأنبياء من الماضي **كداود وسليمان**، وتُعدّد **أفضال الله** عليهما، فلما ذكرت **سليمان** استدعى اسمه قصته مع سبأ، وأوردت السورة أطرافاً مما جرى لأهلها لمّا كانوا على الإيمان، فكانت بلادهم جنّة، فلما كفروا بأنْعُم الله دمّر لهم سَدَّهم، وجرف السيل العَرِم البيوت، وأغرق الغيطان. وتناولت السورة شُبهات المشركين حول رسالة النبوّة، وخُتمت بدعوتهم إلى الإيمان بالله الذى بيده أمور الخلق أجمعين.

وتبدأ السورة أول ما تبدأ بالحمد لله، **والحمد** هو الثناء الشامل كله لله، لأن كل النِّعمَ منه، وهو تعالى **المحمود** دوماً في الآخرة والأولى، وهو يعلم ما يجرى في السماء والأرض، ويعلم الساعة، وكان **أبو سفيان** يقول لكفّار مكة: واللات والعُزّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث! فقال له تعالى مخاطباً النبيّ ﷺ: ﴿**بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴿٣﴾﴾، وأمثال **أبي سفيان** هم الذين تخاطبهم السورة باسم **المعاجزين**، يعنى يسعون في آيات الله،

وفي إبطال أدلة التوحيد، ويحسبون أنهم يفوتون على الله، ويكذّبون من فرط إنكارهم، كقولهم: ﴿**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)**﴾، لأنه كان ينبيء بالبعث، فنكّروه، وأشاروا إليه كأنه مجهول يتكلم في أمر مجهول، يقصدون السخرية منه والاستهزاء به، وأخرجوه مخرج التحكّي ببعض الأحاجي، يتضاحكون بها ويتلهون. وقوله: ﴿**مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ (٧)**﴾ يعني بليتم في القبور، وصرتم تراباً وعظاماً نخرة وأشلاء، والمَزْق خرق الأشياء. وقالوا في النبيّ ﷺ: ﴿ **أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ (٨)**﴾، **والافتراء** الاختلاق، والألف المفتوحة للاستفهام، «وبه جنّة» أي جنون فهو يتكلم بما لا يدري ، مع أن اللّه تعالى كرّمه أحسن التكـهم، وهو تعالى يشمل أنبياءه بكرمه، من هؤلاء **داود وسليمان**، وتقول السورة عن داود: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**﴾، ونفهم أن الجبال والطير كانت تسبّح معه، **وتسبيحها** يعني ترجيعها، **وإلانة الحديد** له تسخيره ، فكان داود يصنع منه الدروع السابغات، ويقدّر في السرد، أي يجمع فيها بين الخفة والثقل، **والسَّرْد** هو نسج حلق الدرع، وصانعه يقال له السرّاد والزرّاء، والآية دليل على وجوب تعلُّم أهل العقل **الصنائع**، وأن التحرُّف (يعني اتخاذ الحِرَف) لا يُنقص من قدْر الكبراء بل يزيدهم فضلاً، وفي الحديث: «**إن خير ما أكل المرء من عمل يده، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده**». وأما **سليمان فقال تعالى فيه**: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ (١٣)**﴾ فسخّر الله له الريح، تغدو شهراً وتروح شهراً، يعني سُخّرت له مرة كل شهر تحمله عليها؛ وأسال له **عَيْن القطر**، أي النحاس، فاستخدم الجن في صناعته محاريب وتماثيل وجفاناً كالجواب، وقدوراً راسيات؛ **والمحراب** الذى يُصلّى فيه؛ **والتماثيل** صُوَر على مِثل إنسان أو حيوان؛ **والجفان** القدور؛ **والجواب** جمع **جابية**، أى القدر العظمة، كأن تكون أحواضاً؛ **والقدور الراسيات** لثقلها فهي لا تُنقل، وكانت قدور عبد الله بن جُدعان فى الجاهلية من ذلك، وكانوا يصعدون إليها بسلم! ومعنى الآية أن سليمان ـ وكان يصنع التماثيل ـ لم يكن ضد الصور، إلا أنه في التوراة نُهي أن تُعمل تماثيل للإله، ومع ذلك **الآية دليل على إباحة التماثيل طالما هي ليست للتعبُّد**. والحكمة في إزالة الصور في عهد النبيّ ﷺ، أنه بُعث والتماثيل والصور تُعبد، فأُمر بإزالتها ونُهي عنها؛ وأمّا الآن فالأمر مختلف، ولا أحد يتعبّد الصورّ ولا التماثيل إلا في **المسيحية والبوذية**. وفي قوله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ**

الشَّكُورُ (١٣) ﴾ تنبيهٌ وتحريض، وكان **عمر** يدعو ربّه ويقول: اللهم اجعلني من **القليل**! - أي ممن يشكرون. **وسليمان** هو الذي بني الهيكل وتفرّغ له، وكان يجلس قبالته يرقب العمال ويدلّهم، فما علموا بموته إلا لمّا أكلت **الأرضة العصا**، فوقع من طوله. وفي الآية: ﴿**تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)**﴾ دليل على أن **الجن لا تعرف الغيب**، على عكس ما يدّعي الناس! وذِكْر سليمان يستدعي ذِكْر «سبأ»، **وقصتا داود وسليمان** ترويان عن الصالحين إذا وهبوا أنفسهم للصلاح؛ **وقصة سبأ** تروى في المقابل، عن الكافرين ومآلهم، فكانت سبأ جنة لمّا كان أهلها مؤمنون، فلّما كفروا دمّرهم الله **بسيْل العَرِم**، وهدم لهم سد مأرب، قيل: بنته **بلقيس** صاحبة **سليمان**، وخرب السيل الزروع والبساتين، وبدّلهم الله بجنتين من **الخَمْط** أي شجر الشوك، **والأَثْل والسِّدر** وهما نوعان من الأشجار، ثمارهما عفصة لا تؤكل، وجزاءُ سيئة سيئةٌ مثلها: ﴿ **وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)** ﴾، والمؤمنُ **يُجزَى**، والكافر **يجازي**. وأمثال هؤلاء: ﴿ **صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ (٢٠)**﴾، وظنُّ **إبليس** فيما قال: ﴿**لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)**﴾ (الحجر)، وقوله: ﴿ **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)**﴾ (الأعراف)، ويوم القيامة لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ويفتح الله بينهم وبين الذين آمنوا بالحق، والنبيّ ﷺ أُرسل لهؤلاء وهؤلاء، ويوم القيامة لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وهو البشير والنذير لكافة الناس، والناس إما مُستضعَفون وإما **مُستكبرون**، والذين يستكبرون يغوون المستضعفين، ويصدّونهم عن الهدى، ولولا مكر **الليل والنهار** لآمن المستضعفون. ومن أوصاف الكفّار يوم القيامة هذا المكر بالليل والنهار في الدنيا، ثم **إسرار الندامة في الآخرة**، وإسرارها يعني أن تكون الندامة في القلب ولا تظهر على السرائر، وذلك بابٌ من أبواب **علم النفس الإسلامي**. وفي القرآن يأتي عن «المترفين» ثماني مرات، وهم الأغنياء أصحاب السلطان، وفيهم يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (١٦)**﴾ (الإسراء)، والأصح في الآية أن تُقرأ «أمّرنا» بتشديد الميم، يعني إذا آل الأمر والحُكم إلى المترفين، عَمّ فيها الفسق في البلاد فتستحق الخراب. وفي سورة سبأ فإن **المترفين** هم المعارضون للنبوّة، وللإصلاح، وأن تسود القيم والفضيلة، وهؤلاء يتيهون بأموالهم وأتباعهم، ويوم القيامة يُضاعَف لهم العذاب بماعملوا، وهم فيه مُحضرون، تُحضرهم الزبانية، ودأبُ **المترفين** الافتراء على الله، وعلى الإسلام، وتسخيف دلائل وبراهين وجوده تعالى، وتحقير صفاته. وأما **المؤمنون فلهم الغُرَف** في الجنة، والغرفة هي الموضع والمأوى، والسورة تأمر النبيّ ﷺ أن ينهى المغترّين بأموالهم، وأن يطلب إليهم أن ينفقوها في سبيل الله بدلاً من إنفاقها في الإفساد، وما ينفقون من

شيء فالله يخلفه. وفي السورة عن «عبدة الجن»، أو «عبدة الشيطان» كما اشتهر اسمهم في مصر بوجود فرقة لهم فيها، أنهم يؤدون الصلوات للشيطان، بأفعال داعرة، وسلوكيات ماجنة، ويفترون على القرآن والنبيّ ﷺ، ويخاطبهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ يقول: ﴿ **إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ** ﴿٤٦﴾ ﴾، **والواحدة هي قول «لا إله إلا الله»**، وأن يقوموا إلى طلب الحقّ وحداناً ومجتمعين، وأن يتفكّروا: هل رأوا في نبيّهم ﷺ كذباً، أو جنّة، أو فساداً؟ أو هل شاهدوه يختلف إلى أحد يدّعي السحر، أو تعلّم القصص على كافر؟ ولم يحدث أن سألهم أجراً على ما يبلّغهم به، ولو كان على الضلال كما قالوا فإنما يضل على نفسه، ويوم القيامة يبعثون فزعين، ولا نجاة لهم، وهم من الله قريب، وعندئذ يؤمنون وأنّى لهم الرجعة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً؟ وكانوا كافرين في الدنيا، ويرجمون بالغيب، وينكرون أشياء من المستقبل، ويشكّون في الدين كل الشّك. ويوم القيامة يقذف الله بالحق، وشعار هذا اليوم: ﴿ **جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴿٤٩﴾ ﴾. والحمد للّه ربّ العالمين، ونسأله تعالى أن نكون من الناجين، وأن يجعلنا على الدين وعلى كتابه القرآن المبين.

•••

٦١٦. ﴿سورة فاطر﴾

السورة مكية، نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، وكان نزولها بعد سورة **الفرقان**، وترتيبها في المصحف **الخامسة والثلاثون**، وفي التنزيل **الثالثة والأربعون**، وآياتها **خمس وأربعون**، واسمها «فاطر» لابتدائها بالحمد لله **فاطر** السموات والأرض، **وفاطر** يعني المبتدىء والمخترع، تقول: أنا فطرتُها أي ابتدأتُها، تنبّه السورة إلى أن من قَدَر على الابتداء فهو قادر على الإعادة، وهو منطق صحيح. وهناك **خمس سور في القرآن تبدأ بالحمد لله**، هي: **الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر**. ومعنى **الحمد لله**: الثناء عليه، والتعظيم له، والتبجيل لاسمه تعالى، لأنه خلق السموات والأرض على غير مثال، وخلق الملائكة وسائط لهم أجنحة تتباين أعدادها باختلاف وظائفهم، وهو الله يزيد في الخلق ما يشاء، وينقص ما يشاء، ويرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالزروع. وهذه الآيات حجة على **القدرية**، لأنها تنفي أن يكون ثمة خالقٌ غير الله، **والقدرية** يثبتون معه خالقين - وتحفل السورة بالأمثال والحكم. والرسول ﷺ ليس بدعاً بين الرُسل، فإن كان كفّار مكة كذّبوه، فإن الناس كذّبوا الرسُلَ قبله، والسورة لتعزية النبيّ ﷺ وتسليته، وليتأسّى بمن قبله في الصبر، وليطمئن أن كل ما وُعد به حقٌّ: سواء البعث، أو الثواب والعقاب،

فلا ينبغي أن يُغَرّ أحدٌ بالحياة الدنيا، **وغرورها** أن يشتغل بنعيمها ولذّاتها عن عمل الآخرة، فلا يغرنّه بالله الغُرور، **والغـرور** هو الباطل، والشيطان عدو للإنسان فليـتخذه عدواً، فلا يطيعه؛ والشيطان لا يدعو إلا حزبه، وهم جماعـته وأشياعه؛ وقوله تعالى لنبيّه: **﴿أفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴿٨﴾﴾**من الكلام العربي الطريف، وينهى فيه نبيّه أن يغتم بمن يَحسُن عمله السيء في نظره، ومثله قوله تعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴿٦﴾﴾**(الكهف)، **وسوء العمل** هو معاندة الله ورسوله. **والنشـور** ـ أي البعث ـ الذى ينكرونه، وهو كإرسـال الرياح تثير السحاب وتسوقـه إلى بلد ميت، فيمطر وتحيا به الأرض بعد مـوتها، أى **تُبعث**، والصورة كما ترى ـ بديعة، وتدل على قدرته تعالى، فالأوفق أن يؤمن الإنسان، وعزّته فى الإيمان به تعالى، ولا ذُلّ مع عزّة الله، ومن أحبّـه الله يُعزّه فى الدنيا والآخرة. وكل **كـلام طيّب** يصعـد إلى الله، ويُرفَع **العمل الـصالح**، وما لم يُرفق الكلام الطيّب بعـمل صالح فإنه لا يرتفع إلى الله، والعمل الصالح شرطٌ في قبول القول الطيب. **والذين يمكرون السيئات** هم أصحاب الرياء، ومكْرُهم يبور، يعني يهلك ويبطل. ومن التراب كان أصل الإنسان، ثم كان نطفـةً، ثم يكون الناس أزواجاً، وما تحـمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه تعـالى، وما يعمَّر من معمَّر، ولا يُنقَص من عمره، **إلا فى كتاب**، **والنقصان** هو ما يمضى من العمر، وأما ما يُستقبَل فهو الذى يعمره، وقيل **المنقوص من عمره هو** من يموت قبل الستين. والله خلق **البحر المالح والـنهر العذب**، ومن كلٌّ نأكل اللحم الطرى، ونستخرج الحلى نلبسها، وتمخرهما البواخـر. وهو الذى يولج الليل والنهار، وسخّر الشمس والقمـر، وما يعبدون من دون الله لا يخلقون **قطميراً**، والقطمير القشرة بين النواة والتمرة وهى أتفه شيء فيها. ومن يدعـون من دونه لا يسمـعون الدعـاء، ولا يستـجيبـون له، ويوم القـيامة يكـفرون بشركهم. والناس هم الفقراء إلى الله، وإن يشأ يذهبهم ويأت بخلق جديد، وهم مجزيون بأعمالهم، إن خـيراً فخير، ولا يسـتوى الأعمى والبصـير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور. **والحَرور** لا يكون إلا مع شمس النهار، **والسَموم** يكون بالليل. وما يستوى الأحياء ولا الأموات، ولا العـقلاء والجهّال، وهذه كلها **أمـثال**، وما يسـمع أهل القبور، ومـا محمد إلا نذير وبشير، ودلائل قـدرته تعالى لا حصر لها، فـالثمار من كل لون، والجـبال منهـا البـيض والحُمـر والسود كـأنهـا الغربان، والناس والدواب والأنعـام أصناف، ولا يتنبه لذلك إلا **أهل العـلم**، ولذا فهم أخشى الناس لله، ولن تبور تجارة من يؤمن بالله ويعـمل الصالحات، فـإنه اشتـرى الآخرة بالدنيـا، فربح وفـاز. والقرآن حق،

وكُتُب الله يتوارثها **المصطفون**، ومن الناس **الظالم لنفسه** الذى يعمل الصغائر، ومنهم **المقتصد** الذى يؤمن ويعصى، ومنهم **السابق** التقىّ على الإطلاق، **والمؤمنون المخلصون** لهم الجنة، وفيها يحمدون الله أن أذْهَبَ عنهم الحَزَن والهَمّ، **والذين كفروا** لهم نار جهنم، خالدون فيها ويصطرخون: ربّنا أخرجنا منها نعمل صالحاً، فيقال لهم ذوقوا ما كنتم تعملون، وله تعالى الغيب، ويعلم ما فى الصدور، وجعل الناس خلائف فى الأرض، ويُمسك السموات والأرض أن تزولا، فلماذا إذن الكفر بالله؟ والكافرون لا يزيدهم كفرهم عند ربّهم إلا مقتاً، وكانوا قبل أن يجيئهم النذير يتمنون لو يأتيهم نذير، فلما جاءهم استكبروا، ومكروا مكر السوء، والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله، فهلاّ سار هؤلاء فى الأرض فنظروا عاقبة **عاد وثمود وفرعون** من الأمم البائدة لمّا كفروا؟ والله قد سنّ العذاب للكافرين، ولو أخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخّرهم إلى يوم القيامة، فهذا أجلهم معه تعالى، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦١٧. ﴿سورة يس﴾

السورة **مكية**، وترتيبها فى المصحف **السادسة والثلاثون**، وفى التنزيل **الواحدة والأربعون**، وآياتها **ثلاث وثمانون**، إلا الآية ٤٥ فمدنية، وكان نزولها بعد **الجن**،واسمها «يس» مما افتتحت به، وقيل: **يس** بمعنى «يا رجل»، أو «يا سيد»، أو «يا إنسان»، أو أنه اسمٌ للنبىّ ﷺ، كقوله تعالى: **﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)﴾ (الصافات)** أى على آل **محمد**، واستدل من قالوا على أن يس اسمٌ للنبىّ ﷺ، أنه تعالى خاطبه بعد ذلك مباشرة فقال: **﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)﴾** والخطاب للنبىّ ﷺ. واستدلوا أيضاً بالحديث: «**لى عند ربى عشرة أسماء**»، ذكر منها «**طه**» و«يس» وبالحديث الآخر: «**إن الله تعالى أسمانى فى القرآن ستة أسماء: محمد، وطه، ويس، والمزمّل، والمدثّر، وعبد الله**». وقيل: بل **يس** اسمٌ من أسمائه تعالى، وأنه أقسم به وإن كان بمعنى النداء. ـ والصحيح أن **يس** من **الياء والسين**، حرفان كغيرهما من الحروف المقطّعة فى بدايات بعض السور، مثل **آلم**، **وكهيعص**. والسورة تستهل بالتذكير بآية الله الكبرى: **القرآن**، وبها يثبت أن **محمداً** ﷺ من المرسلين، لينذر قومه، ويضرب لهم مثل القرية التى أُرسل إليها نبيّان، وعُزِّزا بثالث، فلم يؤمن أهلها، فأهلكهم الله. وتعرض السورة لبعض آياته تعالى فى الكون، وكلها أدلة على قدرته تعالى، لعل الناس يؤمنون، ولعلهم يعملون الخير، فلا هم آمنوا ولا فعلوا الخير، ولجّوا فى طغيانهم. وتترى الآيات تذكّرهم بيوم القيامة وأهواله، وما يكون عليه

المؤمنون من طيب العيش، وما يعذّب به الكافرون، وتُنبّه إلى أن الله كان يمكن أن يطمس على أعينهم فى الدنيا جزاء وفاقاً، ولكنه يتركهم ليطول عمرهم، ويسوء حالهم، ثم يكون الحساب فى الآخرة. وتعرض الآيات للقرآن، وتنفى أنه قول شاعر، فما يجوز الشعر للنبىّ ﷺ، وإنما هو قرآن نذير، يذكّرهم بنعمه تعالى عليهم، ويلومهم على عبادة من لا يستطيعون نصرهم، ويخاطب الرسول ﷺ حتى لا يحزن عليهم، فهذه هى حال الإنسان، ما كاد يخلقه من نطفة حتى تحوّل خصيماً له تعالى، وتعلّل لجحده وإنكاره للبعث، بأن العظام بعد أن تصبح رميماً لا تدبّ فيها الحياة، ونسى خلقه، فقد كان حفنة من طين، ونطفةً من مَنىّ، فصار ما هو عليه، أفيعجز من صنَعه أن يعيده سيرته الأولى؟ وهو تعالى القادر، يجعل من الشجر الأخضر ناراً مع أنهما متناقضان، وخَلَق السموات والأرض، فالسموات فى العُلا، والأرض فى الدُنا، أفلا يستحق أن يُسَمّى الخلاّق والعليم؟ وأمرُه فيما يخلق أن يقول له كن فيكون، سبحانه. والسورة حافلة بالبراهين والأدلة على وجود الله وقدرته، وبصور البلاغة، وتكثر بها **المطابقات والجناس والاستعارات**، وتستخدم **منطق المتقابلات والمتناقضات**، كالماء يطفىء النار، واقتداح النار من الشجر الأخضر، وحال السعداء ونقيضه حال الأشقياء، والموت ونقيضه الإحياء، والإنذار كمقابل للإعذار، وفيها الاستفهام الإنكارى للتوبيخ، كقوله: ﴿**أأتخذُ من دُونه آلهةً (٢٣)**﴾، و﴿**أو لَمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من نُطفةٍ (٧٧)**﴾، و﴿ **أفلَمْ تكونوا تعقلون (٦٢)** ﴾. ومن محاسن وعظمة البلاغة فيها **القصة الموجزة لأهل القرية**، يقصد بها التذكير والاعتبار، فلم يذكر اسم البلدة، ولا اسم المؤمن بها، ولا الرسُل المبعوثين إليها، فيحتمل أنها قرية بعينها، وربما هى الدنيا بأسرها، أرسل الله لأهلها موسى ثم عيسى، وأخيراً محمد، فما آمن إلا القليل. وفى السورة نفىٌ عن الرسول ﷺ أنه يقول الشعر، فما كان شاعر، وما كان القرآن بشعر، لأن **الشعر** كلام منمّق، وكله خيالات ومبالغات، وليس كذلك القرآن، والشِّعر أعذبه أكْذَبُه، والقرآن تنزّه عن مماثلة كلام البشر.

●●●

٦١٨. ﴿سورة الصافات﴾

السورة مكية، وآياتها **اثنتان وثمانون ومائة**، وكان نزولها بعد **سورة الأنعام**، وترتيبها فى المصحف **السابعة والثلاثون**، وفى التنزيل **السادسة والخمسون**، وسميت «**الصافات**» لأنها بدأت هكذا: ﴿**والصَّافَّات صَفًّا (١) فالزَّاجِرات زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيات ذِكْرًا (٣) إنَّ إلَهكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)**﴾، وهذا قسم بالملائكة يذكرّ

بالملأ الأعلى حيث **يُصَفُّون** في الصلاة **كصفوف** المؤمنين في الصلاة، وفي الآية: ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ** (١٦٥) ﴾ وصف الملائكة أنفسهم بأنهم **يصفون** في حضرة الله **كصفوف** أهل الدنيا، وفي الرواية أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا تصفون كما تُصف الملائكة عند ربهم؟**» قالوا: وكيف تُصَفّ الملائكة عند ربّهم؟ قال ﷺ: «**يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف**». **والزاجرات عطف على الصافات**، فإذا اصطفوا وأدّوا صلواتهم قاموا إلى أعمالهم، يزجرون، كأن يزجروا الناس عن المعاصي فيوحون لهم بالخير، وينهونهم عن الشر، فإذا أدّوا أعمالهم انصرفوا يتلون أذكارهم، كقوله تعالى: ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا** (٥)﴾ (المرسلات)، وكأنه تعالى يدعو المؤمنين أن يتشبّهوا بهم، فيصطفون للصلاة، ثم ينصرفون للأعمال، ثم يتفرغون للذكر، **فهؤلاء** الأسوة أقسم بهم لذلك، إظهاراً لعظَم شأنهم، وتنبيهاً لجلال قدرهم، والمُقسَم عليه أنه تعالى **لا إله إلا هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما، وربّ المشارق**، كقوله تعالى: ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** (٤٠) ﴾(المعارج)، أي مطالع الشمس ومغاربها، وقوله: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ** (١٧)﴾(الرحمن) للشمس وللقمر، وللشتاء وللصيف. وكان الكفار بمكة قد قالوا: أجَعَلَ محمدٌ الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع الخلقَ فردٌ إله؟! فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً؛ والملائكة هم **الملأ الأعلى**، فلما تحدّث عنهم انتقل إلى الحديث عن **الشياطين** كمقابل للملائكة، فقال إن **الكواكب** في السماء ثلاثة: رجومٌ للشياطين، ونورٌ يُهتدى به، وزينةٌ للسماء الدنيا؛ وأن السماء تحرسها الكواكب عن استراق الشياطين السمع، والشياطين هم المسمّون **المردة**، والمفرد **مارد**، أي العاتي، ومن عتوه سُمّي **شيطاناً**، والشياطين يحظر عليهم التنصّت: ﴿ **إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** (٢١٢) ﴾ (الشعراء)، ويُرمون لذلك من كل جانب بالشُّهب تدحرهم وتطردهم. ومَنْ خَلَقَ كلَّ ذلك، أليس بقادر على النشأة الثانية ـ أي **البعث**؟! ومن عَجَب أن مَنْ هو مخلوق من **طين لازب**، هو الذي يسخر من الخالق سبحانه وينكر البعث؟ وإذا ذُكِّر بالقرآن ـ كلام الله تعالى ـ أعرض ونأى؟ وإذا نُبّه إلى إحدى آيات الله ومعجزاته في الكون استسخر، ووَصَم ما يرى بأنه سحر وتهاويل وتخييلات وخداعات؟! ودعواه: **أئذا متنا فهل نحن بمبعوثين؟ وهل يُبعث آباؤنا الأولون؟** وإنما هي زجرةٌ وصيحةٌ واحدة ـ هي **النفخة الثانية في الصور**، سميت زجرة لأنها تزجرهم وتسوقهم كالإبل، فإذا هم قيام، شاخصةٌ أبصارهم، لا يصدقون أن ذلك هو البعث الذي أنكروه، فيتنادون بالويل وقد أدركوا **أنه** يوم الدين والحساب والفصل، يُفصَل فيه بين الناس فريقين: ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** (٧)﴾ (الشورى)، وفريق النار فيه المُنكِرون، والغاوون، والمجرمون، وكانوا جميعاً

يستكبرون ويستعظمون أن يقولوا **لا إله إلا الله**، وهم لذلك **مسئولون**، ومسئوليتهم أدبية وقانونية وجنائية، يُسالون عن أعمالهم فى الدنيا من المعاصى والذنوب، وعن أقوالهم فى الله والبعث والحساب والرسول ﷺ، ومن ذلك قولهم عنه إنه **شاعر مجنون**، والشاعر يكون منظوم المعانى والألفاظ، وينقض ذلك أن يكون مجنوناً، لأن المجنون تختلط عليه المعانى ولا تنتظم ألفاظه، وتُهمتهم له لذلك باطلة، وداحضة، ومغلوطة، ومستقرهم النار، هم وشركاؤهم وقرناؤهم، **والقرين** هو الصاحب الملازم لصاحبه، وتضرب السورة المثل **بقرينين**، أحدهما من أهل الجنة، والآخر من أهل النار، وكان الذى من أهل النار لا يصدق بالبعث ولا الحساب، ويسخر من قرينه لأنه كان من المصدّقين، وكان يعجب أن يُبعَث مَن مات، وأن تدَبّ الحياة مرة أخرى فى التراب والعظام. ويتمنى قرينه فى الجنة أن يطّلع فى النار، وإذ يرى فيها قرينة المكذِّب يحمد الله أنه نجّاه من غوايته، ولولا ذلك لكان من أهل النار، ولا يستوى نعيم الجنة وعذاب النار، فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، **وشجرة الزقوم** طعام أهل النار، **والزقوم فى اللغة من التزقيم**، وهو البلع على جهد لكراهة طعم ثمر هذه الشجرة وفساد رائحته، وإنها لشجرة غريبة تحيا بلهب النار، كما تحيا الأشجار فى الدنيا بعذب الماء، ولم يصدق الكفار أن توجد شجرة كهذه بهذا التناقض، فكيف يكون فى أصل الجحيم شجر والنار لا تحرقه وتأتى عليه؟ وكان **أبو جهل** يقول: أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزبد والتمر! ويأتيهم بهما ويقول: تزقّموا هذا الذى يخوّفكم به محمد! ـ فهذا هو وصف القرآن لشجرة الزقوم بأنها فتنة، يعنى اختبار لتصديق المؤمنين، ويصفها بأن طلعها ـ أى ثمرها كأنه رءوس الشياطين، ونحن لا نعرف كيف هى رءوس الشياطين، ولكننا نتصورها من وصف القرآن. واستبعاد الكفار لوجود شجرة كهذه، جعل المنكرين يقولون إن بشاعة أوصاف النار، وجمال أوصاف الجنة إنما لتجسيم العقاب والثواب، وجعل ذلك بدوره المَلاحدة فى وقتنا يحملون النار والجنة على المعاناة النفسية أو الانشراح النفسى لما كان من كل إنسان فى الدنيا من خير أو شر. وفى السورة أن كل إنسان ترجع خيريته أو شرّيته لنوع تربيته، فلولا أن وَجَد الضالون آباءهم على الضلال لما ضلّوا: ﴿**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾**﴾، إلا المؤمنين، كانوا كذلك لأنهم مُخلَصون، خلصوا من مؤثرات الشر، ومن مورثاته فى الدم والجهاز العصبى والمخ. **والأنبياء** أئمة المخلصين الذى أخلصوا لمعتقداتهم. وتضرب السورة المثل **بثمانية** أو **سبعة أنبياء**، تروى أطرافاً مما جرى لهم، تسليةً للنبىّ ﷺ، ولأمّته، وتحذيراً لمن كفر، وهؤلاء السبعة هم: **نوح**، **وإبراهيم**، **وإسماعيل الذبيح**، **وموسى وهارون** ـ وهم واحد

بالاعتبار، لأن رسالتهما كانت واحدة - وإلياس، ولوط، ويونس. ولمّا غرق قوم نوح لم يبق إلا ذريته، والشائع أن أهل الأرض من ذرية نوح،من أولاده الثلاثة : سام، وحام، ويافث. وإذا كان إبراهيم هو أبو الأنبياء، فإن نوحاً كان طوق النجاة للمؤمنين، فالسلام عليه في العالمين، وكان إبراهيم من شيعته، يعنى على منهجه وسُنّته، رغم أن بينهما نبيّين هما هود وصالح، وسنين طويلة، وتميّز إبراهيم بالقلب السليم، وكان صاحب الشعار: ﴿أئفكًا آلهةً دونَ الله (٨٦)﴾، والإفك أسوأ الكذب، تقبيحاً على قومه أنهم في شركهم على الباطل يعبدون أصناماً ينحتونها، وأرادوا تحريقه فجعلهم الله الأسفلين، وذهب عنهم مغاضباً يقول: ﴿ إنّي ذاهبٌ إلَىٰ ربّي سيهدين (٩٩) ﴾، فكان ولوط ابن أخيه أول المهاجرين من الأنبياء، ووهبه الله غلاماً أنجبه في شيخوخته هو إسماعيل الذبيح، لأنه بعد قصته معه في مسألة الذبح، قال تعالى: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبيًّا مّن الصّالحين (١١٢)﴾، فالبشارة بإسحق كانت من بعد، مكافأةً لإبراهيم على تصديقه الرؤيا. وعند علماء التربية وعلم النفس فإن الأبناء أحد ثلاثة: إما إسماعيل بن إبراهيم :وقد انصاع لأبيه وقال له الجواب المشهور: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصّابرين (١٠٢)﴾، فهو المطيع، دمث الخلق، الحليم؛ وإمّا ابن نوح: وهو العاصي الكافر: قال له أبوه: ﴿يا بنيّ اركب مّعنا ولا تكن مّع الكافرين (٤٢) قال سآوي إلَىٰ جبلٍ يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رّحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) ﴾ (هود)، ووصفه الله تعالى بأقبح وصف لمّا ناداه نوح لينجّيه ، قال: ﴿ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين (٤٥) قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عملٌ غير صالحٍ فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين (٤٦) ﴾ (هود)؛وإمّا ابن لقمان: المتلقّي عن أبيه الحكيم، الواعي لوعظه، والحافظ لحكمه، كقوله تعالى: ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله إنّ الشّرك لظلمٌ عظيمٌ (١٣)﴾ (لقمان). وإسماعيل هو أرفع الثلاثة شأناً، ففداه، الله بذبح عظيم، قيل هو عظيم لأنه من الجنة. وترك الله عليه في الآخرين، أى الذكر الحسن إلى يوم الدين، وقال: ﴿كذلك نجزي المحسنين (١٠٥)﴾. ومن ذرية إسماعيل كان العرب، ومن ذرية إسحق كان الإسرائيليون، فمن هؤلاء وهؤلاء كان مؤمنين ومشركين: ﴿ ومن ذرّيّتهما محسنٌ وظالمٌ لّنفسه مبينٌ (١١٣)﴾، وقيل: العرب هم الموصوفون بالإحسان، وكانت منهم أمة الإسلام خير أمم الأرض طالما يتقّون الله، وأمّا الإسرائيليون فهم الظلمةُ لأنفسهم ظلماً بيّناً، لأنهم قالوا زوراً أنهم «أحباء الله»، ففعلوا كل الموبقات، وألّبوا الأمم على بعضها البعض، وأشعلوا الحروب، وفي الآية دليل على أن البرّ يلد الفاجر. وأما موسى وهارون

فقد نجّاهما وقومهما من العبودية للفرعون، ونصرهم فكانوا الغالبين، وآتاهم **التوراة** البليغ في بيانه، قبل أن يحرّفوه ويكتبه من تأليفه عزير، فسلام على **موسى وهارون** لأنهما كان من المؤمنين المحسنين. وكذلك **إلياس بن ياسين**، من سبط **هارون**، كان من المرسلين، ودعا قومه لعبادة الله وترك عبادة **البعل**، فكذّبوه إلا المخلصين، فسلام عليه في الآخرين. وكان **لوط** من المرسلين، ونجّاه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. **ويونس** الذى هرب إلى البحر وركب السفينة، وألقاه أصحابها منها لينجوا، فالتقطه **الحوت** وهو الملوم، فلولا أنه كان من المسبّحيين الذاكرين، لَلَبِثَ فى بطن الحوت إلى يوم البعث، ولكنه استغفر ربّه، فنبذه الحوت بالعراء، ونمت عليه **شجرة يقطين** تظله وتقيه الشمس، وأُرسل إلى قوم آمنوا به. فهل بعد هذه القصص يُصرّون على الكفر، وينسبون لله أن له **ولداً**، وأن **الملائكة بناته**؟ فسبحان الله عما يصفون! وكانوا قبل **القرآن** يتمنون كتاباً لهم كالتوراة والإنجيل، فلما تنزّل عليهم القرآن كفروا به، ولكن **الله** غالبٌ على أمره، وأنبياءه هم المنصورون، وفى حالة نبيّنا ما عليه سوى الإعراض عن الكفّار إلى فترة، وليتنظر يوم ينزل بهم العذاب، ولسوف يبصرون عاقبة كُفرهم، وساء استعجالهم للعذاب. واختتمت السورة بالدعاء: ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)** ﴾، فللّه الحمد والمنّة.



٦١٩. ﴿سورة ص﴾

السورة **مكية**، وآياتها **ثمان وثمانون**، وكان نزولها بعد سورة **القمر**، وترتيبها فى المصحف وفى التنزيل **الثامنة والثلاثون**، وتسميتها بسورة ص حيث ص حرف من حروف الهجاء التى تتكون منها كلمات وعبارات القرآن المعجز، ورغم أن حروف الهجاء معروفة للجميع، إلا أنهم عجزوا أن يركّبوا منها ولو سورة من هذا القرآن المبين. ومثل ص الحروف المقطّعة «الم»، و«المر» فى أوائل السور، ومع ذلك فقد حاول البعض إيجاد تفسير للحرف ص فى أول السورة، فقال: إنه قَسَم أقسم **الله** به، وهو من أسمائه تعالى، حيث يبدأ اسمه **الصمد** مثلاً، أو اسمه **الصانع**، بالحرف ص. وقالوا: هو اسم من أسماء القرآن، أو أنه فاتحة السورة، ومما استأثر **الله** بعلمه، والصحيح هو ما قلناه أولاً. وقَسَمُه تعالى بقوله: ﴿**وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)**﴾، تنبيهٌ لجلال قدر القرآن، كقوله: ﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ (١٠)** ﴾ (الأنبياء) أى شرفكم، والقرآن شريفٌ فى نفسه لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره، أو أنه «**ذو الذكر**» لأنه يحفل بالمواعظ المُذكِّرة لهم بالله،

وجواب القسم محذوف تقديره: وإنه للحق من عند الله، **﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)﴾**: أى اختلفوا أنه حقّ من عند الله، فما كفروا به لخلل وجدوه فيه، وإنما كان كفرهم استكباراً عن الحق، وخلافاً لله ولرسوله، كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ (٢٠٦)﴾** (البقرة)، **والعزة**: هى الغلبة والقهر، والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم كما كان مَن سبقهم، وكم أهلك الله منهم حتى تنادوا يستغيثون ويتوبون، **﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾** كما تقول السورة، يعني ما كان هذا وقت الاستغاثة أو التوبة، فقد مضى ذلك وانتهى، وقيل: ونادوا حين لا مناص، أى ساعة لا منجى ولا فوت. والسورة تنبّه إلى أن هذا هو الشأن دائماً مع المنكرين، فالخلاف يدبّ بينهم إزاء الدين، ويموتون كفاراً ثم يكون العذاب فيستغيثون، وربما العذاب فى الدنيا والآخرة، وقد يكون عذابهم رفضهم لدعاوى الدين، أن الداعين للدين منهم، وأن دعاواهم كأنها السحر لإعجازها، فاتهموهم بأنهم مشعوّذون وكذّابون، وكذلك اتهموا نبيّنا الكريم ﷺ، وتتضارب دفوع المنكرين، فبعضهم قد يرى أن **الطبيعة** هكذا صُنعت ولا إله لها، وبعضهم قد يرى أن **التطور** هو الغالب، وأن **الصُّدفة** هى الخالق، وقد يرى البعض أن للطبيعة قوى مختلفة، وكل قوة منها كالإله، وأنها جميعاً تصنع الحياة، وبناءً على ذلك قد يرفضون دعوة التوحيد، ويعجب هؤلاء من منطق التوحيد، **فكيف تجتمع الكثرة فى الواحد؟** والكثرة بينها تعارض، والواحد ضد التعارض، وإذن فالقول بإله واحد هو قول لا يستقيم. وصدَقَت قريش أنهم ما سمعوا فى ملّة أخرى أن الله واحد، **فاليهود** قلّما قالوا أن الله واحد، وعبدوا آلهة الأمم الأخرى، وادّعوا أنهم أحباب الله، وأنه لا يحاسبهم، بل ولم يذكروا فى كتُبهم شيئاً عن حساب أو عقاب، فالحساب والثواب والعقاب فى الدنيا، بما يكون من حياة كريمة للبعض، وسيئة للبعض، والدنيا للغالب، **والصفوة** هم الغالبون؛ والنصارى قالوا إن المسيح ابن الله، وألّفوا لذلك تأليفات يفلسفون بها كُفرهم، فقالوا **بالتثليث**، وتوّهوا الناس فى معاني **الآب والابن وروح القدس**، ودعوا لعبادة المسيح، وسُمّوا مسيحيين، فكان كُفرهم كُفراً على كُفر، وكانت قريش على حق لمّا وصفوا دعوة **محمد بأنها الأولى من نوعها**، واعتبروا ما يقول **فلسفة واختلاقاً**. وحُجّتهم فى رفض النبىّ ﷺ أنه **بشرٌ مثلهم**، فلماذا اختير دونهم وهو ليس أشرفهم ولا أجدرهم؟ فلمّا شكّكوا فيه شكّكوا فيما جاء به من القرآن، ليس عن علم، بل لمجرد أن النبىّ ﷺ قد جاء به، وكأنهم المختصون بإقرار نبوة هذا النبىّ، ورفض نبوة ذاك، وكأنهم الموكلون منه تعالى بأمر الكون والناس والرسالات، وكأنهم جُندٌ لشيء ليس هو الله بالتأكيد: **﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ**

مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴿١١﴾، أي جنّدوا أنفسهم وتحزّبوا ضد الله، فعمّا قليل يُهزَمون بإذن الله ويولون الأدبار. وتضرب السورة المَثَل بما عانى الرسُل من قبل نبيّنا ﷺ، من وجوه التكذيب برسالاتهم، فليس نبيّنا بدعاً بينهم، وإنما جميعهم كُذِّبوا، ومنهم نبيُّنا، وكان قوم **نوح** كأهل مكة، كما كان **فرعون** صاحب **الأهرامات** الشامخة كالجبال، والثابتة في الأرض وكأنها الأوتاد، **كأبي جهل**، عناداً وكُفراً؛ **وثمود**، وقوم **لوط**، وقوم **شعيب أصحاب الأيكة**، أي البساتين المُشجرة، شكّلوا جماعات متحزّبة ضد رسُلهم، فاستحقوا عقابه تعالى لهم، وما أمرُ أهل مكة إلا صيحةٌ واحدة ـ أي نفخةٌ في النفير، فتُزهَق أرواحهم، وما لهم من عواقب الصيحة فَواق، أي أنها تأخذهم أخذاً فلا يفيقون منها. وكما ضرب الله المثل لنبيّه بهؤلاء الأقوام الكفرة، ضَرَبَ له المثل بغيرهم ممن راعوا حقوق الله وعاشوا الحياة الدنيا كما ينبغي، وهؤلاء هم **أنبياء الله، كداود، وسليمان، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذي الكفل**؛ والأوّلان ـ **داود وسليمان**، كانا مَلكين نبيين، وكان **داود** ملكاً مشهودًا له بالقوة، وكثيرًا ما كان يزلّ، إلا أنه سرعان ما يرجع إلى الله ويستغفر ويتوب، فوهبه **الله علماً**، وزاده قوة، وكان بارع في التراتيل والتسابيح، ويحب أن ينشد الأناشيد في مدح الله والثناء عليه، وطَلَب العفو منه، ويسأله العزة والمنعة، فإذا انشد اختار أن يكون إنشاده وسط الطبيعة، وعلى قمم الجبال، فتردد الجبال إنشاده في الليل والنهار، وحتى الطير كان يحب إنشاده، ويجتمع له ينصت ويعجب. وأصفى الله على داود المهابة يشدّ بها مُلكه، وآتاه الحكمة، فكان إنشاده من وحي الله هو ما يعرف الآن باسم «**مزامير داود**»، وهي «الزبور» في القرآن، وعباراته متينة بيّنة. وتقصّ السورة نبأ الخصمين اللذين تسوّرا المحراب للقاء داود ليقضي بينهما، مما أوردناه ضمن «**باب قصص القرآن**»، وما كان لداود أن يظلم وهو المعيّن خليفة من قِبلَ الله ليحكم بين الناس بالحق ولا يتّبع نزواته وشهواته فتضله عن سبيل الله، وويل لكل مفسد في الأرض، والحياة لم يخلقها الله عبثاً بلا غاية، ولكنها ابتلاء وامتحان، ولا يستوي المتّقون والفُجّار، ولا الأخيار والأشرار. وما كان **سليمان** إلا كأبيه، ذرية بعضها من بعض، فكان يزلّ كأبيه ولكنه يستغفر ويتوب، وأتاه الله المُلك والنبوة، وكانت له حكايات وخبرات وممارسات كاد يُفتَن فيها ونجّاه الله، مثل قصته مع خَيلْه التي نسى الصلاة بسببها، فتخلص منها حتى لا يتكرر معه ذلك، وكثيراً ما ينتصر حبُّه للدنيا على حبه لله، ودعا لنفسه فما استطاع أن يتخلص من حب الدنيا مطلقاً، وما كان يصلح أن يكون زاهداً، فهو مَلكٌ رسول، وكان دعاؤه المشهور: **﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**

(٣٥)﴾ فسخّر له الريح والشياطين، وملّكه عليهم، وهذا هو عطاؤه تعالى له، وكانت له **الزلفى** - أي القُربة عنده تعالى فى الدنيا، وله فى الآخرة حُسن الثواب. **وداود وسليمان من الأوّابين** - أي الراجعين إلى الله بالتوبة، يعنى أنه كانت بهما هنات، ومثلهما كان **أيوب**، قيل أخطأ فى حقّ الله فعوقب بأن نُزعت عنه نعَم المال والعيال والصحة، ولكنه صبر **ثمانى عشرة سنة**، حتى أعاده الله تعالى إلى حظيرة رضاه، لمّا تضرّع له ودعاه، فآتاه أهله ومثْل عددهم، وأعاد إليه ماله وأتباعه، وعوّضه خيراً عن عياله، فكانت **قصته عظة** لغيره، وكان صبره مضرب الأمثال (**انظر قصته فى باب قصص القرآن**). وكذلك كان **إبراهيم وإسحق ويعقوب**، أنبياء وأئمة، وأعطاهم الله خير الدنيا والآخرة، فقال فيهم: **﴿أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧)﴾**، يعنى أنهم كانوا أهل بصيرة وحكمة، وكانوا أولى بأس وقوة، فقوتهم هى قوة الحكمة، وحكمتهم هى حكمة القوة، فعاشوا فى الدنيا ولم ينسوا الآخرة، وأخذوا من الدنيا ما يؤهلهم للآخرة، واصطفاهم ربُّهم ليكونوا نموذجاً للناس يُقتدى، واصطفاؤهم نتيجةٌ لأعمالهم فى مجال الخير، فلأنهم **أخيار** كانوا **المصطفين**، لا كما يقول اليهود اليوم أنهم مصطفون، **سواء كانوا أخياراً أو أشراراً** - فهذا هو عهد الله لهم، بئس ما يقولون.

ومن **الأخيار** أيضاً كان **إسماعيل واليسع وذو الكفل**، فأمّا **إسماعيل** فهو **الذبيح** الذى كانت **قصته مع أبيه** أساس الحج عند المسلمين، فشعائر الحج كلها مبنية على هذه القصة؛ وأما **اليسع** فقيل هو **الخضر**؛ **وذو الكفل** قيل لم يكن نبياً ولكنه **تكفّل** بأمر من أمور الأنبياء وقام به فسمّى هكذا. وهؤلاء الأنبياء يُذكَرون فى الدنيا ولهم فى الآخرة الجزاء الأوفى ، **جنات عدن** مفتّحة الأبواب، **وعَدْن** هى الإقامة، فهى **جنات الإقامة** الدائمة والحياة الخالدة؛ بينما للطاغين شرّ مآب، أى شرّ المنقلب، ونقيضه **حُسن المآب** للمتّقين. وما كان لمحمد منذراً وداعياً إلى الله، وأنه لا إله إلا الله الواحد القهّار، وما كان تنزُّلُ القرآن عليه إلا نبأ عظيماً وحادثة فريدة لم يتجاوبوا معها، وما كان محمد له العلم **بالملأ الأعلى** - أى الملائكة، وإنما رسول يُوحَى إليه، وما كان بوسعه أن يلمّ بما حدث من **إبليس** حين خلق الله آدم، لولا ما يُوحِي الله له به من الأخبار والقصص، واستكبر إبليس أن يسجد لآدم، بدعوى أنه من نار وآدم من طين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول، فاستحق اللعن، وأن يُطرَد من الجنة مرجوماً، قال إبليس: **﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾** فكان جوابه تعالى - وهو الحق ولا يقول إلا الحق، أنه سيملأ جهنم من الشيطان ومن أتباعه، وما كان بلاغ النبىّ ﷺ لأهل مكة بالقرآن لكى يتقاضى منهم أجراً عليه، ولا

كان من المنتحلين للدعوات حتى يتقوّل القرآن، ولسوف يعاينون ذلك قريباً، وفي ذلك وعيد وتهديد، قيل سيعاينونه عند الموت، فعند الموت يكون الخبر اليقين. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٢٠. ﴿سورة الزمر﴾

السورة مكية، نزلت بعد سبأ، وآياتها خمس وسبعون، وترتيبها في المصحف التاسعة والثلاثون، وفي التنزيل التاسعة والخمسون، وسُمّيت «الزُّمَر» لقوله تعالى فيها: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا** (٧١) ﴾، ولقوله: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا** (٧٣)﴾، باعتبار انقسام الناس يوم القيامة إلى جماعات، يدخلون الجنة أو النار أفواجاً، زمرةٌ وراء زمرة، أي جماعة بعد جماعة، فإما أنهم من الأشقياء أو من السعداء.

والسورة تتحدث عن يوم القيامة باستفاضة، وتقدّم الدليل إثر الدليل على وجود الله، وأنه واحدٌ لا شريك له، وسيد الأدلة وأولها جميعاً هو هذا القرآن المعجزة الكبرى، والدائمة والباقية ما بقيت الدنيا، وهذا الرسول الذي أُنزل عليه القرآن، فقام بما فيه، وبلّغ بمضمونه وعلّمه الناس: كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ** (٢) **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** (٣)﴾ فالقرآن كتاب في الحق وليس الباطل، ولتعريف الناس بالله وصفاته، وأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين، وفي الحديث: «والذي نفسي محمد بيده، **لا يقبل الله شيئاً شورك فيه**،» ثم تلا: ﴿**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾. والآية دليل على وجوب النية في كل عمل، وتنبّه إلى أن التقرّب بالأولياء شِركٌ بالله، ومثل ذلك الذين يجعلون مع الله ولداً سبحانه، بزعم أنه شفيع لهم عنده، ويقرّبهم منه منزلةً، ولو أراد الله أن يسمي أحداً من خلقه ابناً أو ولياً، ما أوكل بهم هذه المهمة، وجعلها لنفسه، وهو تعالى المستغني عن الصاحبة والولد، وإنْ يكفر الناس فهو الغنى عنهم، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر، وإنما طلب إليهم أن يقرّوا بفضله، ويفردوه بالتوحيد، وأن يشكروا له نعمه في الكون وفي أنفسهم، فيثيبهم، كقوله: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** (٧) ﴾ (إبراهيم)، والموحّد ليس كالمشرك، ولا العابد كاللاهي، ولا الشاكر كالجاحد، ولا العالم كالجاهل، والمسلم الحقّ لسان حاله: ﴿**إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ** (١١) **وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** (١٢) ﴾، وعلّم الله نبيّنا ﷺ ذلك وأمره أن يقول: ﴿ **اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي** (١٤)﴾، وفارق بين من يعبد الله

وبين من يعبد **الطاغوت**، أى الأوثان و الأصنام، أو الشيطان، وكانوا قديماً يتعبّدونها، وهم الآن يتعبّدون الأبطال والزعماء، وعقائد الأحزاب، والمذاهب، فأن ننخرط فى حزب، أو نعتقد فى زعيم، لدرجة أن ننسى الدين ونعمل ضد تعاليمه، فذلك هو **الطاغوت**، وقَوْل الدين هو أحسن القول، ولا يستوى من يشرح الله صدره للإسلام، ويجعله له نوراً يمشى به فى الناس، كمن مثله فى الظلمات ليس يخرج منها، وقد جمد قلبه لا يلين لذكر ربّه، ولا يخشع، ولا يعى، ولا يفهم. والقرآن أنزله الله وفيه أحسن الحديث: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ**(٢٣)﴾، والمتشابه بمعنى أن بعضه يشبه بعضه، ويُرَدّ بعضه إلى بعضه، ويصادق على كثير مما قال الأنبياء قبل نبيّنا ﷺ: كعيسى، وموسى، وإبراهيم، وإسحق ويعقوب، وإسماعيل، ونوح، وصالح، وهود ... إلخ، يتلوه المؤمن أو ينصت لقراءته فيخشع قلبه ويلين، ويخر ساجداً باكياً، ووصفُه تعالى للقرآن بأنه حديث، كقوله: ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** (٥٠)﴾ (المرسلات)، وقوله: ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ** (٥٩)﴾ (النجم)، وقوله: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** (٨٧)﴾ (النساء)، وقوله: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ**(٤٤)﴾ (القلم)، وقد ظن به البعض أن الحديث فى هذه الآيات من **الحدوث**، بمعنى أن كلام الله **مُحدَث**، كما فى الآية: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**(٢)﴾ (الأنبياء)، فالذكر هو المُحدَث، أى الأحداث والوقائع التى يتحدث فيها القرآن، **وإنما كلام الله تعالى ليس بمُحدَث، لأنه صفة لذاته تعالى.**

ويحفل القرآن **بالأمثال** يضربها الله تعالى للناس، لنفعهم وليرجعوا إليها كلما احتاجوها فى أمور حياتهم ودنياهم، وفيما يتزوّدون به لآخرتهم، لقوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** (٣٨)﴾ (الأنعام) أى ما قصّرنا فى شىء، وجعله الله تعالى عربى اللغة والطابع، لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض، ولا لَبْس فيه ولا لحن، فمن يؤمن به فقد اتّعظ واعتبر، ومن لا يشرك بربّه فقد اتّقى، ولا يستوى المؤمّن الموحّد مع المشرك الذى يعبد آلهة شتى، ومثلهما مثل الرجل الذى منه شركاء متشاكسون، والرجل السليم لرجل لا يشاركه فيه أحد، هل يستويان؟ والمَثَل حُجّة عليهم، وما أقصر العمر أن يمضوه فى المنازعات ومحاولة الإقناع، وفى البحث عن الحجج لإثبات حقائق بدهية، وعمّا قليل يموت النبىّ ﷺ كما يموتون، فلا معنى أن يتمنوا له الموت من دونهم، والخصومة لن تتوقف بموته، بل ستمتد إلى يوم الدين، فيفصل فيها أحكم الحاكمين، ومن أظلم ممن يكذب على الله، وينسب إليه شركاء وأولاداً، ومن يكذّب بالقرآن من غير تدبُّر ولا تأمُّل، وإنه لأظلم من كل ظالم؛ وأما الذين يجيئون بالصدق -

وهم الأنبياء، والذين يصدّقون به ـ وهم المؤمنون، فأولئك هم المتقون الموصوفون بصفات التقوى الحميدة، وهم المحسنون الذى يستحقون الإحسان والإكرام، والله تعالى يكفى عباده ورسوله ﷺ من شرّ من يريدهم بسوء، والذين يكفرون يعملون على مكانتهم ـ أى طريقتهم من المكر والكيد والخداع، والذين يؤمنون يعملون على طريقتهم من الدعوة إلى الله وإظهار دينه. وهذا القرآن المعجز فى بيانه نزل بالحق الساطع فى برهانه، لكل الناس ولجميع الخلق، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها. وللناس فى المنامات آية، وكما يبعثون من النوم، فكذلك يبعثون من الموت يوم القيامة. والنوم وفاة صغرى، والله يتوفى النفوس كاملة فى الموت، ولا يتوفاها كاملة فى النوم، ومن استطاع بعثها بعد النوم يستطيع ذلك بعد الموت، فالنوم دليل من أدلة وجود الله تعالى وصدق البعث، غير أن هؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ويقولون بشركاء معه، اعتقاداً منهم بأنهم شفعاؤهم، وهم لا يملكون من الله شيئاً، فلا شفاعة إلا لله وحده، والتوحيد ليس فى صالحهم، وفى الشرك فوائد ومصالح لهم، ولهذا فكلما ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبهم، وانقبضت نفوسهم، وما ينجيهم من عذاب الآخرة كل ما يملكون من مال ومثله معه؛ والإنسان مفطور على المسكنة إذا مسّه الضُّر، فحينئذ يدعو الله، فإذا رفع عنه الضُّر وآتاه نعمة، استكبر وادّعى أن ما أُعطاه إنما كان على علم منه، فأمرُ هذا وأصحابه فى الآخرة المذلة والخسران، وللمؤمنين الإنابة والتوبة، فلا قنوط من رحمة الله مهما كان إسراف العبد فى الخطايا، وأولى به أن يتّبع القرآن من قَبْل أن يأتى يوم القيامة فتسوَدّ الوجوه، وأما الذين اتّقوا فينجيهم بفوزهم بالجنة، لا يمسهم السوء، فهل إذا أُمروا فى الدنيا أن يعبدوا غير الله، هل ينكصون؟ لا ريب أن مَن يدعون إلى غير الله جاهلون، فلا عبادة للمؤمن لغير الله، ولا شُكر إلا شُكره لله أن هداه . وتُختتم السورة بمشهد يوم القيامة، تصويراً لجلال الله وعظمته، ولأنهم لم يقدروه حقّ قدره، فالأرض فى قبضته، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون، وينفخ فى الصور نفخة الصعق فيموت كل الأحياء، إلا من شاء الله من الملائكة، ثم تكون نفخة الإحياء، فإذا من كانوا قد ماتوا يقومون يتطلعون فيما حولهم، وتضيء الأرض بنور الله، وتُستحضر الصحائف للحساب، ويُجاء بالنبيين ليشهدوا على أممهم، ويُقضَى بين الناس بالحق، ويُجازىَ كل إنسان بما عمل، وهو سبحانه أعلم بما كانوا يفعلون، وما ثمة حاجة له إلى كتاب، وإنما هو لإلزامهم الحجة، ويُساق الذين كفروا جماعات إلى جهنم، فإذا بلغوها فُتحت لهم أبوابها، وسألهم خزنتها: ألم تكن لكم رسُل من البشر يتلون عليكم آيات الله، وينذرونكم؟ ويُدخلونهم جهنم

مثواهم، ومحل إقامتهم الدائم؛ وأما المؤمنون المتّقون فإنهم يُرشدون إلى الجنة جماعات، فتُفتح لهم أبوابها، ويُسلّم عليهم خزنتها، ويدعون لهم بطيب الإقامة، ويبشرونهم بالخلود، ويحمد هؤلاء لله الذى صدقهم وعده، وأورثهم الجنة يتبوأون منها حيث شاءوا فنعم أجر العاملين. وغير بعيد يرون عرش الله تعالى، والملائكة يحيطون به من كل جانب، يسبّحون لله ويمجّدونه، وقد ساد السلام، واستتبّ العدل، وأقيم الميزان، فصار لسان حال الجميع: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾، ينطق بها كل الكون، فلم تُنسب لقائل، فدلّ على أن الكل يشهدون بها. فللّه الحمد والمنّة.

●●●

٦٢١. ﴿سورة غافر﴾

السورة مكية، وتسمى «غافر»، و«الطَّوْل»، للآية فيها فى وصف الله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)﴾، وأصل الطول الإنعام والفضل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً (٢٥)﴾ (النساء) أى: غنى وسعة. وهو «ذو الطول» يعنى أنه المستغنى إذا لم تقل: «لا إله إلا الله»، وهو «شديد العقاب» عدلاً لمن لم يقل: «لا إله إلا الله» وقيل: «ذى الطول» يعنى «ذى المنّ»؛ وقيل: «ذى التفضل»، والفرق بين المنّ والتفضُّل: أن المنّ عفوٌ عن ذنب، والتفضُّل إحسانٌ غير مستحق. وقيل: الطَّوْل مأخوذ من الطُّول، كأنه طال بإنعامه على غيره، أو لأنه طالت مدة إنعامه. وتسمى السورة أيضاً «سورة المؤمن»، لاشتمالها على قصة «المؤمن من آل فرعون» في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ (٢٨)﴾؛ وهى من السور الحواميم، أى التى تبدأ بالحرفين المقطّعين «حم»، وعددها سبع سور، أولها سورة غافر. و﴿حم (١)﴾، و﴿ق (١)﴾، و﴿الر (١)﴾ وغيرها تبدأ بها بعض سور القرآن، باعتبارها حروف الهجاء التى تصنع الكلمات التى هى وحدات بناء آيات كتاب الله المقروء، أى القرآن، كمقابل للعناصر الفيزيائية التى تصنع الكائنات التى هى وحدات بناء آيات كتاب الله المرئى والمشاهد والمحسوس، أى الكون. وقيل: «حم» اسمٌ من أسماء الله، أو اسمٌ من أسماء القرآن؛ وقيل: إن الحروف المقطّعة كلها فى الحواميم وفى غيرها هى فواتح للسور؛ وقيل: الحاء فى «حم» افتتاح أسمائه: حميد، وحنّان، وحليم، وحكيم، والميم: افتتاح اسمه: مَلك، ومجيد، ومنّان، ومتكبّر، ومصوّر. ولمّا سئل النبىّ ﷺ: «ما ﴿حم﴾ فإنّا لا نعرفها فى لساننا؟ قال: «بدء أسماء وفواتح سور». وقيل: ﴿حم﴾ كأنها حُمَّ أى قُضِى ووَقع ما هو كائن، والمعنى قُرب نصره لأوليائه وانتقامه من أعدائه.

وقيل: سورة «غافر» مكية، إلا الآيتين السادسة والخمسين والسابعة والخمسين فإنهما

مدنيتان، وهما: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)** ﴾، ومن قال أنهما مدنيتان اعتمد فى ذلك على ما فى الآية الأولى من «**الجدل**»، باعتبار أن الجدل كان من **اليهود**، غير أن ما جاء عن الجدل فى السور المكية أكثر منه فى السور المدنية. ولم يحدث أن جادل اليهود فى الله وإنما جدالهم فى الشريعة وفيما حولها، وأما الذين جادلوا فى الله فهم كفّار مكة، ولذا فإن السورة جميعها فى اعتقادنا مكية، على عكس ما يذهب إليه الكثير من المفسرين. والجدل فى الله وفى التوحيد، كان موضوع كفار مكة وميّز كل السور المكية عن السور المدنية.

وسورة غافر نزلت بعد **سورة الزمر**، وترتيبها فى المصحف **الأربعون**، وفى التنزيل **الستون**، وآياتها **خمس وثمانون** آية، وموضوعها الصراع بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وتبدأ السورة بتأكيد أن القرآن نزل من عند الله، وأنه تعالى العزيز العليم، فمن صفاته تعالى يناسب هذه السورة هاتان الصفتان: أنه تعالى **عزيزٌ** لا ينال منه أحد، **وعليمٌ** يعلم ما تُخفى الصدور، وكل ما يأتى فى السورة من حوادث إنما تحكمها هاتان الصفتان من صفات الله تعالى، ومع عزته ومنعته وعلمه بما يجرى، فإنه تعالى **غافر** يغفر الذنوب، **وتوّاب** يقبل التوبة، وشديد العقاب يطول من لا يؤمن به وحده لا شريك له. وتنبّه السورة إلى أن من يجادلون فى القرآن هم أهل الباطل، وأصحاب النار، وهم **المترفون** يتقلبون فى النِعَم، وقبلهم كذب **قوم نوح**، وكذبت أمم وأقوام بعد قوم نوح، وهؤلاء من يسميهم القرآن بمصطلحه: ﴿**وَالْأَحْزَابُ** (٥)﴾، همّوا أن يأخذوا أنبياءهم، وجادلوا بالباطل، فأخذهم الله أخْذ عزيز مقتدرٍ عليم، وحقّت عليهم **كلمة الله** ﴿**أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** (٦)﴾. وتقارن السورة بينهم وبين «**أصحاب الجنة**» يستغفر لهم **حملة العرش**، ويدعون ربّهم: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)**﴾، و«**جنات عدن**» من مصطلحات القرآن، وهى جنات **النعيم والإقامة**، وعلى عكس ذلك حال الكافرين يناديهم الملائكة أن الله تعالى يبغضهم أكثر من بُغضهم لأنفسهم، لأنه دعاهم إلى الايمان فكفروا، فلما صاروا إلى النار دعوا الله أنه تعالى **أماتهم اثنتين**، وأحياهم اثنتين، فذلك يطمعهم أن تكون لهم **حياة ثالثة** ينزلون فيها إلى الدنيا، ويصلحون هذه المرة. **والموتتان**: الأولى كانت وَهُم فى العدم، والثانية كانت وهم فى الدنيا،

والحياتان: الأولى في الدنيا، والثانية بعد البعث. ولقد كفروا في الحياة الأولى برغم كل الدلائل على وجود الله، وعلى وحدانيته، وعلى البعث والحساب والثواب والجزاء، وأنّى للكافر أن يتّعظ ويتوب؟! مع أنه تعالى يرعاهم خير الرعاية، ويرزقهم خير الرزق! وأما **المؤمن الشاكر** فذلك الذي يدعوه مخلصاً له دينه، وهو الله أولاً وأخيراً، له الدرجات الرفيعة، والعرش العظيم؛ وهو يُنزل وَحْيه على من يشاء من عباده ويرسله ينذر **يوم التلاق**: وهو اسمٌ ليوم القيامة، سُمّي كذلك لأن الناس فيه **يلتقون** ويبرزون، لا يخفى على الله منهم أحد، وله حينئذ المُلك، وهو الواحد القهّار، لا يشاركه أحدٌ في مُلكه، وهو **قهّار** لأنه عزيزٌ كما جاء في أول السورة، ويقهر بالغلبة كل ما سواه. واسم **يوم القيامة** أيضاً: **يوم الآزفة** من **أزف** الوقت يعني قد حان، **والآزفة** هي الساعة قد دنت، وحينئذ يقضي الله تعالى بالحق، فهل يقضي به من يدعون دونه؟ ودلائل وجوده وقدرته تحفل بها الأرض، وكم من الأمم والأقوام كانوا أكثر قوة ولهم الآثار الجُلّى، فما كان لهم من الله من واق. وتضرب السورة المثل للكفّار **بموسى وقوم فرعون**، فلما عتى قوم فرعون، أرسل لهم موسى، واحتمى فرعون من سلطان موسى بقومه، وانتحى الطغاة: **فرعون وهامان وقارون**، **والأول** من دهاقين أهل السياسة وطواغيتهم، **والثاني** من دهاقين الحرب، **والثالث** من دهاقين المال والاقتصاد، وبات الأمر سجالاً بين الطرفين، طرف موسى يمثّل الحقّ، وطرف **فرعون وهامان وقارون**، وبدا كأن كفة هؤلاء الطغاة الدهاقين هي الراجحة، وبدا كأن السورة قد شحنت بالعنف والشدّة، وكأننا قد صرنا في معركة، الطعان فيها سجال، وأن الأمر وإن طال فحتماً سيسفر عن نتيجة معروفة مقدماً، تنتصر فيها **السياسة والعسكرية والمال**، إلا أن الله كان مع موسى الداعي له، وأسفرت المعركة عن **مصارع الطغاة**. وتدخل **رجل مؤمن**، يريد أن ينتصر لموسى، ويهدي قومه، **ودفاع المؤمن** كان خير دفاع عن قضية الحق، ونجّى الله موسى وقومه، وغرق آل فرعون فهم في النار، يُعرضون عليها غدواً وعشياً إلى **يوم الساعة**، وفيه الناس **فريقان**، ففريق في النار، وفريق في الجنة، والأولون هم المستكبرون، والآخرون هم **المستضعفون**، وتخلص السورة إلى أن الجدل في الله يُردي أصحابه، ويخاطب الله نبيّه ﷺ أن يترك الجدل، وينحّيه جانباً، وأن يصرف عنه أصحابه، وأن يكونوا على اليقين بأن كل البراهين تثبت وجوده وقدرته تعالى. وهو الله الخالق الذي لا إله إلا هو، قرّ الأرض ، وبنى السماء، وصوّر الناس، ورزق الطيبات، فتبارك الله. وتختتم السورة بالأمر للنبيّ ﷺ وللمؤمنين بالصبر، فإن وعد الله حق، وكل الأنبياء لاقوا العنت، وصبروا. وليست قصة موسى، ولا مؤمن آل فرعون إلا

نموذجاً من القصص، بعضها يقصّه الله على نبيّه ضمن القرآن، وبعضها لم يقصه. وتختتم السورة كما بدأت، ببيان مصَارع المكذّبين، وصدق الله في قوله عن نفسه أنه تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ③﴾، فكل من كذّب وفرح بما عنده من العلم سيحيق به حتماً ما كان به يستهزىء، ولمّا يرى العذاب فعندئذ سيؤمن، فما ينفعه إيمانه لمّا رأى عذاب الله، وهذه سُنّة الله في عباده، والكافرون هم الخاسرون.

وفي السورة من المصطلحات: أن «**حملة العرش**» هم المستغفرون للناس، وهم أشراف الملائكة؛ و«**العرش**» هو الكون كله والوجود بأسره؛ وفي قوله تعالى: ﴿ **فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ⑭﴾ أن من شرط الدعاء **الإخلاص** فيه؛ و«**يوم الآزفة**»، و«**يوم التلاق**»، و«**يوم التناد**» من أسماء يوم القيامة؛ وفي السورة أن الجدل نوعان: **جدل بالباطل** يقال له «**الجدال**»، و**جدل بالحق** وهو «**الحجاج**»، نسأل اللّه الهداية، وأن يتقبّل منّا، وله الحمد والمنّة.



٦٢٢. ﴿سورة فصلت﴾

السورة **مكية**، وآياتها **أربع وخمسون** آية، وترتيبها في المصحف **الواحدة والأربعون**، وفي التنزيل **الواحدة والستون**، وكان نزولها بعد سورة **غافر**، واسمها «**فُصّلت**» بسبب ابتدائها بالآية: ﴿**فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ③﴾، ومعنى «فُصّلت» بُيّنت ووُضّحت، فتميز بها الحلال من الحرام، والحق من الباطل، تقول: فصّل الكلام أي بيّنه، ضد **أجمله**؛ والآيات في السورة **مفصّلة**، وعكس ذلك أن تكون **مُجمَلة**، والدلائل فيها موضّحة لقدرته تعالى ووحدانيته، وتستفتح بالحرفين المقطّعين ﴿**حم**﴾، تنبيهاً إلى أن القرآن مؤلَّفٌ من **الحروف الأبجدية العربية**، وهي حروف معروفة للجميع، ومع ذلك لم يستطع أحدهم أن يركّب منها آية واحدة، دليلاً على **إعجاز القرآن**، وأن منزّله هو الله تعالى، وأن مبلّغه لابد أن يكون نبيّاً. والسورة إحدى سور سبع تبدأ بالحرفين ﴿**حم**﴾، أولاً **غافر**، ثم **فصّلت**، **فالشورى**، **فالزخرف**، **فالدخان**، **فالجاثية**، **فالأحقاف**. وتنزُّلها ﴿**مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ②﴾تقريراً لهذه الحقيقة، أنه لولا رحمة ربّك ما تنزّل القرآن بالكلية، وهو الكتاب المفصّل الآيات، والعربي اللغة، الذى جاء قوماً يعلمون هذه اللغة واشتهروا بها، ومع علمهم بها فقد عجزوا عن مثله، ولو كان القرآن غير عربي لما علموه. **والسورة تقريع وتوبيخ وتَحدٍّ لقريش** في إعجاز القرآن، فقد أعرضوا عنه وادّعوا **ثلاثة** ادعاءات: أن

قلوبهم في أكنّة، يعني لا تتأثر بشيء؛ وآذانهم فيها وَقْر، يعني لا يسمعونه؛ وبينهم وبين النبيّ ﷺ وهو يتلو عليهم ـ حجابٌ فلا يرونه، ولا يدرون به. والنبيّ ﷺ بشرٌ مثلهم، ولقد آمن مع ذلك، ولأنهم بشر فكان يتوقع أن يتعاطفوا معه، وما ينقله إليهم هو وحيٌ من الله، وما يقوله لهم ليس إلا كلاماً طيباً لا يستفيد هو به، وفائدته عليهم إذا آمنوا، ورسالته إليهم أن هذا الكون له إله، وأنه واحد، فليستقيموا وليتوجّهوا إليه، وليستغفروه، والويل للمشركين، وأمّا من آمن وعمل صالحاً فلهم أجرٌ غير مقطوع ولا محسوب. والعجيب أن يكون كُفْرُهم بالله خالق الأرض في يومين، والذى قدّر أقواتها في يومين، وقضى السموات السبع في يومين، وكان الأحرى بهم أن يخشونه، لأنه قادر أن يدمرهم تدميراً، مثلما فعل بعاد وثمود، فعاد أهلكهم بريح صرصر في أيام نحسات، لأنهم استكبروا في الأرض واستعلوا على الناس، وجحدوا بآيات الله؛ وثمود استحبّوا العَمَى على الهدى، فأخذتهم الصاعقة بعذاب مهين، ونجّى الله المؤمنين. والذين يكفرون يُحشرون يوم القيامة إلى النار، ويُوزعون ويُدفعون، لأنهم أعداء الله، وتشهد عليهم جلودهم وسمعهم وأبصارهم بما كانوا يعملون، وبما كانوا يستترون من الله، وكان لهم في الدنيا القرناء يزينون لهم الشر، ودأبوا عليه حتى استحقوا النار مثوى لهم، لا محيص لهم عنها، ولا هم يُستعتَبون ويُسترضون. وكانوا لا يسمعون للقرآن، ويحضّون الآخرين على عدم السماع لتلاوته، وأن يلغوا فيه بالتشويش، ويوم القيامة يتمنون لو يضعوا أيديهم على قرنائهم ليدوسوا عليهم ويجعلوهم تحت أقدامهم سافلين. وأمّا الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلهم الجنة والله وليُّهم في الدنيا والآخرة، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وإلى الإسلام وعمل صالحاً، ولا تستوى الكلمة الحسنة من الداعية والكلمة السيئة من الكافر، والداعية عليه أن يدفع بأحسن الكلام، والدفع به هو منهج القرآن، وهو السبيل لإنهاء العداوة واكتساب محبة الناس، وهذا المنهج وتلك الطريقة لا يتقنها ولا يُحسنها إلا من تدرّب عليها وصبر، وإذا صارت له فهي من حظّه العظيم، وإذا الداعية وسوس إليه الشيطان ليوقعه في مكائده فليستعذ بالله. ومن آياته تعالى أن خلق الليل والنهار والشمس والقمر، والشمس والقمر آيتان لا يتُعبَّد لهما وإنما التعبُّد لله خالقهما. والمتكبّرون كإبليس يرفضون الإسلام لأن فيه السجود لله، وهم لا يريدون السجود، والله مستغن عنهم، وله الملائكة في السموات يسبّحون بالليل والنهار ولا يسأمون. وهذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو عزيزٌ، أعزّه الله، ويمتنع على الناس أن يقولوا مثله، وأن يحرّفوه ويبدّلوه، وما كان الرسول بدعاً بين الرسل، وما قيل له من الرفض والجحود،

قيل مثله من قبل لمن سبقوه من الرُسل، وهذا القرآن تنزّل باللسان العربي وليس بالأعجمي، ولو قد تنزل بلغة غير عربية لطلبوا أن يكون بالعربية؛ وليس فيه باطل، وهُداه هو الهدى، وفيه شفاء لقلوب الناس وعقولهم من الشك. ومثلما عابوا على النبيّ ﷺ القرآن عابوا على موسى التوراة، واختلفوا فيه ولولا أن الله قد سبق منه الحُكم بإمهال الكافرين لعجّل لهم بالعذاب، إلا أن وقت العذاب هو الساعة، وعلمُها عنده، ومن يعمل صالحاً فلنفسه، ومن يعمل السيئة فعليها، ويوم القيامة يضلّ عنهم ما كانوا يدعون قبلاً، ويعلمون أنه لا محيص من النار، وسيظل الله يُطلع الناس كل يوم على الجديد من الكشوف فى الكون وفي أنفسهم، كعلامة على وجوده وقدرته ووحدانيته، إلى أن يتبيّن لهم أنه الحق أو تكون الساعة، وهو تعالى يكفي عباده الأدلة والعلامات، وسيشهد عليهم، ولكنهم فى شك من لقاء الله، وهو تعالى المحيط بكل شيء علماً وقدرة، وهو المُحصى والمطّلع على كل شيء. «والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٢٣. ﴿سورة الشورى﴾

السورة مكية، نزلت بعد سوة فُصّلت، وآياتها ثلاث وخمسون آية، وترتيبها فى المصحف الثانية والأربعون، وفى التنزيل الثانية والستون؛ وقيل من آياتها أربع آيات نزلت في المدينة، هى: ٢٣و٢٤و٢٥و٢٧؛ واسمها الشورى من قوله تعالى فيها: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ (٣٨)﴾، فكانت للشورى مكانة كبيرة فى الإسلام، فلا يبرم المسلمون أمراً من مهام الدنيا والدين إلا بعد المشورة، ويأخذون بها، فكانت الآية تعليماً للمسلمين أن يقيموا حياتهم على منهج الشورى، فلا يستأثر بعضهم بالحُكم دون الآخرين، وما تشاور قومٌ إلا هُدوا لأرشد الحلول والطُرق، وأُمر النبي ﷺ بالشورى، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (١٥٩)﴾ (آل عمران)، وتشاور الصحابة فى الخلافة، وفى أمْر أهل الردة، وفى الزواج والطلاق والميراث، وفى حدّ الخمر وعدده، وفى الحروب. وتبدأ سورة الشورى بالحروف المقطعة ﴿حم (١) عسق (٢)﴾، فكانت إحدى سور سبع تبدأ بالحرفين «حم»، وكانت الوحيدة التى قُطع بين ﴿حم (١)﴾ ﴿عسق (٢)﴾، على خلاف سورة مريم التى بدأت بالحروف المقطعة ﴿كهيعص (١)﴾. غير مفصولة عن بعضها البعض. والحروف المعجمة فى القرآن التى تبدأ بها بعض السور واحدةٌ فى معناها، فهى إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه مؤلف من هذه الحروف التى يتقنها الجميع، ومع ذلك لم يفلح واحد أن يأتى بآية مؤلّفة من هذه الحروف كآيات القرآن، والله تعالى يُقسم بها كما يقسم بآيات الكون، وجواب القسم أن هذا القرآن المؤلّف من هذه الحروف هو وحيٌ من الله العزيز الحكيم إلى

إلى نبيّه الكريم، وتنزّلت عليه قرآناً، ولم يكن النبيّ ﷺ بدعاً بين الرسل أنْ أوْحَى الله إليه، فقد أوحى إلى رسُل آخرين من قبله، وهذا القرآن لسانه **عربي** لأنه مرسل إلى العرب، ولينذر به الرسول ﷺ **أم القرى مكة وما حولها**، بأن **يوم القيامة - يوم الجمع** - لا ريب فيه، وأن الناس في ذلك اليوم **فريقان**: **فريق في الجنة، وفريق في السعير** - أي جهنم؛ ولو شاء الله لجعل الناس جميعاً على دين واحد، وما يختلفون فيه مردّه لله الذي ليس كمثله شيء، وليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة؛ ودينُه تعالى المشرَّع للناس هو ما وصّى به **نوحاً، ومحمداً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى**: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. فمن كان من الناس يريد **حرث الآخرة** يُزِد الله له في حرثه، أي يوفّقه للعبادة ويسهّلها عليه، ومن كان يريد **حرث الدنيا** يؤته منها وما له في الآخرة من نصيب، **وحرث الدنيا** هو المال. ويوم القيامة يشفق الظالمون مما كسبوا، ويُدخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحات روضات الجنات، لهم ما يشاءون عند ربّهم. وما محمدٌ إلا رسول، ولم يسأل الناس أجراً على إبلاغه لرسالته، وما كان يرجو منهم إلا **﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ (٣)﴾**، وأن يراعوا قرابتهم به فيصدّقوه، وينتهوا عن القول بأنه افترى القرآن على الله، ولو افتراه لختم الله على قلبه فأنساه القرآن، وسلبه من صدره، كقوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾** (الحاقة). ولو بسط الله الرزق لعباده في الأرض لبغوا، وإنما ينزّل الأرزاق بقدر وحكمة، وفي الحديث القدسي: **إنّ من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه. وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه»**. وما يصاب الناس من مصائب في النفس والمال إلا بسبب معاصيهم، وعبّر الله تعالى **بالأيدى** فقال: **﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (٣٠)﴾** لأن أكثر الأفعال تُزاوَل بها، وهو تعالى يعفو عن كثير فلا يُعاقِب عليه، ولو يؤاخذهم بكل ما كسبوا لهلكوا، وفي الحديث: «**ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثنّى عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يُعاقب به بعد عفوه**». ولمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ: «**ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود، ولا نكبة حجر إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**». ونظير ذلك قوله تعالى: **﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾** (النساء ١٢٣). وخيرات الدنيا كثيرة، ومُتعها لا حدّ لها، وما يؤتى الناس من ذلك من غنى وسعة إنْ هو إلا لأيام وتنقضى، وما عند الله هو الباقى، والذين يجتنبون **كبائر الإثم والفواحش** هم المؤمنون حقاً، وجزاؤهم الجنة؛ **والفواحش والكبائر** بمعنى واحد، وهى المعاصى؛ وقيل **كبائر الإثم** هى الشرْك، **والفواحش**

هي موجبات الحدود. وهؤلاء **المستحقون للجنة**: إذا غضبوا يغفرون، ويستجيبون لله، ويقيمون الصلاة، ويتشاورون فيما بينهم، وقيل هؤلاء هم **الأنصار**؛ وإذا أصابهم البغي ينتصرون لأنفسهم من الباغي، والسيئة يجازونها بالسيئة مثلها. والعفو والصلح أفضل؛ ولا سبيل على من ينتصر لنفسه، وإنما السبيل على من يظلم ويبغي في الأرض بغير الحق؛ **والصبر والعفو** من عزائم الله وعزائم الصواب؛ **والخاسرون** هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؛ **والظالمون** في العذاب المقيم؛ والإنسان **كفور**، فحين يذيقه الله منه رحمةً يفرح بها، وإن تصبه سيئة بما قدّمت يداه يقنط وييأس؛ والله تعالى يخلق ما يشاء من الذكور والإناث، وقد يهب للناس أياً منهما، أو يزاوج بينهما، أو لا يرزقهم شيئاً ويجعلهم بلا عقب. ولكل أمة نبيّ، وكل نبيّ يكلمه الله إما وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل إليه رسولاً فيوحي إليه، وكذلك أوحى الله إلى نبيّنا ﷺ، فأرسل إليه جبريل، روحاً من عنده تعالى، وما كان نبيّنا يدرى قبل ذلك ما معنى كتاب ولا إيمان، ولكن الفضل لله لمّا بعثه، فعرّفه الكتاب وأنزله عليه، وعلّمه الإيمان، وفهّمه الأحكام والفرائض، وجعله نوراً وهُدى للناس، يهديهم إلى صراطه تعالى المستقيم، أى القرآن والإسلام. وكل ما نعمل ونقول ينتهى مصيره إلى الله، وإليه تصير الأمور جميعها في الأرض وفي السماء. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٢٤. ﴿سورة الزخرف﴾

السورة مكية، وقيل إلا الآية ٨٩ فمدنية . والسورة نزلت بعد **الشورى**، وآياتها **تسع وثمانون** آية، وترتيبها في المصحف **الرابعة والخمسون**، وفي التنزيل **الثالثة والستون**، وسميت سورة الزخرف لقوله تعالى فيها: ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)** ﴾، فوصف تعالى الدنيا وصفاً رائعاً، فلولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، فيصيروا أمة واحدة في الكُفر، لخُصّصت هذه الدنيا للكفّار، ولجُعلت لهم القصور المزخرفة المزدانة بأنواع النقوش والزينة، وكانت سقوفها من الفضة، ولها السلالم والمصاعد من الفضة، يرتقون عليها ويصعدون، ولجُعلت لبيوتهم أبوابٌ من فضة، وسُرُرٌ من فضة يتكئون عليها ويريحون، ولجعلت لهم الزينة من نقوش الفضة والذهب، إلا أن كل ذلك النعيم من متاع الدنيا الزائل ولا بقاء له، لأن الدنيا نفسها إلى زوال. وتبدأ سورة **الزخرف**

بالحرفين المقطّعين ﴿حمٓ ۝١﴾، تذكيراً بأن القرآن من حروف الأبجدية العادية، ومع ذلك ظلت آياته معجزة. وسورة الزخرف من الحواميم، أى السور التى تبدأ بهذين الحرفين ﴿حمٓ﴾، وهى سبع سور. وتبدأ السورة بوصف القرآن ومكانته، فقالت إنه قرآن عربى، لأن من أُنزل عليهم هم العرب، ولسانهم عربى مبين، فلعلهم لذلك يفهمونه ويعقلونه ويؤمنون به. وفى القرآن عموماً يأتى أن القرآن عربى فى إحدى عشرة سورة؛ وفى سورة الزخرف أن القرآن عربى ليتعقّله أهل العربية، وهو كتاب مصون فى أم الكتاب - أى فى اللوح المحفوظ، وهو كتابٌ علىّ حكيم، أى عظيم القدر لما فيه من الحكمة البالغة، ولإحكامه، فلا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض، كقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝٧٨﴾ (الواقعة)، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ (البروج). فهل هذا أفضل، أم كان العرب يُتركون دون ذِكْر، ويُضرَب عن تذكيرهم صفحاً، ويسقطهم الله من حسابه، فلا يعظهم بأى كتاب، لأنهم أسرفوا فى التكذيب والعصيان؟ بل الأفضل أن يوعظوا، ولو أن هذا القرآن رُدّ لهلكوا، ولكنه برحمته تعالى ظل يكرره عليهم مدة عشرين سنة، ليهتدى به من يهتدى، وتقوم به الحجة على من كُتبت عليهم الشقاوة. ويقول اللّه تعالى للنبىّ ﷺ، تسليةً له: ما أكثر من أُرسلوا من الأنبياء، وما أكثر ما كُذّبوا واستُهزئ بهم، وما كانت دعوتهم إلا إلى الله، ولو سُئلوا: مَن خالق السموات والأرض لقالوا الله، ولأقرّوا له بالإيجاد، ولكنهم عندما عبدوا توجّهوا لغيره، جهلاً وسفهاً. وقدّم تعالى الدليل على صدق البعث، فضرب المثل بالمطر ينزل على المكان الجدب فتنمو به النباتات فيضج بالحياة، فكذلك النشور. ومع ذلك كفروا بالله، وجعلوا مما خلق أولاداً له، فقالوا: الملائكة بنات الله، فما أشدّ كُفر الإنسان؟! وما أشدّ جهله حين يخص الله بالبنات ويجعل لنفسه البنين؟! مع أنه إذا بُشّر بالأنثى اسوّد وجهه، وكظم غيظه وغضبه، وليس البنات كالبنين، لأن البنت تُربّى فى الحلية - أى الزينة - ولا تقوى على الجدل إذا قامت تدافع عن نفسها بالكلام، والمعنى أن الأنثى ضعيفة لا تقوى على الانتصار لنفسها. وادّعوا أنهم ما عبدوا الملائكة إلا لأن اللّه شاء لهم ذلك، فكيف يشاء أن تُعبَد الأصنام أو الملائكة؟ وما تكلموا الحق وإنما يخرصون ويكذبون. وادّعوا أنهم ما عبدوا إلا ما عبده آباؤهم، وهذه حجة المترفين فى كل زمان ومكان: أنهم على ما كان عليه آباؤهم، فهل لو جىء لهم بأهدى مما كان عليه آباؤهم، هل كانوا سينبذونه ويرفضونه؟ ومثل هؤلاء كمثل قوم إبراهيم، وكانوا يعبدون الأصنام، فما صنع إبراهيم صنيعهم، ولا قلّدهم، وإنما تبرّأ مما عبدوا، وأعلن أن الله إلهه، وهو الذى فطره، وجعل كلمة «لا إله إلا الله» هى

الكلمة الباقية في ذريته. وما كانت قريش ببعيدة عن ملّة إبراهيم، وملَل كل الأنبياء،ولاجهلوا ما فعله بهم أقوامهم، وقالت قريش لنبيّهم ﷺ مثلما قال هؤلاء لأنبيائهم، ورفضوا أن يتركوا عبادة الأوثان، ووصفوا القرآن بأنه **سحر**، وادّعوا أن النبيَّ **مسحور**، فلولا نُزِّل هذا القرآن على رجل **عظيم من مكة** أو **الطائف**، بدلاً من أن ينزل على محمد هذا المغمور؟ وسبحان الله!؟ فهل أصبحت لهم الهيمنة حتى راحوا يوزّعون رحمة الله، فيجعلون النبوة لهذا ويحجبونها عن ذاك؟! وإنما الله هو الذى له هذا الحق، وهذه القدرة، وهو الذى يرفع الناس درجات ليستعمل بعضهم بعضاً، ومن يُنكر الله ويجحد الحقّ، يجعل له **الشيطان قريناً**، يصدّه عن السبيل،ويزيّن له عمله، ويحسب الذين صُدّوا أنهم مهتدون، فإذا كان يوم القيامة تمنّوا لو كان بينهم وبين **القرين بُعد** ما بين المشرقين. ومثل **ذلك** كان **مع موسى**، فلما أُرسل إلى **فرعون** ضحك فرعون من آياته، فأنزل الله به العذاب، فجأر يستصرخ موسى ويقول: يا أيها الساحر، بما لك عند ربّك من عهد السحر، ادعُه أن يرفع عنا العذاب فنهتدى! فلما رُفع عنهم العذاب ما صدّقوا، وكانوا كاذبين، وقال فرعون: أليس لى مُلك **مصر** وهذه الأنهار تجرى من تحتى، وأنا أفضل من موسى هذا الزرىّ فى ثيابه؟ فلولا أن يبرهن لنا على صدقه ويهدينا أسورة من ذهب، أو يستصحب معه بعض الملائكة؟! واستخفّ فرعون قومه فأطاعوه على الكفر، فانتقم الله منهم وأغرقهم أجمعين. **ومريم أم عيسى** ضُربت مثلاً آخر، وابنها علمٌ للساعة، أى علامة على قُربها، لأن إحياءه للموتى دليلٌ على الساعة وبعث الموتى، أو أن نبيّنا لعلمٌ للساعة، بدليل قوله: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**» وضمّ السبابة والوسطى وما دعاهم عيسى إلا إلى الله، واختلف الناس عليه، والويل للذين كذّبوا وافتروا عليه ما لم يقله، وأما المؤمنون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولأنهم كانوا مسلمين أُدخلوا الجنة، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، بينما الذين كفروا ينادون على مالك - خازن النار، أن يُميتهم ليستريحوا من العذاب!. ولقد جاءهم الله بالحق فكرهوه وعزفوا عنه، وأبرموا أمرهم ضد الدعوة، والله يسمع سرّهم ونجواهم. وفى دعوى النصارى أُمر نبيّنا ﷺ أن يقول: لو كان للرحمن ولد لكان هو - محمد - أول العابدين له، فسبحان ربّ العرش عمّا يصفون، لا ولد له ولا صاحبة! ثم يقول ربّنا معرّفاً بنفسه: وهو فى السماء إله، وفى الأرض إله، ويعبدونه في السماء وفي الأرض - وهو الحكيم فى تدبيره، والعليم بخَلقه، تبارك الله الخالق المالك المتصرف، وعنده علم الساعة، وإليه يرجع الأمر كله، ومن يدعون من دونه لا شفاعة لهم عنده إلا من شهد بالحق. ويوم القيامة لئن سُئل هؤلاء الذين

ينكرون الله: مَن خلق ما يعبدون؟ لقالوا: الله! فلماذا كان إذن عزوفهم عن عبادته تعالى والإقرار بألوهيته؟ وتختتم السورة الكريمة بشكوى الرسول ﷺ لربّه، يقول: يارب، هؤلاء قوم لا يؤمنون - يقصد أهل مكة. ويعاندون ويتجبّرون! فيقول له ربّ العالمين: اعرض عنهم يامحمد وقل سلام - أى اصفح عنهم واتركهم لحال سبيلهم حتى القيامة، فحينئذ سيعلمون. قيل هذا الكلام فى الصفح نسخته آية السيف وهو غير صحيح، فكلاهما عن شيء مختلف، والآية مع ذلك فيها وعيد وتهديد، مثلما فيها تسلية لرسوله ﷺ، والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٦٢٥. ﴿سورة الدخان﴾

سورة مكيّة، وموضوعاتها لذلك هى الموضوعات المكيّة، ومنها: نزول القرآن من عنده تعالى على النبىّ ﷺ، وأن الله تعالى إلهٌ واحد، وأن محمداً ﷺ رسوله إلى الناس، وأن الآخرة حقّ، وما فيها من بعث وثواب وعقاب وجنة ونار حقّ؛ واختير للسورة اسم «الدخان» لأن الدخان من أهم وأبرز علامات أو أشراط الساعة: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩﴾**. والسورة نزلت بعد سورة الزخرف، وآياتها **تسع وخمسون** آية، وترتيبها فى المصحف **الرابعة والأربعون**، وفى التنزيل **الرابعة والستون**. وهى **خامسة السور السبع** التى تبدأ بالحرفين المقطعين **﴿حمٓ﴾**، وهى على الترتيب: غافر، **وفصّلت، والشورى، والزخرف**، ثم **الدخان، فالجاثية، فالأحقاف**؛ وتبدأ بالقَسَم **بالكتاب المبين** وهو القرآن، وليس كتاب أبين منه وأفصح فى معانيه، وفى دعوته وأغراضه وألفاظه، وتؤرّخ السورة لنزول القرآن فى **«الليلة** المباركة»، **«ليلة القدر»**، سلامٌ هى حتى مطلع الفجر، واسمها أيضاً **«ليلة البراءة»**، أى **البراءة** أو **الإبراء** من الذنوب، والبراءة **أيضًا صَكّ التثبُّت** بنزول القرآن بالأوامر والنواهى والأحكام إلخ، وتسمى هذه الليلة أيضاً لذلك **«ليلة الصَّك»**، والصّك هو الكتاب، أى القرآن فى تنزُّله، وبسبب القرآن كانت هذه الليلة خيراً من **ألف شهر**: تتنزل الملائكة فيها، بإذنه تعالى من كل أمر، وفيها يُفرق كل أمر حكيم، ويُقضى بالأرزاق، وبالموت والحياة، وبكل شيء بدءاً من هذه الليلة إلى الليلة مثلها من قابل، وكان نزول القرآن فى شهر رمضان: **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾** (البقرة ١٨٥)، وإذن **فليلة القدر** من **ليالى شهر رمضان**، وكان **الليل** ميقات القرآن، فمن قال **أنها ليلة النصف من شعبان** فقد كذب. وفى ليلة القدر أُنزل القرآن كله من **أُمّ الكتاب** إلى بيت العزة فى سماء الدنيا، ثم تنزّل على النبىّ ﷺ فى سائر الأيام والليالى، **نجماً نجماً**، بحسب اتفاق الأسباب،

فــي **ثلاث وعشرين** سنة. وفي السورة أن كل من يؤمن بالقــرآن، يؤمن بالله، وأنه تعالى ربّ الســمــوات والأرض، وربّ العــالمين، أي ربّ كل شــيء وهو الذي لا إله إلا هو، يحيي ويميت، ومن يكفر به فذلك موعده الآخرة يوم العذاب الأليم، ويوم تمتليء السماء **بالدخان**، ويغطى الأرض، فلا يكاد يتنفّس الناس، ويألمون أشد الألم، وتُسمّى السورة يوم القيامة: «**يوم البطشة الكبرى**»، ومعنى أنها **الكبـرى**: أن الدنيا فيها بطشاتٌ صغرى، أي نكبات وعــذابات، وبطشة يوم القـيامــة أو عذاب هذا اليــوم - هي أكبر البـطشات، ويوم القيــامة إذن هو **يوم العذاب الأكـبر**، وفيه وعــده تعالى: ﴿**إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ⑯﴾، **والانتقام** عقاب، **والنقمةُ** من الانتقام، والفرق بين **النقمة والعقاب**، أن **العقاب** بعد المعصية، لأنه من **العاقبة**، أي **يعقبها**، **والنقـمة قد** تكون قبلها أو بعدها، ولأنها **البطشة الكبرى فهي** العقاب النهائي أو الختامي، ولو قال تعالى أنها العقاب، فإن **العقاب** يُقدّر، وأما **الانتقام** فهو غير مُقدّر، رحمنا الله. وفي ذلك اليوم يصرخ الكافرون ويجأرون ويسترحمون، وأنّى لهم من يرحمهم؟ والرسول ﷺ قد جــاءهم في الدنيا بكل بيان، واسمه «**المُبـيِّن**» لأنــه ﷺ بيّن وشــرح وفسّــر، وأنذر وبشّر، ووعــد وأوعد، فلــم **يتّعظوا**، بل تولوا وقــالوا ساخرين «**معلّم مـجنون**»! أي أنه يريد أن يقف منهم موقف المعــلّم، ولكنه لا يعلمهم في الحقيــقة شيئاً لأنه مــجنون، أي فاقد العقل. وتتوجــه السورة بهذا الكلام لكـفّــار مـكة. وتنذرهم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ⑮﴾، فهم في عذاب الكُفْر، ويكشفه الله قليــلاً طالما هم في الدنيا، ويمتّعــهم قليلاً، ثم يكون **العـذاب الأكـبـر** يـــوم الساعة، يوم يعودون إليه، ويُبــعثون بعد الموت. وتضرب الــسورة **ثلاثة أمـثال** لأقــوام من الماضي، لعل كــفــار قريش يــتّعظون، وفي الــقصص مع الكُــفر تسليــةٌ للرســول ﷺ وللمؤمنين، ورفعٌ لروحهم المعنوية. وكانت **أولى** القصص عن **قوم فرعون وبني إسرائيل**، وفيها مُنِيَ فرعون بالهزيمة، ونجا بنو إسرائيل؛ والقصة الأخرى مع الإيمان، وهي **القـصة الثانية**: وهي قصة عناد وكفر أهل مكة لمّا أنكروا البعث، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ** ㉞ **إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ㉟ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ㊱﴾؛ **والقصة الثــالثــة**: هي قصــة قوم تُــبّــع والذين من قبلهم، ذكرتهــا السورة عرضاً، وأطلقت على المنكرين أنهم كانوا **مجــرمين**. **وقصة فــرعون وبني إسرائيل** هي **القصة الرئيسـية**، ورسالة موسى إلى فرعون أن يؤدّي إليه بني إسرائيل، وسمّاهم **عباد الله**، وسمّى نفسه **الرسـول الأمين**، ووصف سلطانه من الله بأنه مبين، ووعظ فرعون أن لا يعلو على الله وحذّره من الاستكبار، وغلا فــرعون وقضى في موسى بالقتل، فاستــعاذ بالله أن يرجموه، وأنذرهم

أن يتنحّوا عنه ويعتزلوه ومن معه، وأسرى ببنى إسرائيل ليلاً، وتبعهم فرعون وجنوده فكانوا من المغرقين، والقصة تُروَى بأسلوب موجز، ولمسانه سريعة، وبأقوى العبارات تأثيراً، وأشد الألفاظ تلويناً، كقوله: ﴿ **وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)** ﴾، والرهو هو المنفرج، والعبارة حافلة بالصور رغم قلة كلماتها؛ وقوله: ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)** ﴾، وهو أسلوب تحسُّر؛ وقوله «كم فيه» للتكثير؛ **والمقام الكريم**: هى المجالس والقصور؛ وقوله: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)** ﴾، هو قمة فى التمثيل والتخييل، ومبالغةٌ فى وجوب الجزع، والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظُم مصيبتهم، ولم يحزن عليهم أحد، وهكذا حال المستقويين، فلماذا تفتقدهم الأرض وكانوا فيها مجرمين ومخرّبين؟ وإنما تبكى الأرض على مَن يعمّرها، ويطهّرها بالسجود إلى الله وتكبيره، وكل عبد مؤمن له من الأرض مُصلّى، وله مصعد عمل من السماء، يبكيان عليه إذا مات وافتقدا صلاته وأعماله الصالحات، وفى الحديث: «**وما مات مؤمن فى غربة، غائباً عن بواكيه (الذين يبكون عليه)، إلا بكت عليه السماء والأرض، ألا إنهما لا يبكيان على الكافر**». ولقد صدق على قوم فرعون ثم أهل مكة من بعد ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥)**﴾، وأهل مكة نزل بهم **عذاب كعذاب الدخان**، وكان أحرى بهم أن يذكّرهم بعذاب قوم فرعون، والله تعالى لمّا اختار هؤلاء وهؤلاء للرسالة، اختارهم على علم على العالمين، وعلمه تعالى أنهم سيعودون إلى الكفر رغم كل ما تنزّل من الآيات تقسرهم على الإيمان، **وأنكروا الآخرة والبعث**، وقالوا أنه لا موتة **إلا الموتة الأولى**، وأنه لا حياة خارج هذا الزمان، ولا بعث ولا نشور، وكانوا أصحاب هذه الدعوة فى الفكر العالمى المعاصر، سواء عن طريق **ماركس والمذهب المادى**، أو عن طريق الوجوديين أمثال **هيدجر، وعبد الرحمن بدوى** فى كتابه **الزمان الوجودى**، أو عن طريق العلوم والبحوث النفسية بنظريات **فرويد والتحليليين**، أو بدعوات **العولمة** التى يتزعمونها اليوم؛ **وكفّار قريش** كانوا مثلهم، وتحدّوا النبىّ ﷺ أن يأتيهم بآبائهم طالما أنهم أحياء عند ربّهم! وهذا المنطق عند اليهود ومفكريهم، أو عند كفّار قريش، أو عند **الدهريين** من أصحاب الفلسفات المادية ـ وكلهم من اليهود ـ تردّ عليه سورة الدخان، وتنفى أن يكون الخَلْق بلا غاية ولا هدف، وأن يكون عبثاً وخلقاً عشوائياً، وأن يكون العيش فى الدنيا اتفاقاً، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)** ﴾، **والمذهب الغائى** هو دعوة القرآن، **والغائية** يأنف منها اليهود ومن يذهبون مذهبهم، وكان هايدجر

والوجوديون لاغائيين، وأعلن الدكتور **عبد الرحمن بدوي** أنه ضد الغائية، وضد **البرهان الغائي** في إثبات وجود الله، ويُنذر الله تعالى اليهود وأتباعهم وأضرابهم **بيوم الفصل**، أى اليوم الذى يفصل فيه فى كل هذه القضايا الفكرية الإيمانية، يوم لا يغنى صاحبٌ عن صاحبه شيئاً، إلا من رحم الله، ومَن رحمهم هم **المؤمنون**، تشفع لهم **أعمالهم** عند ربّهم. وأما الكافرون، فإن كُفرهم صنو **الكبرياء والاستعلاء والاستقواء**، ويوم القيامة يُصبّ العذاب فوق رأس الكافر ويقال له استهزاءً: ذُقْ، إنك أنت العزيز الكريم! وهذا جزاؤهم، لأنهم كانوا **ممترين**، يعنى شاكّين، وهكذا كان قوم فرعون، وأهل مكة الأولون. وأما **المتّقون** ـ وهم الصنف الثانى الذى ينقسم إليه الناس يوم القيامة ـ **فهؤلاء مكانهم الجنة**، سمّاها **المقام الأمين** ـ أى المأمون، ومن قبل سمّى قُرى وديار مصر **المقام الكريم**، لقوله فى العذاب مرة أنه **العذاب الأليم**، جعله أليماً يوم القيامة، ثم يصبح **العذاب المهين** بعد الحساب، ثم يتحوّل إلى **عذاب الحميم** ـ وهو نوعية خاصة من العذاب بالماء المغلى يُصَبّ فوق الرءوس. وعذاب «**المستكبر العزيز الكريم**» أنكى العذاب، وطعامه من **شجرة الزقوم**، تزقم الأنوف والأفواه بطعامها المنتن المُرّ، وهو «**طعام الأثيم**»، والأثيم صفة مبالغة، وهو المشرك الكثير الآثام. **وشجرة الزقوم** من أشجار الجحيم، وتنبت فى أصلها ـ أى أصل الجحيم، كأنها رأس شيطان، ويقال للزبانية **اعتلوا هذا الأثيم إلى سواء الجحيم**، أى **وسط الجحيم** ـ وهو الأشد عذاباً، وعلى عكس ذلك **المتقون**: فعيشهم في جنات وعيون، ولباسهم السندس والاستبرق وهما الحرير الرقيق والسميك، وطعامهم من كل فاكهة، يُدْعَوْن إليه آمنين، ولا موت في الجنة ولا جحيم، فضلاً من الله، وذلك هو الفوز العظيم. وتُختتم السورة بالعودة **إلى القرآن** كما بدأت **بالقرآن**، وهو الكتاب العربى، سهّله الله بلغة العرب ويخاطب به النبىّ ﷺ، لعل كفّار **قريش** يفهمون ويعون عظاته ودروسه، فارتقب يا **محمد** إنهم مرتقبون ـ يعنى انتظر عليهم وانظرهم حتى حين؛ وفى الآية وعدٌ للرسول، ووعيدٌ للكافرين. وفى السورة الكثير من المصطلحات والعبارات البليغة والمبينة: **فالسَّيْرُ** الذى ساره موسى ليلاً، هو سير الخائف الحذر يريد الاستتار بالظلام، وسير الذى يريد اتقاء الحرّ والعطش، وكان النبىّ ﷺ **يسرى ويُدلج** (أى يسير أول الليل) ويترفق ويستعجل، بحسب الحاجة والمصلحة؛ **والحور**: جمع حوراء وهى البيضاء؛ **والعين**: جمع **عيناء** وهى الواسعة العينين. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٢٦. ﴿سورة الجاثية﴾

سورة مكية، وقيل إلا الآية: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ**

قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ نزلت فى المدينة بسبب أن رجلاً من قريش كان قد شتم عمر بن الخطاب لمّا كان فى مكة، فَهَمّ أن يبطش به، قيل فنزلت الآية تحضّ على أن يغفر المؤمنون للذين لا يعتقدون فى الثواب والعقاب والبعث والحساب. «**وأيام الله**»: هى وقائعه بأعدائه؛ وقوله «**لا يرجون أيام اللّه**»: أى لا يأملون أن ينالهم منها عذاب، لدعواهم بأنهم إن ماتوا فقد انتهى الأمر، وهى الموتة الأبدية، ولا نشور بعدها ولا رجوع، فمِثْلهم يُغفَر لهم فى الدنيا ويكفيهم عذاب الله على كفرهم، وهل هناك عذابٌ أكبر من عذاب الكفر؟ فلا قيمة لأية إساءة أقل من الكفر، لأن الكفر يعلو ويعظم على كل إساءة. **والسؤال: فلماذا تنزل هذه الآية فى المدينة عن حادث وقع فى مكة وطال عليه الأمد ـ فسورة الجاثية كانت السورة الخامسة والستين فى التنزيل المكّى، وبين زمانها وزمان المدينة وقت طويل؟** وقيل: إنها نزلت فى عمر مع **عبد الله بن أُبىّ فى غزوة بنى المصطلق**، فإن المسلمين لمّا نزلوا على بئر يقال لها المُرَيْسيع، أرسل عبد الله غلامه ليستقى، فأبطأ عليه، وادّعى أن خادماً **لعمر بن الخطاب** قعد على البئر يستقى حتى مـلأ قِرَب النبىّ ﷺ، وقِرَب أبى بكر وعمر، فقال عبد الله: ما مَثَلُنا ومَثَل هؤلاء إلا كما قيل: **سَمِّن كلبَك يأكلك!!** فبلغ عمر ما جرى، وشتيمة عبد الله له، فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه ليقتله، فأنزل الله الآية. واعتراضنا على هذا السبب أيضاً هو نفس الاعتراض السابق، وليس معنى كلام عبد الله فى عمر وغلامه، أنه لايرجو أيام اللّه، ولاصلة بين واقعة غلام عبد الله وغلام عمر وبين مضمون الآية، والصحيح أن معنى الآية منسجم مع معنى السورة كلها، وأن الآية مما نزل بمكة ضمن السورة، وأنها **ليست ضد اليهود**، **ولا ضد المنافقين** وهم الذين كانت الشكوى منهم فى المدينة، وإنما هى **ضد الكفرة**، وهؤلاء **هم الذين لا يرجون أيام الله**، أى لايعتقدون فى الآخرة، ولا يرون أنهم **محاسبون**، وليست لله أيامٌ عندهم، فأيامهم هى مِلْك أنفسهم. وسورة الجاثية ـ كما يوحى اسمها ـ عن يوم الحساب أصلاً، وهو اليوم الذى **يجثو**، فيه الناس جميعاً ينتظرون دورهم فى الحساب، **والجَثْوُ**: هو الجلوس على الركب، من قولك: جثا على ركبتيه يجثو وفى الحديث أن النبىّ ﷺ قال: «**كأنى أراكم بالكَوْم جاثين دون جهنم**»، **والكَوْم** هو ما يشبه التلّ، وفى قوله تعالى: **﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾**، «وكتابها» هو كتاب أعمالها فى الدنيا لتُجزَى ما كانوا يعملون.

وسورة الجاثية نزلت بعد **سورة الدخان**، وآياتها **سبعٌ وثلاثون** آية، وترتيبها فى المصحف **الخامسة والأربعون**، وهى السادسة من السور السبع التى تبدأ بالحروف المقطعة **﴿حمٓ ﴿١﴾﴾**، وهى: غافر، وفصّلت، والشورى، والزخرف، والدخان ثم الجاثية، وأخيراً

الأحقاف، وتبدأ مثل **الأحقاف** بقوله تعالى: ﴿**حم ① تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ②**﴾، تنوّه بالقرآن أنه من عند الله تعالى، وأنه ينبّه ثلاثة أصناف من الناس إلى آيات الله في الكون، وهؤلاء هم: **المؤمنون، والموقنون، والعاقلون؛ فالأولون**: تلفتهم إلى آياته في السموات والأرض؛ **والثانون**: تلفتهم إلى آياته في أنفسهم، وكيف خُلقوا، وفي الكائنات كلها وكيف صَنَعها وأبدعها؛ **والصنف الثالث**: تلفتهم إلى خلقه تعالى **للزمان**، وكيف جعل منه الليل والنهار، وإلى **المطر** وكيف أنزله من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وإلى **الرياح** وكيف يصرّفها ويغيّرها ويبدّلها، فلمّا آمنوا به لتفكرهم في آياته في السماء والأرض، كان تفكُّرهم في أنفسهم وفي الكائنات، **فأيقنوا** بعد الإيمان، فلما أيقنوا **عقلوا** ظواهر الكون الأخرى، وفهموها، ووعوا الدروس عنها. وهذه الآيات يتلوها القرآن بالحق، فبأي حديث بعد القرآن ليقنعهم ليصدّقوا ويؤمنوا ويوقنوا ويعقلوا؟ وبعد القرآن لا حديث ولا برهان، وكل من لا يقتنع بالقرآن فهو **الأفاك** المتحل للأعذار، **والأثيم** هو المرتكب للإثم أي الذنب الكبير، ومثله له **العذاب الأليم** في الآخرة. ومصيبة هذا الأفاك أنه لا يقنع بالقرآن وكفى، وإنما هو يستهزىء به، فيتحول عذابه من **العذاب الأليم** إلى **العذاب المهين** - أي الذي يحط من شأنه، ويهان به كما أهان القرآن، وسواء هذا أو ذاك فمن ورائهم **جهنم**، لا يغني عنهم عذابها ما كسبوا من مال، أو ما كان لهم من خدم وحشم وأتباع وأنصار وأولياء، ولهم جميعاً في جهنم **العذاب العظيم**، وهو عظيم لأنه يناسب عظمة إثمهم، وحجم جُرمهم، وما كان لهم من قوة وسلطان. وهذا القرآن الذي لم يؤمنوا به، واستهزأوا به، هُدىً ونور، ونجاة وغوث، ومن يكفر به وبآياته لهم **عذابٌ رجز أليم**، أي أبشع العذاب، فهذه **أربعة أنواع من العذاب**، لكل منهم شدّته ومناسبته وناسه وجرمه. وتعود الآيات إلى مشهد آخر من مشاهد تعداد **آيات الكون** تنبّه إليها آيات الكتاب، فالبحر تجري فيه **الفلك** بأمره تعالى، سخّره للناس، ويأكلون منه لحما طرياً، ويستخرجون حلية لهم من اللآلئ والأصداف لعلهم يشكرون؛ والسماء سخّرها لهم، وسخّر ما في الأرض جميعاً، لعلهم يتفكّرون، وفي قوله: ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ⑬**﴾ إعجازٌ علمي لا شك فيه، لم يكن مفهوماً قديماً كما في هذه الأيام التي فيها الطيران ومحطات الفضاء، ودراسات النجوم والكواكب والشمس والقمر، والاستفادة بالفضاء أكبر الفائدة في المواصلات الفضائية واللاسلكية. والذي خلق ويسّر وسخّر وعلّم وأفاد بكل هذا هو الله، أفبعد ذلك يكفرون؟ فإنْ عذّبهم فإنما بما كسبوا، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها.

وتضرب السورة المَثَلَ ببنى إسرائيل، والأمثال فى القرآن لتسلية النبىّ ﷺ والمؤمنين، يعنى ليقارنوا بين الأحوال فى المثل وبين أحوالهم، وليفهموا الحكمة، ويعوا الدرس، وبنو إسرائيل أعطاهم الله الكتاب، وفقّههم فيه، وآتاهم النبوة فتتابعت النبوة فيهم، ورزقهم من الطيبات وفضّلهم على العالمين، فكان منهم ملوك المال فى كافة العصور والأمصار، وكانت لهم شروح وتفاسير على التوراة بيّنت لهم الأمر أكثر وأوضح وذلك بفضل الله، إلا أنهم اختلفوا من بعد كل هذا العلم والفضل، وظلموا أنفسهم، وبغوا على بعضهم البعض، وحرّفوا، وعدّلوا، وألّهوا أنفسهم بدلاً من الله فتعبّدوا شعبهم وتركوا الله، وصاروا فرقاً وجماعات، فالله يقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، وأعظم ما اختلفوا فيه كان المسيح، وهو منهم، وكان من أنبيائهم، والاختلاف بينهم وبين النصارى، أن اليهود لايعترفون بأن عيسى هو المسيح، ولذلك فهم لايزالون ينتظرون ظهور المسيح، وآذوا عيسى وكثيرا غيره من الأنبياء، منهم من قتلوه، ومنهم من عذّبوه. ثم تتطرّق السورة إلى النبىّ ﷺ . الذى أعلمه الله عن كل ذلك، وزوّده بالمنهج والطريق والشريعة، وأمره أن يتّبع ما أُنزل عليه ولا يتّبع أهواء الذين لايعلمون، ولا يسايرهم على ما يريدون، ولن يغنى رضاهم عنه من الله شيئاً، وأهل الظلم أشياع وأتباع، وأولياء وأنصار، والله مع المتّقين. وتصف السورة القرآن وآياته بأنها بصائر للناس، يعنى نور وهدى ورحمة للذين يوقنون، ولا يستوى المجترحين للسيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء فى محياهم أو فى مماتهم، وقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبَ** (٢١)﴾ استفهام يفيد الإنكار، والله تعالى هو الحق، ولا يخلق إلا الحق، وما خلق السموات والأرض والكون بأسره إلا بالحق، ولذلك فلن تُجزى عنده كل نفس إلا بما كسبت، ولا ظلم عنده، والله لا يهدى الظالمين، ومن لا يهديه الله فلا هادى له، والذى اتخذ إلهه هواه، وعبَد ما ترتاح إليه نفسه، واتخذ ديانةً لا تكاليف فيها، وإلهاً لا يعاقبه على شيء، واستمر فى غيّه رغم أنه يعلم أنه على الباطل، فهذا الذى ختم الله على سمعه وأزاغ قلبه، وأغشى بصره، فلا يسمع ولايدرك، ولا يعقل، ولا يرى، ولايبصر، أفمثلُه يهتدى؟! وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (٢٣)﴾ سؤال فيه العقاب الكثير والتوبيخ. ومثل هذا الذى لايهتدى تصدق عليه الآية: ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** (٢٤)﴾ ، وهى مقالة الملحدين ومن يقال لهم «الدهريون»: يدّعون أن الله لا يميتهم وإنما يميتهم الدهر، أى العمر، والزمن، والليل والنهار، وكلامهم بالظن وليس بالعلم، وحجتهم داحضة لأنهم طلبوا أن يحضر لهم النبىّ ﷺ آباءهم إن كان صادقاً، وكان البعث حقّاً ! والله يحييهم يوم القيامة ويجمعهم للحساب، وهو الملك

القادر، ويوم الحساب يخسر هؤلاء **المبطلون** جميعاً ويوقنون الحق، يوم يحاسبون حساباً عسيراً، ويُرفع كتابهم فيه كل ما عملوا، والناس إزاء الحساب **قسمان** أو **فئتان**: الذين آمنوا وعملوا الصالحات فئةٌ، وهؤلاء في رحمة الله، وهم **الفائزون**؛ والذين كفروا **فئة أخرى**، وهؤلاء كان **يستكبرون**، وكانوا **قوماً مجرمين**، أجرموا بإنكارهم للبعث وتشكيكهم في الساعة، ويوم القيامة تبدو لهم سيئات ما عملوا وقالوا، ويحيق بهم ما كانوا به **يستهزئون**، ولقد استهزأوا بآيات الله، وغرّتهم الحياة الدنيا، وفي الآخرة لهم النار لا يُخرجون منها ولا هم يُسترضَوْن. وتختتم السورة بخير دعاء: ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)** ﴾.

ومن مصطلحات السورة، قوله تعالى: ﴿**نَسْتَنسِخُ (٢٩)**﴾، ومنه الاستنساخ **Cloning** المستخدمة حالياً في **علم الجينات وعلم الأجنة**، وهو في الآية بمعنى عمل نسخة أخرى، فيستنسخ الملائكة أُمّ الكتاب، ليضاهوا ما به، بعمل ابن آدم في الدنيا، فيجدونه طبق الأصل لا زيادة فيه ولا نقصان، وكذلك **الاستنساخ** الحيواني هو أن تنسخ من الحيوان نسخةً مطابقة في الشكل، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٢٧. ﴿سورة الأحقاف﴾

سورة مكية، إلا الآية: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)** ﴾، والآية: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)** ﴾، والآية: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)** ﴾؛ وآياتها خمس وثلاثون، وترتيبها في المصحف **السادسة والأربعون**، وفي التنزيل **السادسة والستون**؛ واسمها **«الأحقاف»** من قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ (٢١)**﴾، و«أخا عاد» المقصود به النبيّ **هود**، وقومه هم «عاد»، و«الأحقاف» موطنهم، قيل: الأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمل؛ وقيل: كانوا حياً من اليمن، أهل رمل، مشرفين على البحر بأرض يقال لها **الشِّحر**.

والسورة تنقسم **سبعة أقسام** أو **مشاهد** تتناول صفات الله، ونزول القرآن، وأصحاب الجنة منذ أن كانوا في بطون أمهاتهم، وعلاقاتهم بوالديهم، ثم قصة الذي قال لوالديه

أُف، وأصحاب النار، وقصة النبىّ هود مع قوم عاد لعل فيها موعظة لأهل مكة، وقصة الجن مع القرآن، وبعض البراهين لوجود الله وإثبات القدرة المطلقة له، وتختتم بدعوة النبىّ إلى الصبر كما فعل الرسُل من أولى العــزم، وبيان أن السورة بلاغٌ إلى من يهمه الأمر من الناس أجمعين: أن الهلاك الأبدى هو من نصيب الفاسقين.

والسورة من السور التى تبدأ بـالحرفين المقطعين ﴿حمٓ ۝١﴾، وهـى سبع سـور، وترتيبها بحسب النزول: **غافر**، ثم **فصلت**، ثم **الشورى**، ثم **الزخرف**، ثم **الدخان**، ثم **الجاثية**، ثم **الأحقاف**. وهذه الحروف المقطّعة من الإعجاز العلمى للقرآن، لأن القرآن ليس سوى حروف، ومنها الكلمـات والعبارات التى تؤلّف آياته، وكأن **كتـاب الله ككتاب الكون** يستويان، فكلاهمـا من **عناصـــر** من خلق الله. والسورة تبدأ قـوية، **فيها التنبيـه** للغافل والتحذير للاّهي، بأن هذا الـكون بعظمته لابد أنه لم يُخلَق عبثـاً، وأنه ينبغى أن تكون له غـاية ترسّمها خلقُه، وأن يكـون له خالق خلقه بفكرة واحدة، وأنه لا يمكن إلا أن يكون **إلهاً قادراً عـالماً وواحداً لا شريك له**. وهذا القرآن الذى يكون به هذا التنبيه والتحذير هو من لدن الله، وليس **سحراً** كما **يقولون**، وليس **محمد ساحراً**، وما **افتراه** محمد من عنده، ولم يـكن **بدعـاً** من الرسل، **فهو** ليس سوى متبّع للوحى، ودليل صدقه ﷺ يشهد به هذا الشاهد من بنى إسرائيل - **قيل هو عبد الله بن سلام**، فليس القرآن سوى كتاب يصادق على ما سبقه من كتُب، ولقد سبقته التوراة ونزلت إماماً يُؤْتَمّ بها، وكانت رحمة للناس بما طرحت من تشريعات تيـسّر حياتهم، **والقـــرآن** مثلـها، **فلمـاذا الإيمان بالتـوراة والتكذيب بالقـــرآن؟** ويحفل القرآن بالوصـايا كالتوراة، وكلها خير وحق، كـالوصية بالوالدين، أن يحسن إليهما الأبناء، والسبب أنهما عانيا المشقة حتى ربياه، فالأم حملت وأرضعت **ثلاثين** شهراً، قاست **فيها الأمَرّين**، **فلا أقل** من أن يمتن الأبناء للأبوين ويحسنان رعايتهما، وكل من يشتد عوده عليه واجب حيالهما، فإذا بلغ **الأربعين** دعا لنفسه أن يُقدره **الله** أن يشكره تعالى على نعَمـه عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحـاً يرضاه، وأن يصلح له فى ذريته. وتحديد سن **الأربعين** للتوبة والإقرار **لله** بالفضل ، والشكر له على نعمه، والدعاء للوالدين والذريـة، من **الإعجـاز العلمى النفســى للقرآن**، فحـسب علم **الفسيولوجيا وعلم النفس التربوى**، وتقسيمات مراحل النمو ومراحل الحياة، فإن **سن الأربعين** هى السن الفاصل، وهى سن النضج العقلى، كســن النضج البيولوجى **فى الثـانية عـشرة** عند بداية المراهقـة؛ **والإنســان الســوىّ**، بتعريف سورة الأحـقاف: هو المؤمن المقر بالله وبوحدانيتـه، والمستقيم على الإيمان، والشاكر لله، والممتن لوالديه، أوصاه الله بهمـا فعمل بالوصية، فذلك الذى

يتقبل منه الله عمله بأفضل منه، ويتجاوز عن سيئاته فى أصحاب الجنة، وهذا وعْده تعالى له وهو **وَعْد صدق**. وتضرب السورة المَثل **للعاق لوالديه** وهما يدعوانه إلى الإيمان، بقصة هذا الذى قبّح والديه وقال لهما **أفّ لكما**، وهما يستغيثان الله منه ويقولان: **ويلك**، آمن، وإلا هلكت! فيستهزىء بهما، ويسخّف دعوتهما إلى اللّه، ويصف حكاياتهما عن القيامة والبعث والمعاد، بأنها ليست إلا أساطير وخرافات من عصور قديمة. وقيل: إن **عبد الرحمن بن أبى بكر** هو المعنىّ بالولد العاق، ودحضت **عائشة** هذه الفرية، وردّتها إلى الذين افتروها من **الأمويين والشيعة**، **وعبد الرحمن** كان صحابياً من كبار الصحابة، وروى الحديث، ولا يطعن فيه أنه أسلم متأخراً فلم يكن إلا كآخرين. ولكنها رغبة البعض من أصحاب المصلحة فى الطعن فى **أبى بكر، وعائشة** من خلال **عبد الرحمن**، للتقليل من شأن **أبى بكر وعائشة**، وشأن **عبد الرحمن**، وكان عبد الرحمن من الرافضين لخلافة **يزيد بن معاوية**، وسمّاها **قيصرية وهرقلية**، أى وراثة الأبناء للسلك عن الآباء، كما كان الحال مع هؤلاء الملوك الجبابرة من القياصرة، وليس كما نصّ الإسلام: **أن يكون الحُكم شُورى**. والقصة كما هى فى السورة عامة وليست خاصة، وأمثال هؤلاء من الجاحدين لفضل الآباء، والمنكرين لله ولنعمه كثيرون فى كل الأمم، وهم الذين حقّ عليهم **قول الله** بأنهم **أهل النار**، وضل سعيهم وخسروا آخرتهم، وهم مراتب فى النار، مثلما أصحاب الجنة مراتب، وكلٌّ بحسب عمله. وتضرب السورة المثل **بقوم عاد** الذين أنذرهم نبيُّهم **هود بالأحقاف**: ألا يعبدوا إلا الله، وتحدّوه أن يأتيهم بالعذاب، وكانوا **قوماً** يجهلون، فاستعجلوا العذاب، وأتاهم فى السحاب، رأوه معترض السماء ومتجهاً إليهم، واستبشروا به أن يُمطرهم، فخاب أملهم، وهبت ريح فيها عذاب أليم، تدمّر كل شىء، فأصبحوا لا يُرىَ إلا مساكنهم، وكذلك يجزى الله المجرمين. **والقصة لتخويف أهل مكة، فلقد مكّن** الله لقوم عاد كما مكّن لأهل مكة فما آمنوا مثلهم وجحدوا آياته. وجحدت قرى كقرى عاد وسبأ **وثمود** كانت حول مكة، ودُمرت مثلها، وتكرر بها ما حدث **لعاد**، وكانت دلائل وبراهين أخرى لأقوامها ولكنهم كانوا جاهلين. وأصرّوا على طغيانهم وكُفرهم، فلم تنصرهم آلهتهم لمّا جاءهم العذاب، فهلاّ نصروهم لو كانوا صادقين؟! **فذلك إفكهم** وما كانوا يفترون. وقصة **ثالثة** ترويها السورة عن الجن، وكانوا نفراً من **نحو عشرة**، وافوا الرسول عند منصرفه من الطائف، وكان يصلّى ويتهجّد بالقرآن، فوقفوا ينصتون مذهولين، وفى ذلك **توبيخ لأهل مكة** الذين كانوا بالقرآن يستهزئون، فلما انتهى الرسول ﷺ من تلاوته آمنوا وانصرفوا إلى قومهم يبلّغون، وقالوا فى القرآن إنه مُصدّق لما قبله

من التوراة، ويهـدى إلى الحقّ، واستحـثوهم إلى الإيمـان، ورهّبوهم بعد أن رغّـبوهم. وتقـيم السـورة الدليل على **البـعث**: أن مَن خلَقَ أول مـرة قادرٌ على أن يحـيى الموتى، وتعرض لمشـاهد من الآخرة، يوم يُعـرض الكافرون على الـنار ويقال لهم: مـاذا تقولون الآن: أليس هذا بالحق؟ أكان ما قاله الله افتراء؟ أكـان القرآن سحراً؟ وهل هذه النار سحرٌ أيضاً؟ فيومئذ يقروّن بالحق، وكأن القرآن يوبّخهم على استهزائهم الذى كان منهم فى الدنيا للنبىّ ﷺ ورسالـته. وتختـتم السورة بأمره تعـالى للنبىّ ﷺ: أن **يصبـر كما صـبر الرسُل من أولى العزم**، ولا يستعجل لقومه العذاب بالدعاء عليهم، **وسيأتيهم فى حينه فى الآخرة**، ويومها يندمون أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة. **وهذا القرآن هو بلاغ لكل الناس**: العابدين والكافـرين، وليُنذَروا به، ولن يهلك بسببـه إلا الفاسقون الذين خـرجوا عن أمر الله، وسبحان الله العظيم.

وفى السـورة الكثـير من **المصطلحات وأوجـه البيان**، كقـوله تعالى **فى يوم القيـامة** أنـه **«الأجل المسـمى»**؛ وقـوله: **«الأثارة من الـعلم»** يعنى ضرب الرمل، يـخطون بالإصبع فى الأرض أو الرمل ثم يَزجُر، وعرّفوا **الأثارة من العلم** بأنه الخط الذى كان يخطه **«الحازى»**، وهو **العرّاف** أو **الكاهن**، ولم يُبق الإسلام مما كان يسمى عند القدماء **علوم الغيب** ـ وتسمى حاليـاً علوم البـاراسيكولوچيـا ـ أى علم النفس الغيـبى، ومنها الطّيرة، **والزجـر، والفـأل، والرؤيا**؛ وقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**(١٣)﴾(فصلت)، **الاستقامة** هى أن لا يلتفتوا إلى إله غيره، وأن يستقيـموا على الطريقة لطاعته، وعلى أمره، وعلى شهادة أن لا إله إلا الله حتى مماتهم؛ وقوله: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا**(٢٠)﴾، أى أضعتـموها، وهذه الآية من الآيات التى تؤسس **للاشتـراكية الإسلامية**، وكـذلك الآية: ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** (١٩)﴾، وفيـها يحكى جـابر: أن أهله اشتهوا الـلحم، فاشتراه لهم، فمر بعمـر بن الخطاب، فسأله: ما هذا يا جابر؟ فأخبـره جابر، فقال عمر: أوَ كلما اشتهى أحدكم شيئـاً جعله فى بطنه؟! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾، يقصد عـمر أن ينبهه إلى أن العادة قـد تتمكّن منه، فإذا لم يقدر على شـراء اللحم يوماً تسهل الشـبهات فى تحصـيله، فيقع فى الحـرام المحض بغلبة العادة واسـتشراء الهـوى، وانتصار النفـس الأمّارة بالسوء، فـأخذ عمـر الأمر من أوله، وحماه من ابتدائه، فكان من **الاشتراكيين المؤسـسين لاشتراكية الإسلام** ـ بلغة هذا العصر، **وقانون الاشتراكيـة عند عمر أخلاقى**: فعلى كل امرئ أن يأكل وينفق ما وجد طيباً وزهيداً، ولا يتكلف الطيب الزهيـد ويتخذه عادة؛ وكـان النبىّ ﷺ يشبع إذا وجد، ويصـبر إذا

عَدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشــرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتــمد أصلاً، ولا يجعله ديدناً. والحــمد لله ربّ العالمين، أن جــعلنا على الإسلام، وجعل لنا القرآن كتاباً.

●●●

٦٢٨. ﴿سورة محمد﴾

السورة مـدنية، إلاّ الآيــة الثالثــة عشرة التي تقول: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ** (١٣) ﴾، نزلت في الطريق أثناء الهجرة، فقد جعل رسول الله ﷺ ينظر إلى البيت الحرام وهو يبكي، فنزلت عليه الآية. وكان نزول سورة محمد عموماً بعد «**سورة الحديد**»، وآياتها **ثمان وثلاثون** آية، وترتيبها **في** المصحف **السابعة والأربعون**، وفي التنزيل المدني **التاسعة**، وفي التنزيل عامةً **الخامسة والتسعون**، وسُمّيت «**سورة محــمــد**» لأنها تتناول ما نُزِّل على رســول الله ﷺ مما كان ينكره عليه المنكرون، والسورة بمثابة «**إعلان حرب**»: على الكافرين، والمنافقين، والناكصين عن القتال، ودعاة المسالمة، والمُهــرْولين إلى الصلح، والبخــلاء بالمال في سبيــل الله. وتبدأ السورة بداية غــير معهودة، فتــذكر أول ما تذكر: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** (١) ﴾، تندّد بأهل مكة لكفرهم وصدّهم عن دين الله، فلمّا ذكَرَتْهم ذكَرت بالمقــارنة إليهم الذين آمنوا بالله وبما أُنزِّل على محــمد، والناس إزاء الدين **فريــقان**: **فــريق المؤمنين**: وهم أهــل الحق، كفّر الله عنهم سيئاتهم، وأصلح لهم دنياهم وآخرتهم؛ **وفريق الكافرين**: وهم أهل الباطل، والله يضرب الأمثال للناس بهؤلاء وهؤلاء. **ومنهج الإسلام مع أهل الكفر إذا وقعت الحرب بين المسلمــين والكفّار** ـ وهي **واقعــة** إلى يوم الدين، لأنهم الذين يوقدونها دائماً، ويزيدون أوراها، يريدون أن يطفئوا نور الله ـ أن يقاتل المسلمون بشراسة ويثخنوا القتل في الكافرين كلما استطاعوا، ومن يستسلم من الكافرين أسْراً فليُشَدّ وثاقه حتى لا يفلت، فإذا وضعت الحرب أوزارها، فإما يُطلق سراح الجــرحى والمدنيين ومن لا يحسنون القتال، وإما يُفْدَوْن، والأمر فــي ذلك موكول **بأصحاب القــرار السياسي**، وليعلم المسلمــون أن الحرب ابتلاء، وأن الله يَعدهم أن لا يُضل أعمال من يُقتل في ســبيله، وسيجزيهم أحسن الجزاء، ويصلح آخرتهم، ويدخلــهم الجنة، عرّفها لــهم؛ ثم تخاطب السورة المؤمنين بقــصد إثارة حميتهم ورفع مــعنوياتهم: أنّ شَرْطه تعالى معهم: أن ينصروه فينصــرهم ويثبّت أقدامهم؛ وأما الذين كــفروا فــالويل لهم، ذلك بأنهم كرهوا مــا أنزل الله فأحــبط أعمالهــم. وتنبّه السورة إلى غرابة كُفرهم، بعدما يشاهدونه من آثار في الأرض تُعلمهم بما كان من أمر مَن

قبلهم من الأمم التي كفرت بربّها، والله حتماً ينصر المؤمنين وهو مولاهم، والكافرون لا مولى لهم، ويُدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، وفي السورة أن **علامة الكفر**: أن الكافرين مطمئنون بكفرهم، ويستمتعون بحياتهم، ويأكلون ويعيشون كالأنعام ـ أي كالحيوانات، وتخاطب السورة النبيّ ﷺ وأمّة الإسلام، تسلّيهم وتطمئنهم، وتشدّ أزرهم، فلم تكن مكة أول قرية تُخرج نبيّها، فكم من القرى قبلها كانت أشد قوة من قريته وأهلكها الله، وليس المؤمن كالكافر، ولا محمد رسول الله ﷺ **كأبي جهل** الضال، وليست الجنة التي وُعد المتقون كالنار. وتتحدث السورة عن فئة **ثالثة هي فئة المنافقين**، وعلامة هؤلاء أنهم يستمعون للنبيّ ﷺ، فإذا خرجوا من عنده شككوا الناس فيما قال، ونقلوا ما قاله لليهود أسيادهم. وتقارن السورة بينهم، وبين **فئة المصدّقين** الذين هداهم الله. وتكثر هذه المقارنات في سورة محمد، ثم يكون الاستفهام الإنكاري: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً**... (١٨)﴾، يتوعدهم الله تعالى بها ولم يستعدوا لها، فكيف لهم بالنجاة منها، ومما كانوا يأتون من المنكرات، عندما تلح عليهم ذكرياتها؟! وفي الآية: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** (١٩)﴾، الخطاب للرسول ﷺ، يقول له: فاذكر أن لا إله إلا الله كما أعلَمكَ، وجاء بعدها ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**(١٩)﴾ تأمرُه بالعمل بعد العلم، واستغفاره ﷺ لذنبه برجاء أن يعصمه من الذنب، وأن لا يقع منه ذنب، وأن يثبّته على التوحيد والإخلاص، وفي قوله تعالى: ﴿**وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** (١٩)﴾: أن يشملهم الاستغفار، أي يكون استغفاراً **للأمة كلها**، فأوجبت الآية **استغفار الواحد للكل**، واستغفاره ﷺ **للجميع**، وهذا تصريحٌ منه تعالى **لنبيّه** ﷺ **بالشفاعة**، وكان المؤمنون المخلصون يدعون أن ينزّل القرآن على نبيّهم ﷺ دائماً تعليماً لهم وتطميناً، وليجدوا فيه الجهاد في سبيل الله، فكلما نزلت سورة تذكّر بالجهاد يتضرر **المنافقون**، ويتولاّهم الخوف، وكان الأولى بهم لو أنهم أطاعوا وقالوا حُسْناً، فإذا وقع القتال تقاعسوا وأبدوا الكراهية أن يقاتلوا، وتعللوا ليقعدوا عنه، ولو لم يكونوا منافقين لكان بلاؤهم ومصيرهم أفضل، **فكيف لو تولى هؤلاء أمر الحُكم في الأمة كما يطمعون؟** أفلا يفسدون فيها بالمعاصي وبتقطيع الأرحام؟! فلا غرو أن يلعنهم الله ويعمي أبصارهم. وإنه لأمر قد يحيّر البعض في طريقة تفكير هؤلاء المنافقين، فهذا القرآن فيه الهدى، أفلا يتدبرونه، أم أن قلوبهم قد سُكّرت فلم يعودوا يعقلون؟! ومن أجل أنهم لا يعقلون ارتدّوا على أدبارهم عندما حمي وطيس القتال، مع أنهم أظهروا الإيمان في بداياتهم، ولكن الشيطان سوّل لهم الكفر وزيّنه، ومدّ في آمالهم؛ فتمادوا في كُفرهم وتظاهروا على عداوة الرسول ﷺ، وعلى القعود عن

الجهاد معه، واتّبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه، فكشف أضغانهم وما يضمرون من الحقد، ولو شاء الله لأرى رسوله ﷺ هؤلاء الكفار بأعيانهم، فلا أقل من أن يعرفهم بسيماهم، **وللنفاق** سمات، وباب **سمات المنافقين** من أبواب **علم النفس الإسلامي**، وأبرز سماتهم **لحن القول**: وهو أن يتكلموا بشيء ويريدون به شيئاً آخر، والجهاد كتبه الله على المؤمنين، وما جعله إلا ليعلم المجاهدين والصابرين، ولن يضر الله الذين كفروا وصدّوا عن سبيله وشاقّوا الرسول. وتختتم السورة بالدعوة إلى طاعتهما ـ الله ورسوله، وأن لا يهن المؤمنون ويدعوا إلى السلم، ويضعفوا عن الجهاد، والحقّ معهم، وحُجتهم هي الظاهرة، وهم الغالبون، ويأتيهم الأمر بالاستمرار في القتال حتى النصر، وأن لا يبخلوا أن ينفقوا في سبيل الله، ومن يبخل فالله غني حميد، وهو الغني والناس هم الفقراء، وإن يتولوا يستبدل غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

ومن المصطلحات في السورة، قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** (٤)﴾، **وأوزار الحرب** أثقالها، والمقصود بها السلاح لثقل أحماله؛ وقوله: ﴿**وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** (٧)﴾. وتثبيتها أي عدم الفرار من المعركة بتثبيت القلوب بالأمن، وقوله: ﴿**فَتَعْسًا لَّهُمْ** (٨)﴾ كأنه يقول: أتعسهم الله، أي أشقاهم وجعل لهم التعاسة نصيباً في الدنيا والآخر، **والتَّعس**: هو الانحطاط **والعثار**، وأن يخرّ المرء على وجهه، وهو بخلاف **النَّكس**: وهو أن يخرّ على رأسه. وفي الحديث: «**تعس عبد الدينار والدرهم ... إنْ أُعطي رضيَ، وإنْ لم يُعطَ** لم يرض»؛ وقوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ**... (١٥)﴾، يعني أن هذه الأوصاف للجنة أو للنار هي أوصاف تقريبية وليست حقيقية، تقرّب صورة الجنة والنار بلغة الناس وفهمهم وخبراتهم؛ وقوله: ﴿**مَاذَا قَالَ آنِفًا** (١٦)﴾ طريقة في استهزاء المنافقين بكلام النبيّ ﷺ؛ وقوله: ﴿**الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** (٢٠)﴾ هم المنافقون، شبّه **النفاق** بالمرض، وشبّههم بالمرضى؛ وقوله: ﴿**فَأَوْلَىٰ لَهُمْ** (٢٠)﴾ تهديد ووعيد، كما تقول فلسوف ترون؛ وقوله: ﴿**وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** (٢٢)﴾، **والتقطيع** تشديد بقطع صلات الرحم. **والرحم** على وجهين: عامة وخاصة، فالرحم العامة: هي رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهل الدين ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضارتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ وأما **الرحم الخاصة**: فهي رحم القرابة، فتجب لهم الحقوق بدءاً بالأقرب فالأقرب. والرحم عموماً، قُربةٌ، يجب صلتها. وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»؛ وقوله: ﴿**لَحْنِ الْقَوْلِ** (٣٠)﴾ أي فحواه ومعناه، وفي الحديث: «**إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من**

بعض»، أى أبلغ وأفصح؛ وقوله: ﴿**وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴿٣٥﴾﴾ أى لن ينقصكم، ومنه **الموتور** الذى قتل له قتل ولم ينصفه القانون من قاتله، تقول: **وتَرَهُ، يَتِرَهُ، وَتْراً، وِترةً**، وفى الحديث: «**من فاته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله**» أى ذهب بهما. والسورة حافلة رغم ذلك بالمصطلحات وأوجه البلاغة والبيان، والقرآن لا حصْرَ لوجوه الجمال فيه، ونسأل الله العفو إن قصّرنا، وله الحمد والمنّة.

●●●

٦٢٩. ﴿سورة الفتح﴾

السورة مدنية، وهى **تسع وعشرون** آية، نزلت بعد **سورة الجمعة**، فى الطريق عند الانصراف من **الحديبية**، وكان نزولها **ليلاً** فى **ذى القعدة** من سنة **ست** من الهجرة، وهو **على الراحلة**، وسميت بسورة **الفتح** من استهلالها بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴿١﴾﴾، **والفتح**: هو فتح الحديبية، وكان صلحاً بين الرسول ﷺ والمشركين. وعندما يطلق اسم «**الفتح**» يلتبس **بفتح مكة**، ولكن الفتح فى السورة كان **بيعة الرضوان يوم الحديبية**، وكان المسلمون **ألفا وأربعمائة**، والصُلح من الفتح وإن كان بغير قتال، وبه أصاب المسلمون ما لم يتهيأ لهم بغزوة من الغزوات، فما مضت **سنتان** إلا والمسلمون قد فتحوا مكة فى **عشرة آلاف**. وقيل: إن مكة لم تفتح عنوة، والفتح لا يكون **فتحاً** إلا عنوة، وإذن فالمقصود ليس فتح مكة، وأيضاً فإنه ليس الحديبية؛ لأن الحديبية صلح، والفتح لا يكون صلحاً، وإذن فالمقصود شىء آخر، قيل هو فتح **خيبر**. وقيل إن النبىّ ﷺ لمّا قرأ على الناس بعد الحديبية سورة الفتح، قال عمر: أوَ فتحٌ هو يارسول الله؟! قال: «**نعم، والذى نفسى بيده إنه لفتح**»، يقصد الحديبية.

وسورة الفتح ترتيبها فى المصحف **الثامنة والأربعون**، وفى التنزيل المدنى **الخامسة والعشرون**، وفى التنزيل عامة **الحادية عشرة بعد المائة**. وكان نزول السورة والمسلمون يخالطهم الحزن وتخيّم عليهم الكآبة، فلم يكونوا يرون هذا الصلح كما كان النبىّ ﷺ يراه، فقد صدّهم المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينهم وبين العمرة، وهادنوهم لعشرة أعوام لاحقة، على أن يرجعوا عامهم هذا ثم يأتون من قابل، فأجابهم النبىّ ﷺ إلى ذلك على كُرهٍ من جماعة الصحابة ومنهم **عمر**. ونحر النبىّ ﷺ هديه حيث أُحصر ورجع، واعتبر ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل إليه. وكان قد بعث **عثمان بن عفان** إلى أهل مكة ليبلغ عنه أشراف قريش أنه ما جاء إلا معتمراً، وأنه لا ينوى الحرب. وقَبْل عثمان اعتذر **عمر** عن الذهاب للعداوات بين قريش وبينه،

واحتبست قريش عثمان، وبلغ الرسول ﷺ أنه قُتل، فقال الرسول ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وبايعوه على الموت أو على أن لا يفروا، ولم يتخلف واحد إلا الجد بن قيس. وقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم»، وقال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»، ونزل القرآن فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)** ﴾. والسورة جميعها تتحدث في أمر هذا الصلح الذى كان بداية الفتح الأعظم: فتح مكة، فكان هذا الفتح غاية التمكين في الجزيرة العربية، فقد دخل الناس الإسلام بعد ذلك أفواجاً، وأبلى الرسول ﷺ أحسن البلاء، فكافأه الله تعالى ونزلت عليه الآية: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)** ﴾، **فعلمنا أن الأنبياء قد تجري عليهم الصغائر**، وربما كان ما تقدم من ذنبه قد كان في الجاهلية. وربما كان الذنب يوم بدر أو يوم حنين. فقد كان يدعو يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض أبداً**» فأوحى إليه: من أين تعلم أني لو أُهلكت هذه العصابة لا «أُعبد أبداً»؟! فهذا هو الذنب المتقدم، وأما المتأخر فيوم حنين. فلما انهزم المسلمون قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: **ناولاني كفاً من حصباء الوادي**»، فناولاه، فأخذ بيده ورمى به في وجوه المشركين، وقال: «**شاهت الوجوه حم (حاميم)، لا ينصرون**»؛ فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء، فقال لأصحابه من بعد: «**لو لم أرمهم لم ينهزموا**»، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ (الأنفال ١٧)، فكان هذا هو الذنب المتأخر. وذلك إذن ما أنعم به الله تعالى على نبيه في هذه السورة، فلما ذكر ذلك عنه ﷺ، أتبعه بما أنعم به على المؤمنين، فقال: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)** ﴾، فالمغفرة إذن شملت النبي ﷺ والمؤمنين من أهل بيعة الرضوان، فقد غفر لهم وكفّر عن سيئاتهم. وفي الآيات أن **الإيمان يزداد وينقص**، وأن المؤمنين هم جنود الله في الأرض. وقابلت آيات الإحسان للمؤمنين آيات العذاب للمنافقين والمشركين، ومن هؤلاء كانت منافقات ومشركات، وعرّفهم ـ أي المنافقين والمنافقات ـ بأنهم الظانون بالله ظن السوء، وهؤلاء عليهم دائرة السوء: ظنوا أن النبيّ ﷺ وأصحابه سيلقون حتفهم في هذه الرحلة، أو سيأسرون،

فكيف يلقى النبيّ ﷺ حتفه وهو موعود منذ بداية بعثته بأنه شاهد؟ والشاهد لابد أن يحضر الحدثَ منذ البداية حتى الختام، وهو **شاهد** يشهد عليهم يوم القيامة، **ومُبشّرٌ** لمن يطيع ربّه ورسوله، **ونذيرٌ** لمن يعصاهما. فأما **الطاعة للرسول** فتكون بالإيمان بما يبلغهم به، وتعزيره ـ أي تعظيمه وتوقيره، وأن ينصروه وأن يمنعوه، وفي ذلك طاعة الله تعالى. وليست بيعتهم للرسول إلا لأنهم يبايعون في الحقيقة الله، ولذلك كانت يده تعالى فوق أيديهم: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنة عليهم بالهداية ويده في الهداية فوق أيديهم في الطاعة، وأما من ينكث ويرجع فإن ضرره على نفسه وليس على الله ولا على رسوله.

ومن مصطلحات السورة قوله تعالى: ﴿ **الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ** (١١)﴾، وهو ما أطلقه القرآن على أعراب: غِفار، ومُزَيْنَة، وجُهَيْنَة، وأسْلم، وأشْجَع، والدّيل، وكانوا يسكنون أرباض المدينة، وتخلّفوا عن صُحبة النبيّ ﷺ بأعذار مختلفة، فقالوا: ﴿ **شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**(١١)﴾، وردّ الله عليهم قال: ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا**(١٢)﴾. وفي السورة كثير من المسائل من المستقبل وصدقت جميعاً، وهي **إعجاز قرآني** لا شك فيه، فالإخبار بالفتح والنصر العزيز، وبما سيحدث في خيبر والمغانم فيها؛ واللقاء الموعود مع أولي البأس، والفتوح الأخرى التي فُتحت على المسلمين: كأرض فارس والروم، جميعه من المستقبل. وسورة الفتح تعطي الكثير من الأمل للمسلمين المؤمنين، وتطمئنهم إلى ما سيئول إليه أمرهم، وهي من السور المبشّرات. وفي السورة الثناء على المقاتل المسلم: ﴿**وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ** (٢٢)﴾، ولمّا تسللت إليهم جماعة من المشركين قريباً من جبل التنعيم ببطن مكة، وكانوا نحو ثلاثين، وربما سبعين أو ثمانين، يريدون الإيقاع بالمسلمين قبل عقد الصلح، فطن المسلمون لهم وأخذوهم أسرى، وكان ذلك أثناء مفاوضات الصلح، وأعتقهم النبيّ ﷺ، فهم المسمون «العتقاء»، ومنهم معاوية وأبوه، وذلك معنى ﴿ **كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** (٢٤)﴾، فلما أمكنه منهم وعده بمزيد النصر، ليُدخل الأُنس على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، فقال: ﴿**وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (٢٥) ﴾، وأخبر أن بمكة مسلمين ومسلمات لم يعلنوا عن إسلامهم ويخفونه، ولايعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين، ولولا كراهة أن يوقعوا بهم ويقتلوا منهم دون أن يعلموا، فينالهم من ذلك الإثم والعيب، لكان إذنه تعالى للمسلمين ولرسوله أن يدخلوا مكة. ولو تزيّل هؤلاء عن هؤلاء ـ أي لو

تميّزوا وتفرّقوا وانفصل المؤمنون عن الكافـرين، لعذّب الله الكافرين، ووصفهم بأن قلوبهم مــلأى بحـمية الجاهليـة، وهى من مصطلحات الـقرآن، وتعنى أنفة وغطرسة وعصـبية الجاهلية، وعلى نقيض ذلك كان المؤمنون، فـقد أنزل الله السكينة عليهم، وألزمهم كلمـة التـقوى، وهى مصـطلح قرآني آخـر، قيل: هى كلمة لا إله إلا الله، اختـارها لهم وكانوا الأحق بها، فـصدقت رؤيـا النبيّ ﷺ وكان قد حدّث بهـا أصحابه، فرأى في المنام أنه يدخل مكة وطاف وحلق، فنزلت الآية: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)**﴾، وما كانوا وقتها قد دخلوا مكـة، ولا طافوا، ولا حلقوا، فعجبوا للآية، وقالوا: والله مـا حلقنا ولا قصّـرنا، ولا رأينا البيت، فـأين هى الرؤيا؟ ووقع فى نفوس البعض شيء من ذلك، وكان نزول هذه الآية تـصديقاً للرؤيا وللنبيّ ﷺ. وكان قوله تـعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (٢٨)**﴾ مـن المعجزات، فبـشّرت الآية بأن الإسلام سيعلو على كل الأديان، فمـا يزال يظهر عليها كل يوم، وكان ختام السورة أعظم ختام، وسمّت السورة النبى ﷺ باسمه تكريماً وتعظيماً، ونوّهت بأصحابه الأشداء على الكفار والرحـماء بينهم، وزادت تعريفاً بهم: أنهم لا يُرَوْن إلا راكعـين ساجدين يبتـغون الفضل من الله، وسـيماهم فى وجوههم من أثر السـجود، فذلك مثلهم فى التـوراة، ومثلهم فى الإنجيل: كزرع صَحّ فنبـتت فروعه ونمت وغَلُظت، واستـوى على سوقه وفرح به الـزارعون، ورآه الكفار قوياً فـاغتاظوا، وهو مـثل فى غاية البيان، فالزرع هو الإسلام، والشطء فى الآية هم أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاءً فقووا، ولله الحمد والمنّة.

ومن أحكام هذه السـورة فى الجهاد قـوله تعالى: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ (١٧)**﴾ فإن تخلّف هؤلاء فلا إثم عليـهم. وفى مناسبة هذه السورة أن النبيّ ﷺ لمّا عرف أن كفار قريش سيرسلون إليه خمسـمائة فارس على رأسهم عكرمة بن أبى جهل، استدعى خالد بن الوليد وكان فى صفوف المسلمين، وقال له: «هذا ابن عمك، أتاك فى خمسمائة فارس»؟ فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله! فيومئذ سُمّى خالد بن الوليد «سيف الله».



٦٣٠ ـ ﴿سورة الحجرات﴾

السورة «مدنية»، نزلت بعد المجادلة، وآياتها ثماني عشرة، وترتيبها فى المصحف التاسعـة والأربعون، وفى التنزيل المدنى العشرون، وفى التنزيل عامّة السادسـة بعد المائة،

وموضوعها الأخلاقيات الإسلامية، ومقصودها التربية، ويصفها البعض لذلك بأنها **سورة الأخلاق**، وكان في العرب جفاء وسوء أدب في **مخاطباتهم** مع النبيّ ﷺ، والسورة تنبه إلي ضرورة مراعاة حُسن التوجّه إلى الناس، وهي نقيضة في الخُلق العربي ما تزال محل شكوى، ومن مساوىء السلوك عندهم تصديقهم لكل ما يقال بلا تمحيص، ولا مبالاتهم إذا اقتتلت جماعتان أو دولتان من جماعاتهم أو دولهم، وكان الواجب أن يصلحوا بينهما، وترسّخ السورة معاني **الأخوة في الإسلام**، لقلة معرفة العرب بمضمون أن يكون المسلمون إخوة، وتعيب عليهم أنهم قوم تكثر بينهم السخرية بعضهم من البعض، وسخرية نسائهم من بعضهن البعض، ولمزهم وتنابزهم بالألقاب، وسوء الظن، والغيبة، والتجسّس، وتعالِي بعضهم على بعض، وتسمي السورة ذلك **فسوقاً**، وتعرّف **الإسلام** بأنه الإيمان بالله، وجوهر الإيمان التقوى، ولا فضل لمسلم على مسلم بأصله وفصله، وجنسه وشعبه وقومه، إلا بالتقوى، وإذا كان الإسلام هو النطق بالشهادتين، وأداء الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من وجوه العبادات، فإن الإيمان بالله هو التقوى، وذلك هو الفارق بين الإسلام والإيمان. وتنسب السورة الإسلام إلى **الأعراب** وهم الجدد في الإسلام، ولمّا يدخل الإيمان بعد إلي قلوبهم، **ومظهر هذا الإيمان** هو طاعة الله ورسوله، وباطنه أن لا يخالط الشك إيمانك، وأن تجاهد بالمال والنفيس، فذلك هو **الإيمان الصادق**، وأصحابه هم **المؤمنون حقاً**، وليس الإيمان هو الإعلان من آن لآخر أننا قد آمنا، نريد بإعلاننا أن نَمُنّ على الله بإسلامنا، فالله تعالى هو الأولى أن يَمُن علينا أن هدانا، وهو العالم بحقيقة إيماننا، والبصير بما يعمل الناس.

والسورة أصلٌ في وجوب ترك التعرّض لأقوال النبيّ ﷺ، ووجوب اتباعه والاقتداء به، بشرط أن لا يعارض ما يُنسب إليه من أقوال أو أفعال القرآن، ولا أن يضاد العقل السليم والعلم الصحيح، فكل معقول مشروع، وكل مشروع معقول. ومن مصطلحات السورة: «**التقديم بين يديّ الرسول**». وهو أن لايسبقوه بالجواب إذا عرضت مسألة، ولا يبتدئوا بالأكل إذا حضر الطعام، ولا يمشوا أمامه إذا ذهبوا معه إلى مكان، ونُهوا أن يقاطعوا كلامه، وأن يقضوا أو يقطعوا بأمر دونه، تعظيماً له ولرسالته، وما جاء به ما عند ربّه، **والتقديم** بهذا المعنى من مطالب الآداب العامة، وهو من علم السلوك أو **البروتوكول**، وإن كان ضرورياً مع الغير فهو أكثر ضرورة مع أنبياء الله، ومع نبيّنا ﷺ خاصة، ويتمثّل في **خفض الصوت** فلا يرفعونه على صوته، **ولا يجهروا** له بالقول بمخاطبته بيا محمد، وإنما ينبغي أن يقال له. **يا نبيّ الله، ويارسول الله**؛ **والجهر بالقول**: هو

جُرأة عليه فى الكلام، وقول ما ينبغى بصوت عال لا أدب فيه، وكان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبىّ ﷺ ليقتدى بهم الضَعَفة ويقل احترامهم للنبىّ ﷺ؛ **والإحباط** فى السورة: ﴿**أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** (٢)﴾ من مصطلحات **علم النفس والطب النفسى الإسلاميين، ومنه الإحباط النفسى**: وهو حالة اليأس والقنوط تترتب على إحباط الأعمال أى ذهابها سدًى؛ **وغضّ الصوت**: يعنى خفضه، ويُروى أنه لمّا نزل قوله: ﴿**لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** (١)﴾، وقوله: ﴿**لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول** (٢)﴾ قال له أبو بكر: والله لا أرفع صوتى إلا كصوت السرّار - أى كصوت الذى يسرّ لأخيه بشىء، أو قال: والله لا أكلمك بعد هذا إلا كأخى السرّار. وقيل: إن عمر استفهمه عن كيفيه خفض الصوت، ولماذا يُخفضه؟ فنزلت: ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** (٣)﴾. ومعنى ﴿**امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ أى أخلصها للتقوى، يقال: امتحنتُ الفضة، أى اختبرتها حتى خلصت، وكل شىء نُجهده فقد امتحناه؛ **والحجرات** فى قوله: ﴿**إن الذين يُنادونك من وراء الحُجرات أكثرهم لا يعقلون** (٤)﴾، هى مساكن النبىّ ﷺ ومنازل أزواجه، ومن هذه الآية كان اشتقاق اسم السورة ﴿الحجرات﴾، والآية ذمّ لجفاة الأعراب الذين ما كانوا يتأدّبون فى ندائهم للرسول ﷺ، والحجرات جمع الحُجَر، جمع حُجْرة، فهى جمع الجمع، **وأكثرهم لا يعقلون**: يعنى الغالب عليهم الجهل؛ والآية: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** (٦)﴾ من آيات ما يمكن تسميته **بالإعلام الإسلامى**، وفيها تفرقة بين «الإخبار والإعلام والتبيُّن»: **والأول** هو الجهر بالخبر؛ **والثانى** هو إخبارٌ به عن قصد، لضرورة تجدها: أن يعلم بالخبر آخرون؛ **والثالث** هو أن تستوثق أو تتثبت من الخبر، وأنه لم يُذَع لإعلام يستهدف التمويه أو الوقيعة؛ **والفاسق**: هو الكاذب الذى لا يستحى أن يخبر كذبًا، أو الذى يتحرى الفساد بما يتوخى إعلام الآخرين به، وسمى الخطأ الذى يمكن أن يحدثه الخبر الكاذب والإعلام المغلوط دون قصد «**جهالة**»، أى عدم دراية بالحقيقة، **والكُفر والفسوق والعصيان**: ثلاثة مصطلحات من المصطلحات التى ينفرد بها القرآن، **والكفر**: هو جحد نعمَ الله وإنكار وجوده، **وأصل الكُفر** أن يُستر الشىء ويُغطى، تقول كفر الشىء بثوبه، أى غطّاه؛ **وكفر بالخالق** أى نفاه وعطّله. والكُفر ضد الإيمان، وضد الشُكر. **والفسوق**: هو الخروج عن الطاعة، مشتق من قولهم **فَسَقت الرُّطَبَة** يعنى خرجت من قشرتها؛ **وفسقت الفأرة** أى خرجت من جُحرها؛ **والعصيان**: هو إتيان المعاصى؛ والكفر أشد الثلاثة، ثم **الفسوق**، ثم **العصيان**؛ والآية:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...(٩)﴾ هى أصل الدعوة لتأسيس «محكمة عدل إسلامية»، مهمتها دعوة المختصمين من المسلمين إلى كتاب الله، فإن بغت إحداهما وتطاولت وأفسدت، فالمحكمة تدعو المسلمين كجماعة وأمة أن يحاربوا الفئة الباغية، أى يعادوها بما يسمى «العقوبات الذكية» كالمقاطعة الاقتصادية والثقافية مثلاً، إلى أن تفىء إلى أمر الله، وربما يحتاج الأمر إلى «قوات دولية إسلامية للفصل بين المتحاربين»، وهو مقتضى الآية. وفى الآية دليل على وجوب معاداة الفئة الباغية المعلوم بغيها بعد استنفاد كافة الطرق للصلح بين الفئتين، وردّ الحقوق إلى أصحابها؛ وفيها أيضاً فساد قول من طالب بمنع اشتراك القوات المصرية والسورية فى عمليات تحرير الكويت، احتجاجاً بالحديث: «قتال المؤمن كفر»، وهو كفر حقيقةً ولكن فى حق الباغى، والصدّيق قاتل من تمسّك بالإسلام ولكنه منع الزكاة، واستندت الفرق الإسلامية المتنازعة إلى هذه الآية بدعوى كل منها أن الأخرى هى الباغية، ومن ذلك الحديث الموضوع: «تقتل عماراً الفئة الباغية». وإلى هذه الآية استند علىّ بن أبى طالب فى حربه فى موقعة الجمل مع جماعة عائشة التى تطالب بالصلح بين المسلمين، وإليها استند فى حربه مع الخوارج، ومع معاوية، واستند إليها العلويون فى حربهم ضد الأمويين والعباسيين، و«يزيد» فى قتله للحسين، وهو ما دفع علىّ أن يقول قولته: «إن القرآن حمّال أوجه»، يعنى أن هؤلاء وأولئك يمكن أن يستند كل منهما إلى القرآن فى تعزيز وجهه نظره. وقتال الفئة الباغية فرضٌ على الكفاية، وإذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (١٠) أصلٌ من أصول الاجتماع الإسلامى، والمسلم أخو المسلم فى الدين والحرمة لا فى النسب، ولهذا قيل: أخوّة الدين أثبت من إخوة النسب. وفى الحديث: «ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخواناً» أخرجه البخارى. وفيه أيضاً: «المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يحقره»، وفيه: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضُه» أخرجه مسلم. وفى تفسير «بَغْى المسلم على المسلم»، أن علياً سُئل عن قتال «أهل البغى» من أهل الجَمَل وصفّين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشِّرك فرّوا. فقيل له: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. وقيل له: ما حالهم؟ قال: «إخواننا بغوا علينا». وهذه العبارة الأخيرة ينبغى أن تكون قاعدة من قواعد التعامل بين المسلمين، أفراداً ودولاً. والسخرية فى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾ هى

الاستهزاء؛ **واللمز**: يكون استهزاء باليد أو العين، أو اللسان، أو الإشارة؛ **والهمز**: لا يكون إلا باللسان؛ **والنّبز**: يقال: نبزه ينبزه أى لقّبه، والمقصود التلقيب بألقاب السوء وليس بالألقاب الحسنة، ولقب الصدّيق لأبى بكر ما يزال مستعملاً لأنه حسن؛ **والظن** فى الآية: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ** (١٢)﴾. هو التهمة، وفى الحديث: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»، والظن المنهى عنه هو الظن الكثير، وبعضه إثم، ويسمى أيضاً «ظن السوء»؛ وفى زماننا ظُن فى الناس ما شئت؛ **والتجسّس**: طلب الاطلاع على الأسرار، والبحث عنها، واتِّباع العورات؛ **والتحسّس** مثل التجسّس، وهو تلمُّس الأخبار والأشهر التجسّس؛ **والغيبة**: أن تذكر الناس بما فيهم من عيوب، فإن ذكرتهم بما ليس فيهم فهو **البهتان**، والآية: ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ (١٢) مَثَلٌ، فيه تشبيه الوقيعة بين الناس بأكل لحومهم. **والغيبة** تكون فى الدين، وفى الخُلق، وفى الخِلْقة، وفى الحَسب، وليس من ذلك **غيبة الفاسق** الذى يجهر بفسقه، ومن يلقى عنه لباس الحياء فلا غيبة له، وفي الحديث: «**اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس**». **وصاحب الهوى** لا غيبة له، **والحاكم الجائر**. **والنقد الفنى والأدبى، والتحقيق العلمى**، ليسا غيبة، **والشكوى** من ظلم الظالم ليس غيبة، **والتذكير** بِشُحّ الغنى، **وسرقة الرأسمالى** لحقوق عماله، **وجور القوانين** ومَن استنّها، **والطعن فى الاستفتاءات الشكلية** وفى الانتخابات المزورة ليس غيبة؛ وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾(١٣) أصلٌ من أصول علم **الاجتماع الإسلامى**، وهى **أعظم** آية تنهى عن **الاستعلاء الطبقى، والازدراء بالفقراء، والاستكبار العرقى**، وتردّ كل الشعوب إلى آدم، فلا يصبح هناك معنى للتفاخر بالأنساب، ويكون على الناس جميعاً أن تعتنى بأوطانها، **والوطنية** بخلاف الشعوبية، لأن الوطنية هى **حب الوطن**، وأما **الشعوبية فهى نزعة عنصرية** تقول بتفوق عنصر ما تفوقاً ليس له ما يبرره، وبدعوى أن الجنس **الأبيض** مثلاً هو سيد الأجناس، أو أن الجنس **الآرى** هو أعلى الأجناس، أو أن الفُرس أفضل من العرب، وأن **اليهود** شعب الله المختار دون سائر الشعوب، أو أن **النصارى هم أولاد الله**، أو أن **الشعوب السامية هى أرقى الشعوب**. وفى الآية أن أكرم الشعوب عند الله أتقاهم، وأن الأفضلية للتقوى وليس للأعراق، وفى خطبة النبىّ ﷺ **بمنى** فى أيام التشريق، قال وهو على البعير: «**يا أيها الناس، ألا أن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمىّ، ولا لعجمى على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى ـ ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: «**ليبلّغ الشاهد الغائب**». رواه البيهقى وابن مردويه. وفى الحديث: «إن

الله لا ينظر إلى أحسابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم،ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم». ومن أقوال عليّ بن أبي طالب في ذلك:

الناس من وجهة التمثيل أكفاء ∴ أبوهم آدم والأم حوّاء

نفسٌ لنفس وأرواحٌ مشاكله ∴ وأعْظُمٌ خُلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من أصلهم حسبٌ ∴ يفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ∴ على الهُدَى لمن استهدى أدلاء

وقَدْرُ كل امرئ ما كان يحسنه ∴ وللرجال على الأفعال سيماء

وضِدُّ كل امرئي ما كان يجهله ∴ والجاهلون لأهل العلم أعداء

وإذا كانت **الوطنية** أعلى من **الشعوبية**، فهي أعلى من **العولمة**، ولاتلغيها العولمة، فحتى أمريكا وفرنسا وبريطانيا ودول أوربا جميعاً وروسيا، لم تقل دولة منها **بإلغاء الوطنية أو القومية في مقابل العولمة**، وهذا هو ما ينصرف إليه معنى الآية، فالله خلقنا شعوباً وقبائل وعائلات وأُسَرٍ، وأنساباً وأصهاراً، لنتعارف ونتواصل، للحكمة التى قدّرها وهو أعلم بها، فصار حتماً أن يكون لكل أحد نَسَب، فإذا نفاه أحدٌ عن أحد، أو سبّه بعائلته أو بوطنه، استوجب المساءلة وحدّ القذف، مثلما يفعل الإسرائيليون وهم يتكلمون عن العرب، فيقولون بإشمئزاز وتقزُّز «**يا عربي**»، وكأن العربية بالعرب سُبّة، فما لهذا خُلق الناس أعراقاً، ولا ليتعالوا على بعضهم البعض، وإنما خلقوا للتعايش، والتساكن، والتعارف، والتثاقف، ولتبادل التجارة والفنون والآداب، وليعتز كل شعب بخصائصه، ليعرفها عنه الآخرون ويحترموها فيه، وهكذا فى الأديان، فمع أن معناها ومؤداها جميعاً واحد، إلا أن **لكل مجموعة لغوية ديانتها** وأنبياءها وكتابها، والواجب أن نطالع ذلك عنها ونعرف أسبابه ومراميه عندها، وهو مضمون اصطلاح الحضارة. **والقرآن بدعوته هذه من أعظم الكُتب إنسانيةً وحضارةً وتقدّماً. ونظرية القرآن التى تطرحها هذه الآية، وتفسّرها السُّنَّة، ينفرد بها الإسلام صريحة وواضحة كل الوضوح، ومثلها «نظرية الوعد» عند اليهود والنصارى**، إلا أن الوعد عند **اليهود** يقتصر عليهم من الله، بزعم أنه اصطفاهم شعباً مختاراً له، وبدعوى أنهم الصفوة المرشحة لحُكم العالم؛ وأمّا **النصارى** فقد ادّعوا أنهم أولاد الله وأحباؤه، والصفوة من عباده، اختصّوه بالعبادة فاختصّهم بالجنّة. وهؤلاء وهؤلاء فى زعمهم قد وعدهم الله الخلاص وحدهم، وزاد اليهود فقالوا أن وَعْدَه لهم خالصٌ حتى

إن لم يتّقوه،وهو وعدٌ أبديّ لا يُنقض أبداً (التكوين ١٣/ ١٥ ـ ١٥/ ٧ ـ ١٧/ ٦ ـ ٧ ـ ٨)، وحفظ العهد عندهم ليس بالتقوى ولكنه بالختان!! فهو علامة اللّه يميزّهم بها!! وعند النصارى فسّر بولس الموعد أو العهد، بأنه والإيمان به يجعل النصراني بالتبعية من أبناء الله.

والخلاصة: أنه شتّان بين نظرية تخالف الحضارات وتنوّع الأجناس في القرآن وفي التوراة والإنجيل، وأن رُقيّ هذه النظرية في القرآن عنها في الكتابين الآخرين، لدليل على أن القرآنٌ من لَدُن اللّه، وأن محمداً ﷺ هو رسوله، والحمد للّه أولاً وأخيراً على نعمة الإسلام ونعمة القرآن.

●●●

٦٣١. ﴿سورة ق﴾

السورة مكية، إلا الآية ٣٨ التي تقول: **﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب (٣٨)﴾**، فقد نزلت في **يهود** المدينة، وكانوا يقولون إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها **يوم الأحد**، وآخرها **يوم الجمعة**، واستراح يوم السبت! فجعلوا يوم السبت هو يوم **سبوتهم** أي راحتهم، والاعتراض في آية القرآن على استراحة الله يوم السبت، فهل الله يتعب حتى يرتاح؟! فنزلت الآية تصحّح ذلك ـ **واللغوب** هو التعب والإعياء. وعدد آيات سورة ق **خمس وأربعون** آية، وترتيبها في المصحف **الخمسون**، وفي التنزيل **الرابعة والثلاثون**. وموضوعها كغيرها من السور المكية: البعث والنشور، والتوحيد، والرسالة، وأصول العقيدة، وتحفل بالكثير من وجوه البيان والبديع، وأسلوبها فيه السموق، ويتميز بموسيقى خاصة، ولها وقع شديد على الحسّ، وألفاظها لها رجع رهيب، والمعاني التي تطرحها تثير الخوف بما فيها من الترهيب، وتستثير الرجاء بما تسوقه من الترغيب. والحديث فيها منذ البداية عن الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء، **والبعث** هو القضية الخلافية الكبرى بين القرآن والكفار، وأن يكون الرسول إليهم منذرٌ منهم، فهذا شيء عجيب. والسورة تستحثهم إلى الإيمان، وتحاول أن تلفتهم إلى ما في الكون من آيات تثبت أن الذي قدر على أن يخلق كل هذه المخلوقات والكائنات أول مرة، يقدر على أن يبعثها بعد موات، ويحييها بعد فناء. وتضرب السورة المثل بالأمم السابقة الذين كذّبوا الرسُل فأخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر، وتحذّر **أهل مكة** من نفس المصير، ومن يوم الحساب العتيد، فإذا جاء الموت فله سكرات، وعند الحشر تحدث الأهوال، فإذا كان الحساب فحدّث كيفما تشاء عمّا يلاقي الناس فيه من شدائد وكوارث، فإذا كانت الإدانة فالجحيم هو النهاية، وتستعيد الصورة مشاهد يوم القيامة، ونداء المنادي،

وصيحة الخروج من القبور، وتشقّق الأرض عن الموتى، وتخبر السورة بأن الله تعالى يعلم ما يقول الكفّار تكذيباً للنبيّ ﷺ، واستهزاءً وتحقيراً بالقرآن، ويُطمئن الرسول ﷺ بأنه ليس إلا مبشراً ونذيراً، ولم يبعثه الله متسلطاً ولا مصيطراً يجبر الناس على الإسلام، ويغصبهم على الإيمان، وإنما عمله أن يذكّر بالقرآن من يخاف الله ووعيده، ولا عليه من هداهم.

و﴿ق﴾ التى تبدأ بها السورة، من الحروف المقطّعة التى فى بداية بعض سور القرآن، مثل: ﴿ص﴾، و﴿ن﴾، و﴿الم﴾، ونحو ذلك، وحاول البعض أن يوجد لها معنى، فقيل إن ق جبل، واشتهر جبل ق فى الأدب الشعبى الإسلامى، ودارت حوله حكايات. وقيل **ق** تعنى **قُضي الأمر**، مثل **حم** التى تعنى **حمّ الأمر**. وقيل: **ق** اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به، أو أنه اسمٌ من أسماء القرآن، أو أنه إشارة إلى بعض صفاته تعالى التى تبدأ بالحرف **ق** مثل **قدير، وقاهر، وقريب، وقاض، وقابض**، وكل ذلك اجتهادات وتخمينات، والصحيح أنها إشارة إلى حروف الهجاء التى تصنع الكلمات التى كانت منها آيات القرآن، وهذه الحروف من آيات الله، مثلما العناصر التى خلقت منها الشمس والقمر والنجوم... إلخ من آياته الكونية، **وحروف الهجاء** هى آياته التى ترمز **للقراءة والكتابة**، وهما أعظم آياته للإنسان، لأنهما أساس اللغات، وبهما كانت الثقافات، وصُنعت الحضارات. والقرآن كتابٌ فيه من كل علم، ومصنوعٌ من حروف الهجاء، وهو كتابٌ للحضارة والرقى والتمدُّن. وسورة **ق** من السور العظيمة فى القرآن وتتميز بالعنصر الحضارى اللغوى، ولذا كان التنبيه لذلك بهذه البداية من حروف الهجاء، وجاء مباشرة بعد الحرف ق **القَسَم بالقرآن المجيد، أو أن القسم بهما معاً ـ الحرف ق والقرآن، لأن الحرف** وِحْدة بناء القرآن الذى **هو** صرحٌ منيف، وصفه تعالى **بأنه مجيد، يعني** رفيع القدر. **وجواب القسم**: هو مضمون الكلام بعده، وهو إثبات النبوة للنبيّ ﷺ، وإثبات المعاد. وفى السورة أنهم يتعجبون مما يقوله النبيّ ﷺ مما لم يعتادوه، وتنكر السورة **تعجُّبهم** مما ليس بعجب. وفى السورة القصص عن السابقين: **أصحاب الرس**: أى البئر؛ **وأصحاب الأيكة**: أى البستان الكثيف؛ **وقوم تُبّع اليمانى**، يُسلَّى بها النبيّ ﷺ، ويُسرَّى عنه، ويُنذَر بها الكفرة.

ومن **مصطلحات السورة**: «**الوسوسة**»، والقرآن يجعلها من **أحاديث النفس** كما يجىء عنها فى علم **النفس الغربى**، وهى بمثابة الكلام الخفى؛ و«**المتلقيان عن اليمين وعن الشمال**»: هما المَلَكان المفوّضان بالإنسان، أحدهما عن اليمين ويكتب الحسنات، والآخر عن الشمال، ويكتب السيئات؛ و«**القرين**»: هو الشيطان المقيّض لكل إنسان؛ و«**الرقيب العتيد**»:

هو المصاحب للإنسان يرقب كل قول منه، وهو عتيد يعنى متهيأ لعمله؛ و«**يوم الوعيد**»: الذى وعده الله للكفّار؛ و«**السائق والشهيد**»: **فالسائق** يسوق النفس، **والشهيد** يشهد عليها؛ وقيل السائق هو المَلَك، والشهيد من أعضاء الجسم كالأيدى والأرجل؛ وقيل السائق والشهيد ملَكَان، أحدهما يسوقها، والآخر يشهد عليها؛ و«**الأوّاب الحفيظ**»: هو الرجّاع إلى الله عن المعاصى، فكلما أذنب يرجع عن ذنبه؛ «**والقلب المنيب**»: هو المقبل على الطاعة أو المخلص لله، وعلامته أن يعرف حرمته تعالى ويواليه، ويتواضع لجلاله؛ و«**يوم الخلود**»: هو يوم أن يخلد المؤمنون فى الجنة، فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون، ولا يبغون عنها حولاً؛ و«**التسبيح**»: هو قول: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم**»، وأوقاته: قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، ومن الليل، **وأدبار السجود** ـ يضيف إليها فى سورة الذاريات: **وإدبار النجوم**. ،أى عقب الركعتين بعد المغرب؛ و«**الصيحة**»: هى صيحة القيامة أو البعث؛ و«**يوم الخروج**»: هو يوم الخروج من القبور للحساب.

ومن مأثورات السورة قوله تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ⟨١٦⟩﴾، والوريد هو الوتين بالقلب، وهذا تمثيل للقُرب؛ وقوله: ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ** ⟨١٩⟩﴾، والسكرة شدّة الموت وغشيته، وكان الرسول ﷺ فى موته يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**»، ويقال لمن جاءته سكرة الموت، ذلك ما كنتَ تفر منه وتميل عنه؛ وقوله: ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ** ﴾ (٢٢) يعنى كشفنا عنك عماك، وهو تمثيل يقال للغافل؛ ﴿**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ⟨٢٢⟩﴾ تمثيلٌ يراد به **بصر العقل**، فيبصر شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، أو يراد به **بصر العين**، أى صار قوياً نافذاً؛ وقوله: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ⟨٣٠⟩﴾ تمثيلٌ واستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لعباده؛ وقوله: ﴿ **هَلْ مِن مَّحِيصٍ** ⟨٣٦⟩﴾: يعنى هل من مهرب، تقول: «**ما عنه محيص**»، أى ما عنه محيد ومهرب؛ وقوله: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ** ﴾(٣٧): تذكرة وموعظة.

ومن أخبار خلق السموات والأرض فى هذه السورة قوله: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ⟨٣٨⟩﴾. ومن براهين وجود الله فيها قوله: ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ⟨١٥⟩﴾، والسؤال للتوبيخ، والمعنى أنه تعالى لم يدركه الإعياء بالخلق الأول، فهل يدركه الإعياء بالبعث؟ يعنى هو القادر على الخلق وعلى البعث، لأنه الواحد سبحانه مالك السموات والأرض.

●●●

٦٣٢. ﴿سورة الذاريات﴾

السورة مكية، وآياتها ستون، ونزلت بعد **الأحقاف**، وترتيبها فى المصحف **الواحدة والخمسون**، وفى الترتيب **السابعة والستون**، واسمها **الذاريات** من قوله تعالى في مستهلها: ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④**﴾ يقسم بآية من آياته كالشأن في السور المكية، وهي هذه المرة الرياح، لها أحوال أربعة مختلفة، وإذا أقسم الربّ بشيء أثبت له شرفاً: فالرياح تكون ذاريات: لأنها تذروا الأمطار ذرواً. فصارت ذاريات؛ وتكون حاملات **الأوقار**، والمفرد **وِقر**، يعنى تحمل أنصبة كل بلد أثقالاً من الأمطار؛ وتكون **جاريات يسراً**: تجرى رخاء، ويسمونها **الرياح التجارية**، لأنها تسيّر المراكب إلى حيث تقصد؛ وتكون **مقسِّمات**، فمنها **العاصف، والطيبة، والقاصف، والرواكد، والرخاء، والممطرة، والعقيم، والصرصر العاتية، واللواقح، والمبشّرات**. **وجواب القسم**: أن الذى يعدكم به هذا القرآن من البعث والنشر والحساب والعقاب لأمرٌ واقعٌ. وكما أقسم اللّه تعالى بالريح فإنه يقسم بالسماء ويصفها أروع وصف أنها «**ذات الحُبُك**»، يعنى محبوكة البناء، متناسقة، مرفوعة، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشّحة بالكواكب الزاهرات. ثم يتوجه بالقسم إلى المنكرين فيقول: ﴿**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ⑨ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩**﴾، يقصد بهم **أهل مكة الذين اختلفوا** فى أمر محمد والقرآن، وهم بين مصدق ومكذّب، فمن قائل بأنه ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو كاهن، أو أن هذا القرآن ليس سوى أساطير الأولين، أو أنه افتراه، ومنهم من نفى الحشر، ومن شكّ فيه، ولا يؤفك ويُصرف عن الإيمان إلا الضالون الغُمور المأفونون الذين لا أفهام لهم، وإنهم لخرّاصون كذّابون، ساهون غافلون فى غمرتهم ولهوهم، ولقد تساءلوا عجباً واستهزاء عن يوم الدين، فجزاؤهم جهنم يُفتنون عليها ويُعذّبون. ثم تتحدث السورة عن المتّقين وهم المؤمنون، وما أُعد لهم فى الآخرة من النعيم والكرامة، لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين، فبعد أن ذكر اللّه تعالى الكفار ومآلهم فى الجزء السابق، ذكر المتقين ومآلهم فى هذا الجزء، على **طريقة القرآن الجدلية** فى الترحيب والترغيب، وإيراد المتقابلات، لتتضح المقارنة وتقع المفاضلة ويتم الاختيار. ثم تنتقل السورة إلى ما يقوّى فى الناس اختيار الإيمان، بإيراد الدلائل على وجود الله، وعلى قدرته المطلقة، كقوله تعالى: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ⑳ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ㉑**﴾، والأرض فى مختلف بقاعها حافلة بالآيات والعبر، وفى خلق الناس من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم آيات وآيات، وفى أرزاق كل إنسان، وكيف كانت الأرزاق

مطراً، ثم زرعاً، وحصاداً وتجارة، وفي ذلك جميعه براهين على أنه لا خالق ولا رازق ولا عليم ولا حكيم إلا هو. ولقد أقسم تعالى بآياته في السماء والأرض بأن البعث والحساب حق وواقع فقال: ﴿**مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** (٢٣)﴾، خصّ النطق دون سائر الحواس، لأن الإنسان يكون به إنساناً، وفي التعريف أن **الإنسان حيوان ناطق**، والمعنى أنه حيوان عاقل، ومن يعقل، ولا يشكو الأفن، وليس به الحُمق، فهو الذى يقر بوجود الله. ثم يكون دور التسلية للرسول ﷺ والمؤمنين، **بالقصص القرآني**، فيه عظة وعبرة، وبشارة ونذارة، ومدارُه الأمم السابقة، وكيف انتهى أمرها لمّا كفرت بربّها وأمعنت في غيّها، فلما أفسدوا خَلَف عليهم ملوكٌ من طبعهم، فكانوا طغاةً ساموهم العذاب، وعرضت السورة مشاهد ولقطات من **قصص إبراهيم مع ضيفه**، وحديثهم معه عن **قوم لوط**، وما فعلوه بهم جزاء جُرمهم، وأطرافاً من **قصة موسى مع فرعون**، وقصص العقاب **لقوم عاد، وثمود، ونوح**. والقصص القرآني تتناوله مختلف السور، ولكنه ليس تكراراً، وإنما **من وجوه شتى** بحسب الدروس المرتجاة والفوائد المنتقاة. وخلاصتها في جميع السور التنبيه إلى قدرة العليّ المتعال، والآيات عليها أوضح وأجلى ما تكون: إنها السماء التى رفعها بقوة، وخلق غيرها أكبر وأوسع وأبدع، وإنه تعالى لموسع ويقدر على كل شيء؛ والأرض المبسوطة وهو تعالى نعم الماهد؛ وخلق من كل شيء زوجين، فلا أقل من أن يدينوا له بالشكر، وأن يفروا إليه من معاصيهم إلى طاعته، وأن يوّحدوه، ويصدّقوا رسالة نبيّه، ويتوقفوا عن اتهامه مرة بالسحر ومرة بالجنون، وهو دأبهم مع كل الأنبياء، فلا لوم ولا تثريب على النبيّ ﷺ ،والقصص يُسرّى بها عنه ويُسلّي المؤمنين، وليُكمل بها الرسول ﷺ رسالته، ويذكّر عن طريقها المتفكّرون، فالذكرى تنفع المؤمنين. وتختتم السورة ببيان أنه تعالى لم يخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، ولكي يعبدوه لابد أن يعرفوه، والطريق إلى معرفته بمعرفة أسبابه في الكون، فكأن **غاية المعرفة هي العبادة**، وفقهُ ذلك أن العلم ما لم يؤدِ بصاحبه إلى الإيمان فهو علمٌ عقيم. وما كانت عبادتهم له تعالى من غير معرفة به، ولا يحتاج لمثلها، ولكنه يريد الشكر والعرفان من الإنسان والجان على كريم ما أسدى ورزق، وتنتهي السورة بوعيد للظالمين والكافرين.

والسورة - كما ترى - حافلة ورائعة، وأفكارها متراتبة، وتكثر بها **المصطلحات القرآنية**، منها: «الخرّاصون»: وهم الكذّابون المرتابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون، **والخرّاصون** جمع خارص، **والخَرْص** هو الكذب، والخرّاص هو الكذّاب. وتقول السورة عن الخراصين: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ** (١٠)﴾ يعنى لُعنوا؛ **والمتقون**: يأتى فى وصفهم أنهم محسنون لا يهجعون إلا القليل من الليل، ويستغفرون بالأسحار، وفي أموالهم حق

للسائل والمحروم؛ و«السائل»: هو الذى يسأل الناس النفقه؛ وقد يسأل فى علم، وعن عمر قال لسائل فى العلم: ويلك، سَلْ تفقهاً ولا تسأل تعنتاً؛ و«المحروم»: هو الذى حُرم المال، وهو المحارف الذي لا يتيسر له الكسب، ومعنى محارف المحدود الرزق، تقول حورف كسب فلان إذا شُدّد وضيِّق عليه فى معاشه.

وفى السورة كثير من الأمثال والصور البلاغية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨)﴾، وهو مثلٌ يقال للمختلفين غير المتفقين فى أمر شيء؛ وقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)﴾ يقال لمن قلّ عقله وكثر حُمقه، فصار لا يُصدِّق أى شيء؛وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾، ونظيره قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود ٦)، يعنى الرزق مكتوب لكل مخلوق، وهو فى السماء يعنى في أم الكتاب، وما توعدون من الخير والشر، والجنة والنار، والثواب والعقاب؛وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ (٢٤)﴾ من أساليب القرآن التى تتكرر فيه، كقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ﴾ (ص ٢١)، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩)﴾ (طه)، والسؤال للتشويق والتفخيم؛وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ (٣٩) أوى إلى من يعاضده وهم جماعته، كقوله: ﴿آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾ (هود)؛ ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣)﴾ مثلٌ يقال وعيداً وتحذيراً؛وقوله: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ يقوله الصانع البارع القادر على الكمال؛ وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (٤٩) فيه إعجاز علمى لأنه قانون الوجود، سواء فى الجماد، أو النبات، أو الحيوان، أو الطير، أو الإنسان، أو الهوام والحشرات، وفى العناصر هناك السالب والموجب كزوجين، وحتى فى الخناث فإن فى الكائن الواحد الذكورة والأنوثة حاصلة، وفى السحاب تكون بعض الأيونات موجبة وبعضها سالبة وهكذا، فإن الزوجية تبدو فى الكون كأساس للخلق والإبداع والاجتماع؛ والحمد لله رب العالمين.

●●●

٦٣٣. ﴿سورة الطور﴾

السورة مكية، وآياتها تسع وأربعون آية، نزلت بعد سورة «السجدة»، وترتيبها فى المصحف الثانية والخمسون، وفى التنزيل السادسة والسبعون. والطور الذى تبدأ به السورة هو اسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى، والمراد به طور سيناء؛ وليس صحيحاً أن اسم «الطور» سريانى؛ والذين قالوا بذلك نسبوا سيناء إلى الشام وليس إلى مصر!! وكان الأقرب أن يقال أن الاسم مصرى قديم، وقيل إن كلمة «الطور» تعنى الجبل وليست اسماً للجبل، وأنها بهذا المعنى فى القرآن فى عشر آيات، وثمانى سور، والذين يقولون إنها ليست كلمة

عربية يعتمدون في ذلك على أنها لا تنصرف. وقيل: الفرق بين **الطور والجبل**: أن **الطور** به **شجر**، **والجبل** يخلو منه، اعتماداً على الآية: ﴿ **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ** ﴾ (المؤمنون ٢٠)؛ والذين قالوا إن الطور كلمة **سريانية**، اعتمدوا على أن **بمدين** جبل يسمى **طور زيتا**، **ومدين** بالشام، وإذن تكون الكلمة سريانية. والصحيح أن **مدين بمصر** على ساحل البحر الأحمر وليست بالشام، وأن قبيلة **مدين** من القبائل العربية، وأهلها هو **قوم شعيب**، وشعيب نبيّ عربي. وهذه الأقوال في نسبة **الطور** وسيناء **إلى الشام** يُراد بها في الحقيقة أنهما من **فلسطين**، ويصبحان على ذلك من **إسرائيل**، ويحق سلخهما من مصر، فهل نفهم ذلك؟

وسورة **الطور** ـ ككثير غيرها من السور المكية ـ تبدأ **بالقسم**، وهو في هذه المرة قسمٌ **بخمسة** أشياء معجزة، ولها مكانتها عند **الله** تعالى، وهي: **الطور**: وشرفُه أنه المكان الذي كلم الله فيه موسى؛ **والقرآن**: لأنه كلام الله إلى نبيّه ﷺ؛ **والبيت المعمور**: قيل هو بيت في السماء يقابل **الكعبة** على الأرض، والصحيح أنه **الكعبة**، معمورةٌ بالمصلين والمؤمنين إلى أبد الآبدين؛ **والسقف المرفوع**: هو السماء لأنه تعالى قال: ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)** ﴾(الأنبياء)؛ **والبحر المسجور**: من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)** ﴾ (التكوير) وهو معجزة، فأن يكون بحراً ومع ذلك تشتعل فيه النيران وتتفجر منه الحمم، فذلك شيء يومئذ عجيب! وقيل: **الكتاب** المُقْسَم به، والذي صفتُه أنه **مسطور ومنشور في الرقاق**، هو أي **كتاب سماوي**، ومعنى أنه **مسطور** يعني مكتوباً، ثم إنه ليس كتاباً محفوظاً في حِرْز كأم **الكتاب**، وإنما هو **منشور** يقرأه الناس، **ومسطورٌ** على رقاق، والرقاق من أشياء الدنيا، ومن ثم **فالقسم يكون قسماً بكتاب من كُتب السماء المنزلة إلى الدنيا**، غير أن هذا القرآن الذي منه هذه السورة المعنية، مخاطبٌ به أهل الإسلام، فلا يكون هذا الكتاب إلا **القرآن** الذي يخصهم ويعنيهم. **وجواب القَسَم**: ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨)** ﴾، وهما آيتان من أشد الآيات وقعاً على النفس، وتصدّعان القلب، وتسلمان إلى الخوف الشديد، وفي **ذلك** يقول **جبير بن مطعم**: لمّا سمعت النبيّ ﷺ يقرأ «**الطور**» في صلاة المغرب، أسلمتُ خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب!

وتتناول سورة الطور **موعد وأشراط وعلامات الساعة**: **فذلك** يوم تمور السماء موراً: فتضطرب اضطراباً، ويموج بعضها في بعض كموج البحر؛ ويوم تُسيّر الجبال سيراً كسير السحاب: ﴿ **تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ﴾ (النمل ٨٨)، فيومئذ الويل **للمكذّبين**،

الذين جحدوا الدعوة، وكذّبوا النبىّ ﷺ ، وكفـروا بالله، وخاضوا في القرآن يستهزئون بآياته. فيوم القيامـة يصلون الجحيم، ويُذهلون مما يرون، وقولهم: ﴿ **أفسحرٌ هذا (١٥)** ﴾ تذكيـر لهم بما كـانوا يتقوّلـونه على القرآن، وعلى النبىّ ﷺ . فـاليوم يقـال لهم نفس الشيء: ﴿ **أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون (١٥)** ﴾، وهى طريقة فى الاستفهامٌ، ومعناه التوبيخ والتقريع، يوبّخهم على مـا كان منهم، ويتهمهم بأنهم ما كـانوا يبصرون ولا يعقلون وهم فى الدنيا. وتقابل السورة بين عذاب هؤلاء المكذّبين وهناء المتّقين، **ومنهج المقابلة** هو منهج القرآن، **والمنطق الجـدلى** هو طريقته فى الحوار، والمؤمنون، لأنهم آمنوا، فهم على عكس الذين كذبوا، فى جنات النعيم، فاكهين، مُنـعَمين، على السرر متقابلين، ولهم أزواج من الحور العين، ويلحق بهم ذريتهم ممن اتبعوهم؛ وتتعـدد مشاهد النعيم الحسّية والمعنوية من المأكل والمشرب، والهناءة والسرور والطمأنينة والسكينـة؛ وهم فى الجنة يتعبّدون ويذكرون الله ويشكرون، ولا لغـو فى الجنة ولا تأثيم، وإنها لحـياةٌ تجعلهم فى عـجب، فمـا كانوا يصـدّقون وهم فى الدنيـا، أن يكونوا فى هذا النعيم فى الآخـرة، وكانوا يـشفقـون على أنفسهم من يوم القيامة، وها هم اليوم قد وُقوا عذاب **السموم**، أى النار، واستجاب الله لدعواهم، وكان بهم براً رحيـماً. وتخلص السورة من المقارنة إلى أن دور النبىّ ﷺ هو أن يذكّر بالقـرآن، بمثل هذه السور والآيات، ومنهـا سورة الطور، وكـان كثيـراً ما يصلى بالناس يقرأها عليهم. وتنفى السـورة عنه اتهاماتهم له بأنه **كـاهن** يؤلف الكلام تأليـفاً فى الدين والآخرة والحساب، كـشأن الكُهّان، ولا هو **مـجنون** يهذى كشـأن المجانين، ولا هو **شاعر** يوهم الناس بالكلام والأحلام. وكانوا يمنون أنفسهم أنه ربما يموت فيريحهم موته، فقيل لهم انتظروا أن يموت كما تشاءون! وكانوا يفخرون أنهم من أولى الألباب وأصحاب الأحلام، فسـخرت منهم السورة: أفهذا إذن مـا تأمركم به أحلامكم؟ أم أنتم فى حقـيقة الأمر لا عقول لكم ولا أحلام، فطاش صوابكم وطغوتم؟ أم أنكم تفترون عليه، وتنسبون له أنه يفتعل هذا القـرآن ويتقوّله؟ وتتحداهم السورة إن كان من المـمكن أن يتقوّل الإنسان مثل هذا القرآن، فليتقوّلوا هم مثله؟! وعدّدت السورة كل أنواع البهتان التى رموا بها النبىّ ﷺ والقرآن، وما يزال هذا حتى الآن دأب هؤلاء المكذّبين والجـاحدين، وعَهْدُنا قريبٌ بتقوّلات روايات وزارة الثقـافة المصرية، والجامعة الأمريكـية فى مصر، عن النبىّ ﷺ ، وعن القـرآن، وما زالت وكـالات الأنباء تنشـر وتذيع تخرّصـات علماء البـيولوچيـا عن الاستنساخ، ويأتى الردّ على هؤلاء الأخيرين بالآية: ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٥)** ﴾ . فالنعجة دوللى لم يخلقها العلماء من العدم، ولكنهم صنعوها من المادة التى خلقها الله،

وبالقوانين والأسباب التي وضعها الله، ومن إعجاز القرآن العلمي أن يأتي الردّ على هؤلاء في القرن الواحد والعشرين، وهو أيضاً ردٌّ على من يتقوّل بأن القرآن كتابٌ لعصره ولا يصلح لعصور غيره؟! فذلك ردٌّ على خاصة الخاصة من علماء عصرالعولمة، وفيه إثباتٌ بأن القرآن كتاب الله المنزّل لكل زمان ومكان، وأنه للعالمين، يعني بهذا المصطلح «بني الإنسان» أينما كانوا وفي أي زمان. ويأتي الردّ الأبلغ على هؤلاء، بأن الاستنساخ مسألة من فضل الله، ولكنها بسيطة وإن ضخّموا فيها، فمتعلقها بنعجة أو فرد أو عضو من الأعضاء، أو حتى الإنسان، فماذا بشأن السموات والأرض؟ فليقرّوا بأنهم غير خالقين، وأنهم ليسوا إلا متشبّهين، وما يقرّون، لأنهم لم يوقنوا، وما كانوا موقنين وهم يقولون ما قالوا، وما كان لهم من العلم إلا القليل، والعلم خزائن عند ربك، ودعاواهم ليست إلا تسلّطاً ومزاعم، ولو تسمع إليهم فكأنهم يعلمون الغيب، وكأنهم يصعدون إلى السماء يسترقون السمع، ويعرفون ما لا يعرفه الناس، ولو كانوا يعرفون لكانت لهم البيّنة المعلاّة. وكأن السورة حشدت كل ما يُوجَّه إلى هؤلاء المكذّبين المدّعين، ومنهم قوم زعموا أن الملائكة بنات الله، فحاجّتهم السورة: لماذا وأنتم لا تحبون البنات وتؤثرون البنين؟ أفتجعلون لله ما تكرهون؟ ومن هؤلاء المتخرّصين، اليهود الذين يقولون إنهم شعب الله المختار، والنصارى الذين يقولون المسيح ابن الله، والسورة توبخ هؤلاء وهؤلاء، وتردّ كراهيتهم للنبيّ ﷺ إلى أوهام عندهم، وكأن النبيّ يتقاضى منهم أجراً على تبليغه رسالة ربّه، وكأنما هم مثقلون بما تكلفهم هذه الرسالة. وربما كانوا في تكذيبهم للنبيّ ﷺ يُصدرون عن علم خاص بهم، يجعلهم واثقين وهم ينفون إمكان القيامة، ويكذّبون وجود شيء اسمه الجنة والنار. وربما كان تكذيبهم مكراً بالرسول ﷺ من باب المكايدة، والحق أنهم الممكور بهم والمكيدون، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله. وربما أن ما يدعوهم إليه القرآن والنبيّ ﷺ لا يتوافق مع إيمانهم بإله آخر يشاركه تعالى في المُلك، وسبحان الله عما يشركون. وتعرض السورة لما بلغه عناد المعاندين، حتى أنهم ليتحدّون النبيّ ﷺ أن يُسقط عليهم كِسْفاً من السماء - أي يُسقط بعض السماء عليهم - كعقاب لهم، ومع ذلك فلو رأوا الكِسْف بأعينهم، وشاهدوه ببصائرهم، لماروا فيه وادّعوا أنه مجرد سحاب مركوم! وأمثال هؤلاء لن ينفع معهم سوى أن يُتركوا حتى يلاقوا يومهم الموعود من العذاب، وحينئذ لن ينفعهم كيدهم، وتُختم السورة بأعظم ختام: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)**﴾، وهي عظةٌ للنبيّ وخُطة عمل للمرحلة القادمة. فليس سوى الصبر على هذا البلاء الذي ابتلي به من قومه، فهو بأعين الله وفي رعايته

وحفظه، ويسبّح بحمد الله على كل شيء، وفى كل حين: حين يقوم من نومه، ومن مجلسه، وحين ينهض إلى الصلاة، ويذكره فى جوف الليل، وفى الصلاة، وعقب السجود، وعند إدبار الليل، يقول مرة: «**سبحانك اللهم وبحمدك**»، ويقول أخرى: «**سبحان الله بكرةً وأصيلاً**»، و«**سبحان الله والله أكبر**»، و«**سبحان ربّى العظيم**»، و«**سبحان ربّى الأعلى**».

ومن مأثورات هذه السورة قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨)** ﴾، ففى ذلك إخبار بنهاية التاريخ وقيام القيامة ووقوع البعث وإجراء الحساب، وأن الجنة والنار حق؛ وقوله: ﴿ **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾ فيه إخبار بأن الجزاء بحسب العمل، ومثل ذلك قوله: ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)** ﴾ فأهل الجنة وأهل النار مرتهنون بأعمالهم، وكل إنسان مرتهن بعمله فلا يُنقَص أحد من ثواب عمله، وأما الزيادة على الثواب ففضلٌ من الله؛ وقوله: ﴿ **لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)** ﴾، كلامٌ عن الجنة ولكنه دليلٌ على مطلوب الله من الإنسان فى الدنيا والآخرة: أن لا لغو ولا تأثيم؛ وقوله: ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)** ﴾ يتحدّاهم أن يتقوّلوا قرآناً كالقرآن وهيهات.

ومن مصطلحات السورة: «**البيت المعمور**» أى شبيه الكعبة فى السماء أو هو الكعبة؛ و«**الحور العين**»: **الواحدة الحوراء**، وهى الأنثى البيضاء، بضّة البشرة، صافية اللون، رائعة الحُسن، وسميت الحور حوراً لأنها يحار الطرف فى حسنهن وبياضهن وصفاء لونهن، أو لحَوَر فى أعينهن، والحَوَر شدّة بياض العين فى شدّة سواد، فتُشبَّه المرأة الحوراء بالظباء. والعين (بالكسر) جمع عيناء، وهى الواسعة العينين، النقّية بياض العين، والشديدة سواد الحدقة.



٦٣٤. ﴿سورة النجم﴾

السورة كلها مكية، وقال البعض: إلا آية منها هى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)** ﴾، والصحيح أن السورة بأكملها مكية خالصة. وسورة النجم كانت أول سورة يعلنها الرسول ﷺ بمكة، وأول سورة فيها سجدة، فلما نزلت صلّى النبىّ ﷺ فقرأ بسورة النجم، فلما بلغ فى القراءة: ﴿ **فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)** ﴾، سجد، فما بقى أحد من القوم إلا سجد خلفه. وقيل: إن رجلاً من المصلين لم يعجبه أن يسجد فانسحب قائلاً: يكفينى هذا! وقيل: اسمه أمية بن

خلف. وذكر زيد بن ثابت أنه قرأ على النبىّ ﷺ سورة النجم فلم يسجد النبىّ ﷺ لـمّا وصل إلى **آية السجود**، وقيل: السجود هو **سجود تلاوة القرآن أثناء الصلاة فقط**، كلما كانت الآيات فيها سجود، وعددها **خمس عشرة** آية، أولها خاتمة **الأعراف**، وآخرها خاتمة **العلق**. وقيل هى **أربع عشرة** سجدة، وقيل: **إحدى عشرة** سجدة؛ وقيل: إنها **أربعٌ** فقط. وقيل: المراد **سجود الفرض** فى الصلاة وليس **سجود التلاوة**.

وآيات سورة النجم **اثنتان وستون** آية، وكان نزولها بعد سورة **الإخلاص**. وترتيبها فى المصحف **الثالثة والخمسون**، وفى التنزيل **الثالثة والعشرون**. وبدايتها القَسَم بالنجم، **والنجم** يقال على الواحد والكثير، ويسمى العرب **الثريا** نجماً مع أنها عدة نجوم، قيل هى سبعة نجوم: ستةٌ ظاهرة، وواحد خفى يمتحن الناس به أبصارهم. **والثريا تهوى**، يعنى تختـفى، مع **الفـجر**، والنجوم يكون اختفاؤها من السمـاء فى الفجر، وكأنها **انطفأت** أو هوت. وأصل اشتقاق النجم من **نَجَم الشىء** ينجُم (بالضم) نجوماً، أى ظهر وطلع. وفى الآية: ﴿ **وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** ⑥﴾ (الرحمن) فإن سجود النجم هو **أفوله**، ومعنى هوى يعـنى **أفـل**، وهى ظاهرة عجيبة وآية من آياته تعـالى تستأهل أن يقسم الله تعالى بالنجم وبالنجوم، يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** ②﴾(التكوير)، ويقول: ﴿**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** ⑧﴾ (المرسلات)، وهما تعبيران آخران عن **أفول النجوم** بالانكدار، وبالطمس أيضًا، وهو نفسه المقـصود بقوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ①﴾. وعن ذلك أيضـاً فى القـــرآن: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ** ⑦⑤ **وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ⑦⑥﴾ (الواقـعـة)، **ومواقعـها** يعنى حـيث تقع، أى **مساقطهـا ومغاربها** يومـياً، أو **انكدارها وانتـثارها** يـوم القيامة. وفى العلوم الحديثة فإن **وقود النـجوم** الذى تضىء به هو عملية **الاندمـاج النووى** لذّرات الهيـدروجين، وهناك نجوم أشـد حرارة من الشمس حـتى لتبلغ مـئات الملايين من الدرجات المـئوية، بينمـا حرارة الشمـس ما بين ١٥ إلى ٢٠ مليـون درجة مئوية، وهذه النجوم يسمونها لذلك **المُستَعِرة**، وبها **يتخلّق الحديد**، فإذا صار لُبّ النجم المستعر كله من الحديد، انفـجر وتناثرت أشـلاؤه فى صفحـة الكون، فيـدخل **فى** نطاق جاذبيـة الأجرام والنيازك التى قد ترتطم بالأرض. ومن هذه النيـازك كان دخول الحديد إلى باطن الأرض، حتى صار هذا البـاطن كله من الحديد، وأقلّه فى قشرتهـا الظاهرة. وهذا إذن هو المقصود بقوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾، فهو **إعجاز علمى** يسبق به القرآن، ويتهافت معه كل تفسير آخر. وجواب **القسم**: ما ضلّ محمدٌ عن الحق، وما حاد عنه، وما تكلم بالباطل، وما كان له أن يقول مـا قال عن هواه، ولا أن يخرج نطقه عن رأيه. **والخـطـاب**: لكفّـار

عليه مع طول صُحبتهم له، فعبّر عن ذلك بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴿٢﴾﴾. وموضوع هذه الآيات: هو الإسراء الذين لم يصدّقوه فيه، فلقد روى لهم أن جبريل استوى بقوته في الأفق، وكان في صورته المَلَكية، ورآه النبيّ على هذه الصورة، وكان بحراء، فطلع له من المشرق وسدّ بهيئته الأفق الأعلى، وتدلّى حتى دنا منه، فأوحي إليه ما أوحى، فهذه هي المرة الأولى، وما كذّب فؤاده ما رأته عيناه، ووعاه بصره ولا شك فيه، وما كان ينبغي أن يماروه فيما رأى، ولا أن يجحدوه. ثم رآه مرة أخرى في ليلة الإسراء، نازلاً إليه، عند سدرة المنتهى حيث انتهى به المعراج، والسدرة يغشاها ما يغشاها، وعندها جنة المأوى، وما جاء في هذه الآيات من المصطلحات من أمور الغيب. وما يرويه مما رأى، هو ما أبصره بعينيه، ووعاه بعقله. وما زاغ بصره، ولا ضلّ عقله. ولا جاوز حدود ما أُطْلع عليه، ولقد أُطْلع على الكثير، وكلها آيات كبرى.

ثم يأتي الجزء الثاني من السورة، وأوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾، فلما ذكر الوحى والإسراء والمعراج، وذكر من آثار قدرة الله ما ذكر، حاجّ المشركين في عبادتهم لما لا يعقل، ولاعتقادهم في أصنام من حجر، وردّ عليهم قولهم بأن اللات والعُزّى ومَناة هن بنات الله، مثلما الملائكة التي قال بها هن بنات الله في زعمهم، فكيف إذا اختاروا لأنفسهم يختارون أن يكون لهم أولاد من الذكور، وإذا اختاروا لله يختارون له البنات؟ وما كان ما يعبدونه إلا أسماء أسموها لا وجود لها في الواقع، فكأن ما يقوله فلاسفة الوضعية المنطقية حالياً يستقونه من هذه الآية، لأنهم أنكروا الإقرار بالوجود إلا لما يكون من الواقع، فما ليس من الواقع وإن كان في كلامنا، فوجوده nil، أي معدوم، والآية تقول ذلك، وترد الموجودات المتوَّهمة إلى: ﴿الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴿٢٣﴾﴾، وتُبطل دعواهم أنهم ما يعبدونها إلا زلفى أى للشفاعة، فلا أحد من المخلوقات يملك أن يتشفع من تلقاء نفسه إلا أن يأذن له الله، وحتى الملائكة لا تملك أن تتشفع لأحد إلا بإذنه تعالى، والحال مع هؤلاء هو الإعراض عنهم طالما هذا هو اعتقادهم، وهو كل مبلغهم من العلم، وأما المؤمنون فسيكون جزاءهم الحسنى.

ثم يكون الجزء الثالث من السورة عن واحد من الذين كفروا وأساءوا، وهو الوليد بن المغيرة، فقد تولّى وبخل واستغنى، مع أنه يعلم مما جاء في كتُب السابقين، أن الإنسان ليس له إلا ما يسعى، وأن سعيه سوف يُرى، وأنه إلى الله المنتهى، وأنه تعالى العادل لا تتعدى عقوبته غير المجرم، وهو تعالى القادر الذى يميت ويحيى، ومثلما خلق من لا شيء، فبوسعه أن يعيد ما خلق، وأن يُغنى، وأن يُفقر، وهو ربّ الأكوان والأزمان،

وأهلك الأوائل لما كفروا. ويأتى الخطاب إلى مَنْ كفر، بعد أن ينبههم إلى نعمه وخيراته، وإلى قدرته وعلمه، ليسألهم: لماذا إذن الكُفر؟ ولماذا تكذّبون بالقرآن؟، ولماذا تضحكون مستهزئين لاهين وكان الأولى بكم أن تبكوا؟ وتُختتم السورة بالأمر الإلهى: اسجدوا لله واعبدوه، فذلك أحرى بكم.

والسورة حافلة بالمصطلحات، ومن مأثوراتها قوله: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)** ﴾، وفيه أن **السنّة كالقرآن كلاهما من الوحى**؛ وقوله: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)** ﴾ يقال لتصوير شدّة القُرب؛ وقوله: ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)** ﴾، قالوا: رأى الله تعالى ببصره؛ وقال آخرون: بقلبه؛ وقالت **عائشة**: رأى جبريل وما رأى ربّه. وكيف يراه وهو تعالى يقول: ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** ﴾ (الأنعام ١٠٣)؛ وقوله: ﴿ **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)** ﴾ أى قسمةٌ جائرة عن الحق، ومائلة عن العدل والإنصاف، من ضاز فى الحكم أى جار، وضاز حقّه أى نقصه؛ وقوله: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا (٢٣)** ﴾ يعنى اخترعوها ولا دليل على صحتها؛ وقوله: ﴿ **ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ (٣٠)** ﴾ يقال تصغيراً لعلم الخصم؛ وقوله: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)** ﴾، وقوله: ﴿ **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)** ﴾ يعنى أن الإنسان يُجزى بعمله، ولذلك لم يُجز بعضهم الصيام والصلاة والحج عن الميت، ولم يقرّ بالشفاعة؛ وقوله: ﴿ **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)** ﴾ فمنه ابتداء المنّة، وإليه انتهاء الأمان؛ وقوله: ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)** ﴾ أى لا فاعل إلا هو؛ وقوله: ﴿ **أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١)** ﴾: استفهام توبيخ.

ومن **مصطلحات السورة**: «**سدرة المنتهى**»: والسدرة شجرة، وعندها كانت نهاية المعراج، وهى التى ينتهى ويقف عندها الملائكة؛ ومثلها مثل **شجرة الحياة** أو **شجرة المعرفة** التى ذاق آدم وحواء ثمارها فانكشفت لهما عورتاهما؛ ومثل **شجرة الزقوم** التى تخرج فى أصل الجحيم؛ فهذه ثلاث شجرات من الغيب؛ **وجنة المأوى**: من الغيب، ولا نعرف إلا موضعها عند سدرة المنتهى؛ **واللات**: صنم لثقيف بالطائف من لفظ الله، و«**العزّى**»: صنم لقريش وبنى كنانة من لفظ العزيز وهو الله؛ و«**مناة**»: صنم لبنى هلال وهذيل وخزاعة، يقال: منَى الله الخبر لفلان أى قدّره، وقيل: هذه الأسماء عندهم أسماء بنات الله، الأولى: **اللات**، والثانية: **العزّى**، والثالثة: **الأخرى** (أى وهذه الأخرى الثالثة) وهى مناة. «**وكبائر الإثم**»: كل ذنب خُتم بالنار؛ و«**الفواحش**»: كل ذنب فيه الحدّ؛ و«**اللّمم**»: هى الصغائر، ولا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله؛ و«**أزفت الآزفة**»: قَرُبت الساعة؛

و«رَبُّ **الشِّعْرَى**»: والشِّعْرَى هي الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه من شدة الحر، وهي شعريان: **الشعرى العَبُور**، **والشعرى الغُمَيْصاء**، وكان العرب يعتقدون أنهما أختا سُهَيْل. وهو تعالى **ربُّ الشعرى** وإن كان ربّاً لغيره، فلأن العرب كانوا يعبدون الشعرى، فإنه تعالى أعلمهم أنه ـ أي الشعرى ليس بربّ، ولكنه مربوب، والله تعالى هو الربّ؛ و «**عاد الأولى وثمود وقوم نوح والمؤتفكة**»: أمم قديمة، «**وعاد الأولى**» هم **قوم صالح** وهؤلاء أُهلكوا بالريح الصرصر، وسُمّوا **عاداً** لأنهم من ولد **عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح**، ومعنى أنهم **الأولى** أن لدينا **عاداً ثانية**، قيل: هي **ثمود**، **قوم هود**، وكانوا أقارب لعاد الأولى ومن نسل عاد، ويقال أيضاً هم **عاد الآخرة** وكانوا قوماً جبّارين. وقيل: **عاد الثانية أو الآخرة هي الولايات المتحدة** فهذه فعلت أكثر مما فعلت عاد الأولى؛ فإن كان الله قد فعل ما فعل في عاد الأولى، فما الذي سيفعله في عاد الثانية هذه وأعمالها في الكفر والفساد فاقت كل ما صنعه القدماء مئات المرات؟!! وقوم **نوح** أُهلكوا قبل عاد وثمود، وسبب هلاكهم كما قال: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ** ﴿٥٢﴾ ﴾ فلما طالت مدة نوح فيهم، وطالت رسالته معهم كثر ظلمهم وطغيانهم؛ أو أن المشركين من العرب كانوا أظلم وأطغى من كل هؤلاء. والمؤتفكة: هي مدائن قوم لوط، **ائتفكت بهم**، أي انقلبت وصار عاليها سافلها؛ و﴿ **النُّذُرِ الْأُولَىٰ** ﴿٥٦﴾ ﴾: هم الأنبياء من قبل النبيّ ﷺ، وهي أيضًا الأمم السالفة التي أُنذرت كما أُنذر العرب.

●●●

٦٣٥. ﴿سورة القمر﴾

السورة مكية، وآياتها **خمس وخمسون**، نزلت بعد **الطارق**، وترتيبها في المصحف **الرابعة والخمسون**، وفي التنزيل **السابعة والثلاثون**، وهي من أولها لآخرها **حملة مضادة** لأكاذيب أعداء الإسلام، وفيها كل صفات وشروط الردود على حملات الأكاذيب التي يشنّها عادةً أعداؤنا من يهود ونصارى ومستعمرين ومستشرقين، من الأجانب أو العرب أو المسلمين، ضد الإسلام والنبيّ ﷺ والقرآن، ومن ثم كانت السورة بمثابة **المنشور** أو **الإعلان الدعائي** للدعوة إلى الإسلام ودحض كل تخرّصات المتخرصّين، وافتراءات المفترين، ثم إنها إعجاز علمي يتناول ناحية من نواحي الوجود الكوني، واختير له **القمر** كاختيار الشمس في سور أخرى، لأنهما أوضح ما يكونان لكل ذي بصر، فإذا اجتمعت له البصيرة مع البصر لأدرك أن الكون لا يمكن أن يكون قد تخلّق عشوائياً، ولا عبثاً، وأن له معماراً هائلاً عظيماً لا يمكن إلا أن يُردّ إلى مهندس مبدع، وعالم عليم، وإله قادر

قدرة مطلقة. وتتحدث السورة عن يوم القيامة، ومن أعراضه أن ينشق القمر، وتسميها السورة «**الساعة**»، تشبيها لقصَر هذا اليوم حتى أنه ليمر وكأنه ساعة، أو أن القيامة حين تحين فلها وقت وساعة تقوم فيهما؛ **وانشقاق القمر** تصدّعه وانفلاقه فلا يعود قمراً، ولا تعود له وظيفة القمر، فلما نزل قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ①﴾ لم يصدقوا أن ينشق القمر فكانت الآية بعد هذه الآية الأولى: ﴿**وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ②﴾، وكان سبب نزولها أن البعض ادّعوا أن النبيّ ﷺ كانت له هذه المعجزة، فقد طالبوه بآية، فانشق لمطلبهم القمر كآية له، والشمس والقمر في ذاتهما آيتان من آيات الله، أفلا يكفيان؟ ثم إنهما وهما يعملان آيتان أكبر وأعظم مما لو أبطل عملهما؟ وفي الحديث أنهما لا يسجدان لأحد ولا ينشقان، وفي القرآن أنهما مسخّران لأجل مسمى، وكما أن الإنسان لا يموت إلا موتة واحدة، فكذلك موت القمر أو انشقاقه يحدث مرة واحدة حين تحين الساعة لا غير، **والقول إذن بأن القمر انشق بمكة كطلب النبيّ** ﷺ **من الإسرائيليات**، ولو انشق القمر لوقع وانطمس نوره وما عرف الناس الشهور، وانظر إلى ما يحدث في الخسوف لتدرك هول ما قد يحدث لو انشق القمر؟! وفي السورة: ﴿**كُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ** ③﴾ أن القمر بحسبان وأنه يجرى إلى يوم الدين، فذلك من الأمور المستقرة ولا تبديل لها. ولمن يسأل المعجزة قالت السورة: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ** ④﴾، ولكنهم لم يزدجروا، وهذا القرآن كان فيه الحكمة البالغة، والقصص الحق، ولكن الآيات والنذر ما تغني عن قوم لا يؤمنون، فلا مَعَدى أن يتولّى عنهم النبيّ ﷺ، لأن مصيرهم إلى العذاب يوم الدين، وتصف الآيات أحوالهم فيه، فهم يخرجون من القبور كالجراد المنتشر، خُشّعاً أبصارهم، مهطعين - أي مسرعين إلى الداعي، لا يقولون إلا عبارة واحدة: ﴿**هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ** ⑧﴾. ثم تضرب السورة الأمثال للنبيّ وللمؤمنين بما حدث لأنبياء قبله، تسلية لهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وقدوةً وأسوةً، ولا مراء أن أول مَن يضرب به المثَل هو **نوح**، وقد وصفوه **بالجنون** كما وصفوا به النبيّ ﷺ، وأخبرت السورة بأنهم ازدجروه ومنعوه من الدعوة وسبّوه مثلما حدث مع النبيّ ﷺ، فما استطاع إلا أن دعا ربّه: ﴿**أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ⑩﴾، فاستجاب له، وأمطرهم بماء منهمر، وتفجّرت الأرض عيوناً، والتقت المياه في طوفان عظيم، ولولا سفينته التي أمره الله بصنعها من الألواح والحبال لما نجا نوح ومن معه، وجرت السفينة بأعينه تعالى، وبحفظه وكَلَئه ووحيه، فكانت آية لمن كفر ومن جاء بعد نوح من الأقوام، **فهل من مدّكر؟** وهذا **القرآن** كسفينة **نوح** فيه النجاة، ويسّره الله لمن يتّعظ، **فهل من مدّكر؟** ثم كان قوم عاد

فكفروا، فأرسل عليهم ريحاً صرصراً كالطوفان، جعلت يومهم نحساً، وكانت تنزعهم نزعاً كأعجاز النخل المنقعر، وذُكرت قصتهم فى القرآن للعظة والعبرة، **فهل من مُدّكر؟** وكذبت **ثمود** بنبيّهم، بدعوى أنه بشرٌ مثلهم، ووصفوه بأنه كذّاب أشر. وكذّب أصحاب الناقة **صالحاً** وائتمروا بناقته فعقروها، فما كانت إلا صيحة واحدة فكانوا كهشيم المُحتظِر، أى حشاش الأرض الجاف فى حظائر الماشية. **وقوم لوط** تماروا بالنذر، فأرسل عليهم ريحاً حاصباً ترميهم بالحصباء، صبّحهم بها بُكرةً لمّا راوده عن ضيفه. **وآل فرعون** كذبوا بالنذر، فأخذهم الله أخْذ عزيز مقتدر، وكل هؤلاء أوردوه عنهم القرآن لعل كفّار مكة يتعّظون، فهل هم خيرٌ ممن سبقوهم وجاءت بأخبارهم الكُتب؟ أو أنهم واثقون من النصر بما أعدوه وهيأوه من أسبابه؟ والله غالب على أمره، ولقد وعد أن يهزم الجمع ويولوا الدبُر، وأن موعدهم الساعة، والساعة أدهى وأمَرّ، **فهل من مدّكر؟!** وتصفهم السورة بأنهم **مجرمون**، وعقيدتهم ضلال، وعذابهم السُعُر - أى جهنم، يُسحبون فيها على وجوههم، وتسعَرُهم النار، وتُسوّد وجوههم. **وتُختتم السورة بموجز للدرس المستفاد منها: أن قضاء الله** أسرع من لمح البصر، وأنه تعالى قد أهلك أمماً قبل هؤلاء الكفرة من قريش، وكانوا أشباههم، ورصد كل ما فعلوه فى الكُتب وأحصاه، **فهل يتعظون؟** فلما ذكر المكذّبين تلا ذلك بذكر المتّقين نقيضهم، وهؤلاء مقارنةً بهم فى جنات ونَهَر، لهم مقاعد صدق ومجالس حق، عند ربّهم المليك المقتدر.

وفى السورة كثير من **المصطلحات والأمثال**، فمن المصطلحات: «**الساعة**»: أى يوم القيامة؛ **واليوم العَسِر**: وهو يوم القيامة أيضاً؛ **والعَقْر**: هو النحر، وقيل: كان اسم الذى عقر الناقة قُدار، فأُطلق على **الجزّار** من ثم اسم قُدَار؛ **وسَقَر**: هى جهنم، ويقال لها أيضًا لظى؛ **ومقعد صدق**: هو مجلس الحقّ، أى المجلس حين يخلو من اللغو والتأثيم، **ومقاعد الصدق** أصلاً لا تكون إلا فى الجنة. ومن **الأمثال والحكم البالغة** قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**﴾: تحذيرٌ ووعيدٌ باقتراب يوم القيامة، وأنه لم يبق على ذلك من الوقت لقيامها إلا قدر ساعة؛ ﴿**وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ①﴾ تقال عن المستحيل، إلا ما كان بالنسبة لله تعالى؛ وقوله: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ⑯﴾: تكررت كاللازمة أربع مرات فى السورة، ويقال ذلك استعظاماً للنذر واستبشاعاً للعذاب؛ وقوله: ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ⑮﴾: والمدّكر هو المُتّعظ، و«**هل**»: كلمة استفهام تستدعى حضور الأفهام، والعبارة كلها حُجّة على من يسمع ويقرأ القرآن ولا يتّعظ، وتكررت كاللازمة ست مرات فى السورة؛ **وقوله**: ﴿ **الْكَذَّابُ الأَشِرُ** ﴾: عبارة بليغة صارت على الألسنة؛ وقوله: ﴿**سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ** ㉖﴾: توعُّد

هو قمة فى البلاغـة؛ ثم الاستفهام: ﴿**أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا** ﴿٢٥﴾﴾ للإنكار، ومثله السـؤال: ﴿**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** ﴿٤٣﴾ **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ** ﴿٤٤﴾﴾ وقـوله: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ**﴾: إعجاز قرآنى فيه تنبؤ بالمسـتقبل، وقد كان وهُزموا شرّ هزيمة؛ وقوله: ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴿٤٦﴾﴾: من طرق القرآن فى التعبير البليغ، وفيه استدراك وجزم؛ وقوله: ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴿٥٣﴾﴾: أى مسطور ومكتوب، كقوله: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ** ﴿٥٢﴾﴾ أى فى الكُتب. وبعد... فإن المرء ليحـار وهو يختار من بين عـجائب سورة القمـر، وإنها لمن معـجزات القرآن، صيـاغةً، وبلاغةً، وإيقاعًا، ولله الحمد والمنة أن آتانا هذا الكتاب: القرآن.

•••

٦٣٦. ﴿سورة الرحمن﴾

السـورة مدنيـة، وآياتهـا **ثمان وسبعون آية**، نزلت بعـد **سورة الرعـد**، وترتيبـها فى المصـحف **الخامسة والخمسون**، و**الحادية عشرة** فى التنزيل المدنى، وفى التنزيل عـامةً هى **السابعة والتسعون**، واسمها «الرحمن» من افتتاحها باسمه تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ** ﴿١﴾ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴿٢﴾ **خَلَقَ الْإِنسَانَ** ﴿٣﴾ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴿٤﴾﴾. وقيل لو جُمعت الحروف: ﴿الر﴾ التى تبدأ بها خمس سور، و«حم» التى تبدأ بها سبع سور، و«ن» التى تبدأ بها سورة واحدة، لكوّنت معاً اسم «الرحمن». واسمه تعالى «الرحمن» يتكرر فى القرآن **سبعًا وخمسين مرة**، ولا يُسمّى به غير الله، تقول «الله» وتقصد «الرحمن»، أو تقول «الرحمن» وتقصد «الله»، كقوله تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ**﴾ (الإسراء ١١٠)، ويقترن اسمه «الرحمن» باسمه «الرحيم» **أربع مرات** فى القرآن، ففى **الفاتحة** يأتى: ﴿**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴿٣﴾﴾، والاسمان يُشتقان من **الرحمة**، أو أن **الرحمة** تُشتق منهما، فلما كان الله كانت الرحمة وليس العكس؛ **ورحمن** أشد مبالغة من رحيم، وهو تعالى **رحمن لجميع الخلق، ورحيم بالمؤمنين**. ولمّا ادّعى مسيلمة النبوة تسمّى باسم **رحمن اليمامة**، واليمامة بلده، ويشاء الله أن يشتهر على العكس باسم **مسيلمة الكذّاب**. وفى الحديث القدسى: «**أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققتُ لها من اسمى**». ولمّا سأل أهل مكة النبىّ ﷺ: ما الرحمن؟ أنزل الله تعالى هذه السورة «**الرحمن**» جوابًا على سؤالهم، وفى رواية أخرى قيل عن النبىّ ﷺ إنما يعلّمه مسيلمة، فأنزل الله تعالى لهذا السبب هذه الآيات: ﴿**الرَّحْمَٰنُ** ﴿١﴾ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴿٢﴾﴾؛ وقيل: علّم نبيّه القرآن، وعلّمه الحلال والحرام، والهُدى من الضلال؛ وقيل: علّم آدم: ﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴿٤﴾﴾، يعنى أسماء كل شىء، وعلّمه اللغات، وقيل: «**البيان**»: هو

الخير والشرّ، وما ينفع وما يضرّ. «والإنسان» في السورة: يُراد به جميع الناس، و«البيان» على هذا يكون الكلام والفَهْم، فضّل الله تعالى الإنسان بالبيان على سائر الحيوان. وهذه السورة للتعريف بالله خالق الإنسان والبيان، وهى من السور التى بها الكثير من الفلسفة فى مسائل الإلهيات، والنشأة، وعلوم الكون والفضاء والنفس. والبيان الذى علّمه الله للإنسان، واختصّه به، ليس مجرد الكتابة والخط بالقلم، ولا هو مجرد التعبير للتفاهم حول اليوميات، ولكنه جماليات اللغة وأنماط الأدب، وجماليات الخطوط والأشكال والرسوم والألوان، كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق). والبيان من آلاء الله، وآلاؤه أو نعَمُه لا تعدّ ولا تُحصَى، وهذه السورة للفت النظر والسمع والفهم إلى بعضٍ منها، وتتكرر الآلاء ٣١ مرة، وفى كل مرة تُذكر، يأتى ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾، والخطاب فيها لاثنين، قيل هما المؤمن والكافر؛ وقيل: الخطاب للإنس والجن، كقوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ (الأنعام ١٣٠)، ومع ذلك فالقرآن ليس كتابًا للجن ولكنه كتابٌ للبشر، وما قصّه علينا إنما عن رسُل البشر وليس عن رسُل الجن. وسورة الرحمن الخطاب فيها، والحديث فيها يشمل الإنس والجن. وفى القرآن إخبار عن أن الجن استمعوا له واتّعظوا به. وفى الرواية: أن النبىّ ﷺ قام يصلى الصبح بنخلة، فقرأ سورة الرحمن، واستمع لها نفرٌ من الجن، وذهبوا يبلّغون. وقيل: لمّا نزلت عليه سورة الرحمن خرج على أصحابه يقرأها عليهم من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم. كنت كلما أتيت على قوله: «فبأى آلاء ربكما تكذبان» قالوا: لا بشىء من نعمتك ربّنا نكذّب، فَلَكَ الحمد» أخرجه الترمذى. وهذا الحديث اتُّخذ ذريعةً للقول بأن السورة مكية وليست مدنية، وقالوا: إن روحها روح السور المكية، وفيها عن الجن مثلما فى سورة الجن وهى مكية أيضاً، وهذه السورة الأخيرة رواية عن الجن فى تسع عشرة آية من ثمان وعشرين آية هى كل آيات السورة. وكذلك سورة الرحمن تلازم فيها الخطاب للإنسان والجن، وتسميهما السورة: «الثقلان». قيل: سُمّيا بذلك الاسم، لعظم شأنهما بالإضافة إلى سائر ما فى الكون من مخلوقات، أو لعظم ذنوبهما. ولا يستغربن القارىء أن يكون فى القرآن سُوَر وآيات عن الجن، فإن علوم الفضاء الحالية يؤكد علماؤها أن غايتهم اكتشاف سكان الكون من غير الإنسان، ويجزمون بأن هناك مخلوقات تسكن الكواكب وتعمّ الكون بخلاف الإنسان، فلماذا لا يكون هؤلاء هم الذين يسميهم القرآن الجن؟ ولقد بيّنت سورة الجن مدى قدرات الجن، وأنهم يتنصتون على الملأ الأعلى فى السماء؛ وفى سورتى النمل وسبأ:

أن سليمان استخدم الجن لعلمهم ومهارتهم، **والجن** إذن من ثوابت القرآن، وليس في القرآن أن نبيّنا تعامل مع الجن أو خاطب الجن، وكل ما فيه أن الجن استمعوا إلى القرآن، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ**﴾ (الأحقاف ٢٩). وفي القرآن يتكرر الخطاب والرواية عن الجن والإنس، **إحدى عشرة** مرة، ومنها **مرتان** كان الخطاب فيهما **لهما معًا**، فكانت الجن تُقدَّم على الإنس: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ**(٣٣)﴾، فنفهم أن الجن بمصطلح سورة الرحمن هم: «**أثقلُ الثقلَيْن**». واستهلال آلاء الله على **الإنسان** بالقرآن، دليل على أن **القرآن هو نعمة الله الكبرى**، ويسبق في الذِكْر خَلْق **الإنسان** ذاته وتعليمه البيان. وتتخلص السورة إلى بقية الآلاء في تراتب قيمي، فبعد **القرآن**، **والإنسان**، **والبيان**، تأتي الشمس، **والقمر**، والنجم، والشجر، والسماء، والمقصود تعداد ما أنعم الله به على **نوع الإنسان**، حثًا لهم على شُكره، وتنبيهاً على تقصيرهم في هذا الشكر. وكل هذه الآيات خلقها تعالى **بميزان**، أي **بتقدير وحساب**، فالميزان شرْعته تعالى، وبدون الميزان لا يستقيم **الكون**، ومن ثم كانت موعظتُه تعالى للإنسان بأن يقيم الوزن بالقسط، أي بالحساب والتقدير، بحسب القصد والغاية، فبالميزان وضَعَ الله تعالى الأرض كَوضْعه للسماء، ويسّر الأرض للناس، فكل شيء لابد أن يكون بميزان وبغاية، والأرض كانت كذلك بغاية معاش الإنسان، فذللها له، وخلق له فيها كل ما لذّ وطاب، ومن الإعجاز الفكري والحضاري للقرآن أن خلقه جاء قبل خلق الإنسان، لأنه قبل خلق الإنسان لابد أن يوجد سبب للخلق، وأن يُحدَّد للإنسان منهج، والقرآن خلقه الله للإنسان ليرجع إليه، وكل علم لابد فيه من مرجع، والقرآن هو **الكتاب المرجع الأكبر**، **والقراءة والكتابة** أساس كل حضارة، **والبيان** هو أعلى علوم الإنسان، ولذا قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿**عَلَّمَ الْقُرْآنَ** (٢) **خَلَقَ الْإِنسَانَ** (٣) **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** (٤)﴾، فكان القرآن أولاً قبل الإنسان. ومن الإعجاز العلمي: أن الشمس والقمر بُحسبان، **والحسبان** عند العرب هو الرحى، يعني **قطب** الشمس أو القمر، فهما **يدوران في** مثل **القطب**، فنبّه القرآن إلى **دوراتهما** حول نفسيهما، وحول كواكب أخرى، ولكل نظامه، مثلما للنجم والشجر نظامهما، وسجودهما يعني انتظامهما في النظام المنوط بهما، كقوله تعالى في سورة النور: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** (٤١)﴾، وقوله في سورة الإسراء: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**(٤٤)﴾، ونفهم أن يكون للملائكة والإنسان تسبيح وصلوات، لأن لهما عقول وفهوم، وأما الشجر والحيوان والطير والنجوم، فهي مسخّرة، وصلاتها وتسبيحها هو

قيامها **بالمنوط بها**، فالنجوم لتضيء وتدور في الأفلاك تربط هذا بذاك، والشجر ليثمر ويعطي الحَبّ والفاكهة، فذلك هو سجودهما. **ووضْعُ الأرض** هو سجودها، أي تسخيرها، فإذا كان الكون كله في صلاة وتسبيح وسجود، فكان الأحرى **بالإنسان والجان** وقد خُلق لهما العقل، أن يعبدا الله حقّ عبادته. وقوله تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ دليلٌ على أنهما **مكلّفان**. ويخبر تعالى بصدق القرآن، بدليل خلق الإنسان والجان، فالإنسان خلقه من **تراب**، والجان خلقه من **نار**، **وبرهان ترابية الإنسان** أنه إذا مات يتحلّل إلى عناصر هي نفس عناصر التراب. وفي سورة الرحمن يأتي عن خلق الإنسان قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴿١٤﴾﴾، وفي سورة الحجر أنه خلقه: ﴿**مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴿٢٨﴾﴾، وفي سورة الصافات: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لازِبٍ** ﴿١١﴾﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿**كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ** ﴿٥٩﴾﴾، وكلها معان متفقة، غير متعارضة على عكس ما يقول **المستشرقون**، ففي البداية كان خلق الإنسان من **تراب** الأرض، عُجن حتى صار **طيناً**، وتخمّر فصار **كالحمأ المسنون**، ثم اشتدّ فصار **صلصالاً كالفخار**. وجاء خَلْق **الجان** مقارناً بخلق آدم ليدل على **طلاقة قدرة** الله تعالى، والخطاب في سورة الرحمن للاثنين الإنس والجن، والجن خلقهم ﴿**مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴿١٥﴾﴾ أي من لهب من النار، أو من خلْط النار، **والجان** واحد **الجن**. فهذا هو خلقه لكل هؤلاء، وجميعها دلائل على قدرته، فبأى هذه الدلائل تكذبان يا معشر الإنس والجان؟ وهو تعالى ربّ مشرقيّ الأرض ومغربيهما، وذلك **دليل علمي** آخر على **كروية الأرض** ودورانها حول الشمس، فالشمس إذا أشرقت على نصفها الشمالي كان الوقت غروباً في النصف الجنوبي، وإذا كان الوقت نهاراً في الجنوبي، كان ليلاً في الشمالي. ومن آياته أنه **أرسل البحر الملح والبحر العذب** يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان، وبينهما حاجز من قدرة الله لا يطغى أحدهما على الآخر، ومن الماء يخرج اللؤلؤ والمرجان كما يخرج من التراب الحَبّ والعَصْف والرّيْحان، فسبحان الواحد المنّان! وأجرى السفن في البحر مرفوعات الشراع، فكانت كالجبال في البرّ؛ فكأنه تعالى أحصى الأصول في هذه **الأربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار؛ فالتراب** خُلق منه الإنسان؛ **والماء**: خُلقت منه الأنهار والبحار، وخَلَق طينة الإنسان، وسَقَى الزرع والحيوان، وأخرج من الأنهار والبحار الدُّر والمرجان؛ **والهواء**: جفّف الطين الذى قُدّ منه الإنسان، وأجراه فيه فبعث فيه الحياة وتنفّست رئتاه، وجعل الهواء لكل شيء حيّ، وحتى السفن في الماء تندفع بالهواء؛ **والنار**: خلق منها الجان، وسوّى بها طينة الإنسان، ولها الفوائد الجُلّى في توليد الطاقة وغير ذلك، **فهذه هى العناصر الأربعة الأصول** لكل الأشياء، فأى

حُجة من هذه الحجج يمكن أن يُدحضها الإنسان أو الجان؟ ثم إن الموت يُفني كل ذلك ولا يبقى سوى الله، وهو برهان يشهده الإنسان والجان كل يوم، فهل يستطيعان له دفعاً؟ وفي الآية: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أن وجهه تعالى هو وجوده وذاته، فإن اعتبرته صفة فهي زائدة على ذاته بلا تُكيُّف، ويحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام، والجهة التي يُتقرّب بها إليه، وإلاّ فلا وجه ولا جسم، ولا تبعيض ولا تجسيم، وهو تعالى: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ جَلّ وعلا أن يكون له ندٌّ أو شبيه، فأكرموه بالتوحيد وهو المستحق للتوحيد، يسأله أهل السموات والأرض، وهو كل يوم في شأن: يحيي ويميت ويقرّ في الأرحام، ويعزّ ويذل، ويرزق ويمنع، والدهر كله يومان، يومٌ للدنيا وآخر للقيامة، وشأنه في الدنيا الابتلاء والاختبار، بالأمر والنهي، والإحياء والإماته، والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب، والشئون يبديها ولا يبتديها. ويتحدى الله تعالى الإنس والجن أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض إلا بإذنه كما في المعراج، والعلم الذي يستعان به هو من إذن الله، وهو تعالى لا يكشف العلم للإنسان إلا في حينه، ومتغيرات الفضاء التي لم يخلق لها الإنسان ولا الجان من شأنها أن تصيبهما بالاحتراق، كما تحترق النيازك والشهب إذا وقعت من مواقعها في الفضاء. ودخلت أقطار الأرض. وشواظ النار والنحاس هي النيكل المحمى الذى ثبت أن النجوم والكواكب مركبة منه بفعل الانفجارات النووية فيهما وفي الشمس، وانشقاق السماء يوم القيامة لأن الانفجار النووي الأكبر يكورّها ويجوّفها ويجعل لها شكل الوردة، كصبّ الدهن تكون له الألوان، تتغير بتأثير الحرارة إلى اللون الأحمر كالوردة. ويوم القيامة لا يسأل الناس عن ذنوبهم، لأن كتبُهم فيها الكفاية، ولوجود الشهود عليهم، وتكفي سيماهم أو سماتهم، وفي الطب النفسي ضمن علم النفس الإجرامي، والطب النفسي الإجرامي، فإن للمجرمين سمات في الخِلْقة وفي السلوك، وفي الكلام والتفكير؛ والكلام والتفكير من السلوك، ومن علماء هذا العلم لمبروزو العظيم الذى حدد بعض هذه السمات، وقال بها القرآن قبل أهل العلم ـ وذلك من معجزاته العلمية؛ والملائكة تتعرف على المجرمين بسماتهم، وتقبض عليهم من نواصيهم وأقدامهم، جزاءً بما كانوا يكذّبون، فهذه جهنم التي كذّبوها، ورواحهم فيها بين الجحيم والحميم، وبين النار والشراب، وشراب النار شرابٌ آن، يعني حُمِّيَ عليه حتى بلغ القمة في الغليان. فلما ذكرت السورة العذاب تلته بالثواب، لتكمل المقارنة، ولمن شاء أن يختار ما يشاء، فهذا عذاب المكذِّبين، وهذا ثواب المصدِّقين: جنتان ذواتا أغصان، وبهما سعة وفضل، وتسقيهما عينان تجريان،

وفيهما الـفاكهة من جميع الألوان، جزاءً لكل من خاف قـيام ربّه واطّلاعه عليه، ولمن هَمّ بالمعصية فتذكّره تعالى فتركـها خوفاً منه. وفى الجنتين فُرُش من الديباج، وثمر الشجر دان عليهم، وعلى الفُـرُش نساء بِكر محـتشمات حـيّيات، شـديدات الجمال والصفـاء، حتى لكأنهن الياقوت والمرجان فى الصفاء والبـياض، وهذا بعض إحسان الله للمحسنين، وهـل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ومن دون هاتين الجنتين جنتان أخريان، فيهما العيون الفوّارة، والفاكهة، والنخل والرمـان، ونساؤهما خيرّات، ليس أحدٌ فى حُسنهن، فـعيونهن حور، وتسترهن الخيام، تفرشها البُـسُط الخضراء ذات الحواشي والرفارف، وذلك فضل الله يؤتيه المحسنين، فهل بعد ذلك من عذر أو حـجة للتكذيب والجحود والنكران؟ وهكذا نأتى إلى ختـام السورة، بأحسن كلام فى الله تعالى وتمجيده والثناء عليه، بقوله تعالى: ﴿تَبَـارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨)﴾ أراد به اسمه الرحمن الذى ابتدأ به السورة، كأنه يُعلّم أمة محـمد: أن كل هذا الخَلْق كـان خروجه من رحـمة الله، فـمن رحمتـه أنه خلقنا وخلق السموات والأرض، وخَلَق الخَلْق والخليقة، والجنة والنار، وكل ذلك من اسمه «الرحـمن» يثنى بكل ذلك على نفسه، ثم قال إضـافةً لاسمه «الرحمن» ﴿ ذِى الْجَـلَالِ وَالإِكْـرَامِ ﴾، لأنه الجليل فى ذاته، والكريم فى أفعاله. فله الحمد والمنّة.

●●●

٦٣٨. ﴿سورة الواقعة﴾

السورةٌ مكية، قيل: إلا الآية: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾، وقيل: إلا أربع آيات، منهـا الآيتان: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(٨٢)﴾ نزلتا فى سفره إلى مكة، والآيتان: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠) ﴾، نزلتا فى سفره إلى المدينة من مكة، والصحيح أن السورة كلها مكية، وآياتها ست وتسعون، وترتيبها فى المصحف السادسة والخمسون، وفى التنزيل السادسة والأربعون، وموضوعها: القيامة وما يتلوها، واسم القيـامة فى السورة هى الواقـعة، من استفتـاح السورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١)﴾، أي إذا قامت القيامة، وهي واقعة حتماً، وجواب إذا: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢)﴾، يعنى وليس من شىء يُكذّب أنها ستقع. ولأنها واقعة سميت بهذا الاسم، كتسميـتها فى سور أخرى الصـاخة لأن لهـا دويًا يصخّ الآذان؛ والآزفـة: لأنه قد أزف موعدها وحان؛ والطامة: لأنها تطمّ على كل شىء مفظع.

وتتكون الـسورة من تسعة مشاهد أو أجزاء، تنضم معاً وتكوّن وثيقة مستندية لأوصاف يوم القيـامة، فمن أراد أن يعـرف عن وقائع هذا اليوم، وفـئات الناس فيـه، وأنباء أهل

الجنة، وأهل النار، وأهل الدنيا، فهذه السورة فيها أوفى بيان؛ واسمها كذلك **الخافضة الرافعة**: لأنه بالقيامة يُخفَض أقوام كانوا فى معصية الله فيُلقَون فى النار ودركاتها خفيضة، وكان هؤلاء فى الدنيا مرفوعين، فيُخفَضون بالعدل؛ ويُرفع أقوامٌ كانوا فى طاعة الله، وكانوا فى الدنيا مخفوضين، فيُرفَعون بالعدل والفضل، **والخافض و الرافع** فى الحالتين هو الله، يخفض على الحقيقة، **والخافض والرافع** من أسمائه تعالى، وهو يُخفض المنكرين له إلى أسفل سافلين، ويرفع أولياءه إلى أعلى علّيين وفى **القسم الأول** تُرَجّ الأرض رجّاً، وتُزلزَل يوم القيامة، وينكسر كل شىء عليها من جبال وغير جبال، وتُبَسّ وتتفتت، وينسفها الله تعالى نسفاً حتى لتصير كالهباء المنبث، وكالغبار والشرار المتطاير. وفى **القسم الثانى**: نعلم أن الناس فى هذا اليوم **ثلاث فئات** أو طوائف: ففئةٌ هم **أصحاب الميمنة**: يؤخذون ذات اليمين إلى الجنة، ويؤتون كتابهم بيمينهم، وهم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأهل الحسنات، وأصحاب التقدُّم؛ وفئة **أصحاب المشأمة** : وهم المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة، يؤخذ بهم **ذات الشمال** إلى النار، ويؤتون كتابهم **بشمالهم**، وهم أصحاب التأخر، وزاد فى وصف هؤلاء وهؤلاء فقال: **﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩)﴾**، والتكرير فى الآية الأولى للتفخيم، وفى الثانية للتفظيع، ولتعجيب السامع من شأن الفريقين أو الفئتين، فى الفخامة والفظاعة، كأنه يقال: **فأصحاب الميمنة** فى غاية حُسن الحال، **وأصحاب المشأمة** فى غاية سوء الحال، والمقصود تكثير ما **لأصحاب الميمنة** من الثواب، وما **لأصحاب المشأمة** من العقاب. **والفئة الثالثة** هى فئة **السابقين**: كرر الله تعالى **السابقين** فقال: **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١)﴾**، وكأن المعنى: **والسابقون** ويا ما شاء الله على السابقين، أولئك المقربون إلى الله، فى ظل جواره وفى ظل عرشه، وفى دار كرامته، وهم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه ويحكمون للناس كحكمهم لأنفسهم، وكانوا **السابقين** إلى الإيمان، وإلى الصلوات، والجهاد، وإلى التوبة، وهم من أمة الإسلام أمثال أبى بكر، وعمر: **﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾** (المؤمنون)، **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾** (التوبة ١٠٠). والناس **ثلاثة**: فرجل ابتدأ بالخير فى حداثة سنّه وداوم عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا **سابقٌ مقربٌ**؛ ورجل ابتدأ عمره بالذنوب وطالت غفلته، ثم رجع بتوبته حتى خُتم له بها، فهذا من **أصحاب اليمين**؛ ورجلٌ ابتدأ عمره بالذنوب، ولم يزل عليها حتى خُتم له بها، فهذا من **أصحاب الشمال**. وفى السورة تأخر ذِكْر **السابقين** وتَقدّم ذِكْر **أصحاب اليمين**، وكان الأَوْلى أن يتقدم ذِكْر السابقين، ويذكرهم

أولاً، إلا أن السورة بدأت بمشاهد يوم القيامة تخويفاً للناس، فجعلهم لذلك إما محسنين فيزدادون رغبة فى الثواب، وإما مسيئين فيرجعون عن غيّهم، فقدّم **أصحاب اليمين** ليسمعوا ويَعُوا ويرغبوا، ثم ذكر **أصحاب الشمال** ليرهبوا، وبعد ذلك ذكر **السابقين**، لأن هؤلاء لا يُرهبهم يوم الفزع الأكبر، ولا يحزنهم، ولا يكدّرهم؛ ولأنهم بذكره ينبسطون، وتنشرح له صدورهم، وتبتهج قلوبهم، لما ينتظرهم من جوائز الله، وهم ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ⑬** ﴾ ممن مضى من الأمم السابقة، ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ⑭** ﴾ من أمة محمد، كانوا قلةً بالإضافة إلى من كانوا قبلهم، فمن سبقوا زمنيًا كان أنبياؤهم كثيرين، فكثر السابقون إلى الإيمان بهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمة محمد، وفى الحديث: «**إنى لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة، بل ثُلث أهل الجنة، بل نصف أهل الجنة، وتقاسمونهم فى النصف الثانى**»، فالأمر سباق بين الأمم إلى طاعة الله، وفى **السباق** هناك **المتقدّمون والمتأخرون**، **والسابقون من الأمم** كافة يكونون أكثر من السابقين من **أمة واحدة**،وأما أصحاب اليمين من هؤلاء وهؤلاء فهم متساوون: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ㊴ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ㊵**﴾، وقيل بل الثُلثان من أصحاب اليمين،ومن السابقين من أمة محمد، فمنهم من هو فى أول أمته، ومنهم من هو فى آخرها، مثل قوله: ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ (فاطر٣٢). وفى الحديث: «خيركم قرنى» . **والثُّلة**: من ثللت الشىء، أى قطعته، فمعنى **ثلة** كمعنى فرقة. وتستطرد السورة فى **القسم الثالث** إلى وصف **نعيم السابقين** ترغيباً **لأهل السبق**، وجنّتُهم التى خصصت لهم هى **جنة النعيم**، والجنات أنواع؛ وسُرُرهم أو **مجالسهم** فيها موضونةٌ، أى منسوجة ومرمولةٌ بخيوط الذهب؛ يجلسون متقابلين ويخدمهم ولدان لا يكبرون فى السن ولايشيخون، ويشرف على خدمتهم حور عين،واسعات العيون، فى غاية الجمال والبهاء، كأنهن اللؤلؤ فى الصفاء والنقاء، يطوفون بأكواب وأباريق وكؤوس ملؤها الخمر، يجلبونها من العيون، فلا تُستخرج بعصر وتكلّف كخمر الدنيا، ولا تنصدع بها الرءوس، ولا تذهب العقول، ويقدّمون لهم الفاكهة مما يحبون ويختارون، ولحم مما يشتهون من الطيور، جزاءً ثواباً بما كانوا يعملون. وفى جنة النعيم لا لغو ولاتأثيم، ولاباطل ولا كذب، إلا قيلاً سلاماً، فيردّ السامع يقول: سلاماً ـ فهذه تحيتُهم، وهكذا تحييهم الملائكة. **وفى الجزء أو المشهد الرابع**: تقارن السورة بين **أحوال السابقين وأحوال أصحاب اليمين**، والآخرون ظلّهم ممدود، أى دائم وباق لا تنسخه شمس؛ ويشربون الماء الجارى المسكوب؛ وفواكهم كثيرة لاتنقطع كانقطاع فواكه الدنيا فى الصيف والشتاء، ولايحظر بعضها ويباح بعضها؛

وأشجار السدر المخضود والطلح المنضود في كل مكان، والأول هو النبق لم يعد له شوك، والثاني هو الموز المتراكب بعضه فوق بعض؛ وفُرُشُهم أو مجالسهم مرفوعة، وتطوف عليهم جميلات، عُرُبٌ بسّامات لطيفات، أترابٌ متشابهات في السن. ثم تأتي المقارنة بين **جزاء السابقين وجزاء أصحاب اليمين، وجزاء أصحاب الشمال**، وفي **الجزء أو المشهد الخامس**: الأخيرون ظلهم من يحموم وهو الدخان الأسود، وتلفحهم رياح السموم الحارة تدخل في المسام، ويُسقَون من حميم يحرق الكبد بحرارته وغليانه، لا هو بارد ولا كريم، كقوله: ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**﴾ (الزمر١٦)، وهؤلاء كانوا في الدنيا مترفين، وويلٌ للمترفين المتنعّمين؛ وفي القرآن تأتي المترفون **ثماني** مرات، يتوعّدهم الله فيها جميعاً، وعندهم ما ثم غير الحِنْث العظيم، أي الشِّرْك، **وليس من مترف إلا وفي قلبه شك وكُفر بالآخرة والبعث والحساب**، وكان الرسول ﷺ - ومن بعده أصحاب البلاغ والدعوة من أمة الإسلام- يقسم لهم كمقابل لقسمهم أو حنثهم بالباطل، بأنهم مجموعون لهذا اليوم المعلوم، وعندئذ يُعذّبون، وبدلاً من طعام الدنيا **المترف** سيكون طعامهم **شجرة الزقوم** ـ أنتن وأبغض أنواع الشجر، قيل يزقم أو يزكم الأنوف من رائحته الكريهة، وليس لهم من طعام إلا لحاء هذه الشجرة، يعضّون عليه ويملأون منه بطونهم حتى الشبع،فلا يجدون لظمأهم إلا ماء الحميم المغلي، يعبّونه كالحيوانات الهيم العطاش . وهكذا تنتهي هذه **الأجزاء الخمسة** من السورة، وقد استنفدت وصف **المنازل الثلاثة للفئات الثلاث** يوم القيامة.

ثم يكون **الجزء السادس**: ويعالج أدلة وبراهين وجود الله وقدرته، يسوقها حتى لايكون هناك عذر لمعتذر: ويبدأ الحجاج في هذا الجزء بعبارة منطقية تحتمل التكذيب والتصديق، فقال تعالى: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ** ﴿٥٧﴾﴾، إلا أن منطق الحال في الكون يقضي بصدق العبارة ، **لأنه إن لم يكن لهذا الكون خالق، فكيف إذن كان الكون؟ هل خلق نفسه ؟ فلابد من التسليم بأن الخالق هو الله ولو ادّعى آخر بأنه الخالق لتشككنا في الله، ولكن لم يدّع آخر بأنه الخالق ، فلم يعد إلا التسليم بدعوة الله أنه الخالق. فلو صدّقنا ذلك، فهلاً صدّقنا أيضاً بالبعث ، لأن الإعادة كالابتداء** -وتترى الآيات بالحجج أنه تعالى الخالق، وهي خمس حجج : **الأولى حُجة المَنيّ**: فهذا المَنيّ الذي نشهده يُصَب في الأرحام، كيف جاء، ومما خُلق؟ أليس الخالق هو الله؟ ثم **الحجة الثانية** هي: **حجة الموت والخلق** ، فمن يستطيع أن يميتنا في الحقيقة؟ أليس هو الله؟ ومن يخلق من يحل محلنا ويأتي بعدنا، أليس هو الله؟ ألا يخلق الناس جيلاً بعد جيل،ونشأ بعد نشء ولم يكونوا من قبل شيئاً؟ فلماذا لايستطيع أن يبعثنا من جديد؟ والذي أنشأنا النشأة الأولى قادرٌ على أن ينشأنا النشأة الثانية! والحجة

الثالثة هي: حجة الزرع، فهل نحن الذين نبت هذا الزرع ونخرجه سنابل وثمراً؟ فإذا أقررنا بأنه الله، فلماذا ننكر عليه أن يُخرج الأموات من القبور؟ ولماذا لا نعتقد بوجوده وقدرته وقد أخرج لنا الحبّ والثمر، وكان بوسعه أن يفسدهما فنندم على ما كان منا، وما غُرمنا من النفقة وحُرمنا من الثمرة، كقوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا**﴾(الكهف٤٢). **والحجة الرابعة: حجة الماء**: وهو الذى به حياة النفوس، فمن أنزله من السحاب؟ ولو يشاء الله لجعله مالحاً، ولكنه صنعه عذباً فراتاً ليصلح للزرع والشُرب، فلولا نشكره تعالى على هذه النعمة؟ **والحجة الخامسة: حجة النار**: والنار نوقدها وقتما نشاء، فمن أنشأ وقودها؟ ومن سبّب أسبابها ووضع قوانين عملها واندلاعها ونشوبها؟ ولنار الدنيا هذه النار الصغرى خير برهان على وجود نار الآخرة أو **النار الكبرى**، ثم إن نار الدنيا فيها فوائد، فهى تبصرة للناس من الظلام، ومتاعٌ لهم فى الخبز والطبخ والاصطلاء والاستضاءة. **فهذه خمس حجج على عظمة الله تعالى**، فلنتّزهه ولنسبّحه باسمه العظيم. ثم يقسم تعالى **بمواقع النجوم فى الجزء السابع**، يقول: «**لا أقسم**» تأكيداً للقسم، وإثباتاً لعظمة النجوم، بمنازلها وأماكن دورانها فى أفلاكها، وباجتماعها وانطراحها وانجذابها، وبما يجرى فيها من تفجيرات نووية، وما كانت عليه قبل أن تكون نجوماً، وما آلت إليه، وأوضاعها فى السماء، إنْ كانت للزينة أو كانت مخازن للعناصر، ومضابط للحركة فى الكون والفضاء، فكما أن النجوم لُيهتدَى بها فى ظلمات البرّ والبحر فكذلك **القرآن** يُهتَدى به على ظلمات الكُفر، والضلال، والظلم، والجهل ومن ثم كان كتاباً كريماً على ربّه، وكريماً على المؤمنين، وكريماً فى ذاته، لما فيه من كريم الأخلاق، وعظيم القيم والمعاني، وإنه لمكنون محفوظ الأصل، مصانٌ عند الله تعالى، لا تتنزّل به إلا ملائكة كرام بررة، فيُكتَب فى الصحائف، ويُصنَع مصاحف تُقتنَى لِتُقرأ ويتعلمها المتعلمون، ويعوا ما فيها ويترسمونه معاملةً وخُلقًا، فالمصحف أيضاً كتاب كريم، لايمسه ولايقرأه إلا المطهّرون، طهّروا أنفسهم من الأحداث والأنجاس، وطهّروها من الشرك، وآمنوا بآياته، يتفهمون معانيها ويهتدون بتعاليمها، ويوحّدون ربّهم، **فالتوحيد هو رسالة القرآن** ومضمونه، ومن لم يؤمن بالله فلن يفهم تفسير القرآن، ولن يدرك تأويله. وينبّه الله تعالى إلى أن سورة الواقعة بما فيها من أحاديث لن تعجب الكافرين والمنافقين، فهؤلاء لا يهوون الصراحة، وصنعتهم النفاق، يودّون أن يُدهن النبىّ ﷺ - أى ينافق - فيدهنون، وبدلاً من أن يشكروا الله على ما أولاهم من نِعَم، جعلوا شُكره أن ينافقوا ويكذبوا، ويحذرهم الله أن يحين أجلُهم فحينئذ تبلغ الروح الحلقوم، والأهل من حول الميت

يتطرون ولا يقدرون على شيء، والله أقرب إليه ممن حوله ولايبصرونه، فإن كان المنكرون غير محاسبين، ولن يجازوا بأعمالهم، وإن كان بوسعهم أن يمنعوا أن يُحاسبوا، فإنهم قطعا يقدرون كذلك على أن يمنعوا موت أهليهم، حتى لا تقوم قيامتهم ويحين حسابهم وتبدأ مجازاتهم؟ ولن يستطيعوا! فلا يتبقى لهم إذن إلا أن يتركوا الأمر، لصاحب الأمر القادر عليه، وأن يعلنوا عن إيمانهم بربّهم.

وتعود السورة في الجزء الثامن إلى ما قالت به في البداية، وهو تقسيم الناس يوم القيامة إلى فئات ثلاث: ففئة المقربين: وهم السابقون لهم الرَّوْح أى الرحمة ، والريحان أى طيب الاستقبال وحُسن الجزاء ، قيل: يُلقَون بعد الموت بأغصان الريحان المعروف، وهو النبات طيب الرائحة؛ وفئة أصحاب اليمين : وهؤلاء سالمون من العذاب ، ومنهم آل النبىّ ﷺ ؛ وفئة أصحاب الشمال: وهم المكذّبون الضالون، وهؤلاء مشربهم من حميم، أى الماء المغلى ، ويَصْلَوْن الجحيم.

وتختتم السورة فى الجزء التاسع بحاشية على ما سبق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾، أى خالص اليقين، أضاف الحق إلى اليقين ، كقولنا «عين اليقين»، و«محض اليقين» ،من باب إضافة الشيء إلى نفسه لتوكيده، فأُضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز. واليقين ضربان: فأما المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأيقن الكافر يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين! فسبحانه ربنّا العظيم، وعظنا بها فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴿٩٦﴾﴾ ،ولمّا نزلت هذه الآية قال النبىّ ﷺ : «اجعلوها فى سجودكم» أخرجه ابن ماجه فسبحانه، له الحمد والمِنّة، ونسأله تعالى أن يحيينا ويميتنا على الكتاب والسُنّة، اللّهم آمين.

●●●

٦٣٩. ﴿سورة الحديد﴾

السورة مدنية، نزلت بعد الزلزلة، وآياتها تسع وعشرون آية، وترتيبها فى المصحف السابعة والخمسون، وفى التنزيل المدنى الثامنة، وفى التنزيل عامة الخامسة والستون، واسمها «سورة الحديد» لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴿٢٥﴾﴾، والحديد آية من آيات الله، وهو تعالى قد شرع القتال ولابد أن تكون له آلة، وآلة القتال غالبًا من الحديد، ومنافعه كثيرة فى السلم كما فى الحرب، ومنه تُصنع الكثير من العدد والآلات، وما من زراعة أو صناعة إلا والحديد يدخلها. والحديد أحد عناصر الشمس، وقوله «أنزلنا» فيه إعجاز علمى لاشك فيه، لأن الحديد هو المكوّن

الرئيسي في رماد النجوم، ومنه ومن النيكل تكونت النيازك والشُّهب، وتكونت الأرض من حديد هذه النيازك، وجوفها يسيل بالحديد والنيكل، ويتألف كوكب عطارد من الحديد، ويسمى لذلك **الكوكب الحديدى**. والحديد مفيد للصحة، ويتحد بالبروتين ويكون هميوجلوبين الدم، فالحديد إذن نعمة كبرى. وفى الآية أن الله تعالى أنزل على الإنسان أربع نِعَم كبرى: **الأولى: الرسُل** أرسلهم بالشرائع، ولولا ذلك لعاش الإنسان بشريعة الغاب، ولَمَا عرفنا الحرام من الحلال، ولا الجميل من القبيح، ولكانت الحياة للأقوى والأشرس وليس للأصلح. ولولا الرسل لما عرفنا عن الأخلاق والتربية، ولا عرفنا عن الله ربّ الأكوان؛ وما وحّدناه تعالى؛ **والثانية: الكتُب السماوية** التى نزلت بالحق، وتعلّم الإنسان أن يكتبها صحائف، ويصنعها مجلدات، وتعلم القراءة، والكتابة والحروف؛ **والثالثة: الميزان والعدل**، وبالميزان يمكن للعقل أن يزن الأمور، وتأسس الاجتماع على العدل، وقامت عليه المدنيات والحضارات، ويُرمَز للعدل بسيدة معصوبة، يعنى لا تعرف المحاباة. والعدل أساس الملك؛ **والرابعة: الحديد**، أنشأه وكل ما هو من جنسه من المعادن، وأنزله الله إلى الأرض، واكتشفه الإنسان. فلما كانت **قوة القيم**: بالرسُل والكتب والميزان، كانت **القوة المادية** لتظاهر **قوة القيم** وتدفع عنها، والحديد فيه **البأس**، أى الردع الشديد لمن يأبى الحق ويعانده، وحينئذ يكون **القتال والحرب**، فهما من شرعة الله، وأساسهما **الحديد**، ولذا كانت حقبة التاريخ التى تم فيها اكتشاف الحديد لاحقة لثبوت القيم، فصنع الإنسان منه الفأس للزراعة، والسندان والمطرقة للصناعة، والسيف للقتال وجميعها قيم مادية تظاهر القيم معنوية **فأي نعمة كبرى هى نعمة الحديد؟!** فلا غرابة أن تُسمَّى به سورة كاملة. (**انظر الحديد فى باب القرآن والعلم**). وسورة الحديد من السور **المسبّحات** التى تستفتح بقوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ①﴾ والمسبّحات ثلاث سور، هى: **الحديد، والحشر، والصف**. والحديد أولاها، **والتسبيح** تذكيرٌ به تعالى، ولفتٌ للانتباه إلى أن الكون كله خاضع له، يدبّره ويصرّفه ويسيّره على مقتضى إرادته. **والتسبيح من السباحة** وهى الانبساط والانتشار والإبعاد فى السير، **والمُسبّح** يمعن فى التفكير فيه تعالى، فلا يملك إزاء عجائب ملكوته إلا أن يقول: **سبحان الله!!** تعجباً وتنزيهًا له تعالى عن كل نقص. والتسبيح ضربان: **تسبيح دلالة** ـ تقول: **سبحان مالك المُلك! سبحان الذى رفع السماء بلا عمد! سبحان مقلّب القلوب!** تدلّ على صنعته تعالى؛ **وتسبيح مقال** ـ تقول: **سبحان الله وبحمده! سبحان ربّى العظيم!** والتسبيح فى السورة من النوع الأول، ويأتى فى **ست آيات**، فيها: أنه تعالى **العزيز** الحكيم، الذى **له ملك السموات والأرض**، والذى **يخلق من عدم**،

فكان الله ولم يكن الكون، وهو **يميت**، والموت من عالم الشهادة، **ويبعث**، والبعث نشهده في الأرض يحييها الماء، فتضج بالمخلوقات والنباتات. وهو تعالى **الأول**: ليس قبله شيء، **والآخر**: ليس بعده شيء، **والظاهر**: لم يظهر عليه شيء، **والباطن**: فليس وراءه شيء، وهو وراء كل شيء، وحقيقة كل شيء، خلق السموات والأرض في **ستة أيام**، **واليوم** هو الوقت الاصطلاحي، أو الوقت مطلقاً، من يَمّم أي قصد وتوخّى، فهو الوقت الذى يستغرقه إتمام القصد، **والأيام الستة** قد تكون من **أيام الأرض**، كناية عن سُرعة خلقه تعالى للكون بقوله كن، وقد تكون من **أيام الآخرة**، كل يوم بألف سنة من سنين الأرض، والعدد **ألف** يقال مجازاً عن طول المدة، والحقيقة أنه لاعلم لنا بالمدة التى استغرقها الخلق، فكلها أقوال تقريب الخَلْق العظيم من أفهام المخلوقين، وهو في الأول والآخر الخالق المبدع والعالم القادر، سبحانه. **والعرش** هو الكون بأسره، ما نعرف منه وما لانعرف. **والاستواء**: هو التمكّن والسيطرة، فصار الكون إليه، وصار تدبيره عليه، وتحقق علمه به، وبما يلج ويعرج فيه، وبما يتنزّل منه، وهو في كل مكان، ومع كل إنسان، **والزمان** من إبداعه، **والليل والنهار** من اختراعه،وخلَق لهما أدواتهما من شمس وقمر، وأرض وسماء، وشروق وغروب، وأحاط علمه بكل شيء، ولايخفى عليه ما في الصدور، ولا ما تتحدّث به النفوس، وتحتشد له النوايا والسرائر. وبمثل ذلك بدأت السورة، فكانت قمة في التسبيح والتمجيد لله. فأرشدت المؤمن الحائر، ودلّت القلب الواعي، فكأن هذا الجزء من السورة هو مقدمة للجزء الثاني عن دعوة الإسلام، في مثل قوله تعالى: ﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** (٧)﴾، ليس لأن الله يحتاج إلى من يشهد له، وإنما لأن في الإيمان بالإسلام صلاحٌ للبشرية وللأحوال في الأرض، والصلاح قوامه **المال**، والمال يؤتيه الله من يشاء **ويستخلفه** فيه،لينفقه صاحب المال في الخير، وربطت السورة بين الإيمان والإنفاق، بقوله تعالى: ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** (٧)﴾، **ونظرية الأجر** من نظريات القرآن، والأجر هو الثواب والعقاب على العمل، ومن يجحد الثواب والعقاب جاحدٌ لله ولتعاليم القرآن. **والإنفاق من ركائز اشتراكية الإسلام، وأساس هذه الاشتراكية أن المال لله، وأن الإنسان** مستخلفٌ عليه ووكيلٌ عن الله فيه. وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٨)﴾ استفهامٌ للإنكار والتوبيخ، والآية فيها أن النبوة ضرورية لمعرفة الله، ولسد حاجة الإنسان للشرائع،وأن **الإيمان** طبعٌ مركوز في الإنسان، وهو **الميثاق**: شدّ الله به وثاق الإنسان بنَصْب القدرة فيه على الاستدلال، وأن يتفهم الحجج والبراهين فيتأكد من وجوده تعالى، ويتوثّق من وحدانيته. والآية تحضّ

الإنسان على أن يؤمن حالاً وليس مستقبلاً، فإن كان به ميلٌ للإيمان، فليؤمن الآن وليس غداً، والآن أحرى الأوقات لاستكناه الدلائل واستنباط البراهين، **ومهمة النبيّ**: هى تبديد ظلمة الجهل بالله ودحض إنكاره، وما يتلوه النبيّ من كتاب هو نورٌ لأصحاب البصر والبصيرة. وليس لجحود الإنسان بالله من سبب سوى أن للإيمان تكاليف، والإنسان لايريد ديانة مكلّفة تستنفد منه المال، مع أن هذا المال سيتركه إذا مات ليرثه غيره، وكان الأوْلى به إذن أن ينفقه لصالح نفسه فى الدنيا والآخرة. وشتّان بين أن تؤمن وتنفق والإسلام لمّا ينتصر بعد، ولامطمع لك فى شيء، ومنطق الحال يجزم أنك تنفق على قضية خاسرة وغير مضمونة – وبين أن تؤمن وتنفق بعد انتصار الإسلام وأنت متأكد مما سيأتيك من المغانم، وكُلاًّ وعد الله الجنة – الذى أنفق من قبل والذى أنفق من بعد، ولكن مع تفاوت الدرجات. وسمّى الله الإنفاق قرضاً من الإنسان لله، يردّه له **مضاعفاً** يوم القيامة، والنور يسعى بين أيدى المؤمنين والمنفقين فى طريقهم إلى جنة الخُلد. وفى السورة وصفٌ لجانب مما فى الآخرة من تمييز بين الجنة والنار يفصل بينهما **سور**، باطنه من جهة المؤمنين المنفقين رحمة، وظاهره من جهة المنكرين الأشحاء مِن قِبَله العذاب. وتحذر السورة المؤمنين أن يكون حالهم حال **اليهود**، فلمّا نسوا الله قست قلوبهم وشاع بينهم الفسق، وتحضّهم على التزودّ بتعاليم الله من القرآن، وباتباع سُنّة الرسول ﷺ، لتظل قلوبهم حيّة فلا تموت عنها الرحمة، ومثل ذلك المطر ينزل على الأرض الميتة فيحييها، وكذلك الإقبال على العلم والأخذ بالدين. وأبلغ ما تدعو إليه هذه السورة هو **الإنفاق**، وإن شئت تصنيفها فهى **سورة الإنفاق**، فكما أن هناك سوراً فى **التعبئة العسكرية**، وسوراً فى **القتال**، وسوراً فى **التوحيد**، وهكذا، فكذلك هذه السورة فإنها فى **اشتراكية الإسلام**، ومدارها: **أن المال لله، وأن الأغنياء وكلاؤه، وأنه بشرع الله ينبغى أن يكون دُولةً بين الناس** جميعاً، فلا تستأثر به طبقة دون طبقة، بل يستطرق فى كل الطبقات. وتعرّف السورة **المُصدّق والمصدّقة**: بأنهما اللذان يقرضان الله قرضاً حسناً. **والقرض** اسمٌ لكل ما يُلتمس عليه الجزاء، وما يُسلَف من العمل الصالح، ويكون فى المال يُقرض للناس، أو يُقرض لله، وتمثيل الصَدَقة بالقرض، تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، وتشبيهٌ لعطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به الثواب فى الآخرة، وكنّى الله عن الفقير المتلقى للصدقة بنفسه العليّة المنزّهة عن الحاجات، فقال: إن الصدقة قرضٌ لله، ترغيباً فى الصدقة. وهى قرضٌ حسن، لأن نيّة التصدّق بالصدقة نيةّ حسنة، وليس فيها مَنٌّ ولا أذى، وجزاء القرض: ﴿**يُضَاعَفُ لَهُمْ**(١٨)﴾ أى كقوله: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ (الأنعام ١٦٠)، وقوله: ﴿ **فَيُضَاعِفَهُ**

لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾(البقرة ٢٤٥)، يعنى قد تكون الحسنة بعشرة أمثالها، أو بأكثر من ذلك حتى سبعمائة ضعف، كقوله: ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾(البقرة٢٦١)، وإذن فالمصدّقون والمصدّقات هم حقاً **الصدّيقون**، أى الذين صدّقوا وأخلصوا حتى الشهادة. ثم تنتقل السورة إلى وَصْف الدنيا وتسمّيها **دار لعب ولهو وزينة، وتفاخُر وتكاثر فى الأموال والأولاد**، وتدعو الناس أن يتسابقوا فى الإنفاق، لتكون لهم الجنة. **واللهو** بالنسبة للصدّيق هو ما يُلهى عن الآخرة؛ **والزينة** هى ما يُرضى غرور الجهلاء من فاخر الثياب والرياش؛ **والتفاخر** هو المباهاة بالأحساب والأنساب والأموال والأولاد. والله يعلم حقائق الناس، ويعرف ما يمكن أن يصيبهم من مكاره، وما يحدث فى الأرض من مصائب، وكلٌّ تصيبه المصائب وتأتيه النِّعَم بقدر وسعه، فلا ينبغى أن نحزن على ما يفوتنا، ولا نغتر بما نحصّله، ولنترك القنوط تركنا للأَشَر والبَطر، ولننفق ونوّسع على الناس، ولا نبخل ولا نأمر بالبخل. وما أرسل الله تعالى الرسُل، ولا نزّل الكتُب، ولا الميزان، ولا الحديد، إلا لتوضيح الحق ولنصرة الدين. والرسُل تتابعت منذ نوح وإبراهيم، ومن بينهما وبعدهما حتى عيسى بن مريم، وجميعهم يدعو **بدعوة واحدة**، فاهتدَى بهم من اهتدى وفسقت الكثرة عن أمر ربّها، والمهتدى ـ كأنصار عيسى، كانت بهم رأفة ورحمة، وابتدعوا **الرهبنة** ابتغاء رضا الله، وأما من ضلّ فهؤلاء أفسدوا كل شىء حتى الرهبنة التى ابتدعوها. وتُختَتم السورة بالدعوة إلى تقوى الله، والإيمان برسوله، فيكون للمؤمنين المتّقين نصيبان من الرحمة، نصيبٌ كأجر للتقوى، ونصيبٌ كأجر للإيمان. ومن مزايا **الإيمان** أنه نور لصاحبه يهديه السبيل، وبالإيمان يُغفَر له. ورسالة **محمد** ليست إلا الإخبار بكل ذلك والوعد به، **والنبوة** لم تكن وقفاً على اليهود كما يدّعون، ولكنها فضل الله يأتيه من يشاء من عباده.

والسورة فيها الكثير من **المصطلحات ووجوه البلاغة**، كقوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**(١١)﴾ وهو تعبير جميل فيه ندبٌ إلى الإنفاق فى سبيل الله؛ وفى قوله تعالى: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**(٦)﴾ دليلٌ على **كروية الأرض**، فما كان من نصف الأرض مواجه للشمس كان نهاراً، والآخر البعيد يكون فى الظلام، وبدوران الأرض حول نفسها ودوراتها حول الشمس يصبح النهار ليلاً، والليل نهاراً؛ وفى قوله: ﴿**مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**(٤)﴾ دليلٌ على أن باطن الأرض يستقبل ما ينزل من السماء، ولقد استقبل **الحديد والنيكل** ونفذا إلى باطن الأرض، فكان هذا الباطن كله منهما. وأما قوله عن السماء: ﴿**وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا** (٤)﴾

دليل على أن كل ما في الأرض أصلاً من السماء، والسماء ليست واحدة ولكنها سبع سموات. والطريق بينها علمياً معرّج، وكل هذه الآيات من معجزات القرآن العلمية؛ وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ (١٦)﴾ عتابٌ للإدلال. وفي الآية أن المؤمنين لم تخشع قلوبهم بعد لذكر الله، وأنه تعالى يستبطؤهم بالخشوع، وكان ذلك بعد الهجرة بسنة، وهؤلاء آمنوا في العلانية باللسان ولكن كانت ما تزال بهم آثار كفر، وبعضهم مال إلى المزاح والضحك لمّا أترف في المدينة. فكان التحذير من أن يكون مصيرهم مصير أهل الكتاب، فلمّا طال عليهم الأمد قست قلوبهم، حتى اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، ليُشبع فيهم غرورهم، ويرضي نزعاتهم إلى الاستعلاء والاستكبار اللذين نشهدهما فيهم الآن. وهذه الآية كانت سبب إيمان كثيرين، ومنهم عبدالله بن المبارك، والفضيل بن عياض، فكان ابن المبارك يحب أن يجالس أصحابه، ويضرب العود ويستمتع بالطعام والشراب، فسمع مقرئاً يقرأ الآية، فكسر العود، وصرف مَن كان عنده، فكان ذلك أول زهده وتشميره. وأمّا الفضيل، فكان يعشق جارية فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع قارئاً يقرأ الآية، فرجع القهقرى يقول: بلَى والله قد آن!؛ وفي قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (١٧)﴾ الدليل على البعث، فبعد أن تموت الأرض - أي نباتها وحيوانها في الشتاء ومع الجدب، إذا بالمطر ينزل فيخرج النبات وتنشق الأرض بالمخلوقات، وإذن يمكن البعث بعد الموت، والحمد لله ربّ العالمين، والله سبحانه الموفقّ للصواب.

•••

٦٤٠. ﴿سورة المجادلة﴾

السورة مدنية إلا من قول البعض أن العشر آيات الأولى منها مدنية والباقي مكية؛ وقيل: كلها مدنية إلا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ من الآية السابعة. والصحيح أن آياتها جميعاً مدنية، وعددها اثنتان وعشرون آية، وترتيبها في المصحف الثامنة والخمسون وفي التنزيل المدني التاسعة عشرة، وفي التنزيل بعامة الخامسة بعد المائة. وتتناول موضوعات كثيرة، منها: أحكام الظهار والكفّارة عليه، وأصول التناجي، وآداب المجالس، والصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وحزب الشيطان من المنافقين أولياء اليهود، ممن يحادّون الله، وحزب الله من المؤمنين، ممن لا يوادّون من حاد الله ورسوله. والسورة نزلت استجابة لحاجة يومية، وتشريعاتها أملتها ضرورات من حياة الناس، فالإيلاء مثلاً والظهار كانا يكثران في الجاهلية، ويعتبران طلاقاً، وظاهَرَ في عهد الرسول ﷺ

كثيرون وكان أولهم **أوس بن الصامت** شقيق عبادة بن الصامت، وامرأته **خولة أو خويلة**، وقيل **جميلة بنت ثعلبه بن مالك**، وقيل: بنت حكيم، أو **بنت دليج**، أو **بنت خويلد**، والأصح أنهــا **خولة بنت ثـعلبة**، وكان زوجها أوس قد حلف عـليها فقال: «**أنت عليّ كظهـر أمي**»، فخـشيتْ أن يكون ذلك طلاقاً، فـأتت الرسول ﷺ، فقالت: يا رسـول الله، إن أوساً ظاهر مني وإنّا إن افـترقنا هـلكنا، وقد نثـرتُ بطني منه وقـدّمت صُحـبتـه !وشكت إلى الرسولﷺ وهي تبكي، وجعل رسول الله ﷺ يقول لها: «**يا خويلة، ابن عـمك شيخ كبير فاتقي الله فيه**». ولـم يكن قد نزل في القرآن شيء عن **الظهار**، وما برحت المرأة تجادل عن نفسها وتقسم للرسول ﷺ فتـقول: والله ما ذكر أوسٌ طلاقاً! ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي، وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضتُ له بطني! وقالت: يا رسول الله، قد نسخ الله سنن الجـاهلية ؛ وما طلّقني زوجي ولكن ظاهر مني! فـقال لها: «**ما أوحي إليّ في هذا شيء؟**» فقالت: يارسول الله، أوحي إليك في كل شيء وطُوي عنك هذا؟! فـقال: «**هو مـا قُلت لك**»، فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسـوله ! فأنزل الله صدر سـورة المجـادلة: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)**﴾، وتُسـمّى **آية الظهـار**، وقال رسـول الله ﷺ لأوس تكفـيراً: «**اعتق رقـبة**»، فقال أوس: مالي بذلك يدان، يعني أنه فقـير لا أرقاء عنده. فقال له: «**فصُم شهرين متتابعين**»، فقال: أما أني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكلّ بصري - يعني أنه أضعف من أن يصوم. فقال له: «**فأطعِم ستين مسكيناً**»، فقال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون أصلُه. فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً (مكيالاً).

والظهار من الظهر، والموجب لحكم الظهار تشبيه الظهر المحلَّل بظهر محرَّم، فمن قال لزوجته: أنت علـيّ كظهر أمي، صار **مـظاهـراً**. والرجل لايركب ظهـر المرأة وإنما يركب بطنها، ولكن كُنّي عن ركوب البطن تأدّباً، بركوب الظهر، لأن ما يُركب من الحيوانات فإنما يركب ظهره، فكنّي بالظهرعن الركوب وليس عن النساء بالحيوان. ومعنى «**أنت عليّ كظهر أمـي**»، أن المرأة صارت محرّمة عليه ولايحلّ له ركـوبها إلا بعد كفّارة والظهار لذلك على الرجال، وليس عـلى النساء ظهار. والمُظاهـر لايقرب امرأته ولايبـاشرها حـتى يكفرّ، ولا يصحّ ظهار غير المدخول بها. والظهار **ضربان**: **صريح وكناية**، **فالصريح** بقوله: أنت عليّ كظهر أمي؛ **والكناية** كقوله: أنت عليّ كأمي، أو مثل أمي. وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا (٣)**﴾، لا يعني أن كفـارة الظهار لاتكون إلا إذا ظاهر الزوج امـرأته للمرة الثـانية، وإنما يعني العَـوْد والعزم على مـواصلة

الحياة الزوجية، ومن ثم تكون الكفارة واجبة قبل العَوْد. وحُكم الظهار ناسخٌ لما كانوا عليه في الجاهلية من كون الظهار طلاقاً، **ولا ظهار الآن**، وإن حدث مثله بين الزوجين فلا يحق لهما كتمانه، كما لايحق لهما الانتقاص من الكفّارة عنه طالما في استطاعتهما. **والكفّارة** على الزوج، وواجب المرأة أن تعينه بحسب قدرتها، ويُسمّى القرآن العمل بغير حدود الله **محاداة**، أي مخالفة الحدود ومعاداتها ورفضها. **والمحاداة**: من حدّ، وأصلها الممانعة، ومنها **الحديد**: وهو المعدن المنيع، **والحدّاد**: والله تعالى يُحصي على المحادين محاداتهم، وهو المطّلع والشهيد.

وتتطرق السورة إلى **النجوى**: وهي ما يكون من خلوة ثلاثة: يسرّون شيئاً ويتناجون به، كأن يكون الظهار مثلاً أو كفارة الظهار، ولا يريدون التصريح به، ويؤثرون أن يسرّوه، **والسِّرار**: ما كان بين اثنين. وأصل **النجوى** من **النَّجْوة**، وهي ما ارتفع من الأرض، فالمتناجيان يتناجيان، ويخلوان بسرّهما كخلو المرتفع من الأرض عمّا يتصل به، والله يعلم ما يقول الواحد لنفسه، ويعلم ما يتناجى به الاثنان، والثلاثة، والأربعة، والخمسة، ولا تخفى عليه خافية، وهو معهم بعلمه حيثما كانوا، من غير زوال ولا انتقال. والسورة تنبّه إلى صفة من صفات **المنافقين** عموماً، **واليهود** خصوصاً، هي **النجوى**، والنجوى من **مصطلحات علم النفس والطب النفسي الإسلاميين**. وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ** (٨) ﴾ في اليهود والمنافقين، كانوا حِلْفًا واحداً، وكثيري النجوى فيما بينهم، ويتغامزون على المسلمين بأعينهم، وقد شكا المسلمون ذلك إلى الرسول ﷺ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا، فنزلت الآية. وكانت بين اليهود والنبيّ ﷺ موادعة: أي هدنة، فكانوا إذا مرّ بهم مسلم تغامزوا عليه وتناجوا، حتى ليظن المسلم أنهم يدبّرون له شراً، فيلوى عن طريقه. وكانوا يدافعون عن بعضهم البعض إذا سألهم الرسول ﷺ عن سبب إتيانهم للنجوى، وسمى الرسول ﷺ دفاع الرجل عن الرجل بالباطل **الشرك الخفي**، يعني أنه يعمل له بدلاً من أن يعمل لله. وذكرت الآية ضمن مساوىء اليهود وانحطاط خُلقهم ما هو أسوأ من النجوى، وهو أن يحيّوا الرسول ﷺ بما لم يحيّه به الله، فإذا دخلوا عليه قالوا **«السام عليك»**، يريدون بالسام السلام ظاهراً، وهم يعنون تمنّي الموت له باطناً، **والسام هو الموت**، فكان الرسول ﷺ يردّ عليهم في أدب، وبحسب نواياهم: **«وعليكم»**، واعتبروا ذلك ضعفاً فيه وفي ربّه، وإلا لعاقبهم الله غَيْرةً على نبيّه. وكان الرسول ﷺ يقول: «**لا أحد أصبر على الأذى من الله. يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم**». وعلّم المحيطين به

فقال: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت»، وفي ذلك نزلت الآية: **﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾**ولمّا ذكرت السورة أن المنافقين واليهود يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ثنّت فنهت المؤمنين أن يفعلوا ذلك، وأمرتهم أن تكون نجواهم بالبرّ وتقوى الله الذي إليه يُحشرون. ووصفت النجوى بأنها من الشيطان، وردّت الدافع إليها عند غيرالمؤمنين هو إدخال الحزن على المؤمنين، والدافع النفسي أقوى من أي دافع مادي، وإحباط المسلمين إصابتهم بالاكتئاب وبلبلة تفكيرهم، والفتّ في عضدهم، وهو نوع من الحرب النفسية المقصود بها اختراق الدفاعات النفسية للمسلم، وإضعاف جبهته الداخلية، وخلخلة مقاومته، وإنهاك قواه الذاتية. وذلك كله لايمكن أن يتحقق مع إيمان المؤمنين، فالإيمان يكسبهم **مناعة ذاتية**، وهو بمثابة الدرع الواقي. **والتناجي** لايضر أحداً، إلا لو كان هذا الضرر قد كتبه الله على المضرور من قبل وقوع الضرر، ولاضرر من التناجي إذا توكل المؤمنون على الله حقّ التوكل، وفوّضوا إليه أمرهم، واستعاذوا به من أذى المتناجين، ويشبه التناجي في العمليات النفسية ما يسمونه **«التأثير عن بعد»** و**«التأثير بالإيحاء»**، وكلاهما من أبواب التحليل والطب النفسي. والوصفة الطبية التي يصفها القرآن لإبطال مفعول التناجي هي **وصفة نفسية**، وهي المزيد من الإيمان بالله، والأخذ بأسبابه والاعتقاد جازماً أنه ما أصيب مؤمن ولانجا إلا بإذنه تعالى، وعن الرسول ﷺ قال: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه**»، أي حتى لا يقع في نفسه ما يَحزن لأجله، ولايظن أن حديث الاثنين عنه بما يكره، أو أنه ليس أهلاً ليشركوه في حديثهما، والخطاب للمؤمنين، والتعليم لهم، فلايتناجى **أربعة** دون واحد، **ولا عشرة**، **ولا ألف**، والآية ضمن باب آداب السلوك في **الإسلام**. وطالما أننا بصدد الآداب العامة للسلوك في الاجتماع، فإن السورة تطرّقت إلى آداب **المجالس**، تقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١)﴾**، والخطاب والتعليم للمؤمنين، أُمروا أن يفسحوا لإخوانهم في المجالس أياً كانت، سواء كانت للعلم، أو للذكر، أو للمداولة في أمور السياسة والتجارة، أو للصلح، فإن لكل واحد من السامعين أو المشتركين مكانًا فيها حتماً، وهو أولى به بحسب أحقيته، والمعيار في ذلك هو **الإيمان والعلم**، فأهل الصلاح والعلماء لهم السبق إلى صدور المجالس، **وهؤلاء يرفعهم الله** درجات عن غيرهم من السواد والعامة، ولهم الرفعة، والمؤمن مرفوعٌ بإيمانه أولاً، ثم

بعلمه ثانياً، لأن العلم يؤدي إلى الإيمان وليس العكس، والإيمان هو الغاية من العلم، فأهل الإيمان مقدَّمون على أهل العلم.

وتتطرق السورة إلي مجال آخر من مجالات الأدب مع رسول الله ﷺ، تقول: **﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾**، ومناجاة الرسول ﷺ هي أن يُخلصه بسرّ، وكان المسلمون يكثرون المسائل عليه حتى شقّوا عليه، وكان بعضهم يشغلونه ويناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونه بالنجوى، فشقّ عليهم ذلك، فأُمروا بالصدقة عند النجوى ليُقطَعوا عن استخلائه. وكان اليهود والمنافقون يناجونه ويقولون: هو أُذن يستمع لكل شيء ولايمنع أحداً من مناجاته. ولم يُذكر لصدقة النجوى أى مقدار معين، فالأمر متروك للمتصدّق، وإن لم يجد فلا شيء عليه، وبعضهم كالمنافقين، كانت الصدقة بوسعه ولكنه بخل، فنزلت الآية: **﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (١٣)﴾**. والتوبة تعنى إعفاؤهم منها، وذلك ليس نسخا للآية قبلها كما قيل، وإنما هى تأكيدٌ لما قبلها فى قوله: **﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾**، وتكفي الزكاة وأداء الفرائض لأمثال من أراد أن يُستعفى من صدقة النجوى. وقيل إن أحداً لم يتقدم بشيء من هذه الصدقة، والذين نسبوا لعليّ أنه كان أول مَن تصدّق، ولم يكن أحد بعده، ادّعوا ذلك ليقدّموه على غيره، وهؤلاء من شيعته، وقالوا إنه تصدّق بخاتم. وواضح من الآيتين بعد ذلك فى قوله: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾** وقوله: **﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦)﴾** أن الذين كانوا يشوّشون على تعاليم القرآن وتعليم الرسول ﷺ هم **المنافقون واليهود**، ومن الأولين **عبدالله بن أبيّ**، **وعبدالله بن نَبْتَل**، وكانا يجالسان النبيّ ﷺ ثم ينقلان ما يسمعان إلى اليهود، وإذا عوتبا كذّبا التهمة وحلفاً بالله أنهما لصادقان. وفى أمثالهما نزلت الآيات المتبقية من سورة المجادلة، تنبّه إلى العذاب المنتظر لهؤلاء، ولكل من يُحادّ الله ورسوله، والله غالب على أمره، وتحذّر المؤمنين أن يوادّوا من حادّ الله حتى لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وتقسّم الناس إلى حزبين: **حزب الشيطان**: وأعضاؤه الكاذبون الذين نسوا الله، وهم من المترفين أصحاب المال والحسب والنسب، **وحزب الله**: وأفراده من المؤمنين الذين يعمر الإيمان قلوبهم، والذين يؤيدهم الله بروح منه، ولايحادّون الله ورسوله، ولايوادّون من حادّ الله. والأوّلون حزبهم هو الخاسر، والآخرون حزبهم هو الفالح.

ومن مصطلحات هذه السورة: **الجدل** فى قوله تعالى: «**التى تجادلك**»، وهو حوار بين أطراف لبلوغ الحقّ، ودعوة إلى كلمة سواء، وكانت حجة **خولة بنت ثعلبة** قوية فى رفض

الظهار، وكان الرسول يدفع عن نفسه ويقول: «ما أوحى إلىّ فى هذا شىء». وإيراد آداب النجوى والمجالس والسلام والتحية ضمن سورة المجادلة؛ لأن هذه الآداب من الأمور التى قد يدور حولها الجدل وتحتاج إلى إقناع من نريد إقناعهم بها؛ **والحوار والمحاورة**: فى قوله تعالى: ﴿**تَحَاوُرَكُمَا**﴾ من حار الشيء يحور إذا رجع، **فالحوار** هو المراجعة، وأن **يتحاورا**: يعنى يتراجعا، وكلا المتحاورين يذكر دفوعه ويراجع أقوال الآخر ويفنّدها، ومن ذلك **الحواريون** جمع حوارى وهؤلاء تلاميذ المسيح كانوا يتعلمون منه ويتحاورون معه ويجادلونه؛ **والكبت** فى قوله تعالى: ﴿**كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾: من مصطلحات التحليل النفسى والطب النفسى الإسلاميين، وُصف به الذين حادوا الله ورسوله، فإنهم لم يصرّحوا بحقيقة تفكيرهم ومشاعرهم وكبتوها، وأظهروا أفكاراً أخرى ومشاعر مختلفة، ظاهرها الحق، وباطنها كراهية الرسول ﷺ والكفر بالله، ولذلك سُموا منافقين؛ **وتحرير رقبة** فى قوله: ﴿**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا**﴾، **والرقبة** فى اللغة هى العُنق أو مُؤخّره، أو هى العبد المملوك، وتَسْميته **بالرقبة** من باب تسمية الكل بأشرف أجزائه، وتحريره هو عتْقهُ وإطلاقه من أسر العبودية؛ **والزور** فى قوله: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا**﴾. هو الكذب، فقد جعلت السورة الظهار كذباً، لأن المُظاهر يجعل امرأته كأُمّه: ﴿**إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ**﴾. وقيل فى الظهار إنه يحرم لأربعة أسباب: **الأول**: قوله: ﴿**مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ**﴾ تكذيبٌ لقول المظاهر «**أنت علىّ كظهرأمى**»؛ **والثانى**: تسميته منكراً؛ **والثالث**: تسميته زوراً، **والرابع** قوله: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ②﴾ فإن العفو والمغفرة لايقعان إلا فى ذنب، والمظاهر إذن مُذنب وتلزمه الكفّارة؛ **والستون مسكيناً**: فى شأن الكفارة، لأن المظاهر بدلاً من الصيام شهرين، والشهر ثلاثون يوماً، فيصبح مجموعه ستين، باعتبار إطعام مسكين كل يوم؛ **والفسحة** فى قوله: ﴿**يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ**﴾: هى التوسعة، تكون فى المكان، كما تكون فى الرزق، والقبر، والجنة، والصدر، وتقول **سعة الصدر** يعنى الصبر والاحتمال. والله تعالى الموفق للصواب.

•••

٦٤١. ﴿سورة الحشر﴾

السورةٌ مدنية، نزلت بعد سورة **البيّنة**، وآياتها أربع وعشرون آية، وترتيبها فى المصحف **التاسعة والخمسون**، وفى التنزيل المدنى **الخامسة عشرة**، وفى التنزيل بعامة **الواحدة بعد المائة**، وهى من **السور الحربية**، وموضوعها **غزوة بنى النضير**، ولذا سمّاها البعض **سورة بنى النضير**، وتشتق اسمها «الحشر» من استهلالها بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ** ②﴾ والسورة تبرز مشاهد جلاء بنى النضير عن

ديارهم: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ...(٣)﴾، وكأنهم فى يوم الحشر وهم خارجون منها وقد حملوا متاعهم على الجمال، ومنها الأبواب والأسقف وكل شيء، وساروا على أقدامهم تتبعهم نساؤهم وأطفالهم. والسورة من الإعجاز القرآنى لأن «لأول الحشر» قد تعنى أن جلاءهم من تلك الأرض كان جلاء أبدياً، وأنهم لن يعودوا إليها حتى يوم الحشر الذى هو يوم القيامة، وفى التوراة أن اليهود خرجوا من مصر وساروا مثل هذه المسيرة وكأنهم فى يوم الحشر، وسمى ذلك بالخروج، وأطلقوا على السِفْر الثانى من أسفارهم اسم «سِفْر الخروج»، وشاع عنهم مصطلح «الخروج **Exodus**»، غير أنهم فى سفر الحشر لم يكن خروجهم مجرد «خروج» ولكنه «إخراج»، وفى المصطلح القرآنى هو «جلاء»، والجلاء: هو مفارقة الأوطان، يقال جلا بنفسه جلاءً، وأجلاه غيره إجلاء. والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحداً، من وجهين: أحدهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. والوجه الثانى: أن الجلاء لايكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة. وتذكر السورة سبب هذا الجلاء: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤)﴾، أى عادوه وخالفوا أمره، وكانوا قد عاهدوا النبىّ ﷺ فى أول الأمر ألا يكونوا عليه ولا له، أى على الحياد، فلما ظهر يوم بدر قالوا عنه: هو النبىّ الذى نُعت فى التوراة فلا ترد له راية. فلما هُزِم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كبيرهم كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا قريشاً على المسلمين، وتعاهدوا عند الكعبة. فقتل المسلمون كعباً، قتله محمد بن سلمة الأنصارى، وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وَقْش ـ وكان أخًا لكعب ابن الأشرف من الرضاعة - وعبّاد بن بشر بن وقش - والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر، ثم صبّحهم المسلمون فأمروهم بالخروج من المدينة، فقد كان بنو النضير من سكان ضواحيها، وما كان من الممكن أن يستمروا فى مجاورة المسلمين وقد بدروا بالعداوة، ورفضوا النزوح وتنادوا بالحرب، وتناوشوا مع المسلمين ولكنهم لم يقاتلوهم، واستمهلهم الرسول عشرة أيام ليتجهّزوا للخروج، فدسّ إليهم المنافقون من اليهود من بنى قريظة أن لايخرجوا وسيكونون معهم، يقاتلون لو قوتلوا، وسيخرجون معهم لو أُخرجوا، وتدرب المسلمون أثناء ذلك على ما نسميه الآن بحرب المدن، وفى أيام الرسول ﷺ كان الأجدر أن تُسمى حرب الأزقة، واستمر تدريبهم إحدى وعشرين ليلة، وكانوا ينقبون حصونهم من خارج، واليهود يرممونها من داخل، ويسدون الأزقة بالمتاريس، وكانت لهم أربعة حصون: الوطيح، والنَّطاة، والسُّلالم، والكتيبة، وكان اليهود فى ذاك الزمان مثلهم اليوم أهل حلقة،

وهذا مصطلح إسلامي، ومعناه **أهل سلاح**، وحصونهم منيعة، وكانوا أهل حضارة فعلاً. ولمّا لجأ المسلمون إلى عَقْر نخلهم اعتبروا ذلك تخلّفاً من المسلمين، وقال شاعرهم سماك اليهودي:

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم … على عهد موسى ولم نَصْدف
وأنتم رِعاءٌ لشاء عجاف … بسَهل تهامة والأخْيَف
تَرونَ الرعاية مَجداً لكم … لدى كل دهر لكم مُجْحف
فيأيها الشاهدون انتهوا … عن الظلم والمنطق المُؤْنف
لعل الليالي وَصْرف الدهور … يُدلْنَ من العادل المنصف
بقتل النضير وإجلائها … وعقر النخيل ولم تُقْطَف

وكان خروج النبيّ ﷺ إليهم في **ربيع الأول، أول السنة الرابعة** من الهجرة. ومن الإسرائيليات أن النبيّ أمر بقطع نخيلهم وإحراقها وهذا كذب، لأن النبيّ ﷺ نهى عن مثل ذلك، وهناك أدبيات للحرب عند المسلمين استنّها رسول الله ﷺ، منها أن لا تُقتَل امرأة ولاطفل، ونفت الآية: **﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝﴾**(الحشر)، فكما ترى كان هناك **فريقان** من المسلمين، فريق تحمّس أكثر من اللازم وسارع بقطع النخيل، وقالوا في تبرير ذلك ليغبظوهم، وفريق لم ير ذلك، لأن هذا النخل نفسه سيكون من نصيب المسلمين، فليس معقولاً أن يدمروه وكأنهم يعاقبون أنفسهم، ونزلت الآية تحلّ من الإثم مَن قطع النخل، وتصدق من نهى عن القطع، وتقضى في الخلاف بين الفريقين بأن من نهى إنما نهى بإذن الله، ومن قطع فإنما قطع بإذن الله، يعنى أن كلا منهما كان يصدر فيما ذهب إليه بدافع المصلحة وغيرةً على الإسلام. وأما بنو النضير فقد توجهوا بعد الخروج وجهتين، فجماعة ذهبوا إلى فلسطين، وجماعة رحلوا إلى خيبر وانضموا إلى اليهود فيها، ومن أكابر هؤلاء كان **حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحُقيق، وكنانة بن الربيع**، فأما حيي فكان والد صفية **بنت حيي** التي سباها المسلمون وبنى بها النبيّ ﷺ، وقيل إنه تزوجها.

وسورة الحشر من السور التي اهتمت **بتحليل الشخصية اليهودية** وتضرب بسهم كبير في إنشاء **علم نفسي جمعي** مداره اليهود. وكانت بداية السورة بتمجيد الله وتنزيهه وإبراز عزته وحكمته كقوله تعالى: **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾**، والآية عبارة عن مقدمة للموضوع، وكلماتها تنبىء عن ذلك الموضوع،

فالله له العزة وله الحكمة، وقد أخرج اليهود إخراجاً أبدياً لن يعودوا بعده إلى تلك الديار حتى يوم الحشر، ذلك لأن **إيمانهم بأنفسهم وليس بالله**، وقد ظنوا قديماً أن حصونهم مانعتهم من قدر الله، مثلما ظنوا اليوم أن **خط بارليف** يمنعهم من قدره، فهذه **أول صفة** فيهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، والذى لم يحتسبوه هو **ذكاء الآخرين**، لأنهم يظنون أنهم **الشعب المختار، والصفوة**، وغيرهم أغيار أُميّون، وتمثّل هذا الذكاء فى ضرب قياداتهم فى مقتل، فلمّا قُتل **كعب بن الأشرف** صاروا جسداً بلا رأس. والصفة **الثانية** : أن اليهود بهم جُبن غريزى، والجبن لا يُكتسب ولكنه طبعى، والمسلمون عرفوا فيهم الجبن فحاربوهم بالرعب، وفى الحديث عن النبىّ ﷺ قال: «**نُصرت بالرعب بين يدىّ مسيرة شهر**»، يعنى أنه بالرعب خلال شهر واحد هزمهم نفسياً. **وثالث** هذه الصفات: أن مقولة شمشون: «**علىّ وعلى أعدائى**» تصدق عليهم دائماً، كالفأر إذا احتبس عن طريق ذيله، فإنه يقضمه، وكذلك **الأبرص والسحلية**، وهو فعل اليهود دائماً، كقوله تعالى: ﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ** (٢)﴾، ففى التاريخ اليهودى يزعمون أن أول **انتحار جماعى لهم** كان بعد عبادتهم **للعجل**، فأُمروا أن يقتلوا أنفسهم وأصحابهم وأقاربهم، وقام بنو لاوى بتلك المهمة، فسقط من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف (الخروج ٣٢ / ٢٧ - ٢٨)، وجاء عن ذلك أو نحوه فى القرآن: ﴿**فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ**﴾ (البقرة ٥٤). وقيل إنه فى **قلعة الماسادا** آثر ٩٦٠ من الرجال والنساء اليهود أن ينتحروا انتحاراً جماعياً ولا يقعون فى الأسر مخافة التعذيب. والذين نافقوا كقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**(١١)﴾ هم إخوان اليهود وليسوا منافقى المدينة **كعبد الله بن أُبىّ بن سلول** كما تقول كتُب التفسير، فابن سلول ليس أخا لهم، وإنما «إخوانهم» **يهود بنى قريظة، ولأنهم منافقون فإن المسلمين هزموهم بالقتل، بينما هزموا يهود بنى النضير بأن أجلوهم عن ديارهم على أن يصحبوا معهم ما تستطيع الإبل أن تحمله**، والقرآن يشهد بنفاقهم، وأنهم يَعدُون ويُخلفون، ويخذلون من يعاهدون، ومن دأبهم الفرار فى الحرب، لأن الحياة عندهم أكبر من أى شىء، وفى **سفر المقابيين** من أسفارهم، **وسفر يشوع**، حشدوا أنواع من بسالاتهم وشجاعتهم وهم كاذبون، والسورة حسمت الأمر فيهم وقررت أنهم يرهبون المسلمين أشد من رهبتهم من الله، وأنهم لايفقهون، وقتالهم فى قرى محصنة أو من وراء جُدر، وبأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، وهم لايعقلون، ومثلهم مثل من قبلهم أى **بنى قينقاع**، وهم يهود أيضاً، أمكن الله المسلمين منهم قبل **بنى النضير**، وهؤلاء أمكن الله منهم قبل **بنى قريظة** -

، وكان بين هزيمة هؤلاء وهزيمة هؤلاء سنتان،وكانت وقعة بدر قبل **غزوة بني النضير** بستة شهور، وشبّهت السورة حال اليهود من بني قريظة بحال الشيطان، أرادوا غواية بني النضير ليستمروا يقاتلون، فكان عاقبتهما شرّ الهزائم ، كالشيطان ومن يغويه، مصيرهما إلى النار، وفي الآية: ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (١٩)﴾ أن اليهود وقد نسوا حقّ الله أنساهم حقّ أنفسهم ، ونسوه في الرخاء، فنساهم في الشدائد.

وفي السورة بيان عن وجوب السُّنّة في قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** (٧)﴾ ،فكل ما أمر به النّبي فيما ورد عنه من الأحاديث الصحيحة فهو أمر من الله تعالى، وقد حكم الرسول في هذه السورة أن يُقسم **الفيئ** إلى **خمسة مصارف** خصّ بها المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا **ثلاثة نفر محتاجين**، منهم: **أبو دجانة سماك** بن **خرشة** ، **وسهل بن حنيف** ،**والحارث بن الصمّة**. وهؤلاء جميعاً كانوا فقراء ووزعت عليهم أموال **بني النضير** إلا اثنين، هما: **سفيان بن عمير**، **وسعد بن وهب** لم يكونا قد أسلما. وجاء في تخصيص الفيء للفقراء من المهاجرين: ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** (٧)﴾، أى حتى لا يُتداول المال ويُحصر بين الأغنياء ويُحرم منه الفقراء، فيزداد الأغنياء غنى، ويزداد الفقراء فقراً، وتتسع الهوة بين الطبقات، وهذه هي **اشتراكية الإسلام**، وقوامها **التقريب بين الدخول**. وخُصّ **المهاجرون** لأنهم أُخرجوا بسبب الإسلام من أموالهم وديارهم ، وتلك أكبر علامة على صدق إيمانهم. ولم يكن **الأنصار** أقل إيماناً، فقد كان منهم جماعة أسلموا قبل هجرة النبيّ ﷺ ، وهؤلاء لايحسدون المهاجرين على ما أخلصهم الله، ويؤثرون على أنفسهم مع شدّة حاجتهم. و«**الإيثار**» في السورة من مصطلحات علم النفس **الإسلامي**، وهو تقديم الغير على النفس رغبةً في الحظوظ الدينية عن الحظوظ الدنيوية، وتدفع إليه شدة اليقين. و«**الإيثار بالنفس**» فوق «**الإيثار بالمال**»، ومن الأمثال السائرة : «**والجود بالنفس أقصر غاية الجود**». ومن أمثال السورة قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٩)﴾، **والشُّح** أشد من **البخل**، والشُّح بخلٌ مع حرص، والشح في الآية أن تؤثر نفسك على أخيك، والشح من **مصطلحات الطب النفسي**، **والشحيح** نمط من أنماط الشخصية، والشح إطلاقاً هو الظلم واتباع الهوى، والميل عن الإيمان، وترك الفرائض ،و«**من يوقى شح نفسه**» هو الذى لايفعل ما حرّم الله ونهى عنه. ويتجاوز الثناء في السورة إلى **التابعين**، وهم **الفرقة الثالثة من فرق مجتمع المدينة بعد المهاجرين والأنصار**، كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا** (١٠)﴾، وهذا الدعاء دليل على وجوب **محبة الصحابة** ومحبة من يحبهم.

وتختتم السورة ببيان عظمة هذا القرآن الذى لم يفرّط فى شىء ، وأنه لو خوطبت به الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ، وخشعت لوعده، وتصدّعت لوعيده ، بينما الإنسان لم تظهر له خشية، ولا تبدو عليه رهبة. والخطاب فى الآية : ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** (٢١)﴾ هو خطابٌ لكل الناس وللإنسان عموماً. والقرآن هو كتاب الله، ومن يتّعظ بالقرآن فلا بد أن يؤمن بالله. وقد يسأل السائل: وما الله؟ والجواب توردِه الآيات: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** (٢٢) **هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٢٣) **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٢٤)﴾، **والغيب والشهادة** : هما الآخرة والدنيا؛ **والرحمن**: الذى وسعت رحمته كل الناس؛ **والرحيم** : يؤتى رحمته المؤمنين أكثر من غيرهم؛ **والقدوّس**: المنزهّ عن كل نقص، والطاهر عن كل عيب؛ **والسلام**: الذى يسلم من كل نقص ؛ وسَلِم العباد من ظلمه، ويُسلّم على عباده فى الجنة، كما فى قوله: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** (٥٨)﴾(يس)؛ **والمؤمن**: هو الذى يصدُق ما وعد، ويؤمّن عذابه وظلمه، والذى وحّد نفسه وشهد على نفسه أنه واحد؛ **والمهيمن**: الذى له الهيمنة والسلطة والنفوذ؛ **والعزيز**: الذى يعزّ على الكافرين أن ينالوه بشىء، ويَغلب لا يُغلب؛ **والجبّار**: الذى له السطوة، والذى يجبر الكسير ويغنى الفقير؛ **والمتكبّر**: الذى يتكبّر بربوبيته فلا شىء مثله، **والكبْر** فى صفات الله مدح. وفى صفات المخلوقين ذمّ؛ **والقادر**: أى المقدِّر؛ **والبارىء**: المنشىء؛ **والمصوِّر**: المبدع ، يقال: الله مصوِّرٌ آخراً ، **وقديرٌ** أولاً، **وبارئٌ** بينهما؛ **والأسماء الحسنى**: هى الدالة على محاسن المعانى . وهذه الأسماء هى التى جعلت لخواتيم سورة الحشر هذه البركة المشهورة بها.

ومن **مصطلحات السورة**: **اللِّينة**: وهى النخلة عندما لايكون تمرها لم ينضج بعد؛ **والتبوُّء**: التمكين، **والمدينة** مثلاً تبوأت بالإيمان والهجرة ،وغيرها من **القرى** افتُتحت بالسيف؛ **وأهل القرى**: القرى هى: **النضير**، **وقريظة** - وهما بالمدينة؛ **وفَدَك** وهى بين المدينة وخيبر؛ **وقُرَى عُرَيْنة وينبع**؛ وهذه جُعلت **خمسة أسهم**، لله وللرسول ﷺ منها **الخُمس**، والخمس مردودٌ فيهم، وما خلفه من المال لايورث. وكان ينفق من الخمس على عياله ولايتأثل، يعنى لايجمع مالاً، وإنما يأخذ بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين والله أعلم.



٦٤٢. ﴿سورة الممتحنة﴾

هي **الممتحنة** (بكسر الحاء)، لأنها تمتحن إيمان الناس فإما أن يُبرّءوا، وإما أن **يُفضحوا**.: ولذلك سميت: **سورة براءة، والسورة الفاضح**؛ وهي أيضا **الممتحَنة** (بفتح الحاء): لأن موضوعها المرأة التي تهرب من **بلاد الحرب إلى بلاد الإسلام**، مهاجرةً من أجل دينها. والسورة **مدنية**، لبيان أحكام موالاة الأعداء حتى لو كانوا من الأهل والأقارب، وأحكام من لم يعادوا المسلمين، وأحكام **مُهاجرة النساء** ووجوب **امتحانهن** عند الهجرة للتأكد من حقيقة إيمانهن، **وصيغة** مبايعة النساء. وترتيب السورة في المصحف هو **الستون**، وفي التنزيل المدنى هي **الخامسة** ، وفي التنزيل عامةً هي **الواحدة والتسعون**، وكان نزولها بعد سورة **الأحزاب**، وفي أسباب نزولها: أن **حاطب بن بلتعة** ـ وكان رجلاً من أهل اليمن، وله حِلفٌ بمكة في بني أسد بن عبدالعزيز، كتب كتاباً إلى قريش بمكة يحذّرهم فيه مما أعدّ لهم النبيّ ﷺ لفتح بلدهم، وسلّم الكتاب لامرأة من مكة كانت مولاةً **لعمرو بن صيفي بن هشام**، وطلب إليها أن تسلّمه إلى مولاها، ومنحها أجراً لذلك **عشرة دنانير وبُرداً** وكانت المرأة قد التقت بالنبيّ ﷺ وسألهما عن سبب حضورها، وعرف أنها لم تأت مهاجرة ولا مسلمةً وإنما لترتزق، وكانت مغنية، ولمّا رحلت فجأة شكّ فيها، فأرسل وراءها **علياً** وآخرين، وأحضروا الكتاب الذى كان معها، **فعُرف نفاق بلتعة**، وذاعت خيانته، ودافع عن نفسه أنه أراد تملّق كفّار مكة ليحموا قرابته فيها، وأنه لم يفعل ما فعل كُفرا ولا ارتداداً عن الإسلام. ونزلت السورة تنهى عن مودة أعداء الله والرسول ﷺ، وأعداء الإسلام، وتعلن أن هناك آخرين بين صفوف المسلمين من أمثال **بلتعة يعلمهم الله**، وتحذّر السورة من **الطابور الخامس**، ومن **عملاء الداخل**، وتخاطب المؤمنين بعامة، لعلهم يعوا النصيحة وينصاعوا للأمر، سواء في زمن رسول الله ﷺ أو بعد ذلك، تقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ(١)﴾**ولقد عفا النبيّ ﷺ عن بلتعة، ففهم المسلمون من ذلك أن هناك فرقاً بين الجاسوس الحربى ـ وهذا جزاؤه القتل، **والجاسوس المسلم أو الذميّ**، وهذان يعاقبان. ولقد حدث أن جاسوساً للمشركين ـ وكان مسلماً ـ ضُبط في المدينة، اسمه **فُرات بن حيّان**، فكان **أول جاسوس مسلم** فى التاريخ، فحُكم عليه بالقتل، فلمّا همّوا بقتله صرخ: أأُقتَل وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟! فأمر به النبيّ فعوقب بغير القتل، وخُلّي سبيله. وآية: **﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾** أصلٌ في النهى عن موالاة الأعداء حتى لو كانت موالاة في الظاهر، وحذّرت الآية منه فقالت: **﴿وَمَن يَفْعَلْهُ**

منكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ وبيّنت أسباب هذا النهي في قوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾ يعني إن تمكنوا منكم، فظفروا بكم، وواتتهم الفرصة عليكم، فلن يفرّطوا فيها وسيسفرون عن عدائهم لكم، ويمتد إليكم عدوانهم، وستطولكم ألسنتهم وإذاعاتهم وصُحفهم، يودون لو تتخلوا عن مبادئكم وعقيدتكم، فلا تناصحوهم فإنهم لايناصحونكم. وبيّنت السورة بقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣)﴾ أن القرابة والنسب والصُحبة والمودة في هذه الحياة لن تنفع الناس يوم القيامة، فلا توالوا أعداء الحق باسم هذه العلائق، وضربت المثَل بإبراهيم عليه السلام والذين معه، فقد تبرءوا من قومهم ومما يعبدون لما ظهر أنهم كافرون، كقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ (٤)﴾ حتى أن إبراهيم تبرّأ من أبيه، وكان قد وعده أن يستغفر له ربّه، فكان وعده له استثناءً منقطعاً، فلما تبيّن له إصراره استغنى بالله عنه وعن قومه جميعهم، ودعا ربّه فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾وتحضّ الآية على اتخاذ إبراهيم أسوة حسنة، يقتدون به ويتأسّون. وفي السورة قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ (٨)﴾(الممتحنة) استثناءً مما سلف، ونهي عن معاداة غير الأعداء، بل والبّر بهم وصِلَتهم، كقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً (٧)﴾. وهذه السياسة التي ينصح القرآن بها المسلمين في الحرب والسلم، هي التي دعت الكثيرين إلى اعتناق الإسلام بعد فتح مكة، بل إن الرسول ليُهادن أعداء الإسلام تزوّج من أم حبيبة بنت عدو الإسلام أبي سفيان ليتألّفه، وتزوج صفية بنت حُيىّ بن أخطب رأس اليهود ليتألّف اليهود، وتزوّج جويرية بنت الحارث ابنة رئيس بني الحارث ليُدخل أهلها الإسلام، وبالإضافة إلى ذلك أن زواجه منهن كان مساعدةً لهن، وحمايةً لهن في غُربتهن، وبذلك ثبت أن الإسلام لايعادي إلا من يسفرون عن عدائهم للمسلمين، ويوالي من يوالونهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ (٩)﴾، فحددت الآية في ثلاثة أمور من تجب عدم موالاتهم من غير المسلمين، وهم أولاً: الذين يجاهدون المسلمين على دينهم؛ وثانياً: الذين يستولون على بلادهم ويطردونهم من بيوتهم، ويتلفون أراضيهم؛ وثالثاً: الذين يعاونون على كل ذلك سواء بالمشاركة فيه أو بالموافقة عليه.

ثم تنتقل السورة إلى مناقشة أمر آخر يتعلق بأمور الموالاة، وهو **هجرة نساء العدو إلى بلاد الإسلام**، طلباً للإسلام، وكان منهن زمن الرسول ﷺ: **سعيدة بنت الحارث الأسلمية** - زوجة **صيفي بن الراهب**، **وأم كلثوم** بنت عقبة بن **أبي مُعَيْط** - زوجة **عمرو بن العاص** وكان وقتها من حزب الكفار، **وأميمة بنت بشر** - زوجة **ثابت بن الشمراخ**، فنزلت آية امتحان النساء، تقول: ﴿**إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ**(١٠)﴾، فأوجبت امتحانهن، عسى أن يكن يردن الإضرار بأزواجهن والفرار منهن، بترك البلاد إلى المدينة، فأمر المسلمون أن تُستحلف المهاجرة بالله بأنها ما خرجت من بُغض زوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماساً للدنيا، ولا عشقاً لرجل من المسلمين، بل حباً لله ولرسوله، فإذا حلفت ردّ الرسول ﷺ مهرها لزوجها الكافر. وما أنفق عليها، ولم يردّها، وكذلك يطلّق المسلم المرأة الكافرة، ويحصل على ما أنفق عليها، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا**(١٠)﴾. ولمّا فتحت مكة قَدم النساء، يبايعن الرسول ﷺ على الإسلام، فنزلت آية مبايعة النساء تقول: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ**(١٢)﴾، فهذه الأركان الستة هي أركان النهي بالنسبة للنساء، وعلى أساسها تتم البيعة. و«**قَتْلُ الأولاد**»: هو ما يُعرف بالوأد؛ و«**افتراء البهتان بين اليدين والرجلين**»: هو الحَمْل من غير الزوج وأنْ تنسبه إليه. وهذه الأركان الستة بخلاف **أركان الإسلام الستة**، وهي: **الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، والوضوء والاغتسال. ومناهي النساء** أكدت عليها الآية لأن الكثير من النساء كن يرتكبنها، فخصّتها الآية بالذكر.

وخُتمت السورة بمثل ما بدأت به من **التحذير من موالاة أعداء الله**، فتناسق الكلام في البدء والختام، فكان نِعْم البدء ونِعمْ الختام. والله سبحانه وتعالى الموّفق للصواب.

●●●

٦٤٣. ﴿سورة الصف﴾

السورة مدنية، نزلت بعد **التغابن**، وآياتها **أربع عشرة**، وترتيبها في المصحف **الواحدة والستون**، وفي التنزيل المدنى **الثالثة والعشرون**، وفي التنزيل عامةً هي **التاسعة بعد المائة**، وكان نزولها في وقت كان المسلمون فيه قد فُرض عليهم القتال دفاعاً عن دينهم، وعن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وبيوتهم وبلادهم، ولذلك كان مدارها **القتال**، وجاء تعليم

الله تعالى للمسلمين أن يكونوا في مواجهة أعدائهم صفاً واحداً كالبنيان: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴿٤﴾﴾ يستحيل عليه اختراق تماسك جماعتهم، والترويج لإشاعة الفُرقة بينهم، وضَرْبُ جبهتهم الداخلية، ولا يمكن أن تخرج أهداف أي جيش عن طلب النصر والفتح، فهذان ما يجب أن يحققه كل جندى، وينشده أى قائد، ومنهج القرآن لبلوغ هذه الغاية: هو تربية **الجماعة** على أن تقول ما تفعل، وأن لا تعد إلا بما فى استطاعتها أن تفعله، ولا تأخذ على عاتقها أن تقوم بأى عمل إلا ما كانت تقدر عليه. **ومنهج الإسلام فى التربية**: أساسه الإيمان بالله، والثقة فيه، والتوكل عليه، والاعتقاد بأنه الهادى، وأنه لا يمكن أن يتخلّى عن المؤمنين، وتصديق النبىّ ﷺ، والطاعة له كرسول وقائد ومعلم؛ **ومُحصلة ذلك**: أن يجاهد المؤمنون كما طُلب منهم، طالما كان الجهاد بأمر النبىّ ﷺ وطاعةً لله تعالى؛ **والجهاد نوعان: بالنفس وبالمال**، ومن يأخذ بهذا المنهج فهو الرابح فى تجارته، فقد اشترى آخرته بدنياه، وضمن الدنيا والآخرة، وتحقق له الفوز، ولنا فى نبيين مِثل نبيّنا أسوةٌ، فبنوا إسرائيل آذوا **موسى** أشد الأذى، مع أنهم علموا أنه رسول الله إليهم، وضلّوا عن السبيل فأضلهم الله، ثم أرسل إليهم **عيسى**، مصدّقاً للتوراة، ومبشراً بنبىّ بعده اسمه **أحمد**، فجحدوه وافتروا على الله الكذب، والنبيّان كانا من **أولى العزم**، وقوبلا بما قوبلا به، يريد الله بقصتيهما أن يُسرّى عن نبيّنا ﷺ ويسلّيه، ويرفع معنويات المسلمين، والله لا يمكن أن يحقق للكافرين النصر، **وإنما النصر والفتح للمؤمنين**، ولا يمكن أن تتاح للكافرين فرصة أن يطفئوا نور الله بأفواههم، يعني يُفشّلوا دعوته إلى الحق بما يذيعون من افتراءات وأكاذيب وتخرّصات وإشاعات، ودين الله هو الظاهر حتماً ولو كره الكافرون. والسورة تحفل بالمصطلحات والصور البلاغية والأمثلة والحكم، ومن ذلك اسم **أحمد**، وهو اسم نبيّنا، بشّر به **عيسى**، وكانت لنبيّنا أسماء عدة، وفى الصحيح عن النبىّ ﷺ قال: «**لى خمسة أسماء**»، ذكر منها **محمد** ،**وأحمد**، ولم يذكره عيسى باسم **محمد**، لأن **حمده** لربّه كان قبل **حمد** الناس له، فهو **أحمد** أولاً لأنه دائم الحمد لله، ثم هو **محمد** لأن الناس صارت تحمد خصاله وخُلُقه. وفى الحديث أيضاً: «**اسمى فى الإنجيل أحمد، واسمى فى القرآن محمد**»، وهما اسمان منقولان من صفة، وكل الأنبياء **حامدون** لله، **ومحمودون** من الناس، إلا أن **أحمد** صيغة **أفعل التفضيل**، فنبيّنا **أحمد الحامدين**، أى أكثرهم حمداً، وهم **محمودون** ولكنه **محمد**، كالفرق بين الممدوح والمُمدَّح، ونبيّنا قبل البعث كان **أحمد**، وصار بعد البعث **محمداً**؛ وأما مصطلح «**التجارة**» فى قوله: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿١٠﴾﴾ فقد

شبّه به الإيمان، فجعل المعنى المجرد محسوساً، وجاء التشبيه بالتجارة مما كان يمتهنه أهل مكة والمدينة، كقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم** ﴾(التوبة١١١)، وقوله: ﴿**الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**﴾(البقرة ١٦)، وقوله: ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ (النحل ٩٥)؛ ومصطلح آخر معناه من الإنجيل ولكن مبناه قرآني بحت، وهو «أنصار الله» و«الحواريون» والاثنان في الإنجيل بلفظ «تلاميذ المسيح»، والتلميذ يقصر عمله على التعلّم، ولكن النصير هو الذى ينصر، والحوارى هو الذى يحاور ويسأل ليصل إلى الحقيقة، فهذا هو عمله، فمثلما هو يتعلم فإنه يعلّم، فالمصطلح العربى أوسع وأفضل. وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ، فهؤلاء ناصروه بالنفس والمال والأهل والولد، وهاجروا معه، ثم هم تلقوا عنه وكانوا مبلّغين ومعلمين وفقهاء وعلماء. ومن المصطلحات كذلك في السورة «عيسى بن مريم»، أكد على بنوّة لمريم، إنكاراً لقول النصارى أنه ابن الله، أو كما يدعونه الربّ؛ وافتتاح السورة بقوله تعالى: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ تمجيدٌ لله وتنزيهٌ له، قيل هو تسبيح مقال وليس تسبيح دلالة، أى بظهور آثار الصنعة على المخلوقات، فلو كان تسبيح دلالة لما قال الله تعالى: ﴿**وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ (الإسراء ٤٤)، وإذن فهو تسبيح مقال أو كلام؛ وقوله تعالى: ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ** (٢)﴾ سؤال توبيخ: فليس أمقت عند الله من أن نقول ما لا نفعل، وأن نعد بما لا ننجز، ومن يلتزم بشيء يلزمه شرعاً، والسؤال حُجّة في ذمّ المنافقين، وهم هذا النمط من الناس الذين يشكون اضطراباً في الشخصية ويقولون ما لا يفعلون، والوفاء بالعهد أو بالوعد أو بالنذر من الإيمان، وهو آية المؤمن؛ ومثله سؤال موسى لقومه: ﴿ **لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**﴾؛ والسؤال - كما ترى - سؤال تعجُّب؛ يتعجب أنهم يؤذونه رغم علمهم أنه رسول الله كقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ** (٧) ﴾، وهو سؤال بمعنى النفى؛ وكذلك السؤال: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم** (١٠)﴾ ، وهو استفهام للتشويق. وفي السورة أسبابٌ كثيرة للتنزيل ضمّناه «باب أسباب النزول»، فنرجو الرجوع إليه، كما أن فيها عبارات كثيرة تصلح أمثالاً وحكماً، ضمّناها أيضاً «باب أمثال القرآن»، ولله الحمد والمِنّة، وبه التوفيق والعصمة.

●●●

٦٤٤. ﴿سورة الجمعة﴾

السورة مدنية، وآياتها إحدى عشرة آية، منها تسع آيات كمقدمة لموضوع السورة،

وثلاث آيات عن يوم الجمعة والصلاة فيه. وترتيب السورة فى المصحف **الثانية والستون**، وفى التنزيل المدنى **الرابعة والعشرون**، وفى التنزيل عموماً **السادسة والثمانون**، وكان نزولها بعد سورة الحج، ويأتى اسمها من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ﴿٩﴾﴾ فدلّ ذلك على أن الخطاب فى السورة للمكلفين، ما عدا المرضى والزمنى، وأصحاب العاهات، ومن هم على سفر؛ ونداء الصلاة يوم الجمعة، هو اختصاص بوجوب صلاة الجمعة على أهل المصر، وأنها لا تجب إلا بالنداء أى بالأذان، ولا يكون النداء إلا بدخول الوقت. وصلاة الجمعة فرضُ عيْن على كل مسلم؛ **والسعى** لها واجبٌ مطلقا من غير شرط؛ **والغُسل** لها أفضل من الوضوء. والذكر فى الآية: هو **الخطبة والمواعظ والصلاة**، وجميعها واجبةٌ فيها. كقوله: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا** ﴿١٠﴾﴾، وفضلُه تعالى: هو طلب الرزق، أو طلب العلم، أو زيارة الأهل والمرضى، وصلة الأرحام، وحضور الجنائز ... إلخ؛ و«ذكر الله»: بالطاعة واللسان، وبالشكر. وفى مناسبة الآية: ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا** ﴿١١﴾﴾: أن النبىّ ﷺ كان يخطب، وإذا بالطبل يدق معلناً قدوم تجارة من الشام **لدحية الكلبى**؛ فيها ما يحتاجه الناس من بُرّ ودقيق وغيره، فخرجوا يشترون، فَلَهَتْهُم عن الصلاة، ولم يبق منهم فى المسجد إلا **ثمانية**، أو **أحد عشر**، وقيل ربما كانوا **أربعين**؛ وثبت أن من بين الذين لم يخرجوا كان: **أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال، وعبد الله بن مسعود، وجابر**، فهؤلاء **أربعة عشر**. وقيل إنه ﷺ كان يصلى الجمعة **أولاً ثم يخطب**، فكان خروجهم بعد الصلاة وليس قبلها. وقيل إنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات، فكانوا فى كل مرة يتسللون، فنزلت الآية: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا**﴾ (النور ٦٣)، وكان السبب فى كل مرة هو قدوم عير من الشام موافقةً ليوم الجمعة. والجمعة يمكن أن تنعقد **باثنين، وبثلاثة، وباثنى عشر**، ولا اعتبار للعدد فى **القرى**، حتى لو كان فيها **ثلاثة**. **والخطيب** فى الجمعة يخطب **واقفاً**. لقوله تعالى: ﴿**وَتَرَكُوكَ قَائِمًا**﴾، ويروى أن **أول من خطب قاعداً** كان **معاوية** لِكبَر سنّه، وخطب **عثمان** قائماً حتى رقّ فخطب قاعداً، وكان النبىّ ﷺ يخطب قائما، ثم يقعد، ثم يقوم، وإذا قعد لا يتكلم.

وتبدأ سورة الجمعة بالشكر لله والحمد له وتوحيده، وتذكّر المسلمين أنهم كانوا أمة أُمّية، فأرسل إليهم رسولاً منهم يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، وذلك من فضله تعالى عليهم وعلى غيرهم ممن سيأتون من بعدهم من أمة الإسلام فى قابل الأيام، فلا ينبغى

لهم أن ينسوا كما نسي **اليهود**، فلمّا حُمّلوا التوراة لم يعملوا بها لأنهم لم يفقهوها، وكانوا كالحمار يحمل كُتباً على ظهره ولا يعرف ما فيها ولا يفهمها، وتعلّل اليهود بأنهم أبناء الله وأولياؤه، وأنهم **الصفوة** التى اختارها لعبادته فاختّصوه بالتوحيد، واختصهم بالعبودية، فلو كانوا أحباب الله لتمنّوا الموت لتكون لهم الجنة وهى خيرٌ من الأرض، ولكنهم لا يتمنونها أبداً لأنهم يعرفون أنهم ظالمون، ولقد ظنوا أن ربّهم يرضى عنهم لو جعلوا **السبت** عيداً لهم، يستريحون فيه ويتبطّلون عن كل عمل، لأنه - بدعواهم - هو يوم الله، فلقد عمل ستة أيام خَلَق فيها العالم، فلما انتهى منه استراح فى **السابع** وهو يوم **السبت**، وقدّسوا السبت لذلك، وجعلوه عيدهم الدينى والقومى. وقلّدهم **النصارى** وخالفوهم، فجعلوا **الأحد** عيدهم، ولكنهم لم يجعلوه يوم راحة بل يوم خدمة وتعبُّد، وضلّ هؤلاء وهؤلاء عن **يوم الجمعة**. والمسلمون وإن كانوا آخر أُمّة فى التنزيل إلا أنها الأولى فى العبادة، وهداهم الله **ليوم الجمعة** عيدًا دينيا وقوميا لهم، وبه تكون لهم هوية، وبدونه تُنتقص هويتهم. وتُنطَق **الجُمْعة** بتسكين الميم، أو بضمها فيقال **الجُمُعة**، تثقيلاً وتفخيماً، وجمعهما **جُمَع وجُمُعات**. ومعنى أنه يوم جمعة أنه **يوم اجتماع**، وفي الأدب الشعبى أنه **الجمعة** لأن الله **جمع** فيه خلق آدم وخلق كل شىء، **فاجتمعت** فيه المخلوقات، أو أنه الجمعة **لتجتمع** فيه **الجماعات**، أو **لاجتماع** الناس فيه للصلاة. وأصحاب الفضل الأول فى اتخاذ يوم الجمعة عيداً، وتسميته بيوم الجمعة هم: **الأنصار**، فقد جاوروا اليهود فى المدينة، وكان اليهود يعتبرونهم **أغياراً**، يعنى من **الأمم** أو **الجويم** بالعبرية، بينما اليهود هم **الصفوة والمختارون**، وهم **شعب الله**، وهذا **الإحساس القومى اليهودى** أزكى **الإحساس القومى العربى** عند **الأنصار**، وهو ما دفعهم أيضاً إلى اعتناق الإسلام لأنه **دين عربى خالص**، وكانوا **اثنى عشر رجلاً**، ولكنهم أرادوا أن يكون لهم يوم يجتمعون فيه ويصلّون، ويشكرون لله، فاتخذوا **اليوم القومى للعرب** - وهو **يوم العروبة** - عيداً لهم، ثم اشتهر عندهم **بيوم الجمعة**، فأطلقوا عليه هذا الاسم، وكان ذلك قبل أن يهاجر الرسول ﷺ. وكان **كعب بن لؤى أول من سمّاه يوم الجمعة، وأول من جمع المسلمين فيه**، وعاونه **أسعد بن زرارة**، وصلّيا بالناس ركعتين وارتجل كعبٌ كلمة ذكر فيها الله وحمده وكبّره، واحتفل **سعدٌ** بهم وأولَم لهم. وكان مجيء النبيّ ﷺ من مكة **يوم الاثنين**، **الثانى عشر** من ربيع الأول، حين اشتد **الضحى**، ومن تلكً السنة بدأ **التاريخ الإسلامى الهجرى**، وأقام النبىّ ﷺ وأصحابه **بقُباء** وبدأ يبنى المسجد، وخرج يوم الجمعة فأدركته الصلاة فى بنى **سالم بن عوف** فى بطن وادٍ لهم اتخذوا فيه مسجداً، فجمع بالناس وخطب، فكانت **أول جمعة للرسول** ﷺ **بالمدينة**،

اليوم السادس عشر من ربيع الأول، وأول خطبة له فى المدينة، وكانت ثانى جمعة له فى قرية قرب المدينة يقال لها جُواثى. ونزلت سورة الجمعة تخاطب المؤمنين، وتخصّهم بيوم الجمعة عيداً لهم، وفى الحديث: «**فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غد للنصارى**»، وفيه أيضاً: «**نحن الآخرون الأولون**» يعنى إنْ كنا آخر أمة، إلا أننا أُعطينا أول يوم وهو الجمعة، وظلت أسماء أيام الأسبوع الأخرى كما هى، وإن كان فيها أن الأحد هو أول يوم من أيام الأسبوع.

ومن مصطلحات السورة: «**الأميون**» وواحدته «**الأمّى**»، ويوازى فى العبرية **nokhri** أو **goi**، والأميون هم **الأغيار** أو **غير اليهود**، وفى القرآن الأميون هم **العرب**، من كان منهم يكتب ومن لم يكن يكتب، وهم **أميون** لأنهم **ليسوا أهل كتاب**، فى حين أن الأمية فى العبرية تفيد أنهم **ليسوا يهوداً**، ومن ثم **فليسوا من الصفوة ولا من شعب الله المختار**، فالمصطلح العربى مصطلح حضارى ثقافى، والمصطلح العبرى أجناسى عرقى! وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ⑦﴾ إعجازٌ لأنهم فعلاً لم يتمنّوه، ولو كانوا صادقين لتمنّوا الموت وكذّبوا القرآن. ولمّا لم يتمنّوه أبطلوا دعواهم من الولاية، وأنهم شعب الله المختار وأحباء الله. ومن الحِكَم المأثورة فى السورة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ** ⑧﴾ ومن شعر زهير فى ذلك:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء يُسلّم

ومن شعر طَرَفة:

كل شىء سوف يلقى حتفه فى مقامٍ أو على ظهر سفر

والمنايا حوله ترصده ليس ينجيه من الموت الحَذَر

ومن أجمل الأمثلة فى السورة قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾، فشبّههم بالحمار لا يدرى أكتاب على ظهره أم زمبيل! وفى ذلك تنبيه من الله لمن يحمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلّم ما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء، ولله الحمد والمِنّة، وبه التوفيق والعصمة.



٦٤٥. ﴿سورة المنافقون﴾

السورة مدنية، ولأن **النفاق** ظهر فى المدينة فإن اهتمام السورة كان **بالمنافقين**، وكانوا

ظاهرة جديدة في المجتمع الإسلامي، فقبل المدينة كانت مشكلة الإسلام مع الكفر، فلما ظهر الإسلام وصارت له شوكة في المدينة، دخلته جماعات من أهلها نفاقاً، وعاني الإسلام منهم كثيراً، والسورة يبلغ عدد آياتها **إحدى عشرة** آية، منها عن النفاق والمنافقين **ثماني** آيات، وتليها **ثلاث** آيات عن مواعظ تحذر من النفاق وتهدي إلى نبذه واجتنابه. والسورة نزلت بعد **الحج**، وترتيبها في المصحف **الثالثة والستون**، وفي التنزيل المدني **الثامنة عشرة**، وفي التنزيل عموماً **الواحدة والثمانون**. وفي السورة تحليل للنفاق، ووصفٌ للمنافقين، وأمثالٌ مما جرى معهم، حتى صار اسم السورة عن حق هو «**المنافقون**»، وتذكرهم في أول آية منها مرتين، تقول: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** (١)﴾ وهذه الآية موجز للسورة، وإشارة إلى أسباب نزولها، فلقد كان المسلمون في **غزوة بني المصطلق**، فاستمع نفرٌ منهم إلى **عبد الله بن أبيّ** رأس النفاق، يحرّض الأعراب أن يكفّوا عن إطعام أصحاب النبيّ ﷺ، وأن ينفضّوا من حوله، وبتعبير السورة: ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا** (٧)﴾، وقال لهم متوعداً المسلمين: لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ ـ يحث أصحابه على الغدر بالمسلمين. فهؤلاء كانوا المنافقين في عهد رسول الله ﷺ، وهم **اليوم** شرٌّ منهم، فالسابقون كانوا يكتمون نفاقهم، والحاضرون يظهرونه جهراً عياناً نهاراً. وفي الحديث في آيات النفاق: **آية المنافق ثلاث**: «**إذا حدّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائتُمن خان**»، وفي الحديث الآخر نزيد هذه الآيات واحدة، يقول: «**أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»، فجاء **العهد** في مكان **الوعد** وهما سواء، وكانت الخصلة الجديدة هي **الفجور في الخصام**، وخلاصة ذلك كله أن المنافق لا أمان له، ونقيضه المؤمن، وفي الحديث: «**المؤمن إذا حدّث صدق، وإذا وَعَد أنجز، وإذا ائتمن وفيّ**». وفي السورة أن منافقي المدينة كانوا كل ذلك، وكانوا كاذبون، يشهدون للنبيّ ﷺ ظاهراً، وينكرونه باطناً، ويتعايشون مع المسلمين والحقد والضغينة قد طبعا قلوبهم، حتى ران عليها الكفر فما عادوا يفقهون شيئاً، ولا يستمعون لحق، تنظر إليهم فتعجبك أجسامهم، وإذا تحدّثوا تحب أن تستمع إليهم، وفي الحقيقة هم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، يستبد بهم قلق دفين، وخوف مريب، ويظنون الناس إذا تناجوا فإنما يلغطون فيهم، وإذا تنادوا يحسبون أنهم ينادون عليهم،

وأنهم عمّا قريب سيُكشف أمرهم، وتنفضح نواياهم، وتبين حقيقتهم، كقوله تعالى: **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4)﴾**، وهى أبلغ عبارة يمكن أن تقال فى النفاق والمنافقين، وقوله: **﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾** غاية وقمة فى لفت الانتباه إلى خطورة تواجد المنافقين كعملاء وجواسيس وطابور خاس ضمن المواطنين، فشُغلهم الشاغل أن يذيعوا الإشاعات ويثّبطوا الهمم، ومنهم بخلاف عبد الله بن أبى: جَدّ بن قيس، ومُعتّب بن قشير. وقوله: **﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾** جملة دعائية، و**﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾** استفهام إنكارى، يعنى أخزاهم الله، فكيف لم يروا الهدى وعَمُوا عنه إلى الضلال، رغم كل هذه الدلائل والبراهين والتحذيرات؟ وفى السورة أن المنافقين يتسمون باللامبالاة، وملكة التصوّر عندهم تكاد تكون معطلة كما عطّلت ملكة التمييز. وأعراض مرض النفاق تظهر عليهم جلية كلوازم تصيب أعناقهم فيلوونها، أو يهزّونها، والاستكبار يشعّ من وجوههم ونظراتهم، ويبين فى مشيتهم وأقوالهم، يترفعون عن الناس رغم وضاعتهم، وينسبون إليهم الحُمق وهو بهم مرضٌ يلازمهم. وتختتم السورة بالتحذير مما يمكن أن يدفع الناس إلى امتهان النفاق، فالحرص على الدنيا، واكتناز المال، والانشغال بمستقبل الأولاد، قد يجعل الناس يلجأون إلى النفاق كوسيلة تقرّب إلى السلاطين، واستغفال الآخرين، والنجاة من ذلك بالحرص على التقوى وذكر الله، وليس هناك أدلّ من الإنفاق على أن صاحبه ليس من المنافقين، فما عهدنا فى أصحاب النفاق أن ينفقوا فى سبيل الله، والسورة تحضّ على الإنفاق من قبل أن يحضرنا الموت فعندئذ قد نطلب تأجيل الموت، ولكن هيهات، فالله لا يؤخر نفساً جاء أجلها. ولولا الحرص على الدنيا والكفر بالله ما كان عبد الله بن أبىّ ينهى الناس عن أن يطعموا رسول الله ﷺ وأصحابه، مع أن المال هو مال الله، وله تعالى خزائن السموات والأرض سبحانه.

وفى السورة الكثير من التعابير البليغة والمصطلحات الغنية بالمعانى، كقوله تعالى: **﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾** يعنى توسلوا بالحلف إلى إخفاء حقيقة نواياهم؛ وقوله: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾**، وهو مَثَل، شبّههم بالخُشُب التى تآكلت فهى مسندة بغيرها، وخُشب جمع خَشَبة؛ وقوله: **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾** يظنون أن كل نداء هم المقصودون به، لأنهم يتوقعون الشرّ لما يكتنفهم من الرعب والاستكبار، كأنما ليس أحد غيرهم يمكن أن يُنادَى عليه؛ وقوله: **﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾** وهو حُكم ومبدأ من مبادىء الحياة والعيش، لئلا ينسى الإنسان أنه

مـــــائت، وأن الموت سيــخترمه فى يوم من الأيام حــينما يجىء أجله، فلا يســتأخره ولا يستــقدمه. وبعد ـ فــالحمد لله أن كان القــرآن هو كتابنا، وســلامٌ على المرسلين، والصلاة والسلام على نبيّنا الكريم.



٦٤٦. ﴿سورة التغـابـن﴾

السورة مدنية، وآياتها **ثماني عشرة**، وترتيبها **فى المصحف الرابعة والستون**، وفى التنزيل المدنى **الثانية والعشرون**، وفى التنزيل عموماً **السادسة والثمانون**، وسميت بسورة **التغـابن** لقوله تعالى فيها: ﴿**ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**(٩)﴾، وهو يوم القيـامة، من الغَـبْن وهو النقص. يقال: غَبَنَهُ غَبْناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، وسُمِّى يوم القيامة **يوم التغابن**، لأن أهل الجـنة يَغْـبُنون فيه أهل النار، فيأخــذ أهل الجنة الجنة كلها لأنفسهم، على طريق المبادلة، فـيقع الغَـبْن على أهل النار، لأنهم بادلوا الخير بالشــر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب. ويتمثل الغبن فى الشراء والبـيع كما قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى**﴾ (البقرة ١٦) فما يربح هؤلاء فى تجارتهم ويُغبَنون، وأهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا فغبَنوا الـكفّار الجنّة، فكأنه وقع التبادل فحصل التـغابن. وكما ترى ـ **فـالجـو العـام** لسورة الـتغابن هــو جو **السُّوَر المكية** التى مدارها الكفــر والإيمان، وأصول العقــيدة، والتخويف من الآخرة، والتبشـير لأهل الجنة، ولذلك قال البعض: إن السورة مكية، ومن هــؤلاء ابن عـباس، قال: إن سورة التغــابن نزلـت بمكة إلا آيات من آخرها، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٤)﴾، أنزلها فى **عوف بن مالك الأشجعى** لمّا شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده.

وفى البداية تستهل السورة بالحديث عن جلال الله وعظمته، وأن له المُلك، وهو على كل شيء قــدير، وتصنّف الناس إلى **كـافر ومـؤمن**، وكلٌّ بعمله، والكافر كُـفره فعلٌ له وكسْب، والمـؤمن إيمانُه فـعلٌ له وكسْب، والكافـر اختار الكـفر بإرادته، والمؤمن اخـتار الإيمان بإرادته، وكلٌّ عَلِمــه اللهُ فيــه قَدَراً عليه، ووجــود خلاف المقــدور عجــزٌ، وخلاف المعلوم جــهل، وفى ذلك ســلامة من الجـبــر والقدر، وكـلاهـمـا لا يليق بالله الذى خلَق بالحق، وصوّر فـأحْسَنَ الصُوَّر، ويعلم الغيب والشـهادة، والأوْلى بنا لذلك أن نؤمن ولا

نفعل كالأمم السابقة، الذين كفروا فذاقوا وبال أمرهم، وكانت تأتيهم رسُلهم بالبينات فتولوا عنهم بدعوى أنهم بشرٌ مثلهم، فاستغنى الله، وهو الغنى الحميد. وتدعو السورة الناس إلى الإيمان بالله ورسوله، وبما مع الرسول ﷺ من النور وهو **القرآن**، وتحذّر من **يوم الجمع**، أى يوم القيامة، يوم يجمع الذين كفروا والذين آمنوا للحساب، وتبشّر من يطيع الله ورسوله، وتحدد مهمة الرسول: أنها **البلاغ المبين**، أى الدعوة إلى الله الواحد الذى لا إله إلا هو، العليم القدير، ما نُصاب من مصيبة إلا بإذنه، والأحرى بنا إذن أن نتوكل عليه، فذلك هو الإيمان الحق. وتلفت السورة انتباهنا إلى أن بعض أهلينا وأولادنا قد يخوّفانا أن نجاهد فى سبيل الله، وقد نحذر الإنفاق فى سبيله مخافةً عليهم من الفقر، وتحذرنا أن الأموال والأولاد فتنة، والأحرى بنا أن نتقى الله ما استطعنا، وأن نطيع، وأن ننفق خيراً لأنفسنا، وتسمىّ السورة **الإنفاق فى سبيل الله «قرضاً حسناً»**، نقرضه الله خيراً لأنفسنا، فالشُحّ مهلكة، وما نفعله من خير أو سوء يشهده الله، عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى أنفسنا. والخطاب فى الآية: **﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)﴾** للنبىّ ﷺ، وهذه الآية تلخص السورة جميعها، وتشرح الهدف منها، وهى ردّ على مزاعم الزاعمين المنكرين للبعث، يعلّمه الله تعالى لرسوله ﷺ ولأمّة الإسلام من بعده، ومن ثم كان اسم السورة **«التغابن»** لأنها بكاملها شرحٌ لحجته تعالى، بأن البعث حقّ. و**«الزعم»** هو القول بالظن، ولكل شيء كنية، وكنية الكذب **«زعموا»**، قيل: نزلت فى **العاص بن وائل السهمى** مع خبّاب، فكان لخبّاب دَيْن على **العاص** فأراد أن يتقاضاه، فسخر منه العاص أن سيعطيه إياه فى الآخرة، وقول العاص كقول الكفار، والسورة ردٌّ عليهم تلخصه هذه الآية: **﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**.

وتتضمن السورة آيات من البيان والبلاغة، كما فى السؤال التقريرى: **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)﴾**، وكما فى الاستخدام الجميل لكلمة **﴿ذَٰلِكَ﴾** فى قوله: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾**؛ [illegible] الكثير من الحكَم والأقوال المأثورة، كما فى قوله: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (١١)﴾**، وقوله: **﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣)﴾**؛ وقوله: **﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤)﴾**؛ وقوله: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (١٥)﴾**؛ وقوله: **﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ (١٧)﴾**.

ومن مصطلحات السورة: «النـور» وهو القرآن؛ و«يوم الجمع» يعنى يوم القيامة؛ **﴿واسْمَعُوا وأَطِيعُوا﴾** أى: اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تُؤمَرون به وتُنْهون عنه، وهذه الآية محل خلاف وجدل، فقد استخدمها طواغيت المسلمين للتمويه على الناس باسم الدين، وتضليلهم عن حقوقهم، وتبرير مظالمهم، كما فعل **الحجّاج بن يوسف الثقفى** يبرر بها مظالم **عبد الملك بن مروان**، فقال تطبيقاً للآية: «**لو أمرتُ رجلاً أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحلّ لى دمه**»!!! مع أن الآية نزلت فى النبىّ ﷺ، وفى وجوب الطاعة له، ثم من بعده **لأصوات الحق من أهل العلم والصلاح والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر**. والسماع والطاعة فى الإسلام سُورهما «**الشورى، والعدل، وسواء السبيل**»، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٤٧. ﴿سورة الطلاق﴾

السورة مدنية، وآياتها **اثنتا عشرة** آية، وكان نزولها بعد سورة «**الإنسان**»، وترتيبها فى المصحف الخامسة والستون، وفى التنزيل المدنى **الثالثة عشرة**، وفى التنزيل عموماً **التاسعة والتسعون**، واسمها «**الطلاق**» من استفتاحها بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾**، ومن عنايتها بموضوع **الطلاق** فى الإسلام، وأحكامه وما يترتب عليه من **عدة، ونفقة، وسكنى**، وما تتكلفه تربية **الصغير** من عناية بغذائه ورعايته وكسوته، وأجور يقتضيها كل ذلك. وتسمى السورة لذلك سورة **النساء القُصْرَيّة** - أى **المقصورة** على بعض شئون النساء، تمييزاً لها عن سورة **النساء العُمّية** التى موضوعها مسائل النساء عموماً. وفى **مناسبة نزولها**، قيل: إنها نزلت لمّا طلّق رسول الله ﷺ **حفصة**، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى عليه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ①﴾**، وذلك لمّا أسرّ إليها حديثاً فأظهرته لعائشة فطلقها تطليقة، **وهذا غير صحيح**، وفى حديث **ابن عباس عن عمر بن الخطاب**: أنه فى **قصة التحريم** ذهب يتحرّى الأمر من ابنته فلم يكن النبىّ ﷺ طلقها، وقال لها عمر: «**ولولا أنا لطلقّك رسول الله** ﷺ». ولمّا دخل على النبىّ ﷺ قال له: «**فإن كنت قد طلقتهن فالله معك**». ولم يكن النبىّ ﷺ قد طلق أيّاً من زوجاته، ولم يطلق **حفصة**. ولمّا دخل **أبو بكر** على النبىّ ﷺ وجده جالساً وحوله زوجاته، وقال له النبىّ ﷺ: «**هن حولى كما ترى يسألننى النفقة**»، وواضح أن **طلاقه لحفصة فرية مما كان يروّجه المنافقون واليهود والكفار**، عليه وعلى بيت النبوة. والصحيح أن هذه الآيات فى الطلاق نزلت فى **عبد الله بن عمر** حين طلّق امرأته وهى حائض، فقال رسول الله ﷺ

فيه: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدّة التى أمر بها الله تعالى». وفى رواية: «فتلك العدّة التى أمر الله أن يُطلّق لها النساء». والخطاب فى السورة للنبىّ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ والحُكم عام لأُمّته: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بلفظ الجماعة. وصيغة الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ لم يُخاطَب بها نبىّ آخر فى القرآن، واختص بها النبىّ ﷺ ثلاث عشرة مرة، وكان خطابه تعالى لكل نبىّ باسمه مجرداً، كقوله: «يا إبراهيم»، و«يا نوح»، و «يا عيسى بن مريم»، و«يا موسى». وفى صيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المراد بها المؤمنون، يخاطبهم الله تعالى من خلال النبىّ ﷺ أو بواسطته، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً، أى الرسول نفسه دون المؤمنين، فإنه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، ويأتى ذلك فى القرآن مرتين (المائدة ٤١ و ٦٧). وإحصاء العدّة فى الآية هو تحديد ابتدائها وانتهائها، لئلا تطول مدتها على المرأة فتُمنَع من الزواج بعد طلاقها، أو لئلا تقصر عن مدتها فلا يتبين أن المرأة حاملٌ وتتزوج وهى حامل، فتختلط الأنساب. والعدّة لصالح الزوجين معاً كما يقول تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ①﴾، وكانت «أول امرأة يصير لها عدّة فى الإسلام»: أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، ولم يكن قبلها للمطلّقة عدّة. وليس لغير المدخول بها عدّة. ومَن طلق فى طُهْر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السُنّة، وإن طلّقها حائضًا أو جامعها فى طهر قبل طلاقها، نفذ طلاقه وأخطأ السُنّة. وطلاق السُنّة: أن يطلقها فى كل طهر طلقة، ومن يطلق ثلاثاً فى كلمة واحدة فطلاقه باطل، لأنه ﷺ أمر ابن عمر أن يراجع امرأته حين طلقها فى حيض فقال: «مُرْه فليراجعها»، وهذا يدفع الثلاث. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ①﴾ هى الرجعة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويجد فى قلبه رجعتها، وإذن يبطل دخول الطلقات الثلاث تحت الآية: ومعنى لعدتهن» لقُبُل عدتهن، و«قُبُل العدّة» هو آخر الطُهر، لأن الطلاق فى الحيض ممنوع، وفى الطُهر مأذون، وإحصاء العدة: موكولٌ بالزوجة والزوج معاً، ويهم القاضى الذى قد يحكم بالطلاق. والمرأة فى عدّتها لا تُخرَج من بيتها، ولا إذا تمّ طلاقها ولها أطفالٌ لصريح الآية: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ①﴾، لم تقل الآية أنها لا تخرج فى العدّة، بل وزادت فأضافت البيوت إليهن فقالت: «بيوتهن»، وكان من المستحيل أن تستمر المرأة فى بيت أهل الزوج بعد طلاقها، ولذلك فسّر الأوائل الآية بأنها خلال العدّة، وقالوا إن الإضافة إضافة إسكان وليست إضافة تمليك. وفسرّوا النهى عن الخروج تفسيراً آخر خلاف ما فى الآية، وأفتوا بأنها تُحبس فى البيت، مع أن المعنى ينصرف إلى أن تقرّ فى البيت هى

وأولادها طالما أنها تحترم مسكنها وجيرانها وعقد الإيجار بين مطلقها وصاحب البيت، فإن ارتكبت فاحشة مبيّنة، كأن تُعرف بسوء الخلق لكثرة خروجها، أو لتردد الرجال عليها، أو تُضبط في قضية آداب، فليس لها السكن، ويُنزع منها أولادها الذين هم في حضانتها. وفي قوله: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** (٢)﴾، والإمساك بالمعروف هو المراجعة، والمعروف هو نية عدم المضارة في الرجعة، فلا يراجعها ثم يطلقها وهكذا، تطويلاً للعدة. وقوله: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ** (٢)﴾ لوجوب شهادة اثنين **إذا راجعها وإذا طلقها**، ويقتضي ذلك **الإثبات والتوثيق**، ويستوجب أن يكون أمر الطلاق والرجعة بيد القاضي، فلا يكون هناك مجال للتجاحد بينهما. وإذا وجب **الإشهاد في الرجعة**، فإن القول بأن الرجعة لابد فيها أن تقبل المرأة بها، لأنه إذا كان يُشترط **القبول في الزواج، فالرجعة لابد أن يُشترط فيها كذلك القبول**، لأنها أوْلى بهذا الشرط من الزواج، لأنها بعد نزاع، ويسقط بذلك أن يراجع الرجل امرأته **بدون علمها**. ويشترط في الشاهدين أن يكونا من **ذوي العدل**، يعني من مستوى الرجل والمرأة الاجتماعي، فلا يصح أن يشهد على زواج أو طلاق من لهما مكانة اجتماعية شاهدان من سفلة القوم، أو شاهدان مخموران، أو لا وعي ولا دراية لهما بما يشهدا عليه، ومن ثم قال: ﴿**وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ** (٢)﴾، أي تقرُّباً إلى الله، **فالشاهدان لابد أن يكونا من الأتقياء الصالحين**. وتستطرد السورة إلى النساء **الآيسات اللاتي لم يعد لهن حيض، والصغيرات في السن اللاتي لم يحضن**، فتجعل عدّتهن **ثلاثة أشهر**، وأما **أولات الحمل** فعدّتهن أن يضعن حملهن. وفي العدة تُسكن المرأة في بيت الزوجية، ولا يصح أن يساكنها مطلّقها، ولو كان يصحّ ذلك ما قالت الآية: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ**﴾. وإذا كان لها أولاد تظل في بيتها وينفق عليها كما ينفق على المعتدة، وللمرأة **نفقة إعالة وإعاشة كاملة**، وتقدير النفقة أوْلى بالتشاور وبالمعروف، ومن يتعاسر من الزوجين يحتمله الآخر. وفي قوله تعالى: ﴿**مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ** (٦)﴾ يعني من سعتكم، كقوله: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** (٧)﴾، والآية مبدأ من **مبادىء العدل في الأحوال الشخصية**، وفي الحديث لهند قال لها رسول الله ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»، فأحالها على الكفاية حين علِم السعة. والآية أصلٌ في **وجوب النفقة للولد على الوالد دون الأم**، والأصحّ من ذلك أن تكون **النفقة على الأبوين على قدر الميراث**. وخُتمت السورة بموعظة عامة، أن لا نتعدى الحدود كالأمم السابقة التي عتت عن أمر ربّها فحاسبها حساباً شديداً، وأشارت السورة إلى قدرته تعالى في خلق السموات

والأرض، فمن قدر على هذا المُلك العظيم، فهو على ما بينهما من خَلْقه أقدر، ومن العفو والانتقام أمكن، وهو المحيط بكل شيء علماً، فسبحانه الذى شرّع الزواج والطلاق، وجعل لهما قداسة، وحذّر وأنذر من اللهو بهما والاستخفاف بأمرهما.

وفى السورة الكثير من الحكم والأقوال التى يمكن التمثُّل بها، كقوله تعالى: **﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾**؛ وقوله: **﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾**؛ وقوله: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾**؛ وقوله: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**؛ وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾**؛ وقوله: **﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**؛ وقوله: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾**؛ وقوله: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾**؛ وقوله: **﴿وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾**؛ وقوله: **﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾**؛ وقوله: **﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾**؛ وقوله: **﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾**؛ وقوله: **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾**. والحمد لله ربّ العالمين على نعمة القرآن، وبالله وبكتابه التوفيق والعصمة.



٦٤٨. ﴿سورة التحريم﴾

السورة مدنية، وموضوعها لذلك من نوع موضوعات السور المدنية، وتتناول مسائل من أحكام الشريعة المتصلة بالحياة العملية، وفى هذه السورة يتصل التشريع بحياة الرسول ﷺ، وببيت النبوة وأمهات المؤمنين، كنموذج للبيت المسلم وما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة. والسورة آياتها **اثنتا عشرة** آية، وكان نزولها بعد سورة **الحجرات**، وترتيبها فى المصحف **السادسة والستون**، وفى التنزيل المدنى **الواحدة والعشرون**، وفى التنزيل عموماً السابعة بعد المائة. وتستهل بعتاب الله تعالى لنبيّه ﷺ، ولكنه ليس أى عتاب، وبقدر منزلته ﷺ عند ربّه، بقدر التلطُّف فى صيغة هذا العتابُ. تقول السورة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾**؟، وصيغة السؤال من صيغ التلطف فى العتاب، وكذلك قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾**، فلم يحدث أن خاطبه تعالى كغيره من الأنبياء، كأن يقول: «يامحمد»، وإنما يخاطبه إما بقوله **﴿يَسْأَلُونَكَ﴾** كما فى الآية ١٨٩ من سورة البقرة، ويتكرر ذلك **خمس عشرة** مرة، ويجيب فيقول: **«قل»** كما فى نفس الآية السابقة، وهى صيغة **السؤال والجواب** من صيغ **التعليم** القرآنى، وإما يخاطبه بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾**، بينما كان خطابه لآدم: **﴿يَا آدَمُ﴾** (البقرة ٣٣)، ولإبراهيم: **﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾** (هود ٧٦)، ولنوح: **﴿يَا نُوحُ﴾** (يونس ٤٦)، ولموسى: **﴿يَا مُوسَىٰ﴾** (الأعراف

١٤٤)، ولعيسى ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (المائدة ١١٠)، فبقدر عزم الأنبياء بقدر تفضيله تعالى لهم، بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(البقرة ٢٥٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء ٥٥). وفى القرآن تأتى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ثلاث عشرة مرة، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ مرتين كما فى الآية ٤١ من سورة المائدة، وفى كل مرة كان يعلنه تعالى بأمر من أمور الدعوة، أو يسرّ له بمسألة تخصّ البيت النبوى. ولمّا كانت السورة تتناول التحريم الذى فرضه النبىّ ﷺ على نفسه، إرضاء لأزواجه ،دون أن يأتيه ذلك عن ربّه، سأله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وفى الإسلام ليس من سلطة أحد تحريم ما أحلّ الله، ولا تحليل ما أحلّه، إلا أن يأتى الأمر بذلك منه تعالى. ولهذا التحريم قصة لم توردها السورة ولكنها أشارت إلى مجملها دون الدخول فى تفاصيلها، لأن الناس ليس لهم من تفاصيل حياة الرسول ﷺ إلا مجملها وما له صلة بدينهم، وللقصة مغزى ومعنى ومفاد، وهذه هى مطلوباتها كقصة من الأدب الدينى، وفيها الوعظ والإرشاد والتأسّى بالرسول ﷺ فى حياته الخاصة فيما يجب وما لا يجب. وقد ذهب المفسّرون مذاهب شتى فى التكهّن بالتفاصيل وتخمين أسماء شخوص القصة من نساء النبىّ ﷺ، ومدار الخلاف الذى جرى، فذكروا أن حفصة شاهدت النبىّ ﷺ مع أم ولده إبراهيم فى حجرتها وعلى سريرها! وكانت حفصة قد توجهت لزيارة أبيها، ولمّا عاتبته طلب إليها أن تكتم ذلك وأقسم أن لن تكون له بأم إبراهيم علاقة من بعد! فكأنه حرّمها عليه مع أنها محللة! وقالوا إنها لمّا رأته ساومها على أن لا تذيع ذلك على زوجاته، وفى مقابله يخصّها بخبر يفرحها، وسألته عن الخبر، فقال لها: إن أباها عمر بن الخطاب وكذلك أبا بكر الصديق سيخلفانه من بعده، أبو بكر أولاً ثم عمر! ولقد أفشت حفصة السرّ، وأطلعت عليه عائشة فانتشر منها إلى كل زوجاته وعلمن به، فنبّأه ربّه بما جرى! وكذلك تعلقت المسألة بناحية أخرى من الأدب الزوجى هو إفشاء الزوجة لأسرار زوجها، الأمر الذى استوجب غضب الرسول حتى كاد أن يطلق زوجاته لمّا تظاهرن ضده وطلبن زيادة الإنفاق عليهن! وقيل عن ذلك أن الأمر تعلّق بالمرأة التى وهبت نفسها للنبىّ ﷺ وهى أم شريك! وقد أغضب ذلك زوجاته فتظاهرن ضده! وكل ذلك القيل والقال من نوع الرجم بالغيب، ويتنافى مع العقل، ويتطلب أن يكون أصحاب القصة بلا خلاق ولا مبادئ! وكانت الشائعة مادة خصبة للإسرائيليات، وكثيرٌ مما قيل حولها يقوم على الجهل، ويدفع إليه التصور المغرض، وهو من نوع التشنيع على النبىّ ﷺ وعلى زوجاته -وأخصّهن عائشة وحفصة، لأنهما كانتا بنتىّ خليفتىّ رسول الله ﷺ، وأكثر فيهما الشيعة والرافضة

واليهود، وهؤلاء الثلاثة ألد أعداء الإسلام السُّنّى. (انظر مناسبة الآية ضمن باب أسباب النزول). ومما قاله الزمخشرى مثلاً - وهو صاحب باعٌ طويل فى الإسرائيليات وترويج الإشاعات - أن التحريم من النبىّ ﷺ كان زلة! ولم يراع الزمخشرى مقام النبوة، ولم يلاحظ أن النبىّ ﷺ لم يحلل لنفسه حراماً، ولكنه حرّم على نفسه وضيّق عليها ما وسّعه الله! والقرآن أرادنا أن ننتبه إلى ذلك: أن لا نحرم ولا نحلل إلا ما حرّم الله وما حلّله. وعتابه تعالى لنبيّه كان كرامةً له، وتنزُّلُ القصة قرآناً فيه رحمة للمسلمين، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ (المائدة ٨٧). وفَرْض الكفارة تحلةً للإيمان من أنواع الرحمة للمسلمين، فمن قال لزوجته: أنت علىّ حرام ولم ينو طلاقاً ولا ظهاراً، استوجب على نفسه كفارة اليمين، ولو خاطب كل زوجاته بهذا اللفظ فعليه كفارة واحدة، وكذلك لو حرّم على نفسه أى شيء من طعام أو غيره تجب به الكفارة، وما لم يحرمه الله فليس لأحد أن يحرمه. ولمّا أتى ابن عباس رجلٌ يقول له: إنى جعلت امرأتى علىّ حراماً، قال له ابن عباس: كذبتَ! ليست عليك بحرام، وتلا عليه الآية وفرض عليه كفّارة.

وأما مسألة إفشاء السرّ بين الأزواج، فقد تناولته الآية: ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)** ﴾. والآية كما ترى تفسّر السبب الذى من أجله كان التحريم وكان مدار القصة، وهو سرّ بين أصحاب القصة ليس لنا أن نتكهن به. وقد خاطبهما الله تعالى - أي عائشة وصفية احتمالاً - فقال: ﴿ **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤)** ﴾، وقيل: الآية من بركات عمر بن الخطاب، فلما دخل عليه بعد أن سمع خبر إيذائهن للنبىّ ﷺ قال له: يارسول الله، ما يشق عليك من شأن النساء، فإن كنتَ طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك». قال عمر: وقلّما تكلمتُ بكلام - أحمد الله - إلا رجوتُ أن يكون الله عزّ وجلّ يصدّق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية - آية التخيير: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ (٥)** ﴾، والآية: ﴿**وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤)**﴾. والتظاهر هو ما كانت تفعله زوجتاه ﷺ، وذلك ما أغضبه منهما علاوة على إفشاء السرّ، وهو ما استوجب كذلك أن يخوّفهما الله فيقول: ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ (٥)**﴾ ثم وصف هؤلاء الأزواج بأحسن الصفات المعنوية كما

ينبغي أن تكون عليه الزوجة، فقال: ﴿ **مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾** ﴾. و«عسى» في الآية تأتي بمعنى الوجوب، وقيل كل «عسى» في القرآن فهي وعدٌ من الله، وقوله: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ** ﴾ يعني يعده الله بذلك. ويأتي أيضاً في الآية: ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴿٨﴾** ﴾ يعني يعدهن إن تُبْنَ بصدق أن يغفر لهن سيئاتهن، ولذلك كانت النصيحة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴿٦﴾**﴾ والمؤمن إذا وقى أهله من النار يقي نفسه كذلك، وأهل الرجل هم نساؤه في المقام الأول، واستدعت **قصة التحريم** - هذه النصيحة لتعلقها بالأهل أي بنساء الرجل، وسورة التحريم كما رأينا مدارها أهل بيت النبوة، والتوصية بالأهل من نوع رعاية الراعي لأهل بيته، ومسئوليته عنهم، كما في الحديث: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...»، وسورة التحريم كلها تعليم للنساء وللمؤمنين جميعاً: ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٨﴾** ﴾، وكانت مثار أمر آخر بخلاف التربية المعنوية لهؤلاء، فقال تعالى للنبيّ ﷺ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴿٩﴾** ﴾، وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** ﴾ كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، فبعد وفاة النبيّ ﷺ يئول الجهاد إلى أئمة المسلمين، وجهاد الكفار إذا اعتدوا واجبٌ، قتالاً بقتال، وقتال المنافقين باللسان، وكان الكفار والمنافقين قد أكثروا الذمّ للنبيّ ﷺ وزوجاته، وللقرآن والإسلام، كما يحدث الآن، وروّجوا الشائعات. ثم أوردت السورة نموذجين تربويين لنساء المسلمين وأزواجهن، تخييراً لهن في أي نموذج شئن، في قوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾**﴾. وخيانة امرأتي نوح ولوط ليست الفحشاء ولكنها **عصيانهما** والانضمام إلى حزب الكفّار، وذلك نقضٌ أصيل لعقد الزوجية يرقى إلى مرتبة الخيانة، لأنهما كانتا تفشيان سرّهما وتبلغان رهطهما بما يدبّران. وامرأة فرعون كانت مؤمنة صابرة، ودعت ربَّها حُسن الثواب، وأن ينجّيها من فرعون وكُفره وظُلمه، ومن قومه الظالمين. ومريم أحصنت نفسها وآمنت بوعد الله لها، وبما أنزل من كُتب، والتزمت فروضها، وكانت كثيرة الذكر لربّها. فهذان هما النموذجان اللذان للنساء وللرجال أن يفاضلوا بينهما ويختاروا بملء حريتهم أيهما يناسبهم. والسورة تؤكد حرية إرادة النساء والرجال، وحرية اختيارهم رجالاً

ونســاءً بين الإيمان والكفــر، وتثبت أن للنساء استـقلالية كاستـقـلالية الرجال، وربما كانت **تظاهرة نســاء النبيّ ﷺ أول تظاهرة نسـائية فى التـاريخ**، ولقد نسـبوها **لعائشـة وحفـصة**، وعائشة التى تظاهرت كما روت السورة ـ تطالب **بالنفقة للنساء**، وإلا فكان الأحرى أن لا يتزوجهن. هي نفسها التى تظاهرت تطالب **بدم عثمان** وتوجهت **إلى البصرة** تظاهر الحق. والسورة حافلة بصور شتّى تطالعنا بجوانب من **الجهـاد**، وفيها من **المصطلحـات** الكثير. كمصطلح «**تحلة الإيمان**»: يعنى تحليل اليمين، أى كفّارته؛ ومصطلح «**السائحات**»: يعنى الصائمات، يُسمّى الصائم **سائحاً** لأن السائح «قديماً» كان يمشى لا زاد معه ويأكل حيثما يجد مَن يطعمه؛ و«**الثيب**»: سُمّيت ثيّباً لأنها **تثوب إلي بيت أبويها** بعد أن يتركها زوجها؛ و«**البكر**»: هى العذراء، لأنها على أول حالتها التي خُلقت بها؛ و«**الملائكة الغـلاظ**»: هم الملائكة الزبانية الشداد؛ و«**التوبة النصوح**»: الصادقة. (**انظر أيضاً قصص امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فـرعون، ومريم بنت عـمران ضمن باب قـصص القرآن**). ومن الدعـاء الجمـيل المحيط فى السورة، قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑧﴾**. نسأل الله العافية، وأن يحيينا ويميـتنا على كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، ويلحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدّلين. آمين.



٦٤٩. ﴿سورة الملك﴾

السورة مكّيـة، وتُسمّى «تبـارك»، كما تُسمى «المُلـك»، لاستهلالها بقوله تعالى: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾**، وكان نزولها بعد سورة **الطور**، وترتيبها فى المصحف **السابعة والستون**، وفى التنزيل **السابعة والسبعون**، وآياتها **ثلاثون**، وتوصف بأنها **الواقية، والمنجية، والمانعة**، قيل: تقي وتُنجى وتمنع من عذاب القبر وتشفع لقارئها من النار، **وعذاب القبر** لم يُنصّ عليـه فى القرآن، ولا شـفـيع للناس إلا أعمالهم. وكشـأن السور المكية، فإن سورة المُلك تتناول موضـوعات **العـقيـدة**، وتبينّ قُدرة الله، وتُثبت له الـوحدانية، وتُبرهن على وجـوده، فهـو الذى يمـيت ويحـيى، ويُنشىء ويفنى، ويـرزق، ويغنى، وهو الذى رفع السمـاء طباقـاً، وزيّنها بالكواكب، وبسط الأرض وإن شـاء خسف بهـا، أو يرسل ريحاً حاصباً تحصد المكذّبين. **ومحور السورة** هو: **التكذيب ليوم القيامة**، فهل يكثر على الله الذى خلق الطير لا يمسكها شيء فى السماء إلا رحمته، والذى لا مهرب من عقابه وعذابه، أن ينشىء الخلق من جديد ويبـعثهم ليـوم الدين؟ وأن يسعّر ناراً تحرق من يمـارى فى وجوده تعالى وفي قدرته أو رحمته؟ وتضـرب السورة المثل للمؤمن والكافر بمن يمشى سوياً يأمن العثار، ومن يمشى مكبّـاً يعتسف ولا يهتدى، فالأحرى أن يؤمن الناس، ومـا يمارون فيه

- وهو البعث - حقٌ لا ريب فيه، **وعلم الساعة** عنده تعالى لا يعلمها إلا هو، فلا يصح أن يُسأل فيها النبيّ ﷺ، لأنه ليس سوى نذير مبين، وقد فعل وأنذر وأبان.

والسورة فيها الكثير من وجوه البيان والبديع، **كالمطابقة** بين الموت والحياة، **والاستعارة** في قوله: **﴿تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾**، **والتمثيل** في قوله: **﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا﴾**، **والسجع** في قوله: **﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾**، و**﴿كَانَ نَكِيرِ﴾**، وفي قوله: **﴿غُرُورٍ﴾** و**﴿وَنُفُورٍ﴾**، والكناية في قوله: **﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾** ... إلخ، ولله الحمد والمنّة، وبه التوفيق والعصمة.

•••

٦٥٠. ﴿سورة القلم﴾

سميت السورة باسم ما جاء في ابتدائها **﴿الْقَلَمِ﴾**، الذي أقسم الله تعالى به لما فيه من البيان، وبدأها بحرف الهجاء «**نون**» كما في سائر مفاتيح السور، وقيل اسم السورة **﴿ن﴾** وأما **﴿الْقَلَمِ﴾** فهو المُقسَم به، قيل: هو أول ما خُلق، **والنون** كانت الدواة. ومن خرافات التفسير أن يقال: النون هو **الحوت** الذي يحمل الأرض! وقيل: القلم لمّا خُلق كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة! وقيل: نون افتتاح أسمائه تعالى **نصير، ونور، وناصر،** وآخر حرف من **الرحمن**! والصحيح أن القلم نعمةٌ من الله، **وكذلك** حروف **الهجاء** من أمثال نون، لأن منها بناء الكلمات التي بها تتألف العبارات، وبها يتعلم الناس ويعلّمون ويحفظون التراث. والسورة **مكية**، وكشأن المكيات فإنها تتناول أمور **العقيدة**، وتردّ على الشُّبه التي أثاروها وما يزالون على الدعوة، وعلى قيام النبيّ ﷺ بها، واستحقاقه كنبيّ ورسول، وفيها الكثير مما يمكن أن يُضرَب للوعظ والإرشاد كقصة **أصحاب الجنة**، وكانوا ظالمين طاغين، فلم تنفعهم أموالهم، ولا أنجتهم سعة عيشهم لمّا حاق بهم غضبه تعالى.

والسورة تروى عن أحوال المكذّبين، وبدأت بالقلم، لأن ما قالوه وفعلوه بالنبيّ ﷺ قد أُحصي عليهم وكُتب وسُجّل، وما كان **بالمجنون** كما ادّعوا، وما تحمّله منهم لابد أن يؤجر عليه من ربّه، لامنّاً ولا تفضّلاً وإنما عن استحقاق، **فهو صاحب الخُلق العظيم**، ولسوف يبصرون يوم القيامة هل كان هو المجنون أم كان المكذّبون هم المجانين الذين فتنتهم شياطينهم؟ وماكانوا سوى منافقين لا يمشون إلا بالنميمة، وإذا حلفوا أكثروا الحلف المهين، واستقووا بأموالهم وأولادهم، وقالوا عن **القرآن** إنه ترهات وخرافات السابقين، وما دروا ما أعدّ الله لهم من عذاب، وما ادّخره للمتقين من ثواب، وليس المسلمون كالمجرمين، يوم يُكشف عن ساق، ويُدعون إلى السجود، أى الإقرار بالحق، ويبدو لهم وقتها العذاب الصراح. وتنتهي السورة بدعوة النبيّ ﷺ **إلى الصبر**، وتنهاه عن أن يكون **كصاحب الحوت يونس** عندما ضجر وعجل، وليترك أمر المكذّبين، يُستدرجون ويُملَى لهم من حيث لا يعلمون.

والسورة حافلة بالصور البليغة الرائعة، ومن ذلك صيغ المبالغة فى كلمات مثل حلاّف، وهمّاز، ومشّاء، ومنّاع؛ والجناس: فى مثل مجنون، وممنون؛ والكناية: فى مثل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، كقول القائل عن الحرب: شمّرت عن ساقها؛ والطباق: فى مثل: المسلمين، والمجرمين؛ والتوبيخ الفائق، فى مثل: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ والسجع المحبوك: فى مثل: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. والحمد لله ربّ العالمين على نعمة القرآن، والله سبحانه وتعالى الموفّق للصواب.

●●●

٦٥١. ﴿سورة الحاقة﴾

الحاقة من السور المكية التى مدارها العقيدة، وترتيبها فى المصحف التاسعة والستون، وكان نزولها بعد المُلك، وترتيبها فى التنزيل الثامنة والسبعون، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية، وقيل فيها إنها تجير من الفتنة، وهى نور لقارئها يوم القيامة. ومعنى الحاقة: يوم القيامة، وهو يوم الحقّ، لأن الأمور تُحَقّ فيه من غير شك، فلأقوام تكون الجنة، ولأقوام تكون النار، ويصير كل إنسان حقيقياً بجزاء عمله، منْ حاققتُه فحققتُه أحُقّه، أى غالبته فغلبتُه، فالقيامة حاقة لأنها تَحُقُّ كَلَّ مُحاقّ فى الدين بالباطل، أى كل مخاصم، ويقال لها الحاقة، والحقّة، والحقّ. والسورة كل مدارها لذلك يوم القيامة أو البعث، وصورها البلاغية عن هذا اليوم، وفيها الوصف التفصيلى لمآل المنكرين له، وقد أنكرته ثمود، وعاد، وفرعون، وقوم نوح، والمؤتفكات - أى قوم لوط، فأخذهم الله أخذةً رابية - أى شديدة. فإذا كان هذا اليوم ونُفخ فى الصور، فإن الواقعة تقع، فتُدكّ الجبال، وتنشق السماء، ويُبعث الناس يُعرَضون على الحاسبين، فلا تخفَى منهم خافية، فمن يُؤتى كتابه بيمينه فهو فى عيشة راضية، فى الجنة العالية، ومن يؤتى كتابه بشماله فهو فى الجحيم يَصْلَى ناراً حامية، استحقاقاً بإنكاره لله، وعزوفه عن الصلاح. وتُثنى السورة على النبىّ ﷺ، وتؤكد أن ما يبلّغه من القرآن هو قول رسول كريم، وتنفى عنه أنه شاعر أو كاهن، أو أنه يتقوّل على الله، وإذن لأَخَذَ منه باليمين وقَطَع منه الوتين، وقوله هو حق اليقين، يعنى به القرآن، لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، فسبحان الله العظيم الذى أنزله!

والسورة بها الكثير من وجوه البيان، من مثل الإطناب تهويلاً فى قوله: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾؛ ولجوئه للتفصيل بعد الإجمال فى قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾؛ واستخدامه التشبيه المجمل فى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾؛ والاستعارة فى قوله: ﴿لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾؛ والجناس فى قوله: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾؛ والمقابلة فى قوله: ﴿بِيَمِينِهِ﴾ (الحاقة ١٩)

و﴿ **بشِمَالِهِ** ﴾ (الحاقة ٢٥) وطباق السلب في قوله: ﴿**تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ**﴾؛ والسجع المرصّع يفصل به بين الآيات، في قوله: «**رَّاضِيَةٍ**»، «**عَالِيَةٍ**»، «**دَانِيَةٌ**»، «**فَغُلُّوهُ**»، «**وَصَلُّوهُ**»، «**فَاسْلُكُوهُ**».

ومن **المصطلحات الإسلامية الخالصة** في هذه السورة: «**الأذن الواعية**»، تسمع وتفهم، وتعي وتحفظ؛ و«**النفخة الواحدة في الصور**»، قيل هي **ثلاث** نفخات: الأولى «**نفخة الفزع**»، ثم يعقبها «**نفخة الصعق**»، تصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم «**نفخة البعث**»، فيُبعث الناس ويُعرضون فلا تخفى منهم على الله خافية، فهو **العَرض** الكاشف الفاضح، ومنه ثلاث عرضات: **اثنتان** منها جدال ومعاذير، **والثالثة** هي: «**العرض الأكبر**»، وفيه تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه، وآخذٌ بشماله. وفي السورة نعرف أن عرشه تعالى يحمله **ثمانية**، قيل هم ملائكة يكونون «**ثمانية**» **صفوف**، وهذا العدد من المتشابه، وفيه أقوال كثيرة، وأكثرها **خرافات** ورجمٌ بالغيب. وفي قوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ** ﴾، يعني أن كلام القرآن يباين صنوف الشعر، ولم يرد بسبّ ولا قذف ولا شتم. ويُروى عن عمر بن الخطاب، أنه قبل أن يُسلم خرج يتعرّض للنبيّ ﷺ ،فوجده قد سبقه إلى المسجد، فقام خلفه، فاستفتح النبيّ ﷺ بسورة **الحاقة**، يقول عمر: فجعلت أعجب من تأليف القرآن! وقال: هذا والله شاعر كما قالت قريش! فقرأ النبيّ ﷺ : ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١)** ﴾، فقال عمر: هذا قول كاهن، فقرأ النبيّ ﷺ : ﴿ **وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)** ﴾! قال عمر: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع، فهذا من جملة أسباب إسلام عمر.

والسورة فيها الاعتبار بمن سبقوا من المكذّبين، والتحرر عمّا فعلوا، وألاّ يصيبنا ما أصابهم. **والدرس المستفاد**: أن أمة الإسلام غير الأمم الأخرى، فأولئك **عُجّلت** لهم العقوبة، وأمة الإسلام **أُجّلت وأُخّرت** إلى يوم القيامة. وأما **خاصة أمة الإسلام**.. وهم **أتقياؤها** ـ فلو أضاعوا الأدب يعاقبهم برياح الحُجبة، تطيح بالاحتشام من قلوبهم، وتعصف بأحوالهم فيُمتحنوا، ويصيروا على خطر أن يدركهم سُخط الحقّ. وأما منّته على أوليائه فإنه يسلمهم في عافية، فلا يتنازعون، ولا يتحاسبون، ويسلمون من الناس، ويسلم منهم الناس.

وبعد: فهذه هي سورة الحاقة: من أروع سور القرآن العظيم، ولله الحمد والمنّة، وبه التوفيق والعصمة.



٦٥٢. ﴿سورة المعارج﴾

من السور **المكية**، **وموضوعها** لذلك: العقيدة الإسلامية؛ ومدارها: حول القيامة وأهوالها، وأحوال المؤمنين والمجرمين فيها، ومن قبل ذلك في الدنيا، والإنسان عموماً إذا مسّه الخير أو الشر، وأوصاف الناجين في الآخرة، والكفّار في مكة خصوصاً ونفورهم من دعوة الرسول ﷺ، وأمره له بالصبر عليهم، وترْك أمرهم لله حتى يلاقوا يوم البعث الذي يوعدون.

والسورة نزلت بعد **الحاقة**، وهي **السبعون** في ترتيب المصحف، **والتاسعة والسبعون** في النزول، وآياتها **أربعة وأربعون**، واسمها **المعارج** مما جاء بها من وصفه تعالى بأنه **ذو المعارج**، أي ذو العلوّ والدرجات الفواضل والنِّعم، وذو العظمة والعلاء. **والمعارج**: هي مراتب إنعامه على الخلق، وهي المعروفة **بمعارج السماء**، أو **معارج الملائكة والروح**، تعرج إلى السماء ما بين أسفل الأرض إلى عرشه تعالى مسيرة خمسين **ألف سنة**، والعدد للتمثيل لا للحصر، بدليل أنه في آية أخرى يقول: **﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾** (السجدة)، ومع ذلك فالأقوال في هذا العدد رجمٌ بالغيب، **فالخمسون ألف سنة** يمكن أن تكون المدة التي يستغرقها نزول الملائكة والروح - أي جبريل - من السماء الدنيا إلى الأرض، أو هي مدة رحلة الملائكة والروح من يوم خلق الله الأرض إلى يوم القيامة حين اللقاء به تعالى، أو هي عُمر يوم الحساب يستنفده الملائكة والروح محسوباً بسنين الدنيا، وكلها اجتهادات في التفسير عن ظن وليس عن علم، وفي الحديث: «**يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين، ولذلك سمّى نفسه سريع الحساب وأسرع الحاسبين**»، وكما يرزق الله الناس في ساعة، فكذلك يحاسبهم في لحظة، وإنما على قدر الفهوم تكون الظنون، وهو تعالى القائل: **﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾**(لقمان ٢٨). وأجمل ما يقال من التفسير في التناقض بين أن يكون هذا اليوم، مرة **خمسين ألف سنة**، ومرة **ألف سنة**، أن هذين اليومين هما من **أيام الله**، يقدرهما بتقديره، وهو أعلم بما يكونان. ولا يحسُن أن يقال فيهما بما لا نعلم، والغالب الذي نرجّحه: **أن العدد في الآيتين لتصوير طولهما**، تصويراً نفسياً يكاد يكون كالواقع، ويوصف بما يوصف به الواقع، تهويلاً وتقريباً للأفهام، والعرب يصفون ما لا يقدرون على عدّه، أو ما لا يحتملون مشقته وشدّته - **بالطول**، كما يصفون ما يحبون أن يستمر معهم من الأوقات المرغوبة **بالقصر**.

وتبدأ السورة بقوله تعالى: **﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾**، لأن نزولها كان لدعوة الكافرين بالعذاب يقع عليهم كبرهان على صدق النبيّ ﷺ بما يخبرهم به عن البعث وعذاب يوم القيامة، قيل إن السائل: هو **النضر بن الحارث**، قال: **﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ**

الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ (الأنفال ٣٢) فنزل ما سأل، وقُتل وعقبة بن معيط يوم بدر صبراً، ولم يقتل صبراً غيرهما. وقيل: إن السائل هو الحارث بن النعمان الفهرى، فما أن قال سؤاله حتى جاءه حجر فى دماغه فقتله. وقيل: السائل هو أبو جهل؛ وقيل السائل ـ من سياق السورة ـ هو الرسول ﷺ نفسه، ولذلك قال له ربّه: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥)**﴾، أى لا تستعجله لهم فإنه واقع بهم لا محالة.

وفى السورة الكثير من وجوه البلاغة، كالطباق فى قوله: «**بَعِيدًا وَقَرِيبًا**، و**الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ**، و**الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**»؛ والجناس فى قوله: «**سَأَلَ سَائِلٌ**، و**تَعْرُجُ الْمَعَارِجِ**»؛ والتشبيه، فى قوله: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩)**، **كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾؛ والكناية، كقوله: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)**﴾ كناية عن المنىّ؛ والسجع المرصَّع فى قوله: ﴿**إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧)**﴾؛ وذكْر الخاص بعد العام لفضله وشرفه، فى قوله: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ**﴾؛ والعام بعد الخاص فى قوله: ﴿**لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤)**﴾؛ والمقابلة كما فى قوله: ﴿**إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)**﴾؛ والاستفهام الإنكارى تقريعاً وتوبيخاً فى قوله: ﴿**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨)**﴾.

ومن جوامع الكلم فى هذه السورة قوله: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)**﴾، وهى حكمة بالغة عن طبائع البشر. وقوله: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥)**﴾ هو الصبر بالله ولحكمه، ويُجزَى به العبد مرتين، ومن مصاحباته وطقوسه التسبيح بحمد الله. والصبر والمصابرة من عزم الأمور. ومن أروع المشاهد فى هذه السورة: صور العذاب فى يوم القيامة: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨)**﴾.

ومن المصطلحات المأثورة فى السورة: «الجامع المُوعى» فى الآية السابقة، وهو الذى يجمع المال ويوعيه أو يُوكيه ويُغلق عليه. وفى تفسير: ﴿**وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ الحديث: «شرّ ما فى الرجل شُحٌّ هالع وجُبن خالع»، وكلاهما «الشُح الهالع والجُبن الخالع» مصطلحان من تصنيفات الشُحّ والجبن. ومن المصطلحات: جنة النعيم، ويوم الدين، واليوم الذى يوعدون. وقوله: ﴿**رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**﴾ لأن الكون مليءٌ بالكواكب، ولكل منها مشرقها ومغربها، والله تعالى ربُّها جميعاً. وقوله: ﴿**إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾ كقوله: ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)**﴾ (محمد) فيهما

نظرية الإسلام فى التولّى والاستبدال، وهو أن يُذهب الله تعالى ريح المكذِّبين من الأمم، ويأتى بأمة تطيعه ولا تعصيه. والسورة فيها الكثير مما يشُدّ القاريء أو السامع، سواء فى أسلوبها أو حِكَمها، وإحالات عباراتها وألفاظها إلى مختلف العلوم والفنون. ولله الحمد والمنّة، نحمده تعالى أن جعل القرآن كتابنا، وجعل محمداً ﷺ رسولنا، وجعل الإسلام ديننا وملّتنا ومذهبنا فى الحياة وبعد الممات.

•••

٦٥٣. ﴿سورة نوح﴾

السورة **مكية**، يعنى تتعلق **بالعقيدة**، ويأتى ترتيبها فى المصحف وفى التنزيل **الواحدة والسبعون**، وآياتها **ثمان وعشرون** آية، وكان نزولها بعد **النحل**. وسُميت بسورة **نوح** لأن **مدارها** النبىّ **نوح**، وما كان من أمره مع قومه المكذِّبين له، وقصته من بداية الدعوة إلى أن أخذهم الله بالطوفان فأغرقهم بخطاياهم، وعذّبهم فى النار بكُفرهم. وفى السورة: أن نوحاً من المرسلين والمنذرين، قيل هو **أول رسول منذر، وأحد أُولى العزم الخمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد**. وعاش فى قومه عمراً مديداً، ويُطلق عليه لذلك **شيخ الأنبياء؛ ومدار رسالته**: الإيمان بالله وتقواه، وأن يقرّوا به نبياً مرسلاً، ويطيعوه فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه عن ربّه، وأن يصدّقوه فيما يعدهم به لو عبدوا الله حقّ عبادته، فسيغفر لهم ربّهم ويمنع عنهم العذاب، ويكلؤهم بعنايته، ويبارك لهم فى أعمارهم ويؤخّر آجالهم. ويفسر البعض قوله: ﴿**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ (٤) أى لا يعجّل عذابهم، غير أن المعنى المستفاد من طول حياة نوح وبنيه، أن تأخيره تعالى لآجالهم هو أن يطيل أعمارهم إذا اتّقوا الله، فالتقوى والصالحات تطيل العمر، **والدعاء بطول العمر إذن جائز**، وقد طال عمر نوح وبنيه فعلاً، **فعاش** نوح ٩٥٠ سنة، **و«سام»** ابنه قيل: عاش ٦٠٢ سنة، وكذلك بقية أبنائه ونسائهم وأحفاده جميعاً، **فلما آمنوا وأطاعوا نُسىء فى أعمارهم**. وفى قوله: ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ**﴾ أضاف الأجل إليه سبحانه، فهو الذى يُثبت ويمحو، ويطيل العمر ويقصّره. وفى السورة أن الأنبياء يستنفدون كل طُرق الإقناع فى الدعوة **إلى الله**، ولقد دعاهم نوح ليلاً ونهاراً، وكلما دعاهم أصرّوا واستكبروا، ودعاهم جهاراً وأظهر دعوته لهم وأعلنها، وأسرّها، أى أتاهم فى منازلهم يحادثهم سراً، متلطفاً ومبالغًا فى الإصرار على دعوتهم. ولمّا كانوا قد عانوا الجفاف، وماتت زروعهم فقلّت أموالهم ونفقت حيواناتهم، وتهددت المجاعة أولادهم، وعدهم نوح لو آمنوا أن يُرسل ربّه عليهم المطر، لتنمو الزروع ويأكل الحيوان، ويكثر المال، فيكون بوسعهم أن يتزوجوا وينسلوا، وتكون

لهم الجنات والبساتين والأنهار، ومن فقه ذلك: أن **الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار**. ويلجأ نوح فى **منهج الدعوة إلى المنطق والحوار**، ويستخدم **الحجة والبرهان**، ويسوق **الأدلة** على وجود الله، ووحدانيته وقدرته، ومن ذلك خَلْقُه للناس **أطواراً**، يعني نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، إلى تمام الخَلْق؛ وخَلْقُه كل شيء أطواراً: **فالحضارات والمدنيات دُوَل** وأدوار، وحتى التعلم والفهم والوعى على مراحل. **والأطوار قانون الوجود كله، وهي فطرة الله فى خلقه وسُنّته التى لا مبدّل لها**. وحتى السماوات والأرض كانت **أطواراً طباقاً**. وذلك من دلائل قدرته ووحدانيته. ومن ذلك خَلْقُه للشمس والقمر. وقوله: **﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾**، قال المستشرقون: إن القرآن أخطأ حيث جعل الشمس والقمر لكل السموات والأرض، وهما للسماء الدنيا وحدها، ولأماكن من الأرض دون أماكن؟! والخطأ هو خطأ المستشرقين، أو أنه بالأحرى مغالطة منهم وفساد فى الاستنتاج، لأنه فى اللغة العربية قد يقال: إن القمر جعله تعالى فى السموات نوراً، والمقصود فى إحدى السماوات وليس كل السماوات، كقول القائل: أعطنى الثياب وهو يقصد الجلباب فقط دون كل الثياب. وفى السورة من دلائل قدرته تعالى: إنباته للناس من الأرض ثم يعيدهم فيها، ومعنى **إنباتهم** أنه ينمّيهم فيكبرون بعد الصغر، ويطولون بعد القصر، ومن كان يستطيع ذلك فبوسعه أن يميتهم ثم يعيدهم بعد موتهم، أى يبعثهم. ولم يقتنع قوم نوح وعصوه، واستمعوا للأغنياء منهم، أصحاب المال والبنين، وعبدوا آلهتهم: **ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا**، ووضعوا لها التماثيل والصور، ومكروا المكر الكبّار، أى الشديد، و**«المكر الكُبّار»** من المصطلحات القرآنية، وكانت هذه الأسماء للآلهة من قبل نوح، لأُناس من واقع الحياة اشتهروا بالأذى بما جعل الناس تخشاهم، ﷺ لأن الأغنياء كان من صالحهم أن يستذلوا الناس بهم، ويستنزفوا دخولهم لصالحهم، وقد نبّههم نوح إلى هذا، وتوجه إلى الفقراء يحذرهم وينذرهم، والفقراء تابعون دائماً، وما لم يتقدمهم الأغنياء ينكصون أن يخاطروا بالتسليم لنوح، فدعا عليهم جميعاً: **﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾**، وينبّه إلى الوراثة الروحية، فالكافر يلد **الكفّار مثله**، وهو الفاجر الفاسق. وكان لابد أن يستغفر لنفسه بعد أن دعا على قومه، فقال دعاءه الخالد: **﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨)﴾**، **والبيت** هو المسجد الذى ابتناه لعبادة الله، وقوله: **﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾** يعم الأحياء منهم والأموات، فاستُحب هذا الدعاء اقتداءً بنوح، وختمه بالدعاء الذى يردده كل المظلومين: **﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾** **والتبار** هو الهلاك والخسار فى الدنيا والآخرة.

ومن صور البيان في هذه السورة العظيمة: **الطباق** كما في قوله: «**أعلنت لهم وأسررت**»، و«**جهاراً وإسراراً**»، و«**ليلاً ونهاراً**»، و«**يعيدكم ويخرجكم**»؛ **والمجاز** في مثل قوله: ﴿**جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ**﴾؛ والاستعارة في مثل قوله: ﴿**أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا**﴾؛ وذكر المصدر للتأكيد: ﴿**وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾ و﴿**أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾، وهو إطناب أيضاً. ومن باب **الإطناب**: ذكر الخاص بعد العام، كما في قوله: ﴿**لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾، وعكسه ذكر العام بعد الخاص، كما في قوله: ﴿**رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾. ومن صور البيان أيضاً السجع المرصّع لرءوس الآيات كما في قوله: «**مِدْرَارًا** ، **وَأَنْهَارًا** ، **وَوَقَارًا** ، **وَأَطْوَارًا**».

وقيل: إن الآية: ﴿**مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ فيها الدليل على عذاب القبر، فبرغم أنه لم يرد به نصٌّ صريح في القرآن، إلا أنه مصرحٌ به في هذه الآية في قوله: ﴿**فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾، فلّما كانت القيامة لم تقم، وعذاب الآخرة لم يحن، فإن إدخالهم النار لا يعني إلا عذاب القبر، وينفي هذا الرأي أن عذاب القبر وقتي، وإدخالهم النار أبدي، ولا يكون إلا في الآخرة، وقيل: قد يجوز الإدخال إلى النار في الدنيا كما في الآية عن قوم فرعون: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ (غافر ٤٦)، غير أن هذا العذاب لقوم فرعون ليس عذاب قبر، وإنما هو عذاب أكبر وأشمل وأطول، ولذا فهوعذاب آخرة. ومع ذلك فتفسير الآية بخلاف كل ذلك، ولا يعني إلا أن قوم نوح عذّبوا بالنار مع الغرق. فالمطر الشديد الذي أغرقهم كان معه برقٌ ورعدٌ تندلع بهما الحرائق، ويشتعل الماء، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** ⦗٦⦘﴾ (الطور)، أي الذي يوقد ماؤه وذلك يكون يوم القيامة. كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** ⦗٦⦘﴾ (التكوير) أي أُضرمت فتصير ناراً تتأجج وتحيط بأهل الموقف، فبمثل ذلك كان عذاب قوم نوح **بالنقيضين**: **الماء والنار**، والله أعلم، وهو على كل شيء قدير وهو سبحانه الموفّق للصواب.



٦٥٤. ﴿سورة الجن﴾

السورة مكّية، وترتيبها في المصحف **الثانية والسبعون**، وبحسب النزول هي **الأربعون** بعد **الأعراف**، وككل السور المكية فإن سورة الجن تتناول مسائل من العقيدة، وتروى حكايةً عن الجن استمعوا للقرآن يتلوه النبيّ ﷺ، فعجبوا له، وما فيه من حكمة، وما اتّسم به من نَظْم وحَبْكة. وكان سبب إنصاتهم للقرآن أنهم قبل ذلك كانوا يتنصتّون على السماء، يخطفون ما يصادف سمعهم من أنبائها فيزيدون عليه، ويروونه للناس كحقائق

من الغيب، والناس تطاوعهم فيما يروون، وتصدّقهم، لعل حياتهم تتيسّر بما نُبّئوا به، فلا ينالهم منه إلا الرَّهَق. وحارت الجن فيما صارت إليه السماء من الحرس الشديد والشُّهُب، فانتشروا يتلمسون السبب، ووجدوه فى ظهور هذا النبيّ الجديد الذى يبشّر بالحقّ من ربّه، فعرفوا أن عملهم إلى تبار، ونفوذهم على الناس إلى الزوال، وكان محمد ﷺ الذى يستمعون إليه يتلو القرآن العجب ويصلّى بالمسلمين، والأرض لهم مسجد، وما كان يدعو إلا الله، وله وحده يسجد المسلمون، والمساجد بيوت الله، ولا ذكر فيها لغيره تعالى. وقوله: **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾** الإشارة إلى النبىّ ﷺ، وهو عبدٌ لله كما أن كل الرسُل عبادٌ له تعالى، وكل المؤمنين من عباده، وقيل إن «**عبد الله**» من أسماء النبىّ ﷺ، وفى الآية فإن عبد الله **داعية لله**، والشأن مع الدعاة أن يجتمع الناس عليهم، ويزدحموا يحرصون على الاستماع لهم، ومحمدٌ ﷺ، والمسلمون من بعده، دعاةٌ إلى الله، ودعوتهم ليست إلا له تعالى، وهو الواحد الأحد، لا يشركون به. وما كان محمد فى اعتقاده واعتقاد المؤمنين بالله، إلا بشرًا رسولاً، لا يملك للناس ضَرّاً ولا رَشَداً، ولمّا قيل له: اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك، قال: **﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾** أى ملتجأ ألجأ إليه، ونصيراً ووليّاً، وحرزاً، ومذهباً، ومسلكاً، وما كان له أن يتقوّل على الله من نفسه، فما أُمر إلا أن يبلّغ ما يُوحَى إليه، ولو عصى الله لكانت النار مأواه، وكيف يعصاه والملائكة من بين يديه ومن خلفه ترصد ما يقول وتسجله عليه؟ والله يحيط بما لديه ولديهم، ويحصيه عدداً، إنْ قولاً أو فعلاً؟ ولو تقوّل عليه بعض الأقاويل لأخذ منه بالوتين! وما كان محمد ﷺ يعلم عن الساعة ما يلحّون أن يعرفوه عن ميقاتها، فالله وحده هو عالم الغيب، ولا يدرى أقريب موعدها أم بعيد، لأنها غيب، وهو تعالى لا يُطلع رُسله على الغيب إلا بما يخدم رسالاتهم ويُثبت لهم الدعوة، ويُظهر لهم المعجزات يصدّقهم بها الناس، ومن ذلك قول عيسى لقومه: **﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾** (آل عمران ٤٩)، وقول يوسف: **﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾** (يوسف ٣٧)، قيل ذلك هو العلم اللّدنّى، أى من لَدُن الله. وربما كان المراد بقوله تعالى: **﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ (٢٨)﴾** أن النبىّ ﷺ قد تحصّل له العلم بأن الرسُل قبله قد أبلغت عن الله، أو ليعلم أهل الشرك أن الأنبياء قد أُبلغوا رسالات ربهم، أو ليعلم الله تعالى أن الرسُل قد أبلغوها، كقوله فى آيات أخرى: **﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾** (العنكبوت)، وهذا التفسير الأخير، بجعله الضمير يعود إلى الله تعالى،

فإن الله يجعل علْمه تعالى بهم علْم ظهور، أو علْم مشاهدة، لا علْم بداء، ولكنه تعالى يعلم بما كان وبما سيكون، ولا يخفى عليه شيء من أمور الكون: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٥٩) ﴾ (الأنعام) ، ولذلك كان هذا التفسير قاصراً ولا يصح.

والجن في هذه السورة جنس كالبشر، من جَنّ أى خفى واستتر، فهم المستترون أو المختفون، استتروا على الإنسان وخفوا عنه. وسفيههم الذى يحكون عنه في السورة هو إبليس، وقوله في الله هو الشطط. والجن لمّا سمعت القرآن آمنوا، وإيمانهم تقريعٌ للعرب أنهم لم يؤمنوا بعد، وذلك في زمن الرسول ﷺ وبعد زمن الرسول ﷺ فإن الآية تقريعٌ للناس جميعاً أنهم لا يؤمنون وعندهم كتاب الله حُجّة عليهم. وعند الجن فإن أكبر فرية افتراها الإنسان في حق الله أن جعل له تعالى صاحبة وولداً، يعرّضون بديانة النصارى الذين عبدوا المسيح ونسبوا إليه أنه ابن الله من مريم. ونعلم عن الجن أنهم مثلنا، منهم المسلمون، ومنهم القاسطون، والمسلمون لمّا سمعوا الهدى آمنوا به وأسلموا، فهؤلاء هم الصالحون، لا يخافون بخساً ولا رهقاً، وأما القاسطون، أى الظالمون لأنفسهم، فهؤلاء دون الصالحين، وهم فِرَق وطُرق ومذاهب، ظنوا أنهم يُعجزون الله في الأرض، ولو قد أسلموا ونهجوا الطريقة المثلى، أى الإيمان، لسقاهم ربّهم ماء غدَقاً، يعنى لوَسّع في رزقهم، وهذا هو الغَدَق المادى، ولرضى عنهم وأرضاهم وأنزل سكينة وطمأنينة الإيمان على قلوبهم، وهذا هو الغَدَق الروحي أو النفسي؛ والماء الغَدَق هو نعمة الأخذ بالقيم، كقوله تعالى في آيات أخرى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ (الأعراف ٩٦) ، وقوله لأهل الكتاب: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾(المائدة ٦٦)، والبركات جمع بركة وهى الزيادة، يبارك الله لهم في أرزاقهم، ويزيدهم من أفضاله ونعَمه، ويوسّع عليهم، وهذا هو الغَدَق المادى والروحى معاً، لا يتحصّلونه إلا بالإيمان. وفى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ**﴾ (١) روايةٌ عنهم فيها الدليل على أنه ﷺ بشرٌ من بشر، ولم يُرسَل إلا للبشر، وأنه ما رأى الجن ولا خاطبهم، وما كان يمكن أن يعلم بقصتهم لولا أن أوحى إليه بها. والإسلام كما هو واضح في السورة ضد اللجوء للجن وما شابه الذى يروّج له البعض ويأخذون به. وتحفل السورة بوجوه البلاغة، كما في الوصف بالمصدر في قوله: ﴿**قُرْآنًا عَجَبًا**﴾، وفيها من بدائع البيان الطباق والجناس والاستعارة والسجع، والأول كما في قوله: ﴿**فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ** ﴾، و﴿**الإِنسُ وَالْجِنُّ**﴾، و﴿**ضَرًّا وَرَشَدًا** ﴾، و﴿**الْمُسْلِمُونَ**

والقاسطون﴾؛ وأما الجناس فكما في قوله: ﴿ **نقعدُ مقاعدَ**﴾؛ وأما الاستعارة فكما في قوله: ﴿**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا** ﴾؛ وأما السجع فكما في قوله: «**أحدًا، وولَدًا، ورَصَدًا، ورَشَدًا، وصَعَدًا، وعَدَدًا**» ويسمونه السجع المرصَّع. لأنه يرصِّع رءوس الآيات، ومن أجمل التعابير قوله: ﴿**يسلكْهُ عذابًا صعدًا**﴾ يعني يكلِّف المكذِّب أن يرتقي الصُّعود، وهو الجبل الأشم على قمته صخرة ملساء. فإذا بلغها بعد جهد انزلق فينحدر من حالق إلى أسفل. فيضرب ليصعد من جديد، لينزلق مرة أخرى وثالثة ورابعة ... إلخ، وذلك هو العذاب الذي ما بعده عذاب، وعلى منواله في الأدب العالمي، أسطورة سيزيف اليونانية، فإنه بلعنة من الآلهة صار على سيزيف أن يصعد الجبل بالحجر، حتى إذا شارف القمة تدحرج بالحجر من علٍ إلى أسفل لينهض ويحاول من جديد بلا نهاية، وهذه الصورة للعذاب مما يُضرب به المثل، وتتكرر في القرآن مرة أخرى في سورة المدّثر في الآية: ﴿**سأرهقُهُ صعودًا (١٧)**﴾. فهذا بعض ما في هذه السورة المباركة من الكمال والجمال والحق والخير، والحمد لله على نعمة القرآن والإسلام.



٦٥٥. ﴿سورة المزمل﴾

رقمها **الثالثة والسبعون** في المصحف، وترتيبها في التنزيل الثالثة، وتأتي بعد القلم، وآياتها **عشرون** آية، وهي من السور **المكية**، إلا الآيات ١٠ و ١١و ٢٠ **فمدنية**، وتتناول جانباً من حياة الرسول ﷺ في تبتُّله وقيامه الليل، وفي تلاوته للقرآن، وصبره على المكذِّبين، ومن ثم كان اسم السورة «**المزمِّل**»؛ والمزمل أصلها المتزمِّل، قيل زُمِّل الرسالة، أو النبوة، أو القرآن، أي حُمِّلها ولكنه فتر عنها، أو أن المعنى أنه المزمل زَمَّل نفسه بالثياب. فكان ـ كما تقول عائشة ـ **يتزمَّل بمرط**، لا هو خزّ، ولا قزّ، ولا شَعْر ماعز، ولا إبريسم (أي حرير)، ولا صوف: سُداه الشَّعر، ولُحمته الوبر»، ومن قول عائشة هذا اعتبروا السورة **مدنية**، لأن عائشة لم تكن معه إلا في المدينة، غير أن كلام عائشة رواية لما سمعته ولكنها لم تشاهده، والجمهور على أن السورة مكية إلا من بعض آياتها، وقيل: إنه حتى في المدينة كان ﷺ يبلغه سوء قول المشركين فيه، فيشتد عليه، فيتزمّل في ثيابه ويتدثّر، ولذا كانت السورة التي تليها في النزول تخاطبه بنفس الطريقة: ﴿**يا أيها المدثر**﴾، والصحيح أن السورتين نزلتا في ابتداء ما أوحي إليه، فلما جاء المَلك، واستمع إليه، ارتعد وارتجف، وأتى أهله فقال الكلمة المشهورة: ﴿**زمّلوني ودثّروني**﴾، وذلك هو **التفسير المادي**، وإنما هناك **التفسير الرسالي**، وهو أبعد من أن يتصل بالأغطية والدثُر، أو بما طرأ عليه من

عوارض نفسية كالخوف وغيره. فإنه لما نزلت هاتان السورتان: **المزمل والمدثر**، كان قد تزمّل أو تدثّر عن تبليغ الرسالة، يعني كان قد فتر عن التبليغ، ولم تكن المزمل أو المدّثر من أسمائه ﷺ كما قال البعض، ولا يصحّان اسمين له، وإنما هما اسمان مشتقان من حالته التي كان عليها حين الخطاب. ومن دأب العرب أن تسمي الناس عند مخاطباتهم - إذا أرادوا ملاطفتهم - بأسماء مشتقة من أحوالهم، والاسمان **المزمل والمدثر** هما للتأنيس **والملاطفة**. والرسول ﷺ فعل ذلك مع **عليّ**، فناداه: **"يا أبا تراب"**، ونادى **حذيفة**: **"يا نوْمان"** فأشعرهما أنه غير معاتب لهما. على أن السورتين كسورتين من السور أو الآيات التي تخاطب الرسول ﷺ، **يُقصد بهما كل مسلم**، وخاصة بعد وفاته ﷺ. فأمّة الإسلام أمةٌ شاهدة ومكلَّفة بالتبليغ، وهي **أمة بلاغ**. والمسلم **إنسان رسالي**، أي صاحب رسالة هي الإسلام، وكل مسلم بما أنه كذلك فهو مكلّفٌ بما كُلِّف به النبيّ ﷺ، وإن ذُكرت له ﷺ صفة، أو وُصفت له طريقة، فإنّ المعنيّ بها الآن - بعد وفاة النبيّ ﷺ هو المسلم أو المسلمة. والمزمل والمدثر مخاطبٌ بهما كل مسلم، وتأمرانه بأن لا يفتر عن التبليغ **فكل مسلم (وكل مسلمة) هو خليفة رسول الله ﷺ. وهو المؤتمن على رسالته.**

والسورة على ذلك **تعهد إلى المسلمين أن يبلّغوا القرآن للناس**، وقبل ذلك أن يستعدوا بدنيا وروحيا، ومن ذلك إحياء الليل في العبادة، كما في قيام شهر رمضان، نصفه - أي نصف الليل، أو أقل من النصف، أو زيادة عليه، ومن فقه ذلك أن **صلاة الليل أو آخر الليل مستحبة على أوله**. وقوله: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ أي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه ناشئة، وأشد وطأة، وأقوم قيلا. يعني أجمع للخاطر من قيام النهار. لأن النهار **وقت السبح الطويل**، أي السعي طلبا للقمة العيش وسدّ الحوائج. وقالوا إنّ حكم الآية: ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ نسخه حكم الآية: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾، وكانوا في أول عهدهم بالإسلام يقومون الليل لا أقل من ثلثه، ولا أكثر من ثلثيه، حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، فنسخ القيام الطويل هذا بقوله: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾ مثل قوله: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ**﴾ (الإسراء ٧٩)، وبذلك تكون آخر السورة قد نسخت أولها، ولا نرى أن في ذلك نسخاً، لأن آية ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ خاصة بصلاة الليل، وأما آية ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾ فخاصة بقراءة القرآن وحده دون أن يكون ضمن صلاة. وفي السورة: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ (٢٠)**﴾ أي أن هذه الصلاة، كان يقوم بها النبيّ ﷺ **وطائفة** من المؤمنين، يعني أنها **من النوافل** يأتيها **البعض** دون الآخرين، وهو المعنى في الآية: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً**﴾(الإسراء

٧٩) يعني زيادة على الصلوات المعتادة، ومع ذلك فإن قيام الليل إطلاقاً من الفروض، وإنما فرضُه كان فرض كفاية لا فرض عين، **وأراد به الله تعالى أن يمارس المسلمون مشقة القيام، فتكون لهم التربية البدنية والروحية التي تؤهلهم لما سيناط بهم من بعد من مهمة التبليغ إلى الأمم، وما سيواجهونه من مشاق في ذلك، وقد يُجبرون على القتال، وقد يعانون الحصار والجوع وتنالهم الهزائم، فلا محيد لهم عن أن يصبروا، ومن أين يأتي الصبر إن كانت أبدانهم لم تعتد الشدائد، وكانت نفوسهم لما تُعان الضغوط والضوائق، فكان فَرْض قيام الليل ليخلق أجيالاً من المسلمين الأشداء، وكان الصيام ليتمرّسوا بكل ما يمكن أن يجرّه عليهم الإسلام من العناء**، وليس أشد عناءً من الجوع، ولا أشد ابتلاء من أن يُقاتَل المسلم، ويُخرَج من داره، ويُطرَد من بلاده، ويُمنَع من التعبُّد لله. وليس صحيحاً إذن أن قوله: ﴿**ما تيسَّرَ منهُ**﴾ مرتبط بقيام الليل أي بالصلاة، وإنما هي خاصة بقراءة القرآن في غير الصلاة. وأمّا قيام الليل فهو فرضٌ وإنما على القادر عليه، ولذلك قيل في مدة القيام ربما **نصف الليل**، أو أقل أو أكثر، وربما **الثلثان** أو **الثلث**، فعلى الموسع قدره، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد يصلى ثلاث ركعات، أو أربعاً، أو خمساً، أو ستاً، أو سبعاً، أو ثمان، أو تسعاً، وقد صلى الرسول ﷺ كل ذلك حتى **إحدى عشرة ركعة**، **وثلاث عشرة** ... إلخ. ويُروى عن **عائشة** قولها: كنت أجعل للنبيّ ﷺ حصيراً يصلى عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلمّا رأى جماعتهم كَرِه ذلك، وخشي أن يُكتَب عليهم قيام الليل، قال: «**أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ من الثواب حتى تملوا من العمل، وإن خير العمل أدومه وإن قلّ**»، يعني فمَن كان يستطيع أن يقوم الليل فليفعل ذلك بأي عدد يقدر عليه، فالمهم أن يأخذ نفسه بما تستطيعه، وأن يداوم عليه، والله تعالى يثيب كلاً على قدر تعبُّده. وأما قراءة القرآن فنفهم أنها فرضٌ كذلك، ولكلٍ أن يقرأ على قدره، والمهم أن يقرأ ﴿**ورَتِّلِ القُرآنَ تَرتيلاً**﴾، ومطلق الأمر في السورة على **وجوب القراءة**، ووجوب القراءة، يعني وجوب حفظ ما يتيسر منه، وبذلك يعي المسلم لماذا القرآن مُعجز، وأنه كتاب محيط، ويلمّ بدلائل وجود الله، ودلائل قدرته ومنصرفات هذه القدرة، ومعنى أسمائه، ويعرف عن رسالات الرسُل، وأقل ما يجب على المسلم أن يحفظه **ثلاث** آيات، وهو مقدار **أقصر سورة منه**، ليمكنه أن يقيم بها صلاته، والوجوب إطلاقاً أن يكون بوسعه أن يقرأ القرآن كله وأن يعاود القراءة بانتظام، لأن الله قد يسّره على العباد، أو أن يتمرّس بقراءة ثُلثه، أو أكثر من ذلك أو أقل. ومن فقه ذلك أن **الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب، إيمانه ناقص**، لأنه لن يستطيع أن يقرأ القرآن أو بعض آياته، ولن يكون بوسعه أن يرتله ترتيلاً

كما جاء في السورة. وربما يُفهم أن التلاوة تكون في الصلاة، والقراءة تكون في غير الصلاة؛ والتلاوة والقراءة كلاهما له أصوله، والتلاوة تكون عن تمهل وفهم وتدبر، وربما كان المقصود بالقراءة، المصاحبة للصلاة. وكانت عائشة تقول: كان النبيّ ﷺ يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها. وعن أنس عن قراءة رسول الله ﷺ، قال: كانت مداً، ثم قرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» يمدّ بسم الله، ويمدّ الرحمن، ويمدّ الرحيم. وعن أم سلمة عن قراءته ﷺ، قالت: كان يقطّع قراءته آيةً آية، يقول مثلاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾. وفي الحديث عن تحسين الصوت بالقراءة: «زيّنوا القرآن بأصواتكم»، و «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن». وعن ابن مسعود قال: «لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذّ الشعر. قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة». وفي قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ هو العمل به، أو أن القرآن له عظمة تثقل به وقت نزوله، وعن زيد بن ثابت قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى، فكادت ترضّ فخذى. وفي قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠)﴾، «ما يقولونه» هو السبّ والاستهزاء فلا يجزع من قولهم، ولا يمتنع من دعائهم، ولا يتعرض لهم، ولا يشتغل بالتفكير في محاربتهم. و«الهجر الجميل» هو الذى لا عقاب معه. وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ فيه أن المكذبين هم الأغنياء، وفي القرآن يأتي التكذيب لله تعالى مترافقا مع «الترف» ثماني مرات، ويأتي التحذير من الغنى الذى يحرّض على الإنكار والمكابرة ست مرات.

وتحفل سورة المزمل بالمواعظ والدروس والعبر، وتثير الكثير من الأسئلة، ومن ذلك الآية: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) ﴾، فليست سورة المزمل وحدها التذكرة وإنما القرآن كله تذكرة، والقرآن كله كالسورة الواحدة؛ و«السبيل»: هي طريقة الإسلام التي بها يُنال رضا الله ورحمته؛ وقيل إن هذه الآية، وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (المدثر ٥٥، وعبس ١٢)، نسختها «آية السيف» التي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة ٥)، والصحيح أنه لا نسخ هناك. لأن آية المزمل خاصة بالإيمان، وتُخيِّر الناس بين التصديق أو الإنكار، بعد أن أظهر الله لهم الحجج والدلائل، وأما «آية السيف» التي أطلقوا عليها ذلك الاسم بهتاناً، فتحضّ على قتال المشركين بعد الأشهر الحرم، بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم ولا أمان معهم. وفي سبب تسمية «آية السيف» بذلك الاسم، أن ابن عباس قال فيها: أمر الله نبيّه ﷺ أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم

يدخلوا في الإسلام». فبسبب التعبير «يضع السيف» سميت بآية السيف. ودليل بطلان القول بأن قتلهم كان على إطلاقه، ولم يكن له أسبابه من نقضهم العهود، أن الآية: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ (محمد ٤) جاءت بعدها وتحضّ على قتال الكفار. ولكنها تُقرّ بأن يكون هناك أسرى، وللمسلمين بعد الحرب، إنْ شاءوا منّوا عليهم وأطلقوا أسرهم مجاناً، وإن شاءوا فادوهم بالمال، وإن شاءوا قتلوهم، وهذا الحكم مشرّعٌ لحالة الحرب وحدها إلى آن تضع الحرب أوزارها. وعلى ذلك فإن آية سورة المزمل التي تقول: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** (١٩)﴾ لم تنسخها آية أخرى كما يدّعي البعض، يعني أن سورة المزمل تؤكد حرية الناس أن يؤمنوا أو يكفروا، فلا إكراه في الدين. وكغيرها من سور القرآن لها جمالياتها، ففيها من السجع المرصّع، أمثال: «**قليلاً، وترتيلاً، وثقيلاً، وقيلاً، وطويلاً، وتبتيلاً** ...»إلخ؛ ومن الطباق، أمثال: «**المشرق، والمغرب، والليل والنهار**»؛ ومن الجناس، أمثال: ﴿**أرسلنا رسولاً**﴾؛ ومن التأكيد للتبيين والإيضاح، أمثال: «**ورتل ترتيلاً، وتبتل تبتيلاً**»؛ ومن الاستعارة أمثال: ﴿**وأقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ ولله الحمد والمنّة، وهو الموفق للصواب.

•••

٦٥٦. ﴿سورة المدثر﴾

السورة مكية، نزلت بعد المزمل، وترتيبها في المصحف **الرابعة والسبعون**، وفي التنزيل **الرابعة**، وعدد آياتها **ست وخمسون**، وتتحدث عن بعض أمور الرسالة في ابتدائها، واعتراضات المعترضين عليه ﷺ، وما ينتظرهم من العقاب والعذاب. فكل نفس بما كسبت رهينة، ولا تنفع شفاعة الشافعين. وفي مناسبة تسمية السورة أن الرسول ﷺ، بعد تكليفه في حِراء (بكسر الحاء)، فتر عنه الوحي لمدة ورآه بعدها عندما كان يهبط يوماً إلى بطن الوادي، فتملكه الخوف لدى رؤيته، وذهب إلى زوجته **خديجة** يقول لها: «دثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً». فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** (١) **قُمْ فَأَنذِرْ** (٢) **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** (٣) **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** (٤) **وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** (٥) **وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ** (٦) **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** (٧)﴾. وفي رواية أخرى أن **الوليد بن المغيرة**، أحد زعماء قريش وزنادقتها، وكان يعادي الإسلام ويبغض الرسول ﷺ، جمع قريشاً على طعام وقال لهم: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد، فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: **كاهن**. ويقول هذا: **شاعر**. ويقول هذا: **مجنون**. وليس محمد يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما يقال فيه: «**ساحر**»، لأنه

يفرّق بين المرء وأخيه، والزوج وزوجته! - وفى رواية أخرى أن قريشاً لمّا سألها المغيرة عن النبىّ ﷺ، قال بعضهم هو «ساحر»، ونفى بعضهم أن يكون ساحراً. وقال بعضهم هو «كاهن»، ونفى بعضهم أنه كاهن. وقال بعضهم: هو «شاعر». ونفى بعضهم أنه شاعر، وقال بعضهم: هو «مجنون». ونفى بعضهم أنه مجنون. واجتمعوا آخر الأمر على أنه ساحر يُؤثر، وحضّهم المغيرة أن لا يقولوا إلا ذلك. وسمع النبىّ ﷺ بما دبّروا وأجمعوا، فحزن، وقنّع رأسه، وتدثّر، فأنزل الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)** ﴾.

ومعنى ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾: لا تفكر فى قولهم وبلّغهم الرسالة. وكان رفضهم لكل الصفات إلا صفة السحر، لأنهم علموا أن كل هذه الصفات لا يمكن أن تجتمع لشخص واحد، فسمّوا الرسول ﷺ باسم واحد يجتمعون عليه وتأخذه العرب عنهم. وقيل: إن الذى جمع العرب هو عُتبة بن ربيعة، وهو الذى أذاع عنه أنه ساحر. وقيل: إن المجتمعين كانوا: أبا لهب، وأبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ومطعم بن عدىّ. وكان اعتراض الوليد أن كلام محمد لا يشبه كلام أحد من الشعراء، ولا يشبه كلام الكهنة، وقال: لأن الكاهن يصدق ويكذب وما عرفنا أن محمداً قد كذب من قبل، ولا يشبه كلام المجانين، لأن المجنون يخنق الناس، وما خنق محمد أحداً قط.

والمدثّر من دثّره بالثوب، وتدثّر وادّثر، يعنى اشتمل به وتلفف. فهو متدثّر ومدثّر، والدثار هو الثوب الذى يُستدفأ به ويتغطّى به النائم. والمدثر فى الآية تعني: أنه تدثّر بالنبوة وركن إلى تكليفه بها دون أن يبذل جهداً فى إبلاغ الناس بمضمونها، فما كان قد نهض بعد بالرسالة، وكان فى بداية عهده بها، ولم يتمكن من فهم أبعادها ولا مراميها، فكان يحتاج إلى مثل هذه السورة يتفهم عنها ما سيبلّغه. والمقصود بالخطاب هو النبىّ ﷺ، وليس المدثر اسماً من أسمائه ﷺ يُنادَى به، ولكنه وصفٌ لحاله، ونودى به على سبيل الملاطفة والمؤانسة، كندائه فى سورة المزمّل فى الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)**﴾، وكما فى نداء النبىّ ﷺ لعلىّ بن أبى طالب: «يا أبا تراب»، وكان قد غضب من زوجته فاطمة فنهض مسرعاً يريد الخروج، فانسدلت عباءته من فوق كتفيه على الأرض وأصابها التراب، فناداه الرسول ﷺ هذا النداء ليستشعر اللين. ومثله نداؤه ﷺ على حذيفة: «يا نوْمان» لمّا استغرقه النوم ولم يدر بنفسه، فأيقظه بهذا النداء إشعاراً لترك العتب والتأنيب. وقوله تعالى: ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)** ﴾ أى عظّم، وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات بقوله: «الله أكبر»، وقام الرسول ﷺ لمّا نزلت: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)**﴾ وقال:

«الله أكبر»، فكبّرت خديجة. وقوله: ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴿٤﴾ ﴾ المراد بالثياب على الظاهر: **الملابس**، وعلى المجاز **العمل**، أو **القلب**، أو **النفس**، أو **الجسم**، أو **الأهل**، أو **الخُلُق**، أو **الدين**، أو ذلك كله. وقوله: ﴿ **وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ** ﴿٦﴾ ﴾ يعني لا تمتن على ربّك أو على الناس، تستكثر من الخير، أو الأجر، أو الثواب، أو تستكثر بعملك. وقوله: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴿١١﴾ ﴾ من أكمل **العبارات في الوعيد والتهديد**، ومعنى «وحيد» أنه لم يكن شيئاً حين خلقه، ولم يكن له مال ولا ولد، ثم أعطاه كل ذلك فما شكر ولا حمد. والآيات من ١١ حتى ٢٩ كلها عن **الوليد بن المغيرة**، وماله الوفير، وأولاده الكثر وكانوا **ثلاثة عشر**، ومنهم **خالد بن الوليد**، وأطماعه في الزيادة، وعناده، وكُفره، وما ينتظره من العذاب، وكان وصفه تعالى في الآيات من ١٨ حتى ٢٥ من أروع ما قيل في التفكير والتبييت، قال: ﴿ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ** ﴿١٨﴾ **فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** ﴿١٩﴾ **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** ﴿٢٠﴾ **ثُمَّ نَظَرَ** ﴿٢١﴾ **ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ** ﴿٢٢﴾ **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ** ﴿٢٣﴾ **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴿٢٤﴾ **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴿٢٥﴾ ﴾، **فالوليد** فكّر في شأن النبيّ ﷺ، وهيّأ في نفسه ما يقول عنه، ولقد قدّر ما قدّر، قاتله الله ولعنه، وتدبّر ما يردّ به الحق ويدفعه، وقطّب بين عينيه في وجوه الناس، وكلح وجهه، ووقف لا يتقدم ولا يتأخر، ثم ولّى وأعرض، وتعظّم أن يؤمن، واستكبر على النبيّ ﷺ، وقال: إن هذا الدين ليس إلا سحراً يؤثر»، و«**السحر**» إظهار الباطل في صورة الحق، و«**يؤثر**» يعني يرويه الناس عن بعضهم البعض، و«ما هو إلا كلام بشر»، يقصد بذلك أنه من وحي من يُدعى **سياراً**، كان عبداً لبني الحضرمي، وكان يجالس النبيّ ﷺ، فنسبوا إليه أن سياراً كان يعلّمه، وقيل كان الكاهن **عديّ الحضرمي** هو الذي يلقنه.

وفي السورة تأتي أوصاف «سقر» الموعود بها **الوليد** وأصحابه، وفتنة العدد **تسعة عشر**، وهو عدد خزنة جهنم، وقال **أبو جهل** لقريش استهزاء: «أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! وقال **أبو الأسود بن كَلَدة الجُمَحي**: لا يهولنكم التسعة عشر! أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة. وقال الحارث بن كَلَدة: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني انتم اثنين! ـ والحق أن هذا العدد قيل اختباراً لتصديق المؤمنين ليستوثقوا من كتابهم القرآن، وليتأكد أهل الكتاب أن القرآن من لدن الله، وما كان هذا العدد **تسعة عشر إلا مثلاً**، والأمثال **يجد** فيها الكافرون فرصتهم في التقوّل، ويطمئن بها المؤمنون، والقول في عدد خزنة جهنم من **الغيب**، وجنود **الله** لايَعرف عددهم إلا هو، وما جعل الله هذا العدد **تسعة عشر** إلا فتنة للذين ضلّوا ليزدادوا ضلالاً،

والفتنة ذكرى للناس وعظةٌ لهم وتذكرة، وهؤلاء الضالون أعرضوا عنها كالحُمُر النافرة، يريد كل منهم أن يُؤتَى بكتاب وحده ليقتنع، وفي الرواية أن **أبا جهل** قال للنبيّ ﷺ: يامحمد! إيتنا بكتُب من ربّ العالمين مكتوب فيها: إني قد أرسلت لكم محمداً!! وقال ابن عباس: كان أهل قريش يطلبون من النبيّ ﷺ إن كان صادقاً أن يأتي كل رجل منهم صحيفة فيها براءته وأمنه من النار! فلم يكونوا يقدرون على الاتّعاظ والتذكّر، ولو فعلوهما لوجدوه تعالى أهلاً للتقوى والمغفرة، وفي الحديث عند الترمذي: «**قال الله تبارك وتعالى، أنا أهلٌ أن أُتّقي، فمن اتّقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهلٌ أن أغفر له**».

وفي السورة الكثير من وجوه البيان والبديع، ومن ذلك الاستفهام للتهويل كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ**﴾؛ والسجع المرصّع في مثل قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**﴾، و﴿**وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ**﴾؛وقوله: ﴿**إِذْ أَدْبَرَ**﴾ يرجّح كثيرون أنه ﴿**إِذْ أَدْبَرَ**﴾ لأنه أكثر موافقة للحروف التي تليه: ﴿**إِذَا أَسْفَرَ**﴾، فكيف يكون أحدهما ﴿**إِذْ**﴾ والآخر ﴿**إِذَا**﴾؟ وليس في القرآن قسمٌ تعقبه ﴿**إِذْ**﴾ وإنما يتعقبه ﴿**إِذَا**﴾. ومن وجوه البيان بخلاف ما سبق: **الطباق** كما في: «**عَسِيرٌ وَيَسِيرٌ**»، و«**تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ**»؛ والمقابلة كما في: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**﴾؛ **والتقريع الجميل**، كما في الآية: ﴿**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ**﴾؛ **والتشبيه** كما في قوله: ﴿**مُسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**﴾؛ والجناس كما في ﴿**نُقِرَ فِي النَّاقُورِ**﴾ إلى آخر ذلك من وجوه جمال الأسلوب القرآني؛ وأسلوب **التأكيد** في قوله: ﴿**كَلَّا وَالْقَمَرِ**﴾، وجاءت الصورة في القَسَم بالقمر في ساعات الليل الأخيرة، والصُّبح يقارب الإسفار، غاية في الجمال، ولها التأثير الوجداني المطلوب للإحساس بهَوْل النار بعد ذلك مباشرة ووصف القرآن لها بأنها إحدى الكُبر، أي العظائم. **وأَصْحَابُ الْيَمِينِ** مصطلح قرآني، وهم أصحاب الحقّ وأهل الإيمان، وغيرهم «المرتهنون»، وهو مصطلح آخر، يعني بهم الذين يدخلون في «الرهن»، كقول تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)**﴾ أي «مرتهنة» بكسبها ومأخوذة بعملها، فإما يخلّصها عملها وإما يوبقها، باستثناء **أصحاب اليمين**، فهؤلاء لا يرتهنون بذنوبهم، وفي قوله: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)**﴾ يقصد بهم **المرتهنون**، وقيل إن هذه الآية دليل على صحة **الشفاعة للمذنبين** من أهل التوحيد، ولا شفيع يشفع للمكذّبين. فذلك وأمثاله كثير، هو بعض ما في هذه السورة العظيمة من معانٍ كبيرة، ووجوه للجمال رائعة.

●●●

٦٥٧. ﴿سورة القيامة﴾

السورة مكّية، وآياتها أربعون، وترتيبها فى المصحف الخامسة والسبعون وفى التنزيل الواحدة والثلاثون، وكان نزولها بعد القارعة، ومثلها مثل الكثير من السور المكّية تتناول وصف يوم القيامة، ولذا كانت تسميتها سورة القيامة، وهو يوم من أيام الله الكبرى، بل هو قمة هذه الأيام، ولذا أقسم به مع أنه غيْب، وقرن الغيب بالحاضر، وأقسم بالنفس اللوامسة وهى أخصّ خصائص الإنسان، ورمزٌ للأخلاق، وهى حاضر الإنسان، وفى الطبوغرافية النفسية هى الضمير أو الأنا الأعلى، فإن قلنا إنها الضمير فإنها من ضمر أى ستر، لأن النفس مستورة تُدرَك عقلاً ولا تُرى بصراً، وإن قلنا إنها الأنا الأعلى، فلأن الجهاز النفسى أقسام، أدناه الهُو Id المنوط به الغرائز، وأوسطه الأنا Ego المنوط به الحاضر، وأعلاه الأنا الأعلى Superego، وهو هذه النفس اللوامة The upbraiding self، تلوم صاحبها على الخير لِمَ لم يستكثر منه، وعلى الشر لِمَ فعله؟ وقيل اللوامة بمعنى اللائمة وهى صفة مدح؛ أو بمعنى الملومة، أى المذمومة، وهى صفة ذمّ، وهذا المعنى الأخير هو الذى أخذ به المستشرقون من أمثال: مكدونالد، وفريد لاندر، ولانداور، وقد أخطأوا وترجموها the commanding - to - evil- self، يعنى النفس الأمّارة بالسوء، وهى بخلاف النفس اللوّامة! والأولى: شرِّيرة؛ والثانية: مؤمنة، وتوّابة، ومنيبة، وشتّان ما بين الاثنتين! ولكنه جهل المستشرقين فماذا نقول فيه؟! والسورة من أكثر السور احتفالا بالتحليل النفسى، وبها الكثير من وجوه جمال الأسلوب وبديع البيان، ومن ذلك الاستفهام الإنكارى كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣)﴾، يُقصَد به التوبيخ والتقريع، وهو جواب القسم بيوم القيامة وبالنفس اللّوامة، يقول سنجمع عظامه للبعث. والآية نزلت فى عدىّ بن ربيعة، قال للنبىّ ﷺ: حدّثنى عن يوم القيامة متى يكون؟ وكيف أمرُ القيامة وحالها؟ وقال: لو عاينتُ ذلك اليوم يا محمد لم أصدقك، ولم أومن به! وقال: أوَ يجمع الله العظام؟ !ولهذا كان النبىّ ﷺ يدعو: «اللهم اكفنى جارىّ السوء - عدىّ بن ربيعة، والأخنس بن شريق». وقيل: بل نزلت فى أبى جهل حين أنكر البعث بعد الموت. وكانت الآية: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ هى الرد على سؤال عدىّ؛ وقوله «بلَى» من جماليات السورة، وهى وقفٌ حسن بمعنى نحن قادرون؛ وتسوية البنان حجة على قدرة الله، ونبّه بالبنان على بقية الأعضاء، والبنان أصغر عظام الإنسان، يقول: بلى قادرين على أن نعيد السلاميات على صغرها ونؤلف بينها حتى تستوى، ومَن يقدر على هذا فهو على جمع العظام الأكبر منها أقدر. وفى العلم الحديث: كُشف أن البنان به تجاويف وخطوط على شكل أقواس أو عراوٍ أو دوامات، وبهذه التجاويف لا يشبه

إنسانٌ إنساناً آخر، وهو ما يسمى عند علماء الهوية **علم بصمة الإبهام**. وفي السورة تتكرر لفظة «**الإنسان**» خمس مرات، وهو اسم جنس بمعنى ابن آدم، كما نقول في الإنجليزية **Man** أو في الفرنسية **L' Homme**، والتكرير للفظة من الجماليات في السورة، مثل تكرير «**كلا**»، و«**لا أقسم**»، و«**بلى**»، وقوله: ﴿**بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥)**﴾ تأكيدٌ أن من دأب الإنسان أن لا يفكر في البعث والحساب لأنهما من الغيب، ولذلك يسأل ﴿**أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ(٦)**﴾؟ أي متى يكون؟ يقول ذلك إنكاراً للموت، فقلما يذكره، ومن ثم لا يتوب، ويزيد به الأمل في الدنيا حتى ليكذّب أن يأتيه الموت، وذلك هو قمة الفجور والجحود، فإذا قامت القيامة فعلاً كانت المفاجأة والدهش، وحينئذ يُرَى ذلك في عينيه، يقول تعالى: ﴿**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧)**﴾، وبَرْقُ البصر لمعانه من شدة الشخوص والتحيّر، وهو من أعراض الموت، والعينان عند الموت لا تطرفان، ومثل ذلك يوم القيامة، وفيه لا يُقتصر على ما يلم بالناس وإنما الكون كله يتغير، فيُخسَف بالقمر والشمس، ويُقرَنان كثورين عقيرين: ﴿**يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠)**﴾، وأين المفر؟ سؤال يطرحه في فزع، والجواب عليه بالنفي: «**كلا**»، أي لا مفر! وفسّره فقال: «**لا وَزَر**»، أي لا مهرب، ولا ملجأ ولا محيص: ﴿**إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢)**﴾، كما في قوله: ﴿**وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ(٤٢)**﴾ (النجم)، أي مصيرنا جميعاً إلى الله. و«بل» في قوله: ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)**﴾ من الألفاظ المتكررة للتصحيح والتوضيح، واستخدامها فيه بيانٌ وبلاغة، وتأتي «بل» في السورة مرتين، ومن شأنها سلب الحُكم عمّا قبلها فتجعله لما بعدها، فيصير المعنى: إن الإنسان على نفسه بصيرة، أي **شاهد**، وشهوده على نفسه بأن تشهد عليه جوارحه، **والهاء** في بصيرة للمبالغة، **ومعاذيره** هي الأعذار يعتذر بها من الذنوب. وفي الآيتين دليل على **قبول إقرار المرء على نفسه بشهادته، أو باعترافه عليها**. وبعد هذه المقدمة في الموت ويوم القيامة تتطرق السورة **إلى التعليم** للرسول ﷺ في كيفية تلقّيه الوحي من المَلَك، والاستماع له، والانتباه إلى بيانه، وما ينبغي حفظه. وترصد السورة طريقته ﷺ في ذلك، فكان إذا نزل عليه الوحي عُرِف في تحريكه شفتيه، يحركهما بالقرآن خشية أن ينسى، ولا يفتر منه، فأنزل الله: ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)**﴾ فكان بعد هذه الآية إذا أتاه **جبريل** أطرق، فإذا ذهب عنه قرأه كما أقرأه له. والقرآن إذن كما في هذه السورة، هو الذي ينبه إلى البعث والآخرة، ويُحيل إليهما، ويذكّر بهما بقوله: ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)**﴾، يعني أن شُغلهم بالدنيا هو الذي يصرفهم عن التفكير في الآخرة، وفي الآخرة يُعرف **المجرمون** بوجوههم الكالحة العابسة الكاسفة، لأنهم قد صاروا إلى يقين مما ينتظرهم من البلاء؛ وأما **المؤمنون**

فوجوههم ناضرة ومشرقة، وإلى ربّها ناظرة، **والنظر إليه تعالى لا يكون بالبصر**، فهو تعالى: **﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾** (الأنعام ١٠٣)، وإنما النظر هو الانتظار، تقول: نظرته، أي انتظرته؛ فإذا أردت به التفكير والتدبّر تقول: نظرت فيه، وقد غلط من فسّر النظر بأنه الإبصار في الحديث: «**إنكم سترون ربّكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته**»، وقال ﷺ: «**أليس كلكم يرى القمر**»؟ وأجاب: «**فالله أعظم، فإنما هو خَلْقٌ من خلق الله** - يعني القمر - فالله أجلّ وأعظم» أخرجه أبو داود. وعند النسائي قال: «**فيُكشف الحجاب فينظرون إليه**»، وعن جابر قال: «**يتجلّى ربّنا عز وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه**»، وفي هذه الأحاديث جميعاً فإن النظر في نطاق: **﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾**، بمعنى ينظرون إليه لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظره تعالى يحيط بهم وذلك شيء من الغيب يتجاوز خبراتنا ومداركنا. ونعود إلى مشاهد يوميّ الموت والقيامة، يُمزَج بينهما، لأن من يريد أن يعرف إمكان البعث فإن عليه أن يتدبّر الموت، فمثلما كنا عدماً فأحيانا ثم أماتنا، فهو تعالى قادر على أن يبعثنا. ومن مشاهد الموت أن النفس تبلغ فيها التراقي: **﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)﴾**، كقوله: **﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾**، والتراقي أعلى الصدر ومقدم الحلق وموضع الحشرجة، وقوله: «**كلا**» أسلوب قرآني فيه التنبيه، وتفصل «**كلا**» بين المشاهد، والمشهد كله معجز، وتجري العبارات تصويراً لحوار متخيَّل بين الحاضرين للموت، فيتساءلون: هل من طبيب يراه ويرقيه لعله يشفي؟ فلما استيأسوا منه وأصابه اليأس من حالته، عندئذ يعلم أنه الموت، فإذا عاينه **التفت الساق بالساق**، أي تخاذلت أعضاؤه على بعضها، أو أنها التفت قبل ذلك وفيه بعض الرمق، وقد أخذت الرهبة منه كل مأخذ؛ أو أن الساق هي الشدّة، كقول القائل: «**قامت الدنيا أو الحرب على ساق**»؛ وفي الموت تجتمع على الإنسان شدّة كرب الموت، مع شدّة هول المطلع، وتتابع عليه الشدائد، فأهله يجهّزون جسده، والملائكة يجهّزون روحه، فذلك هو **التفاف الساق بالساق**، أو أن **الساق الأولى**، أي الكرب الأول، هي حشرجة الموت، **والساق الثانية** هي الكروب عند البعث وشدائده، وفي كل الأحوال فرجوعه إلى الله **يُساق إليه سوقاً**. قيل: وهذا كله هو في أحوال أبي جهل: **﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢)﴾**، فهو لم يصدق الرسالة، ولم يصلِّ، وكذّب بالقرآن، وتولّى عن الإيمان. واستخدام «لا» في قوله: **﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ﴾** بمعنى «لم» يصدق ولم يصلِّ. وأعطت «لا» للعبارات نكهة خاصة من البيان، والعطف في: **﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾** أكد المعنى. ثم انظر إلى بقية السورة في قوله: **﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣)﴾** أي فلمّا كابر انصرف متباهياً يتبختر

افتحاراً، فكان أسلوب التهديد له من بعد ذلك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ بمعنى الويل لك، فهذه أربعة تهديدات تناسب خصال أبي جهل الأربع: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ فتركُ التصديق خصلة، والتكذيب خصلة، وتَرْكُ الصلاة خصلة، والتولّي عن الله خصلة، فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربع، وفي ذلك روعة هندسية معمارية في بناء السورة؛ ثم يجيء الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، وهو الثاني بهذه الطريقة البلاغية، وفيه الردّ على الوجوديين والعبثيين والعدميين والفوضويين، فهل يُخلَى الإنسان بلا مسئوليات ولا واجبات ولا فروض؟ وهل يكون وجوده للاشيء؟ وهل هو غير مسئول فلا ينهى عن رذيلة، ولا يؤثّم إذا أتى بذنب، بدعوى أنه حرّ يضع لنفسه ما يشاء من القيم؟ كقول القائل في إبله: إنها سُدَى، أي مُسَيَّبة تَرْعَى بلا راع؛ فهل الإنسان بلا راع، وهل هو مخلوق بلا خالق؟ وهل إذا مات تُرِك في قبره لا يُبعَث؟ أوَ لن يُحاسبَ عمّا اقترف؟ وتذكّره الآيات بأطواره، فلقد كان لا شيء يُذكَر، وكان مجرد نقطة مَنى، فصار نطفة، ثم علقة، وتمّت خلقته، واعتدل وتميّز ذكراً أو أنثى، فمَن كان وراء كل ذلك؟ ومَن خلق القوانين التي دفعت إلى ذلك؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، يعني يحييها بعد البِلَى، ولمّا سمع الرسول ﷺ هذا الاستفهام الإنكاري قال: «سبحانك اللّهم، وبَلَى»، فكل من يقرأ سورة القيامة إلى آخرها صار يقول: «سبحانك اللّهم، بَلَى». فالحمد لله ربّ العالمين على مِنّة الإسلام والقرآن.

•••

٦٥٨. ﴿سورة الإنسان﴾

آيات هذه السورة إحدى وثلاثون، وترتيبها في المصحف السادسة والسبعون، وفي التنزيل الثانية عشرة، وكان نزولها بعد الرحمن، والجمهور على أن مقدمة السورة مدنية، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ حتى الآية الواحدة والثلاثين وهي نهاية السورة، فمكية، فالتنزيل لم يبدأ إلا في مكة، إلا أن الآيات من أمثال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ فمدنية، لأنها تتحدث عن الأسْر، و[illegible] هناك أسرٌ في مكة، فالأسر كان فقط في المدينة؛ وقيل: هذه الآيات نزلت فيمن [illegible]ل بأسرى بدر، وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعليّ، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وأبو عبيدة، وقيل نزلت في مُطعم بن ورقاء الأنصاري، واسمُه مُطعم على مُسمّى، فقد أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً، فقد جاء النبيَّ ﷺ رجلٌ يسأله الطعام ويقول إنه مُجهد، فقال له النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما عندي ما أطعمك»، فأخذه مطعم الأنصاري إلى بيته،

وأطعمته امرأته وسقته؛ ثم جاء النبيّ **يتيم**، فقال نفس مقالة الرجل السابق، وأجابه النبيّ بمثل ما أجابه، وأخذه **مُطعم** إلى بيته، فأطعمته امرأته وسقته، ثم جاء النبيّ **ثالثٌ، أسير**، فجرى معه مثل ما جرى على السابقين، فنزلت: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** (٨)﴾. وقيل: نزلت هذه الآيات **في عليّ وفاطمة وجارية لهما اسمها فضة**. وكان **الحسن والحسين** قد مرضا، فعادهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامة العرب، فقال أبو بكر: يا أبا الحسن، لو نذرتَ عن ولديك شيئاً؟ وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال **عليّ**: إنْ برأ ولديّ صُمتُ لله أيام شكراً. وقالت **فاطمة** مثل ذلك. وقالت **جاريتهم فضة** مثله، وقال **الحسن والحسين** مثلهم. فأُلبس الغلامان العافية، وصاموا ثلاثة أيام وفاءً بالنذر، فلما انتهى **اليوم الأول** قامت الجارية وجهّزت خبزاً من شعير، وقدّمته لآل عليّ مع الملح الجريش فطراً لصيامهم، فجاء مسكين ووقف بالباب يستجدي، **فأطعموه طعامهم**، وباتوا لم يذوقوا الطعام، ثم إن **اليوم الثاني** من الصيام انتهى، فصنعت الجارية لهم مثلما صنعت أول يوم لإفطارهم، فجاء **يتيم** بالباب يستجدي، فأعطوه طعامهم، ومكثوا ليلتهم لم يذوقوا إلا الماء القراح، فلما كان **اليوم الثالث** من الصيام فعلت الجارية مثلما فعلت في اليومين السابقين، ووضعت لهم المائدة، فجاء أسيرٌ ينشد الطعام، فأعطوه ما عندهم، وهكذا مكثوا **ثلاثة أيام ولياليها** لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَراح. ثم إن علياً ذهب بولديه وفاطمة في اليوم الرابع إلى النبيّ ﷺ وقد بدا الإعياء عليهم جميعاً يرتعشون من شدة الجوع، فنزلت الآيات: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** (١)﴾ إلى الآية: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** (٨) **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** (٩)﴾! والحديث كله ملفق ومنمّق ومزوّق، ولا يعقله عاقل! وواضح أن واضعيه هم **الشيعة**، وعليّ كان معروفاً بالسمنة وليس بالهزال، والمسلم غير مأمور أن ينفق إلا ما يزيد عن حاجته: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾ (البقرة ٢١٩)، يعني **الفضل** الذي يفضل عن حاجة المتصدّق وحاجة عياله، وفي الحديث: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى**»، والحديث: «**وابدأ بنفسك ثم بمن تعول**»، والحديث: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيّع مَن يقوت**». وقيل إن الأسير لما طاف على بيت عليّ وفاطمة قال لهما: تأسروننا ولا تطعموننا، فنزلت: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** (٩)﴾. ومثل هذه الحكايات من **الإسرائيليات**، وقد جعلوا علياً لذلك يستدين من يهودي ليطعم مَن أطعمهم في القصة، ولماذا يستدين **عليّ من اليهودي؟ ولماذا كلما كانت هناك استدانة تكون من يهودي؟** واليهود يتعاملون **بالربا**، والقرآن نهى عن التعامل بالربا. وفي الرواية كذلك كان النبي ﷺ استدان أيضًا من يهودي؟! وتوفي مديناً له! وكلها قصص ملفقة، ولا تروج أمثال هذا القصص إلا على الحمقى والجُهّال، وهَبْ أن علياً آثر على نفسه هذا السائل، فهل

كان يجوز له أن يحمل زوجه على ذلك؟ وهل يجوز له أن يجبر جاريته عليه؟ ثم هل يجوز له أن يحمل أطفاله على أن يجوعوا ثلاثة أيام بلياليهم؟ ومن أجل ذلك ذهب بعض المفسرين إلى أن وُضّاع هذه الحكايات كانوا من أهل السجون وقد طال بهم الحبس فيؤلفون مثل هذه الأحاديث المفتعلة، ويضعون لها شعراً ركيكاً يصاحبها، يلهْوهم في السمَر وأشباهه، وما من شيء إلا وله آفة ومكيدة، وآفة الدِّين ومكيدته أكثر من آفة ومكيدة أى شيء آخر. والصحيح في هذه الآيات أنها نزلت عامة في جميع الأبرار، ومن أجل ذلك كان الخطاب في السورة كلها إلى الإنسان، وهو اسم جنس، فهو خطاب عام، وسميت السورة باسم «سورة الإنسان» لهذا السبب، وقيل أيضاً هي سورة الدهر لأنها بدأت بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾. ومن المفسرين من الشيعة من يزعم أن السورة برمتها نزلت في عليّ أبي بن طالب؛ ومن الصوفية من لفق لها مناسبة تتصل بمذهبهم، فقالوا: إن النبيّ ﷺ نزلت عليه هذه السورة وعنده رجل يتلقى عليه، فقرأها النبيّ ﷺ حتى بلغ صفة الجنة في الآيات من ١٢ إلى ٢٢، فزفر الرجل زفرةً فخرجت نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أخْرَجَ نفس صاحبكم - أو أخيكم - الشوقُ إلى الجنة» ذكره السيوطي من رواية بن وهب، والشوقُ إلى الجنة إلى حدّ الموت من أحوال الصوفية ولم يعرف في زمن الرسول ﷺ، ولا زمن الخلفاء، ولم يُسمَع به إلا في القرن الثاني الهجرى مع ازدهار التصوف، والحديث لذلك موضوع مائة في المائة.

ومن روائع سورة الإنسان أن تبدأ بالسؤال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ①﴾، و«هل» تكون جحداً أو تكون خبراً، أوتكون استفهاماً، وجميعها تقريرية جواباً عن السؤال الذى تُفتتح به السورة، والمعنى قد جاء على الإنسان وقت لم يكن على شيء من القدر والأهمية، ثم صار له هذا القدر وتلك الأهمية، وبعد أن كان حيواناً كالحيوانات صارت له رتبة الإنسانية، وبعد أن كان على هيئة بربرية وحال همجية وله طباع وحشية، صار إلى حضارة ومدنية وعلْم ورُقيّ؛ وبعد أن كان عَدَماً صار خَلْقاً، فلقد خلقه تعالى على أطوار، فكان في بدايته منيّاً يُمنَى، فصار نطفة أمشاج يختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة، وصار علقة، ثم مضغة، وأتمّ خَلْقَه المادى، وجعل له مشيئة الخير والشر، ليبتليه، وجعل له السمع والبصر، أوصنعه عاقلاً مميزاً، وهداه النجدين، ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③﴾، فدلّت الآية على أن الإنسان له إرادة واختيار، فلو شاء آمن ولو شاء كفر، ولا إكراه في الدين ولا إجبار. وهذه الآية على ذلك من جملة الآيات التى تؤكد أن الإسلام يقوم على التخيير وليس على الإجبار، وأن الإيمان من عدمه هو مسألة إرادة

واختيار، وعلى هذا كانت المسئولية والحساب، فإما العقاب وإما الثواب. وتحفل السورة بمشاهد وصور من الجنة والنار، وبأوصاف للأبرار والمقرّبين. وفي الرواية عن ابن عمر أن حبشياً لمّا سمع هذه الآيات قال للنبيّ ﷺ: فُضّلتم علينا بالصور والألوان والنبوة! أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به، وعملتُ بما عملتَ، أكائنٌ أنا معك في الجنة؟ فقال له الرسول ﷺ: «نعم والذي نفسي بيده»، ثم قال: «**من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عهد. ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة**»، فقال الرجل: فكيف نهلك بعدها يارسول الله؟ فنزلت: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ①﴾ إلى قوله: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا** ⑳﴾، فسأل الحبشي: يا رسول الله! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال له النبيّ ﷺ: «نعم»، فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه، فلما دلّوه في الحفرة سُمع النبيّ ﷺ يقول: ﴿**إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ㉒﴾. وروى أن أبا جهل قال: إذا رأيتُ محمداً يصلي لأطانّ على عنقه! فأنزل الله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا** ㉓ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** ㉔﴾، و «أو» في الآية من جمالياتها، وأوكد مما لو استخدم الواو، لأن «الواو» لو استخدمها فأطاع أحدهما لم يأثم، وأما «أو» فدلت على أن كل واحد منهما أهلٌ أن يُعصَى. وقيل: «أو» بمعنى لا، والآثم المنافق، والكفور الكافر الذي يُظهر الكفر، والمعنى: لا تطع منهما آثماً ولا كفوراً. وروى أن الآية نزلت في عُتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا قد أتيا الرسول ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكْر النبوة. والذي عرض التزويج عتبة، قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوّجك ابنتيّ من غير مهر، وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنتَ صنعتَ ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى، وارجع عن هذا الأمر- وبسبب هذا العناد من أهل مكة من أمثال أبي جهل، وعتبة، والوليد، تنزلت الآيات تسلّي النبيّ ﷺ وتخفّف عنه في قوله: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ㉕ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا** ㉖﴾، ثم ذكّره تعالى بأنهم ما عاندوا ولا كابروا ولا كفروا إلا لأنهم يحرصون على الدنيا، ويتناسون أن هناك يومًا للقيامة والحساب، ولقد خلقهم الله وأحكم خلقهم فما شكروا ولا ارعووا، ولو شاء لبدّلهم، ولم تكن هذه السورة ـ سورة الإنسان ـ ولا القرآن برمته – إلا تذكرةً وموعظة لمن يريد أن يتذكر ويتّعظ وينزجر، وتكون له طريقة إلى ربّه، والله تعالى يهدى من يشاء، وهو العليم الحكيم، يعلم من يستحق الهداية ويطلبها واختارها لنفسه فيدخله في رحمته، وييسّر له أسبابها، وأما من يكفر فله العذاب الأليم.

والسورة تحفل بالجماليات من اللغة والمصطلحات، من أمثال: «**نطفة أمشاج**»، و«**مزاج الكافور**»، و«**عين السلسبيل**»، و«**السندس الأخضر**»، و«**الاستبرق**»، و«**اليوم القمطرير**». ومن التشبيه: ﴿**حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا**﴾ وليس - ولا يكون - فى التشبيه أحسن من ذلك، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن. وفى السورة الكثير من وجوه **البيان والبديع**، كالطباق فى: «**شاكراً وكفوراً**»، و«**بكرةً وأصيلا**»، و«**شمساً وزمهريرا**»، و«**يحبون ويذرون**»؛ **والمجاز** فى: «**يوماً عبوساً**»، و«**فوقاهم ولقاهم**»، و«**يطعمون الطعام**»؛ **والسجع المرصّع** فى «**منثوراً، وطهوراً، ومشكوراً، وكفوراً**». نسأل الله الهداية، وأن يكون فَهْم القرآن غاية علمنا ومنتهى أملنا، ولله الحمد والمنّة.



٦٥٩. ﴿سورة المرسلات﴾

السورة مكية نزلت بعد **الهُمَزة**، وترتيبها فى المصحف **السابعة والسبعون**، وفى التنزيل **الثالثة والثلاثون**، واسمها «**المرسلات**» من قوله تعالى: ﴿**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ①**﴾ يقصد بالمرسلات الرياح تتتابع ويقفو بعضها إثر بعض، فوصفها بأنها «عُرف» **تمسك** بأعراف بعضها البعض، والبعض قالوا: المرسلات هى **الملائكة**، بل إن الآيات الخمس الأولى كلها محمولة على الملائكة. والبعض قال: بعضها على الملائكة والبعض على الرياح، والأظهر أن المرسلات هى **الرياح**، ولذلك عطف عليها **بالعاصفات** وهى الرياح أيضاً، وأما الناشرات: فالأظهر أنها الملائكة، ولذا عطف عليها **بالفارقات فرقاً والملقيات ذكراً**، فجعل عَطْف المتجانسين **بالفاء**، فقال: «**المرسلات فالعاصفات**»، وعَطْف المتخالفين فى الجنس **بالواو**، فقال «**والناشرات**». وأقسم **بالملائكة وبالرياح** جميعاً، والملائكة غيب، فقرّب الغيب بالواقع الحى وهى الرياح، ووصف كلاً بوظيفة متشابهة، فالرياح قد تكون **رخاء** وقد تكون **عاصفة**، وكذلك الملائكة هى عُذر أو نُذر. وهذه المقابلات تحفل بأمثالها السورة، وتكثر بها الصور والمشاهد الجمالية، والعبارات البلاغية، وكلها بهدف التدليل على قدرته تعالى، ومن ثم وحدانيته، وتخيير الناس بين التصديق والإنكار، والإيمان والكفر. وفى قوله: «**عُرفاً، وعَصفاً، ونشراً، وفرقاً**» **محسنات لفظية** تزيد الأسلوب جمالاً. وكان قسمه تعالى **بخمسة** أشياء: **بالمرسلات**، **والعاصفات** ـ وكلتاهما رياح، **والناشرات**، **والفارقات**، **والملقيات** ذكراً وهى الملائكة. وجواب القسم: ﴿**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦**﴾، ووقوعه **يوم القيامة**، ويصفه أروع وصف وأبلغه، ففيه تنطمس النجوم، وتُشَق السماء، وتُنسف الجبال. وهو **يوم الفصل** الذى كان **مؤجلاً** وَوُقّت للرسُل ليشهدوا أمام الديّان على أممهم،

وآتى بالاستفهامين: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾، و﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾ لتعظيم هذا اليوم والتهويل؛ وجواب الاستفهام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾، يكرر هذا الوعيد خلال السورة عشر مرات، يريد به في كل مرة غير الذى أراد بالأخرى، وفي كل مرة يطرح قضية ويعقّب عليها بويل يومئذ للمكذّبين، يكذّبون ما قال، وهكذا في كل مرة من المرات العشر، ففى **الأولى**: كان المطروح يوم القيامة؛ وفي **الثانية**: ما ينزل بالمجرمين في ذلك اليوم؛ وفي **الثالثة**: أنه الخالق للإنسان من الماء؛ وفى **الرابعة**: أنه خلق الأرض ورواسيها وأنزل الماء؛ وفى الخامسة: مآل المجرمين فى الآخرة وما يلقونه من نكال؛ وفى **السادسة**: أحوال المجرمين فى هذا اليوم؛ وفى **السابعة**: تحدّاهم أن يكيدوا لو استطاعوا؛ وفى **الثامنة**: ما أعدّ للمتقين من أنواع الإفضال والإكرام؛ وفى **التاسعة**: هزأ من المجرمين ومصيرهم مقارنةً بمصير المتّقين؛ وفى **العاشرة**: بيّن لماذا كان المجرمون على ما هُم عليه. وفي كل مرة يكون فيه الوعيد للمكذّبين، تكون القضية المطروحة مثار جدل، وتُقارَع الحجة بالحجة، وتُفنّد الدفوع بالبراهين، ويُكشَف عن المغالطات. ومن المنطق حُسن العبارات وانتظامها، ومنه أن تحفل السورة بأمثال هذا الطباق: «**الأولين، والآخرين، والمجرمين، والمكذّبين**»، وأحياء وأمواتاً». ومنه أيضاً التكرار الجميل لأسلوب الاستفهام، مثل قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾، والآيات دليل على القدرة والتوحيد، وتثبت صحة القول أن خَلْق الجنين إنما هو من ماء الرجل وماء المرأة، وفى «قدرنا» فى قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ إما أنها مشدّدة من التقدير، وإما مخففة من القُدرة، والأولى قدّرنا وقت الولادة، أشقياً أم سعيداً، وطويلاً أم قصيراً؛ والثانية قَدَرنا بالفتحة ومن ثم كان قوله: ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾. ومن الاستفهام أيضاً: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) ﴾، **والكفات** أى اجتماع الأحياء على ظهرها، والأموات تجمعهم في بطنها، فالمقابر **كفات الموتى، والبيوت كفات الأحياء**، وكان يسمون أرض البقيع «كَفْتَة» أى مقبرة. أو أن الأرض تنقسم إلى حيّ يُنبت ويتوالد، وميّت لا يُنبت ولا يتوالد، وفيها ذلك جميعاً، وهى كفات له. **والجبال** رواسى للأرض، وهذه النظرية يطرحها القرآن وتخلو منها التوراة والأناجيل، فلما جعل الجبال أنزل عليها المطر يسيل إلى الأودية، وجعل الجبال مخازن الخيرات للأرض، وهى أمور أعجب من البعث، فكيف يكذّبونه؟ والويل لهم فى الآخرة وهم يشاهدون النار عياناً يرتفع منها الدخان كأنه الظل، فيخيل إليهم أن بوسعهم الاحتماء به، وظل النار ذو ثلاث

شـعب، وهى حقيقة من العلم المُشاهَد، يطلق القرآن على كل شعـبة منها اسمًا: فشعبةٌ هى: **الضريع** (كالذى للمرأة،) وشعبةٌ هى **الزقوم** (كالطعام المسموم)، وشعبةٌ هى **غسلين** (وهو ما يسيل من نتن من جلـود أهل النار)؛ أو أن الشعب الثلاث هى: **اللـهـب**، ثـم **الشـرر**، ثم **الدخـان**، فهى ثلاثة أحوال فى وصف النار إذا اضطرمت واشتدت. ووصَفَه الظل بأنه لا ظليل ولا يغنى من اللهب، مثل قوله: ﴿ **وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤)**﴾ (الواقـعة)، يعنى: لا يظلهم من حرّ النار، ولا يكنّهم من لهـبها، وليس إلا دخان يرتفع منه ويتفرّق شعباً ثلاثاً، وسُمّى **العذاب** «**ظلاً**» تهكمًا واستهزاءً بالمشركين، وبالمقارنة: **فالمؤمنون** فى ظلال وعيون، بينما **المجرمون** فى سموم وحميم، وظلٍ من **يحموم** (الدخان الأسود القاتم)، شبّهه بالشرر كالقَصْـر، فكل شرارة كشوامخ القصور، وكأنها فى تطايرها الجمالات الصُفر، أى الإبل فاقعة اللون المعروفة بسرعتـها وقوتها، فجاءت التشبيهات قمة فى البلاغـة، وقيل: هى قلوس السفن، أى حـبالها، شـبّه بها الشـرر المتطاير؛ وقيل هى جُمالات بالضم، وهى الضخام من الأشـياء أو الإبل. فكان من هول هذا اليوم أن أُخرس المكذّبون، لا يؤذَن لهم فـيـعتـذرون، ولا يُقـبل لهم عذر ولا حـجـة، ولا تنفع الظالمين معذرتهم. ومن هذه الآيات نعرف أن **ليوم القيامة** مواطن ومواقيت، والأحوال فى هذا اليوم من المتشابهـات، فمرة يقول لا يتكلمون فيـه، وفى آية أخرى قال: ﴿**لا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨)**﴾ (طه)، وفى آية أخرى قال: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧)**﴾ (الصافات)، وقال أيضاً: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)**﴾ (المؤمنون)، يعنى كلما همّوا بالكلام أسكتهم وألجمهم. فأى هؤلاء الصحيح؟ وفى آية **سورة المـرسلات** الكلام عن المكذّبين، ولا يمكن أن يكونوا كذلك ويسمع لهم يوم القـيامة، يقول: ﴿**هَٰذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)**﴾، وأما الآيات الأخرى فلها ملابساتها المختلفة وقوله بعد ذلك: ﴿**هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨)**﴾ زيادة فى التعريف بـهذا اليوم، فكل من كـذّبوا منـذ بدء الخليقة جمعهم، فيقول: ﴿**فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩)**﴾ يعنى يقاوون الله لو استطاعوا! ومن أساليب القرآن فى **المقابلة** ـ وهى من الجدل من أبواب المنطق ـ أنه بعد أن يسرد أحوال المكذّبين وعذاباتهم ينوّه بأحوال المتّقين بالمقارنة، فتكتمل الصورة الجمالية بزيادة ما فيها من تفاصيل متضاربة ومتخالفة: **فـالظل** يقابله النور، **والفـواتح** تقابلها **القـواتم**، وها هم المجرمون يقابلهم المتّقون، ويحتمى المجرمون **بظل ذى ثلاث شعب**، وأما المتقون فهم فى النعيم وتحت **الظلال**، يتمعتون هم وأزواجهم، ما بين سمر، وذكْر، وطعام مما يشتهون، يقال لهم: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)**﴾، مقابل ما يقال للمجرمين: ﴿**فَإِن كَانَ**

لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾. وفى قوله: «ويشتهون، وتعملون، والمحسنين والمكذبين» **جناس غير تام، وسجع مرصَّع تتوافق به الفواصل**. وقوله: «**كلوا وتمتعوا قليلاً**» تقابل «**كلوا واشربوا هنيئاً**»، والأولى تقال على سبيل التوبيخ والتقريع، فاستحقوا أن يقال لهم «**مجرمون**»، والثانية على سبيل التكريم والأنس. والسؤال: فما كان دليل جُرم الأولين؟ والجواب: لم يكونوا يركعون، **وهو مجاز مرسل** أراد بالركوع **الصلاة**، فأطلق البعض على الكل. قيل نزلت هذه الآية فى **ثقيف** لمّا امتنعوا عن **الصلاة** وقالوا لرسول الله ﷺ: حُطّ عنا الصلاة فإنّا لا ننحنى! إنها مسبّة علينا! فأبى، وقال: «**لا خير فى دين لا صلاة فيه**». وهذا هو الكلام الذى ليس بعده كلام، تنزّل به القرآن، فإن كذّبوا به مع كل ما اتصف من بيان ووضوح، وحجج بالغة، وبراهين دامغة: **﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾**!! فالحمد لله الذى رزقنا القرآن وهدانا إلى الإسلام، له كل الحمد والمنة!

●●●

٦٦٠. ﴿سورة النبأ﴾

هذه السورة يبدأ بها **الجزء الثلاثون** من المصحف، وهو المعروف **بجزء عَمّ**، وتسمى **سورة عمّ** حيث تبدأ بلفظ الاستفهام «**عمّ**»، واسمها كذلك **سورة النبأ**، لأن مدارها «**النبأ العظيم**» الذى هو **يوم القيامة والبعث والنشور**. وصفه الله تعالى **بالعظمة** لأنه نبأ خطير، اختلف أهل مكة من المشركين لما جاءهم، فكانوا بين مصدّق ومكذّب، وجاء وصفه بالعظمة لأنه **يوم الفصل، ويوم الميقات** المقدور ليُحشر الخلق فيه إلى ربّهم، فيفصل بينهم، ويقضى بين الحق والباطل. والسورة مكّية، وتتناول لذلك مسائل **العقيدة**، إلا أن محورّها هو هذا النبأ المُشكل والمحيّر لهم، أى **البعث**. وتحفل آيات السورة **الأربعون** بمشاهد من الآخرة، ودلائل على البعث، وبيان عمّا ينتظر المكذّبين والمتقين من عذاب أو نعيم. وترتيب السورة فى المصحف **الثامنة والسبعون**، وفى النزول **الثمانون**، وتأتى بعد سورة المعارج. **وعمّ** ـ التى تبدأ بها ـ لفظ استفهام، ولذلك سقط منها **ألف «ما»**، ليتميز الخبر عن الاستفهام، وأصلها «**عن ما**» **فأُدغمت** الميم فى النون لمشاركتها فى الغُنّة، وكل ذلك لتفخيم الاستفهام، فهو ليس استفهاماً عادياً، لكنه استفهام عن شىء كبير وحدث ضخم، وهو البعث كما سبق. والجواب على الاستفهام بعبارة: **﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾**، وفيه ردعٌ وزجر، ويكرر هذا الردع تأكيداً للوعيد وتكريراً للتهويل، ثم يُبدأ فى سرد الأدلة على «**قدرة الله تعالى**» التى لا يمكن أن يمارى فيها إلا مكابر، وتستحضر السورة **أحد عشر دليلاً** على هذه القدرة، فالأرض التى نسكنها لم يمهدها ويبسطها للسكنى إلا الله، وهو الذى

أرساها بالجبال لتتوازن فلا تضطرب، وخلق كل شيء أزواجاً، حتى الصفات زاوج بينها، والكلام والمنطق جعله جدلاً فيه الفرض والنقيض، وخلق الإنسان والحيوان والنبات، فيه القصير والطويل، والقبيح والحسن... إلخ، لتختلف الأحوال فيكون الاعتبار، ويُشكر الفاضل ويُبصر المفضول. ومن أدلته «النوم» جعله راحةً للأبدان، وجعل الليل سكناً، والنهار معاشاً، وبنى السماء سبعاً طباقاً، وجعل فيها الشمس سراجاً، وأنزل الماء سيّالاً من السحاب، فأخرج به الحَبّ كالحنطة وغيرها، وأنبت به الأعشاب للحيوان، وسقى الزروع والجنّات حتى تكاثف شجرها والتف، أفبعد ذلك يُشك في قدرته تعالى على البعث يوم النشور؟ وتأتي الآيات في ذلك بديعة في تركيبها اللغوي، فيها التشبيه كقوله: ﴿**الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨**﴾، وفيها المقابلة كما في: ﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**﴾. فإذا نُفخ في الصور جُمع الأولون والآخرون واحتشدوا في موضع العرض، يأتون زُمرًا، ويحشرون أشتاتاً، وتنشق السماء، وتُكشَط الجبال، وتُسيّر من مكانها وتُقلع، وتعود كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء، أو تستحيل كالهباء المنثور، وتترصّد جهنم للطاغين المجرمين، وتترقّبهم يثوبون إليها، فيمكثون بها الأحقاب بعد الأحقاب، لا بَرْدٌ فيها يخفّف حرّها، ولا شرابٌ إلا من ماء يغلي ويشوي، وصديد يكوي، فكان جزاؤهم هو الجزاء الوفاق، فما كانوا يرجون بعثاً ولا حساباً، وكذّبوا فما أنصفوا، وكل ما فعلوه مكتوب ومرصود: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠**﴾، قيل: **ليس في القرآن عن أهل النار آية هي أشد من هذه الآية**، كلما استغاثوا بنوع من العذاب أُغيثوا بأشد منه. وفي مقابل هذه المشاهد المفزعة، هناك المشاهد الأخرى المفرحة لما يوعد به **المتّقون**، فلقد وعُدوا النجاة وذلك هو الفوز العظيم، ولهم الجنة حدائق وأعناباً، وكواعب أتراباً، **والكاعب** هي الناهد، **والأتراب** هن العذارى في السن المتقاربة، ولهم فيها الخمر: ﴿**لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧**﴾ (الصافات)، وفي الجنة لا يسمعون **لغواً** أي باطلاً، ولا **كذّاباً**، أي كذباً، جزاءً من ربّك حساباً، أي يعطيهم حتى يقولوا حسبنا. وهو القادر على ذلك، لأنه ربّ السموات والأرض وما بينهما، شملت رحمته كل شيء مع أنه سبحانه يرهبه كل من يحضره، ويصطف الملائكة وجبريل على رأسهم خاشعين أمامه، لا يتكلمون بالشفاعة إلا من يأذن له وينطق الصواب، فإذا كان هذا هو منتهى حال الملائكة في حضرته سبحانه، فكيف بالبشر الخطاة؟ ولسوف يمثلون أمامه، فهذا حق، ويوم الفصل حق، والبعث حق، والسورة تذكّر مَن لم يعد يذّكر، لعله يتخذ لنفسه سبيلاً إلى ربّه، ويحسب حساب هذا اليوم الذي يرى فيه كلٌّ ما قدّم من خير

أو شرّ، وكل ما فعله سيجده محضراً، وعندئذ سيقول الكافر: ياليتنى كنت تراباً، ولم أُخلق إنساناً، ولم أُخرَج إلى الوجود. وقيل إن الكافر المقصود هو أبو جهل، إلا أن السورة عامة فى كل الناس. وقيل إن قوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۝٤٠﴾ تنزّل فى أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ۝٤٠﴾ تنزّل فى أخيه الأسود بن عبد الأسد. وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥﴾ (الحاقة). وفسّر البعض الكافر بأنه إبليس، لأنه عاب آدم أن الله خلقه من تراب، وافتخر أنه خلقه من نار، فإنه يرى آدم يدخل الجنة يتمنّى لو كان من تراب مثله. يقول: ياليتني خُلقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم!

وبعد. . ، فهذه هى سورة النبأ، فيها الكثير من الغيب، وتتميز عباراتها بالحركة والديناميكية، وتأتى غاية فى الحبكة، وآية فى الوصف، وفيها الكثير من التفاصيل الدقيقة، والمعانى اللطيفة. والحمد لله على أن أعطانا القرآن وهدانا إلى الإسلام.



٦٦١. ﴿سورة النازعات﴾

«النازعات» من السور المكّية التى تتناول مسائل العقيدة، وتركّز على الردّ على المتشككين فيما ورد عن القرآن والرسول ﷺ من القول بالبعث، وأن هناك يوماً موقوتاً تكون فيه الساعة وتقوم القيامة. وتخوّفهم مما حاق بفرعون موسى لمّا كذّب مثلهم، فاستحق ما نال من نكال الدنيا والآخرة، فما من متأمّل للكون يرى خَلْق الله للسموات والأرض، وكيف أرسى الأرض بالجبال، ورفع السماء، وأنزل منها الماء، وفجّره عيوناً فى الأرض، وأنبت به الزرع، متاعاً للناس ولأنعامهم، إلا ويدرك أن من يقدر على خلق كل ذلك فهو أقدر على رجعه وبعثه بعد موته أو فنائه، لأن الإعادة أسهل من الإنشاء، فإن أنكر وأصرّ فليعلم أن مآله النار، وإن آمن فالجنة مأواه ومستقره، وأما المتشكك المرتاب فلن يسعه أمام الأدلة على إمكان البعث إلا أن يدع السؤال عن الساعة. وتنفى السورة عن النبىّ ﷺ أن يكون عالماً بالساعة وموعدها، وكان اليهود يلحّون عليه بالسؤال، فلمّا سأل جبريل عنها أجابه: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، يعنى: أنه مثله لا يعلم عنها، فالساعة من الغيب، والله وحده يستأثر بعلمه، والنبىّ لم يكلّف إلا بتذكير الناس وتحذيرهم من هذا اليوم، وفيه يموت الجميع إذا نُفخ فى الصور أول نفخة، فإذا كانت النفخة الثانية قام الأموات يحتشدون زُمراً إلى الحساب، ولو سألتهم كم بقوا فى الدنيا، لقالوا ما كانت حياتهم فيها إلا سويعات من ليل ونهار.

وفي قصة موسى مع فرعون، تربط السورة بين ما جرى لفرعون عندما أنكر موسى وما يمكن أن يجرى لقريش بإنكارهم للنبىّ ﷺ . ويتهم المستشرقون النبىّ ﷺ بالنقل عن التوراة لمّا احتك باليهود في المدينة، وأن ما تعلمه من اليهود أذاعه ضمن القرآن كوحى من الله. غير أن سورة النازعات تثبت بطلان ما زعموا، لأنها من السور المكّية، ولم يكن النبىّ ﷺ وقت نزولها قد عرف اليهود بعد! وما ورد فى السورة عن موسى وفرعون لا يختلف فى كثير أو قليل عمّا ورد عنهما فى السور المدنية، الأمر الذى يثبت أن كل ما ورد بالقرآن، على ظن أنه منقول من التوراة، ليس إلا وحياً، وأنه جاء مصدقاً بالتوراة إلا ما حُرِّف منها.

واسم النازعات ـ كعنوان للسورة ـ من قوله تعالى فى بدايتها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، يُقسم بالنازعات، وهم صنف من الملائكة من خمسة أصناف جرى القَسَم بهم فى مقدمة السورة، وهم أولاً: النازعات الذين وصفهم بالغرقى، لأنهم الملائكة المنوط بهم الإماتة للأحياء، والإفناء للأشياء، ولأن عملهم يستوجب العنف، ويستغرقهم، كإغراق النازع فى القوس أن يبلغ به غاية المدّ، وكل نزع يستلزم القسوة، فهم أقوياء، وعلى الأرجح شدادٌ غلاظ، وقيل فى مَلَك الموت أنه ينزع الأرواح كما يُنزع اللحم عن السَّفّود ـ وهى الحديدة التى يُشوَى عليها، فيكون اللحم ملتصقاً بها يتطلب نزعه جهداً. وكذلك الأشياء يتطلب إفناؤها نزعاً يستغرق النازع. وأما الصنف الثانى فهم: الناشطات نشطاً من الملائكة، وهم العمّال والشغّيله، كمثل شغّيله النمل أو النحل، يدأبون على العمل لا يملّون ولا يكلّون. والصنف الثالث من الملائكة هم السابحات سبحاً، يسبحون، أى يسيحون ويجولون فى الكون، فهم يستكشفون ويراقبون. والصنف الرابع هم: السابقات سبقاً، لأنهم يسبقون إلى الإبلاغ إلى ربّهم وعن ربّهم، وينقلون عن الملائكة السابحات وإليهم. وأما الصنف الخامس فهم: المدّبرات أمراً، وهم الملائكة، يدبروّن قضاء الله وأمور الناس والعالم، وأحوال الأرض والطقس ونظام الكون، وكان الناس فى الديانات الوثنية ينسبون التدبير للنجوم، وما يزال ذلك دأب المنجّمين. وجواب القسم لما سبق: هو أن البعث حق، ويوم القيامة صدْق، وأنه يومٌ يتزلزل فيه الكون ويرجف، وتوجف القلوب. وقيل عن الراجفة فى السورة: أنها الصيحة الأولى التى تكون بها الزلزلة وفناء كل شيء، وأن الرادفة: هى الصيحة الثانية تردف الصيحة الأولى وتتلوها، ويقوم بها الأحياء سعياً إلى الله، وفى الحديث: «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة: جاء الموت بما فيه» ،والنصف الأول من الحديث يفسّره النصف الثانى.

وتأتي سورة النازعات في ترتيب المصحف التاسعة والسبعين، وفي التنزيل الواحدة والثمانين، بعد سورة النبأ. والسؤال الذي تدور حوله هو: هل نُردُّ بعد الموت أحياء؟ وهل بعد أن نموت ونبلي ونكون عظاماً نخرة، نرجع أحياء وأسوياء، نعي ونفهم، وتكون لنا مسئولية ونحاسب؟ ومن الجديد من المصطلحات والكلام الجامع في السورة، قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ويُضرَب مثلاً لتفكير الطغاة عندما لا يرون في الكون إلا أنفسهم، فهم كفرعون، كل ما يقولونه ويفعلونه هو الصواب، فلا رأي سوى رأيهم، ولا فعلَ لأحد غيرهم. وعلى العكس منه قول موسى ـ وهو النبيّ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وهو طلب في صيغة استفهام رفع إليه الأدب والتواضع، ومن تأدّب مع الناس رفعوه، ومن تواضع لهم أحبه الله وآثره. وكلام موسى من أدب المخاطبات، وفيه عرضٌ أريب. والصور البلاغية في هذه السورة كثيرة، ومنها أسلوب التشويق في قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾، وهو استفهام يرغّب في معرفة هذا الحديث ـ أي القصة. ومن وجوه البيان والبديع في السورة توافق الفواصل في الآيات، في مثل قوله: «ضُحاها، ودحاها، ومرعاها، وأرساها»، ويصطلح عليه في باب المحسنات باسم السجع؛ والمقابلة بين قوله: ﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾؛ والمقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؛ والطباق في قوله: «الآخرة والأولى»، وقوله: «عشية وضحاها»، وقوله: «الجنة والجحيم»، وقوله: «السماء والأرض». ومن المصطلحات التي تنفرد بها السورة تسمية يوم القيامة بالطامة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وهي الداهية أو المصيبة تفوق ما سواها، وتطم كل شيء أي تفنيه، ووصفها بالكبرى لأنه ليس كمثلها شيء. وأيضاً فإن هذه السورة تشارك سورة طه في اسم الوادي المقدس طوى عند جبل حوريب الذي كلم الله عنده موسى، والتوراة تخلو من اسم طوى، وتكتفي بالقول «الموضع المقدس» (الخروج ٣/ ٥). وقصة موسى برمتها في هذه السورة لم ترد كقصة، مثلما جاءت في التوراة سرداً، ولكنها في القرآن عظةٌ وعبرة، ليعلم المنكرون أن مصيرهم كمصير فرعون، وليتسلّى بها المسلمون عموماً، أي يتقوون، والنبيّ خصوصاً، إذ يعلمون أن الله ينال من الطاغين، وأنه تعالى يدحر المكذبيّن.

وكانت الآية: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ مثار خلاف بين المفسّرين، وأذكت الكثير من الجدل، والإجماع على أن هذه «الآية الكبرى» هي تحوّل عصا موسى إلى حيّة تسعى؛ ولا نرى إلا إنها مشاهدة موسى للجبل يندك دكاً لما طلب إلى الله أن ينظر إليه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي

أنظُرْ إلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إلَى الْجَبَلِ فَإنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ (الأعراف)، يعني بأول المؤمنين أنه آمن به ولم يره رأى العين، وإنما رأى فعلَه، فاكتفى به، وتاب إليه أن يسأله الرؤية مرة أخرى، فهذه هي **المعجزة الكبرى**، رؤيته للجبل يتصدّع لما تجلّى له نور الله، وبسبب ذلك صُعق موسى صعقاً.

ومن **الإعجاز العلمي** للقرآن في هذه السورة ردّه تعالى على من استكثر على الله أن يبعث الخلق قال: **﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾** فأضاف الليل إلى السماء، لأن الأصل فيه هو الظلام، ثم بعد ذلك خلق الضياء لما خلق الشمس، فأظهر بضيائها الضُّحى؛ وقوله **الأرض بعد ذلك دحاها**، لأنه علمياً بترتيب الخلق ـ فإن السماء كانت أولاً ثم كانت الأرض، بعكس ما تقوله التوراة: أن الأرض كانت أولاً ثم كانت السماء (التكوين ١/١ ـ ١٠). والأرض في التوراة مستوية ولا ذكر فيها للجبال ووظيفتها، بعكس القرآن الذى أرسى الأرض بالجبال، وجعلها كالدحية أى البيضة، منبعجة من ناحية ومسحوبة من ناحية أخرى، يعنى أنها ليست كروية ولكنها كروانية **Spheroid** أى شبيهة بالكرة، وما دامت كذلك فهى دوّارة، وفى دورانها تنبسط وتتطاول **Prolate** من ناحية وتنبعج **oblate** من ناحية أخرى، وانبساطها يعنى اتساعها، والتوراة تنقل عن البابليين، وكانوا يقولون الأرض مسطحة منبسطة **Flat**، وكان المصريون أول من فكر أنها كروية **Spherical**، وأخذ **فيثاغوراس واليونان** عنهم ذلك، وأكده **أرسطو** فى القرن الرابع قبل الميلاد، وأقام عليه **إراتوسنيس** علم الجيوديسيا **Geodesy** ـ علم دراسة شكل الأرض بقياس سطحها ـ ولم يقل أنها كالدحية إلا كوبرنيق المتوفى سنة ١٥٤٣م، بينما توفى النبىّ ﷺ سنة ٦٣٢م، يعنى **التأثر يكون من كوبرنيق وليس من النبىّ** ﷺ !! لأنه ﷺ الأسبق! وذهب إلى نفس الرأى نيوتن، وكان أيضًا بعد النبىّ ﷺ (توفى سنة ١٧٢٧)! **ونظرية القرآن** ليست لتقرير الحقيقة، بقدر ما هى **للوعظ والتدبّر**، وللردّ على المكذّبين، وأما **نظرية التوراة** فهى للتقرير. وفى التوراة يكون النهار قبل خلق الشمس!! وعكس ذلك فى القرآن، فذلك ما يثبت أن القرآن كتابٌ من عند الله، وأن محمدًا ﷺ نبىٌّ مرسلٌ من عنده تعالى، وليس معنى مصادقة العلم على القرآن، أنه كتاب فى العلم، ولكنه كتاب لا يناقض العلم ولا يخالفه. والحمد لله على نعمة الإسلام والقرآن.



٦٦٢. ﴿سورة عبس﴾

السورة **مكية**، وترتيبها في المصحف **الثمانون**، وفي التنزيل **الرابعة والعشرون**، وآياتها **ثنتان وأربعون**، ومناسبة نزولها أن النبيّ ﷺ كان مجتمعاً مع بعض الكبراء من قريش، فجاءه ابن **أم مكتوم** «**الأعمى**» يقول: يارسول الله أرشدني، فجعل رسول الله يعرض عنه ويقبل على من كانوا معه، وابن ابن مكتوم يلاحقه ويلحّ عليه حتى رؤيت الكراهة في وجهه ﷺ، وحتى عَبَس وبَسَر. وكان من المجتمعين به: **الوليد بن المغيرة**، أو أنه كان **أمية بن خلف**، وربما كان المجتمعون به جماعة، قيل هم: **عُتبة وشيبة** ابنا ربيعة، **وأبيّ بن خلف**. وربما لم يكن معه إلا **العباس بن عبد المطلب**، وكان النبيّ ﷺ يحاول إقناعهم بالإسلام ويستميلهم إليه لعلهم يهتدون فيهتدى بهم آخرون، وبدا كأن اعتراضهم كان منصباً على نوعية المؤمنين به، من أمثال **ابن أم مكتوم الأعمى، والعبيد كبلال، والسفلة كعمّار** ابن ياسر.

وآيات السورة تجيء موجزة ومحكمة، وفيها من وجوه **البيان والبلاغة** الكثير، فهناك **الجناس**: كما في قوله: «**يذّكر، والذكرى**»؛ **والطباق**: كما في قوله: «**تصدّى وتلهّى**»، **والكناية**: كما في قوله: «**ثم السبيل يسّره**». ومن وجوه **الجمال** في السورة أن تبدأ بقوله: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ①﴾** تخبر عن النبيّ ﷺ بالغائب، تعظيماً لقدره، فلم تقل «عبستَ وتولّيتَ»، ثم يواجهه الله تعالى بالخطاب فيها تأنيساً له فيقال: **﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④﴾** فبيّن أن المؤمن مخلصٌ لربّه رغم فقره، وسعيه لله على الحقيقة، والكافر مستغن بماله وعياله لا أمل فيه ولا رجاء. وما كان له وهو النبيّ ﷺ أن يتعرّض للمستغني ويلحف عليه، ولا أن يتغافل عن المؤمن ويتلهّى عنه، فترَكَ الأوْلى، ولم يجعل نذارته للجميع على السواء، لا يختص بالهداية أحدهم دون الآخر. والسورة **إعلان بالمساواة بين الناس**، بصرف النظر عن أن هذا شريف وذاك ضعيف، أو أنه غني والآخر فقير، أو أنه من الكبراء والآخر من الصغراء، **فالإسلام دين المساواة**، وهو أول دين يحفل **بالمعوقين**، ويوليهم كل العناية، ويرفع عنهم الحرج، يقول: **﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾** (النور ٦١)، وأول دين **يؤكد أن الناس عند الله بتقواهم وليسوا بأموالهم ولا أهاليهم**. «**وأمّا**» في السورة للتفصيل، فالناس إما **مؤمنون مصدّقون**، وإما **كفرة مكذّبون**. وقوله تعالى: **﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪﴾** فيه تشديد على النهي عن معاملة الناس على أساس التفرقة بينهم إلا بالحق، وفيه الحثّ على المساواة بين الناس في إبلاغ العِلْم، فلا تمييز في العلم بين شريف ووضيع، أو بين معوّق وصحيح. ومن

جوامع الكلم في السورة قوله: ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** (١٧) ﴾ وهو أسلوب في قمة البلاغة للتعجب، وقيل في **عتُبة بن أبي لهب**، وكان قد آمن فلما نزلت «**النجم**» ارتد، وقال: آمنت بالقرآن كله إلا النجم! فقد ظن أن السورة بها أن الرسول ﷺ رأى ربّه؛ فكان عتُبة ممن ذكرتهم الآية: وأنزل فيه: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾ يعني لعنه الله وطرده من رحمته، ثم صارت هذه العبارة قولاً عاماً في الإنسان كجنس، وحكمة يوعظ بها، فما كان عتُبة وحده الذي كفر بعد أن آمن، وإنما الكُفر ممتدٌ بالإنسان، وإلا فلينظر هذا الإنسان مما خُلق، والاستفهام في السورة: ﴿**مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾؟ توليدي كما يقول **المناطقة**، والجواب عليه لا يكون إلا تفصيلاً، فبعد الإيجاز والتعجُّب في قوله: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾ يأتي البيان والتفصيل والإقناع في قوله: ﴿ **مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ** (١٩) **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** (٢٠) **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** (٢١) **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ** (٢٢) ﴾ فوافق بين رءوس الآيات، واستخدم **السجع** للفت الانتباه، ولخّص حياة الإنسان كلها في هذه الآيات **الأربع**، منذ أن كان جرثومة في مَنيّ الرجل لا شأن لها ولا اعتبار، إلى أن تَخَلّق نطفة، فعلقة، فمضغة، فتُكسَى لحماً وتكتمل جنيناً، وتيسّرت ولادته طفلاً، ليكبر إلى أن يشيخ ويموت، ثم يأتي البعث بأمر الله، فكان المفروض إذا عرف ذلك عن نفسه أن يؤمن، ولكنه ما فعل، فلم يؤدّ حق الله عليه، ولم يقم بما هو مفروض منه، وقوله: ﴿**كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ** (٢٣)﴾ فيه ردعٌ وزجر، فلما انتهى القول في الإنسان عن نفسه وذاته وتكوينه، لفته إلى نعمه عليه، وأولى هذه النعم **طعامه**، وفعل الأمر: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ** (٢٤)﴾ طلبٌ فيه الحثّ على التفكير والمعرفة بأحوال الطبيعة سواء في الإنسان أو البيئة، وأن ينبني علمُ الإنسان بهما على المشاهدة والتجريب والتحليل والاستقراء والاستدلال والاستنباط، وهي أدوات أهل العلم، وكل ما في الكون يقضي بوجود الله تعالى، وأنه لابد أن يكون له خالق، وأنه قادر ومريد وعالم، وأنه واحد لا إله إلا هو، إلا أن «**المستغني**» كما في الاصطلاح القرآني، جاحدٌ ولا يعتبر. والقرآن يلجأ إلى تفصيل الحجج وتبيين الدلالات، ويتناول أسباب حياة الإنسان مهما كان، ويتطرّق إلى طعامه الذي به قوام هذه الحياة، **فالماء** أنزله الله من السماء، وشقّ له في الأرض سبلاً، ويسّر على النبات أن يمهد لنفسه فيها طرقاً، فخرج منه الحبّ والعنب والعشب، وأثمر الزيتون، وأنضج النخل بلحاً وبُسراً، ورُطباً وتمراً، وكانت البساتين يكثف فيها الشجر الكريم، فمنه الفاكهة الزكية النكهة، ومنه الأبّ تأكله الدواب وترعاه، وفي كل **ذلك** متاعٌ وأي متاع للإنسان ولـلحيوان، فبأي آلائه تعالى يكفر هذا الإنسان ويجحد؟! ألا إنه ما أكفره عن حق، وملعونٌ هو عن صدق، وليس إلا يوم

القيامة ـ يوم **الصاخة** كما تسميه السورة وتنفرد به دون سائر سور القرآن كلها، وفيه تُصَخّ الأسماع، أى يكون صوت الصُور، أى النفير، من العلو بحيث يخرق **حاجز الصوت**، فيحدث الموت دون تدمير، لعدم قدرة الجهاز العصبى على الاحتمال، وكما نقول ينفجر الجهاز العصبى مع زيادة أحمال الصوت عليه أكثر مما يمكن أن يستطيعه فى أسوأ الحالات، وهو **إعجاز علمى** لم يُكشَف عنه إلا مع اختراع الطائرات التى تسير بسرعة أكبر من سرعة الصوت وتخرق حاجزه، فكانت نوافذ المنازل تتحطم، ويتدمّر الزجاج. ويأتى أروع بيان ليوم القيامة فى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)**﴾، والصورة أبلغ من أى كلام، والهَول الذى ترسمه ألفاظاً هولٌ عظيم، والخَطْب الذى تخطّه عبارات، خطبٌ جليل، فكل إنسان يلقَى من كان ألصق الناس به قرابةً، وأحبّهم إلى نفسه، فلا يعرفه، فلا **قابيل** يعرف **هابيل**، ولا **هارون** يعرف **موسى**، ولا **آدم** يعرف **حواء**، ولا **نوح** يعرف **ابنه**، ولا **إبراهيم** يعرف **أباه**، ولا **لوط** يعرف **امرأته**، وكل واحد منهم لا يقول إلاّ: «نفسى! نفسى!». ولمّا قال الرسول ﷺ **لعائشة** إن الناس يوم القيامة يُبعثون عراةً، استهولت ذلك وسألت: أوَ يرى بعضنا عورة بعض؟! قال: ياعائشة! **الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض!: «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه»!** ـ وفى هذا اليوم يأتى أن الناس صنفان، فإما مُسفر الوجه ضاحكٌ مستبشر، فذلك هو **المؤمن**، وإمّا مُغبّرٌ الوجه أسوَدُه يغطيه الكسوف، فذلك هو **الكافر الفاجر**، وكما قالت عائشة: واسوأتاه من يوم القيامة! وكما فى الحديث الصحيح فى أمر **الشفاعة** فى هذا اليوم من شدة الخطب على الناس أنه: **حتى عيسى ابن مريم يقول: لا أسأل الله اليوم إلا نفسى! لا أسأله مريم التي ولدتني!** ـ يعنى لا يسأل ربَّه الشفاعة فى أمه! فأى يوم هذا على الكافرين عسير! وهذه السورة إنما ليتعظ الكافرون، ويعتبر المؤمنون، فهل من مذكّر؟ نسأل الله النجاة والعافية، والحمد لله ربّ العالمين على منّة الإسلام ونعمة القرآن المبين.

●●●

٦٦٣. ﴿سورة التكوير﴾

السورة **مكية**، والسور المكية عموماً تتناول من موضوعاتها العقيدة، وتخصّ بالكثير من آياتها **يوم القيامة**، وأكثر السور المكية احتفالاً بهذا اليوم **ثلاث** سور: **التكوير، والانفطار، والانشقاق**. وكان نزول سورة **التكوير** بعد سورة «المَسَد»، وآياتها **تسع وعشرون** آية، وترتيبها فى المصحف **الواحدة والثمانون**، وفى التنزيل **السابعة**. ويُشتق اسمها من استهلال السورة بقوله تعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)**﴾، وتكويرها لا يكون إلا يوم

القيامة، فتتفجّر الشمس **تفجيرات نووية**، تبلغ من شدّتها أن يتجوّف داخلها، وتمور كالدوامة وتَسْوَدّ، وتصبح كالكرة يتقاذفها الفضاء، وذلك من علامات هذا اليوم الحافل بالأحداث والانقلابات الكونية: **فالنجوم** تنكدر وتنطفىء، وتذهب عنها ماهيتها: فهى لم تُسم نجوماً إلا لأنها تنجم، أى تظهر بضوئها، فإذا انكدرت واظلمّت وتساقطت، لم تعد نجوماً؛ **والجبال** تُسيَّر: **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾** (الكهف ٤٧)، يعنى أن الأرض تسرع عن سرعتها العادية، فتبدو الجبال عليها كما لو كانت تسير فى الفضاء، وتمخر السحاب، أو أنها تصبح هباء منثوراً، وتكون سراباً، أو مثل السراب الذى ليس بشىء، أو أن الأرض تنسطح وتستحيل قاعاً صفصفاً لا ترَى فيها عوجاً ولا أمتاً؛ **والعشار تعطّل**: فكل ما كان من الممكن أن يلد، فلا يلد، وتتوقف الوظائف الحيوية لكل كائن، فلا الناس أو الحيوانات تطلب الطعام، ولا النبات ينشد الماء، ولا النساء الحوامل يضعن، فالطبيعة كلها معطلة، وقوانينها وسُنُنُها لا يُعمل بها؛ **والوحوش تُحشَر وتُجمع؛ والبحار تُسجَّر**، وتمتلىء بالماء وتفيض، وتُغرق اليابسة، وتأتى على الأخضر واليابس، ولا فرق بين بحر وبحر، ولا بين بحر ونهر، وما كان بينها من برازخ صارت لا تعمل، **فاختلطت** المياه، وبطلت خواصها، فلم تعد تطفىء النيران، وصارت كأنها تطفح بالمواد المشتعلة؛ وتتأجج، وذلك من عجائب هذا اليوم، وأهل العلم يفسرون هذه الظاهرة بأن قيعان البحار ملتهبة، فإذا كان يوم القيامة اندفعت الحمم من القاع فتشتعل سطوح الماء بها. فهذه **ستة** ظواهر للطبيعة من خارج الدنيا من علامات القيامة، وهناك **ستةٌ** أخرى تخصّ الآخرة.، هى: أن **تُزوَّج النفوس**، ويُقرَن كل إنسان مع الذين كانوا يعملون عمله فى الدنيا، فالفاجر مع الفاجر، والبار مع البار، وكل شكل بشكله من أهل الجنة أو أهل النار، جُعلوا أزواجاً على أشباه أعمالهم، وتُقرن الأرواح بالأجساد وتُردّ إليها، وتُقرَن النفوس بأعمالها؛ **وأن تُسأل الموءودة** بأى ذنب قُتلت، **والمؤودة حقيقةً**: هى التى يقتلها أبوها عند مولدها خشية العار، أو الإملاق، أو السبى والاسترقاق. والمؤودة **مجازاً**: هى كل امرأة كانت لها مظلمة تُسأل لماذا ظُلمت؟ وقيل: كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت حفرت حُفرة وتمخّضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفرة وردّت التراب عليها، وإن ولدت غلاماً احتفظت به. وقوله: **﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾** سؤال توبيخ لقاتلها، مثل قوله تعالى لعيسى: **﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾** (المائدة ١١٦) على جهة التوبيخ والتبكيت لمن ألّهوه، فكذلك سؤال الموءودة توبيخٌ لوائدها؛ **وأن تُنشَر صُحف الأعمال**، ويُعرَف ما فيها من خير وشر؛ **وأن تُكشَط السماء** كما يُكشَط الجِلد، وتُنزع من مكانها

وتُطوَى ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الأنبياء ١٠٤)؛ وأن تُسعَّر الجحيم وتوقد، وتُضَرم للكفرة الفجرة، يُسعِّرها غضب الله وذنوب العباد وخطاياهم؛ وأن تُزلَف الجنة، ويُقرَّب منها المُتَّقون؛ وأن تَعلَم كل نفس ما أحْضَرت من خير وشر. فتصبح مجموع علامات الساعة: اثنتا عشرة علامة، ستة في الدنيا ـ كما قلنا، وستة في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭﴾ جواب ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ وما بعدها من آيات، والمعنى: إذا الشمس كوّرت وكانت هذه المجريات، علمت نفسٌ ما أحضرت من عملها. وقيل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ قَسَمٌ وقع على قوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭﴾ .

وتتكون سورة التكوير من ثلاثة أجزاء، والقَسَم الأول وجوابه يشكّلان الجزء الأول، ويبدأ من: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ حتى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬﴾ وجوابه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭﴾؛ ويبدأ الجزء الثاني بالقَسَم كذلك، ويُستَهل بقوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ⑮ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ⑯ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ⑰ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ⑱﴾ فهذه الظواهر الثلاث من الطبيعة أيضاً، فالخُنَّس هي النجوم والكواكب التي تخنس بالنهار وتكنس، أي تختفي وتستتر كما تكنس الظباء في المغار، وتظهر بالليل، وأكبرها: زُحَل، والمُشتري، وعُطارد، والمريّخ، والزُّهَرة، سميت خُنَّساً لتحيّرها بين الظهور والاختباء، وسميت مخابئها كُنَّس جمع كناس. وعسعسة الليل: إقباله أو إدباره، فهي من الأضداد، والمعنى مرجعه واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره، وبعد الليل يتنفس الصبح، أي يقبل ويظهر بنوره وضيائه. وقوله: «لا أقسم» من أساليب القرآن، وتأتي فيه ثماني مرات، مثل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ⑯﴾ (الواقعة)، وقوله: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ②﴾ (القيامة)، وقوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج ٤٠)، و«لا» لتأكيد القسم لا لنفيه، وليست زائدة كما يقول البعض، فلا شيء زائد في القرآن. وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ㉑ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ㉒ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ㉓ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ㉔ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ㉕﴾، والرسول المقصود هو جبريل وليس النبيّ ﷺ كما قال البعض، وهو كريمٌ على الله؛ وذو قوة عند ذي العرش أي الله تعالى، يعني له منزلة ومكانة؛ وهو مطاع ثم، أي مطاع هناك، يعني في السموات، وأمين: مؤتمن على الوحي. وقوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ㉒﴾ جواب القسم، يعني بصاحبكم النبيّ ﷺ، وصفه بأنه صاحبهم، من الصُحْبة أي الرفقة والزملة، والصاحب هو الملازم، والملازمة قد تكون بالبدن وأكثرها الملازمة المعنوية، فالصاحب صاحب ولو تناءت الديار والأجسام، وبَعُدت

المسافة بين الأصحاب. وكانوا قد اتهموه ﷺ بالجنون، لأنه إذا أوحى إليه يعرق بشدة ويسكن جسده إلى أن يرتفع عنه الوحى، وكان يقول إنه رأى جبريل فى صورته كما هو عند ربّه، فكان ذلك سبباً آخر أن يوصف بالجنون، والسورة تنفى عنه التهمة وتؤكد للمؤمنين صدقه فيما قال: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)** ﴾، وقوله: ﴿**رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾، فلأن جبريل كان ضخماً يسدّ الأفق، ووُصف الأفق بالمبين أى الواضح، بحيث أن رؤيته له كانت حقيقة وليست وهماً. وأما من قال إن «الهاء» فى «رآه» تعنى الله سبحانه وتعالى، فذلك أمرٌ بعيد، فالله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ (الأنعام ١٠٣)، وإنما كانت الرؤية لجبريل بصورته الملكية مرتين، فمرةً: ﴿**بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)**﴾ (التكوير) و﴿ **بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)**﴾ (النجم)، ومرةً: ﴿**عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤)** ﴾ (النجم) ـ (انظر هل رأى محمدٌ ربّه؟ ضمن باب «النبوة والنبيّ»)، وتصف الآية النبيّ بأبلغ بيان: ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)**﴾ أى لا يضن عليهم بما يعلم، تصديقاً لقول عائشة فيه ﷺ: أنه ما كتم شيئاً من الدين. والغيب هو القرآن وخبر السماء. ورؤيته لجبريل من الغيب. ولو نجحت خطة المنافقين وشككوا الناس فى رؤيته لجبريل، لكان معنى ذلك أنه متّهم كذلك بشأن القرآن، ولذا يجىء فى هذه السورة: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)** ﴾، وبه يبدأ الجزء الثالث من السورة، و«هو» المقصود بها القرآن، وكانوا يتقولون: أنّ النبيّ ﷺ، يأتيه شيطان أبيض فى صورة جبريل يريد أن يفتنه، وأن القرآن من وحيه ـ أى وحى الشيطان. وردّت الآية عليهم بسؤال إنكار وتوبيخ: ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)**﴾، يعنى: ما هذا الهراء الذى تقولون؟ وإلى أى دَرْك من قلة العقل والحُمق يأخذكم الكفر والعناد والجحود؟ والجواب على السؤال: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)**﴾، أى إن هذا القرآن موعظةٌ وذكرٌ لكل الناس، فمن أراد منهم الهداية واتّباع الحق، فلا هداية فيما سواه، وأنهم ما يقدرون على شىء إلا بتوفيقه تعالى ولطفه. فلنسأل الله التوفيق. قيل: ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨)** ﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إذن ـ إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فأنزل الله: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)**﴾، فبيّنت الآية أنه لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق من الله، ولا شراً إلا بخذلان من الله، فالله أولاً وأخيراً، والحمد لله ربّ العالمين، نسأله التوفيق، فمنه وبه التوفيق والعصمة، وفى كتابه الفلاح والحكمة.



٦٦٤. ﴿سورة الانفطار﴾

السورة مكية، وآياتها تسع عشرة، وكان نزولها بعد سورة «النازعات»، وترتيبها في المصحف الثانية والثمانون، وفي التنزيل الثانية والثمانون أيضاً، وتشبه سورة «الانشقاق»، وتبدأ مثلها بذكر انفطار السماء، بقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾، كقوله في سورة «الانشقاق»: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾، وانفطارها أو انشقاقها يعني انصداعها، ولا يكون ذلك إلا يوم القيامة، فتمور السماء وتنفرج وتنكشط، فهي كالمهل - أي كالرماد - وهي يومئذ واهية، والحدث جليل، ومن أشراط الساعة وعلاماتها. وفي ذلك اليوم تنتثر الكواكب فلا شيء منها في مكانه، وتتفجّر البحار، وتغرق اليابسة، وتتبعثر القبور وتنشق عن الأموات يُبعثون أحياء يسعون إلى ربّهم: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ (ق)، مهطعين إلى الداعي، وقد تيقّنوا أن ما كان قد دعاهم إليه الرسُل حق، ولكنهم لم يولوه اهتمامهم، وانصرفوا عنه بأمور دنياهم، وقدّموها على أمور الآخرة، فلِمَ كان ذلك؟ ولماذا هذه اللامبالاة من الإنسان؟ وما الذي يجعله يكفر ويعصي؟ يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦﴾، فوصف نفسه بالكرم لأنه يتجاوز ويعفو عن كثير، وغرّ الإنسان كرمه تعالى به، ولولا كرمه ما عصاه ولا أخطأ؛ أو أن الإنسان كما قال عمر: غرّه شيطانه الخبيث، أو شيطانه المسلّط عليه، أو قال: غرّه حُمقه وجهله. ولما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦﴾ قال: «غرّه الجهل»، أو قال: «غرّه جهلُه». وقال عمر: كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ (الأحزاب). وقيل: غرّه عفو الله، لأنه لم يعاقبه في أول مرة. وسئل الفضيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى بين يديه يوم القيامة، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول: غرّني ستُورك لي، لأنك الكريم، والكريم ستّار. وقيل: إن المؤمن يثق بحُسن إفضال الله، ويغتر بطول إمهاله، فيرتكب الزلّة، لايستحلها، ولكنه طول حِلْم الله تعالى عنه يحمله على سوء خصاله، ومع ذلك فلم تتوقف أفضاله، فهو الذي خلقه في أحسن تقويم، وسوّاه في بطن أمه، وأنشأه معتدل القامة، وركّب أعضاءه على الوجوه الحكيمة، وفي أي صورة ما شاء، لا يتشابه اثنان ولا يتماثلان في الخِلْقة ولا في الخُلُق، وعلّمه ورزقه، ومع ذلك يكذّب بالدين، وينكر يوم القيامة، ويجحد ربّه، ويسفّه البعث والحساب! وكل ذلك مرصود عنه، يكتبه ملائكة رقباء لا يفارقونه، كقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ (ق)، فلا تخفى عليهم أعماله وأقواله، كقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾. ويوم القيامة ينفرق الناس فريقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ

الأبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ⑮﴾، **والأبرار**: هم المؤمنون وهم اليوم فى نعمة العصمة، وغداً هم في الكرامة والنعمة؛ **والفجّار**: هم العصاة الكفرة، وهم اليوم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشرك الموجب للإدانة، وغداً هم فى النار على وجه التخليد والتأبيد. **ونعيم الأبرار الحسّى**: الجنة بما حوت من طعام وشراب ونساء ورفاهية؛ **ونعيمهم المعنوى**: في روح الذكْر، وفى الأُنس بالله. **وجحيم الفجار الحسّى**: النار والشَّوى والحرق؛ **وجحيمهم المعنوى**: ضيق القلوب، والتسخُّط أنهم أساءوا التقدير والتدبير والاختيار. **ويوم الدين** هو يوم الحساب، كقوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑱**﴾؟ يتكرر عنه السؤال، تهويلاً وتخويفاً وإنذاراً وتحذيراً، وذلك من أساليب القرآن، وفى التكرار تأكيد وتنبيه، كقوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨**﴾، «وكَلاّ» للتأمين والتأكيد والتنبيه بمعنى حقاً، أى إنكم حقاً لتكذّبون بالدين. ومن مصطلحات السورة: **يوم الدين**: وهو يوم الحساب، يصدّق به الأبرار، ويكذّب به الفجّار، يقولون: ﴿**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ⑯**﴾ (المدثر) وقوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾ لا يرد إلا في هذه السورة، وكلما أريد التهويل والتضخيم كان استخدام «ما أدراك»، يقول: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤**﴾ (الهمزة)، ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③**﴾ (القارعة)، ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ②**﴾ (القدر)؛ ويوم الدين: الأمر فيه لله من قبل ومن بعد، وفيه تنقطع الدعاوى. وفي قوله: ﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧**﴾، **الصورة**: مصطلح من الفلسفة، ولكل إنسان صورتان، **الأولى** هى: **الصورة الجسمية**: وهى ما يكون الشيء عليه بالفعل وهى صورة ناقصة، وتسمى **الصورة المخصوصة**؛ **والثانية** هى: **الصورة الباطنة**: وهى الشكل أو السمت الذى عليه جنس من الأجناس، وصورته الباطنة بمعنى أن كل الناس مثلاً وإن اختلفوا ظاهرًا، إلا أنهم باطنًا بشر، ولهم صورة واحدة كامنة كبشر، ولأنها للجميع فهى كاملة وتامة، وتسمى لذلك **الصورة الكاملة**. وفى السورة فإن المعنى الذى تنصرف إليه الصورة فى الآية: أنها **الصورة الباطنة**، لأن الخطاب فيها للإنسان، وصورة الإنسان هى أكمل صورة خلْقية لأى من المخلوقات الدنيوية، وفيها قال تعالى: ﴿**فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧**﴾، وعند الإغريق يعطون الصورة الكاملة المسوّاه المعدولة اسم **الانتلخيا** يعنى المنوال أو القالب. وكان **ابن عربى** (١١٦٥ ـ ١٢٤٠م) كفيلسوف إسلامي مَعنّياً بالتفسير القرآنى الباطن، ولمّا تناول صورة الإنسان لم يتحدث إلا عن **الصورة الكاملة** دون الصورة الجسمية فقال: ليس لله تعالى خلْقٌ أحسن من الإنسان، فإنه تعالى خلقه حيّاً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً،

بصيراً، مدبّراً، حكيماً، وهذه صفات الربّ سبحانه. وفي الخبر: «**إن الله خلق آدم على صورته**»، يعني على صفاته هذه السابقة، وقيل: خلقه على ما هو عليه، أي على الصورة التي عليها آدم، ولذا نقول عن الصورة الكاملة أنها أيضًا **الصورة الآدمية**، وهي مقصود الآية التي نحن بصددها، وإلا فإن **الصورة الجسمية أو الواقعية** التي هي لكل إنسان على حدة، قد تكون على القبح، أو مشوهة، أو بها عاهة، وتتفارق الصور، والناس على القُبح والجمال ليسوا سواء، والمصاب بالجذام ليس على أحسن صورة بالقطع، وإذن فالكلام في الآية عن هذه الصورة الكاملة، وهي الصورة المسوّاة المعدولة، والكلام فيها من باب **الحكمة** التي يعطونها عند الغربيين اسم **الفلسفة**، والله تعالى هو الحكيم ومعلّم الحكمة، والقرآن كما هو كتاب في التشريع، وفي العلوم، فهو أيضًا **كتاب في الحكمة أو في الفلسفة**، وصدق الله تعالى وقد قال فيه: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ٣٨) والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

●●●

٦٦٥. ﴿سورة المطففين﴾

السورة مكية وكانت **آخر سورة** تنزل بمكة؛ وقيل إنها **مدنية** لمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة وكان أهلها أخبث الناس كيْلاً فأنزلها الله، غير أن السورة لها نفس أهداف السور المكية. وتعالج مثلها أمور العقيدة، ولها أسلوب ومنهج السور المكية. وقيل السورة نزلت في رجل يُعرف **بأبي جهينة**، واسمه **عمرو**، وكان له مكيالان، أحدهما ناقص والآخر زائد، فإذا أخذ لنفسه أخذ بالمكيال الزائد، وإذا أعطى الناس أعطاهم بالمكيال الناقص. وفي القرآن أن الله تعالى أهلك قوم **شعيب** لبخسهم الميزان، والميزان لا يكون فقط في الأشياء الحسية ولكنه أيضاً في الأشياء المعنوية: ﴿**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ (الأعراف ٨٥)، والأشياء قد تكون أعمالاً تجارية أو صناعية أو فنية، **والتطفيف** قد يكون في الوضوء والصلاة، وفي الأحكام، والرواية، ولكل شيء وفاء وتطفيف. **والمطفّف** مأخوذ من **الطفيف** وهو القليل، وعلى ذلك **فالمطفِّف**: هو المقلّ لحقّ من الحقوق مهما كان، وقيل للفاعل مطفف لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء **الطفيف** الخفيف، أُخذ من الطَّفّ للشيء أي من جانبه. وفي قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ①**﴾ توعُّدٌ لهم بالهلاك والعذاب، وتهويل بما سيحدث لهم يوم الحساب. وفي السورة تعجُّب وإنكار من حال هؤلاء المطففين: ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④**﴾، والاستفهام الذي صيغ به الإنكار والتعجب يزيد الصورة قتامة، لأنهم إن كانوا يعلمون أنهم سيبعثون ليوم

الحساب فعلمُهم مصيبة عليهم، وإن كانوا لا يعلمون فمصيبتهم أدهى وأمرّ؟! **واليوم العظيم**: تعريفٌ بيوم القيامة: ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (٦): يقومون عقابا وعذاباً، فلأن ذنبهم عظيم فإن يوم حسابهم كان عظيماً. ويبدأ **الجزء الثانى** من السورة بالردع والتنبيه ويحفل بالمتقابلات، يقول: ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ** (٧) **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ** (٨) **كِتَابٌ مَّرْقُومٌ** (٩) ﴾، وتقابل: ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ** (١٨) **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ** (١٩) **كِتَابٌ مَّرْقُومٌ** (٢٠) ﴾، **فكلاً** فى الآية الأولى كلمة ردع وزجر، **وكلا** فى الآية الثانية تعنى حقاً؛ **والفجار** تقابل **الأبرار**، والفاجر هو الذى ما عاد يخشى أحداً ولا يهمه حساب ولا نار ولا قيامة، وعكسه **البار** من **البرّ** الذى هو الخير. والفجّار يناسبهم **سجين**، وهو أحط درك من دركات جهنم، وكأنه **السجن** الذى لا يوصف لفرط بشاعته، وقيل لذلك ربما هو ضَرْب مَثَل وإشارة إلى أن أعمالهم السيئة لا تصعد إلى الله، وإنما حبيسة الدناءة والسفالة اللتين كانتا له؛ وعكسه **علّيون**: أى الذُّرَى حيث الجنة، فإذا كان الفجار فى أسفل سافلين، فالأبرار فى عليين. وقوله: «**وما أدراك ما سجين**»، «**وما أدراك ما عليون**» استفهام للتعظيم والتهويل، يعنى: هل تعلم ما سجين، وما عليون؟ **والكتاب المرقوم** أى **المُرقَم**، فلم تسقط منه ورقة، ولا ضاع منه شيء، وإنما هو كتابٌ محفوظ. **والمكذّبون فى السورة** الذين يتوعدهم، كذّبوا بيوم القيامة وبالبعث والنشور، وهم فى التعريف **معتدون آثمون**، كلما تُلِى عليهم القرآن ألغوا فيه وقالوا **أساطير الأولين**، يعنى خرافات السابقين من الأمم، ومن هؤلاء كان **الوليد بن المغيرة، وأبو جهل** ونظراؤهما، كسبوا الكفر فران على قلوبهم، **والران** هو أن تتراكم الذنوب على بعضها، فكلما أذنب ذنباً اسودّت نقطة فى القلب وصار الذنب كالثقب، حتى ليصبح القلب كالمنخل أو الغربال الصدىء، ويوم القيامة يحجب عنهم ربُّهم رحمته، ويصلون الجحيم جزاءً وفاقاً. وأما **الأبرار**: فكتابهم مفخرة لهم، ومن فرط طهارته فإن الملائكة تُقبل عليه وتنظر ما به من صالحات. **والنعيم** مقام الأبرار؛ **وللنعيم نُضرة**، وسقياهم من **رحيق مختوم بالمسك**، **ومزاجه من تسنيم**، جاء فى تعريفها أنها عين يشرب بها المقرّبون، وكل ذلك من **الغيب** ونتصوره فنرضى به ونسعد وتُشحَذ هممُنا إليه، ويتنافس عليه المتنافسون. وخلاصة هذا النعيم فى الآية: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ (السجدة ١٧). وعكس هؤلاء وفى مقابلهم **المجرمون** وكانوا يستهزئون بالمؤمنين ويتغامزون عليهم ويتفكهون بهم فى رواياتهم، ويصفونهم بالضلال، مع أنهم لا شأن لهم بهم، ولم يوكلوا عليهم، وها هى الآية قد انقلبت فصار المؤمنون فى النعيم يضحكون مما آل إليه أمر الكفار. نسأله تعالى أن يرينا فى المجرمين بعض الذى وعدهم، وهو عليهم مقتدر، وحسبنا الله.

•••

٦٦٦. ﴿سورة الانشقاق﴾

السورة مكية، وآياتها **خمس وعشرون**، وكان نزولها بعد «**الانفطار**»، وترتيبها في المصحف **الرابعة والثمانون**، وفي التنزيل **الثالثة والثمانون**، وتتناول في جزئها الأول بعض مشاهد من يوم القيامة كالشأن مع السور المكية، وتستهل بتصدير ما يحدث في الكون عند قيام الساعة، فالسماء تنشق، والسورة لهذا تسمى **سورة الانشقاق**، وانشقاق السماء من أشراط وعلامات هذا اليوم - يوم القيامة، **والانشقاق** هو الانصداع والانفطار، ومن أوصاف ذلك في سُوَر أخرى، قوله: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ**﴾ (الفرقان ٢٥) يعني تُكشط ويملأ مكانها الغمام، فيُغَم الكون وتغتم له القلوب؛ وقوله: ﴿**فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** ﴿٣٧﴾﴾ (الرحمن) يعني تنشق ويستحيل لونها إلى الاحمرار، كأنها الوردة ألقي عليها دهن مذاب أحمر من شدة طبخه بالنار، فاحمّرت لذلك؛ وقوله: ﴿**وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴿١٦﴾﴾ (الحاقة) يعني لم تعد متماسكة واسترخت من أطرافها. وهذا هو الانشقاق إذن كما في السورة، والله غالبٌ على أمره، والسماء يحق لها أن تسمع وتطيع يوم القيامة، وكذلك الأرض، فتجري عليها حوادث ذلك اليوم، فتُدَكّ جبالها، وتنبسط، ويُمَدّ أديمها لتتسع لما يأتيها من بطنها من الأموات، تُلقي بهم وبما استُودعت، وبما استُحفظت. والسورة بدأت بإذا، وجوابها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ** ﴿٦﴾﴾، فليعش ما يشاء، وليحبّ ما يشاء، وليعمل ما يشاء، فإنه ميّت ويفارق الكل، ويلاقي في خاتمة المطاف ربّه يوم الحساب، والآية على ذلك تُضرَب مثلاً، والإنسان مثلما في الدنيا أحد اثنين، فإما هو كافر، جاحد، منكر، ويعمل الشرّ، وإما هو مؤمن، مُسَلِّم لله، شاكرٌ له نعَمه، ويعمل الخير، وكتابه يوم القيامة إما بيمينه، وإما بشماله، كقوله: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** ﴿٧﴾ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴿٨﴾ **وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴿٩﴾﴾ وهذه صورة، ويقابلها صورة أخرى هي النقيض: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ** ﴿١٠﴾ **فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا** ﴿١١﴾ **وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا** ﴿١٢﴾ **إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴿١٣﴾ **إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ** ﴿١٤﴾﴾، والثبور هو الهلاك، **والسعير** هي النار، **ويحور** يرجع حياً.

وفي الجزء الثاني من السورة يقسم الله تعالى بآيات كونية مما نعرفها في الدنيا، وذلك عكس المقدمة التي أُتي فيها بمشاهد أخروية، يقول: ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ** ﴿١٦﴾ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** ﴿١٧﴾ **وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ** ﴿١٨﴾ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴿١٩﴾﴾، والشفق حُمرة المغرب، ويقصد به النهار بطوله، ويقابله الليل الذي فيه يجتمع الناس إلى بعضهم البعض، والمخلوقات كلها تسكن، وهو معنى «**وما وسق**» يعني ما حَوَى، وكأنه أقسم بالنهار والليل، أو بالنهار مدبراً

وبالليل مقبلاً، أو بالنور والظلمة. وفى الليل يظهر القمر ويتسق، أى يستدير ويكتمل، وكل ذلك آيات دالة على قدرته، والذى صنع وأبدع وسوّى كل ذلك يقدر أن يبطله ويزيله ويمحوه يوم القيامة، فالعالَم ليس للأبد، فلكل ما خُلق عُمْرٌ ينصرم وينقضى، وفى النهاية تأتى الساعة وتكون القيامة. وقوله: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** (١٩)﴾ جوابُ القسم، والحياة **أطباق**، يعنى أحوالاً وأطواراً، والناس فيها من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومن ذلك **طور الموت، وطور البعث، وطور الخلود فى الجنة أو فى النار**. وكل مخلوق من جماد ونبات وحيوان له **أطوار**، ويركب **طبقاً بعد طبق**، وهذا **إعجاز علمي فى القرآن**، **ونظرية الأطوار فى القرآن** ليس فيها أن الإنسان كان قرداً كما يقول **دارون**، وإنما أنه مرّ بالحالة **الحيوانية**، كما مر بالحالة **النباتية Vegetative**، وهذه الحالة الأخيرة تعنى أنه كان فى مرحلة ينمو ولم تنضج عنده الغرائز بعد، فإذا نضجت انتقل إلى **المرحلة الحيوانية**، أو ركب **الطبق الحيوانى**، وقبل **المرحلة النباتية** يمرّ **بالمرحلة الجمادية**، فكان لا يعدو العناصر **الستة عشر** التى تتركب منها الكائنات، وبعد **المرحلة الحيوانية** تكون **المرحلة الإنسانية** الخاصة بالجنس البشرى **homo sapiens**، ويتميّز فيها الإنسان بالعقل والوعى، ويتمثّل المستقبل، ويكون له مشروع، وهذه هى مرحلة **الإنسان العامل**، ثم تأتى مرحلة **الإنسان الحكيم أو العالم** بعد الإنسان العامل، ثم مرحلة **الإنسان** العابد - وهى أعلى مراحل الرقىّ. فإذا انتهى العمر ركب طبقاً آخر يحمله إلى غيب لا يعلمه إلا الله. وكل ذلك أفكار تثيرها وتذكّرنا بها السورة، وتدعونا إلى التفكُّر والتدبُّر، فيأتى السؤال: ﴿**فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** (٢٠) **وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ** (٢١)﴾، وهو **استفهام إنكارى**، ينكر على أهل الكفر كُفرهم، ويتعجب من موقفهم، ويوبّخهم على ترك الإيمان بعد كل هذه الآيات. وليس من سبب لموقفهم هذا إلا أن قلوبهم قد ران عليها، وصارت غُلفاً، وعميت أبصارهم حتى صاروا لا يعقلون ولا يفقهون، **والله** أعلم بما يضمرون من التكذيب والكُفر، وما يكتمون من النوايا الخبيثة، وما يفعلون من الأعمال السيئة وتُختتم السورة بمقارنة حال هؤلاء بحال المؤمنين الذين يعملون الصالحات، كطريقة القرآن دائماً إذا ذُكر الكُفر والكافرين والعذاب بجهنم، قابَلَ ذلك بذكْر الإيمان والمؤمنين، ووعد النعيم بالجنة، فإن كان العاصون قد نالوا أجْرَهم فى الدنيا، فأجْرُهم ينقطع بالموت، وأما أجر المؤمنين فموصول بعد الموت وباق أبد الآبدين.

ومن **المصطلحات** فى هذه السورة: «**الحساب اليسير**»: قال فيه رسول الله ﷺ: «**ذلك العَرْض**» ويكون بعد الموت مباشرة، ويقابله **الحساب العسير** يوم القيامة. من الأمثلة فى السورة قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ** (٦)﴾: والمعنى

أنه مكتوبٌ على الإنسان أن يعمل وينصب حتى يلقى ربّه بكتاب عمله؛ أو أن المعنى أن الإنسان يكدح في الدنيا ويظن أنه لن يَلْقَ ربّاً، أو أن بوسعه أن يهرب من ربّه، فأينما هرب، فإن طريقه الذي يتخذه سينتهي به حتماً إلى الله، وإذن فليفعل الإنسان ما يشاء، ويكفر كيفما أراد، وليفسد في الأرض كما يحلو له، فلابد يومًا أن يلقى الله، وحينئذ يكون الحساب العسير والعقاب الخطير، وقانا الله شرّهما، آمين.

●●●

٦٦٧. ﴿سورة البروج﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة «الشمس»، وآياتها **ثنتان وعشرون**، وترتيبها في المصحف **الخامسة والثمانون**، وفي التنزيل **السابعة والعشرون** وموضوعها الاستشهاد في سبيل الله، وتحكي عن قصة **أصحاب الأخدود**، وحديث **الجنود** الذين يجنّدون لحرب الرسُل والأنبياءوالمؤمنين. وتحفل السورة بأسماء من أسمائه تعالى: فهو تعالى «**الشاهد المشهود**»: شهد بالبراهين، وأثبت بدلائل اليقين، وأوضح بالآيات البيّنات، أنه **لا إله إلا هو**. وشهد بجلال قدره وكمال عزّه. وهو تعالى المشهود: لأنه شهد لنفسه وشهد له الخلق والملائكة والكون بأسره. ثم إنه ﴿**الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ⑨**﴾، ولا يقال عزيز إلا للقويّ الذي إذا شاء أوقع الانتقام وقدر عليه، والجبّار أعلى من العزيز، وهو **الشديد البطش**، وفي السورة: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫**﴾ أي أخذه الجبابرة والطغاة والظلَمة: ﴿**إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ⑩⑫**﴾ (هود). وهو «الحميد»: مستوجبٌ للحمد، وله المحمدة، **ومحامده** هي صفاته الجلالية والجمالية والكمالية؛ ومن محامده أن: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ⑨**﴾، فهو المتصرّف والمدبّر والمالك، وإنما عن علم وحكمة، والعلم والحكمة من محامده؛ ومنها أنه تعالى: ﴿**يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ⑭ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ⑯**﴾؛ فهو **المبدىء** لأنه بدأ الخلق؛ وهو **المعيد**: لأنه يعيده، كقوله: ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ (الأنبياء ١٠٤)، وقوله: ﴿**إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ (يونس ٤)؛ثم إنه **الغفور** لأنه **يغفر** الذنوب، والغفور أبلغ من الغافر. ولأنه **يغفر** ويرحم فإن عباده **يودّونه** وهو لذلك **الودود**، بمعنى **المودود**: وهو **يودّهم** في المقابل، **ووده** تعالى يعني رحمته بهم ولُطفه وإحسانه، **والود** إرادة إنعام مخصوص؛ وهو **ذو العرش**: لأن له المُلك كله، وله قوام الأمر؛ **والمجيد**: من المجد، وهو النهاية في العلو والعظمة والعزّ والرفعة؛ ومن مجده أنه **فعّال لما يريد**، لا يُمنع عليه شيء يريده، فلأنه مالك المُلك فلا حَجْر عليه ولا حَظْر: ﴿**يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ⑭**﴾ (الحج)، و﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**

﴿٢٣﴾ (الأنبياء)، وهو ﴿**من ورائهم محيط** ﴿٢٠﴾﴾: محيطٌ بما استمكن منهم من البَطَر، وما داخلهم من الرياء، وبما بيّتوا؛ ومحيطٌ: يعلم ما بهم ولا تخفى عليه خافية: ﴿**أحاط بكل شيء علما** ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق).

والسورة أربعة أجزاء، يبدأ الأول منها بالقَسَم، بقوله تعالى: ﴿**والسماء ذات البروج** ﴿١﴾ **واليوم الموعود** ﴿٢﴾ **وشاهد ومشهود** ﴿٣﴾﴾، والمقسوم به السماء، لجِرْمها العظيم، وما تحويه من أفلاك عظيمة لله تعالى، والقسم بها لذلك عظيم، ووصفها بأنها ذات بروج، يشير إلى امتدادها حتى لتسع منازل كل النجوم والكواكب، وسمّاها بروجاً لظهورها، ثم إن البروج هى القصور، فشبّه هذه المنازل بها لعلوها وارتفاعها؛ وقيل البروج اثنا عشر برجاً، هى: الحَمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْى، والدَّلْو، والحُوت؛ ويسير القمر فى كل برج يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستتر ليلتين؛ وتسير الشمس فى كل برج منها شهراً. فإذا كان القَسَم بالسماء قَسَما عظيماً، فالقسم باليوم الموعود أعظم، وهو يوم القيامة، وهو موعد اجتماع أهل الأرض وأهل السماء، واليوم الذى وعد الله المؤمنين والكافرين، وهو موعودٌ لنهاية الدنيا وبداية الآخرة، وموعود لبداية النعيم أو الجحيم. والقسم بالشاهد والمشهود أعظم من القسم بالسماء وباليوم الموعود، لأنه تعالى كما ذكرنا من قبل، الشاهد والمشهود والشهيد معاً، فكأنه أقسم بنفسه: ﴿ **قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم**﴾ (الأنعام ١٩)، وكما بيّنا من قبل فإنه الشاهد، لأنه شهد خَلْقه وأفعالهم، ويشهد عليهم، وهو مشهود لأنهم يشهدان له بالتوحيد، وهو شهيد لأنه مؤتمنٌ آمينٌ فى شهادته. وجواب القسم فى السورة قوله تعالى: ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴿٤﴾ **النار ذات الوقود** ﴿٥﴾ **إذ هم عليها قعود** ﴿٦﴾ **وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴿٧﴾ ﴾، والأخدود: مقبرة جماعية كالمقابر التى كان الصرب يحفرونها للمسلمين؛ وفعل الروس مثلهم، ثم الأمريكان واليهود، وهذه المقبرة القديمة قدَم التاريخ، أو الأخدود كما يسميها القرآن، حفرها يهود نجران لجماعة دينية فى بلدهم كانوا يوحّدون الله، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً وامرأة، قبض عليهم يوسف بن ذو نُواس بن تُبع الحُمَيرى، ونصب لهم أخدودًا وألقاهم فيه وأوقد عليهم النار. وأصحاب الأخدود فى السورة هم هؤلاء اليهود الذين عذّبوا الموحّدين، وكانوا يقعدون على الأخدود يرقبون تحريقهم، ونقموا عليهم إيمانهم. وقوله تعالى: ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴿٤﴾﴾ دعاء عليهم كقولنا: قاتلهم الله! دعا الله بها على اليهود منذ فجر التاريخ، وما يزال دعاؤه عليهم ساريًا حتى اليوم، قاتلهم الله ولعنهم. وقاتل كل من يؤذى المسلمين ولعنهم!

وفي الجزء الثاني من السورة يوجه الله تعالى إنذاره لأمثال هؤلاء اليهود: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)** ﴾، والعقاب ـ كما ترى ـ من جنس العذاب الذى أنزلوه بالمؤمنين، فتحريق بتحريق، والفرق أن الأول بالنار الصغرى وهى نار الدنيا، والثانى بالنار الكبرى وهى نار جهنم. وفى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...(١٠)** ﴾، وقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ مقابلة بين مصير المجرمين ومصير المؤمنين. وفى الجزء الثالث من السورة خبرٌ عن بعض هؤلاء المجرمين الذين فتنوا المؤمنين، فكان مصيرهم كمصير أصحاب الأخدود، قال: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩)** ﴾، والحديث هو الخبر، والجنود هم جماعة الكافرين في كل عصر، أمثال فرعون وجنوده، من دعاة الاستعمار القديم والجديد، وأصحاب الإمبرياليات القديمة والجديدة، ومنهم حالياً زعماء العولمة من الاحتكاريين والرأسماليين، والعملاء الوطنيين. الذين تجنّدوا وتحزّبوا لحرب الإسلام باسم صراع الحضارات، فى العالم قاطبة. وفى قوله: «هل أتاك» استفهام للتشويق، يريد به أن يؤنس الرسول ﷺ ويسليه، ومن بعده المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض وما عليها بحكايات الطغاة والجبارين والمستقويين، وكان فرعون منهم فضرب الله به المثل لطغيان الأفراد، وكانت ثمود أمة كفرت بأنعم الله، فضرب بها المثل لانحرافات الأمم، فأنزل الله بهم ما نعرف مما نزل بفرعون وجنوده، ومما حاق بثمود، فلمّا كانوا طغاة أُهلكوا بالطاغية، والمنكرون فى كل مكان يقرأون عن هؤلاء وهؤلاء، وما تزال النذر تأتيهم، وما زالوا مستمرين على التكذيب، فبُعداً للظالمين، وبُعداً لقوم لا يؤمنون.

●●●

٦٦٨. ﴿سورة الطارق﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة «البلد»، وآياتها سبع عشرة آية، وترتيبها فى المصحف السادسة والثمانون. وفى التنزيل السادسة والثلاثون، وتبدأ كأغلب السور المكية بلفت انتباه السامع أو القارىء لآيات الله في الكون مما نراه يومياً ولا يستثير انتباهنا لكثرة ما اعتدناه، والمعجز الذى يُراد منا أن نتفكر فيه هو هذه النجوم التى تطرق السماء ليلاً ثم تختفى. فكم منا يعلم عنها كما يعلم علماء الفلك؟ وهل نعرف أحجامها، وحركتها، ودورانها؟ ومما تتكون؟ وإلى أين تسير؟ولماذا تسطع؟ ولو قرأنا ما يقوله العلم عنها لهالنا أمرها وقدّرنا أنه لابد للكون من خالق، وأنه واحد لا يمكن أن يشاركه شريك. وتستهل السورة بقسمه

تعالى بالطارق، ويسميه **الطارق الثاقب** - أى النافذ. وقَسَمُه به يجعل منه شيئاً هائلاً يستحق أن يُقسَم به، وقوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** ②﴾ تهويلٌ من شأن هذا المُقسَم به. وكل ما فى القرآن: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ إنما ليلفت انتباهنا إليه ويعظّمه لنا، وكل ما فيه: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ**﴾ (الأحزاب ٦٣) إنما ليُعلمنا بقلة درايتنا وقلة وعينا به. والطارق هذا من هوله قد يجعلنا نخاف على أنفسنا، فمن يحفظنا منه لو أصابنا منه أذى بما أنه ثاقب، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ④﴾، كقوله: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ (الرعد ١١)، وما من وسائط تحفظنا فى الحقيقة لأن الحافظ هو الله. ولابد أن التفكير فيما يحفظنا سيجعلنا نفكر فى حقيقتنا ونتساءل: ممّا خُلقنا؟ وقوله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ⑤﴾ تنبيهٌ للإنسان على ضعف أصله، وأننا خُلقنا من المنىّ المهين، ومع ذلك صرنا إلى ما صرنا إليه من الضخامة والفخامة. أفمن فعَل كل ذلك لا يقدر أن يبعثنا بعد الموت يوم القيامة؟ وإن يوم القيامة ليومٌ موعود، وفيه تُبلَى السرائر، وتنكشف الضمائر، ويظهر المستور من النفوس، ولا حول ولا قوة للإنسان فى ذلك اليوم. فلا ناصر له، ولا مغيث. ثم يكون **الجزء الثانى** من السورة، ويُقسم فيه الله تعالى **بالسماء** التى ترجع بالمطر دوماً، **والأرض** التى تنشق عن النبات. وهما آيتان من آياته تعالى، كالطارق فى بداية السورة، **وجواب القسم**: أن هذا القرآن المنزّل على محمد، قولٌه فَصْل، أى يفصل بين الحق والباطل، وما هو بالهَزْل، **والهزل** ضد الجد، وفى حديث رسول الله ﷺ عن القرآن قال: «**هو الفصل، ليس بالهزل**»، ومع ذلك فقد كذّبوا بالقرآن، وصدّوا عن سبيل الرسول ﷺ، وكادوا له، وكيد الله أكبر، وكيده تعالى هو استدراجهم من حيث لا يعلمون، ثم يقول لنبيّه ﷺ: ﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ⑰﴾ أى أنظرهم قليلاً ولا تستعجل لهم. والسورة تحفل بالأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة على قدرة الله وعظمته، وعلى أن البعث حقٌّ وواقع، وأن القرآن كتاب من لدن الله تعالى، وأنه الكتاب الفارق الميّسر للذكر، فُصِّلت آياته، وضُرب فيه للناس من كل مثل. ولله الحمد والمنّة.

•••

٦٦٩. ﴿سورة الأعلى﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة **التكوير**، وآياتها: **تسع عشرة**، وترتيبها فى المصحف: **السابعة والثمانون**، وفى التنزيل: **الثامنة**، والاستهلال فى السورة بالأمر بالتسبيح لله العلىّ الأعلى، قال: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى** ①﴾ يعنى نزّهه عن السوء وعما يقوله الملحدون

فيه، ولما سمعها الرسول ﷺ قال: «**اجعلوها في سجودكم**». فكانوا إذا قرأوا السورة في الصلاة، فعند ذكر «**فسبّح اسم ربّك الأعلى**»، يقطعون القراءة ويقولون: «**سبحان ربّي الأعلى**»،ولم يكونوا يقولون: **سبحان اسم ربّي الأعلى**، لأن **الاسم** هو **المسمى**، وظن البعض أن قول: «**سبحان ربّي الأعلى**» تزيّد في السورة، وقال آخرون تبريراً بل لقد أُمرنا بشيء فقلناه، فسبحان ربّنا الأعلى الذى خَلَق الخَلْق فسوّى خِلْقتهم، وسوّى الأجنة فى بطون أمهاتها، وسوّى الأفهام، وسوّي الإنسان وجعله قابلاً للتكليف، وقدّر كل شيء وهداه لقانونه، ووفّقه لشكله وسمته، وأرشده لما قضى به له من السعادة والشقاوة، والهداية أو الضلال، ولما قدّره من الأرزاق والمعايش له وللناس كافة وللحيوان والطير وكل المخلوقات، وكما قال: ﴿**أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴿٥٠﴾﴾ (طه)، يعنى قدَّر فى الأشياء منافعها ومضارها، وقدّر ما يُصلح كل إنسان وحيوان، وأخرج المرعى، وأنبت الزروع، حتى استوت واخضرّت ونضجت على أعوادها، فذلك قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ** ﴿٢﴾ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴿٣﴾ **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ** ﴿٤﴾ **فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ** ﴿٥﴾﴾.

والجزء الثانى من السورة هو قوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ** ﴿٦﴾ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ** ﴿٧﴾﴾ وهو يخصّ طريقة قراءة القرآن، وقراءته على أى حال واجبة على الناس: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ (المزمل ٢٠)، وعلى النبىّ ﷺ: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ** ﴿٣﴾﴾(العلق)، وما سُمّي القرآن قرآناً إلا ليُقرأ، وللقراءة أركان: فقبل القراءة تكون **الاستعاذة** بالله من الشيطان الرجيم (النحل ٩٨)، وعند القراءة يكون **الاستماع والإنصات** (الأعراف ٢٠٤)، وتكون القراءة **للتدبر** (محمد ٢٤)، وبالنسبة للنبىّ ﷺ فالقراءة إما **تلاوة** أو **ترتيل**، وفى كل الأحوال هى قراءة لحفظ واستذكار، وما جُعلت قراءة القرآن أصلاً ليُنسى، وإنما ليُحفظ ويُذكر، ولتكون آياته منهج حياة، كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ (القمر ١٧)، وعلى ذلك فليس صحيحاً أن النبىّ ﷺ أوكل جبريل أن يحفّظه القرآن، بدعوى أنه كان أمياً، وكان لذلك ينسى! ومن ثم نزلت - بزعمهم - الآية: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ**﴿٦﴾﴾ بمثابة الوعد من الله تعالى بأنه لن ينسى من بعد هذه الآية! ولا دليل فى الآية على أن حاله ﷺ فى حفظ القرآن هو حال **الإنسان الأمي**، وإنما الآية تلحق بما يشبهها فى هذا المعنى، وبما يفسّرها أيضاً، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ (طه ١١٤)، والنبىّ ﷺ لم يكن يُعطى صحفاً ليقرأ منها، وإنما كان القرآن يُتلى عليه، ومنذ أول سورة نزلت عليه، وهى سورة «**اقرأ**»، كان يستظهر ما يقال له، ويعيه سرُّه ويذكره قلبه، وتحفظه ذاكرته، والمعنى إذن لقوله: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ**

(٦) **﴿إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾**: أن قراءته للقرآن، باعتباره نبياً، كانت قراءة استظهارا بحيث لا ينسى، والاستثناء فى الآية **﴿إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾**، يعنى أن ما يُقدَّر أن ينساه هو ما يشاء الله له أن ينساه منه، ولم يحدث أن شاء الله له أن ينسى منه شيئاً، كقوله تعالى: **﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** (هود ١٠٨)، فلم يحدث أن شاء الله عكس ما قضى أولاً. ونحن فى الكلام العادى نقول: لأعطينك كل ما سألتَ إلا ما شئتُ، أو إلا أن أشاء أن أمنعك»، وتكون النية مع ذلك على ألا تمنعه شيئاً، يعنى أن الاستثناء ـ بنيّة الخالق ـ هو التمام، والله تعالى قد وعده ألا ينسى مما يحفظ شيئاً، فلم يحدث أن نسى شيئاً. وأحسن ما قيل فى ذلك: أن معنى **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾**. أن لا تنسى العمل بما تقرأ من القرآن؛ أو أن المعنى تعليمه ﷺ ـ وأُمّته من بعده ـ أن لا يغفل عن قراءة القرآن وتكراره فينساه أو ينسونه. وفى الآية: **﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾** (الفرقان) شكوى من أنهم لم يكونوا يقرأونه. ومن دأب الذاكرة أن تنسى شيئاً فشيئاً ما سبق لها أن حفظته، والقرآن ليس استثناء، وإذا لم يُقرأ مراراً، فإن مشيئة الله أن ينسى الغافل أحكامه وحِكَمه، فهذه سُنّة الله فى الذاكرة، وهى من خَلْقه تعالى، وقد فطرها على ذلك، ومن ثم كان التعليم فى الآية للنبىّ ﷺ: أن يقرأ القرآن بنية أن لا ينسى استظهار ما قرأ، ولا ينسى العمل بما قرأ، والنيّة يعلمها الله: **﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)﴾** كقوله: **﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾** (يونس ٦١). والطريقة اليسرى فى القراءة أن تكون قراءة استدبار، يعنى أن يتفكر ويستدبر كلما قرأ، ومع تكرار القراءة، تتيسّر المعانى وتتضح، كقوله تعالى: **﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨)﴾** يعنى نيسّرك لهذا النوع من القراءة. ثم يكون الجزء الثالث من السورة، من قوله تعالى: **﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩)﴾**، حتى قوله: **﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾**، فبعد هذا التعليم للقراءة الْمَيَسّرة، يأتى دور التبليغ، وأن يقرأ النبىّ ﷺ القرآن على الناس، ولا ينسى ذلك، ولا يغفل منه شيئاً، إلا ما شاء الله أن لا يكون متعلقاً بما يشرح للناس من موضوعات، فليس ما يذكره منه فى حينه إلا ما يرتبط بما يتناوله مع الناس من مسائل الدين والدنيا. والتذكير بالقرآن وآياته واجب، بأن تستحضر ذاكرتنا من الآيات ما يناسب الموقف، والذكرى أو التذكير قد ينفع مع البعض ولا ينفع مع البعض الآخر، وتذكِرة أو تذكير الخاشع أبلغ وأرجى، ولن يتجنّب الوعظ ويأنف منه ولا يلتفت إليه إلا الشقى الذى مآله النار الكبرى، وهو اصطلاح القرآن لنار جهنم، باعتبار أن نار الدنيا هى النار الصغرى. والشقى كذلك من المصطلح القرآنى، والمقصود به فى الآية أمثال الوليد ابن المغيرة، وعُتبة بن ربيعة. ونقيض الشقى من وصفه

تعالى بالفلاح فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾، وقيل إن المقصود **بالصلاة** في الآيتين السابقتين: **صلاة العيد**، **وبالزكاة: زكاة الفطر**، ونسى من قالوا ذلك أن السورة مكية، وفي مكة لم تكن صلاة عيد بعد، ولا عيد، وما كانت زكاة الفطر قد فُرضت. وفي تفسيره ﷺ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، قال: «**هو من شهد أن لا إله إلا الله، وخلَع الأنداد، وشهد أني رسول الله**». وخلعُ الأنداد هو أن لايجعل لله تعالى مثيلاً ولاشريكاً. وقيل: نزلت الآية في **عثمان بن عفان**، وقيل: في **أبي بكر الصدّيق**. وكلٌّ منهما قد **أفلح**، أي قد فاز وظفر، **والفلاح** صلاح الحال، والفوز، والنجاة، وفي الأذان: حيَّ على الفلاح، أي هلمّوا إلى طريق الفوز والنجاة. وقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾، أي ذكره في قلبه تزكيةً، فصلّى خشوعاً وكبّر راجياً، وذلك هو **الفالح المزكّي**، على نقيض **الشقيّ** المُؤثر للحياة الدنيا، والآخذ بالعاجل على الآجل. وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ صار مثلاً، وهو من الحكَم المأثورة التي تحفل بمثلها الصُّحف الأولى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ يعني الكُتب المنزّلة السابقة، مما نزل على **إبراهيم وموسى**، وعن أبي ذَر فيما أورده السيوطي: أنه سأل رسول الله ﷺ: فيما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «**كانت أمثالاً كلها**:ـ «**أيها الملك المتسلّط المُبتلَى المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتردّ عنى دعوة المظلوم، فإنى لا أردّها ولو كانت من فم كافر**»، وقال: «**وكان فيها أمثال**: ـ **وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، ويفكر فيها في صنع الله؛ وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوُّد لمعاد، ومرمة لمعاش، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومَن عَدّ كلامه من عمله، قلّ كلامه إلا فيما يعنيه**». وقال أبو ذرّ: قلت: يارسول الله، فيما كانت صحف موسى؟ قال: «**كانت عبَرًا كلها: ـ عجبتُ لمن أيقن بالموت، كيف يفرح؟! وعجبتُ لمن أيقن بالقَدَر، كيف يَنْصَب؟! وعجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها، كيف يطمئن إليها؟! وعجبتُ لمن أيقن بالحساب غداً، ثم هو لا يعمل**». وقال أبو ذرّ: قلت: يارسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يديّ إبراهيم وموسى، مما أنزل الله إليك؟ قال: «نعم، اقرأ أبا ذرّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾». وفي سورة النجم عن صحف إبراهيم وموسى، قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ

للإنسان إلاَّ ما سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ الآيات إلى آخرهن، قيل: إن معنى: **﴿إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴿١٩﴾﴾** أن مضمون سورة الأعلى جاء في صحف إبراهيم وموسى، وهذا نفسه تفسير الآيات التى أكدت أن القرآن نزل مصدّقا لما كان قبله من الصحف والكتب، كقوله تعالى: **﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** (آل عمران ٣). فالحمد لله على نعمة القرآن، ولله المنّة، وبه التوفيق والعصمة.

●●●

٦٧٠.﴿سورة الغاشية﴾

السورة مكية، وعنوانها «**الغاشية**»، من اسم موضوع السؤال الاستهلالى فى السورة وهو قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾** والغاشية: هى القيامة سُميت لذلك لأنها **تغشى** الخلق بأفزاعها وشدائها، من غَشىَ أى غطّى وحلّ، نقول **غشى الليل** يعنى أظلم، **وأغشى الله على بصره**: غطّاه. والسورة **فى** المصحف **الثامنة والثمانون**، وفى التنزيل **الثامنة والستون**، وكان نزولها بعد **الذاريات**، وتتضمن **ثلاثة** مشاهد: الأول عبارة عن سؤال وجواب عن الغاشية، ما هى؟ والخطاب للنبىّ ﷺ خصوصاً، ولكل مسلم عموماً، والاستفهام للتشويق إلى استماع الجواب، واستخدام الاستفهام من طُرق القرآن للتنبيه إلى خطورة وعِظَم شأن موضوع السؤال، ويتناول الجواب، على طريقة **الجدل القرآنى**، أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، نعرفها مما يرتسم على وجوه هؤلاء وأولئك، **وتصنيف الوجوه من علم النفس القرآنى**، **فالكافر**: وجهه متعبٌ، خاشعٌ، ذليل، يُشقيه ما يحمل من أصفاد، وما يُثقل عليه من سلاسل وأغلال، ويُسقمه لهيب النار، وشدّة حرارة جهنم، فيتمنى لو يشرب ليطفىء ظمأه، فلا يجد إلا ماءً أشدّ حراً يحرق جوفه، وإذا جاع فليس إلا الشوك يأكله، لا يُسمن ولا يشبع، ويصرخ منه ويجأر، وكل ذلك يَبين على وجهه. وأما **المؤمن**: فوجهه **تظهر** عليه النعمة، وينعكس عليه رضا نفسه بالعيش فى الجنة، يصفها بأنها عالية، أى صافية الجو عليلة الهواء، يشملها الهدوء وتلفها السكينة، فلا لغو ولا صخب ولا نَصَب، إلاّ مِن خرير ماء يتدفق من عين جارية، يُسرّ بها الناظرون، يشربون منها إذا رغبوا، والأكواب متوافرة يعبون بها الماء، فإذا أحبوا أن يناموا فالأسرّة جاهزة فخيمة ومريحة، والوسائد كثيرة. **والمشهد الثانى** من السورة: يتناول من دلائل وجود الله وقُدرته تعالى ووحدانيته، نماذج من المخلوقات والموجودات من الحياة، يراها كل أحد، ويقدّرها حق قدرها فى كل زمان ومكان؛ فهذه **الإبل** العجيبة وما تقوم به من وظائف

فريدة، حتى ليطلقـوا عليها **سفـينة الصـحراء**، دليلٌ وأى دليل على وجوده تعـالى وقدرته وعلمه. وهذه **السماء** المرفوعة بغير عَمَد، والممتدة إلى اللانهاية، **والجبال** الشامخة المنصوبة كالأعـمدة المغـروسة فى الأرض تثـبّتـها، **والأرض** الممهـدة للزرع والانتـقال عبـرها فى الأسفـار، كلها دلائل، على عِظَم قدرته تعـالى، وأنه الصانع والخـالق، وليس من صانع وخالق مثله. **والمشهد الثالث**: هو النتيجة لما فات من المقدمة، ويقرر المطلوب الذى نخلص إليـه بعد هذا الطرح المنـطقى السالف: أن عـمل الرسـول ﷺ هو تذكيـر الناس، وأن يدعوهم بالترغيب والترهيب إلى عبـادة الله، ولا يُقسرهـم ولا يُجبرهم على الإيمان، فلا إكراه فى الدين، ومن يتولى ويُعرض بعد هذه النذارة أو البشارة، فأمرُهُ إلى الله يعذّبه بنار جهنم، وعذابها هو **العذاب الأكبر**. نسأل الله العافية، والحمد لله تعالى على نعمة القرآن.

●●●

٦٧١. ﴿سـورة الفجر﴾

السورة **مكية**، نزلت بعد سورة **الليل**، وآياتها **ثلاثون**، وترتيبها فى المصحف **الثامنة والتسعون**، وفى التنزيل **العاشرة**، وتتكون من **أربعة** أقسام: **الأول**: تنبيهٌ إلى بعض قوى الطبيعة التى هى دلائل على قـدرته تعالى، وأنه واحد لا شريك له؛ **والثـانى**: تذكيرٌ بمن سبق من أمم لم تؤمن بالله، ولم تـفهم دلائله، وعتت عن أمـر ربّها ورسُله، وطغت فى الأرض وأفسدت فاستحقت العذاب؛ **والثالث**: هو نتيجة تخلُص إليها السورة، وهى أن الإنسان جبَّار كفور، لا يحمد لله لو أكرمه، ويجحده إذا ما ابتلاه، ولو تبيّن وتعقّل لأدرك أن الخير والشر، والغنَى والفـقر، قسمةٌ فى الحياة، وأنهـما من سُنن الوجود، ولكنه هكذا دائماً، يستمـيله الكُفر على الإيمان، والبُخْل على الإنفاق، ويدأب على الخصـال السيئة، ويحب المال يجمعه جمعاً، فلا يُحسن على يتيم، ولا يُطعم مسكيناً؛ وفى **القسم الرابع**: يأتى التحذير من يوم الحسـاب، وفيه التذكّير والتذكُّـر، وأنّى له يوم الحساب أن يفلت من العقاب، ولن يفيده التحسُّر، فالعذاب يومئذ رهيب، ولن يستطيع حياله شيئًا، وأما **المؤمن** فهو الراضى المرضى، المستحق أن يكون من عباد الله، وأن تكون له الجنة.

ومن مصطلحات السورة: **الاستفهام التقريرى** فى قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦)﴾**، وهو من أساليب القرآن، ويتكرر فيه ٣١ مرة، تبدأ فيها الآيات جميعًا بصيغة السؤال: **﴿أَلَمْ تَرَ﴾**؛ وكذلك قوله: **﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧)﴾** فهو من أساليب القرآن، ويتكرر فـيه خـمس مرات، للتنبيه والزيادة فى التوبيخ والعتاب، وتبـدأ جميعها بصيغة: **﴿كَلاَّ بَل..﴾**؛ و«الفجر» المعنىّ فى السورة: هو فجر أى يوم، فهو آية من الآيات، وفيه

تنفجر الظلمة عن النهار؛ وقيل **الفجر**: **هو فجر اليوم الأول من محرّم**، ومنه تنفجر السنة؛ وقيل: هو **فجر يوم النحر**، فكل يوم له ليلة قبله وليلة بعده، إلا يوم النحر فليست له ليلة قبله ولا ليلة بعده، والحج إدراك الموقف إلى طلوع فجر يوم النحر؛ وقيل: الفجر المقسوم به: هو **فجر ذى الحجة**، لأنه تعالى قرن الأيام به فقال: ﴿**وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾ أى **الليالى العشر من ذى الحجة**؛ وقيل: هو **فجر يوم الجمع** آخر الأيام العشر إذا دفعتَ من جمع؛ ﴿**وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾: هى **العشر من ذى الحجة**، أو العشر فى قصة موسى: ﴿**وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ**﴾ (الأعراف ١٤٢)؛ **وقيل**: هى **العشر الأواخر من رمضان**، أو **العشر الأولى من المحرم التى عاشرها عاشوراء**؛ والصحيح أنها ربما كل ذلك، وأن الله تعالى يقسم بها لهذا السبب؛ ﴿**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ③﴾: هما الصلاة، **بعضها شفع وبعضها وتر**؛ وقيل: **الوتر: يوم عرفة لأنه تاسع الأيام العشر؛ ويوم النحر هو الشفع: لأنه عاشرها**؛ وقيل: **الوتر هو الله**، وهو اسمٌ من أسمائه تعالى، بينما الشفع خَلْقُه، كقوله: ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** ⑧﴾ (النبا)، ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾ (الذاريات)، والحياة تقوم على **المتقابلات**، ومنطقها جدلى، فالكفر يقابله الإيمان، والشقاوة تقابلها السعادة، والليل يقابله النهار، والموت تقابله الحياة، والجنة تقابلها النار، والهُدى يقابله الضلال، والنور تقابله الظلمة، والحر يقابله البرد، والشمس يقابلها القمر، والصيف يقابله الشتاء، والسماء تقابلها الأرض، والملائكة يقابلها الشياطين، والإنسان يقابله الحيوان، والعزّ يقابله الذل، والقدرة يقابلها العجز، والقوة يقابلها الضعف، والعلم يقابله الجهل، والبصر يقابله العمى، والسمع يقابله الصمم، والكلام يقابله الخَرَس. ومنهج القرآن يقوم على هذه الجدلية التى تقوم عليها الحياة والوجود، وهكذا الإنسان تجتمع فيه المتناقضات فهو **شفع**، إلا الله فهو **وتر**، لأنه تعالى عزٌّ بلا ذل، وقُدرةٌ بلا عجز، وعلْم بلا جهل، وقوةٌ بلا ضعف، ووحدة بلا كثرة، وفى السورة القَسَم بالشفع والوتر، أى به تعالى وبخَلْقه، من باب القَسَم بأسمائه وصفاته، أو بأسمائه وبأفعاله. وقيل: **الشفع: الجنة** لأن درجاتها ثمان، **والنار**: وتر لأن دركاتها سبع؛ وقيل: **الشفع: الصفا والمروة** يقسم الله تعالى بهما، **والوتر: الكعبة**؛ وقيل: **الشفع: الأيام والليالى، والوتر**: اليوم الذى لا ليلة بعده وهو **يوم القيامة**؛ وقيل: **الشفع**: الحيوان والنبات، **والوتر: الجماد**؛ وقيل: **الشفع فى الحج**: هو التمتع بالعمرة إلى الحج وأن تقرن بينهما، **والوتر**: هو **الإفراد** فى الحج؛ وقيل: أقسام **الحساب** شفع ووتر.

ومن المصطلحات قوله: ﴿**لِذِي حِجْرٍ**﴾، والحجر هو العقل واللب، ويقال لمن مَلَك نفسه ومنعها: إنه لذو حِجْر؛ و﴿**عاد إرم**﴾: هى **عاد الأولى** من الأمم البائدة؛ **وثمود** هم

عاد الثانية؛ و﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: قيل إنهم كانوا طوال القامة، ومبانيهم لذلك عالية، وأما **ثمود** فكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً؛ وأما ﴿ذِي الأَوْتَادِ﴾ فهو فرعون، صاحب **الأهرامات** التي تشبه الجبال، والله جعل الجبال أوتاداً، والفراعنة بنوا الأهرامات كالجبال؛ وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ ذهب مثلاً، وصار حكمة مأثورة؛ و«التراث» مصطلح جديد يعني **إرث اليتامى**، وأصله **الوراث** من وَرِث يرث، فأبدلت الواو تاء؛ وقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ ذهب مثلاً وحكمة مأثورة؛ وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ليس كما يجيء الإنسان، فالله ليس كمثله شيء، ومجيؤه يعني أن الخَلْق صارت لهم الحاسة بحضوره، ومن ثم ظهرت آياته وقدراته تعالى وامتلأ الموقف، فاستشعره الوقوف، وكأنه جاء الآن فقط، والله تعالى لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنّى له التحوّل والانتقال ولا مكان ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ **والنفس المطمئنة** من مصطلحات **علم النفس الإسلامي**، وهي النفس المؤمنة الموقنة التي لا يخامرها شك، ولا تعصف بها ريبة، وهي النفس الراضية بقضاء الله، قد اطمأنت بالإيمان. ومن العلاجات في الطب النفسي **العلاج بالإيمان**، بإعادة تربية المريض فتصير له ثوابت اعتقادية تصادم دوافع الشك وتزيلها عنه، فيزول عنه بالتبعية الشك والتردد. وقيل: إن الآيات ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩)﴾ نزلت في **حمزة بن عبدالمطلب** لما استشهد، وقيل: نزلت في **أبي بكر**، والصحيح أنها نزلت عامة في كل مؤمن يستشرف الموت، ولذلك أمرنا رسول الله ﷺ أن ندعو فنقول: «**اللهم إني أسألك نفسًا بك مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك**».

والحمد لله على نعمة الإسلام، ونعمة القرآن، وله المنّة، وبه التوفيق والعصمة.

●●●

٦٧٢. ﴿سورة البلد﴾

السورة **مكية**، وكان نزولها بعد «**سورة ق**»، وآياتها **عشرون** آية، وترتيبها في المصحف **التسعون**، وفي التنزيل **الخامسة والثلاثون**، والغرض منها: بيان فساد موقف المنكرين، وإقامة الدليل على خبث عقيدتهم، والتنبيه إلى ما عليه الإنسان عموماً من زيغ وضلال، وكان الأحرى به أن يؤمن، فقد أمدّه الله تعالى بكل النِّعَم، وأسبغ عليه من كل الفضائل، فما حَمَد ولا شكَر، ولا سَلَك مسلك أهل الإيمان لا انصرف عن عبادة الشيطان، ولا تصدّق وأنفق في الخير، ولو آمن وتعاهد على الصبر على مطلوبات الإيمان، وعلى طاعة الرحمن، لكان من «**أصحاب الميمنة**» وهم أهل الجنة، ولو ثبت على الكُفر والعصيان لعُدّ

من «**أصحاب المشئمة**» وهم أهل النار. وقيل: السورة نزلت في **أبي الأشد بن كلدة**، وكان جبّاراً في الأرض عصياً، ينفق المال بسخاء في محاربة الرسول ﷺ ومناواة الدعوة.

وتحفل السورة بالمصطلحات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ**﴾: لا يريد به نفي القسم، ولكنه كقولنا: «**لا والله لا فعلت كذا**»، و«**لا والله ما كان كذا**»، و«**لا والله لأفعلن كذا**»، وهو أسلوب متبعٌ في القرآن ويتكرر ثماني مرات، كقوله: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ①﴾ (القيامة)، ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ②﴾ (القيامة)؛ **والبلد**: هي **مكة**، وهي البلد الحرام، أم القرى، شرفت **بالكعبة** بيت الله، فكانت مقصد الحجيج من الشرق والغرب، وبها وُلد النبيّ ﷺ وبُعث، وفيها بزغت شمس الإسلام، وعلى أرضها نزل القرآن، فحقّ أن يُقسم بها الله تشريفاً وتعظيماً لها على سائر البلاد، كما حقٌّ أن يقسم بمن وُلدوا فيها من الأطهار، ومنهم النبيّ ﷺ، وكان للمؤمنين والداً، وفي الحديث: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم**» أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة، ومن ثم أقسم الله تعالى بالنبيّ ﷺ، وبأمته، بعد أن أقسم ببلده، مبالغة في تشريفه عليه السلام؛ وقوله: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ④﴾ أي في شدّة وعناء ونصب، فكابد الدنيا والشهوات والأهواء وتحصيل لقمة العيش، نقول: **تكبّد** اللبن إذا غلُظ وخثر واشتد، ومنه **الكبد** لأنه دمٌ متغلّظ؛ والآية القرآنية ذهبت مثلاً وصارت من مأثر الأقوال، والله لم يخلق خلقاً **يكابد** ما **يكابد** ابن آدم، فقد خصّه بالوعي، وعلّمه التاريخ وأن يكون له مستقبل **يكابد** لتحقيقه؛ وكذلك ذهب مثلاً قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ⑤﴾ يقال كلما زاد طغيان الطاغية؛ **والنجدان**: هما طريق الخير والشر، هدانا الله إليهما هداية دلالة؛ وقوله: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ** ⑪﴾: يضرب به المثل لمن لا يصرف جهده إلى اقتحام الصعاب وطلب المعالي؛ **والاقتحام**: هو رمي النفس بلا روية، **والعقبة**: المرقى الصعب، وإنه لمرقى صعب أن يؤمن من يؤمن، وأن يفعل الخير، ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ** ⑫﴾؟ تضخيماً في صعوبتها. ومن العقبة: أن نفك حصر العاني، وأن نساعد المحتاج ـ في زمن قلّ فيه العمل، وزادت البطالة، وندر المال حتى لكأن الناس في مجاعة ـ وأن نعيل المساكين الذين لا مكان لهم إلا الشوارع، وبالاختصار فإن **أعمال البرّ** هي المرقى الصعب، وهي العقبة الكئود، لفطرة الإنسان على الشُّح والبُخل، **وأصحاب الميمنة**: هم الذين يؤتون كتُبهم بيمينهم يوم الحساب، وهم أصحاب الجنة؛ **وأصحاب المشأمة** هم الذين لا يقدرون على حمل كتبهم إلا بشمائلهم، وهم أصحاب النار المشائيم على أنفسهم. نسأل الله أن نكون من أصحاب الميمنة ولانكون من أصحاب المشأمة، والحمد لله على نعمة الإسلام ونعمة القرآن.



٦٧٣. ﴿سورة الشمس﴾

السورة **مكية**، وكان نزولها بعد **القَدْر**، وآياتها **خمس عشرة**، وترتيبها في المصحف **الواحدة والتسعون**، وفى التنزيل **السادسة والعشرون**، واسمها «**الشمس**» من قوله تعالى استفتاحاً للسورة: **﴿والشَّمسِ وضُحاها (١) والقمرِ إذا تلاها (٢) والنَّهارِ إذا جلاَّها (٣) واللَّيلِ إذا يغْشاها (٤) والسَّماءِ ومَا بنَاها (٥) والأرْضِ ومَا طَحاها (٦) ونَفْسٍ ومَا سوَّاها (٧) فألْهمَها فُجُورَها وتَقْوَاها (٨)﴾**، يقسم بها، من باب تعديد آياته تعالى الكونية، إثباتاً لوجوده تعالى كخالق لهذا الكون المُعجز، وتأكيداً لوحدانيته، فالذى قدر أن يخلق كل هذه الآيات العظيمة، فهو أيضاً يقدر أن يخلق هذه **النفس الإنسانية** العجيبة، والإعجاز فى خلقها كالإعجاز في خلق الشمس والقمر، والضحى والنهار والليل، والسماء والأرض، ويخبر أن النفس بفطرتها سوية، وأنه ألهمها **الفجور والتقوى**، فلها أن **تختار** بينهما فى حرية، ولها **إرادة الاختيار**، **وقوة المفاضلة**، فمن يزكّي نفسه ويُطهرها بالتقوى والأخلاق والحق، فقد فاز وأفلح، ومن يدسّ نفسه ويحقّرها بالكفر والعصيان، واتّباع الباطل، والأخذ بالرذائل، فقد خاب ونقص من عداد العقلاء الأذكياء، وانضاف إلى الجهلة الأغبياء. والسورة إذن تنقسم ثلاثة أقسام، فالقسم **الأول**: عن الآيات الكونية، ومجاله علوم الفلك والفيزياء والجيولوجيا والفضاء الخارجي، ويؤسّس **لعلم إسلامى** يشمل هذه البحوث من منطلق إيماني، فمن العلماء من يتعلم للعلْم، ولكى يقال إنه عالم وأنه سبق غيره، ولكن أهل الفلسفة دائماً يتساءلون بعد أن يحوزوا العلم، ويتبحروا فيه: **فماذا بعد؟ So What?** فالعالِم يبلغُ بالعلم أرقى المدارج في سُلّم الخَلْق - إلا سُلّمة واحدة تتبقى له، وهى أن يعرف ربّه بعد أن عرف أسبابه في الكون، وإلا **فعلْمه عقيم**. **ومدارج الرقى** أعلاها مدرج **الإنسان العارف بالله Homo religiosus**. **والسورة** تنبّه أهل العلم ليقفزوا القفزة الأخيرة، **ويطفروا** بأنفسهم إلى خاتمة كل معرفة: وهى **المعرفة بالله**. وعلوم الكون من فيزياء وفلك وجيولوجيا وفضاء... إلخ علوم مادية (فيزيائية)، وأعلى العلوم هو **العلم بالنفس**، ولذا يأتى فى السورة كعلم متمم وخاتم، والقرآن كما يؤسس **لعلم الظاهر** أو **العلوم الفيزيائية**، من جهة نظر **إيمانية**، فإنه يؤسس **لعلم نفس إيماني** وهذا هو موضوع القسم **الثانى** من السورة. فأما القسم **الثالث**: فهو يضرب المثَلَ بناقة **صالح** من قوم **ثمود**، فكأن القسمين الأوّلين تذكيرٌ **للخاصة من أهل العلم**، وكأن القسم الثالث لإفهام **العامة** بطريقة الأمثال. وقصة **الناقة** بالنسبة للعامة من **القصص الرمزي**، وأما **الخاصة** - وهم أهل التقوى - فإنهم يأوّلونها، فالناقة هى **النفس**، والتعليم الإلهى بإزائها أن لا يُفسد الإنسان فطرتها، وأن

يكون عيشها فى الحياة بحسب ما خلقها الله، **فالصانع أعرف بما صنع**، وبما يُصلحه؛ **وعَقْرُ النفس**: هو ذبحها بالعصيان والكفر، واتباع الهوى، والميل عن الحق، والأخذ بالطغيان، والإنسان «حُرّ» إزاء الخير والشر، والحق الباطل، والإيمان والكفر، وله أن «**يختار**» أيهما، فحينئذ يكون قد «**اختار في حرية**»، ويصير «**مسئولاً عن اختياره**»، فإذا جوزى بالعقاب، فهو عن جدارة، وعقاب الله هو العقاب، والله يسأل عباده ولا يُسأل، ويُنزل العقاب بالمسيء ولا يُنزَل به عقاب سبحانه، لأنه تعالى الحق: **فلماً كان الله كانت القيم**. **وفائدة السورة**: أن من يطهّر نفسه عن الذنوب والعيوب، والأعواض والأغراض، ويبعدها عن الاعتراض، فإنه يتطهّر ويرقَى ويفوز، وهو «**الإنسان**» حقاً وصدقاً؛ ومن يخون قانون صنعة نفسه، ويدنّس طبيعتها، ويهمل المعانى ويزدرى القيم، وتستغرقه المظالم إلى حدّ أن يغرق سفينة نفسه في بحر الشقاء، **فهو الخائب**.

ومن مصطلحات السورة: ﴿**ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا** ⑪﴾ ذهبت مثلاً، كأن نقول: «**أمريكا بطغواها**» أو «**إسرائيل بطغواها**»؛ وفي قوله: ﴿**إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا** ⑫﴾ وروى أن الرسول ﷺ سأل: «**أتدرون من أشقى الأولين؟**» وأجاب «**عاقر الناقة**». قيل: كان اسمه **قدار بن سالف**، فصار مثلاً عند أهل **علم النفس الإسلامى**، لأنه عقر نفسه التى هى ناقة الله، وقلّده قومه **فعقروا نفوسهم** مثله لمّا وافقوه على رأيه وفعله. وفى **الأدب السياسى الإسلامى** يُضرب **بعاقر الناقة** المثل للطاغية، وقوله تعالى: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ⑧﴾ وإلهام النفس هو تعليمها التمييز بين الخير والشرّ، وإرشادها. والآية جواب على **الجبرية والقدرية** الذين يقولون بأن الإنسان لا يفعل إلا ما قدّره الله له وقضى به، وأنه مجبور عليه. وكان النبىّ ﷺ يرجع إلى هذه الآية والسورة كلها فى دعائه: «**اللهم آت نفسى تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها**». وفى الرواية عن **عائشة** أنها افتقدت النبىّ ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها فى الظلام، فوقعت عليه وهو ساجد يدعو: «**ربِّ أعطِ نفسى تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها**» أخرجه أحمد.

وفى سورة «**الشمس**» تكثر **المتقابلات**، ومنهج القرآن هو منهج يقوم على الجدل بالمتقابلات، والسورة نموذج لهذا **المنهج الجدلى**، أو **منهج المتقابلات**، كقوله: **الشمس** كمقابل **للقمر**، **والفجور** كمقابل **للتقوى**، وقوله: ﴿ **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** ③﴾ ، كمقابل لقوله: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ④﴾ وقوله: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ⑨ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ⑩﴾، والله أعلم، وله الحمد والمِنّة.



٦٧٤.﴿سورة الليل﴾

السورة مكية، ولذلك تُعتنى بإثبات وجود الله، وبيان صفاته، كشأن السور المكية؛ وآياتها **إحدى وعشرون آية**، فتُعدّ من **قصار السور**، وترتيبها فى المصحف **الثانية والتسعون**، وفى التنزيل التاسعة، وكان نزولها بعد سورة **الأعلى**، وموضوعها: بيان حال الإنسان فى الإيمان والكفر، ومآله فى الحالين. ويبدأ **الجزء الأول** بالقَسَم ببعض الآيات الكونية، بما يفيد قدرته تعالى، والقُدرة صفة فعلية من صفاته، وتشير إلى ذاته، وليس أوضح من آيتى **الليل والنهار**: كآيتين للزمان، وآيتى **الذَكَر والأنثى**: كأصل لكل حياة، ولتباين الأنواع والأجناس وليس ألزم للحياة من الليل والنهار، فالليل لباس، والنهار معاش، وليس ألزم للحياة من أن تكون الكائنات والمخلوقات بها ذكوراً وإناثاً للتكاثر وصُنع الأجيال، ومع أنه لا يتشابه ليل مع نهار ولا نهار مع ليل، ولا يتماثل ذكر مع أنثى، ولا أنثى مع ذكر، فقد جُعل بين هذين **التوالى**، وبين هذين **الوفاق**، فليس عجيباً أن يكون القَسَم بهما قسماً عظيماً، وجواب القَسَم هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ ينبّه إلى حقيقة من حقائق الحياة. وبهذا الجواب يبدأ **الجزء الثانى** من السورة، ويؤكد أن المساعى فى الحياة متباينة، والأعمال شتى، وكذلك اعتبارات كل إنسان تتباين وتتفارق عنها عند غيره من الناس، وقد يكون أحد الناس مؤمناً بينما يكون الآخر كافراً، وقد يكون عاصياً، والآخر مطيعاً، وقد يكون هذا جزاؤه الجنة، والآخر عقابه النار. وفى هذا الجزء يتضح **المنهج الجدلى** فى القرآن الذى قوامه المتقابلات، فمن يعطى وينفق ويتقى ويصدّق بالحسنى تتيسر له اليسرى، يقابله من يبخل ويستغنى ويكذّب بالحسنى فتتيسر له العسرى، والله تعالى يهدى ويرشد ويخبر عن الطريقين: **اليسرى والعسرى**، ويوضح الحالتين، حتى إذا حاسب كان حسابه العسير، ومن يتردّى فى النار فما يغنيه عنه ماله الذى كان يبخل به، وهو تعالى مالك الدنيا والآخرة، وإن يشأ يعذّب من يستحق فى الدنيا أو فى الآخرة. ثم يكون **القسم الثالث** من السورة: وفيه النذارة **للأشقى**: وهو الذى كذّب بالرسُل وبالبعث والحساب، وأعرض عن الإيمان، فذلك له النار تلظّى، وسيتجنّبها **الأتقى**: وهو الذى يؤتى ماله يتزكّى، ليس لأن الغير لهم عنده أياد، وإنما **لوجه الله**، ولسوف يعطيه الله فى الآخرة إلى أن يرضى، ووعْدُه كريم لأنه ربّ رحيم. وفى الحديث: «**لايدخل النار إلا شقىّ**»، قيل: ومن الشقى؟ فأجاب رسول الله ﷺ: «**الذى لايعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية**»، وقال: «**كل أُمتى تدخل الجنّة يوم القيامة إلا مَن أَبَى**» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أَبَى**». وقيل فى السورة: إنها نزلت فى أبى

بكر حينما رأى بلالاً يُعذَّب فاشتراه ليعتقه، فقال المشركون: إنما اشتراه ليد كانت له عنده، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)** ﴾.

ومن المصطلحات فى السورة: «الحسنى» فى قوله تعالى: ﴿**وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)**﴾، وقوله: ﴿**وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩)**﴾ وهى الخَلَف من الله على عطائه؛ وقيل: هى قول «لا إله إلا الله»؛ وقيل: هى الجنة، ودليل ذلك قوله: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ (يونس ٢٦)، والحسنى هى الجنّة، و«اليسرى»، كقوله: ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧)** ﴾ قيل هى الجنة، وقيل: هى أسباب الخير والصلاح. ولمّا سألوه ﷺ: يارسول الله، أفلا نتكّل، فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؟ قال: «**بل اعملوا، فكلٌ مُيسّر، أمّا مَنْ كان من أهل السعادة فإنه يُيسّر لعمل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنه يُيسّر لعمل الشقاء**»، ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)**﴾؛ «والعسرى» نقيض اليسرى، فإذا كانت **اليسرى** هى الخير، فإن **العسرى** هى الشّر، وإن كانت **اليسرى** هى الجنة، **فالعسرى** هى النار. وسُئل الرسول ﷺ عن العمل الذى يتيسر، هل هو العمل الذى جفّت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فى شىء يُستأنف؟ فقال: «**بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير**»، قيل: ففيم العمل إذن؟ قال: «**اعملوا فكل مُيسّر للعمل الذى خُلق له**»، قيل: فالآن نجدّ ونعمل. والسورة إذن تحضّ على العمل والعطاء: بأن يعمل الميسور ويعطى ويبذل للمعسر، وأن يعمل الصادق ويُعطى الصدق من قلبه، وفى الحديث أن دعوة الملائكة: «**اللهم أعط منفقًا خَلَفاً، وأعط ممسكاً تلفاً**». وفى قوله: ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)** ﴾ قد يسأل السائل: **هل فى العسرى تيسير؟** والجواب: أن ذلك كما فى قوله: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)**﴾ (آل عمران)، فالأصل فى التيسير وفى البشارة أنها للمُفرح والسّار، فإذا جاء التيسير فى الكلام لحالين متقارنين أحدهما خير والآخر شر، فمعنى ذلك أن التيسير لكليهما، وكلاهما ميسّرٌ لمن يطلبه، ولكلٌ أن **يختار** ما يشاء، **وهو مسئول عن اختياره**، نسأل الله الهداية وحُسن المآل، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٧٥.﴿سورة الضحى﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة «**الفجر**»، وآياتها إحدى عشرة آية، وترتيبها فى المصحف **الثالثة والتسعون**، وفى التنزيل **الحادية عشرة**، قيل: احتُبس الوحّى عن النبى

ﷺ مدةً طالت قليلاً، فقال المشركون : إن محمداً ودّعه ربّه وقلاه ! ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء ! فنزلت هذه السورة تقول: ﴿**وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)**﴾ وتتناول النبّي ﷺ وشخصيته، وما آثره الله به، وما أنعم عليه من الفضل فى الدنيا والآخرة. والسورة أجزاء تترى وتتكامل، ففى **الجزء الأول**: يقسم الله تعالى على جلال قدر نبيّه **بالضحى، وبالليل إذا سجى**، وكلاهما من **الزمان**، وهما آيتان من آياته العجيبة والعظيمة، فربما أن المعنى: أنه تعالى على مرّ الأيام وكَرّ الليالى لن يودّع محمداً، ولن يقليه أى يبغضه، وربما المعنى: أنه مثلما الليل الساجى، والضحى يكون أول النهار وفيه الهدأة والسكون، فكذلك محبة الله لنبيّه هى المحبة المستقرة. ويقال «سجا الليل» يسجو إذا سكن ودام، وربما المعنى من قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)**﴾، هو التنبيه إلى حال من يؤمن بالله، فإنه تعالى يضمه إليه، ويهديه، ويغنيه، ويحوطه، وينصره،ويرفع من قدره ويوقّره، ويكفّ عنه أذى الناس، فهكذا فعل مع نبيّنا ﷺ مما نعلمه من تاريخه وسيرته، فآواه أهله وانتصروا له، ثم استقبله الأنصار **مهاجراً** فآووه ونصروه، وكان حاله فى **الدين** حال الضال الحائر فهداه وأنعم عليه بالإسلام، وحاله فى **المال** حال المعوز الفقير المحتاج، فأغناه عمّن سواه، وجمع له بين **مقامى الفقير الصابر، والغنى الشاكر**. واليتيم الذى كانه رسول الله ﷺ هو الوحيد المفرد بسبب يُتمه، والعرب يصفون كل شيء يعزّ النظير له بأنه يتيم، كقولهم: درةٌ يتيمة، إذا لم يكن لها مِثل، ويكون مجاز الآيةِ أنه تعالى وجده فريداً فى الشرف والخُلق، لا نظير له ولا مثيل، فآواه بأصحاب يحفظونه ويحوطونه. وأما قوله : ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧)**﴾ فهو أيضاً من باب قوله : ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ... (٥٢)**﴾ (الشورى)، **فالضلال** بالمعنى المعروف ما كان للنبىّ ﷺ فى يوم من الأيام، فما سَجَد لصنم، ولا أشرك بالله، وكان على **حنيفية إبراهيم**، وإنما الضلال أنه كان قبل البعثة يسأل متحيراً، ويطلب المعرفة، وأنه بالبعثة وبالقرآن عرف وتعلّم وصار يُعلِّم. وفى قوله: ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)**﴾، فبالمعنى **الحسّى**: ان **خديجة** أغنته؛ وبالمعنى **المعنوى**: أنه تعالى وجده فقير النفس فأغنى قلبه، وفقيراً من الحُجَج فأغناه بها، ولم يكن عنده كتاب يرجع إليه، فزوّده بكتاب، وكذلك كان **الجزء الثالث** من السورة : وصيةً من ثلاثة بنود، مقابل **النِّعَم الثلاث** التى أُنعم بها عليه : ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)**﴾، فكانت

بها خاتمة السورة، وختامها مسك. وفيها خُصّ اليتيم **بأول وصية**، لأنه إنسان لا ناصر له إلا الله، فغلّظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه. وليس فى أى كتاب سماوى بخلاف القرآن مثل هذه الرعاية التى لليتيم، ولا تكلم نبيٌّ سوى نبيّنا بمثل ما تكلّم به فى اليتيم، وانظر إلى النهى القرآنى عن **قهر اليتيم**، واختياره لكلمة «**قهر**» يعنى الشدّ عليه والتغليظ له وزجره، فلا يجد من يشكو إليه ويحنو عليه، فيُغلب على أمره، وينكسر قلبه، وتعاف الحياة نفسه. وفى الحديث يعالج الرسول ﷺ قسوة القلب عند الناس فيقول ناصحاً : «**إن أردت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**»، ولأنه كان يتيماً قال : «**أنا وكافل اليتيم،كهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطى، **والكافل**: هو القائم بالأمر من نفقة وكسوة وتربية وتأديب. وكان ﷺ أدرى الناس بحال اليتيم - ولا يحدّثك مثل خبير، فقال : «**إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله لملائكته : يا ملائكتى، من ذا الذى أبكى هذا اليتيم الذى غيّبتُ أباه فى التراب ؟ فتقول الملائكة : ربَّنا أنت أعلم. فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتى ! اشهدوا أن مَن أسكته وأرضاه، أن أرضيه يوم القيامة**». وثانيةُ الوصايا : **النهى عن نهر السائل**، وفى الحديث : «**لا يمنعن أحدكم السائل**»، والحديث : «**ردّوا السائل ببذل يسير أو ردّ جميل**»، أو أن المراد بالسائل : الذى ينشد المعرفة والعلم، والردّ عليه فرضٌ على العالِم، كإعطاء سائل البرّ سواء. **وثالثةُ الوصايا** : النشر عن أنعُم الله، والتحدُّث بها بالشكر والثناء. وفى الحديث : «**من أُعطى خيراً فلم يُرَ عليه، سُمى بغيض الله، معادياً لنِعَم الله**». وقال : «**مَن لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدُّث بالنعم شكر، وتركُه كُفر، والجماعة رحمة، والفُرقة عذاب**». والخطاب فى السورة حول الوصايا الثلاث للنبى ﷺ ، ولكن الحُكم عام له وللمسلمين.

وقد يقال فى اهتمام الرسول ﷺ **باليتيم** كما يقول **التحليل الطبى النفسى** : أن دافعه إليه كان يُتمه هو نفسه، فقد نشأ يتيماً خالص اليُتم، سواء من الأب أو من الأم، فالأب مات وهو بعد فى بطن أمه، والأم ماتت وهو فى نحو **السادسة**، وكفله جدّه، وكان من الممكن أن يعوّضه عن أبويه، فالجدود بهم حنان وعطف على أحفادهم خاصة، ولكنه مات كذلك والرسول ﷺ **فى الثامنة**، فصار إلى عمّه **أبى طالب** يكفله، وكان بيته يعجّ بالنساء والأولاد، والكل مشغول بنفسه، والنبى ﷺ يعيش فى وحدة، ويفتقد أن يحادثه أحدهم،أو يقول له كلمة حب، أو يرعاه بكساء أو طعام، حتى تعقّدت نفسه من اليُتم، وتحصّلت له منه «**عقدة نفسية**»، دار حولها سلوكه، وكان يتصرّف بدافعها. غير أن العُقَد النفسية تجعل من أصحابها شخصيات جامدة، وتصنع منهم مرضى نفسانيين، وما

كانت أقواله ﷺ ولا أفعاله تتسم بشيء من الشذوذ، والعُقد مجال بحث علم نفس **الشواذ**، وفي حالة النبيّ ﷺ فإن مجال البحث في شخصيته هو **علم النفس التكاملي**، وهو فرع الطب النفسي المعنيّ بدراسة العظماء والأولياء والأنبياء، وجميعهم من الشخصيات السوية، بل إن استواءها ليزيد عن استواء الحدّ العادي، حتى وُصف بأنه استواء يتجاوز الطبيعي **super normal**، ونقيضه الشاذ **abnormal**، أو شبه الشاذ **subnormal**. وهذه التفرقة هي التي لم يدركها المستشرقون، وما علموا بها، فاتسمت كتاباتهم في «**العقدة النفسية**» عند الرسول ﷺ بالسطحية، والجهل الشديد، والتعنّت والتحريف البغيض، ولعل هذه السورة خير الردود عليهم، وإني لأعتبرها مثَلاً حيّاً في نوع الكتابة عن **الشخصية المتكاملة integrated personality**. وتكامُل شخصية الرسول ﷺ هو الذي جعله يتحدث عن نِعَم الله عليه ويشكرها، وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتمّها علينا**». وما علمنا في تاريخ الطب النفسي عن إنسان مُعقّد شاذ يشكر على النعمة ويدعو للشكر عليها. ومن هذه السورة المباركة تعلّم المسلمون: أن من شُكر النِّعَم أن يحدّثوا بها؛ ولما نزلت **سورة الضحى** وفيها: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ⑪﴾ كبّر الرسول ﷺ ربّه فرحاً وسروراً، ومن ثَمّ يُستحَب عند قراءة السورة التكبير في آخرها، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٧٦. ﴿سورة الانشراح﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة «**الضحى**»، وآياتها **ثمان**، وترتيبها في المصحف **الرابعة والتسعون**، وفي التنزيل **الثانية عشرة**، وهي سورة «**الانشراح**» وسورة «**الشَّرْح**» أيضاً، من استهلالها بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ①﴾، وهو تقرير وإن كان في شكل استفهام. و«لم» في الآية جَحْد، وفي الاستفهام طرف من الجَحْد، وإذا وقع الجَحْد، رجع إلى التحقيق، كقوله تعالى ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ⑧﴾ (التين)، يعني أنه تعالى أحكم الحاكمين، وكذا قوله: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ㊱﴾ (الزمر)، يعني أنه تعالى يكفي عبده.

وتُعدّد السورة نِعَمه تعالى على النبيّ ﷺ، وتذكر منها **ثلاث نعَم كبرى**، **الأولى**: أنه تعالى شَرَح صدره **للإيمان**، أو **للإسلام**، كقوله: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ㉒﴾(الزمر)، أو شَرَحه **للعلم والحكمة والعرفان**؛ **والثانية**: أنه وضع عنه وِزْره الذي أنقضَ ظَهْره، وحطّ عنه ذنوبه، ورفع عن كاهله عبء معاناتها، وأسقط عنه

الخطأ والنسيان؛ والثالثة : أنه رفع له ذكْره، فلا يُذكَر اسمه تعالى إلا وذُكر معه اسم الرسول ﷺ، سواءً في التشهُّد، أو الأذان، أو الإقامة، أو يوم الجمعة على المنابر، أو أيام الفطر، والأضحى، والتشريق، وعرفة، وعند رمي الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفى خطبة النكاح، وعند النسيان، وعند الغضب، إلخ ، كقوله الشاعر:

وضمّ الإله اسم النبىّ إلى اسمه ∴ إذا قال فى الخَمْس المؤذن أشهدُ

وشقّ له من اسمه ليُجلّه ∴ فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وهذه النعم الثلاث قدّمتْ للسورة، تسليةً وتأنيساً للنبّى ﷺ، لتطيب بها نفسه، ويقوى رجاؤه، وليؤكد له أنه وقد أكرمه كل هذا الكرم، لايمكن أن يتخلّى عنه، وسيُظهره على أعدائه، وسينصر دينه، ويبدّل العسر الذى هو فيه، بيُسر قريب، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾، وقيل :العُسْر الأول هو نفسه الثانى، وأما اليسر فتعدّد، والعُسر الواحد لا يغلب يُسرين، وهذا المعنى مدخول، لأنه يجيء على منوال ذلك إذا قال أحدهم: «الجندى معه سلاح، الجندى معه سلاح»، فقد يُظن أن هناك جندياً واحداً وسلاحين ! وإنما معنى التكرار للآية، أن العسر الأول: متعلقه بالدنيا، وله يُسْرُه الذى يرفعه، والعسر الثانى: عسر الآخرة، وله أيضاً يُسْرُه الذى يغلبه. ويسر الدنيا قد يكون لغير المؤمن وقد يكون للمؤمن، وأما يسر الآخرة فهو للمؤمن فقط؛ ومع أن الخطاب فى السورة للنبىّ ﷺ. إلا أن معناه يصبح قضية عامة تخصّ جميع المؤمنين فى أى مكان وزمان. وصارت الآية القرآنية مما يضرب به المثل فى الملمّات والشدائد انتظاراً للفرج من الله. فاستحق أن يأتى ختام السورة بوصيّة أخرى للمؤمن أيضاً، كما هى للنبّى ﷺ، تقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾، يعنى أن نعطى الدنيا الاهتمام الواجبْ لها، ولكننا إذا فرغنا منها، فلنتفرغ لأعمال الآخرة من الصلاة والعبادة ... إلخ، وبعد أن يفرغ من أمور الخلق، فلنتفرّغ لفروض الخالق. ورحم الله من قال:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا ∴ من راقب الله فى الأمور نجا

مَن صدّق الله لم ينله أذى ∴ ومَن رجاه يكون حيث رجا

●●●

٦٧٧. ﴿سورة التين﴾

السورة مكية، نزلت بعد سورة «البروج»، وآياتها ثمان، وترتيبها فى المصحف الخامسة والتسعون، وفى التنزيل الثامنة والعشرون، وقوامها أربعة أقسام، والأول عبارة عن قَسَم،

يقـول تعـالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣)﴾ ، **والتـين والزيتـون** شجرتان مباركتان، ففضلاً عن أن التـين فاكهة من فواكة الجنة، فإن آدم وحواء خصفا عورتيهما بأوراقه (الأعراف ٢٢)، وأما الزيتون فقد قال تعالى فيه: ﴿**شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ (٣٥)**﴾ (النور)، وقال: ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠)**﴾ (المؤمنون)، **ودهن الزيتون** زيته، وهو من أحلى الزيوت وأنفعها، ويصطبغ به الأكل، وفي الحـديث: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجـرة مباركة**»، ومن دهنه عـلاج للأمراض، كأوجاع الظهر، والركبتين، واليـدين، ووجع الرقبة والجروح والقروح، والبرد في الصدر. وخصّ طور سـينين - أي **سـيناء** - بالتين والزيتون لأنهما أول مـا نبتا كانا في طور سيناء. وقيل ربما **الزيتون** إشارة إلى مدينة **بيت المقدس** التي بعث الله تعالى **فيها عيسى**، **والتين** إشارة إلى **طور سيناء** أو سينين، وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، وأما و«**البلد الأمين**» **فهو مكة**، ومن دخله كان آمناً، وفي مكة أُرسل ﷺ وهبط عليه الوحي بالقرآن، وفيها بنى **إبراهيم وإسمـاعيل** الكعبة، فهذه ثلاثة أماكن مقدسة، رتبت بحسب معانيها الرسالية ومكانة أنبيـائها الوجـودية، فـأقسم بـالأشرف، ثم الأشـرف منه (وهو الزيتـون أو بيت المقدس)، ثم بالأشرف منهما (وهو مكة)، وفي ذلك المعنى من أقوال أسفار اليهود: **جاء الله من طور سـيناء** (حيث كلـم موسى)، **وأشرق مـن ساعـير** (يعني جبـل بيت المقدس)، **واستـعلن من جبـال فاران** (ويأولها المسلمون بأنها جبـال مكة حيث أرسل محمد ﷺ).

والقسم الثاني من السورة به جواب القسم، يقول: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)**﴾، يخبر بأن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، فهو الجميل الهيئة، البديع التركيب، ولا شيء من المخلوقـات أجمل منه ولا أحسن، والله خلـقه عالماً، قـادراً، مريداً، مـتكلماً، سمـيعاً، بصيـراً، مدّبراً، حكيمـاً، وهذه من صفات الربّ سـبحانه، وعنها جـاء القول المشهور: «**إن الله خلق آدم على صورته**»، **يعني على صفاته تعالى، فإن قيل على** هيئته وشكله وسمته، فـإنا نقول: ومن أين تكون لله صورة متشخّـصة؟ فلا يتبق إلا أن تكون «عـلى صـــورته» يعني أنه على صفـاته. ثم إن الله يردّ الإنسان إلى أرذل العـمر، أو أنه بحكم وجوده في الدنيـا تثقله الخطايا، ويتدنس ويـتنجّس - وهو معنىَ «أسـفل سـافلين»، أو أن معناها أنه يُرَدّ إلى الضلال كما في قوله: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)**﴾(العـصر)، أي إلا هؤلاء فـلا يُرَدُّون إلى أسفل سافلين. وفي **الجزء الثـالث** والأخير من السورة، يتوجّه الخطاب إلى النبيّ ﷺ،

يتساءل : فمَن بعد ذلك يمكن أن يكذّبك بالدين يا محمد، أو يا أيها الإنسان ؟ يواسى النبي ﷺ والمؤمنين عبر الأزمان ويسليهم، يقول : استيقن مع ما جاءك من الله، أنه تعالى أحكم الحاكمين، قضاءً بالحق، وعدلاً بين الخلق. ومع أن «ليس» للنفى، إلا أنها مع ألف الاستفهام : «أليسَ»، يصبح المعنى بالإيجاب، يعنى هو أحكم الحاكمين فعلاً. وقيل: إن « **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**» مجرد نفى لأن يستطيع أحد تكذيبه فى القول بالبعث والحساب، وقيل: إن هذه الآية نُسخت بآية السيف - هكذا أطلقوا عليها، وهى التى تقول ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ⑤﴾ (التوبة)، غير أن آية التكذيب لها معناها ومجالها، وآية القتال لها أيضاً معناها ومجالها، ولا تنسخ إحداهما الأخرى.

•••

٦٧٨. ﴿سورة العلق﴾

وهى أيضاً سورة «إقرأ»، قيل آياتها الخمس الأولى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤**﴾، وهى أول ما نزل من القرآن فى مكة على النبىّ ﷺ، **وأول أمرٌ إلهى يصدر للنبىّ** ﷺ، بأن يذكر التسمية فى ابتداء كل سورة؛ **وأول علمٌ لدنىّ** يتعلّمه من السماء؛ **وأول إعلان عالمى يصدر إلى بنى البشر يأمر يمحو أُمّيتهم، ويأمر بأن يتعلموا المسلم القراءة والكتابة؛ وأول بلاغ يُدحض كذب المدّعين من اليهود والنصارى بأن الإنسان لايعدو أن يكون حيواناً** كقول أرسطو مثلاً أو دارون. ولقد رفض إبليس أن يطيع أمر الله بأن يسجد لآدم، لبديع صُنعه تعالى فيه، بدعوى أن آدم من تراب، والتراب أخسّ العناصر، فيكون آدم وبنوه أخسّ المخلوقات! والسورة تردّ على إبليس صاحب هذه الدعوى وعلى العلماء من حزبه، وهى **أول بلاغ علمى بأن الإنسان مخلوق من حيوان منوى** (عَلَقة)، وما كان الناس أيام رسول الله ﷺ (القرن السادس الميلادى) يعرفون هذه الحقيقة، وما كانوا يبصرونها أصلاً، وما علموا بها إلا بعد اختراع الميكروسكوب فى القرن التاسع عشر، وهذا الإعلان الذى تضمنته السورة هو **أول إعجاز علمى يطرحه القرآن**، وكأنه يعلن على البشرية أن الكُتب السماوية قبله كانت أساطير بسبب تحريفها ، وأن هذا الكتاب، أى **القرآن**، ابتداءً من هذه السورة، سيكون **كتاباً للعلوم** لسائر العصور، ولكل الأزمان. وهذه **الآيات الخمس الأولى** تؤسّس لعلم الحضارة، وتقيمه على **القراءة والكتابة والعلوم**، وبهذه النعم الثلاث يكون الله تعالى بكرمه وإحسانه، قد أكرم الإنسان كل الكرم، وأخرجه من حالة الخِسّة إل حالة الرفعة، وهو ما حسده عليه إبليس، وهذه الرفعة فى الإنسان هى ما استوجب أن تسجد له

الملائكة، وما كانت تسجد لآدم كآدم، فمن اسمه أنه من الأديم أى التراب، ولكنها سجدت للعلم، كقوله تعالى: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾** (البقرة)، فكأن آدم تعلّم مباشرة عن الله، وهو تعالى العليم الحكيم، فصار هو أيضاً عليماً حكيماً بالتبعية، **فذلك ما سجدت له الملائكة فى آدم**، وهو أول درس يتعلمه محمد ﷺ، وكأنه آدم آخر، وشتّان بينهما، **فآدم الأول** عهد الله إليه: **﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾** (طه)، **وآدم الثانى** ـ نبيّنا محمد ﷺ ـ عهد إليه فأوفى، وكان من **أولى العزم**، وأول الآيات التى تنزلت عليه كانت للعلم، وكانت بمثابة **المقدمة الضرورية**، وتلتها **أربع عشرة** آية (السورة كلها ١٩ آية) نزلت من بعد الخمس، وتُشكّل **أول تعاليم الرسالة المحمدية**، فإن كان الرسول ﷺ سيتعلم العلم عنه تعالى، فإنما ليعلّمه بدوره وليس ليختزنه، **فالعلم المختزن هو العلم العقيم. ورسالة الإسلام**: إذن: هى **التعليم ونشر العلم**، ومن يعلم العلم الحقّ يعبده تعالى ويوّحده عن حقّ. وأول سطر فى الرسالة: أن الإنسان بعد أن خلقه الله وأضفى عليه من النِّعَم وكرّمه، استكبرعلى ربّه وطغى، فقد صار غنياً وذا مال، فأشر وبطر، ونموذجه فى السيرة **أبو جهل**، يقابله **أبو بكر** فقد تعلم ووعى الدرس فآمن وتواضع **لله** وأنفق ماله فى سبيل الله، وشتّان بين النموذجين.

فلما أُمر الرسول ﷺ بالتبليغ قام خطيباً فى عشيرته الأقربين **ومنهم أبو جهل**، فسخر من النبىّ ﷺ وسخفّه، ولما رآه يصلى نهاه، والآية: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)﴾** تعجب من حال **أبى جهل**، ويصفه تعالى بالطغيان، وكان يتباهى ويقول: لئن رأيتُ محمداً يصلى لأطأنّ عنقه ! ـ وكان الأولى بهذا الدعىّ أن ينظر فيما أتى به النبىّ ﷺ، وماذا تعنى صلاتُه؟ وماذا يقول فيها؟ وهل كان يحضّ على التقوى؟ ولكنه أعرض عن أن يفكر، وآثر إلا أن يكذب، ورفض أن يسمع وتولّى، وكل ذلك فى أبى جهل ولكنه أيضاً يسرى على كل من يؤذى المؤمنين ويعطل الدعوة ويقبّح الإسلام، ويسجن الداعين، ويحظر على المسلمين أن يأخذوا بالجانب الإيجابى من دينهم، ويريدهم أن لايروا فى الإسلام إلا الجانب الطقوسى أو العبادى، وأن يسقطوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصح بالتى هى أحسن، والجهاد بالحوار والكلمة الطيبة، إلا إذا أخرج المسلمون من ديارهم وأوذوا فى دينهم فعندئذ فقط يتوجب عليهم أن يقاتلوا فى

سبيل الله. والله ينذر الطاغية إن لم ينته سيأخذه أخذ عزيز مقتدر، ومهما استنفر ناديه وعسكره وأنصاره فمآله الخسران. وتُختَم السورة بالأمر للنبى ﷺ خصوصاً والمسلمين عموماً، فى حالات الاضطهاد، أن لا يطيعوا ما يدعوهم الطاغية إليه، وأن يتوجهوا لربّهم دائماً مصلّين ساجدين، ويتقرّبوا إليه بالدعاء، لعل الله يأتيهم بالفرج والخلاص. والحمد لله دائماً وأبداً.



٦٧٩. ﴿سورة القدر﴾

السورة مكية، وآياتها خمس، وكان نزولها بعد سورة «عَبس»، وترتيبها فى المصحف السابعة والتسعون، وفى التنزيل الخامسة والعشرون، وتتحدث عن نزول القرآن فيها، وكأنما القرآن تنزّل سورة واحدة، ويأتى فى الآية: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** (١٨٥)﴾(البقرة)، أنه تنزّل فى رمضان؛ وفى الآية: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ** (٣)﴾(الدخان): أنه تنزّل فى ليلة واحدة وكانت لذلك ليلة مباركة؛ وفى الآية: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** (١) ﴾(القدر): أن هذه الليلة كانت **ليلة القدر**، وقيل: كان نزول القرآن كالسورة الواحدة أو الجملة الواحدة، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزّله على النبىّ ﷺ **نجوماً نجوماً**، وكان بين أوله وآخره **ثلاث وعشرون** سنة. وفى سورة القدر تتكرر «**ليلة القدر**» **ثلاث مرات** تشريفاً وتعظيماً لها، وسُمّيت «**ليلة القدر**»، لأن الله تعالى يقدّر الأمور فيها إلى مثلها من السنة القابلة؛ أو لأن الطاعات فيها لها قدر كبير وثواب جزيل؛ أو لأن القرآن نزل فيها وهو الكتاب **ذو القدر**، ونزل به ملكٌ **ذو قدر**، على رسولٍ **ذى قدر**، وأُمّة **ذات قدر**؛ أو لأن الله تعالى يقدّر فيها الرحمة على عباده. وقوله فيها: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ** (٢) ﴾ فكل ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ فى القرآن يعنى «هو يدرى به»، وهى استفهام بغرض التفخيم والتعظيم؛ وفى أسباب نزولها، قيل: إن رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح وجاهد فى سبيل الله ألف شهر، يعنى أكثر من **ثلاث وثمانين** سنة! وهو قول يتضّح من أوله أنه من الإسرائيليات، قيل: وعجب النبىّ والمسلمون من القصة، وتمنّى رسول الله ﷺ لأُمته مثل ذلك العمر الطويل، فقال: «**يا ربّ، جعلت أمتى أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً**»، وهذا قول آخر يثبت أن الحكاية ملفقة ومزوّرة على الإسلام! قيل: فأعطاه الله ليلة القدر! يسأل المسلمون الله فيها ما يشاءون! يعنى يكون لهم ما يشاءون بالدعاء وليس بالكسب والتحصيل وصالح الأعمال، وهو معنى ليس حسناً. ومع كلٍّ فإن ليلة القدر على الصحيح من أكثر الليالى بركة لما اختُصت به من الفضل من ثلاثة

أوجه: فهى **أولاً**: خيرٌ من ألف شهر، يعنى هى بكل أعمار الأمم الأخرى، والعمل الصالح فيها بكل الأعمال الصالحة بها فى الف شهر، يعنى أن يكون المسلم فيها فاعلاً نشيطاً إيجابياً، وليس سلبياً يأخذ من غير استحقاق. وقوله ألف شهر لأن العرب تذكر الألف فى غاية الأشياء، كما فى قوله تعالى: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴿٩٦﴾﴾ (البقرة)؛ وهى **ثانياً**: تتنزّل الملائكة والروح فيها بكل الأمور التى يقدرها الله؛ وهى **ثالثاً**: سلامٌ على كل الناس من أول الليل حتى طلوع الفجر. وفى موعدها قيل: هى الليلة السابعة والعشرون أو التاسعة والعشرون، أو أنها فى العشر الأواخر من رمضان، وفى وتر، ربما فى الليلة الثالثة والعشرين، أو الخامسة والعشرين؛ وقيل هى تنتقل فى العشر الأواخر؛ وقيل: لا تنتقلْ. وكان النبى ﷺ يعتكف فى العشر الأواخر؛ وسألته عائشة: إن وافقتُ ليلة القدر، فما أدعو؟ قال: «**قولى: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني**» أخرجه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه.

وليلة القدر من خصائص أمة الإسلام، ولا وجود لمثلها فى اليهودية ولا النصرانية، وما ذُكر شيء يقارنها فى التوراة أو الأسفار أو الأناجيل، ووجودها فى رمضان لا غير وليس فى كل السنة، ورمضان هو الشهر الكريم، وفى العشر الأواخر من أيام وداعه وليس فى كل رمضان، وفيها الاعتكاف، وهو خصيصة أخرى من خصائص أمة الإسلام، وما أكثر خصائص هذه الأمة وما أعظمها!



٦٨٠. ﴿سورة البيّنة﴾

السورة مدنية، نزلت بعد سورة الطلاق، وترتيبها فى السور المدنية الرابعة عشرة، وفى المصحف الثامنة والتسعون، وفى التنزيل عموماً المائة، وآياتها ثمان، وسميت «البيّنة» يعنى الدليل والبرهان، من بان بياناً وتبياناً يعنى اتضح وظهر، والبيان هو المنطق المعبّر؛ وسُمّيت السورة كذلك سورة «لم يكن»، والتسميتان من قوله تعالى فى بدايتها: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴿١﴾﴾، والبيّنة التى اشترطوها ليؤمنوا ويتركوا الكفر هى القرآن، بمعنى أن يكون للنبى ﷺ كتاب مثل كتابهم، فهذا هو دليل نبوته، ولقد جاءهم بالكتاب، صُحفه مطهّرة من الدنس، لا ضلال فيها، وكُتبه أى السور التى اشتمل عليها، والأحكام والمواعظ والقصص والعلوم والبراهين التى تضمّنها، جميعها قيّمة، فما آمنوا، وعَبْر تاريخ أهل الكتاب فإنهم كانوا كلما بُعث إليهم نبيٌّ كذّبوه واختلفوا فيه، وكلما تنزّل عليهم كتاب افترقوا حوله، فلما جاءهم النبىّ ﷺ

مصدّقاً لما معهم أنكروه، وما كان مطلوبه منهم إلا أن يعبدوا الله مخلصين له العبادة، وأن ينصرفوا عن الزيغ والهوى، ويتركوا المذاهب الباطلة، والمِلَل الضالة، وأن يقيموا الصلاة وهي التي يصدق بها إيمانهم، ويؤدّوا الزكاة التى تطهرّهم وأموالهم، وتلك مقتضيات الديانة الحقّة. وتُختم السورة بنذارة وبشارة، فأما النذارة فللكافرين،بأن مآلهم لجهنم، لأنهم بكفرهم صاروا شرّ خلق الله، وأما البشارة فللمؤمنين، رضوا عن الله ورضى عنهم، فمآلهم جنة الخلد، وذلك جزاء كل من يخشى الله ويتّقيه حقّ تقاته.

ومن مصطلحات السورة: «أهل الكتاب»: وهم اليهود والنصارى؛ و«المشركون»: قيل هم كفُّار قريش بمكة، والكفار عموماً فى المدينة؛ وقيل المشركون وصْفٌ لأهل الكتاب، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد، فالنصارى مُثَلّثة، وعامة اليهود مُشَبِّهة، والنصارى يعبدون على الحقيقة المسيح فسُمّوا المسيحيين، لأنهم المؤمنون به، وسُمّوا النصارى لأنهم أتباع عيسى الناصرى، أو لأنهم أنصاره؛ واليهود ألّهوا شعبهم وأعظموا قدْر أعراقهم، وقالوا إنهم شعب الله المختار، وحرّفوا التوراة، ليمجّدوا فيها أنفسهم، فهم عبدة أنفسهم، وكل هؤلاء مشركون؛ والحنيفية : هى ملّة إبراهيم، الذى مال عن الضلال إلى التوحيد، فأطلق عليه قومه اسم الحنيف ، أى الزائغ عن الحق، كما أطلق كفّار مكة على النبّى ﷺ اسم «الصابئ»؛ ودين القيمة : اصطلاحٌ أضاف الدين إلى القيمة من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ وخير البرية وشرّ البرية: فيهما طباق وهو من وجوه البديع، ومن ذلك المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجّار. جعلنا الله من خير البرية وأثابنا جنات الخلد، اللهم آمين.

●●●

٦٨١. ﴿سورة الزلزلة﴾

السورة مدنية، وآياتها ثمان،نزلت بعد سورة «النساء»، وترتيبها فى المصحف التاسعة والتسعون، وفى ترتيب تنزيل السور المدنية هى السابعة، وسميت «الزلزلة»، يعنى ارتجاف الأرض واهتزازها، لاستهلالها بقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾، وزلزال الأرض أكبر ما يكون يوم القيامة، وبه تخرج الأرض ما فى جوفها، والإنسان يعجب مما يحدث ويشاهد ويجرى تحت سمعه وبصره، ويعجب لاضطراب الأرض كل هذا الاضطراب، والرجفة التى تأخذ كل شيء، والناس ينسلون من بطونها، ويسرعون أشتاتاً إلى الحساب، فمن يعمل مثقال ذرة من خير يره مرصوداً، ومن يعمل مثقال ذرة من شرّ يبصره مكتوباً. وموضوع السورة ومشاهدها وأسلوبها، كموضوعات ومشاهد وأسلوب

السور المكية. ولمّا نزلت واستمع لها أبو بكر بكى، فقال له النبّى ﷺ: «**لولا أنكم تخطئون وتذنبون ويغفر الله لكم، لخلق أمة يخطئون ويذنبون ويغفر لهم، إنه هو الغفور الرحيم**».

●●●

٦٨٢. ﴿سورة العاديات﴾

السورة مكية، وآياتها إحدى عشرة، وكان نزولها بعد سورة «**العصر**»، وترتيبها فى المصحف المائة، وفى التنزيل **الرابعة عشرة**، وفيها يقسم الله تعالى بخَيْل المجاهدين يغزون عليها، . **والعاديات** جمع **عادية**، من **عدا يعدو عدواً**، يعنى جرى وركض. وقيل: أقسم الله تعالى بنبيه ﷺ، فقال: ﴿**يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢**﴾ (يس)، وأقسم بحياة نبيّه ﷺ، فقال: ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢**﴾ (الحجر)، وفى هذه السورة يقسم بخيله ﷺ في القتال، فقال: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥**﴾، والسورة تنبيهٌ إلى **الروح الجهادية** عند المسلمين، وتهييجٌ لها عند الزحف، **والمستشرقون** على أن الساميين ليسوا حربيين، والسورة عكس ذلك تماماً، والأحرى أن يقال: إن المسلمين جهاديون. **ومحبة الجهادى أو الحربى** لفرسه كمحبته لروحه، ووصْفُ الخيل خلال الغزو صورةٌ سينمائية بانورامية فريدة، ولنا أن نتصور الخيل تعدو بالفرسان وتضبح - أى تتنفس بقوة بلا صهيل حتى لا يحذرها العدو، وتضرب بحوافرها الأرض، فينقدح الشرار، ويُثار الغبار، ثم إنها لَتسرى فى الليل، وتُغير على العدو صبحاً، وتقتحم صفوفه وتتوغل فى بلاده، ويُفاجأ بها وبفرسانها وقد صاروا وسط جمعهم. والسورة تذكيرٌ بهذه النعمة الجُلَّى، نعمة الخيل فى الحرب، ولكن أنّى للإنسان أن يتفكّر ويتدبّر نِعَمه تعالى فى كل مجال، ليشكره ويعبده وحده؟ وإن الإنسان لكفور بربّه، كنودٌ جاحدٌ، ولو سألته لأقرّ بكفره، وشهد على نفسه، فهو يعرف ما فيه وما جبل عليه. **والسورة** بدأت بذكر **الجهاد** ووسيلته الكبرى - وهى **الخيل** - فى **الغزو؛ والجهاد والغزو** يكونان عن إيمان يحدوه الشكر والحمد لله والثناء عليه. وفى الجهاد تضحيةٌ بالنفس والمال، **ورباط الخيل** جهادٌ بالمال، والإنسان مفطورٌ على الحُب الشديد للمال، يحوزه ويكتنزه. وختام السورة يذكّر بأن الآخرة لا ينفع فيها مالٌ مما فى الجيوب، ولن تعثر فى بقايا الأجداث في القبور على أى مال، إلا ما كان فى الصدور من نوايا وأسرار وأعمال، يعرفها الله عن أصحابها معرفة المطّلع الخبير، لا يخفى عليه منها خافية. وآيات السورة - وما فيها من صور ومشاهد، صارت مأثورات تُضرب بها الأمثلة كقوله: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨**﴾

وهى ثلاث حِكَم متتابعة، وكان نزولها بشارة للنبى ﷺ بأن السرية التى بعث بها إلى بنى كنانة حققت المطلوب منها، ونجحت فى غزوها، وأن فرسانها كانوا أبطالاً، وخيلهم كانت آية من آياته تعالى، وكانت أخبار هذه السرية قد أبطأت حتى أن المنافقين روّجوا أنها أبيدت عن آخرها. **والكنود** صفة عامة من صفات الإنسان، وتعنى أنه كفور بِنَعم الله، ومن دأبه أن يعدّ المصائب وينسى النِّعَم، وأنه يشهد على ذلك بنفسه ويقرّ به، ويظهر كنوده فى أقواله وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾كقوله: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴿١٧﴾ ﴾(التوبة)، والكفر هو كُفر النِّعم، ومنه أن يشهد الإنسان على نفسه بحبه الشديد للمال، والخير فى الآية، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ هو المال، يحبه حُبّاً جَمّاً ، ويجهد فى جمعه، ويحرص عليه ويبخل به ولاينفقه فى سبيل الله. وهذه الحِكَم الثلاث تعقيبٌ على حال الذين نكصوا عن القتال ولم يسهموا فيه. **والجهادية** أو الحربية فى السورة لها شقان، أحدهما المشاركة فى القتال والغزو بالنفس والبدن، والثانى المساهمة بالمال لمن لايقدر على القتال لمرض أو عجز أو زمانة، **والمسلم الجهادى** هو من يضحى بالنفس والبدن والمال معاً. والآيات الخمس الأولى من سورة العاديات فيها البشارة بالنصر، والفرحة بالعزة، بينما الآيات الست الأخيرة فيها التوبيخ للمنافقين الذى يبخلون أن ينفقوا فى سبيل الله، والإخبار بأنه تعالى يعلمهم فيجازيهم أوفى الجزاء يوم القيامة. نسأل الله العافية، وله الحمد والمنّة.



٦٨٣. ﴿سورة القارعة﴾

السورة مكية، وترتيبها فى المصحف **الواحدة بعد المائة**، وفى التنزيل **الثلاثون**، وكان نزولها بعد سورة قريش، وآياتها إحدى عشرة آية، **وموضوعها**: القيامة بأهوالها، والآخرة بأفزاعها، وتستهل بسؤال عن القارعة: ثم يأتى التعريف بها من خلال الجواب. وطريقة **التعليم بالسؤال والجواب** **Katechismus (D.); Catéchèse (F.); Catechism (E.)** من الطرق التعليمية للقرآن، وقوله ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ أبلغ استهلال لبيان عِظَم شأن هذا الحدث الذى لايمكن أن يتصوره خيال. وتكرار القارعة ثلاث مرات من بابِ التهويل والتشويق لمعرفة ما يكون عن الكون والناس بسببها، **فأما الناس**: فعند نزول القارعة ينسلون من الأجداث متفرقين فزعين كأنهم الفراش المبثوث. والفراش هو الهمج الطائر من هوام وجراد وغيرهما، شبّه الناس به يوم الحشر، لأنهم يُبعثون يموج بعضهم فى بعض : ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾

(القمر)، ويركب بعضهم بعضاً كالغوغاء في يوم زحام، ولا تقرع القارعة الناس وحدهم، ولكنها تقرع الكون كله أي تضربه، فهي القارعة لأنها تقرع بالدواهي، وتصيب بالنوازل، فالجبال الصلبة تتداعى تحت قرعاتها، فتصبح كالعهن المنفوش، أي الصوف المندوف المتطاير والمنتثر. وفي ذلك اليوم ينقسم الناس قسمين، ويكونون صنفين، فمن ترجح أعماله الصالحة وتثقل موازينه، فقد فاز بالعيشة الراضية، وكانت له جنة النعيم خالداً فيها، ومن تقلّ حسناته وتخفّ موازينه، فأمّه هاوية، والهاوية هي جهنم، سماها «أُمّاً» لأنه يلتصق بها وتضمه إليها وكأنها أمٌ تضم صغيرها؛ وسميت «هاوية» لأنه يهوى فيها، كالذي يهوى من حالق إلى القاع. ويتساءل تهويلاً : **وما الهاوية** ؟ ويجيب: هي النار الحامية التي لا تقارن بها نار الدنيا. وفي الحديث : «**إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**» ، وقوله ﷺ «سبعين» إنما للتمثيل، والعرب تتمثل بالأعداد سبعة، وسبعين، وألف. وفي حديث آخر، قال عن نار جهنم: «**أُوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة**» ، والحديثان لتقريب صورة النار، وإلاّ فلا شيء يشبهها من نار الدنيا! والسورة عموماً لبيان قدر الحق والباطل، فإنما يثقل ميزان من يثقل ميزانه، لأنه يضع فيه الحق؛ ويخف ميزان من يخف ميزانه، لأنه يضع فيه الباطل، وحقّ لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً، وحقّ لمن خفّ ميزانه أن يكون مصيره النار!!



٦٨٤. ﴿سورة التكاثر﴾

السورة مكية، وآياتها ثمان، نزلت بعد الكوثر، وترتيبها في **المصحف الثانية بعد المائة، والسادسة عشرة في التنزيل**؛ وموضوعها انشغال الناس بالدنيا وانصرافهم إليها، إلى أن يأتيهم الموت بغتة فينقلهم من القصور إلى القبور كقول القائل:

الموت يأتي بغتة ∴ والقبر صندوق العمل

والتكاثر في قوله تعالى ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)**﴾: المباهاة بالمال والأولاد والأهل؛ **وتكاثر الأموال** هو جمعها من غير حقّها، ومنعها من حقها، واكتنازها في الأوعية. وفي الحديث في معنى «ألهاكم التكاثر» :«**يقول ابن آدم مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**» ﷺ وعنه ﷺ قال: «**يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل**»، وعنه أيضاً قال: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله، يبقى عمله**». ولم يأت

فى القرآن ذكر المقابر إلا فى هذه السورة. وسياق السورة يُزهّد فى زيارة القبور فلا شىء فيها إلا التراب، وأمـا الأحباب فعند الله، فما كان من تراب فمـآله للتراب، وما كان من الله فإليه يعود، والثياب إذا بليت أُلقى بها، فكذلك الأجساد، وذلك دليل على أن **الإنسان روح وليس جسداً**. فإذا كانت زيارة القبور للاتّعاظ والاعتبار، ولوجه **الله** تعالى، وإصلاح فسـاد القلب، فذلك أليق وأنسب، ومن يرد علاج قلبـه من القساوة، فعليـه أن يُكثر من **التـفكّر فى الموت**، والتفكير فـيه يميزّ الإنسان عن سـائر الموجودات، وكذلك **مـشـاهد المحتضرين، وعيادة المرضى** فى مرض الموت، **والسير فى الجنازات، وزيارة القبور**، فهذه **أربعة** أمـور تُؤتى **كـعلاج نفـسى دينى**. وليس كذكر الموت تنبيهٌ للـغافل بما إليه المصير، وليس كمشاهدة المحتضرين مدعاةٌ للتـفكير، وليس كزيارة القبور موعظةٌ للقلب اللاهى، والخبر ليس كالمشاهدة والمعاينة. والتكرار فى قوله تعالى: **﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾**: فى **الأولى** يتأتى العلم عند معاينة الموت، وفى الثانية يتأتى العلم عند البعث؛ وقيل: فى الأولى يتـأتى عند انتزاع الروح، وفى الثانـية عند دخول القـبر وسؤال منكر ونكير؛ وقيل: إن **علىّ بن أبى طالب** قال: كنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة - يشير إلى قوله تعالى: **﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** يعنى فى القبور، والحديث مشكوك فيه، **لأن السورة مكية!** ووقتُها لم يكن علىّ قد أدرك بعد، وإنما متعلق **القَسَم فى السورة** بما بعدها: **﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾**، والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار. فلما نزلت: **﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝﴾** قيل إن أبا بكر سأل الرسول ﷺ عن أكلة أكلوها مـعاً، وكانت مـجرد تمر ومـاء، هل هى من النعيم الذى **يُسـألون عنه ؟** فأجاب: «**ذلك للكفار**»، ثم قرأ: **﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ۝﴾** (سبأ)، يعنى: **لن يُسأل عن النعـيم إلا أهل النار، فلمّا كـفروا يُسـألون عن كل شىء كان من النعـيم حتى المـاء والهواء!** وهؤلاء يرون الجحيم مرتين: مرةً بعين قلوبهم تصوّراً وتخيّلاً، **ومرّة** بعين رءوسهم مشاهدة ومعاينة، فما كان «**علم يقين**» يصير «عين يقين». **والنعيم** المسئول عنه فى السورة: يتراوح بين الضروريات والكماليات، فعن أبى هريرة أن الناس تساءلوا: أى نعيم نُسأل عنه؟ فإنما هما **الأسودان: التمر والماء**، يعنى ما كان إلا **شظف العيش**، فقال الرسول: «**إن ذلك سيكون**»، يعنى حتى الأسودان تسألون عنهما. أو يُسأل عنهما كل جاحد كافر بأنعُم الله، وأما المؤمن فـهو مقـرٌّ بنِعَم الله وشاكرٌ حـامدٌ عليهـا، ويتحدّث بهـا دوماً ثناءً على الله. ومضـمـون سورة التكاثر: أن **النعيم** هو نعيم المتكاثرين المتبـاهين المترفين، وفى القرآن أن الإنسان **لا يُسأل يوم القيامة عمّا كان يسد به جوعه**، ويروى عطشه، ويستر عورته، ويحتمى

تحت سقفه، بدليل أن آدم أسكنه الله الجنة وقال له : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾(طه) فكانت هذه الأشياء الأربعة مضمونة له ولأبنائه من بعده، وليست من النعيم، ولا يُسأل عنها، ولايُحاكم أو يُقاضَى بها لوحصَّلها من أى طريق: ما يسدّ به الجوع؛ وما يدفع عنه العطش؛ وما يقيه سقفه الأعين والبرد والحرّ؛ وما يستر عورته من اللباس. فهذه هى الضروريات التى تقوم على القول بها الفلسفة الاشتراكية للإسلام، وأضيف إليها خمسة أشياء: ما يتعلمه ويقيه الجهل؛ وما يعمله ويقيه البطالة؛ وما يتداوى به ويقيه المرض؛ وما يعيله في شيخوخته ويقيه الحاجة؛ وأن تكون له زوجة وأولاد. فهذه أشياء لابد منها، وما زاد عليها فهو من النعيم حقاً. وفى اشتراكية الإسلام لا بد أن توفر الحكومة، أو الدولة، أو المجتمع، أو النظام العام، هذه الأشياء للجميع، لأن فيها الحّد الأدنى لإنسانية الإنسان، ولن يكون الإنسان إنساناً إلا بها، وفى الحديث : «ليس لابن آدم حقٌّ فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز (أى الخبز وإن كان بلا إدام)، والماء» وفى الحديث الآخر : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ»، فنعلم: أن ما يحتاجه الإنسان فى شطر منه ضروريات، وفى شطر منه لوازم، وفى شطر منه كماليات. ومضمون السورة يتحدث عن الكماليات التى هى مدار التكاثر عند الأغنياء. على أن الجميع من النعم : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾ (الإسراء) وفى الحديث : «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له : ألم نجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ؟» فهذه جميعاً من النعم تكون للمؤمن والكافر، فأما المؤمن فيستخدمها فى الصلاح فلا يُسأل عنها، وأما الكافر فاستعماله لها فى الفساد فهو عنها مسئول. والسورة على ذلك فيها الكثير من التعليم وفلسفة الاجتماع والفلسفة الاشتراكية، وفيها الوعظ، والتوبيخ، والتهديد، والإنذار.

•••

٦٨٥. ﴿سورة العصر﴾

السورة مكية، وآياتها ثلاث، نزلت بعد الشرح، وترتيبها فى المصحف الثالثة بعد المائة، وفى التنزيل الثالثة عشرة، وتعتبر وسورة التكاثر أصغر سورتين فى القرآن، وموضوعها سعادة الإنسان وشقاوته، ونجاحه وخسرانه، وفيها قسمٌ بالعصر، أى الزمان الذى دأبه النقصان، فينصرم بسرعة ولّما يستعد الإنسان لآخرته، ويفجؤه الموت ولم يلحظ أن عمره ينقضى، وحياته إلى زوال، وأنه الخُسران فى نهاية المطاف، فلا هو كسب الدنيا، ولا فاز بالآخرة، كقول القائل :

إنا لنفرح بالأنام نقطعها ∴ وكل يوم مضى نقصٌ من الأجل

والخُسْران : هو الذى يفضّل العاجلة على الآجلة، وليس صحيحاً أن القَسَم فى السورة **بصلاة العصر**، كقسمه تعالى **بالضحى**،**وبالفجر**، فالسياق العام لايتفق مع هذا التفسير، وإنما القسم **بالزمان**، لأن وجود الإنسان فى العالم **وجودٌ زمانى**، ووجوده تعالى لا **زمانى**، ولا يجرى الزمان عليه ولا يتعين وجوده به. والزمان هو أخطر وأهم ما فى وجود الإنسان، فالإنسان يعيش فى الزمان، رالزمان يُطبق عليه، ولا يوجد الإنسان بدون الزمان، ولذلك يقسم الله تعالى به. والسورة من **الإعجاز الفلسفى والنفسى للقرآن**، لأن **الزمانية فيها** ليست مجرد **ماض وحاضر ومستقبل**، وليست زمانية ستاتيكية، لأن الزمان فى السورة سيّال، ومجراه مستمر، وزمانيته ديناميكية، وشعورنا بالزمان الذى يجرى هو ما أسميه **الزمانية النفسية**، ودليلها الاستثناء فى السورة من الخُسران بأربعة أشياء : بالإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصى بالحق؛ والتواصى بالصبر؛ فنجاة الإنسان تكون بأن يعيش الزمان لا كمياً وإنما نفسياً. بالإيمان والعمل الصالح. يكمّل بهما نفسه، وينصح الغير بطلب الحقّ والصبر عليه، فيكون قد جمع بين حقّ الله وحقّ العباد، وهذه هى **الزمانية المُعاشة** كأعمق ما يمكن أن تُعاش ، وهى **زمانية المؤمن**، وهى **زمانية سرمدية**، فمن يريد ألا يخسر الزمان، وأن يحياه عن حق، فليؤمن.

●●●

٦٨٦. ﴿سورة الهمزة﴾

السورة مكية، وترتيبها فى التنزيل **الثانية والثلاثون**، وترتيبها فى المصحف **الرابعة بعد المائة**،وآياتها تسع، وكان نزولها بعد سورة **القيامة**، **وموضوعها أخلاقى**: يتناول المشّائين بالنميمة، وفى الحديث : «**شرار عباد الله : المشّاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبّة، الباغون للبُرآء العيّب**»، **والهُمَزة** : الذى يغتابك من ورائك؛ **واللُّمزة** : الذى يغتابك فى وجهك، كقول القائل:

تُدلى بودّى إذا لاقيتنى كذباً .·. وإنْ أغيب فأنت الهامز اللُّمزَة

وقيل: السورة نزلت فى **الأخنس بن شريق** وكان يلمز الناس ويعيبهم، ولكنها مرسلة على العموم من غير تخصيص، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وتذمّ السورة الذين هَمُّهم الأكبر فى الحياة جمع المال وتكديسه، يحسبون أنهم بالمال سيُخَلَّدون فى الدنيا، وتُختم السورة بتحذيرهم وتوعّدهم بأقسى النار عذاباً، وهى **الحطمة**: التى تحطم من يُلقَى فيها، وتكسر عظامه، وتحرقه فيكون حَرْقُه كالفرقعات، فيه تهشيم وتحطيم وتكسير، ولا يستطيع الإفلات منها، لأنها تُحيط به، وتحبسه داخلها، وتربطه إلى

أعمدتها، وبقدر ما فى قلبه من عصيان بقدر ما يَلقَى فيها من عذاب، لأنها نار تطّلع على الأفئدة، وتعرف ما بداخلها من أسرار ونوايا وخفايا، نسأل الله العافية، ونعوذ به من هذا العذاب المهين.

●●●

٦٨٧. ﴿سورة الفيل﴾

السورة مكية، وآياتها خمس، وكان نزولها بعد «**الكافرون**»، وترتيبها فى المصحف **الخامسة بعد المائة**، وفى التنزيل **التاسعة عشرة** والسورة من النِّعَم التى امتنّ بها الله على قريش، وتحكى عن **قصة أصحاب الفيل**، وتستفتح باستفهام تقريرى: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾، وهو من أساليب القرآن المكررة ويأتى ٣١ مرة، والخطاب خاص للنبّى ﷺ، ولكنه عام لكل المسلمين. تقول السورة: **ألم تروا ما فعل الله** بأصحاب الفيل؟ ولقد رأى العرب حَدَث الفيل وعاينوه، وكانت ولادة النبىّ ﷺ **عام الفيل**، وقيل: **يوم الاثنين، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان**؛ وقيل: **يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول**؛ وقيل: إن عام الفيل كان قبل مولده ﷺ بأربعين سنة، وقيل **بثلاث وعشرين سنة**. وروى عن النبّى ﷺ قوله: «**ولدت عام الفيل**»، أو قال «**يوم الفيل**»؛ وقيل: كانت ولادته **يوم عاشوراء من شهر المحرم**. ومناسبة هذه الاجتهادات والاختلافات، **قوله تعالى فى السورة** ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾؟ يعنى يا محمد، وهو لم يرَ، ولكنه سمع وفهم ووعى، **والرؤية** هنا المقصود أنها: **بالبصيرة**. ولقد أكرم الله قريشاً بسبب بيته «**الكعبة**»، فكان وجود الكعبة **فى مكة نعمة** لم تقدّرها قريش، فبسبب البيت حُفظت من العدوان، ومن كراماته أن دعا لهم **إبراهيم**، لأنهم حوله، قال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** (١٢٦)﴾ (البقرة)، فكان الحجاج يأتون من كل فجّ ومعهم من كل الثمرات، وبورك لهم **فى رحلتّى الصيف والشتاء**، فكأن **سورة قريش** هى المكملة **لسورة الفيل**؛ **والفيل**: حيوان ضخم الجثة ضعيف العقل، وكذلك **أصحاب الفيل**، كانوا كُثراً، ولكن قيادتهم كان بها حُمق وبَله، والعرب تقول: رجلٌ **فيلُ الرأى**، أى ضعيف الرأى، والجمع **أفيال**، ويقولون: فالَ - أى ضعف عقله. وأصحاب الفيل كانوا على الحقيقة يتخذون الفيل سلاحاً يخيفون به العرب، وكانوا أيضاً **مجازاً** ضعاف العقول، يظنون أن الكثرة والقوة سببٌ للنصر، ولم يعوا أن النصر بيده تعالى، يُعزّ من يشاء، ويُذلّ من يشاء، فمن تكون له عزّة يعزّ بها الناس، وينتصف بها للمظلوم من الظالم، ويمنع بها استقواء المستقويين، أعزّه **الله**؛ ومن تكون العزّة فيه تجبّراً وطغياناً وظلماً وعَسْفاً بالناس، أذلّه **الله**، وأصحاب الفيل كانوا جبابرة، ويرأسهم **أبرهة**، وكان من **الطواغيت**،

فلما قدم مكة غازياً يريد هدم البيت، عاب على عبد المطلب أن يكلمه فيما استولى عليه أبرهة من إبل قريش، ولا يكلّمه بشأن البيت، فردّ عليه ردّه المأثور : إنى أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت رباً سيمنعه ! ولقد كان، وتحقق ما قاله عبد المطلب، فأرسل الله تعالى على جيش أبرهة ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)﴾، أى كالجراثيم الكثيرة، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)﴾، أى بحجارة من جهنم، يعنى لها تأثير قاتل، لقوله فى قوم لوط : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤)﴾ (الحجر)، فقيل: هى حجارة من طين حُمِىَ عليها بنار جهنم، كقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ (الذرايات)، أى تسومهم وتترك بهم علامات الموت، وقيل: كان جلدهم ينفط منها كنفط الجُدرى، ولربما كان ابتلاؤهم بالجدرى، وربما بما هو ألعن، وربما كانت الطير الأبابيل هى فيروس هذا المرض، أو مرض غيره، وكأن الحرب المعلنة على جيش أبرهة كانت حرباً بيولوجية، أوحرباً جرثومية، فلم يكن بوسعهم أن يدفعوا عن أنفسهم ابتلاء السماء، فكانوا ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ـ أى كورق الشجر المأكول الذى تهرّأت بقاياه، فإن كان ذلك ممكناً الآن لدول كأمريكا وانجلترا وحتى إسرائيل، أفلا يكون ذلك محققاً لله تعالى وهو ربُّ القدرة والإمكان ؟ والسورة على ذلك من معجزات القرآن العلمية، وكان تفسيرها قديماً يشق على الناس، ولكنه يتيسّر الآن: بالمخترعات العلمية والكشوف فى مجال البيولوجيا الحربية والحرب الميكروبية.

فهل يتعظ أصحاب المزاعم العريضة كأمريكا وإسرائيل، وأىّ من الطغاة المعادين للإسلام، فإن الله مع الحق، والمسلمون فى حَرَمه تعالى سواء فى مكة أو فى خارجها، فالأرض كلها والكون، بيتٌ محرّم من بيوت الله، وكل بيت مسلم هو حرمٌ آمن بإذن الله، والله مع الصابرين. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾(الشعراء). (انظر قصة أصحاب الفيل ضمن باب قصص القرآن).



٦٨٨. ﴿سورة قريش﴾

السورة مكية، وآياتها أربع، نزلت بعد «التين»، وترتيبها فى المصحف السادسة بعد المائة، وفى التنزيل التاسعة والعشرون، وفيها إخبار بما كانت عليه قريش من نِعَم، وعمّا اختُصت به من أمن وأمان وخير وسعة، بسبب أنهم كانوا أهل بيت الله، ولولا البيت ما كانت لهم هذه النِّعَم، فالبركة بسبب البيت، والأمر كله موكولٌ برضاء الله. وتتصل معانى السورة بمعانى سورة الفيل التى تأتى قبلها فى المصحف وفى التنزيل، حتى لكأنما هما سورة

واحدة، لولا أن فصلت بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم». فلولا حماية الله للبيت ما انهزم أصحاب الفيل، وبسببه كانت معجزة الطير الأبابيل، ونعمة الأمن والخير كانا بسبب البيت، وسورة الفيل تبدو كافتتاحية لسورة قريش، وسورة قريش كتكملة لسورة الفيل، إلا أن السورتين منفصلتان، وكان عمر يقرأ سورة قريش فى الصلاة كسورة مستقلة، وقرأ المسلمون سورة الفيل كسورة مستقلة كذلك، ومع ذلك فالسورتان متصلتان، ولم يهلك أصحاب الفيل إلا لتأمن أو تألف قريش، وبسبب أنهم أهل بيت الله أمنوا الناس، وألفوا أن يقوموا برحلتين للتجارة فى الصيف والشتاء. وفى مكة يشكل الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها الآخر، وكان جُلّ قريش تجاراً، وأسفارهم فى الصيف إلى بلاد باردة كالشام، وفي الشتاء إلى بلاد حارة كاليمن، وفى الحالتين يكون سفرهم للمنافع، وما يربحونه اعتادوا أن يقسموه بينهم وبين الفقراء، حتى صار فقيرهم كغنيّهم، وجاء الإسلام وهم على هذا الحال، فلم يكن من العرب من هو أكثر منهم مالاً وأعزّ نفراً، ببّركة بيت الله. وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة من بنى مناف : هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ فأما هاشم فإيلافه أو اختصاصه الأمنى: الشام؛ وإيلاف عبد شمس الحبشة؛ والمطّلب اليمن؛ ونوفل: فارس. ومعنى يؤلفون الناس: أن يؤمّنوهم الناس ويُجيروهم؛ فكأن هؤلاء الإخوة يُدْعَوْن المجيرين، أى الحرّاس على أمن الناس، ومعنى «يجيرونهم» أن يسكنوهم إلى جوارهم ويقبلوا جيرتهم فيكونون لهم عوناً وغوثاً ونجاةً. وكان كل التجار يسافرون تحت مظلتهم فلا يتعرض لهم أحد، وما كان لسكان مكة زرع ولا ضرع، فكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين، بينما الناس من حولهم يُتخطَّفون، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿٦٧﴾﴾(العنكبوت) فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم. ومَن الله تعالى عليهم بالبيت، وبالرحلتين، وبنعمتّي الأمن والغنى. ونفيد من ارتحالهم في الشتاء والصيف جواز أن يرتحل أهل الإسلام فى الزمانين بين محلين، يكون حالهما فى كل زمان أنعم من الآخر. وحقّ على قريش بما خُصّوا به أن يؤمنوا بالله، كقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ وقوله﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴿٩١﴾﴾(النمل)، وحقّ عليهم أن يوحّدوه، وأن يحمدوه ويثنوا عليه، ولكنهم لم يفهموا ولم يعوا سبب ما هم فيه من نِعَم، ولم يقدّروا أن للبيت ربّاً، وأنهم به شرفوا على سائر العرب، فكان عليهم أن يهجروا ما وضعوا في البيت من أوثان، وأن يجرّدوا عبادتهم لله وحده، والأوثان ليست فقط ما نعرف من الأحجار المرسومة والموسومة، ولكنها المعانى والأسماء التى مدارها الكُفر

والإلحاد والشكر لغير الله، والأسماء نخترعها بأنفسنا ونجعل لها المعانى - كالعولمة والليبرالية، وبعد أن نصنعها نتعبّدها، ونجمد على تقديسها: والسورة تعلن الثورة على أصنام الحضارات، وأوثان الثقافات، وتردّ الأمور إلى نصابها، وإلى خالق كل شىء، العلىّ العظيم، والواحد الكريم؛ بديع السموات والأرض، الذى يُطعم من جوع ويؤمن من خوف، لا لقريش وحدها، وإنما لكل من كان فى مكة وما حولها، والحرم ليس الكعبة وحدها، ولكنه مكة أو بكّة والقرى من حولها، ومكة بالنسبة لهذه القرى كالأم، وكانت بحق أم القرى، وأىّ من كان طالما هو فى هذه القرى فهو، فى حرم الله. وكان العرب يُغيرون على بعضهم، فأمنت قريش دون العرب لأنهم أهل الحرم، وأكرمهم الله ببيته فى بلدهم، كقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (القصص)، بدعوة نبينّا إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾(البقرة)، فلما لم يعلموا، ولم يحمدوا الله ويعبدوه، وأنكروا القرآن وآذوا النبىّ ﷺ، صدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾(النحل) فكانت دعوة الإسلام، وقوله ﷺ يخطب فى قريش، يقول: «﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾، ويْحَكُم يا معشر قريش، اعبدوا ربّ هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف». فهكذا يُجزَى المؤمنون لأنهم فى ذمة الله، والسورة بآياتها تخصّ، وبمعانيها تعُمّ.



٦٨٩. ﴿سورة الماعون﴾

عدد آيات السورة سبع، ونزلت بعد التكاثر، وقيل: إن الآيات الثلاث الأولى منها مكية، والآيات الأربع الباقية مدنية، إلا أن مناسبة نزول السورة تجزم بأنها مكية، فقد نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمىّ؛ وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة؛ وقيل فى أبى جهل؛ وقيل فى عمرو بن عائذ؛ وقيل: فى أبى سفيان، وهؤلاء جميعاً كانوا من نزلاء مكة، وكان أهلها لا يورثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام! ودَعُّ اليتيم: هو نَهْرُه؛ والمسكين: هو من لايجد قوت يومه، فلمّا حضّ الله تعالى على إطعام المساكين قالوا مقالة أهل الكفر: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٤٧﴾﴾ (يس) وهاتان الصفتان نَهْرُ اليتيم، وعدم الحضّ على طعام المسكين، من صفات المكذّب بالدين، الذى لايؤمن بالآخرة والبعث والحساب. وقد يعتنق الدين لسبب من الأسباب، فتلزمه

الصلاة، ولكن لأنه في باطنه كافر وإنْ أظهر التقوى شكلاً، فإنه يسهو دوماً عن الصلاة، فلا يصليها لوقتها، ولا يتذكر هل أتمّها أو لم يتمها، وهل سجد سجدةً أو سجدتين، ولا يهمه إن تركها، ولا يعتقد أن لها أجراً، فصدق عليه قوله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** (٥٩)﴾ (مريم)، وقوله ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** (١٤٢)﴾ (النساء)، ولو كان الكلام في السورة عن الساهين عن صلاتهم فقط، لكان المقصود بهم المؤمنون، ولكنه حددّهم فقال: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ**﴾، فنعلم أنهم المنافقون. والسهو «عن» الصلاة فعل **المنافقين**، وأما السهو «في» الصلاة فهو فعل **المؤمنين**، لأنه ما من مؤمن إلا ويسهو «في» صلاته. والسلامة من السهو محال. والمنافقون يصلون تقيّة، ليقال أنهم يصلون. **والمراءاة أو النفاق أسلوب حياة**، يمارسه المنافق إذا لبس، أو صلّى، أو تصرّف مع الغير. والمنافق في مجال العلم يتعالم. والإظهار نفاقاً أو رياءً ليس كالإظهار لصالح الأعمال. **والرياء**: هو طلب الشهرة والسِّمعة. وكلمة رياء تعني: أن يرى الناس بعيونهم المصلّي وهو يصلّي، فيثنون عليه. والصلاة كفريضة فيها العلن، ولكن **الزكاة** تُفعل سرّاً، ولهذا يُظهر المرائي الصلاة ويمنع الزكاة، وهو معنى: ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**(٧)﴾. **والماعون** هو الزكاة، فلو خفيت الصلاة كما خفيت الزكاة، ما صلى المراءون. وقيل الماعون إطعام الطعام، أو هو **المعونة** أياً كانت.

●●●

٦٩٠. ﴿سورة الكوثر﴾

السورة مكية، وآياتها ثلاث، وكان نزولها بعد «**العاديات**»، وترتيبها في المصحف الثامنة بعد المائة، وفي التنزيل **الخامسة عشرة**، وكان الرسول ﷺ قد توفي ابنه **القاسم** فشمت فيه الكفّار، وتحدثوا بأنه قد صار **أبتر**، أي منقطع الولد؛ وقيل: إن الذي وصفه بذلك **العاص بن وائل**؛ وقيل: **عُقْبة بن أبي مُعَيْط**، أو **أبو لهب**؛ وقيل: **أبو جهل**؛ وقيل: إن قريشاً لمّا أوحي إلي الرسول ﷺ ودعا إلى الله، قالوا: **انْبَتَرَ محمد**، أي انقطع عنا وخالفنا، فنزلت السورة تخبر أنهم هم **المبتورون**، وأن من يكرهه ويكنّ له البغض هو **الأبتر**، بتر نفسه عن رحمة الله. ويناسب ذلك أن يخبر الله تعالى نبيّه بأنه في المقابل قد أعطاه نقيض ما ذكروا عنه، وهو **الكوثر**، أي كثرة **الأصحاب والأتباع، والمؤمنين** برسالته إلى يوم الدين، وهؤلاء في كل أنحاء العالم لايُعَدّون ولا يُحصون، وكلهم إذا ذكر اسمه تلهج ألسنتهم بالصلاة والسلام عليه، ويُحيُون سُنّته. **والكوثر** في لغة العرب: هو الشيء **الكثير**: يقال: **عنده المال كوثراً**، وهو **رجل كوثر**، أي خيره عميم. ومن قال: إن الكوثر

نهر في الجنة، أو حُوض فيها تردُ عليه أمته، أو أنه الخير، أو الشفاعة، أو الهداية، أو النبوة، أو القرآن، أو السُّنة، فقد ذهب بعيداً، فالسورة يتطابق الكوثر فى أولها مع الأبتر فى آخرها، على معنى الكثرة العددية من الأصحاب والأتباع، مقابل الانفراد، والوحدة، والانقطاع، فلا يكون له من يُذكّر به فى الدنيا وينسب إليه، وأحسب لذلك أن كل الأحاديث فى أوصاف الكوثر، كالقول بأنه نهرٌ فى الجنة يجرى على الدر والياقوت، وتُربته من المِسْك، وماؤه أحلى من العسل ـ أحاديث مادية من الإسرائيليات، إذ ماذا سيفعل النبىّ ﷺ بنهر هذه أوصافه ؟ وأمّا أن يكون له المؤمنون به فى كل الآماد، وعلى دوام الآباد، وإلى يوم الميعاد، فذلك الأليق والأصح والأنزه، وهو معنى الكوثر. وفى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ يعنى صَلِّ له شُكراً لتفضّله عليك بنعمة رضاه عنك، وكان المشركون إذا صلّوا يصلون مكاءً وتصدية، أى كالصفير أو رجع الصدى، وإذا نحروا ينحرون للأصنام، فأخبر الله تعالى نبيّه أن تكون صلاته له وحده، وأن ينحر لوجهه لا لغيره، وهو أمرٌ بالتوحيد والإخلاص فيه، فلا يكن عمله إلا لمن خصّه بالكوثر. وقالوا: إن الصلاة المقصودة هى صلاة الصبح المفروضة بجمعٍ، والنحر هو نحر البُدن بمنَى، وهى إذن ليست الصلوات الخمس لأنه لا نحر فيها، وليس صلاة العيد لأنه ماكانت هناك صلاة عيد فى مكة، حيث السورة مكية ولا يتبقّى إلا أنها الصلاة بالمزدلفة المقرونة بالنحر، ولا صلاة غير هذه الصلاة فى يوم النحر قبل النحر، وخصّها بالذكر من دون الصلوات لاقترانها بالنحر. وقوله: «فصلّ لربك وانحر» فيه البدء بالصلاة ثم النحر، والمقصود بالآية حُجّاج بيت الله، لأنه لايصلّى فى المزدلفة غيرهم. وكان الرسول ﷺ يصلّى العيد ثم ينحر نُسُكه ويقول: «مَن صلّى صلاتنا ونَسَك نُسُكنا، فقد أصاب النُّسُك، ومَن نَسَك قبل الصلاة فلا نُسُك له».

●●●

٦٩١. ﴿سورة الكافرون﴾

السورة مكية، نزلت بعد الماعون، وآياتها ست، وترتيبها فى المصحف التاسعة بعد المائة، وفى التنزيل الثامنة عشرة، وفى الحديث عن أنس: «قل يا أيها الكافرون ـ تعدل ربع القرآن»، وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه الفجر فى سَفَر فقرأ «قل يا أيها الكافرون»، و«قل هو الله أحد»(الإخلاص)، ثم قال: «قرأت بكم ثلث القرآن وربعه»، فالثلث: «قل هو الله أحد»، والربع «قل يا أيها الكافرون»، وتوصف بأنها سورة البراءة، أو سورة البراءة من الشرك؛ وقيل: هى توحيد وبراءة من الشرك. وقيل: السورتان اللتان تبرئان «قل هو الله أحد» و«قل يا أيها الكافرون»، ويقال لهما «المقشقشتان»، من قولنا: تقشقش

المريض، يعني : تقشّر جلده إذا برىء، وقوله «**يأيها الكافرون**» تشمل كل كافر على وجه الأرض، سواء المخصوصون بخطاب السورة: وهم كفّار قريش في الماضي، أو أي كفّار من المستقبل.

والسورة هي جوابه تعالى على طلب كفّار مكة، أن يتبادلوا مع المسلمين العبادة لله وللأصنام، فيعبدوا الله جميعاً لمدة سنة، ثم يعبد الرسول وأصحابه آلهتهم لمدة سنة، وهكذا، فأنزل اللّه هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال: ﴿ **لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴿٢﴾ **وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴿٣﴾ **وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴿٤﴾ **وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴿٥﴾﴾ وهو غاية التبرؤ من الكفر والكفّار، والتأكيد على عبادة الله الواحد القهّار. ومعنى الجملتين الأوليين: ﴿**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴿٢﴾ **وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴿٣﴾ ﴾ الاختلاف التام في المعبود، ومعنى الجملتين الأخريين «﴿**وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴿٤﴾ **وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴿٥﴾﴾ الاختلاف التام في العبادة، وكأنه يقول : لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة. والتكرار في «**لاأعبد ما تعبدون**» لأن الكفار كرروا عليه عرضهم المرة بعد المرة، فكرر عليهم الردّ تغليظاً، فقال : «لا أعبد» حالياً، «ماعبدتم» ماضياً، «ولا أنتم عابدون» مستقبلاً. وقوله «ما» لأن ما يعبدونه أصنام وأوثان ولا يصلح لها «من». وفي قوله «**لا أعبد ما تعبدون**»: نَفَي الفعل حيث الجملة فعلية، وأما في قوله «ولا أنا عابد ما عبدتم»: نَفَي الجملة الاسمية، ونفيُها أكد من نفيّ الجملة الفعلية، فكأنه نَفَى بالكلية إمكان أن يعبدوا ما يعبدون، واقعاً وشرعاً .وفي قوله «لكم دينكم ولي دين» معايشة بين الأديان، وقيل: كان هذا قبل الأمر بالقتال فنُسخت بآية السيف وقيل: السورة كلها منسوخة، وهو غير صحيح تماماً في الحالتين، فلا هي منسوخة جزئياً ولاكلياً، لأنها خبر، والخبر لايُنسَخ،والسورة جواب لمسألة، وما اشتهر باسم آية السيف جواب لمسألة أخرى، والقتال في آية السيف ليس هو الحلّ للكفر، والقتال غير مباح في الإسلام إلا دفاعاً. وفي آية السيف يقول تعالى: ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٥﴾﴾ (التوبة) وواضح أن المقصود بها أعداء الإسلام أينما كانوا، لما استحرّ القتال بينهم وبين المسلمين، وصارت المسألة بينهما : إما نحن وإما أنتم، وإلا فلا عدوان ولا قتل في الإسلام: وقوله «لي دين» لم يقل «ديني» لأن الآيات بالنون فحذفت الياء، كقوله ﴿ **فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴿٧٨﴾﴾(الشعراء)، و﴿**وَيَسْقِينِ** ﴿٧٩﴾ ﴾(الشعراء)، ﴿**يَشْفِينِ**﴿٨٠﴾﴾(الشعراء) ...

●●●

٦٩٢. ﴿سورة النصر﴾

السورة مدنية، وهى آخر ما نزل من السور، وكان نزولها فى مِنًى فى **حجّة الوداع** بعد **أيام التشريق**، تبشرّ النبّى ﷺ **بفتح مكة**، ولذلك سميت **سورة الفتح**، ولأن البشارة فيها كانت بالنصر فسميت «**سورة النصر**».

فلما فتحت مكة صار العرب يقدمون إلى النبّى ﷺ أفواجاً أفواجاً يعلنون إسلامهم، وأمره الله إذا وجَدَ ذلك وفُتح عليه، أن يستغفره ويتوب إليه. وتساءل المستشرقون والمشركون : **لابد أنه أذنب قبل الإسلام وبعده وإلاّ فلماذا يؤمر بالاستغفار ؟** والجواب: الاستغفار كان دأبه ﷺ ، فكان يدعو : **ربّ اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى كله، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى خطئى وعَمْدى، وجهلى وهزلى، وكل ذلك عندى. اللهم اغفر لى ما قدّمتُ وما أخّرت ، وما أعلنتُ وما أسررت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، إنك على كل شيئ قدير**». أخرجه البخارى، فكأنه كان يستقصر نفسه لعَظم ما أنعم الله عليه، وكان يرى **قصوره** عن القيام بحق الشكر فيستَغفر، **والاستغفار** تعبُّد يجب إتيانه، ليس طلباً للمغفرة وإنما تعبداً، وهو تنبيهٌ لأمة الإسلام حتى لا تترك الاستغفار. فإذا كان النبيّ ﷺ - وهو المعصوم - يؤمر بالاستغفار فما الظن بغيره ؟ وفى رواية للبخارى عن **عائشة** : أن رسول الله ﷺ كان يكثر بعد نزول هذه الآية - أن يقول فى ركوعه وسجوده : «**سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك. اللهم اغفر لى**» ، وفى رواية أخرى قالت: كان يُكثر فى آخر أمره من قول: «**سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه**» ، وكان يقول: «**إن ربّى كان أخبرنى أنى سأرى علامةً فى أُمّتى، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبّح بحمده وأستغفره إنه كان توّاباً، فقد رأيتُها : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾**. وفى رواية أم سلمة قالت : **كان النبيّ ﷺ آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يجيء ولا يذهب، إلا قال : سبحان الله وبحمده ؛ استغفر الله وأتوب إليه - فإنى أُمرت بها**» . وفى رواية أبى هريرة قال : **اجتهد النبىّ ﷺ بعد نزول سورة الفتح حتى تورّمت قدماه، ونحل جسمه، وقلّ تبسُّمه، وكثر بكاؤه**». وقيل : إنه ما كان قط أشد اجتهاداً فى أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها - أى نزول سورة النصر. ولما نزلت **سورة النصر**، قرأها على أصحابه ففرحوا واستبشروا، إلا **العباس** فإنه بكى، وسأله النبيّ ﷺ : «**ما يبكيك ياعمّاه ؟** قال : نُعيَت إليك نفسُك!» فكأن السورة كانت علامة تؤذنه بحضور أجله، وأسرّ بذلك **لعائشة** . وقيل إنه بعد نزولها، نزلت: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي(٣)**﴾ (المائدة) فعاش بعدها ثمانين يوما، ثم نزلت آية الكلالة،

تقول: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ (١٧٦)﴾ (النساء) فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١٢٨)﴾ (التوبة)، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (٢٨١)﴾ (البقرة)، فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً. والسورة لذلك تُسمّى سورة التوديع.

•••

٦٩٣. ﴿سورة المسد﴾

السورة مكية، وآياتها خمس، نزلت بعد الفاتحة، وترتيبها في المصحف الحادية عشرة بعد المائة، وفي التنزيل السادسة، وتسمى «سورة اللهب»، و«سورة المسد»، و«سورة تبّت»، وكلها أسماء من السورة نفسها. وأبو لهب كان اسمه عبد الْعزى، وكان عمّ النبىّ ﷺ، وامرأته هى أم جميل وكانت أخت أبى سفيان، وكما غلبت عليها كُنيتها: «أم قبيح» أو «العوراء»، كما غلبت على زوجها كنيته: «أبو لهب»، فقد كان غضوباً فيحمر وجهه كاللهب، فكان اسمه أشرف من كنيته، وحققت له الكنية نسبته بأنه من أصحاب النار، بل وأبٍ لها، فكانوا يتطيرّون به لهذا السبب، أو أنهم كانوا يتطيّرون به فسمّوه لذلك أبا لهب، وكانت زوجته شديدة العداوة للنبّى ﷺ، وسبّه أبو لهب مرة وقال له: تباً لك! فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ ومعناها خَسِرتْ يداك، وضلّ سعيك وعملك، وتبّ الثانية أى وتحقق هذا فعلاً. وكانت امرأته تسيء إلى النبّى ﷺ فتقول فيه إنه: مُذمَّم وليس محمداً، باعتبار مذمم هي النقيض لمحمد، وكانت تمشى بين النساء تحمل له الذمّ، وتَنِمُّ عليه، فقد توعدها الله بأن تحمل الحطب، وأن تُربَط من عنقها بحبل من المسد أو الليف، وقد كان فى عنقها عقد من خرز فباعته لتنفقه فى عداوة محمد كما قالت. وكان من الممكن أن يعلن أبو لهب وامرأته إسلامهما بعد هذه السورة، ليظهرا كذب القرآن، وأن تقرير النار لهما هو دعوى لا غير، فلم يفعلا، وماتا على الكفر، فصَدَق فيهما القرآن، أنهما يصليان النار. وفى الإخبار عن كفرهما الدائم معجزة للقرآن، وقيل ماتت امرأة أبى لهب مخنوقة بحبل، ومات أبو لهب بالطاعون، وتركوه ثلاثة أيام حتى أنتن، يخشون العدوى، واجتمع أولاده على جثته يرشونها بالماء من بعيد، ورموا عليه ما يبعد عنهم العدوى، ثم احتملوه إلى أعلى مكة وردموا عليه بالحجارة. والدرس المستفاد: أن أعداء الإسلام ما يفيدون قط من عداوتهم للإسلام، وأنهم على الباطل وضد الحق، والباطل هو جحود الخالق وإنكار أنه الواحد، والحق أن ندين له بالعبودية ونشهد بوحدانيته، والحق يعلو ولا يُعلَى عليه، وإنّ ربّك لبالمرصاد.

•••

٦٩٤. ﴿سورة الإخلاص﴾

السورة مكية، نزلت بعد «الناس»، وآياتها أربع، وترتيبها في المصحف الثانية عشرة بعد المائة، وفي التنزيل الثانية والعشرون، وكان نزولها جواباً لأهل الشرك لما قالوا للرسول ﷺ : صفْ لنا ربّك ، أو انسب لنا ربّك ؟ فنزلت السورة بالردّ عليهم، وتحدّثت عن صفاته تعالى، فهو : واحد، وترٌ، وصَمَدٌ، لم يزل ولايزال، ولم يلد ولم يولد، فما من شئ يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا ويورَّث، وهو تعالى لا يموت ولا يورَّث، فهو صمدٌ، ولا شبيه له، ولا عِدْل، وليس كمثْله شيء. وهو تعالى لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما وُلد عيسى وعزير، والسورة لذلك فيها ردٌّ على النصارى واليهود، فالنصارى قالوا عيسى ابن الله، واليهود قالوا عزيز ابن الله، أو اليهود أبناء الله، وهو تعالى لا يلد ولا يولد، وكيف تولد بشرية من إلهية ؟! فشأن سورة الإخلاص عظيم لذلك، لأنها في التوحيد، والتوحيد ثلث القرآن، وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقد أقرّ النبي ﷺ أن يقرأها أحد صحابته على الناس في كل صلاة، فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تكرار السورة في كل ركعة.



٦٩٥. ﴿سورة الفلق﴾

السورة مكية، وآياتها خمس، نزلت بعد الفيل، وترتيبها في التنزيل العشرون، وفي المصحف الثالثة عشرة بعد المائة، وكان الرسول ﷺ يتعوّذ بها، وبسورتيّ «الناس» و«الإخلاص». واشتهرت سورتا الفلق والناس بأنهما المعّوذتان، وكان يقرأ بهما في الصلاة، وعن عائشة أنه كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، وكانت تقرأ عليه بهما لما اشتد وجعه في مرضه الأخير، وتمسح عنه بيده.

والتعوّذ في سورة الفلق من الشرور كافة، ومما يمكن أن يأتي به الليل من أنواعها ، مما يخفى على الناس أمره، ويطويه الظلام بحجابه فلا تبصره عيونهم، ومن الوحشة تشتد كلما أوغل الليل وغاب القمر، فيفجأنا اللصوص، وتتبعنا السباع، وتغشانا الهوام، وتُقطَع الطرق، ويُروّع الآمنون، ويقل الغوث مع ندرة الناس. والسحر ليس من العلم في شيء، والقرآن يتعوّذ من السحرة وليس من السحر، ومن الحاسدين وليس من الحسد، والتعوّذ منهم لما يعنيه ما يمارسونه من طوايا خبيثة ونوايا فاسدة. وكل حديث عن سحر اليهود للنبي ﷺ كذب وافتراء، فكيف يؤتمن على التبليغ عن ربّه إذا كان من الممكن أن يُسحَر له ؟ ولماذا اليهود بالذات ؟ أليس ليظهر من هذه الأحاديث أن اليهود مهيمنون على النبي ﷺ ، ومن ثم

على الإسلام ؟ وأحاديث السحر له جميعها من الإسرائيليات **(انظر باب الإسرائيليات)** وكذلك أحاديث الحسد . **ومن شرّ ما خلق** في السورة هو **إبليس**،وهو الشرّ عموماً في الكون، سواء كان أذى، أو مرضاً، أو عوزاً،أو ظلماً. **والنفث في العقد**: من طقوس السحرسواء كان أبيض أو أسْود. **(انظر أيضاً السحر والحسد ضمن باب المصطلحات)**.

•••

٦٩٦. ﴿سورة الناس﴾

السورة **مكية**،وآياتها **ست**، وكان نزولها بعد «الفلق»، وترتيبها في **المصحف الرابعة عشرة بعد المائة**، وفي التنزيل **الواحدة والعشرون**، وهي مثل **الفلق**، إحدى المعوّذتين، وفيها التعليم للمسلمين بأن يكون تعوّذهم من اثنين من أعدائهم : هما شياطين الإنس وشياطين الجن، بل إنهما لأعدى الأعداء، يوسوسون خفية، ويوعزون ويغمزون ويوغرون الصدور. **والوسوسة** : من مصطلحات التحليل النفسي، يقال **وَسْوَسَت إليه** نفسُه، يعني همست إليه، **والوسوسة في اللغة** هي أصوات الحليّ، وفي الخبر: أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا غفل عن ذكر الله وَسْوَس إليه، وإذا ذكر الله خَنَس، أي خَرَس ولم ينطق، وتأخر أو أقصر، ولذا كان التعوّذ باسمه تعالى، الذي من صفاته : الربوبية **(ربّ الناس)**، والملك **(مَلك الناس)**، والإلهية **(إله الناس)** ، وذكره تعالى لصرف الوسوسة هو من نوع **العلاج الطبي النفسي الديني**.

•••

انتهى «باب موجز سُوَر القرآن»، فالحمد لله، وله المنّة، ويبدأ إن شاء الله «باب قصص القرآن»، وهو الباب السابع من الموسوعة

•••

«الباب السابع»
«القصص فى القرآن»
«فن القصة فى القرآن»

القصة من القصّ الذى هو تتبع الأثر. والقصة فى القرآن عمل فريد ليس كالقصص في الآداب، فهى ليست حكاية تراعى الحكى وما قد جرى، وليست رواية تروى عن حدث وفيها التخييل، ولكنها عملٌ أدبىّ راقٍ ينهج نهجاً واقعياً، كقصّ الأثر، يتتبعه ولا يتجاوزه، وفى القرآن أنه تعالى يقصّ أحسن القصص، يعنى يقصّها بأبدع أسلوب، وأبلغ بيان، عن أخبار الأمم السالفة من العصور الخالية. ولا يستخدم القرآن فى القصّ لفظ الحكاية بدلاً من القصة، لأن الحكاية تقليد وليست واقعاً، وقصص القرآن واقع، وتتناول أحداثاً من التاريخ، وأنباء، وتصحّح قصصاً أخرى مثلها من التوراة، وتأتى بما لم تأت به التوراة، وجميعها من الماضى، ومنها قصص نزلت تثبيتاً لفؤاد النبىّ ﷺ، أو للعظة والعبرة، أو شرحاً لحكم شرعى، أو حادث تاريخى، أو لتبرئة متهم، أو تجريم مجرم، أو حلاً لمشكلة، كقوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** (يوسف ١١١)، وقوله: **﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾** (طه ٩٩)، وقوله: **﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾** (هود ١٢٠)، وقوله: **﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾** (الكهف١٣). وقيل: إن قصص القرآن تتجاوز حاجز الزمن، وحاجز المكان، والحاجز النفسى، وتلتزم فى السرد المنهج الواقعى، ومنهج الصدق، بأسلوب موجز، وعرض مركّز.

والقصة فى القرآن أنواع، فهناك القصة المطولة: كقصة يوسف؛ وهناك القصص القصيرة: كقصة ذى القرنين؛ وهناك القصة تتنزّل بطلب من الناس: كقصة أصحاب الكهف، والقصة تتنزّل بغير طلب: كقصص نوح وآدم وغيرهما. وبعض القصص تشتمل عليها السورة بأكملها، وبعضها كقصة موسى عبارة عن مشاهد ولقطات تصوّر أوضاعاً وأحوالاً وأحداثاً تتناسب معها، ويأتى الكلام فيها، فيه الإشارة والإيجاز والحذف، يناسب بذلك سليقة العرب، وعلى عكس ذلك تماماً يكون الكلام كلما توجه الخطاب إلى بنى إسرائيل، وهم على ما فى توراتهم يحبون التطويل. وبعض القصص فيها الحيوان أو الطائر شخصية رئيسية فى الحدث الدرامى، مثل هدهد سليمان، وحوت يونس؛ وبعضها فيها عن مخلوقات غيبية كعفريت سليمان، والجن فى قصة استماعهم للقرآن؛ وبعضها فيها عن حيوان ليس له دور فى العرض؛ وأكثرها حوار كما فى المسرح، وأقلها سردٌ كما فى الرواية، والأحداث فيها تتنامى حتى القمة، وأشخاص القصص من البشر من الصفوة، وهم كبار القوم، أو شخصياتهم النابهون أصحاب الفاعلية. والمرأة ليست من سواد النساء

ولكنها من مكتملات العقل والشخصية، وكل نساء القصص القرآنى لهن أدوراهن. وحتى الأطفال ليسوا أطفالاً عاديين إنما لهم منطقهم، وأحاديثهم كأحاديث الكبار، ولهم رؤاهم، وحركة الناس فى الأحداث تأتى دائماً من اللاوعى إلى الوعى، وتؤثر الحق على الباطل، وتفضل الشهادة، وأن نموت بكرامة على الحياة فى ضلال وذلّ. والصراع فى هذه القصص بين الخير والشر، والصدق والكذب، والمستكبرين والمستضعفين، وبين قيم الماضى، وقيم المستقبل، وسواد الناس وأعيانهم،والتعليم الجديد والتعليم القديم، والإيمان والكفر. وإذا كان القرآن يؤثر الحوار كحلّ للمشاكل فإن الناس تؤثر الصدام،وكذلك يدعو القصص القرآنى إلى الحوار بين الحضارات، وأصحاب الحضارات يؤثرون الحرب؛ وهناك الحبكة القصصية حيث قد تبدأ القصة بعبارات معينة وتنتهى بالعودة إلى هذه العبارات لبيان مصداقيتها. والمكان والزمان مطلقان بلاقيود. ومن فنّيات القصّ فى القرآن استخدام المناجاة كلما ساد العماء فى الموقف، أو ساء الحال، أو حارت الشخصية فى شىء. وللقضاء والقدر مداخلات توجّه الأحداث، وقد تنهيها معجزات وخوارق. والإيجاز صفة عامة فى القصص، ويتمثّل أحياناً فى حذف مشاهد يمكن فهمها، ويسمون ذلك الإضمار القصصى. ولا تخرج أى قصة عن إطار السورة بل تمتزج بها موضوعياً فلا تنفصل عنها، وهى جزء من نسيجها وليست إضافة عليها، وتتناسب مع غايات التنزيل. وفى قصة موسى مثلاً تتعدد المشاهد، ومع تعدّدها تُنتقى الأحداث لتتناسب مع الموضوع، وينتفى التكرار باختلاف الألفاظ والأساليب والمعانى والسياق والمقام والغايات، فمرة يكون بطريق السرد، ومرة بطريق الحوار، بحسب ما يقتضيه تحريك الأحداث وتصعيدها، وأحياناً يقتضى ذلك بسط بعض القصص بسطاً مطولاً،وأحياناً يقتضى اقتضابها أشد الاقتضاب، أو بسطها ثم اقتضابها دواليك، ويجىء الإجمال فى السرد كأنه فى مرحلة العرض والتعريف، ثم يكون التفصيل من بعد. والإجمال والاقتضاب من باب الإضمار، وتفرضه الحبكة. ومن أمثلة هذا الإيجاز أو الإضمار القفز بالحدث عبر الزمان والمكان؛ والوصف للتعريف واختصار الوقت والكلمات؛ والتكثيف.



٦٩٧. «الخلق وقصته فى التوراة والقرآن»

خصصّ التوراة لقصة الخَلْق الفصل الأول والثانى من سفر التكوين فذكر: أن أول ما خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة تغمرها المياه، وكان الظلام، فخلق الله النور وفصله عن الظلام، وفَرَق النهار عن الليل، وفَصَل الله ماءً عن ماء الأرض، وجعله

كالجَلَد وأعطاه اسم السماء، وانتهى من ذلك فى مساء اليوم الأول. وبدأ فى صباح اليوم الثانى، فجمع ماءَ الأرض فى مكان واحد سمّاه البحار، وأظهر اليابسة، وأنبت الأرض نباتها وأشجارها بحسب أصنافها، وانتهى من ذلك فى مساء اليوم الثانى؛ وفى صباح اليوم الثالث خلق النيّرات فى السماء، تفصل بين النهار والليل، وتصنع أوقاتاً وأياماً وسنين، وتضىء الأرض، وخَلَق الشمس والقمر، فالشمس للنهار، والقمر لليل،والاثنان يضيئان الأرض،وانتهى من ذلك فى مساء اليوم الثالث؛ وفى صباح اليوم الرابع خلق من الماء الأسماك والحيتان والمائيات والطيور، كلاً بحسب أصنافه، وباركها لتنمو وتكثر، وانتهى من ذلك فى مساء اليوم الرابع؛ وفى صباح اليوم الخامس خلق البهائم والوحوش بحسب أصنافها، وخلق الإنسان على صورته تعالى ذكرًا وأنثى، ليتسلّط على سمك البحر وطير السماء والبهائم ،وليُخضع له كل ما يدبّ على الأرض، وليتسيّد على جميع الأرض، وبارك بنى البشر لينموا و يكثروا، وليكون لهم العشب وبِذْره وبقُوله، والشجر وثمره، مأكلاً ومطعماً، وانتهى من ذلك فى مساء اليوم السادس؛ واستراح فى اليوم السابع وقدّسه كيوم راحة». ونلاحظ أن كاتب سفر التكوين اليهودى قد قال: إن الله كان خَلَقَه للسموات والأرض وفق مبادىء وضعها وخلق الخَلْق وفقها. ولم يكن العشب والشجر ينبت قبل أن يمطر الله المطر على الأرض، وهنا تناقض واضح، لأنه قال قبل ذلك: إن الأرض كان يغمرها الماء، وقال فى العبارة ٦ من الفصل الثانى إن البخار كان يصعد من الأرض فيسقى جميع وجهها، وإذن فالماء متوفّر بها ولا تحتاج للمطر، فلماذا شرط الماء للنبات والشجر وكل ما عداه، مع أنه كان متوفراً؟!

وتقول التوراة: إن الله لمّا خلق الإنسان على مثاله، جبله من تراب الأرض، ونفخ فى أنفه فصار نَفْساً حية، وأعدّ له جنةً أرضية شرقية أسماها جنة عدن وهيّأها بالطيّب الحسن من الأشجار، ومنها شجرتان جعلهما وسط الجنة، هما شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، ومن هذه الجنة كان يخرج نهرٌ يسقى شجرها،ويتشعب بعد ذلك أربعة شُعب هى أنهار الدنيا الأربعة الكبرى: فيشون الذى يروى الحويلة، وجيجون الذى يجرى بالحبشة، وحداقل الذى يجرى فى أشور، ونهر الفرات، وعلميًا ليست هذه أنهار الدنيا الكبرى!

وتقول التوراة: إن الله أسكن الإنسان الأول جنة عدن «ليفلحها ويحرسها» (التكوين ٢/ ١٥)، وأمره أن يأكل من جميع الشجر إلا شجرة معرفة الخير والشر، لأنه لو أكل منها مات. وعرض الله على الإنسان المخلوقات جميعها، من حيوانات البرية، ووحوش الصحارى، وطيور السماء، ليرى ماذا يُسمّيها، وأوجب لها الأسماء كما أطلقها عليها.

ولم يرد اسم **الإنسان الأول** في التوراة إلا بمناسبة أسماء المخلوقات، في العبارة ١٩ من الفصل الثامن من سفر التكوين، وجاء أنه آدم، ويبدو أنه اشتكى من العمل الكثير، وأبدى السأم من الوحدة، فأوقع الله به النوم، واستل أحد أضلاعه وسدّ مكانه باللحم، ومن هذا الضلع استنسخ حواء وأتى بها آدم، فلما عرف أنها من ضلعه سمّاها امرأة، لأنها مأخوذة من إمرئه، ولَزَمها أنها من جسده، ولهذا يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسدا واحداً.

فهذه **قصة الخلق** كما وردت بالتوراة، وتلتها **قصة الخروج من جنّة عدن**، ليشقى آدم وأمرأته في الأرض. فماذا يأتي من ذلك في **الأناجيل**؟ لا شيء البتة، فالأناجيل شُغلها الشاغل أن تروى عن المسيح وأعماله، وأن تمجّده وتغرس دعوته في النفوس وتُشرب بها العقول. ولم يكن إعطاؤها اسم المسيحية من فراغ، لأنها الديانة التى مدارها **المسيح**، فكل ما يتعلق بالمسيح ترويه الأناجيل، والكلام فيها ليس عن الله وإنما عن المسيح، والدعوة فيها ليست لله وإنما الدعوة **للمسيح**، ولتأليه المسيح، وعبادة المسيح. والتوراة فيها من ذلك بطريقة أخرى، فمدارها **اليهود**، وتاريخهم، وما جرى لهم، وما جرى منهم، وما قالوه وفعلوه، واعتقاداتهم، ومركز هذه الاعتقادات **تأليه الشعب اليهودي**، واليهود جعلوه شعباً مختاراً، وقالوا: **إنه شعب الله**، والنصارى قلبوا كل تعاليم اليهود ونقضوها، ولم يألّهوا الشعب كاليهود، ولكنهم ألهّوا **واحداً** منه أعطوه اسم المسيح أو **يسوع**، وبدلاً من مقولة شعب الله قالوا: ابن الله، واعتمدوا على رواية التوراة فى قصة الخلق أو التكوين، بدعوى أنهم **يُكملون اليهودية**، ويصلحون ما أفسده اليهود منها وما حرّفوه.

والإسلام أورد عن قصة الخلق، واليهود يدّعون **أن محمداً** ﷺ **لم يفعل إلا أن سرق روايتهم فى الخلق وجعلها قرآناً!** وذلك **كذب وبُهتان**، لأن هذه القصة في التوراة لم تأت إلا كمقدمة لمجئ اليهود، وهي فى القرآن لإثبات **وحدانية الله**، وأنه ينفرد بالخلق، وأن الخلْق من أفعاله، فهو **الخالق**، **والمبدع**، ولو كان فى الوجود إله غيره لعلا أحدهما على الآخر، ولاختلفا، وهذا غير وارد بالكلية **في التوراة**. وظل القرآن يردد عن قصة الخلق فى سُورة بعد سُوَرة، وآياتٍ بعد آيات، ليثبت بالبرهان القاطع، والحُجّة الدامغة: **أن الله واحد لا شريك له**، وأنه قد خلق الإنسان ليعبده، وعبادته سبحانه بالعمل الصالح، يقلّده فيه، ويتواصل به معه، ويذكره به، ويتّقيه من خلاله.

ثم إن الخلق فى التوراة لم يؤسس على **مبادىء علمية** كما يدّعى **عزرا الكاتب** مؤلّف التوراة فى عبارته الرابعة من الفصل الثامن من سفر التكوين، وكانت كتابته للتوراة بدءاً

من سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، أى بعد زمن موسى بنحو ألف سنة أو أقل، ولم تكن عنده مصادر محررة وموثقة إلا ما يرويه الأحبار ويتناقلونه فيما بينهم بعد ما أضافوا وحرّفوا وزادوا من الأقوال لصالح اليهود حتى جعلوا من التوراة كتاباً فى الوطنية اليهودية، وانتحلوا فيه لأنفسهم وعداً من الله بأرضٍ ليست لهم، وسيادةً لم يميزّهم بها، وروّجوا لأكاذيبهم وأضاليهم بمختلف الطرق، ومتباين الوسائل.

ويحفل القرآن بعبارات عن الخلق صيغت بأجمل بيان، وقد حوت كل ما سبق وأشارت إليه التوراة وأكثر منه، وصحّحت ما أخطأت فيه، والخلق فى القرآن استغرق ستة أيام ولكن اليوم السابع من الأسبوع لم يكن للراحة، ولكنه كان عيداً يجتمع فيه الناس ويصلون جماعةً شكراً لله وحمداً، يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ (السجدة)، والجديد عمّا جاء فى التوراة هو «تدبير الأمر وتنزّله فى يوم مقداره ألف سنة من حسابنا الزمنى». ويقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢﴾ (فصلت)، والجديد فى هذه الآيات قوله: إن الأرض خلقها فى يومين، وأنه جعل فيها رواسى وقدّر فيها أقواتها وذلك فى أربعة أيام، وأنه استوى إلى السماء، وكانت السماء دخاناً، وأنه أمر الأرض والسماء فأطاعتا، فقضى السماء سبع سموات فى يومين، وجعل لكل سماء ما يخصها، وأما السماء الدنيا فزيّنها بالنجوم والكواكب وجعل لها ما يحفظها، وكل ذلك جديد فى نظرية الخلق لم تأت به نظريته فى التوراة اليهودية. ويقول عن السماء: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ (البروج)، والبروج هى منازل الشمس والقمر، وهى اثنا عشر برجاً تسير الشمس فى كل واحد منها شهراً، ويسير القمر فى كل واحد منها يومين وثلثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ويستتر ليلتين. ويقول: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (المنافقون ٧) أى له خيراتها وكنوزها التى يعلمها وحده، ويعلم مكانها، وهو وحده المتصرّف فيها فى أوانها. ويقول: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ (الفتح) يعنى أن له تعالى وسائله التى تتحقق بها مشيئته فى السموات والأرض، وهى الملائكة وغير ذلك. ويقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ

السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر﴾ (الرعد ٢)، يعنى أنه من كمال قدرته وعظيم سلطانه قد رفع السموات بغير عمد، ولكن بإذنه وتسخيره، وقد رفعها عن الأرض، فالسماء الدنيا تحيط بكل الأرض والماء والهواء، وترتفع عليها، لا يدرك مداها أحد، والسماء الثانية تحيط بالأولى، بُعداً عنها، وهكذا إلى السماء السابعة. والكون أكبر من ذلك، وفى الحديث أنه ﷺ قال: «**ما السموات السبع وما فيهن، وما بينهن فى الكرسى، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسى فى العرش المجيد كتلك الحلقة فى تلك الصلاة**»، فانظر ياأخى كم هى علمية نظريات الإسلام فى الكون، فلقد تحدث إينشتاين وآخرون عن لانهائية الكون ولا شيء من ذلك تقول به التوراة. وفى الرواية: «**العرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجلّ**»، يعنى أن الإنسان العالم قد يقول باللانهائية ولا يقدرها مع ذلك قدرها، إنما الذى يقدرها قدرها هو الله وحده. واستواؤه تعالى على عرش الكون أى سيطرته عليه وتمكّنه منه؛ وتسخيره للشمس والقمر أى أمره لهما أن يجريا بلا انقطاع؛ وذِكْره تعالى للشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة التى هى أشرف وأعظم من الثوابت، وإلا فالنجوم أيضاً مسخرة بأمره، كقوله: **﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (٥٤)﴾** (الأعراف)، وتسخيره للشمس والقمر والنجوم إنما ليضيء للإنسان: **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣٣)﴾** (إبراهيم)، ففى الأصل كان الكون عماء وظلاماً، فخلق الشمس فأوجد النهار، وألحقه بالليل، وجعل القمر لينير الليل، كقوله: **﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل﴾** (يونس ٥)، والتسخير فى الموجودات كالسجود فى الصلاة عند الإنسان، كقوله: **﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر﴾** (الحج ١٨). ومن آياته أن الشمس لا تلحق بالقمر، ولا القمر يلحق بالشمس، وكذلك الليل والنهار، وهذا معنى السجود لله، أى الطاعة، فلا عصيان ولا تمرد، وإنما خضوع كامل: **﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون (٤٠)﴾** (يس)، وهو تعالى الذى وقّت الأزمان بالقمر والشمس، وبالليل والنهار، وبالضحى، والظهر، والعصر، والمغرب (الشمس ١)، وهو تعالى الذى يفلق الإصباح (الأنعام ٩٦)، وجعل الليل سكناً ولباساً، والنوم سباتاً، والنهار معاشاً (النبأ ١٠)، وسخّر البحر والفُلك والأنعام (الزخرف ١٢)، ويفْلق الحبّ والنوى (الأنعام ٩٥)، وينبت فى الأرض من كل شيء (الحجر ١٩)، ومن كل زوج كريم (الشعراء ٧)، وينبت فيها الحدائق ذات البهجة (النمل ٦٠)، وينزّل من السماء الماء المبارك فينبت

الجنات (ق ٩)، ويشقّ الأرض، وينبت الحبّ والعنب والقضب (عبس ٢٧)، وخلق الإنسان من تراب الأرض وأطعمه نباتها وحيوانها (نوح ١٧)، وقال بالأطوار وشرحها فى خلْق الإنسان فقال: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾** (المؤمنون). وبالاختصار: لا شأن لنظرية القرآن فى الخلق بنظرية التوراة فيه. ولو أفردنا للخلق فى القرآن الصحائف لزاد ما نفرده منها عن أوراق التوراة جميعاً والأناجيل معها، ولا نسبة بين ما يحدّثنا الله به فى القرآن عن الخلق، وبين ما يحدثنا به عزرا مؤلف التوراة، ولو قارنا، بين كلام القرآن وكلام التوراة لتذكّرنا ملخصات الطلبة فيما يشرحه الأساتذة من الدروس، فالتوراة ملخص بسيط فيه أخطاء وقصور وإيجاز مُخل، والسبب أنه كتاب لم يُصنع للدعوة إلى الله وإنما لتمجيد شأن اليهود، وأما القرآن: فهو كتاب الله، ويدعو إلى الله، ويلفت إلى آياته، وينبّه إلى عظمته وقدرته، ويقول بألوهيته، ويؤكد على وحدانيته. فافهم ياأخى المسلم وياأختى المسلمة، ولنحمد الله على الإسلام.

•••

٦٩٨- ﴿خلق آدم وحواء﴾

لم يذكر التوراة عن خلق آدم من تراب، ولم يجىء بها سوى أنه خلقه فى اليوم الخامس، وخلق منه حواء بعد اليوم السابع بزمن طويل، وحواء هى زوج آدم، وفى التوراة: أن الربّ أوقع السبات على آدم Adam، واستل إحدى أضلاعه وسدّ مكانها بلحم،وبنى الضلع التى أخذها من آدم امرأةً،وعرف آدم أنها منه فقال هى امرأة، لأنها خلقت من امرئى» (التكوين ٢/ ٢١ ـ ٢٤). ولا شىء من ذلك فى القرآن، إلا الآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾** (النساء ١)، والآية: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾** (الأعراف ١٨٩)، وإجماع المفسرين على أن النفس الواحدة هى آدم، وأن حواء خلقت منه، وأن سبب خلق الله تعالى لحواء: «ليسكن إليها» أى ليأنس بها ويطمئن، وأيضاً ليكون لآدم منها الذرية ينتشرون فى الأرض ويعمرونها، كقوله: **﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا﴾** (النساء ١)، وحصر ذريتهما فى نوعين كنوعيهما، فلما كان آدم ذكراً وحواء أنثى، خلق منهما الذكر والأنثى، واقتضى ذلك أن الخنثى وهو مَن تجتمع فيه الذكورة والأنوثة، ليس بنوع، وإنما هو مردودٌ إلى هذين النوعين فيلحق

بأحدهما بحسب غلبة أعضائه الذكرية أو الأنثوية عليه. ولم يتناول القرآن حكاية الخلقة من الضلع وتناولتها الأحاديث، وفيها: «**خلقت المرأة من ضلع عوجاء**»، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال: «**إن المرأة خلقت من ضلع**»، وفى رواية: «**وإنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه، ولذلك لن تستقيم المرأة لك على طريقة واحدة، فإن استمتعت بها، استمتعت بها وبها عِوَج، وإن ذهبتَ تُقيمها كسرتَها، وكَسْرُها طلاقها**» أخرجه مسلم. وهذه الأحاديث هى قطعاً من **الإسرائيليات**، لأنه لا إشارة لحدث عظيم كهذا فى القرآن، فأن يخلق الله آدم من تراب آية، وأن يخلق حواء من آدم آية أخرى، إلا أن القرآن يقول إن خلق حواء من آدم كان من نفسه، يعنى على منواله وفيها كل بشريته، وخلقها صورة منه فى جنس أنثى، ولم يذكر حكاية **الضلع** هذه، والخلق من النفس أعظم، وفيه أن الذكر والأنثى **شقائق**، بينما الخلق من الضلع فيه إعلاء لشأن الرجل من جهة قوته وسطوته، وقيل إنه تعالى خلقها من ضلعه لتكون الأقرب إلى قلبه، وليكون الأعطف عليها. **ولا أعرف فى علم التشريح أن الذكر أو الأنثى يقل عدد أضلاع أحدهما عن عدد أضلاع الآخر!** ولا فى أى حيوان من الثدييات! فنظرية القرآن فى خلق حواء هى النظرية الأصحّ والأكثر معقولية والأقرب إلى العلم من نظرية التوراة.



٦٩٩- ﴿الخروج من الجنة وقصته فى التوراة والقرآن﴾

قصة خروج آدم وحواء من الجنة يشملها الفصل الثالث من سفر التكوين من أسفار التوراة **الخمسة**، ويتألف الفصل من ٢٤ عبارة. وليست جنة آدم هى الجنة التى يتحدث عنها القرآن، ويأتى اسمها فى التوراة جنة عَدْن، وعدن اسم **سريانى** ومعناه **البهجة**، والجنة بستان أو حديقة، وجنة عدن إذن بستان، كل ما فيها يبهج النفس. وتقول التوراة: إن الحيّة وهى أمكر حيوانات البرية، احتالت على حواء وشككتها فى أمره تعالى أن لا تأكل هى وآدم من الشجرة التى فى وسط الجنة وإلاّ ماتا، وأبلغتها أن الله يعلم أنهما سيأكلان منها ولن يموتا، وإنما **سيعرفان الخير والشرّ كالآلهة**. وداخَلَ حواء السرور وهى تطالع الشجرة وكانت شجرة جميلة، وراودتها نفسها أن تتذوق ثمرها، وتناولت بعضه وأكلته، وأعطت آدم منه فأكل، فكأن حواء أغوتها الحية، وأغوت حواء آدم، وفى الحال انفحت عيونهما، وإذا بهما قد تعرّيا، فأسرعا إلى ورق شجر التين، وصنعا منه مآزر لهما. وكان الله يسير فى الجنة يتنسّم هواءها، فاختبأ آدم وحواء منه بين الأشجار كى لا ينظر عريهما، وناداه الربّ فاعتذر بأنه عريان، فسأله الربّ وكيف عرفت أنك عريان؟ لابد أنك أكلت من الشجرة

التى نهيتك عنها! وتعلل آدم بأن حواء أغوته، وتعللت حواء بالحيّة، فلعن الله الحيّة من كل البهائم، وعاقبها بأن جعلها تزحف على صدرها، وبثّ العداوة بينها وبين حواء، وبين نسلها ونسل حواء؛ فهم يسحقون رأسها وهى تلدغ أعقابهم، وعاقب المرأة بأن تحمل فى مشقة، وتلد فى مشقة، وأن تتحكم فيها أشواقها الجنسية، وأن يتسيّد عليها رجُلها. ولعن الله الأرض بسبب آدم، وعاقبه بأن لا يستخرج ما يأكله منها إلا بمشقة، وأن لا يجنى أحياناً من نبات الأرض الشوك والحسك وعشب الصحراء، وأن يكد ويكدح ليجد الخبز، وأن يعمل فى كبد طوال حياته إلى أن يُوارَى التراب الذى خُلق منه وإليه يعود، وصنع الرب لآدم وحواء أقمصةً من جلد كساهما بها ودارى عورتيهما. وأصبح آدم وقد طعم من شجرة «معرفة الخير والشر» كالآلهة، وخشى الربّ أن يحاول آدم أيضاً أن يطعم من «شجرة الحياة» فيعيش للأبد، فأخرجه من جنة عدن، فصار عليه أن يحرث الأرض التى خُلق منها ليجد ما يطعم، وفرض الله حراسة حول شجرة الحياة ليمنع آدم عنها. ولم تقل التوراة أن الربّ طرد حواء أو عاقبها، ولم تقل أنه طرد الحيّة، وافترضت أنه بطرد آدم طردت حواء والحيّة، ولما تعرّى آدم وحواء عرفا بعضهما البعض جنسياً فولدت له البنين والبنات، وأطلق عليها من ذلك الحين اسم **حواء Eve** لأنها قد صارت تلد أحياءً. وكانت هذه هى **قصة الخروج من جنة عدن** كما جاءت فى التوراة، وجنة عدن فى التوراة **أرضية** وليست سماوية، ومفسرو التوراة يقولون أنها كانت فى أرمينيا، لأن الفرات من أنهارها، وهو من أرمينيا، وبعضهم يقول إن عدن كانت بين دجلة والفرات جنوبى العراق، لأن مواصفات التوراة لها أنها **شرقى فلسطين**، وبقربها كوش وكانت تعرف قديماً باسم **كاشو**، وكان **سهل بابل** معروف فى القديم باسم **عدنو**، والحويلة المذكورة فى التوراة هى الجزء الشمالى من جزيرة العرب المتاخم للعراق. **والجنة فى القرآن على العكس سماوية**، وهى مكان أعدّه الله للمؤمنين، وليست جنة واحدة وإنما جنّات تجرى من تحتها الأنهار، والناس فى إيمانهم لا يستوون، وهم أصناف، ولذلك لا يدخلون جميعاً جنة واحدة، وفى الحديث عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**» أخرجه الشيخان. وفى تفسير **الفردوس** يقول مجاهد: إنها البستان بالرومية، وورد عن النبىّ ﷺ برواية سمرة وإخراج ابن جرير قال: «**الفردوس ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها**». وترد **جنة عدن فى القرآن** إحدى عشرة مرة، **وفى التوراة لا ترد إلا مرتين**، وكان الاسم ـ كما ذكرنا ـ عند البابليين عدنو.

وعن أنس أن الرسول ﷺ قال عن جنة عدن: «خلق الله جنّة عَدْن بيده لبنةٌ من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقى فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقال الله: وعزّتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر ٩). وهذه الصورة الحسّية لجنة عدن إنما هى كناية لما لا سبيل إلى وصفه منها بلغة البشر، وتصويرها بهذه الصورة المادية لتجسيم المعنى المعنوى وجعله أسهل للفهم وألصق بالذاكرة. وفى التوراة لا يرد إطلاقاً اسم الجنة فى أى من الأسفار بخلاف هاتين المرتين التى ورد فيهما مضافًا إلى عدن، وثواب اليهود فى الدنيا، يُنعِّم فيها الله المؤمنين، وعقاب العاصين فى الدنيا أيضاً. وجهنم عندهم هى هنوم، تُنسب لواد على مشارف القدس كانت تحرق به الزبالة، ثم أطلق على محرقة الأجساد رمزاً للهلاك الأبدى.

وقصة الخروج من الجنة تختلف فى كل تفاصيلها فى القرآن عن التوراة، ففى القرآن أن الله قضى بأن يخلفه آدم وبنوه على الأرض، وأنه تعالى علّمه أسماء الموجودات، وأنه التقى بالملائكة لينبئهم،ولمّا لم يفهموا وأبدوا التخوّف طمأنهم أنه علاّم الغيوب، وعرض آدم عليهم فأنبأهم بالأسماء، ودهشوا لعلمه ما لا يعلمون، وسجدوا له بأمر الله إلا إبليس فقد أبى واستكبر. وأسكن الله آدم وزوجه الجنة ونهاهما عن الاقتراب من الشجرة، فأزلّهما الشيطان عنها، فوجب خروجهما من الجنة، وهبطوا إلى الأرض جميعاً، آدم وزوجه وإبليس، بعضهم لبعض عدو، وتاب آدم بما تلقى من الله من كلمات،وعاش وزوجه على الأرض يتناسلان وبنوهما، فمن يتّبع هدى الله لا يحزن ولا يخاف، ومن يكفر ويكذّب فأولئك أصحاب النار (البقرة ٣٠ ـ ٣٩)، وهذه تفاصيل لا يوجد إطلاقاً ما يشبهها فى التوراة؛ والقصة برمتها فى القرآن فى غاية السمو، والحبكة فيها فى غاية القوة.

وفى سورة أخرى يأتى الخلاف مع إبليس، وعناده وإصراره على الاستكبار حسداً لآدم واستعلاءً، ويلعنه الله، فيطلب أن ينظره إلى يوم البعث،ويعده أن يغوى بنى البشر أجمعين، وأن يقعد لهم كل مقعد، وبدأ بآدم وحواء، وأوقعهما فى المكروه فذاقا الشجرة المحرّمة، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، واعتذرا لله أنهما ظلما نفسيهما وطلبا المغفرة، فأهبطهم جميعاً إلى الأرض، يستقرون فيها إلى حين، متخاصمين ومتعادين إلى أن يموتوا فيها ثم يبعثوا منها يوم القيامة (الأعراف ١١ ـ ٢٥). وفكرة الشيطان، والصراع الأجناسى بين إبليس وآدم، وتوعّده لبنى البشر، وطلب آدم وحواء للمغفرة، وحُكم الله فيهما، كل ذلك غير موجود فى النصّ العبرى.

وفى سورة أخرى يقص القرآن: أن الله قد عهد إلى آدم فنسى ولم يكن له عزم، وسجد له الملائكة إلا إبليس، فحذر الله آدم وزوجه منه، لئلا يخرجهما من الجنة فيشقيا ويعرفا الجوع والعرى والظمأ وشدة الحرّ، وعصى آدم ربّه فغوى، وأكلا من الشجرة المحرّمة وبانت سوءاتهما، واستغفر آدم وتاب، واجتباه ربّه فتقبل منه وهداه، وقضى الله تعالى أن يهبطوا جميعاً أعداء لبعضهم البعض إلا من اهتدى (طه ١١٥ ـ ١٢٣)، وليس فى النص القرآنى أن حيةً غوت حواء، أو أن حواء غوت آدم، وإنما كانت الغواية من إبليس لآدم، وتابعته امرأته على ما فعل، وتاب آدم وأناب وهداه الله، وكان عليهم أن يتركوا الجنة ويهبطوا للأرض ليَشْقُوا ويتعادوا إلا مَن هَدَى الله، وجميعها تفاصيل لا يشبهها شىء فى التوراة!

وفى سورة أخرى يبلغ الحوار بين الله تعالى وبين إبليس ذروةً درامية رفيعة، وتسبق ذلك وتمهد له عبارات آية فى الجمال، ويختلط السرد بالحوار، ويأتى ردّ إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف ١٢)، ويكون الحكم الإلهى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)﴾ (ص). ويحاور إبليس ويداور ثم يقول قولاً مُنكراً: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ (ص)، وينهى الله تعالى الحوار نهاية يوجز بها قصة الخروج فيقول: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾(ص).

فالقرآن كما ترى أغنى فى التفاصيل، وما يرويه أكثر معقولية، وروايته رواية شاهد يعرف ما يقول، ويشهد بما يعرف، وبما يعنيه ويتضمنه ويشتمل عليه من نتائج ودروس مستفادة، وشتّان بين روايته والرواية الفجّة التى يسردها التوراة!



٧٠٠- ﴿دخول آدم وحواء فى الجنة للسكنى لا للإقامة﴾

لمّا كفر إبليس أخرجه الله تعالى من الجنة وأبعده عنها، وبعد إخراجه قال لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة ٣٥)، والسكنى تعنى الإقامة، والإقامة لا تكون إلا لمدة، ومن لحظة أن قال لهما «اسكن أنت وزوجك» كان ينبغى أن يفهما أن سكناهما الجنة هى سكنى مؤقتة، وعليهما أن يرتقبا خروجهما، وسكناهما إذن من نوع «السُّكنَى الرُّقبَى، أى السكنى ومراقبة أن تكون لمدة، بعكس السُّكنَى العُمْرَى، أى السكنى طوال العمر، أو السكنى مع حق الإعمار فى السكن، كما فى قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود ٦١)، أى أسكنكم فيها لأعماركم، ولكى تعمروها، وفرقٌ بين أن

يسكن آدم وحواء الجنة سكناً لمدة، وبين أن يسكن الإنسان الأرض طوال حياته ولكى يعمّرها. وفى الحديث: «العُمْرَى جائزة لمن أُعمرها؛ والرُّقْبَى جائزة لمن أُرْقبها» أخرجه ابن ماجة.

●●●

٧٠١- ﴿شجرة المحنة﴾

الشجرة التى أكل منها آدم وحواء رغم نهى الله لهما عنها، قيل: هى الكَرْم: ولذلك حُرِّمت علينا الخمر؛ وقيل: هى الحنطة، ولذلك جعلها غذاء آدم وبنيه من بعد ذلك لمّا تاب عليه؛ وقيل هى التين: ولذلك تُعبَّر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم وحواء على أكلها. وليس فى شىء من هذا التعيين ما يعضده خبر، والصواب أن نعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (البقرة)، فخالف هو إليها وعصى بالأكل منها، فكما عصى إبليس ربّه كان أيضًا عصيان آدم، ولكن عصيان إبليس لم يكن عن اختيار، ولا هو محنة، على عكس اختيار آدم فقد كان محنة وأى محنة!

●●●

٧٠٢- ﴿آدم لم يكن له عزم﴾

قيل الإنسان من النسيان، والله تعالى عهد إلى الإنسان فنسى العهد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ (طه)، فكأن العهد كان لآدم ولبنيه من بعده، والنسيان كذلك كان صفةً فيه وفى بنيه من بعده، ولم يقل الله تعالى «عصى» وإنما قال «نسى»، لأن عصيان آدم كان بتأويل، وكان آدم يعتقد ألا يأكل من الشجرة، فلما وسوّس إليه إبليس لم يعزم على معتقده، والشىء الذى عهد إلى آدم هو: ألا يأكل من الشجرة، وأُعلم لذلك أن إبليس عدو له. والعزم هو الصبر ـ صبره عن أن يأكل من الشجرة، وأن يواظب على التزام الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف ٣٥). وقيل: إن الله تعالى نهاه عن شجرة بعينها، وخدعه إبليس بأن النهى وقفٌ عليها وليس على نوعها، وترك آدم الاستدلال، أو أنه لم يطبّقه، وما تعرفه ولا تطبّقه فكأنك تجهله، وكأن آدم لم يكن يعرف الاستدلال، فترك الشجرة المنهى عنها وأكل من أختها التى من جنسها، وكان أكله منها تأويلاً وليس نسياناً، فمن قال بالنسيان أخطأ. وقيل: إن آدم لم يكن من أولى العزم من الرسل وقيل: إنه ما من نبىّ إلا وقد أخطأ أو هَمّ بخطيئة، فلو خرج آدم من جملة أولى العزم بسبب خطيئة، لخرج جميع

الأنبياء. وذلك غير صحيح، فكل نبيّ حالة خاصة وله ظروفه، وآدم فيما يبدو قد تعهّد وأصرّ على الوفاء، وأخذ نفسه بالالتزام بالأمر بصرامة، فهذا هو **العزم**، ولكنه فى الحقيقة تهاون واستخف، وهذا هو معنى **أنه لم يكن له عزم**. والحق يقال أنه كان واقعاً تحت ضغوط نفسية من أشد ما عرفته البشرية من الضغوط النفسية: **ضغط إبليس ثم ضغط حواء**، فلا عجب أن ضعُف عزمه، فعذره ربّه، وغفر له.



٧٠٣- ﴿ذنب آدم لا يُزرى به﴾

الزراية هى الاحتقار، ويُزرى به أى يعيبه، ومنها الزرىّ وهو الذميم المحتقر، والزراية لآدم، لأنه كقوله تعالى: ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴿١٢١﴾﴾ (طه)، فما فعله آدم هو عصيان وذنبٌ لا شك فيه، إلا أن ذنوب الأنبياء مغفورة لأنهم يستغفرون منها ويتوبون، وذنوبهم بالنسبة لغيرهم حسنات مع ذلك ولكنها فى حقّهم سيئات، بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، **والوزير** قد يؤاخذ بما يثاب عليه ساعى مكتبه، أو جندى الحرس عنده، وفى الخبر أن **حسنات الأبرار سيئات المقرّبين**، ومع أن الأنبياء تقع منهم الذنوب إلا أنها لا تخل بمكانتهم، ولا تقدح فى رتبتهم، وفى الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ، قال: «**احتجّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا وأخرجتنا من الجنة؟ فقال آدم: ياموسى، اصطفاك الله عزّ وجلّ بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى! أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة! فحجّ آدم موسى ثلاثاً**»، ومعنى حجّه أى غلبه بالحُجة. وصحّت حُجة آدم لأن الله قد غفر له خطيئته وتاب عليه، وما كان لموسى أن يعيّره بخطيئة قد غفرها الله له.



٧٠٤- ﴿آدم أول نبىّ﴾

فى الحديث الصحيح أن نوحاً هو أول رسول، يقول: «**ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»، فهو الأول لأنه كان **أول** من جاء بشريعة، إلا أن آدم أيضًا باعتباره **أول البشر** كان له **تعليمه** من الله، وكان يعلّم أبناءه أوامره ونواهيه، وإذن كان آدم نبيًّا، وكان **أول نبىّ بغير إشكال**، ولم يكن معه إلا النبوة، ولكن لم تفرض له الفرائض، ولاشُرّعت له المحارم، وإنما كانت أقواله تنبيهاً على بعض الأمور، واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء. وفى الآية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران) ثبت أنه تعالى اختار لهؤلاء دينهم

وهو الإسلام، واختار لآدم النبوة، ولإبراهيم النبوة، ولنوح الرسالة، ولآل إبراهيم وآل عمران أن يكون منهما الكثير من الأنبياء والرسل، فمن آل إبراهيم كان: إسماعيل، وإسحق ،ويعقوب، والأسباط، ومحمد ﷺ؛ ومن آل عمران: موسى، وعيسى. وقيل إن «آل إبراهيم» هو نفسه، و «آل عمران» هو نفسه، والصحيح أن الله تعالى خصّ هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم.

●●●

٧٠٥- «كلمات آدم»

قيل فى الآية: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة ٣٧)، أن كلماته تعالى التى تاب آدم بها هى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف ٢٣)، أو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (القصص ١٦)، أو قوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء)، أو أن هذه الكلمات التى نطق بها لسانه وعبّرت عن حاله هى: «لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً وظلمتُ نفسى فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين»، وفى كل ما سبق لم يتجاوز آدم الاستغفار المعهود عند ارتكاب الذنوب، وكان يبكى، ويدعو، ويبدى الندم، ويعتصره الحزن.

●●●

٧٠٦- «آدم خليفة الله فى الأرض»

فى الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠)، قيل الخليفة هو آدم وذريته من بعده، فهم يخلفونه تعالى فى الأرض، ويهتدون بهديه، ويأخذون بأسبابه، وأولهم آدم فهو الخليقة الأول، ومؤسس الخلافة الآدمية، وهو الذى كان عليه أن يعلّم أولاده، وقيل كان رسولاً إلى أولاده الذين تكاثروا من بعده كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء١). وخلافة آدم هى الأصل فى تنصيب الرئيس للدولة أو للحكومة، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الدولة.

●●●

٧٠٧- «آدم أول العلماء من البشر»

فى الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة ٣١): أن «آدم أول من تعلم العلم»، وأن

تلقّى العلم كـان أولى مهامـه، وكان عبادتـه لله تعالى، وأن أول دروس العلم هو معـرفة أسماء الأشيـاء والأشخاص والموجودات، وأن الله تعالـى كان مـدرس آدم، يعنى أن الـعلم بالأشياء فى الإنسان فطرة، وأن الأمر فى تعليم الصغار هو أن نحيى فى فطرتهم ما علّمه الله لآدم وانتقل فيهم چينيًـا، وتعليمه تعالى - والتعليم عمومًا - هو الـتعريف بالأسماء، والله تعالى عرّف آدم بها، وكان تعليمه له إلهـامًا، والأسماء مفردها «اسم»، وهو اللفظ الموضوع على جوهر أو عَرَض لتعيينه ولتمييزه، ويراد به الاسم والمسمى، فالاسم كقولنا أسـد، من ثلاثة حـروف، والمسـمى هو الحيوان الذى له صفـات معينة، وقوله: «كلهـا» للإحاطة والعـموم، وفى الآية دليل على أن اللغـة مأخـوذة توقيفاً، والله تعـالى علّم آدم أسماء ما خلق وأبدع مما لم تعلمه الملائكة، ومـعنى أنه سمّى له كل شىء باسمه، أنه ذكر له منفـعته ومـضاره ـ فـذلك سبب إعطائه الاسم، وقـيل: علّمه الأسـماء فى مـختلف اللغات، فلم يكن آدم يتكلم لغة واحـدة، واللغات كلها أسماء. والآية فى عـمومها دليل على فضل العلم وأهله، وباعتبارها فإن آدم هو «أول علماء بنى البشر»، وهو «رأسهم»، وفى الحديث أن الله يباهى الملائكة بأهل عرفات، وهم العلماء، وسجود الملائكة إنما لصفة العلمـية عند آدم، وسجودهم ليس تذللاً وخضوعاً، ولا سجود عبادة، وإنما سجودُ تكريم لما حباه الله من العلم، وكان سجود الملائكة تعليمًا للبشر أن يسجـدوا للعلم، فالناس إما علماء وإما جهلاء، والعلماء هم بنو آدم عن حقّ.

●●●

٧٠٨- ﴿إبليـس﴾

«إبليس» اسم عَيْن للشيطان، وقيل اسمٌ أعجمى أصله **diabolos** اليونانية، وشتّان بين الاسمين، فإبليس عربى من البَلَس وهو الشرّ، ويطلق على ثمر كالتين، وعلى العدس المأكول؛ والبَلَسان شجر كشجر الحناء ينبت بعين شـمس فى مصر، وأَبْلَس يئس وتحيّر، وبُلْبيس من مراكز مصر، وبُولس سجن بجهنم، فكما ترى أن اسم إبليس عربىٌ صميم. وفى القـرآن يتكرر إحـدى عشـرة مرة، يقترن فيـها جميعاً بالعصيـان والبهتان، والكِبْر والحَسَد، والمكيدة والحـيلة، والرفض والجَحد والعناء، وفى القرآن: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ⑫﴾ (الـروم)، يعنى يسكتون وتنقطع حُجـتهم، ومن هذا المعنى كان اشتقاق الاسـم إبليس على وزن إفعيل، لأنه انقطعت حجته. ومن يقول أن الاسم أعجمى يتعلّل بأنه غـير منصرف فى القرآن، ولو كـان عربياً لانصرف. والصحـيح أنه لم ينصرف لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء، فلم يعرف أحد باسم إبليس إلا هو، فشبِّه بالأسماء

الأعجمية. والمُبلِس هو اليائس، كقوله: ﴿ كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) ﴾ (الروم)، أى يئسوا وأصابهم من شدة يأسهم الاكتئاب، وفى المقابل يقول تعالى: ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ (الروم) فجعل المبلسين نقيض المستبشرين.

وكما تنفرد العربية باسم إبليس فلا نعثر عليه فى كُتب اليهود، فإنه فى النصرانية غير موجود كذلك، ويأتى فى الترجمات العربية لبعض كتبهم كمرادف عربى لشيطان، فالاسم إبليس عربى قُحّ، ومترجم إنجيل متىّ بدلاً من شيطان **devil** استخدم إبليس (١/٤)، وجعله يجرّب المسيح؛ والمترجم العربى لرؤيا يوحنا استخدم إبليس كذلك (٩/١٢)، ووصفه بأنه التنين العظيم، أى الحية القديمة المسماة **diabolos**، أو **diofol**، أو **tiufal**، أو **djofull**، وقصد إلى أن يستخدم الاسم الشائع فى العربية للاسمين **devil** و **satan**، فترجم الأول إبليس، والثانى الشيطان، وإلا فلا وجود لاسم إبليس فى أى من اللغات إلا العربية. ثم إن هناك اختلاف بين قصة إبليس فى القرآن وقصته فى التوراة فى سفر التكوين، ثم فى الإشارات عنه عند متىّ (١/٤ ـ ١١)، وعند لوقا (٨/ ١٢)، وبطرس الأولى (٨/٥)، وإفسس (٦/ ١١)، وتيموثاوس الثانية (٢/ ٢٦)، وكورنثوس الثانية (١١/ ٣) إلخ. والقصة القرآنية شديدة الحبكة، والحركة فيها سريعة، والعبارات والكلمات تترى مناسبة للمواقف الخطيرة، وشخوص القصة واضحة المعالم لها إرادتها وخياراتها، وسقوطها من نفسها له دوى فظيع ونتائج ملحمية كبرى، وليس كذلك القصة فى التوارة، فهى تُروَى عادية، وتُسرَد وقائعها سرداً فى سطور قليلة، وتؤدى الحيّة دور الشيطان، والجَنَّة فيها جنةٌ أرضية يرادف اسمها اسم البستان. وليس بالقصة التوراتية المشاهد العظيمة الكبرى التى فيها الحوار بين الله تعالى وبين إبليس والتى تأتى فى القرآن، وإنها لمشاهد فى قمة السمو الفكرى، والتعبير فيها آية فى البلاغة، والكلمات اصطلاحية وحافلة بالرمزية، ولعمرى لِمَ لم يتناول المستشرقون هذه القصة وينبّهوا إليها ولو باعتبارها من عيون الأدب والفكر الفلسفى العالميين، إلا أن يكون هو الحسد دفعهم إلى ذلك ليغمطوا القرآن حقّه، وأنه الكتاب المنزّل من لدن الله، وأن قصصه هو القصص الحق.

وإبليس فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ (البقرة) لا يعنى أنه من الملائكة فالاستثناء منقطع، والله تعالى وصف الملائكة بأنهم: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ (التحريم)، وقال فى إبليس: ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (الكهف ٤٨)، والجنّ غير الملائكة، والجِنّ خُلقوا من نارالسموم، وخلقت الملائكة من النور. وقيل سُمِّى الجِنّ جنّاً من

الجَنّـة، لأنهم كانوا خزنتها، وكانوا يأتون الأعمـال الباهرة العجيبة ، ومن ذلك قولنا: به جُنّة، أي يقول عجباً! فلما فسق إبليس عن أمر ربّه تبعته الجنّ، فهؤلاء جنوده فى الآية: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (الشـعراء)، وغضب الله على إبليس وجنوده فمسـخهم شياطين، من شَطَن أى بَعُد عن الخير، وصار إبليس هو الشيطان، لبُعده عن الحق وتمرده، وصار كل عاتٍ متمردٍ من الجن والإنس شيطاناً أو يقال له شيطان.



٧٠٩- ﴿قالت المعتزلة: إبليس ما دخل جنة الخلد﴾

المعتزلة على القول بأن الجنّة فى قوله تعالى لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة ٣٥)، المقصود بها البستان الذى بأرض عَدْن، وأخذوا هذا القول عن اليهود: أن جنة عدن شرقاً أعدّها الله في الأرض لسكنى آدم وزوجه وجعلها كالبستان، وأنبت فيها الشجر المثمر والزهور الطيبة، وأجـرى فيها الماء (التكوين ٢/ ٨)، غيـر أن قول اليـهود كان نتيجة خلو اعتقادهـم أصلاً من الجنة والنار فى الآخرة، وعندهم الجنة والنار فـى الدنيا وعلى الأرض، والمعتزلة اعتقـدوا فى الجنة والنار الأخرويين، ولكنهم قالوا إن جنة آدم أرضيـة ومـعناها البستان وليس المعنى المتعارف عليه. وحجة المعتزلة: أن جنة آدم لو كانت جنة الخُلد لما وصل إليها إبليس أصلاً، فـإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ (الحـجـر)، وإبليس لم يتقِ الله ليسـتحق دخول الجنة. ثم إن مـا قاله لآدم وحواء غـوايةٌ والغواية من اللغو والتأثيم وهو تعالى يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ (النبأ)، ويقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ (الواقعة). ولقد طُرد إبليس من الجنة لما عصى ربّه، فكيف دخل ثانية ليكيد لآدم وحواء، إلا أن تكون الجنة المعنية هى جنة الأرض وليست جنـة الخُلد؟ وجنة الخُلد يدخلها الداخلون فـلا يخرجون منهـا لقوله تعـالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (الحجـر). ولو كانت جنة آدم هـى جنة الخُلد ما استطاع إبليس أن يكيـد لآدم وحواء ويخرجـهما منهـا، فالجنة موضع مـقدس عن الخطايا والمعاصى، ومطهَّـر عنها، وإبليس قـد لغا فيـها وكذب أكبـر وأفدح كـذبة فى الوجود، والمعتـزلة التى قالت بذلك أول فرقة انتصرت للعـقل على النقل، وأعملت العقل فى كافة النصوص الدينية، فاعتزلوا أهل الجمـاعة والسُّنّة، فقيل فيهم إنهـم المعتـزلة لهذا الـسبب، وكان ذلك فى النصف الأول من القرن الثانى الهجـرى. ويُحبط أقوال المعتزلة أن الله تعالى عاقب آدم وحواء وإبليس وسائر المخلوقات بأن أمرهـم بالهبوط، وهو النزول من أعـلى إلى أسفل، يعنى من جنة السماء إلى الأرض، فلا يصحّ أن يكون الهبوط من أرض إلى أرض!



٧١٠- ﴿إبليس أول مَن عصى وكفر﴾

إبليس فسق عن أمر ربّه كقوله تعالى: ﴿ **إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ (الكهف ٥٠)، أى تمرّد وعصى؛ كقوله: ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة ٣٤). فأول عصيان من مخلوق لخالقه هو **عصيان إبليس** رفض أن يمتثل لأمره تعالى بالسجود لآدم، بدعوى أن آدم خلقه من تراب بينما إبليس خلقه من نار، فبزعم شرف النار على التراب تعلّل بأن لا يسجد. **فأول مَنْ كفر هو إبليس**. والسؤال هو: **هل كان كفره عن عناد أم عن جهل؟** والجواب: لم يكن إبليس يصدر عن جهل وقت أن عصى، لأنه كان يعرف ويعلم، إلا أنه كان من «**الجاهلين**»، بالمعنى الذى جاء فى قصة عمر لمّا دخل عليه الأعرابى يسبّه ويقول: والله ما تعطينا الجَزْل يا ابن الخطاب، ولا تحكم بيننا بالعدل ـ والجزل هو الشىء الكثير. فغضب عمر، فانبرى أحد الجالسين يقول: يا أمير المؤمنين. إن الله قال لنبيّه: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف)، وهذا من الجاهلين! – وبعد هذه الآية مباشرة يأتى قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ﴾ (الأعراف ٢٠٠)، **والتعوّذ بالله** مما تثيره فى النفس جهالة أحدهم كهذا الذى سبّ عمر. وكذلك كان إبليس من **الجاهلين**، وكان عصيانه **نزغاً** من طبيعته النارية العنيفة، ونَزْغُه كان هذا **الحسد والكبر** فيه، فذلك الذى دعاه إلى الكُفر فعصى الله. فإذا كانت خطيئة المرء فى حَسَده وكِبره فلا تَرْجُه، وإن كانت خطيئته فى معصية كآدم، فارجُه. ولو قارنا **خطيئة آدم بخطيئة إبليس**، لتبيّن أن خطيئة آدم كانت **معصية**، بينما خطيئة إبليس كانت **الحسد والكِبْر**؛ وهما بَطَرٌ للحقّ وغَمْطٌ للناس، **وبَطَرُ الحق**: تسفيهه وإبطاله؛ **وغَمْطُ الناس**: هو الاحتقار لهم، والازدراء بهم، قال إبليس: ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف)، وقال: ﴿ **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴿٦١﴾ ﴾ (الإسراء). وقال: ﴿ **لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴿٣٣﴾ ﴾ (الحجر)! **فأول معصية فى الوجود كانت الحسد والكبر**، والاثنان وجهان لعملة واحدة، وكلاهما يؤدى للآخر، وإبليس حَسَد آدم على ما فضّله به ربُّه، وهذا هو المقصود فى تعريف الكِبْر بغمْط الناس، فلما حَسَده تكبّر عليه، وهذا هو بَطَرُ الحقّ، أى تسفيهه وإبطاله، فالمتكبّر يتصرف وكأنه أحسن ممن يتكبّر عليه، فيزيده تصرُّفه توهماً بأنه الأحسن، وطالما أنه كذلك حَقٌّ له أن يتكبّر، فكأنه وحده الموجود دون الآخر، **فسلوك الكبر يلغى الآخر**. وهكذا يكون **الحسد** يتسرّب إلى النفس ويؤدى إلى ارتكاب الذنوب، لأنه بداية المرض النفسى والإصابة بهذاءات العظمة، والاحتقار للآخر وتضخُّم ذات المتكبر وأن يُعلى من قدر نفسه، وتُسلمه **هذاءات العظمة إلى السلوك البارنى** (من بارالويا أى جنون توهُّم العظمة)، **فيكون ادعاء العظمة عن غير أساس وهو المسمى**

بالكبر. وهى حالة باثولوچية مؤكدة، وإبليس كان بكل المقاييس حالة مرضية تستحق الدراسة من حالات جنون توهّم العظمة، والحسد والكبر هما أساس وخميرة وجود هذا الاضطراب النفسى - البارانويا - بين البشر، بمعنى أن الحسد والكبر يولدان هذا الاضطراب.

●●●

٧١١- ﴿هل لإبليس ذرية؟﴾

في الآية: ﴿ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ۝٥٠ ﴾ (الكهف)، أن إبليس له ذرية، فهل ذريته من صُلبه؟ وهل له زوجة؟ والجواب: أن الغالب أن ذرية إبليس هم «أعوانه» من شياطين الإنس والجان، يوسوسون إلى بنى آدم. وليس فى القرآن أى شىء عن زوجة لإبليس، أو أنه يولد له، حتى تكون له ذرية من صُلبه، والذى ثبت عن رسول الله ﷺ عند مسلم أن الشياطين تبيض وتُفرخ. وقيل: الشياطين هم ذرية إبليس، وقيل: فى أسمائهم ضمن الميثولوچيا الدينية الإسلامية: زَكَنْبور: أى «الموقّعاتى»، وهو شيطان التُّجّار؛ وثَبْر: أى «المصيبة» أو «صاحب المصائب»؛ والأعور: صاحب الزوانى؛ ومسوِّط أى «المشنّعاتى»، صاحب الإشاعات؛ وداسم: أى «الخَرَبى»، يخرب كل بيت يدخله، وكل قلب وضمير وعلاقة؛ والأبيض: أى الكاشف الذى يكشف كل شىء ويجعله «على بياض»، وهذا عمله مع المصلحين والدعاة والأنبياء؛ وصخر: أى «القوى الصُلب» الذي لا يلين، وهو اللحوح الخنّاس؛ والولهان: أى «المتحيّر الحزنان»، يشيع الحزن بين الناس ويُبكى كل إنسان؛ والأقيَس: أى «الصيّاد»، يصطاد فى الماء العكر، وأكثر عمله وقت الصلاة ليشغل المصلين عنها؛ ومُرّة: أى المرير الممرور، وكنيته أبو مُرّة، لأنه يسقى الناس المُرّ ويؤكلهم الحنظل، بالغناء والإنشاد، فيبكون ويدمعون؛ والهفّاف: أى «المُزَوّقاتى»، وكلامه نزق ونصيحته هواء؛ ولقُوس: أى «العيّاب»، يعيب كل شىء ولا يعجبه شىء؛ والمتقاضى: يتقاضى الناس ويخبرهم بما عملوه من شرور منذ زمن بعيد ليخزيهم؛ والخنّاس: أى «المتخفّى»؛ وقيل كذلك: خُنْزُب: وهو اسم الشيطان الذى يحضر المؤمن فى الصلاة ليصرفه عنها. وربما كانت هذه الأسماء حالات للشيطان يتلبّسها بحسب المواقف، وعند مسلم أن الرسول ﷺ سَمّى جهاد المسلم مع الشيطان «معركة الشيطان»، ومن المصطلحات الإسلامية التى يدخلها اسم الشيطان: «جنود الشيطان»، و«سرايا الشيطان»، و«حزب الشيطان»، وهؤلاء هم فى الغالب «ذرية الشيطان»، أى أعوانه ومساعدوه.

●●●

٧١٢- ﴿إبليس وقابيل أول من أضلونا﴾

فى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ** (٢٩)﴾ (فصلت) فإن الذى أضلنا من الجن: هو إبليس، ومن الإنس: قابيل، وذلك أن إبليس كان أول من سنّ الكفر، وقابيل كان أول من سنّ القتل، وأصل ذلك كله الحسد فى الحالتين.

•••

٧١٣- ﴿واحد من كل ألف لله والباقى للشيطان﴾

فى الآية عن إبليس: ﴿**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**﴾ (النساء ١١٨)، وفى الحديث ﷺ عن «**النصيب المفروض**»: أنهم أتباع الشيطان: «**من كل ألف، واحد لله، والباقى للشيطان**»، وفى رواية أخرى بنفس المعنى: «**من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة**» أخرجه مسلم، وفى الحديث القدسى عن قوله تعالى لآدم: «**أبعث بَعْثَ النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**» أخرجه مسلم، و«**بعث النار**» هو نصيب الشيطان من البشر، أى أتباعه فى الدنيا.

•••

٧١٤- ﴿«الشيطان» فى العربية والعبرية﴾

المستشرقون وأخصهم **جولدتسيهر، ونولدكه وهوروفتس**، على القول بأن فكرة الشيطان منقولة عن كتب العهد القديم، ولم نعثر على كلمة «**شيطان**» فى هذه الكتب إلا ضمن نبوءة زكريا وفى سفر أيوب؛ وفى النبوءة يقول زكريا: «**وأرانى يشوع الكاهن العظيم واقفاً أمام ملاك الربّ، والشيطان واقفاً عن يمينه ليقاومه، فقال الربّ للشيطان: لينتهرك الربّ يا شيطان**» (٣/١ - ٢)؛ وفى سفر أيوب يقول الذى يقصّ الحكاية: «**واتفق يوماً أن دخل بنو الربّ ليمثلوا أمام الربّ، ودخل الشيطان بينهم**» (الفصل الأول ٦)، ثم يكون الحوار بين الربّ والشيطان، ويراهن الربّ على أيوب. وسفر أيوب هو وصف لمحنة أيوب الذى تسبب له فيها **الشيطان**. وفى اليهودية والنصرانية: الشيطان من **Satan** العبرية ومعناها «المعاند»؛ وفى اليونانية الشيطان **diabolos**، ومنها **diable**، وأما **lucifer** فمعناها «**الصفراوى**» الذى يكبت التمرد والغضب والكراهية، وأصل الكلمة يونانى أيضًا، وتختلف الأسماء باختلاف اللغات والأجناس، وبحسب المفهوم عن الشيطان فى كل ثقافة. وفى النصرانية فإن الشيطان هو **بعل زبول** (متّى ١٢/ ٢٤) **وبليعال** (٢ كولوسى ٦/ ١٥)، ويوصف بأنه رئيس مملكة الهواء، وقرين أبناء المعصية، **والتنين**، وكبير الأرواح الساقطة، ويُنعَت بالخبث،

والتمرد على الله، والفساد فى الأرض، والمقدور عليه أن يظل مطروداً من رحمة الله، وأن يعادى الإنسان، وأن يجرّب الناس للخطيئة، وأن يقاومه المؤمن ولا يخضع له، وتعاونه عُصبة من الأرواح العاصية، وكلهم يعمل لصرف الإنسان عن الإيمان والخير، فمن سايره فهو من أبناء الشيطان، ومنهم «يهوذا الاسخريوطى» وقد دعاه المسيح **شيطاناً**، وحاول الشيطان مع المسيح، ومن دأبه أن يتلبّس الناس فيصيبهم منه العته والصرع والجنون، والخرس، والعمى، ونهاية الشيطان أن يُطرح فى الآخرة فى بحيرة النار والكبريت (رؤيا يوحنا ٢٠/١ ـ ٢/ ١٠).

وفكرة الشيطان فى **الزردشتية، والمانوية، والعرفانية**، ولم توجد ديانة ولا فلسفة فيها فكرة متكاملة عن الشيطان كالإسلام، ويأتى ذكره فى القرآن ٨٨ مرة، ويوصف بأنه كفور، وعصىّ، وعدو مُبين للإنسان، يزلّه، ويُوَسوس ويسوّل له، ويتنزّل عليه ويفتنه، ويتخبّطه من المسّ، ويستهويه، ويغويه، ويَعده، ويخذله، وله رِجْز ورجس وهما الإثم والذنب، وله نجوى، ويأتى على خطوات، ويمر كالطائف، ومن يمسه يتخبّطه بالنصب والعذاب، وكيده مع ذلك ضعيف، ولا يعد إلا الغرور، **وأولياؤه** هم أتباعه، **وإخوانه**، وحزبه، **وقُرناؤه**، يُوحى إليهم، ويستحوذ عليهم ويتعبّدونه، والشيطان **رجيم** أى مرجوم، **ومَريد** أى خبيث وشرير، وما من نبىّ ولا رسول إلا تمنى وألقى الشيطان فى أمنيته. والتعوّذ من الشيطان يقى منه، كقوله تعالى: **﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** (الأعراف ٢٠٠)، والاستعاذة منه أوجب عند قراءة القرآن: **﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾** (النحل)، يعنى أن يقال: «**أعوذ (أو نعوذ) بالله من الشيطان الرجيم**»، **والعوذ والعياذ والتعويذ** كلها بمعنى واحد، **والمعوذتان** دعاء يُتعوَّذ بهما من الشيطان، وقوله تعالى: **﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾** (الناس) يعنى الشيطان، وهو **خنّاس** لأنه ينقبض ويتأخر عند ذكر الله تعالى، وفى الصحيح أن النبىّ ﷺ قال: «**إن الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم**» أخرجه البخارى، وفى قوله: **﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾** (الناس) أن الجِنّة جنس الشياطين، **والمَرَدة** وصفهم فى أحوال دون أحوال، ورئيسهم جميعاً **إبليس**، وكان خَلْقُهم من النار كما كان خَلْق الإنسان من الطين. وقيل فى الشيطان إنه **شيطانان: فشيطان الجن** يوسوس فى الصدور خفية، **وشيطان الإنس** يوسوس جهرة، كقوله تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾**(الأنعام). والشيطان **مصطلح عربى أصيل**، ودليل أصالته فى العربية كثرة استخدامه وتصريفه، ويُجمع على **شياطين**، ويشتق من **شطن** يعنى بَعُد عن الخير، وتقول **شطنت** داره إذا بَعُدت، وبئر **شطون** أى بعيدة القعر، **والشَّطَن**

الحَبْل، سُمّى به لبُعد طرفيه. وسُمّى الشيطان شيطاناً لبُعده عن الحقّ وتمردّه، ويقال لكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس شيطان. وقيل شيطان من شاط يشيط إذا هلك، والنون زائدة، وشاط إذا احترق، وشيّطتُ اللحم إذا دخّنته ولم تنضجه، واستشاط الرجل غضباً إذا اشتد غضبه. وقيل إن الغالب أنه من شيطن وليس من شاط، ولذلك يقال تشيطن من شطن، فإذا كان من شاط قيل تشيّط. ومع الشياطين لا قواعد ولا أصول، وهم يخوّفون الناس الفقر لئلا ينفقوا فى وجوه الخير، ويثبّطونهم عنه، ويأمرونهم بالفحشاء - وهى المعاصى، وفى الحديث: «إن للشيطان لَمّة (يعنى خَطْرة) بابن آدم، وللمَلَك لَمّة، فأما لَمّة الشيطان فإيعاز بالشرّ وتكذيب بالحق، وأما لمة المَلَك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشيطان»، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ (البقرة ٢٦٨).



٧١٥- ﴿قصة ابنى آدم: قابيل وهابيل﴾

حكاية قابيل وهابيل من الأدب الشعبى «السامى»، والاسمان هما الصيغة العربية من الاسمين الساميين، وفى كل لغة «سامية» يختلف نطقهما بحسب الطبع اللغوى لأى من الأجناس السامية، واليهود كعادتهم يجعلون الاسمين من الأسماء العبرانية، وفى الموسوعات اليهودية لا تعثر على اسم قايين **Cain** كما ينطقونه، أو اسم هابيل **Abel**، لشخص من الأشخاص من القدماء أو المحدثين. وقيل إن قايين العبرية تعني الحدّاد، بينما هابيل العبرية تعنى النسمة، وهذا دليل على سوء الفهم المبيَّت للاسمين الساميين، على أنهما اسمان عبرانيان - كادعاء اليهود - وليسا ساميين. وأسأل: المفترض أن قابيل وهابيل ابنا آدم، وكان قابيل أول من يولد في العالم، بينما هابيل هو الابن الثانى لآدم، والمولود الرابع له، فهل كان فى زمنهما أيضاً عبرانيون ولغة عبرانية ليكون الاسمان عبرانيين؟! هلاّ اتقى هؤلاء اليهود الله وكفّوا عن الكذب والانتحال وسرقة تراث الشعوب؟!

وأيا كان الأمر، فقد نتساءل: فماذا يعني الاسمان إذن بصرف النظر عن التخرّصات العبرانية، وأكاذيب المدراش والسنهدرين، وادعاءات المستشرقين من أمثال جرينباوم، وآيزنبرج، وفايل؟ والأسماء فى نظرية القرآن، في قصة تعليم آدم، هى صفات، فأسماء الله الحسنى صفات له، وأسماء الأشياء التى تعلمها آدم وتلقّاها عن ربّه هى صفاتها البارزة، و«قابيل» كان أول مولود «يُقبِل» على الدنيا من أولاد آدم، فسمى «قابيل»، ونحن نسمّ «القابلة»، لأنها أول من «يستقبل» المولود، وقابيل بشهادة اسمه أول مولود فى الدنيا، وأما

«هابيل» فقُتل شهيداً، وعرفت أمه بموته معنى الثُكل لأول مرة، نقول «هبلته أمه»، يعنى ثكلته، وهى «هابل»، أي «ثاكل». وقابيل وهابيل على وزن واحد، والاسمان فى العربية من الأدب الشعبى الدينى وليسا من أسماء القرآن، ولا تُورد القصة القرآنية الاسمين، وتكتفى بأنهما ابنا آدم، بينما في التوراة يأتى ذكرهما كتسجيل للأحداث الإنسانية فيما قبل التاريخ؛ والقصة في القرآن لم ترد إلا مرتبطة بما قبلها ضمن السياق العام لسورة المائدة، فلما ذكر تعالى تمرّد بنى إسرائيل وعصيانهم لأمر الله فى قتال الجبّارين (الآيات من ٢١ إلى ٢٦)، ذكر قصة بنى آدم، وعصيان قابيل لأمر الله، وإقدامه على قتل النفس البريئة التى حرّمها الله، فكان المعنى: أن اليهود كانوا مثل قابيل، واقتفوا فى العصيان أول عاصٍ لله فى الأرض، فطبيعة الشرّ فيهم مستقاة من ولد آدم الأول، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان (الآيات من ٢٧ إلى ٣٢).

وفى قصة التوراة: أن قابيل كان عامل زراعة، بينما هابيل كان راعى غنم، تقول القصة: **وكان بعد أيام أن قابيل قدّم من ثمر الأرض تقدمة «للربّ»، وقدّم هابيل أيضاً شيئاً من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الربّ إلى هابيل وتقدمته، وإلى قابيل وتقدمته لم ينظر. فشقّ على قابيل جداً، وسقط وجهه، فقال الربّ له: لِمَ شق عليك؟ ولِمَ سَقَط وجهك؟ ألا إنك إن أحسنتَ تنال، وإن لم تُحسن فالخطيئة تنتظرك. ثم قال قابيل لأخيه: لنخرج إلى الصحراء** (ليخلو به)، **فلمّا كان فى الصحراء وثب على هابيل أخيه فقتله** (التكوين ٤/ ٣ ـ ٩). ولمّا سأل الربّ قابيل عن أخيه هابيل حاول الكذب، وسُدّ فى وجهه باب التكران إذ قال له الربّ: إن صوت دم أخيك صارخٌ إليّ من الأرض! ولعنت الأرض قابيل، وفتحت فاها مستقبلةً دم أخيه، وأقر بجريمته وببشاعتها، وبثّ ربّه خوفه من أن ينتقم منه، وفرّ لذلك إلى بلاد «نود»، وفيها بنى قرية، وولُد له ولدٌ دعاه أخنوخ أو حنوك، والمعنى واحد، أى المحنّك، لأنه حنّك فمه قبل الرضاعة، وفى العبرية الحنوك أو أخنوخ هو المكرَّس، والشىء العجيب أن قابيل لم يكن يعرف هذا المعنى بعد حتى يُسمّى ابنه به، وسمّى قابيل المكان الذى أقام فيه باسم ابنه (التكوين ٤/ ٩ ـ ١٧). وتنتهى القصة فى التوراة بلا ذكر للغراب، ولا لسبب تقبّل الله قربان هابيل. وليس فيها أن الله عليم بما يجرى من حوادث وبما جرى لهابيل. ولم تُطلعنا القصة إلا على جانب الحسد عند قابيل، ودافع الشر عنده. ولم تُظهرنا على مواعظ ودروس القصة، وكانت عباراتها جافة، وتقصُر ألفاظها عن التعبير عن المعانى.

وأما قصة القرآن فتقول: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا**

أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) ﴾ (المائدة)، وانظر إلى البداية الرائعة فى قوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ**﴾ وتسميته للقصة بالنبأ، ينأى بها أن تكون مجرد قصة، فمن القصص ما هو خيال، ولكن هذه القصة «نبأ»، يعنى من الواقع، لأن الناس لا «تُنبىء» غيرهم إلا بما هو واقع، وفى ذلك تبكيت لمن يتّبع توراة اليهود ويهجر القرآن، وتسلية للنبىّ ﷺ وللمؤمنين، لأن النصر فى قصة القرآن للإيمان، وقوله: «بالحق» أى أنها قصة حقّ ومتمشية مع الحقّ والصدق. ومفسرو المسلمين الذين أخذوا بالإسرائيليات نقلوا عن اليهود أن الخلاف بين قابيل وهابيل كان حول «الجنس»، وأن قابيل نقم على أخيه أن يتزوج من المرأة الجميلة ويترك له القبيحة. ولا شيء من ذلك في القرآن؛ وقوله: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ بيان لسبب رفض قربان قابيل، لأن إيمانه كان منتقصاً. واهتمت الآيات بالحوار بين القاتل والمقتول، ويتبين حسد قابيل، وقصور تفكيره، ورعونته، وكلها صفات تصنع الشرير فيه، وتشير إلى انحطاط في قوى الإدراك عنده، وهو شأن المجرمين والعصاة والأشرار دائماً. على عكس هابيل، فمن كلامه أنه كان الأقوى، إلا أنه آثر أن لا يكون جبّاراً فى الأرض، ولا أن يبدأ أخاه بالعدوان. وكان يمكن أن يدفع عن نفسه، والدفع عنها واجب، لكنه رفض البتة أن يلجأ إلى العنف ولو كان لردّ العدوان. وكان حاد الذكاء، وأدرك أنه إن كان مقتولاً بقَدَر الله، فليختر أن يكون مظلوماً، لأن الله ينتصر للمظلومين. وفى الفتن ينبغى ترك القتال، وكفّ اليد عن الشبهة، ولقد ترك هابيل مدافعة أخيه تحرّجاً، كالشأن مع عثمان بن عفان الذى رضى أن يُظلَم ليجازَى فى الآخرة، وفى الخبر: «إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنىّ آدم»، وخيرُهما هو هابيل داعية السلام pacifist، وكان الحشوية - وهم فرقة إسلامية - لا يجوّزون للمَصُول عليه الدفع. وفى الحديث: أن القاتل والمقتول إذا التقيا بسيفيهما فهما فى النار، لحرص كل منهما أن يقتل صاحبه، وهابيل لم يُرد لنفسه ذلك، فجعل إثمه لو كان قد دافع أخاه، وإثم أخيه فى قتله، على أخيه. ولأن قابيل كان أول قاتل فى التاريخ، وهابيل أول مقتول، وأول ميت، قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على

ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها، **لأنه كان أول من سنّ القتل**»، وشبيه به الحديث: «**ومن سنّ سُنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**». وأمثال قابيل قدوة يقتدى بهم القتلة والسفّاحون والمجرمون، وفي الاصطلاح أنهم **أئمة** وإنما في الإجرام، وفي الحديث: «**إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلّون**»، ويبدو قابيل ابن أبيه، كما تقول الآية: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**﴾ (آل عمران ٣٤)، والآية: ﴿**إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ**﴾ (يوسف ٧٧)، وأبوه آدم كان **أول من عصى الله** من البشر. **وأول من خالف إلى ما نُهى عنه**، إلا أنه تاب وعفا الله عنه، فلم يصبح إماماً فى العصيان، **وقابيل** أصبح من الخاسرين بقتل أخيه، ولكنه أيضاً أصبح من النادمين بعد أن تلقى الدرس من **طائر بسيط هو الغراب**، تعلم منه أن يوارى أخاه التراب، وكان ندمــه أنه ترك جثة أخيه مدة ولم يعرف كـيف يتصرّف بها، ولو كــان قد نـدم وتـاب لتُقبّلت توبتـه، ولكنه لم يتب كأبيه. **وصـار إبليس بكُفـره رأس الكافرين من الجن، وقابيل بجريمته رأس الخطّائين من الإنس**. وهذا ما جعل علماء الطب النفسي يقولون **بعقـدة قابيل Cain's complex**: وهى «**عقدة الحسـد للأخ الأكبر**»، وتمنّى الخير الذى عنده؛ ونقيـضها **عقـدة هابيل Abel's complex**، وهى استسـلام الأخ الأكبر لنزوات الأصـغر، وانصـيـاعه له؛ ومـثل ذلك **عـقـدة إسـمـاعـيل بن إبراهيم Ishmael's complex**: وهى انصيـاع الابن لأبيه حتى لو طلبـه للموت، ونقيضـها **عـقـدة ابن نوح Noah'son complex**: وهى تجبُّر الابن على أبيه، ورفضه لسلطته،وخروجه عليه، حتى لو كان فى ذلك هلاك الابن. والجـزء الخاص **بالغـراب** فى قصة القرآن قـمة فى الحكمة، والمسلمون الذين يقرأون القرآن، كلما صادفهم غراباً يذكرون قصة القرآن فيتأملونه بإكبار. والغراب من أذكى الطيـور، وأروى عن غراب عثـر على قطعة خبـز جافة جداً، فـأخذها بمنقاره إلى ماء متجمّع فى حديقة النادى، ووضع القطعة فى الماء يبللها، ثم أخذها فكانت صالحة لأن يأكلها بعد أن زال جفافها! وفِعْلُ **غراب قابيل** فى أخيه الغراب، فى مواراة جثة الميت، سُنّةٌ باقيـة فى الخلق، والفضل فـيها لهـذا الغراب، وصار دفن الميت فـرضًا على جميع الناس على الكفاية. والقبر الذى استنّه الغراب حفرةً، هو **الشق**، ومع تقدم المدنية صارت الحـفرة لحـداً، والرسول ﷺ دُفن فى اللحد، وهو أن يُحفـر فى جانب القبر ويوضع الميت ثم يوضع عليـه اللبن ثم يهال التراب. وفى خـتام هذه القـصة يأتى الدرس المستفاد، وهو قوله تعالى: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المـائـدة ٣٢)

وذلك مبدأ فلسفي، وأخلاقي،وقانوني، عام، لكل الناس في كل زمان ومكان، من جرّاء قصة ابنيّ آدم، وجريمة قابيل، وخصّ بني إسرائيل بالذكر بسبب طغيانهم وسفكهم الدماء. ومن لا يصدق فلينظر ماذا يجرى فى فلسطين من المذابح، ومعنى هذا المبدأ: أن قتلْ النفس الواحدة يستوى وقتل الناس جميعاً،ومن تَرَك قَتْل نفس واحدة، وصان حُرمتها واستحياها خوفاً من الله، فهو كمن أحيا الناس جميعاً، والذى ينتهك نفساً واحدة يُلحَظ بعين منتهك الجميع، ومن استحلّ واحدةً فقد استحلّ الجميع، لأنه أنكر الشرع، وجحد العقل، وقتل إنسانيته فيه،والرحمة التى أودعها الله به، فهو ليس بإنسان، والتزام الشرع مقياس للتحضر، وبمقتضى ذلك فإن إسرائيل والروس وأمريكا وبريطانيا - حتى لو أفلحوا فى بلوغ المريخ، فهم بهذا المقياس غير متحضّرين،وثقافاتهم ثقافات منحطة، وذلك بعض ما توحيه قصة القرآن، فشتّان بينها وبين قصة التوراة، وإن شئت معياراً لقياس الحضارات فهو هذا المعيار: الكتاب الديني للأمم، لأنه ضمير الأمة، ومرجعها الأخلاقي، وقصة القرآن فيها الحكمة،والموعظة، والعبرة، والسموق الروحى، والعلو الفكرى، والسمو النفسى، وذلك بعض أوجه الروح العربية مقارنةً بالروح اليهودية، أو الروح الآرية، والغريب أنهم يقولون عن المسلمين أنهم شعوب منحطة؟!! فحسبنا الله.

●●●

٧١٦- ﴿قصة نوح﴾

نوحٌ **Noah** أوحي إليه كما أوحي إلي الأنبياء، كقوله تعالى: **﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾**(النساء ١٦٣)، والوحى إعلام في خفاء، وكان نوح من المصطفين، كقوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾** (آل عمران)،وسبب اصطفائه كما قال: **﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾** (الإسراء)، وأُخذ منه الميثاق كما أخذ من النبيين، كقوله: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ...﴾** (الأحزاب ٧)، والميثاق: هو الإقرار بالله، ولم يؤخذ الميثاق إلا من أولى العزم من الرسُل وأئمة الأمم ويتصدّرهم هؤلاء الخمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وفى الحديث أن نبيّنا قال عن نفسه: «كنتُ أولهم فى الخَلق وآخرهم فى البعث»، يعنى كان آخرهم بعثاً ولكنه أولهم تفضيلاً، وفى الخبر أن نوحاً أول رسول، واختص بأهل الأرض كنبيّنا. وقوم نوح كانوا أول المكذّبين بالأنبياء، كقوله: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) ﴾** (الشعراء) وتتابع من بعدهم أقوام آخرون كذّبوا مثلهم، كقوله: **﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾**

(الحج)، وسَبْقُهم إلى التكذيب لأنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾ (الذاريات)، وكانوا ﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢)﴾ (النجم)، أى كانوا أظلم وأطغى من كل أقوام قبلهم أو بعدهم، وأكفر من مشركي قريش، قال ذلك تسليةً وتعزيةً للنبىّ ﷺ، وكأنه يقول له: فاصبر أنت أيضاً فالعاقبة الحميدة لك، وكأنه يقول ذلك للمسلمين من بعد فى كل زمان ومكان. وقوم نوح قالوا فى نوح: ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)﴾(القمر) واتهموه بفقدان العقل لمّا تجرأ أن يدعوهم إلى الله، قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ (الأعراف)، فزجروه عن دعوة النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل والرجم، قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ (الشعراء)، واشتهرت دعوة نوح لأن دعوته كانت أول دعوة إلى الناس كافة، وبهذه الصفة كان أول نبىّ بُعث، وقيل كان مبعثه وهو ابن أربعين أو خمسين، وقيل: كان ابن ثلاثمئة وخمسين؛ وبقى فى قومه: «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا»(العنكبوت ١٤)، قال: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ(٧١) ﴾ (يونس)، فكأنه استشعر طول مقامه بينهم، ولُبثه فيهم، وتذكيره وتخويفه لهم بآيات الله، حتى ملّوه وزهدوه، وعزموا على طرده أو قتله، فقال: فعلَى الله توكلتُ ـ وهذا جواب الشرط، وما كان إلا متوكلاً على الله فى كل حال، ولكنه بيّن أنه متوكل فى هذا على الخصوص، ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم، فإن لم ينصروه فأمرُه وأمرُهم إلى الله، وليحرموا شركاءهم وليُظهروا ما فى نيّتهم ولا يخفوه، وليمضوا إليه ولا يتأخرون، وهو دليل على أنه لم يكن يخشاهم، وكان واثقاً بنصر الله،ولم يَخَف كيدهم، لأنه يعرف أنهم وآلهتهم لن ينفعوه ولن يضروه بشىء لم يُرده له الله، وهو موقفٌ لنوح فيه تعزيةٌ للنبىّ ﷺ، وتقويةٌ للمؤمنين ولأمة الإسلام، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ (يونس)، فما كان ذلك إلا ليزيدهم فراراً منه وكان جوابهم عليه: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾ (هود)، والإشارة إلى طول مدة دعوته وكانت نحو تسعمائة سنة، وخلالها كثر الجدل بين نوح والمكذّبين، والجدل: هو المبالغة فى الخصومة، مشتق من الجَدْل وهو شدة القتل. والجدل فى الدين محمود، ولهذا جادل نوح والأنبياء أقوامهم، وأما الجدال فهو لغير الحق، ومقصوده إظهار الباطل فى صورة الحق، والجدال مذموم فى الدين. وسمّى نوح دعوته نُصْحاً، والنصح

إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح، وفى الحديث: «**الدين النصيحة**» أخرجه مسلم، وفى الدين يتوجه الناصح بنصيحته لسواد الناس وأئمتهم، وقوم نوح عزفوا عن النصح وأرادوا الغواية.

وكان نوح يعدّ نفسه أخًا لهم، ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ**﴾(الشعراء ١٠٦)، وأخوّته أخوة نسب ومجانسة لا أخوة دين، ودعاهم فقال: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)**﴾ (المؤمنون). **والجِنّة** التي اتهموه بها هي الجنون، نسبوا إليه أنه لا يدرى ما يقول، لأنه كان طاعناً في السن، وعزّاهم أنه عما قريب يتوفى ويريحهم. وقالوا تأكيداً وإصراراً: ﴿**مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)**﴾ (هود)، والملأ هم الرؤساء، مليئون بالمال والولد، وبما يقولون ويفعلون؛ **والأراذل** جمع الأرذل، **والرذْل** هو النَّذْل، أرادوا اتّبعه أخساؤهم، وسَقْطهم، وسِفْلتهم، وفقراؤهم، وما كان عليه فى ذلك عيب، فالأنبياء والمصلحون والفلاسفة وأصحاب الثورات ليس عليهم أن يؤمن به هذا أو ذاك من الناس، فما يهمهم هو **تغيير المجتمع للأفضل، وحجب الناس عن الباطل، وأن يعتقدوا الحق**. ولذا كان عملهم **البراهين والآيات**، وما من نبىّ أو مصلح إلا وهو يخاطب الناس كافة **فقراءهم وأغنياءهم**، فإذا اتّبعه الدنىء لم يلحق النبىّ أو المصلح من ذلك نقصان. **والديانات ثورات كالثورات، والإسلام ثورة**، وثورة الإسلام **ثورة دائمة**، فإن بحثتَ عن مبدأ **الثورة الدائمة** الذى يطلبه أهل الفلسفة حثيثًا، فلن تجده إلا فى الإسلام، وليست الحرب التى يشنونها عليه الآن بعد **ألف وخمسمائة** سنة من دعوة الرسول ﷺ، إلا لأن الإسلام دائم الثورة! ولو سأل سائل: أى الناس يتبّع الدين؟ وأيهم يظاهرالمُصلح؟ لكان الجواب: إن **الضعفاء** هم الذين يتبعون الرسُل والمصلحين، لأن الرياسة أصلاً معقودة فى المجتمعات للأشراف، وهؤلاء لا يرضيهم أبداً أن ينفكوا منها، ولذا تكون إراقة الدماء فى دعوات الأديان وفى الثورات عامة. والسيد الغنى يأنف من الانقياد للغير، وأما الفقير فهو خلىّ عن كل هذه الموانع، وسريع الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال التاريخ وأهل الدنيا. **والأرذلون هم ضعفاء العمال**، سمتّهم الثورة البلشفية **البروليتاريا**، وسمّاهم القرآن **المستضعفين**، وفى التعريف هم سِفْلة المجتمعات الرأسمالية أو الغنية حيث الثروة هى معيار الناس، ومن شيمة صغار

العمال والموظفين أنهم إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرّقوا لم يُعرَفوا. وقوله: ﴿ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ** ﴾ (هود ٢٧)، وبادى الرأى يعنى: فيما يبدو من الرأى، أو فى أول الرأى، يعنى اتّبعوه إعجاباً بظاهر ما قال أولاً، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبّعوه. وقال نوح: ﴿ **يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)** ﴾ (هود)، واستفهام نوح بمعنى الإنكار، فلقد زعموا أنه على الباطل، فسألهم: لو حدث وكان على الحق، وكان على بيّنة من ربّه؟ ولم يروا بيّنته، ولم يفهموا براهينه، وعَمُوا عن رسالته، فهل كان مع كل ذلك يلزمهم إيمان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله؟ وهل كان يوجبها عليهم؟ ومضمون كلامه أن يردّ عليهم: أنه لا يصحّ قبولهم لرسالته مع الكراهة عليها، وهذا ردٌّ أيضاً على مشركي العرب، ومشركى هذه الأيام، **فلا إكراه فى الدين**، وهذا مبدأ أصولى من مبادىء الإسلام. **والمستضعفون** لم يكرههم أحد على الإيمان، سواء فى الدين أو فى الثورات، ولم يحدث أن طرد نبيٌّ ولا مصلح المستضعفين من جماعته لأنهم مستضعفون، إلا أحزاب الأغنياء، وديانات الأثرياء، ومنها أحزاب الديموقراطيين، وأحزاب الوطنيين، وديانتا النصارى واليهود، فأعضاؤهم وأتباعهم من أصحاب الثراء والجاه والسلطان، ولهم الأشياع، وأما الإسلام فكان ـ كما قال نوح ـ «**ديانة المنبوذين والأراذل والفقراء والمستضعفين**»، ودعوة الأغنياء والأثرياء ورجال المال والأعمال بطرد العمال والفلاحين وإلغاء نسبة تمثيلهم فى أية برلمانات هى دعوة من يجهلون، والحال مع هؤلاء كحال نوح مع قومه لما نصحهم وظل يدعوهم وما من مجيب، يقول تعالى: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)** ﴾ (هود)، ومعنى الآية استدامة كفرهم، فدعا عليهم لما أخبر بهذا. ﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢)** ﴾ (نوح)، وكان يرجو أن يأتى من نسلهم من يؤمن، فمع طوال عُمره وقصر أعمارهم، ظل يرجو فى **الأبناء بعد الآباء**، والناس غالباً ـ كما بيّنا ـ تتبع الأغنياء والكبراء والمترفين، وهؤلاء هم أصل الشرّ

في الدنيا، ولهم مكرٌ وأي مكر، والقرآن يصفه بأنه المكر الكُبّار، بالتشديد للمبالغة، ولقد حرّضوا سفلتهم على قتل نوح، وعزّروا الناس بما أوتوا من الدنيا من «الولد والمال والسلطان»، وهذه الثلاث هي مفاتن المستقويين، فلو لم يكونوا على الحق، فلماذا أُعطوا الدنيا عن سعة؟ ولماذا يرسل الله بشرًا ليهديهم ولا يرسل ملائكة، لو لم يكن نوح يطمع أن يسود، وأن يكون متبوعاً وهم له تبع، وقالوا لم يأت فيما عرفوا من التواريخ مثل دعوته. ونوح حاسَبَ نفسه، فمع مرور نحو ستمائة سنة، حقيقة أو مجازاً - فالدعوات لا تحسب بالأيام والسنين، وإنما بنتائجها وتحصيلها - ولم تكن لدعوته الثمرة المرجوة، فلم يكن أمامه إلا أن يدعو على من عوّقوا الدعوة وأفسدوها، فقال: **﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾** (نوح)، ولم يدعُ عليهم إلا بعد أن جاءه من ربّه: **﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾** (هود)، فأجاب الله دعوته وأغرق أُمّته، وهذا هو الفرق بين نوح ونبيّنا ﷺ، فنوح دعا على الأمة بأسرها، ونبيّنا خصَّ بالدعاء أبا جهل وامرأته، وعُتبة وشيبة، وأصحابهم. والديّار في دعاء نوح: هو كل من يسكن الديار من قومه، أصله من الدار، تقول: ما بالدار ديّار، أي أحد، والديّار هو الساكن أو صاحب الدار. فلما دعا عليهم دعا بالنقيض لنفسه وللمؤمنين: **﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨)﴾** (نوح)، وبيت نوح هو مسجده ومُصلاّه، والبيت بمعنى الدِّين والدخول فيه، **﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)﴾** (هود)، والتبار: هو الهلاك والخسران، دعا بهما للكافرين، كما دعا لنفسه وللمؤمنين بأحسن الدعاء، قال: **﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾** (المؤمنون)، «والمنزل المبارك» هو الهبوط والنزول والموضع يوصف بالبركة؛ «وبأعيننا» يعني بحفظنا إياك حفظ من يراك. وصدَع نوح لأمر ربّه وخصومه يمرون عليه وهو يصنع الفلك فيستهزئون، كقوله تعالى: **﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾** (هود)، «وفوران التنور» تفجرُ الأرض بالينابيع، واجتماع ماء الينابيع وماء المطر، كقوله تعالى: **﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ**

مُنْهَمِرٍ ⑪ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾(القمر)، «**والفوران**» الغليان، والتمثيل للعذاب بالتنوّر - وهو فُرن الخبز- كقول القائل: «**حمى الوطيس**» إذا اشتدت الحرب، **والوطيس** هو نفسه التنور. وحمل نوح معه من كل زوجين اثنين، «**والزوجان**» بمعى الصنف، وأهله ولم تكن معه زوجته التي خانته وأفشت سرّه، وابنه الذى عصاه، ورافقه بنوه: **سام، وحام، ويافث**، وأزواجهم، فهؤلاء **سبعة**، وقيل: كان معه من صدّقوه وشكّلوا معًا **ثمانين**، وسميت لذلك القرية التي مروا بها **قرية الثمانين**. وتوالت مشاهد القصة وأمرهم نوح: **﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ㊶ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾** (هود)، وجاء أمر الله تعالى: **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ㊹﴾**(هود)، ثم كانت المصيبة الكبرى: **﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾** (العنكبوت١٤)، «**والطوفان**» هو السيل المغرق، ثم انتهى كل شيء وساد الهدوء، كقوله تعالى: **﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ㊽﴾** (هود). «**وركوبهم السفينة**» أنهم علوا ظهرها؛ «**وبسم الله مجراها ومرساها** »على معنى إجراؤها وإرساؤها، تقول مجريها بفتح الميم، ومُرساها بضم الميم، أو بفتح الميم فيهما، أو بضمها فيهما. وفى الحديث: «**أمانٌ لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى الفلك: بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله مجريها ومُرساها إن ربى لغفور رحيم**». وفى هذه الآية دليل على ذكر **البسملة** عند ابتداء كل فعل. وجرت السفينة فى موج جاوز كل شيء: **﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ⑪﴾** (الحاقة)، حتى إذا جاء الأمر توقف المطر، وبلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء. وقيل هذه الآية: **﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾** ما وُجد فى كلام العرب مثلها على حُسن نظمها، وبلاغة وصفها، واشتمال المعانى فيها. فلما استوت السفينة على **الجودى** - وهو اسم جبل - رست إليه، قيل: ثلاثة جبال أكرمها الله بثلاثة نفر: **الجودى** بنوح، **وطور سيناء** بموسى، وحراء بمحمد ﷺ. وغرق قوم نوح جميعاً، ومن نجا مع نوح كانت من نسلهم أمم الحاضر، وهبط نوح ومن معه بسلام، وآتاهم الله بركاته، وأكثرهم عددًا، فكان نوح هو آدم **الأصغر**، لأنه من نسله خرجت كل الأمم اللاحقة، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من أهله: **﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ㊼﴾** (الصافات)، **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾** (الفرقان). وكل الأنبياء كانوا إما من ذرية آدم أو ذرية من كانوا مع نوح: **﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾** (مريم ٥٨)، وقيل عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمئة سنة وخمسين ثم مات، ومن ولده سام

كما يقول سفر التكوين من أسفار اليهود، ومن ولَده الساميون، ومنهم العرب واليهود؛ ومن ولده حام كان الإفريقيون السود والزنوج، وسُمر البشرة من الهنود، والأحباش، والقبط أي المصريون، والبربر؛ ومن ولده يافث كان الصقالية والترك والخزر يعني الأوروبيين. ويقول الله تعالى: ﴿ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١)** ﴾ (الصافات): يعني تَرْك الثناء الحسن عليه عند كل أمة، حتى أن المجوس سمّوه أفريدون، ويدعو له الجميع أن تسلم سيرته من كل سوء، فكلما ذُكر اسمه قيل: **سلامٌ على نوح في العالمين**»، وما كانت الملل من بعده إلا صوراً لملّته كقوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**﴾ (الشورى ١٣)، وقوله: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)**﴾ (الصافات) أي من أهل دينه.

●●●

٧١٧- ﴿موجز قصة نوح﴾

نوح: هو أول المذكورين من الأنبياء، وأول من حمل الدعوة إلى الله وجاهد في سبيلها، وطال جهاده واستمر السنوات الطويلة، وكان صاحب تجربة عظمى وحادثة كونية كبرى هي «**الطوفان**» الذى تسمَّى باسمه، وعُرف في التاريخ باسم «**طوفان نوح**»، وملخص القصة في بضع آيات تسرده سورة القمر في إيجازشديد في قمة البلاغة، وجرس الكلمات فيه يشد القارىء إلى القصة ووقائعها، ووقعُها ينبيء عن حدث ضخم؛ وكان الطوفان يناسب الناس في بداية الخلق، فكأنه يغسل الأرض من أدرانها، ويطهّرها من ذنوب سكانها، ويبعثهم من جديد. تقول السورة في معرض مقارنة قوم نوح بقوم محمد ﷺ: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)**﴾ (القمر)، فهذه سبع آيات تصور كيف كان عذابه تعالى لقوم نوح، وتنذر قوم محمد ﷺ،وتلفتهم إلى ما في القصة من عِبَر بعبارة صارت مثلاً، تقول: «**فهل من مدّكر**؟ أى هل من متّعظ ومُعتبر؟ ولقد سجل الله تعالى القصة لتكون آية للناس، وما زالت كذلك، وما زال قوم نوح يُضرَب بتكذيبهم المثل، ويُروَى عنهم وعمّا فعلوه بنبيّهم، وجاءت روايتها في القرآن للتسرية عن النبيّ ﷺ والذين معه؛ وقوم نوح دمغوه بالجنون، وعابوه، وسبّوه، وأمسكوا بخناقه،و

حاولوا قتله، وآذوه فى نفسه وجسمه وعرضه وماله وأصحابه، تماماً كما فعل كفّار قريش بالنبىّ ﷺ، غير أن نوحاً لمّا نفد صبره ولم يعد فى قوسه منزع كما يقولون، دعا ربّه عليهم، ونبيّنا لم يَدْعُ على قومه، وصبر وثابر لعله يخرج من أولادهم من يعبد الله. وعبارة نوح التى دعا بها مشهورة يرددها كل مستضْعَف، كلما أعياه أمر الظلمة، ولم يعد يقوى على مغالبة المستقويين، تقول: «ربِّ، إنى مغلوب فانتصر»، والدعاء كبير وخطير، واستجابت له السماء فوراً، وفتحت له أبوابها، وانهمر الماء منها يُصَبّ صبّاً على الأرض ويغرقها، وتفجّرت الأرض بالعيون، والتقى ماء السماء وماء الأرض ليصنعا أكبر وأخطر وأعظم طوفان فى التاريخ، ولولا أن الله أوحى إلى نوح أن يصنع سفينته من ألواح شدّها إلى بعضها البعض بالحبال، لما بقى فى الدنيا من الأحياء أحد، وجرت السفينة وسط عباب الماء، والله يكلأها بعنايته ورعايته، ونجا نوح ومن معه جزاءً له ولهم على إيمانهم.



٧١٨- ﴿قصة امرأة نوح﴾

لم يتزوج النبىّ نوح إلا امرأة واحدة، وأنجب منها أربعة أبناء، مات منهم الابن الكافر، ويبدو أنه كان أكبرهم، وعاش ثلاثة: سام، وحام ويافث. ولم تركب امرأة نوح معه السفينة وأغرقها الطوفان مع الغارقين، وصُنّفت مع امرأة لوط، وقيل فيهما: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ⑩﴾** (التحريم)، وامرأة نوح إذن مثلٌ للمرأة الكافرة، وخيانتها لنوح أنها لم تؤمن به، فكان بيتهما نصفه مؤمن ونصفه كافر، وكانت تهزأ به وتسخر من دعوته، وتصفه مع قومها بأنه مجنون، وخيانتها له إذن كانت خيانة فى الدين، وما كانت بغياً، وكانت تُفشى أسرار بيتها، وتنمّ على زوجها، وكلما أوحى إليه بشىء أبلغت قومها به، فكان حسابها عند الله عسيراً، ومع كل ما لنوح عند الله من كرامة إلا أنه لم يدفع عنها عند ربّه، ولقد دفع عن ابنه - وكان مِثْلَها من الكافرين، ولم يؤمن بنوح، ولم يقبل الله فيه شفاعته. والدرس المستفاد من القصة: أن العذاب فى الدنيا والآخرة يُدفَع بالطاعة وليس بالوسيلة. والقصة ضُربت مثلاً لكفار مكة، ليعلموا أن لا أحد مهما علا، بمنأى عن العذاب طالما هو كافر.



٧١٩- ﴿قصة ابن نوح﴾

كان نوح أول نبيّ يُبعَث، وظل يدعو قومه نحو ستمائة سنة، وعيل صبره فدعا على قومه، وأمره الله أن يصنع سفينة، وأن يحمل عليها من كل مخلوق من مخلوقاته تعالى زوجين، وأن يصحبه أهله ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل، فلما حان الحين أمطرت السماء بماء منهمر، وفُجّرت الأرض عيوناً، وغرقت الأرض وصار الموج كالجبال، وجرت السفينة بسلام، ولم تركب امرأة نوح مع زوجها فقد كانت مع قومها، وكانت تسخر منه وهو يصنع السفينة، فغرقت مع مَنْ غرق، وكذلك ابنه الأكبر، لم يكن من المؤمنين، وكان الله قد وعده أن ينجيه ـ أى نوحًا، وأهله دون الظالمين، قال: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (المؤمنون)، والذين ظَلَموا هم قوم نوح، وعلى رأسهم امرأته وابنه، ولم يشفع نوح لامرأته ولكنه شفع لابنه، وكان قد اتخذ طريقه إلى الجبل لينجو من الماء، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود)، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (هود)؛ ونداؤه ربّه هو دعاؤه أن ابنه من أهله كما وعده، وتناسى نوح قوله تعالى له: ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (المؤمنون ٢٧)، ولم يكن ابنه من أهله باعتراف نوح، قال: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾(هود)، وكان من المحال أن يسأل نوح هلاك الكفار فلا يترك منهم على الأرض ديّارًا، ومع ذلك يُستثنى ابنه؟! وقوله تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مع قوله بخصوص امرأته وامرة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحريم ١٠) قد يجعل البعض يظن أن ابن نوح هذا كان من زنى، ونساء الأنبياء لا يزنين، وخيانة امرأة نوح كانت فى الدين لا فى الفراش، وإنما المعنى أنه ليس من أهل نوح الذين وُعدوا بالنجاة، وليس من أهل دينه ولا من المؤمنين به، وقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾﴾(هود) لأنه كفر بالله وكذّب برسالته. والدرس المستفاد من هذه القصة: أن الصالحين قد يكون من أولادهم فاسدون، والقصة على ذلك تسلية للخلق عامة وللمؤمنين خاصة في فساد الأبناء مع صلاح الآباء. وكان ابن الإمام مالك أحمق، فقال الإمام وفى باله هذه القصة: إن الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات!

●●●

٧٢٠- ﴿الناجون مع نوح كانوا الخلائف﴾

لمّا أُرسل نوح استخفّه قومه، كقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (يونس)، «والخلائف» جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة، وكل من جاء بعد مَن مضى فهو خليفة، وجعلهم خلائف، أى يخلفون بعضهم بعضاً، ويخلفون الأمم الماضية والقرون السالفة.

•••

٧٢١- ﴿قصة قوم عاد﴾

تأتى **قصة عاد Aad** فى القرآن فى تسع عشرة سورة، هى بحسب النزول: **الفجر، والنجم، وق، والقمر، وص، والأعراف، والفرقان، والشعراء، وهود، وغافر، وفصلت، والأحقاف، والذاريات، وإبراهيم، والحاقة، والعنكبوت**، وأخيراً **الحج**. ففى سورة **الفجر** يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾، فكان اسم عاد: «عاد إرم»، نسبةً إلى عاد بن إرم ابن عوض بن سام بن نوح، أو نسبةً إلى قبيلة إرم، وعاد إحدى بطونها، والخطاب فى الآيات للرسول ﷺ، ثم لأفراد المسلمين الذين يقرأون القرآن من بعد، ولم ير الرسول ﷺ عاداً حتى يقال له: «ألم تر»، والاستفهام لإعمال التفكير، **والرؤية** المقصودة هى رؤية القلب، وكان قوم عاد إرم عمالقة طوال القامة، وجبابرة، وكانت لهم أبنية عالية لتناسبهم، أحجارها ضخمة يقوون عليها، فكانت قراهم لذلك فريدة ليس لها مثيل.

وفى القرآن لدينا عادان: **عاد الأولى**، وهؤلاء هم عاد إرم، **وعاد الثانية أو الأخيرة**، وهؤلاء هم ثمود، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ (النجم)، وسُمّيت «**عاداً الأولى**» لأنهم كانوا قبل «عاد الثانية»، وكانوا **أول أمة** تبيد بعد **نوح**، وفى ترتيب القصص القرآنى فإن **قصة عاد** تأتى بعد قصة نوح، وقبل **قصة ثمود**. وثمود من وَلَد عاداً، وانحدروا من صُلبه، وكانوا جبابرةً كأسلافهم قوم عاد، وبنوا البيوت الضخمة بالحجارة، فقطعوها من الجبال ونقلوها إلى الوديان، وارتبط مصير عاد وثمود، فارتبط اسماهما، يأتيان فى القرآن متقارنين غالباً، وكانوا أول أمتين ضمن **قائمة المكذّبين** الكافرين بالله والجاحدين بالرسل، وأُهلكت الأولى **بالريح الصرصر**، والثانية **بالصيحة**: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ (ق)، فبعد قوم نوح فى القائمة تأتى ثمود، وأصحاب الرس، أى البئر، وكانوا من ثمود، وقد تأتى عادٌ أولاً ثم ثمود، وقد تأتى ثمود

أولاً ثم عاد. والعذاب الذى أصاب عاد عذابٌ معجز: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ (القمر)، والريح الصرصر: شديدة الصوت، تقول صرّ الباب، أى له صرير، أى صَوْت مزعج، يعنى أنها ريح عاصف مدوية، وكانت بدايتها يوم أربعاء، قال المفسرون ذلك لأن الأربعاء هو يوم الشؤم عند العرب، ووُصف بأنه يوم نحس، واستمر النحس وهو قوله: ﴿يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وفى سورة فصّلت يأتى أنه استمر عدة أيام: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وبلغ من شدة الريح فيها أنها كانت تقتلعهم كأنهم النخل المنقعر، أى المنخلع عن أصله، وكان أهل عاد طوال القامة، وَصَفَهُم فى سورة الفجر بأنهم أصحاب عماد، والعماد هو القامة، وفى سورة القمر شبّههم بالنخل من فرط طولهم، فكانت الريح تنزعهم من الأرض ومن بيوتهم فتدق أعناقهم. وفى سورة الفرقان: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾(الفرقان)، أى لم يكن هناك عذابٌ بلا جريمة، وجريمة هؤلاء جميعاً: أنهم كذّبوا الرسل، فجعلهم الله آية، أى عبرة لمن يعتبر ويتّعظ، وضُربت بهم الأمثال، وكان عذابهم هو العذاب المُتبَّر، أى الشديد الغليظ، وأصحاب الرس: هم بقايا ثمود، ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾(الفرقان ٣٨)، أى أمماً أخرى لا يعلمهم إلا الله، بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس. وفى سورة الأعراف نعلم عن عاد أكثر من ذلك: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾، فالنبىّ الذى أتاهم كان هوداً، وكان منهم، والمستشرقون يدّعون أن هوداً لم يُذكر فى التوراة ولكنه حتماً يهودى للمشابهة بين هود ويهود أو يهودى، والخطأ الذى يقعون فيه أن اليهود لا يُرسَلون إلى غير اليهود، ثم إن مصطلح اليهود واليهودى كان بعد دولة يهوذا، وهناك فرقٌ زمنىٌّ شاسع بين

هود وبين دولة يهوذا ودمارها،وخروج اليهود منها، ليكون من بينهم هود نبياً لقوم عاد! وحسبنا الله في هؤلاء المستشرقين الجهلاء! ورسالة هود إلى قومه هى نفس رسالة كل الأنبياء: أن الله واحد،ولا معبود إلا الله؛ وجوابهم عليها هو نفس الجواب مع كل نبيّ، أن الداعي ليس سوى بشر منهم، فلماذا يُختص بالنصح دونهم؟ ولماذا يُؤثَر عليهم رسولاً من هذا الإله الجديد؟ ولماذا يتركون آلهتهم إلى هذا الإله الواحد الغريب عنهم؟ فذلك ما جعلهم يصفون دعوته بالسفه، وذكّرهم هود بنِعَم الله عليهم منذ نوح، وما آتاهم من بَسْطة الخلْقة وبَسْطة العيش، وكان ما يدعوهم إليه بسيطاً ومعقولاً، بينما كانوا يجادلون فيما اخترعوه من أسماء لموجودات وآلهة وهمية، وكلما تعقّد القول في المعبودات فاعلم أن دعاتها منتحلون كاذبون ملفقّون، كشأن النصارى فيما يزعمونه عن طبيعة المسيح! وما كان عذاب هؤلاء الكذّابين إلا لتكذيبهم وكَذِبِهم. وما كان إيراد قصصهم في القرآن إلا من قبيل ضرب الأمثلة. والأمم الكافرة كثيرة، وأبرزهم قوم نوح، وعاد وثمود ولوط، ذكرهم لما اتسموا به من كثرة وقوة، فإن تكن للعرب كثرة وبأس، فلهم عظة بقصص هؤلاء، يُذكَرون تعزيةً للنبيّ ﷺ، وتسليةً له، ورفعاً لمعنوياته، وتبشيراً للمؤمنين به، فكما جرى لهؤلاء الأحزاب أى الأقوام ذوى الكثرة والقوة، وأصحاب الأنساب والأحساب، لا يُستبعَد أن يجرى للعرب مثله لو استمروا على كفرهم وتكذيبهم للنبيّ ﷺ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾ (ص)، ويتكرر وصفهم بالأحزاب في سورة غافر، يصفهم بذلك مؤمن آل فرعون. وفي سورة الشعراء تحفل الآيات عن عاد بالمعلومات عن حياتهم وطرق تفكيرهم، تقول: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾، وفي ذلك إخبار بأنهم كانوا من البناة، وكانت بناياتهم إما مصانع لمختلف الصناعات والحرف، وإما منازل للسكنى، يختارون لها الهضاب، ويعلون في البناء، وإما قصوراً مشيدة، وإما دوراً للهو والعبث، يعنى أنهم كانوا أصحاب

حضارة، كأمريكا والغرب الأوروبي مع الفارق. وكانوا يصنعون ويبنون للخلود، وإذا بطشوا بطشوا جبّارين، يصدق عليهم شبههم بأمريكا، وأمريكا تتزعم العالم الآن في الدعوة إلى الليبرالية والإباحية والإلحاد، ويصدق عليها قول هود: **﴿إنْ هَذَا إلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾** (الشعراء) يعني يسخرون من الدعوة إلى الله باعتبارها من السلفيات، ولهذا كرهوا المسلمين لأن منهم بقية ما تزال على الدين، وهؤلاء يدعون إلى الإيمان والتمسُّك بالأخلاق، وأمريكا وأتباعها يريدونها جاهلية. وفي سورة فُصّلت يُؤمر النبيّ ﷺ أن ينذر أهل مكة بما عُذّب به قوم عاد: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)** ﴾، ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦)**﴾، والاستكبار اغترار بالقوة واستعلاء على الدول والشعوب، كاستكبار أمريكا اليوم، والدول الصناعية الكبرى التي يقال لها الدول الثماني، وردّ الله عليهم بأنه أشد منهم قوة وقدرة، وأنه إنما يؤخّر عذابهم إلى حين، كقوله: **﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾** (الطارق ١٧)، وقوله: **﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١)﴾** (المزمل)، ولن يكون عذابهم إلا في الدنيا والآخرة، وعذاب الخزى الذي وُعدت به عاد في الدنيا كان بالريح الصرصر، وعذاب الآخرة أشد وأنكى. وما يزال ربّنا يذكّر هؤلاء وهؤلاء بأنواع العذاب، يقول: **﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)﴾** (الأحقاف)، والأحقاف جمع حِقْف: وهو ما استطال من الرمل ولم يبلغ أن يكون جبلاً، وهي أرض من اليمن من حِسْمَى، في حضرموت، بواد يقال له: مهرة. وفي سورة الذاريات يصف الريح التي كان بها عذاب قوم عاد: **﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾** فأما أنها ريحٌ عقيم فقد قيل إن ريح الجنوب النكباء، لا تدع شيئاً إلا وتعصف به وتأتي عليه وتجعله كالرميم - أي العظام البالية النخرة. وتصفهم سورة إبراهيم وهم يستمعون لدعوة هود، يقول: **﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾**، يقول الله تعالى: **﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾** يعني فِعْلَ المغتاظ، يضع يده في فمه يعضّ عليها كلما ذكر الداعية معبوداتهم وسفّهها. وفي سورة الحاقة تحديدٌ أكثر لزمن العذاب وصفة الريح، تقول: **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ**

صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) ﴾، فزيد فى وصف الريح أنها «عاتية» لا تطاق من شدة هبوبها، وأنها استمرت معهم بلا توقف، لا تفتر ولا تنقطع طوال هذه المدة كلها، ونكّلت بهم ولم تتركهم إلا صرعى كأنهم جذوع نخل منقعر. وما أيسر ما يُطاح بجذوع النخل إذا انقعرت. وما كان يوم النحس هذا عند عاد إلا مثالاً باهتاً ليوم القيامة الذى تكذّب به، كقوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)**﴾ (الحاقة)، **والقارعة** هى التى تقرع الناس لأهوالها، وهى يوم القيامة، فالذى فعلته عاد وثمود أنهما كذّبا بيوم الدين، وبالقيامة، وبالبعث والنشور والحساب. وفى سورة **العنكبوت** يأتى أن **مساكن عاد** كانت ما تزال لها آثار، وأن مشاهد هذه المساكن تؤكد أنهم كانوا قوماً على دراية وعلم، وهو معنى ﴿**مُسْتَبْصِرِينَ**﴾، وُصفوا كذلك لأنهم لم يكونوا حمقى ليكفروا، فالمسألة معهم أنهم صدّوا عن السبيل - صدّتهم الغواية - فكفروا: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)**﴾. وفى سورة الحج، وهى سورة مدنية من أواخر السور، يأتى آخر ما يُذكر عن قوم عاد: ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢)**﴾، والخطاب فيها للنبىّ ﷺ، يعزّيه الله تعالى ويسليه فى هذه الآية بما حدث للأنبياء من قبله، فقد كُذّبوا فصبروا، إلى أن أهلك الله المكّذبين. وقصة عاد اشتملت عليها **ست وخمسون** آية، كانت مع غيرها من القصص الأخرى، صورة لما كانت عليه الأمم السابقة، **وهى قصص للعبرة لمن يريد العظة والعبرة** فى كل الأمصار والأزمان، واختلفت بعض كلماتها فى الروايات المتعددة لها، ولكن المعانى لم تختلف، وكانت الآيات تتكرر أحداثها وإنما من زوايا مختلفة، وفى سياقات متباينة، تضيف إلى الصورة العامة للقصة وتبنى عليها. والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٧٢٢- ﴿قصة إدريس﴾

يذكر القرآن إدريس **Idris** ضمن أنبياء آخرين، قال: ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)**﴾ (الأنبياء)، وقال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)**﴾ (مريم)، وإدريس إذن كان من الصابرين - أى على طاعة الله واجتناب معاصيه، **وأدخله الله فى رحمته**، أى جعله من أهل الجنة، وكان صالحاً، وصدّيقاً نبياً. ولا شىء آخر يذكره القرآن عنه، غير أنه فى الأدب الدينى له قصص، لا سند لها ولا مرجع، وكلها من **الإسرائيليات** عن الأدب اليهودى

الدينى الشفهى، قالوا: هو أول من خطّ بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب؛ واسمه «إدريس» أعجمى بدليل عدم صرفه، إلا أنهم قالوا أنه من الفعل دَرَسَ دراسةً، فهذا الدارس، لأن إدريس كان قارئاً للكتب، وباحثاً فى العلوم. وقيل فيه إنه اطّلع على الجنة والنار، وصُعد به إلى السماء الرابعة، وقبضت روحه فيها، وأنه يسكنها، ولمّا كان النبىّ ﷺ فى المعراج، وعُرّج به إلى السماء، أتى على إدريس فى السماء الرابعة، أخرجه مسلم. وقال أصحاب الإسرائيليات: إن إدريس هو النبىّ أخنوخ، وقال نولدكه إن إدريس هو أندرياس، أو أندراوس ، وأنه استشهد أو ربما غرق، أو أنه رُفع كما رفع إيليا والمسيح، فذلك معنى قوله تعالى فى القرآن: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾. واسم أخنوخ الذى قيل إنه إدريس معناه «الشاطر»، ويترجمونه أحياناً «حنوك»، وابن أخنوخ هو متوشالح (تكوين ٥/١٨ـ ٢١)، قيل إن أخنوخ أو إدريس هو السابع من أحفاد آدم من نسل شيث. وفى التوراة كما فى القرآن أنه كان من الصدّيقين والصابرين، صَدَق مع الله وصبر على طاعته (تكوين٥/ ٢٢)، وعاش ثلاثمئة وخمساً وستين سنة (تكوين ٥/ ٢٣)، وكان الكاتب برناردشو يرى أن هذه السن هى المناسبة أن يعيشها المفكر ليفيد مما قرأه وخبره عن الحياة. وفى التوراة أيضاً يأتى أنه رُفع إلى السماء، لأنه دعا ربّه أن لا يجرّب الموت (رسالة بولس إلى العبرانيين ١١/ ٥)، وذلك طبعاً من أكاذيب اليهود، لأنه لا أحد إلا يموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾(آل عمران ١٨٥)، وعند العرب من أصحاب الإسرائيليات أن إدريس قُبض فى السماء الرابعة أو السادسة، وذلك أنسب، فأينما كان لابد أن يموت، والله تعالى وحده الذى يعلم أين نموت، يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان ٣٤). وفى القصة أن أخنوخ أو إدريس رجا جبريل أن يحمله إلى السماء ليدعو الله أن يؤخّر أجله، فيزداد شكراً وعبادة، فقال جبريل: إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها؟! وتقول الرواية: إن جبريل حمله معه، حتى إذا كانت السماء الرابعة التقى بملك الموت فعرف إدريس، فقال لجبريل إن الله قد كتب أن أقبض روح إدريس فى السماء الرابعة، فكنت أعجب: وما الذى يأتى بإدريس إلى السماء الرابعة؟ ثم إنه قبض روحه فى السماء الرابعة! ولأخنوخ أو إدريس سِفْر كالأسفار يسمى سفر أخنوخ من أسفار اليهود، وأخنوخ نفسه كان من الأنبياء الصغار، وسِفْره مثله صغيرٌ فى حجمه من مائة وثمانية فصول، كتبت بالأرامية، ولها ترجمة يونانية غير كاملة، والنسخة الكاملة مكتوبة بالحبشية، وترجمت عن اليونانية التى ترجمت عن الأرامية، وهى عبارة عن رؤى عن الآخرة والمسيح المنتظر، ولهذا لم يعتبر اليهود هذه النسخة من النُّسَخ المعترف بها، ومن

الواضح أنها نسـخة محرّفة ومكتوبة فى العهـد المسيحى، ويزعم كاتب هذه النسـخة أن **المسيح كان موجوداً قبل خلق العالم، وأنه سيكون شـاهداً على الناس، وسيئول إليه أمر دينونتهم.** وربما لهذه الافتراءات على إدريس لم يُذكر فى القرآن إلا فى آيتـين، واعتبره القرآن كذلك من **الأنبياء الصغار**، ولـم تكن له فيه مداخلات توضع موضع شك أو تكذيب، فذكَره فى أضيق الحدود.



٧٢٣- ﴿قصة قوم ثمود﴾
﴿ثمود فى التاريخ والقرآن﴾

ثمـود Thamud، وقوم ثـمود Thamudenes من واقع التاريخ وليسـوا من أساطير الغابرين، وثبت وجود **ثمود** فى كتابات سرجون (نحو ٧١٥ ق.م)، ومؤلفات **أرسطو، وبطليموس، وبلليني**، وكانوا من الأقوام أو الشعوب البائدة. وقيل كانوا ينسبون إلى **ثمود بن عـاد بن إرم بن نوح**، وكانوا فى سعة من العيش، فـخالفوا أمر الله وأفسدوا فى الأرض، فأرسل إليهم **صالحاً** نبياً. قيل: هو **صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد ابن حاذر بن ثمـود**، وكل هذه الأسماء لا تعدو أن تكون تكهنات لا يوجد ما يثـبتها. وكان **قوم ثمود عُرباً**، وكان صالحٌ أوسطهم نسباً وحسباً، فظل يدعوهم إلى أن شاخ، وما استجابوا له إلا قليلٌ منهم كانوا **مستضعَفين**. وكانت مسـاكن ثمود ـ كما ثبت من الحفائر ـ بالحِجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، وهم من ولد سام، وسميت **ثمود** لقلة مائها، من **الثّمد** وهو الماء القليل. والمستـشرقون. ومنهم فلايشر، وكوسان **دي بيرسـيفال، وشبرنجر، وجلازر، وهوروفتس، وكيتاني، وجريمه، ومينستر، وفيلبي بيرجر**، على القول بأن **قصة صالح من ثمود** لها أساس من الواقع، إلا أنهم مـتحيرّون: من أين استقى **محـمد اسم صالح؟، ومن أين أتى بقـصة الناقـة مع قوم ثمـود؟** ويعيبـون على القرآن أنه يذكرأن العـرب لم يأتهم نبيّ من قبل محمـد ﷺ، ثم يأتى أن الأنبياء **صالح وهود** وشـعيب كانوا عُـرباً، وهناك فرق بين أن يكون النبيّ من **العَرَب**، وأن يكون من **العُرْب**، فالعُرب **أشباه عرَب**، وإن لم تكن لغتهم العربية، ولا تعارض إذن كما يزعـم المستشرقون. وناقة **صالح هى معجزته إليهم** لمّا سألوه أن يأتيهم بمعجزة، وقوله تعالى: ﴿**أَخُوهُمْ صَالِحٌ**﴾ (الشعراء ١٤٢) لأنه منهم، وكان لهم رسول أمـين، صدقهم القول وقـدّم لهم خالص النصح: وكانت أحـوالهم دليل فضل الله عليهم، فقد كانت لهم جنات وعيون وزروع ونخل طلعهـا نضيد، وبيوت فارهة ينحتونها من الجبال. وكانت **ناقة صالح** كما طلبوها، **عشراء**، ترد الماء فتشرب، وتغدو عليهم بمثله لبناً، وكانت تشرب كفـايتها من الماء أول النهار لتسقيهم اللبن آخـر النهار، وكان ما تشربه

يعادل ما تشربه بقية مواشيهم وأرضهم وأهاليهم، فجعلوا الماء قسمةً بينها وبينهم، واشترط عليهم صالح أن لا يمسّوها بسوء، ولكنهم عقروها وندموا، ولات حين مناص فقد أخذهم العذاب. والذين أوعزوا بعقرها كانوا رهطاً تسعة، وهؤلاء **كانوا المسرفين المترفين من ثمود أبناء الأشراف**، واتهموا صالحاً بأنه مسحور، وأن عقله قد بطل، واستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة، واطّيروا به وبمن معه، ودبّروا لقتله وأن يباغتوه وأهله ليلاً، ويشهدوا أنهم ما حضروه ولا رأوه، وكانت الناقة فتنة فأوعزوا بقتلها ليوغروا الناس عليه، وفي الأسطورة أن الذى قتلها اسمه **قُدار**، والعرب تسمى الجزّار **قُداراً**، تشبيهاً بقدار هذا **قاتل ناقة صالح**. فكانت عاقبة مكرهم أن دُمّروا وقومهم أجمعون. وكانت بيوت ثمود ما تزال بادية الأثر إلى عهد النبىّ ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ (النمل ٥٢)، وهذا هو **الدرس المستفاد من القصة** يعيه الذين يعلمون، **أن الله ينجّي المؤمنين ويعذّب المكذّبين**.

•••

٧٢٤- ﴿أصحاب الحجر هم ثمود﴾

الحِجْر يطلق على معان، منها حِجر الكعبة؛ ومن معانيها الحرام كقوله تعالى: ﴿**حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴿٢٢﴾﴾ (الفرقان) أى حراماً محرّماً؛ والحِجْر: العقل، كقوله: ﴿**لِّذِي حِجْرٍ** ﴿٥﴾﴾ (الفجر). والحجر **ديار ثمود** فى الآية: ﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٨٠﴾﴾ (الحجر)، وسميت **سورة الحجر** باسم هذه الديار، وكانت بين مكة وتبوك، ويطلق على الوادى هناك اسم **وادي الحجر**. وأصحاب الحجر هم **قوم صالح**، وفى الآية أنهم كذّبوا المرسلين، ولكنا لم نعرف منهم إلا **صالحاً** وحده، فمن جاءوا قبل صالح ومهّدوا له، وكذلك من تبعوه من الأنبياء، جميعهم كذّبوهم. ولما نزّل النبىّ ﷺ الحجر في **غزوة تبوك**، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، ومن فعل ذلك وعَجَن عجينه بمائها، كان عليه أولاً أن يهرق الماء، وأن يعلف الإبل العجين ثانياً، وأن لا يستقى إلا من بئر تردها الناقة، ونبّه النبىّ ﷺ على مَن كانوا معه، لما مروا على الحجر، فقال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حَذَرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم**». ويأتى عن أصحاب الحجر فى الآيات: ﴿**وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** ﴿٨١﴾ **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** ﴿٨٢﴾ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** ﴿٨٣﴾ **فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٨٤﴾﴾ (الحجر)، وآياته تعالى لهم هى الناقة، وكانت فيها آيات جمّة خارقة، جميعها من الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، وفى تفسير ذلك قيل إن الناقة خرجت من صخرة، وعند خروجها كانت على

أهبة الولادة، وكانت على هيئة عظيمة فلم تشبهها ناقة مما نعرف، وكثُر لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً. وكانت لصالح آيات أخرى كالبئر وغيرها، ولكن أصحاب الحجر أعرضوا عنها ولم يعتبروها، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً، أي ينحتونها في الجبال، والنحت فى الجبال يحتاج لقوة، وعُرفوا بطول القامة وبالقوة والبأس، وعاشوا لذلك آمنين، ولكنهم عبدوا غير الله، وجحدوا رسالة **صالح** إليهم، فأنذرهم، ثم أتاهم العذاب فى **وقت الصبح**. وأخذتهم **الصيحة** فما أغنى عنهم ما كان لهم من أموال وحصون فى الجبال، ولا ما أعطوه من قوة، وسبحان المعزّ المذلّ.

●●●

٧٢٥- ﴿ثمود وأخوهم صالح وناقة الله﴾

تناولت قصة «ثمود وصالح والناقة»: إحدى وعشرون سورة، وكانت أول سورة تعرضها هى سورة الفجر، ثم النجم، ثم الشمس، ثم البروج، ثم ق، ثم القمر، ثم ص، ثم الأعراف، ثم الفرقان، ثم الشعراء، ثم النمل، ثم الإسراء، ثم هود، ثم غافر، ثم فصّلت، ثم الذاريات، ثم إبراهيم، ثم الحاقة، ثم العنكبوت، ثم الحج، وأخيراً التوبة.

وكانت القصة بحسب هذا الترتيب كالآتى:

فى سورة الفجر فى قوله تعالى: **﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)﴾**: أن ثمود كانوا جبابرة يبنون بيوتهم من الصخور يقطعونها من الوادى؛ وفى سورة النجم فى قوله: **﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١)﴾** أن من أوصافه تعالى أنه يميت ويحيى، وأنه أهلك الذين لم يؤمنوا من الأمم القديمة، ويضرب المثل بثمود فلم يُبق على أحد منهم؛ وفى سورة الشمس فى قوله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾**: أن ثمود كانت أُمة يشيع فيها الطغيان والظلم، وأن رسول هذه الأمة كان له آية معجزة هى الناقة، وطلب منهم أن يتركوها لشأنها ترعى وتشرب من ماء الله، فجحدوا ما قال واستصغروه، وعقروا الناقة وذبحوها، فاستوجبوا غضب الله عليهم، فدمر قراهم، وهدم ما كانوا يبنون حتى سوّاه بالأرض، وهو الله الكبير المتعال والمنتقم الجبار، وكل عقاب ينزله بالمستعجبين لعقابه، هو المتحمّل لنتائجه، لأن لكل عقاب خطير كهذا، نتائج خطيرة مثله، ولابد أن يتحملها من هو أهلٌ لها، وذلك هو الله؛ وفى سورة البروج فى قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨)﴾**: أن ثمود كانوا مثل قوم فرعون، بهم بأس وقوة وبطش، فكذبوا المرسلين، والله يعلم ما يدبّرون، فأنزل بهم

العذاب وأحاط بهم؛ وفي سورة ق في قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢)**﴾: أن ثمود كانوا مثل قوم نوح وأصحاب بئر الرس من المكذّبين، وهؤلاء سبقوا ثمود، وفي سورة القمرفي قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)**﴾: أن ثمود كـذّبوا كافة إنذارات نبيّهم صالح، واستكثروا أن يعظهم واحدٌ منهم، وأن يسألهم أن يتبّعوه وهو الواحد وهم الكثرة، ولو فعلوا لضلوا وفقدوا عقولهم، وقالوا: هل من العقل أن نقبل أن يُخَصّ من بيننا بالرسالة؟ واتهموه بأنه كذّاب في إدعائه النبوة، وأنه والغ في الكذب، والله يعلم مَن الكذّاب، ويوم القيامة يعلمون كذلك. وطلبوا مكابرةً آيةً منه عبـارة عن ناقة لها بركات وكرامات خاصة، وقبل نبيّهم صالح طلبهم بعد استئذان ربّه، واشترط عليهم أن يكون لها يوم لا تشرب فيه ماءهم وتدر عليهم لبنها، وأن يكون لهم يوم يشربون فـيه الماء فلا يُسقون اللبن، وارتضوا الاتفاق، إلا أنهم نقضوه بعد فترة، وتصدّى أشقاهم وأسوأهم للناقة فعقرها، وما كان من الممكن أن ينقضوا العـهد لو لم يكونوا من الكفرة المكذّبين، فعـذّبهم الله، وأرسل عليهم صيـحة اخترقت حـاجز الصوت، فحطّمت هياكـلهم، وفتّت أجسامـهم حتى صارت كالهـشيم المُحتظر، أو كـيابس أوراق الشجـر من نوع ما يوضع في حظائر الحـيوان؛ وفي سورة ص في قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)**﴾: انضم من المكذّبين إلى ثمود: قوم نوح، وقوم عاد، وآل فرعون وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأولئك هم الأقوام الذين اشتـهروا في الديانات بأنهم تحزّبـوا ضد أنبيـائهم، وأنهم عُذّبوا أيما عـذاب؛ وفي سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا**

فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾: أن صالحاً كان أخاً لهم، يعني من ثمود نفسها، وأن دعوته كانت التوحيد، وأن بيّنته كانت الناقة جُعلت آية ومعجزة، وسُيّبت حرة لله تُدَر لبنها على من يطلبه من فقرائهم ومستضعفيهم، وهؤلاء كانوا المصدّقين والمؤمنين، بينما الأغنياء استكبروا وكانوا عاتين، وعقروا الناقة نكايةً في صالح، وفي الفقراء والمستضعفين، لأنهم صدّقوا صالحًا، وكانت الناقة تدّر عليهم لبنها وتسقيهم، وتحدّوا صالحاً أن يأتيهم عذاب الله، فارتجت الأرض من تحتهم وتزلزلت من قبل أن تأتيهم الصيحة، وفرّوا إلى بيوتهم يخلدون فيها منتظرين، وصالح يزعق فيهم: لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكنكم لا تحبون الناصحين؛ وفي سورة الفرقان في قوله: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)** ﴾: أن المكذّبين من الأمم القديمة لم يقتصروا على عاد وثمود وغيرهم ممن ذكرنا، ولكنهم كانوا كثيرين، وإنما الذين ذُكروا بأسمائهم كانوا لضرب الأمثال، وجميعهم تُبّروا تتبيراً وأُهلكوا هلاكاً؛ وفي سورة الشعراء في قوله: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨)** ﴾: أن المرسلين إلى ثمود لم يقتصروا على صالح وإنما أبرزهم صالح، ووعظهم بالحسنى، وذكّرهم أنه لا يطلب منهم عطاء، ولا مالاً، ولا جاهاً، فأجره على الله. وحذّرهم أن الله لن يتركهم هكذا يرفلون في النعيم ولا يعرفون الفضل له، فلقد أعطاهم الكثير، فبساتينهم وارفة، ومجاريهم عامرة بالماء، وزروعهم صحيحة، ونخلهم وافر الغلة وتمره حلو المذاق، وبيوتهم فارهة بنوها من صخور الجبال، فكان عليهم أن يؤمنوا ويشكروا ولا يطيعوا المسرفين منهم، الذين أعملوا في الأرض الفساد ولا يصلحون، فاتهموه بأنه مسحور مُضيّع العقل، وأنه لا يعدو أن يكون بشرًا مثلهم، وأولى به أن تكون له آية، إن كان صادقاً، فكانت آيته الناقة، لها شِرْبٌ في يوم معلوم ولهم شِرْب، واشترط أن لا يمسوها بسوء وإلاّ نالهم عذاب يوم

مشهـود، فعقروها، فـأخذهم العذاب، فكان عذابهم أو قـصتهم آية، ومـا كـان أكـثـرهم مؤمنين؛ وفي سورة النمل في قوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)**﴾: أن ثمود حيال ما يدعوهم إليه صالح صاروا فريقين كما أسلفنا: فريق المترفين وأصحاب الجاه والسلطان، وهؤلاء هم المنكرون المعارضون، وفريق الفقراء المستضعفين المضطهدين الكادحين، وهؤلاء آمنوا، وكانت للفريق الثاني في الناقة منافع، فكانوا يستطعمونها، وأعلن المستقوون الحرب علـى المستـضعـفين، واستعجلوا السيئـة، وبرروا بُغضهم للدعوة والداعي بأنهم اطيّروا به وبمن معه، وكان على رأس حزب المترفين تسعة أنفار من المفسدين، ممن نسميهم «كبـراء البـلد»، تآمروا على قتل صالح وأهله، فباغتهـم الله ودمرهم جميعاً، وبيوتهم الخاوية أثرٌ من الآثار تشهد عليهم، ونجّى الله المؤمنين؛ ولكل ما سبق يأتى فى سورة الإسراء: أنه ما منع الله أن تكون للنبىّ ﷺ آية، إلا أن الأولين كذّبوا بآياتـه، مع أنها آيات يخوّف الله بها المكذّبين، كقوم ثمود، آتاهم الناقة ضخـمة يراها كل ذى عين مبصرة، وكانت آية فى شكلها وطعامهـا ولبنها، إلا أنهم لم يؤمنوا وعاندوا: ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)**﴾؛ وفـى سـورة هود :تختلف المشـاهد والكلمات وزوايا الرؤية ولا تختلف المعـانى، فاعتراضـهم على دعوته ينبع من أن مضـمونها متـعارض مع مضمون مـا كانوا يعبدون وآباؤهم، فلماذا يريدهم أن يؤمنوا بإله واحـد؟ وأن يفترضوا أن الوجود فى الدنيـا إنما بغاية استعمارهـا؟ وذكّروه بأنه كان فى مـوضع الاحترام والتـقدير منهم، فلماذا يختار أن يعارضهم؟ وارجعوا ذلك إلى أسباب خفية مريبة، فأقواله: كـانت ثورة تقلب المجتـمع قلباً، وتلغى الطبـقات، وتؤاخى بين الفقـير والغنى، وتؤسّس الاجتـماع على التـكافـل، وهذه مبادىء خطيرة لن يرضـوها، ولن يتخلى هو بدوره عنها، لأنها من الله تعالى، فهكذا خَلَق العالم، وهكذا ينبغى أن يكون. والإيمان هو شرط قيام «مدينة الله» التى يحلم بها المصلحون. وكـان ما كان من أمر الناقـة، يقول الله تـعالى: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾. والجديد فى هذه الآيات عمّا سبقها أنه حدد لهم لوقوع العذاب ثلاثة أيام، والعدد ثلاثة من أعداد الله كالعدد سبعة، ولولا أن نزل العذاب كوعد صالح لكان قد لحقه الخزى، ولكنه الله غالب أمره، ونجّى الله صالحاً والمؤمنين، وأمات الظالمين بالصيحة، جعلتهم جاثمين هامدين، كأن لم يكونوا من أهل الدنيا، وكانت لهم من قبل حركتهم ومعايشهم فيها، وكانت جريمتهم أنهم كفروا فبُعداً لهم. وكتب الله نفس المصير لمدين شعيب، كقوله: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)**﴾(هود)؛ وفى سورة فصّلت ذكر أن العذاب كان بالصاعقة، فقال: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)** ﴾، وقال: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)** ﴾ ولا فرق بين الصاعقة والصيحة، فالصاعقة من الصعق وهو شدّة الصوت، تقول صَعِق الرعد أى اشتد صوته، وإذن لم يخطىء القرآن كما يقول المستشرقون، **والصاعقة تصف الصيحة**، وفى التعريف أن الصاعقة هى صيحة العذاب. وفى سورة الذاريات إضافة أخرى هى وصفٌ للجثوم، تقول: ﴿ **وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥)**﴾، يعنى أن جثومهم كان عجزاً عن القيام، حيث الصيحة أصابتهم بالعىّ الحركى. ثم فى سورة إبراهيم لمحةٌ أخرى، تقول: ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)**﴾، فلما جاءتهم الدعوة «**ردّوا أيديهم فى أفواههم**»، أى عضوا على أيديهم غيظاً؛ وهذه لمحة جديدة من لمحات ما فعلت ثمود تعبيراً عن ضيقهم بصالح تنضاف للمحات الأخرى وتنفرد بها الآية؛ وفى سورة الحاقة تأتى معلومة جديدة عما

كذّبوه من الدعوة، بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾، وما كذّبوه هو قول صالح بيوم القيامة، وصفتها الآية بأنها «القارعة»، لأنها تقرع الناس بالذعر، وتقرع السماوات بالانفطار، والأرض بالتصدّع، والأجرام بالتشقق والانتثار؛ وفي سورة العنكبوت: يأتي وصفهم بأنهم كانوا مستبصرين، يعني كانوا أهل علم ودراية، فقد كانت لهم عمارة متقدمة في البناء دلت عليها مساكنهم، وأصحاب العمائر مخططون ومهندسون ومع ذلك غووا الضلال وعتوا مفسدين، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾؛ وأخيراً يجيء في سورة التوبة عن ثمود - وهي السورة قبل الأخيرة من سور القرآن بحسب التنزيل: أن كفار مكة ما كان لهم أن يكذّبوا وقد عرفوا ما حاق بالأمم السابقة قبلهم: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾، والدرس المستفاد من كل هذه الآيات قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾، فهذه ست وعشرون آية في ثمود وصالح والناقة، وفيما كان منهم، عرضها القرآن للعظة والاعتبار، ولتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين. والحمد لله رب العالمين.

•••

٧٢٦- ﴿قصة الرهط التسعة مع النبيّ صالح﴾

أُرسل النبيّ صالح Salih إلى ثمود برسالة التوحيد: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (النمل)، فقدّموا الكُفر وأخّروا الإيمان، ودعاهم صالح أن يستغفروا لعلهم يُرحمون، فكانت حُجّتهم عليه: ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (النمل). ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (النمل)، والرهط: هم الجماعة، قيل هم تسعة، والجمع أرْهُط وأراهيط، وكانوا رءوساء يتبع كل واحد منهم رهط. والمدينة هي مدينة صالح، وهي الحِجْر جنوبي تيماء من وادي القُرَى. وهؤلاء التسعة كانوا من أولاد المترفين، وهم أصحاب المال والسلطان، وكل فساد في الأرض لا يتأتى إلا من المترفين، ومن سيطرة رأس المال على مقدّرات الناس، وعلى التشريع والحكم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (هود)، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سبأ)، وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦)﴾ (الإسراء). والكلام فى أسماء هؤلاء التسعة، وهم الرؤساء، نوعٌ من الرجم بالغيب، ولا تنضبط الرواية فيهم، وكلها من باب التخمين، ولا يعلم أسماءهم إلا الله، وإلا **وهب بن منبه** ـ هذا اليهودى الذى أسلم وملأ كتب تفسير القرآن **بالإسرائيليات**، قال: أسماؤهم: الهذيل بن عبد ربّ، وغنم بن غنم، ورياب بن مهرج، ومصدع بن مهرج، وعمير بن كردبة، وعاصم بن مخرمة، وسبيط بن صدقة، وسمعان ابن صفى، وقدار بن سالف، وهؤلاء التسعة لمّا أعياهم أمر صالح تآمروا عليه، والأشرار دائماً أغبياء، ولو كان التسعة على شىء من ذكاء، لقارعوا الحجة بالحجة، ولكن الطريقة السهلة للشرير الغبى هى اللجوء للقتل، وهو إعدامٌ للخصم وجودياً، ظناً بأن الحال سيبقى بعد قتله على ما هو عليه، غير أن ظهور النبوّات، وخروج المفكرين والمصلحين بالثورات، لا يكون دائماً إلا بعد نضوج مواصفات التغيير فى المجتمع، وسواء كان على يد صالح أو غير صالح، فسيتم ذلك إن آجلاً أو عاجلاً.

والتسعة الأشرار، **أو عصابة التسعة**، تقاسموا أن يبيّتوا لصالح ولأهله، **والتبييت**: هو المباغتة ليلاً، والإجهازعليهم وقتلهم، فإذا سُئلوا، يتعلّلون لمن يطالب بالثأر لصالح، أنهم ما كانوا حاضرين، وهو ما يسميه أهل القانون «**إثبات الغياب عن مسرح الجريمة وقت ارتكابها**». وهؤلاء التسعة وأرهطهم هم أنفسهم الذين دبّروا قتل الناقة، فلمّا أنذرهم صالح بالعذاب وأمهلهم **ثلاثة أيام**، قدّروا أن يتخلصوا منه، ومَكَر الله تعالى بهم كما مكروا بصالح والناقة، وما كان لهم أن يأمنوا مكر الله وله المكر جميعاً، والمكر لا يحيق إلا بأهله، فلم يشعروا بما يُحاك لهم، فجاءتهم **الصيحة** بغتةً فأهلكتهم أجمعين، ودُمِّروا تدميراً، وهلك التسعة فيمن هلك، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، وقد خلت الحِجْر عن أهلها، وصارت العمائر خراباً وآثاراً لا يسكنها ساكن، وفى ذلك آية لقوم يعلمون ويستخلصون العظات والعبر، ونجىّ الله الذين آمنوا بصالح، وكانوا من المتّقين؛ وقيل رجماً بالغيب إنهم كانوا نحو **أربعة آلاف**، وقيل أيضاً بلا سند ولا مرجع: أن قتل الناقة كان **يوم أربعاء**، وأن هلاك من هلك كان **يوم أحد**، وأن الصيحة جاءتهم **صحوةً**، وكان صالح قد خرج بمن معه إلى **حضرموت**، ومات هناك، فسميت لذلك **حضرموت!** وبَنَى من بقى من ثمود مدينةً إلى جوار حضرموت سميت على ما قيل «**حاضورا**». وهكذا تنتهى **قصة التسعة** باندحار الشرّ، وإفلاس الأشرار، وانتصار قوى الخير وجنود الله، والعاقبة دائماً وأبداً للمتّقين، ولعل أعداء الإسلام الآن يبلسون كما أبلست عصابة التسعة، وندعو الله أن ينصر المسلمن، والحمد لله رب العالمين.



﴿قصة هود﴾

٧٢٧. ﴿هود فى التوراة والقرآن﴾

يكذّب المستشرقون من أمثال: **هيرشفيلد، وفون كريمر، وجايجر، وسيل، ومولين، وهوروفتس**، وجود نبىّ اسمه «**هود Hud**»، ومرجعهم فى ذلك التوراة، ومع ذلك فقد نسبوا «هوداً» كما ورد عنه فى القرآن - هكذا يقولون - **إلى عابر**، أحد أجداد إبراهيم الذى يُنسب إليه **العبرانيون**، ولا أدرى من أين أتوا بهذا الكلام من القرآن؟ ومن أى سورة؟ فلا يوجد فى القرآن ذكرٌ **لعابر**!! وعابر فى التوراة هو **الجد السابع لإبراهيم** (التكوين١١/ ١٤-٢٦)، ومع ذلك يأتى فى التوراة أيضاً أن اسم **العبرانيين** أضفاه عليهم **الكنعانيون**، فسمّوا إبراهيم: **إبراهيم العبرانى** (تكوين ١٠/ ٢٤ و ١١/ ١٤ و ١٤/ ١٣)، لأنه **عبَر نهر الفرات إلى فلسطين**، أو لأنه كان بدوياً رحّاله، يسافر **عابراً** وينتقل من مكان إلى مكان، ومن أرض إلى أرض. واسم «العبرانى» ليس إذن اشتقاق من اسم جدّ أكبر اسمه **عابر** كما يزعمون. ويدأب المستشرقون أن ينسبوا كل ما يأتى به القرآن إلى اليهود، واختلقوا لذلك أنساباً لهود، فقالوا: إن الاسم «هود» من «**هود**» العربية **بمعنى اليهود**، وقالوا: إن «القرآن» يأتى فيه اسم «هود» بمعنى اليهود **ثلاث** مرات، كقوله تعالى: **﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾** (البقرة ١٣٥) فمحتمل أن معنى «هود» هو «**النبىّ اليهودى**»، وخاصة أنه أُرسل إلى قوم عاد باليمن وحضرموت وعُمان، وهؤلاء كان بهم كثرة من **اليهود**. إلا أن «**هوداً**» صيغة جمع، والمفرد **هائد**، فلو كان المقصود باسم النبىّ هود أنه من **اليهود**، لكان اسمه هائد وليس **هوداً** صيغة الجمع. ويريح **هيرشفيلد** دماغه ويعلن ببساطة أنه **لا وجود** لنبىّ باسم هود، وأن الاسم ملفّق، وحكايته على منوال حكاية **محمد** مع أهل مكة، وأن **محمداً** اخترع هذه القصة وألّفها خصيصًا لهم ليقنعهم برسالته هو نفسه!! مع أن القرآن قد ورد به قوله تعالى: **﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾** (العنكبوت ٣٨)، يعنى أن آثار مساكنهم كانت ما تزال موجودة أيام النبىّ ﷺ، يراها العرب فى رواحهم ومجيئهم رأى العين، ويعرفون أنها أطلال **مدينة عاد**، فلو كانت قصة هود **رمزية**، فهل كان يرد ضمنها الإشارة إلى مساكن قوم هود إن لم يكن لهؤلاء الناس وجودٌ أصلاً؟!

•••

٧٢٨- ﴿أصحاب الأيكة﴾

يأتى عن أصحاب الأيكة **People of the Thicket** أربع مرات فى القرآن فى قوله: **﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾** (الحجر)؛

وقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾ (الشعراء)؛ وقوله: و﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾(ص)؛ وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾ (ق).

وتناول المستشرقان دالمان وهوروفتس قصة أصحاب الأيكة وجعلا منها مسألة كبرى يدللون بها على غموض القرآن ، وأن آياته ليست كما وُصفت: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ (العنكبوت ٤٩)، وأن النبيّ ﷺ لم يوضح المقصود بأصحاب الأيكة كما قالت الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤)؛ ويعلم الله أن هذين المستشرقين لكاذبان، ففى سورة الشعراء يأتى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين، بدليل أن نبيهم كان شعيباً، وكل نبى يكون من قومه، والعهد بالقرآن أن ينسب النبيّ إلى قومه، فيقول مثلاً: «أخوهم شعيب»، كما فى الآية ٨٤ من سورة هود، ولكنه فى سورة الشعراء الآية ١٧٧ لم يفعل ذلك وقال: «شعيب» فقط، والسبب أنه تعالى نسبهم إلى ما يعبدون وهى **الأيكة**، وإنْ كان شعيب أخاهم على الحقيقة نسباً، والمستشرقان لم يفطنا لذلك فظنا أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، والصحيح أنهم **أمة واحدة**، وإنما جاء وصفهم فى كل مناسبة بما يناسبها، فلما كانت مناسبة الوعظ فقد وعظهم بنفس ما وعظ به أهل مدين، فدلّ ذلك على أنهم **أمة واحدة**. **والأيكة شجرةٌ**، قيل أنهم عبدوها - أى أنزلوها من أنفسهم منزلة التقديس، **فعبادة الطبيعة** عموماً من العبادات القديمة، وما تزال عند بعض الناس إن لم نلحظها عندهم، وقامت فلسفة ماكس مولر على قوله: **بعبادة الطبيعة Naturismus**، وفى علم النفس والطب النفسى لدينا **تعشّق الأشجار Dendrophilia**: وهو الكلَفَ الشديد عند بعض الناس وبعض الشعوب، بالأشجار، كلفاً لا يُعلَم له سبب، ويذهب بعض علماء النفس

إلى القول بأن تعشُّق الأشجار أو عبادتها هو نوع من **الولع الجنسي**، حيث تكون الأشجار رمزاً للقضيب، ويكون تعشق الأشجار في حقيقته تعشقاً للقضيب، **وتعشق القضيب** أو **عبادته** كانت من العبادات القديمة، ونراه كثيراً عند بعض الرسّامين، وعند المرضى النفسيين، فإذا كان الكلف مرضياً بلغ حدّ **الهوس**، وتحفل الآثار المصرية واليونانية والرومانية بصور وتماثيل لعبادة الأشجار من هذا النوع المرضي، ويروى أطباء النفس عن حالات لمرضى يتحدثون مع الأشجار ويواعدونها ويبثونها لواعج أشواقهم، ويحتكون بها ويقبّلونها، وقد يستمنى المريض أثناء ذلك. فلا عجب إذن أن يكون **أصحاب الأيكة** من هؤلاء، أو أنهم كانوا من الأثرياء من **أصحاب الغياض**، كقولنا الآن من «**أصحاب الضياع**». والأيكة هى الغيضة، **والغيضة** هي مجتمع الشجر حيث **مغيض الماء**، وهو مكان تجمُّع الماء. والغيضة أيضًا هى **الغَوْطة**. وكانت مدين مشهورة بغياضها أو أيكها، وربما سميت مدين باسم الأيكة لكثرة الأيك بها، فدلّ شجر الأيك على القرية ورمز لها وصار اسمها. وقد نسأل عن كُنه هذا الشجر، فنقول إنه ربما **شجر الدوم**، وهو وإن ندر الآن، إلا أنه ما يزال يوجد منه ببلادنا، وهو شجر عظيم الهيئة، ويسمونه أيضاً **المُقْل**، من فصيلة النخليات، وسوقه متشعبة، ويُستخرج من ثماره نوع من **الدبس** - أى العسل، ويناسب المناخ الحار. وربما كانت الأيكة غيضة من **أشجار السدر والأراك** ونحوهما من نواعم الأشجار، مما ينبت عادةً في أمثال هذه البيئة، **والسدر** هو النبق، **والأراك** واحدته **أراكة**، وهو شجر له شوك، وسيقانه طويلة، ويكثر ورقه وتشتبك أغصانه، وتُتخذ منها **المساوك** (جمع سواك). وتلك الأنواع من الأشجار: المُقل، والسدر، والأراك، قديمة، وكانت في الماضى تنبت بكثرة فى بيئات كبيئة **مدين**، وهى نادرة الآن. وكانت تتميز بالأغصان الملتفة، فتتشابك الأشجار مع بعضها البعض، وتَصلُح أن يُستظَل بها، والآيات فى قصة أصحاب الأيكة تتحدث عن **يوم الظُلة**، وهو يوم عذاب أهل مدين الذى حاق بهم لمّا كذّبوا نبيّهم وسلكوا معه كالأراذل، ومنعوا الناس الحقوق، وعاثوا فى الأرض مفسدين، وأنكروا الله، وأصرّوا على الإنكار، واستبدّ بهم الاستكبار حتى التحدّى أن يُنزل **شعيب** عليهم كِسَفًا من السماء. ومن فضائل تلك الآيات أمثال هذه المصطلحات الإسلامية: «**يوم الظلة**» و«**أصحاب الأيكة**»، وذهب قولهم: ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴿١٨٧﴾﴾ (الشعراء) مثلاً من فرائد الأمثال التى يُستشهد بها. **والكسَف** جمع كِسْفة وهى القطعة والجانب من الشيء، تقول أعطانى كِسَفاً من ثوبه يعنى قطعاً منه. وفي **يوم الظلة** هذا أسقط الله عليهم هذه الكِسَف التى سألوه إياها، حتى أنهم استظلوا منها تحت

هذا **الأيك** الكثير، ثم جاءتهم **الصيحة** أو **الرجفة** فأخذتهم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، **والديار** هى القرى حيث مساكنهم.

ولم يكن من فراغ أن المستشرقين قالوا بأنه من غير الواضح أن **أصحاب الأيكة** هم أهل مدين، فمن العرب من ذهب هذا المذهب أيضاً، وقال: إن **الظلة**، كانت سحابة غطّت قرية الأيكة فعَظُمت بها الحرارة، حتى أن النار اشتعلت فى الأيك فأتت عليه وعلى أصحابه، فكان عذابهم في هذا اليوم هو **عذاب الحريق**. وأما عذاب **أهل مدين** فكان **بالصيحة** أو **الرجفة** التى أخذت الظالمين منهم. وبناءً عليه فإن أصحاب الأيكة غير أهل مدين. غيرأن النقد الموجه لهذا القول أنه لا ذكر **للحريق** فى يوم الظلة، ويجوز أنهم استظلوا من وقدة الشمس بالأيك ولكن عذابهم كان بالصيحة أو الرجفة، والرجفة لها صيحة أو ضجيج عظيم. ويُضعف من هذا الرأى أن عذاب الصيحة كان للظالمين فقط من أهل مدين، بينما أخذ أصحاب الأيكة جميعاً. وقد يُردّ على ذلك بأنه لا تعارض بين أن يقال إن الظالمين من أهل مدين هم الذين أُخذوا بالصيحة وانتُقم منهم، وبين أن يقال إن أصحاب الأيكة - وهم من أهل مدين، قد شملهم هذا العذاب أيضًا ولكنهم خُصّوا بعذاب أكبر لعظم جُرمهم، ولأنهم ظلموا أكثر من غيرهم، ولربما كان «**عذاب الصيحة**» لذلك للسواد من الناس، بينما «**العذاب العظيم**» الذى هو «**عذاب التحريق**» لخاصة الذين وصفوا بأنهم **أصحاب الأيكة**، وهم طبقة **المُلاّك** من **أصحاب الغياض**. وفى الآية: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾ (هود ٨٤) أنهم بنو مدين، كما يقال مُضَر والمراد بنو مضر، أو أن مدين مدينتهم فنُسبوا إليها. وجريمة هؤلاء كما فى الآيات التى تحكى عنهم، هى نفس جريمة **أصحاب الأيكة** التى تذكرها آياتهم وتتكامل تماماً مع آيات أهل مدين. والآيات فى الحالتين تأتى بعد الآيات عن قوم لوط، **وهذا التجاور فى الآيات ينبيء عن تجاور فى المكان**، بمعنى أن قُرى قوم شعيب وأصحاب الأيكة كانت قريبة من قرى لوط. فإن كان **قوم شعيب** بخلاف **أصحاب الأيكة** فهما على الأقل **جماعتان لأمة واحدة**، فكان نبيُّهما واحداً. والآيات فى القرآن التى تشير إلى **تجاور قرى لوط وقرى شعيب** تشملها أربع سور، هى: **الأعراف،وهود، والشعراء، والعنكبوت**، ويثبت هذا التجاور المكانى أكثر بالآية: ﴿ **وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴿٧٩﴾ ﴾ (الحجر)، **والإمام المبين** هو المكان الواضح المشرف على طريق، وكل من يسير فى هذا الطريق يرى آثارهما: ﴿**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴿٧٦﴾﴾ (الحجر) ، والسبيل هو الطريق، والمقيم أى القائم بمعنى أنه مايزال موجودًا.



٧٢٩- ﴿شعيب أو يثرون في القرآن والتوراة﴾

شعيب هو نبىّ أهل مَدْيَن، أو بنى مدين؛ وفى التوراة (تكوين ٢٥/ ٢) أن شعيبًا كان من نسل مدين بن إبراهيم من زوجه قطورة، وكانت قد وُلِدت له ستةٌ من الأبناء، ومدين رابعهم، وأنجب مدين عَيْفَة، وعِفْر، وحَنوك، وأبيداع، وألداعة، ومن هؤلاء كان بنو مدين الذين أُرسل إليهم شعيب، واسمه بالمديانى يثرون Jethro، وفي التوراة هو يثرو، ومعناه بالعربية الفَضْل أو ذو الفضل، أى المتفضّل على الناس، أو صاحب الفضيلة والإحسان، وأما الاسم شعيب فهو عربى خالص، والمستشرقون يتعجبون من أين جاء به محمد؟ فلا توجد مراجع معروفة فيها ذِكر لاسم شعيب هذا، ولكنه في العربية تصغير لشعب، وتقال للمصلح، فيكون شعيب أنه مصلح صغير، فالاسم العربى أليق به، وكان شعيب من الأنبياء الصغار حقاً، فلم يكن له كتاب، وما كان المؤمنون به كُثراً. فلما كثرت أقواله عن الله دعوه رعوئيل Reuel، يعنى خليل الله، وتقوم شهرة شعيب عند الإسرائيليين على استضافته لموسى بعد هروبه من مصر، وقد ظل يرعى له غنمه مدة أربعين سنة فى زعمهم، وتروى التوراة قصة موسى فى سفر الخروج في الفصول الثانى والثالث والثامن عشر، فلمّا قَتَل موسى المصرى منتصراً للإسرائيلى مثله، وشاع الخبر وطلبه فرعون، هرب إلى مدين، وأسمت التوراة شعيباً «كاهن مدين»، فهو ليس من الأنبياء عندهم. وكانت له سبع بنات جئن يوماً يستقين ويملأن المساقى ليسقين غنم أبيهم، فطردهم الرعاة، وكان موسى بالقرب فرأى ذلك، وقام مروءةً يسقى لهن، فهو القوى الذى لا يُغلَب، وقصّت البنات القصة على أبيهن، وأنهن لذلك عُدن مبكّرات، ووصفن موسى بأنه مصرى، وأرسل له الأب ابنته صفورة يدعوه مكافأةً له، واستضافه، وزوّجه هذه الابنة، واسمها يعنى العصفورة، فربما كانت ضعيفة البنية، وذهب موسى يوماً فى رعيه للأغنام بعيداً حتى جبل حوريب، وهناك كلّمه الربّ وعهد إليه ليتوجه إلى مصر نبيا. فلما عاد موسى بعد الخروج من مصر، ونزل عند جبل حوريب، وسمع شعيب بعودته، وكانت زوجة موسى عنده وقد صار له منها ولدان، فأخذهم شعيب إلى موسى، وعند جبل حوريب شاهده يقضى بين الناس، ونصحه أن يعيّن قضاة لهذه المهمة ويتفرغ لتعليم الفرائض والشرائع، وفعل موسى ما أشار به عليه، وهذا هو كل ما ذكرته التوراة عن شعيب. وأما فى القرآن فالأمر مختلف، والحكاية تُروى بكاملها وببلاغة لا مثيل لها، وتترى أحداثها وتحفل بالتفاصيل، قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي

حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (القصص). وفي هذه الآيات وغيرها مما سنورده بعد، يظهرجلياً التفاوت بين روايتي القرآن والتوراة، ورواية القرآن طويلة وفيها صراعات وخلافات، ورواية التوراة قصيرة ولا نعرف ما دار بين شخوصها، وفيها أن بنات شعيب كن سبعة، وذهبن جميعاً يستقين؛ وفي رواية القرآن أنه لم يكن له إلا ابنتان ذهبتا للمورد، والبنت الكبيرة كانت الناصحة لأبيها، وطلبت منه أن يستأجر موسى، فخيّر من يُستأجر هو «القوى الأمين»، فكأنها بذلك قد وصفت موسى خير الأوصاف، وكأنه أعجبها، وهذا ما جعل الأب يعرضها على موسى للزواج. وقصة القرآن تؤرّخ لأهل مدين في كل أحوالهم، ومنها نلم بالكثير من عاداتهم وأعرافهم، فالرعاء الذكور يسقون قبل الإناث؛ ومورد الماء يجتمع عنده الناس، فربما يستأجر القادر العاطل؛ والنساء قد ترعى الأغنام وتزود عنها، فلم يكن ذلك محظوراً عندهم ولا العرف يأباه. ومنذ البداية يظهر قوم شعيب بهتاً مُطلاً لا مروءة عندهم، ولا يصلح للتعامل معهم إلا القوي كموسى، ولذا زحمهم موسى وغلبهم على الماء حتى سقى، وهذا الغَلَب هو الذى وصفته إحدى ابنتى شعيب بالقوة، فلما أمرها أبوها شعيب أن تستحضر موسى جاءته على استحياء في غير خراجة ولا ولاجة، وعرض عليه شعيب أن يستأجره، كما نصحته ابنته، وأن يزوّجه إياها. وفى الإسلام عرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبيّ ﷺ، فقد يرى الولى أن يعرض وليّته، وقد ترى المرأة أن تعرض نفسها، اقتداءً بالسلف الصالح، ولا يعتد بأن شعيباً زوّج ابنته دون رأيها، فإنها مما قالته عن موسى كانت راغبة فيه، والرغبة رضا، ورضا الولية شرط للزواج لأنها بلغت حدّ التكليف. وقوله: «أريد أن أنكحك» نستدل منه أن النكاح موقوف على التزويج والإنكاح. وقوله: «إحدى ابنتى هاتين» يدل على أنه عَرْضٌ لا عَقْد، لأنه لو كان عقداً لعيّن المعقود عليها، ولو أن سياق القصة يُفهَم منه أن المعروضة

ضمناً هي التي أرسلها إليه لاستحضاره وهي الكبرى صفورة، وهي التي خاطبته أن أباهما شيخ كبير. وأنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاء، وكثير من المفسرين قالوا إنها **الصغرى** وهذا غلط غالباً، لأن **الكبرى** هي الأكثر حنكة ودراية، وهي مشيرة أبيها الأمينة، ولا يعتد باسمها **صفورة** يعني **العصفورة** أنها الصغرى، وواضح أن موسى دخل على امرأته بعد الاتفاق وحين العقد، وكان **صداقه** رعيه الغنم وشروعه في الخدمة، والرعي والسَّقْي والحَرْث **مسمى الخدمة**، **والأجل** حدّده شعيب **ثماني حجج**، فإن أتمّ موسى **عشراً** فمن عنده، أي أنه وكَلَ الاثنين الزيادة إلى مروءة موسى، ومن هذه المدة عرفنا أن **العقد** ثماني أو عشر سنوات. وقام زواج موسى من ابنة شعيب على **الكفاءة**، والكفاءة هي المعتبرة في النكاح، ويصح جواز الموالي كموسى إن تحقق الأب من دينه ورأى من حاله وأعرض عما سوى ذلك. **ولم يُشهد** النبيّان على عقدهما أحدًا من الخلق، وكان شاهدهما الله، فقالا معاً: «**والله على ما نقول وكيل**»، وينعقد النكاح في هذه الحالة دون شهود، لأن عقده **عقد معاوضة**، فلا يشترط فيه الإشهاد وإنما الإعلان والتصريح. وقوله: «**فلما قضى موسى الأجل**»، فيه أنه قضى الأجل الأبعد، لأنه أجل المروءة، وقضى **عشر** سنوات في خدمة شعيب، «**وسار بأهله**» يعني ذهب بزوجه وولديه وخرج من مدين، وفي ذلك دليل على أن **أهل الرجل تتبعه حيثما ذهب لما له من فضل القوامية**.

فهذه هي **الفوائد في قصة شعيب مع موسى** في القرآن، وليس منها شيء **في قصة** التوراة، والتوراة في قصة موسى مع شعيب كالأرض الجرداء تخلو من الخير ولا تزوّد بإفادة. ويقول تعالى مخاطباً موسى: ﴿**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ**﴾(طه ٤٠)، والسنين هي السنوات العشر التي **قضاها** وفاءً لعقده مع شعيب، وذلك قوله تعالى: «**فلما قضى موسى الأجل**»، و«**الفاء**» عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، و«لما» حرف وجود لوجود، أو وجوب لوجوب، أو ظرف لفعل وقع لوقوع غيره، ولذلك **فمدة إقامة موسى بمدين لم تكن أربعين سنة كما تقول التوراة!** ولكنها بالتأكيد **عشر سنوات** لا غير!

وأمّا **قصة شعيب مع أهل مدين**، فإنهم كانوا أهله وفيهم عشيرته، ولذا قال تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾ (الأعراف ٨٥، وهود ٨٤، والعنكبوت ٣٦)، **ومدين** بقرب «**معان**» من طريق الحجاز، ولذا قيل **شعيبٌ عربي**، وكذلك **صالح وهود وإسماعيل**، اعتماداً على أن مدين من **جزيرة العرب**، وهذه حجةٌ لا يعتد بها، فقد كانت **خيبر** من جزيرة العرب وكان أهلها يهودًا، وكذلك كانت لليهود قبائل وقرى في اليمن ولم يكونوا يمنيين. ولا ذكر في التوراة لما كان شعيب (يثرو) يحدّث الناس به، وكما قلنا: **لم تكن له دعوة**، إلا أنه

فى القرآن يأتى تفصيلاً عنه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (الأعراف). وفى هذه الآيات حُسن مراجعه من شعيب لقومه، وكانوا أهل كُفر وبخس للمكيال والميزان، ويعيبون الأشياء ويزهّدون فيها، ويخادعون فى قيمتها، ويأكلون المال بالباطل، ويُفسدون فى الأرض، ويرتكبون المعاصى،ويستحلّون المحارم وسفك الدماء، ويقعدون بالطرق، ويقطعون السُّبُل، ويسلبون الناس، واشتغلوا عشّارين ومتقبّلين ومكّاسين. والعشّار: هو الذى يتقاضى العُشر كزكاة مالٍ، والمتقبّل: الذى يرضى لنفسه أن يأخذ من الجباية أكثر مما يقتضى، والمكّاس الذى يأخذ ما لا يلزم شرعاً من الوظائف المالية بالقهر والجبر.

وقول شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾(الأعراف) أى لو كنا كارهين أن نخرج من قريتنا، تجبروننا على الخروج وعلى ترك مساكننا وأهلينا، أو أن نعود إلى ملّتكم؟ وهذا هو الإكراه فى الدين، مارسه الآخرون ويمارسونه على المسلمين،وما مارسه المسلمون عليهم يوماً، لا فى الماضى ولا فى الحاضر. وقوله: «ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» هى دعوة المسلمين دوماً كلما حاق بهم الظلم وأحاط بهم الطغيان. والصيحة التى نزلت بالظالمين هى الرجفة أو الزلزلة، فإما أنها صيحة زلزلت الأرض من تحتهم، أو أن الزلزلة كانت لها صيحة أى ضوضاء تُصَم لها الآذان، وترجف المساكن، ويستحيل بها العالى سافلاً والسافل عالياً.

وفى كلمات مشابهة ومعان متماثلة، مع بعض الاختلاف، يأتى أيضاً فى شأن شعيب

وأهل مدين قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ (هود)، وفي هذه الآيات: أن شعيبًا أخٌ لأهل مدين، والدعوة في الأبيات هي نفس الدعوة في الآيات السابقة، وفيها من المأثورات من جوامع الكلم مثل قوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

ومما ترويه هذه الآيات من الأنباء عن مدين وشعيب: أن أهل مدين كانوا بخير، يعني في رغدٍ من العيش، إلا أن الفساد قد استشرى فيهم، وأنزل أقوياؤهم الظلم بضعفائهم، وما أثارهم على شعيب إلا أنه أراد إبطال عبادتهم للأصنام، وما كانت عقيدتهم إلا نتاج نظامهم في الحكم القائم على تسيُّد الأقوياء اجتماعيًا وسياسيًا، وسيطرة الأغنياء على الاقتصاد، فكرهوا من شعيب أن يبدّل فيما استقر فكرُهم عليه، وما قامت عليه مجتمعاتهم، وكان شعيب قد آمنت به قلة وطبَّقوا طريقته المغايرة، فدرّت عليهم الرزق الطيب الحلال، فأطلع أهل مدين على ما فيه وأصحابه من الخير، ودعاهم أن ينهجوا نهجه، وما كان يطمع في أجر منهم إلا أن يصلحهم ما استطاع. ولم يكن وصفهم له بالحليم الرشيد إلا تأنيباً، فما كانوا يتوقعون منه وهو الحليم أن يطلب إليهم أن يطيعوه، وأن يأمرهم أن لا يطففوا الكيل ولا أن يبخسوه، وما انتظروا منه وهو الرشيد أن يطلب

إليهم أن يغيّروا ما درجوا عليه وآباؤهم. ويستمر حجاجه معهم، يقول: لا تحملنكم معاداتى على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب قوم لوط جيرانكم، ولو استغفرتم وتبتم لرحمكم الله وهو الرحيم الودود. ولكنهم لجّوا فى جدالهم، وذكّروه أنه فيهم الضعيف لولا رهطه، أى عشيرته، وإلا كانوا رجموه، ومن الرجم أن يزلقوه بألسنتهم، ومنه أن يرموه بالحجارة فقد كان عندهم من الصابئين، وكان عذرهم أقبح من ذنبهم، فأن لا يقربوه خوفاً من عشيرته مع أن الله تعالى أحق أن يخشوه، هو من قلة فهمهم وسوء تفكيرهم، ولمّا أيس منهم لم يجد إلا أن يسلّم أمره إلى الله، فقال قولته المشهورة: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾، ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، أى استمروا واثبتوا إذن على ضلالكم فأنا ثابت على إيمانى وقد صرت على بيّنة من ربّى. وقوله من الدروس المستفادة، فلا رجاء فى فرض رأىّ على الناس بالقوة، ولا سبيل لنشر دعوة إلا بالإقناع، والأمر موكول لهداية الله لمن يشاء له الهُدَى. ولم يهتد قوم شعيب أو أهل مدين - «أصحاب الأيكة»، وجاء أمر الله فجعلهم مثلاً فى الغابرين، وألحقهم بأهل ثمود جيرانهم، فأصبحوا هلكى فى ديارهم كأن لم يغنوا فيها، فبُعداً لهم، والبُعد هو اللعنة.

والدرس المستفاد من هذه القصة ومن غيرها، عن الأمم التى لم تزل قائمة، أو التى دالت وصارت حصيداً: أن أمثال هذه القصص لم تُذكَر فى القرآن كأخبار أو معلومات، وإنما عظةً وعبرةً، وأن لكل أمة أعمالها تستوفيها، وأن الظلم شِرك بالله، وأن الحقّ لابد أن يزهق الباطل، ويمحو الله الباطل، وأن الإسلام هو دين الحق، وكان دين الأنبياء جميعاً، فمن تبعهم فقد أسلم لربّ العالمين. والقصة بذلك ذكرى للذاكرين.



٧٣٠- ﴿أصحاب مَدْيَن﴾

هم المذكورون فى الآية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ (الحج)، ومَدْيَن على البحر الأحمر من أعمال السعودية، وتحاذى تبوك، وبها البئر التى استقى منها موسى، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ (القصص ٢٣). ومدين اسم قبيلة تسكن مدين، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾، ويُسمون أيضاً ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ (طه ٤٠)، وهم قوم النبىّ شعيب.



٧٣١- ﴿قصة القرية الظالمة﴾

ترويها الآيات: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا

أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ⑬ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ⑮﴾ (الأنبياء)، وقالوا اسم هذه القرية حَضُور، وكانت بأرض الحجاز من جهة الشام، وبُعث إليهم نبيّ اسمه شعيب بن ذي مَهْدَم، وهو غير شعيب قوم مدين وقبر شعيب حَضّور هذا باليمن، بجبل يقال له ضنين، كثير الثلج. ووقعت قصة هذه القرية قبل عيسى بزمن، وبعد سنين من سليمان،وقام أهلها بقتل نبيّهم، وكان أصحاب الرَّس قد قتلوا في نفس الوقت تقريباً نبياً لهم اسمه حنظلة بن صفوان، وأنزل الله العذاب بقوم حَضُور على يد بختنصر، فهذا وصفُ الله لها بأنها قرية ظالمة، فقد كان أهلها مترفين، فلما أحسّوا أنهم ارتكبوا الذنوب وكفروا بالله، لجأوا للفرار خوفاً من انتقامه تعالى، فطالت بهم الغربة بعيداً عن بلادهم، ولم ينزل بهم أى عذاب، فعادوا إلى ما أُترفوا فيه،وعمّروا مساكنهم من جديد، فكان أن سُئلوا مرة أخرى، فاعترفوا هذه المرة بأنهم ظلموا أنفسهم حين لا ينفع الاعتراف، فما زالوا يرددون أنهم «ظلموا أنفسهم»،وما زالت تلك دعواهم «ياويلنا»، إلى أن حَصَدهم العذاب حصدًا، وهلكوا للأبد، فتلك قصة القرية الظالمة.

***

٧٣٢- ﴿تبّع وقومه: من يكونون؟﴾

يُذكر تُبَّعٌ وقومه في القرآن مرتين، في الأولى قوله: ﴿ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ㊲** ﴾ (الدخان)؛ وفي الثانية قوله: ﴿ **وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ⑭** ﴾ (ق). والأقوال في تُبَّع كثيرة ولاشيء منها مؤكد،والسياق في الآية الأولى فيه من قبل ذلك إنكار قريش للبعث، قالوا: ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ㉞ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ㉟ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ㊱** ﴾ (الدخان)، وكان أبو جهل يقول: يامحمد! إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا من آبائنا قصيّ بن كلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عمّا يكون بعد الموت- وقول أبي جهل أضعف الشبهات، لأن الله تعالى لا يعيد الناس إلاّ للجزاء، وأبو جهل يريد إعادتهم للتكليف! وقوله كقول من قال: إن كان الله يقدر أن يُنشيء بعدنا قوماً من الأبناء، فلِمَ لا يُرجع مَن مَضَى من الآباء؟! وهذا معنى ﴿ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا** ﴾. والسؤال كان مطروحاً على النبيّ ﷺ ،وما يزال مطروحاً من قِبَل ورثة عِلْم أبي جهل، وهم الملاحدة والعلميون والتنويريون، ويجبهون به المسلمين في كل حين. وردُّه تعالى عليهم في الماضي وحتى اليوم والغد: ﴿ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ㊲ وَمَا**

خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) ﴾(الدخان)، والردُّ من نوع استفهام الإنكار، فما هؤلاء الملحدون خيرٌ من **قوم تُبَّع** وغيرهم من الأمم البائدة، وأسئلتهم ومطالبهم وحُجَجهم هى نفس الأسئلة والمطالب والحجج، وأولئك أبادهم الله وأهلكهم، فكذلك يفعل فى هؤلاء، والنبت الخبيث يستأصله، وما لا ينفع الناس لا يمكث فى الأرض، واستئصالهم لأنهم مجرمون، والمجرمون نقيض المسلمين، والله يقول: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)** ﴾ (القلم)، وسبيل المجرمين **الاستكبار** على الحق، وما كانوا ليؤمنوا بالله ولا بمن يدعو إليه، وفى **التصنيف الإسلامى للأمم والناس**: أن منهم «**مجرمين**» وهؤلاء هم المكذّبون للرسُل، أو المكذّبون للحق عموماً، ومن المجرمين عتاة يسميهم القرآن «**أكابر المجرمين**»، يقول: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا** ﴾(الأنعام)، وقانونه تعالى فى الدعوات: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾(الفرقان ٣١)، والمجرمون هم الأخسرون، والإنكار فى قلوبهم متمكن، ولذلك يفترون، ولهم الصَغار - أى المذلة - فى الدنيا والآخرة، ومن هؤلاء كان **قوم تُبَّع**، ولم يكن أحدٌ مثلهم فى ظهور النعمة وكثرة الأموال، ولا كان أحدٌ يضاهيهم فى العزة والمنعة. «**وتُبَّع**» ليس اسمًا ينسبون له، ولكنه لقب رجل من المؤمنين الصالحين، كقوله تعالى: «**قوم نوح**»، و«**قوم لوط**»، و«**قوم إبراهيم**»، و«**قوم هود**»، و«**قوم صالح**»، و«**قوم يونس**»، وكان ملوك اليمن يقال لهم «**التبابعة**»، والواحد تُبَّع، كما نقول الخليفة، أو كسرى، أو قيصر، أو رئيس الجمهورية. وربما سُمِّى كل واحد تُبَّعاً لأنه يتبع مَن قبله، فهم خلفاء لبعضهم البعض، واشتهر منهم: **الحارث الرائش بن همال ذو السدر، وأبرهة ذو المنار، وعمرو ذو الأذعار، وشمر بن مالك**، وقيل: كان منهم أيضًا مَن يُدعَى **أفريقيس بن قيس**، وهذا ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وقيل: وبه سميت **أفريقية**!!

والظاهر من الآيات أن المقصود بتُبَّع واحدٌ من هؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم من المشهورين، وكان العرب يعرفونه لا باسمه ولكن بلقبه، فكان يقال: «**تُبَّع**» فقط دون أن يعقبه الاسم. ومن التفسيرات العجيبة أن ابن كثير ينسب للنبىّ ﷺ حديثاً يقول: «**ولا أدرى أتُبَّع لعيِّن أم لا**» أو قال: «**لا أدرى العينُ تُبعاً أم لا؟**» فنسب إلى الرسول ﷺ أنه لا يدرى! كالقائلين باللاأدرية! **فكيف يكون ذلك وكان جبريل يعلّمه؟ وكان القرآن يتنزّل على قلبه، لا بحَرْفه فقط، وإنما به وبمعناه؟ فهل لو كان لا يدرى فى أمر كهذا تافه، أيؤتمن على تبليغ رسالة؟** ومما يذكره ابن كثير أيضاً عن أحمد والطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه

الحديث: «**لا تسبّوا تُبّعاً فإنه كان مؤمناً**»، فهو إذن عَيْن، يعنى شخصاً بعينه، قيل هو أبو كرب أسعد الذى كسا البيت حَبَرات، وفى الحديث لعائشة: «**لا تسبّوا تُبّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً**»، يعنى: أنه كان عَيْناً، وقيل كان من قبائل حِمْيَر: فإن شاء القارىء أن يحتسب تُبّعاً اسماً كان بها، وإن شاء أن يحتسبه لقباً فالأمر سيان، فالمهم هو العظة من ذكر قوم تُبّع هذا. وقيل إن أهل اليمن يفتخرون بهاتين الآيتين فى هؤلاء القوم، ففى الآية الأولى يأتى أنهم - قوم تُبّع أو أهل اليمن، وكانوا أعزّ من قريش وأكثر منعة، وفى الثانية أُدرجوا مع أصحاب الأيكة من أهل مدين وهؤلاء هم طبقة المُلاّك أصحاب الأغياض، وفى الآيتين أنهم كانوا على خير حال لولا الإنكار للحق. غير أن الآيتين تشتملان على ذمّ ظاهر لقوم تبع، واقتصرالذمّ عليهم دون تُبّع نفسه، وضرب الله بهم المثل لقريش لقُربهم من ديارهم، ولأنهم كانوا عظاماً فى أنفسهم، فلما أهلكهم ومَن قبلهم دلّ ذلك على أنهم كانوا **مجرمين لا يُفتَخر بهم، فبينما قوم تُبّع لم يؤمنوا آمنت قريش ودخلت فى الإسلام جميعها بعد الفتح**.

والدرس المستفاد من قصة تُبّع وقومه: ما حوته الآيات الثلاث الأخيرة عن القصة كما وردت فى سورة الدخان، وهى الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠: أن الناس، من الماضى أو الحاضر أو المستقبل، عليهم أن يؤمنوا بالله، فالإنسان لم يُخلق عبثاً، ولم يكن الكون بلا غاية، والتفكير واجب، والتدبُّر ضرورة، والعلم بالله لا يتأتى إلا بالعلم بما خلَق، فكما أن هذا العالَم مستمرٌ فى الوجود استمراراً حقاً، فخالقُه لابد هو الحق، ولم يكن خلقه له إلا لإقامة الحق وإظهاره، وتوحيد الخالق والتزام طاعته، وما منع الناس أن يفعلوا ذلك إلا لأن أكثرهم لا يعلمون، فالجهل سببُ الإنكار، ولقد أُمروا أن يسيروا فى الأرض، ويعلموا عن الكون، ويعرفوا قوانين الله فيه، وإذن ما كان لهم أن ينكروا، ويوم الفصل هو ميقات كل هؤلاء، وميقات الطغاة الذين يمنعون شعوبهم أن تتعلم، والمترفين الذين يجاهدون أن يظل الناس على جهلهم لتسهل قيادتهم، ولتتيسر سرقتهم، فلا يثورون ولا يتمردون، ولا يطالبون بحق، ولا بإبطال ظلم وإقامة عدل، وحسبنا الله.



٧٣٣ - «قصة أصحاب الجنة»

الجنة: بستان من بساتين الأرض، وهى أيضاً نعيم الله فى الآخرة؛ وأصحاب الجنة: تطلق على أهل جنة الأرض، وكذلك أهل جنة الآخرة. وقصة أصحاب الجنة فى القرآن: هى التى تعرضها سورة القلم من الآية ١٧ حتى الآية ٣٢؛ والدرس المستفاد منها تعرضها

السورة من الآية ٣٢ حتى الآية ٤١، كالآتى: ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)** ﴾ (القلم)، كمثل لأهل مكة مضمونه: أنه تعالى ابتلاهم كما ابتلى أصحاب الجنة، بالأموال والثمار، ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطر أهل مكة نعمة الله عليهم، ابتلاهم بالجوع والقحط كما ابتلى أصحاب الجنة. والقرآن لا يهمه فى القصص أماكنها أو أشخاصها، وإنما اهتمامه بالدرس المستفاد، ولكن المفسرين كدأبهم تكهّنوا: أين تكون هذه الجنة، وفى أى زمان كان أهلها؟ وقالوا: كانت بأرض اليمن بالقرب من الحجاز، على مسافة قريبة جداً من صنعاء العاصمة، وكانت لرجل يؤدّى حقّ الله فيها، فلما مات آلت إلى ورثته، فمنعوا الناس خيرها، فكان هلاكها بما عصوا الله فيها. وقيل: كانت هذه الجنة ببلدة اسمها «ضَوْران»، بالقرب من صنعاء، ووقعت فى زمن قريب من زمن رَفْع عيسى عليه السلام. وقيل: كان أهلها بخلاء، فإذا جَدُّوا التمر جَدُّوه ليلاً حتى لا يدخل عليهم مسكين، وأضمروا تنفيذ ذلك، فغَدَوْا على جنتهم فإذا هى قد اقتُلعت من أصلها فأصبحت كالصريم - أى: كالأرض الجرداء. وقيل: إن الطائف الذى طاف عليها كان جبريل فاقتلعها من جذورها. وفى الأسطورة: أنه طاف عليها واقتلعها ووضعها حيث مدينة «الطائف» اليوم، ولذا سُمّيت الطائف، وليس فى أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب والماء غير الطائف. وقيل: إن رجلاً من قبيلة الصَّدِف يقال له الدَّمُون، بنى حائطاً حول البلدة وقال لأهلها، بنيتُ لكم طائفاً، فسمّيت الطائف. والدرس المستفاد من القصة: أن من حصد زرعاً، أو جَدّ ثمراً، فعليه أن يواسى منه المساكين، وذلك معنى: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ (الأنعام ١٤١)، وهذا الحصيد خلاف الزكاة؛ وصاحب الأرض عليه أن يترك للمساكين ما أخطأه الحصّادون

لقطًا، يتحرّاه المساكين بعض قُوتهم. غير أن أصحاب الجنة أقسموا أن يحرموهم منه، وأن يجذّوا نخلهم مبكرين حتى لا يحضرهم مسكين، وقدّروا أن لا يستثنون، فعوقبوا على عزمهم، **فكأن الإنسان يؤاخذ بما عزم**، كقوله تعالى: **﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾** (الحج). وفى الحديث أن المسلميْن يلتقيان بسيفيهما: «**القاتل والمقتول فى النار**»، قيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال ﷺ: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»، يعنى أنه عزم على ذلك، وأصحاب الجنة قد غدوا على حَرْز قادرين، أى عن قصد وقُدرة فى أنفسهم، فعوقبوا باحتراق جنتهم، فلما رأوا ما آلت إليه، أدركوا خطأهم، وأسباب حرمانهم من ثمرهم. وفى الحديث: «**إياكم والمعاصى، إن العبد ليذنب الذنب فيُحرَم به رزقاً كان هيئ له**» ثم تلا: **﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾**. وكان **أوسط أصحاب الجنة** أمثلهم وأعدلهم، فقال: لولا تسبّحون، يعنى: لولا أن قلتم **سبحان الله والحمد لله**، بدلاً من أن تُبيّتوا حرمان المساكين؟ وتلاوموا، وأقرّوا بذنبهم، أنهم عصوا عندما حرموا الفقراء حقّهم، وتابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله! والقصة وعظٌ كلها، وتدعو للرجوع إلى الله عند كل ابتلاء، سواء فى الخير أو فى الشر، مثلما فعل أصحاب الجنة، والرجوع إلى الله دأبُ المتقين، ويكافئهم ربُّهم بالنعيم. وقوله: **﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾**، وقوله: **﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾**، وقوله: **﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾**، وقوله: **﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾**، وقوله: **﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾**، وقوله: **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾** كلها للتوبيخ والتقريع والإنكار عليهم؛ والزعيم فى الآيات: هو الضمين والكفيل، والقائم بالحجة والدعوى. وقوله: **﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾** ذهبت مثلاً جارياً. والقصة بوقائعها، والعظة المستخلصة منها، والأسئلة التى تطرحها والردود عليها تجعل منها قمة فى الإعجاز البلاغى، وتصنعها قطعة حيّة من الحوار المنطقى المؤسّس على مقدمات سليمة وخواتيم لا تقبل الجدال، فلا عجب أن ضُربت مثلاً لأهل مكة فى حياة النبىّ ﷺ وبعده لكل كفّار عنيد.



٧٣٤- ﴿أصحاب الرّس كانوا من المكذّبين﴾

يقص القرآن أحسن القصص، ووجه الحُسن فى قصص القرآن أنها للتفكُّر وللتدبُّر وليست للّهو وإزجاء الوقت. ويأتى ذكر الكثير من الأنبياء فى القرآن، وبلغ عددهم فيه خمسة وعشرين نبياً، وتناولت قصصهم ما جرى معهم من أقوامهم، ومن الأقوام ما ذُكر غير مرتبط بنبىّ من الأنبياء، ومن ذلك أصحاب الرّسّ، قيل فيهم: **﴿وَعَادًا وَثَمُودَ**

وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾ (الفرقان)؛ وقيل: **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾**(ق). وهؤلاء الأقوام الذين وردت أسماؤهم سبقت إليهم الرسُل، فأنكروا عليهم وكذّبوهم، فلم يكن النبي ﷺ عندما أنكره قومه بدعاً إذن، فموسى آتاه الله التوراة وجعل معه أخاه هارون، فكذَّبهما من أُرسلا إليهم فدمّرهم الله تدميراً؛ وقوم نوح كذّبوا الرسل فأُغرقوا. ومن الذين أُرسلت إليهم الرسُل قوم عاد، وقوم ثمود، وأصحاب الرَّسّ، وأقوام بين ذلك كثيرون، وكلهم تُبِّروا تتبيراً - أى أهلكوا إهلاكاً، كقوله: **﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾** (الإسراء١٧)، وقوله: **﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢)﴾** (المؤمنون)، والقرن هو الأمة من الناس يتعاصرون فى الزمن الواحد، فإذا ذهبوا وخلفهم آخرون فهم قرن آخر. وأصحاب الرس ذُكروا بين الأقوام، وكانوا قرناً أدرجوا ضمن القرون، وضُربت لهم الأمثال، أى الحجج، والمثل يُضرَب للوعظ والتذكير، فما آمنوا، فحقّ عليهم العذاب، ودُمِّروا تدميراً.

وفى التعريف بمعنى الرَّس مذاهب كثيرة، وفى كلام العرب الرَّسّ هو البئر غير المطوية، أى القديمة، فمعنى أصحاب الرَّس أنهم اشتهروا ببئر كانت لهم فى وادٍ يقال له الرَّس؛ أو أن نبياً ظهر بينهم فعادوه وأنكروه واضطهدوه، إلى أن رسّوه فى هذا البئر حياً، يقال رُسّ الميت، أى قُبِر، ورسستُ رسًّا، أى حفرتُ قبراً. وقيل: إنما غضب الله على أصحاب الرَّسّ لمّا آذوا نبيّهم، وكان اجتماعهم يكثر حول هذه البئر، يسقون منها أغنامهم، ويقعدون من حولها، فلمّا اشتد طغيانهم، وتمادوا فى غيّهم، واشتطّوا فى أذى نبيّهم، فبينما هم من حول البئر ومنازلهم مشرفة عليه، انهارت بهم، وخُسف بديارهم، وقيل: كان نبيّهم شعيب، وأُرسل إليهم وإلى أهل مدين وأصحاب الأيكة، فربما الرجعة التى كانت بها أو منها الصيحة، أودت بهم جميعاً. وقيل: ربما كانوا بقية من ثمود قوم صالح. وقيل: بل أصحاب الرَّس هم جماعة «صاحب يس» الذى قال لهم: **﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)﴾** (يس)، فقتلوه ورسّوه فى بئر لهم يقال لها الرَّس، طرحوه فيها. وقيل: إن القصة وقعت فى أنطاكية، وأن «مؤمن آل يس» الذى وأدوه فى البئر كان اسمه حبيب النجّار. وأغرب ما قيل ما نُسب إلى علىّ بن أبى طالب، فقد رووا عنه أن أصحاب الرَّسّ كانوا قوماً يقدّسون شجرة، فكانوا يدعون عندها لتُلبىَّ حاجاتهم، فسبَّ نبيُّهم الشجرة وسخّفها لهم، وكان من ولد يهوذا، فقتلوه ورسّوه فى بئر، فأُطلق عليهم أصحاب الرَّس. وقيل فيهم: كانت

جريمتهم التى دعا نبيّهم عليهم بسببها، أن نساءهم كن **مساحقات**، وذكورهم **لواطيين**، فرسّوه في بئر عقابًا له. وقيل: هم «**أصحاب الأخدود**» الذين ورد عنهم في سورة البروج. وقيل: هم المقصودون بالآية: ﴿**وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ**﴾ (الحج٤٥).

والخلاصة: أن أحداً لا يعرف ما هى حقيقة هؤلاء الناس، وما قصتهم،وماذا فعلوا؟ ويتبقى الدرس المستفاد من ذكرهم وآخرين من الأقوام معهم: **أن لكل نبىّ عدواً من المجرمين من قومه سواء كان ذلك فى زمنه، أو فيما بعده من أزمان إلى قيام الساعة. وأعداء محمد** ﷺ قديماً كانوا قريشًا من أهله، ومن أهل الكتاب من غير أهله، وما يزال أهل الكتاب حتى اليوم يناصبونه العداء، ومنهم المستشرقون الغربيون، ومنهم مثقفون من العرب أنفسهم ينهجون نهج المستشرقين وقد يُدرجون ضمن المسلمين،وهؤلاء يقال عنهم اليوم أنهم **المستشرقون العرب** أو **المستشرقون الإسلاميون**، من تلاميذ المبشرين والمتأوربين والمتأمركين ممن تلقوا على الثقافة الغربية بأصولها المسيحية اليهودية، فلما كانت المسيحية واليهودية تعاديان الإسلام، عادى هؤلاء الإسلام كذلك، ومن هؤلاء **دُعاة العولمة والعلمانية والليبرالية**،ومثلهم مثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً، كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها من راعيها، فكذلك هؤلاء صاروا من الغى والضلال والجهل لا يفقهون مرامى معلّميهم، وأهداف من يُملى عليهم، وهم كأصحاب الرَّس، ينكرون الإسلام، ويقدحون فى القرآن، وفى النبىّ ﷺ، يريدون أن يرسُّوا كل ذلك ويطفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون!

●●●

٧٣٥- ﴿قصة البئر المعطلة والقصر المشيد﴾

تنبّه إليها الآية: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ** ﴿٤٥﴾﴾ (الحج). **والبئر المعطّلة**: هى المتروكة، الخالية من أهلها ودلائلها وأرشيتها؛ **والقصر المشيد**: هو الحصين، وفى الكلام مضمر محذوف أن القصر معطل مثل البئر. وقيل: القصر والبئر **بحضرموت** معروفان، فالقصر مشرف على قُلّة جبل، والبئر فى سفحه، وأصحاب القصر كانوا ملوك الحَضَر، وأصحاب الآبار ملوك البوادى؛ والقصر والبئر من الآثار ويشاهدان بحضرموت.

وقيل: بل المقصود بئر الرَّس فى الآية: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ**﴾ (الفرقان٣٨)، والآية: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ** ﴿١٢﴾﴾ (ق)، وكانت البئر بعدن بحضرموت، فى بلد يقال له حَضُور، نزل بها من آمن بصالح ونجوا معه من

العذاب، فلمّا مات صالح سمّوا المكان «حَضَرَمَوْت»، لأن صالحاً مات فيه، وحفروا بئراً حيث مات، وبنوا عليها، وأمّروا على حضرموت أحدهم، قيل: هو العلس أو الجهلس ابن جلاس بن سويد، وجعلوا له وزيراً هو سنحاريب بن سوادة، وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها، وكانت لها بكرات منصوبة، ورجال موكلون بها، وأبازن من رخام - وهى شبه الحياض، بعضها للناس، وبعضها للدواب. وتقدم الملك في السن فكان يطلى وجهه ليظنوه ما يزال شاباً، فلما مات، صنع أتباعه صنماً يشبهه، وجعلوا يتكلمون للناس من وراء الصنم كأنهم هو، وادّعوا أن المَلك لم يمت ولا يموت، والناس بين مصدّق ومكذّب، وكلما تكلم ناصح زجروه وقهروه، فبعث الله إليهم نبيّاً كان الوحى ينزل عليه فى النوم دون اليقظة، قيل: كان اسمه حنظلة بن صفوان، فأعلمهم أن الصنم لا روح فيه، وأن ذلك كيد النهّازين والمحتالين من أصحاب المصلحة، وحذّرهم سطوة ربّهم ونقمته، فآذوه وعادوه، وهو يتعهدهم بالموعظة، حتى قتلوه فى السوق، فعند ذلك أصابتهم نقمة، فباتوا شباعاً رواءً من الماء، وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطّل رشاؤها، فصاحوا بأجمعهم، وصرخ النساء والولدان، وضجّت البهائم عطشاً، وعمّ الموت الجميع وشملهم الهلاك، وخلفتهم فى أرضهم السباع والضباع، وتبدّلت جنّاتهم وأموالهم بالسِّدر والشوك، فلا تسمع فيها إلا عويل الرياح، وعواء الذئاب.

وقيل: فأما القصر المشيد، فقصرٌ بناه شدّاد بن عاد بن إرم، لم يُبْنَ فى الأرض مثله فيما زعموا، وأصبح حاله كحال هذه البئر فى إيحاشه بعد الأنس، وإقفاره بعد العمران، فذكرهما الله فى هذه الآية موعظةً وعبرةً وتذكرةً.



(قصة إبراهيم فى القرآن)

٧٣٦- «معنى الاسم: إبراهيم»

تقول التوراة: كان اسم إبراهيم: أبرام وصار إبراهيم، ومعنى هذا الاسم: «الأب الكبير»، وبالسريانية «الأب الرحيم» وقيل: أصله «أبو رهام» (تكوين ١٧/٥) أى: «أبو الجمهور»، ويساوى عندنا قولنا: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النحل ١٢٠)، يعنى تجتمع فيه الفروع، وينحدر من صلبه الكثيرون، ولذا يقال عنه الأب الكبير **Patriarch**، لأنه كان يحب أن تكون له أمة، وأن يكثر أهله، وكان يشملهم برحمته، ويتسع لهم قلبه، وربّى أولاده فأحسن تربيتهم، وتعهد أحفاده وعلّمهم عِلم الدنيا والآخرة، فكان منهم الأنبياء، فقيل عن إبراهيم إنه «أبو الأنبياء»، ولو قلنا: إن آدم هو أبو البشر، ونوحاً هو أبو المؤمنين،

فإن إبراهيم هو أبو الرحماء، وتوجهت رحمته للأطفال خاصة، وهو الذى كان يكنّ كل الحب لابنه إسماعيل ولمّا كان طفلاً، فجعل الله الفداء لطفل إبراهيم خاصةً، وجعل لافتدائه قصة هى قصة الذبيح، وبسببها كان إبراهيم «أبو الأطفال»، وفى الرواية فى حديث الرؤيا عن سَمُرة: أن النبىّ ﷺ رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس.

●●●

٧٣٧- ﴿إبراهيم كان أمة﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النحل ١٢٠)، يعنى كان إماماً يُجتبَى ويُقتدَى للناس جميعًا تأتم به، واجتمعت فيه الصفات المؤهّلة للإمامة فكان كقوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ (النحل)، ولهذا انعقدت له إمامة الدين وإمامة الدنيا وإمامة النبوّة، وكان معلمًا وداعيًا، وكبيراً للمعلمين وللدعاة، وكان مداد تعليمه: الخير والدين. فكان أمة: لأنه جمع فى نفسه كل صفات المؤمنين، وكان مؤمناً وحده وكل الناس كفّار، فكان إيمانه واجتماع أوجه الخير كلها فيه هو حسنة الدنيا أوتيها دون العالمين، فالمؤمنون جميعهم يدعون: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (البقرة١ ٢٠)، ولم يتحقق ذلك بطريقة مرئية ومحسوسة إلا لإبراهيم وحده، فآتاه الله حسنتى الدنيا والآخرة معاً وحققهما له، وهو الوحيد الذى وصفه الله تعالى فقال: «كان أمّة» فلم يجعل هذه الصفة لأحد سواه.

●●●

٧٣٨- ﴿محاجاة اليهود والنصارى فى إبراهيم﴾

يحاجى اليهود والنصارى فى إبراهيم، وكلٌّ منهما ينسبه إليه، فاليهود يزعمون أنهم ينحدرون منه وأنه أبوهم الأكبر، والنصارى بدورهم ينسبون أنفسهم إليه، مع أن إبراهيم كان قبل أن يوجد اليهود والنصارى! والآية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾(آل عمران٦٥) حجة على كل من اليهود والنصارى. لأن التوراة والإنجيل أُنزلا من بعد إبراهيم، وليس فى التوراة ولا الإنجيل اسم ديانة اليهود ولا ديانة النصارى، والقرآن هو الوحيد الذى فرّق بين الملة والديانة، فالملة بحسب النبىّ، وأما الديانة فواحدة وهى «الإسلام»، وكل نبىّ ذُكر فى القرآن دعا «للإسلام»، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يعنى تعقلون دحوض حجة النصارى واليهود وبطلان قولهم: يقول تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ

﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾(آل عمران)، والآية دليل على منع من لا علم له أن يجادل فيما لا يعلم، وتُحظر على من لا تحقيق عنده أن يخوض فيما لا يعرف، وعلى عكس ذلك كان حضّه تعالى لمن عنده العلم والمعرفة أن يحاجج فيما يعلم ويعرف، قال: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ١٢٥).

•••

٧٣٩- ﴿إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً﴾

لليهود والنصارى دعاوى عريضة فى إبراهيم، ومن مزاعم اليهود أنهم وحدهم من نسل إبراهيم (تكوين ١٧/١٨)، وعند النصارى هو أبو بنى إسرائيل (أعمال ١٣/٢٦)، وأبو ملة اللاويين (عبرانيين ٧/٥)، وأبو المسيح (متى ١/١)، وأبو كل النصارى كمؤمنين (غلاطية ٣/٢٩، ورومية ٤/١١)، والقرآن ينفى أن يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران)، فنزّهه من دعاويهم الكاذبة، وأوضح أنه كان على «الحنيفية» ـ أى «الإسلام» ـ ولم يكن مشركاً. و«الحنيف»: هو الذى يوحّد الله، ويحجّ، ويضحّى، ويُختَتن، ويستقبل القِبْلة؛ و«المسلم» فى اللغة: هو المتذلل لأمر الله، المنطاع له.

•••

٧٤٠- ﴿الحنيفية ملة إبراهيم﴾

كانت الحنيفية أول ملّة يُعطى لها اسم، وكان إبراهيم حنيفًا، والمسلمون أُمروا بإتباع الحنيفية: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (آل عمران ٩٥)، وأمر نبيّنا وأوحى إليه أن يتّبعها: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(النساء١٢٥) ، والملّة: هى الدين، والملة الحنيفية: هى الملّة المائلة عن الأديان المكروهة إلى الحق الذى هو دين إبراهيم. وملة إبراهيم هى الوحيدة التى تسمى بالحنيفية، وإبراهيم كان أول الحنفاء، كقوله تعالى: ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (آل عمران)، وربما كانت الحنيفية قبل إبراهيم، فلابد أنه كانت هناك ثلة من المؤمنين وسط طوفان الكفرة الذين يملأون العالم، إلا أن إبراهيم كان أبرز الحنفاء، لأنه الذى أعلن الحنيفية ودعا لها، وكان أول من قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾ (الأنعام ٧٩)، وقال: ﴿ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(الأنعام). وسُمّى إبراهيم «حنيفاً» لأنه حنَف إلى دين الله وهو الإسلام، فالناس كانوا يسمون الملل بأسماء كهذه تفيد استقبالهم للملة أو انحرافهم عنها، كالصابئة: فهم الذين صبأوا، أى خرجوا عن ملّتهم إلى ملّة أخرى، فهم صابئة وصابئون، ومفردها صابئ، فكذلك الحنيفية، فكان

اسمها من الحنف عن ملل الكفر إلى دين الله؛ والحَنَف في اللغة هو الميل، ومنه رجل حنفاء، ورَجلٌ أحنف، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها.

•••

٧٤١- ﴿المسلمون أولى الناس بإبراهيم﴾

في الرواية: أن رءوساء اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: يامحمد، لقد علمتَ أنّا أوْلى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك، فإنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد! فأنزل الله الآية: ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٦٨﴾ ﴾ (آل عمران). والأوْلى هو الأحقّ، والمسلمون أوْلى الناس بإبراهيم، بالمعونة والنُّصرة، وبالحُجّة، وفى الحديث عن ابن مسعود، أن النبيّ ﷺ قال: «إنّ لكل نبيّ ولاةً من النبيين، وإنّ وليىّ منهم أبى وخليل ربّى» - ثم قرأ: ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ** ﴾ (آل عمران ٦٨).

•••

٧٤٢- ﴿إبراهيم أبو الأنبياء﴾

رُزق إبراهيم على الكبر إسماعيل، وكان عمره بحسب سفر التكوين (١٦/١٦) ستاً وثمانين سنة، ورُزق إسحق وكان عمره مائة سنة (تكوين ٢١/ ٥)، ووَلَدَ إسحق يعقوب وكان عمره ستين سنة، وولد يعقوب الأسباط الاثنى عشر ومنهم يوسف. ومن نسل لاوى بن يعقوب كان موسى وهارون، ومن سبط يهوذا كان داود، وأنجب داود سليمان، وتنسب مريم لزوجها يوسف، وقيل يوسف من سبط يهوذا من نسل داود، وتأتى لذلك سلسلة نسب المسيح من ناحية يوسف زوج أمه، وذلك شيء عجيب! ويقول تعالى عن أولاد إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنبياء)، يعنى كانوا رءوساء يُقتَدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات، بما أُنزل عليهم من الوحي والأمر والنهى، ويهدون بالكتاب. ومن هؤلاء إسماعيل، ومن نسله كان نبيّنا محمد ﷺ. ومن نسل هؤلاء كان أنبياء آخرون، وحكماء وأهل علم ودين، وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴿٥٤﴾ ﴾ (النساء)، وقال تعالى فيهم: ﴿ **أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** ﴿٤٥﴾ **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ** ﴿٤٦﴾ **وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ** ﴿٤٧﴾ ﴾ (ص)، والكتاب الذى آتاهم هو التوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن؛ والحكمة التى خصّوا بها كما فى: مزامير داود، وأمثال سليمان، ونبوءات الأنبياء، وأمثال عيسى، ورسائل الرسُل،

وسُنّة محمـد ﷺ وأحاديثه؛ و«المُلك العظيم»: فليس أعظم من مُلك العرب واليهود فى العالم وهم آل إبراهيم، و«الأيدى» فى الآية هى النِّعمَ، و«الأبصار» هى البصيرة فى الدين والحكمة والعلم؛ و«اصطفاهم من الأخيار» يعنى أخلصهم بالعمل للآخرة، ووهبهم الصدق فكانوا من الصالحين فى الدنيا والآخرة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾(مريم). ومن أجل كل هؤلاء الأنبياء قيل فى إبراهيم: إنه «أبو الأنبياء»، لكثرة الأنبياء فى أولاده وأحفاده ونسله، فلم يوجد إنسان انحدر من صلبه أنبياء مؤسسين لأعظم ثلاث ديانات، قيل فيها إنها «الديانات الكتابية» الوحيدة فى العالم، وإبراهيم على ذلك أبو اليهودية والنصرانية والإسلام عن حقّ، فهو أول من بشّر بتعاليمها ومهّد لها، وأرسى قواعدها.

●●●

٧٤٣- ﴿لم يكذب إبراهيم إلا فى ثلاث﴾

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم النبىّ فى شىء قطّ إلا فى ثلاث: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ (الصافات)، وقوله لسارة: «أختى»، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ (الأنبياء). أخرجه مسلم؛ وفى رواية أخرى قال ﷺ: «لم يكذب إبراهيم النبىّ إلا فى ثلاث كذبات: اثنتين فى ذات الله: «قوله: إنى سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم»، وواحدة فى شأن سارة». أخرجه مسلم. والكذب: هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه، وكَذِب إبراهيم كان من المعاريض.

●●●

٧٤٤- ﴿إبراهيم أرسل شاباً﴾

قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ (الأنبياء): ما بعث الله نبيّاً إلا شاباً، ولا أُوتى العلم عالمٌ إلا وهو شاب. ثم تلا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ (الأنبياء). ونقول إن ذلك كان فى حالة إبراهيم وحده، وأما نوح فقد بُعث كهلاً، وكذلك موسى، وبعث عيسى فى نحو الثلاثين، وبعث نبيّنا فى الأربعين!

●●●

٧٤٥- ﴿محاكمة إبراهيم أول محاكمة فى التاريخ من نوع محاكم التفتيش﴾

محاكم التفتيش أقامتها الكنيسة الكاثوليكية ضد المسلمين فى أسبانيا بعد سقوط الدولة الإسلامية بها، تفتش فى محاكماتها فى ضمائر الناس وخبايا صدورهم وقلوبهم، وتنتحل التهم تستخرجها اعتسافاً من أقوالهم أو أفعالهم. وفى الآية: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ

لعلهم يشهدون ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنبياء) دليل على أن أول محكمة في التاريخ من هذا النوع كانت لمحاكمة إبراهيم، فلما رجع قومه من الاحتفالات بعيدهم رأوا تماثيل آلهتهم محطمة كالجُذاذ، وقبضوا على من قبضوا عليهم واستجوبوهم، وخلصوا إلى أن الفاعل كان **فتى** يذكرهم يقال له **إبراهيم**، فقبضوا عليه وعقدوا له **محاكمة علنية** بمرأى من الناس، لتكون أقواله فيها حجة عليه، وليشهد الناس عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه، أو لعل آخرين يتقدمون ليشهدوا بأنهم رأوه يكسر أصنامهم، وليعلموا أنه يستحق العقاب، واستفهموه: ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴿٦٢﴾** ﴾(إبراهيم)، فقال لهم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴿٦٣﴾** ﴾، فعلّق الجواب على اتهامه وتصديقه أو تكذيبه، على الصنم الكبير إن كان ينطق، فنبّه على فساد اعتقادهم، وكأنه كان يستنطق الأصنام الصغيرة أن تشهد إن كانت تنطق، ويستنطق الصنم الكبير أن يكذّب اتهامه، إن كان ينطق، فبيّن أن من لا يتكلم لا يستحق أن يُعبد وأبدهتهم حُجته: ﴿**فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴿٦٤﴾**﴾(الأنبياء)، وهؤلاء كانوا نفراً منهم، لأنه إذا كان هناك رأى، فلابد أن يكون هناك رأى آخر، ورجوع أصحاب الرأى الآخر هو رجوع المنقطع عن حُجّته، المتفطّن لحجة خصمه، كقوله: ﴿**إنكم أنتم الظالمون**﴾، ظلموا أنفسهم بعبادة من لا ينطق، ولا يملك أن ينطق،وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس، من لا يرد عن رأسه الفأس؟!! وهذا رأى كان لابد أن يدحضه رأى آخر: ﴿**نكسوا على رءوسهم**﴾(الأنبياء ٦٥)، أى أنهم بهذا الرأى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم، ورُدّوا إلى كُفرهم، فقالوا: ﴿**لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴿٦٥﴾**﴾(الأنبياء)، فقال يحاورهم ويردّ على مقالتهم وحجتهم: ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴿٦٦﴾ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴿٦٧﴾** ﴾ (الأنبياء)، فقطعتهم حُجّته وأفحمهم فيما يتقوّلون، فأصدروا أول حكم من نوعه فى التاريخ: ﴿**قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴿٦٨﴾**﴾ (الأنبياء)، وكان هذا التحريق لإبراهيم مدعاة لمزيد من أحكام التحريق عبر التاريخ، ومن ذلك «**أصحاب الأخدود**» الذين ورد ذكرهم فى القرآن فى سورة البروج (**انظر القصة فى باب قصص القرآن**)، واشتهر اصطلاح **التحريق holocaust** أو **auto-da-fé**، وفى الخبر أن النمرود بنى صرحاً وجمعوا فيه الحطب ثم أوقدوه حتى اشتعلت النار واشتدت، حتى أن أياً ما يمر من فوقها لَيحترق من شدّة وهجها، وقيّدوه ووضعوه مغلولاً فى المنجنيق ليرموا به فيها، وكانت معجزة الله فى إبراهيم أن أبطل فِعْل النار، قال: ﴿ **يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴿٦٩﴾**﴾(الأنبياء)، فلم يحترق إلا وثاقه،

فاستطاع الخروج منها، ومن يجعل فى النار هذه الطاقة على الحرق لهو القادر على أن يعطِّل السبب، وهو ما جرى مع إبراهيم، وعلماء اليوم يفعلون من ذلك الكثير فيوقفون الأسباب، فلا غرابة فيما فعل الله سبحانه وإن قدروا على ذلك، فالله أقدر، وهو تعالى مثلما يحيى فإنه يميت، ولقد أحيا النار وباستطاعته أن يميتها ويلغى تأثيرها وفعْلها. وبعد هذه الحادثة ما كان من الممكن أن يستمر إبراهيم يعايش هذا الحاكم أو أهل بلده، وقيل: لم يكن إبراهيم قد بلغ الرشد عندما حُرّق وكان فى السادسة عشرة، فذلك ما جعله يصمم على الهجرة من العراق ويسير إلى فلسطين.

●●●

٧٤٦- ﴿دعاء إبراهيم وهم يحرقونه﴾

روى عن النبىّ ﷺ أنه قال: «**إن إبراهيم حين قيّدوه ليلقوه فى النار، قال: لا إله إلا الله، سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد، ولك المُلك، لا شريك لك**»، قال: «**ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع، فاستقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا**»، **فقال جبريل: فاسأل ربّك. فقال إبراهيم: «حسبه من سؤالى علمه بحالى». فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم**».

●●●

٧٤٧- ﴿كذبة إبراهيم حُجّة له لا عليه﴾

كذب إبراهيم حين أراد إبعاد الشبهة عن نفسه، فردّ الاتهام على أصحابه، ونسب لكبير الأصنام أنه الذى كسرها، بتعليقه الفأس برقبته ليجعله فى موضع الاتهام: **﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣)﴾**(الأنبياء)، فبيّن أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يُعبَد، وكانت كذبته من «المعاريض»، وفى المعاريض يمكن الكذب، وأن يشهد زورًا على كبير الأصنام، وأن يسخر منهم لمّا طلب أن يسألوهم عن الفاعل، واستنكر أن يُسأل عن أحجار خرساء، فإن كانوا ينطقون فإنهم مصدّقون، وإن لم يكونوا ينطقون فمن باب أوْلى لم يقوموا بما اتُّهموا به، وفى كلامه اعتراف ضمنى بأنه الفاعل، وهو إذن لم يكذب ولا يكذب، ودلّ أن دفاعه خرج مخرج التعريض، فطالما أنها لا تنطق، فهى لا تنفع، ولا تضر، فلِمَ يعبدونها إذن؟، كقوله: **﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾** (مريم ٤٢)، فأقام عليهم الحجة منهم. وفى فقه تعريض إبراهيم يجوز فرض الباطل مع الخصم ليرجع إلى الحق من ذات نفسه، بأقواله هو، وذلك أقرب فى الحجة، وأقطع للشبهة. وهذا ما فعله إبراهيم، وهو

إذن لم يكذب، وإنما يحاجي بالمنطق. وجواب إبراهيم: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ هو نفسه سؤال يلزم بلفظ الخبر: لِمَ ينكرون أن يكون قد فَعَلَهُ كبيرهم؟ أى من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً.



٧٤٨- ﴿إبراهيم مؤسس الفتوة﴾

كان إبراهيم عندما **كسر الأصنام** «فتى» كما وصفوه: ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)**﴾(الأنبياء) ـ يعنى شاباً حَدَثاً ، والحَدَث من سن **البلوغ** إلى **الثلاثين** تقريباً، ورغم حداثة سنّه فقد اتّسمت فعلته بالجرأة الشديدة، وكانت له حجج مفحمة، ومنطق راجح يدل على أن **عمره العقلى** أكبر من **عمره الزمنى**، وأنه ناضج فكرياً نضوجاً ليس لأترابه، وله عقلية «**الباحث عن الحقيقة**»، **وشخصية «الفيلسوف»** الراغب فى المعرفة، واتصفت ردوده بالحدّة شأن ردود الشباب، كقوله: ﴿ **أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (لأنبياء ٦٧). وأهل الإسلام بنوا على وصف إبراهيم «**بالفتى** »مذهباً يقوم على نفس سلوكياته وأخلاقه وطريقة تفكيره، أطلقوا عليه اسم «**الفتوة**»، وكان انتشار هذا المذهب، وقيام فرق **الفتوة** خصوصاً فى **العصر العباسى**. وبمفهوم هذا المذهب فإن **الفتوة** هى **الإيمان والهداية**، وهما ما كان عليه «**الفتية أصحاب الكهف**»، قال فيهم ربُّهم: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)** ﴾ (الكهف)، أى كانوا أحداثًا مؤمنين كإبراهيم. والأصنام التى كسرها إبراهيم نوعان: **الأصنام الحسّية** التى كانوا يتعبّدون لها، **والأصنام النفسية المعنوية** التى كانت فى قلوبهم اعتقادات خاطئة، وأخلاقيات رديئة، وأفكاراً متخلّفة. والفتوة لذلك لها شقان، **الأول: الفتوة الفكرية**: وهى الخروج على العُرف فيما يخالف العقل، والجرأة فى الحق؛ **والثانى: الفتوة السلوكية**: وهى الانتصار للضعفاء، ونجدة الملهوف، وإنصاف المظلومين، مما يعرف فى الإسلام باسم «**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**». وإبراهيم هو المؤسس الحقيقى لهذا المذهب والمنهج معاً، وكان من «**الفتيان السالكين**» وقد أعلن الحرب ضد الأصنام: **أصنام الهوى والشيطان والدنيا والعُجب**، وصنم كل إنسان نفسه، **فمن خالف هواه فهو «فتى»** على الحقيقة، وهو «**إبراهيمى النزعة**»، و«**حنيفى العقيدة**»؛ و«**الحنيفية**» هى الأساس العقائدى لنظام الفتيان، و**الحنيفية** تعنى الميل عن الباطل إلى الحق، مع التسامح فى كل الأحيان، ولذا يؤثرون تسميتها «**بالحنيفية السمحاء**»، أى غير المتزمتة. وأى شباب يُحكم لهم بالفتوة فإننا نعنى أنهم «**مؤمنون بلا واسطة**» كما كان إيمان إبراهيم، ولا ينبغى أن نظن أن الفتوة هى شكل من أشكال **مذهب الربوبية deism** الذى يقول أن **معرفة الله** ممكنة

نبـيّ. وإنما الفتوة مواقف تُرصَد لأصحابها وتشهـد لهم بالإيجابية، وأصحابها دائماً من الشباب المنفتح على الحيـاة. وأهل اللسان يقولون: الـفتوة هي الإيمان يكون عند الشبـاب خاصة. وقـيل: الفتـوة بذل النَّدَى، وكفّ الأذى، وتَرْك الشكوى. وقـيل: هى اجتناب المحـارم، واستعجال المكارم.



٧٤٩- ﴿إبراهيم أول من هاجر أرض كفر وأول نبيّ ينزل بمصر﴾

الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت ٢٦) هو لوط، وإنما قال ذلك تصديـقًا لعزم إبراهـيم على الهجرة، فصـاحب فكرة الهجرة والذى أشرف على تنفيـذها هو إبراهـيم، وهو عمّ لوط، وقد رأى أنه يهـاجر من أور الكلدانيـين إلى أرض كنعـان، فجـاء أولاً إلى حـاران برفقة لوط ابن أخيـه، وأقام هناك، ثم تركها إلى أرض كنعان، ثم إلى موضع شكيم، ثم إلى بلوطة مورة، وهناك بنى مذبحاً للربّ، وصحبته فى هجـرته سـارة امرأته. فكأن إبـراهيم كان أول من هاجر مـن أرض الكفر، وقيل: كـان فى الخامسة والسبعين. وقـيل: إن أول من هاجـر هو لوط، وهو الذى قـال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾. ويقابل ذلك فى الإسلام أن عثمـان بن عفان كان أول من هاجر إلى الله فى الهـجرة الأولى بصحبة زوجه رقية ابنة رسول الله ﷺ، وكانت هجرته إلى أرض الحبشة، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال فى هجرة عثمان ورُقية: «صحبهما الله. إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط»، والحديث فيما يبدو موضوع، وفى التوراة أن إبراهيم ولوطاً سوياً، ومعهما أهلهما، هاجروا وبصحبتهما سـارة، وذلك هو الصحيح بمنطق التاريخ: أن لوطًا لم يسبق إبراهيم فى الهجرة، ولا تعنى الآية: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أنه أول من هاجر، وإنما هو إعلان موافقة منه على مـا قرره إبراهيم، وهجرة إبراهيم كانت بدافع من منازعاته مع السلطة فى بلده، فهى «هجرة مشروعة» يقضى بها الدين، وأما هجرة لوط فهى «هجرة صُحبة»، لأنه لم تكن للوط قضية يهاجر بسببها.

وفى التوراة كذلك أن إبراهيم لمّا نزل القـحط بفلسطين توجه إلى مصـر، وعاش بـها لفترة طويلة، فكان أول نبيّ يزور مصر وينزل بها، ووهبه الفرعون ماشية رعاها وتكاثرت عنده جداً، فصـار له الغنم والحمير والبقـر، والعبيد والإماء، وإبـراهيم نزل فى مصر فى «أرض جاسـان» (محافظة الشرقية الآن)، وكانت هذه الأرض محل صراع بين ملوك مصر والفاتحين من أشور، وقصة إبراهيم مع الفرعون، وكذلك قصة يوسف، والأسباط، وموسى، لم تجر فى أرض مصر الحقيقية **Proper Egypt**، وإنما بأرض جاسان وعاصمتها «تانيس»،

ولذلك خلت الآثار المصرية من أية حكايات عن الإسرائيليين فى مصر. وكلمة «فراعنة» ليست مصرية بل أشورية، وتعنى الجبابرة، وانتشارها عالميًا عن مصر والحضارة المصرية القديمة هو نوع من **الغزو الفكرى العالمى** لورودها هكذا فى التوراة. وتقول التوراة إن فرعون أتاح له كل ذلك وأغناه، لأن إبراهيم أعطاه امرأته سارة وكان قد ذكر له أنها أخته، ولا نعلم ماذا كانت تفعل سارة في بيت الفرعون طوال هذه المدة، إلا أنها فيما يبدو اعترفت للفرعون بأنها زوجة لإبراهيم وأنه من المستحيل أن تتزوج الفرعون، ولام الفرعون إبراهيم، وعابه وأرجع إليه امرأته، وأمره بالمضى من مصر (التكوين ١٢/ ١٠ ـ ٢٠). وهذه إحدى كذبات إبراهيم الثلاث: أنه قال إن سارة هى أخته!!

●●●

٧٥٠- ﴿إبراهيم الخليل﴾

كان إبراهيم محباً لله، وكان محبوباً من الله، فاتخذه الله خليلاً، كقوله: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ (النساء)، ولم يكن أحدٌ من الأنبياء خليلاً لله إلا اثنين، أحدهما ذكره القرآن وهو **إبراهيم**، ويدعى لذلك «**إبراهيم الخليل**»، والآخر ذكره الحديث: «**وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً**» أخرجه مسلم، يعنى النبىّ ﷺ، فامتنع عليه لذلك أن يكون له خليل آخر، قال ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» أخرجه مسلم، فليس له خليل إلا الله. **ومعنى إبراهيم خليل الله**: أنه الفقير المحتاج إلى الله، فلم يجعل فقره وفاقته إلا إليه، كأنه الذى به إصلاح **الاختلال** أو **الخلل** فى توزيع الثروة بين الناس؛ أو أن معنى الخليل: الذى ليس فى محبته خلل، وإبراهيم هو خليله تعالى لأنه اصطفاه بالمحبة، ولذا فى الرواية الإسرائيلية لمّا حرّقوه أتاه جبريل وسأله: أله حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا! وكلامه شبيه بكلام **الصوفية**. وقيل بشأن تسميته بالخليل، أنه ذهب ليحضر طعاماً لأهله ـ قال من عند خليل له، فلم يجده، فملأ كيساً بالرمل وحمله إلى بيته، ثم اضطجع لينام، فلما استيقظ وجد عندهم خبزاً فسأل: من أين لكم هذا؟ قالوا: فتحنا الكيس فوجدنا دقيقاً فصنعناه خبزاً؟ وسألهم: ومن أين الدقيق؟ قالوا: من خليلك! **ألم تقل أن لك خليلاً سيعطيك**؟ فابتسم وقال: بلى، هو من عند خليلى! يعنى الله تعالى، **فسُمّى خليل الله بذلك**. وقيل: لمّا دخلت عليه الملائكة فى هيئة رجال، وجاء بعجل سمين فلم يأكلوا، وقالوا: لا نأكل شيئاً بغير ثمن، قال لهم: أعطوا ثمنه وكلوا. قالوا: ما ثمنه؟ قال: أن تقولوا فى أوله **باسم الله**، وفى آخره **الحمد لله**، فقالوا فيما بينهم. حقٌ على الله أن يتخذه خليلاً ـ فاتخذه الله خليلاً. وفي الحديث: «**اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه**

السلام، وصلاته بالليل والناس نيام». والخلّة إذن ليست مسألة إيثار ولكنها استحقاق عن جدارة.



٧٥١- ﴿دليل إبراهيم الكونى على وجود الله﴾

هذا الدليل يسميه القرآن: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥)﴾(الانعام)، فاليقين فى حالة إبراهيم يتأتى بالدليل، وإبراهيم كان إيمانه عقلياً استدلالياً، وبداية تفكيره كانت السؤال المعهود عند أصحاب الفكر من الفلاسفة: كيف خُلق هذا الكون، ومَن خلقه؟ والسؤال البسيط يناسب المرحلة الطفولية بالنسبة له كإنسان، وجوابه عليه يلخص تاريخ الديانات منذ البداية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ (الأنعام)، ففى التاريخ تعبّد الناس للكواكب، وبدأوا بأكبرها وانتهوا إلى القمر ثم الشمس، فإذا ارتقوا في التفكير انتقلوا إلى التجريد والتوحيد، واعتقدوا فى الله فاطر السموات والأرض، وكانت ديانة التوحيد الأولى فى التاريخ هى الحنيفية، عنَى بها إبراهيم الميل إلى الحق ومجانبة الشِّرك. والملكوت فى الآية اصطلاحٌ كالرغبوت والرهبوت والجبروت، وهو المُلك، زيدت عليه الواو والتاء للمبالغة. وأفول الكواكب فى منطق إبراهيم أقوى من ظهورها فى الاستدلال، واستدلاله يتميز بمهلة النظر، وقوله: هذا ربّى» ليس إشراكاً، لأنه على قولهم وليس على قوله، ولأنهم كانوا يعبدون الكواكب. فلما بلغ اليقين بطريقته كان عليه أن يدعو إلى معتقده ويجادل عنه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾(الانعام) ،والمحاجاة: جدل ومقارعة الحجة بالحجة، والحجة العقلية تناسبها حجة من نوعها، والإيمان فى منطق إبراهيم، فطرى، ومن يُرد التثبُّت يثبّته الله ويجلّى بصيرته، وأكثر ما يظهر الإيمان على الوجه فخصّه بالذكر، قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٧٩)﴾ (الأنعام)،ولم يبدِ أى خوف لأن ما كانوا يعبدونه من دون الله لا يضر ولا ينفع، وحُجته التى ينوّه بها القرآن هى قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

عليم (٨٣)﴾ (الأنعام)، وهي حجة إنكار، فقد أنكر عليهم تخويفهم إياه بما يعبدون من أشياء ولا يخافون الله عزّ وجل، **فأيهما أولى أن يخاف: الموحّد أم المشرك؟ وأيهما أولى أن يؤمنوا به: الأصنام التي لا حول ولا قوة لها، أم الله العليّ الكبير؟** فكانت هذه هي الحجة التي خاصمهم بها وغلبهم عليها، وأبان من خلالها أنه **مجادل عظيم، ومفكر كبير، وصاحب علم ومنطق وفهم**، ويستحق بهذه الصفات أن يُؤتى الدرجة الرفيعة، وأن تنعقد له الإمامة.

●●●

٧٥٢- ﴿إله إبراهيم﴾

قال إبراهيم عن ربّه: **﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾** (الشعراء)، فهو إله: **بمنظور الواقع والنفع له**؛ على عكس **إله موسى**: فإنه إله الخلق **والكون**، ومنظور موسى أشمل. وهدايته تعالى لإبراهيم أنه أرشده إليه، فبعد أن عبد الكواكب والقمر والشمس، هُدى إلى الله، وهو بالنسبة له كل شيء، فهو المُطعم، والساقي، والشافي، والمميت والمحيي. وهو الرزّاق، وخالق كل نبات وزرع، ويخلق المرض ويجعل له الشفاء، وأوجده من العدم، وأحياه، ثم يميته ثم يحييه ويبعثه، وكان قومه ينسبون الموت إلى الأسباب، فبيّن أن الله هو الذي يميت ويحيي. وهو يطعمه لذة الإيمان، ويسقيه حلاوة القبول. وإذا مَرِض بمخالفته شفاه برحمته. وإذا مَرِض بمقاساة الخلق شفاه بمشاهدة الحق. وإذا مرض بالذنوب شفاه بالتوبة، وهو يميته بالمعاصي ويحييه بالطاعات، ويميته بالخوف ويحييه بالرجاء؛ ويميته بالطمع ويحييه بالقناعة؛ ويميته بالعدل ويحييه بالفضل؛ ويميته بالفراق ويحييه بالتلاق؛ ويميته بالجهل ويحييه بالعقل. وإبراهيم إن كان يرجو مغفرته تعالى يوم الدين، فإنه على اليقين في حقّه، وعلى الرجاء في حقّ المؤمنين سواه. **وخطيئة إبراهيم في الآية** ربما يوم أن كذب وقال: **﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾** (الصافات)، أو عندما ذكر أن **سارة** أخته كما في التوراة، أو عندما قال: **﴿هَذَا رَبِّي﴾** (الأنعام ٧٦) وقصد القمر أو أيًا من الكواكب. والأنبياء بشر ويجوز أن تقع منهم **الخطيئة**، ولا تجوز عليهم **الكبائر** وقد عُصموا منها. وفي حديث عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذلك نافعُه؟ قال: **«لا ينفعه! إنه لم يقل يوماً رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»** أخرجه مسلم، والدعاء في الحديث إشارة إلى قول إبراهيم: **﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾** (الشعراء).

●●●

٧٥٣- ﴿آزر أبو إبراهيم﴾

يشنّع المستشرقون على القرآن بخصوص اسم «آزر»، كتشنيعهم على توصيف مريم بأنها ﴿أُخْتَ هَارُونَ﴾ (مريم ٢٨)، وأن﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾(الأنعام ٨٤، وهود ٧١، ومريم ٤٩، والأنبياء ٧٢، والعنكبوت ٢٧) ولدا إبراهيم، والقرآن بريء مما يلصقه به هؤلاء المستشرقون الجهلة، فإن مريم أخت هارون يعنى أنها من بيت عمران ومن ثم من بيت هارون، وأنها متدينة مثل أهل هذا البيت، وهارون بن عمران، ومن بيت هارون كان كل كهنة بنى إسرائيل. وليس صحيحاً أن مريم من بيت داود، فالذى من بيت داود هو يوسف النجّار زوجها، والدليل على أن مريم من بيت هارون أنها قريبة اليصابات أم يوحنا المعمدان (النبيّ يحيى)، واليصابات من سبط لاوى ومن بيت هارون كما فى الأناجيل والرسائل (لوقا ١/ ٣٢-٦٩، ورومية ١/ ٣، و٢ تيمو٢/ ٨، وعبرانيين ٧/ ١٤)، ومن ثم فالقرآن لم يخطىء ولكنه صحّح خطأ النصارى. هذا من جهة مريم؛ وأما من جهة يعقوب وإسحق، فإن إبراهيم أنجب إسحق، وإسحق أنجب يعقوب، فى حياة أبيه دون أمه التى كانت قد ماتت، فكأن الله آتى إبراهيم: إسحق ثم يعقوب نافلة، يعنى كحفيد! وبحسب التوراة كان إبراهيم ابن مائة سنة لما ولدت سارة له إسحق، وكانت سارة ابنة تسعين، ولما ماتت كان عمرها ١٢٧ سنة، يعنى حتى سنّ ٣٧ سنة لم يكن إسحق قد تزوج،وبعد وفاة أمه بثلاث سنوات تزوج رفقه بنت ابن عمه، كما تزوّج إبراهيم قطورة، وولدت قطورة لإبراهيم ستة أولاد ذكور، وأنجب إسحق فى سن الستين ولديه عيسو ويعقوب، وكان عمر إبراهيم وقتها ١٦٠ سنة،ومات إبراهيم فى سنّ ١٧٥، فكأنه ظل مع حفيده يعقوب ١٥ سنة. والقرآن إذن لم يخطىء عندما قال إن الله رزقه بإسحق ثم يعقوب نافلة. وأما بخصوص «آزر» كاسم لوالد إبراهيم، فإن المستشرقين يتعجبون: من أين أتى محمد بهذا الاسم وهو لم يُذكر فى التوراة؟ ومن التحامل البشع على القرآن أن كثيرين من المستشرقين وعلى رأسهم ماراكى وفرانكل، ذهبوا إلى الرأى بأن القرآن بتسميته والد إبراهيم باسم آزر، قد خلط بينه وبين اليعازر خادمه للتشابه بين الاسمين! وواضح أن هؤلاء البحّاثة إما أنهم يتعمّدون الخطأ، أو أنهم يعانون من جهل مستحكم، فاسم آزر لا يلتبس مع اليعازر، لأنه من الفعل يؤازر يعنى يعين، والأزر يعنى القوة، ومن ثم كان الاسم شائع لا يلتبس بغيره، والقرآن لم يخطئ، وكان آزر اسم صنم، ومن يخدم الصنم يمكن أن يطلقوا عليه آزر أيضاً. وكان أبو إبراهيم هو القيّم على الصنم آزر، وفى الآية الوحيدة التى يأتى فيها هذا الاسم ما يفيد هذا المعنى، تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأنعام) قيل إن آزر صفة ذم، وتفيد فى الآية تخطئة الأب

لاتخاذه الأصنام آلهة من دون الله، فيكون المعنى: أتتخذ **يامخطىء** أصناماً آلـهة من دون الله؟ وربما آزر اسمٌ **لصنم**، فيكون المعنى: أتتخذ الصنم آزر إلهاً من دون الله؟ وقيل: إن الآية: ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** (١١٤)﴾(التوبة) تفسّر كلمة «آزر» فى الآية السابقة باعتبارها كلمة سبّ وعيب، ومعناها فى العبرية **المعوّج**، فيكون المعنى: إذ قال إبراهيم لأبيه **يا أعوج**، أتتخذ آلهة أصناماً من دون الله؟ وهي أشد كلمة يمكن أن يقولها ابن لأبيه، وهذا نفسه هو **تفسير** الآيـة: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾. وربمـا آزر بمعـنى **المؤازر** لقومه عـلى عبادة الأصنام، أو أنها مشتقة من **الأزر** يعنى القوة كما قلنا سابقًا، فيكون المعنى: **أللقوة تتـخذ أصناماً من دون الله**؟ وبعض المقرئين يقرأ: «**وإذ قال إبراهيم لأبيه**» يتوقف هنيهة، ثم يقول: «**آزر، أتتخـذ أصناماً آلـهة من دون الله**»؟ يعنى أن إبراهـيم يقـول: «**آزر**» **دهشـةً واستغـراباً**، وبلهجة التوبيخ، بمعنى **أف لك**، وكل هذه المعانى السابقة تعتمد علي **أن آزر كلمة عبرية**، والقرآن ليس كتابًا لنشر اللّغة العبرية، ونزوله بالعربية إنما ليفهمه العرب، فلابد إذن أن **آزر** هى اسمٌ للأب، ولكن **الأب** اسمه **تارح** بفتح الراء كما يجىء فى التوراة، وهى **فى العبرية** بمعنى **عنـزة**، وأما **آزر** فبمعنى القوى الصُلب الشديد القاسى الذى لا يرحم، فيكون أن الاسم الحقـيقى للأب هو تارح، ولأنه اسم لا يحبـه صاحبـه لنفسه ولا يشـتهى أن يناديه الناس به، فإنه اختـار لنفسه «**آزر**» وهو المقـابل «**للتـارح**»، ليُنادَى به فى **دائرة أصـحابه** ومعارفه، وهو تغيير مشروع، وكثيراً ما يُلجأ إليه، وعندنا فى مصر قريةٌ كان اسمها **ميت خنـازير** فغيّر أهلُها الاسم **إلى ميت السـباع**، وكان الرسول ﷺ يغيّر الاسم القبيح إلى اسم مقبول ومحبوب، فكان رجل اسمه **مضطجع** فسمّاه منبعثاً. ولا يعيب ورود اسم آزر فى القرآن أنه غير واردٌ فى التوراة، فالكثيـر الغالب من القرآن فى الموضوعات الواحدة لا مثيل له فى التوراة، كمـا فى قصص آدم، ونوح، **وهود**، **وشعيب**، ويوسف، وموسى... إلخ، وكـذلك يورد القرآن أشـياء عن عـيسى لا وجـود لهـا البتـة فى الأناجيل الأربعـة مجتمعة، وعلى ذلك يكون آزر اسم جنس، وجائز أن يستخدمه القرآن كاسم، ولا تثريب أن يكون للأب اسمان، فإبراهيم نفسه كان له اسمان بالعبرية، الأول: **أبرام**، بمعنى الرفيع الشأن، والثانى: **إبراهيم**، بمعنى «**أبو رهام**، أى «**أبو الجمهور**»، أى **أبو الناس** (تكوين / ٥ ١٧) كما فى القرآن: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾(النحل)، يعنى كان وحده يساوى **أمّة**، أو أنه أمة وحده، وتتمثل فيه وحده أمة. وكـان ليعقوب اسمان، أحدهما **يعـقوب يعنى التـوأم** المولود عقب أخيه، والثانى **إسرائيل** أى **عبد الله**. وكان للنبىّ ﷺ أسماء كثيرة وكُنًى كثيـرة. فلا خطأ فى الآية موضوعنا، وتعالى الله العظيـم عن الزلل والنقص، والحمد لله ربّ العالمين.

٧٥٤- ﴿دعاء إبراهيم لنفسه وأبيه﴾

هو قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾(الشعراء)، يدعو الله أن يهبه المعرفة به وبحدوده وأحكامه، وأن يؤتيه الفهم والعلم، والنبوّة والرسالة، ويلحقه بالنبيين من قبله، وبأهل الجنة، وأن يجعل له لسان صدق فى الآخرين، فتجتمع عليه الأمم، وتتمسك به وتعظّمه، وقد استجاب له الله، فجعله على الحنيفية التى أحياها محمد ﷺ ويعمل بها المسلمون فى كل أرجاء الدنيا، وهم يصلون عليه كصلاتهم على نبيّهم، وخاصةً فى الصلوات وعلى المنابر، والصلاة عليه دعاء له بالرحمة. **واللسان** الذى يسأله إبراهيم من الله تعالى هو القول، وأصله جارحة الكلام، **وموضع اللسان** هو **موضع القول** على الاستعارة، **ولسان الصدق** أن يُمدَح ويُثنَى عليه، والمؤمن يحب أن يعرف أن عمله يُقابلَ بالثناء لا بالذم، وأنه عملٌ صالح بالفعل لا بالقول، استحباباً لاكتساب ما يورث **الذكر الجميل**، والذكر الجميل هو حياةٌ ثانية لصاحبه، كقول القائل: **قد مات قومٌ وهم فى الناس أحياء**. ومن دعوة إبراهيم أن يورثه **جنة النعيم**، وفى ذلك ردٌّ على من يدّعى أن المؤمن لا ينبغى أن يسأل الله جنةً ولا ناراً. وقيل إن إبراهيم كان قد وعده أبوه فى الظاهر أن يؤمن، فاستغفر له لهذا السبب، فلمّا بان أنه لا يفى بما وعد تبرّأ إبراهيم منه، ولذلك قال فيه: «**إنه كان من الضالين**» أى المشركين. ولم يحب إبراهيم أن يفضحه الله به يوم القيامة على رءوس الأشهاد، فدعا أن لا **يخزيه** يوم البعث، وفى الحديث: «**إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة**» أخرجه البخارى، والغبرة هى القترة، وفى الحديث: «**يلقى إبراهيم أباه فيقول: ياربّ إنك وعدتنى ألاّ تخزنى يوم يُبعثون، فيقول الله تعالى: إنى حرّمت الجنّة على الكافرين**» أخرجه البخارى. **ويوم البعث**: يومٌ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، وإنما ينفعه أن يأتى ربّه سليم القلب، وخصّ **القلب** لأنه إن سَلِم سلمت الجوارح كلها، وإن يفسد فسدت سائر الجوارح. **والقلب السليم**: هو الخالى من الشك والشِّرك، وأما الذنوب فليس يسلم منها أحد. وقيل: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق قلبٌ مريض، كقوله تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾(البقرة ١٠). ولا يكون القلب سليماً إلا من آفة المال والبنين. والقلب السليم كاللديغ من الخوف من الله، ويعلم أن الله حق، والساعة قائمة، والبعث حق، وفى الحديث: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**» يريد أنها مثلها خالية من كل ذنب،

وسليمة من كل عيب، ولا خبرة لها بأمور الدنيا، كما قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة من البُلْه» وهم البُله عن المعاصى، والأبله بهذا المعنى هو المطبوع على الخير، والغافل عن الشر، وغلبت عليه سلامة الصدر وحُسن الظن بالناس.



٧٥٥- ﴿قصة إبراهيم مع النمرود الذى حاجه فى ربه﴾

هى القصة التى يوردها القرآن دون أن يُذكر فيها أن طرفها الآخر اسمه النمرود. تقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)**﴾(البقرة). واسم النمرود غير موجود فى كُتب اليهود الخمسة المسماة **بالتوارة**، وليس فى التوراة قصة لإبراهيم مع **النمرود**. واسم النمرود إضافة على القصة القرآنية، مما أثبتته لها **الإسرائيليات**، وقالوا فيه إنه: **النمرود بن كوش بن حام**، مؤسس الأسرة الحاكمة في بابل وشنعار وأكاد (تكوين ١٠/٨ ـ ١٠) وبانى البرج المشهور بها، وكان من الملوك الجبّارين (يعنى الفراعنة) وادّعى الألوهية. **والمستشرقون** على القول بأن **قصة النمرود وإبراهيم** مأخوذة من **الهجادا العبرية**، أى **المرويات اليهودية الشعبية** الشفهية، وروّجها فى كتب التفسير: **الطبرى، والثعالبى، والدميرى، وابن الأثير**.
وكان النمرود يختزن الطعام ويبيعه لقومه، فدخلوا عليه وسجدوا له إلا إبراهيم، فلمّا سأله: ما لك لا تسجد لى؟ قال: أنا لا أسجد إلا لربّى! فقال النمرود: ومَنْ ربُّك؟ قال إبراهيم: ربّى الذى يحيى ويميت. فأمر النمرود برجلين، وأمر بقتل أحدهما، وقال: ها أنا قد أحييتُ هذا وأمتٌ هذا! فردّ عليه إبراهيم **بحجّة الشمس، فبُهت**. وقيل: كان يمكن لإبراهيم أن يردّ عليه لمّا أحيا وأمات، بأنه لا يحيى من عدم بينما الله تعالى يحيى من عدم، ومع ذلك ما كان يمكن لإبراهيم أن يبرهن على صدق قضيته عملياً، لأن الإحياء والإماتة لهما حقيقة ومجاز، وإبراهيم قصد **الحقيقة**، فى حين أن النمرود قصد **المجاز**، وموّه على قومه. ولولا أن إبراهيم أدرك أن خصمه سيحاجى بالباطل، لما ترك «**مَثَل الموت**» ليحل محله «**مَثَل الشمس**». ولقد سلّم إبراهيم للنمرود جدلاً، وضَرَب المَثَل الثانى بما لا مجاز فيه، وبما ليس بوسع النمرود أن يلعب فيه بالألفاظ. قيل هو «**مثل الشمس**» التى تأتى من المشرق، فليأت بها النمرود من المغرب لو استطاع، فأفحمه وألجمه وأبهته، لأن حجة الكافر انقطعت. وهذه القصة **يُستدل بهاعلى ضرورة اللجوء فى الدعوة إلى المحاجاة**، والمناظرة، والمجادلة وإقامة الحُجة، من مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**

(١١١) ﴾ (البقرة). وكل الأنبياء جادلوا أقوامهم، لأنه لا يُظهر الحق فى أمور الدين إلا إظهار الفرق بين الحق والباطل. ولقد جادل رسول الله ﷺ أهل الكتاب وطلب إليهم المباهلة. وما لم يكن طرفا المناظرة متساويين من حيث العلم والعقل والفهم، فإن المناظرة تصبح مراءً ومكابرة.

وفى سفر المقابيين الثانى من أسفار اليهود، شبيهٌ للنمرود، هو نكانُور، أراد أن يُحرج يهوذا فى ربّه، فسأله عن السبت، فقال له إنه يومٌ حرمه القدير على كل شىء، فسأله: وهل فى السماء قدير أمر بحفظ يوم السبت؟ فقال يهوذا: إنه الربّ الحىّ القدير، فقال: وأنا أيضاً قديرٌ فى الأرض (١٥/٣ - ٦).



٧٥٦- ﴿قصة الذى مرّ على القرية الخاوية﴾

يقول تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة) وهذه الآية متصلة بالآية التى قبلها فى التعجب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ (البقرة ٢٥٨)، وفى العطف بأو، حملٌ على المعنى، والتقدير: هل رأيت الذى حاج إبراهيم فى ربّه، أو الذى مرّ على قرية؟ وأيضاً فإن الآية متصلة بالآية التى بعدها والتى تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾(البقرة ٢٦٠)، فمدارهما الشك، وكلاهما إبراهيم «والذى مر على القرية الخاوية» يشكّان فى قدرة الله على الإحياء بعد الموت. فلولا أنه يرد ضمن الآية: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، لقلنا إن القصة ليست سوى مَثَل يضربه الله تعالى لمن يتشكك، وما أكثر الشكّاكين فى كل عصر، فعموم القصة وارد. وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، يعنى يجعل منها قصة حقيقية، وهى بهذا الاعتبار محل الكثير من الإسرائيليات، وخاصة من أمثال وهب بن منبّه الذى كان يهودياً وأسلم، ومن المتأسرلين أمثال: ابن عباس، وعكرمة، والضحّاك، وقتادة، وناجية بن كعب، وسليمان بن بريدة، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وعبدالله بن بكر بن مضر، وهؤلاء قالوا: «إن الذى مرّ على قرية وهى خاوية» هو أحد ثلاثة: إما أنه عُزيْر، وإما أنه إرميا، وإما أنه الخَضِر، ولا دليل على أى من ذلك، ولا يوجد مرجع واحد يؤيده، والقصة نفسها ليست من قصص التلمود، ولا من القصص اليهودى الشفاهى، وهى قصة قرآنية بحتة، وترد ضمن القصص التعليمى فى القرآن إثباتاً للبعث،

وتنويهاً بقدرة الله عليه. وكما نرى فإن «**الذى مرّ على القرية الخاوية**» لمّا رأى حالها وكيف هى ساقطة على سقفها، ومتهاوية الحيطان، وخالية من الناس، والبيوت مع ذلك قائمة، تساءل وكيف يمكن أن تعمر هذه بعد خرابها؟ وكأنه وهو الواقف المُعتبر على قريته التى عهد فيها أهله وأحباءه، يتلهف على أن يعرف ما يمكن أن يئول إليه أمرها، وما إذا كان من الممكن أن يبعثوا بعد الموت، فضرب الله له المثل فى نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه، وقوله شكٌ لا ريب فيه فى قدرة الله على الإحياء والبعث. فلذلك ضرب له المثل فى نفسه، وأماته **مائة عام**. والقصة بها شبهٌ من قصة **أصحاب الكهف**، ولكنها تختلف عنها فى **المغزى والدرس والمحتوى**، وأصحاب الكهف أصابهم السبات ثم بعثهم الله تعالى، وأمّا «**الذى مرّ على القرية الخاوية**» فأماته عن حق ثم بعثه، فلمّا سُئل كما سُئل أصحاب الكهف: كم لبثتَ؟ قال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم، قاله مما فى ظنه، فلم يكذب فيما أخبر به. و«**الذى مرّ على القرية الخاوية**». لم يكن نبيّاً كما يقول المفسرون، وإلا فكيف سيفسّر لقومه غيابه مائة سنة؟ وعندنا أنه من **أولياء الله**، ومن **النمط المفكر** وليس من النمط المتعبّد، والأوّل كثير السؤال مثْل **إبراهيم**، والثانى كثير العبادة ولا يطرأ الشك على قلبه أو عقله من قريب أو بعيد، مثل نبينا ﷺ. وقيل: كان طعام «**الذى مرّ على القرية الخاوية**» من التين، وشرابه الماء، ولم يتسنّه الطعام ولا الشراب، أى لم تغيّرهما السنون المائة، ولم يتغير طعمهما ولا رائحتهما، من أَسَنَ الماء إذا تغيّر. وقال **وهب بن منبه**: إن حماره صار عظامًا نخرة، فأحياه الله جزءًا جزءًا، ليريه كيف يكون البعث، وليعاينه بنفسه فى غيره، لأنه لم يعاينه فى نفسه، فأولاً وُصِلت العظام ببعضها البعض، ثم كُسيت لحماً حتى كَمُل الحمار، ثم كان أمْر الله فقام الحمار ينهق. وقيل: بل إنه عاين الإحياء فى نفسه، وكانت العظام هى عظام نفسه، فأحياه الله أولاً، واستكمل رأسه ولم يستكمل جسمه، فكانت بقية جسمه عظاماً، فأراه كيف تُكسَى باللحم ويكتمل له الشكل الآدمى، فكان شاباً كما كان منذ مائة عام، فجعله آية للناس، وبحث عن أهله فوجد أبناءه، ولكنهم كانوا شيوخاً. والمفسرون يكادون يجمعون على أن هذا «**الذى مرّ على القرية الخاوية**» هو **عُزيز** الذى هو **عزرا** فى التوراة، واليهود يعتبرونه وليّا وينزلونه منزلةً أكبر من منزلة موسى، ويلقبونه **بالكاهن**، **وبالكاتب**، ويدينون له بالفضل كل الفضل، لأنه الذى كتب التوراة وعلّمها الأوائل، ونشرها بين اليهود بالخط الأشورى أو الحروف الأرامية المربعة، ولم يَدّع عزير أو عزرا أنه يكتب التوراة، ولكنه كان مثل كل مؤرخى اليهود، يحاول أن يصنع تاريخاً لبنى إسرائيل فى المنطقة، ولم تكن دعوته لله وإنما لشعب إسرائيل، وذلك ما

يجعلنا لا نعتقد أن «الذى مرّ على القرية الخاوية» هو عزير، **فعزير اهتماماته مختلفة، وهذا اهتماماته دينية، وعزير لم يختف مدة مائة سنة**. وقيل: «**الذى مرّ على القرية الخاوية**» كانت له أم، فلمّا عاد إليها كانت عجوزاً، فأبلغها أنه عزير، فقالت: عزير كان يشفى المرضى، فاشف عينىّ! فوضع يده على عينيها فأبصرت وصدّقت، وذهبت تخبر الناس، وكان له ابن بلغ من العمر مائة وثمانية وعشرين عاماً، فقال له إن أباه كانت له شامة فى كتفه، فاطّلع عليها وصدّق أنه أبوه. والمهم فى القصة ليس ما يرد عنها من **الإسرائيليات**، وإنما **الدرس المستفاد المستخلص منها**، فإنه بعد أن اتضح له عياناً ما كان مستنكراً فى قدرة الله عنده قبل عيانه، قال: ﴿**أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٢٥٩)﴾(البقرة)، ولم يقلها إقراراً بما كان من قبل ينكره، بل هو قولٌ منه دفع إليه الاعتبار، فلولا أنه اعتبر، ما كان **قال ما قال**، وقوله كقول إنسان مؤمن يرى شيئاً غريباً من قدرة الله فلا يملك إلا أن يقول: لا إله إلا الله! أو ربما يعنى: أجل، الآن أنا على يقين مما كنت أعلمه من قبل ظناً، **فأخبر عن** نفسه عندما عاين من قدرة الله فى إحياء الموتى، فتيقن ذلك عنده بالمشاهدة، فأقرّ بأنه يعلم **أن الله على كل شىء قدير**، وقصته كقصة **الطير** عندما جعله إبراهيم أجزاءً على قمم الجبال، ثم دعاهن، فإذا هى قد تحولت طيراً جاء إليه، والفرق بين قصة إبراهيم مع الطير وبين قصة «**الذى مرّ على القرية الخاوية**»: أن دَرْس هذا كان لنفسه فقال: **أعلم أن الله على كل شىء قدير**، بينما كان إبراهيم بعد أن عاين إحياء الموتى ما يزال يحتاج إلى التعليم، فقال له الله تعالى: «**واعلم أن الله عزيز حكيم!!**».

●●●

٧٥٧- ﴿قصة إبراهيم وإحياء الطير﴾

هذه القصة فى **الشك** فى قدرة الله على **الإحياء** بعد الموت، ومشكلة الناس أيام النبوّات أنهم كانوا يشكّون فى **البعث**، وإبراهيم لم يكن استثناء منهم، والقصة تصوّره شاكاً ولكن شكّه ليس كشك الناس، فهو يعرف أن الله يبعث الموتى، وسؤاله عن الكيف ـ كيف يحيى الموتى؟ فأراد أن يعرف الطريقة ويعاينها مشاهدةً. يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٢٦٠)﴾(البقرة)، فالبعث شىء يقرّه إبراهيم، وسؤاله: **ربّ أرنى كيف تحيى الموتى؟** مثل قولك: كيف عَلِم زيد؟ وكيف نُسِج الثوب؟ فأنت تعرف بدأةَ ذى بدء أن زيداً عَلِم، وأن الثوب نُسج، وتسأل الآن عن كيفية نسجه، أو كيفية علمه. وفى هذه الآية فإن الكيف

استفهامٌ عن هيئة الإحياء، لا عن الإحياء نفسه، فالإحياء متقرر، إلا أن الله تعالى جعل سؤاله أنه لم يسلّم جدلاً بالإحياء، فقال له «أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي»، فعلّل سؤاله بالطمأنينة وليس بالشك. وقال ابن عباس: هذه أرجى آية في القرآن: لأن إبراهيم بها انشرح صدره بالطمأنينة لما عرف إجابة سؤاله، وترسّخ إيمانه. وفي هذه القصة جاء عن النبيّ ﷺ قوله: «نحن أحق بالشّك من إبراهيم، إذ قال ربّ أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي»، فلو كان إبراهيم شاكاً لكان الرسول ﷺ أولى بالشك منه، والرسول ﷺ لم يشك، وإبراهيم أحرى به كذلك أن لا يشك، وحديثه ﷺ نفيٌ للشك عند إبراهيم، وسؤال إبراهيم إذن كان من باب الإيمان، وبتعبير الرسول ﷺ أن إبراهيم كان «مُحصَن الإيمان»، وأما الشك: فهو التوقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وما كان حال إبراهيم من هذا النوع، وما كانت سيرته إلا سيرة إنسان مؤمن شديد الإيمان، وقد امتُحن بالتحريف فما ارتد، والشك مستبعد في حق من تثبُت قدماه في الإيمان، فكيف به لو كان نبياً كإبراهيم؟ وإنما حال إبراهيم هو حال «الباحث عن الحقيقة»، وطلبه من ربّه كان المعاينة، فقال: أرني كيف تحيي الموتى؟ والنفوس مجبولة على أن تطلب رؤية ما تُخبرَ به، وفي الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»، وذلك ما تمنّى إبراهيم لو يراه، فلم يُرد رؤيةً بالقلب، فالقلب كان عامراً بالإيمان، ولكنهاالرؤية التى طلبها بالعين، وعندئذ لو كان إيمانه قيراطاً فإنه سيصبح قيراطين، وإذن فالذى كان عند إبراهيم هو «شكُ الفلاسفة» وليس مجرد الشك، وشكٌ الفلاسفة يزداد به إيمانهم، وعبّر عنه إبراهيم بقوله: «ليطمئن قلبي»، بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً والمعلوم عياناً، والطمأنينة التى ينشدها كانت أن يسكن فكره فى الشيء المعتقد، والتفكير فى الإحياء فيه عِبَر وعظات ودروس، وكان ما يشاهده إبراهيم فى الدنيا كيفية تفريق أجزاء المخلوقات عند الموت، ولكنه لم يعاينها فى تجمعها فأراد أن يطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع، فأُمر لذلك أن يأخذ أربعة من الطير من مختلف الأصناف، وقطّعها قطعًا صغيرة، وخلّطها إلى بعضها البعض، ثم وزّعها أجزاء على قمم الجبال، ثم أمرها أن تجتمع بإذن الله، فانصاعت للأمر، وتمت مشاهدته لما تمنى، ولذا ختم الله تعالى القصة بالتأكيد على إبراهيم، يقول: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أى أنه تعالى عزيز لا يغلبه غالب، ولا يقدر عليه قادر، وما شاء يكون بلا مانع، وهو القاهر، والحكيم فى كل ما يفعل ويقول، وفى شرعه وقَدَره سبحانه.

●●●

٧٥٨- «لا إله إلا الله» ميراث إبراهيم فى عقبه

إبراهيم: هو نبيّ الله وخليله، وإمام الحنفاء، وأبو الرسُل والأنبياء، وإليه ينتسب المسلمون انتساب نسب ومذهب، فأما النسب فلأنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وأما المذهب فإنهم أحناف كإبراهيم، كقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾(الزخرف)، والذى فطره هو الله، وكلمة «لا إله إلا الله» هى الكلمة الباقية فى عقبه، فكل كلام يزول ويضحى، ويموت ويندثر، إلا كلمة «لا إله إلا الله»، جعلها الله تعالى أبدية فى ذرية إبراهيم ومَن نهج على ملّته، ولا تزال فى عقبه وفيمن يعبد الله تعالى إلى يوم القيامة. وقيل الكلمة الباقية هى قول إبراهيم: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾(الزخرف ٢٦)، فتبرأ من كل عبادة إلا الله الذى فطره والذى يهديه. **والعقب**: هم ولده وولد ولده إلى يوم القيامة، توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، ويدعون له وحده، فكانوا الدعاة، فصارت النبوّة فيهم، فكانوا أصل التوحيد وغيرهم فيه تبع.



٧٥٩- «صحف إبراهيم وموسى»

يأتى عنها فى سورتين، فى الأولى يقول تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾(النجم)، وفى الثانية يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾(الأعلى)، وليس فى التوراة أنه كانت لإبراهيم الخليل صحف، والمقصود غالباً الروايات عنه وهى كثيرة، وتحفل بها التوراة الشفهية المتداولة بين الأحبار بخلاف التوراة المكتوبة. وصحف موسى هى أيضاً التوراة الشفهية وليست المكتوبة التى يعطونها اسم أسفار موسى الخمسة. وصدق الحديث عن نبيّنا ﷺ فيما رواه أبو ذر، قال: قلت يارسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المتسلّط المُبتلَى المغرور! إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتردّ عنى دعوة المظلوم، فإنى لأردّها ولو كانت من فم كافر. وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجى فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها فى صُنع الله عزّ وجلّ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومَن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه». قال: قلت: يارسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبَراً كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ وعجبتُ لمن أيقن بالقَدَر كيف ينْصب؟! وعجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن

إليها؟! وعجبتُ لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل؟!» قال: قلت يارسول الله: فهل في أيدينا شيء مما كان في يدى إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، إقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾(الأعلى). فكأن ما في صحف إبراهيم وموسى يوافق ما في القرآن كما في سورة الأعلى، والأسلوب في أمثال وعبر الصحف «الأولى» يتمشى مع أسلوب القرآن في سورة الأعلى فيما أورده الحديث. وفي سورة النجم يرد أيضاً ما يماثل ذلك، فبعد المقدمة عن صحف إبراهيم وموسى، يأتي مباشرة عمّا بها فيقول: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾(النجم)، وثنّى على ذلك فقال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦)﴾، يعنى أن هذه الآيات جميعها حكم وأمثال وعبَر ونذر كالتى كانت بالكتب أو الصحف الأولى، ومادامت هناك صحف أولى فلابد أن هناك صحف ثانية، وهى التوراة الشفهية غير المحرّفة، وربما يمكن القول أن أحاديث الرسول ﷺ والقصص عن الصحابة، من هذه الصحف الثانية.

●●●

٧٦٠- ﴿ضيف إبراهيم﴾

ذُكر عن ضيوف إبراهيم أربع مرات في أربع سور، هى: هود، والحجر، والذاريات، والعنكبوت، بحسب ترتيب النزول، وذلك ضمن القصص الأخرى عن الأنبياء والصالحين والأمم من السابقين، ولنا فيها عظة وعبرة للمؤمنين، وكانت نذيراً لأهل مكة من الكافرين والمشركين، والروايات الثلاث ليست تكراراً ولكنها من زوايا مختلفة، وفيها لقطات متباينة للحدث الواحد، باعتبار سياق كل سورة والمعنى العام الذى تندرج تحته. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾(هود)؛ ويقول: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾ (الحجر)؛ ويقول: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧)﴾(الذاريات)؛ ويقول: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾ (العنكبوت)، فكما ترى فإن الروايات الأربع مختلفة كل الاختلاف، ففى سورة هود: كان مجيء الرسُل له خاصةً لتبشّره، وكانوا فى مهمة إلى قوم لوط، وأبدت سارة تعجبها أن تلد وهى عجوز، ثم تكون العبارة الرئيسية وحجر الزاوية فى القصة، بأن ردّوا عليها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ (هود). وأخبروه عن قوم لوط، فجادلهم، فأمروه أن يعرض عن الجدال فيما نفذ فيه القضاء. وفى سورة الحجر: أسفر إبراهيم عن تخوّفه منهم منذ البداية، وأنهوا إليه خبر البشارة مباشرة، ولم يقدّم لهم طعاماً، ولم يحيّهم التحية الواجبة، ولم تشارك امرأته فى الحفاوة بهم، ولم تسمع بشارتهم، ونهوه أن يكون من القانطين. وسألهم عن وجهتهم فأخبروه أنهم مرسلون إلى قوم لوط، وسينجونه وأهله إلا امرأته. وكانت العبارة الرئيسية **topic sentence** فى القصة: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦)﴾(الحجر). وفى سورة الذاريات: تأتى التقدمة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾؟ والاستفهام للتشويق والتفخيم، ثم إن إبراهيم سارع يكرمهم فجاء بعجل سمين (الذاريات ٢٦)، وكان

العجل فى سورة هود حنيذًا، أى مشوياً، يعنى وُصف بعد مرحلة تجهيزه، وضحكت امرأته للبشارة، ولطمت وجهها تعجبّاً، وكان جوابهم مختلفاً عن جوابهم فى رواية سورة هود. وفى تلك الرواية كانت مهمتهم فى قريتىّ لوط قد انتهت على عكس الروايتين السابقتين، يعنى أن البشارة كانت من بعد وليس من قبل، أى فى عودتهم وليس فى ذهابهم. غير أن الملائكة ضيوف إبراهيم فى الرواية الأخرى من سورة العنكبوت تابعوا رواية سورة الذاريات فقالوا: ﴿هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)﴾(العنكبوت)، فنفهم أن البشارة كانت قبل أن يُرسلوا إلى قوم لوط، وكأن مجئ الرواية عن قوم لوط من قبل،قد صار من بعد عند التحقق، بمعنى أن عقابهم كان من قضاء الله السابق والنافذ، وأنه سُطِر من قبل، ثم نُفّذ من بعد، ومن ثم فلا تعارض بين الروايات والعبارة الرئيسية فى هذه الرواية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ﴾ (هود ٧٥)، يعنى أنه ما كان يغضب، وكان يسأل الله العفو والرحمة. وقد يبدو لغويًا أن الضيف تقال للواحد، إلا أنها تأتى فى الروايتين اللتين وردت فيهما كلمة «ضيف» فى الجمع وليس المفرد، والضيف يصلح للواحد والجمع، والتثنية، والمذكر، والمؤنث، فيحتمل إذن أن الملائكة كانوا اثنين، أو كانوا ثلاثة، وكان إبراهيم مضيافًا، يستضيف الواحد كالاثنين أو الثلاثة، وكان يُكنىّ لذلك: أبا الضيفان. فلو جمعنا الروايات الأربع معاً نلم بجميع أركان القصة التى نحن بصددها، ونعرف أن الله يثيب المحسنين ويعاقب المجرمين، وذلك هو الدرس المستفاد أو الموارل **morale** كما يقول أهل الأدب الروائى.

فماذا تقول التوراة فى هذه القصة؟ من ذلك أن ضيوف إبراهيم كانوا ثلاثة فى الفصل الثامن عشر من سفر التكوين، العبارة ٢؛ وفى الفصل التاسع عشر العبارة ١ يأتى أنهم اثنان فقط، ولم يأت فى الرواية أى تأثُّر على إبراهيم لدى سماعه البشرى؛ بينما نجد سارة فى قصة القرآن لا تبدى تعجباً، ولكنها استهزأت بما سمعت، وجادلها الملائكة فى ضحكها، وأنكرت ما تحصّل لفهمها. والمهم فى لقاء إبراهيم بالملائكة أنه صار يجادلهم فى الحُكم الصادر من الله فى قوم لوط،ومَثَلُه الذى يستشهد به: أتهلك البار مع الأثيم؟ فلما قالوا له: لو كان فيهم خمسون باراً لعفونا عنهم، فاستسمحهم إبراهيم فى إنقاص العدد إلى خمسة وأربعين، ثم أربعين، ثم ثلاثين، ثم عشرين، حتى عشرة، وانتهت القصة على هذا، فلما كان الصباح توجه إبراهيم ليشهد ما حدث لسدوم وعمورة. فهذه هى القصة وأغلبها عن سدوم وعمورة، وأقلها عن إبراهيم وأهله، وليس فى قصة التوراة عبارة واحدة يمكن استخلاصها كعظة **morale**. وميزة قصة القرآن أنها ضمن أربع سور فتنوعت الرواية والكلام، وتباينت الرؤى، وكثرت التفاصيل. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٦٦- ﴿إبراهيم أول من أضاف﴾

فـى الآيـة: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)**﴾(هـود)، والعـجل الحنيـذ هو السميط أو المـشوى، وفى الآية الأخرى: ﴿**فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)**﴾(الذاريات)، والكثـير من **أدب الضيـافة** نتعلمه من إبراهيم فى هذه الآيات، فقد عجّل أولاً قِراه، وقدّم الموجود الميسّر فى الحال، ولم يتكلف مـا يضرّ به. والضيافة عند الساميين من مكارم الأخـلاق، وأخذها **العرب** وراثةً عن أبيهم إبراهيم، ولكن **اليهود** - وهم ساميون - عكس ذلك تماماً. وإبراهيم كـان من المسلمين وإمـامًا فى الإسـلام، وقيل إنه فى هذه الآيات يُذكَـر مقـترنًا بالضيافة، ولـم يذكر ذلك لأحد من الأنبياء قبله، وأنه لذلك «**كان أول من أضاف**». وفى قصـة إبراهيم أنه لمّا رأى أيدى ضيوفـه لا تصل إلى الطعام نكرَهم وأوجس منهم خيـفة، والسُّنّة إذن: **أنه إذا قُدّم للضيف الطعام فعلى المضيف أن يبـادر بالأكل، فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم، وكرامة المضـيف المبادرة بالقبول**، وضيـوف إبراهيم **الثلاثة** خرجـوا عن العادة ولم يمدّوا أيديهم، وخالفوا السُّنّة، فخـاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وأيضاً من أدب الطعام فى قصة إبراهيم: **أن ينظر المضيف، هل يأكل ضيفه أم لا؟**.



٧٦٢- ﴿هل أخطأ القرآن ونسب بنوة يعقوب إلى إبراهيم؟﴾

افتـراءات المسـتشرقـين لا تنتهى، والحق أنهم اعتمـدوا على نقد يهود المدينة لآيات القـرآن، ومن ذلك نقـدهم لقـوله تعـالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)**﴾(الأنبياء)، وقوله: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾(العنكبوت)، وقوله: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا**﴾(الأنعام٨٤)، باعتـبار أن إبراهيم لم ينجب يعـقوب، وإنما يعقـوب هو ولد إسـحق، أى أنـه حفـيد إبراهيم وليس ابنه، وعلى ذلك قـالوا أن القرآن أخطأ، وأن محمداً التبس عليه، وعندهم أنه كان من الممكن التغاضى عن هذه الزلّة لو أن البشارة كانت لإبراهيم وحده، ولكنها كانت فى المقام الأول لسـارة، كقوله: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)**﴾(هود)، أى أنها ستنجب من بعد إسحق ولداً اسمه يعقوب، وتفسيـر اليهود والمستشرقين هو الخطأ، لأنه فى هذه الآيات جمـيعها لا ينصرف المعنى إلا إلى أن إبراهيم وسارة سيكون لهما ولدٌ باسم إسـحق، وسينجب هذا الولد ابناً بدوره اسـمه يعـقوب، وبذلك تُحفَظ النبوّة والكتاب فـى الذرية. ومن أشد الناقدين لهذه المسألة من المستشرقين: **آيزنبرج، وهوروفتس، وسنوك هرجرونجى، وجايجر**، واعتمدوا فى

نقدهم على الطبرى والثعالبى -وهما من أكبر المروّجين للإسرائيليات فى التفسير. وكل ما يأتينا من نقد من طريق هؤلاء المستشرقين إنما يوجه إلينا من خلال إسرائيليات الطبرى والثعالبى، وتفسيراهما فيهما الكثير من الهرف والخلط والتلفيق. ولا ينقد المستشرقون رواية القرآن وإنما روايتى الطبرى والثعالبى. وفى قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾(الأنبياء٧٢)، فإن النافلة هى الزيادة، فإبراهيم دعا لنفسه فى إسحق، وزيد له يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أى زيادة على ما سأل، قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾(الصافات)، فاستجاب له ربّه ورزقه الولد وولد الولد، ويقال لولد الولد نافلة، لأنه زيادة على الولد.

ومن العجيب أن يهود المدينة والمستشرقين لم يتنبّهوا إلى أن نفس الشيء حدث مثلاً مع النبىّ زكريا بن برخيا، فقد نسبه سفر عزرا إلى جدّه «عدُّو» ولم يذكر اسم أبيه «برخيا»، فقال زكريا بن عدُّو (عزرا ٥/ ١ و ٦/ ١٤) ونفس الشيء مع يعقوب، فإن كان قد جاء ذكره فى معرض البشارة لإبراهيم، فما كان لآيزنبرج وجايجر وغيرهما أن يذهبوا إلى تخطئة القرآن، لأن ذلك نفسه حدث لزكريا، وقال مفسر عزرا أن برخيا لم يكن مشهوراً، فنُسب زكريا للجد لأنه كان الأكثر شهرة. ونفس الشيء حدث مع المسيح فى إنجيل لوقا، فنسبه إلى أبيه داود (الفصل الأول ٣٢)، فهل كان داود هو أبو المسيح؟ وفى نسبة زكريا فى سفر لوقا يرد أن امرأة زكريا من بنات هارون (١/ ٥)، والمقصود أنها من سلالته وليست بنتاً لهارون على الحقيقة، فأين هى من هارون وبينهما آماد من الزمن! فلماذا النقد لرواية القرآن إذن عن يعقوب؟!



٧٦٣- ﴿إبراهيم كان محباً للحجاج﴾

من صفات إبراهيم حبُّه للحجاج، وأشهر قصة حِجاج تُروَى عنه محاجته للنمرود، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ... ﴾(البقرة ٢٥٨)، والآية تدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة، وكان نوح كثير الجدل، كقوله تعالى: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ (هود ٣٢)، وجادل موسى فرعون، والمجادلة تعليم من الله عزّ وجلّ بالسؤال والجواب، وفى الجدل الدينى لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حُجة الحق ودحض حُجة الباطل، كما جرى مع إبراهيم والنمرود فى حُجة الإحياء، ثم فى حُجة الشمس، وما يُقبِل على الجدل إلا أصحاب العلم، وما يميل إليه إلا أصحاب المذاهب، وإبراهيم كان حنيفاً وصاحب مِلّة، والمجادلة نظرية وإبراهيم عملى، وليس الخبر

كالمعاينة، ولذا فقد حاجّ ربّه وطلب أن يرى كيف يخلق، والناس مختلفون بإزاء سؤاله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾(البقرة ٢٦٠)، هل هو عن شك؟ والصحيح أنه لم يشك في قدرة الله ولكنه طلب المعاينة، ولم يُرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين، والإيمان مكانه القلب وليس العين، وإبراهيم كان ممتلئاً حكمة ولذا كان يحاجي ويجادل، وجادل أباه، قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾(الأنعام ٧٤)، ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام ٨٠)، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾(الأنعام)، وقدرته على الحجاج موهبة من الله فذلك هو نمط شخصيته، وبراهينه داحضة قاطعة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾(الأنعام٨٣)، وحُجّته على قومه إشارة إلى جميع احتجاجاته التي خاصمهم عليها وغلبهم فيها بالحجة. وحجاج إبراهيم كان يُلزمه ويتحدد به سلوكه كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(التوبة ١١٤)، فإذا علم أنه المخطيء سلّم في الحال بنتائج خصمه، فلما تحدثت إليه الملائكة عن لوط جادلهم فأكثر الجدال، ثم رجع إلى الحق وإلى أمر ربّه لمّا بيّنوا له خطأه، وفي الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾(هود) يعترف فورًا بخطئه ويتأوّه أسفاً على ما قد بدر منه، وذلك أن الملائكة لامته على جدله وقالت له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(هود ٧٦)، أي دع الجدال في قوم لوط فإن ما تجادل فيه هو أمرٌ منزّلٌ من عند الله، وأنه آت قوم لوط لا محالة. وكان يؤمن بكل ما يتنزّل من عند الله، وله أدعيات كدعوته لأهل مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾(إبراهيم ٣٥)، وكانت له صُحف يرصد فيها ما يُوحَى إليه من الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾(الأعلى)، وشخصيته من ثم كانت شخصية شاملة، وبتعبيره تعالى يصفه قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾(النحل ٢٠) يعني اجتمعت فيه المحامد ومكارم الأخلاق، وكان شديد التقوى لربّه، ويحنف عن كل دين أو مذهب يبعده عن الإيمان بالله، وذلك ما كان يحاجي فيه الناس.



٧٦٤- ﴿الختان من ملة إبراهيم﴾

الختان من السنن، ومن فطرة الإسلام في الرجال، وعند البعض هو فرضٌ لقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(النحل ١٢٣)، والختان من ملة إبراهيم ومن ثم فهو فرض، والمسلمون على الرأى أن الاختتان يباح لمصلحة الجسم كنظر الطبيب، وفي الحديث

قوله ﷺ: «**الختان سُنّة للرجال، مَكْرَمةٌ للنساء**» أخرجه أحمد، وقوله: «**والفطرة خمس، الاختتان...**» الحديث، أخرجه البخاري، وعن **أم عطية**: أن امرأة كانت تختن النساء بالمدينة فقال لها النبيّ ﷺ: «**لا تَنْهكى فإن ذلك أحظَى للمرأة وأحبُّ للبعل**»، **والنهك** المبالغة فى الشيء، والمقصود النهى عن المبالغة فى استقصاء الختان عند البنات. والحديث ضعيف وراويه مجهول، وفى رواية: «.. **ولا تنهكى فإنه أنور للوجه وأحظى عند الرجل**». والرأى فى الطب: أنه إن كان الله قد خلق الإنسان هكذا، وهو أعلم بما خلق، فلماذا التعديل فى خلقة الله؟ وفى الحديث أننا نُبعث غير مختونين، فلماذا إذن نختتن؟ وقيل: إن الصبى يختتن فى اليوم السابع، وقيل هذا من تعاليم اليهود، وقيل يستحب للرجل الكبير إذا أسلم أن يختتن.

والخلاصة: أن الاختتان مسألة خلافية سواء بالنسبة للذكور أو للإناث.

●●●

٧٦٥- ﴿دعاء إبراهيم لمكة﴾

دعا إبراهيم لمكة بالأمن والأمان، لأنها مكان البيت الحرام، فصارت بذلك بلداً حراماً، ودعا لها فقال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً**﴾(إبراهيم ٣٥)، فربط أمنه بعبادة أهله لله الواحد، وشرطه بأن يخلو البيت من الأصنام، فلأنه أوذى بها فى العراق لمّا قام عليها وكسرها وجعلها جُذاذاً، فحرّقوه، فقد دعا أن يجنّبه الله ويجنّب بنيه والناس أجمعين عبادة الأصنام، قال: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ**﴾ (إبراهيم)، فبدأ الدعوة لنفسه أولاً، ثم لبنيه، ثم للناس ضمناً، والأصنام افتتن بها وما يزال الكثير من الخلائق، فتبرأ ممن أضلته، وقال: ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)**﴾(إبراهيم)، فجعل أمر من يعبد الأصنام إلى الله، فبعد أن بيّن لهم صار أمرهم إلى الله، ولو شاء عذّبهم، ولو شاء غفر لهم، كقول عيسى: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)**﴾(المائدة). وقيل إن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ**﴾ الآية، وقول عيسى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾الآية، ثم رفع يديه وقال: ﴿**اللهم أمتى، اللهم أمتى. اللهم أمتى**﴾ وبكى، كأنما كان يسأله تعالى أن يرضيه فى أمته ولا يسوءه.

●●●

٧٦٦- ﴿قصد إبراهيم بدعائه رضا الله﴾

قال إبراهيم: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا**

في السَّمَاء ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾(إبراهيم)، فوصَف الله تعالى بعلم كل شيء، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقصد بذلك أنه تعالى يعلم بالنوايا، وأنه ما بني البيت الحرام إلا لعبادته تعالى، وأن يُعلم الناس أن لهم ربًا مثلما علم هو ذلك، وليس أعلم منه بوجوده تعالى وبكرمه ورحمته بعباده، فلما شكا له أنه بلا عقب وهبه على الكِبَر إسماعيل وإسحق، وكان عمره وقت أن ولد إسماعيل ستاً وثمانين سنة، ولمّا ولد إسحق كان عمره مائة سنة، فلما ستجاب الله لدعائه، عرف إبراهيم أنه ربٌ سميعٌ للدعاء، ولذا دعاه مرة أخرى أن يجعله من الثابتين على الإسلام، وعلى التزام أحكامه، وأن يقيم الصلاة ويداوم عليها هو وذريته من بعده، ولم يقل ذريته جميعها وإنما قال «ومن ذريتي»، و«من» تفيد التبعيض، أي ليس كل ذريته سيكونون من المؤمنين، وسأله أن يتقبّل دعاءه، والدعاء عبادة، وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة» أخرجه الترمذي، ثم دعا لوالديه وللمؤمنين، فإن كان والداه قد ماتا كافرين فأمرُهما إلى الله جميعاً، وقيل من عادة الساميين أن يسمّوا كبار السن والدين، وإبراهيم دعا عازر أباه وهو في الحقيقة عَمُّه، وإنما كلُّ مَن في عمُر الأب فهو أب، وفي القرآن سُمّي صالحاً أخًا لقومه، وكذلك هود، وقال تعالى عن مريم أنها بنت هارون، بمعنى أنها من بيت هارون، ومن ثم كان دعاء إبراهيم لكل والديْن. وفي كل ذلك قصد إبراهيم من دعائه رضا ربّه أولاً قبل أي نفع يجنيه من وراء هذا الدعاء، لإيمانه الشديد بربّه، وثقته فيه، وتوكله عليه. فكان إيمانه بحق هو الإيمان، وقد امتُحن فيه فجاز الامتحان، وكان دائم الشكر له والثناء عليه، وما من مكان ذهب إليه وأقام به لفترة إلا بنى فيه بيتاً لله، فكان نسج وحده بين الأنبياء.

●●●

٧٦٧. ﴿قصة الذبيح إسماعيل ومناسك الحج﴾

يقول تعالى في قصة الذبيح إسماعيل: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾(الصافات ١٠٢)، قيل رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متتابعات، وهو كلام صحيح علمياً، إذ أن «الحلم المتكرر» هو الحلم الذي له هذا المعنى الحقيقي. وقيل «رؤيا الأنبياء وحي»، وهو صحيح علمياً، لأن الأنبياء نفوسهم صافية، ولا يعانون تشوشاً ولا اضطرابات نفسية ولا ذهنية. وقيل: إن الأنبياء يأتيهم الوحي أيقاظاً ورقوداً، فقلوبهم لا تنام وإن نامت عيونهم، وهذا صحيح علميًا لنفس الأسباب السابقة، وفي معناه الحديث: «إنّا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» أخرجه البخاري ومسلم،

وقيل: إن إبراهيم لمّا كان مع ابنه إسماعيل وزوجه هاجر فى مكة، فى زيارة من زياراته لهما من حين لآخر، حيث كان يسكن أصلاً الشام مع زوجه سارة، رأى فى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك. فلما أصبح روَّى فى نفسه، أى فكّر: أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسُمّى ذلك اليوم «يوم التَّرْوية» لهذا السبب، أى يوم التفكير. فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضاً وقيل له: الوعد؟ أى أين وَعْدُك؟ فلمّا أصبح عرف أن ذلك من الله، فسُمّى ذلك اليوم «يوم عرفة». ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة، فهَمّ بنحر ابنه كما تقضى الرؤيا، فسُمّى ذلك اليوم «يوم النحر». ورُوى أنه لمّا همّ بذبحه قال جبريل: الله أكبر. الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر والحمد لله! فبقيت هذه الكلمات سُنّة، وكل ذلك ممكن علميًا لأنه لا يقضى بشرّ ولا يرسّخ لخرافة. وذَبح الابن فى الحلم من الميكانيزمات الحلمية فى كل كُتُب تفسير الأحلام فى العالم، وبكل اللغات، وفى مختلف الثقافات، وما جرى لإبراهيم، وما تبودل من أحاديث بينه وبين ابنه وجبريل صار لذلك من المقدسات ومن مناسك الحج فى الإسلام.



٧٦٨- ﴿الدليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق﴾

الدليل على ذلك ـ وهو أقوى دليل: بشارة الملائكة لسارة زوجة إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾(هود)، فطالما أن إسحق سيعيش ليلد يعقوب، فلا يمكن أن يُذبح، ولا أن يفهم إبراهيم أن رؤيا الذبح المقصود بها إسحق، فلا شك إذن أنه فهم أن الرؤيا تخصّ إسماعيل، وأنه الذبيح وليس إسحق.



٧٦٩- ﴿البشارة بإسحق بعد قصة الذبح﴾

قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾(الصافات)، ولم تأت البشارة إلا بعد تمام قصة الذبح، إذن فطالما أن إسحق سيعيش وسيكون نبيّاً، فإن المقصود بالذبح يكون إسماعيل!



٧٧٠- ﴿الدليل من التوراة على أن الذبيح إسماعيل﴾

الدليل على ذلك العبارة ٢٣ من الفصل السابع عشر من سفر التكوين، وهو قوله: «فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه...»، فهذا إقرار بأن إسماعيل هو الابن الوحيد لإبراهيم فى ذلك الوقت حيث لم تكن سارة قد ولدت إسحق بعد، وفى ذلك الفصل يأتى فى بدايته بشارة الله لإبراهيم ووعده: «وسأنمّيك جداً جداً، وأجعلك أممًا، وملوكٌ منك يخرجون، وأقيم عهدى

بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهد الدهر لأكون لك إلهًا، ولنسلك من بعدك، وأعطيك أرض غُربتك، لك ولنسلك من بعدك، جميع أرض كنعان، ملكًا مؤبدًا، وأكون لهم إلهًا» (٦ ـ ٨)، وهذه البشارة وذلك الوعد كانا لإبراهيم ولم يكن له ولد إلا إسماعيل، وعلى ذلك يكذب كاتب التوراة عندما يقول بعد ذلك: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق» (التكوين ٢٢/٢)، لأن ابنه، قد وصفه بأنه «الوحيد»، ليس سوى إسماعيل، فلما كانت الرؤيا وأخذه إلى أرض مورية ليذبحه، وكان اختياره لمورية بالقرب من نابلس دليل على أن الذبيح إسماعيل ليبعد به عن أمه، وكان إسماعيل فى سن يسمح له أن يفهم مطلب أبيه، وأما إسحق فكان صغيرًا جدًا وبينه وبين إسماعيل ١٤ سنة! فكيف يفهم الذبح ويطيع أبوه وعمر إبراهيم وقت ولادته ١٠٠ سنة، فالأقرب إلى العقل إذن أن الذبيح هو إسماعيل!

●●●

٧٧١- ﴿البشارة بالابن الحليم ومعناها﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾(الصافات) دليلٌ على أن البشارة كانت لإبراهيم بأول ولد له، لأن الآية نزلت عنه فى العراق عقب محاولة تحريقه، ولم يكن قد أنجب فى العراق، وربما لم يكن قد تزوّج بعد. وفى التوراة أن سارة لم تزوّجه من هاجر إلا بعد الهجرة إلى فلسطين، ثم إلى مصر، ثم إلى فلسطين، ولم تكن قد أنجبت منه، وثبت أنها عاقر، وحتى دمار سدوم وعمورة لم يكن إبراهيم قد أنجب إسحق، وكان ولده الوحيد هو إسماعيل، فالبشارة إذن فى سورة الصافات كانت بإسماعيل، مع أن سورة الصافات نزلت بعد سورة هود التى كانت البشارة فيها بإسحق، إلا أن السورتين تقصّان عن أحداث جرت بصرف النظر عن ارتباطها بتواريخ نزول السور. ومعنى بشّرناه بغلام حليم، أنه سيكون حليماً عندما يكبر ويبلغ مبلغ الرجال، وبذلك كان على إبراهيم أن يعلم أن الذبح كان مجرد رؤيا وليس عن حقيقة، لأنه إذا ذُبح إسماعيل على الحقيقة فكيف سيعيش ويصبح رجلاً حليماً كما تقول البشارة؟ وفى سفر التكوين من كُتب اليهود أن إبراهيم عندما ولَدَ إسماعيل كان عمره ستاً وثمانين سنة، وعندما ولَدَ إسحق كان عمره مائة سنة، يعنى هناك حقبة زمنية مقدارها أربع عشرة سنة بين الاثنين، فهل انتظرت البشارة هذه المدة لكى تتحقق بإسحق دون إسماعيل؟ إن المعقول أن البشارة تحققت بعد الهجرة وكانت بإسماعيل، وهو الغلام الحليم، ولم يوصف بذلك إلا لأنه صبر على محاولة ذبح أبيه له كما فى الرؤيا.

●●●

٧٧٢- ﴿دليل آخر أن الذبيح هو إسماعيل﴾

فى القرآن عن الغلام الحليم الذى بُشرّ به إبراهيم: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)** ﴾(الصافات)، وصفة «الصبر» لم يوصف بها إسحق، وإنما وُصف بها إسماعيل، قال تعالى: ﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)**﴾(الأنبياء)، والصبر المشار إليه هو صبره على الذبح. ولم يوصف إسحق إلا بالهُدَى والصلاح والنبوة، قال تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا**﴾(الأنعام ٨٤)، وقال: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)**﴾(الأنبياء)، وقال: ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)**﴾(الصافات). وكما أن صفة **الصبر** ارتبطت بإسماعيل بالذبح، فكذلك صفة صدق **الوعد** ارتبطت الذبح، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾(مريم ٥٤)، لأنه وعد أباه الصبر على الذبح فوفّى به.



٧٧٣- ﴿مكة دليل على أن الذبيح إسماعيل﴾

إن الذى بنى **البيت** مع إبراهيم هو إسماعيل، وكان ذلك بمكة، والمنحر بمكة، وإسماعيل كان بمكة، فكيف يكون الذبيح هو **إسحق** الذى يسكن الشام؟ وكيف صار الحج والتضحية والذبح والطواف والسعي ورمى الجمار فى مكة إذن ولم يكن فى الشام؟ فمن يقل إن الذبيح لم يكن إسماعيل لابد أنه إمّا مُغرض، وإمّا فاقد العقل والتمييز، ومن الغريب أن مكان ذبح إسماعيل مؤكد عند المسلمين، ومكان ذبح إسحق **غير مؤكد عند اليهود!** تقول التوراة: «**وامضِ إلى أرض مورية وأصعده، هناك محرقة على أحد الجبال الذى أريك**» (التكوين ٢٢/ ٢)، **فأيهما نصدق: مكان الذبح المحدّد فى مكة، أم مكان الذبح المُجهَّل؟** وهل يمكن أن تمر حادثة كهذه مرّ الكرام فى حياة أُمّة كما هى عند اليهود، إلا لو كانت الحادثة مزعومة ولم تقع أصلاً، وليست سوى فرية؟!



٧٧٤- ﴿وباركنا عليه﴾ دليل أن الذبيح إسماعيل

بعد أن ذكرت الآيات قصة الذبيح جاء فيها: ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)**﴾(الصافات)، أى أبقينا على إسماعيل الذبيح الثناء الحسن إلى يوم الدين، والذى قال أن «عليه» تعود على إبراهيم أخطأ، لأن إبراهيم كان بصدد ذبح ابنه بناءً على حلم رآه، فأى ثناء يستحقه؟ وإنما الذى يستحق الثناء هو هذا الصبى ابن **الثالثة أو الرابعة**

عشرة، الذى كان من الصابرين، وأسلم رقبته لابيه، وسمح له أن يكبّه على وجهه، فهذا الذى يستحق التنويه به، ومن ثم «وعليه» فى الآية تعود على إسماعيل، وأما إبراهيم فقال فيه: «سلامٌ على إبراهيم» أى سلام من الله عليه، وهو دعاء له، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾(الصافات)، وفى الآية لا يمكن أن تعنى «عليه» إبراهيم، ولو كان صحيحاً لما قال «ومن ذريتهما»، لأن الذرية المقصودة لإسحق ولاسماعيل وليست لإسحق ولإبراهيم! فإسماعيل قرين وند لإسحق وليس إبراهيم! فعلمنا أن آيات الذبيح قبلها المقصود بها إسماعيل وليس إسحق.

●●●

٧٧٥- ﴿الأحاديث فى الكتب عن الذبيح إسحق﴾

قيل: من الذين ذهبوا إلى أن الذبيح هو إسحق: العباس، وابنه عبد الله، وعبد الله بن عمر، وابن مسعود، وجابر، وعلىّ بن أبى طالب، وكل ذلك مزاعم لا تثبت للمناقشة وليست لها مراجع ثابتة، ويكفى أن من هؤلاء كعب الأحبار مروّج الإسرائيليات، ولا يوجد دليل واحد من القرآن على ما يقولون. والغريب فى أمر هؤلاء أنهم زعموا أن إبراهيم قَدِم بابنه إسحق من الشام فى شهر ، ليذبح ابنه فى منى، وبعد ذلك عاد فى شهر! وفى دراساتنا للكذب تعلمنا أن الواقعة الصحيحة تكون بسيطة جداً، والواقعة الملفقة يكثر فيها التلفيق، وتحتاج الكذبة إلى كذبة أخرى تدعمها وهكذا. مثلاً أن يقال إن المسيح ابن الله احتاج الأمر أن يقال بالتثليث، والآب والابن وروح القدس، ولكلٌ تعريفٌ يحتاج إلى كُتب، وذلك أكبر دليل على أن هذا القول فرية وأى فرية! وكذلك الزعم أن إسحق هو الذبيح يحتاج إلى الكثير من الكذب لدعمه.

●●●

﴿قصة إسحق﴾

٧٧٦- ﴿إسحق آية من آياته تعالى﴾

وَلَدت سارة من زوجها إبراهيم: إسحق، وكانت وزوجها طاعنين فى السن، فلما جاءتهما رسُل الله بالبشرى، ضحكت سارة، كقوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ (هود)، والضحك انكشاف الأسنان، وإشراق الوجه، وفى الحديث: «إن الله سبحانه يبعث السحاب فيضحك أحسن الضحك»، فجعل انجلاءه عن البرق ضحكًا، وهذا كلام مستعار، فكذلك ضحكت سارة، أى كانت مرحبة بضيوف زوجها

وقائمة على خدمتـهم، فلما بشّروها تعجبت واستكثرت ذلك على نفـسها وعلى زوجها: **﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)﴾** (هـود)، وقولـها «**أألد**» استفهام يفيد التعجب، وقولها «**إنها عجوز وزوجها شيخ**» يعني أنها لم تعد تحيض، وأنه ترك غشيانه لها، وذلك يجعل من ولادة إسـحق آية ومعجزة؛ وأجاب الرسُل عليها: **﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾** (هود)، وأهل البيت هم الزوجة وأولادها، والبركة لها ولهم لأن البركة هي النمو والزيادة، وأغلب الأنبياء والمرسلين كانوا من ولد إبراهيم وسارة، وهذا من تمام البركة والنعمة، كقوله تعالى ليوسف: **﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾** (يوسف)، وإتمام النعمة بالنبوة، وقد أتمها الله تعالى على إبراهيم بالخـلة، وعلى إسـحق بالنبـوة، وقيل: أتمّهـا على إبراهيم بأن رُزق من الولد إسمـاعيل وإسحق، كقوله: **﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾** (إبراهيم ٣٩)، وقيل وُلد إسماعيل وكان إبراهيم ابن ست وثمانين سنة (تكوين ١٦/٣-١٦)، بينما ولد إسحق لمّا كـان أبوه قد بلغ المائـة من العمر (تكـوين ٢١/ ١٤ و١٣) وكانت أمـه قد بلغت تسعين عامًا تقريبًا (تكوين ١٧/١٧ و٢١/ ٥). والبشارة بإسحق في قوله تعالى: **﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾** (الصافات) وفيه الدليل على أن الذبيح هو إسماعيل، لأن هذه البشارة تعقب آيات الذبح مباشرة، فلما ثبتت طاعة إبراهيم كافأه الله تعالى وبشّره بإسحق نبيًا صالحًا، وقوله: «وباركنا عليه» تعود على إسماعيل الذبيح، وقوله تعالى: **﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)﴾** (الأنبـياء)، دليل آخر على أن الذبيح إسـماعيل، لأن النـافلـة الزيادة، فلما رُزق إبراهيم بإسماعيل وحمد وشكر،وهبه إسحق زيـادةً، ثم وهـب إسحق يعقوب، وكلاهما وهبهما له دون دعاء، وزيادة على ما سأل في قوله: **﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾** (الصافات ١٠٠) فكان الجواب: **﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾** (الصافات ١١٢)، وصلاحهما أن جعلهما أئمة كقوله: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾** (الأنبياء)، والأئمة هم الذين يُقتدى بهم، والهداية هي الدعوة لله، فذلك معنى قوله تعالى: **﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾** (آل عمران ٨٤)، والذي أُنزل إليهم هو التوحيد، والتوحيد ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب وكل الأنبياء، لقوله تعالى: **﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾** (يوسـف ٣٨)، قيل: خُصّوا بالتـوحيد لله ـ إبراهيم

وإسحق ويعقوب، كقوله تعالى: **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾** (العنكبوت ٢٧)، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل والفرقان، وقيل: النبيّ محمد ﷺ من ذرية **إبراهيم**، وقيل: لم يبعث الله نبيًا بعد **إبراهيم إلا من صلبه**، وقيل: **إن أكثر الأنبياء** من ولده وهذا هو الصحيح.

وقيل في معنى «**إسحق**» بالعبرية أنه **الضاحك**، قيل: سمى كذلك لأنه وُلد مبتسمًا كأنه يضحك، وقيل لأن أمه وأباه ضحكا عندما بشّرهما الرسُل به (تكوين ١٧/١٧-١٩ و١٨/٩-١٥)، وقالت سارة لما وُلد إسحق: **إن الربّ صنع لي ضحكًا، وأن جيرانها سيضحكون معها** (تكوين ٢١/٦)، وقيل: إن الضحك لازمَ هذا الصبي من وقت البشارة إلي ما بعد ولادته، ولذا دعاه إبراهيم: «إسحاق» أى **الضاحك** أو **البسّام**. وقيل: خُتن إسحق في اليوم الثامن لولادته، وفي نفس اليوم «**طرد**» إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل بناءً على إثارة سارة الشريرة، وغيْرتها الفظيعة، وطباعها الحادة، ويبدو أن العقم كان وراثة فى هذه السيدة ونسلها، فلما تزوج إسحق لم ينجب إلا بعد **عشرين سنة**، وأعطاه الله توأمين: **عيسو ويعقوب**، وكانا يكرهان بعضهما البعض، ويبدو أن قلة الإنجاب فى كل آل إبراهيم لأنهم **كانوا يتزوجون من أقاربهم من الدرجة الأولى**، فسارة كانت أختاً لإبراهيم غير شقيقة، وإسحق تزوج قريبته «**رفقة**»، ويعقوب تزوج بنتيّ خاله «**ليئة وراحيل**»، بينما تزوّج **إسماعيل** من «**الأباعد**» فكثر نسله جدًا! والغريب أن استقطاب الأبناء كان خلّة فى آل إبراهيم، **فإسحق** أحبّ ابنه **عيسو** لشخصيته ورجولته، وأحبت **رفقة** ابنها **يعقوب** لضعفه وأنوثته (تكوين ٢٥/٢٨).، وأحب يعقوب ابنه يوسف لحداثته وذكائه. ويبدو أن حبّ إسحق لعيسو كان تعويضًا عن عُقدته نحو أبيه، فقد اتصف إسحق بالخضوع لأبيه (تكوين ٢٢/٦-٩) وبالمحبة لأمه وزوجته (تكوين ٢٤/٦٧)، وأما عيسو فكان متمرداً عصياً، فأحب إسحق فيه ذلك لأنه نقيضه. ومن غرابة تقليد إسحق لأبيه أنه لم يقل الحقّ مثله من جهة زوجته خوفًا على حياته (تكوين ٢٦/٧) فقال إنها أخته!! وفي كتُب النصارى يتخذ **بولس** من إسحق رمزًا للمتحررين من عبودية الناموس، والذين نالوا الموعد، فوصفهم بأنهم وُلدوا حسب الروح، واعتبر إسحق وُلد حرًا لأنه ابن حرّة، واعتبر ولادته لذلك ولادة بالروح ومن الروح، بينما اعتبر **إسماعيل** ابن الأمة وُلد من الجسد، فالذين تبعوا المسيح تحرروا لذلك وصاروا مثل أولاد إسحق - أولاد روح!



٧٧٧- «قصة هاجر وإسماعيل في التوراة»

اسم «هاجر» غير موجود في القرآن، والمسلمون على تسمية هاجر باسم «أم إسماعيل»، والكلام في هاجر وقصتها في المراجع العربية من الإسرائيليات، وفي التوراة أن هاجر جارية مصرية، فلما اشتد القحط بفلسطين، وكان الجوع بين أهلها، ارتحل إبراهيم وأهله إلى مصر، ورأى فرعون أن امرأته سارة جميلة، فادّعى إبراهيم أنها ليست امرأته ولكنها أخته، فضمّها الفرعون إلى بيته وأكرم إبراهيم بسببها، وأقطعه الأرض يزرعها، والغنم والبقر والحمير يربيها حتى أثرى جداً، ووهبه بعض عبيده وإمائه، ووهب سارة جاريتها هاجر. ثم إن الفرعون اكتشف أن إبراهيم لم يقل له الحقيقة بشأن سارة فطرده من مصر (التكوين ١٢/ ١٠ ـ ٢٠). ولم تكن سارة تلد لإبراهيم، وصارت عجوزاً، وكانت هاجر صبية ومضت عشر سنوات وهي تخدمها، فوهبتها لإبراهيم لعلها تلد له الولد ولتكون له زوجة. والتوراة تقول «لتكون له زوجة» ولم تقل «لتكون له سرية» (التكوين / ٣ ١٦)، ودخل إبراهيم على هاجر فحملت، فصارت تمتنع على بعض الأعمال بالنظر إلى حملها، ولم تطقها سارة وغارت منها وحسدتها، وأذلّتها وأوغرت صدر إبراهيم ضدها، حتى أن هاجر هربت من ظُلمها، فسمعت في يقظتها من يكلمها: أن ارجعي، وستلدين ابنًا تسمينه إسماعيل، وليكثرن نسله تكثيراً حتى لا يحصى لكثرته. وفي المكان الذى جاءها منه الصوت تفجّرت بئراً شربت منها هاجر عندما ولدت ابنها، فسمي البئر «بئر الحيّ الرائي»، والحي الرائي هو الله الذى يبصر، أبصر حالة هاجر، وكلم الربّ إبراهيم فقال: إنه يبارك إسماعيل وينمّيه ويلد اثنى عشر رئيساً ويجعله أمة عظيمة. ولما كان إسماعيل ابن ثلاث عشرة، ختنه إبراهيم وختن نفسه أيضاً وعمره وقتها تسع وتسعون سنة. ثم إن سارة حملت وولدت إسحق، وفي الطب النفسي: أن العاقر قد تحمل إذا استبدت بها الغيرة من ضُرّتها. وبميلاد إسحق استحال الجمع بين سارة وهاجر، إذ كثرت مظالم سارة لها، وزادت قسوتها على ابنها إسماعيل. وفي التوراة شيء عجيب، فإن إبراهيم بكّر في الغداة فأخذ خبزاً وقربة ماء، فدفعهما إلى هاجر وجعلهما على منكبها، وأعطاها الصبى وصرَفها!!! ومضت هاجر وابنها وتاهت في برية بئر سبع، ونفد الماء من القربة، فوضعت ابنها تحت شجرة، وجلست غير بعيد منه، وبكت وارتفع نشيجها، وبكى ابنها لبكائها، وسمع ملاك الربّ صوت الغلام يبكي فطمأن هاجر، وأمرها أن تأخذ بيد ابنها لأن الله جاعله أمة كبيرة، وكشف عن بصرها، فرأت بئر ماء، فمضت وملأت القربة، وسقت الغلام، وأقاما ببرية فاران، واتخذت له زوجة من مصر ـ يعني من أرض جاشان أو جاسان من مصر (محافظة

الشرقية الآن). وتقول التوراة بعد ذلك: إن إسماعيل رعا أباه إبراهيم فى شيخوخته، فلمّا مات دفنه ولداه إسماعيل وإسحق فى مغارة المكفيلة. وكان أولاد إسماعيل اثنى عشر ولداً، وعاش مائة سنة وسبعاً وثلاثين، وكانت مساكنهم من حويلة إلى شور التى تجاه مصر (التكوين ٢٥/٩ ـ ١٨).

فهذه قصة هاجر وإسماعيل كما روتها التوراة، وفيها أن بئر زمزم فى برية بئر سبع من فلسطين، غير أن فاران فى القصة ـ قيل هى مكة وما حولها، وفى فاران فعلاً كانت مساكن أولاد إسماعيل وليس فى بئر سبع، واشتغل أولاد إسماعيل بالتجارة وكثروا جداً، ومنهم من استوطن مصر فى أرض جاشان، وفى سيناء، وفى فلسطين حتى سوريا والعراق، وهؤلاء هم «الإسماعيليون»، وهم الذين عثروا من بعد على يوسف فى البئر، واشتروه بدراهم معدودات، وباعوه لعزيز مصر صاحب جاشان.

•••

٧٧٨. «اسم هاجر يعنى المهجورة»

اسم «هاجر» عبرانى، من الهجرة، فهاجر يعنى المهاجرة أو أنها المهجورة، سمّوها كذلك ولم يعطوها اسماً كخلق الله، لأنها عندهم من الأعراب، أو لأن إبراهيم هجرها بعد أن أولدها إسماعيل، وأما عند المسلمين فهى «أمّ إسماعيل»، ويبدو أن الهجر أو الهجرة كُتبت على هاجر، فقد تركت بلادها فى مصر فى أرض جاشان، وتركها أهلها، والتحقت فى خدمة سارة، إلى أن تزوّجها إبراهيم، وأولدها إسماعيل، فغارت منها سارة، وعملت على طردها، فهجرها زوجها، فكانت هجرتها للمرة الثانية ولكن إلى مكة، فكأنها عاشت عمرها كله مهاجرة ومهجورة. ومؤلفو التوراة أطلقوا عليها هذا الاسم تقليلاً من شأنها، وما ينبغى للمسلمين أن يجاروهم عليه، بل يسمونها «أم إسماعيل»، وكذلك ينبغى الكفّ عن ترديد أنها جارية، ففى التوراة أن إبراهيم تزوّجها (التكوين ١٦/٣)، فلماذا يرددون دائماً أنها أَمَةٌ؟ وأن إسماعيل هو ابن الأمة؟ حتى بولس فى النصرانية، ميّز بين الأمة والحُرّة، وقال: «فإنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان، أحدهما من الأمة، والآخر من الحرّة، غير أن الذى من الأمة ولد بقوة الجسد، وأما الذى من الحرة فبقوة الموعد، وإنما هو رمز للوصية، إحداهما من طور سيناء تلد للعبودية، فهى هاجر، فإن سيناء هو جبل فى ديار العرب، ويناسب أورشليم الحالية الحاصلة فى العبودية مع بنيها، وأما أورشليم العليا فهى حرة، وهى أُمّنا» (غلاطية ٤/٢٢ ـ ٢٦)، ثم يستطرد بولس فيقول ما يندى له الجبين ويخجل منه أى متعلم: «لأنه كُتب: افرحى أيتها العاقر التى لم تلد. اهتفى واصرخى أيتها التى لم

تتمخّض، لأن أبناء **المهجورة أكثر من أبناء ذات البعل**» (غلاطية ٤/٢٧)، ثم يقول: «فنحن أيها الإخوة **أبناء الموعد** (يعنى النصارى) مثل إسحق، غير أنه كما كان حينئذ المولود بحسب الجسد يضطهد المولود بحسب الروح، فكذلك الآن»، ثم يقول: «ماذا يقول الكتاب: **اطرد الأمة وابنها، فإن ابن الأمة لا يرث مع ابن الحرة**. إذن أيها الأخوة لسنا بنى الأمة بل بنى الحرة، وهذه هى الحرية التى حررنا بها المسيح» (غلاطية ٤/٢٨ ـ ٣١). فهل يفهم المسلمون الآن لماذا تضطهدنا أمريكا والدول الغربية والعالم المسيحى واليهود؟ فذلك لأننا **أبناء الأمة** وهم **أبناء الحرة**، ولا نصيب لنا فى الميراث، **أى فى الأرض وفى الحياة، وفيما يصنع الحياة ويؤدى إلى الحياة: العلم، والتعلُّم، والثقافة، والحضارة، والأمر معنا الطرد!** فهل هناك سبيل آخر إزاء مثل هذه الكتابات إلا **الجهاد**؟ وبدون الجهاد فمصيرنا جميعاً الطرد، وإنى لأعجب من هذه الدعوة لتنظيم النسل، وهى دعوة لتقليل النسل أو منعه بالنسبة للمسلمين، لتسهيل عملية طردهم، مع استمرار الإبادة لهم هنا وهناك! ويقابل ذلك فى مصر مثلاً: أن النصارى يدعون فى الكنائس إلى تكثير نسلهم، ليرجح عددهم، وتنقلب الموازين،ويصبح المسلمون أقلية، والحكومة لا تدرى بذلك، وتشجّع على ضرب المسلمين، ومنع أى نشاط لهم، والكنيسة لها كل الأنشطة، والتبرعات تنهال عليها من الخارج بدون علم الحكومة، **والكنيسة دولة داخل الدولة**، لدرجة أن النصارى كلما أرادوا شيئاً ذهبوا للكنيسة لا للدولة، والكنيسة هى التى تعقد زواجهم، وتنظر فى مشاكلهم، وتطلّقهم، والدولة مسلوبة الإرادة فى هذا العهد المجيد!



٧٧٩- ﴿قصة أم إسماعيل فى مكة﴾

يورد القرآن قصة أهل إبراهيم فى مكة بشكل عادى تماماً، لا يوحى بوجود نزاع عائلى بسبب الضرائر بين أم إسماعيل وأم إسحق زوجتىّ إبراهيم، ويقال فى المثل: «**بينهم داء الضرائر**»، أى الحسد، وكما تقول قصة التوراة فإن سارة غارت من هاجر فخيّرت إبراهيم بينهما، ولا شىء من ذلك فى القرآن. وفى قصة التوراة أنها كانت قد ولدت إسحق وكبر إسحق وصارت بين الولدين منازعات. وفى البخارى عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق ـ يقصد **النطاق** الذى تشدّ به المرأة وسطها لترفع به ثوبها فلا تعثر فى ذيله، كان من قِبَل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفى ـ أى تزيل، أثرها على سارة ـ يقول ذلك بحسب رواية التوراة أن هاجر خرجت هاربة من وجه سارة الظالمة لا تريدها أن تعرف

طريقها، واضطر إبراهيم أن يأخذها وابنها بعيدًا عن سارة وحيثما كانت ترعى غنمه، وبلغ بهما أرض فاران - مكة وما حولها، وهناك عند البيت هيأ لهما سكنًا، عند دوحة - أى شجرة، فوق مكان زمزم المفترض، وليس بمكة يومئذ بيت ولا علامة بيت، وليس بها أحد، ولا ماء، فوضعهما هناك، وابنه ما يزال رضيعًا، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم عاد إبراهيم أدراجه منطلقاً إلى حيث بيته الآخر: بيت سارة، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ قالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يضيعنا! ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات رافعاً يديه، فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾(إبراهيم). وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد فى السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه واستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً، وفعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبىّ ﷺ: «**فذلك سعى الناس بينهما**». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فإذا بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه حتى ظهرالماء، فجعلت تحوضه بيديها وتغرف منه فى سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف. والماء مَقَام الغذاء، وزمزم هو الماء بين المالح والعذب، فإذا تواجد الماء تأسّس الحال وتمهّد المُقام، وخُطّ الموضع للبيت المُكرّم، وللبلد المُحرّم. وماء زمزم اجتزأ به أبو ذرّ ثلاثين يوماً وليلة ما كان له طعام سواه، قال: «**فَسَمِنتُ حتى تكسرت عُكَني**» أى صارت له ثنيات فى بطنه. وفى الحديث: «**ماء زمزم لما شُرب له. إن شربته تستشفى به، شفاك الله. وإن شربته لشبعك، أشبعك الله به. وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله**». وقول إبراهيم «**ومن ذريتى**»، «**من**» للتبعيض، أى أسكنتُ بعض ذريتى، يعنى إسماعيل وأمه، لأن إسحاق كان بالشام. «**وعند بيتك المحرّم**» يدل على أن البيت كان أقدم من إبراهيم، فلم يكن إبراهيم بانيه ولكنه جدّده، ولو كان هو الذى بناه لنسبه إلى نفسه، ولكنه نسبه إلى الله، فنعلم أن البيت لله ولم يكن لإبراهيم، وأنه «محرّم»، يعنى له حُرمة وقدسية تختص به وليس كغيره من بيوت الله. «**وليقيموا الصلاة**»، خصّها

لفضلها ولأنهـا أساس الإسلام، والصلاة بمكة أفـضل من الصلاة بغـيرها، وفى الحـديث: «صلاة في مسجدى هذا (مسجد المدينة) أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام. وصـلاة فى المسجد الحـرام أفضل من صـلاة فى مسجـدى هذا بمائة صلاة». وقـــوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، يعنى يهوون السكنى بمكة، وقال: «من الناس» ولـم يقل «الناس»، ولو قال «الناس» لازدحم على البيت كل الناس من كافة الأرجاء، ولكنه قال: «من الـناس» أى بعضهم -وهم الحجيج والمعتمرون والزوّار، وقال: «وارزقـهم من الثمرات»، فاستجاب الله له، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وجُلبت إليهم الثمار من كافة الأمصار، وكانت قبائل جـرهم أول من سكن مكة لّما اكتشفوا زمـزم، واستقلبتهم أم إسمـاعيل ونزلوا إلى جوارها بأهلهم،وشبّ إسمـاعيل وسط هؤلاء إلى أن شارك أباه بناء الكعبة والبيت، ثم إن أم إســماعيل توفيت فدفنها ابنها بالحِـجْر فى البيت، ولّما مات دُفن معها.



«قصـة النبى لـوط»

٧٨٠- «لوط فى التوراة والقرآن»

يشتمل سفر التكوين من أسفار موسى الخمسة على قصة لوط، ويتناول دراسة القصة فى التوراة والقـرآن المستشـرقون: كينيسـتلينجر، وجايجر،وجرينباوم، وهوروفتس، وووكر، والإجماع بينهم على: أن القرآن أخذ القـصة عن التوراة، ولكنهم جميعاً لا يهتمون بالفارق بين القصتين، وشخصية لوط فيهما، بقدر اهتمامهم بتأويلات المفسرين المسلمين من أمثال ابن الأثيـر، وهى تأويلات كلها بتأثير الإسرائيـليات وتكثر بها أسماء للمدن والأماكن ما أنزل الله بها من سلطان، وأصلها الميثولوچيا الدينية اليهودية، وليست من القرآن فى شىء.

وملخص قصـة لوط فى التوراة: أن لوطاً كان ابن أخى إبـراهيم، وعلى ملّتـه، وكان يسكن سدوم القريبة من بلوط ممرا حيث خيام إبراهيم ومَلَوْه، وأن ثلاثة ملائكة (التكوين ١٨/ ٢) مرّوا على إبراهيم ينبئونه بسوء مآل سدوم، بعد أن كثرت خطيئة أهلها وعظمت، ويحاول إبراهيم أن يثنيــهم عن خراب المدينة فيـرفضــون، ويولون فى طريقهم، غـيـر أن من يصل سدوم من الثلاثة يكون ملكين اثنين فقط (التكوين ١٩/ ١)، ويعلم أهل البلد بخبر هذين الغريبين، فلما كانوا يأتـون الرجال فقد ازدحموا على بيت لوط يطالبون بالغريبين ليفعلوا بهما الفاحشـة، ويعرض لوط عليهم الزواج من ابنتيه فيرفضــون، ويعيّرونه بأنه غريب فى ديارهم ويتحكم فيهم، ويحاولون كسر البــاب،إلى أن طلع الفجر فأخذ لوط امرأته وابنتيه

وترك أصهاره وبناته المتـزوجات وبنيه الذين شاركوا الأهالي في عصيـانهم، وكانت امرأته سدومية، فعصت أمر الملكين والتفتت وراءها فصارت نُصُب ملح،وحاول لوط أن يتملص من أوامر الملكين ولا يذهب إلى الجـبل فأنزلاه صوعـر، وهي مدينة قـريبة،وقلب المَلَكان سدوم وعمورة وأمطراهما الكبريت والنار. وصعد لوط من صوعر إلى الجبل هو وابنتاه، فقالـتا إنه قد قُدر عليـهما أن لا يعرفـا الرجال، وأن لا يكون لهما نسل، فـأسكرا أباهما وضاجعاه دون علمه،وأنجبا منه مواب ونَعْمِيّ، فهما أصل المواببين والعَمُّونيين. فهذه قصة لوط في التوراة (التكوين ١٨ ـ ١٩). وفي اللغة العبرية فإن اسم «لوط» يعني: «السكّير العربيد». والقرآن على عكس ذلك، قال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ (الصافات)، أي أنه نبيٌّ مـرسل، وقال: ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبـياء ٧٤)،أي أنه كان من أهـل الحكمة النظرية والعلم بالحقـائق، وقال: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾(الأنبـياء)، فضمّه الله تعـالى إلى القائمة المباركة من الأنبياء، وقال فـيهم وفيه: ﴿وَكُـلاًّ فَـضَّلْنَا عَلَى الْعَـالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾(الأنعـام)، وكل ذلك في القرآن بينما جعلتـه التوراة في الصورة المقابلة – غريباً على أهل سدوم فكرهوه، وفي المقابل جعله القرآن ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴿١٦١﴾﴾ (الشعراء)، وقال فيهم: ﴿وَقَـوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾(الحج)،فنسبهم إلـيه وقال إنه لهم: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ (الشعراء). ولما دعا إبراهيم قومه إلى الإيمان رفضه قومه، ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ (العنكبوت٢٦). وكانت قضية لوط مع قومه أنه وآله: ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾(الأعراف)، فلم يكونوا يأتون الذكران، ولـم يكن رجالهم يلتاطون الرجال، ولا نساؤهـم يلتطن النساء، لأنه إذا تعذّر على النساء أن يكون لهن رجال انحـرفن فأتين الفاحشة مع النســاء، فقال لهم لوط: ﴿ إِنَّـكُـمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (الأعراف). واللواط الذى هو تهمتهم قال فيه لوط مؤرخاً لهذا المرض النفسي: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـالَمِـينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأعـــراف). ونلاحظ أن القـرآن رغم أن لوطاً اسم أعـجمي، فـإنه صرفه،ولذلك حاول المسلمون التعريف بالاسم وكأنه اسم عربي، فقالوا إنه من «لاط»، أي ملس ولصق، وهذا غلط لأن اسم لوط أعجمي فـعلاً، مثل اسم إسـحق، قالوا عن هذا الأخيـر إنه من السُّـحق بمعنى البُعد، ومع ذلك لم يصرفـوه مثل صرفهم لاسم لوط، والصحيح أن اسم لوط صُرِف في القرآن لخفته، لأنه على ثلاثة أحرف، شأنه شأن اسم نوح.

ومدينة لوط أو قريته لم ترد في القرآن، وأوردتها التوراة، فكان أن علماء العربية قالوا في مرض قـوم لوط النفسي أنه «اللـواط»، نسبـةً إلى قـوم لوط، والمفرد من هؤلاء اسـمه

لوطى، وأما علماء الغرب فنسبوه إلى مدينة من مدن قوم لوط، هى سدوم **Sodom**، وكانت على بحر لوط، أى البحر الميت، والاسم كنعانى وليس عبرياً، وقالوا فى اسم هذا المرض أنه **sodomy**، واللوطى هو **sodomite**، وأما الاسم العلمى لهذا المرض فهو **homosexuality**، أى الجنسية المثلية، يعنى الذكر يجامع الذكر مثله، وأسمّيه «جماع الذكران»، ونظيره الجنسية المثلية الأنثوية **female homosexuality**، تكون بين الإناث بعضهن البعض، فتضاجع الأنثى الأنثى، فذلك هو الجماع الأنثوى **female coitus**، ويسمى أحياناً باسم السحاق، من مساحقة الأنثى بعضوها التناسلى للأنثى الأخرى، وهو فى التسمية الغربية **lesbianism**، نسبةً للبلدة أو الجزيرة من اليونان وكان اسمها لسبوس، أو **Saphism** نسبةً إلى سافو، وهو اسم المرأة التى اشتهرت به، وكانت تفعله مع النساء من حاشيتها. وحُكم هذا المرض فى الشرع قوله تعالى فى لواط الذكور: **﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾** (النساء ١٦)، وقوله فى لواط الإناث: **﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ⑮﴾** (النساء)، ونلاحظ فى هذه الآية الأخيرة أن الكلام عن النساء اللاتى بهن هذا المرض فى صيغة الجمع، لأنه فى النساء يمارسنه عادةً جماعات، ونادراً ما يكون اثنينياً، وهذه ملحوظة علمية لم يعرفها قديماً حتى علماء الطب النفسى. وقد أخطأ الفقهاء الذين أفتوا بأن اللواط زنا، ويسرى عليه ما يسرى على الزُناة من العقاب، وبالغ هؤلاء فنسبوا إلى رسول الله ﷺ الحديث: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول**»، يريدون أن عقابه هو عقاب قوم لوط - القتل - والقتل ليس العقاب المنصوص عليه فى القرآن فى سورة النساء، الآيتين (١٥، ١٦)، ورووا عن أبى بكر أنه أحرق لوطياً يُدعَى الفجاءة، وأن علياً أمر بذلك أيضاً، يعنى أنهما طبّقا نصّ عقاب قوم لوط وهو التحريق، غير أن العقلاء قالوا: عقوبة الزنا معلومة، فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألاّ تشاركها معصية أخرى فى الحدّ، وفى الحديث: «**من وضع حداً فى غير حدّ فقد تعدّى وظلم**». ولم يعاقب الله قوم لوط العقاب الجماعى إلا لأن إتيانهم اللواط كان جماعياً، ووصف القرآن ذلك فقال إنهم أسرفوا فى هذا الشذوذ، فغيّروا فى فطرة الله، ومثل عملهم هذا من شأنه ألاّ يكون هناك إنجاب فتخرب الأرض بعد عمران، فاستحقوا لذلك ما نزل بهم من عقاب قال: **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ⑭﴾**(الأعراف)، وقال: **﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ⑫ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾**(هود). ولنلاحظ فى قصة لوط تحريفات

التوراة، فقد جعل الملائكة أول مرة ثلاثة، ثم جعلهم اثنين، بينما القرآن تحدّث عنهم فى كل السور التى أوردّ بها قصة لوط بصيغة الجمع قال: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١)** ﴾(الحجر)، والجمع يكون للثلاثة فما فوق. وكان القرآن في قمة البلاغة ولم يسرد القصة سرداً كالتوراة، فقال فى الأمر الصادر إلى لوط: ﴿ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)** ﴾(الحجر)، وقال: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)** ﴾(الحجر). **وشخصية لوط** تنبىء عن ملامح عظيمة بقوله للملائكة: ﴿ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢)** ﴾(الحجر ٦٢)، وبقوله لأهل سدوم يبعدهم عن الملائكة: ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩)** ﴾(الحجر)، فلما قالوا له: ﴿ **أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)** ﴾ (الحجر)، يعنى عن أن تضيف أحداً من الغرباء وتمنعنا عن أن نقصدهم بالفحشاء، قال: ﴿ **هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)** ﴾(الحجر)، ويخطىء المفسرون الذين قالوا إنه يقصد بناته على الحقيقة، ولَعَمْرى ماذا يقصد بذلك لوط إذا كان قولهم صحيحاً؟ ولا يمكن أن يعنى السياق «**هؤلاء بناتى فتزوجوهن**» كما يقول المفسرون، فالموقف لا يقتضى مثل ذلك، وإنما المقصود من «**بناتى**»: **كلّ بنات أهل المدينة**، ينهاهم بهذا القول عن إتيان الذكران ويطلب إليهم «**أن يتزوجوا النساء كخلق الله الأسوياء**»، وينبّههم إلى مزالق عزوفهم عن الزواج، فذلك ما جعلهم ينحرفون، والدليل على أنه يقصد بقوله «بناتي» بنات المدينة، أن بناتى جمع، ولم يكن عند لوط بنات بالجمع فى سن الزواج بل هما ابنتان لا غير! والقرآن والتوراة مختلفان فى هذه الجزئية، فالتوراة كما سبق: تجعل له بنات وأزواج بنات وبنين، ويعرض لوط فى التوراة على قومه بناته فعلاً ليفعلوا بهن الفحشاء بدلاً من ضيفيه، وليس ذلك فى القرآن، والمعنى فى آياته مختلف تماماً. ولقد كان إتيان الذكران عند لوط فضيحة وعملاً مخزياً شائناً، مثله مثل الزنا. ومنذ البداية توجّس لوط الشرّ لما جاءه الملائكة، كقوله تعالى: ﴿ **سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)** ﴾ (هود)، لأنه توقع أن يضايقهم قومه ويحاولون غوايتهم. والزواج فى عُرف لوط أطهر من هذا الشذوذ، قال: ﴿ **هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾(هود)، وكان فى غاية «الهَمّ» الذى يحكى عنه «**أهل الفلسفة**» عندما قال: ﴿ **أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)** ﴾(هود)، وعانى أشد المعاناة من حَصَر **anxiety** (القلق والهَمّ) كالذى يعانيه المستضعفون ممن لا حول لهم ولا قوة إلا بالله: قال: ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)** ﴾(هود) وتلك لَعَمْرى أروع عبارة على جهة الاستكانة والتفجّع والتسليم لله، فاستوجبت تدخل السماء، وأن يأتيهم الدمار لمن يلتفت خلفه، فأطاعوا جميعاً إلا امرأته، قال الله تعالى فيها

يأتيهم الدمار لمن يلتفت خلفه، فأطاعوا جميعاً إلا امرأته، قال الله تعالى فيها وفى امرأة نوح: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾(التحريم)، والخيانة أنهما لم تطيعا زوجيهما، وكانتا مشركتين ومنافقتين، وأفشت امرأة لوط أمر الملائكة الأضياف إلى قومها فأسرعوا إلى بيت لوط. والدَّرْس المستفاد مما جرى لامرأة لوط: أن العذاب لا تدفعه الوسيلة ولا شفاعة زوجها وهو نبىّ، وإنما تدفعه الطاعة، وقال تعالى فى لوط: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾(الأنبياء) لأنه أطاع، وقال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾(الشعراء). ومن مفردات لوط التى تميز بها خطابه كلمات مثل: «تجهلون»، و«القالون»، و«مهاجر إلى ربّى»، فى قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النمل)، وقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾(الشعراء)، وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾(العنكبوت). ومن دعائه المأثور: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (العنبكوت)، وقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (الشعراء). وتختتم القصة القرآنية بخاتمة عيانية للوعظ والتفكّر والتدبُّر: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾(الصافات)، فقد كانت آثار مدينتى سدوم وعامورة ما تزال موجودة فى مكانيهما حتى زمن الرسول ﷺ.

ومما قاله المستشرقون ينتقدون قصة لوط فى القرآن واستطالتها فى زعمهم، مقارنةً بالقصة فى التوراة، أن محمداً أراد بها وبغيرها، أن يجعل العرب يتعظون ويخافون أن يحدث لهم مثلما حدث لتلك الأقوام، إذا هم استمروا يكذّبونه، والغريب أن مستشرقاً مثل كينيستلينجر رأى فى قصة لوط تأثيراً مسيحياً!! فأين ذلك؟ ولا شىء من المسيحية فى أى من الأناجيل أو غيرها يشبه قصة لوط فى القرآن! وربما كان نقد المستشرقين اليهود لطول قصة القرآن، لأن القصة كما وردت به تكشف زيف التوراة وخسّة القيم التى حاولوا إلصاقها بلوط، والكذب فى تفاصيل حياته. ولكنها ترهات المستشرقين وحقدهم وحسدهم! وأين القصة بحذافيرها وتعبيراتها فى القرآن من سرد التوراة! وأين عظاتها ودروسها المستفادة وتعبيراتها التى ذهبت أمثالاً من عبارات التوراة المرسلة؟! كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ (هود ٧٧)، وهى عبارة ذهبت مثلاً، وقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾(هود)، وهى عبارة أخرى مشحونة بالمعانى والانفعالات والمشاعر والأفكار، توجزها جميعًا فى بضع كلمات، فكانت بمعايير أهل الآداب قمة من قمم البيان.

•••

٧٨١- ﴿قصة قوم لوط برواية الملائكة﴾

يأتي عن قصتهم بإيجاز شديد لا يخل بالقصة ولا ينتقص من شخوصها، أن سألهم إبراهيم: ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) ﴾، وأجابوه: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾(الذاريات)، وفى هذه العجالة أخبر الملائكة عن قوم لوط أنهم قوم مجرمون ومسرفون، فعلوا ما يجرّمون عليه وهو اللواط، وأسرفوا فى ذلك حتى لم يكن منهم من أحد إلا ويأتى هذا الجُرم، فكان أن قُضى بأن يُرجموا بالحجارة رجماً، وكانت حجارة من طين، لوّحتها الشمس وجففتها وصيّرتها صُلبة كالحجارة، وكل حجر منها له من يستحقه بأمر الله، وكأنها حجارة مُعلّمة منه تعالى، ومخصوصة بكل واحد منهم، وقوله حجارة من طين ليُعلَم أنها ليست بَرَدًا يتنزّل من السماء كأنه الحجارة،وكان على الملائكة قبل أن تبدأ عملية الرجم أن يستعرضوا المستحقين، فبحثوا فى البيوت عن المؤمنين، فلم يجدوا إلا بيتاً واحداً من المسلمين- يعنى لوطاً وبنتيه، فطمأنوه: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) ﴾ (العنكبوت)، ثم كان الرجم، حتى تمام هلاك أهل القرية ودمار بيوتها، ولم يتركها المرسلون إلا بعد أن جعلوها عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومَن جاء بعدهم، قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)﴾(الذاريات)، كقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾(العنكبوت).

●●●

٧٨٢- ﴿موجز قصة لوط﴾

الموجز: هو الكلام القليل البليغ، السريع الوصول إلى الفهم، وقصة لوط تلخصها هذه الآية وقد استوفت جُلّ أحداثها، يقول تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) ﴾(النمل).

●●●

٧٨٣- ﴿المؤتفكة والمؤتفكات: قرى قوم لوط﴾

يقال مؤتفكة، أو مؤتفكات: يعنى الأرض تُؤتفك بأصحابها، أى تنقلب ويصير عاليها سافلها؛ ويقال: أفكتُه أى قلبتُه وصرفته، والمؤتفكات: هى القرى المدمّرة الهالكة، قيل:

فهي مدائن قوم لوط، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤)﴾(النجم)، وقوله: ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾(التوبة ٧٠)، وقوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾(الحاقة)، فلما أدمن قوم لوط الفاحشة، غضب عليهم ربُّهم، فأرسل رسله إليهم بالعذاب؛ وقيل رفع جبريل قُراهم أو مدائنهم وأهوى بها إلى الأرض، أى خُسف بها، وغشتها الحجارة، كقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤)﴾(الحجر)، قيل هى خمس قرى، أسماؤها: صبعة، وصعرة، وعامورة أو عمرة، وسدوم؛ وسدوم هى أكبرها، ودمرت جميعها ﴿بِالْخَاطِئَةِ (٩)﴾(الحاقة)، أى بفعلة أهلها الخاطئة، وهى اللواط أو إتيان الذُكران. ورسُل المؤتفكات: قيل هم رسُل كثيرون بعثهم الله إلى كل قرية خاطئة، فلم يقل رسولاً بل قال رسُلاً؛ قيل: القرى التى أرسل إليها هى ثلاث قرى، ورسُلهم ثلاثة رسُل. وقيل: بل هو رسول واحد هو لوط وإنما عُبِّر عنه بصيغة الجمع.

•••

٧٨٤- ﴿قصة امرأة لوط﴾

لوط هو ابن حاران شقيق إبراهيم، ولـمّا رحل عمه من بلاد ما بين النهرين إلى كنعان رافقه لوط (تكوين ١١/٣١)، وسكن لوط أرض سَدُوم وعَمُورة، ولم يكن قد تزوج مثل عمه قبل الارتحال. وفى سدوم وعمورة تزوج من أهلها، وأنجب ابنتين صارتا شابتين على أهبة الزواج. ولم تكن امرأة لوط على وفاق مع زوجها، فقد كان من المتطهّرين، ولم تكن هي كذلك، وظلت على دين أهلها، وفيها وفي امرأة نوح قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾(التحريم). وليس معنى الخيانة أنهما كانتا تبغيان، وإنما كانت امرأة نوح تسخر منه ومن ديانته، وتُبلّغ قومها بالوحى كلما جاءه، وأما امرأة لوط فكانت تخبر قومها بأضيافه، فيهرعون إليه ليعملوا بهم السيئات، فلما أُبلغ بأمر الله أن يسرى بأهله بعد جنح الليل، أمرهم أن لا يلتفت منهم أحد، وخالفت امرأته الأمر، فأصابها ما أصاب قومها، واحترقت سدوم وعمورة، وجعل الله عاليها سافلها، وأمطر على قوم لوط حجارة من سجيل منضودة مسوّمة كقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود)، والسِّجيل هو الطين، كقوله

تعالى: ﴿ **لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣)** ﴾(الذاريات)، ونجيّ الله لوطاً وأهله، إلا امرأته فكانت من الغابرين، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ (العنكبوت)، أي من القوم المقضى عليهم، فأخذتهم الصيحة مشرقين - أي وقت الشروق، فكانت بداية الهلاك، ثم أمطرت السماء بالعذاب. وفى التوراة أن امرأة لوط لـمّا التفتت وراءها تحولت إلى نُصُب مِلح (التكوين ١٩/ ٢٦). **والدرس المستفاد:** أنه لا شفاعة عند الله فى أحد مهما علت درجة الشفيع، وزادت قرابة المشفّع فيه، وأن ليس لكل إنسان إلا ما سعى.



٧٨٦- ﴿قصة الأسباط الاثنى عشر﴾

قسّم الله تعالى بني إسرائيل أسباطاً، قال: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾ (الأعراف)،وتقسيمه لهم ليكون أمر كل سبط معروفاً من جهة رئيسهم، فيخفف الأمر على موسى، ونظيره قوله: ﴿ **وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا** ﴾(المائدة ١٢). **والسِبْط:** هو الفرقة، **والأمم** نعتٌ للأسباط، باعتبار أن كل سبط هو فرقة قائمة بذاتها كالأُمة. وكلمة أسباط اصطلاح خاص بأولاد **يعقوب** الذى هو إسرائيل، ومفرده فى العبرية **شبط**، وفى العربية **سِبْط**، والجمع **أسباط**،وأسباط إسرائيل يعنى أحفاد إبراهيم من ابنه يعقوب (إسرائيل)، حيث السِبْط هو ابن الابن، وكانوا **اثنى عشر** ابنًا، فأسقطوا **يوسف** وضمّوا إليهم ولديه: **أفرايم ومنسّى** ، وأسقطوا سبط **لاوى** لأنهم كهنة، فيكون عدد الأسباط **اثنى عشر** أيضاً (تكوين ٤٩)، فلما دخلوا **كنعان** قسّموها **اثنى عشر** قسماً، وكان الأسباط كالفرق لأنهم كانوا مستقلين عن بعضهم البعض، ويتعاهدون معًا (قضاة ١/ ٣، وأخبار ٤/ ٤٢، و٤٣، و٥/ ١٠ و ١٨ - ٢٢) وبقى الأسباط متحدين حتى مات **سليمان**، فحدثت بينهم مشاحنات، فتخاصم **يهوذا وأفرايم**، وانقسمت المملكة قسمين: **مملكة إسرائيل، ومملكة يهوذا**، وإلى هذه المملكة الأخيرة ينتسب اليهود،واكتسبوا اسم **اليهودية** منها. وكان **المسيح** يهودى التفكير وهو يجعل رسُله **اثنى عشر** رسولاً، وكذلك تأثّر **الشيعة** بالتفكير اليهودى، وجعلوا فرقهم **اثنتى عشرة فرقة**، أعلاهم **الشيعة الاثنا عشرية**. واسم أسباط إسرائيل بحسب الترتيب الأبجدى: **أشير، و«أفرايم»، وبنيامين، وجاد، ودان، ورأوبين، وزبولون، وشمعون، ومنسّى،ونفتالى، ويساكر، ويهوذا.** فأما «**أشير**»: فمعنى اسمه «**سعيد**»، وكان فى ميلاده سعيداً، وناجحاً فى حياته، غير أنه كان منهزماً فى الحروب،وانفصل عن الدولة، وأُخذ قومه فى السبى إلى أشور،ومن نسله النبيّة حنّة؛ «**وأفرايم**»: ويعنى الاسم

«**المبروك**»، وكان يشوع من سبط أفرايم، وكذلك **صموئيل ويربعام**، وهُزموا وأُسروا إلى أشور؛ و«**بنيامين**»: يعنى «**الأصغر**»، وكان أصغر الأسباط، واحتال بقية اليهود على سبط بنيامين، حتى كادوا يفنون؛ و«**جاد**»: ومعنى الاسم «**الجميل**»، وأولاده صادقوا داود، وكانوا بيت موسيقى؛ و«**دان**»: ومعناه «القاضى»، ومن هذا السبط كان شمشون، وكانوا يتّسمون بالدهاء والحيلة؛ و«**رأوبين**»: بمعنى «**الابن الأثير**»، وكان هذا السبط كثيرى العدد، ولكنهم هزموا وأسروا إلى أشور؛ و«**زبولون**»: ومعناه «**المطمئن**»، وكان هذا السبط ضد الأنبياء، وخالطوا الأغراب، ومن بلادهم مدينة بيت لحم؛ وأما «**شمعون**»: فمعنى الاسم «السمّاع»، وله حادثة ضد الشكيميين تدل على الخسّة والغدر، واستولى **يهوذا** على معظم إقليمه؛ و«**لاوى**»: ومعناه «**المصاحب**»، ولعنه أبوه، ومن سبطه الكهنة والقضاة والموسيقيون؛ ومن الكتب اليهودية سفر **اللاويين** أى الأحبار؛ و«**منسّى**»، ومعناه «**الذى لا يُنسَى**» وامتزج سبطه بالأهالى، وكانوا أول من أُسر ونُقل إلى أشور؛ و«**نفتالى**»: ويعنى «**القوى**»، وفى إقليمه ظهر المسيح؛ وأما «**يساكر**»: فيعنى «**الأجير**»، وكان هذا السبط من الفلاحين، وكانت تغزوه القبائل؛ و«**يهوذا**»: ومعنى الاسم «**حامد**»، وسبطه من أبرز الأسباط، وكانوا فى نزاع دائم مع سبط **أفرايم**، وكوّنوا دولة **يهوذا**، وإليهم ينتسب اليهود.

وفى القرآن أن **الأسباط** لم يكونوا هوداً ولا نصارى: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**﴾(البقرة ١٤٠)، فالأسباط ـ وهم **أولاد** يعقوب، ما كانت اليهودية ولا النصرانية فى عهدهم، وإنما كانتا بعد ذلك، وفى تقدير أهل العلم أنه بين دخول العبرانيين إلى مصر مع يعقوب، وخروجهم منها مع موسى: **أربعمائة** وثلاثون سنة، وخلال تلك المدة لم يكن الأسباط على الديانة الموسوية، فلم يكونوا يهوداً بعد وإنما عبرانيون فقط، وهو ما أكدته الآية القرآنية. وفى القرآن أيضاً: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**﴾ (البقرة ١٣٦)، فكأن الأسباط كان منهم أنبياء يتنزّل عليهم، وفى التوراة من هؤلاء الأنبياء: **يشوع بن سيراخ، وأشعيا، وإرميا، وباروك، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، ونحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجّاى، وزكريا، وملاخى، وأيوب، وعزرا، ونحميا، وطوبيا، ويهوديت، وراعوث، ويشوع، وداود، وسليمان، فهؤلاء الثمانية والعشرون** نبيًا هم الذين يؤمن المسلمون بما أنزل عليهم من الأسباط، يعنى أن كل أسفار العهد القديم يؤمنون بها إلا ما أصابه منها التحريف فيدعو إلى شر أو معصية أو عنف، أو يخلو من الدعوة إلى الله وتوحيده وتقواه، أو يمجّد الإسرائيليين على غيرهم من الأمم وينشر بينهم العنصرية والاستعلاء واعتزال الشعوب.

•••

٧٨٦- «الأسباط عربية أم عبرية؟»

يقول المستشرق هوروفتس: إن كلمة سِبْط في القرآن: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا** ﴾(الأعراف ١٦٠) مأخوذة من العبرية «شبط»، والصحيح أن الكلمة العربية هي الأقرب للمعنى المقصود من الكلمة العبرية، لأن الكلمة العربية تعني التتابع والتسلسل، بينما الكلمة العبرية تعني «العصا». وفي العربية السبط هو الشجر، ولذلك قيل عن الأحفاد أنهم أسباط بمعنى فروع العائلة، أو شجرة العائلة، غير أن ارتباط الأسباط في العبرية والعربية بيعقوب جعل المستشرقين يقولون إن الكلمة عبرية، طالما أن ارتباطها بيعقوب كان الأسبق في العبرية عنه في العربية. وفي كل اللغات ذات الأصول المشتركة كالسامية، فإن الكلمات المشتركة بينها تكثر وخاصة في مجالات كمجال العائلات وأصولها وفروعها، والتشابه في اللغتين العبرية والعربية ليس سرقة ولكنه توافق. وينتقد المستشرقون وخاصة هوروفتس وجايجر على القرآن أنه جعل الأسباط أنبياء، وقالوا إن محمداً أخطأ، فمن المعروف أن الأسباط انتهوا إلى التشاحن والتباغض، فكانوا سبباً في سقوط مملكة إسرائيل ودمار يهوذا، إلا أن القرآن في قوله: ﴿ **وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ** ﴾(البقرة ١٣٦) كان على الصواب، لأنه من الأسباط أحصت التوراة ٢٨ نبياً، كداود، وسليمان، ويشوع، ونحميا، وعزرا، وإرميا، وحزقيال... إلخ، فهؤلاء هم المقصودون بالقرآن، فما كان هناك نبي من أنبياء بني إسرائيل إلا وينحدر من الأسباط، حتى عيسى ابن مريم كان منهم، وفي ذلك قال ابن عباس: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحاً، وشعيباً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمداً ﷺ، ولم يكن أحد له اسمان إلا عيسى ويعقوب، وأما محمد ﷺ فكانت أسماؤه ستة.



«قصة النبي يعقوب»

٧٨٧- «أصل تسمية يعقوب بإسرائيل»

لا يأتي عن «إسرائيل» في القرآن إلا مرتين، في حين يأتي عن «بني إسرائيل» إحدى وأربعين مرة، وبنو إسرائيل هم أولاد إسرائيل وذريته ممن صار اسمهم من بعد ذلك اليهود. والساميون، سواء كانوا عرباً أو عبرانيين، يُنسبون إلى الجد الأكبر للجماعة، فيقال بنو إسماعيل، وبنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير. وإسرائيل هو الجد الأكبر للإسرائيليين، وكان اسمه يعقوب لأنه أتى بعقب أخيه عيسو، أو قابضاً على عقبه، فقد كانا توأمين، وَوُلد عيسو أولاً ثم يعقوب: وأم عيسو ويعقوب كانت رفقه بنت بتوئيل الأرامي، من فدّان أرام، وأخوها لابان الأرامي، وتزوج يعقوب ابنتي خاله لابان الأرامي: ليئة، وراحيل

(التكوين ٢٥/٢ ـ ٢٦، ٢٧/٢٦، ٢٩/٢٣ ـ ٢٨). وأما عن تغيير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل: فإنه كما تقول الرواية التقى برجل صارعه حتى الفجر، ولمّا رأى الرجل أنه لا يقدر عليه أمسكه منْ حَقّ وركه حتى خلعه، لكى يتركه قبل الفجر، ولكن يعقوب رفض إلا أن يباركه الرجل أولاً، وسأله الرجل عن اسمه، فقال يعقوب، فقال: «**لا يكون اسمك بعد اليوم يعقوب بل إسرائيل**»؛ وقيل في معنى إسرائيل كما ورد على لسان الرجل: «إذا رؤستَ عند الله فعلى الناس أيضاً تستظهر»، وقوله: «رؤستَ» لأن يعقوب كان المنتصر على الرجل، و«**تستظهر**» يعنى تصبح ظاهراً ورئيساً. غير أن **إسرائيل** فى العبرية من أسير وإيل، والأسير هو **العبد**، وإيل هو الله، فكأن الاسم الجديد هو «**عبدالله**» وليس كما يقولون: الذى أسرى بليل إلى الله، أو الذى صارع الله بليل، بدعوى أن الرجل الذى صارعه كان هو «الله»، والموضع الذى صارعه فيه أسماه يعقوب **فنوئيل**، وقال في معناه «**إنى رأيتُ الله وجهاً لوجه**»، والمستفاد أنه كان يصارع الله!! وأنه صرعه!! لولا أن الله، لكى يتركه، أعطب له وركه عند المكان الذى يقال له **عِرْق النَّسا**، فأصابه الوَجَع منه بقية حياته. وتسجل التوراة ـ مجرد تسجيل ـ هذا المرض عند إسرائيل، ولكن القرآن يروى حكاية أبعد من ذلك، وينفرد بها، ويربط بين الإصابة بعرق النساء **nervous ischiadicus** وبين عزوف إسرائيل أو يعقوب أن يأكل أى طعام فيه عروق **sinews**، حتى جاء التشريع اليهودى بتحريم أكل العروق ضمن ما حرّم من الطعام، ولم يذكر سبب هذا التحريم، حتى نزل القرآن وشرح ذلك فصار مرجعاً لليهود في هذا الأمر، وأخذوا عن المسلمين هذا التفسير لتحريم العرق من أنواع اللحوم، وفى الرواية عن ابن عباس: أن يعقوب كان رجلاً بطشاً قوياً، فلقيه **مَلَك**، فظن يعقوب أنه لص، فعاجله أن يصرعه، فغمز الملك **فَخِذ يعقوب**، ثم صعد إلى السماء، فهاج عليه عِرْق النَّسا، وعانى من ذلك البلاء الشديد، فكان لا ينام الليل من الوجع، ويبيت وله زُقَاء ـ أى صياح، فحلف إن شفاه الله ألاّ يأكل عِرْقًا، ولا طعاماً فيه عِرْق، فحرّمه على نفسه، فجعل بنوه يتتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم. وتلك إذن قصة التحريم في الآية: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)**﴾(آل عمران). ونفهم من الآية أن التحريم كان اجتهاداً من يعقوب، وأن اجتهاده ألزم بنى إسرائيل من بعده، وعلى عكس ذلك حرّم نبيّنا ﷺ على نفسه **العسل**، أو حرّم أمَته مارية، فلم يقرّ الله تحريمه وعاتبه فقال: ﴿**لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ**﴾(التحريم١)، وهذا الاستفهام الاستنكارى لا يختص بالمناسبة وحدها ولكنه على العموم، فلا تحريم إلا ما

حرّمه الله. ويعقوب لكي يشفى حرّم عليه الأطباء لحوم الإبل وألبانها، بدعوى أنها تُلهب عرق النسا، فحرّمها بنوه بالتبعية على أنفسهم، ونسوا السبب الذى به صارت لحوم الإبل وألبانها محرمة عليهم، فلما سألهم النبىّ ﷺ لمَ تحرمونها على أنفسكم؟ ذكروا أن التوراة حرّمتها عليهم، فكذبوا، وتحدّاهم القرآن أن يكون ذلك فى التوراة، وأكد أن هذه مسألة خاصة بإسرائيل، والتوراة نزلت بعده على موسى . **وفى هذا دلالة على أن النبىّ ﷺ موحى إليه من الله، فقد أخبرهم بما فى كتابهم، وبما ليس فى كتابهم، وأنهم بالتحريم كانوا وإسرائيل نبيّهم مبتدعين،ولم يكونوا متّبعين، فنبّه القرآن إلى سمة أجناسية وذهنية فيهم، وهى أنهم كلما أذنبوا ذنباً عظيماً حرّموا على أنفسهم طعاماً أو استجلبوا عليهم غضبه تعالى**، فذلك قوله تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ (النساء ١٦٠)، وقوله: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦)**﴾(الأنعام). والآية إذن تحدُّ من القرآن في أصول التحريم عند اليهود. **والمستشرقون**، وخاصة هوروفتس، على القول بأن النَّسا كلمة ليست عربية، وأنها عبرانية من **naschè**، مع أن الكلمة عربية خالصة، والتشابه مع اللفظة العبرانية هو **اتفاق** فى اللغات التى من أصول عرقية واحدة. **والنَّسا** هو العرق من الورك إلى الكعب، والجمع **أنساء**، والمثنى **نَسَوان**، **والمَنْسُو** المريض بالنَّسا، ونقول **نَسِيَ يَنْسَى** شكا نَساه، **والأنْسَى** عرقٌ فى الساق السفلى، فالكلمة إذن ليست تعريباً لأصل عبرانى، والمرض نفسه عرفه العرب، وكانت للنبىّ ﷺ وصفة فى علاجه، فعن أنس أنه قال: «**شفاء عرق النَّسا ألية شاة أعرابية، تذاب ثم تُجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يُشرب على الريق فى كل يوم جزء**»، وفى رواية أخرى: «**تؤخذ ألية كبش عربى، لا صغير ولا كبير، فتقطع صغاراً، فتُخرج إهالته فتقسم ثلاثة أقسام، فى كل يوم على ريق النفس ثلثاً**».

وإسرائيل من المقصودين بالذكر فى قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ**﴾(مريم ٤١)، وبدأ هذا الذكر بإبراهيم، ونوّه بقصته مع أبيه، وثنىّ بقصة موسى، ثم بقصة إسماعيل، وإدريس، ووصفهم بأنهم أنبياء منعمٌ عليهم من ذرية آدم، وممن حمل نوح وفى الآية: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ**﴾(مريم٥٨)، أن ذرية إبراهيم، هما ولداه: **إسماعيل وإسحق**؛ وأما إسرائيل فكان ابناً لإسحق، وذريته هم بنو إسرائيل، ويذكرهم القرآن إحدى وأربعين مرة، فأحيانًا يثنى عليهم، وغالبًا يتوعدهم ويتهمهم بالكفر، كقوله تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ (المائدة ٧٨)، وأنذرهم بتدمير بلادهم ودولتهم كلما أفسدوا وطغوا واعتدوا، قال: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا**

كَبِيراً ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴿٧﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴿٨﴾﴾ (الإسراء). وبنو إسرائيل الآن أو شعب إسرائيل كانوا فى الأصل اثنى عشر سبطاً، وبدون يوسف يكون عددهم أحد عشر، وفى الآية: **﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾**(يوسف ٤) لم يُحسَب يوسف. والقرآن لا يذكر إسرائيل إلا بالطيّب، ولا يتحدث عن جوانب عنصرية فيه، بعكس التوراة. واسم إسرائيل فى التوراة يطلق على كل نسل الأسباط، وعلى اليهود جميعاً كأمة، ثم على سكان شمال إسرائيل لتمييزها عن سبط يهوذا، وفى سفر إشعيا (٤٩/ ٣) يشير الاسم إلى «**شعب الله**»، وفى الرسالة إلى رومية (٩/ ٦) يميز بولس بين إسرائيل الأرض، **وإسرائيل كشعب الله**، وينوّه بامتياز الشعب (٩/ ٤ و ٥)، ويفتخر بأنه ليس عبرانياً فحسب ولكنه إسرائيلى (٢ كورونثوس١١/ ٢٢)، ويصف المسيح نثنائيل بأنه **إسرائيلى قُحّ** لاغش فيه (يوحنا ١/ ١١). فذلك إذن اسم «**إسرائيل**» فى القرآن وفى كتب العهد القديم والجديد، وكانت **عناية القرآن بالنواحى الإيمانية فى قصة بنى إسرائيل**، بينما **توجّهت عناية كتب العهدين القديم والجديد بالناحية العنصرية، وبالتفوق العنصرى، والتفاخر العنصرى، وشتّان بين المقصدين!**

•••

٧٨٨- ﴿يعقوب تزوج الأختين ليا وراحيل﴾

تزوج **يعقوب** من ابنتى خاله **لابان**: **ليئة أو ليا، وراحيل أو راشيل**، وكان أول وآخر نبيّ يجمع بين الأختين ويتزوج منهما، ولم يحل لأحد بعده لقوله تعالى: **﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**(النساء ٢٣) وكان زواجه من ليئة أولاً، وتزوجها بحيلة أبيها، ثم زوّجه خاله ابنته الصغرى **راحيل** كما أراد يعقوب، وعمل عنده بصداقهما، واحتال عليه يعقوب بدوره حتى صار أغنى من خاله، وأنجب من ليئة ستة بنين، هم: رأوبين،وشمعون، **ولاوى، ويهوذا، ويساكر،وزبولون**، وابنة اسمها **دينة**، ثم ماتت ليئة بعد ما ذهب يعقوب إلى مصر (تكوين ٤٩/ ٣١). وأما **راحيل** فأنجب منها **يوسف وبنيامين**، وماتت عند ولادة **بنيامين** (تكوين ٢٩/ ١ ـ ٣٠)، **فهؤلاء ثمانية أولاد** من الأختين، بالإضافة إلى أربعة أولاد آخرين، اثنين من زلفة أَمَة ليئة هما **دان ونفتالي**،واثنين من بلهة أَمَة راحيل هما **جاد وأشير**، فالمجموع **اثنا عشر ولداً**، فهؤلاء هم **أولاد يعقوب**، وهم الأسباط، ويكون

إخوة يوسف أحد عشر، وهم المقصودون بالآية: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين (٧)﴾(يوسف)، والآية: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم﴾(يوسف ٥٨)، والآية: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾(يوسف ٥)، والآية: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾(يوسف ١٠٠)، والآية: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين (٤)﴾ (يوسف)، والكواكب الأحد عشر هم إخوته، وإن المرء ليدهش لماذا يعتبر اليهود جاد وأشير ولديّ بلهة أمة راحيل، ودان ونفتالي ولدى زلفة أمَة ليئة، من الأسباط وورثوهم مع أولاد راحيل وليئة، واعتبروا إسماعيل ولد الأمة هاجر لا يرث مثل إسحق ولد الحرّة سارة؟!!!

•••

٧٨٩- ﴿يعقوب الحذر لأنه ذو علم ومن المتوكلين﴾

الحَذَر صفة يعقوب، وإيمانه يسبق حذره، وإنه لذو علم، ومن علمه أن الحذر لا يغني من القدر، ولقد حذّر ابنه يوسف من إخوته فقال: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾(يوسف)، إلا أنه كان يعلم أن الله غالبٌ على أمره، وما حذره عُرف، وأطلَع يوسف إخوته على الحلم. ولم يكن يعقوب يأتمن أولاده على يوسف ومع ذلك عهد به إليهم وقال: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون (١٣)﴾ (يوسف)، فجاءوا إليه ينعون أخاهم فعلم مرة أخرى أن أمر الله غالب وقال: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون (١٨)﴾(يوسف)، وبعد ذلك بسبعين سنة عادوا إلى طلب بنيامين الأخ الأصغر ليوسف، فأذعن لطلبهم واستسلم لأمر الله وقال: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين (٦٤)﴾ (يوسف)، ولم يرسله معهم إلا بعد أن تعهدوا أن يأتوا به إلا أن يُحاط بهم، وقال لهم مقالته المشهورة في الحذر: ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون (٦٧)﴾ (يوسف)، والدخول من عدة أبواب آمن على الجماعة، كنافقاء الفأرة، جعلت لبيتها أبواباً عديدة حذراً، والحذر واجب، كقوله: ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦٨)﴾ (يوسف)، فكان يعلم أن أمر الله غالب، وأنه لا حكم إلا لله وعليه فليتوكل المتوكلون، ويعقوب كان من المتوكلين، وإنما تحذيره لهم اقتضاه العقل، ولا حذر مع قدر، إلا أن ما كان في خاطره أن يقوله لهم قاله، والآية تدل: على أن المسلم عليه أن يحذّر أخاه مما يخافه عليه، وأن يرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة، فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

•••

٧٩٠- ﴿حزن يعقوب على يوسف﴾

عندما فقد يعقوب ابنه يوسف لم يكن يعقوب قد كبر بعد، ولم يصدق رواية أولاده عن الذئب الذى أكل ابنه، وأوجس منهم خيفة، فقال: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴿١٨﴾﴾(يوسف)، وما كان بوسعه أن يفعل شيئاً سوى أن يستعين بالصبر، ويتوجه إلى الله يسأله اللطف. ولمّا سُئل رسول الله ﷺ عن الصبر الجميل فى الآية قال: «صبرٌ لا شكوى فيه». وقيل: ثلاثٌ من الصبر: أن لا تحدّث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكّى نفسك!ـ ويعقوب فعل الثلاثة، وكلامه استشهدت به عائشة فى «حديث الإفك»، فقالت: والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾! ـ ثم إن السنوات مرت، وجاء أولاد يعقوب وأخبروه للمرة الثانية بما جرى لابنه بنيامين، مثلما جرى ليوسف قديماً، وربط يعقوب بين الحادثتين، وقوى عنده الشك فى أولاده، لبُغضهم ليوسف وبنيامين ابنيّ راحيل، وكان ابنه رأوبين مع بنيامين، يكاد يفقدهما معًا، فلم يقل سوى: ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴿٨٣﴾﴾(يوسف)، ﴿**وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴿٨٤﴾﴾(يوسف): يعنى تولّى عن أولاده، والكظيم هو الحزين الذى لا يشكو؛ ورقّ أولاده لحاله وقد ابيّضتّ عيناه من الحزن، فقالوا على سبيل الرفق به: ﴿**تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ** ﴿٨٥﴾﴾(يوسف) أى ستظل تذكر يوسف، حتى تضعف صحتك، وإن استمر بك هذا الحال يصيبك الهلاك والتلف، ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٨٦﴾﴾(يوسف)، والبثّ هو الهَمّ، وعِلْمُه من الله - أى ثقته فيه وإيمانه به. والحزن إن كان شديداً يصيب الحزين فى مقتل، حتى أن العينين يجف بهما الدمع وتتحجّران ولا تدمعان، وقد لا ينطق اللسان، وقد ينقلب الحزن إلى ضده فيكون الحزين كأنه لا يبالى، أو كأنه مبتهج بالحدث، وعبّر يعقوب عن ذلك فقال إنه يشكو حزنه إلى الله ويبثه شجنه، واللجوء إلى الله فى الشدائد دليل الإيمان، وعند المصائب كثيراً ما يؤمن الكافر، ويقر المذنب بذنبه وينوب ويتوب. وإيمان يعقوب يبلغ القمة عندما يقول لهم: ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٨٧﴾﴾(يوسف)، والتحسس طلب الشىء بالحواس ويكون فى الخير، والتجسس يكون فى الشر، ورَوْح الله الأمل والرجاء فى الله، والمؤمن لا يقنط ولا ييأس من رحمة الله، والقنوط واليأس من الكبائر، وحزن يعقوب كان حزن نبىّ ليُقتدَى به ويكون مضرب الأمثال: نقول: صبر أيوب، ورجاء يعقوب!



﴿قصة النبى يوسف﴾

٧٩١- ﴿يوسف: الاسم والنسب﴾

الاسم «يوسف» عبرى، ويعنى «يزيد»، وكان يوسف هو الابن الحادى عشر ليعقوب من زوجته راحيل أو راشيل، أولدها يعقوب ولدين كان يوسف أكبرهما، ولما ولدته وحولها زوجات يعقوب وأولاده، والسن الكبيرة التى عليها يعقوب، قالت فى نفسها: هذا ابنى يزيدنى قوة ويثبّت أقدامى، ولذلك سمّته يوسف يعنى «يزيد». وأهل العرفان يقولون هو «يزيد» لأن حياته كلها اتسمت بالزيادة، فزاد عنده العلم والحكمة، وزادت مكانته وأمواله. وقيل: بل الاسم يوسف أصله يُؤسف، بكسر السين أو فتحها، من الأسف، وهو فى اللغة الحزن؛ ثم أن الأسيف هو العبد، واجتمعت الصفتان فى يوسف، فمنذ ولادته والوسط العائلى الذى نشأ فيه يكنّ له العداء، وفارق السن ضخم بين إخوته وبينه، وأمه ضعيفة مسكينة، ويوسف نفسه رغم جمال سمته إلا أن الرجال يحتاجون للجلال وليس للجمال، وجمال الرجال فى الإجلال لهم، وكان تركيبه ضعيفاً، ولكن مخايله تدل على شدة الذكاء، وكان لشخصيته حضورها حتى أنه ليستلب اهتمام من حوله، فلا يسعهم إلا أن يحبوه ويصاحبوه ويثقوا فيه. ولعل السبب الأكيد هو هذا الحزن فى عينيه وملامح وجهه، أملته الغُربة، والبُعد عن الأهل، واليُتم فى مقتبل العمر، وافتقاد الأب والأم، والأسف الشديد على ما كان من إخوته معه، وعلى ما يكون مع أبيه إذ يُبلَغ أنه قُتل. وأما العبودية فإن قانون الآسيويين، سواء بالنسبة ليوسف، أو للتجار الإسماعيليين الذين التقطوه من البئر واشتروه بثمن بخس، يقضى باسترقاق اللقيط، ولذا باعوه بدورهم لعزيز مصر، فحياةُ الرق، وذُل العبودية، مع صغر السن، طَبَع كل ذلك يوسف بالحزن الشديد، فكان اسمه يوسف أو يؤسف، اسماً على مسمى، وكثيراً ما تكون الأسماء بشارة بما يحدث لأصحابها، وقد توجز حياتهم المستقبلة.



٧٩٢- ﴿يوسف فى القرآن أرقى وأفضل وأسمى منه فى التوراة﴾

تقول التوراة (التكوين ٣٩/١) أن الذى اشترى يوسف من مصر هو فوطيفار، خصىّ فرعون، وكان رئيس شُرطته، وله امرأة هى التى حاولت أن تفسق بيوسف، ولسنا ندرى كيف يكون خصياً وله امرأة؟ ولكن هكذا تقول التوراة! والأمر الثانى أن امرأة فوطيفار هذا لمّا ادّعت على يوسف، أودعه زوجها ـ وهو رئيس الشرطة ـ الحصن حيث سجناء الملك، وظل قيد الحصن، ولكنه نال الحظوة لدى رئيس الحصن، فجعله القيّم على كل شىء فى

الحصن، فلم يكن وجود يوسف فيه كسجين. (التكوين ٣٩/ ٢٠ ـ ٢٣). **والأمر الثالث**: أن حاكم مصر يُشار إليه أحياناً باسم **ملك مصر**، وغالباً باسم الفرعون، ويختلط ذلك على القارىء، والمعهود اسم «**فرعون**»،وهو اسمٌ **أشورى** ويعنى **الجبّار**، ولا يوجد فى اللغة الهيروغليفية اسم الفرعون، والفراعنة إذن تعنى **الجبابرة** وهم ملوك **أرض جاسان** أو **جاشان** من أقاليم مصر (محافظة الشرقية الآن مسرح القصص العبرى كله عن **إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى**)، وأما اسم الملك إذا جاء فى المتن، فيعنون به أيضًا **الفرعون**، ولكنهم قصروه كلقب على **الحكام الرعاة** الذين يعرفون **بالهكسوس**، وفى الحالتين فإن الفرعون والملك ما كان من المصريين. **والأمر الرابع**: أن زوجة فوطيفار وهى أشورية كزوجها (ونعرف ذلك من اسمه) لمّا انبهرت بيوسف أمسكت بثوبه وطلبت منه مضاجعتها، فتركه وراءه وفرّ هارباً، فصرخت بأهل بيتها تتهم يوسف العبرانى وتثبت اتهامها بردائه، وانتظرت قدوم زوجها لتقص عليه القصة، فكان أن غضب منه وسجنه بالحصن (التكوين ٣٩/١١ ـ ٢٠). **والأمر الخامس**: أن يوسف كان رجلاً يافعاً لمّا باعه التجار إلى فوطيفار، ووصفته امرأة فوطيفار فقالت: «جاءنا برجل عبرانى» (التكوين ٣٩/ ١٠). **والأمر السادس**: أن إخوة يوسف شربوا معه الخمر حتى سكروا (التكوين ٤٣/ ٢٤). **والأمر السابع**: أن جميع الأنفس من العبرانيين الذين دخلوا مصر من آل يعقوب من الذكور، بما فيهم يوسف وولداه، كانوا **سبعين** نفساً وهذا العدد نشك فيه، لأن دأب العبرانيين أن يتباركوا بالعدد سبعة ومضاعفاته، فيحتمل أنهم قالوا سبعين من هذا المنطلق. **الأمر الثامن**: أن الفرعون أعطى هؤلاء **أرض جاسان** (محافظة الشرقية) ليرعوا فيها باعتبارهم رعاة غنم، فسكنوا هذه الأرض وتكاثروا (التكوين ٤٧/٦). الأمر التاسع: أنه لا موعظة ولا إبراز لأخلاقيات فى القصة.

ونلاحظ **أولاً**: **أن القصة فيها أخطاء لا تعدّ**، ففى القرن السادس عشر قبل الميلاد عند دخول العبرانيين مصر كان عددهم سبعين، وعند خروجهم من مصر سنة ١٤٤٠ق.م،وبعد إقامتهم سنة فى الصحراء، أجرى موسى إحصاء لعددهم، **فكان عدد الشبّان الصالحين لحمل السلاح والقتال ٦٠٣,٥٥٠ عدا اللاويين وهم المخصّصون للكهنوت**، وكان عدد الذكور فقط من ابن شهر فصاعداً ٢٢ ألفا، وإجمالى عدد اليهود ٦٢٥,٥٥٠، **فهل يعقل أنه خلال ١٦٠ سنة، أو أربعة أو حتى ثمانية أجيال، يتضاعف السبعون** نفساً إلى هذا العدد: ٦٢٥,٥٥٠!!! بينما كان ينبغى رياضياً أن يكون ١٧٩٢٠، وحتى إذا سايرنا بعض المؤرخين من اليهود وقلنا معهم إن الخروج جرى سنة ١٢٩٠ق.م،

أو حتى سنة ١٢٢٠ق.م، **فهل يتضاعف السبعون إلى هذا الرقم المهول خلال عشرة أجيال، أو حتى خمسة عشر!! والأمر الثانى:** أن القصة وقد جرت فى أرض **جاسان أو جاشان** -محافظة الشرقية- يصدق فيها ما ذُكر من أن الفراعنة الأشوريين الذين حكموا من بعد وفاة يوسف، أذلوا العبرانيين لما رأوهم يتكاثرون، واستخدموهم كعمال سُخرة، يُعنتوهم بالأثقال، فبنوا لهم مدينتى **فيتوم ورعمسيس**، بالطوب اللبن من طمى النيل، والمدينتان تقعان فى شرق الدلتا، يعنى حيث كانت **مملكة الهكسوس. ورعمسيس هى تانيس**، ومن **رعمسيس** كان خروج موسى من بعد، وتانيس كانت **أفاريس** عاصمة الهكسوس، وفى تانيس دفن **شيشنق** الذى تزوج ابنته **سليمان**، ودفن منبتاح وآخرون، وليس فيهم **تحتمس الثالث ولا أمنوفيس الثانى** وهما المرشحان زورًا وجهلاً لحكاية الخروج. والمسألة إذن كلها **تكهنات وأهواء وأغراض**. والحقيقة هى ما ذكره القرآن وأولاه الاهتمام، وقصة القرآن برمتها مختلفة فى تفاصيلها اختلافاً كاملاً عن قصة التوراة، **فيوسف فى القرآن: صغير** عندما دلاّه إخوته فى البئر، بينما هو فى التوراة تصفه امرأة رئيس الشرطة فتقول إنه رجل؛ ورواية **الذئب فى القرآن، والدم على القميص** جديدة تماماً؛ والذى اشتراه من مصر كما جاء فى **القرآن** قام بتربيته واشتد عوده عنده، وعندئذ راودته زوجته، ولم يَرِد أنه **خصىّ** كما فى التوراة، وورد أن يوسف استعاذ بالله من المرأة، وأنهما استبقا الباب فقدّت قميصه من دُبر، وكان زوجها عند الباب فروت كذبًا أن يوسف حاول الاعتداء عليها، وأدرك الزوج براءة يوسف، وكلها تفاصيل جديدة؛ ومنها مثلاً حكاية النسوة **واجتماعهن وتقطيعهن لأيديهن** لدى رؤيته، وكل ذلك يبين بجلاء تقوى يوسف، فكان يوسف وأبوه **فى كل ما جاء عنهما فى القرآن** آيتين من آيات العظمة فى الأخلاق والحكمة، وذلك عكس ما **فى التوراة** تمامًا!! والقصة كلها دروس فى الحكمة والأخلاق، وتفاصيلها غاية فى الحبكة، وأسلوبها رفيع وراق وشديد البلاغة، وطابعها الإيمان الشديد، والموعظة ظاهرة فيها، وتنتهى بالدعاء لله والحمد له والثناء عليه، والتنبيه إلى أن هذه القصص فى القرآن إنْ هى إلاّ **للعبرة ولتقوية إيمان المؤمنين. فشتّان بين رواية التوراة ورواية القرآن**، والفرق بينهما أن **سفر التكوين كتبه مؤرخون متتابعون**، ولم يعوا **الدرس**: أن المراد بهذه الكتب المقدّسة **الدعوة إلى الله، فكان اهتمامهم** إبراز إسرائيل كشعب حامل للوعود، والتأكيد على العهد كضمانة للوعد، واختيار إسرائيل كشعب الله، وأما اهتمام القرآن فكان **التنبيه إلى آيات الله**، وسبيله التى يدعو إليها هى التقوى، **والدرس المستفاد منها** أن النصر بيد الله يؤتيه عباده كلما استيأسوا، وأن **القرآن** هو تصديقٌ لما سبقه، وتفصيلٌ له، وهدى ورحمة لمن يؤمنون. والحمد والمنة لله، وهو المستعان.



٧٩٣- «فى التوراة أسوأ صورة ليوسف»

صورة يوسف فى التوراة، بالنسبة لقارئ مصرى قاتمة شديدة السواد، وبخلاف صورته فى القرآن، كاختلاف الأسود والأبيض، وأخلاقه فى أرض جاسان من مصر شديدة الغرابة، فقيل إنه بعد تفسير حلم فرعون عيّنه واليًا على البلد، حتى أنه نزع **خاتم المُلكْ** الذى كان فى إصبعه وجعله فى إصبع يوسف، وأركبه **مركبته الثانية**، وأمر الناس أن **تركع له، وأقامه على كل الأرض**، وسمّاه «**مخلّص العالم**»، وهذا الاسم دليلٌ على أن **الفرعون لم يكن مصريًا**، وكان بالأحرى **أشوريًا**، وذلك **أن مصطلح «المخلّص»** أو «**مخلّص العالم**» ليس من المصطلحات المصرية، وهو **مصطلح آسيوى** خالص، ويكثر عند **الأشوريين والعبرانيين** بخاصة، فملوك أشور اسمهم «**المخلّصون**»، والمسيح فى الثقافة العبرية **هو المخلّص**، وهو «**مخلّص العالم**» (التكوين ٤١/ ٤٤). ولا **يبدو يوسف عادلاً فى أحكامه**، فقد اتهم إخوته فى مصر بأنهم **جواسيس** جاءوا ليتجسسوا **ثغور الأرض**، **وحبسهم ثلاثة أيام**، ودبّر لهم تهمة سرقة **جامه** الذى يشرب به (التكوين ٤٤)، وكان دائم التذكير **لإخوته بمنصبه**، فهو - كقوله أبٌ لفرعون، **وسيدٌ لجميع أهله**، **ومتسلّطٌ على جميع الأرض، وسيدٌ لجميع المصريين!** وحابى يوسف إخوته على حساب الناس، **فأعطاهم كما تقول** التوراة (التكوين ٤٥) **خير أرض مصر**، وقال لهم إن جميع الأرض **لهم** (التكوين ٤٥)، وأجرى **لهم الطعام على حسب** أعدادهم، ولم يكن خبزٌ فى جميع الأرض، **لأن الجوع اشتد بالناس جدًا حتى جُهدوا**، وجمع يوسف كل **الفضة** من الناس **بما يبيعهم** من الطعام، فلما نفدت الفضة، اشترى منهم كل ماشيتهم بالطعام، ثم اشترى جميع الأرض، **وباع الناس له حقولهم**، ثم باعوا له أنفسهم، **فسخّرهم** على الأرض نظير أن يستولى على **خُمس غلتها**، فيكون بذلك **أول من أدخل مصر النظم الاحتكارية، ونظام السخرة، وآليات ونُظُم السوق، والإقطاع**، ولم ينجُ من **تخطيطه** سوى أراضى الكهنة؛ لأنها كانت ملكية عامة، وذلك **دليل على أن الملكية** الفردية شَرّ، وأنها **سرقة**، وأن **الملكية العامة** هى الحلّ لمشاكل الأرض، وأطماع ومفاسد طبقة المُلاك. ومنذ يوسف صارت **ضريبة الأطيان الزراعية الخُمس**، ومن الواضح أنه أعفى **أهله** منها، لأنه ابتداءً أقطع أهله أرضًا لم تكن لهم أصلاً، وعيّنهم فى الوظائف المختلفة ليُحكِم قبضته بهم على البلد جميعها. ومن الغريب أن يوسف وهو المذكور فى القرآن بأنه نبيّ كان **يشرب الخمر** طبقاً لرواية التوراة، فلما التقى إخوته واحتفل بهم ظل يشرب معهم حتى **سكروا** (التكوين ٤٣)!



٧٩٤- ﴿دليل نبوة محمد ﷺ من سورة يوسف﴾

قيل في أسباب نزول الآية: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ ﴾(يوسف) أن الآية والسورة كلها - سورة يوسف -تنزّلتا بعد سؤال اليهود للنبيّ ﷺ أن يحدّثهم عن يوسف ويقصّ عليهم قصته، وكان ذلك بمكة، فأوعزوا بالسؤال لكفّار مكة، فأُنزلت السورة، قيل وافقت التوراة في جُملتها وفيها زيادة ليست في كتُب اليهود، وهذا صحيح، والزيادة كانت معجزة، وما ورد موافقاً للتوراة كان تعديلاً لما جاء به وليس موافقاً له، فكانت هذه التصويبات والزيادات في القرآن مما يُحسَب له لا عليه، ودلّلت على أن القرآن كتابٌ منزّلٌ من عنده تعالى، وأن محمدًا الذي تنزّل عليه القرآن، رسولٌ من لدنّه تعالى فقد أنبأهم بما يجهل ويجهلون، ولم يكن يقرأ كتاباً، ولو كان قد قرأ التوراة فإن القصة بما اشتملت عليه في القرآن مختلفة في مراميها ومعانيها وأهدافها ودروسها المستفادة وأحداثها عما في التوراة، وما كان ما اشتملت عليه قصة القرآن مذكوراً ولا مسطورًا في كتاب، ولا معروفاً شفاهةً.



٧٩٥- ﴿رؤيا يوسف كانت رؤيا نبيّ﴾

رؤيا يوسف أن إخوته أحد عشر كوكباً، وأمه شمسٌ، وأباه قمرٌ، من الرؤى التنبؤية، وتشملها سورة يوسف، تقول: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۞ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞﴾ وليس شرطاً أن يحلم الأنبياء وحدهم بالرؤى، والرؤى أحلام تنبؤية، والمؤمن والكافر يحلمان أحلاماً تنبؤية؛ إلا أن الناس تتفاضل في ذلك، وكلما كان المرء صافي النفس، تقيّاً، ورعاً، مخلص النية، كانت رؤياه أميل إلى الصدق، وأكثر وضوحاً، وأقرب أن تفسّر نفسها بنفسها، ومن أقواله ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»، يعني أن صدق الرؤى يتناسب تناسبًا طرديًا مع صدق صاحبها في أحاديثه عمومًا، والنبيّ ﷺ وصف الرؤى بأنها من «المبشّرات»، وأنها «الصالحة الصادقة»، واشترط أن: «يراها الرجل الصالح أو تُرَى له»، وروى أنه قال إن الرؤيا: «جزء من كذا جزء من النبوّة» ربما من سبعين جزءاً، أو خمسين، أو ستة وأربعين، أو أربعة وأربعين، وإنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوّة لأن فيها ما يُعجز ويمتنع، فتبشّر أو تنذر بشيء من الغيب، وإذا صدقت الرؤيا كانت أقرب إلى النبوّة، ولذا قال ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»، والشيطان هو هوى النفس ورغباتها، والبُغض أو الحب تستشعرهما

النفس تجاه شيء بعينه يكون المدار عليه في الحلم. **والرؤيا الصادقة** إذا رآها غير المؤمن تكون على الندور والقلة، وإنه لأمر ذو بال أن تأتي أحلام **فرويد** ـ وكان كافراً حتى بإله اليهود ـ خالية من أية رؤى، وكذلك تلاميذه جميعهم. والرؤيا لكي تضاف إلى الله وتُحسب كرؤيا نبوية لابد أن تخلُص من **الأضغاث والأوهام**، **والضِّغْث** الشيء المتضاد، والرؤيا العادية **ثلاثة** أصناف: فبعضها **أهاويل نفسية** عن **رغبات مكبوتة**، وبعضها **رغبات صريحة** من النهار لم تتحقق في اليقظة فكان النوم فرصة لها تتحقق فيه، وبعضها أجزاء من النبوّة تتفاوت الرؤيا عن الرؤيا فيها، ومن وليّ إلى وليّ. والرؤيا مصدر «رأى» في المنام، وأكثر ما تكون في **آخر الليل** لقلة غلبة النوم فيه، ولذلك لا يرى الرائي إلا ما يصح إدراكه أو تأويله، كأن تكون صوره محسوسة، وأمثلة **موافقة** لواقع النائم أو لواقع الوجود، وتارة تكون لمعاني **معقولة** غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مبشّرة أو منذرة، ومنها ما يظهر معناه أولاً فأول، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكُّر، وقد رأى يوسف الكواكب والشمس والقمر تسجد له **فأوّلها** بإخوته وأبويه، ورأى الفرعون البقر والسنابل، فأوّلها يوسف بالسنين أي الجدب. ولايعتدّ بأن يوسف كان صغير السن وقت تأويل هذه الرؤيا وغيرها، فالرؤى تكون من الصغير كما تكون من الكبير، **والإدراك** فيها كالإدراك في اليقظة، والاختلاف في نضج **الإدراك** بحسب السن. ولا ينبغي أن يعبِّر الرؤيا إلا من يُحسن تعبيرها، وآيات رؤيا يوسف كلها تنبىء بأنه نبيّ، وأن رؤياه وتفسيرها هي رؤيا وتفسير نبيّ، وذلك لجلائها، ولأنها عن حق ولا تقول إلا الحقّ.



٧٩٦- ﴿إخوة يوسف يتهمونه بالسرقة﴾

لما اتُّهم بنيامين أخو يوسف بسرقة صُواع الملك، دافع إخوة يوسف عن أنفسهم ليبرءوا من فعلة أخيهم، فنسبوا فعلته إلى اقتدائه بأخيه الشقيق **يوسف**، لأن بنيامين كان أخوهم من الأب فقط، وقالوا: **﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾**(يوسف)، يعني أنه إن كان قد سرق فالسرقة تجري في **دمه** من أخيه ـ يقصدون يوسف، لأن **الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق**. وما كان يوسف سرّاقاً كما ادّعوا، ولكنهم اعتسفوا اتهامه تبريراً لبُغضهم له ولأخيه الشقيق، وكانوا جميعاً **أولاد** ضرائر، وداء الضرائر هو **البُغض والتحاسد**. وقيل: إن **عمة يوسف** أرادته في صغره أن يكون في صحبتها. فدبّرت أن يبدو كما لو كان قد سرق بعض ما يخصّها وأخفاه في ملابسه، وتبعاً لشريعتهم فإن السارق يسترقه المسروق منه، فضمنت أن يُلحَق بها يوسف ويستمر في العيش معها. وقيل إنهم قالوا في يوسف

ذلك لأنهم اعتبروه قد سرق منهم محبة أبيهم لهم، واستحوذ على أبيهم دونهم؛ وقيل كان يوسف إذا جلس على المائدة ليأكل مع إخوته لا يجد ما يُشبعه، لكثرتهم وقوتهم، ولضعفه وصغَر سنه. فكان يحتال ليفوز لنفسه ببعض الطعام، فكانوا يضبطونه ويعيّرونه به. ومن أجل ذلك قالوا: إن أخاه يقتدى به ويسلك على نهجه.

●●●

٧٩٧- ﴿الحب المتبادل بين يعقوب ويوسف﴾

قصة يوسف من أحسن قصص القرآن كما قال تعالى: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾**(يوسف ٣)، والقصة في جزء منها تحكي عن حُبّ يعقوب لابنه يوسف، وحُبّ الابن لأبيه، وفى الجزء الآخر تبرز القصة انتصار الفضيلة عند شاب مثل يوسف فى مقتبل عمره، كان قد عزف عن الرذيلة، واستمسك بالدين، واعتصم بالإيمان. وفى القصة يتناجى الولد مع أبيه: **﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾** (يوسف ٤)، فيقول الأب: **﴿يَا بُنَيَّ﴾** ولا يمل الأب تعليم ابنه في كل المواقف، ويتعهده بالتربية، فلمثل ذلك يكون الآباء، يقول يعقوب ليوسف: **﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾**(يوسف ٦)، يذكّره بأجداده، وبالرسالة التي كُلّفوا بها ويرثها عنهم، والإيمان وما يعود عليه من الخير والنِّعَم والعلم. وقيل إن محبة يعقوب ليوسف لأنه كان ابن الزوجة الجميلة الأثيرة عند زوجها، وقيل لأنه بكر أولاده منها، وإنما السبب الحقيقي أن يوسف كان وريث بيت النبوّة، وآل إليه أمر الدعوة، وكان ما ينفك يدعو إلى الله، فدعا إليه «العزيز وامرأته»، ورئيس السجن، وزميليه فيه، ثم الفرعون وآله، فلما جاء موسى من بعد، ودعا فرعون، كان من بين بلاطه رجلٌ من آله يؤمن بالله قال: **﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾**(غافر٣٤)، يعنى أن دعوة يوسف كانت ما تزال آثارها باقية كل هذه السنوات، فلذلك أحب يعقوب ابنه يوسف، لأنه كان الحريص على الدعوة، والحفيظ عليها، والقائم بها، وهذه الوشيجة الروحية بين يعقوب وابنه يوسف هى التي صرفت عن يوسف خواطر السوء والفحشاء فى «مشهد الغواية»، واصطلح عليها القرآن باسم «برهان ربّه»، أى البرهان على أن الله كان مع يوسف، وأنه تعالى لا ينسى أولياءه، فكذلك مكّنَ له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأصابته رحمة الله، ولم يُضع أجره وجعله من المحسنين، ورفعه درجات، وفوق كل ذى علم عليم، ولمّا كاد يعقوب ييأس، لم ينجه من اليأس غير إيمانه وصبْرُه «الصبْر الجميل»، وتأسّف يعقوب

على يوسف، وكان كثير البكاء ولم ينسه أبداً، وكلما رأى أولاده كظم حزنه، حتى رقّ له أولاده بعد أن هرم وبلغ من الكبر عتياً، وخافوا عليه الهلاك والتلف، وما شكا لهم حاله، وإنما توجّه بشكايته إلى الله، يبثه حزنه، ويزيده الإيمان قناعة بأن الله لا يمكن إلا أن يجمعه يوماً بابنه، وأن يعود إليه الغائب، قال: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٨٦﴾ ﴾(يوسف)، يعلم عنه الإحسان وخير الجزاء، وهل جزاء الإحسان عند الله إلا الإحسان، وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة، والزيادة أن يعود إليه ولده ويجتمع الشتيتان.

وإنه لشيءٌ يُدمي القلب أن يقول يوسف لإخوته بعد كل هذا الدمار الذى ألحقوه بنفسه: ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿٩٢﴾ ﴾(يوسف)، ثم يعطيهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم، ليشفى من العمى الذى أصابه من كثرة البكاء عليه، فلمّا كان قميصه الذى رآه ملطخاً بالدم، بزعم أن الذئب أكله، هو الذى أبكاه، فظل يبكى حتى ابيّضت عيناه، فإن قميصه أيضاً هو الذى سيبهجه ويعيد إليه بصره، وذلك دليلٌ على أن عمى يعقوب كان هو «**العمى النفسى**» **psychic blindness** وليس «**العمى العضوى**» **organic blindness**، والعمى النفسى هو العمى الذى يتحصّل نتيجة الصدمات النفسية، ويشفى صاحبه بصدمة نفسية مماثلة نقيض الأولى، وعلّم يوسف بهذا «**العلاج النفسى**» من علم النبوّة، وقول يعقوب: ﴿**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ**﴿٩٤﴾ ﴾(يوسف) هو أيضاً من بركات وحدس النبوّة، وكانت ليعقوب فراسة وحدس الأنبياء لمّا قال لأولاده: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾ (يوسف)، ثم كانت بركات النبوّة أن يتشمم وحده دون غيره رائحة ابنه فى قميصه فكأنه استروح الجنة، وما كان ذلك عن فَنَد - وهو جنون كبار السن، وإنما كان محبة يعقوب ليوسف، ومحبة يوسف لأبيه يعقوب، ذريةٌ طيبةٌ بعضها من بعض، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين.



٧٩٨- ﴿نهاية قصة يوسف فى التوراة وفى القرآن﴾

فى قصة التوراة أن يوسف ذهب ليلاقى أباه عند مقدمه إلى جاسان، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه، يقول: دعنى أموت الآن بعد ما رأيت وجهك لأنك بعدُ باق (التكوين ٤٦/ ٢٩ - ٣٠)، فاللقاء درامى عنيف وفيه البكاء والأحضان والكلمات الطيبة الرقيقة.

وفى قصة القرآن: ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴿٩٩﴾ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي**

وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾(يوسف)، يضمّ يوسف أبويه إليه، ويُطمئنهم أنهم في مصر سيكونون في أمان، ورفعهما إلى العرش، فخرّوا جميعاً له ساجدين، والسجود كان تحيتهم، وسُنّتهم، وذكَـرت الآيات بـالرؤيـا التي رآها يوسف في طفولته، وعـدّد نِعَم الله عليه بخروجه من السجن ومجيئهم من البدو، مكافـأة له على معاناته وصبره، وقيل إنه بكى وأبوه، والبكاء أربعة: بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاءُ الرياء؛ وبكاء يعـقوب بكاء فرح لأن ربّه أقرّ عينيه بعد الهموم والأحزان، وكان عمره وقتذاك مئة وثلاثين سنة، كلها بؤس وشقاء، وعاش بعد ذلك في كنف ابنه سبع عـشرة سنة، والدرس المستفاد كان من يوسف وليس من يعقوب، فـقد أوجز حياته في دعـائه، فشكر الله على ما أعطاه من خير عمـيم وعلم كريم، وأقرّ به إلهاً واحداً، ودعـا أن يتوفاه مسلماً ويلحقـه بالصالحين، فلم يتمن الموت ولكنه تمنى الوفاة على الإسلام، وقيل «الصالحين» هم آباؤه الثلاثة: إبراهيم وإسحق ويعقوب، تمنى أن يلحق بهم ويكون معهم، عليهم وعليه السلام كلّ السلام.

●●●

٧٩٩- ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾

هذه دعوة يوسـف لأبويه لما دخلا عليه في قصره في جاسـان، ويقول المستشرقون والمفسرون: كيف يقول يوسف: ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)** ﴾ (يوسف) وهم في مصر فـعلاً وقد دخلوها؟! والجواب: أنهم وإن كـانوا قد نفذوا عبـر حدودها إلا أنهم لم يعرفـوها بعد، ودعوته لهم بدخولهـا آمنين، أي أن يعايشوا الناس فـيها، ويتعـرّفوا على حضارتها، فالحـياة في الحضر بخلاف الحياة في البدو، وسُكنى القـصور والمنازل مختلفٌ عن سُكنى الخيام، والشُرب من مياه الآبار غير الشُرب من مياه الأنهار، وطعام سكان المدن ليس كطعام سكان الصحراء، فهذه دعوة يوسف لأبويه أن يدخلوا مصر آمنين، أي يهنأوا بالعيش فيها آمنين، لا يخافون غدراً ولا ذلة، ولا حاجة ولا مسغبة، ولاجدباً ولا جوعاً.

●●●

٨٠٠- ﴿دعاء يوسف﴾

قيل: إن يوسف في هذا الدعاء تمنى الموت، وهو ما لم يحدث لنبيّ ولا لغير نبيّ من قبل، وهذا غير صـحيح بالمرة، وإنما سأل يوسف ربّه أن يتوفـاه عندما يحـين أجله على الإسلام، وفي الحديث: لا يتمنّين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لابد متمنياً فليقل: اللهم

أحيينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» أخرجه مسلم. وقال ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عُمره إلا خيراً» أخرجه مسلم. وكان دعاء يوسف: **﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾**(يوسف)، وقوله: «من المُلك» للتبعيض، لأنه كان الوزير الأول فى بلاط الفرعون ولم يكن الفرعون، فبعض السلطات كانت ليوسف دون أغلبها؛ وقوله: «**تأويل الأحاديث**» هو علم **تعبير الرؤيا**، أو **علم** تفسير **الأحلام**، وهو بعض العلم وليس كل العلم؛ وقوله: «**فاطر السموات والأرض**» يردّ بها الكون كله إلى الله، ويوحّده، فهو مُنشِؤه ومخترعه على الإطلاق من غير مثال سابق؛ وقوله: «**وَليِى**» أى ناصرى ومتولّى أمورى دنيا وآخرة؛ وقوله: «**الصالحين**» هم آباؤه الثلاثة: **إبراهيم، وإسحق، ويعقوب**. وتوفاه **الله فى أرض جاسان** (محافظة الشرقية) حيث كان يحكم فدفن بها، تقول التوراة: إنهم حنّطوه وجعلوه فى تابوت. ويقول **اليهود** إن يوسف أوصى إخوته أن ينقلوا عظامه إلى فلسطين، وعندما خرج موسى من مصر نقل رفاته معه (تكوين ٥٠/ ٢٥). وقيل: دفنت موميته نهائياً بالقرب من شكيم (خروج١٣/ ١٩) بجانب بئر يعقوب. وقيل: نقلت جثته بعد ذلك إلى الخليل فى مقبرة إبراهيم. وهذا كلام فارغ، أولاً: **لأن موسى خرج بسرعة من مصر ولم يتهيأ لإخراج الجثة معه**؛ وثانيًا: لأنه ما كانت هناك فرصة لدفنه فى شكيم فى عهد موسى فموسى لم يدخل شكيم، وإنما هو التحريف والتأليف والتزوير فى التاريخ، والتعصب، وكأنما جثة يوسف وعودتها إلى أرض فلسطين **رمزٌ لعودة اليهود إلى فلسطين**، يذكّرون الأجيال **بذلك** حتى لا ينسوا، ويستنّون لهم سُنّة، هى ضرورة أن يوارى جسد كل يهودى تراب فلسطين؛ فإذا كان ذلك هو الشأن مع الموتى، فماذا عن الأحياء!!



٨٠١- ﴿قصة امرأة العزيز ويوسف﴾

فى هذه القصة الكثير من اللبس، فينبغى التزام نصّ **سورة يوسف** ومراجعة القصة على **سفر التكوين** من التوراة، الفصل التاسع والثلاثين. والقصة تبدأ فى القرآن بانتشال يوسف من البئر الذى ألقاه به إخوته، ولم يكن يوسف طفلاً وقتها، وإنما كان شاباً فى **السابعة عشرة** من عمره بحسب الرواية اليهودية، وذلك سن معقول جداً ويناسب الأحداث، والذين انتشلوه كانوا إسماعيليين - أى من نسل **إسماعيل** - من أهل مدين، وأسرّوه بضاعة ضمن ما لديهم من بضائع نزلوا بها مصر، إلى أن باعوه **لعزيز** مصر.

وتخطىء كتب التفسير العربية بأن تجعل اسم **العزيز**ـ أى **العزيز الجانب**، والقوى الذى لا يُقهر ولا يغلب ـ هو **الفرعون**. فلم يحدث أن سُمّى ملك مصر باسم **العزيز** ـ وإنما «**العزيز**» اسم منصب **الوزير الأول فى أشور**، ويضاهى الآن رئيس الوزراء. وينبغى التنبيه إلى أن أحداث قصة يوسف وقعت ـ لا فى مصر التى نعرفها بحجمها الكبير وناسها المصريين، وإنما كان مكانها هو **أرض جاسان**، وهى الإقليم **الشمالى الشرقى** من أرض مصر، حيث **محافظتا الشرقية والإسماعيلية** الآن، وكانتا مستعمرتين **للأشوريين** من أهل **أشور وبابل**، جاءوا إلى هذه الأرض واقتطعوها وسكنوها باسم **الهكسوس** كما أشاع المؤرخ اليهودى **مانيتو** عنهم. وجاسان كانت كبيرة المساحة، ولمّا حضر **يعقوب وأولاده** أسكنهم **يوسف** أرض جاسان. وإذن **فالعزيز** هذا كان أجنبياً، من بلاد **بابل** التى اسمها أشور. **وامرأة العزيز** هى التى قيل عنها أن اسمها **زليخا**، ولا يرد عن اسمها فى التوراة، ولا فى القرآن. وقصة **القرآن** مختلفة تماماً عن **قصة التوراة**، وفيها الكثير من التفاصيل والحِكَم والعظات والعِبَر. وقصة التوراة بسيطة، ولا تعقيد فيها: فامرأة العزيز هذه ـ أو بالأحرى امرأة **فوطيفار**، لمّا رأت **يوسف** وهو شاب فى **السابعة عشرة**، راودتها نفسها أن تضاجعه، والغريب **فى** قصة التوراة أنه يرد بها أن **فوطيفار** كان خصياً! فلماذا تزوّج إذن؟ وهل لهذا السبب كانت زليخا سيئة السمعة والسلوك؟ واسم **زليخا** ليس اسماً مصرياً، ولا كان اسم **فوطيفار** مصرياً، بل كلهم **أشوريون وساميون** مع بعضهم البعض، ومن الخطأ أن ينسب التوراة لهذه الشخصيات أنهم **مصريون**، ولنلاحظ أن **فرعون موسى** أيضاً لم يكن مصرياً، وكلمة **فرعون** ليست مصرية، ولم يرد أبداً فى التاريخ المصرى أن أحداً من ملوك مصر اسمه فرعون! والمهم أن يوسف تأبّى على المرأة، وظلت تلح عليه يوماً بعد يوم وهو يرفض، إلى أن حاولت أن تُقسره على الفحشاء، وأمسكت بعباءته فتركها لها وفرّ، وصرخت لتفضحه، وجمعت الناس حولها إلى أن أتى زوجها واستمع إليها، فاستشاط غضباً، وقبض على يوسف وأودعه السجن. وقصة التوراة على حالها هذا، من **قصص كيد النساء العادية** مما تحفل به الصحف اليومية، إلا أن قصة القرآن رواية حقيقية كالروايات، ومن الغريب أنهم ينسبون اختراع فن الرواية للأوروبيين وهو قرآنى قلباً وقالباً، وليس أروع من **الحوار فى** القرآن باعتبار معايير الأدب المسرحى. وقصة امرأة العزيز مع يوسف كما جاءت فى القرآن، دُرّة الدُّرر فى **الأدب الدرامى**، وتبدأ بشراء العزيز ليوسف بدراهم قليلة، ثم توصيته لامرأته أن تكرم مثواه، أى مقامه فى بيتهما، بطيب المطعم، وحُسن اللباس، وبرر توصيته بأنه ربما ينفعهما ويكفيهما بعض المهمات والخدمة

عليهما، أو أن يتخذاه ولداً لهما، لأنه كان حصوراً لا يولد له، ولا يأتي النساء كما ذكرنا، وكان التبنّي في أمم الشرق الأوسط، ولم يكن معروفاً في أرض مصر،وهذا سبب آخر يدل على أن هؤلاء الأشخاص أصحاب قصتي «يوسف وموسى»، لم يكونوا من المصريين. ومرّت فترة ويوسف في بيت فوطيفار أو العزيز، إلى أن بلغ أشدّه، وآتاه الله الحُكم والعلم، وقيل إن العرب يقولون لمن يبلغ سن الثلاثين أنه قد بلغ أشدّه، وقيل بلوغ الأشدّ هو بلوغ سن الرشد، وهو أن يتجاوز العشرين. والحُكم هو العقل والفهم، والعلم هو علم تفسير أو تأويل الأحلام، وهو علم يحتاج إلى أشخاص موسوعيين لديهم إحاطة بمختلف الثقافات والمعارف والعلوم. فلما بلغ يوسف أشدّه فعلت زليخا فعلتها معه، وادّعت عليه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾(يوسف). والمراودة هي طلب المواقعة، تكون بالمحايلة والتلطُّف؛ والتغليق للأبواب لأنها أكثر من باب، تقول غلّق الأبواب وليس الباب، وأما أغلق فتكون للكثير والقليل من الأبواب، وتقول غالبًا أغلق الباب وليس أغلق الأبواب؛ وهيت لك أسلوب في الملاطفة والدعوة بمعنى هيا وأقبل وتعالَ، وقيل هيت كلمة سريانية، وهذا دليل آخر على أن القصة أبطالها من الأشوريين وليسوا مصريين! وربّه هو سيده؛ وأحسن مثواه أي استضافه فأحسن ضيافته؛ ولما همّت به،همّ بدفعها عنه وامتنع عليها، فلمّا رأى برهان ربّه قاومها، قيل: كأنه قد سمع صوت سيده قادماً، أو رأى من حجرة نومه شيئاً من ملابسه أو غير ذلك مما يخصّه، فخلّص نفسه منها صرفاً لنفسه عن السوء والفحشاء، وولّى ناحية الباب فسعت خلفه، فجذبت قميصه من عند ظهره، والغالب أن رؤيته لبرهان ربّه، أنه تذكر الله فاستعصم. والآية: «واستبقا الباب...» من اختصار القرآن المعجز، وتجتمع فيها الكثير من المعاني والأفعال، لأنه رأى هذا الشيء الذى ذكّره بسيده،أو بربّه تعالى، فانفلت منها فتعاديا، هي لتردّه إلى نفسه، وهو ليهرب منها، فأدركته قبل أن يخرج، وهنا يدخل زوجها «العزيز»، ودخوله في هذا الوقت بالذات له وقعٌ درامي شديد يسمونه **dramatic irony** كما يقول أهل المسرح، ولَعَمْري من أين لمحمد ﷺ أن يعرف هذه الأشياء وهو لم يتعلم في مدرسة، ولا رأى مسرحاً في حياته،ولا عرف هذه المعاني؟ولا مراء أن القرآن هو كتاب الله سبحانه، وهو تعالى العليم الحكيم. ولقد سارعت المرأة من غيظها وانفضاح

حالها إلى تبرئة نفسها، وأن تصحح بالكذب فَهْم زوجها للموقف،واتهمت يوسف وقلبت الحقائق وافترضت صحة ادعاءاتها وتصديق زوجهـا لأكاذيبها، فاقترحت العقاب ليوسف: السجن أو العـذاب الأليم! أرادت بهذا العقـاب أن تدلل على أنها لا علاقة لهـا، وإلا ما طلبت عقابه، ولا شك أن طريقتهـا في الدفاع عن نفسها تدل على أن **زوجـهـا لم يكن له عليـهـا سلطان**، وكان يقبل ما تقول ويرضخ له، ونعرف السبب أنه كـان خصيًا. وتستمر القصة ويبدأ يوسف بالردّ على ادعائها قال: ﴿**هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾**﴾(يوسف)، ودفاعه بسيط وفى عبارة واحدة، **فلم تكن له خبـرة بالنساء** وخاصة هذا النوع منهن. ولولا **الشاهد من أهلها** واحتكامـه إلى العقل لصدّقـها زوجهـا، ولقد تبيّن له وللشـاهد أن قميـصه مشـقوق من الخلف، وأنها مذنبة ويوسف برىء، وتدخل ليأمر يوسف أن **يتكتم الأمر**، ويطلب منها أن تستغفر لذنبها. وتخطىء كتب التفسير العربية عندما تجعل رئيس الشرطة مصرياً! **وتنسب إليه كمصـرى انعدام الغيرة**!!! بدعوى أن أغلب أهل مصرهكذا!! فـلا سامحهم الله هؤلاء الجهلة! فكما قـلنا وننبه مراراً: أن **فـوطيفـار** لم يكن مصريـاً، ولا زوجته،ولا يوسف، فجميع هؤلاء جاءوا إلى مصر **أغراباً، وغزاة، ومحتلين، ومستعمرين**، وأن هذه **الأخلاق** هى أخـــلاق **أهل أشور والسـاميـين من أهل بابل وغـيرها**، والمنطقة حـافلة بالجنسيات المخـتلفة والعادات المتباينة، وليست الفاحشة من أخلاق المصريين أصحاب الحضارات والقيم الثابتة. ولنقرأ ما يسمى باسم **التوراة**، لنجد الكثير من **قصص الخيانة والشذوذ والزنا والاغتصاب والقيادة عند العبرانيين والأشوريين** وغيرهما، ولم تذكر كتُب التاريخ المصريين بسوء أخلاقى قطّ، وكل ما بلغنا من الأدب المصـرى القديم مداره **الأخـــلاق والدين**، والمثـال على ذلك **قـصـة إيـزيس وأوزيريس**، وهى قمة فى الأدب والأخـلاق، حتى قيل إنها ألهـمت قصة المسيح! وامرأة العزيز شـهد ضدها النسوة فى المدينة: ﴿**امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾(يوسـف ٣٠)، واعتبرت قولهن فيـها مكراً، فمكرت مكراً مقابلاً أعظم من مكرهن، وأعدت لهن متكئاً، وآتت كل واحـدة سكيناً، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن، فلما رأين حُـسنه انبهرن وأكبـرنه، وكن فى ذهول، حتى أنهن أعمـلن السكاكين خطأ فى أيديهن، واستعظمن أن يكون يوسف من البشر، وأن يرتكب المعاصى كالبشر، ونسبنه إلى الملائكة، وبلغ الفُجـر بامرأة العزيز أن صـرّحت علناً برغبتـها فيـه، وأنها التى راودته عن

نفسه، وإن لم يفعل وينصاع لرغباتها فستعمل على سجنه! والغريب أن النساء وافقنها على رغبتها وطلبن أن تكون له معهن مثلما له مع امرأة العزيز، وآثر يوسف السجن على ما يدعونه إليه، ودعا ربّه أن يصرف عنه كيدهن، ونفذّت المرأة الفاجرة ما وعدت أن تنزله به إن لم يطاوعها، وسُجن يوسف، وظل في السجن مدة ربما طالت، إلى أن حلم الملك حلمه عن البقرات السمان والعجاف، والسّنبلات الخضر والأُخَر العجاف. ففسّره يوسف بطريقته، وأرسل إليه الملك فرفض، إلا أن تقول النسوة الحقيقة، وهل هو فعلاً راودهن؟ فقلن: **﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾**(يوسف)، والكلام موصول، وقولها «**حاش لله**» مرتبط بقولها «**ليعلم أني لم أخنه بالغيب**»، أي أنها لم تستمر في الكذب ولم تغتبه وتذكره بالسوء، وسارعت إلى تبرئته، وأكدت أنها على حبها له ولم تخنه مع آخر، واعترفت بأنها لم تكن بريئة مما اتهمته به، وأن الحقيقة لابد أن تنكشف، والخائن لا يمكن إلا أن يفضحه الله بخيانته، ونسبت اتهامها له في البداية بأنه من فعل النفس الأمّارة بالسوء، ثم تولاها الله برحمته وهداها ونصرها على نفسها. وتنتهي القصة وما انتهت دروسها وآدابها وما بها من عظات وعبرات. وما أعظم الفارق بينها وبين قصة التوراة، فما بينهما كما بين الأرض والسماء! والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٨٠٢- ﴿يعقوب أقام بأرض جاسان Goshen من مصر﴾

في سفر التكوين أن يعقوب لما حَضَر إلى مصر أقطعه ابنه يوسف من أرض جاسان أو **جاشان** ـ الإقليم الشرقي من مصر ـ **أرض رعمسيس** (التكوين ٤٧/ ١٢)، فقد كان يوسف وزير الفرعون والمتصرّف من ثم في هذه الأرض، وكان **الفرعون يحكمها**، واسم الفرعون ليس مصرياً، «**وأقام يعقوب في أرض مصر بجاسان فتملكوا فيها ونموا وكثروا جداً**» (٤٧/ ٢٨). ولمّا مات يعقوب توجه يوسف والأسباط وكبراء بني إسرائيل لدفنه، «**وتركوا أطفالهم وغنمهم وبقرهم في أرض جاسان**» (٥٠/ ٩). ولمّا ارتحل موسى ببني إسرائيل من مصر خرج من رعمسيس جاسان (١٢/ ٣٨). وكل قصة موسى مع الفرعون لم تتعد أرض جاسان، وقوله تعالى في القرآن: **﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾**(يونس٨٧)، وقوله: **﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾**(الزخرف ٥١) هو من باب **تعريف الجزء** بالكل، ومنه قوله تعالى: **﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾**(البقرة٦١)، وقوله: **﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)﴾**(يوسف)، فأي أرض بمصر هي مصر.

●●●

٨٠٣- «قصة أيوب»

لأيوب قصتان وشخصيتان فى التوراة والقرآن، والقصتان والشخصيتان مختلفتان بحسب تصور الكتابين لفكرة الشخصية أولاً، ثم لفلسفة الدين والتدين ثانياً. وأيوب التوراة: إنسان متوازن فيما يخص سلوكه تجاه الدين أو الدنيا، وهو يأخذ من الدنيا كل ما تتيحه له من المُتَع، ومن ذلك يعطى الله كل مطلوباته الأخروية. وأيوب القرآن: صورة للمؤمن التقى الذى تنزل به النوازل فيشكر الله فى السرّاء والضرّاء، ويعيش للناس وينكر نفسه. وفى التوراة بحسب أيوب فإن الفرد يأتى أولاً، وفى القرآن فإن الأولوية عند أيوب للجماعة، ومن ثم فإن أعمال أيوب فى التوراة فردية، وأعماله فى القرآن جمعية. والله بالنسبة له فى التوراة هو ربّه هو، وهو فى القرآن هو ربّه وربّ الناس والعالمين. والصورة التى يرسمها القرآن لأيوب هى صورة العبد الصابر الراضى بقضاء الله، وهى صورة لا تتوافق مع المزاج اليهودى، ولذا قال اليهود: إن قصة أيوب فى التوراة ليس لها الطابع اليهودى!! والقصة كما هى فى التوراة يتضمنها سفْر خاص بها هو السفر الأول من أسفار الجزء الثانى من كُتب العهد القديم الإسرائيلى، وقالوا فيه إن مَن كتبوه كانوا أكثر من واحد ولم يكونوا عبرانيين، إلا أنهم مع ذلك ضمّوا السفر لمجموعة الكتاب المقدّس كى يُعدّ الكتاب أضخم وأكبر. واسم أيوب Job يعنى بلغة العامة عندهم «الأونطجى»، أو كثير الكلام، أو بائع الكلام، بالنظر إلى كثرة ما تكلم به عن السُّقم رغم أنه من المفروض أن يكون سقيماً، والسقيم لا يستطيع الكلام إلا لمامًا، وقدّموا لذلك فقالوا إن سُقمه لم يصب لسانه ولا تفكيره. و«دموع أيوب» و«صبر أيوب»، ذهبا مثلاً فى العربية كما فى اللغات الأوروبية وفى العبرانية. وقيل: ربما كان أيوب عربياً، يعنون أنه لا يمكن أن يتحمّل ما تحمّل إلا العربى، وأما العبرانى فإنه يتمرد فى مثل حالة أيوب، وقالوا: والذى يؤكد أنه لم يكن عبرانيًا أن موطنه كان أقرب إلى شعوب المنطقة منه لشعب إسرائيل، فمن المحتمل أن تأثُّره بالثقافات من حوله كان أكبر؛ إلا أن أيوب مع ذلك، كان فى صميمه عبرانياً وإن كان حديثه مع ربّه لا ينبىء أنه يتحدث إلى إله عبرانى، والعبرانيون يعتبرون قصة أيوب من الأدب الشعبى العبرانى،ولها مكانة خاصة فى الهجادا العبرانية، وتُروَى بروايات عدة فى التلمود؛ وأما سفر أيوب فقد كتبه مَنْ كتبه، وهذّب كلامه، وقسّمه فصولاً ومشاهد، ونقله - كما قيل - بلغته الشعرية العامية، وأضاف إليه منثورات مكمّلة للقصة. ولم يحفل القرآن أن يجعل من قصة أيوب شيئاً يستأثر باهتمام الناس ويسرّون بسماعه، وإنما نبّه إلى أن أيوب نبىّ يُوحَى إليه، وأنه فى مرتبة كمرتبة محمد ﷺ وإبراهيم،

وإسماعيل، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، ويونس،وهارون، وسليمان، وداود، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ (النساء)، وإن لم يكن نبياً فكيف استطاع أن يتحمل ما تحمل؟ وهؤلاء الأنبياء جميعاً كان يوحى إليهم، والوحي إعلام في خفاء، والنبوة مَثَل وقدوة، وقيل: كان أول الأنبياء في الأرض إدريس المسمى أخنوخ، ثم نوح، فإبراهيم، ولوط، فإسماعيل، فإسحق، فيعقوب، فيوسف، ثم هود، فصالح، ثمموسى وهارون، ثم أيوب، ثم الخضر، ثم داود، وسليمان، ثم يونس، ثم إلياس، ثم ذو الكفل أو عوبديا، ثم عيسى، ثم محمد. وأيوب إذن هو النبيّ الثالث عشر،وفي القرآن هو من وَلَد إبراهيم كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)﴾ (الأنعام)، فكل الأنبياء من ولد إبراهيم غير إدريس، ونوح، ولوط، وهود، وصالح، ولم يكن من العرب أنبياء إلا خمسة: هود، وصالح، وإسماعيل، وشعيب، ومحمد ﷺ، وسموا عرباً لأنه لم يتكلم بالعربية غيرهم.

ويعتبر النصارى سفر أيوب أحد أسفار الحكمة القديمة، ويرسم صورة حيّة قوية لآلام أيوب، وينقل النقاشات التى دارت بينه وبين أصدقائه الثلاثة وزميلهم الرابع حول القضاء والقدر، وهي مناقشات فيها عمق وحكمة. ومسألة المسائل فى هذه المناقشات أن يُمتَحن البار في إيمانه، وإنها لمشكلة أن يتعرض البار بالذات لهذا الامتحان القاسى. وأيوب فى القصة غنى جداً. ويمتلك الضياع والثروة الحيوانيةوالخدم والحشم،وله سبعة أبناء ذكور من الرجال، وثلاث بنات متزوجات، ويبدو مترفاً شديد الترف، ودفوعه الفلسفية فى مسألة الابتلاء للبار تبدو من نوع جدال المترفين، وليس فيها أية اهتمامات من قبَله وأصحابه بشئون الناس، وبالشأن العام «جملة»، واعتقاده: أن النازلة لا تَحلّ إلا بالأشرار، وأما الأخيار فلهم الحُسنى في الدنيا، اعتقادٌ ساذج. وثورة أيوب: لأنه لم ير أنه يستحق أن تنزل به النوازل، ولذا أبدى شكّه إزاء العدل الإلهى، وأصحابه ردّوا ما نزل به إلى خطايا لابد أنه أرتكبها ولم يَدْر بها، وأيوب ينفى ذلك بشكل قاطع، إلا أنه لا يدّعي أنه بريء كل البراءة، ومع ذلك فهو لا يذكر بالتأكيد أنه فعل شيئاً يستحق عليه كل هذا العقاب.

والمراجع اليهودية على أن هذه القصة خيالية من نوع القصص التعليمى،وفى بدايتها يأتى الحوار بين الله وإبليس، أو بين مبدأ الخير ومبدأ الشر، ويُثنى الله على أيوب لتقواه، ويسخر إبليس من تقوى أيوب المدّعاة، لأن أى إنسان فى مكانه لابد أن يُظهر الحمد، فلم

يوجد خيـر إلا وقد وفّره له الله، فلو حُرِمَ بعض ذلك فلن يثبت له إيمان، ويَقْبل الله أن يحرمه إبليس من ثروته وعياله ويُبقى عليـه هو نفسه، وتذهب ثروته بدداً، فأراضيه وخيله وبقره وغنمه يستولى عليها الأعداء، ويقتلون حشمه وخدمه، وتطيح العاصفة بسقف بيته، وتدمّر البيت على أولاده فيُقتلون جميعاً، الذكور والبنات، إلا امرأته. ولما أعلموا أيوب بالمصيبة الأولى شكر لله الضرّاء كما كان يشكر له السرّاء. وفى المرة الثانية لـمّا عرف بفقد عياله صرخ وبكى وأهال التراب على رأسه، ولكنه ندم واستغفر. وفى المرة الثالثة لما ظهر الطفح الجلدى بجسـمه جميـعاً وبدأت آلام بطنه، شككته امرأته فى إقبـاله على الله رغم نوازله، فعاتبها وقال لها: أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشرّ. واشتد به المرض العضال ثمانى عشرة سنة، عانى فيها أشد المعاناة، وازداد به اليأس من حالته ولكنه كان يرى بقلبه أنه فى يوم من الأيام سـيأتى الفرج ويكون الخـلاص، وسيـعود إليه رضـا الله عنه، وبقى أيوب ثابت الإيمان، راسخ الاعـتقاد فى الله، ودائم الـتوكّل عليه، حـتى أنه ليرى أنه إذا مات ولم يكن قد انصلح حاله فـإنه حتماً سيكرمه الله وسيجازيه عـلى ما احتمل، ويقول أحد أصـحابه عندئذ: ربما أن الألم الذى ينزل بالأبرار ليس غضـباً من الله، ولكنه تأديبٌ منه تعالى كتـأديب الأب الشفوق بولده. وحينئـذ ظهر لهم الله ينبّههم إلى ضـآلة ما يعرف الإنسان، وأن عقله ومعرفته لا يؤهلانه لفهم أحكامه تعالى، فيتواضع أيوب. ثم إنه يشفى ويعود لثرائه، وتعود إليه أسـرته. والقصة تستغرق اثنين وأربعين فـصلاً، وكـان لذلك أثره علـى شرّاح الـقرآن فتعرّضوا لمسائل وتفـاصيل فى حياة أيوب لم ترد فى القرآن، وذلك هو الجانب الوحـيد الذى اهتم به المستشـرقون من أمـثال آيزنبـرج، وجرينباوم، وهـوروفتس، وسيليـجزون، ولم يهتموا بدراسة فروق بين الـقصتين فى القرآن والتوراة، ودلالات ذلك من جـهة الروح العـامـة اليهودية والعربية، وما اسـتأثر بعناية كل من اليهود والعرب من القصـة، ومردود ذلك على تفـسيراتهم لاسم أيـوب فى العربية والعـبرية. ولقـد شرحنا مضمون الاسـم فى العبرية، وبقى مضمونة فى العربية. واسم أيوب من آب أوْباً، ومآباً، أى رجع، تقـول: آب إلـى الله، يعنى تاب إليـه، والأوّاب هو التائـب، وكان أيوب من الأوّابيـن وقال فيـه الله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾(ص)، فـلأنه ابتُلى وصبر، وكان كثير الرجوع إلى الله بالاستـغفار والتوبة والإنابة، فإنه كان نِعمْ العبد. والصبر لا يقدر عليه إلا أولوا العزم، وللصابرين عُقبَى الدار، وفيهم قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ (الـسجدة٢٤)، وأيوب صار بالصبـر من الأئمة، وكان صبره فى القمة، يقول تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾(الأنبياء)، ويقول: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)**﴾(ص)، وفي هذه الآيات أكرم الله أيوب فجعله عبداً من عباده، ونسبه إلى نفسه، والخطاب فيها للنبيّ محمد ﷺ ولجماعة المؤمنين، للاقتداء بأيوب في الصبر على المكاره. **والنُصْب**: هو ما أصيب به في بدنه؛**والعذاب**: هو ما أصابه في ماله، والإجماع بين المفسرين المسلمين على أن أيوب كان غنياً جداً. وربما كانت قصة أيوب في القرآن هي المقابل لقصة قارون، فكلاهما كان عبرانياً، إلا أن قارون لم يكن مؤمناً، وكان بخيلاً بماله، ويسعى وراء الكسب بكل ما أوتي من الحيل، بينما كان أيوب مؤمناً وملتزماً. والمفسرون العرب على أن أيوب كان من البثنية من نواحي دمشق؛وفي سفر أيوب من التوراة أنه كان يسكن على تخوم الصحراء من جهة العراق في زمن الكلدانيين، وكانوا يُغيرون على الأهالي من العبرانيين من أهل غرب فلسطين. وفي التفسيرات العربية أن إبليس كان له موقف من السماء السابعة، وسأله ربّه: أقَدَرْتَ من عبدي أيوب على شيء؟ فقال إبليس: يا ربّ، وكيف أقدر منه على شيء وقد ابتليته بالمال والعافية؟! فلو ابتليته بالبلاء والفقر،ونزعت منه ما أعطيته، لخرج عن طاعتك! قال الله: قد سلّطتك على أهله وماله. ـ فانحطّ عدو الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، فتحوّلوا إلى إعصار نار أهلك مال أيوب، وجاءه قيّم ماله فأعلمه، فقال أيوب: الحمد لله، هو أعطي وهو منع! ثم جاء إبليس إلى بيته وولده، فاحتمل البيت من نواحيه وألقاه على أهله وولده. وأعلموه بما جرى، فألقى أيوب بالتراب على رأسه، ثم تاب وأناب؛ ثم إن الله سلّطه على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فجاءه إبليس ونفخ في منخريه، فانتشرت في جسمه الثآليل، فحكّها بأظفاره حتى دميت، وقال قولته: «مسّني الضُرّ» وفي الرواية الأخرى: «مسّني الشيطان»، وأصابه المسُّ بالنُصب والعذاب. ثم إن الشيطان جاء زوجه وعرض عليها أن تسجد له سجدة واحدة فيُشفي لها أيوب، فأخبرت زوجها، فأقسم أن يضربها إن عافاه الله.

وقيل في أيوب: إن سبب بلائه: أن مظلوماً استعان به فلم ينصره؛ وقيل: مَنَع يوماً فقيراً أن يدخل عنده للغداء؛ وقيل: داهن الملوك يوماً حتى لا يغزو، فابتلاه الله. وقالوا في زوجه: كانت زوجه بنت يعقوب،وكان أيوب في زمن يعقوب؛ وقيل: كانت زوجه

بنت يوسف. وكل ذلك سواء في أيوب أو في زوجه، من **الإسرائيليات**، ويصوّر مدى تمكّنها عند هؤلاء المفسرين من أمثال الطبري. وقوله: أنه كان لإبليس يومٌ في العام يصعد فيه إلى السماء السابعة ويلتقي الله، قولٌ باطل، لأنه أُهبط منها بلعنته تعالى وسخطه، فكيف يرقى ثانيةً إلى محل الرضا؟ وكيف يتسنّى له أن يجول في مقامات الأنبياء، وأن يخترق السموات العلى ويعلو إلى السماء السابعة؟ وآهٍ ثم آهٍ من الطبري هنا! وادعاؤه قوله تعالى لإبليس: «**هل قدرتَ على عبدي أيوب على شيء؟**» باطلٌ أيضاً، لأن الله تعالى لا يكلم الكفّار، فكيف يكلم أميرهم إبليس؟ وكيف يقول تعالى: قد سلّطتك على ماله وعياله وجسمه مع أنه لا سلطان لإبليس على عباد الله؟! أضف إلى ذلك أن أيوب نبيّ كما جاء في القرآن، والأنبياء قد عصمهم الله؟! والقصة كلها إذن، كما هي عند **المفسرين المسلمين**، نقلاً عن أمثال كعب الأحبار قطب **الإسرائيليات**، ملفقة ولا يقبلها عقل، **وهل يمكن أن يتراهن الله مع إبليس؟!** وقصة الرهان هذه تأثر بها جوته، **فجعل انحراف فاوست** باتفاق أيضاً مع إبليس! **والشرّ** المنسوب إلى الله **عُرفاً** في القصة، وسمح به المفسرون المسلمون، لا يفعله الله شرعاً، فصحيح أن الأعمال كلها خيرها وشرّها من الله، يعني أنه تعالى هيأ وخلق أسبابها، إلا أنه لم يأمر بالشرّ ولا يرضى به! وجعل الاختيار بين الخير والشر **مسئولية الإنسان**، ومن ثم كان حسابه. والشر لا يُنسَب إلى الله ذكْراً، وإن كان موجوداً منه خَلْقاً، **وهو تعالى خَلَق المرض،ولكنه أمر الإنسان أن يحذره ويتقيه ويتداوى منه، وعلّمنا أن نسأله العافية ونحن نستعمل الدواء،ولا نلامس المرضى؟!** وفي دعاء النبيّ ﷺ عن الخير والشر وأنهما من الله، قال: «**والخير في يديك، والشرّ ليس إليك**» أخرجه مسلم،وفي مثل ذلك قال النبيّ إبراهيم: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**(٨٠)﴾ (الشعراء). وواضح في **النص العبراني**: أن القصة وُضعت لإتاحة الفرصة **للتفلسف**؛ وأما **القصة في القرآن**: فإن أيوب فيما ورد عنه من آيات، يظل مؤمناً عارفاً بالله، ولا يحفل القرآن بما أصاب أيوب تفصيلاً، **والمهم في القصة**: استبقاء أيوب لإيمانه. ولم يصحّ عن النبيّ ﷺ أن ذَكَر أيوب بحرف واحد فيما يخص هذه القصة برمتها، ولم يتطرق القرآن إلى شيء مما ترويه التوراة، وإذن فمن أين حصل أمثال **الطبري** على هذه التفاصيل عن حياة أيوب؟! وما هي مراجعه فيها؟ فلا شك أنها **روايات اليهود له**، **والإسرائيليات** مرفوضة البتة عند المسلمين، فيا أخي المسلم،ويا أختي المسلمة، أعرضا بصريكما عن هذه الاختلاقات بشأن أيوب، وأصما أذانكما عن سماعها، فإنها لا تعطي عنه فكرة إلا تخيّلاً! **وقصة التوراة لا تزيد المفكر إلا خبالاً،وما قالته التوراة في خمس وأربعين صفحة، وتسعمائة وتسعين كلمة!** قاله القرآن في

ست آيات لا غير وسبع وستين كلمة. وفى الإسرائيليات قال ابن عباس: يا معشر المسلمين ما تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذى أُنزل على نبيكم فيه أحدث الأخبار بالله، تقرءونها محضاً لم تُشَب، وقد حدّثكم القرآن أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتُب الله، وغيّروا، وكتبوا بأيديهم الكتُب، فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(البقرة ٧٩). ومع ذلك لم ينهكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم. فلا والله، ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أُنزل عليكم!!! وهذا حق فما يسألنا اليهود، فلماذا نسألهم نحن وقد علمنا أنهم حرّفوا كُتبهم؟! ولننظر مليّا فى جمال التعبير القرآنى وإيجازه المعجز عندما يقول: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ (ص)، والركض بالرِّجل هو الدفع بها، وهو أيضًا تحريكها كما فى العدو، فلمّا ركض أيوب انصياعاً لقوله تعالى، نبعت عين ماء، وتدفق منها الماء فاغتسل به: «هذا مغتسل بارد وشراب»، فذهب الداء عنه من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه؛ قيل: العين فى الجابية بالشام، وهى عينان، اغتسل من واحدة وشرب من الأخرى. والأمر بالركض بالرِّجل ليتناثر عن أيوب الداء منها ومن جسده كله، وهذا هو ما نعرفه بالعلاج بالركض، أو العدو، وهو من فوائد هذه الآيات المباركة، وقال به الطب العلاجى والنفسى حاليًا، ومنه العلاج بالمشى رَهْوا لا عدواً. كما أن الشراب والاغتسال من العيون المعدنية علاجٌ أكيد لكثير من الأمراض الجلدية، وخاصةً المياه الكبريتية، ومنطقة شرق فلسطين مشهورة بوجود الكبريت فى أرضها ومياهها، والعيون من هذا النوع كثيرة، والكبريت علاج ناجح، والعلاج بالماء **hydrotherapy** من العلاجات الطبية والنفسية كذلك مما ينصح به أطباء اليوم. ولم يكن قول أيوب «مسّنى الضر» جزعاً، بل كان دعاءً منه، والجزع فى الشكوى إلى الخَلْق لا إلى الله، والدعاء لا ينافى الرضا، والدليل أنه دعاء أن الله تعالى قال: «فاستجبنا له»، والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء، فلما استجاب له، وهو أرحم الراحمين، آتاه أهله ومثلهم معهم، رحمةً من عنده، يعنى ولدت له امرأته البنين والبنات، فعُوِّض عمّن مات، وكان أولاده قد ماتوا ابتلاءً قبل آجالهم. ومثلما أمره تعالى أن يركض برجله، أمره أن يأخذ ضغثاً، أى حزمة من الحشيش المبلول ويضرب بها نفسه لا تأخذه بها رحمة،، وهو نوع آخر من العلاج قصد إليه بقوله تعالى: «لا تحنث» ، أى لا تقلل الضرب ولا تنقصه لكى يتم له الشفاء وتتنبّه حواسه جميعاً، ويندفع الدم إلى خلايا جسمه الذابلة، وتزيد يقظته ووعيه. وقيل: كان أيوب قد أقسم إذا شفاه الله أن يضرب زوجته مائة جلدة لأنها سمحت أن يكلمها إبليس ويقنعها أن تسجد له ليشفى زوجها؟! ولو لم تعتذر بضرورة أن تستأذن زوجها أولاً لفعلت؟!وقيل:

إن أيوب ضربها ضربة واحدة بحزمة الحشيش المبلول، وكان بها مائة عود، فاعتبر أنه ضربها مائة جلدة. **ولا نصدق أنه ضربها فعلاً**، فقد ظلت زوجة له عندما انصرف الكل من حوله في مرضه، واستقذروه حتى أبعدوه عن بلدتهم،وكانت تعمل بيديها خادمة في البيوت لتستطيع أن تطعمه. وقيل: إنها في إحدى المرات لم تجد ما تطعمه به فباعت ذوائبها ـ أي جدائلها ـ نظير رغيفي خبز، فهل مثل هذه المرأة يمكن أن يضربها زوجها عندما يشفي بعد ثماني عشرة سنة من المرض والمعاناة؟! لا نعتقد ذلك، وتأباه إنسانيتنا، وتستنكره عقولنا، وقد أخطأ المفسّرون العرب والمسلمون أيّما خطأ عندما شنّعوا بهذه التشنيعات، فاحذر يا أخي المسلم كتُب التفسير هذه. ولقد استشعر الوجدان الشعبى حبّ امرأة أيوب لزوجها فنسج الشعراء فيه القصائد، وروى القصّاصون الحكايات، وجاء أن اسمها ناعسة، فصارت «حكاية أيوب وناعسة» من الأدب الشعبي المشهور والمحبوب. والدليل أن أيوب استخدم الضِّغْث ليضرب نفسه لا زوجه ولم يحنث، قوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** (٤٤) ﴾(ص)، فكان مثلاً فى الاحتمال، وصار كما يقول القرآن: ﴿**وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** (٨٤) ﴾(الأنبياء)، يعني يذكرونه في زمنه وفي غير زمنه، فإذا ذكروا بلاءه وصبره عليه وهو الذى كان أسعد وأحظى أهل زمانه، تنبّهوا لمداومة عبادة الله واحتمال المضار مثله.

وقيل: إن أحدهم سُئل عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر، وأُنعِم على الآخر فشكر، فقال إنهما **أيوب وسليمان**، وكلاهما سواء، لأن الله تعالى أثنى عليهما معا: **الصابر والشاكر**، فقال فى أيوب: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾، وقال فى سليمان : ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾! والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٨٠٤- ﴿مخاطبات أيوب لربّه من سفر أيوب﴾

اسم «أيوب» اسم قديم لم يبتدعه مؤلفا «سفر أيوب»، فقد ورد ضمن بعض وثائق فى **العمارنة**، وأسلوب أيوب فيه استلهم سفر إرميا، وألهمت مخاطباته الكثير من الفلاسفة الحكماء العرب وغير العرب، وموضوعه الخير والشر، وفيه أن المصائب ليست سوى عقوبات ناتجة عن الآثام، ونفس هذا الكلام ردّده **الحواريون** تلاميذ المسيح عند رؤيتهم للأعمى منذ ولادته (يوحنا٩/١). وهذه بعض مخاطبات أيوب لربّه كمثال لأسلوبه، تقول المخاطبات:

● بعد ذلك فتح أيوب فاه ولعن يومه وقال: لا كان نهار وُلدتُ فيه، ولا ليلٌ قيل فيه قد حُبِل برجل. ليكن ذلك النهار ظلاماً، ولا رعاه الله من فوق، ولا أشرق عليه نور. لتستبد به الظلمات وظلال الموت، وليقر عليه غمام، ولتروّعه كواسف النهار.

● أقول لله لا تؤثّمنى. أعلمنى على أى شىء تخاكمنى؟ على علمك بأنى لست بمنافق، وأنه لا منقذ لى من يدك؟ أذكر أنك صورتنى مثل الطين، أفتعيدنى إلى التراب؟

● إنما الحكمة عند الأشيب، والفطنة فى طول الأيام. الله عنده الحكمة والجبروت، وله المشورة والفطنة. ذلك كله رأته عينى وسمعته أذنى وفطنتُ له. وما تعلمون فإنى أنا أيضاً أعلمه لا أقصر عنكم فى شىء. لكننى إنما أخاطب القدر وأود أن أحاجّ الله. اسكتوا عنى فأتكلم مهما أصابنى. أمرين يا ربٍّ لا تفعل بى. أزل عنى يدك ولا تروعنى هيبتك.

● الإنسان مولود المرأة، قليل الأيام، كثير الشقاء. فاصرف عنه طرفك ليستريح إلى أن يفى نهاره كالأجير.

● أيامى قد انقضت وتقطّعت مسآربى التى هى حظ قلبى. جُعِل ليلى نهاراً، ونورى يكاد يكون ظلاماً. ما رجائى؟ إنما الجحيم بيتى، وفى الظلام مهدتُ مضجعى. قلتُ للفساد أنت أبى، وللديدان أنتِ أمى وأختى. إذن أين رجائى؟ رجائى مَن يراه؟ إنه يهبط إلى أبواب الجحيم. لا جَرَم إن فى التراب لراحة.



٨٠٥- ﴿نهاية أيوب من سفر أيوب﴾

بعد أن يتفلسف أيوب - كما جاء بسفر أيوب - ويطرح أسئلة الشك عنده، والتمرُّد على وضعه، يُبدى الندم والاستغفار ويتوب إلى ربّه، ويصلى من أجل أخلائه، فيردّ الربّ عنه بلاءه، ويُرجع إليه ماله وعياله، ويزيده ضِعْف ما كان له قبلاً، ويبارك آخرته أكثر من أولاه، فيكون له من الغنم أربعة عشر ألفاً، ومن الإبل ستة آلاف، ومن البقر ما يزحم ألف فدان، وألف أتان. وكان له سبعة بنين وثلاث بنات. ولم توجد نساء فى الحُسن فى الأرض كلها كبنات أيوب، وأعطاهن أبوهن ميراثاً بين إخوتهن، وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة، ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال، ثم مات شيخاً مؤمنًا قد شبع من الأيام، وهذا كله من بركة الإيمان! ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(الأعراف).



٨٠٦- ﴿قصة الألوف الذين خرجوا حذر الموت﴾

هؤلاء من بنى إسرائيل تذكرهم الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ

حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾(البقرة)، والخطاب فيها للنبيّ ﷺ، ثم لكل مؤمن بالله، يقول له: «ألم تر»، والرؤية رؤية القلب، بمعنى ألم تعلم، أى تنبّه أو تنبهّوا إلى أمر هؤلاء، وقصتهم أنهم وقع فيهم الوباء، فخرجوا هاربين، ونزلوا وادياً، فأماتهم الله. وقيل كانوا أربعة آلاف فرّوا من الطاعون يطلبون أرضاً ليس بها موت، فأماتهم الله، فمرّ بهم نبيّ فدعا الله فأحياهم. وقيل ماتوا ثمانية أيام، أو سبعة أو ثلاثة أو يوماً واحداً، عقوبةً لهم، ثم بعثهم الله إلى بقية آجالهم. وقيل اسم النبيّ هذا هو شمعون - وليس في بنى إسرائيل نبيّ اسمه شمعون. وقيل إنهم فرّوا من الحُمّى، والمعقول أنهم فرّوا من الجهاد لّما أُمِروا به وكتبه الله عليهم على لسان حزقيال - وحزقيال هذا من أعدى أعداء مصر، وللأسف فإن الأقباط فى مصر يقرأونه ويصلّون بترنيماته عن الابتلاءات والمصائب يدعو بها على مصر وشعبها، فكيف يكون عندهم ولاء بعد ذلك لمصر؟ يقول حزقيال: السيف يأتى مصر (٣٠/ ٤)، حين سقط القتلى فى مصر، ويُسبَى جمهورها، وتُهدَم أسسها.. وتكون مصر سافلة بين الممالك ولا ترتفع من بعد على الأمم فإنى أقلل أعدادهم لئلا يتسلطوا على الأمم» (٢٩/ ١٤-١٥)، ولم أجد ضمن هذا السفر قصة كقصة هؤلاء الناس فى الآية -«الألوف الذين خرجوا حذر الموت».

وقيل إن هؤلاء الفارين لّما خرجوا من ديارهم حذر الموت، أماتهم الله ليعرّفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد. وكل هذه الروايات من الإسرائيليات وليس لها إسناد، وإنما اللازم من الآية أن نتنبّه إلى أمثال هؤلاء الفارين، وأن نتوقف أمام مصائرهم، ونفيد من قصتهم: أن الإماته بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر. وقوله تعالى: «وهم ألوف» جمع ألف، وهو جمع كثرة، ولا يقال ألوف فى عشرة آلاف فما أقل، وهم على ذلك أكثر من عشرة آلاف. والموت الذى أماتهم هو موت عقوبة ولذلك أحياهم، لأن ميتة العقوبة بعدها حياة، وأما ميتة الأجل فلا حياة بعدها. وقيل: الذى قال لهم موتوا فماتوا ليس الله، وإنما أمَر به مَلَكٌ. وفقهُ هذه القصة يشير به الحديث عن الطاعون: «رجز أو عذاب عُذّب به بعض الأمم، ثم بقى منه بقية، فيذهب المرة ويأتى الأخرى، فمن سمع به بأرض فلا يقدمن عليه، ومن كان بأرض وقع بها فلا يخرج فراراً منه»، وفى ذلك دلالة على توقّى المكاره قبل نزولها، وتجنُّب ما يخيف قبل قدومه، والصبر وترك الجزع بعد نزوله، ومثل ذلك قوله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وسَلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا». ولما قال أبو عبيدة لعمر عندما سمع بالطاعون فى بلدة فرجع: أفراراً من قَدَر الله؟ قال عمر: نعم، نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله! - يعنى لا

ــحيص للإنســان عــمّا قــدّره الله له وعليــه، ولكنه تعالي أمــرنا بالتــحرّز من المخــاوف والمهلكات، وباستفــراغ الوسع فى التوّقى من المكروهات، وهذا هو الدرس المســتفــاد مــن قصة الألوف الذى خرجوا حذر الموت.



﴿قصة النبيّ إلياس﴾

٨٠٧- ﴿من كان إلياس؟ وهل هو إيليا فى التوراة؟﴾

يذكر القرآن النبىّ إلياس **Elias** مرتين، يقول: ﴿ **وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)** ﴾(الأنعام)، ويقول: ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)** ﴾(الصافات)، وقيل: اسم إلياس تصحيف عربى للاسم العبرى إيليا **Elijah**، ويُعرف عند اليهود باسم إيليا التشبى لأنه وُلد فى تِشْبَة على الأرجح وإن كان قد عاش فى **جلعاد**، فى عهدى الملكين أخاب وأحازيا. وقوله تعالى عن إلياس أنه «من الصالحين» لأنه كان زاهدًا يدعو إلى الخير، ويلبس **الشَّعْر** ـ أى الصوف ـ ويتمنطق بالجلد، كالنبىّ **يحيى**، ويسكن **البرية** غالباً. وحارب الفساد والكفر اللذين نشرتهما **إيزابل** بدعوتها لعبادة البعل عن عبادة الله. ومن المفسرين العرب من يقول إن **إلياس أو إيليا هو** نفسه النبىّ إدريس، وعن ابن مسعود قال: «**إن إلياس هو إدريس**». وقال **وهب** بن منبه -وهو أصلاً يهودى: **إدريس هو إلياس بن نسّى بن فنحاص، بعثه الله بعد حزقيال**». ولم نجد أن إليــاس ـ الذى هو إيليا بالعبــرية ـ ينتسب لنسّى. ولا أن اسم أبيه **نَسّى!** وقال ابن **منبّه** نقلاً عن التوراة: إلياس أُرسل لقوم يعبدون الصنم **بعل**، فدعاهم إلى **الله**، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن ملكهم بالله ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به أحــدٌ منهم، فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القَطْر (المطر) ثلاث سنوات، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى، فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر. فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه **اليشع بن أخطوب**-ويقصد **اليشع** بن شــافــاط! والصحيح أن القرآن قد ذكر إليــاس كما فى الآيتين السابقتين، وذكر **إدريس** مستــقلاً عن إليــاس، قــال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦)**﴾ (مريم)،

وقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)﴾ (الأنبياء) وإذن **فإلياس بخلاف إدريس**. وقيل إنه **أخنوخ** في التوراة، والصحيح أن قصة إدريس فيها من قصة إلياس، ولكن **إلياس في القرآن ليس إدريس بالتأكيد**. وما ورد في القرآن في صفات إلياس لا ينطبق حتى على إيليا، ولا نفيد شيئًا من قصة إيليا في التوراة رغم طولها، وعكس ذلك في القرآن، فمن طريقته الإيجاز والإجمال في القصص، والمهّم في القرآن هو: **الموعظة والمستفاد من القصة، أو من إيراد اسم هذا النبيّ أو ذاك باعتبار ما دعا إليه وجاهد من أجله، وأن ما نزل من القرآن على محمد يصدّق ما بين يديه، يعني ما جاء قبله. والبعل** الذى ورد في قصة إيليا قال في معناه ابن عباس: إنه **الربّ**، وقال غيره هو لغة أهل اليمن عما كانوا يعبدونه، وقال آخرون إنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها **بعل**، وقيل هو اسم صنم كان يعبده أهل **بعلبك**، وفي الآية: **﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾** (الصافات ١٢٥) أي أتعبدون صنماً؟ والصحيح أن البعل اسم **سامي** معناه ربّ أو سيد أو زوج، والجمع في العبرية **بعليم**، وفي الاصطلاح هو إله كنعاني، وكان ابن الإله **إيل**، وزوج الالاهة **بعلة**، المسماة أحيانًا **عشيرة**، أو **عنات**، أو **عشتاروت**، ويعرفونها أحياناً باسم **هدد**، وكان إله المزارع وربّ الخصب في الحقول وفي الحيوانات والمواشي. وكانوا مولعين بعبادته ويضحّون **بالذبائح البشرية** له (إرميا ١٩/٥)، ويبنون له المباني الضخمة، ومن ذلك مدينة «**بعلبك**» في لبنان، ومعنى الاسم «**مدينة البعل**». والإسرائيليون عبدوه وجعلوه من آلهتهم (ملوك أول ١٨/١٧ - ٤٠، ويشوع ١٧/٢٢، وعدد ٢٥/٣، ٥، ١٨، والمزامير ١٠٦/٢٨، وتثنية ٤/٣). وكانت دعوة إيليا الذى يقال إنه إلياس - ضد البعل، باعتبار الله تعالى أحسن الخالقين، أي المستحق وحده للعبادة، لأنه الخالق الأول الذى يُرَدّ إليه كل الخلق، وما خلقَهُ هو الأحسن والأفضل، وليس باستطاعة أحد مجاراته، وكان إيليا أو إلياس، ملحاً في دعوته حتى أن **الملك أخاب** لما التقى به قال: **أأنت إيليا مُقلق إسرائيل**؟ فذهبت مثلاً. وكانت **إيزابيل** قد أكثرت من قتل الأنبياء، فكان الأحرى بإيليا أن يخاف، ولكنه طلب من الملك **المباهلة**: وهى أن يستحضر **أنبياء البعل الأربعمائة والخمسين**، ويواجههم إيليا وحده، لأنه لم يعد من أنبياء الله سواه، ويؤتى بثورين يذبحان ويقطعان ولا يوقد تحت أي منهما بنار، وإنما يدعو أنبياء البعل على إلههم، أن يتقبل قربانهم ويشوى الثور، وفعلوا ذلك، ولم يحدث شيء، وجاء دور إيليا، فأعد محرقة كما ينبغي، ووضع لها الحجارة والحطب والماء، ونضدّ لحم الثور على الحطب، ودعا ربّه فاستجاب له، وهبطت **نار الربّ** وأكلت قربانه بحطبه ومائه وحجارته، فهتف الشعب: **الربّ هو الإله!** وأمر إيليا بالقبض على أنبياء البعل، وأنزلهم إلى نهر

قيشون، وذبحهم هناك! وقيل: لما فعل ذلك نزل المطر، فشرب الناس وسقوا بهائمهم والزروع وانتهت المجاعة. وتوعدته **إيزابيل**، وطاردته فلول أتباعها، فهرب إلى بئر سبع، والتمس من الله الموت يأسا وزهدًا، واضطجع ونام، فجاءته الملائكة فى الرؤيا، واستيقظ ليأكل طعامهم، فتقوّى، وسار أربعين يوماً بلا طعام، اعتماداً على هذه الأكلة، يقصد إلى جبل حوريب، وصعد الجبل يشكو إلى ربّه ظلم شعب إسرائيل، ونكثهم للعهد، وتقويضهم لمذابح الربّ، **وقتلهم أنبياءه بالسيف** حتى لم يعد منهم أحد سواه، وسعيهم خلفه يطلبون نفسه وقد بقى وحده، وعندئذ كانت ريحٌ عظيمة وزلزلة شديدة **وكلّمه الله**، فارتحل تبعاً لما أمره، ليمسح **حزائيل** ملكاً على أرام، **وياهو** ملكاً على إسرائيل، فيكون أن من يفلت من سيف **حزائيل** يلقى سيف ياهو، والتقى بالنبىّ **اليسع** فتبعه. وكان أن إيليا ضرب نهر الأردن بردائه فانفلق الماء وجاز النبيان، ثم جاءت **مركبة نارية، وخيل نارية**، فصلت بينهما، وصعد **إيليا فى العاصفة** نحو السماء، واليسع ينظر ويصرخ، **وحلّت به** روح إيليا - وكانت لإيليا معجزات أكثر مما **للمسيح!** والسؤال: **فلماذا لم يعبد اليهود إذن إيليا كما عبد النصارى المسيح؟** وكلاهما: اليهود والنصارى يقولان **بالرفع** - بدعوى أن الله رفع **إيليا** المسمى إدريس فى زعم البعض، **ورفع المسيح** المسمى عيسى، ويقول اليهود إن **إيليا سيعود**، ويقول النصارى **المسيح سيعود**. وتلك إذن **قصة إيليا** فى التوراة، التى أوجزها القرآن فى إعجاز، وقيل: إن القرآن أطلق عليه الاسم العربى **إلياس**، ثم سمّاه فى فخار شأن العظماء من الأنبياء «**إلياسين**»، قال: ﴿**سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ** ﴿١٣٠﴾﴾ (الصافات). ومن ذلك قراءة البعض لاسم إدريس النبىّ «**بإدرسين، وإدراسين**» على أنها لغات فى إلياس وإدريس. وقُرئ الاسم «**إل ياسين**»: «**آل ياسين**»، **والآل** هم الأهل، وهم أهل دينه ومن كان معه على مذهبه. ومن قرأ ﴿**سلام على آل ياسين**﴾، جمع جمع التسليم على أنه وأهل بيته سلّم الله عليهم. وقيل إن ﴿**إلياسين**﴾ جمع **إلياس**، وسلامه على آل ياسين يعنى على كل رجل فيهم، أو أنه جمع **إلياسى** نسبةً إلى ياسين وحذفت ياء النسبة. وقرئ أيضاً ﴿**سلام على ياسين**﴾ **بإسقاط الألف واللام**. وقيل إن قراءة إلياس **الياسين مثل قوله تعالى فى موضع «طور سيناء»، وفى موضع آخر «طور سينين»**. وقيل **آل ياسين** هم آل محمد، **وياسين** هو اسمٌ لمحمد، وهو قول غريب يُخرج المعنى عن مضمون الآية! ثم إن ﴿**يس**﴾ و﴿**حم**﴾ و ﴿**آلم**﴾ ونحو ذلك، القول فيها واحد، وهى أنها حروف مقطّعة مأخوذة من أسماء الله، أو من صفات القرآن، أو أن فى كل كتاب سرّ، وسرُّه فى القرآن فواتح السور. ثم إن رسول الله ﷺ قال: ﴿**لى خمسة أسماء**﴾ ولم يذكر فيها ﴿**ياسين**﴾،

وجاءت التلاوة فى ياسين بالسكون والوقف، فلو كان اسما للنبىّ ﷺ لقال ياسينُ بالضم.

ومن الغريب أن ابن مسعود فى إثبات قوله أن إلياس هو إدريس قرأ الآية: ﴿وإن إدريس﴾، وقال ذلك أبو حيان، وآزره عكرمة فقال: هو فى مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿وإن إدريس لمن المرسلين﴾ وانفرد بهذا القول. وعن ابن عباس أن إلياس عمّ اليسع، وأنه كان القيّم على بنى إسرائيل بعد يوشع وحزقيال، فلما قُبض حزقيال النبىّ عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس نبياً، وتبعه اليسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربّه أن يريحه منهم، فقيل له: اخرج إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شىء فاركبه ولا تهبه، فخرج ومعه اليسع، فقال: يا إلياس ما تأمرنى؟ فقذف إليه بلسانه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بنى إسرائيل، وكان ذلك آخر العهد به. وكان إلياس قد قطع الله عليه لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش، وألبسه النور، فطار مع الملائكة، فكان إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً!! وفى تفسير ابن قتيبة: أن إلياس سأل ربّه أن يؤخر عنه مذاقة الموت، فصار يطير مع الملائكة. وقيل: إلياس والخضر كلاهما فى السماء يعبدان الله، وإنهما ليقولان: «ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله. ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله. ما شاء الله، ما شاء الله، توكلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل»!! ورُوى عن أنس من شطحاته أن الرسول ﷺ كان فى غزوة، فلما كان عند فج الناقة عند الحِجْر، سمع صوتاً، وكان النبىّ إلياس يُقرىء النبىّ محمداً السلام، وأنهما تحدثا طويلاً، وطعما معاً! وفى القرآن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) ﴾(الصافات)، قيل: فعن ذلك فى التوراة أنهم كانوا سبعة آلاف قد ورمت رُكبهم من السجود؛ وفى القرآن كذلك أن اليسع «من الأخيار»، يعنى ممن اختير للنبوّة، والأخيار جمع خيرّ، وهم المصطفون، اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته، ولذا قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) ﴾(الصافات)، يعنى له الثناء الجميل والذكر الحسن كلما ذكر اسمه فيمن تلا ذلك من الأجيال، وقال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾(الصافات)، قيل: فلأنه آمن بالله وأبلى البلاء الحسن فكان جزاؤه الجزاء الحسن، فجمع له حُسن الأحدوثة، والسلام عليه يقرن باسمه، وكانت له درجة الإحسان، لأنه كان من الذين أعطوا العبودية حقها وآمنوا بالله حتى استحقوا الإضافة إليه تعالى. والخلاصة: أن الكلام عن إلياس فى القرآن لا يحتمل كل هذه التخريجات والتهاويل، والتأويلات، ويكفى أن نعلم عن إلياس ما ذكره القرآن دون

إضافات واجتهادات وتلفيقات. وهذا هو التفسير الأمثل الذى نعتقده وأدعو إليه. والحمد لله ربّ العالمين.

•••

﴿قصة اليسع﴾

٨٠٨- ﴿القرآن لم يصادر على شيء من قصة اليسع فى التوراة﴾

يأتى اسم اليسع فى القرآن مرتين، قال تعالى: ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٨٦﴾ ﴾(الأنعام)، وقال: ﴿ **وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ** ﴿٤٨﴾ ﴾(ص). واليسع تصحيف عربى للاسم العبرى أليشَع **Elisha**، قيل أصل الاسم العربى «**يسع**» والألف واللام زائدتان؛ ومعنى الاسم العبرى: **الله هو الخلاص، أو المخلّص هو الله**، وكان من أنبياء بنى إسرائيل، وتذكره أسفار **الملوك، الثانى والثالث والرابع**، ولا يذكره القرآن إلا **اسماً**، يقول إنه من **المفضّلين** على العالمين، فحكم له **بالفضل** والسبق فيه، وأدرجه ضمن أهله ومن لهم **الفاضلة**، أى الدرجة الرفيعة، ووصفه بأنه من الأخيار، أى من خِيرة الناس، ومن أفضلهم من كل شيء. وفى التوراة أنه **اليسع بن شافاط**، من سبط **يساكر**، وكانت إقامته فى **آبل محولة** من وادى الأردن، وينتسب إلى عائلة ثرية، فقد كانت أملاك أبيه الزراعية شاسعة حتى ليحتاج لحرثها إلى اثنى عشر زوجاً من **الثيران**. ولما التقى بالنبىّ **إلياس** الذى هو **إيليا** بالعبرية - كقول البعض - تبعه وسار على نهجه، وقيل لذلك إن اليسع أو **اليشع هو الخضر**، وقيل بل العكس هو الصحيح، فإلياس هو الخضر واليسع كان **فتاه ورحل معه لا** يفارقه، كما كان **يوشع فتى موسى**، وكان يخدمه ويصبّ على يديه الماء، وحاول إنقاذه لمّا رآهم يأخذونه، ورُفع إلياس أمامه إلى السماء، وحلّت روحه على اليسع، فهذا هو «**الحلول**» فى اليهودية، ومع ذلك يدّعون أنه لا حلول فى ديانتهم؟! **والحلول** سيكون بدوره فى **النصرانية**، وقد سجد له المؤمنون به - فهذا هو **السجود** الذى رفضه النبىّ ﷺ لمّا اقترحه بعض الصحابة لتحيته - ومع ذلك كان الصبيان يسخرون منه، لأنه كان **أجلح** يعنى **أصلع الرأس**، على خلاف معلمه وسيده إلياس، وحتى فى الملابس كان على خلافه، فقد كان يرتدي **الملابس العادية** بينما إلياس كان يلبس **الشَّعْر** - يعنى صوف الغنم، ويتمنطق بجلده على حقويه، وكان يسير مستنداً إلى عكاز، فكان أشبه **بالصوفية**، ولذلك اعتبروه قدوة لهم، ولم يقتدوا بمعلمه. ثم إنه كان كثيراً ما يسكن **الحواضر والمدن** على عكس إلياس الذى كان يسكن **البرية**، وكانت له عليّة صغيرة

في السامرة عند **الأسرة الشونمية**، وفيها سرير ومائدة وكرسي ومنارة، وكان يأوى إليها كلما حضر إلى المدينة في رحلاته النبويّة. وكانت له **كرامات** أو **معجزات** بحسب اعتبارنا له، فإنْ عددناه من **الأولياء فهي كرامات**، وإن عددناه من **الأنبياء فهي معجزات**، ومن ذلك أفعاله مع **الأرملة** التي ما كانت تجد ما يقيتها وابنيْها بعد وفاة زوجها، فبارك الزيت الذى تبيعه، فكلما أشرفت أوعيته أن ينضب فيها الزيت، عادت إلى الامتلاء، فكانت تبيعه وتقضى دينها، وتعيش هى وابناها؛ ولمَّا شكت له **الشونمية** أنها لا تلد، وزوجها شيخ، باركها فولدت ابنًا؛ ومرض الابن يوماً ومات، فركبت الأم إلى جبل الكرمل حيث يقيم، وحاول خادمه **حيجزى** أن يصرفها عنه، ولكنها ارتمت على قدميه، فقام إلى الصبى وارتمى عليه، وجعل فاه على فيه، وعينيه على عينيه، وكفيّه على كفيّه، وتمدد عليه حتى سخن جسد الصبى، فعطس سبع مرات وفتح عينيه. وشكا له **أهل أريحا** أن ماء بلدهم ردىء، والأرض مجدبة بسبب ذلك، فأضاف **ملحاً** إلى منبع الماء، فصفى الماء وعَذُب (ملوك رابع ٢/ ١٩ ـ ٢١). وتنبأ بنجاح **الحملة على مواب**، **وأمطر السماء** ليشرب الجنود والناس والماشية والبهائم (ملوك رابع ٣/ ١٧/ ١٨)؛ وأبطل **السمّ** في قدور الرجال ليأكلوا (ملوك رابع / ٤٠ ٤)؛ **وأطعم مئة رجل بعشرين رغيفاً** (ملوك رابع ٤/ ٤٣)؛ وشفى **نعمان الأرامى** من برصه، بأن أمره أن يغتسل سبع مرات في الأردن، ففعل وشفى، **فتهوّد** هو ومن معه (ملوك رابع ٥/ ١٩)، ولمَّا أخذ خادمه **حيجزى** مكافأة على شفائه دون علمه، عاقبه بأن أصابه بالبرص الذى كان **بنعمان** مدى حياته (ملوك رابع ٥/ ٢٧)؛ ولما سقط **الحديد في الماء** وكان عارية، جعله يطفو إلى السطح على **عكس قوانين الفيزياء** (ملوك رابع ٦/ ٥)؛ وعرف غيباً بمكامن جيش الأراميين فحذّر الإسرائيليين، وحدث ذلك عدة مرات، حتى أن ملك **أرام** اتهم أحد أتباعه بأنه عميل الإسرائيليين بين جنوده، وأنه يبلّغهم بتحركاتهم (ملوك رابع ٦/ ١١)؛ ودعا على غزاة **أرام** فضُربوا بالعمى، ثم دعا لهم فأبصرت عيونهم، فصنع لهم مأدبة عظيمة فأكلوا وشربوا، ثم أطلقهم فلم يعودوا يأتون إلى أرض بلاده (ملوك رابع ٦/ ٢٣)؛ وتنبأ في **حصار السامرة** أن المجاعة ستنتهى والحصار سيرفع (ملوك رابع ٧/ ٤)، وأرسل إلى **ياهو بن يوشافاط** من يمسحه بالدهن ويبشّره أنه سيكون ملكاً على إسرائيل وقد كان (ملوك رابع ٩/ ١). ومرض اليسع وزاره **يواش** ملك إسرائيل، فتنبأ له أنه سيضرب الأراميين **ثلاث** مرات، وقد كان؛ ومات اليسع فدفنوه، وفى عدوانٍ للأراميين كان جماعة يدفنون أحد الموتى، فلما لمحوا الغزاة رموا الميت في قبر اليسع، ومسّ الميت عظامه فعادت إليه الحياة وقام على قدميه. فإلى هذا الحد إذن كانت معجزات اليسع أكبر من معجزات **المسيح**؟! وكانت لفائدة الناس أكثر مما كانت معجزات المسيح، **ومع ذلك عَبَد النصارى المسيح ولم**

يعبدوا اليسع! لماذا؟!

وبعد فهذه حكاية اليسع الذى ورد ذكره فى القرآن، فقد كان من الأخيار، أى من المصطفيــن الذين اصطفوا للرســالة والنبوّة، فهــو يُذكَر فى القــرآن هذا الذكر الجــميل فى الدنيا، والذكــر شرف له طالما الدنيــا قائمة، ومن أجل ذلك كــان تفضيله عــلى العالمين، والذِّكْــر فى الآخــرة حُسن مــآب، يعنى هو المرجع الحــسن للحــســاب. والحمــد لله ربّ العالمين.



«قصــة موســى والفرعــون»

٨٠٩- «فرعون موسى لم يكن مصرياً»

الغزو التوراتى للتاريخ المصرى القديم، وزخم الإسرائيليــات لتفسير القرآن حول قصة فرعون موسى، واضحٌ وصريحٌ فيما يتعلق بالأسماء، وخاصة اسم فرعون، ويرد فى القرآن ٧٤ مرة،وقال مفسرو القرآن أنه اسم كل ملك كان يحكم مــصر، وهذا غير صحيح، لأن لفظة فرعون كلمة أشورية، وكانوا يطلقونها على الملوك العماليق، فظن العرب أن عماليق تعنى جبابرة، وعلى ذلك كان اسم فرعون يعنى الملك الطاغية، وأن كل ملك حكم مصر حكماً مستبداً فاسمه فرعون، وأنه اسم كالنــجاشي عند الأحباش، وقيــصر عند الروم، وكــســرى عند الفرس. غير أن السُّــوَر التى استخدمت الاسم «فــرعــون» هى التى كــان اهتمامها بسرد قصص الأنبياء الثلاثة: إبراهيم، ويوسف، وموسى، وهؤلاء الثلاثة لم يدخلوا مصر بالمعنى الصحيح وإنما اكتفوا بمخالطة حكام إقليمها الشرقي الذى كان اسمه جاسان أو جاشان، وكان الناس فيه أكثرهم من الأجانب، وكان عرضة للغزو، وكان ملوكه لذلك من الأجانب، وأكــثرهم أشــوريون، وعندهم أن الملك الأوحد، أو الملــك الكامل القوى هو الفــرعون، والدليل أن الفرعون كان اسمــا أجنبيًا أنه جاء فى التوراة كلقب للملك شيشق بالعبرية، الذى هو شيــشنق بالمصرية، وكان شيشنق ليــبى الأصل، والملك سوا ـ وكان معاصراً لهــوشع من ملوك إسرائيل (ملوك ٢/١٧/٤) والملوك ترهاقــة أو تهــرقا، ونخــو، وحفرع الذى هو همبريع عند المصريين وإبريز عند هيرودوتس، والذى أعطى هؤلاء اسم فرعون واختصّهم به هو عــزرا أو عزير كاتب التوراة، ونقله عن الثقافة السامية الأشورية الأرامية السريانية، ثم نقله المؤرخون الغربيون عن التوراة ومن ثم انتشر الاسم، وبعد ذلك تعرّب، وصار منه تَفَرْعَن أى تكبّر، ومنه آل فرعون وهم ملاؤه، والقرآن يذكرهم ثلاث عشــرة مرة، كطغمة فرعون وحــاشيته، وذلك دليل على أنهم كانوا من الأجــانب. وقــول

القرآن أن فرعون علا في الأرض واستكبر كان رصداً لما كان يفعله ملوك الهكسوس في أرض جاسان (طه ٢٤)، والفرق بين هؤلاء وملوك مصر، أن ملوك مصر كانوا متدينين، بينما الفراعنة الأجانب كانوا من العتاة، فضلّوا وأضلوا (طه ٧٩)، وبلغ من خوف الناس منهم أن كانوا إذا أقسموا يحلفون فيقولون: «وعزة فرعون» (الشعراء ٤٤)، وصرّحوا بكُفرهم، واستقووا، وساموا الناس صنوف العذاب والظلم (البقرة ٤٩). ولم يكونوا يخشون المصريين، وإنما خوفهم من أغراب مثلهم وخاصة العبرانيين، فقد زاد عددهم حتى صاروا أكبر جالية أجنبية فى جاسان، فاستغلوهم أبشع استغلال، واستحيوا نساءهم، وقتلوا أبناءهم، وكان السواد من الناس مصريين، وكانوا فلاحين، بينما العبرانيون رعاة، والهكسوس الأشوريون حكامًا وصفوة، ولما جاء موسى وهارون دبّروا لقتلهما. وفرعون موسى لم يكن يعرف البتة معنى الإله، وهذا لم يكن شأن ملوك مصر الحقيقيين، فاتّهم موسى بالكذب، وجَمَع السحرة ليغلبوه على سحره، وهو دليل آخر على أن هؤلاء جميعاً والسحرة لم يكونوا مصريين، لأن السحر لم يكن معروفاً في مصر، والذى كان معروفاً فيها هو العلم وليس السحر! والسحر يسمونه العلم الكاذب، وعلم المصريين كان العلم الحقيقى. ولم يحدث فى تاريخ مصر أن نطق ملك من ملوكها بعبارة كهذه العبارة: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾(غافر)، فهذه العبارة يعرفها ملوك «العماليق»، أو «الجبابرة»، أو «الفراعنة» من أهل بابل وأشور. ودليل آخر على أن هذا الفرعون لم يكن مصرياً هو سؤاله لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)﴾(الشعراء)، فذلك مما يعلمه المصريون يقيناً، ولهم في ذلك مزامير شهد بريستيد أن الإسرائيليين كتبوا مزاميرهم على منوالها. ومن شأن الأغراب حينما يحكمون بلداً أن يفرّقوا بين أهله، وفى الأمثال: ﴿فرّق تَسُد﴾، وذلك ما بنى عليه الفراعنة الهكسوس- والأجانب عموماً -حكمهم للأرض التى يستولون عليها من مصر (القصص ٤). وكان هامان كما يوحى اسمه الأشورى، أشورياً خالصاً، وكان قائد جند فرعون ووزيره الأول ومُعينه على الظلم. وقصة هذا الفرعون مع موسى لا تحكى عن ظُلمه للمصريين، فلو كان مصرياً ويحكم مصر كلها لسامَ مصر والمصريين صنوف العذاب، ولنوّه بذلك القرآن، وإنما القرآن قال على لسان الفرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ (الزخرف ٥١)، والاسم «مصر» تطلق على الأرض كلها، وعلى جزء منها. وعن نوع حُكمه قال القرآن على لسان جماعته: ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾(غافر ٢٥)، وما هكذا كان يحكم ملوك مصر، ولم تكن هذه سياستهم في مستعمراتهم ولا مع أسراهم. وهذه الأخلاق هى أخلاق الأشوريين ولهم فى

ذلك سوابق، ولذلك كان مدار قصة الفرعون مع موسى خلاص شعب إسرائيل من قبضة «الملوك الرعاة»، وهم هؤلاء الملوك الأشوريون الفراعنة. وممن أعان هذا الفرعون على ظلمه، أجنبيٌّ آخر من العبرانيين أنفسهم ولكنه متعاون مع أعدائهم، وكان شديد الثراء، واسمه قارون، ذهب مضرب المثل فى الغنى الفاحش، وتهمته أنه استكبر وعتى وكان من الظالمين. ولخص موسى حال فرعون هذا فقال له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾ (الإسراء)، أى هالكاً. وانتهى هذا الفرعون نهايته التعسة وأُغرق فى البحر هو وجنوده، وقيل: فتخلصت مصر من حكم الهكسوس من وقتها، وهذا دليل آخر على أن قصة موسى لم تكن مع المصريين. وضرب الله مثلاً بامرأة فرعون، وربما تكون امرأة هذا الفرعون نفسه، وكانت مؤمنة ومن الأشوريين، من الخلائف الباقية ممن آمنّ مع يوسف من النساء، كما كان «المؤمن من آل فرعون» من خلائف بقايا المؤمنين من الرجال، ودعت عليه أن يخلّصها ربّها، فخلّصها منه كما أرادت (التحريم ١١). وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ (الفجر) فيه أن هذا الفرعون وكل الهكسوس كانوا بدواً يسكنون الخيام التى تسندها الأوتاد، ولذلك سمّوهم «الملوك الرعاة»، والأكثر صواباً أن يقال «الملوك البدو»، أو «الملوك الرُحَّل»، وذلك دليل على أن فرعون موسى، والفراعنة من آله أو جماعته أو شيعته، لم يكونوا مصريين، فالمصريون لا يسكنون الخيام.



٨١٠- ﴿حقيقة اسم ﴿موسى﴾ عليه السلام﴾

لم يكن اسم موسى عبرانياً كما يدّعى اليهود، فموشيه وهو نطقه العبرانى - لا يعنى ﴿لقيط الماء﴾، كما ادّعوا أن ابنة فرعون سمّته به لمّا عثرت عليه فى السفط الطافى على الماء، وما كان لابنة فرعون أن تعطيه اسماً عبرانياً وهى لا تعرف العبرية!! إلا إذا كانت أشورية، فالأشوريون كانوا يعرفون العبرية، والعبرانيون كانوا يعرفون السُّريانية والآرامية. غير أن ابنة فرعون ما كان من الممكن أن تربّى موسى فى قصرها كابن لها إذا كان اسمه عبرانياً!! وإنما الاسم كان بطريقة الناس فى جاسان حيث كانت تسكن، وجاسان هى المستعمرة العبرانية التى يسكنها العبرانيون منذ عهد يوسف، والفرعون لم يكن مصرياً بل أشورياً من الهكسوس الملوك الرعاة كما سمّاهم المؤرخ اليهودى مانيتو. ورغم أن كتاب مانيتو باليونانية، واسم الهكسوس يونانى، إلا أن مانيتو كان عبرانياً بدليل الطريقة التى صنّف بها كتابه كتصنيف أسفار اليهود، وكان تقسيمه للأُسر المصرية كتقسيم الأسباط. والفرعون كان اسم الملوك الهكسوس، وأذاعت التوراة الاسم، وصار الجميع يقولون

«فراعنة» مصر، والتاريخ «الفرعونى»، وهو خطأ شائع. وكذلك اسم موسى، من الخطأ البيّن أن يقال أنه اسم عبراني، ولكنه اسمٌ تقليد للأسماء المصرية، فموسى كان اسماً ذائعاً في مصر وفي أرض **جاسان**: بمعنى «عَبْد»، ويضاف إليه اسم إله، فيقال **تحتمس**، أى **توت موسى**، يعنى **عبد الإله توت**، ورمسيس- أى **رع موسى**، يعنى **عبد الإله رع**، كما نقول الآن **عبد الصمد**، وعبد الله، ثم إن موسى لمّا دعا إلى نبذ الآلهة الوثنية، كان عليه أن يحذف من اسمه ما يخص هذا الإله الوقتى، فاكتفى **بموسى**، أى **عَبْد**، كما يُكتفى فى تسمية عبد الله باسم عبد كما فى الشام، أو اسم **عبده** ـ كما فى مصر. وأما إدخال حرف **S** على نهاية الاسم الإفرنجي من **Moshe** إلى **Moses** فذلك كان بسبب اللغة اليونانية، فهكذا يكتب فيها.



٨١٢- ﴿قصة هارون﴾

هارون شقيق **موسى**، وأبوهما **عمران**، ومنه انحدرت عشيرة **العمرانيين**، وكان له **ثلاثة** من الأبناء هم على الترتيب: مريم الكبرى، **وهارون**، **وموسى**. وجدّه **لاوى** يعنى كان كاهنًا، وهارون أطلقوا عليه اسم **اللاوى**، وظل هذا الاسم معه ومع أولاده من بعده، وصار معنى اللاوى الحبر، **واللاويون** كانوا سند الدعوة الموسوية، وظلوا كذلك إلى عهد سقوط الهيكل وتدمير أورشليم سنة سبعين ميلادية. وشارك هارون موسى فى تبليغ الفرعون، وارتحل معه إلى مصر، وخاطب رؤساء عشائر بنى إسرائيل فى **أرض جاسان** من مصر (محافظة الشرقية الآن)، وكل قصة موسى وهارون وقعت فى أرض جاسان ومع الفرعون **الأشورى** ممن يقال لهم **الهكسوس**، وساعد هارون موسى فى عملية الخروج من مصر (الخروج ٤/٢٧ ـ ٣١)، وكان يده اليمنى، ويحمل له عصاه، واشترك فى الحرب مع العماليق، وكان خلف موسى فى رفيديم (خروج ١٧/١٢)، وأخذ مع ابنيه وسبعين من شيوخ بنى إسرائيل العهد مع الربّ على جبل سيناء، وقيل إنهم رأوا الربّ وأكلوا وشربوا!! (خروج ٢٤/١ ـ ١٠). ورغم كل ذلك فإن هارون أظهر ضعفاً فى مسائل كثيرة، واسمه **هارون** من هَرَن السامية، ومعناها ضعيف البنية والصوت، وكان هارون من النوع الهزيل، ولم يكن جهورى الصوت كأخيه، وعوّض ضعف شخصيته بطلاقة لسانه وقوة بيانه، فلما غاب موسى على الجبل وأراد الإسرائيليون أن يصنعوا عجلاً من الذهب يتعبّدونه، ويشربون ويمرحون من حوله، لم يعارضهم هارون، ومع ذلك غفر الله له، وعفا عنه موسى، وعيّنه كاهناً على بنى إسرائيل، فتأسست به **الكهانة اللاوية**، وكان أول رئيس

للكهنة، ونُصّب وأولاده الأربعة وألبسوا لباس الكهنة. واستمرت خدمته للدين أربعين سنة. ولم يكن هارون يعجبه موسى، كما أن موسى كان يعانى كثيراً من هارون. وهارون كان أقرب للشعب من موسى، وانضم أهل موسى إلى هارون متمردين على موسى، ولمّا تزوج موسى الكوشية (الحبشية)، تمرّد عليه هارون هو وأخته مريم، وادّعيا أن الله يأتيهما كما يأتى موسى، وأصيبت مريم بالبرص من أجل أنهما كذبت، فاسترحم هارون أخاه ليدعو ربّه أن يشفيها، واعترف بخطئه. ثم إن بنى قورح خرجوا على هارون، وانقذه منهم أن انشقت الأرض وابتلعتهم. وكان آخر أخطائه أنه وموسى لم يقدّسا الربّ فى أواخر عمرهما! وصار هارون عبئاً على موسى، فأخذه ابنه إلى الجبل، ورُسّم الابن بدلاً من أبيه، ونزل موسى والابن بدون هارون، وقالا إنه مات! وفى التلمود أن موسى قتل هارون، وشاركه فى القتل ابن هارون! وشكّ الشعب فى موسى، وأظهر الحزن على هارون، ولمّا توجّهوا إلى فلسطين لم يصحبوا موسى إظهاراً للغضب، فلم يتهيأ لموسى أن يرى الأرض الجديدة. والخلاف بين قصتى التوراة والقرآن كبير، فهارون فى القرآن كان يُوحَى إليه: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ (النساء). على عكس رواية التوراة. وفَضْلُه فى صنع التابوت وتهيئته لا ينكر، وله اليد الطولى فى ذلك هو وأبناؤه وذريته: ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾(البقرة ٢٤٨)، والتابوت هو تابوت العهد، وهو صندوق كانت به عصا موسى وعصا هارون، ولوحا العهد عليهما الوصايا العشر، وكُتُب التوراة. ويصف القرآن هارون بأن الله قد هداه، وأنه من نسل إبراهيم، وكان من المحسنين: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) ﴾(الأنعام). ولم يفرّق سَحَرة الفرعون بين موسى وهارون فكلاهما واحد، فلما آمنوا أعلنوا إيمانهم بربّ موسى وهارون ولم يقولوا بربّ موسى وربّ هارون: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢)﴾(الأعراف). ويبدو أن موسى كان يعرف هنات أخيه هارون، فلما قصد الجبل أوصاه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾(الأعراف) فهاتان وصيتان أوصى بهما موسى هارون: أن يصلح، وأن لا يتّبع المفسدين. وفى الحديث أن النبىّ ﷺ قال لعلىّ بن أبى طالب: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى» أخرجه مسلم، وهذه المنزلة هى منزلة الخلافة، قال موسى لهارون: «اخلفنى فى قومى»، وهذا الحديث لذلك تكأة الشيعة فى استحقاق

عليّ للخلافة بعد الرسول ﷺ. وقوله تعالى في مريم أم عيسى: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) ﴾(مريم) المقصود أن مريم من نسل وسلالة هارون أو من بيت هارون، فقد كانت هارونية، أو لاوية، يعنى من آل عمران أو بيت عمران. والقرآن نبّه إلى ذلك في أصل مريم أم عيسى ولم تشر الأناجيل إلى أصلها. وكان هارون هبة من الله لأخيه موسى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾ (مريم)، وذلك لمّا جعله وزيراً له بناءً على طلبه: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾(طه)، والسبب هو قوله تعالى على لسان موسى: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾(القصص). وفي فتنة العجل بدأ هارون ضعيفاً جداً حتى أن أخاه أخذ بلحيته وبرأسه، وأبدى عدم مسئولية حيال ما فعله السامري، واكتفى بوعظهم وتذكيرهم بالله، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾(طه). ولم يميّز الله تعالى موسى عن هارون إلا في الترتيب، فموسى يأتي دائمًا أولاً ثم هارون قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾(الأنبياء) والفرقان هو التوراة، وفيه هدى ونور وذكْر للمتّقين، والتوراة هي كتاب موسى وهارون قبل ضياع نسخته بتأليف عزرا أو عزير له وتحريفه لمعانيه بما يخدم أغراض اليهود بعد السبي. ومنَن الله على موسى وهارون لا تعدّ ولا تحصى، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾(الصافات)، فذكر تعالى من مننه عليهما خمس منَن، هى: النجاة، والنصر، والتوراة، والهُدَى، والذكر الجميل عند قادم الأجيال، ووصفهما فقال: إنهما من المحسنين، ومن عباده تعالى المؤمنين، وسلّم عليهما ووعدهما السلامة يوم الدين.

●●●

٨١٢- ﴿موسى الأكثر ذكراً فى القرآن﴾

القرآن جميعه فيه ذكر النبيّ ﷺ، وإنما بحسب غيره من الأنبياء فإن موسى أكثرهم

ذكراً بعده ﷺ ، ويرد اسمه: **مائة وستاً وثلاثين** مرة، **وإبراهيم: تسعاً وستين** مرة، **ونوحاً**: ثلاثاً وأربعين مرة، **ويعقوب** أو إسرائيل: ثماني عشرة مرة، **وإسماعيل: اثنتي عشرة** مرة، **ويونس: أربع** مرات، واليسع: مرتين، **وعيسى والمسيح: ستاً وثلاثين** مرة، **ويوسف: سبعاً وعشرين** مرة، **ولوطاً: سبعاً وعشرين** مرة، **وصالحاً: ثماني** مرات، **وشعيباً: إحدى عشرة** مرة.

●●●

٨١٣- ﴿موسى اللقيط﴾

قيل: إن لفظة **«موشيه»** العبرية تعنى **لقيط** الماء، وموشيه **هي موسى** العبرية، ولم تكن **امرأة فرعون** - بحسب القرآن، و **ابنته** - بحسب التوراة، تعرف أيٌ منهما العبرية، أو أن هذا هو المفروض، إلا إذا كانت أجنبية من بلاد لها صلة قوية بالعبرانية، وكل ملابسات قصة موسى والفرعون تؤكد أن **الفرعون** ليس مصرياً، وأن القصة جرت في أرض **جاسان** وهى الإقليم الشرقى من مصر، من جوار أبى زعبل إلى البحر إلى وادى توميلات، وعاصمته تانيس وكان اسمها عند الهكسوس أفاريس **Avaris** وتقع على بحيرة المنزلة، والغالب أن امرأة فرعون أو ابنته كانت أشورية، لأن الهكسوس الذين حكموا مصر كانوا أشوريين، وباختلاطهم بالعبرانيين، ولأنهم من نفس البلاد **أشور** -التى هى **العراق**، كانت لغاتهم متشابهة كتشابه عامية أهل السويس وعامية أهل الإسكندرية مثلاً، **فكلها لهجات من أصل** واحد. واسم **موشيه** أو «موسى اللقيط» يبدو أن القرآن يأخذ به، يقول: **﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾**(القصص٨)، **والالتقاط**: هو وجود الشىء من غير طلب ولا إرادة، والعثور عليه من غير قصد بلا تعب، **واللُّقْطة أو اللُّقَطَة** هو ما تجده مُلقًى فتلتقطه، أو هو الشىء المتروك فلا يُعرف له مالك؛ **واللقيط** هو الملقوط، وهو المولود الذى نبذه أهله **فيُلقط**، وفى القرآن عن يوسف وإخوته: **﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾** (يوسف ١٠)، فكان موسى على ذلك **لقيطًا**، وكذلك كان **يوسف**.

●●●

٨١٤- ﴿موسى حبيب الله صُنِعَ على عينه﴾

كان موسى جميل المحيا، وكان قوياً، وجاء تمثاله الذى صنعه المثّال رودان آية فى العظمة، وما كان يراه أحد وهو طفل إلا ويحبه، ولما كبر أحبه شعبه، وبتفسير الطب النفسى كانت به كاريزما **charisma**، أى أن شخصيته كانت قوية تشدّ إليه من يطالعه، وفى ذلك قال الله تعالى: **﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾**(طه)، فلمّا

الله وحفظه أن ألقته أمه فى التابوت، وألقت التابوت فى البحر، والتقطته جوارى امرأة فرعون، فما كادت تراه إلا وقد دخلت قلبها محبته حتى أنها صرخت: ﴿ **قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ** ﴾(القصص ٩)، أى تسعد به عيوننا كلما رأيناه، لما فيه من جمال، وقوله تعالى: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴿٤١﴾﴾(طه)، يعنى اصطفيتك لوحيى ورسالتي، وخلقتك وقويّتك وعلّمتك. ومنن الله على موسى كثيرة لا نذكر أن نبياً كان له مثلها. ومن سخرية الأقدار، أو كما يقول أهل الأدب السخرية الدرامية **dramatic irony** أن يربيه عدوه مستقبلاً وعدو الله، وينشأ فى بيت مَن سيتسبب فى موته من بعد، وحادثته مع الذى قتله، وهروبه إلى مدين، رغم أنهما من المصائب والنكبات، إلا أنهما كانا لخيره وصالحه، ففى مدين تعرّف إلى زوجه، وصاهر أفضل رجالها، وحظى فيها بالمكانة العالية وأنجب الأبناء، وصار له المال، وموسى بارتكابه للقتل يكون أول نبي يفعل ذلك، فلأول مرة يكون فيها نبيّ متهماً بجريمة قتل وقعت له عن حق ولم تُلفّق له، والحادثة إن دلّت على شيء فتدل على **تعجّل موسى وميله إلى العنف أحيانًا**، وكان من شدة أخلاقه أنه لمّا غضب على أخيه **كَسَرَ الألواح** التى نزل بها من الجبل والتى قيل إن الله خطّها بيده. وسينهج على طريقة موسى كثير من أنبياء إسرائيل، ويفعلون مثله ويتصرفون بعنف لدرجة القتل، أو يأمرون به، مثل يشوع، وإيزابل، وداود، وسليمان، وكان داود محباً لسفك الدماء كما تقول التوراة، وكذلك سليمان ابنه وكثيرون غيرهم.



٨١٥- ﴿قصة قتل موسى للمصرى﴾

هناك اختلاف فى قصة موسى مع القبطي أو المصرى بين رواية التوراة ورواية القرآن، ففى التوراة يأتى أن: موسى لما كبر خرج إلى إخوته، ونظر أثقالهم، فإذا برجل مصرى يضرب رجلاً عبرانيًا من إخوته (يعنى أنه عبرانى مثل موسى) فالتفت يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا فقتل المصرى وطمره فى الرمل ثم خرج فى اليوم الثانى فإذا برجلين عبرانيين يتضاربان فقال للمعتدى: لماذا تضرب قريبك، فقال: من أقامك رئيسًا وحاكمًا علينا أتريد أن تقتلنى كما قتلت المصرى (التكوين ٢/ ١١-١٢)؟ بينما فى القرآن يأتى قوله تعالى: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴿١٥﴾ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿١٦﴾ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴿١٧﴾ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ** ﴿١٨﴾﴾ (القصص)، ويتبين من القصتين الآتى:

١- فى قصة التوراة أن موسى قتل عن عمد، وطبقًا للشريعة الموسوية فإن القاتل يُقتل، ولم يُذكر أنه استغفر، وكأن الله تعالى راض عما فعل، وكأن النفس التى حرّم الله قتلها هى نفس العبرانى أو اليهودى فقط، وأما نفوس الأمم فمباح قتلها! وفى قصة القرآن أن موسى قتل عن خطأ واستغفر ربّه ولا قصاص فى القتل الخطأ.

٢- وفى قصة القرآن لم يُذكر أن العبرانى كان يتقاتل مع مصرى، وأن موسى قتل مصريًا، وإنما كان المقتول من أعداء العبرانيين، والمصريون ما كانوا أعداء للعبرانيين، إلا ما ورد فى الآثار المصرية من غزو المصريين لأرض إسرائيل وأسْرهم للإسرائيليين، وإنما أعداؤهم الأشوريون أو الهكسوس،وهم الذين كانوا يحكمون أرض جاسان من مصر،ويستعبدون العبرانيين ويستحلون نساءهم، ورواية القرآن على ذلك أصدق من رواية التوراة، وما كان المقتول مصريًا كزعم كاتبها، وأخطأ المفسرون العرب عندما قالوا فى صفة عدو العبرانى أنه قبطى أى مصرى! فالقرآن صريح وقال: إنه من عدوه وكفى، ولو كان مصريًا لذكر ذلك، ورواية القرآن إذن تصحّح روايةالتوراة.

٣- وفى رواية التوراة أنه فى اليوم التالى كانت المشاجرة بين اثنين من العبرانيين، أحدهما الذى كان يتقاتل بالأمس مع الآخر، وتدخل موسى كعادته بينهما، فهدده الذى بسببه بالأمس قَتَل موسى مَن قتل، والحكاية هكذا تكشف عن خسّة ودناءة العبرانيين عمومًا، وميلهم الدائم للفتن واستحداثها، بينما فى رواية القرآن كانت المشاجرة الثانية بين عبرانى وبين عدو للعبرانيين، وأن الذى هدده بإخطار الشرطة هو عدوه، والروايتان على ذلك مختلفتان تمامًا.

٤- وفى رواية التوراة لم يُذكر لنا سببٌ لتدخل موسى، بينما فى رواية القرآن أن موسى كانت له دعوة صلاح، وكان من المصلحين، وعُرف عنه ذلك، فعيّره الذى من عدوه بأن تدخله لصالح العبرانى ليس من الصلاح، وأن استخدامه لقوته البدنية فى غير الحق يجعله من الجبّارين فى الأرض، وعلى ذلك، ولكل ما سبق فرواية القرآن هى الأفضل، والأكثر تناسقًا، والأقرب إلى العقل والمنطق، ولا يمكن إرجاع أصلها إلى رواية التوراة، وتدل على أن القصص القرآنى هو القصص الحق، وأن القرآن بذلك منزّلٌ من عند الله، وأن محمدًا ﷺ هو رسوله يقينًا!



٨١٦- ﴿موسى ليس مجرمًا ولا يظاهر المجرمين﴾

فى قول موسى: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ⑰﴾ (القصص)

إقرار بارتكابه ذنب القتل، بمطاوعة من استغاثة من قومه، كقوله تعالى: **﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾** (القصص ١٥)، فهذا الذى استغاثه من قومه مجرم بطبعه، وله باعٌ فى الإجرام، ووصفه موسى فقال: **﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ⑱﴾** (القصص). لأنه بسببه قتل بالأمس رجلاً، وفى اليوم التالى دعاه ليقتل آخر، و«الغوىّ» من أغوَى أى يضلّ، فلما عاتبه موسى ظن أنه سيقتله، وكان موسى يتهيأ ليبطش بعدوهما، ولكن هذا الغوىّ قال له أمام عدوه وقد أفشى سرّه: **﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾** (القصص ١٩)، وهنا أقسم موسى أن لا يظاهر أمثاله من المجرمين، أى لا يساندهم ويصاحبهم وينصرهم، فالقاعدة الشرعية والأخلاقية أن لا نعين الظالمين، وفى الحديث: «**ينادى مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة، حتى مَن لاق لهم دواةً، أو بَرَى لهم قلمًا، فيُجمَعون فى تابوت من حديد، فيُرمَى بهم فى جهنم**». وعن النبى ﷺ أنه قال: «**من مَشَى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزلّ فيه الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظُلمه، أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام**» وفى الحديث: «**مَن مشى مع ظالم فقد أجرم**»، ولا يكون المشى مع الظالم جرمًا إلا إذا مشى بقصد أن يعينه على ظلمه، وموسى لم ينتصر لمن هو من شيعته لأنه عنصرى متعصب، ولكنه ظن لأول وهلة أنه مظلوم، فلما تبيّن له أنه ظالم انصرف عنه كقوله تعالى: **﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾** (المائدة ٢)، فاحذر يا أخى أن تظن بموسى السوء، وتوصيف الحادثة هو: «**ضربٌ أفضى إلى الموت**» وليس قتلاً عمدًا.

•••

٨١٧- ﴿موسى يشفق مما لا يشفق منه غيره﴾

لم يكن موسى جبارًا، قيل لا يكون الإنسان جبّارًا حتى يقتل نفسًا بغير حق، وموسى لم يقتل الآخر إلا خطأ فقد وكزه كقوله تعالى: **﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾** (القصص ١٥)، والوكز واللّكز واللّهز واللّهد بمعنى واحد، واللكز يكون فى الوجه، **والوكز** يكون على القلب، وقيل: **اللكز** الضرب بجمع اليد فى الصدر مثل اللّكز، وقيل: وَكَزَهُ أى ضربه ودفعه لا يريد قتله فإن مات فليس من الوكزة نفسها، وهو معنى **فقضى عليه**، ولكنه لم يقتله عمدًا مريدًا للقتل، وفى الحديث: «**وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾** (طه ٤٠)، وتجربة أن يكون قاتلاً، وتطارده السلطة، ويخشى على نفسه، ويستشعر أنه ظَلَم من قتل، كل ذلك كان **فتنة له واختبارًا**، وهذا هو مقصود الآية:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه ٣٩)، أي تصنعك التجارب برعايتي، حيث جعله في التابوت، وألقي التابوت في البحر، والتقطته جواري امرأة فرعون، وأنزل محبته في قلبها حتى قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ (القصص ٩)؛ وقول موسى بعد أن قتل: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (القصص ١٦) عبارةُ ندم تحمل على الاستغفار، والأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم.



٨١٨- ﴿أربعينية موسى﴾

الأربعينة من آثار موسى، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾(البقرة)، وكان الله تعالى قد واعد موسى بعد أن جاوز وقومه البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من الله، فأخذ سبعين منهم وصعدوا الجبل وكان ميقات الله له أن يأتي إليه ويبقى مع الله ثلاثين ليلة، فلما صعد من بعد بحسب الميقات عدّوا له ثلاثين، ولكنه غاب عشراً أخرى، فظنوه قد أخلف وعده وصنعوا العجل وعبدوه، قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(الأعراف ١٤٢). وهذه الأربعون هي التي تحدّث فيها الصوفية وجعلوها رياضتهم ومعتزلهم من الناس، وزُهدهم في الطعام والمنام، وإقبالهم على الذكْر، وفي الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». والصوفية يختارون للأربعين ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة. وإعذار موسى بالعشر بعد الثلاثين أصل لأعذار الحكام إلى المحكوم عليهم، والله قد جعل سن الأربعين إعذاراً بالشيب، قال: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾(الأحقاف ١٥)، وغاية الأعذار ستين، لأن الستين هو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقُّب المنية، ففيه أعذار بعد إعذار. وأربعون الميت أعذار، وكذلك أربعون النفساء، وأصل كل ذلك أربعون موسى.



٨١٩- ﴿أوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكر﴾

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾(الأنبياء)، والفرقان: هو التوراة، لأنه يفرّق بين الحلال والحرام، والحق والباطل، وهو ضياء وذكّر يعني نوراً وهدى يذكّر المتقين ويعظهم. وبالطبع هذا الكلام هو عن التوراة قبل أن يعفي عليها الزمن وتضيع أصولها، فينبري عزرا يكتب ما يذكره وأعوانه منها، ويشملها تحريفهم وتلفيقاتهم وتأليفاتهم لما لم يذكره، ولما أرادوا إضافته.



٨٢٠- ﴿ألواح موسى﴾

في التوراة أن الوصايا والشريعة اشتمل عليهما لوحان من الحجر كتبهما الله تعالى بإصبعه، فلما نزل موسى وشاهد عبادة بني إسرائيل للعجل استشاظ غضباً وألقى باللوحين فكُسرا (خروج ٣١/١٨ ـ ٣٢/١٩)، ثم إن الربّ عوّضه بلوحين آخرين بهما نفس كلام اللوحين السابقين (خروج ٣٤/١)، ومؤرخو اليهود ينتقدون أن تكون التوراة الحالية هي ما كان مكتوباً على لوحي الشهادة، فاللوحان كان موسى يحملهما في يد واحدة (خروج / ١٥ ٣٢) فكيف صار ذلك خمسة أسفار؟!

وفي القرآن غير ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(الاعراف١٤٥)، فلم يجعلها لوحين ولكنه جعلها «ألواحاً»، وهو الأقرب إلى الواقع. وقيل فيها كانت سبعين وقر بعير. والوِقْر هو الحِمْل، وأضاف الله تعالى الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف، إذ هي مكتوبة بأمره، قيل: كتبها جبريل، وقيل: هي كتابة أظهرها الله وخلقها في الألواح. وأصل اللوح: ما تلوح فيه المعاني. واشتملت الألواح على ما يُحتاج إليه في الدين من الأحكام وتبيين الحلال والحرام، واللفظ «كل شيء» للتفخيم ولا يراد به التعميم، ولمّا تكسّرت الألواح حين ألقاها موسى، ضاع منها الكلام إلا سُدسُه، وقيل: إلاّ سُبعه، وضاعت ستة أسباع، فكان في الذي ضاع تفصيل كل شيء، وفي الذي بقي الهدى والرحمة. وقوله: «وتفصيلاً لكل شيء» لأنهم لم يكن عندهم اجتهاد، وإنما خُصّت بالاجتهاد أمة الإسلام، وأمره الله تعالى أن يأخذ الألواح بقوة، أو يأخذ ما فيها من تعاليم، أي يعمل بالأوامر ويترك النواهي، ويتدبّر الأمثال والمواعظ، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ (الزمر٥٥)، فالعفو مثلاً أحسن من الاقتصاص، والصبر أحسن من الانتصار، وكذلك فإن الفرائض والنوافل أحسنها. وما قاله القرآن لا تجده فعلاً في التوراة إلا في سفر تثنية الاشتراع وفي بعض العبارات من سفر الخروج وسفر الأحبار.



٨٢١. ﴿ربُّ موسى﴾

سأل فرعون ـ موسى وهارون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾(طه)، فهذان أقصر سؤال وجواب عن الله سبحانه، فهو يُعرَف بصفاته ولم يعطياه اسم علم، بل قالا: إنه الخالق الذي خصّ كل شيء بصورته التي هو عليها، وهيأته التي تطابق وظيفته في الوجود، ووفّر له الإمكانات في شكله الخارجي،

والاستعدادات والقدرات من داخله، ليقوم بأدائها على أتم وفاق، وقدرّ تقديراً كل ما له وما عليه:

وله في كل شيء خِلقة .·. وكذاك الله ما شاء فَعَل

●●●

٨٢٢-﴿عصا موسى المباركة﴾

سأله تعالى: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)** ﴾(طه)، ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي عصاي، ليثبت الحجة عليه بعد اعترافه، وإلا فإنه تعالى يعلم ما هي. ولم يكن غريباً أن ينسب موسى العصا إلى نفسه فيقول هي عصاي، ليكون من بعد أنها تتحول إلى حية تسعى، فيعلم أنه لا مِلْك له عليها ولا تنضاف إليه، وإنما المُلْك كله لله. وفي الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل. والمآرب الأخرى في العصا عديدة، فهي إذا قصر الرِّشا عن ماء البئر وصل بالعصا، وإذا اشتدت الشمس غرزها في الأرض ويلقي عليها بظُلّة، وإذا استبان له بعض هوام الأرض قتله بها، وإذا مشى ألقاها على عاتقه وعلّق عليها لوازمه ومخلاته، وإذا هاجمته السباع قاتل بها. وإمساك العصى سُنّة للأنبياء، وعلامة للمؤمنين، وزينة للصالحين، وسلاح على المعتدين، وعون للمستضعفين، وغمٌّ على المنافقين، وزيادة في طاعة الطائعين. وقيل لأعرابي: ما هذه في يدك؟ - يقارنون بين ما يجيب وجواب موسى - قال الأعرابي: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، واعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني من العثْر، وألقي عليها كسائي فيقيني الحرّ، ويدفئني من القرّ، وتُدني إليّ ما بَعُد مني، وهي محمل سُفرتي، وعلاّقة إداوتي، أعصي بها عند الضِّراب، وأقرع بها الأبواب، وأتّقي بها عَقور الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وأورِّثها بعدي ابني، وأهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى كثيرةٌ لا تحصى.

وكانت للنبيّ ﷺ حربة توضع بين يديه فيصلي إليها صلاة العيد، وكان له مِحْجَن، وهو عصا معوجة الطرف، يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبّله. واستن عمر بن الخطاب القيام بإحدى عشرة ركعة فكان الناس يعتمدون على العصِيّ من طول القيام. وكانت للنبيّ ﷺ مخصرة، يعني عصا قصيرة تصل إلى الخصر يتوكأ عليها إذا خطب. فالعصا لها فوائد أصيلة، ومنافع عديدة، ومعدنها شريف، ولا ينكرها إلا جاهل.

وجمع الله لموسى في عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة اللئام. واتخذها سليمان لخطبته وطول صلاته. وكان ابن مسعود صاحب عصا النبىّ ﷺ، وكان يخطب وعصاه فى يده. فلما دخل الشعوبيون الإسلام أنكروا استعمال العصا ولم يحفلوا لمعانيها، والشعوبية يبغضون العرب، ويفضلون أن تتفكك دولة الإسلام ويكون لكل منهم دولته ويحكم شعبه، وقيل لواحد من أهل الله: مالك تمشى على عصا ولستَ فى حاجة إليها؟ قال: أعلم ذلك، ولكنى أعرف لذلك أنى على سفر، وأن الدنيا دار فوات، وأن العصا من آلة السفر.

●●●

٨٢٣. «الوادى المقدّس طوى بين التوراة والقرآن»

فى التوراة أن موسى عندما ناداه الربّ أسفل جبل حوريب من أرض سيناء، وناداه من وسط نار اندلعت فجأة، قال له: «**لا تدنُ إلى ههنا. اخلع نعليك من رجليك فإن الموضع الذى أنت قائم فيه أرضٌ** مقدسة» (الخروج٣/ ٥)؛ وفى القرآن أن موسى لمّا رأى النار استأذن أهله ليلتمس منها قبساً أو لعله يجد عليها من يهديه الطريق، قيل: ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)** ﴾(طـه). والروايتان مختلفتان، ويكذب جولدستيهر عندما يقول إن محمداً أخذ المشهد من التوراة، **فأولاً**: ليس فى التوراة أن موسى كان مع أهله، وأنه ذهب يلتمس ناراً: ﴿**فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)**﴾ (طه)؛ **وثانياً**: لم تذكر التوراة أن المكان كان وادياً واكتفت بأنه أرض، وفى القرآن هو واد مقدس، وأضاف إليه كلمة طُوًى. والوادى أكثر توصيفاً من الأرض، وشمل التوصيف النار وأسباب ذهابه إليها، وما الذى كان يرجوه منها أو يرجو أن يجده عندها، ثم عرّفه الله تعالى بنفسه ولم يترك موسى نهباً للدسائس كما فى النصّ التوراتى، وعلى عكسه كان النصّ القرآنى حافلاً بالتفاصيل، وما قاله الله تعالى أوجز الرسالة كلها فيما تلا ذلك من آيات، قال: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)**﴾ (طـه). والشبه بين نصّ التوراة ونصّ القرآن قوله: «**اخلع نعليك**»، وفى نص التوراة يزيد «**اخلع من رجليك**» وهو قولٌ عجيب لأن النعلين لا يكونان إلا فى الرجلين، فالبلاغة مفتقدة فى نصّ التوراة. وفى الفقه الإسلامى اعتبر هذا الأمر بخلع النعلين، أمراً بخلعهما فى الصلاة. والخلع هو النزع، وهدفه إظهار الخشوع والتواضع عند المثول فى حضرة الله،

ولذلك خلع المؤمنون نعالهم فى طوافهم بالبيت إعظاماً للحرم، وفى فلسفة ذلك عند المسلمين ـ ولا شيء من ذلك عند اليهود ـ أن الله تعالى بسط للمؤمنين بساط النور والهدى، فلا ينبغى لهم أن يطأوا بساط الربّ بنعالهم. وقال **صوفية المسلمين** ـ ولا شيء منه عند اليهود : إن خلع النعلين هو تفريغٌ للقلب من أمر الأهل والولد، ونحن فى الأحلام مثلاً إذا حلمنا بنعلين فمعنى ذلك أن الحاكم يتزوج. وقد أمر النبىّ ﷺ بخلع النعال عند **زيارة القبور**، وصلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره، وقال: «**إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه**» يعنى لا يؤذى بهما مَن أمامه. وقورن بين **موسى ومحمد** عليهما السلام، فقيل إن **أول تعليم لموسى أن يخلع نعليه**، بينما كان أول تعليم لمحمد ﷺ : ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)**﴾(العلق)، فذلك قمة التعليم وقمة الحضارة والرقىّ. وكذلك جاء فى وصف الوادى المقدس فى القرآن «طوى» زيادة على نص التوراة، وقال المفسرون إن **طوى** هو اسم الوادى، وإنه لأمر عجيب فلا نعرف أن بسينا وادياً اسمه **طُوَى**. وقالوا إن طوى يعنى المستدير **كالطَّوِىّ**، وواضح أن ذلك أمر بعيد فشتّان بين الكلمتين. وقالوا هو الطِّوىَ بالكسر، إلا أن هذا الأخير اسم موضع بالشام والقصة فى سيناء وليست فى الشام، وقالوا إن «طوى» تعنى «مرتين»، وهو إذن المقدس مرتين، وهو قول بعيد. ويتبقى هذا التفسير المعقول: **أن طوى تعنى أنه واد يمكن اجتيازه والسير فيه آمن**، أو **أن موسى طوى الوادي بالليل، يعني قطعه**، فيكون المعنى: **إنك في هذا الوادى الذي طويته في الليل بموضع مقدس**، وهو مقدس لأن الله تعالى يجعل لبعض الأماكن زيادة فضل على فضل، وكذلك لبعض الشهور والأيام، ولله أن يفضّل ما يشاء.

●●●

٨٢٤. ﴿شجرة موسى﴾

فى حديث **الإسراء** أن جبريل أمر البراق أن يتوقف عند **شجرة موسى** وصلى ركعتين، وكذلك صلى النبىّ ﷺ . وفي **حديث موسى** ـ أى قصته ـ أنه لمّا استوفى العقد مع حميه **شعيب** وأخذ أهله، وصل بهم إلى **الوادي المقدس طوى**، وهناك آنس ناراً فذهب يأتيهم بقبس منها، ولعله يجد عندها هدى، فلما أتاها نودى من الشجرة: ﴿**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ**﴾(طه)، وفى الرواية الأخرى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)**﴾(القصص)، قيل كانت النار مشتعلة فى الشجرة رغم أنها خضراء، فما كانت النار تحرقها، وما كان لها دخان، ولا كان لها دفء،

وقال الصوفية: كانت الشجرة محل عصيان آدم فى الجنة، وكانت فى الدنيا محل إيمان موسى، وشجرة الجنة لها طرح يؤكل وإن كان محرّماً، وشجرة موسى كانت عقيماً ولكنها كانت هداية لموسى وعلامة على الله تعالى. والشجر كثير فى القرآن، ومنه الطيب ومنه الخبيث، والكلمة كالشجرة، ففى سورة إبراهيم: الكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أُكُلها كل حين بإذن ربّها، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٥/٢٦)؛ وفى سورة الإسراء: يرد عن الشجرة الملعونة (٦٠)، وقيل هى شجرة الزقوم (الصافات ٦٢)، تزقم آكلها من مرارتها، وتخرج فى أصل الجحيم، وهى آية من الآيات، لأنها شجرة وتحيا فى الجحيم وسط النيران، وقيل هى طعام الأثيم؛ وكانت شجرة يونس هى شجرة اليقطين (الصافات ١٤٦)، ظللت عليه بورقها وحفظته من الآفات؛ وفى سيناء تنبت شجرة الزيتون بالدهن وصبغ للآكلين (المؤمنون ٢٠)؛ والنبىّ ﷺ بايعه المؤمنون تحت الشجرة، قيل هى شجرة سِدْر أو سَمَر. ويقسم الله تعالى بالشجر، وأنه يسجد لله، يعنى يطيعه ويسير بقوانينه فى النمو والإثمار والظل، ومن طاعته أن يشتعل بالنار رغم ما فيه من ماء. وشجرة موسى فوق كل هذا الشجر جميعه، لأنها شهدت هذا المشهد التاريخى العظيم: مشهد تلقى موسى للرسالة، وصوته تعالى يسرى فى الوجود ويدخل - ضمن ما يدخله من موجودات - فى ثنايا خلايا الشجرة تتشربه وتحلّ بها البركة، فتوصف عن حق بأنها الشجرة المباركة، وكان ذهاب موسى إليها ليقبس قبسةً من نار، فقبس قبسة من هدى.



٨٢٥. ﴿عيياء موسى﴾

كانت بموسى رُتّة، أى لُثْغة، أو عُجمة، وهى التردد فى النطق **stammering**، والمصاب بها يقال له أَرَتّ أو ألثغ. وقولنا عيياء موسى يعنى أنه كان حَصِراً فى النطق، تقول عَيِىَ عن النطق يعنى لم يُبِن، وفى القصص الشعبى اليهودى أن هذه العُجمة به كان سببها أن موسى وهو طفل كان فى حِجْر فرعون ذات يوم، فلطمه لطمة وأخذ بلحيته فنتفها، فخاف منه فرعون وتشاءم، وكاد يأمر بقتله، لولا أن ذكروا له أنه لا يميز، وأتوا بطستين فى أحدهما جمر وفى الآخر تمر، فوضع موسى يده على الجمر ورفع إحداهما إلى فمه فأضرّت لسانه، فكانت تلك الرتة، واحترقت يده وظلت بها علامة الاحتراق. وفى القرآن لما أراد الله أن يبعثه إلى الفرعون، سأل ربّه: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩)

هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ (طه)، فلولا أنه تعالى يعينه فلن يستطيع تبليغ الرسالة، وإنها لعمل شاق يحتاج إلى قوة معنوية هائلة، وذلك معنى قوله: اشرح لي صدري، أي وسّعه، وأن يؤتيه الاحتمال، وييسر المهمة عليه، ويحل هذه العجمة في لسانه. وقال له ربه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾(طه)، يعني أنه أزالها جميعاً، وقيل ليست جميعها وإلا ما قال فيه فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾(الزخرف)، فلأنه لم يقل احلل كل لساني، فدلّ على أنه بقى في لسانه شيء من الاستمساك، أو أن فرعون قد وصفه بما عرفه عنه من طفولته، وبما اشتكى منه موسى نفسه لربّه عندما قال: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾(طه)، والفقه هو الفهم، فلم يكن كلامه مفهوماً، وظل ذلك به وهو يخاطب الفرعون، ولذلك عيّن له هارون وزيراً، وفي حالتنا هذه فإن الوزير هو المترجم.

وفي التوراة قال موسى في شرح عَييائه: إني لست أُحسن الكلام. وشرَح حالته فذكر أنها مستعصية، فهي ليست من أمس أو قبل الأمس، ولا بسبب خوفه منذ خاطبه ربّه وكلّفه، ولكنه مفطور بها، وقد خلقه ربّه بطيء النطق، وثقيل اللسان. وطمأنه ربّه أنه سيكون مع فيه ويعلّمه ما يتكلم به، ويكون هارون معه - وهو الفصيح اللسان، ويخاطب الشعب عنه ويكون له بمثابة الفم.

وفي الطب النفسي: فإن الرُّتّة ليست عيباً في النطق لاحتراق في اللسان كما في الأسطورة الشعبية عن موسى والجمرة والتمرة، وإنما هي من عيوب النطق بسبب شحنات عدوانية عالية تزدحم على اللسان، كالشحنات في اللوازم والتي تجعل المصابين بها يأتون حركاتهم اللاإرادية تنفيساً عن هذه الشحنات. والتردد أو التلعثم في النطق كما في اللوازم، تزدحم فيه على اللسان الرغبات في التعبير، فيحتبسها صاحبها، ويتردد في الإفصاح عن أيّ منها، فتخرج كلماته فيها هذا التردد والصراع الداخلي. وموسى كان شديد العدوانية، وبه قوة جثمانية مفرطة، حتى أنه ارتكب جريمة قتل بمجرد أن لكز عدو قومه، وكاد يرتكب جريمة أخرى مع العبراني سبب المشكلة. ولمّا هرب من أرض جاسان سار على قدميه إلى مدين عبر الصحراء، يعني حوالي خمسة آلاف كيلو، وكان خروجه بشعبه من مصر على أقدامهم مسيرة كبرى كمسيرة ماوتسي تونج فوق الجبال، من شرق الصين إلى غربها، هرباً من قوات صن يات صن، وكان ذلك تدريباً عسكرياً عالياً لقواته، كالتدريب الذى آل إلى الإسرائيليين بعبور الصحراء، ثم السكنى في سيناء حتى موت موسى ولم يدخلوا فلسطين. وهذا التدريب لا يصنعه ولا ينهض به إلا صاحب قوة وشكيمة ومراس، وبهذه الطريقة وحدها يكون موسى قد تخلص من رُتّته، باستعادة ثقته

في نفسه، ونجاحه في مهمته، وتمرسُه على مخاطبة الشعب ومواجهة الصعاب. ومن تقواه وشُكره لربّه تسبيحه الذى قال فيه: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣)﴾(طه). وقال موسى مسبحاً هذه التسبيحة لما شاهد عظمة الله ونجاته به، وسبّح خلفه بنو إسرائيل...

•••

٨٢٦. ﴿تسبيحة موسى﴾

قال موسى في تسبيحته، وقال وراءه بنو إسرائيل: «أسبح الربّ فإنه قد تعظّم بالمجد. الفَرَس وراكبه طرحهما في البحر. الربّ عِزّي وتسبيحي. لقد كان لى خلاصاً. هذا إلهى فإياه أمجّد. إله أبى فإياه أعظّم. الربّ صاحب الحروب، الربّ اسمه. مراكب فرعون وجنوده طرحها في البحر، ونخبة قواده غرقوا فى بحر القُلزُم، غطّتهم اللُّجج فهبطوا في الأعماق كالحجارة. يمينك ياربّ عزيزة القوة. بيمينك ياربّ تُحطّم العدو. وبعظمة اقتدارك تهدم مقاوميك. تبعث سخطك فيأكلهم كالعُصافة. وبريح غضبك تراكمت المياه وانتصبت كأطواد مائعة، وجمدت اللُّجج فى قلب البحر. قال العدو أرهَقُ، أُدركُ، أُقسِّم غنيمة، تشتفى منهم نفسى، اخترطُهم بسيفى. تقرضهم يدى. بعثتَ ريحك فغشيهم اليم وغرقوا كالرصاص في غمر المياه. مَن مثلك فى الآلهة ياربّ! مَن مثلك جليل القُدس، مهيب التسابيح، صانع المعجزات - مددتَ يمينك فابتلعتهم الأرض. هديت برحمتك الشعب الذين فديتهم، أرشدتهم بعزّتك إلى مأوى قُدسك. سمعتِ الأمم فارتعدت، وأخذ الرعب قاطنى فلسطين. حينئذ دهش زعماء أدوم، أقوياء مواب أخذتهم الرعدة، وماج كل سكان كنعان. تقع عليهم الرعدة والهلع. بعظمة ذراعك يَبْكَمُون كالحجارة حتى يجوز شعبك. ياربّ، حتى يجوز الشعب الذى مَلَكتَه. تأتى بهم فتغرسهم في جبل ميراثك، فى الموضع الذى أقمته. ياربّ، لسكناك المقدس الذى هيأته يداك ياربّ. الربّ يملك إلى الدهر والأبد. إذا دخلت خيلُ فرعون ومراكبه وفرسانه البحر، ردّ الربّ عليهم مياه البحر. وأما بنو إسرائيل فساروا على اليبس فى وسط البحر» (الخروج / ١٥ - ١٩).

وكما ترى فهذه ليست تسبيحة وإنما هي شُكر للربّ وثناء عليه لنُصرة بنى إسرائيل، واسمه تعالى «الربّ» اسمٌ عادي لا جديد فيه، ولا خصوصية، ولا وحيّ. وما تسمّيه التوراة تسبيحة من إنشاء موسى عبارة عن تمجيد للقوة، ورفع لمعنويات شعب إسرائيل، وبثّ للرعب فى نفوس الأعداء، وإضفاء الغيبية على الدنيوى ليتقدّس الدنيوى، وتصبح الحرب مقدسة، ونتجائها ربّانية، وإظهار أن الشعب يقاتل معه الربّ فلا أقل من أن ينال

النصر حتمًا. وواضح من النصّ أن موسى كشخصية دينية غير موهوب أدبياً وذهنياً وروحياً.

●●●

٨٢٧. ﴿يشوع فتى موسى﴾

يقول تعالى فى بداية قصة موسى والخضر: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ** ﴾(الكهف ٦٠)، وفتاه هو **يشوع بن نون**، واسم **يشوع** بالعبرية يعنى «**المُخلّص بإذن ربّه**،وهو اسم عسكرى، وكأن الاسم وُضع من بعد دخول يشوع فلسطين وخوضه للمعارك وهو يغزو، وهذا صحيح، لأن اسمه كان أولاً «**هوشع**»، يعنى **المشرّع بإذن الله**، وحتى هذا الاسم كان اسمًا حركيًا مرهون بعمله الذى يقوم به فى هذه المرحلة، ففى المرحلة الأولى كان يشوع مشرّعاً، يستمع لموسى ويحفظ عنه، ثم أصبح يُوحَى إليه ويشرّع مثله، وله ضمن كُتُب اليهود **سفْر يشوع**، ويعتبر كمالة لأسفار موسى الخمسة، **فهو سادس** هذه الأسفار، وكانت له معجزات كموسى، فقد اجتاز نهر الأردن على اليابسة، كما اجتاز موسى بحر قُلزُم، وهاجم أريحا وأسقطها، وأخّر غروب الشمس حتى تنتهى المعركة. وكان يشوع لموسى بمثابة الحوارى، ولذا خلفه على بنى إسرائيل. ولم يترك يشوع موسى إلى أن انتقل موسى إلى الرفيق الأعلى، فلم يكن هناك من يتولى أمر بنى إسرائيل بعد موسى سوى يشوع، لأن هارون كان قد مات قبل موسى. وقوله تعالى «لفتاه» أى لخادمه، وكان موسى عازماً على المشى إلى أن يصل إلى مَجْمَع البحرين، أى حيث يلتقى البحران، ولو استلزم ذلك أن يسير دهراً، فما أن وصلا حتى تبين لهما أنهما قد نسيا غداءهما، وكان عبارة عن سمكة اصطاداها وادّخراها لطعامهما، أو أنها كانت معهما مملوحة، أو كانت حيّة وكانا يحملانها فى مكتل، وطفرت من المكتل إلى البحر، واتخذت سبيلها فيه سَرَباً، فكان ذلك شيئاً عجباً، وارتدّا على آثارهما لعلهما يجدان السمكة، وأويا إلى صخرة بعد أن لقيا فى سفرهما النَصَب، وآلمهما أن ينسيا الحوت، واعتبر نسيانهما من الشيطان، ثم أنهما عادا يقصّان آثار مشيهما إلى أن وجدا الخضر. وهنا تنقطع كل الأخبار عن **يشوع فتى موسى** فلا شيء عنه بعد، وتتبقى كلمة عن **سِفْر يشوع**، وهو كتاب فى أحط أنواع الاستعمار باسم الدين، والانطباع الذى نخرج به من قراءة **سفر يشوع**: أن الدين موظف لخدمة أغراض استعمارية، وأن جميع الشرور جائزة ومشروعة طالما هى تحقق **الحلم الاستعمارى الصهيونى**، ويشوع **أكبر حالم استعمارى يهودى**، والربّ الذى يبشّر به ويعبده، ويأمر الآخرين أن يعبدوه، هو ربّ **استعمارى** يلهمهم فعل كل الموبقات وينزلها بعدوهم باسم **الشرعية العسكرية**، ولذلك فقد قُرّر سفر يشوع على طلبة الكليات العسكرية فى إسرائيل،

كدراسة للمشروع الاستعماري اليهودي، وكتطبيق لمختلف التكتيكات الواجب اتباعها لتحقيق الحلم الصهيوني، ومن المؤسف أن القيادات العسكرية في العالم العربي لم تتنبه لسفر يشوع ككتاب في العسكرية الإسرائيلية، وفي التكتيك العسكري المطبّق عندهم حتى الآن، ويحتوي السفر على جزء أول: في الاستعداد للغزو؛ ثم الجزء الثاني: عن الغزو أولاً للجزء الأوسط لفصل الشمالي عن الجنوبي، ثم غزو الجنوب وبعد ذلك الشمال؛ وتأتي المرحلة التالية وهي مرحلة الاستيطان وتهويد الأرض، بتقسيمها على المستعمرين الغزاة من بني إسرائيل بحسب الأسباط ليكون هناك وئام بين السكان من أصول واحدة. وينتهي السفر مع نهاية حياة يشوع، ويخطب في جموع المستوطنين أو المستعمرين الجدد أن الربّ قد أعطاهم أرضاً لم يتعبوا فيها، ومدناً لم يبنوها!

●●●

٩٢٨. ﴿الفرعون ومُلك مصر﴾

إذا كانت قصة الفرعون وموسى قد وقعت بأرض جاسان دون مصر، فلماذا جاء في الآية: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾(الزخرف)؟ ومُلك مصر يعني أن المَلِك هو مَلِك مصر، وملوك الهكسوس الذين ملكوا أرض جاسان كانوا يعتبرون أنفسهم ملوكاً لمصر، وفي عهدهم انقسمت مصر أقاليم، وكان كل إقليم يحكمه ملك، وكان ملوك الهكسوس أقوى الجميع، ولهم السيطرة على الجميع، ومن أجل ذلك قال الفرعون: «أليس لي مُلك مصر» يعني هذا هو «مُلك مصر» لا ينازعني فيه منازع، وقيل إنه مَلَك من مصر أربعين فرسخاً في مثلها، والفرسخ نحو ثمانية كيلو مترات، يعني أنهم كانوا يحكمون ١٢٨٠٠كيلو متر من جملة ٩٩٤,٠٠٠ كيلو متر هي كل الأرض المصرية بصحاريها، وكانت عاصمة هذا الملك تنيس أو أفاريس، ويجري في أراضي هذا المُلك خليجان من سبعة خلجان للنيل في مصر كلها، وهذان الخليجان أو النهران هما: نهر دمياط، ونهر تنيس ولم ينسب القرآن الناس الذين سكنوا أرض جاسان إلى مصر، ولا قال إنهم مصريون، ووصفهم مرات بأنهم «آل فرعون»، ومرات بأنهم «قومه»، أي أمّته وأهله، ومرات يخصّ منهم «الملأ»، وهذا دليل على أنهم «غير مصريين»، والملأ هم أعيان القوم الذين يملأون العيون أبهةً والصدور هيبةً، وبرز منهم اثنان في قصة موسى والفرعون، هما: قارون، وهامان. وملأُ فرعون ضحكوا من سحر موسى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(الزخرف) وكلما ضحكوا من آية أتي موسى بالتي هي أكبر منها، حتى استنفد الآيات التسع، وأخذهم الله بالعذاب،

وسخروا من موسى حتى نادوه: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾(الزخرف ٤٩)، يدعون موسى أن يستنفد كل ما علّمه ربّه من الآيات. واستفهام فرعون في قوله: «أليس لى مُلك مصر»؟ على سبيل الإثبات والتعظيم لشأنه وشأن مُلكه، وفى قوله: «أفلا تبصرون»؟ على سبيل التنبيه والتبكيت. وثمة دليل آخر فى سورة الزخرف على أن هؤلاء الناس الذين جاءهم موسى ليسوا مصريين، هو الآية: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾(الزخرف ٥٣) قال ذلك لأنه كان من عادة الملأ من قوم فرعون أن يضعوا الأساور من ذهب فى معاصمهم، والأساور جمع أسورة، وهى لغة فى سِوار. **وهذه العادة لم تكن عند الرجال فى مصر القديمة**، وتخلو تماثيل ملوك مصر وكبار شخصياتها، وكذلك صورهم على المعابد من أمثال هذه الأساور التى كانت وقفاً على أهل **بابل والعبرانيين**. وفى مصر كانت الأساور **فقط** للنساء. وفى وصف هؤلاء الذين كانوا **يستعمرون** أرض جاسان قال تعالى عن الفرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)﴾(الزخرف) فلم يُعرف عن ملوك مصر أنهم كانوا **يستخفون** أقوامهم، أى يستهترون بهم، ويستقلّون شأنهم، ويجدونهم خفاف العقول، وعلى عكس ذلك كانوا ينيطون بهم المهام الكبيرة، ويوكلونهم أمر الملمات، وجاء الاستخفاف من قِبَلَ الملوك الأجانب، ومن طرف الغزاة المستعمرين، مثلما كان يحدث من الفرنسيين والإنجليز فى مصر زمن الاحتلال، وكذلك استخفاف أمريكا وإسرائيل بالعرب عموماً. **والاستخفاف** شأن غير المؤمنين: ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾(الروم)، وصفهم بأنهم كانوا فاسقين، أى لم تكن لهم ملة ولا دين، وشعب **مصر كانت له ديانة**، وأما **الهكسوس** فما كانت لهم ديانة، وهؤلاء هم من **الأشوريين**. ولهذا جاء فيهم: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)﴾(الزخرف)، أى لما أسخطوا الله وأغضبوا موسى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ (٥٦)﴾(الزخرف) يعنى مَثَلاً لمن يعمل عملهم، وعظةً لمن يأتى بعدهم، وهذا ما انتهى إليه أمر **الهكسوس فى مصر، ولذا لا يوجد أى ذكر عن واقعة الغرق فى الآثار المصرية، لأنه فى هذه الآثار كان تسجيل «التاريخ المصرى»، وقصة فرعون موسى لم تكن من هذا التاريخ، وجنود الفرعون لم يكونوا مصريين!**



٨٢٩. ﴿الدليل على أن الفرعون كان أشورياً وليس مصرياً﴾

كانت مقالة فرعون موسى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (٢٤)﴾(النازعات)، أى لا ربّ لكم فوقى، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(القصص ٣٨)، ولقد قلنا إن فرعون مصر لم

يكن مصرياً، ودليلنا ضمن أدلة أخرى أن مقولته هذه ليست من أركان النظام الدينى المصرى، وإنما هى من أركان النظام الدينى الأشورى، والدولة المصرية لم تُحكم قط حكما ثيوقراطياً - أى دينياً، أى لم تكن دولة قساوسة، ولا فقهاء، ولا ملالى،ولكنها دولة قانون، والمؤسسة الدينية فيها كالمؤسسة الحاكمة سواء بسواء، ولم يحدث أن قال ملك من ملوك مصر أنه حورس، أو ابن اوزيريس، وإذا مات الملك فإنه يموت كإنسان ويحلّ محله إنسان آخر، ولذا كثر أن يُشطَب اسم الملك الميت من الآثار ويكتب الملك الجديد اسمه مكانه. ولم يكن خوفو، وخفرع، ومنقرع، ورمسيس آلهة ولكنهم ملوك فقط، إلا أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مختارين من السماء، وأنهم معصومون عصمة الأنبياء فى عصرنا، أو حتى عصمة ملوك فرنسا فى القرن التاسع عشر، ولذلك فمقالة الفرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ (النازعات٢٤) و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص٣٨) لم يقلها ملك مصرى. وقلنا إن لفظة «فرعون» بمعنى الجبار ليست مصرية، ولا هى فى اللغة المصرية القديمة، وإنما اللفظة أشورية، وأشور احتلت مصر، وحكمتها لسنوات عديدة ممتدة، واقتصرت غالباً على أرض جاسان ، وهى منطقة شرق الدلتا وتُعرف الآن باسم محافظة الشرقية،وتمتد من جوار أبى زعبل إلى البحر، وإلى وادى توميلات، ومنذ يوسف سكنها العبرانيون وامتلكوا الأراضى فيها (تكوين ٤٦/ ٣٤، و٤٧/٦)، وخروج ٨/ ٢٢)، وفيها وقعت قصة الفرعون وموسى، وهذا هو سبب عدم وجود رسوم ونقوش تسجل هذه القصة وأحداثها على الآثار المصرية، وأحياناً كان استيلاء أشور على مصر كلها، العليا والسفلى على السواء، كما فى عهد أشور بانيبال. والملك فى أشور كان «الملك الإله» و«رئيس الكهنة» و«ممثل الله فى الأرض»، ولذا أطلق ملوك أشور على أنفسهم اسم «ملوك الأراضين»، أو «ملوك العالم»، و«الممثلين لله فى الأرض»، أى أن الملك الأشورى هو «الإله فى الأرض» مثلما الآخر «الإله فى السماء»، ولذا كان المتوقع من الشعب أن يطيعهم طاعة عمياء، واسم «حمورابى» هو اسمُ لا يصحّ إلاّ لملك إله، ومعناه هكذا: «الملك الربّ». وهذا هو الفرق بين المَلك فى مصر وبين الملك فى أشور، وهذا الفرق هو الذى يحدد جنسية فرعون موسى الذى قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ (النازعات٢٤)، فلا شك أنه كان ملكاً أشورياً ولا يمت لملوك مصر بصلة. ولأن أرض جاسان كانت أرض مراع، وكان شعبها من الرعاة، أطلق مانيتون المؤرّخ اليهودى على ملوكها اسم «الملوك الرعاة» أو «الهكسوس». ومصر كلها لم تعرف فى تاريخها ملوكاً رعاة أبداً. والخلاصة: أن قصة موسى لم تكن مع مصريين، وورود اسم مصر أربع مرات فى القرآن لا يعنى أن القصة كان مكانها منف عاصمة مصر، وإذا كانت

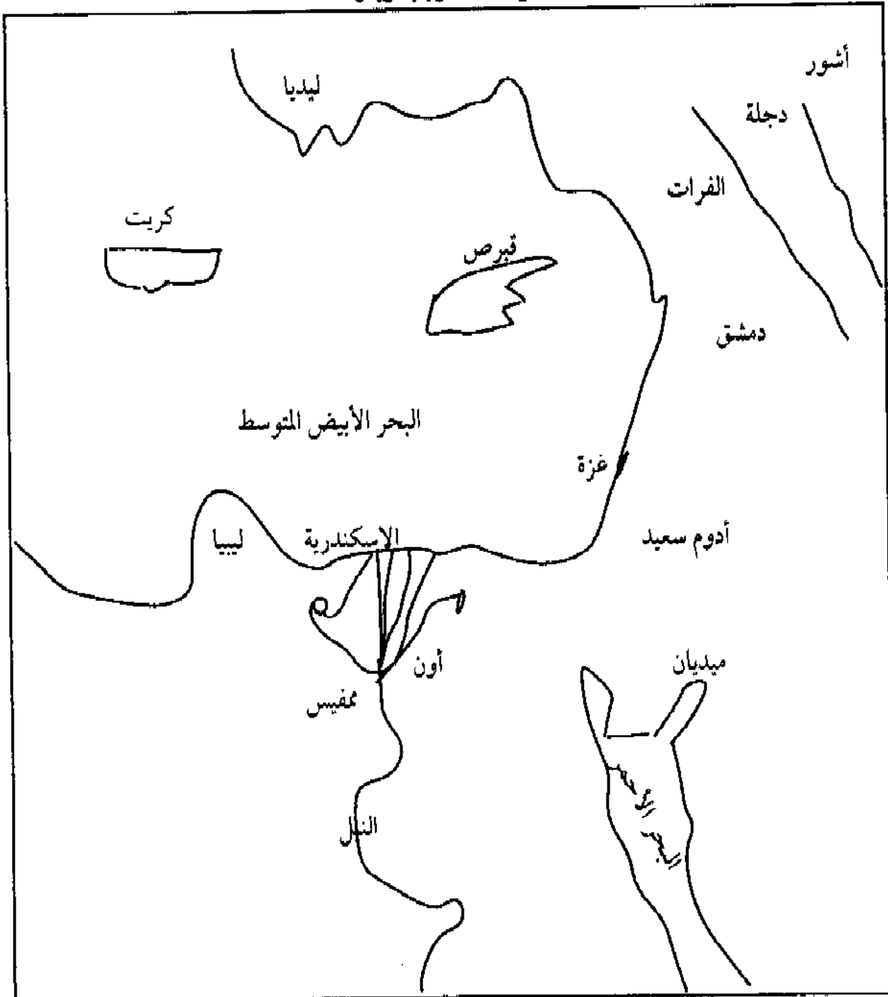
قد جرت فى أرض جاسان فهى أرض مصرية رغم كل شىء، وفى كل القصة وعلى اختلاف سور القرآن لم تحدث الإشارة إلى أن موسى كان يتعامل مع ملك مصر وإنما مع الفرعون، وقوله: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾(الزخرف ٥١) إشارة إلى ما آل إليه من أرض مصر وليس مصر كلها.

•••

خريطة

﴿إمبراطورية أشور وشمولها لأرض جاسان من مصر﴾

فى عهد أشور بانوبال



٨٣٠. ﴿قصة امرأة فرعون﴾

امرأة فرعون فى الأدب الدينى الإسلامى هى آسية بنت مزاحم، وليس من مرجع موثوق به للاسم، وليس فى التوراة عن ذلك شيء. وفى التوراة أن التى انتشلت موسى من الماء هي ابنة فرعون وليس امرأته، وليس من شيء فى التوراة عن أن ابنة فرعون كانت على دين بنى إسرائيل، ولما انتشلت موسى من الماء عهدت به إلى مرضعة عبرانية كانت أمه، وأعطتها على ذلك أجراً. وأما فى رواية القرآن فهناك دافع خلاف الشفقة هو الذى دفع امرأة فرعون إلى إنقاذ الطفل موسى. وهذا الدافع هو آصرة الدين، فلقد كانت تعبد الله على طريقة العبرانيين، وعبادة الله كانت أثراً من آثار تعاليم يوسف، وكان فى بلاط الفرعون من المؤمنين من أتباع ملة يوسف ـ غير آسية ـ مؤمن آل فرعون. وفرعون - كما قلنا - لم يكن مصريًا لا اسمًا ولا جنسًا، والناس فى جاسان أغلبهم عبرانيون، والحكام أشوريون، وعندما أمرت آسية بسوق التابوت الذى به الطفل موسى إليها قبل أن يبعده البحر، فتحته فرأت الطفل عبرانى السمت، فعلمت أنه عبرانى مثلها، وانفتح له قلبها، ورحمته، وأحبته، وقالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(القصص٩)، تدعو الله أن تكون لها وله فيه بركة، فقد كانا لا ينجبان، ربما لعيب فيه غالبا، فاستوهبته الطفل فوهبه لها. وفى الآية: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(١١)﴾(التحريم) يتأكد إيمان آسية حتى ليُضرَب بها المثل كمؤمنة، ويتأكد كذلك أنها عبرانية، وليس ذلك بكثير أن يتزوج الفرعون الهكسوسى بالعبرانية، فكلاهما من الأغيار وليسا مصريين، ومن سكان جاسان، وديانة الفرعون كانت وثنية، وديانة آسية هى التوحيد على طريقة الآباء: إبراهيم وإسماعيل وإسحق والأسباط، وكانت تصلى بطريقتها طريقة الآباء، والفرعون لا يصلى، ولأنهم وثنيون لم يترك الهكسوس فى مصر آثاراً تُذكر فى مجال الدين، على عكس العبرانيين فقد آمن بديانة يوسف كثيرون، وكان الخلاف العقدى عند آسية والفرعون، بالإضافة إلى عدم الإنجاب، مثار جدل دائم بينهما ونزاعات مستمرة، فكان الفرعون يكاد يبطش بها ويعذّبها، فسألت ربَّها حُسن الأجر لصبرها، ودعت أن يخلّصها منه، وأن يُنجّيها من عمله، فقد كان يفعل الظلم هو وقومه، ولم تعرف مصر أذى كالأذى الذى لحقها من الملوك الفراعنة من الهكسوس، وكان اسمهم الفراعنة بمعنى الملوك الجبابرة. وقصة امرأة فرعون مثلٌ ضربه الله للمؤمنات من النساء، كما ضرب المثل للكافرات منهن بامرأة نوح وامرأة لوط (التحريم ١٠). وفى قصة هذه المؤمنة

الفراعنة بمعنى الملوك الجبابرة. وقصة امرأة فرعون مثلٌ ضربه الله للمؤمنات من النساء، كما ضرب المثل للكافرات منهن بامرأة نوح وامرأة لوط (التحريم ١٠). وفى قصة هذه المؤمنة آسية تعزيةٌ لنساء النبىّ ﷺ اللاتى كن يجدن مشقة فى الحياة فى بيت النبوّة بسبب قلة الزاد والمال، وترغيباً لهن فى الثبات على الدين، وتزييناً للطاعة لأمر الله وما قُسم لهن. ثم إن فى قصة آسية وأمثالها حثّاً للمؤمنين خصوصاً والمؤمنات، على الصبر في الشدائد، فلا يكونون أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى زوجها أعتى الجبابرة.

•••

٨٣١. ﴿آيات موسى إلى فرعون: تسع﴾

هى تسع آيات: ١ ـ العصا، كقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأعراف)؛ ٢ ـ واليد، كقوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (النمل ١٢)؛ ٣ـ والطوفان ؛ ٤ ـ والجراد؛ ٥ـ والقمل؛ ٦ـ والضفادع؛ ٧ـ والدم، كقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴿١٣٣﴾﴾ (الأعراف)؛ ٨ ـ والسنون ـ أى الجدوب، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (الأعراف)؛ ٩ ـ وانفلاق البحر، كقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الشعراء)، فهذه تسع آيات.

•••

٨٣٢. ﴿زينة وأموال الفرعون ودعاء موسى﴾

فى الآية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴿٨٨﴾﴾(يونس)، وصفٌ لأحوال الفرعون من ملوك الهكسوس فى الفترة التى حكموا فيها بعضاً من أقاليم مصر، فكان له ولقومه من زخرف الدنيا، ومتَع الحياة، ومن الأموال، الكثير، قيل كان النيل يغل بالخير، وكانت الأرض تغل بمعادن الذهب والفضة، وكانت جبال البحر الأحمر تغل بالأحجار الكريمة، وما كان عطاء الله له ولقومه عن رضا بل ليضلوا ويبطروا ويتكبّروا، ودعا موسى عليهم بأن يعاقبهم على كفْرهم بالطمس على أموالهم، أى بإهلاكها، وطَمْسُ الشىء: ذهابه عن صورته، وطَمْسُ الأموال أن تضيع فيما لا فائدة منه ولا طائل؛ والشدّ على القلوب بتقسيتها والطبع عليها فلا تنشرح للإيمان.

•••

٨٣٣. «موسى أمر قومه أن يصلوا فى البيوت»

زاد فرعون من تعذيب بنى إسرائيل لمّا أظهر موسى دعوته، فعابوا عليه المشقة التى يعانونها بسببه وهو الذى جاء ليخلّصهم، وكان فرعون وقومه يعرفون الإسرائيليين من سواهم بمعابدهم التى بنوها لصلواتهم، وكانوا يهاجمون تلك المعابد ويقبضون على الأقوياء منهم للعمل عندهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** (٨٧) ﴾(يونس)، ومصر فى هذه الآية هى أرض جاسان ـ أى محافظة الشرقية الآن، باعتبار إطلاق الكل على الجزء، وأمر موسى وهارون بنى إسرائيل، بناءً على وحىٍ من الله، أن يتخذوا من بيوتهم مساجد، وأن يجعلوها إلى القِبلّة ـ أى فى اتجاه الشرق، فقد كان الساميون جميعاً يتوجهون فى الصلاة إلى المشرق أينما كانوا، والمراد أن يصلوا فى بيوتهم سراً ليأمنوا على أنفسهم، وفقهُ ذلك: أن الصلاة تكون فى المساجد، فإذا خاف الناس مظالم الطاغية وجبروت عسكره، فلهم أن يصلّوا فى البيوت. والمسلم له أن يصلى أينما كان،وفى الحديث: «جُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً»، فخُصّ بذلك المسلمون، ربما لحالات كهذه، ومن فقه هذه الآية: أن الخائف على نفسه يُعذَر بخوفه،ويجوز له ترك الجماعة والجمعة، وكثير من المسلمين يفعلون ذلك الآن فى بلاد الإسلام وفى غير بلاد الإسلام، فلقد صار الخوف من السلطان الجائر فى بلاد الإسلام أكثر منه فى غير بلاد الإسلام.

•••

٨٣٤. «الفرعون دائم الاستخفاف بقومه»

الفرعون ـ كما عرفنا ـ هو الجبّار، وهو لغة المستعمرين الهكسوس أُطلقت خطأ على كل ملوك مصر، والقرآن يقصد بالفرعون حكام أرض جاسان ـ أى محافظة الشرقية الآن من الملوك الرعاة. والمرادف للفرعون هو الطاغية، من الطاغوت والطغيان. ومن علامات الطغاة استخفافهم بأقوامهم، يقول تعالى: ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** (٥٤) ﴾(الزخرف)، يعنى استجهلهم، فأطاعوه لجهلهم، وقلة درايتهم. يقال: استخفّه الفرح، أى حمله على إثبات أفعال الجاهلين، ولم يكن عبثاً أن كتب توفيق الحكيم «عودة الوعى»، يقصد أن الطاغية من شأن جهازه الدعائى أن يُغيِّب عقول الناس ويستسهل ذلك لأُمّيتهم وانحطاط ثقافاتهم وأحوالهم المعيشية، فإن أردتَ ياأخى أو ياأختى، أن تتعرّف إلى نوع نظام الحكم فى بلدك، فانظر كيف يتصرّف حاكمه فى أهله، وكيف يسلكون إزاء جبروته وصلفه واستبداده، وما إذا كانوا يصدّقون دعاواه دائماً ولا يعارضونها أبداً. وقيل

في تفسير «استخفَّ قومه» أنه وجدهم خفاف العقول فاستعبطهم، فدانوا له بالطاعة العمياء كالبهائم يسلُس قيادها.

•••

٨٣٥. ﴿لقاء التحدي بين موسى والفرعون: الزمان والمكان﴾

هذا ما أوجزته الآيات: ﴿**وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)**﴾(طه)، وقدّمت له بأسبابه: أن موسى بذل كل ما في وسعه وقدّم له ما زوّده به ربّه من حُججٍ تدل عليه تعالى، أنه الواحد والقادر والناصر والقاهر، وكذّب فرعون ما رأته عيناه، وأبى أن يُذعن لإملاء العقل، وأنكر عناداً مع أنه رأى الآيات عياناً لا خبراً. كقوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾(النمل ١٤)، وسمّى ما رأى سحراً، وحدّد ما فهمه من دوافع موسى، بأنه ليوهم الناس أن آياته هي الأعلى، وهي الأوجب للتصديق، فيؤمنون لذلك بإلهه، فيغلب موسى الفرعون على أرضه، ويحوزها منه ويمتلكها ويطرده منها، وذلك دليل أكيد أن موسى كان يتعامل مع **ملك أجنبي غير مصري**، وعارضه الملك بسحر كالذي جاء به موسى، ليبيّن للناس أن ما أتى به ليس من عند الله كما يدّعي، ولكنه من ألاعيبه، وطلب منه موعداً أو وعداً بلقاء آخر في موعد أقرب ومكان أوسع، **والموعد** اسم لزمان ومكان الوعد، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**﴾(هود ٨١)، فلا يخلف أيهما اليوم المعلوم والمكان المعروف، واقترح لهما ـ واقتراحه أمر ـ أن يكون المكان- سوًى ـ أي سوى هذا المكان الذي هما فيه وهو **بلاط الملك**، فيكون نَصَفاً وعدلاً بينهما، بين أبهة هذا المكان وبين رحابته، ليتسع لعدد أكبر من الناس. وفي اللغة «**سواء الدار**» وسطها، ووسط كل شيء أعدله كقوله: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾(البقرة ١٤٣)، أي وَسَطاً بين الرأيين؛ **ويوم الزينة** الذي حدده هو يوم عيد، يتزيّنون فيه ويتهيّأون له، وأمثال هذه الأيام لم يعرفها المصريون ولكنها من عادات **شعوب الشرق الأوسط الأخرى** حول آلهتهم، كآلهة الحصاد، وآلهة الجمال، وآلهة الشُرب والصخب، والمصريون ما كانت لديهم أعياد صخب واحتشاد إلا عيد وفاء النيل، وقد جعل ذلك بعض المفسرين من العرب يقولون إن يوم لقاء موسى وهارون كان يوم وفاء النيل! أي كان في **الصيف**. ووفاء النيل لم يحتفل به المصريون إلا مؤخراً، وكان **عيد عبادة وشكر**، ولا تليق فيه أعمال السحر ولم يُعرف عن المصريين أنهم يهوون السحر، أو أن لهم علمٌ به، فالسحر علمٌ كاذب، وعلمُ المصريين هو العلم

الصحيح ولـذا تفوّقوا على الأمم، وبذّت حضـارتهم سائر الحضارات. وأما السـحر فكان اختصاص العبرانيين والأشوريين، فهؤلاء برعوا فيه واشتهروا به، ولكل ذلك كان يوم العيد حتما هو **يوم النيروز، وهو أول يوم من أيام السنة الشمسية**، ويحتفل به الأشوريون والفرس والسريان واليهود، وهو **يوم الفرح**، وجعله **أقباط مصر** من بعد ذلك **أول السنة القبطية**، والناس فيـه يزدحمون ويتزاحـمون، وأوفق الأزمنة للاجتـماع فيه والزحـام على أشده فى الضحى **الأعلى** بعد طلوع الشمس، لأن أول النهار هو **الضحوة** وليس الضحى، واختيار النهار فى أوله ليكون فيـه متسع لو امتد الأمر بين الفـريقين المتنازعين، **وحَشْرُ الناس فـيه** ليكون زهوق البـاطل على رءوس الأشهاد، فـتقـوى رغبة من يرغب فـى الحق، وتسقط دعوى المبطلين وأشياعـهم، ويكثر المحدّثون بالأمر فى البدو والحضـر، وتشيع القصة بين أهل الوبر والمدر - أى فى كل مكان، ووسط كل الطبقات والتجمعات والفئات.



٨٣٦. ﴿طريقة الفرعون هى المثلى﴾

الفرعون لفظ أجنبى وليس مصرياً، وهو الملك الربّ، والملوك فى مصر لم يحدث أن نادوا بأنفسهم **أرباباً**، منذ **عهد مينا** حتى آخر ملك من ملوك الأسرات، واسم **رمسيس** مثلاً هو **رع موزيس**، ورع هو اسم أحد أسماء **الله** عندهم، **وموزيس** أو موسى هو عبد هذا الإله، ومثله **تحتمس** وهو عبد الإله توت، كقولنا الآن **عبد الله**، أو **عبد الحافظ**، أو **عبد الصـمد**، فالملك ليس إلا عبداً **لله**. وأما عند ملوك أشور، **فالملك هو إلـه**، والتعبُّد يكون للملك تجسـيداً **للإله الكـونى**، فطريقة الأشـوريين هى أنهم كـانوا حسّـيين ومـاديين، **والروحانية** كانت منعدمة عندهم، على عكس المصريين. وقولنا: **إن ديانة موسى صورة من ديانة أخناتـون المصرى**، لأن سمـة الديانتين **التجـريد**، **والتجريد لم تعرفـه أشور**، والملـك الأشـورى - أى **الفـرعون** - يسخر لذلك من طريقه موسـى، ومن قبل موسى اختصم مع طريقة المصريـين، ولم يرض بعبادة أى من آلهتهم، لأنهـا آلهة قائمة على أسـاس المفهوم والتصور التجريدى لقوى **الله**. وقبل موسى كان **يوسف ويعقوب**، والذين آمنوا بهما قليلون من أهالى **جاسان** وبلاط **الفراعنة الهكسوس**. ولم تعجب **دعوة التوحيد** هؤلاء، لأنها تلغى الاستكبار الأشورى، والاسـتعلاء الآسيوى، وهما ما عُـرفت به طريقة الفراعنة من حكام أشور، وهى فى ظنهم «**الطريقة المثلى**» سواء فى الحياة كأسلوب، أو فى الدين كعقيدة، أو فى الحُكم كسياسة.



٨٣٧. ﴿لم يؤمن بموسى إلا القليل من ذرية بني إسرائيل﴾

عندما دخل يعقوب أرض مصر كان كل من معه، بما في ذلك أولاده ونساؤهم وأتباعه وذرياتهم نحو السبعين فردًا، ومنهم يوسف وولداه (التكوين ٤٦/٢٨)، وأقاموا بجاسان من محافظة الشرقية وتكاثروا جدأ، وظلوا فيها كما قيل أربعمائة سنة وثلاثين، وقيل الصحيح حسابياً مائتى سنة وثلاثين، وقيل إن من خرجوا مع موسى من ابن عشرين سنة فصاعداً ممن يمكن تجنيدهم للحرب كانوا ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين، غير أن من أظهر الإيمان مخافة بطش فرعون أقل بكثير، كقوله تعالى: ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)** ﴾(يونس)، فلما كان الخروج خرجوا جميعًا، ولو حسبنا النساء والأطفال والشيوخ المرافقين لهؤلاء الشباب الذين فاق عددهم الستمائة ألف، فإن عدد الخارجين ليبلغ أكثر من المليون!وهذا غير صحيح بالمرة.

●●●

٨٣٨. ﴿دعاء قوم موسى قبل الخروج﴾

لمّا وصل الصدام بين الفرعون وموسى مداه، قرّ قرار موسى على الخروج ببني إسرائيل، فأبلغ قومه: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)** ﴾(يونس)، فأسلموا أمرهم إلى الله، ورضوا بقضائه وقدره، وانتهوا إلى أمره، وسألوه أن لا يمتحنهم بالعذاب على أيدى أعدائهم، وأن يخلّصهم من فرعون وقومه.

●●●

٨٣٩. ﴿توحيد الفرعون لمّا أدركه الغرق﴾

في قوله تعالى: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)** ﴾(يونس) أن فرعون جمع جنوده من القرى والنجوع والمراكز والمدن ولحق موسى وأدركه مصبحاً، يريد أن يبغي ويعتدى عليه، طلباً للاستعلاء بغير حق في القول، وعدواً في الفعل، حتى إذا ناله الغرق صدّق وآمن ونطق بالشهادة: «لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين»، والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة لا تُقبل إلا قبل

رؤية البأس، وأما بعدها فلا تقبل. ونجّاه الله ببدنه لا بنفسه، ليكون للناس عبرة ويتّعظون، قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾(يونس)، فأماته وألقى بجسده على البرّ، وقيل إن رمسيس هو هذا الفرعون لعثورهم على مومياته، غير أن المومياء ليس بها ما ينبيء عن واقعة غرق، ولا يوجد بين ملوك مصر من يصدق عليه أنه مات غرقاً، وهذا دليل آخر على أن «قصة موسى والفرعون» كانت بين أغراب على مشارف أرض مصر بإقليم جاسان، وكان أمر هؤلاء الأغراب، سواء كانوا أشوريين أم عبرانيين، لا يعنى المصريين.

•••

٨٤٠. ﴿موجز قصة موسى مع الفرعون﴾

تعدّ الآيات الثلاث: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾(الذاريات) أوفى وأصغر إيجاز لقصة موسى مع الفرعون، فبرغم طول القصة الشديدة إلا أن هذه الآيات لخّصتها فجاء ملخصها رائعًا شاملاً، واعتُبر من معجزات البيان القرآنى، تماماً كمعجزاته تعالى في الكون. والآيات الثلاث تدعو للتأمل والتفكّر. وكانت حجة موسى البيّنة عصاه ذات السلطان، وإنما مَن لم يُكتب له الإيمان لم يؤمن ولو كانت الرسُل إليه ملائكة، وفرعون كان طاغية، ومن الملعونين، فلم يؤمن وأعرض مع كل معجزات موسى، وانفرد بوزرائه ومستشاريه، واجتمع بقواده ورءوساء عسكره، واحتمى بمنعة آله، وقال مقالته المشهورة التى يُتّهم بها كل مفكر أو رسول أو مصلح عندما تكون الحكومة التى يعارضها استبدادية: **ساحرٌ أو مجنون!!** ـ يعنى أن هذا المفكر، أو الرسول، أو المصلح إما أنه ساحر يلعب بالعقول ويدلّس على الناس، ويزيّف الحقائق، وإما أنه مجنون أن يجرؤ على نقد الحكم، أو نقض المذهب، أو تقويض الملّة. وفرعون أجرم وجنوده، لأنهم كانوا على الباطل، وموسى على الحق، فجرّ على نفسه وعليهم الوبال، وظلم نفسه وظلمهم، فلمّا أُخذ لم يُؤخذ وحده، وقُضى فيه وفيهم بالحق، وكان ملوماً كما كانوا ملومين، واستحق أن يموتوا معاً، وألقى بهم فى اليم وكانوا من المغرقين، وهذا ما أوجزته الآيات الثلاث خير إيجاز

•••

٨٤١. ﴿دار الفاسقين ليست مصر﴾

تأتى الآية: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾ (الأعراف) وكأن الله تعالى يتحدث عن

مصر، وكأنه يخاطب بنى إسرائيل، وبعض المستشرقين لذلك فرحوا بها باعتبار أنها تطعن فى مصر وتصفها بأنها دار الفاسقين. وكذلك ذهب بعض المفسرين هذا المذهب فى التفسير، إلا أن بنى إسرائيل كانوا قد خرجوا من مصر، ولم يعد فى الإمكان أن يروها حتى يصفها لهم الله تعالى بأنها دار الفاسقين، وأنه سيريها لهم، والخطاب فى الآية للعرب الذين دعاهم النبىّ ﷺ إلى الإسلام، فبعد أن قصّ عليهم قصة بنى إسرائيل مع الفرعون، ذكّرهم بشىء مشابه: قصّتى عاد وثمود فى أرض العرب، وآثار هؤلاء ما تزال هناك فى المسافة بين الحجاز والشام، وهؤلاء هم المعنيون باسم الفاسقين، ودارهم أو ديارهم - بمعنى بلادهم - وهى التى يرون آثارها كلما كانوا مسافرين إلى الشام.



٨٤٢. ﴿قصتا سامرىّ موسى وسامرىّ المسيح﴾

قصة السامرى **the samaritan** فى القرآن ينفرد بها عن التوراة والأناجيل، فلأول مرة يعترف اليهود بتفوّق القرآن عليهم، وأنهم قد عرفوا عن طريقه لماذا كان يهود السامرة منبوذين عندهم؟ ولماذا يعاملونهم كمنبوذين؟ ولم يكن اليهود يعلمون السبب، ولم يتضمنه كتابهم، فأخبرهم القرآن به، وهم يقتنعون بهذا السبب ويرددونه، ونبّه إلى ذلك جولدتسيهر، وجايجر، وشبيار. وتأتى القصة فى القرآن فى سورة طه، فى معرض فتنة قوم موسى وهارون، قال تعالى: **﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾.**

وللمفسرين المسلمين تفسيرات عجيبة فى السامرى وديانته وأصله، وكان الأسهل عليهم لو

أنهم رجعوا إلى التوراة ، إلا أن ذلك كان فيما يبدو صعباً فلم يكن هناك شيء متاح عن السامرة، ونسخة **التوراة السامرية** مثلاً، وهي التي يتعبّد بها أهل **السامرة من فلسطين**، لم تُترجم إلى العربية إلا في **القرن الحادي عشر الميلادي**، يعني لم تكن في متناول هؤلاء المفسرين، وجَهْلُهم قد يُعذَر لذلك. **والسامرة** اسمٌ عبراني معناه **مكان الحارس** أو **الديدبان**، وهي موطن السامريين، وعاصمة عشرة من **الأسباط** بنوها أيام **عمري بن أخاب** ملك إسرائيل بحسب التوراة اليهودية، **وعمري**- كما تقول التوراة- كان ملكًا من سنة ٨٧٦ **إلى** سنة ٨٤٢ قبل الميلاد، وكان صاحب الأرض التي بنى عليها مدينته يُدعَى **شامر** أي **حارس**، ومحتمل أن **الحراسة** كانت عمله، وسميت المدينة بهذا الاسم، وأضيف أهلها إليها فهم لذلك **السامريون**. وتقع المدينة على تل اسمه **عمرى شوميرون**، وكان لها برج عظيم، وسمى الجبل الذى أقيمت عليه **جبل السامرة**. **وإقليم السامرة** وسط فلسطين بين الجليل في الشمال واليهودية في الجنوب. ومنذ البداية كانت السامرة مدينة وثنية، وبنى فيها **آخاب** هيكلاً **للبعل**، وظلت الوثنية سائدة حتى عهد **ياهو**،ومارس السامريون عبادة الأصنام وخاصة **العجل**، وادّعوا أن **الهيكل** في **جرزيم** وليس في **أورشليم**، واستحكم لذلك الخلاف بينهم وبين اليهود. وتختلف **التوراة السامرية** عن النصّ العبرى في نحو **ستة** آلاف موضع. **فهذا هو الخلاف** بين السامريين والعبرانيين، **لكن لماذا هم منبوذون؟** لا أحد منهم يدرى، وإنما القرآن هو الذى **قصّ** القصة، وبيّن أن النّبذ كان **عقابًا للسامرىّ**، فإنه قد عاش في **أرض ساجان** من مصر،وعاشر الهكسوس، وكان من عبدة الأوثان، فرأى بعد موسى أن يصنع **اليهود صنماً** يتعبّدون له كما في مصر، إيثارًا منه للعينى عن المجرّد، وللحاضر عن الغائب. وكان جبريل قد أتى موسى، فرأى السامرى رؤية البصير أثره فى التراب، فقبض منه قبضةً، ولما رأى أنهم يريدون **صنماً عجلاً** يحتفلون حوله، طلب إليهم أن يخففوا عن كاهلهم أحمال **الذهب الذى سرقوه من أهالى** جاسان من المصريين وغيرهم، فصهره وسبَكه **عجلاً** له جسد العجل وليس له روح، وله خوار أو صفير إذا حُرّك أو دخله الهواء، وقال لهم: هذا إلهكم وإله آبائكم. فانظر كم الفرق بين الرواية في التوراة والرواية في القرآن! وكيف هي مسطّحة وجرداء قاحلة في التوراة، بينما لها أبعادها وأعماقها وأهدافها الإيمانية في القرآن! وكيف تجنّى **جولدتسيهر على القرآن** والنبىّ ﷺ عندما قال: إن محمدًا مدين بالقصة لبقايا اليهود من السامريين في المدينة. ثم الأعجب أن جولدتسيهر وقد فهم من القرآن عقاب موسى للسامرى، وهو العقاب الذى يؤرّخ لنبذ اليهود للسامريين ولم يعرف اليهود أسبابه، لم تأته الشجاعة الأدبية ولا الأمانة العلمية أن

يشيد بالقرآن من أجل إيراد هذا العقاب غير الموجود فى أى كتاب من قبل القرآن! قال موسى: ﴿ **فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ**﴾(طه ٩٧)، يعنى أنه صار منبوذاً يخشى الناس أن يمسّوه، وإلاّ انتقلت إليهم اللعنة، فصار يهيم على وجهه، وكلما اقترب منه أحد قال: «**لا مساس**»، أى لا تمسَّنى ولا تقترب منى. **وهذه الآية صارت مرجع قول الفقهاء بنفى صاحب البدعة**. ومن نسل هذا السامرى ومن أتباعه كان السامريون، وكانت كراهيتهم لليهود وكراهية اليهود لهم. **والإنجيل** على العكس يقول برواية أخرى عن سامرىّ **آخر** يناسب أن **يجعل من المسيح أعظم الأطباء، وفيها أن السامرى كان منبوذاً لأنه أبرص!** (لوقا ١٧/١١ ـ ١٩) ، وبديهى أن **قصة سامرى موسى بخلاف قصة سامرى المسيح** على الأقل بفارق الزمن بين الاثنين. وفى قصة الإنجيل أن المرضى بالبرص **كانوا عشرة**، قصدوا المسيح ليبرئهم، **فمسّهم** وبرئوا، فانصرفوا ولم يشكروا، إلا السامرى- وكان منهم - **فقد عاد إليه** يمجّده بصوت عظيم، وخرّ عند قدميه شاكراً، وكان كثيراً على المسيح أن لا يمجدّه إلا سامرى، إلا أنه قَبِل منه الشكر كما فعل مع الكنعانية لـمّا أظهرت إيمانها الشديد به كإيمان هذا السامرى، فقال لها المسيح: **إن إيمانك قد خلّصك! فكذلك** السامرى، إيمانه قد خلّصه. فهذه قصة السامرى مع المسيح ولا دخل لها البتة بالقصة قيد التوراة والقرآن.

●●●

٨٤٣. ﴿قصة موسى وعبدة العجل﴾

المصريون يعرفون العجل **أبيس** إله القوة البدنية والجنسية، والعجل عموماً كان معبود الكثير من الشعوب، ولا يوجد شعب من شعوب الشرق الأوسط إلا وكان من عبدة العجول فى يوم من الأيام، وفى **الهند** يعبدون **البقرة** رمز الخصب التناسلى، والخصوبة التكاثرية، والعطاء الأنثوى المتمثّل فى اللبن الغذاء الحيوى، كقولنا الغذاء الملكى عند النحل. **والعبرانيون** لمّا كانوا فى أرض **جاسان** من مصر، عبدوا **العجل**، **ليس نقلاً عن المصريين** وإنما عن **الأشوريين** الذين كانوا يحكمون جاسان وحكموا مصر كلها أو بعضها فى يوم من الأيام، **والبعض** ينسب عبادة العجل فى مصر للأشوريين، ويقصرها على إقليم **جاسان**، والعبرانيون **شعبٌ** أوثق صلة بالأشوريين منهم بالمصريين، **والطقوس العبادية** التى أدخلها موسى الديانة الموسوية طقوس تنتمى للشام وليست لمصر، ولكى ننبه إلى أصالة عبادة العجل عند الأشوريين وليس عند المصريين، علينا أن نعرف أن مدناً من مدنهم كانت تُنسب لعبادة العجل، مثل **عَجلون** (بالفتح)، والاسم يعنى بالعبرية «يلد

العجل»، وكانت **عجلون** قرب الساحل إلى الشمال الشرقى من غزة، ومكانها الآن **خربة عجلان**، شمال تل الحسى وقرب أربد. وهناك أيضاً **عِجلون** (بالكسر) وتعنى «**مثل العجل**»، وهو أحد ملوك مواب، وله حكايات مع بنى إسرائيل. والأصول اللغوية لكلمة «**عجل**» عند العرب والعبرانيين والموابيين والأشوريين واحدة، واللفظة **سامية** ويهمنا فى قصة العجل: أن المصريين نادراً ما يشيرون إلى **العجل أبيس**، وإنما صورة العجل متغلغلة فى **الأدب الشعبى والرسمى العبرانى** خصوصاً، والسامى عموماً، والقرآن نبّه إلى ذلك، وعبادة العجل من مكونات **اللاشعور العبرانى**، وهو رمز القوة الغاشمة والجنس والمال، وعندما نقول إنهم **عبدة العجل الذهبى**، نعنى أن معبودهم هو **القوة** أو بالأحرى **المال** وجمعه. وفى **التوراة** أن **هارون** كان من عبدة العجل!! وصنع لبنى إسرائيل عجل الذهب وبنى له مذبحًا (خروج ٣٢/ ١-٥)، فى جاسان (خروج ٣٢/ ٤)، وكذلك فعل **يربعام** بعد انقسام بنى إسرائيل إلى مملكتين، فبنى **تمثالين للعجل**، واحداً **فى بيت إيل**، والآخر **فى دان** (ملوك ١٢/ ٢٦-٣٣)، وظل شعب اليهود يعبد العجل، وأيّد هذه العبادة جميع الملوك الذين تعاقبوا على المملكة الشمالية ما عدا الملك **هوشيا**، وتحفل أسفار العبرانيين والنصارى بأوصاف العجول، كما فى **الأمثال**(١٤/ ٤)، **وعاموس** (٦/ ٤)، **ولوقا** (١٥/ ٢٣)، **والعدد** (١٩/ ١-٢٢)، **والرسالة إلى العبرانيين** (٩ / ١٣-١٤)، **والتكوين** (١٥/ ٩-١٧)؛ ولما أراد إرميا وصف مصر لم تسعفه مخيلته إلا بأن يشبّهها **بالعجلة**، ووصف شعب مصر بالعجول الصغيرة (٤٦/ ٢٠ ـ ٢١).

وعجل بنى إسرائيل يأتى عنه فى التوراة (خروج ٣٢/ ٢) أن هارون أمر الإسرائيليين أن ينزع النساء والأطفال حلقات الذهب فى آذانهم، فأخذها وصهرها وصوّرها فى قالب، وصنعها **عجلاً مسبوكاً**، وفرح الشعب بأنه أخيراً صار له إله، لأنه كان يكره **المجرّد** ويطلب **العيانى**، لمادية تفكيره وحبّه لكل ما هو من مادة، وسُرّ هارون سرور الشعب، فبنى للعجل مذبحاً، وأعلن أن الغد عيدٌ للربّ، وفى البكور أصعدوا المحرقات وقرّبوا الذبائح، وجلسوا يأكلون ويشربون، وقاموا يرقصون، وكان موسى فى الجبل يتلقى عن ربّه، وكان من المفروض أن يغيب **ثلاثين** يوماً ولكنه زادها **عشرة أيام**، فأمره الربّ أن يعجّل بالهبوط إلى شعبه، لأنهم قد انحرفوا وكفروا، وصنعوا عجلاً مسبوكاً، وسجدوا له وذبحوا، وعبدوه إلهاً. وكان الربّ غاضباً، وصار موسى يدافع عن الشعب، ويذكّره بوعده لإبراهيم وإسحق وإسرائيل لعله يرضى، ونزل بسرعة ومعه **لوحا الشهادة**، وعاد معه يشوع، ولما دنا من المكان وشاهد العجل والرقص، غضب ورمى باللوحين وكسرهما،

وأخذ العجل وحطّمه وأحرقه وذرّاه على الماء وسقى منه الشعب كعقاب، واعتذر هارون بأنه ما كان له إلا أن يفعل ما فعل، بالنظر إلى فساد هذا الشعب، فلما طلبوا إلهاً صنع لهم هارون واحداً ابتهجوا به، ورقصوا حوله عراة. ولا تذكر لنا التوراة: لماذا اختار هارون للإله أن يكون في شكل عجل؟ ولماذا من ذهب؟ ولماذا حالة العرى التى صاروا إليها حوله؟ والدراسات النفسية والتحليل النفسى يثبتان بدائية هذا الشعب وحيوانيته، وماديته وفساده، حتى أن الربّ قال فيهم: «هم شعب قساة القلب»، وقال فيهم هارون إنهم «شعب من الأشرار»، ورغم أنهم أبدوا التوبة فإنهم عادوا إلى المعاصى، وكأن موسى بعد أن أحرق العجل وذرّاه على الماء وسقى منه الشعب، قد أشربهم العجل، يعنى طبعهم على الجحود والظلم، فصارا فى دمائهم وتخللا الشخصية اليهودية.

وحكاية القرآن عن العجل مختلفة تماماً، وهارون مبرأ منها، والمتهم هو السامرى (انظر قصة السامرى). يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾(الأعراف١٥٢)، والذلة: لأنهم ابتدعوا العجل رمز المذهب المادى، وأشربهم موسى ماءه ليُعرفوا به. وكانوا سُرّاقاً، سطوا على زينة الأشوريين فى أرض جاسان وسلبوها (خروج ١٢/٣٥-٣٦)، وذلك دليل على أنهم كانوا منهم فجميعهم ساميون، وقذفوا الزينة - يعنى الذهب - فى النار، وصاغ لهم السامرى منه العجل، وقيل: كان السامرى قد أبصر جبريل وهو يعبر بهم البحر، فقبض قبضة من التراب من أثره، فألقاها فى ذَوْب الذهب، فصار كأنما العجل دبّت فيه الحياة، إلا أنه مجرد معدن وإن كان له خوار إذا صوّتوا فيه. والخوار هو صوت العجول، وقيل: كانت الريح إذا اخترمت العجل تصوّت، فكأنما العجل يخور. وقيل إن هارون مرّ به وهو يصنع العجل، فدعا له، وبدعوة هارون صار للعجل خوار، قال: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ (طه٨٨)، فلولا ميلهم إلى التشبيه ما صدّقوا، ولكنهم كانوا أول مشبّهة فى التاريخ، وقال السامرى عن العجل: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾(طه)، وقال موسى عنه للسامرى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾(طه)، وقيل لذلك: إن اليهود صارت لهم من يوم عبادة العجل مشكلة أو مسألة يقال لها المسألة اليهودية، ولا حلّ لها إلا بإلغاء الملكية الفردية، وأن تكون الملكية جماعية، وأن يُلغَى رأس المال الخاص ويعمّم رأس المال العام، فبذلك وحده تنتهى أسطورة عجل اليهود الذهبى، أو عبادة اليهود للمال وجمعه ولو أدّى الأمر إلى سرقته وخراب الشعوب ودمار المجتمعات.

●●●

٨٤٤. ﴿قصة هامان﴾

تُعرَض قصة هامان فى القرآن فى ثلاث سور وست مواضع، وتبرز القصة من خلال السرد القرآنى، يقول الله تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦** ﴾(القصص). واسم فرعون ليس من اللغة المصرية، وكان اسماً للملوك العماليق الذين حكموا مصر باسم الهكسوس. ولما قَدِم بنو إسرائيل مصر التقوا بيوسف، وكان وزيرا لأحد هؤلاء الفراعنة من الهكسوس الذين كانوا يحكمون إقليم جاسان أو محافظة الشرقية من محافظات مصر، بعد أن استولوا عليها، ولم يرد اسم فرعون موسى لما كان موسى طفلاً، ولا اسم الفرعون الذى طارد موسى إلى خارج مصر، وفى الحالتين كان من الملوك أو الحكام أو الأمراء الهكسوس أو الملوك الرعاة. وظل بنو إسرائيل فى أرض جاسان التى هى محافظة الشرقية إلى أن خرجوا من مصر، ويبدو أن خروجهم كان مع أفول حكم الهكسوس، فلم يكن المصريون راضين عما يجرى فى إقليم جاسان، لأنه صار مرتعاً للأجانب. ولمّا غرق جند الهكسوس لم تذكرهم الآثار المصرية، ولا ذكرت حكاية بنى إسرائيل، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أغراباً، وكان المصريون يجاهدون لإجبارهم على الخروج. وفى سفر الخروج (الفصل الأول ١١/١٥)، أن بنى إسرائيل استغلهم الملوك الهكسوس فى السخرة للبناء بالطين واللبن، وفى سائر أعمال الأرض، وأنهم شاركوا كعمال سخرة فى بناء قريتين من القرى المستخدمة كمخازن للغلال هما فتوم ورعمسيس. ومخازن الغلال كما نعلم كانت اهتمام يوسف وكانت تبنى بالطين كطريقة العبرانيين فى جاسان. ونخلص من هذه المقدمة إلى أن أرض جاسان هذه وقد كانت مستعمرة أو مستوطنة أجنبية، كانت مساكن للهكسوس العماليق ولبنى إسرائيل، وكان بها أشوريون وبابليون وفرس وعبرانيون، ولم يكن عبثاً أن أبطال قصة موسى كانوا - من جهة - ثلاثة، هم: فرعون، وهامان، وقارون؛ فأما فرعون فهو من العماليق الهكسوس كما يوحى اسمه، وأما هامان فهو رجل حرب من الأشوريين، وكانوا معروفين بأنهم محاربون وغزاة، وأما قارون فكان عبرانياً من الأثرياء ثراء خرافياً، ومن الجهة المقابلة - كان موسى وهارون، وهما عبرانيان من بنى إسرائيل، فقصة فرعون موسى، أو موسى مع الفرعون: قصةٌ عن جماعات حطّت أرض مصر واعتركت عليها، ولم يشارك فيها المصريون، وكانوا جميعاً محتلين. والأرض التى جرت عليها وقائع القصة هى أرض جاسان، وهى محافظة الشرقية الآن من أقصى الشرق، واليم فى القصة ليس النيل، ولكنه البحر حيث كانت أرض جاسان أقرب إلى بحر القُلْزُم، أى البحر

الأحمر منها إلى النيل،وكان للنيل مع ذلك تُرع تصب هناك، ولكنهـا لم تكن ما اصطلحنا عليه باسم النيل. فأما **هامان** فيرد اسمٌ كاسمه في **سفر إستير** من أسفار اليهود، ويحكى عن وزير بهـذا الاسم كان يكره اليـهود في **أشـور وفـارس** ويكيـد لهم. وقول فـرعون لهامان: ﴿ **يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ** ﴿٣٦﴾ ﴾ (غافر) هو خير وأقوى دليل على أن هذا الفرعـون هو من **الهكسـوس** أو **الأشـوريين** مثلـه مثل **هامـان**، وذلك أن تفكيـر الأشوريين كـان نمطه بناء **الأبـراج**، مـثل **برج بـابل** الشهير، وأول مـا تبادر إليه ذهن هذا الفرعون أو الحاكم هو أن **يعلو** في السماء بواسطة برج لينظر إله موسى، كتفكير الناس في بلده أشور وفارس، ثم إن فرعون تأكيداً لما سبق، قال أيضا: ﴿**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴿٣٨﴾﴾(القصص)، فلم يطلب من هامان صرحاً أو برجاً من **الحجارة** كطريقة المصريين، ولكنه طلبه من **الطين المحروق بالنار**، يعنى من الطوب اللبن، يُحرَق حتى يحمر لونه كطريقة البابليين، ولو كان مصرياً لطلب من وزيره أن يُعدّ له هَرَماً، أو مسلةً من الحـجارة، ولكنه طلب صرحاً أو برجاً من الطين كعادة البابليـين. وفي الآية بعد الآية السابقة: ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ (القصص ٣٩)، فلو كان مصرياً لاستكبر هو **وكهنته**، لأن أكبر سلطة في مصر كـانت **للكهـنة**. ولعل أكبر تحريف وتزوير في التـاريخ المصرى القديم أن المؤرخين من الإفرنج كانوا مدفوعين بحكم ثقافتهم التوراتية إلى الحديث عن مصر القديمة باسـم «**مصر الفرعونية**» وطاوعناهم على ذلك، ولم يضعوا في اعتبارهم أن اسـم **فرعون** أجنبيٌّ وليس مصرياً. وكذلك لم يلحظ مـفسرو القرآن أن الآية تقول «**هـو وجنـوده**» ولم تـقل «**هـو وكهنته**». ولو قالت: «**هو وكهنته**» لكان معنى ذلك أن الملك مصرى، ولكن قولها «**هو وجنوده**» معناه أن هؤلاء كانوا **مستعمرين**، وكانوا دائمًا كمستعمرين في حالة طوارئ، وأن أرض جاســان كانت **مستعمـرة أو مستوطنة عسكرية** من هؤلاء الأغراب. وقوله تـعالى بعد ذلك ﴿ **فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾(القصص ٤٠) دليل آخر على أن وقائع القصة لم تكن على أرض النيل **فلم يحدث في التاريخ أن تسـمى نيل مصر باليم**، واليم كلمة كما قيل **أجنبـية** وليـست عربية، وهي من **لغة أهل بابل**، والمقصود بها الترعة . وفي الآية ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ** ﴿١٠﴾﴾(الفجر) دليل آخر على أن فرعون هذا لم يكن مصرياً، فمعنى «**ذو أوتاد**»، أنه يسكن الخيـام، **ولم يسكن المصريون الخيـام إطلاقاً، وسُكنى الخيام للبدو الرُّحّل وليست للمزارعين**، فهذا دليل على أن **فرعون وهامان** لم يكونا مصريين، مثلهما مثل **قارون وموسى وهارون**.

●●●

٨٤٥. ﴿قصة قارون مع موسى﴾

يأتى عن قارون فى القرآن أربع مرات فى سورة العنكبوت وغافر، والقصص. وتقرن قصته مع موسى بقصتيّ فرعون وهامان، يقول تعالى: ﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾(العنكبوت ٣٩)، فقارون استكبر بالمال، وفرعون استكبر بالسلطة، وهامان استكبر بالقوة، وكان قارون من أغنى الأغنياء وشحيحا مقترًا إلا على نفسه، وفرعون كان طاغيةً مستبداً وادّعى الألوهية، وما كان لأحد أن يقضى فى أمر إلا بما يقول؛ وهامان كان وزير فرعون وقائد جنده، وله الهيلمان، ويحكم فى الأرض بما يشاء. وبلغ من شدة كِبرْ هؤلاء الثلاثة أن كذّبوا أنه يوجد من يعلو عليهم، حتى وإن زعم موسى أن من يعلوهم جميعاً هو الله، وأنكروا البعث والحساب، فقال موسى فيهم: ﴿ **إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾** ﴾(غافر)، والمتكبِّر هو المتعظّمَ عن الإيمان بالله، وصفه بأنه لا يؤمن بيوم الحساب، واتهم الثلاثة موسى لما عجزوا عن معارضته بأنه «ساحرٌ كذاب»، وحملوا معجزاته على السحر، وسخّفوا آياته، وأنكروا حُججه المرئية والمحسوسة وأبطلوها، وأدانوا الذين آمنوا بموسى، وقضوا فيهم بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

فأما قارون وحده فتناولته سورة القصص فى سبع آيات، تقول: ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾** ﴾، وقوله: «من قوم موسى» يعنى كان عبرانياً من بنى إسرائيل، والذين قالوا إنه كان ابن عم موسى لا دليل لهم عليه، وقال آخرون كان ابن خالته، والصحيح أن قرابته الوحيدة بموسى هى قرابة العرْق العبرانى ولا أكثر من ذلك. وقارون على وزن فاعول، عبرانى، مثل «هارون»، و«شارون»، وما راعى قارون قرابة العرق، وبغى على قومه، ولم

يسلموا من جشعه وأذاه. ونمط قارون هو **نمط الرأسمالى** الدائب على جمع المال. وفى سبيل المال استخفّ قومه، وتكبّر عليهم، وكان يعمل للفرعون **محتسباً** على بنى إسرائيل، وهؤلاء كانوا يسكنون أرض **جاسان من مصر** (**محافظة** الشرقية الآن). أقطعهم إياها من قديم يوسف، وغزاها **الأشوريون** وحكموها باسم **الهكسوس** كما أسماهم المؤرخ العبرانى مانيتو. **والهكسوس** كانوا **ملوكاً رعاة ومحاربين**، وأطلقوا على أنفسهم اسم **عماليق** أو **الجبابرة**، وأذاع العبرانيون اسمهم **الفراعنة**، ككسرى والكياسرة، وقيصر والقياصرة، ولم يكن اسم **الفرعون مصرياً**، وما لُقِّب أحد من ملوك مصر باسم الفرعون. وإنما انتشر الاسم بتأثير **التوراة** التى ورد بها، وبلغ من **غزو التوراة للفكر العالمى** أن العالم صار يسمى ملوك مصر باسم **الفراعنة**، وفسّر مفسّرو القرآن، وقد تأثروا بالإسرائيليات، الفرعون بأنه **ملك مصر**، رغم أن **هناك** أكثر من دليل فى القرآن على أن **قصة موسى والفرعون** لم تجر **فى** أرض مصر **وإنما فى جاسان**. وقارون كان من العبرانيين سكان **جاسان**. وقال تعالى فى ثرائه: **﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾** (القصص٧٦) يعنى مفاتيح خزائن ماله من الكثرة حتى أن ثقلها لينوء بالعصبة أولى القوة، **فما بالك بالكنوز نفسها؟** والعصبة **عشرة** كما فى **سورة يوسف** فى قوله تعالى: **﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾** (يوسف ٨)، وهم إخوة يوسف العشرة بدونه. وهذا المال الكثير كان يسعده كسعادة **تشايلوك** فى مسرحية **تاجر البندقية لشكسبير**، وجمع المال عند الجامع له، **اضطرابٌ نفسى أكيد** وليس مجرد عادة راسخة أو شطارة، فالمال يُشعره بتفوّقه ويشبع عُقدة النقص فيه، ولذا يسلك جامع المال أول ما يسلك بِبَطر وعجرفة، والمال وجمعه يعطيانه ثقةً، ويجعلانه يعلو على الناس ويتكبّر ويزدريهم، فلما تأذّى به قومه نصحوه أن لا ينسى الله الذى خلقه، ولا يهمل أداء حق الناس فيما رزقه، وكأنهم قالوا له إن المال مال الله وليس ماله، وإنما رُزق به اعتباطاً وليس لذكائه ودرايته. وانبرى للدفاع عن نفسه، **ليثبت أنه جمع هذا المال بجهده وعرقه**، وبقدراته **وفهمه** لأصول التجارة، وبطرق إدارة الأعمال والتعامل مع الناس، ووقف قارون فى جانب وسواد الناس فى الجانب الآخر، وقارون يصرّ على أن المال ماله ولا حقّ لله وللناس فى شىء منه، وما كان يرى الإحسان ولا الزكاة ولا الصدقة، ويعتبرها طرق احتيال يحتال بها أهل الدين ليعطوا الفقراء الخاملين مالاً لم يجمعوه، وما درى أن ما به هو **غرور العظمة**، وأن التاريخ فيه من أمثاله كثيرون، كانوا أشد منه ذكاءً، وأكثر جمعاً، ولو كان قارون حقاً قد جمع هذا المال لخصائص فيه لاستطاع أن يحافظ عليه بمواهبه، ولكن الله يوزّع الثروات فى الكون كيف يشاء وله حكمته. وقد غضب الله على من سبقوا

قارون ودمّرهم وما جمعوا، وأماتهم فلم ينفعهم المال، وكانوا في الآخرة في عذاب مقيم، فما كسبوا الدنيا ولا الآخرة، وما استُعتبوا في الدنيا، وما كانوا من المعتبين في الآخرة، وأمثال قارون ومن نمط شخصيته لهم سمات المجرمين يعرفهم بها الناس في الدنيا، وتميّزهم بها الملائكة في الآخرة، كقوله: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾** (محمد ٣٠)، وقوله: **﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾** (الرحمن ٤١)، لا يحسدهم في الدنيا عاقل ولا مؤمن، وكان كلما خرج على قومه في زينته، تمنّى الضعفاء والموتورون لو يكون لهم مثل حظه، وقالوا فيه إنه ذو حظ عظيم، وهال أهل العلم والدراية ما تردّى إليه الناس من أفكار في قارون فيها الكفر الصريح، وحذروهم من فتنته، فثواب الله خيرٌ لهم من كل المال لو آمنوا وعملوا صالحاً، والأولى بهم أن يصبروا على ما قُسم لهم من معيشتهم، ويثابروا على العمل الصالح ولهم الجنة، واشتدت على الناس «فتنة قارون»، فخسف الله به وبداره الأرض، وما نفعه ماله ولا أتباعه، وما نصروه من غضب الله، وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون: **﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾** (القصص)، و «وي» تقال للتعجب والندم، فما تمنّوه بالأمس كان خطئاً بعد ما شاهدوا ما نزل بقارون من الخسف، وندموا على ما صدر منهم من التمني، فليس ما يستحق العجب ثراء قارون، وإنما صُنع الله في الكون والبشر، وكيف أنه تعالى يوسّع الرزق لمن يشاء بحسب مشيئته وحكمته، وليس لكرامة هذا أو ذاك، ويضيّق الرزق على من يشاء بحكمته وقضائه، ابتلاءً لا لهوانه عليه. ولولا أن الله مَنّ على الناس الذين تمنّوا مثل حظ قارون، لخسف بهم، ولكان مصيرهم كمصير قارون، والعجب في فعل الله أن الكافرين لا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

وهكذا تنتهي قصة قارون، وهي **قصة طغيان المال**، كما أن **قصة فرعون هي قصة طغيان السلطة**، **وقصة هامان هي قصة طغيان القوة** وتختتم القصة بحاشية على أحداثها القصص الثلاث، تقول: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾** (القصص)، فالدار الآخرة التي يسمع بها الناس هي «تلك الدار» (والإشارة بتلك للتفخيم والتعظيم) التي قيل فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، قد جعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض كعلو وتكبرُّ هؤلاء **الثلاثة** مضرب الأمثال: **قارون وفرعون وهامان**، وهي **العاقبة** ولا تكون إلا للمتقين الذين يخشون الله، والحسنات عند الله مضاعفة، بينما لا يُجزى الذين يعملون السيئات إلا ما عملوا بلا زيادة ولا نقصان.

ويُذكر من الأدب الشعبي في مصر أن البحيرة في الفيوم التي اسمها **بحيرة قارون**، نسبةً إلى قارون موسى، ولم يحدث أن سكن قارون الفيوم ولا امتلك بحيرة فيها، وإنما سميت كذلك بحسب **القصة القرآنية**، فأرض الفيوم منطقة **زلازل**، والأرض هبطت نتيجة لواحدة من هذه الزلازل، وتكوّن تجويف البحيرة وامتلأ بالماء لانخفاضه عن سطح البحر، ولتشابه **الخسف** الذي جرى لقارون بالخسف الذي جرى للأرض في الفيوم، وتكوين البحيرة فيه من ثم، سميت البحيرة باسم قارون، والصحيح أن لا صلة لها بقارون العبراني هذا!



٨٤٦. ﴿قصة سورة غافر عن موسى ومؤمن آل فرعون﴾

لم يذكر القرآن «**لمؤمن آل فرعون**» اسماً غير هذا الاسم، فكان مادة خصبة **للإسرائيليات**. ولما كان اسم فرعون من الأسماء **الأشورية** وليس اسماً مصرياً، وكانت قصة موسى معه لتخليص بني إسرائيل، وكان هؤلاء يسكنون أرض **جاسان**، وهي **الإقليم الشرقي** من مصر، وكان «**مؤمن آل فرعون**» هذا من أقارب فرعون، فإنه لا يكون لذلك مصرياً. وسمّاه المفسرون بهذا الاسم من الآية: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾(غافر ٢٨). والمشهد الذي تجرى عليه القصة هو أرض **جاسان** التي احتلها **الهكسوس**، أو الملوك البدو أو **الرعاة**، أو **العماليق**؛ وطرفا القصة: **موسى وهارون** في طرف، والاثنان عبريان، **وفرعون وهامان وقارون** في الطرف المقابل، والاثنان أشوريان، والثالث **عبراني** متحالف معهما. ولم يكن قوم **موسى مصريين**، ولا كان الأشوريون المحتلون لجاسان من قومه، وإنما قومه هم **العبرانيون أو بنو إسرائيل**، جاء يخلصهم - ليس **من المصريين**، وإنما **من الأشوريين**. وموسى نفسه كما في السورة تربّى في **جاسان** في كنف أحد الفراعنة من العماليق، ولما ضرب واحداً من أعدائه انتصاراً للعبراني المستضعف لم **يذكر القرآن أن الذي من عدوه كان مصرياً**، وتقول الآية: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ**﴾ (القصص ١٥). وإذن فنحن إزاء أحداث جميع شخوصها من الأجانب، و«**مؤمن آل فرعون**» كان أجنبياً، ولذلك كان عجيباً أن يقول المفسرون العرب أن اسمه كان **حبيب النجار**، يعني كان عربياً! وقالوا اسمه **شمعون**، أو **سمعان**، أو **حزقيل**، يعني كان عبرانياً! وكيف يكون عربياً أو عبرانياً وهو **من آل فرعون**؟ والآل هم الأهل والأقارب والأتباع والأشياع. وقالوا كان قبطياً - يعني مصرياً، وليس

القبطى هو المسيحى كما يزعم نصارى مصر الآن!والصحيح أنه كان أجنبياً أشورياً من الهكسوس، مثله مثل **هامان** وزير الفرعون. ومصر منذ الأسرة **الخامسة** وهى تسمح بوجود الأجانب فيها حتى كانت لهم المستعمرات، **وجاسان** كانت **مستعمرة عسكرية**، وهذه المستعمرات كانت منتشرة فى الدلتا، ومن سكانها: **اليونانيون، والعبرانيون، والأشوريون، والليبيون!** والتوحيد الذى كان عليه «مؤمن آل فرعون»، كان بتأثير العبرانيين من خلال يوسف أولاً، يقول «مؤمن آل فرعون»: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا** ﴾ (غافر٣٤)، وكأنه فى دفاعه عن موسى يقول: وها قد جاءكم الرسول وهو موسى،ودفاعه عنه لأن دعوته كانت كدعوة **يوسف**، ثم إن **أولاد يعقوب المسمون الأسباط وأحفادهم ونسلهم جميعاً كانوا فى مصر، وكلهم على التوحيد**. ولما بشّر يعقوب بشّر فى مصر، والأسباط بشروا من بعده، وبشّر يوسف، ثم جاء موسى وبشّر، وبشارة هؤلاء جميعًا كانت للملوك الفراعنة، وهم الملوك العماليق من الأشوريين. و«**جاسان**» كانت عاصمتها «**تانيس**» واسمها عندهم «**أفاريس**»، وكل ما جرى زمن يوسف ثم زمن موسى **كان مع** هؤلاء الملوك العماليق.

وانظر إلى المشاهد وتتابعها: فأولاً إيثار التُجّار من الأشوريين أن يشتروا يوسف، ثم بيعهم يوسف **لعزيز مصر**، ثم معاملة **حرّاس السجن** الخاصة ليوسف، وكل ذلك يجزم بأنهم كانوا من الأجانب، **بل إن يوسف فى قصة التوراة** ليوقع بالناس من أجل سيده الفرعون، ويلجئهم إلى بيع أراضيهم والعمل عند الفرعون بالأجرة، وهذا ما لم يحدث قطّ مثله فى مصر القديمة، ومن الظلم البيّن إذن أن يُنسَب الظلم إلى المصريين، أو أن تُحسب عليهم غفلتهم وسرقة بنى إسرائيل لذهبهم وفضتهم وأمتعتهم! **فالقصة برمتها عن أجانب** مع بعضهم البعض.ولمّا استشهد مؤمن آل فرعون بالأمم السابقة كبرهان على ما يقول، ذكر أمماً من **ثقافته الآسيوية** لا يعرف المصريون عنها شيئًا، وإنما يعرفها ملوك العماليق وحاشية الفرعون التى هو منها. قال: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)** ﴾ (غافر)، **فعاد** وثمود كانوا عُرباً، والأحزاب هم الذين تحزّبوا ضد أنبيائهم، وكلهم من المنطقة نفسها. ولا علم لأى مصرى بأمثال هذه الأسماء،وثقافة مؤمن آل فرعون كما ترى **ثقافة دينية من نوع خاص** لم يعرف مثلها المصريون ولا العبرانيون الذى تربّوا فى مصر ولهم فيها **نحو الأربعمائة** سنة كما قيل، وحتى بعد أن كتبت التوراة بعد موسى بنحو **ثلاثمئة وخمسين** سنة لم يكن فيها شيء عن **عاد ولا ثمود ولا الأحزاب**، وذلك يرجّح أن تكون ثقافة مؤمن آل فرعون **ثقافة**

أشورية مغايرة لثقافة المصريين والعبرانيين. ولولا أنه أشورى لما طلبه الفرعون ليقتله، ولما تجرّأ «مؤمن آل فرعون» على وعظه، ولما استطاع الإفلات بنفسه منهم، ولما تمكن من الهرب: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾(غافر). وليس في القصة أنهم طلبوا موسى وهارون ليقتلوهما، وإنما كان طلبهم للذى آمن لأنه منهم. ولقد حاق بهم مكرُهم. واصطلاح «العرض» الذى بالآية هو الذى نبّه إليه الرسول ﷺ يشرح لعائشة الفرق بين حساب العرض وبين حساب يوم القيامة، فحساب العرض إجمالى، وحساب يوم القيامة تفصيلى، وفى الحديث: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة». وآل فرعون الآن فى «العرض» حتى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾(غافر). ودليلنا على أن فرعون وآله كانوا من البدو الرعاة الرُّحّل. أن الثالوث أو الثلاثة ـ أعداء موسى ـ كانوا: الفرعون، وهامان، وقارون، وكلهم أغراب، وأسماؤهم ليست مصرية، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾(غافر)، ففرعون لم يكن اسمًا مصريًا؛ وقارون على وزن هارون، فهو عبرانى قُحّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (القصص ٧٦)، وهامان فى التوراة اسم عيلامى، من عيلام، من الرعاة، من سلالة عماليق (إستير ٣/ ١، و ٩/ ٢٤)، وعماليق كانوا أعدى أعداء العبرانيين، فكان هامان يبغضهم، وأفصح عن كُرههم فى موسى، وبيّن القرآن ذلك خير بيان، وتحالُف «فرعون ـ هامان ـ قارون» هو تحالُف «السلطة والجبروت والمال»، وتزعم بعض كُتب التفسير العربية أن «مؤمن آل فرعون» هو «صاحب يس»، وذلك خطأ، لأن «قصة صاحب يس» ربما كانت مثلاً كما فى الآية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾(يس ١٣)، ومن قال ذلك استدل بأن القرية قد أُرسل إليها نبيان، ولم يُعرف عن إرسال نبيين إلا موسى وهارون، غير أن ذلك مطعون فيه لأنهما لم يكن لهما ثالث كما فى السورة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ (يس ١٤). وكذلك فإن «رجل يس الذى يسعى»، أو كما يعرفه البعض باسم «صاحب يس»، انتهى نهاية مأساوية وقتلوه، وأما «مؤمن آل فرعون» فنجّاه الله كما سبق أن نوّهنا: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ (غافر ٤٥). وكان مؤمن آل فرعون مؤمناً عن حق، لأنه فضلاً عن إيمانه، فقد أعلنه بعد كتمان، ودعا إلى الله جهرةً ونافح عن نفسه وعن موسى؛ وحواره مع آل فرعون،

هو المنهج الأمثل لنشر الدعوة، وكان «بالتي هي أحسن» (العنكبوت ٤٦، والإسراء ٥٣) أى بالمنطق، فذلك أحسن المناهج، قال: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)**﴾(غافر)، وقوله هو أحسن كلام، واستحق به أن يُدرج ضمن الصدّيقين، وفى الحديث: «**الصدّيقون مؤمن آل يس، ومؤمن آل فرعون الذى قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربّى الله، والثالث أبو بكر الصدّيق وهو أفضلهم**»، فمؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون كلاهما دافع عن الدين فأجاد، ودعا إلى التوحيد فأفصح وأبان، ولكن أبا بكر «**جاهد**» فى سبيل الله بنفسه وماله، وهاجر من أجل الدعوة، وأوذى أشد الأذى، وما من وقعة لرسول الله ﷺ إلا وكان أبو بكر فيها، وخلّف رسول الله ﷺ على الدعوة والمسلمين فحفظ العهد وأحسن السياسة، فكان أفضل الثلاثة. ويُروَى عنه أن **عُقبة بن أبى مُعيْط** أخذ بمنكب الرسول ﷺ وهو فى الكعبة يصلى، ولوى ثوبه فى عنقه يريد أن يخنقه، فأقبل أبو بكر يهرول وأخذ بمنكبه، ودفع عنه وقال مقالة الآية: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾(غافر٢٨)، وقال علىّ بن أبى طالب يعلّق على الحادثة: **والله ليوم أبى بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون. إن ذلك كتم إيمانه فأثنى الله عليه فى كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه، وبذل ماله ودمه لله عزّ وجلّ!**

ودفاع مؤمن آل فرعون من «**المدافعات الدينية**» التى اشتهرت من بعد ذلك فى المسيحية واليهودية، تقليداً، وأعطوها اسم **apologies** وعُرف بها كثيرون، والقرآن سابقٌ فى ذلك، ويسترسل مؤمن آل فرعون فى دفاعه، يذكّر آل فرعون بأنهم إذا كانوا وقتذاك من الكبار والأعاظم والسدنة للكفر، ينصرهم سلطانهم وأموالهم، فمن ينصرهم يوم الدين؟ ويردّ فرعون فى صلف وعتو بأكبر فرية وكذبة فى التاريخ يلوكها الطغاة، ويرددها المستبدون، وتكثر على أفواه رءوساء الدول المستعبدين لشعوبهم: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)**﴾(غافر)، فالرئيس وحده هو الذى أوتى الصواب، وطريقه الذى اختاره، وسياسته التى هداه إليها عقله، هما وحدهما الطريق الذى يُسلك، والسياسة التى تُتبع، فكل شيء فى الدولة فى يده وهو المتحكّم فيه، يُعيّن من يُعيّن، ويسجن من يسجن، **وكله بالقانون**، والقانون هو الذى يأمر به، **وترزية القانون** هم الذين يسنّونه، ويصادق عليه أتباعه والمنتفعون والمنافقون! ويسترسل مؤمن آل فرعون، يقول: إنه يخاف عليهم **يوم التناد**، أى يوم القيامة، سمّاه كذلك لأن الناس فيه يتصايحون ويتنادون، والملائكة تنادى على أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم. ويقول: لقد وافق البعض يوسف

على دعوته للتوحيد، مجاملةً، فلما مات عادوا إلى كفرهم، اعتقاداً بأن النبوة حادثة لا تتكرر، ولم يكن رفضهم لدعوة موسى إلا لأنهم ضلوا وأسرفوا في الضلال، وارتابوا وأوغلوا في الارتياب؛ وجادلوا في آيات الله ولا دليل عندهم على بطلانها، وإنها لكبيرةٌ أن يجادلوا في الله، ولا يجادل في الله إلا من طُبِع على قلبه المتكبِّر الجبّار. وينتهي كلام مؤمن آل فرعون، فيغضب فرعون، ويستنفر عامله ووزيره هامان، أن يبني له صَرحاً يطاول السماء، ليصعده باحثاً عن الله الذي يدعو إليه موسى ويزعم أنه يسكن السماء، ولعله إن وجده قتله وخلّص منه الناس، وهو كلام غث زيّنه له شيطانه فَحَسّن له الشرك، وصُدّ عن السبيل القويم، وليس في كلامه وما دبّره إلا الخسران والضلال. واستأنف مؤمن فرعون دعوته للناس فقال: ﴿ **يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٣٨) ﴾(غافر)، وأركان دعوته: أولاً أن السبل متعددة وأرشدها هو سبيله، سبيل الرسُل والإيمان؛ ولكي يؤمنوا فعليهم ثانياً أن يعتقدوا أن الدنيا دار متاع، والآخرة هي دار القرار؛ وأن الحساب يوم القيامة بالجزاء على السيئات والحسنات، فالمسيئون لهم النار، والمحسنون لهم الجنة. ويسألهم سؤال استنكار وتأنيب: ﴿ **مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ** (٤١) **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** (٤٢) ﴾(غافر). وقال: ما تدعونني إليه من الكفر ليس له أصل في الدنيا ولا في الآخرة، ومآل الجبّارين والمتكبرين والطغاة هو النار. وهنا يختتم دفاعه بأجمل ختام فقال: ﴿ **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ** ﴾(غافر٤٤). وكانت الآيتان: ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** (٤٥) **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** (٤٦) ﴾ (غافر) بمثابة الحاشية على القصة، وفيها إعلام بمصيره كما أسلفنا، ونجاته منهم، وما حاق بآل فرعون من ذُل العرض مرتين يومياً حتى يوم الساعة، وعندها يكون العرض الأخير. والدرس المستفاد من القصة يأتي بعد ذلك توجزه الآيتان: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** (٥١) **يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** (٥٢) ﴾(غافر)، ونصرُهم في الدنيا بإعلاء حُججهم وإفلاحها، كما حدث مع موسى، ومؤمن آل فرعون، حتى ليذكرهما القرآن ويرتله الناس باسميهما؛ ونصرهم في الآخرة بشهادة الشهود لهم، وبطلان معذرة الظالمين، ولعنتهم، وإفرادهم بالجحود. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٨٤٨. ﴿قصتان فى القرآن عن موسى والذى جاء من أقصى المدينة يسعى﴾

القصتان وردتا في القرآن في سورتى القصص ويس، وسورة القصص أسبق من سورة يس. والإخبار عن هذا «الذى جاء من أقصى المدينة يسعى» فى سورة القصص فى آية واحدة تقول: ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ⁽٢٠⁾ ﴾(القصص)، وفى سورة يس يستغرق الإخبار عنه سبع آيات، من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٧، ويأتى فى بدايتها: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ**﴾ (يس)، والاختلاف واضح بين البدايتين، ففى «القصص» «**وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى**»، وفى يس «**وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى**» فؤُخِّر «**الرجل**» فى سورة يس، وقُدّم فى سورة القصص، فإذا وجدنا «**الرجل**» فى مقدمة الآية علمنا أنها من سورة القصص، وإذا وجدناه متأخراً فيها علمنا أن القصة الواردة هى من يس. ورجل سورة القصص واش وجاسوس، وإن كان قد خدم **موسى** بنصيحته بالهروب، إلا أنه ليس من الدعاة، ولم يفعل ما فَعَل حباً في الدين، ولكن لأنه كان متعصباً لقومه، ومن منطلق عنصرى. فهو **عبرانى** وموسى عبرانى مثله، وأعداؤهما آل فرعون من الأشوريين؛ وليس كذلك «رجل» سورة يس، فقد كان داعياً إلى الله، وإلى اتّباع رسُله، وأعلن على رءوس الأشهاد إيمانه، ويبدو أنه استشهد وأُدخل لذلك الجنة، فتمنى لو علم قومه أن الله أكرمه وغفر له وأثابه خيراً بخير.

●●●

٨٤٩. ﴿قصة سورة القصص عن موسى والرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى﴾

«الرجل الذى جاء من **أقصى المدينة يسعى**» هو صاحب موسى، ويرد عنه في سورة القصص أنه عبراني مثله، يقول تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ⁽٢٠⁾ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ⁽٢١⁾ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** ⁽٢٢⁾ ﴾ (القصص)، فلولا نصيحة هذا الرجل لأمسكوا بموسى جزاء قتله للذى هو عدوه. وكونه يأتى من **أقصى** المدينة يعنى أنه **يسكن الأطراف**، حيث كان **أهل البلد والأغنياء يسكنون قلب المدن** والقرى، **والأغراب والفقراء والمضطهدون يسكنون الأطراف أو العشوائيات**. وفى الآية أن الملأ يأتمرون بموسى، والملأ أى **السلطة**، وائتمارهم بموسى يعنى أنهم قد خططوا للقبض عليه أو التخلص منه، وسبب ذلك ظهوره بمظهر الجبّار - أى البلطجى، وكان موسى من الزيلوط **Zealot** أى المتعصبين اليهود المملوءين وطنية وحماسة لقومهم، والرافضين لما

يفرضه عليهم عدوهم. ومشكلة موسى مع السلطة تحكيها الآيات: ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)** ﴾(القصص)، فالجُرم الذى أراد «الذى جاء من أقصى المدينة» أن يفلت به موسى ولا يعاقب بشأنه، كان قَتْلَ نفس لسبب واه، وإنما لأن المسألة أخذت بعداً عنصرياً، فإن موسى انتصر للعبرانى ضد خصمه، ولا يرد فى القصة أن الخصم مصرى، ولكن القصة جرت فى جاسان من إقليم مصر على الحدود الشرقية، وكان يستعمره الأغراب ويحكمه جبابرة الأشوريين الذين سمّاهم مانيتون «الهكسوس أو الملوك الرعاة»، وهم أشوريون محاربون وكانوا يلقبون بالفراعنة، واحدته «فرعون». والمدينة: هى ثكنة عسكرية لجنود الأشوريين، ولذلك انتهج العبرانيون تجاهها النهج العسكرى، واتخذوا العنف وسيلة لرفع الظلم عنهم. «والرجل الذى جاء من أقصى المدينة» ولو أنه يبدو فيما نَقَل إلى موسى - واشياً وجاسوساً، إلا أنه فيما فعل كان مدفوعاً بحماسه العنصرى أو القومى كحماس موسى، ورأى فى الخروج من البلد إلى خارج حدودها خلاصاً لموسى. وموسى كان يرى أنه كان مظلومًا، وكذلك رأى «الرجل الذى جاء من أقصى المدينة» أن موسى قد ظُلم، وذلك فقط فى النسخة العربية للقصة كما يوردها القرآن. أما فى النسخة العبرية التى يوردها التوراة (الخروج ٢/ ١١) فموسى متعمدٌ للقتل، وبلغ به حبُّ العنف أن قام بدفن الجثة بعد أن قتل صاحبها. وفى نسخة التوراة يرد أنه مصرى على عكس رواية القرآن، كما يرد أن السلطة مصرية وهو غير صحيح تاريخياً. وفى رواية القرآن كان الشجار الثانى بين نفس العبرانى صاحب الشجار الأول وخصم آخر من عدوه، ولقد عاب موسى على العبرانى مواصلته للشجار ووصفه بأنه «غوىّ»، يعنى أنه يهوى الشجار، أو أنه غوى من الغواية، يريد أن يغوى موسى ثانية ليتورط مثلما تورط فى المشاجرة الأولى، فلذلك عنف موسى معه، فظنه يريد قتله كما قتل الآخر بالأمس، فهدده أن يفشى سرّه، فخاف موسى، وفى رواية التوراة: أن الشجار الثانى كان بين عبرانيين، أحدهما صاحب الشجار الأول، فلما نهاه موسى عن ضرب العبرانى مثله، رفض أن ينصاع لأمره، وهدّده بالإبلاغ

عن جريمته، وخاف موسى أن يفتضح أمره، فقرر الهرب فوراً خارج الحدود. فانظر كم تختلف الروايتان فى كافة التفاصيل، وأخيراً يأتى الاختلاف فى **الهدف**، وفى الدرس المستفاد، ففى قصة التوراة لا يتصرف موسى كنبىّ، أو أن معنى النبوة ليس كما هو فى الإسلام، والأنبياء فى إسرائيل كثيراً ما يظلمون ويسلكون مسالك معيبة، ومن ذلك تصرفات موسى كما تروى عنها التوراة، وفى قصة القرآن ظل موسى يستغفر ربّه بشأن ما ارتكب حتى اطمأن قلبه أنه قد غُفر له، طالما أنه تاب عن مثلها وأناب، وعرف أن ذلك شأن إجرامى لا يليق به ولا يحبه ربّه فيه، ولذلك ساعده «**الرجل الذى جاء من أقصى المدينة**»، وتكبّد مشقة الحضور إليه، لأنه كان يحبه، وكان موسى يثق به ويبادله الحب. وليس فى **قصة التوراة** استغفار ولا توبة ولا إنابة، وشتّان بين القصتين، ولا ذكر «**للرجل الذى جاء من أقصى المدينة**» فى قصة التوراة، وقصة القرآن بذلك أكمل، وأعمق فى تحصيلاتها، وشخصياتها أكثر، والحوار فيها متصل، والعبارات موجزة ولكنها شديدة الإيحاء والتأثير.

•••

٨٥٠. ﴿قصة سورة يس عن موسى والذى جاء من أقصى المدينة يسعى﴾

كثيراً ما يوجزون اسمه فيقولون «**رجلٌ يسعى**»، ويشتهر بهذا الاسم فى المراجع الصوفية، ويأتى عنه فى **سورة يس**، وهى من السور الإيمانية شديدة الاحتفال بالمؤمنين الذين يدعون إلى الله، ومن هؤلاء **رسُل القرية الثلاثة**، (يس ١٢/ ١٩)، وكذلك «الذى جاء من أقصى المدينة يسعى»، وتحكى عنه السورة فتقول: **﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾**﴾(يس). ولقد جاء فى السورة أن **أصحاب القرية** التى جاءها **الرسل الثلاث** هم مَثَلٌ يُضرَب للناس كلما ضلوا وجحدوا وأصرّوا على الإنكار، وكذلك «**الذى جاء من أقصى المدينة يسعى**» وقصته فى الإيمان هى المقابل لقصة أصحاب القرية فى الإنكار، وذهب المفسرون مذاهب شتى، وكلٌّ

ينسب «الذى يسعى» لقومه، فالعرب قالوا **اسمه حبيب بن مُرِّي النجار** ـ أو **الإسكاف**، أو **القصّار**، نسبةً إلى مهنته، والقائل بهذا الاسم ومروّجه: وهب بن منبّه، والاسم عربى، لكن الحكاية كلها بمقالة وهب بن منبه من **الإسرائيليات**. وقيل: إن حبيباً كان من أهل **أنطاكية**. واختيارها كموضع لقصة **الرسُل الثلاثة**، و«**للرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى**»، لأنها **مدينة عالمية** فيها من جميع الجنسيات، وأهلها خليط من الرومان والسريان واليهود والإغريق والعرب، وكانت **ثالث** مدن **الإمبراطورية الرومانية بعد روما والإسكندرية** وكتّاب السِّيَر أعطوا «**الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى**» اسم **صاحب يس**. والغريب فى قصة **وهب** عن «**الرجل الذى يسعى**»، أنه قال عنه إنه جاء من أقصى المدينة لأنه كان مريضاً بالجذام، ولهذا كان يسكن فى الأطراف. ومنطق «**الذى يسعى**» فى إيمانه بالرسل ومتابعتهم على دعواتهم، أنهم لا يسألون الناس أمراً لأنفسهم، وكذلك المؤمن لا يطلب أجراً على إيمانه، ومن فلسفته: أن الإيمان فطرى فى الإنسان، وأن العقل ليأبى أن نعبد من لا تغنى شفاعتهم شيئاً، ولا من لا يرفع ضُرّاً، ولا يُشفى مرضاً ولا يفرّج كُربة، وإنه لضلال أى ضلال أن يلجأ الناس لغير الله. ووجّه خطابه للمرسلين فأقرّ بربّهم الذى يدعون إليه، ويبدو أن إقراره المفاجىء أذهل أهل القرية الكفرة، ولابد أنه أوقع بينهم الاضطراب، وأن الأيدى امتدت واشتبك الناس، ولابد أنه قد أصيب وقضى نحبه، فلما مات قال له الله تعالى مؤبناً: ادخل الجنة مع الصدّيقين والأنبياء والأبرار، فدخلها وعاش بها يُرزَق حياً كما وعد الله، وقد ذهب عنه سُقم الدنيا ونَصَبها، وتركه يأسُه من خسّة أهلها، وزاد الله تعالى فى إكرامه لإيمانه وصبره واستشهاده، فتمنّى لو يعلم قومه بحاله وحُسن مآله، فكان فريداً فى حياته وبعد مماته، ونصح قومه لمّا كان بينهم، وما يزال ينصحهم بعد أن غادرهم وتوفى عنهم كما جاء فى القرآن، فصار مضرب الأمثال، فقيل: **اثنان فى القرآن لم يكفرا بالله طرفة عين: مؤمن آل فرعون فى سورة غافر، وصاحب يس فى سورة** يس، وكلاهما كان صدّيقاً.



٨٥١. ﴿موسى أوذى من قومه فبرّأه الله﴾

فى التوراة اليهودية أن موسى تزوّج **امرأة حبشية**، وأغضب ذلك قومه، وتكلم فيه أخوه **هارون** وأخته مريم، وفكّرا فى استحداث **انقلاب** ضده، فليس هو وحده يكلّمه الربّ، وكلّمهما الربّ كما كلّم موسى (العدد ١٢/١)، وقال لهما إن ما يظننانه الربّ هو **شَبَه الربّ**، يعنى الربّ فى صورة يمكن أن يقبلاها كبشر، وقال إنهما ـ أو أى من الأنبياء

ـ يخيّل إليهم أنهم يرون الربّ، أو يسمعونه، وما يرونه ليس إلا رؤيا وحلم، فليس للربّ فمّ يكلّم الناس به، ولا له هيئة يتعيّن بها. وأبدى الربّ غضبه على **هارون ومريم** لأنهما ألبّا القوم ضد موسى، وكانت لمريم اليد الطولى فى استثارة الشعب فأصابها الربّ بالبرص، وعُرف أنهما من المغضوب عليهم، وأسرعا إلى موسى، فصرخ إلى الربّ يدعو لها بالشفاء، واحتجزها خارج المحلة **سبعة أيام** كنوع من الحجر الصحي (العدد ١٢/ ١٥)، فذلك ما حاول قوم موسى أن يأذوه في الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** (٦٩) ﴾(الأحزاب)، والله تعالى برّأه من أن يكون زواجه بالحبشية محرّماً، ومعنى «**وجيهاً**» فى الآية أنه عظيمٌ وأعظم من أن يُجرّم. وما أصاب مريم من البرص أرجعه قومه لأسباب عائلية تخصّ موسى وإخوته، وقالوا **إن موسى نفسه مصاب بالبرص، وأنه آدر**، أى منتفخ الخصية، وأنه لذلك لا يستحم معهم ولا يريهم جسمه، فلما اغتسل يوماً وأطار الهواء ملابسه عدا عرياناً خلفها، فرآه قومه لا بَرَص به، ولا انتفاخ خصية، فهذا هو ما برّأه الله منهما. **وأيضاً**، فإن موسى لما جاع شعبه وطلب اللحم، اشتكى إلى ربّه، وتشكك أن يُجاب إلى طلبه، حتى قال له ربّه: **أيَدُ الربّ تقصرُ**»؟ فكان أن رزقهم **السلوى**، فاجتمعوا عليها يأكلونها بشهية، ولم يشكروا الله، ولم يستغفروه عمّا قالوا لموسى عن ربّه، فعاقبهم وجعل موتهم من شهيتهم، **فكل من طعم دون أن يستأذن موسى مات**، فكان الموتى بالآلاف، ودفنوا فى قبور سميت «**قبور الشهوة**»، فذلك تبْرأةُ الله لموسى. **وأيضاً**، فإن قوم موسى وهارون ثاروا عليهما لمّا لم يجدوا ماء يشربون ويسقون بهائمهم، فأمرهما الربّ أن يكلّما الصخرة فيخرج منها الماء، ولكنهما بدلاً من أن يكلّماها؛ تناول موسى عصاه وضرب الصخرة بها مرتين، فانفلقت وخرج الماء، ولكن الله غضب منهما لأنهما لم ينفّذا ما أمرهما به، فقضى عليهما بأن لا يدخلا الأرض التي وعد قومه بها، وسُمّى ماء هذا النبع لذلك «**ماء الخصومة**»، لأن الربّ خاصم موسى وهارون، ولأن موسى خاصم هارون الذى أشار عليه أن يضرب الصخرة بالعصا بدلاً من أن يأمرها. **وأيضًا**، فلمّا طلب منهما الله أن يصعدا إلى جبل **هود مع اليعازار بن هارون** ليُرسَّم اليعازار بدلاً من أبيه كاهناً أكبر على الشعب، امتثل الثلاثة للأمر، ولكن هارون توفى فوق الجبل ودفنه موسى وابنه، وعادا فاتّهمهما الشعب **بأنهما قتلا هارون!** وبكوا هارون، وظل حزنهما عليه إلى أن برّأه الله من قتله، وأوعز إليهم أن موسى لم يقتله كما ظنوا، فتلك هى تبرئة موسى. **وأيضاً**، فإن قوم موسى دسّوا عليه امرأة تدّعى عليه الفجور، ووصف ذلك القرآن فقال: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد**

تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾(الصف ٥). ومن أذاهم له قولهم: ﴿ **اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾(الأعراف ١٣٨)، وقولهم: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا**﴾(المائدة ٢٤).

●●●

٨٥٢. ﴿قصة مريم أخت موسى فى القرآن والتوراة﴾

قصة مريم أخت موسى فى التوراة بخلافها فى القرآن، واسمها فى التوراة مريم ابنة عمران، فالتبست عند المستشرقين بمريم أم المسيح حيث ورد فى القرآن عن أم المسيح قوله تعالى: ﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** ﴾(التحريم ١٢)، وعن أخت موسى قوله: ﴿**وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ** ﴾(القصص١١)، وقوله: ﴿ **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ** ﴾(طه٤٠)، فلم يورد القرآن لها اسماً، وأمرتها أمها أن تتبع أثر موسى بعد أن ألقته فى اليم، فكانت تنظره عن بُعد. فلما عثروا على موسى بين البوص أخذوه، فكان يبكى من الجوع، فأتوا له بالمراضع فلم يرض بواحدة منهن، فتقدمت أخته تدلهم عن من يكفله لهم، وأنكرت أنها تعرف أهله، وأنهم سيُفرحهم أن يعملوا ما يسرُّ ابنة الفرعون، وقيل إنها أعطت ثدييها لموسى فرضع منهما، ولكنها قالت ثدييّ ليس بهما لبن فأنا لم أتزوج، ولكن أمي ترضعه لأنها ما تزال ترضع أخي هارون، وعمره الآن سنة أو نحوها، وأحضرت أمها، ورضى موسى أن يرضع منها. وقصة التوراة لا تخالف قصة القرآن فى أمر مريم، وإنما فى التفاصيل الأخرى حول موسى (الخروج ٢/ ٤ ـ ١٠). ولم تقتصر مريم على قصّ أثر موسى والتعريف بأمه، فكانت من «المُؤسِّسات للديانة الجديدة»، وبعد عبور البحر رنّمت «ترنيمة موسى» الشهيرة، والتوراة تسميها «نبيّة» (الخروج ١٥/ ٢٠)، وكان النساء يرقصن على الدفوف وهي ترنّم، تقول: «سبحوا الربّ لأنه قد تعظّم بالمجد. الفَرَس وراكبه طرحهما فى البحر». ولمّا تزوج موسى المرأة الحبشية، تكلمت مريم وهارون فى موسى، وانتقدت عليه، وقالت إن الربّ لم يكلم موسى وحده بل كُلّمنا معه! وغضب الربّ على مريم وهارون لأنهما تكلّما فى موسى، وأصاب مريم بالبرص فصارجلدها كالثلج الأبيض، وبكاها هارون فقد كانت كأنما هي ميت ملفوف في الأكفان البيضاء، وقد تهرّأ نصف جسدها، ودعا لها موسى أن يشفيها الله، فحكم عليها الربّ أن تُحجز خارج البلدة لسبعة أيام فتُشفَى (العدد ١/ ١٥)، وصحبتهم مريم بعد ذلك حتى قادش، وهناك توفيت ودفنت، وانتهت قصتها.

●●●

﴿قصة موسى والخضر﴾

٨٥٣. ﴿سَفَرُ موسى إلى شعيب هجرة، وإلى الخضر تكليفٌ﴾

تتضمن الآيات من (٦٠ إلى ٨٢) من سورة الكهف قصة موسى مع الخضر، ويسميه القرآن عبدالله، قال: ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا**﴾ (الكهف ٦٥)، والقصة عن موسى وفتاه يشوع وقد جاءا يتلقيان عليه، وسافرا لذلك إليه، وقيل: كان سَفَر موسى إلى مدين سَفَر هجرة، وسقى لبنتيّ شعيب ولم يطلب أجراً، لأنه وُكِل إلى العون والنصرة بالفوت؛ وفي سَفَره إلى الخَضِر كان مُكلّفاً، وسَفَرُه سَفَر تأديب، ووُكِل إلى تكلّف المشقة، ولذلك أعان في إقامة الحائط وطلب الأجر؛ وسقى في قرية مدين ولم يسأل قوتاً، مع أنه كان أحوج للقوت مما كان مع الخضر، فقد كان في سفر، ولذا قال لفتاه: ﴿**آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً** (٦٢)﴾(الكهف)، وقال فيه ربّه تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا**﴾(الكهف ٧٧)، فالضيافة كانت عند مدين، ولم تكن عند أهل قرية الخضر، فمع الهجرة تكون النصرة، ومع التكليف تكون المشقة والتأديب.

●●●

٨٥٤. ﴿آيات موسى مع الخضر حُجّة على موسى﴾

لمّا أنكر موسى أمر خَرْق السفينة: ﴿**قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً** (٧١)﴾ (الكهف)، قيل رداً عليه: وأين كان تدبيره هذا وهو (أي موسى) في التابوت مطروحاً في اليم؟! ـ ولمّا أنكر أمر قتل الغلام: ﴿**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً** (٧٤)﴾ (الكهف)، فلما قال ذلك قيل: وأين كان إنكاره هذا من وكزه القبطي وقضائه عليه؟! ـ ولمّا أنكر إقامة الجدار: ﴿**قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** (٧٧)﴾ (الكهف)، فلما قال ذلك قيل: وأين هذا من رفعه حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟! ـ فقيلَ: إن حُجج موسى متهافتة، ومتعارضة مع سابق أفعاله، فقد أتى أفعالاً كأفعال الخضر، فَلِمَ احتجاجه على الخضر إذن؟!

●●●

٨٥٥. ﴿معنى اسم الخضر﴾

الخَضر هو العبد الصالح في قوله تعالى: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً** (٦٥) ﴾(الكهف)، وكان موسى وفتاه قد اقتفيا أثر حُوتهما، وكان مكان لقائه الموعود بالخضر هو مَجْمع البحرين، قيل وهو قول الظن: فلما بلغاه وجدا الخضر على طُنفسة خضراء على وجه الماء، مُسْجّى بثوبه. قيل اسمه الخضر The Green Man

لأنه كان كأنه لم يهرم مع أنه معمَّر، فعُوده أخضر دائماً، واللون الأخضر هو أجمل وأنقى الألوان، ويوافق البصر، لأن الأبيض يبدّد النظر ويؤلم العين، والأسود مذموم مكروه، والأخضر بين الأبيض والأسود، ويجمع إليه الشعاع. وقيل: إن الخضر شرب من «عين الحياة»، هذا النبع الصافى الذى يبقى من يشرب منه شاباً للأبد، ويعيد للشيوخ شبابهم، ومعنى أنه سيظل أخضر أنه لن ييبس، أى لن يشيخ. وقيل هو «عبدٌ صالح» وليس بنبىّ، يريد المفسرون بذلك أن ينفوا عنه النبوّة، ويخصّوه بالولاية، فتكون الولاية أفضل من النبوّة، لأن موسى جاءه يتعلم ولم يصمد كتلميذ، وقال الله تعالى في موسى: **﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾**(طه)، بينما قال في الخضر: **﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾**(الكهف)، فخصّ موسى بالمحبة، وخصّ الخضر بالرحمة، لأن من القصص فيه قد يبدو أنه قاس غليظ القلب، إلا أن ذلك هو الظاهر منه، فأما الباطن فهو الرحمة الخالصة، وأما العلم فهو علمٌ خاص ليس كعلومنا، جاءه من لَدُنّ الله – أى من عنده مباشرة – ويسمى لذلك «العلم اللدنّى» ، قيل: هو علم الغيب، وليس من نبىّ ولا ولىّ إلا ويعلم الخضر الغيب عنه، يأذن له به الله. ولو قارنا بين علم الخضر وعلم موسى، فإن علم الخضر هو «علم الباطن»، وعلم موسى هو «علم الأحكام». والذى يعلم البواطن هو العالِم بما سيجرى فى المستقبل، فيكون على ذلك من «أهل المستقبل»، وعلمه هو «علم المستقبل»، يعنى أن له طول العمر ليشهد المستقبل، وأما علم الأحكام فهو «علم الحاضر»، والعالم به يكفيه أن يعيش الحاضر، ومن أجل ذلك سمى الخضر باسمه هذا: الخضر، لأنه حىّ دائماً بإذن الله.

●●●

٨٥٦. ﴿الخضر ليس اليسع﴾

يقال ذلك ولا شيء يؤكده، وقيل اليسع هو إلياس، وليس كذلك لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذكر فقال: **﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾**(الأنعام).

●●●

٨٥٧. ﴿هل الخضر نبىّ مُعمَّر؟﴾

قيل وهو قول الظن: الخضر نبىٌّ معمَّر محجوب عن الأبصار. وقيل: الخضر يلتقى النبىّ إلياس كل عام ما داما حيين على الأرض. ولا يوجد نصٌّ على أن الخضر لم يمت، وليس الخضر إلا بشراً من بشر، أوتى كرامات وكُلِّف بمهام، والله تعالى يقول: **﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ**

الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) ﴾(الواقعة)، ويقول: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)** ﴾(الزمر)، ولو كان الخضر حياً يرزق في الدنيا لأورد ذلك القرآن، وإنما الخضر مات كما مات موسى والآخرون. وقيل: إن الخضر حضر وفاة النبيّ ﷺ، فلما سُجي بثوب هتف هاتف من ناحية البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه، قيل هو الخضر، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. السلام عليكم أهل البيت: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾(آل عمران ١٨٥) الآية: إنّ في الله خَلَفاً من كل هالك، وعوضاً من كل تالف، وعزاءً من كل مصيبة، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب مَنْ حُرِم الثواب». وقيل: إن الخضر صار معمَّراً لأنه وجد عين الحياة وشرب منها، فهو حي إلى أن يخرج الدجّال. وقيل: بل الخضر مات قبل انقضاء مائة سنة من قوله ﷺ: «إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد»، وكل ذلك من الميثولوجيا الدينية، أي الخرافات والإسرائيليات، فاحذره ياأخي وياأختي!

●●●

٨٥٨. ﴿لو أن موسى صبر على الخضر﴾

في صحيح مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عَجّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذَمَامة، ولا صَبَر لرأى العجب»، يريد لمّا لام موسى الخضر ثلاث مرات، ولو كان قد صبر لشاهد وتعلّم أكثر. وفي البخارى عن النبيّ ﷺ قال: «يرحم الله موسى، لو وددنا أنه صَبَر حتى يقصّ علينا من أمرهما». والذمّامة يعنى المذمة وهى العار.

●●●

٨٥٩. ﴿من حكم الخضر﴾

مما قيل: أن الخضر لمّا ذهب يفارق موسى، قال له موسى: أوصنى! قال: كن بسّاماً ولا تكن ضحّاكاً، ودع اللجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تَعِب على الخطّائين خطاياهم، وابكِ على خطيئتك يا ابن عمران.

وطبعاً هذه تآليف، ولم يقلها الخضر وإلا فما هى مصادرها؟!

●●●

٨٦٠. ﴿قصة السبعين الذين اختارهم موسى﴾

القصة في التوراة وفي القرآن ففي القرآن قال تعالى: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ**

الغافرين (١٥٥)﴾(الأعراف)، وفي التوراة أن «الميقات» هو الموعد الذي ضربه الله تعالى لموسى ليلقاه وبنى إسرائيل بعد حادث العجل وتكسير الألواح، وخرج موسى ليلقى ربّه ويعتذر إليه عن حادث العجل، واصطحب المتسبب فيه: هارون، ومعهم ابناه ليساندا أباهما، غير أنهم لمّا انتهوا إلى الجبل مات هارون، فقد كان ضعيفًا ويشكو رهقا بالقلب فلم يحتمل صعود الجبل، فقيل إن موسى قتله بمساعدة ولدىّ هارون، ليتخلصّ منه وقد صار يتسبب له في المشاكل مع بنى إسرائيل، وكانوا يحبونه عن موسى ويؤثرونه عليه؛ وقيل: إن موسى أزاحه بالقتل لينصّب ولدىّ هارون مكانه، فيكسب الولدان المنصب ويكونان من رجال موسى. ودافع موسى عن نفسه، فكيف يقتل هارون وولداه معه؟! وأصر بنو إسرائيل على اتهام موسى، وقالوا إن موت هارون دون مرض وبلا سبب، وبدون أن يروا له جثة ويشاركوا في الدفن، إنما لأن موسى نقم عليه على لينه وحسده على خُلقه وعلى محبة الشعب له دون موسى. وطلب موسى منهم أن يختاروا من كل سبط عدداً ليروا الدليل على براءته، وكوّن منهم وفداً من سبعين، وهذا الرقم نفسه هو الذى انقسم إليه بنو إسرائيل سبعين فرقة، بالإضافة إلى فرقة هارون، وفرقة موسى، وبذلك يصير عدد الفرق اثنتين وسبعين فرقة، فقد كان هؤلاء السبعون مشايخ لبنى إسرائيل، وكانوا رءوساء للبيوت، وزعماء للأسباط، وكان لكل واحد منهم رأيه، فصاروا من بعد اثنتين وسبعين فرقة. قيل: إن موسى توجه مع السبعين إلى حيث دفن هارون، وتقول الخرافة إنهم سألوه فى القبر: من قتلك؟ فقيل: إنه ردّ عليهم ما قتلنى أحد، ولكن الله توفانى! فتحولّوا إلى موسى وقالوا، وما يزالون يشكون فيه وطلبوا لقاء الله، وأصروا على طلبهم حتى رأوا النور يملأ المكان والكون وأخذتهم الصاعقة، كقول القرآن: ﴿ **يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ** ﴾(البقرة ٥٥)، وخاف موسى وخاطب ربّه وقال: ﴿ **أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ** ﴾ (الأعراف ١٥٥). وقيل: هؤلاء السبعون فى سورة الأعراف الذين اختارهم موسى لميقات الله، بخلاف السبعين فى سورة البقرة الذين قالوا: أرنا الله جهرة. وقيل: ما صُعقوا لمّا رأوا الله، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة. وقيل: بل ماتوا يوماً وليلة. وقيل غير هذا فى معنى أخذتهم الصاعقة. «والسفهاء» فى الآية هم السامرى ومَن تبعه من بنى إسرائيل؛ وقيل: هم الذين اتهموا موسى بقتل هارون؛ وقيل: هم الذين سألوا أن يروا الله جهرة. وقيل: إن قوله لربّه إن هذه الفتنة التى هم فيها هى فتنته تعالى لهم، أى اختباره وامتحانه لحقيقة إيمانهم، نسبت الفتنة لله، كما نسبها الله تعالى لنفسه فى قوله: ﴿**فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ**﴾(طه ٨٥)، وهذا ردٌّ

على القدرية الذين يُقصرون الأفعال على الإنسان دون الله. وفى سفر الخروج، الإصحاح التاسع عشر، يأتى أن الربّ وعد موسى أن يتنزّل على الجبل، واشترط عليه أن لا يقرب الجبل أحدٌ من الشعب، فكان الربّ يخاطب موسى، وينقل موسى إلى الشعب ما يأمره به (٢١/٢٥)، وفى الإصحاح الخامس والعشرين يحدث العكس، فيرى موسى الربّ ويراه السبعون،ويأكلون ويشربون (١٠/١١)،ومع ذلك جاء فى سفر الخروج أيضاً عن الله يخاطب موسى، قال: «أما وجهى فلا تستطيع أن تراه، لأنه لا يرانى إنسان ويعيش» (الإصحاح ٣٣/ ٢٠ ـ ٢٢)، فكأن عبارات التوراة فيها اضطراب، وتعارض بعضها البعض، فمرة يكون من الممكن رؤية الله فى الدنيا، ومرة يحظر ذلك ويستحيل!.



٨٦١. ﴿قصة الثلاثة آلاف الذين انتحروا جماعياً والسبعين الناجين﴾

هؤلاء هم المنتحرون انتحاراً جماعياً، وهو أول انتحار جماعى فى التاريخ، يذكره سفر الخروج (٣٢/١٩-٣٠)، وكانوا عبرانيين آبقين قال فيهم القرآن: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾(الأعراف)، وكانوا ما تزال عبادة العجل فى ذاكرتهم، يقول «فرويد» عالم النفس اليهودى فى تفسير ذلك: «إن العجل وعبادته فى اللاشعور الجمعى لبنى إسرائيل»، يقصد بالعجل «المال»، وظلت عبادة العجل تلاحقهم حتى وهم فى المهجر فى مصر،وكانوا يُعبدونه فى أرض جاسان التى هى محافظة الشرقية من أرض مصر، حيث كانت مساكنهم آنذاك، حتى أن عبادتهم له سرت فى أهل هذا الإقليم كله من أرض مصر، فكانت عبادة العجل أبيس. وبنو إسرائيل كانوا قوماً يجهلون، فلم يفرّقوا بين تعدّد الآلهة والتوحيد، وعبادة الأصنام وعبادة الله الواحد، وقلّدوا ما شاهدوه عند غيرهم، وآثروا الباطل على الحق الذى يدعوهم إليه موسى، كقول المسلمين للنبىّ ﷺ قبل حنين: يا نبىّ الله، اجعل لنا هذه ـ يريدون شجرة السدر ـ ذات أنواط– وكان الكفار ينوطون عليها (أى يعلّقون عليها) سلاحهم، ويعكفون حولها، فقال لهم النبىّ ﷺ : «الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة!». فلما توجه موسى إلى الجبل ليتلقى ألواح التوراة، وغاب أربعين يوماً، ضلّ من ضل من بنى إسرائيل، وغواهم السامرى، فجمعوا الحلى وصنعوا عجلاً من ذهب له خوار، وما كان العجل يُرجع إليهم قولاً، ولا كان يملك لهم ضُرّاً، ولا يكلمهم،ولا يهديهم

سبيلاً، فتوّعدهم ربّهم كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾(الأعراف ١٥٢)، وكان غضبه لأنهم افتروا بدعة العجل، فقال لهم: ﴿**إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾**﴾(البقرة)، وقوله «بارئكم» تنبيه على عِظَم جُرْمهم، وكانوا فريقين، فريق تبع السامري، وفريقٌ تبع هارون، والهارونيون كانوا لاويين، أي كهنة، وكانوا سبعين، والذين تبعوا السامري ندموا، فلما أمرهم موسى أن يقتلوا أنفسهم امتثلوا للأمر، وقالوا نصبر، ما ظَلَمنا الله ولكنا ظلمنا أنفسنا، واخترطوا السيوف والخناجر والسكاكين، ووقفوا صفوفاً، يقتل كلٌّ منهم من يليه، وقد يكون أخاً أو أباً. وقيل إن السبعين الذين لم يشاركوا فى صُنع العجل، ولم يتعبّدوا له، أُمروا أن يقتلوا المتعبّدين، وتقبّل هؤلاء القتل إعلاناً للتوبة، وقيل سقط فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل (الخروج ١٩/٣٢ - ٣٠)، ولولا بكاء الأطفال وصراخ النساء لاستمر القتل، إلا أن الجميع سألوا موسى أن يكفّ، وكان عليهم أن يتوجهوا إلى الجبل ليستغفروا ربّهم، كقوله تعالى: ﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾** ﴾(الأعراف). وقيل لما أخذهم موسى إلى الجبل ظهر غمام دخل فيه موسى فلم يروه، ثم شملهم الغمام، وسمعوا موسى يكلم ربّه، وقيل إنه استأذن ربّه أن ينظر إليه، فقال له لا تستطيع، لأنه لا يرانى إنسان ويعيش (الخروج ٢٢/٣٣)، وفى القرآن عن ذلك قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾** ﴾(الأعراف)، فكان موسى: أول من جرّب من بنى إسرائيل، ومن العالم قاطبة، أن يطلب أن يرى الله، وأن يُصعَق بنوره تعالى، أى يُغشَى عليه. فلما سمع قومه محاوراته مع ربّه ظنوه قد رآه فطلبوا أن يروه كذلك يرجون أن يشهدوا ما ليس لتحققه سبيل، كقول القرآن فى ذلك: ﴿ **يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾** ﴾ (البقرة)، فردّهم الله تعالى ليستوفوا آجالهم، وقيل ماتوا موت هود يعتبر به الغير، ثم أرسلوا. والصحيح أن الثلاثة آلاف ماتوا لأنهم استحقوا الموت، ولأنهم كفروا كفراناً

صريحاً، وأشركوا بالله، وأحيوا عبادة الأصنام، فكان أن أماتهم ولم يبعثهم؛ بينما السبعون ماتوا وأحياهم، لأنهم لم يشركوا ولكنهم جهلوا، فعاقبهم على قدر جُرمهم.

•••

﴿قصة أصحاب الكهف﴾

٨٦٢. ﴿أصحاب الكهف والرقيم مجال كبيرة للإسرائيليات﴾

قصة أصحاب الكهف تناولتها سورة كاملة من مائة وعشر آيات، والقصة نفسها استغرقت من الآية التاسعة حتى الآية السادسة والعشرين، وما قبل ذلك وما بعده كان للتمهيد للقصة أو للدروس المستفادة منها. وأرغى المفسرون وأزبدوا فى تفسيرها، وعلّقوا على أحداثها بالتأويلات والتخريجات، ونسبوا لها الروايات فيما يسمى بالإسرائيليات، ولعل أشهرها ما أُثر عن مقاتل بن سليمان، وهو مثل سيء للتفسير الذى يهتم بالجزئيات، ويولي عنايته بما لا فائدة منه، فقال فى قوله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ (الكهف٢٢): أن عددهم ثمانية بخلاف كلبهم، وأن أسماء هؤلاء الفتية أصحاب القصة هي: «مكسلمينا» وهو كبيرهم ورئيسهم؛ و«يمليخا» وهو الذى مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم؛ و«مرطوش؛ وكشوطوش؛ ودينموس؛ ويطونس؛ وبيرونس». وقال مقاتل: وكان الكلب اسمه «قطمير» ويملكه مكسلمينا. وهذا الكلام شبيه بمسرحية توفيق الحكيم «أهل الكهف»، وقد اعتمد فيما يبدو على تفسير مقاتل. وقال مقاتل في قوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)** ﴾ (الكهف): أن الكهف ثقبٌ يكون فى الجبل كهيئة الغار، واسمه بانجلوس؛ و«الرقيم» كتابٌ كتبه رجلان قاضيان صالحان، أحدهما اسمه «ماتوس»، والآخر «أسطوس»، كانا يكتمان إيمانهما، وكانا فى منزل «دقيوس الجبّار» - وهو الملك الذى فرّ منه الفتية ـ وكتبا أمر الفتية في لوح من رصاص، ثم حملاه فى تابوت من نحاس، ثم جعلاه فى البناء الذى سدّوا به باب الكهف.

وللثعلبى فى تفسيره «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» مرويات شبيهة، وجميعها إسرائيليات موضوعة، فقال عن أسماء فتية الكهف: «مكسلمينا» كبيرهم ورئيسهم، و«إيلخا» أجملهم وأعبدهم وأنشطهم، و«مكشينا، ومرطوش، ونوافى،وكير، وسطفنوس، وكلبهم قطمير». ـ والثعلبى ينقل عن كعب الأحبار، وكعب كان يهودياً، قال: مرّوا - أى الفتية أهل الكهف - بكلب فنبح فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجليه رافعاً يديه إلى

السمـاء كهيئة الداعي فنطق فقال: لا تخافوا مني! أنا أحب أحباب الله! فناموا حتى أحرسكم! - وقيل: إن النبيّ ﷺ سأل الله أن يريه إياهم فقال تعالى: **إنك لن تراهم في دار الدنيا، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلّغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان،** فقال النبيّ ﷺ لجبريل: **كيف أبعثهم؟** فقال: **أبسط كساءك وأجلسْ على طرف من أطرافه أبا بكر، وعلى الآخر عمر، وعلى الثالث عثمان، وعلى الرابع عليّ بن أبي طالب، ثم ادعُ الريح الرخاء المسخّرة لسليمان، فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك،** ففعل، فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجراً، فحمل الكلب عليهم، فلما رآهم حرّك رأسه، وبصبص بعينيه، وأومأ برأسه: أنْ ادخلوا! فدخلوا الكهف، **فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله** وبركاته معشر الفتية. إن النبيّ محمد بن عبد الله يقرأ عليكم السلام ما دامت السموات والأرض، وعليكم ما أُبلغتم. وقبِلُوا دينه وأسلموا. ثم قالوا: أقرِئوا محمداً رسول الله منا السلام. وأخذوا مضاجعهم، وصاروا إلى رقدتهم!!!

وكما ترون فإن **كعب الأحبار** - هذا اليهودي الذي يدّعي الإسلام - **يضحك على** المسلمين، ويشيع بينهم الخرافة، **ويجعل مدى علمهم بالدين الجهل بالدين.** والعجيب أن الثعلبي الذي يعتبره الفقهاء من كبار المفسّرين لم يناقش الرواية، ولم يتهم كعباً بالاختلاق والتزوير على الله، وعلى جبريل، وعلى النبيّ، وعلى الصحابة الأربعة - وهم أكبر الكبراء، فلم يحدث أن هؤلاء ركبوا الريح، ولا صحبوا جبريل، ولا التقوا بفتية الكهف، وما طلب محمد من ربّه أن يسخّر له الريح، ولا أن يتواصل بشخصيات من الماضي يروي عنهم القرآن! فالإسلام ليس هذه الخرافات، وليس هزلاً، ولكنه الواقع والحق، وكله جد وعمل ووعي وتفكّر وتدبُّر، وأكبر من كل هذه الترهات والتخرصات. لا سامحهم الله!

●●●

٨٦٣. ﴿دعوى اليهود أن قصة أهل الكهف يونانية﴾

الذي ادّعى ذلك هو المستشرق **ماسينيون**، معبود الدكتور **بدوي**، والذي تخرّج عليه الدكتور **عبد الحليم محمود** - من أعدىَ أعداء الإسلام، وكُتبه سُمّ زُعاف. ومما تناوله بالتجريح **قصة أصحاب الكهف في القرآن**: فقد زعم بأنها مأخوذة عن الأسطورة النصرانية: «**النيام السبعة من إفيسوس The Seven Sleepers of Ephesus**». وإفيسوس موضعها الآن بلدة **سلجوق** بولاية أزمير التركية، والغريب أنه لا أصل لهذه القصة التي يقول عنها **ماسينيون**، ولا يذكرها مرجع واحد، وربما كان قد حصل عليها من التراث الشفهي، أو حكى له حكايتها أحد القساوسة، والقصة لا هي من التراث اليوناني ولا من التراث

اليهودي، وقيل إنها حدثت إما في إفيسوس في تركيا، وإما في مكان من الأردن، في شرقيّه، يدعى **الرقيم** بالقرب من عَمّان. وقيل إن هذه القصة حدثت في زمن **دقيانوس** وكان يضطهد النصارى. ثم إن إفيسوس تحولت إلى النصرانية وأصبحت معقلاً من معاقلها، وهناك رسالةٌ **لبولس إلى أهل إفيسوس**. وقيل أصل القصة أن أحد دعاة النصرانية كان قد حضر إليها في العهد الوثني، واحتال حتى اشتغل في الحمامات، وكان يدعو الناس، ومن ذلك أنه دعا ابن الملك وزوجه ولم يسمعا له، فأنزل الله عقابه بهما، وماتا مختنقين في الحمام. وقيل إن الملك دقيانوس طارد الشبان السبعة إلى الكهف، ولكنهم كانوا قد اختبأوا، ولم يعثر أعوانه عليهم، فبنى عليهم جداراً، ومضى الزمن وتنوسي الأمر، حتى إذا كانت سنة **ثلاثمئة**، اكتشف أحد الرعاة الجدار فأزاله، ودخل الكهف لعله يَصلُح مأوى لغنمه، وكان الوقت قد حان لخروج الشبان السبعة، وأفاقوا، فأرسلوا لشراء طعام لهم، واستغرب الناس للعُملة التي قدموها ثمناً للطعام، وأبلغوا الملك، وكانت البلد قد تحولت إلى النصرانية، وقيل إن ملكها النصراني كان **ثيودوسيوس الثاني**، وجاءوا بالفتية إليه، وعرف حكايتهم. وقيل: إن السبعة كانت قد ظهرت عليهم الشيخوخة فماتوا ودفنوهم في الكهف، وبنوا فوقهم كنيسة. ويقول **ماسينيون وهوروفيتس** وآخرون: إن القصة **باليونانية**، ثم رويت **بالسريانية**، ولم تترجم إلى العربية. والسؤال هو: **هل كان محمد ﷺ يعرف هاتين اللغتين؟ أو هل كان في مكة من يقرأ بأي منهما وينقل له قصة أصحاب الكهف مترجمةً إلى العربية؟** والجواب في الحالتين بالنفي. وورود القصة رغم ذلك في القرآن تصادق على القرآن وأنه كتاب من عند الله وليس من عند محمد، فمن أين كان محمد سيستقي كلامه؟ ومن أين كان سيحصل على مصادره؟ وما كان النصارى واليهود يتشككون في رواية القرآن للقصة، وما أكّده منها وصحّحه وزاد عليه. والمستشرقون قالوا إن الرقيم في القصة هو اسم الكهف، وقالوا إن الملك النصراني فرح بالعثور على هؤلاء **السبعة**، لأن إحياءهم بعد هذه المدة الطويلة فيه إثبات بصحة البعث، وهذا الذي استخلصوه هو الدرس **المستفاد** من القصة القرآنية وليس استنتاجاً للمستشرقين. وفي قصة القرآن أن الفتية كان لهم **كلبٌ** بصحبتهم، وأن الكهف كان اسمه **الرقيم**، وأنهم كانوا فتية مؤمنين زادهم الله هدى، وربط على قلوبهم فكانوا من الصابرين، واعتقدوا في وحدانية الله، وأقرّوا بأن الاعتقاد بما دون ذلك هو الشطط بعينه - أي الكذب والبهتان، ومن ثم اعتزلوا قومهم وما يعبدون، وأووا إلى الكهف. فهل هذه التفاصيل في القصة القرآنية مذكورة فيما يرويه المستشرقون؟ والجواب أبداً. والأعجب «**قصة الشمس مع أصحاب**

الكهف هؤلاء»، فمن رحمة ربّهم بهم أن هيّأ لهم من أمرهم مرفقا، وجعل الشمس تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال. و«المزاورة» هي الميل، وهي تميل عنهم في الصباح لخطورة شمس الصباح عليهم، وأما أن الشمس تقرضهم - يعني تدخل الغار - من شمال بابه، أي من ناحية المشرق، فذلك صحّي لهم وفيه فائدتهم. فهل قالت رواية المستشرقين ذلك؟ وهل فسّرت لماذا كان مكثهم **ثلاثمئة سنة يزيدون تسعة**؟ فبأى تاريخ هذا العدد من السنين؟ وهل عرفوا التاريخ الشمسي والفرق بينه وبين التاريخ القمري، وأن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنوات قمرية؟؟ نقول: إن ما في القرآن هو «علم»، وأن القصة يرويها **«علاّم الغيوب»**، وأن المستشرقين مما كانوا يعرفون أن هؤلاء النيام يلزمهم التقليب يميناً وشمالاً حتى لا تتقرّح أبدانهم، والله يعلمه يقيناً، ويذكره في القصة القرآنية تأكيداً، وشتّان بين قصة القرآن وهي القصص الحق، وقصة هؤلاء المستشرقين!.

●●●

٨٦٤. ﴿مقدار ما لبث أهل الكهف، والفرق بين روايتي أهل الكتاب والقرآن﴾

في الآية: **﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾** (الكهف) يخبر الله تعالى نبيّه ﷺ مقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان ثلاثمئة سنة شمسية، تزيد تسع سنين بالتقويم القمري، لأن كل مائة سنة قمرية تتفاوت بالنسبة إلى الشمسية ثلاث سنين، ولهذا استكمل الثلاثمئة بتسع زيادة، وهذا هو ما يؤكده العلم، وما أخبرنا به ربّنا. وهو تعالى الأعلم بما لبثوا، وهذا الرقم توقيف منه تعالى، ولا يعلم غيب السماوات والأرض إلا هو، وإنه لبصير سميع بكل مرئي ومسموع، لا يخفى عليه من شيء، وهو الأصدق إذا أصر أهل الكتاب على أنهم لبثوا ثلاثمئة سنة فقط، وله الحكم ولا معقب على حكمه.

●●●

٨٦٥. ﴿دعاء أهل الكهف﴾

قالوا: **﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾**(الكهف)، والرحمة هي المغفرة، والرَشَد هو التوفيق. وهذا الدعاء لكل من يكون في مأزق وينشد الخلاص، وفي هذا المعنى كان النبيّ ﷺ إذا حزبه أمر فزِع إلى الصلاة.

●●●

٨٦٦. ﴿قصة صاحب الجنتين﴾

بداية القصة في سورة الصافات، أو أن لها مثيلاً فيها، حيث يخبر تعالى عن أهل الجنة، يقول: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠﴾(الصافات)، وأصل القصة في سورة الكهف، ضرب الله بها مثلاً لهذا المؤمن وقرينه الكافر، والقرين هو الشيطان، ويحدث أن يكون للمؤمن فى الدنيا صاحبٌ من أهل الشرك يوسوس له كالشيطان، فيقول له: أئنك لمن المصدِّقين بالبعث والنشور، والقيامة والساعة، والحساب والجزاء؟ وهل إذا متنا وأصبحنا حطاماً نخرة، نُجازَى ونُحاسَب على أعمالنا؟ وفي الآخرة يطّلع المؤمن وهو فى الجنة على أهل النار، فيجد صاحبه فيها، فلا يملك إلا أن يقول له: والله إنك كدت لتهلكنى لو أطعتك! ولولا فضل الله، لكنتُ مثلك فى سواء الجحيم، محضرٌ معك في العذاب، ولكنه تعالى رحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى لتوحيده، وهأنذا فى الجنة لا موتٌ فيها إلا الميتة الأولى، ولا عذاب، وذلك هو الفوز العظيم. وقيل هذا المؤمن هو أبو سلمة زوج أم سلمة قبل النبىّ ﷺ، وكان له قرين هو أخوه الأسود بن عبد الأسد، وورث الأخان أباهما ووزّعا التركة بينهما، وكان نصيب كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، إلا أن أبا سلمة ضيّع ماله فى سبيل الله، فاشترى بألف دينار رقيقاً وأعتقهم، وبألف دينار ثياباً ووزعها على العرايا والمساكين، ونصب الموائد للفقراء، فأنفق على الطعام لهم ألف دينار أخرى، وبنى بالباقى مساجد لله، وكان أخوه يهزأ منه، ويستخف ما يفعل، ويحاوره فى الله والبعث والآخرة والثواب والعقاب، وكان يعيّر أخاه بأنه غبىّ ولهذا أضاع ماله، ولو فرضنا وكانت هناك آخرة فعلاً فإنه سيكون فيها من المقرَّبين والفائزين لأنه الأذكى، وذكاؤه يضمن له ذلك. وفي سورة الكهف ضرب الله مثلاً بهذين الأخّين أو الصاحبين، قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ (الكهف)، واستغرقت القصة اثنتى عشرة آية، تقول: إن الأخ أو الصاحب الكافر الغنى كانت له جنّتان وارفتان ومثمرتان، فتاه فخراً على أخيه أو صاحبه باعتباره الأكثر مالاً، والأعز نفراً، ودخلا الجنيتن الواحدة بعد الأخرى، يتعالى على أخيه بهما كما لو كانتا لا يمكن أن تبيدا، باعتبار الدنيا دائمة وخالدة، وأخوه أو صاحبه يستنكر قوله، فالله هو خالق كل شيء، وهو باق والدنيا إلى

زوال، والفضل في كل شيء لله، فهو الذى أخرج ثمر الجنتين، بل وخلقه هو نفسه ولم يكن شيئاً، فهو ربه رضى أخوه أو لم يرض، وهو لن يشرك كأخيه، فلولا أن يدخل جنته فيقر بالشكر لله ويحمده على عطائه؟ وأمّا أنه أقل مالاً وولداً، فالله قادر أن يؤتيه خيراً من جنته وماله وولده وأنفاره، وبوسعه أن يرسل على جنته عذاباً من السماء، فتبيد وتمتلىء بالماء، وتصبح بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وكالجرز لا يُنبت شيئاً، أو يصبح ماؤها غائراً فى الأرض لا يستطيع طلباً له. ويستمر الحوار والكافر يكاد يغلب المؤمن، ويكاد يُرديه في الكفر، ولكن المؤمن يستمسك بإيمانه، ويستعصم على الكفر، وإذا بالعقاب ينزل على الكافر فى الدنيا مثلما يتوعده في الآخرة، فيحاط بثمره ويندم على ما فرّط فى حق ربّه، وما كان له مَنْ ينصره من دون الله، ويوم البعث لا تكون الولاية إلا لله، وهو خير ثواباً وخير عُقْباً.

●●●

٨٦٧. ﴿قصة أصحاب الجنة﴾

هؤلاء كانوا فى اليمن، وكانت الجنة لرجل من أهل هذه البلاد، والجنة هى البستان، وكان الرجل صالحاً يؤدى حقّ الله من جنّته، فلما مات صارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها، فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها. قال تعالى: ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)**﴾(القلم)، وبلوناهم المقصود بهم أهل مكة، أعطاهم الله الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا وعادوا محمداً ﷺ ابتلاهم بالجوع والقحط كما ابتلى أصحاب الجنة. قيل: كان هؤلاء - أى أصحاب الجنة -بعد رفع عيسى بيسير، وكانوا بخلاء، فكانوا يجدّون التمر ليلاً حتى لا يراهم المساكين، فلما أرادوا حصاد زرعها دبّروا أن لا يدخلها اليوم عليهم مسكين، فغدوا عليها فإذا هى قد اقتُلعت من أصلها فأصبحت كالصريم - أى كالليل البهيم من أثر الحريق، وكأنها قد صارت حَمْأة، وأضحت خراباً يباباً. والذى طاف عليها هو قضاء الله فيها، وقيل: هو جبريل اقتلعها ثم وضعها فى

الطائف. فسميت «**الطائف**» باسمها ذاك لهذا السبب، وليس فى أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب والماء غيرها. وقيل: إن صاحب الجنة الأول قد أورثها أولاده الثلاثة، وكانت العادة أن المساكين لهم كل ما يتعداه المنجل فلم يجذّه من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط، فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، وهذه الطريقة **يهودية** ومذكورة ضمن **زكاة الزرع** فى كتابهم **التوراة** (سفر التكوين ٢٣/ ١٠)، الأمر الذى يجعلنا نقول إن القصة عن جماعة من **بنى إسرائيل**، خاصة وأن اليمن كان بها الكثير منهم، وكانوا إذا دَرَسُوا فللمساكين كل شيء انتثر، وفعل أبوهم ذلك والتزم الشريعة. فلما مات شحّوا، فقلّ مالهم وكثر عيالهم، فتحالفوا ليغدون غدوة قبل خروج الناس ثم ليَصْرِمنّها فلا يعرف المساكين، و«**الصرم**» هو القطع والحَصْد، و«**عدم استثنائهم**» أنهم لم يقولوا **إن شاء الله**. وقيل: كان حرثهم نخلاً أو عنباً. وقيل: **عدم استثنائهم** أنهم لم يجنّبوا حق المساكين، فلما جاءوا ليلاً لتنفيذ ما عزموا عليه، وجدوها مسودة قد طاف عليها طائف من ربّهم وهم نائمون. **والطائف قد يكون جبريل**، وقد يكون **الجزاء** من ربّهم. وكان من شدة حرصهم أن كانوا يسيرون متخفّين، وإذا تكلموا تساروا حتى لا يسمعهم المساكين، وكانوا كأنما قد نجحوا فى مسعاهم، **والحرد** الذى غدوا عليه قيل **قصدُهم** الذى كاد أن يتحقق، وقيل هو اسم قريتهم، فما رأوا ما آلت إليه الجنة حتى أنكروها وشكّوا فيها، وكأنما قد ضلوا الطريق إليها، وتبينوا من بعد أنها جنّتهم، وأنهم حُرموها، وفى الحديث: «**إن العبد ليذنب الذنب فيُحرَم به رزقاً كان هيىء له**»، ثم تلا: «**فطاف عليها طائف من ربّك**». وقال **أوسطهم** معاتباً: ألم أقل لكم قولوا إن شاء الله؟! **والأوسط** هو الأمثل فى القرآن، وهو الأعدل والأعقل. ولقد ظلموا أنفسهم لمّا ظلموا المساكين، وتلاوموا أنهم كفروا نِعَم الله فلم يشكروه، ثم تعاهدوا أن ينصلح حالهم ويتوبوا إليه، فإنْ أبدلهم الله خيراً منها فعلوا الصلاح والخير، ثم دعوا وتضرّعوا واستغفروا. وظاهر الآية أن الله قَبِل توبتهم واستغفارهم، ورزَقهم وهو خير الرازقين، وقولهم: «**إنا إلى ربّنا راغبون**» دليل إيمان، وربما هو نتيجة ما يصيب المشركين إذا أصابتهم شدّة أو لَحِقهم ضُرّ. وفى الآية مواعظ وعِبَر ودرسٌ مستفاد: أن الإنسان لا يعزم إلا الخير، وأن يستثنى فيقول إن شاء الله، وأن العزم مما يؤاخذ به. ونظير هذه القصة قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** (٢٥)﴾ (الحج).



٨٦٨. ﴿قصة الذي ندم حين لا ينفعه الندم﴾

هو الذي مداره الآيات: ﴿ **تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)** ﴾(الزمر)، فهذه ثلاثة أصناف من البشر، وفيهم القصة: كان رجل عالمٌ في بني إسرائيل وجد ورقة مكتوباً فيها: إن العبد ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله، ثم يُختم له عمله بعمل رجلٍ من أهل الجنة، فيدخل الجنة. فقال: ولأى شيء أتعب نفسى؟ فترك عمله، وأخذ فى الفسوق والمعصية، وقال له **إبليس**: لك عمرٌ طويل، فتمتع بالدنيا، ثم تتوب! فأخذ الرجل فى الفسوق، وأنفق ماله فى الفجور، فأتاه مَلَك الموت بغتة ومن غير توقع وهو فى ألذّ ما كان، فلما رآه قال: **ياحسرةً على ما فرّطت في جنب الله؟! ذهب عمري في طاعة الشيطان، وظننت أن العمر سيطول فخاب ظني**. وندم الرجل حين لا ينفع الندم، فأنزل الله خبره فى القرآن هذه الآيات، وقيل لهذا: الناس أصناف: فصنفٌ منهم قال: ﴿**يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾(الزمر ٥٦)؛ وصنفٌ قال: ﴿**لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)**﴾ (الزمر)؛ وقال آخر: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٨)**﴾ (الزمر)، فقال الله تعالى رداً على كل منهم: ﴿ **بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)**﴾(الزمر)، وبلى جواب النفى، وليس فى الكلام لفظ النفى، ولكن معنى «**لو أن الله هدانى**»: أنه ما هدانى، وكأنه قال: ما هُديت، فقيل: بَلَى، قد بيّن لك طريق الهدى، فكنتَ بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن!



٨٦٩. ﴿أصحاب القرية من سورة يس﴾

تروى القصة الآيات من قوله تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)** ﴾(يس) إلى قوله تعالى: ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)** ﴾ (يس). والقصة كما تعرضها هذه الآيات كانت مادة خصبة **للإسرائيليات**، وأكبر مروّجيها كان **كعب الأحبار ووهب بن منبّه**، وكانا من اليهود وأسلما، وهذان كانا يزعمان لنفسيهما **علم الأوائل**، وكان المسلمون يسألونهما عما استغلق على أفهامهم من قصص القرآن، وعمّن مضوا من الغابرين. وشاعت تفسيراتهم حتى غلبت على كُتب التفسير، وما من

سند من التاريخ أو المراجع العلمية يؤيد أقوالهما وما ذهبا إليه، وصار ما قالاه هو السند والمرجع لمن يتصدّى بالتفسير لهذه الآيات. وتستغرق قصة أصحاب القرية فى القرآن **سبع عشرة** آية، ويستغرق التعليق عليها **ثلاث آيات**، فيكون مجموع آيات القصة، والدرس المستفاد منها **عشرين** آية، أى نحو رُبع **سورة يس**، وتأتى فى سياق تحذير أهل مكة من مغبة الكفر بنبيّهم ﷺ، وتُشبّههم بأصحاب هذه القرية، **وهى ليست قرية بعينها**، فلو كان اسمها مهماً لأوردته السورة. وفى القصة أن الله بعث لهم **نبييّن** فكذبوهما، فعززهما بثالث، فيحتمل أن النبييّن هما **موسى وهارون**، وأن الثالث هو **عيسى**، وأن القرية إذن هى العالم بأسره. وفى تفسير **كعب ووهب** أنها **إنطاكية**. وقيل: كان يحكمها **فرعون** اسمه **انطيخس**، **والفرعون** اسمٌ على إطلاقه، ويعنى الطاغية المستبد. ويذهب **الطبرى**، وهو الآخر من أساتذة الإسرائيليات، إلى أن الرسُل الثلاثة إلى هذه القرية كانوا: «**صادق**»، و«**صدوق**»، و«**سلوم**». وقال غيره: الاثنان هما «**شمعون**» و«**يوحنا**»، أو أنهما «**سمعان**» و«**يحيى**». ويجوز أن تكون القصة من باب **الأمثال** تُضرب للناس للعظة وليست قصة واقعية، وتقع كالمَثَل كل يوم، فالداعون إلى الله كُثُر، والمكذّبون لهم أكثر، والسجون ملأى بآلاف الداعين، ومنهم من يُحكَم عليه بالإعدام، ومنهم مَن تصدر الأوامر إلى الشرطة بقتلهم قصداً وعمداً، فالقصة تحصيل حاصل، ووقوعها من الأخبار العادية حيثما كانت الدعوة إلى الله. وقيل: إن القصة حقيقية فعلاً، ووقعت لبعض رسل **عيسى** عليه السلام، وأنهما **اثنان** كانا يدعوان له باعتباره الله أو ابن الله، ولهذا قالوا لهما ﴿**مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾(يس ١٥)، لأن رسُل عيسى كانوا يُشيعون أن **روح القدس** يسرى فيهم، وأنهم أوتوا المعجزات بالوكالة عن **عيسى**. غير أن القرآن لا يمكن أن يستشهد بداعييْن لعيسى باعتباره إلهاً، فبحسب القصة فى القرآن أن الرسوليْن كانا على الحق، وأن الثالث الذى عزّزهما أيّدَ ما جاءا به، والقصة تأتى فى القرآن فى مجال أن **يضربَ النبيّ** ﷺ **بها المَثَل لمشركى مكة**، أن يؤمنوا، وإلاّ حلّ بهم ما حلّ بكفّار هذه القرية، **فكيف** يضرب لهم مثلاً بأناس يدعون إلى تأليه عيسى؟وقيل فى التفاسير: إن **وهب بن منبّه** ذكر أن عيسى لمّا أرسل الرسولين التقيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو **حبيب النجّار**، «**صاحب يس**» فاستمع لهما، وأتيا المعجزات فآمن. وواضح أن **كعباً ووهباً** لم يقرءا **الأناجيل**، فقد كانا فى الأصل **يهوديين**، وفى الأناجيل قصة ربما تشابه هذه القصة وإن كانت الخلافات بين الأناجيل أكثر من المشابهات، وربما تفسّر سبب استهواء **إنطاكية** للمفسرين، فلقد كانت انطاكية مركزاً من مراكز المسيحية الكبرى بعد **أورشليم**، والواقع أن لدينا مدينتين باسم **إنطاكية** أسّسهما

«سلوقس الأول نيكاتور»، من قواد الإسكندر الأكبر، فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، تخليداً لاسم والده أنطيوخس، الأولى فى سوريا على مصب نهر العاصي، والثانية فى تركيا فى اتجاه نيسيدية، وما يعنينا هو إنطاكية سوريا، وكان أهلها يعبدون الأصنام: «تيخى» إلهة الحظ، و«أبولو». وفى إنطاكية كانت تُرتكب باسم الدين والتدين الكثير من النجاسات والممارسات الجنسية الفاضحة، وفيها كانت تعيش جالية يهودية كبيرة، كان منهم من اعتقد فى المسيح؛ وفيها دُعِيَ التلاميذ «مسيحيين» لأول مرة (سفر الأعمال ١١/٢٦)، وأرسلت الكنيسة ـ وليس عيسى كما تقول الرواية ـ رسولين يتبعانها: برنابا، ومعه بولس، ليدعوا الناس، فمحتمل أن أصحاب كُتب التفسير الإسلامية تأثروا بقصة برنابا وبولس، وقالوا: إنهما الرسولان المعنيان فى آيات سورة يس، خاصةً أن من إنطاكية كان «أغناطيوس» الذى استشهد فى روما، و«يوحنا فَمّ الذهب» ـ هكذا اسمه وكان من كبار الدعاة، فمحتمل أيضًا أنهما الرسولان المعنيان. وأيضاً فإن برنابا وبولس زارا إنطاكية التركية وأهاج اليهود فيها الناس عليهما، لأنهما يقولان: إن المسيح هو الله، أو ابن الله. فطردوهما من المدينة (سفر الأعمال ١٣/٤٢ ـ ٥٠). وفى تلك الأيام قام واحد من الرسُل اسمه «أغابيوس» (الأعمال ١١/٢٨)، فأنبأ بالروح. والمستشرقون على القول بأن أغابيوس هو الرسول إلى القريتين. غير أن دعوة أغابيوس لغير الله لا تجعله صالحاً ليُضرَب به المثل فى القرآن، وكذلك برنابا وبولس لا يصلحان كمثلين فقد كانت دعوتهما للمسيح وليس لله، وقصة القرآن للوعظ بأناس صالحين وليس بأناس مطعون فيهم. وأصحّ من ذلك كله أن القصة كما جاءت فى القرآن «مَثَل» كقوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ**﴾ (يس).

•••

﴿قصة طالوت﴾

٨٧٠. ﴿طالوت فى التوراة والقرآن﴾

المستشرقون على القول بأن القرآن أخَذ من التوراة، ومن ذلك قصة النبىّ صاموئيل والملك طالوت Talut. وفى القرآن لا ذكر لاسم النبىّ، وأنه صمويل، أو صموئيل، أو شموئيل Samuel، ومعنى «صمويل» «هبة الله» أو «المنذور لله»، حيث إيل اسمٌ من أسماء الله الواحد، فكأن اسم النبىّ إشارة إلى الله، ومقتضى الاسم أنه «المؤتمن نبياً للربّ»، وكان أبوه قد تزوج امرأتين، إحداهما حنّة فلم تنجب، فدعت ونذرت إنْ أنجبت ولداً أن تهبه لله، وأطلقت عليه صمويل لذلك، فكان عبداً مخلصاً، ولكنه كان متزمتاً ومتطرفاً شديد

التطرف، وعاش في الهيكل، فلما لمس فساد الأسرة الحاكمة دعا عليهم، واستعلن له الله فصار قاضيًا، واستفحل أمره حتى كان الحاكم والمدافع والرئيس وممثل يهوه الربّ، ولما كبر في السن وشاخ أقام ولديه قاضيين يستخلفهما بعده، فأساءا، فظل يبحث عن وليّ لعهده إلى أن وجده في **شاول Saul** الذي هو **طالوت** في القرآن، واسم «شاول» يعنى **«المسئول أمام الله»**، وأما اسم **«طالوت»** العربى فكما نقول: **«أبو طويلة»**، وهو الاسم الذي يبدو أنه كان مشهوراً به، لأنه كان فارع الطول، وأطول بنى قومه، ولمّا نُصِّب ملكًا اجتهد رأيَ نفسه ولم يكن يرجع إلى صمويل مما أغضب صمويل فعافته نفسه، وصرف عنه تأييده، واستبدله بداود، وحزّ ذلك في نفس شاول فصارت الحرب بينه وبين **داود**. ومات صمويل أثناء ذلك، وانهزم شاول أمام الفلسطينيين فلم يجد إلا أن **ينتحر بأن سقط على سيفه**، وانتحر **معه بنوه الثلاثة وجميع رجاله**. (الملوك الأول ـ الفصول من واحد إلى واحد وثلاثين).

فلماذا اختار صمويل شاول ليكون ملكاً مع أنه من أبناء الفقراء، وقيل كان حمّاراً، والعهد بالملوك أن يكونوا من الأغنياء؟ والجواب: لأنه كان حَسَن السمت وقوراً، ولم يكن في الإسرائيليين من هو أكثر احتراماً منه، وكان طويلاً وأطول من أى من رجال إسرائيل، وله ماهية، وكان عقله راجحاً ولذا اختاره صمويل للمُلك رغم أصله المتواضع، وتشكك الناس في صلاحيته (الملوك الأول ٩/٢ و ١٠/٢٤)، ولما باركه صمويل صار باستطاعته أن يتنبأ مثله، فعجبوا منه وسخروا أن يكون نبياً بعد أن أصبح ملكاً، وقالوا: **أشاول أيضاً من الأنبياء؟** فذهبت مثلاً (ملوك أول ١٠/١٢)، وازدروا شاول، وتصامّوا عنه (ملوك أول ١٠/٢٧)، إلا أنه ظهر لهم حنكته، وأبان لهم عن علمه وقدرته، ونصرهم وطرد عدوهم، فصاروا يقولون: مَن الذى قال: أشاول يُملَّك علينا؟! وكان صمويل قد تنبأ بأن شاول هو مخلص إسرائيل من أعدائهم، ولكنه انقلب عليه، وبدا كأنه قد كذب في نبوءته. فلماذا تنكّر له وعاداه؟ **الجواب**: أن شاول لم يعمل بوصايا صمويل، فقدّم الذبائح والمحرّمات، ولم يطع الربّ، ولمّا حارب الفلسطينيين لم يُعمِل القتل في أغنامهم، واختار أحسنها يضحّى بها، وعفا عن ملكهم، فكأنه تنكر للشريعة، فاستغضبه، فخلعه ونصّب داود (صمويل ١/١٥ ـ ٣٥)، ولعنه حتى صار نجساً، وبذلك **كذبت فيه نبوءته** (ملوك أول ٩/١٦). **فهل هناك شبهٌ بين القصة في القرآن وقصة التوراة؟**

في القرآن **فكرة النبيّ** تختلف تماماً عن فكرتها في التوراة، وفيها ـ آى في التوراة ـ يأتى أن النبيّ هو **الرائى**، فهكذا كانوا يسمونه قديماً فصار اسمه في عهد صمويل نبيّاً، فالنبيّ في عرف الإسرائيليين هو **العرّاف** الذي يتنبأ، وصمويل في قصة التوراة نبيّ وقاض

يحكم بالتوراة، وفقيه يجتهد رأيه، وعرّاف يتنبأ بالمستقبل، ودعّاء يسترضي الربّ بكلماته. وكان «أول نبيّ بعد موسى ويشوع»، كما كان «آخر القضاة». وقصته يتضمنها سفرى الملوك الأول والثاني، ويسمونهما لذلك سفرى صمويل. ولا ذكْر لكل ذلك في قصة القرآن إلا أنه نبيّ، وبصفته اختار لهم شاول ملكاً. يقول القرآن: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)**﴾(البقرة). وكما ترى فإن القرآن ينصرف اهتمامه إلى مضمون القصة، والموعظة المستفادة منها، ولا تعنيه التفاصيل، ويتفق القرآن والتوراة في اختيار النبيّ صمويل لشاول أو طالوت كملك لاعتبارات، منها الطول، إلا أن القرآن ينبّه صراحة إلى صفة العلم في شاول، ويجعلها قبل صفة الطول، ويعبر عن ذلك التعبير البليغ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ (البقرة ٢٤٧) فقدّم الاصطفاء على أية معايير مغايرة للاختيار. واتفق مع التوراة في طلب الإسرائيليين من نبيّهم أن يجعل لهم ملكاً كسائر الشعوب يقودهم ضد أعدائهم. وأيضاً فإن قصة التابوت كما هي في التوراة (يشوع ٣/ ١٤ ـ ١٧) تتشابه ومثيلتها في القرآن، إلا أن القصة القرآنية تجعل من حكاية طالوت مع التابوت آية مُلك طالوت، ودليلاً على حُسن اختيار صمويل له ملَكاً. ويأتي في سفر يشوع حكاية مماثلة عن التابوت جعلت المفسرين العرب تضطرب رواياتهم حوله، حتى قالوا إن صمويل اسمه كذلك يشوع، مع أن يشوع بخلاف طالوت أو شاول، وهناك فارق زمني كبير

بينهما، فيشوع أول الأنبياء وصموئيل آخرهم. ويشوع عَبَر نهر الأردن، وكلمة «نهر» في القصة بلبلت الرواة والمفسّرين العرب، ولا وجود للأردن في قصة طالوت القرآنية. ومع ذلك فإن طالوت يصدُق عليه أنه أتى بالتابوت لِيُسْكنه في مكانه بعد أن استولى عليه الفلسطينيون واحتفظوا به لديهم سبعة أشهر، إلا أنهم أعادوه من تلقاء أنفسهم، واستقر التابوت في قرية يعاريم، واستمر بها مصوناً طوال فترة حُكم شاول التي استمرت سنتين، وهي آية لا شك فيها لكثرة ما نُقل التابوت من مكان إلى مكان، ولطول ما تبادلته الأيدى، ولاستقراره في حكم شاول. ثم إن شاول وقد كان معه التابوت (ملوك أول ١٤/١٨)، أراد العبور به بينما الفلسطينيون يتربصون به الدوائر، ولم يكن معه إلا فئة قليلة من الجند كما ذكر القرآن، وأحصاهم التوراة ستمائة رجل (ملوك أول ١٤/٢ ـ ٦)، فلأنهم قلة اعتراهم الخوف من عدوهم، ولكنهم غامروا وعبروا وانتصروا وإنما بالحيلة. ويأتي في القرآن أنهم شربوا من النهر إلا قلة، والمقصود بالنهر على الحقيقة نهر الشريعة، وكان ذلك من شاول أنه حلف عليهم أن لا يذوقوا طعاماً قبل أن ينتصروا، فلما صادفتهم غابة واخترقوها كان عسل النحل يجرى فى أشجارها أنهاراً، لكنهم خافوا أن يقربوه لأنهم أقسموا، ولم يكن ابن شاول قد سمع بالقسم فمد يده بعصا يأخذ من نهر العسل ويتذوقه، وفعل مثله آخرون وكانوا قلة، وقلّدهم آخرون، وشربوا من نهر العسل، ثم إنهم لمّا انتصروا وغنموا الغنائم ذبحوا الذبائح حتى سالت دماؤها أنهاراً، فشربوا من نهر الدم، ومن أجل أنهم نكثوا بأيمانهم غضب عليهم شاول وعاقبهم، فالنهر في القرآن هو هذا النهر الذى ذكرنا.

وأما حكاية جالوت مع شاول فإنه لمّا خرج مبارزاً لجماعة شاول وكانوا قلة، وصاح فيهم ما سمعوه جميعاً، فلو كانوا بالآلاف لما بلغهم صياحه، فكانوا قلة فعلاً (ملوك أول ١٧/ ١٠ ـ ١٢). واسم جالوت أو جليات بالعبرية معناه السبىّ بالسريانية ودَخَل العبرية بهذا المعنى، وقيل: كان جالوت من عبيد الفلسطينيين. والأصح أن جالوت هو تصحيف عبرى للفظ الجوّال من جال بمعنى الكرّار، الذى يجتال بسيفه ويلعب به ويديره على جوانبه.

والقصة القرآنية فى غاية البلاغة والإحكام والإيجاز ولا تدانها قصة التوراة، وأنهاها الحق تعالى بعبارة هي فصل الخطاب، قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾ (البقرة) أى هذه آيات الله التى قصصنا عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، والواقع الذى كان عليه الأمر المطابق لما بأيدى أهل الكتاب مما يعلمه علماء بنى إسرائيل، وهو ما يثبت أنك يامحمد من المرسلين.

●●●

قصــة جالــوت

٨٧١. ﴿جالوت فى التوراة والقرآن﴾

اسم جالوت يأتى فى كُتب اليهود قبل القرآن، وقيل هو اسمٌ، والحقيقة أنه ليس اسماً ولكنه صفة، من جَلَتَ السريانية يعنى ضَرَبَ، وجالوت هو المقاتل الذى يحترف القتال، ويأتى فى العبرية جُلْيات أو جوليات Goliath، قال المستشرقون إن قصته مع داود أخذها القرآن من التوراة، مع أن قصة جالوت لم ترد فى التوراة وإنما فى سفر صمويل الأول، بعد التوراة بزمن طويل، فى الفصلين السابع عشر والواحد والعشرين. واسم جالوت هو تصحيف عربى للاسم السريانى، واليهود على أن الاسم جُليات يعنى أنه السَّبِىّ، أى أنه لم يكن سيداً فى قومه ولكن من الموالى، وكان من بلدة فلسطينية تدعى جَت ومعناها المعصرة، فقد كان أهلها يعملون بعصر الزيتون، ومعاصِرُه لا يصلح لها إلا الأقوياء، والعمل عليها أحرى بالموالى، ولذا كان جالوت قوياً، وكانت المدينة حصناً من الحصون، فكان جالوت وغيره من الموالى الأشداء يتعلمون فنون القتال للدفاع عن مدينتهم ضد اليهود الغزاة، فقد كان اليهود كما هم الآن يغزون جيرانهم لتكون لهم أرض ودولة. وغالى صموئيل فى وصف جالوت، تهويلاً ومبالغة، وربط بين اسمه جُليات وبين أنه من الجبابرة، وقال إن طوله كان تسعة أقدام يعنى ٢٧٠سم! ولا يوجد إنسان فى أى عصر من العصور كان بهذا الطول! وقيل كانت أدوات حربه مناسبة لطوله، وجعلها صمويل صاحب السفر الذى يحكى عن جالوت - أسطورة، وضخّم فيها ليثبّت فى أذهان اليهود أنهم أهل حيلة وإنْ كان خصومهم أقوى، وبالغ فى وصف الخوف الذى اعترى المقاتلين اليهود لمّا رأوا جالوت يبرز لهم. وقال صمويل على لسان شاول الملك إن داود كان غلاماً، وهو ليس صحيحاً، وإنما كان راعياً لغنم أبيه وإن كان أصغر إخوته الثمانية، ويصف نفسه مباهياً فيقول إنه قتل أسداً ودبّاً، وما كان من المعقول أن يزوّجه الملك ابنته وهو غلامٌ حَدَث، ثم إنه سرعان ما نُصِّب ملكاً وكان فى الثلاثين! وفى مشهد القتال استخدم داود السخرية لاستماله قلب الملك شاول إليه، فيرضى أن يخرج لقتال الفلسطينى جالوت. وغالى صموئيل فى وصف جمال داود، ونعرف من بعد أن داود كان يعانى من اضطرابات نفسية تصيبه بالهوس الدورى، وكان كثير الأخطاء والاستغفار، ويستعذب أن ينزل بنفسه العقاب. ولم يخرج داود بأدوات قتال إلا من مقلاع وبعض الحجارة وعصا الرّعى، فصوب مقلاعه إلى جوليات أو جالوت، وأصابه الحجر منه فى جبهته، وانغرز فيها، وسقط جوليات على الأرض، فعدا داود إليه وأخذ سيفه وقطع رأسه، وانتهت الحرب

الحرب بين الفلسطينيين واليهود على ذلك، لأنها لم تكن موقعة على الحقيقة، ولكنهم كانوا جماعة من هؤلاء وأولئك يقفون فى صفين متقابلين، فيخرج من هؤلاء واحد فيلاقيه واحد من أولئك، فلما خرج جوليات تصدّى له داود بأدوات بدائية، **وبسبب جسارته وحيلته،صار داود ملكاً**، واعتُبر خلعه للباس الحرب الذى ألبسه إياه **شاول**، دليل ذكاء يُحسب له كمحارب، لأن جوليات كان يضع عدّة الحرب فكانت ثقيلة تبطىء حركته، فاستغل داود تلك السلبية فيه، وأسرع يلتف حوله ليتمكن منه.

ويعرض القرآن لقصة **جالوت** مع **داود** ضمن سورة **البقرة** وخلال سرده لقصة **طالوت** الذى هو **شاول** بالعبرية، فقد كان شاول وجنوده قد جاوزوا النهر إلى جت، فلما علموا أنهم ملاقو جالوت وجنوده قالوا: ﴿ **لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)**﴾(البقرة). وبمقارنة قصة صموئيل السالفة بقصة القرآن هذه، يتبين الاختلاف بينهما كأوسع ما يكون الاختلاف، والقصص فى **الروح اليهودية** للسرد تفصيلاً وتهويلاً بقصد **إظهار عظمة شعب اليهود** لاغير، وأما فى **الروح العربية** فالقصص للعبرة والتدبُّر، وفيها الحِكَم، وعباراتها تُزجَى كالأمثلة، ومنها الكثير مما يُعَد من جوامع الكلم. ولم يورد القرآن اسم **جالوت** كشخصية تاريخية، وإنما **كرمز للقوة الغاشمة**، وفساد فرط الثقة بالنفس، وعُقم البغى وبطلان العدوان، اعتماداً على القوة بلا إيمان. **وجنود جالوت** فى الرواية القرآنية هم أصحابه من جنسه وهيئته وصنعته. وليس فى الروايتين اليهودية والقرآنية أى ذكر **لعدد الجنود** من الجانبين. وفى **الرواية اليهودية** أن اليهود كانوا غالبية يملؤهم الخوف وإيمانهم على حَرْف، ولم يرد أى شىء عن المؤمنين. وفى **الرواية القرآنية** فإن الدليل على قلة إيمان هذه الغالبية، قولهم **لا طاقة لنا بجالوت وجنوده**، غير أنه كان ضمن هؤلاء ثلة شديدة الإيمان، وهؤلاء هم القلة الذين اجتازوا النهر وأطاعوا طالوت فلم يتناولوا من مائه ولو شربة، وقال فيهم القرآن: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ**﴾ (البقرة ٢٤٩)، **والظن** يتوسط الشك والوهم، فالشك سلبى، والظن لا هو بالسلب ولا بالإيجاب، فإن مال للإيمان وللإيجابية صار يقيناً، وإن نحا إلى السلبية فهو **الشك**، وإن كان على خطأ ظاهر فهو **الوهم**. وظَنُّ هؤلاء كان يقيناً، لأنهم قالوا: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ**

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾(البقرة ٢٤٩)، والفئة هي الجماعة، وقولهم تحريضٌ على القتال، واستشعارٌ للصبر، واقتداءٌ بالمصدّقين من الأماثل. وهؤلاء القلة هم الربّانيون المعنيون بالآية: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (١٤٦)﴾(آل عمران)، ولذلك دعوا في موقفهم القتالي فقالوا: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** (٢٥٠)﴾ (البقرة) مثلما دعا غيرهم، قالوا: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** (١٤٧)﴾(آل عمران)، فهزموهم، وإنما كان ذلك بإذن الله بحسب القرآن، وافتقدنا مثل ذلك في رواية صموئيل. وفي رواية القرآن قتل داود جالوت جهاداً، فكان أن آتاه الله المُلك والحكمة وعلّمه مما يشاء، وليس ذلك في رواية صموئيل، ثم يأتي في القرآن هذا القول الحكيم والبديع كأبدع ما تكونا الحكمة: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** (٢٥١) ﴾(البقرة)، فيتضح أن شرّ الظالمين والكافرين والمعتدين والبُغاة يدفعه الله بالمؤمنين والصالحين والأخيار. وهذا هو الدرس المستفاد من قصة جالوت مع داود، والذى حُجب عن صموئيل فلم يره ولم يأت ذكره على لسانه، ولم يتضمنه كتابه، وآتاه الله النبيّ ﷺ في قوله: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** (٢٥٢)﴾ (البقرة)، تأكيداً بأنه ﷺ نبيٌّ مرسلٌ، ولولا ذلك ما أُعطى زُبْدة الموضوع وخلاصته، ولما أوتى هذه الحكمة التى حُرِمها صموئيل، لأن صموئيل لم يكن نبياً على الحقيقة ولا رسولاً، وإنما كان كما قال الروائى والفيلسوف هيربرت جورج ويلز H. G. Wells عن أنبياء إسرائيل: لم يكونوا أنبياء فعلاً ولكنهم رجال دولة يخططون لتثبيت أركان دولتهم لا غير!

●●●

﴿قصة داود بن يسى﴾

٨٧٢. ﴿هل كان نبياً ملكاً أو ملكاً فقط﴾

بحسب التوراة فإن داود كان ثاني ملوك إسرائيل، ويأتى بعد طالوت أول ملوكهم، واسم هذا الأخير عند اليهود شاول، وشاول هو الذى اختار داود ضمن أتباعه، وكان داود من سبط يهوذا، ويهوذا هو الذى وصفه يعقوب أبوه بأنه شديد البأس، يميل إلى العنف، وهو ابن ليئة، وهو الذى أوعز إلى إخوته أن يبيعوا يوسف للإسماعيليين، وهو أيضًا الذى دخل على زوجة ابنه: «شيلا» باعتبارها بغيًا، وحملت منه سفاحًا وولدت توأمين. فهذا إذن هو أصل داود كما تقصّه التوراة. واسمه داود يعنى «المحبوب»، ويوصف مغالاةً بأنه

وسيمٌ، وكان أصغر أبناء أبيه **الثمانية**. وفى سفر صموئيل تبدو شخصيته مضطربة ولا تخلو من لوثات خطيئة، وكذلك كان **طالوت** وليّ نعمته، وكان داود **يعالج طالوت بالموسيقى**، فكلما أتت طالوت نوبات الجنون، أسرع داود بالعزف والغناء له على قيثار، وتعلّم السياسة فى بلاط طالوت،واشتهر بحربه مع الفلسطينيين، وقتاله **جالوت** بمقلاع وهو ابن **أربع عشرة سنة**- وهذا الكلام أيضًا من باب المغالاة، فاليهود صنعوا منه أسطورة - وانهزم جالوت لثقل ما عليه من دروع، وكافأه شاول - أى كافأ داود - بأن زوّجه من ابنته، وازدادت شهرة داود، وغار منه شاول، وأراد أن يقبض عليه فهرب، وجمع حوله مجموعة من المطاريد والمضطهدين، وانهزم شاول فى جلبوع أمام الفلسطينيين، ومات فى المعركة أبناؤه الثلاثة، وجرح جرحاً خطيراً، فانتحر بأن أسقط نفسه على سيفه، وخلفه داود وكان فى **الثلاثين** من عمره، وشبّت **حرب أهلية** بسبب توليه **المُلك**، **وتزوج كثيراً وأنجب الكثير من الأولاد**، ووضع تصميم الهيكل وبنى مدينة داود، وكان عدوانياً فدخل فى حروب مع جيرانه، وعمل على أن يخلفه ابنه سليمان.

وتختلف صورة داود فى كُتب اليهود عن صورته فى القرآن، فعند اليهود هو من الملوك وليس من الأنبياء، وفى القرآن هو «نبيٌّ ملك»، وفيه قال تعالى: ﴿ **وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)** ﴾(البقرة)، أى آتاه مُلك طالوت الذى هو شاول، كما آتاه نبوة صموئيل، وتعلم فى بلاط شاول سياسة المُلك والحرب والدين، ودفع الله به البلاء عن قومه، ولولا ذلك لهلكوا. وفى القرآن: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)** ﴾ (ص)، يعنى أن الله ملّكه ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فتخلّف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين، ولتحكم بما أنزل الله. وقيل إنه لمّا ظلم أوريا الحثّى ودفعه إلى الحرب ليُقتَل ويتزوج امرأته، كانت له فى الخليل سبع نساء بخلاف السرارى، ولما سكن أورشليم تزوج خمس زوجات بالإضافة إلى السابقات، وكانت له سرارى كذلك، ورغم كل هذا العدد من النساء طمع فى امرأة أوريا فكان مثله مثل الأخَين صاحبى النعاج، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)** ﴾ (ص)،

وقيل إنه كان في المحراب عندما نظر من الكوة فأشرف على امرأة تغتسل فلما رأته غطت جسدها بشعرها، فوقعت فى قلبه، وبنى بها فحملت ولكنها أجهضت، فعرف أن الله غاضب عليه، ولازم المحراب حتى عفا عنه ربّه ـ فهكذا قال له الكهنة، فحملت المرأة منه ثانية، وفى هذه المرة ولدت ابنه سليمان! وقيل فى تشبيهه بالأخ صاحب التسع والتسعين نعجة، هو أحسن تعريض فما كانت هناك نعاج، ولم تكن لداود تسع وتسعون امرأة، وربما كان هذا هو عدد نسائه جميعهن زوجات وسرارى، والمقصود فى كل الأحوال ضرب المثل. ومعنى «اكفلنيها» أنزل لى عنها، و«عزّنى فى الخطاب» أى غلبنى، و«الخلطاء»، الأصحاب. ولقد علم داود أنه قد فُتن فاستغفر ربّه وتاب من خطيئته. وقيل إن داود مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموعه على رأسه! وأكلت الأرض من جبينه! وهذا كلام يستحيل أن يتحقق! وهو من باب الأساطير الدينية اليهودية! وكان يقول فى سجوده: يارب، داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب. ربّ، إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلتَ ذنبه حديثاً فى الخلق من بعده! ـ وكأنه لايهمه إلا كلام الناس عنه. وقيل: لمّا غفر الله له قرّبه، وضرب به المثل في الصبر، فقال تعالى مخاطباً النبىّ ﷺ: ﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾** ﴾(ص)، والصبر دليل النبوّة، وكان داود ذا أيد، يعنى قوى فى عبادته، يصوم أشد الصوم وأفضله، ويصلى أطول صلاة، ويرتل أجود الترتيل، فأعطاه الله المزامير، يعنى ألهمه، وقال: ﴿**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾**﴾(النساء)، والزبور هو المزامير، وكانت تتنزل عليه بوحى من السماء، وهى حِكَم ومواعظ وتسابيح وحمدٌ وثناء على الله،ولعن فيها الكافرين، كقوله: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾ (المائدة ٧٨). وحُرِّفت هذه المزامير مثلما حرّفت التوراة، وزيد فيها وأُنقص منها. وقيل: كان داود لا يأكل إلا من عمل يديه، كقوله: ﴿ **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ (سبأ١١)، ومحتمل أن أكله من عمل يديه أنه كان صاحب ورشة يعمل فيها العمال. والسابغات التى كان يصنعها هى الدروع السابغة أى الكاملة، وكانت قبله صفائح، فكانت ثقالاً، فأمر بالتقدير فيها بحيث تجتمع فيها الخفة والحصانة، فلا تُقصَد الحصانة فيها فقط فتثقل،ولا تُقصَد الخفة فقط فتزول المنعة،والسرد حلق الدرع، ولذلك يسمى صانع الدروع بالسرّاد، وقال تعالى:﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾(سبأ ١٣)، والخطاب في الآية لداود وأهله، وشُكرُهم لما حباهم به ربُّهم فقال: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾**﴾(سبأ)، وفضلُه تعالى عليه في تسعة أمور: الأول: النبوة؛ والثاني: الزبور أو المزامير؛ والثالث: العلم، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ**

وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾(النمل ١٥)؛ والرابع: القوة، فقال: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ** ﴾(ص ١٧)؛ والخامس: تسخير الجبال والناس، قال: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾(سبأ ١٠)، والسادس: التوبة، قال: ﴿**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ(٢٥)**﴾ (ص)؛ والسابع: الحكم بالعدل، قال: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾(ص٢٦)؛ والثامن: إلانة الحديد، قال: ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)**﴾ (سبأ)؛ والتاسع: حُسن الصوت، فقال: ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ**﴾(سبأ ١٠)، ويشبّه النبيّ ﷺ تلاوة **أبي موسى الأشعري** وحُسن صوته بما كان عند داود فقال له: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود**»، والمزمار حُسن الصوت، وبه سميت آله الزمر. وقال تعالى: ﴿**سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨)**﴾(ص)، وتسبيحها ترديدها لتراتيله. وأهل الحكمة على القول بالاقتداء بداود وأن نتعلم **الصنائع**، **فالتحرُّف** لا يُنقص من المناصب، وهو زيادة فى الفضل، ويُحدث التواضع، والاستغناء عن الغير وكسب الحلال تعبيرٌ عن الامتنان، وفى الحديث: «**إن خير ما أكل المرء من عمل يده، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده**». ورغم كل هذه الفضائل لداود، فقد كان **سليمان** أعلم منه وأكثر حكمة، يعنى أكثر إصابة فى اجتهاداته وأحكامه. وفى القرآن **قضية الأغنام التى نفشت فى الحرث بالليل**، فحكم داود بأن تُدفَع الغنم إلى صاحب الحرث، والحرث إلى صاحب الغنم، فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب قالا له: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فتوجه سليمان إلى أبيه وقال له: يا نبى الله، رأيت ما هو أرفق بالجميع، فادفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وأصوافها، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله فى السنة المقبلة، يردُّ كل واحد منهما ماله إلى صاحبه، وسُرّ داود لتساوى القيمتين، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾(الأنبياء ٧٩). فانظر يا أخى إلى عظمة قصة القرآن عن **داود**، وعباراتها التى كلها حِكَم، والدروس المستفادة منها، وانظر إلى قصة داود كما تعرضها التوراة، وينصرف اهتمامها إلى التفاصيل، شأن الروايات المكذوبة. فكلما زادت التفاصيل فاعلم أن الراوى يريد أن يثبت الكذبة بكذبة أكبر منها وهكذا. (**انظر أيضاً قصص جالوت، وطالوت، وسليمان**).

•••

٨٧٣. ﴿قصة داود وأوريا الحثى﴾

تأتى هذه القصة فى القرآن من الأدب الرمزى، يقول تعالى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى**

بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾(ص). والخصم الذين تسوّروا المحراب- برواية التوراة - هما مَلَكان في صورة إنسيين، فعلا ذلك كي لا يراهما أحد، فما درى داود وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين. وكان سبب ذلك حكاية بتشابع بنت أليعام امرأة أوريا الحثيّ، وكان داود عند المساء قد قام عن سريره يتمشى على سطح بيت المَلِك، فرأى من السطح امرأة تستحم وكانت هي بتشابع، وكانت جميلة جداً، فأرسل يسأل مَنْ تكون، وبعث من أحضروها له، ودخل عليها، ورجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت تخبر داود، فأرسل إلى قائد جيشه ليرسل إليه زوجها، ولمّا جاء استخبره عن الجيش والحرب، ثم أرسله ليبيت في بيته مع امرأته، لكن أوريا رفض أن ينام مع امرأته بينما الجيش في الحرب، وأعطاه داود إجازة يومين، فأصر أن لا يبيت في بيته طالما زملاؤه في الحرب، وسهر معه وأسكره وأرسله إلى بيته فلم يفعل، فاضطر داود أن يرسل كتاباً معه إلى قائد الجيش يأمره أن يوجه أوريا إلى حيث يكون القتال شديداً كي يموت، وفعلاً قُتل أوريا، وعلم داود، وناحت امرأة أوريا على زوجها، ولما تمت أيام مناحتها ضمّها داود إلى بيته واتخذها زوجة، وولدت له ابناً، وساء ما صنعه في عينيّ الربّ، فجاءه النبيّ ناثان وقال له حكاية عن رجلين، أحدهما فقير والآخر غني، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً، ولم يكن للفقير سوى نعجة صغيرة، اشتراها وربّاها وكبرت عنده مع بنيه، وتأكل من لقمته ، وتشرب من مائه، وترقد على حصيره، وكانت عنده كابنته. وحدث أن نزل بالغني ضيفٌ فاستخسر أن يذبح له من غنمه وبقره، واستولى على نعجة الفقير وذبحها ليقدمها للضيف. واستمع داود للقصة فغضب على الغني، وقال لناثان: إن هذا الغني يستحق القتل! وحكم بأن يعطى الفقير ثمن النعجة أربعة أضعاف! فقال له ناثان: أنت هو الرجل. أعطاك الربّ كل شيء فلم تقنع ، وطلبتَ المزيد، وفعلتَ المنكر، وقتلت أوريا الحثيّ بالسيف، وأخذت امرأته! وحكم عليه ناثان: أن لا يفارق السيف يديه إلى الأبد، جزاء أنه ازدرى شريعة الربّ وأخذ زوجة غيره لنفسه بعد أن تآمر على قتله، ولذلك سوف يأتيه الشرّ من داخل بيته، وسيأخذ أزواجه غيره، ولمّا كان قد فعل ما فعل خفية، فإن الربّ يفعل فيه مثلما فعل مع «أوريا» في العلن وعلى مرأى من جميع إسرائيل، وفي وضح النهار، وأن الابن الذي يولد له سوف يموت. وبالفعل مرض الابن، وصام داود وارتمى على الأرض يتضرّع إلى الله،

وظل كذلك أسبوعاً، ثم مات الصبى، فقام وادّهن، وارتدى ثيابه، ودخل بيت الربّ فسجد، وعاد إلى بيته فأكل، وحار فيه عبيده وقالوا له: لمّا كان الصبى حياً صُمتَ وبكيتَ، ولمّا مات قمتَ وأكلت؟ فقال: لما كان حياً صمتُ وبكيتُ لعله يشفى، فلما مات، فلماذا أصوم؟ هل أستطيع أن أردّه؟ وعزّى امرأته بتشابع وضاجعها، فحملت وولدت ابناً سمّاه سليمان!(٢ ملوك ١١).

فهذه هى قصة التوراة عن داود مع بتشابع امرأة أوريا، وما فعله ليصل إليها، وكيف بنى بها وأنجب منها سليمان، وداود فيها زان، ومُصرّ على الزنا، وابنه سليمان ابن سفاح؛ ورواية القرآن نقيض ذلك تمامًا، وتصوّر مجمل القصة أجمل تصوير، وتختصرها بلا إخلال، وتركز أحداثها، ثم تستنبط الدروس المستفادة من القصة وتنبّه إليها، فلولا أن الله غفور لكان داود قد لحقه دمار أى دمار بما فعل، ولكن حسناته كانت أكثر من سيئاته، وكان به علم وحكمة برغم كل شيء، وتكفيه المزامير شفيعاً له عند ربّه.

●●●

٨٧٤. ﴿الزبور كتاب داود﴾

يأتى فى القرآن عن داود والزبور قوله تعالى: **﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾** (النساء)، وقوله: **﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)﴾**(الإسراء)، والزبور عموماً هو «**الكتاب**» من زبرتُ أى كتبت، تقول: **أنا أعرف تزبرتى**، أى كتابتى؛ والجمع «**زُبُر**» كقوله تعالى: **﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾**(آل عمران)، وقوله: **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾**(القمر). **والزبور** تُقرأ مفتوحة الزاى أو مضمومة، والأصل فى معناها أنها تفيد **التوثيق**، أى أن الزبور هو **الكتاب الموثق المضمون**. وقيل: **الزبور من الزّبر** وهو الزّجْر، تقول: **زبرتُ الرجل** أى انتهرته، وزبرتُ البئر أى طويتها بالحجارة. **والزبور**: هو الكتاب الصعب غليظ الكتابة. وقيل: الزبور ككتاب مقصور على الحِكَم العقلية دون الأحكام الشرعية؛ والكلمة بحسب الأصول الأجنبية هى مزمور، والجمع **مزامير**، وهى الأناشيد التى تُغنَّى بمرافقة **المزمار**، وكانت هذه الآلة أيام داود، وكان يحب أن ينفخ فيها ويغنى بمرافقتها. ويتألف المزمار من سبع أو ثمانى قطع من القصب مختلفة الطول، وأكثر ما يستخدمه الرعاة فى الإنشاد أو الغناء فى الوديان. والمزمور له شكل الدعاء أحياناً وأحياناً أخرى له شكل الموال، والكثير من دعاء النبىّ ﷺ كأنه مزامير يصحّ الإنشاد أو التغنى به.

ومزامير داود سِفر من أسفار كُتب العهد القديم، واليهود يسمونه **سفر المزامير**، أو **كتاب الحمد**، ودعاه المسيح **كتاب المزامير**، واشتهر باسم **مزامير داود**، وورد به ١٥٠

مزموراً، منها ٧٣ ينسبونها لداود. وتقسّم إلى خمس مجاميع أو خمسة كتب، تنتهى كل منها بدعاء، ويأتى فى نهاية اثنين منها لفظة آمين تتكرر مرتين، وآمين لم تكن ضمن المتن، ولكن جامعى الكتاب هم الذين أضافوها. متى؟ لا ندرى. وهذا التقسيم الخمسى يرمز إلى أسفار موسى الخمسة، وكأن جامعى الكتاب أرادوا أن يجعلوا للمزامير مكانة كمكانة كتُب التوراة الخمسة، وهذه الأقسام تبتدىء بالمزامير ١، و٤٢، و٧٣، و٩٠، و١٠٧ على الترتيب. والقسم الأول منها ٣٧ مزموراً لداود، أربعةٌ منها، وهى ١ ، ٢، ١٠ ، ٣٣، لمؤلفين غير معروفين، ويدعونها لذلك المزامير اليتيمة. والقسم أو الكتاب الثانى يتضمن ٣١ مزموراً ليس منها شىء لداود، وكذلك القسم الثالث يتضمن ١٧ مزموراً ليس منها شىء لداود ، والرابع ١٧ مزموراً من ٩٠ إلى ١٠٦، منها مزمور واحد لموسى هو المزمور ٩٠،ومزموران لداود هما: ١٠١ و ١٠٣، والبقية لمؤلفين غير معروفين. والخامس ٤٤ مزموراً، منها ١٥ لداود، وواحد لسليمان، والباقى لمؤلفين غير معروفين. فهذه ١٤٦ مزمورًا فقط، منها خمسون مزمورًا لداود. وبعض المزامير يتكرر، وبعض خواتمها فى غير أماكنها. ومن الواضح أن كل محاولات الجمع والإضافة والتأليف والتحريف وغيره قد تمّ بعد سبى بابل، أيام عزرا، ولذا يلاحظ أن العواطف والمشاعر التى تعبر عنها المزامير ليست واحدة ولكنها بأساليب متغايرة، وتتوافق مع أحداث على مر أزمان عديدة منذ عصر داود إلى ما بعد السبى، أى نحو الألف سنة أو أكثر، ومنها ما لا يمكن فهمه. وقسّموها بحسب موضوعاتها إلى: مزامير الحمد والتسبيح، ومزامير الشكر،ومزامير التوبة، ومزامير الدعاء، ومزامير أساسها وعود الله، ومزامير تعليمية.

وكما ترى فإن كتاب الزبور، أو المزامير الحالية، ليست كلها لداود، وليست جميعها على وتيرة واحدة وبأسلوب واحد، ومع ذلك فهى دعوات للخير وإن كان التعصب فيها للإسرائيليين شديد، ولكنها تصلح للدعاء لأى جماعات أو أفراد من أية ديانات مع تعديل بسيط.

•••

٨٧٥. «هل اقتبس القرآن من مزامير داود»

يأتى فى القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(الأنبياء)، والمستشرق هوروفتس على القول بأن القرآن اقتبس الآية من مزامير داود، وأنها تكاد تكون طبق الأصل للعبارتين منها: «إن الذين يباركهم يرثون الأرض» (٣٦/ ٢٢)، «والصدّيقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد»(٣٦/ ٢٩). وفارق بين

الصياغتين العبريتين والصياغة العربية، فأولاً نسب القرآن المعنى للزبور، وقال: «كتبنا» أي أن الأمر وحيٌ من الله، و«**الذكر**» هو التوراة، فالقضية سواء بطرح التوراة أو الزبور (المزامير) أو القرآن، الأصل فيها الله، ونسبةُ **العبارة للمزامير دليل على صدق القرآن**، وهي له وليست عليه، وكان الأحرى بهوروفتس أن يصدّق القرآن، طالما أن القرآن يصدق ما قبله: ﴿**فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾(البقرة ٩٧)، أي نزل مصدّقاً لما سبقه من التنزيل. وما كان محمد ﷺ قد اطّلع على **ترجمات** للمزامير، **فأول ترجمة لها بالعربية كانت في القرن الثاني الهجرى، فكيف كان يتسنّى لمحمد** ﷺ **أن يعرف ما في المزامير؟** ثم إن المزامير ١٥٠ مزموراً، منها ٧٣ فقط نُسبت لداود، ومنها المزمور ٣٦ الذى قيل إن العبارة السابقة منه، يعني أن القرآن يصدُق مرة ثانية في نسبة العبارة للزبور الذى هو كتاب داود فلم يخطئ ونسب إلى داود شيئًا لم يقله، ومزامير داود هو هذه المزامير التى عددها ٧٣ دون غيرها من المزامير المضافة عليها مجهولة المؤلف. وثمة اختلاف آخر: أن عبارتى المزامير بشارة للأخيار الذين يباركهم الربّ، والكلام فى المزمور كله عن استئصال الأشرار وتمكين الأخيار. وأما فى الآية القرآنية: فالكلام قضية منطقية كلية صادقة، يقول: ﴿**الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** (١٠٥)﴾، ويقول بعدها: ﴿ **إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ** (١٠٦) **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** (١٠٧) ﴾(الأنبياء)، فجعل هذه القضية من قضايا **الإعلام الإسلامى**، ينبّه إليها الجميع، وكان **بلاغُ توريث الأرض** أحد البلاغات الكثيرة الصادرة عن الله تعالى خلال بعثة محمد ﷺ، وجُعل **توريث الأرض للصالحين** أصلاً من الأصول في **السياسة الإسلامية**، وفى **الاقتصاد والحُكم**، وجُعل الصلاح سببًا لاستحقاق الوراثة، فلم يجعلها بالعصب وإنما **بالصلاح**. ووُجّه البلاغ **للعالمين** ليحيطوا به علماً، ولتعمل بمقتضاه جماعة المؤمنين، وفي ذلك كل الرحمة بهم، وكان المبلّغ بها ـ وهو محمد ـ بمقتضى هذه البشارة والنذارة معاً التى حُمّلها، رحمة للعالمين كذلك. فهل مثل هذه المعانى السياسية والتربوية والاقتصادية مما يمكن أن يتضمّنه نصّ المزمور؟ والجواب بالنفي وإنما هو مجرد نصّ بدلالة ضحلة، والقرآن وسّع دلالته وصنع من عبارتى المزمور ومن غيرهما علماً استنباطياً إضافياً هو علم **الإسلام السياسى**.

●●●

٨٧٦. ﴿الإسرائيليات فى تفسير آية توريث الأرض للصالحين﴾

الآيــة: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** (١٠٥)﴾ (الأنبياء) مصدر خلاف بين المفسرين لغلبة الإسرائيليات على توجهات الكثيرين منهم من

القدامى، قالوا: إنه طالما أن الآية ذُكر فيها الزبور فالمقصود بعبادى الصالحين اليهود الصالحون، والأرض على ذلك هى الأرض المقدسة. ذكر ذلك الماوردى. وقال آخرون إن الأرض هى الجنة، وقال أهل الإسلام إن الآية عامة، وإن الأرض هى أرض الأمم الكافرة يرثها المؤمنون عامة: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾(الأعراف ١٣٧)، وذلك هو الصحيح وليس أن الأمر قاصر على اليهود الصالحين دون غيرهم كما تزعم الإسرائيليات، وهو أيضاً واقع الحال والمشاهد عبر التاريخ: أن صلاح الأمم يكون معه علوها وسيادتها.

●●●

٨٧٧. ﴿نموذج من زبور داود من سفر المزامير﴾

يقول داود: التقىّ مَنْ لم يجالس المنافقين، ولم يعاشر الخطّائين، ولم يجد نفسه مع المستهزئين بالدين، وهواه مع كتاب الله يتلوه بالليل والنهار، وهو كالشجرة المزروعة على مجرى الماء، تؤتى ثمرها فى أوانه، وورقها لا يذبل، ونقيض ذلك المنافق، وطريقه طريق الهلاك.

ويقول: يا أيها الملوك تعقّلوا، واتّعظوا ياقضاة الأرض، واعبدوا الربّ بخشية، فطوبَى للمعتصمين بالله.

ويقول: بالسلام اضطجعُ وأنام، لأنك أنت ياربّ وحدك فى طمأنينة أنزلت علىّ السكينة. إنّ سافكَ الدماء والماكر يمقته الله. فابعدوا عنى يا جميع فاعلى الإثم، فإنى فى كل ليلة أبكى وتُغرق دموعى سريرى، وإن جسمى ليذبل من الكرب، وما أعانى من الندم أهرمنى، فاسمع ياربّ تضرُّعى، واقبَلْ صلاتى، وخلّصنى من مضطديّ، ونجّنى من الشرير الذى يحفر الآبار فلا يسقط فيها إلا هو، وضرره يرتد على نفسه، وعلى هامته يقع جوره.

ويقول: ياربّ، ياسيدى، ما أعظم اسمك فى كل الأرض. فأنت ملجأ الملهوف، وملاذ من يعانى الضيق، والعارفون بك يتوكلون عليك، ولم تخذل من دَعُوك، ومن نسى الله نساه، وفى الجحيم أرداه، وليس على الدوام يُنسَى المسكين، ولن ينقطع رجاء البائسين.

ويقول: أُحبُّك ياربّ، يا قوتى، وصخرتى، وملجئى، ومُنقذى. أثابنى الربّ بحسب برّى وطهارة يدى، لأنى لم أعصه، فأحكامه أراعيها، وسُننه لا أحيد عنها، فأثابنى الربّ بحسب برِّى، وأنت ياربّ سراجى ومُنير ظلمتى.

●●●

﴿قصة سليمان بن داود﴾

٨٧٨. ﴿سليمان فى التوراة والقرآن﴾

فى التوراة: سليمان «مَلِك» وإن كانت له أسفار باسمه ضمن كتب العهد القديم؛ وفى القرآن: سليمان «مَلِكٌ نبىٌّ» أوحى إليه كما أوحى إلى النبيين، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ**﴾ (النساء ١٦٣)؛ وسليمان: اسمٌ عبرى، ومعناه «الذى أسلم أمره لله»، وكان ابناً لداود وخلفه على عرش إسرائيل، وظل يحكم مدة أربعين سنة، قيل هى أطول فترة حُكم لملكٍ من ملوك إسرائيل، وهو ثالث ملك لها، وكان الأول طالوت، ثم داود، ثم سليمان. وأصل سليمان بالعربية من السِلْم، يقال: قوم سِلْم، أى مسالمون، وتسلَّم، وأسْلَم، وتمسْلَم أى صار مسلماً. والسلام من التسليم، كالكلام من التكليم. وفى العربية تُحرّف سليمان إلى سلمان، وكان سلمان الفارسى مثلاً من كبار الصحابة. وكانت أم سليمان تشابع ـ بحسب التوراة (ملوك أول ١١/١)ـ زوجةً لأوريا الحثّى، وشُغف بها داود، فاحتال على زوجها فقُتل، وتزوجها وأنجب منها سليمان، وكانت المفضلة على نسائه، فجعل ابنها خليفته على مُلكه (ملوك أول ١/١١ ـ ٥٣) ومعنى تشابع أنها «المعاهدة»، قيل أنها رفضت الزواج من داود إلا إذا أقسم لها أمام أحبار إسرائيل أن يجعل ابنها منه لو حملت، ملكاً على إسرائيل، وكانت حيثية كزوجها السابق، واسم تشابع هذا جاءها بعد زواجها من داود، وتلعب الأسماء عند اليهود دوراً كبيراً فى رسم حظوظ أصحابها، فمثلاً اسم داود يعنى عندهم «المحبوب»، أو «محبوب الله»، أو «حبيب الله»، فأطلق داود على ابنه سليمان اسم «يديديا»، ويعنى أيضاً «محبوب الله» أو «حبيب الله» (٢ صموئيل ١٢/ ٢٤ ـ ٢٥)، .وكان المربى والمعلّم لسليمان نبياً يدعى ناتان، وبدأ سليمان حكمه بالزواج من ابنة فرعون مصر، (٣ ملوك ٣/ ١)، ولنتنبه إلى أن اسم فرعون فى التوراة لا يعنى ملك مصر، وإنما المقصود به الملك من ملوك إقليم جاسان من أقاليم مصر، وكان كثيرًا ما تُغير عليه القبائل والأمم من الشرق، وأبرز هؤلاء كان الأشوريون والعبرانيون، فكان ملوك جاسان من أرض مصر من الأجانب، فهو ليس مصرياً، وكانوا أشوريين غالباً، واليهود أطلقوا عليهم اسم «الهكسوس»، وسليمان صاهرهم ولم يصاهر المصريين، وكانت زيجات سليمان كثيرة من كل الأجناس، حتى بلغ عددهن سبعمائة زوجة وثلاثمئة سرية (٣ ملوك ١١/ ٣)!! وفى أسفار اليهود أنه كان يؤمن بإله اليهود، ولكنه يقرّ بآلهة الأغيار، فلكل شعب إلهه ولا إكراه فى الدين، وكل زوجة

أجنبية من زوجاته كان لها إلهها، واحتـرام آلهة الأغيار هو احترام لإله اليهود، لأنه دعوة لغيـر اليهود أن يحـذو مع إله اليهود حذو الـيهود، وحذو سليـمان مع آلهتـهم. وصورة سليمان في كتُب اليهود بخلاف صورته في القرآن، فهو من ذرية إبراهيم، ومن المحسنين (الأنعـام ٨٦)، وآتاه الله العلم، وفضّله على كـثير من المؤمنين،كقـوله تعالى: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** (١٦)﴾ (النمل)، قيل: ورث سليمان نبـوة **داود ومُلكه**، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاد داود في المال سواء، ولانقسم المال بعددهم، ولكنها كانت **وراثة نبوة**، فلم تكن فيها أولويات للأكـبـر سناً. والأنبـياء لا يـورثون المال ولكنهم يورثون النبـوّة والحكمـة، وفي الحديث: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث**»، ونحوه: «**العلماء ورثة الأنبياء**». وكان سليمان أعظم مُلكاً من داود، وأقضى منه (**انظر قصة سليمان وداود وغنم الحرث**)، إلا أن داود كان أشد تعبُّداً من سليـمان، ولم يحدث أن سخر الله لملك ما سخّـره لسليمان من الإنس والجن، والطير والوحش، وآتاه ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين. وقام سليمان بعد أبيه بشريعة **موسى** ولم ينسخهـا بالرغم من أنه نبيّ، وكذلك فعل **داود**، إلى أن بُعث المسيح فنسخـها. وكان علم سليمان **بمنطق الطير**، أي بأصواته وما يمكن أن تعنيه، والدراسات في ذلك الآن كثيرة فلا غـرابة في ذلك، قال تـعالى: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** (١٧) ﴾(النمل)، **والحشر هو**: الجمع، وكانوا من كثرتهم **يُوزعون**، أي يُكفُّون ويُرَدّ أولهم إلى آخرهم، **والتوزيع** بمعنى التفريق، **والوازع** هو السلطان، والناس لابد لهم من **وازع يزعهم**، **والوزعة** هي التي يُوزع بها، ومن أقوال **عثمان بن عفان**: «**ما يَزَعُ الإمام أكثر مما يَزَعُ القـرآن**»، يعني حدود القرآن تردع الناس أكثـر مما تردعهم قدرة السلطان. ومن أجمل القصص القرآني **قصة النملة** مع سليمان وجنوده (**انظر قصص القرآن**)، قالت لأخواتها: ﴿**ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (١٨) ﴾(النـمل)، ففهـمها سليمان وتبسّم ضاحكاً لقولها «**وهم لا يشعرون**»، إشارةً إلى الدين والعدل والرأفة. **والنمل** له **منطق**، والدراسات في حركاته وإشارته كثيرة، وهي لغة من لغات الحشرات، وجميعها تتفاوت لغاتها بتفاوت أفهامها، والعلماء على القول بأن أعقل الطير هو **الغـراب**، وأعقل الحشرات **النمل والنحل**، وأعقل الحيوان **الحمار**. ويستوجب هذا العلم الشكر من سليمان، فقال في دعائه: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** (١٩)﴾(الـنمـل). وقصته الأخرى كانت مع **الهـدهد**، فلمّا افتقده جاء إليه يعتذر أنه أحاط بما لم يحط به، وتلك دلالة على أن فـوق

كل ذي علم عليم، وما لم يحط به هو عبادة أهل سبأ وملكتهم للشمس من دون الله، فقال سليمان: ﴿**سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** (٢٧)﴾(النمل)، وذلك دليل على أن الحاكم عليه أن يقبل العذر. وسبأ مدينة باليمن، والهدهد طير معروف، وهدهدته صوته، وتهديد سليمان له تطبيق للقاعدة الشرعية: أن الحدّ على قدر الذنب لا على قدر الجسد. ـ وقوله: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**﴾(النمل ٢٣)، كانت المرأة هى بلقيس، والاسم يونانى، وأطلق المسيح عليها ملكة التيمُّن، وعبادة الشمس كانت هى العبادة السائدة عند الكثير من الشعوب. وأرسل إليها سليمان كتاباً يدعوها وقومها إلى الله الواحد، ولأول مرة يأتى ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» يُبدأ بها كتاب، فتكون من بعد هذه السورة فاتحة كل شيء، ومن حكمة بلقيس لجوؤها إلى المشورة، وقولها المأثور: ﴿ **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً** ﴾ (النمل٣٤)، واستعان سليمان عليها بالجن، والعفريت هو الرئيس من الجن،والجن يعنى الشاطر الأريب، ولذلك أخذوا منها فى اللغات الأوروبية اسم genius، يعنى العبقرى، يعنى من آل عَبْقر وهم قومٌ من الجن، وكانت الجن أو الجنّى genie، تعمل لسليمان ما شاء من محاريب وتماثيل وجفان وقدور، ومما اشتهر فى ذلك خاتم سليمان، ذكرته قصص ألف ليلة وليلة،وكان إذا دعك عليه صاحبه يأتيه عفريت من الجن يلبى له ما يشاء، قيل اسمه آصف، ولمّا توفى سليمان وُجدت فرقة من اليهود تعلّم السحر بعده، بدعوى أن السحر كان علم سليمان ولا شيء سواه: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾(البقرة ١٠٢)، فالشياطين للطافة جوهرهم،ودقة أفهامهم، استخرجوا علماً يغيّرون به الأشياء بسرعة أكبر من سرعة البشر، وبدقة أكثر، فذلك ما علّموه لهاروت وماروت، فكانوا يعلّمان الناس بدورهم أحاجى يفرّقون بها بين المرء وزوجه، فهل كانت أحاجيهم تفعل فعلها وتؤتى ثمارها؟ يقول القرآن: ﴿ **وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ (البقرة ١٠٢)، أى بإرادته وقضائه لا بأمرهم. وإذن فلم يكن سليمان يستعمل السحر،ولا كان يتعلمه، ولا كان يعلّمه وكما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** ﴾ (البقرة ١٠٢)، لأنهم بعده صاروا يعلمون السحر ولا يزعهم أحد. وأما سليمان فكان التّقىّ، وقال تعالى فيه: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** (٣٠)﴾ (ص) وأوّاب يعنى مطيع، والسبب فى وصفه بهذه الصفة فى قوله تعالى: ﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ** (٣١) **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** (٣٢) **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** (٣٣)﴾(ص)، والصافنات الجياد هى الخيل، جمع جواد،

يسمى به الفرس إذا كان شديد العدو، والعرب يعاقبون الراء واللام، فيقولون الخيل، ويقولون الخير، والمعنى أنه أحبّ الخيل حباً ألهاه عن ذكر ربّه حتى توارت الشمس وجاء المغرب، ففاتته صلاة العصر، وكان من قبل يستعرض الخيل ويتلهّى بها، فلما أدرك فوات وقت العصر أمر فردوها عليه ـ أي الخيل، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها حتى لا تشغله بعد ذلك عن الصلاة، فذلك قوله تعالى: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** (٣٠)﴾(ص). وقيل إنه لما نسي الصلاة سلبه الله مُلكه أياماً بعدد الخيل التي قتلها، وعاقبه فقال: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** (٣٤) **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** (٣٥)﴾(ص)، والفتنة هي الابتلاء والعقاب، قيل جرّده من خاتم مُلكه، فحكّم فيه «آصف» العفريت الذى كان يأتمر به، حتى أنه صار جسداً بلا روح، ومرض مرضاً شديداً، فدعا ربّه أن يغفر له ويعوّضه خيراً، وطلب الدنيا وكان أحق به أن يزهد فيها، وقيل إنه سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله، فكانا محمودين مجابين. وطلبه للدنيا إنما ليؤدى فيها حق الله، ويقيم سياسة مُلكه على تقواه، ويحافظ على رسومه، ويعظّم شعائره، ولما قال: ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾ (ص ٣٥) قال له ربّه: ﴿ **هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٣٩) **وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** (٤٠)﴾(ص)، يعنى قد أعطاه سؤله، فليعط هو أيضاً من يشاء وليمنع من يشاء، ولا حساب عليه فى ذلك، وليعتق من يحب، وليُخلى من يريد من الشياطين، وليمسك من يرى إمساكه، فهذه نعمَ الله عليه فى الدنيا، وله فى الآخرة القُربة وحُسن المرجع، قال: ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** (١٤)﴾(سبأ)، و«**دابة الأرض**» هى الأَرَضَة، و«**المنسأة**» هى العصا، وكان هؤلاء الجن أو العمال المهرة يعملون فى مشروعاته الكثيرة بينما يراقبهم، فمات فى مكانه مستنداً إلى عصاه وظل كذلك إلى أن أكلت الأرضة العصا فمالت ومال جسمه ووقع على الأرض جثة هامدة. فلما خرّ تبينوا موته، ولو كانوا يعلمون الغيب لعرفوا بموته من قبل ولما ظلوا فى السُّخرة والبنيان يعملون. ودفن سليمان بمدينة داود، ومن مآثره «**سفر الأمثال**» وهو مجموعة من الحكم الدنيوية والدينية، و«سفر الجامعة»، والجامعة اسم قلمى تكنّى به سليمان، وكله أمثال، و«سفر نشيد الأناشيد»، وقيل إن الأسفار الثلاثة بعض ما كتب، وأن الذى ضاع كثير. (انظر أيضاً ضمن قصص القرآن قصة المرأتين المتنازعتين على الطفل، وقصة غنم القوم والحرث، وقصة هاروت وماروت، وقصة داود وما جرى منه مع امرأة يوريا أو أوريا الحثّى).

●●●

٨٧٩. «قصة ملكة سبأ وسليمان»

سبأ: مدينة تعرف بمأرب باليمن، بينها وبين صنعاء دقائق من الزمان، وملكتُها التى وردت قصتها مع سليمان فى القرآن هى بلقيس، ولا يذكر القرآن اسم بلقيس، وكذلك لم تذكره القصة فى الفصل العاشر من سفر الملوك الثالث من أسفار اليهود، وقيل إن الاسم «بلقيس» إغريقى وليس عربياً ولا عبرياً، وقيل هو اسمٌ من لغة حِمْيَر. وقصة التوراة لا شيء فيها بالمرة، فلا تبشير بدعوة، ولا جهاد فى سبيل الله، وشخصية سليمان فيها، وكذلك بلقيس، مسطحة للغاية، وقصتهما قصة اثنين من الأغنياء، فالملكة حضرت إلى أورشليم فى موكب، وجاءت لتختبر سليمان، ومعها جِمال تحمل أطياباً وذهباً وحجارة كريمة. وسألت سليمان عن أشياء فسّرها لها ـ ما هى؟ لا نعلم. وأطلعها الملك على غناه الفاحش، وثرائه العريض، والرفاهية والعز اللذين ينعم بهما، وكل ما قالته فى سليمان هو الثناء عليه، وأن الله لّما أحب إسرائيل جعله عليها ملكاً، وأن سليمان أجرى الحكم بالعدل، وتبادل المَلِك معها الهدايا وانصرفت إلى بلادها. فماذا أفدنا من القصة؟ لا شيء، سوى أن بلقيس جاءت إليه مثل غيرها من الملوك، لتسمع حكمته التى أودعها الله فى قلبه.

وأما قصة القرآن فتأتى فى سورة النمل، وكلها مواعظ وحكم، وتبدأ بتفقُّد سليمان للطير، واكتشافه غياب الهدهد، ثم يجيء الهدهد فيقف غير بعيد، ويقول للملك إنه قد جاءه بما لم يُحط به علماً، وأن ما جاءه به هو النبأ اليقين عن مملكة يقال لها سبأ، فقد رأى الهدهد لدهشته وتعجُّبه أن الملكة وشعبها يسجدون للشمس، ويجحدون الله الذى له ملكوت السماوات والأرض، ويعلم غَيبهما وشاهدهما، وما يخفى الناس وما يعلنون، وهو الله الذى لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم. وعبادة الشمس كانت عند الكثير من الشعوب القديمة، ومنها قدماء المصريين، وأهل اليمن، وفى أوروبا كانت الشمس لها عبادة، وتسمية يوم الأحد بيوم الشمس Sunday، لأنه يوم عبادة إله الشمس، وكذلك عبد الإسرائيليون الشمس، وفى التوراة أن الملك مَنَسّى أدخل عبادتها فى يهوذا على نسق ما كانت عليه عبادتها فى أشور، وكانت أشور وبابل تعبدان الشمس باسم «شَمَش» (٢ ملوك ٢١/ ٣ ـ ٥). ومَنَسّى هو الذى أحرق للشمس البخور (٢ ملوك ٢٣/ ٥ ـ ١١)، وجعل باسمها خيلاً وعجلات. وأما سليمان فكانت له من الزوجات سبعمائة، ومن السرارى ثلاثمئة (١ملوك ١١/ ١ ـ ٨)، فأملن قلبه عن الدين القديم، فبنى المعابد للآلهة التى كان نساؤه يتعبّدن لها، ومن ذلك عبادة الشمس. وهذه الصور التى ترسمها كُتُب اليهود

لسليمان، تختلف عما فى القرآن تماماً، وصورته فى القرآن تنزّهه عن هذا الخلط، وترفعه مكاناً علياً، وتجعله إماماً فى التوحيد، وتقدّم قصته مع ملكة سبأ كنوع من الجهاد وكداعية إلى الله. والهدهد فى القصة، بمثابة جهاز الاستخبارات للملك، ويُقدّم صورة دقيقة لأحوال مملكة سبأ التى تحكمها هذه الملكة، وكان من غير المألوف أن يكون الحكام من النساء، وما كان سليمان يعرف مكانها ولا حقيقة أمرها، وعرفها الهدهد، فالحال فى المعرفة للمطّلع وليس للأعلى مكانة، والله يأمر بالسير فى الأرض لنعرف، والهدهد ترك فلسطين إلى اليمن وهو من الطيور المهاجرة، ومن أجل ذلك عرف، وأحاط بما لم يحط به سليمان، وهذا دليل على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب، والهدهد وَصَف ما جاء به من معلومات بأنها نبأ يقين ، لأنه عن معاينة ورآه رأى العين. وربما يتمشّى قوله: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ** ﴾ (النمل ٢٣)، ومع تأكيد التوراة أن سليمان كان به ميلٌ للنساء، وحول علاقته ببلقيس نُسجت أساطير وحكايات تزوّجه منها، أو من آخرين، وقيل عاشت معه فى الشام، أو أنه ردّها إلى اليمن، وهذه الصورة الشعبية لها تتنافى مع كل الحكمة التى صورها بها القرآن، ونسب المبتدعة إلى الرسول ﷺ أنه قال: «**لن يفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة**»، وعلى عكس هذا الحديث كان فَلاح قوم بلقيس بولايتها لهم، ثم إن المرأة فى الإسلام اشتغلت بالقضاء، وكانت لعائشة مدرسة فى الفقه تخرّج عليها ما يزيد على الثلاثمئة من المحدّثين والرواة والدعاة، وشاركت النساء فى المجهود الحربى،ومارسن الطب، فلماذا لا تشتغل المرأة بالحُكم؟ والدليل أن المرأة يجوز أن تحكم، أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضى لها، وسماع البيّنة عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك ممكن للمرأة كإمكانه للرجل. ودليلنا نجاح بلقيس كملكة، حتى قال الهدهد فيها مبالغًا: ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)**﴾ (النمل)، أى وأوتيت كل شىء مما تحتاجه كملكة، وكان عرشها، أى مُلكها، عظيماً. فإذا كان الهدهد قد وصف عرشها بالعظمة كوْصف عرش الله بالعظمة، فإن عظمة عرشها كان بالمقارنة بعظمة مثيله من عروش الملوك، وأما عرش الله فإنه عظيم بالنسبة لما خلق من السموات والأرض، وكلٌّ له عظمته فى مجاله. والشيطان قد زيّن لهم أعمالهم، وأن يسجدوا للشمس، وكان الأوْلى بهم أن يسجدوا لله ولكنهم لم يهتدوا إليه، وإنها لسخرية أية سخرية أن يعلم الهدهد عن الله ويوّحده ولا يعلم عنه هؤلاء، وربما كان عِلم الهدهد به تعالى بفضل سليمان، فقد كان سليمان نبياً ورسولاً إلى جماعات الطير والجن والإنس فى زمنه. ولم نعرف لغة كتاب سليمان إلى بلقيس، وفهمته رغم إيجازه وقدّرت ما فيه، وكانت عند مستوى المسئولية،

وناشدت قومها الفتوى، وأكدت أنها لا تقطع بأمر دون مشورتهم، وأفتوها بأنهم أولو قوة وبأس، وأن الأمر إليها فلتنظر ما ترى، فذكرت عبارتها المشهورة: **﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾**(النمل ٣٤)، وأمّن على ذلك قومها وقالوا: **﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** (النمل ٣٤)، أو أن هذا كلام الله تصديقاً لما قالت، وكأنها كانت تنطق عن وحى. ورأت أن تحتال للأمر وتسبر أغوار سليمان، بأن ترسل له هدية، ولابد أن الهدية مما يناسب المُهدِى والمُهدَى إليه، وأنها كانت شيئاً عظيماً جداً، فإن قَبِل الهدية فهو مجرد ملك عادى به الضعف الإنسانى أن يرشوه الناس، وإن لم يقبلها وردّها فهو نبىّ حقيقة، وفى الحالتين بوسع الملكة أن تحدّد كيف تتعامل معه. وما كان يمكن أن يقبل سليمان هديتها وهى تتوخى بها الظهور عليه، وإلا فالنبىّ ﷺ كان يقبل الهدية ولكنه يثيب عليها، أى يُهدى مثلها، وفى الحديث الموضوع قيل على لسانه ﷺ: «**نُهيتُ عن زَبْد المشركين**»، ويناقضه قبوله ﷺ هدية **مقوقس مصر**، ولولا أن سليمان رأى فى الهدية صرفاً عن الموضوع الأصلى وهو كُفر بلقيس وقومها، لقَبِلها، **والهدية مندوب إليها**، وتورث المودة، وتُذهب العداوة، وفى الحديث الصحيح: «**وتهادوا تحابوا**»، وروى أيضاً: «**تهادوا فإنه يضعّف الود ويُذهب بغواتل الصدر**»، وفى رواية أخرى: «**تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخيمة**»، **والسخيمة هى الغل**. وكان رفض سليمان للهدية باتاً، واستغنى عنها بما وهبه الله وفضّله، وأنذر بلقيس، واستعدى الجن أن يأتوه بعرشها هذا العظيم نكايةً فيها، وقبل أن تأتيه وقومها مسلمين، لأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها. ولم يَتقيَّض له أن يأتى به إلا إنسان ليس من الجن كان عنده علمٌ بالكتاب، أى كان صدّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى. وقوله: **﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾** (النمل ٤٠) صار مثلاً يقال لتحقيق المعجزات. وتحقيق الأمنية لسليمان استوجب منه الشكر لله، واعتبره ابتلاء منه تعالى، لينظر أيشكره سليمان أم يكفر ويبطر ويتكبّر ويستعلى، وزاد سليمان فقال هذه الحكمة: **﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾**(النمل). وسأل الجن أن يغيّروا لها العرش، فلما جاءت اشتبه عليها، وعرفت أن ما قيل فى سليمان أن الجن مسخّر له صحيح، فقالت: **﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾** (النمل٤٢) يعنى كانت تعلم صحة نبوته قبل هذه الآية فى العرش، فجاءت راضخة. وما كان يصدّها عن عبادة الله إلا عبادتها للشمس من قبل، فلمّا دخلت القصر المُمرّد ـ أى المرتفع كالمارد، المبنى من القوارير، أى الآنية، وظنت أرضيته المصنوعة من الزجاج ماءً، رفعت ثوبها، فانكشف ساقاها، وفى ذلك كلام كثير من الأدب الشعبى، وبهرها ما رأت فزاد إيمانها بسليمان، وبربّ سليمان الذى أمكنه من كل ذلك، وتحسّرت

على نفسها أنها ظلت تعبد الشمس وتظلم نفسها، وأعلنت عن إسلامها جهرةً؛ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (النمل)، وهكذا تنتهي **قصة بلقيس مع سليمان**، وكانت قصةً لنبيّ في موقف من مواقف الحياة، يحب الناس أن يطّلع فيها عما يكون من تصرّف الأنبياء مع نساء من أمثال بلقيس، وإذا كانت بلقيس قد أسلمت، فقد أفلح سليمان ونجح في الامتحان، وسلّمه الله من تجربة لم يتهمه فيها أحد رغم كل ما قيل فيه في التوراة عن حبّه للنساء من كافة الأجناس من غير الإسرائيليات، ومن كان يتعلق بهن حبّاً لهن، حتى أنه ضرب رقمًا قياسيًا في عدد من تزوجهن واشتراهن إماء، ولم يحدث أن كان لرجل مثل هذا العدد من النساء، لا في الماضي ولا في الحاضر! (الملوك الثالث ١١/١-٢)، فشتّان إذن بين صورة القرآن عن سليمان وبين صورته في التوراة!. والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٨٨٠. ﴿قصة الغنم والحرث وأن قضاء سليمان أفضل من قضاء داود﴾

يقول تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبياء)، أي واذكرهما إذ يحكمان كلٌّ على انفراد، وكانت القضية حول زرع، قيل كان كرماً نبتت عناقيده، وفلسطين مشهورة بالكرم، فَرَعَت فيه ليلاً غنم قوم، والنَّفش هو الرعي بالليل، يقال: **نفشتْ بالليل، وهَمَلت بالنهار**، إذا رعت بلا راع. وقال لحكمهم ولم يقل لحكمهما مع أنهما **اثنان: داود وسليمان**، إلا أنه كان معهما الطرفان الآخران: **المتهم والمدّعي. ففهّمها سليمان - أي القضية**، وفضل حكم سليمان حكم أبيه، وذلك أن داود رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، وأن يدفع الحرث إلى صاحب الغنم وينتهي الإشكال. وخرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب، ولم يعجبه حُكم أبيه، فأتاه وقال: يا نبيّ الله! إنك حكمت بكذا وكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: ما هو؟ قال: أن يُدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وصوفها وسمونها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم، ليقوم على الحرث حتى السنة المقبلة، عندما يعود الزرع إلى حاله كما كان قبل أن تتلفه الغنم، فحينئذ يُردّ إلى كل واحد منهما ماله. فأعجب الحُكم داود، وقال: وفّقت يابني، لا يقطع الله فهمك! وقضى بما قضى به سليمان، لأن قيمة ما نال صاحب الحرث من الغنم مساوية لقيمة ما نال صاحب الغنم من الحرث. وهكذا **أصاب سليمان وأخطأ داود،وثبت أن حُكم سليمان أفضل من حُكم داود، لأن علم سليمان أكبر من علم داود**، وحكم سليمان بوحي من الله نسخ حكم داود.

•••

٨٨١. ﴿قصة البغيتين والطفل وأن قضاء سليمان أفضل﴾

يقول تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبياء ٧٩)، يعنى أن حكم سليمان كان يفضل حكم أبيه داود، ومن ذلك حُكمه في البغيتين وتنازعهما على الطفل، فقد جاءتا سليمان، ووقفتا بين يديه، وقالت إحداهما: إلىّ ياسيدى، إنى وهذه المرأة مقيمتان فى بيت واحد، فولدتُ أنا في البيت ، وفى ثالث يوم من ولادتى ولدت هذه المرأة، وكنا معاً وليس معنا فى البيت غيرنا، فمات ابن هذه المرأة فى الليل لأنها اضطجعت عليه، فقامت عند منتصف الليل فأخذت ابنى من جانبى، وكنتُ نائمة، وجعلت ابنى فى حضنها وابنها الميت جعلته فى حضنى، فلما قمت بالغداة لأرضع ابنى إذا هو ميت، فتفرّستُ فيه فى الصباح فإذا هو ليس ابنى الذى ولدته، فقالت المرأة الأخرى: كلا بل الحىّ هو ابنى، والميت ابنك! فقالت تلك: لا، بل ابنك الميت وابنى الحىّ. وكانتا تتكلمان بين يدىّ الملك، فقال: هذه تقول ابنى الحىّ، وابنك الميت، وتلك تقول: لا، بل ابنك الميت، وابنى الحىّ. فقال الملك: علىّ بسيف. فأتوا بسيف إلى أمام الملك. فقال الملك: اشطروا الصبى الحىّ شطرين، وادفعوا شطراً إلى الواحدة، وشطراً إلى الأخرى. فكلمت الملكَ المرأةُ التى ابنها الحىّ، لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها، وقالت: إلىّ يا سيدى! أعطوها الصبى حياً ولا تقتلوه. فقالت الأخرى: بل لا يكون لى ولا لك! أشطروه! فأجاب الملك وقال: ادفعوا الصبى الحىّ إلى هذه ولا تقتلوه لأنها أمه. فسمع جميع إسرائيل بالقضاء الذى قضاه الملك، فهابوا وجه الملك، لأنهم رأوا حكمة الله فيه فى إجراء الحكم (ملوك أول ٣/١٦-٢٨)، فهل كان بوسع داود أن يقضى بمثل هذا القضاء؟ فما كان لداود مثل هذا العلم، وهذه الحكمة، وصدق الله العظيم أنه تعالى قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء٧٩) فكان الفهم والعلم والحكمة لسليمان، بينما كان العلم والحكمة فقط هما نصيب داود، فذلك فضل سليمان على داود.

•••

٨٨٢. ﴿أمثلة من علم سليمان من أسفاره﴾

يقول تعالى فى داود وسليمان: ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبياء ٧٩)، فكيف كان علم سليمان وحكمته مما جاء فى أسفاره من أقوال؟ وله ثلاثة أسفار: سفر الأمثال، وسفر الجامعة، وسفر نشيد الأناشيد، فمن أقواله فيها من سفر الأمثال: مخافة الربّ رأس العلم والحكمة والتأديب. الربّ يؤتى الحكمة فتوكّل على الربّ بكل قلبك، ولا تعتمد على فطنتك. وفى كل طرقك اعرفه فهو يقوّم سُبُلَك، ولا تكن حكيماً فى عينىّ نفسك، واتقّ الربّ، وجانِب الشرّ. لعنة الربّ فى بيت المنافق، أما منزل الصدّيقين فهو يباركه. لا

تلتفت إلى إغواء المرأة. إذهب إلى النملة أيها الكسلان وانظر طرقها وكن حكيماً. أول الحكمة مخافة الربّ. المرأة الحكيمة تبنى بيتها، والسفيهة تهدمه بيديها.

ومن سفر الجامعة: باطل الأباطيل كل شيء باطل. أيّ فائدة للبشر من جميع تعبهم الذى يعانونه تحت الشمس؟! جيلٌ يمضى وجيلٌ يأتى والأرض قائمة مدى الدهر! ولكل أمر أوان، ولكل غرض تحت السماء وقت. فللولادة وقت، وللموت وقت، وللغرس وقت، ولقلع المغروس وقت، وللبكاء وقت، وللضحك وقت، وللصمت وقت، وللنطق وقت، وللحب وقت وللبُغض وقت، وللحرب وقت، وللصلح وقت.

ومن سفر نشيد الأناشيد: في الليالى على مضجعى التمستُ مَن تحبّه نفسى، التمسته فما وجدتُه. أنهض فأطوف في المدينة، في الشوارع، وفي الساحات، التمس مَن تحبُّه نفسى. أنّى التمستُه فما وجدته. صادفنى الحرّاس الطائفون فى المدينة. أرأيتم مَن تحبه نفسي؟ فلما تجاوزتهم قليلاً وجدت مَن تحبه نفسى، فأمسكته ولست أطلقه حتى أدخله بيت أمى وخِدْر مَن حَبلتْ بى. استحلفكن يا بنات أورشليم، بظباء وأيائل الصحراء، أن لا تُنهضن ولا تنبهن الحبيبة حتى تشاء.



٨٨٣. ﴿هيكل سليمان والمسجد الأقصى﴾

يأتى اسم المسجد الأقصى في القرآن مرة واحدة فى الآية: **﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾**(الإسراء١)، ويقابله المسجد الحرام، وهو الكعبة فى مكة. والمسجد الأقصى هو هيكل سليمان فى بيت المقدس التى هي أورشليم القدس، وسُمّى الأقصى لبُعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة يعظّم بالزيارة، وبالطبع لم يكن اسمه مسجداً وإنما هو معبد أو هيكل. وأسماء أورشليم الأخرى: يبوس، وأريئيل، ومدينة العدل، والمدينة، ومدينة القدس. ومعنى «أورشليم»: بيت المقدس، أو مدينة الإله شاليم أو ساليم. فلماذا إذن كان الإسراء من المسجد الحرام إلى هيكل سليمان فى أورشليم؟ وهل لهذا الهيكل خصوصية تبرّر أن يكون الإسراء إليه، والمعراج منه؟ والمعروف أن الإسلام يحيى ملّة الآباء: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى؛ والإسلام أساسه حنيفية إبراهيم، ومن آمن به كان يسمى مسلماً: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾**(الحج٧٨)، وفى ذلك يقول تعالى لأتباع النبيّ ﷺ: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾**(البقرة)، فالإسلام يربط بين كل هذه الديانات

أو الملل برباط متين، وزيارة بيت المقدس والصلاة فيه، مثله مثل رمى الجمرات، فهو إحياء لسُنّة إبراهيم والآباء، ومثل السعى بين الصفا والمروة، والفداء بالكبش السمين، وما نزال نزجي السلام إلى إبراهيم وآله فى التحيات فى كل صلاة. ثم إن الهيكل أو المسجد كما يجيء فى الآية مباركٌ حوله، والبركة هنا رمزية، وأورشليم أو القدس المعبّر عنها بـ «**حوله**» ترمز إلى ملكوت الله، ولذلك كانت رحلة المعراج لابد فيها أولاً من العودة إلى الأصول، ثم منها تبدأ الرحلة. وفى قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾ جعل المسجد الأقصى غاية الإسراء. وكانت بداية المعراج من قبّة الصخرة، وتسمى لذلك **قبّة المعراج**. ولمّا وصل النبىّ ﷺ إلى الهيكل أوقف دابته المسماة البُراق، لأنها قطعت الرحلة كالبَّرق الخاطف، وربطها فى حلقة فى حائط هو الذى يسمونه **حائط البراق**، واليهود يسمونه **حائط المبكى**، وهم على القول أن الحرم الشريف يقوم فى مكان ساحة هيكل سليمان، وأن قبة الصخرة هى موضع **مذبحة المحرقة**. وأنه فى هذه البقعة أيضاً والتى تسمى **بجبل المريا** شرع إبراهيم فى ذبح ابنه المختلف بشأنه بين اليهود والمسلمين، فاليهود يقولون هو **إسحق**، والمسلمون يقولون إنه **إسماعيل**. وكما ترى فإن الخلاف لا يستحق، ومن الممكن أن يعود الهيكل كما كان ويُصلّى المسلمون فيه كما صلى النبىّ ﷺ فيه من قبل، وهذا رأى المسلمين جميعاً، إلا أن اليهود يصرون أن لا تكون للمسلمين صلاة فيه، وأن يمتنعوا عن دخوله بالمرة، ويعتبرونهم نجس، وهذا هو الافتئات والعسف والجور بعينه!

●●●

٨٨٤ ﴿قصة نملة سليمان﴾

نملة سليمان فى الآيتين: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)**﴾ (النمل)، نملة حقيقية، والقصة ربما من أدب الخيال العلمي كمثال تعليمى، وربما هى من الواقع وليس فيها شيء من الخرافة، ولا يعارضها العلم، وينفرد بها القرآن وتعدّ من معجزاته العلمية، ولا يوجد لها مثيل فى الأدب الدينى اليهودى. و**نملة سليمان** كان لها جناحان تطير بهما، ككثير من أنواع النمل، فلذلك علم سليمان منطقها من طريقة طيرانها، ومن رسالاتها بأجنحتها، ولولا ذلك لما علم ما قالت. **والنمل الطيّار**: نوع من النمل يوجد بأرض الشام ومنها فلسطين، وهو من **جنود النمل**، وعمله **الحراسة والقتال**، وحجمه أكبر من الشغالة والذكور. وذكور النمل لها أجنحة، وكذلك

الملكة، والملكة والذكور يطيرون فى موسم التزاوج ليكون أصلح الذكور هو الزوج الذى من نسله تخرج الأجيال. والنملة فى القصة من نوع النمل المقاتل المسمى **Eciton**، ويتواجد فى الصحراء بخاصة، وسليمان كان كثيراً ما يعبر الصحارى فى رحلاته، وتكثر بها وديان النمل. ونملة سليمان كانت وقت مرورة فى دورة حراسة، ومهمتها المراقبة والتحذير، ومكانها يكون على أبراج من الطين يبنيها النمل وترتفع عن الأرض، ربما لخمسة أمتار، ليتسع مدى رؤيتها. «ومنطق النمل»: ليس لغةً يلغو بها النمل، ولكنه حركاته والمواد التى يفرزها ويعى النمل معناها. وللنمل حياة اجتماعية معقدة، وله دراية شديدة بفصول ومواعيد الأمطار، واختلاف الحرارة والضغوط الجوية، والرياح وكيف يتّقيها ومداها وقوتها، وكيف يُحْذَر أعداءه، وطريقة شن الحروب، وكسْبها، وأسْر القوات، واستغلال الأسرى، ومن أكثر أنواع النمل دربةً وحنكةً ودرايةً النوع المشهور باسم **Tapinoma**، وهو يستطيع أن يخطط للمعارك، ويقدّر حجم الأعداء، ويرسم بسرعة لشغالة النمل كيفية الابتعاد عن مكامن الخطر، وأن يحافظ على نفسه وعلى أعشاشه، ويوجد فى الصحراء العربية. ولا نستبعد أن يعرف سليمان عن ذلك طالما يتقن المراقبة ويحذق الملاحظة، وهما أساس كل دراية وعلم. وسليمان بوسعه أن يستنبط ما قالته النملة مما يجرى من حركاتها حول الأعشاش، وحَذَرُ النمل جعله يبتسم، وحُنكة هذه النملة أضحكته، ولكنه لا ينسى أن يشكر الله على ما حباه من أدوات المعرفة، ومن الذكاء، وما متّعه من عقلية علمية تحليلية استنباطية. والعلم لا يُنجّى صاحبه، ولا يرفعه، إلا إذا استخدمه فى الخير، وهذا ما دعا به سليمان ربّه: أن يعمل صالحاً يرضاه، ومن ثم يدخله ضمن عباده الصالحين، قال: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴿١٩﴾ ﴾ (النمل). ويذهب بعض الدارسين إلى أن للنمل صوتاً ككل الكائنات، وإنما يتدنّى صوت كل مخلوق سواء فى البهائم أو الطيور أو الحشرات بتدنّى هيئته، وفى الإنسان يقاس الصوت بقيمة عُشر البل، وفى النمل بقيمة متدنية للغاية مناسبة له، وفى ذلك معنى التسبيح فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾(الإسراء٤٤)، قيل لا تسمعون تسبيحهم، وسليمان فى القصة يتمتع بقوة سمع خارقة، كقوة البصر الخارقة عند زرقاء اليمامة، وقوة العقل الخارقة عند من يطلقون عليهم فى الطب النفسى اسم العلماء الحمقى **idiot-savants**، وهؤلاء لديهم القدرة على أداء العمليات الحسابية والرياضية بسرعة تفوق سرعة الكمبيوتر، ومن ثم فحالة سليمان ليست بمستبعدة علميًا.

●●●

٨٨٥. «قصة الهدهد وسليمان»

المَلك النبيّ سليمان آتاه الله من فضله، فقال لبنى إسرائيل على جهة الشكر لنِعَم الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾(النمل ١٦)، ولم يقل «**لغة الطير**»، لأن الطير لا لغة له، وإنما له حركات وسكنات، وأصوات وأوضاع، تُأوَّل معانٍ بحسب منطق كل طائر. **والمنطق** هو ما ينطق عن حاله، وفى قصة سليمان مع **الهدهد** - وهو طير معروف، فإن **هدهدته** هى صوته، وحركاته برقبته وجناحيه، هى منطقه الخاص به، واصطلح أهل العلم على أن دراسة هذه الأصوات والحركات من **علوم الطيور** ويسمون علمها «**علم منطق الطيور**»، ورئيس هذه الدراسات هو النبىّ سليمان. وقصة هدهد سليمان كما يطرحها القرآن من أجمل **قصص** الحيوان والطير. وكان العرب يعرفون التطيُّر، ومن **ذلك** أن العرب كانوا يتطيّرون، وتطيّر فرعون وقومه من موسى فقيل عنهم: ﴿ **أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ** ﴾(الأعراف ١٣١)، **والطِّيرة وزَجْر الطير** نوعٌ من قراءة **منطق الطير**، فكان **المتطيّرون** يفزّعون الطير من وكناتها حتى تطير إما يمنة أو يسرة، فإن طارت **يمنة** استبشروا، وسمّوها لذلك **السانح**، يعنى أنها تطير إلى **اليمين** أو تأتى منه، ونقيضه **البارح** وهو أن يفزع إلى **اليسار** أو يأتى من ناحية الشمال. ومن الطيرة التطيُّر بصوت الغراب؛ والأصوات من نوع صوت **الغراب**، أو **هديل الحمام**، أو **زقزقة العصافير**، من **منطق الطير**، واختُص به سليمان أولاً. وقصة الهدهد مع سليمان تأتى فى **سورة النمل**، وتستغرق **تسع آيات**، وهى من **الأدب الرمزي**، وقد يكون الله تعالى قد ضربها **مثلاً**، وقد تكون **قصة حقيقية**، والصحيح أنها حقيقية، لأن سليمان كانت له الشخصية التى تمتاز **بالحدس القوى**، **والملاحظة الشديدة، والفهم الدقيق الواعى**، ومن ثم كان اهتمامه بدراسة هذا الباب من «**علم الطيور Ornithology**». وتبدأ القصة لمّا تفقّد سليمان الطير، يطلب ما غاب عنه منه. والطير اسم جامع، والواحد **طائر**، والمراد به **جنس الطير** وجماعته. **ولكن لماذا يتفقد الهدهد بالذات؟** قيل إنه طائر يعتمد على **منقاره الطويل**، ينقر به الأرض، وسليمان فى رحلاته، قد تنقطع به السبل فيستعين بالطير أو الجن، والهدهد كان دأبه أن يرشد إلى **مكان الماء فى باطن الأرض**. ولتفقُّد سليمان للطير **فقهٌ** من باب **واجبات الحاكم** أن عليه أن يتعرّف أحوال رعيته، ومثّل المسلمون الحاكم العادل **بعمر بن الخطاب**، فلو أن سَخْلة ـ يعنى عنزة صغيرة ـ على ساحل الفرات، أخذها الذئب، لسُئل عنها عمر! والهدهد مع صغر حجمه لم يخف حاله على سليمان، ولمّا تفقده ولم يجده، هدد بأن يعذّبه عذاباً شديداً، أو ليذبحنه، أو ليأتينه بسلطان مبين يعنى سبباً مقنعاً لغيابه. وأى عذّاب يمكن أن يعذّبه ملك نبيٌّ لطائر مسكين كالهدهد، وإنما هو العدل، **وهو أساس المُلك**، والحدّ **على قدر الذنب لا**

على قدر الجسد. وجاء الهدهد بالعذر ولكنه مع ذلك مكث غير بعيد عن سليمان، وقال له: ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** (٢٢) ﴾(النمل)، وقوله ردٌّ على من يقول إن **الأنبياء يعلمون الغيب**، ولا يعتدّ بأنه مقالة طير، فمنطق الهدهد كان **منطق الحال**. ثم أفضى لسليمان بما أحاط به من أمر المرأة التى تملك شعبها، وقد أُوتيت من كل شىء، ولها عرش عظيم، وأنها وشعبها يسجدون للشمس. **والقصة رمزية**، لأن الهدهد تعجّب من تعبّدهم لغير الله، واستعظم أن يسجدوا لغيره، وهو الذى يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما يعلنون وما يخفون. ولم يسارع سليمان بتصديقه ولا تكذيبه وإنما قال: ﴿ **سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** (٢٧) ﴾ (النمل)، وهو دليل على أن الحاكم والقاضى لا يجب عليهما أن يقبلا عذر الناس ويدرآ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم. وكتب سليمان كتاباً، وأمره أن يحمله الهدهد إلى قوم هذه المرأة، فيلقيه إليهم - وهم أهل هذا الدين الآبق الذين يعبدون الشمس، وأبدى الغيرة على دينه، وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع، وهكذا حمل الهدهد الكتاب إلى أن ألقاه على الملكة، وتناولته فراعها، ونظرت من أحضره فرأت الهدهد، فتولى عنها حين أبصرته كما أمره سليمان، وظل مع ذلك قريباً ليرى مراجعتهم للكتاب. ونفهم أن **الداعية إلى الله له أن يستخدم كل الطرق لإبلاغ الدعوة، وأن له أن يرسل الكتبُ إلى الأعداء، كما أرسل النبىّ** ﷺ **إلى كسرى وقيصر**. وقول الهدهد: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** (٢٣) ﴾ (النمل) عبارة موجزة جمعت كل أخبار يمكن أن يجمعها جاسوس عن بلد عدوه: أحواله فى السياسة والحُكم، وفى المال والاقتصاد، وفى الفنون والعلوم، والآية تنبئ أن هذه المملكة راسخة المُلك، عظيمة الشأن، وطيدة الأركان. وهنا ينتهى دور الهدهد، ولا ينتهى دور المواعظ فى هذه القصة الرائعة: قصة الهدهد وسليمان. **(انظر أيضاً قصة ملكة سبأ مع سليمان، وقصة النملة مع سليمان)**

●●●

٨٨٦. ﴿قصة هارون وماروت﴾

كلام المستشرقين فى هذه القصة كثير، ويفترضون أن محمداً ﷺ قد اقتبسها من **المدراش اليهودى**، وأنه كان **يقرأ العبرية والسريانية**، وأنه فى كتابىّ **إينوخ وباروخ** شىء من تلك القصة فى سقوط الملائكة، ولم أجد فى أى من هذه الكتب شيئاً من هذا الذى ادّعاه **فينسنك**. واسم هاروت: قيل من هَرَتَ، أى تكلم بالقبيح ولم يحفظ سراً وأكثر من الكلام؛ وماروت: منْ مَرَت، فهو المضطرب الأحوال، المشتّت الذهن، الممزّق النفس. وأن يأتى الاسمان على نسق واحد، منه فى القرآن: **طالوت وجالوت، ويأجوج ومأجوج**.

وأصل هاروت وماروت أنهما مَلَكان، قال الله تعالى فيهما: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾**(البقرة ١٠٢)، فلما مات سليمان اتبع اليهود ما يعرفون أن الشياطين كانت تتلوه فى أيامه، وما كان سليمان يمارس السحر، ولا كان ساحراً، ولم يكفر ويتعلمه، ولكن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس، واتّبعوا كذلك ما كان يتنزّل على الملكين ببابل هاروت وماروت، ابتلاءً وامتحاناً للناس، وما كان هاروت وماروت يعلّمان السحر إلا أن ينصحا أولاً الراغب فى التعلم بأن لا يفعل، وأنه إن فعل كفر بالله، وأن معرفته بأسراره هى ابتلاء وامتحان له، فلا يستعمل السحر للإضرار بأحد، فمن تعلمه ليدفع به ضرراً عن الناس فقد نجا، ومن تعلّمه ليضرّ الناس ويؤذيهم فقد ضلّ وهلك، ليس لأنه يضرّ الناس فعلاً ولكن لأنه نوى الإضرار بهم وحاوله، ومن **السحر الضار**: العمل على التفريق بين الزوجين، وبعد أن تكون المحبة والوداد بينهما يستحيل الأمر إلى شقاق وفراق، ليس بالسحر ولكن بما يصاحبه من فتن ووقيعة بين الأزواج والأصهار. **والسحر المؤذى**: فى الحقيقة لا يضر بأحد إلا أن يكون هذا الضرر من عند الله، وكان سيقع بصاحبه بدون هذا السحر. وتعلُّم هؤلاء للسحر بقصد الإضرار بالغير هو تعلُّم لما يضر بأنفسهم هم شخصياً وليست فيه أية فائدة لهم: **﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾**(البقرة)، أى ولقد علم هؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله بمجرد موت سليمان، واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة، لأنهم آثروا السحر على الكتاب، ولبئس ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ويفهمون ويدركون، ولو أن الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله لكانت مثوبته لهم خير من ألف سحر لو كانوا يعلمون.

وهناك تفاسير أخرى لقصة هاروت وماروت، ومنها هذا التفسير **لكعب الأحبار** اليهودى، قال: إن أولاد آدم لما أكثروا الفساد بعد سليمان، تكلم الملائكة فيهم، فقال لهم ربُّهم: أما إنكم لو كنتم مكانهم وركّبت فيكم ما رُكّب فيهم، لعملتم أعمالهم، فقالوا: سبحانك، ما ينبغى لنا ذلك! قال: فاختاروا مَلَكين من خياركم. فاختاروا هاروت وماروت، فأنزلهما إلى الأرض، وركّبَ فيهما **الشهوة**، فما مرّ بهما شهر حتى فُتِنا بامرأة اسمها **الزُّهرة**، كانت قد جاءتهما تشكو إليهما أمراً من أمورها، فراوداها عن نفسها فأبت

إلا أن يدخلا فى دينها ويشربا الخمر مثلهـا ويقتلا النفس التى حرّم الله، فأجاباها، وشربا الخمر، وضاجعاها، فـرآهما رجل وذهب يشهد عليهما فقتلاه. وسـألتهما المرأة عن كلمة السرّ التى يصعـدان بها إلى السماء فـعلّماها، فنادت بها فصـعدت، فمُسخت كـوكباً هو كوكب الزهرة. فهكذا ارتكب الملكان كل الموبقات ولم يستكملا يومهما، فخُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخـرة، فاختارا عذاب الدنيـا، فهما يعذّبـان ببابلٍ فى سَرَب من الأرض. قيل بابل العراق، وربما بابل نهاوند. فالمسلمون إذا رأوا كوكب الزُهرة أو سهيلاً فى السماء سبّوهما وشـتموهما، وسهـيل فى الأسطورة كان عشّـاراً فى اليمن يظلم الناس، والزُهـرة كانت صاحـبة هاروت وماروت. وكمـا ترى فإن هذا تهريف، لأن الزُهرة وسهـيلاً خُلقا كواكب قبل خلق آدم، وقـال الله تعالى عن الملائكة: ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾(التحريم)، وقال: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾(الأنبياء)، وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾(الأنبياء). ولا نستبعد أن يسقط الملائكة، ولكن هذا لم يصح لا عقلاً ولا سمعاً. وأمـثال هذا التفسير هو ما يسمى بالإسرائيليات، والصحيح كما قال علىّ بن أبى طالب: أن الملكين ببابل كانا يعلّمان الناس السـحر تعليم إنذار لا تعليم دُعـاء إليه، بمعنـى أنهمـا كانا يعلّمـان الناس على النهى عن السحر فيقـولان لهم: لا تسحروا لتضرّوا، ولا تحتالوا لتفـرّقوا بين المرء وزوجه، وما كانا يعلّمان أحداً إلا نبّهاه أنهما وما يعلّمـانه فتنة حتى يحذرهما. فذلك هاروت وماروت إذن وتلك قصتهما، فيها النصيحة والتحذير من السحر حتى لو كان الذى يقوم به مَلَك، وكان سقـراط يعلّـم الناس الأغـاليط وهى الحجاج الفاسد، لكى يـأمنوا شرّه إذا مارسه أحدهم معهم، لا لكى يمارسوه هم أنفسهم ويضروا به الناس.

●●●

٨٨٧. ﴿قصة يأجوج ومأجوج فى التوراة والقرآن﴾

فى التـوراة أن ماجوج من بنى يافث بن نوح (تكوين ١٠/٢)، أنجبه بعد الطوفان، وصار اسم الشعب الذى انحدر من صلبه شعب ماجوج، ورئيسهم جوج (حزقيال ٣٨ و ٣٩). وقـيل: إن ماجـوج هى بلاد التتار، وعُرفت المنطقة بين بحـر قزوين والبحر الأسود باسم ماجوج، وقـيل هم الترك. وفى سفـر الرؤيا من أسفـار النصارى (٢٠/٧) أن جـوج وماجوج أُمّتان، ويتفق حزقيال ويوحنا على أن جوج وماجوج هما رمز للشرّ وأنهما من الشعوب المغيرة المدمرة للحضارات.

وفى القرآن صُحّف الاسم عـربياً فصار يأجوج ومـأجوج، ويأتـى مرتين، فى قـوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ﴾(الكهف)، وفى قوله:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾(الأنبياء)، والكلام فى الآيتين عن شعبين من المفسدين. وفى بعض القراءات للقرآن يُنطق الاسمان **ياجوج وماجوج** بدون همز، وقيل الاسمان **أعجميان** مثل **طالوت وجالوت**، وغير مشتقّين، وقيل الاسمان مشتقان، فيأجوج على وزن **يفعول**، مثل **يربوع**، من **أجّ**، تقول **أججتُ** النار أى أضرمتها، وملح **أجاج**. وكذلك **مأجوج**، على وزن مفعول، وقيل مأجوج من **مجّ**. وفى آية سورة الكهف أنهما **شعبان مفسدان**، وإفسادهما على طريقة الشعوب القديمة، أو حتى على الطريقة الجديدة فى عصر العولمة، بالإغارة، والقتل،والتدمير، والاستيلاء على الثروات. وقيل إن **يأجوج ومأجوج** كثيرو النسل ويكونون بالملايين، وهم اليوم **أهل الصين والهند**. وفى الحديث: «**يأجوج ومأجوج أُمّتان، كل أمة... لا يعلم عددها إلا الله، لا يموت الرجل منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح**»، قيل: يارسول الله، صفهم لنا؟ قال: «**هم ثلاثة أصناف ـ صنفٌ منهم أمثال الأرْز** (أى شجر الأرز أى طوال القامة)، **وصنف عرضُه وطوله سواء...، وصنف لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم** (يعنى بهم شراهة)، **مقدمتهم بالشام، وساقتهم** (يعنى آخر الجيش) **بخراسان، يشربون أنهار الشرق، وبحيرة طبرية، فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس**». والحديث ذكره السيوطى، رغم أنه عن الغيب والنبىّ ﷺ لايعلم الغيب. والنبوءة فى الحديث والأوصاف فيه تشبه إلى حد بعيد نبوءة **حزقيال** عند اليهود، **ويوحنا** عند النصارى، وكما قال حزقيال ويوحنا: يحمى **الله القدس** منهما، فإن نبيّنا قال: يحمى الله مكة **والمدينة والقدس**، وذلك دليل أن الحديث موضوع. وفى قصة **ذى القرنين** فى سورة الكهف، فإن النجاة منهما يكون بسدّ، أى بفرض **العزلة** عليهما، والحذر من أية توسعات لهما. وفى الحديث عن **علىّ** عن النبىّ ﷺ قال: **يأجوج أمة لها أربعمائة أمير، وكذا مأجوج، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده**»، يعنى أن زعماءهما كثيرون، وهما شعبان محاربان، وإعداد الشباب فيهما بغاية الغزو. وفى الحديث: «**إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذين عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً. فيعيده الله أشدّ ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، فاستثنوا، فيعودون إليه وهو لهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء** (أى ينزحونه)، **ويتحصّن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فيرجع عليها الدم الذى أحفظ** (أى المتجمّع)، **فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً** (مرض بيطرى) **فى أقفائهم فيقتلهم به**»! وكل هذه الأحاديث، وغيرها كثير، من

الإسرائيليات، وبعضها يتحدث عن البصرة ودجلة وأحداث مستقبلة، وعن الترك كأعداء، رجماً بالغيب، وإحياءً للجاهلية، وللتفريق بين شعوب الأمة الإسلامية، وتعزيز الشعوبية، ويكفى أن نقول أن كلَّ شعب يُظهر الفساد فى الأرض، وينشر الخراب، ويقتل الحرث والنسل، هو كيأجوج ومأجوج فى الديانات الثلاث، وما أصدق ذلك الآن على الأمريكان والبريطان وما يفعلانه في العراق وأفغانستان، واليهود وما يفعلونه في فلسطين!، فهؤلاء مثلهم مثل يأجوج ومأجوج.

●●●

«أصحاب السبت»

٨٨٨. «السبت فى التوراة والأناجيل»

السبت **Sabbath** هو يوم الراحة عند اليهود، والسبت ليست كلمة عبرية ولكنها فى كل اللغات السامية، وتعنى الراحة، والسبت فى العربية بنفس المعنى، ومنها **السُّبات** بمعنى النوم أو أوله، وبمعنى الدهر، **وابنا سُبات** هما الليل والنهار، **والمُسبت** مَنْ لا يتحرك ولا يفتح عينيه، وتقول سَبَتَ أى استراح، **ويوم السبت** من أيام الأسبوع، ويقع بين الجمعة والأحد. وهناك نحو **أربع وعشرين** من المشتقات، من كلمة السبت فى العربية، فالكلمة أصلية فى هذه اللغة وليست منقولة عن العبرية كما ادّعى المستشرقون، ويبدو أن هؤلاء المستشرقين من اليهود الذى يردّون السبت في العربية إلى العبرية مجانين مصابون بالهوس بالعبرانيات، فكل شيء من العلم أو الحكمة أو المعرفة ينسبونه إلى اليهود. وليس صحيحاً أن أيام تسمية الأسبوع من إبداعهم، فالأسماء كما نعرفها موجودة فى كل اللغات السامية، وبداية الأسبوع فى هذه اللغات **هو الأحد**، والسبت كيوم للراحة كان **البابليون** مثلاً - وهم **ساميون** - يقدّسونه، وكان يوم راحة وعبادة، ولم يكن أحد يذبح فيه أو يطبخ، أو يستحم، أو يغيّر ثيابه، أو يركب عربة، أو يُشعل موقداً، أو يعالج فيه طبيبٌ مريضاً، ويستمر ذلك طوال السبت حتى المغرب؛ ونفس الشيء عند اليهود، وقصة آدم وحواء، والخَلقْ، والهبوط من السماء، والجنة والنار، كل ذلك ضمن **الميراث الشعبى السامى**، ولا ميزة فيه لليهود، سوى أنهم كتبوه وصحّفوا له الصحف، وقيل إن اليهود، **والأراميين والأشوريين**، ينحدرون من **سام بن نوح**، وشعوب الشرق الأوسط العربية ـ بحسب ذلك ـ ساميون، واللغات **السريانية والعربية والعبرية** لغات سامية، ومتشابهة فى الجذور وإن اختلفت فى المشتقات. واليهود لم يقدّسوا السبت إلا أنه أصلاً مقدّسٌ عند الساميين، وفى التوراة: **أن الله قد فرغ من عمله الذى عمله لخلق السموات والأرض**

وملحقاتهما فى اليوم السابع، واستراح هذا اليوم من جميع عمله، وباركه وقدّسه (تكوين ٢/١ ـ ٣). وفى الوصايا: اذكر يوم السبت لتقدّسه. فى ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك، واليوم السابع سبتٌ للربّ إلهك لا تصنع فيه عملاً» (الخروج ٢٠/٨ ـ ١٢). فلما كَسَرَ أحد عامة اليهود السبت، قتلوه بلا رحمة (عدد ١٥/٣٢ ـ ٣٦). ولم يراع المسيح السبت مع أنه يهودى، ورأى أن يلغى هذا التقليد، وأن يحرر اليهود من العبودية للسبت، فقال: إنما جُعل السبت للإنسان ولم يجعل الإنسان للسبت (مرقس ٢/٢٧)، واختارت الكنيسة الأحد يومَ عيد بدلاً من السبت، ليميزوا أنفسهم عن اليهود، ولأن المسيح كان يجتمع بتلاميذه فى هذا اليوم من كل أسبوع، أى يوم الأحد، وقالوا فى تبريره أنه اليوم الأول الذى غيّر الله فيه الظُلمة إلى نور، والعدم إلى وجود، وكانت فيه قيامة المسيح. وإذا كان إعلاناً لنهاية عملية الخلق، فالأحد إعلانٌ لبداية الخلق، واتخاذ الأحد عيداً هو تدشين لعهد جديد يُنهى العهد القديم الذى عيده كان السبت.



٨٨٩. ﴿السبت فى القرآن﴾

والمسلمون على اعتبار السبت يوماً من أيام الله، وإذا كان اسمه عندهم السبت من السبوت، يعنى الهجوع والراحة، فإنهم لم يتخذوه يوماً للراحة، ولا جعلوه يوماً لعبادة خاصة، وإن استمر اسمه عندهم هو الاسم الشائع فى كل اللغات السامية وهو «السبت». ولم يجادلوا اليهود فيه جدال المسيح معهم، وحسم القرآن المسألة بالنسبة للمسلمين، فقال: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾(النحل)، وفى الآية إخبارٌ بأن اليهود اختلفوا فيه، ولم تقل الآية خالفوا فيه، فمنهم من أقرّه وقال بأن السبت فرضه الله، ومنهم من لم يقرّه، وقال إنه اجتهاد وتقليد وليس فرضاً، والاجتهاد كان من الأحبار، والتقليد لأنه قد جاء فى سفر التكوين أن الله ارتاح يوم السبت بعد أن انتهى من كل شىء، فذهبوا مذهب التوراة وقلّدوها، وجعلوا السبت يوم راحة كيوم الله، وكان الفريسيون من الذين قالوا إنه فرضٌ من الله، كما كان المسيح من الذين قالوا إنه كان باجتهاد الأحبار، وعلى ذلك فإن بعض اليهود التزموه حرفياً، وبعضهم أسقطه من حسابه تماماً، وبعضهم كالمسيح لم يلتزمه فى مسائل الحياة، ولكنه كان يؤدى فيه العبادات كغيره من الأيام، وبعضهم كما فى أسفار الملوك الثانى ٤/٢٣، وعاموس ٨/٥، وهوشع ٢/١١، وإشعيا ١/١٣، وحزقيال ٤٦/٣، طالبوا بأن تكون مراعاة السبت روحياً. والقرآن على القول مع المُتخفّفين: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لا

تعدُوا في السَّبْتِ ﴾(النساء ١٥٤)، يعني لا تتزيّدوا. وهذا التزيُّد والتغليظ لم يكن في شريعة **إبراهيم** ولا في ديانته، والإسلام مع سماحة ديانة إبراهيم، واليهود غلّظوا السبت بأن تركوا الأعمال فيه حتى لو كانت علاج مريض. والإسلام مع القول بضرورة أن يكون **لكل أهل ديانة عيد، وعيد اليهود هو السبت، وعيد النصارى** - باجتهاد علمائهم - هو **الأحد**، وعيد المسلمين تنزيلاً من الله هو **الجمعة**. وفى الحديث الصحيح: «**نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة**»، يعنى آخر أمة فى الدعوة وأول أمة فى دخول الجنة: «**لأنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق**»، يعنى أنهم اختلفوا فيما جاء فى التوراة، وما جاء فى الأناجيل، وتعددت رواياتهم وحرّفوا، واختلفوا فى يوم عيدهم، فكان يمكن أن يختاروا الجمعة أو **السبت** أو الأحد، فاختار اليهود السبت، والنصارى **الأحد**، واختار الله للمسلمين **الجمعة**. وفى الحديث: «**أضلّ الله عن الجمعة من كان قبلنا**» أخرجه مسلم.

وفى قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ** ﴾ فى قراءه ورش: ﴿ **لا تَعَدُّوا فِي السَّبْتِ** ﴾، بفتح العين، أى لا تعتدوا، إشارةً إلى قصة اقتناص **اليهود للحيتان يوم السبت** تحايلاً على تحريم العمل به، وبسبب هذا التحايل لُعنوا، قال تعالى: ﴿**كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ**﴾(النساء٤٧)، **وأصحاب السبت**: هم أصحاب قصة اقتناص الحيتان. فما هى هذه القصة؟.



٨٩٠. ﴿قصة أصحاب السبت فى التوراة وفى القرآن﴾

قصة هؤلاء فى القرآن بخلافها فى التوراة على عكس ما قاله **المستشرقون**. فقد ذكر هؤلاء أن محمداً اختلق **قصة أصحاب السبت** اختلاقاً، وأنه لا شيء منها فى التوراة، والمستشرقون أهل بُهت، **ففى التوراة** مثل قصة أصحاب الحيتان هذه: فإن الله أنزل على بنى إسرائيل **المنّ**، وأمرهم **موسى** أن يأخذ كل واحد منهم على قدر أكله وأهله، ولا يبقون منه شيئاً إلى الغد، فلم يسمعوا لموسى، وأبقى منهم أناس بعضاً منه إلى الغداة على عكس ما أمرهم، فدبّ فيه **الدود** وأنتن فأسخط عليهم موسى، فلمّا كان **اليوم السادس** التقطوا منه مضاعفاً قدر يومين: الجمعة والسبت، لأن **السبت** مقدسٌ وعطلة، فنصحهم هذه المرة أن يختزنوا للسبت، فلأن الأمر كان منه بالاختزان ليومين، لم ينتن، ولم يظهر فيه دود، وظل محفوظاً. وقال لهم موسى ستجدون المنّ لمدة ستة أيام وتلتقطونه، وفي يوم السبت وهو **السابع لا تجدونه**، ولكن أناساً خرجوا يوم السبت يلتقطون فلم يجدوا

شيئاً، فقال الربّ لموسى: إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياى وشرائعى؟ انظروا، إن الله وضع لكم السبت، ولذلك هو يعطيكم في اليوم السادس طعام يومين». وظل هذا حالهم مدة أربعين سنة إلى أن دخلوا فلسطين (الخروج ١٦/١١ ـ ٣٣). والقصة مشابهة لقصة أصحاب السبت فى القرآن، مع فارق: أن الطعام فى قصة التوراة كان المنّ، وفى قصة القرآن هو السمك. قال تعالى: ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)**﴾(الاعراف)، وفى الآيتين من المعلومات: أن مفاد قصة التوراة هو نفسه مفاد قصة القرآن، غير أن قصة القرآن تتحدث عن قرية يهودية كانت بقرب البحر. وقوله: «واسألهم عن القرية» يعنى اسأل أحبار اليهود، لأن القصة تُتداول بينهم شفاهة وليست مكتوبة؛ وعدوانهم فى السبت يعنى خروجهم على الناموس وأنْ يعملوا فى السبت، فقد كانت الأسماك يزخر بها البحر يوم السبت، ويقل حتى يكاد ينعدم بقية أيام الأسبوع، ابتلاءً من الله، واختباراً لعزائمهم وطاعتهم، وتبياناً لإيمانهم: هل سيصيدون يوم السبت ويكسرون الناموس، أم انهم سيصبرون؟ فكأنهم انقسموا فريقين إزاء ما ينبغى منهم يوم السبت، وهذا من اختلافهم حول هذا اليوم: ﴿**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾(النحل١٢٤)، ففريق التزموا بألا يصيدوا فى هذا اليوم؛ وفريق لم يروا بأساً، فوعظهم أهل الفريق الأول، فمنهم أناس لم تر وَعْظَهُم طالما أن الله مُهلكهم، ورأى الواعظون أن عليهم أن يعظوا حتى لو كانوا على يقين من عدم فائدة الوعظ مع الفاسقين عن أمر الله، وبذلك يكون المختلفون ثلاث فرق وليسوا فرقتين: فرقة عصت وصادت، وفرقة نهت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تَنْه ولم تَعْصِ. فالذين عصوا، والذين لم ينهوا ولم يعصوا، هلكوا مع العاصين، قال: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)**﴾ (الأعراف)، وهؤلاء هم الفرقتان اللتان ذكرناهما: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)**﴾ (الأعراف)، والعذاب البئيس هو الشديد، بأن يصبحوا قردة خاسئين، يعنى مطرودين، مسخهم قروداً على الحقيقة فاندثروا لأن القردة المسخ لا يتناسلون، أو صاروا قردة بالمعنى الذى نقصد إليه عندما نَسُبُّ شخصاً فنقول: يا حيوان، يعنى أنهم صاروا لا يفكرون ولا

يحكّمون العقل، ويتصرفون برعونة ويتابعون غيرهم عسى أن يكون لهم حضور، ويصنعوا تاريخاً لأنفسهم، ولكن ذلك يرديهم موارد الهلكة أكثر، فهذا قوله: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٦٧) ﴾ (الأعراف). وفى القصتين: قصة التوراة وقصة القرآن نعلم أن العصيان يكون سبباً للنقمة، غير أن قصة القرآن أغنى بالتفاصيل، وأكثر تحليلاً للفرقاء، وشرحاً لأسباب الغضب على أصحاب السبت، وأكثر ما يميز القصتين هو الحكم الشرعى فيهما، فقصة التوراة تحلل الاختزان للسبت، وقصة القرآن لا تحلله، واليهود من الفرقة الأولى المستحلة للتخزين بمنطوق الشرع فى قصة التوراة لا تثريب عليهم، وبمنطوق الشرع فى قصة القرآن أنهم فاسقون، فكأنما قصة القرآن حُكمٌ بالبطلان على الاستحلال فى قصة التوراة، وطبقاً لمضمون التحريم فى السبت لا يكون التحايل حلالاً، لأنه يلغى حكمة المنع يوم السبت. واختتمت قصة القرآن بالآية: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** (٦٦) ﴾ (البقرة)، يعنى جعل القصة عظةً وعبرة، وجعل مسخ هذه الأمة اليهودية أصحاب السبت عقوبة لهم بين الأمم وعبر التاريخ، فما من أمة دخلت مع أمة اليهود فى تجربة إلا خرجوا من تجربتهم بانطباع وحيد: أن هؤلاء الناس لا عقول ولا قلوب لهم.

●●●

٨٩١. ﴿ذو الكفل فى القرآن والتوراة﴾

المستشرقون الذين كتبوا فى ذى الكفل **Dhu'l Kifl** كثيرون، منهم: جايجر، ونيبور، ولايارد، وجول أوبرت، وأنتساسى، وجروته، ونولدكه... إلخ، وكلهم استقوا تقريباً من مصادر واحدة: الطبرى، والزمخشرى، وفخر الدين الرازى، وابن إياس، والثعلبى ... إلخ، وهؤلاء جميعًا تفسيراتهم إسرائيليات خالصة. ويأتى اسم ذى الكفل مرتين فى القرآن فى سورتى الأنبياء وص؛ وتعرض سورة الأنبياء الوقائع تُقدّم بها لحقيقة بعثة محمد ﷺ، فيقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (٧) ﴾، وسورة الأنبياء جميعها تجيء رداً على المنكرين لنبوة محمد ﷺ، وفيها يسلّى الله تعالى رسوله ويُسرّى عنه أذى المشركين فيقول: ﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** (٤١) ﴾، ثم يبدأ يعدّد من سبقه من الرسُل، كموسى وهارون اللذين آتاهما الفرقان؛ وإبراهيم، ولوط، وإسحق، ويعقوب، الذين كانوا أئمة؛ ومن قبل ذلك نوح؛ ثم داود وسليمان؛ ثم يأتى قوله تعالى: ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ** (٨٥) **وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ** (٨٦) ﴾ (الأنبياء)، فقُرن ذو الكفل فى الآية الأولى مع الرسل، واعتبر فى الآية الثانية من الصالحين.

وفى سورة ص يأتى: ﴿ **وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ** ①﴾، أى الذى يذكر الرسُل قبل محمد ﷺ، وفى ذكرهم عبرةٌ لمن يعتبر، ومن هؤلاء: **نوح، ولوط، وداود، وسليمان، وأيوب، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب**، ثم يأتى: ﴿**وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ** ㊽ **هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ** ㊾﴾.

وفى السورتين يظل أمر ذى الكفل مجهولاً، فلا نعرف عنه إلا أنه ١ ـ كان من الصابرين. ٢ ـ ودخل لذلك فى رحمة الله. ٣ ـ وكان من الصالحين. ٤ ـ فاستحق لذلك أن يكون من الأخيار، واستحق لتقواه أن يكون له المنقلب الحسن. ثم لا شىء أكثر من ذلك.

غير أنه قد ورد فى الحديث ما يلقى بعض الضوء على حياة ذى الكفل، ويسهم فى بيان معنى الاسم، فعن ابن عمر، عن النبىّ ﷺ فيما أخرجه الترمذى، قال: «**كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل، لا يتورع من ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل! والله ما عملته قط! قال: أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكن حملتنى عليه الحاجة. قال: اذهبى فهو لك! والله لا أعصى الله بعدها أبداً! ثم مات من ليلته، فوجدوا مكتوباً على باب داره: إن الله قد غفر لذى الكفل**». وفى هذا الحديث لا ذكر البتة لسبب التسمية بذى الكفل. فأمّا أن تكون كل فضيلته أن يستعصم عندما تذكّره المرأة بعفتها وحاجتها، فيتوب ويموت ليومه، فهذا ليس سبباً أن يأتى اسمه فيُتلى قرآناً، فكم من الصادقين فعلوا مثله وأكثر منه ولم يأت اسمهم فى القرآن! وكم من الصوفية المسلمين بهذا المقياس السابق يتفوقون عليه فضلاً وأدباً وتقوى، فهل نُوليهم ما نولى ذا الكفل من الاحترام والقدسية والتبجيل؟ ثم إنه من السياق يبدو أنه كان فاسقاً طوال حياته إلا هذا اليوم فقط الذى التقى فيه المرأة، فهل يدرجه ذلك اليوم فى القرآن حتى ليوصف بأنه من الأخيار والصابرين والصالحين المتقين؟ وإنا لنستبعد لذلك أن يكون هذا الكلام غير الجامع حديثاً، ولم يُعرَف عن منهج رسول الله ﷺ أن منه تفسير القرآن بالقصص. والأقرب إلى العقل أن الحديث من **الإسرائيليات** التى راجت بعد وفاة الرسول ﷺ. وفى رواية أخرى للحديث السابق يأتى أيضاً فيما يقال أنه عن **ابن عمر** عن رسول الله ﷺ، قال: «**كان ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة أعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة. فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته! اذهبى فهى لك! وقال:**

والله لا أعصى الله بعدها أبداً! فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غفر لذى الكفل». وهذا الحديث لا يختلف عن السابق إلا بزيادة: «**فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته!**». ويختلف أيضاً فى عبارة «**فاتبع امرأة**» فى الحديث الأول، **فجعلها** «**فأتته امرأة**» فى الحديث الثانى، **فكانت الغواية** من الرجل فى الحديث الأول، ومن المرأة فى الحديث الثانى!

وكانت هناك محاولات لتفسير الاسم قام بها الكثير من المفسرين العرب، فقيل: إن النبىّ **اليسع** لمّا كبر قال: لو استخلفتُ رجلاً على الناس حتى أنظر كيف يعمل، واشترط على من يخلفه أن يتكفّل له بثلاث: بصيام النهار، وقيام الليل، وألاّ يغضب وهو يقضى، فعرض عليه رجل تقىّ نفسه مرتين، فعندئذ استخلفه، فوفىّ الرجل، فسُمّى لهذا ذا الكفل، لأنه تكفّل بما طلب منه نبىّ الله.

وفيما قالوا فى الحديث عن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ، قال: «**إن ذا الكفل لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً، فتكفلّ بعمل رجل صالح عند موته، وكان يصلى لله كل يوم مائة صلاة، فأحسن الله الثناء عليه**». فهل صلاته المائة تجعله رسولاً وتدرجه ضمن قائمة الرسُل؟

وأخيراً يأتى حديث كعب **الأحبار**، وهو **اليهودى العتيد صاحب الإسرائيليات** فى التفسير، والغالب أن كل هذه الأحاديث السابقة كان هو مصدرها بالإضافة إلى هذا الحديث، قال: كان فى بنى إسرائيل ملك كافر، فمر ببلاده رجل صالح، فقال: والله لا أخرج من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام. فعرض عليه فقال: ما جزائى؟ قال: الجنة ـ ووصفها له. قال: من يتكفل لى بذلك؟ قال: أنا. فأسلم الملك وتخلى عن المملكة، وأقبل على طاعة ربّه حتى مات، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض: إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفىّ عن كفالة فلان. فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، ويتكفّل لهم بما تكفّل به للملك، ففعل ذلك فآمنوا كلهم، **فسمّى ذا الكفل! وكأن ذا الكفل بهذا التفسير من قساوسة العصور الوسطى الذين يمنحون صكوك الغفران، ثم إنه لا جنة إلا بعد الحساب يوم القيامة، فكيف يدخل الملك الجنة دون قيامة؟ ثم أيدخل الناس الجنة بكفالة آخرين أم بأعمالهم؟**

ولنحاول بدورنا أن نفسر معنى ذى الكفل بتحصيل السياقين اللذين ورد فيهما الاسم. ونلاحظ أنه أدرج فى الآية الأولى فى سورة الأنبياء مع **إسماعيل وإدريس**. وفى

الآية الثانية فى سورة ص مع إسماعيل واليسع، وفى الآية الأولى هم ثلاثة، وفى الثانية هم ثلاثة، بتغيير اسم إدريس إلى اليسع، وذلك ما جعل بعض المفسرين يظنون أن إدريس هو اليسع! ونلاحظ أنه فى الآيتين فإن ذا الكفل كان من الأخيار، المتقين، الصالحين، الصابرين، الذين دخلوا فى رحمة ربّهم. والكِفل فى اللغة لها معان كثيرة ولا يصلح منها لتفسير ذى الكفل إلا أن يكون الكفل بمعنى الكفالة، فهو صاحب كفالة، وصاحب الكفالة الوحيد فى القرآن هو النبىّ زكريا، فلما اقترعوا على مريم بأقلامهم، قرعهم النبىّ زكريا، فكفلها دونهم، فقال لذلك بعض المفسرين إن ذا الكفل المقصود به زكريا.

وارتأى المستشرق جايجر فى قصة النبىّ عُوبَديا Obdiah في التوراة شبهاً لما عدّده القرآن من صفات لذى الكفل وتنطبق على عوبديا دون غيره. وكان ذو الكفل إسرائيلياً، وعوبديا كان كذلك، ويأتى عنه فى سفر الملوك الثالث: أنه كان قيّم البيت، وكان شديد التقوى، وأنه تكفّل بحماية أنبياء بني إسرائيل، فأخذ مئة منهم وأخفاهم، كل خمسين فى مغارة، وعالهم بالخبز والماء، وصبر على ظلم الطاغية أخاب، والتقى بالنبىّ إلياس الذى كلّفه أن يلاقيه بأخاب، وخشى عوبديا أن يقتله أخاب إن عرف أنه يعرف إلياس والتقاه، وخشى كذلك أن يظن به إلياس أنه يخشى أخاب أكثر من خشيته لله، فذكّره بأنه منذ صباه كان لا يعرف إلا تقوى الله، فقال له إلياس إذن فالله معك. ولقد كان، وأبلغ عوبديا الرسالة لأخاب. وتكفُّل عوبدياً بأمر الأنبياء المختفين من ظلم الملك، وتكفُّله بإبلاغ الملك رسالة إلياس، هما سبب إطلاق اسم ذى الكفل عليه. على أن جايجر رأى سبباً آخر فى اللغة مردّها أسلوب العيش عند الإسرائيليين، فالكفل الذى ينسب إليه ذو الكفل كان عندهم الرداء الذى يضعونه على الجسم كالعباءة، ويتألف من رقيقتين من القماش السميك، ومن ذلك ما يأتى فى سفر الملوك عن رداء النبىّ إلياس الذى ضرب به نهر الأردن فانفلق، فلما رفع إلياس إلى السماء أعطاه للنبىّ اليسع. وعوبديا بهذا التفسير كان يتميز بكفله الذى لا يخلعه عن نفسه، وربما لهذا كان اسمه ذا الكفل. وكان فعلاً من الأخيار والصالحين ومن الرسُل، بدليل نبوّته التى تعدّ النبوّة الرابعة من نبوات الأنبياء الصغار، وله صفحة واحدة من إحدى وثلاثين عبارة، تؤلف سِفْراً يعتدّ به ضمن أسفار العهد القديم، ويعتبر السِفْر الحادى والثلاثين، ويتضمن بشارة ونذارة، فأما البشارة فهى للمؤمنين بالله بأن الله سينصرهم عمّا قريب، وأما النذارة فهى أن الساعة قريبة وأن الجميع ملاقو الموت، وأنه أمرٌ محتوم، وعندئذ يلاقى المجرمون ما يستحقون، ويكون المُلك للربّ.

فذلك إذن ما كان من اجتهاد البعض فيما كان من حياة **ذى الكفل**،ومن تقواه، وما كان من تفسيرات تحدث بها البعض فى حقيقة اسمه، وقد يكون بعضها صحيحاً وبعضها كاذباً، فرجحنا ما يستحق الترجيح وأنكرنا ما يستأهل الإنكار عليه. والله المستعان.

•••

٨٩٢. ﴿يونس، ذو النون، صاحب الحوت، فى التوراة وفى القرآن﴾

يقول القرآن فى **يونس Jonah** ضمن سلسلة الأنبياء: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)** ﴾(النساء)، وقوله: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾(النساء١٥٣)، والخطاب للنبىّ ﷺ فأُعلمَ أن أمره ﷺ كأمر من تقدم من الرسُل. والآية ـ كما قال ابن عباس: نزلت فى قوم من اليهود، منهم سُكَينْ وعُدىّ بن زيد، قالوا للنبىّ ﷺ: ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى! فكذّبهم الله. والوحى: هو الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام يكون خفياً ويُلقى إلى الغير، وهو إعلامٌ فى خفاء، يقال وحَى وحياً، وأوحى إيحاءً، وقدّم الله نوحاً لأنه أول نبىّ شُرعت على لسانه الشرائع، وقيل كان أول نبى إدريس الذى هو أخنوخ فى التوراة؛ ثم كان **نوح وسام** ابنه؛ ثم لوط وإبراهيم عمّه؛ ثم أولاد إبراهيم: **إسماعيل، وإسحق، ويعقوب** الذى هو **إسرائيل**؛ ثم **هود**؛ ثم **صالح**؛ ثم **موسى وهارون**، ثم **أيوب**؛ ثم **الخضر**؛ ثم **داود**؛ ثم **سليمان** ثم **يونس**؛ ثم **إلياس**، ثم **اليسع**، وذو الكفل الذى هو عُوبَديا. وكل نبىّ ذُكر فى القرآن من ولد إبراهيم، غير إدريس، ونوح، ولوط، وهود، وصالح.

وفى القرآن عن إبراهيم: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)** ﴾(الأنعام)، فكل هؤلاء من ذرية إبراهيم إلا نوحاً ولوطاً، فنوح قبله، ولوط ابن أخيه، وإن كان ابن الأخ يعتبر من الذرية، وكذلك عيسى، فرغم أن الولادة لم تلحقه من جهة الأب، لأنه ابن بنت، فإن شأنه كشأن أولاد **فاطمة** بنت الرسول ﷺ، فهم ذريته، ولهذا يدخل أولاد البنت فى اسم الولد ما تناسلوا. فكذلك **يونس** كان من ذرية إبراهيم،ويُقرأ بضم النون،ويقرأه البعض بكسر النون مثل يوسف، من آنس

وآسف، وجمعهما يآنس ويآسف، أو بفتح النون مثل قولنا يوسَف. وكان يونس من أنبياء بنى إسرائيل، ولم يكن من العرب أنبياء إلا خمسة، هم: هود، وصالح،وإسماعيل، وشعيب، ومحمد، وإنما سُمّوا عرباً لأنه لم يتكلم العربية غيرهم، وأما قريش أو مكة وما حولها، فكان أول نبىّ إليها هو محمد ﷺ. واسم يونس تصحيف عربى للاسم السريانى «يونان»، أو يوناثان، وهو فى العبرية يونه، ومعناه «حمامة»، وأبوه أمتاى أو متّى، وكان من سبط زبولون بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، وكان يسكن جَتّ حافَر بالقرب من الناصرة، وهو غالباً المذكور فى سِفْر الملوك الرابع الذى ردّ تخوم إسرائيل من مدخل حماه إلى بحر الغور (١٤/ ٢٥). وأنبياء إسرائيل ليسوا كما نعتقد نحن المسلمين فى النبوّة، وفى الغالب الأعم هم أبطال يشاد ببطولاتهم، ووطنيون يقصرون دعوتهم على أبناء جنسهم، ولم يكن يونس استثناء، فكان خروجه ضد الأراميين الذين هم السوريون،ونبوءته - كنبىّ إسرائيلى - كنبوءتىّ هوشع وعاموس، وتُسلك ضمن الوطنيات، وأمثال هؤلاء الأنبياء كان ينسج الشعب حولهم القصص من النوع الشعبى الفولكلورى الذى يعجب العامة. وسفْر يونس أو يونان الذى يقص عن هذا النبىّ من هذا النوع، واليهود أنفسهم لا يعتبرونه من التاريخ، ويقرأونه للتسرية كقصص الهلالى وأدهم والشرقاوى عندنا. وأهل البحث يقولون إن هذا السفر كُتب فى القرن الرابع أو الخامس قبل المسيح، والبعض يعتبرونه من التاريخ، وعدّه كذلك المسيح، واقتبس منه وأحال إليه. وما يجعل البعض يعدونه كالقصص والتمثيليات ما فيه عن الحوت وأخباره غير المعقولة مع يونس. ومن الغريب أن مستشرقين من أمثال جايجر، ونولدكه، وهوروفتس، وسباير، ينسبون إلى النبىّ ﷺ أنه فى كتابته للقرآن استهواه فى قصة يونس أخباره مع الحوت، فالعقلية العربية بسيطة سواء فى التأليف أو فى التلقى ويستهويها مثل ذلك، وينسب هؤلاء إلى هذا التفسير إعجاب قرّاء القرآن بالقصة،وترديدهم لها كمعجزة فيها العظة والعبرة، مع أن هذه القصة لو كانت مجرد قصة، فمبدعها، والذين حافظوا عليها من البلى والنسيان، هم اليهود، فكان الأولى أن تُنسَب السذاجة إليهم!

ويطلق على يونس اسم «ذو النون»، والنون بالعبرية هو الحوت؛ ويأتى عنه فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾(الأنبياء). ونولدكه يرى أن هذا الدعاء هو الذى أشهر قصة يونس بين المسلمين، وهو دعاء غير موجود فى القصة التوراتية وينفرد به القرآن، والذى دفع إلى شهرة هذا

الدعاء الحديث النبوى: «دعوة ذى النون إذ هو في بطن الحوت ـ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين! فإنه لم يَدعُ بها مسلم ربّه في شيء إلا استجاب له»، والحديث الآخر: «من دعا بدعاء يونس استجيب له»، والحديث: «اسم الله الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: دعوة يونس بن متى». وسألوه: هى الدعوة ليونس خاصة أمْ لجماعة المسلمين؟ قال: «هى ليونس بن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها. ألم تسمع قوله عز وجل: ﴿ **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾** ﴾(الأنبياء)، فهو شرط من الله لمن دعاه به» أخرجه بن جرير ورواه ابن أبى حاتم.

والقصة التوراتية عن يونس فيها: أن الله أمره بالذهاب إلى نَيْنَوى عاصمة أشور، لتثبيت قلوب اليهود المنفيين بها، وليعلن لهم خراب نينوى، فقيل إنه تملّص من هذا التكليف، وبدلاً من التوجه إلى نينوى شرقاً توجه إلى ترشيش غرباً، وركب مركباً مشحوناً، أى مزدحماً، متوجهاً إلى هناك، وفى البحر حدثت نوّة عظيمة، واعتبر النوتية السبب فيها وجود عاصٍ لله بين الركاب، ولم يكن ذلك الراكب إلا يونس، رأوا أن يتخلصوا منه بإلقائه فى البحر، فابتلعه حوت كبير وقذفه من بعد ثلاثة أيام على شاطىء بالقرب من نينوى، وخرج يونس لا يصدق فصلى كما فى المزامير، وأوى إلى ظل يقطينة تحفظه من حرارة الشمس وتغذيه أوراقها وثمارها، ولكنها بعد لأى بدأت تذبل، فأصابه الحزن فاستدرك: أيمكن أن يحزن على يقطينة ولا يحزن أن يفارق من كان يدعوهم بدعوة الله وكانوا كُثراً لا شك فى ذلك؟ ولاحظ الباحثون أن سِفْر يونس ـ على عكس كل أسفار التوراة، فيه الكثير من عبارات المحبة للناس من غير اليهود، وتحفل أسفار التوراة بالتطرف والعنف والعداء الشديد للشعوب، وهذا المقت الذى تتميز به لم يظهر جلياً فى الكتابات اليهودية إلا بعد السبى. وفى سِفْر يونس يسأل يونس للناس جميعاً الرحمة والمغفرة لمّا تعلّم أن لا يسارع بإدانتهم واتهامهم بالكفر، والروح المتبديّة فى السفر لذلك تختلف عن الروح العامة فى سائر أسفار التوراة، الذى يثبت أن السِفر كان كاتبه تحت وطأة تأثير أجنبى. ومن السخف أن يقول نولدكه أن المسلمين قلدوا اليهود بقراءة قصة يونس من القرآن يوم عاشوراء ـ كقراءة اليهود للقصة من التوراة فى يوم الكفّارة، ويبدو أنه فَهِم ذلك من قول علىّ بن أبى طالب: إن الله تعالى قد غفر لأهل نينوى ما فعلوه يوم الكفارة الذى هو يوم عاشوراء، فتصور أنه فى يوم عاشوراء عند المسلمين يفعلون نفس الشيء ويقرأون سورة يونس. ويزعم نولدكه أن محمداً ﷺ ألّف سورة يونس تقليداً لسِفْر يونس! ولم يكن المسلمون

سذّجاً فى حبهم لقصة يونس، فالنصارى كذلك أعجبوا بها، واعتبروا تضحية يونس إرهاصاً بالفداء الذى سيعلنه المسيح من بعد، وقالوا لو كان اليهود تنبهوا لما فى القصة من العالمية بمناسبة الحب المتبدّى فيها لكل الأمم، لبشّروا بدينهم العالم كله، ولاعتنقه كل البشر، وذلك ما لم يحدث طبعاً، وإنما الذى فعل ذلك المسلمون، فقد ورد فى القرآن فى القصة: أن الله ينجّى من العذاب كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم، إذا كانوا من المؤمنين، كقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء)، ولم يكن هذا التوجه العالمى فى الإسلام مقصوراً على قصة يونس، ولكنه توجه عام وشامل لكل ما يدعو إليه الإسلام، والإسلام أصلاً ديانة عالمية وليس كاليهودية، وكان النبىّ ﷺ مكلفاً بأن يبلّغ الدعوة للناس كافة، الأحمر منهم والأصفر والأسود والأبيض، فلو آمنوا بصرف النظر عن أجناسهم لاستحقوا المغفرة حقاً وارتفع عنهم العذاب.

ويذهب علماء الأديان المقارنة من أمثال هوروفتس إلى أن قصة يونس تشبهها قصة ميتافنداكا فى الأدب الدينى البوذي، وكان ميتافنداكا هذا مسافراً ذات مرة فى مركب، فوقفت بركابها فى اليوم السابع وسط البحر لا تتحرك، فضرب البحارة القرعة، فوقعت سبع مرات متوالية على ميتافنداكا، فألقوا به فى البحر، وألقوا معه بعود من الخشب ليتعلق به أو يمتطيه طافياً إلى أى شاطىء، وواضح أن الجزء الأول من القصة البوذية يشبه قصة يونس التوراتية، ولكنه يخلو من أهم أجزائها وهو قصة يونس مع الحوت. وبالمقارنة بين القصة البوذية والقصة التورانية والقصة القرآنية يقر نولدكه بعظمة قصة القرآن رغم كل شيء، فإن أردت أن تستمتع بالقصة كأدب فاقرأها فى القرآن حيث الأسلوب البليغ والكلام الرائع. وفى رأينا أن جمال قصة القرآن أنها مُجملة فى تفاصيلها، والعناية فيها تتوجه إلى الموعظة والدرس المستفاد. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾(الصافات). والقصة هنا فيها القرعة كالقصة البوذية وليس كقصة التوراة؛ ثم إن التكليف فى قصة التوراة لا نعرف مصدره، وفى قصة القرآن مصدره الله؛ وفى قصة التوراة نعرف أنه كان هناك خمسة أنبياء فى إسرائيل بخلاف يونس، وربما هذا ما جعل يونس يتساءل لماذا اختير هو لمهمة الإبلاغ لهؤلاء القوم دون غيرهم، ولعله لهذا هرب، وبالتعبير القرآنى الجميل «ذهب مغاضباً»، واستخدام صفة الغضب لوصف حالته

تلقى الضوء على **شخصية يونس**، ومن ملابسات القصة أنه كان **ضيق الصدر**، فلما حمل أعباء النبوّة تفسّخ تحت حملها الثقيل، فمضى على وجهه كالآبق. ومعنى **أبق** أى هرب. فهل كان خروجه المغضب هذا قبل أن يبلّغ أهل نينوى رسالة ربّه، أم كان بعد أن بلّغها لهم فوجد منهم الصدّ، فوعدهم العذاب بعد **أربعين يوماً** ثم رحل عنهم؟ أم أنه انتظر فلما رأى العذاب قد رُفع ولم يعلم أن الله قد تاب عليهم، ذهب مغضباً فكان ما كان من أمر الحوت معه؟ أم أن قصته مع الحوت كانت قبل الإبلاغ، فلربما جاءه التكليف وكان عليه أن يرحل فوراً دون أن يعدّ نفسه، فكان **ضيق الصدر**، فخرج مغاضباً من أجل ربّه، ساخطاً على أهل نينوى أنهم كانوا سبب كل هذه المشقة والكلفة؟ وفى جميع الأحوال فليس خُلق يونس من خُلق الأنبياء، ولذا قال الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: **﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾**(القلم)، و«**صاحب الحوت**» اسم آخر ليونس يشتهر به. «**ومكظوم**» يعنى مكروب أو مغموم، ولذا قال «**ونجيناه من الغمّ**». والمقارنة بين النبيّ ﷺ ويونس فى الآية السابقة هى التى جعلت الرسول ﷺ يأمر أصحابه فيقول: «**لا ينبغى لأحد أن يقول أنا - يعنى النبيّ ﷺ - خيرٌ من يونس بن متى**» أخرجه الشيخان. **والغم والكَظْم** صارا من **المصطلحات الوجودية** وليس لهما ضريبٌ فى قصة التوراة، الأمر الذى يجزم إمّا بسبق القرآن إلى أمثال هذه **الحالات الوجودية**، وإما أن **الفلاسفة الوجوديين** وأخصهم **كيركجارد وبسكال** قد قرءا ترجمة القرآن، وهما فعلاً قرآه، وخاصةً **بسكال**، وتأثّرا بأمثال هذه المصطلحات فى النسق القرآنى الذى تضمنّها.

وقوله تعالى: «فساهَمَ» يعنى قارع، من السهام التى تُجال، وقد كان يونس «**من المدحضين**» أى المغلوبين، فلما رموه **التقمه الحوت**، **ولا يلام الحوت**، لأن الملوم هو يونس الذى كان منه ما استحق به هذا الجزاء، «**فلولا أنه كان من المسبّحين**» أى الذين يذكرون الله، للبث فى بطن الحوت إلى يوم البعث عقوبةً له. والاختلاف بين المفسرين على المدة التى أقامها، فمنهم من زاد على الرواية اليهودية وقال **أربعين يوماً**، لأن الرقم أربعين عرفناه من قبل مع موسى فى الجبل، ومنهم من قال **سبعة** أيام، والعدد **ثلاثة** أيضاً له أسراره، ومنهم من ذكر أن ذلك تم سريعاً تماما مثل **حَمْل مريم**، فتلك أعمال ربّانية وليس للوقت فيها حساب. وفى **فقه إلقاء يونس فى البحر لما عصى**، ينفرد الإسلام بأنه لا يجوز إلقاء العاصى بعصيانه فى البحر ولا فى النار كما فى قصة **إبراهيم**، ولا يجوز قتله، وإنما تُجرى عليه الحدود ويعزّر على مقدار جنايته. وكذلك لا يجوز ضرب القرعة على من كان فى سفينة فى البحر بقصد تخفيف وزنها حتى لا تغرق ثقلاً، أو بقصد أى شرّ **وتسبيح**

يونس دليل على أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، والتسبيح باللسان لابد فيه أن يوافق الجنان، وفي الحديث: «من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»، والعمل الصالح المخفيّ هو ذخرٌ ليوم الفاقة والفقر. والتسبيح أنجى يونس، فنُبذ بالعراء - أي الصحراء، وهو سقيم، أي كالمنفوس، وفي الآية الأخرى: ﴿**لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ** (٤٩)﴾(القلم)، يعني أنه على الحقيقة لم يكن مذموماً، وكان مرضياً عنه رغم كل شيء، ولذلك قيل: ﴿**فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** (٥٠)﴾(القلم) أي اختاره، والاختيار لا يكون إلا للأصفياء، ولذا أنبَت الله تعالى اليقطين يُظله بها ويطعمه بلحمها، حتى تقوّى فأرسله إلى أهل نينوى وكانوا مائة ألف أو يزيدون، والعدد هنا للتقدير وليس للحصر. وفي العفو عنهم تأتي الحكمة البليغة في القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ** (٩٦) **وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** (٩٧) **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** (٩٨) **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٩٩) **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**(١٠٠)﴾(يونس) وهي آيات من جوامع الكلم، وفيها المواعظ والعبر والدروس المستفادة، فما من قوم يغضب الله عليهم إلا بمعصيتهم، وأمثالهم مهما سُقت إليهم من الدلائل والبراهين لا جدوى معهم إلا أن يأخذهم الله بالشدّة، إلا قوم يونس ومن على شاكلتهم، فكاد الله يأخذهم بالعذاب، لولا أن تابوا قبل أن يعاينوه، فنجّاهم الله لمّا آمنوا، وقبل أن ينزل بهم البلاء. ونفيد من ذلك أن المعاينة التي لا تنفع معها التوبة هي التي يكون العذاب فيها متلبساً كما في قصة فرعون: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٩٠) **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (٩١) **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** (٩٢)﴾ (يونس)، وكانت لذلك قصة يونس تالية على قصة فرعون، لأن فرعون «آمن حين رأى العذاب» فلم ينفعه إيمانه، بينما قوم يونس «تابوا قبل أن ينزل بهم العذاب»، ونزوله - أي العذاب - مرهون بغضب الله، فكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لم يكن قد غضب منهم بعد. وتدحض هذه المواعظ في القصة القرآنية دعوى نولدكه أن القصة التوراتية لم تعجب محمدًا إلا للحوت الذي بها والذي يصنع منها «قصة للأطفال»! وإنما جاءت صياغة القصة القرآنية صياغة تستدعي التدبُّر والتفكُّر وتدفع إلى الاستنباط، فكانت قصةً عظيمةً بكل المقاييس، وهو ما تفتقده قصة التوراة. ولعل أبرز ما في قصة القرآن قولها «بالتوبة في

وقتها»، وفى الحديث عن التوبة: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، والغرغرة هي الحشرجة. وذلك هو حال التلبُّس بالموت. ولقد وصف الله تعالى العذاب الذي كشفه عن أهل نِيْنَوى بأنه عذاب الخزى، لأنهم لم يعاينوه، وإنما وعدهم به يونس. وفي ذلك قال عليّ بن أبي طالب: إن الحذر لا يردّ القدر، وإن الدعاء ليردّ القدر، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(يونس ٩٨)، وتخلص قصة القرآن إلى ما نخلص إليه منطقياً، وربما غاب عن يونس عندما تسرّع ووعد أهل نينوى العذاب: أن الله لا يفرض الإيمان على الناس، ولو شاء ذلك لآمنوا، ويتساءل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس) والخطاب للنبيّ ﷺ، والسؤال دليل على أن سبيل الإسلام ليس الإكراه على الإيمان، والمرء في الإسلام حرّ أن يختار أن يؤمن أو يكفر، وفي ذلك ردّ على دعاوى أن الإسلام قام على القهر، وبعد الرسول ﷺ يكون الخطاب للدعاة، فالدعوة إلى الإسلام قوامها أن يختار المدعو في حرية، مثلما فعل قوم يونس، فلم يقسرهم الله على الإيمان بعذاب أنزله بهم، وإذا كان يونس قد استنزل العذاب على قومه، فإن النبيّ ﷺ قد عذر قومه ودعا لهم. والإيمان قضية عقل، ولذا يقول تعالى عقب هذه الآيات: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الإسراء ١٠١) ، والنظر الذي يأمر به الله كسبيل إلى الإيمان من اختصاص العقل. ولذا قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (يونس)، أي لا يُعملون عقولهم وأفهامهم، ولا يعتبرون. والرجس هو العذاب. وفضيلة قوم يونس أنهم اعتبروا بسرعة وفهموا في الوقت المناسب.

فتلك إذن فضائل قصة يونس كما أوردها القرآن، لا تقارن بها قصة التوراة، ولا بما استخلصه النصارى منها لإثبات الفداء، ولهذا كان الإسلام ديناً قيّماً، والقرآن كتاباً مهيمناً.

•••

٨٩٣. ﴿قصة لقمان الحكيم﴾

كلام المستشرقين في لقمان كثير، ولمّا لم يجدوا اسمه في التوراة- وكل شيء في القرآن يريدون أن ينسبوه إلى التوراة- قالوا تسخيفاً لشأنه، واستهزاءً بأمره، أنه شخصية أسطورية من عصور الجاهلية العربية، يسمونها إمعاناً في تحقيرها - ببربرية العرب، أو همجيتهم، أو وثنيتهم paganism. والذين تناولوا قصة لقمان اعتبروها من الفولكلور العربي، وأنكروا أن يكون هناك شخص حقيقي باسم لقمان، واعتبره المستشرق رينيه باسيه مستعرباً من أصول حبشية أو سودانية، وقال في وصفه عن المصادر العربية: أنه كان

أسود، مشقّق الرجلين، ذا مشافر، أى عظيم الشفتين، ولذا سمّاه **لقمان البربرى Loqman Le Berbère**، واعتبر **توى Toy** قصته حكاية شعبية، وأسطورة أو خرافة **Legend**، وذهب **شوفين Chouvin** نفس المذهب. وأما **نولدكه، وكونيبير، ورينديل، وهاريس، وأجنيث سميث لويس**، فهؤلاء عقدوا المشابهات بين حِكَم لقمان وبين الحِكَم المشهورة فى الغرب باسم حِكَم **إيزوب**، وجميع هؤلاء يقصدون إلى شىء واحد: أن محمداً أخذ هذه الحكم عن غيره، وكأنه ﷺ كان عارفاً بكل لغات الدنيا! فما كانت فى زمنه ترجمات، ولابد لكى يقرأ فى هذه الثقافات أن يقرأها بلغاتها! وكأنه مُلم بها بثقافات أصحابها، وثقافات السابقين عليهم! وما كان ﷺ إلا عربياً يرعى الأغنام قال فيه ربُّه: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**﴾(العنكبوت ٤٨)، فسبحان الله! ولو سألتَ أغلب مثقفى أوكسفورد أو هارفارد: من هو **إيزوب** هذا وما هى حِكَمه؟ لحاروا فى الجواب! **وإيزوب** الذى يشابه **نولدكه** قصة لقمان به، كان إغريقياً من القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، فكيف عرف نبيّنا به؟! ولو تناولت أياً من الموسوعات أو المعاجم الأوروبية أو الأمريكية فستجد ترديداً لهذه الفرية: أن لقمان هو **النسخة العربية لإيزوب**، وأن الحِكَم العربية فيه لتشبه حِكَم **إيزوب**، ولما كانت الروايات الغربية مُجمعة على أن إيزوب شخصية متخيَّلة، وليس لها واقع حقيقى، فإن المستشرقين الذين ابتلينا بهم، يصرون على أن لقمان هو الآخر شخصية خرافية!! ولا أبرّئ المفسّرين العرب من هذه التخرّصات التى يروّجها المستشرقون، فأمثال **الثعالبى والطبرى** يستحقون الضرب بالرصاص، إلا أنهم مع ذلك كانوا مجنياً عليهم، فمصادرهم **إسرائيلية**، وما اشتهر عند علماء العرب باسم **الإسرائيليات** تحفل بها كتبهما، ونَشْرِها بين الناس، فكان لزاماً أن نحذر منها، ومن ذلك ادّعاء وهب بن منبّه ـ وهو أستاذ فى الترويج للإسرائيليات، أنه قرأ من حِكَم لقمان أكثر من عشرة آلاف باب، ولاحظ قوله «**عشرة آلاف باب**» ولم يقل حكمة! والباب فى العلوم هو مبدأ فصولها، فلربما يندرج ضمن الباب الواحد المئات من الحكم فى الموضوع الواحد، ومعنى ذلك أن يكون لقمان أحكم من داود وسليمان والأسباط وعيسى مجتمعين! وقالوا فى لقمان أنه كان **خيّاطاً**، وقيل: بل كان **نجّاراً**، ومن ذلك قولهم: إن لقمان علّم داود، وكان يعظه؛ وقولهم: أنه كان من **قضاة إسرائيل** من نوع القضاة الولاة ضمن **سفر القضاة**؛ وقولهم أن اسمه كان **لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح**، أى كان من نسل آزر، ومن أصول النبىّ **إبراهيم**، وقيل: كان اسمه **لقمان بن عنقاء بن سرون**، وكان نوبياً من أهل أيلة بفلسطين؛ وقيل: كان ابن اخت **أيوب**، أو ابن خالته؛

وقيل: إنه عاش ألف سنة، ولذلك لُقِّب بالمعمر،وأدركه داود، وكان عمله الإفتاء، فلما بُعث داود انقطع عن الإفتاء، فقيل له، فقال: ألا اكتفى إذا كُفيت! ـ يعنى بمجىء داود لم تعد هناك حاجة للناس فيه، ولذلك قيل إنه النبى «صموئيل»، وقيل هو النبىّ «جاد» الذى عاصر داود. وتروى عن لقمان فى القرآن ثمانى آيات ليس فيها ما يمكن أن نستدل به على أن لقمان كان نبياً، ومع ذلك قال بعض المسلمين أنه أوتى النبوّة، فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾(لقمان١٢)، فجعلوا الحكمة بمعنى النبوّة، والصحيح أن النبوّة غير الحكمة، وفى القرآن: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(البقرة ١٢٩) فهل النبوّة تُعلَّم؟ وهل من مهام الأنبياء أن يعلّموا الناس النبوّة؟؛ وفى القرآن: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾(النحل ١٢٥)، فهل المعنى أن ندعو إليها بالنبوّة؟ وإذن لا يكون ما آتاه الله لقمان إلا الحكمة بمفهوم الدراية بأمور الحياة، والتعامل مع الناس والمواقف بموضوعية وعقلانية، وبانفتاح على العالم والحياة، وبمعرفة علمية وإحساس اجتماعى ونظرة فلسفية، وكانت حكمة لقمان آراء سديدة تسلك بمن يستهديها المسلك الصائب. واسم لقمان على وزن فُعلان، فهو عربى، ولا يوجد الوزن فعلان فى العبرية، وواضح أنه من الحكماء الذين كانت تزخر بهم بلاد العرب، مثل: هرم بن قطبة بن سنان، والحارث بن كلدة الثقفى، وأكثم بن صيفى بن رباح، وعامر بن الظرب العدوانى، وعبد المطلب بن هاشم. والحكمة عند العرب فرع المعرفة المقابل للفلسفة عند الإغريق. ومعنى الفلسفة هو حُبّ الحكمة، حيث **Philo** تعنى الحب، و**sophos** تعنى الحكمة.وكان فيثاغورس الإغريقى أول من سمّى نفسه فيلسوفاً أو محباً للحكمة، وكان الناس قبله يُسمون حكماء، ورفض فيثاغورس أن يُسمَّى حكيماً، فحسب قوله: أن هذا كثير عليه، وأنه يفضّل أن يقال أنه «محب للحكمة» على أن يقال أنه «حكيم». وإذن فالحكمة كانت إغريقية كما هى عربية، إلا أن العرب تمسّكوا باسم الحكمة، بينما تنازل الإغريق عن الاسم، وآثروا عليه اسم «حُبّ الحكمة» أو الفلسفة. والردّ على من يقول إن الفلسفة لم يعرفها العرب قبل عصر الترجمة زمن المأمون، هو أن فلسفة العرب كانت هى الحكمة ـ وإنْ تخلّوا الآن للأسف عن الاسم، واستعملوا كعادة المحدثين ـ الاسم الأوروبى: الفلسفة. وفى القرآن يأتى مصطلح الحكمة: عشرين مرة؛ ويأتى مصطلح الحكيم: إحدى وثمانين مرة. والقرآن أكثر كُتب الأديان دعوة إلى الحكمة، وذلك دليل على أن الإسلام دين ثقافة ومدنية وعلم وحضارة وفكْر، وليس دين جامد ثبت على مقولات انتهت صلاحياتها منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة! وحكمة العرب نظرية وعملية، لأن الحكمة ضربان: حكمة نظرية : كالتى تبحث فى معنى

الألوهية، وأوصـــاف الله، ومعنى النبــوّة... إلخ، وكل النظريات الحديثــة من نوع الحكمة النظــرية؛ وحكمة عــملية: تهتم بالسلوك. والقرآن به الحكمتـــان، والآيات من سورة لقمان التي تطرح فلسفة أو حكمة لقمان، هى من نوع الحكمة العملية. ولقمان فيما يعرض من هذه الحكمة لم يكن نبياً ولكنه عبدٌ صالح يتولى تربية ابنه التربية الدينية الدنيوية، وحكمته نتيجــة تفكيره وثمرة خبــرته فى الحياة، وحُسن يقــينه، وقوة اعتقــاده فى الله، يقول لابنه واعـــظـــاً: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** (١٢)﴾(لقمان)، **والشكر** فى حقيقتــه هو الثناء على المُحسن بما أولانا من المعروف، **وتَـرْك الشكر للناس** هو كفران نعمة الناس، **وتَرْك الشكر لله** هو كفران لنعمة الله. **والشكر لله** يكون بطاعته على ما أمــر، وألاّ يُعصَى بنعمه. **وحقيـقة من يشكر لله** أنه يشكر لنفـسه، يعنى أنه عندما يشكر الله فإنه يثني على نفــسه، ويستزيده تعالى من نعمــه، فإن لم يشكره فإنه لن يُنقص الله شيئاً، ولكنه يُنقص نفسه أشياء، والله مستغن عن الشكر. **والشكر لله** هو باب الحكمة، وتدخل ضمن هذا الباب **المواعظ**، **ومواعظ لقمان** من أشهر المواعظ، وبداية أية مواعظ هو الدعــوة لتوحيده تعالى، والنــهى عن الشرك به، وهذه الموعظة هى الملح الذى بدونه لا يحلو الطعــام ولا الكلام. والشرك ظلمٌ، وهو أكــبر الظلم لله بأن نجــعل له نداً، ولأنفسنا بأن نضلّلها ونفسد فطرتها، ولمن حولنا، لأن الشرك بالله دعوةٌ للآخرين أن يحذو حذونا وأن يقـتدوا بنا فـيضلوا بضلالنا. وســبب هذه الآيات عن لقمــان، أن بداية سورة لقمان كانت عن طبقة من المؤمنين هـم المحسنون الذين يعملون الصالحات، كقوله: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** (٢) **هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ** (٣)﴾ (لقمان). مقارنةً بالظالمين الذين ضلوا عن الإيمان، مع أن الكون كله يحــفل بالآيات الدالة على وجوده تعالى وواحديــته. فلما ذكر هؤلاء تطرّق الحديث إلى لقمان الذى كـانت هذه الدعوة هى دعوته، وكان على رأس قائمــة هؤلاء المؤمنين المحسنين. والظالمـون الذين عناهم الله تعالى بقـوله تعالى: ﴿**بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**(١١)﴾ (لقمان) هم المشركون به، فكانت عــبارة لقمان: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣)﴾ (لقمان) استطراداً لمقولته تعالى عن الظالمين. ولقمان مهمته الوعظ، لأنه حكيم، واختــار لذلك أن تأتى عظاته كما لو كـانت وصايا لابنه، وهو نوع **genre** مـــن الكتابــات الأدبية، أو أدب الحكمـــة، يتخيل فيــه الكاتب أنه يخاطب ابنه، وينزل بذلك القارئ منه منزلة الابن من أبيه، والابن الأقرب إلى أبيه، والأكــثر حاجةً لمواعظه ووصاياه ونصائحــه، ويختــصه الأب بأفضل مــا يعرف، والإيمان بالله هو أفــضل وأحكم المعارف، ولقمان فى هذه القطعة الأدبية اختــار أن يوصى ابنه بربّه، وأن يحذّره من الشرك، ويعلّمه

أن يشكر ربّه. ونحن نشكر الله، لأنه خلقنا، ونشكر الوالدين لأنهما كانا سبباً لخلقه لنا، وكما أن شكره تعالى واجبٌ، فشكرهما كذلك واجبٌ بطاعتهما كما نطيع الله، وأن ندعوه لهما، وهو الذى إليه المصير يوم الحساب، يحاسبنا عمّآ فرّطنا فى حقّه وفى حق الوالدين. والإشادة بالأم على وجه الخصوص، وبدورها الكبيركأم، قال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** (١٤) **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٥)﴾(لقمان)، فخصّها بأربع درجات من هذه الوصية: فخصّها أولاً بذكر الحَمْل، ثم خصّها ثانياً بذكر الرضاع، وخصّها **ثالثاً** بقوله: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ**﴾، وخصّها رابعاً بقوله: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾، وأوصى بالأب مرتين فى قوله: «**والديه**»، وفى قوله: و«**والديك**»، وخصّ الأم مرتين **صراحة**، ومرتين **ضمنًا**، وخصّ الأب مرتين **ضمنًا فقط**. وهذه الآية هى تفسير للحديث الذي فيه يسأل أحدهم الرسول ﷺ: مَنْ أبرّ؟ قال: «**أمّك**». قال: ثُمّ مَنْ؟ قال: «**أمّك**». قال: ثُمّ مَنْ؟ قال: «**أمّك**». قال: ثُمّ مَنْ؟ قال: «**أبوك**» (كأنه قال ثم أبوك فرفعها لهذا السبب)، **فجعل للأم ثلاثة أرباع المَبَرّة، وللأب الرُبع** منها فقط. وأكثر من ذلك، أنه وصّف عمل الأم أعظم توصيف، وفصّله تفصيلاً، لغرابته ومعجزته وكرامته، ولسموق المعاني التى تهدى إليه ويعمل فى إطارها: فقد حملته فى بطنها ضَعْفاً على ضَعْف، **ففضلاً** عن ضعف المرأة **فالحمل** يضعفها أيما ضعف، ويثقل عليها طوال تسعة أشهر، كما تُثقل عليها **الرضاعة** طوال عامين أو نحوهما، فالأم مسكينة ورعايتها لذلك أوجب وأهم. ونحن نولد ونهوّد أو ننصّر بحسب أبوينا، وطالما المرء لم يرشد فلا مسئولية عليه، وإنما المسئولية ابتداءً من البلوغ، **فحينئذ علينا أن نسأل أنفسنا** عمّن خلقنا؟ **وما هى صفاته؟ وما هو الدين الذى يذهب إلى نفس ما نستخلص من نتائج، ويتفق مع العقل، وله رسالة اجتماعية وإنسانية، فضلاً عن أن فيه النجاة لصاحبه في الآخرة؟ فإذا عرفنا ذلك فعلينا** أن نلزم ما توصلت إليه عقولنا، وأن نعبد الله ولو كانت عبادته فيها العصيان للوالدين، فالدنيا هى حدود البنوّة للوالدين، والآخرة بداية العبودية لله، وفى العبودية لله إقرارٌ بالوالدية، ولكن الوالدية قد تكون مضللّة للعبودية. والصُحبة فى الدنيا للوالدين بالمعروف، وأما للآخرة فالصحبة لمن يدعو إلى الله، وإزاءه تعالى فلا طريق إلا أن نرجع إليه ونتيب. ويُروَى أن الآية: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾(لقمان ١٥) نزلت فى سعد بن مالك بن أبى وقّاص أحد العشرة المبشّرين بالجنة، فلما كان برّاً بأمه، وكانت أمه على

الشرك، وأسلم هو، هددته إن لم يترك دينه فلن تأكل حتى تموت فيعيّره الناس بأنه قاتل أمه، ومكثت لا تأكل يوماً وليلة، فأصبحت وقد أجهدت، ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل، فجهدت أكثر، ثم أنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل حتى اشتد جهدها، فقال لها: يا امّه! تعلمين والله لو كانت لك مائة نَفْس فخرجت نفْساً نفْساً، ما تركت دينى هذا لشيء! فإن شئت فكُلى؟ وإنْ شئت لا تأكلى - »، فأكلت! وفى الآيات السابقة أن الآخرة فيها الحساب على الكبيرة والصغيرة، والصغيرة يعرفها الله مهما تناهت في الصغر وبدا أنها قد تَخفَى، فالله لطيفٌ لا تَخفَى عليه خافية، وهو الخبيرٌ بدبيب النملة فى الليل البهيم. ثم أوصى لقمان ابنه: **بالصلاة**، فلا شكر لله بلا صلاة، وإقامة الصلاة تكون بفروضها وحدودها وأوقاتها؛ وأوصاه: أن **يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر** في حدود طاقته وجهده، وقد يناله من ذلك الضرر فعليه أن يصبر، والصبر هو ما يمكن أن يواجه به المؤمن مصائب الدنيا؛ وأوصاه بأن: **لا يصعِّر خدّه** للناس، أى لا يشيح بوجهه كِبْراً عليهم، واحتقاراً لهم، ومثل ذلك **الإعراض** عن الناس، وترك الكلام معهم؛ أوصاه: أن لا **يختال بنفسه ويمشى مشية المتكبّر المتفاخر**، والمتباهى المتعاظم والفَرِح بنفسه زهواً؛ وأوصاه: أن **يقصد فى مشيه**، أي يتوسط فيه بين الإسراع والبطء، وهكذا فى كل شيء، **فالقصد هو التوسط**، وقيل **الفضيلة وسط بين نقيضين**، فالكرم فضيلة، وهو وسط بين الشُّح وبين السفه والإسراف، **والتوسط مطلوب فى الصوت**، ويوصى لقمان ابنه فى ختام وصاياه **بالغضّ من صوته** ويضرب المثل **بصوت الحمار** الجهير، فإنه أنكر الأصوات، وهذه الآية أدبٌ من الله بترك **الصياح** جملةً حتى فى الملاحاة، والناس تجهر بالصياح لدافع نفسى وإحساس داخلى بالضعف، ومدافعةً للخصم، على اعتبار أن صاحب الصوت الأشد هو الأعزّ، وصاحب الصوت الخفيض هو الأذلّ. وهذه **المواعظ الثمانى عشرة**، هى كل مواعظ لقمان فى القرآن، وهى نموذج من وصاياه من أفضلها وأحسنها، وله مواعظ أخرى كثيرة أوردتها **الكتب الإسلامية**، فلمّا كان يافعاً ظهرت عليه مخايل الحكمة مبكرة، وكان يعمل بالأجر عند أناس، فأمره مولاه أن يذبح شاة فذبحها، فأمره أن يُخرج **أطيب مُضغتين** فيها، فأخرج **اللسان والقلب**، ثم مكث مدة وأمره أن يذبح شاةً أخرى ويحضر أخبث مضغتين فيها، فأحضر **اللسان والقلب**، فقال له مولاه: كيف ذلك: اللسان والقلب مرة هما أطيب مضغتين، ومرة هما أخبث مضغتين؟! فقال لقمان: «**إنهما ليس أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا**»! ومن وصاياه الأخرى لابنه: **يا بنى، إنك منذ سقطت إلى الدنيا**

استدبرتها واستقبلت الآخرة، فدارٌ أنت إليها تسير أقربُ إليك من دار أنت عنها متباعد. يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً، ولا ترفضها تكون عيالاً على الناس، وصُم صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة. يا بني، إن الدنيا بحرٌ عميق قد هَلَك فيها عالَمٌ كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوتَ فبرحمة الله، وإن هلكتَ فبذنوبك. يا بني، إنْ تأدّبتَ صغيراً انتفعت كبيراً. يا بني، ماسح عدوَّك (أى صادقه) ولا تزاوله بالمجانبة فيه، فيبدو له ما في نفسك فيتأهب لك. يا بني، إني حملت الجندل والحديد، وكل حمل ثقيل، فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء، وذقتُ المرارات كلها فلم أذق شيئاً أمرّ من الفقر. يا بني، اتخذ ألف صديق، وألفٌ قليل، ولا تأخذ عدواً واحداً، والواحد كثير. يا بني، لا تتخذ الجاهل رسولاً، فإن لم تصب عاقلاً حكيماً يكون رسولك، فكن أنت رسول نفسك. يا بني، لأن يضرّ بك الحكيم فيؤذيك خيرٌ من أن يدهنك الجاهل بدهن طيب. يا بني، لا تفشيّن سرّك إلى امرأتك. يا بني، تعلمتُ سبعة آلاف حكمة فاحفظ منها أربعاً، وسر معي إلى الجنة: أحكِم سفينتك فإنّ بحرك عميق، وخفّف حملَك فإن العقبة كئود، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد، واخلص العمل فإن الناقد بصير». ولمّا عابوا على لقمان قُبح وجهه، قال لهم: تعيبون على النقش أو على فاعل النقش؟!



٨٩٤. ﴿لقمان: العبد الصالح﴾

في الحديث: «ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان)»؟ ـ فالذى قال ذلك لابنه هو لقمان، وهو بذلك العبد الصالح الذي نوّه به الرسول ﷺ. والصالحون صنفٌ من أصناف المؤمنين، أعلاهم النبيون، ثم الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، يقول تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(النساء٦٩)، ومن الصالحين كان زكريا ويحيى وإلياس (الأنعام ٨٥)، وإسحق ويعقوب (الأنبياء ٧٢)، ونوح ولوط (التحريم ١٠)، ويحيى (آل عمران ٣٩)، وعيسى (آل عمران ٤٦).



قصة البقرة

٨٩٥. ﴿هل تتشابه القصة فى القرآن وفى التوراة﴾

يردد المستشرقون كثيراً حكاية أخذ القرآن من التوراة، وأن قصص القرآن جميعها من

التوراة، وأنه لولا التوراة ما كان القرآن، ومن مثل ذلك «قصة البقرة». وترد في القرآن هكذا: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)**﴾. وفي التوراة الأمر بخلاف ذلك تماماً، هكذا: «إذا وُجد قتيل في الأرض التي يعطيك الربّ إلهك لتملكها، مطروحاً في الصحراء، لا يُعرَف مَن قتله، فليخرج شيوخك وقضاتك ويمسحوا منه إلى المُدن التي حول القتيل، فأية مدينة كانت أقرب إليه يأخذ شيوخ تلك المدينة عجْلة من البقر لم يُحرَث عليها ولم تَجُرّ بالنير، ويهبط بها شيوخ تلك المدينة وادياً وعراً لم يُفْلَح ولم يُزرع، ويكسرون عُنقها في الوادي، ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي، لأن الربّ إلهك إياهم اختار ليخدموه ويباركوا باسم الربّ، وبكلامهم تُفصَل كل خصومة وكل ضربة. ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبة من القتيل أيديهم على العجْلة المكسورة العنق في الوادي، ويجيبون قائلين: أيدينا لم تسفك هذا الدم وعيوننا لم ترَ. اللهم اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديته يا ربّ، ولا تجعل الدم البرىء فيما بين شعبك إسرائيل، فيُكفَّر عنهم الدم، فتُزيل الدم البرىء من بينكم إذ صنعت القويم في عينيّ الربّ» (تثنية الاشتراع ٢١/١ ـ ١٠). ففي التوراة لا توجد قصة وإنما تشريع، والبقرة أو العجلة التي تذبح إنما هي كفّارة، وعلى دمها يحلف القوم أنهم بريئون من دم القتيل. وفي ذلك نفسه يأتي في سفر العدد: ذبحُ بقرة لها مواصفات معينة كذبيحة خطاء، يقول: «وكلّم الربّ موسى وهارون قائلاً: « هذا رسم الشريعة التي أمر الربّ بها قائلاً: كلّم بني إسرائيل أن يأتوك ببقرة صهباء صحيحة لا عيب فيها، ولم يُرفَع عليها نير، فتدفعونها إلى ألعازار الكاهن فيخرجها إلى خارج المحلة وتُذبح أمامه، فيأخذ من دمها بإصبعه وينضح إلى قُبُل خباء المَحْضَر من دمها سبع مرات، وتُحرق البقرة أمام عينيه، جلدُها مع لحمها ودمها وفرثها، فيأخذ الكاهن عود أرز وزُوفَى وصِبْغ قِرمِز، ويُلقي ذلك في وسط حريق البقرة، ثم يغسل الكاهن ثيابه، ويَرحَض بدنه بالماء، وبعد ذلك يدخل المحلة

ويكون الكاهن نجساً إلى المغيب.والذي يحرقها يغسل ثيابه بالماء، ويرحض بدنه بالماء، ويكون نجساً إلى المغيب. ويجمع رجلٌ طاهر رماد البقرة،ويضعه خارج المحلة فى موضع طاهر، ويكون محفوظاً لجماعة بنى إسرائيل لأجل ماء النضح: إنها ذبيحة خطاء. هذه هى الشريعة: أى إنسان مات فى خيمة فكل من دخلها، وكل ما فيها يكون نجساً سبعة أيام. وكل إناء مفتوح ليس عليه ضمام مشدود فهو نجس. وكل من لمس على وجه الصحراء قتيل سيف، أو ميتاً، أو عَظْم إنسان، أو قبراً، يكون نجساً سبعة أيام، فيؤخذ للنجس من رماد حريق ذبيحة الخطاء فى إناء ويُصبّ عليه ماء مَعين، ويأخذ رجلٌ طاهر زُوفَى ويغمسها فى الماء، وينضح على الخيمة، وعلى جميع الأمتعة والنفوس التى كانت فيها، وعلى من لمس العظم، أو القتيل، أو الميت، أو القبر. ينضح الطاهر على النَجِس فى اليوم الثالث والسابع، ويطهّره فى اليوم السابع فيغسل ثيابه ويُرْحض بالماء فيطهر عند المغيب. وأى رجل تنجّس ولم يتطهر تُقطَع تلك النفس من بين الجماعة لأنه نَجَّس مَقْدِس الربّ ولم يُرشّ عليه ماء النضح فهو نَجس» (العدد ١٩/١ ـ ٢١). والنصّ ـ كما ترى ـ عام، وهو تشريع للتطهّر من الموت سواء كان قتلاً أو موتاً عادياً، فالميت،وعظم الميت، وقبره، كل ذلك نجس ينبغى التطهّر منه. والبقرة التى تُذبَح شرطها أنها أولاً: صهباء أى يميل لونها إلى الحمرة أو الشقرة؛ وهى ثانياً: صحيحة لا عيب فيها؛ وهى ثالثاً: لم يُرفَع عليها نير أى لم يُشَدّ عليها خشب على رقبتها بين القرنين ليوصل به المحراث أو خلافه. وفى قصة القرآن وصفَها بأنها أولاً: «لا فارض ولا بكر»، أى لا كبيرة هرمه، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل، وزاد فى الوصف فقال «عوان بين ذلك» أى نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة؛ وهى ثانياً: «فاقعٌ لونها»، أى شديدة الصُفرة تكاد من صُفرتها تَبْيَض؛ وهى ثالثاً: «تسرّ الناظرين» أى تعجبهم؛ثم هى رابعاً: ﴿بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴿٧١﴾﴾(البقرة)، أى ليست مذلّلة بالحراثة، ولا مُعدّة للسقى ولم تُربَط إلى ساقية؛وهى خامساً: «مُسَلَّمة لاشِيَة فيها»، أى صحيحة لا عيب فيها. فكما ترى، فالأسلوب أشد ما يكون بلاغة فى قصة القرآن، والكلام يُسرَد فى شكل حوار. وتبدأ القصة بالأمر بذبح البقرة فى مناسبة وجود قتيل بين أظهُرهم، فأتوا موسى وسألوه البيان، ولكن جوابه لهم لم يكن الجواب على سؤالهم،ولذلك قالوا: «أتتخذنا هزوا؟» والهزو اللعب والسخرية، فاستعاذ موسى من الهزو أو الهزء، لأنه جهلٌ، وهو نقيض العلْم الذى يتحلى به الأنبياء. وقولهم ذاك يتمشى مع وصف أنبيائهم لهم: يشوع بن سيراخ، وأشعيا، وإرميا،وباروخ، وحزقيال،ودانيال، وهوشع، ويوئيل... إلخ،وظاهر قول موسى فى الآية دليل فساد اعتقادهم، ولقد ردّ عليهم بالاستعاذة من الجهل فقد جهّل قولهم له: «أتتخذنا هزواً»، ولو قال ذلك اليوم أحدٌ عن

بعض أقوال النبيّ ﷺ لوجب تكفيره، وكان ذلك منهم على جهة **غلَظ الطبع، والجفاء والمعصية**، على نحو ما قال القائل لنبيّنا ﷺ في قسمة غنائم حنين: **إن هذه لقسمةٌ ما أُريد بها وجه الله**. وكما قال له الآخر: **اعدل يامحمد!** وفي الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله، ومن يجب تعظيمه من المؤمنين أو الأنبياء. ولقد شدّدوا على أنفسهم وتعنّتوا فشدّد الله عليهم. والعبارات التي وردت في نصوص التوراة تدل على قمة التزمّت وهو نوع من **الغباء العقلي والانغلاق الفكري**، فهم جعلوا الموت نجساً لكل ما يلامسه ومن يلامسه، وحتى عظم الميت، والقبر، والنعش والسرير وملابسه، وكل شيء جعلوه نجساً إذا لامسه، ويظل ذلك **أسبوعاً** ولا يبرأ منه إلا بطقوس خاصة، وحَرْق بقرة ونضح الماء برمادها ... إلخ، مما يجعل الحياة مستحيلة وشديدة التعقيد، والإسلام رفع كل هذا الإصر. وفي هذه النصوص التوراتية وآيات القرآن التي مدارها البقرة والقتل، يتبين بجلاء **أن الإسلام دين لا يقارن يُسْرُه بأي ديانة أخرى**، فلا شيء من هذه الطقوس الغريبة فيه. والقصة في القرآن موصولة بما سبقها حيث الآيات قبلها هي وصفٌ **لطبع اليهود**، وهو أول وصف فيما نسميه الآن «**بعلم نفس الأجناس**»، أو«**علم نفس الشعوب**»: وهو الذي يصف طباع مختلف الأجناس والشعوب ويجعل لها ما يسميه «**لا شعوراً جمعياً**»، يرثه الأبناء عن الآباء، ويلازمهم كطبع فيهم، فتتشابه سلوكياتهم وردود أفعالهم، فمن بعد ما قال لهم الله تعالى من الآية ٦٤ من البقرة «**ثم توليتم من بعد ذلك**» فإنه ظل يعدّد سوء أفعالهم من عدوانهم على السبت (الآية ٦٥)، وتحولهم إلى قردة بالمعنى المعنوي، أي أنهم صاروا أشباه بشر وخلوا من الإنسانية، ولذلك اختلفوا في مسألة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿**فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**﴾ (البقرة٧٢)، وكتمتم الحقيقة، والله مخرجٌ ما كتموه. ولم يكن الأمر يستلزم أن يفرض الله عليهم ذبح البقرة، وأن يضربوا القتيل ببعضها ليحيا من جديد ويفضح من قتله، فالله قادرٌ على أن يردّه إلى الحياة لو أراد بدون البقرة، إلا أنه تعالى جعله يحيا بضربه ببعضها، ليبين أنه يستطيع ذلك بأقل شيء، وأنه تعالى يقدر أن يميت البهيمة الحيّة، وأن يُحيي الإنسان المقتول، فكان الأحرى بهم أن يتّعظوا ويتدبّروا، إلا أنهم كما جاء في الآيات: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)**﴾(البقرة)، ولا أحسب أن هناك ما هو أعظم بلاغة من هذا الوصف لليهود عبر الأزمان، ومن ثم يخلص القرآن إلى الدرس المستفاد من قصة البقرة في الآية التالية مباشرة مخاطبا المسلمين: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**

مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ (البقرة)، فليس أقسى من اليهود في العالم، وفي الدنيا كلهـا، وليس أشـرّ منهم، ومن المستحـيل الوثوق بـهم، وكـتابهـم التـوراة يكيل لهم الاتهامات، ويصـفهم بالجحود والنكران والكفـر والعصيان، حتـى استلزم الأمر أن يُرسل إليهم الرسُل تباعًـا، حتى بلغ عددهم ستة عشر نبيًا هم أنبـياء الأسفار، وعشـر نبـيّات، بخـلاف ٨٥٠ نبيـاً قيل هم أنبياء مـزيفون، فلما كثـر العصيان، وتعددت الأمـراض، كثر الأنبياء، فلا توجد أُمة لهـا مثل ذلك العدد من أطباء النفوس والأرواح إلا هذه الأمة التي استحال علاجها على الجميع، فاستلزم ذلك أن يُبعث محمدٌ كنبيٍّ خاتم فليس بعده يرسل الله أنبياء. ومن كل ما سبق يتبين أن قصة البقرة في القرآن قصة شاملة كاملة، فيها البلاغة والبيـان، والجدل، وتوصيف المرض والداء، ووصف العـلاج، وتحليل أُمة اليهـود، وبيان الشرع فـيمـا عَرَض لهم، والتنبيـه على أنهم أُمةٌ عـاصية، ولا يوجـد شيء من ذلك في نصوص قصة البقرة في التوراة، فشتّان بين هذه وتلك، وحَسْبنا الله.

●●●

﴿النبيّ زكريا﴾

٨٩٦ - ﴿قصة النبيّ زكريا مع ربّه ومع مريم﴾

تتناول قصة زكريا أربع سور هي بترتيب النزول: مريم، والأنبياء، والأنعام، وآل عمران. واسم زكـريا عبري، ويساوي في معناه اسم «ذِكـرِى»، وقيل المعنى الحرفيّ «يذكـره الله بالخير»، وقيل: إن اسمه بالكامل زكريا بن برخيا بن عدّو، ذُكر ذلك في سفر عزرا من أسفار اليهود (١/٥ و ١٤/٦)، وزكريا هو الحادي عشر بين «الأنبياء الصغار»، ولمّا مات أبوه وهو صغير صار ينادى باسم جدّه، تماماً مثلما ذكر القرآن عن مريم فقال: إنها «ابنة عمران»، وأن أمها «امرأة عمران»، نسبةً إلى الجدّ الأكبر، والجدّة الأكبر، وإشارةً إلى بيت عمران الذى تنتسب إليه، وذلك لوفاة أبيها وهي صغيرة. وقيل عن زكريا إنه كان من نسل لاوي، يعني أنه كان منذوراً للكهانة والنبوة، وأنه امتد به العمر، ولمّا توفي دفن إلى جوار صاحبه حجي. وله سفرٌ باسمه، «سفر زكريا»، ويقال أيضاً «نبوءة زكريا» والمرجّح أنه كتبه أثناء حُكم داريـوس الفارسي، حوالى سنة ٥٢٠ق.م، ويحفل بالرؤى والنبوءات، ومنها نبوءته الغبية عن مصر والمصريين، يقول: «تنالها الضربة (يقصد مصر) التي يضرب بها الربّ الأمم. هذا مصـير خطيئة مـصر»، وكلام زكريا في السفر له خبيء وفـيه الكثير من التورية، وما أكثر ما يتمنى أنبياء إسرائيل الشرّ لمصر والمصريين!

وأما قصة زكريا في القرآن فموضوع آخر تماماً، وفى سورة الأنعام يأتى أن زكريا من الصالحين(٨٥)، وأن ربّه فضّله على العالمين (٨٦)، ويظهر تفضيله بأن تُستهلّ به سورة مريم، فيصفه الله تعالى بأنه عَبْدُه، وأنه رحمةٌ، وينبّه إلى معنى اسمه فى أول كلمة من السورة «ذكرُ»، حيث الاسم كما سبق يعنى المذكور، أو المذكور بالخير، يقول تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ (مريم). والقرآن لا يتابعه من مبتدأ حياته وإنما وهو فى شيخوخته وقد أوغل فى العمر، وكانت امرأته عاقراً، وهذا هو الذى جعله يكفل مريم، والكفالة هنا معناها التبنّي، فقد كانت مريم يتيمة، ومات أبوها وأمها حاملٌ فيها، فلمّا رأى بركات الله على مريم، وأن الله يرزقها بغير حساب، تحركت فيه غريزة الأبوة، وتمنى لو كان له ولد: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾(مريم)، وذكْر العَظْم فى دعائه أو شكايته، لأن العظم عمود البدن وأصل بنائه، وبه قوامه، ، لأنه أشد ما فيه وأصلبُه، فإذا وَهَن كان ما وراء العظم أوْهَنَ منه، وتداعت به سائر قوته وتساقطت، وأهل الطب يسمون هذا الوهن: هشاشة العظام، ولا تتبين الهشاشة إلا فى الشيخوخة المتأخرة، وفيها يشتعل الرأس شيباً، والاشتعال من شأن النار تنتشر بسرعة، وكذلك كانت شيبة زكريا، دبتّ فى رأسه بسرعة، وظهرت علاماتها لا تخطئها العين، حتى أتت على الرأس كلها، وطبعت أطراف الشعر ومنابته. وموقف زكريا كان الأولى فيه أن يذكر نعمَ الله عليه، ولكنه وصّف حاله، وأظهر ضعفه، وأوضح أنه ما طلب من ربّه طلباً ولا دعا بشيء، إلا استجاب له، ومعنى ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾، يقال «شقى بالشيء» إذا تعب فيه ولم يحصل عليه، وزكريا كان يتحقق له ما يتمنى، وخوفه من الموالي ـ أى الأقارب من عُصبته التى ترثه، كان يخاف أن يرثوه كلالةً، وأشفق أن لا يكون وريثه ولده من صُلبه، والوراثة فى حالة زكريا وراثة مال وعلم ونبوة، ولذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (مريم ٦)، فالمال يرثه منه، ومن آل يعقوب يرث الحكمة النبوة، ويعقوب هو النبىّ ابن إسحق وحفيد إبراهيم. والمشكلة فى حالة زكريا أنه كان عقيماً بحكم السن، وكانت زوجه عاقراً بطبيعتها، قيل: اسمها اليصابات، وهو اسم يونانى، وبالعبرية هى اليشبع، ومعنى الاسم «قَسَمة»، وربما كانت قريبة لحنة أم مريم، وقد تكون أختها، والحديث عن النبىّ ﷺ يُحتج به، يقول: «فلقيتُ ابنيّ الخالة يحيى وعيسى»، ويحيى ابن اليصابات، بينما عيسى ابن مريم، والمعنى أن اليصابات ومريم أختان، والصحيح أنهما ليستا أختين، والحديث كما نرى، لا يجزم بأنهما

ابنا خالة على الحقيقة، فمن المحتمل أنه قال ذلك تجاوزاً، على طريقة الساميين فى التعبير عن القرابة، فإمـا يُنسَبون إلى العم، أو الخال، أو الجدّ الأكبـر، ونحن ـ المصريين ـ نفعل نفس الشيء، وبحسـب إنجيل لـوقا (١/ ٥ ـ٤٥) فإن أم يحيى، وأم عيسى، كـانتا قريبتين وصديقتين.

وفى سورة الأنبياء قال زكريا: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾، فكأن الاستجابة كانت لأنهما ـ زكـريا وزوجه ـ كانا دائمى الدعاء رَغَباً ورَهَباً، يعنى فى حال الرخـاء، وحال الشدّة، وفى الحالين كانا يُظهران الخـشية لله، وكانا تقيين ورعين، وهذا ما جعل، زكريا من الأنبياء، وإن كان كما قيل من الأنبياء الصغار.. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ فيه أن العقر كان بالزوجة دون زكريا. ويتصل بإنجاب زكريا قصـته مع مريم أم عـيسى، ومن بركاتها أن وجودها فى حياته شحنه نفسياً، فطلب من ربّه أن يكون له الولد التقى مثل مريم. وفى الطب النفسى قد يحدث الحمل فى العاقر إذا دبّت فيها الغيرة بسبب من الأسباب، والغيرة منها الإيجابى ومنها السـلبى، وغيرة زكريا وزوجه من مريم من النوع الإيجابى، فلم تصدر عن حسد، على عكس غيرة سارة زوجة إبراهيم من هاجـر. فلما ولدت هاجر إسمـاعيل، حملت سارة غيرةً من هاجر، مع أنها كانت عـاقراً. وفى سورة آل عـمران أن أقـارب حنة أم مـريم، اجتمـعوا لمّا ولدت، وألقوا أقـلامـهم، يعنى أنهم كانوا غـالباً من الكتبـة، وإلقاء الأقلام كإلقـاء القداح والسهام فى الجاهلية، وكانوا يقترعون بهذه الطريقـة لمعرفة من يكفل مريم، وكان إلقاؤهم للأقلام فى الماء الجارى، وهى من البوص فـتطفو، فيجُريها المـاء، فإذا وقف القلم، ولم يجر مع الماء فصاحـبه الفائز، وأهل مـريم ألقوا أقلامهم وألقى زكـريا معهم، فجـرت الأقلام إلا قلم زكريا، فكانت آية له لأنه كان نبياً، والأنبياء تجرى على أيديهم الآيات. وقد أفاد المسلمون من هذه الواقعة فى حياة زكريا ومريم، أن أثبتوا بها القُرعة، فصـارت من الشرع لمن أراد العدل فى القسمة، وهى من السُنّة التى يُحتَجّ بهـا، وتطمئن بها قلوب المقتسمين، وترتفع بها المظنة عمن يتولى إجراء القسمة لهم. وعمل بالقرعة ثلاثة أنبـياء: يونس، وزكريا ونبيّنا محـمد عليـهم السلام، وهـى كـالإجمـاع فيما يقسم بين الشـركاء، ومثلهم مِثْل القوم فى الحديث النبوىّ الذين استهموا على سفينة، وفى الخبر أن عثمـان بن مظعون طار سهمه فى السكنى حين اقترع الأنصار سُكنى المهاجرين، وحدّثت عائشة أن الرسول ﷺ كان يقرع

بين نسائه، فأيتهن خــرج سهمها خرج بها. فذلك إذن زكــريا، وتلك بركاته، وقد ورثها منه عن حقّ ابنه **يحيى**. (**انظر قصة يحيى** بن زكريا).

•••

٨٩٧. ﴿هل قتل اليهود النبيَ زكريا؟﴾

فى قصة **زكريا فى** القرآن قال فى دعائه: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي**﴾(مريم ٤)، وقال: ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾(مريم ٦). والمفسرون من المسلمين ذهبوا إلى أن خوفه من أن **يرثه أقاربه**، وأنه ورّث ابنه يحيى **العلم**، أو أنه ورّثه **النبوة**، إلا أن التفسير الأفضل هو ما جاء فى التوراة، ففى **سفر أخبار الأيام الثانى** أن والد زكريا كان **يويا داع**، وكان كاهناً أيام الملك يُوآش، وكان يجمع الكثـير من الفضة من اليهود رسمــاً عليهم من أيام موسى، وأنه عاش طويلاً وشبع من الدنيا ومات عن ثروة آلت إلى ابنه **زكريا** الذى صار كاهناً مثل أبيه، وكان مصلحاً مثله، فلما زاغ الـشعب عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، وقف زكريا ضد الناس، فكرهوه وكرهه الملك، فهذا إذن هو تفسير قول زكريا: ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي** ﴾، وقوله: ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾(مريم٦)، وتحالف الشعب على زكريا ورجمــوه **بالحـجارة** بأمر الملك فى بيت الربّ، ولـم يرحمه الملك، ولم يــذكر خدمات أبيه له، بل قتل ابنه، فقــال زكريا وهو يموت: «**ينظر الـربّ ويطالب**»، وربما لقــوله هذا صلة باسمه «زكــريا» ويعنى «**الربّ يذكـر**». وقوله: «**ينظر الـربّ ويطالب**» يعنــى أن الله يرى ظلمهم له وسيعلمون عاقبة الظلم، وقد حدث، فإنه لم تكد السنة تمر إلا **وجيش أرام قد** زحف على **مملكة يهوذا** وعلى **أورشليم**، وأهلك جميع رؤساء الشعب، وغنم كل شىء، وانتقم الله من الملك فقتله عبيده من أجل دم زكريا (٢ أخبار ٢٤/ ٢١ ـ ٢٥).

ونبّه **لوقا فى** إنجيله إلى مقتلة النبىّ زكريا، فقال على لسان **المسيح**: «**الويل لكم فإنكم تشيّــدون قبــور الأنبياء وآبــاؤكم قتلوهم، فــأنتم شهود بأنكــم راضون بأعمــال آبائكم، لأنهـم هم قتــلوهـم وأنتم تشيــدون قبــورهم. ومن أجل ذلك قالت حكمــة الله: أُرسِلُ إليهــم أنبيــاء ورسلاً، فمــنهم من يقتلون ومن يطردون، لكـى يُطلَب من هذا الجيل دمُ جـميع الأنبياء الذى سُـفك منذ إنشاء العالم، من دم هابيل إلى دم زكــريا الذى قتل بين المذبح والبيت!**» (١١/ ٤٧ ـ ٥١)، وفى كلام المسيح ما يسميه أهل الأدب **السخرية الدرامية dramatic irony، لأنه تكلم عن الموت قتلاً للأنبيــاء، وكان لا يعلم أنه سيموت نفس الميتــة، فيالـسخرية الأقدار! والجـديد أيضاً فى مقالة** المسيح السابقة أن هابيل كان نبياً!

•••

٨٩٨ ﴿زكريا قتله اليهود بين الهيكل والمذبح﴾

اليهود يفعلون أى شىء، ويستحلون دماء الناس ولو كانت دماء الأنبياء، ويسفكونها فى أى مكان ولو كان على المذبح، وشهد المسيح بذلك، يقول: «الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، فإنكم تُشبهون القبور المجصَّصة التى تُرَى للناس من خارجها حسنة وهى من داخلها مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. كذلك أنتم: يرى الناس ظاهركم مثل الصدّيقين وأنتم من داخل ممتلئون رئاء وإثما. الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون فإنكم تشيّدون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصدّيقين، وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما كنا شاركناهم فى دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم بنو قتلة الأنبياء، فَجَمِّموا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيّات أولاد الأفاعى، كيف تهربون من دينونة جهنم! من أجل ذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم من تقتلون وتصلبون، ومنهم من تجلدون فى مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة، لكى يأتى عليكم كل دم زكى سُفك على الأرض من دم هابيل الصدّيق، إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح.. يا أورشليم، يا أورشليم، ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين» (متى ٢٣/٢٧ ـ ٣٧). وفى هذا النصّ الرائع كل إدانة لليهود، وفيه أن هابيل كان صدّيقاً على عكس ما فى إنجيل لوقا، فإنه قال أنه كان نبياً. ويرد الصلب فى كلام المسيح عن الأنبياء، وهونفسه المصلوب! وفى القرآن عن هذا القتل للأنبياء الذى يقوم به اليهود: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾(آل عمران١٨١)، قيل بلغ من قتلوهم من الأنبياء على الصخرة فى الهيكل سبعين نبياً منهم زكريا وابنه يحيى! والأول قتلوه رجماً، والثانى قتلوه بالسيف!

•••

٨٩٩. ﴿زكريا بين القرآن والإنجيل﴾

لمّا بُشرِّ زكريا بابنه يحيى، أراد علامة من الله ـ أو آية كما يقول القرآن، أجابه جبريل أن آيته أن يصمت فلا يستطيع أن يتكلم إلى يوم معلوم، ولم يتكلم إلا فى اليوم الثامن من ولادة يحيى. وهذا الصمت الذى أصيب به كان عقاباً له أنه لم يصدّق جبريل (لوقا / ١٨ ١). وفى القرآن لم يكن الصمت عقاباً، ولكنه إرادى وسيقوّيه الله ويُقدره ويشدّ عزمه، ولذلك كان صمته آية من الله قال: ﴿ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً﴾(آل عمران٤١)، وفى إنجيل لوقا أنه كان يكلمهم بأن يكتب ما يريد فى لوح، ولمّا طلبوا منه اسماً لابنه، كتب فى اللوح: يحيى.

•••

﴿النبىّ يحيى﴾

٩٠٠. ﴿قصة النبىّ يحيى بين التوراة والقرآن﴾

فى **الأبوكريفا**، أى كتُب العلوم الباطنية اليهودية أن اسم يحيى، هو **يوحنا**، وكذلك فى الأناجيل، من **يوحانان أو يوحنان** أى **حنان الله** كما نقول «**لطف الله**»، و«**منّة الله**»، و«**عطية الله**». وفى القرآن **هو يحيى**، لأنه رغم ما سيجرى له سيظل اسمه **حياً** فى النفوس ويتذاكره الناس؛ والاسم نبوءةٌ بما ينتظره من القتل، وكأن الاسم نقيض المآل؛ وهو **يحيى لأنه عاش** بين أب شيخ وأم عجوز، فـهو الحىّ بين اثنين من الموتى؛ وأخيراً **هو يحـيى**، لأنه كـان **معـجزةً حـيةً**، فقد وُلد لأب عجوز قد بلغ من الكِبَـر عتياً، وأم عاقر ظلت كذلك طوال حياتها مع زوجها زكريا. واسم أمه **اليصابات** بالإغريقية، **واليشبع** بالعبرية، يعنى«**قسمة**»، أو «**قـسـمـة الله**»، يعنى ما **قضى الله** سبحـانه به عليها. وفى إنجيل **لوقـا هــو يـوحنـا المعمدان**، لأنه كان على مذهب **المعمودين**، وهم الذين كانوا يقبلون **العماد** بعد أن يعترفوا ويعلنوا التوبة، **فيعمّدهم يوحـنا فى نهـر الأردن**، **والعـماد** هو الاغتسال بقـصد التطهُّر، والمعموديون كانوا **متطهّرين**، ولم يخترع يحيى العماد، فواضح أنه كان موجوداً منذ **إبراهيم ولوط**، وعاب قوم **لوط** عليه أنه ممن **يتطهّرون** (الأعراف ٨٢ والنمل ٥٦). والعماد فى النهر عنـد **الـهنـدوس**، وإسهام يوحنا فيه أنه عمّمـه وأعطاه قداسة، وعمّق معناه، وجعله آية المؤمن، **فالعماد كالختان**، والأول **دليل التوبة الأبدية**، والثانى **دليل الطاعة والانقياد لله**، ولمّا حملت **مريم** فى المسيح، كانت **أم يحيى** حاملاً فيه فى **ستة شهور**، ويحيى على ذلك أكبر من المسيح **بستة شهور**، وتركز الأناجيل على يحيى **باعتباره داعيةً للمسيح، لا باعتباره داعية لله**. ونشأ يحـيى زاهداً، وسلك كالنبىّ **إلياس (إيـليا)**، فكان يلبس الصـوف، ويشدّ على حقويه منطقة من الجلد، ويطعم مما فى الطبيعـة من أوراق الشجر والثمار البرية، والجراد، والعسل البـرى، وهو مثلٌ أعلى للصوفيـة ويقتدون به، وكان عـمله أن يصرخ فى الناس محذّراً وداعياً إلى التوبة، ولذا اصطدم بعنف بالحاكم العبرانى **هيرودس** وزوجته **هيروديا**، وكانت من قبله زوجةً لأخيه، ولكنها عشـقت هيرودس، وخانت زوجها معه، ثم تآمرت عليه مع عشيـقها، وأوعزت إليه أن يقتله وهو أخوه، وأحنقهـا يوحنا أن يلغط فى حقها، ويؤلّب زوجها عليها، فكادت له وسجنته، وحرّضت ابنتها **سالومى** أن توسوس لهيرودس أن يقتل يوحنا، وأن يُحـضر رأسه إليـها على طبق، وأسكرت سـالومى هيرودس إلى أن طلب إليها أن ترقص له، فامتنعت إلا أن يُحضر لها **رأس يوحـنا**! وكان أن أحضره لها،

وانتهت بذلك قصة يوحنا فى كتُب اليهود، وكانت قصة عادية نشهد مثلها كثيرًا ونسمع بما يشبهها عن دعاة للإصلاح والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وإنما أشهرها ما انتهت إليه حياة يوحنا على يد سالومى وأمها هيروديا، وما قيل عن جمال سالومى ورقصها الشهوانى البارع وغوايتها الشيطانية، فكثرت الكتُب والمسرحيات والروايات عنها وعن يوحنا، وأما قصة يوحنا أو يحيى فى القرآن فلها شأن آخر، وتتسامى عن هذا الهذر الذى خالطها بسبب علاقة يوحنا بسالومى وأمها. وقصة القرآن تحفل بالبلاغة والبيان وفنون القصّ، وفيها الموعظة والحكمة. ويقول القرآن: إن زكريا لمّا كفل مريم وعاين كراماتها، دعا ربّه أن يكون له ولد يرث عنه المال، ويرث عن آل يعقوب الحكمة والنبوة (مريم ٧)، ونفهم إذن أن يحيى من نسل يعقوب، ودعا له زكريا فقال: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (مريم)، فنادته الملائكة فى المحراب: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ (مريم)، والرَضىّ هو المَرْضىّ والراضى بقضاء الله فيه، وتعنى البشارة بيحيى أن دعاء زكريا استجيب له، وهذه كرامة لزكريا، وأنه أعطى الولد ليكون له قوة كما تمنّى، وأنه أُفرد باسم يحيى أو يوحنا، لم يتسمّ به أحدٌ من قبله، وفى ذلك دليل على أن الأسامى السُّنُع - أى الجميلة أو الفريدة - جديرةٌ بالأثرة، أى يستأثر بها الصفوة من النابهين من أهل الله. ولمّا بُشّر زكريا تعجّب أن يكون له الولد وهو قد تجاوز أن يولد له، وظلت امرأته عاقرًا طوال حياتها، ولكنه كان مؤمنًا ويعرف أن مَن خَلَقَهُ ولم يكن شيئا قادرٌ على أن يؤتيه سؤله، وظل متشككاً مع ذلك أن تكون البشارة مجرد رؤيا، أو أن تكون تهيؤات وهلاوس يوحيها الشيطان، فطلب آية، فكانت آيته أن لا يكلم الناس: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴿١٠﴾﴾(مريم)، وفى الرواية الثانية ألاّ يكلم الناس: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾(ال عمران)، بمعنى الصيام عن الكلام مع الناس إلا بالإشارة، وكان هذا النوع من الصيام معروفًا، فإذا صاموا كانوا لا يتكلمون إلا رمزاً. والآية لا تتعارض والحديث النبوى الذى يقول: «لا صَمْتَ يوماً إلى الليل»، يعنى لا صَمْت عن الذكر، وفى آية زكريا أن يسبّح بُكرةً وعشيا، والتسبيح والذكر يكون مع النَّفْس، وأما الكلام فيُوجَّه إلى الغير، فلما عمل زكريا بما أمره ربّه كانت مثوبته كما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خَاشِعِينَ (٩٠)﴾(الأنبياء)، فكأن يحيى كان هبة الله لزكريا، ومكافأته تعالى على تقواه؛ **وإصلاحه** لزوجه بأن جعلها تتهيأ للحمل، وتقوى عليه وعلى الولادة ثم الرضاعة، وهى مدة ثلاثين شهراً؛ وقوله **يسارعون فى الخيرات** إشارة إلى **زكريا وزوجه ومعهما يحيى**، فكانوا جميعاً محبّين للخيرات، وفاعلين لها، ويتّقون ربّهم ويدعُونه لا ينسونه أبداً، لا فى السرّاء ولا فى الضرّاء، فمرةً يدعونه شُكرًا ومحبّة،و مرةً دعاؤهم له خشوعاً وخوفاً.

واسم «**يحيى**» كان هبةً من **الله** أوحى به إلى زكريا، **والاسم يلخص حياة صاحبه**، ويحيى كان بالنسبة للدعوة **حياة ثانية تتدفق بالحيوية**، وتحقّق به دعاء أبيه لربّه: ﴿**هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)**﴾(آل عمران)، أى نسلاً صالحاً، **والذرية** تكون واحدة، وتكون جمعاً، وتكون ذكراً وأنثى، وما كان زكريا يعنى إلا **ولداً واحداً**، يدل على ذلك قوله: ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥)**﴾(مريم) ولم يقل أولياء،ولم يكن تأنيثه لـ «طيّبة» إلا لأن لفظة ذرية مؤنثة، فلمّا دعا مخلصاً استجيب له: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)**﴾(آل عمران)، يعنى جاءته البشرى فور الدعاء فى المحراب وهو يصلى، أنه يولد له يحيى، قيل سمّاه الله لأنه أراد له أن **يحيا** للإيمان والنبوة، وأن يهب نفسه لهما،ويكرّس حياته من أجلهما؛ وقيل سمّاه الله تعالى **يحيى** من اسمه تعالى «**حيّ**»، وتصديقه **بكلمة** من الله، قال النصارى: إنه تصديقه **لعيسى**، لأن عيسى هو **كلمة الله**؛ وقيل: هو تصديقه لكتب الله تُجمَع فى كلمة، تقول استمعنا إلى **كلمة** وتعنى إلى **خطبة**، فاختُصر الكثير فى القليل؛ وفى الأناجيل أن يوحنا كان أول من آمن **بعيسى وصدّقه**، لأن عيسى كان الأعلى منزلة عند ربّه، وكان أبلغ منه وأفصح، وشخصيته أقوى، والأنبياء يتفاوتون فى الأفضلية، ومع ذلك فقد كان يحيى **سيداً**، يعنى كان له حضوره،ويُذكر عن النبىّ ﷺ أنه قال فى الحسن: «**إن ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»، ويحيى كان سيداً ولا أسْوَد ممن سوّده الله تعالى،وسيادته ليست سيادة دنيا أو جاه،ولكنها **سيادة عبادة وتُقى وزُهد**،ولذا كان **حصوراً**، أى يعاف النساء ولا يحتاجهن، وآثر صُحبة الله على **صحبة النساء**، ومن الصحابة زمن النبىّ ﷺ من حاول أن يكون على **طريقة يحيى**، **كعثمان بن مظعون**،وشكت زوجته إلى عائشة أنه يتمنّى لو يكون حصوراً، وأن يفرغ خصيتيه، **والحصور** هو من يحبس نفسه عن النساء مع أنه قادر عليهن، وغايته أن يمتنع عن الشهوات. والحصور بخلاف **العنّين** الذين يعجز عن إتيان النساء لعيب خِلْقى فيه، **والعُنّة النفسية** أن يكون عجزه لأسباب نفسية، فأما **الحصور** فإنه الحابس نفسه عن معاصى

الله طوعــاً **بلا علة**، نفسية أو عضوية، لأنه كـان نبياً من الصالحين، يعنى من المخلَصين الذين كرّسوا أنفسهم للعبادة وللخدمة، وصلاحه أنه يؤدى لله ما يقرّبه إليه، ويؤدى للناس ما تقوم به حياتهم في الدنيا والآخرة.

●●●

٩٠١. ﴿اسمه يحيى﴾

اسم «**يحيى**» من **الحياة**، لأنه سيموت ويقتله أعداؤه ولكنه «**يحيا**» بعدهم، ويظل اسمه تردده الألسنة بالذكر الحسن، ومن ذلك أنه ما من نبيّ قـال عنه ربّه مثلما قال عن يحيى، قال: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴿١٥﴾﴾ (مريم١٥). وأوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مـواطن: **يوم يـولد** فيـخرج إلى دار الهَمّ والغَمّ، **ويوم يمـوت** فيـعاني السكرات ويدفن في التراب ويُترك وحـيداً إلا من جيران من عظام ورمم، **ويوم يُبعث حـياً** فيشهد ما لم يشهده من قبل مما يشيب له الولدان. فأما يحيى فله السلام في هذه المواضع الثلاثة، **فلم يبك لمّا وُلد، ولا اغتمّ يوم قُتل، ويوم يبعث، فبعثُه** عند ربّه **في جنات وعيون**. وهو في **الثـلاثة**: الحيّ الذى لا تموت له ذكرى أبداً،وقال فيه المسيح: «**لم يقم بيـن المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا المعمدان**» (متى ١١/١١)، وكان يوحنا يعيش مثل إيليا النبيّ، ويلبس مثـله، ولم يكن يظن أنه شيء، وقال عن نفـسه إنه: «**صـوت صـارخ في البـرية**» (يوحنا ١/١٣)، وسنظل نذكـر اسم قلعة «**مخيـروس**» المطلة على البـحر الميت لأن يوحنا سُجن بها إلى أن قتلوه وفصلوا رأسه، ثم حملوا الجسد الطاهر إلى «**سبسطيا**» ودفنوه هناك بجانب قبـر النبيين **اليسع وعـوبديا**، فالشبيه يسعى إلى شبيهـه، وأما تلاميذه فتبعوا المسيح كطلب معلمهم (متى ١٤/٣-١٢، ومرقس ٦/٢٦-٢٩، ولوقا ٣/١٩-٢٠)، فإن كان يوحنا قد مات جسداً فما ماتت تعاليمه وظلت حيّة، وظلت فرقته «**المتطهرون**» باقية أبدًا.

●●●

٩٠٢. ﴿زمن المسيح زمن استشهاد﴾

كان زمن المسيح عجيباً بكل معاني الكلمة، ففيه **قُتل النبيّ زكـريا رجماً**، قتله اليهود بموافقة مليكهم يوآش؛ **وقُتل النبيّ يحيى بالسيف**، أهوى به الجلاد على عنق النبيّ في عهد **هيـرودس**، وكانوا قد سـجنوه في قلعة **مـخيـروس** على البحر الميت، مـقيداً بالأغلال والأصفاد، ولما قـتلوه فصلوا الرأس عن الجسد، وقـدّموا الرأس على طبق إلى **هيــروديا** الزانية امرأة هيرودس، والذين اشتركوا في الجريمة جـميعهم من اليهود؛ وكما قيل ـ قـتل

المسيح صلباً بناء على حكم السنهدريم، (مجلس علماء اليهود)، فى عهد هيرودس أيضاً، وأصر اليهود على الصلب فسلّمه بيلاطس لهم، وغسل يديه وأعلن براءته من دمه، وسمّاه صدّيقاً، ثم جُلد المسيح وأسلم للصليب، وقال اليهود مقالتهم المشهورة: «**دمه علينا وعلى** أبنائنا» (متى ٢٧/ ٢٦). فأى ناسٍ هؤلاء اليهود؟! وأى زمن كان ذاك الزمن؟!!

•••

٩٠٣. «قصة امرأة عمران»

امرأة عمران هى أم مريم، أم المسيح عليه السلام، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)**﴾(آل عمران). والقرآن الكريم لا يذكر اسمها، ولم يرد ذلك فى الأناجيل، ولا أعمال الرسُل من كتب النصارى، ولم يرد فيها ولا فى القرآن اسم والدها، ولا اسم **زوجها** الذى منه وُلدت مريم، **وإنجيل لوقا** (١/ ٢٧) هو الوحيد الذى يقول: إن **يوسف النجار**، زوج مريم فيما بعد، كان من سبط **يهوذا** من نسل **داود**، ولذلك قال النصارى إن مريم كانت من سبط يهوذا كذلك، وهذا رجمٌ بالغيب، فلا أحد يعرف حقيقة نسب مريم. والقرآن هو الوحيد الذى ينسب مريم **لآل عمران**، وليس القول فى الآية «**امرأة عمران**» أن زوجها اسمه **عمران**، وإنما المعنى أنه من **آل عمران**، والعرب ينسبون إلى العشيرة ويقولون الهاشمى، ويا هاشمى، نسبةٌ إلى آل هاشم، وفى حالة امرأة عمران ينادونها «**أم عمران**». **والعمرانيون** من عشائر اليهود، ورئيس العمرانيين هو **لاوى بن قهات**، أبو موسى (خروج ٦/ ٢٠)، وينطقون الاسم **عمرام**، وهم **العمراميون**. ومعنى **عمران** أو **عمرام** أنه **كبير العائلة** أو العشيرة أو هو **الشيخ الكبير**. وتفسير «**امرأة عمران**» إذن هو أن أم مريم كان زوجها **عمرانياً**، **وسورة آل عمران** تتناول بالذكر قصص الأنبياء والصالحين من هذه الدوحة المباركة: **آل عمران**. وفى بعض كُتب التفسير العربية المتأثرة **بالإسرائيليات** يأتى اسم امرأة عمران: **حنّة، وهى المقابل لحنان** العربية. واسمها غير مهم بحسب القصة، ولو ذكر القرآن أنه **حنّة** لأصبح هذا الاسم ضمن الأسماء العربية، ولزاحم اسم **حنان** العربى، ولولا أن اسم مريم كان مهماً لأنها أم المسيح، لما أورد القرآن اسمها. **وحنّة** على وزن **جنّة**، ومن الأسماء القريبة منها اسم: **حبّة، وخنّة**، وكلاهما اسمٌ عربى. ولا يوجد فى أسفار **اليهود** والنصارى من اسم حنة إلا حنة زوجة **القانة**، وكانت عاقراً مثل امرأة

عمران، ونذرت مثلها إن ولدت ولداً تخصصه لخدمة الربّ، فولدت صموئيل الذى يقال إنه كان نبياً على طريقة بنى إسرائيل، وولدت حنة الأخرى - أى أم عمران - مريم وكانت أنثى، ويبدو من تسميتها لمريم أن ولادتها كانت مستعصية، لأن اسم مريم معناه العاصية - يعنى أنها لم تولد ولادة ميسّرة. ولابد أنها ولدتها وكانت كبيرة فى السن أو أن تعسُّرها فى الولادة كان لأنها بكر لم يسبق لها الولادة من قبل، ولمّا حملت فيها لم تصدق، ولذا نذرت ما فى بطنها لله، أى للعبادة وهو معنى «محرَّراً»، أى محرَّراً من علائق الدنيا، ومنذوراً لشكره تعالى طوال عمره، والعرب يقولون فى الابن الموهوب لله «المحرَّر» أو «العتيق» وذلك جائز فى عُرفهم، وكان عند العرب فى الجاهلية، كما أنه جائز فى الشريعة اليهودية، واعتراض حنّة على مريم بأنها أنثى، أن الأنثى لا تصلح لخدمة الربّ كالذكر، لأن الأنثى تحيض ولا تصلح لمخالطة الرجال. والولد أحظى عند الأمهات من البنت. وتتمنى الأمهات أن يكون مولودهن ولداً، لأنه آنس لهن ويسكُنّ إليه. والمحرَّر مأخوذ من الحرية التى هى ضد العبودية - وأسوأها عبودية الدنيا. وامرأة عمران نادت ربّها، وبيّنت الفرق بين الولد والبنت، ولم يكن ذلك إعلاماً منها لله تعالى ولكنه تسليمٌ وخضوع، وتنزيهٌ له أن يخفى عليه شيء، تثبيتاً منها لإيمانها بقضائه وحُكمه، واستعاذةً به من الشيطان الرجيم.

●●●

«قصة مريم»

٩٠٤. «معنى اسم مريم»

فى الأدب النصرانى أن مريم اسم عبرى معناه «العاصية»!. وفى الأدب اليهودى الدينى أن اسم ميريام **Miriam** أو ماريام **Mariamme** ليس له أصل معروف، وربما هو اسمٌ مصرى تسمّت به مريم أخت موسى، ومن ثم دخل فى التراث العبرى. وفى المصرية القديمة فإن ميرى **Meri** يعنى الحب، ومنها الاسم ميريت، ومريم على ذلك هى المحبوبة. غير أن اسم ميرى فى المصرية القديمة قد يعنى كذلك العبادة، ويكون معنى مريم فى المصرية القديمة هو العابدة، أو التقيّة، أو العفيفة، وكانت حياة مريم أخت موسى كذلك. وأم السيدة مريم كانت عمرانية، أى تحمل التراث العبرانى المصرى، فأسمت ابنتها مريم تيمّناً باسم مريم أخت موسى، يعنى أنها العابدة. وفى القرآن ما يؤكد ذلك، فقد ورد عنها أن الملائكة قالت لها: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

(٤٢)﴾ (آل عمـران)، فلما ولدتها أنبتها ربُّها نبـاتًا حسنًا، وعلّمها أن تقنت وتسجد وتركع مع الراكعين: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ (آل عمران)، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمـران ٣٧)، ولما حان الحين جاءها جبريل برسـالة ربّها، وبشّرها بكلمة منه تعـالى ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمـران ٤٥)، ودافع عنها الله تعالى ضد اليهود وبرأها، ووصف مـا قالوه فيها بأنه بهتان عظيم ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦)﴾ (النساء)، وضرب بها المثل وقال فـيها أكرم وصف يمكن أن يقال عن امرأة: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحريم ١٢)، ورفعها مكاناً علياً، فكلما ذُكر ابنها قيل فـيه إنه ابن مـريم، تأكيداً لبشريته، وإعزازاً بانتـسابه إليها، وذلك كله يثبت أن مريم كانت فـعلاً «العـابدة» كما أشار إلى ذلك اسمها بالاعتـبارات الإيتيمولوچية المصرية وليس بالاعتبـارات اليهودية ولا النصرانيـة. وبهذا الاسم «مــريم»، تلخّصت حـياتهـا وتأكد مستقـبلها. ومريم إذن هى «خـادمـة الربّ»، كرّستها أمهـا لهذه الخدمة، فهى آناء الليل والنهار فى المعبد للصلاة والذكر والصيـام. ونزّهها القرآن تماماً على عكس ما فعل إنجـيل لوقا، فلم يزوّجها القرآن من أحد، ولم يرد فيه أنها تزوجت إطلاقاً، وربما لم يكن لزواجها تأثير على أمومتها لعيـسى فلم يذكر ذلك عنها، وإنما الزواج يناقض أنها كانت منذورة لله ولخدمتـه، ويتناقض أيضًا مع إنجـابها لأربعـة أولاد بخلاف المسيح (متّى ١٣/٥٥)!وفـى الأناجـيل أن مـريم تزوجت يوسف النجـار وهى حامل فى المسـيح، وولدته ونسبـته إلى يوسف؛ وقيل إنه لمّا علم بحملها وكانت آنذاك مخطوبة له، فكّر فى فسخ الخطوبة من غير ضجـة ودون فضـائح، وبلا أى أذى يلحق مريم أو يـشين اسمهـا، وانتهى بـه الأمر إلى الزواج منهـا وهى حامل، ولكنه لم يقـربها كزوج، فلـما قاربت على الوضــع أخذها من الناصرة إلى بيت لحم لتلد هناك فلا يعلم بولادتها أحد، ويصونها من ألسنة الناس وثرثرة الجـيـران (لوقـا ٢/١-٥)، واضطر للهرب بهـا وبابنها إلى مصر، وظل بهـا إلى وفاة هيرودس. وقيل إن أولاد مريم الأربعة بخلاف المسيح لم يكونوا أولادها على الحقيقة وإنما أولاد زوجهـا يوسف من زواج سابق، وأمـا مريم فبـحسب العـقيدة ظلـت عذراء برغم ولادتها للمسيح! (متّى ١/٢٥)، ويقال عنها أحيانًا مريم البتول أى تاركة الزواج. وهاتان الصفتان «العذراء» و«البتول» من الصفات المتصلة بالجنس والبكارة، فكأن ما يهمّ النصارى هو التأكيد على أن مريم «عذراء» وأنها «بكر» وهى مما يهتم لهما المهمومون بالجنس، فلماذا إذن نقد المسـتشرقين لختـان البنات عند المسلمين والقول بمحورية الجنس عندهم لاهتمامهم بالختان سواء عند الإناث أو الذكور؟!فالحال من بعضـه كما يقولون. والخلاصة: أنه شتّان

بين نظرة القرآن لمريم وأقواله فيها، وبين نظرة الأناجيل لها وأقوالها فيها، والفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض! (**انظر أيضاً سبب تسمية المسيح بعيسى**).

•••

٩٠٥.﴿هل أخطأ القرآن أن جعل مريم أختاً لهارون؟﴾

ينتقد المستشرقون من اليهود والنصارى على السواء، القرآن باعتباره كتاباً تكثر به الأخطاء، من ذلك أنه جعل مريم - أم المسيح - **أختاً لهارون** شقيق موسى في الآية: **﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾** (مريم ٢٨)، مع أن ما بين مريم وبين أخت هارون أمدٌ بعيد!! ولم يكن جديداً ما قاله المستشرقون، فقد أثار آخرون مثله في حياة النبيّ ﷺ، واعتبروا هذه الآية زلّة تاريخية من النبيّ ﷺ ولهذا شنّع بها من أقطاب الكنيسة أمثال **يوحنا الدمشقي، ونيقولا القوساوي، ويوحنا أندرياس**، وآخرون، وأرجعوا الخطأ إلى أن النبيّ ﷺ **كان أمياً**، وجهل لهذا السبب الفرق في الزمن بين موسى وعيسى!! ولم يأت في الأناجيل أن مريم أم المسيح كانت أختاً لمن يدعى هارون، أو أن لها أخاً يُدعى هارون. وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمتُ نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون «**يا أخت هارون**»، مع أن موسى كان قبل عيسى بكذا وكذا!! وقال: فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «**إنهم كانوا يُسَمَّوْن بأنبيائهم والصالحين قبلهم**». وفي رواية أخرى أنهم قالوا للمغيرة: إن صاحبك يزعم أن مريم أخت هارون، مع أن بينهما في المدة **ستمائة سنة**؟! قال المغيرة: فلم أدرِ ما أقول! - إلى أن جاء المغيرة إلى النبيّ ﷺ وقال له وردّ عليه بالقول السابق - بما يعني: **أن مريم كانت من ولد هارون أخي موسى - أي من نسله**، فنُسبت إليه **بالأخوة** لأنها من ولده، كما يقال للتميمي: **يا أخا تميم**، وللعربي: **يا أخا العرب**. وفي القرآن يأتي: **﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾** (الأعراف٦٥)، ولم يكن هود أخاهم فعلاً، ولكنها التقاليد تجعلهم ينادونه هكذا، وكذلك: **﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾** (آلأعراف ٧٣)، وكذلك: **﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾**(الأعراف٨٥) وفي الريف في بلادنا شيءٌ من ذلك، فينادون الناس احتراماً: «**يا خال**» أو «**يا عمّ فلان**»، أو «**أبونا فلان**»، وهم ليسوا كذلك فعلاً ولكنها التقاليد احترامًا للناس. بل إنه في **إنجيل متى** يأتي **في الفصل الثاني والعشرين في العبارة ٤٢: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟** قالوا له: ابن داود». والمسيح لم يكن ابنا لداود! وبينه وبين داود أمدٌ بعيد! إلا **أنها التقاليد**، يَنسبون إلى الأصول، وكذلك **في آية مريم** في القرآن، قالوا: «**ياأخت هارون**» يعني: «**يا من تنتمي إلى**

بيت هارون»، ومع ملاحظة أن مريم كانت قد وُهبت للخدمة، أى أنها اعتُبرت ضمن الكهنوت كالأحبار، ورئيس الأحبار الأول أو الكاهن الأول هو هارون وسمي باللاوى، وموسى هو الذى نصّبه كذلك، وجعل فى أولاده خدمة الهيكل، فيمكن لذلك أن تُنادى مريم باسم من تُنسَب إليه وتتبعه على الطريقة والمذهب، وفي الإسرائيليات عن كعب الأحبار اليهودى المخضرم والدسيسة على الإسلام، أنه كان يتكلم بحضرة عائشة فقال: إن مريم ليست بأخت هارون أخى موسى! فقالت له عائشة: كذبت! فقال لها: يا أم المؤمنين، إن كان رسول الله ﷺ قاله فهو أصدق وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما من المدة ستمائة سنة!! قال: فسكتت، بمعنى أنه أفحمها، غير أن عائشة لم تكذب، ولم يكذب رسول الله ﷺ، ولا القرآن، لأن مريم فعلاً أخت هارون، أى من بيت هارون، نَسَب دين أو نَسَب دنيا، وإلا فما بين مريم أم المسيح وبين مريم أخت هارون وموسى، زمانٌ مديد، وقيل: ستمائة سنة، وقيل: ألف سنة أو أكثر، فلا يُتخيَّل أن مريم أم عيسى كانت أخت موسى وهارون! والذهاب إلى أنها أخت موسى وهارون هوالحُمق بعينه! وإنما التفسير السليم أنها كانت هارونية، من طائفة هارون - الطائفة الكهنوتية، أو كانت من نسل بيته ومن ذريته، والثابت فى الإنجيل: أن مريم من عائلة عمران أو عمرام والد موسى وهارون، وأنها تنحدر من جهة أمها من عائلة هارون، والثابت أنها قريبة لليصابات زوجة زكريا، واليصابات من بيت هارون شقيق موسى، ومن ثم كانت مريم من بيت هارون (لوقا ١٥)، ولذلك لا يُستغرب أن ينسبها القرآن إلى عائلة هارون، كما ينسب الإنجيل المسيح إلى داود ويسميه أباه، وقال: «وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه»(لوقا ١/ ٣٢)، فهل كان داود أباً للمسيح؟ أم المقصود أنه ينحدر منه؟ ثم إن قول بولس فى رسالته إلى أهل رومية عن المسيح: «عن ابنه الذى صار من ذرية داود بحسب الجسد، الذى حَدّد أن يكون ابن الله بالقوة بحسب روح القداسة بالقيامة من بين الأموات وهو يسوع المسيح ربّنا» (١/ ٢ - ٤)، لا يعنى أن المسيح ابن الله على الحقيقة، ولكن بالقوة، بحسب روح القداسة، يعنى أن النبوّة مسألة روحية، لأنها تعنى التبعية الروحية، فكذلك قول القرآن «أخت هارون» قد يعنى بمنطق بولس أن مريم ليست أخت هارون بحسب الجسد وإنما بالتبعية الروحية والصفة الكهنوتية! فأف لهؤلاء المستشرقين ولما يعبدون من دون الحق، أفلا يعقلون؟

•••

٩٠٦. ﴿مريم التى أحصنت فرجها﴾

ضرب الله مثلاً فى الإيمان والعفة عند الإناث من البشر بمريم ابنة عمران، وقال فيها:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾(التحريم)، فلما حملت فى المسيح وولدته اتهمها قومها من اليهود بالزنا، وأن ولدها عيسى ابن زنا، مع أنها كانت من المحصنات، ولأنه تعالى قال أنه تعالى أرسل جبريل إليها فنفخ فيها من روحه، فإنه تعالى أكد أن إحصانها كان أكثر ما يكون لفرجها، فلم يأتها منه أحد، وصانته عن مقارفة الفواحش، فظلت عذراء لمّا حملت، وينفرد القرآن بالقول أن الحمل كان بالنفخ فى الفرج وليس بالمجامعة والإيلاج، وتأكد أنه كان نفخًا فى الفرج، لأن الفرج هو الطريق إلى الرحم الذى يكون فيه الحمل، والنفخ هو مجرد أن يتنفس جبريل بكلمة «كن»، فكان أن حملت. والمحصنة هى العفيفة، وأحصنت فَرْجَهَا حمته وحرزته فكان منيعاً، أى حصيناً، وقيل: إن جبريل تنّفس فى جيب قميصها فوصل ذلك إلى فرجها، والجيب يسمى فرجاً كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦)﴾(ق)، والفرج هو الشق، والجيب شق أو فرج فى الثوب. وما كان من الممكن أن ينفخ جبريل فى جيبها أو فرجها لولا أنها صدّقت بكلمات ربّها لمّا قال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ (مريم٥)، وصدّقت بكتبه، يعنى بالتوراة، وكانت قانتة لم يعرف عنها إلا كل الطاعة ودماثة الخلق، واشتهرت بذلك بين أترابها وأهلها.

•••

٩٠٧. ﴿المستشرقون وقوله تعالى عن مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾﴾

فى الآية: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾(التحريم) قال المستشرقون: كان ينبغى أن يقول محمد: «وكانت من القانتات»، والصحيح أنه تعالى لم يرد من القانتات، لأنه أراد «وكانت من القوم القانتين»، أو أن المقصود أنها كانت من القانتين من أهل بيتها وهم رجال، ومنهم زكريا، ومنهم الذين تقدّموا ليكفلوها وذكرهم القرآن: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾(آل عمران ٤٤) وهم أنفسهم رجال آل عمران، فكانت مثلهم من «القانتين»، وفى العادة أن القانتات قليلات، ولمّا ولدت أم مريم وكانت قد نذرت ما تلد لله، وتبين لها أنها أنثى أصابتها الحيرة فقالت كلمتها المشهورة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ (آل عمران ٣٦) ومع ذلك ضمّتها للمتعبدين وصارت منهم ومن «القانتين» حتى كانت لا تبارح المحراب.

•••

٩٠٨. ﴿هل مريم نبية﴾

يقول القرآن: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي

إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾(آل عمران)

ومعنى أنها نذرت ما فى بطنها محرَّراً، أنها نذرته لخدمته تعالى، أو بالأحرى للخدمة فى الكنيس أو المعبد. وكانت كبيرة لا تلد، وتنتسب لبيت عمران، وهو بيت والد موسى وهارون ورأس العمرانيين، والناس ينادون المرأة (والرجل على السواء)، باسم عشيرتها إذا كان زوجها نكرة. ولأن الأم عمرانية، وتخصيصًا هارون أى من نسل هارون، فإنها كانت تقية ومتعبدة، والهارونيون هم أحبار إسرائيل وكهنتها، فإنها نذرت إن حملت أن تهب حملها لله، وتخصصه لخدمة المعبد وينحبس عليه، ويتفرّغ للعبادة. فلما وضعت مريم كانت تعرف أن الأنثى ليست كالذكر، لأنها تحيض ولا تصلح لمخالطة الرجال. والنساء يطلبن الولد للأنس والاستنصار، وامرأة عمران طلبته نذراً لله، وقالت فيه: «محرراً»، فحرّرته من رقّ الدنيا وأشغالها. فلما وضعتها أنثى سمّتها «مريم»أى «التقيّة»، وقيل «المنذورة» فلما حملت مريم فى المسيح اختلف الناس بإزائها: هل كانت نبيّة؟ والجواب طبعاً للأعراف اليهودية عن النبيّات فى بنى إسرائيل، ومثلها مثل مريم أخت موسى، وديبورا، وحنّة أم صموئيل، وخلدة امرأة شالوم، فهى نبيّة بمقتضى المقاييس اليهودية، وكذلك بمقتضى المقاييس النصرانية، مثلها مثل حنّة بنت فنوئيل، وبنات فيلبس الأربع، وهؤلاء جميعاً كن زاهدات، ولا يفارقن الهيكل، ويتعبّدن بالصلاة والصيام والقيام فى الليل، وكذلك كانت مريم، إلا أن الأناجيل لم تجعلها نبيّة، وزوّجتها من يوسف النجّار، وحوّلت حياتها من حياة الزهد والتقوى إلى حياة الأسرة، وجعلتها تلد أربعة إخوة للمسيح من زوجها النجّار، وسمّتهم «إخوة الربّ» ـ والربّ هو المسيح، وسمّت مريم «أم الربّ» وذكرت أنها مباركة فى النساء، وأنها منعمٌ عليها بنعمة عظمى هى أمومتها للمسيح، وجعلتها قدوة للنساء. وأما القرآن فإنه وصفها الوصف الكامل فقال: إنها «صدّيقة» فما معنى صدّيقة التى انفرد بها القرآن؟

●●●

٩٠٩. ﴿مريم صدّيقة﴾

القرآن انفرد بهذا التكريم لمريم، قال: ﴿ **مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ**

الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾(المائدة ٧٥)، **ومريم إذن لم تكن نبيّة**، وليس معنى صدّيقة أنها أقل حظاً من النبيّات، ولكن النبيّة تتنبأ مثلما كانت **بنات فيلبس الأربع** يفعلن، ومريم لم تتنبأ، وكانت أظهر **صفاتها تصديقها** لما يقال لها، فلما جاءها المَلَك جبريل **صدّقته** فوراً، ولمّا قال لها ابنها ما قال عن نفسه، **صدّقته**، وكانت تسارع إلى **تصديق** آيات ربّها. **والصدّيقة** إنسانة كغيرها من البشر، ومريم كانت تأكل الطعام، وكذلك ابنها، ولم يكن المسيح إلهاً وإنما إنسانٌ رسول، وعبدٌ من عباد الله، والاثنان كانا مخلوقين مُحْدَثَيْن، ولم يحدث أن دفع أحدهما هذه الصفة عن نفسه، **وهل يصلح المربوب أن يكون ربّاً؟** غير أن النصارى قالوا: **مريم بشر، ولكن المسيح نصفه إله ونصفه بشر**، فإذا كان يأكل كالبشر، ويفعل مثلهم، فإنما كان أكْلُه وشُرْبه وتغوُّطه بناسوته لا بلاهوته! ونقول: فكيف فعل روح القدس ـ وهو الله ـ الحَمْل في مريم؟ هل كان له ناسوت ليختلط بناسوتها؟ ولا يتصور عاقل اختلاط إله بغير إله، وانقسام شخص على نفسه إلى قسمين متنافرين ومتضاربين، وإذا كانت مريم تأكل مما يأكله ابنها، فإن عليهما أن يتغوّطا ويتبوّلا، وهذا دليل على بشريتهما، واستحالة اختلاط **الله** بهما. وقوله تعالى: إن مريم صدّيقة ينفي عنها إذن نفياً تاماً أنها كانت نبيّة.



٩١٠. ﴿كرامات مريم﴾

كرامات الأولياء ثابتة على ما دلّت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة، وفي حق مريم كانت الفواكه عندها لا تنقطع، وقد تظهر لها الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء، فرزقُها دائم، والخير عندها عميم، كقوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا**﴾(آل عمران ٣٧)، ولمّا جاءها المخاض أُمرت النخلة فأثمرت لتوّها، قال تعالى: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)**﴾(مريم)، ولم تكن مريم نبية، **والأنبياء لهم «المعجزات»** بينما الأولياء والصدّيقون لهم **«الكرامات»**، ومريم كانت **صدّيقة** بقوله تعالى: ﴿**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**﴾ (المائدة ٧٥)، والفرق بين المعجزة والكرامة: أن الكرامة من شرطها الاستتار، فكذلك كانت كرامات مريم، **والمعجزة** من شرطها الإظهار؛ **والكرامة تظهر من غير دعوى**، وكذلك كانت كرامات مريم، **والمعجزة تظهر عند دعوى الأنبياء** فيُطالبون بالبرهان.



٩١١. ﴿اصطفاء مريم على نساء العالمين﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾(آل عمران)، فهل كانت مريم مصطفاةً على نساء زمنها، أم على نساء الدنيا كلها إلى يوم الدين؟ ونلاحظ تكرار كلمة اصطفاء، والأولى تعنى اصطفاءها واختيارها لعبادته، والثانية هى اصطفاؤها واختيارها لولادة عيسى، وفى الحديث: «كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أخرجه مسلم. والكمال هو التناهى والتمام، والكمال المطلق لله تعالى خاصة، وأكمل نوع الإنسان هو «الإنسان العابد homo religiosus»، والأنبياء هم أخصّ العُبّاد، ويليهم الأولياء، ثم الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم المؤمنون. وإذا كان ذلك صحيحاً فيلزم أن تكون مريم وآسية بحسب الحديث، كل منهما نبيّة، لأنهما بلغتا حدّ الكمال فى النساء. ومريم أوحى إليها الله كما أوحى إلى الأنبياء، غير أن الوحى وحده لا يكفى، فالله أوحى إلى النحل، وإلى الحواريين، وإلى الأئمة، وإلى أم موسى، وهؤلاء جميعاً ليسوا أنبياء؛ ولا كانت مريم ولية، ولم يرد أنها كذلك، وإنما جاء فيها أنها «صدّيقة»، كقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴿٧٥﴾﴾(المائدة)، وقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾(التحريم)، فشهد لها الله تعالى بالصدّيقية، وبالتصديق، وبالقنوت. وفى حين بُشرّ زكريا بالغلام فتساءل: أنّى يكون له هذا وامرأته عاقر؟ وطلب تأكيد الوعد بآية، فإن مريم بُشّرت بالغلام فلحظت أنها بكر لم يمسسها بشر، فكان الردّ عليها: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴿٢١﴾﴾(مريم)، فاقتصرت على ذلك، وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية كما سأل زكريا. ولم تنل مريم شهادتها بالصديّقية والتصديق إلا كمرتبة قريبة دانية من الله تعالى، وليس سببها أنها نبيّة، فالنبوة وظيفة، وإنما سببها الاصطفاء، وأنها اختيرت لذلك من ربّها ورشّحتها صفاتها الذاتية، ولمّا كان ما حدث لها لم يحدث مثله من قبل ولا من بعد، فإنها تكون فعلاً «قد اصطفيت على العالمين»، بفرادة الحدث الذى جرى لها، وخصوصاً على «نساء العالمين» بولادتها المعجزة للمسيح عليه السلام.

•••

٩١٢. ﴿حمل مريم كان فى المحراب﴾

يقول القرآن: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ

تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ (٢٢)﴾(مريم)، والخطاب إلى النبيّ محمد ﷺ، تذكيراً له بأن يقصّ على قومه قصة مريم، ليعرّفهم بكمال قدرة الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿**انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا**﴾ يعنى اتخذت لنفسها مكاناً تعتزل نفسها فيه عنهم، وهو محراب الكنيس، ففصلت نفسها عن رواد المكان المشتغلين فيه بستار. واصطلاح «الانتباذ» أقوى من اصطلاح «الاعتزال»، لأن الاعتزال يعنى الانفصال عنهم، وأما الانتباذ فهو ابتعاد وانفراد. وقد نسأل: ولِمَ انتبذت؟ وربما كان السبب أن مريم كانت موقوفة على سدانة الكنيس وخدمته والعبادة فيه، فإذا آتاها ما يأتى النساء من الحيض، انتبذت لتطهر، وربما أنها اختارت أن تكون صومعتها في الكنيس إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة، وكانوا يبنون المحاريب إلى جهة الشرق، والشرق المكان الذى تشرق منه الشمس، خصّوا العبادة بالشرق لأنهم كانوا يعظّمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، والجهات الشرقية عندهم هى أفضل الجهات، ويؤثرونها على غيرها، ولمّا حضروا إلى مصر اختار لهم يوسف الإقليم الشرقى مقاماً لهم، وهو محافظة الشرقية الآن، وكان اسمها من قديم أرض جاسان، وعاصمتها تانيس أو أفاريس. والهكسوس اختاروا الشرقية لمقامهم كذلك لأنهم ساميون مثل العبرانيين، والتفكير السامى يؤثر الشرق فى كل شيء، وكل أحداث قصة موسى مع الفرعون جرت فى الشرقية وليس فى منف. وروى عن ابن عباس أنه قال: إنى لأعلم الناس لِمَ اتخذ النصارى المشرق قِبلة؟ لقول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا(١٦)**﴾. والأمر كان أكبر من ذلك، لأن السؤال يظل كما هو لم يردّ عليه ابن عباس: فَلِمَ اختارت مريم الجهة الشرقية؟ والجواب فى التراث العبرانى، وهو إيثارهم جهة الشرق وأن تكون محاريبهم إلى الشرق. وقال ابن عباس: لو كان شيء من الأرض خيراً من المشرق لوضعتْ مريم عيسى عليه السلام فيه، وهذا صحيح. وهذا المكان الشرقى يقول فيه إنجيل لوقا، الفصل الأول، إنه الهيكل، ومن عادة الكهنوت أن يدخلوه للتبخير، وفى ذلك الوقت كان جمهور الشعب يصلى خارجاً، وفيه ظهر ملاك الربّ لزكريا واقفاً عن يمين مذبح البخور. غير أن لوقا لا يقول إن مريم ظهر لها جبريل فى المحراب، ولا نعرف من الأناجيل، بخلاف القرآن، أين ظهر لها؟ وهذا من الفروق بين قصة القرآن وقصص الأناجيل.

●●●

﴿قصـة المسيـح﴾

٩١٣. ﴿قول القرآن: عيسى ابن مريم﴾

يأتي ذلك **ست عشرة مرة**، ومن يُنسب إلى والدته لا يكون إلهاً، لأن الله تعالى قديم وليس حادثاً، وقولنا «**عيسى ابن مريم**» تنبيهٌ إلى أن عيسى حادث وليس قديماً، فهو ليس إلها إذن كما يقول النصارى.

وكذلك فإن النسب إلى **الوالدة** تذكير بأنه من أم دون أب، فإن النصارى لمّا قالوا في مريم وفي ابنها ما قـالوا، صرّح الله باسم مريم مقترناً باسم عـيسى، فإذا كرر الناس ذلك كما في آيات القرآن، اسـتقر الاعتقاد في وجدان الناس أن عيسـى لا أب له، واستشعرت قلوبهم ما يجب عليهـم اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقـالة اليهود فيها.

وفي سفر التكوين يأتي عن الخلق أنهم من «**نسل المرأة**» (٣/ ١٥)، فلا واحد من البشر إلا وكان ابن امـرأة، ولم يكن المسـيح استثنـاء، فصار يُنسَب لأمه وصار النـاس كذلك ينسبون لأمهاتهم، فيقال: فلان ابن فلانة، فذلك أوكد من أن يقال فلان ابن فلان.

●●●

٩١٤. ﴿اسمه المسيـح﴾

تردد اسم «**المسـيح**» إحدى عشرة مرة في القرآن، وقال فيه الله تعالى أنه **كلمـةٌ** منه تعالى ألـقاها إلى **مـريم** (آل عمـران ٤٥ والنساء ١٧١)، وأنه رسول الله قـد خلت من قبله الرسُل (المائدة ٧٥)، فمن قال إنه «**الله**» فقد كفر (المائدة ١٧)، ومن قال إنه «**ابن الله**» (التوبة ٣٠) فقد كفر أيضاً، والمسيح لم يَدْعُ إلا إلى الله (المائدة ٧٢)، وما كان يستنكف أن يكون عبداً له (النساء ١٧٢). **والمسيح** لقبٌ لعيسى، والاسم معرّب، وأصله الشين أي المشيح، ومعناه المُفرَز والمكرّس للخدمة، وهو **الممسوح** بالدهن المقدّس، والدهن هو الطِّيب، ومن أفخر الأنواع، وكان العبرانيون **يمسحون** الكهنة، ونقلوا ذلك عن المصريين، وهؤلاء كانوا يمسحون الملوك والكهنة، وكذلك فعل العبرانيون مع داود، ومسحوه ثلاث مرات، وحتى **الضـيوف** كانوا يمسحونهم بالطِّيب: رءوســهم وأرجلهم، والعرب يفعلون ذلك حتى الآن ويستخـدمون الطِّيب بالإضافة إلى البـخور، وكانوا قديمًا ما يزالون يمـسحون **المـرضـى** للشفـاء، ويمسحون **الموتـى** طهـارةً لهم، ويراد بالمسح أنه الطهارة للمثول بين يدىّ الله، ومسح **الكاهن** بغرض تكريس نفس المؤمن لخدمته تعالى، وفي المزامير عن **مسح المسيح**:

«مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أفضل من رفقائك» (مزامير ٤٥/ ٧)، و«الربّ مسحني لأبشّر المساكين» (أشعياء ٦١/ ١).

•••

٩١٥. ﴿اسمه عيسى﴾

يأتي اسم عيسى في القرآن خمساً وعشرين مرة، وهو التصحيف العربي للاسم السرياني عيشو **Yeshu**، وعند النصارى هو يسوع **Jesus**، وينطق في العبرانية يشوع، ومعنى الاسم أنه «السيد المُخَلِّص»، أو المخلِّص فقط، أو المُخلَص، والمسيح هو لقبه، وفي الأناجيل ورد الاسم يسوع المسيح، أو المسيح يسوع، نحواً من مائة مرة، بينما ورد اسم المسيح فقط نحو ثلاثمئة مرة. واسم عيسى لا ينصرف في العربية.

•••

٩١٦. ﴿إقرار عيسى أول ما نطق بالعبودية لله﴾

النصارى على القول بأن المسيح هو ابن الله، وبعض الفرق تقول هو الله، والقرآن ضد هذا القول وذاك وينفيهما في الآية: **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾**(مريم) فلمّا كان المسيح في المهد أوتي الكلام ليقرّ الحق عن أمه، وسبق إلى دحض فرية النصارى بأنه ابن الله، فكان أول ما نطق به الإقرار بعبوديته لله تعالى وربوبيته، ردّاً على من غلا من بعد في شأنه، وأخبر بما قضى من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت، وأن الله آتاه الكتاب وجعله نبياً، وآتاه نعم أخرى كثيرة. وليس في الأناجيل الأربعة من ذلك شيء عن كلام المسيح، والقرآن أوفى وأغنى بالتفاصيل، وما حكاه عنه من العقل بعينه وليس خرافةً لا من قريب ولا من بعيد.

•••

٩١٧. ﴿دليل القرآن الداحض لربوبية المسيح﴾

هذا الدليل هو لامعقولية إدعاء واحد من البشر أنه إله بقوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾**(آل عمران) فما يمكن أن يكون من يزعم الإلاهية نبياً، أو يكون قد أوتي الكتاب والحكمة، والمعقول أن يطالب النبيّ باعتباره نبياً، أن يكون الناس ربّانيين، يتعلمون العلم الربّاني ويعلّمونه. ومن غير المعقول أن يأمرهم أن يُنزلوا

الملائكة والنبيين منزلة الأرباب، فيعظّمونهم ويقدّسونهم كما يفعل النصارى واليهود، فالنصارى هم الوحيدون الذين يلقّبون بعض قساوستهم بصاحب القداسة فينسبون لهم صفة لله، وينسبون للمسيح أنه ابن الله. واليهود يمجّدون ذواتهم ويعظّمون شعبهم، ويجعلون من بعض أنبيائهم أرباباً على الحقيقة، مثل النبى إيليا، وينتظرون عودته إلى الأرض ليحكم بين الناس. ولذلك ظن اليهود أن محمداً أراد منهم أن يكونوا معه مثلما هُم مع بعض أنبيائهم، وأن يتخّذوه ربّاً، فنزلت ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ** ـ إلى قوله: ﴿ **أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)** ﴾ (آل عمران)، على طريق الإنكار والتعجب مِنْ فعلْ اليهود عموماً والنصارى خصوصاً، ونهى القرآن أن يكون التأليه هو تقدير النبوة عند الناس، وألزم الخلق حُرمتهم. وقد ثبت عن النبىّ ﷺ نهيه البتة أن يعامل الناس أحداً كإله، وأمر الجميع فقال: «**لا يقولن أحدكم عبدى وأمَتى، وليقل فتاى وفتاتى. ولا يقل أحدكم ربىّ وليقل سيدى**»، **فهذه هى اشتراكية الإسلام أو عدالته الاجتماعية**: لا تأليه لأحد، ولا أحد فوق المساءلة!

●●●

٩١٨. ﴿البرهانُ أن عيسى ابن مريم مخلوق كسائر البشر﴾

فى الآية: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)** ﴾ (آل عمران) تعريضٌ بل تصريحٌ: بأن عيسى ابن مريم عبدٌ مخلوقٌ كما خَلَق الله سائر البشر، لأنه صوّره فى الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما تزعم النصارى، وقد تقلّب فى الأحشاء، وتنقل من طور إلى طور، حتى استوفى شهور الحمل التسعة، كما قال تعالى: ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ (٦)** ﴾ (الزمر)؟

●●●

٩١٩. ﴿المسيح وأمّه مخلوقان محدودان محصوران﴾

يقول النصارى فى «قانون إيمان الرسُل»: «**أؤمن بالله العظيم، خالق السموات والأرض، وبيسوع ابنه الوحيد، ربّنا الذى حَبَلَ به من الروح المقدس، ووُلِد من العذراء مريم**».

ويقولون فى قانون الإيمان النيقاوي: «**بالحقيقة نؤمن بإله واحد: الله الآب، ضابط الكل. ونؤمن بربٍّ واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق ـ واحد مع الأب فى الجوهر، ونؤمن بالروح القدس الربّ المحيى، المنبثق من الأب، نسجد له ونمجّده مع الأب والابن..**».

ويقولون فى قانون الإيمان الإثناسيوسى: «نعبد إلهاً واحداً فى ثالوث، وثالوثاً فى وحدانية، من غير اختلاط فى الأقانيم ولا تقسيم فى الذات، لأن أقنوم الآب هو غير أقنوم الابن، وغير أقنوم الروح القدس، ولكن الآب والابن والروح القدس ليسوا إلا إلها واحداً، ومجداً واحداً، وعظمة أبدية واحدة».

وواضح كل الوضوح أن قول النصارى بالتثليث هو إيمان راسخ، ولذا قال فيهم القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ (٧٣)﴾(المائدة)؛ وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾ (المائدة)؛ وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾(النساء)، وبذلك قضى بكفرهم بقولهم: «إن الله هو المسيح ابن مريم»، قالوا ذلك على جهة الإيمان بهذا الكلام، لا على جهة الحكاية ولو كان المسيح إلهاً لقدر على دفع ما نَزَل به أو بغيره، وفى الأناجيل أن اليهود أمسكوا به ودفعوه إلى الصليب، وأقاموه عليه، ودقّوا عليه بالمسامير، فما استطاع أن يحمى نفسه، أو يمنع ما ينزلونه به، فأىّ إله هذا؟! والله تعالى له ملك السموات والأرض و«ما بينهما»، والمسيح وأمه «ممّا بينهما»، وهما ليسا سوى مخلوقين محدودين محصورين، وما أحاط به الحدّ والنهاية لا يصلح للألوهية!

•••

٩٢٠. ﴿الدليل على أن مريم وابنها عيسى بشران﴾

هو قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ (٧٥)﴾(المائدة)، ومن يأكل الطعام ويشرب، لابد أن يتغوّط ويبول، وأن يجوع ويشكو إذا جاع، وتلك أوصاف ليست لإله وإنما لبشر، فإذا كانت مريم وابنها عيسى يأكلان الطعام فذلك دليل على أنهما بشران.

•••

٩٢١. ﴿عيسى مَثَل لبنى إسرائيل﴾

كان ميلاد عيسى معجزة فقد ولد من غير أب، كما كانت حواء معجزة لأنها جاءت من أب وليس من أم، وكان آدم معجزة لأنه بدون أب ولا أم، وكنّا نحن معجزة لأننا نولد من أب وأم من مجرد نطفة، وذلك دليل على طلاقة قدرة الله تعالى، وجعل الله لعيسى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها، ولم يجعل ذلك لغيره فى زمانه، مع

أن بني إسرائيل كما قيل، كانوا يومئذ من أعلم الناس بالطب والتطبيب، والناس دونهم، فأنزل الله عن عيسى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠)** ﴾(الزخرف) فأكدت الآية أن عيسى رغم أنه معجزة ويصنع المعجزات، إلا أنه عبدٌ من عباد الله، فلا يفتتن الناس به إذا أحيا ميتاً أو أبرأ مريضاً، ونبّه إلى أن مواهبه نِعَمٌ منه تعالى أفرده بها كمعجزات له ليؤمن الناس به ويصدّقوه، فجعله مثلاً لبني إسرائيل، فليس بعيداً على الله أن يجعل منهم ملائكة كما جعل من عيسى ما كان عليه، وإذن لأسكنهم - أي الملائكة - الأرض بدلاً من السماء، وكانوا خلفاً لهم- أي لهؤلاء النصارى، فلماذا إذن عبدوا عيسى وألّهوه مع أنه مجرد مثل لقدرة الله ووحدانيته تعالى؟!

•••

٩٢٢. ﴿لو أراد الله ابنا لاتخذه من الملائكة وليس من البشر﴾

لّما قال النصارى اتخذ الله عيسى ولداً، وأنه ابن الله على الحقيقة وليس على المجاز، ردّ عليهم فقال: ﴿ **لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)** ﴾(الأنبياء)، واللهو كما قيل هو المرأة، وقيل الولد، يعنى أن يتخذ الله صاحبةً أو يكون له ولد، فلو أراد ذلك لكان المعقول أن تكون صاحبته من أهل السماء، أو أن يكون الولد من الملائكة، وليس أن تكون الصاحبة مريم، والولد عيسى!

•••

٩٢٣. ﴿التثليث في القرآن وعند النصارى﴾

يقول تعالى: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)** ﴾ (النساء).

ومن قول النصارى بثلاثة اشتق التثليث، وهو من الأصول النصرانية،وفى اعتقاد النصارى أن مَنْ لا يحفظ الإيمان بالتثليث من غير تعديل، يموت موتاً أبدياً. وعن التثليث في إنجيل متّى يقول: «تلمّذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (/ ١٩ ٢٨). والآب هو الله، والابن هو أيضاً الله، وكذلك روح القدس. وفى رسالة بولس الثانية إلى كنيسة كورنثوس،فإن الثلاثة، هى الأقانيم الثلاثة، والأقنوم هو الصفة، يقول بولس: «نعمة ربّنا: يسوع المسيح؛ ومحبة الله: الآب؛ وشركة الروح القدس معكم جميعاً (/ ١٤ ١٣)، وفي رسالته إلى كنيسة غلاطية يقول عن مسحة الروح القدس للمؤمنين: «ثم بما

أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا» (٤/ ٦)، فالله الآب هو المُرسِل، والروح القدس هو المُرسَل، والابن هو سرّ الإرسالية؛ وفي رؤيا يوحنا: «**الذين يشهدون في السماء ثلاثة: الآب، والكلمة، والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد** (٥/ ٧). وهذا الكلام، بلغة المناطقة، لا يعني شيئاً، أي **nil**، وهو تفلسُف وليس فلسفة، ويكشف عن جهل وضلال، وينبّه إليه القرآن: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** (١٧١)﴾(النساء). **والغلو** هو التجاوز في الحدّ، والنصارى غلت في المسيح حتى جعلوه ربّاً. والقرآن يدعو إلى **التوحيد**، والنصارى يدعون إلى **التثليث**، وكان **المجوس اثنينية**، والرسول ﷺ نهى أن يطريه المسلمون كما أطرت النصارى عيسى، وأمرهم أن يقولوا أنه **عَبْدُ الله ورسولُه**، وذلك هو النقيض الخالص لمقالة النصارى في الله (**انظر أيضاً عيسى كلمة الله، وعيسى روح من الله**).

•••

٩٢٤. ﴿عيسى كلمة الله إلى مريم﴾

في إنجيل يوحنا: «**في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله.** كلٌّ به كُوِّن، وبغيره لم يكوَّن شيء مما كُوِّن» (١/ ٣). وفسّر ذلك **أُبيّ بن كعب** فقال: خلق الله أرواح بني آدم لما عليهم الميثاق، ثم ردّها إلى صُلب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلمّا أراد خَلْقه أرسل ذلك الروح إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام. والكلمة هي «كن»، بها تكوّنت المخلوقات، وبدونها ما كانت توجد. وفي القرآن قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٨٢)﴾ (يس ٨٢)، وقال **يوحنا في إنجيله**: «**والكلمة صارت جسداً وحلّ فينا**» (١/ ١٤)، وبكلمات كهذه «**وحلّ فينا**» بدأ الضلال والقول بالحلول، فقيل: الله عقل. والكلمة تجسيد للعقل، والعقل غير منظور وظهر في الكلمة، يعني في مخلوقاته، وفي المسيح، مثلما يمكن أن يحلّ المسيح في المؤمنين به. وفي القرآن الأمر على خلاف ذلك، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ** (١٧١)﴾(النساء)، فالكلمة هي «كن»، وبها خُلق آدم من غير أبّ ولا أم، وخلقت حواء من أب بلا أم، وخُلق **عيسى** من أم بلا أبّ، وخُلق النبيّ **يحيى** بكلمة منه، من أب وأم، إلا أن الأم كانت عاقراً والأب شيخًا كهلاً، وكذلك **إسحق**، خلقه بكلمة منه، من إبراهيم وسارة، وإبراهيم كان شيخاً وسارة عجوزا عقيماً، **والإنسان** عموماً خلقه من أب وأم، **فكذلك** كان الحال مع عيسى، وذلك جميعه بكلمة «كن» يقولها الله تعالى فيكون الخلق كما أراد وقضى. فبكلمة «كن» كانت بشارته

تعالى إلى مريم، وكانت رسالته إليها على لسان جبريل قوله: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** (٤٥)﴾(آل عمران)، فقال: «اسمه المسيح» ولم يقل **اسمها**، فنعلم أن «كلمة» فى الآية تعنى ولداً، أى بشّرها **بولد**. فعيسى إذن لم يكن بدعاً، ولم يكن سابقاً، ومثله مثل آدم وحواء **ويحيى وإسحق**، فلماذا يؤلّه دونهم؟! (**انظر أيضاً** عيسى روحٌ من الله).

***

٩٢٥. ﴿عيسى روحٌ من الله﴾

فى الآية: ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ** (١٧١)﴾(النساء)، رُوى أن عيسى كانت له **ستة أسماء** بحسب القرآن، هى: **المسيح، وعيسى، وكلمة الله، وروح من الله؛ وعبد الله، ورسول الله**. والذى أوقع النصارى فى الضلال هو ما قيل بأنه «روحٌ منه» أى من الله، فقالوا إذن عيسى **جزء من الله**، وتكون له **طبيعة الله** وليست طبيعة الجسد الذى تجسّد فيه، وقيل بل تكون له **طبيعتان**، الأولى **لاهوتية**، والثانية **ناسوتية** يعنى بشرية، وهذه الطبيعة الثانية هى التى جرى عليها **الصلب**؛ وأما **المسيح الربّ**. أو **الإله**، فهو الذى ارتفع إلى السماء، فلو اجتمع **اللاهوتى بالناسوتى** فالمتحكّم لا يكون بداهة هو الناسوتى، ويتأبّى العقل أن يقبل أن الطبيعة البشرية تكون لها الغلبة على الطبيعة الإلهية، فالصدّيق أو النبىّ يحاول أن يرقى بنفسه ليكون ربّانياً، فهل جرى العكس على عيسى، ونزل عن إلهيته ليكون إنساناً؟ والإله والإنسان لا يستويان. وقيل الألوهة عند النصارى **ثلاثية** هى: **الآب** وهو الله، **والابن** أى كلمته وهو عيسى، **وروح القدس** أى روح الله، **والثلاثة أوجهٌ لشيء واحد هو الله**، وهو شِركٌ صريح يثبته **جريجوريوس** فيقول: **التثليث المسيحى لا يتعارض مع الإيمان بالتوحيد**» ـ وكلامه مغالطة صريحة، **والمغالطات** باب من أبواب المنطق، **والمغالط** أو **السوفسطائى** يلعب بالألفاظ بمثل هذا القول السابق. وفى الإسلام **الروح الأمين، أو روح القدس**، الذى نفخ فى درع مريم هو **جبريل**، وعند **جريجوريوس** أحد أقطاب الكنيسة المصرية رغم أسماء قساوستها اليونانية: أن روح القدس هو الله، ويصف **ذلك** بأنه حقيقة دينية وليست فلسفية، وهى تعليم إلهى. وينتحل جريجوريوس مراجع له من التوراة، والتوراة لا تقول **بالحلول صراحةً ولا بالتثليث**، ويستشهد برسالة **بطرس الأولى** وليس فيها ما يثبت قوله. «**انظر أيضاً عيسى كلمة الله، وأيضاً التثليث فى القرآن وعند النصارى**».

***

٩٢٦. ﴿هل عيسى علمٌ للساعة؟﴾

يذهب أصحاب **الإسرائيليات** إلى تفسير الآية: **﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)﴾**(الزخرف)، أن من أعلام الساعة **خروج المسيح**، لأن الله يُنزله من السماء قبيل **قيام الساعة**، غير أن اليهود في زعمهم أن الذي ينزل قبل قيام الساعة هو «**النبي إيليا**»، والمسيح عندهم هو إيليا وليس عيسى، **وإيليا** هو النبيّ **إلياس** أو **إدريس** بالعربية، رُفع إلى السماء، وطالما أنه رفع فسيعود حتماً، وأنه ينزل في آخر الزمان وقبل يوم القيامة ليعيد لليهود مجدهم (ملاخى ٤/ ٥ - ٦)، ويسمون **إيليا** لذلك باسم «**المسيح المنتظر**»، وهي العبارة التي قال مثلها الشيعة: «**المهدى المنتظر**»، والمهدى هي البديل لمصطلح «المخلّص» المسيحى. وقال النصارى: إن المسيح هو الذي ينزل وليس إيليا. **وفي** هذه الآية من القرآن **﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ لا دليل على أن الكلام عن المسيح كما يقول أصحاب** التفاسير، وتؤكد ذلك الآية قبلها فتجعله عبداً أنعم الله عليه بالنبوّة، تقول: **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾**(الزخرف)، أي آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله، وهذه الآية هي المسيح عيسى، لأنه كان من غير أب، وجُعل إليه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام ما لم يُجعَل لغيره في زمنه. والصحيح أن الذي هو **علم للساعة** هو الذي تشير إليه الآية: **﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾**، والكلام فيها عن النبيّ ﷺ، والمعنى أن النبيّ ﷺ باعتباره خاتم الرسُل صار **علماً للساعة**، أي **علامة**، لأنه بعد النبيّ ﷺ لا يكون أنبياء، **فهو** آخرهم، وهو الأقرب لذلك من الساعة، فأوْلى بهم أن يتّبعوه إذن، لأن الصراط الذي يدعو إليه هو الصراط المستقيم، ولأن الديانة التي يبشّر بها هي القول الحق الذي لا تحريف فيه، وفي الحديث: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**» وضمّ السبابة والوسطى، **فهو** إذن المعنيّ بأنه عِلْم أو علامة من علامات الساعة. وقد جاء النبيّ ﷺ وتوفى وانتهى الأمر، ولا ادّعاء بأنه سيعود، فـفي القرآن **لارجعة لأحد إلا يوم القيامة، لا المسيح ولا إيليا**، وقول النصارى بأن عيسى سيرجع مردود عليه: **هل يرجع أحد بعد أن يموت إلا يوم القيامة؟** ولو كان عيسى سيرجع لَذَكر ذلك القرآن صراحةً، ولكن لا إشارة إلى ذلك من قريب أو بعيد، **وأحاديث المسيح الدجّال كلها موضوعة**، ولا مجال كي يكون المسيح قاتلاً للدّجال كما ادّعوا، ولا لأن يكون هو المجدّد للدين على سُنة وشريعة نبيّنا، فتلك جميعها تلفيقات مَهَر فيها اليهود بخاصة ليفسدوا على الإسلام أنه الديانة التي لم تحدث بها تحريفات. وروّج لها الشيعة للأسف.

●●●

٩٢٧. ﴿هل أخطأ القرآن بتقديمه عيسى على غيره﴾

في الآية: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ (النساء)، قال المستشرقون - وخاصة هوروفتس - هذا الدعيّ الأفاق، أن القرآن أو بالأحرى محمد، أخطأ في ترتيب الأنبياء: فوضع عيسى قبل أيوب، وسليمان قبل داود، ويونس قبل هارون، وأيوب قبل يونس وقبل هارون وداود وسليمان، وكل ذلك خطأ ويكشف زيف محمد كنبيّ! وهوروفتس هو الذى أخطأ، لأنه في أول الآية تقدّم النبيّ ﷺ على سائر الأنبياء الذين جاءوا قبله، فنعلم أن مقياس التقديم والتأخير باعتبار قدر وشرف هذا النبيّ أو ذاك، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ (٧)﴾(الاحزاب)، فخصّ النبيّ ﷺ بالذكر أولاً، وخصّ آخرين بالتقدمة على غيرهم تشريفاً لهم، وقدّم عيسى على أنبياء كانوا قبله. والواو لا تقتضى الترتيب، وتخصيص عيسى بهذه المرتبة هو ردٌّ على اليهود الذين ينكرونه، وتحقيقٌ لنبوته، وقطعٌ لما رآه اليهود فيه، ودفعٌ لاعتقادهم. ولم يكن خطأ ولا سوء تصحيف أن أطلق القرآن على مزامير داود اسم «الزبور»، والمزامير psalms اليهودية، أشعار دينية تُرنَّم أصلاً على صوت «المزمار pipe أو reed أو flute»، والواحد مزمور، وبالعبرية mizmor، وبالحبشية mazmur، وبالسريانية mazmor، واليهود أطلقوا عليها هذا الاسم لغلبة اعتبارها للزمر، أى للموسيقى، والقرآن أعطاها اسم «الزبور» باعتبارها كتاب للأناشيد من «الزَّبْر» الذى هو الكتابة، والأصحّ لها هو الاسم «زبور» كما أورده القرآن، لأنه «كتاب أناشيد» وليس «نوتة موسيقية»، والأصل فى الكلمة قوتها على التوثيق، أى بيان الصواب والحق، ويسمى الكتاب لذلك «زبوراً» لقوة الوثيقة به. ومرة أخرى يخطىء هوروفتس وليس القرآن ولا محمد كما ادّعى!



٩٢٨. ﴿عمران موسى والصلة بينه وبين مريم أم المسيح﴾

في الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾(آل عمران)، يؤكد القرآن على أن عمران - والد موسى - هو رأس الشجرة التى منها هارون، والتى انحدرت منها مريم أم المسيح والمسيح، بالتبعية. ولقد عرفنا مما سبق أن هناك عمرانين، عمران الأول أبو موسى، وهو معروف ومشهور، وأوردت التوراة

اسمه، وعمران الثانى أبو مريم أم المسيح، ولم يُذكر بالاسم، لا فى التوراة ولا فى الأناجيل، ومرجعنا الوحيد فيه هو القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾ (التحريم ١٢)، وقوله: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ (آل عمران ٣٥)، فأما الأول فهو عمران الحقيقى، وأما الثانى فيعنى بيت عمران، أو آل عمران، واسم عمران هو لاوى بن قهات، وكان عبداً صالحاً، وهو رأس عشيرة العمرانيين التى منها موسى وهارون، واليصابات زوجة زكريا، ومريم أم المسيح، وكانت لعمران ابنة اسمها مريم هى أخت موسى التى دلت ابنة فرعون على أمها لترضع موسى، وكانت بتولاً كمريم العذراء أم المسيح، وهؤلاء جميعهم يشكلون الدوحة العمرانية وكانوا من الصالحين (سفر العدد ٢٠/١)، وهم المعنيون باصطلاح آل عمران فى الآية، ويقابلهم آل إبراهيم الذين ينحدرون من إبراهيم، وهم: إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف، والأسباط، والجميع - سواء آل عمران أو آل إبراهيم- تصدُق عليهم الآية: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**﴾(آل عمران ٣٤)، وخصّ الله فى سورة آل عمران بالتنويه عن ذرية عمران، لأن من بينهم كان أنبياء ورسُل اصطفاهم - أى اختارهم - فكانوا صفوة الخلق أجمعين، وللصفوة فى اليهودية والنصرانية والإسلام نظرية تؤكد أن الله يمايز بين الناس بالفضل، وقد اصطفى أنبياءه من النخبة الطيبة الصالحة، فإن كان قد ذكر آدم ونوحاً مفردين، فإنه جعل الفضل فى آل إبراهيم وآل عمران، وقد ترسّخت النبوة فيهم وتتابع الأنبياء والرسل منهم، وكان نبيّنا من الدوحة الأولى - دوحة إبراهيم. ولأن سورة آل عمران تناولت من هؤلاء الصفوة من أنبياء ورسُل بيت عمران أكثر ممن تناولتهم من آل إبراهيم، فقد أطلقوا على السورة أنها «سورة آل عمران»، ولعل ذلك يفسّر لنا أكثر لماذا قال الله «امرأة عمران»، «وابنة عمران»، فى الإشارة للأصول الطيبة لمريم وابنها. ولعله أيضاً يُلقى المزيد من الوضوح على السبب الذى من أجله كان قوله تعالى فى سورة مريم ٢٨ «ياأخت هارون»، وفى هذه الآيات جميعاً لا لبس ولا خطأ فى نسبة مريم إلى عمران أو إلى هارون، حيث أن المعنى فيهما ينصرف إلى أنها من «بيت هارون» الذى هو نفسه «بيت عمران». وهذا ما أكده القرآن ولم تتناوله الأناجيل ولا تطرقت إليه، حتى أنهم فى النهاية نسبوا مريم لدوحة زوجها يوسف النجّار، وجعلوها تبعًا له من بيت داود. والله حسبنا.

وثمة مسألة أخرى تطرق إليها المستشرقون، فقد ظنوا أن القرآن أخطأ ثانيةً بأن جعل مريم أم المسيح ابنةً لعمران، وعمران هو أبو موسى، فخلط بين مريم أم المسيح ومريم أخت موسى فى الآية: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)**﴾(آل عمران). والقرآن لم

يخلط، والخلط فى أذهان المستشرقين من اليهود والنصارى. والقرآن مرجع من المراجع، مثله مثل التوراة والإنجيل، ومصداقية القرآن ليست بأقل من مصداقية التوراة والإنجيل، فالقرآن يقول، والتوراة والإنجيل يقولان، فعلى الأقل لا ترجيح لأيهم طالما أن كلاً منهم لا يعدو القول، فإن قال القرآن إن أم مريم كانت زوجة للمدعو عمران أو عمرام، فإنه مثل قول التوراة أن عمران آخر كان أبًا لموسى، فلماذا لا يكون هناك عمرانان، واحد لمريم، وآخر لموسى، ولا علاقة بينهما سوى علاقة القرابة والمشابهة فى الأسماء؟

ويخلو الإنجيل تماماً من اسم أم مريم واسم أبيها، ولا يوجد مصدر لنا عن ذلك إلا القرآن، ويذكر القرآن أن والد مريم هو عمران، فلماذا الخلط بينه وبين عمران الآخر والد موسى وبينهما نحو ستمائة سنة، وربما ألف سنة أو أكثر؟!! ولماذا الخلط بين مريم أم المسيح ومريم الأخرى شقيقة موسى؟ وأما أن يقول القرآن مرة «امرأة عمران» (آل عمران ٣٦) عن جدّة المسيح، ومرة «مريم بنت عمران» (آل عمران ٣٥) عن العذراء، فهذه طريقة العرب والساميين عمومًا فى التعريف بالناس من باب التبجيل، فلا يُنادَوْن بأسمائهم وإنما بألقابهم، ونحن ننسب دائماً إلى الأصول فنقول البكرى أو الهاشمى، أو الطالبى وهكذا. وعمران الذى تُنسَب إليه مريم أخت موسى، كان والد موسى وهارون، كما أن مريم أم المسيح كانت تنحدر من دوحة عمران أو بالأصح هارون ابنه، لأنها كانت صدّيقة وتنتمى إلى جماعته من الكهنة، ولذا نسبها القرآن إلى هذا الأصل المبارك، وعلى ذلك ينتفى الخلط بالكلية ويظهر جلياً أن الالتباس عند المستشرقين سببه قلة درايتهم باللغة العربية وطرق التعبير بها وخاصة فى القرآن، فوجب التنبيه لذلك.



٩٢٩. ﴿أتباع عيسى اسمهم النصارى﴾

فى كتُب العهد الجديد: أن المسيحيين دُعوا لأول مرة مسيحيين فى أنطاكية (أعمال ١١/٢٦) نحو سنة ٤٢ أو ٤٣م)، واللقب كان فى أول الأمر من باب القذف والذمّ (بطرس الرسالة الأولى٤/١٦)، ومن أقوال المؤرخ تاسيتوس (المولود نحو سنة ٥٤م) أن تابعى المسيح كانوا من سفْلة الناس، ومن العامة، حتى أن أجريباس لمّا قال لبولس: بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً» (أعمال ٢٦/٢٨)، كان يقصد أن كلامه طيب وحججه قوية، ولكنه لا يرضى أن يكون مسيحياً فيعاب بهذا الاسم. ولا يأتى اسم المسيحى أو المسيحيين فى القرآن، ولكن يأتى الاسم «نصرانى»، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾(آل عمران ٦٧)، والاسم «نصارى» فى الجمع كقوله: : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ

(١٣) (البقرة) نسبةً إلى «**الناصرة**»، وهى إحدى مدن فلسطين من إقليم الجليل، أى فى الجـزء الشـمـالى من فلسطين، وتـقوم عـلـى جـبل مـرتفع، ويُرى منهـا جـبل الشـيخ والكرمل، وذُكرت فى كتب العـهد الجديد **تسـعاً وعشـرين** مرة، وهى مـسقط رأس **مـريم وزوجها يوسف النجّار**، وفى الناصرة كانت بشارة مريم بالمسيح (لوقا ١/ ٢٦)، وعادت إليها مريم **مع** يوسف من مصر (متى ٢/ ٢٣). والناصرة اسم سريانى وليس عبرانياً، وموجود فى العربية، وهى التى **تَنصُر**، أو **المنصورة**، وفى الناصرة نشأ المسيح وترعرع (لوقا / ١٦ ٤)، وأمضى الجزء الأكبر من حياته، وكان يكبر بين أهلها كما يقول لوقا: بالحكمة والسن والنعـمة (لوقـا ٢/ ٥٢)، ولكنه ما أن بدأ رسالته حتـى رفضه أهلها مرتين (مـتى ٤/ ١٣، ١٣/ ٥٤-٥٨؛ ولوقا ٤/ ٢٨ ـ ٣١؛ ومرقس ٦/ ١ ـ ٦). وفى الناصرة كانت **العين** التى كانت مريم تتردد عليها، والموضع الذى فيه أتتها البشارة، ويسمى اليوم **كنيسة البشارة**، وبالقرب منها على حـافة الجبل المطل على مرج بنى عـامر وقُرب الكنيسة الرومـانية، الموضع الذى عنده أراد يهود الناصرة أن يلقوا منه هذا «**الناصرى**»، فهكذا دعاه بطرس (أعمال ٢/ ٢٢)، وبولس (أعمال٢٦/ ٩)، والمسيح نفسه سمّى نفسه: **الناصرى nazarine**، والنسبة تعود إلى مدينة الناصرة **nazareth**، ومن ثم كان أنصاره هم **النصارى nazarines**. واسم **النصرانى تصحيف عربى للناصـرى**، والأنثى يقال لها **نصرانـية**، وفى الحديث: «**فأبواه يـهوّدانه أو ينصّـرانه**» أخرجـه البخـارى، وقال ﷺ: «**لا يسمـع بى أحد من هذه الأمـة: يهودى ولا نصـرانى، ثم لم يؤمن بالذى أُرسلت به، إلا كـان من أصحـاب النار**» أخرجـه مسلـم. وكان الأحرى أن يكون الجمع «**النصرانيين**». ويسمى ابن عباس **الناصرة** التى يُنسَب إليها المسيح والنصارى باسم قرية **نصران**؛ وقيل هم سُمّوا **نصارى** لأنهم نصروا بعضهم البعض، وكأن **الأنصار** فى المدينة سموا **أنصاراً لمناصرتهم** أيضاً للنبىّ ﷺ. وقيل ربما كان اسم الأنصار للآية: ﴿**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾ (آل عمران ٥٢)، فهؤلاء **أنصاره**، وصُحّف الاسم إلى **النصارى**، والشاعر يقول:

لمّا رأيتُ نَبَطـاً أنصارا ... شمّرتُ عن ركبتى الإزارا

كنتُ لهم من النصارى جارا

•••

٩٣٠. ﴿رحلة المسيح وأمه إلى مصر فى القرآن﴾

فى إنجيل **متى**: أن **هيرودس** دعا المجوس ليعلم أين ولد الصبى الذى سيكبر ليخلّص شعبه، فذكروا أنه فى **بيت لحم**، فأرسلهم ليبحثوا عنه، ورأى **يوسف** زوج مريم، أن عليه

أن يهرب بالغلام إلى مصر، ليصدق على المسيح ما جاء فى سفر هوشع **«من مصر دعوت ابنى»** (١١/١)، والمقصود بهذه العبارة عند هوشع أن الابن هو **شعب إسرائيل**، يعنى أن الشعب كان على موعد مع الله بخروجه من مصر، ولكن كاتب الإنجيل وظّف العبارة لصالح عيسى وجعلها بشارة. وبالهروب إلى مصر نجا المسيح، وقيل: إن هيرودس قتل كل صبيان بيت لحم وتخومها، من ابن سنتين فما دون (متى ٢/٨ ـ ١٦).وظلّت **العائلة المقدسة** بمصر - مريم وزوجها وابنها عيسى، وربما بعض أولادها من زوجها كانت أنجبتهم فى ذلك الحين - إلى أن مات هيرودس، فرأى يوسف فى الحلم: **«أنْ خُذ الصبى وأمّه واذهبوا إلى أرض إسرائيل، فقد مات طالبو نفس الصبى»**. وارتحلوا إلى **الناصره** لينشأ المسيح ناصرياً، ويدعى **الناصرى**.

ويقول المستشرقون، خاصةً فينسينك، **وهوروفتس**، وبيترز: إن القرآن أشار إلى هروب يوسف بمريم والمسيح إلى مصر فى الآية: **﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾**(المؤمنون)، **والربوة** هى المكان المرتفع من الأرض، قيل هى مصر، لأن أرضها مرتفعة، **وذات قرار** أى مستوية، **ومعين** أى ماء جار ظاهر للعيون.

•••

٩٣١. ﴿الحواريون أنصار عيسى﴾

لّما دعا عيسى اليهود إلى الله أنكروه: **﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾**(آل عمران)، **والحواريون** فى الآية كانوا اثنى عشر كما جاء عنهم فى إنجيل متّى (١٠/٢ ـ ٤٢): **سمعان** المدعو **بطرس**؛ وأندراوس أخوه؛ ويعقوب بن زبَدى؛ ويوحنا أخوه؛ وفيلُبُّس؛ وبَرتُلماوس؛ **وتُوما**؛ ومتّى العشّار؛ويعقوب بن حَلْفَى؛ وتَدّاوس؛ وسمعان القانونىّ؛ **ويُهوذا الإسخريوطى** الذى أسلم عيسى لليهود، وهؤلاء أسلموا على يديه، ونصروا الله بالدعوة إليه، بناءً على وصية عيسى لهم، قال: **إلى طريق الأمم لا تتّجهوا** ـ يعنى لا تبشّروا غير اليهود. وقال: **بل انطلقوا إلى الخراف الضالة من آل إسرائيل**، فخصّ اليهود بالدعوة دون العالمين؛ **والدعوة** طبقًا للأناجيل مضمونها: **الاعتراف بعيسى ابنًا لله**، بينما هى فى القرآن كما ورد على لسان الحواريين، قالوا: **﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾**(آل عمران)، والرسول الذى اتبعوه هو **عيسى**، وإيمانهم بما أنزل الله هو إيمانهم بأحكامه فيه، فلمّا أقرّوا بالله سألوه أن يكتبهم مع من يشهدون لأنبيائه بالصدق، أى مع الصدّيقين. ودعوة

الحواريين في القرآن ـ كـما ترى ـ لله، بينما دعوتهم في الإناجيل لعيسـى نفسه، وهذا هو الفرق بين الإسلام والنصرانية.

•••

٩٣٢. ﴿قصة مائدة عيسى فى الإنجيل والقرآن﴾

المائـدة لا تكون مائدة إلا إذا كان عليها طعام، فإن لم يكن عليها طعام فهى **طاولـة، وخوان**؛ تقول مادَ أى أطعَمَ وأعطى، والمائدة **تميد ما عليها**، أى تعرض ما عليها من أنواع الطعام، ويسمى الطعام أيضاً مائدة تجاوزاً، **لأنه** يؤكل على المائدة. وعن **مائدة عيسى** يأتى فى **إنجيل متّى**: ثم إن يسوع دعا تلاميذه وقال إننى أتحنن على **الجمع** ـ وكانوا كثيرين أتوا إليه من مخـتلف القرى ـ لأن لهم معى **ثـلاثة أيـام**، وليس لهم مـا يأكلون، ولا أريد أن أصرفهم **صائمـين** لئلا يخوروا فى الطريق. فقال له **تلامـيذه**: من أين لنا فى البرية خبزٌ يُشبع مثل هذا الجمع؟ فقال لهم يـسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: **سبـعة، ويسـيرٌ** من **السـمك**. فأمر أن يتكئ الجمع على الأرض، ثم أخذ الأرغـفة السبعة والسمك، وشكر، وكَسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ ناولوا الجمع، **فأكلوا جميعهم وشبعوا**، ورفعوا ما فضل من الكِسَر **سبع سلال مملوءة**، وكان الآكلون **أربعة آلاف رجل سوى النساء والصبيان**، ثم صَرَف الجمع وركب السفينة إلى تخوم مجدَل» (إنجيل متّى ١٥/ ٢٢ ـ ٢٩). وفى **إنجيل لوقا**: يشترط المسيح للمائدة، يقول: «إذا صنعت غــذاء أو عشاء فلا تدعُ أحبّاءك، ولا إخوانك، ولا أقرباءك، ولا الجيـران الأغنياء، لئلا يدعوك هم أيضاً فـتكون لك منهم المكافأة، وإذا صنعت مـأدبة فادْعُ **المسـاكـين والجُذْع والعُرج والعمـيان**، فتكون مبـاركاً، إذا ليس لهم ما يكافئونك به، فتكون مكافأتك فى قيـامة الصدّيقيين (يعنى فى الآخرة)» (لوقـا ١٤/ ١٢ ـ ١٤). وفـى **إنجـيل يوحنا**: «أن الفـصح عيد اليهود كان قد قـرب، فرفع يسوع عينيه فرأى جمعاً كثيراً مقبلاً إليه، فقال لفيلبس: من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ فأجابه **فيلبس**: إنه لا يكفيهم خبزٌ بمائتى دينار حتى ينال كل واحد منهم شـيئاً يسيراً! فقال له **أنـدرواس** أخــو **سمعان بطرس**: إن ههنا غلاماً **معه خمسة أرغفة** من الشعير، **وسمكتان**، ولكن ما هذه لهذا العدد من الناس!!؟ فقـال يسوع: مروا الناس بأن يتكئوا، وكان فى الموضع عـشبٌ كثير، **فاتكأ الرجال**، وكان عددهم **نحو خمسة آلاف**، وأخذ يسوع الأرغفة وشكر، **وقسم على** المتكئـين، وكذلك **السمكـتين**، على قدر ما شاءوا. فلما شبعوا قـال لتلاميذه: أجمعوا ما فضلَ من الكِسَر لئلا يضيع شيء منها؛ فـجمعوا فملأوا **اثنتى عشـرة قفة** من الكِسَـر التى

فضلت عن الآكلين من خمسة أرغفة الشعير، فلما عاين الناس الآية التى عملها يسوع، قالوا: فى الحقيقة هذا هو النبىّ الآتى إلى العالم!». (يوحنا ٦/ ٤ ـ ١٤). وكما ترى فإن الروايات النصرانية فى هذه المائدة مختلفة بشدة، فمرة الأرغفة سبعة واليسير من السمك، والآكلون أربعة آلاف سوى الصبيان والنساء، والمتبقى من الطعام يملأ سبع سلال؛ ومرة الأرغفة خمسة، والسمك اثنتان، والناس نحو خمسة آلاف، والمتبقى من الطعام يملأ اثنتى عشرة قفة، وفى الروايتين أنهم كانوا فى صيام، وأن المدعوين هم الفقراء والمحتاجون. والدرس المستفاد هو ما قاله الناس: «هذا حقاً هو النبىّ الآتى إلى العالم»! وأما رواية القرآن فتأتى فى سورة المائدة، وتسمى السورة باسم هذا الحدث الفريد والمعجزة الخارقة، فلما آمن الحواريون وأشهدوا عيسى بإسلامهم، وكانوا فى صيام، سألوه أن يدعوهم إلى طعام من عند الله، قالوا: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾(المائدة). وقولهم: «هل يستطيع ربّك» ليس شكّاً فى الله، ولكن بمعنى «هل يطيعك ربّك إن سألته أن ينزّل عليك مائدة؟ وما كان ينبغى أن يسألوه هذا السؤال، إنما لأنهم كانوا فى ابتداء استنصارهم، ولذلك ردّ عليهم عيسى: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»، لمّا سمع غلطهم وتجويزهم على الله ما لايجوز، لأنهم كانوا كحواريين خلصاءه وأنصاره، كما قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ (٥٢)﴾(آل عمران)، فكان ينبغى عليهم وهم الذين بلغهم من نبيهم ما يجب لله وما لا يجب، أن لا يقولوا ما قالوا، كقول بعضهم لمّا سألوا النبىّ ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين، وهى شجرة كان المشركون يتباركون بها وينوطون بها سلاحهم، أى يعلقونه، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها. وكذلك فعل قوم موسى لمّا قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ(١٣٨)﴾(الأعراف). ولم يكن الحواريون يتعللون لعيسى، فهم مؤمنون عارفون عالمون، وإنما المعنى كما قد تسأل عزيزاً لك معروفاً فتقول له: هل تستطيع أن تفعل هذا؟ وأنت تعلم أنه يستطيع، والحواريون علموا ذلك علم دلالة وخبر ونظر، فأرادوا أن يكون علمهم علم معاينة، كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى (٢٦٠)﴾(البقرة)، وكان إبراهيم يعلم علم خبر ونظر، فأراد المعاينة التى لا يدخلها الريب

والشك، ومثل ذلك قاله الحواريون: «**وتطمئن قلوبنا**»، تماماً كما قال إبراهيم: ﴿ **وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** (٢٦٠) ﴾ (البقرة). ثم إن قولهم: «**هل يستطيع ربّك**» تلطّفٌ في السؤال، وأدبٌ مع الله تعالى. وكان ردّ عيسى: «**اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**» لأنه لم يستبشر خيرا بكثرة أسئلتهم واقتراحاتهم لآيات الله، لأنه تعالى لا يفعل إلا الأصلح لعباده. فلما نهاهم بيّنوا سبب سؤالهم، قالوا: «**أن نأكل منها**»، فقد كانوا جوعى، وكما جاء بقصتيّ الإنجيل، كانوا **بالآلاف**، ولهم **ثلاثة أيام** لم يذوقوا طعاماً، وكان من ساروا خلفه من أصحابه يدركون حاجة الناس، وأن أكثرهم **مرضى وزمنى وعميان**،ولم يكن معهم نفقة لفقرهم. فأراد الحواريون سدّ جوعة الناس، ولتطمئن قلوبهم أنهم صاروا شعب الله، وأنه اجتباهم واختارهم لدعوته، وأن دعوتهم مستجابة عنده، وليستيقنوا قدرة عيسى،وليعلموا أنه قد صدقهم، وليشهدوا لله بالوحدانية، ولعيسى بالرسالة والنبوّة، واقتنع عيسى فدعا ربّه، ونزلت المائدة، قيل كان نزولها **يوم أحد**، وكانت **عيداً** لأولهم وآخرهم، فكَفَت أولهم وآخرهم، وكانت آية منه تعالى، ودلالة وحجة، واشترط عليهم أن يكون إيمانهم بعدها كاملاً، فإن شهدوا المائدة وعاينوها، وعرفوا المعجزة ولمسوها ونظروها، فما لهم حجة بعدها أن يداخلهم الريب، وإلا فمن يشك بعدها فله **العذاب الشديد**، قيل: له الدرك الأسفل من جهنم، وفيه العذاب الشديد، وُعِد به ثلاثة: **المنافقون**، وآل فرعون، ثم المكذّبون لعيسى بعد نزول المائدة.



٩٣٣. ﴿المسيح لم يصلب ولكن شبّه لهم﴾

في **الأناجيل الأربعة**: أن اليهود طالبوا الوالي أن يُصلَب يسوع الذى يقال له **المسيح**، وقالوا فيه: دمه علينا وعلى بنينا، وحينئذ جعلوا يبصقون على يسوع ويضربونه على رأسه، وهزأوا به ونزعوا رداءه، ومضوا به ليصلب، ولما صلبوه اقتسموا ثيابه، وجعلوا فوق رأسه لافتة مكتوبًا عليها: **هذا هو يسوع ملك اليهود**! (متى٢٧، ومرقس ١٥، ولوقا٢٣، ويوحنا ١٨، ١٩).

وينفى القرآن واقعة صلب اليهود للمسيح، بقوله تعالى: ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** (١٥٧) **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** (١٥٨) ﴾(النساء). وقوله تعالى «**شبّه لهم**»: ألقى شَبَهَهُ على غيره،ولم يكونوا يعرفون شخصه، واستعانوا في ذلك بتلميذه يهوذا، وقتلوا الذى قتلوه وهم شاكّون فيه، واختلف فيه عوامهم، وقالوا: إنه إله؛

وبعضهم قال: ابن الله؛ ومن شاهد رَفْعَه نَفَى قتله؛ وبعض فرقهم قالوا: صُلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته؛ وقالت فرقة أخرى: إن الصلب وقع على الناسوت واللاهوت معاً وادّعى اليهود قتله لأن من رأس المؤامرة ضده كان يهوذا رأس اليهود، وهو الذى سعى إلى تسليمه. وهؤلاء جميعا ما كان لهم علم إلا اتبعوا الظن، وما قتلوه، بل رفعه الله إليه. **والرفع** ليس غريبًا في التوراة بل له سابقة، ففى **سفر الملوك الثانى** يأتى أن النبىّ إيليا (إلياس) جاءت مركبة وفرسان نارية وحملته إلى السماء (٢/ ١-١٨)، **وفى نبوءة ملاخى** (٤/ ٥-٦) أن **إيليا** سيرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة، ولذلك يترك اليهود مقعدًا خاليا على مائدة عيد الفصح لإيليا، فليس عجيبًا إذن أن يقول القرآن أن عيسى رُفع، وأن ينزّهه عن الصلب!



٩٣٤. ﴿أربعة أناجيل للمسيح وليس إنجيلاً واحداً﴾

في القرآن أن الإنجيل هو كتاب عيسى: **﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦)﴾**(المائدة)، وأنه تعلّمه على الله تعالى: **﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (١١٠)﴾**(المائدة)، غير أن ما لدينا هو أربعة أناجيل وليس إنجيلاً واحدًا، والأناجيل الأربعة هى **الأناجيل القانونية** التى أقرتها الكنيسة، وهى أناجيل: متى،ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وهؤلاء هم **مؤلّفوها**، وكانت كتابتها بعد المسيح فى القرن الثانى الميلادى، يعنى أنها ليست من عند الله، وهناك أناجيل أخرى وُصفت بأنها **غير قانونية**، أى لم تقرّها الكنيسة، كإنجيل يعقوب، وإنجيل **نيقوديموس**، وإنجيل **الإبيونيين**، وإنجيل **المصريين**،وإنجيل **العبرانيين**، وإنجيل **الناسيين**، وإنجيل **بطرس**، وإنجيل **توما**، وإنجيل **الطفولية** - وهو إنجيل عربى. والأناجيل جميعها لم يُقصَد بها الإخبار عن الله تعالى، أو عن الآخرة، ولكنها تقص **سيرة المسيح**، فهى من هذه الناحية مثل كُتب السيرة. والأناجيل **غير القانونية** كلها عن مريم وزوجها يوسف، وعجائب المسيح فى حداثته، وهى من النوع الذى يرضى عامة الناس ويرتاحون إليه، وجميع الأناجيل غير متفقة تماما فهناك اختلافات بينها. وأما **وصف القرآن للإنجيل باعتباره كتاب الله فهو من عند القرآن**، والمقصود به الحِكَم التى كان المسيح ينطق بها بوحىّ من ربّه، وكلمة **إنجيل** يونانية وتعنى **البشارة**، والمذكور فى الأناجيل أقوال للمسيح من نوع الحِكَم، ولكنها مبشّرة ومتفائلة، والتراث المسيحى كله يونانى، وأسماء القساوسة التى يعطونها لأنفسهم واللغة التى يقيمون بها القداس يونانية، والمسيح لم يكن يتكلم اليونانية، وما كان يعرف إلا العبرية، وانحراف كتبة الأناجيل إلى

القول بأن المسيح ابن الله هو من عندهم وروايتهم، فيوحنا يقول في إنجيله (٣/ ١٦): «أن الله أرسل الله الوحيد لخلاص المؤمنين». ومضمون الأناجيل كما يقول بولس: «أن المسيح مات لأجل خطايا البشر». فشتّان بين رسالة القرآن: أن الله واحد لا إله إلا هو، ورسالة الأناجيل: وكلها تدعو للمسيح وليس لله، ولذلك يقال أحياناً «إنجيل المسيح»، وأحياناً يقال: «إنجيل السلام»، وأحياناً يسمونه «إنجيل مخلّصنا»، وأحياناً «إنجيل مجد المسيح»، و«إنجيل الملكوت أو بشـــارة الملكوت»، وهذه الأسماء جميعاً من عندهم، وليست من عند الله. ومقالة القرآن: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (آل عمران)، ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة ٤٦) تعني أنه تعالى أذن للمسيح أن يبشر الناس بملكوت السماء، وأن بشارته هدى لهم ورحمة، فما زاد عن ذلك في الأناجيل فهو من وضع مؤلفيها، ومنه قولهم أنه ابن الله، وعلينا إذن أن لا نقول إننا نؤمن بالإنجيل كما هو الآن، ولكن إيماننا به أو بها، أي بتعاليم المسيح فيها، بما لا يخالف روح الدعوة في القرآن، ونستطيع بالتأكيد أن نستخلص تعاليـم المسيح من الأناجيل، فكل قول حق يُنسب إليه نحن نؤمن به، ولا تعارض بين الأديان فيما يخص الله تعالى طالما هي تدعو إليه ولا تشرك به فيما تورده عنه.

•••

٩٣٥. ﴿نماذج من أقوال المسيح مما يصلح أن يكون إنجيلا﴾

• «اذهب ياشيطان، فإنه قد كُتب للربّ إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد». (متى ٤/ ١٠). (وهذا توحيد صريح).

• «طوبى للمســاكـين بالروح فإن لهم ملـكوت السمـاوات. وطوبى للودعاء فـإنهم يرثون الأرض. طوبى للحَزاني فـإنهم يُعزّون. طوبى للجـياع والعطاش إلى البـرّ فإنهم يُشبَعون. طوبى للرحمـاء فإنهم يُرحمـون. طوبى لأتقياء القلوب فـإنهم يعاينون الله. طوبى لفاعلي الســلام فإنهم بني الله يُدْعَـون. طوبى للمضـطَّهدين من أجل البـرّ فإن لهم مـلكوت السمـاوات. طوبى لكم إذا عيّـروكم واضطهدوكم وقـالوا عليكم كل كلمـة سوء من أجلي كاذبيـن. إفرحوا وابتـهجـوا فإن أجركم عظيم في الســموات، لأنهم هكذا اضطهدوا الأنبيـاء من قبلكم». (متى ٥/ ٢ ـ ١٢). (وهذا إقرار بأن عيسى مجرد نبيّ كالأنبياء).

• «قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فـإن من قتل يستوجب الدينونة، أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخـيه يسـتوجب الدينونة» (مـتى ٥/ ٢١ ـ ٢٢). (وهذا إقـرارٌ بالآخـرة والبعث والحساب).

• «قـد سمـعتم أنه قـيل للأولين لاَ تزْنِ، أمـا أنا فأقـول لكم إن كل من نظر إلى امرأة لكي

يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه، فإن شككتك عينُكَ اليمنى فاقلعها وألقها عنك، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقَى جسدك كله فى جهنم» (متى ٥/ ٢٧ ـ ٢٩) (وهذا تشريع).

• «قد سمعتم أنه قيل: أحبب قريبك، وأبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم، وصلّوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم». (متّى٥ / ٤٣-٤٤). (وهذا كلام فى الأخلاق والتربية وسياسة الاجتماع).

• « لا تدينوا لئلا تدانوا، فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون، وبالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم. ما بالك تنظر القذى فى عين أخيك ولا تفطن للخشبة التى فى عينك...؟ إسألوا فتعطوا. أطلبوا فتجدوا. إقرعوا فيُفتح لكم، لأن كل من يسأل يُعطَى، ومن يطلب يجد، ومَنْ يقرع يُفتَح له. أي إنسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجرا؟ أو إن سأله سمكة يعطيه حية؟». (متّى ٧/ ١ ـ ١٠) .(وهذا كلام فى الاجتماع الإنسانى).

•••

٩٣٦. «قصة أصحاب الأخدود»

تناولتها سورة البروج، تقول: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪﴾. والسورة مكية، وتحكى عن فئة من نصارى نجران قيل: كانوا يؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة، وهى طبيعة بشرية، يعنى أنه كان نبياً ولم يكن ابن الله كما يزعم أغلب النصارى، ولذلك نوّه بهم القرآن، وأثنى عليهم ووصفهم بأنهم مؤمنون. وقيل إن أصحاب الأخدود هم مَلِك حمْيَر وأتباعه، وهو الملقب بذى نواس، فقد كانت له غدائر من الشّعْر تُنُوس، أى تهتز كلما اهتز، فسمى ذا نُواس، واسمه الحقيقى زُرْعَة بن تُبّان بن أسعد الحُمَيْرى، وكان على الوثنية، فتهوّد وأسمى نفسه يوسف بن ذى نُواس بن تُبَعّ الحميرى، ودعا النصارى أن يتهوّدوا، فمن أبى منهم اضطهده وعذّبه. وقيل: إن نصارى نجران كانوا نيفًا وثمانين فرداً بين رجل وامرأة، وقيل سبعون أو ثمانون ألفا، وهذا خطأ، لأن الأخدود الذى حُفِر لتعذيبهم ما كان يمكن أن يستوعب سبعين أو ثمانين ألفا!! ثم لماذا يحرق ذو نواس اليهودى هؤلاء النصارى واليهود لا يدعون الآخرين لاعتناق ديانتهم؟ والغالب أن الذى أعمل فيهم

التحريق هم **نصارى مثلهم** كانوا يقولون بطبيعتين للمسيح. **على أن الرواية أن ذا نواس هذا** كان **يهودياً** ولم يردهم أن **يعتنقوا** اليهودية، وإنما أن ينكروا المسيح بالكلية، **فلم يوافقوا، فخدّ لهم أخدوداً**، وقيل **سبعة** أخاديد، وطرح **فيها النفط والحطب، ثم عرضهم** عليها، فمن أبى أن ينكر المسيح قذفوه **فيها. والمستشرقون** يجزمون بأن المُحرَّقين **كانوا نصارى**، وأنهم **المقصودون** بما يُعرف تاريخياً باسم **شهداء نجران**، وأن **المحرقة holocaust** التي أوقدها اليهود الحميريون لنصارى نجران كانت نحو سنة **٥٢٣** بعد الميلاد، وقالوا إن في التاريخ **ثلاثة** أخاديد، فأخدود كان بنجران، والآخر **بالشام**، والآخر **بفارس**. والذى بالشام حفره **أنطونيانس الرومى**، والذى بفارس حفره **بختنصر**، والذى بأرض اليمن حفره **يوسف بن ذى نواس**، وسورة البروج نزلت **في** أصحاب الأخدود الذين كانوا بنجران. وقال اليهود: إن الذين حُرّقوا كانوا بفارس وكانوا **يهوداً**، وزعموا أنهم النبىّ **دانيال** وأصحابه، وقالوا: إنّ أهل نجران كانوا على أى حال أهل شرك ويعبدون الأصنام، وأنهم قالوا لليهود فيها: **تكفرون أو تقذفون فى الأخدود وتُحرقون بالنار؟ والأخدود** شق **عظيم مستطيل فى** الأرض كالخندق، وجمعه **أخاديد**. «**والنار ذات الوقود**» أى المضرمة في الحطب. وقوله «**إذ هم عليها قعود**» المقصود بهم أصحاب الأخدود، فبعد أن خدّوه قعدوا على حوافه ينظرون من يلقونه فيه من المؤمنين. والمستشرقون يترجمون **أصحاب الأخدود the people of the ditch**، ومنهم **أكسيل موبرج**، كذّب قصة القرآن ولم ير صلةً بينها وبين قصة **شهداء نجران** من النصارى؛ والمستشرقان **جايجر ولوث** شككا فى القصة وقالا ربما تكون إشارة إلى **دانيال وأصحابه**؛ وأنكر **هوروفتس وجريمه** أن تكون للقصة أصلٌ من الواقع. **والصحيح** أن القصة رويت **ليصبر المسلمون على ما يلاقون من الأذى والألم والمشقة التي كانوا عليها**، وذهب أصحاب التفاسير إلى أن أصحاب القصة كانوا من الفتية من المؤمنين مثل فتية سورة الكهف، فكانت الرواية عنهم ليتأسّى بقصتهم الشباب المسلم. وفى ذلك الوقت كان عمّار بن ياسر **وبلال** وغيرهما من الشباب المسلم يُؤذَون أبلغ الأذى، والصبر على الأذى من الإيمان، ونزلت الآية: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ** (١٠٦)﴾(النحل) فيها الحضّ على الصبر إلا من أُكره وقلبه عامر بالإيمان، وقد يلجأ المؤمن إلى التَّقيّة درءاً للعذاب، والبعض قد يرضى بالعذاب، وفى وصية النبىﷺ للشاب: «**لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطّعتَ أوحُرّقتَ بالنار**» أخرجه ابن ماجه، وامتُحن كثير من المسلمين بالقتل والصلب والتعذيب فصبروا، ومن

هؤلاء عاصم وخُبيب وأصحابهما، وإن ما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق لتشيب من ذكره الولدان.

•••

٩٣٧. ﴿قصة الغلام والراهب﴾

في الرواية عن رسول الله ﷺ عن أصحاب الأخدود قصةُ «الغلام والراهب»، رواها لأصحابه، تنبيهاً لما كان يلقاه من الشدائد مَن وَحّد الله قبلهم، وعَبَدَهُ دون غيره، وإيناساً لهم بها، لتصبيرهم على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها، ليتأسّوا بمِثْل هذا الغلام فى صبره، وتصلّبه فى الحق، وتمسّكه به، وبذله نفسه إظهاراً لدعوته، وإقناعاً للناس للدخول فى الدين، مع صغر سِنّه وعظيم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لمّا آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان فى قلوبهم، صبروا على الطرح فى النار ولم يرجعوا عن دينهم.

تقول الرواية عن النبيّ ﷺ أنه قال: «كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إليّ غلاماً أعلّمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان فى طريقه إذا سَلَك راهبٌ، فقعد إليه، وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فَقُل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فَقُل. حبسنى الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة، قيل أسد، قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم: الساحر أفضل، أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فأقتلُ هذه الدابة حتى يمضى الناس. فرماها، فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أى بنى، أنت اليوم أفضل منى، فقد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ. وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليسٌ للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هنا لَكَ أجمع، إنْ أنت شفيتنى. فقال: إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله. فإنْ أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك. فآمَنَ بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَنْ ردّ عليك بصرك؟ قال: ربّى. قال: ولك ربٌّ غيرى؟! قال: ربى وربّك الله! فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أى بنى، أقد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! قال: أنا لا أشفى أحداً!! إنما يشفى الله! فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك! فأبى،

فوُضع المنشار في مَفرق رأسه، فشقّه به حتى وقع شقّاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبَى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا الجبل، فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت! فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى المَلك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا، فاحملوه في قُرقور (أي مركب صغير)، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه! فقال الغلام: «اللهم أكفنيهم بما شئت». فانكفأت بهم السفينة فغرقوا! وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الملك الناس في صعيد واحد، وصلبه - أي الغلام - على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، ربّ الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على صدغه في موضع السهم، فمات. فقال الناس: آمنا بربّ الغلام، آمنا بربّ الغلام! وقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حَذَرُك! قد آمن الناس! فأمر بالأخاديد في أفواه السكك، فَخُدَّت، وأُضرِم النيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها. حتى جاءت امرأة معها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه اصبري، فإنك على الحق». أخرجه الترمذي بمعناه، والقصة كما ترى في «الاستشهاد»، وهو أعلى درجات الإيمان. وبرواية ابن عباس عن النبيّ ﷺ: «كان ملك بنجران، وفي رعيته رجل له فتى، فبعثه إلى ساحر يعلّمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل، فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب، فأقبل يوماً فإذا حيةٌ عظيمة قطعت على الناس طريقهم، فأخذ حجراً، فقال: باسم الله، ربّ السموات والأرض وما بينهما، فقتلها، ثم إن الملك لما رمى الغلام بالسهم وقتله، قال أهل المملكة: لا إله إلا الله، الملك صار يعبد إله الغلام ثامر (اسم الغلام)، فغضب الملك، وخدّ الأخاديد، وجمع فيها الحطب وأشعل النار، وعرَض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على دينه قذفه في النار. وجيء بامرأة مُرضع، فقيل لها: ارجعي عن دينك، وإلا قذفناك وولدك. فأشفقت المرأة، وهمّت بالرجوع، فقال لها الصبي الرضيع: يا أمي، اثبُتي على ما أنت عليه، فإنما هي غميْضة - يعني طرفة عين -، فألقوها وابنها. قيل: وارتفعت النار فطالت الملك وأصحابه فأحرقتهم». وبعد - فهذه قصة الغلام والراهب، وقصة الرضيع وأمه والملك

الكافر، وما حُفر من أخاديد أو محارق، يذكر التاريخ أن هذه هي **ثاني محرقة** أو **هولوكوست holocaust** للموحّدين بعد محرقة **إبراهيم**، والفارق بين الاثنتين أن **محرقة إبراهيم** أقامها **عبدة الأصنام** لإبراهيم الموحِّد، في بلدة **أور** من أعمال **بلاد ما بين النهرين** (العراق)، **ومحرقة أصحاب الأخدود** كانت **لنصارى نجران**، والذى أقامها هم **يهود نجران**، أحرقوا فيها المؤمنين **من النصارى**. وهذه المحرقة **الثالثة** هى التى ذكرتها الرواية **فى قصة الغلام والراهب**. ويحفل التاريخ بالمحارق والمذابح **للمسلمين فى أسبانيا على يد محاكم التفتيش**، وفى **البوسنة وكوسوفا** على يد الصرب النصارى، وفى **الشيشان** على يد النصارى الروس، ثم فى **فلسطين على يد اليهود**، وفى أفغانستان **والعراق على يد** نصارى ويهود بريطانيا وأمريكا، وحسبنا الله، ولن تنقطع المحارق والمذابح الجماعية عبر التاريخ، والعبرة بالصبر والثبات، والقصة كما يقول الله تعالى: **﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (١٢٠)﴾**(هود)، ويقول: **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾** (العنكبوت)، وسيظل المسلمون يفتنون دائماً أبداً، أو كما يقول تعالى: **﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ (١٢٦)﴾**(التوبة)، **فالفتنة** من سنن الله، وعلاجها الصبر والثبات، ومحك الإيمان فيها **الاستشهاد**. وحسبنا الله.

•••

٩٣٨. ﴿أصحاب الفيل﴾

هذه القصة من **معجزات القرآن العلمية**، وتتضمنها **سورة الفيل** فلربما **الفيل** فيها رمزٌ للقوة الغاشمة كالتى لدى أمريكا، ولربما **الطير الأبابيل** فيها هى **قنابل بيولوچية جرثومية** تفتك بالعدو ضمن ما يسمى حديثاً **بالحرب البيولوجية** أو الجرثومية. **والفيل** فى اللغة هو ضعف العقل، والحُمق، **وأصحاب الفيل** هم أصحاب الرأى السقيم يؤمنون بأنفسهم ولا يؤمنون بالله، ويحاربون الأديان ويعبدون الأصنام. وقيل فى **قصة** هؤلاء ضمن **سورة الفيل** من سور القرآن: أن **أبرهة الأشرم** كان قائد جند ملك الحبشة، وكان واليه على **اليمن**، وكان يحقد على العرب أن يكون لهم بيتٌ كالبيت العتيق، يحجّون إليه من كل فج، وكان أبرهة على دين **النصارى**، فبنى **كنيسة فى صنعاء** كانت عالية حتى أن العرب أسموها «**القُلَّيس**»، لأن الناظر إليها يرفع رأسه عالياً حتى **أن قلنسوته** لتقع عن رأسه، وسمع العرب بنيّة أبرهة، فذهب متعصبٌ منهم إلى الكنيسة ودخلها **وتغوّط** فيها، وبلغ ذلك أبرهة، فأقسم ليسيرنّ إلى الكعبة ويخربنّها حجراً حجراً، وصحب **أفيالاً** معه بقصد التخويف، وتقدّم بجيشٍ عرمرم يغزو البلاد، فسمّوا لذلك «**أصحاب الفيل**»، وسُمّى اليوم الذى غزوا فيه مكة «**يوم الفيل**»، وسُمّى العام «**عام الفيل**»، وقيل كان **عام الفيل** قبل مولد

النبي ﷺ بأربعين سنة، وقيل بثلاث وعشرين سنة. والصحيح ما روى عن النبيّ ﷺ قال: «وُلدتُ عام الفيل». وقيل إن فتية من قريش لما سمعت بقَسَم أبرهة، توجهوا إلى كنيسة وأضرموا فيها النيران حتى أتت عليها. ومن اليمن خرج ضده شريفٌ يقال له «ذو نفر» لكنه هُزم، وفي أرض خثعم اعترضه نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه، فأمره ليكون دليله في بلاد الحجاز، وفي الطائف تصدّت له ثقيف ومالأته، وأوفدت معه دليلاً منهم يقال له: أبو رغال، وانتهى أبرهة إلى المغمس بالقرب من مكة، وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها، ومنها إبل عبد المطلب، فجاء يلتقى بأبرهة ليستعيد إبله، وكان من رأيه أن أحداً ليس قِبلاً لأبرهة وجيشه، وتعجب أبرهة أن يلح عبد المطلب في طلب الإبل ولا يرجوه أن لا يهدم الكعبة، وعبد المطلب على الرأى أن البيت بيت الله، وبيت رسوله إبراهيم، فإن يمنعه من بطش أبرهة فهو بيته وحرمه، وإن يخلى بين أبرهة وبينه، فليس بوسع عبد المطلب ولا غيره أن يفعل شيئاً. وقال عبد المطلب لأبرهة: أريد إبلي لأني أنا ربّ الإبل، وأما البيت فله ربٌ يحميه. - وقوله بالطبع مغالطة مفضوحة، وشبيه به قول اليهود لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ (المائدة). ورجع عبد المطلب إلى العرب وأمرهم بالخروج من مكة والتحصُّن برءوس الجبال، وأخذ بحلق باب الكعبة يدعو الله:

اللهم إن المرء يمنع ∴ رَحْلَه فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب ∴ وعابديه اليوم آلك
لايغلبن صليبهم ∴ ومحالهم أبداً محالك

وتوجه أبرهة إلى الكعبة، وحَرَنَت أفياله، فكانت تتوجه إلى كل اتجاه إلا اتجاه الكعبة، وأرسل الله تعالى ابتلاءه على جيشه: طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، أى طيراً صغيرة دقيقة كأنها الميكروبات، ترميهم بالوباء المدمر كأنه من جهنم، فيطفح جلدهم وكأنهم أصيبوا بالجدرى، وكأن الحجارة من سجيل، هى القنابل الجرثومية التى أصابتهم بالوبال وقضت عليهم، ودفعتهم إلى الهرب يبتدرون الطريق، وقريش على رأس الجبل ينظرون ويقول شاعرهم:

أين المفر، والإله الطالب ∴ والأشرم المغلوب وليس الغالب

فكانت هذه النُصرة مما يُعدّ على قريش من نِعَمه تعالى عليهم، وكانت هزيمة أبرهة وجيشه معجزة، وآياته تعالى كلها معجزات باقيات، وهى من حولنا يدركها ذوو البصائر، ولا يمارى فيها إلا الكفور، وخلاصة القصة: بأنه في أى معركة بين الحق والباطل، فإن العبرة بالخواتيم، كقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا

﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ (٢١٦)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ (٥٢)﴾ (المائدة)، وقوله: و﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ (١٢٩)﴾(الأعراف). والله غالبٌ على أمره، فيا أمة محمد، لا تهنوا ولاتحزنوا، ولاتكونوا فى ضيق مما يمكرون، عسى ربّنا أن يبدّلنا خيراً!

●●●

٩٣٩. ﴿قصة الإسراء والمعراج﴾

الإسراء يعنى السير فى الليل، تقول سَرَى وأسرى، كَسَقَى وأسْقَى، وإنما سَرَى إذا سِرْتَ من آخر الليل، وأسرى إذا سرتَ من أول الليل. والآية التى تحكى عن الإسراء تقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾(الإسراء)، يعنى أن رحلة الإسراء بدأت من أول الليل، وكانت رحلة عظيمة وآية من آيات الله، أُسرى فيها بالنبىّ ﷺ، ورأى فيها من الأعاجيب ما رأى، فسبحان الذى حقق لنبيّه ذلك، له التنزيه والذكر العظيم، وكان سميعاً بصيراً بعبده محمد ﷺ، كقوله مع موسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾ (طه)، فلما كان «عام الحزن»، ووفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة، وما لاقاه من قومه بعدهما، وما استشعر من غُربة وهو فى بلده وبين ناسه، والسجن الكبير الذى وضعوه فيه، والمهانة التى يصادفها منهم يومياً، لم يكن يشكو بثّه وحزنه إلا إلى الله، وهو العليم بحاله، والمُطّلع على أحواله، فكانت رحلة الإسراء جائزةً له على صبره، وخروجاً به عن هذه الوحشة والقطيعة، وتسريةً له، ورداً لاعتبار الدين بعد أن اعتور الشك الكثيرين. وكان الإسراء إلى بيت المقدس لأنه كان إذا دعا وإذا صلى يتوجه إلى بيت المقدس، وهو مجمع أرواح الأنبياء، أراده داود ثم سليمان رمزاً لوحدانية الله، ولاجتماع كلمة المسلمين على التوحيد، وإشارةً إلى أن الناس صنفان: جماعة المؤمنين وجماعة الكافرين، والأولون بيتهم هو بيت الله فى القدس، والآخرون بيوتهم هى بيوت النار، أو بيوت الأوثان والأصنام. وبيت المقدس بالنسبة لما حوله من عالم الناس ودنياهم بمثابة القلب من الجسد، ولا حياة لجسد بلا قلب، وكان الناس قبله بلا قلب، فصار هذا البيت هو القلب لهم يضخ الإيمان فى قلوبهم، والنظرة إليه عن قرب، تشدّ الأزر، والتوجه إليه عن بُعد يُقوِّى الروح، ويحمّس النفس، واجتماع المسلمين على الصلاة إلى بيت واحد مهما بَعُدت بهم الشقة، ونأت بهم الديار، يجعلهم أمة واحدة هى أمة «لا إله إلا الله»، وحزباً واحداً هو «حزب الله»، وسَفْرة النبىّ ﷺ إلى القدس، وزيارة البيت كانت بمثابة الحج، والإسراء

إشارة لكل مَنْ يعاني الوَصَب من الحياة، فما عليه ليشفى إلا أن يحجّ إلى بيت الله. وبيوته ثلاثة: **البيت الحرام**: وهو أقدم هذه البيوت، وهو المحرّم أن يدخله مشرك، وأن يُفعل فيه إثم، وأن تُرتكب فيه معاصٍ، وأن يُراق فيه دم؛ **وبيت المقدس**: وهو مجمع الأنبياء، المبارك من حوله وما حوله؛ وبيت النبيّ ﷺ في المدينة، وهو مسجده، بناه كما بنى إبراهيم البيت الحرام، وكما بنى سليمان بيت المقدس. والنبيّ ﷺ إذ يحج إلى هذا البيت لا يشرّع للمسلمين أن يكون حجّهم إليه، لأن الإسراء كان خاصاً بالنبيّ وحده ﷺ، وفي هذه السورة المباركة وصف الله تعالى نبيّه **بالعبودية**، فقال: «**أسْرَى بعبده**»، فجعل العبودية له تعالى أشرف المقامات وأسمى المرتبات، وفي سورة النجم وصفه في مقام الوحي بالعبودية أيضاً فقال: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ⑩﴾، وفي مقام الدعوة وصفه بالعبودية كذلك فقال: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ⑲﴾(الجن)، فالعبودية لله مكافأة قبول كسائر المكافئات للنبيّ ﷺ. ومع أن **سورة النجم** سابقة على **سورة الإسراء**، فالنجم في التنزيل هي **الثالثة والعشرون**، والإسراء هي **الخمسون**، إلا أن المفسرين دأبوا على الاستشهاد بآيات سورة النجم استكمالاً لمجريات أحداث سورة الإسراء، وهذا خطأ، لأن **الرؤيا في سورة النجم** هي رؤيا أخرى بخلاف **رؤيا الإسراء**، وهي رؤيا تسبق رؤيا الإسراء، ورؤيا سورة النجم هي التي رأى فيها النبيّ ﷺ جبريل مرتين، ففي المرة الأولى كان النبيّ ﷺ على الأرض ويتطلع إلى السماء، فرأى جبريل بالأفق الأعلى كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ** ⑦ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ⑧ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ** ⑨ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ⑩﴾(النجم) **وعبده**: هو عبد الله محمد ﷺ، وفي هذه الرؤية يقول تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ⑪ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ⑫﴾(النجم)، ثم أنه رأى جبريل مرة أخرى وإنما في السماء: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ** ⑬ **عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ** ⑭ **عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** ⑮ **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ** ⑯ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ⑰ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ⑱﴾، وفي رأينا أن المعراج يرد عنه في سورة النجم وتحدّثت به هذه السورة وحدها، وفيها يقسم الله تعالى بالنجم كقسمه **بمواقع النجوم**، وإنه لقسمٌ عظيم، بأن **المعراج حقيقة**، وأنه ﷺ ما ضلّ وما غوى، وما نطق عن الهوى وهو يتحدّث عن هذا المعراج الذي عرّج به جبريل إلى السماء، فرأى سدرة المنتهى **وجنة** المأوى، وشاهد **ما يغشى السدرة**، وما زاغ بصره وما طغى - أي ما رأى إلا ما سُمح له برؤيته، ورأى **من آياته الكبرى**، فقد كان كل ما شاهده وأبصر به وعاينه آيات كبرى، كقوله تعالى: ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ①﴾(الإسراء) أي نريه ما يدلّ على قدرة الله تعالى وعظمته، فيطمئن قلبه، ويسكن خاطره، وترضى نفسه.

والمعراج كحدث، مستقلٌ إذن عن الإسراء - من قولنا عرَّج به أى مرّ به، والمعراج سَفْرة فيها تعاريج، أى لم تكن على خط واحد، والسفر عبر الفضاء علمياً لا يكون فى خط واحد، وكان المعراج بين الأرض والسماء، وبين السموات السبع. والإسراء لاحق على المعراج، وللأسف الشديد أن المفسرين خلطوا الرحلتين، وجعلوهما رحلة واحدة، ووضعوا الأحاديث على ما فهموه، أو حرّفوا فيه، فكان الخلط بين الإسراء والمعراج، ولعلنا ننتقى من هذا الكم الزاخر من الأحاديث ما يوافق ما جاء فى القرآن عن الإسراء وعن المعراج، وننحى ما لا يوافقهما، أو نعيد الرأى فى هذه الأحاديث، ونعزل ما يناسب الإسراء عماً يناسب المعراج. وينبغى أن ننبّه إلى أن كل هذه الأحاديث، رغم ما فيها من خلط وروايات متضاربة، فإنها معقولة ولا تتنافى مع العلم. ومن الضرورى أن نعى أن الإسراء شامل للسفر إلى بيت المقدس وتلقّى الوحى بالصلاة، فهذه رؤيا، بينما رؤيا سورة النجم رؤيا أخرى، وفيها أبصر جبريل فى صورته الملكية، وعاين سدرة المنتهى وجنة المأوى ورأى الآيات العجيبة.

والإسراء كحدث ضخم كان قبل الهجرة، والناس فيه اختلفوا أشد الأختلاف، وبعض الذين آمنوا بالنبىّ ﷺ لم يصدقوا إمكان أن يُسرَى به ذهاباً من مكة إلى بيت المقدس ثم إيابًا من بيت المقدس إلى مكة فى ليلة واحدة، وهى الرحلة التى تستغرق معهم ذهاباً فقط نحو الشهر. وتزعّم أبو جهل المكذبيّن للنبىّ ﷺ، وفيما أورده المحدّثون فإنهم نسبوا إلى النبىّ ﷺ أنه كان نائمًا فى البيت الحرام حينما جاءه ثلاثة نفر حملوه إلى حيث بئر زمزم، وتولى جبريل شق صدره، وغسّله وغَسَل جوفه، وحشاهما بالإيمان والحكمة، ولنلاحظ الرمزية فى هذه الأحاديث منذ البداية وسنرى أن الاتجاه الرمزى هو الاتجاه الغالب فى هذه الأحاديث، وأنه يصنع منها باباً من أبواب الأدب الإسلامى هو الأدب الدينى الرمزى. وفى رواية أخرى بخلاف السابقة أن النبىّ وهو بين النوم واليقظة، وعيناه مغمضتان وقلبه يقظان، رأى سقف بيته ينشق ويدخل منه جبريل، ويشق صدره، ويغسّله بماء كان معه من ماء زمزم. ثم أخذه وأركبه دابة، لونها أبيض، ولها هيئة أكبر من الحمار ودون البغل، وهذه الدابة هى البُراق، من البَرْق، والبرق يكون خاطفاً، وهى البُراق لأنها تسير كالبرق الخاطف، فسرعتها أكبر من سرعة الصوت ومن سرعة الضوء. وفى الطريق توقف لاركب، وهمز جبريل الأرض فتدفق منها الماء، فتوضأ والنبىّ ينظر ويحفظ ويقلّده عليه، فوضّأ جبريل وجهه وغسّل ذراعيه، واستنشق وتمضمض، ومسح رأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين، ونضح فرجه، ثم قام فصلى ركعتين وفعل النبىّ ﷺ مثله.

واستأنفا الرحلة فسمع النبيّ ﷺ نداء عن يمينه: يا محمد، على رِسْلك حتى أسألك؟ فلم يتوقف جبريل، فسمع الرسول ﷺ النداء مرة ثانية عن يساره: يامحمد، على رِسْلك! ومع ذلك مضى الركب، ثم إن امرأة عجوز استقبلتهما عليها من كل زينة الدنيا، رافعة يديها، تقول: على رِسْلك يا محمد حتى أسألك! ومضى الركب ولم يُعرّج، وسارا ما شاء الله لهما أن يسيرا، إلى أن لقيهما خَلْق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول! السلام يا آخر، السلام عليك ياحاشر! فقال له جبريل: أردد السلام يامحمد! فردّ السلام، وتكرر ذلك مرتين أخريين، وكان البراق يهوى بهما، وجبريل فى المقدمة، والنبيّ ﷺ خلفه، وكان ركوب البراق قد استصعب على النبيّ ﷺ، فركب جبريل أولاً وراز البراق بأذنه ليركب النبيّ ﷺ، ثم حمله جبريل وأردفه خلفه، ووصلا أرضاً بها نخل، فتوقف جبريل وأنزله، وأمره أن يصلى، ثم سأله: أتدرى أى أرض هذه؟ فقال: الله أعلم. قال: صليتَ بيثرب، صليت بطيبة. وانطلقا إلى أن وصلا أرضاً أنزله فيها، وأمره أن يصلى، وقال له: صليتَ بمدين عند شجرة موسى. وانطلقا إلى أن بلغا أرضاً فيها البيوت والمنازل، فأنزله يصلى، وقال له: صليتّ ببيت لحم حيث وُلد عيسى ابن مريم. وانطلقا إلى القدس ودخلاها من بابها اليمانى ووصلا البيت فنزلا، وربط جبريل البراق إلى حلقة فى حائط ـ هو حائط البراق الذى يسميه اليهود الآن حائط المبكى، ودخلا المسجد، وأشار جبريل إلى القِبْلة، فصلى إليها وصلى النبيّ ﷺ، والتقى بالأنبياء: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وحيّوه وحيّاهم، وصلّى بهم وكان لهم إماماً، وفى رواية أنه لم يتعرّف على هؤلاء الأنبياء وعلى غيرهم إلا فى منازلهم من السموات، بحسب مراتبهم، قيل: فلما فرغ من لقاء ربّه ورجع إلى بيت المقدس، وصلى بالأنبياء، ظهر شرفه وفضله بتقديمه عليهم فى الإمامة، وذلك عن إشارةٍ من جبريل أن يصلى بهم، و بعد ذلك خرج وركب البراق عائدا إلى مكة بغلس.

وفى الرواية أيضاً أنه لمّا وصل بيت المقدس استشعر العطش، فأُتى له بماء، ولبن، وخمر، وعسل، يختار أيهم يشرب، فاختار اللبن، فقال له جبريل: أصبتَ وأمّتُك الفطرة. ثم إن جبريل انطلق به فأتيا الوادى الذى فيه القدس ـ وهو وادي جهنم فكان الحمة السنخة، إشارةً إلى ما سيكون حول القدس من صراعات مستقبلة، ثم انصرف به، فمرّا بعير لقريْش قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه أحدهم، فسلّم الرسول ﷺ عليهم حتى قال بعضهم: هذا صوت محمد!

وإلى هنا ينتهى حديث الإسراء، أو أن أحداثه تلك كانت مقدمة للارتفاع إلى السماء

وهو المسمى **بالمعراج**، وكلها أحداث معقولة وجائزة، وليس فيها ما هو ضد العقل، ونحن في عصر **المركبات الفضائية** التي تقطع الآماد كالخاطر يأتي الذهن، فأن يُسرى بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس أمرٌ عادى، فقد جاءت الرؤيا **رابعة العدوية** فرأت **الكعبة** قد أتتها في محلها في بغداد ولم تنتقل إليها رابعة من مكانها، **وسليمان** أتته **بلقيس** من اليمن بنفسها وحشمها وخدمها وبلاطها، وانتقل قصرها إلى القدس ولا تثريب في ذلك، وموسى كلّمه الله وكتبت له الألواح بخطه، ولم نجادل فيه، **وعيسى** أحيا الأموات ولا نزاع عليه، وإبراهيم لم تحرقه النار، **فلماذا جدال المستشرقين حول الإسراء؟ ولماذا الإسراء بالذات ولم يجادلوا هذا الجدال في المعراج في سورة النجم؟** والجواب أنه بسبب أن الإسراء كان إلى **بيت المقدس** واليهود يعتبرونه بيتهم، **وجولدستيهر** يتساءل: **ولماذا بيت المقدس؟** لقد صار بيت المقدس مشكلة بين المسلمين واليهود من ذلك الوقت، وتوقع **جولدستيهر** كل ما يحدث الآن على أرض فلسطين، وأنه بسبب بيت المقدس **سيظل الصراع للأبد بين هاتين الأمتين**: **أمة الإسلام وأمة اليهود**. وهذه نبوءة صادقة، والمسلمون أعادوا بناء بيت المقدس وعمّروه، وأحيوا فيه ذكر الله، وحفظوه وراعوه، ونبيّهم أُسرى به وحج إليه، فهل يتركونه يعبث فيه اليهود فساداً كما قال المسيح فيهم: **مكتوب بيتى صلاة يُدعَى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص**» (متى ٢١/١٣)، وقال فيه متى واضع الإنجيل: «**وأخرج يسوع جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل، وقَلَب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحَمَام**»(متى ٢١/١٢)، والمسيح «**شهد شاهدٌ من أهلها**»، وكذلك **متّى** كاتب الإنجيل «**من أهلها**»، يعنى كلاهما أصوله يهودية وقد شهدا على قومهما، فهل يئول بيت المقدس لليهود مرة أخرى ليكون مزاراً سياحياً لا دينياً، وفرقٌ بين أن يكون مزاراً يتكسّبون منه من السياحة، وأن يكون بيتاً لله يُصلى فيه المصلون، ويذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار، وكان **كارل ماركس** يقول: «**إن اليهودى لا يفكر في الله، ولا تعنيه الجنة ولا النار، ولا يشغل اليهودى إلا المال، فألغُوا الملكية والتجارة الرأسمالية تنتهى أسطورة اليهودى واليهودية. إن إله اليهودى هو المال وليس يهوه أو الوهيم**»، ومرة أخرى يشهد **شاهد من أهلها**، لأن ماركس كان أيضاً يهودياً.

وفي تفسير رموز قصة الإسراء: أن **العجوز** التي رآها النبىّ ﷺ على جانب الطريق هي **الدنيا**، وهي عجوز لأنه لم يبق منها إلا كما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن يستوقفه وناداه مرة عن يمينه ومرة عن شماله، فذاك **إبليس**، أراد أن يميل إليه. وأما الذين سلّموا عليه **فإبراهيم وموسى وعيسى**، لأن الإسلام ينبنى على الأخذ بديانات هؤلاء الأنبياء. وأما الصلاة **بيثرب** كأول محطة في الطريق، لأن الإسلام ما كان له أن

يظهرعلي الأديان إلا بعد الهجرة إلى يثرب التى هى طيبة، والتى صار اسمها المدينة، أى العاصمة: عاصمة الدنيا الجديدة، دنيا فيها الإسلام لله قد فشا وشاع، وفيها أمة الإسلام هى خير الأمم طالما اتّقت وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر. وأما مدين عند شجرة موسى فإنها تعنى تعاليم موسى فى بدايتها، في عهد مدين، قبل أن يحرّفها اليهود، وصلاته عندها يعنى أنه يقرّ بها ويُصدر عنها. وأما بيت لحم حيث ولد المسيح، فلأنه يقرّ بنبوة عيسى، وأنه ابن مريم، وأنه بشر من بشر، وكلمةُ الله إلى مريم، وهى كن، فمثله كمثل آدم، وكلاهما كان بكلمة كن. وأما أن الوضوء عن جبريل فيعنى أنه بوحى من السماء، فليس كالعماد عند النصارى من اجتهادات قساوستهم. وأما أنه حيّا الأنبياء وحيّوه، فهذا هو ما تضمنته آيات القرآن، وما حوته قصصه: الإيمان بما أوتى النبيون جميعاً من ربّهم، بلا تفرقة بين أحد منهم؛ وأما أنه ﷺ أمّهم جميعهاً، فلأنه نبيّ الإسلام الذى أُعطى اسم الإسلام ديناً لله، وخصّه الله دون بقية الأديان باسم ولم يكن لها جميعاً اسم، ولأنه الذى خُصّ دونهم جميعاً بوضوء، وصلاة، وزكاة، وحجّ، ليس كما عندهم منه، ولأنه ﷺ أُوتى القرآن وحَفَظه الله، وكان اليهود قد أوتوا التوراة فلم يحفظوها، والنصارى أوتوا الإنجيل فحرّفوه، فتكفّل الله بالقرآن يحفظه دون بقية كتُبه، فالإسلام هو الديانة الأشمل والأكمل والأفضل، وهو جماع كل الديانات وكل النبوآت، وكل ما فيها من أخلاقيات وحِكَم وفلسفات وعلوم ومعارف.

وأما المعراج - وربما هو رؤيا سورة النجم كما قلنا وليس سورة الإسراء، فإن كانت الرؤيا فيه منفصلة عن رؤيا الإسراء، فإن الأحاديث فيه كما قلنا، ينبغى فصلها عن أحاديث الإسراء. والمعراج في بعض روايات الإسراء لا يذكر إلا أنه كان من مكة إلى السماء مباشرة، فلا تحضير ولا تمهيد. والمعراج إن كان منفصلاً وخُصّت به سورة النجم، فإن قصته أيضاً كانت للتسرية عن الرسول ﷺ، ولتسلية المسلمين، وليخزى الله بقصته الكافرين، فيزدادوا حقداً يأكل قلوبهم ويُرديهم إلى حتوفهم. وسواء كان المعراج ليلة الإسراء، أو كان قبل ذلك كما فى سورة النجم، فإن قصته تبدأ بأن جبريل أخذ الرسول ﷺ وعرّج به إلى السماء الدنيا، واستفتح لهما فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففُتح لهما، فإذا بآدم وهو قاعد وعلى يمينه أسودة، وعلى شماله أسودة، فإذا نظر إلى يمينه ضحك، وإذا نظر إلى شماله بكى، فسأل النبىّ ﷺ جبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله

أهل النار. وقال آدم يحييه: **مرحباً بالنبىّ الصالح والابن الصالح**. ثم عرّج جبريل بالنبىّ ﷺ إلى **السماء الثانية**، واستفتح كما فعل فى السماء الدنيا، وتكرر معه ما حدث من قبل، فإذا بابنى الخالة **يحيى وعيسى**، فرحّبا به، وقالا: **مرحباً بالأخ الصالح والنبىّ الصالح**. وقال النبىّ ﷺ عن المسيح: «**كان مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس**». ثم عرَجا على **السماء الثالثة**، **فإذا بيوسف** آية فى الحُسن، ورحّب به، وقال ما قال مَنْ سبقه؛ ثم فى **السماء الرابعة التقى إدريس**؛ وفى **الخامسة هارون**. وفى **السادسة موسى**، فسلّم عليه ودعا له موسى، فلما تجاوزه الرسول ﷺ بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بُعث بعدى، يدخل من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى! وقال النبىّ ﷺ عن موسى: **كان رجلاً طوالاً، جعداً، كأنه من رجال شنوءة** (إحدى القبائل وتتميز بالطول).

وفى السماء **السابعة التقى إبراهيم، فإذا** هو مستند إلى **البيت المعمور**، ويدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك. ثم ذهب **إلى سدرة المنتهى** فإذا ورقها كآذان الفيلة، وثمرها كالقلال، وغشيها من أمر الله ما غشيها فتغيّرت، فما من أحد يستطيع أن يصفها، فأوحى الله إليه ما أوحى، وفرض عليه وعلى أمته **خمسين** صلاة فى كل يوم وليلة، وأُدخل الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك، فنزل إلى حيث **موسى**، وسأله موسى: ماذا فرض عليه ربّه؟ قال: **خمسين صلاة فى كل يوم وليلة**. فطلب إليه أن يرجع إلى ربّه فيسأله التخفيف لأمته فإنها لا تطيق ذلك، وأنه قد جرّب ذلك مع بنى إسرائيل، فرجع النبىّ ﷺ، أو أنه دعا ربّه فى موقفه، ففى رواية أنه حطّ عنه **خمسة خمسة**، وفى رواية أنه حطّ عنه **عشرةً عشرة**، وفى رواية أنه وَضَع **شطرها**، وظل موسى يطلب إليه أن يراجع ربّه، والنبىّ ﷺ يسأله التخفيف إلى أن جُعلت الصلاة خمساً، وقال تعالى: «**إنه لا يُبدّل القول لدىّ، كما فُرضَتْ عليك فى أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب، وهى خمس عليك**». وقال النبىّ ﷺ لموسى: «**قد والله استحييت من ربّى عزّ وجل مما اختلفتُ إليه**». فقال ربّ العزّة: «**فاهبط باسم الله**»، وقد استيقظ النبىّ ﷺ وهو فى المسجد الحرام. وقد يتبادر السؤال: فلماذا بكى موسى إن لم يكن غيرةً وحسداً من النبىّ ﷺ؟ ولماذا ألح أن يُخَفَّف عن أمته حتى فى الصلوات الخمس؟ والجواب: **أن أمة محمد لابد أن تكون الأمة الأفضل، لأنها بُشّرت أنها ستكون أكثر فى الجنة، وكلفت من العبادات ما لا تستطيعه أمة موسى!** . . .

وفى رواية أن رسول الله ﷺ قال: **رأيت ليلة أُسْرى بى لمّا انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق، فإذا رعدٌ وبرق وصواعق، وأتيتُ على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيّات**

تُرى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء ياجبـريل؟ قال: هؤلاء آكلو الربّا. قال: فلما نزلت إلى السمـاء الدنيا نظرت أسـفل منى، فإذا أنـا برهج ودخان وأصوات، فـقلت: مَنْ هؤلاء ياجبريل؟ قال: هذه الشـياطين يحـومون على أعيـن بنى آدم، لا يتفكرون فى ملكوت السـموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب.

وقـال النبىّ ﷺ: «لما كان ليلة أسـرى بى فأصبحـت بمكة، عرفت أن الناس مكذّبى»، فجلس حزيناً، فجاء أبو جهل فسأله، فقال له: إنى أُسرى بى الليلة». وسأله: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس». قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم»، فرأى أن لا يكذّبه حتى لا يرجع فى كلامه، فقال له: أرأيت إنْ دعـوتُ قومك، أتحدثهم بما حدثتنى؟ قال: «نعم»، فدعاهم بسرعة، وسأله أن يحدّث قومه بما حدّثه، فقال: «إنى أُسرى بى الليلة إلى بيت المقـدس»، قالوا: ثم أصبـحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم، فكانوا بين مـصفّق، وبين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب! قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفيهم مَنْ قد سافر إلى القدس ورأى المسـجد، فقال رسول الله ﷺ: «فمازلت أنعت حـتى التبس علىّ بعض النعت». قال: «فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وُضع دون دار عقيل، فنعتُّه وأنا أنظر إليـه»، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه! وأما أبو بـكر فقد أتاه بعضهم وقال له: هل لك فى صـاحـبك؟ يزعم أنه جـاء إلى بيت المقـدس ثم رجع إلـى مكة فى ليلة واحدة! فـقال أبو بكر: أوَ قال ذلك؟ قـالوا: نعم. قال: فأنا أشـهد لئن كان قـال ذلك لقد صـــــدق! قالوا: فـتصدّقـه فى أن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يـرجع إلى مكة قبل أن يصبـح؟! قال: نعم، أنا أصدقه بأبـعد من ذلك! أصدّقه بخبـر السماء! فبهـا سُمّى أبو بكر صـدّيقـاً. وأتاه أبو بكر فقال: يارسول الله، أين كنت الليلة، فـقد التمستك فى منامك؟ (لأنهما كان ينامان معاً فى الحرم تلك الليلة، وثالثٌ معهما ربما هو عمر). وقال أبو بكر: قد علمتُ أنك أتيت بيت المقدس الليلة؟ وقال: يارسول الله، إنه مسيرة شهر، فصفه لى؟ فكأن النبىّ لمّا قال له ذلك، قـد فُتح له صراط، وكأنه ينظر إليـه، فلا يسأله عن شىء إلا أنبأه، فقال أبو بكر: أشهد أنك لرسول الله! وقال المشركون: انظروا إلى «ابن أبى كبشة»! يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! وقولهم «ابن أبى كبشة» استهزاء بالنبىّ ﷺ، فقد كان ابن أبى كـبشـة هذا أحد أجداده من جهة الأمـهات، وهو أول من أدخل بدعة تأليه كوكب الشعرى، فاعتبروا النبىّ ﷺ مثله، أدخل بدعة تأليه الواحد الأحد، بمنطق: ﴿إن يسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾(يوسـف). ثم إن النبىّ ﷺ قصّ عليهم قصـة عير قريش التى رآها فى القدس، وعلامـة ذلك ضياع إحدى النوق ووجدها أحدهم، وأن القـافلة ستعود

في وقت كذا، وسيتقدمها جملٌ آدم، عليه مسحٌ أسود وغرارتان سوداوتان. ولما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار، حتى أقبلت العير يتقدمهم ذلك الجمل كما قال. ومع ذلك ظلت القصة محل تكذيب منهم، واستقبلها كثير من المسلمين بالشك، ثم انتهى بهم الأمر إلى اعتبارها **رؤيا**، وأن رؤى الأنبياء صادقة، واعتبروا انتقاله إلى بيت المقدس **بالروح** دون الجسد، وفي **النوم** وليس في اليقظة.

فتلك إذن قصة الإسراء والمعراج، وجاء **المستشرقون** ليزيدوا الطين بلة، فقال **جولدستيهر** إن اجتماع النبيّ ﷺ بالأنبياء، خصوصاً **إبراهيم وعيسى وموسى**، يشبه **اجتماع المسيح بالأنبياء على الجبل** الذي جاء عنه في أناجيل **متّى ١٧/١**، **ومرقس ٩/١**، **ولوقا ٩/٢٨**، وهو افتراء وكذب محض، لأنه لا تشابه البتة بين مشهد اجتماع النبيّ ﷺ بالأنبياء وصلاته إماماً لهم، وبين مشهد اجتماع المسيح مع **بطرس ويعقوب ويوحنا ومع موسى وإيليا** على الجبل(لوقا ٩ / ٢٨-٣٦) . وكان واضحاً أن اجتماعهم كان رؤيا، فقد أخذ النوم الثقيل بطرس وزملاءه، ولما أفاقوا لم يكن هناك إلا المسيح. وتلك كانت كل الرؤيا. **فأين هي من رؤيا الإسراء والمعراج في القرآن؟!** وأين هذا الكلام لمؤلفه لوقا من كلام القرآن في سورتي الإسراء والنجم حيث كل كلمة لها معنى ودلالة من داخل السياق؟! وأين **الرمزية** في كلام لوقا مثلما هي في أحاديث الإسراء والمعراج؟ فكل حدث، وكل شخصية، وكل كلام يرمز لشيء، والقصة هي فتح جديد لا شك فيه في **الأدب القرآني الرمزي** في الإسلام، مثل مشاهد الجنة والنار ويوم القيامة والحساب، والأعراف، والجدل بين الأنفس والملائكة، وحوار أهل الجنة وأهل النار، وعذاب القبر، وناكر ونكير، فكل ذلك لا يوجد مثله شيء عند اليهود والنصارى. وقصة الإسراء والمعراج من **القصص الرمزي**، باعتبارها تحتاج إلى تأويل إنْ كان المتابع لها من أهل النظر والفكر، فإن كان من البسطاء فالقصة كما هي تفعل فعلها التعليمي، وفيها الوعظ الكثير والخبر الجميل. وفي قصة الإسراء والمعراج كان وضوء جبريل وفعل النبيّ ﷺ مثله، وتقرير عدد الصلوات. ونحن نعلم أن النبيّ ﷺ كان يصلي والمؤمنون - من قبل الإسراء والمعراج، وأنه كان يقوم الليل، وأنه ﷺ صلى مع خديجة، وجاء عن الصلاة في **سورة مريم** - وهي قبل الإسراء: ﴿**وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ** (٥٥)﴾، وفي سورة طه: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** (١٤)﴾، ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** (١٣٢)﴾، وفي سورة النمل: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ** (٣)﴾، وفي سورة المزمل: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** (٢٠)﴾، وفي سورة الماعون: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ** (٤) **الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** (٥)﴾ وكل هذه السور كان نزولها قبل سورة الإسراء

بمراحل، فالصلاة إذن كانت موجودة، وكانت خمس صلوات، وكانت كل صلاة ركعتين إلا المغرب، فلما كان فى المدينة زيدت صلاة الظهر والعصر والعشاء. والحديث فى الإسراء كان عن عدد الصلوات وليس عن عدد الركعات ولا كيفية الصلاة. والوضوء رغم أنه ﷺ تعلمه من جبريل فى الإسراء كما تقول الرواية، إلا أن الرسول والمؤمنين كانوا يتوضأون من قبل ذلك ويغتسلون ويتطهّرون، ولم يتقرر الوضوء شرعاً إلا فى سورة المائدة فى المدينة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ...﴾(٦) ولم تزدهم الآية إلا أن الوضوء صار يُتْلَى قرآنا، وأعطتهم الفائدة والرخصة فى التيمم، وكان قد تقرر قبل ذلك فى سورة النساء (٤٣). ورغم ذلك فإن قصة الإسراء والمعراج عمّقت الفكرة الإسلامية وجعلت لها أبعاداً أكبر، ولو قارنا بها أسفار الرؤى عند أنبياء مثل: أشعيا، وإرميا، وباروخ، ودانيال، ويوحنا، وغيرهم، نجد أن هذه الرؤى نبوءات وليست رؤى، وإنما الرؤيا بحق هى رؤيا الإسراء والمعراج، وهى نموذج للرؤى عند الأنبياء، ويجدر التنبيه إلى أن تراث الإسراء حافل بالأحاديث والمحاورات بين النبىّ ﷺ والأنبياء، وبينه وبين جبريل، وبينه وبين الله تعالى، وإن كانت أحاديث مشكوكاً فيها ومن وَضْع الوضّاع.

وبعد فهذا ما توفر لنا من هذه القصة واجتهدنا رأينا فيه، والله الموفق، والحمد لله ربّ العالمين.

•••

٩٤٠. ﴿الأحزاب وغزوة الخندق وبنو قريظة﴾

يتناول القرآن غزوة الخندق وبنى قريظة فى الآيات من ٩ إلى ٢٧ من سورة الأحزاب، من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ وتشرح هذه الآيات كيف حُزِّبت الأحزاب ضد المسلمين، فكانت «وقعة الخندق»، وهذه جرت فى شوال من السنة الخامسة من الهجرة، وكانت ووقعة بنى قريظة فى يوم واحد، بينما كان بين وقعة بنى قريظة ووقعة بنى النضير أربع سنوات. والذين «جاءوا من فوقهم» فى الآية(١٠) هم: بنو قريظة؛ والذين «جاءوا من أسفلهم». قريش وغطفان؛ والذين «حزّبوا الأحزاب» وألّبوا القبائل على النبىّ ﷺ وعلى المسلمين هم: اليهود، فهذا دأبهم مع

المسلمين منذ البداية. وفى عهد النبىّ ﷺ تزعم هذه العُصبة اليهودية ستةٌ، كلهم يهود، وهم: كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وسلام بن أبى الحقيق، وسلام بن مشكم، وحُيى بن أخطب، وهؤلاء كانوا نضريين؛ وهوذة بن قيس، وأبو عمّار، وهذان كانا من بنى وائل، وخرجوا فى نفر من بنى النضير ومن بنى وائل، فأتوا مكة، فدعوا إلى حرب رسول الله ﷺ، فلما أجابهم أهل مكة، خرجوا إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم، فهؤلاء هم الأحزاب: قريش يقودهم أبو سفيان؛ ثم غطفان، ومنهم الفزارية يقودهم عُيينة بن حصن الفزارى؛ وبنو مُرّة يقودهم الحارث بن عوف، وأشجع، يقودهم مسعود بن رخلية.

فلما سمع رسول الله ﷺ بتحالفهم وخروجهم إليه، شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، وقال: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا تخندقنا». فعمل المسلمون فى الخندق مجتهدين، ولم يعجب ذلك المنافقين فتسللوا لواذاً، فنزلت فيهم آيات القرآن تباعاً.

وأقبلت قريش فى نحو عشرة آلاف ومعهم حلفاؤهم من كنانة وتهامة، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد، ونزلوا إلى جانب أُحد، وأما رسول الله ﷺ فنزل بظهر سَلْع (جبل بالمدينة) فى ثلاثة آلاف، وضربوا معسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين.

وكانت بين بنى قريظة والرسول ﷺ موادعة، وقد عاقدوه وعاهدوه على أن لا يحاربوه ولا ينضموا إلى عدو له، إلا أن كعب بن أسد القرظى صاحب عقدهم ورئيسهم مالأ حيّى بن أخطب. وأوفد الرسول ﷺ إلى بنى قريظة وفداً من سعد بن عبادة سيد الخزرج، وسعد بن معاذ سيد الأوس، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير. وأهانَ القرظيون الوفد، وشتموا سعد بن عبادة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عهد عندنا! وسرّها سعد بن عبادة فى نفسه، ورحلوا إلى رسول الله ﷺ يقولون: «عَضَلٌ والقارة»، يعرضون بغدر «عضل والقارة» بأصحاب الرجيع: خُبَيب وأصحابه، ولم يستبشر المسلمون، وعظم عليهم البلاء، وتوجّسوا الشرّ، واشتد الخوف، وأقبل الأعداء من فوق المسلمين، أى من فوق الوادى من قبل المشرق، ومن أسفلهم، أى من بطن الوادى من قِبَل المغرب، حتى ظن المسلمون بالله الظنونا، وتغالى المنافقون يعتذرون بأوهى الأسباب، ويذكر التاريخ منهم: أوس بن قيظى- وهو الذى تعلّل بأن بيوتهم عورة ويخافون عليها، وانصرفوا بهذه الدعوى، ومعتب بن قشير - أحد بنى عمرو بن عوف، وهو الذى نشر بين المنافقين قالة: أن محمداً وعدهم كنوز كسرى وقيصر فى حين أن الواحد منهم لم يعد يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!

وظل الحصار بضعاً وعشرين ليلة أو نحو الشهر، ولم تكن بينهم حرب أثناء ذلك إلا

الرمى بالنبل والحصى. واشتد البلاء على المسلمين، فأرسل رسول الله ﷺ إلى **عيينة بن حصن الفزارى والحارث بن عَوْف المُرّى** قائدىَ غطفان، يعدهما بثلث ثمار المدينة إن هما انصرفا بمن معهما من غطفان وخذلا قريشاً، ورجعا بقومهما عنهم. وكان اقتراحه مراوضةً ولم يكن عقداً، ورفضه **سعد بن عبادة وسعد بن معاذ**، فإن كان هذا الاقتراح أمراً من الله فعلوه، وإن كان أمراً يحبه رسول الله ﷺ صنعوه له حُباً وكرامة، إلا أنه قال لهم: «**بل هو أمرٌ أصنعه لكم، وما أصنعه إلا لأنى قد رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة**»، فقال له سعد بن معاذ: لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شراءً أو قرىً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم! فقال رسول الله ﷺ لعيينة والحارث: «**انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف**».

وأقام المشركون يحاصرون المسلمين ولا قتال معهم، واستطلعت جماعة منهم **الخندق**، وتبيّنوا فيه **ثُغْرة** يمكن لخيلهم أن تقتحمها، وفعلوا، وأوغلوا فى الأرض حتى صاروا بين الخندق وبين **سَلْع**، وهؤلاء كانوا من فوارس قريش، منهم: **عمرو بن عبدود العامرى** من بنى عامر بن لؤى، **وعكرمة بن أبى جهل، وهبيرة بن أبى وهب، وضرار بن خطّاب الفهرى**، وخرج إليهم **علىّ بن أبى طالب** فى نفر من المسلمين، وتصدّى له فرسان **الثغرة**، وانبرى **عمرو بن عبدود** يتحدّى **علياً**، وتبارزا حتى قتله **علىّ**، فبادر رفاقه بالهرب منهزمين، وألقى **عكرمة** رمحه منهزماً، ورُمِى سعد بن معاذ بسهم قطع منه الأكحل (عِرْق اليد)، وقيل رماه **حبّان بن قيس بن العَرِقْة** أحد بنى عامر ـ **والعَرِقْة** هى أُمُّه، وكانت لها رائحة عرق شديدة، وقيل بل رماه **أبو أسامة الجشمى** حليف بنى مخزوم.

واستخدم الرسول ﷺ فى هذه الوقعة لأول مرة **طريقة المخادعة**، وقال قولته المشهورة: «**الحرب خُدَعة**»، فلمّا جاءه **مسعود بن عامر الأشجعى** من معسكر المشركين يعلن إسلامه ويريد الانضمام إليه، أرسله النبىّ ﷺ إلى معسكرهم يرى فيهم وينظر ويكون للمسلمين عيناً عليهم، وكذلك أرسل **نُعَيْم بن مسعود** إلى بنى قريظة، وإلى قريش وغطفان، يزعم أنه ترك محمداً، ويخوّف بنى قريظة لو خدعتهم قريش وغطفان وتركوهما لمحمد. ثم إنه خوّف قريشاً من مكر **اليهود** ودهائهم، وادّعى أن بنى قريظة ندموا على تنكرهم لمحمد، وأنهم أرسلوا إليه يهادنونه، وصدّق **أبو سفيان**، وأرسل إلى اليهود يطلب إليهم مناجزة محمد فى الغد، واعتذر اليهود **بالسبت**، وطلبوا رهناً من قريش حتى لا

يكون الأمر خدعة، ورفض أبو سفيان، فإما أن يخرجوا معهم وإلا فلا عهد بينهم، واستشعرت بنو قريظة صدق نُعَيْم، وانخذلوا عن قريش، وتكالموا واختلفوا وتشاتموا، وكان اليوم عاصفاً، والرياح هوجاء، والليل قارص البرودة، وانهدمت خيامهم، وانطفأت قدورهم، وهلك الكُراع (يعني الخيل) والخُفّ (يعني الإبل)، وانطفأت النيران، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان متخفّياً يتسمّع عليهم ويتنظّر، فلولا أن رسول الله ﷺ أمره أن لا يُحدث شيئاً لقتل أبا سفيان وهو يحلّ عقال جواده مرتحلاً، وعاد إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فحمد الله، فما أصبحوا إلا وقد ذهبت الأحزاب.

ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح، ولكن رسول الله ﷺ نادى فيهم: «لا يُصلّينّ العصر إلا في بني قريظة». ودعا سعد بن معاذ ربّه أن لا يتوفاه مما أصابه السهم إلا بعد أن يقرّ عينيه في بني قريظة، لخيانتهم للعهد، وتبجّحهم. وأعطى الرسول ﷺ الراية إلى عليّ بن أبي طالب، وساروا إلى بني قريظة ونازلوهم، وحاصرهم رسول الله ﷺ بضعاً وعشرين ليلة، فإما أن يسلّموا ويتّبعوا الإسلام، فيسلموا وتسلم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم، وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ويقاتلوا حتى يموتوا عن آخرهم. ورفض اليهود الإسلام، وأن يقتلوا أبناءهم ونساءهم بأيديهم، واستنجدوا بالأوس حلفائهم، وحذّرهم أبو لبابة فأفشى سرّ المسلمين، وأشار بيده إلى حلقه وقال: إنه الذبح إن فعلتم؛ يحذّرهم أن ينزلوا على حُكم المسلمين، ونزلت الآية في أبي لبابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ (٢٧)﴾(الأنفال)، والآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢)﴾(التوبة)، وحكّم الرسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ رئيس الأوس حلفائهم، ويقول كتّاب المغازي: أن سعداً حكم بأن تُقتَل المقاتلة، وتُسبَى الذرّية والنساء، وتقسّم أموالهم، وقالوا: فضُربت أعناق نحو من ستمائة إلى السبعمائة من المقاتلة، وقيل الثمانمائة، منهم حييّ بن أخطب، وكعب بن أسد، وكانا رأس القوم، وقُتل من نسائهم بنانة امرأة القرظي التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته. قالوا: أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنْبَتَ منهم وتَرْكِ مَنْ لم يُنبت (يعني من لم يبلغ الحُلم). ووقع لرسول الله ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن جُنافة.

والقول بأن الرسول ﷺ أمر بقتل كل هذا العدد، حتى الأولاد الذين أنبتوا، كذبٌ، ويتعارض مع الآية: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ (الأحزاب)، فلماذا يقول تأسرون فريقاً إن لم يكن هناك أسرى، ثم إن قتل هذا العدد من الأسرى وهم كل من يستطيع حمل السلاح حتى الصبية، يجافي مبادىء الإسلام، فالله تعالى ينهى عن الإسراف في القتل فيقول: ﴿فَلا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ (٣٣)﴾ (الإسراء)، وقال:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ④﴾(محمد)، وأثخنتموهم أى أهلكتموهم قتلاً فى الحرب، وقوله: «شدّوا الوثاق» يعنى الذين تأسرونهم، وهؤلاء اليهود أسرى فى غير حرب، والأولى أخذ الفداء منهم وقد صارت كل أملاكهم فى أيدى المسلمين. وفى الآية: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ④﴾(محمد)، يعنى للمسلمين الخيار إذا وضعت الحرب أوزارها، فإمّا المن على الأسير، وإما الفداء، وأما القتل فليس للأسرى وإنما فى المعركة. وفى الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ⑥⑦﴾ (الأنفال) يعنى أن يقاتل الأعداء أولاً، والقتال مأمورٌ به إذا قوتل المسلمون، يعنى أن حرب المسلمين دفاعية أو وقائية، وحرب الخندق كانت دفاعية، وحرب بنى قريظة كانت وقائية، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ①⑨③﴾(البقرة) أى حتى تضع الحرب أوزارها - أى أوزار المحاربين - يعنى حتى يضعوا سلاحهم. وبنو قريظة وضعوا سلاحهم، والذى تأدّى بهم إلى هذا الحال كان حييّ بن أخطب وكعب بن أسد، وهذان حوكما لما تسببا فيه، وحُكم عليهما بما يستحقان، وأما غيرهم فذلك ما يكذّبه واقع الحال، فالقرظيون كانوا بالمدينة بعد هذه الوقعة، وكانت صفية بنت حيي وريْحانة بنت عمرو تصلان أرحامهما، ولهما أولاد عمومة ورّثتاهم من بعد. ولا نرى لذلك هذا الرأى الذى يقول إن النبيّ ﷺ أمر بقتل سبعمائة يهودي، وحتى الأولاد الذين أنبتوا - قتلهم!! فما كان محمد سفّاحاً ولكنه رحمة للعالمين، ولسنا فى مجال أن نشفق على اليهود وإنما نحن ندفع عن نبيّنا ﷺ، وعن أنفسنا، تهمةً ما كانت من خصاله ﷺ، وهو الذى أمر فى الحرب أن لا يقتل الطفل ولا المرأة، ولا تُحرق شجرة ولا منزل، وابن إسحق وابن هشام اللذان رويا هذه الرواية إنما يرددان الإسرائيليات، ومغازيهما حافلة بغرائب الروايات التى ردّدها عنهم المستشرقون، واهتبلها دعاة التبشير والعلمانيون، وروّجوا لها فى مؤلفاتهم عن الرسول ﷺ وعن الإسلام.

وكان فتح قريظة فى آخر ذى القعدة وأول ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة، والذين استشهدوا يوم الخندق من المسلمين ستة نفر، هم: سعد بن معاذ الذى تفجّر جرحه وانفتح عرقه فنزف حتى مات، وأنس بن أوس بن عتيك، وعبد الله بن سهل - والثلاثة من بنى عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة - وكلاهما من بنى سلمة؛ وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار -أصابه سهمٌ غرب (أى طائش) فقتله. فهؤلاء الستة هم شهداء الخندق من المسلمين، وأما الذين قُتلوا من الكفار فثلاثة هم: منبّه ابن عثمان - أو أنه عثمان بن أمية بن منبّه، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن عبدود.

وأما شهداء المسلمين يوم قريظة، فكانوا اثنين: خلاد بن سويد - طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته، وأبو سنان بن محصن الأسدى، ولم يصب غير هذين.

وأما الريح التى هبّت عليهم فهدمت الخيام، واقتلعت الأوتاد، وأطفأت النيران إلخ فكانت الصبا، وهي المذكورة في الآية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ (الأحزاب ٩). وأما قوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب ٩) هذه هى قوى الطبيعة عاثت هدماً وتخريباً فى فساطيطهم، وبثّت فيهم الرعب حتى جالت الخيل بعضها فى بعض، وفى الحديث عنه ﷺ قال: «نُصرت بالرعب». وكان وَصف المعركة من أبلغ ما يمكن أن تصوّره لغة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ (الأحزاب)، وقوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾(الأحزاب)، وقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)﴾ (الأحزاب)، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾(الأحزاب)، وهكذا فى بقية الآيات حتى الآية ٢٧ التي تقول: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾(الأحزاب)، والصياصى هى الحصون، والآيتان وعدٌ من الله، وسَريان على كل أرض تُفتَح إلى يوم القيامة، والفتح ليس فقط بالحرب وإنما بالإعمار والهجرة، ووَعْدُ الله لا يُردّ، وهو على كل شيء قدير.

***

٩٤١. ﴿قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش﴾

يرد اسم «زيد» ضمن سورة الأحزاب فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧)﴾(الأحزاب)، يُقصد به زيد بن حارثة، وكان يُنسَب للنبيّ ﷺ فيقال: «زيد بن محمد»، فنزلت فيه الآية: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾(الأحزاب)، وكذلك الآية: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)﴾(الأحزاب). وزيدٌ هو الذى تزوج زينب بنت جحش، زوّجه إياها النبيّ ﷺ، ثم تزوجها النبيّ ﷺ من بعده، وكان فى قصة زيد وزينب الكثير من اللغط، وتحدّث فيهما المنافقون والمرجفون واليهود، وكانت قضيةً حسمها القرآن.

وزيدٌ فيما روى أنس بن مالك وغيره: كان مسبيًا من الشام، سبته خيلٌ من تهامة،

فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمّته **خديجة بنت خويلد**، فوهبته بدورها للنبيّ ﷺ، فأعتقه وتبنّاه، وأقام زيدٌ عنده مدة، ثم جاء عمّه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبيّ ﷺ ـ وذلك قبل البعث: «**خيِّراه، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء**» فاختار زيدٌ الرقّ مع رسول الله ﷺ على حريته وقومه، فقال النبيّ ﷺ عند ذلك: «**يا معشر قريش، اشهدوا أنه ابني، يرثني وأرثه**»وطاف على خلق قريش يُشهدهم على ذلك، فأرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا.

وكان أبوه لما سُبي زيد، يدور بالبلاد يبحث عن ابنه ويرتجل الشعر، يذكّرنا بيعقوب لما ضاع ابنه يوسف فقال مقالته المشهورة: **﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴿١٨﴾﴾**(يوسف).

يقول أبو زيد:

بكيت على زيد ولم أدرِ ما فعل ∴ أحيٌّ فيُرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وإني لسائلٌ ∴ أغالَكَ بعدى السهل أم غالَك الجبل
وياليت شعرى هل لك الدهرُ أوبةٌ ∴ فحسبى من الدنيا رجوعُك لى بَجَلْ
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ∴ وتعرض ذكراه إذا غربُها أفَل
وإنْ هبّت الأرواح هيّجن ذكْره ∴ فيا طول ما حُزنى عليه وما وَجَل
سأُعمل نصّ العيس فى الأرض جاهدا ∴ ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى علىّ منيّتى ∴ فكل امرىء فانٍ وإنْ غرّه الأمل

وبَجَل يعنى يكفينى، **ووَجَل** يعنى داخله الخوف. ثم إنهم قالوا للرجل إن ابنك فى مكة، فجاء إليه وحطّ عنده يلازم المكان من أجله. وكان عمه هو الذى اكتشف مكانه، فقد كان فى شُغل له فى مكة، فشاهد الغلام واستوقفه، فعرفه زيد، وسأله العم عن اسمه واسم أبيه واسم أمه، فقصّ زيدٌ عليه قصته، فضمّه العم إلى صدره، فلما قصد وأبوه النبيّ ﷺ أرسل إلى زيد وسأله: **مَنْ هؤلاء؟ قال زيد: هذا أبى، وهذا عمى**، فخيّره النبىّ ﷺ، فقال زيد: ما أختار عليك أحداً، فقال النبيّ ﷺ: «**اشهدوا أنى وارث وموروث**»، فكان الناس من وقتها يقولون: «**زيد بن محمد**» إلى نزول الآية: **﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾** (الأحزاب ٥)، والآية: **﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴿٤٠﴾﴾**(الأحزاب).

والتبنّى كان معمولاً به فى الجاهلية والإسلام قبل حكاية زيد، وكانوا يتوارثون به ويتناصرون، فرفع الله حُكم التبنى، ومنع من إطلاق لفظه، وجعل الأولى والأعدل أن

يُنسب الرجل إلى أبيه نسباً،فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف ظل اسمه كما هو كما في حالة المقداد بن الأسود، فلم يُعرَف إلا بهذا الاسم واشتهر به، وكان الأسود بن عبد يغوث قد تبنّاه في الجاهلية. وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يُدعَى لأبي حذيفة، وغير هذين كثيرون ظل اسمهم الذى عرفوا به فى التبني.

وأما حكاية زينب بنت جحش مع زيد، فإن النبيّ ﷺ أراد أن يزوّجه منها، فقد كانت زينب قد كبرت في السن، وكان لسانها به حدّة والناس تعافها. وزينب بنت عمة النبيّ ﷺ، وأمرُها يهمّه، فأراد أن يزوّجها زيد لكي يقرّب بين طبقات الأمة، ولا يجعل هناك امتيازاً لطبقة دون طبقة، وليستن الكفاءة فى الأديان على الكفاءة في الأحساب، وخطبها النبيّ ﷺ لزيد، وما كان زيد يكبرها إلا قليلاً، ورفضت زينب وأخوها هذا الزواج غير المتكافيء، بدعوى أن زيداً كان بالأمس عبداً، فنزلت الآية: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)**﴾(الأحزاب). وكانت زينب تطمع أن تتزوج النبيّ ﷺ لا غيره، وكذلك أخوها ـ هكذا قيل؟! ـ ولم يكن بدعاً ما أراده النبيّ ﷺ، فالموالي تزوجن فى قريش، والمقداد بن الأسود تزوّج ضباعة بنت الزبير، وزوّج أبو حذيفة «سالماً» من فاطمة بنت الوليد بن عتبة، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وكان من غضب أخيها على هذا الزواج بعد نزول الآية السابقة، أن ترك أخوها المدينة ورحل، وأما زينب فقد سألها الرسول ﷺ وناقشها في رأيها فقبلت على مضض، والشرع يقضي بأن توافق البنت على الزواج، وقد وافقت زينب عسى الله أن يقدّم بينها وبين زيد، ولكنها ما إن طالعته حتى تأبّت عليه ولم تمكّنه منها، وقالت في ذلك: «لم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما منعه الله مني، فلا يقدر عليّ»! وكانت زينب لمّا تزوجته بكراً لم يسبق لها الزواج، ويبدو أنها ظلت بكراً بعد زواج زيد منها، وطُلّقت بكراً، ولذلك ـ كما قيل ـ لم تكن لها عدّة لمّا طلّقها، لأنه لم يدخل بها. وعلى ذلك فحديث عائشة الذى تقول فيه: «كنت البكر الوحيدة التي تزوّجها الرسول ﷺ»، حديث موضوع. وغضب زيد من زينب لشراستها معه كلما اقترب منها، وزاد الطين بلّة أنها كانت تسبّه، فذهب يشكو للنبيّ ﷺ، يقول: زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل، وأريد أن أطلقها، والنبيّ ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتّقِ الله». ثم إن زيداً طلّقها، فأرغى الناس وأزبدوا، وهؤلاء هم المنافقون والمرجفون واليهود، وردّد المفسرون نفس الكلام، والطبرى من أكثر المفسرين استعانة

بالإسرائيليات، وقالوا: إن النبىّ ذهب ليصلح بين زينب وزيد، فرآها فوقع منه استحسانٌ لها! - فكأنه لم يرها من قبل!؟ وكأنها ليست ابنة عمته! وقيل: كان ينصحه ألا يطلقها، ويُضمر فى نفسه أنه يريد أن يتزوجها! وقال هذا الملعون مقاتل بن سليمان: ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش!! فهويها وقال: «سبحان الله مقلّب القلوب» وكأنما كان مقاتل مع الرسول ﷺ؟! وكأنما دخل صدرهُ، وعرف ما يجول بخاطره، وشهد زينب معه؟! وكأن الرسول ﷺ الذى ينهى عن النظرة الثانية يتملّى هو نفسه من جمال زينب ويتمعّن فى مفاتنها، وما كانت زينب بالفاتنة، وإلا ما تظل عانسًا إلى السن المتأخرة التى كانت عليها لمّا تزوجت من زيد! وقال هذا الملعون مقاتل: إن زينب سمعت تسبيحة الرسول عليه السلام فنقلتها لزيد، فوقع فى نفس زيد أن يطلقّها! وكأن زيداً طلقها لذلك فقط؟! وكأن مقاتلاً اطّلع على دخيلة زيد أيضًا؟!

وقيل: إن الذى أخفاه الرسول ﷺ فى نفسه فى الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾(الاحزاب٣٧) هو حبّه لزينب!! والصحيح أن الذى أخفاه فى نفسه استشعاره للذّنب: أنه السبب فى زواج زينب من زيد، فهو الذى أشار به وزكّاه، ولأن زيداً عندما يطلقها لن يتقدم للزواج منها آخر أبداً بعد أن أصبحت مطلقة مولى من الموالى، بالإضافة إلى عطالتها من الجمال، وحدّة طبعها واشتهارها بذلك، فلم يكن هناك من حلّ لقضيتها سوى أن يتزوّجها الرسول نفسه وهو من أسباب مشكلتها! غير أن ما كان يمنع ذلك هو أنها كانت زوجة لابنه بالتبنى، فكشفت تلك القضية فساد نظام التبنىّ، لعدوانه على الأنساب، واستحداثه الاضطراب فيها، ومن ثم كانت ضرورة إلغاء هذا النظام، وأن يكون الأمر واضحاً فيمكن لمن كان مثل زيد، أن يتزوج من ابنة الرسول ﷺ مثلاً لو كان ذلك مطروحاً، فلا شىء يمنعه فى ظل النظام الجديد، وهو الممنوع فى ظل نظام التبنّى، والله يعلم أن المتبنىّ ليس ابناً على الحقيقة، وليس من ثم محرّماً المصاهرة إليه. وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب ٣٧) هى خشية إرجاف المنافقين، بأنه نهىَ عن تزويج نساء الأبناء وتزوج هو بزوجة ابنه! وقال هؤلاء إن محمداً هَوِى زينب امرأة زيد! أو أنه عَشقها كما قال بعض الداعرون! ولو كان تفسير هذه الآيات بأنه ارتكب خطيئةً، لكان قد أُمر بأن يستغفر منها وأن يتوب عن مثلها. وخشيته ﷺ كانت إذن بخلاف ذلك، فقد كان يخشى أن يُفتَن الناس بالخلاف حول الدعىّ والابن والفرق بينهما. وروِى أن النبىّ ﷺ لمّا انتهت عدّة زينب بعد طلاق زيد لها طلب

منه أن يخطبها عليه، فأبلغها زيد، ووكلت زينب أمرها إلى الله، وصحّ تفويضها إليه، فتولى الله إنكاحها، ونزل القرآن بذلك، ودخل رسول الله عليها بإذن ربّه، ولم يقرر صداقاً، ولا جدّد عقداً، ولا شيئاً مما يكون شرطاً فى حقوق الزواج ومشروعيته، وأولم على زينب شاةً، فكانت زينب تفاخر نساء النبىّ ﷺ فتقول: **زوّجكن آباؤكن وزوّجنى الله تعالى، وأنكحنى من السماء!** - والمسألة أبعد من ذلك بكثير، **لأنها لم تكن مسألة زواج، بقدر ما كانت مسألة تأسيس نظام، وإقامة تشريع، وتغيير أمور أصطلح عليها الناس**، وكان إصلاحها يقتضى تدخلاً من السماء، والسؤال هو: هل تحصّل لنا العلم من سيرة زينب مع الرسول ﷺ أنها غيرّت من مسلكها وحسّنت من طباعها بعد انفصالها عن زيد؟ أبداً، ظلت كما هى، وكانت بذيئة اللسان، ولم يكن الرسول ﷺ يطلبها، ولا كان يستشيرها فى شىء، وقالت هى نفسها: **ما كان يستكثر منى!** - **فأين هو ذلك الحب أو العشق المُدّعى إذن؟! لاسامحهم الله هؤلاء الخرّاصين!**

•••

٩٤٢. «حديث الإفك واتهام أم المؤمنين عائشة»

حديث الإفك: مما جاء على ألسنة الرواة طويل، والقصة بدأت باتهامات للنبىّ فمرة، يُتهم فى شخصه بأن يقال عنه إنه مجنون، أو كاهن، أو شاعر إلخ، ومرةً يُزدَرى من قومه فى لباسه وهيئته وسَمْته ولغته، ومرةً يُطعَن فى شرفه وأمانته، كأن يرفض اليهودى إقراضه إلا برهن، أو يُتّهم فى عِرضه كما فى حديث الإفك، أو يستَخف بمن آمنوا به كقولهم فى عمّار بن ياسر، وسلمان، وصهيب، وبلال ممن آمنوا به وكانوا له الأصحاب، أنهم من أجلاف العرب وأخلاسهم. وحديث الإفك كان أصعب هذه الاتهامات جميعاً. **والإفك**: يعنى الكذب؛ والآيات التى تحكى الواقعة أو القصة عشر آيات، يقول تعالى: **﴿ إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ (النور). والقصة: أنه لمّا خرج الرسول ﷺ **بعائشة معه في غزوة بنى المصطلق** - غزوة المُرَيسيع، وقفل ودنا من المدينة، آذن ليلةً بالرحيل، فقامت عائشة فمشت حتى جاوزت الجيش لتتغوّط، فلما فرغت من شأنها أقبلت إلى الرَّحْل فلمست صدرها فإذا عِقْد من جَزْع ظفار (الخَرَز) قد انقطع، فرجعت فالتمسته، فحبسها ابتغاؤه، ثم وجدته وانصرفت فلم تجد أحداً، وكانت شابة قليلة اللحم، فرفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها منه، فلمّا لم تجد أحداً اضطجعت في مكانها رجاء أن تُفتَقد فيُرجع إليها، فنامت في الموضع، ولم يوقظها إلا قول **صفوان بن المُعطَّل**: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! وذلك أنه كان قد تخلّف وراء الجيش لحفظ الساقة، أى ما ينسونه من حوائج. وقيل إنه لمّا استرجع استيقظت لمّا سمعت صوته، ونزل عن ناقته وتنحّى عنها حتى ركبت، وقادها حتى بلغ بها الجيش فى نحر الظهيرة، فوقع **أهل الإفك في** مقالتهم، وكان الذى استوشاه **عبد الله بن أُبَىّ** بن سلول المنافق، وهو الذى رأى صفوان آخذاً بزمام ناقة عائشة، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: **امرأة نبيكم باتت مع رجل!** وكان من قالته **حسّان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمنة بنت جحش**. وفي هذه الآيات فإن **العُصبة** التي باشرت الإفك كانوا ربما ثلاثة، أو أربعة، أو أكثر من ذلك، فربما بلغوا أربعين، إلا أن الذين روّجوا له ولاكوه واشتهروا به كانوا هؤلاء الثلاثة: حسّان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. وبرّأت عائشة **حسّان** بن ثابت، وجزمت الروايات **بأن عبد الله بن أُبىّ** بن سلول رأس النفاق لم يُجلَد، وقيل فى ذلك سببٌ غريب، قيل: لأن الله تعالى قد أعدّ له فى الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حُدّ فى الدنيا لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة وتخفيفاً عنه! فماذا لو فعلنا ذلك فى كل الحدود والمعاصي ولم نعاقب أحداً اعتماداً على نفس السبب؟! ولكن العقوبة لها جانبان: حقّ الناس والمجتمع، وحقّ الله، والأول يكون فى الدنيا، والثانى فى الآخرة، وفى المحاربة مثلاً قد يتوب المحارب ويغفر له الله، ولكن ذلك لا يسقط حق المجتمع فى عقابه فى الدنيا. والناس سواء، فلماذا يعاقب اثنان، ويعفى من العقوبة واحد؟ والآية صريحة في عقاب من تثبت عليه تهمة القذف، يقول تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)** ﴾

(النور)، ويبدو أن الجميع لم يُحَدّوا وقيل فى ذلك: إن الاستثناء من الجلد والفسوق وردّ الشهادة أبدًا، لا يكون إلا إذا تاب القاذف وظهرت توبته، فحينئذ لا يُحدّ، وتُقبل شهادته ويزول عنه التفسيق، والله يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ (٨٢)﴾(طه). وكانت حمنة أختاً لزينب بنت جحش زوجة الرسول ﷺ، وأمها كانت أميمة بنت عبدالمطلب، وخالها حمزة بن عبد المطلب، وزوجها مصعب بن عمير، وحضرت أُحداً وكانت تسقى العطشى وتداوى الجرحى، وأطعمها رسول الله ﷺ فى خيبر ثلاثين وسقا، وتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمد بن طلحة السجّاد، فكيف تُتّهم بأنها قذفت عائشة وروّجت للإفك؟ وقيل: إن عائشة لمّا سمعت ما يتهمونها به مرضت وجاءتها حُمّى بنافض، يعنى برعشة، غير أن مرض عائشة بحسب التشخيص الحالي «الملاريا المزمنة»، وتأتيها على فترات، ومن أعراضها هذا النفض أو الرعشة، فلم يكن ذلك إذن بسبب الحزن على اتهامها، ولمّا جاء النبى ﷺ يعودها وقالوا له: أخذتها حمى بنافض، قال: «فلعل فى حديث تُحدّث به»، فما سمعت عائشة قوله ﷺ حتى اعتدلت فى نومتها وقالت: والله لئن حلفت لا تصدقونى! ولئن قلت لا تعذرونى! مَثَلى ومثلُكم كيعقوب وبنيه، والله المستعان على ما تصفون. وانصرف النبىّ ﷺ ولم يقل شيئاً، فأنزل الله عذرها، قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك - أى النبىّ ﷺ!

وصفوان بن المُعطَّل: الذى اتُّهمت به عائشة كان حَصُوراً لا يأتى النساء، وقال عن نفسه: والله ما كشفت كنف أنثى قطّ - يعنى لم يزنِ أبدًا، وقُتل شهيداً فى غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمن عمر، وقيل ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمن معاوية.

والناس مختلفون بشأن مَن ذكرنا فى الإفك: هل خاضوا فى الإفك فعلاً؟ وهل جُلدوا الحدّ؟ وحتى مسطح فأمره مشكوك فيه، ولم يثبت عنه قذفٌ صريح. والرأى الغالب كما قلنا أنه لم يُحدّ أحدٌ من أصحاب الإفك، لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو بينة، ولم يفرضها الله لنقيمها بمجرد القول والخبر. وقوله تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ (النور١٢)، عتابٌ منه تعالى للمؤمنين فى ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا، وكان ينبغي أن يقيسوا الأمر على أنفسهم، وقد فعل ذلك أبو أيوب الأنصارى وامرأته، فلمّا دخلت عليه امرأته تخبره قال لها: كذب! أكنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟! فعائشة والله أفضل منك! وقوله: ﴿لَّوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾(النور١٣) توبيخٌ لأهل الإفك، فما لم يتوفر الشهداء فالمدّعِي كاذب، والناس يُحاسبون بما يظهر من أعمالهم، وأحكام الدنيا على الظاهر، ولولا فضل الله لترتبت فتنة كبيرة على الإفك ولحق

الناس منه الضرر الكبير، لأنهم كانوا يلقونه بألسنتهم ويقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم، ظناً منهم أن المسألة أهون من ذلك وأعظم، وكان ينبغي عليهم أن ينكروه، ولا يتعاطونه بعضهم من بعض على جهة النقل والحكاية، ومن كان مؤمناً فلا يعود لمثل ذلك أبداً، وللأسف فإن كتُب الشيعة حافلة بالسبّ لعائشة، ومن يسبها يخالف القرآن، وعند أصحاب الشافعي أن مَنْ سبّ عائشة أُدّب، وفي الحديث: «**لا يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه**»، وقد رمى أهل الإفك عائشة المطهّرة بالفاحشة، فبرّأها الله تعالى، فكل من سبّها بما برّأها الله منه، يُكذِّبُ الله، ومَنْ كذّب الله كَفَر وكان جزاؤه الأدب، والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (النور ١٩)، ويعلم الله مقدار مخاطر إشاعة الفاحشة بين المسلمين، وعظّم هذا الزيف، وفي الحديث: «**وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء، يرى أن يشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يرميه بها في النار**»، وفي القرآن في عائشة خصوصاً وفي المؤمنات عموماً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)**﴾(النور)، والمراد باللعنة الحدّ والإبعاد، واستيحاش المؤمنين منهم، وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبعد عن الثناء الحسن، ويوم القيامة: ﴿**تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)**﴾(النور) وفي عائشة قال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)**﴾(النور)، فالذين قالوا كلاماً طيباً عن عائشة هم الطّيبون والطيّبات حقاً، وما كان للنبيّ ﷺ أن يزوّجه الله عائشة وهي خبيثة، والخبيثة في الآية هي الزانية، والطيبات هن العفائف، وأمثال عائشة من النساء، وصفوان بن المعطل من الرجال، مبرّأون ومنزّهون مما رُموا به، ولمّا رُمي يوسف بالفاحشة برّأه الله على لسان شاهد من أهل امرأة العزيز، ولمّا رميت مريم بالفاحشة برّأها الله على لسان ابنها عيسى في المهد، وأما عائشة فلمّا رُميت بالفاحشة برّأها الله تعالى بالقرآن، فما رضي لها ببراءة صبي ولا نبيّ، حتى برّأها الله بكلامه في القرآن، فقالت عائشة في ذلك: أُعطيت تسعاً ما أُعْطِيَتْهن امرأة: لقد نزل جبريل بصورتي في راحته حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني؛ وتزوجني بكرًا وما تزوّج بكراً غيري؛ وتوفي رسول الله ﷺ ورأسه في حجري؛ وقُبر في بيتي؛ وحفّت الملائكة بيتي؛ وكان الوحي يتنزّل عليه وهو في أهله فينصرفون عنه، و كان يتنزّل عليه وأنا معه في لحافه فما يبينني عن جسده؛ وإني لابنة خليفته وصديقه؛ ونزل عذري من السماء؛ وخُلقتُ طيبة وعند طيّب،

وَوُعدتْ مغفرةَ ورزقاً كريماً - تعني قوله تعالى: ﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** (٢٦)﴾(النور) وهو الجنة. رضى الله عن عائشة وأرضاها، وطيّب ثراها وآتاها حُسن الثواب. والحمد لله رب العالمين.

•••

٩٤٣. ﴿قصة ابن أم مكتوم: أعمى سورة عبس﴾

تروى قصته سورة عبس، ولو كان النبيّ ﷺ كاتمًا لشيء من القرآن، لَكَتم سورة عبس التى عاتبة الله تعالى فيها أشد المعاتبة، فقال: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)**﴾ (عبس ١/١٦).

والأعمى فى السورة هو **ابن أم مكتوم**، وكان ابن خال **خديجة** زوجة النبيّ ﷺ، وقال عنه أهل المدينة اسمه **عبدالله**؛ وقال عنه أهل العراق: اسمه **عمرو**؛ واجتمع الاثنان على نسبه، أنه: **ابن قيس بن زائدة الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى**؛ وأمه: **أم مكتوم عاتكة، بنت عبدالله بن عُنكثة بن عامر بن مخزوم بن يقظة**. واكتفى المختلفون فى اسمه: هو **عبدالله أم عمرو**، بأن يقال عنه ويُشار إليه بأنه **ابن أم مكتوم** وكفى، وكانت أمه تشتهر بذلك لأنها عُرفت بكتمان السرّ، وقيل: كان ابن أم مكتوم أعمى ولم يكن ضريرًا، **والأعمى** هو الذى ذهب بصره بالكلية فى طفولته الباكرة، أو أنه هكذا وُلد، بينما **الضرير** هو من كان مبصرًا ثم أصابت عينيه آفة أضرّتهما، من الضُّر وهو الآفة أو المرض، وابن أم مكتوم بقوله تعالى: ﴿ **أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢)** ﴾ يقال له أعمى ولا يقال له ضرير، وأسلم صغيرًا، فحفظ القرآن كدأب العميان فى بلادنا، واتخذ تعليم القرآن للصبية مهنة يتكسّب منها، وصاحَبَ **رسول الله** ﷺ، وكان جريئًا ومعتزًا بنفسه، وكان يؤذّن للرسول مع بلال، ولمّا أذن الرسول بالهجرة إلى المدينة كان **ثانى المهاجرين**، وسبقه إليها **مصعب بن عمير**، فتناوبا تعليم الناس القرآن وتلاوته عليهم، وكان ابن أم مكتوم يؤم الناس فى الصلاة، وانضم إلى **أهل الصُفّة** لفترة، ثم أنزله النبيّ ﷺ دارًا كانت لمخرمة بن نوفل، كانوا يستعملونها مخزنًا للغذاء فسُميت **دار الغذاء** وأوكلوه بمؤن المسلمين.

وقصة ابن مكتوم مع سورة عبس جرت **بمكة** وليس فى المدينة كما قال بعض المفسرين، ولمّا وصفه القرآن أضفى عليه أحسن الصفات، وشبّهه بالساعى الذى يستحث

الخطى إلى الخير. والسعى مشقة تزيد فى حالة ابن أم مكتوم بسبب عماه، فهو إذا سار تحسّس طريقه، وعانى أشد المعاناة ليصل إلى مبتغاه، وفى الواقعة التى مدارها سورة عبس كان النبىّ ﷺ مشغولاً بجماعة من أعيان قريش من ذوى المكانة واليسار. فلمّا وصل ابن أم مكتوم لم يجده مهيئًا لاستقباله، ولا لتلقى أسئلته والجواب عليها، وكان يجادل أعيان قريش لعلهم يهتدون فيهتدى بهم آخرون ، فقطع ابن أم مكتوم عليه حديثه معهم وظل يأتيه عن شماله وعن يمينه ليسأله ويلحّ فى السؤال. وظل يقول: يا رسول الله! أرشدنى، ورسول الله ﷺ يريد أن يستكمل حديثه مع أضيافه، فأشاح عنه، وظل ابن أم مكتوم يلاحقه حتى تضايق منه، وعبس، وظل الرسول ﷺ مع ذلك يقول لمحدثيه: يافلان! هل ترى بما أقول بأسًا! فيقول محدّثه: لا والدُمَى - يعنى والصنم وهو ما يتعبّده، كقولنا: لا والله. ولم يكن هؤلاء الأعيان من الكفرة يرون إلا أن النبىّ ﷺ يجمع إليه أصحاب العاهات والزَمْنَى والحمقَى والسفلة والعبيد، وفى ذلك قالت عائشة: إن رسول الله جعل يعرض عن ابن أم مكتوم ويقبل على الآخرين - تقصد القرشيين. وقيل: كان ممن تشاغل بهم عنه: الوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وعتبة بن أبى ربيعة. وقيل: لم يكونوا جماعة بل شخصًا واحدًا فقط هو عَمُّه العباس. وقيل: بل كانوا جمعًا، ومنهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبدالمطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة.

ومن الرواة من يسهب فيما كان يقوله ابن أم مكتوم وهو يقاطع النبىّ ﷺ، ومن ذلك كان يقول: يا رسول الله، علّمنى مما علّمك الله! وجعل يناديه باسمه يقول: يا محمد!. وكل هذا باطل وبهتان، فما عرف عن ابن أم مكتوم إلا الأدب والتبجيل لرسول الله ﷺ، ويُعذَر لعماه فلم يلحظ انشغال النبىّ ﷺ، ولا مع من كان يتحادث، وكانت الحادثة لذلك تذكرةً للنبىّ ﷺ كما وصفها الله تعالى، إلا أن المفسرين أسرفوا فى نقد سلوك ابن مكتوم، ووصفوه بسوء الأدب لذلك إن كان قد علم بعد لأى انشغال النبى ﷺ، والحق أن ابن أم مكتوم كان يتمتع بحدس قوى وبوسعه أن يخمّن من كان يحادثهم رسوله، وأن يلمس بنفسه انشغاله، ولكنه فيما يبدو كان يرى أن مهادنة الكفرة ليست من السياسة، وكان يتيه بإسلامه عليهم ويعتز به ويفخر، وابن أم مكتوم عُرِف عنه لذلك أن عماه فى بصره وليس فى قلبه، ووصفه ربّه خير وصف فقال: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩)﴾، والذى يخشى الله هو التقىّ، والتقوى جوهر الإيمان، وهى الإسلام فى حقيقته، وعلى عكس ذلك كان وصفه تعالى لموقف النبىّ ﷺ بقوله: ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ

تَلَهَّىٰ ⑩ ﴾، أي يعرض بوجهه ويُشغل بغيره، وأصلها **تتلهى**، تقول لهيت عن الشيء ألهىَ، أي تشاغلت عنه، **والتلهّي** التغافل، وقوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪**﴾ كلمة ردع وزجر، أي لا تفعل مثلها بعد ذلك أبدًا، وما فعله النبيّ ﷺ هو أنه أقبَل على الغنيّ الكافر، وأعرض عن المؤمن الفقير، **والدرس المستفاد من القصة: أن الإسلام** دين مساواة لا يحابى الأغنياء على حساب الفقراء، ولا يحفل بالأشراف ويتناسى الضعفاء، ولا يخشى المستقويين ويستقوى على المستضعفين، فالناس فى الإسلام سواء، من كان منهم فقيرًا أو غنيًا، ومن كان من الكبراء أو من الصغراء، ومن الرجال أو من النساء، ومن الأعيان أو الهُمّال، فإن أردتَ تطبيقًا للمساواة فى العالم كله، فليس أوضح ولا أحسن من واقعة أعمى سورة عبس فى القرآن، وليس أكبر من ذلك كلام فى المساواة، والحادثة جليلة، فمن شاء أن يتّعظ بها فليتذكر هذا الفقير المعوّق الأعمى، كيف رفعه الإسلام، فذكره فى صُحف القرآن المكرمة، كتبها سفرة بررة، أسفروا عنها ووضّحوها، وربما المقصود بهم الملائكة، حفظوا الحادثة فى كتاب لا يضيع ولا يبلى، أو أنهم أصحابه ﷺ، الكاتبون لآيات التنزيل ولم يكن العتاب للنبيّ ﷺ مع ذلك إلا عتاب المحب لحبيبه، أو المعلم لتلميذه، وأخبر القرآن عنه بالغائب وقال ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ**﴾ ولم يقل «**عبست وتوليت**»، تعظيمًا لشأن النبيّ ﷺ، ثم واجهه بالخطاب تأنيسًا له فقال: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③**﴾، أي ما يُعلمك أنه قد جاءك يستزيدك من العلم بالدين فيزداد طهارة وتزول عنه ظلمة الجهل؛ أو أن الاستفهام فى الآية يعنى: هل بإعراضك عن المؤمن، تظن أن الكافر سيهتدى كما تطمع؟ ويُروىَ أن النبيّ ﷺ بعد هذه السورة، كان إذا رأى ابن أم مكتوم قادماً إلى مجلسه، بسط له رداءه يقول: «**مرحبًا بمن عاتبنى فيه ربّى**»، وكان يسأله على الدوام كلما رآه وسلّم عليه: «**هل من حاجة؟**» واستخلفه على المدينة فى **ثلاث عشرة غزوة**، وكان ابن أم مكتوم يصلى بالناس وهو أعمى، ويخطب إلى جنب المنبر، ويجعله على يساره، وكان إذا حضر النبيّ ﷺ أذّن **بلال**، وأقام ابن أم مكتوم، وربما يؤذن ابن أم مكتوم ويقيم بلال، وفى **رمضان** كان بلال ينادى بليل، فأمر الرسول ﷺ الناس أن يأكلوا ويشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم، وكان بسبب عماه لا ينادى حتى يقال له: أصبحتَ أصبحت - يعنى ينبّهوه أن الفجر قد حان - وكان يتوّخاه ولا يخطئه.

وهذا الأعمى الذى يخشى الله تعالى وتحدّث فيه القرآن بما تحدّث، وأعلى من قدره، ورفعه إلى السماكين، لم يستنكف اليهود أن يشنّعوا عليه، فقالوا إنه قتل يهودية من أهل المدينة كانت تُرفقه - يعنى ترشده فى سيره، ولكنها كانت تؤذيه فى دينه وتسخر منه،

فضربها، قيل فقتلها ضرباً، أى ضربها فأوجعها، وقيل يعنى ضربها ضربًا أفضى إلى الموت، ورُفع أمره إلى النبىّ ﷺ فدافع عن نفسه بأنها كانت تؤذيه في الله ورسوله، قيل إن النبىّ حكَم بأنها لمّا آذته فى دينه أبطلت دمها! - وهذا كذب وافتراء، لأنه يخالف القرآن الذى جعل النفس بالنفس، ولم يفرّق بين أن يقتل المسلم مسلمًا، أو يقتل يهوديًا، طالما لم يخرجه اليهودى من داره، ولم يقصد إلى قتله، ولم يمنعه من دينه، ولقد حكم النبىّ ﷺ لليهودى ضد طعمة بن أبيرق المسلم لمّا اتّهم اليهودى بسرقةٍ لم يقم بها، وعفا عن لبيد بن أعصم اليهودى الذى سحر له ولم يؤذه، ولم يُعرف عن ابن أم مكتوم إلا أنه من المتّقين، وبلغ من حرصه لما نزلت الآية: ﴿**لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أن بكى وقال: يا ربّ! ابتليتنى فكيف أمتنع؟ فنزلت: ﴿**غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ**﴾ (النساء٩٥)، قال زيد بن ثابت: إن رسول الله ﷺ أملى عليه الآية هكذا: ﴿**لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، ولمّا جاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها، فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت! فأنزل الله على رسوله ﷺ، وكان فخذه على فخذى، فثقُلت علىّ حتى خفتُ أن تُرضّ فخذى، ثم سرى عنه، فأنزل الله: ﴿**غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ**﴾. وعن ابن عباس أن عبدالله بن جحش، وابن أم مكتوم، هما اللذان قالا للرسول ﷺ: إنّا أعميان فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿**غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ**﴾ فصار بها ابن أم مكتوم من القاعدين غير أولى الضرر، واستثنى أن يكون المجاهدون مفضّلين عليه، وكانت ﴿**غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ**﴾ من بركاته، ومخرجًا لذوى الأعذار تبيح لهم ترك الجهاد، من العمى وغيره، كالعرج والمرض، فهذه أول مرة فى الديانات السماوية التى يُحفَل فيها بالمعوقين، ويُساوون بالمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم!! وفى هؤلاء المعوقين قال رسول الله أعظم إعلان فى التاريخ قاطبة: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من سير، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه**». قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: نعم، حبسهم العذر - يعنى المعوقين كالمجاهدين تمامًا لهم نفس الأجر، وفى مثل ذلك قال الشاعر يعتذر عن المعوقين ويوجز موقف الإسلام منهم حين العجز عن الحج كغيرهم من الأسوياء:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إنّا أقمنا على عذر وعن قدر ومَن أقام على عذر فقد راحا

ويروى أن ابن أم مكتوم لما نزلت آية تفضيل المجاهدين عن القاعدين بكى وصاح يدعو الله: أى ربّ! أنزِل عُذرى! أنزل عذرى أى ربّ! - فأنزل الله ﴿**غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ**﴾، قيل

فجعله إنصاف الله له، يتحدّى الإعاقة، ويخرج يغزو مع الغازين، رغم الرخصة له، وكان يصيح «وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»، ويصرخ فيمن حوله: ادفعوا إلىّ اللواء - أى الراية - فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيمونى بين الصفين!! وقيل خرج ابن أم مكتوم لذلك يوم القادسية، يجاهد في سبيل الله وعليه درعٌ سابغة، وكان يقاتل ومعه الراية، ثم رجع إلى المدينة فمات بها سنة ٢٣هـ (٦٢٣م) قبيل وفاة عمر. رحمه الله، والحمد لله على الإسلام والقرآن (انظر أيضًا موجز سورة عبس وتولى).

●●●

٩٤٤. ﴿قصة عبد الله بن سلام مع النبى ﷺ واليهود﴾

كان عبد الله بن سلام يهودياً وأسلم قبل موت النبىّ ﷺ بسنتين، وفى سورة الأحقاف يأتى عنه: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)** ﴾، وكان اليهود ينكرون أن القرآن من عند الله، ويقولون إن التوراة فقط هى الكتاب الربّانى، وأن الله لا يرضى بديانتين ولا باختلاف الناس في الشرائع، وردّ القرآن على إدعاءاتهم أن الله أنزل القرآن مصدقاً لكتاب موسى، واختلف النبىّ ﷺ واليهود فى مسألة الزنا، فردّ ذلك إلى التوراة، وأنكروا أن يكون الرجم عقوبة الزنا فى التوراة، وكان عبد الله بن سلام حاضراً فأيّد النبىّ ﷺ، واستخرج آية الزنا فى التوراة (سفر الاشتراع ٢٢/ ٢٠-٢٣)، فهذا هو الشاهد من بنى إسرائيل، وكانت تلك الواقعة سبباً في إيمانه، لمّا رأى لجاجة اليهود، وميلهم عن الحق، واستكبر أقرانه وظلوا على غيّهم. والبعض أنكر أن يكون الشاهد ابن سلام، لأن السورة مكية، وابن سلام أسلم متأخراً فى المدينة، والردّ على ذلك أن كثيراً من الآيات كانت مدنية وأمر الرسول ﷺ أن يكون مكانها بين سور مكية، وأن هذه الآية منها، وأن الدليل على أنها مدنية أن المحاجّة بين النبىّ ﷺ واليهود لم تكن بمكة وإنما بالمدينة فهذه الآية بهذا الدليل مدنية قطعاً، والشاهد فيها هو فعلاً عبد الله بن سلام.

●●●

٩٤٥. ﴿قصة الذى قال لوالديه أف لكما﴾

قيل: إنه عبد الله بن أبى بكر: قال فيه الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)** ﴾ (الأحقاف)، وهذا كذب لأن عبد الله أسلم قديماً فى مكة، وكان

يأتي بالأخبار إلى النبيّ ﷺ وأبى بكر، فى الغار فى الطريق إلى المدينة لما بدءا الهجرة.

وقيل: هو **عبد الرحمن بن أبى بكر**: تأخّر إسلامه، وكان أبوه وأمه ـ **أم رومان** ـ يدعوانه إلى الإسلام، ويتحدثان إليه عن الآخرة والبعث، فكان يصف كلامهما بأنه كلام قديم، من أساطير الأولين. وأنكرت **عائشة** أن يكون هو عبد الرحمن، لأن عبد الرحمن كان صحابياً ومن رواة الحديث. وكيف يقال إن الآية فى عبد الرحمن، والله تعالى يقول عن هذا الذى قال لوالديه **أفٍّ لكما** إنه من الذين حقّ عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم كانوا خاسرين؟، ومعنى «**حقّ عليهم القول**» يعنى **حقّ عليهم العذاب**، والعذاب لا يكون إلا للكفرة، وعبد الرحمن كان مؤمناً ومصدّقاً، ومن أفاضل المؤمنين المصدّقين؟! والصحيح إذن أن هاتين الآيتين نزلتا عامتين فى إنسان عاق لوالديه، وهذا منه كثير فى مجتمعاتنا قديماً وحديثاً على السواء. وفيما قيل من قصة «**هذا الذى قال لوالديه أفٍّ لكما**»: أن **معاوية** كتب إلى **مروان بن الحكم** فى المدينة ليبايع الناس ليزيد ابنه، فقال عبدالرحمن بن أبى بكر تريدونها **هرقلية** (نسبةٌ إلى هرقل ملك الروم)؟! كلما مات قيصر خلفه قيصر آخر هو ابنه؟! لا والله لا نفعل ذلك أبداً! أتبايعون لأبنائكم؟! فقال **مروان** ساخراً منه ومستهزئاً: هو الذى يقول الله فيه: «**والذى قال لوالديه أفّ لكما**» الآية! وكانت **عائشة** حاضرة فقالت: والله ما هو به! ولو شئتَ لسمّيتُ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صُلبه، ! فأنت فضضٌ من لعنة الله! تقصد أنه ضمن من لعنهم الله، بل وأقلهم شأناً.

وقيل إن الآية: ﴿ **كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا** ﴾(الأنعام٧١) نزلت فى عبد الرحمن، وكان يدعو أباه إلى الكفر، وأبواه والمسلمون يدعوانه إلى الإسلام، وهو معنى قوله تعالى: «**له أصحاب يدعونه إلى الهدى**» فيأبى. وقيل فى عبد الرحمن: إنه شهد **بدراً وأُحداً** مع الكفّار، وأنه دعا إلى البراز. فقام إليه أبوه ليبارزه؟! وقيل: ثم إنه أسلم وحَسُن إسلامه، وصحب النبيّ ﷺ فى هدنة الحديبية. فهذا ما يتقوّلونه عليه، وأهل السِّير يرددون ذلك دون تمحيص ولا تثبُّت، وجُلّ أهل السير إما من **الشيعة** أو من **الشعوبيين**، وشُغلهم الشاغل ما استطاعوا، أن يشنّعوا على رموز الإسلام. وعبد الرحمن كان من الثقاة عند رسول الله ﷺ، وكاد يستدعيه ليكتب كتاباً فى مرض موته يوصى بأن يخلفه أبو بكر، وكان عبد الرحمن كاتباً وشاعراً، وله فى الجاهلية غزل فى **ليلى بنت الجودى**. وكان اسمه **عبد الكعبة**، فسمّاه رسول الله ﷺ **عبدالرحمن**، فنسبه إلى أشرف وأسنى اسم لله تعالى، وكان من أشجع قريش وأرماهم بسهم، وحضر اليمامة وشهد غزو إفريقية، وحضر وقعة الجمل مع أخته **عائشة**، ودخل

مصر، وحضر الشام، وتزوج ليلى التى هام بها. ولمّا رفض عبد الرحمن أن يبايع ليزيد وحضّ الناس على عدم المبايعة، بعث إليه معاوية بمئة ألف درهم، فردّها وخرج من المدينة من وجه مروان بن الحكم الظالم المستبد عامل معاوية عليها، ودخل مكة فمات فيها قبل أن تتم البيعة ليزيد، وظلت عائشة تعتقد أن عبد الرحمن مات مسموماً بطريقة معاوية فى التخلص من أعدائه. ولعبد الرحمن فى كتب الأحاديث ثمانية أحاديث. فهذا بعض تاريخ من قالوا عنه إن القرآن نزل فيه مرتين يقصّ عن كُفره، والله المستعان، وكما قالت عائشة فإن القرآن لم ينزل فى أحد من أهلها إلا فيها حديث الإفك، وفى أبيها فيما كرّمه به ربُّه من الذكر عن الهجرة، والغار، والمسارعة إلى تصديق النبىّ ﷺ، سواء فى الدعوة إلى الإسلام، أو فى الإسراء، أو فى غير ذلك من المواقف، حتى أنه كان الرجل الأول ضمن الأجلاء من الصحابة. فهذا ما نزل فيه القرآن من أفراد عائلة أبى بكر.



٩٤٦. «قصة الجن يستمعون إلى القرآن»

الجن من مخلوقات الله ولكنهم غير مرئيين من الإنسان أو من سواه، والجن فى اللغة من الاستتار والاختفاء، والجنّى الواحد، والجنيّة الأنثى، واسم الجمع الجان، وهم أمم كما يخبرنا القرآن، ومنهم الكافر ومنهم المؤمن، وقيل إبليس رئيسهم، وحكومتهم فى الأرض هى الحكومة الخفية، وكانوا يخدمون سليمان، وبعض الناس يعوذون بالجن، ومن الناس من يعبد الجان، وهؤلاء المسمون عبدة الشيطان.

وقصة الجن مع النبىّ ﷺ متعلّقها القرآن لا غير، فما كانت له صلات بالجن، ولا بُعث إليهم، ولم يرهم، وما عرفناه من ذلك جاءنا من القرآن، وفيه سورة بأكملها عن الجن وهى من السور المكية، وتتحدث عن تأثير القرآن فيهم، توبيخاً لأهل مكة الذين كانوا على الكفر، فحتى الجن، منهم من آمن لمّا استمعوا للقرآن، وما آمن أهل مكة المنزّل عليهم القرآن خصيصاً، والمَعْنىّ بهم فى المحل الأول؟! ويأتى فى أول القصة - عندما فوجىء الجن بمنعهم من التنصّت إلى السماء، وبزيادة الحرس عليها، وبالشُّهب الكثيرة يُرمون بها كلما اقتربوا منها، أنهم تساءلوا عن معنى ذلك فاستنبطوا أن أمرًا جللاً لابد قد حدث على الأرض واستوجب هذا الإجراء. وذهب الجن يتوزّعون فرقاً، يتعرّفون السبب، ويتلمّسون الداعى، إلى أن كانوا ببطن نخلة فى طريقهم إلى عكاظ، وهناك عثروا على جماعة من المسلمين يؤمّهم النبىّ ﷺ ويتلو عليهم القرآن، فتوقفوا ينظرون ويسمعون، وعجبوا أشد العجب، ونقلوا ما رأوا وسمعوا إلى قومهم، فكان نزول سورة الجن، تُعلم

النبي ﷺ بما جرى، وفيها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾، وظاهر السورة يدل على أنه لم يرهم، فالمسألة مجرد استماع منهم، والمعرفة بما جرى تسلية للنبيّ ﷺ بعد أن أنكر أهل مكة، وجحدوه وعاندوه واستهزأوا به. وما كانت قراءته للجن أصلاً. ولمّا رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته، ويسجدون بسجوده، تأثروا فقال فيهم القرآن: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ (الجن). وقيل إن الذين أتوا النبيّ ﷺ واستمعوا له جماعتان من الجن، فجماعة استمعت إليه فى مكة، وهؤلاء هم «جن سورة الجن»، وجماعة استمعت إليه في نخلة بعد أن توجه لهداية ثقيف، وفي عودته كان وحده، وصلى وحده كذلك، وهؤلاء هم «جن سورة الأحقاف»، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾(الأحقاف). وقيل إن النبيّ لمّا مات أبو طالب، خرج وحده إلى الطائف يلتمس النصر من ثقيف، فأغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبّونه ويضحكون به، حتى اجتمع إليه الناس، وألجأوه إلى حائط، فجلس يشكو إلى الله أعظم الشكاية، يقول: «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلُني؟ إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمرى؟! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك. لك العُتبىَ حتى ترضَى، ولا حول ولا قوة إلا بك». ثم إنه قام من الليل يصلى ويتلو القرآن، فتجمع عليه الجن واستمعوا له كما ذكرنا. وقيل كانت السورة التى تلاها ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ۝١﴾ (العلق).

وغير صحيح أن يقال إن النبيّ ﷺ رأى الجن، ويسمّون تلك الليلة التى استمع له فيها الجن: ليلة الجن، وكانت بمكة كما ذكرنا. ويُروَى عن ابن مسعود كلام غريب هو من الإسرائيليات، قال إنهم افتقدوا النبيّ ﷺ تلك الليلة، فالتمسوه فى الأودية والشعاب حتى ظنوا أنه استطير أو اغتيل، وباتوا شرّ ليلة، فلما كان الصبح إذ هو قادم من قِبَل حراء، فقال: «أتاني راعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن». وقيل إن فى الجن

روايتين: رواية ابن مسعود عن جن مكة، ورواية ابن عباس عن جن نخلة. وقيل رواية ابن عباس عن أول مرة تستمع فيها الجن إلى قراءة النبىّ ﷺ، وأما رواية ابن مسعود فكانت القراءة فيها عند أحد الشعاب ولم يحضرها ابن مسعود، والروايتان جميعاً خرافات. وسورتا الجن والأحقاف كلاهما مكية، غير أن الجن تأتى أولاً فى التنزيل فهى أسبق من الأحقاف. وفى سورة الجن يأتى وصف القرآن وإيمان الجن وتنزيههم لله، ونقدهم لأقوال السفهاء فيه، ولاستبعادهم لفكرة النبوة والأنبياء، وتقسيمهم الجن إلى مؤمنين وكافرين، وأنهم لما سمعوا القرآن أسلموا. وفى سورة الأحقاف وصفٌ للقرآن بأنه مصدق لكتاب موسى، ويبشّر بالتوحيد، ويدعو إلى الله.

●●●

٩٤٧. ﴿ساعة العُسْرة وغزوة تبوك﴾

الساعة مصطلح قرآنى، ومنه معنى الساعة الزمنية التى نعرفها، كقوله تعالى: **﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ (٤٥)﴾**(يونس)، إلا أن المعنى الغالب فى القرآن هو القيامة: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (١٨٧)﴾**(الأعراف). وأما «**ساعة العُسْرة**»: فهى غزوة تبوك ولم يرد بها ساعة معينة، والمراد **وقت العُسرة**، أو أن ساعة العسرة هى أشد الساعات التى مرت بهم فى تلك الغزاة. **والعسرة** صعوبة الأمر، فقد اجتمعت على المسلمين **عُسرة الظَّهْر**، **وعُسرة الزاد**، **وعسرة الماء**، ولم تكن لديهم ركائب فكانت الجماعة من المسلمين يخرجون على البعير الواحد يتعقّبونه بينهم، وزادهم التمر المتسوّس، والشعير المتغيّر، والإهالة (الشحم المذاب) المنتنة، وكان الواحد من النفر يخرج التمرة فيلوكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة ماء وهكذا، حتى لا يبقى من التمرة إلا النواة. وفى ذلك أتى عن المهاجرين والأنصار: **﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ (١١٧)﴾**(التوبة) وعن عمر: أن **ساعة العسرة** كانت فى تبوك، وهى العطش الشديد حتى كان المسلمون يعصرون الفرث (الزبل) ليستخلصوا الماء! وعن أبى هريرة: أن **ساعة العُسرة** كانت مجاعة نزلت بالمسلمين الذين كانوا فى غزوة تبوك. وسُمّى لذلك جيش تبوك: **جيش العُسرة**، فقد كان المسلمون فى حَمارة القيظ، فغلُظ عليهم وعسُر. ولم يكن النبىّ ﷺ قد غزا من قبل فى مثل هذا العدد من الغزاة، ففى بدر كان المسلمون: **ثلثمائة وبضعة عشر**؛ ويوم أحد: كانوا **سبعمائة**، ويوم خيبر: كانوا **ألفاً وخمسمائة**؛ ويوم **الفتح**: كانوا **عشرة آلاف**؛ ويوم حنين: كانوا **اثنى عشر ألفاً**؛ وفى غزوة **تبوك**: كانوا **ثلاثين ألفاً وزيادة**، وهى آخر مغازيه ﷺ. وكان خروجه فى

رجب، وأقام بتبوك شعبان وأياماً من رمضان. وقيل لها غزوة تبوك، لأن النبىّ ﷺ رأى المسلمين يأخذون حَسْى تبوك (أى ترابها) ويبوكـونه، أى ينغزون الأرض بأرجلهم ليثيروا الماء، ويأخذون الرمل الناتج فى الأقداح، ويحرّكونه ليفصلوا الماء عنه، فسميت الغزوة بما كانوا يفعلونه وهو تبويكهم للرمل والماء.



وينتهى بحمد الله ومنّته الباب السابع من الموسوعة ويبدأ إن شاء الله الباب الثامن عن «أمثال وحِكم القرآن».



الباب الثامن

٩٤٨. ﴿أمثال وحكم القرآن﴾

ضرب الله **الأمثال** في القرآن فهدى، وضرب المنكرون الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً. **والأمثال** لها تأثيرها في القلوب، وفيها من الحكمة الكثير، وهى أبلغ فنون الكلام، ولذلك حفل بها القرآن، وجعلها الله من دلائل رسُله، وأوضح بها الحُجّة على خَلْقه، لأنها في الأذهان معقولة، وفى الأسماع مقبولة، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون، ولقد ضُرب في القرآن من كل مثل حتى لقد صار «**علم أمثال القرآن**» من أعظم علومه، وشملت أمثاله كل مسائل العقيدة، يُقرِّب بها المجرّد ويصورِّه محسوساً مادياً، ويصوغه خبرات من المشاهد اليومية من حياتنا العملية، فيها العلم والسداد، ومكارم الأخلاق، وشرف العمل، وشئون الناس والأفراد والعائلات والدول والمجتمعات، ومسائل الزواج والطلاق، وقضايا الدنيا والدين، وقصص من التاريخ عن الذين خَلَوْا، موعظةً للمتّقين، كقوله تعالى: ﴿**وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)**﴾ (الفرقان)، يصحح بها حجج المعترضين، وروايات المتخرّصين، ويسرد صحيح القصة ويفسّرها بلا تحريف.

وما أكثر الأمثال في التلمود، وفى سفر المزامير عند اليهود، وعندهم سفر خاص **بالأمثال، ومن أقوالهم فيه** : مخافةُ الربّ رأس العلم والحكمة والتأديب. طوبى للإنسان الذى وجد الحكمة، وللرجل الذى نال الفطنة. الحكمة هى الرأس فاكتسب الحكمة، وبكل كسبك اكتسب الفطنة. لا تلتفت إلى إغراء المرأة. اذهب إلى النملة أيها الكسلان وانظر طرقها وكن حكيماً. إنها ليس لها قائد ولا مدير ولا حاكم، وتُعدّ فى الصيف طعامها، وتوعى فى الحصاد أكلها، فإلى متى ترقد إيها الكسلان؟ ومتى تنهض من نومك؟ الحكمة بَنَتْ بيتها، ونحتت أعمدتها السبعة، وذَبَحَت ذبائحَها، ومزجَت خمرَها وصفّفت مائدتها، وأرسلت جواريها تنادى على مشارف المدينة : مَن هو غِرٌّ فَلْيمل إلى هنا، وتقول لكل فاقد اللّب : هلموا كلوا من خبزى واشربوا من الخمر التى مزجت، واتركوا الغَرّارة واحيوا، وانْهجوا طريق الفطنة. أول الحكمة مخافة الربّ، وعلم أولياء الله الفطنة. الابن الحكيم يسرّ أباه، والابن الجاهل غُمّة لأمه. كنوز النفاق لا تنفع، والبِرّ ينقذ من الموت. الذى يحبّ التأديب يحب العلم، والذى يُبغض التوبيخ بليد. الابن الحكيم من تأديب أبيه، وأما الساخر فلم يسمع الانتهار.. إلخ. وأكثر الأمثال عند اليهود ألّفها **سليمان** واشتهر بها، وموضوع «**سفر الأمثال**» الذى وضعه هو الحكمة، وقد تكون وجيزة أو

رمزية. ومن أشهر أمثال اليهود أحجية شمشون إلى الضيوف عند زفافه. قال: خرج من الآكل أكُل، ومن الشديد حلاوة (القضاة ١٤/ ١٥). واستخدم المسيح فى الأناجيل الأمثال للتعليم، وعددها فى الأناجيل الأربعة ٢١ مثلاً، منها فى متّى (١١/ ١٢)، مثل الخروف الضال، يقول: «فإنما جاء ابن البشر ليخلص ما قد هلك. ماذا تظنون إذا كان أحد له مئة خروف فضلّ واحدٌ منها؟ أفلا يترك التسعة والتسعين فى الجبال ويمضى فى طلب الضال؟» - ومثل الغنى الغبى فى لوقا (١٢/ ١٦- ٢١)، يقول: «أغلّت له أرضُه كثيراً، ففكر ماذا يصنع، وأين يخزّن غلاله لينتفع بها فى باقى عمره؟ ولكنه يموت فجأة ولا ينتفع بشىء، فهكذا من يدّخر لنفسه وهو غير غنى بما لله، فلهذا لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولأجسادكم بما تلبسون».

ومن عبارات القرآن التى تجرى مجرى الأمثال فى سورة البقرة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ(٤٤)﴾؛ ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله (٧٤)﴾؛ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ(١٩١)﴾؛ ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ(١٩٥)﴾؛ ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ(١٩٧)﴾؛ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ(٢٠٤)﴾؛ ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ(٢١٦)﴾؛ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ(٢١٧)﴾؛ ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ(٢٢١)﴾، ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ(٢٢١)﴾؛ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا(٢٣١)﴾؛ ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ(٢٣٣)﴾؛ ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾؛ ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾؛ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ(٢٤٩)﴾؛ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ(٢٥٦)﴾، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي(٢٦٠)﴾؛ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى(٢٦٣)﴾؛ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ(٢٦٩)﴾؛ وفى سورة آل عمران: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾؛ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾؛ ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)﴾؛ ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾؛ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا(١٠٣)﴾؛ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ(١٠٦)﴾، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ(١٦٠)﴾؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ(١٨٥)﴾؛ وفى سورة النساء: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا(١٩)﴾؛ ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا(٢٨)﴾؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾؛ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ(٥٨)﴾؛ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ(٧٨)﴾؛ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ

من سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ(٧٩)﴾؛ ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها؛ لا خير في كثير من نجواهم (٨٥)﴾؛ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ(١٢٨)﴾؛ ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ(١٢٩)﴾؛ وفي سورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ(٢)﴾، ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا(٢٤)﴾؛ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا(٣٢)﴾؛ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً(٤٨)﴾؛ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ(٨٢)﴾؛ وفي سورة هود: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(٨١)﴾؛ ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا(٨٢)﴾: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ(٥)﴾؛ ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ(٧٨)﴾؛ ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ(٨٥)﴾؛ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ(٨٨)﴾؛ ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(٩٣)﴾؛ وفي سورة يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ (١٨)﴾؛ ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ(٥١)﴾؛ وفي سورة الرعد: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ(٣٨)﴾؛ وفي سورة إبراهيم: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ(١٨)﴾؛ وفي سورة الإسراء: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ(٨٤)﴾؛ وفي سورة طه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ(٦١)﴾؛ وفي سورة الأنبياء: ﴿نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ(١٨)﴾؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، «وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً(٣٥)﴾، ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ(٣٧)﴾؛ وفي سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ(١٠)﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ(١١)﴾، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ(٧٣)﴾؛ وفي سورة الروم: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ(٥٢)﴾؛ وفي سورة الأحزاب: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ(٤)﴾؛ وفي سورة فاطر: ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا(٨)﴾، ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾؛ ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣)﴾؛ وفي سورة يس: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ(٧)﴾؛ ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؛ وفي سورة الصافات: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾؛ وفي سورة ص: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)﴾؛ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)﴾؛ وفي سورة غافر: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا (٥٩)﴾؛ وفي سورة الدخان: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ(٢٩)﴾؛ وفي سورة النجم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ (٢٨)﴾؛ وفي سورة القمر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان(٦٠)﴾؛ وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾؛ وفي سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾؛ وفي سورة الإنسان: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾؛ ﴿إِنَّ هَٰؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ(٢٧)﴾؛ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ(٣٠)﴾؛ وفي سورة المرسلات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ(٧)﴾، ﴿هَٰذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥)﴾؛ ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا

قليلاً (٤)﴾، ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠)﴾؛ وفي سورة النازعات: ﴿تلك إذا كرة خاسرة (١٢)﴾؛ وفي سورة الطارق: ﴿إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤)﴾؛ وفي سورة الشرح: ﴿فإن مع العسر يسرا (٥)﴾؛ وفي سورة التين: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥)﴾؛ وفي سورة العلق: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم (٥)﴾؛ وفي سورة العاديات: ﴿إن الإنسان لربه لكنود (٦)﴾، ﴿وإنه لحب الخير لشديد (٨)﴾؛ وفي سورة العصر: ﴿إن الإنسان لفي خسر (٢)﴾؛ وفي سورة الكوثر: ﴿إن شانئك هو الأبتر (٣)﴾.

وأيضاً فإن من الأمثال ما لا يُستحضر للاستشهاد به، كالحِكَم وجوامع الكلم، وإنما هي لتقريب المعاني ولايعلمها إلا العالمون، ويضربها الله للناس لعلهم يتفكّرون، كَمَثل أهل الضلال: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾ (البقرة١٨)، وتقديره: قد اشتروا الضلالة بالهدى، وصاروا بعد البصيرة إلى العمى، يشبّههم بمن استوقد ناراً، فلمّا أضاءت ما حوله وأبصر بها واستأنس، طُفئت فجأة وصار فى ظلام شديد؛ ومثل الذين كفروا: ﴿كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ (البقرة١٧١): يُضرب لما هم فيه من الجهل والغي، كأنهم الدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها؛ ومَثَلهم المفتونين: ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ (البقرة٢١٤)، ويُضرَب لمن يظن أنه آمن ولما يفتن ويختبر؛ ومثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ (البقرة٢٦١)، يُضرَب للمجاهدين، يُضاعف لهم أجر ما ينفقون إلى سبعمائة ضعف؛ ومَثَل المرائين: ﴿كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا﴾ (البقرة٢٦٤)، فهؤلاء ينفقون وما يُتقبل منهم؛ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم: ﴿كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين﴾(البقرة ٢٦٥)، فعمل المؤمن لا يبور ويُكثره الله وينمّيه؛ ومثل عيسى عند الله: ﴿كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩)﴾ (آل عمران)، فإن جاز ادعاء النبوة فى عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى؛ ومثل الذى لايتّعظ بآيات الله: ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (الأعراف١٧٦)، فهو لا ينتفع بالموعظة، تدعوه أو لا تدعوه لايؤمن، كالكلب يلهث فى الحالين: إن تتركه أو تحمل عليه؛ ومثل المكذّبين: ﴿ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧)﴾ (الأعراف)؛ ومثل الحياة الدنيا: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ (يونس٢٤)؛ ومثل الذين يصدّون عن الإيمان والذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا﴾ (هود)؛ ومثل الذين يدعون من دون الله لا يستجيبون لهم بشىء

﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ (الرعد١٤)؛ ومثل الحق والباطل: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ (الرعد)؛ ومثل المتقين: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد٣٥)؛ و﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾، ونقيض هؤلاء مثلهم: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم١٨) شبّه أعمالهم بالرماد تشتد به الريح فتذروه، فكأنهم هباء منثور، كقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ (آل عمران١١٧)؛ ومثل اليتامى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (النساء١٠)، ومثل الحيران: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ (الأنعام٧١)؛ ومثل الميت الذى أحياه الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام١٢٢)؛ ومثل المنسلخ من آيات الله: ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)﴾ (الأعراف)؛ ومثل الآكل لحم أخيه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات)؛ مثل الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ (إبراهيم)؛ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾ (إبراهيم)؛ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل) مثلُهم كالشيء الناقص، فى حين أن الكمال المطلق من وجه هو مَثَل الله تعالى ويُنسب إليه؛ ومثل الحياة الدنيا: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ (الكهف٤٥)، كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ (يونس٢٤)، وقوله ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ (الحديد٢٠)؛ والمثل المشهور للذباب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ (الحج)، فتحداهم أن يخلقوا كخلقه ولو ذبابة واحدة، أو حتى أن يستنقذوا شيئاً سلبهم الذباب، فما أضعف الذباب والإنسان؛ والمثل الذى ضربه الله تعالى

لنوره: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ (النور٣٥)؛ ومثل السراب: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور٣٩)؛ ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ (النور٤٠)؛وأروع الأمثلة هو مثل العنكبوت للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ (العنكبوت٤١) فليس فى أيدى هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لايجدى عنه شيئاً، ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ (الحشر١٥) وهؤلاء هم اليهود، ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾(الحشر)، فمثلهم فى اعتزازهم بأنصارهم كمثل الشيطان يسوّل لهم الكفر ثم يتبرأ منه؛ ومثل الجبل يتنزل عليه القرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ (الحشر)، وهذا المثل أعظم أمثال القرآن فى بيان عظمة القرآن؛ ومثل اليهود حُمّلوا التوراة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الجمعة ٥) فقد حفظوا التوراة ولكنهم لم يتفهموها، ولا عملوا بها، فهم أسوأ حالاً من الحمار. والأمثلة كثيرة فى القرآن: كمثل **البعوضة فما فوقها** (البقرة ٢٦)؛ ومثل **العبد المملوك، والعبد المرزوق**،والأول الذى لا يقدر على شىء - وهو الكافر، والثانى يُرزق الرزق الحسن، ينفق منه سراً وجهراً - وهو المؤمن (النحل ٧٥)؛ ومثل **الأبكم الذى لا يقدر على شىء وعياله على مولاه؛ ومثل العادل الذى مقاله حق وفعاله مستقيمة**، هل يستويان ؟ (النحل ٧٦)؛ **ومثل القرية التى كانت مرزوقة وآمنة مطمئنة**، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها لباس الجوع والخوف (النحل ١١٢)؛ **ومثل الرجلين المشرك والمؤمن**، والمشرك له جنتان، فتفاخر على صاحبه المؤمن وأنكر المعاد، فعاقبه الله وأحيط بثمره، فأصبح من النادمين (الكهف ٣٢/ ٤٤)؛ والمثل من النَّفس: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الروم٢٨)، يقول هذا المثل تشهدونه فى أنفسكم، فأنتم لا ترضون أن يشارككم مواليكم فى أموالكم، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟ وتجعلون له ما تكرهون ؟ **ومَثَل أصحاب القرية**، أرسل الله إليهم رسولين واتبعهما بثالث فما ازدادوا إلا كفراً (يس

١٣/١٦)؛ **ومثل المنكر للإحياء بعد الممات**، يفت عظم الموتى ويذروه ويسأل : يا محمد، أتزعم ان الله يبعث هذا ؟ ونسى نفسه أن الله خلقه من العدم (يس ٧٨)؛ **ومثل العبد المشترك بين اثنين يتنازعانه فيما بينهما، والعبد الذى يملكه واحد**، فهل يستويان، وكذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن الذى لا يعبد إلا الله، فأين هذا من هذا (الزمر ٢٩)؛ **ومثل أتباع محمد**، فى التوراة والإنجيل كشطء الزروع (الفتح ٢٩)؛ **ومثل امرأة نوح وامرأة لوط** (التحريم ١٠)، كانتا تحت نبيين، فلم يُغن عنهما ذلك لمّا كفرتا؛ **ومثل امرأة فرعون** (التحريم ١١)، كانت زوجة كافر فصبرت؛ **ومثل مريم أم عيسى** (التحريم ١٢)، أحصنت نفسها فكملت وكانت صدّيقة؛ **فهذه نحو الستين مثلاً** ضربها الله تعالى فى القرآن للتعليم. وفى أمثال القرآن كتب الكثيرون، ومن أقدمهم **الجنيد** المتوفى سنة ٢٩٧ هـ؛ **وإبراهيم بن محمد**، المعروف بنفطويه، المتوفى سنة ٣٢٣ هـ؛ **وعبد الرحمن السلمى** المتوفى سنة ٤١٢ هـ؛ **والحسن بن الفضل، وأبو الحسن الماوردى** المتوفى سنة ٤٥٠هـ.

●●●

٩٤٩. ﴿أمثال وحِكَم سورة البقرة﴾

● **﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ⑩﴾**: ويضرب المثل لمن استشرى الفساد فى نفسه وانحرف به اعتقاده فيُزاد له فيهما، إما عن واقع، وإما دعاءً عليه.

● **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ⑰﴾** : هو مثل من يتعلم العلم ليعمل به، فيعمل بضده، فكأنه ما عَلِم، أو الذى يعرف الخير والشر ليختار الخير فيعمد إلى إتيان الشر، أو الذى يستمع إلى آيات الله فيُظَن أنه سيعلن إسلامه فإذا به يستهزئ بما سمع.

-● **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ⑱﴾** ويضرب المثل لمن له كل الحواس يدرك بها ولا يفهم عنها، فالصمم انسداد الأذنين عن السمع، والبُكم العجز عن النطق، والعَمى ذهاب البصر، إلا أن ذلك كله ليس عن حقيقة وإنما مقصوده نفى الإدراكات عنها من جهه تعقُّلها، وعلماء النفس يسمون ذلك الصمم أو البكم، أو **العمى العقلى mental blindness**، كقول القائل :

وعوراء الكلام صممت عنها .·. ولو أنى أشاء بها سميع

والقائل :

أعمى إذا ما جارتى خرجت .·. حتى يُوارى جارتى الجُدر

والقائل :

أدخُل إذا ما دخلتُ أعمي .·. واخرجُ إذا ما خرجتُ أخرس

ومن تعطب آذناه، وتغشى عيناه، ويتعطل لسانه، يجهل الحق فلا يرجع إليه. وفى الحديث : «وإذا رأيتَ الحُفاةَ العراةَ الصُّمَّ البُكْمَ، ملوكَ الأرض، فذاك من أشراطها»، أى من أشراط الساعة. فأن يكون الحُكم لهؤلاء فهذه هي الطامة الكبرى.

● ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)**﴾ : والصيّب هو المطر من صاب يصوب إذا نزل، شبّه حال المنكرين وما هم فيه، بالظلمات والرعد والبرق والصواعق، **فالظلمات** مثلٌ لما يعتقدونه من الكفر، **والرعد والبرق** مثلٌ لما يُخوَّفون به؛ أو أن كلمات القرآن، أو أى كلمات فيها حقّ، ومتعلقها الحق، تتنزل على أسماع المنكرين - من الكفار إلخ، كالصيّب، فكما يشكل عليهم الصيب فكذلك تشكل كلمات القرآن، أو كلمات الحق؛ **والعمى** المقصود به ظلمات الكفر والجحد، **والرعد** هو ما فى القرآن من الوعيد والزجر، **والبرق** هو ما فيه من النور والحجج المبهرة؛ وتضرب **الصواعق** مثلاً للدعاء العاجل، والوعيد الآجل؛ أو أن **الصواعق** هى تكاليف الشرع تهبط على المنكرين الجاحدين فهم منها فى مغرم؛ ولو كان الإسلام بلا تكاليف لاعتنقوه واتّبعوا قرآنه، ولكن اتباعه فيه موتهم الاجتماعى والدنيوى، لأنه يدعو للآخرة وهم يريدون الدنيا، وهو ضد الظلم وينشد العدل الاجتماعى، وهم من ذلك فى مهرب، لكن إلى أين المفر والله محيط بهم؛ وكانوا زمن الرسول ﷺ وفى أى زمن، كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم حججه، أنسوا وطلبوا أن يقرأ عليهم المزيد منه، فإذا جاء ذكر التكاليف أو الوعيد، عَمُوا عنها، ولم يرضوا بها، وأنفوا من مطلوباتها؛ ومثّل القرآن كمثل البرق يخطف الأبصار، فكلما أضاء لهم سُرُّوا به ومشوا فيه، فإذا أظلم عليهم قاموا وانصرفوا عنه. ويضرب المثل لمن يؤمن ليتحصل نَعَم الإيمان، فكلما صحّت زروعه وتجارته، أو صناعته، وازدهرت أحواله، تباركوا بالإسلام، وأقبلوا على القرآن، فإذا انقلبت أحوالهم، ونزلت بهم المصائب، وحلّت الشدائد والكوارث، سخط وترك الدين، كقوله : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ (١١)**﴾ (الحج)؛ ويضرب الصوفية بهذه الآية مثلاً لمن يرتقى فى الأحوال بالتزام الآداب، فإذا مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه أنوار أحواله ويبقيه فى ظلمات دعاويه.

● ﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ**

اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴿٢٠﴾: هو مثلٌ ضربه الله تعالى، يعني به أن خوفهم مما ينزل بهم يكادُ يذهب أبصارهم؛ أو أن ما جاءهم من البيان في القرآن بهرهم وخطف أبصارهم، أو أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج، أنسوا ومشوا معه. فإذا نزل منه ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه، قاموا وثبتوا على نفاقهم؛ أو كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النّعم، قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة، وأصابتهم شدة، سخطوا وثبتوا في نفاقهم.

● ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾**﴾: فلمّا ذكر الله آلهة المشركين فقال: ﴿**وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴿٧٣﴾**﴾ (الحج)، وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، قالوا: إن الله لا يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، وهذا كلام لا يشبه كلام الله، فأنزل الله الآية يقول: إنه لا يستحي أو لا يمتنع أن يضرب المثل بالبعوضة وما فوقها في الصغر ـ أي ما دونها.

● ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾**﴾: والمثلُ في قسوة القلب وتحجّر المشاعر، وأبعد الناس من الله القلب القاسي، **وهؤلاء اليهود قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشدّ.**

● ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾: المعنى لِيَحْسُن قولكم، أو قولوا للناس الطيّب من القول. وهذا حضٌّ على مكارم الأخلاق، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴿٤٤﴾**﴾ (طه) وفي الحديث **لعائشة** رضي الله عنها **قالت قال** ﷺ: «**لا تكوني فحّاشة فإن الفُحْش لو كان رجلاً لكان رجل سوء**».

● ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴿٩٣﴾**﴾: هذا تشبيهٌ ومجازٌ، عبارة عن تمكّن أمر العجل في قلوبهم، والمعنى: جُعلت قلوبهم تُشربه، وفي الحديث: «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها، نُكت فيه نكتة سوداء**». يقال أُشرب قلبه حب كذا، وإنما عبّر عن حبّ العجل بالشُّرب دون الأكل، لأن الشُّرب عملية يتغلغل بها السائل كالماء مثلاً في الأعضاء، حتى يصل إلى باطنها، فكذلك كان حبُّ العجل، أي الماءيات قد تغلغل في عقولهم ونفوسهم كما تقول حتى النخاع، وقيل إن موسى طحن عجل الذهب وذرّاه في الماء، وقال لليهود: اشربوا من هذا الماء، فشربوا جميعاً، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفتيه. وهذا المثل يقال لمن صار حبّ المادة في دمه.

● ﴿ **كُن فَيَكُونُ** (١١٧) ﴾: هو أمره للشيء بـ «**كن**» ، فإنه يكون بعد الأمر أو مع الأمر، لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، ولا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود. يعني : أن الله عز وجل لم يزل آمراً، قادراً ، عالماً. وكل ما في الآية يقتضي الاستقبال، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن. و«كن» كلمة ،وهي المراد بقوله ﷺ : «كلمات الله التامات»، ومفردها كلمة تامة هي «كن»، فإذا قال لكل أمر «**كن**»، ولكل شيء «**كن**»، فهذه كلمات، وفي الحديث القدسي عنه تعالى : «**عطائي كلام وعذابي كلام**» خرّجه الترمذي، فلّما تفرّقت الكلمة الواحدة «**كن**» في الأمور، صارت كلمات، ومرجعها إلى كلمة واحدة هي «**كن**».

● ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**(١٣٧)﴾ :ردٌّ بارعٌ وقولٌ بليغ يؤثّر عند التخالف والعناد، ولمّا قُتل عثمان وقع دمه على عبارة ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾ في المصحف، وأجاب به النبيّ ﷺ لمّا نبّهه إلى ما سيلحقه من الاستشهاد، يعني سيكفي الله عدوه، فكان هذا وعدٌ منه تعالى ومن نبيّه ﷺ . والكافي من أسمائه تعالى، وهو الذي يحصل به الاستغناء ويُكتفى به.

● ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** (١٧١)﴾ :شبّه تعالى واعظ الكفّار وداعيهم ـ وهو النبيّ ﷺ ـ بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تفهم ما يقول. وقيل : مَثَلُ النبيَ ﷺ وَمثلُ الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم. وقيل : مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد، كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يُسمَع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه ولا منتفع. فشبّه الكفّار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به.

● ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٧٩)﴾ :هذا من الكلام البليغ الوجيز، ولما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال، فلهم في ذلك حياة.

● ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** (١٨٧)﴾ :يقال للمرأة مع زوجها أنها سترٌ له، كما أنه سترٌ لها، ويسكن كل منهما إلى صاحبه، ويقال للمرأة في ذلك : هي لباسك، وفراشك، وإزارك. ويشكّل كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً، لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب.

● ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**(١٩١)﴾ :هذه الآية خاصة، ونزلت في شأن **عمرو بن الحضرمي** حين قتله **واقد بن عبد الله التميمي**، في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، ولكن معناها صار عاماً، وتُضرَب مثلاً. والفتنة : هي الوقيعة بين الناس، وأن تضلّهم عن الحق وتصرفهم إلى الخلاف، وتدسّ بينهم؛ **وأشد من القتل** يعني أنكى وأدهى وأمرّ منه. **وأصل الفتنة** :

الاختبـار والامتحان، مـأخوذ من فـتنت الفـضـة، إذا أدخلتهـا في النار لتميز رديئـها من جيدها.

● ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...(١٩٥)﴾ : هذا المثل يقال خصوصاً لمن يبخل عن الصدقة والنفقة على الضـعفاء، وفى سبيل الله، وقـيل: الهلاك الموعود هو اليـأس من الله، فيكون معنى الآية : لا تيأسوا من رحمة الله. وقوله بأيديـكم يُضرَب كمثل، تقول فلان ألقى بيده فى أمر كذا إذا استـسلم، لأن المستسلم فى القتال يلقى سلاحه بيده، فكذلك يفعل كل عاجز فى أى فعل، ومنه قول القائل : إلقاؤنا ما بأيدينا عجزٌ. والمعنى لا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كقولك لا تفسد حـالك برأيك؛ أو أن المعنى لا تحرموا أنفسكم من أموالكم فى الدنيا فـيرثها غـيركم فتهـلكوا بالحرمان؛ أو أن المعنى : لا تنفـقوا من حرام فـيرد عليكم فتهلكوا. والخلاصة أن الآية: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ عامة فى جميع ما ذكر وفى غير ذلك، كأن يخـاطر أحدهم بنفسه دون حذر فيقال لـه ذلك، لأنه يعرّض نفسه للتلف من غير فائدة.

● ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ(١٩٧)﴾ : الآية فيها أن التـقوى زاد الآخرة، وتذكرّ بسفـر الآخرة، والـزاد بالنسبة للمسافر هو خـير ما يتقى به الهلكة أو الحاجة أو التكفّف، والآية مثلٌ يضرب على أن هذه الدار ليست بدار قرار، وأن الناس على سفر.

● ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾: الآية من جوامع الدعاء وتعم الدنيا والآخرة.

● ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤)﴾: هذا مثلٌ يقال فى الرجل يكون حلو القـول والمنظر، ثم يظهر من بعد أنه من أسوأ الناس خُلقاً، ولا دين له ولا ملّة، وأنه يُبطن النـفاق والكذب والإضرار، ويقول بلسانه خلاف ما يُبطن.

● ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾: هذا المثل على جـزءين، الأول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ والثانى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، وكلاهما مثلٌ وحـده، فالأول معناه: أن القتال قُدّر على المسلمين أو على الناس عمومـاً، وهو مكروه فى الطبع، فلا أحد يرجو أن يدخل قـتالاً يحسب أنه فيه يمـوت أو يُؤذَى فى جسمه. والمثل يُضرَب عـموماً للشىء اللازم فعله رغم كـراهيته، كالعمليات الجراحية، فلا مندوحة منها ولابد من إجرائها رغم أنها مكروهة، والجزء الثانى

معناه: أننا ينبغي أن لا نتسرع ونقضي في الأشياء، بأن هذا نحبه وذاك نكرهه، فلربما نكره شيئاً وفيه نجاتنا، ولربما نحب شيئاً وفيه الأذى لنا، كقول القائل:

رُبّ أمر تتّقيه .·. جرّ أمراً ترتضيه

خَفي المحبوب منه .·. وبدا المكروه فيه

● ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (٢٢٨)﴾: قيل: هو قول حسن بارع، فلا واجبات بدون حقوق تقابلها وتعادلها، والدرجة التي للرجال هي أن يتحاملوا على أنفسهم، وأن يحسنوا عشرتهن مهما كان.

● ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ (٢٢٩)﴾: كلام موجز بليغ، والتسريح من ألفاظ الطلاق، وقيل إن الآية تقول: الطلاق مرتان، فأين الثالثة، فقال رسول الله ﷺ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، والآية تحضّ في حال المعاشرة على حُسن المعاملة، وفي حال الطلاق على حُسن الفراق. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا(٢٣١)﴾.

● ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾: هذه الآية من جوامع الكلم، وفيها استشعار الصبر والاقتداء بمن صدّق ربّه. وهكذا يجب على الأمم أن تفعل، ولكن النيات الفاسدة وعدم الإخلاص والحكّام غير الأكفاء، منعت من ذلك، حتى رأينا أمماً كبيرة تنكسر أمام عدو قليل العدد. والأمم عندما تقاتل فإنما تقاتل بأعمالها، وعن النبي ﷺ قال: «**هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟**» أخرجه البخاري. **وضعفاء الأمة هم المستضعفون فيها والمضطهدون والمحتاجون، وهم طبقة العمال والفلاحين والموظفين**، وهم الذين يسمون في علم الاقتصاد «البروليتاريا»، وحيثما كان الضعفاء مُهملون فالأعمال فاسدة، والاعتماد ضعيف، والصبر قليل، والتقوى زائلة، والهزيمة والانكسار واقعان لا محالة.

● ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ (٢٥١)﴾: معنى الآية لولا أن الله يدفع بمن يصلّي عمّن لا يصلّي، وبمن يتقي عمّن لا يتقي، لأهلك الناس بذنوبهم، ونظيره الحديث: «**لولا فيكم رجالٌ خُشّع، وبهائم رتّع، وصبيان رُضّع، لصبّ عليكم العذاب صباً**».

● ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦)﴾: الدين هو المعتقد، والإكراه الغصب، ويقال ذلك كردّ على محاولة البعض إجبار آخرين على الأخذ بمعتقده، أو الرضوخ لفكره، أو المسايرة لفلسفة لم يقتنعوا بها ولا تساير مصالحهم. وفيما يرويه ابن أبي حاتم عن أبي هلال عن

أسبق، قال : كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليّ الإسلام فأبى، فيقول : «لا أكراه في الدين».

● ﴿ **قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** (٢٥٦) ﴾ : مثلٌ يقال حسماً لمواقف يتردد أصحابها بين الحق والضلال، والصواب والخطأ، والخير والشر، والرشد في الآية هو الهدى، والغيّ هو الضلال.

● ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ** (٢٦١) ﴾ : تمثيلٌ لشرف النفقة في سبيل الله وحُسنها، وضمنها التحريض على ذلك. قيل : فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «رَبِّ زدْ أمتي»، فنزلت : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** ﴾ (البقرة٢٤٥)، فقال : «ربِّ زدْ أمتي»، فنزلت : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** (١٠) ﴾ (الزمر). والمعنى أن من ينفق في سبيل الله كمثل زارعٍ زرَعَ في الأرض حبة فأنبتت سبعَ سنابل، في كل سنبلة مائة حبة فشبّهت الآية المتصدّق بالزارع، وشبّهت الصدقة بالبذره، فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة، ثم قال : ﴿ **وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ يعني يزيد على السبعمائة، فيكون المتصدّق مثل الزارع، إن كان حاذقاً في عمله، والبذر جيداً، والأرض خصبة، يكون الزرع أكثر، والإنتاج أوفر، فكذلك المتصدّق إذا كان صالحاً، وماله طيباً، وتصدّق به في مكانه الصحيح، فيكون الثواب أكبر وأكثر، خلافاً لمن قال: ليس في الآية تضعيف على السبعمائة.

● ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** (٢٦٣) ﴾ : الآية تجري مجرى المثل، كالحديث : «**الكلمة الطيبة صدقة وإنّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق**» أخرجه مسلم، وكقول الحكيم، **الْقِ صاحب الحاجة بالبِشْر، فإن عدمتَ شُكرَه لم تعدم عُذره**». والقول المعروف: أن تدعو للسائل إن لم تعطه، والمغفرة أن تقول له: غفر الله لك. قيل: سأل محتاج، فقال له المسئول: ممن الرجل ؟ فقال السائل : اللهم غَفْراً ! **سوء الاكتساب يمنع من الانتساب**». فذهب قوله مثلاً.

● ﴿ **لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ** (٢٦٤) ﴾ : هذا أمر صار يجري مجرى الأمثال، والمَنّ ذكْر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، وهو التحدث بما نعطى حتى يبلغ ذلك المُعطَى فيؤذيه. والمنّ من الكبائر، والمنّان في الحديث أحد ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، والأذى السبّ والتشكي، وهو أعم من المن، لأن المن جزءٌ من الأذى، وذُكر في الآية لكثرة وقوعه.

● ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾(البقرة): مثلٌ يُضرب للصادقين في إنفاقهم يبتغون به مرضاة الله ويتثبت به يقينهم، فمثلهم كمثل البستان على ربوة عالية، ينزل عليه المطر الشديد، فينمو الزرع ويثمر ضعفين، فإن لم يكن المطر الشديد فيكفي أرض البستان الخصبة الندى لتونع الأشجار وتؤتى أكلها.

● ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾ : قال عمر بن الخطاب: الآية ضُربت مثلاً لعمل الغنيّ، يعمل بطاعة الله، ثم يُصرف عن الطاعات فيعمل في المعاصي حتى يحرق عمله الطيب؛ أو الرجل يعمل بطاعة الله، فإذا اقترب أجله، ختمه بعمل من أعمال الشقاء. وقال ابن عباس : إن الآية مثلٌ ضربه الله تعالى للكافرين والمنافقين، كهيئة رجل غرس بستاناً فأكثر من الثمر، فأصابه الكِبَر، وله ذرية ضعفاء، فكانت معيشته ومعيشة ذريته من ذلك البستان، فأرسل الله على بستانه ريحاً فيها نار فأحرقته، ولم يكن عنده قوة فيغرسه ثانية، ولم يكن عند بنيه خير فيعودون على أبيهم. وكذلك الكافر والمنافق إذا ورد إلى الله تعالى يوم القيامة ليست له كرّة يبُعث فيردّ ثانية». والآية في عمومها مثلٌ للإنسان يعمل الصالح، حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عَمِل عَمَلَ السوء، أو مثل كل منافق وفاسق، يعمل العمل وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً، فلما يجيء الى وقت الحاجة لا يجد شيئاً.

● ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا... (٢٦٩)﴾: المثل يقال لمن يتصرف بعقل وروية، وينشد الصلاح للناس، ويعمل الخير ويدعو إليه، وهو الحكيم، قد بلغ شأواً في تحصيل الحكمة. والحكمة: هي علم ما بعد العلم، وهي العقل والمعرفة عمومًا، وبالله خصوصًا، وطاعته والفقه في دينه، وفيما أمر به ونهى عنه، وورع الخشية والتقى والتواضع، والإصابة في القول والفعل، وتمنع الحكمة صاحبها عن كل فعل قبيح.

● ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...(٢٧٥)﴾ المثل يُشبّه حال القائم إلى الربا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفزه، فتضطرب أعضاؤه، ومثله مثل المُسرع أصابه الفزع، فأسرع في مشيه فاختطلت هيئة حركاته حتى ليقول عنه الناس: قد جُنّ هذا !!ولا يعنى تشبيه المرابي بالذي يتخبّطه الشيطان من المس، أن القرآن يقول بالمسّ من الشيطان كاضطراب نفسي بدني، فإنما هو تشبيه مما هو مشهور عند الناس.

● ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا (٢٨٦)﴾: يقول ذلك اعتذاراً مَن يقدر على شيء ولا يقدر على غيره، والأصل أنه في التكاليف فإن الله لم يفرض على عباده إلا ما يطيقون. والوسع هو الطاقة، والمعنى أنه تعالى لا يكلف عباده من وقت نزول الآية من أعمال القلب والجوارح إلا ما في وسع المكلَّف وفي مقتضى إدراكه واحتمال بنيته. ومثل ذلك قوله تعالى ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة٢٣٣)، وقوله ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (الأنعام ١٥٢، والأعراف ٤٢).

●●●

٩٥٠. ﴿أمثال وحكم سورة آل عمران﴾

● ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (١٣)﴾: الآية مضرب المثل، والفئتان يوم بدر هم المسلمون والمشركون، وكان المشركون ثلاثة أمثال المسلمين، فقلّلهم في أعين المسلمين، كقوله ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ (الأنفال٤٤).

● ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾: الآية مثلٌ في الوعظ لجميع الناس، وتوبيخ لمعاصري النبيّ ﷺ من اليهود وغيرهم. **والتزيين** من الله، وما من أحد أشد ذماً للشهوات من خالقها، وتزيينه لها بالإيجاد، وبالتهيئة للانتفاع، وإنشاء الطبع والميل إليها. **والتزيين** من الشيطان بالوسوسة والخديعة، وتحسين أخذها من غير وجوهها. **والشهوات** جمع شهوة، وفي الحديث: «**حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات**» أخرجه مسلم. وفائدة هذا التمثيل: أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها، وأن النار لا يُنجَى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها. وروى عن النبيّ ﷺ قال: «**طريق الجنة حزنٌ بربوة** (مكان غليظ خشن)، **وطريق النار سهلٌ بسهوة** (الأرض اللينة)».

● ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ... (٣٤)﴾: مثل يضرب لوراثة الخُلق فالطيّب ذريته طيبة، وكذلك الفاسد ذريته فاسدة، فالذرية بعضها من ولد بعض، كقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾(التوبة٦٧)، والمراد بذلك **التناسل ووراثة الجينات**، ومن يعمل صالحاً يسجله عليه **السائل النووى (D.N.A.)** في الخلية، ويورثه لنسله، والحبل الجيني هو الحامل للموروثات، فكما يكون الآباء يكون الأبناء، وأما المستجد من الميول والرغبات والأعمال فتدفع إليه البيئة والتربية. وفي دعاء زكريا: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾(آل

عمران ٣٨)، فلأنه طيب فقد طلب أن تكون ذريته طيبة على مثاله، والذرية الطيبة هي الصالحة المباركة.

● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ...(٩١)﴾ مثلٌ يضرب لمن ينشد النجاة فيريد لو يضحى بأغلى شيء عنده فلا يُقبل منه. والمثل أصلا عن الكافر يوم القيامة يتمنى لو يفتدى نفسه ولو بملء الأرض ذهباً.

● ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ...(١١٧)﴾: المعنى أن مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة، أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينفع أصحابه بشيء بعدما كانوا يرجون فائدته ونفعه. وظُلمهم لأنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة، أو في غير موضعها.

● ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (١١٨)﴾: المثل عن الأغيار، فلن يتركوا الجهد في فسادكم، فلا تصاحبوهم واحذروهم.

● ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ...(١١٨)﴾: ما في صدورهم أكبر مما يظهر من كلامهم.

● ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ (١١٩)﴾: مثل في الحنق، والعضّ عبارة عن شدة الغيظ، والأنامل أطراف الأصابع، ومنه قول القائل:

إذا رأوني أطال الله غيظهم ... عضّوا من الغيظ أطراف الأباهيم

● ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ... (١١٩)﴾ هو دعاء على اليهود، بمعنى أدام الله غيظهم إلى أن يموتوا به. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ (الحج١٥)، يعني مشيئة الله هي الغالبة ولتموتوا بغيظكم.

● ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾: اللفظ عام في كل ما يحسن ويسوء.

● ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ.. (١٢٦)﴾: يقال عند النصر، والنصر هو نصر المؤمنين، وأما نصر الكافرين فهو إملاء واستدراج.

● ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾: قول بليغٌ يؤثر، ومن شأنه أن يلفت انتباه السامع أو القارئ إلى ما يليه أو يسبقه، والبيان هو ما يتبيّن به الشيء من الدلالة والفصاحة وغيرهما، وهو المنطق الفصيح المعبّر عمّا في الضمير، ومنه قوله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» والآية من جوامع الكلم، وفيها خصوص وعموم، فالخصوص: أن

«هذا» يقصد بها القرآن، وليس كل بيان هدى وموعظة، إلا القرآن ففيه شفاء للناس وهداية للرشاد، وموعظة وذكرى للمتّقين، خصّهم بالذكر لأنهم المنتفعون به دون سائر الناس؛ **والعموم**: أن كل قول فيه مثل هذه الصفات فهو بيان أثير.

● **﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾** : حكمة بالغةٌ، ومثلٌ يُرجي كلما ادلهمت الأمور، وقاعدة للسلوك في الملمات؛ **والوهن** هو الضعف والخور والجبن؛ **والحزن** يكون عند الهزيمة، والاندحار والإحباط؛ **والعلو** الثقة في النفس وقوة الإيمان؛ **والمؤمن** يتميز بقوة الجهاز النفسي المناعي، وتماسك جبهته الداخلية، وقوله: «وأنتم» أي المؤمنون، **والهزيمة** إذا لحقت بالمؤمن فهي هزيمة النفس قبل الجسم؛ **والأعلون أي في عافية دائمًا**. والآية نزلت **يوم أُحد**، **وهي قاعدة كونية عامة**، وفي كل موقف كان بعد رسول الله ﷺ، وكان فيه واحدٌ من **الصحابة**، كان الظفر للمسلمين، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ولم تفتتح بلدة بعد انقراض الصحابة على الوجه الذي كانوا به يفتتحون البلاد في زمنهم. وفي الآية فضل الإسلام على أمة الإسلام، لأنه تعالى خاطب المسلمين بما خاطب به أنبياءه، فقال لموسى: **﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾** (طه)، وقال لهذه الأمة: **﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾** (آل عمران١٣٩)، **والأعلون** من اسمه تعالى العليّ.

● **﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ (١٤٠)﴾**: مثلٌ يضرب تخفيفاً على المجاهدين، **والقرح** هو الجرح، بالضم والفتح، فإن كانت الخسائر المادية في الحروب كثيرة، فإن المكاسب المعنوية أكثر، وكلما اشتدت الأزمات كلما قرب الفرج، وما يصيب المؤمنين هو ابتلاء من الله ليعلم الصابرين، وليتخذ منهم شهداء، وليمحّص الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

● **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ(١٤٠)﴾** : يُضرب هذا المثل للحرب والشدائد، تكون مرة نصراً وفرجاً للمؤمنين، ومرة تكون لهم خسارة وشدّة، وهذا هو **معنى المداولة**، وفي ذلك ابتلاء ليمحّص الله الذين آمنوا، فإن صبروا وجاهدوا ولم يعصوا فإنهم الغالبون، لأنهم حزب الله، والناس جميعًا يتداولهم الفرح، والغمّ، والصحة، والسُّقم، والغنى والفقر، والمداولة من الدولة هي الكرّة:

فيومٌ لنا ويومٌ علينا ... ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسرّ

● **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾** : المثل في صيغة الاستفهام على سبيل الإنكار، والمقصود أنه **لا ثواب بلا ابتلاء وتمحيص**،

والشدائد والهزائم والمصائب والكروب متوقعة دائماً، والعاقبة فيها للصابرين، وما من ليل إلا وله صُبح، وما من غمّ إلا يعقبه فرج، ولابد للشهد من إبر النحل.

● ﴿**ولَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...(١٥٩)**﴾: المثل في الرفق؛ والفظ هو الجافي؛ وغلظ القلب قسوته؛ والانفضاض التفرقة.

● ﴿**إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)**﴾ : الناصر هو الله فعليه يتوكل المتوكلون، فإن يُعنهم ويمنعهم من عدوهم فلن يُغلَبوا، وإن يخذلهم فلا ناصر من بعده.

● ﴿ **إنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْمًا (١٧٨)**﴾ : المثل تجمله هذه الكلمات من الآية : ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٧٨)**﴾، يعني: لا يحسبن هؤلاء ما بهم من خير هو لمصلحتهم، وإنما نمهلهم ليزداد فعلهم للمعاصي، فالإملاء أو الإمهال في الحقيقة استدراج لهم.

● ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...(١٨٥)**﴾: مثل في الموت، وذائقة الموت من الذوق، والموت لابد أن يذوقه كل حيّ، فلا محيص عنه لإنسان، ولا محيد عنه لحيوان، والشاعر يقول :

ومن لم يمت عَبطةً يمت هَرَماً ∴ للموت كأسٌ والمرء ذائقُها

والعبطة يعني الموت في الشباب.

●●●

٩٥١. ﴿الأمثال والحكم في سورة النساء﴾

● ﴿**إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)**﴾

تضرب الذرّة كمثل لأقل الأشياء شأناً، ومع ذلك يستشهد بها الله تعالى، يقول: إنه لايظلم كثيراً ولا قليلاً، ولايبخس الناس أجورهم، ولا ينقصهم ثواب أعمالهم ولو وزن ذرة، ومثل ذلك قوله: ﴿**وَإن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا**﴾(الأنبياء٤٧)، قيل الذرة هي الخردلة، وهي أدق الأشياء بالعين المجردة، ومع ذلك فشأنها عظيم في حساب الله، وفي الحديث : «إن الله يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة» : ﴿**إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾، قال ابن عباس وابن مسعود : هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طلعت عليه الشمس. والتمثيل بها جعل الأقدمين يقولون إن الذرّة لا وزن لها، ولذلك أطلق العرب على أصغر الأشياء وهو صغار النمل اسم الذرّ، وقيل الذرة رأس النملة، وسمّوا الصغار بالذرية، وقال الإغريق الذرة

أصغر شيء ولذلك **لا تنجزئ**، وذهب إلى مثل **ذلك المعتزلة**، ثم كان اكتشاف إمكان انجزائها، وإمكان وزنها، وأن الفروق بين العناصر في الوزن الذرى، وتكوّن الذّرات معاً ما يسمى **بالجزئ**. والجزيئات تتخالف في القيمة بقدر تخالف الذرات المكونة في الثقل الفيزيائي والمعنوى، وعلماء البيولوجيا اكتشفوا أن أصغر شيء في الخلية الإنسانية هي **الحروف التي يتكون منها الحبل البيولوجي في السائل النووى (D.N.A.)**، وأن هذا الحبل فيه من هذه الذرات أو الحروف **ثلاثة بلايين** حرف مكررة، وأطلقوا على ذلك اسم **هندسة الجينوم**، أى **هندسة الذرّات في الخلية**، فالذرة إذن ليست شيئاً ليس له حساب، وإنما كما ذكرها في الآية **لها ثقل**، وثقلها باختلاف العناصر المكونة لها والداخلة فيها. والله تعالى يحاسب بها، والآية بهذا التأويل يدخل فيها الحساب بين الخصوم، وأنه تعالى لا يظلم مثقال ذرة للخصم على الخصم، ويأخذ للمظلوم من الظالم: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ (الزلزلة). ويدخل فيها علم الله المحيط بكل ذرة: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ (يونس٦١)، ومن ذلك نعلم أن الحديث الذى يقول : «**الذرة لا وزن لها**» موضوع.

● ﴿**وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)**﴾ : الفتيل الخيط الذى في شق التمرة، أو القشرة حول النواة، أو ما يخرج بين الإصبعين أو الكفين من الوسخ إذا فتلتهما، ومثله : ﴿**وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ (النساء١٢٤)، **والنقير** هو النقطة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة. **والمثلان يقالان بمعنى: لا يمنعون شيئاً من حقوقهم.**

● ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)**﴾ : **هذا دعاء المستضعفين، والقرية** هى الدولة، **والظالم** أهلها، أى الطبقة الحاكمة فيها، وهى الطبقة التى تملك ومن ثم تحكم، وتصدر التشريعات وتنفذها، وتراعى فيها مصالحها، وتسطو على حقوق المستضعفين، وتخلق طبقة من المطحونين والمضطهدين، فمثل هذه الدولة يحق للناس فيها أن يخرجوا منها ويهجروها مراعاة لدينهم وحفظاً لكرامتهم، وصوناً لأنفسهم من التلف.

● ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨)**﴾ : الآية من مأثورات القرآن، وترد على **القدرية** في الآجال، وتعرّفهم أن الآجال متى انقضت فلابد من مفارقة الروح للجسد، سواء بالقتل أو الموت أو غير ذلك مما يجرى زهوقها به. وعكس ذلك في فلسفة **القانون الوضعى الجنائى**، بزعم أن المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش، والأجل أجلان: **أجل محتوم** وهو أن الإنسان مخلوق مائت مقدور عليه الموت، إن آجلاً أو عاجلاً، **وأجل**

طـــاريء، يعني أنه لأسباب طارئة فـإنه مات مقتولاً، ومن ثم تكون مسئـولية القتل على القاتل. أو مات منتحراً فتكون المسئولية على المنتحر. والآية تتحدث عن الأجل المحتوم.

● ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩)** ﴾ : الآية يـرددها القـــدرية وغيرهم كـالـمَتَل، واعتقادهم أن الحسنة فعل المحسن، والسيـئة فعل المسيء، والمحسن هو الله، والمسيء هو الإنسان. غير أن المُشكل أنه تعالى يقول : ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨)**﴾ (النساء) فأضاف الله تعالى الحسنة والسيئة إلى نفسه. ومعنى ﴿**مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ بإذن الله، كمـا قال ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ (آل عمـران١٦٦)، وبهذا المعـنى تكون الحسنة والسيئـة بإذن الله، أي بأسبابه، فالأسباب الحسنة نتائجـها حسنة، والأسباب السيئة نتائجـها سيئـة، وهذا هو قضاء الله وقـدره، ومن قضائه وقـدره أن السوء ينزل بالسيـئين: ﴿**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)**﴾ (الرعـد). وإرادته تعـالى للسوء أن السوء ينزل بهم كلما فعلوا السوء. وكان قوم موسى يتشاءمون به، ويقولون حلّ بنا السوء لأتباعنا لك: ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ**﴾ (الأعراف١٣١)، فردّ عليهم بقوله : ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾ (الأعراف١٣١)، يعني أن طائر البركة وطائر الشـؤم من الخير والشر، والنفع والضُّر، من الله تعـالى، فهو الذى يأذن بهـــذا وذاك، وله فيـهمـا القوانين، والمسببـات الحسنة تأتي بالحسنات، والسـيئة تأتى بالسيئات، والله في الحالتين هو العامل، والإنسان هو المسئول.

● ﴿ **إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ (١٠٤)** ﴾: المثل فيه تخفيف عن المؤمنين إذا اشتد المصاب عليهم في القتال، فليـسوا وحدهم الذين يألمون، فأعداؤهم أيضاً يألمون، والفرق بين الاثنين أن المؤمنين يرجون ثواب الله وهم لا يرجونه، لأن من لا يؤمن بالله لا يرجو من الله شـيئاً. ونـظير هذه الآية ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾ (آل عمران١٤٠)، وهو مثلٌ آخر بنفس المعنى.

● ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (١٢٣)** ﴾: اللفظ عام، والمعنى أن المؤمن والكافر مجاز بعمله السوء، ومجازاة الكافر بالنار، لأن كفره أوبقه، ومجازاة المؤمن بنكبات الدنيا. وما أصاب أيوب كان من سوء عمله، وفي الحديث : «**من يعمل سوءاً يجـز به في الدنيا أو في الآخرة**» ،فليس يُجمع عليـه الجزاء في الموطنين. والآية كمـا في الحديث : «**مبايعـة الله بما يصيب المؤمن من الحمى والنكبة والشوكة ... إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر من الكير**».

● ﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ (١٢٨)** ﴾ : المثل مطلق، ويقتضي أن الصلح الحقيقي هو الذي تسكن إليـه النفوس ويزول به الخـلاف، **وهو خيـرٌ على الإطلاق**، فإن الـتمادى علـى الخلاف

والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر، وفي الحديث في البغضة : «إنها الحالقة»، يعني حالقة الدين لا حالقة الشعر.

● ﴿وأُحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ (١٢٨)﴾: المثل عن الشح وهو في الإنسان بحكم خلقته وجبلّته، ويكون في الأموال كما يكون في الهمم والمعتقدات والإرادة: ﴿ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ (٩)﴾ (الحشر)، وإذا تعدّى الشح إلى حيز منع الحقوق الشرعية أو التي تقتضيها المروءة فهو البخل، وهو رذيلة، وإذا آل البخل إلى هذه الأخلاق الذميمة والشيم اللئيمة، لم يبق معه خير مرجو، ولا صلاح مأمول.

●●●

٩٥٢. ﴿الأمثال والحكم في سورة المائدة﴾

● ﴿ولا يَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أن صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أن تَعْتَدُوا (٢)﴾: البُغض لقوم يجعل صاحبه يتعدّى الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم، والآية تنهى عن ذلك، وفي الحديث : «ولا تخن من خانك»؛ وجَرَم بمعنى حمل على الشيء؛ والشنآن البُغض؛ والآية تقال كمثل هكذا: ولا يجرمنكم شنآن قوم أن تعتدوا، والمعنى لا يكسبنكم ولا يحملنكم بُغض قوم أن تعتدوا.

● ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ والعُدْوَانِ (٢)﴾: هذا أمرٌ لجميع الخلق ليمتثلوه ويتعاونوا على البرّ والتقوى، وأن يعين بعضهم بعضاً، وفي الحديث: «الدال على الخير كفاعله»، وقيل : «الدالّ على الشرّ كصانعه». والبرّ والتقوى لفظان بمعنى واحد تكرر للتأكيد والمبالغة، والبرّ يتناول الواجب والمندوب إليه؛ والتقوى هي رعاية هذا الواجب؛ وفي البرّ رضا الناس؛ وفي التقوى رضا الله ورضا الناس؛ والإثم هو الظلم، وأبشع الظلم العدوان.

● ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ : هذا مثل يقال في مناسبات كمناسبة رفض اليهود للقتال كطلب موسى منهم، بدعوى أن نُصرة ربّه له أحق من نصرتهم له، طالما أنه رسوله، فقتاله معه أولى من قتالهم معه.

● ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (٦٤)﴾ : هو قولٌ على التمثيل، كقوله تعالى : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَىٰ عُنُقِكَ﴾ (الإسراء٢٩)، ويقال للبخيل «مغلول اليد»، ونزل ذلك في اليهود لمّا نسبوا إلى الله البخل.

● ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾: الآية عبارتان أو حكمتان أو قاعدتان سلوكيتان : ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ عبارة، و ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ

منه﴾ عبارة أخرى، وكلاهما تقال ضمن باب الحكم أو الأمثال، والأصل أن ما سلف كان في الجاهلية، وبعدما علم الحق لم يعد موجب للقول أو للفعل، فصارت العبارتان عامتين تقالان في مختلف المواقف المشابهة، والملابسات المماثلة، فلما كان الناس يجهلون غالباً ويصدرون عن جهل، فالعفو عنهم أولى، ودواء الجهل التعليم والتعلّم، فإذا تعلم الجاهل، وعرف عن الخير ومنصرفاته، والشرّ وأدواته، والصدق ومنافعه، والكذب ومضاره، والحق ورفعة الأخذ به، والباطل وخسران أتباعه، ثم مع ذلك فعل الشر، والتزم الكذب، وآثر الباطل، فذلك شأنه إلى الله يُحبط عمله، وينتقم منه، وفي القصاص حياة، **﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾**.

● **﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ (١٠٠)﴾** : قيل : على ضرب المثال فإن الخبيث والطيب هو الحرام والحلال، والعاصي والمطيع، والرديء والجيد، واللفظ عام في جميع الأمور : في المكاسب، والناس، والمعارف ... إلخ. وفي معناه الحديث عند ابن كثير : «**ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى**»، والحديث عند البغوي: «**قليلٌ تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه**».

● **﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ (١٠١)﴾** : تأديبٌ ونهيٌ عن السؤال عن أشياء لا فائدة من السؤال فيها والتنقيب بشأنها، فربما إن ظهرت خباياها تسوء السائلين فيها ويشق عليهم سماعها، وفي مثل ذلك - الحديث : «**لا يُبلغني أحد عن أحد شيئاً. إني أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**» ومناسبة الآية عند البخاري عن أنس أن الرسول ﷺ خطب خطبة قال فيها : «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»، فنزلت الآية **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا﴾** الآية، وظاهرها النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. وفي الحديث : «**أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته**». وفي الصحيح قال : «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»، وقال : «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**». والسؤال المنهي عنه هو الذي تقع المساءة في جوابه، وأن يكون التكثير من السؤال تنطعاً وتكلّفاً، ومن باب الأغلوطات وتشقيق المولدات. وفي أيام الرسول ﷺ عند نزول هذه الآية كان يخاف أن ينزل بسبب السؤال تحريم، **وأما اليوم فللمسلم أن يسأل متفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثاً عن معنى يجب الوقوف عليه، ولا بأس بالسؤال من هذا النوع، فشفاء العي السؤال**، ومن يسأل متعنتاً لا يسعى

إلى التعلم والاستزادة من العلم، فهو الذى لا يحلّ قليل سؤاله ولا كثيره. وهذه الحكمة في النهي عن السؤال من النوع المتعنت أو المتنطّع، تقابلها الحكمة الأخرى من قوله: ﴿**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** (١٠٢)﴾ (المائدة)، وهى أيضاً كالمثل يقال فى مناسباته، وهؤلاء قوم سألوا عن أشياء فلما أجيبوا إليها لم يعملوا بما استفادوا من الإجابة عليها، فليس كل جواب يُعطَى للجاحد بمقنع له، ولم يُعرف عن المُنكر إذا أفحمه الجواب أن يعمل بمقتضاه. ومن الأمثلة الدارجة في ذلك قوله: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٤٣)﴾ (النحل، والأنبياء ٧)، وأهل الذكر هم أهل العلم، كلٌّ فى مجاله، والآية تحضّ على السؤال للتعلّم، وفوق كل ذى علم عليم.

●●●

٩٥٣. ﴿الأمثال والحكم فى سورة الأنعام﴾

● ﴿**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ** (٣٥)﴾: المثل لمن يريد أن ينفع الناس بأن يصنع لهم ما ينجيهم أو ينصرهم ولو بمعجزة.

● ﴿**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** (٦٧)﴾: لكل خبر حقيقة، ولكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر، ولكل عمل جزاء، وهذا مثلٌ فى الوعيد.

● ﴿**كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (٧١)﴾: المعنى: مَثَلُ عابد الصنم، مَثَلُ مَن دعاه الشيطان فيتّبعه، فيصبح وقد ألقاه في مضلّة ومهلكة، فهو حائر، له أصحاب يدعونه إلى الهدى فيأبى.

● ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** (١١٥)﴾: يعنى لا رادّ لقضائه ولا خُلف فى وعده.

● ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٢٢)﴾: المؤمن كان ميتاً فلما آمن أحياه الله، وكان موته بالجهل، فأحياه بالعلم؛ والكافر مثله مثل من هو فى الظلمات.

● ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** (١٢٥)﴾: شَرْحُ أو انشراح الصدر أى أن يوفقه، ويزين له ثوابه، ويفقهه فى الدين، وينوّره؛ **وضيق الصدر** نقيض انشراح الصدر، **والحرج** موضع الشجر الملتف، كأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذى التف شجره، وشبّهه فى نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزله من تكلف ما لا يطيقه، كما أن صعود السماء لا يطاق.

● ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ (١٤٩)﴾ : كلُّ قولٍ لابن آدم ناقص، وكل دعوى وحجة له يلزمها شيء لكمالها، إلا الله عزّ وجل، فقوله الكامل، وحجّته على الناس هي أبلغ الحجج، فإذا اعتذر أحدهم عن عجزه في الشرح أو بيانه للحق، عذرناه لأن الله وحده له الحجة البالغة.

● ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا(١٦٠)﴾ : الآية تعني أن الجزاء يوافق العمل، وفي الحديث : «الحسنة بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة واحدة وأغفر، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره» ومن أمثاله تعالى مثل الحبّة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وكذلك بعض الحسنات بسبعمائة، وقيل : الحسنة بعشر لسائر الحسنات، والسبعمائة للنفقة في سبيل الله.

● ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...(١٦٤)﴾ : مثلٌ أو حُكم عام، أو مبدأ قانوني وأخلاقي، يقال لمن يريد أن يأخذ إنسانا بجريرة آخر، والمعنى أنه لا أحد يُتّهم عن أحد، ولا نفس تؤخذ بدلاً عن أخرى. ويتكرر هذا الحكم عشر مرات في سورة الأنعام، والإسراء، وفاطر، والزمر، والنجم.

● ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ (١٦٥)﴾ : مثلٌ لتفاوت الناس في الدرجات، وفي الخُلق، والرزق، والقوة، والبسطة، والفضل، والعلم، والسلطان، والولد، والمال، والاختبار، فابتلى الموسر بالغنى وطلب منه الإحسان، وابتلى المُعسر بالفقر وطلب منه المثابرة، وابتلى الجاهل بالجهل وطلب منه التعلّم. والناس يُبتلى بعضهم ببعض، كما في قوله ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ (الفرقان ٢٠).

●●●

٩٥٤. ﴿الأمثال والحكم في سورة الأعراف﴾

● ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ... (٢٦)﴾ : الآية تضرب مثلاً لمن يلتزم الشكلية فيقال الجوهر أولى بالرعاية، وأصل الآية : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف٢٦)، أن اللباس ضرورة وفيه ستر للسوأة، والسوأة هي العورة، والله قضى بذلك وأنعم به، ومن الإنعام ستر العورة، وعن ذلك بالنسبة للمرأة الآية : ﴿قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ (الأحزاب٥٩)؛ والريش ما ستر من لباس أو معيشة؛ والرياش جمع ريش وهو ما كان من مال ولباس؛ والتقوى خير لباس، ولباس التقوى هو الحياء، أو هو العمل الصالح، أو اللباس المتواضع،

أو لباس الحرب الذي يُتّقى به العدو، والأصح أنه الخشية من الله، شبّهها باللباس يستر صاحبه، ويتّقى به غضبه تعالى؛ وقيل لباس التقوى هو استشعار تقواه تعالى فيما أمر به ونهى عنه.

● ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴿٣٤﴾﴾: القرآن مع القول بأن التاريخ دورات حياة، وأن الأمم فى صعود وهبوط، ولكل أمة أجل، وأجل كل أمة مرة مع الصعود، ومرة مع الهبوط، والقاعدة فى القرآن: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران ١٤٠)، وكثير من علماء وجهابذة التاريخ قالوا بدورات الحياة للأمم، وبأن الأمم آجال، وأبرزهم توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥م)، وتوينبى بالقطع قرأ هذه العبارة فى القرآن واستوقفته، وخلص إليها كحقيقة ثابتة، وكان منهجه فى استخلاصها هو المنهج الاستقرائى، وهو أحد مناهج التفكير التى يدعونا إليها القرآن كما قال: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (النمل٦٩)، وكما قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ (يوسف١٠٩)، وساق توينبى واحداً وعشرين مثلاً على ما ذهب إليه، وعنده أن التاريخ يسير فى دورات كبرى من الارتفاعات والانخفاضات، وأنه محصّلة الحضارات المختلفة التى تمر بنفس المراحل، من الميلاد إلى النمو، فالتفكك والأفول والسقوط. ومن رأيه أن الأمم عندما تنسى الله فإنها تسقط من التاريخ، فإذا ذكرته ارتقت وقويت وسمت، وعنده أن الدين قوة روحية لنجاة الأمم من الانحلال. ونظرية القرآن أن للأمم آجالاً، وأنها تتفاوت، وقد يطول أجلها إذا تمسكت بالإيمان، وفى القرآن أن نوحاً ظل فى قومه ٩٥٠ سنة، وربما المعنى أن الديانة التى دعا إليها ظلت هذا العمر، وبمثل هذا الحساب الزمنى قد تتفاوت الأمم فى الآجال. وحاول اليهود تحديد أجل أمة محمد بالحساب الأبجدى للحروف المقطّعة فى بداية السور، فقالوا: إن ﴿ألم﴾ بداية سورة البقرة، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، وهكذا تُحسَب كل الحروف المقطّعة فيكون مجموعها مدة مُلك محمد وأجل أمته، وذلك أشبه بقراءة الطوالع، فاعتماداً على معرفة المُدَد يمكن استخراج أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فكأنهم حوّلوا الحقيقة الزمنية للحضارات والأمم إلى شىء يتكسّبون منه، فمن قال منهم ذلك فقد ادّعى ما ليس له، وطار فى غير مطاره. ويبقى الصحيح من ذلك كله: وهو أن الأمم آجال كما جاء فى القرآن: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأعراف)، فالأمم تمرض وتشيخ وتموت كالأفراد، وفى القرآن من الأمم البائدة: أقوام نوح، ولوط، وصالح، وشعيب، وثمود وعاد، ومن الأمم التى لم تبد اليهود، لأنهم ما يزالون يتمسكون بالتوراة، وكذلك الأمة المسيحية، وأمة الهندوس، والأمة الصينية، والأمة اليابانية،

وجميعها أمم عاشت لأن لكل منها «كتابه»، والقاعدة تسرى على أمة الإسلام، فطالما تمسّك المسلمون بكتابهم فهم فى حفظ وحياة.

● ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** (٣٤)﴾: هذا حُكم عام، والأجل الوقت المعلوم للموت، و﴿**لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً**﴾ لأن الساعة أقل أسماء الأوقات، وقوله ﴿**وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ فيه أن المقتول إنما يُقتل بأجله، وأجل الموت هو وقت الموت، كما أن أجل الدَّيْن هو وقت حلوله، وكل شيء وقِّت به شيء فهو أجلٌ له.

● ﴿**حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ...** (٤٠)﴾: المثل يُضرب لاستحالة أمرٍ ما، وجاء فى القول عن المكذّبين والمستكبرين أنهم غير مغفور لهم، فإن كان الجمل يدخل فى سَمّ الخياط، فكذلك هؤلاء يدخلون الجنة، والأمران مستبعدان، والجمل من الإبل، وهو زوج الناقة، والجمع جمال، وفى قراءة ﴿**الْجُمَّل**﴾ وهو حبل السفينة الغليظ من القنب يستحيل أن يدخل فى سَمّ الخياط. وقيل هو الحبل الذى يُصعَد به النخل، وهو غليظ أيضاً. وسمّ الخياط: ثقب الإبرة، وكل ثقب لطيف هو سَمّ، وجمعه سموم، وأما السُّمّ القاتل فيُجمَع على سمام. والخياط ما يخاط به، وهو مخيط أيضاً.

● ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا...** (٥٨)﴾: الآية مثلٌ للقلوب، فقلبٌ يقبل الوعظ والذكرى، وقلبٌ فاسق ينبو عن ذلك، ومثلٌ للمؤمن والمنافق، فالمؤمن يعمل محتسباً متطوعاً، والمنافق لا يحتسب؛ والمعنى أن من بنى آدم الطيب والخبيث، والطيب لا يُنجب إلا طيبين، والخبيث لا ينجب إلا خبيثين.

● ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** (٨٥)﴾: البخس هو النقص، ويكون فى السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، ويكون فى غير السلع بالمخادعة عن قيمتها، والاحتيال فى النقصان من قدرها، وذلك منهيٌ عنه فى الأديان وفى الأخلاق، ولا يفعله الناس إلا فى الدول والجماعات المتخلّفة، ويأتيه الطغاة دائماً.

● ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٨٥)﴾: يقال للمفسدين فى أى مجال، والمثل يعم دقيق الفساد وجليله.

● ﴿**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ...** (٨٦)﴾: والقعود بكل الطرق إنما يكون للإفساد والحضّ عليه، والنهى عن الخير، والعامة تقول: لا تقعد لى فى الساقطة واللاقطة ... أى فى كل كلمة، شأن من يتمنى لك الخطأ.

● ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** (٩٦)﴾: هو مثل يضرب لمن يُمتَحن من المؤمنين بضيق العيش يكفّر به الله عن ذنوبهم؛ والقرية هى

المدينة، سميت كذلك لاجتماع الناس فيها، من قريت الماء أذا جمعته، وبركات السماء هي المطر، وبركات الأرض هي النبات والخصب والنماء، كما قال لقوم لنوح: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪**﴾(نوح)، وقوم هود ﴿**ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾ (هود٥٢).

● ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ⑨⑦ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ⑨⑧**﴾: هذا مثل وحكمة بالغة في صيغة استفهام للإنكار، والخطاب فيه لكل الناس والدول والأمم والشعوب، فعذاب الله إذا أتى كان فجأة، لا يعلمون أيكون في الليل وهم نائمون، أو بالنهار وهم يلعبون، ويقال لكل من يأتي ما يضرُّه ولا يجدى عليه أنه لاعب: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ⑨⑨**﴾، ومكرُه تعالى استدراجه بالنعمة والصحة.

● ﴿**إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ⑬①**﴾ هذا مثل يقال في أحوال الطِّيرة، وكان قوم فرعون يتطيّرون من موسى ومن معه، فكلما جاءهم خير نسبوه لأنفسهم، فإذا جاءهم شر نسبوه لموسى، فردّ الله تعالى عليهم بأن طائرهم - أي سعدهم وشقاؤهم، وخيرهم وشرّهم، هو من عند الله وليس لموسى يد فيه، وهو من ذنوب وليس بأماني موسى. و**الطيرة**: هي زجر الطير، كان يأتيه المتشائم، فمن كان له نمط الشخصية المتشائمة مال إلى التطيّر، و**التفكير التطيّرى** تفكير خرافى، والشخصية التطيّرية تميل إلى الخرافة إذا كانت بسيطة، والمجتمعات في بداياتها كانت متطيرة، وكانوا **يتيّمنون بالسانح**، وهو الطير يطير جهة اليمين، **ويتشاءمون بالبارح**، وهو الطير الذى يطير جهة الشمال. وكانوا يتطيّرون **بصوت الغراب** ويتأولّونه، وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها، وأكثر تطيُّرهم كان بالطير لا بالحيوانات أو الأشياء أو الطقس، فسمّوا الجميع تطيّراً من هذا الوجه. وفى الحديث نهيٌ عن ذلك: «**أقروا الطير على وُكناتها**» أي في أعشاشها وأوكارها ولاتفزعوها لتتطيروا، وقال ﷺ: «**الطيرة شرك**»، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾ أي ما قدر لهم وعليهم، وهو مالحق قوم فرعون من القحط والشدائد بذنوبهم لا من عند موسى.

● ﴿**كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ... ①⑦⑥**﴾: يُضرب هذا المثل لمن **يحصّل العلم ولا يعمل به، ويسمع بالدعوة، ويكفر بها، ويُدعَى إلى الآخرة فيخلد إلى الدنيا ولذّاتها**، ويلزمها ويتبّع الشيطان وما يزيّنه له، فحاله كالكلب يلهث إن ضربته، ويلهث إن لم تضربه، وكذلك **الجاحد** يظل على كُفره، دعوته أو لم تدعه، وعلم أو لم يعلم. **وأهل**

الحكمـــة يقولون في الكلـب : إنه لا نَفَس له، فنفسُه منقطع، فـيلهث في الكلال وفي الراحة، وفــي المرض وفي الصحــة، وفي الريّ وفي العطش، فكذلك الكافر، إن وعـظته ضلّ، وإن تركتــه ضلّ : ﴿وإن تدعُوهُمْ إلى الهُدىَ لا يتَّبِعُوكُمْ سواءٌ عليْكُمْ أدعوْتُمُوهُمْ أمْ أنتُمْ صامتُون (١٩٣)﴾ (الأعراف). والمثل عام في كل من استــمع إلى القرآن وعرف عن الإسلام ولم يؤمن، وفي كل من عرف آيات الله ولم يعــمل بأوامرها ونواهيهــا، ومن يقرأ الكتب ولا يسلك بمقتضى حكمتها، فمثله كمثل الكلب، وهو تمثيل، لأنه يعني أن هواه قد غلبه حتى ما عــاد يملك لنفسه ضراً ولا نفــعاً، كالكلب اللاهث أبداً حُمل علــيه أو لم يُحمَل عليه.

● ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾: المثل يُضرَب لمن لا ينـتفع بما أعطاه الله من نعمــة العقل والإبصار والســمع والحواس عــموماً، فــلا يفقه قــولاً، ولا يعقل ثواباً، ولا يخاف عقــاباً، فَهُم كالأنعام، همّــتهم انصرفت إلى الأكل والشُّــرب، فصاروا أضل، لأن الأنعام تبصــر منافعها ومضارها، وتتــبع مالكها، فكأنما بفطرتها تعرف ربّهــا ولم تجحده، وهؤلاء لم يعرفوا ربّهم، وغفلوا عن الحق.

● ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾: قول يؤثر ويُرَدّ به على من يستــهين بما يقال، ويستقله.

● ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فأما قوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ فأمرٌ بصلة من يقطعك، والعفو عمن يأثم في حقك، والرفق بالمؤمنين، وأن لا تحمّل الناس إلا وسعهم، وأن لا تكلفهم إلا ما كان في اســتطاعتهم؛ وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ فالعــرف ما اصطلح الناس عليه في أمور الخــير والبرّ والحق؛ وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فالجــهل ضده العلم، فأن تعــرض عن الجاهلين، لأن ما يــصدرون عنه هو عدم الدراية، وقلة المعــرفة، ومن شأن الجهل أن يُردى صاحبه في الظلم، فيظلم الناس ويظلم نفــسه، والعاقل من تعلّم وعلّم، والتعلق بالتــعلّم من دأب أهل الحكمة، وفي الإعراض عن الجــاهلين إعراض عن أهل الظلم، وتنزّه عن منازعــة السفهــاء والتنزل إلى مســتوى الجهلــة الأغبيــاء، ولما سأل الرسول ﷺ جبريل عن معنى هذه الآية ذهب فسأل ربّه وعاد إليه يقول : «**إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك**» أخرجه الحاكم والبيهقي. وفي الحديث عن أبي هريرة قال : «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسن الخلق**» أخرجه البزار. وفي الشعر :

مكارم الأخلاق في ثلاثة ∴ من كملت فيه فذلك الفتى
إعطاء من تحرمه ووصل من ∴ تقطعه والعفو عمّن اعتدى

فهذه الآية هي أجمع آية لمكارم الأخلاق. وكان الرسول ﷺ يدعو لها، وقال عن نفسه: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وفي الحديث: «أمرني ربّي بتسع: **الإخلاص في السرّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة**».

•••

٩٥٥. ﴿أمثال وحكم في سورة الأنفال﴾

• **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)﴾**: شبّه الله تعالى من ينقض العهد بالدابة، بل إنهم من شرّ الدواب: لأنهم لا يؤمنون بالله فليس لهم عهد، ودائماً ينقضونه، وهؤلاء هم اليهود، كانوا أيام الرسول ﷺ من **بني قريظة والنضير**، وهم **اليهود عموماً**، وخير مثال لذلك ما يوقّعون مع الفلسطينيين من مواثيق ينقضونها بسرعة. **والدابة** هي التي تدب على الأرض وما في حكمها.

•••

٩٥٦. ﴿أمثال وحكم في سورة التوبة﴾

• **﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾**: ونور الله هو دينه، فجعل الدين بمنزلة النور.

• **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾** (التوبة): وفي الحديث عن عائشة: «**إذا أعجبك حُسن عمل** امرئ مسلم فقل.. الآية»، يعني **العمل الطيب** يرضى عنه الله ورسوله والمؤمنون، **والعمل** السيء لا يُرضي أحداً، وفي الحديث: «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان**»، يعني مصير كل عمل وإن خفي أن يظهر وينكشف ويُعلَم به. ويوم القيامة تُعرَض الأعمال على الله تعالى ورسوله، والمؤمنون الموتى يعلمون بها في الدنيا، وفي الحديث: «**إن أعمالكم تُعرَض على أقاربكم من الأموات، فإن خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا**».

•••

٩٥٧. ﴿أمثال وحكم في سورة يونس﴾

● ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾: المثل يقال لمن يتعجّل الشر كاستعجاله للخير، فلا يستجاب له، فلو عجّل الله للناس العقوبة كما يستعجلونه الثواب، لأهلكهم وعجّل لهم قضاء آجالهم ليتعجّل لهم عذاب الآخرة؛ والآية نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو على ولده، فلو استجيب له كما يستجاب للناس الخير، لهلك.

● ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ... (٢٤)﴾: الآية لتشبيه وتمثيل صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها بالماء ـ أي مثل الماء يختلط بالأرض فيحيي الزروع، وتعمّ الخضرة، وتتزين الدنيا، ويغتر الناس، فيفعلون المعاصي ويكفرون، فيأتيها عذاب الله، ويهلكَ كل شيء ويُستأصل، وكأنه ما كان، وكأنها لم تكن عامرة بالأمس.

● ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾: مثلٌ يعني أن الحق مآله للنصرة، ومعنى «يُحقّ» يبيّنه ويوضّحه؛ و«بكلماته» أي بكلامه وحُججه وبراهينه، وبعدالته بالنصر؛ و«المُجْرِمُونَ» هم الظلمة أعداء الحق. والمثل يقال فقط: «ويحق الله الحق بكلماته».



٩٥٨. ﴿الأمثال والحكم في سورة هود﴾

● ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ : وفي الآية من الأقوال البليغة كالأمثال: «ضاق بهم ذرعا»، و«هذا يومٌ عصيب» وفي الآية أنه ضاق صدره بمجيئهم وكرهه، ويقولون: ضاق وسعه، وأصل ذلك أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه، فإذا حُمّل على أكثر من طوقه ضاق عن ذلك وضعف ومدّ عنقه، فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع.

● ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾ : والمكانة هي الطريقة، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه، فأنا ثابت على ما أنا عليه. وهذه الآية تكررت في الأنعام (١٣٥)؛ فإن قيل: كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفّار، فالجواب أن هذا تهديد، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ (التوبة٨٢). ومن الأقوال البليغة كالأمثال: «اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون»، «وارتقبوا إني معكم رقيب».

● ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾: المثل في الآية قوله: «وبئس الورد المورود»، ومعنى الورد المورود المدخل المدخول، وأوردهم أي أدخلهم، يقال عن النار: بئس الورد المورود، يعني بئس المكان الذي ينتهي إليه الكفار مستقراً ومقاماً، وهو مورود لأنهم جميعاً يردونه حتماً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ (هود)، والرِّفد هو الجزاء، ويقال رَفدتُه أي أعنته وأعطيته، والمعني بئس ما يُجزَى به الكافرون في النار من أنواع الجزاء.

● ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ... ﴿١١٤﴾﴾: اللفظ عام في الحسنات والسيئات، والحسنة تكفرّ السيئة.

●●●

٩٥٩. ﴿الأمثال والحكم في سورة يوسف﴾

● ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾: كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ (المعارج)، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله، فيكون صاحب المصيبة في القوم فلا تدري من يكون من شدّة صبره على ما أصابه.

● ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا .... ﴿٣٠﴾﴾: والشغف باطن القلب، وشغفها حباً غلبها ودخل حبه في شغافها، والمثل يقال بمعنى ذهب بها كل مذهب.

● ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (يوسف): وأضغاث الأحلام هي الأحلام المختلطة، والضغث هو المختلط من البقل أو الحشيش أو غير ذلك.

● ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴿٥١﴾﴾: يعني تبين وظهر الحق، وأصله حصص ثم قيل حصحص، والحصّ هو استئصال الشيء، وكأنه أراد أن يقول: بانت حصة الحق من حصة الباطل.

● ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿٦٧﴾﴾: هو كقولنا: لا ينفع الحذر مع القدر.

● ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴿٦٧﴾﴾: هو تسليمٌ لله بالحكم لا يشاركه أحد، ولا يمانعه شيء.

● ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾: حكمةٌ غالية، ومثلٌ جامع، فليس عالمٌ إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجلّ، وهو تعالى العليم فوق كل عالم، وإليه ينتهي العلم، ومنه بُدِيء، وإليه يعود.

● ﴿لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾: والمعنى: «لا تيأسوا من روح الله»، أي من فرج الله؛ واليأس أشد من القنوط، واليأس من الكبائر.

●●●

٩٦٠. ﴿الأمثال والحكم في سورة الرعد﴾

● ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ... ﴿٤﴾﴾ (الرعد): المراد بهذه الآية المثل، ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر، والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تُسقى بماء واحد، ومنه قول الشاعر:

الناس كـالنبت، والنبـت ألوان ... منها شجـر الصندل والكافور والبان

ومنهـا شـجرٌ ينضحُ طول الدهر قطران

● ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾﴾: قولٌ في التعجب استنكاراً، يعني إن تعجب يا محمد من إنكارهم لك، فاعجب منه تكذيبهم بالبعث.

● ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ (الرعد): هذه قضية دينية، وأخلاقية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية: أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم التغيير لأنفسهم. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال٥٣)، يعني أنه ينتزع منهم النعمة لأنهم غيّروا وبدّلوا. والآية معجزة علمية في مجال علم التمدّن للمجتمعات.

● ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ...﴿١٤﴾﴾: يُضرب لمن يسعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض على الماء بيده يريد أن يبلغ به فاه فلا يبلغه، ومثله كالظمآن على شفة بئر، فلا هو يبلغ بيده قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه.

● ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴿١٧﴾﴾: هذا مثلٌ ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر، والعدل والظلم، والخير والشر، فمثلُ الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثلُ الماء الذي ينزل مطراً ويكون سيلاً تمتلىء به الأودية، ويحمل السيل زبداً عالياً، فالحقّ هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض، والزَّبَد هو الذي ينقشع ويتلاشى مما لا يُنتفَع به وهو الباطل. والمثل الآخر: هو الزبد الآخر الذي يكون على المنصهر من مختلف المعادن كالذهب والفضة والنحاس، مما يُسبَك في النار لتُصنَع منه زينة أو أدوات يُنتفع بها، كالأواني، فهذا الزبد ـ زبد المعادن ـ يُشبه زبد السيل، لا يُنتفَع به مثله، ولذلك يُتخلّص منه ويُلقى به، فكذلك الحق والباطل، فالحقّ ثابت والباطل إلى زوال.

● ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴿١٧﴾﴾ : والزبد هو

الغثاء الذى يحمله السيل، وجفاء: يعني يضمحل ويتلاشى، لأنه لا منفعة فيه، فلا بقاء له، يقال جفا الماء بالزبد: إذا قذفه ورمى به. والمثل يعنى أن ما ينفع الناس هو الذى له الدوام والبقاء، وما لا نفع فيه يُنسى ويضمحل وينتهى أمره.

● ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴿١٩﴾﴾ : هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر. والمراد بالعمى عمى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب، وكذلك المنكر للقرآن وأنه نزل على النبىّ ﷺ من الله تعالى.

● ﴿عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ العقبى آخر كل شيء، والعقبى هى الآخرة، وعقبى الدار هى عاقبة الآخرة. وقد تكون الجنة، وقد تكون النار، وإنما الجنة للمتّقين، والنار للمزدرين المنكرين. والعقبى للمتقين من أَعْقَبَ يعنى جازى بالخير، ومن عاقَبَ أى جازى بالشرّ. وفى الآية مثّل الآخرة بالدار التى فيها الإقامة، وجعلها عاقبة أى تتمة المطاف.

● ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ : الذكر باللسان، والاطمئنان محله القلب، والقلوب تطمئن بذكر فضله تعالى وإنعامه، كما توجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه، ويذكرونه بتأمل آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة.

● ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴿٣١﴾﴾ : المثل يقال عن كل ظالم أو جاحد، فما زالت تصيبهم الدواهى المهلكة من العذاب والبلاء لسوء عملهم، تفجؤهم بعتوهم، وتنزل بساحتهم بالقرب منهم.

● ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا . . . ﴿٣٥﴾﴾ : مثل الجنة التى وعد المتقون كمثل ما يعرفه أهل الأرض عن الجنان، فإن بها أنهاراً وأكل، ولها ظل ولكنه دائم وليس كالظلال فى الأرض.

● ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ (الرعد): المثل كقوله : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ (الأنعام٦٧)، والمعنى لكل أمرٍ مقدرٌ وقت معلوم. وقيل: إن خاتم موسى فى إصبعه كان مكتوباً عليه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾، تذكيراً له ووعظاً.

●●●

٩٦١. ﴿الأمثال والحكم فى سورة إبراهيم﴾

● ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١﴾﴾ : هذا على التمثيل، فجعل الكفر بمنزلة الظلمة، والإسلام بمنزلة النور.

- ● ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿٣﴾﴾ : أراد بها الدنيا، يطلب لها الكافر الزيغ والميل لأنهما يوافقان هواه.

● ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾﴾: الآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد، والمعنى : لئن شكرتم أنعامى، لأزيدنكم من فضلى.

● ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴿٩﴾﴾ : كقوله تعالى ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (آل عمران١١٩) أى جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضّوها غيظاً مما جاء به الرسُل.

● ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا ﴿١٨﴾﴾: مثلهم كمثل رماد ذرته الرياح، يعنى حبطت أعمالهم، والرماد ما بقى بعد الاحتراق، فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكافرين أنه تعالى يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى اليوم العاصف.

● ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾: أى ما لنا من مهرب وملجأ، من حاص فلان عن كذا، أى فرّ وزاغ، يحيص حيصاً وحيوصاً.

● ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ : قيل: مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة: الاعتقاد عروقها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذّى فى الله ساقها، وحُسن الخلق ورقها، والكفّ عن محارم الله ثمرتها. وقيل : مثل الإيمان كالنخلة، أصلها ثابت فى الأرض وتشرب منها، وتسقيها السماء من فوقها فهى زاكية نامية. وقيل : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم)، والشجرة الخبيثة هى شجرة الحنظل أو المُرّ. وقيل: الكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر، وقيل هى المشرك نفسه، واجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار: أى ليس للمشرك أصل يعمل عليه. والكلمة يفهم منها القول والدعاء، فالكلمة الطيبة هى الدعاء بالخير، والكلمة الخبيثة هى الدعاء بالشرّ.

● ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ : والمعنى: استعظام مكرهم، أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه، والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشىء.

●●●

٩٦٢. ﴿الأمثال والحكم فى سورة الحجر﴾

● ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ :والمعنى إجمالاً : إنهم لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات

تتنزل علـى النبيّ ﷺ من ربّه دليلاً علـى أنه نبيّ، لأصـرّوا على الكـفـر وتعـلّلوا بالخيالات، كما قالوا للـقرآن المعجز أنه سِحْر؛ **ويعـرجون** يصـعدون، **وسُكِّرت أبصـارنا** سُدّت بالسحر وأُغشيت وعميت.

● ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** (٥٦)﴾: استـفهـام إنكارى، أى لا يقنط من رحمـة الله إلا من ضل طريقه وأخطأ الصواب، وجـهل ربّ الأرباب؛ وأما القلب المؤمن المتصل بـالرحمن فلا ييـأس ولا يقنط. وتعجُّب إبراهيـم كان بسبب بشـارة الملائكة له أنه سينجب إسـحق، والله خلق آدم بلا أبوين، أفيعـجز عن أن يخلق من شيخ فانٍ وعـجوز عاقر؟ ولذلك ردّ عليهم بهذا الجواب الذى صار مثلاً.

● ﴿**دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ** (٦٦)﴾: نظيره قـوله تعالى: ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ (الأنعام٤٥)، أى استأصلهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. **والدابر** آخر الشيء.

● ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** (٨٨)﴾: يعنى ألِن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم، وهذا عام لكل المسلمين، يقال فلان خافض الجناح أي وقور ساكن، **والجناحان** من ابن ادم جانباه.

●●●

٩٦٣. ﴿الأمثال والحكم فى سورة النحل﴾

● ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٨)﴾: مثلٌ يقال لدى رؤية العجـيب والغريب من الأشياء والخلق مما لم يره بشر.

● ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** (٩)﴾: وقصد السـبيل: هو الطريق القاصد إلى المطلوب، فعلى الله بيانه للناس ليـهتدى به، وهو يعين على بيانه بـالرسُل والحُجَج والبراهين؛ ومنه «السبيل الجائر» أى الذى يحيد عن الحق.

● ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** (١٨)﴾: يعنى لا تقـوموا بحـصرها لكثـرتها، كالسمع والبصر، والكلام، والفهم، والعقل، والرزق... إلخ.

● ﴿**أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** (٢٥)﴾: المعنى بئس الوزر الذى يحملونه.

● ﴿**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** (٢٦)﴾: الآية تمثـيل، والمعنى أنه تعالى أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه.

● ﴿**فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** (٥٥)﴾: المثل لبيان عاقبة الانغماس فى المتع ونسيان الله.

● ﴿**لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ** (٦٠)﴾: يقال لـفلان ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ يعنى له كل الصفات السيئة التى يمكن أن تكون لإنسان سيء، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ أى الوصف الأعلى بأنه الواحد، والرازق، والقادر ... إلخ.

• ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ (٦١)﴾: المراد بالآية العموم، أى لو أخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولو أخذ الخلائق بذنوب المؤمنين لأصاب العذاب جميع الخلق.

• ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ (٧١)﴾ : والمعنى جعل الغنى والفقير، لأنه فضل بعضاً على بعض فى القدرات، فاختلفت الأرزاق، وهو مبدأ هام فى اشتراكية الإسلام.

• ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾: هذا المثل لاثنين أحدهما لا يصلح لشىء وعبء على من يستخدمه، والآخر عاقل وقادر وله الأمر، هل يستويان ؟ وهل يستوى الكافر والمؤمن، ومَن يرضى بالظلم ومن يأمر بالمعروف؟ومثل ذلك المثل الآخر فى الآية : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ ، يعنى لا يستوى العبد المملوك الذى لا يقدر من أمره على شىء ، والرجل الحر الذى يرزق الرزق الحسن فينفق منه فى وجوه الخير سراً وجهراً، فكذلك من جعلتم شركاء لله وهم لا يستطيعون شيئاً، فهل يقارنون بالله تعالى ؟

• ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا (٩٢)﴾: شبّهت الآية الذى يعزم على عمل ويعاهد عليه ويبرم عهده، ثم ينقضه، بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحله. ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه. وقيل إنما الآية تُضرَب مثلاً وليست عن امرأة بعينها. وهذا المثل نفسه يصدق على بنيلوبى **Penelope** من نساء الأدب الغربى الإغريقى، وكانت زوجة أوديسيوس الذى ذكر قصته وقصتها هومر فى الإلياذة، وكان زوجها قد ذهب للمشاركة فى حرب طروادة، وغاب عنها عشرين سنة، واجتمع عليها خمسون من أعيان أتيكا. يقنعونها أن زوجها مات، وأن عليها أن تتزوج، ويتوددون إليها، ويغازلونها، ويتقربون منها، ويفرضون أنفسهم عليها فى بيتها كل ليلة، لعلها تقع فى حب أحدهم، أو تختار واحداً منهم زوجاً لها، ولم يفلحوا فى إغوائها، وتمنعت عليهم، وكانت تؤثر أن تنتظر زوجها يعود إليها، وأن تربى ابنها منه. وكان الابن طفلاً حين ارتحل أبوه، وتخشى أن تصدّ مغازلات أعيان أتيكا فيغضبون عليها ويكيدون لها ويجاهرونها العداء، فاحتالت عليهم واحضرت خيوط صوف تغزلها فى المساء والأعيان حضور، وتدّعى أنها تصنع كفناً

للايرتيس المريض، والد أوديسيوس، وأنها بعد وفاة لايرتيس ستصبح حرة تتزوج من تشاء، ولكنها في الصباح وخلال النهار كانت تنقض غزلها، لتحكمه المرة بعد المرة فى المساء. فلا هى تنهى غزل الكفن، ولا هى تتوقف عن إحكام الغزل ونقضه يومياً، إلى أن جاء زوجها وخلصها من ورطتها. ومثل بنيولوبي تصدق عليه الآية القرآنية: ﴿**كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا**﴾.

● ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)**﴾: قيل: القرية هى مكة، ضرب بها المثل لغيرها من البلاد، فمع أنها إلى جوار بيت الله، ولأهلها عمارته، فقد كفر أهلها، فأصابهم القحط، فكيف بغير مكة من البلاد ؟!! والصحيح أن المثل مضروب بأى قرية أو مدينة، أو بأى شعب أو دولة، تكون على هذه الصفة من الجحد بأنعم الله وينصرف أهلها عن عبادته.

●●●

٩٦٤. ﴿أمثال وحكم سورة الإسراء﴾

● ﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا (٧)**﴾: المعنى أن النفع للإحسان، والضرر من الإساءة، مرجعهما إلى من يفعلهما.

● ﴿**وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا (٨)**﴾ المثل فى الآية معناه: إن عدتم عاد الله عليكم، وقيل فى بنى إسرائيل حلّ العقاب بهم مرتين، حين عاودهم العصيان.

● ﴿**وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ (١١)**﴾: هذا المثل يضرب لمن يدعو فى طلب المحظور كما يدعو فى طلب المباح.

● ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)**﴾ يعنى طبعه العجلة، ونظيره قوله: ﴿**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ (الأنبياء٣٧)، وبتفسير عائشة قالت: أن يؤثر العاجل وإن قلّ، على الآجل وإن جلّ.

● ﴿**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ (١٣)**﴾: طائره هو عمله، وكل إنسان مسئول عن عمله، وتتلازم المسئولية والعمل، ويلزمان صاحبهما كما تلزم القلادة العنق، ويوم القيامة يلقى كل إنسان كتاب عمله هذا منشوراً، قلمه هو لسانه، ومداده هو ريقه، وقرطاسه هو أعضاؤه، وجميعه يشهد عليه، ولات حين مناص.

● ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ (٢٤)**﴾: هذه استعارة في الشفقة والرحمة بالوالدين، والتذلل لهما تذلل الخادم من السيد، وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينصبه لولده. **والذل** هو اللين.

● ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ : هذا مجاز عبر به عن البخيل الذى لا يقدر على إخراج شيء بخلاً وشحاً، فضرب له مثل الغَلّ الذى يمنع التصرف باليد.

● ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴿٦٤﴾﴾ : يقال فى الأمثال: «أتى بخيله ورَجْله» يعنى أتى بفرسانه ومشاته، أى أنه استعان بكل ما عنده، واستنفد كل حيَله وإمكاناته، والمثل يقال للتحدىّ، والإجلاب من جلبة السوق، يعنى جمع كل ما يستطيع جمعه، وسياق الآية عن إبليس وكل من تابعه، يأمره الله تعالى أمر إهانه، أن يُجهد نفسه فقد أنظره، وأن يجمع كل ما يقدر عليه من المكايد، ويجنّد كل من بوسعه تجنيده من الناس، الماشى منهم والراكب، والفقير والغنى، فالنتيجة واحدة، أن الحق على المدى الطويل يزهق الباطل، وينتصر الخير على الشر.

● ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ : الآية عامة، والله يُحقّ الحقّ ويبطل الباطل.

● ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ : القرآن شفاء للقلوب والأمراض الباطنة، وللأجسام والأمراض الظاهرة، والأمراض منها النفسى الجسمى، فالعلة النفسية تعطّل الجسم، وكذلك العلّة الجسمية تعطل النفس، والقرآن يعالج الجسم بعلاج النفس.

● ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴿٨٤﴾﴾ : المثل يعنى كلٌّ يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده، مأخوذ من الشكل، يقال : لست على شاكلتى ولا شكلى، فالشكل هو المثل والنظير والضريب. وكل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه.

●●●

٩٦٥. ﴿أمثال وحكم سورة الكهف﴾

● ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴿٥﴾﴾ : هو قول حسن وردٌّ مفحم، ويعنى قولهم بأن لله ولداً هو قولٌ مستشنع مستبشع مستفظع، وفى غاية الفساد والبطلان. والكلمة تكبر أى تعظم، وهى قولهم اتخذ الله ولداً.

● ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ : الآية من وجيز القرآن، وفيها تسليةٌ للنبىّ ﷺ، وهى جوابٌ على من لايؤمن، وسلوى لمن يدعو الداعية إلى الإيمان ولا يجد صدى لدعوته.

● ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ : الآية بسطٌ فى

التسلية، أى لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنّا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لهم، فمنهم من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفر. وفى الحديث من ذلك: «**إن الدنيا خضرة حلوة، والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون**»، والآية قولٌ حسن وجيز فى ألفاظه، بليغ فى معناه.

● **﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾** :**الآية من فصيحات القرآن التى** أقرّت قصور العرب عن الإتيان بمثل ما تضمنه القرآن من حقائق علمية، ومعناها ضربناهم على آذانهم بالنوم، أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، فما عادوا يسمعون؛ والنوم لا يستحكم إلا إذا تعطلّ السمع، فهذه حقيقة علمية لم يكن العرب يعرفونها، ولا اليونان، وكانوا يقولون فى تفسير ظاهرة عدم السماع أثناء النوم بأن الشيطان يبول فى أذن النائم فلا يسمع، ومن أمثالهم فى ذلك قولهم: ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه.

● **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ.. (٢٤)﴾** : الآية فيها أن تعد بفعل شيء إلا لو قلت: إن شاء الله، وذكْر مشيئة الله من الإيمان.

● **﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾**: يعنى اذكره بعد النسيان، وكل من يعد بشيء ولا يقول إن شاء الله، عليه أن يقول **عسى ربى أن يهدينى لأقرب** من هذا رشداً، وهى كفّارة لنسيان إن شاء الله، والآية دعاء **دون تخصيص**، والمعنى إذا **نسيت شيئاً فاذكره تعالى يذكّرك به**. واذكره تعالى إذا نسيت غيره، أو نسيت نفسك، فذلك حقيقة الذكر.

● **﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ (٢٦)﴾** :قولٌ موجز فيه حكمة، **يعنى لا أحد أبصر من الله ولا** أسمع منه.

● **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾**:هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، نزلت فى أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقيل نزلت فى النبىّ ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مثلٌ لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. وقيل هو مثلٌ **لعيينة بن حصن** وأصحابه مع **سلمان وصهيب** وأصحابهما.

● **﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ (٣٩)﴾**:هو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر، وكل من دخل منزلاً ينبغى أن يقوله. وفى الحديث: «**لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد، قال الله : أسلم عبدي واستسلم**» أخرجه مسلم.

• ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** (٤٦)﴾ : في المال جمع ونفع، وفي البنين قوة ودفع، فصارا زينة الحياة الدنيا.

• ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** (٤٦)﴾: الآية كلها : ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** (٤٦)﴾، يعني أن المال هو عصب الدنيا، والبنون قوتها، ولكنهما غرور يمر ولا يبقى، والذي يبقى هو الصالحات، فهي زاد القبر وعُدّة الآخرة، وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيء ذاهب، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك، ولا مع المناصب والجاه والسلطان لأن ذلك اليوم لك وغداً لغيرك. والله تعالى يقول : ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ (التغابن١٥)، ويقول: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ (التغابن١٤).

• ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** (٥٤)﴾ :يجادل في الحق والباطل، وينسب القرآن حبّ المجادلة في الإنسان إلى الكِبْر فيه: ﴿**إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾ (غافر٥٦)، وأكثر الجدال في الله وآياته، يقول تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ (الحج٣)، ويقول: ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ (غافر٤). والقرآن لا يحرّم الجدل إطلاقاً ولكنه يفرّق بين الجدل عن حق، والجدال عن باطل، وشرط الجدل أن يكون بالمنطق: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (العنكبوت٤٦)، قيل ﴿ **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ هو المنطق.

• ﴿**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا** (٧١)﴾ كقوله : ﴿**لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا** (٧٤)﴾، واختلف الناس أيهما أبلغ: إمراً أو نكراً، قالوا: نكراً أبلغ لأن الخضر قتل الولد، والقتل منكرٌ لا شك فيه؛ وقالوا: امراً أبلغ لأن خرق سفينة فيه قتل لجماعة وليس لواحد.

• ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** (١٠٩)﴾ (الكهف):المثل يعني: إن كان البحر مداداً لكلمات الله، لنفذ البحر قبل أن تنفذ العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلامه، كقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ (لقمان٢٧).

●●●

٩٦٦.﴿أمثال وحكم سورة طه﴾

• ﴿**اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** (٣١) **وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** (٣٢)﴾ :هذا القول من الأمثال، ويقال عمن نتوسم فيه الخير ويُرجى به الصلاح، والأزر هو الظهر، والشراكة في الأمر بالنصح والإرشاد، وهو قول موسى عن أخيه تبريراً لاستوزاره.

●●●

٩٦٧. ﴿أمثال وحكم سورة الأنبياء﴾

● ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** (١٨) ﴾ : أصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، والحق هو القرآن، والباطل الشيطان والمعاصي. ووصفهم الله بغير صفاته من الولد وغيره من الباطل، والحق الحجة، أو المواعظ. وزاهق يعني هالك وتالف.

● ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** (٢٣) ﴾ : المثل يعني أنه تعالى لا يؤاخذ على أفعاله والناس يؤاخذون.

● ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** (٣٥) ﴾ : الشدّة والرخاء، والحلال والحرام، فتنة وابتلاء واختبار.

● ﴿ **خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ** (٣٧) ﴾ : معنى المثل أنه طُبع على الاستعجال، والمراد بالإنسان الناس كلهم، كقوله : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً** ﴾ (الإسراء١١).

● ﴿ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ** (٩٧) ﴾ : هو : يوم القيامة.

● ﴿ **قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** (١١٢) ﴾ : الآية في تفويض الأمور إلى الله، وتوقع الفرج من عنده.

●●●

٩٦٨. ﴿أمثال وحكم سورة الحج﴾

● ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** (١٥) ﴾ : يقال استهزاء على جهة المثل السائر : «دونك الحبل فاشنق نفسك إن كان ذلك يريحك». والآية تعني أن من يتشكك أن الله يمكن أن يعينه أو يرحمه، أو يرزقه، أو يشفيه، أو ينصره... إلخ، أو يستبطيء الرحمة أو العون أو الرزق، فليقتل نفسه إذن ـ طالما يئس من ربّه، وليعلّق حبلاً في سقف حجرته ويربطه حول عنقه وينتحر إن كان في انتحاره ما يُذهب غيظه !

● ﴿ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ...** (١٨) ﴾ : من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه، ومن تهاون بعبادته لحقه الخزي والخسران.

● ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** (٣١) ﴾ : المعنى : من يشرك بالله فهو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعاً، ولايدفع عن نفسه قهراً ولا عذاباً، فهو بمنزلة من خرّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه. وتخطفه الطير أي تقطعه بمخالبها، وقيل ذلك عند خروج روحه.

● ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** (٤٠) ﴾ : وعد بنصرة من ينصر الحق، ومن ينصر دينه ونبيّه.

• ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾: يقال وصفاً للمكان بالخراب.

• ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿٤٦﴾﴾: أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن. والمعروف علمياً أن العقل محله الدماغ، فإن قلت عقلياً فالمقصود ما بالدماغ وهى عملياته الإدراكية، وإن قلت قلبياً فالمقصود الإيمان وهو من أعمال القلوب.

• ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾: قيل: لكل إنسان أربع أعين، عينان فى رأسه لدنياه، وعينان فى قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضرّ ما عداه. وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً.

• ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾: هذا المثل بمقياس عصرنا هو إعجاز علمى، وبمقياس الأقدمين هو إعجاز بلاغى، يعنى ما تقدسونه وتتعاملون معه كأنما هو إله، لا يقدر أن يخلق ذبابة، ولو حتى ساعدوه وأعانوه جميعهم بعقولهم وعلومهم وآلاتهم، وإن سلبهم الذباب شيئاً ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، ضَعُفَ الطالب والمطلوب، والطالب هم الناس الذى أغربوا فى التعبّد لغير الحق، وانصرفوا إلى الباطل، ولا حجة لديهم ولا برهان على ما يعتنقون من فلسفات علمانية أو إلحادية، أو ليبرالية، أو إمبرالية، أو تنويرية. والمطلوب: هو الذباب بكل ما يمثله من ضعف وحقارة وقذارة ومهانة، فهم بما يدّعون لأنفسهم ولعلومهم وعقولهم واختراعاتهم، لايقدرون على خلق ذبابة، أو دفع أذية الذباب، فكيف يدّعون لأنفسهم ما ليس لهم، ويجعلون من عقولهم وعلومهم أرباباً؟ والتمثيل رائع، وقوله الطالب والمطلوب من مصطلحات المنطق، ولا أحسب أن محمداً ﷺ درس المنطق ليتحدث كأهله، وهو ما يثبت أن الكلام هو كلام الله. والمقارنة بين الإنسان والذبابة باعتبار زمان النبىّ ﷺ متقدمة جداً، لأننا لم نكتشف إلا حديثاً جداً (من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ٢٠٠١) التشابه فى التركيب الجينى بين الإنسان والذبابة (ذبابة الدروسوفيل تحديداً وهى ذبابة الفاكهة)! وتم هذا الاكتشاف من خلال علماء أمريكيين أساساً، وعلق وزير البحث العلمى الفرنسى آنذاك (روجر جيرار) بأنه درس للإنسان فى التواضع!

•••

٩٦٩. ﴿أمثال وحكم سورة المؤمنون﴾

• ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٩٦﴾﴾: أمرٌ بالصفح ومكارم الأخلاق.

●●●

٩٧٠. ﴿مثال وحِكَم سورة النور﴾

● ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥)﴾ : هذا مثلٌ ضربه الله لنوره، والتشبيه فيه الجملة بالجملة، والنور المشبه ليس كنور الدنيا، ولا الشجرة كشجر الدنيا، ولو كانت الشجرة مثلاً من شجر الدنيا لكانت شرقية أو غربية، لكنها لا هذه ولا هذه، ولولا ذلك ما فهم الناس ولا عرفوا الله. والمثل ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به، والآية تشابه بين نوره تعالي الذى هو هداه بجملة الأنوار التى يعرفها البشر، فهذا أقصى ما يمكن أن يتصوروا به نوره تعالي.

● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩)﴾ هذا مثلُ ضربه الله تعالى للكفرة، أو الفسقة، أو الظلمة، أو لأيٍّ من كانوا طالما هم من الأشرار، فأعمال الخير طالما هم كذلك كأنما هى الماء يجرى على أرض منبسطة ويتسرّب منها فلا ينبت زرعاً، أو كسراب يحسبونه ماء ثم يتبين لهم أنه لا شيء، فأى عمل خير لا ينجيهم طالما هم على ما هم عليه من الشرّ.

● ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾ : هذا مثلٌ آخر ضربه تعالي للأشرار أو الكفّار، فمثّل فى الآية السابقة أعمالهم فى الخير بالسراب، وفى هذا المثل مثلّها بالظلمات.

●●●

٩٧١. ﴿أمثال وحِكَم سورة الفرقان﴾

● ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾ : الحجر الحرام، والمحجور المحرم، وهى كلمة الكفار للملائكة، يقولونها استعاذة، وكانت معروفة فى الجاهلية، وتعنى حَجّر الله عليك، كقولنا أعوذ بالله منك.

●●●

٩٧٢. ﴿أمثال وحِكَم سورة الشعراء﴾

● ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ : مثلٌ يضرب عندما يراد أن يأتي الفعل من الآخرين اختياراً لا اضطراراً.

● ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ : هو القتل فى غير حق، وعلى الغضب من غير تثبت، وقد صار ذلك فى بلادنا، فتبطش الشرطة بالناس، ويتحكم الحاكم الجبّار المتسلّط

العاتى فى غير حق.

● ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾ : هذا أوجز كلام عن الشعراء وأحوالهم.

●●●

٩٧٣. ﴿أمثال وحِكم سورة النمل﴾

● ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)﴾ : هو قولٌ فى الملوك والطغاة صار مثلاً، وهو قول بلقيس ملكة سبأ، يعنى أنهم إذا فتحوا بلداً وغزوها أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وصدق الله تعالى على كلامها وقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

● ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾: يقال اطيّرنا بك : تشاءمنا ؛ والطيرة: هى الشؤم والنحس، وما يُتشاءم به، ولا شيء أضر بالرأى، ولا أفسد للتدبير من اعتقاده الطيرة. ومن ظن أن خوار بقرة،أو نهيق حمار، أو مواء قطة، أو نعيق غراب، يردّ قضاءً، أو يدفع مقدوراً، أو ينبئ عن معيبة، فقد جهل:

طيرةُ الدهر لا تردّ قضاءً ∴ فاعذر الدهر لا تُشبه بلوْم
أى يوم يخصُّه بسعود ∴ والمنايا ينزلن فى كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعودٌ ∴ ونحوسٌ تجرى لقوم فقوم

والطِيْرة: من زجر الطير، جمع طائر، وكان الناس قديماً إذا أرادوا السفر نفّرت طائراً، فإذا طار يمنةً سارت وتيّمنت، وإن طار شمالاً رجعت وتشاءمت، ونهى النبىّ ﷺ عن ذلك ، وقال: «أقرّوا الطير على وكناتها»، والوكنات بضم الكاف وسكونها جمع وكنة بالسكون، وهى عش الطائر ووكره، وفى القرآن: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾، وهؤلاء كانوا قوم النبىّ صالح، والرّد على من يقول ذلك هو كما فى الآية : طائرك عند الله، أى ما قد يأتيك من المصائب ليس من عندى بل من عند الله. أو تقول : طائرك معك، يعنى هذا قدرك وقضاؤك، أو هذا من تصوّرك وتخيلك وليس منى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)﴾ (يس) يعنى أكلما ذُكِّرتم تطيّرتم ؟! وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (الإسراء١٣) فهذا مَثلٌ آخر، يعنى: أن عمل كل إنسان، وما قدّر له من الخير والشر يلازمه أينما كان. يعنى ما يطيّر من خير أو شر على التمثيل، يلزمه فى عنقه كما تلزمه القلادة،

يعني لا ينفك عنه. وطائر الإنسان، هو شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر، وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾ (الأعراف)، يعني ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله بذنوبهم لا من عند موسى.

• ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ (٨٠)﴾: يقال لمن لا يستمع إلى ما يوعظ به ويترك التدّبر والاعتبار، فهو كالميت لا حسّ له ولا عقل. كقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ (٨١)﴾ والعَمَى هو عمى القلوب، فلا يصرفون عن ضلالتهم وغيّهم.

• ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا... (٨٩)﴾: هذا قولٌ في السلوك الحميد، وفي الحديث: «اتق الله، وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنةً تمحها».

• ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا... (٩٣)﴾ (النمل): كقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم (٥٣)﴾ (فصّلت)، يقال للبرهنة على صدق المقال، والآيات هي الدلائل على صواب ما يقال وكذب أي ادعاء آخر.

•••

٩٧٤. ﴿أمثال وحِكَم سورة القصص﴾

• ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ (٤)﴾ هذا مثل يقال للمستكبر تشبيهاً له بفرعون.

• ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (٦)﴾: مثلٌ يقال لمن يبدّل الله تعالى أحوالهم من الضعف إل القوة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعة إلى العزة، ومن الخمود إلى السؤدد وطيب الذكر.

• ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا (١٠)﴾: هذا مثلٌ يُضرب للبال الناسي الذاهل الواله، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾ (إبراهيم)، أي جوف لا عقول لها، لأن القلوب مراكز العقول كما في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج٤٦).

• ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾: العبارة من القول الفصل، وتقال لوقف أي نوع من الجدل أو المراجعة أو المشاتمة مع الخصوم.

• ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾: ليس للإنسان ما يتمنى، وقد تحب لولدك الخير، وولدك يصرّ على ما تكره.

• ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ (٦٨)﴾: مثلٌ يقال بنسبة الاختيار إلى الله، وينفي نفياً عاماً أن يكون للعبد في الأشياء شيء سوى اكتسابه بقدرته تعالى، وأن الخيرة لله في أفعال

العباد، وليس لأحد من خلقه أن يختار عليه، كقوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ (الأحزاب٣٦)، ومن ثم فلا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك.

● ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** (٨٨)﴾ :كل شيء إلى فناء إلا الله، أو كل عمل بلا طائل إلا عملاً أريد به وجه الله.

●●●

٩٧٥. ﴿أمثال وحكم سورة العنكبوت﴾

● ﴿**مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ** (٥)﴾ :يعني : من كان يرجو ثواب الله فإن الله ملاقيه وأجله تعالى محتوم، يعني الموت واقع لامحالة.

● ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** (٦)﴾ : المثل لمن يجاهد ويكافح ويناضل من أجل الحق، ويصبر على ما يلاقي، فإنما يسعى لنفسه، ليقيم حال نفسه، وينال ثوابه، وليس من ذلك شيء يرجع إلى الله أو إلى غيره.

● ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٤١)﴾ :هو مثل ضربه الله تعالى لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، فكما أن بيت العنكبوت لا يقيها برداً ولا حراً فكذلك من يعبد غير الله، فإن ما يعبده لن ينفعه ولن يضر به، وإنّ أوهن البيوت، أي أضعفها، لبيت العنكبوت، يُضرب به المثل لضعف الآلهة من دون الله ووهنها، فشبّهها ببيت العنكبوت. ولو علموا أن عبادة هذه الأشياء كاتخاذ بيت العنكبوت لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم لما عبدوها. والعنكبوت الحشرة المعروفة التي تنسج النسيج الرقيق المهلهل، والجمع عناكيب.

● ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** (٥٧)﴾: المثل يقال لمن يخشى عاقبة تناله إذا خرج من وطنه، أو أقدم على فعل يخشى مغبته، أو كان يتصرف كأن الموت لا يلحقه. والآية تحقّر من شأن الدنيا، وتؤكد على أن الموت واقع وإن تناساه الناس، فالأولى المسارعة إلى طاعة الله.

● ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** (٦٤)﴾ : شبّهت الآية الدنيا باللعبة التي يُلهَى بها ويُلعَب، والمعنى أنه ما من شيء أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول، كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات، والدنيا إن بقيت لك لم تبق أنت لها، والحيوان يعني الباقية، وهي الحياة الأخرى، فلا تزول ولا موت فيها. والحيوان يقع على كل شيء حي، وأصل حيوان حييان فأبدلت الياء واواً لاجتماع المثلين.



٩٧٦. ﴿أمثال وحِكم سورة الروم﴾

• ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...(٢٧)﴾ : الآية فيها استدلال بالشاهد -وهو الخلق • على قدرته في الغائب وهو الإعادة، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ (الأعراف)، وفي عُرف البشر إن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، وبمنطق الناس يكون البعث لمن يقدر على البداية أهون عليه من الإنشاء. والمثل إذن يُضرَب فيما يصعب كالخَلْق، وفيما يَسْهل كالبعث، وهو في ذلك له المثل الأعلى، والمثل هو الوصف، فيكون المعنى أنه تعالى له الوصف الأعلى، فإن كنا نتحدث عن فعله فقلنا كلاماً يشبه كلامنا عن البشر، نقول ﴿له المثل الأعلى﴾، نتحفظ به على أن نشابهه بالبشر.

• ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ... (٢٨)﴾ : المثل في الشركاء، والآية أصل في الشركة بين المخلوقين، لافتقار بعضهم إلى بعض، ونفي هذه الشركة عن الله تعالى. والشركة قال بها الإسلام، فالناس شركاء، والاشتراكية من فلسفة الإسلام، ولا شركاء لله. والآية تثبت أن الأغنياء دائمو الاعتراض على القول بأن الفقراء شركاؤهم في مال الله ولهم فيه نصيب، وهؤلاء أو أسلافهم قالوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقنا، فيقال لهم : فكيف يُتصوّر أن تنزّهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم، وتجعلوا عبيد الله شركاء له في خلقه؟ وهو حكمٌ فاسد، وقلة نظر، وعَمى قلب، سواء في مسائل الاقتصاد أو الاعتقاد. فإذا كانت الشراكة باطلة بمنطقكم بينكم وبين عبيدكم فيما تملكون أنتم، فيبطل بمنطقكم أيضاً أن يكون شيء من العالم شريكاً لله في شيء من أفعاله وخلقه! فلم يبق إلا أنه واحد، ويستحيل أن يكون له شريك، إذ الشركة تقتضي المعاونة، والناس تفتقر إلى معاونة بعضهم بعضاً بالمال والعمل والخبرة والتكنولوجيا والعلم، وهذا هو الأصل في الاشتراكية بين الناس، أما الله فهو منزّه عن ذلك!

• ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ المثل للتعجب من أمر مَن يترك الإنابة إلى الله في كل الأحوال. والإنابة هي الإقبال عليه بكل ما في النفس من عزم. والشِّرْك هو أن تشكر غير الله في النعمة، وتلجأ إلى الله في الشدّة.

• ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ(٣٦)﴾ :الآية صفةٌ لقليلي الإيمان، يقنطون عند الشدّة، ويبطرون عند النعمة، وأما

المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدّة.

● ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ : هذا مثلٌ يُضرب عندما تعمّ المعاصى وتطمّ المظالم، وقيل فساد البحر هو مكوث ماؤه وموت أسماكه، وفساد البرّ جدبُ الأراضى، ونضوبُ المياه، وانقطاع السُّبُل، وقطع الطُرق، وشيوع السرقات والاختلاسات. وقيل البَر هو اللسان، والبحر هو القلب، وفساد البرّ والبحر هو ظهور ما على اللسان وخفاء ما فى القلب. وقيل البرّ الفيافي، والبحر القرى، والعرب يسمون الأمصار البحار، وإذا عمّ الفساد شمل كل ذلك.

● ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ :يقال هذا المثل بمعنى أن الله لا يُخلف الميعاد، وفى الحديث: «ما من مسلم يذب عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة»، ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

● ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً (٥٤)﴾ :الآية تمثّل مراحل العمر، والضعف الأول ما نكون عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر؛ ثم جعل من بعد ضعف قوة، يعنى الشيبة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً، يعنى الهَرَم.

●●●

٩٧٧. ﴿أمثال وحِكَم سورة لقمان﴾

● ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ :يضرب الله تعالي مثل الخطيئة أو المظلمة تدقّ على صاحبها أو تخفَى على الناس، بحبّة الخردل، قيل هى أصغر شىء يمكن أن يُلاحظ بالبصر، ورغم صغَرها ودقّتها تخفَى فى صخرة لاسبيل إليها، أو فى السموات أو فى الأرض، مما هما عليه من سعة، حتي لتحار أين تبحث؟ وأين تبتدئ؟ وأين تنتهى؟ والله تعالى هو القادر على أن يأتى بها، لأنه اللطيف الذى لا تخفى عليه خافية، والخبير العالم بدبيب النمل فى الليل البهيم.

● ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾ : المثل عن المتكبّر: من دأبه أن يتبختر فى مشيه ويُظهر المرح؛ والمختال: هو صاحب الخيلاء، أى العُجب والكِبر؛ والفخور: هو الذى يعدّد ما أعطى، ويباهى ويمتدح بالخصال، إما فيه أو فى أهله.

● ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ : الحمارُ مثلٌ من أمثلة الذمّ البليغ، وكذلك نُهاقه يُشبَّه به رفع الصوت فى المخاطبة والملاحاة ● أى المباغضة، والمَثل أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت، مَن كان أجهر صوتاً كان أعزّ، ومن كان أخفض كان أذل، فنهت الآية عن هذه الخُلق الجاهلية، فلو كان شىء

يُهاب لعلو صوته لكان الحمار! فجعلتهم الآية فى المثل سواء.

•••

٩٧٨. ﴿أمثال وحكم سورة الأحزاب﴾

• ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴿٤﴾﴾: هذا مثلٌ ضُرب للمنافق، أى كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا يكون للمنافق ولاءان. وكان كل منافق إذا سألته يقول: لى قلب يأمرنى بكذا وقلب يأمرنى بكذا، فكذلك لا يجتمع اعتقادان متغايران فى قلب، وعلى ذلك فحامل الجنسيتين الذى له ولاءان منافقٌ ولا أمان له، لأنه لا يجتمع له قلبان. ويقال لزوج المرأتين: ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه!

• ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾: الشيء المقدور الذى ليس للإنسان منه مهرب، والمثل استشهد به عمر بن الخطاب لمّا طعنه أبو لؤلؤة فجعل يقول وهو محمولٌ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

• ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾: القول السديد مجاز ويُحَمل على أنه مثل، وهو القول الذى يعمّ الخيرات، ويوافق ظاهره باطنه، مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض، والمثل عام فى كل المسائل ذات القصد النبيل.

• ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾: الآية مثل، ومعناه أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها، لثَقُل عليها أن تتقلّد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب • أى أن التكليف أمرٌ تعجز عنه السموات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول؟! كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ (الحشر٢١)، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ (الحشر٢١)، فتقرر أنه تعالى يضرب الأمثال، والآية لا تخرج عن ضرب المثال، وهى من المجاز.

•••

٩٧٩. ﴿أمثال وحكم سورة سبأ﴾

• ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾: الشكر هو الثناء على المحسن، والشكر لله الإقرار بنعمه، ولا يشكر الله من لم يشكر الناس، وحقيقة الشكر العجز عن الشكر، وفى الآية أن العمل شكر، والآية تحضّ عليه، وفى قوله «عبادى» أن العمل عبادة، والعبادة عمل، وهى عبادتان أو عملان، فعملٌ بأداء العبادت، وعمل اجتماعى بأداء المعروف والخيرات. والشكر لمن هو فوقنا بالطاعة، ولنظرائنا بالمكافأة، ولمن

دوننا بالإحسان والإفضال، والله بعبادته. والمثل يقال لاستنفار الهمة والحضّ على التواضع.

● ﴿بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفورٌ ⑮﴾: مثلٌ يقال وصفاً لبلد طيب يكثر فيه الرزق ويأمن فيه الناس على أنفسهم، والرزق والأمن من الله، فلأن أهلها طيبون طيّبها الله لهم، وأنعم عليهم وستَر ذنوبهم.

● ﴿وهل نجازى إلا الكفور ⑰﴾: المثل عن الكفور، أى شديد الكفر، والمؤمن يُجزى، والكافر يُجازَى.

● ﴿قل لا تُسألون عمّا أجرمنا ولا نُسأل عمّا تعملون ㉕﴾: المثل عن مسئولية كل امرىء عمّا فعل، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

● ﴿قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ㊽﴾ يقال المثل إذا بانت الحجة وظهرت، والمعنى أنه تعالى وهو العالم بغيب الأمور قادرٌ على أن يقذف الباطل بالحق.

● ﴿قل جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد ㊾﴾ يقال المثل إذا ظهر الحق وعندئذ لا يبقى شيء للباطل ليعيده ويبدأ به، كقوله: ﴿فهل ترى لهم من باقية ⑧﴾ (الحاقة).

● ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ㊸﴾ مثلٌ يقال لكل من يتكلم بما لا يحقّ له: يقال أنه يُقذف ويُرجم بالغيب، و﴿من مكان بعيد﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب، أى يرمون بالظن. والبُعد هنا هو البُعد عن القلب. والمثل مثل المثل الآخر ﴿رجماً بالغيب﴾ (الكهف٢٢).



٩٨٠. ﴿أمثال وحكم سورة فاطر﴾

● ﴿أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسناً... ⑧﴾ المثل عمّن يرى عمله السئ حسناً.

● ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات... ⑧﴾: المثل ينهى عن شدة الاغتمام بما يجرى للبعض ممن لا يستحقون هذا الاغتمام، كقوله تعالى: ﴿فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ⑥﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين ③﴾ (الشعراء)

● ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً .. ⑩﴾: المثل عن العزة التى لا ذُل معها، لأنه لا عزّة تعرّض أو تؤدى إلى ذلّه، وكل العزّة مع الله، لأنه العزيز، والعزة الحقيقية له تعالى، فمن طلب العزة منه وصدق فى طلبه فإنه تعالى لا يمنعها منه ولا يحجبها عنه، ومن طلبها من غيره وكَلَه إلى من طلبها عنده، كقوله تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ⑬⑨﴾ (النساء)، فهو الذى

يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، ومن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز، ومن اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزّه الله.

● ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ﴿١٠﴾﴾ : الكلام الطيب كالعمل الصالح، كلاهما خير، ومن الكلام الطيب : التوحيد، والتحميد، والتمجيد، وذكر الله، وذكر الناس بالطيب، وكل كلام طيب مُتقبَّل من المرء، وكل كلام طيب هو عمل صالح، والعمل هو الرافع للكلم. وكل كلام طيب إن لم يقترن بالعمل الصالح لم ينفع، ومن يخالف قوله فعله فقوله وبالٌ عليه، والعمل الصالح شرطٌ فى قبول الكلم الطيب، والعمل تحقيق الكلم، والعامل أكثر تعباً من القائل: قولٌ بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحابٍ بلا مطر، وقوسٍ بلا وتر، والشاعر يقول :

لايكون المقال إلا بفعل .·. كل قول بلا فعال هباء

● ﴿وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ المثل يعنى أن الذين يمكرون السيئات مكرهم يبور؛ والمكر ما عُمل على سبيل الاحتيال والخديعة، ويبور يعنى يهلك ويبطل، تقول بارت السوق أى كسدت.

● ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ .. ﴿١١﴾﴾ : المثل يعنى أن العمر بيد الله، وأن لكل أجل كتاب، وما يعمِّر مُعمَّر إلا وله أجل، ولايموت إلا بعد أن يستوفى أجله، وما مضى من عمره هو النقصان، وما يستقبل هو الذى يعمره. ومتوسط عمر الإنسان ستون عاماً، فمن بلغ الستين فهو معمَّر، والمنقوص من عمره من يموت قبل الستين، وصلة الرحم تزيد فى العمر، وعمل السوء يُنقصه، كقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد٣٩)، ووصْل العمر ومدّه وبسطه، أو نقصانه، إنما يكون بقضاء من الله عزّ وجل.

● ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴿١٢﴾﴾ : المثل عن المتناقضات ، والفرات هو الحلو، وعكسه الأجاج وهو المر.

● ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ : يعني لا يقضى فى الأمر إلا من هو خبير به، والمثل عن الله تعالى، فلا أحد أخبر بخلقه منه تعالى.

● ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ... ﴿١٨﴾﴾ : مثلٌ يعنى أن كل امرىء بما كسب رهين؛ والحمل هو حمل المرأة؛ والمثقلة هى المرأة الحامل يثقل عليها حملها ، والتشبيه أن النفس المثقلة بالذنوب، إن دعت آخرين ولو كانوا أقارب، ليحملوا عنها ذنوبها، لا يحملون منها شيئاً. والناس يوم القيامة مجزيون بأعمالهم، فحتى الأم

المذنبة قد تلجأ إلى ولدها لعله يغيثها ويحمل عنها بعض ما يثقلها من الذنوب فيقول : إليك عني يا أماه فإني بذنبي عنك مشغول.

● ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ... (١٨)﴾ :المثل يعني أن من يهتدى فإنما يهتدى لنفسه.

● ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١)﴾ :هذه كلها أمثال، والمتناقضان لا يستويان.

● ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ... (٢٢)﴾ : المثل عن الأحياء وهم العقلاء، والأموات وهم الجهّال.

● ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾ : المثل عن المعاند الذى لا يريد أن يقتنع، والكافر الذى أمات الكفر قلبه، فكما لا تُسمع من مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبه وران على عقله. والآية دليل على تهافت من قال إن الموتى فى القبور يسمعون السلام.

● ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ : لا تعدم الأمم الفضلاء من أبنائها يرشدون الناس، ويعلّمونهم، وينبهونهم، ويبصّرونهم، وكل أمة لابد فيها من نبيّ.

● ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... (٢٨)﴾ (المثل عمّن يخاف من قُدرة الله، ومن يعلم بقدرته يوقن بمعاقبته على المعاصى، ومن لم يخش الله فليس بعالم، والعالم هو من خشى الله، وكفى بخشية الله علماً، وبالاغترار جهلاً.

● ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ... (٤٣)﴾ مثل بمعنى أن الشرّ يلحق مدبريه، ولا تنزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك.

●●●

٩٨١. ﴿أمثال وحكم سورة يس﴾

● ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨)﴾: يضرب بذلك مثلاً للممتنعين عن الهدى كامتناع المغلول، وقد غُلّت يده إلى ذقنه وارتفع رأسه، فهو مقموح، فلأنه كذلك لم يعد يبصر الهدى. والمقمحون رافعو رءوسهم لا يستطيعون إطراقها، لأن من تُغَلّ يده إلى ذقنه ترتفع رأسه. والأغلال هي القيود.

● ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣)﴾ : مثلٌ كما ينال الناس من العذاب والهلاك لاستهزائهم بالرسل والدعوة إلى الله. (**انظر قصة أصحاب القرية فى باب قصص القرآن**).

● ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ... (٣٠)﴾: قولٌ يجرى مجرى المثل، ويعنى يا ويلاه على العباد

في استهزائهم بالدعاة إلى الحق.

•••

٩٨٢. ﴿أمثال وحكم سورة ص﴾

● ﴿**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ** ③﴾: يضرب هذا المثل حين يكون الوقت للنجاة أو للفرار قد ولَّى وراح، فينادي المعذبون طلبًا للنجاة حين لامناص، أي وقت أن لا منجى ولا فوْت. والمناص بمعنى التأخر والفرار والخلاص، ويقصد بالمثل من ينادي لطلب الخلاص في وقت لا يكون له فيه خلاص.

● ﴿**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ⑤﴾ : يقال ذلك إذا تجاوز الشيء الحدّ أن يكون عجيبًا، فالعُجاب أشد من العجيب، والعجيب الأمر الذي يتعجّب منه.

● ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ** ⑦﴾ : قولٌ يقال عند تكذيب الكاذب، **والاختلاق** هو الكذب والتخرّص.

•••

٩٨٣. ﴿أمثال وحكم سورة الزمر﴾

● ﴿**أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ...** ㉔﴾ :هذا مثل لمن يجعل يده وقاية وغاية لوجهه من النار، فالأولى به أن يأمنها ابتداءً. والوجه أشرف الأعضاء، فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه. والآية أصلاً في الكفّار، وأيديهم مغلولة يوم القيامة، فإذا أُلقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

● ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ㉙﴾: يضرِب المثل للمُشرِك والمُوحِّد، فجاء قمة في الحُسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد، فالذي يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة، ونيّاتهم متباينة، يلقى منهم العناء والنصب، ولا يُرضي واحداً منهم فقد تتعارض مطالبهم والذي يخدم واحداً لاينازعه فيه أحد، ويطيعه وحده يعرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأي الرجلين أقل تعباً أو على هدى مستقيم ؟ فكذلك الذي يعبد الله وحده، والذي يعبد آلهة متعددة.

● ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ㉚﴾ :الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت، والميْت بالتخفيف من فارقته الروح، والمثل يقال للمختصمين تذكيراً لهم بالموت، قيل : لما نزلت هذه الآية : ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ㉚ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ㉛﴾ ، خاف المسلمون من الاختصام أمام الله، فقال لهم الرسول ﷺ : «**حتى يؤدّى إلى كل**

ذي حق حقه». والتخاصم هو التحاكم إلى الله تعالى. وفي الحديث قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طرح في النار» أخرجه مسلم.

● ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ... (٣٦)**﴾: قيل الهمزة للتقرير، يعني: أليس الله كافياً عبده مَن شر من يريدونه بسوء؟ قيلت في النبيّ ﷺ، وكانت تسليةً له عمّا قالت له قريش: لتكفنّ عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنّك منها خبل أو جنون. والآية كقوله تعالى: ﴿**حَسْبِيَ اللَّهُ... (٣٨)**﴾ (الزمر) يعني الله كافيّ.

● ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩)**﴾: المثل للتهديد والوعيد، فلكل طريقته ومنهجه، والمخطئ سيرى نتيجة خطئه ووباله.

●●●

٩٨٤. ﴿أمثال وحكم سورة فصلت﴾

● ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ (فصلت ٣٠، والأحقاف ١٣): الآية يُمثَّل بها للذين يلزمون شهادة لا إله إلا الله ويموتون عليها، ويعملون في طاعة الله، ويقيمون على الطريقة وعلى الإسلام، ويعرضون عما سوى الله، وينفذّون أوامر ونواهي القرآن؛ ويروَى أنها لما نزلت قال النبيّ ﷺ: «هم أمتي» وزاد الوضّاعون «وربّ الكعبة» وفي معنى الاستقامة أنهم ● أي المسلمون ● استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً، ورغبوا في الباقية وزهدوا في الفانية، واستقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً.

●●●

٩٨٥. ﴿أمثال وحكم سورة الزخرف﴾

● ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥)**﴾ وقيل إن المعنى هو: أفنمسك عن إنزال القرآن لأنكم لا تؤمنون به؟ وقيل: الذكر هو التذكر، فكأن المعنى: أنترك تذكيركم لأنكم كنتم قوماً مسرفين؟ والآية مَثَلٌ يقال لمن يريدك أن تكفّ عن وعظه أو نصيحته، كأن يكون ابناً أو أخاً أو صديقاً، وتأبى ذلك عليه، وكأنك تقول له: وهل رفضُك للنصيحة يجعلني أتوقف عن إسدائها لك؟

●●●

٩٨٦. ﴿أمثال وحكم سورة الدخان﴾

● ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ... (٢٩)﴾ تمثيلٌ وتخييلٌ مبالغةٌ في وجوب الجزع والبكاء، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض. وقد يكون في المثل إضمار، وأن يكون المقصود ما بكى عليهم أهل السماء والأرض. وفي الحديث: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: بابٌ ينزل منه رزقه، وبابٌ يدخل منه كلامه وعمله، فإذا مات فقداه فبكيا عليه».

● ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾: مثلٌ يقال في الذم، والعلوّ ليس علوّ مدحٍ بل علوٌّ في الإسراف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ (القصص٤)، وعلوّه هو الترفّع عن عبادة الله، أو الترفُّع عموماً.

● ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ (هو قولٌ يقال تشفياً فيمن يستكبر ويستعلي، ومثله أن يقال للخصم العنيد الجهول: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥)﴾ (القيامة). والمثَل يقال على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، يقال له: ذُق، إنك أنت العزيز الأكرم بزعمك! ● أي إنك أنت الذليل المهان، كما قال قوم شعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود٨٧) يعنون السفيه الجاهل.

●●●

٩٨٧. ﴿أمثال وحِكَم سورة محمد﴾

● ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ (١٢)﴾: مثّل الكافرين والظلمة والطغاة عموماً بالأنعام، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عمّا في غدِهم. وعكس ذلك المؤمنون وأهل العدل والصلاح، فهم في الدنيا يتزودون، بينما المنافقون فيها يتزيّنون، والطغاة فيها يتمتعون.

●●●

٩٨٨. ﴿أمثال وحِكَم سورة الفتح﴾

● ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩)﴾: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبيّ ﷺ في زمنه، ثم للمؤمنين من بعدهم. والسيما في الوجه علامة السجود، تكون سوداء خشنة، وشبّهوها بِرُكبة العنز، ولا نجد ما يشبهها حالياً إلا أن نقول إنها علامة السجود والخشوع في الصلاة، وتتعلق بالجباة، وعن جابر: أن النبيّ ﷺ صلّى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، وقد قطر سقف المسجد، وكان على عريش، فانصرف النبيّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته (طرف أنفه) أثر الماء

والطين، والعامة تسمى هذا الأثر «زبيبة الصلاة»، وقيل هى أثرٌ فى الجبين نتيجة الطمأنينة فى الصلاة على الحصير، وقيل: هى بياض الوجه بالإيمان، والمؤمن سمت وجهه حسن، وقد يكون بمقاييس الجمال قبيحاً، وإنما له نور يشع من وجهه. وقيل: السيما صُفرة وجوه المؤمنين من طول قيام الليل، حتى لتراهم فتحسبهم مرضى وما هم بمرضى، يصلون الليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم، ومن كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار، ومثلهم فى القرآن والتوراة والإنجيل، كزرع أنبت فتخرج منه السنابل بالعشرات. والمثل يعنى أن المؤمنين يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، ولما دعا النبىّ ﷺ للإسلام لم يؤمن به إلا قلة، وازدادوا وتضاعفوا حتى صاروا فى كل أنحاء الدنيا، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال، حتى يغلظ نباته ويُفرخ، يعنى يُنبت الحبّ والثمار، وفى كثرة المسلمين الآن ما يغيظ المشركين واليهود، ويشد أزر الضعفاء منهم وحيثما كانوا قلة، فمثلهم كمثل الزراع يعجبهم زرعهم لما اشتد، وكذلك المسلمون، بارك الله فيهم وقاتل الله من يدعو إلى تقليل نسلهم، وينشر بينهم المرض والفقر، ويستعمر بلادهم، فاحذر يا أخى دعوات أمريكا وغيرها تحت ستار تنظيم النسل وغير ذلك، والله المستعان.

●●●

٩٨٩. ﴿أمثال وحكم سورة الحجرات﴾

● ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿١٠﴾﴾: مثّل المؤمنين فى أخوّتهم بالإسلام بالإخوة بالنسب، مع ملاحظة أن أخوّة النسب يمكن أن تنقطع بمخالفة الدين، وأما أخوّة الدين فلا تنقطع بمخالفة النسب، وعلى ذلك إذا تخاصم المسلمان فالواجب أن نصلح بينهما. والأخَوَان هما كل مسلمَين، أو طائفتين، وقيل أريد بهما وقت نزول الآية الأوس والخزرج. وفى الآية دليل على أن البَغْى لا يزيل الإيمان، فرغم بغى إحدى الطائفتين سماهم مؤمنين. وحالهم أنهما أخَوَان بغى أحدهما على الآخر وليسا منافقَين ولا مشركَين.

● ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ؟ ﴿١٢﴾﴾ : مثّل الله الغيبة بأكل الميته، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحىّ لا يعلم بغيبة من اغتابه. وإنما ضرب الله هذا المثل للغيبة، لأن أكل لحم الميت حرامٌ مستقذر، وكذا الغيبة حرام فى الدين، وقبيحة فى النفوس. فكما يمتنع أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً، فكذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيّاً، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة. وفى الحديث : «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس»، فشبّه الوقيعة بين الناس بأكل لحومهم.

● ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾ : المثل يُضرب باعتبار خشية الله هى معيار الحُكم على الناحية الأخلاقية فى الناس دون الحسب والنسب، وفى الحديث: «**الحسب المال، والكرم التقوى**» أخرجه الترمذى، وعنه ﷺ : «**من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله**». والتقوى: مراعاة حدود الله أمراً ونهياً؛ والتّقىّ: هو المنصف بما أمره الله أن يتصف به، والمتنزّه عمّا نهاه عنه. وفى الحديث : «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم. أين المتقون؟ أين المتّقون؟**». وفى الحديث أنه ﷺ قال: «**إن أوليائى المتقون يوم القيامة، وإن كان نسبٌ أقرب من نسب. يأتى الناس بالأعمال، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، تقولون يا محمد، فأقول هكذا وهكذا**»- وأعرض النبىّ ﷺ فى كل عِطْفيه، يعنى لا يبالى بهم، لأنهم أتوا بالدنيا ولم يكونوا من أهل التقوى ● ثم قال: «**إن آل أبى ليسوا لى بأولياء، إنما وليىّ الله وصالح المؤمنين**» أخرجه مسلم. وقال : «**إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى**»؛ ولذلك كان النبىّ ﷺ أكرم البشر عند الله تعالى، لأنه كان سيد المتّقين.

●●●

٩٩٠. ﴿أمثال وحِكَم سورة ق﴾

● ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ : هذا تمثيل للقُرب، يقال: هو أقرب إليه من حبل الوريد، أو كان الموت أقرب إليه من حبل الوريد؛ والحبل المقصود: هو حبل العاتق الممتد من ناحية الحلق إلى العاتق، وهما وريدان عن يمين وعن شمال. وأيضاً الوريد الوتين، وهو العرق المعلّق بالقلب ،وفى الآية: أن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، ليس قُرب مسافة، والمعنى أنه تعالى أعلم بما توسوس به نفس الإنسان من حبل وريده الذى هو من نفسه.

● ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾: هذا تمثيل لشدة الموت وغشيته بالسكرة، وكان النبىّ ﷺ يقول فى موته : «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**». وفى موت أبى بكر تمثلت عائشة بقول الشاعر: إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر..! فقال أبو بكر: هلاّ قلتِ كما قال الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

● ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ :الآية تمثيل للغافل يفيق على الحقيقة عند الموت، فيُكشَف عن عينيه الغطاء، فبصره عندئذ نافذ، يرى

الأمور كما لم يرها من قبل.

● ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ :هو تمثيلٌ لما ينتظر المكذّب من عذاب، والاستفهام على سبيل التصديق للخبر، والتحقيق لوعد الله تعالى بأن يملأ جهنم من المكذّبين، وهو تقريع لهم وتنبيه لجميع عباده.

● ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ :الآية مثلٌ يقال كسؤال لمن يريد المهرب، فمهما يطوف ويجول ويقلّب الأمر على كافة وجوهه، فلا محيد من مواجهة الحقيقة. والتنقيب فى البلاد هو البحث عن مهرب وملاذ.

●●●

٩٩١. ﴿أمثال وحكم سورة الذاريات﴾

● ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ : يقال لمن يداخله شك فى الرزق ويصيبه القلق من ضيق معاشه، كما يقال لمن يكثر رزقه، والمعنى أن الرزق مكتوب فى السماء فى أم الكتاب، وأن الله هو الرزّاق. وما توعدون أى مايصيبكم من خير أو شر، وثواب أو عقاب، مكتوبٌ كذلك، وهذا هو القدر، وأما القضاء فهو ما ينفذ من ذلك بأمر الله تعالى، ولو شاء لم ينفذه، ولو شاء عجّل به، بحسب أعمال كل إنسان وسؤاله الله ودعائه، فمثلاً مكتوب لكل من يولد رزقه، ولكن الرأسمالى يستولى على أرزاق الآلاف بطمعه وجشعه واحتياله.

● ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)﴾: هذا مثلٌ يقال إذا عزّ وجود المؤمنين أو الشرفاء، وأصله أن الملائكة المرسلين إلى لوط وقومه لمّا مرّوا بإبراهيم، ذكروا المهمة التى أوكلوا لإتمامها، وأنهم أخرجوا من قريتى سدوم وعامورة من كان فيها من المؤمنين، فلم يجدوا إلا بيتا واحداً يدين بالإسلام، وهو بيت لوط، نفسه وابنتيه.

● ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾: يُتمثّل بالآية على مطلوب الله من الإنسان، ومعناها الخصوص وإن كان بلفظ العموم، لأنه ليس كل أحد يعبد الله وإنما هم المؤمنون وهم قلة، والكثرة كافرة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ (الأعراف١٧٩). وقوله «إلا ليعبدون» يعنى «إلا ليعرفونى»، لأنك أولاً تعرف ثم تعبد، وليس من أحد يعبد من لايعرف، ولولم يعرفوا أنه موجود وأنه خلقهم، لماعبدوه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾(الزخرف)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)﴾(الزخرف).

●●●

٩٩٢. ﴿أمثال وحكم سورة الطور﴾

● ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾: كل إنسان مُرتَهَنٌ بعمله فلايُنقص أحد من ثواب عملـه، وأما الزيادة فهـى تفضُّل من الله، كـقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ (المدثر٣٨).

●●●

٩٩٣. ﴿أمثال وحكم سورة النجم﴾

● ﴿لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾: هو تعـريفٌ بأن كل إنسان لا يجب له إلا مـا سعى، فلا عـمل أحد ينفع أحداً، ولاصلاة أحد عن أحـد تنفعه، ولاصيامـه، ولاحجِّه، ولاصَدَقته عنه: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾.

● ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾: مثلٌ يـعنى أنه تعالى قـضى أسباب الـضحك والبكاء، وأنه يُضحك من يشاء بأن يُسرّه، ويُبكى من يشـاء بأن يغمه، وأنه خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحـيوان، فليس فى سائر الحيوان من يضـحك ويبكى غير الإنسان. ومـثلُ ذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾، أى قضى أسبـاب الموت والحياة وخلقهما: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ (٢)﴾(الملك).

● ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾: حكمةٌ غالية، فالله تعالى هو المرجع والمردّ والمصير.

●●●

٩٩٤. ﴿أمثال وحكم سورة القمر﴾

● ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾: يقصد بالحكمة الدرس المستفاد من قراءة تاريخ الدعوات السابقة مع الأمم المنكرة، وفارق بين أن توعَظ بشىء وأن تستخلص الموعظة أنت نفسك، والمصطلح القرآنى للتاريخ وعِبَره هو: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)﴾ أى أنباء التاريخ التى فيها الحكمة.

● ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)﴾: هذا مثلٌ يُضرب للكثرة الكثيرة، كقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)﴾ (القارعة)، والآيتان تتكاملان، وتصفان الناس يوم البعث عند الخروج من القبور فزعين لايهـتدون أين يتوجهون، فكأنهم الفـراش المبثـوث بعضـه فى بعض، لاجهة له يقصدها، وهكذا الناس فى مواقف الفـزع كالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقصـدها، وهكذا الناس عند الهروب من المآزق والنوائب والزلازل والكوارث، لا يدرون لأى جهة يقصدون، لعل فيها نجاتهم. والآيتان مثلان جاريان.

● ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾ قولٌ يؤثر كلمـا تأزمت الأمور فى يوم من الأيام، واليـوم

العسر هو اليوم الصعب الشديد، كقوله: ﴿يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩)﴾، وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ (١٦)﴾ (فصلت).

● ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥)﴾: المثل يُضرب لمن يمكن أن يتّعظ، ولافائدة فإن المتّعظين قليل.

● ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠)﴾: هذا مثلٌ دعاء، معناه: غلبوني ياربّ فانتصر لي.

● ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾: المَثَل يُضرب لمن صار أمرهم بلا حول ولاقوة، يُشَبَّهون بالنخل لطولهم وضخامتهم، فتقتلهم الريح وترمى بهم، فتُدَقّ رقابهم وتُخلَع رءوسهم، فكأنهم بلا رءوس، كعَجُز النخل المُلقى على الأرض. والمَثَل من الصور البيانية البديعة.

● ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ هذا استفهام تهديد وتعجيب يجرى مجرى المثل، يعنى فكيف كان عذابى وإنذارى لمن كذّب وكفر ولم يتعظ؟ كقوله: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾، والآية بهذه الصياغة تزيد من التخويف حتى لتجرى مجرى المثل.

● ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥)﴾: قولٌ مأثور يقال لمن ليس كما يدّعيه، وإنما يريد أن يتعاظم على الناس ويتكبّر عليهم بلا استحقاق. **والأشَر** المَرَح والتّجبُّر، ويقال: فرسٌ أشِر إذا كان مرحاً نشيطاً. والأشَر هو أيضاً البَطر، والأشِر البَطِر، وهو المتعدّى إلى منزلة لايستحقها، والأشِر والبَطِر بمعنى واحد، وهو الذى لايبالى. والآية: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦)﴾ صيغة تحدٍّ، وتُضربَ كمثل، والمعنى فى الحالتين المبالغة فى رفض دعوى الكذّابين، وإظهار أن كذبهم سينقلب فى النهاية عليهم، وعندئذ سيعلمون أنهم هم الكذّابون الأشرون.

●●●

٩٩٥. ﴿أمثال وحكم سورة الرحمن﴾

● ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾: يقال هذا المثل للشكر والتحية على المعروف، بمعنى: هل جزاء من أحسَنَ إلا أن يُحسَن إليه. و«هل» فى الآية ليست للاستفهام وإنما بمعنى ما، مثل: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (النحل ٣٥)، أى ما على الرسُل إلا البلاغ.

●●●

٩٩٦. ﴿أمثال وحكم سورة الحديد﴾

● ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا (٢٠)﴾: معنى

المثل: أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لايلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن.

● ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا (٢٢)﴾ : هذه الآية تُضَرب مثلاً لإثبات القدر، وترك بسببها جماعة من المسلمين الدواء لعلاج أمراضهم فلم يستعملوه، ثقةً بربهم وتوكلاً عليه، وقالوا: لقد علم المرض والصحة، فلو حرص الخلق على تغيير ذلك ما قدروا. والصحيح أن الآية متصلة بما قبلها من أمر ما يصيبهم في الجهاد من قتل وجرح، فهوّن المصاب عليهم وبيّن أنهم لو ظلوا في بيوتهم لأصابهم كذلك ما أصابهم، فما هو مقدور لا مدفع له، وقال بناءً على ذلك: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ (٢٣)﴾، فطالما عرفوا أن الرزق والآجال والصحة والمرض قد فُرغ منها لم يأسوا على مافاتهم. وفي الحديث: «**لايجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**»، فالله تعالى خلق الأسباب وجعل لها نتائجها، فإن أخذنا بالأسباب توافقت النتائج مع قدر ما أخذنا به منها، فهكذا كتب الله، فلما أخذوا بالأسباب انتصر المسلمون في بدر، ولمّا تركوا الأسباب في أُحد انهزموا، ولكل مجتهد نصيب، والكتاب هو كتاب الأسباب، وما يصيبنا من مصائب يعلمه الله قبل وقوعه، وهو في الكتاب، لأن سَبْق العلم له سبحانه.

● ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾: مَثَلٌ للمتكبّر بما أوتي من الدنيا، الفخورٌ به على الناس؛ والمختال: الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار؛ والفخور: هو الذي يرى من نفسه حالاً وزينة وهو مع ذلك مدّعٍ.

●●●

٩٩٧. ﴿أمثال وحِكَم سورة الحشر﴾

● ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾ : والمثل أصلاً للمنافقين حلفاء اليهود، لمّا تخاذلوا عن نصرتهم بعد أن وعدوهم أن يقاتلوا معهم ويخرجوا إذا خرجوا؛ والمثل يُضرب بشكلٍ عام لأهل النفاق إذا وعدوا وأخلفوا.

● ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (٢١)﴾: هذا مثل يُضرب للناس: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ(٢١)﴾ والخطاب للإنسان عامة، يعني أن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدّعت من خشية الله، وهذا الإنسان أقل قوة من الجبال، ومع ذلك فهو أكثر بهتاناً، ولا يخشى الله وكذّب بالقرآن.

●●●

٩٩٨. ﴿أمثال وحكم سورة الممتحنة﴾

● ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾: مثل يُضرَب لشدة اليأس من تحقق مأرب، فالكفار الأحياء إذا مات لهم عزيز يعرفون أنه لن يعود إليهم ولن تقوم له قائمة من بعد، ويقال: يئسوا كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وقيل في هؤلاء أنهم الذين كانوا يتعللون دوماً ويقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ (٢٤)﴾(الجاثية).

●●●

٩٩٩. ﴿أمثال وحكم سورة الصف﴾

● ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾: هذا مثل يُضرب لمن يريد تكذيب الحق. وقيل إن نور الله هو القرآن، يريدون إبطاله وتكذيبه؛ وقيل هو الإسلام: يريدون دفعه بالكلام؛ وقيل هو محمد ﷺ: يريدون هلاكه بالأراجيف؛ وقيل: هو حُجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارها؛ وقيل: هو مثلٌ مضروب، بمعنى أنه مثل من يريد إطفاء نور الشمس بفمه فوجده مستحيلاً ممتنعاً، فكذلك مَن أراد إبطال الحق.

●●●

١٠٠٠. ﴿أمثال وحكم سورة الجمعة﴾

● ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (٥)﴾: ضُرب هذا المثل لليهود لمّا تركوا العمل بالتوراة، مع ذلك كانوا يحفظونها، فكان حالهم كحال الحمار لايدرى أسفرٌ على ظهره أم زمبيل؟ فهكذا اليهود، وفي هذا تنبيه لمن يحمل كتاباً أن يتعلم معانيه ويعلّم ما فيه، لئلا يلحقه من الذّم ما لحق اليهود.

●●●

١٠٠١. ﴿أمثال وحكم سورة التغابن﴾

● ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤)﴾: هذا المثل يوجد مثله في كتُب اليهود، في نبوءة ميخا(الفصل السابع ٥-٦)، قال: «**لا تأمن صديقاً ولا تثق بصاحب واحفظ مداخل فمك من التي تنام في حضنك، فإن الابن يستهين بأبيه، والابنة تقوم على أمها، والكنّة على حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته**»، غير أن سياق السورة لا يوحي بهذا المعنى المتشائم عند ميخا، فإن القرآن يحذّر من أن الزوجة والأولاد قد يعلّمان الإنسان الشح، وأن ينأى بنفسه عن الجهاد في سبيل الله، ومثل ذلك قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ (١٥)﴾ كأن يلجأ المرأ بسبب الأولاد إلى الكسب الحرام ليكفيهم،

والمال والعيال لايخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما. ومع ذلك فإن هناك تشابهاً، ففى الآية أن الزوجة والولد إذا فعلا فعل العدو فإنهما يصبحان عدواً، ولا فعل أقبح من أن يحولا بين العبد وبين الطاعة، غير أن كلام ميخا أبعد من أن يكون تحذيرًا، فهو يتكلم عن **عداوة مطلقة تكون بين المرأ وأهل بيته**، بينما **عداوة أهل البيت للمسلم هى أنهم قد يعرقلون إقباله على الله**، وشتّان بين المعنيين والفلسفتين والنظرتين للحياة والناس. **وميخا** أكثر تشاؤما من شوبنهاور، **وأبو العلاء** أكثر تشاؤماً منهما معاً، وعبارة القرآن ليست مذهباً فى العيش، ولا هى إيديولوجية حياة، ولكنها عبارة مرسَلة تحذّر من طاعة الأهل عن طاعة الله، ومثلها قوله تعالى: **﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ⑧﴾** (العنكبوت)، والعبارتان من الأمثال التى يُستشهد بها فى الكلام.



١٠٠٢. ﴿أمثال وحِكَم سورة الملك﴾

● **﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ㉒﴾**: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، أو للسوّى وغير السوّى، أو للخيّر والشرّير، والأول مَثَلُه فيما هو فيه كمَثَل البصير يمشى سوياً مرفوع الهامة ومنتصب القامة، وصراطه مستقيم، وطريقه بيّن واضح ينظر ما بين يديه، وعن يمينه وعن شماله، فيأمن على نفسه أن يتخبّط أو يتعثّر أو ينكبّ، وأما الثانى، فمَثَلُه كمثل الأعمى الذى يمشى على غير هدى، ولايدرى أين يسلك، ولاكيف يذهب، فهو حيران ضال، لايأمن على نفسه العثار، وقد ينكبّ على وجهه، فيحذر ولا يسير مستقيماً، ويُحنى ظهره، ويميل إلى الأمام، لعله يتلمس ما قد يعترضه، فذلك مَثَلُهما فى الحياة الدنيا والآخرة. وقال ابن عباس: فأحدهما يسلك طريق الضلالة ولا يهتدى فيعتسف، ولايزال ينكب على وجهه، فهو كالأعمى، والآخر كالسوّى صحيح البصر، يمشى على الطريق يهديه بصره. وقيل: إنه مَثَلٌ للمكبّ على المعاصى فى الدنيا، فيُحشر يوم القيامة على وجهه. فهذا مثل **أبى جهل**؛ والذى يمشى سوّياً مَثَلُه مَثَل **رسول الله** ﷺ، وقيل مثل **أبى بكر**، وقيل **حمزة**، وقيل **عمّار بن ياسر**، والصحيح: **أنه مثلٌ عام لمن يدرى ولمن لايدرى أهو على الحق أم على الباطل؟**



١٠٠٣. ﴿أمثال وحِكَم سورة الحاقة﴾

● **﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ㉗﴾**: قولٌ بليغ يُستشهد به إذا ادلهمت الأمور وساءت الأحوال، وحاق بالمرء العذاب ـ سواء النفسى أو البدنى، وعندئذ قد يتمنّى الموت. والمثلُ

من الأمثلة المتداولة، ومثله قالته مريم: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ (مريم)، وقالته عائشة: «ياليتني لم أخلق! يا ليتني كنت شجرة أسبّح وأقضي ما عليّ! يا ليتني كنت حجراً! ياليتني كنت مَدَرة! ياليتني كنت ورقة من هذه الشجرة»! وقاله عمر ابن الخطاب: «ليتني لم أُخلق! ليت أمي لم تلدني! ليتني لم أكُ شيئاً! ليتني كنتُ نسياً منسياً! ليتني كنت كهذه النَّبتة أو كهذا العود»!

•••

١٠٠٤. ﴿أمثال وحِكم سورة التكوير﴾

• ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾: يعني المَثَلُ أن هَوْل القيامة شديد حتى أن من كانت لديه ناقة عُشَراء يعطّلها ويشتغل بنفسه؛ وخصّ العشار بالذكر لأنها النوق الحوامل ثروة العربي وأعزّ ما يملكه، ولايعطلها أصحابها إلا حال القيامة.

•••

١٠٠٥. ﴿أمثال وحِكم سورة الانشقاق﴾

• ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾: المثل يُضرب للكدح في الحياة، كأنما الإنسان مكتوب عليه أن يعمل ويكد وينصَب في معيشته إلى أن يموت ويلقى ربّه، أو يلقى كتابَ عمله، فأما من أوتي كتابه بيمينه فذلك هو الفائز، ومن يؤتى كتابه وراء ظهره فذلك هو الخاسر.

•••

١٠٠٦. ﴿أمثال وحِكم سورة الطارق﴾

• ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾: المثل إما أنه الآية: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾، أو أنه الآيتان معاً: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾، بحسب المعنى المراد، فإن قلتَ العبارة الأولى فالمعنى: أنه القول الذي يحسم الأمر بين الحقّ والباطل، وبين الجد والهزل، والإيجاز في العبارة شديد ومعناه قوي؛ فإن أضفت إليها العبارة الثانية فقد زدت الأمر بياناً وبلاغة، بسبب الطباق بين الفصل والهزل.

•••

١٠٠٧. ﴿أمثال وحِكم سورة الأعلى﴾

• ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ الآيتان مضرب الأمثال، وفي حديث النبيّ ﷺ لأبي ذرّ عن صُحف إبراهيم وموسى: أنها صحف كانت أمثالاً كلها، وأنها على منوال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا ⑯ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ⑰ ﴾، يريد: أن هذه الآيات كلها أمثال وعبر من نوع ما كان يتنزّل على إبراهيم وموسى وداود وسليمان.

•••

١٠٠٨. ﴿أمثال وحِكَم سورة البلد﴾

● ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ④** ﴾ يُضرَب بهذه العبارة القرآنية المثل فيما يقاسي الإنسان في الحياة، وما يكابد من أعباء الدنيا. وأصل **الكَبَد**: الشدة والعناء والنَصَب، ومنه **الكبد** لأنه دمٌ تغلّظ واشتد، ويقال: **كابدتُ الأمر**: قاسيتُ شدّته. ولم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق. قيل أول ما يكابد **ضيق الرحم** في بطن أمه؛ **وآلام الميلاد**؛ **وأن تقطع سُرّته**؛ **ويُقمَط له بالقماط**؛ **ويُشدّ عليه بالرباط**؛ **ويكابد الارتضاع**؛ **ثم نَبْت أسنانه**؛ والفطام وهو أشد عليه من اللطام؛ ويكابد **الختان**؛ ثم يكابد **المعلّم وصولته**؛ والمؤدِّب وسياسته؛ **والأستاذ وهيبته**؛ ويكابد **أوامر الأبوين واستعباد الإخوة**؛ **وسيطرة الإخوان والخلاّن**؛ ومتاعب المراهقة؛ **والبحث عن عمل**؛ **والسعي وراء لقمة العيش**، **وهموم الزواج والأسرة**، **وشواغل الأولاد**؛ **ومشاكل الخدم والجيران والرءوساء**؛ ثم بداية **الشيخوخة** وانصرام العُمر ولمّا يقضي آماله؛ **وهجمة الأمراض والكِبَر والهَرَم**؛ **ومصائب** يكثر تعدادها؛ **ونوائب** يطول إيرادها؛ ويكابد **محن المال والنفس والجسم**؛ ولايمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدّة، ويكابد مشقة؛ ثم يكون **الموت**؛ **وضغطة القبر وظلمته**؛ **ثم البعث والعرض والحساب**، إل أن يستقر القرار، إما في الجنة أو في النار. فيا لها من مكابدات ومكابدات!!

● ﴿ **أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤** ﴾ ذهبت هذه العبارة مثلاً، فكلما طغى إنسان وتجبّر، فقد يقال له ذلك، توهيناً في ظلمه، وتشجيعاً لعدوه. ونزلت هذه الآية في رجل يقال له **أبو الأشدّين**، كان مثلاً في القوة والشدّة والبأس والطغيان، جريء القلب في الباطل، غليظ الكبد في الحق.

● ﴿ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ⑪** ﴾: الآية تجرى مجرى الدعاء بمعنى: لا نجا ولا سَلِمَ. **والعقبة**: المرقى الصعب، **والاقتحام**: أن ترمي بنفسك في الشيء من غير روية؛ **واقتحام العقبة**: ضُرِب مثلاً لمن لايفعل الخير ويرقى بنفسه عن الدنية، ومن لا يؤمن بربّه، وكأن معنى هذه العبارة تقولها ساخراً: كأنك ما فعلت شيئا، أو كأنك تحب أنك قد فعلت شيئاً عظيماً!

•••

١٠٠٩. ﴿أمثال وحكم سورة الشمس﴾

● ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾: قولٌ بليغ يمثَّل به من يفعل الخير، أو من يفعل السوء، والأول هو الفالح، والثاني هو الخائب؛ وأصل **الزكاة** النمو والزيادة، ومنه زكاة **الزرع** إذا كثر ثمره. ومُصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البرّ يزكّي نفسه أي يُشهرها ويرفعها، وكان أجواد العرب ينزلون الرُّبا ليميز مكانهم **المعتفون**، **فيأتونهم** يطلبون منهم **العفو**، أي الضيافة. وعلى الروابي الزاكية كانت توقد النار في الليل للطارقين، وكان اللئام ينزلون **الأولاج** ● أي الكهوف المظلمة والأماكن المهجورة، يستترون فيها، فأولئك علوا أنفسهم وزكوّها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسّوها. وهذا معنى المثل.

●●●

١٠١٠. ﴿أمثال وحكم سورة التين﴾

● ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾: تقال هذا الآية كمثل حيال جمال الخِلْقة والحُسن في الإنسان، في الحسّي والمعنوي، ففي الحسّي يكون باعتدال القامة واستواء الشباب، وتناسب الأعضاء، وبهاء الطلعة، واسترسال الشعر، وسلامة النظر؛ وفي المعنوي يكون بُحسن الخُلق، وفصاحة اللسان، ورجاحة العقل، والأخذ بالصواب، والميل إلى المسالمة والموادعة. والإنسان عموماً بين المخلوقات هو أحسنُها باطناً وظاهراً، ولذا قالت فيه الفلاسفة أنه **العالَم الأصغر**، إذ كل ما في المخلوقات جُمع فيه.

● ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾: تقال الآية كمثل كلما ظهر الحق وزهق الباطل، وإذا ذهبت الغُمّة وظهرت النعمة، وارتفع البلاء وانتصر الرجاء، فهو تعالى أحكم الحاكمين، قضاءً بالحق، وعدلاً بين الخلق. وهذه عبارة **المستضعفين والمظلومين والمضطهدين يستشهدون** بها دائماً.

●●●

١٠١١. ﴿أمثال وحكم سورة العلق﴾

● ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾: مثلٌ يقال كلما اكتُشف اكتشافٌ عجيب، وقيل: المقصود بالآية آدم لأنه أول إنسان وعلّمه الله ما لم يعلم، وقيل: المقصود النبيّ ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴿١١٣﴾﴾ (النساء). والصحيح أن الآية عامة لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٧٨﴾﴾(النحل)، فكل من أظهر علما ضربنا له مثلا بهذ الآية.

●●●

١٠١٢. ﴿أمثال وحِكم سورة الزلزلة﴾

• ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ : هذا التصنيف للناس عند الحساب، وهو أيضاً من الحساب الأخلاقي. وهذا المثل ضربه الله تعالى بمعنى أن فعل كل ما يعمله الإنسان من صغيرة أو كبيرة فإنه في الحسبان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۝٤٠﴾ (النساء). والذى لايؤمن بالله قد يعمل مثقال ذرة من خير فيرى ثوابه في الدنيا، وهو عند الله خيّر ولكنه غير مؤمن، وأما المؤمن فإن عمل مثقال ذرة من شرّ، فإنه يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر، والدليل على ذلك أن هذه الآية لمّا نزلت على النبيّ كان **أبو بكر** يأكل، فأمسك وقال: يارسول الله، وإنّا لنرى ما عملنا من خير وشرّ؟ قال: «**ما رأيتَ مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ، ويُدخَّر لكم مثاقيل ذرّ الخير حتى تُعطوْ يوم القيامة**» رواه السيوطى، وفى القرآن: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾(الشورى).

•••

تـم بحمد الله ومنّته الباب الثامن من موسوعة القرآن،

ويليه بإذن الله الباب التاسع «أسباب النزول».

•••

«الباب التاسع»

«فى أسباب نزول آيات القرآن»

الآيات فى القرآن بعضها ليس له سببٌ خاص مرتبط به فى نزوله، وبعضها له أسبابه. والمراجع فى أسباب النزول كثيرة أفردها مشايخ أجلاء بعلم خاص، سمّوه «علم أسباب النزول»، ومن هؤلاء **البخارى، والمدينى، والواحدى، والجعبرى، وابن حجر، والسيوطى**، وكثيرون غيرهم.

وكان النبى ﷺ تُوجَّه إليه الكثير من الأسئلة، كما كانت تقع أحداث تتصل بالدعوة وسيرها، وأحوال المسلمين والتشريع لهم، وكانت تُشكل وقتها أسباباً للنزول، وعن ذلك تتنزل الآيات فى أعقابها، أو تتأخر لفترة من الفترات. ومن **أسباب النزول قد يحيط المسلم بالحكمة من الآية**، وما بها من أحكام، فيزداد اقتناعه، ويتلاشى شكه، ويترسّخ إيمانه. وتلقى الأسباب أضواء على الآية، فيزداد الفهم لما تتضمنه. والمثل على ذلك أن عروة بن الزبير لما قرأ الآية: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾** (البقرة)، تحصّلت له القناعة أنه لا جناح على من لا يطوّف بهما، فصحّحت له خالته أم المؤمنين **عائشة** فهمه: أنه لا جناح على من يطّوف بهما ـ وهما اللذان كان يطوّف بهما الكفار فى الجاهلية، فهذا هو الذى لا جناح فيه، وأمّا الطواف بهما فهو فرض فى الإسلام، وروت له عمّا كان فى الجاهلية وعمّا فعله الإسلام، وتحرُّج المسلمين أن يطّوفوا بهما فكان نزول الآية لتزيل هذا الحرج، وتفرض هذا الطواف، ولولا أن **عائشة** روت له عن الأسباب ما كان قد فهم، ولسلك فى الحج على مقدار فهمه هذا المنقوص.

ثم إن الإحاطة بأسباب الأحكام ـ كحكم **الظهار**، لا يجعلها قاصرة على أصحاب الحكم وحدهم، وهما هنا **خولة** وزوجها **أوس بن الصامت**. وأحيانًا لا يخرج حكم الآية عن سبب النزول، وفى معرفة شخوص الواقعة أو الحكم رفعٌ للظلم عن آخرين قد يتهمون عن غير حق، وفعلت ذلك **عائشة** لما اتّهم مروان أخاها عبد الرحمن، أنه الذى نزلت فيه الآية : **﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) ﴾**(الأحقاف)، فردّت عليه وقالت : والله ما هو به ! ولو شئت أن أسميه لسمّيته ! وعائشة ثقة، وأسباب النزول لا ينبغى أن تؤخذ إلا عن ثقة شَاهَد التنزيل، ووَقَفَ على الأسباب. ويكون التعبير

عن أسباب النزول إما صريحاً فيقال : وسبب نزول الآية، أو نزلت هذه الآية في كذا، أو يكون تعبيراً بالفاء، كقول جابر : كانت اليهود تقول من آتى امرأة من دبرها جاء الولد أحول، فأنزل الله ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾(البقرة ٢٢٣). وإذا كانت هناك أكثر من رواية فى أسباب النزول، فإما أن رواية منها هى الصحيحة، أو أنها المرجّحة، أو أن الروايات تستوى فى الصحة، أو أنها مردودة، وقد يتكرر السبب لأكثر من آية، فتتعدد الآيات للسبب الواحد. وقد يكون سبب الآية خاصاً وإنما ألفاظها عامة، ومن أسلوب الحكيم أن يُسأل عن الشئ فيأتى جواب الآية عن شئ آخر هو الأهم والأولى بالرعاية، ولا تعارض بين آيتين إحداهما تسأل عن شئ عام، والأخرى عن شئ خاص، فيبدو أنهما متناقضتان ولا تناقض. وغرضنا من هذا الباب أن يلم المسلم بأسباب النزول، ليعرف أن الدين مرتبط بواقع الحياة، وبمجريات الأمور مع الناس، فإذا كانت الآية أو السورة عن قصة فإنه يُعلَم أن القصة - وهى من باب الأدب - ليست لذات القصة، وإنما للفوائد المرجوّة منها، والدروس المستفادة، ولتسلية المؤمنين حتى يزدادوا إيماناً، فالنهايات متشابهة وإن اختلفت الوقائع والأحداث، وعِبَر الأمس هى نفسها عِبَر اليوم، أو يُعلَم أنه مثلما كان الناس فى القديم يعانون ولهم مشاكلهم، وكانوا يسألون فيها ليعرفوا الجواب ويعملوا بمقتضاه، فكذلك ينبغى أن يكون الشأن اليوم، والعلم بالأسباب يورث العلم بالمسببات.

●●●

١٠١٣- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الفاتحة﴾

قيل : نزلت سورة الفاتحة أو سورة الحمد بينما جبريل عند النبيّ ﷺ ، وجاء مَلَكٌ يبشّر بها وبخواتيم سورة البقرة، وتلاها جبريل. وهى أم القرآن، ولا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة.

●●●

١٠١٤- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة البقرة﴾

١ - فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾: قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وفيه نزلت هذه الآية، وأما الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ (البقرة) فقد نزلت فى مؤمنى العرب. وقيل الآيتان جميعاً فى المؤمنين.

٢-وفى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾: قيل : المراد بالناس المنافقون، وفى المنافقين نزلت فى سورة البقرة ثلاث عشرة آية.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾: قيل: نزلت في رؤساء اليهود، ومنهم: حييّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف ونظرائهما. وقيل: نزلت فيمن قُتل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح.

٤- وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾: قيل: نزلت في المنافقين من أهل يثرب، والسفهاء يعنون بهم أصحاب محمد ﷺ. وقيل: نزلت في شأن اليهود، وفيمن آمن منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وهؤلاء عندهم هم الجُهّال والخُرقاء والسفهاء كما في الآية.

٥- وفي قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن أبيّ وأصحابه، فكانوا يلتقون بالمؤمنين كأبي بكر، فيقول عبد الله بن أبي: مرحبا بالصدّيق، ويقول في عمر: مرحبا بسيد بني عديّ، وفي عليّ: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ وختنه، سيد بني هاشم، خلا رسول الله، فإذا افترقوا عن المؤمنين قال لأصحابه: أرأيتم كيف فعلت؟ فافعلوا كما فعلت، فلما أخبر رسول الله ﷺ بما يضمره عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، نزلت الآية.

٦- وفي قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾: قيل: هذه الآية نزلت في أحوال المنافقين، تشبيهًا لها بما في الصيب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾: قيل: نزلت الآية في المشركين، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وإنا لفي شك منه، وفي الآية التي قبلها الدلالة على وحدانية الله وقدرته، وفي هذه الآية الدلالة على نبوّة نبيّه، ولهذا نزلت.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾: قيل: لما ضرب الله مثل الذي استوقد ناراً، ومثل الصيب من السماء للمنافقين، قالوا: إن الله أعلى وأجل أن يضرب هذه الأمثال، فنزلت الآية. وقيل: ضرب الله مثلاً بالذباب: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا (٧٣)﴾ (الحج)، وبالعنكبوت: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا (٤١)﴾ (العنكبوت)، فقالوا: إن الله أجلّ من أن يضرب المثل بهذه الحشرات، فنزلت الآية. وقالت اليهود: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية.

٩-وفي قوله تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (٤٤) ﴾: قيل: نزلت في يهود المدينة كانوا يقولون للعرب من جيرانهم عن النبيّ ﷺ: اثبتوا على الذي أنتم عليه وما يأمركم به محمد، فإن أمره حق، ولا يفعلون هم ذلك. وكان أحبارهم يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي، ويحضّون على الصدقة ويبخلون، فنزلت الآية فيهم، تطالبهم بحقائق المعاني. والآية عامة في كل الناس.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) ﴾: قيل: إن سلمان سأل النبيّ ﷺ عن أهل دين كان معهم، وذكر لهم من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت الآية. وقيل: لما قصّ سلمان قصة أصحابه، قال له رسول الله ﷺ: «**هم في النار**»، قال سلمان: فأظلمت الدنيا في وجهي، فنزلت الآية فكأنما كشف عني جبل. وقيل: نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان خصيصاً.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** (٦٥) ﴾: قيل: نزلت في **أصحاب السبت**، نهاهم ربّهم أن يعملوا في يوم السبت، فاحتال أهل قرية على البحر أن يصيدوا يوم السبت، فعاقبهم الله لعدوانهم على السبت واستحلوا الصيد فيه، فمُسخوا قردة، أي سقطوا أدبياً عند الله، ولم تعد لهم منزلة، وصاروا مقلدّين لا فاعلين، يعني أُلغيت عقولهم، فكانوا نكالاً لمن يعمل بعدهم مثل ذلك الذنب.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٦٧) ﴾: قيل: نزلت في قوم موسى لما وجدوا قتيلاً بين أظهرهم، واشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف، فأمرهم بذبح بقرة، فسألوه أن يبيّن ما هي، ثم إنهم ضربوا الميت ببعض عظم البقرة، فأحياه الله، وأخبر عن قاتله ثم مات. والقصة دليل على أن شرع مَن قبلنا شرعٌ لنا، وعلى الأخذ **بالقسامة**، بقَسَم المقتول أن دمه عند فلان، **وباللّوث** وهي الإمارة تغلب على الظن بصدق مدعي القتل، كشهادة الواحد على رؤية القتل.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٥) ﴾: قيل: نزلت في اليهود، والخطاب لأصحاب النبيّ ﷺ، وكان للأنصار حرص على إسلام اليهود، بسبب ما بينهما من تحالف وجوار.

١٤-وفى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)** ﴾: قيل: نزلت فى اليهود، قالوا لبعضهم البعض لا تحدّثوا المسلمين بما نتفق عليه فيما بيننا حتى لا يتخذوه حجة عليكم. وقيل: إن علياً تسلل إلى يهود قريظة يوم خيبر، فسمعهم يسبّون الرسول ﷺ، ويعرضون له وأنهم نقضوا العهد. فعاد يسأل النبيّ ﷺ أن لا يذهب إليهم، وأصر النبيّ ﷺ على الذهاب، فلمّا واجههم قال لهم: «**أنقضتم العهد أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته**»، فقالوا له: ما كنت جاهلاً يامحمد، فلا تجهل علينا! من حدّثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا (خبر نقضهم العهد). وقيل: نزلت فى جماعة من اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا يقولون آمنا أن صاحبكم رسول الله، ولكنه مبعوثٌ إليكم خاصة. وقيل: نزلت فى ناس من اليهود نافقوا وكان يأتون المؤمنين من العرب بما تحدثوا به، فقالوا لبعضهم البعض: أتحدثونهم بما وعدكم الله من العذاب، ليقولوا: نحن أحب وأكرم إلى الله منكم.

١٥- وفى قوله: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)**﴾: قيل: هؤلاء هم اليهود الأميون الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، والآية دليل على أن من اليهود من لم يكن يعرف ما الكتاب وكانوا يجهلون دينهم.

١٦- وفى قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)**﴾: قيل: نزلت فى أحبار اليهود المتقدمين، وضعوا كتاباً من عندهم قالوا إنه التوراة، وصنّفوه أبواباً وأسفاراً، وقالوا إن التوراة أو الكتاب بخلاف لَوْحيّ الشهادة، وحرّفوا فى الشريعة، وحللوا وحرّموا، ومن ذلك أنهم أحلوا قتل غير اليهود، والاستيلاء على أموالهم وأراضيهم، وقالوا لن يضرنا ذنب فنحن أحباء الله وأبناؤه ووعدنا هذه الأرض فمن كان عليها فلا حق له فيها، وقالوا لن يعذبنا الله، وإن عذبنا فأربعين يوماً مقدار أيام العجل، ولذلك نزلت الآية فى هؤلاء.

١٧-وفى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)**﴾: قيل: نزلت فى بنى قينقاع وقريظة والنضير من اليهود، وكان بنو قينقاع أعداء قريظة، والأوس حلفاء بنى قينقاع،

والخزرج حلفاء بني قريظة؛ والنضير والأوس والخزرج إخوان، وقريظة والنضير إخوان؛ ثم افترقوا، واقتتلوا، ووقعوا أسارى، فكانوا يفدون أساراهم، فعيّرهم الله بذلك.

١٨- قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** (٨٩)﴾: قيل: القرآن مصدّق لما معهم، وكانوا من قبل يعيّرون الذين كفروا ويتكبّرون بما عندهم من الكتاب، فلما نزل القرآن يعادل ما عندهم كفروا به، فنزلت الآية تفضح عنصريتهم وتبيّن أن إيمانهم ليس لله، فلأن القرآن يصدّق على التوراة فكان الأحرى بهم أن يؤمنوا بالقرآن طالما هم يؤمنون بالتوراة. وطالما أن عندهم ما يدلهم على كونه منزّلاً من عند الله.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٩١)﴾: قيل: نزلت تنفي عن اليهود إيمانهم المدّعى بالله، فلو كانوا مؤمنين فلمَ قتلوا النبيين، كزكريا ويحيى - وكما قيل - وعيسى ابن مريم ؟

٢٠-وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** (٩٢)﴾: قيل: نزلت بسبب اتخاذهم العجل، صنعوه من ذهب، وصنعه لهم السامري، فلما غاب موسى على الجبل، وكان قد وعدهم أنه يغيب شهراً. فزاد الشهر عشرة أيام، صنعوا العجل ليحتفلوا ويصخبوا، وفي ذلك نزلت الآية.

٢١-وفي قوله: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٩٤)﴾: قيل: نزلت في اليهود، قالوا إن لنا الجنة من دون الناس، فنزلت الآية تؤكد أنهم كاذبون، فلو كانت لهم الجنة لتمنوا الموت حالاً، ولكنهم يخشونه لما يعلمون أنهم ارتكبوه من مظالم.

٢٢-وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** (٩٦) ﴾: قيل: نزلت في اليهود وتُنبّه إلى صفة فيهم هي حبّهم للدنيا، يتمنون لو يعيش الواحد منهم ألف سنة، فلو كانوا سيدخلون الجنة لما تمنوا أن يعمّروا، ومهما تمنّوا أن يطول بهم العمر فهم حتمًا إلى العذاب في نهاية الأمر.

٢٣-في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** (٩٧) **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** (٩٨)﴾: قيل: سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ليس من نبيّ من

الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة وبالوحى، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال! ذاك عدوّنا! لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالقطر وبالرحمة، لتابعناك، فأنزل الله الآية. أخرجه الترمذى.

٢٤-وفى قوله تعالى: **﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾**: قيل: خصّ الله جبريل وميكائيل لأن اليهود ذكروا أن النبىّ ﷺ يوحى إليه جبريل، وهو عدو اليهود، لأنه ينزل بالغلظة والشدة والحرب والهلاك، فلو كان يوحى إليه ميكائيل لكان أفضل، فميكائيل هو ملاك اليهود، لأنه ينزل بالقطر والرحمة (والقطر هو المطر)، وهو عن يمين الربّ، بينما جبريل عن يساره، فنزلت الآية بسببهما.

٢٥-وفى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾**: قيل: هذا جواب لليهودى ابن صوريا، قال لرسول الله ﷺ : يا محمد، ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أُنزلت عليك من آية بينة فنتبعك بها ؟ فأنزل الله هذه الآية.

٢٦-وفى قوله: **﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾**: قيل: نزلت فى نقضهم للعهود التى كانت بينهم وبين النبىّ ﷺ ، كفعل قريظة والنضير، كقوله: **﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ(٥٦)﴾**.

٢٧- وفى قوله: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾**: قيل: لمّا نزل القرآن يذكّر بالمرسلين، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون لمحمد؟! يزعم أن ابن داود كان نبياً ! والله ما كان إلا ساحراً ! فنزلت هذه الآية تنفى عن سليمان السحر، والسحر سواء لمن يمارسه أو يتعلمه كفر ، واليهود كفروا لتعلمهم السحر، والشياطين والملكان كفروا لممارستهم السحر فى بابل، والسحر أصله التمويه بالحيل.

٢٨-وفى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾**: قيل: كان اليهود يخاطبون النبىّ ﷺ يقولون **﴿رَاعِنَا﴾** (النساء ٤٦)، وقلدهم المسلمون عليها، وفى المخاطبة بها جفاء، ونهاهم سعد بن معاذ لمّا رآهم يقلدون اليهود فيها، فنزلت الآية تنهى عن ذلك وتأمر المسلمين أن يتخيّروا لمخاطبة النبىّ ﷺ أحسن الألفاظ وأرق المعانى.

٢٩- وفي قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾: قيل: سبب نزول الآية أن القرآن لما نزل به الأمر بتوجيه القبلة إلى الكعبة، طعن اليهود في الإسلام، وقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بالشيء ثم ينهاهم عنه، فما من أحد وضع هذا القرآن إلا هو، ولهذا ناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ (النحل) وأنزل ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ (١٠٦)﴾. وفي قوله ﴿ نُنسِهَا ﴾ قيل: كان ربما ينزل على النبيّ ﷺ الوحي بالليل، فينساه بالنهار، فأنزل الله الآية، وهذا غير معقول، لأنه لو كان هذا صحيحًا لكان غير مؤتمن على الرسالة، وقوله «إذا» فيه إثبات أنه ما تبدلت آية بآية، ولا نُسخت آية بآية.

٣٠- وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾: قيل: سؤال اليهود لموسى أن يريهم الله جهرة، والآية نزلت في سؤال العرب أن يأتي النبيّ ﷺ بالله والملائكة، أو أن يجعل لهم الصفا ذهباً، أو ينزّل عليهم كتاباً من السماء يقرءونه، أو يفجّر لهم أنهاراً فيتّبعونه ويصدّقونه، فنزلت الآية.

٣١- وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾: قيل: نزلت الآية في حييّ بن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب، وكانا من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصّهم الله برسول، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.... ﴾ الآية.

٣٢-وفي قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾: قيل: إن الرسول ﷺ قبل وقعة بدر، مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ بن سلول قبل أن يسلم، ونزل رسول لله ﷺ ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، وقال ابن سلول: أيها المرء (يقصد الرسول ﷺ) إن كان ما تقول صحيحاً فلا تُؤذنا به في مجالسنا، فارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، وركب رسول الله ﷺ وصار إلى سعد بن عبادة فشكا له، فقال سعد: بأبي أنت وأمي! اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب بالحق، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، فنزلت الآية. فلما كانت بدر وانتصر رسول الله ﷺ وقفل عائداً ومعه أسارى من صناديد قريش، قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه عن المشركين: هذا أمرٌ قد توجّه ... يعني استقر وبانت نتائجه، فبايعوا رسول الله ﷺ وأسلموا.

٣٣-وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾: قيل: قدم أهل نجران على النبيّ ﷺ وكانوا من النصارى، فأتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند النبيّ ﷺ، وقالت كل فرقة منهم للأخرى: لستم على شيء، فنزلت الآية.

٣٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١٤)﴾: قيل: نزلت فى الكفار تنهى أن يدخلوا المسجد الحرام، وكان النداء الذى أصدره النبيّ ﷺ في ذلك: «ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». وقبل ذلك منع المشركون النبيّ ﷺ والمسلمين أن يصلّوا فى الكعبة، وصدّوهم عنها يوم الحديبية فنزلت الآية.

٣٥-وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥)﴾: قيل: نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة فى ليلة مظلمة. وكانوا مع النبيّ ﷺ فى سفر فى ليلة مظلمة، فلم يدروا أين القبلة، فصلى كل رجل منهم على حاله، فلما أصبحوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ، فنزلت الآية. وقيل: كان النبيّ ﷺ يصلى تطوعاً على راحلته أينما توجهت به فأنزلت الآية. وقيل: لما عاب اليهود على المسلمين تَرْكهم لبيت المقدس قبلةً لهم، قالوا ما ولاّهم عن قبلتهم؟ فنزلت الآية.

٣٦-وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾: قيل: الذى قال ذلك هو رافع بن خزيمة.

٣٧-وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ(١١٩)﴾: قيل: نزلت فى قول أحدهم: «لو أنزل الله بأسه على اليهود لآمنوا».

٣٨-وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾: قيل: نزلت فى قول عمر للرسول ﷺ: لو صليت خلف المقام؟ فنزلت الآية.

٣٩-وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾: قيل: من سَفِه نفسه هم اليهود والنصارى؛ وقيل: إن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه: سلمة ومهاجراً، إلى الإسلام، فأسلم سلمة، وأبى مهاجر، فنزلت الآية فى مهاجر.

٤٠-وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾: قيل: قال ابن صوريا اليهودى للنبى ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم الآية.

٤١-وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾: قيل: المراد بالسفهاء يهود المدينة، قالوا للكفار: قد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم. وقالوا: قد التبس عليه أمره وتحير. وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم، واستهزأوا بالمسلمين.

٤٢-وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾: قيل: نزلت فيمن مات وهو يصلى إلى بيت المقدس، فلما وجه النبى ﷺ الناس إلى الكعبة، قالوا: يارسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله الآية.

٤٣-وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾: قيل: كان النبى ﷺ إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر به، وكان يحب أن يصلى إلى الكعبة، فأنزل الله الآية. وقيل: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وكان لا يوجه وجهه نحو الكعبة، فأنزل الله الآية.

٤٤-وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾: قيل: نزلت لما قتل تميم بن الحمام ببدر، وقيل هو عمير بن الحمام.

٤٥-وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾: قيل: قالت الأنصار إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة فأنزل الله الآية. وقيل: إن الناس سألوا الرسول ﷺ: كنا نطوف فى الجاهلية بين الصفا والمروة، والله تعالى انزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله الآية. وقال أبو بكر: هما تطوع: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾. وقيل كان على الصفا صنم يسمى إسافاً، وعلى المروة صنم يسمى نائلة، فكانوا يتمسحون بهما إذا طافوا، فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك، فانزلت الآية.

٤٦-وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾: قيل: هم أحبار اليهود ورهبان النصارى كتموا بعثة محمد ﷺ، وكتم اليهود أمر الرجم، وقيل: المراد كل من كتم الحق، فالآية نزلت في كل من كتم علماً يعلمه.

٤٧-وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾: قيل: قال أهل مكة من الكفار للنبي ﷺ: أنسب لنا ربّك؟ فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ (الإخلاص)، وقال يهود المدينة للمسلمين: انسبوا لنا ربكم، فنزلت الآية.

٤٨-وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾: قيل: لما نزلت ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ..﴾ (البقرة) قال بعضهم: كيف يسع الناس إله واحد؟! فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾، وقيل: لما نزلت: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قالوا: هل من دليل على ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ..﴾، فكأنهم طلبوا آية، فبيّن لهم دليل التوحيد، وأن هذا العالم والبناء العجيب لابد له من بانٍ وصانع.

٤٩-وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨)﴾: قيل: نزلت في ثقيف وخزاعة وبني مدلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام.

٥٠-وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾: قيل: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغّبهم فيه وحذّرهم عذاب الله ونقمته، فقال رافع بن حريملة، ومالك بن عوف: بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منا، ونزلت الآية في ذلك.

٥١-وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾: قيل: نزلت في رءوساء اليهود وعلمائهم وكانوا يكتمون ما عندهم من الكتاب نظير منافع الدنيا وما كانوا يأخذونه من الرشاد، والآية تتناول من المسلمين مما يكتم الحق بسبب دنيا يصيبها.

٥٢-وفي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾: قيل: الآية نزلت لتحسم الخلاف بين اليهود والمسلمين حول القِبْلة، فالبرّ ليس التولية إلى مشرق أو مغرب، وإنما البر هذه الوجوه الثمانية للخير. وقيل إن اليهود والنصارى كانوا يختلفون حول القبلة، أهي إلى الشرق أم إلى الغرب فنزلت الآية. وقيل إن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن البر فأنزل الله الآية.

٥٣-وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا فقالوا: نقتل بعبدنا فلان بن فلان، وبأَمَتنا فلانة بنت فلان، فنزلت الآية تنهى عن البغي في القصاص، وتقنن الحرّ بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، ولا خلاف في أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولوا الأمر ولم يعد هناك الآن عبيد ولا إماء.

٥٤-وفي قوله تعالى: **﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾**: قيل: نزلت في قيس بن السائب وكان يفطر ويطعم كل يوم مسكيناً.

٥٥-وفي قوله تعالى: **﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾**: قيل: سأل اليهود: كيف يسمع ربُّنا وبيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغِلَظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت الآية، وسببها أن قوماً قالوا للنبيّ ﷺ: أقريب ربّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت. وقيل نزلت: **﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾**(غافر ٦٠)، فقالوا: في أي ساعة ندعوه؟ فنزلت الآية كلها.

٥٦-وفي قوله تعالى: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ (١٨٧)﴾**: قيل: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء في رمضان كله، فكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله الآية. والرفث: كناية عن الجماع؛ وتختانون أنفسكم: من الخيانة، يعني يفعلون المحظور من الأكل والجماع في ليالي الصوم خيانة لأنفسهم؛

وباشــروهن: يعنى جامعوهن، وقيل: إنهم كانوا إذا اعـتكفوا فخرج الرجل لحاجته فلقى امرأته جامعها إن شاء، فنزلت الآية.

٥٧-وفى قوله تعالى: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾**: قيل: كان أصـحاب النبىّ ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فـنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى. وكان قيس بن صرمة الأنصارى صائماً، وكان يعمل فى النخيل بالنهار، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقـال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن انطلق فـأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبـته عيناه ونام حتى الصبـاح، فذهب للعمل، ولمّا انتصف النهـار غشى عليه، فذكر ذلك للنبىّ ﷺ فنزلت الآية.

٥٨-وفى قــوله تعــالى: **﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْـوَدِ مِنَ الْفَـجْرِ (١٨٧)﴾**: قيل: كان رجال إذا أرادوا الصـوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله **﴿مِنَ الْفَـجْرِ﴾**، فعلموا أنه إنما يعنى بذلك بياض النهـار، ولمّا سئل النبىّ ﷺ عن الخيط الأبيض والخيط الأسود قال: «**هو سواد الليل وبياض النهار**»، وسمى الفجر خيطاً لأن ما يبدو من البياض يرى ممتداً كالخيط.

٥٩-وفى قوله تعالى: **﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ (١٨٧)﴾**: قيل: كان الرجل إذا اعتكف فـخرج من المسجـد، جامع إن شـاء، فنزلت الآية، فبيّنت أن الجـماع يفسد الاعتكاف.

٦٠-وفى قوله تعالى: **﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾**: قيل: نزلت فى عبدان بن أشوع الحضرمى، ادّعى مالاً على امرئ القيس الكندى، واختصما إلى النبىّ ﷺ، فأنكر امرؤ القيس وأراد أن يحلف، فنزلت هذه الآية، فكفّ عن اليمين، وحكّم عبـدان فى أرضه ولم يخاصمه. والآية تنهى عن رشاء الحكام فى الحـقوق بغير الحق. وحكام اليوم عـين الرشاء لا مظنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٦١-وفى قوله تـعالى: **﴿يَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ (١٨٩)﴾**: قيل: هـذا مما سأل عنه اليـهود واعـترضوا به علـى النبىّ ﷺ، فقـال معاذ بـن جبل: يارسول الله، إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم

يزيد ويستوى ويستدير، ثم يتنقص حتى يعود كما كان ؟ فأنزل الله هذه الآية. وقيل : إن سبب نزولها قومٌ من المسلمين سألوا النبىّ ﷺ عن الهلال وما سبب محاقه وكمائه ومخالفته لحال الشمس، فنزلت الآية.

٦٢-وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)**﴾: قيل:الآية تتصل بما قبلها عن مواقيت الحج والسؤال عن الأهلة، وتجمع بين كل ذلك ونزلت فيه جميعاً. وكان الأنصار إذا حجوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم بل من سقف البيت، بأن يتسنّموا ظهور بيتهم بسلم أو غيره، وكذلك إذا أهلوا بالحج أو العمرة فإنهم إذا خرجوا من البيت وأرادوا أن يعودوا فى شأن من الشئون فإنهم لا يدخلون من الباب وإنما من سقف الدار. وكانوا يرون هذا من النسك والبر، فردّت الآية عليهم وبيّنت أن البرّ هو امتثال أوامر الله. وقيل: الناس جميعاً وليس الأنصار وحدهم، كانوا فى الجاهلية وفى أول الإسلام يفعلون ذلك، فإذا كانت بيوتهم فى الحضر من البناء فإنهم يصعدون إلى السقف من ظهر البيت بسلم، وإذا كانت بيوتهم من الشَّعْر ـ يعنى أنهم أهل خيام ـ يدخلون من خلف الخيمة، إلا من كان من الحُمْس. ولمّا أهلّ النبىّ ﷺ بالعمرة زمن الحديبية دخل حجرته ودخل خلفه أنصارىٌّ من بنى سلمة وخرق عادة قومه، فسأله النبىّ ﷺ : «**لمَ دخلت وأنت قد أحرمت**»، فقال : دخلتَ أنت فدخلتُ بدخولك. فقال النبىّ ﷺ : «**إنى أحمس**» أى من قوم لا يدينون بذلك، فقال له الرجل : دينى هو دينك، فنزلت الآية. والحُمْس هم المتشددون فى الدين، والحماسة الشدّة، وهى هنا إتيان البيوت من أبوابها.

٦٣-وفى قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)**﴾: قيل: **هذه أول آية نزلت فى الأمر بالقتال**، وكان القتال محظوراً قبل الهجرة، والأمر بالقتال **نزل فيمن يقاتلون المسلمين** ونهى عن العدوان، وسبب الآية أن النبىّ ﷺ لمّا خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة، نزل **بالحديبية** فصدّه المشركون عن البيت، وأقام بالحديبية شهراً، فصالحوه على أن يرجع من عامه، على أن تُخلَى له مكة فى العام المقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على أن لا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة، فلما كان من قابل، تجهّز **لعمرة القضاء**، وخاف المسلمون غدر الكفار، وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام، فنزلت الآية تُحلّ القتال إن قاتلهم الكفّار، فكان ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كفّ عنه.

٦٤-وفى قوله تعالى: ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى**

يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾: قيل: نزلت الآية في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله واقد بن عبد الله التميمي في آخر يوم من رجب الشهر الحرام الممنوع فيه ذلك.

٦٥-وفي قوله تعالى: **﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية في عمرة القضاء عام الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية في ذي القعدة سنة ست، فصدّه المشركون كفار قريش عن البيت فانصرف، ووعده الله سبحانه أن سيدخله، فدخله سنة سبع، وقضى نسكه، فنزلت هذه الآية. وقيل: إن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: أنهيت يا محمد عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم، فأرادوا قتاله، فنزلت الآية. والمعنى: إن استحلوا ذلك فقاتلهم، فأباح الله بالآية مدافعتهم. والقول الأول هو الأشهر وعليه الأكثر.

٦٦-وفي قوله تعالى: **﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾**: قال أبو أيوب الأنصاري: أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار، لمّا نصر الله نبيه وأظهر دينه، فقلنا: هلموا نقيم في أموالنا ونصلحها. فأنزل الله عزّ وجلّ الآية. والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد. وفي رواية أخرى قال: أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لمّا أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله على نبيّه ﷺ يرد عليه ما قلنا: **﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾**، فكانت التهلكة هي الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو.

٦٧-وفي قوله تعالى: **﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (١٩٦)﴾**: قيل: الآية نزلت في أدائهما والإتيان بهما، وتمامهما بعد الشروع فيهما، فمن أحرم بنسك وجب عليه المضي فيه ولا يفسخه. وإتمامها هو أن تُحرَم بهما من دويرة أهلك، وأن تخرج قاصداً لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك، وألا يستحلّ فيهما ما لاينبغي للمُحرِم. والآية دليل على وجوب العمرة.

٦٨-وفي قوله تعالى: **﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ (١٩٦)﴾**: قيل: إن كعب بن عُجرة رآه رسول الله ﷺ والقمل يتساقط على وجهه من رأسه، فأمره أن يحلق وهو مُحرمٌ بالحديبية وقد حُصر المسلمون، وأن يصوم

ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، أو يهدى شاة، ونزلت هذه الآية. والإجماع على أن المحرم ممنوع من حلق شعره إلا في حالة العلة.

٦٩-وفي قوله تعالى: ﴿ **فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)** ﴾: قيل: الآية في المُحصرين. يُحصرون حتى يفوتهم الحج، ثم يصلون إلى البيت الحرام فيحلّون بعمرة، ثم يقضون الحج من قابل، فهؤلاء قد تمتعوا بما بين العمرة إلى حج القضاء.

٧٠-وفي قوله تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٧)**﴾: قيل: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون، ويقولون نحن متوكلون، فأنزل الله الآية.

٧١-وفي قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)**﴾: قيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتّجروا في موسم الحج، فسألوا الرسول ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية عن التجارة في مواسم الحج. وفي ذلك قال رسول الله ﷺ للذي سأله عن التجارة في الحج: «إن لك حجاً».

٧٢-وفي قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)**﴾: قيل: الخطاب للحُمس وهم المتحمّسون في دينهم، وكانوا لايقفون مع الناس بعرفات بل بالمزدلفة وهي من الحرم، ويقولون: نحن قطين الله ـ يعني سكان البيت من قَطَن يقطن أي يسكن، وقطين جمع قاطن، فقيل لهم أفيضوا مع الجملة.

٧٣- وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠)**﴾: قيل: كان أهل الجاهلية يقفون في موسم الحج يفاخرون بآبائهم فأنزل الله الآية. وقيل: كانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة، وذكروا آباءهم وفعالهم في الجاهلية فنزلت الآية. وقيل: كانوا إذا جاء الموقف دعوا: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاء، ولايذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل فيهم: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)**﴾ (البقرة).

٧٤- وفي قوله تعالى ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي**

قلبه وهو ألد الخصام (٢٠٤)﴾ : قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، أو أبي شريق، والأخنس لقب لُقِّب به، لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من حلفائه من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ، وكان رجلاً حلو القول والمنظر، وجاء إلى النبيّ ﷺ وأظهر الإسلام، ثم هرب بعد ذلك، فمر بزرع للمسلمين وبحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحُمُر، وفيه نزلت هذه الآية، وكذلك الآية: **﴿ولا تطع كل حلاف مهين (١٠) هماز مشاء بنميم (١١)﴾** (القلم)، والآية: **﴿ويل لكل همزة لمزة (١)﴾** (الهمزة)، وقيل : هذا غير صحيح، فما ثبت قط أن الأخنس أسلم. وقيل: الآية نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قُتلوا في غزوة الرجيع: عاصم بن ثابت وخبيب، وغيرهما، وقالوا : ويح هؤلاء ، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآية في صفات المنافقين. وقيل : الآية نزلت في كل مبطن كفراً أو نفاقاً أو كذباً أو إضراراً، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك، فهي عامة

٧٥- وفي قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد (٢٠٧)﴾** : قيل: نزلت في صهيب بن سنان بن مالك، فإنه أقبل مهاجراً إلى الرسول ﷺ، فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته، وانتبل ما في كنانته، وأخذ قوس، ولكنهم لم يتركوه إلا أن دلّهم على ماله في مكة، فلما قدم على الرسول ﷺ نزلت الآية، وقال له : «ربح البيع أبا يحيى»، وتلا عليه الآية. وقيل : إن المشركين أخذوا صهيباً فعذّبوه، فسألهم أن يتركوه وهو شيخ كبير ولا يضرهم إن كان منهم أو من غيرهم، وأعطاهم ماله بشرط أن يذروه وابنه ويعطوه راحلة ونفقة، فخرج إلى المدينة، وتلقاه أبو بكر وعمر ورجال، فقال له أبو بكر : «ربح بيعك أبا يحيى. أنزل الله فيك آية»، وقرأها عليه. وقيل : الآية نزلت فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيُقتل، وقيل : نزلت في شهداء غزوة الرجيع. وقيل: هم المهاجرون والأنصار. وقيل : الآية عامة، وهذا هو الأصح.

٧٦- وفي قوله تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب (٢١٤)﴾** : قيل: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة، والحر والبرد، وسوء العيش وأنواع الشدائد. وقيل : نزلت في حرب أُحد ، ونظير هذه الآية في سورة آل عمران : **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (١٤٢)﴾**. وقيل : نزلت الآية تسليةً للمهاجرين حين

تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهر اليهود لهم العداوة، وأسرّ قومٌ من الأغنياء النفاق، فأنزل الله تعالى الآية تطييباً لقلوبهم.

٧٧-وفي قوله تعالى: **﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم (٢١٥)﴾**: قيل: نزلت الآية في عمرو بن الجموح الأنصاري، وكان شيخاً كبيراً، فقال: يارسول الله، إنّ مالي كثير، فبماذا أتصدّق؟ وعلى من أنفق؟ فنزلت.

٧٨- وفي قوله تعالى: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦)﴾**: قيل: نزلت في أصحاب النبيّ ﷺ خاصة، فكان القتال مع النبيّ ﷺ فرضَ عَين عليهم، فلما استقر الشرع صار على الكفاية؛ والذي استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد ﷺ فرض كفاية، إلا أن يتهدد العدو كل بلاد الإسلام فيصبح الجهاد حينئذ فرض عين.

٧٩-وفي قوله تعالى: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٧)﴾**: قيل: بعث النبيّ ﷺ رهطاً جعل عليه عبد الله بن جحش، فلقوا ابن الحضرمي وكان مشركاً فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب، فقال المشركون: قتلتم في الشهر الحرام؟ فأنزل الله الآية. وقيل: سبب نزولها أن رجلين من بني كلاب لقيا عمرو بن أمية الضمري في أول يوم من رجب، فقتلهما لأنهما مشركان، فقالت قريش: قتلهما في الشهر الحرام. فنزلت الآية.

٨٠- وفي قوله تعالى: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)﴾**: قيل: الآية نزلت في المؤمنين، لأنهم السائلون المهتمون بالسؤال عن ذلك لصلة ذلك بصحة دينهم. والخمر تخمّر العقل وتستره وتغطيه فسميت بذلك. وفي الميسر كانوا يقامرون بأموالهم وزوجاتهم ومنافع الخمر ربح التجارة، ومنافع الميسر كسب المال بغير كدّ ولا تعب، وإثمهما أكبر من النفع، والإثم الكبير بعد التحريم، والمنافع قبل التحريم.

٨١-وفي قوله: **﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم**

تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾ : قيل: الآية نزلت في المؤمنين لأنهم السائلون، والسؤال الأول عن النفقة «إلى من تُصرف»: **﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾**. وهذا السؤال الجديد في الآية عن «قدر الإنفاق»، والجواب : أنفقوا العفو ـ أي تصدّقوا بما زاد عن حاجة العيال، كما قيل : صدقة عن ظهر غنى، وفي الحديث: «**خير الصدقة ما أنفقت عن غنى**»، أو «**خير الصدقة ما أنفقت عن ظهر غنى**». والآية في نفقات التطوع.

٨٢-وفي قوله تعالى: **﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾** : قيل: لما نزلت : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾** (النساء) ، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك للرسول ﷺ فنزلت: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ...﴾** الآية، فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. وقيل : كان السائل **عبد الله بن رواحة**. وقيل : كان العرب يتشاءمون بملامسة أموال اليتامى في مؤاكلتهم، فنزلت الآية.

٨٣- وفي قوله تعالى: **﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾** : قيل: نزلت هذه الآية في **أبي مرشد الغنوي**، وقيل في **مرثد بن أبي مرثد**، واسمه **كناز بن حصين الغنوي**، بعثه رسول الله ﷺ سراً إلى مكة يخرج رجلاً من أصحابه، وكان له بمكة امرأة يحبها في الجاهلية يقال لها «**عناق**»، فجاءته فقال لها : إن الإسلام حرّم ما كان في الجاهلية، قالت : فتزوجني. قال : حتى استأذن رسول الله ﷺ . فأتى النبيّ ﷺ ، فنهاه عن التزوج بها لأنه مسلم وهي مشركة، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية في **عبد الله بن رواحة**، وكان له أَمَة سوداء، فغضب عليها فلطمها، ففزع، فأتى النبيّ ﷺ فأخبره، وقال : لأعتقها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه الناس، وقالوا: تزوج أَمَة ! فأنزل الله الآية لهذا السبب. وقيل: إن **عبد الله بن رواحة**، أتى النبيّ ﷺ فأخبره، قال له : إنها تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد الشهادتين، فقال النبيّ ﷺ : «**إنها مؤمنة**»، فقال ابن رواحة : لأعتقنها ولأتزوجنها ـ وتزوجها فعلاً، فطعن الناس عليه أن ينكح أمةً، وكانوا يرون أن ينكحوا المشركات رغبةً في أحسابهن، فنزلت الآية.

٨٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)**﴾: قيل: كان السائل ثابت بن الدحداح، وقيل: أسيد بن خضير وعبّاد بن بشير. وهو قول الأكثرين. وسبب السؤال أن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنوا بسنة بنى إسرائيل فى تجنّب مؤاكلة الحائض ومساكنتها، فنزلت هذه الآية. وقيل: كان اليهود يتجنبون النساء فى الحيض، فنزلت الآية.

٨٥-وفي قوله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)**﴾: قيل: كان الرجال يأتين النساء فى الدبر فنهوا عن ذلك؛ وقيل: كان المهاجرون يشرحون النساء، أى يأتونهن مستلقيات على أقفيتهن، فحدث أن تزوج مهاجرٌ من أنصارية، وكان الأنصار يقلدون أهل الكتاب ويأتون النساء على حرف - أى على الجنب، فرفضت الأنصارية أن تؤتى مستلقية على القفا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنزلت الآية. وقيل: إن رجلاً جاء رسول الله ﷺ وقال: هلكتُ يارسول الله! حولّت رحلى الليلة! فلم يرد عليه رسول الله ﷺ، حتى نزلت الآية. فقال له: «أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة». وقيل: كان القرشيون يَجبُّون النساء (أى يأتونهن باركات)، فلما دخلوا المدينة ونكحوا نساء الأنصار، أرادوا منهن ما كانوا يريدونه من نسائهم، فكره نساء الأنصار ذلك وأعظمنه، وكن يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله الآية تبيح كل الهيئات طالما الوطء فى موضع الحرث، سواء شاءوا من خلف أو قدّام، أو كانت المرأة باركة، أو مستلقية، أو مضطجعة. ولفظ الحرث يعطى أن الإباحة لا تقع إلا فى الفرج، لأن الفرج موضع وضع المنى كما توضع البذرة في الأرض بعد حرثها.

٨٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)**﴾: قيل: نزلت بسبب الصدّيق إذ حلف ألا ينفق على مسطح حين تكلم عن عائشة فى حديث الإفك. وقيل: نزلت فى الصدّيق أيضاً حين حلف ألا يأكل مع الأضياف. وقيل: نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم بشير بن النعمان وكان ختنه على أخته.

٨٧- وفي قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)**﴾: قيل: كانوا فى الجاهلية يُؤلون السنة والسنتين، فنزلت الآية توقّت لهم أربعة أشهر لئلا يؤذون المرأة عند المساءة. وآلى النبىّ ﷺ لمّا سألته نساؤه النفقة ما ليس عنده.

٨٨- وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾: قيل: إن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية طُلّقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدّة، فأنزل الله العدّة للطلاق.

٨٩- وفي قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. (٢٢٩)﴾: قيل: لم يكن للطلاق في الجاهلية عدد، وللرجل أن يطلق ما يشاء، فإذا كادت تحلّ من طلاقه راجعها ماشاء، فقال رجل لامرأته على عهد النبيّ ﷺ : لا آويك ولا أدعك تحلّين. قالت : كيف ، قال : أطلقك فإذا دنا مُضيّ عدّتك راجعتُك، فشكت المرأة إلى عائشة، فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ ، فنزلت الآية.

٩٠-وفي قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ... (٢٢٨)﴾: قيل: نزلت الآية في النساء، كان من عاداتهن في الجاهلية أن يكتمن الحمل إذا طلقن، ليلحقن الولد بالزوج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية. وقيل: نزلت في رجل من أشجع، أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله، إني طلقت امرأتي وهي حبلى، ولست آمن أن تتزوج فيصير ولدي لغيري، فأنزل الله الآية ورُدّت امرأة الأشجعي عليه.

٩١-وفي قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾ : قيل: كان الرجل في الجاهلية يأكل من امرأته نحلته (عطيته) التي نَحَلها ولا يرى أن عليه جُناحاً، فأنزل الله: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ... (٢٢٩)﴾، وقيل: نزلت في ثابت بن قيس وامرأته حبيبة، وكانت قد إشتكته إل رسول الله ﷺ ، فقال: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فنزلت: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾.

٩٢- وفي قوله تعالى : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾: قيل: نزلت الآية في عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك، كانت عند رفاعة بن وهب بن عتيك وهو ابن عمها، فطلّقها طلاقاً بائناً، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظي، فطلقها، فأتت النبيّ ﷺ فقالت: إنه طلقني قبل أن يمسني، أفأرجع إلى الأول؟ قال

ﷺ: لا حتى يمس، ونزلت فيها: **﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ..﴾** فيجامعها، فإن طلقها بعدما جامعها، فلا جناح عليهما أن يتراجعا.

٩٣- وفي قوله تعالى: **﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم (٢٣١)﴾**: قيل: كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ثم يطلقها ويفعل ذلك ليضارها ويعضلها فأنزل الله هذه الآية. وقيل: نزلت في رجل من الأنصار يدعى **ثابت بن يسار**، طلق امرأته حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة، راجعها، ثم طلقها، مضارةً، فأنزل الله: **﴿ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا﴾**، **﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوا﴾**.

٩٤- وفي قوله تعالى: **﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢٣٢)﴾**: قيل: نزلت الآية في **معقل بن يسار**، وكانت أخته تحت **أبي البداح**، فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم ندم، فخطبها فرضيت، وأبى أخوها أن يزوجها، فنزلت الآية، فدعا الرسول ﷺ **معقلاً** وقال له: إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك عن **أبي البداح**، فقال: آمنت بالله، وزوجها منه. وقيل: نزلت الآية في **جابر بن عبد الله الأنصاري**، وكانت له ابنة عم، فطلقها زوجها، فانقضت عدتها، ثم رجع يريد رجعتها، فقال له جابر: طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية! وكانت المرأة تريد زوجها قد راضته، فنزلت الآية.

٩٥- وفي قوله تعالى: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين(٢٣٨)﴾**: قيل: كان النبي ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه، فنزلت الآية. وقيل: هي العصر، أو العشاء، أو الصبح، والصحيح عن علي أنها العصر. وقيل: كانوا يتكلمون على محمد رسول الله ﷺ في الصلاة - يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت **﴿وقوموا لله قانتين﴾** فأمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام.

٩٦-وفي قوله تعالى: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون (٢٤٥)﴾**: قيل: الآية تأنيس للناس وتقريب للمعاني بما يفهمونه، وشبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه بذل

النفوس والأموال في مقابل الجنة بالبيع والشراء، والمراد بالآية الحثّ على الصدقة، وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين، والتوسعة عليهم، وفي سبيل الله ونصرة الدين.

٩٧- وفي قوله تعالى: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾** : قيل: عن ابن عباس: نزلت هذه في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم كثير من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا ! فأنزل الله تعالى هذه الآية. والمقلات: التي لا يعيش لها ولد. وفي رواية قال آباء هؤلاء من الأنصار: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام أفنكرههم عليه؟ فنزلت: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾**، فمن شاء التحق بهم أي باليهود، ومن شاء دخل الإسلام. وقيل: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. وفي رواية: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين، كان له ابنان، فقدم تجار نصارى من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ من يردّهما، فنزلت: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾**، فوجد أبو الحصين في نفسه على النبيّ ﷺ حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾** (النساء).

٩٨-وفي قوله تعالى: **﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾**: قيل: نزلت في قوم آمنوا بعيسى، فلما جاء محمد ﷺ كفروا به، فذلك اخراجهم من النور إلى الظلمات. ولفظ الآية مستغن عن التخصيص، ومترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها، وهم الذين وليُّهم الله، وكفر بعضهم فهؤلاء أولياوهم الطاغوت.

٩٩- وفي قوله تعالى: **﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾** : قيل: نزلت هذه الآية في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال: يارسول الله، كانت لي ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربّي. فقال رسول الله ﷺ: بارك الله فيما أمسكت وفيما

أعطيت. وقال عثمان : يارسول الله، عليّ جهاز من لا جهاز له. فنزلت هذه الآية فيهما. وقيل نزلت في نفقة التطوع قبل آية الزكاة، ولاصحة لنسخها بآية الزكاة، لأن الإنفاق في سبيل الله بخلاف الزكاة، فالإنفاق في كل وقت، وسُبله كثيرة وأعظمها الجهاد.

١٠٠- وفي قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾** : قيل: نزلت في **عثمان بن عفان**، فقد جاء بألف دينار في جيش العُسْرة فصبّها في حجر رسول الله ﷺ، فكان يُدخل يده فيها ويقلبها ويقول : «**ما ضرّ ابن عفان، عملٌ بعد اليوم. اللهم لاتنسى هذا اليوم لعثمان**» أخرجه أحمد. ودعا له قال : «**يارب عثمان، إني رضيتُ عن عثمان فارضَ عنه**»، فمازال يدعو حتى طلع الفجر، فنزلت الآية.

١٠١- وفي قوله تعالى: **﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾** : قيل: نزلت هذه الآية في المسلمين، وكانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله ﷺ : «**لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم**»، فنزلت الآية تبيح الصدقة على من ليس من دين الإسلام. وروى أن النبيّ ﷺ أُتي له بصدقات، فجاءه يهودى فقال: أعطني، فقال النبيّ ﷺ : «**ليس لك من صدقة المسلمين شيء**»، فذهب اليهودى غير بعيد، فنزلت: **﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾** فدعاه رسول الله ﷺ فأعطاه. وقيل: إن **أسماء بنت أبي بكر** أرادت أن تصل جدّها **أبا قحافة** ثم امتنعت لكونه كافراً فنزلت الآية في ذلك.

١٠٢- وفي قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾** : قيل: نزلت في عليّ، كانت معه أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية. **والحديث ضعيف**. وواضح أنه من موضوعات الشيعة، وقيل: الآية نزلت في **عبدالرحمن ابن عوف** و**عثمان بن عفان**، في نفقتهما في **جيش العُسْرة**.

١٠٣- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾** : قيل: نزلت في **بنى عمرو بن عوف** من ثقيف، وفي **بني المغيرة**، وكانوا بنو المغيرة يقترضون من **ثقيف** بالربا، فنزلت الآية.

١٠٤- وفي قوله تعالى : **﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن**

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾ : قيل: إن ثقيفاً لما طلبوا أموالهم التى لهم على بنى المغيرة، شكى بنو المغيرة العسرة، وطلبوا الأجل، إلى وقت ثمارهم، فنزلت الآية.

١٠٥- وفى قوله تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾** : قيل: لما نزلت **﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾** (البقرة) اشتد ذلك على الصحابة ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: **﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾** (البقرة٩٣)، بل قولوا: **﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾**، فلما اقرأها القوم وذُللت بها ألسنتهم، أنزل الله فى أثرها: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ ..﴾**، ثم إنه أنزل: **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ..(٢٨٦)﴾** (البقرة).

١٠٦- وفى قوله تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾** : قيل: هذه الآية نزلت فى قصة المعراج، وكل القرآن نزل به جبريل إلا هذه الآية، فإن النبىّ ﷺ هو الذى سمعها ليلة المعراج. فإنه لما صعد مع جبريل حيث شاء الله له أن يكون، أشار إليه جبريل أن سلّم على ربّك، فقال له النبىّ ﷺ : **«التحيات لله والصلوات الطيبات»**، فقال الله: **«السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته»**، فأراد النبىّ ﷺ أن يكون لأمته حظٌ فى السلام فقال: **«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»**، فقال جبريل وأهل السماء: **«أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»**. فقال الله تعالى: **«آمن الرسول»**، على معنى صدّق الرسول **«بما أنزل إليه من ربّه»**، فأراد النبىّ ﷺ أن تشاركه أمته فقال: **«والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله»**. وقيل: نزلت حين شقّ على أصحاب النبىّ ﷺ ما توعدهم الله تعالى به، من محاسبتهم على ما أخفته نفوسهم، فشكوا ذلك إلى النبىّ ﷺ فقال: **«فلعلكم تقولون سمعنا وعصينا كما قالت بنو اسرائيل»؟** قالوا: بل سمعنا وأطعنا. فأنزل الله تعالى ثناءً عليهم قال: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾**، فقال ﷺ : **«وحقّ لهم أن يؤمنوا»**.

١٠٧- وفى قوله تعالى: **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**

رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ : قيل: إن المسلمين لما نزلت: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)**﴾ (البقرة) دخل قلوبهم منها شيء، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا»، فألقى الله الإيمان في قلوبهم وأنزل: ﴿**وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾، فقالوا: قد فعلنا، فنزلت: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)**﴾، فقالوا: قد فعلنا.

●●●

١٠١٥- ﴿في أسباب نزول آيات سورة آل عمران﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)**﴾: قيل: إن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، فجمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال لهم: «يامعشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال! إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)**﴾ حتى قوله: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (١٣)**﴾، وقيل: إن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أحد، نزلت الآية.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)**﴾: قيل: لما نزلت الآية ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)**﴾ (آل عمران): قال عمر بن الخطاب: الآن يا ربّ حين زيّنتها لنا! فنزلت: ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ...**﴾.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا**

إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ : قيل: نزلت لما قدم حبران من الشام، وسألا الرسول عن أعظم شهادة فى القرآن، فنزلت الآية.

٤- وفى قوله تـعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾** : قيل : كان ناسٌ من بنى إسرائيل جاءهم النبيـون يدعونهم إلى الله فقتلوهم، فقام أناس من بعـدهم من المؤمنين، فدعوهم إلى الإسلام فقتلوهـم، وفى هؤلاء وهؤلاء نزلت الآية. وقيل: الآية نزلت فى اليهود ، فقد كانت الأنبياء تجيء إلى بنى إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعوهـم فيأمرون بالقسـط فيُقتلون، وهكذا.

٥- وفى قوله تـعالى: **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾** : قـيل : هذه الآية نزلت بسـبب أن رسول الله ﷺ دخل بيـت المدراس (المدرسة) على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقـال له نعيم بن عـمرو، والحـارث بن زيد : على أى دين أنت يا محـمد؟ فقـال النبىّ ﷺ : «إنى عـلى ملّـة إبراهـيم»، فقـالا : فإن إبراهيم كان يهودياً؟ فـقال النبىّ ﷺ : «فهلموا إلى التـوراة فهى بيننا وبينكم»، فأبيا عليه، فنزلت الآية. وقـيل: نزلت لأن جماعة من اليهود أنـكروا نبوّة محمد ﷺ ، فـقال لهم النبىّ ﷺ : «هلموا إلى التـوراة ففيـها صفتى»، فأبوا.

٦- وفى قوله تـعالى: **﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾** : قـيل: إن هذه الآية فى عبادة بن الصـامت الأنصارى، وكان بدرياً تقـياً، وله حلف من اليهود، فلمّا خرج النبىّ ﷺ يوم الأحزاب، قال عبادة : يا نبىّ الله، إن معى خمسمائة رجل من اليـهود، وقد رأيتُ أن يخـرجوا مـعى، فأستـظهر بهم على العـدو، فأنزل الله الآية. وقيل: الآية نزلت فى عمّار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون.

٧-وفى قوله تـعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾** : قيل: إن أقواماً من اليهود قالوا : إنا لنحب ربّنا، فأنزل الله عز وجلّ الآية. وقـيل: إن المـسلمين قـالوا : والله يارسـول الله إنا لنحب ربّنا، فأنزل الله عـز وجلّ الآية.

٨- وفى قوله تـعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾** : قيل: نزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبىّ ﷺ

قوله: إن عيسى عَبْدُ الله وكلمتُهُ، فقالوا: أرنا عبداً خُلق من غير أب ؟ فقال لهم: «آدم ليس له أب ولا أم» ونزلت الآية.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾** : قيل: الآية نزلت في نصارى نجران لما أصروا على أقوالهم أن عيسى ابن الله، فدعاهم النبيّ ﷺ أن يباهلوه، أي يجتمعوا ويدعوا أن لعنة الله على الكاذبين، فرفضوا، وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا الجزية، فصالحهم الرسول ﷺ على ذلك بدلاً من الإسلام.

١٠- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾** : قيل: نزلت الآية في يهود المدينة، دعاهم النبيّ ﷺ إلى **كلمة سواء**، أي الكلمة الفصل التي هي الحق ولا حق بعدها: ألا يعبدوا إلا الله، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة كالأرباب، وقبلوا تقديراتهم التي قدروها دون مستندات بيّنة، وأفتوا في الدين بغير علم، وقالوا إن الله يطيع الأحبار ولا تطيع الأحبار الله.

١١- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾**: قيل: الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا بعده.

١٢- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾** : قيل: إن رؤساء اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: يامحمد، لقد علمتَ أنّا أوْلى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك، فإنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد، فأنزل الله هذه الآية.

١٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾** : قيل: نزلت الآية في معاذ بن جبل وجماعته، حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾** (البقرة).

١٤- وفى قوله تعالى: **﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾** : قيل: نزلت فى كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وغيرهما، قالوا للسفلة من قومهم: آمنوا بالذى أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار - يعنى أوله، وسمّاه **وجهاً** لأنه أحسنه، وفعلوا ذلك ليشككوا المسلمين. **والطائفة** هى الجماعة، وهؤلاء كطائفة كان بتعبير العصر «**الطابور الخامس**»، غرضهم تخريب الجبهة الداخلية للمسلمين.

١٥- وفى قوله تعالى: **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾** : قيل: الذى تأمنه من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، والذى لا تأمنه بدينار مثل **كعب بن الأشرف**، ففى أهل الكتاب: الخائن والأمين، والخيانة فيهم أكثر، والكلام فى الآية على الغالب، وقولهم **﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾** مبدأ أخلاقى عندهم فى **التلمود**، فالأمانة فيهم بين اليهودى واليهودى، بينما خيانة غير اليهودى وسرقته حلال، وهو ما يعرف **بازدواجية الأخلاق** ونلاحظه حالياً فى السياسة الأمريكية التى تحكمها الأخلاق اليهودية، فضرب اليهود للمسلمين حلال، وضرب المسلمين لليهود حرام!

وقيل: إن اليهود فى عهد الرسول ﷺ استدانوا فيما بينهم أموالاً، فلمّا أسلم أصحابها، قال المدينيون للدائنين ليس علينا شىء لأنكم تركتم دينكم فسقط عنا دينكم.

١٦- وفى قوله تعالى: **﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾**: قيل: نزلت كردّ على **الأخلاق اليهودية** التى تستحلّ أموال غير اليهود، وتضع أخلاق المسلمين كمقابل لأخلاق اليهود. ولمّا قال رجل لابن عباس: إنا نصيب فى العمد من أموال أهل الذمّة الدجاجة والشاة ونقول: ليس علينا فى ذلك بأس، فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب **﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾** (آل عمران٧٥).

١٧- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾** : قيل: الآية نزلت فى **الأشعث بن قيس**، قال: كان بينى وبين رجل من اليهود أرض، فجحدنى، فشكوته إلى النبىّ ﷺ، وحضرنا أمامه فقال لى رسول الله ﷺ: «**هل لك بيّنة؟**» قلت: لا. قال لليهودى: «**احلف**»، قلت: «**إن يحلف يذهب بمالى**، فأنزل

الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً...**﴾. وقيل: إن إعرابيًا جاء إلى النبيِّ ﷺ يسأل عن الكبائر؟ قال: «**الإشراك بالله، ثم عقوق الوالدين، ثم اليمين الغَمُوس**»، فسئل: وما اليمين الغموس؟ قال: «**التي تُقتَطَع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب**»، وقال: «**مَن اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب له الله النار وحرَّم عليه الجنة**». فنزلت الآية. **واليمينُ الغَموس**: هي اليمين الكاذبة التي يتعمَّدها صاحبها.

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية في **نصارى نجران**، وكذلك قيل إن سورة آل عمران كلها إلى قوله ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ**﴾ (آل عمران ١٢١) كان سبب نزولها نصارى نجران، ومُزِج معهم اليهود، لأنهم فعلوا من الجُحد والعناد ما فعل هؤلاء النصارى. **ونجران**: مدينة واقعة بين الحجاز واليمن، وكان يسكنها في الجاهلية عدد من النصارى **المونوفيسيّون** - أي يقولون بطبيعة واحدة للمسيح، وهؤلاء صالحهم النبيّ ﷺ ودخلوا في الإسلام، إلا من هاجر منهم في القرن السابع إلى **نجران العراق** بالقرب من الكوفة، وبينها وبين واسط. وفي نصارى نجران نزلت أيضاً **سورة البروج**، وفيها: ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥)**﴾ (البروج)، وكان **ذو نواس** ملك حِميَر اليهودي قد أكرههم على اعتناق اليهودية، فأبوا، فقتلهم مع الحارث مليكهم سنة ٥٢٣ م، بأن حفر لهم حفرة أوقد فيها النار وألقى بهم فيها، فاشتهروا باسم **شهداء نجران**.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)**﴾: قيل: قالت اليهود للرسول ﷺ: أتريد أن نتخذك يا محمد ربًا؟ فقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)**﴾ (آل عمران) إلى قوله: ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا (٨٠)**﴾.

٢٠- وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)**﴾: قيل: إن **كعب بن الأشرف** وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: أيّنا أحق بدين **إبراهيم**؟ فقال النبيّ ﷺ: «**كلا الفريقين بريءٌ من دينه**؟» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فنزل: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ...**﴾

٢١- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾** : قيل: نزلت هذه الآية في الحارث بن سويد أخي الجلاس بن سويد، وكان من الأنصار، وارتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً، فنزلت فيهم الآية.

٢٢- وفي قوله تعالى: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨)﴾** : قيل: نزلت هذه الآيات في اليهود لأنهم كانوا يبشرون بالنبيّ ﷺ، ويستفتحون على الذين كفروا، فلما بُعث عاندوا وكفروا. وقال ابن عباس: إن رجلاً من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل له من توبة؟ فنزلت: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾** إلا أن الرجل أصرّ على التوبة ورجع تائباً، فقبل منه الرسول ﷺ، ونزلت الآية: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾** وفي رواية: أن رجلاً من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين، فأنزل الله تعالى: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ..﴾**، إلى قوله **﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾**، فبعث بها قومه إليه، فلما قرئت عليه قال: والله ما كذبني قومي على رسول الله ﷺ، ولا أكذبت رسول الله ﷺ، والله أصدق الثلاثة، فرجع تائباً، فقبل منه رسول الله ﷺ.

٢٣- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾** : قيل: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن. قيل: نزلت الآية في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفاته، ثم ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم. وقيل: هذه الآية نزلت في المنافقين من أهل مكة، قالوا نتربص بمحمد رَيْب المنون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا، فأنزل الله الآية، وتعني أنه لن يقبل توبتهم طالما هم مقيمون على الكفر، يعلنون الإسلام ظاهراً، ويبطنون الكفر، فكان تسمية توبتهم توبة غير مقبولة، لأنه لم يصحّ منهم العزم على التوبة، ولا تقبل التوبة إلا إذا صحّ العزم.

٢٤- وفي قوله تعالى: **﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)﴾** : قيل: إن اليهود سألوا

النبيَّ ﷺ : أخبرنا ما حرّم **إسرائيل** على نفسه ؟ قال: «**كان إسرائيل يسكن البدو فاشتكى عرق النَّسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمها**»، أي حرّمها لأنها تهيّج عليه عرق النسا، فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم، فهذا التحريم كان **خاصاً** **بيعقوب** الذي هو إسرائيل. ولم يتنزل في **التوراة**، لأن التوراة لم تكن قد نزلت بعد، فالتحريم ليس من الله.

٢٥- وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (٩٦)﴾ : قيل: تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: **بيت المقدس** أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة، وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل، فأنزل الله هذه الآية.

٢٦- وفي قوله تعالى: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (٩٧)﴾ : قيل: لما نزلت الآية: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٨٥)﴾ (آل عمران)، قالت اليهود: فنحن مسلمون؟ فقال لهم النبيّ ﷺ : «إن الله فرض على المسلمين حجّ البيت»، فقالوا: لم يُكتب علينا، وأبوا أن يحجوا، فأنزل الله : ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (٩٧) ﴾.

٢٧- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** (١٠٠)﴾ : قيل: نزلت في يهودي أراد تجديد الفتنة بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بوجود النبيّ ﷺ بين ظهرانيهم، فجلس هذا اليهودي بينهم، وأنشدهم شعراً، قاله كلٌّ منهما عندما كانا يتنازعان ويتقاتلان قبل الإسلام، فعلت أصواتهم وتنابذوا وكادوا يجددون الحروب بينهما، ورفعوا أسلحتهم ووقفوا للقتال، فنزلت الآية، فجاء النبيّ ﷺ وخطبهم، فلما فرغ تصالحوا وتعانقوا وبكوا. قيل: والذي أجج هذه الفتنة وأحياها **شاس بن قيس** اليهودي، دسّ على الأوس والخزرج من يذكّرهم ما كان بينهم من حروب، فلما خطب فيهم النبيّ ﷺ عرفوا أنها **نزغة شيطان** وكيد يهودي.

٢٨- وفي قوله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (١٠١)﴾ : قيل: كان بين الأوس والخزرج قتالٌ وشرٌ في الجاهلية، فذكروا ما كان بينهم، فثار بعضهم على بعض بالسيوف، فذهب النبيّ ﷺ إليهم، فنزلت هذه الآية.

٢٩- وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ : قيل: لما نزلت هذه الآية: شقَّ على المسلمين، فقالوا يارسول الله، من يقوى على ذلك؟ فنزلت الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن ١٦) بيانًا لهذه الآية.

٣٠- وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ : قيل: نزلت لَمَّا تفرق اليهود والنصارى في دينهم؛ وقيل تفرقت اليهود على إحدى وسبعين، أو اثنين وسبعين فرقة، بحسب شيوخهم الذين حضروا مع موسى على الجبل، فكان لكل واحد منهم رأيه، فنزلت الآية تحذيراً للمسلمين أن يحذو حذو اليهود، وهناك الحديث الضعيف في افتراق المسلمين إلى **ثلاث وسبعين فرقة**؛ وقيل أصول الفرق الإسلامية سبعة: السُّنَّة، والخوارج، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية، وكل منها انقسمت فرقاً أخرى، وإنما هذا في القديم في عهد الضعف والانحلال، والآن لا توجد إلا فرقتان: السُّنَّة والشيعة، وهناك محاولات للتوحيد بينهما.

٣١- وفي قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (١٠٣)﴾ : قيل: نزلت في **الأوس والخزرج**. والآية تَعُمّ.

٣٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ : قيل: هم **اليهود والنصارى**.

٣٣- وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ : قيل: الذين تَبيض وجوههم **المؤمنون**، والذين تسودّ وجوههم ، قيل نزلت في **اليهود** خاصة، كانوا يؤمنون بنبيّ يُبعث، فلما بُعث النبيّ ﷺ كفروا به. وقيل : الذين تسوّد وجوههم **المنافقون**.

٣٤- وفي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ : قيل: نزلت الآية في **الذين هاجروا** من مكة إلى المدينة وشهدوا بدراً والحديبية. وقيل: هم **أمة محمد** نزلت فيهم هذه الآية طالما يؤمنون بالله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

٣٥- وفي قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾: قيل: هم اليهود نزلت الآية فيهم.

٣٦- وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾: قيل: أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلةً ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى في هذه الساعة غيركم». فأنزلت هذه الآية. وقيل: لمّا أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره، فأنزل الله الآية.

٣٧- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾: قيل: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوّف الفتنة عليهم.

٣٨- وفي قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾: قيل: الآية نزلت في اليهود، صافاهم المسلمون وجنحوا معهم للسلم، ولكن بُغض اليهود لهم مستمر ومفضوح، ومن أقوال الحاخام عوفي الإسرائيلي في يوليو سنة ٢٠٠١: «هؤلاء المسلمون إنهم شيء فظيع، ويتكاثرون كالفئران» وهو نفس كلام اليهود في المسلمين منذ ألف وخمسمائة سنة، نزلت هذه الآية وأمثالها تكشف بواطنهم، يقولون لبعضهم البعض من عهد الرسول ﷺ: ألا ترون هؤلاء ظهروا وكثروا!

٣٩- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)﴾: قيل: هذا كان في غزوة أحد، وفيها نزلت هذه الآية، والآية المكمّلة: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾.

٤٠- وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾: قيل: الطائفتان: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وبنو النبيت، والنبيت هو عمرو بن مالك من بني الأوس، وكان الأوس والخزرج جناحي

العسكر يوم أحد، وقد همّا أن يرجعوا مع **عبد الله بن أبي بن سلول**، وكان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم، ولكنهم ازدادوا بصيرة وعصمهم الله، وذمّ بعضهم بعضاً، ونهضوا مع النبيّ ﷺ حتى أطل على المشركين، فنزلت الآية.

٤١- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾** : قيل: كان المسلمون قليلين، وقيل كانوا **ثلاثمائة وثلاثة عشر** أو أربعة عشر رجلاً، وكان عدوهم ما بين **التسعمائة إلى الألف**، ووصفوا بأنهم أذلة لأن قلة عددهم تقتضى عند التأمل ذلّتهم وأنهم يُغلبون.

٤٢- وفي قوله تعالى: **﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾**: قيل: **كثرة عدد الملائكة** لتسكين قلوب المؤمنين، والملائكة لا تقاتل وإنما يكونون عدداً أو مدداً، **والفائدة:** أن يقوى عزم المؤمنين إذ يتأكدون أن الحقّ معهم وأن الله يساعدهم. وقيل أمدّهم الله **بألف** ثم صاروا **ثلاثة آلاف**، ثم **خمسة آلاف** لمّا صبروا واتقوا الله. وقيل: إن **كرز بن جابر المحاربي** كان يزمع أن يمدّ الكافرين، فشقّ ذلك على النبيّ ﷺ وعلى المسلمين، فنزلت الآية، فبلغت كرزاً، فنكص عن إمداد الكفّار بالمدد. والآية نزلت لتؤكد أن نزول الملائكة لا يحتاج الربّ إليه، وإنما يحتاج إليه المخلوق ليعلق قلبه بالله وليثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب.

٤٣- وفي قوله تعالى: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾** : قيل: نزلت الآية لمّا دعا النبيّ ﷺ على المشركين لمّا كسروا رُباعيته يوم أحد، وشجّوا رأسه، فسال دمه حتى قال: «**كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى**». فلما نزلت الآية علم أن منهم من سيسلم، وقد حدث وأسلم: **خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل** وغيرهم.

٤٤- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾** : قيل: كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل وأخّروا السداد زادوا في الثمن أضعافاً، فنزلت الآية. وقيل: كانت **ثقيف** تداين **بني النضير في** الجاهلية، فإذا جاء الأجل قالوا: أتقضون أم تُربون؟ يعني تؤخّرون السداد بالربا، فنزلت الآية.

٤٥- وفي قوله تعالى: **﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾** : قيل: لمّا انهزم الرسول ﷺ **يوم أُحد**، أقبل **خالد بن الوليد** بخيل المشركين: يريد أن

يعلو عليهم الجبل، فقال النبيّ ﷺ: «**اللهم لا يعلُنّ علينا ! اللهم لا قوة لنا إلا بك ! اللهم ليس يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر**» ذكره الطبرى. فأنزل الله هذه الآية، وكان نفر من المسلمين الرماة، قد صعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم، فذلك قول الله تعالى: ﴿**وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ**﴾، يعنى الغالبين.

٤٦- وفى قوله تعالى: ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)** ﴾: قيل: نزلت الآية فى **هزيمة أحد**، **والقرح** الذى مسّ المشركين كان فى بدر، فمرة انتصار ومرة هزيمة، والأيام دُوَل، والهزيمة لها فوائد مثلما لها مضار، وبسببها يُعرف المؤمن من المنافق فيتمايزان، وقد يستشهد من المؤمنين من يستشهد، فيكونون شهداء على الناس بأعمالهم.

٤٧- وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)**﴾: قيل: كان كثير ممن لم يحضروا بدراً يتمنون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أُحد انهزموا، وكان منهم من تجلّد حتى قُتل، ومنهم **أنيس بن النضر** عمّ أنس بن مالك، فإنه قال لمّا انكشف المسلمون: اللهم إنى أبرأ اليك مما جاء به هؤلاء، وباشر القتال، ونزلت الآية عتابًا لمن انهزم.

٤٨- وفى قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)**﴾: قيل: نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أحد، وسريان الإشاعة بأن محمداً قد قتل، حتى بكى المسلمون، ففريق لم ير بأساً أن يصالح المشركين فهم إخوانهم رغم كل شىء، وفريق رأى أن الرسول ﷺ إن كان قد أصيب فذلك أدعى أن يواصلوا ما مضى عليه، فأنزل الله الآية، يبيّن أن الرسل ليسوا بباقين فى أقوامهم إلى الأبد؛ ويجب التمسُّك بما أتوا به، وإنْ فُقِد الرسول بموتٍ أو قَتْل. وفى الآية أنه تعالى قد أكرم نبيّه ﷺ بذكر اسمه «**محمد**»، والعرب تقول: **رجل محمود ومحمد**، إذا كثرت خصالة المحمودة. والآية من تتمة عتاب المسلمين لمّا انهزموا. ولمّا توفى الرسول ﷺ من بعد، ولم يصدق الناس وقالوا: لم يمت وإنما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحى، ونادى **عمر بن الخطاب**: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى تُقطَع أيدى وأرجُل ناس من المنافقين كفروا! فقام أبو بكر، وصعد المنبر وقال: «**من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات**، ثم قرأ الآية: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ**

الرُسُل ...﴾، قال عمر: فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ!. وعن أنس أنه سمع أبا بكر يقول: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (١٨٥)﴾**(آل عمران)، ويقول: **﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾** (الزمر). قال وخرج الناس يتلونهما فى سكك المدينة كأنهما لم يتنزلا قط إلا ذلك اليوم.

٤٩- وفى قوله تعالى: **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾** : قيل: لمّا انهزم المسلمون فى أُحد سُمع من يهتف: **قُتل محمد!** فولّى من ولّى، فأنزل الله الآية يُثنى على من ثبت حول النبىّ ﷺ. وقيل: صاح صوت شيطانى يوم أحد: قُتل محمد، فانهزم جماعة من المسلمين. قال **كعب بن مالك**: فكنت أول من عرف رسول الله ﷺ. رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتى: هذا رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية.

٥٠- وفى قوله تعالى: **﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾** : قيل: قال ذلك الذين ثبتوا حول الرسول ﷺ فى أُحد بعد أن ولّى مَن ولّى من المسلمين، فأنزل الله تعالى الآية بما قالوا.

٥١- وفى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية بعد أُحد وهزيمة المسلمين لمّا عصوا الرسول ﷺ واشتغلوا بالغنائم، وترك الرماة مراكزهم فكان ذلك السبب فى هزيمتهم، فكانوا يقولون لبعضهم البعض، كيف أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت الآية. وقيل: لما رجع الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أُحد وقد أصيبوا، قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا ! وقد وعدنا الله النصر! فنزلت الآية.

٥٢- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾** : قيل: نزلت هذه الآية فيمن هرب إلى المدينة فى وقت الهزيمة فى **أُحد** يوم التقى الجمعان، استزلّهم الشيطان بخطاياهم السابقة وأنهم سيقتلون لو حاربوا، فكرهوا الثبوت لئلا يُقتلوا، ومنهم: **عثمان بن عفان**؛ وعيّر **عبد الرحمن بن عوف** عثمان فقال: شهدتُ بدراً ولم تشهد! وبايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع! وقاتلتُ يوم الجمع ووليتَ مع من ولّى!

٥٣- وفى قوله تعالى: **﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾** : قيل: نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقدت فى

المغانم يوم بدر، فقال بعض من كانوا مع النبيّ ﷺ: لعل النبيّ ﷺ قد أخذها! فنزلت الآية. ويغل معناها يخون.

٥٤- وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)**﴾: قيل: نزلت الآية لمّا قالوا بعد الهزيمة: من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل في سبيل الله ووعدنا النصر؟ فردّ عليهم: ﴿**هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ لمخالفتهم الرماة، وما من قوم لم يطيعوا نبيّهم في حرب إلا انهزموا، لأنهم لو أطاعوه لكانوا حزبه، حزب الله، وهم الغالبون. وأصابتهم مثليها كان يوم بدر، بأن قتلوا للكفار سبعين، وأسروا سبعين، وحتى يوم أُحد قتلوا لهم عشرين.

٥٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)**﴾: قيل: الآية نزلت في شهداء أُحد؛ وقيل نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين. وقيل: نزلت في شهداء بئر معونة؛ وقيل: بل هي عامة في جميع الشهداء. وقيل: إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسّروا وقالوا: نحن في النعمة والسرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور! فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيساً عنهم، وإخباراً عن حال قتلاهم.

٥٦- وفي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)**﴾: قيل: نزلت الآية في ابن الزبير وأبي بكر، فإنهما في أحد أصابهما القرح. وفي اليوم الثاني من أُحد، انتدب النبيّ ﷺ سبعين ليخرجوا في آثار كفّار قريش مخافة أن يرجعوا، وليعلموا أنه ما تزال بالمسلمين قوة. فخرج مع الخارجين رجلان. وقيل: كانا من بني عبد الأشهل وكانا مثخنين بالجراح حتى أن أحدهما ليتوكأ على الآخر، وفي هؤلاء نزلت الآية.

٥٧- وفي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية في خروج النبيّ ﷺ إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان الذي كان قد حدده في أُحد عندما قال له: موعدنا بدر من العام المقبل. فقُرب بدر جاءه نعيم بن مسعود الأشجعي فأخبره أن قريشا قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون، ولكنهم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فلما وصلوا بدراً لم يجدوا أحداً، ولم يلقوا كيداً، فنزلت الآية: ﴿**فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)**﴾ (آل عمران).

٥٨- وفي قوله تـعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾: قيل: نـزلت في جمـاعة أسلموا ثم ارتدوا خوفـاً من المشركين، فاغتمّ النـبيّ ﷺ، فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت في المنافقين، ورؤسـاء اليهود. وقيل: إن أهل الكتـاب لمّا لم يؤمنوا شقّ ذلك على رسول الله ﷺ، لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون إنهم أهل كـتاب، فلو كان محمدٌ ﷺ على الحق لاتّبعوه، فنزلت الآية ﴿وَلَا يَحْزُنكَ...﴾.

٥٩- وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾ : قيل: إن الكفـار لمّا سألوا رسول الله ﷺ أن يبيّن لهم من يؤمن منهـم، أنزل الله هذه الآية، يعني بهـا: لا تشـتغلـوا بما لا يعنيكم، واشتغلوا بما يعنيكم وهو الإيمان.

٦٠- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾ : قيل: نزلـت هذه الآية في البخل بالمال، والإنفـاق في سبـيل الله، وأداء الزكاة المفروضة. وقيل: إنما نزلت الآية في أهل الكتـاب وبُخلهم، ببيان ما علموه من أمر النبيّ ﷺ.

٦١- وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾ : قيل: لمّا أنزل الله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ (البقرة)، قال قوم من اليهود منهم حيي بني أخطب، أو فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير ونحن أغنياء يقترض منا !! وقالوا هذا تمـويهاً على ضعفائهم، لا لأنهم يعتقدون هذا فـعلاً، فـهم أهل كـتـاب أولاً وآخيـراً، ولكنهم بهذا القول كـفروا، لأنهم شككوا الضعفاء منهم ومن المؤمنين، فنزلت الآية فيهم.

٦٢- وفي قوله تـعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾: قـيل: نـزلت في كـعب بن الأشرف، ومـالك بن الصيـف، ووهب بن يهـوذا، وفنحـاص بن عازوراء، وجماعة أتوا الـنبيّ ﷺ فقالوا له: أتزعم ان الله أرسلك إلينا؟

فلقد أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه إلا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقُربان تأكله النار؟ فإن جئتنا به صدّقناك، فأنزل الله هذه الآية.

٦٣- وفي قوله تعالى: **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾** : قيل: نزلت بسبب أن أبا بكر سمع يهودياً يقول: إن الله فقير ونحن أغنياء، رداً على القرآن واستخفافاً به، حين أنزل الله: **﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾** (البقرة)، فلطمه، فشكاه إلى النبيّ ﷺ، فنزلت الآية. وقيل: إن قائل «**إن الله فقير ونحن أغنياء**» هو **فنحاص اليهودي**، وقيل هو **كعب بن الأشرف**، ونزلت بسببه: **﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا..﴾** الآية. وكان ابن **الأشرف** شاعراً يهجو النبيّ ﷺ وأصحابه ويؤلّب عليهم الكفّار، ويشبّب بنساء المسلمين، حتى تصدّى له **محمد بن مسلمة** وأصحابه، فقتله القتلة المشهورة. وقيل: إن الآية نزلت في ابن أُبيّ لما أغلظ للنبيّ ﷺ، فقال عنه سعد ابن عبادة في مرضه: اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب: لقد جاءك الله بالحق الذي نزل، وقد شَرِقَ به ابن أُبيّ، ولذلك فعل به ما رأيت منه! فعفا عنه رسول الله ﷺ ونزلت الآية.

٦٤- وفي قوله تعالى: **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾** : قيل: أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب، سألهم النبيّ ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وظنوا أنه قد انطلت عليه حيلتهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم.

٦٥- وفي قوله تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾**: قيل: إن أم سلمة قالت للرسول ﷺ: لا أسمع أن الله تعالى قد ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله الآية.

٦٦- وفي قوله تعالى: **﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾** (آل عمران): قيل: كانت للكفار تجارات وأموال وحركة في البلاد، بينما المسلمون بائسون وفقراء، فنزلت هذه الآية في الكفار، تؤنس المسلمين وتسرّي عنهم، كقوله تعالى: **﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ**

كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ (القلم)، وكقوله: ﴿ **فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾** (القلم).

٦٧- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾** ﴾ : قيل: نزلت الآية في النجاشي لما مات، فطلب الرسول ﷺ، أن يصلّوا عليه، فقالوا: يارسول الله، نصلي على عبد حبشي؟! فنزلت الآية.

●●●

١٠١٦- ﴿في أسباب نزول آيات سورة النساء﴾

١- وفي قوله تعالى: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾** ﴾: قيل: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم وطلب المال منعه عمه، فنزلت الآية، فأسرع العم بردّ المال مخافة قوله تعالى ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾، وقال العمّ: نعوذ بالله من الحوب الكبير ـ والحوب هو الإثم، فلما قبض الفتى المال أنفقه في سبيل الله، فقال ﷺ: «**ثبت الأجر وبقي الوزر**»؟ فسئل: كيف؟ قال: «**ثبت الأجر للغلام، وبقي الوزر على والده**»، لأن والده كان مشركًا.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴿٣﴾**﴾: قيل: الآية نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليّها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾**﴾: قيل: كان الولي يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئاً، فنُهوا عن ذلك، وأُمروا أن يدفعوا ذلك إليهن.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾**﴾: قيل: نزلت في

ثابت بن رفاعة، وفي عمه، فلما توفي رفاعة وترك ابنه وهو صغير، أتى عم ثابت إلى النبيّ ﷺ فقال: إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحل لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله الآية.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)** ﴾: قيل: نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأة وثلاث بنات، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً. وكانوا في الجاهلية لايورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: **لا يُعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف. وحاز الغنيمة؛** فذكرت المرأة حالها للرسول ﷺ، فدعاهما، فقالا: يارسول الله، ولدها لايركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدواً. فأنزل الله هذه الآية رداً عليهما، وإبطالاً لقولهما وتصرفهما بجهل.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)** ﴾: قيل: نزلت في رجل من غطفان يقال له **مرثد بن زيد**، وَلِيَ مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)** ﴾: قيل: هذه هي **آية المواريث**، وهي ركن من أركان الدين، وعُمدة من عمد الأحكام، وتشمل الفرائض وهي **ثلث علم الموارث أو نصفه**. وفي أسباب نزولها: أن امرأة **سعد بن الربيع** جاءت إلى الرسول ﷺ تشكو له أخاه، فإن سعداً لما توفي تركها وترك ابنتين، وأخوه استولى على كل شيء ولا يريد إعطاءهن شيئاً، فاستدعاه الرسول ﷺ فقال له: «**ادفع إلى ابنتيه الثلثين، وإلى امرأته الثمن، ولك ما بقي**»، فنزلت آية المواريث. وقيل: إن آية المواريث نزلت في **جابر** لما مرض وسأل الرسول ﷺ كيف يصنع في ماله وله ولد وبنت. وقيل: نزلت بسبب بنات **عبد الرحمن بن ثابت** أخي حسان بن ثابت. وقيل: نزلت في ورثة **ثابت بن قيس بن شماس**.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا**

تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (١٩)﴾ (النساء): قيل: نزلت في المرأة يموت عنها زوجها فتؤول إلى أوليائه، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يزوّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فأُنزلت الآية. وقيل: كان من عادتهم إذا مات الرجل أن يُلقى ابنُه من غيرها، أو أقرب عصبته، ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها، فإن شاء تزوّجها بغير صداق إلا ما أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عَضَلَها لتفتدى منه بما ورثته من الميت أو تموت فيرثها، فأنزل الله الآية. وقيل: كان الوارث إن سبق فألقى عليها ثوباً فهو أحق بها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحق بنفسها. وكان يكون عند الرجل عجوز ونفسه تتوق إلى شابة، فيكره فراق العجوز لمالها، فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدى منه بمالها، أو تموت فيرثها، فنزلت الآية. والمقصود من الآية إذهاب ما كانوا عليه في الجاهلية، وألاّ تُجعل النساء كالمال يُورثن عن الرجال كما يورث المال.

٩-وفي قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾**: قيل: كان الناس يتزوجون امرأة الأب كرهًا ليرثوها، وسمى لذلك زواج **المَقْت**، أي الزواج **المقوت**، فنزلت الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾** (النساء١٩)، فصاروا يتزوجونها برضاها، فنزلت الآية: **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾** فصار حرامًا في الأحوال كلها. وكان زواج امرأة الأب سائدًا عند الأنصار، ومباحًا في قريش، ومن ذلك زواج **عمرو بن أمية** من امرأة أبيه بعد موته، فولدت له ولدين هما: مسافر، وأبو معيط، وكان للمرأة من الأب أولادٌ منهم: **أبو العيص** وغيره، فكان بنو أمية إخوة لمسافر وأبي معيط، وفي نفس الوقت أعمامهما؛ وكذلك زواج **صفوان بن أمية** من امرأة أبيه **فاختة بنت الأسود**،وكان أبوه قد قُتل عنها؛ وزواج **منظور بن زبّان**، خلف أباه على مليكة بنت خارجة؛ **وحصن بن أبي قيس** تزوج امرأة أبيه **كبيْشة بنت معن**؛ **والأسود بن خلف** تزوج امرأة أبيه. وفي عهد رسول الله ﷺ لما توفى **أبو قيس الأنصاري**، خطب ابنه امرأة أبيه، فطلبت سؤال رسول الله ﷺ أولاً، فأتته وأخبرته، فنزلت الآية. وشبيهٌ بالزواج من امرأة الأب - الزواج من الابنة، وقد تزوج **حاجب بن زرارة** ابنته قبل نزول **آية** المحرّمات: **﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾** (النساء ٢٣) فنهى الله المسلمين عما كان عليه آباؤهم من هذه السيرة.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)**﴾: قيل: المراد بالمحصنات المسبيات ذوات الأزواج خاصة، أي هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبي من أرض الحرب، فإنها تكون حلالاً للذي تقع في سهمه وإن كان لها زوج. ومناسبة نزول الآية أن المسلمين الذين غزوا **أوطاس** أصابوا سبايا فتحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله الآية، تحللهن لهم إذا انقضت عدتهن. فالآية نزلت بسبب تحرج أصحاب النبي ﷺ عن وطء **المسبيات ذوات الأزواج**. فأنزل الله الآية في جوابهم.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)**﴾: قيل: إن **أم سلمة** قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء! وفي الميراث لنا النصف! فأنزل الله تعالى الآية. وقيل: إن **أم سلمة** قالت: كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان، فلما ورثوا جعلوا للذكر مثل حظ الانثيين، فتمنى النساء أن لو جعلت أنصباء النساء كأنصباء الرجال، فنزلت الآية.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)**﴾: قيل: الآية نزلت في **سعد بن الربيع**، نشزت عليه امرأته **حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير**، فلطمها، فاشتكت للرسول ﷺ فقال: «**لتقتص من زوجها**» فانصرفت مع أبيها لتقتص من زوجها، فأرسل خلفها رسول الله ﷺ وقال: «**جبريل أتاني**» فنزلت الآية. وقيل: إن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إن زوجي لطم وجهي، فقال: «**بينكما القصاص**»، ونزلت الآية بغير ذلك. وقيل: نزلت الآية في **جميلة بنت أبي**، وفي زوجها **ثابت بن قيس بن شماس**. وقيل: نزلت في **عُمَيْرة بنت محمد بن مسلمة** وفي زوجها **سعد بن الربيع**.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧)**﴾: قيل: نزلت في **اليهود** فقد كان علماء إسرائيل

يبخلون بما لديهم من العلم. وقيل : كان **كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحرى بن عمرو، وحيى بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت**، يأتون رجالاً من الأنصار يتنصّحون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون، يقصدون أن يمنعوهم من الإنفاق على المهاجرين، فنزلت الآية.

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)**﴾: قيل: نزلت في مُطعمى يوم بدر وهم رءوساء مكة، أنفقوا على الناس ليخرجوا معهم إلى بدر، ونفقة الرئاء لا تجزئ.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ...(٤٣)**﴾: قيل: كانوا يقيمون الصلاة وقد أخذوا من الخمر واتلفت عليهم أذهانهم، فنزلت : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ .. (٢١٩)**﴾ (البقرة)، فسأل عمر ربّه بياناً شافياً فيها : فنزلت ﴿**لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ..(٤٣)**﴾ (النساء)، فكانوا إذا أقاموا الصلاة، ينادى المنادى: ألا يقربنّ الصلاة سكران. فسأل عمر ربّه بياناً شافياً في الخمر، فنزلت ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)**﴾ (المائدة).

١٦-وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا**﴾: قيل في سبب الآية: أن قوما من الأنصار كانت أبواب دورهم شارعة في المسجد، فإذا أصابته أحدهم **الجنابة** اضطر إلى المرور في المسجد. **والجُنُب** لا يمر في المسجد إلا إذا عدم الماء، فحينئذ يمكنه أن يتيمم ويمر في المسجد، **والجُنب** أصلاً لا يمر في المسجد وهو جُنب، وقيل: إن الآية نزلت بسبب **عبدالرحمن بن عوف وعليّ بن طالب** وآخرين، دعاهم عبدالرحمن إلى الخمر فشربوا وأحدث منهم، فلما حضرت الصلاة قدّموا عليًا فقرأ: **(قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون)** فأنزل الله الآية.

١٧- وفي قوله تعالى: ﴿**...وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)**﴾: قيل: هذه **آية التيمم**، نزلت في **عبد الرحمن بن عوف** أصابته جنابة وهو جريح، فرُخّص له أن يتيمم، ثم صارت الآية عامة. وقيل: أنزلت بسبب عدم وجود الماء مع الصحابة في **غزوة المريسيع** حين انقطع عقد عائشة. وقيل: هلكت قلادة لعائشة كانت قد استعارتها من أختها **أسماء**، فبعث النبيّ ﷺ في طلبها رجالاً، فحضرت الصلاة

وليسوا على وضوء، ولم يجدوا ماء، فصلّوا وهم على غير وضوء، فأنزل الله تعالى آية التيمم. وقيل : إن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم جراحة ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية. وآية التيمم في سورة المائدة بخلاف ذلك، وتسمى آية الوضوء، ولا يوجد التيمم إلا في هاتين السورتين. والتيمم مما خُصّت به هذه الآية على المسلمين.

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)**﴾: قيل: الآية نزلت في رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود المدينة، وكان إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال : أرعنا سمعك يامحمد حتى نفهمك ! ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله هذه الآيات.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(٤٧)**﴾: قيل: إن رسول الله ﷺ كلّم رؤساء من أحبار يهود، منهم عبدالله ابن صوريا الأعور، وكعب بن أسد، فقال لهم: «يامعشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق» ، قالوا : ما نعرف ذلك يامحمد ! وجحدوا ما عرفوا، وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله فيهم : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا..**﴾ إلى آخر الآية.

٢٠- وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)**﴾(النساء): قيل : إن النبي ﷺ تلا: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣)**﴾ (الزمر)، فقال له رجل: والشرك ؟! فنزلت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ...**﴾.

٢١- وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)**﴾ (النساء): قيل :نزلت الآية في اليهود، قالوا : ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ...(١١١)**﴾ (البقرة)، وقالوا : ﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ... (١٨)**﴾

(المائدة)، وقالوا : لا ذنوب لنا، ومافعلناه نهاراً غُفر لنا ليلاً، وما فعلناه ليلاً غُفر لنا نهاراً، ونحن كالأطفال فى عدم الذنوب. وكانوا يقدمون صبيانهم فى الصلاة بدعوى أنهم لا ذنوب عليهم، فهذه هى تزكيتهم لأنفسهم ولأولادهم.

٢٢- وفى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾﴾: قيل: إن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحد، ليحالفوا قريشاً على قتال المسلمين، فنزل كعب على أبى سفيان، ونزلت اليهود فى دور قريش، فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد، فقال أبو سفيان: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق: نحن أم محمد؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد.

٢٣- وفى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾: قيل: إن أهل الكتاب قالوا: زعم محمد أنه أوتى ما أوتى فى تواضع، وله تسع نسوة، وليس هَمّه إلا النكاح، فأى مُلك أفضل من هذا ؟ فأنزل الله : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ...﴾ الآية.

٢٤- وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾: قيل: لما فتح الرسول ﷺ مكة، رفض عثمان بن أبى طلحة الحجبى العبدرى، وابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ـ وكانا كافرين ـ أن يعطيا مفتاح الكعبة للعباس بن عبد المطلب، ثم دفعاه إلى الرسول ﷺ وقالا له: خذه بأمانة الله، ودخل الرسول ﷺ الكعبة، فكسر ما فيها من أوثان، وأخرج مقام إبراهيم، ونزل عليه جبريل بهذه الآية، فأعاد المفتاح لعثمان وشيبة وقال لهما : «خذاه خالدة تالدة، لا ينزعه منكما إلا ظالم». والأظهر فى الآية أنها عامة فى جميع الناس.

٢٥- وفى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾﴾ (النساء): قيل : نزلت الآية فى عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى، إذا بعثه النبىّ ﷺ فى سرية. وكان عبد الله من أصحاب بدر وفيه دعابة، ومن دعابته أن رسول الله ﷺ لما أمره على السرية، قال لهم عبد الله أن يجمعوا حطباً ويوقدوا

نار، فلما أوقدوها أمرهم بالتفحم فيها وقال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتى؟ وقال: من أطاع أميرى فقد أطاعنى؟ فقالوا: ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار! ولما سمع رسول الله ﷺ القصة صوّب فعلهم، وقال: «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق»، فلمَ يطيعونه دون غيره ؟ ولمَ يخصونه بالطاعة وما أمرهم به الرسول لله، وليس له صلة بما كلفهم به وعهد فيه إلى عبد الله بالإمارة ليقوم به؟ والطاعة لا تكون إلا فى المعروف، ثم إن الآية لم تسألهم لِمَ لم تطيعوه، ولذلك نستبعد هذه القصة كسبب لنزول الآية. وقوله ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ..﴾ يناسبه أن ينزل فى ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع: وهو الردّ إلى الله والرسول ـ أى إلى كتابه ثم سُنّة النبىّ ﷺ بعد وفاته، وكذلك الاجتهاد القائم على الاستنباط، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ (النساء).

٢٦- وفى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾: قيل: كان بين رجل من المنافقين ويهودى خصومه، فدعا اليهود إلى تحكيم رسول الله ﷺ، لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، فرفض المنافق، ودعا إلى تحكيم كعب بن الأشرف ـ وهو الطاغوت، أى ذو الطغيان، فأبى اليهودى أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق إصراره ذهبا إلى الرسول فحكم لليهودى، ولم يرض المنافق، وانطلقا إلى أبى بكر فحكم لليهودى، فانطلقا إلى عمر وقصّا عليه القصة، وأنهما احتكما إلى الرسول وأبى بكر فحكما لليهودى، فانتضى عمر سيفه ليضرب المنافق لأنه لم يرض بحكم رسول الله ﷺ، فنزلت الآية. وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فسمى الفاروق.

٢٧- وفى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾: قيل: نزلت فى شأن الذين بنوا المسجد الضرار، فلما أظهر الله نفاقهم وأمرهم بهدم المسجد، حلفوا لرسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم: ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله وموافقة الكتاب.

٢٨- وفى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾: قيل: نزلت فى الزبير مع الأنصارى،

وكانت الخصومة فى سقى بستان، فقال النبىّ ﷺ للزبير: «اسق ارضك ثم ارسل الماء إلى أرض جارك»، فقال الخصم: «أراك تحابى ابن عمتك! فتلوّن وجه رسول الله ﷺ وقال للزبير: «اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر» أى حائط المزرعة، ونزلت الآية.

٢٩- وفى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾: قيل: سبب نزولها أن ثابت بن قيس بن شماس تفاخر هو ويهودى، فقال اليهودى: والله لقد كُتب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغ القتلى سبعين ألفاً، فقال ثابت: والله لو كتب علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا، فنزلت الآية.

٣٠- وفى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾: قيل: هذه الآية تفسير لقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ (الفاتحة)، وهى المراد فى قوله ﷺ فى مرض موته: «اللهم الرفيق الأعلى». وقيل: إنما نزلت هذه الآية لما قال عبدالله بن زيد بن عبد ربّه الأنصارى: يا رسول الله، إذا مت ومتنا، كنتَ فى عليين، لا نراك ولا نجتمع بك»، وذكر حزنه على ذلك، فنزلت هذه الآية. وقيل: الآية نزلت فى ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه، يُعرف فى وجهه الحزن فقال له: «يا ثوبان، ما غيّر لونك؟» فقال: يارسول الله، ما بى ضُرّ ولا وجع، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة، وأخاف ألا أراك هناك، لأنى عرفت أنك تُرفع مع النبيين، وأنى إن دخلت الجنة كنتُ فى منزلة هى أدنى من منزلتك ولن أراك أبداً، فكأنى ما دخلت الجنة! فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن أصحابه قالوا: ما ينبغى أن نفارقك فى الدنيا، فإنك إن فارقتنا رفعت فوقنا. فأنزل الله تعالى الآية.

٣١- وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾: قيل: لما اعتزل النبىّ ﷺ نساءه دخل عمر بن الخطاب المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلّق رسول الله ﷺ نساءه! فقام على باب المسجد فنادى بأعلى صوته: لم يطلق نساءه، فنزلت هذه الآية، وقال عمر: وكنت أنا الذى

استنبطت ذلك الأمر. والآية تعنى: أنهم إذا سمعوا ما فيه أمن لهم أو خوف أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته، ويظنون أنه لا إثم عليهم فى ذلك. ولو سكتوا حتى ينكره النبىّ ﷺ بنفسه، أو أهل العلم والاختصاص من بعده لكان ذلك أوفق وأفضل، لأن أهل العلم هم الذين لديهم المعرفة لما ينبغى أن يُفشى منه أو أن يُكتم.

٣٢- وفى قوله تعالى: **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية فى بدر الصغرى، فإن أبا سفيان لما انصرف من أحد، واعدَ الرسول ﷺ موسم بدر الصغرى. فلما جاء الميعاد خرج إليها رسول الله فى سبعين راكباً، فلم يحضر أبو سفيان، ولم يقع قتال. والآية فيها الأمر بالقتال، والإعراض عن أراجيفهم، وأخذ الأمور بجدية. وإن لم يقم معه أحد فليكن قيامه ولو بنفسه فقط، وقيل: ولهذا ينبغى لكل مؤمن أن يجاهد ولو وحده، وفى الحديث: «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى»، وعن أبى بكر قال فى وقت الردّة: «ولو خالفتنى يمينى لجاهدتها بشمالى».

٣٣- وفى قوله تعالى: **﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)﴾**: قيل: نزلت فى عبدالله ابن أبىّ وأصحابه الذى خذلوا الله يوم أحد، ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا، فانقسم المسلمون حيالهم فرقتين، فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تنكر ذلك، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية فى قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة، وقالوا: إن ظهر محمد فقد عرف أننا معه، وإن ظهر قومنا فهذا أحب إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين، قوم يتولونهم، وقوم يتبرءون منهم، فنزلت الآية. وقيل: نزلت فى قوم جاءوا إلى المدينة وأظهروا الإسلام، فأصابهم وباء المدينة وحُماها، فأركسوا فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب النبىّ ﷺ، فقالوا: مالكم رجعتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتويناها. فقالوا: تأسّوا بالرسول ﷺ وأقيموا، وقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: ولِمَ ينافقون وهم مسلمون؟ فليذهبوا لو شاءوا، فنزلت الآية. وقيل: نزلت فى جماعة قدموا المدينة وأسلموا ثم ارتدوا، وادّعوا أنهم يخرجون ليأتوا بضائع يتّجرون فيها، وخرجوا ولم يعودوا، فانقسموا فيهم، فقالت فئة هم مؤمنون، فبيّن الله نفاقهم وأنزل هذه الآية فيهم.

٣٤- وفى قوله تعالى: **﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ**

اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴿٩٠﴾: قيل: الآية نزلت فى هلال بن عويمر، وسراقة بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، وكان بينهم وبين النبىّ ﷺ عهد. وقيل: أراد بالذى بينكم وبينهم ميثاق: خزاعة، وقيل: هم بنو بكر بن زيد بن مناة. وقيل: الذين بينهم وبين النبىّ ﷺ ميثاق بنو مدلج، وكان بينهم وبين قريش عهد، وبين قريش وبين الرسول ﷺ عهد، فهؤلاء تضيق صدورهم أن يقاتلوكم. وقيل: الآية نزلت لما أراد الرسول ﷺ أن يرسل خالد بن الوليد إلى بنى مدلج، فأتى سراقة بن مالك المدلجى يرجوه ليوادعهم، ففعل الرسول ﷺ ذلك وأمر خالداً به، فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم. وقيل إن هلال بن عويمر الأسلمى، كان بينه وبين المسلمين عهد، وقصده ناس من قومه فكره أن يقاتل المسلمين ويقاتل قومه معاً.

٣٥- وفى قوله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ﴿٩٢﴾﴾**: قيل: كان الحارث بن يزيد من بنى عامر بن لؤى يعذّب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل، ثم خرج الحارث مهاجراً فلقيه عيّاش بالحرة، فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء النبىّ ﷺ فأخبره، فنزلت الآية.

٣٦- وفى قوله تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴿٩٣﴾﴾**: قيل: نزلت الآية فى مقيس بن صبابة، ذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن صبابة، فوُجد هشاماً قتيلاً فى بنى النجار، فأُخبر بذلك النبىّ ﷺ، فكتب له إليهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه، وأرسل معه رجلاً من بنى فهر، فقال بنو النجار: والله ما نعلم له قاتلاً ولكنا نؤدى الدية، فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة، فعدا مقيس على الفهرى فقتله بأخيه، وأخذ الإبل، وانصرف إلى مكة كافراً مرتداً، فقال النبىّ ﷺ: لا أؤمنه فى حِلٍّ ولا حرم، فقُتل يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة، وفى ذلك نزلت الآية.

٣٧- وفى قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل**

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾: قيل: هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين مرّوا في سفرهم برجل معه جمل وغنيمة يبيعها، فسلم على القوم، وقال: **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، فحمل عليه أحدهم فقتله. فلما ذكر ذلك للنبيّ ﷺ شقّ عليه ونزلت الآية. وقيل: كان رجل في غنيّمة له، فلحقه المسلمون، فقال: **السلام عليكم**، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله الآية، وحمل رسول الله ﷺ ديته إلى أهله. وردّ عليه غنيماته. وكان القاتل اسمه: **محلم بن جثامة**، والمقتول: **عامر بن الأضبط**. فدعا النبيّ ﷺ على محلم، فما عاش بعد ذلك إلا سبعاً. وقيل: إن الرسول ﷺ بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فحمل رجل مسلم على رجل من المشركين بالرمح، فلما غشيه قال المشرك: **أشهد أن لا إله إلا الله. إني مسلم**. فطعنه المسلم فقتله، وأتى إلى الرسول ﷺ يولول: هلكتُ وقصّ القصة. فقال رسول الله ﷺ: «**فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه ! فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه**». وقيل إن القاتل: **أسامة بن زيد**، والمقتول مرداس بن نهيك، وقوله تعالى **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...﴾** نزلت في مرداس. وقيل: إن مسلماً قدم إلى النبيّ ﷺ من اليمن، فلقيته سرية من المسلمين، فقال لهم: أنا مؤمن، فلم يقبلوا منه وقتلوه، فجاء أخوه إلى النبيّ يشكو أمره، فنزلت: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا..﴾**، وأعطاه النبيّ ﷺ دية أخيه.

٣٨- وفي قوله تعالى: **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)﴾**: قيل: نزلت الآية أولاً «**لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون**»، يعني بدون «**غير أولي الضرر**»، فلمّا كان المسلمون يكتبونها، وكان ابن أم مكتوم حاضراً، قال للرسول ﷺ: أنا ضرير، فنزلت مكانها **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ...﴾**

٣٩- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾**: قيل: الآية نزلت في المسلمين الذين كانوا يكتمون إسلامهم واستمروا في سكنى مكة ولم يهاجروا، فكانوا إذا خرج الكفار أخرجوهم معهم، ويتحرّج هؤلاء أن لا يخرجوا، فكانوا يصابون في المعارك ويموتون. فهؤلاء **﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي**

أنفسهم..﴾، ومنهم : قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكهة بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة، وعمرو بن أمية بن سفيان، وعلى بن أمية بن خلف، والحارث بن زمعة بن الأسود، والعاص بن منبه بن الحجاج، وقتلوا ببدر، وفيهم نزلت الآية. وكتب المسلمون لمن كان فى مكة بضرورة الهجرة حتى لا يقعوا فى نفس المشكلة التى وقع فيها إخوانهم، فخرجوا فلحق بهم المشركون، ففتنوهم فرجعوا، فنزلت : **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾**(العنكبوت ١٠)، وكتبوا إلى إخوانهم فى المدينة فتحزنوا عليهم، فنزلت : **﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا...﴾** (النحل ١١٠) الآية.

٤٠- وفى قوله تعالى: **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما (١٠٠)﴾**: قيل: نزلت الآية فى ضمرة بن جندب ـ أو أنه ضمرة بن العيص، أو العيص بن ضمرة، وقيل رجل من بنى ضمرة، أو من بنى ليث، أو من بنى كنانة، أو من بنى بكر، وكان كبير السن وأراد أن يهاجر من أرض الشرك إلى المدينة ـ قال: إنى لغنىٌّ، وإنى لذو حيلة، يردّ على الآية: **﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨)﴾** (النساء)، فتجهّز يريد النبىّ ﷺ، فأدركه الموت بالتنعيم، فنزلت هذه الآية: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله..﴾**. وقيل: إن جندبًا كان بمكة، فمرض فقال لبنيه: أخرجونى من مكة فقد قتلنى غمّها، فقالوا: إلى أين ؟ فأومأ بيده ناحية المدينة يريد الهجرة، فخرجوا به، فلما بلغوا به أضاة بنى غفار مات، فأنزل الله فيه: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله..﴾**. وقيل: إن أكثم بن صيفى أرسل إلى النبىّ ﷺ يسأله: من أنت لله وبمَ جئت ؟ فتلا النبىّ ﷺ بعض آيات القرآن على من أرسله، ومنها: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون (٩٠)﴾** (النحل)، فلما سمع أكثم، قال: أى قوم، إنه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها، وركب بعيره يريد المدينة فمات فى الطريق، فنزلت الآية: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله..﴾**.

٤١- وفى قوله تعالى: **﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا (١٠١)﴾**: قيل: كان المسلمون بعسفان فاستقبلهم المشركون وعليهم خالد بن الوليد، وكانوا بين المسلمين والقبلة، فصلى

النبيّ ﷺ بالمسلمين الظهر، فقال المشركون: قد كانوا على حال لو أصبنا غرّتهم. وقالوا: وتأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. فنزل جبريل على النبيّ ﷺ بهذه الآية بين الظهر والعصر: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً .. (١٠٢)**﴾. وفي هذه الآية صلاة الخوف وصلاة السفر، وكان الغالب على المسلمين الخوف في الأسفار. فلما آمنوا سألوا: ما لنا نقصر وقد أمنّا؟ فقال النبيّ ﷺ: «**صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**».

٤٢- وفي قوله تعالى: ﴿**.. وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)**﴾: قيل: الآية في وجوب حمل السلاح في الصلاة عند الخوف من عدو، ثم رُخّص في المطر وضَعْه، لأن السلاح يبتل فيصدأ الحديد ويثقل. وقيل: نزلت الآية في النبيّ ﷺ يوم «**بطن نخلة**»، وبطن نخلة قرية قرب المدينة في الطريق إلى البصرة، وفيها انهزم المشركون وغنم المسلمون، وكان يوماً مطيراً، وخرج النبيّ ﷺ لقضاء حاجته، واضعاً سلاحه، فرآه الكفار منقطعاً عن أصحابه، فقصده **غورث بن الحارث**، فانحدر عليه من الجبل بسيفه، فقال: ما يمنعك مني اليوم؟ فقال النبيّ ﷺ: «**الله**»، ثم قال: «**اللهم اكفني الغورث بما شئت**»، فأهوى بالسيف إلى النبيّ ﷺ ليضربه، فانزلقت قدمه وزلت، وانكب لوجهه وسقط السيف من يده، فأخذه النبيّ ﷺ: وقال: «**ما يمنعك مني يا غورث؟**» فقال: لا أحد. فقال: «**تشهد لي بالحق وأعطيك سيفك؟**»، قال: لا، ولكن أشهد ألا أقاتلك بعد هذا ولا أعين عليك عدواً. فدفع إليه السيف، ونزلت الآية رخصةً في وضع السلاح في المطر.

٤٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)**﴾: قيل: نزلت في حرب أُحد حيث أمر النبيّ ﷺ بالخروج في آثار المشركين، وكانت بالمسلمين جراحات، وكان قد أمر ألا يخرج معه إلا من كان في الوقعة. وقيل: الآية نزلت في كل جهاد.

٤٤- وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية في رجل يدعى بشير بن الحارث، عدا

على مشربة رفاعة بن زيد، عمّ قتادة بن النعمان، فنقبها من ظهرها، وسرق الطعام ودرعين، فأتى قتادة النبيّ ﷺ فأخبره بذلك، فدعا بشيراً فسأله وأنكر، ورمى بالسرقة رجلاً يدعى لبيد بن سهل من أهل الدار وكان ذا حسب ونسب، فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد، وهرب بشير إلى مكة وجعل يقع فى النبيّ ﷺ وفي المسلمين، فنزل فيه: ﴿ومن يشاقق الرسول...﴾ (النساء١١٥)، وقيل: كان بنو أبيرق ثلاثة أخوة: بشر، وبشير، ومبشر، وكان لهم ابن عم اسمه أسير بن عروة، ونقب الأربعة مشربة لرفاعة بن زيد فى الليل، وسرقوا أدرعاً وطعاماً، وقيل إن السارق بشير وحده، وكان يُكنَى أبا طعمة، أخذ درعاً كان فى جراب فيه دقيق، فكان الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى داره، فجاء ابن أخى رفاعة يشكوهم إلى النبيّ ﷺ، فجاء أسير ابن عروة إلى النبيّ ﷺ يجادل عنهم، ونسب إلى ابن أخى رفاعة أنه اتهمهم بالسرقة ورماهم بها من غير بيّنة، وكاد النبيّ ﷺ يصدقه، وأنزل: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾ (النساء) وكانوا قد اتهموا أثناء ذلك لبيد بن سهل وكان يهوديًا، وقيل: زيد بن السمين وهو يهودى أيضًا، أو أنهم اتهموا رجلاً من الأنصار، وكان بريئاً. فلما أنزل الله ما أنزل، هرب ابن أبيرق السارق إلى مكة، ونزل على سلامة بنت سعد بن شهيد، فقال فيه حسّان بن ثابت بيتاً من الشعر يعرض فيه بها :

قد أنزلته بنت سعد وأصبحت ∴ ينازعها جلد أستنها وتنازعه

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتموا ∴ وفينا نبيّ عند الوحى واضعه

فلما بلغها أخذت رحل ابن أبيرق فألقته خارج بيتها، فهرب إلى خيبر وارتد. ثم أنه نقب بيتاً ذات ليلة ليسرق، فسقط عليه الحائط فمات مرتداً. وقيل قبل موته، أراد النبيّ ﷺ أن يقطع يده، فجاءت اليهود شاكين السلاح، فأخذوه وهربوا، فنزلت: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)﴾ (النساء). وقيل: لما سرق الدرع اتخذ حفرة فى بيته وجعل الدرع تحت التراب، وقيل: إنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يبرئ ابن أبيرق لأنه كان مطاعاً في قومه، ويُلحق التهمة بيهودى!! فنبّه الله تعالى نبيّه فقال : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ... (١١٣)﴾(النساء). وقال فى تدبيرهم: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾ (النساء).

٤٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٠٦)**﴾: قيل: لما همّوا أن يقطعوا يد اليهودي بسبب السرقة، أمر النبيّ ﷺ بالاستغفار عن هذا الخطأ الذي كاد يقع فيه المسلمون.

٤٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)**﴾: قيل: نزلت في أسير بن عروة وجداله عن السارق الحقيقي.

٤٧- وفي قوله تعالى: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)**﴾: قيل: نزلت لما سُرق الدرع، وجعل له بشير بن أبيرق حفرة في بيته جعل فيها الدرع وأهال عليه التراب.

٤٨- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)**﴾: قيل: نزلت على بني أبيرق يعرض عليهم التوبة. وقيل: الآية أيضاً في شأن وحشي **قاتل حمزة**، أشرك بالله وقتل حمزة، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: إني لنادم، فهل لي من توبة، فنزلت الآية، وقيل: **المراد بالآية العموم والشمول لجميع الخلق**.

٤٩-وفي قوله تعالى: ﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا**﴾: قيل: نزلت في **أهل مكة** أن عبدوا الأصنام وكانوا يجعلون لها **أسماء الإناث**، اعتقاداً منهم أن الآلهة **إناث**، حتى أن كلّ حيّ كان له صنم، كان يقال عنه: **أنثى بني فلان**، وحتى **الملائكة**، قالوا عنها إنها بنات الله أي جعلوها إناثًا، ولهذا السبب نزلت الآية.

٥٠- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)**﴾: قيل: نزلت لأنهم سألوا الرسول ﷺ أن يبرئ ابن أبيرق من التهمة ويلحقها باليهودي، فتفضّل الله على رسوله ﷺ ونبّهه على ذلك وأعلمه به.

٥١- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦)**﴾: قيل: نزلت الآيتان بسبب ابن أبيرق السارق لما حكم عليه النبيّ ﷺ بالقطع فهرب إلى مكة وارتد. وقيل: لما صار

إلى مكة نقب بيتاً بها فأمسكوا به وقتلوه. وقيل: قدم نفر من قريش المدينة وأسلموا ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين فنزلت الآية. وقيل: الآية عامة في كل من خالف طريق المسلمين.

٥٢- وفي قوله تعالى: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣)﴾**: قيل: نزلت في اليهود والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش: نحن لن نُبعث، فأنزل الله تعالى الآية.

٥٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)﴾**: قيل: نزلت الآية بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغير ذلك، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: الله يفتيكم فيهن، أي يبين لكم حكم ما سألتم عنه. والآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء، وكانت قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا، فقيل لهم: **﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ...﴾**.

٥٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)﴾**: قيل: نزلت الآية بسبب سودة بنت زمعة، فقد خشيت سودة أن يطلّقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي منك لعائشة، ففعل ،ونزلت الآية بسبب سودة بنت زمعة، فما اصطلحا عليه فهو جائز، والصلح خير والصحيح أن الرسول ﷺ ما طلّق سودة، ولا فكّر في ذلك، ووهبت سودة ليلتها لعائشة من تلقاء نفسها وإدراكًا لموقفها بسبب كِبرَ سنّها. وقيل: إن رافع بن خديج كانت تحته خولة ابنة محمد بن سلمة، فكره من أمرها، إما كِبَراً وإما غيره، فأراد أن يطلقها فقالت: لا تطلقني واقسم لي ما شئت، ونزلت الآية. وقالت عائشة في الآية: إنها عن الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك في شأني في حلّ، فنزلت الآية. وفي رواية قالت عائشة: نزلت هذه الآية في رجل كانت تحته امرأة قد ولدت له أولاداً، فأراد أن يستبدل بها، فراضته على أن تقرّ عنده ولا يقسم لها.

٥٤- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن**

تلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٣٥)﴾: قيل: اختصم إلى النبيّ ﷺ غنى وفقير، فكان قلبه ﷺ مع الفقير، وكان يرى أن الفقير لا يظلم الغنى، فنزلت الآية.

٥٥- وفى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦)﴾**: قيل: نزلت فى جميع المؤمنين، والمعنى: يا أيها الذين صدّقوا، أقيموا على تصديقكم، واثبتوا عليه. وقيل: نزلت فيمن آمن بما تقدّم محمداً ﷺ من الأنبياء. وقيل: الخطاب للمنافقين، والمعنى على هذا: يا أيها الذين آمنوا فى الظاهر أخلصوا لله.

٥٦- وفى قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾**: قيل: نزلت الآية فى رجل من المشركين لحق بالنبيّ ﷺ يريد أن يقاتل معه لقاء نصيبه من الغنائم، فقال له النبيّ ﷺ: «**ارجع، فإنا لا نستعين بمشرك**»، فنزلت الآية.

٥٧- وفى قوله تعالى: **﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية فى انتصار المظلوم من ظالمه، ولكن مع اقتضاء، أى يقضيه حقه ويطالبه به، وأما أن يقال القذف بالقذف فلا، فإن كان مجاهراً بالظلم دعى عليه جهراً.

٥٨- وفى قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣)﴾** (النساء): قيل: سألت اليهود النبيّ ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً بما يدّعيه، دليلاً على صدقه، دفعةً واحدة كما أتى موسى بالتوراة، تعنتاً له ﷺ، فنزلت فيهم الآية. وللتصحيح: فإن التوراة وهى كتب موسى الخمسة ،كتبها عزرا بعد أكثر من ثلاثمائة ستة وخمسين من وفاة موسى، وأنها لم تتنزّل على موسى، ففيها روايات تحكى «عن» موسى، وما كان موسى يمكن أن يحكى عن نفسه بعد وفاته ؟!

٥٩- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾**: قيل: نزلت فى قوم من اليهود، منهم سُكَيْن وعُدَىّ بن زيد، قالوا للنبيّ ﷺ. ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى ! فكذّبهم الله، ونزلت الآية.

٦٠- وفى قوله تعالى: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم (١٧٦)﴾: قيل: هذه آخر آية نزلت من القرآن، وذلك غير صحيح، وتسمى آية الصيف لنزولها فى الصيف، وكان نزولها والنبىّ متجهّز لحجة الوداع، ونزلت بسبب جابر، وكان قد أشرف على الموت، فسأل النبىّ ﷺ: كيف أقضى فى مالى؟ فنزلت آية الكلالة.



١٠١٧- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة المائدة﴾

١- وفى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٢)﴾: قيل: لمّا خرج النبىّ ﷺ عام القضية (أى عام قضاء العمرة التى أُحصر عنها)، سمع تلبية حجاج اليمامة، فقال: «هذا الحُطم وأصحابه»، وكان الحُطم قد هاجم المدينة ونهب منها ما نهب، فجاء يحج وقد قلّد ما نهب من سرح المدينة وأهداه إلى مكة، فتوجه المسلمون فى طلبه، فنزلت الآية تقول لا تحلوا ما أُشعر لله وإن كانوا مشركين.

وقيل: نزلت الآية عام الفتح ورسول الله ﷺ بمكة، وكان جماعة من المشركين قد حضروا ليحجوا ويعتمروا، فقال المسلمون: يارسول الله، إنما هؤلاء مشركون فلن ندعهم إلا أن نغير عليهم، فنزل القرآن: ﴿ولا آمين البيت الحرام ..﴾. وقيل: كان هذا لأمر شُرَيح بن ضُبَيعة البكرى ويلقب الحُطم، أخذه المسلمون وهو فى عمرته فنزلت الآية، وأدرك الحُطم ردّة اليمامة فقُتل مرتداً. وكان الحُطم هذا قد دخل على الرسول ﷺ فى المدينة يريد الإسلام وسأله: إلام تدعو؟ ثم خرج من عنده يشاور أصحابه، وكان النبىّ ﷺ قد قال فيه قبل أن يدخل عليه: «يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان»، فلمّا خرج من عنده قال النبىّ ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر، وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم»، فمر الحُطم بسرح (أنعام) المدينة فاستاقه، فطلبوه فعجزوا عنه، إلى أن قابلوه فى عام القضية جاء وأصحابه يعتمر. وأخرج بن جرير عن عكرمة قال: قَدِم الحطيم بن هند البكرى المدينة فى عير له يحمل طعاماً فباعه، ثم دخل على النبىّ ﷺ، فبايعه وأسلم،

فلمّا ولّى خارجاً نظر إليه فقال لمن عنده: «**لقد دخل عليّ بوجه فاجر، وولّى بقفا غادر**». فلمّا قدم اليمامة ارتدّ عن الإسلام، وخرج في عير له يحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة. فلما سمع به أصحاب النبيّ ﷺ تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتطعوه في عيره، فأنزل الله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ..** الآية﴾، فانتهى القوم. وقيل: نزلت الآية **عام الفتح** ورسول الله ﷺ بمكة، فقد جاء مشركون يحجّون ويعتمرون، فقال المسلمون للرسول ﷺ: أندعهم؟ فنزل القرآن ﴿**وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ..**﴾. وقيل: كان هذا لأمر **شريح بن ضبيعة** البكري ويلقب **الحُطم**، أخذته جند رسول الله ﷺ وهو في عمرته، فنزلت هذه الآية. وقيل: إن **الحُطم** كان قد قلّد ما نهب من سرح المدينة وأهداه إلى مكة، فتوجهوا في طلبه، فنزلت الآية. أي لا تحلوا من أشعر لله وإن كانوا مشركين. وقيل: لما كان المشركون قد صدّوا المسلمين **عام الحديبية سنة ست**، وكان الصدّ قبل الآية، فقد نهوا أن يجعلوا هذا الصدّ سبباً في بغضهم فيعتدوا عليهم. وقيل: كان رسول الله ﷺ **بالحديبية** وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمرّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبيّ ﷺ: نصدّ هؤلاء كما صدّوا أصحابنا، فأنزل الله: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...**﴾

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)**﴾: قيل: هذه جميعها كانوا يفعلونها في الجاهلية، فكانوا **يخنقون** الشاة وغيرها فإذا ماتت أكلوها، وكان **يضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم** حتى يقتلوها فيأكلوها، وكانوا يأكلون **المتردّى والنطيحة، وما يفترسه ذو ناب وأظفار كالأسد والنمر والذئب**، وكانوا **يستقسمون بالأزلام**، فنزلت الآية في ذلك. وقيل: نزلت هذه الآية حين فتح مكة **لثمان بقين من رمضان سنة تسع أو ثمان**، ونادى المنادي في أهلها: «**إلا من قال لا إله إلا الله فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**». وقيل: لما كان النبيّ ﷺ في مكة قبل الهجرة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حجّ وكمل الدين، فنزلت هذه الآية.

٣- وفي قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ④﴾: قيل: نزلت بسبب عديّ بن حاتم ، وزيد بن مهلهل - وهو "زيد الخيل" الذي سمّاه الرسول ﷺ "زيد الخير"، قالا: يارسول الله ﷺ إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، وإن الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء ، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة، فماذا يحلّ لنا ؟ فنزلت الآية.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ⑤﴾: قيل نزلت الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ فقالت نساء أهل الكتاب: لولا أن الله تعالى رضى ديننا لم يبح لكم نكاحنا، فنزلت: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ..﴾ أى بما أنزل على محمد ﷺ ، والكفر به أن يجحده.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا .. ⑥﴾: قيل: هذه آية الوضوء ، وكان الوضوء عندهم قبلها متقرراً ومستعملاً، فلم تزدهم الآية إلا تلاوته.

٦- وفي قوله: ﴿. . وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑥﴾: قيل: هذه آية التيمم ،وأصلها ضمن سورة النساء بسبب ضياع قلادة عائشة، فتأخروا فى البحث عنها، وحانت الصلاة ولم يجدوا ماء، فنزلت آية التيمم. ولم يَرِد التيمم إلا مرتين، الأولى فى سورة النساء ، والثانية فى سورة المائدة.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ⑪﴾: قيل: نزلت فى قوم من اليهود جاءهم النبيّ ﷺ يستعينهم فى ديّة، فهمّوا بقتله، فمنعه الله منهم. وقيل: نزلت فى غورث بن الحارث، أو أن اسمه دعثور بن الحارث، أو هو عمرو بن

جحاش، وكان يهودياً من **بني النضير**، وقيل: إنه هجم على سيف النبيّ ﷺ وجرّده منه، وشهره يقول: من يعصمك مني يا محمد؟ وقيل: كان ذلك في **غزوة ذات الرقاع**. وقيل: كان في أحد مجالس الرسول وأصحابه معه وكان يجلس معهم، وفجأة فعل ما فعل، ولم يعاقبه أيٌّ من أصحاب النبيّ ﷺ، فنزلت الآية.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ⦗١٨⦘﴾: قيل: نزلت في اليهود لمّا قرأ لهم النبيّ ﷺ آيات القرآن المنذرة بالعذاب، فقالوا: نحن لا نخاف فإنّا **أبناء الله وأحباؤه**، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية في نعمان بن أضا، وبَحْرِيّ بن عمرو، وشأس بن عديّ، لمّا اجتمعوا بالنبيّ ﷺ، فكلّمهم وكلّموه، ودعاهم إلى الله وحذّرهم نقمته، فقالوا: ما تخوّفنا يامحمد! **نحن أبناء الله وأحباؤه!**

٩- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ⦗١٩⦘﴾: قيل: إن **معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب**، قالوا لليهود: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته. فقال **رافع بن حُرَيْملة ووهب بن يهوذا**: ما قلنا هذا لكم، ولا أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً من بعده. فأنزل الله الآية.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ⦗٣٣⦘ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ⦗٣٤⦘﴾: قيل: اختلف الناس في سبب نزول هاتين الآيتين، والذي عليه الجمهور أنها نزلت في **العُرنيين**، سنة **ست** هجرية، قدموا من عُرينة فاجتووا بالمدينة - أي أصابهم المرض، فأمر الرسول بلقاح لهم يشربون من ألبانها، فلمّا صحوّا قتلوا راعي النبيّ ﷺ واستاقوا النَّعَم، فأرسل في أثرهم، وجيء بهم، فلما كانوا قد سحلوا عيون الرعاة، أمر بهم أن تُسْمَل عيونهم وهذا غير صحيح. وقيل: نزلت الآيتان في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوه وأفسدوا في الأرض. وقيل نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع السبيل ويسعى في الأرض بالفساد. وقيل نزلت الآيتان في **المحاربين** من أهل الإسلام.

١١- وفى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)** ﴾ (المائدة): قيل: الآية فى سبب نزولها ثلاثة أقوال: قيل: نزلت فى بنى **قريظة والنضير**، فقد قتل قرظىٌّ نضيرياً، وكان بنو النضير إذا قتلوا من بنى قريظة لم يُقيدوهم، وإنما يعطونهم الديّة، فتحاكموا إلى النبىّ فحكم **بالتسوية** بين القرظى والنضيرى، فساءهم ذلك ولم يقبلوا، فنزلت الآية. وقيل: إنها نزلت فى شأن **أبى لبابة** حين أرسله النبىّ ﷺ إلى بنى قريظة، فخانه حين أشار إليهم أنه الذبح. وقيل: إنها نزلت فى زنا اليهود وقصة الرجم، **وهذا أصح الأقوال**، فإنّ النبىّ ﷺ طلب أعلمَ رجلين منهم، فجاءوا **بابنى صوريا**، وقالا نجد الرجم فى التوراة للزانى والزانية، فسألهما: ولِمَ لا ترجموهما»؟ قالوا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل، وقال غيرهم: الزنا كثر فى أشرافنا، فكنا إذا زنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ. فأمرهم النبىّ ﷺ أن يقيموا حدود الله، ونزلت الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)** ﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)** ﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)** ﴾ (المائدة). وفى رواية: أن يهودى ويهوديه زنيا فأُتى بهما، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: «**ما تجدون فى التوراة على من زنى؟**» وقيل: إنهم دعوه إلى المدراس وسألوه أن يحكم بينهم فى رجل يهودى زنى بامرأة يهودية. فسألهم: «**ماذا يجدون فى التوراة لمثل ذلك؟**»، فقالوا: الرجم، فقال: **فإنى أحكم بما فى التوراة**. وفى التوراة عن ذلك: **يرجم الزانى والزانية** (تثنية الاشتراع ٢٢/ ٢٠-٢٦).

١٢- وفى قوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم**

بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾: قيل: نزلت الآية فى بنى **قريظة** وبنى **النضير** من اليهود، فقد خالفوا أن يسوّوا بين النفس والنفس كما جاء فى التوراة، فضلّوا وجعلوا دية النضيرى أكثر، وكان النضيرى لا يُقتَل بالقرظى ويُقتَل به القرظى، فلما جاء الإسلام راجع بنى **قريظة** رسول **الله** ﷺ فحكم **بالاستواء**، فقالت بنو النضير: قد حططت منا. فنزلت هذه الآية لتؤكد هذا الاستواء.

١٣- وفى قوله تعالى: **﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)﴾**: قيل: إن **كعب بن أسيد، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس**، ذهبوا إلى النبىّ ﷺ وفى بالهم أن يفتنوه عن دينه، فقالوا له: إنك عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنْ اتبعناك اتبعتنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك فأبى ذلك، وأنزل الله فيهم الآية.

١٤- وفى قوله تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾**: قيل: كانوا فى الجاهلية يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع، وكانت اليهود تقيم الحدود على الضعفاء الفقراء، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء، فنزلت الآية تنبه إلى فساد هذا الفعل، وإلى أن اليهود ضارعوا الجاهلية فيه.

١٥- وفى قوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾**: قيل: الآية نزلت فى **عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول**، وكان ذلك فى **أُحد**. فإن هذين وأتباعهما خافوا أن تدور الدوائر على المسلمين فهمّوا أن يوالوا اليهود ويتركوا المسلمين، فنزلت الآية، فتبرأ عبادة بن الصامت من موالاة اليهود، وتمسك بها ابن أبىّ.

١٦- وفى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾**: قيل: الآية عن وقائع من الغيب، وهذا إعجاز من القرآن والنبىّ ﷺ، وتخبر عن ارتدادهم وعن أهل الردّة، ومن نبذ منهم الشريعة وخرج عنها، ومن نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها وقالوا نصوم ونصلى ولا نزكى، فقاتلهم **الصدّيق**، وبعث **خالد بن الوليد** إليهم. وقوله: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي**

اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ..﴾ نزلت فى أبى بكر وأصحابه؛ وقيل: نزلت فى **الأنصار**، وقيل: هى إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين فى ذلك الوقت، فإن أبا بكر قاتل أهل الردة بقوم لم يكونوا وقت نزول الآية.

١٧- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)﴾**: قيل: نزلت فى **عبد الله بن سلام**، قال للنبى ﷺ بعد إسلامه: إن قومنا من **قريظة والنضير** قد هجرونا وأقسموا ألا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة الصحابة لبُعد المنازل، ونزلت الآية، فقال عبد الله: رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء. وقيل: إن الآية نزلت فى **أبى بكر**؛ وفى رواية أخرى: نزلت فى **علىّ بن أبى طالب**، وحملهم على هذا القول ما يروج من حديث **ضعيف** بشأن الآية: **﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ..﴾**، فقد ذكر ـ على غير الحقيقة ـ أن سائلاً سأل فى مسجد الرسول ﷺ، فلم يعطه أحد شيئاً، وكان **علىّ** فى الصلاة فى الركوع، وفى يمينه خاتم، فأشار إلى السائل بيده حتى أخذه.

١٨- وفى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)﴾**: قيل: إن قوماً من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم، فأنزل الله الآية.

١٩- وفى قوله تعالى: **﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾**: قيل: كان إذا أذّن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قد قاموا، لا قاموا. وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا، وقالوا عن الأذان: إن محمداً ابتدع شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير (الجمال)؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر! وقيل: إنهم إذا أذنّ المؤذن تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق السخف والمجون، تجهيلاً لأهل الإسلام، وتنفيراً للناس عن الصلاة والداعى إليها؛ وكان يرون المنادى إلى الصلاة بمنزلة اللاعب الهازئ؛ جهلاً منهم، فنزلت الآية، ومن الغريب أن ذلك مستمر معهم حتى اليوم ويشبهّون المؤذن بنفس التشبيهات!.

٢٠- وفى قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾**: قيل: جاء نفر من اليهود، فيهم **أبو ياسر بن أخطب**، ورافع بن أبى رافع، فسألوا المسلمين عمّن يؤمنون به من الرسل، فنزلت: **﴿قُولُوا**

آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ (البقرة)، فلما ذكر عيسى ﴿**وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**﴾ جحدوا نبوته. وقالوا: والله لانعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شراً من دينكم، فنزلت هذه الآية وما بعدها: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)**﴾ (المائدة).

٢١-وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)**﴾: قيل: الآية نزلت في اليهود الذين كانوا يظهرون الإيمان وجه النهار كلما دخلوا المدينة، ويكفرون آخر النهار إذا رجعوا إلى بيوتهم.

٢٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)**﴾: قيل: نزلت الآية في فنحاص بن عازوراء؛ وقيل في النباش بن قيس، والأول صحيح، وكان النبيّ ﷺ يستعين باليهود في الديّات فقالوا: إن إله محمد فقير، أو بخيل، وهو معنى ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ..**﴾. وقيل: كانت مكاسبهم كثيرة قبل مجيء الإسلام، فقلّت به، فقالوا: إن إله محمد هو السبب، وهو إله بخيل، ويده مقبوضة في العطاء.

٢٣- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية لأن رسول الله ﷺ كان يدعو في بداية الإسلام سراً خوفاً من المشركين، ثم أمره الله بإظهار الدعوة في هذه الآية. وقيل: كان عمر أول من أظهر إسلامه وقال: لانعبد الله سراً، وفي ذلك نزلت الآية. وفي قوله: ﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ..**﴾، قيل: إن الرسول ﷺ لمّا أمر بالبلاغ، كان الأمر أن يبلّغ كل ما أنزل إليه من ربّه، ونزلت الآية: ﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ..**﴾ لتعني أن لا يكتم شيئاً مما ينزل عليه، والآية تردّ على من قالوا: إن النبيّ ﷺ كتم شيئاً من أمر الدين تقية، فأبطلت الآية هذا القول، وهؤلاء هم الرافضة، ودلّت على أنه لم يُسِرّ إلى أحد شيئاً من أمر الدين، لأن المعنى: بلّغ جميع

ما أُنزل إليك ظاهراً، فكان مما بلّغه ما أنزله ربّه عليه فى أمر **زينب بنت جحش**، وفيه قالت **عائشة**: مَن حدثك أن محمداً كتم شيئاً من الوحى فقد كذب، ولو كان فاعلاً لكتم هذه الآيات». . وفى قوله : **﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ..﴾**، قيل: هذه الآية بها **دلائل نبوة محمد**، لأن الله تعالى أخبر أنه معصوم من الناس. قيل: كان أبو طالب يرسل كل يوم مع رسول **الله** ﷺ رجالاً من **بنى هاشم** يحرسونه حتى نزلت الآية، فقال النبىّ ﷺ : «**يا عمّاه، إن الله قد عصمنى من الناس فلا أحتاج إلى من يحرسنى**». وهذا يقتضى أن القصة جرت فى مكة، لأن أبا طالب كان فى مكة، وعلى ذلك تكون الآية مكية، وذلك **غير صحيح**، وقيل: إن عمه **هو العباس وهو غير صحيح أيضاً**. وقيل: إن النبى ﷺ كان نازلاً تحت شجرة، فجاء أعرابى فاختطف سيفه من يده، وجرى لا يلوى على شىء، فاصطدم بالشجرة. وقيل اسم الأعرابى «**غورث بن الحارس**» وقد عفا عنه، وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية، ونزلت أيضاً: **﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾** (المائدة). وقيل: إن ذلك كان قبل نجد ونزل يستريح، وعلق رسول الله ﷺ سيفه بغصن شجرة، وتفرّق الناس يستظلون بالشجر، وأتاه رجل وهو نائم وأخذ سيفه، واستيقظ والرجل قائم على رأسه، وقال له : من يمنعك منى؟ قال: **الله**، وكررها ثانية، فقال: **الله**، فوضع السيف، ولم يعرض رسول الله ﷺ للرجل. وقالت **عائشة** : سهر رسول الله ﷺ ليلة مقدمه المدينة، فقال: «**ليت رجلاً صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة**»، قالت : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: **من هذا؟** قال: سعد بن أبى وقاص، فقال له: **ما جاء بك؟** قال: وقع فى نفسى خوفٌ على رسول **الله** ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له ﷺ ثم نام. وفى رواية أخرى أن **سعداً وحذيفة** جاءا لحراسته، فنام النبىّ ﷺ حتى سمعت عائشة غطيطه - يعنى نام مطمئناً، ونزلت الآية، فأخرج رأسه من الخيمة وقال : «**انصرفوا إيها الناس فقد عصمنى الله**».

٢٤- وفى قوله تعالى : **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)﴾**: قيل : جاء جماعة من اليهود إلى النبىّ ﷺ فقالوا: ألست تقرّ أن التوراة حقٌ من عند الله ؟ قال : «بلى»، فقالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها. فنزلت الآية. وقيل: جاء رافع، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، فقالوا : يا

محمد، ألست تزعم أنك على ملّة ابراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا؟ قال: «بلى، **ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها، وكتمتم ما أُمرتم أن تُبينوه للناس**». قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنّا على الهدى والحق، فأنزل الله الآية.

٢٥- وفي قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾**: قيل: هؤلاء فرق النصارى، كانوا يقولون: **الآب والابن وروح القدس إلهٌ واحد**، ولا يقولون ثلاثة آلهة. وهو معنى مذهبهم وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمة لهم.

٢٦- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾**: قيل: نزلت في غلو اليهود وغلو النصارى، فأما غلو اليهود فقولهم عن المسيح: أنه ابن زانية وليس ولد نكاح، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأما غلو النصارى فقولهم إن المسيح إله، فنزلت الآية فيهما.

٢٧- وفي قوله تعالى: **﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾**: قيل: الآية نزلت في **نصارى الحبشة**، فقد قدم إليهم المسلمون في الهجرة الأولى فأكرموا وفادتهم، ولما كان الرسول ﷺ أرسل إلى **النجاشي** عمرو ابن أمية الضمري، فأرسل إلى الرهبان والقسيسين وجمعهم به وقرأ عمرو رسالة الرسول ﷺ، وبعضاً من القرآن، قيل سورة مريم، ففاضت دموعهم، فهم الذين نزلت فيهم **﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ..﴾**، وقيل: قدم على النبيّ ﷺ من الحبشة **عشرون** رجلاً، وكان بمكة ووجدوه في المسجد، وسألوه، ودعاهم الرسول ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن وفاضت دموعهم، واستجابوا وآمنوا، فلما قاموا من عنده اعترضهم **أبو جهل** ونفر من قريش وأغلظ لهم لإظهارهم الإيمان به. وقيل: هؤلاء النفر من **نجران**، وفيهم نزلت الآية: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾** (القصص). وقيل: إن وفد النصارى كان **سبعين** رجلاً من الرهبان، منهم **اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من الشام**، وفيهم نزلت: **﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى..﴾**، ونزل فيهم أيضاً: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾** (القصص). وقيل: كانوا أربعين رجلاً من أهل نجران من بني الحرث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية وستين من الشام. ونزلت فيهم الآية، وقيل: الآية نزلت في جماعة من أهل الكتاب وكانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، فلما بُعث محمدٌ ﷺ آمنوا به.

٢٨- وفى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ : قيل: نزلت بسبب رجل أتى النبىّ ﷺ يشكو شهوته إذا أكل اللحم، وسأل هل يحرّمها على نفســه، فنزلت الآية. وقيل: نزلت بسبب جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر، وعلىّ، وابن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبو ذر الغفارى، وسالم مولى أبى حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى، ومعقل بن مقرن، اجتمعوا فى دار عثمان بن مظعون، واتفقوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرض، ولا يأكلوا اللحم ولا الدهن، ولايقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا فى الأرض، ويترهبوا، ويجبوا المذاكير، فأنزل الله الآية.

٢٩- وفى قوله تـعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾: قيل: اختلفـوا فى سبب نزول هذه الآية، فقيل : سـبب نزولها القوم الذين حـرّموا طيبـات المطاعم والملابس والمناكح على أنفســهم، وحلفوا على ذلك، فلمـا نزلت: ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ قالوا : كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزلت هذه الآية. وقيل : إن عبد الله بن رواحة كان له أيتام وضيف، فـانقلب من شغله بعـد ساعة مـن الليل، فقال : أعـشيتم ضـيفى ؟ فـقالوا : انتظرناك. فقال: لا والله، لا آكل الليلة. فقال ضيفه: وما أنا بالذى يأكل. وقال أيتامه : ونحن لا نأكل. فلمـا رأى ذلك أكل وأكلوا، ثم أتى النبىّ ﷺ فـأخبـره . فقـال له : «أطعت الرحمن وعصيت الشيطان».

٣٠- وفى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾: قيل: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴿٢١٩﴾﴾(البقرة)، فقال الناس: مـا حرّم علينا، إنما قال إثم كبير، وكـانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل مـن المهاجرين ـ قيل هو علىّ ـ أمّ أصحـابه فى المغرب، فخلط فى قـراءته، فأنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..﴿٤٣﴾﴾ (المائـدة)، ثم نزلت آية أشـد من ذلـــك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾، فقالوا: انتهينا ربّنا. وقيل: نزلت الآية بسبب عمر ابن الخطاب، فإنه عدّد للنبيّ ﷺ عيوبها، وما ينزل بالناس بسببها، ودعا الله إلى تحريمها، وقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية، فقال عمر: انتهينا، انتهينا. وقال سعد ابن أبي وقاص: إن جماعة من الأنصار دعوه إلى الطعام والخمر قبل أن ينزل تحريمها، فأكل معهم وشرب وتشاجر مع أحد الناس ففزر له أنفه، وذهب إلى رسول الله ﷺ وهو هكذا، قال: فأنزل الله تعالى فيّ - في سعد بن أبي وقاص الآية. وقيل: إن حمزة عم النبيّ ﷺ سكر يوماً فأذى لعليّ ناقتين، فاشتكاه إلى النبيّ ﷺ، فجاءه وقد ذهبت الخمر بعقل حمزة، فلم ينكره ولم يعنفه، لا في سُكره ولا بعد ذلك، فنزلت الآية.

٣١- وفي قوله تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾**: قيل: لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ ونزلت الآية. وقيل: لمّا نزل تحريمها أمر النبيّ ﷺ منادياً ينادي في المدينة: ألا إن الخمر قد حرمت، فجعل الناس يهرقونها، فجرت في سكك المدينة، فقال قومٌ: قُتل من كانت في بطونهم! فأنزل الله الآية.

٣٢- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾**: قيل: نزلت عام الحديبية، فأحرم بعض الناس مع النبيّ ﷺ، ولم يحرم آخرون، فكان إذا عرض صيدٌ اختلف فيه أحوالهم وأفعالهم، واشتبهت أحكامه عليهم، فأنزل الله هذه الآية بياناً لأحكام أحوالهم وأفعالهم، ومحظورات حجّهم وعُمرتهم.

٣٣- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾**: قيل: نزلت في أبي اليسر، واسمه عمرو بن مالك الأنصاري، كان مُحرمًا عام الحديبية لعمرة، فقتل حمار وحش، فنزلت فيه الآية.

٣٤- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾**: قيل: عند

البخارى ومسلم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «فوالله لو تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا»، فقام إليه رجل فقال: أين مدخلى يارسول الله؟ قال له: «النار»، فقام عبد الله بن حذافة فقال: مَن أبى يا رسول الله؟ فقال: أبو حذافة»، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً. إناّ يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وبشرك، والله أعلم مَن آباؤنا. فسكن غضب رسول الله ﷺ، ونزلت الآية. وعن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ، فيقول الرجل: مَن أبى؟ ويقول الرجل تضلّ ناقته: أين ناقتى؟ فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس أيضاً قال: إن رسول الله ﷺ أذّن فى الناس فقال: «يا قوم كتب عليكم الحج»، فقام رجل من بنى أسد فقال: يارسول الله، أفى كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فقال: «والذى نفسى بيده، لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذاً لكفرتم، فاتركونى ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه»، فأنزل الله هذه الآية.

٣٥- وفى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)﴾: قيل: نزلت الآية بسبب تميم الدارى وعدىّ بن بداء، وكانا نصرانيين، وكانا يختلفان إلى مكة، فخرج معهما بتجارة فتى من بنى سهم يقال له بديل بن أبى مريم، فمرض، فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا أهله ما ترك، فلما مات كانت له إناء من فضة، فأخذاها وباعاها بألف درهم واقتسماها، وأسلم تميم الدارى بعد قدوم النبىّ ﷺ المدينة، وتأثّم مما فعل، فأتى أهله وأخبرهم، وأدّى لهم خمسمائة درهم، وأخبرهم أن عند صاحبه مثلها، وأتوا النبىّ ﷺ واستحضر عدىّ، واستحلفه النبىّ ﷺ بما يحلف به أهل دينه، فحلف، فأنزل الله الآية، ثم إنه انتزعت من عدى الخمسمائة درهم وأعطيت للورثة.

٣٦- وفى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢)﴾: قيل: نزلت هذه الآية لمّا طلب أتباع عيسى أن ينزل عليهم مائدة عليها طعام، وكانوا فى صيام، وأرادوا أن يجاب مطلبهم ليستيقنوا قدرته. وقيل: نزلت المائدة يوم الأحد غدوة وعشية، فكان الأحد عيداً. وقيل: ما نزلت المائدة، وإنما هو مثلٌ ضربه الله لخلقه لينهاهم عن مسألة الآية لأنبيائه.

●●●

١٠١٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الأنعام﴾

١- في قوله تعالى: **﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾** : قيل: الآية احتجاج على الكفار، ونزلت لأنهم قالوا: علمنا أنه ما يحملك على ما تفعل إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا حتى تصير أغنانا.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾**: قيل: نزلت لأن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزلت الآية. وقيل: جاء النحام بن زيد، وقروم بن كعب، وبحرى بن عمر، فقالوا: يا محمد، ما نعلم مع الله إلهاً غيره، فقال: «**لا إله إلا الله، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو**»، فأنزل الله الآية.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾** : قيل: كان الكفار ينهون عن أتباع النبيّ ﷺ، وخرج يوماً إلى الكعبة يصلي، فلما دخل في الصلاة. قال أبو جهل: من يقوم إلى محمد فيفسد صلاته؟ فقام ابن الزبعرى، فأخذ فَرْثاً ودماً فلطخ به وجه النبيّ ﷺ (الفرث البقايا في كرش الحيوان بعد ذبحه)، فانفتل النبيّ ﷺ من صلاته، وأتى أبا طالب عمّه يشكو له، ورآه فوضع سيفه ومشى معه حتى أتى القوم، فأخذ فرثاً ودماً فلطخ به وجوههم، ولحاهم وثيابهم، وأساء لهم القول، فنزلت هذه الآية. وأنزل الله على رسوله: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾** (الأحقاف)، فقال النبيّ ﷺ لعمه: «**قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**»، قال: «لولا تعيّرني قريش، يقولون إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك. فأنزل الله: **﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾** (القصص). ولقد أسلم ابن الزبعرى يوم فتح مكة وحسُن إسلامه واعتذر إلى الرسول ﷺ فقبل عذره.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾** : قيل: إن رسول الله

ﷺ مرّ بأبي جهل، فقال له أبو جهل: يا محمد، والله نكذّبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به، فنزلت هذه الآية: ﴿**فإنهم لا يكذبونك..**﴾.

٥- وفي قوله تعالى ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴿٥٢﴾**﴾ : قيل: نزلت في سلمان، وصهيب، وبلال، وخبّاب، طلبوا منه أن يطردهم عنه، فأنزل الله الآية. وقال سعد بن أبي وقاص: كنا مع النبيّ ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبيّ ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترءون علينا. قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أذكر اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله الآية. وقيل: الذين نزلت فيهم الآية ستة هم: سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وصهيب، وعمّار، والمقداد، وبلال. قيل لما رأى الكفّار هؤلاء حول النبيّ ﷺ حقّروهم واختلوا به وطلبوا أن يجعل لهم منه مجلساً تعرف لهم به العرب فضلهم، فإن وفود العرب تأتيه فيستحون أن يروهم مع هذه الأعبد، فإن جاءوه فليضمهم عنه، فإذا فرغوا فليبقوا معهم إن شاء الله، وطلبوا منه كتاباً بذلك، فدعا بصحيفة ودعا علياً ليكتب فنزل جبريل عليه بالآية. ونزلت: ﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴿٥٣﴾**﴾ (الأنعام)، ثم قال: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴿٥٤﴾**﴾ (الأنعام).

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴿٦٩﴾**﴾: قيل: لما نزلت الآية: ﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴿٦٨﴾**﴾ (الأنعام)، قال المسلمون: لا يمكننا دخول المسجد والطواف، فنزلت هذه الآية، ومعناها: ما عليكم شيء من حسابهم، وإنما عليكم بتذكيرهم وزجرهم إذا اضطررتم إلى التواجد معهم في نفس المكان.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴿٧١﴾**﴾: قيل: نزلت في عبدالرحمن ابن أبي بكر، وكان أبوه يدعوه إلى الإسلام، وهو يدعو أباه إلى الكفر، استهوته الشياطين

واستغوته وزيّنت له ودعته إلى الكفـر، بينما أبوه وأصحابه يدعونه إلى الهدى. وأن ينضم إليهم ويتابعهم عليه، وهو حيران يتخـبّطه الشيطان من المسّ فلا يهتدى لجهة ما. وأنكرت **عائشة** ذلك تماماً عن أخيها، وأقسمت عليه، **وشيعة عليّ** هم الذين أشاعوا عنه ذلك لأنه انضم **لعائشة** في **الجمل**؛ وبنى أصحاب معاوية على الفرية، لأنه رفض الإقرار **ليزيد** بالبيعة، واشمـأز أن تتحول الخلافة إلى **هرقليـة** أو **قـيصـرية** يرثهـا الأبناء عن الآباء. وعـبـدالرحمن من أفـاضل الصـحـابة، وممن رووا الحـديث، وصـحـب النبيّ ﷺ في **الحديبية**، وكان اسمه قبل الإسلام **عبد الكعبة** فـسمّاه النبيّ ﷺ **عبد الرحمن**، وكان أسنّ ولد أبي بكر، وشقـيق عائشة، ويقـال : لم يدرك النبيّ أربعة ولاء، أي أبٌ وبنوه، إلا أبا قحافة، وابنه أبا بكر، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، وابنه أبا عتيق محمد بن عبد الرحـمن: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٣٤﴾﴾. (أنظر أيضاً أسـباب النزول لآية ﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ...** ﴿١٧﴾﴾ (الأحقاف).

٨- ووفي قوله تعالى : ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴿٩١﴾﴾ : قـيل : الذي قـال ذلك **فنحـاص اليهـودي**، وقـيل : هو **مـالك بن الصـيف**، جاء يخـاصم النبيّ ﷺ . فقـال له النبيّ ﷺ : «**أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض "الحبر السمين"**»؟ وكان مالك هذا حبراً سميناً، فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شـيء. فقال له أصحابه : ويحك ، ولا على مـوسى؟ فقال : والله ما أنزل على بشر من شيء، فنزلت الآية.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴿٩٣﴾﴾ : قيل: نزلت في رحمان اليمامة، والأسود العنسي، وسجاح زوجة مسيلمة، كلهم تنبأوا، وقيل: الآية نزلت في مسيلمة. ولمّا نزلت الآية التي في «**المؤمنون**» : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ** ﴿١٢﴾﴾، دعـا النبي ﷺ **عبـد الله بن أبي سرح** الذي كان يكتب الوحي له، فأملاها عليـه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾ عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: «**تبارك الله أحسن الخالقين**» فقال رسول الله ﷺ : «**هكذا أنزلت عليّ**»، فشك عبد الله حينئذ، وقال : لئن كان محمد صادقاً،

لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً، لقد قلت كما قال. فارتدّ عن الإسلام ولحق بالمشركين ونزلت الآية. وأسلم ابن أبى سرح فى فتح مكة فحسُن إسلامه.

١٠-وفى قوله تعالى : **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾** : قيل: الآية نزلت فى مشركى العرب، ومعنى إشراكهم بالجن أنهم أطاعوهم، وقيل: نزلت فيمن قال: الملائكة بنات الله. وقيل: نزلت فى الزنادقة، قالوا : الله وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الجان، ويقرب من هذا قول المجوس: لله صانعان: قديم ومُحدَث. ومن ادعى أن لله بنات هم الملائكة سموهم جناً لاجتنانهم، أى لاستتارهم. والنصارى ادعت أن المسيح ابن الله، واليهود عبدوا أنفسهم، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، فجعل كل هؤلاء لله شركاء.

١١- وفى قوله تعالى: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾** : قيل: سبب هذه الآية أن قريشاً قالت للنبىﷺ : تخبرنا أن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وأن عيسى كان يحيى الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة، فائتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك. وقالوا : اجعل لنا الصفا ذهباً، فإن فعلته لنتبعنّك أجمعون. فقال لهم النبىّ ﷺ : «لئن أرسل الله آية ولم تصدّقوا عندها ليعذّبنكم». وتركهم رسول الله ﷺ حتى يتوب تائبهم، فنزلت الآية.

١٢- وفى قوله تعالى : **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾**: قيل: جاءت اليهود إلى النبىّ ﷺ ، وقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فنزلت الآية.

١٣- وفى قوله تعالى: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾**: قيل: نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وأبى جهل؛ وقيل: نزلت فى عمر ابن الخطاب، وأبى جهل، فالذى أحياه الله وجعل له نوراً: حمزة وعمر؛ والذى فى الظلمات: أبو جهل. والصحيح أن الآية عامة فى كل مؤمن وكافر.

١٤- وفى قوله تعالى : **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾** : قيل: نزلت فى «أربعة» كانوا يجلسون على كل عقبة، ينفّرون الناس عن اتّباع الرسول ﷺ .

١٥- وفي قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ : قيل: نزلت الآية في أمثال الوليد بن المغيرة الذي قال للنبيّ ﷺ : لو كانت النبوة حقاً، لكنتُ أولى بها منك، لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً؛ وفي أمثال أبي جهل الذي قال : والله لا نرضى به ولا نتّبعه أبداً إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه، فنزلت الآية.

١٦-وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ : قيل: جعلوا لأصنامهم نصيباً من الحرث، ولشركائهم نصيباً، فإذا أنفقوا نصيب الأصنام عليها وعلى سدنتها أخذوا من النصيب الذي لشركائهم، وما يجعلوه للأصنام لا ينفقونه عليها وإما على الضيفان، فلا نصيب الله يصل إليه ، ولا نصيب شركائهم يصل إليهم، فنزلت الآية.

١٧- وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ : قيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. عمد إلى خمسمائة نخلة فجذّها، ثم قسّمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً؛ وقيل : نزلت في معاذ بن جبل، جذّ نخلة فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق من ثمرها شيء.

١٨- وفي قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾ : قيل: نزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه، حيث قالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا. فنبّه الله عزّ وجلّ نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم، لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحلّه الله.

١٩- وفي قوله تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾ : قيل: إن الكفّار قالوا للنبيّ ﷺ : ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبد آلهتنا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل تباعة (أي ضرر) تتوقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت الآية.

●●●

١٠١٩- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الأعراف﴾

١- وفى قوله تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾**: قيل: كانت المرأة تطوف بالبيت فى الجاهلية وهى عريانة وعلى فرجها خرقة وهى تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، وما بدا منه فلا أحلّه. وكان الرجال يطوفون عراةً إلا ما أعطاهم الحُمْس من ثياب الإحرام (**انظر الحمس ضمن باب المصطلحات**)، فنزلت: **﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...(٣١)﴾**، ونزلت **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ... (٣٢)﴾** (الأعراف)، وقيل: كان النساء يطفن بالبيت عرايا فنزلت هذه الآية. وقيل: كان العرب يطوفون عراةً إلا الحُمس - وهم قريش، وكانت قريش تعطى العرايا ما سترهم، وأمّا من طاف بثيابه فكان يلقيها عنه بعد الطواف، وتسمى ثيابه «اللَّقَى»، يعنى الشيء المطروح، فكانوا فى تلك البدعة إلى أن نزلت الآية، وإلى أن أذّن المؤذّن: **لا يطوف بالبيت عريان.**

٢- وفى قوله تعالى: **﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾**: قيل: كانوا يطوفون فى الجاهلية عراة، وكان يفضلون الصيام وأن يكونوا كالزُّهّاد، فنزلت الآية لتبيّن أن اللباس الحسن وطيبات الطعام ليست حراماً، وليس كل ما تهواه النفس يُذمّ، وليس كل ما يتزين به الناس يُكرَه، والإنسان يجب أن يُرىَ جميلاً، **والطّيبات من الرزق**: هى ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والأصائل والحوامى، وتَرْك الطيّبات ليس من القربات، والفصل والترك يستوى فى المباحات.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)﴾**: قيل: هذه الآية نزلت فى **بلعام بن بعور**، والعرب تسميه **باعوراء**، وكان من المدينيين (يعنى من أهل مديَن)، وكان صالحاً، ودعا على بنى إسرائيل بسبب شرورهم، فذبحوه بالسيف جزاءً، وقيل: هو المقصود بأن الله آتاه آياته فانسلخ منها واتّبع الشيطان، وتنكر لما يعلم، وصنّف كتاباً موضوعه: **«أنّ ليس للعالم صانعٌ»**، والأقوال عنه من **الإسرائيليات**، وبلعام يأتى عنه فى **سفر العدد ٨/٣١**، من **أسفار العهد القديم**. والتفسير الذى جعل مرجعية الآية لبلعام تفسيرٌ من **ثقافة غير عربية**، ولا شأن للعرب أصلاً ببلعام هذا؛ وقيل: إن الآية نزلت فى **أمية بن الصلت الثقفى**، وكان قد قرأ الكتُب، فلما علم بالرسول ﷺ وتُلى عليه القرآن لم يؤمن. وكان أمية شاعراً. وفى

شعره الكثير من الإيمان. فلما كفر بالإسلام قال فيه النبيّ ﷺ: «**آمن شعْرُه وكفر قلبه**».
وقال سعيد بن المسيب: نزلت الآية في **أبي عامر بن صيفي**، وكان يلبس المسوح الجاهلية، ولكنه سمع بالنبيّ ﷺ، فدخل عليه وسأله: يا محمد! ما هذا الذي جئت به ؟ قال: «**جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم**»، قال: فإني عليها، فقال النبيّ ﷺ: «**لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها**»، فقال عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً ! فقال النبيّ ﷺ: «**نعم، أمات الله الكاذب منا كذلك**». قال سعيد: «إنما قال هذا يعرّض برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة. قال: وخرج أبو عامر إلى الشام ومر على قيصر، وكتب إلى المنافقين: استعدوا، فإني آتيكم من عند قيصر بجند لنُخرج محمداً من المدينة. فمات بالشام وحيداً. وقيل نزل: ﴿**وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾**﴾ (التوبة). وقال ابن عباس: الآية نزلت في رجل من بني إسرائيل كانت له ثلاث دعوات، فدعا أن تصبح امرأته أجمل امرأة، فلما صارت كذلك هجرته، فدعا أن تصبح أقبح امرأة، فجاءه أولاده يطلبون تصحيح ذلك، فدعا أن تكون كما كانت أولاً، فاستنفد الرجل دعواته فيها، وقصته أشبه وأليق **بالإسرائيليات والنصرانيات**. وابن عباس من المروّجين لهما. والآية عموماً تنطبق على اليهود والنصارى، قالوا بمجئ النبيّ المحمّد المحمود، وأنهم في انتظاره، فلما جاءهم كفروا به. والأصحّ أن الآية عامة في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها على رسوله ﷺ، فلم يقبلوها، وانسلخوا منها ومن معرفة الله، أي نُزِع العلم منهم، وفي الحديث: «**العلم علمان، علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم**».

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾**﴾: قيل: نزلت الآية في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته: «**يارحمن يارحيم**»، فقال رجل من مشركي مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً؟ فما بال هذا يدعو ربّين اثنين!؟ فأنزل الله الآية.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾**﴾: قيل: نزلت في المكذّبين، وهم **أهل مكة**، توعّدهم **بالاستدراج** - وهو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، فكلما جدّدوا لله معصية جدّد لهم نعمة.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾**﴾: قيل: نزلت في المستهزئين من قريش، أمهلهم الله تعالى مدة وقتلهم في ليلة واحدة.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾**﴾:

قيل: الآية نزلت كـردّ على قولهم: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ⦗٦⦘﴾ (الحـجـر). وقيل : نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ قام ليلة على الصـفا يدعو قريشاً، فَخْذاً فخذاً، فيقول: «يا بنى فلان»، يحذّرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبهم هذا لمجنون، بات يُصوّت حتى الصباح.

٨- وفى قـوله تعـالى : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ⦗١٨٧⦘﴾: قيل: جاء سموءل بن زيد، وابن أبى قـشيـر إلى رسول الله ﷺ ، يسألونه : أخبرنا متى الساعـة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم ما هي ؟ فأنزل الله الآية.

٩- وفى قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**⦗٢٠٠⦘﴾: قيل: لما نزل قوله تعالى ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ⦗١٩٩⦘﴾ (الأعراف)، قال النبى ﷺ : كيف يارب؟ والغضب؟»، فنزلت ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ..**﴾، والنزغ : الوسواس.

١٠- وفى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ⦗٢٠٤⦘﴾: قيل: هذا نزل فى الصلاة، فقد كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى، ويكثرون اللغط والشغب تعنتًا وعنادًا إذا قرئ القرآن، وقد حكاه الله تعالى عنهم فقال: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ⦗٢٦⦘﴾ (فـصّلت)، فأنزل الله عـز وجلّ جواباً لهم، ونزلت الآية تأمر المسلمين أن يكونوا خلاف الكافرين، وأن يستمعوا وينصتوا. وقـيل: الآية نزلت فى الخطبـة، وهذا ضعـيف، لأن الآية مكية، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة. وقيل: إن الآية عامة، وهى فى كل ما يجهر به الإمام من القرآن.



١٠٢٠- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الأنفال﴾

١- فى قوله تعالى : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ⦗١⦘﴾: قيل:نزلت فى أصحـاب بدر حـين اختلفوا فى النفل وساءت أخلاقهم، فانتزعه الله من أيديهم وجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه بين المسلمين عن سواء. وقيل: لما هُزم العدو فى بدر، انطلقت طائفة على آثارهم يقتلونهم ويأسرونهم، وأقـبلت طائفة تحوز المغانم ويجمعونهـا، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لئلا يصيب العدو منه غـرة، فلما كان الليل وجُمعت الغنائم، استأثر بهـا الجماعة

الذين جمعوها، وقال الذين خرجوا وراء العدو : لستم بأحق بها منا. وقال الذين أحدقوا بالرسول ﷺ : خفنا عليه أن يصيب منه العدو غرة فاشتغلنا به، فنزلت: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...﴾** فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين.

٢- وفي قوله تعالى : **﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)﴾**: قيل: كان **لأبي سفيان** قافلة قادمة من الشام، فخرج المسلمون للاستيلاء عليها، وأراد النبيّ ﷺ قتالهم، فقالوا: مالنا طاقة بقتالهم، وإنما خرجنا للعير، وقال المقداد لهم: لا تقولوا كما قال قوم موسى: **﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾** (المائدة). فأنزل الله الآية.

٣- وفي قوله تعالى : **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)﴾**: قيل: لما رأى النبيّ ﷺ كثرة عدد قريش وكانوا نحو **الألف**، وقلة عدد المسلمين وكانوا نحو **ثلاثمائة وتسعة عشر**، استقبل القبلة ودعا ربّه: «**اللهم انجز لي ما وعدتني؛ اللهم آت ما وعدتني؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**»، فأنزل الله الآية.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾**: قيل: نزلت يوم بدر، فلما صدر أصحاب النبيّ ﷺ عن بدر، ذكر كل واحد منهم ما فعل يتفاخرون، فنزلت الآية، إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسّبه وقصده.

٥- وفي قوله تعالى : **﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾**: قيل: كان هذا القول منهم وقت خروجهم لنصرة العير. وقيل : الذي قال ذلك **أبو جهل**، وقاله وقت القتال. وقال **النضر بن الحارث**: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم. وهو ممن قُتل ببدر. **والاستفتاح**: هو طلب النصر.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)﴾**: قيل: الخطاب للمؤمنين المصدّقين، أفردهم دون المنافقين، إجلالاً لهم فنزلت الآية فيهم، فجددّ الله عليهم الأمر بطاعة الله ورسوله.

٧- وفي قوله تعالى: **﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ**

الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾: قيل: نزلت في اليهود. وقيل: نزلت في نفر من بني عبد الدار.

٨- وفي قوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، لمّا أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح. قال: والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله. فنزلت هذه الآية، فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليّ. وقيل: نزلت في أبي لبابة، أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، قال أبو لبابة: لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه. وقيل: نزلت الآية في أنهم كانوا يسمعون الشيء من النبيّ ﷺ فيلقونه إلى المشركين ويفشونه.

١٠ ـ وفي قوله تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾**: قيل: كان لأبي لبابة أموال وأولاد في بني قريظة، وهذا ما حمله على ملاينتهم. والآية تنوّه بذلك.

١١- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾**: قيل: نزلت في مكر المشركين بالنبيّ ﷺ في دار الندوة، فاجتمع رأيهم على قتله، فبيّتوه، ورصدوه عل باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجلّ أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رءوسهم تراباً ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم عليّ فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا.

١٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١)﴾**: قيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان قد خرج إلى الحيرة في التجارة، فاشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكسرى وقيصر، فلما قصّ رسول الله ﷺ أخبار من مضى، قال النضر: لو شئتُ لقلتُ مثل هذا، قاله افتراءً وكذباً واستهزاءً، وتوهم هو وغيره كثيرون أنهم يأتون بمثل القرآن، وحاوله هو وغيره فعجزوا، فقالوا عناداً: إنْ هذا إلا أساطير الأولين.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾: قيل: قاله النضر بن الحارث. وقيل: إنه أبو جهل. والصحيح أنهم قالوه لشُبهة في صدورهم، وعلى وجه العناد والإيهام على الناس أنهم على الحق، فحلّ بهم يوم بدر ما سألوا، ومُزّقوا كلّ ممزق. وفي الرواية أن يهودياً سأل ابن عباس: ممن أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية؟ فهلاّ قالوا: إن كان هذا الحق من عندك فاهدنا له؟! إن هؤلاء قوم يجهلون! فقال له ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي! هل أنت من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه حتى قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨)﴾ (الأعراف)، فقال لهم موسى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾ (الأعراف)؟ فأطرق اليهودي مفحماً!

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾: قيل: نزلت في كفار قريش، كانوا يطوفون بالبيت عراة، يصفّقون ويصفّرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم. والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾: قيل: نزلت الآية في أهل بدر، ولكنها عامة وإن كان سبب نزولها خاصاً، فلما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا كلهم إلى مكة، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فقالوا لهم: إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا؟ ففعلوا، ففيهم نزلت الآية.

١٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾: قيل: إن عبد الله بن جحش ومعه رهط ثمانية أرسلهم النبيّ ﷺ ليتعرفوا أخبار قريش بين مكة والطائف، مرّت بهم عير لقريش تحمل تجارة وفيها عمرو بن الحضرمي، فتشاور المسلمون وقالوا نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإذا قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، فهاجموا القافلة، وقتلوا واحداً وأسروا اثنين، وأفلت واحد، وقال عبد الله لأصحابه: اعزلوا مما

غنمنا الخُمس لرسول الله ﷺ، ففعلوا، فكان أول خُمس في الإسلام، ونزلت الآية، فأقرّ الله ورسوله فعْل عبد الله ورضيه، وسنّه للأمة إلى يوم القيامة، وهي أول غنيمة غُنمت في الإسلام، وكان عبد الله أول أمير، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل من الكفار، وعُرفت تلك الخرجة ببدر الأولى، وأنكر رسول الله ﷺ قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام، وأنزل الله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ...** (٢١٧)﴾ (البقرة).

١٧- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** (٤٧)﴾: قيل: الآية نزلت في أبي جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، فقد خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة، بعث خفاف الكناني ـ وكان صديقاً لأبي جهل، بهدايا إليه من ابن له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خفّ من قومي، فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لقوة. والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق مَن أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا لآخر الأبد. فوردوا بدراً، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم ، وفي ذلك نزلت الآية.

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٤٨)﴾: قيل: نزلت الآية في سُراقة بن مالك بن جعشم، تمثّل لهم الشيطان يوم بدر في صورته، وكانت قريش تخاف بني بكر قبيلة سراقة لأنهم قتلوا رجلاً منهم، وجاء جبريل مع ألف من الملائكة، وقال الشيطان لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم، وأخذ الرسول قبضة من تراب فألقى بها في وجوه الكفار فأصابهم في عيونهم وأنوفهم، وظل يفعل ذلك، فولّوا مدبرين، وقال إبليس : أني برئ منكم، إني أرى ما لا ترون.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** (٥٠) **ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** (٥١)﴾ : قيل: نزلت فيمن بقي من بدر ولم يُقتل، أو فيمن قُتل، وكان بِظَهر أبي جهل مِثل الشراك، أي سير النعال، وكان ذلك من ضَرْب الملائكة!

٢٠- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** (٥٨)﴾: قيل: نزلت في بني قريظة وبني النضير.

٢١- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)**﴾: قيل: نزلت في إسلام عمر، فإن النبيّ ﷺ كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، فأسلم عمر وصاروا أربعين، والآية مكية وكتبت بأمر رسول الله في سورة الأنفال المدنية، والصحيح أن الآية مدنية.

٢٢- وفي قوله تعالى: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)**﴾: قيل: نزلت الآية تخفف من الآية الأخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥)**﴾(الأنفال). وقيل: كان ذلك يوم بدر لما شق ذلك عليهم حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة، فخفف عليهم العدد مع نقص الصبر، فحطّ الفرض بثبوت الواحد للاثنين، فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين.

٢٣- وفي قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)**﴾: قيل: هذه الآية نزلت يوم بدر، عتاباً من الله لأصحاب نبيّه ﷺ.

٢٤- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠)**﴾: قيل: الأسرى في هذه الآية عباس وأصحابه، قالوا للنبيّ ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحنّ لك على قومك، فنزلت الآية.



١٠٢١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة التوبة﴾

١-في قوله تعالى: ﴿**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١)**﴾: قيل: نزلت «سورة» براءة لكشف أسرار المنافقين، وبنقض العهد الذي كان بين النبيّ ﷺ والمشركين، وذلك أن الرسول ﷺ صالح قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، فعدا بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم، فانهزمت خزاعة إلى الحرم، فكان ذلك نقضاً للصلح الواقع يوم الحديبية، واستغاثت خزاعة بالنبيّ ﷺ، فقال: «لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب»، وجاء أبو سفيان إلى المدينة ليستديم الصلح ورجع بغير حاجة، وتجهّز رسول الله ﷺ إلى مكة ففتحها.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ⑫﴾: قيل: نزلت في صناديد قريش كأبي جهل، وعُتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وهذا بعيد، لأن سورة التوبة حين نزلت كانت شأفة قريش قد استؤصلت، وإذن فالآية لم تنزل في هؤلاء، وإنما نزلت في الموجودين وقتها، وهم الذين كانوا يحاربون الإسلام والمسلمين، فهؤلاء يكونون أصلاً ورأساً في الكفر، والأمثلة عليهم كثيرة في أيامنا في أقطاب روسيا وأمريكا وإسرائيل وصربيا ومقدونيا إلخ، وفي بلاد الإسلام حكام كثيرون وصحف ومجلات ضد الإسلام صراحة.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ** ⑭﴾: قيل: نزلت في بني خزاعة، فإن قريشاً أعانت بني بكر عليهم، وكانت خزاعة حلفاء النبيّ ﷺ، وحدث أن أنشد رجل من بني بكر شعراً يهجو به رسول الله ﷺ، فقال له رجل من خزاعة: لئن أعدته لأكسرن فمك، وأعاده فكسر فاه، وثار القتال بينهم، وقُتل أقوامٌ من الخزاعيين، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في نفر إلى النبيّ ﷺ وأخبر به، فقال النبيّ ﷺ: «لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب»، ثم أمر بالتجهّز والخروج إلى مكة، فكان الفتح.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ⑰﴾: قيل: لمّا أسر العباس وعُيّر بالكفر وقطيعة الرحم، قال: تذكرون مساوئنا، ولا تذكرون محاسننا. إنّا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فنزلت الآية رداً عليه.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ⑲﴾: قيل: إن العباس حين أسر يوم بدر، قال: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، فقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج ونفك العاني، فأنزل الله الآية. وقيل: افتخر العباس بالسقاية، وشيبة بالعمارة، وعليّ بالإسلام والجهاد، فصدق الله علياً وكذّبهما وأنزل الآية يخبر بأن العمارة لا تكون بالكفر، وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعات. وقيل: إن المشركين سألوا اليهود وقالوا: نحن سقاة الحاج، وعُمّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود عناداً لرسول الله ﷺ: أنتم أفضل. وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد

الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: أسأل رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)**﴾: قيل: هذه الآية نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفرة، وتخاطب المؤمنين بمكة وغيرها بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)**﴾: قيل: لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه، والأب لابنه، والأخ لأخيه، والرجل لزوجته: إنّا قد أُمرنا بالهجرة. فمنهم من تسارع إلى ذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقسم الرجل: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة فلن أنفق عليكم، ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون نناشدك الله ألا تخرج فنضيع بعدك، فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم، فنزلت الآية، فإن اختاروا الإقامة بدار الكفر وتولوا بعد نزول الآية فأولئك هم الظالمون.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)**﴾: قيل: نزلت في غزوة حنين، فإن مالك بن عوف النّصري من بني نصر بن مالك، لما سمع بفتح مكة، جمع هوازن وانعقدت الرياسة له، وأعدّ جيشاً من ثمانية آلاف، وقيل أربعة آلاف، من هوازن وثقيف، وكان على هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف كنانة بن عبد، فنزلوا بأوكاس، وجعلوا أموالهم ونساءهم وأولادهم ومواشيهم معهم، والتقى بهم الرسول ﷺ في وادي حنين، وكان المسلمون اثني عشر ألفاً، وكانت هوازن قد كمنوا في جنبتي الوادي، وفي غبش الصبح حملوا على المسلمين فانهزم المسلمون، وثبت الرسول ﷺ ومن معه، ونودي على من فرّ فعادوا، وأخذ الرسول ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، وظل يفعل ذلك حتى عميت عيونهم وخافوا فولوا الأدبار، وفي هذه الوقعة أنزل الله جنوداً لم يروها وعذّب الذين كفروا، وسبى رسول الله ﷺ أربعة آلاف رأس، واثنتي عشرة ألف ناقة سوى ما لا يُعلَم من الغنائم.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾: قيل: الآية نزلت عامة فى سائر المشركين وسائر المساجد، وكان نزولها سنة تسع التى حجّ فيها أبو بكر، وقيل سنة عشر، فلما منع المسلمون المشركين من موسم الحج وكانوا يجلبون الأطعمة تجارةً بها، خاف أهل مكة من الفقر، فنزلت الآية يعدُهم الله أن يغنيهم من فضله، فأخصبت أراضيهم، وحُمل الطعام والدهن والخير إلى مكة، وأعطى الكفار الجزية، وأسلم أهل نجد وصنعاء وغيرهم، فزاد الحج والحجّاج.

١٠- وفي قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾: قيل: لما حرّم الله تعالى على الكفّار أن يقربوا المسجد الحرام، أحلّ الجزية يعوّض بها على المسلمين ما قطع عنهم من التجارة التى كان المشركون يوافون بها، وكانت الجزية لم تؤخذ قبل ذلك، وأمر بمقاتلة جميع الكفار - بما فيهم أهل الكتاب - بعد أن تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة، وجُعل للقتال غاية هى إعطاء الجزية بدلاً عن القتل.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾: قيل: إن الذى قال ذلك من اليهود: سلام بن مشكم، ونعمان بن أبى أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، قالوه للنبى ﷺ، فإن اليهود لما قتلوا الأنبياء، عاقبهم الله بضياع التوراة، ولكن «عزير» ظل يجمع ما يسمع منها، ويصوغه بعبارته، ويضع فيها ما هو لصالح اليهود، وما يستنهض هممهم، ويستنفر نخوتهم، ويُشعرهم بأنهم أمة، فكرّمه اليهود وقالوا لولا انه ابن الله وحبيبه وأثيره لما كان بوسعه أن يجمع التوراة ويؤلّفها. وقالت النصارى مثل اليهود: أن المسيح ابن الله، بنوة نسل لا بنوة روح، لأن المسيح شخص، ولم يتهيأ هذا الشخص إلا ببنوة النسل. وقيل: إن بعضهم يعتقد بنوة المسيح بنوة حنو ورحمة، وهذا المعنى أيضاً لا يحلّ أن تطلق البنوة عليه- وفيه تجاوز ومن ثم فهو كفر، ولذلك نزلت الآية تنفى ذلك كله.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)﴾: قيل: نزلت هذه الآية لمّا كان الأحبار والرهبان يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبِيَع وغير ذلك، ويوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله، ومن بعد كانت «صكوك الغفران» الشهيرة.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)**﴾: قيل: مناسبة هذه الآية أنهم كانوا يحرمون القتال في المحرم، فإن احتاجوا أن يقاتلوا فيه، حرّموا صفراً بدله وقاتلوا في المحرم. وسبب ذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فكانوا ينسئون شهراً، أي يؤخرون حرمة المحرم، فيحل لهم المحرم ويكون صفر بدلاً منه شهراً حراماً!!، فكانوا كذلك شهراً فشهراً، حتى يستدير التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام بإرجاع المحرّم إلى موضعه، وقال الرسول ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض».

وقيل: كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين بسبب النسيء، فحجّوا في ذي الحجة عامين، ثم في المحرم عامين، ثم في صفر عامين، وكذلك في الشهور كلها، حتى وافقت حجة أبي بكر التي حجّها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة، ثم حجّ النبيّ ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة، فذلك قوله: «إن الزمان قد استدار...».

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)**﴾: قيل: نزلت عتاباً على تخلّف من تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)**﴾: قيل: هذه أول آية نزلت من سورة التوبة، وكانت بعد غزوة تبوك، وكان نزولها عتاباً من الله للمؤمنين لتركهم نصرة نبيّه ﷺ، فذكّرهم أنه تكفّل به في الغار وبصاحبه، وفي قوله: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ دليل على أن الخليفة بعد النبيّ ﷺ أبو بكر، فلولا أنه استحق أن يقول الله فيه ثاني اثنين لما كان خليفته.

١٦- وفي قوله تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)**﴾: قيل: أول ما نزل من سورة التوبة: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...**﴾، ثم نزل أولها وآخرها.

١٧- وفي قوله تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)**﴾: قيل: نزلت الآية في إذنه ﷺ للبعض من غير وحيٍ نزل فيه. وقيل:

ثنتان فعلهما النبيّ ﷺ ولم يؤمر بهما: **الأولى**: إذنه لطائفة من المنافقين في التخلّف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئاً إلا بوحي؛ **والثانية**: أخذه من الأسارى الفدية، فعاتبه الله في المرتين.

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** (٤٥)﴾: قيل: نزلت بسبب الآية: ﴿**لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** (٤٤)﴾(التوبة)، فكان الاستئذان في ذلك الوقت لغير عذر من علامات النفاق، ولذلك نزلت الآية.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** (٤٨)﴾: قيل: الآية نزلت في اثنى عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على ثنية الوداع ـ وهو واد في مكة، ليلة العقبة، ليفتكوا بالنبيّ ﷺ.

٢٠- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** (٤٩)﴾: قيل: نزلت في جدّ بن قيس أخي بني سلمة، لما أراد الرسول ﷺ الخروج إلى تبوك، فقد اعتذر عن الخروج بدعوى أنه مغرم بالنساء ويخشى نساء بني الأصفر أن لا يصبر عنهن، فطلب الإذن بالقعود حتى لا يُفتَن، وعوضًا عن ذلك يعين النبيّ ﷺ بماله، فأعرض عنه الرسول ﷺ، وقال له: «**أذنت لك**»، فنزلت الآية.

٢١- وفي قوله تعالى: ﴿**إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ** (٥٠)﴾: قيل: نزلت في المنافقين الذى تخلّفوا عن تبوك، يخبرون عن النبيّ ﷺ أخبار السوء، ويقولون إن محمداً وأصحابه قد جُهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبيّ ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، ونزلت الآية.

٢٢- وفي قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** (٥٣)﴾: قيل: نزلت في الجدّ بن قيس عندما قال: ائذن لي في القعود عن الخروج إلى تبوك، وهذا مالي أعينك به.

٢٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** (٥٨)﴾: قيل: الآية تصف قوماً من المنافقين عابوا النبيّ ﷺ في تفريق الصدقات، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم، فبينما رسول الله ﷺ يقسم مالاً إذ جاءه حرقوص بن زهير أصل الخوارج، ويقال له **ذو الخويصرة التميمي**، فقال: اعدلْ يارسول الله! فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟**» فنزلت الآية.

٢٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾: قيل: هذه الآية نزلت في عتاب ابن قشير، قال: إنما محمد أُذن يقبل كل ما قيل له. وقيل: الذي قال ذلك هو نبتل بن الحارث.

٢٥- وفي قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾: قيل: نزلت في قوم من المنافقين، منهم الجلاس بن سويد، ووديعة بن ثابت، وغلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس، اجتمعوا فجعلوا يتكلمون في النبيّ ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً، لنحن أشرُّ من الحمير! فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول حق وأنتم أشرُّ من الحمير! وأخبر النبيَّ ﷺ بقولهم، فحلفوا أن عامراً كاذب، وكذّبهم عامر وحلف على ذلك، فنزلت الآية.

٢٦- وفي قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾: قيل: قال بعض المنافقين والله وددت لو أني قدمت فجُلدت مائة ولا ينزل فينا شيء فيفضحنا! فنزلت الآية. وقيل: من أجل ذلك سُمّيت سورة التوبة بالسورة الفاضحة، والمثيرة، والمبعثرة. وقيل: كان المسلمون يسمونها الحَفّارة- لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته.

٢٧- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)﴾: قيل: هذه الآية نزلت في غزوة تبوك، فبينما النبيّ ﷺ، كان يسير، وركبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، قالوا: انظروا - هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر؟! فأطلعه الله على ما في قلوبهم وما يتحدثون به، فأوقف الركب، وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب، يريدون كانوا غير جادين، فنزلت الآية. وقيل: تعلق قائل ذلك وهو وديعة بن ثابت بحقب ناقة رسول الله ﷺ وهي تسير، والحجارة في الطريق تنكبه، وهو يصرخ للرسول ﷺ: إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ يردّ عليه: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؟ وقيل إن هذا المتعلّق كان عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهذا خطأ لأنه لم يشهد تبوك.

٢٨- وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾(التوبة): قيل: كانوا ثلاثة نفر، هزئ اثنان وضحك واحد، فالمعفو عنه هو الذي ضحك ولم يتكلم، وقيل اسمه مخشيّ بن حُمَيِّر، وقيل مات شهيداً في اليمامة، وكان مسلماً ولم يكن منافقاً.

٢٩- وفي قوله تعالي: **﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير (٧٤)﴾**: قيل: روى أن هذه الآية نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، ووديعة بن ثابت، وقعا في النبيّ ﷺ وقالا: والله لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن أشرٌ من الحمير؟ فقال له عامر بن قيس: أجل، والله إن محمداً لصادق مُصدَّق، وإنك لشرّ من الحمار، وأخبر عامر النبيّ ﷺ، فكذّبا عامراً، وأقسما بذلك، فدعا عامر الله أن يُنزل قرآناً فنزلت الآية. وقيل: إن الجلاس لما قال له عامر سأخبر الرسول ﷺ بقولك، همّ بقتله ثم لم يفعل، وفي ذلك كانت الآية: **﴿وهموا بما لم ينالوا﴾** (التوبة٧٤). وقيل: إن الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ، رأى رجلاً من غفار يتقاتل مع رجل من جهينة، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فعلا الغفارى الجهنى، فاستنصر ابن أبيّ الأوس والخزرج وقال: والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمّن كلبك يأكلك»، ولئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل، فأخبر النبيّ ﷺ بذلك، فحلف ابن أبيّ أنه لم يقله! وقيل: إن هذا كلام كل المنافقين، وهو الصحيح، لعموم القول ووجود المعنى فيهم، وجملة اعتقادهم أنه ليس بنبيّ. وقيل **﴿وهموا بما لم ينالوا﴾** (التوبة٧٤): هم المنافقون همّوا أن يقتلوا النبيّ ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك، وكانوا اثنى عشر رجلاً، ونزلت الآية فيهم. وقوله: **﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾**، كانوا يطلبون دية فيقضى لهم رسول الله ﷺ، وكان القتيل مولى الجلاس، فلما غنموا أغناهم الله من فضله فلم يشكروا. وقيل: إن قوله **﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾** تساوى المثل المشهور: اتق شرّ من أحسنت إليه. وروى أن الجلاس لمّا نزلت الآية استغفر وتاب.

٣٠- وفي قوله تعالي: **﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين (٧٥) فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون (٧٦) فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون (٧٧)﴾**: قيل: في الرواية أن المقصود رجل من الأنصار وَعَد إنْ رزقه الله ليؤدّين فيه حقّه وأخلف وعده. وقيل: هو ثعلبة بن حاطب الأنصارى، سأل الرسول ﷺ أن يدعو له، ووعد إن رزقه الله ليؤدى شكره، فاتخذ غنماً فنمت حتى ضاقت عليه المدينة، فنزل وادياً، وانشغل حتى كان يلى الظهر والعصر معاً، ثم زاد انشغاله حتى لم يعد يصلى إلا الجمعة، ثم ترك الجمعة، فقال الرسول ﷺ: «يا ويح ثعلبة» ثلاثاً، ثم نزلت: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم**

بهـا..(١٠٣) ﴾ (التوبة)، فبعث الرسول ﷺ برجلين إليه فقال ثعلبة : «الصدقة أخت الجزية». وقيل : إن ثعلبة هو الذى نزل فيه ﴿**وَمِنهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ...**﴾ الآية إذ منع الزكاة. وقيل : إن حاطبا كان قد أبطأ ماله بالشام، فحلف إن سلم ذلك ليصدّقن به، فلما تسلم بخل فنزلت الآية. وقيل: الآية نزلت فى رجال من المنافقين: نبتل بن الحارث، وجدّ ابن قيس، ومعتّب بن قشير.

٣١- وفى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)**﴾: قيل: نزلت فى عبد الرحمن بن عوف تصدّق بنصف ماله، وكان ماله ثمانية آلاف، فتصدّق بأربعة آلاف، فقال قوم : ما أعظم رياءه، فأنزل الله الآية. وقيل: تصدق الحجاب أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية.

٣٢-وفى قوله تعالى: ﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)**﴾: قيل: كان هذا فى غزوة تبوك، فقال رجل من بنى سلمة : لا تنفروا فى الحرّ فنزلت الآية.

٣٣- وفى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)**﴾: قيل: نزلت فى شأن عبد الله بن أبىّ ابن سلول، وكان قد مات وتقدّم النبىّ ﷺ ليصلى عليه، لولا أن نزلت الآية تنهاه عن ذلك، فانصرف ولم يصلّ عليه. وأما الرواية التى قيلت عن عمر ومحاولته أن يمنع الرسول ﷺ عن الصلاة عليه ، وقوله له: أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه ! فهى ضعيفة ولا يوجد ما يثبتها، ولا يوجد ما يثبت فَهْم الرسول ﷺ للآية ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً** ﴾(التوبة ٨٠)، هذا الفهم الفج، ولا يُعقل أن يقول هذه العبارة : سأزيد على سبعين !

٣٤- وفى قوله تعالى : ﴿**لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١)**﴾: قيل: نزلت فى ابن أم مكتوم وكان أعمى، وعمرو بن الجموح وكان أعرج، وكان الرسول ﷺ يملى على زيد بن ثابت سورة براءة عندما جاء الأعمى فنزلت : ﴿**لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ..**﴾ الآية، وجاء عصابة مع عبد الله بن معقل المزنى ترجوا أن يحملهم فقال : لا أجد ما

أحملكم عليه، فولّوا وهم يبكون، وعزّ عليهم أن يُحبَسوا ولا يجدون نفقة ولا محملاً للجهاد. فأنزل الله ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ..﴾ فسُمّوا «البكّائين»، وهم سبعة من بطون شتى: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الحمام، وعبد الله بن المغفل المزني، وهرمي بن عبد الله، وعرباض بن سارية. وهناك أسماء أخرى بخلاف هؤلاء. وقيل: الآية نزلت في أبي موسى وأصحابه، وقيل: في عبد الله بن المغفل المزني، وقيل: في عرباض بن سارية، وقيل: في عائذ بن عمرو. وقيل: في بني مُقَرِّن - وهو الصحيح، وكانوا سبعة إخوة، كلهم صحبوا النبيّ ﷺ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم، وهم: النعمان، ومعقل، وعقيل، وسويد، وسنان، وسابع لم يُسَمّ.

٣٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾: قيل: المراد بنو مُقَرِّن من مُزَيْنة.

٣٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾: قيل: نزلت الآية في أبي لبابة الأنصاري في شأنه مع بني قريظة، وذلك أنهم كلموه في النزول على حكم الله ورسوله، فأشار إليهم ألا يفعلوا لأنهم إن فعلوا فهو الذبح، فلما افتضح تاب وندم، وربط نفسه في سارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه. وقيل: نزلت في عشرة تخلّفوا عن غزوة تبوك، فربطوا أنفسهم مثل أبي لبابة في سواري المسجد، وعرضوا ليعفو عنهم أن ينزلوا عن كل مالهم، فنزلت الآية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)﴾(التوبة)، ورضي منهم بالثلث وكان كفّارة الذنوب التي أصابوها. والآية وإن كانت نزلت في الأعراب فهي عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة.

٣٧- وفي قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)﴾: قيل: نزلت الآية فيمن تخلّفوا عن غزوة تبوك فأخذ منهم ثلث أموالهم كفارةً عما فعلوه من ذنوب.

٣٨- وفي قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾: قيل: نزلت في الثلاث الذين تاب الله عليهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية من بني واقف، ومُرارة بن الربيع، وقيل ابن ربعي العمري، وكانوا قد تخلّفوا عن تبوك، وكانوا مياسرة، فكان أمرهم عند المؤمنين على الرجاء، لأنه ليس للعباد إلا ذلك ولا أكثر. والمُرْجَوْن من أرجأته أي أخّرته، ومنه قيل المرجئة لأنهم أخّروا العمل.

٣٩- وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**(١٠٧)﴾: قيل: نزلت فيما روى فى أبى عامر الراهب، وكان يعادى النبىَّ ﷺ مع أنه والد حنظلة المشهور بحنظلة غسيل الملائكة من صحابة الرسول ﷺ، والذى استشهد بأُحد، قتله أبو سفيان، وقيل لما سمع النداء إلى الجهاد خرج وهو جُنب واستشهد جنبا، فأخبر الرسول ﷺ أن الملائكة غسّلته. وأبو عامر ناصر قريشاً وألبّهم على الرسول ﷺ فى المدينة، وانضم إليهم فى أحد، وحفر حفائر ليقع فيها الصف الأول من المحاربين المسلمين ومنهم الرسول ﷺ، فوقع فى إحداها، وارتج رأسه، وجرح وجهه، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، ثم دارت الدوائر على قريش وحلفائهم ففرّ أبو عامر، فما زال يقاتل مع من يقاتل النبىّ ﷺ إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن، توجه إلى الشام وتنصّر، ووعده النصارى أن يساعدوه، فأرسل إلى المنافقين فى المدينة يُمنّيهم. فبنى هؤلاء مسجداً إلى جوار مسجد قباء، تمويهاً على المسلمين. وقيل إن بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قباء، وأتاهم النبىّ فصلى فيه، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، وقالوا نبنى مسجداً ونبعث الى النبىّ ﷺ ليصلى فيه، كما صلى فى مسجد بنى عمرو، فنكون وبنو عمرو على سواء، فإذا حضر أبو عامر وجد مكاناً يخطب فيه فى الناس ويناقشهم ويحتج عليهم. ثم إنهم أتوا النبىّ ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك يدعونه للصلاة فيه، فاعتذر بسفره إلى أن يعود فيصلى فى مسجدهم ويدعو لهم بالبركة. وانصرف النبىّ ﷺ من تبوك وعاد، وكانوا قد فرغوا من مسجدهم وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد، وتجهّز النبى ﷺ ليأتيهم، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار. فدعا مالك بن الدّخشُم، ومعن بن عدى، وعامر بن السكن، ووحشياً قاتل حمزة، وأمرهم أن يذهبوا فيهدموا هذا المسجد الظالم أهله ويحرقوه، واستحضر ابن الدخشم شعلة نار من بيته وانضم إلى زملائه، وأحرقوا المسجد وهدموه. وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً: هم خِذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف، ومن داره أخرج المسجد الضرار؛ ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعبّاد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه مجمّع وزيد، ونبتل بن الحارث، وبَحْزَج، وبجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت، وثعلبة بن حاطب. وقيل سمى مسجد الضرار من ضَرّ يضرُّ، وضرره انه بجوار مسجد قباء، ولا يجوز أن يبنى مسجد إلى جانب مسجد آخر لئلا ينصرف أهل المسجد الأول إلى المسجد الثانى. وكل مسجد بنى على ضرار - أى ليضر بمسجد آخر، أو بنى رياءً وسُمعة،

فهو فى حُكم مسجد الضرار ولا تجوز الصلاة فيه. ومن ذلك أن يكون قد بنى بلا اعتبار للمسجد الآخر واستهتاراً به، فذلك هو بناؤه كفراً. وأما بناؤه تفريقاً للمسلمين فإنه سيستقطب جماعة منهم فيختلفون عن الصلاة مع النبيّ ﷺ. وبناؤه إرصاداً لمن حارب الله ورسوله يعني ترقباً لوصول أبى عامر الراهب، وكان يسمى الراهب لأنه وهب نفسه للعبادة والتماس العلم، ومات كافراً بقنسرين بالشام بدعوة النبيّ ﷺ أن يموت غريباً. وجماعة عامر هذا لمّا واجههم النبيّ ﷺ بما فعلوا حلفوا أنهم ما أرادوا إلا الحُسنَى وهم كاذبون. وذلك دليل أن **الأعمال تختلف بالمقصود والإرادات**.

٤٠- وفى قوله تعالى: **﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾**: قيل: نزلت فى **مسجد قباء وفى أهله**، ولما نزلت هذه الآية سألهم رسول الله ﷺ: «**إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الثناء فى التطهر، فما تصنعون؟**» وكانوا يحبون أن يستنجوا بالماء.

٤١- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾**: قيل: نزلت فى البيعة الثانية وهى بيعة العقبة الكبرى، وهى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، أصغرهم عقبة بن عمرو، وكان اجتماعهم بالرسول ﷺ عند العقبة، فقال عبد الله بن رواحة للنبيّ ﷺ: اشترط لربّك ولنفسك ما شئت. فقال النبيّ ﷺ: «**أشترط لربّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال: «**الجنة**»، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت الآية، ثم إنها بعد ذلك عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد إلى يوم القيامة.

٤٢- وفى قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية لمّا حضرت أبا طالب الوفاة، فجاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عمّ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدها حتى ذكر أبو طالب كآخر ما كلمهم: **أنه على ملّة عبد المطلب**. وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «**أما والله لأستغفر لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فأنزل الله الآية فى النبيّ ﷺ، يقول له فى أبى طالب:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ (القصص) - وكل ذلك غير صحيح: لأن السورة مدنية وهي آخر ما نزل من القرآن، في حين أن أبا طالب مات في عنفوان الإسلام والنبي ﷺ بمكة!!

٤٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾: قيل: عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه؟ فأتيت النبيّ ﷺ فذكرت ذلك له، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾(التوبة)، أخرجه الترمذي

٤٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)﴾: قيل: روى أنه لما نزل تحريم الخمر وشدّد فيها، سألوا النبيّ ﷺ عمّن مات وهو يشربها، فأنزل الله تعالى الآية. والمعنى أن الله تعالى ما كان ليحكم على قوم بأنهم قد ضلوا، إلا إذا احتج عليهم بأنه قد أعلمهم وبيّن لهم ما يتقون. فعندئذ يستحقون أن يقال فيهم أنهم قد ضلّوا.

٤٥- وفي قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾: قيل: نزلت هذه الآيات في كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وهؤلاء تخلّفوا عن غزوة تبوك دون عذر، ورووا للرسول ﷺ سبب تخلفهم بصدق. وأما الذين تخلفوا وأبدوا أعذاراً، وقبلها منهم رسول الله ﷺ وتاب عليهم، والله أعلم إن كانوا صادقين أم كاذبين في أعذارهم، فكانوا بضعة وثمانين رجلاً. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين أن يكلموا الثلاثة الذين تخلّفوا بلا عذر، حتى يأتي فيهم أمر الله، واستلبث الوحي خمسين يوماً، واجتنبهم الناس وتغيّروا لهم، فلما مضت أربعون يوماً، أمر الرسول ﷺ أن يعتزل الثلاثة نساءهم، ولما كملت الخمسون، نزلت فيهم الآيات لتوبة الله عليهم، وانخلع كعب بن مالك عن ماله إلا قليلاً صدقةً إلى الله ورسوله، وعاهد الله أن لا يقول إلا الصدق بعد أن نجّاه الصدق، وكانت توبته ألا يحدّث إلا الصدق ما بقي من عُمره. وقيل: نزلت الآيات في فريق من الذين

اتبعوا الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار فى غزوة تبوك، فلما عانوا العسرة فى الظَّهر، وفى الزاد، والماء، كادوا أن يضلوا لولا أن تاب الله عليهم التوبة الأولى بأن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ وعفى عنهم، ثم كانت التوبة الثانية أن استنقذهم من شدة العسرة ونكاية العدو، فكانت توبته عليهم ليتوبوا أن وفقهم أولاً للتوبة ليتوبوا، ثم كانت التوبة الثانية، فلم يعجّل عقابهم ليتوبوا، فتاب عليهم ليثبتوا على التوبة، ولولا أنهم سبق لهم فى علمه أن قضى لهم بالتوبة ما تابوا. وكانت التوبة التى تابها الله على نبيّه ﷺ إذنه للمنافقين فى القعود.



١٠٢٢- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة يونس﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾**: قيل: الآية نزلت لإزالة العجب من عقولهم والشك فى نفوسهم، وكان عجبهم أن يكون الرسول بشراً منهم، وأن يكون له حق إنذار الناس وتبشيرهم، ولما استمعوا له كان القرآن وهو يتلوه كالسحر المبين فوصفوه لذلك بأنه ساحر مبين.

٢- وفى قوله تعالى: **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾**: قيل: الذى استعجل العقوبة كان النضر بن الحارث، قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء! وقيل: نزلت الآية فى الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب للخير، لقُضى إليهم أجلهم. والآية نزلت ذامّةً الخلق الذميم الذى يحمل الناس أحياناً على الدعاء فى الشرّ، فلو عجّل لهم لهلكوا.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾**: قيل: نزلت فى أبى حذيفة بن المغيرة، وكانت تصيبه البأساء والشّدة والجهد، فكان هذا هو حاله منها. وقيل: وهذه صفة الكثيرين، والآية تعم الكافر وغيره، وكما زيّن لهم الدعاء عند البلاء، والإعراض عند الرخاء، كذلك زين للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصى.



١٠٢٣- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة هود﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ**

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾: قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكان يجالس رسول الله ﷺ، ويحلف أنه ليحبه، ويضمر خلاف ما يظهر. وقيل: كان الأخنس رجلاً حلـو الكلام والمنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوى له بـقلبه على ما يسـوء. ومعنى «يثنون صدورهم» يطوونها على الكفـر. قيل كان الأخنس إذا رأى الرسول ﷺ ثنى صدره وظهره، أو طأطأ رأسه، وغطى وجـهه، لكيلا يراه فيدعوه إلى الإيمان. وقـال المنافقون: إذا أغلقنا أبوابنـا، واستغشـينا ثيابنا، وثنينا صـدورنا على عداوة محمد ، فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)﴾**: قيل: لما نزلت: **﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾** (هود) قال ناس : إن الساعة اقتربت، فتناهى قوم قليلاً، ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل الله الآية.

٣- وفي قوله تـعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ... (١٢)﴾** : قيل: كان الرسول ﷺ قبل أن تنزل الآية قـد همّ أن يدع نقد آلهتهم ،ومعنى الآية: هل أنت تارك ما فيـه نقد آلهتهم كمـا سألوك؟ وذلك أنهم قالوا له: لو أتيتنا بكتـاب ليس فيه نقد آلهتنا لاتّبعناك ، فَهَمّ النبيّ ﷺ أن يدع نقد آلهتهم، فنزلت، وهذاغير صحيح.

٤- وفي قوله: **﴿... أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ (١٢)﴾**: قيل: قال ذلك عبد الله بن أمية بن المغيرة المخزومي.

٥-وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)﴾**: قيل: لما هَمّ أن يدع نقد آلهتهم، نزلت الآية تقول: يامحمد **﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ..﴾**.

٦- وفي قـوله تعـالى: **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾**: قيل: نزلت في رجـل من الأنصار هو أبو اليسـَر بن عمرو، وقيل اسمه عبّاد، خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج. وقيل : جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المـدينة، وإني أصبت منها دون أن أمسها، فاقض فيّ ما شـئت. فقال عمر: لقـد سترك الله، لو سترتَ على نفـسك! فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل، فأتبعـه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه الآية، فسأل رجلٌ من القـوم: هذا له خاصة ؟ قال: «**لا، بل للناس كـافة**». وقيل: سـأله الرجل: إليّ هذه يا رسول الله ؟ فـقال: «**لك ولمن عـمل بها من أمـتي..**» وروى أن النـبيّ ﷺ أعرض عنه، وأقيمت صلاة العصر، فلما فرغ منها نزلت الآية، فقال له: «**أشهدتَ**

معنا الصلاة »؟ قال: نعم. قال: «أذهب فإنها كفّارة لما فعلت». أو قال: «قم فصلِّ أربع ركعات».

●●●

١٠٢٤- ﴿في أسباب نزول آيات سورة يوسف﴾

١- قيل: إن أهل مكة سألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة. وقال سعد بن أبي وقاص: إن الرسول ﷺ كان يتلو عليهم القرآن كلما نزل، فقال له الناس: لو قصصت علينا؟ فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ③﴾(يوسف)، وقالوا: لو حدثتنا؟ فأنزل الله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ㉓﴾ (الزمر). وقيل: نزلت سورة يوسف في مكة رداً على من سأل النبيّ ﷺ، قالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام، وأخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجّه اليهود من المدينة هذا السؤال لأهل مكة يسألونه عن هذا، فأنزل الله عز وجلّ سورة يوسف جملةً واحدة فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ②﴾: قيل: «أنزلناه» المقصود خبر يوسف، ويُروَى أن اليهود قالوا: سلوه لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن خبر يوسف؟ فأنزل الله هذا بمكة موافقاً للتوراة.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ⑩⑥﴾: قيل: نزلت الآية في قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها، ومع ذلك ظلوا يعبدون الأوثان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ⑧⑦﴾ (الزخرف). وقيل: الآية في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ويكفرون بمحمد ﷺ. وقيل: نزلت الآية في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه ما ملك. وقيل: هم النصارى، أو أنهم المشبِّهة: آمنوا مجملاً وأشركوا مفصّلاً. وقيل: هم المنافقون يقولون آمنا باللسان وقلوبهم كافرة. وقيل: نزلت هذه الآية في قصة الدخان، وذلك أن أهل مكة لمّا غشيهم الدخان في سنيّ القحط قالوا: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫﴾ (الدخان) فذلك إيمانهم، وأما شركهم فهو عودتهم إلى الكفر بعد كشف العذاب، وبيان ذلك قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑮﴾ (الدخان)، والعود يكون بعد ابتداء، فيكون معنى: ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ⑩⑥﴾ (يوسف)، أي وهم عائدون إلى الشرك.

●●●

١٠٢٥- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الرعد﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**الـمـر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ①﴾: قيل: نزلت حين قال المشركون للنبي ﷺ: إنك تأتي بالقرآن من تلقاء نفسك.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب** ⑥﴾: قيل: كانوا يستعجلونه العذاب الذي يتوعدهم به، وطلبوا العقوبة قبل العافية. ومن التاريخ فإنهم يعرفون أن أمماً كثيرة نزلت بها العقوبات، فهي مسألة جدّ إذن وليست هزلاً. وقيل إن أرجى آية في القرآن هي قوله تعالى: ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾، يعني يغفر لهم إذا آمنوا وتابوا، فإذا أصرّوا على الكفر فهو ذو عقاب.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال** ⑬﴾: قيل: نزلت الآية في يهودي قال للنبي ﷺ: أخبرني من أي شيء ربك؟ أمن لؤلؤ، أو من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته. وقيل: نزلت في بعض كفار العرب. وكان رجل من طواغيتهم قد بعث إليه النبي ﷺ نفراً من أصحابه يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام، فقال لهم: أخبروني عن ربّ محمد، ما هو؟ ومِمّ هو مصنوع؟ أفمن فضة، أم من حديد، أم من نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته، فقال: أجيب محمداً إلى ربّ لا يعرفه؟! فبعث النبيّ ﷺ إليه مراراً، وهو يقول مثل هذا، فبينما النفر ينازعونه ويدعونه، إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس، فرجعوا إلى النبيّ ﷺ، فاستقبلهم بعض أصحابه، فقالوا: احترق صاحبكم. فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيّ ﷺ أن الله تعالى شديد المحال أي شديد الانتقام. وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة، أخي لبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطفيل، فقد أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة العامريان يريدان النبيّ ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ومن أجمل الناس، فقال واحد من أصحاب النبيّ ﷺ: هذا يارسول الله عامر بن الطفيل، قد أقبل نحوك. فقال: «دعه، فإن يرد الله به خيراً يهده». فأقبل عامر حتى قام عليه، فقال: يا محمد، مالي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين، وعليك ما على المسلمين». قال أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليّ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث

يشاء»، قال: أفتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟ (والوبر البادية، والمدر الحضر) قال: «لا». قال: فما تجعل لى؟ قال: «أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها فى سبيل الله؟» قال: أوليس لى أعنة الخيل اليوم ؟ قُمْ معى أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ ـ وكان عامر أومأ إلى أربد: إذا رأيتنى أكلمه فدُر من خلفه واضربه بالسيف. فجعل يخاصم النبىَّ ﷺ ويراجعه، فاخترط أربد من سيفه شبراً، ثم حبسه الله فلم يقدر على سلّه، ويبست يده على سيفه، وأرسل الله عليه الصاعقة فأحرقته، وولىَّ عامر هارباً، وقال: يا محمد، دعوتَ ربّك على أربد حتى قتلته! والله لأملأنها عليك خيلاً جُرداً، وفتياناً مُرْداً! فقال ﷺ: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة» ـ يقصد الأوس والخزرج.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾**: قيل: نزلت الآية فى حمزة بن عبد المطلب، وأبى جهل ويضرب بهذا الأخير المثل فى العمى.

٥- وفى قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾**: قيل: قال ذلك أهل مكة، سألوا النبىﷺ: هلاّ أُنزلت عليك معجزة من ربّك مثل معجزة موسى فى فلق البحر، ومعجزة عيسى فى إحياء الموتى؟

٦-وفى قوله تعالى: **﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾**: قيل: نزلت هذه الآية فى صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا الصلح، فقال النبىّ ﷺ لعلىّ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ـ يعنون مسيلمة الكذّاب. قالوا: اكتب «باسمك اللهم» فهكذا كان أهل الجاهلية يبدأون كتاباتهم، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية فى كفّار قريش حين قال لهم النبىّ ﷺ: «اسجدوا للرحمن»، قالوا: ما الرحمن ؟ فنزلت الآية. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو فى الحِجرّ ويقول: «يا الله يا رحمن»، فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ـ الله والرحمن! فنزلت هذه الآية: **﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿١١٠﴾﴾** (الإسراء).

٧- وفى قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾**: قيل: الآية متصلة بما قبلها: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾**، وذلك أن نفراً من مشركى مكة فيهم أبوجهل،

وعبد الله بن أمية المخزومي، جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك، فسيّر لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تنفسح، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، فلست كما زعمت، بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه. وسخّر لنا الريح نركبها إلى الشام نقضي ميرتنا وحاجاتنا ثم نرجع من يومنا، فقد كان سليمان سُخِّرت له الريح كما زعمت، فلستَ أهون على ربّك من سليمان بن داود. وأحيي لنا قُصياً جدّك، أو من شئتَ من موتانا لنسأله : أحقٌ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولستَ أهون على الله منه . فأنزل الله تعالى الآية.

٨- وفي قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)﴾** : قيل: نزلت في أمثال عبد الله بن سلام، وكان من أهل الكتاب، وكان يفرح بنزول القرآن. وقيل كان من أهل الكتاب من يفرح بنزول القرآن لأنه يصدّق كُتبهم. والأحزاب هم المتحزبون على النبيّ ﷺ . وكان فيهم من ينكر بعض ما في القرآن.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾**: قيل: طالبوا النبيّ ﷺ أن يأتيهم بآية فنزلت : **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ...﴾**، أي لم يكن له أن يأتي قومه بعمل خارق إلا إذا أذن له الله تعالى.

١٠-وفي قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾**: قيل: عاب اليهود على النبيّ ﷺ كثرة زواجه، وقالوا : إن همّته في النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله هذه الآية.

١١- وفي قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾**: قيل: نزلت في عبدالله بن سلام، وكان قد شهد على اليهود أن رسول الله ﷺ مذكور في التوراة، وأنه نبيٌّ من عند الله. وقال عبد الله بن سلام: نزلتْ فيّ آيات من كتاب الله. نزلت فيّ: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾** (الأحقاف)، ونزلت فيّ: **﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾** (الرعد).

●●●

١٠٢٦- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة إبراهيم﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾: قيل: نزلت فيمن كفر بعيسى، وهؤلاء هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وأما من آمنوا بعيسى فهم الذين كفروا بمحمد، وإخراج من لم يؤمن من الظلمات يعنى إخراجه من الكفر، والآية نزلت فى هؤلاء.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ⑮﴾: قيل: نزلت فى أبى جهل، والاستفتاح هو الاستنصار، وكان أبو جهل نموذجاً للجبار العنيد، والجبّار هو المتكبر، والعنيد المصرّ على انحرافه وخروجه، والرسُل هم الذين استفتحوا بالله أى استنصروه، وأبو جهل استفتح عناده وجبروته فخاب استفتاحه وقُتل فى بدر الكبرى.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ㉗﴾: قيل: كان سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبىّ ﷺ لمّا وصف مُساءلة منكر ونكير، وما يكون من جواب الميت، فقال عمر: يا رسول الله، أيكون معى؟؟ قال: «نعم»، قال عمر: كُفيتُ إذن. فأنزل الله هذه الآية.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ㉘﴾: قيل: الآية نزلت فى مشركى قريش حين بعث الله النبىّ ﷺ منهم وفيهم فكفروا. وقيل: نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبىّ ﷺ يوم بدر. وقيل: هم قريش الذين نحروا يوم بدر. وقيل: نزلت فى الأفجرين من قريش: بنى مخزوم، وبنى أمية، فأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر. وقيل: هم متنصرة العرب: جَبَلة بن الأيهم وأصحابه حين لُطم، فجعل له عُمَر القصاص بمثله فلم يرض، وأنف فارتد متنصّراً، ولحق بالروم فى جماعة من قومه. وقيل: الآية عامة فى جميع المشركين.

٥- وفى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ㊷﴾: قيل: نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق، وهو غير صحيح فلا مناسبة للآية مع أبى بكر ولكنها عامة للناس كافة.

●●●

١٠٢٧- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الحجر﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ㉔﴾: قيل: نزلت فيمن يخرجون للجهاد فى سبيل الله، ومن يتقاعسون. وقيل وهو قولٌ سقيم: إن امرأة جميلة كانت تصلى خلف الرسول ﷺ، فكان بعضهم يتقدم حين يكون الصف

الأول لئلا يراها، وبعضهم يتأخر حتى يكون فى الصف المؤخر فيراها، وإذا ركع ينظر من تحت إبطيــه، وهذا الكلام من **الإسرائيليات**. فليس هكذا خُلُق المسلمين، وما ربّاهم الرسول ﷺ على ذلك، ثم إن النساء كن يصلين فى مؤخرة المسجد وليس خلف الرسول ﷺ! فاتقوا الله!

٢- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾**: قيل: إن **سلمان الفارسى** لما سمع الآية: **﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾** (الرعد)، اختفى ثلاثة أيام من شدة الخوف، فجيء به للنبىّ ﷺ، فسأله، فقال: يارسول الله، أُنزلت هذه الآية: **﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**، فوالذى بعثك بالحق لقد قطعتْ قلبى! فأنزل الله: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾**.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾**: قيل: نزلت فى **أبى بكر وعمر وعلىّ** والصحابة. قيل: وأىّ غل؟ قيل: **غل الجاهلية**. إن بنى تميم وبنى عدى وبنى هاشم كانت بينهم فى الجاهلية عداوة، فلمّا أسلم هؤلاء تحابوا.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾**: قيل: إن النبىّ ﷺ خرج إلى الصحابة وهم يضحكون، فقال: «**أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار؟**» فشقّ ذلك عليهم، فنزلت الآية. وعن ابن عمر: أن النبىّ ﷺ اطّلع عليهم من الباب الذى يدخل منه **بنو شيبة** وهم يضحكون، فقال: «**ما لكم تضحكون؟**» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحِجر رجع القهقرى فقال لهم: إنى لما خرجت جاءنى جبريل فقال: يا محمد، لِمَ تقنط عبادى من رحمتى: **﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾**.

٥- وفى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾**: قيل: إن النبىّ ﷺ وافى سبع قوافل ليهود **قريظة والنضير** فى يوم واحد، فيها البُرّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها وأنفقناها فى سبيل الله، فأنزل الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾** فهى خيرٌ لكم من القوافل السبع، فلا تمدّن أعينكم إليها؛ و**﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾**: أى **أمثالاً فى النّعم**، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى فهم **أزواج**. وقيل: إن النبىّ ﷺ ضاف ضيفاً، ولم يكن عنده شىء يصلحه، فأرسل إلى رجل من **اليهود** ليسلفه دقيقاً إلى هلال رجب، فاشترط اليهودى الرهن، فقال النبىّ ﷺ: «**أما والله إنى لأمين فى السماء، وأمين فى الأرض، ولئن أسلفنى**

أو باعني لأؤدين إليه»، فنزلت هذه الآية: **﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾**، كأنه يعزّيه عن الدنيا. والحديث به ضعف، فلماذا يقترض من يهودى دون المسلمين، ثم إن الرسول ﷺ لا يتعامل بالربا، والمسألة لا تحتاج لأنه مجرد ضيف!

٦- وفي قوله تعالى: **﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠)﴾**: قيل: نزلت فى العاص بن وائل، وعتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبى جهل بن هشام، وابن البخترى بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، ومنبّه بن الحجاج، فهؤلاء التسعة هم المقتسمون: اقتسموا القرآن، ففرّقوه، وبدّدوه، وحرّفوه.

●●●

١٠٢٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة النحل﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾**: قيل: كان كفّار قريش يستعجلون العذاب استهزاءً، حتى قال النضر بن الحارث: **﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾** (الأنفال)، فاستعجل العذاب. وقيل: لما نزلت: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾** (القمر)، قال الكفار: «إن هذا ـ أى النبىّ ﷺ ـ يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون»، فأمسكوا وانتظروا قُرب الساعة، فامتدت الأيام، فقالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾** (الأنبياء)، فأشفقوا وانتظروا، فامتدت الأيام، فقالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت: **﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾**، فخاف المسلمون، فنزلت: **﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾**، فاطمأنوا، وقال النبىّ ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بإصبعيه، السبابة والتى تليها. يقول: «**إن كادت لتسبقنى فسبقتها**». ونلاحظ أن هناك أخطاء فى الترتيب الذى قالوا به للآيات عن الساعة، لأنه لا يصح أن تأتى آية سورة الأنبياء قبل آية سورة النحل، لأن سورة النحل نزلت قبل سورة الأنبياء!.

٢- وفى قوله تعالى: **﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾**: قيل: نزلت رداً على قولهم: **﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾** (الزخرف).

٣- وفى قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾**: قيل: القائل النضر بن الحارث، ونزلت فيه الآية، وكان قد اشترى من الحيرة كتبًا، كان يقرأ منها على قريش ويقول: ما يقرأ محمد على أصحابه إلاّ كتباً كهذه فيها أساطير الأولين.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ**

السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٦)﴾: قيل: نزلت في النمرود وقومه في قصة إبراهيم في سورة إبراهيم، أرادوا صعود السماء فبنوا الصرح ليصعدوا منه، فخر. وقيل: نزلت في بختنصر وأصحابه. وقيل: المراد «المقتسمون» الذي ذكرهم الله في سورة الحجر.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٨)﴾**: قيل: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه، فقال فيما قال: والذي أرجوه بعد الموت أنه كذا وكذا، فأقسم المشرك بالله لايبعث الله من يموت، فنزلت الآية.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٤١)﴾**: قيل: نزلت في صهيب، وبلال، وخباب، وعمار، عذبهم أهل مكة ليقروا بما أرادوه منهم أن يقرّوا به. فلما فعلوا خلّوهم فهاجروا إلى المدينة. وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل. والمراد بقوله تعالى: **﴿والذين هاجروا في الله﴾** هم أصحاب النبيّ ﷺ الذين ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم فهاجروا إلى الحبشة، ثم قدموا إلى المدينة من بعد. والآية تعمّ الجميع.

٧- وفي قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٤٣)﴾**: قيل: نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً، فردّ الله عليهم.

٨- وفي قوله تعالى: **﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم (٧٦)﴾**: قيل: كان الأبكم عبداً عند عثمان بن عفان، والذي يأمر بالعدل هو عثمان، وكان يعرض على الأبكم الإسلام فيأبى. وقيل: المثل أيضا لأبي بكر ومولى له كافر. وقيل: الأبكم هو أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمّار بن ياسر العنسي، وكان أبو جهل يعذّبه على الإسلام ويعذب أمه سمية، وكانت مولاة لأبي جهل. وقيل: الأبكم هو أبيّ بن خلف، وكان لا ينطق بخير، وهو كلٌّ على مولاه، أي على قومه، لأنه كان يؤذيهم ويؤذي عثمان بن مظعون. وقيل: نزلت في هشام بن عمرو بن الحارث، وكان كافراً قليل الخير يعادي النبيّ ﷺ. وقيل: إن الأبكم الكافر، والذي يأمر بالعدل المؤمن، لأن الآية تعمّ.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (٨٣)﴾**: قيل: إن أعرابيا أتى النبيّ ﷺ، فسأله، فقرأ النبيّ ﷺ: **﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا**

(٨٠)﴾ (النحل)، فقال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾ (النحل)، قال: نعم. ثم قرأ عليه كل ذلك وهو يقول نعم. حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ (النحل)، فولّى الأعرابي، فأنزل الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ (النحل).

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)﴾: قيل: نزلت في التزام الحلف الذي كان في الجاهلية، وجاء الإسلام بالوفاء به، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» أخرجه مسلم. وقيل: نزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾: قيل: شبّهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه، بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحلّه، ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مُرّة، كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه. وقيل: ذلك مثل لم يُضرب على امرأة معينة.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)﴾: قيل: نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي وخصمه ابن أسوَع، اختصما في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف، فلما نزلت هذه الآية فيه رجع وأقرّ بحق الرجل عليه.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾: قيل: إن النبي ﷺ كثيراً ما كان يجلس إلى غلام نصراني يقال له جبر، عبد بني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب ويعلّمه. وقيل اسمه يعيش. وقيل: كان غلاماً لبني عامر بن لؤي. وقيل: علّمه اثنان أحدهما اسمه نبت، والآخر أبو فكيهة. وقيل: علّمه نصراني اسمه بلعام. وقيل: علّمه أبو ميسرة. وقيل: هو عدّاس غلام عُتبة بن ربيعة. وقيل: اسمه عابس غلام حويطب بن عبدالعزّى. والسؤال هو: علّمه ماذا؟ والقرآن موسوعة لا أول لها ولا آخر، ويباين بشدّة كُتُب الأولين، سواء في موضوعاته، أو أحكامه، أو قصصه، أو أسلوبه. فعلّمه ماذا؟

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)**﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن خطل، وقيس بن الوليد بن المغيرة، أكرهوا على أن يكفروا بعد إيمانهم. وقيل: نزلت في عمار بن ياسر، أخذه المشركون وعذبوه ليكفر، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «**كيف تجد قلبك**»؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: «**فإن عادوا فعُد**». وقيل: إن ناساً من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض أصحاب النبي ﷺ بالمدينة: أن هاجروا إلينا، فإنَّا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق ففتنوهم، فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت الآية.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)**﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وكان قد ارتدّ ولحق بالمشركين، ثم إنه يوم فتح مكة استجار بعثمان فأجاره النبيّ ﷺ.

١٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)**﴾: قيل: نزلت في مُضَر، كان رسول الله ﷺ قد دعا عليهم وقال: «**اللهم اشْدُد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف**»، لأنهم كفروا بما أوتوا وجحدوا، فابتلوا بالقحط بكفرهم.

١٧- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)**﴾: قيل: الآية مدنية مع أن السورة مكية، ونزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد؛ وقيل الآية عامة ومكية ومعناها متناسق مع المعاني قبلها وبعدها. وقيل: بعد دفن قتلى أُحد نزلت الآيات ابتداءً من الآية: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ... (١٢٥)**﴾، والنتهاءً بالآية: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ... (١٢٨)**﴾. وقيل: إن النبيّ ﷺ لمّا قُتل حمزة وقف عليه وقال: «**لأمثلن بسبعين منهم مكانك**»، فنزل جبريل وقرأ عليه: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ...**﴾ إلى آخر السورة، فكفّ رسول الله ﷺ وأمسك عمّا أراد. وقيل: لمّا كان يوم أُحد، أصيب من الأنصار **أربعة وستون**، ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة، فمثّلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم. فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ...**﴾ الآية. وقيل: لمّا انصرف المشركون عن قتلى أُحد، انصرف رسول الله ﷺ فرأى

منظراً ساءه: رأى حمزة قد شُقّ بطنه واصطُلم (يعنى قُطع) أنفه، وجُدعت أذناه (يعنى قطعتا)، فقال: «لولا أن يحزن النساء أو تكون سُنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير. لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلاً»، ثم عاد ببردة وغطى بها وجهه فخرجت رجلاه، فغطى وجهه وجعل على رجليه من الإذخَر (نبات طيب الرائحة)، ثم قدّمه فكبرّ عليه عشراً. ثم جعل يُجاء بالموتى الواحد تلو الآخر فيوضع، وحمزة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دُفنوا وفرغ منهم، نزلت هذه الآية: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل)، إلى قوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (النحل)، فصبر رسول الله ﷺ ولم يُمثّل بأحد. وقيل: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة، ألاّ ينال من ظالمه، إذا تمكّن، إلا مثل ظلامته لا يتعداه إلى غيره.

●●●

١٠٢٩- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الإسراء﴾

١-فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾: قيل: نزلت فى النضر بن الحارث وكان يدعو ويقول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، والمعنى عام: وهو أن ندعو فى طلب المحظور كدعوتنا فى طلب المباح.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾: قيل: نزلت فى الوليد ابن المغيرة. قال لأهل مكة: اتبعونى واكفروا بمحمد، وعلىّ أوزاركم، فنزلت هذه الآية - أى أن الوليد لايحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾: قيل: نزلت الآية فى سعد بن أبى وقّاص، فإنه أسلم فهددت أمه بإلقاء نفسها فى الرمضاء متجردة، فذكر ذلك لسعد، فقال: لتَمُت ! فنزلت الآية خاصة فى الدعاء للأبوين.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾: قيل: نزلت الآية فى قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى الفساد، فكان يعرض عنهم رغبة فى الأجر فى

معهم لئلا يعينهم على فسادهم. وقيل: جاء ناس من مُزَيْنة إلى النبيّ ﷺ يستحملونه، فقال «لا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً، فأنزل الله الآية.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾**: قيل: نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم: **أبو جهل، وأبو سفيان، والنضر** بن الحارث، **وأم جميل امرأة أبي لهب، وحويطب،** فحجب الله رسوله ﷺ عن أبصارهم كلما همّ يقرأ القرآن، وكانوا يمرون به ولا يرونه. ولما جاءته أم جميل في المسجد بسبب سورة **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** فيها وفي زوجها لم تره كما كان يخشى أبو بكر. وقيل: لما نزلت سورة **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها حَجَر وهي تقول:

مُذَمَّمًا عصينا ... وأمْرَه أبينا ... ودينَه قَلَيْنا

والنبيّ ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يارسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك! قال: «**إنها لن تراني**»، وقرأ القرآن يعتصم به، يقول: **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾** (الإسراء)، فكانت تلتفت على أبي بكر ولا ترى رسول الله ﷺ. وقيل: لما نزلت **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** جاءت امرأة **أبي لهب** إلى النبيّ ﷺ ومعه أبو بكر، فقال أبو بكر: لو تنحيت عنها لئلا تُسمعك ما يؤذيك فإنها امرأة بذية، فقال النبيّ ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها»، فلم تره.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾**: قيل: نزلت حين دعا عُتبة أشراف قريش إلى طَعام صنعه لهم، فدخل عليهم النبيّ ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله. فتناجوا يقولون: ساحر! ومجنون!.

وقيل: أمر النبيّ ﷺ علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل عليٌّ ذلك، ودخل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «**قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم عليها العرب وتدين لكم العجم**» فأبوا، وكانوا يستمعون ويتناجون: هو ساحر! وهو مسحور! فنزلت الآية.

٧- وفي قوله تعالى: **﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾**: قيل: نزلت في عمر بن الخطاب، شتمه عربي، وسبّه عمر وهمّ بقتله، فكادت تقع فتنة، فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت لما قال المسلمون

لرسول الله ﷺ: إئذن لنا في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا. فقال: «لم أومر بعد بالقتال»، فأنزل الله الآية.

٨- وفي قوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦)﴾**: قيل: لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله ﷺ، أنزل الله هذه الآية ـ أي ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة، فإنهم لا يملكون كشف الضُّر عنكم، ولا تغيير ما أنتم فيه من حال إلى حال.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)﴾**: قيل: إن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنحّي عنهم الجبال ليزرعوا. فإن كفروا بعد ذلك أُهلكوا، فنزلت الآية. والمعنى: وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، فقد آتى ثمود الناقة، آية واضحة دالة على صدق صالح، وعلى قدرة الله، فكذّبوا مع ذلك، فالآيات ليست ضرورية للإيمان، وإنما طريق الدعوة هو العقل والحوار.

١٠- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾**: قيل: الرؤيا في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحديبية، فرُدَّ فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية. فلما كان العام المقبل دخلها وأنزل الله: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾** (الفتح). وقيل: هذه الرؤيا هي أنه ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزوة القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات، فنزلت الآية. والرواية متهافتة. وقيل: لما روى الرسول ﷺ رؤياه وأنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في نفس الليلة ارتد كثير ممن كان قد أسلم، فأنزل الله فيمن ارتد عن الإسلام الآية: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾**. وقيل: إنه لما أُسرى به أصبح يحدث نفراً من قريش يستهزئون به، فطلبوا منه آية، فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر! فأنزل الله **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾**. وأما قوله: **﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾** الآية، قيل لما ذكر الله الزقوم خوّف به هذا الحيّ من قريش فقال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد؟ قالوا: لا، قال: الثريد بالزبد! أما لئن أمكننا منها لنزقمنها زقماً. فأنزل الله **﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾**

(الإسراء)، وأنزل: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)**﴾ (الدخان).

١١- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣)**﴾: قيل: كان النبيّ يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تُلم بآلهتنا، فحدّث نفسه وقال: «وما عليّ أن أُلمّ بها بعد أن يدعوني استلم الحجر، والله يعلم إني لها كاره». فأبى الله تعالى وأنزل عليه هذه الآية. والرواية متهافتة كما ترى. وقيل: نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبيّ ﷺ فسألوه شططاً، وقالوا: متّعنا بآلهتنا سنَة حتى نأخذ ما يُهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا. وحرِّم وادينا كما حَرّمتَ مكة لتعرف العرب فضلنا! فهَمّ رسول الله ﷺ إن يعطيهم ذلك. فنزلت الآية. والرواية متهافتة أيضاً. وقيل: إن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه، ويسوّدونه، ويقاربونه، وطلبوا إليه أن يطرد عنهم السقّاط والموالي حتى يجلسوا معه ويسمعوا منه، فَهَمّ بذلك حتى نُهي عنه، والرواية متهافتة.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦)**﴾: قيل: إن اليهود أتو النبيّ ﷺ فقالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، قيل: فصدق رسول الله ﷺ ما قالوا (!!)، فغزا غزوة تبوك يريد الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله آيات من سورة الأسراء (سورة بني إسرائيل) بعدما خُتمت السورة بالآية: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا**﴾، وأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة، وأسرّ إليه أن يقول كقوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)**﴾ (الإسراء)، فهذه الآيات نزلت في رجعته من تبوك. والرواية كلها مرسلة وضعيفة!

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)**﴾: قيل: الآية بمناسبة خروجه من مكة بالهجرة ودخولها يوم الفتح آمناً. قيل: كان النبيّ ﷺ بمكة ثم أمره بالهجرة فنزلت الآية والصحيح أن الآية عامة.

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣)**﴾: قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، والآية عامة.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)**﴾: قيل: بينما كان النبيّ ﷺ يجلس وهو متكئ، مرّت جماعة من

قريش، فقالوا لبعضهم البعض: أسألوه عن الروح؟ فسألوه: فأمسك النبيّ ﷺ لبعض الوقت ولم يردّ عليهم، فنزل عليه الوحى فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ..﴾ الآية. وقيل: الآية لذلك مدنية وهو هراء، لأن قريشًا يمكن أن تسأل أيضًا عن الروح. وقيل: لما سمع اليهود الآية قالوا: كيف لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ؟ هل عنيتنا أم قومك ؟ فقال : «كُلاًّ»، وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ (لقمان). وقيل: إن السائلين عن الروح كانت قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين، وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبيّ، فأخبرهم خبر أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، وقال فى الروح ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أى من الأمر الذى لا يعلمه إلا الله.

١٦- وفى قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾: قيل: أتى النبيّ ﷺ سلام بن مشكم فى عامة من يهود فقالوا له: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا؟ وهذا الذى جئت به لا نراه متناسقاً مع كتابنا التوراة، فأنزل علينا كتاباً نعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتى به، فأنزل الله ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ..﴾ الآية.

١٧- وفى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ : قيل: نزلت فى رءوساء قريش، مثل: **عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وسفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبى جهل، وعبد الله بن أبى أمية، وأمية بن خلف، وأبى البخترى، والوليد بن المغيرة** وغيرهم، اجتمعوا بالنبيّ ﷺ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تسأل ربّك أن يسيّر عنا هذه الجبال التى قد ضيّقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام، وليبعث لنا مَن مضَى من آبائنا، وليكن فيمن يُبعَث **قصىّ بن كلاب**، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحقٌّ هو أم باطل ؟ وسَلْهُ أن يبعث معك ملَكاً يُصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش، كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربّك إن كنت رسولاً كما تزعم؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : «**ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربّه هذا، وما بُعثت بهذا إليكم، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم**». قالوا: فأسقط علينا كِسَفًا كما زعمتَ أن ربّك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك

إلا أن تفعل؟ قال : «ذلك إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء يفعله بكم فعل». قالوا : لن نؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلّماً، ثم ترقى فيه وإنّا ننظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول؟ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ومما كان يطمع به من مساعدتهم إياه، فأنزل الله تعالى الآية.

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾: قيل: إن كفّار قريش حين سمعوا قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)، قالوا: فمن يشهد لك أنك رسول الله ؟ فنزلت الآية.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾: قيل: نزلت في أصحاب العلم من كافة الأمم، كانوا يسمعون للقرآن فيعرفون أنه من عند الله، فيسجدون مسبّحين إكباراً وخشوعاً لكلامه تعالى. وقوله «من قبله» أي من قبل نزول القرآن وبعثة النبيّ ﷺ. وقيل: المقصود بالآية مؤمنو أهل الكتاب، أو المتعلمون عامة الذين يتوخّون الحق. وقيل: هم من ولد إسماعيل الذين تمسكوا بالحنيفية إلى أن بعث الله محمداً ﷺ.

٢٠-وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾: قيل: تهجّد رسول الله ﷺ ليلة، فقال في دعائه: «يارحمن يارحيم» ،فسمعه رجل من المشركين، وكان باليمامة رجل يسمى «الرحمان»، فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة؟! فنزلت الآية، مبيّنة أن الله والرحمن اسمان لمسمى واحد، فإن دعوناه بالله فهو ذلك، وإن دعوناه بالرحمن فهو ذاك. وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب «باسمك اللهم»، فنزلت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ (النمل)، فكتب رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال المشركون: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمع في القرآن اسمًا هو في التوراة كثير ؟ يعنون الرحمن، فنزلت الآية. وهذا الخبر غير صحيح، لأن اسم الرحمن ينفرد به القرآن، وليس في أسفار موسى الخمسة وهي المعروفة باسم التوراة اسم الرحمن!!

٢١- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾: قيل: كان الأعراب يجهرون بتشهّدهم في الصلاة فنزلت الآية في ذلك لإخفاء التشهد.

٢٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾: قيل: إن اليهود ادّعوا أنهم أبناء الله وأصفياؤه وأحبّاؤه. وقال النصارى: اتخذ الله ولداً. وقال مشركو العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ. فأنزل الله الآية.

●●●

١٠٣٠- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الكهف﴾

١-قيل: بعث كفّار مكة إلى أهل الكتاب، يسألونهم ما يمتحنون به النبيّ ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طوّاف في الأرض؟ وعن فتية ما يُدرَى ما صنعوا؟ وعن الروح؟ فنزلت سورة الكهف. وقيل: إن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء؟ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقال لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب؟ وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارف الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيْط حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فقد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء امرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل. فجاءوا رسول الله ﷺ وقالوا له ما أُمروا به. وانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وخاضوا فيه بما لا يُحمد. وأحزن رسول الله ﷺ مُكث الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه من أمر الفتية، والرجل الطّواف، والروح. وقال لجبريل: «لقد احتبست عني يا جبريل حتى سُؤت ظناً»، فقال جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ (مريم).

٢- وفي قوله تعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⦗٦⦘﴾**: قيل: اجتمع عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأبو البختري، في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه فيه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل الله **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ..﴾** الآية.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ⦗٢٢⦘﴾**: قيل: نزلت لما اختلف النصارى واليهود في عدد أهل الكهف، فالنصارى من اليعاقبة من نجران، قالوا: ثلاثة رابعهم كلبهم؛ وقال النسطورية: خمسة سادسهم كلبهم؛ وقال اليهود سبعة ثامنهم كلبهم، والسبعة نهاية العدد عندهم، كالعشرة عند العرب.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ⦗٢٣⦘ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ⦗٢٤⦘﴾**: قيل: عاتب الله تعالى نبيّه ﷺ على قوله للكفّار حين سألوه عن الروح والفتية أصحاب الكهف وذي القرنين: «غداً أخبركم بجواب أسئلتكم»، ولم يستثن في ذلك، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين ليلة، حتى شق عليه وأرجف الكفّار به، فنزلت عليه الآية.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ⦗٢٨⦘﴾**: قيل: نزلت في أمية بن خلف الجمحي، لأنه دعا النبيّ أن يتجرّد عن الفقراء ويتقرّب لصناديد أهل مكة، فحذّره الله منه ومن نصيحته. وقيل: دخل عيينة بن حصن على النبيّ ﷺ وعنده سلمان، فقال عيينة: إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وأدخلنا! فنزلت.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ.. ⦗٢٨⦘﴾**: قيل: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فقالوا: يارسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيّت عنا هؤلاء وأرواح جُبابهم ـ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكان عليهم جُباب الصوف لم يكن عليهم غيرها. قال: جلسنا إليك، وحادثناك، وأخذنا عنك. فأنزل الله تعالى الآية.

فقام النبيّ ﷺ يلتمسهم، حتى إذا أصابهم في مؤخرة المسجد يذكرون الله، قال: «الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أُمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات».

٧- وفي قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)﴾: قيل: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة زوج أم سلمة قبل النبيّ ﷺ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد. وقيل : نزلت في النبيّ ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مَثَلٌ لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. وقيل: هو مثلٌ لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابهما، شبّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن، والآخر كافر.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾: قيل: شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد، ولأن الماء لايبقى ويذهب، وكذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، وكذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، فكذلك الدنيا، الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر. وفي حديث النبيّ ﷺ، قال له رجل : يارسول الله ، إني أريد أن أكون من الفائزين؟ قال: «ذر الدنيا وخذ منها كالماء الراكد، فإن القليل منها يكفي والكثير منها يُطغي».

٩- وفي قوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾: قيل: الآية ردٌّ على عيينة بن حصن وأمثاله لمّا افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين تذروه الرياح، وإنما يبقى ما كان زاد القبر وعُدد الآخرة.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾: قيل: الآية ردّ على المشركين والملحدين والنصارى واليهود الذين قالوا :عزير ابن الله، والمسيح ابن الله؛ وأهل الطبائع قالوا: إن المادة هكذا تتطور وتتخلق ولا تفنى؛ وعلماء الفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا قالوا إنّ الحاكم على الجميع هو

القوانين، وإن الحياة تخلق لنفسها وتقنن لنفسها.

١١- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤)﴾**: قيل: نزلت في النضر بن الحارث وجداله في القرآن، وقيل في ابن خلف؛ وقيل: نزلت في كل كافر يجادل في الله: **﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾** (الكهف).

١٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾**: قيل: هو قول أبي جهل في الزبد والتمر، قال: إنهما الزقوّم، فتزقّموا - يسخر من شجرة الزقوم (الصافات ٦٢). وقيل: هو قولهم في القرآن: هو سحر، وأضغاث أحلام، وأساطير الأولين.

١٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)﴾**: قيل: نزلت في الردّ على القدرية، غير أن مصطلح القدرية أو مذهبهم لم ينشأ في عهد النبيّ ﷺ!! فكيف تنزل الآية في الردّ عليهم!!

١٤- وفي قوله تعالى: **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾**: قيل: قالت اليهود لمّا قال النبيّ ﷺ **﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾** (الإسراء)، قالوا: كيف وقد أوتينا التوراة؟ ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت الآية. وقيل: قالت اليهود: إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح؟ فنزلت الآية، تعني أنه قد أوتي القرآن، وأنهم قد أوتوا التوراة، وإنما ذلك بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلٌ. وكلماته تعالى تعني مواعظه وأحكامه.

١٥- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾**: قيل: نزلت في جندب بن زهير العامري، قال: يارسول الله، إني أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطُّلع عليه سرّني؟ فقال النبيّ ﷺ: «**إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب، ولا يقبل ما شُورك فيه**»، فنزلت الآية. وقيل: جاء رجل للنبيّ ﷺ فقال: يارسول الله، إني أتصدّق، وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، أفيُذكر ذلك مني وأُحمد عليه، فيسرني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً. فأنزل الله الآية. وقيل: جاء رجل وقال: يارسول الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى،

وأحب أن يُرى مكاني، فنزلت هذه الآية.

●●●

١٠٣١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة مريم﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية لما تأخر جبريل عن الرسول ﷺ فقال له: «ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟!» فنزلت: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ...**﴾ أخرجه البخاري. وقيل: احتبس جبريل عن النبيّ ﷺ حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوه عنه، فأبطأ عليه أربعين يوماً، وقيل اثنى عشرة ليلة، وقيل خمسة عشر يوماً، وقيل ثلاثة عشر، وقيل ثلاثة أيام، وعاتبه الرسول ﷺ أن أبطأ عليه، فنزلت الآية، ومعناها: أنه لاينزل عليه إلا إذا أمره ربّه، وهو الذى له الأمر من قبل ومن بعد، وما كان الله ينسى موعده وإن تأخر الوحي.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦)**﴾: قيل: نزلت في أُبيّ بن خلف، حين أخذ عظاماً بالية يفتّها بيده ويقول: زعم لكم محمد أنّا نُبعث بعدما نموت؟!

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)**﴾: قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي مع خبّاب، وكان لخبّاب دَيْن عنده، وأسلم خبّاب وظل عاصم على كفره، فجاء خباب يستقضيه دينه، فسوّف عاصم إلى أن قال استهزاءً أنه سيدفع الدين يوم القيامة، فأنزل الله هذه الآيات. وقيل: إن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، والقول الأول أصحّ.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦)**﴾: قيل: الآية نزلت في عليّ، وهذا كلام الشيعة، قال له رسول الله ﷺ: «**قل يا عليّ، اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في قلوب المؤمنين مودة**»، فنزلت الآية. وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن عوف، جعل الله له في قلوب العباد مودة، لا يلقاه مؤمن إلا وقّره، ولا مشرك ولا منافق، إلا عظّمه. والصحيح أن الآية عامة، وفي الحديث: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبّوه، فيُنادَى في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾. وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني أبغضتُ فلاناً، فينادي في السماء، ثم تنزل له البغضاء في**

الأرض» أخرجه الترمذي.

•••

١٠٣٢- ﴿في أسباب نزول آيات سورة طه﴾

١- في قوله تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾: قيل: لما نزل الوحي على النبيّ ﷺ بمكة، اجتهد في العبادة، واشتدت عبادته فجعل يصل الليل كله زماناً، حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله أن يخفف عن نفسه، فيصلي وينام وينظّم وقته على هذا الأساس. وقيل: كان النبيّ ﷺ أول ما أنزل الوحي يقوم على قدميه يصلي، فأنزلت الآية. وقيل: كان النبيّ ﷺ يراوح بين قدميه ليقوم على كل رجل، حتى نزلت الآية. وقيل: قال المشركون: لقد شقي الرجل بربّه (يقصدون النبيّ ﷺ)، فأنزل الله الآية. وقيل: إن النضر بن الحارث قال للنبيّ ﷺ: إنك شقيٌّ، لأنك تركت دين آبائك، فنزلت الآية. وقيل: إن النبيّ ﷺ كان يصلي الليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل أبقِ على نفسك فإن لها عليك حقاً، فنزلت الآية.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨)﴾: قيل: إن رسول الله ﷺ دعا المشركين إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن، قال للوليد ابن المغيرة: محمدٌ ينهانا أن ندعو مع الله إلهاً آخر، وهو يدعو الله والرحمن؟!! فأنزل الله هذه الآية، ثم الآية الأخرى في سورة الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾: قيل: سألتْ قريشُ النبيَّ ﷺ: يامحمد، كيف يفعل ربُّك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت الآية.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾: يقول ابن عباس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على الحفظ، وشفقةً على القرآن مخافة النسيان، فنهاه الله عن ذلك وأنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ..﴾. وهذا كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)﴾ (القيامة).

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾: قيل: نزلت في رجل لطم وجه امرأته فجاءت إلى النبيّ ﷺ تطلب القصاص، فجعل النبيّ ﷺ لها القصاص. فنزلت: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ (٣٤)﴾ (النساء)، ولهذا قال ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾

أى فهماً، لأنه حكم بالقصاص وأبى الله ذلك.

٦- وفى قوله تعالى: **﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾**: قيل: إن نبىَّ الله ﷺ نزل به ضيف، فأرسل أبا رافع مولاه إلى رجل من اليهود يقول له: نَزَل بنا ضيف ولم يُلفَ عندنا بعض الذى يصلحه، فبعنى كذا من الدقيق، أو أسلفنى إلى هلال رجب. فقال اليهودى: لا، إلا برهن. فلما ذُكر ذلك لرسول الله ﷺ قال: «والله إنى لأمينٌ فى السماء، أمينٌ فى الأرض، ولو أسلفنى أو باعنى لأديتُ إليه! إذهب بدرعى إليه». وقيل: نزلت الآية تعزية له عن الدنيا. - وهذا كله غير صحيح لأن السورة مكية، واليهود كانوا فى المدينة! والقصة كما زيّفوها، لها بقية، فكما تقول الرواية أنها كانت فى آخر عمر النبىّ ﷺ، لما قيل إنه توفى ودرعه مرهونة! وهذا كذب صراح، فأين خراج خيبر وغيره وخُمس الفىء؟ وأين أغنياء المسلمين ليعطوه بدلاً من أن يرهن درعه ليهودى؟! وكيف يوجد أمثال هذا اليهودى فى المدينة بعد خيبر وغيرها وطَرْده لليهود من ديارهم ؟!!

•••

١٠٣٣- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الأنبياء﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾**: قيل: إن أهل مكة قالوا للنبىّ ﷺ: إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن نؤمن، فحوّل لنا الصفا ذهباً؟ فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان الذى سألك قومك، لكنهم إن كان لم يؤمنوا بآية من جنس ما هم أعلم الناس به ولا مجال للشبهة فيها، فكيف يؤمنون بآية غيرها؟ ولو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه، لقوله عزّ وجلّ: **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾** (الأنفال٢٣) فأنزل الله الآية.

٢- وفى قوله تعالى: **﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)﴾**: قيل: الآية ردٌّ على النصارى، وعلى من قال إن الأصنام بنات الله؛ والمعنى: لو أردنا أن نتخذ ولداً - حيث اللهو هو الولد - على طريق التبنّى، لاتخذناه من عندنا، أى من الملائكة وإذن ما كان لله أن يخلق جنة ولا نارًا، ولا موتًا ولا بعثًا ولا حسابًا.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)﴾**: قيل: نزلت فى خزاعة، قالوا: الملائكة بنات الله، وعبدوا الملائكة طمعاً فى شفاعتهم، فردّ عليهم ربُّهم: **﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾** أى ليس كما يزعم هؤلاء، فلم نتخذهم ولداً بل عباداً

مكرمين. والولد للجمع، قد يكون للواحد وللجمع ويجوز أن يكون للجنس.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾: قيل: نُعيت إلى النبي ﷺ نفسه، فقال: «يارب، فمَن لأمتي؟» فنزلت الآية!! والقصة ملفقة، والسؤال متهافت، ويُنسب إلى الخضر أنه بشر وله الخلد، وكذلك ينسب إلى المسيح أنه حيّ بجسمه ونفسه، والآية تنفي ذلك، وفي الرواية أن الخضر جاء إلى بيت النبيّ ﷺ حين وفاته، وقال لآله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وأصحاب أسطورتي الخضر والمسيح أولى بالآية من النبيّ ﷺ، لأنها تنفي إطلاقاً إمكان الخلود لأي إنسان، ومن ذلك الخضر وعيسى، والأولى من سياق الآية أن يكون المشركون قد سمعوا بمرض النبيّ فعجبوا ساخرين أن يموت؟ فنزلت الآية: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ استفهام إنكار، فإن مات محمد فهم كذلك سيموتون، ويوماً لك ويوماً عليك، ولا شماتة في الموت، ونزول الآية لذلك ردٌّ على المشركين بمناسبة مرض ألمّ بالنبيّ ﷺ وكان كثير المرض.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾: قيل: مرّ النبيّ ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبيّ بني عبد مناف! فغضب أبو سفيان وقال: ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبيّ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له: «ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمّك الوليد بن المغيرة»، فنزلت الآية. ولكننا نلاحظ أن السورة مكية، بينما كان هلاك الوليد بن المغيرة بعد هجرة النبيّ ﷺ بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون، فكيف ينذره النبيّ ﷺ بشيء لم يكن قد وقع بعد؟!

٦- وفي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾: قيل: نزلت في النضر بن الحارث وكان يستعجل العذاب، والصحيح أن القضية التي تعرضها الآية عامة ومن الأقوال المأثورة.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾: قيل: قالت قريش إن محمداً يتلو: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ (الأنبياء). قالوا: والمسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيراً، أو يعبدون أنفسهم، أفهما من حصب جهنم؟ وحصب جهنم يعني حطب جهنم، فكل ما تلقيه في

النار لتزداد اشتعالاً فإنك تحصبها به. فلما قالوا ذلك نزلت الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾(الأنبياء)، أى ليس من حطب جهنم المسيح ولا عزير، لأنهما سبقت لهما من الله الحسنى. ولو تأملوا الآية ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ إنما تقال «ما» لمن لا يعقل، والمقصود بها إذن الأصنام، ولم يُرد الله تعالى فى الآيتين المسيح ولا عزير وإلا كان يقول: «ومن تعبدون» حيث «مَن» للعاقل.



١٠٢٤- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الحج﴾

١-فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾: قيل: نزلت على النبىّ ﷺ وهو فى مسير له، فرفع بها صوته حتى آب إليه أصحابه، فقال: «**أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم: يا آدم قم فابعث بَعْث أهل النار، ومن كل ألف: تسعمائة تسعة وتسعون، إلى النار، وواحد فى الجنة**»، فكبر ذلك على المسلمين، فقال النبىّ ﷺ : «**سدّوا وقاربوا وأبشروا، فوالذى نفسى بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير، أو كالرَّقمة فى ذراع الحمار**».

٢- وفى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣)﴾: قيل: نزلت فى النضر بن الحارث، قال إن الله تعالى غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨)﴾: قيل: نزلت فى النضر بن الحارث، وقيل: فى أبى جهل بن هشام، والجمهور على أنها نزلت فى النضر بن الحارث، تكرر ما جاء بالآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣)﴾(الحج) للمبالغة فى الذّم، وقيل: **إنه فى النضر نزلت بضع عشرة آية**، وفى هذه الآية إنكار للنبوة، كما فى الآية السابقة إنكار للبعث وأنه تعالى قادر على إحياء من قد بلى وعاد ترابًا.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾: قيل: كان الرجل يقدم المدينة فيُسْلم، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله، قال هذا دين صالح؛ وإن لم تلد امرأته ولداً ذكراً، ولم تنج خيله، قال هذا دين سوء، فأنزل الله الآية. وقيل: أسلم يهودى فذهب بصره وولده فتشاءم بالإسلام، وقال: لم أصب من دينى هذا خيراً ... ذهب بصرى ومالى ومات ولدى. فنزلت الآية. وقيل: نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النبىّ ﷺ فيُسلمون، فإن نالوا رخاء أقاموا، وإن نالتهم شدّة ارتدّوا. وقيل: نزلت

في النضر بن الحارث، أو في شيبة بن ربيعة، أو في المنافقين.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)**﴾: قيل: الآية نزلت في الذين بارزوا يوم بدر: حمزة، وعليّ، وعبيدة بن الحارث عن المؤمنين. وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة عن الكافرين. فهذان هما الخصمان. وقيل: هما ثلاثة نفر من المؤمنين، وثلاثة نفر من الكافرين. وقيل: هم أهل الكتاب اختصموا والمؤمنين، وكلٌّ يقول إنه على الحق، فأنزلت هذه الآيات فيهم. وقيل: الآيات نزلت في المؤمنين والكفّار يوم بدر. وقيل: أحد الخصمين المؤمنون، والآخر اليهود والنصارى، اختصموا في دين ربّهم. والصحيح أن الآيات نزلت في حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث من ناحية، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة من ناحية أخرى.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)**﴾: قيل: بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه الآية.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)**﴾: قيل: كان أهل الجاهلية يُضَرِّجون البيت الحرام بدماء ما يضحّون من البُدْن، فأراد المسلمون تقليدهم، فنزلت الآية تنهى عن ذلك. والمعنى أن الله تعالى لا يتقبّل لحمها ولا دماءها، وإنما ما يصل إليه منها هو تقواهم بالتضحية بها، أي ما أريد به وجهه فذلك الذي يقبله ويُرفع إليه ويثيب عليه، والأعمال بالنيّات.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾ (٣٨): قيل: نزلت الآية بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار، وهاجر من هاجر إلى الحبشة، فأراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار، ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)**﴾: قيل: هذه **أول آية في القتال**، واسمها **آية القتال**، وسبب نزولها أن الكفار لما آذوا المسلمين بمكة، استأذن النبيّ ﷺ ربّه أن يقاتلهم، فأنزل الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)**﴾ (الحج٣٨)، فلما هاجر نزلت: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ**﴾ الآية.

وقيل: كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ، فلا يزالون يجيئون من

مضروب ومشجوج، فشكوهم إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم: «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال» حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ : قيل: نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى، وقيل : لما نزل ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ (الإسراء)، قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله ، فأنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الأخرى أعمى ؟ فنزلت الآية.

١١- وفي قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾: قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وهو قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأعراف). وقيل نزلت في أبي جهل بن هشام، وهو قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال). ونبّه إلى أن أبا جهل قُتل في بدر الكبرى سنة ٢ هـ، بينما سورة الحج مدنية وترتيبها في التنزيل ١٧ ، يعني بعد بدر، فإما أن الآية ردٌ على ما كان قد قاله أبو جهل، وإما أن من قال أنها نزلت في أبي جهل قد أخطأ.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾: قيل: قرأ النبيَّ ﷺ بمكة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ، فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى»، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فنزلت الآية. وهذا كلام ضعيف لا سند له من واقع، ولا معنى له في السياق، لأن الحديث في السورة كان توبيخًا للكفار أنهم اختاروا آلهتهم إناثا، وجعلوا الملائكة إناثا وقالوا عنهم بنات الله ، فكيف تأتي الإضافة ثناءً على آلهتهم بعد توبيخ؟! وقيل: إن جبريل أتى النبيّ ﷺ في اليوم التالي ولامه على ما قال، وكأن النبيّ ﷺ بوسعه أن يقول شيئًا من عنده؟ أو أن الشيطان بوسعه أن يجعله يقول شيئا لا يريده، وهو المعصوم من الشيطان، وإلا ما استطاع أن يبلّغ رسالة ربّه. وفي الآية أن الشيطان يلقي أمنيته، والله تعالى يدفعها عن نبيّه وأوليائه فلا تؤثّر فيهم.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾: قيل: سبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد، قال بعض الناس: مَن قُتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية تسوّي بينهم، وأن الله يرزقهم جميعاً رزقاً حسناً.

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)**﴾: قيل: نزلت في قوم من مشركي مكة لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فحملوا عليهم. فناشدهم المسلمون ألا يقاتلونهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا القتال، فحملوا عليهم، فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين. وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء، فنزلت هذه الآية. وقيل: نزلت في قوم من المشركين مثّلوا بقوم من المسلمين، قتلوهم يوم أُحد، فعاقبهم رسول الله ﷺ بمثله.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)**﴾: قيل: نزلت في **الأسود بن عبد الأسد، وأبي جهل بن هشام، والعاص بن هشام**، وجماعة من المشركين. وقيل: إنما قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كُفر النعم، كقوله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)**﴾ (سبأ).

١٦- وفي قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)**﴾: قيل: إن الوليد بن المغيرة، قال: أوَ أُنزل عليه الذكر من بيننا؟! فنزلت الآية.



١٠٣٥- ﴿في أسباب نزول آيات سورة المؤمنون﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)**﴾: قيل: قال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت الآية فطأطأ رأسه. وقيل كان يلتفت في الصلاة، وقيل: كان يقلّب بصره، فنزلت. وقيل: كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فنزلت.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)**﴾: قيل: عن عمر ابن الخطاب: أنه لما سمع صدر الآية: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..**﴾ (المؤمنون) قال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فنزلت، وقال الرسول ﷺ: هكذا أُنزلت. وفي رواية أخرى قال عمر: ونزلت: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ...**﴾ الآية، فلما نزلت قلت أنا: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)**﴾، فنزلت. وقيل: إن قائل ذلك هو عبد الله بن أبي سرح، ولهذا السبب ارتد، وقال آتي بمثل ما يأتي محمد. وفيه نزل: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ... (٩٣)**﴾ (الأنعام). والصحيح أنه لا عمر ولا ابن أبي السرح قال ذلك.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾ : قيل: كانت العرب تجلس للسَّمر حول البيت ولا تطوف به، ويتحدثون فى الأباطيل والكفر، فعابهم الله بذلك. وأنزلت الآية.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾: قيل: لما حال الرسول ﷺ بين مكة وبين الحنطة تأتيهم من اليمن، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهز - وهو الصوف والوبر يبلّونه فى الدم ثم يشوونه ويأكلونه - فجاءه أبو سفيان ينشده الله والرحم. ويقول : ألست تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال: «بلى» ، قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف، وقتلت الأبناء بالجوع، فنزلت الآية.



١٠٣٦- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة النور﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾: قيل: الآية مخصوصة فى رجل من المسلمين اسمه مرثد بن أبى مرثد، وكان بمكة بغى يقال لها «عناق»، وكانت صديقته، فسأل النبىّ ﷺ : هل يجوز له أن يتزوج عناقاً ؟ فسكت عنه فنزلت الآية، فدعاه فقرأها عليه وأمره أن لا ينكحها. وقيل: الآية مخصوصة فى رجل من المسلمين استأذن الرسول ﷺ أن يتزوج امرأة يقال لها أم مهزول، وكانت من بقايا الزانيات، وشرطت أن تنفق عليه من مهنتها، فأنزل الله هذه الآية. وقيل : نزلت فى أهل الصفة، وكانوا من المهاجرين وليست لهم فى المدينة مساكن ولا عشائر، فنزلوا صُفّة مسجد رسول الله ﷺ ، وكانوا أربعمائة، يلتمسون الرزق بالنهار، ويأوون إلى الصُفّة بالليل. وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور لهن مساكن ورزق كثير، فهَمّ أهل الصفة أن يتزوجهن، فنزلت الآية صيانةً لأهل الصفة.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾: قيل: نزلت بسبب حديث الإفك فى عائشة أم المؤمنين.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾ : قيل: سبب نزول الآية: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبىّ ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبىّ ﷺ : «البيّنة أو حدٌّ فى ظهرك» قال

يارسول الله، إذا رأى أحدنا رجلاً على امرأته يلتمس البيّنة ؟! فنزلت الآية. وقيل: إن الذى انتقد شرط **الشهود الأربعة فى الزنا سعد بن عبادة**، وقال: يارسول الله. إنْ وجدتُ مع امرأتى رجلاً أمهله حتى آتى بأربعة ؟! ثم جاء من بعد ذلك **هلال بن أمية الواقفى** فرمى زوجته **بشريك بن سحماء**، **فنزلت الآية**، **فجمعهما** رسول الله ﷺ فى المسجد وتلاعنا. وجاء أيضاً **عويمر العجلانى** فرمى امرأته ولاعَنَ. والمشهور أن حادثة **هلال بن أمية** هى سبب نزول الآية. وقيل: إن القاذف هو **عويمر بن زيد بن الجَدّ بن العجلانى**، رمى امرأته **بشريك** بن السحماء. وقيل: **إن هلال** بن أمية كانت امرأته **خولة بنت عاصم بن عدى**، وقيل **خولة بنت قيس**، وكانت القصة فى **شعبان** سنة **تسع** من الهجرة، منصرف رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة. وقيل: **الصحيح** أن الذى لاعن هو **عويمر العجلانى** وكان قد اتهم امرأته بابن السحماء.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾**: قيل: سبب نزول الآية ما رواه الأئمة من **حديث الإفك** الطويل فى قصة **عائشة** أم المؤمنين، وهو خبر صحيح مشهور، وشهرته تغنى عن ذكره، وخلاصته أن عائشة ذهبت إلى الغائط فى عودة المسلمين من **غزوة المريسيع** ففقدت عقدها، فتركت ناقتها تبحث عنه، وعادت فوجدت الركب قد ارتحل، فجلست فى مكانها، فجاء **صفوان بن المعطل** وكان عمله حفظ الساقة فى مؤخرة الجيش، فأعانها على ركوب ناقته، وقادها إلى المدينة، فرآها **عبدالله بن أُبَى بن سلول** رأس المنافقين، فأشاع الشائعات عن عائشة وابن المعطل، وقال: امرأة نبيّكم باتت مع رجل! وروى ذلك **ثلاثة**، لا ندرى من هم رغم كثرة الروايات، فلم يثبت أن أيًّا منهم حُدّ كما قيل، وهم: **حسّان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش**، وقال بعضهم الذى تولى كبره **علىّ بن أبى طالب**، وأنه كان فيمن قذف عائشة. وانتقلت عائشة إلى بيت أبيها إلى أن نزل فيها القرآن وبرّأها الله من سابع سماوات.

٥- وفى قوله تعالى: **﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾**: قيل: هذه الآية نزلت فى قصة **أبى بكر ومسطح بن أثاثة**، وذلك أنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدريين المساكين، وهو **مسطح بن أثاثة بن عبّاد ابن المطلب بن عبد مناف**، وقيل اسمه **عوف**، ومسطح لقبه، وكان أبو بكر ينفق عليه لمسكنته وقرابته، فلما كان الإفك وقال فيه مسطح ما قال، حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه أبداً، وجاء مسطح واعتذر، وقال: إنما كنت أغشى مجالس حسّان فأسمع ولا أقول. فقال له أبو بكر

لقد كنت تجلس معهم وتسمع لهم وتضحك لما يقولون وتنقل ما قالوا، ونفّذ أبو بكر يمينه، فنزلت الآية، فردّ أبو بكر لمسطح النفقة، وقال : لا أنزعها عنه أبداً. والآية في أبي بكر وفي كل المسلمين، فلا يحلف ذو فضل وسعة على أن يمنع فضله عن الناس.

٦- وفي قوله تعالي: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾**: قيل: نزلت في عائشة ، إلا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة. وقالت عائشة : رميتُ بما رميت وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك؛ فبينما رسول الله ﷺ عندى ، إذ أوحي إليه، ثم استوى جالساً فمسح وجهه وقال: «يا عائشة، أبشري» فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ الآية.

٧- وفي قوله تعالي: **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾**: قيل: نزلت في عائشة حين رُميت بالبهتان والفرية، فبرّأها الله من ذلك. وقيل : لما خاض الناس في أمر عائشة أرسل رسول الله ﷺ إليها فقال: «يا عائشة، ما يقول الناس؟» فقالت: لا أعتذر بشيء حتى ينزل عذري من السماء. فأنزل الله فيها خمس عشرة آية من سورة النور، حتى قوله تعالى: **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾** الآية.

٨- وفي قوله تعالي: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾**: قيل: سبب نزول هذه الآية أن امرأة من الأنصار جاءت تشكو إلى الرسول ﷺ أنها تكون في بيتها في حال لا تحب أن يراها عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليها، ولا يزال يدخل عليها رجل من أهلها وهي على هذه الحال، فكيف تصنع ؟ فنزلت الآية.

٩- وفي قوله تعالي : **﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾**: قيل: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾** (النور)، قال أبو بكر: يارسول الله، فكيف بتجّار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويسلّمون، وليس فيها سكان؟ فنزلت: **﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ...﴾** والبيوت غير المسكونة هي المشتركة التي لا يسكنها أحد ويأوي اليها المسافرون وابن السبيل، وتعادل هذه الأيام بيوت الشباب، أو الموتيلات، أو الفنادق، أو المراحيض على الطريق، والمتاع الذى لهم فيها هو المنفعة التي يرجون بدخولها.

١٠- وفي قوله تعالي: **﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا**

يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.. (٣١)﴾: قيل: إن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا ! فأنزل الله في ذلك : ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...**﴾ الآية.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ..(٣١)**﴾: قيل: إن امرأة حضرمية اتخذت صُرّتين من فضة وجزعاً (أي خرزاً)، فمرت على قوم فضربت برجلها فوقع الخلخال على الجزع فكان له صوت، فأنزل الله الآية. والصحيح أن المرأة غالباً تضع خلخالين فوق بعضهما، فإذا ضربت بقدمها كان لارتطام الخلخالين ببعضهما صوت.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. (٣٣)**﴾: قيل: نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزّى، يقال له صُبح، أو صُبيح. طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى، فأنزل الله هذه الآية، فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً، فأدّاها. وقيل: هو صُبح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة، وقيل: قتل في الحرب في حنين. ومعنى المكاتبة في الشرع : هو أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤدّيه على أقساط، فإذا أدّاه فهو حر.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿**... وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)**﴾: قيل: روى أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ، وكانت له جاريتان ، إحداهما تسمى مُعاذة، والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرههما على الزنا ويضربهما عليه ابتغاء الأجر وكسب الولد، فشكتا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين. ومعاذة هذه هي أم خولة التي جادلت النبيّ ﷺ ، في زوجها. وقيل اسمها أميمة. والتحصّن الذي أرادتاه هو أن لا تفعل أيهما البغاء وأن تجد فرصتها في الزواج والاستقرار وتكون لها عائلة. وقيل أنهما لما نزل تحريم البغاء أقسمتا أن لا يزنيا أبداً فنزلت الآية.

١٤- وفي قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)**﴾: قيل: نزلت

الآية فى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان يترهب متلمساً للدين، فلما أعلن النبىّ ﷺ الدعوة لم يؤمن به وأبدى كُفره.

١٥- وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾: قيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة، وكان يتدين فى الجاهلية ويلبس المسوح، ثم كفر فى الإسلام. وقيل: نزلت فى شيبة بن ربيعة وكان يترهب فى الجاهلية وكفر في الإسلام

١٦- وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾: قيل: إن رجلاً من المنافقين اسمه بشر، كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض، فدعاه اليهودى إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطلاً، فأبى ذلك وقال: إن محمداً يحيف علينا، فلنحكّم كعب بن الأشرف، فنزلت الآية فيه. وقيل: نزلت فى المغيرة بن وائل من بنى أمية، وكانت بينه وبين علىّ بن أبى طالب خصومة فى ماء وأرض، فامتنع المغيرة أن يحاكم علياً إلى رسول الله ﷺ وقال: إنه يبغضنى، فنزلت الآية.

١٧- وفى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾: قيل: إن الكافرين أتو النبىّ ﷺ فقالوا: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت هذه الآية.

١٨- وفى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾: قيل: إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبىّ ﷺ شكا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم، فنزلت الآية. وقيل: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً وهو أصحابه، يدعون إلى الله سراً وجهراً، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون فى السلاح، فقال رجل: يارسول الله، اما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال النبىّ ﷺ: «لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محبياً ليس عليه حديدة»، يعنى يجلسون فى حرية وبلا خوف ولا سلاح، ونزلت هذه الآية. وقيل: لمّا قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت الآية وقال البراء : فينا نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)**﴾: قيل: نزلت في أسماء بنت مرثد، دخل عليها غلام لها كبير، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ، فنزلت عليه الآية. وقيل نزلت الآية لما كان الناس لا غلق لهم ولا أبواب، ولا لبيوتهم ستور ولا حجال (ستور بالثياب)، فربما دخل الخادم أو الولد أو البنت، والزوج مع زوجته في الفراش، فأمرهم بالاستئذان في تلك العورات.

٢٠- وفي قوله تعالى: ﴿**لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ ... (٦١)**﴾: قيل: كان الرجل في زمن الرسول ﷺ إذا استضاف أعمى أو أعرج أو مريضاً، فقد يذهب به إلى بيت أبيه، أو أخيه، أو أخته، أو عمّته، أو خالته، فكان المرضى يتحرّجون من ذلك ويقولون: إنهم يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وقيل: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبيّ ﷺ، لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج، لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام، والمريض لا يستوفي كما يستوفي الصحيح، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت الآية ترخّص بمؤاكلتهم. وقيل: كانوا يتقون أن يأكلوا مع الأعمى والأعرج، فنزلت الآية. وسألوا: ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟وقيل: إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا أبناءهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرّجون من ذلك ويقولون: لاندخلها وهم غُيّب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم.

٢١- وفي قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)**﴾: قيل: نزلت في بني ليث بن بكر، وهم حيّ من بني كنانة، وكان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث أياماً جائعاً حتى يجد من يؤاكله. وكانت هذه السيرة موروثة عندهم ـ قيل عن النبيّ إبراهيم، فإنه كان لا يأكل وحده. وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت الآية مبينة سُنة الأكل، تبيح أكل المنفرد الذي كان محرّماً عند العرب، وتوافقهم على أكل الجماعة، يعني إن الأكل جميعاً أو أشتاتاً مباح،

وصار المسلم يأكل فى الجماعات التى تدعى إلى الطعام، وفى الإملاق فى السفر، وعند القريب والصديق، ووحده، أو يشارك الآخرين فى نفقة الطعام، وسمى ذلك النِّهد، وهو استقسام النفقة بالسوية، ويقولون : هات نِهْدَك يعنى نصيبك من تكاليف الطعام. وقيل: كان المسلمون يرغبون فى النفر مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتحهم إلى زمناهم ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم. وكانوا يقولون : إنه لايحل لنا أنهم أذنوا عن غير طيب نفس، فأنزل الله **﴿.. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾** إلى قوله **﴿.. أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ..﴾**. وقيل: نزلت الآية فى حىّ من العرب، كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده، وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكله معه. وقيل: كان الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم، فنزلت الآية رخصةً لهم. وقيل: كان العرب ومن بالمدينة قبل المبعث يتجنبون الأكل من أهل الأعذار، فبعضهم كان يفعل ذلك تقذّراً لجولان اليد من الأعمى، ولانبساط الجلسة من الأعرج، ولرائحة المريض وعلاّته، وهى أخلاق جاهلية، فنزلت الآية مؤذنةً. وبعضهم كان يفعل ذلك تحرّجاً من غير أهل الأعذار، إذ هم مقصرّون عن درجة الأصحاء فى الأكل، لعدم الرؤية فى الأعمى، وللعجز عن المزاحمة فى الأعرج، ولضعف المريض، فنزلت الآى فى إباحة الأكل معهم. وقيل: إن أهل الأعذار تحرّجوا فى الأكل مع الناس من أجل عُذرهم، فنزلت الآية مبيحة لهم. وقيل: كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب به بيوت قرابته، فتحرّج أهل الأعذار من ذلك، فنزلت الآية.

٢٢- وفى قوله تعالى : **﴿.. أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو، خرج مع رسول الله ﷺ غازياً، وخلف مالك بن يزيد على أهله، فلما رجع وجده مجهوداً، فسأله عن حاله فقال : تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٢٣- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾**: قيل: نزلت فى حفر الخندق حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عيينة بن حصن، فضرب النبىّ ﷺ الخندق على المدينة فى شوال سنة خمس هجرية، فكان المنافقون يتسللون لواذاً من العمل ويعتذرون بأعذار كاذبة. وقيل: نزلت فى عمر بن الخطاب، استأذن النبىّ ﷺ فى غزوة تبوك فى الرجعة، فأذن له، وقال: **«انطلق فوالله ما أنت بمنافق»**، يريد بذلك أن يُسمع المنافقين، وقال له النبىّ ﷺ : **«يا أبا حفص، لا تنسنا**

في صالح دعائك». وقيل: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنعمى إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، فضرب الخندق على المدينة، وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين. وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم ولا إذن من رسول الله ﷺ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له. وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله .. (٦٢)﴾** إلى قوله **﴿..والله بكل شيء عليم (٦٤)﴾**.

٢٤ وفي قوله تعالى: **﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ...﴾**: قيل: كانوا يقولون: يا محمد. يا أبا القاسم. فأنزل الله الآية فصححوا أنفسهم، وقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

٢٥- وفي قوله تعالى: **﴿... قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٦٣)﴾**: قيل: نزلت في المنافقين كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين، أي يلوذ بعضهم ببعض، يستترون من الرسول ﷺ حتى لا يراهم يخرجون من المسجد، ولم يكن عليهم أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة. وهذا من الناحية النفسية، وكان هناك دافع مادي لذلك أيضاً كما في الآية: **﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين (١١)﴾** (الجمعة). وقيل: كانوا يتسللون في الجهاد رجوعاً عنه يلوذ بعضهم ببعض.

●●●

١٠٣٧- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الفرقان﴾

١-في قوله تعالى: **﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك...﴾**(٧): قيل: قال هذا الكلام عتبة بن ربيعة، وكانوا قد عقدوا مجلسا كلموا فيه النبي ﷺ صراحة يرشونه، قالوا: يا محمد، إن كنت تحب الرياسة ولّيناك علينا، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا؟ فلما رفض، قالوا له يحتجون معه: ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق؟! فعيّروه بأكل الطعام لأن الرسول في رأيهم ينبغي أن يكون ملَكًا، وعيّروه بالمشي في الأسواق، مقارنةً بالأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق. وقالوا فيه: إنه فيما يبدو يريد أن يتملك علينا، فما له يخالف سيرة الملوك؟ فهذا هو مضمون الآية، فأنزل الله الردّ على نبيّه يبلّغهم به، قال: **﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾** (الفرقان ٢٠).

٢- وفي قوله تعالى: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾**: قيل: إنهم قالوا للنبيّ ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها، ولم يُعطَ ذلك أحدٌ من قبلك، ولا يُعطاه أحدٌ بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئًا، وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة. فأنزل الله تعالى الآية: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴿١٠﴾﴾**. وقيل: في ذلك رواية من الأدب الشعبي الديني الإسلامي مجرد رواية أو حكاية: أن رضوان خازن الجنة جاء يسلّم هذا الردّ إلى النبيّ ﷺ، ويعرض عليه مفاتيح خزائن الجنة، وكان ذلك بحضور جبريل، وأجاب النبيّ ﷺ: لا حاجة لي فيها فالفقر أحبّ إليّ، وأن أكون عبدًا صابرًا شكورًا. فقال رضوان: أصبت! وواضح أن الحكاية من وضع الصوفية.

٣-وفي قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾**: قيل: نزلت جوابًا للمشركين حيث قالوا: **﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾** (الفرقان ٧). وقيل: لمّا نزلت الآية: **﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾** حزن النبيّ ﷺ لذلك، فنزلت الآية تعزيةً له.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾**: قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعقبة بن معيط، وعُتبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث، حين رأوا أبا ذر، وعبدالله بن مسعود، وعمارًا، وبلالاً، وصهيبًا، وعامر بن فُهيرة، وسالمًا مولى أبي حُذيفة، ومهجعًا مولى عمر بن الخطاب، وجبرا مولى الحضرمي، وذويهم، فقالوا على سبيل الاستهزاء: أنُسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى الآية. يخاطب فيها هؤلاء ويحثّهم على الصبر.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾**: قيل: كان عقبة بن معيط يحضر النبيّ ﷺ فيزجره أمية بن أبي خلف، وعقبة هو الظالم في الآية، وقتله عليّ بن أبي طالب وكان من الأسارى يوم بدر، فقتله دونهم بكُفره وعتوه، وكذلك قتل النبيّ ﷺ أمية! وهو غير صحيح! فعُقبة قد همّ بالإسلام، فمنعه منه ابن خلف، وكانا خليلين، فقُتل عقبة يوم بدر صبرًا، وقتل ابن خلف في المبارزة يوم أُحد. وقيل: إن عقبة أولم وليمة ودعا إليها قريشًا، ودعا النبيّ ﷺ فأبى إلا أن يُسلم، فنطق الشهادتين، فغضب عليه ابن خلف وهدده بالمقاطعة، فارتد عقبة وتصرف بسوء أدب مع النبيّ ﷺ. قيل بصق في وجهه!! وهو قول ضعيف لا يستقيم والحقيقة، فلو كان قد فعل ذلك لأذاقه المسلمون الويل والثبور، ولكانت فتنة، وما كان يجرؤ أن

يفعل ذلك، وإذن لأبيح قتله في وقتها! فنزلت الآية وفيها ندمه، أنه لم يستمر مسلمًا ومن جماعة الرسول ﷺ، ولأنهما قُتلا بعد أن ذكر القرآن ذلك، فإنه دليلٌ على صدق القرآن، وأنه ينزل على النبيّ ﷺ من الله علامّ الغيوب، لأن القرآن أخبر بقتلهما مستقبلاً وهما على الكفر وقد حدث.

٦-وفي قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (٣٢)﴾**: قيل: قال ذلك كفار قريش لما رأوا القرآن يتنزلّ مفرّقًا، فقالوا: هلاّ أنزل عليه جملة واحدة؟ ولماذا يتنزل عليه مفرّقًا؟ **والجواب**:ليثبّت به فؤاده، فهذا هو سبب التنزيل مفرّقًا، ولو أُنزل عليه القرآن جملةً واحدة ثم سألوه لم يكن عنده الجواب، ولو نزل جملةً وفيه الفرائض لثقلت على الناس، ونزوله متفرّقًا ينبّههم المرة تلو المرة.

٧-وفي قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾**: قيل: إن أناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، وهو يخبرنا بأنه لما عملنا كفّارة، فنزلت الآية، : **﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾** (الزمر)، وقيل إن هذه الآية**﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾** نزلت في وحشي قاتل حمزة. وقيل: سئل رسول الله ﷺ : أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله ندآ وهو خلقك**»، فقيل له: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعَم**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**» أخرجه مسلم عن عبدالله بن مسعود؛ فأنزل الله تصديق ذلك الآية. والأثام في كلام العرب هي العقاب.

٨- وفي قوله تعالى: **﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾**: قيل: لمّا أنزلت: **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾**(الفرقان) قال مشركو أهل مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلهًا آخر، وأتينا الفواحش، فنزلت الآية ـ لا تجعل مكان السيئة الحسنة، ولكنها تجعل مكان السيئة التوبة، وتكون الحسنة مع التوبة، ومصداق ذلك الحديث: «**إتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن**» أخرجه الترمذي.



١٠٣٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الشعراء﴾

١- في قوله تعالى: **﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) ﴾**: قيل: إن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ : إلى متى تظل تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟! فنزلت الآية.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾: قيل: لما نزلت ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥)﴾ رؤى النبيﷺ كأنه متحيّر، فنزلت: ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾، فطابت نفسه، والمعنى ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يمتعونه، وقيل: كان عمر بن عبدالعزيز إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(٢٠٧)﴾ ثم يبكى ويقول:

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة ... ولَيلُك نومٌ والردَى لك لازمُ
فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازمٌ ... ولا أنت فى النوام ناجٍ فسالمُ
تُسرُّ بما يفنَى وتفرحُ بالمُنَى ... كما سُرَّ باللذات فى النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

٣- وفى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(٢٠٧)﴾: قيل: المراد أهل مكة أو المنكرون عمومًا، وكانوا من المترفين، وهؤلاء دائمًا هم المنكرون، فكان المؤمنون يتعجبون من كُفرهم وهم فى النعيم يرفلون، فنزلت الآية.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾: قيل: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ (الشعراء) بدأ بأهل بيته وفصيلته، فشقَّ ذلك على المسلمين، فنزلت: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾(الشعراء)، لأن عشيرته كان منها المؤمن والكافر، فخصّ فى الآية الثانية المؤمنين منهم ومن الناس كافة.

٥- وفى قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾: قيل: تهاجَى رجلان على عهد رسول اللهﷺ، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل واحد منهما غُواة من قومه وهم السفهاء، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾ الآيات. وقيل: لما نزلت «والشعراء» إلى قوله «ما لا يفعلون»، قال عبدالله بن رواحة: قد علم الله أنى منهم، فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخر السورة. وقيل: لما نزلت «والشعراء» الآية جاء عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسّان بن ثابت، وجميعهم شعراء، فقالوا: يا رسول الله، والله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء. هلكنا! فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فدعاهم رسول اللهﷺ فتلاها عليهم. وقيل: لما نزلت ﴿الشعراء﴾ جاء حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وابن رواحة، يبكون إلى النبىّﷺ فقالوا: يا نبىّ الله أنزل الله تعالى

هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنَا شعراء؟ فقال: «اقرءوا ما بعدها»: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** (٢٢٧) ﴾، قال: أنتم! ﴿ **وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ - أنتم! قال النبي ﷺ: «**انتصروا ولا تقولوا إلا حقًا، ولا تذكروا الآباء والأمهات**».

٦-وفي قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ** (٢٢٥) ﴾: قيل: نزلت هذه الآية في عبدالله بن الزِّبعرىّ، ومُسافع بن عبد مناف، وأمية بن أبي الصلت، وكانوا كثيري التجوال، وجميعهم عادى الإسلام، وكانوا أشداء على المسلمين، ثم أسلم الزبعرى ومسافع.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** (٢٢٦) ﴾: قيل: نزلت في الشاعر أبي عزة الجُمَحيّ وكان مشركاً وكاذباً، حيث قال:

ألا أبلغا عني النبيّ محمدًا ∴ بأنك حقٌّ والمليك حميدُ
ولكني إذا ذُكِّرتُ بدرًا وأهله ∴ تأوّه مني أعظُمٌ وجلودُ



١٠٣٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة النمل﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** (٢٢) ﴾: قيل: الآية نزلت عن سبأ التي نعرفها باسم مأرب باليمن.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** (٢٣) ﴾: قيل: هي بلقيس والاسم يوناني.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ** ﴾: قيل: نزلت في تسعة هم عظماء أهل هذه البلدة، وكانوا يفسدون ويأمرون بالفساد، والرهط ما دون العشرة.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (٧٠) ﴾: قيل: نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة.

٥-وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (٧٦) ﴾: قيل: اختلف بنو إسرائيل في كثير من الأشياء حتى لَعَن بعضهم بعضًا، فنزلت الآية؛ والمعنى: أن هذا القرآن يبيّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به، واختلافهم كان حول ما حرّفوه من التوراة، وما سقط من كتبهم من الأحكام.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** (٨٢) ﴾: قيل: هذه الدابة ليست خاصة خارقة للعادة، وقيل:

هى إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بيّنة، ويحيـا من حىّ عن بيّنة، لأن وجود المناظرين والمحـتجّين على أهل البـدع كثيـر، فلا آية خاصة بها.

٧- وفي قـوله تعـالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ :قيل: الآية نزلت فى مكة التى عظّم الله حـرمتها، والمتحدث هو الرسول ﷺ.

●●●

١٠٤٠- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة القصص﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾: قيل: نزلت الآية فى قريش رداً على من قال : هلاّ أوتى محمـد القرآن جملة واحدة ؟ والمعنى : أنه تعالى والى وتابع وأنزل القرآن يتبـع بعضه بعضـاً ، وعداً ووعيداً، وقـصصاً وعِبَـراً ، ونصائح ومواعظ.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾: قيل: نزلت فى عبد الله بن سلام، وتميم الدارى، والجارود العبدى، وسلمان الفارسى، أُسلموا فنزلت فيهم هذه الآية والتى بعـدها : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤)﴾. وقيل: هؤلاء قوم آمنوا قـبل أن يُبعَث النبىّ ﷺ وأدركه بعضهم.

٣- وفى قـوله تعـالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾: قيل: الآية نزلت فى أبى طالب عمّ النبىّ ﷺ.

٤- وفى قوله تـعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾: قـيل: هذا قول مشـركى مكة، والذى قال ذلك من قريش هو عثمان بن نوفل بن عـبد مناف القرشى، قال للنبىّ ﷺ : إنّا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتّبع الهدى معك ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا﴾ ، وذلك أن العرب فى الجاهلية كان يغيـر بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً. بينما كان أهل مكة آمنين بِحُرمة البـيت، فمنع البيت عدوهم، فلم يكونوا يخافون أن تستحل العرب حرمة البيت وتقاتلهم.

٥- وفى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾: قيل: نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وفي أبي جهل بن هشام. وقيل: نزلت في النبيّ ﷺ وأبي جهل. وقيل: نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد. وقيل: في عمارة والوليد بن المغيرة. والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم، وفي كل كافر متّع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾: قيل: هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾(الزخرف)، يعني بذلك نفسه: أو عروة ابن مسعود الثقفي من الطائف. وقيل: هو جواب اليهود إذ قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل، لآمنا به. والمعنى: وربّك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته، أو لنبوته، يعني أنه تعالى خلق محمداً واختاره للنبوة، وخلق الأنصار لدينه.

٧-وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾: قيل: معاد الرجل بلده. لأنه ينصرف ثم يعود. والنبيّ ﷺ خرج من الغار ليلاً، مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع الى الطريق ونزل الجُحْفَة، عرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها، فقال له جبريل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ..﴾، أي إلى مكة، ظاهراً عليها، والآية نزلت إذن بالجحفة وليست بمكة، ولا بالمدينة. والآية عموماً في كل من سافر وغادر الأهل والأحبة، فيقولونها له، متمنين له سلامة العودة.



١٠٤١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة العنكبوت﴾

١- في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾: قيل: نزلت هذة الآية في قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويضربونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمّار بن ياسر، وياسر (أبوه)، وسُمَيّة (أمّه)، وعدة من بني مخزوم، وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربّما استنكروا أن يمكّن الله الكفار من المؤمنين، فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمةً: أن هذه هي سيرة الله في عباده، اختبارٌ للمؤمنين وفتنة. وقيل: الآية نزلت في مِهْجَع بن صالح مولى عمر بن الخطاب، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبيّ ﷺ: «سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يُدعى إلى باب

الجنة من هذه الأمة»، فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت الآية. وقيل: نزلت في أناس كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من الحديبية أنه لا يُقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت الآية، فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا، فقالوا: نخرج وإن اتّبعنا أحد قاتلناه، فاتّبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا، فنزلت فيهم: ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١١٠) ﴾ (النحل).

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** (٤)﴾: قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وأبي جهل، والأسود، والعاص بن هشام، وشيبة، وعتبة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وحنظلة بن أبي سفيان، والعاص بن وائل.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** (٩) ﴾: قيل: نزلت الآيتان في سعد بن أبي وقّاص، قال: أنزلت فيَّ أربع آيات، فذكر قصة أمه «أم سعد» معه، قالت له: أليس قد أمر الله بالبِرّ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً، حتى أموت أو تكفر! قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها (أي أدخلوا فيه شيئاً ليفتحوه لينزلوا الطعام فيه) فنزلت هذه الآية. وفي رواية قال: كنت باراً بأمي، فأسلمتُ فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيِّر بي ويقال: يا قاتل أمه! قال: وبقيت يوماً ويوماً فقلت: يا أماه! لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي! قال: فلما رأت ذلك أكلت ونزلت: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي..**﴾ الآية. وقال ابن عباس: نزلت الآية في عيّاش بن أبي ربيعة ـ أخي أبي جهل لأمه، وقد فعلت أمه مثل ما فعلت أم سعد بن أبي وقاص. وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** (١٠)﴾: قيل: نزلت في المنافقين، كانوا يدّعون أنهم آمنوا بالله، فكلما فتنوا ارتدوا عن إيمانهم، ولا يصبرون على الأذية في الله. وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة، أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرب، فارتد. والذي عذّبه هو أبو جهل، والحارث، وكانا أخويه لأمه، ثم إنه أسلم وحَسُن إسلامه وعاش بعد ذلك دهراً.

٥ - وفي قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾: قيل: الآيةجواب لقول كفار مكة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾. وسبب نزولها أنهم أتوا النبيّ ﷺ بكتف، أي عظم عريض، وكان مكتوباً عليه بعض العبارات من التوراة، فقال النبيّ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عمّا جاء به نبيّهم إلى ما جاء به نبيّ غير نبيّهم، أو كتاب غير كتابهم». فأنزل الله تعالى الآية: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ أخرجه الدارمي.

٦ - وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤)﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)﴾ (الإسراء).

٧- وفي قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾: قيل: نزلت الآية في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه. وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب. وقيل: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حقّ.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾: قيل: عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان (حدائق) الأنصار، فجعل يلتقط من الثمر ويأكل. فقال: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» قال: لا أشتهيه. فقال: «لكني أشتهيه، وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً، ولو شئت لدعوت ربّي فأعطاني مثل مُلك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين!» قال ابن عمر: والله ما برحنا حتى نزلت الآية. وحديث ابن عمر ضعيف. وكان ﷺ يدخر لأهله قوت سنتهم، وكان الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ لما زادت شدّة المسلمين بمكة، قال لهم: «اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة»، قالوا: ليس لنا بها دار، ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا، فنزلت الآية.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)﴾: قيل: قالوا: ما يمنعنا يا محمد أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا ولكثرة الأعراب عنا، فنزلت الآية وفيها الجواب

عليهم: ﴿.. أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ، يعني وهل ذلك يسوّغ لكم أن تكونوا على الشرك وتكفروا بنعمة الإيمان عليكم؟ أو هل لأنكم كنتم بمنأى عن عدوان الأعراب؟ أم أن ذلك أدعى لكم أن تؤمنوا بالله وتحمدوه على هذه النعمة؟!

•••

١٠٤٢- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الروم﴾

١- وفي قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾: قيل: نزلت هذه الآية لمّا قهر الفرس الروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفرس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿.. وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾؛ وكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا يؤمنون بالبعث، فتحدّى المشركون المسلمين أن يكون ذلك صحيحاً ،وتراهنوا ولم يكن الرهان قد حُرّم، وطالت المدة فاستمرت تسع سنوات إلى أن انتصر الروم على الفرس، وتحقق أن القرآن صحيح من لدن الله، وأن محمداً نبيٌّ حقاً وصادقٌ أمين. **والبضع**: بين الثلاث والتسع والعشر. وكان ظهور الروم على فارس يوم الحديبية، فابتهج النبيّ ﷺ ، وفرح المسلمون. و﴿أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ هي أذرعات في الشام، يعني أقرب الأرض إلى مكة، وإلى فارس، وإلى الروم.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾: قيل: نزلت الآية تردّ على الكفار أن يتعجّبوا من إحياء الموتى.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾: قيل: كان أهل الشرك يلبون فيقولون: لبّيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك! فأنزل الله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، والمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون عبيدكم شركاءكم في الأموال والتجارة كنفسه؟ فإن لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فكيف جعلتم لله شركاء؟ وقيل: لمّا جعل كفار مكة أصنامهم شركاء لله وأصرّوا على قولهم، أنزل الله الآية فيها دحض دعواهم وبيان تهافتها.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم

مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾: قيل: هذه الآية نزلت في الهبة الثواب وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر عليه. وأصل الربا ربوان: ربا حلال، وربا حرام، والحلال هو ماكان هبةً لوجه الله، والحرام ما كان يلتمس له أجرٌ أفضل منه. والآية فيمن يهب بطلب الزيادة من أموال الناس في المكافأة.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾**: قيل: من الذين لا يوقنون وكانوا يحاولون دائماً أن يستخفوا الرسول ﷺ ويستفزّوه عن دينه: النضر بن الحارث، وفيه نزلت الآية.

●●●

١٠٤٣- ﴿في أسباب نزول آيات سورة لقمان﴾

١- في قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦)﴾**: قيل: نزلت في النضر بن الحارث، لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم واسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش: إن محمداً قال كذا، ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك فارس، ويقول: حديثي أحسن من حديث محمد. وكان يشترى المغنيات، فلا يظفر بأحد بريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنّي له! ويقول: هذا خيرٌ مما يدعوك إليه محمد من صلاة وصيام، وأن تقاتل بين يديه؟ فنزلت فيه وفيمن يستمع إليه، هذه الآية.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾**: قيل: نزلت الآيتان في شأن سعد بن أبي وقاص، وكانت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية قد أقسمت ألا تأكل إلا إذا كفر. وقال لها سعد: يا أماه! لو كانت لك مائة نفس، فخرجَتْ نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا! فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي! فلما رأت إصراره أكلت، ونزلت الآية. وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة، أخي أبي جهل لأمه، وقد فعلت أمه مثلما فعلت أم سعد مع سعد. وقيل: الآية عامة ونزلت في جميع الأمة.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠)﴾**: قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يقول: ان الملائكة بنات الله.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾: قيل: إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء)، ونحن قد أُتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شئ! فقال لهم: «التوراة قليل من كثير»، ونزلت هذه الآية بالمدينة.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾: قيل: نزلت الآية في أُبيّ بن خلف، وأبيّ الأسدين، ومُنَبّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيّ ﷺ: إن الله تعالى خلقنا أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مُضغة، ثم عظاماً. ثم تقول: إننا نُبعَث خلقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة. فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ (لقمان).

٦- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾: قيل: نزلت الآية في رجل من أهل البادية، اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيّ ﷺ فقال: امرأتي حُبلَى، فأخبرني ماذا تلد؟ وبلادنا جدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى ولدتُ، فأخبرني متى أموت؟ وقد علمتُ ما عملت اليوم، فأخبرني ماذا أعمل غداً؟ وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله هذه الآية.

●●●

١٠٤٤- ﴿في أسباب نزول آيات سورة السجدة﴾

١- في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾: قيل: عن أنس بن مالك قال: إن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. والمراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة، لأن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل، وكانوا في الجاهلية ينامون أول الغروب، ومن أى وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً شاقاً.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾: قيل: نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب، والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط، فقد تلاحيا فقال له الوليد: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ سناناً، وأَرَدّ للكتيبة جسداً، فقال له عليّ: اسكت فإنك فاسق! فنزلت الآية، وعلى ذلك فالآية مدنية لأن الوليد كان بالمدينة، ، قيل: الوليد ما كان يستطيع أن يلاحي علياً في المدينة، والغالب أن الذى لاحاه عُقبة الأب، وعقبة لم يذهب إلى المدينة وتوفى عقب بدر، والآية على ذلك مكية.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)﴾: قيل: إن المؤمنين كانوا يقولون للكافرين: سيحكم الله بيننا يوم القيامة، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء. فقال الكفار استهزاءً: متى يوم الفتح؟! فنزلت الآية.



١٠٤٥- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الأحزاب﴾

١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾: قيل: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود: قريظة، والنضير، وبني قينقاع، فكان يلين لهم جانبه، ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم، فنزلت الآية. وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور عمرو بن سفيان، نزلوا المدينة وطلبوا من النبيّ ﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم اللات والعزى ومناة، وأن يقول إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها، فإذا فعل تركوه وشأنه، فشقّ على النبيّ ﷺ ما قالوا، وأمر أن يُخرجوا من المدينة، وبسبب ذلك نزلت الآية. وقيل: أن أهل مكة دعوا رسول الله ﷺ أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، ويزوّجه شيبة بن ربيعة ابنته، فنزلت الآية، والآية الأخرى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾ (الأحزاب). أي كافياً لك ما تخافه منهم.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)﴾: قيل: نزلت في رجل من قريش كان يدعى «ذا القلبين» من دهائه. وقيل: نزلت في جميل بن معمر الفهري وكان حافظاً، فقالوا: ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان. وقيل: نزلت في رجل من بني فَهْم، قال: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أعقل من عقل محمد! وقيل: إن محمداً له قلبان، فربما يكون في الشيء فينزع في غيره. وقيل: نزلت الآية تمثيلاً في زيد بن حارثة لما تبنّاه النبيّ ﷺ.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾: قيل: نزلت في زيد بن حارثة وكان يدعى زيد بن محمد لمّا تبنّاه النبيّ ﷺ وهو بعد صغير، فنزلت الآية تحظر أن يُنسب المُتبنّى إلا لأبيه، فإن لم يكن له أب معروف يُنسب إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف أطلقوا عليه الأخ فلان، ونادوه يا أخي،

يعني في الدين، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** (١٠) ﴾(الحجرات)، ولا يجرى هذا المجرى على من غلب عليه اسم التبني كالمقداد بن عمرو، فلم يكن يُعرف إلا باسمه **المقداد بن الأسود**، وكان **الأسود عبد يغوث** قد تبناه في الجاهلية وعُرف به.

٤ - وفي قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** (٦)﴾: قيل: لما قال الله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ..**﴾ (الأحزاب)، نزلت الآية ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ..**﴾ ليكتمل الكلام في بيت النبوة كله بالتمام، فالنبي ﷺ هو أبو المؤمنين، وزوجاته أمهاتهم: أمهات النساء والرجال لا فرق، والنبي ﷺ هو أبو النساء والرجال لافرق.

٥ - وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** (٩)﴾: قيل: كان ذلك في وقعة الخندق سنة أربع، وجرت وبنو قريظة في يوم واحد، ومضت بين بني قريظة وبني النضير أربع سنوات.

٦ - وفي قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** (١٠)﴾: قيل: الذي جاء من أعلى من قبل المشرق: عوف بن مالك في بني نصر، وعيينة بن حصن في أهل نجد، وطليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، ومن بطن الوادي من قبل المغرب: أبو سفيان بن حرب على أهل مكة، ويزيد بن جحش على قريش، وأبو الأعور السلمي ومعه حُيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة، مع عامر بن الطفيل من الناحية المقابلة للخندق.

٧ - وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** (١٢)﴾: قيل: إن طُعمة بن أُبيرق، ومعتب بن قُشير، وجماعة نحوٌ من سبعين رجلاً، قالوا يوم الخندق: كيف يَعدُنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكان النبي ﷺ قد وعد المؤمنين قصور الحيرة ومدائن كسرى، وقصور الحمر من أرض الروم، وقصور صنعاء، فقال المنافقون: ألا تعجبون، يحدثكم ويمنّيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تُفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق لا تستطيعون أن تتبرّزوا، فنزل القرآن: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**

﴿١٢﴾. وقيل: نزلت هذه الآية في معتب بن قشير الأنصاري وهو صاحب هذه المقالة. وقيل: إن أوس بن قيظي طلب الإذن أن يُرجع قومه إلى نسائهم وأبنائهم بدعوى أن بيوتهم عورة وخارج المدينة، فنزلت الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾**.

٨ - وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾**: قيل: إن الطائفة كانت اليهود، قالوا لعبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه؟! فارجعوا إلى المدينة فإننا مع القوم فأنتم آمنون.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿.. وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾**: قيل: هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار: بني حارثة، وبني سلمة، همّوا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى: **﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾** (آل عمران١٢٢)، فلما نزلت هذه الآية قالوا: والله ما ساءنا ما كنا هممنا به، إن الله وليّنا. وقيل: الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثة، أحدهما أبو عرابة بن أوس، والآخر أوس بن قيظي، وقيل: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه. وقيل الذي قال: **﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ..﴾** هو أوس بين قيظي نيابةً عن ملأ من قومه.

١٠- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾**: قيل: هم بنو حارثة، همّوا يوم أحد أن ينسحبوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل، عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها. وقيل: هم سبعون رجلاً بايعوا النبيّ ﷺ ليلة العقبة.

١١- وفي قوله تعالى: **﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾**: قيل: هم المنافقون أصحاب عبد الله بن أُبيّ واليهود من بني قريظة، وكانوا يستخفّون بالنبيّ ﷺ، وقالوا: هو هالك ومن معه!

١٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾**: قيل: لما رأى المسلمون الأحزاب يوم الخندق قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله» فنزلت مقالتهم آية.

١٣- وفي قوله تعالى: **﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾**: قيل: بعد بدر تمنى الكثيرون ممن لم يحضروها

لو كانوا يحضرون قتالاً من أجل الإسلام، فلما كان يوم أحد وانهزم من انهزم، تجلّدت فئة حتى قُتلوا، ومنهم أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، فلما انكشف المسلمون قال: اللهم إني ابرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يقصد المشركين، وباشر القتال وقال: إيْها إنها ريح الجنة ! إني لأجدها! ومضى حتى استشهد، قال أنس: فما عرفناه إلا ببنانه، ووجدنا فيه بضعاً وثمانين جراحة، وفيه وفي أمثاله نزلت: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...**﴾ والآية عتاب في حقّ من انهزم.

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)**﴾: قيل: إن نساء النبيّ ﷺ تظاهرن، وجاء عمر بن الخطاب يتحرّى الأمر، فقال له النبيّ ﷺ: «**هن حولي كما ترى يسألنني النفقة**»، فقام أبو بكر إلى عائشة يحاسبها، وقام عمر إلى حفصة، وكلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده ؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلهن النبيّ ﷺ **شهراً أو تسعة وعشرين يوماً**، ثم نزلت هذه الآية.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)**﴾: قيل: روى الترمذي عن أم عمارة الأنصارية: أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية.

١٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)**﴾: قيل: سبب نزول الآية: أن رسول الله ﷺ خطب **زينب بنت جحش**، وكان بنت عمته، فظنت أن الخطبة لنفسه، فلما تبين أنه يريدها **لزيد بن حارثة**، كرهت وأبت وامتنعت، فنزلت الآية. وقيل: الآية نزلت في **أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط**، وكانت قد وهبت نفسها للنبيّ ﷺ، فزوّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها، وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا غيره، فنزلت الآية بسبب ذلك.

١٧- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا**

وطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)﴾: قيل: نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، فقد جاء زيد يشكو إلى النبي ﷺ من زينب، فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك أهلك»، فنزلت: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾.

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)**﴾: قيل: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش قال الناس: تزوج امرأة ابنه، فنزلت الآية.

١٩- وفي قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)**﴾: قيل: لما نزلت الآية ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾ (الأحزاب ٥٦)، قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أنزل الله عليك خيرًا إلا أشركتنا فيه؟ فنزلت الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ**﴾ (الأحزاب ٤٣).

٢٠- وفي قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧)**﴾: قيل: لما نزلت ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ (الفتح ٢) قال رجال من المؤمنين: هنيئًا لك يا رسول الله! قد علمنا ما يفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ**﴾(الفتح ٥)، وأنزل في سورة الأحزاب: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧)**﴾ (الأحزاب). وقيل: لما نزلت: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ**﴾ (الأحقاف ٩) نزل بعدها ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ (الفتح ٢)، فقالوا: يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فنزل: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧)**﴾ (الأحزاب). وهذا كلام ملفق وغير صحيح، لأن سورة الأحزاب سابقة على سورة الفتح، على عكس ما يُروى في الرواية هنا.

٢١- وفي قوله تعالى: ﴿**... وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ... (٥٠)**﴾: قيل: إن النبي ﷺ خطب أم هانئ بنت أبي طالب، فاعتذرت إليه لكثرة عيالها، ولأن حق الزوج عظيم فخشيت أن تضيعه، فعذرها، ثم أنزل الله تعالى الآية . فلم تكن تحل له رغم قرابتهما، لأنها لم تهاجر، وكانت من الطلقاء. أي الذي أطلق الرسول ﷺ سراحهم يوم فتح مكة بقوله: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، والصحيح أنه لم يخطب أم هانئ إطلاقًا، لأنها كانت من سكان مكة طوال عمرها، وكانت أكبر سنًا لا تصلح أصلاً للزواج، ولو كانت تصلح للزواج لتزوجت منه أو من غيره ولكنها لم تفعل ولم يتقدم للزواج منها أحد.

٢٢- وفي قوله تعالى: ﴿**...وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن**

يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما (٥٠)﴾: قيل: نزلت فى اللاتى وهبن أنفسهن له، وقال المرجفون: كان عنده أربع منهن: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة- أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم. وقيل: بل واحدة فقط هى ميمونة، وقيل بل زينب بنت خزيمة، وقيل بل أم شريك، وقيل بل أم حكيم. وقيل: الآية نزلت فى واهبة أباحتها له ولكنه لم يقبلها، وهى أم شريك واسمها غُزَيَّة أو غُزَيْلة؛ وقيل: هى ليلى بنت حكيم، أو ميمونة بنت الحارثة، ولم يثبت أنه تزوجها. والثابت أنه لم يكن عند النبىّ امرأة موهوبة قط!

٢٣- وفى قوله تعالى: **﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما (٥١)﴾**: قيل: كان الرسول ﷺ قد همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له اقسِم لنا ما شئت. فكان ممن أوى عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكانت قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهم؛ وكان ممن أرجى: سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وميمونة، وصفية، فكان يقسم لهن ما شاء، ونزلت الآية فى ذلك. ومسألة «همّ بطلاق بعض نسائه» كذب وبهتان، ونساؤه فى الحقيقة أربع فقط لاغير، هن: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب. وأما سودة فلم يكن يقربها، وأما الباقيات فلم يتزوجهن كهيئة الزواج، بل كانت لهن حكايات مختلفة، وكل واحدة لها ظروفها، وكان يأويهن إليه لظروفهن. وأما من كن يرجئهن فهؤلاء هن الواهبات، ولم يحدث أن كانت فى بيته امرأة وهبت نفسها له. ومن اللاتى عزلهن مريم القبطية وكانت سريّة، ومع ذلك فالآية بلا تحديد أسماء فيها توسعة على النبىّ ﷺ، لأنه كما قيل كانت القسمة بينهن واجبة عليه، فلما كبر فى السن ما عاد يستطيع القسمة، فأباح له ربّه تركها، ونزلت الآية بذلك، إلا أنه يقسم لهن من تلقاء نفسه بقدر وسعه. ولا يعنى المبيت عند إحداهن مسائل جنسية كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هى المعايشة والملاطفة والإحسان وتقوى الله.

٢٣- وفى قوله تعالى: **﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا (٥٢)﴾**: قيل: خيّر رسول الله ﷺ أزواجه، فاخترن الله ورسوله، فأنزل الله: **﴿لا يحل لك النساء من بعد..﴾**. وقيل: لما نزلت: **﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا.. (٥٣)﴾**، حرّم عليه أن يتزوج غيرهن. غير أن هذا الرأى غير سليم، لأن تحريم زواجه من أخريات فى الآية ٥٢، وتحريم

زواجهن بعده في الآية ٥٣، يعني أنه كان لاحقا وليس سابقاً، على عكس الرأى السالف.

٢٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... (٥٢)**﴾: قيل: نزلت الآية بسبب **أسماء بنت عميس**، فقد أعجب رسول الله ﷺ حُسنها حين مات عنها زوجها **جعفر بن أبي طالب**، فأراد أن يتزوجها، فنزلت الآية، والحديث ضعيف ومتهافت.

٢٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ.. (٥٢)**﴾: قيل: كان البدل في الجاهلية بأن ينزل الرجل عن امرأته لآخر وينزل الآخر عن امرأته له، فأنزل الله عز وجل الآية. وقيل: إن **عيينة بن حصن الفزاري** دخل على النبي ﷺ بلا استئذان وعنده **عائشة**، فعاتبه النبي ﷺ، وقال: **يا عيينة فأين الاستئذان؟** فسأله عيينه: عمّن تكون التي جواره؟ وهل يقبل أن يبادلها معه بأخرى من أحسن الخَلْق؟ فقال النبي ﷺ: «**يا عيينة، إن الله قد حرّم ذلك**» **والحادثة برمتها مختلقة**، ومن أراجيف المرجفين والمنافقين والرافضة.

٢٦- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)**﴾: قيل: الآية نزلت لتعليم المسلمين آداب الدعوة إلى الطعام والجلوس مع النبي ﷺ. وسبب نزولها أن الرسول ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش أولم عليها، ودعا الناس، فلما طعموا ولم يبارحوا، ثقلوا على النبي ﷺ، إلى أن انصرفوا أخيراً. فألقى النبي ﷺ ستراً على زوجته ونزلت الآية. وقيل لذلك هذه **الآية نزلت في الثقلاء**.

٢٧- وفي قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ... (٥٣)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية - **آية الحجاب** - لما تزوج النبي ﷺ **زينب بنت جحش**، أولم ودعا الناس، فلما طعموا، جلس جماعة يتحدثون في البيت، وزوجته تجلس وقد ولّت وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ، فلما ذهبوا ألقى الستر على باب حجرته، ونزلت الآية. وقيل: سببها أن **عمر** قال للنبي ﷺ: يارسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت الآية. وقيل: إن **عمر بن الخطاب** أمر نساء النبي ﷺ بالحجاب، فقالت **زينب بنت جحش**: يا ابن الخطاب، أنك تغار علينا، والوحي ينزل في بيوتنا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ... (٥٣)**﴾

(الأحزاب). وقيل: إن رسول الله ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يدَ عائشة، فكره ذلك النبيّ ﷺ ، فنزلت آية الحجاب. وقيل: إن الذى حدث معه ذلك هو عمر بن الخطاب.

٢٨- وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾: قيل: نزلت فى رجل قال: لو قُبض رسول الله ﷺ ، تزوجتُ عائشة ، فأنزل الله الآية، وكذلك الآية: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴿٦﴾﴾ (الأحزاب)، أى أمهات المؤمنين فلا يجوز أن يتزوجوا منهن وهن أمهاتهم. وقيل: أن طلحة بن عبيد الله هو الذى قال ذلك وندم على ما قال وكفّر. وروى أن رسول الله ﷺ ، أُبلغ بما قال فتأذّى به. وهذا من الإسرائيليات، ومن تشنيعات المنافقين والمرجفين الجُهّال. ومن ذلك ما رووه فى سبب نزول الآية: أن رجلا من المنافقين قال حين تزوّج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا كلما مات منا واحد؟ والله لو قد مات، لأجلنا السهام على نسائه؛ فنزلت الآية فى هذا.

٢٩- فى قوله تعالى : ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾: قيل: لما نزلت آية الحجاب فى زوجات النبيّ ﷺ ، قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت الآية.

٣٠- وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾: قيل: قال ابن عباس: نزلت الآية فى المنافقين الذى طعنوا على النبيّ ﷺ حين اتخذ صفية بنت حُيىّ. وقيل: نزلت الآية فى عبد الله بن أُبىّ وناس معه، قذفوا عائشة فى حديث الإفك، فخطب النبيّ ﷺ وقال: «من يعذرنى من رجل يؤذينى ويجمع فى بيته من يؤذينى؟»، فنزلت الآية.

٣١- وفى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾: قيل: نزلت فى عمر بن الخطاب، رأى جارية من الأنصار ، كره منها ما رأى من زينتها، فضربها، فخرج أهلها، فآذوا عمر باللسان، فأنزل الله هذه الآية وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ فيه أن عمر لم يضرب الجارية، وما ضرب عمر ولا أبو بكر امرأة قطّ لأى سبب من الأسباب.

٣٢- وفى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ

مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾: قيل: كانت عادة العربيات التبذّل، وكن يلبسن ويسلكن ما يجعلهن مطمع الطامعين، فنزلت الآية تأمر زوجات النبيّ ﷺ وبناته ونساء المؤمنين أن يُرخين عليهن جلابيبهن إذا أردن الخروج لحاجة، فكن بعد ذلك يُعرفن فلا يؤذين.

٣٣- وفي قوله تعالى: ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية في «المنافقين **وأصحاب الفواحش والمرجفين**». وهم شيء واحد عبّر عنهم بثلاثة ألفاظ. «**والذين في قلوبهم مرض**»، يعني الذين يضمرون الزنا، و«**المرجفون**» هم المروّجون للأكاذيب والشائعات.



١٠٤٦- ﴿في أسباب نزول آيات سورة سبأ﴾

١-في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ..(٣)**﴾: قيل: نزلت هذه الآية لأن أبا سفيان كان يقول لكفّار مكة: واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث، فأنزل الله إلى النبيّ ﷺ: ﴿**قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ..**﴾.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)**﴾: قيل: أتى النبيّ ﷺ رجلٌ من غُطَيف من سبأ، يقول: يارسول الله، إن **سبأ** قومٌ كان لهم في الجاهلية عزّ، وإني أخشى أن يعادوا الإسلام. أو أن يسلموا ثم يرتدوا. ألا أقاتل من أدبر من منهم بمن أقبل؟ فأذن لي في قتالهم، وأمّرني، فلما خرج من عنده سأل عنه: «**ما فعل الغطيفي؟**» فأخبر أنه قد سار. فأرسل في أثره فردّ، وأتاه وهو في نفر من أصحابه فقال: «**ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك**». فأنزل في سبأ ما أنزل.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ... (٣١)**﴾: قيل: نزلت في **أبي جهل بن هشام** فهو الذي قال ذلك. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين: أن صفة محمد في كتابنا، فسلوه، فلما سألوه، وافق على ما قال أهل الكتاب، فقال المشركون: لن نؤمن بهذا الكتاب ولا بالذي أنزل قبله، بل نكفر بالجميع.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)**﴾: قيل: إن شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر، فلما بُعث النبيّ ﷺ، كتب إلى صاحبه يخبره بما كان، فقال فيما كتب: لم يتبعه أحد من قريش إلا

أراذلة الناس ومســاكينهم. ولما عاد الشـريك توجه إلى النبى ﷺ يسـأله: إلام تدعو؟ واستمع له ثم قال: أشهد أنك رسـول الله، فسأله: وما علّمك ذلك؟ قال: لم يُبعَث نبىّ إلا اتبعه أراذلة الناس ومساكينهم، فنزلت الآية، فأرسل اليه النبىّ ﷺ: «إن الله قد أنزل تصديق مـا قلت». وكذلك فى المذاهب الاجتـماعية فإن علامة صـدق المذهب أن يعتنقه البسطاء والضعفاء والمضطهدون كما فى حالة المذهب الاشتراكى.



١٠٤٧- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة فاطر﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾: قيل: نزلت فى العاص بن وائل السهـمى، والأسود بن المطلب، أو أنهـا نزلت فى أبى جهل بن هشام، أو فيـهم جميعاً وفى كفـار قريش واليـهود والنصارى. وقـيل: انزلت هذه الآية حيث قـال النبىّ ﷺ: «اللهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام»، فهدى الله عمر وأضلّ أبا جهل، فالذى زيّن له سوء عمله أبو جهل.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾: قـيل عن ابن عبـاس: إن حـصين بـن الحـارث بن عبدالمطلب بن عبد مناف القرشى، نزلت فيه الآية؛ والصحيح أن الآية عامة.

٣- وفى قوله تـعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾: قيل: إن رجلاً سأل النبىﷺ قـال: إن النوم مما يقرّ الله به أعيننا فى الدنيا، فهل فى الجنة نوم؟ قال: «لا، إن النوم شريك الموت، ولـيس في الجنة موت»، قال: فما راحتهم؟ قال: «ليس فيها لـغوب كل أمرهم راحة»، فنزلت: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

٦١٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ (فاطر): قـيل: هؤلاء هم قـريش، أقسمـوا قبل أن يبعث الله رسوله ﷺ أن لا يكونوا مثل من كـذّبوا رسلهم من مختلف الأقوام، وأن يؤمنوا لو جاءهم نذير، ليكونوا أهدى الأمم، فلما جاءهم ما تمنوا نفروا ولم يؤمنوا.



١٠٤٨- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة يس﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾:

قيل: أن أبي جهل بن هشام. كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه بحجر، وحاول ذلك فما استطاع، وكذلك حاول صاحبه الوليد بن المغيرة، وآخر معهما، فكأنما غُلّت أيديهم . فنزلت الآية. **والإقماح**: أن ترتفع الرأس كما الدابة إذا جذب لجامها، ويقال **أقمحه الغل** إذا ترك رأسه مرفوعاً من شدّة ضيقه. والآية مثلٌ ضربه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى، كامتناع المغلول. وربما هي مثلٌ لما يُفعل بالغافلين المعْرِضين غداً في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل : ﴿ **إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)** ﴾ (غافر).

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)**﴾: قيل: نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «**إن آثاركم تكتب**» فلم ينتقلوا. **والآثار** هي الخطا من الديار إلى المسجد، فكلما بعدت الديار زاد الثواب، وأراد لهم النبيّ ﷺ زيادة الثواب.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)**﴾ : قيل: نزلت في عبد الله بن أبيّ، أو العاص بن وائل السهمي، أو أُبيّ بن خلف الجمحي، وهو الذي تشير الآية إليه بكلمة ﴿**الإنسان**﴾. قيل : إنه أتى النبيّ ﷺ بعَظْم حائل ـ يعني متآكل، فقال: يا محمد ، أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟ فقال النبيّ ﷺ : «نعم، ويبعثك الله ويدخلك النار»، فنزلت الآية. وكذلك نزلت الآيتان بعدها ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)**﴾ (يس).



١٠٤٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الصافات﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)** ﴾: قيل: قال كفار مكة: أجعل محمد الآلهة إلهاً واحداً؟! وكيف يسع هذا الخلق فردٌ إله؟! فنزلت الآية تأكيداً لوحدانيته تعالى.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)**﴾: قيل: إن أبا جهل لما سمع في القرآن أن في الجحيم شجرة اسمها الزقوم، قال جهلاً منه : وكيف تقوم شجرة وسط النار ؟ فأنزل الله الآية عقوبةً له ولأصحابه، لأن من خلق النار لا يستبعد أن يخلق شجرة من جنسها لا تقوى النار عليها، وتلك هي شجرة الزقوم التي تزقم الأنوف والحلوق برائحتها الكريهة وطعمها المنتن.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**

(١٥٨)﴾: قيل: الذى جعل له ذلك كنانة وخزاعة، قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن فزوّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن!

٤- وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)﴾: قيل: الآيات الثلاث: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾ نزلت ورسول الله عند سدرة المنتهى، فتأخر جبريل، فقال النبىﷺ: «أهنا تفارقنى؟» فقال: «ما أستطيع أن أتقدم عن مكانى»، وأنزل الله الآيات الثلاث. وقيل: كان الرجال والنساء يصلّون جميعاً، فلما نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)﴾ تقدّم الرجال وتأخر النساء. والآية فيها ردٌّ على النساء المطالبات بأن يُعامل النساء فى المجتمع معاملة الرجال، وأن يمتنهوا مهنهم.

٥- وفى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾: قيل: كان الناس يصلّون متبددين، فأنزل الله الآية فأمرهم أن يصفُّوا، وقال لهم النبىّ ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربّها، يتمّون الصف الأول ويتراصّون فى الصف». والصلاة صفوفاً من مزايا الإسلام ويحسدنا عليها الآخرون.

٦- وفى قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦)﴾: قيل: كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب، فنزلت الآية ـ أى لا تستعجلوه فإنه واقع بكم.

●●●

١٠٥٠- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة ص﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)﴾: قيل: إن أبا طالب مرض فجاءت قريش، وجاء النبىّ ﷺ، وكان هناك مكان للجلوس شاغراً عند رأس أبى طالب، فتوجه إليه النبىّ ﷺ ليجلس، فقام أبو جهل يمنعه. قيل: وشكوه إلى أبى طالب أنه يسبّ آلهتهم، فقال أبو طالب: يا ابن أخى، ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عمّ، إنما أريد منهم كلمة تُذلّ لهم بها العرب، وتدين لهم بها العجم»، فقال: وما هى ؟ قال: «لا إله إلا الله». قال: فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ قال: فنزلت فيهم هذه الآيات. وقوله: تُذلّ بها العرب تُضعف الحديث، لأن العرب بها شُرّفوا وكُرّموا. وليس هذا هو أسلوب النبىّ ﷺ ولا فهمه للإسلام والقرآن.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾: قيل: أن أبا

جهل بن هشام، وشيبة وعتبة ابنيّ ربيعة بن عبد شمس، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبا مُعَيْط، مشوا إلى أبي طالب في مرضه، فقالوا: أنت سيدنا، فأنصفنا في أنفسنا، واكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلهتنا، وطعنوا في ديننا! فأرسل أبو طالب إلى النبيّ ﷺ فقال له: إن قومك يدعونك إلى السواء والنصفة. فقال النبيّ ﷺ: «إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة»، فقال أبو جهل: وعشراً - أي وعشر كلمات وليس كلمة واحدة. فقال رسول الله ﷺ: «تقولون لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن هذا لشيء عُجاب! - والعجاب هو الذي تجاوز حدّ العجب. والعُجاب حقاً أن تتعدّد الآلهة لا أن تتوحّد!



١٠٥١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الزمر﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ألا لله الدّين الخالص والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ... (٣)﴾: قيل: هؤلاء هم كفار قريش، كانوا إذا قيل لهم: مَن ربّكم وخالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله، فيقال لهم: وما معنى عبادتكم الأصنام؟ يقولون: ليقرّبونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده، وقيل: الآية نزلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولوا الألباب (٩)﴾: قيل: الآية نزلت في عثمان بن عفان؛ وقيل نزلت في أبي بكر وعمر؛ وقيل: إن القانت في الآية هو عمّار بن ياسر؛ وقيل: نزلت الآية في صهيب وأبي ذرّ، وابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿والّذين اجتنبوا الطّاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشّر عباد (١٧)﴾: قيل: نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وطلحة، والزبير، فأخبرهم أبو بكر بإيمانه، فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد ابن عمرو بن نفيل، وأبي ذرّ الغفاري، وسلمان الفارسي. فهؤلاء لم يعبدوا الأوثان في جاهليتهم، واتّبعوا أحسن ما صار القول إليهم، فأولئك الذين هداهم الله.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النّار (١٩)﴾: قيل: نزلت الآية لمّا كان النبيّ ﷺ يحرص على إيمان قوم ويدعوهم باستمرار وهم لا يستجيبون. وقيل: المراد بالآية هو أبو لهب وولده، ومن تخلّف من عشيرة النبيّ ﷺ عن الإيمان. والمعنى: أفأنت تنقذ من حقّت عليه كلمة العذاب؟

٥- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾: قيل: الآية نزلت فى علىّ وحمزة. وقيل: نزلت فى عمر بن الخطاب. وقيل: نزلت فى عمّار بن ياسر. وقيل: نزلت فى الرسول ﷺ. وقيل: الآية عامة فيمن شرح الله صدره للإيمان.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾: قيل: إن أصحاب رسول الله ﷺ سألوه أن يحدّثهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾، فقالوا: لو قصصتَ علينا؟ فأنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾(يوسف)، فقالوا: لو ذكّرتنا ؟ فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾ (الحديد).

٧- وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾: قيل عن الزبير أنه قال: لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا، فقلنا: وكيف نختصم ونبينا واحد، وديننا واحد؟ إلى أن رأينا بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفنا أن الآية فينا نزلت. وقال: لقد عرفنا أن الآية نزلت فينا لمّا قُتل عثمان واندلعت الفتنة بين المسلمين.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾: قيل: الآية نزلت في النبىّ ﷺ وفى أبى بكر الصديق؛ فالنبىّ ﷺ هو الذى جاء بالصدق، وأبو بكر الصدّيق هو الذى صدّق به؛ أو هم المؤمنون، بدليل قوله تعالى: ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)﴾: قيل: إن قريشاً حذّرت النبىّ ﷺ لئن لم ينته عن شتم آلهتهم، فإنه سيصيبه منها الخبل أو الجنون. وقيل: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبّ آلهتنا وتعييبها لنسلطّنها عليه، فتصيبه بخبل وتعتريه بسوء.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾: قيل: نزلت فى قراءة النبىّ ﷺ سورة النجم عند الكعبة، وقيل إن الشيطان ألقى فى أمنيته عند القراءة: «تلك الغرانيق العُلَى وإن شفاعتهم ترتجى». فإذا هم يستبشرون - أى يفرحون وهذا هراءوسُخف، لأن النبىّ ﷺ معصوم، وإلا فكيف يؤتمن على الرسالة؟!

١١- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾**: قيل: عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما اجتمعتُ على الهجرة، اتّعدتُ (اتفقت) أنا، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وعيّاش بن أبي ربيعة بن عتبة، فقلت: الموعد أضاة بني غفار (يعني آبار بني غفار). وقلت: من تأخر منا فقد حُبس فليمض صاحبه. فأصبحت أنا وعياش بن عتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله ورسوله، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس قال: كان قوم من المشركين، قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فبعثوا للنبيّ ﷺ: إن ما تدعو إليه لَحَسن، أوَ تخبرنا أن لنا توبة؟ فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس قال: نزلت الآية في أهل مكة، قالوا: يزعم محمد، أن من عَبَد الأوثان، وقَتَل النفس التي حرّم الله لم يُغفَر له، فكيف نهاجر ونُسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر، وقتلنا النفس التي حرّم الله؟! فنزلت الآية. وقال ابن عباس أيضاً: نزلت الآية في وحشي قاتل حمزة، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه. قال: أتى وحشي إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا محمد، أتيتك مستجيراً، فأجرني حتى أسمع كلام الله. قال: فإني أشركتُ بالله وقتلتُ النفس التي حرّم الله، وزنيت. هل يقبل الله مني توبة؟ فصمتَ رسول الله ﷺ حتى نزلت الآية: **﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾** (الفرقان)، فتلاها عليه، فقال: أرى شرطاً، فلعلي لا أعمل صالحاً؟ أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾** (النساء) فدعا به، فتلا عليه، قال: فلعلي ممن لا يشاء؟ أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت الآية: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾** (الزمر)، فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً! فأسلم.

١٢- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)﴾**: قيل: الآية نزلت في المشركين ـ الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، قالوا للنبيّ ﷺ: هلم يا محمد، فلتعبد آلهتنا، ولنعبد ما تعبد، فنزلت الآية.

١٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾**: قيل: سئل رسول الله ﷺ عن يوم القيامة، ونظر المشركون فيما قال عما يئول إليه أمر الكون، وتعجبوا، فأنزل الله الآية. وقيل: تكلموا في صفة الربّ، وقالوا بما لم يعلموا ولم يروا، فأنزل الله الآية.

وقيل: لما نزلت: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (البقرة ٢٥٥) قالوا: يا رسول الله، هذا الكرسى هكذا، فكيف العرش؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ الآية. وهذا غلط، لأن سورة الزمر مكية، والبقرة مدنية، فلا يمكن أن تتنزل آية البقرة قبل آية الزمر.

●●●

١٠٥٢- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة غافر﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ④﴾: قيل: نزلت فى الحارث بن قيس السهمى، وكان كثير السفر بين البلاد، والجدل فى آيات القرآن، فسجل الله تعالى عليه كُفره.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑤⑥﴾: قيل: الآية مدنية بينما السورة مكية، ونزلت الآية فى جماعة من اليهود أتوا النبىّ ﷺ يجادلان فى الدجّال، وأنه يأتى فى آخر الزمان، وهو يهودى منهم، وعظّموا أمره، وقالوا يفعل كذا وكذا، فأنزل الله فيهم الآية، وأمر نبيه أن يتعوّذ من فتنة الدجال. والصحيح أن الروايات فى الدجّال جميعها من الإسرائيليات. ومما قيل فيه: إنه يهودى واسمه صاف، ويكنّى أبا يوسف. وقال اليهود: الدجّال يخرج ويردّ المُلك إليهم، وهو آية من آيات الله. والمفسرون الذين لم يروا إنكار الدجّال قالوا إنه كل من يكفر بالنبىّ ﷺ.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥⑥﴾: قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، قالا: يا محمد، ارجع عمّا تقول، وعليكَ بدين آبائك وأجدادك. فأنزل الله الآية.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ⑥⑨﴾: قيل: نزلت فى المشركين، وقيل: نزلت فى القدرية. وقال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت فى القدرية، فلا أدرى فيمن نزلت. وقيل فى حديث موضوع عن النبىّ ﷺ: «نزلت هذه الآية فى القدرية» ولم يكن القدرية فى عهد النبىّ ﷺ!

●●●

١٠٥٣- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة فصلت﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ②②﴾: قيل: اختصم ثلاثة نفر - قرشيان وثقفى أو العكس، عند البيت، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال

الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع أن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع لنا جهرنا، فهو يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله الآية.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر فقد آمن بالله وحده لا شريك له وظل على إيمانه، فذلك معنى الآية. وقيل: من قول النبيّ ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي لمّا سأله قولاً في الإسلام لا يسأل عنه أحداً بعده، وفي رواية - لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» أخرجه مسلم. فنزلت الآية.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾**: قيل: نزلت الآية في المؤذنين، وقيل: هي عامة في كل من دعا إلى الله. وقيل: نزلت في كل مؤمن أدّى الفرائض واجتنب المحارم وأكثر المندوب.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾**: قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان مؤذيًا للرسول ﷺ، فصار له وليًا بعد أن كان عدوًا، بالمصاهرة التي وقعت بينهما، ثم أسلم فصار وليًا في المسلمين، حميمًا بالقرابة. والحق أن إيمانه مشكوك فيه، وكذلك كل بني أمية، وخاصة معاوية ابنه! وقيل: نزلت الآية في أبي جهل بن هشام، وكان يؤذي النبيّ ﷺ فأمر الله تعالى بالصبر عليه، والصفح عنه، وقيل: الآية عامة، كسلوك عام للمسلم في كل وقت.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠)﴾**: قيل: الآية نزلت في أبي جهل فهو الذي يُلقى في النار، وأما الذي يأتي آمناً يوم القيامة فهو النبيّ ﷺ. وقيل هو عثمان. وقيل: عمّار بن ياسر. وقيل حمزة. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: الآية نزلت في العموم، وهذا هو الصحيح، فالذي يُلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمناً يوم القيامة المؤمن.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾**: قيل: قالت قريش لولا أنزل القرآن أعجمياً وعربياً، فتكون بعض آياته أعجمية، وبعضها عربية، فنزلت الآية.



١٠٥٤- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الشورى﴾

١- في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ**

رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾: قيل: نزلت فى كفار قريش ، فلما دخل الناس فى الإسلام وكثر المسلمون، قالوا لهم : لقد دخلتم فى الإسلام وكثر عددكم فعلام تقيمون بين أظهرنا؟ فنزلت الآية. وقيل: الآية مدنية ونزلت في الذين يحاجّون في الله من اليهود والنصارى، ومحاجتهم قالوا: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن خير منكم، فكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأولاد أنبياء، وكان المشركون يقولون : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ ، فنزلت الآية.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾: قيل: الآية مدنية، فلما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه، فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به، وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه، فنجمع له، ففعلوا، ثم أتوه به، فنزلت الآية. وقيل: نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون، فقالت الأنصار نحن فعلنا، وفخر المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ ، فلمّا سمع الرسول ﷺ خطب في الأنصار فقال: «ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بي؟! ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا خائفين فآمنكم الله بي؟ ألا تردون عليّ؟» فقالوا : بم نجيبك؟ قال: «تقولون ألم يطردك قومك فآويناك؟ ألم يكذبك قومك فصدقناك ؟»... فعدّد عليهم، فجثوا على ركبهم فقالوا: أنفسنا وأموالنا لك، فنزلت الآية.

٣-وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾: قيل: نزلت هذه الآية فى قوم من أهل الصفّة تمنّوا سعة الرزق. وقال خبّاب بن الأرتّ: فينا نزلت. نظرنا إلى أموال بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع فتمنيناها ، فنزلت.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: قيل: قال عليّ : اجتمع لأبى بكر مرة مالٌ فتصدّق به كله فى سبيل الخير، فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون، فنزلت الآية.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: قيل: نزلت فى عمر حين شُتم بمكة. وقيل: فى أبى بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله كله، وحين شُتم فحَلُم.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾: قيل: نزلت

هذه الآية في أبي بكر الصدّيق مع خمس آيات قبلها : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾، وكان قد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. والسورة مكية إلا هذه الآيات فهي مدنية، والصحيح أن الآيات مكية. وقيل: هذه الآيات في المشركين، وهذا هو الأصح. وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالردّ على العدوان، ثم نسختها آية القتال. والصحيح أنه لا نسخ هناك، وهذه الآيات شيء وآية القتال شيء آخر، وقيل المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١)﴾، يعني كل من ظُلم من المهاجرين، فأولئك لا سبيل عليهم لو انتصروا لأنفسهم، أي لا تثريب عليهم: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾ .

٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾: قيل: إن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر اليه، فإنّا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك؟ فنزلت الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا ...﴾.



١٠٥٥- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الزخرف﴾

١- في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾: قيل: قالوا الملائكة بنات الله فنزلت الآية، ومعناها : أيضاف إلى الله من ينشأ في الترف والذهب والحرير، فإذا خاصم لا يستطيع أن ينتصر لنفسه؟ قيل : النساء تكون لهن الحجة فما أن تتكلم بها إلا وتجعلها على نفسها، أو أنها لاتستطيع الدفاع عن نفسها وتركن إلى السكون أو البكاء.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾: قيل: الآية نزلت لفضح كذب المشركين لما قالوا الملائكة بنات الله، فكيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل ؟ أشهدوا خلقهم ؟!

٣- وفي قوله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾: قيل: لما سألهم : هل أشهدكم خلق الملائكة فعرفتم بالدليل أنهم بنات ؟ قالوا: سمعنا بذلك من آبائنا، ونحن نؤمن بدورنا أنهم إناث، فنزلت الآية ، وسؤالهم يكون يوم القيامة.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾: قيل: الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة، وأبى سفيان، وأبى جهل، وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش، وهؤلاء هم الذين قالوا هذه المقالة؛ والأمة: المذهب أو الطريقة.

٥- وفى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾: قيل: نزلت الآية فى المترفين، وهم المنعّمون، والمراد بهم السادة والكبراء، وكما قال هؤلاء، قال من قبلهم أمثالهم فى أمم أخرى، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ (فصلت).

٦- وفى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾: قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عمّ أبى جهل، وكان يدعى ريحانة قريش. ونزلت فى رجل آخر من أهل الطائف هو: أبو مسعود عروة ابن مسعود الثقفى، وقيل: هو عمير بن عبد ياليل الثقفى، وقيل هو: حبيب بن عمرو الثقفى، وقيل هو كنانة بن عبد بن عمرو. وكان الوليد يقول لأهل مكة: لو كان ما يقوله محمد حقاً، لنزل علىّ أو على أبى مسعود. فنزلت الآية ونزل معها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الزخرف).

٧- وفى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾: قيل: الآية نزلت فى الخبر: أن الكافر بالله يُشفَع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار، والمؤمن يشفع بملك حتى يقضى الله بين خلقه، والقرين هو الملازم والمصاحب. وقيل: كانت قريش تقيّض لكل مؤمن قرينًا من الكفار يدعوه إلى عبادة اللات والعزى. وقيل: إذا بُعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه فى الآخرة مثلما لم يفارقه فى الدنيا، حتى يصير به إلى النار. ويناظر القرين الخليل فى البشر، ويمكن أن يكون مؤمنًا أو شيطانًا من الإنس، وكان أمية بن خلف الجمحى خليل أو قرين عقبة بن أبى مُعَيط يوحى له بالكفر، وقتلا يوم بدر.

٨- وفى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾: قيل: إن قريشاً قالت إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى، فصدُّوا من المَثَل لهذا السبب، ونزلت الآية تنفى هذا المعنى.

٩- وفى قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾: قيل: نزلت الآية فى أمية بن خلف الجُمَحى، وعُقبة بن أبى مُعَيط، كانا خليلين، وكان عقبة

يجالس النبيّ ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبي معيط، فقال له أمية خليله: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً، ولم تتفل في وجهه. فقتل يوم بدر صبراً، وقتل أمية في المعركة، وفيهما نزلت هذه الآية، وهي عامة.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴿٨٠﴾﴾: قيل: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر: إذا جهرتم يسمع، وإذا أسررتم لم يسمع. فأنزلت الآية. (انظر أيضاً أسباب نزول الآية ٢٢ من سورة فصلت).

١١- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٨٦﴾﴾: قيل: نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونفراً من قريش قالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه، فنزلت الآية.



١٠٥٦- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الدخان﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴿١٠﴾﴾: قيل: إن قريشاً استعصوا على النبيّ ﷺ، فدعا عليهم بسنين كسنيّ يوسف، فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله هذه الآية، والآية الأخرى: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴿١٥﴾﴾ (الدخان)، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله: ﴿**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ﴿١٦﴾﴾ (الدخان). وقيل: إن يوم البطشة الكبرى كان يوم بدر. والصحيح أن هذه الآيات عامة في الناس جميعاً، وهذه العلامات من إرهاصات يوم القيامة، والبطشة الكبرى هي قيام الساعة لأنها خاتمة بطشاته تعالى في الدنيا.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴿١٥﴾﴾: قيل: لما دعوا الله: ﴿**رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴿١٢﴾﴾: ردّ عليهم: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴿١٥﴾﴾، أشار بهذا إلى أنهم سيعودون إلى كفرهم بعد أن يرفع الغمة عنهم.

٣-وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ** ﴿٣٤﴾ **إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ﴿٣٥﴾ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٣٦﴾﴾: قيل: قائل هذا الكلام من كفار قريش هو أبو جهل، قال: يامحمد، إن كنت صادقًا في قولك، فابعث لنا رجلين من آبائنا، أحدهما قُصيّ بن كلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عمّا يكون بعد الموت.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ** ﴿٤٣﴾ **طَعَامُ الْأَثِيمِ** ﴿٤٤﴾﴾: قيل: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: تزقّموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت الآية.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾: قيل: نزلت في أبي جهل، وكان يقول عن نفسه: ما في مكة أعزّ مني ولا أكرم، فلذلك قيل له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾. وقيل: التقى النبيّ ﷺ وأبو جهل، فقال النبيّ ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾(القيامة)، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟! والله، ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئاً! إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه! قيل: فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية. وقيل: إن أبا جهل أخذ نبيّ الله ﷺ بمجامع ثيابه فقال له النبيّ ﷺ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، فقال أبو جهل: تتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربّك شيئًا، وإني لأعزّ من مشى بين جبليها. يقصد جبليّ مكة.



١٠٥٧- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الجاثية﴾

١- في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾: قيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ وقيل: في الحارث بن كَلَدة، وقيل: في أبي جهل وأصحابه، قيل فيه: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: قيل: نزلت الآية بسبب أن رجلاً من قريش شتم عمر بن الخطاب، فَهَمّ - عمر أن يبطش به. وقيل: نزلت في عمر مع عبد الله بن أُبيّ في غزوة بني المصطلق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها المريسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي وأبطأ، ولما عاد تعلل بأن غلاماً لعمر بن الخطاب قعد على فم البئر فما يترك لأحد أن يستقي حتى ملأ قِرَب النبيّ ﷺ، وقِرَب أبي بكر وعمر، فقال عبد الله: ما مَثَلُنا ومَثَلُ هؤلاء إلا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكلك! - فبلغ ذلك عمر، فاشتمل سيفه يريد عبد الله فأنزل الله الآية. وقيل: لمّا نزلت: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾، قال يهودي بالمدينة اسمه فنحاص: احتاج ربّ محمد! فلما سمع عمر بذلك، اشتمل سيفه وخرج في طلبه، فنزلت الآية على النبيّ ﷺ، فبعث في طلب عمر، فلما جاء أمره أن يضع سيفه وقرأ عليه الآية، فقال عمر: لا جرم، والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾: قيل: نزلت في عتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، فهم الذين اجترحوا السيئات، والذين آمنو هم عليّ وحمزة وعبيدة

بن الحارث، حين برزوا إليهم يوم بدر. وقيل : نزلت في قوم من المشركين، قالوا : إنهم يعطون في الآخرة خيراً مما يعطاه المؤمن.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾: قيل: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه. نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه. وقيل : نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف. وقيل: نزلت في أبي جهل. وكان يطوف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبيّ ﷺ، فقال أبو جهل: الله! إني لأعلم أنه لصادق! كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذّاب الخائن؟! قال له الوليد : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب! واللات والعزى لا أتّبعنه أبداً! فنزلت ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ...﴾.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)﴾: قيل: نزلت عامة في أهل الجاهلية، وكانوا يقولون: الدهر هو الذي يهلكنا، وهو الذي يحيينا ويميتنا. فنزلت هذه الآية.



١٠٥٨- ﴿أسباب نزول سورة الاحقاف﴾

١-في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، وكان يهودياً وأسلم، وشهد مع النبيّ ﷺ في خلافه مع اليهود في مسألة الزنا وعقوبته، هل الرجم في التوراة أم لا؟ ثم إنه فتح التوراة وأشار إلى الآية، وبسبب ذلك أسلم ابن سلام لمّا رأى لجاجة اليهود وميلهم عن الحق.

٢-وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)﴾: قيل : إن أبا ذر الغفاري دعاه النبيّ ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا. فبلغ ذلك قريشاً فقالوا: غفار الحلفاء! لو كان هذا خيراً ما سبقونا إليه! ـ يعني كنا نحن نسبقهم ولم يسبقونا، فنزلت الآية. وقيل: إن زنيسرة، وكانت مولاة لبني عبد الدار، وأسلمت، وكانت أحد سبعة كانوا يعذبون في الله، فاشتراهم أبو بكر وأعتقهم. فلمّا أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزىّ! فردّ الله عليها بصرها، فقالت قريش: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة، فأنزل الله هذه الآية. وقيل :

إن الذين كفروا هم بنـو عامر، وغطفان، وتميم، وأسد، وحنظلة، وأشجع. وقالوا لمن أسلم من غفار، وجهينة، ومزينة، وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه رعاة البَهم، إذ نحن أعز منهم! فنزلت الآية. وقيل: إن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا منهم - يعنى عبد الله بن سلام: لو كان دين محمد حقاً، ما سبقونا إليه!وهذه المعارضة منهم من أكبر المعارضات لأنها انقلبت على أصحابها، فقال لهم المسلمون: لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه!

٣- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾**: قيل: نزلت في أبي بكر.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾**: قيل: نزلت فى سعد بن أبي وقاص. وقيل: نزلت فى أبى بكر الصدّيق: أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، فكان يدعو لهما. ووالده هو أبو قحافة، وأمه: أم الخير. واستجاب الله له فيهما، فكان يشكر الله، وأعتق في مناسبة نزول هذه الآية تسعة من المؤمنين يعذَّبون فى الله، منهم: بلال، وعامر بن فُهَيرة. ولم يَدَع شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه. ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم ألا أبو بكر، فذلك قوله: **﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾**، ودعاؤه لنفسه ولذريته بالصلاح، وإعلانه المرة تلو المرة توبته وأنه من المسلمين.

٥- وفى قوله تعالى: **﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)﴾**: قيل: نزلت فى عبد الله بن أبى بكر، مع أن عبد الله أسلم قديماً وكان يحمل الطعام وأخبار قريش إلى النبىّ ﷺ وأبى بكر إذ هما فى الغار، وشهد فتح مكة، وحُنيناً، والطائف، وأصيب يوم الطائف بسهم لم يؤذه فى حينه، ولكنه انتقض عليه فتوفى بعلّته، فكان لهذا مسلماً طول حياته تقريباً. وقيل: نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر، وكان أبواه يدعوانه إلى الإسلام، ويعدانه بالبعث، فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل، وذلك قبل أن يسلم، وهو غير صحيح، والذى روّج لهذه الفرية هم الشيعة من أصحاب علىّ، ينقمون على أبى بكر، لمكانة أبى بكر من النبىّ ﷺ، وخلافته بعده، وإصراره على أن الأنبياء لا يورثون، وأنه لا ميراث لفاطمة ولا لعلىّ بعد وفاة النبىّ ﷺ. وكذلك نقموا على عبد

الرحمن اشتراكه مع أخته عائشة في وقعة الجمل ودفاعه عنها، ولما ولّي معاوية وأراد أخذ البيعة لابنه يزيد، وكان عبد الرحمن حاضراً، أبدى غضبه واستياءه، وقال مقالته المشهورة: «أهرقلية»؟ (نسبة إلى هرقل)، فكلما مات قيصر كان قيصر مكانه ؟ لا نفعل والله أبداً! ومن أجل ذلك أذاع عنه الشيعة ومعاوية أنه موضوع هذه الآية. ونفت الصادقة المبرّأة من فوق سبع سماوات، عائشة أم المؤمنين، أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن، وكيف تقصد هذه الآية عبد الرحمن، والآية التي بعدها مباشرة تقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)﴾ (الأحقاف). يعني أن المقصود بالآية الأولى هم الذين تتحدث عنهم الآية الثانية، وهذا العذاب الذي يتوعدهم به الله من ضرورته عدم الإيمان، وعبد الرحمن بن أبي بكر كان من أفاضل المؤمنين. وكما في علم سيكولوجية الإشاعة، فإن تتبع الإشاعة من أصول هذا العلم. وفي الخبر أن معاوية كتب لمروان بن الحكم والي المدينة حتى يبايع الناس ليزيد، فأجاب عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية! (نسبة إلى هرقل ملك الروم، والمراد أن المبايعة لأولاد الملوك كان سُنّة ملوك دولة الروم، فهل سيكون المسلمون مثلهم؟) وقال عبدالرحمن: أتبايعون لأبنائكم؟! فقال مروان تسخيفاً له واستهزاءً به وتشنيعاً عليه: وهو (يشير إلى عبد الرحمن) الذي يقول فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ (الاحقاف)، فردّت عليه عائشة: والله (لاحظ أنها أقسمت) ما هو به! ولو شئت لسميتُ! ولكن الله لعن أباك وأنت في صُلبه، فأنت فضض!! (يعني قطعة من لعنة الله). فلنحذر يا أخي أمثال مروان بن الحكم الذين قال الله فيهم محذراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾ (النور)، وهدف هؤلاء الطعن في رموز الإسلام، وعبد الرحمن بن أبي بكر كان من الرموز، وكان من رواة الحديث.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩)﴾: قيل: قال ابن مسعود: إن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، ونزلت الآية إلى قوله: ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ (الأحقاف).

●●●

١٠٥٩- ﴿أسباب نزول آيات سورة محمد﴾

١- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١)﴾: قيل: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً اشتهروا بالمكارم، كصلة الأرحام، وفكّ الأسارى،

وقِرى الأضيـاف، وحفظ الجوار، ولكنهم كفروا بالله، وأنكروا الدعـوة، وحرضوا الناس على أن لا يؤمنوا، فما أغنتهم مكارمهم عن الله شيئاً. وهؤلاء كانوا: أبا جهل، والحارث بن هشام، وعُتبة، وشـيبة ابني ربيعة، وحكيم بن حزام، ومنبّه ونبيه ابنيَ الحـجاج، وأبا البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، وأُبيّ وأميّة ابني خلف.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴿٤﴾ ﴾: قيل: نزلت الآية يوم أُحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل، ونادى المشركون: أعلُ هُبَل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ، وقال المشركون: يومٌ بيوم بدر، والحرب سجـال، فقال النبيّ ﷺ: قولوا لا سـواء. قتلانا أحيـاء عند ربّهم يرزقون، وقتـلاكم في النار يعذّبون»، فقال المشركون: إن لنا العـزّى ولا عزّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم!

٣- وفي قـوله تـعـالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴿١١﴾ ﴾: قيل: نزلت يوم أحد، إذ صاح المشركون: لنا العزى ولا عُزّى لكم. فقال النبيّ ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم».

٤- وفي قوله تـعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** ﴿١٣﴾ ﴾: قيل: لما خرج النبيّ ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «اللهم أنت أحبّ البـلاد إلى الله، وأنت أحبّ البـلاد إليّ، ولولا المشـركون أهـلُك أخرجـوني لما خرجت» فنزلت الآية.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴿١٦﴾ ﴾: قيل: الذين قالوا ذلك هم المنافقون: عبد الله بن أبيّ بن سلول، ورفاعة بن التابوت، وزيد بن الصليت، والحارث بن عمرو، ومالك بن دخشيم، وكانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيهـا أعرضوا عنه، فإذا خـرجوا قالوا: ماذا قـال آنفاً ؟ وكانوا يحضـرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين، ويستـمعون ما يقول، حـتى إذا خرجوا من عنده وقامـوا من مجلسه قالوا ماذا قال؟ أو ماذا فهمتم مما قال؟ وما هو الجديد فيما قال؟!

٦- وفي قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴿١٧﴾ ﴾: قيل: نزلت هذه الآية فيمن آمن من أهل الكتاب.

٧- وفي قوله تـعالى: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴿٢٢﴾ ﴾: قـيل: نزلت في بني أمـيـة، وبني هاشـم، قال النـبيّ ﷺ: هم هذا الحيّ من قريش، أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾: قيل: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، إلى أن أُنزلت هذه الآية لهذا السبب، فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال.

●●●

١٠٦٠- ﴿أسباب نزول سورة الفتح﴾

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾: قيل: لما نزلت ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ...(٩)﴾ (الأحقاف)، قال اليهود: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به؟ فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)﴾ (الفتح). ونزلت سورة الفتح من أولها إلى آخرها ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقال عمر لما نزلت: أوفتحٌ هو يارسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده، إنه لفتح». والآية نزلت تدل على أن مكة فُتحت عنوة.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)﴾: قيل: نزلت لما أذنب يوم بدر حينما دعا: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبداً» أخرجه مسلم، فهذا هو الذنب المتقدم، لأنه أوحى إليه من بعده أن ربه يقول له: من أين تعلم أني لو أهلكت هذه العصابة لا أُعبد أبداً؟! وفي حنين لما انهزم الناس قبض النبي ﷺ على حفنات من الحصباء وظل يرمي بها في وجوه المشركين ويقول: «شاهت الوجوه، حم، لاينصرون» فامتلأت عيون المشركين بالرمال والحصباء، فتقاعسوا وعاد المسلمون فقال لهم الرسول ﷺ: «لو لم أرمهم لم ينهزموا»، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾ (الأنفال)، وأنزل في المرتين هذه الآية من سورة الفتح ليعلم أن قد غفر الله له الذنبين القديم والحديث.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾: قيل: لما بعث الرسول ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، وصدّقوه بها، زادهم الصلاة، فلما صدّقوه، زادهم الزكاة، فلما صدّقوه زادهم الصيام، فلما صدّقوه زادهم الحج، وأنزلت هذه الآية إكمالاً لدينهم فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)﴾: قيل: لما قرأ النبي ﷺ على أصحابه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح٢)، قالوا: هنيئاً

لك. فنزلت: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (الفتح٥)، فلما قرأ: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ (الفتح٢)، قالوا: هنيئًا لك. فقرأ عليهم من سورة المائدة: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾(المائدة ٣)، فلما قرأ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢)﴾ (الفتح) نزل في حق الأمة: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢)﴾(الفتح)، ولما قال: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ (الفتح)، قرأ كذلك الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ (الروم). وهو كقوله تعالى في رسوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ (الأحزاب)، فقال فيهم كذلك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ (الأحزاب٤٣).

٥- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... (١٠)﴾: قيل: نزلت في الذين بايعوا النبيّ ﷺ بالحديبية. وهذه المبايعة هي بيعة الرضوان.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ... (١١)﴾: قيل: نزلت في أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والديل، وهم الذين كانوا حول المدينة وتخلفوا عن الرسول ﷺ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ ..(١٥)﴾: قيل: نزلت فيمن أراد أن يتبع جيش النبيّ ﷺ من المخلفين طمعاً في المغانم، يريدون أن يحتالوا على كلام الله، ووعده الذى وعده أهل الحديبية عندما جعل لهم غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾: قيل: نزلت في هوازن وغطفان يوم حنين، وفي بني حنيفة أصحاب مسيلمة، وفي فارس والروم، فهؤلاء هم القوم أولو البأس الشديد، قالوا: كنا نقرأ هذه الآية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا نعلم من هم، حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة وغيرهم فعلمنا أنهم هم.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح١٧): قيل: لما نزلت: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾(الفتح)، قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت الآية. وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾ نزلت فيما كان منهم عام الحديبية.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ..** (١٨)﴾: قيل: هي بيعة الرضوان تحت شجرة سَمُرة، نزلت فيها هذه الآية لما بايعه المسلمون على ألا يفروا ولم يبايعوه على الموت. وذلك أن النبي ﷺ أقام منصرفه من غزوة بني المصطلق في شوال، وخرج في ذي القعدة معتمراً، واستنفر الأعراب حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرهم، وخرج النبي ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن اتبعه من العرب، وجميعهم ألف وأربعمائة، وقيل وخمسمائة، وقيل غير هذا.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** (٢٠)﴾: قيل: نزلت في صلح الحديبية، وقيل في خيبر، فعجّل لهم صلح الحديبية، وكفّ أيدي أهل مكة عنهم بالصلح، وأيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر، وأيدي عيينة بن حصن الفزاري، وعوف بن مالك النضري، ومن كان معهما لمّا جاءوا لينصروا أهل خيبر في حصار النبي ﷺ لهم، فألقى الرعب في قلوبهم وكفّهم عن المسلمين، وفي هؤلاء جميعاً نزلت الآية.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** (٢٤)﴾: قيل: هبط عند صلاة الصبح ثمانون رجلاً من أهل مكة على النبي ﷺ من جبل التنعيم، وهو أقرب مكان من الحل إلى الحرم، وبه يحرم من يريد العمرة من أهل مكة والمقيمين بها، نزلوا متسلحين يريدون غرّة النبي ﷺ وأصحابه في رجوعهم من الحديبية إلى مكة، ويقصدون قتل النبي ﷺ، فأخذهم المسلمون أسرى، فأنزل الله الآية. وقيل كانوا ثلاثين شاباً عليهم السلاح، وقيل نحو سبعين أو ثمانين، ففطن المسلمون لهم وأخذوهم أسرى.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ...** (٢٥)﴾: قيل: هم المستضعفون من المؤمنين في مكة وسط الكفار، نزلت فيهم هذه الآية لعزوف المسلمين، عن مهاجمة مكة مخافة أن يضروهم، من أمثال: سلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وأشباههم.

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** (٢٦)﴾: قيل: نزلت في سهيل بن عمرو لمّا قاضى الرسول ﷺ على أن ينصرف المسلمون عامهم ذلك، ولا يحضروا إلى مكة معتمرين إلا من قابل، ويدخلوها بغير سلاح، وأبى سهيل أن يكتب في صدر صحيفة الصلح: من محمد رسول الله، وقال: لو صدّقناك بذلك ما دفعناك عما تريد، فمن أجل هذه الأنفة الجاهلية نزلت الآية.

١٥ - وفي قوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩)**﴾: قيل: هذه الآية نزلت فيمن في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقد أصابته هذه الآية.

●●●

١٠٦١- ﴿أسباب نزول آيات سورة الحجرات﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)**﴾: قيل: نزلت في أبي بكر وعمر، اختلفا حول من يلقى ركب بني تميم، فاقترح أبو بكر القعقاع بن معبد، واقترح عمر الأقرع بن ثابت، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية حتى لا ينفردا بالرأي دون رسول الله ﷺ ومن غير الاحتكام إلى كتاب الله. وقيل: إن النبيّ ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذا مضى إلى خيبر، فأشار عليه عمر برجل آخر، وجادل عن اقتراحه، فنزلت الآية حتى لا يقدّموا آراءهم على آراء الرسول ﷺ. وقيل: أنه كان قد أرسل وفداً إلى بني عامر، فقتلوا منهم واحداً وعشرين، وبقي ثلاثة هربوا، فالتقوا رجلين من بني سليم، فسألوهما ممن يكونون، فارتأى الرجلان أن يقولا إنهما من بني عامر لأنهم أعز من بني سليم، فقام إليهم المسلمون الثلاثة وقتلوهم، وجاء وفدٌ من بني سليم يطلب الدية، فوداهما الرسول ﷺ ، وتجادل الرجال الثلاثة في حضرته، فنزلت الآية تنهى عن أن يتكلموا بين يديه إلا إن أذن لهم، وأن لا يفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضي الله على لسان رسوله. وقيل: الآية نزلت في قوم ذبحوا الأضحى قبل أن يصلي رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح، ونزلت الآية تنهى عن أن يسبقوا النبيّ ﷺ. ولعل الآية نزلت دون سبب، أو نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها، لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه، كالصلاة والصوم والحج، أو أنها نزلت في ترك التعرّض لأقوال النبيّ ﷺ ، ووجوب اتّباعه والاقتداء به.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)**﴾: قيل: نزلت في أبي بكر وعمر، وكان أبو بكر يريد النبيّ ﷺ أن يستعمل الأقرع بن حابس على قومه، بينما عمر لم ير ذلك، وارتفعت أصواتهما في حضرة النبيّ ﷺ ، فنزلت الآية، فكان عمر بعد نزولها إذا تكلم في حضرته لم يسمع كلامه حتى أن الرسول ﷺ يستفهمه. وبرواية علي بن أبي طالب: أن الآية نزلت فيه، وفي جعفر وزيد بن حارثة، لما تنازعوا ابنة حمزة، لما جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر، لأن

خالتها عنده. وقيل: لما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ طلبوا المفاخرة، وقام خطيبهم وافتخر، فقام ثابت بن قيس وخطب خطبة بليغة يردّ عليه فيها، ثم قام شاعر بنى تميم الأقرع بن حابس فأنشد شعره، وردّ عليه حسّان بن ثابت، وتجادلوا من يكون الأشعر والأبلغ، وارتفعت أصواتهم فى حضرة النبىّ ﷺ ، فنزلت الآية.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾**: قيل: لما نزلت: **﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾** (الحجرات٢) قال أبو بكر: والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السرّار - أى الذى يسرّ الكلام أى يخفضه. وقيل: لما نزلت : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢)﴾** ، كان عمر كلما تحدّث إلى النبىّ يخفض صوته حتى ليستفهمه النبىّ ﷺ : مما يخفض صوته؟ فنزلت : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾**. وقيل: إن ثابت بن قيس لما نزلت: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ..﴾** دخل بيته وأغلق عليه، ففقده النبىّ ﷺ ، فأرسل إليه يسأله ما خبره؟ فقال : أنا رجل شديد الصوت، وأخاف أن يكون عملى قد حبط، فقال له النبىّ ﷺ : «لستَ منهم بل تعيش بخير وتموت بخير». وقيل: لما نزلت هذه الآية، قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى ، فمر به عاصم بن عدىّ بن العجلان، فسأله ما يبكيك؟ قال: هذه الآية، فأنا أتخوف أن تكون نزلت فىّ، وأنا صَيِّت، رفيع الصوت، فذكر عاصم ذلك للنبىّ ﷺ ، فقال له: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: رضيت ولا أرفع صوتى أبداً على صوت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ...(٣)﴾** الآية.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤)﴾** : قيل: نزلت فى أعراب من تميم، قدم وفد منهم على النبىّ ﷺ فدخلوا المسجد، ونادوا النبىّ ﷺ ، من وراء حجرته: أن أخرج إلينا. وكانوا سبعين رجلاً. وكان النبىّ ﷺ قد نام للقائلة. وقيل: إن الذى نادى الأقرع بن حابس. وقيل : قالوا لبعضهم البعض: انطلقوا بنا الى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن ملكاً نعش فى جنابه، فأتوا النبىّ ﷺ ، فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: كانوا تسعة عشر، ومنهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن وهو الذى وصفه الرسول ﷺ فقال فيه: «الأحمق المطاع»، وكان من الجرّارين، أى يجرّ خلفه أتباعاً بلغوا عشرة آلاف، واسمه الأصلى حذيفة ، وسُمّى عيينة لِشَتَر فى عينيه وهو

انقلاب في الجفنين، ونزل فيه: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾** (الكهف).

٥- وفي قوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾**: قيل: نزلت هذه الآية في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيط، بعثه النبيّ ﷺ يجمع الزكاة من بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فخشي منهم فرجع، وكانت بينه وبينهم إحن، فذلك سبب خشيته منهم، وقال للنبيّ ﷺ: إنهم ارتدّوا، فأرسل إليهم خالد بن الوليد في رهط، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، وأتاهم خالد ليلاً، فبعث عيونه، وجاءوه يخبرونه أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوهم يؤذنون للصلاة وشاهدوهم يصلون، فلما أصبح خالد أتاهم وتأكد من ذلك، فعاد وأخبر الرسول ﷺ، فنزلت هذه الآية، فكان النبيّ ﷺ يقول: «التأنّي من الله، والعجلة من الشيطان».

وقيل في رواية أخرى: أن بني المصطلق لما سمعوا بمبعوث رسول الله ﷺ خرجوا يستقبلونه ويكرمونه ويؤدون إليه ما قبلوه من الزكاة، فخاف وكرّ راجعاً، وقالوا: بلغنا أنه زعم أننا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك. فأنزل الله الآية، وسمّى الوليد فاسقاً، أي كاذباً.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾**: قيل: إن رجلاً من الأنصار قال لعبد الله بن أُبيّ: والله للحمار أطيب ريحاً منك! فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكانت بينهم خناقة بالجريد والأيدي والنعال، فأنزلت فيهم الآية. وقيل: نزلت في الأوس والخزرج، تقاتل حيّان منهما بالعصيّ والنعال. وقيل: تقاتلوا بالسعف والنعال ونحوه، فنزلت الآية فيهم. وقيل: نزلت في رجلين من الأوس والخزرج كان بينهما موالاة (أي خصومة) في حقّ بينهما، وتواقعا، وتناول أنصارهما بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال والسيوف. وقيل: نزلت في حرب سُمَيْر وحاطب، وكان سمير قد قتل حاطباً، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيّ ﷺ فنزلت الآية. وقيل: كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد تحت رجل من غير الأنصار، فأرادت أن تزور قومها، فحبسها زوجها وجعلها في عُلية (يعني حجرة عالية) لايدخل عليها أحد، فبعثت إلى قومها، فجاءوا فأنزلوها لينطلقوا بها، فاستغاث الرجل بقومه ليحولوا بين المرأة وأهلها. فتدافعوا وتجالدوا بالنعال، فنزلت الآية.

٧- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ**

تُرْحَمُونَ (١٠)﴾: قيل: نزلت في أخوة الدين والحرمة لا في أخوة النسب. ولهذا قيل: أخوة الدين أقوى من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين. وأخوة الدين لاتنقطع بمخالفة النسب.

٨- وفي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾**: قيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ ﷺ، أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس ليسمع ما يقول. فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعةً مع النبيّ ﷺ، فلما انصرف النبيّ ﷺ، أخذ الصحابة مجالسهم منه، فربض كل رجل منهم بمجلسه وعضوا فيه، فلا يكاد يوسع أحد لأحد، حتى يظل الرجل لا يجد مجلساً فيظل قائماً، وجاء ثابت ليجلس وبلغ قرب النبيّ ﷺ. وطلب من يليه أن يتفسّح فقال له الرجل: قد وجدتَ مجلساً فاجلس، فجلس ثابت من خلفه مبغضاً، ثم قال: مَن هذا؟ فقالوا فلان: فقال ثابت: ابن فلانة! يعيّره بها، فاستحيا الرجل فنزلت الآية. وقيل: نزلت في وفد بني تميم لمّا استهزءوا بفقراء الصحابة، مثل: عمّار، وخبّاب، وابن فُهيرة، وبلال، وصُهيب، وسَلمان، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم. فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة؟! فشكا ذلك إلى الرسول ﷺ، فنزلت الآية.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... (١١)﴾**: قيل: نزلت الآية في نساء النبيّ ﷺ، عيّرن أم سلمة بالقصر. وقيل: نزلت في عائشة أشارت بيدها إلى أم سلمة على معنى: إن أم سلمة قصيرة. فنزلت الآية. وقيل: إن صفية بنت حُيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله، إن النساء يعيّرنني ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين! فقال رسول الله ﷺ: «هلاّ قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وأن زوجي محمد»، فأنزل الله هذه الآية.

١٠- وفي قوله تعالى: **﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ...(١١)﴾**: قيل: كان الرجل في الجاهلية يكون له الاسمان والثلاثة، فيُدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت الآية. وقيل: كانت الألقاب في الجاهلية، فدعا الرسول ﷺ رجلاً منهم بلقبه، فقيل له: يارسول الله، إنه يكرهه، فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت الآية في بني سلمة، فلما قدم النبيّ ﷺ، لم يكن فيهم الرجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم

باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله ، إنه يغضب من هذا فنزلت الآية. وقيل : كان الرجل يُعيّر بعد إسلامه بكفره يقال له : يا يهودي، يا نصراني، فنزلت.

١١- وفي قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾**: قيل : نزلت في رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ اغتابا رفيقهما ، وكان النبيّ ﷺ إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين فيخدمهما نظير طعامه، فضم سلمان إلى رجلين، فنام سلمان ولم يصنع طعاماً لهما، فجاءا وأرسلاه إلى النبيّ ﷺ يستقضي لهما طعاماً فلم يجد، وذهب إلى أسامة خازن النبيّ ﷺ فلم يجد، فاغتابا سلمان وأسامة، فرآهما النبيّ ﷺ فقال: **«ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما؟»** فقالا: يا نبيّ الله والله ما أكلنا في يومنا هذا لحماً ولا غيره، فقال: **«ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة»** ، فنزلت الآية.

١٢- وفي قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾**: قيل: يعني من آدم وحواء ، والآية نزلت في أبي هند وكان يعمل حجّاماً، والناس يأبون لهذا أن يزوّجوه، فطلب رسول الله من بني بياضة أن يزوّجوه امرأة منهم، فعابوا ذلك، وقالوا: نزوّج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله تعالى الآية. وقيل كذلك: إن الآية نزلت في أبي هند خاصة. وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان قد دخل المسجد وطلب من أحد الجالسين أن يتفسّح له، وناداه باسم أمه: ابن فلانة، فقال النبيّ ﷺ **«من الذاكر فلانة؟»** فقال ثابت: أنا يارسول الله، فقال النبيّ ﷺ : **«انظر في وجوه القوم»**، فنظر ثابت فسأله النبيّ ﷺ : **«ما رأيت؟»** قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر. فقال: **«فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى»**، فنزلت الآية في ثابت. وقيل: إن بلالاً يوم فتح مكة علا على ظهر الكعبة وأذّن، فلم يعجب ذلك البعض، ومنهم عتّاب بن أسيد بن أبي العيص، فقال : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم! وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب مؤذناً ؟! وقال سهيل بن عمرو: إن يُرد الله شيئاً يغيّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يُخبر به ربّ السماء! فأتى جبريل النبيّ ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمّا قالوا، فأقرّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يزجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى وليس على الحسب والنسب والمال.

١٣- وفي قوله تعالى : **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...(١٣)﴾**: قيل: نزلت في سؤالهم للنبيّ ﷺ : من أكرم الناس؟ فقال: **«يوسف بن يعقوب»**، قالوا: ليس عن هذا

نسألك؟ قال: «فأكرمهم عند الله أتقاهم»، فقالوا: ليس عن هذا نسألك؟ فقال: «عن معادن العرب؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، فنزلت. الآية.

١٤- وفي قوله تعالى: **﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾**: قيل: نزلت الآية في أعراب بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله ﷺ في سنة مجدبة. وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات. وأغلوا الأسعار، وقالوا للرسول: لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنّون عليه، فأنزل الله تعالى الآية. وقيل: نزلت الآية في أعراب أرادوا أن يقال فيهم أنهم مهاجرون وليسوا أعراباً. فأعلم الله أن اسمهم الأعراب وليس المهاجرين. وقيل: نزلت في أعراب سورة الفتح: مزينة، وجهينة، وأسلم، وغفار، والديل، وأشجع، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفروا إلى المدينة تخلفوا، فنزلت الآية فيهم.

١٥- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)﴾**: قيل: لما نزلت آية الأعراب أنهم كذبوا إذ يقولون إنهم مؤمنون، لأنهم في السرّ لم يكونوا كذلك، فنزلت الآية فيهم، تُعلمهم أنه تعالى يعلم بحقيقة إيمانهم.

١٦- وفي قوله تعالى: **﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾**: قيل: قَدِم عشرة من بني أسد على رسول الله ﷺ سنة تسع، وفيهم طلحة بين خويلد، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلّموا وقال متكلمهم: يارسول الله، إنا شهدنا ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً، ونحن لمن وراءنا سَلْم، فأنزل الله **﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا..﴾** الآية.

●●●

١٠٦٢- ﴿أسباب نزول سورة ق﴾

١- في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾**: قيل: الآية نزلت في يهود المدينة، زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فجعلوه راحة، فأكذبهم الله، فقال تعالى: إنه لم يتعب، ولم يمسه إعياء ولا نصب.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)﴾**: قيل: نزلت في

المنادى يوم القيامة. وقيل: المنادى هو جبريل ينادى بالحشر. وقيل: الآية نزلت لتخبر عن صيحة القيامة الثانية. وقيل: نزلت فى إسرافيل وجبريل، الأول ينفخ فى الصور النفخة الثانية، والثانى ينادى فيسمعه القريب والبعيد.

●●●

١٠٦٣- ﴿أسباب نزول سورة الذاريات﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⑦ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ⑧﴾**: قيل: نزلت فى المقتسمين؛ وقيل: نزلت فيمن اختلفوا فى أمر النبىّ ﷺ، فمنهم من وصفه بأنه ساحر، ومنهم من أكد أنه شاعر، ومنهم من نسب إليه أنه افترى القرآن، ومنهم من ذكر أنه مجنون، بل هو كاهن، بل القرآن أساطير الأولين؛ وقيل: نزلت فيمن اختلفوا فى أمر الحشر، فجماعة نفت الحشر، وجماعة شكّت فيه.

٢- وفى قوله تعالى: **﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲﴾**: قيل: إن الرسول ﷺ بعث سرية فأصابوا وغنموا، فجاء نفر من المسلمين بعدهم ولحقوا بهم ولم يحضروا القسمة، فنزلت الآية تأمرهم بأن يعطوا مما غنموا للسائل والمحروم.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ⑭ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ⑮﴾**: قيل: لما اشتد إنكار المشركين، نزلت الآية **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾** باعتبار النبىّ ﷺ قد بذل ما فى وسعه لدعوتهم، وحزن المسلمون لذلك، فلو تولّى عنهم فماذا يكون من أمر الدعوة، فنزلت: **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**، يعنى إن كان سيُعرض عن المشركين إلا أن الدعوة والوحى سيستمران لخدمة المؤمنين، ففرحوا لذلك واطمأنوا.

●●●

١٠٦٤- ﴿أسباب نزول آيات سورة الطور﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ㉙ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ㉚﴾**: قيل: لمّا قال عُقبة بن أبى مُعَيط أن النبىّ ﷺ مجنون، وقال شيبة بن ربيعة أنه ساحر، وقال غيرهما أنه كاهن، نزلت الآية يكذّبهم الله ويردّ عليهم. والنعمة هى الرسالة، والكاهن هو الذى يتقوّل الغيب، والشاعر الذى يقول الكلام الموزون المُقفىّ، والمجنون الذى زال عقله فهو يهذى ويخرّف.

●●●

١٠٦٥- ﴿أسباب نزول سورة النجم﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾**: قيل: نزلت الآية فى النبىّ ﷺ.

٢ - وفي قوله تعالى: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)**﴾: قيل: نزلت في جبريل عليه السلام.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)**﴾: قيل: نزلت في الأصنام التي يتعبّدها العرب، وكانت اللات لثقيف، والعُزّى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال وهذيل وخزاعة. وقيل: اللات من لفظ الله، والعُزّى من العزيز، ومناة من منّى الله الشيء إذا قدّره.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ.. (٣٢)**﴾: قيل: هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمّار، وكان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه، فقال لها: إنّ داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلمّا دخلت راودها فأبت وانصرفت، فندم نبهان، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: ما من شيء يصنعه الرجل إلا فعلته، إلا الجماع! فنزلت هذه الآية. واللمم هي الصغائر.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)**﴾: قيل: كانت جماعة من اليهود كلما مات منهم واحد يزكّونه ويقولون إنه في الجنة، فنزلت الآية: إن الله أعلم بالناس، وأنشأهم في الأرض، وصنّفهم سعداء أو أشقياء في بطون أمهاتهم، وهو الأعلم بمن اتّقى.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥)**﴾: قيل: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتّبع رسول الله ﷺ على دينه، فلمّا عيّره المشركون عاد إلى شركه، وكان قد فعل بعض الخير بلسانه ثناءً على الرسول ﷺ والإسلام، إلا أنه لم يستمر، فنزلت الآية. وقيل: نزلت في عثمان بن عفان، وكان يتصدق وينفق في الخير، فعاتبه أخوه من الرضاعة عبدالله بن أبي سرح ،مخافة أن لا يبقى له شيء من ماله، فطاوعه لفترة ثم عاد كأحسن من الأول. وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وكان يوافق النبيّ ﷺ. وقيل نزلت في النضر بن الحارث أجزل العطاء لأحد المهاجرين ليرتد عن دينه، وضمن له أن يتحمّل مأثم رجوعه. والآية تصحّ على كل من يؤمن لبعض الوقت، ويفعل الخير ثم يتوقف. وأكدى يعني لم يتمم، وتقال لكل من يطلب شيئاً ولم يبلغ آخره، ولمن يحفر بئراً ثم يبلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر، من الكدية وهي الحجر أو الصُلب. و﴿**وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ**﴾: أي قطع القليل، كقول الشاعر:

وأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه .:. ومن يبذل المعروف في الناس يُحمد

٧- وفى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾: قيل: قالت عائشة: مرّ النبىّ ﷺ على قوم من أصحابه وهـم يضحكون، فقال: «لو تعلمـون ما أعلم لضحكتـم قليلاً ولبكيتم كثيراً!»، فنزل عليه جبريل ﷺ فقال: يامحمد، إن الله يقول لك: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أى قضى أسباب الضـحك والبكاء، يعنى أفرحَ وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك ، والحزن يجلب البكاء.



١٠٦٦- ﴿أسباب نزول آيات سورة القمر﴾

١- فى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ : قيل: إن أهل مكة سألوا النبىّ ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فنزلت الآية، والصحيح أن الشمس والقمر من آيـات الله، وليس بوسع أحد أن يشق القمر فى الدنيا، ولا يُشَق إلا يوم القـيامة، والتفسير الصحيح: أن السـاعة اقتربت، فإذا جاءت ينشق القـمر بعد النفخة الثانيـة. أو أن انشقاق القمر يعنى انشقاق الظُلمة عنه بطلوعه فى أثنائهـا، كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾: قيل: لما أسلم عمـر بن الخطاب ﷺ شقّ على قريش إسلامه، فاجتـمعوا إلى أبى طالب وقالوا: اقـضِ بيننا وبين ابن أخيك، فـأرسل أبو طالب إلى النبىّ ﷺ، فقـال: يا ابن أخير ، هؤلاء قـومك يسألونك السواء (أى العدل)، فلا تمل كـل الميل على قومك! قال: «وماذا يسألوننى»؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك. فقال النبىّ ﷺ: «أتعطوننى كلمـة واحدة وتملكون بهـا العرب، وتدين لكم بهـا العجم»؟ فـقال أبو جـهل: لله أبوك! لنعيطنكها وعشر أمثالها! فقال النبىّ ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله» ، فنفروا من ذلك وقاموا. فقالوا: أجَعَل الآلهة إلهـا واحداً؟ فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟ فأنزل فيهم هذه الآيات إلى قـــوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ وازدجر من زجر اى مُنع من أن يدعو للنبوة.

٣- وفى قوله تـعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾: قيل: إن الكفـار قالوا يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، فنـزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. وقيل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدم من الصفا وقال : نحن ننتصر اليوم من محمـد وأصحابه، فنزلت الآية. وقال سعـد بن وقاص: كنت لا أدرى أىّ الجمع ينهزم لمّا نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فلما كان يوم بدر، رأيت النبىّ ﷺ يثب فى الـدرع ويقـول: «اللهم إن قريشـاً جاءتك تُحـادُك وتُحادّ رسولك، بفـخرها وخيَلائها، فأحِنهم الغداة. ثم قال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فعرفت تأويلها.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾: قيل: عن أبى هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت الآية. وقيل: إن معناها أن الله تعالى خلق كل شيء مقدّراً ومكتوباً في اللوح المحفوظ من الأزل، وأن القدر المقصود هو ما قالته القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا. ونُقل عن أبى ذر أن وفد نجران قدم على الرسول ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا، فنزلت هذه الآية. فقالوا: يامحمد، يُكتَب علينا الذنب ويُعذِّبنا ؟ فقال: أنتم خصماء الله يوم القيامة! فهذا ما قيل، فهل سياق الآيات يحتمل هذه المعاني؟ ولا نرى إلا أن معنى الآية أن ذلك ما قضاه الله: أن الكفار مغلوبون وسيعاقبون، فهكذا خلق الله الدنيا للامتحان، والنار للعقاب، والجنة للثواب، وهذا هو القدر في القرآن وليس ما قاله القدرية، ولا الأحاديث المروية فيهم، لأنه في عهد الرسول ﷺ لم يكن قد ظهرت بعد جماعة اسمهم القدرية، وجميع الأحاديث في ذلك موضوعة.

•••

١٠٦٧- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الرحمن﴾

١- في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾: قيل: سورة الرحمن من السور المدنية، وترتيبها في التنزيل المدنى الحادية عشرة، وقبلها كانت ست وتسعون سورة، ذكر في كثير منها الرحمن، فلماذا يثير المفسرون هذا السؤال في هذه السورة؟ قيل: سألوا النبيَّ ﷺ: ما الرحمن؟ فنزلت هذه السورة جواباً لمن سأل هذا السؤال. وكانوا يقولون إن مسيلمة الكذّاب، وشهرته في ذلك الوقت «رحمن اليمامة» ،هو الذى يعلّمه ويُملى عليه: فنزلت ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾: قيل: نزلت في أبي بكر، شرب ذات يوماً لبناً على ظمأ فأعجبه، فسأل عن مصدره وهل هو من حِل، فقيل له إنه من غير حِلّ، فاستقاءه ورسول الله ينظر إليه، فقال: «يرحمك الله، لقد أُنزلت فيه آية»، وتلا عليه هذه الآية.

•••

١٠٦٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الواقعة﴾

١- وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾: قيل: هؤلاء من أمة محمد، وهما أبو بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف، وكانوا يسارعون في الخيرات. وقيل: هم السابقون إلى طاعة الله ورحمته، وقيل: هم الأنبياء.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤)﴾ (الواقعة): قيل: هؤلاء هم الداخلون إلى الجنة، ثلةٌ ممن قد مضى قبل هذه الأمة، ومن أصحاب محمد ﷺ، وصفتهم الآية بأنهم قليلون بالإضافة إلى من كان قبلهم. فلما نزلت الآية، شقّ هذا على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)﴾، يعنى أنهم صاروا مثلهم فى العدد، وقال النبىّ ﷺ: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، بل ثلث أهل الجنة، بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثانى» ذكره أحمد.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩)﴾ (الواقعة): قيل: نظر المسلمون إلى وادٍ بالطائف فأعجبهم سِدْرَه وطَلْحه، فقالوا: ياليت لنا مثل هذا الوادى فى الجنة، فنزلت. والسدر: هو شجر النبق؛ والمخضود الذى قُطع شوكه؛ والطلح: شجر الموز؛ والمنضود أى المرصوص.

●●●

١٠٦٩- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الحديد﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد ١٠): قيل: نزلت فى أبى بكر فقد كان أول من أسلم، وأول من أظهر الإسلام بسيفه، وأول من أنفق على النبىّ ﷺ.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾ (الحديد): قيل: إن المزاح والضحك كثر فى أصحاب رسول الله ﷺ لما ترفّهوا بالمدينة، فنزلت الآية. وقيل: إن الله استبطأ المسلمين بالخشوع فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وقيل: نزلت الآية فى الذين آمنوا بالظاهر وأسرّوا الكفر وهم المنافقون.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)﴾: قيل: الآية نزلت فى جملة مَن صدّق بالرسُل، فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء الذين يتلون الصدّيقين، والصالحون يتلون الشهداء. وقيل: الشهداء هم الذين شهدوا لله بالوحدانية كما أن الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب. وقيل: الآية نزلت فى ثمانية نفر: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وهؤلاء آمنوا

بمحمد ﷺ ولم يكذّبوه طرفة عين، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأصحاب الأخدود.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)**﴾: قيل: لما نزلت: ﴿**أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا**﴾ (القصص ٥٤)، افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيّ ﷺ، فنزلت هذه الآية. **والكِفْل**: النصيب كالمِثْل، فجعل لمن اتّقى الله وآمن برسوله نصيبين من الرحمة، نصيباً لتقوى الله، ونصيباً لإيمانه برسوله.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)**﴾: قيل: إن اليهود قالوا يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدى والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا، فنزلت.

●●●

١٠٧٠- ﴿في أسباب نزول آيات سورة المجادلة﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)**﴾: قيل: نزلت في **خولة بنت ثعلبة**، وقيل: **بنت حكيم**، وقيل: **بنت خويلد**، وقيل اسمها: **جميلة**، وخولة أصحّ، وزوجها: **أوس بن الصامت**، أخو عبادة بن الصامت، وكان امرأً به لمم (حُمق)، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي. وكان **الإيلاء والظهار** من الطلاق في الجاهلية. فسألت النبيّ ﷺ فقال لها: «حَرُمت عليه»، فمازالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت الآية. وقالت: يارسول الله، قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجي ظاهَرَ مني، فقال لها النبيّ ﷺ: «**ما أوحي إليّ في هذا شيء**»، فقالت: يارسول الله، أوحي إليك في كل شيء وطوى عنك هذا؟ فقال: «**هو ما قلتُ لك**»، فقالت: إلى الله اشكو لا إلى رسوله! فأنزل الله الآية. وقيل إنها قالت: ظاهَرَ حين كبرت سني، ورقّ عظمي. فأنزل الله **آية الظهار**، فقال رسول الله ﷺ لزوجها: «**أعتق رقبة**»، قال: مالي بذلك يد. قال: «**فصُم شهرين متتابعين**»، قال: أما إني إذا اخطأت أن آكل في يوم ثلاث مرات يكلّ بصري. قال: «**فأطعم ستين مسكيناً**»، قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. قيل: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعًا حتى جمع الله له، والله غفور رحيم ـ وقيل: **خولة بنت ثعلبة** كانت أنصارية. وقيل: كانت أمة لعبد الله بن أُبيّ وهي التي أنزل الله فيها: ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)**﴾

لأنه كان يُكرهها على الزنى. وقيل: إن الآية نزلت في سلمة بن صخر البياضي، ظاهر من امرأته وجاء إلى النبيّ ﷺ - القصة.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾**﴾: قيل: نزلت في الظهار، وهو أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، ويُسمَّى مُظاهراً، وقد يقول لها: أنت علي كظهر أختي أو ابنتي أو غير ذلك من ذوات المحارم.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾**﴾: قيل: نزلت في قوم من المنافقين، فعلوا شيئاً سراً، فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك. وقيل: نزلت في اليهود.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. ﴿٨﴾**﴾: قيل: نزلت في اليهود والمنافقين، وكانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فاشتكى المؤمنون، فنهاهم ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا، فنزلت. وقيل: كانت بين النبيّ ﷺ واليهود موادعة (هدنة)، فإذا مرّ بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله ﷺ، فلم ينتهوا، فنزلت. وقيل: كان الرجل يأتي النبيّ ﷺ فيسأله الحاجة ويناجيه، والأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مُهم، فيفزعون لذلك، فنزلت.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**... وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ... ﴿٨﴾**﴾: قيل: نزلت في اليهود، وكانوا يأتون النبيّ ﷺ فيقولون: **السام عليك**، يريدون بذلك **السلام** ظاهراً وهم يعنون **الموت** باطناً، فيقول النبيّ ﷺ: «**عليكم**»، **والسام هو الموت**، وبسبب ذلك نزلت الآية.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**... وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾**﴾: قيل: المقصود اليهود، قالوا: لو كان محمدٌ نبياً لعذبنا الله بما نقول، فهلاّ يعذّبنا الله؟ وقالوا: إنه يردّ علينا ويقول: وعليكم السام، والسام الموت، فلو كان نبياً لاستجيب له فينا ومتنا؟

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾**﴾: قيل: نزلت لما انتشر التناجي بين المنافقين،

فكانوا يتناجون دون المؤمنين. وقيل: هذا نزل في السفر حيث لا يأمن الرجل صاحبه. وفيه مظنة الاغتيال وعدم المغيث. والصحيح أن التناجي كان في أول الإسلام، وإنما لا موجب للخوف من النجوى الآن وقد صار المسلمون كثرة، إلا إذا كان ذلك في بلاد المسلمون فيها أقلية.

٨- وفي قوله تعالى: **﴿... إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١)﴾**: قيل: إن الرسول ﷺ والصحابة كانوا في صلاة الجمعة، والمكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر وفيهم ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبيّ ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشقّ ذلك على النبيّ ﷺ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: «**قم يافلان، وأنت يافلان**» بعدد القائمين من أهل بدر. فشقّ ذلك على من قاموا، وعرف النبيّ ﷺ الكراهة في وجوههم، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيّهم فسبقوا إلى المكان؟! فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن ثابت بن قيس دخل المسجد وأراد الجلوس ولم يكن ثمة مكان، فطلب من أحدهم أن يتفسّح له فأبى، ونزلت الآية في هذا الذي أبى أن يتفسّح. وقيل: كان المسلمون يتنافسون في مجلس النبيّ ﷺ، فيُأمرون أن يفسح بعضهم لبعض فنزلت الآية. وقيل: الصحيح أن الآية عامة في كل مجلس يجتمع فيه المسلمون للخير والأجر، فنزلت لذلك.

٩- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ... (١١)﴾**: قيل: هذا في بيت النبيّ ﷺ، وكان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبيّ ﷺ، فنزلت الآية عن النبيّ ﷺ لينصرفوا، لأن له حوائج يقضيها، فلا أقل من أن يتركوه في بيته ليلبي حوائج نفسه وأهله.

١٠- وفي قوله تعالى: **﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾**: قيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم الفقراء، فيستبقون إلى مجلس النبيّ ﷺ، فنزلت الآية فيهم. وقيل: إن الرسول ﷺ رأى رجلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه، فقال له: «**يا فلان، خشيت أن يتعدّى غناك إليه أو فقره إليك**». فنزلت الآية تبين أن الرِّفعة عند الله بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. والعموم في أسباب النزول أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية، فالمؤمن يُرفَع بإيمانه أولاً، ثم بعلمه ثانياً.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)** ﴾: قيل: نزلت لأن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ ﷺ ويقولون: إنه أذن، يسمع كل ما قيل له ولا يمنع أحداً من مناجاته. فكان ذلك يشقّ على المسلمين، فكانوا يتقوّلون أنهم ربما يحذرونه من جموع اجتمعت لقتاله، فأنزل الله الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ (المجادلة٩)، فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية ﴿**إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ...**﴾. وقيل: الآية نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على الرسول ﷺ حتى شقّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيّه ففرض صدقةً للنجوى، فعند ذلك كفّ كثير من الناس، وانتهى أهل الباطل عن النجوى لأنهم لم يقدّموا بين يدى نجواهم صدقة، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة، فخفف الله عنهم بالآية نفسها ﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)** ﴾: قيل: الآية نزلت فيمن لا يستطيع أن يقدّم عند مناجاة الرسول ﷺ صدقةً ماليّة، فأسقطها عنه، وجعل له أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة المفروضة ويطيع الله والرسول.

١٣- وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)**﴾: قيل: هم المنافقون تولوا اليهود، وادّعوا أنهم مع المسلمين، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إلى اليهود، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية فى عبد الله بن أبيّ، وعبد الله بن نبتل وكانا من المنافقين، وكان ابن نبتل يجالس النبيّ ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود. فبينا النبيّ جالس قال: «**يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار، وينظر بعينىّ شيطان**»، فدخل ابن نبتل، فقال له النبيّ ﷺ: «**علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟**» فحلف بالله ما فعل، فقال له النبيّ ﷺ: «**فعلت**»، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبّوه، فنزلت الآية.

١٤- وفي قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)**﴾: قيل: كان النبيّ ﷺ يجلس فى ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه، إذ قال: «**يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان**»، ودخل رجلٌ هذه صفاته، فدعا به النبيّ ﷺ فقال: «**علام تشتمنى أنت وأصحابك**»،

قال: دعني أجيئك بهم، فمرّ فجاء بهم، فحلفوا جميعاً أنه ما كان من ذلك شيئ، فأنزل الله الآية ﴿**يوم يبعثهم الله جميعاً.. (١٨)**﴾ إلى قوله: ﴿**استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١٩)**﴾.

١٥- وفي قوله تعالى: ﴿**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٢١)**﴾: قيل: قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن، رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أُبيّ: أتظنون الروم وفارس مثل القُرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت الآية.

١٦- وفي قوله تعالى: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم... (٢٢)**﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ، جلس إلى النبيّ ﷺ، فشرب النبيّ ﷺ الماء، فرجاه عبد الله أن يُبقي له فضلة يسقي منها أباه ليُشفَى، فلما ذهب بها إلى أبيه واستفسر عنها رفضها وقال: فهلاّ جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها، فغضب عبد الله وجاء إلى النبيّ يرجوه أن يأذن له في قتل أبيه، فأمره النبيّ أن يترفق به ويُحسن إليه. وقيل: الآية نزلت في أبي بكر، زعموا أن أباه سبّ النبيّ ﷺ، فلطمه ابنه لطمة سقط بسببها على وجهه، وذُكر ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال له: «أوَ فعلته؟! لا تعد إليه» أي لا تعد لمثل ذلك، فقال أبو بكر: والذي بعثك نبياً لو كان معي وقتذاك سيفاً لقتلته! وكل ذلك كذب. وقيل: الآية نزلت في عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر أو أحد، فنزلت الآية، وهذا كذب فقد توفى أبوه من قبل الإسلام. وقيل: إن أبا بكر دعى ابنه عبد الله يوم بدر إلى البراز، فنزلت الآية. وقيل: الآية نزلت في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعليّ وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر. وقيل: الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لمّا كتب إلى أهل مكة بمسير النبيّ ﷺ عام الفتح. وقيل: نزلت الآية فيمن كان يصحب الحكام، والصحيح أن الآية تنهى عن مصاحبة الأعداء وليس فيها من كل ما سبق شيء.



١٠٧١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الحشر﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر... (٢)**﴾: قيل: نزلت سورة الحشر في بني النضير وبني قينقاع. وعن عائشة: أن غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود - كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر،

وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم الرسول ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ولهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا السلاح، فأنزل الله الآية. وكانوا أول من حشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره. والحشر يعني الإخراج.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿... مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾**: قيل: نزلت الآية في حصونهم: الوطيح، والنكاة، والسلالم، والكتيبة. وما لم يحتسبوه هو مقتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قتله محمد بن مسلمة، وأبو نائلة سلطان بن سلامة بن وقش ـ وكان أخاً لكعب من الرضاعة، وعبّاد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾**: قيل: لما نزل النبيّ ﷺ على حصون بني النضير المسماة البويرة، حين نقضوا العهد وأعانوا قريش عليه يوم أحد، حاصرهم وجرت مناوشات بينهم وبين المسلمين ولم يجر قتال، ولجأ بعض المسلمين لإغاظتهم إلى نخيلهم يعقروها، وعقروا ست نخلات فعلاً فاستاء النضريون وأرسلوا إلى النبيّ يشكون ذلك، وأنه ما كان يقطع زرعاً أبداً، وما كان الرسول ﷺ ولا عامة المسلمين يرضون بذلك، ونزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبرت أن قطعه وتركه بإذن الله، كقوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾** (الأحزاب).

٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾**: قيل: لما حاصر الرسول ﷺ حصون بني النضير سلّموا له صلحاً وأخذ أموالهم، فسأل المسلمون النبيّ أن يقسم لهم فنزلت الآية.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ... ﴿٧﴾﴾**: قيل: نزلت الآية في فيء قريظة والنضير وهما بالمدينة، وفدك، وقرى عُرينة، وينبع، وسميت فيئاً لأنها كانت بلا قتال، فقسمت الغنيمة على هذه الأصناف.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾**: قيل: نزلت في الأنصار فإنهم سلّموا فيء بني النضير للمهاجرين، حبّاً وبلا حسد. والأنصار هم مواطنوا المدينة وكانوا فيها قبل المهاجرين.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... (٩)**﴾: قيل: قال النبيّ ﷺ للأنصار يوم بني النضير: «**إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئاً**». فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا مع ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت الآية. وقيل: في ذلك روايات مختلفة عن رجل من الأنصار هو **ثابت بن قيس**، بات عنده ضيفان ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فأمر امرأته أن تطفئ السراج وتنيم العيال وتقرِّب للضيف ما عندها، فنزلت الآية، والمناسبة الأولى هي الأصح.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)**﴾: قيل: نزلت في ثلاثة: المهاجرين، والأنصار، والذين جاءوا من بعد هؤلاء جميعاً.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)**﴾: قيل: الآية نزلت في **المنافقين واليهود**. ومن جملة المنافقين **عبد الله بن أُبي بن سلول**، و**عبد الله بن نبتل**، و**رفاعة بن يزيد**، وقيل: ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، وكانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا، وقالوا هذا الكلام ليهود قريظة والنضير، وقيل: بل هو كلام بني النضير لقريظة.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)**﴾: قيل: نزلت في **يهود قينقاع**، أمكن الله المسلمين منهم قبل النضير، وبني النضير أمكن الله منهم قبل قريظة، وكان بين النضير وقريظة سنتان، وكانت وقعة بدر قبل النضير بستة أشهر.



١٠٧٢- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الممتحنة﴾

١-نزلت لثلاثة أسباب: الأول: أن الرسول ﷺ تجهّز لفتح مكة، فكتب **حاطب بن أبي بلتعة** إلى أهل مكة يحذّرهم ويقول: إن محمداً يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، وأرسل الكتاب مع ظعينة - أي امرأة مسافرة لم تكن على الإسلام، وتعمل مغنية واسمها سارة، وكما ترى من اسمها فقد كانت **يهودية**، وكانت مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هشام بن عبد مناف، وشك النبيّ ﷺ في رحيلها المفاجئ، فأرسل وراءها من الفرسان علياً والزبير والمقداد، فلحقوا بها عند موضع يقال له «روضة خاخ»، فسلمت إليهم

الكتاب بعد لأى، وأخرجته من عقاصها ـ أى ضفائر شعرها، وأقر بلتعة بالإثم، وبرّره بأنه كان يريد أن يتملق أهل قريش لكى يحمى قرابته فى مكة، وأنه لم يفعله ارتداداً عن الإسلام وكفراً، فنزلت الآيات من ١ الى ٧ من السورة.

والسبب الثانى: أن أبا بكر الصديق طلق امرأته قتيلة فى الجاهلية، وكانت أم ابنته أسماء، فقدمت إليها فى فترة المهادنة بين رسول الله ﷺ وكفار قريش، ودخلت عليها بهدايا، فكرهت أسماء أن تتلقى منها شيئاً ولا أن تستضيفها إلا أن تستأذن رسول الله ﷺ، فنزلت الآية: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⁽٨⁾﴾**.

والسبب الثالث: أن الصلح بين النبىّ ﷺ وبين مشركى قريش كان من شروطه: أن من أتاه من أهل مكة فيردّه إليهم، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية والنبىّ ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها سيفى بن الراهب، وقيل مسافر المخزومى، وقال: اردد علىّ امرأتى فإنك شرطت ذلك، وهذه طينة الكتب لم تجف بعد! فأنزل الله الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ... ⁽١٠⁾﴾**.

٢- وفى قوله تعالى: **﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⁽٧⁾﴾**: قيل: نزلت الآية فيمن أسلم بعد فتح مكة، كأبى سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. وقيل: انعقدت المودة لمّا تزوج النبىّ ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان، فلانت عند ذلك عريكة أبى سفيان واسترخت شكيمته فى العداوة.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⁽٨⁾﴾**: قيل: نزلت الآية فى قُتيلة أم أسماء بنت أبى بكر، وكان قد طلقها فى الجاهلية وظلت لم تسلم، وجاءت لزيارة ابنتها فى الهدنة بين المسلمين والمشركين، وأحضرت معها هدايا لها، فكرهت أسماء أن تستضيفها أو تقبل منها شيئاً إلا أن تسأل رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⁽١٠⁾﴾**: قيل: نزلت هذه الآية بأسفل الحديبية، وكان النبىّ ﷺ قد صالح الكفار على أن من أتاه ردّه

إليهم، فجاء نساء منهم أم **كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط**، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه في أم كلثوم أن يردّها إليهم، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين، خاصة في النساء، ومنه أن يُرددن الى المشركين، فأنزل الله **آية الامتحان**. وقيل: إن التي قدمت من مكة هي **أميمة بنت بشر** امرأة أبي حسّان الدحداحة. وقيل هي امرأة تدعى **سعيدة** كانت تحت صيفي بن الراهب.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**.. وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)**﴾: قيل: نزلت في النساء الكافرات المتزوجات من مسلمين، فلا يعتد بهن زوجات لكفرهن. ولما نزلت الآية طلّق عمر امرأتين له بمكة مشركتين هما: قريبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية؛ وطلق طلحة بن عبيد الله امرأته أروى بنت ربيعة، وفرق النبيّ ﷺ بين ابنته زينب وزوجها أبي العاص بن الربيع، ولم تعد إليه إلا بعد إسلامه. **والكوافر** هن النساء من غير أهل الكتاب.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)**﴾: قيل: نزلت أولاً: ﴿**وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ..**﴾. فقال المسلمون: رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين، فامتنعوا، فنزلت: ﴿**وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ..**﴾. وفي رواية عن **عائشة**: قد حكم الله بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منا أن توجهوا إلينا بصداقها، وإن جاءتنا امرأة منكم وجهنا إليكم بصداقها. فكتبوا اليهم: أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء فوجهوا به، فأنزل الله الآية. وقيل: الآية نزلت في **أم الحكم بنت أبي سفيان**، ارتدت وتركت زوجها عياض بن غَنْم القرشي، **ولم ترتد امرأة من قريش غيرها**، ثم عادت إلى الإسلام. وقيل: هن **ست** نسوة رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين: **أم الحكم بنت أبي سفيان**، وكانت تحت عياض بن أبي شداد، **وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة** أخت أم سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب، فلما هاجر عمر أبت وارتدت، **وبروع بنت عقبة** وكانت تحت شماس بن عثمان، **وعَبْدة بنت عبد العُزّى** وكانت تحت هشام بن العاص، **وأم كلثوم بنت جَرْول** وكانت تحت عمر بن الخطاب، **وشهبة بنت غيلان**. وأعطى الرسول ﷺ أزواجهن مهورهن من الغنائم، والآية تعني: إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار مكة ولها زوج مسلم، فيُعطَى هذا الزوج مثل مهرها الذي دفعه لها من الغنيمة التي يغنمها المسلمون قبل أن تُخمَّس.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)**﴾: قيل: الآية نزلت في هذه المناهي، لأن النساء كن كثيراً ما يرتكبنها ولا يحجزهن عنها شرف النسب، فخُصّت بالذكر لهذا.

●●●

١٠٣٩- في أسباب نزول آيات سورة الصف﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)**﴾: قيل: قعد نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكروا، فقالوا: لو نعلم أى الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملنا، فأنزل الله تعالى الآية.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)**﴾: قيل: كان جماعة من المؤمنين يقولون للنبيّ ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا. فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية فى رجل انتحل امرًا كلّفه به رسول الله ﷺ وأدّاه عنه آخر، فلما عرف رسول الله ﷺ لم ينكر، فنزلت في المنتحل. وقيل: إن جماعة قالوا للرسول ﷺ: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)**﴾ (الصف)، فقالوا: لو نعلم ما هى هذه التجارة لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؟ فدلّهم الله تعالى بقوله: ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)**﴾ (الصف). فنكصوا وكرهوا ذلك، فنزلت الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)**﴾؟ وقيل: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا. وقيل: نزلت في المنافقين، كانوا يقولون للنبيّ ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم، خرجنا معكم وقاتلنا، فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)**﴾: قيل: نزلت لما رمى موسى قومه بالأدرة (تضخم الخصيتين)، فأراد الله أن يبرأه كما جاء في الآية: ﴿**لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)**﴾ (الأحزاب) فأخلاه يوماً وحده، وأوحى إليه أن يخلع ثيابه ليغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه فتبين له أن أحدهم

أخذها، فجعل يبحث إلى أن وجد نفسه في ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً على أحسن ما خلق الله عز وجلّ.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴿٨﴾﴾: قيل: سبب نزول هذه الآية أن الوحي أبطأ على النبيّ ﷺ أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا، فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم أمره، فحزن رسول الله ﷺ، وأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿١١﴾﴾: قيل: إن **عثمان بن مظعون** أراد أن يترهّب، فنزلت فيه الآية الأولى كسؤال شديد، وعندئذ قال ابن مظعون: والله لوددت يا نبيّ الله! أيُّ التجارات أحبّ إلى الله فأتجر فيها؟ فنزلت الآية الثانية. وقيل: إن عثمان بن مظعون استأذن يوماً الرسول ﷺ أن يطلّق **خولة** امرأته، ويترهّب، ويختصي، ويحرّم اللحم على نفسه، ولا ينام بليل، ولا يفطر بنهار، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية في الإسلام، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم، ومن سنتي أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴿١٤﴾﴾: قيل: نزلت الآية في أبي بكر، وعمر، وعليّ، وطلحة، والزبير، وسعد بن مالك، وأبي عبيدة، وعثمان بن مظعون، وحمزة بن عبد المطلب، فهؤلاء أنصاره ﷺ وحواريوه.

•••

١٠٧٣- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الجمعة﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴿٢﴾﴾: قيل: الأميون: العرب، وكان العرب أُمة أُمية، لا يكتبون ولا يقرأون، وكذلك كانت قريش، فأرسل اليهم رسولاً منهم ـ يعني أمياً مثلهم، ونزلت هذه الآية امتناناً.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿٣﴾﴾: قيل:

الآية نزلت في العجم فهم هؤلاء الآخرون، وهم كل من لم يكن عربياً ودخل الإسلام بعد النبيّ ﷺ إلى يوم القيامة. وفي الحديث قال: «رأيتني اسقى غنماً سوداً ثم اتبعتها غنماً عُفراً» وطلب من أبي بكر أن يُؤوّل الرؤيا، قال: أما السود فالعرب، وأما العُفُر فالعجم تتبعك بعد العرب.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾: قيل: كان رسول الله ﷺ يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عيرٌ من الشام، فانصرف الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً، هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو عبيدة الجراح، وسعيد بن الزبير، وبلال، وعبدالله بن مسعود، فأنزلت هذه الآية. وقيل: بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عيرٌ تحمل الطعام حتى نزلت بالبقيع، فالتفت المصلون إليها وانفضوا عن الرسول ﷺ وتركوه ليس معه إلا عدد من الرجال، فأنزل الله الآية. وقيل: كان رسول الله ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة الكلبي قدم بتجارة، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف، فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء، فأنزل الله تعالى الآية.



١٠٧٤- ﴿في أسباب نزول آيات سورة المنافقون﴾

١- في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول، رأس النفاق في المدينة، أثناء غزوة بني المصطلق، فقال للأعراب يحرّضهم على المسلمين: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذل. وفي رواية أخرى، قال: والله ما مثلُنا ومثَلُهم إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وقال: كفّوا طعامكم عن هذا الرجل. ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضّوا ويتركوه. فقال له زيد بن أرقم: أنت والله الذليل المُتنقّص من قومك، ومحمد ﷺ في عزّ من الرحمن ومودة من المسلمين. والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً. فقال عبد الله: اسكت إنما كنت ألعب. وقال زيد للنبيّ ﷺ، فأرسل إليه فحلف وجحد، وصدّقه رسول الله ﷺ، فنزلت الآية بتصديق زيد وتكذيب ابن أُبي. وقيل: أن أنصارياً في غزوة مع رسول الله ﷺ بدر

الماء، فوجد عليه أعرابياً سبقه إليه، وكان يملأ الحوض ويحيطه بحجارة، ويغطيه إلى أن يأتي أصحابه، فأراد الأنصاري أن تشرب ناقته فمنعه الأعرابي، فانتزع الأنصاري حجراً من الحوض فغاض الماء، فأمسك الأعرابي خشبة وضرب بها رأس الأنصاري فشجه، فأتى عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين، فقيل له، فغضب وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - يعني الأعراب، وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام، وقال عبد الله: إذا انفضوا من عند محمد، فأتوا محمداً بالطعام، فليأكل هو ومن عنده. ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. فلما حلف أنه لم يقل ذلك نزلت الآية.

٢- في قوله تعالى: **﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾**: قيل: نزلت في عبدالله بن أبيّ لما حلف أنه ما قال، وحلف زيد بن أرقم أنه قال.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾**: قيل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ، وَجدّ بن قيس، ومُعتّب بن قُشير، وكانوا رأس النفاق، وكانت بهم وسامة وجسامة وصحة وصباحة وذلاقة لسان. وإذا قالوا سمعوا لهم. فنزلت فيهم الآية.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾**: قيل: نزلت سورة المنافقين في تصديق زيد بن أرقم وتكذيب عبد الله بن أبيّ. ولما قيل لعبد الله: قد نزلت فيك آيات شديدة، فاذهب إلى رسول الله ﷺ، ليستغفر لك، فألوى برأسه، فنزلت الآية.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾**: قيل: لما مات عبد الله بن أبي بعد غزوة بني المصطلق بأيام، وكان المسلمون قد أوذوا منه أذى كبيراً، سمع الرسول ﷺ بموته فاستغفر له، وطلب ابنه قميص النبيّ ﷺ يكفنه به، فأعطاه قميصه، فنزلت هذه الآية.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾**: قيل: نزلت لما قال ابن أبيّ: لا تنفقوا على من عند محمد حتى ينفضوا من عنده. وقال لأصحابه: لئن رجعتُ إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ. والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: **سَمِّن كلبك يأكلك**. كفّوا طعامكم عن هذا الرجل ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا ويتركوه.

٧- وفى قوله تـعالى ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل (٨)﴾: قيل: القائل ابن أبىّ. قيل: لما قال ذلك ورجع إلى المدينة، لم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات، وقيل فاستغفر له رسول الله ﷺ وألبسه قميصه، فنزلت هذه الآية ﴿لن يغفر الله لهم﴾. وروى أن عبد الله بن أبى بن سلول قـال لأبيه: والذى لا إله إلا هو، لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله ﷺ هو الأعز وأنا الأذل، فقاله.



١٠٧٥- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة التغابن﴾

١- فى قوله تـعالى: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧)﴾: قيل: نزلت فى العاص بن وائل السهمى مع خبّاب، مثلهـا مثل الآية: ﴿أفرءيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً (٧٧) أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً (٧٨) كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً (٧٩) ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً (٨٠)﴾ وكان للخبّاب دين عند العاص، فرفض أن يدفعه إلا فى الآخرة استهزاءً بإيمان خبّاب، فنزلت هذه الاية.

٢- وفى قـوله تعـالى: ﴿ يا أيهـا الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عـدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم (١٤)﴾: قـيل: نـزلت الآية فى عـوف بن مالـك الأشجـعى، كان ذا أهل وولد، وكـان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورقّـقوه فقالوا: إلى من تدعنا ؟ فيرق فيقيم، فنزلت الآية. وقيل: نزلت الآية فى رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبـىّ ﷺ، فأبى أزواجـهم وأولادهم أن يدعـوهم أن يأتوا النبىّ ﷺ، فلما رأو الـنبىّ ﷺ ورأو الناس قد فقـهوا فى الدين، فهـمّوا أن يعاقـبوا أزواجهم وأولادهم، والـعدو كمـا ترى ليس لذاته، فهـؤلاء أهلهم، إلا أنهم فعلـوا فعل العدو فصاروا عدوّا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وطاعة الله.

٣- وفى قوله تـعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١٦)﴾: قيل: هذه الآية نزلت بسـبب قوم تأخروا عن الهجـرة من دار الشرك إلى دار الإسـلام بتثبـيط أولادهم، فيـما جعل فـتنة لهم من أموالهم وأولادهم أن تغلبـهم الفتنة وتصدّهم عن الواجب لله من الهجـرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام. وقيل: الآية نزلت لتخفف عن المسلمين أثر الآية الأخرى: ﴿اتقـوا الله حق تقـاته﴾ (آل عـمـران ١٠٢)، فقد اشتـد على القوم، وقاموا حتى ورمت عـراقيبهم وتقرّحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً عنهم: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم..﴾



١٠٧٦- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الطلاق﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)**﴾: قيل: الخطاب في الآية للنبيّ ﷺ، خوطب بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً، وقصد بالآية جماعة المسلمين. وقيل: الآية نزلت عندما طلق النبيّ ﷺ **حفصة** ثم راجعها، قيل: إن النبيّ ﷺ طلّق **حفصة** فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...(١)**﴾ (الطلاق). وقيل له: راجعها فإنها قوّامة صوّامة وهي من أزواجك في الجنة. ونزل في خروج المطلقة إلى أهلها قوله: ﴿**.. لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ..**﴾. وقيل: إن سبب نزول الآية أن الرسول ﷺ غضب على **حفصة** لمّا أسرّ إليها حديثاً، فأظهرته لعائشة، فطلّقها تطليقة، فنزلت الآية. والصحيح: أن الآية نزلت في **عبد الله بن عمر**، فقد طلق امرأته حائضاً تطليقة واحدة، فأمره رسول الله ﷺ بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر، فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها، فتلك **العدة** التي أمر الله تعالى أن يُطلّق لها النساء. وكان هناك آخرون فعلوا مثل **ابن عمر** فمحتمل أنها نزلت في واحد منهم، أو فيهم جميعاً لما تكررت المناسبة، ومن هؤلاء: **عبد الله** بن عمرو بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص، وعتبة بن غزوان. وأصحّ من ذلك أن الآية **بيان لشرع مبتدأ**. ولم يحدث أن طلق النبيّ ﷺ امرأةً من نسائه.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**.. وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ... (٣)**﴾: قيل: نزلت في **عوف بن مالك الأشجعي**، وكان ابنه قد أسره المشركون، فأتى رسول الله ﷺ يشكو إليه الفاقة، وأسْر ابنه، وجزع أمه عليه، فقال عليه السلام: «**اتق الله واصبر، وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله**»، فعاد إلى بيته وقال لامرأته، فقالت: نِعْم ما أمرنا به. فجعلا يقولان. وغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وهرب به إلى المدينة، وكان أربعة آلاف شاة، فنزلت الآية. وفي رواية أنه أصاب إبلاً من العدو عددها خمسون، وقيل: أصاب غنماً ومتاعاً، وسأل الأب الرسول ﷺ: أيحلّ لي أن آكل مما أتى به ابني؟ قال: «نعم»، ونزلت الآية.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ**

يسرا (٤)﴾: قيل: لما نزلت **عدّة النساء** في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها، قال أُبيّ بن كعب: يارسول الله ، إن ناساً يقولون قد بقي من النساء لم يذكر فيهن شيء: **الصغار، وذوات الحمل**، فنزلت الآية. وقيل: لما ذكر قوله تعالى: **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء .. (٢٢٨)﴾** (البقرة)، قال خلاد بن النعمان : يارسول الله ، فما عدّة التي لم تُحصَن، وعدّة التي انقطع حيضها، وعدّة الحبلى؟ فنزلت الآية ، ومعنى **يئسن** من المحيض: قعدن عن المحيض. وقيل: إن معاذ بن جبل سأل عن عدّة **الكبيرة** التي يئست، فنزلت الآية. وقيل: الآية نزلت في **المستحاضة** لا تدرى دم حيض هو أو دم علة؟



١٠٧٧- ﴿في أسباب نزول آيات سورة التحريم﴾

١- في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾**: قيل : نزلت الآية في **حفصة** لما خلا النبيّ ﷺ في بيتها بجاريته **مارية**، وذلك أمرٌ بعيد، لأن جاريته كانت تسكن **العوالي** ولها دارها الخاصة بها، فما حاجتها لحجرة حفصة ليجتمع بها النبيّ ﷺ؟! وقيل إن حفصة شاهدتهما معاً على سريرها وفي يوم عائشة، وأنه سألها ألاّ تخبر عائشة، وحلف أن **مارية** عليه حرام إن قربها. وكانت حفصة قد غابت إلى بيت أبيها فلما حضرت وأبصرت ذلك عزّ عليها وقالت له: تُدخلها في بيتي! ـ تقصد مارية. ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك! قال لها : **«لا تذكريه لأحد»**. ولم تحفظ حفصة السرّ وأذاعته لعائشة، فغضب النبيّ ﷺ منهما ومن نسائه لّما ذاع الخبر بينهن، وآلى لا يدخل عليهن شهراً، فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة، فأنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١)﴾** (التحريم)، والمناسبة مبتذلة، ومستبعدة، ومن الإسرائيليات، وضمن التشنيعات على النبيّ ﷺ. وقيل: نزلت في **أم شريك** التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ فلم يقبلها لأجل أزواجه، فنزلت الآية، **والسبب ضعيف**، لأن ردّ الموهوبة ليس تحريماً والآية عن التحريم! وقيل: نزلت في **عائشة وحفصة**، وكان النبيّ ﷺ يدخل عند زينب في غير يومها، فيغيب عندها، فعرفتا السبب أنه يشرب عندها **عسلاً**، فدبرتا أن تقولا له : إني أجد منك ريح مغافير! أكلتَ مغافير؟ **والمغافير** نوع من شجر يفرز صمغاً كالعسل، رائحته كريهة وطعمه حلو. وكان النبيّ ﷺ يبغض أن تكون له رائحة غير طيبة، فلما قالتا له ذلك وسألتاه: أكلتَ مغافير؟ قال: «لا»، قالتا : فما هذه الريح؟ قال: «سقتني زينب شربة عسل»، فقالتا : جرس نحلُه العُرفُط ـ أي رعت النحل نبات العرفط وله رائحة كالخمر،

فحرّم على نفسه عسل زينب، فنزلت الآية. وقيل: إنه كان يشرب العسل عند **حفصة** وليس عند زينب، وقيل: هى **أم سلمة**.وقيل: راجع عمر امرأته، وتعللت بأن أزواج النبىّ ﷺ يراجعنه، فأخذ ثوبه وخرج إلى حفصة يسألها : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم، ولو أعلم أنك تكره ذلك ما فعلت. فلما بلغ عمر أن رسول الله ﷺ هجر نساءه، قال: رغم أنف حفصة! ونزلت الآية .- وهذا كله جهلٌ وتصوُّر بغير علم ورواياته مرسلة. والآية لا يعلم سببها إلا النبىّ ونساؤه ﷺ ولم نعرف أن أحداً من نسائه روت عن ذلك، ولا النبىّ ﷺ، إلا ما جاء منه فى هذه السورة وغيرها من مراجعات بينه وبين وزوجاته. ولقد ذهب المفسرون مذاهب بعيدة فى تفسير الآية وغيرها، عن أسبابها وأشخاصها، وعن مناسبة نزولها. والصحيح أن هذه الآية وغيرها نزلت **لرفع تضييق النبىّ** ﷺ **ما وسّعه الله له**، بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١﴾**؟

٢- وفى قوله تعالى: **﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾**: قيل: الآية نزلت فى **اليمين**، والخطاب فيها للنبىّ ﷺ ثم الأمة تقتدى به، وقيل: إن النبىّ ﷺ أعتق رقبة فى تحريم **مارية**. والآية تفرض تحليل اليمين، **والتحلّة** هى تحليله، فكأن اليمين عقد والكفارة حلّ، والآية على الصحيح ليست فى يمين مزعوم للنبىّ ﷺ على **مارية ولكنها بيان لشرع مبتدأ ولرفع التضييق فى اليمين على المسلمين**.

٣- وفى قوله تعالى: **﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾**: قيل : مناسبة الآية تحريمه ﷺ **مارية** على نفسه واستكتامه **حفصة ذلك**. وقيل: أسرّ لحفصة أمر من سيخلفه على أمته من بعده، وقال إنهما أبوها وأبو عائشة! وقال ابن عباس: أسرّ أمر الخلافة بعده إلى **حفصة** فذكرته حفصة، وقيل : اطّلعت حفصة على النبىّ ﷺ مع أم إبراهيم فقال: «**لاتخبرى عائشة**»، وقال لها: «**إن أباك وأباها سيملكان أو سيليان بعدى فلا تخبرى عائشة**»، فانطلقت حفصة وأخبرت عائشة، فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعض. قيل: أعرض عن قوله: «**إن أباك وأباها يكونان بعدى**»، وكره رسول الله ﷺ أن ينشر ذلك على الناس. وذلك كله جهل، وتصوّر بغير علم، ورجْمٌ بالغيب، ورواياته مرسلة، ولم يذع النبىّ ﷺ عن ذلك ولا زوجاته، إلا ما نزل من الآية، ونفهم منه أنه حول إفشاء السرّ الذى يكون بين الزوجين مما يهدد الحياة الزوجية وذلك فى إطار تربوى للبيت المسلم.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ④﴾: قيل: إن عمر بن الخطاب لما سمع أن نساء النبيّ ﷺ يتظاهرن ضده، ذهب إليه والغضب يُرى في وجهه، فقال له: يا رسول الله، ما يشق عليك في شأن النساء! فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. قال: وكلما تكلمت وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله عز وجل يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية ـ آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ .. ⑤﴾. والآية ﴿.. وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ④﴾.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ⑤﴾: قيل: إن الآية نزلت على لسان عمر بن الخطاب. قال عمر: اجتمع نساء النبيّ ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت الآية.

●●●

١٠٧٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الملك﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑬ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭﴾: قيل: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من النبيّ ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام، فقال بعضهم: أسرّوا قولكم كي لا يسمع ربّ محمد، فنزلت الآية.

●●●

١٠٧٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة القلم﴾

١- في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ②﴾: قيل: كان المشركون يقولون للنبيّ ﷺ: إنه مجنون، وبه شيطان، فنزلت الآية، مثل قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥﴾ (الحجر)، فأنزل الله رداً عليهم وتكذيباً، والنعمة هنا قَسَم، وهو كما تقول: ما أنت بمجنون والحمد لله.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾: قيل: نزلت ثناءً عليه، لأنه امتثل تأديب الله، والخُلق هو الأدب، وهو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي عنه مما نُهي عنه. وحقيقة الخُلق هو ما يأخذ الإنسان نفسه من الأدب، لأنه يصير كالخِلقة فيه، فلما سُئلت عائشة عن خُلقه، قرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾(المؤمنون) إلى عشر آيات،

وقالت: ما كان أحد أحسن خُلقاً من رسول الله، ما دعاه أحدٌ من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: «لبيك»، لذلك قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ④﴾، ونزلت فيه الآية.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ** ⑥﴾: قيل: قالوا إن بالرسول ﷺ شيطاناً، والمفتون هو الشيطان، لأنه مفتون في دينه، وعنوا به أنه مجنون، والآية نزلت في **الوليد بن المغيرة وأبي جهل**، والمعنى فسيعلمون غداً بأيهم المجنون، أي الشيطان، به ﷺ أم بالوليد وبأبي جهل؟

٤- وفي قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ** ⑧﴾: قيل: نزلت في مشركي قريش وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فنهاه عن ممايلة المشركين.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ⑪ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ** ⑬﴾: قيل: نزلت في **الأسود بن عبد يغوث، وعبد الرحمن بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبي جهل**. وكان الوليد قد عرض على الرسول مالا إن رجع عن دينه. و«**العتُل الزنيم**» الشديد الخُلق، الأكول الشروب، والظلوم للناس. وقيل: «**الزنيم**» كان رجلاً من قريش له زنمة كزنمة الشاة، وقيل: الزنيم ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم، وكان **الوليد** دعياً في قريش، ادّعاه أبوه، والآية عرّفت بصفة في الوليد لم يكتشفها أحد فيه إلا بعد أن مات، فقد كانت له زنمة في عنقه يداريها.

٦- وفي قوله تعالى: ﴿**أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑮ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ⑯﴾: قيل: هذا كله نزل في **الوليد بن المغيرة**، وليس في القرآن أحد ذُكرت عيوبه ما ذكره منها في هذه الآيات، فألحقت بالوليد العار في الدنيا والآخرة، **كالوسم على الخرطوم** وهو ما ابتلاه الله به في الدنيا، في نفسه وماله وأهله، من سوء وذل وصغار.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ** ⑰﴾: قيل: الآية نزلت في أهل مكة، ابتلوا وأعطاهم الله المال ليشكروا فبطروا وجحدوا وعادوا الإسلام، فابتلاهم الله بالجوع كما ابتلى أصحاب الجنة، وكانوا في **اليمن** بالقرب منهم، وكانت الجنة لرجل يؤدي حق الله، فلما صارت لأولاده بخلوا ومنعوا خيرها، وفكروا أن لا يجدّوا التمر إلا ليلاً حتى لا يأتيهم المساكين، فطاف عليها جبريل واقتلعها، فنزلت الآية فيهم.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** ㊸﴾: قيل: قال: سعيد بن جبير: الآية في الذين كانوا يسمعون الأذان فلا

يجيبون، وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة.

٩ - وفي قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ** (٤٨)﴾: قيل: نزلت في يونس عليه السلام وقصته مع الحوت معروفة. ونداؤه وهو مكظوم أي مغموم، هو ﴿**لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٨٧)﴾ (الأنبياء).

١٠ - وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ** (٥١)﴾: قيل: نزلت الآية في أهل مكة، وكانت فيهم العين، وكان منهم رجل يمكث لا يأكل أياماً ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم ابلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما تذهب قليلاً حتى تسقط، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبيّ ﷺ بالعين فوافقهم، فعصم الله نبيّه، ونزلت الآية، ومعنى ﴿**لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**﴾ أي يصيبونك بالعين. وقولهم ﴿**إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾، لأنهم نسبوا إليه أن الشياطين تتلبسه ولهذا كان مجنوناً.

●●●

١٠٨٠ - ﴿في أسباب نزول آيات سورة الحاقة﴾

١ - في قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ** (٣٨) **وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** (٣٩) **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** (٤٠) **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ** (٤١) **وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** (٤٢)﴾: قيل: نزلت كردّ على ما قاله **الوليد بن المغيرة**: أن الرسول ﷺ **ساحر**، وقول عُقبة: **كاهن**، وقول أبي جهل: **شاعر**.

●●●

١٠٨١ - ﴿في أسباب نزول آيات سورة المعارج﴾

١ - في قوله تعالى: ﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** (١) **لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ** (٢) ﴾ (المعارج): قيل: نزلت في **النضر بن الحارث**، قال: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (٣٢)﴾ (الأنفال)، فاستجيب لسؤاله، وقتل يوم بدر صبراً، هو وعُقبة ابي مُعَيط، ولم يقتل صبراً غيرهما. وقيل: السائل هنا هو الحارث بن النعمان الفهري، لمّا بلغه قول النبيّ ﷺ في عليّ: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه**»، فركب ناقته وجاء حتى أناخها بالأبطح ثم قال: يا محمد، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسوله، فقبلناه منك، وأن نصلي خمساً فقبلناه منك، ونزكي فقبلناه منك، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك، وأن نحج فقبلناه

منك، ثم لم نرض بهذا حتى فضّلت ابن عمك علينا ! أفهذا شيء منك أم من الله؟ فقال النبيّ ﷺ : «والله الذى لا إله إلا هو ما هو إلا من الله»، فولىّ الحارث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو آتينا بعذاب أليم! فما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فقتله، فنزلت الآية. وقيل: إن السائل هو أبو جهل. وقيل: نزلت ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** (١)﴾ ، فقال الناس : على من يقوم العذاب، فأنزل الله ﴿ **لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ** (٢) ﴾. والصحيح أن الآية عامة والقرآن لا يتنزل لخدمة أشخاص، وحكاية علىّ من تلفيقات الشيعة.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ** (٣٦)﴾: قيل : نزلت فى جمع من المنافقين المستهزئين، وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿ **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** (٣٨)﴾: قيل: كان المشركون يجتمعون حول النبىّ ﷺ يستمعون كلامه فيكذّبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه. فنزلت الآية.



١٠٨٢- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة نوح﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** (٢٣)﴾: قيل: هذه أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها. وقيل: الآية ليست فى قوم نوح ولكنها فى **العرب**، وهذه الأصنام كان يعبدها العرب ولم يعبدها غيرهم، وكانت **ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر**، أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فلذلك خصّوها بالذكر، وقالوا يوصون بها: ﴿**لا تَذَرُنَّ**﴾ يعنى لا تتركوا عبادتها. **وودّ**: هو أكبرها، وكان على صورة رجل، وأول صنم يعبدونه، وسمّوه كذلك **لودّهم** له؛ **وسواع**: كان لهذيل على صورة امرأة؛ **ويغوث**: لغطيف، ثم لغطفان، وكان على صورة أسد؛ وأما **نسر**: فكان لحمير على صورة نسر من الطيور، **وآية الأصنام** تعترض كلام نوح، ويستأنف نوح الكلام بعدها، وإنما جاءت الآية تذكيراً بأصنام العرب كأصنام قوم نوح، وذلك هو سبب نزولها وسط كلام نوح.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** (٢٦) **إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** (٢٧)﴾: قيل: سبب نزول الآية أن نوحاً دعا على قومه، لأن رجلاً منهم – وكان يحمل طفلاً – مرّ به، فأشار على نوح وقال لطفله :

«أحذر هذا فإنه يضلك»، فسأل الولد أباه أن ينزله، وأمسك بحجر ورمى به نوحاً فشج رأسه! فحينئذ غضب نوح ودعا عليهم، ونزلت الآية. واستثنى نوح نفسه ووالديه ومن آمن به، فنزلت الآية بهم: **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾**.

•••

١٠٨٣- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الجن﴾

١- في قوله تعالى: **﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾**: قيل: عن ابن عباس: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، وإنما أوحى إليه قول الجن، أنهم استمعوا إلى تلاوته للقرآن وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، قيل كان في مكان يقال له **بطن نخلة** من تهامة، فنزلت الآية.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾**: قيل: أنه لما بُعث النبيّ ﷺ، خرج أناس من بني تميم هرباً، فأتوا على ملأة من الأرض، وكانوا إذا أمسوا بمثلها يقول شيخهم: إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة. فقيل لهم: إنما سبيلكم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ من أقرّ بها آمن على دمه وماله. فرجعوا ودخلوا الإسلام، فكانوا لا يرون إلا أن هذه الآية نزلت فيهم، والصحيح أنها نزلت في كل من يعوذ بالجن وهم كُثر في كل العالم، حتى في أوروبا وأمريكا، ومن غير المسلمين من النصارى واليهود. وقيل: إن رجلاً من تيم كان يسير في فلاة فغلبه النوم، فنزل عن راحلته وأناخها يريد أن ينام، فتعوّذ بجن الوادي، فرأى في منامه من يأمره: إذا نزلت وادياً لا تعذ بالجن، وإنما بربّ محمد. فلما كان الصُبح غذّ السير إلى النبيّ ﷺ فأسلم، فكانوا يرون أنه هو الذي أنزل الله فيه: **﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾**.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦)﴾**: قيل: نزلت في كفار قريش حين مُنع المطر سبع سنين.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾**: قيل: قالت الجن كيف لنا أن ندعو في المساجد ونأتي فيها الصلاة؟ فنزلت: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ..﴾** أى بنيت لذكر الله، يذكره البشر وليس الجن؛ والصحيح أن الذين قالوا ذلك المشركون، كانوا يريدون أن يدعوا لله وللأصنام.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾**:

قيل: هذا من قول الجن لما رجعوا إلى قومهم وأخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ وائتمامهم به في الركوع والسجود. والصحيح أنهم المشركون وليسوا الجن، وكان المشركون يركبون بعضهم بعضاً ليسمعوا محمداً ﷺ يقرأ القرآن ويصلي بأصحابه، حَرِداً عليهم.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾**: قيل: سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك. فنزلت الآية.

٧- وفي قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾**: قيل: إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك. فنزلت **﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ..﴾**. وقيل: إن ابن مسعود والنبي ﷺ انطلقا حتى أتيا الحجون، فتقدم إلى الناس وازدحموا عليه، فقال سيدٌ لهم يقال له وَرْدان: أنا أزجلُهم عنك (أي أمنعهم وأبعدهم)، فقال له النبي ﷺ: «إني لن يجيرني من الله أحد»، يعني لن يجيرني مع إجارة الله لي، فنزلت الآية، ومعنى: **﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ..﴾** أي نصيراً ومولى وحرزاً ومذهباً ومسلكاً.



١٠٨٤- ﴿في أسباب نزول آيات سورة المزمل﴾

١- في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾**: قيل: إن قريشاً اجتمعت في **دار الندوة**، فقالوا: سمّوا هذا الرجل اسما يصدر عنه الناس. قالوا: **كاهن**؟ قالوا: ليس بكاهن. قالوا: **مجنون**؟ قالوا: ليس بمجنون. قالوا: **ساحر**؟ قالوا: ليس بساحر. فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فتزمّل في ثيابه. فأتاه جبريل فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾**: يعني يا أيها المتلفف بثيابه.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢)﴾**: قيل: قالت عائشة: إن الله عزّ وجلّ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبيّ ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله عز وجلّ خاتمتها التي تقول: **﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ..(٢٠)﴾**، أمسكها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزلها في آخر هذه السورة للتخفيف، فصار قيام الليل **تطوعاً** بعد فريضة. وقيل: لما أنزل في أولها قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾** كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها وهو قوله: **﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ..(٢٠)﴾**، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ.. (٢٠)﴾**: قيل:

مكث النبيّ ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ .. (٢٠)﴾**، فخفف عنهم.

٤- وفى قوله تعالى: **﴿ .. فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾**: قيل: لما نزلت: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾** قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، ثم نزل قوله تعالى: **﴿.. فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ..﴾**

•••

١٠٨٥- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة المدثر﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾**: قيل: إن رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى قال: «**فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذى جاءني بحراء، فجئثتُ منه فرقاً**»، فرجعت فقلت: زملونى زملونى! فدثرونى. فأنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾**. وعن جابر عن النبيّ ﷺ قال: جاورتُ بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى، فنوديت، فنظرت أمامى وخلفى، وعن يمينى وعن شمالى، فلم أر أحداً. ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء - يعنى جبريل - فأخذتنى رجفة شديدة، فأتيت خديجة، فقلت: دثرونى! فدثرونى فصبّوا علىّ ماء، فأنزل الله **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾**. وقيل: بلغ النبيّ ﷺ قول كفار مكة أنت ساحرٌ، فوجد من ذلك غماً، وحُمّ، فتدثّر بثيابه، فقال الله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾**. وقيل: اجتمع أبو لهب، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ومطعم بن عدى، وقالوا: قد اجتمعت وفود العرب فى أيام الحج، وهم يتساءلون عن أمر محمد، وقد اختلفتم فى الإخبار عنه، فمن قائل يقول: **مجنون**، وآخر يقول: **شاعر**، وتعلم العرب إن هذا كله لا يجتمع فى رجل واحد، فسمّوا محمداً باسم واحد يجتمعون عليه وتسميّه به العرب، فقام منهم رجل فقال: **شاعر؟** فقال الوليد: سمعت كلام ابن الأبرص وأمية بن أبى الصلت، وما يشبه كلام محمد كلام واحدٍ منهما، فقالوا: **الكاهن؟** فقال: الكاهن يصدق ويكذب، وما كذب محمد قط. فقام آخر فقال: **مجنون؟ فقال** الوليد: المجنون يخنق الناس، وما خنق محمدٌ أحداً قطّ. وانصرف الوليد إلى بيته، فقالوا: صبأ الوليد بن المغيرة. فدخل أبو جهل وقال: مالك يا أبا عبد شمس؟ هذه قريش تجمع لك شيئًا يعطونكه، وزعموا أنك احتجبت وصبأت! فقال الوليد: مالى إلى ذلك حاجة

ولكن فكرت في محمد، فقلت: ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرّق بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلت : إنه ساحر. فشاع هذا في الناس، وصاحوا يقولون: إن محمداً ساحر. ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته محزوناً فتدثّر بقطيفة، ونزلت **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾** إلى قوله: **﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦﴾**.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬﴾**: قيل: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يُسمّى «الوحيد». وكانت ثروته ألف ألف دينار، وكان له بستان لا ينقطع خيره شتاءً ولا صيفاً، وكان له عشرة أولاد، وقيل اثنا عشر، وقيل: كانوا اثني عشر : سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف. وقيل : كانوا ثلاثة عشر ولداً. وقال مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة : خالد بن الوليد، وهشام بن الوليد، والوليد بن الوليد. فنزلت الآية **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬﴾**.

٣- وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ㉕﴾**: قيل: لما نزلت **﴿حم ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③﴾** (غافر)، سمع الوليد من يقرؤها فقال: والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإن ليعلو ولا يُعلَى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد، لتصبوّن قريش كلها ! وكان يقال للوليد ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزينًا، فقال له: مالي أراك حزيناً ؟ فقال له: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينوك بها على كبر سنك، ويزعمون أنك زيّنت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة (يعني النبيّ ﷺ) وابن أبي قحافة (يعني أبا بكر) لتنال من فضل طعامهما. فغضب الوليد وتكبّر، وقال: أنا أحتاج إلى محمد وصاحبه؟ فأنتم تعرفون قدر مالي ! واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً **مجنون**، فهل رأيتموه قطّ يَخنق؟ قالوا: لا والله! قال: وتزعمون أنه **شاعر**، فهل رأيتموه نطق شعرًا قطّ؟ قالوا: لا والله! قال: وتزعمون أنه **كذّاب**، فهل جرّبتم عليه كذباً قطّ؟ قالوا: لا والله! قال: فتزعمون أنه **كاهن**، فهل رأيتموه تكهن قطّ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟

قالوا: لا والله! قال: فما هو إذن؟ ثم إن الوليد فكّر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: لابد إذن أنه ساحر! أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟! فنزل قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ..﴾** إلى قوله: **﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾**.

٤- وفي قوله تعالى: **﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾**: قيل: نزلت في قول قريش أن «سياراً» عَبْدَ بني الحضرمي كان يعلمّه. وقيل الذي كان يعلمه «عديّ الحضرمي» الكاهن.

٥- وفي قوله تعالى: **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾**: قيل: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبيّ ﷺ: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا: لا ندرى حتى نسأل نبينا. فجاءوا إلى النبيّ ﷺ، فاستقدم اليهود فسألوه: يا أبا القاسم، كم عدد خزنة جنهم؟ قال: «هكذا وهكذا» في مرة عشرة، وفي مرة تسعة، فنزلت: **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾**. وقيل: لما سألوه نزل عليه ساعتئذ: **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾**.

٦- وفي قوله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾**: قيل: لما نزل **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾**، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة (يقصد النبيّ ﷺ) يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدُّهم (أي العدد)، والشجعان، فيعجز كل عشرة رجال منكم أن يبطشوا برجل واحد منهم؟! فأنزل الله: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ..﴾**. وقيل: لما نزلت: **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾** قال رجل من قريش يدعى الحرث بن كلدة: لايهولنكم التسعة عشر. أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة (يقصد عشرة رجال)، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة - يقولها مستهزئاً. فنزلت: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ..﴾**، أي لم يجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم.

٧- وفي قوله تعالى: **﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾**: قيل: إن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد، إيتنا بكتُب من ربّ العالمين مكتوب فيها: إني قد أرسلت لكم محمداً. فنزلت الآية. وعن ابن عباس: كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً فليصبح عند كل رجل منا صحيفته، فيها براءته وأمنه من النار، فنزلت الآية. وقيل: قال المشركون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوباً ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك، فنزلت الآية.

***

١٠٨٦- ﴿في أسباب نزول آيات سورة القيامة﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣)** ﴾: قيل : نزلت هذه الآية في **عدي بن ربيعة**، قال للنبيّ ﷺ : حدثني عن يوم القيامة متى تكون؟ وكيف أمرُها وحالها ؟ فأخبره النبيّ ﷺ بذلك، فقال له : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به - أي يوم القيامة - ، أوَ يجمع الله العظام ؟ فنزلت الآية. وقيل: نزلت في عدو الله **أبي جهل** حين أنكر البعث بعد الموت.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)** ﴾: قيل: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله الآية، فكان يحرّك به شفتيه. وفي رواية أخرى: أن النبيّ ﷺ كان يعاني من التنزيل شدّة، وكان يحرّك شفتيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)** ﴾، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، وإذا انطلق جبريل ، قرأه.

٣- وفي قوله تعالى : ﴿ **فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥)** ﴾: قيل: لما نزلت ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)** ﴾ (المدثر)، قال **أبو جهل** لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، يخبركم ابن **أبي كبشة** (أي النبيّ ﷺ، يقولها استهزاءً، **والكبشة** المعروفة هي الحفنة)، أن خزَنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدُّهم (الصناديد) ! أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ؟! فأوحى الله إلى رسوله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿ **أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥)** ﴾. وعند النسائي عن سعيد بن جبير، أنه سأل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ **أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥)** ﴾، قال له : أشيءٌ قاله رسول الله ﷺ من قِبَل نفسه أم أمره الله به؟ يقصد قوله: ﴿ **أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ** ﴾ قال: بل قاله من قِبَل نفسه ثم أنزله الله. وفي الرواية: أن رسول الله ﷺ خرج من المسجد (يقصد الكعبة) ذات يوم فاستقبله **أبو جهل** على الباب مما يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله بيده فهزّه مرة أو مرتين ثم قال ﴿ **أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ** ﴾، فقال له أبو جهل: أتهددني ؟ فوالله إني لأعز أهل الوادي وأكرمه! فنزلت الآية على رسول الله ﷺ كما قالها لأبي جهل. وفي رواية: أن أبا جهل بن هشام أقبل يتبختر، فأخذ النبيّ ﷺ بيده فقال : ﴿ **أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥)** ﴾، فقال أبو جهل: ما تستطيع أنت ولا ربُّك لي شيئاً ! إني لأعز من مشى بين جبَلَيها! (يقصد جبلَيّ مكة) فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعبد الله بعد هذا اليوم أبداً. فضرب الله عنقه، وقتله شرّ قتلة.

٤-وفى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾: قيل: كان النبىّ إذا قرأها قال: «سبحانك اللّهم» ويبكى، وعن ابن عباس كان يقول: من قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى آخرها، إماماً كان أو غيره، فليقل: سبحانك اللهم، ويبكى.

●●●

١٠٨٧- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الإنسان﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾: قيل: نزلت فى أسارى أهل الشرك، فكانوا يأسرونهم ويعذبونهم، فنزلت فيهم، فكان النبىّ ﷺ يأمرهم بالإصلاح إليهم. وقيل: الآية نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلىّ، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وأبو عبيدة. وقيل: نزلت فى رجل من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وقيل: نزلت فى علىّ وفاطمة وجارية لهما اسمها فضة، ولم يصح ذلك ولم يثبت وهذا من دعاوى الشيعة.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾: قيل: هذه الآية نزلت فى جميع الأبرار ومن فعل فعلاً حسناً.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾: قيل: إن أبا جهل قال: إن رأيتُ محمداً يصلى لأطان على عنقه، فأنزل الله الآية. ويقال: نزلت فى عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا الرسول ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت الآية. وقيل: الذى عرض التزويج عُتبة بن ربيعة، قال: إن بناتى من أجمل نساء قريش، فأنا أزوجك ابنتىّ من غير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعتَ ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى، وارجع عن هذا الأمر، فنزلت الآية.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾: قيل: نزلت فى أهل مكة بحبهم للدنيا وتركهم للآخرة؛ وقيل نزلت فى اليهود بكتمانهم صحة نبوة الرسول ﷺ؛ وقيل: نزلت فى المنافقين لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا. والآية تعمّ.

●●●

١٠٨٨- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة المرسلات﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾:

قيل : نزلت في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة، فنزل فيهم ذلك، فقال لهم النبيّ ﷺ : «أسلموا» وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحني فإنها مسبة علينا، فقال النبيّ ﷺ : «لاخير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود». والآية حجة على وجود الركوع كركن من الصلاة.

●●●

١٠٨٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة النبأ﴾

١- في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ①﴾: قيل : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتحدّث فيما بينهم، فمنهم المصدّق، ومنهم المكذّب بالقرآن وبالرسول ﷺ ، فنزلت.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ⑩﴾: قيل: المراد بها كفّار قريش ومشركي العرب، لأنهم قالوا: لا نُبعَث. والعذاب القريب هو عذاب الآخرة،وقيل: الكافر هو أبو جهل.وقيل: المرء في الآية المقصود به أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأما الكافر فهو أخوه الأسود ابن عبد الأسد. وقيل: الكافر هو إبليس.

●●●

١٠٩٠-﴿في أسباب نزول آيات سورة النازعات﴾

١-في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ⑩﴾: قيل: نزلت في المكذّبين المنكرين للبعث: والحافرة هي القبور، والمعنى إننا لمردودون في قبورنا أحياء، كقولهم ﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً..﴾ (الإسراء ٤٩)، فقال كفار قريش : لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت : ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑫﴾ (النازعات).

٢- وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ㊲ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ㊳﴾: قيل: طغى أى تجاوز الحدّ في العصيان، ونزلت الآية في النضر وابنه الحارث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة.وقيل: نزلت في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير، وكان عامر قد أُسر يوم بدر، فقال لمن أسروه: أنا أخو مصعب، فلم يشدوه في الوثاق وأكرموه، فلما علم مصعب أمَرَهُم أن يشدّوا وثاق أسيرهم، فأمُه غنية وبوسعها أن تفتديه.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ㊵ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ㊶﴾ :قيل: الآية في مصعب بن عمير، وفي رسول الله ﷺ نفسه يوم أُحد حين تفرّق الناس عن مصعب حتى نفذت فيه السهام، فقال له رسول الله ﷺ : «عند الله احتسبك». وقيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصدّيق، فقد كان له غلام يأتيه بالطعام،

وكان في كل مرة يسأله: من أين أتيت بهذا؟ فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله، فقال له الغلام: لِمَ لم تسألني؟ فقال: نسيت، فمن أين لك الطعام ؟ فقال: تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطونيه، فتقيأه أبو بكر لساعته. وقال: يارب، ما بقي في العروق فأنت حبسته! فنزلت الآية. وقيل: نزلت في من هَمّ بمعصية وقَدَر عليها في خلوة ثم تركها من خوف الله.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢)** ﴾: قيل: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ استهزاءً: متى تكون الساعة؟ فأنزل الله تعالى الآية. وقيل: لم يزل النبيّ ﷺ يُسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية: ﴿**فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤)**﴾ (النازعات)، فكأنهم لما أكثروا عليه السؤال، سأل الله أن يعرف جوابه، فقيل له: لا تسأل، فلست في شيء من ذلك.

١٠٩١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة عبس﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢)**﴾: قيل: نزلت في ابن أم مكتوم، وكان أعمى، واسمه عمرو، وأبوه قيس بن زائدة الأصم، وهو ابن خال خديجة، وكان عند النبيّ ﷺ بعض أشراف قريش وقد طمع في إسلامهم، وجاءه ابن أم مكتوم، فكره النبيّ ﷺ منه أن يقطع عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت. وقيل: كان عند النبيّ ﷺ الوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وعُتبة بن ربيعة. وكان النبيّ ﷺ إذا التقى ابن ام مكتوم بعد ذلك يقول له: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

●●●

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)**﴾ قيل: نزلت في عُتبة بن أبي لهب، وكان قد آمن، فلما نزلت: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)**﴾ ارتدّ، وقال: آمنت بالقرآن كله إلا النجم، فنزلت الآية فيه.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)**﴾: قيل: هذه الآيات نزلت في فرار التبرؤ، فقابيل يوم القيامة يفر من أخيه هابيل؛ وإبراهيم يفر من أبيه؛ ونوح من ابنه؛ ولوط من امرأته؛ وأول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم، وأول من يفر من ابنه نوح، وأول من يفر من امرأته لوط.

١٠٩٢- ﴿في أسباب نزول آيات سورة التكوير﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)**﴾: قيل: كانوا في الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، فعاتبهم الله على ذلك وتوعّدهم.

٢- وفى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ : قيل: أراد النبىّ ﷺ أن يرى جبريل فى الصورة التى يكون بها عند ربّه عزّ وجلّ، فأتاه وقد سدّ الأفق، فلما نظر إليه النبىّ ﷺ خرّ مغشياً عليه، فقال المشركون إنه مجنون. فنزلت ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾. وقيل: نزلت لمّا رأى النبىّ ﷺ جبريل فى صورته، ورآه من قبل المشرق، لأن هذا الأفق إذا كانت منه تطلع الشمس فهو مبين.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ : قيل: لما نزلت ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ (التكوير)، قال أبو جهل: الأمر إلينا إذن، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فنزلت: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾. وقيل إن مقالة أبى جهل هى بعينها مقالة **القدرية**، فإنه يتكلم عن القدر، **وأبو جهل إذن رأس القدرية**. وهذا كلام جديد فى التأريخ لفرقة القدرية، من القدر والقدرة بمعنى الاستطاعة، يقولون: إن الإنسان مريد لأفعاله قادرٌ عليها. والقدرية بهذا المعنى كأصحاب مذهب **حرية الإرادة**. والآية لا تنفى حرية الإرادة، ولكنها تنفى أن لا يكون لله تعالى دور فى هداية الإنسان، لأنه تعالى هداه **هداية دلالة**، ويهديه **هداية معونة**. ومن جهة أخرى فإن **مشيئة الخلق** بخلاف **مشيئة الخالق**، فمشيئة الخلق اختيار بين أمرين كل منهما ممكن الوقوع، فيترجّح أحدهما لمزيد مصلحة وفائدة، ولكن مشيئة الله هى اختياره الثابت إذا لا يصح لديه تردّد ولا إمكان حكمين. والإنسان قد يريد الهداية وتقصر عنها ظروفه أو إمكاناته، فإذا شاء الله له الهداية هيّأ له أسبابها ويسّرها، فذلك معنى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، أى أنه تعالى إذا رأى من العبد أخذاً بما هداه إليه دلالةً، ساعده على الهداية معونة.

•••

١٠٩٣- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الانفطار﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾: قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة؛ وقيل: نزلت فى أُبىّ بن خلف؛ وقيل : نزلت فى **الأسد بن كَلَدة الجُمَحى**.

•••

١٠٩٤- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة المطففين﴾

٢- فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ : قيل: قدم رسول الله ﷺ المدينة، كان أهلها من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقيل : نزلت السورة فى رجل يُعرف **بأبى جهينة**، واسمه عمرو، وكان له مكيالان،

يأخذ بأحدهما، ويعطى بالآخر ـ يعنى كان أحدهما ناقصاً، فإذا أعطى أعطى به، والآخر زائد فإذا أخذ لنفسه أخذ به.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ :قيل : نزلت في رؤساء قريش من أهل الشرك، من أمثال : الوليد بن المغيرة، وعقبة بن مُعَيط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبى جهل، والنضر بن الحارث. والذين آمنوا من أمثال: عمّار ، وخبّاب، وصهيب، وبلال.

•••

١٠٩٥- ﴿فى أسباب نزول سورة الانشقاق﴾

١-فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ :قيل : نزلت في الأسود بن عبد الأسد؛ وقيل: نزلت فى أُبىّ بن خلف؛ وقيل : الآية عامة والمراد بالإنسان الجنس، أى ابن آدم؛ وقيل: المراد جميع الكفّار.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾:قيل : نزلت فى الأسود بن عبد الأسد أخى أبى سلمة، ثم هى عامة فى كل مؤمن وكافر.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾:قيل: نزلت فى بنى عمرو بن عمير، وكانوا أربعة، فأسلم اثنان؛ وقيل هى فى جميع الكفّار.

•••

١٠٩٦- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة البروج﴾

١-فى قوله تعالى : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾ (البروج):قيل : نزلت فى تعذيب المسلمين من أمثال بلال،وعمّار بن ياسر وأبيه وأمه، وغيرهم، تسليةً للمسلمين وتسريةً عن النبىّ ﷺ . وأصحاب الأخدود كانوا نصارى عذبّهم اليهود، وكانوا بنجران، وقيل كانوا نيفاً وثمانين رجلاً، أخذهم يوسف بن شراحبيل بن تُبّع الحميرى، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه. ومثل أصحاب الأخدود فى سفر المقابيين الثانى من أسفار اليهود، الفصل السابع، قصة أبلونيوس الملك البغيض الذى قبض على سبعة إخوة وأخذ يُكرههم على تناول لحوم الخنزير المحرّمة، ويعذّبهم بالمقارع والسياط، وأدنَى الأكبر منهم ليعلن كفره فرفض، فجدعوا أطرافه وسلخوا فروة رأسه وألقوا به فى النار حياً، ثم كان الثانى والثالث والرابع وهكذا إلى أن أكتمل الإخوة السبعة، ولحقت بهم أمهم، وكانت تواسيهم وتشجّعهم إلى أن جاء دورها فحرّقوها كذلك، وهذه هى بداية المحارق فى التاريخ.

•••

١٠٩٧ - ﴿في أسباب نزول آيات سورة الطارق﴾

١- في قوله تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ :قيل :كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فانحط نجمٌ، فامتلأت الأرض نوراً، ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ : «هذا نجمٌ رُمي به، وهو آية من آيات الله»، فعجب أبو طالب ، ونزل: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ①﴾.



١٠٩٨ - ﴿في أسباب نزول آيات سورة الأعلى﴾

١ظ في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ①﴾ :قيل: لما قال المشركون في نزالهم مع المسلمين أُعلُ هُبَل، قال النبيّ ﷺ قولوا: «الله أعلى»، فنزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ . فقال: «اجعلوها في سجودكم سبحان ربّي الأعلى».

٢- وفي قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ⑥﴾ :قيل: كان النبيّ ﷺ يتعجّل قراءة القرآن مع جبريل مخافة أن ينسى، فنزلت الآية، وقوله ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ⑦﴾ (الأعلى) استثناء، فقد ينسى لأنه بشر، ولكن نسيانه ليس بالكلية، **والصحيح أنه لم يكن ينسى شيئاً**، ونية القائل هو أن لا ينسى شيئاً، أو أن معنى الآية **فلا تنسى العمل به**، إلا ما شاء الله أن لا تعمل به.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩﴾ :قيل: نزلت في ابن أم مكتوم، فقد كان يخشى الله ،والوعظ ينفع من يخشى. وفيه قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾ (عبس).

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ⑪﴾:قيل : نزلت في **الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة**.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭﴾ :قيل: نزلت في **عثمان بن عفان**، وكان بالمدينة منافق كانت له نخلة مائلة في دار رجل من الأنصار، فإذا هبت الرياح أسقطت البُسْر والرطب إلى دار الأنصارى، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: «**إن أخاك الأنصاري ذكر أن بُسْرك ورطبك يقع إلى منزله فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها ؟**» فقال: أبيع عاجلاً بآجل! لا أفعل! فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه بستاناً من نخل بدل نخلته، ففيه نزلت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ⑪﴾ . وقيل: نزلت ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ في أبي بكر.



١٠٩٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الغاشية﴾

١- في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ :قيل: إن المشركين قالوا : إن إبلنا لتسمن على الضريع، فنزلت الآية ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، والضريع نبت ذو شوك لاصق بالأرض تسمّيه العرب الشبرق إذا كان رطباً، والضريع إذا كان يابساً، ولا تقربه دابة ولا ترعاه يابساً، وتأكله رطباً.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ :قيل : الآية ذكرت بالإبل لأنها كثيرة عند العرب ولها فوائدها الجمة، فالعربى لا شيء بدونها، فهي حلوبه، وركوبه، ويأكل لحمها، وتحمل متاعه، فالنعمة بها أعمّ، وقدرة الله فيها أظهر وأتم، ولذا خصّها بالذكر، ونزلت الآية فيها دون غيرها لأنها معظم أموال العرب.



١١٠٠- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الفجر﴾

١-في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ :قيل: الآيتان نزلتا في صفة كل كافر، وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله إنما لكرامته وفضليته عنده، وربما قال : لو لم استحق هذا لم يعطني الله، وكذلك إن قتر عليه ، يظن أن ذلك لهوانه عليه.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ قيل: نزلت الآية في قُدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف، ولم يكن يكرمه، ولا كان يأمر أهله أن يطعموا المساكين.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ :قيل :نزلت في خبيب بن عدى، وكان أنصارياً أوسياً، وشهد بدراً، واستشهد في عهد النبيﷺ ، صلَبهُ أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فحولّ الله وجهه نحو القبلة، وفي استشهاده نزلت الآية.



١١٠١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة البلد﴾

١- في قوله تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ :قيل: نزلت في مكة البلد الحرام.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ :قيل: نزلت في الرسول ﷺ أُحلّ له أن يقاتل من يقاتله في مكة البلد الحرام، وقيل: فأمر بقتل ابن خطل، ومقيس بن صبابة وغيرهما، وأُحلَت له الكعبة ساعة من نهار ثم حُرِّمت إلى يوم القيامة، وكان ذلك في فتح مكة، وفي ذلك قال : «إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار».

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾: قيل: نزلت فى النبىّ ﷺ فهو الوالد، وولد أمته، وقال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم».

٤- وفى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ قيل: نزلت فى رجل من بنى جُمَح، كان يقال له أبو الأشدّين، وكان يجذبه عشرة يحاولون أن يزحزحوه من مكانه فلايستطيعون، وكان من أعداء النبىّ ﷺ، وفيه نزلت: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وكذلك كان ركانة بنى هاشم بن عبد المطلب مثلاً فى البأس والشدة، وكان أبو الأشدين يقول: أنفقت فى عداوة محمد مالاً كثيراً. وقيل: نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبىّ ﷺ، فأمره أن يكفّر، فقال: لقد ذهب مالى فى الكفّارات والنفقات منذ دخلت فى دين محمد، فكان يستطيل بما أنفق.

•••

١١٠٢- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الشمس﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢﴾: قيل: نزلت فى قُدار بن سالف، وكان أشقى ثمود، وهو الذى عقر الناقة، فلما عقرها أضيف جُرمه إلى الكل لأنهم رضوا بفعله.

•••

١١٠٣- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الليل﴾

١-فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾: قيل: اشترى أبو بكر من أمية بن خلف بلالاً فأعتقه، فنزلت ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾: قيل: نزلت فى أبى بكر، قال له أبوه: أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك يا بنى، فقال: يا أبت إنما أريد ما عند الله، فنزلت الآية.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾: قيل: نزلت فى أبى الدحداح، ولا ندرى من هو أبو الدحداح هذا سوى أنه من الأنصار، وأنه اشترى نخلةً من رجل خزرجى رفض أن يبيعها لجاره الأنصارى، وكان بلح نخلة الخزرجى يسقط فى دار هذا الجار الأنصارى فيتناوله صبيانه، فشكا الخزرجى إلى النبىّ ﷺ، فقال له: «تبيعها بنخلة فى الجنة»؟ فرفض، وسمع أبو الدحداح القصة، فذهب إلى الخزرجى يغريه بأن يبيعه النخلة ببستان له، فقبل، فذهب أبو الدحداح إلى النبىّ ﷺ يعرض عليه النخلة لقاء نخلة فى الجنة، فقبل النبىّ ﷺ وقال: «نعم والذى نفسى بيده»، فدعا النبىّ ﷺ الجار

الأنصارى فأعطاه النخلة، فنزلت الآية فى أبى الدحداح: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾، وفى الخزرجى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

٤-وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ قيل: نزلت فى أبى بكر، فلمّا أسلم بلال عذّبه المشركون، وبلال يقول: أحدٌ أحد، فمر به النبىّ ﷺ فقال: أحدٌ ينجّيك، وقال لأبى بكر: إن بلالاً يُعذّب فى الله»، فعرف أبو بكر ما يريده الرسول ﷺ، فانصرف إلى منزله، فأخذ ذهباً ومضى إلى أمية بن خلف ليشترى بلالاً منه، فاشتراه وأعتقه، وقال المشركون: ما أعتقه إلا ليد كانت له عنده، فنزلت الآية. وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبىّ بن خلف بلالاً فأعتقه، فنزلت: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾. وقيل: إن أمية بن خلف اشترط ليبيعه لأبى بكر أن يكون فى مقابله نسطاس عبد أبى بكر، وكان مشركاً ويصر على الشرك، فوافق أبو بكر، فقال المشركون: إن أبا بكر ما كان يتنازل عن نسطاس فى مقابل بلال، إلا لأن لبلال يداً عنده، فنزلت الآية.



١١٠٤- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الضحى﴾

١- قيل: اشتكى النبىّ ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين،، فأتت أمرأة، قيل هى أم جميل امرأة أبى لهب، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم أره يقربك منذ ليلتين أو ثلاث ـ فأنزل الله عز وجلّ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ السورة. وقيل: ابطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودّع محمداً ربّه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ السورة. وقيل: احتبس عنه الوحى اثنى عشر يوماً؛ وقيل: خمسة وعشر يوماً؛ وقيل: خمسة وعشرين يوماً؛ وقيل: أربعين يوماً. فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمرُه من الله لتابع عليه كما كان يفعل مع من كان قبله من الأنبياء. وعن خولة بنت حكيم وكانت تخدم النبىّ ﷺ، قالت: مكث نبىّ الله اياماً لا ينزل عليه الوحى، فقال: «يا خولة، ما حدث فى بيتى؟ ما لجبريل لا يأتينى؟» قالت خولة: لو هيأت البيت وكنسته! فأهوت بالمكنسة تحت السرير، فإذا جَرْو ميّت، فأخذته فألقته خلف الجدار، فجاء النبىّ ﷺ ترعد لحيتاه، وكان إذا نزل عليه الوحى استقبلته الرعدة، فقال: «يا خولة، دثرينى» فأنزل الله هذه السورة. ولما نزل جبريل سأله النبىّ ﷺ عن التأخر، فقال: أما علمت أنّا لاندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»! والحديث غريب وغير مقبول، فكيف يكون كلب ميّت تحت سريره وهو لايدرى؟ ألم ينتن وتصدر عنه رائحة كريهة يشمّها أصحاب البيت كلهم؟ ثم كيف يتأخر

مَلَك عن التبليغ؟ ولمَ لا يدخل البيت الذى فيه كلب أو صورة؟ ما تأثير ذلك عليه؟ وكيف هو مَلَك إذن؟! فمن مثل هذه الأحاديث يجب الحذر.

٢- وفي قوله تعالى: **﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾** قيل: قال ابن عباس: أُرى النبىّ ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده، فَسُرّ بذلك، فنزل جبيريل بقوله: **﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾**.

●●●

١١٠٥- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الشرح﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾**: قيل: نزلت فى خروج النبىّ ﷺ من مكة ودخولها فاتحاً، والخروج عسر، والدخول يسر.

●●●

١١٠٦- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة التين﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾**: قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة، أو كَلَدة بن أسيد، وكانا على هيئة حسنة ولكنهما كفرا فكان مخبرهما أسوأ مخبر.

●●●

١١٠٧- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة العلق﴾

١- فى قوله تعالى: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾** قيل: فى الصحيحين عن عائشة، قالت: إن النبىّ ﷺ فجئه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: **﴿اقْرَأْ﴾**، فقال: «ما أنا بقارئ»، قال: «أخذ فغطّنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: **﴿اقْرَأْ﴾**، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾**.

٢- وفى قوله تعالى: **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦)﴾**: قيل: نزلت الآيات من **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦)﴾** حتى **﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩)﴾** فى أبى جهل، ولأنه بعد الدعوة كان يؤذى النبىّ ﷺ ويأمره أن يكف عن الصلاة، وعلى ذلك **لا** تكون السورة كلها **أول ما نزل من القرآن**، ويجوز أن تكون الآيات الخمس **الأولى** هى أول ما نزل من القرآن، ثم نزلت بقية السورة فى شأن **أبى جهل**، وأمر النبىّ ﷺ بعد ذلك بضم هذه الآيات **الأربع عشرة** الأخيرة إلى الآيات الخمس الأولى، لأن تأليف السور كان يجرى بأمر الله، وحجة من قال بذلك أن الآية: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (٢٨١)﴾** (البقرة) كانت آخر ما نزل، ومع ذلك أُمر بضمها إلى ما نزل قبلها بزمان طويل.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠** ﴾ : قيل : كان رسول الله ﷺ يصلى فجاءه أبو جهل فنهاه، فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت فى أبى جهل، قال: إن رأيتُ محمداً يصلى لأطأنّ على عنقه!

٤- وفي قوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧** ﴾ (العلق): قيل: نزلت فى أبى جهل فى تكذيبه للنبىّ ﷺ وهو على الهدى ويأمر بالتقوى، وأبو جهل يكذّب، والآيات وإن كانت فى أبى جهل فإنها عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن طاعة الله.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨** ﴾ (العلق): قيل: أغلب سورة العلق نزل فى أبى جهل ابتداء من الآية السادسة: ﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦** ﴾. وقال أبو جهل ضمن ما قال لما سمع بما نزل فيه من القرآن: لئن رأيت محمداً يصلى لأطأن على عنقه. فقال النبىّ ﷺ : «**لو فعل لأخذته الملائكة عياناً**» أخرجه الترمذى. وعن ابن عباس: أن أبا جهل مرّ على النبىّ ﷺ وهو يصلى عند المقام، فقال له: **ألم أنهك عن هذا يا محمد!** فأغلظ له رسول الله ﷺ ، فقال أبو جهل : بأى شيء تهددنى يا محمد ؟! والله إنى لأكثر أهل الوادى هذا نادياً. فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨** ﴾.



١١٠٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة القدر﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١** ﴾: قيل: فى ليلة القدر أنزل القرآن، والقرآن كله كالسورة الواحدة ، قال تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۝١٨٥** ﴾ (البقرة)، وقال ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۝٣** ﴾ (الدخان)، قيل: فيها يقدر الله ما يشاء من الأمر إلى مثلها من السنة القادمة.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣** ﴾ : قيل: نزل الآية لبيان فضل ليلة القدر، وفضل الزمان يكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وما يوجد فى هذه الليلة لا يوجد مثله فى ألف شهر.



١١٠٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة البينة﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١** ﴾ : قيل : أهل الكتاب هم اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قريظة والنضير

وبنو قينقاع، والمشركون هم مشركو قريش، نزلت فيهم جميعاً. وقيل «المشركين» وصف أهل الكتاب أيضاً، لأنهم تركوا التوحيد، فالنصارى مُثَلِّثة، وعامة اليهود لايدعون إلى الله وإنما لشعب اليهود ويؤلهون جنسهم، والكل يشرك.

●●●

١١١٠- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الزلزلة﴾

١- في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ :قيل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ (الإنسان٨)، كان أحدهم يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر. فنزلت هذه الآية ترغّب الناس في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثر، وتحذّرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر.

●●●

١١١١- ﴿في أسباب نزول آيات سورة العاديات﴾

١- روى في نزولها : أن رسول الله ﷺ بعث سريةً إلى أناس من بنى كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان قد استعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصارى - وكان أحد النقباء، فقال المنافقون: إنهم قُتلوا ! فنزلت هذه السورة إخباراً للنبى ﷺ بسلامتهم، وبشارة له بإغارتهم على القوم الذين بَعَث إليهم.

●●●

١١١٢- ﴿في أسباب نزول آيات سورة القارعة﴾

١-في قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣﴾ قيل : نزلت في يوم القيامة والساعة.

●●●

١١١٣- ﴿في أسباب نزول آيات سورة التكاثر﴾

١- في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ قيل : نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بنى فلان، وبنو فلان أكثر من بنى فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلاّلاً. وقيل: نزلت في جماعة من الأنصار. وقيل: نزلت في حيين من قريش: بنى عبد مناف، وبنى سهم، تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حيٍّ منهم نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عائذاً، فكثر بنو عبد مناف سهماً، ثم تكاثروا بالأموات ، فنزلت الآية.

●●●

١١١٤- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة العصر﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ②﴾قيل: نزلت فى جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى، والأسود بن عبد يغوث. وقيل: يعنى بالإنسان جنس الناس.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾: قيل: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: هو أبو جهل؛ و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أبو بكر؛ و﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: عمر؛ و﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: عثمان؛ و﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: علىّ؛ والحق: هو الله.



١١١٥- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الهمزة﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ :قيل : نزلت فى الأخنس بن شُرَيق، وكان يلمز الناس ويعيبهم مقبلين ومدبرين. وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبىّ ﷺ من ورائه، ويقدح فيه فى وجهه. وقيل: نزلت فى أُبىّ بن خلف. وقيل: فى جميل بن عامر الثقفى. وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص.



١١١٦- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة الفيل﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾: قيل: نزلت فى أبرهة الأشرم الحبشى حاكم اليمن، وكان نصرانياً، وبنى كنيسة بصنعاء ينافس بها بيت العرب «الكعبة»، فلما سمع عربىٌّ بالقصة جاء وبال فى الكنيسة، فغضب لذلك أبرهة، وهو أمرٌ مستبعد، قيل: وجاء أبرهة إلى مكة يريد هدم البيت، واستحضر معه أفيالاً، وكان ذلك عام الفيل، وقيل: قبل مولد النبىّ ﷺ بأربعين سنة.



١١١٧- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة قريش﴾

١- فى قوله تعالى: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ①﴾ قيل : السورة متصلة بسورة الفيل التى قبلها فى المعنى، يقول : أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش، أى لتأتلف أو تتفق، أو لتأمن فتؤلف رحلتيها. والسورة نزلت فى أصحاب الإيلاف، وهم أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، وكلٌّ منهم كان يؤلف التجار المتوجهين إما إلى الشام أو الحبشة، أو اليمن أو فارس، فلا يتعرض لهم أحد ولذلك سموا المجيرين. وفى قريش قال

رسول الله ﷺ : فضلهم الله بسبع خصال، ومنها نزلت فيهم سورة لم يُذكر أحد فيها غيرهم.

•••

١١١٨- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الماعون﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ** ①﴾ قيل: نزلت في **العاص بن وائل السهمي**؛ وقيل: نزلت في رجل من المنافقين؛ وقيل: في الوليد بن المغيرة؛ وقيل: في **أبي جهل**؛ وقيل: في **عمرو بن عائذ**؛ وقيل: في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جزوراً، فطلب منه يتيم شيئاً، فقرعه بعصاه، فأنزل الله هذه السورة.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ** ④ **الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ⑤ **الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ⑥ **وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ⑦﴾ قيل: هؤلاء هم المنافقون، نزلت فيهم وعدّدت صفاتهم، وهي: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال.

•••

١١١٩- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الكوثر﴾

١- في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ③﴾: قيل: إن **العاص بن وائل** وقف من النبيّ يكلمه، فسأله جماعة من العرب: مع من كنت واقفاً؟ فقال هازئاً: مع ذلك **الأبتر!** يقصد النبيّ ﷺ، وكان قد توفي ابنه **القاسم**، وكان من **خديجة**. وكان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا: **بتر فلان**. فلما مات القاسم خرج **أبو جهل** إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾، يعني بذلك أبا **جهل**. وقيل بل هو **أبو لهب**، وقيل هو **عقبة بن أبي مُعَيْط**، فلما توفي ابن النبيّ ﷺ قالها: بترمحمد، فليس له من البنين من يقوم بأمره من بعده، فنزلت هذه الآية. وقيل: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ نزلت في قريش، فإنه لما أوحي للنبيّ ﷺ ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: انبَتّر منا محمد، يعني انقطع عنا واعتزلنا، فأخبر الله تعالى نبيّه أنهم هم المبتورون، ونزلت السورة. وقيل: كان نزولها في الحديبية حين حُصر النبيّ ﷺ عن البيت، وهو غير صحيح، لأن القاسم توفي في مكة قبل ذلك بسنوات في حياة خديجة.

•••

١١٢٠- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الكافرون﴾

١- في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ① **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ② **وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ③ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ④ **وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ⑤ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ⑥﴾ قيل: سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب،

وأمية بن خلف، لقوا رسول الله ﷺ، فقالوا : يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت بحظك منه، فأنزل الله السورة. وقيل: قالوا لرسول الله ﷺ : لو استلأمت (أى عبدت) بعض هذه الآلهة لصدّقناك، فنزل جبريل على النبىّ ﷺ بهذه السورة ، فيئسوا منه وآذوه وأصحابه. وقيل: قالوا: تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، وهكذا دواليك، سنةً سنةً. وقيل: قالوا نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة، ونزوّجكَ مَن شئت، ونطأ عقبك (أى نمشى خلفك)، وتكفّ عن شتم آلهتنا، فإن لم تفعل نعرض عليك خصلة واحدة، هى لنا ولك صلاح: تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة، ونحن نعبد إلهك سنة. فنزلت السورة. وقيل: قالوا كل ذلك أو بعضه فنزلت السورة.

●●●

١١٢١- ﴿فى أسباب نزول آيات سورة النصر﴾

١- فى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ قيل: نزلت فى فتح مكة، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله، ثم أمر بالسلاح فرُفع عنهم، فدخلوا الدين، ونزلت السورة. وقيل : لم يكن النبىّ ﷺ أشد اجتهاداً فى أمور الآخرة مما كان منه عند نزولها. ولما نزلت قرأها على أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس، فسأله النبىّ ﷺ : «ما يبكيك ياعم؟» قال: «نُعيتْ إليك نفسُك» قال: «إنه كما تقول»، فعاش بعدها ستين يوماً، ما رئى فيها ضاحكاً مستبشراً.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ : قيل : نزلت فى أهل مكة كانوا يقدمون على النبىّ ﷺ أمة أمة، والأمة اربعون رجلاً، ويُسلمون.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ : قيل: نزلت فى أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه إياه،ونزل استغفاره تعبُّداً يجب إتيانه لا للمغفرة. وعن عائشة رضي الله عنها فى نزولها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، استغفره وأتوب إليه»، فقالت له: يارسول الله ، أراك تكثر من قول «سبحان الله وبحمده ، استغفره وأتوب إليه»؟ فقال: خبّرنى ربّى أنى سأرى علامة فى أمتى، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفره وأتوب إليه. فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

●●●

١١٢٢- ﴿في أسباب نزول آيات سورة المسد﴾

١ـ في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾: قيل: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء)، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «ياصباحاه!» فقيل: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فقال: «يابني فلان ﷺ يا بني فلان، يا بني فلان، يابني عبد مناف، يا بني عبد المطلب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ـ أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، فقال أبو لهب: تبّا لك! أما جمعتنا إلا لهذا ! ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾. وقيل: إن أبا لهب أتى النبيّ ﷺ، فقال: ما أُعطَى إن آمنت بك يا محمد؟ قال: «كما يعطى المسلمون»، قال: مالي عليهم فضل ؟! قال: «وأي شيء تبغي؟» قال: تباً لهذا من دين: أن أكون أنا وهؤلاء سواء! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾. وقيل: كان إذا وفد على النبيّ ﷺ وفدٌ ما أنطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ، ويقولون له : أنت أعلم به منا، فيقول لهم : إنه كذّاب ساحر، فيرجعون عنه ولا يلقونه، فأتى وفدٌ ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه، فقال لهم أبو لهب : إنّا لم نزل نعالجه ، فتباً له وتعساً، فأُخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فاكتأب لما سمعه، فأنزل الله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③﴾ قيل : لمّا أنذر رسول الله ﷺ عشيرته بالنار، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن اخي حقاً، فإني أفدي نفسي بمالي وولدي. فنزل : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ②﴾.

٣-وفي قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾: قيل : نزلت في امرأة أبي لهب، وكان اسمها أم جميل، فغيّر المسلمون اسمها إلى «أم قبيح»، وكانت عوراء، وتمشي بين الناس بالنميمة، وتعيّر الرسول ﷺ بالفقر، وتحمل الحطب على ظهرها رغم غناها لشدّة بخلها حتى عُيِّرت بالبخل. وكانت تحمل كل يوم الحَسَك والشوك وتطرحهما في طريق رسول الله ﷺ ، وقيل فيها حمالة الخطايا والذنوب، وكانت تحمل حطبها وتربطه إلى جيدها بحبل من ليف فنزلت الآية: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾.

والسورة إعجاز للنبيّ ﷺ ، فقد كان بوسع أبي لهب وامرأته بعد نزول السورة أن يظهرا كذب القرآن بأن يعلنا إسلامهما، لأن الحكم ببقائهما في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى أن ينتهي أجلهما، وشاء الله أن تموت امرأة أبي لهب بالحبل لما عثرت في حجر

فوقعت والتف الحبل الذى كانت تربط به الحطب حول رقبتها، وأما أبو لهب فأصيب بالطاعون بعد وقعة بدر، وخاف الناس أن يقتربوا منه لئلا يُعديهم مرضه، فتركوه ثلاثة أيام بلا دفن، ثم إنهم غسّلوه قذفاً بالماء من بعيد، واحتملوه بِفَرشته إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار وردموا عليه بالحجارة.

●●●

١١٢٣- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الإخلاص﴾

١-في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ قيل: نزلت جواباً لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله ﷺ: صف لنا ربّك (او انسب لنا ربّك؟ أمن ذهب هو، أم من نحاس، أم من صُفْر؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

●●●

١١٢٤- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الفلق﴾

١- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾: قيل: إن النبيّ سحره يهودى من يهود بنى زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث، إلى أن جاءه مَلَكان واستخرجا السحر من بئر. فأنزل الله عليه المعوذتين، فكلما قرئت آية انحلّت عقدة من السحر حتى انحلت العقدة الأخيرة. وهذه الأحاديث كاذبة، والنبيّ ﷺ عصمه الله من الناس كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧)﴾ (المائدة)، وكيف يؤتمن على الرسالة وهو يُسَحر ويتلاعب به أمثال لبيد بن عاصم؟ وإنما هذه الروايات وأمثالها من **الإسرائيليات** لإظهار اليهود بمظهر المهيمنين على **الإسلام**، فالذى تنبأ بولادة النبيّ العربى **يهودى!** والذى رآه لأول مرة قادماً المدينة **يهودى!** وموسى هو الذى تولى إرشاده فى المعراج! والذى سحره **يهودى!** والتى حاولت قتله **يهودية**، ومات وهو مدين **ليهودى**، وكل ذلك من الإسرائيليات، فاحذر يا أخى، واحذرى يا أختى: **الغزو الدينى اليهودى**. وإنما كانت المعوذتان بديلين للرُّقَى التى كانت منتشرة فى الجاهلية، فنزلت لكى تحلّ محل هذه الرقى، ويتعوّذ بهما المتعوّذ من نفسية الحاسد أو العائن أو الساحر، وليس لأن القرآن يقول بالحسد والعين والسحر، فالاعتقاد فى ذلك من الشرك الخفى، فكأنك تعتقد أن الساحر أو الحاسد يشارك الله فى تحديد مصائر العباد؟!

●●●

١١٢٥- ﴿في أسباب نزول آيات سورة الناس﴾

١- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ قيل : السورة نزلت للتعوّذ مما يُحدّث به الإنسان نفسه، أو يُحدّثه به الناس والشيطان، من الشرور والآثام، وشيطان الجن يوسوس في الصدور، وأما شيطان الإنس فيوسوس في العلن.

●●●

تمّ بحمد الله ومنّته الباب التاسع عن أسباب نزول آيات السور،

ويليه إن شاء الله الباب العاشر في النسخ في القرآن.

●●●

الباب العاشر

﴿النّسخ فى القرآن﴾

١١٢٦ - ﴿النسخ ما هو؟ ولماذا اختلاف المسلمين فيه؟﴾

يروّج المستشرقون والمبشّرون الأكاذيب حول النسخ، بدعوى أن المسلمين مختلفون إزاءه، فإذا كانت آيات القرآن يمكن أن ينسخ بعضها بعضاً، وأن تنسخ السُّنّة القرآن، فأى شىء يمكن أن يبقى بعد ذلك فى الإسلام؟ وهل تكون للقرآن مصداقية بعد ذلك إذا كان من الممكن أن يراجع الله نفسه فى حُكم من الأحكام قضى به فى آية، فيحلله فى أخرى؟ أو يقضى به الله فى آية فيحرّمه النبىّ فى حديث؟

وفى القرآن يقول الله تعالى: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾** (البقرة١٠٦)، وأصل النسخ من نَسَخ الكتاب أى نقله من نسخة إلى أخرى، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى عبارة أخرى، ولا ينصرف المعنى إلى محو الحكم بالكلية. وفى قوله تعالى: **﴿نُنسِهَا﴾** ادّعوا أن الله تعالى كان يُنسِى نبيّه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء. ومن ذلك قول المتقوّل: **إن نبيكم ﷺ قرأ قرآناً ثم نسيه!** وعن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبىّ ﷺ الوحى بالليل وينساه بالنهار!!

والذى أتاح مثل هذا التقوّل والتخرّص هم المدّعون، وللأسف الشديد فإن أغلبهم من المسلمين. والنسخ معقول مع ذلك، فالله تعالى قد يورد حكماً فى وقت من الأوقات لمصلحة للمسلمين، ومصالح العباد تتجدد مع الأزمان، وتختلف باختلاف الأحوال، وقد ينسخ الله تعالى الحكم الأوّل ويأتى بحكم جديد فيه مصلحة جديدة، ولا يمكن الطعن فى هذه الحالة بأن نسخ الحكم الأول لصالح الحكم الثانى إنما كان لحكمة لم تظهر لله تعالى إلا متأخرة، وأنها كانت خافية عليه، وأن علمه تعالى بالأشياء هو إذن علمٌ مؤقت، فالله تعالى أدرى بعباده وبما يصلحهم، وهو يقضى بما يكون مؤقتاً لصالح الناس، لينسخه من بعد بما هو أصلح لهم، والنسخ على ذلك لا يمكن أن يكون أصولياً بل فى الفروع، والنسخ فى آية النسخ يفيد حصول نوع خاص من النسخ دون غيره. وهناك فروق بين النسخ والتخصيص، فيحتمل أن ما نظنه نسخاً هو تخصيص وليس نسخاً، والنسخ كما قلنا هو «تحويل الحكم أو رفعه»، بينما التخصيص هو «قصر العام على قضايا خاصة». والنسخ لا يتناول العقائد وإنما فروع العبادات والمعاملات.

ومما يقال إنه نسخٌ من القرآن حُكماً وتلاوةً، ما روته السيدة **عائشة** قالت: كان فيما أنزل من القرآن «**عشر رضعات معلومات يحرمن**»، ثم نُسخن «**بخمس رضعات معلومات**»،

قيل: وتوفى رسول الله وهن فيما يُقرأ من القرآن، غير أنه لا الآية بقيت، ولا حكمها استمر، فسقط الدليل على النسخ فيها. وأما آية: **﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾** (المجادلة ١٢) فقد قيل إن آية: **﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** (المجادلة ١٣) قد نسختها، فى حين أن الحكم الثانى لم ينسخ الحكم الأول وإنما بينّة وفسّره. وأما آية: **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾** (البقرة ١٨٤)، فقيل إن الآية: **﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾** (البقرة ١٨٥) قد نسختها، وهذا غير صحيح، لأنه فى الآية الأولى تقدّر «لا» فيقال «لا يطيقونه»، والمعنى بذلك لا يصادم معنى الآية الثانية، لأن الأولى فيها تخصيص ليس فى الثانية.

وقد قيل إن بعض الآيات بقيت تلاوتها مع أن حكمها منسوخ، وذلك تلبيس على قارىء القرآن، ومحال على الله أن يشكك عباده. واستمرار الآية فى القرآن دليل على سريان حكمها. وفى الآية: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾** (البقرة)، قيل إن الآية: **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾**(الحج) قد نسختها، مع أن النص فى الأولى ينصرف إلى معنى يختلف عن المعنى الذى ينصرف إليه النص فى الثانية، فالعفو والصفح فى الأولى باعتبار أمانى أهل الكتاب، فلما أسفرت الحرب عن نفسها وبان الظلم وأُخرج المسلمون من ديارهم صار القتال واجباً ومشروعاً، فلا تناقض بين النصيّن ولكنهما متكاملان.

وفى الآية: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾** (البقرة ١٨٧) أن الجزء الأول فيه حظر فنُسخ بالجزء الثانى الذى فيه الإباحة، والحق أنه لا نسخ، لأن ما كان عليه الحال فى السابق لم يكن فيه تشريع، فكان الناس يسرفون على أنفسهم، فنزل التشريع بالتخفيف، فهو لم ينسخ أمرًا إلهيًا سابقًا.

وفى الآيات: **﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ**

أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾ (الصافات): قد يبدو أن الله قد أمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نسخ ما أمره قبل أن ينفذه، ولا نعتقد أن ذلك نسخٌ، لأنه لو كان كذلك لكانت له فائدة، وأما ولم تكن منه فائدة فقد يبدو أنه من العبث، وهو الشيء المحال على الله، فلا يمكن أن يأمر الله والداً أن يذبح ابنه! وكان على إبراهيم أن يعقل أنها رؤيا رآها، وتأويل الرؤى يتخالف عند الأشخاص، ولا تفسير للرؤيا بحذافيرها. ثم إن مفهوم النص لا ينصرف إلى أنه ذبح ابنه وإنما أنه قد همّ فحسب، ولذلك فلا نسخ هناك.

وكذلك القول بأنه في ليلة المعراج قد فرضت الصلاة خمسين صلاة ثم نسخت إلى خمس صلوات، فإنه استدلال باطل، لأن الخبر غير ثابت أولاً، وكثير من المسلمين ينكرون المعراج جملة، ويقولون أن حكاية الخمسين صلاة ومراجعة موسى للنبي ﷺ من اختراع القُصّاص، ومن الإسرائيليات، كمحاولة لإظهار هيمنة الدين اليهودي على الدين الإسلامي. ولا يفيد المسلمين أن يكون هناك حكم بخمسين صلاة ثم ينسخ بخمس صلوات فقط قبل أن يعلموا به! وكذلك فإن فرض الخمسين والرجوع فيه دليل على أنه لم يكن فرضاً عزماً، ومن ثم يسقط الزعم بالنسخ.

وإذا كان نسخ القرآن بالقرآن جائز عقلاً، فالقول بنسخ القرآن بالسُّنّة لا يجوز، فالله تعالى يقول: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾(النحل٤٤)، فوظيفة الرسول ليست أن ينسخ كلام الله وإنما ليبيّنه، ولو نسخت السنة القرآن لعادت على نفسها بالإبطال. والمنطقي أن القرآن ينسخ السُّنّة، والسُّنّة تنسخ السُّنّة، ومع ذلك فالنسخ عموماً ينفيه كثيرون أمثال أبو مسلم الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م) في كتابه «الناسخ والمنسوخ». وما اشتهر من آيات في النسخ ليست منه في شيء، كالآية: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ (البقرة ١١٥) لا تنسخها الآية: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ (البقرة ١٤٩)، لأن الآية الأولى تردّ على اليهود حين حوّلت القبلة إلى الكعبة، كقوله تعالى: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾ (البقرة ١٤٢)، وتفيد كذلك جواز التوجه إلى غير الكعبة وهو ما كان يفعله المسلمون في النوافل وعلى الدواب، وأما الآية الثانية فاستقبال الكعبة فيها من الفرائض،

أو أن الآية الأولى قد تكون خاصة بالتوجه فى الدعاء، والثانية قد تختص بالتوجه فى الصلاة، وعلى ذلك فلا تعارض بين الآيتين ولا نسخ.

ومن ذلك أيضاً الآية: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾** (البقرة)، فقد قيل تنسخها آيات المواريث والحديث «**لا وصية لوارث**»، والنسخ غير وارد لأن الأقربين الموصى بهم هم الذين حُرموا من الإرث، أو أن هذه الآية توصى بزيادة إرث من يحتاج من الورثة، كأن يكون زَمِناً، أو معَوقاً، أو مريضاً، أو صغيراً لم يبلغ الرشد. ثم إن الحديث من الآحاد، وحكم أحاديث الآحاد أنها ظنية، والظنى لا يقوى على نسخ القطعى وهو الآية.

ومن ذلك الآية: **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٨)﴾** (النساء)، قيل إن آيات المواريث تنسخها، مع أن الآية لا دخل لها بالمواريث وإنما تحضّ على إعطاء الحاضرين لقسمة التركة، من الأقارب واليتامى والمساكين، شيئاً منها، وهو تشريع له صورة الدوام.

ومن ذلك الآيتان: **﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾** (النساء)، قيل إنهما منسوختان بالآية: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾**(النور)، مع أن الآيتين الأوليين تخص الأولى النساء اللوطيات اللاتى يمارس الفاحشة مع بعضهن البعض، وتخصّ الثانية الرجال الممارسون للواط، ولا دخل للآيتين بالزنا، وعلى ذلك فلا نسخ بين الآيتين وبين الآية الثالثة.

وإذن تسقط دعاوى المدّعين بالنسخ بمعنى الرفع، ويتأكد أن النسخ كما جاء فى القرآن أنه استبدال حكم فى زمن وموضع معينين بحكم آخر مع استمرار الحكم الأول فى ملابساته التى صاحبت صدوره، ونفاذ الحكم الثانى فى ملابساته المستلزمة له كذلك. والذين اختلفوا فيه من المسلمين إنما كان إصرارهم عليه لقولهم أن من النسخ أن تنسخ الشريعة الحالية شريعةً قبلها، بمعنى أن المسيحية قد نسخت اليهودية، والإسلام قد نسخ المسيحية واليهودية معاً، ولكن اليهود أصروا على القول بإنكار النسخ، لأنهم بهذا الإنكار يرفضون الموافقة على أن المسيحية أو الإسلام قد نسخ ديانتهم. وإزاء ذلك أصرّ المسلمون على القول بالنسخ معاندةً لليهود، مع أن الإسلام لم ينسخ اليهودية فما تزال موجودة، ولم ينسخ المسيحية، والله يقول: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً**

وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ (المائدة ٤٨)، والآية إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما أنزله الله عليها من الشرائع المختلفة فى الأحكام، المتفقة فى التوحيد. والنسخ متعلّقه الأحكام، والأديان لا تلغى بعضها البعض لأن مدارها جميعاً التوحيد، وإنما التباين بينها فى الأحكام بحسب الأمصار والأزمان، والمسلمون على تفسير آية النسخ: بأن الله كان قد أحلّ زمن آدم أن يتزوّج الأخ أخته، ثم نسخ ذلك لمن جاء بعد آدم؛ وأحلّ لنوح أن يطعم لحم أى حيوان، ثم نسخ - لمن جاء بعده - الحلّ ببعضها وحرّمه. وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، فلما جاء موسى حرّمته شريعة التوراة. فالنسخ بهذا المعنى موجود كذلك فى اليهودية، إلا أن إنكار اليهود للنسخ كان على الخصوص زمن النبىّ ﷺ - وهو الزمن الذى تفجرّت فيه مسألة النسخ هذه وتصدّى المسلمون فيه للردّ عليهم بين مؤيد للنسخ ومنكر. وكان إنكار اليهود على تحويل القِبْلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فذلك ما غاظهم فى الإسلام، وأضجّهم منه، فأخذوا يلغون فى النبىّ ﷺ، ويهزأون بالإسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ**﴾ (البقرة ١٤٢)، والسفهاء هم اليهود، قالوا: ما لهؤلاء المسلمين يستقبلون تارةً بيت المقدس، وتارةً يستقبلون الكعبة؟ فكان جواب الله تعالى عليهم: ﴿**قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾(البقرة ١٤٢) يتضمن نفس الردّ السالف على النسخ: أنه تعالى المتصرّف وله الأمر كله، ولليهود قبلتهم التى يرضونها، وللمسلمين قبلتهم ولّاها الله لهم، وللنصارى قبلتهم، ولكل ملة شرعة ومنهاج، أى سنن وطرائق، والله تعالى جعل الناس شعوباً وقبائل، ولو يشاء لجعلهم أمة واحدة، وبعث فى كل أمة رسولاً، وجعل لكل منها منسكاً هم ناسكوه، وهذا هو الإقرار بالتباين فى الإسلام، واحترام الغير، وكل ذلك يقوم عليه الإسلام ولا شىء منه فى اليهودية ولا النصرانية. وينبغى لأى حوار مع الآخر، أن يكون ذلك منطلقه، وأساس البلاغ له عن الإسلام، والدعوة إليه أن يقرّ بالحق، وأن يقول الصدق، وأن يقدر المِلَل أقدارها.

•••

١٠٢٧ - ﴿النسخ والبداء فى القرآن﴾

قال اليهود بالبداء، وقال به الرافضة، ولا بداء فى القرآن وإنما هناك نسخ، والنسخ لا يعنى المحو، ولكنه يعنى التبديل، فالله تعالى يقول: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ (البقرة ١٠٦)، وقال: ﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ**﴾ (النحل ١٠١)، فأما البداء فيعنى أن الله رأى شيئاً ثم بدا له فغيّر ما رأى، فكان النسخ بسبب البداء، فلولا أنه تعالى رأى

رأياً جديداً ما نسخ القديم وبدّله. والبداء من بدا بُدُواً وبداءةً وبداةً، أى نشأ له فيه رأى، وفي القرآن: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر). وقال: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا**﴾ (الجاثية ٣٣)، أى ظهر بعد ما كان مستتراً. وفيه أيضاً: ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴿٣٥﴾﴾(يوسف) يعنى نشأ لهم رأىٌ جديد، وهذا المعنى هو الذى يقصد إليه مصطلح «**البَدَاء**» عند اليهود والرافضة: أنه تعالى قد يرى رأياً جديداً يخالف رأيه الأول. ونسب الرافضة إلى أئمة كبار مثل **جعفر الصادق** أنه قال: «**ما بدا لله تعالى فى شىء كما بدا فى إسماعيل**»، يعنى أنه قد اختار فيه أولا أمراً ثم غيّره إلى آخر؛ ونسبوا إلى **موسى بن جعفر** أنه قال: **البداء ديننا ودين آبائنا فى الجاهلية**»؛ كما نسبوا إلى **علىّ بن أبى طالب** القول: **لولا البداء لحدّثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة**» ـ يعنى أنه قد يحدّثهم عن شىء يقع فى المستقبل، إلا أن الله قد يغير رأيه فيقع غير ما يحدّثهم ويبدو **علىّ** حينئذ وكأنه كذّاب. وكان الكذّاب **المختار الثقفى** المتوفى سنة ٦٧هـ (٦٨٧م)، يدّعى النبوة ونزول الوحى عليه، وأن الله تعالى يطلعه على الغيب فيحدّث الناس به، فكلما اختلف الأمر عمّا حدّثهم به اعتذر وقال: إن الله وعدنى ذلك غير أنه بدا له!

والقول بالبداء يستلزم أن الله **يجهل**، وأن علمه حادث، والجهل محال على الله لأنه نقص، وأدلة العقل والنقل كلها مع كمال علمه تعالى، كقوله: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي
٥٧،٣٢ الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾ (الحديد)، وقوله: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴿٨﴾﴾ (الرعد). و**الرافضة** قالوا بالبداء، فقد وافقوا بشدّة على النسخ وأدخلوه فى تفسير القرآن. و**اليهود** قالوا بالبداء لتبرير تغيير الشرائع السابقة على الموسوية بالشريعة الموسوية، فإن الله تعالى لمّا بدا له شيئاً آخر خلاف ما رأى سابقاً غيّره، فقبل موسى كان الرجل يجمع فى الزواج بين الأختين كما فعل إسرائيل، وكان يتزوج أخته كما جرى **لإبراهيم**، وبعد نزول التوراة حُرّم ذلك ونسخت أوامره الأولى، فلمّا قيل لهم إن المسيحية على ذلك تنسخ اليهودية، والإسلام ينسخ الشريعتين النصرانية واليهودية، أنكر اليهود إمكان نسخ اليهودية. وصرّح النصارى بإمكان ذلك ولكنهم رفضوا أن ينسخ الإسلام شريعتهم. ومدار النقاش فى اليهودية والنصرانية **النسخ** وليس البداء، وأما الرافضة فاعتقادهم كله يدور حول **البداء**. وعندما قال الإسلاميون بالنسخ برّروا قولهم بأن الأحكام والمصالح تختلف باختلاف الناس، وتتجدد

بتجدد أحوالهم وظروفهم. والنسخ عند الإسلاميين قوامه أن الله تعالى يعلم من قبل بالنواسخ والمنسوخات أو الأحكام وحُكمها، وبالعباد ومصالحهم، وأن كل ذلك كان ظاهرًا لديه لم يخف عليه شيء منه، كما في القول المشهور: **شئونٌ يبديها ولا يبتديها**. وشتّان بين النسخ المنوط بالحكمة ورعاية المصلحة وبين البداء الذى يستلزم الجهل المسبق واستحداث العلم. وتفيد الآية: **﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾** (الرعد): أن البداء وثبوت النسخ بمعنى من المعانى، فالمحو يتم بمشيئته، والإثبات يسير على إرادته، وهو تعالى فى الأديان يمحو شريعة ويثبت شريعة، وفى الأحكام يستبدل مصلحة فيها الخير بمصلحة أخرى أكثر خيرًا من الأولى، **والتغيير والتبديل والمحو والإثبات فى المعلوم لا فى العلم**، وفى المخلوق لا فى الخالق، وهذا هو اعتقاد المسلم سليم الإيمان.

•••

١٠٢٨- ﴿النسخ فى القوانين الوضعية وفى الشرائع السماوية﴾

النسخ جائز فى **القوانين الوضعية** عندما يتبين للمشرّع أن قانوناً من القوانين أو مادة من المواد لا تحقق المصلحة العامة، والمشرع حين يشرّع لا يعرف إلى متى سيستمر العمل بالقانون، ولا ما سيؤول إليه إذا تغير. وعكس ذلك فى **الشرائع السماوية**، لأن الله تعالى بسابق علمه يعلم ما سيبقى من الأحكام وما سيُنسخ، فالنسخ بيان الحال، وتقرير لما ينبغى، والنسخ جائز عقلاً ولا يترتب على وقوعه محال، وفى كل الشرائع قد يُنسخ حكم لمصلحة حكم، وبعض المسلمين قالوا بالنسخ، وأنه نُسخ فى الإسلام حكمٌ لصالح حكم، واعتبروا الشريعة الإسلامية ناسخة للشريعتين اليهودية والنصرانية، وأنكر بعضهم النسخ فى الشريعة الواحدة، واستقبحه - كما سبق - **أبو مسلم الأصبهانى** المتوفى سنة ٣٢٢هـ، وأنكر أن يكون فى القرآن آيات منسوخة، واستشهد بالآية: **﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾** (فصلت ٤٢)، ونسب إليها أنها تقرر أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً. وأما الذين قالوا به فكان دليلهم من القرآن قوله تعالى: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾** (البقرة١٠٦)، وقوله: **﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾** (الرعد)، وقوله: . **﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾**(النحل). والنسخ فى اللغة إزالة شىء بشىء، **وفى الاصطلاح** إزالة بعض الأوصاف من آية بآية أخرى، وفى **الحديث** إزالة بعض أوصاف الحديث بحديث آخر. وقيل: إن من المصطلحات فى النسخ التقييد والتخصيص والبيان: **فالتقييد** ناسخ للإطلاق؛ **والتخصيص** ناسخ للعموم، **والتفسير** ناسخ للإجمال. ولا يقع النسخ إلا مع **التعارض**، وليس كل

تعارض مسوغاً للنسخ، ونسخ القرآن لابد أن يكون بالقرآن، ونسخ السُّنّة بالسنة، والإجماع لا يُنسخ إلا بإجماع بعده، ولا ينسخه القياس. والقياس لا ينسخ نصاً. ولا يجوز نسخ الخبر، ولا آيات الوعد والوعيد لأنها أخبار، ولا الأحكام الشرعية والاعتقادية. ولا الأحكام الكلية، ولا الأحكام التي دليلها من القياس، ولا الحكم المؤقت، ولا المؤبد. ولا يُنسخ الحم الشرعي بحكم شرعي معه، ولا بحكم شرعي قبله. ولا يقبل الحكم العقلي النسخ، ولا يعتبر نسخاً لأنه ليس فيه رفعٌ لحكم شرعي. ولا مجال للنسخ إلا إذا كان الناسخ والمنسوخ به نقيضين، فإن كانا قطعيين فإن أحدهما ناسخ للآخر حتماً، وإن كانا ظنيين فأحدهما لابد يرجح على الآخر.

والنسخ في القرآن نوعان: ما نُسخ حكمه وبقي نظمه، وما نسخ حكمه ونظمه معاً. والمصنفون في النسخ كثيرون، على رأسهم قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٧هـ، وله فيه كتاب. حفظه عنه ابن أبي عروبة وألف بدوره كتاباً فيه. وللزهري كتاب «الناسخ والمنسوخ» رواه غيره فلم يعد لكتابة اعتبار. وكذلك لأبي النصر محمد بن السائب الكلبي. وأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي، والحسن بن واقد المروزي، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأبي نصر البصري، وحجّاج بن محمد الأعور، والقاسم بن سلام، وجعفر بن مبشر، وأبي داود السجستاني، وابن الجوزي، وهبة الله بن سلامة، والسيوطي، وأبي عبد الله بن حزم، وأبي جعفر النحاس، وابن سلام، وعبد القاهر البغدادي، وابن هلال، والاسفراييني، وابن خزيمة، والكرمي، والأجهوري.



﴿الآيات التي قيل إنها منسوخة وردّ هذا الزعم﴾

١١٢٩ - ﴿سورة البقرة﴾

• الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ (البقرة): قيل نسختها الآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران ٨٥)، والصحيح أن الآية محكمة ولم تنسخ، وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين.

• والآية: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة ٨٣) قيل: نسختها آية السيف، والآية في مكارم الأخلاق، وآية السيف تنافيها، لأن القتال أصلاً لم يُكتبَ على البشر إلا لإقرار مكارم الأخلاق.

• والآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ

أليم (١٠٤) ﴾ (البقرة): زعموا أنها منسوخة ولم يوردوا النصّ الذى نسخها، وقالوا إنها ناسخة لما كان مباحاً قوله، والصحيح أنها لا منسوخة ولا ناسخة.

● والآية: ﴿**فاعفوا واصفحوا**﴾ (البقرة ١٠٩): قيل: نسختها الآية: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون**﴾ (التوبة ٢٩)؛ وقيل: الناسخ له الآية: ﴿**فاقتلوا المشركين**﴾ (التوبة٥)، والصحيح أن الآية محكمة وغير منسوخة، وكان الرسول يدعو فى مجالس اليهود والمشركين، وأغلظ له عبد الله بن أُبىّ، فشكا الرسول ﷺ ذلك إلى عبد الله بن عبادة، فقال له عبد الله: بأبى أنت وأمى، اعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب بالحق، لقد جاءك بالحق الذى أُنزل عليك! فعفا عنه رسول الله ﷺ، ونزلت الآية، فلا تعارض إذن ولا نسخ.

● والآية: ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ (البقرة ١١٥): قال بشأنها ابن عباس: إن الآية منسوخة بقوله: ﴿**وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ (البقرة١٤٤)، فكأنه كان يجوز فى الابتداء أن يصلى المرء كيفما شاء ثم نسخ ذلك. والصحيح أن الآية لم تنسخ، وأنها متصلة بالآية قبلها: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾ (البقرة ١١٤)، والمعنى أن بلاد الله تسع المؤمنين، فلا يمنعهم تخريب مَن خرّب مساجد الله أن يولّوا وجوههم نحو قبلة الله أينما كانوا من أرضه، فإن له المشرق والمغرب والجهات كلها، فإذا مُنعوا من أن يصلّوا فى المسجد الحرام أو المسجد الأقصى فإن الأرض لهم مسجدٌ حيثما كانوا من شرق أو غرب، وذلك تسليةٌ بحلّ الذكر والصلاة فى جميع الأرض لا فى المساجد خاصة، وفى الحديث الصحيح: «**جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً**».

● والآية: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم (١٥٨)**﴾: قالوا: هى منسوخة بالآية: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه (١٣٠)**﴾ (البقرة)، ومنشأ دعوى النسخ هو: ﴿**فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾، فسّرها عروة لخالته عائشة: فما أرى على أحد جناحاً ألا يطوّف بهما، والصحيح ما ذكرته عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختى! إن هذه لو كانت كما أوّلتها عليه كانت: لا جناح عليه ألا يطوّف بهما. وقالت: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما. وأيضاً فإن قوله تعالى: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾ خبر مؤكد أريد به الأمر المؤكد. وقوله: ﴿**ومن تطوع خيراً**﴾ إشارة إلى أن السعى واجب عن تطوع بالزيادة عليه، فإن الله يشكر ذلك له. ولم يصحّ عن الرسول ﷺ أن الآية منسوخة، ولا مجال لادّعاء التعارض بين الآيتين، **ولا معنى لدعوى النسخ** إذن.

• والآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾: قيل نسختها الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة ١٦٠)، وهذا غير صحيح، لأن الآية الثانية استثناء ولا تعد نسخاً، بالإضافة إلى أن الآية خبر مؤكد لا يقبل النسخ.

• والآية: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ (البقرة ١٩٦): قيل: نسختها بقية الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، وهذا استثناء. ولا يعتبر نسخاً، والآية محكمة.

• والآية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾(البقرة ١٧٣): قيل نسختها بقية الآية: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وهي استثناء من الآية. ولا يعتبر نسخاً.

• والآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ (البقرة): قالوا هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(المائدة ٤٥)؛ وقيل: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣)﴾ (الإسراء). والصحيح أن الآية غير منسوخة، لأن آية البقرة تقرر حكم القصاص في الإسلام، وآية المائدة تحكي عمّا هو مكتوب في التوراة، فالمعقول أن آية البقرة هي التي تنسخ آية التوراة. وأما آية المائدة فهي مكية وسابقة على البقرة، فلا ينسخ المتأخر المتقدم. وهناك حقيقة تاريخية وهي أن الله تعالى لم يقض في حكم القصاص قضاء ثم نسخه، ولذلك فلا تعارض ولا نسخ.

• والآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾: قيل هذه الآية نسختها آية الفرائض. والصحيح أن آية الفرائض لم تنسخها، لأن هذه الآية عامة، وآية الفرائض خاصة. وقيل الحديث: «إن الله قد أعطى لكل ذي حقّ حقّه فلا وصية لوارث» نسخها، والحديث من أحاديث الآحاد ولا يمكن أن تنسخ السُّنّة القرآن، فالسُّنّة عملها شرح القرآن وبيانه وليس من ذلك أن تنسخه. وأوصى ابن عمر لأمهات أولاده لكل واحدة بأربعة آلاف، وأوصت عائشة لمولاة لها بأثاث البيت، وأهل الظاهر يمنعون الوصية بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة، وأجاز ذلك الكافة إذا أجازها الورثة وهو الصحيح، اعتماداً على الحديث: «لا تجوز الوصية لوارث إلا

أن تجيزها الورثة». غير أن مقتضى آية الوصية إيجابها لكل قريب، ومقتضى آيات المواريث منح بعض الأقربين حق خلافة الميت فى ماله دون بعضهم الآخر، فليس بين الآيتين إذن تعارض يسوغ النسخ، فما يزال دائماً بعض الأقربين تجب لهم الوصية بمقتضى الآية.

• والآية: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾(البقرة ٢٣٣): قيل نسختها بقية الآية: ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...**﴾ وهذا استثناء ولا يعتبر نسخاً، والآية محكمة.

• والآية: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)**﴾(البقرة): قيل الآية تتحدث عن المدين المعسر ووجوب إمهاله حتى يوسر، ولكن ذلك فى الدين الربوى. وقيل: إن الآية تنسخ بيع المدين المعسر فى دَيْنه وفاءً به، ويوردون قصة عن مدين أمر النبىّ ﷺ أن يباع فى السوق لصالح الدائن، وهذا لا يتفق مع ما يقرره الإسلام من كراهية الرق، والحرص على تحرير الرقيق، فكيف يتصور أن يكون من بين أحكامه هذا الحكم الذى يجعل الحرّ رقيقاً؟ فدعوى أن الآية نسخته لا أساس لها إذن ولا تُقبَل.

• والآية: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة ١٨٣) : قيل نسختها الآية: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ**﴾ (البقرة١٨٧)، لأنه إذا كان الصوم فى الإسلام تشبهاً بمن قبلنا، فإن ذلك يقتضى موافقة من قبلنا فى تحريم الوطء أيضاً بالإضافة إلى الأكل، فلما كان الوطء قد حُلّل فإن آية الرفث تكون ناسخة لتشبيه صيام المسلمين بصيام من قبلهم. والصحيح أن الآيتين محكمتان، وأن التشبيه بين صوم المسلمين وصوم غيرهم راجع إلى أصل وجوبه، لا فى وقته ولا فى كيفيته، ولذلك اختلف الصيامان فى كل شيء إلا الامتناع عن الأكل والشرب عموماً.

• والآية: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)**﴾: قيل الآية: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ منسوخة، ونسختها الآية بعدها: ﴿**وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾. والصحيح أن آية: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ ليست بمنسوخة، وتخصّ الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعما مكان كل يوم مسكيناً. وقوله: ﴿**يُطِيقُونَهُ**﴾ فيه رأيان، فيجوز أن يعود الضمير فى ﴿**يُطِيقُونَهُ**﴾ على الصيام، ويصبح المعنى وعلى الذين يطيقون الصيام أن يطعموا إذا أفطروا لأى سبب، وعلى ذلك فإن: ﴿**وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ نسختها؛ والصحيح أن: ﴿**وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ فيها تخيير، والخير أن تصوموا طالما تطيقون

الصوم، فكأنه لا نسخ هناك وإنما شرح وتفسير وبيان. ويجوز أن يعود الضمير فى ﴿**يُطيقُونَهُ**﴾ على الفداء، فيصبح المعنى وعلى الذين يطيقون الفداء فدية، قيل: فنسختها الآية: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ (البقرة١٨٥)، والصحيح أنها لم تنسخها، حيث الأصل فى رمضان الصيام، وإنما يُرخّص للشيوخ والعجزة خاصة، أن يفطروا وهم يطيقون الصوم. والإجماع على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة، أن يفطروا وعليهم الفدية، وهؤلاء ليس حالهم كحال المرضى والمسافرين، كقوله: ﴿**وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ (البقرة ١٨٥)، والمريض والمسافر يقضيان، وأما الشيوخ والعجزة فلا يقضيان وعليهم الفداء كل يوم بإطعام مسكين.

• والآية: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة١٩٠): قالوا إن الآية منسوخة فى موضعين، **أولهما**: الأمر بقتال من يقاتلوننا دون غيرهم، وقد نسخته الآية: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ (البقرة١٩١)، والآية: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (التوبة٢٩)، والآية: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ (التوبة٣٦)، والآية: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾ (التوبة٥)، وهى المعروفة بآية السيف؛ **وثانيهما**: النهى عن الاعتداء، والناسخ له الآية: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ (البقرة١٩٤)، والصحيح أنه لاتعارض ولانسخ، فقد أُمرنا فى هذه الآيات أن **نقاتل من يقاتلنا**، ونُهينا عن مقاتلة غيرهم، وهو المراد من قوله تعالى «**لاتعتدوا**»، فالقتال مسموح به لمن يقاتلوننا فحسب، وقتال غيرهم اعتداء وتجاوز للضرر المسموح به. والنهى جاء عن قتل النساء والصبيان والرهبان والشيوخ من الأعداء، لأن قتلهم لايسوغ من المؤمنين. والمراد **بالذين يقاتلوننا** هم الذين يشتركون فى القتال، **والنهى** هو نهىٌ عمّن سواهم، وهم الذين ليس من شأنهم أن يحملوا السلاح أو يشتركوا فى المعارك، ومن ثم فإن **القول** بعدم قتل المدنيين من **اليهود هو تفسير خاطىء، لأن كل يهودى وإن كان مدنيًا فإنه جندى احتياطى فى الجيش اليهودى** ضد المسلمين. وتعبير الذين **يقاتلونكم** لايعنى أنهم قد قاتلوا بالفعل، ولايعنى أننا لانقاتل إلا إذا بدأونا بالقتال، فطالما هو **عدو** فقتاله واجب، **ومباغتته** أوجب. والنهى عن الاعتداء هو أن لا نقتل النساء غير المحاربات، يعنى العجائز، لأن نساء إسرائيل الشابات جميعهن فى الجيش. والذى تأمر به الآية ليس **اعتداء**، وإنما هو **انتصار** للحق والعدل، **وردّ على الاعتداء**، وسُمى اعتداء من باب المشاكلة، وعلى ذلك **فالآية غير منسوخة**، والآيات الأخرى تفسّرها وتكمّلها.

● والآية: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾(البقرة١٩١): قيل: الآية منسوخة بآية السيف التي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة٥)، والآية: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(البقرة١٩١)، والصحيح أنه لانسخ، لأن الآية تنهى عن مقاتلة الكفّار عند المسجد الحرام إلا إذا بدأوا بالقتال، والآية الثانية والثالثة تعنيان أنهم إذا بدأوا بالقتال فاقتلوا المشركين أنّى وجدتموهم سواء فى المسجد أو فى غير ذلك. ثم إن آية: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ خاصة، وآية: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ عامة، والعام لاينسخ الخاص.

● والآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(البقرة١٩٤): قيل: إن المنسوخ فيها هو«الحرمات قصاص» فليس لأحد أن يقتص من أحد إلا بالسلطان، غير أن السياق ليس فيه هذا المعنى، وقد قيل إن ابن عباس هو الذى قال به، ولم تُعرف صحة هذا الكلام، والمعنى الصحيح للآية أن المسلمين وقد منعوا فى الحديبية من دخول الحرم قد عوّضهم الله عنه بدخولهم فى المرة الثانية عوضاً عمّا منعوا فى مثله فى العام الماضى؛ والحرمات هى: حُرمة الشهر، وحرمة البلد الحرام، وحُرمة الإحرام، والآية إذن ليست منسوخة. وقيل: إن الآية نسختها الآيات التى تأمر بالقتال، كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة٣٦)، وقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ (التوبة١٢٣)، وقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ (التوبة٢٩)، والصحيح أن حُكم الآية لايقبل الإلغاء، ولايعارض ما تقرره تلك الآيات، ولامعنى للنسخ.

● والآية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (البقرة١٩٦): قيل: إن الآية تنسخ ما كان يعتقده الناس فى الجاهلية، من أن العمرة لاتجوز فى أشهر الحج، والصحيح أن الآية لم تنسخ شيئاً، لأنها تشرّع حُكماً فى الحج لم يُسْبَق، بُحكم يخالفه، وما دام للشارع فى الموضوع حُكمٌ واحد، فكيف يكون ناسخاً؟ وما الحُكم الذى نسخ بهذا الحُكم؟

● والآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة٢١٥): قالوا: الآية فى الزكاة المفروضة ثم نسخ منها الوالدان. وقيل: الزكاة غير هذا الإنفاق، فعلى هذا لا نسخ فى الآية لأنها مبينة لمصارف صدقة التطوع.

● والآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾(البقرة٢١٦): قيل: هى ناسخة لحظر القتال عليهم وما أمروا به

من الصفح والعفو بمكة. وقيل: هى منسوخة بالآية: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ (التوبة١٢٢)، وهذا ليس صحيحاً، لأنه ليس فى هذا القول نسخٌ لفرض القتال. والآية من المنسأ لا من المنسوخ، والمنسأ:ما أُمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حيث الضعف والقلة، بالصبر والمغفرة؛ وأما المنسوخ: فهو ما أزيل حكمه حتى لايجوز امتثاله أبداً؛ فالحكم المنسأ هو الذى يدور مع علّته وجوداً وعدماً، كالنهى عن ادخار لحوم الأضاحى من أجل المجاعة، وأما الحكم المزال أبداً فهو المنسوخ. وهذه الآية ليست منسوخة الحكم، ولا هى ناسخة لحكم قبلها.

• والآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾(البقرة ٢١٧): قيل: نسختها الآية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾(التوبة٣٦). وقيل: نسخها غزو النبى ﷺ ثقيفاً فى الشهر الحرام وإغزاؤه أبا عامر إلى أوطاس فى الشهر الحرام. وقيل: نسختها بيعة الرضوان على القتال فىذى القعدة .وهذا غير صحيح لأن النبى ﷺ لما سمع عن موقف المسلمين فى مكة، بايع المسلمين على دفع الكفّار لا على الابتداء بقتالهم. وآية الشهر الحرام تؤكد على أن الشهر الحرام حرامٌ فيه القتال كما كان، غير أن ما يستحلونه من المسلمين أكبر من ذلك، من صدّهم عن سبيل الله حين يحبسونهم ويعذّبونهم حتى لايهاجروا، وصدّهم للمسلمين عن المسجد الحرام، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين، وفتنتهم إياهم عن الدين، فنزلت: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ①﴾ (التوبة) والآية لذلك محكمة، والقتال غير جائز فى الأشهر الحرام.

• والآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾(البقرة ٢١٧): وقد ادّعوا النسخ على هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة ٣٦) أو بآية السيف(التوبة ٥)، أو بآية القتال لأهل الكتاب حتى يعطوا الجزية (التوبة ٢٩). والشهر الحرام فى الآية هو رجب، والقتال محرمٌ فيه، والآيات التى قيل إنها ناسخة للآية لم تشرّع القتال فى كل زمان، فلا تعارض بينها وبين الآية التى تحرّم القتال فى الأشهر الحرام، فلا نسخ.

• والآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة٢١٩): قيل: نسختها آية الزكاة المفروضة، ونسخت كل صدقة أُمروا بها، والصحيح أنها محكمة، فلا تعارض بين هذه الآية ـ وبين آية الزكاة المفروضة، ففى المال حقٌ سوى الزكاة.

• والآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(البقرة ٢١٩): قيل: نسختها الآية: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (المائدة

٩٠)، كما نسخت الآية: ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ (النساء ٤٣) والصحيح أنها لم تُنسخ لأن هاتين الآيتين لا يتعارضان معها.

• والآية: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن** ﴾ (البقرة ٢٢١): قيل نسختها الآية: ﴿**والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان** ﴾ (المائدة٥). وقيل: آية البقرة هي التي نسخت آية المائدة وهذا خطأ، لأن آية البقرة عامة، وآية المائدة خاصة، ولا يجوز أن ينسخ العام الخاص؛ وأيضاً فإن سورة المائدة لاحقة على سورة البقرة، ولا يجوز أن ينسخ السابق اللاحق؛ وآية سورة البقرة عن نكاح المشركات، وآية سورة المائدة عن نكاح الكتابيات. والمهم أن الآيتين لا يتعارضان، وكلاهما له موضوعه، والمشركة ليست هي الكتابية، ومن الصحابة كثيرون تزوجوا كتابيات، ومنهم النبيّ نفسه ﷺ، تزوج صفية بنت حُيي، وكذلك: عثمان، وطلحة، وابن عباس، وجابر، وحذيفة، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، والشعبي، والضحّاك. وإذا كان عمر قد فرّق بين طلحة وحذيفة وبين الكتابيتين، إلا أنه لم يكن يعتبر الزواج من الكتابية حراماً، ولكنه كما قال: «**أخاف أن تتعاطوا المومسات منهن**»، والآية فيها من ذلك الخوف التحذير من غير المحصنة، ومن التي لها خدن أي صاحب، فكأن ذلك الداء في الكتابيات من زمن بعيد وليس ابن الحاضر.

• والآية: ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ (البقرة ٢٢٢): قيل: إنها منسوخة بالسُّنَّة، وكانت الآية تقتضي مجانبة الحائض على الإطلاق كما يفعل اليهود، والنبيّ ﷺ أباح الاستمتاع بالحائض دون الإزار أي أحلّ كل شيء إلا النكاح، والصحيح أن السنة لا تنسخ القرآن، والآية ليست منسوخة بآية أخرى من القرآن، والمقصود بهذه الآية تغييرما كان عليه اليهود من عدم مساكنتهم الحائض، وعدم مؤاكلتها ومشاربتها، وما كان حكماً يناقض شريعة اليهود ليس نسخاً، لأن ما كان عليه اليهود ليس حكماً إسلامياً قد كُلِّف به المسلمون وأزالته الآية.

• والآية: ﴿**وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا**﴾ (البقرة ٢٢٨): قيل: نسخها قوله تعالى: ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره** ﴾ (البقرة ٢٣٠)، وهذا غير صحيح، لأن الآية الثانية فيها تخصيص وليست نسخاً، فخصّصت الذين يحق

لهم أن يراجعوا زوجاتهم، بأنهم الذين طلقوا مرتين أو واحدة، بعد أن كان عموم قوله: **﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾** شاملاً لكل مطلق ولو ثلاثاً.

• والآية: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا﴾**(البقرة ٢٢٩): قيل: نسختها بقية الآية: **﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾**، وهى استثناء ولا يعتبر نسخاً، والآية محكمة.

• والآية: **﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾** (البقرة ٢٣٣): قيل: الوارث هو الذى تئول إليه مسئولية الصبى إذا مات أبوه، من الرجال أو من النساء: ويلزمهم نفقة إرضاعه وإعالته، والمراد بهم عُصبة الأب، ومن رأى البعض أن الآية منسوخة بوفاة الأب فلا تجب النفقة على الوارث، لأن ماله يوزّع على الورثة بوفاته، وينال الطفل نصيبه منه، فتكون إعالته على نفسه من ماله، وماله أولى به، والصحيح أن الآية لم تنسخ، فمع أن النفقة تكون من مال الصغير، إلا أنه وأمه لو كانا محتاجين، فإن ما يحتاجانه يجب على كل ذى رحم، وهو الوارث أى عصبة الأب، وصرف النفقة إلى ذى الرحم أولى، وفى الحديث: «**اجعلها فى الأقربين**».

• والآية: **﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦)﴾** (البقرة): قيل: إنها منسوخة، وقيل فى الردّ على ذلك أن الأمر بالمتعة للوجوب يقضى بها فى مال المطلق لكل مطلقة، وقيل ليس عاماً فى كل مطلقة، لأن التى لم يُدخل بها لا متعة لها، وقيل هى حق لكل مطلقة، ولكن منها ما يُقضَى به عليه، ومنها ما لا يقضى به عليه ويلزمه فيما بينه وبين الله؛ وقيل: الأمر بالمتعة ندب وليست المتعة واجبة؛ وقيل المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول إذا لم يكن قد سُمِّى لها صداق، فإن سُمِّى لها فلها نصف المسمَّى، وإن دخل بها فلها مثلها، ولا تجب لها فى الحالين متعة، فأين هو النسخ إذن؟

• والآية: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾**(البقرة ٢٣٨): قيل عن البراء بن عازب: إن هذه الآية نزلت أولاً بهذه الصيغة: «**حافظوا على الصلوات وصلاة العصر**». فظل الناس يقرأونها ما شاء الله، ثم نسخها الله فنزلت: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾**، فقال رجل: هى إذن صلاة العصر؟ ولا دليل على هذا القول مع أنه اختيار «**مسلم**» وأتى به فى آخر الباب، ولو كان صحيحاً لما تعارضت الأدلة، ولما كان عدم الترجيح، فلا يبقى إذن إلا أن نقول إنها **الصلوات جميعها**، فيجب المحافظة عليها **جميعها**، وأداؤها فى أوقاتها.

● والآية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة ٢٤٠): قيل: نسختها الآية قبلها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة ٢٣٤)، ولا يوجد فى القرآن ناسخ يتقدم المنسوخ، هذا أولاً، ثم ثانياً: الآية الأولى خاصة بعدّة المتوفى عنها زوجها، والثانية خاصة بإخراج التى يتوفى عنها زوجها من بيت الزوجية، فلا تعارض بين الآيتين ولا يوجد ناسخ ومنسوخ. وقيل: نسختها آية الميراث: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ (النساء ١٢)، وهذه الآية فى الميراث، وأما الآية الأخرى فعن النفقة، وآية الميراث لا تنسخ آية النفقة، فالميراث والنفقة كلاهما حق ثابت للمرأة.

● والآية: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾: قيل: إنها محكمة، فالمتعة حق لكل مطلقة، وليس لها حدّ، واستثنى المطلقة التى لم يُدخل بها فليس لها متعة لأن لها نصف صداقها، فإن لم يكن قد سُمِّى فمتعتُها أقل من صداق المثل أو أكثر.

● والآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة٢٥٦): قيل: نسختها الآية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (التوبة ٢٩)، والصحيح أنه لا تعارض بينهما، ولم تنسخ أىٌّ منهما الأخرى، فالآية الأولى تحرّم إكراه الناس على الدخول فى الإسلام، وفى أى دين أو معتقد؛ والآية الثانية نزلت فى قتال المشركين وغيرهم ممن كان لهم حق دخول المسجد الحرام للتجارة أو لغير ذلك، فحظرت عليهم أن يقربوا المسجد من بعد، وأمرت بقتالهم إذا عادوا لذلك، وتعرضت لأهل الكتاب وأوجبت قتالهم إذا أصروا على الاستعلاء على المسلمين ولم يدينوا بدين الحق، فقد حرّفوا دينهم، وانحرفوا عن الجادة فيه وأرادوا معايشة المسلمين بلا كلفة أمن منهم، فَفُرضت عليهم الجزية مقابل ما يتكلفه المسلمون حمايةً لهم، ومقابل ما يدفعه المسلمون من زكاة لم تفرض إلا على المسلمين، والجزية إذن هى المقابل للزكاة وكُلفة الأمن، ومقدارها أقل بكثير من الزكاة ومن كلفة الأمن. والمبدأ العام فى الإسلام أنه لا إكراه فى الدين، **والعبرة فى النصّ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**، ولفظ الآية عام فى نفس جنس الإكراه، وتُقرر الآية مبدأ لا ينبغى أن يُدَّعى عليه النسخ، لأنه من المبادىء التى يعتز بها الإسلام، وهو الدين الذى حرر الناس، وخلّصهم من الهوى والتقليد، وعلّمهم أن يلجأوا إلى العقل.

● والآية: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (البقرة ٢٧١): قيل: إن الآية ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (البقرة ٢٧٤) نسخت هذه الآية، وليس ذلك بصحيح فالآية ٢٧٤ عامة، والآية ٢٧١ فيها تخصيص أكثر.

• والآية: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)**﴾ (البقرة): قيل: نسختها آية الصدقات: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)**﴾ (التوبة)، والآيتان لا تتعارضان وليس ثمة نسخ إذن.

• والآية: ﴿**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ**﴾ (البقرة ٢٨٢): قيل: نسختها الآية التي بعدها: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾، وهذا لا معنى له، لأن حُكم الآية الأولى بخلاف حُكم الآية الثانية، وحُكم الأولى الكتابة، وحُكم الثانية من لم يجد كاتبٌ، بقوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾ (البقرة). وقيل: إن قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا**﴾ وردت مع الأمر بالإشهاد: ﴿**وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾، ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معاً جميعاً في حالة واحدة.

• والآية: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ**﴾ (البقرة ٢٨٤): قالوا: اشتكى الصحابة إلى رسول الله ﷺ هذه الآية، وأن يُحاسَبوا على الوسوسة، فنزلت آية: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ (البقرة ٢٨٦) تنسخ الآية السابقة. والصحيح أن الآية لم تُنسخ، فلا يلزم من المحاسبة المعاقبة، والله قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، وتشرحها الآية الثانية التي مفادها أن العباد لا يُحاسَبون إلا على ما كان في وسعهم، وأعمال القلب يصدق عليها الحديث: «**وإن هَمّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة**»، والحساب إذن على ما يهمّ به من سيئات ويعمله أو يقصر عن عمله قسراً عنه لظروف خارجة عن إرادته، وفي الحديث: «**إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، والاستكراه**»، وفي القرآن: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)**﴾ (النجم) يعني ما انتواه وجهد إلى تحقيقه، فهذا ما يُحاسَب عليه، وإن انتوى شيئاً ولم يجهد إلى تحقيقه فقد يُحاسَب عليه ويُسأل ولكن لا يُعذّب، وكذلك ما يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها ويكرهه منها فهذا لم يكلف به، والحساب لا يكون إلا عن الأعمال التي تدخل تحت التكليف. وعلى ذلك فالآية من المحكم ولم تنسخها آية أخرى.

•••

١١٣٠- ﴿سورة آل عمران﴾

• الآية: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ**

اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) (آل عمران):
قيل: إن دعوى النسخ على قوله عزّ وجلّ: **﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾**. وقيل: إنها نسخت بآية السيف، فلا تُقاة من مشركين بل قتال معهم. وقيل: إن المراد من الآية جواز اتقاء العدو إذا أُكره المؤمن على الكفر، بالقول الذى لا يعتقده، وهذا الحكم باق غير منسوخ، فالتَّقيّة باللسان مَن حُمِل على أمر يتكلم به وهو معصيةٌ لله، فتكلم به مخافة الناس، إلا أن قلبه مطمئن بالإيمان، فإن ذلك لا يضرّه. وقيل: **التَّقيّة لم تنسخ، وهى جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة.**

● والآية: **﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾** (آل عمران ٤١): قيل: إن الحديث: «**لا صَمتَ يوماً إلى الليل**» قد نسخ هذه الآية، ونسخ إباحة الصمت، ولا تنسخ السّنّة القرآن، ثم إن الآية خبر، **والخبر لا يقبل النسخ**، وما تقرره الآية إنما هو ما قضى الله به على نبيّه زكريا: أنه سيرزقه بيحيى رغم أن امرأته عاقر، فكيف يكون هذا منسوخا؟.

● والآية: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾** (آل عمران ٨٦): قيل: نسختها الآية بعدها: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾** (آل عمران ٨٩)، وهى استثناء ولا تعتبر نسخاً، **والآية على ذلك محكمة.**

● والآية: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾** (آل عمران ٩٧): قيل: تدل الآية على وجوب الحج على جميع الناس، الغنى والفقير، والقادر والعاجز، ثم نسخ ذلك فى حق عديم الاستطاعة ببقية الآية: «**من استطاع إليه سبيلاً**» وهذا غير صحيح، لأن تقدير الآية: ولله على من استطاع من الناس الحج ـ أن يحج، **وإذن فلا نسخ.**

● والآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾**:
قيل: لمّا نزلت هذه الآية قالوا: يارسول الله، من يقوى على هذا؟ وشقّ عليهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾** (التغابن ١٦) فنسخت هذه الآية، وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذه الآية. والصحيح أن آية سورة التغابن بيانٌ لآية سورة آل عمران ولم تنسخها، والمعنى: فاتقوا الله حقّ تقاته ما استطعتم. وإذن فالآيتان يمكن الجمع بين معنييهما، وما كان من الممكن الجمع بين معانيه فليس فيه نسخ، لأن النسخ لا يكون إلا عندما لا يمكن الجمع بين الناسخ والمنسوخ.

● والآية: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾**:
قيل: إن النبىّ ﷺ فى أُحد لمّا كُسِرت رباعيته وشُجّ فى رأسه فجعل يسلت الدم، قال:

«كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟». والرَّباعية: السن التى بين الثنية والناب. فهَمّ أن يدعو عليهم، فأنزل الله الآية، فلمّا نزلت الآية علم أنهم سَيُسْلمون من بعد، وقد أسلموا، ومنهم **خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل**. ولمّا أطُمع فى ذلك قال: «**اللهمّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**». وقيل: إن هذه الآية ناسخة للقنوت الذى كان النبيّ ﷺ يلعن فيه بعض أعدائه بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح. وليس هذا موضع نسخ، وإنما نبّه الله تعالى نبيّه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أعلمه به الله، **فلا نسخ**.

• والآية: **﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** (آل عمران ١٥٩): قيل: نسختها **آية السيف**، وهذا غير صحيح، لأن الآية عن النبيّ ﷺ مع المؤمنين بعد أُحد، ولا قتال مع المؤمنين، والكلام مع هؤلاء بالقول الحسن. والآية فى وصف أخلاق النبيّ ﷺ ولا ينافيها ما تأمر به آية السيف من القتال، فإنما شُرّع القتال لإحقاق الحق وإعلاء الفضائل والقيم ومكارم الأخلاق.

• والآية: **﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)﴾**: قيل: إن **آية القتال** نسخت هذه الآية. والأظهر أنها ليست بمنسوخة، فإن الجدال بالأحسن، والمدارة أبداً، مندوب إليهما، وكان النبيّ ﷺ مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويداريهم ويصفح عن المنافقين. ثم إن الصبر المطلوب فى الآية والذى يقال إنه نُسخ هو صبر على سماع الأذى، فهل ذلك خطأ؟ أليس القتال محتاجاً دائماً للصبر؟



١١٣١- ﴿سورة النساء﴾

• الآية: **﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾** (النساء ٢)، قيل: إن النهى فيها عن أكل أموال اليتامى بضمها إلى أموالهم قد نُسخ، وأن ناسخه قوله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾** (البقرة ٢٢٠). وقيل إن الآية: **﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾** نزلت عندما نزلت آيتان أخريان هما قوله: **﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** (الأنعام ١٥٢)، وقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾** (النساء)، فهل نُسخت هاتان الآيتان أيضاً بآية البقرة؟وقيل: الآية لا يجوز فيها ناسخ ولا منسوخ، لأنها خبر ووعيد ونهى عن الظلم

والتعدى، فمحال نسخ ذلك. وجميع هذه الآيات لا يراد بها عزل طعام اليتيم وشرابه عن طعامهم وشرابهم. وإنما التأكيد على أن المخالطة بقصد الإصلاح ليست محرمة عليهم، وأن فيها توسعة من حرج، وفيها ترخيص وتيسير عليهم، فهل تبدو شبهة تعارض بين هذه الآيات الأربع مع أنها كلها تلتقى عند وجوب رعاية اليتيم وحفظ أمواله؟

• والآية: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣)﴾** (النساء):

قيل: إنها نسخت ما كان الناس يفعلونه فى الجاهلية وفى صدر الإسلام، حيث كان لهم ما يشاءون من الحرائر، فنسخ الله ذلك بالقرآن والسُّنَّة والعمل، فلم يعد يحلّ لأحد فوق أربع من النساء؛ والسؤال الذى استوجب نزول الآية كان عن اليتامى وليس عن عدد النساء، فالآية لم ترفع حكما شرعياً سابقاً، وما دام الإسلام لم يشرّع حكما قبل هذا الحكم، **فلا يعتبر ذلك نسخاً.**

• والآية: **﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾**(النساء ٦):

قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾** (النساء ٢٩)؛ وقيل: نسختها الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾** (النساء)؛ وقيل: «فليأكل بالمعروف» منسوخة بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا...﴾**، فكيف ينسخ الظلم المعروف؟ وأين من الأكل بالمعروف، الأكل ظلماً؟ **والآية لذلك محكمة** لا تعارضها آية أخرى، وحكمها لم يرفع.

• والآية: **﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)﴾**: قيل: إنها منسوخة بالآيات الثلاث بعدها ١١ و١٢ و١٧٦ من السورة، والصحيح أن هذه الآيات تفصّل الإجمال الذى قررته الآية الأولى ولا تنسخها.

• والآية: **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٨)﴾**(النساء): قيل: نسختها **آيتا الميراث والوصية**، والصحيح أنها محكمة وليست بمنسوخة، وتعطى أُولى القربى واليتامى والمساكين الحاضرين لقسمة التركة شيئاً منها، وهذا الحكم باقٍ على وجه الندب، **ولا تعارض ولا نسخ**.

• والآية: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩)﴾**: قيل: الخطاب فى الآية لأولياء اليتامى، وتأمر بإجراء الوصية على ما

رسم الموصون دون تعديل ولو كان فيها جنف أو إثم؛ وقيل: الآية لذلك ينسخها قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة ١٨٢)، وهذا التأويل متكلّف فإن الخوف من عدم تنفيذ الوصية كما هي لا يماثل الخوف على الأولاد الضعاف يخلفهم المورث وراءه.

• والآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾(النساء): قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة ٢٢٠)، والحقيقة أنها لم تنسخها، فآية سورة البقرة تتحدث عن معاملة اليتامى المعاملة الواجبة، وآية سورة النساء تتوعد من يأكل أموالهم ظلماً، **ولا** تعارض بين الآيتين.

• والآية: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: قيل: نسختها آية الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾(النور)، والصحيح أنه لا نسخ ولا تعارض، لأن ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ عن السحاق بين الإناث، وكذلك الآية: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ عن اللواط بين الذكور، وكلٌّ من السحاق واللواط ليس بزنى، وحُكم السحاق مختلف عن حُكم اللواط، والاثنان يختلف حكمهما عن حكم الزنى.

• والآية: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾(النساء ٢٢): قيل: نسختها بقية الآية: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهي استثناء **ولا** تعتبر نسخاً.

• والآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ (النساء٢٣): قيل: نسختها بقية الآية: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهي استثناء ولا تعتبر نسخاً.

• والآية: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾(النساء٢٤): قالوا: نسختها **الآية الأولى** من سورة الطلاق، أو آية ميراث الزوجين، أو نسختها **السُّنّة**، أو نسختها تلك الآيات والسنة جميعاً. وفسّروا **الاستمتاع** بأنه **زواج المتعة**، وهو أن يقول لها: أتزوجك يوماً أو ما أشبه ذلك، على أن لا عدّة لها، ولا ميراث بينهما، ولا طلاق، ولا شاهد يشهد على ذلك، وهذا هو **الزنا** بعينه. وأهل العلم على أن الاستمتاع في الآية هو **الوطء** في النكاح الصحيح، فيؤتيها مهرها إذا دخل بها، كقوله: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النساء٤)، والأجور والصَّدُقات كلاهما هو المهور، والآية لم تُنسخ وهي محكمة، ولا علاقة لها بنكاح المتعة، وإنما هي تتكلم عن الدخول بالزوجة.

• والآية: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾(النساء٢٤): قيل: المشار إليه فيها هو المحرّمات من النساء، قالوا: الآية منسوخة بالحديث: «لا يُجمع بين المرأة وعمّتها، ولا بين المرأة وخالتها»، والقرآن لا تنسخه السنة، لأنها ليست في الثبوت متواترة اللفظ والمعنى مثله، إلا أن الحديث تخصيص لعموم الآية وليس نسخاً لها.

• والآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾(النساء٢٥): قيل: نسختها الآية نفسها بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾(النساء ٢٥)، وهذا ليس نسخاً، لأنه شرطٌ لنكاح الإماء المؤمنات.

• والآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾(النساء٢٩): قيل: نسختها بقية الآية: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء٢٩)، وهي استثناء ولا تعتبر نسخاً.

• والآية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ (النساء ٣٣): قيل: لما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ نسختها ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وقيل: إن الآية الناسخة لقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾(الأنفال). وقيل الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ محكمة وليست بمنسوخة، وإنما أمَر الله تعالى أن يُوصَى لهم؛ والجمع ممكن بين الآيتين ومن ثم فلا ناسخ ولا منسوخ.

• والآية: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف، مع أن الكلام عن المنافقين ولا يجب قتالهم لأنهم مسلمون بحسب الظاهر، وإنما يجب أن يوعظوا ويُذكَّروا بعذاب الله، فإن أصروا على أفعالهم وجب الإعراض عنهم وترك الانتقام منهم إلى الله تعالى، فالأمر بقتال المشركين بآية السيف لا علاقة له بوعظ المنافقين ثم الإعراض عنهم في حالة إصرارهم.

• والآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾(النساء): قيل: نسخها قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾(التوبة٨٠)، وهذا غير صحيح، لأن معنى آية التوبة انهم لا يغفر لهم لنفاقهم، وأما معنى آية النساء أن استغفارهم واستغفار الرسول ﷺ لهم يرفع عنهم الإصر، فلا وجه للنسخ.

• والآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾(النساء): قيل: نسخها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ (التوبة ١٢٢)، وهذا غير جائز، لأن الآية

الأولى عن النفير العام، والآية الثانية عن النفير لطلب العلم لا للقتال. وقيل إن الآية: ﴿**فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** (٧١)﴾ (النساء) منسوخة بقوله تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً**﴾ (التوبة٤١)، وبقوله: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ**﴾ (التوبة ٣٩)؛ وقيل: إن الآية: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً**﴾ (التوبة ١٢٢)، تنسخ الآية الأخرى: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ**﴾ (التوبة٣٩). والصحيح أن الآيات جميعها محكمة، **فالأولى**: المقصود بها أن ينفروا فى شكل سرايا الواحدة تلو الأخرى، أو فى شكل جيش عام؛ **والثانية**: أن ينفروا خفافاً وثقالا من جهة الإعداد العسكري بالعتاد والمؤن والسلاح والأنفار وغير ذلك؛ فإما يكونون في شكل وحدات خفيفة، أو وحدات مزودة بمعدات ثقيلة؛ والآية **الثالثة**: يتوعد الله تعالى من لا يخرج للقتال بالعذاب سواء فى الدنيا أو فى الآخرة؛ والآية **الرابعة**: تُسقط الخروج للقتال عن الكافة وتجعله لمن تحتاجه المعركة من أعداد للمقاتلين، وكفاءاتهم ونوعية القتال الذى سيدخلونه.

● والآية: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ (النساء٨١): قيل: الآية نسختها **آية السيف**، إلا أنها محكمة وتتحدث عن المنافقين وكيدهم، فلا ينسخها الأمر بالقتال، لأنهم لا يقاتلون وإنما يوعظون ويُعرض عنهم ويُترك أمرهم لله تعالى.

● والآية: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (النساء٨٤): قيل: نسختها **آية السيف**، والذى قال ذلك فهم الآية أن لا تكلف أن تقاتل أحداً، وليس المعنى كذلك، وإنما المعنى: لا تكلف فى الجهاد إلا فعل نفسك.

● والآية: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** (٩٣)﴾: قيل: نسختها الآية: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (النساء١١٦)، والصحيح أنها محكمة ولم تنسخ، لأن القتل العمد موضع تخصيص، والمغفرة موضع عموم، والعام لا ينسخ الخاص. ثم إن **آية القتل العمد** الجزاء فيها لمن لم يتب وأصرّ على الذنب حتى وافى ربّه على الكفر بشؤم المعاصي، والجمع بين الآيتين ممكن فلا نسخ ولا تعارض، فيحمل مطلق آية النساء على مقيد آية الفرقان، فيكون المعنى: فجزاؤه كذا إلا من تاب.

● والآية: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** (٩٠) **سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا**

أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا (٩١)﴾ (النساء): قيل: نسخت الآيتان بقوله تعالى: **﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾** إلى قوله: **﴿فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (٥)﴾**(التوبة)وهي المشهورة بآية السيف. والصحيح أن الآيتين نزلتا فى بنى خزيمة وبنى مدلج، وهؤلاء عاقدوا حلفاء المسلمين من خزاعة، فنهى عن قتلهم. ونزلت آية السيف بعد ذلك بعد إسلام الذين ذكرناهم، فلا مجال للقول بنسخها. ونزلت آية السيف أيضاً فى قوم مخصوصين، ولم تنبذ كل المعاهدات، والآيتان محكمتان إذن.

● والآية: **﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾**(النساء١٠١): المراد بها المنع من قصر الصلاة إلا فى الخوف، وقيل: هى منسوخة بالسُّنَّة، لأن النبىّ ﷺ قصر فى غير الخوف، وفعلُه إذن ناسخ للآية. والآية ليس فيها منع للقصر فى الأمن، وإنما فيها إباحة القصر فى الخوف فقط. والقصر سواء فى الخوف أو فى الأمن أجازه النبىّ ﷺ وقال فيه: «صدقةٌ تصدّق الله بها عليكم فاقبلوها»، ولم يقل قد نُسخ ذلك، وإنما نسبه إلى الرخصة، فصحّ قول من قال: قَصْر صلاة السفر بالسُّنَّة، وقَصْر صلاة الخوف بالقرآن.

● والآية: **﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) ﴾**: قيل: نسختها الآية بعدها: **﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ﴾**(النساء ١٤٦)، وهى استثناء ولا تعتبر نسخاً.

●●●

١١٣٢- ﴿سورة المائدة﴾

● الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ... ﴾**(المائدة ٢): قيل: نسختها الآية: **﴿ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام﴾**، وقيل: لم يُنسخ من ذلك شيء إلا القلائد التى كانت فى الجاهلية يتقلدونها من لحاء الشجر. وقيل: النسخ بالنظر إلى أنه قد أحلّ قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة، ولو قلد المشرك عنقه أو ذراعيه لحاء جميع أشجار الحرم لم يمنع ذلك من قتله إذا لم يكن قد عقد ذمة من المسلمين أو أماناً. غير أنه قد ورد عن عائشة أن سورة المائدة لم ينسخ منها شيء وهى آخر سورة نزلت، ويبطل القول أن الآية فيها منسوخ، أو أن سورة المائدة كلها فيها منسوخ.

● والآية: **﴿ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ﴾**(المائدة ٥): قيل: نسختها آية

السيف: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾(التوبة ٥)، **والهدي** ما أهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة، **والقلائد** كل ما علق على أسنمة الهدايا وأعناقها، وهى سُنّة البقر والغنم، والصحيح أن الآية لم تنسخ لأن الذى يهدى ويقلّد مسلمٌ. فلماذا يُحسَب ضمن المشركين؟ وإن كان المقصود الكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبُّد والقربة فإنه لم يعد لمشرك أن يدخل المسجد الحرام، بقوله تعالى: ﴿**فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾(التوبة ٢٨)، والصحيح أن الآية محكمة ولم تنسخ، وهى فى المسلمين. وقد نهى الله عن إضافة من يقصد بيته الحرام من المسلمين، والنهى عام فى الشهر الحرام وفي غيره، وخصّ الشهر الحرام بالذكر تعظيماً وتفضيلاً.

• والآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾(المائدة ٦): قالوا: إنها توجب الوضوء عند كل صلاة، ثم نسخ بالسُّنّة عام الفتح فلم يعد الوضوء واجباً وإنما إذا أحدث. وهذا غير صحيح، لأن الآية توجب الوضوء على الذين ليسوا على وضوء وليس على من هم على وضوء. وقيل: الوضوء فرض بعد حدث، وهو ندب لمن كان على طُهر، ولذلك كان النبيّ ﷺ يتوضأ لكل صلاة قبل فتح مكة، ثم صلى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلّم أمته أن ما كان يفعله من تجديد الطهر لكل صلاة، إنما كان منه أخذاً بالأفضل، لا على أنه كان فرضاً واجباً.

• والآية: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ**﴾(المائدة ١٣): قيل: نسختها آية **السيف** التي تقول: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾(النساء ٩١)، أو الآية: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ**﴾ (الأنفال ٥٨)، والصحيح أنها لم تُنسخ، ولا تعارض بين الآيتين، ولكل آية معناها ومجالها. وهذه الآية تدعو إلى العفو عن اليهود من **بنى النضير** الذين همّوا أن يقتلوا النبيّ ﷺ حينما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، فأطلعه الله على ما بيّتوا النية عليه، وبيّن أن هذه هى طريقتهم فى الغدر والخيانة فى أولهم وآخرهم، ولا تزال تطّلع منهم على الخيانة والغدر ونقض العهد. والعفو والصفح هو عين الظفر كقول القائل: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، لعل ذلك يؤلف قلوبهم ويهديهم إلى الإسلام. وهل كان يمكن حينئذ فعل شيء أكثر من ذلك، وخاصة أنه لم يؤمر وقتها بقتالهم؟ فلا موجب إذن للنسخ، فإن اختلفت الأمور من بعد واستوجبت معاملةً مختلفة معهم فليس هذا بنسخ للآية، لأنها متوافقة مع ظرفها، وكل آية فى مجالها وسياقها صحيحة ومحكمة، وللرسول ﷺ أن يعفو عنهم فى غدرة فعلوها طالما أنهم لم ينصبوا حرباً، ولم يمتنعوا عن أداء الجزية.

● والآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ...﴾ (المائدة٣٣): قيل: إنها نزلت فى العرنيين فى السنة السادسة للهجرة، وكانوا قد قتلوا رعاة النبيّ ﷺ واستاقوا النَّعَم، ولما أمسك بهم المسلمون وشرعوا فى الاقتصاص منهم، نزلت الآية: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾(المائدة) فنسخت فعل النبيّ ﷺ فيهم؛ والصحيح أنها لم تنسخ هذا الفعل، لأن الآية الأولى حُكمٌ فى محاربين مؤمنين خرجوا على الإسلام، والمعول عليه أن من يؤمن بعد القدرة عليه لا يُقتل، إلا أن المحارب المؤمن لا يسقط الحدّ عنه بعد القدرة عليه، لأنه متّهم بالكذب فى توبته والتصنُّع فيها إذا نالته يد القانون، وعلى ذلك فالآية الثانية لم تنسخ الأولى. ثم إن الآية الناسخة استثناء، **والاستثناء لا يعتبر ناسخاً.**

● والآية: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾(المائدة ٤٢): قيل: نسختها: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(المائدة ٤٨) أى نُسخ التخيير فى الآية الأولى، وليس ذلك صحيحاً؛ لأن السياق يعنى أن يحكم بينهم بحكم شريعتهم وليس بشريعة الإسلام - والكلام عن **أهل الكتاب**، وبحسب **آية التخيير** فالحاكم مخيّر بين أن يحكم بينهم وبين أن يعرض عنهم. فإن كان الأمر بين مسلم **وذمىّ** فيحكم بالنسبة للمسلم، وإن كان بين **ذمّيين** فلا يحكم بينهما إلا إذا قبلا ذلك، وفى كل الأحوال فإن حكَم فهو بما أنزل الله، وإن أعرضَ لم يخالف أمر الله، وعلى ذلك فالآيتان تكملان بعضهما البعض.

● والآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾(المائدة ١٠٦): قيل: نُسخت: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾(الطلاق ٢). والصحيح أنه **لا نسخ، لأن الآية الأولى** خاصة بما إذا نزل الموت بأحد المسافرين وأراد أن يوصى، فإن الوصية تثبت بشهادة اثنين عدلين من المسلمين أو غيرهم توسعةً على المسافرين، فأما فى الظروف العادية، فالآية الثانية هى القاعدة.

●●●

١١٣٣ - ﴿سورة الأنعام﴾

● الآية: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦)﴾: قيل: نسختها آية القتال، والصحيح أنها لم تنسخها، وأنها محكمة، لأنها تخبر أن النبيّ ﷺ ليس حفيظاً عليهم، **والأخبار لا يجوز أن تُنسخ.**

● والآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾: قيل: نسختها آية السيف، والمراد بالخوض التكذيب، **والإعراض** هو المقصود بالنسخ بآية السيف، يعنى بدلاً من الإعراض يكون القتل. غير أن الإعراض غايته أن يجبرهم على أن يخوضوا فى حديث غيره، والسرّ فى ذلك أنهم كانوا يكرهون قيام النبىّ ﷺ عنهم، فقال لهم: إذا خاضوا فى آيات الله، فقم عنهم، ليتقوا الخوض فيها ويتركوا ذلك. **ودعوى النسخ إذن** باطلة لأنه لا موجب لها.

• والآية: ﴿ **وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)** ﴾ (الأنعام): قيل: نُسخ هذا بقوله: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾(النساء ١٤٠)، والصحيح أن الآية محكمة وليست منسوخة، ولا تعارض بين الآيتين، فالآية خبر، والمعنى: ما عليكم من شيء من آثامهم، إنما يلزمكم تذكيرهم.

• والآية: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧)** ﴾: قيل: نسختها آية القتال، والآية محكمة، وهى خبر ولا يُنسَخ الخبر. وتُقرِّر أن الله لو شاء لهم ألاّ يشركوا ما أشركوا، وأن رسوله ليس حفيظاً عليهم ولا وكيلاً عنهم.

• والآية: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ (الأنعام١٠٨): قيل: الآية نسختها **آية السيف**، والذى يسبّ الله يستحق العقاب، إلا أن الآية محكمة ولم تُنسخ، ولا مسوّغ لسب آلهتهم ما دام هذا سيقابل بمثله فيسبّوا الله ونبيّه. والنهى عن سب آلهتهم قائم حتى لو قتلناهم. وعدم سبّ آلهتهم هو من باب ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ومثله قوله ﷺ: «**ملعون من سبّ والديه**»، قالوا: وكيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: «**يسبّ أبا الرجل، فيسبّ أباه، ويسبّ** أمه **فيسبّ** أمه». وحيث لا تعارض بين النهى عن سبّ آلهتهم، والأمر بقتلهم فى آية السيف، **فلا مقتضى للنسخ**.

• والآية: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾(الأنعام ١٤١): قيل: نسختها آية الزكاة فى قوله: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**﴾(التوبة ١٠٣)، وقوله: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ (البقرة ١١٠)، والصحيح أنه **لا نسخ**، لأن الآية تعنى أن للفقراء حقاً فى المال سوى الزكاة، أمر الله به ندباً، فإذا حصد المزارع زرعه، فحضره المساكين، فليطرح عليهم من السنبل، وإذا جدّ فليلق عليهم من الشماريخ، وإذا درس فليطرح لهم منه، فأما لو عرف كيله فليخرج منه زكاته.

• والآية: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)**﴾ (الأنعام): ومنشأ دعوى النسخ فى الآية أنها حصرت المحرّم أكله من الحيوان فيما ذكرته، وقالوا: نسختها الآية: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**﴾(المائدة ٣)، فأضيف بعض ما حُرّم بهذه الآية إلى ما حُرّم بآية الأنعام، وسموا ذلك نسخاً لها أو لأسلوب الحصر فيها. والصواب أن **الآية** محكمة وليست منسوخة، وآية المائدة داخلة فيها ولا تتعارض معها، فالمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة من الميتة. ومن الفسق ما أُهلّ به لغير الله، وما ذبح على النصب. وأما الدم ولحم الخنزير فقد ذكرتها المائدة، وقيّد الدم بأن يكون مسفوحاً، وهو شرط لابد منه للتحريم. وأما الذين قالوا إنها منسوخة بالسُّنَّة، فالسنة **لا** تنسخ **القرآن** ولكنها تبيّنه. وأسلوب الآية يسمح بإضافة محرمات جديدة إلى ما حرمته فى قوله: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...**﴾.

●●●

١١٣٤ - ﴿سورة الأعراف﴾

• الآية: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)**﴾: قيل: الآية أولها منسوخ، وآخرها منسوخ، ووسطها محكم؛ فأولها: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ**﴾ نسخته **آية الزكاة**، وآخرها: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ نسخته **آية السيف**، وأما وسطها فهو محكم. ومع أن الآية نزلت لسؤالهم عن النفقة: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾ (البقرة٢١٩) فإنها فى **أخلاق** الناس، ومعنى ﴿**خُذِ الْعَفْوَ**﴾ أى السهل من أخلاق الناس، فلا تغلظ عليهم، ولا تعنف بهم، فتكون الآية غير متعارضة مع آية الزكاة، ولا موجب للنسخ. وأما قوله: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾، فهى تأديبٌ منه تعالى لخلقه، باحتمال من يظلمونهم ويعتدون عليهم، وليس الجهل هنا هو جهل الواجب تجاه الله، أو الجهل الذى تقيضه من يظلمونهم ويعتدون عليهم، وليس الجهل هنا هوجهل الواجب تجاه الله، أو الجهل الذى نقيضُه العلم، وإنما هو السفه والعدوان، ودعوى النسخ فيها إذن ظاهرة البطلان، والآية على ذلك **محكمة** دون فرق بين أولها ووسطها وآخرها.

●●●

١١٣٥- ﴿سورة الأنفال﴾

• الآية: ﴿**قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ (الأنفال١): قيل: لمَّا نزلت **آية الأنفال** قسَم الرسول ﷺ الغنائم يوم بدر من غير أن يخمّسها، ثم نزلت بعد ذلك **آية الخمس**: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...**﴾ (الأنفال٤١)، فنسخت الأولى. والصحيح أنها لم تنسخها بل هي آية محكمة، **وآية الأنفال** أصلها عن جُماع الغنائم، **وآية الخُمس** مخصوص بها من نزلت فيهم وجرت به السُّنّة. والغنائم في الآيتين لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين، ومن بعد رسول الله ﷺ فإن الغنائم للدولة. والآية الأولى أجملت الجواب عن سؤالهم عن الأنفال، والآية الثانية فصّلت هذا الإجمال فقررت أن الغنيمة توزع أخماساً.

• والآية: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ**﴾(الأنفال ٦٧): قيل: نسختها الآية: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾ (محمد٤). والصحيح أنها لم تنسخها، لأن الآية الأولى كانت عن بدر، وكانت لبدر ظروفها، والمسلمون قلة. فلما كثروا واشتد سلطانهم نزلت الآية الأخرى.

• والآية: ﴿**وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ**﴾(الأنفال١٦): قيل: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**﴾(الأنفال ٦٥)، والصحيح أن الآية الأولى فيها **عموم**، قد خُصّص بما في الآيتين، فلم يعد كل من يولي الكفار دبره في القتال مستحقاً للوعيد الذي في الآية. وإنما قُصر هذا الوعيد على مَنْ فرّ أمام عدو يزيد على مثليه بمقتضى ثانية الآيتين، وهذا **تخصيص** وليس نسخاً.

• والآية: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨)**﴾: قالوا: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)**﴾(الأنفال)، فقد فسّروا الانتهاء بالمهادنة أو ما يشبهها مع البقاء على الكفر. ورأوا في الآية إقراراً للكفّار على كفرهم إذا لم يعادوا المسلمين ولم يقاتلوهم، ثم وجدوا الآية التي تليها صريحة في الأمر بمقاتلهم إلى أن يُسلموا كي لا تكون هناك فتنة، ويكون الدين لله، وهذا في فهمهم معارض لما قررته الآية الأولى من مهادنة الكفار على كفرهم، فهو إذن ناسخ له. غير أن من قالوا بذلك لم يلتفتوا إلى **الوعيد** إلى جانب **الوعد** في الآية الأولى: ﴿**وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾، وإلى أن المراد بقوله: ﴿**إِن يَنتَهُوا**﴾

أنه الرجوع عن القتال والكفر معاً، لا عن القتال وحده، لأنه لا غفران لكافر مُصرّ على الكفر، وإنما يُغفَر له إذا أسلم. وفى الآية الثانية الناسخة نفس الشىء، فالمغفرة مرتبطة بأن ينتهوا، وعلى ذلك **لا تعارض ولا نسخ**، لأن الآية المُدّعى بأنها ناسخة تقول ما قالته الآية المُدّعى بأنها منسوخة.

• والآية: **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾**(الأنفال٦١): قيل: إن الآية: **﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾**(محمد ٣٥) تنسخها، وذلك ليس صحيحاً، **فالآيتان محكمتان** ونزلتا فى وقتين مختلفى الحال، وآية **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾** مخصوصة فى قوم بأعيانهم، والأخرى عامة فلا يجوز مهادنة الكفّار إلا عند الضرورة إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين، وقيل: آية السلم نسختها الآية: **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** (التوبة٢٩)، والآية: **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾**(التوبة٥) غير أن الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه، فأما بخلاف ذلك فلا يجوز، والآيتان حكمهما غير ناف لحكم آية السلم، وآية السلم فى **يهود بنى قريظة** وهم أهل كتاب، **وآية القتال فى المشركين**، والأولون تُقبل منهم الجزية وليس كذلك المشركون، فليس فى إحدى الآيتين نفى حكم الأخرى، بل كل واحدة محكمة فيما أنزلت فيه.

• والآية: **﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾**: قيل: نسختها الآية: **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾**(الأنفال)، ووجه النسخ أن الآية الأولى أفادت وجوب ثبات الواحد للعشرة، وأما الثانية فأفادت وجوب ثبات الواحد للاثنين، وهما حكمان متعارضان، فتكون الثانية ناسخة للأولى، وقيل: **لا تعارض بين الآيتين ولا نسخ**، لأن الثانية لم ترفع الحكم الأول ولكنها خففته، وهو إذن تخفيف وليس نسخاً.

• والآية: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾** (الأنفال ٧٢): قيل: نسختها الآية: **﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾** (الأحزاب٦)، لأن ولايتهم لبعضهم البعض كانت تجعلهم يرثون بعضهم البعض، فلما نزلت **«أولوا الأرحام»** صار الميراث لذوى الأرحام من المؤمنين، وقال رسول الله ﷺ: **«ألحقوا الفرائض بأهلها»**. والصحيح أن الولاية لا يدخل فيها التوريث، وأن الآية خاصة بالنصرة والمعونة، ولذا جاء بعدها مباشرة: **﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾** (الأنفال٧٢)، **وإذن فليس هناك نسخ، والآية محكمة**.

●●●

١١٣٦- ﴿سورة التوبة﴾

● الآية: ﴿**فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)**﴾(التوبة): قيل: الآية منسوخة، ونسختها: ﴿**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾(التوبة ٣)، **ولا نسخ هناك ولا تعارض.** فالآية الأولى فيها مدة العهد أربعة أشهر ثم الحرب، وانقضاء العهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم.

● والآية: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)**﴾: قيل: هذه **آية السيف**، قيل نسختها الآية: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾(محمد ٤)، وقيل بل هي ناسخة لهذه الآية الأخيرة، ولا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. والصحيح أن الآيتين محكمتان، لأن المَنّ والقتل والفداء جميعها لم تزل فيهم من أول حرب حاربهم فيها الرسول ﷺ وهو **يوم بدر**. ثم إن قوله: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾(التوبة ٥) أمرٌ بالقتال. وقوله: ﴿**وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ**﴾ (التوبة ٥) أمرٌ بالأسر. فإذا وقع الأسير في يد مَنْ بيده الأمر، فهو مخيّر، إن شاء مَنّ عليه، وإن شاء فاداه، وإن شاء قتله صبراً، أيّ ذلك رأى فيه مصلحة للمسلمين فعل.

● والآية: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (٦)**﴾: قيل: هذه الآية نسختها آية القتال التي تقول: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾(التوبة٥)، فليس صحيحاً أن حُكم هذه الآية باقٍ مدة الأربعة الأشهر التي ضربت أجلاً للمشركين. فقد جاء رجل من المشركين إلى **عليّ بن أبي طالب** وقال له: إنْ أراد رجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله، أو يأتيه بحاجة، قُتل؟ فقال **عليّ**: لا! لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ**﴾، فهذا هو الصحيح، والآية محكمة.

● والآية: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)**﴾: قيل: نسختها **آية السيف**، والصحيح أنه لا تعارض بين الآيتين، حيث أن الآية الأولى ليس فيها أن الذين عاهدوا عند المسجد الحرام نكثوا وظاهروا المشركين، لأن معناها أن هؤلاء ما أقاموا على الوفاء بعهدهم للمسلمين، فسيقيم المسلمون على الوفاء بعهدهم لهم، فلا نكث هناك، وعلى ذلك **فلا نسخ**.

● والآية: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ (التوبة٣٦): قيل: الآية أمرٌ بالقتال، و«كافة» معناها «جميعاً»، وقالوا: كان الغرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان أن يقاتلوا، ثم نُسخ ذلك، وجُعل القتال فرض كفاية. وهذا المعنى غريب، لأنه لم يُعرَف أبداً في سيرة النبيّ ﷺ أنه ألزم الأمة كلها النَّفر، وإنما معنى الآية الحضّ على القتال، والتحزُّب ضد العدو، وجمع الكلمة، وقيّد ذلك بقوله: ﴿**كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾، فبحسب قتالهم واجتماعهم ضد المسلمين يكون فرض اجتماع المسلمين لهم.

● والآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**﴾ (التوبة٣٨): قيل: نسختها الآية: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً**﴾(التوبة ١٢٢)، ولا نسخ هناك، لأن الآية الأولى توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، والآية الثانية تنظم هذا الخروج ولا تجعله على الأعيان وإنما فرض كفاية.

● والآية: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾(التوبة٣٩): قيل: نسختها الآية: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً**﴾(التوبة١٢٢)، وهذا غير صحيح، فالآية الأولى تتحدث عن عقاب من لا ينفر، والآية الثانية تنظّم النفر فلا تجعله على الأعيان وإنما فرض كفاية.

● والآية: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً**﴾(التوبة٤١): قيل: نسختها الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ**﴾(التوبة٩١)، وهي تسقط التكليف عن العجزة وغير القادرين، وكما ترى أن ذلك استثناء لا ينسخ الآية؛ وقيل الآية نسختها الآية الأخرى: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ**﴾(التوبة١٢٢)، والآيتان محكمتان، ولكلٍّ مجاله، والآية الأولى تتحدث عن نوع النفر، والآيتان الثانية والثالثة تستثني من النفر المعذورين ومن لا يسعهم النفر ممن يضطرون للبقاء، ونفرهم في هذه الحالة محلي في نفس المكان، للدفاع عن المؤخرة، وضمان الإمداد والتموين للجيش المتقدّم، ولتنظيم أمور الدولة داخلياً.

●والآية: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)**﴾: قيل: نسختها الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾(النور٦٣)، وهذا غير صحيح، لأنه في الآية الأولى كان الاستئذان بغير عذر في ذلك الوقت، من علامات النفاق؛ وفي الآية الثانية، أمر الله تعالى المؤمنين بالاستئذان لأنه لا يكمُل إيمان من آمن إلا بأن يكون من الرسول سامعاً غير معنّت، فيريد الرسول إكمال أمر ما، ويريد المؤمن إفساده بأن يستأذن في أمر يستوجب أن يتواجد الجميع، فالآيتان تكملان بعضهما البعض، فواحدة تأمر بالاستئذان بعذر، والثانية تجرّم الاستئذان بغير عذر.

• والآية: ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴿٨٠﴾﴾(التوبة): قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴿٨٤﴾﴾، وذلك أن الرسول ﷺ قال: «**لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له ـ لزدتُ عليها**»، وأنه صلّى على عبد الله بن أبيّ بن سلول ـ وهو الذى نزلت فيه هذه الآيات، إلى أن نزلت الآية: ﴿**ولا تصل على أحد منهم**﴾، فالذى نُسخ هو أن يستغفر لهم أكثر من سبعين مرة. غير أن الآية لا تخبرنا أنه قد غُفر له، لأنه مات على الكفر وهو من الفاسقين، فهل تخبرنا هذه الآية أنه لن يُغفر لهم وإن استغفر الرسول لهم، وتقول مع ذلك إن هذا الخبر منسوخ، وأن ناسخه هو الآية التى تقرر نفس المعنى: ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم**﴾(المنافقون ٦)؟

• والآية: ﴿**ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا**﴾ (التوبة ١٢٠): قيل: نسختها الآية: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة**﴾(التوبة ١٢٢)، باعتبار أن الآية الأولى كان فيها الاستنفار عاماً لمّا كان المسلمون قلة، فكان التجنيد واجب وعام، فلما كثر المسلمون لم تعد هناك حاجة لتجنيد الجميع، وصار النفير بحسب الاستدعاء، وإذن فلا نسخ، ولكل آية مجالها ومقصدها.

•••

١١٣٧ - ﴿سورة يونس﴾

• الآية: ﴿**واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴿١٠٩﴾﴾: قيل: نسختها **آية القتال**، والصحيح أنها لم تُنسخ، لأن الآية بعيدة فى معناها عن القتال، فقد كانوا فى شك من دين الرسول ﷺ، فطمأنه، ودعا الناس إلى أن تؤمن به، وحضّه أن يتبع ما يوحي إليه ويصبر إلى أن يحكم الله بينه وبين المشركين، فلا مجال للتعارض مع آية القتال، ومن ثم لا مجال للنسخ.

•••

١١٣٨ - ﴿سورة يوسف﴾

• الآية: ﴿**توفني مسلما وألحقني بالصالحين** ﴿١٠١﴾﴾: قيل: إنها منسوخة بقوله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به**»، **والسنّة لا تنسخ القرآن**، وينهى الحديث عن تمنى الموت بسبب الضرّ، وإنما تمنّى يوسف أن يُلحقه ربّه بالصالحين عندما يتوفاه، وذلك حين يحين أجله، وعندئذ يكون موته على الإيمان وليس على الكفر، ومع ذلك فقد تمنّى عمر

بن الخطاب الموت لما طعن في السن فقال: «اللهم كبرت سني، ودقّ عظمي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مفرط ولا مضيّع»، والكبر في السن ليس ضرًا وإنما هو شيء طبيعي يأتي حتمًا في سن معينة، وفي حديث عمر نتبين حبّ لقاء الله، وفي مثل ذلك كان الحديث: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، وفي الآية إذن، والأحاديث سواء عن النبيّ ﷺ أو عن عمر لا تعارض ولا نسخ ولكنها جميعًا تكمل بعضها البعض، ولكل معناه ومناسبته ومجاله.

●●●

١١٣٩- ﴿سورة الرعد﴾

● الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الرعد٦): زعموا أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾(النساء ٤٨ و ١١٦)؛ وقالوا: إن ظلم الناس كما يُفهَم من سياق الآية هو الشرك، ومع ذلك لا تتعارض الآيتان، فالآية الأولى تفيد أنه تعالى يغفر للمشرك إن رجع عن شركه وأناب إلى الله، وأما المُصِرّ فإنه شديد العقاب له على كفره، والآية خبر، ومثلها في ذلك مثل الآية الثانية التي تفيد نفس المعنى، فكيف يقال إن إحداهما منسوخة والأخرى ناسخة وكلاهما خبر؟ ثم إن سورة الرعد كان ترتيبها في التنزيل العاشرة في السور المدنية، والنساء ترتيبها السادسة، ولا ينسخ المتقدم المتأخر.

●●●

١١٤٠- ﴿سورة الحجر﴾

● الآية: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③﴾: قالوا: إنها منسوخة بآية السيف، والصحيح أنه لا نسخ هناك، لأن الآية وعيد وتهديد وذلك لا ينافي قتال الكافرين، فلا وجه للنسخ.

● والآية: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ⑧⑤﴾: قيل: هذه الآية في كفار مكة، وتحضّ النبيّ ﷺ على أن يصفح ويتجاوز عنهم، ويعفو عفواً حسناً، مثل قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ①⓪﴾(المزمل)، ثم نسختها آية السيف التي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة)، أو الآية: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(النساء٩١)، والصحيح أن الآيتين محكمتان ولا نسخ هناك، فلقد أمره بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم، والصفح هو الإعراض، وهذا في أهل النفاق، وأما آية السيف ففي المشركين الذين بدأوا المسلمين بالقتال وعادوهم.

• والآية: ﴿**لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** (٨٨)﴾: قيل: نسختها آية السيف، وهذا ليس صحيحاً، لأن المعنى: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، ولا تحسدهم بما أُنعم عليهم وحُرِمتَ منه، بينما آية السيف خاصة بالقتال، فلا وجه للنسخ، وسياق الآية لا يسمح بأن تكون الآية منسوخة.

• والآية: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** (٩٤)﴾: قيل: نسختها آية القتال، وموضوع الآية لا يتصل بسبب بالقتال، وفيها الأمر للرسول ﷺ بالإعراض عنهم وعن استهزائهم، وتتوعدهم الآية بالسؤال والحساب، ولا يُعقل أن ينسخ هذا السؤال والحساب المنتظر أمرٌ بالقتال، ومن ثم فلا نسخ هناك.

●●●

١١٤١- ﴿سورة النحل﴾

• الآية: ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾(النحل ٦٧): قيل: السَّكَر هو الخمر، وعلى ذلك فالآية منسوخة بآيات تحريم الخمر. والصحيح أن الآية محكمة، لأن السَّكر هو العصير الحلو الحلال، سمي سكراً لأنه قد يصير مسكراً إذا بقى، فإذا بلغ الإسكار حُرِّم، غير أنه في حالته العادية كما في الآية: ﴿**سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ يعني العصير ولا يعني الخمر.

• والآية: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ**﴾(النحل ١٠٦): قيل: إنها منسوخة ببقيتها: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾، وهي استثناء ولا تعتبر نسخاً.

• والآية: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل ١٢٥): قيل: نسختها آية القتال التي تقول: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا**﴾ (البقرة ١٩٠). والصحيح أن الآية محكمة، ولكل من الآيتين مجاله، والمسلمون يوعظون بالحكمة والتي هي أحسن إلى يوم القيامة، ومجال الآية العُصاة من الموحدين، وآية القتال مجالها المعتدون من المشركين. والمجادلة لا تنافي القتال، ولا أثر يقرر أن الآية منسوخة.

• والآية: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** (١٢٦)﴾: قيل: نسختها آية السيف، والصحيح أن الآية محكمة. وتعني ألا يتجاوز عباد الله فيما وجب لهم قِبَل غيرهم في حقٍ من مال أو نفس، فمن ظُلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه، وعلى هذا يكون المعنى: ولئن صبرتم عن المُثْلَة - لا عن القتال - وعلى ذلك فالآية غير منسوخة، كقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا**﴾(البقرة ١٩٠).

• والآية: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)**﴾ (النحل): قيل: نسختها آية القتال، والصحيح أنها محكمة وتنهى عن المُثْلَة وتأمر بالصبر على قتلى أُحد أو القتلى عمومًا فى أية حرب مشروعة، وأن يتحمل المسلم مكر أعدائه، وكل ذلك من محامد الأخلاق، فلا تعارض ولا نسخ، والآية محكمة.

•••

١١٤٢- ﴿سورة الإسراء﴾

• الآية: ﴿**وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)**﴾: قيل: الآية فى الشفقة بالوالدين والحنان عليهما، وهما الوالدان المؤمنان، وأما المشركان فقد نهى القرآن عن الاستغفار لمن مات من أولى القربى، كقوله: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾(التوبة). والصحيح أن الآية محكمة، لأنها دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين. ومن البديهى أنه ليس كل الآباء مشركين، بينما الآية الثانية تحظر الاستغفار للآباء المشركين فحسب، ولذلك تعتبر الآية الثانية مخصِّصة للآية الأولى لا ناسخة لها.

• والآية: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (الإسراء٣٤): قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾ (البقرة ٢٢٠)، ولا نسخ هناك، لأن الآيتين لا تتعارضان، ولكنهما تلتقيان عند الحرص على حفظ مال اليتيم وحمايته أن يؤكل ظلماً.

• والآية: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١١٠)**﴾: قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)**﴾ (الأعراف)، ولا تعارض بينهما، فالآية الأولى تنهى النبىَّ ﷺ والمؤمنين عن الجهر وعن المخافتة بالقراءة والتشهد والدعاء فى الصلاة، وتأمر بالتوسط بينهما حتى يسمعه آخرون فيتعلموا منه، ولا يسمعه المشركون فيؤذوه وأصحابه؛ والآية الثانية تأمر بأن يذكر الله فى نفسه عند الاستماع إلى القرآن وهو يُتلى، ذِكراً فيه خشوع لله وتواضع، وفيه خوف من عقابه، ودعاء لا جهر به ولا إعلان، وفى الآيتين يلاحظ عدم الجهر، وفى الأولى عدم المخافتة، فأى تعارض بين الآيتين يسوّغ النسخ؟!

•••

١١٤٣- ﴿سورة مريم﴾

• والآية: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩)**﴾ (مريم): قيل: الآية إنذار للمشركين بعذاب الآخرة وقد فُرغ من الحساب، ولذا قال ابن

الجوزى: زعم بعض المغفلين من ناقلى التفسير أن الإنذار منسوخ **بآية السيف**، وهذا تلاعبٌ من هؤلاء بالقرآن. وقال: ومن أين يقع التنافى بين إنذارهم بالقيامة وقتالهم فى الدنيا؟ ووعيد الله - كخبره - لا يتخلّف، **فلا يقبل النسخ**.

• والآية: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**(٥٩)﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾(مريم ٦٠) وهذا استثناء **ولا يعتبر نسخاً**.

• والآية: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** (٧١)﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** (٧٢)﴾، قيل هى استثناء ولا تعتبر نسخاً، وقال ابن الجوزى: هذا من أفحش الإقدام على الكلام فى كتاب الله بالجهل، وهل بين الآيتين تناف؟ فالأولى تثبت أن الكل يردونها، والثانية تثبت أنه ينجو منهم من اتقى. ثم هما خبران، والأخبار لا تنسخ. وقيل: نسختها الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** (١٠١)﴾(الأنبياء)، وهذا ضعيف وليس موضع نسخ، لأنه من يبعد عنها فلن تمسّه النار. وفى الخبر: «**تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جزْ يا مؤمن فقد نوّرك لهبى**».

●●●

١١٤٤. ﴿سورة طه﴾

• الآية: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ** (٢)﴾: قيل: إنها قيام الليل، وكان النبىّ ﷺ وطائفة من المؤمنين يأتونه، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ**﴾(المزمل ٢٠)، فلما نزلت الآية: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ** (٢)﴾ قيل: إنها نسخت قيام الليل، والصحيح أنها لم تنسخه، وإنما خففته لكى لا يشتطّوا فى العبادة، ولا يُنهكوا أنفسهم فيها، **فالإسلام دين الوسطية والحنيفية**.

•والآية: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾(طه ١٣٠): قيل: نسختها **آية القتال**؛ وقيل: **ليست** منسوخة، لأن الكفار لم تستأصلهم آية القتال، فلا يجدى معهم إلا الصبر.

●●●

١١٤٥- ﴿سورة الأنبياء﴾

• الآية: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** (٩٨)﴾: قيل: إنها منسوخة بقوله بعدها: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** (١٠١)﴾، وقيل: هذا استثناء وهو لا يصلح نسخاً، والآية محكمة.

●●●

١١٤٦- ﴿سورة الحج﴾

• الآية: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾: قيل: إنها منسوخة بالآية: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾(الحج٣٦)، وأن ذبح الضحية نسخ كل ذبح قبل الإسلام، ومن ذلك العقيقة، ولا دليل على ذلك، والآيتان تتحدثان عن الأكل والإطعام من الهدى، والضحية لم تنسخ الهدى كزعمهم أنها قد نسخت العقيقة. والهدى شُرع بهاتين الآيتين، وكنّى فيهما عن الذبح والنحر بذكر اسم الله وقوله «وجبت جنوبها»، ولا تعارض البتة بين ذبح الضحية وذبح الهدى، ومن ثم لا نسخ هناك.

• والآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾(الحج٣٩): قيل: إنها تنسخ كل ما في القرآن من إعراض وترك وصفح عن المعتدين، وهذا غير صحيح لأن كل آية لها مجالها ومعناها ضمن النسق الواردة فيه.

• والآية: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾: قيل: تنسخها آية السيف التي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾(التوبة٥)، والصحيح أن لكل آية نسقها ومعناها ولا تتعارضان البتة.

• والآية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(الحج ٧٨): قيل: إن الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن١٦) نسختها بجعل الجهاد بحسب الاستطاعة، ولا حاجة لتقدير النسخ لأن المراد بالآيتين واحد وهو بذل الوسع فى الجهاد أو فى التقوى.

•••

١١٤٧- ﴿سورة المؤمنون﴾

• الآية: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾(المؤمنون٩٦): قيل: نسختها آية القتال، والصحيح أن الآية محكمة ولا تعارض بينها وبين آية القتال، فالقتال له أسبابه، وهذه الآية فى غير أسباب القتال، وتأمر بموادعة المشركين والمكذّبين، وإلا فالقتال إذا كانوا البادئين وأصرّوا عليه وظلموا المسلمين، كما تأمر بدفعهم بالتى هى أحسن بمداراتهم، والمداراة محمودة ما لم تضر بالدين وتؤدِ إلى إبطال حق وإثبات باطل. والإحسان إلى من يسيء إلينا ترياق نافع فى مخالطة الناس، فيستجلب الخاطر، ويعود بالعداوة صداقة، والبُغض محبة.

•••

١١٤٨- ﴿سورة النور﴾

• الآية: ﴿**الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ③﴾:
رُوي أنها منسوخة، ونسختها الآية التي بعدها: ﴿**وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾(النور٣٢)، فأدخلت الزانية في أيامى المسلمين وهم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء. وأهل الفتيا على القول بأن من زنى بامرأة، فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها، والصحيح أن آية **الزانى والزانية**: النكاح فيها يعنى **الوطء**، والمعنى هو أنه لا يكون زنى إلا بزانية، ووطء الزانية لا يقع إلا من زان أو مشرك، وليس **المعنى أن الزانى لا ينكح قط إلا زانية**، وإنما المعنى **أن الزانية لا ينكحها من ينكحها إلا وهو** راض أنها زنت،ولا **يرضى بذلك إلا إذا كان هو أيضاً يزنى**. فالآية محكمة، **وآية الأيامى** تعنى أنّ من الممكن أن يتزوج الزانى من غير زانية، وكذلك الزانية قد تتزوج من غير زان إذا رأى كل منهما ذلك، فهذا متصوَّر. **وغير** صحيح أن من يتزوج بزانية، أو من تتزوج بزان وهى غير زانية، أو وهو غير زان، يفرّق بينهما، فلا يصحّ أن يوقف نكاح من يُحدّ من الرجال على نكاح من يُحدّ من النساء! فبأى أثر يكون ذلك على المجتمع الإسلامى، وعلى أى أصل من الشريعة؟! والزنا أصلاً لا يفسخ النكاح، فإذا زنت المرأة فلزوجها أن يطلقها، ولو أمسكها أثم، ولا يجوز النكاح من زان أو زانية إلا لو أظهر التوبة فعلاً.

وقيل إن آية: ﴿**الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ③﴾ نسختها الآية: ﴿**وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** ③②﴾. لأنها جعلت الزانية من أيامى المسلمين ويحل نكاحها، **والأيِّم** هى التى لا زوج لها، وحال الزانية غير المتزوجة كحال هذه المرأة ـ هكذا قالوا. والصحيح أن **الآية لم تُنسخ**، وأن المراد بالنكاح فيها هو **الزواج**، ولا معنى للآية بأى تأويل إلا هذا التأويل الصحيح: أن زواج الأعفّاء من المسلمين بالزوانى، والزناة بالعفيفات، محرَّمٌ فى الإسلام، **والآية محكمة لم تنسخ**، والتحريم ما زال باقياً. ولا يمكن أن يرغب الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنا والتسفح، فى نكاح الصوالح من النساء اللاتى على خلاف صفته، وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة من شكله، أو فى مشركة لا قيم عندها، لأن من لا تؤمن بالله أو تشرك به، ترى بالضرورة أنها فى حلّ أن تفعل ما تشاء ومن ذلك الزنا. والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك، لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين. وأما أن ينكح مؤمن زانية ويرغب فيها

وينخرط بذلك في سلك الفَسَقة المتسمين بالزناة، فهذا محرمٌ عليه محظور، لما فيه من التشبُّه بالفسّاق، وأن يكون موضع اتهام، وأن يقال فيه السوء، وأن يجيء جلوسه مع الخطّائين. والزانية لا يمكن أن تكون من الأيامى، لأن معنى الأيّم أنها امرأة لم يُقدَّر لها الزواج لسبب، ومن ذلك أنها جادة في حياتها وعفيفة، وحضّت الآية على الزواج من الأيامى بسبب هذه العفة، ونبّهت إلى أنهن أصوَن للمؤمن على شرفه وبيته وأولاده.

● والآية: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** (٣١)﴾: قيل: نسختها بقية الآية: ﴿**إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾، غير أنه استثناء، والاستثناء لا يعتبر نسخاً.

● والآية: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا**... (٤)﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٥)﴾، وهذه الآية الأخيرة استثناء ولا تعتبر نسخاً. وقيل: نسختها الآية: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** (٦) ﴾(النور) إلى آخر آيات اللعان. والآية (٤) تبين حكم كل قاذف لمحصنة من غير الأزواج، بينما آيات اللعان تبين حكم الأزواج حين يقذفون أزواجهم، وبرغم أن هذه الآيات عامة، إلا أن العموم في الآية (٦) نسبي، فبالرغم من شمولها لكل زوج يقذف زوجته، خاصةً إذا قورنت بالآية الأولى، فإنها مخصِّصة للأزواج، وتخصيصها عام ولا يعتبر نسخًا.

● والآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** (٢٧)﴾: قيل: نسختها الآية: ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ**... (٢٩)﴾، وليس هذا بنسخ، لأن الآية الثانية مخصِّصة للآية الأولى. والاستئذان شرط في الأولى لأن في الدار أهلاً، وأما الثانية فليس فيها أحد وهي غير مسكونة، فمن يستأذن؟

● والآية: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** (٥٤) ﴾: قيل: النسخ وقع على قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ** ﴾، فقال ابن الجوزي: زعم بعضهم أنها منسوخة بآية السيف، وليس هذا صحيحاً، فالأمر بقتالهم لا ينافي أن يكون عليه ماحُمِّل، وعليهم ما حُمِّلوا. ومتى لم يقع التنافي بين الناسخ والمنسوخ لم يكن نسخٌ.

● والآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ**

عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ...(٥٨) ﴾ قيل: إنهـا منسوخة. فقـد كان نزولها والبيوت على حال ثم زالت هذه الحال، فصارت للبيوت أبواب ونوافذ وأستار. فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان. والآية لذلك ليست **بمنسوخة وإن كان الناس لا يعملون بها**. وكان الناس من بعد يقولون عن هذه الآية: إننا أمرنا فيها بما أُمرنا. **ولا يعمل الآن** بها أحد. والحق أن الآية أدبٌ عظيم يُلزم الخدم والصغار، بالبُعد عن مواطن كشف العورات حماية للأعراض. وقيل: إن الآية نسخها قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ... (٦١)**﴾، والصواب أنه لا وجه لادعاء النسخ بأى من الآيتين على هذه الآية، لأنه لا تعارض بينها وبين أى منهما.

• والآية: ﴿**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ (٦١)**﴾: قيل: هى منسوخة بما بعدها: ﴿**وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ (٦١)**﴾ فلم يعد الأعمى ولا الأعرج مخصوصاً بالآية، بل هى عامة بقوله: ﴿**وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ**﴾. وذلك أن العرب كانوا فى القديم ليس على أبوابهم أغلاق وإنما ستور مرخاة، فكان من يشاء يدخل البيت ليس فيه أحد، ليأكل لأنه جائع، ثم صارت الأغلاق على البيوت، فلم يعد يحلّ لأحد أن يفتحها، ومن ثم فالقول: ﴿**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ**﴾ أصبح بلا معنى، والصحيح أن له معنى، فالأعمى والأعرج لا حرج عليهما فى أى أمر يتعلق بالرؤية أو الطريق وهو مقصود الآية عموماً. وقيل: الآية **ناسخة** لآية أخرى هى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾ (النساء٢٩)، وفيها نهى الله الناس أن تأكل أموال الناس، والطعام أفضل الأموال، فيكون أنه لا يحل لأحد أن يأكل عند أحد، وآية رفع الحرج نسخت هذا النهى، ومن ثم كفّ الناس عن أن يأكلوا عند أحد، فأنزل الله «**آية الحرج**» لرفع الحرج عن الناس، وهذا غير صحيح، **لأن آية أكل الأموال** خاصة بالمديونيات. و«**آية رفع الحرج**» عن الأعمى والأعرج خاصة، بأى خطأ يمكن أن يأتيه الأعمى أو الأعرج نتيجة عجزه. والآية إذن **محكمة لا ناسخة ولا منسوخة**. فالطعام أحلّه الناس من بيوتهم لمن يعهدون لهم بحراستها وهم فى تجارة بالخارج أو فى غزو. وأما **الأعمى والأعرج** فقد أحلّهما الله من التكليف المشترط فيه البصر للأعمى، والمشترط فيه المشى للأعرج، فيما يتعذر من الأفعال التى تستلزم البصر أو صحة الأقدام، وعن **المريض** فيما يؤثر المرض فى إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد، ونحو ذلك.

• والآية: ﴿ **أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ**

بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ﴿٦١﴾: قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: **﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾**(الأحزاب ٥٣)، وقوله: **﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها﴾**(النور٢٨)، والصحيح أنها **محكمة** لأن هذه الآية خاصة **بالأكل** عند هؤلاء، بينما الآية الأخرى من سورة الأحزاب خاصة **بالاستئذان** عند الدخول إلى بيت النبي ﷺ حتى لو كنتَ مدعواً، والآية: **﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾** خاصة بالنهي عن دخول البيوت التي ليس فيها أحد طالما لم يُؤذَن بذلك. وقيل إن الحديث: **«لا يحتلبن أحدكم ماشية أخيه إلا بإذنه، أيحب أحدكم أن تُؤتى مشربته، فتكسر خزانته، فيُنقل طعامه»**؟ ينسخ الآية، فضلاً عن أن الحديث ضعيف، **والقرآن لا يُنسخ بالسُّنَّة**، فإن الحديث ينهى عن شيء غير ما تأذن به الآية، لأنه ينهى عن **أخذ مال الغير بدون إذنه**، والآية **تبيح الأكل من بيوت الآباء ومَن ذُكر معهم**، ولا مجال للتعارض من حيث اختلف الموضوع، **ويبطل** النسخ. وقيل: الآية ينسخها قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** (النساء ٢٩)، وسورة النساء في ترتيب النزول **السادسة** بينما سورة النور **السادسة عشرة**، ولا يصح أن تنسخ آيةٌ سابقة آيةً لاحقة. وهل يعتبر الأكل من بيوت أنفسهم أو آبائهم وأمهاتهم إلى آخر المذكورين ـ أكلاً لأموال غيرهم بالباطل؟.

●●●

١١٤٩- ﴿سورة الفرقان﴾

● الآية: **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴿٦٣﴾﴾**: قيل: نسختها آية السيف، والصحيح أن الآية **محكمة**، وفيها أدب المسلمين إلى يوم القيامة، فالمسلمون مأمورون بالصفح والهجر الجميل، وكان النبيّ ﷺ يقف على أندية الكفّار ويحييهم ويدانيهم ولا يداهنهم. وفي مثل ذلك قال **إبراهيم** لأبيه آزر، لما أصرّ على الكفر وأعلن خصامه لابنه أبد الدهر إن استمر على الدعوة لربّ العالمين: **﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾** (مريم٤٧)، فلم يعارضه إبراهيم بسوء الردّ. والسلام هنا ليس دعوة للكافر بأن يرزقه الله السلام النفسي والسلامة البدنية، وإنما هو **المسالمة** ـ أي لاشيء بيننا إذن إلا الخير، وكلٌّ منا في طريقه. فالسلام هو **المتاركة لا التحية**، وضمان الأمان له من ناحيته رغم كل شيء، وإذن يجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها المسلم، كقوله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴿٨﴾﴾** (الممتحنة)، وفي **آية السيف** غير ذلك، وتحضّ على قتال من يبدأ المسلمين بالقتال، والذين يحاربونهم في دينهم، ويخرجونهم من ديارهم، وأما في غير ذلك فالبرّ والقسط، والله تعالى يقول: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾** (الممتحنة)، ثم إن حُسن المحاورة في الخطاب لا ينافي القتال، فلا وجه للنسخ.

• والآية: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ...**﴾(٦٨): قيل: هي منسوخة بقوله تعالى بعدها: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ...**﴾(٧٠). وهي استثناء ولا تعتبر نسخاً. وقيل: قوله تعالى: ﴿**وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ**﴾ نسخها قوله: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا**﴾ (النساء٩٣)، والآيتان خبر، والخبر لا ناسخ فيه ولا منسوخ.

• والآية: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ...**﴾ (٧٠): قيل: إن الآية: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ (النساء٣١) نسخت قوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾، حيث أن سورة النساء نزلت بعد سورة الفرقان بستة أشهر. والصحيح أنه لا نسخ، لأن آية سورة الفرقان تتحدث عن التوبة والعمل الصالح وجزاتهما، وآية سورة النساء تتحدث عن اجتناب الكبائر وجزائه.

•••

١١٥٠- ﴿سورة الشعراء﴾

• الآية: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)**﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾(٢٢٧)، والصحيح أن الآية الأولى محكمة، وأن الآية الثانية استثناء وهو لا يعتبر نسخاً.

•••

١١٥١- ﴿سورة القصص﴾

• الآية: ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾(٥٤): قيل: هي آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، ونسختها آية **السيف** وإن بقي حكمها فيما دون الكفر. والصحيح أنها لم تنسخ، وأنها قاعدة سلوك عامة، مع المسلمين ومع أهل الكفر على السواء. و**آية السيف** تكون في حالة القتال الدفاعي عن النفس، وفيما دون ذلك فالطيب أفضل، ومثلها قوله ﷺ لمعاذ: «**واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» أخرجه الترمذي، ومن الخُلق الحسن دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا بالإعراض عنه، ولين الحديث.

• والآية: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)**﴾: قيل نسختها **آية الأمر بالقتال**، والصحيح أن **آية القتال** لها مجالها وهذه الآية خبرية لها مجال آخر تماماً، وهي خاصة **باللغو**، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)**﴾ (الفرقان ٦٣)، وكقوله تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)**﴾ (الكافرون).

•••

١١٥٢- ﴿سورة العنكبوت﴾

• الآية: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (٤٦): قيل: هذه إنها منسوخة بآية القتال التى تقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (التوبة٢٩)، والصحيح أنها محكمة، وموضوعها مجادلة أهل الكتاب ولا تكون إلا بالتى هى أحسن؛ وقيل: «التى هى أحسن» المقصود به المنطق، وآية القتال فى مقاتلة غير المؤمنين والذين لا يدينون دين الحق من أهل الكتاب، والموضوعان مختلفان وكلاهما قتال، إلا أن أحدهما بالمنطق، والثانى بالسلاح، واللجوء إلى السلاح لا يجوز إلا فى العدوان.

•••

١١٥٣- ﴿سورة الروم﴾

• الآية: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾(٣٨): قيل: نسختها آية المواريث. والصحيح أنه لا نسخ، بل للقريب حقٌ لازمٌ فى البرّ فى جميع الأحوال، وصلة الرحم فرضٌ من الله، ولا تُقبَل صدقةٌ من أحد ورحمُه محتاجة.

• والآية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف، ولا نسخ ولا تعارض بين الآيتين، حيث أن هذه الآية يسأله فيها الصبر على مزاعمهم ببطلان القرآن من أمثال النضر بن الحارث، والقتال شىء والصبر على افتراءاتهم شىء آخر.

•••

١١٥٤- ﴿سورة السجدة﴾

• الآية: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: قيل: أمر النبىّ ﷺ أن يعرض عن مشركى قريش بمكة، وهذا منسوخ بآية السيف: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة٥). والصحيح أن الآية غير منسوخة، فقد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال، فى الهدنة وفى غيرها، يعنى أن الإعراض جائز بلا قتال.

•••

١١٥٥- ﴿سورة الأحزاب﴾

• الآيتان: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾: قيل:

الآيتان نسخٌ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ـ وهم الأدعياء، يعنى أنهما ناسختان للتبنّى، والصحيح أن هذا **ليس نسخاً** لعدم شروط النسخ فيه، ولأن ما جاء من الشريعة لا يقال إنه نسخٌ لباطل الخَلْق، وما كانوا عليه من المحال والضلال، وقبيح الأفعال، ومسترسل الأعمال.

• والآية: ﴿**وَدَعْ أَذَاهُمْ**﴾(٤٨): قيل: نسختها **آية السيف**، ولا تعارض بين هذه الآية وآية السيف، وليس هناك نسخ، ومعنى الآية: أعرض عن أذى الكافرين والمنافقين واصبر عليه، واعرض عن أقوالهم ولا تشتغل بها. فأى تعارض بين هذا المعنى وآية السيف؟.

• والآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً** (٤٩) ﴾(الأحزاب): قيل نسختها الآية: ﴿**وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (٢٣٧) ﴾(البقرة)، والصحيح أنها لم تنسخها لأن الآية الأولى تتحدث عن متعة المطلقة غير المدخول بها ولم تمس، **ولم تُفرض لها فريضة**، والثانية عن المطلقة غير المدخول بها ولم تمس **وفرضت لها فريضة، فلا تعارض ولا نسخ هناك**.

• والآية: ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ**﴾(الأحزاب٥٢): قيل: نسختها السُّنَّة، والناسخ حديث **عائشة**: «**ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحلّ له النساء**». والحديث من الأراجيف، **والسُّنَّة لا تنسخ القرآن**. وقيل: إن الآية: ﴿**تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ** ﴾ (الأحزاب٥١) هي التى نسختها، وهذه الآية كما ترى رقمها ٥١، وآية: ﴿**تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ**﴾رقمها ٥٢، ومحال أن تنسخ آية سابقة آية أخرى لاحقة عليها. ومن ذلك الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾ (البقرة ٢٤٠)، قيل: نسختها الآية قبلها: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾(البقرة ٢٣٤)، ونسخ السابق إذن للاحق جائز، وهذا غير صحيح، لأن الآية ٢٣٤ تجعل أقل مدة للتربص **أربعة أشهر وعشراً**، والآية ٢٤٠ تتحدث عن المتاع إلى الحول بدون إخراج، يعنى أكثر شيء لا تخرج به المرأة هو الحول، وهذا شيء وذاك شيء مختلف.

●●●

١١٥٦- ﴿سورة يس﴾

• الآية: ﴿ **فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** (٧٦)﴾: قيل: نسختها آية

السيف، فهل قتل المشركين يعنى أن النبىّ ﷺ قد سُمح له بأن يحزنه ما كانوا يقولونه بعد ما كان منهياً عن أن يحزنه هذا القول؟ وكما ترى **فلا نسخ هناك**.

•••

١١٥٧- ﴿سورة الصافات﴾

• الآيتان: **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)﴾**: قيل: نسختهما **آية القتال**، والآيتان تعنيان أنهم وقد استعجلوا العذاب استهزاء، فعلى الرسول ﷺ أن يعرض عنهم، ويرجىء أمرهم، حتى يحين موعد عذابهم، وذلك شىء **لا دخل له بالقتال**، فالآيتان على ذلك محكمتان وليستا منسوختين. وكذلك الآيتان بعدهما: **﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)﴾**، قيل: إن آية القتال تنسخهما، **ولا وجه للنسخ** فيهما كسابقتيهما.

•••

١١٥٨- ﴿سورة ص﴾

• الآيتان: **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾**: قيل: الآية الثانية نسختها **آية السيف**، والصحيح أنها غير منسوخة، لأن الآية ردٌّ على قولهم عجّل لنا عذابنا فى الدنيا، فسأله أن يصبر على ما يقولون.

• والآية: **﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾**(ص٤٤): قيل هى خاصة بالنبىّ **أيوب** عليه السلام، وكانت امرأته قد عرضت له بأمر فحلف عليها نبىّ الله: لئن شفاه الله ليجلدنها مائة جلدة. **والضغث** هو الحزمة من الشجر أو الشماريخ، وأيوب أمر بغصن فيه تسعة وتسعون فرعاً فتكتمل به المائة، فضربها به ضربة واحدة، فأبرّ قسمه، وخفّف عن امرأته. وقيل إن هذا منسوخ فى الإسلام، لأن الضرب يكون انفرادياً حتى المائة وليس بمائة فرع مرة واحدة، فهذا **تحايل على القسم**. والآية خبر عن أيوب، وهو خبر يختص بأيوب، ولم تشرّع الآية حكماً نُسخ بعد ذلك بآية تعارضها، وإنما يُقبل النسخ إذا وُجد حكمٌ يخالفه ويناقضه حُكم جديد، ومن ثم فلا نسخ.

•••

١١٥٩- ﴿سورة الزمر﴾

• الآية: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾**: قال فيها ابن الجوزى: زعم بعض ناقلى التفسير أن معنى الآية نُسخ بآية السيف، وليس هذا بصحيح، لأن حُكم الله بين عباده ـ فى الدنيا ـ: بإظهار حُجج المؤمنين، وإبطال شُبه الملحدين؛ وفى الآخرة: بإدخال هؤلاء الجنة، وهؤلاء

النار، وهذا لا ينافي قتالهم. ثم إن حكم الله بين عباده فيما اختلفوا فيه لا يقبل النسخ، وإذن فادعاء النسخ على الآية لا وجه له.

●●●

١١٦٠- ﴿سورة غافر﴾

• الآية: **﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧) ﴾**: قيل: نسختها آية السيف، ولا مجال للنسخ هنا، لأن الآية موضوعنا تتحدث عن الصبر على جدالهم وليس فى القتال، ولا علاقة للآية بآية السيف.

●●●

١١٦١- ﴿سورة فصلت﴾

• الآية: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾**: قيل: نسختها آية السيف، وهذا غير صحيح، فالآية من مكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق لا تُنسَخ، تقول: ادفع يامحمد بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك، وبصبرك عمّا تجد منهم من مكروه، وورد ذلك فى سياق الكلام عن «الذين قالوا ربنا الله استقاموا» (الأحقاف ١٣)، فهى تقرر مبدأ خلقياً بين جماعة المسلمين.

●●●

١١٦٢- ﴿سورة الشورى﴾

• الآية: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) ﴾**: قيل: نسختها آية السيف، ولا تعارض بين الآيتين ولا نسخ هناك. ومعنى «**حفيظ عليهم**» يحفظ أعمالهم ليجاريهم بها.

• والآية: **﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾**(٢٣): قيل: نسختها آية السيف، والصحيح أنه لا نسخ هناك، لأن الآية مكية، وكان الناس فى مكة يؤذون النبىّ ﷺ، فنزلت تأمرهم بمودة نبيّه، وليس من المعقول ولا المقبول القول بأن التقرُّب إلى الله بطاعته ومودة نبيّه وأهل بيته منسوخ.

• والآية: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠)﴾**: قيل: إنها منسوخة بالجهاد، فباعتبار المعنى أن جزاء سيئة المشركين إليكم، سيئة مثلها منكم إليهم، كقوله تعالى: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾** (البقرة ١٩٤). غير أنه لا مسوغ للنسخ، لأنه لا دليل عليه من خبر أو نقل، ولا تعارض بين المجازاة على السيئة بالسيئة والأمر بجهاد المشركين، خاصةً أن الآية

تعمّ المسلمين والمشركين، وأما القتال فهو للكافرين. وقال ابن الجوزى: إن بعضهم زعم أن آية: ﴿وجزاء سيئة سيئة﴾ منسوخة بقوله بعد ذلك: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، وهذا الزعم لا يصدر إلا ممن لا يفهم الناسخ والمنسوخ، لأن معنى الآية أن من جازى مسيئاً فليجازه بمثل إساءته، ومن عفا فهو أفضل، فكيف تنسخ هذه الآية تلك؟

• والآية: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤١)﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (٤٣)﴾، وهذا غير صحيح، لأن الآية الأولى تثبت جواز الانتصار، وهذه تثبت أن الصبر أفضل.

• والآية: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾(٤٨): قيل: نسختها آية القتال، ولا تعارض بين الآيتين، ولا نسخ هناك.

•••

١١٦٣- ﴿من سورة الزخرف﴾

• الآية: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٨٣)﴾: قيل: إنها منسوخة بآية السيف التى تقول: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ (التوبة٥)، والصحيح أنها محكمة، لأنها واردة للوعيد ولا تعارض بينها وبين آية السيف، ولم يلتفت الذين قالوا بالنسخ إلى قوله تعالى: ﴿يومهم الذى يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، ومن غير المعقول أن تُنسخ آية تتوعد الكفار بملاقاة هذا اليوم!

• والآية: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون (٨٩)﴾: قيل: نسختها آية السيف التى تقول: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾(التوبة ٥)، والصحيح أن الآيتين محكمتان فلا ناسخٌ ولا منسوخٌ، وكل آية لها سياقها ومستدعياتها، والآيتان لا تتعارضان، لأن القتال له مجاله، والصفح أيضاً له مجاله، وكلاهما مختلفان. ولم يصحّ عن الرسول ﷺ أن الآية منسوخة، ثم إنها تتوعد المشركين، وتأمر الرسول بالإعراض عنهم، لأنهم سيعذّبون فى الآخرة لإصرارهم على الشرك، ولإيذائهم للرسول ﷺ، ولا تعارض بين الأمر بالصفح عنهم فى مكة، والأمر بقتال أهل الكتاب والمشركين فى المدينة.

•••

١١٦٤- ﴿سورة الدخان﴾

• الآية: ﴿فارتقب إنهم مرتقبون (٥٩)﴾: قيل: نسختها آية السيف، مع أنه لا تنافى بين الآيتين، لأن ارتقاب عذاب المشركين إما أن يقع هذا العذاب عند القتل، أو عند الموت، أو فى الآخرة، وليس فى هذا نسخ.

•••

١١٦٥- ﴿سورة الجاثية﴾

• والآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾(١٤): قيل: إن آية القتال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾(البقرة ١٩٠) نسخت هذه الآية، والصحيح أنها لم تنسخها، لأن آية القتال تأمر بالقتال لأول مرة بعد الهجرة، وتشترط لذلك أن لا يكون المسلمون بادئين بالقتال، فقتالهم إذن للدفاع، وليس فيه عدوان، وأما الآية المسماة آية السيف، والتي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(التوبة ٥)، فإنها خاصة بالقتال في الحرم أو في غيره، وفي الأشهر الحرم أو في غيرها، فطالما كان أعداء الإسلام هم المعتدون فليقاتلهم المسلمون، وقد يستغل أعداء الإسلام حظر القتال عند المسلمين في الحرم وفي الأشهر الحرام، والآية تحلل للمسلمين القتال فيهما طالما اعتُدي عليهم. وهذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾نزلت فيمن يكفر بالبعث ولا يؤمن بيوم القيامة ولا يوم الحساب، وهذه هي أيام الله، وليس بعد الكفر إثم، فمهما فعلوا دون ذلك فمغفورٌ لهم ـ أي لن يُعاقبوا عليه، لأنه يكفيهم العقاب الأبدي على الكفر. ومن ثم فلا تعارض بين هذه الآيات جميعها ولا نسخ.

•••

١١٦٦- ﴿سورة الأحقاف﴾

• الآية: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾: قيل: لمّا نزلت شَمَت اليهود والمنافقون والكفّار في النبيّ ﷺ وفي المسلمين، وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدرى ما يُفعل به ولا بأصحابه؟ وإذن فهو ليس أفضل منا؟ واشتد الأمر على النبيّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(الفتح ٢)، فقيل: هذه الآية الأخيرة عوّضت الآية السابقة ونسختها، والصحيح أنها لم تنسخها، لأن معنى الآية يحدده سياقها، واليهود نزعوا الآية من السياق، فبدا أن معناها هو المعنى الذى أوّلوه بها، والمعنى كما هو في السياق: أنه لا يدرى ما ينسبونه إليه من أنه يفترى القرآن، فهو لا يتبع سوى ما يوحى إليه، وهو ليس بدعاً من الرسُل لأنهم جميعاً كان يوحى إليهم. ومن قال: أن الآية منسوخة فيما يخصّ النبيّ ﷺ، ونسختها الآية: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وفيما يخصّ المؤمنين نسختها الآية: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾(الفتح٥)، فعرف النبيّ ﷺ أنه قد غفر له، وعرف المؤمنون ذلك أيضاً، إنما كان يَردّ على أوهام مما يعرف بالإسرائيليات، والصحيح أنه لا نسخ ولا تعارض،وكل آية لها معناها داخل سياقها العام. ومن المرويات ضمن الإسرائيليات هذه الحكاية عن امرأة

أنصارية يقال لها «**أم العلاء الأنصارية**»، قالت لما مات **عثمان بن مظعون**: إن عثمان وقد توفى أكرمه الله، فادّعوا أن النبىّ ﷺ قال لها: «**ما يدريك أن الله أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين، وما رأينا منه إلا خيراً، فوالله إنى لأرجو له الجنة، ووالله إنى لرسول الله وما أدرى ما يُفعَل بى ولا بكم**». وهذه **العبارة الأخيرة** هى التى وردت ضمن الآية، **فانتزعوها من سياقها** وحشروها ضمن سياق جديد يثبت وجهة نظرهم، ويثبت تهافُت دعوة النبىّ ﷺ أنه مبعوث من الله تعالى. وقالوا: إن **أم العلاء** لما سمعته ينفى عن نفسه **أنه لا يدرى**، قالت: بأبى وأمى يارسول الله؟! **فمن يدرى**؟! ـ فهذا هو ما روّجوه، فلما نزلت الآية: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾(الفتح ٢) فرح بها مَن صدّقوا فرية اليهود، لضعف إيمانهم، حتى أنهم صاروا يهنئون رسول الله وقالوا: هنيئاً لك يارسول الله، لقد بيّن الله لك ما يُفعَل بك، فليت شعرنا ما هو فاعلٌ بنا؟! فنزلت الآية: ﴿**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ (الفتح٥) لتطمئنهم، فهذا ما زعمته هذه الروايات، وكلها **إسرائيليات من نسج اليهود وتلاميذهم قاتلهم الله**!.

● والآية: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ**﴾(الأحقاف ٣٥): قيل: نسختها **آية السيف**، وهذا غير صحيح، فالآية محكمة ولاعلاقة لها بالقتال، ويسبقها ويلحقها وعيد من الله للكفار، وكأن النبىّ ﷺ قد ضجر من قومه، فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأُمر بالصبر. وقيل: الآية نزلت على رسول الله ﷺ **يوم أُحد**، فأمره الله عزّ وجلّ أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل، تسهيلاً عليه وتثبيتاً له، فكيف إذن يقال إن الآية نُسخت؟!

●●●

١١٦٧- ﴿سورة محمد﴾

● الآية: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾(٤): قيل: نسختها الآية: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾(التوبة٥)، والآية: ﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ**﴾ (الأنفال٥٧)، وقوله: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً**﴾(التوبة ٣٦)، والصحيح أن الآية لم تنسخها هذه الآيات، ولا تعارض بينها، ومعناها جميعاً أن الإثخان هو الأصل والقتال محتدم، ليبث فى العدو الرعب فيولون الأدبار، أو يهابون الدخول فى معارك لاحقة، ومن يقع من العدو أسيراً، فالحال معه إمّا المنّ أو الفداء، والخيار لأصحاب القرار السياسى، وقد فعل النبىّ ﷺ هذه الأمور الثلاثة، فأثخن فى بدر، وفادَى سائر الأسرى، ومَنّ على سَبْى هوازن، **والآيات إذن جميعها محكمة ولا شىء منها بناسخ أو**

منسوخ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيات كلها بما فيه الصلاح للمسلمين، فلا معنى للقول بالنسخ.

• والآية: ﴿**وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** ﴿٣٦﴾﴾: قيل: نسختها آية الزكاة، وقيل نسختها آية: ﴿**إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا**﴾(محمد ٣٧)، وهذا باطل، لأن المراد بالآية إن يسألكم جميع ما في أيديكم من المال، تبخلوا بها وتمنعوها، وتخرج أضغانكم، فلذلك لم يسألكموها.

●●●

١١٦٨- ﴿سورة ق﴾

• الآية: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾(٣٩): قيل: نسختها آية السيف: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾ (التوبة٥)، ولا تعارض بين هذه الآية وآية السيف، ولا نسخ هناك، والصبر على ما يقولون مطلوب دائماً للمسلم في كل الأحيان والأحوال.

• والآية: ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ**﴾(٤٥): قيل: نسختها **آية الأمر بالقتال**: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا**﴾(البقرة١٩٠)، أو آية السيف: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾(التوبة ٥)، وواضح أن هاتين الآيتين شيء، وآية سورة (ق) شيء ثان، والصحيح أنها **آية محكمة ولا تتعارض مع هاتين الآيتين**. وقوله في آية سورة ق مثل قوله: ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴿٢٢﴾﴾ (الغاشية)، وقوله: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾(البقرة ٢٥٦)، وفي ذلك نفي أن الرسول كان يُكره أحداً على الإسلام، أو أن الإسلام انتشر بالسيف. وأيضاً فإن الآية خبر، **والآيات الخبرية لا تُنسخ**.

●●●

١١٦٩- ﴿سورة الذاريات﴾

• الآية: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ** ﴿٥٤﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴿٥﴾﴾ (التوبة ٥)، أو الآية: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ (النساء٩١)، والصحيح أنه لا تعارض بين الآيتين، فهذه الآية تأمره ﷺ والمسلمين أن يُعرضوا عن مجادلة الكفّار، فقد أوضح لهم النبيّ ﷺ الحجج كلها، وبيّنها القرآن؛ وأما آية السيف فهي خاصة بالقتال. وقيل: نسختها الآية بعدها: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٥﴾﴾، ويبطل هذا القول أن تذكير المؤمنين لا يعارض التولي عن المشركين بعد أن أصرّوا على كفرهم ولم يستمعوا إلى دعوته. وقيل: نسختها الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾(المائدة ٦٧)، ويبطل هذا القول أنه لم

يؤمر بالإعراض عنهم إلا بعد أن بلّغهم ما أُنزل إليه من ربّه، فرموه بأنه ساحر ومجنون.

•••

١١٧٠- ﴿سورة الطور﴾

• الآية: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطور ٤٨): قيل: نسختها آية السيف التي تقول: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ (التوبة)، وليس ذلك صحيحاً، فهذه الآية المسماة افتئاتاً آية السيف ـ تحضّ على قتال مَن قاتل المسلمين وأخرجهم من ديارهم ومنعهم من البيت الحرام، ونقض العهد معهم، وأما الآية فى سورة الطور فهى تحضّ على الصبر لقضاء الله فيما حمّل رسوله من الرسالة، ولبسلانه فيما ابتلاه من قومه، وتؤنسه بأحلى كلام: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أى فى حفظ الله وحراسته ورعايته، ومن ذلك قوله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ (طه)، أى بحفظه تعالى وعنايته. فكيف تكون آية التوبة ناسخة لهذه الآية؟!

•••

١١٧١- ﴿سورة النجم﴾

• الآية: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩﴾: قيل: نسختها آية السيف، ولا وجه لدعوى النسخ، لأن الآية تأمره ﷺ أن يعرض عمّن تولى عن القرآن ـ وهو النضر بن الحارث، وقيل هو الوليد بن المغيرة، فمبلغ هؤلاء من العلم أن يريدوا الحياة الدنيا ويسعوا لها فلا خير فيهم.

• والآية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾: قال ابن عباس إنها آية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(الطور)، وهو قول ضعيف حيث لا يوجد تعارض بين الآيتين، والآية الأولى على ذلك محكمة، ومعناها أن أحداً لن ينفعه عمل أحد، فإذا تصدّق عنه غيره فلا يجب له شيء منه، إلا إذا تفضّل الله عليه به كما يتفضّل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل، ومع ذلك فآية إلحاق الأطفال بذويهم شرطها أن يكون أهلوهم مؤمنين،وأن يكون أطفالهم عند الموت على الإيمان، فإذا كانت منازل آبائهم أرفع من منازل أطفالهم ألحقوا بآبائهم. والآيتان على ذلك لا

تتعارضان، وفى الآيتين أن العبد ليس له إلا سعيه، كقوله تعالى: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** (٢١)﴾ (الطور)، وقوله: ﴿**وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ (الأنعام ١٦٤).

●●●

١١٧٢- ﴿سورة القمر﴾

● الآية: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ** (٦)﴾: قيل: نسختها آية السيف، ولا وجه للنسخ، لأن الآية تتحدث عن يوم القيامة، وعن النبى ﷺ وقد أقام الحُجَة على المشركين، فاستحقوا أن يَعرض عنهم، لما هُم فيه من سوء الحال والمآل، ومن ثم لا علاقة لآية السيف بالآية وما فيها.

●●●

١١٧٣- ﴿سورة الواقعة﴾

● الآية: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ** (١٣) **وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ** (١٤)﴾: قيل: لما نزلت: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ** (٣٩) **وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ** (٤٠)﴾ (الواقعة) ظنوا أنهما نسختا الآيتين: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ** (١٣) **وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ** (١٤)﴾ (الواقعة) يعنى أنهم - وهم الآخرون - تساووا والأمم السابقة - أى الأولون - فى الدخول إلى الجنة، والصحيح أن الآيتين محكمتان، لأنهما خبر، وعن جماعتين مختلفتين: **الأولون** وهم السابقون، **والآخرون** وهم أصحاب اليمين.

●●●

١١٧٤- ﴿سورة المجادلة﴾

● الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٢)﴾: قيل: نسختها الآية: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾(المجادلة ١٣)، والصحيح أنها لم تنسخها، لأن الأمر بتقديم الصدقة عند المناجاة كان للندب والاستحباب وليس للوجوب، فقال تعالى: ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ**﴾ فبيّن أن **صدقة النجوى** تطوّع وليست فرضاً، وقال: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ**﴾ وهو استفهام معناه **التقرير**، أى خفتم وبخلتم بالصدقة وشقّت عليكم. ثم إن الآية الثانية تفيد أنه لا يلزم أن تكون الصدقة مالية بل يكفى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، ولايعتد بالقول بأن الصدقة المعروفة مالية، **فالصدقة أعمّ من ذلك**،

وفى الحديث: «**الكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»، فلا تعارض إذن بين الآيتين ولا نسخ.

●●●

١١٧٥- ﴿سورة الحشر﴾

● الآية: **﴿وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ﴾**(٣): قيل: لا يجوز ترك العدو الذى احتل الأرض وغصبها من أصحابها، أن يرحل عن تراضٍ ويجلو عمّا احتل، وإنما كان ذلك فى أول الإسلام ثم نُسخ، والآن فلابد من قتالهم، أو سبيهم، أو ضرب الجزية عليهم، وذلك غير صحيح، فقد يُترك العدو ليرحل كما حدث فى **لبنان**، وقد يتم التوافق معه على الجلاء كما حدث مع **مصر**، وأما ضرب الجزية فذلك كان فى الماضى والآن يتم **التعويض والاعتذار** رسمياً. والإجلاء هو ما كان ينبغى أن يُفعَل مع **بنى النضير**، واختلف الأمر مع **بنى قريظة**.

● والآية: **﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾**(٧): قيل: نسختها الآية: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾**(الأنفال٤١)، وهذا غير صحيح، لأن آية **الحشر** عن **الفىء** يكون بِصُلح من غير إيجاف خيل ولا ركاب، بينما **آية الأنفال** عن الغُنم يتقاسمه من قاتل عليه. ثم كيف تنسخ آية الأنفال آية الحشر، مع أن الحشر نزلت بعد الأنفال بسنة؟ ومن المحال أن ينسخ المتقدم المتأخر.

●●●

١١٧٦- ﴿سورة الممتحنة﴾

● الآية: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾**(٨): قيل: كان ذلك فى أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال، ثم نُسخ، ونسخته الآية: **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾**(التوبة٥) المعروفة **بآية السيف**. وقيل: الآية محكمة، ولمّا سألت **أسماء بنت أبى بكر** النبىَّ ﷺ: هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: «نعم» أخرجه البخارى ومسلم، وقيل: **إن الآية نزلت فيها**، فلا معنى لقول من قال إن الآية منسوخة، لأن برّ المؤمن بأهل الحرب، ممن بينه وبينهم قرابة أو نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينهم ولا نسب، غير محرّم ولا منهىٌ عنه، إذا لم يكن فى ذلك دلالة لأهل الحرب على وجود عورة فى أهل الإسلام، أو تقوية للعدو بكراع أو سلاح.

● والآية: **﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾**(١٠): بيّنت أحكام

مهاجرة النساء، وكان النبيّ ﷺ قد عاهد كفار مكة أن من أتاه من أهلها ردّه إليهم، فلمّا أتته النساء مهاجرات يردن الإسلام، نزلت الآية فلم يردّهن، واحتجّ الكفّار **بالعهد** بينهم وبينه. والعهد كان على ردّ من يأتى هارباً، والآية تتحدث عن **المؤمنات المهاجرات** ولا تتعارض مع العهد، ولذا كان النبيّ ﷺ **يمتحنهم** بحسب الآية ليعلم أنهن مؤمنات، وكن يحلفن أنهن ما خرجن بُغضاً فى أزواجهن، ولا رغبةً من أرض إلى أرض، ولا التماساً للدنيا، ولا عشقاً لرجل من المسلمين، **بل حباً لله ولرسوله**. فإذا حلفت بالله الذى لا إله إلا هو على ذلك، أعطى النبىّ ﷺ أزواجهن **مهورهن** وما أنفقوا عليهن ولم يردّهن. فكما ترى فإن **الآية لم تنسخ العهد**. وقد ذكر البعض أن الآية **تنسخ النساء من العهد**، وقالوا: إن القرآن (العهد) ينسخ السُّنّة (الاتفاق مع الكفار). والصحيح أن العهد ليس فيه تسليم **المؤمنات** إذا أعلن الإسلام، وكان امتحانهن لإثبات أنهن مؤمنات.

• والآية: **﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾**(الممتحنة): قيل: الآية نسختها **آية الغنيمة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾**(الأنفال ٤١) بأن يُعطوا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تُخمّس، أى إن امتنعوا من أن يغرموا مهرهذه المرأة التى ذهبت إليهم، يُعطوا من الفىء ويُنبذ العهد إليهم. والصحيح أن **الآية حكمها ثابت**، فمن كان بين المسلمين وبينهم عهد ويعلمون به أخذ المسلمون به، وإن لم يكن بينهم عهد، أو كان بينهم عهد ونبذوه، أخذ المسلمون المهر من الفىء. وقيل: إن الآية نسختها **سورة براءة**، فانقطع هذا العوض يوم الفتح ولم يعمل به من بعد. والآية نزلت فى قريش لمّا كان بينهم وبين النبىّ ﷺ عهد. وقيل: الآية نسختها **آية السيف** التى بمقتضاها نبذ كل ذى عهد عهده، وطولب المسلمون بقتال جميع المشركين. غير أن **آية السيف** لم تكن فى جميع المشركين ولكن نزلت فى طائفة خاصة منهم نقضت ما كان بينها وبين المسلمين من عهد. والقول بالنسخ فى الآية مضطرب، مما يدل على أنه لا يستند إلى أساس قوى ونقل صريح، ولا تتوفر له شروط النسخ، ودعوى نسخ هذا شأنه لابد أن تُرفض لبطلانها، ويثبت أن **الآية محكمة**.

• والآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾**: قيل: إنها منسوخة بالإجماع، فليس شرطاً أن يقلن ذلك عند المبايعة، وقيل: إن معناها تُرك ولم يؤخذ به، وقيل: حتى

لو كانت قد تُرك معناها، فالترك خلاف النسخ، وكذلك فإن الإجماع لا ينسخ نصاً، ومن ثم فلا مكان لدعوى النسخ فى الآية.

●●●

١١٧٧ - ﴿سورة التغابن﴾

● الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف، غير أن سبب نزول الآية أن الرجل كان إذا أراد الهجرة منعته زوجه وولده، وقد يكونون مسلمين ولكنهم يمنعونه لحبهم الإقامة فى مكة على المدينة، فلمّا وصل الأزواج إلى المدينة ورأوا ما عليه إخوانهم من الفقه نقموا على أزواجهم وأولادهم أن منعوهم أول مرة، فأرادوا معاقبتهم فنزل العفو عنهم، والآية إذن تدعو الأزواج أن يصفحوا عن أزواجهم وأولادهم، وآية السيف التى قيل أنها نسختها، تأمر بقتل المشركين لأنهم نقضوا العهد، فأى تعارض بين الآيتين، والمأمور بقتلهم فى إحداهما غير المأمور بالعفو عنهم فى الأخرى؟

●●●

١١٧٨ - ﴿سورة القلم﴾

● الآية: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾(٤٨): قيل: نسختها آية السيف: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة٥)، والصحيح عدم النسخ لأنه لا يوجد تعارض بين الآيتين، فالآية الأولى: تدعوه ﷺ إلى أن يصبر لقضاء الله فيه بأن جعله رسولاً نبياً مبلّغاً للرسالة، والآية الثانية: بشأن القتال إذا اعتُدى على المسلمين، أو أُخرجوا من ديارهم، أو مُنعوا من عبادة ربّهم.

●●●

١١٧٩ - ﴿سورة المعارج﴾

● الآية: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴿٥﴾﴾: قيل: الآية نسختها آية السيف: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(التوبة٥)، والصحيح أنها لم تُنسخ، وأن لكل آية مجالها، ومجال آية سورة المعارج الصبر على أذى أهل مكة، ومجال سورة التوبة نقض ما سمى للمشركين من العهد والميثاق، فلما نقضوا ما عاهدوا المسلمين عليه نَقَض المسلمون عهودهم معهم. والذى يصبر صبراً جميلاً هو الذى لا يجزع عند النازلة، ولا يشكو لغير الله، ولا يُدرَى به فى القوم من شدة تكتُّمه لما يصيبه.

● والآية: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

قيل: نسختها **آية السيف**، والصحيح أنها **غير منسوخة** ولا تعارض بين الآيتين، فالآية وعيد بلقاء يوم القيامة، **وآية السيف** خاصة بالقتال.

●●●

١١٨٠- ﴿سورة المزمل﴾

● الآية: ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ②﴾: قيل: نسختها الآية: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ** ②﴾(طه)، وهذا غير صحيح فلكل آية مجالها ومعناها، فآية القرآن معناها أنه لم يتنزّل القرآن على النبي ﷺ ليتسبب له في الشقاء، وهو المترتب على إنكار المنكرين والجاحدين لرسالته، وإلحاقهم الأذى به، واستهزائهم لأمره ومن معه، وكما ترى فالآية ليست لها صلة بالصلاة، وعلى ذلك لم تنسخ **آية قيام الليل** كما قال البعض. وأيضاً فإن **آية قيام الليل** التي تجيء في صدر سورة المزمل لم تنسخها الآية: ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾(المزمل٢٠) التي تجيء في عَجُز السورة، لأن هذه غير تلك في أهدافها، فالآية ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ②﴾ تأمره بقيام الليل، والآية: ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ مرتبطة في معناها بالآية: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾(المزمل٢٠)، فالمقصود **بالعجز عن الإحصاء** هو التزيُّد في قراءة القرآن تطوعاً، حتى أن الواحد كان يقرأ القرآن كله في الليلة الواحدة، وقد يستنفد الليل إلا أقله، وقد لا يقرأ كل القرآن فيستنفد ثلثي الليل أو نصفه أو أقل من النصف، أو أزيد منه، أو ثلثه؛ بالإضافة إلى أن القراءة تكون ترتيلاً خلال الصلاة فتطول الصلاة، فأمرهم أن تكون القراءة لما يتيسر، فلربما يكون بعضهم مريضاً، أو عاملاً يسعى على رزقه، فتلزمه الراحة ليستطيع أن يعمل، أو أن يكون من المجاهدين يريد أن يسرع بصلاته ليؤدي واجب الجهاد، وكذلك لم تكن هذه القراءة المطوّلة فرضاً حتى تنسخ، ولكل ذلك **لا نسخ** هناك البتة.

● والآية: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ⑩﴾: قيل: نسختها **آية القتال**، والصحيح أنها **لم تنسخها**، ولا تعارض بين الآيتين، لأن هذه الآية تأمر بعدم التعرّض لهم، وعدم الاشتغال بمكافأتهم، فإن في ذلك تركاً للدعاء إلى الله.

● والآية: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** ⑲﴾: قيل: نسختها **آية السيف** (التوبة ٥)، والصحيح أنه لا تعارض بينهما **ولا نسخ**، لأن آية السيف تحضّ على القتال، بينما هذه الآية تطمئن من أراد أن يؤمن ويتخذ إلى ربّه طريقاً إلى رضاه ورحمته، أن يفعل، فهذا ميسورٌ له.

● والآية: ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾٢٠): قيل: نسختها الآية قبلها: ﴿**إِنَّ**

رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾، والصحيح أنها لم تنسخها لأن القيام كان بقدر الوسع قبلها، وتأكد ذلك بعدها، فلا تعارض ولا نسخ.

●●●

١١٨١- ﴿سورة الإنسان﴾

● الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾: قيل: نسخت آية الصفات إطعام المسكين واليتيم، ونسخت آية السيف إطعام الأسير. والصحيح أن أحكامها ثابتة، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه، فلا تعارض ولا نسخ.

● والآية: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف، والصحيح أنها لم تنسخها فلا تعارض بينهما، فهذه الآية عن الصبر لما يقوله المشركون، وكان أبو جهل يقول: إن رأيتُ محمداً يصلي لأطأنّ على عنقه! والصبر المطلوب هو الصبر على مثل هذا الكلام من أمثال أبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(الإنسان ٢٤).

● والآية: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾: قيل: هي منسوخة بالصلوات الخمس، ولا نسخ هناك، لأن التسبيح عموم الصلاة والذكر، والصلوات الخمس خصوص الصلاة.

●●●

١١٨٢- ﴿سورة الطارق﴾

● الآية: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف التي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(التوبة٥)، والصحيح أنها لم تنسخها ولا تعارضها، ومعنى ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ لا تتعجل لهم العذاب، وأما آية السيف فهي في القتال.

●●●

١١٨٣- ﴿سورة الأعلى﴾

● الآية: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (الأعلى٧)، وهي استثناء ولا تعتبر نسخاً.

●●●

١١٨٤- ﴿سورة الغاشية﴾

● الآية: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾: قيل: نسختها آية السيف، تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(التوبة٥)، وقيل: إنها منسوخة بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(التوبة ٧٣)، والصحيح أنه لا نسخ، لعدم وجود تعارض بين هذه الآية والآيتين الأخريين، وكذلك لأن الآية خبر، والأخبار لا تُنسخ.

●●●

١١٨٥- ﴿سورة الإنشراح﴾

•الآية: ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾(٧): قيل: إن «فانصب» لقيام الليل، وفرض قيام الليل **منسوخ**، وهو تفسير مختلَف عليه، حيث فُسِّرت «فانصب» بأن النصب هو **الصلاة والذكر والدعاء، وعدم الاشتغال باللهو**. وقيل: النصب هو الغزو والجهاد، وحيث أمكن تفسير الآية على أكثر من وجه، **فلا معنى لدعوى النسخ**، إذ ينتفى التعارض بين الآية وبين ما ادُّعى أنه ناسخ لها.

•••

١١٨٦- ﴿سورة التين﴾

• الآية: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦﴾: قالوا: نسختها **آية السيف** التي تقول: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ (التوبة ٥)، ولا تنافى بين الآيتين، لأن موضوعيهما متخالفان، فالآية الأولى معناها: فمن يقدر على تكذيبك بالبعث والثواب والعقاب، بعد ما ظهر لهم من قدرة الله على خلق الإنسان، وأن يجازيه إن خيراً بخير، وإن سوءاً بسوء؟ والآية الثانية معناها: أنه إذا انسلخت الأشهر الحُرم، فإن استمر المشركون فى قتالكم فاقتلوهم أينما وجدتموهم، وحاصروهم، وارقبوهم ولا تتهاونوا أو تتساهلوا معهم. فكما ترى لا علاقة ولا مناسبة بين الآيتين لتنفى أو تثبت إحداهما الأخرى.

• والآية: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧﴾: قيل: نسختها **آية السيف** (التوبة٥)، والصحيح أنها ثابتة لأنه لا تنافى بينهما، وكان **ابن عباس وعلىّ** يؤمِّنان عليها إذا تُليت أمامهما بقولهما: «**بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**». والآية تعنى: أليس الله بأحكم من حكم فى أحكامه، وفصّل قضاءه بين عباده؟ فما دخل ذلك بالقتال الذى تأمر به آية السيف، إلا أن يكون من قال بالنسخ قد ظن الآية تعنى: دعهم وخلِّ عنهم، وليس هذا المعنى واحد، ولا تعارض إذن بين الآيتين، والآية **غير منسوخة**.

•••

١١٨٧- ﴿سورة العصر﴾

• الآية: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ②﴾: قيل: نسختها الآية بعدها: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ③﴾، وهى استثناء ولا تعتبر نسخاً.

•••

١١٨٨- ﴿سورة الكافرون﴾

•الآية: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥﴾: قالوا: إن **آية السيف** نسختها، بل إنها نسخت سورة **الكافرون** كلها، وآية **السيف** تأمر بالقتال: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**

﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾(التوبة)، وتتحدث عن **المشركين في المدينة**، بينما سورة «**الكافرون**» تتحدث عن **الكفار فى مكة؛ والمشرك هو** الذى يجعل لله أندادًا، والكافر هو المنكر لله أصلاً، وفى مكة لم يكن الأمر بالقتال قد تنزّل على النبىّ ﷺ، وكان الأمر بالجدال فقط بالمنطق وهو أحسن الجدال، **﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** (العنكبوت ٤٦)، والأمر بالقتال كان فى المدينة بعد أن استولى كفار مكة على أملاك المسلمين، وأخذوا ديارهم، وسبوا نساءهم وأولادهم، واضطروهم إلى الهجرة، فكتب الله عليهم القتال لذلك فقط، أى لدواعٍ اقتصادية واجتماعية وحربية، **وليس لإكراه الناس على الإسلام. وكان الحلّ الأخير بعد استنفاد كل الحلول الأخرى**، بمثابة إعلان الحرب الشاملة عليهم، وهذا مستفاد من آية السيف المزعومة، إلا إذا أصبحوا كالمسلمين، لهم عقيدتهم وينهجون نهجهم، وليس فى ذلك إكراهٌ، وعلى ذلك فآية **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾** آية محكمة، وهى **إعلان مبادىء بين الأديان، ولا تنسخها آية السيف**.

●●●

١١٨٩- ﴿دروس مستفادة من النسخ﴾

١ ـ تبلغ دعاوى النسخ التى لم تصحّ أكثر من مائتين وثمانين دعوى، لم تتوافر فيها شروط النسخ، ولم يقم الدليل الصحيح على وقوعه.

٢ ـ وهناك دعاوى نسخ تستند إلى أقوال أو أفعال من السُّنّة موضوعها غير ما شرعته السُّنّة، وصحبت هذه الآيات سُنّة تبيّن النسخ، والسنة المبيّنة للنسخ لابد منها فى مثل هذه الحالات، وفى كل دعوى نسخ بالقرآن.

٣ ـ كما أن هناك دعاوى أخرى نُسخت فيها أحكام ثبتت بالقرآن، وكان الناسخ لها آيات من القرآن كذلك، ويستند القائلون بها إلى أنه **لا ينسخ القرآن إلا قرآن مثله**، كما أن السُّنّة يجوز أن تنسخها سُنّة مثلها.

٤ ـ **غير أنه لا توجد دعوى واحدة تؤيد نسخ القرآن بالسنة**.

٥- وهناك دعاوى نسخ لآيات عبارة عن أخبار، **والأخبار لا تقبل النسخ**.

٦- وثبت تهافت دعاوى النسخ جميعها لآيات القرآن حتى أن الكثيرين قالوا: **لا نسخ فى القرآن**.

●●●

وبذلك ينتهى الباب العاشر وهو باب النسخ فى القرآن ويبدأ إن شاء الله الباب الحادى عشر: «باب المصطلحات فى القرآن».

●●●

الباب الحادى عشر

«أسماء ومفاهيم ومصطلحات من القرآن»

●●●

١١٩٠- «الآل والأهل»

فى القرآن من الآل: آل فرعون، وآل موسى، وآل هارون،وآل إبراهيم، وآل يعقوب، وآل لوط، وآل داود، وآل ياسين. وآل فرعون هم قومه وأتباعه وأهل ملّته، وآل كل نبىّ هم مَن كانوا على ديانته فى عصره وسائر الأعصار، وكذلك آل الرسول ﷺ، سواء كانوا من أنسبائه أو لم يكونوا، ومن لم يكن على دينه وملّته فليس من آله ولا من أهله وإن كانوا له أقرباء،ولأجل هذا قيل: إن أبا لهب، وأبا جهل، كلاهما ليس من آله ﷺ ولا من أهله، وإن كان بينهما وبينه قرابة، ولهذا قال تعالى فى ابن نوح: **«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ»** (هود ٤٦)، يعنى أنه ليس من خاصتك، لأنه مخاصمٌ لدينك. وفى الحديث عن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: جهاراً: **«ألا إن آل فلان ليسوا لى بأولياء»**، أخرجه مسلم، ولم يذكر اسم هؤلاء كى لا تكون فتنة. وقال: **«إنما وليّى الله وصالح المؤمنين»**. **والآل**: هم الأتباع، ولذلك نفى أن يكونوا أولياءه، **والولىّ**: هو النصير؛ **والأهل**: هم خاصة الرجل القريبين، أى زوجه وأولاده؛ **وأهل الأمر**: هم المعنيون به؛ **وأهل المذهب**: من يدين به؛ **والشيعة** على الرأى بأن **آل رسول الله**ﷺ: هم ابنته **فاطمة**، **والحسن**، **والحسين فقط**، وأما **المسلمون** فليسوا من آله، ولايذكرون من **أهله**: ابنته **زينب**، وابنتها **أمامة**، **وزوجاته** جميعاً **أمهات المؤمنين**؛ **وأهل السُّنّة** على القول: بأن **«آل محمد»** هم **المسلمون جميعهم**، و**«أهله»** هم أزواجه، وفى الحديث عندما سئل رسول الله ﷺ: كيف نصلى عليك؟ قال: **«قولوا اللّهم صلّ على محمد، وعلى أزواجه، وذرّيته، كما صليتَ على آل إبراهيم؛ وبارك على محمد،وعلى أزواجه وذرّيته، كما باركتَ على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»**. أخرجه مسلم، وفى ذلك تأكيد على أن **«الآل»**: هم الأقارب - وإن بعدوا - والأتباع، بينما **الأهل**: هم الزوجة والأولاد والأقارب الأقربين. و**«الآل»** أصلها **«أهل»**، ثم أبدلت الهاء ألفاً تعظيماً للعدد، فإذا صُغّرت **الأهل** صارت **أُهَيلاً**.

●●●

١١٩١- «الاجتهاد»

الاجتهاد من الفقه فى الدين، كقوله تعالى: **«لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ»**(التوبة١٢٢)، **والمجتهد**: فى اللغة الذى يجدّ ويبالغ فى طلب الشيء، وفى اصطلاح الفقهاء: هو الذى

يعرف أصـول الشريعة بكاملها، ومـا تنطوى عليه من أحكام، ويملك القدرة التـامة على استـبـاط هذه الأحكام وردّها إلى أصـولها، وهى: **الكتـاب، والسُّنّة، والإجـماع، والعـقل**، ويميّز بين آيات الأحكام وغيرها، وبين الصحيح والضعيف فى الأحاديث، وبين ما أُجمع عليه ومـا اختُلف فـيه، وبين القـواعد المقـررة بحكم العقل والعـقلاء، ومعـنى المفردات ومصادرها. وعلى ذلك **فالمجتهد** كاشف للشريعة، بينما المقلّد جاهل بالمصادر وأدلتها من الأساس، ومـا تنطوى عليـه من أحكام، ويعجـز عن التفـصيل والاسـتنباط. ولايـجوز الاجتهاد في مقابل نصّ قطعى الثبوت والدلالة، ولايكون الاجتهاد إلا فى مورد لا إجماع ولانصّ فيه من كتاب أو سُنّة، ولايكون بالرأى أو القيـاس والاستحسان الظنيين، فأحكام الله لا تُناط بالظنون، وإذا لم يكن هناك نصٌّ وكان لابد من الاجتهـاد، اعتمد المكلّف فى ثبوت الحكم على مبادىء العقل الصحيـحة، ومنها: الأهَمُّ مقدّمٌ على المُهِم عند التزاحم، وما لا يتم الواجـب إلا به فهو واجب، واختـيـار أهون الشرّين إذا لم يكن من أحـدهما مناص، والضرورات تبيح المحظـورات، والضرورة تقدَّر بقدرها، وقُبح العـقاب بلا بيان، ودرء المفسـدة أوْلى من جلب المصلحة، والعـلم بوجود التكليف يسـتدعى العلم بطاعـته وامتـثالـه، وأصل المشروط عـدم شرطه، والإذن بالشىء إذن بلوازمـه، والأصل براءة كل إنسان حتى تثبت إدانته، وإذا وُجدت العلة وُجد مـعلولها، إلى آخر ما هنالك من مبادىء يقطع العقل بصحـتها ويُستكشَف بها الحكم الشرعى. وهذا النوع من الاجـتهاد مطلوب، فالإسلام يقدّس **العقل** وينعى على **أهل التقليد**، ويطالب كل إنسان أن يحتكم إليه ليتيقن به أنه تعالى موجود، وأن له مطلق القدرة والعلم، وأن النبوة ضـرورة، والأوْلى إذن أن يعتمد عليه ـ أى العقل ـ لإثبات أحكام دينه وشـريعته. والاجتهاد فى النصّ يكون باعتـبار فهمه بشرط أن يكون الـنصّ ظنى الدلالة، كقولـه تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ (البقرة ٢٢٨)، فالدلالة هنا على القرء ظنية، لأن القرء ينطبق على الحيضة والطهر، والاجتهاد واجب فى ذلك وإن خالف المجتهـد رأى السلف، غير أن أهل الفقه أقفلوا باب الاجتهاد منذ **القرن الرابع الهجرى**، ولم يسمحوا برأى إلا رأى الأئمة، وقالوا فى أى رأى يخالف آراءهم أنه إمـا مؤول أو منسوخ، وبعض المجـتهدين قـد يصلح للاجتهـاد مطلقاً ولديه الكفاءة لاسـتنـباط جميع الأحكام، ويسمونه «**المجتـهد المطلق**»، وبعضهم لايصلح إلا للاستنباط فى بعض الفروع دون بعض، وهذا هو «**المجتهد المجتزىء**». ولله تعالى فى كل ما وقع من أحداث أحكام معيـنة نَصَب الدليل عليها بالخصوص أو بالعمـوم، والمجتهد الذى يعلم ذلك ويطبّقه ويستهديه هو «**المجتهـد المصيب**»، **وله أجـران**: أجرٌ على جهده، وأجرٌ

على الإصابة فى رأيه تفضّلاً من الله، ومن أخطأه الفهم فلا وزر عليه، وله أجرٌ على جهده، وفى الحديث: «**حلال محمد حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة**»، والحديث: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر**»، ومن أقوال عمر: «**أقول فى الكلالة برأيى، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن الشيطان**». ويلزم المجتهد من علوم الاجتهاد: العلم بالعربية ألفاظاً ومعانٍ، والعلم بالمنطق كى يعرف شروط الدليل وكيفية تركيب البرهان والقياس من المقدمات الصحيحة، والعلم بآيات الأحكام ورواياتها، وأحوال الرواة من الجَرْح والتعديل، وموارد الإجماع. ولابد له مع كل ذلك من ذوق معتدل سليم، وذهن حاذق، وعقل ناقد، وملكة قوية تمكّنه من إقامة الدليل على الحكم والدفاع عنه بالبرهان والمنطق، وأن يكون من الحافظين لدينهم، الصائنين لأنفسهم، المخالفين لأهوائهم، فإن كان المجتهد كذلك فهو المفتى حقاً وصدقاً.

•••

١١٩٢- ﴿الأجل﴾

الأجل: غاية الوقت. ويأتى الأجل فى القرآن إحدى وثلاثين مرة. والأمم آجال، يعنى دولاً، فهى إلى صعود وهبوط، والتاريخ دورات كقوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾(الاعراف٣٤)؛ والأجل المسمى: أى المحدد: ﴿**وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ**﴾(العنكبوت ٥٣)، ويقال له أيضاً الأجل المعدود، أى أحصاه الله تعالى إحصاءً ﴿**وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ**﴾(هود١٠٤)، وقوله: ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾ (الرعد٣٨) أى وقت معلوم، وفى الحديث: «**من أحب أن يمدّ الله فى عمره وأجله، ويبسط له فى رزقه، فليتق الله، وليَصِل رحمه**»، وفى القرآن: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ**﴾(الأنعام ٢٠)، قيل: **الأجل الأول**: أجلُ العبد من حين ولادته إلى حين موته، **والأجل الثانى**: وهو المسمّى عنده، من حين وفاته إلى يوم يلقاه فى البرزخ. وبالرضا عن العبد يزيد أجله فى الدنيا، كما فى حالة نوح، وبالسخط عليه ينقص أجله فيها، كما فى حالة غلام سورة الكهف الذى قتله الخضر الذى كان يرهق أبويه طغياناً وكفراً. والأجل افتراضى وأمر واقع، والأجل الافتراضى أن الله يخلق العبد بإمكانات يطول بها عمره، وأجل الأمر الواقع: أن يورد نفسه موارد الهلكة، أو يقاتل عدواً لا قِبَل له به، فيعرّض نفسه للموت، مع أن إمكانات بدنه تؤهّله لعمر أطول من ذلك.

•••

١١٩٣- ﴿الإجهاض﴾

إجهاض الحامل نفسها يوجب عليها غرّة، أى ديّة، ولاترث من الدية شيئاً، وتكون

للورثة، وعليها كفّارة تساوى عتق رقبـة، وكذا لو كان الجانى المُسقط للجنين أباه أو غيره، فحُكمه حكم الأم.

•••

١١٩٤- ﴿أحقاف قوم عاد﴾

الأحقاف ديار قوم عاد كقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ**﴾ (الأحقاف ٢١). والأحقـاف فى اللغـة جمع **حِقْف** وهو الكلّ العظيم من الـرمل ولم يبلغ أن يكون جبلاً، والجمع **حقاف**، وجمع الجَمع **أحقاف**، وهى فى الآية: جبال بعُمان تشرف على البحر، بأرضٍ يقال لها **الشَّحْر أو الشِّحْر**، ويطلقون عليها اسم **شحر عُمان**، وموقعها بين **عُمان وحضرموت**، وقيل اسمها **مَهْرة**، وتنسب إليها الإبل **المَهْرِيّة**، وكانوا أهل بداوة، وفيهم شدّة. ويسكنون الخيام ذات العُمد، ويرتحلون كـثيراً فى الربيع طلباً للكلأ، ثم يعودون من بعد إلى مساكنهم فـى الوادى، وكانوا من قبيلة إدم، ووصفهم القـرآن فقال: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨**﴾(الفجر). وهذه هى: ﴿**عَادًا الأُولَى**﴾(النجم ٥٠) أو «**عاد الأحقاف**»، أو «**عاد إرم**»، وهم «**قوم هود**»، وعُذّبوا **بالريح الصرصر**، بخلاف «**عاد الأخرى**»، أو «**عاد ثمود**»، وكانوا **بوادى القُرى فى الحجر**، بين الحجاز وتبوك، وهم **قوم صالح**، وعُذّبوا **بالصاعقة**.

وأرض الأحقـاف جبلية رملية قاحلة، إلا من ماء متسرّب فى أرض الوادى، وآبارهم من أردأ الآبار، واعتمادهم على المطر، ولذا قيل فيهم لما رأوا السحاب: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا**﴾(الأحقاف٢٤)، ولم يكن كما توقعوا: ﴿**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٥**﴾(الأحقـاف)، وذلك هو جزاء المفترين إذن. والـدرس المستفاد يوجزه قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ... ۝٢٦**﴾(الأحقـاف)، تعليلٌ لما حاق بهم من سـوء المآل، وقوله: ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٥**﴾ (الأحقاف) إحالةٌ من أهل الأحـقاف إلى أهل مكة لعلهم يتـعظون. وما يرد من التاريخ والجـغرافـيا فى القرآن ليس لذاتهـما، وإنما للعـبرة، ولتسلية المؤمنين لعلهم يصبرون ولايستعـجلون على مرّ العصور نهايات المجرمين البائسة، فلعلنا نصبـر أيضاً على حيف أمـثال إسرائيل وأمريكا فى فـلسطين والعراق وأفغانسـتان، وأمثال روسيا فى الشيشان، وما جرى فى الأحـقاف بمثابة البلاغ للقوم الفاسقين، وحسبنا الله.

•••

١١٩٥- ﴿الإخلاص﴾

الإخلاص: هو إخلاص العبادة، ومنه الخالص، ومخلصون (بكسر اللام)، كقوله تعالى: «﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾(الأعراف ٢٩)، ومخلَصون (بفتح اللام) كقوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾(الحجر ٤٠). وحقيقة الإخلاص: تصفية العقل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الحديث: «يأيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله تعالى، فإن الله تعالى لايقبل إلا ما خلص له» أخرجه الدارقطني. والإخلاص لله: هو ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين، وهو سرٌّ بين العبد وبين الله، وفي الحديث القدسي: «سرٌّ من سرّي استودعته قلب من أحببته من عبادي».



١١٩٦- ﴿إرم ذات العماد قبيلة من عاد﴾

يأتي الاسم «إرم» مرة واحدة في القرآن في قوله تعالى: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ۝٦ إرم ذات العماد۝٧﴾ (الفجر). وقوله: «ألم تر» استفهام تقريري، والخطاب للنبي ﷺ، والمقصود به العرب جميعاً، ومن بعد ذلك المسلمون كلهم؛ والرؤية المشار إليها ليست بصرية وإنما ذهنية، بمعنى: ألم يبلغك ويصل إلى علمك وفهمك حكاية قوم عاد أهل إرم؟ ويتكرر عن عاد في القرآن ٢٤ مرة، وكثيراً ما يقرن اسم عاد باسم ثمود. وعاد أُمة أو قبيلة دارسة كانت في الغابرين ﴿عاداً الأولى﴾ (النجم ٥٠)، إلا أن مساكنهم كانت ما تزال تُرَى آثارها: ﴿وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ (العنكبوت٣٨)، وهم قوم هود، وكانت جريمتهم كقوله تعالى: ﴿فاستكبروا في الأرض بغير الحق﴾(فصلت١٥)، وقوله: ﴿كفروا ربهم﴾(هود ٦٠)، وقوله: ﴿ وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ (هود ٥٩)، فكانت عاقبتهم كقوله تعالى: ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾(الذاريات٤١)، وكقوله تعالى في وصف الريح ﴿صرصر عاتية﴾(الحاقة٦). وإرم: قيل هو اسم أبيهم، أو قبيلتهم، أو أُمهم، وقرئت «عاد إرَمَ» مفتوحتين، وقرئت بسكون الراء«إرْم» كقراءتنا «بورْقكم»، وقرئت «عاد إرم ذات العماد» بإضافة إرم إلى ذات العماد، وقرىء «أرَم» بفتح الهمزة، والسبب في هذه القراءات المتنوعة جهلُ العرب بالاسم ومحاولتهم استكناه معناه، فبحسب ما يظنون المعنى كانت محاولتهم تطويع قراءة الاسم. وعند بعضهم: أن عاداً كان أحد أبناء إرم بن سام بن نوح، كما يقول العرب عن بني هاشم أنهم هاشميون. وقيل: إنه ربما إرم بمعنى رميم أي القديمة، ولذلك فاسمها «عاد الأولى» ، وأما المتأخرون من عاد فهؤلاء «عاد الأخيرة». وربما كانت عاد قبيلتين بحسب مكان مساكنهم، والأولى هي «عاد إرم»، والثانية هي «عاد

ثمود»، ولذلك قرن بينهما تسع مرات. «وعاد إرم» هي القبيلة الأم، و«عاد ثمود» هي البطن. وكانت «عاد إرم» بالأحقاف بين عُمان وحضرموت، وهؤلاء قوم هود، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾(الأحقاف٢١)، وكان هلاكهم بالريح الصرصر، بينما «عاد ثمود» هم قوم صالح، وكانوا بوادى القرى فى الحِجْر بين الحجاز وتبوك، وأهلكهم بالصاعقة. والقبيلتان ظلت آثار مساكنهم بادية للعرب حتى زمن النبيّ ﷺ. وعاد الأولى وُصفت بأنها ذات العماد، أي ذات الطول، فوصفهم بضخامة البنية حتى قال فيهم هود: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾(الأعراف٦٩)، وكانت مساكنهم لذلك «ذات عماد»، أى كانت خياماً عظيمة تحملها أعمدة شداد، كناية عن أنهم كانوا قوماً رُحّلاً، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ويحملون خيامهم معهم بأعمدتها الطويلة، أو أنهم لطولهم كانت أبنيتهم من الحجر، ولها أعمدة طويلة ترفعها وتَحكُم قيامها. والعماد فى اللغة هى الأبنية الرفيعة. أو أن الطول كان في سيوفهم لطولهم، كناية عن شدّتهم وقوتهم، حتى تفاخروا بذلك فقالوا: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾(فصلت١٥). وقال بعضهم «إرم ذات العماد» هى كالمدن الكبرى، أمثال دمشق والإسكندرية، وكانت لعجائبها مثار دهشة عند العرب، فجاء وصفها: ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر٨).

فهذه إذن«إرم ذات العماد» ضُرِب بها المثل في العتو، فكانت نهايتها ما نعرف من دمار، وإنّ ربّك لبالمرصاد، فلا يغرّنك من أمريكا وبريطانيا وروسيا وإسرائيل ما هى فيه من قوة ونِعَم، والله يُمهل ولا يُهمل، وإنه ليستدرجهم من حيث لايعلمون، ألا بُعداً للطغاة الظالمين، وحسبنا الله.

●●●

١١٩٧- ﴿الاستخــلاف﴾

فى اللغة من خَلَف،تقول إن أبا بكر استخلف عمربن الخطاب بعده، أي أوصى به خليفةً بعده، وفى القرآن: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(النور٥٥)، أى يجعلهم خلائف، ويمكّنهم ويمدّهم بالأسباب والقوة، ويثبّت حكوماتهم، وشروط ذلك أن يعبدوه ويعملوا صالحاً، وذلك قانونه في الوجود، سواء بالنسبة للأفراد أو الجماعات،ومن ذلك أنه استخلف داود، كقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾(ص٢٦)، ومبررات خلافته أن يقيم حكومته على الحق. وكذلك الشأن مع يوسف، قال: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (يوسف٥٦)، ومكّن للمؤمنين على أقوامهم لمّا كفر هؤلاء وطغوا فى الأرض مفسدين،

فأذهب ريحهم، وأنجى منهم المؤمنين،وآتاهم المُلك، وزوّدهم بأسباب القوة. وشَرَط لاستخلافه تعالى لأية جماعة شروطًا كما في قوله: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾(الحج٤١)، وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾ (السجدة٢٤). **والاستخلاف** إذن كمصطلح سياسى مقصور على من يجعله الله على أمر الناس فيُحسن إليهم، وأما لغير ذلك من الحكام فهى **الولاية** وليست **الاستخلاف**. والولاية من الناس وليست من الله، وقد تتم بالاستيلاء على السلطة من قِبَل الوالى الغاصب، والاستخلاف من الله أو من الناس لبعضهم البعض، استخلافاً شرعياً صحيحاً. وفى ظل **الخلافة الصحيحة** يجرى العمل فى الدولة بوحى من القرآن والسُّنّة الصحيحة، وفى **خلافة السيطرة والقوة** يكون القانون هو إرادة الحاكم المستبد، والطاغية المتحكّم؛ **والاستبداد** هو التفرّد بالحكم، ونبذ الشورى؛ **والطغيان** هو التجاوز إلى ما لايجوز. وقد يضطر الشعب إلى الثورة على الطغيان وإسقاط **حكومة الجور**، وعندئذ قد تقوم حكومة **الخلافة الناقصة**، ويتولى الحكم فيها **أهل الصلاح** الذين ينتخبون من بينهم رئيساً عليهم تُجمع عليه الأمة، ويعمل لصالح الشعب، ويرفع الغبن عن الطبقات المضطَّهدة والكادحة، ويعالج السلبيات الفاحشة كسوء **توزيع الثروة**، **وشيوع الأمية**، **وتفشى الأمراض**، **وذيوع الخرافة**، **وسوء فهم الدين**، ويرفع عن الناس المظالم، ويحارب الفساد، وسوء الإدارة، والبيروقراطية، ويطرد الاستعمار، ويؤمّن الاستقلال، ويعلن مجانية التعليم حتى الجامعة ومابعدها، ومجانية العلاج، ويضمن المسكن الطيب للمواطنين، ورغيف الخبز للجميع، فتلك **حكومة خلافة ناقصة**، لأنها لم تأت بالطريق الشرعى العادى وأتت عن طريق العنف والانقلاب والثورة، ولأنها حكومة ناقصة الشرعية، فإن الحاكم المسلم المستنير عليه أن يسعى ليستكمل النقص فيها ويحولّها إلى حكومة **خلافة صحيحة**، ويطلق لذلك على حكومة الخلافة الناقصة: **حكومة شرعية دعت إليها ضرورة تصحيح الأوضاع السائدة وتقويم المُعْوَج**. وتستمد الثورة على الخلافة الفاسدة أو الجائرة مشروعيتها من الحديث: «**من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»؛ **والتغيير باليد**: بالمقاومة الإيجابية؛ **والتغيير باللسان**: بالدعوة إلى الإصلاح، وبيان بطلان استخلاف الطاغية، وفضح أوجه الفساد فى الحُكم الاستبدادى، وتنوير الناس فيما ينبغى أن يكون عليه الحكم الصحيح؛والتغيير **بالقلب**:بالمقاومة السلبية،وإعلان عدم التعاون مع الحكومة الفاسدة، وإظهار الرفض لها. ولا يُؤثّم الشعب المسلم الذى يثور على الأوضاع الظالمة، ولا يُعتبر خارجاً على النظام، أو إرهابياً، لأنه ما

من سبيل لخلع الوالى الجائر إلا باليد، أو باللسان، أو بالقلب، وأضعف الثلاثة **التغيير بالقلب** ـ وهو «**عدم التعاون**» مع «**حكومة الجور**»، و«**عدم التعاون**» بمثابة العزل للطاغية والإسقاط لحكومته. **والمستخلفون**:إذا استقاموا على أمر الله، واجتنبوا السيئات، ولم يستحوذوا على السلطة، ولم ينفردوا بها، ولم يمالئوا المستعمرين، وسمحوا بتداول السلطة، والنقد، وحرية التعبير، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وسمحوا لمن يقوم بذلك من الشعب أن يقوم به، كانوا كقوله تعالى فى أمثالهم: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾(الحج٤١)،وهذا هو المعنى الحقيقى **للاستخلاف فى الأرض**، فإقامة العدل، والعمل بالصلاح، يترتبان على استعمار البشر للأرض بعد إنشائهم منها: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾(هود٦١). **والاستعمار**: هو التمكين والتسلّط بقصد الإعمار وليس التخريب،**والإعمار**: قوامه زيادة فى الصلاح بقصد زيادة الانتفاع، وكل ذلك فى حدود أوامر الله ونواهيه. **و«الخليفة فى الأرض»**: هو النائب عن **الله** فى أرضه، لأنه لم يُعرف مالك للأرض إلا الله، ومن يملكها لبعض الوقت ويرحل عنها ليس بمالك، المالك هو **المالك الدائم، وهو الله**، والنيابة عنه فيها لابد لذلك أن تكون فى حدود ماسخّر الله منها للبشر، وما سلّطهم عليه، وما خوّلهم استغلاله،فهو إذن **ليس استخلافاً مطلقاً** يفعلون بمقتضاه كيف شاءوا بلاقيد ولاشرط، وإنما هو ليعبدوه، ويوقّروه، ويتّقوه، ويهتدوا بهديه كما جاء فى الآيات السابقة، وأن لايعبدوا الشيطان، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر إلخ. وبديهى أنه إذا انُتقض من هذه الواجبات أو الشروط بطُلت **الخلافة** أو **النيابة** أو **الوكالة عن الله**، وبطل أى عمل من هذا الخليفة أو النائب الذى يخرج عن حدود شرع الله،سواء كان هذا العمل حكماً من الأحكام، أو قراراً من الإدارة، أو له مدخلات فى السياسة، أو الاقتصاد، أو الثقافة، أو التربية والتعليم، أو له متعلقات بمسائل الشرع والدين.



١١٩٨- ﴿الاستدراج والإملاء﴾

فى تعريف الاستدراج، الحديث: «**إذا رأيتم الله يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه ،فإنما ذلك منه استدراج**» رواه أحمد والطبرانى والبيهقى. وفى القرآن فى الاستدراج: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)**﴾(القلم)، وهو الأخذ على غفلة،وإسباغ النّعم مع نسيان الشكر، وكم مستدرَج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه ، وكم مغرور بالستر عليه ، فكلما جدّد معصية جُدّدت له نعمه، كقوله

تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ⁽¹⁵⁾﴾(البقرة) واستهزاؤه بهم هو استدراجهم بمزيد النعم. والاستدراج: ترك المعالجة، وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرّج، ومنه الدرجة وهى المنزلة بعد المنزلة، واستدرجه يعنى استخرج ما عنده قليلاً، ويقال استدرجه ودرّجه أيضاً. والإملاء مثل الاستدراج يكون على مهل، يقال أملّى له أطال له، والملاوة المدة، والملّوان الليل والنهار.

•••

١١٩٩- ﴿استفتاح الرسل واستفتاح الجبارين﴾

الاستفتاح: هو الاستنصار أو الدعاء بالنُّصرة: يقول تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إبراهيم١٥)، وفى الرواية: أن النبىّ ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، أى يستنصر بهم، والرسل كانوا يستفتحون، وكذلك الجبارون والأمم الفاسدة، كهذا الاستفتاح: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال٣٢)، ومثل هذا الاستفتاح: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف٨٩)، ومثل قوله: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⁽⁴⁷⁾﴾ (الأعراف) إلخ.

•••

١٢٠٠- ﴿الإسراف﴾

الإسراف: هو التبذير، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف٣١)، فما جاوز الحدّ والاعتدال فهو سَرَف وإسراف، ومن كان معه جنيهٌ فأنفقه فى سبيل الله كان مسرفاً، ومن أنفق عشرة قروش فى معصية الله كان مسرفاً، وقيل: لاخير فى السرف، ولا سرف فى الخير، وهذا ضعيف، لأن ثابت بن قيس لمّا جَذّ نَخْلَه وقَسّم ثمره على الناس، ولم يترك لأهله شيئاً، نزلت الآية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام١٤١)، أى لاتعطوا أموالكم كلها فتقعدوا فقراء. والأكل والشُرب واللّبس حلال مالم يكن سرفاً أو مخيلة. والله قد أمر بالقصد فى كل شىء، فقال فى النفقة: ﴿ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ (الفرقان٦٧)، وقال لولّى الدم: ﴿فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾(الإسراء٣٣)، وقال فى المُتطيِّرين: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾(يس١٩). ولأن الإسراف رذيلة، فإن من يكون مسرفاً يضطر إلى مداراة إسرافه، فيكذب ويسرف فى الكذب، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر٢٨)، ومثله الشكّاك، فأمرُه جميعه إلى الشك فى كل شىء، حتى ليسرف فى

الشك: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾(غافر٣٤)، والارتياب: هو الشك، وهو من الأمراض النفسية المقيتة ـ إن لم يكن أشدها جميعاً، ويصيب من يأتيه بالبارنويا، وهي مرض الشك، وكان فرعون موسى مثلاً قرآنيًا لهذا النمط المسرف من أنماط الشخصية المريضة: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾(يونس٨٣)، وعلُّوه ترفُّعٌ عن عباد الله، وكان مسرفاً فى ترفُّعه واستكباره واستعلائه. والمسلمون مأمورون أن لايسرفوا، والإيمان يمنع من الاستكبار، ويحولُ بين المسلم وأن يسرف، والإسراف رذيلة كما أن الاستكبار رذيلة، والذى يوغل فى الإثم ويرتكب المعاصى حتى السرف، ثم يتوب ويستغفر ويعمل صالحاً، ولاينبغي أن ييأس من إسرافه السابق، بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر٥٣)، وليس فى القرآن أوسع ولا أرجى من هذه الآية، وفيها كل الأمل لمن أسرف على نفسه، فلا يأس مع رحمة الله، والقنوط فى الآية معناه اليأس، إلا أن اليأس أشد درجة من القنوط، فاليأس قطع الأمل بالكلية، بينما فى القنوط يصاب المرأ بالإحباط وينتابه القلق، ويعذبّه ضميره، ولكنه ما يزال يرجو عفو الله، ولذا كان قوله تعالى للمسرفين: ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾(الزمر ٥٣) فالأمل فى الله أكبر من كل رذيلة!



١٢٠١- ﴿الأسماء والأسمائية فى القرآن والفلسفة﴾

الأسماء منّة الله على آدم وبنيه، والأسماء هى الأحجار التى كان بها الصرح الفكرى للحضارات والمدنيات، وتتركب الأسماء من الحروف الأبجدية، وتكتمل منّته تعالى على الإنسان بأن يعلّمه القراءة والكتابة، قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾(العلق)، فلّما خلقه تعالى من علَقة مهينة، أكرمه حتى صار عاقلاً، فعلّمه أن يقرأ وأن يكتب ما لم يكن قد علِم، فذلك هو آدم بِذرة الخلق، يتكرر دوماً فى كل ابن وبنت له، كصورة منه، فلولا فطرة الله فى آدم، أورثها چينات بنيه، لما كان كل ما نعرفه من العلوم والفنون والآداب والصنائع، حفظها الله تعالى فى الكتب فلا تندرس المعارف، ويتكرر فى القرآن اسم الكتاب بهذه الصفة ٢٣٠ مرة، وهو ما لم يأت فى أية ديانة، وكان من إعلاء القرآن للقراءة والكتابة أنه أطلق عليه اسم «القرآن» و«الكتاب». وأطلق على اليهود والنصارى «أهل الكتاب». وتتكون كل اللغات من الأسماء والأفعال والحروف، والأسماء هى الأصول، والأفعال والحروف أوصاف وأحوال لها، ولولا أن عُلّم آدم الأسماء لكان أعجز

من الملائكة فى الإخبار عنها عندما أمره الله بذلك. وأهمية الاسم أن له مسمى، وما ليس له مسمى فهو اسم باطل: **﴿إنْ هِيَ إلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾**(النجم٢٣)، والاسم الحقيقى هو ماك ان له مسمى حقيقى، واسمه تعالى: «الله» حقيقى، بدليل أن ليس له شبيه له اسمه، كقوله تعالى: **﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**(مريم٦٥). وهذه الأسماء التى نوّه القرآن بها لتعليم آدم ونقله من الحيوانية إلى الإنسانية، ومن الجهالة إلى العلم، هى التى جعلت الفلاسفة من رهبان النصارى يتساءلون حولها فى العصور الوسطى، لمّا ازدهر بينهم تعلُّم اللغة العربية وترجمة معانى القرآن، فقالوا بفلسفة سمّوها **الأسمائية** أو **الإسمية nominalism**، من **الأسماء nominae**، وقالوا فى تعريفها: هى إشارات المعانى فى العقل، وليست سوى أصوات تخرج مع النَّفَس **flatus vocis**، فإذا جُرِّدت المعانى من إشاراتها لم يتبق منها فى العقل شىء، وإذن فالأفكار هى الأسماء، والاستدلال هو الاستخدام الصحيح للأسماء فى مواضعها، وليس هو الانتقال من معان إلى معان أخرى، وعلى ذلك فالأسمائية فى القرآن كأنها **«وضعية منطقية logical positivism»** أو **«واقعية realism»**، والفرق بين وضعية القرآن وبين **«الوضعية المحدثة»** أن الأخيرة تنفى وجود الله باعتبار أن اسم الله لايقابل شيئاً موجوداً فى الواقع، وهو قصور ذهنى واضح عند الوضعيين المحدثين من أمثال بلومبرج، وفايجل، وزكى نجيب محمود، وآير، ورايل، وكارناب، فالله قد ثبت وجوده بالخبرة، وبالتجربة، وبالواقع، أو بالدليل والمنطق والبرهان. ولقد أفلست الأسمائية لمّا انحرف بها الأسمائيون إلى القول بأنه **«لاوجود إلا للأسماء»**، سواء فى العقل أو خارجه، وهو النقيض الكامل لما جاء به القرآن، فكل اسم تعلّمه آدم له مسمّى، أطلعه عليه الله تعالى، وأشهده على عين مسمى الاسم، فليس اسمٌ إلا وله المُسمَّى، وهذه هى **الوضعية المنطقية التجريبية الإسلامية**، كقولك زيد قائم، **فالاسم هو المسمى**، أى يراد به المسمى، ومع ذلك فقد يراد بالاسم التسمية، كقولك أسد ثلاثة أحرف، فلم نرد بأسد المسمى؛وأما قوله تعالى: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾**(البقرة ٣١) فإنّ «كلها» للإحاطة والعموم وليس للتعديد والخصوص، ونفهم من الآية: أن اللغة تعلمها الإنسان فطرةً من الله، وهو معنى قولنا إن اللغات توقيف من الله، وأن الإنسان أول ما يتعلم عن الأشياء أسماءها، وأن هذه الأسماء لاتكون أسماء لها إلا إذا كانت توصيفاً لمنافع الأشياء، وأنه فى تعلُّم الأسماء، فإن ما ييسره أن تصنّف الأسماء بحسب أجناس الأشياء، وباعتبار منافعها. ونفهم من قوله تعالى: **﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾** أن تعلُّم الأشياء لايصلح له إلاإذا كانت

نماذجها موجودة ويكون التعلم عليها. وقوله تعالى: ﴿**أنبئونى بأسماء هؤلاء**﴾ هو أمرٌ بالإنباء ليس على جهة التكليف وإنما على جهة التقرير والتوقيف. ولمّا كان آدم قد تعلم الأسماء، واللغات أسماء، فإنه يكون **أول من تعلم اللغات**، وذلك من فضل آدم على الملائكة، فقدّمه الله تعالى عليهم لهذا الفضل، وأسجدهم له، وجعلهم تلاميذه، وأمرهم أن يتعلموا منه، وجلّله بالعظمة بأن جعله مسجوداً له لما خصّه **بعلم الأسماء nomology**.

•••

١٢٠٢- ﴿الأسوة الحسنة﴾

الأسوة من مصطلحات **علم التربية**، وهو القدوة الذى يُقتدى به فى الخصال والفعال والأقوال؛ ومعنى **يتأسَّى** به: يتعزَّى به فى جميع أحواله. **والأسوة فى القرآن** هم كل الأنبياء، وخُص منهم إبراهيم ونبيّنا **محمد** ﷺ . فقال تعالى فى إبراهيم: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾(الممتحنة٤)، ومن سيرته أنه كان يتبرّأ من الكفّار. والخطاب لجماعة المسلمين، فأُمروا أن يقتدوا به، «**والذين معه**» هم أصحابه من المؤمنين، فكان على أصحاب محمد ﷺ أن يتأسّوا بإبراهيم، ويبروأ من المشركين مثله. ونفيد من الآية أنّ شَرْعَ مَن قبلنا هو شَرْعٌ لنا كذلك فيما أخبر الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ (الممتحنة٦)، فكرر ذلك مرتين تأكيداً وتنبيهاً، وهو من منهج القرآن: أن يكرر المواعظ والأوامر المهمة. وقال فى نبيّنا ﷺ : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ (الأحزاب٢١)، والآية عتابٌ للمتخلفين عن الجهاد يوم الخندق وعند أى استنفار، وإن كان الخطاب للمؤمنين. وكان الرسول ﷺ أسوة فى كل أحواله. فلقد شُجّ وجهه، وكُسرت رباعيته، وقُتل عمّه حمزة، وعانى الجوع وشظف العيش، فكان مع ذلك الصابر المحتسب، والشاكر الراضى. وفى الحديث عن أنس عن أبى طلحة، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. ولما شُجّ دعا لقومه ولم يدعُ عليهم، وقال: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون**». وكما ترى فالأسوة به ﷺ ، وبإبراهيم عليه السلام، وبالأنبياء والصحابة، على الإيجاب فى أمور الدين، وعلى الاستحباب فى أمور الدنيا.

•••

١٢٠٣- ﴿أصحاب رسول الله ﷺ ﴾

الصاحب: الملازم والمعاشر، والجمع صَحْب، وأصحاب، وصحاب، وصحابة، وصَحابة؛ **والصحابة**: أصحاب النبىّ ﷺ ، والواحد منهم صحابىّ وصاحبٌ. كقوله تعالى: ﴿ **إِذْ**

أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ (التوبة ٤٠)، وصاحبه ﷺ بنصّ القرآن هو أبو بكر الصدّيق، وفى الآية جُعل الصاحب أولاً لإيمانه واعتقاده، والله معهما فى الصُّحبة بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة، وخُصّ أبو بكر بقوله «لاتحزن»، فبقى بها مهتدياً، موحداً، جازماً، قائماً بالأمر، لم يتطرق إليه اختلال.

وصحابته ﷺ من المهاجرين والأنصار على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم: هم كل مسلم رأى رسول الله ﷺ أو صَحِبَه على خلاف، قال البعض: إن **الصحابى** هو كل من أقام مع الرسول ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين. والأصح أن الصحابة من المهاجرين والأنصار: هم الذين **صلّوا إلى القبلتين**، أو بايعوا **بيعة الرضوان** وهى بيعة الحديبية، وكانوا ضمن **أهل** بدر، وأفضلهم **الخلفاء الأربعة**، ثم **الستة الباقون** إلى تمام العشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب أُحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

●●●

١٢٠٤- ﴿أصحاب الميمنة وأصحاب اليمين﴾

هم إحدى الفئات **الثلاث** التى ينقسم إليها الناس يوم القيامة: **﴿وكنتم أزواجا ثلاثة (٧) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة (٨) وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة (٩) والسابقون السابقون(١٠)﴾**(الواقعة)؛ وقوله: **﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين(٢٧)﴾**(الواقعة): هم الذين يؤخذ بهم يوم القيامة **جهة اليمين** إلى الجنة، ويقابلهم **أصحاب** المشأمة أو أصحاب الشمال: وهم الذين يؤخذ بهم **جهة الشمال** إلى النار. وأصحاب الميمنة أو اليمين: هم من أوتى كتابه بيمينه، وهم أهل الحسنات، الميامين على أنفسهم، أصحاب التقدم. والتكرار فى قوله: «**ما أصحاب الميمنة**» و«**ما أصحاب اليمين**» للتفخيم والتعجيب، كقوله تعالى: **﴿الحاقة (١) ما الحاقة (٢)﴾**، و**﴿القارعة (١) ما القارعة (٢)﴾**، والمقصود تكثير ما لأصحاب اليمين من الثواب، وعَدَهم ربّهم الجنة فيها السدر المخضود، والطلح المنضود، من الفواكه ذات الألوان والطعوم، لا تنقطع طول الوقت، وليست ممنوعة على أحد، وفيها الظل الممدود، فلا حرّ ولا حرور، والماء المسكوب البارد، والمجالس المرفوعة، ويطوف عليهم أبكار عُربٌ أتراب، أنشأهن إنشاء لهم، وكلهن لطيفات جميلات من سن واحد، لم يمسهن من قبل إنس ولا جان (الواقعة ٢٨/ ٣٧) جزاءً وفاقاً لأصحاب اليمين: **﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾**(الواقعة٩١)، والخطاب للنبىّ ﷺ، أو لقارىء القرآن حينما يصل إلى آيات أصحاب اليمين، يطلب له السلام والسلامة كما وُعد به هؤلاء ومن

تبعهم، فهم سالمون ويعيشون في سلام، ولقد سلموا من عذابات الحشرجة عند الموت وفي القبر، وعند العرض، وبعد الحساب، فعسى أن يكون غيرهم من المسلمين مثلهم.

•••

١٢٠٥- ﴿الاصطفاء في القرآن والتوراة والإنجيل﴾

الاصطفاء: هو الاختيار، **والمصطفى** هو المختار، من أسماء النبيّ ﷺ؛ وفي النصرانية يقولون هو لقب **بولس الرسول**، وقالوا اسمه عبدالله؛ **والصفوة** من كل شيء هي خالصه وخياره. والاصطفاء في **اليهودية** من عند الله، وبلا سبب يبرره ويفهمه الناس. **والنصارى** اعتنقوا نظرية اليهود في الاصطفاء، وعندهم أن الله يختار من عباده من يستصفيه لنفسه من جنس البشر، ولامعقب على اختياره، وعند اليهود قد يرى الله أنه أساء الاختيار، ويأسف على أنه أصفى أحدهم، وسمّوا ذلك «البداء»، ويعنى أنه تعالى «بدا له»، أى تراءى له ثم رجع فيه. وفي الإسلام بخلاف ذلك تماماً، فالاصطفاء يأتي بكثرة في القرآن واستخدمه١٣ مرة، وفي الآية: **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾**(آل عمران)، أي اختارهم على سائر أهل الأرض، وهو اختيار مبرّر وليس بلا سبب، وفي حالة إبراهيم مثلاً يأتي فيه: **﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾** (البقرة ١٣٠)، أي اخترناه للرسالة، فلما اخترناه **أصفيناه**، أي فجعلناه **صافيًا** من الأدناس، فكان ذلك مبررًا لاختياره: **﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (البقرة١٣١)، فيكون المعنى: اصطفيناه لمّا قال له ربّه أسلم، فقال أسلمت لربّ العالمين، ومعنى **أسلِم** أخلِصْ دينك لله بالتوحيد ،فكان إبراهيم من **المصطفين**، باختياره الإسلام لنفسه ديناً. وآدم اصطفاه، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلّمه الأسماء، وأسكنه الجنة وأهبطه منها، وحكمة ذلك كله كانت أبلغ الحكم، وكان بها خلْقُ العالم والناس، فكان **التاريخ**، وكانت **الحضارات**، وعرف الإنسان **العلوم والفنون والآداب، والمعارف واللغات، والصنائع**، فكان **مبرر اصطفاء** آدم أن كان وذريته أهلاً لكل ذلك. **ونوحاً** اصطفاه وجعله أول رسُله لمّا عبد الناس الأوثان وأشركوا، وظل يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله، ولم ينج منهم إلا من تبعه على دينه. وكان **مبرر اصطفاء نوح** أنه صاحب حكمة، ترى أن لا يُذَر على الأرض من الظالمين ديّاراً، أي واحداً، لأن الضالين سيضلّون غيرهم لو استمروا في البقاء، ولن ينسلوا إلا فجّاراً وظلمة مثلهم. وأما **آل إبراهيم** فكان منهم: **إسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط** إلخ. فثبتت لهم **الوراثة الروحية**، فاصطفاهم كذريّة للمصطفين، يحملون بعدهم

الرسالة والنبوة. ومنهم مريم بنت عمران، قال فيها: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران٤٢)، ومبرر اصطفائها: أنها كانت صدّيقة، وشهد لها بالصدّيقية (المائدة٧٥)، ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴿١٢﴾﴾ (التحريم) .واصطفى كذلك طالوت على قومه، وبيّن لهم مبررات اصطفائه، وهي بسْطته في العلم، والعلم ملاك الإنسان، وبسطته في الجسم، وهو معينه على شدائد تزعُّمهم، والقيادة لهم في السلم والحرب؛ ومن فقه ذلك عندالمسلمين كانت نظريتهم في الإمامة، أن كل رئيس أو أمير، أو إمام، ليس له أن يتبوأ مكانته من قومه إلا إذا كان مستحقاً لها بأمرين؛ هما: العلم والقوة، والعلم يشمل سائر المعارف والدين،والقوة بدنية، ونفسية وعقلية، ولا حظ للنسب مع العلم والقوة، ومع الفضائل النفسية والعقلية، واللياقة البدنية، وعند المسلمين تتقدم هذه الصفات على النسب، وقد أخبر تعالى أن اختيار طالوت كان لعلمه وقوته، وإنْ كان غيره أشرف انتساباً، وأكثر مالاً، وأحظى اجتماعاً. وقال تعالى فى المصطفين تبريراً لاصطفائه لهم، إنهم أولو أيد وأبصار(ص٤٥)، وأولو الأيدى: يعنى أولى القوة، وأولو الأبصار أى أصحاب علم وعقل وبصيرة فى الحق، ومن أجل ذلك اختارهم، وقال فيهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾(ص٤٧) أى المختارين المجتبين الأخيار، فلأنهم أخيار كانوا مختارين،ومنهم كما قال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ (ص٤٨). والاختيار، والاصطفاء، والاجتباء بمعنى واحد، يقول تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾(الحج ٧٨) أى اختاركم واصطفاكم، غير أن الاختيار من الخيرة، وفيه أن يتوافر الخير فى المختار، بينما الاصطفاء هو اختيار من يصافيك وترى فيه الإخلاص والود؛ والاجتباء: هو أن تختار الأصلح ترى فيه أنه تجتمع له أحسن وأفضل الخصال لما تختاره له؛ وأى هذه المصطلحات يأتى فى القرآن فهو لما يناسبه؛ وأما فى اليهودية والنصرانية، فالطاعة لله لم تكن قبل الاصطفاء بل كانت بعده،فلما اصطفاهم أطاعوا، على عكس الإسلام، فإن المسلمين كانوا أولاً من أهل الطريقة، وفيهم الخير والفضيلة، فاختارهم الله وفى الحديث أن خير الناس فى الإسلام كانوا أيضاً خير الناس فى الجاهلية.. وأما اليهود فيقولون مثلاً أنهم «شعب الله المختار»: اختارهم واصطفاهم وعاهدهم أن يعطيهم من بعد إبراهيم جميع أرض كنعان ملكاً مؤبّداً (تكوين ١٧ / ٧- ٨)، فمهما فعلوا من آثام فالعهد معهم قائم لاينفصم، بينما المسلمون يذهبون إلى أنه لاعهد مع الله إلا للمتقين، وفى القرآن: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (البقرة ٤٠)، فما هو عهده لهم؟ والجواب من القرآن ومن جماع التوراة: ١- أن يرهبوا الله تعالى ٢ - ويؤمنوا بما أنزل

مصدّقاً لما معهم. ٣ ـ ولايكونوا أول كافر به. ٤ ـ ولايشتروا بآياته ثمناً قليلاً ـ يعنى أن يتقوا الله فيما أنزل عليهم من التوراة، ولايحرّفوها لفوائد يحصّلونها ومطامع يجتنوها ٥ ـ ولا يُلبسوا الحق بالباطل، ويكتموا الحق وهم يعلمون ٦ ـ وأن يقيموا الصلاة التى تركوها. ٧ ـ ويؤتوا الزكاة التى أهملوها. ٨ ـ ويركعوا مع الراكعين، فلايستكبرون. ٩ ـ ولاينسوا أنفسهم وهم يأمرون الناس بالبر. ١٠ ـ وأن يستعينوا على طلب الآخرة بالصبر والصلاة، والصبر هو الصيام والكفّ عن المعاصى. فلم يرقب اليهود فى الناس إلاّ ولاذمة، ونقضوا العهد والميثاق، واشتروا بهما ثمناً قليلاً، وادّعوا أنهم لن تمسهم النار إلا قليلاً، وقالوا على الله ما لا يعلمون، وسفكوا الدماء، وقتلوا النبيين، وسمعوا وعصوا. **فهل هؤلاء مصطفون؟ وهل يمكن أن يقع عليهم اختيار واصطفاء؟** وتفسير اليهود للاصطفاء لذلك مغلوط، فالمصطفون متّقون **أولاً،ومتقون آخراً**، ثم يكون اصطفاؤهم بناءً على ما يظهرون من الإخلاص، وبقدر ما لهم من الصلاح.

وأما **النصارى** فصاحبهم **بولس**، الذى وصفوه بأنه **المصطفى**، يقول عن نفسه «**حدث لى انجذاب**» (أعمال الرسل٢٢ / ١٧)، وكان **فريسياً** ابن فريسى (أعمال الرسل٢٣ / ٦)، يعنى كان من **المنافقين**، وقالوا فيه «**مفسد ومثير فتنة وإمام لشيعة الناصريين**» (الفصل ٢٤/ ٥)، وكان عنصرياً شديد العنصرية، **فكانت دعوته لليهود أولاً، فلما فشل دعا الأمم** (رومية١ / ١٦)، وهو الذى نشر الفرية أن **المسيح ابن الله** (رومية٥ / ١٠)، وسنّ التشريع بتحريم طلاق النساء،(رومية٧ / ٢)، واستن عدم الزواج (كورنتس٢٩)، ودعا أن تكون المرأة للبيت (تيموتاوس٥ / ١٤)، وأن تخضع النساء لرجالهن كما للربّ (إفسس ٥ / ٢٢)، وأطلق على نفسه **رسول الأمم** (رومية ١١ / ١٣)، وقال لا أخوّة مع الكفرة بالمسيح، ولاتتخذوا إخواناً من الكفرة (كورنتس٦ / ١٤)،وأمر باعتزال كل منكر لألوهية المسيح، ووصف المنكرين بالنجاسة (كورنتس ٦/ ٧٧)، وحذّر من **الفلسفة** إذا كانت على غير مقتضى المسيح، يعنى أرادها فلسفة دعائية (كولسى ٢ / ٨)، وقال عن النصارى أنهم **أبناء الموعد**، وفرّق بين **أبناء الأمَة هاجر وأبناء الحُرّة سارة**،وأبناء الأمَة هم غير النصارى، وأبناء الحرة هم النصارى،ونادى اطردوا الأمَة وابنها فإن ابن الأمة لايرث مع ابن الحرة! والطرد كأمر للنصارى يعنى **طردهم من البلاد**، ولا ميراث لهم فى السماء،مع أن النصارى ـ وهم ليسوا يهوداً ـهم أبناء أمَة بالوراثة الجسدية، إلا أنه قال إن المسيح حررّهم (غلاطيه٤ / ٢٥ـ٣١)!! ـ فهل هذا كلام مصطفين؟وإنما الاصطفاء عند النصارى ـ ومن قبلهم اليهود ـ أن الاختيار لهم غير مبرر، فهذه إرادة الله ومشيئته، حتى لو كان اختياره عن غير حق.

وتلك إذن نظرية الاصطفاء عند هؤلاء وأولئك وعند المسلمين من بعدهم، والله تعالى لايمكن أن يختار إلا المتّقين والصالحين والأخيار، وذلك من معانى الإسلام. واللافت للانتباه أن إبراهيم لمّا أراد أن يجعل النبوة فى ذريته، دعا ربّه بها لهم، فقال تعالى فى جواب دعائه: ﴿لا ينالُ عهدِى الظَّالِمِينَ﴾(البقرة١٢٤)، واليهود والنصارى لا عهد لهم مع الله لأنهم ظلموا، ولايصلح الظالمون للاصطفاء أو الاختيار أو الاجتباء، لأنه مقصور عقلاً وعرفاً وشرعاً على أهل العدل والإحسان والفضل.

●●●

١٢٠٦- ﴿الأعراب والعرب﴾

العرب هم الجنس العربى الذى لغته وقوميته العربية، ومنهم العرب العاربة: وهم العرب الخلَّص، ويقابلهم العرب المستعربة أو المتعرّبة وهؤلاء لم يكونوا عرباً فى الأصل، ثم سكنوا بلاد العرب، وتكلموا العربية، ويقال تعرّبوا: أى تشبّهوا بالعرب. والعرب عموماً ينسبون إلى يعرب بن قحطان، أو أنهم سُمّوا عرباً لأنهم من ولَد إسماعيل بن إبراهيم، ونشأوا فى عَرَبة من تهامَةُ فنُسبوا إليها، وكثيراً ما يُنسب الناس إلى الأماكن مثلما يُنسبون إلى الجدود. وكانت قريش تسكن عربة وهى مكة، وانتشر سائر العرب فى الجزيرة العربية. وأما الأعراب: فهؤلاء هم العرب الرُّحّل، وثقافتهم أقل، ويعيشون فى بداوة وجهالة. والموجود بالقرآن مصطلحان: «عربى، وأعراب»،ويتكرر الأول إحدى عشرة مرة، ويوصف به اللسان: ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(النحل ١٠٣)، ويُنعت به القرآن: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف٢)، ويُنسب إليه الحُكم: ﴿أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾(الرعد٣٧). والنسبة به للثقافة والحضارة وليس للانتماء السلالى أو الوراثى الجينى. وكذلك مصطلح «الأعراب»، فإنه يتكرر عشر مرات، ويدل على فئات من العرب أقل حضارة وثقافة، وهؤلاء عانى منهم المسلمون بسبب ضحالة معارفهم وانحطاط ثقافتهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية، والإشارة بالمصطلح «الأعراب» تحديداً إلى فئة من كان يسكن من البدو حول المدينة فى زمن الرسول ﷺ، فرغم أنهم اعتنقوا الإسلام، إلا أنهم لم يعرفوه حق المعرفة، ولم يمارسوه كما ينبغى، وكان من الواضح أن اعتناقهم له كان طلباً للسلامة، وطمعاً فيما يمكن أن يعود به الإسلام عليهم من المكاسب، كالمنعة والصدقة والفىء، وجاء فى وصفهم فى القرآن: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾(التوبة٩٧)، فكانوا الأشد كفراً ونفاقاً من المنافقين، والأشد جهلاً فى أمور الدين، وكان أذاهم الأكثر، لأنهم كانوا الأقسى قلباً، والأجفى قولاً، والأغلظ طبعاً، والأبعد عن سماع التنزيل،

ونبّهت الآية إلى نقص علمـهم، وتدنيّ إيمانهم عن المرتبة الكاملة، وسوء فـهمهم، وقلة درايتهم ووعـيهم، فكلما نادى النبيّ ﷺ بالجهاد تعلّلوا وتخلّفوا، وما كـانوا يكلّفون أنفسهم أن يعتـذروا، فانطبقت عليهم **أحكام ثلاثة: فأولاً**: لم يعد لهم حقّ في الغنيـمة والفيء، لأنهم لم يجاهدوا كالمسلمين؛ وثانيـاً :لم يعد جائزاً أن تُسمع لهم شهادة، لأن الله قد وصفهم بالكفـر والنفاق، وقال في أيمانهم: ﴿**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾(التوبة٩٦)، فوصفهم بالفسق ولبئس الصفة. **وثالثـاً**: لم يعد مناسباً أن يؤم أي أعرابي المسلـمين في الصلاة، لأنهم لايعلمون حدود الله وجهلوا الدين. واستتـبع كل ذلك أن غالبتهم ضنّوا أن ينفقوا فـي سبيل الله، وتمنوا البوار للمسلمين، وترقبوا فـيهم الاندحار، كقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾(التوبة٩٨)، فجمعـوا إلى الجهل بالدين، الجهل بالإنفاق والحكمة فـيه، وسوء الدخيلة وفساد الطوية وخبث النية. وما كانوا جميـعاً بهذا السوء، فلكل قـاعدة استثناء، والناس فـيهم الصالح والطالح، والخيّـر والشرير، ولابد أن يكون من الأعراب من هو على الإيمان، كقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ**﴾(التوبة٩٩)، فكان من الأولين منهم، قبائل: **مُزينة، وجُهينة، وأسـلم، وغفّار، وأشجع، والديّل،وبنى أسد بن خزيمة**، وكان من الثانين: **بنو مُقَرّن** من مُزينة، فكان المؤمنون قلة والأكـثرية منافقـين، وفيـهم نزل القرآن: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ**﴾(التوبة١٠١)، **والمنافقون** هم الذين سمّاهم **مُخلّفين**: ﴿**سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ (الفتح١١)، وماكان لهم أن يتـخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولا أن يرغبوا بأنفسـهم عن نفسه، ولكن التخلّف دأبهم. ففي الخندق لم يحضروا وتعلّلوا حتى قلّدهم غيرهم: ﴿**وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ**﴾(الأحزاب٢٠)، يعنى تمنّوا لو فعلوا مـثلما فعل الأعراب ونأوا بأنفسهم عن الجهـاد حذر القتل وتربصاً للدوائر. وفي **تبـوك** اعتذروا الاعـتذارات الواهية المبتـذلة فقالوا: شغلتنا تجـارتنا وخفنا على أهالينا، وزادوا بأن طلبوا أن يسـامحهم الرسول ﷺ ويدعـو لهم بالمغفـرة، ولم يجر بخـاطرهم أن المغفـرة لاتكون إلا لمن كان ظاهره كباطنه، وهؤلاء كان اعتقادهم بـخلاف ظاهرهم، ففضحهم الله بقوله: ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ (الفتح١١)، فكان نفاقهم كان «**النفاق المحض**». ولقد تخلّفوا في الحديبية، وفي حنين، فكان تخلّفهم نكوصاً، وينبيء عن خوفٍ وشُحٍ بالنفس والمال، فإذا كـان ذلك حالهم وعـدوهم هو ما هو عليـه من ضعف باد، فكيف مع عـدو أقوى

يلقونه في قابل الأيام: **﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾**(الفتح١٦)، وفي الآية إشارة إلى من يكون على أمة الإسلام أن تدفع عن نفسها أذاهم من الأمم المعادية، أمثال: الفرس، والرومان، والإنجليز، والروس، والفرنسيين، والأسبان، والأمريكان، وغيرهم، فأما والأمر كذلك مع هؤلاء المتقاعسين، وأي متقاعسين من بعد، فالأولى أن لايكون الاعتماد عليهم، وأن يُسقطوا من الحساب عند كل لقاء مع أعداء الله: **﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾**(التوبة٨٣). وفي الحديث أن المسلمين لايستعينون في قتالهم بكافر، فهذه حَرْبُهم وليست حرب غيرهم، والذي يقاتل مجاهداً إنما قتاله من أجل بيضة الإسلام، وكي تعلو كلمة الله، والقتال يستلزمه الإيمان، وما كان الأعراب على شيءمن الإيمان: **﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**(الحجرات١٤)، فلما نطقوا بالشهادتين أسلموا ولكنهم لم يؤمنوا، فالإيمان يتطلب أكثر من الشهادتين: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑮﴾** (الحجرات) ولم يكن إسلام الأعراب إلا قولاً بلا عمل، فلمّا استنفرهم للقتال والإنفاق جهاراً في سبيل الله، تخلّفوا، وزادوا على ذلك بادّعاء الإيمان، فصحّحت الآية دعواهم، وجعلوا يمنّون على الرسولﷺ وعلى المسلمين، فجادلهم بالحُسنى: **﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** (الحجرات١٧) ، فلمّا حلفوا أنهم صادقون في إيمانهم قال تعالى: **﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** (الحجرات١٦).

وتلخيصاً لما سبق فإن المصطلحين «عربي»، «وأعراب» من مصطلحات **الحضارة والثقافة**، ومصطلح «**الأعراب**» كما وُصف به المنافقون من البدو، ما يزال من الممكن أن يوصف به **أصحاب الثقافة الضحلة والتبعية الغربية** من المستشرقين العرب من تلاميذ المبشّرين، ومن **دعاة العولمة والأخذ بالأسلوب الأمريكي في الحكم والأخلاق والاقتصاد والسياسة والاجتماع والأدب**، فهؤلاء رعاع المثقفين، وبهم جفاء في الطبع، وشك مريب، والخذل والحقد يملأ قلوبهم على كل ما هو مسلم، ودوافعهم في السلوك فردية ولايؤمنون بالقومية العربية، وهم الذين يدلّسون علينا إمكان ولاء مزدوجي الجنسية، وخصخصة الأملاك العامة، وإلغاء مجانية التعليم، وقصر التعليم العالي على الأغنياء، وتشجيع

التعليم الأجنبي، وإلغاء الطبقة الوسطى، ودعم الأغنياء واقتصاد المترفين، وتحديد عدد وقدرات الجيوش الوطنية، إلى آخر ما ينبيء عن سوء الطوية وخبث النية وجفاء الطبع مما كان للأعراب قديماً.

•••

١٢٠٧- ﴿الأعراف وأصحاب الأعراف﴾

الأعراف: جمع عُرْف، وهو كل عالٍ مرتفع، فبظهوره يُعرَف من المنخفض. والله تعالى أعلم بما يعنى بالأعراف، والمصطلح إسلامى محض. ولذا حار المستشرقون فى ترجمته. ومن هذه الترجمات أن الأعراف **Height** أى المرتفعات، وهى ترجمة مضحكة، ومنها ترجمة دانتى أنها **purgatory**، أى المطهر، فتجاوزت الترجمة المعنى. وفى اللغة يقال عُرف الفرس، وعرف الديك، فالأعراف سور له عُرف كعُرف الديك. أى له شُرْفة. وفى الآية: **﴿وبينهما حجابٌ وعَلَى الأعْرَاف رِجَالٌ يعرفُونَ كُلاًّ بسيمَاهُمْ ونَادَوْا أَصْحَابَ الْجنَّة أن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يدخُلوهَا وهُمْ يطْمَعُونَ﴾**(الأعراف٤٦)، فالأعراف هم الذين يعرفون أصحاب النار من أصحاب الجنة، ويفرزون كلاً بسيماهم؛ وقيل: **الأعراف** حجاب بين أصحاب النار وأصحاب الجنة **﴿فضُرِب بينَهم بسُورٍ﴾**(الحديد١٣)، فالسور هو الحجاب ويتوسط بينهما. وحراس السور هم «**أصحاب الأعراف**». وقيل: **أصحاب الأعراف** هم من استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يدخلوا الجنة ولا النار. وقيل: هم فضلاء المؤمنين والشهداء من الصالحين والعلماء، عرفوا مكانتهم، ووقفوا يطالعون حال غيرهم، فيتعوّذون ممن يُلقى فى النار، ويُسرّون لمن يُدخل الجنة. وقيل: هم عدول القيامة، يشهدون على الناس من أصحاب الجنة وأصحاب النار بأعمالهم. وقيل: هم ملائكةٌ مكانهم هذا السور ليميّزوا من يدخل الجنة ومن يدخل النار. فإن قيل: ولكن الآية تقول إنهم «رجال» ولايجوز تسمية الملائكة بالرجال؟ قيل: ولكن الله تعالى سمّى الجن بالرجال: **﴿وأنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يعُوذُونَ برجَالٍ مِنَ الْجنِّ فزَادُوهمْ رَهَقًا﴾**(الجن٦)، فلماذا لا تُسمى الملائكة بالرجال؟ وقيل: **الأعراف** جبل أُحد يمثَّل فى الجنة والنار، ويُحبَس عليه أقوام يعرفون كلاً بسيماهم. وفى الحديث: «**إن أُحداً على ركن من أركان الجنة**». قيل الركن المقصود به **الأعراف**، يتعرّفون على أصحاب الجنة وأصحاب النار، ويميزونهم بسيماهم. والأصح الاقتصار على القول فى مسائل الغيب بنصوص الآيات دون زيادة ولانقصان. «**وسورة الأعراف**» سميت كذلك باعتبارها السورة الوحيدة التى تتضمن تعريفاً بالأعراف وتذكُر هذا المصطلح، وهى مكية إلا من ثمانى آيات، من الآية ١٦٣ إلى غاية الآية ١٧٠ فإنها مدنية، وآياتها ٢٠٦ نزلت بعد ص، وهى التاسعة والثلاثون فى النزول، والسابعة فى المصحف (انظرعرفات).

•••

كذلك باعتبارها السورة الوحيدة التى تتضمن تعريفاً بالأعراف وتذكُر هذا المصطلح، وهى مكية إلا من ثمانى آيات، من الآية ١٦٣ إلى غاية الآية ١٧٠ فإنها مدنية، وآياتها ٢٠٦ نزلت بعد ص، وهى التاسعة والثلاثين فى النزول، والسابعة فى المصحف (انظرعرفات).



١٢٠٨- ﴿الإعصاروالريح والزوبعة﴾

الإعصار فى اللغة هو الريح الشديد التى تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، كقوله تعالى: ﴿**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾(البقرة٢٦٦)، وسرعة الريح تولد الطاقة، والطاقة تولّد النار، فهذا نوع من الإعصار؛ **والثانى**: أن الإعصار هو **الزوبعة، وأم الزوبعة** ريحٌ تثير الغبار وترتفع إلى السماء كأنها عمود؛ **والثالثة**: أن الإعصار ريحٌ تثير سحاباً ذا رعد وبرق، ويقال لها إعصار:لأنها تلتف كالثوب إذا عُصِر، أو أنها إعصار لأنها تعصر السحاب: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾ (النبأ١٤)، **والسحاب معصرات**: لأنها حوامل فهى كالمعصر - أى البنت التى بلغت عصر شبابها بإدراك المحيض. أو أن السحاب معصرات لأنها تتعصّر بالرياح. وقيل **الإعصار**: ريح عاصف وسَموم شديدة. **والسموم هى** الريح الحارة نهاراً والباردة ليلاً. وقيل: **الريح السَّمُوم** بالنهار، بينما **الريح الحَرُور** بالليل - أى التى تكون ليلاً حارة. والريح أنواع، فالطيبة كقوله: ﴿**بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾ (يونس٢٢)، وهى أيضاً **الريح الرُخاء**، ونقيض ذلك **الريح العاصف** (يونس ٢٢): وهى الشديدة العصف، يقال **عصفت الريح وأعصفت، فهى عاصف، ومُعصف ومُعصفة**، أى شديدة. وفى قوله: ﴿**فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا**﴾ (الإسراء٦٩)، والقاصف هى التى تقصف الأشياء أى تكسرها، ومن ذلك **قصف الرعد، والقصيف** هو هشيم الشجر. **والريح الصرر** (الحاقة٦) لها صوت عات من شدة ما تحرق، «**والصرّ**» (آل عمران١١٧) هو صوت لهب النار. **والريح العقيم** (الذاريات٤١): قيل لها ذلك لأنها لاتلقّح سحاباً ولاشجراً، ولابركة فيها ولامنفعة. وفى الحديث: «**نُصرتُ بالصَّبا وأُهلكت عاد بالدَّبور**»، وريح **الصَّبا** هى التى مهبُّها من الشرق، وريح **الدَّبور** هى التى مهبُّها من الجنوب- وهى ريحٌ عقيم.



١٢٠٩- ﴿الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر﴾

يتكرر «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» فى خمس سور، هى: آل عمران، والأعراف، والتوبة، والحج، ولقمان، كقوله تعالى ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(آل عمران١٠٤)، وقوله: ﴿**كُنتُم**

خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران ١١٠). وقوله: **﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** (آل عمران١١٤). والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم أهل الصلاح، والفضل من الأمة، فطالما هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فأمتهم خير الأمم، فإذا تركوا المعروف، وتواطئوا على المنكر، زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذمّ، فهلكت الأمة. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمم جميعها قديمها وحديثها، وفي الحديث «من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه» ولمّا سُئل ﷺ: مَن خير الناس؟ قال: **﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾**(التوبة٦٧)، ثم قال: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾**(التوبة٧١)، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفرق بين المؤمنين والمنافقين، وأخصّ أوصاف المؤمن لذلك هو **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. ولكنهما لايليقان بكل أحد، وإنما يقوم بهما **المصلحون**، وأهل **الفكر**، ودعاة **الأمة وعلماؤها**. والفرق بين الحاكم الجيد والحاكم السيء هو قدرة كلّ على القيام بهما كقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾** (الحج٤١)، ومع ذلك فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شأن كل الناس، وواجب على كل من يقدر عليهما، **والاستطاعة** هي شرط القيام بهما، وبحسب من لا يستطيع ذلك أن يكون قلبه مع محبة المعروف وكراهية المنكر، وتدل الآية: **﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾** (لقمان١٧) على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف الأذى، وربما السجن، أو القتل. وفي الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». والأمر بالمعروف باليد، يعني بالقوة، على أهل السلطة وحدها، **وباللسان** على الدعاة والعلماء وأهل الفكر ورجال الصحافة والإعلام وأساتذة الجامعات، **وبالقلب** على عوام الناس، ولذلك قال أهل الحكمة: كل بلدة يكون فيها أربعة، فأهلها معصومون من البلاء: **حكومة عادلة**: لاتظلم، وتنشر العلم، وتوفر الخدمات الصحية، ولايصدر مجلسها التشريعي قوانين لمصلحة الأغنياء، ولاتسمح بالفساد، وتساوي بين الناس في الحقوق والواجبات بحسب قدرة كلٍّ؛ **وأهل علم وطنيون غيورون؛ وصحافة شعبية قومية؛ ومصلحون**: يستنهضون الأمة ويحرضونها على الصلاح والإصلاح.

●●●

١٢١٠- ﴿الأنصار المصطلح ومضمونه﴾

جمع ناصر، كأصحاب وصاحب، أو جمع نصير، كأشراف وشريف، واللام فيه للعهد أى أنصار رسول الله ﷺ، والمراد بالأنصار **الأوس والخزرج**، وكانوا قبل ذلك يُعرفون ببنى قَيْلة، بقاف مفتوحة وياء تحتانية ساكنة، وهى **الأم** التى تجمع القبيلتين، فسمّاهم رسول الله ﷺ **«الأنصار»**، وكان ذلك ليلة العقبة لمّا توافقوا مع النبىّ ﷺ عند عقبة منى فى الموسم، فصار ذلك علماً عليهم، وأطلق أيضاً على أولادهم وحلفائهم ومواليهم، وخُصّوا بهذه المنقبة لإيوائهم للنبىّ ﷺ ومن معه، والقيام بأمرهم، ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم، وإيثارهم على أنفسهم فى كثير من الأمور، فكان صنيعهم لذلك موجباً لمعاداتهم جميع الفرق الموجودين من عرب وعجم، والعداوة تجر البغضاء. وما اختصوا به أوجب لهم الحسد، والحسد يجرّ البغضاء كذلك. فاستوجب أن ينبّه رسول الله ﷺ إلى ذلك وقال حديثه المشهور عن أنس: **«آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»**، وحديثه عن البراء بن عازب: **من أحَبَّ الأنصار فبحُبى أحبَّهم، ومن أبغَض الأنصار فببُغضى أبغضَهُم»**، وحديثه عن أبى سعيد: **«لايبغض الأنصار رجل مؤمن بالله واليوم الآخر»**، وحديثه عند أحمد: **«حُبُّ الأنصار إيمان، وبغُضهم نفاق»**، فحذّر من بُغضهم، ورغّب فى حُبّهم، حتى جعل ذلك آية للإيمان والنفاق، لما لهم من عظيم الفضل، وكريم العقل.

وكانت بين الأنصار مع بعضهم البعض حروب، لم تكن من جهة الإسلام، ولكنها كانت لأمور طارئة اقتضت المخالفة، فلم يكن ذلك بُغضاً من نوع البغض الذى قال به الرسول ﷺ الذى يستوجب النفاق، وحالهم فى حال الخلافات التى كانت بينهم حال المجتهدين فى اختلافاتهم فى الأحكام، فللمصيب منهم أجران، وللمخطىء أجرٌ واحد.

وفى المصطلح القرآنى فإن **الأنصار** تستدعى المهاجرين فى قوله تعالى: **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾** (التوبة ١٠٠)، ثم فى قوله تعالى: **﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾** (التوبة ١١٧) فنبّهت تلك الآيات إلى أن من المهاجرين، ومن **الأنصار**، سابقين وتابعين، وكلاهما مُحسن قد رضى الله عنهم ورضوا عنه، وهؤلاء السابقون من **الأنصار** هم أصحاب بيعة الرضوان عام الحديبية، وهم الذين صلّوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ. والمهاجرون هو المصطلح المقابل للأنصار. وأهل السُّنّة على تبجيل هؤلاء وهؤلاء، على عكس الشيعة الدائبين على سبّهم، والمستمرين على بُغضهم. **والأنصار**: اسمٌ إسلامى خالص، قيل

لأنس بن مالك: أرأيت قول الناس لكم: «الأنصار» ، اسمٌ سمّاكم الله به، أم كنتم تُدعَوْن به في الجاهلية؟ قال: بل اسمٌ سمّانا الله به في القرآن. وكانت توبة الله تعالى على المهاجرين والأنصار لمّا تشككوا في غزوة تبوك، فقد كانت السَّنَة مجدبة، والحرّ شديداً حتى زاغت قلوب البعض الذين تشككوا، وارتابوا للذى نالهم من المشقة والشدّة، فهذه توبة الله عليهم من هذه الريبة وذلك الشك، فلما تاب عليهم رزقهم الإنابة إلى ربّهم. وتوبته على نبيّه ﷺ في إذنه للمنافقين في التخلُّف عن الجهاد، وأما المتشككون فالشك في الضمير والنية ولكنه ظهر في حالتهم بأن همّوا بالانصراف، وتوبته عليهم أن تدارك قلوبهم فلم تزغ. فكذلك سُنَّة الله تعالى مع أصفيائه: إذا أشرفوا على العطب، وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصر، ووطّنوا أنفسهم على مذاقة البأس، أمطر عليهم سحائب الجود، فتشرق الشمس بعد مغيب، ويرتوى الزرع بعد يُبس، وتدبُّ الحياة فيما كاد يموت، ويُرَدّ الأُنس بعد أن كان قد امحى، وتصير أحوالهم كما قال شاعرهم:

كنا كمن أُلبس أكفانه ... وقُرِّب النعشُ من اللحد

فجال ماء الرِّوح في وحشة ... وردَّه الوصلُ إلى الورْد

تبارك الله سبحانه. وفي المصطلح القرآني «أنصار الله»: ﴿**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾ (آل عمران٥٢، والصف١٤)، وفي الآية أن عيسى لما استشعر الكفر قال: ﴿**مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾ (آل عمران٥٣)، و«الأنصار إلى الله» هم الذين يناصرونه في الطريق إلى الله، أو مع الله. أي في الدعوة إلى الله، ومن ذلك قول نبيِّنا ﷺ: «مَن رجل يؤوينى حتى أبلّغ كلام ربّي» . و«الحواريون» مصطلح قرآني آخر يعني أيضاً الأنصار، ويختص به عيسى، وهم تلاميذه، من حار بمعنى مراجعة الكلام ومجاوبته، وكان الحواريون أنصاراً للمسيح، ولكل نبيّ حواريون أي أنصارٌ يؤمنون به، ويدعون بدعوته، وهم لذلك أنصار الله، يساعدون النبيّ على التجرّد لحقّه، والخلوص في قصده.

وشاع مصطلح الأنصار فاستخدمه أتباع المهدى في السودان. وفي مصر أنصار السُّنّة المحمدية، وفي أوروبا اقترح المسلمون على تيتو مصطلح الأنصار partisans، والمسلمون كشعب كانوا ضمن شعوب يوغوسلافيا، وهم سكان البوسنة والهرسك وكوسوفا، وهذا بعض فضل القرآن والسُّنّة على الناس.



١٢١١- ﴿الأنعام وبهيمة الأنعام﴾

في قوله: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ**﴾ (المائدة ١)، البهيمة: اسم لكل ذى أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها، وعدم تمييزها وتعقلها. ومن ذلك قولنا بابٌ

مبهمٌ أى مغلق، ودليل بهيم. والأنعام: هى الإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لأنها نعَم، وصفها الله تعالى فقال: **﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾**(النحل)، وقال: **﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾**(الأنعام١٤٢)، والحمولة: هى التى تطيق أن يُحمل عليها، كالإبل والحمير والبغال؛ والفرش ما يؤكل لحمه ويُحلب كالغنم. وبالقرآن سورة كاملة باسم «الأنعام» هى السورة السادسة فى ترتيب المصحف. والأنعام المقصودة: **﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾**(الأنعام١٤٤)، واثنان أى الذكر والأنثى، فما انضاف إلى هذه من سائر الحيوان فيقال له أنعام بمجموعه معها، ويخرج عن ذلك المفترس كالأسد، وكل ذى ناب؛ وبهيمة الأنعام: هى الراعى من ذوات الأربع، وذوات الحوافر ليست منها، لأنها وإن كانت راعية، وغير مفترسة، إلا أنه أفردها فقال: **﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾**(النحل٨). وقيل بهيمة الأنعام ما لم يكن صيداً، لأن الصيد يسمى وحشاً لا بهيمة.



١٢١٢- ﴿الأوابون﴾

الأوّاب: هو التوّاب، كلما ذكر ذنبه استغفر. وفى القرآن الأوّابون ثلاثة من الأنبياء: داود، وسليمان، وأيوب، فقال تعالى فى داود: **﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**(ص١٧)، وقال: **﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾**(سبأ١٠)، **﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾** (ص١٩)؛ وقال فى سليمان **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**(ص٣٠)؛ وقال فى أيوب: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** (ص٤٤). والأوّاب: من آب يئوب، يقال له كذلك: إذا رجع، وكان داود كلما تذكر ذنباً استغفر، ونبينا ﷺ كان يفعل أكثر من ذلك، قال: **«إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة»** أخرجه مسلم. وداود سبّحت الجبال معه والطير، يعنى رجّعت تسبيحه، وكان يرنّمه ويُنشده ويعزفه على المزمار، فتطرب الطير وتزدحم عليه. وكان سليمان يدرك ذنبه مباشرة ويستغفر ويعاقب نفسه، وامتدحه الله فقال **«نعم العبد»**، ونعم لا تقال إلا للمبالغة فى المدح، ولم يوصف بها نبىّ إلا اثنان: سليمان وأيوب، فأما سليمان فكان سريع **الأوبة**، ولذلك قال فيه الله تعالى: **﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾** (ص٤٠) والزلفى القُربة، وحُسن المآب هو حُسن المرجع؛ وأما أيوب فكان صابراً وذهب مثلاً فى الصبر والاستغفار. **والأوّابون**: هم المتّقون تزلف لهم الجنة، كقوله تعالى: **﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾** (ق٣٢) وهو

الرجّاع إلى الله والمسبّح. وقيل: **الأوّاب الحفيظ**: هو الذى لايجلس مجلساً حتى يستغفر، وإذا قام من مجلسه قال: «**سبحانك اللّهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك**». والأوّاب وُعد الغفران، كقوله: ﴿**كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا**﴾ (الإسراء٢٥)، فكلما يُذنب يتوب، ثم يُذنب ويتوب، وهو لذلك **أوّاب حفيظ**، يعنى فى باله دائماً ما أذنبه، وهو دائماً يستغفر عنه. وفى الصحيح: «**صلاة الأوّابين حين تَرْمَضُ الفصال**»، وهى **صلاة الضحى**، فمن يصليها كان من الأوّابين؛ **والفصال** جمع **فصيل** ولد الناقة؛ **وترمض** تبرك فى الرمضاء، أى الرمل يشتد حره فتحرق أخفاف الفصائل. وفى الحديث: «من **حافظ على أربع ركعات من أول النهار كان أوّاباً حفيظاً**».

•••

١٢١٣- ﴿الأوّاه والأوّاهة﴾

الأوّاه: هو الكثير التأوُّه من الذنوب، يقول آه آه، أو أوْه أوْه؛ والوحيد من الأنبياء الذى وُصف بأنه أوّاه هو **إبراهيم** فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾(التوبة١١٤)، وقوله: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**﴾ (هود ٧٥)، فكان أوّاهاً لأنه كان شفيقاً، وكان إذا ذُكرت النار يكثر التأوّه، **والمتأوّه**: هو الباكى النادم المتضرع الخاشع، **وآهاته**: هى أن يقول آه، ينطقها بحرقة. وعن أنس: أن امرأة تكلمت عند النبىّ ﷺ وكانت تتأوّه وتقول: آه آه. فنهاها عمر. فقال رسول الله ﷺ: «**دعوها فإنها أوّاهة**»، قالوا: **وما الأوّاهة**؟ قال: «الخاشعة». **والأوّاهة**: هى المظلومة، **والتأوّه** تَوَجُّع، يقول الشاعر:

فأوْه لذكراها إذا ما ذكرتُها ... ومن بُعد أرض بيننا وسماء

وربما تقلب الواو ألفاً فيقال **آه**، وربما تشدّد الواو وتُكسر وتُسكّن الهاء فيقال **أوِّهْ**، أو تشدّد وتُفتح الواو فيقال **أوَّه**، وربما تحذف الهاء مع التشديد فيقال: **أوّ** من كذا، أو تمدّ الألف فيقال آوه، أو تضاف تاء فيقال **أوّتاه**.وكان إبراهيم من شدّة تأوّهه إذا قام يصلى يُسمع وجيب قلبه.

•••

١٢١٤- ﴿الإيلاء﴾

آلى يُؤلى إيلاءً، وتألّى تألياً، وائتلى ائتلاء، أى حلف، ومنه قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة). **والإيلاء**: كان فى الجاهلية يستغرق السنة والسنتين، وربما أكثر من ذلك، يقصدون من ذلك إيذاء المرأة، فوقّت لهم القرآن **أربعة أشهر**، فمن آلى بأقل من ذلك فليس **إيلاء حُكمى**. وقد آلى النبىّ ﷺ، وسبب إيلائه: نساؤه، فقد سألنه من النفقة ما ليس عنده، وقيل: لأن زينب ردّت هديته، فغضب وآلى منهن، والصحيح أنهن

اجتمعن وطالبن منه النفقة ،ولذلك آلى منهن، ولو كان الأمر أمر زينب وحدها لآلى منها وحدها.

ويلزم الإيلاء كل من يلزمه الطلاق، فالذى يؤلى يشترط فيه أن يكون بالغاً ومتزوجاً وغير سكران، ولايصح الإيلاء إلا باليمين بالله، لقوله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» أخرجه البخارى، وكل يمين منعت جماعاً فهى إيلاء، أى أنه يحلف ألا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دونها لايكون مُولياً وكانت يميناً محضاً، ولو وطىء فى هذه المدة لم يكن عليه شيء كسائر الأيمان، والله قد جعل التربُّص فى **الإيلاء أربعة أشهر** فصاعداً، كما جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً، والعدة ثلاثة قروء، فيجب بعد المدة سقوط الإيلاء، ولا يسقط إلا بالفيء وهو **الجماع** فى داخل المدة، أو **الطلاق** بعد انقضاء الأربعة أشهر، ولا يشترط الغضب للإيلاء. وفائدة الأربعة أشهر أنها لتأديب المرأة بالهجر، وقيل الأربعة أشهر هى التى لاتستطيع ذات الزوج أن تصبر عنها أكثر منها، وقد سأل عمر النساء. كم مقدار ما تصبر المرأة عن زوجها فقلن: شهرين، ويقل صبرها فى **ثلاثة أشهر**، وينفد صبرها فى **أربعة أشهر**. **والفيء** فى الآية هو الجماع، وإذا فاء فلا كفارة عليه، للحديث الذى يقول: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليتركها، فإنّ تَرْكَها كفارة**»، وإذا كفرّ عن يمينه سقط إيلاؤه.

•••

١٢١٥- ﴿البُخل والشُّح﴾

البخل منهىٌّ عنه، يقول تعالى: **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**(آل عمران١٨٠)، ويقول: **﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾**(الليل٨)، ويقول: **﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)﴾** (التوبة)، ويقول: **﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾** (محمد٣٨)، ويقول: **﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾** (الحديد٢٤)؛ وكذلك الشُّحّ، يقول تعالى: **﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾** (النساء١٢٨)، ويقول: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**(الحشر٩)، ويقول: **﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾**(الأحزاب١٩).

والبُخل والبَخَل فى اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه، فأما من مَنع ما لا يجب عليه فليس ببخيل، لأنه لا يُذَمّ بذلك. وفى الرواية أن النبىّ ﷺ قال للأنصار: «**مَن سيدكم**»؟ قالوا: الجدّ بن قيس ـ على بُخْلٍ فيه. فقال: «**وأىّ داءٍ أدوىَ** (أقبح) من

البخل»؟ قالوا وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن قوماً نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم، فقالوا: ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف بِبُعد النساء، وتعتذر النساء بِبُعد الرجال، ففعلوا وطال ذلك بهم، فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء»!!

والبُخل بخلاف الشُّحّ. وقيل: البخل: هو الامتناع من إخراج ماهو عندك؛ بينما الشُّحّ: هو الحرص على تحصيل ما ليس عندك. وقيل: الشُّحّ: هو البخل مع الحرص؛ والبخل: منع الواجب، والشح: منع المستحب. وفي الحديث: «ولايجتمع شحٌ وإيمان في قلب رجل مسلم أبداً». وقيل: الشح أشدّ في الذمّ من البخل. وفي الحديث لمّا سُئل ﷺ: أيكون المسلم بخيلاً؟ قال: «لا»!

•••

١٢١٦- ﴿البدعة والمبتدعة﴾

البدعة: ما أُحدث على غير مثال سابق، كقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا (٢٧)﴾ (الحديد). وقوله: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾(الأحقاف ٩). والمبتدعة أصحاب البدع. ومن يأتم بصاحب بدعة فعليه إعادة الصلاة، فإن لم يُظهر المبتدع بدعته فلا إعادة على المؤتم به؛ وإن خاف المُصلّي على نفسه من أهل بدعة صلى خلفهم ثم أعاد الصلاة. ولا يترك المسلم صلاة الجمعة والعيدين ولو صلى خلف إمام مبتدع أو فاسق. وفي الصلاة على الميت فإن أحق الناس بالصلاة عليه من أوصاه بها، فإن كان من المبتدعة لم يقبل المصلون وصية الميت ويُقدّم عليه غيره. ولا يُصلّى على مبتدع. ومن البدع المكروهة في الجنائز رفع الصوت، ومسّ جسد الميت بالأيدي، وتُكره المجامر فيها البخور، واتباع النساء إذا كن نائحات، ولا يُزوّج أهل البدع. وطلاق البدعة: هو أن يطلق الرجل امرأته وهي في حيض أو طُهر أصابها فيه. والتوبة من البدعة بالاعتراف بها، والرجوع عنها، واحتقار ضد ما كان يعتقد منها.

•••

١٢١٧- ﴿البَرّ والبِرّ والأبرار﴾

البَرُّ من أسماء الله الحسنى، وهو الذي يفعل البِرّ، ويُحسن بالخير، ولايصدر منه القبيح. وهو تعالى البَرُّ، يَمُنّ على السائلين بِحُسن العطاء، وعلى العابدين بجميل الجزاء، ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان. ويأتي اسمه تعالى «البَرُّ» مرة واحدة في القرآن: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور٢٨)، قرأتها عائشة فدعت

ربها: **اللّهم منّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البرّ الرحيم**، لأنه الذى يُحسن إلينا فى الدنيا والآخرة، ويؤتينا من لَدُنه الرحمة الواسعة. وحظُّ العبد من اسمه تعالى «البَرّ» أن تكون أعماله براً، ليعرف ربّه «البَرّ». وسبيل البار إلى الله «البَرّ» هو البِرّ. والبِرّ يأتى ثمانى مرات فى القرآن، وهو فى التعريف ما يصنع البار باراً، ويقابله **الإثم**، كقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾(المائدة٢)، ويُقرن بالتقوى، كقوله: ﴿**وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ**﴾(المجادلة٩) فالبِرّ فى الأفعال كما هو فى الأقوال، ومن وجوهه فى الأفعال قوله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾(آل عمران٩٢)، وقوله: ﴿**الْبِرُّ مَنِ اتَّقَىٰ**﴾ (البقرة١٨٩)، فالإنفاق برّ. وكذلك التقوى برّ. وجُماع الأمر فى البرّ فى الآية: ﴿**الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)**﴾ (البقرة)، فهذه عشرة أبواب للبرّ. ومن الخبر: **البِرّ هو العمل الصالح**، وفى الحديث: «**عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البرّ، وإن البرّ يهدى إلى الجنة**».

وأبواب البرّ العشرة مَن حَيِى بها وعاش لها وسلك بمقتضاها فهو من **الأبرار**، سمّاهم ﴿**عِبَادُ اللَّهِ**﴾ (الإنسان٦)، ووصفهم فقال: ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)** ﴾(الإنسان) وحالهم فى البرّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا**﴾(الإنسان١٠)، ودعاؤهم فيه قوله: ﴿**رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)**﴾ (آل عمران)، فلأنهم الأبرار كانوا المختصين بحقائق التوحيد، والقائمين ﷺ بشرائط التفريد، والواقفين معه بخصائص التجريد، فوصلوا إلى الثواب المقيم: ﴿**نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨)**﴾(آل عمران)، وبقوا فى الوصلةوالنعيم، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤)**﴾ (الانفطار)، و**الفجّار** نقيض الأبرار، وما عند الله مما ادّخره للأبرار هو خير مما أملوه باختيارهم، ومقامهم مع الله البَرّ الرحيم هو مقام النعيم الدائم، لهم فيه النضرة تُعرَف فى وجوههم، وهى من سمتهم والعلامة الدالة عليهم، وهم اليوم فى روْح العرفان، وراحة الطاعة والإحسان، ونعمة الرضا، وأُنس القُربة، وبَسْط الوصلة، وغداً سيكونون فى الجنة، ولهم ما وُعِدوا به من فنون الزُلْفة والقُربة.

والأبرار واحدهم البَرّ والبار؛ والبَرّ من امتثل أمره تعالى؛ وتُجمع البار على بررة، تقول فلان يبرّ خالقه ويتبرره أى يطيعه، والأم بَرّة بولدها، وعن ابن عمر عن رسول الله

ﷺ قال: «سمّاهم الله تعالى بررة، لأنهم برّوا الآباء والأبناء»، فكما أن للوالد حق على ولده: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾(مريم١٤)، ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾(مريم٣٢)، فكذلك للولد حقّ على والده. ومن المأثورات: البَرّ لايؤذى الذّر - وهم الأولاد. وفى الحديث: «الأبرار الذين لايؤذون أحداً». ومن مأثورات الدعاء: «اللهم أنت البَرّ الرحيم فى برّك لمن زاد فى شُكرك. وأنت البَرّ بالمبارّ، والرحيم بالأنوار. وأنت البّر بما أوليت من الرضوان، والرحيم بما أسديت من الغفران. وأنت البر بما وفّقت فى المعاملات، وأنت الرحيم بما حققت من المواصلات».

•••

١٢١٨- ﴿البشارة والنذارة﴾

يقول تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾(البقرة ٢٥)، والتبشير هو الإخبار بما يظهر أثره على البشرة ـ أى ظاهر الجلد، لأنه يتغير بما يرد على السامع من أخبار، أو ما يبصر من مشاهد، أو ما يطرأ على ذهنه من أفكار. والغالب أن البشارة تكون فى السرور، يقيده أو لا يقيده الخير المبشَّر به، فإذا كانت فى الغمّ والشرّ تأتى مقيدة تنصّ على الشرّ المبشَّر به، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(آل عمران٢١). ومن البشارة البشرى: وهى ما يبلّغ به المبشرّ، كقوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٩٧). والبشير نقيض النذير، كقوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(البقرة١١٩). وفى الجمع: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(البقرة ٢١٣)،وفى المؤنث: ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾(الروم٤٦) تبشّر بالخير لأنها تحمل المطر تنبت به الزروع، ومنها الاستبشار، كقوله: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (عبس٣٩) أى متفائلة؛ والاستبشار هو التفاؤل، كقوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ (التوبة١١١). وتتكرر مادة البشارة فى القرآن ٨٥ مرة، ونقيضها النذارة، وتأتى ١٢٣ مرة، وفى سورة المرسلات تصنّف الملائكة أصنافا، منها «الْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا» تختص بالتبليغ ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾(المرسلات٦) ، يعنى إعذاراً من الله أو إنذاراً إلى خلقه، ويُعذر بالذكر إلى الناس من عذابه، أو يُنذر والمؤمنون، أو أن العذر لهم، والنذر لغيرهم. والعذر يكون للأولياء، والنذر يكون للأعداء، وهما بالتثقيل على جمع عاذر وناذر. والقرآن يحفل بالبشارة والنذارة، كقوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾(مريم٩٧)،واللّدّ هم الصُمّ عن الحق. وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾(فاطر١٨) يقصد بهم الذين يقبلون الإنذار ولا يرفضونه، وهؤلاء هم من يخشون العقاب، كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾(يس١١). ومن المنذرين: ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى٧) أى مكة، وكل الدنيا من حولها، باعتبارها تتوسط المعمورة بين القارات، و﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾

(الكهف٤) أي النصارى، و﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس ٧٠). والأنبياء هم حملة البشارة والنذارة، كقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (١١)﴾ (إبراهيم)، وإلا ماكان البشر يستمعون إليهم ولايقتدون بهم. وأولى الناس بالنذارة أقارب الأنبياء (نوح ١)، يبدأون بهم لأنهم أهلهم وخاصتهم. وموضوع النذارة: أن «لاإله إلا الله فاتقوه» (النحل٢)، ونذارات الأنبياء بلاغات من الله (إبراهيم٥٢)، والقاعدة أن لكل أمة نذير (فاطر٢٤)، وكلما جاء النذير الأمم زادوا نفوراً (فاطر٤٢)، وكان نبيّنا محمدٌ ﷺ البشير والنذير للناس كافة (سبأ٢٨)، وذكره الله تعالى فقال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ (النجم٥٦)، أي نذيرٌ بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبله، أو نذيرٌ بما أنذرت به الكتب الأولى. والنُّذُر في قول العرب بمعنى الإنذار، كالنُّكُر بمعنى الإنكار. وفي قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر٥) يقصد بالحكمة الدرس المستفاد من التاريخ، عبّر عنه بالأنباء التي فيها مُزدَجَر، يعني تزجرهم عن المِراء والضلال. وفي تاريخ الأمم كما يروى القرآن حكمةٌ وأى حكمة، للمصدّقين، وأما المنكرون فما تغنى النذر معهم مع إصرارهم على الإنكار والتكذيب. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(القمر٢١) سؤال فيه إقرار وتنبيه وتحذير ويجيء كالمثل.

●●●

١٢١٩- ﴿التوكّل والمتوكلون﴾

التوكل: في اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير؛ تقول تواكَلَ فلان: إذا ضيّع أمره متكلاً على غيره. والتوكل يكون على الله كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود ٨٨) أى عليه الاعتماد: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف٦٧) أي أحكامه وقضاؤه موثوق بهما ويُعتمد عليهما. والتوكل من شأن المتوكلين ولا يأتيه إلا المؤمنون: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران١٢٢)، ولايصح إلا مع الصبر: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت٥٩)؛ وهو دليل الإيمان: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(المائدة ٢٣)، ودليل الإسلام: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (يونس٨٤)، والله وكيل على كل شيء: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام١٢)، وهو الوكيل حقاً: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (النساء٨١)، و﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران١٧٣). والتوكل: هو الرضا بما قسمه الله، وقطْع الطمع من المخلوقين، وليس ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب، فالله يدعو إلى العمل والاكتساب، وفي الحديث: «إن الله يحب العبد المحترف» أخرجه أحمد. والسعى لابد منه وهو من الأسباب،

غير أن المتوكل لايلتفت بكل قلبه إلى الأسباب، وينشغل بها عن مسبب الأسباب، فعندئذ يزول وينسلخ عنه اسم المتوكل. والأسباب لاتجلب نفعاً ولاتدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله، والكل منه وبمشيئته تعالى. ولم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة واستئجاره الدليل، واستكتامه الأمر، واستتاره في الغار، فليس من ضرورة التوكل قطع الأسباب، ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار. والمتوكلون على حالين: الأول: حال المتمكّن في التوكُّل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه؛ والثاني: حال غير المتمكّن، وهو الذى يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً.



١٢٢٠- ﴿التيمم﴾

التيمم مما خُصّت به أمة الإسلام، توسعةً عليها، وفى الحديث: «فُضّلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً...» الحديث. والتيمم في اللغة: هو القصد، تقول تيممتُ الشيء: قصدته؛ وتيممت الصعيد: تعمدته؛ وتيممته برمحى وسهمى: قصدته. وقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾(النساء٤٣) أى اقصدوا، ثم كثر استعمالهم لهذا المصطلح القرآنى البحت حتى أُجيز التيمم: يعنى مسح الوجه واليدين بالتراب، وهذا هو التيمم الشرعى.

وآية التيمم هى الآية: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (النساء٤٣)، نزلت فى عائشة لما أضاعت قلادتها وكانت لأختها أسماء بنت أبى بكر، فبعث النبىّ ﷺ رجالاً يبحثون عنها، فحضرت الصلاة وليسوا على وضوء، ولم يجدوا ماء، فصلّوا وهم على غير وضوء، وأنزل الله آية التيمم. وقيل الآية نزلت فى عبدالرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح فرخّص له أن يتيمم، ثم صارت الآية عامة فى جميع الناس. وقيل: إن المكان الذى كان فيه النبىّ ﷺ وقت أن نزلت آية التيمم يقال له الصُّلْصُل، وقيل إن عائشة فقدت قلادتها أو عقدها فى ليلة الأبواء وهى قرية بين المدينة والجحفة. وقد روى أن أصحاب النبىّ ﷺ أصابتهم جراحة نفشت فيهم ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ، مع عدم وجود الماء، فنزلت الآية. وقيل: إن الجراحة كانت بسبب غزوتهم المريسيع التى قفلوا منها، وكانت الغزوة فى شعبان فى السنة السادسة من الهجرة. وقيل إن آية المائدة هى آية التيمم، والصحيح أنها آية الوضوء وفيها عن

التيمم أيضاً، تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة٦)، ولا يُذكر التيمم إلا فى هاتين الآيتين، والنساء أسبق فى النزول من المائدة، إذ أن ترتيب النساء فى النزول السادسة، بينما المائدة السادسة والعشرون، وعلى ذلك فإن حكاية عقد عائشة ترتبط بسورة النساء وليس بسورة المائدة، وربما الحكاية لا أصل لها ولكنه توالى التشريع، فبعد الوضوء بالماء كان التيمم بلا ماء. والتيمم أصلاً بالتراب أو بالرمل، وقد تيمم الرسول ﷺ بأن مسح يديه على الجدار. والصعيد الطيب هو التراب الطاهر، والمسح على الوجه واليدين هو جرّ اليدين على الممسوح، وإذا وضع المتيمم يديه على التراب ينفضهما ثم يمسح بهما، ويبلغ فى اليدين إلى أنصاف الذراعين، وقيل إن ضرب التراب باليدين إنما هما ضربتان، ضربة للوجه، وضربة لليدين، وقيل بضربة واحدة.



١٢٢١ - ﴿الجدل والجدال﴾

الجَدْل هو الفَتْل، ومنه رجل مجدول الخلق، ومنه الأجدل للصقر. وقيل الجدل من الجدالة وهى الأرض، يريد كل من الخصمين أن يلقى صاحبه عليها، تقول تركته مجدلاً، أى مطروحاً على الجدالة. وفى قوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ (الكهف٥٤)، أى جدالاً ومجادلة، يعنى أن الجدال أكثر ما يميز الإنسان، لدأبه أن يمارى فى الحق. والجدال بخلاف الجَدَل، فالجدل فى الحق، والجدال فى الباطل. والجدال على وزن فعال من المجادلة، أى المصارعة كما قلنا، فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه. والجدال فيه السباب والمماراة كقوله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة١٩٧)، وقوله: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾(هود٣٢)، أى أكثرت خصومتنا وبالغت فيها بالباطل، والجدال فى لغة العرب: المبالغة فى الخصومة. والجدل فى الدين، وفى أى أمر محمود، ولهذا جادل نوح والأنبياء أقوامهم حتى يظهر الحق. والجدال مذموم لأنه لغير الحق، ولإظهار الباطل فى صورة الحق. وللجدل أصول كقوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(العنكبوت٤٦)، وقيل: ومعنى «بالتى هى أحسن» أى بالمنطق والعقل والحجى، كقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ

والموعظة الحسنة ﴾ (النحل١٢٥)، فالتى هى أحسن هى الموعظة الحسنة، واستثنى من أهل الكتاب «الذين ظلموا» وهم أهل الحرب. ومن الخطأ أن يقال أن آية «الجدل بالتى هى أحسن» نسختها «آية القتال» المسماة «آية السيف» أيضاً التى تقول: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾** (التوبة٢٩) فالمقصود مقاتلة «هؤلاء الذين ظلموا» ـ يعنى أهل الحرب ـ وليس كل أهل الكتاب. ومن علامات المجادل فى الباطل أن يكون جداله: **﴿ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾**(الحج٣) مثل النضر بن الحارث ،وأبى جهل بن هشام، وكلاهما كان بلا علم يصدر عنه، وما كان له نبىّ قد تلقى عليه، ولا كان يرجع فيما يقول إلى كتاب ينطق بالحق. وكان ينقل عن شياطين الإنس يملون عليه ما يقول، وشياطين الجن يوسوسون فى قلبه الجدال بالباطل. والنضر جادل فى الله وقُدرته على البعث، وأبو جهل جادل فى النبوة. وعلى منوالهم جادل آخرون. كقوله: **﴿الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾** (غافر٥٦) والسلطان هو الحجة والبرهان. والدافع إلى الجدال بلاحجة ولابرهان هو دافع نفسى فى كل الأحوال وليس دافعًا موضوعيًا، ويصدر عن الكبر وشعور متوهم بالعظمة، فقد كانوا يزعمون أنهم محافظون وأصوليون إذا لم يتمسكوا بتراث الآباء فآثروا الكفر على الإيمان. والكبر هو الذى يجعل الإنسان أكثر شىء جدلاً. وهو الذى يصرف المتورطين فى الجدال عن الحق، كقوله تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون﴾**(غافر٦٩) أى كيف يصرف الكبر عقولهم وقلوبهم إلى الجدل فيضلّون ولايهتدون.



١٢٢٢ - ﴿الحرية من مصطلحات القرآن﴾

قالت امرأة عمران: **﴿رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا﴾**(آل عمران٣٥)، ومحرَّراً من الحرية ضد العبودية، ومن هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد. وقيل: إن المحرَّر الخالص لله، لايشوبه شىء من أمر الدنيا. وفى اللغة يقال لكل ما خلص: حُرّ. ومحرَّر بمعناه، ويقال طين حرٌّ لا رمل فيه. وفى القصاص فإن الآية: **﴿ الحرُّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى﴾**(البقرة ١٧٨) فيها إجمالٌ يبيّنه قوله تعالى: **﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾** (المائدة ٤٥)، وأوضحته السُّنّة لما قضى الرسولﷺ بقتل اليهودى بالمرأة، فلا أحرار ولا عبيد فى القصاص، ولاذكور ولا إناث، والكل سواء، ومن قتل نفساً عامداً يُقتل بها، فالحرّ يقتل بالعبد، والمسلم يقتل بالذمّى، ويتساوى الذمى والمسلم فى حُرمة الدم، وكلاهما محقونُ الدم على التأبيد، ويعاقب المسلم بسرقة مال الذمى، ويتساوى مال المسلم ومال الذمّى كمساواتهما فى الدم، والمال يحرم بحرمة مالكه، والنفس تكافىء

النفس، والطفل يكافىء الكبير، وتكافىء المرأة الرجـل، والرجل المرأة، وكذلك القصاص بينهمـا دون النفس، والأب يقتل بابنه إذا تعـمّد قـتله، والمؤمنون تتكافأ دمـاؤهم، وتقتل الجماعة ولو مائة بالواحد، وقضى عمر بقـتل سبعة قتلوا رجلاً من صنعاء، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً. أخرجه مالك، وفى فلـسفة ذلك: أن الجماعة لو علموا أنهم إذا قتلوا الواحد لم يُقتلوا به، لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم مشاركةً بينهم فيضيع دم القتيل بينهم، والأصح قوله تعالى: **﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـانٍ﴾**(البـقرة ١٧٨)، **والعـفو** هو الترك، والقاتل إذا عفـا عنه ولى المقتول فله **الديـة** بالمعروف، وتُؤدَّى إليه بإحـسان، وفى الحديث: «**من قُتل له قـتيل، فله أن يقتل، أو يعـفو، أو بأخذ الدية**» أخرجه الترمذى.

وعن حرية العقيدة يأتى فى القرآن: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾**(البقرة٢٥٦). ومن **حرية القول** :البلاغ كـقوله: **﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾**(المائـدة ٦٧) **والبـلاغ** يحتـاج للإقناع، ولا إقناع بلا حوار، كحواره ﷺ مثلاً مع المجادلة، وحوار أنصار المسيح معه، والحوار جدل، والجدل لا يكون جدلاً إلا إذا قـام على المنطـق، كقـوله تعالى: **﴿وَجَـادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْـسَنُ﴾** (النـحل٢٥) قـيل: **الأحـسن** يعنى مقارعة الحجـة بالحجة، والبرهان بالبرهان، والدليل بالدليل، وهو المنطق. وعن **حرية الاجـتماع**: أن الجماعة تتألف بعضها البعض، وتتداول فيما يخصّهـا، وتتفق على الأمر الجامع لها (النـور٦٢)، وللجماعـة أن تكون لها أماكن عباداتها: **﴿صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ (٤٠)﴾** (الحج)، وهذه هى **حرية العبادة**.

●●●

١٢٢٣- ﴿الحسد شر﴾

الحسد:هو تمنّى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾** (النسـاء٥٤)، بينما المنافسة: هى تمنّى مثل نعمة الغير وإنْ لم تزل. فالحسـد شرّ مذموم: **﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَـدَ﴾**(الفـلق٥)، والمنافسة مـباحة، وهى الغبطة، وفى الحديث: «**المؤمن يغبط، والمنافق يحسد**». والحاسد مغموم، وحسده لا يضر إلا إذا أظهره بفعل أو قول، بأن يحمله حـسده أن يوقع الأذى بالمحسود كفعل **قـابيل لهـابيل**، وقول إبليس عن آدم، وحينئذ يتتبع مساوىء المحسود ويطلب عثراته. ونشدان الحاسد زوال نعمة المحسود لايتحقق فـعلاً بأمره، وإلا كان الاعتقاد بذلك من **الشّرك الخـفى**، وهـو أن **يكون الحاسد شريكـا لله فى القضاء والقدر**، وإنما ضرر الحـسد كما قلنا هو أن يظل الحاسد ينقب وراء المحسود ويتتبع عوراته، ثم يـشنّع عليه، وبعض الشخصيات **الاستهـوائية** ـ أى

سريعة التأثر - يؤثر عليها قول الحاسد نفسياً ويصيبها منه التداعي، والخور، والإحباط، والقلق، والاكتئاب، وهبوط الهمّة، وهذه هي الحرب النفسية للحاسد. والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وفي الأثر: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، فهو دائماً مكروب، ويلازمه الحزن، وعبراته لا تنفد. والذى يحسد يعادى نِعَم الله، ويحسد الناس على ما آتاهم ربُّهم من فضله، والحسود عدو نعمة الله، ومتسخّط لقضائه، وغير راض بقسمته، والشاعر يقول:

ألا قل لمن ظل لى حاسداً ... أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى حُكمه ... إذا أنت لم ترضَ لى ما وهب

والحسد أول ذنب عُصى به الله فى السماء، وأول ذنب عُصى به فى الأرض، فأما فى السماء فحسد إبليس لآدم، وأما فى الأرض فحسد قابيل لهابيل. فإذا سرّك أن تسلم من الحُسّاد فغمّ عليهم أمرك. وفى الحديث: «ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومُكثر الغيبة، ومن كان فى قلبه غِلّ أوحسد»، ولذا فقد أمر الله نبيه ﷺ والمسلمين أن يتعوّذوا من شرّ الحسد والحاسد.



١٢٢٤- ﴿الحق﴾

يأتى عن الحقّ فى القرآن مائتان وسبع وعشرون مرة، والحقّ فى اللغة: هو الثابت، وهو مصدر يطلق على الوجود فى الأعيان مطلقاً، وعلى الوجود الدائم، وعلى مطابقة الحكم، وما يشتمل على الحكم المطابق للواقع، ومطابقة الواقع له. وهو اسم فاعل وصفة مشبهة، ويطلق على واجب الوجود لذاته، يعنى الله، وعلى كل موجود خارجى، وهو مطابقة الواقع للاعتقاد، ويقابله الباطل، كما أن الصدق هو مطابقة الاعتقاد للواقع، ويقابله الكذب. ويستعمل الصدق والكذب فى الخطأ، والصواب فى المجتهدات، كما يستعمل الحق والباطل فى المعتقدات، وهو قوة قبل كل شىء، وقوة باطنة أسمى من سائر القوى. والشعور بالحق دافع حيوى يدفع الإنسان إلى أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله، وهو فيض من الحياة يطلب أن يتحقق، وأن يبذل ذاته. والحق يعلو ولا يُعلى عليه، وهو من أسماء الله الحسنى، وهو تعالى الملك الحق، ودينه هو دين الحق، ودعوته هى دعوة الحق، وهو يهدى إلى الحق، ويُحق الحق بكلماته، ويبطل الباطل ويمحوه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وإذا جاء الحق فما يبدئ الباطل وما يعيد. وأكثر الناس يكرهون الحق، والحقّيون يفعلون الحق ويقضون به، وقولهم حق ويشهدون به.

وحق اليقين: عبارة عن فناء العبد فى الحق، والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً. وعلم اليقين:هو الشريعة، وظاهر اليقين: الإخلاص فيها، وحق اليقين: المشاهدة فيها. وفى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ**﴾(البقرة٤٢) يعنى لا تخلطوهما، لأن اللبس هو الخلط. وفى قول علىّ للحارث بن حوط: ياحارث، **إنه ملبوسٌ عليك. إن الحق لايُعرَف بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله**». وفى قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ (آل عمران ١٠٢) يعنى أطيعوه فلا يُعصَى، فحقُّ التقوى: أن لايُنسَى الله، وأن يُشكر ولايُكفر، فلما قالوا للرسول ﷺ: ومن يقوى على هذا، نزلت: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن١٦)، فصنفٌ يمكنه أن يتّقيه حقّ تُقاته، وصنف لا يقوى إلا على ما يستطيع، وفى الحالتين يبذل المُتقى جهده، ويتوقف ما يبذله على مقدار معرفته بالله، وحقّ التقوى يكون لمن يقدّر الله ﴿**حَقَّ قَدْرِهِ**﴾(الأنعام٩١)، أى لمن يعرفه تعالى حقّ المعرفة. وقوله تعالى: ﴿**حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**﴾ (الأعراف١٠٥) ذهب مثلاً، ومعنى «حقيقٌ علىّ» واجبٌ علىّ. و﴿**دِينَ الْحَقِّ**﴾ (التوبة٢٩) هو الإيمان بالله وبما جاء به النّبيّون من ربّهم.

●●●

١٢٢٥- ﴿الحكمة والحكيم﴾

تأتى الحكمة فى القرآن: عشرين مرة، والحكيم: إحدى وثمانين مرة، والله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾(البقرة٢٦٩)، والحكمة: هى الإصابة فى القول والفعل وهى العقل، والفهم، والمعرفة،والعلم بمقتضى الصالح، والتُقَى،والورَع، والخشية من الله. وهى مصدر من الإحكام، أى الاتقان فى القول والفعل، وأصلها ما يُمتنع به من الحُمْق وفعل القبيح، وهى علم ما يؤدى إلى الجميل، وإلى الفقة فى الدين ومطلوباته، والعلم بالله وبكتابه،وفى الحديث: «**مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**» أخرجه البخارى. والحكيم: هو الذى يُعطَى الحكمة ويعمل بمقتضاها؛ وهو العارف بمقتضيات الكلام وعباراته من جوامع الكلم. وفى قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾(ص٢٠): أن الحكمة هى العلم والعدل والفقة، ومن مقتضاها فصل الخطاب، أى القضاء، والفصل بين الحق والباطل. والحكمة منهج الدعوة: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل١٢٥)، أى بالعقل والمنطق وضَرْب الأمثال، والتذكير بوقائع الناس وبما فيه الزواجر. ومَن احتاج إلى المناظرة والجدال، فليكن بالوجه الحسن، وبالرفق واللين وحُسن الخطاب، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾

(العنكبوت٤٦)، أى بلين الجانب: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)** ﴾ (طه).
والحكيم أيضاً هو المانع من الفساد، ومنه سُمّيت حَكَمَةُ اللّجام، لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب إلى غير قصد. والسورة **المُحكمة**: هى الممنوعة من التغيير والتبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، وأن يُزاد عليها ما ليس لها، **والحكمة** من هذا، لأنها تمنع صاحبها من الجهل. ويقال «**أحْكَمَ الشىء**» إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد، فهو محكم وحكيم على التكثير. **والحاكم، والحكيم، والحَكَم** من أسمائه تعالى، فهو الحَكم المُحكِّم الحاكم الذى لا مردّ لحكمه، يُحكم ما يريد، ويُرجَع إليه فى الحكم، ولا معقّب لحكمه،لأنه تعالى الحكيم، وأحكامه حِكَم:﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال٧١)، ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (النحل٦٠)، ﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)** ﴾ (سبأ) ، وهو ﴿**حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصلت٤٢). ذلكم هو الله، لايقع فى وعده ريب، ولافى فعله عيب:

إلهى! حكيمٌ أنت، فاحكُم مشاهدى ... فؤادك عندى يا ودود تنزّلا
ويا حكَمٌ عدلٌ لطيفٌ بخَلقه ... خبيرٌ بما يخفى وماهو مُجْتلا

وأبرز أهل الحكمة فى القرآن: «**لقمان الحكيم**» ، كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ (لقمان١٢) وحِكَمُه أقوال مأثورة. وكانت **حكمة** داود فى سياسة الحكم، **وحكمة** سليمان فى سياسة الناس، **وحكمة** إبراهيم فى سياسة المواقف ، **وحكمة** المسيح فى ضرب الأمثال، وكانت السُّنَّة حكمة نبيّنا محمد ﷺ.

●●●

١٢٢٦- ﴿الحُمْس﴾

الحُمْس جمع **الأحْمَس**، وهم قريش ومَن ولدت، وسُمّوا حُمساً لأنهم تحمّسوا فى دينهم، وكان الناس يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحُمس ثياباً، فيعطى الرجالُ الرجالَ، والنساءُ النساءَ، وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم، فلا ينبغى لأحد من العرب أن يطوف إلا فى ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثياب إحرام، ومن لم يكن على يسار وبوسعه أن يستأجرها، كان إما يطوف بالبيت عرياناً، وإما فى ثيابه، وإما يأخذ ثياباً من الحمس، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثيابه عنه فلم يمسها أحد، وكانت هذه الثياب تسمى **اللّقَى**. وظل هذا شأنهم إلى أن جاء الإسلام ونزل القرآن، فنزلت الآية: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ (الأعراف٣١) وأذّن مؤذن الرسول ﷺ: لايطوف بالبيت عُريان.

وقيل: الحُمس: قريش، وكنانَة، وخُزاعة، وثقيف، وجشم، وبنو عامر بن صعصعة، وبنو نصر بن معاوية، وسُمّوا حُمساً لتشديدهم فى دينهم. **والحماسة** هى الشدّة.

ولم يكن الحُمس يقفون مع الناس بعرفات فى الجاهلية، وكان وقوفهم بالمزدلفة، وكانوا يقولون: نحن قطين الله ـ جمع قاطِن أى ساكن، يقصدون أنهم سكان بيت الله وحرمه، فينبغى لهم أن لايعظّموا إلا الحرم، ولم يكونوا يخرجون لذلك من الحرم، ويقفون بجَمع ويفيضون منه، بينما يقف الناس بعرفة، فقيل لهم: أفيضوا كما أفاض إبراهيم وكما يفيض الناس.

●●●

١٢٢٧- ﴿الخلة والخليل﴾

الخليل فى الآية: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾(النساء: ١٢٥) على وزن فعيل، بمعنى فاعل، كالعليم بمعنى العالم، أو بمعنى المفعول، كالحبيب بمعنى المحبوب، وإبراهيم الخليل أى المحتاج إلى الله، الفقير إليه، أو المُصطفى منه تعالى الذى اختصه بمحبته لصفات فيه، قيل كانت خُلّة إبراهيم أنه يُطعم الطعام. والنبىّ ﷺ كان خليل الله، وفى الحديث: «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً»، لأن الخليل هو الذى يوالى فى الله، ويعادى فى الله، وهى صفة نبيّنا ﷺ، فلمّا اتخذه الله خليلاً استحال عليه أن يشرك فى نفسه مع الله أحداً فقال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» أخرجه مسلم.

والخُلّة بين الآدميين هى الصداقة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ (الإسراء٧٣) مشتقة من تخلّل الأسرار بين المتخالين، وقد يكونون من الأخيار أومن الأشرار، وقيل: هى من الخَلَل، فكل واحد من الخليلين يسد خُلة أو خلل صاحبه، وفى الحديث: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» رواه أحمد، ويوم القيامة يستبان من كنا تخالل، ويومها يقول الذى أساء اختيار الخليل: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾ (الفرقان٢٨)، وفيه قال القائل:

من لم تكن فى الله خُلّته ... فخليله منه على خطر

وقال:

إذا ماكنت متخذاً خليلاً ... فلا تثقنّ بكل أخ إخاء
فإن خُيّرتَ بينهم فالصق ... بأهل العقل منهم والحياء
فإن العقل ليس له إذا ما ... تفاضلت الفضائل من كفاء

وفى القرآن عن يوم القيامة: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾(البقرة ٢٥٤).

●●●

١٢٢٨- ﴿دار المتقين﴾

هى إما دار الدنيا، يُمتَحن فيها المؤمنون، ويختبر إيمانهم، ويُكشَف عن خشيتهم من

الله وتقواهم، لأن دار الدنيا هى دار **الأعمال**؛ وإما أن دار المتقين هى **الدار الآخرة**، كقوله تعالى: **﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾**(النحل ٣٠)، فلما عملوا الخير فى الدنيا، نالوا عليه ثواب الآخرة، فكانت لهم الجنة داراً. وقيل دار المتقين فى الآخرة هى **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾** (النحل ٣١).



١٢٢٩ - ﴿الذَّرّ (النظرية) فى القرآن﴾

هذه النظرية لم يسبق إليها علم من العلوم، ولا كتاب من الكتب، وتأتى بها الآية: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾**(الأعراف)، ويوم الذَّرّ: هو اليوم الذى أخرج الله فيه الناس جميعاً فى هيئة ذرّ من **ظهر آدم** - أى فى هيئة هباء، وواحدته الذرّة، والجمع ذرات، وهى الجزء المتناهى **فى الصغر**،ويعنى أن الناس كانوا فى ظهر آدم بالإمكان،كما تكون الشجرة مبادؤها فى البذرة بالإمكان - أى أن خلايا آدم كانت مبرمجة ومشفّرة على أنها تحتوى على إمكانات هذه **الذرية** أو هؤلاء الآدميين، فكأن وجود البشرية هو وجود دائم، ولكنه **بالإمكان**، أى إمكان أن يوجد، فإذا خلقنا وصوّرنا الله، وصرنا أجنةً ووُلدنا، تحوّل **الإمكان** إلى **أعيان**، وصار وجودنا وجود أعيان، أى **وجوداً متحققاً**، فقبل **الشجرة** تكون **البذرة**، والبذور إمكانيات للأشجار، وهكذا فى الإنسان وفى كل شىء. **ويوم الذرّ** من الأيام التى يقول بها القرآن، وفيه أخذ الله العهد على بنى آدم وهم ذرٌّ بعد. وقيل: هذه الآية **مشكلة**، وفيها كلام كثير، وتحتاج إلى التأويل، ويُفهم منها: أن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض، وذلك هو **التناسل**، **والتكاثر بالنسل**، ويكون معنى: **﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾** (الأعراف ١٧٢) أنه دلّهم بخلقه على توحيده، لأن كل بالغ صار يعلم ضرورة أن له ربّاً واحداً، فلما سألهم: **ألستُ** بربّكم؟ شهدوا على أنفسهم، وأقرّوا بذلك. وقد يفهم من الآية: أنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وجعل فيها المعرفة، وفى الحديث أنه تعالى: «**أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم**»، وعن عمر فى الحديث عن الرسول ﷺ: «**أن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال خلقتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون؛ ثم مسح ظهره** فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقتُ **هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون**»، والحديث يعنى أنه خلقهم **فى الإمكان**، فالناس صنفان: صنفٌ لأعمال أهل الجنة، وصنفٌ لأعمال أهل النار.

وفى الحديث أيضاً: «لماّ خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نَسَمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة». وقال: «أُخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، وأن لا إله غيره، فأقرّوا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث إليهم الرسُل،فشهد بعضهم على بعض، وأشهد عليهم السموات السبع، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أُخذ عليه العهد».

وهذا هو معنى الذرّ ومقاصد النظرية فيه، ومعنى التكليف حتى والإنسان لم يزل فى الذّر، ومرامى المسئولية المترتبة على هذا التكليف. وانفرد القرآن بعرض هذه النظرية التى لامثيل لها سواء فى اليهودية أو فى النصرانية، تلخص الخلق كله، والفطرة التى عليها الإنسان، والصراع فيه بين الإيمان والكفران، والخير والشرّ، والأخذ بمنهج الرحمن أو بمنهج الشيطان.



١٢٣٠- ﴿صلاة المنافقين﴾

يبّنها الآية: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)﴾(النساء)، فمن صلّى كصلاتهم، وذَكَر كذكرهم، لَحِقَ بهم فى عدم القبول، وخرج عن مقتضى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ (المؤمنون).



١٢٣١- ﴿ذو الحجر﴾

ذو الحِجْر فى الآية: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾ (الفجر) هو ذو العقل أو اللُّب، وذو الحلم، وذو الستر؛ والحِجْر بمعنى العقل، وهو استخدام جديد ليس فى اللغات اللاتينية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والروسية والعبرية إلخ، وعند ترجمته إلى أى منها يُترجم بأنه العقل. وأصل الحِجْر هو المنع، فيقال لمن يملك نفسه ويمنعها: إنه لذوحِجْر؛ ومنه سُمّى الحَجَر لامتناعه بصلابته؛ ومنه قولنا: قضت المحكمة بالحَجْرعلى فلان، أى منعه من التصرف فى أمواله وأملاكه؛ ومنه كذلك الحُجرة لامتناع ما فيها بها. وفى الآية: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾(الأنعام١٣٨) أنها أنعام محرّمة، وحرثٌ ممنوع؛ وفى الآية: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾(الفرقان٢٢) أى حَجَر الله عليهم البشرى وحرّمها عليهم، بمعنى أن الملائكة تقول لهم نعوذ بالله منكم، والعرب يقولون إنه لذو حجر، إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها، كأنه حَجَر عليها ويمنعها. فهل رأيت الآن كم

هى عبقرية هذه اللغة العربية فلا تضاهيها أبداً لغة أخرى! **ولذلك كان القرآن بها**، وكان كتاباً ضمن صفاته الأخرى، أن له أسلوبه الفصيح، ويحفل بوجوه البيان، وبالمصطلحات والأسماء، بما ليس فى لغة من اللغات.

●●●

١٢٣٢- ﴿الحور العين﴾

هن زوجات المؤمنين فى الجنة: ﴿ **وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)**﴾(الدخان)، **والحور**: هن النساء البيض، جمع حوراء: وهى البيضاء صافية البياض كالمرآة، من دقة الجلد وبضاضة البشرة، كقوله: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ(٢٣)**﴾(الواقعة)، أى اللؤلؤ الذى لم تمسّه يد، ولم يدنّسه قَذَر، فحتّى التراب لم يلحقه منه شيء، فهو أشد ما يكون صفاءً وتلألؤاً. **والحور العين** إذن: هن النساء الثاقبات البياض بحُسن؛ وسميت الحور حوراً لأنهن **يحار** الطَّرْف فى حُسنهن وبياضهن وصفاء لونهن، أو **لحَوَر** عيونهن، **والحور**: شدّة بياض العين مع شدّة سواد الحَدَقة؛ **والمرأة الحوراء** هى البيّنة الحَوَر. **والعين** بالكسر جمع **عَيْناء**، وهى الواسعة العظيمة العينين، ويقال للنساء أنهن حور عين لأنهن يشبهن الظباء. وحُسن الحور العين ليس الحُسن المادى وحده ،ولكنه الحُسن المعنوى أيضاً، كقوله تعالى: ﴿**حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)**﴾ (الرحمن)، أى أنهم فضليات لايشتهين أن يطالعهن الرجال، فهن فى «الخيام»، يعنى مستورات الملابس أو مستورات البيوت، ولسن بالطوّافات فى الطرق، **ويُقصرن** أنفسهن على أزواجهن فهن **مقصورات**، من معنى قصرتُ الشيء إذا لم تجاوز به غيره، **وامرأة مقصورة فى** البيت، أو على زوجها، أى لا تتركه. والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

١٢٣٣- ﴿الزُّور﴾

الزور: هو الباطل والكذب، وقيل: كل باطل زُوْر وزُخرف، وأعظمه الشِّرك وتعظيم الأنداد لله تعالى، كقول النصارى: عيسى ابن الله، وقول اليهود: نحن أحباب الله وأصفياؤه. وكان الزور فى **الجاهلية** يسمى نفس الاسم، والمعنى فى الآية: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾ (الفرقان٧٢) من الشهادة لا من المشاهدة. وفى قوله: ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠)**﴾ (الحج٣٠) فقد ورد فى الحديث: «**عدلت شهادة الزور الشرك بالله**»، وعدّها الرسول ﷺ «**من أكبر الكبائر**»، وكان **عمر** يجلد شاهد الزور **أربعين** جلدة، ويُسخّم وجهه، ويحلق رأسه، ويُطاف به فى السوق. وعند أهل العلم لا تقبل لشاهد الزور شهادة أبداً، فإن تاب وحَسُن عمله قُبلت شهادته، أى **أعيدت له أهليته**.

●●●

١٢٣٤- ﴿السابقون﴾

السابقون: من قولنا سبَقه أي تقدّمه وخلّفه، ومن المثل: سَبَق السيفُ العَذَل؛ والسابق الذى يأخذ السَّبَق، والجمع سابقون وسُبّاق، وفى القرآن: ﴿**أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**(٦١)﴾ (المؤمنون)، أى مسرعون. سبقت لهم من الله السعادة فسارعوا فى الخيرات والصالحات. وكل من تقدّم فى شيء فهو سابق إليه. والسبق إلى الخيرات هو الإسراع إليها واستعجال إتيانها، وقوله «يسارعون» على معنى يسابقون غيرهم. وفي قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾(فاطر٣٢): أن المصطفين للكتاب ثلاث فئات، وهم الذين يُعرَضَ عليهم ما فيه، فمن هؤلاء «الظالم لنفسه» يجهل ويظلم نفسه، ويأتى الذنوب الصغيرة فلا يدرك أنها ذنوب لجهله؛ والمقتصد: وهو المؤمن العاصى؛ والسابق: وهو التقىّ على الإطلاق. ويبين معنى السابق مقارنةً بمعنى الظالم لنفسه والمقتصد: فالظالم لنفسه: قوّال غير فعّال؛ والمقتصد: فعّال وليس قوّالاً؛ والسابق: قوّال وفعّال. والظالم لنفسه: يعبد الله على عادة وغفلة؛ والمقتصد: يعبده على رغبة ورهبة؛ والسابق: يعبده على الهيبة. والظالم لنفسه: يُعطَى فيمنع؛ والمقتصد يُعطَى فيبذل؛ والسابق: يُمنَع ومع ذلك يشكر ويُؤثِر. والظالم لنفسه: يستغنى بماله، والمقتصد: يستغنى بدينه؛ والسابق: يستغنى بربّه. والظالم لنفسه: يتلو القرآن ولايعمل به؛ والمقتصد: يتلو القرآن ويعمل به؛ والسابق: يقرأ القرآن وهو عالم فيه ويعمل به. والظالم لنفسه: يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة؛ والمقتصد: يدخله وقد أُذّن؛ والسابق: يدخله قبل التأذين. والظالم لنفسه: يغفل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة؛ والمقتصد: لايفرّط فى الوقت وإن فاتته الجماعة؛ والسابق: يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين. والظالم لنفسه: يحبّ نفسه؛ والمقتصد: يحبّ دينه؛ والسابق: يحبّ ربّه. والظالم لنفسه: ينتصف ولا يَنصف؛ والمقتصد: ينتصف ويَنصف؛ والسابق: ينصف ولاينتصف. وقالت عائشة: الظالم لنفسه: مَن لم يُسلم إلا بالسيف؛ والمقتصد: من أسلم بعد الهجرة؛ والسابق: الذى أسلم قبل الهجرة.



١٢٣٥- ﴿السابقون الأولون﴾

فى الآية: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ**﴾(التوبة ١٠٠)، أن «السابقين الأولين»: هم السابقون إلى الهجرة، صلّوا إلى القبلتين، وشهدوا بيعة الرضوان - وهى بيعة الحديبية، وهم أهل بدر. وكل من هاجر قبل تحويل القِبْلة فهو من المهاجرين الأولين:

وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. وأولهم: إسلاماً: أبو بكر: من الرجال؛ وعلىّ: من الصبيان؛ ومن الموالى: زيد بن حارثة؛ ومن النساء: خديجة، سبقت إلى الإسلام. وكان إسلام الزبير بعد أبى بكر، وكان الرابع أو الخامس فى الإسلام. والزبير أسلم وعُمره ثمانى سنين، وعلىّ أسلم ابن سبع أو عشر سنين، والسبق فى الإسلام يكون بثلاثة أشياء: الصفة وهو الإيمان، والزمان، والمكان، وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قوله ﷺ فى الصحيح: «نحن الآخرون الأولون، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم - يقصد يوم الجمعة - الذى اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فاليهود غداً (السبت)، والنصارى بعد غد (الأحد)»، فأخبر ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان، سبقناهم بالإيمان: وهو الامتثال لأمر الله تعالى، والانقياد إليه، والاستسلام لأمره، والرضا بتكليفه، والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه، ولا نختار معه، ولانبدّل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب.

●●●

١٢٣٦- ﴿السابقون السابقون﴾

يصنّف القرآن الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف، يقول تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑨ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑫ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ⑭﴾ (الواقعة)، فأما أصحاب الميمنة فهم الذين يؤخذ بهم ناحية اليمين إلى الجنة؛ وأما أصحاب المشأمة فهم الذين يؤخذ بهم إلى ناحية الشمال إلى النار؛ وأما السابقون: فهم الذين يسبقون إلى الإيمان من كل أمة، تكررت فى الآية تأكيداً واستحساناً وترغيباً وإكراماً، فهم سبقوا أولاً إلى الإيمان وطاعة الله، وسبقوا ثانياً إلى رحمة الله، وهم فى أمة الإسلام الذين سبقوا إلى الهجرة، وهؤلاء هم السابقون الأولون: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ (التوبة ١٠٠)، وهم على الصحيح المؤمنون بعامة، والذين يعملون الصالحات: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المؤمنون٦١)، قال لهم ربّهم: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الحديد٢١) فسبقوا، فقرّبهم منه، وأخبر عنهم أنهم ثلة - أى كثرة - من الأمم المتقدمة، وقليل من أمة محمد ﷺ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ⑭﴾(الواقعة)، وُصفوا بأنهم قلّة بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأنه فى السالف كثر الأنبياء فكثر السابقون إلى الإيمان، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمة محمد ﷺ. وفى الحديث عن النبىّ ﷺ يخاطب أُمته: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، بل ثلث أهل الجنة، بل نصف أهل الجنة، وتقاسمونها فى النصف الثانى».

●●●

١٢٣٦- ﴿السمع والأبصار والأفئدة﴾

هذه الجوارح **الثلاث** هي أهم الجوارح في الإنسان، ورئيسها **الفؤاد** أو **القلب**، وهو أشرف الثلاث، **والقلب** موضع الفكر، وقد يتأثر بالسمع والبصر لما بينها جميعاً من ارتباط هو ارتباط الظاهر بالباطن، فالقلب للباطن، والسمع والبصر للظاهر. **والسمع** في الترتيب يأتي أولاً، لأننا نسمع أولاً، فإذا سمعنا توجهنا بالبصر إلى ما نسمع، فإذا سمعنا وبصرنا عقلنا، والعقل بالفؤاد، قال تعالى: **﴿ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (النحل٧٨)، فعندما نولد لا ندرك ولا نعلم، ثم يأتي **الإدراك** والعلم من بعد. وفي السمع إثبات **النطق**، لأن من لا يسمع لا يتكلم، وإذا وُجد السمع وُجد النطق. واستوجبت النِّعَم الثلاث الشكر على من **يسمع ويبصر ويعقل**، فإذا لم **يعقل ويشكر** فإنما لفساد القلب، وبالتالي فكأنه لم يسمع ولم يبصر: **﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾**(النحل١٠٨) فتعطُّل السمع والبصر نتيجة لتعطُّل القلب، وهذا هو معنى: **﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾**، كقوله: **﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾** (البقرة ٧)، فالختم يكون على القلوب وعلى السمع، والغشاوة تكون على الأبصار، ومعنى **الختم على القلوب** عدم الوعي بمخاطبات الله بالتفكير في آياته؛ ومعنى **الختم على السمع** عدم فهم ما يُتلى عليهم من آيات الله، أو الدعوة إلى وحدانيته؛ ومعنى **الختم على الأبصار** عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، ولا أقل في هذه الحالة من أن يوظَّف السمع والأبصار، والحسيّ عموماً، لرصد ما يصنعه كل إنسان، كقوله تعالى: **﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (فصلت٢٠). ويزعم المستشرقون: **أن القرآن جعل الأبصار جمعاً** ولكنه وحّد السمع، **وكان يجب أن يجمع الأسماع؟ والجواب**: إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، وهو اسمٌ للجارحة المسموع بها سمِّيت بالمصدر. ويأتي **السمع مع الأبصار** عشر مرات في القرآن، ولم يأت **السمع مع البصر** إلا مرة، كقوله: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾** (الإسراء٣٦)، وفي **المرات العشر** فإن لكل قلب وبصر ما يشغله، ولذا كان التعبير عنها بالجمع، فإن كان السمع للجميع واحد، نقول **سمعاً** ولا نقول **أسماعاً**. وفي الحديث عن هذه الجوارح باعتبارها أعضاء أوردها مفردة، **فالفؤاد** في الآية كجارحة يُسأل عمّا افتكر فيه واعتقده، **والسمع والبصر** عمّا رأى من ذلك وسمع، وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد «**بأولئك**»، لأنها حواس مستقلة لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسئولة، وجعل لها **وللجلود** - وهي من الحواس أيضاً - شهادة. ومجيء السمع

فى الترتيب قبل البصر دليل فضل السمع عليه، فالسمع يدرك من الجهات الست، وفى النور والظلمة، ولا يُدرك البصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وفى أسماء الله الحسنى يأتى أنه «سميع بصير» إحدى عشرة مرة، وأنه «سميع عليم» ٣٢ مرة، وأنه «سميع قريب» وذلك دليل أكيد على فضل السمع على البصر.



١٢٣٧ - ﴿السحر﴾

السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى به، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيّل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة حثيثاً أو القطار، يخيل إليه أن ما يرى من أشجار وجبال تسير معه. والسحر يُشتق من الفعل سَحَر أى خدع، والسحر خداع، والتسحير مثله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(الشعراء١٥٣)، أى الذين وقعوا ضحية السحر حتى فسدت به عقولهم. والسحر: هو الاستمالة، فمن يسحرك يستميلك، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر١٥) أى سُحرنا فذهبت معارفنا وحلّت محلها تخيلاتنا. والسحر لا ينطلى إلا على أشخاص بأعينهم، يتميزون بالاستهوائية والتجاوب السريع. ومن السحر ما يكون خفة يد كالشعوذة، ومنه ما يُحفظ كلاماً كالرُّقى. وسمى الرسول ﷺ الفصاحة فى الكلام واللسان سحراً فقال: «إن من البيان لسحراً»، لأن السامع يضل بكلام المتكلم عن الحق فيظن الباطل حقاً، وهو قول يخرج مخرج الذمّ للبلاغة والفصاحة إذ يشبّهها بالسحر. وقيل خرج مخرج المدح للبلاغة والتقليل للبيان، والأول أصحّ، بدليل قوله ﷺ: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» ،وقوله: «إن أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيقهون»، والثرثرة هى كثرة الكلام، والثرثار كثير الكلام، والمتفيقه مثله.

ومن السحر ما يدّعون به تغيير صور الناس، وقطع المسافات، والطيران فى الهواء، وكان ذلك فى الماضى لسذاجة الناس، والآن قد يفعله العلماء بالتكنولوجيا وليس بالكلام. وبعض أهل الدين يؤمنون بالسحر ويدّعون أن له حقيقة، وأصحاب العقل وأولو النهى يرفضونه ويصفونه بالتمويه والتخييل، وفى القرآن قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه٦٦)، ولم يقل تسعى على الحقيقة وإنما قال: «يخيل إليه»؛ وقال أيضاً: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾(الأعراف١١٦). ومن السحرة فنانون فى سحرهم، وفى القرآن صنفان: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(ص٤)، و﴿سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾(الأعراف١١٢)، والأول: هو النصّاب، والثانى: هو هذا الفنان فى سحره، وهناك ثالث: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾(يونس٢) يعنى

سحره ليس كالشعوذة. والقرآن مع القول بأن السحر: هو فن التأثير على الناس بالقول وخفة اليد، وليس بالواقع كقوله تعالى: ﴿**ولا يُفلحُ السَّاحِرُونَ**﴾(يونس٧٧). وقيل: لو لم يكن السحر واقعاً لما قال: ﴿**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾(البقرة ١٠٢)، ولما وصف سحر سحرة فرعون فقال: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**﴾ (الأعراف١١٦)، ولما نزلت سورة **الفلق** التي كان سبب نزولها سحر لبيد بن الأعصم،ولما قالت عائشة: «**سَحَر رسول الله** ﷺ **يهودي من يهود زريق يقال له لبيد بن الأعصم**»، والحديث لم يقل إن سحر لبيد أثّر على الرسول ﷺ، ولم تكن سورة الفلق إلا تعويذة بدلاً من تعاويذ الجاهلية، وليس معنى الاستعاذة بالله من السحرة أن فعلهم يقع، فلو آمنا بذلك لكان هذا هو **الشِّرك الخفي**، لأننا نجعل لله شركاء يفعلون في الناس ما يريدون وكأنهم آلهة؟! ومن الأكاذيب أن يقال أن النبيّ ﷺ سُحِر، فلو كان سُحِر فكيف نأتمنه على الرسالة؟وكيف يأمنه ربّه عليها؟ ومن يقل ذلك ينتقص من النبيّ ﷺ ومن الإسلام كديانة. ورواية **عائشة** عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إن الله شفاني**» لم يقل بها سواها، ولم يشهد على صحتها أحد، ولا يوجد ما يثبت أن **عائشة** قالت ذلك عن النبيّ ﷺ. والحديث لا يثبت أنه ﷺ كان ضحية السحر،وقوله المزعوم «إن الله شفاني» إنما لأنه تعالى الشافي دائماً، والمعافي دوماً، وهو يشفي من كل علّة، والسحر ليس مرضاً حتى يُشفَى منه، وإنما السحر تغيير في حالة الشخص، والتغيير لا هو نفسي ولا عضوي، فلا هو مرض نفسي ولامرض عضوي، فكيف يُفهَم أن شفاءه كان من السحر مع أن السحر ليس بمرض أصلاً؟!

والسحر بخلاف **المعجزة**، وآيات موسى من إنزال الجراد والقمل والضفادع إلخ معجزات وليست سحراً، والسحر **يوهم به الساحر**، ولكن المعجزة لايوهم بها ولا يأتيها إلا الله، وشرطها: **دعوى النبيّ والتحديّ بها**.

والسحر من استخراج الشياطين، وفي القرآن نص الله تعالى أن ما يعلمه الملائكة لا سحر فيه، وإنما السحر يعلّمه الشياطين، كقوله: ﴿**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ**﴾(البقرة ١٠٢)، فنفى أن يكون الملائكة يعلّمون السحر، بل يعلمه هاروت وماروت بدلاً من الشياطين، فالسحر من استخراجهم، يوهمون به الناس، وأكثر ما يتعاطاه النساء وخاصة في أحوال طمثهن،وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾(الفلق ٤)، فجعل النفث صناعة السحر عند النساء، وأعطى هؤلاء اسم

النفّاثات، والتعوّذ من شرّهن يعني من نواياهن الخبيثة وليس أن نفثهن في العُقد يفلح في تغيير المصائر والأحوال، وإلا فلماذا لا نسمع في عصر العلم بالسحرة والسحر؟ فافهم يا أخي المسلم، ويا أختي المسلمة.

•••

١٢٣٨- ﴿الشفاعة﴾

يأتي عن **الشفاعة** في القرآن **ثلاثون** مرة، والشفاعة في الدنيا **نوعان**: حسنة وسيئة، وحكمهما قوله تعالى: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾(النساء ٨٥). والشفاعة في **اللغة**: سؤال فعل الخير، وسؤالُ ترك الضرر عن الغير، على سبيل التضرُّع. وفي الآخرة لاشفاعة إلا لله: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾(الزمر ٤٢)، ولا شفيع من دونه: ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾ (الأنعام٥١)، ولاشفاعة أصلاً إلا من بعد إذنه تعالى: ﴿**مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ (يونس ٣)، وفي السُّنّة: أن النبيّ ﷺ من هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة، يسألها ربّه لأُمته فيقول له: "**يا محمد، ارفع رأسك وقل يُسمع، واشفع تُشفع**". والشفاعة في **الدنيا** تقتضي حاكماً مستبداً لاحاكماً عادلاً، لأنها تقتضي منه أن يتخلى عن العدل من أجل الشفيع، وأن يفسخ ما كان يتوجب عليه أن يتوجه إليه عزمُه. **والحاكم المستبد** هو الذي يقبل أن يحكم بخلاف ما يعلم أنه الصواب والحق، والشفاعة بهذا المعنى ظُلم ومحال على الله، لأنه تعالى يستحيل أن يغيّر إرادته، ولا أن يحوّل عَدْله. وإرادته تعالى بحسب علمه الأزلي لا تغيير فيها ولا تبديل. وعلى ذلك فما ورد في الشفاعة من الأحاديث هو من **المتشابه**، والمسلمون في هذه الأحاديث على التفويض فيما لا يعلمون، وينزّهون الله عن الشفاعة على شاكلة ما يرونه منها في الدنيا. وكان **ابن تيمية** يرى في **أحاديث الشفاعة** أن ما ذُكر فيها عن شفاعة الرسول، أن الشفاعة المقصودة هي **دعاؤه للمسلمين**، ولا تعني أن المولى سيرجع بشفاعة الرسول ﷺ أو شفاعة الملائكة والمؤمنين، عن إرادته من أجل الشافع أو الشافعين. وما ورد في القرآن عن يوم الحساب قاطع حاسم بشأن الشفاعة، ومن هذا اليوم تنقطع الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب: ﴿**فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾(المؤمنون١٠١)، ولا يُدفع فيه بالفداء، ولا بشفاعة الشافعين، وتضمحل الوسائل، إلا ماكان من إخلاص العمل قبل حلول الأجل.

وفي الشفاعة قال **الإمام محمد عبده**: إن الشفاعات في إفساد الحكومات والدول والشعوب أشد فتكاً من الذئاب الضارية بالغنم. وفي الحكومات التي تروج فيها الشفاعات يعتمد الناس على الشفاعة في ظل ما يطلبون، لاعلى الحق والعدل، فتضيع فيها الحقوق،

ويحل الظلم محل العدل، ويسرى ذلك من الحكومات إلى الناس فيكون الفساد عاماً، وهو حال بلادنا، والاعتقاد الشائع فيها أن لا قضاء لمصلحة إلابالشفاعة والرشوة. وبهذا المعنى تستحيل الشفاعة على الله، لأن ما يقضى به إنما هو تابع لحكمته وعلمه وعدله والحق الذى هو اسمه. وهذه الشفاعة التى يتعلق بها السفهاء قد نفاها الله يوم الحساب، فقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة**﴾ (البقرة٢٥٤)، وفى ذلك نفىٌّ تام لأى نوع من الشفاعة، بل هو القسط والميزان: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** (٤٧)﴾(الأنبياء ٤٧).

وقد ذهب البعض إلى القول بالشفاعة للمسلم الذى ينطق بالشهادة وإن زنا أو سرق، وينفى القرآن ذلك البتة فى الآية: ﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين**﴾(النساء١٤)، فالعاصى إذن فى النار مخلداً، وليس ما يقولون أنه يدخل لفترة ثم يقر فى الجنة بعد أن ينال جزاءه؛ وكذلك القاتل: لايعذَّب لبعض الوقت وإنما هو مخلّدٌ فى النار ولا شفاعة فيه، كقوله: ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما**﴾(النساء٩٣) . والظالمون كذلك: لاشفاعة لهم، وهم مخلّدون فى النار: ﴿ **ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع**﴾ (غافر١٨)؛ وكذلك المنافقون: ﴿**وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم** ﴾(التوبة ٦٨). وإذن فلا استثناء لأحد بدعوى الإسلام أو غيره، وإنما الحساب والميزان: ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾(الكهف٤٩)، ﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ (يونس٦١)، ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره** (٧) **ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**(٨)﴾(الزلزلة)، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف.

***

١٢٣٩ - ﴿الصابئة فرقة نصرانية يهودية﴾

وهم الصابئون أيضاً **Sabeans**، ويأتى ذكرهم فى القرآن ثلاث مرات بصيغ مختلفة ضمن فرق أخرى؛ فى الأولى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (البقرة ٦٢)، وتنبّه الآية إلى أن الاسم لايهم، وإنما المهم أن هؤلاء كانوا مؤمنين بالله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات، وبناءً عليه لهم ثوابهم عند الله ولا خوف عليهم ولا هم يصيبهم القلق على أنفسهم؛ وفى الثانية: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين**

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة٥) فاختلفت الصياغة وقُدِّم **الصابئون على النصارى**، وزعم المستشرقون أن القرآن قد أخطأ فى النحو ورفع «**الصابئون**» وكان يجب النصب بإن، أو أن كتبة القرآن أخطأوا، والصحيح أنه لا خطأ هناك، ورفْعُ «الصابئون» محمولٌ كما ذكرنا على تقديمها والنصارى، وتقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وكذلك **الصابئون والنصارى**»، وبذلك ينحل الإشكال وتسقط دعوى أمثال **المستشار العشماوى** الذى يصرّ على تخطئة رفع «الصابئون».

وفى الثالثة: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**(الحج١٧) يتأكد أن هذه الفرق **الست** منها فرقة ضالة وبقية الفرق كانت مؤمنة، إلا أن اعتقاداتها اختلفت، وزاد شقة الخلاف بينها مع الزمن، وإنما كانت اعتقادات فى أولها صحيحة ثم انحرفت وكانت على الضلال. والقرآن فى الآيات الثلاث اعتبرها وتحدّث عنها فى أوائل ظهورها وليس بعد انحرافها عن الجادة، ومن ثم فليس هناك خطأ فيما جاء بالآيات من ثناء عليها. **والصابئة** من صبأ، تقول **صبأت النجوم** ـ أى طلعت، وصبأت ثنية الغلام إذا خرجت؛ والصابئة على ذلك هم فرقة خرجت من فرقة أخرى، وكانوا مندائية **Mandaeans**، وعقيدتهم **غنوصية** أى **عرفانية**، **والغنوص** أو العرفانية قال بها اليهود وزاد فيها النصارى، ومن ثم كان **الصابئة ـ مثلما كان المندائية** ـ من الفرق **اليهودية** المسيحية **Judaeco - christian**، وهذا هو سبب تسميتهم صابئة، أى الذين خرجوا من غيرهم من الفرق. **والغنوص gnosis** ،**والغنوصية gnosticism** هما القول بمعارف غيبية، وأن الله يُستدل عليه بالحدس لابالعقل، وبالوَجْد لا بالاستدلال، **والصابئة والمندائية** ذهبوا إلى ذلك، وقالوا **بإلهين للنور والظلام**، وقضى **الإسلام على** المندائية، وما تزال فى **العراق** بقايا من الصابئة. وأخطأ المفسرون المسلمون الذين قالوا: إن الصابئة **أهل كتاب**، لأنهم لم يكن لهم كتاب على الحقيقة، وأخطأ المفسرون اليهود الذين ذكروا أن الصابئة أتباع **يوحنا المعمدان** (النبىّ يحيى)، وأنهم هم **فرقة المغتسلين** أو **المتطهّرين** الذين مارسوا **العماد** ، ومنهم **المسيح**، وقد عمّده **يوحنا**. وكان المغتسلون أو المتطهّرون فى زمن **لوط** واتّهمه قومه بأنه منهم. وأخطأ **ماسينون** وتلميذه **عبدالرحمن بدوى** عندما أرجعا صحيح الاسم إلى كلمتى «**ماس بوتا**» يعنى **تخمّر الماء** وهى عملية من الشعائر المعمودية، **فما علاقة صابئة بماس بوتا؟!** والشهرستانى المؤرخ الإسلامى المشهور للفرق، قال إن الصابئة هم **عبدة النجوم**، واشتهر ذلك عنه، وذكر أنهم كانوا يسمون أنفسهم «**الروحانية**»، لأنهم

اعـتـقدوا أن الـنجوم أرواح، وأنهـا تؤثر فـي الكون وتنهض على تصـريفـه، من أرزاق ومحـاصيل، وتجارة وحروب، ومـواليد ووفيـات، وزواج وطلاق، وقيام دول وسقـوطها إلخ. واشتهر الصابئة لذلك بالتنجـيم وقراءة الطوالع. وقال فيهم الإمام أبو حنيـفـة مقـالة غريبة انحرف بها عن الصواب وجانب التاريخ، وجـعل تعظيمهم للنجوم كتعظيم المسلمين للكعبة! فـلا يقال إنهم عبدة نجوم، كمـا لايقال إن المسلمين يتعبّدون للكعـبة!! وقال عن ديانة الصابئة أنها ديانة نبوية، ويبدو أنه اقتنع بمن قال إن أنبياء الصابئة اثنان هما عاذيموس وإدريس، أو أن عاذيموس هو نفسه إدريس بالعربية، وقال عن مِلّتهم إنها الفطرة وليس الاكتساب، وذكـر أن أتباع إدريس كانوا الصابـئة الأولى. وقال غيره: إن الصـابئة يعبدون الملائكة، ويصلّون إلى القِبْلة، ويقرأون الزبور، وقالوا إنهم يصلون الخمس! ولا أدرى من أين جاءوا بهـذا الكلام إلا أن يكونوا يقصـدون أن الإسلام أخذ منهـم الصلوات الخمس! والغريب أنهم نسبوا إليهم أيضاً أنهم موّحدون على دين نوح وإن اعتقدوا فى النجوم، وأن دياناتهم خليط من اليهودية والمجوسية، وعلى هذا الأساس حللوا ذبائحهم ومناكحة نسائهم؛ والبعض حرّموا ذلك، ونسبوا إليهم أن قِبْلتهم نحو مَهَب الجنوب. والغريب أيضاً أن يسلّم الدكتور عبدالرحمن بدوى بقول المستشرقين: أن اسم الصابئة من الصبياوية التى ورد عنها فى قاموس أصول الدين الكاثوليكى المنشور سنة ١٨١٤م، وهو يـعلم أن غرض المستشرقين بيان أن محمـداً أخذ قرآنه من أصول يهودية مـسيحية، وأن هناك افتئـاتاً واضحاً فى هذا الادعاء الذى لم يقدّم صاحبـه دليلاً واحداً عليه. والقرآن هو الأصحّ، وفى الكويت وبين طلبّة الجامـعة عرفتُ شخـصياً طالبين عراقـيين، وطالبة عراقـية، ذكروا جمـيعاً أنهم من الصابئة الذين ذكرهم القرآن، وكان اعترافهم ضمن اعتذار عن الخوض فى الإسلام والقرآن لجهلهم بهما، وتبين لى من مناقشتهم أنهم مندائيـة، وأن الصابئة هو اسم عـقيدتهم بين إخوانهم، ولم ينفوا وجـود إله، ولكنهم كانوا يعتقدون فى النور والظلام، والخـير والشرّ كمبادىء للوجود. والقرآن تحدّث عنهم كـما كانوا فى بداية ظهورهم كحديثه عن التـوراة الأولى والإنجيل كما نزلا على موسى وعيسى، بمعنى أقوال موسى وعيسى عن الله، وكلام القـرآن فى التوراة والإنجـيل لا يتصـادم مع قوله إن اليـهود والنصـارى حرّفـوا فيـهمـا، فالتحريف كان من بعد، وكذلك حديث القرآن عن الحنيفية على عهد إبراهيم فى حين أنها على زمن النبىّ ﷺ كانت قـد حُرِّفت، ومن ثم كان قـوله ﷺ أنه جاء «بالحنيـفيـة السمحاء» تصحيحاً للحنيفية القائمة، وإحياءً للحنيفية الحقّة. وكذلك قول القرآن فى الفرق الدينية منذ نوح: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد)، وفى النصارى: ﴿فَآتَيْنَا

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) (الحديد) وما ذكره القرآن عن الصابئة الأولى هو هذا الثناء الذى لم يعجب الدكتور بدوى، حتى صرح فى ختام مقاله، بأن الصابئة مشكلة فى القرآن يصعب معها تبرير هذا الثناء، وأنه لايجب أن نيأس بأن نجد لها حلا، فأوهمنا بأنها مشكلة لاحلّ لها!! يا دكتور! المشكلة فيك أنت وفى علمك المبتور بالقرآن! ولو كان ما تقوله صحيحاً لكانت هناك مشكلة فى الموائمة بين امتداح القرآن للتوراة وبين جزمه بالتحريف فيه، وبين ثنائه على الإنجيل وما جاء فيه أن عيسى ابن الله! وما أنبّه إليه إخوانى المسلمين أن كلام القرآن فى التوراة والإنجيل، يُقصد به **التوراة الأولى والإنجيل الأول**، وليس هذه **التوراة الثانية** وهذا الإنجيل الثانى، وكلاهما محرّف ولا يقول الحقيقة، وعلى ذلك ينبغى الحذر من أقوال **عبدالرحمن بدوى** فى القرآن، لأنها مستقاة عن المستشرقين وليس عن اعتقاد بالقرآن. **وعبدالرحمن وجودى ملحد أصلاً** كما أقر فى كتابه **الزمان الوجودى**، وكتابه عن **رابعة العدوية**، وفى **السيرة الذاتية**، وقد نبّه مؤلف هذه الموسوعة إلى ذلك كثيراً فى كثير من مؤلفاته، وفى كتابه **موسوعة الفلسفة**، وكتابه عن رابعة، وفى كتابه **موسوعة الصوفية**.

●●●

١٢٤٠- ﴿الصَّافون﴾

من صَفَّ أى انتظم فى **صفوف**، **والصَّافون**: هم أهل الإسلام يصفّون لربّهم فى الصلاة **صفوفاً**،تشبُّهاً بالملائكة **الصافين** فى قوله تعالى: ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ (الصافات١) قيل: هم الملائكة يصفّون عند ربّهم فى صلاتهم كصفوف أهل الدنيا فى الأرض، وفى الحديث: «**ألا تَصفّون كما تَصف الملائكة عند ربّها**»؟فسأله الصحابة: وكيف **يصفّون**؟ قال: «**يُتمون الصفوف الأوَل، ويتراصّون فى الصف**» أخرجه مسلم، وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: **أقيموا صفوفكم واستووا، إنما يريد الله بكم هَدْى الملائكة عند ربّها**: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ**﴾ (الصافات١٦٥)، وكان الناس يصلون متبددين فأنزل الله: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ**﴾ (الصافات١٦٥). فأمرهم النبىّ ﷺ أن **يصطفوا**. وقيل: **يصطف** الملائكة حول العرش، وكذلك يفعل المؤمنون خلف إمامهم. **وإقامة الصفوف** من الإيمان، ومن حُسن الصلاة، وتعنى التلاحم والتآزر والتساوى والتآخى، وهذه صفات الصافّين الذين هم المؤمنون..

●●●

١٢٤١- ﴿الصدق والصادقون والصدّيقون﴾

الصدق ضد الكذب. والصدق فى اللغة هو مطابقة الحكم للواقع، والإبانة عما يُخبر

به على ما كان ، وقول الصدق فى مواطن الهلاك التى قد لا ينجيك فيها إلا الكذب. وعوارض الصدق فى الصادق أن لايكون فى أحواله شَيْنٌ، ولا فى اعتقاده ريْب، ولافى أعماله عيْب. والصادقون: هم أهل الصدق. وعن مالك بن أنس قال: كلما كان الرجلُ صادقاً لا يكذب، إلاّ متّع بعقله، ولم يصبه ما يصيب غيره من الهَرَم والخرف. وفى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** (١١٩)﴾(التوبة)، يعنى على مذهب الصادقين وسبيلهم، وهم الأنبياء، يكونون معهم بالأعمال الصالحة؛ أو أنهم هم المرادون بقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**﴾ (البقرة١٧٧)، وقيل هم المهاجرون، سمّاهم بالصادقين (الحشر٨)، وبالمفلحين (الحشر٩). والصادقون تستوى ظواهرهم مع بواطنهم، فلا يكون متسع للنفاق فى العقيدة أو الفعل، ويقال لصاحب هذه الصفة أنه الصدّيق. والصدّيقون من الأنبياء فى القرآن خمسة: إبراهيم (مريم٤١)، ويوسف (يوسف٤٦)، وإدريس(مريم٥٦)، وإسماعيل (مريم٥٤)، وهارون (القصص ٣٤). وكانت مريم صدّيقة (المائدة٧٥). والصدّيقون فى التعريف: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ (الحديد١٩)، ولهم أعلى المراتب عند الله (النساء٦٩)، وكان أبو بكر صدّيقاً، وقيل: وعمر وعثمان. والصادق والصدّيق كلاهما يلازم الصدق فى الأقوال، والإخلاص فى الأعمال، والصفاء فى الأحوال،إلا أن الصدّيق أعلى من الصادق. وفى الحديث: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ، وإن البرّ يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً**». والكذب على الضد من ذلك. وفى الحديث: «**إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّاباً**» أخرجه مسلم، فالكذب كُفر، وأهله لا شهادة لهم، وقد ردّ رسول الله ﷺ شهادة رجل فى كذبة كذبها. والكذّاب لايُصلّى خلفه، ولايصلح منه جدّ ولاهزل، ولا أن يَعد، ولايقبل خبر الكاذب وإن صدق. والصادقون يصدُقون ماعاهدوا الله (الأحزاب٢٣)، ويقال: صَدَق الله (آل عمران٩٥)،وصدْقُه تعالى لأنه يجيء بالحقّ، والحقّ اسمه، كقوله: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ (النساء٨٧)، وقوله: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً**﴾(النساء١٢٢).

وقَدَمَ الصِدْقِ (يونس٢): هو عمل المؤمنين الصالح عند ربّهم، كقول القائل: «له قدمٌ

فى الإسلام» يعنى له فضلٌ. وقول حسّان بن ثابت: «لنا القدم العليا»، وقول ذى الرمة: «الكم قدمٌ لا يُنكر». ومبدأ الصدق» فى قوله: ﴿**بوّأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق**﴾(يونس٩٣) هو منزلُ أو مقامُ الصدق. و«**مُدخل ومُخرج صدق** »(الإسراء٨٠) هو أن يكون دخول العبد فى مختلف الأمور وخروجه منهـا بالله، ولله لا لغيره. ولسان الصدق فى قـوله: ﴿**وجعلنا لهم لسان صدق**﴾ (مـريم٥٠): وهو الذكر الحسن، فما أحد يذكـرهم إلا بالخير العميم. و«**مقعد الصدق**» (القمر٥٥) هو مجلس الصدق، أى القربة والزلفة من الله تعالى. وقوله: ﴿**وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته**﴾(الأنعام١١٥) هو ما أخبر به من الحق لا مرية فيه. صدقاً فيـما قال، وعدلاً فيمـا حكَم. ولامعقب على ما يقول ولا على مـا يحكم. وكما الصدق فى الرجال فكذلك فى النساء: ﴿**والصادقين والصادقات**﴾(الأحزاب٣٥).



١٢٤٢ - ﴿الصلاح كمقابل للفساد﴾

الآيات فى الصـلاح، والإصلاح، والمصلحـين، والصـالحات، كـثيـرة، وتزيد على الآيات عن الفساد، والإفساد، والمفسدين. وهناك ٢٨٠ آية فى الصلاح، بينما لم تزد آيات الفساد عن٧٢، وقد تتناول الآيات الصلاح وحده، أو الفـساد وحده، وقد تجمع بينهما، كقـوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون (١١) ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون**﴾ (البقرة). والفساد ضد الصلاح، وحقيقة الفـساد العدول عن الاستقامـة إلى ضدها، تقول: فسد يفسـد فساداً وفسوداً، وهو فاسـد وفسيد، والمعنـى فى الآية: لا تفسـدوا فى الأرض بالكفر وتأليب الناس على الرسـول ﷺ، وكانت الأرض قبل أن يُبعث يشيع فيـها الفساد، وتُفعل فيها المعـاصى، فلما بُعث ارتفع الفساد وصلحت الأرض، فإذا عادوا للـمعاصى بعد الإصلاح، عـاد الفساد وسيطر المفـسدون. وفى بلادنا عمّ الفسـاد، وطمّ، وحقّ فيـها قوله تعالى: ﴿**ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس (٤١)**﴾ (الروم)، والفساد فى مصر من نوع «الفساد الكبير» فى الآية ٧٣ من سورة الأنفال، ومشكلة بلادنا هى الطبقة التى تبغى الفساد (القصص ٧٧)، والتى تعـمل على ظهوره (غافر ٢٦)، وهى الطبقة المترفة الحاكمة التى قال فيها الله تعالى: ﴿**الذين طغوا فى البلاد (١١) فأكثروا فيها الفساد (١٢)**﴾(الفجر)، وقال: ﴿**ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (٦٤)**﴾(المائدة)، والله يعلم المفسد من المصلح (البقرة ٢٢٠)، وجزاء هؤلاء كما قـال: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة**

عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)﴾(المائدة)، إلا من تاب وعمل صالحاً، أو أراد الإصلاح فى الأرض وبين الناس (النساء ١١٤)، والله لا يضيع أجر المصلحين (الأعراف ١٧٠)، ووعد من يعمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة (النحل ٩٧)، وأن يورّث الأرض عباده الصالحين (الانبياء ١٠٥).



١٢٤٣- ﴿الطاغوت والطاغية﴾

الطاغوت اصطلاح قرآنى، والكلمة مؤنثة، من طغى، يطغَى، ويطغو إذا جاوز الحدّ، ووزنه طاغوت وفعلوت، وقيل هو اسم مذكر مفرد يقع للقليل والكثير، وهو مصدر لرَهَبوت وجَبَروت، ويوصف به الواحد والجمع، وأصله من **الطغيان**، ولم أقرأ كتاباً ضد **الطغيان** مثل القرآن، ويأتى فى القرآن عن **الطغيان** وما يتعلق به ٣٩ مرة، وعن **الطاغوت** وحده ٨ مرات، وفيها جميعاً تقبيح للطغيان، وقد يأتيه الفرد: ﴿**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ**﴾(طه٢٤)، أو الجماعة: ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ (الذاريات٥٣)، وقوله تعالى فى الطاغين أن لهم: ﴿**لَشَرَّ مَآبٍ**﴾ (ص٥٥)، وليس في أمم العالم من هو أطغى من **اليهود**: ﴿ **كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ**﴾ (النجم٥٢) وفيهم الآية: ﴿**وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾(الإسراء٦٠). **والطاغوت** هو الكاهن، وهو الشيطان، وهو الجبّار فى الأرض، والحاكم المستبد، **وطواغيت أمة الإسلام** كثيرون، ومن مصطلحات القرآن فيهم أنهم **الجبّارون والفراعنة**، وكلمة **فرعون** تعنى الجبّار، **والفراعنة** هم الجبارون، وهذه **لغة أشور**، فقد كان من يحكم أرض **جاسان** فى مصر (محافظة الشرقية) هم هؤلاء الفراعنة ومعهم جرت قصص **إبراهيم ويوسف وموسى**، وانتشر عن ملوك مصر أنهم الفراعنة وأن تاريخهم هو التاريخ الفرعونى. وذلك نتيجة **الغزو الفكرى اليهودى** لمصر وللثقافة المصرية، ولم يذكر تاريخ مصر القديمة أى شيء عن اليهود ولا الفراعنة، لأنهم كانوا جميعاً من الأغراب وحكاياتهم وقعت بعيداً على أطراف حدود مصر الشرقية. والجبروت كالطاغوت، ومن يمارس الجبروت قد يكون فرداً، كقوله تعالى: ﴿**كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ (هود٥٩)، أو جماعة، كقوله: ﴿**قَوْمًا جَبَّارِينَ**﴾(المائدة٢٢). وجمع الطاغوت **الطواغيت**، والتحاكم إلى الطاغوت فى الآية: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا**﴾ (النساء٦٠) هو التحاكم إلى قوانين يفصّلها أذناب الطواغيت تفصيلاً، ومن أقوال أحد رؤسائهم: «**إن كل شيء فى بلادنا بالقانون**»، غير أن القانون هو الذى تضعه زبانيته، وهم الذين يوافقون عليه بإيعازه، ثم يكون الخروج عليه جُرماً، وفى الأول والآخر هو الطاغوت أو هو **قانون الطاغية**.



١٢٤٤- ﴿طـورسينـاء﴾

يتكرر اسم **الطور** فى القرآن **عشر** مرات،منها مرتان ـ واحدة بالإضافة إلى **سيناء**، وواحدة بالإضافة إلى سينين. والطور اسم الجبل الذى كلم **الله** عليه موسى، وأنزل عليه فيه التوراة، كتبها ألواحاً. **والطور فى سيناء** من أرض مصر، وكانت سيناء منذ الأزل **أرضاً مصرية**، ولا بد أن اسم سيناء لذلك **اسمٌ مصرى**، فلماذا يذهب المفسرون بعيداً ويزعمون أن الطور **اسمٌ سريانى** وكذلك سيناء؟ وفى **التوراة** أن جبل الطور اسمه **حوريب**، ويتكرر اسم سيناء فيها ٣٥ مرة، وفى١٧ مرة يسمى **حوريب**، وبحسب التوراة ـ ولاشىء مما تقوله مثبوت تاريخيا ـ أن العبرانيين قضوا سنةً على جبل الطور. وقيل إن **جبل الطور** أو **حوريب** هو **جبل سربال فى وادى فيران**، وهذا كذب إذا قلنا إن العبرانيين كانوا من الكثرة فلا يمكن أن تستوعبهم برية جبل سربال لمدة سنة. وقيل إنه **جبل موسى**، إلا أن **ذلك** كذب أيضاً، لأن **جبل موسى** شديد الارتفاع ومن المستحيل تسلقه، لأنه حاد الصخور وشديد الانحدار وشدّة الضوء فيه مؤلمة للعينين. وأسفل جبل موسى يوجد وادى اشتهر باسم **وادى الراحة**، باعتبار أن موسى وجماعته ارتاحوا فيه، ولا يمكن أن يستوعبهم الجبل ولا الوادى بأعدادهم التى ذكرها التوراة ـ كان العدد **ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسائة وخمسين**! يعنى نحو ستة ملايين نسمة! وهذا العدد هو للذكور فقط من ابن عشرين سنة فصاعداً، يعنى بدون الأطفال والنساء، فيكون العدد الكلى نحو خمسة عشر مليوناً!! فكيف **بالله** تم الخروج بهؤلاء، وكيف عاشوا على الجبل أو فى الوادى الضيق؟! (بصرف النظر عن الخطأ فى الجمع فى التوراة)؛. وقيل إن **طور سينين** فى الآية الثالثة من **سورة التين**، أصلها **سينيم** التى ذكرها النبىّ **إشعيا**، قال: **يأتون من أرض سينيم**، يعنى البلاد البعيدة، قيل إنها حيث برية سين، إلا أنها ليست بلاداً بعيدة، وقيل هى **أرض عيلام** وكانوا يطلقون عليها **أرض سينيم** أى الأرض المرتفعة. وهناك أيضاً **أرض سين** قرب **عرفة** عند سفح جبل لبنان. ونقول للمستشرقين الذين زعموا أن محمداً هو مؤلف القرآن: أكان محمد يعرف كل هذه الاختلافات التى لم يحسمها اليهود فيما بينهم للآن؟ وهل كان عنده العلم بالفرق بين سيناء، وسينين، وسين؟!! وكأنى بمحمد عالم بالجيولوجيا والجغرافيا والتاريخ واللغات؟ الا يتّقى هؤلاء الله؟!

وقوله تعالى: **﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾**(البقرة٦٣) يعنى كظُلّة؛ **﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾** (مريم٥٢) يعنى يمين موسى مقبلاً ، لأن الجبال لايمين لها ولاشمال؛ **﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾**(المؤمنون٢٠) هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى وهو

بأرض مصر كما سبق،وذلك أن كثيراً من كتب التفسير تكتب أنه من أرض الشام، وهذه الشجرة هى شجرة الزيتون وتميز أرض وجبال سيناء. وفى سورة الطور يقسم الله تعالى بجبل موسى هذا فيقول﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ ، كما يقسم بالتين والزيتون كآيتين تميزان طور سيناء، ويسميه أيضاً طور سينين، يقول: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾(التين). والقَسَم بالجبال كالقَسَم بالبلاد والنجوم والكواكب من مناهج القرآن، ويتكرر الجبل والجبال فى القرآن تسع وثلاثون مرة، تعظيماً وتشريفاً لها، وحضاً على توقيرها، وتعبُّداً لخالقها ومبدعها سبحانه.

●●●

١٢٤٥- ﴿الطيَرة والزَّجر وأثارة العلم والأزلام﴾

فى القرآن: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف١٣١). والتطيرُ: هو التشاؤم، والأصل يطيّروا، من الطِّيرة وزجر الطَّير، ومن كثرة استعمال المصطلح صار عاماً فاستعير للتشاؤم، وكانت العرب تتيمن بالسّانح: وهو الذى يأتى من جهة اليمين، وتتشاءم بالبارح: وهو الذى يأتى من جهة اليسار. ويتطيّرون أيضاً بصوت الغراب ويتأوّلونه إنذاراً بالبَيْن والفراق. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً، وبأصواتها فى غير أوقاتها. وكان العربى يقول: من لى بالسانح بعد البارح، يعنى يتمنى الفأل الطيب بعد الفأل السيء. وفى التّطيّر قال النبىّ ﷺ: «أقرّوا الطير علىَ وَكناتها» يعنى دعوها فى أعشاشها، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يأتون بالطيور من الأعشاش ثم ينفرونها لكى تطير، فإما ناحية اليمين، وإما ناحية اليسار. واليمين هو السانح، واليسار هو البارح. ونهى النبىّ ﷺ عن التّطيّر وقال: «الطِّيرة شرك»، وقال: «من رجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». وقوله تعالى: ﴿طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ (الأعراف ١٣١) أى ما قُدِّر لهم وعليهم.

والفأل:هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما نريد من الأمر إذا كان حسناً، فإذا سمعنا مكروها فهو تطيُّر. ومن ذلك أيضاً «الاستقسام بالأزلام»، كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (المائدة٣)، وهو قِداح المَيْسر، واحدها زَلَم والجمع زُلَم، وعددها ثلاثة، على أحدها يكتبون افعل، وعلى الثانى لاتفعل، والثالث مهمل لاشيء عليه، فإذا أراد أحدهم فعل شيء،أدخل يده إلى جراب فيه القداح، فيأتمر بأمر ما يخرجه منها. و«استقسام الرزق» استدعاؤه. وهناك غير هذه «قداح النوازل» وهى سبعة، و«قداح الحظوظ» وهى سبعة أيضاً، وكانوا يضربون بها مقامرةً، لهواً ولعباً. و«الاستقسام» هو طلب القسمة والنصيب. ومثل ذلك «السهام على الطرقات» والفأل أو التطيّر بها، ومنها «رقاع الفأل».

وأما «أثارة العلم» في قوله : ﴿ **ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم**﴾ (الأحقاف٤)، فإن **الأثارة** هو خط كانت تخطه العرب في الأرض أو الرمل، فمن وافق خطه فذاك، وهو نوع من ضرب **الرمل والودع**، فيُخَط الخط ثم يُلقى الودع، فإن جاء على يمين الخط فخير، وإن جاء على يساره فشر، ثم إن كل وَدَعة لشيء، فواحدة معروفة بشكلها للحظ، وثانية للمرض، وثالثة للعدو، وهكذا ـ ومثل ذلك «قراءة الفنجان»، و«قراءة خطوط اليد».



١٢٤٦ - ﴿الظلم والظالمون﴾

الظلم لغةً: هو وضع الشيء في غير محله؛ وفي الشريعة هو التعدّي عن الحق إلى الباطل، ويقال: ظلمه أي **جار عليه** وفعل له الظلم، **والجور** من الظلم، تقول: **جار عن الشيء** أي مال عنه، **وجار عليه** ظلمه، **والجائر** هو الظالم، وفي التنزيل: ﴿**ومنها جائر**﴾ (النحل٩) أي حائد عن الحق، وهؤلاء هم **أهل الأهواء** وملل الكفر. والفرق بين الظلم والجور أن الظلم جورٌ أشد، وهو طمس لنور الحق، ومنه كانت **الظلمات**، بمعنى ذهاب النور، كقوله: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠)**﴾ (فاطر). وقيل: **الظلم**: هو البطش والاستيلاء، والأخذ بغير حق، ومجاوزة الحدّ، وهو درجات، ومنه الأشد. كقوله: ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم**﴾(لقمان١٣)، وقوله: ﴿**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى**﴾ (النجم٥٢)؛ **والظلاّم**: هو الكثير الظلم كقوله تعالى: ﴿**وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ (آل عمران١٨٢)، لأن الظلم يستحيل على الله، فلا ملْك ولا حقّ لأحد معه، بل هو الذي خلق المالكين وأملاكهم وتفضّل عليهم بها، وعهد لهم الحدود، وحرّم وأحلّ، فلا حاكم يعقبه، ولا حقّ يترتب عليه. وقيل: الظلم نقيض **العدل والقسط والحق**، والله تعالى وصف نفسه **بالعدل وبالحق**، وقال عن نفسه: ﴿**قائما بالقسط**﴾(آل عمران١٨)، **والعادل والحق** من أسمائه تعالى وليس الظالم، والإنسان مركوز فيه الظلم ويوصف به: ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا**﴾ (الفرقان٢٧). وتوصف به الجماعة كما في الدعاء: ﴿**ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها**﴾ (النساء٧٥)، وفي قوله: ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة**﴾(الحج٤٥). **والظلوم**:هو الكثير الظلم، مثله مثل الظلاّم، كقوله: ﴿**إن الإنسان لظلوم كفار**﴾(إبراهيم٣٤)، وقوله: ﴿ **إنه كان ظلوما جهولا**﴾ (الأحزاب٧٢). وظلم الإنسان للغير قد يكون له ما يبرره، وإنما غير المبرر ظلمه لنفسه، كقوله: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا**﴾(الأعراف٢٣)، وقوله: ﴿ **إني ظلمت نفسي**﴾ (النمل٤٤) وظلمه لنفسه أن يُعميها فلا تبصر الحق، ويصمها فلا تسمعه، ويوردها موارد الهلكة. **والظالم**

لنفسه له عذاب بئيس، ويظل ظلمه يتابعه ويلاحقه، ويطلق النفسانيون على ذلك اسم الندم،وعذاب الضمير. ولا معذرة للظلم، ولا فداء به؛والظلم من شيم الطغاة وهو أنسب لهم؛ والهجرة من حق المظلوم. ويؤذَن له أن يقاتل بأنه ظُلم، وأن ينتصر من بعد. ومن الظلم: العدوان، والزور، وهضم الحقوق، والعلو، وقد يأتيه الفرد كما تأتيه الجماعة، ولايورث، وقد ينجب الظالم محسناً. ومن دأب الظالمين الشقاق البعيد، وبعضهم أولياء بعض، ولايزدادون إلا خساراً وتباراً.

والآيات في الظلم كثيرة في القرآن، ويتكرر وروده بها ٣٠٨ مرة، وفي الحديث: «**أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، وقيل: يارسول الله، هذا تنصره مظلوماً، فكيف تنصره ظالماً؟ قال «**تأخذ فوق يديه**»، فكنّى به عن كفّه عن الظلم **بالفعل** إن لم يكفّه **القول**، وعبّر **بالفوقية** إشارة إلى اللجوء إلى الشدّة معه. وفي رواية قال: «**يكفّه عن الظلم، فذاك نصره إياه**». ونصر الظالم، بمنعه من الظلم. من تسمية الشيء بما يئول إليه، وهو من وجيز البلاغة. وفي قوله تعالى: ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ** ﴾(النساء١٤٨)، وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾(الشورى٣٩)، أن للمظلوم أن ينتصر بمثل ما ظُلم وليس عليه ملام، وله أن يجهر بالسوء: ﴿**وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ**﴾(الشورى)، وكأنه يدعو المظلوم أن يعفو عن الظلم: ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ (الشورى ٤٠) أو أن يردّ الظلم بالمثل: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ (الشورى ٤٠). وفي الحديث: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»، يعني أن ظلمات الظالم تكتنفه وتحيط به يوم القيامة فلا يغني عنه ظلمه. وقد ينتصر المظلوم بالدعاء على الظالم، وفي الحديث: «**اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»؛ وفي دفع الظلم قال ﷺ: «**من قُتل دون ماله فهو شهيد**»، وفي رواية: «**من أُريد ماله ظلماً فقُتل فهو شهيد**»،وفي الحديث عند مسلم قيل: أرأيت يارسول الله، إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «**فلا تعطه**»، قال: أرأيتَ إنْ قاتلني؟ قال: «**فقاتله**»، قال: أرأيتَ إنْ قتلني؟ قال: «**فأنت شهيد**»، قال: أفرأيتَ إنْ قتلته؟ قال: «**فهو في النار**»، والحديث فيه: أن للإنسان أن يدفع الظلم عن نفسه وماله، ولاشيء عليه،وهو شهيد إذا قُتل، وإذا قَتَل فلا قود ـ أي قصاص ـ عليه، ولا دية ـ أي تعويض. وقصاص **الظالمين يوم القيامة** أن يأتيهم العذاب: ﴿**فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى**

أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (إبراهيم). وأما المؤمنون فكما جاء بالحديث: «يُحبَسون يوم القيامة بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقّوا وهُذّبوا أُذن لهم بدخول الجنة».



١٢٤٧ - ﴿العتيق والمكاتب والمدبر﴾

العتق في اللغة: هو الخلوص، وفي القرآن: **﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾** (الحج٢٩)، وهو البيت الحرام، قيل سمي كذلك لأن الله أعتقه من أن يتسلّط عليه جبّار بالهوان إلى انقضاء الزمان. أو أن الله عزّ وجلّ يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب، أو لأنه بيت العبادة لأُمة جَعَلت من أهدافها عتق الفاسق من العبودية لغير الله. **ولم توجد ديانة، ولا ملّة، ولا مذهب سياسي قال بتحرير الرقيق كما جاء في الإسلام، والرقّ اليوم هو الاستعمار الجديد، والإمبريالية الرأسمالية، والتسلّط اليهودي** على العالم. ولا فرق بين استيراد الزنوج إلى أمريكا وغيرها قديمًا غصبًا عنهم، واستيراد **الزنوج الجدد** من أصحاب المؤهلات من مختلف البقاع تحت اسم **الهجرة**. وفي **اليهودية** أن الإسرائيلي إذا ابتاع عبدًا إسرائيليًا فله أن يخدمه ست سنوات، وفي **السابعة** يخرج حرًا مجانًا، وإن كانت له زوجة تخرج زوجته معه، وإن زوّجه مولاه فولدت له فالمرأة وأولادها ملكٌ سيده، ويخرج هو وحده، وإن رفض أن يخرج وحده وآثر أن يظل مع أسرته، ثقب له مولاه أذنه، فيخدمه أبد الدهر. ويمكن للإسرائيلي أن يبيع **ابنته أمة**، وليس لمن يشتريها أن يبيعها لقوم غرباء، وإن تزوّجها أو زوّجها لابنه، فعليه أن يعاملها معاملة بناته فلا ينقصها طعامها، ولا كسوتها، ولا أوقاتها التي يبيتها معها، فإنْ أخلّ واحدة منها فليس له عليها سلطان، وتخرج من بيته مجانًا بلا ثمن (الخروج ٢١/٢-١١). ويمكن للأخ أن يبيع نفسه لأخيه رقيقًا، وعلى الأخ أن لا يعامله كرقيق بل كأجير، ويظل هكذا إلى سنة اليوبيل، ثم يعود حرًا (الأحبار ٢٥/٤٠-٤١). وللإسرائيليين أن يستعبدوا من الأمم من حولهم، ومن أبناء الغرباء المقيمين في إسرائيل، ويكونون لهم ملكًا، ويورثونهم لبنيهم من بعدهم إرث الملك، ويستخدمونهم أبدًا، وإذا ابتاع أجنبي إسرائيليًا، فعلى قومه أن يحرروه شراءً من الأجنبي (الأحبار ٢٥/٤٧ - ٤٩). وإذا أبق عبدٌ إسرائيلي إلى الإسرائيليين، فعليهم ألا يسلّموه (تثنية الاشتراع ٢٣/١٥).

وفى الإسلام: أن العتق هو التحرير، وفى القتل الخطأ، واليمين المنعقدة، والظهار، والوطء فى رمضان كفّارة تحرير رقبة كقوله تعالى: **﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾** (النساء ٩٢)، وقوله: **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾** (المائدة ٨٩) وقوله: **﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾** (المجادلة ٣). والعتق إذن كان من أفضل القُرَب إلى الله، وكان المستحب عتق الذكر عن الأنثى، وعتق من له دِين وكسب فينتفع بالعتق، فإن لم يكن له كسب وسيتضرر بالعتق ويصير كَلاً على الناس، فلا يستحب عتقه. وإن كان من يخشى عليه الفساد، كالجارية يخاف منها الزنا، فكان يُكره إعتاقها. والعتق يشترط فيه النية، والتلفظ بما يفيد العتق، كأن يقال صراحةً: أنت حرّ، أو محرّر، أو عتيق، أو معتق، أو يقال كنايةً: لا سبيل لى عليك، أو أنت سائبة، أو لا رقّ لى عليك ولا ملك، وأنت لله. وكل من جاز تصرفه فى ماله، وكان بالغًا، عاقلاً، رشيدًا، فله أن يعتق، ولا يصحّ من مجنون أو صبى، أو سفيه محجور عليه، أو سكران، أو مُكره. ولا يصحّ إلا من مالك. ومثلما يحصل العتق بالقول، فإنه يحصل بالملك، والاستيلاء. وإذا اتفق السيد وعبده على أن يؤدى له مالاً يُعتق عليه، كان عليهما أن يكتباه ويكون العقد بينهما عقد معاوضة، ولو أبرأه السيد عُتق، ولا ينفسخ العقد بموت السيد، والعبد حينئذ يسمى مكاتبًا، ولا يصحّ بيع المكاتب ولا هبته. ومن مَلَك ذا رَحِم مُحرَّمًا ـ أى ذا قرابة يحرم بها النكاح ـ عُتق عليه، وولاؤه له، وهو ما سمّيناه العتق بالملك. وإذا كان العبد لأكثر من واحد فأعتقوه فى نفس الوقت، فإنه يصير حرًا، وولاؤه بينهم على قدر حقوقهم فيه. وإذا استُثنى فى العتق، كأن يقال له: أنت حرّ إن شاء الله، يقع العتق ولا ينفعه الاستثناء. ومن الجائز عتق الأمة واستثناء ما فى بطنها، وعتق الحمل (دون أمّه)، وعتق الأمَة صداقٌ لها. والمملوك نفقته على سيده بقدر كفايته من الطعام والكسوة، ويجب عليه إعفاف مملوكه وتزويجه إذا طلب الزواج، وتُسأل الأمة لو جاءها من يطلبها للزواج. وإذا كاتب عبد سيده لزمته نفقة نفسه، وتجب نفقة الرقيق المرهون على الراهن، ونفقة العتيق على معتقه إذا كان فقيرًا ولمولاه يسار.

والمكاتبة: فى الشرع هو أن يكتب الرجل عبده على مال يؤدّيه، فإذا أدّاه فهو حر،

كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾ (النور ٣٣). **وشرط المكاتبة**: أن يكون العبد قادرًا على الكسب وحده. والكتابة **عقد معاوضة** فلا تصحّ إلا عن تراضٍ. ومن لا حرفة له لا يصحّ مكاتبته. والكتابة تكون بقليل المال وكثيره، وتكون **منجّمة** أى على **أقساط**، وسميت **كتابة** لأنها **تُكتب** ويُشهد عليها، ويظل المكاتب عبداً ما بقى عليه من مال الكتابة شىء، لقوله ﷺ: «**المكاتب عبدٌ ما بقى عليه من مكاتبته درهم**». وقيل: إذا أدّى الثلاثة أرباع وبقى الربع فهو **غـــريم**، أى مديون، ولا يعود عبداً، وقيل: إنه يصير بعقد الكتابة حرًّا، ويصبح غريمًا بالكتابة، ولا يرجع إلى الرق أبداً، ويُعتق معه **ولده** الذين وُلدوا فى كتابته، **والإسلام على سياسة منع الرق والاستعباد**، ولذلك يأمر الله تعالى أصحاب المال أن **يُعينوا** المكاتبين بأموالهم، بأن يعطوهم شيئًا مما فى أيديهم، أو يحطّوا عنهم شيئاً من مال الكتابة ـ قيل ربع الكتابة، وقيل **الثلث**، وقيل **العشر**، والقرآن يعطى ذلك اسم **الإيتاء**، والخطاب فى الآية «**وآتوهم**» للناس أجمعين أن **يتصدّقوا** على المكاتبين، وأن يعينوهم فى فكاك رقابهم. وكانت **صفة عقد الكتابة** أن يقول السيد لعبده: **كاتبتك على كذا وكذا من المال، فى كذا وكذا قسطًا، إذا أدّيته فأنت حر**. ويقول العبد: **قد قبلت**، ونحو ذلك من الألفاظ. **والكتابة الفاسدة** أن يكاتبه على عوض مجهول، أو عوض حالّ، أو محرّم كالخمر والخنزير. **وكتابة المريض** صحيحة، وإن كان من مرض **الموت** اعتبر من ثلثه، وتصحّ **الوصية** بالكتابة. وإذا علّق السيد عتق عبده بموته، كأن يقول: **أنت حرّ**، أو أنت محرّر، أو عتيق، أو مُعتَق، بعد موتى فإنه يصير **مدبَّرًا**، وكذا إن قال: **أنت مدبَّر، أو قد دبّرتك**، فإنه يصير مدبَّرًا بنفس اللفظ من غير افتقار إلى نيّة. **والتدبير** كمصطلح يعنى: التعليق للعبد فلا يصبح محرراً إلا بعد موت السيد، ويصحّ **مطلقًا**، أى من غير شرط إلا الموت، أو **مقيّداً**، كأن يقول: إن مت فى سفرى هذا فأنت حر. وقد يعلق التدبير على صفة، كأن يقول: **إن شُفى ابنى فأنت حر مدبَّر**. وإذا كان للعبد **سيدان يشتركان فيه**، فتدبير أحدهما لنصيبه لا يسرى على نصيب الشريك الثانى. وإذا دبّر **الصبى المميز** صحّ تدبيره، ولا يصح تدبير المجنون. ولا يبطل التدبير **بالرجوع** فيه. وكسب **المدبّر** لسيده أثناء التدبير، وله أن **يطأ** أمَته أثناء التدبير، وإذا دبّر السيد عبده ثم كاتبه جاز. ويُجزئ عتق المدبَّر فى الكفّارة. وديّته قيمته. وقيل المدبَّر **طلاقه** اثنتان، وقيل ثلاث طلقات وهو الصحيح، **وخُلعه** لزوجته صحيح، **وتعويض الخلع** لسيده، **وخلع الأمَة** صحيح سواء كان بإذن سيدها أو بغير إذنه، **وطلاقها على عوض** طلاق بائن، والخلع معها كالخلع مع الحرة. وإن اجتمع **العتق** فى المرض **والتدبير**، قُدِّم العتق،

وإن اجتمع التدبير والوصية بالعتق، تساويا، وقد يُقدَّم التدبير. ويُعتق المدبَّر بعد الموت من ثلث المال، والمدبَّر لا يرث ولا يورث لأنه لا مال له، وأما المكاتب فإن مات وله ما يورث، ورثه ورثته بعد أداء بقية كتابته لسيده إن كان عليه منها شيء. وفي الإسلام الآن لا يوجد رقّ ولا رقيق، ولا مكاتب، ولا عتيق، ولا مدبّر، وصار الناس جميعاً أحراراً، إلا ما تحاول الرأسمالية أن تحييه باستغلال العمال وطبقة الفلاحين والطبقة المتوسطة، واسترقاق هؤلاء جميعاً لمصلحة الاستعمار الجديد والإمبريالية العالمية. والله المستعان.

•••

١٢٤٨- ﴿العقل والتعقّل والمتعقلون﴾

يخاطب القرآن أصحاب العقول، ولذا يأتي فيه دائماً «أفلا تعقلون» مثلما في الآية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، والآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ من سورة البقرة. والعقل يأتي في القرآن٤٩ مرة، وفي اللغة يقال عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة، والمعقل هو الحصن المنيع. والعقل نقيض الجهل. والمسلمون على القول بأن العقل ليس بقديم ولامعدوم، فلو كان معدوماً لَمَا اختص بالاتصاف به الإنسان دون غيره، ولما تباين الناس بشأنه، وقد ثبت وجوده، ولكن يستحيل القول بقدمه، لأنه لا قديم إلا الله . والعقل **mind** خلاف الذهن **brain**، وخلاف المخ **cerebrum**، فالعقل هو قوة الإدراك، والذهن قوة الفهم في العقل، والمخ قطعة اللحم في الدماغ بها خصائص الإدراك والحسّ، وهو مكان العقل والذهن. ومن الفلاسفة من يقول إن الذهن في المخ، والعقل في القلب، أو أن العقل بخلاف القلب، فالعقل يدرك، ولكن القلب يفقه ، والعقل لايقسو، وإنما الذي يقسو ويرحم ويشفق هو القلب. وقد يقال للعقل النفس، وهي التي مناطها الفجور والتقوى، ومنها النفس اللّوامة، والمطمئنة، والراضية، والأمّارة بالسوء. والعقل الذي هو مناط التكاليف الشرعية: هو العلم بوجوب الواجبات العقلية، واستحالة المستحيلات، وجواز الجائزات والضروريات، ويمتنع أن يقال عاقلاً من لاعلم له أصلاً، أو عالماً من لا عقل له أصلاً. والقرآن عندما يوجه الخطاب لذوي العقول، إنما للحضّ على إدراك الحقائق، وأحيانًا يخاطبهم باسم ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾(الرعد)، واللُّب هو العقل الخالص من الآفات والجهل، وكل لُبّ عقل، وليس العكس. وأحيانًا يخاطبهم القرآن باسم «أولي النُّهَى» كقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ (طه) ، والنُّهَى هو العقل عندما يكون عمله النّهي عن القبيح وكل ما ينافي العقل. وتنفرد العربية باسم «النُّهَى» حيث لانظير له في اللغات الأوروبية، وقد يماثله عندهم السوبر إيجو **Superego** أو الأنا الأعلى ، وعند كنط هو

هـو الآمـر الخُـلُقـي **The moral imperative** . وكل قضـايا القرآن بلا اسـتثناء من **المعقولات**، يعنى أنها تطابق **العقل**، على عكس قضايا التوراة فإنها قضايا إلزامية قسرية تنافى العقل. وأيضاً فإن قضايا **الأناجيل ورسائل الرسل كلها فوق العقل، يعنى ليست من المعـقـولات**، ولذلك لايمكن أن تُلزم العقـلاء، وانظر مثلاً إلى وَعْد التوراة لليـهود وَعْداً ملزماً مع عدم استحقـاقهم له، وإلى إصرار النصارى على القول بأن المسيح ابن الله، وأن له طبيعة إلهية مع أنه عاش كبشر. وهذا الفارق بين الديانات الثلاث هو **الذى يجعل للعقل** مكانة خـاصة عند المسلمـين، وهو عنـدهم آلة تمييـز، وغـريزة، **وقـوة على المعرفـة، ونور،** وبصيرة، وصفةٌ يتأتىَ بهـا دَرْك الله تعالى من أسبابه في الكون، ونسـتنبط كل ذلك من آيات القرآن، كآيـة التوحيد مثـلاً التى تقول: **﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** (البقرة١٦٣)، قيل لمّا نزلت هذه الآية، تساءل كفّار قريش،قالوا: هل من دليل على ذلك؟ فأنزل الله: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**(البقـرة١٦٤)، وكأنهم طـلبوا دليل التـوحيـد بعـد آية التـوحيـد، ويخاطب الدليل العـقل، ويتوجه إلى العقلاء،فإن هذا الكون المعجز، لابد له من خالق بان صانع،وأن كل ما خلقه وبناه وصنعه لهو الدليل على وحدانيته وقدرته، ولذلك كان الحديث :«**ويلٌ لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها**»، أى لم يتفكّر فيها ويعقلها ويعتبرها. وفى القرآن كلما جاء «**انظروا**» أو «**أفلا تنظرون**»، أو «**أولم ينظروا**»، فاعلم أن الخطاب إلى العقلاء، **والنظر** دعوة للتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر. فهذه إذن هى مكانة العقل فى القرآن، ومكانة الدعوة إلى التعقُّل. ولله الحمد والمنّة.

●●●

١٢٤٩- ﴿العَـوْرة﴾

عَـوْرة الرجل: ما بين السُرّة والركبتين، وليـست السرّة والركبتان من العورة. **وعـورة المرأة**: المرأة كلها عورة إلا الوجه والكفين، ولذا يجىء فى القرآن: «**إن بيوتنا عورة**»، يقصد بالبيوت من بها من النساء، وفى آية الاستـئذان لذلك: **﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾**(النور). والمـرأة وإذا صلّت خمّـرت رأسها. ويجب سـتر العورة عند الاغتـسـال، وأن تُسـتـر عورة الميت، ويباح لكـل من الزوجين النظر إلى جـميع بدن صاحـبه ولمسـه، ولكل رجل أن ينظر إلى

جسد صاحبه ما عدا العورة، ولا عورة للغلام الذى لم يبلغ تسعاً. وتنظر المرأة من المرأة كل شىء ما عدا ما بين السرّة والركبة، ولا فرق بين مسلمتين وبين مسلمة وذمية، ويجوز للرجل أن ينظر من ذوات محارمه إلى ما يظهر غالباً كالرقبة والرأس والكفّين، ويُكره له أن ينظر إلى ساق أمه وصدرها، ولايجوز له أن ينظر إلى أم أو بنت مَن زنى بها، ويباح للرجال كبار السن أو المصابين بالعُنّة أو المرض أن ينظروا إلى الأجنبية، ويباح للطبيب النظر إلى ما تدعو إليه الحاجة من بدن المرأة وعورتها، وللمرأة أن تنظر من الرجل إلى ما ليس بعورة.

•••

١٢٥٠- ﴿الفاسقون ملحدون أو عصاة﴾

الفاسق: فى اللغة هو الخارج عن الطاعة، تقول: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها؛ ويقال للفأرة فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ فواسق يُقتَلن فى الحلّ والحَرم..» الحديث، منها الفأرة. والفاسق فى المصطلح: هو الملحد أو العاصى، وفسْق الملحد أشدّ وأفحش لأنه ينكر الله ولاينكره العاصى. وفى التعريف بالفاسق يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾(البقرة٢٧) فهذه أفعال الفاسق؛ والفسق رجس، ومنه أن تَطعَم المحرّمات كلحم الخنزير (المائدة٢) (الأنعام١٢١). وفى الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(المائدة٤٧)، أن الفاسقين هم الخارجون عن طاعة الله، وفى نفس المعنى الآية: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة٤٩) يذكر أن أكثرهم من العصاة المخالفين للحق الناكبين عن الشرع. وفى الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(المائدة ٩)، أن الفاسقين هم غالبية أهل الكتاب، ووصفهم بأنهم نقموا على المسلمين إيمانهم مقارنةً بأنفسهم ، ولايستوى المؤمنون والفاسقون، كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾(السجدة١٨)، قيل نزلت فى الوليد بن عُقبة بن مُعَيط لمّا تلاحى وعلىّ بن أبى طالب، فقال له الوليد: أنا أبسطُ منك لساناً، وأحدّ سناناً وأردُّ للكتيبة، فقال له علىّ: اسكت فإنك فاسق! قيل: فنزلت الآية، وهى مدنية مع أن سورة السجدة التى تتضمنها مكية ولم يصف علىٌّ الوليد بالفسق إلا بناءً على الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات ٦)، قيل: نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط لمّا بعثه النبىّ ﷺ مُصدِّقاً (أى

يجمع الصدقات) إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه، فهابهم لإحْنة(أى لخلاف) كانت بينه وبينهم، فرجع إلى النبىّ ﷺ فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام، فبعث النبىّ ﷺ خالد بن الوليد إليهم يتثبّت من أمرهم ولايعجل، فأتاهم ليلاً وبثّ عيونه، فوجدهم متمسكين بالإسلام، وسمع آذانهم وشاهد صلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم ورأى صحة ما وجد، فعاد إلى النبىّ ﷺ فأخبره، فنزلت الآية، فقال النبىّ ﷺ: «التأنّى من الله والعجلة من الشيطان». فلأن القرآن نزل فى الوليد بن عقبة بن معيط بأنه فاسق، سبّه علىّ وعيرّه بفسوقه. وفى رواية أن الوليد ظنّ بنى المصطلق فى قدومهم لاستقباله ينوون قتله. فرجع يزعم ذلك، وسُمّى الوليد فاسقاً أى كاذباً، فذلك أحد معانى الفاسق؛ وقيل: هو المُعلن بالذنب الذى لايستحى الله. وآية عدم مساواة المؤمن والفاسق احتج بها البعض على منع القصاص بين المسلم والكافر، لأن من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول، ولم ير أبو حنيفة ذلك، وحكم بقتل المسلم بالذمىّ، بدعوى أن عدم المساواة بينهما يكون فى الآخرة، وأما فى الدنيا فالمساواة واجبة فى العدالة. وادّعى المستشرقون أن القرآن أخطأ عندما جعل «لايستوون» جمعاً، بينما الإشارة إلى مؤمن واحد وفاسق واحد، فهما اثنان، وكان الواجب أن يقول «لا يستويان»، ولذا لزم التنبيه إلى أن المؤمن الواحد يعنى جنس المؤمنين، والفاسق الواحد يعنى جنس الفاسقين، فالاثنان إذن جمع، وفى الآية: ﴿**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ**﴾(السجدة١٩) أن مقر المؤمنين هو الجنة، ومأوى الفاسقين النار، والفاسقون هم الذين خرجوا على الإيمان إلى الكفر.

•••

١٢٥١ - ﴿الفرائض فى القرآن ستة﴾

الفرائض هى التى ورد عنها فى آية المواريث، تقول: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ**

من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم﴾(النساء)، ومعنى يوصيكم فرضَ عليكم، فسميت الفرائض، وتعلُّمها من علم الإسلام، قيل هو ثلاثة: الفرائض، والطلاق، والحجّ،وفى الحديث: العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل:آية محكمة، أو سنّة قائمة، أو فريضة عادلة» ، ومن أجل ذلك قيل إن علم الفرائض هو ثلث العلم، والآية المحكمة: المراد بها كتاب الله؛ والسُّنّة القائمة: هى الثابتة؛ والفريضة العادلة :من العدل فى القسمة بحسب ما ورد فى آية المواريث من الأنصباء والسهام، أو تكون مستنبطة فتعدل ما هو موجود فى الكتاب والسنّة. والفرائض فى القرآن ستة: النصف، والربع، والثُمن، والثُلثان، والثلث، والسُدس؛ فالنصف فرضُ خمسة: ابنة الصُّلب، وابنة الابن، والأخت الشقيقة، والأخت للأب، والزوج. وكل ذلك إذا انفردوا عمن يحجبهم عنه. والربع: فرضُ الزوج مع الحاجب، وفرض الزوجة والزوجات مع عدمه. والثمن: فرض الزوجة والزوجات مع الحاجب. والثلثان: فرض أربع: الاثنتين فصاعداً من بنات الصلب، وبنات الابن، والأخوات الأشقاء أو للأب، وكل ذلك إذا انفردن عمّن يحجبهن عنه. والثلث: فرض صنفين: الأم مع عدم الولد، وولد الابن، وعدم الاثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات، وفرض الاثنين فصاعداً من ولد الأم. وهذا هو ثلث كل المال. وأما ثلث ما يبقى فذلك للأم فى مسألة زوج أو زوجة وأبوين، فللأم فيها ثلث ما يبقى، وفى مسائل الجد مع الإخوة إذا كان معهم ذو سَهْم وكان ثلث ما يبقى أحظى له. والسدس: فرض سبعة: الأبوان، والجد مع الولد، وولد الابن، والجدة والجدّات إذا اجتمعوا، وبنات الابن مع بنت الصلب، والأخوات للأب مع الأخت الشقيقة، والواحد من ولد الأم ذكراً كان أو أنثى ـ وهذه الفرائض كلها من القرآن إلا فرض الجدّة والجدّين فإنه من السنّة.

ولإيجاب هذه الفروض الآن سببان: نسبٌ ثابت، ونكاح منعقد، وقديماً كان هناك سببٌ ثالث هو ولاء العتاقة. وقد يجتمع للرجل السببان أو الثلاثة، فيكون زوجاً للمرأة وابن عمها، وقد يكون أيضاً مولاها بحسب الزمن القديم، وعلى ذلك يرث بوجهين، أو ثلاثة أوجه، ويكون له جميع المال إذا انفرد، نصفه بالزوجية، ونصفه بالولاء أو بالنسب.

فإذا مات المتوفى أُخرجت من تركته الحقوق المعيّنات، ثم ما يلزم من تكفينه وتقبيره، ثم الديون على مراتبها، والوصايا على مراتبها، ويكون الباقى ميراثاً بين الورثة، وجملتهم ستة عشر: تسعة من الرجال: الابن ، وابن الابن وإن سفل؛والأب، وأب الأب وهو الجد وإن علا، والأخ، وابن الأخ، والعم، وابن العم، والزوج. ويرث من النساء ست : البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم، والجدة وإن علت، والأخت، والزوجة. وكانوا قديماً يورثون مولى النعمة وهو المعتق، ومولاة النعمة وهى المعتقة. وجعل بعضهم الورثة

جميعاً في نظم واحد هكذا ليسهل حفظهم:

والوارثون إن أردت جمعهم	مع الإناث الوارث معهم
عشرة من جملة الذُّكْران	وسبع أشخاص من النسوان
وهم وقد حصرتهم في النظم	الابن وابن الابن وابن العم
والأب منهم وهو في الترتيب	والجدُّ من قَبْل الأخ القريب
وابن الأخ الأدنى أجَلْ والعم	والزوج والسيد ثم الأُمّ
وابنة الابن بعدها والبنت	وزوجةٌ وجَدَّةٌ وأختُ
والمرأة المولاة أعْنِي المعتقة	خذها إليك عِدَّةً محققة



١٢٥٢- ﴿القدر والقدرية﴾

القَدَر: هو تعلُّق الإرادة الذاتية بالأشياء في أوقاتها الخاصة، فتعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمان معين، وسبب معين، عبارة عن القدر. وقيل: القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقاً للقضاء.

والقضاء في الأزل؛ والقدر فيما لايزال. والفرق بين القدر والقضاء: هو أن القضاء: وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة؛ والقدر: وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها، ومن ذلك الزواج مثلاً، كقوله تعالى: **﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾**(الأحزاب٣٨)، والأرزاق، كقوله تعالى: **﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾**(الشورى١٢)، وحادثات الطبيعة، كقوله تعالى: **﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾** (القمر١٢)، والموت، كقوله تعالى: **﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾** (الواقعة٦٠)، والطارئات من المصائر، كقوله تعالى: **﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾** (النمل٥٧)، وكل ذلك من القدر، وهو ما لا دخل للإنسان فيه ولا تكليف عليه من جهته. والقدرية: فرقة من الفرق الإسلامية، ومذهب في الكلام، من القُدرة: بمعنى الاستطاعة، وأن الإنسان مريد لأفعاله قادرٌ عليها. ولايرى القدرية أن الكفر والمعاصي بتقدير الله، وإنما من أعمال الإنسان المحسوبة عليه، والقدرية بهذا المعنى تعني مذهب حرية الإرادة. وكان المعتزلة قدرية، وعكسهم الجبرية، وقيل إن للرسول ﷺ حديثًا في القدرية هو: «القدرية مجوس هذه الأمة»، والحديث ضعيف، فما كانت القدرية كمذهب قد

ظهرت أيام الرسول ﷺ . وقد ينصرف نقد المسلمين للمذهب إلى أنه يُقصر القدرة على العباد من دون الله، والحقيقة أن القدرية فرّقوا بين قدرة الله وقدرة العباد، وقالوا إن قدرته تعالى قدرة إبداع، وإن قدرة العباد هي قدرة اكتساب وإبداع. والآيات في ردّ القدرية كثيرة، منها قوله تعالى ﴿ولَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(النحل٩) فبيّن أن المشيئة لله، ولافرق بين مشيئته تعالى وإرادته، فعينُهما سواء بالنسبة إلى الله تعالى، وإنما الفرق بينهما في متعلق كل منهما. فالإرادة تتعلق بترجيح أحد طرفي الممكن من حيث وجود الشيء أو عدمه : كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾(الرعد١١)، والمشيئة تتعلق بحقيقة الشيء أو ماهيته من غير ترجيح لأحد جانبيها، وقد يحدث أن تتوجه مشيئة الله بتعليق إرادته بأحد طرفي الممكن، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس٨٢)، فالإرادة هنا والمشيئة سيّان، ويسمى ذلك مشيئة الإرادة، يعني أنه تعالى شاء أن يريد كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل٩٣)، والمعنى أنه لم يشأ أن يجعلنا أمة واحدة، وشاء أن يترك الأمر لنا ليضل من يشاء أن يضل، ويهتدى من يشاء أن يهتدى، وفي الحالتين فإنه يضل ويهدى عدلاً منه فيهم بخذلانه لفسوقهم، أو بتوفيقه إياهم، ثم إنهم لمسئولون في الحالتين بعد أن بيّن لهم السبيلين والنجدين: الضلال والهدى. والفرق بين مشيئة العبد، كقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ (النحل٣١)، وقوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾(فصلت٤٠)، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة ٢٢٣)، وبين مشيئة الربّ، كقوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران٤٠)، أن مشيئة العبد: اختيار يتردد بين أمرين كل منهما ممكن الوقوع، فيترجّح أحدهما لمزيد مصلحة وفائدة، ولكن مشيئة الربّ: هي اختياره الثابت، إذ لايصحّ لديه تردد ولا إمكان حكمين. (انظر أيضاً القضاء والقدر ضمن باب الإيمان، والقضاء ضمن باب المصطلحات).



١٢٥٣- ﴿القرء والأقراء﴾

القُرء هو الحيض ، والجمع اقرؤ، وأقراء، تقول: أقرأت المرأة إذا حاضت، فهي مُقرِئ؛ وأقرأت طهرت، وقيل: اقرأت يعني صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلنا قَرأت بلا ألف. وقد سُمي الحيض قُرءاً، لاجتماع الدم في الرحم، والمرأة قبل هذا الدم في طُهر؛ وقيل: الطُهر هو اجتماع الدم في البدن ولم ينزل بعد إلى الرحم، ولكل من القُرء والطُّهر وقت. فكأن الرحم يجمع الدم وقت الحيض، والجسم يجمعه وقت الطهر. وقد يقال

للطهر مع الحيض قرء، كما يقـال قرء للخروج من الطهر إلى الحيض، أو من الحيض إلى الطهر، وعلى ذلك فإنه فى الآية: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ (البقرة ٢٢٨) يكون القرء هو الانتقال، فهن ينتقلن من طهر إلى حيض، ثم من حيض إلى طهر، **ثلاثة انتقالات**، فيصير القرء هو **الطهر والحيض** معاً، وتكون عدّة المطلقة **ثلاثة انتقالات**: فإذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه، اعتـدّت المرأة بما بقى منه، ثم استقبلت طهراً ثانيـاً بعـد حيضة، ثم **ثالثاً** بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلّت للأزواج وخرجت من العدّة.



١٢٥٤- ﴿قريش والقرشيون﴾

هذا الاسم يأتى مـرة واحـدة فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)**﴾(قريش)، يمتن الله عليهم بما خصّهم من نعمة **الأمن الاقتصادى والأمن العـام**، كقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ (العنكبوت ٦٧)، وقوله: ﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (القصص٥٧)، فشرّفهم أن كان البيت فى بلدهم، وجعلهم سدنته، يأتى إليهم القاصى والدانى، كقوله: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ** ﴾(المائدة ٩٧)، وخصّها بما خصّها به: ﴿**وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ**﴾ (المائدة٩٧). وقـريش وهـم: **بنو النضر بن كنانة بن خزيمـة بن مدركة بن الياس بن مـضر**، فكل من كـان من ولد النضـر فهو قريشىّ أو قرشى. وقيل أصل الاسم قريش من **التقرّش** وهو التجمّع، وكانت قريش متفرّقة فى غير الحرم، فجمعهم **قصىّ بن كلاب** فى الحرم، حتى اتخذوه مسكناً. وقيل: قريشٌ **هم بنو فهر بن مالك بن النضر**،ومن لم يكن من نسل فهر فهو ليس بقرشىّ. والأول أصح، لأن النبىّ ﷺ قال: «**إنا ولد النضر بن كنانة لانقفوا أُمّنا، ولا ننتفى من أبينا**»، أى لا نتهم أُمّنا ولا أبانا، يعنى أنهم **من زواج حلال** وليســوا أبناء سفاح، أو أنــهم ينتسبــون لآبائهم ولايتركون ذلك انـتساباً للأمــهات. وفى الحديث: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعـيل، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم**» أخرجه مسلم. وكما ترى أن النبىّ ﷺ يقول **بالاصطفاء**، وهو أصلاً من **نظريات القرآن**، ويُنسَب التاريخ لفعل الصفوة، **والصفوة** هى التى توجه آليات المجتـمع وأوضاعه وقواه الاقتصادية والسياسـية وتصنع التاريخ. وليست الصفوة سلالة عِرقية، ولكنها بتأثير التنشئة والتربية، **واليهود** يقولون بأنهم الصفوة **عرقياً واختياراً وليس عن استحقاق**، والقرآن يقول **بالصفوة وإنما اختياراً**، عن تقوى وفلاح وعلم وصلاح، وذلك هو الفرق بين **نظرية الصفوة أو الاصطفاء** فى الإسلام، وهذه النظرية عند

اليهود في التوراة. وقريش كانت صفوة العرب ، لأنهم كانوا أهل حرم، ولأنهم فهموا حركة التاريخ فتجمعوا بعد تفرّق، والتقرُّش كما أسلفنا هو التجمّع، وامتهنوا التجارة لأنها عصب التقدم وأساس التعلُّم، والتقرُّش هو أيضًا التكسُّب، تقول: قَرَش يقرش يعنى اكتسب، والاكتساب قد يكون للمال، أو للعلم، أو للخبرة، أو لمودة الناس، أو يكون أحلافاً وعهوداً مع سائر الأمم والشعوب. وقريش كانوا أهل نجدة وأصحاب حمية، ويُعينون الناس والحجّاج خاصة؛ ولم يخلقهم الله هكذا لهذا الدور دون البشر، لكنهم فهموه ووعوه بالخبرة والتعلُّم، وكانوا أصحاب منعة، وقيل: سُمّوا قريشاً من القرش أقوى سمك البحر، يأكل ولايؤكل، ويعلو ولا يُعلي عليه. واشتهروا برحلتى الصيف والشتاء إلى الشام واليمن، يمتارون فيهما ويميرون العرب، فكانوا عماد الاقتصاد العربى، يحملون لمختلف القبائل الميرة والزاد والعدة والزوّاد. وقادوا أكبر حركة مقاومة لديانة من الديانات، ومنهم كان إمام الأنبياء والمرسلين، وبِلُغتهم نزل أفضل كتُب الله، وعلى رأسهم كان أئمة الكفر ، فلم يوجد مطعن فى الإسلام إلا وكان لهم فى اختراعه نصيب، ولم يُذكَر مصطلح الكفّار فى القرآن إلا وكان المقصود به الذين أنكروا الله ونبوة محمد والبعث والحساب من القرشيين.

●●●

١٢٥٥- ﴿القضاء﴾

هو فى الاصطلاح القرآنى: الحكم الإلهى فى أعيان الموجودات على ما هى عليه من الأحوال الجارية من الأزل إلى الأبد، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة ١١٧)، على عكس القدر: فهو تعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمان معين وسبب معين. ومن أمثلة القدر قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾(الرعد٢٦)، ولو كان الأمر فى الكفر والإيمان قضاءً ما عصى الله أحدٌ. والقضاء بمعان، منها الوصية، كقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء٢٣)؛ والخَلق، كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (فصلت١٢)؛ والحكم، كقوله: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾(طه٧٢)؛ والفراغ، كقوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾(يوسف٤١) أى فُرغ منه؛ والإرادة، كقوله ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران٤٧)؛ والعهد، كقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ (القصص٤٤). فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعانى فلايجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله. (انظر أيضاً القدر والقدرية ضمن باب المصطلحات، والقضاء والقدر ضمن باب الإيمان).

●●●

١٢٥٦ - ﴿القياس أجمعت عليه أمة الإسلام﴾

كان **إبليس** أول من قاس، فقال: **﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** (الأعراف١٢)، فرأى أن النار أشرف من الطين، ومن ثم كان هو أشرف من آدم. وهذا مثلٌ في القياس. والقياس قال به كثيرون، منهم الصحابة والتابعون، والتعبُّد به جائز عقلاً وواقع شرعاً، فلا عصمة لأحد إلا في كتاب الله وسُنَّة نبيّه وإجماع أهل العلم إذا وُجد فيهم الحكُم، فإن لم يوجد فالقياس. **والاجتهاد والاستنباط** من كتاب الله وسنّة نبيّه، وإجماع الأمة هو الحق الواجب والفرض اللازم، والأمة أجمعت على القياس، ومن نصائح **الأشعرى** فيه: أن ما لا تبلغه في الكتاب والسنة فَقِسْهُ على ما تعرفه منهما، وخذ ما ترى أنه الأشبه بالحق. ـ ولمّا قال أبو عبيدة لعمر في حديث الوباء: نَفِرُّ من قَدَر الله؟ قال عمر: نعم! نفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، ثم قال: أرأيت؟! فقايسه وناظره بما يشبه مسألته، وذلك هو «**القياس المحمود**»، وهو أصل من أصول الدين يرجع إليه المجتهدون، فأما «**القياس المذموم**» فهو المتكلَّف الذى ليس على الأصول، وهو ظنّ، ونهى الله تعالى عنه فقال: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**(الإسراء٣٦).

•••

١٢٥٧ - ﴿الكفر والكافرون﴾

الكُفر: هو الجحود بأن للعالمَ خالقاً، وأنه الله الواحد؛ والجاحد لايشكر النعمة لأنه لم يقر أصلا بأن الله هو واهب النِّعم. **والكُفران**: هو ستر النعمة؛ **والكافر** هو الجاحد لوجوده تعالى، ولنعمه، والجمع **كافرون** إن كان المقصود الكُفر بالنِّعم، **والكفرة** إن كان المقصود إنكار الله. **والكُفر بخلاف الشرك**، لأن الكفر إنكار بالكلية لله تعالى، في حين أن الشرك إقرار بالله وبأن له أندادًا. **والإيمان** نقيض الكفر إن تعلّق الأمر بالله، **والشكر** هو النقيض إن تعلّق الأمر بالنِّعم، **والكفور** نقيض الشاكر، ونقيض المؤمن، والشيطان كفور (الإسراء ٢٧)، وكذلك الإنسان (الإسراء٦٧)، والكفور ختّار، أى غدّار (لقمان٣٢)، وخوّان (الحج٣٨) ويئوس لاعزم له (هود٩)، ومغرور (الملك٢٠). ومن علامات كُفره: الظلم (الإسراء٩٩) ، والصدّ عن سبيل الله (محمد٣٤)، والفُجْر في إيقاع الأذى بالناس (عبس ٤٢) ، والكيد (غافر٢٥)، وكفره يزيد وينقص (آل عمران٩٠)، وزيادته تعنى الإصرار عليه؛ **وأعراب الناس**: هم أجهلهم في الدين (التوبة٩٧)، وحالهم والكافر شديد الكفر سواء؛ وهم سكان العشوائيات وأطارف التجمّعات السكنية، ولا وسيلة لهم لمعرفة الدين، ولا السماع للقرآن وتفهُّم معانيه، فتنتشر بينهم الخرافة. ومؤنث الكافرين **الكوافر**، جمع

كافرة (الممتحنة١٠)، والنار مثوى الكافرين (الزمر٣٢)، وعذابهم فيها أليم وشديد ومهين (المجادلة٤، والشورى٢٦، والبقرة١٠٤)، ولهم سلاسل وأغلال وسعير (الإنسان٤)، وجهنم لهم حصير (الإسراء٨). وإنكارهم شديد للبعث (الروم٨) وللآخرة والزكاة (فصلت٧)، وللرسل (فصلت١٤)، لعنهم الله بكفرهم (البقرة ٨٨). ومثلما الإيمان له أئمة فكذلك الكفر (التوبة١٢)، وهم أشد الناس إصراراً عليه والدعوة إليه، من أمثال **أبى جهل، وعُتبة، وشيبة**،وغيرهم، **وكلمة الكُفْر** (التوبة٧٤): هى استهزاؤهم بالدين وبالله وبالرسول والقرآن، ويحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويبغونها عوجاً، وهم فى ضلال بعيد (إبراهيم٣). **وقلوب الكفار**: وصفها الله تعالى بعشرة أوصاف: بالختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرَّين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار. (**أنظر القلب فى الإيمان وفى الكفر ضمن باب الإيمان**).



١٢٥٨- ﴿اللوح المحفوظ﴾

هو لوحٌ سماوى، قيل هو خزانة كتُبه تعالى إلى البشر، رَصَد فيه كل الأقدار والمقادير، والأسباب والمسببات، وهو محفوظ من أن يضيع، أو يُنسَى، أو يطّلع عليه آخرون سواه تعالى، أو من يكلّفه. وقيل هو **أم الكتاب** لأن منه انتُسخ القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ (الزخرف٤) وأم الكتاب: يعنى الكتاب الأصل أو المرجع؛ وهو عَلِىٌّ: أى لا يُطال، ولايُنال، ولايُبدّل؛ وهو حكيم: أى مُحكَم الحفظ، كقوله: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)**﴾ (الواقعة) يعنى أن القرآن من الذخائر والنفائس، لأنه كلامه تعالى؛ **وإكرامه**: أنه فى كتاب مصون من الضياع والعبث والقدَم؛ **والمكنون**: هو المخفى الذى لايطلع عليه أى أحد. وفى الآية: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)**﴾ (البروج): **المجيد**: هو المتناهى فى الشرف والكرامة والبركة، لأن فيه كل شيء عمّا يحتاج إليه الناس من أحكام الدين والدنيا. ولنلاحظ أن الكثير من الكلام فى المراجع المختلفة عن اللوح المحفوظ هو من الترهات ولا مرجعية له، ويُدرَج ضمن الإسرائيليات، وكان **ابن عباس** أكثر من شارك فى الترويج لها، وكلامه فيه يشكّل مع كلام الآخرين **ميثولوجيا إسلامية** خاصة تستحق دراسة كاملة ومن ذلك قوله: إن اللوح المحفوظ من ياقوتة حمراء، وأعلاه معقود بالعرش، وأسفله فى حِجْر مَلَك يقال له «**ماطريون**»، كتابته نور، وقلمه نور، وينظر الله تعالى فى اللوح المحفوظ فى كل يوم ٣٦٠ مرة، وفى كل مرة يقدّر جديداً، فيرفع وضيعاً، ويضع رفيعاً، ويغنى فقيراً، ويفقر غنياً،

ويحيي ويميت، ويفعل ما يشاء!!! ومن خرافات أنس بن مالك الإسرائيلية قوله عن اللوح المحفوظ إنه في جبهة إسرافيل!! ومن خرافات غيره: أن اللوح المحفوظ عن يمين العرش، وفيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والقضاء النافذ فيهم، ومآل وعواقب أمورهم!!ومن أقوال ابن عباس العجيبة في اللوح المحفوظ: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ: إني الله، لاإله إلا أنا.محمدٌ رسولي. من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صدّيقاً، وبعثته مع الصدّيقين. ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي وشكر نعمائي، فليتخذ إلهاً سواي!» ـ فمن أين جاء ابن عباس بهذا الكلام عن الله تعالى؟! وقيل: إن ابن الحنفية لمّا توعده الحجّاج، كتب إليه وهو مقتنع بكلام ابن عباس عن اللوح المحفوظ، قال: بلغني أن لله تعالى في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ: يعزّ ويُذلّ، ويبتلي ويُفرح، ويفعل ما يريد، فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك فتنشغل بها ولاتتفرغ!ـ وقيل أيضاً في اللوح المحفوظ: إنه يلوح للملائكة فيقرأونه ليعرفوا ما جهلوا عن الكون. وأصل اللوح هو الكتف، واللوح أيضا ما يُكتب فيه.

***

١٢٥٩- ﴿المتقون، من هم؟﴾

من يتّقي، ووقَى، واتّق، واتّقون، واتّقين، والأتقى، ونقيّ، وتُقاة، والتقوى. وترد المُتّقون في القرآن ٤٩ مرة. وأصل **التقوى** في اللغة: قلة الكلام. ومن ذلك الحديث: «**التقيّ مُلجَم، والمُتّقي فوق المؤمن والطائع**»: أي التّقيّ هو من يتّقي، بصالح عمله، وخالص دعائه، عذاب الله، مأخوذ من **اتقاء** المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه، كقول **النابغة**:

سقط النصيف ولم تُرِد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليد

والنصيف الخمار، يقال المرأة نَصَفت رأسها بالخُمار: يعني اختمرت به؛ **وقد نصفها**: أي أنه نَصف بين الناس وبينها، بمعنى صار حاجزاً بينها وبينهم. ومن أقوال بعض العارفين: إن الناس ما أكثرهم، إلا أنهم لاخير فيهم إلا تائبٌ أو تقيّ. وعن **البسطامي**: **المُتقي** من إذا قال ـ قال **الله**، ومن إذا عمل ـ عمل الله. ـ وعن **الداراني**: المُتّقون الذين نزع **الله** عن قلوبهم حُبّ الشهوات. ـ وعند العرفانيين: **المُتقي** من يحذر الطريق كأنما يسير على شوك، فذاك **التقوى**: الحذر. والشاعر يقول:

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

والتقوى فيها كل الخير، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وخير ما يستفيده الإنسان، كما يقول أبو الدرداء:

يريد المرء أن يؤتى مُناه ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا

والأصل فى التقوى وَقْوَى، على وزن فَعْلَى، فقُلبت الواو تاء من وَقَيْتُه أقيه، أى منعتُه، ورجل تقىّ يعنى يخاف، وأصله وَقِى، وكذلك تُقاة كانت فى الأصل وقاةً، كما قالوا تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث.

والمُتقون فى التعريف: هم أولياء الله (الانفال٣٤)، وليّهم الله (الجاثية١٩)، يحبّهم (التوبة٧)، وهو معهم(التوبة٣٦)، يصدّقون الله (البقرة١٧٧)، ويوفون بعهده (آل عمران٧٦)، ويجاهدون فى سبيله بأموالهم وأنفسهم (التوبة٤٤)، ويؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة وينفقون مما يُرزقون، ويؤمنون بما أُنزل على النبيين، ويوقنون بالآخرة (البقرة ٢/ ٥)، ويؤمنون بالملائكة، ويصبرون فى البأساء والضراء وحين البأس، ويؤتون المال على حبّهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين(البقرة١٧٧)، وعدهم ربُّهم دار الآخرة ولنِعْم دار المتقين(النحل٣٠)، وهم فيها فى جنات ونعيم (الطور١٧)، فى ظلال وعيون (المرسلات٤١)، ومقامهم فيها المقام الأمين(الدخان٥١)، لهم العاقبة (هود٤٩)، وحُسْن المآب (ص٤٩)، وإمامهم إبراهيم (الفرقان٧٤)؛والمقابل لهم: الفُجّار، من الفجور: وهو ركوب المعاصى، وارتكاب المفاسد، والميل عن الحق؛ والفاجر: المنقاد للمعاصى، والجمع فجرةٌ وفُجّار.



١٢٦٠- ﴿المتوسّمون هم المعتبرون﴾

من وَسَم: أى جعل له علامة، وتَوسّم الشىء تفرّسه وطَلَب وسْمَه، أى علامته يستدل بها على مطلوب غيرها. والمتَوَسِّمون تَأتى مرة واحدة فى القرآن، فى قوله تعالى: ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر٧٥)، فقد أنزل الله العذاب بقوم لوط فأخذتهم الصيحة مُشرقين ـ أى وقت الشروق، فجعلت عاليهم سافلهم، وأُمطرت عليهم حجارة من سجّيل ـ أى من جهنم، وفى ذلك آيات لمن يعتبر، وعلامات يقرأها المتفرّس المتأمل فيتّعظ، فما زالت آثار ذلك اليوم ظاهرة فى سدوم وعامورة بفلسطين، وإنها لبسبيل مقيم يمر به العابرون فينظرون بالبصر والبصيرة. فالمتفرّسون صنف من المؤمنين يتّسمون بالفراسة، وفيهم الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» أخرجه

الترمذى. والحديث: «إن لله عزّ وجلّ عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم». وهم إذن الناظرون المتفكّرون. والواسم: هو الذى ينظر إليك من فرقك إلى قدمك. وأصل التوسُّم: هو التثبّت والتفكُّر. والوَسْم فى الأصل التأثير بحديدة تصنع علامة فى الخيل أو البقر أو البعير تدل على صاحبها. والمتوسِّم لايكون كذلك إلا بجودة قريحته، وحدّة خاطره، وصفاء فكره، وتفريغ قلبه من حشد الهموم، وتطهير نفسه من أدناس المعاصى، وكدُورة الأخلاق، وفضول الدنيا. والمتوسمون: هم أهل الخير والصلاح. والتوسّم: عند الصوفية كرامة، وعند أهل النظر استدلال بالعلامات، ومنها ما يكون ظاهراً لكل أحد وبأول نظرة، ومنها ما يخفى فلا يبدو إلا بتمعُّن وتفحُّص وتفكُّر وتأمُّل، ولايُدرك ببادىء النظر. وأهل التوسُّم إذا توسَّموا قصة لوط، وآثار سدوم وعامورة، يعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك غيرهم إذا ارتكبوا معاصى كمعاصيهم. وفى الخبر أن أنس بن مالك دخل على عثمان بن عفان، وكان أنس قد مرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إلى عثمان قال له عثمان: يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنا! فقال أنس: أوَحْياً بعد رسول الله ﷺ؟ فقال عثمان: لا، ولكن برهانٌ وفراسة وصدْق! وفى علم النفس: التوسُّم والتفرُّس من مدارك المعانى؛ وفى المنطق لا يُعتَبر بالتفرُّس ولابالتوسُّم حُكمٌ، وإنما اعتباره فى التحليل النفسى. وفى القانون والشرع لايؤخذ به موسوم ولامتفرِّس، فمدارك الأحكام معلومة قانوناً وشرعاً ومُدركة قطعاً، وليس التوسم ولا الفراسة منها.

•••

١٢٦١. ﴿المجوس فرقة غنوصية﴾

المجوس **Magi**، واحدهم مجوسى **Magus**، فارسية وتعنى كاهناً. والغربيون أخذوا الاصطلاح عن الإغريقية **Magos**. وكان المجوس خدَمة دين زرادشت، وهم رهبان؛ وفى ملّتهم: أن الوجود له أصلان: النور «يزدان»، والظلام «أهرمن»، والأول مبدأ الخير، والثانى مبدأ الشرّ؛ والنار عندهم عنصر شريف علوى يُطهِّر من الأدران والشرور، فكانوا لذلك لايطفئون النار، ويوقدونها باستمرار، وجعلوا الصلاة إليها من طقوسهم، فقيل فيهم إنهم «عبدة النار». فالعناصر عندهم أربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار، وأشرفها النار. وكان إبليس من النار بينما الملائكة من النور، فكان ـ كما قيل ـ أشرف منهم. وكنائس المجوس أو معابدهم تسمى «بيوت النار»، ومع تقديسهم للنار فإنهم لم يكونوا يحرقون الموتى، وإنما يضعونهم فوق أسطح البيوت فتأكل لحومهم الغربان والطير والهوام. والمجوس علماء فارس وحكماؤها وفلاسفتها، واشتهروا بالتنجيم وقراءة الطوالع. وفى

إنجيل متى (٢/ ٥ـ١١) قيل إن هيرودس استدعاهم يسألهم عن ظهور نجم المسيح، وأرسلهم إلى بيت لحم لما تنبأ الكتبة، يستفسرون عمّا إذا كان المسيح قد وُلِد، وقيل: كان نجم المسيح يتبعهم (لماذا؟ لم يقل أحد)، ووقف عند الموضع الذى عثروا فيه على المسيح مع أمه، فسجدوا له! ونسأل: كيف يقف النجم فوق الموضع الذى كان فيه المسيح؟ إن النجم نراه من أى مكان وكأنه فوقنا، فلماذا هذا التخصيص لهؤلاء؟ ولماذا هذه الرواية عن المجوس؟ ولماذا انفرد بها متى؟ ومتى نفسه لا نعرف عنه سوى أنه مؤلف هذا الكلام، وأنه يهودى متنصّر، وكان جابياً وله دراية بالتنجيم، ولهذا كان هو الراوى الوحيد لحكاية المنجّمين المجوس. ورغم أنه كان يهودياً إلا أنه كان هو نفسه يتعبّد النجوم ويؤلّه الأصنام، ولذا اعتقد أن المجوس هداهم نجم المسيح من فارس إلى القدس، ثم إلى بيت لحم. ونسأل: وبعد وصولهم ماذا حدث؟ وماذا أفادوا أو استفادوا؟ ويأتى ذكر المجوس فى القرآن فى الآية: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾** (الحج١٧)، فهذه خمس ملل ضلوا: اليهود، والصابئة، والنصارى، والمجوس، والمشركون، وآمنت السادسة وهم المسلمون، وفى الآية: أن الله يقضى بين المؤمنين وبين أتباع هذه الملل يوم القيامة، أيهم الضال وأيهم المؤمن؟ وفى الآية بعدها قال تعالى: **﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾** (الحج١٨)، فلمّا ذكر المجوس والنصارى فى الآية الأولى، استوجب أن يردّ على سجودهم للمسيح، وأن يوبّخ متّى الذى افترى هذه الفرية: أن من الممكن أن يسجد بشرٌ لبشر! فقال: إن الله وحده هو الذى له السجود، وأنه تعالى تسجد له كل المخلوقات والكائنات والموجودات، ثم استثنى فقال «وكثير من البشر» وهؤلاء هم المؤمنون الموحّدون وقال: «وكثير حقّ عليه العذاب» من أمثال متّى وهؤلاء المجوس، ونبّه إلى جُرمهم، أن عملهم هذا فيه إهانة لله، لأن الانصراف عنه تعالى إلى وثن، أو صنم، أو رجل ـ وإنْ يكن المسيح ـ فيه إهانة لله، وإكرامُ الله يكون بتوحيده وإفراده بالسجود، ومن يُكرم الله فإنما يُكرم نفسه، فإنْ جعل معبوده الله فإنه يرقَى بنفسه ويسمو بها، وإن جعل معبوده الصنم أو المسيح، فقد أهان نفسه أيمّا إهانة، واستصغر شأن الله. ولربما يُوجد فى العالم مجوس حتى اليوم فى الهند وإيران.

●●●

١٢٦٢- ﴿المحضرون﴾

من اصطلاحات القرآن، من حَضَرَ ضد غاب، والمُحضَرون جمع مُحضَر: وهو الذى

يُجاء به قسراً، ويوم القيامة يُقسَر الجميع على الحضور، كقوله: ﴿**وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ**﴾ (يس٧٥)، وقوله: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾(آل عمران٣٠) يعنى قد أُحضر لها، وأكثر المحضرين من أهل النار، كقوله: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾(الروم١٦).

•••

١٢٦٣- ﴿المحكمات والمتشابهات﴾

فى الآية: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾(آل عمران٧)؛ وفى الآية: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾: أن آيات القرآن إما **محكمات** وإما **متشابهات**، فما هما؟ **المحكمات**: ما عُرِف تأويله وفُهِم معناه وتفسيره؛ **والمتشابهات**: هى ما لايعلم تأويله إلا الله، مثل وقت الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدّجال، وعيسى، والحروف المقطّعة فى أوائل السور، وأن عدد خزنة جهنم تسعة عشر، وأن بالجحيم شجرة اسمها الزقوم، **والمحكمات**: هى **ثوابت الدين**، وهى **الأصول** المشتركة فى كل الملل، مثل واحدية الله، فهذه هى المحفوظة فى اللوح عنده تعالى، وهو المسمى لذلك باسم **اللوح المحفوظ**. وقوله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ** ﴾ (هود ١)، وقوله: ﴿**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**﴾ (الزمر ٢٣)، متعلقتهما بشىء آخر خلاف معنى «**المحكمات والمتشابهات**»، فإحكام **الآيات** يعنى نظمها ورصفها، وتشابُه الكتاب يعنى أنه يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً؛ وأما **المُحكَم** الذى نحن بصدده: فهو ما لا لبس فيه ولايحتمل إلا وجهاً واحداً، بينما **المتشابهات**: هى ما يحتمل عدداً من الوجوه. وقيل: **المحكمات**: فيها دفع الباطل والخصوم، وحجة الربّ، وعصمة العبد، وليس لها تصريف ولا تحريف عمّا وُضعن عليه؛ **والمتشابهات**: لهن تصريف وتحريف وتأويل. **والمحكمات**: ما كان قائماً بنفسه، لايحتاج أن يُرجَع فيه إلى غيره، **والمتشابهات** عكس ذلك. مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾(الزمر٥٣)، فإنها تحتاج إلى تفسير ويُرجَع فيها إلى غيرها، فهذه من المتشابهات وليست من المحكمات، مثل آيات الوصية، ومثل قوله تعالى: ﴿**فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾(المؤمنون١٠١)، وقوله: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ (الصافات٢٧)، وقوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾(الفتح١٤)، وقوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ (الفتح٧)، وقوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾(النساء١٣٧)، فكأنه كانَ ثم

مضى، فهذه متشابهات تحتاج إلى تفسير، فأما آيتا الأنساب، فإنه عند نفخة الصور الأولى يكون الصعق ولامجال فيه للسؤال عن الأنساب أو التساؤل، وفى النفخة الثانية عند البعث يقبل بعضهم على بعض يتساءلون دون البحث فى الأنساب؛ وأما آيات «كان» فإنّ كان تعنى لم يزل ولايزال، وهكذا. وهذه جميعاً من المحكمات.

•••

١٢٦٤- ﴿المخبتون﴾

المُخبتون:هم الذين لايظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا؛ والمخبت: هو المؤمن الخاشع المطمئن بأمر الله؛ والخَبْت هو التواضع لله، كقوله تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ (الحج٣٥)، وصفهم بالخوف والوَجَل عند ذكر الله، لقوة يقينهم ولمراعاتهم لربّهم وكأنهم بين يديه؛ ووصَفَهُم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها.

•••

١٢٦٥- ﴿المراء والممترون﴾

المراء اصطلاح قرآنى ويعنى الشك، كقوله تعالى: ﴿ **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** ﴾ (هود١٧)، أى فى شك؛ والشك يدفع إلى الجدل، كقوله: ﴿ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾ (النجم١٢)، أى تجادلونه؛ والممتَرون: هم الشاكون، كقوله: ﴿ **الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ (آل عمران٦٠)، والمراء مذموم، وذلك هو «المراء الحقيقى»، وهو الذى يكون شكّا صريحاً عند صاحبه، وهناك «المراء الظاهرى» كقوله: ﴿ **فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا** ﴾ (الكهف ٢٥)، يعنى لا تُكثر من المراء، ويكفى أن لا تبدى رأيك، أو تعتذر بأن تقول: هناك من لا يرى ذلك، أو تقول: من وجهة نظر أخرى - من مثل هذه الاعتراضات التى ليست مراء أو امتراءً إلا شكلياً. والفرق بين المراء والجدل، أن المراء فى الباطل، والجدل فى الحق، كقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** ﴾ (الشورى١٨)، وقوله: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (العنكبوت٤٦). والفرق بين المراء والشك، أن الشك قولٌ تفصح عنه، ولكن المراء شكٌ تُبديه وتُكثر من الجدل فيه. وقولك: «**لا شك فى كذا**»، يمنع الترجيح بين حالتين، ويُظهر أنك تميل إلى ناحية منهما. فإذا قلت: «**لامراء أن كذا**» فإنك تعلن ترجيح واحدة وتجادل على صحتها أو بطلانها. والامتراء من أنماط سمات الشخصية، وهو اصطلاح قرآنى خالص أشدّ من اصطلاح «الشك»، وهذا الأخير من مصطلحات علم النفس والطب النفسى والفلسفة الغربية، وسمة الامتراء أكبر من سمة

الشك، لأن الامتراء فيه شك ويستتبع الجدل. وأصل الامتراء: أنه المسح على ضرع البهيمة استدراراً للبن، والممتَرِى لذلك: هو الذى يظل يعالج فى المسألة ليفيد من ذلك استخراج ما يُقوّى شكه ودفوعه لإثبات هذا الشك.

•••

١٢٦٦- ﴿المستهزئون﴾

المستهزئون: هم الساخرون، من هَزأ: أي سخر؛ ورجلٌ هُزأة: هو الذى يُهزأ منه. والمستهزئون كمصطلح قرآنى، هم الذين يستهزئون بالله وبآياته ورسوله، وكذّبوا بكل شيء، ويقول تعالى فى وصفهم: **﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** (الحجر ١١)، ويقول: **﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**(البقرة١٥)، ويقول: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾**(الأنعام٥)، ويقول: **﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**(الأحقاف٢٦)، ويقول: **﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾**(الأنعام١٠)، وأمثال هؤلاء المستهزئين لا يحق لمسلم أن يجادلهم ولا أن يجالسهم، كقوله: **﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾** (النساء ١٤٠). وكان أكابر المستهزئين أيام الرسول ﷺ خمسة نفر، كانوا رؤساء أهل مكة. وهم: الوليد بن المغيرة، وهو رأسهم؛ والعاص بن وائل؛ والأسود بن عبدالمطلب بن أسد ـ أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة. وقد هلكوا جميعاً يوم بدر. وقيل: فإن هؤلاء الذين عناهم الله تعالى بقوله: **﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾** (النحل٢٦)، فشبهّ ما أصابهم فى موتهم بالسقف الواقع عليهم.

•••

١٢٦٧- ﴿المفلحون﴾

من الفَلْح، وأصله فى اللغة الشقّ والقطع؛ وفلاحة الأرض شقُّها للحرث؛ والفلّاح هو الذى ينهض بعبيء الفلاحة وفى الأمثال: الحديدُ بالحديد يُفلَح ـ أى يُشَق. والفَلَحة تُكون شقاً بالشفة السفلى، وصاحبها هو الأفلح. و«المفلحون» تأتى فى اثنتى عشرة آية بمعنى الفائزين الذين يشقون لينالوا مطلبهم، ويأتى فى التعبير عنهم أنهم: **﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾** (البقرة)، أو **﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨)﴾**(الأعراف)، أو **﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾** (المجادلة)، وفلاحهم هو الفوز بالجنة. وقيل: الفلاح هو الفوز والبقاء، وفى الحديث: «**حتى كاد يفوتنا الفلاح**»، قيل: وما الفلاح؟ قال: «**السحور**»، فكأن السحور به بقاء الصوم، فلهذا سمّاه فلاحاً. وفى التعريف بالمفلحين أنهم: الذين يؤمنون بالغيب؛

وينفقون مما رزقهم الله؛ ويؤمنون بما أنزل على الرسول؛ وما أُنزل من قبله؛ ويوقنون بالآخرة (البقرة٣ / ٥)؛ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(آل عمران١٠٤)؛ والذين تثقل موازينهم عند الحساب (الأعراف٨)؛ والذين آمنوا بالرسول وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذى أُنزل معه (الأعراف٥٧)؛والذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم (التوبة٨٨)؛ والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا سمعنا وأطعنا (النور٥١)؛والذين يؤتون ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل (الروم٣٨)؛ والذين يقيمون الصلاة؛ ويؤتون الزكاة (لقمان٥)؛ والذين يحادّون من حاد الله ورسوله (المجادلة٢٢)؛ والذين يوقون شُحّ أنفسهم(الحشر٩)، فهذه خمس عشرة صفة تميز المفلحين.

•••

١٢٦٨- ﴿المقتسمون:من هم؟﴾

المُقتَسمون اصطلاح قرآني، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الحجر)، من قَسَم قَسْماً: الشيء جزّأه، والمُقتَسِم فاعل القِسْمة، وقيل: المقتسمون هم قوم صالح تقاسموا على قتله، واقتسموا أيماناً تحالفوا عليها. وقيل: هم كفار قريش، منهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، وأبو البخترى، وأمية، ومنبّه، اقتسموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً،وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، ثم إنهم استهزئوا به، وجعلوه عضين، واحده عضّة، أى وافقوا على بعضه وأنكروا بعضه، وفى الرواية: أن رسول الله ﷺ لعن العاضِهة والمستعضهة أى الساحرة والمتسحّرة، أى أنهم أكثروا البهت على القرآن، ونوّعوا الكذب فيه، والعُضْه هى النميمة، والعَضِيهة هى البُهتان، يعنى أنهم يعضهون القرآن ويقولون ما ليس فيه، من العِضاة وهو نوع من الشجر كالشوك. ومايزال المستشرقون من أهل الكتاب هذا دأبهم، وما زال ذلك فى العلمانيين وفى التنويريين فى عصرنا، وخاصة فى مصر: يقتسمون القرآن، ويعضهونه، وهم لذلك من المقتسمين بحسب الاصطلاح.

•••

١٢٦٩- ﴿المقمحون﴾

فى الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾(يس٨)، والمُقمَحُمون: هم المُعرِضون الغافلون، ويقال للمُعرِض عن الشىء أنه غافل عنه، وفى التصنيف العقدى والنفسى القرآنى المقمحون مثل أبى جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، من النوع الجامد التفكير المتسلّط، يملؤه الكبر، ويشبّهه القرآن بالغُلّ يقيد يديه إلى عنقه حتى لترتفع رأسه، ويقال لذلك الإقماح وفسّره أحدهم بأن تكون يديه مغلولة إلى العنق من

تحت الذقن، فترفع الرأس. ومن ذلك يقولون **أقمحتُ** الدابة: إذا شددتُ لجامها، فترتفع رأسها. وقيل الأصل «**مكمحون**» بالكاف، وأبدلت إلى القاف لقربها منها كما تقول **قهرته وكهرته** ويقال: **أقمحتُها، وأكمحتُها، وأكفحتُها، وكبحتُها**؛ والبعير **قَمَحَ** إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب، فهو **قامح**، ويقال شرب فتقمّح وانقمح. وقيل **الإقماح**: هو رفع الرأس وغضّ البصر، وأقمحه الغضب بمعنى تَرَكَ رأسه مرفوعاً من الضيق. وكل ذلك أعراض بدنية **للحالة النفسية** التي يقال لها **القموح**. وهي من **التشخيص النفسي الإسلامي** الخالص.

•••

١٢٧٠- ﴿المن﴾

هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها؛ وهو أن يتحدث المُعطي بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعطَى فيؤذيه. **والمن** من الكبائر، **والمنّان** أحد ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولايزكّيهم ولهم عذاب إليم. والعرب تقول لما يُمَنّ به: **يدٌ سوداء**؛ ولما يُعطَى عن غير مسألة: **يد بيضاء**؛ ولما يُعطَى عن مسألة: **يدٌ خضراء**.. وفي القول: المأثور مَن مَنّ **بمعروفه سقط شُكره، ومَن أُعجب بعمله حَبَط أجره**. وفي القرآن: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾(البقرة ٢٦٤)، وعن النبيّ ﷺ قال: «**إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر**»ثم تلا: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾.

•••

١٢٧١- ﴿المنيبون﴾

المنيبون: هم التائبون إلى الله من الذنوب. **وناب، وتاب، وثاب، وآب**، بمعنى واحد، وهو الرجوع. وأصل **الإنابة** القطع، ومنه أُخذ اسم **الناب** لأنه قاطع، فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله بالطاعة. والإنابة هي أيضاً الرجوع، من نبا ينوب إذا رجع المرة بعد الأخرى. ومنه النَّوبة لأنها الرجوع إلى عادة، ومن ثم أناب إلى الله: رجع إليه وتاب، كقوله تعالى: ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾ (الروم٣٢)، وقوله: ﴿**عَبْدٍ مُنِيبٍ**﴾ (سبأ٩). والمنيب: هو التائب الرجّاع إلى الله بقلبه. **والمنيبون** في القرآن هم بحسب النزول: **إبراهيم، وشعيب، وداود، وسليمان**، ونبينا **محمد** ﷺ؛ وفي إبراهيم قال تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**﴾ (هود٧٥)، لأنه كان يرجع إلى الله تعالى في أموره كلها؛ وكانت دعوة **شعيب**: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ (هود٨٨) وقوله: «أنيب» يعني يرجع إليه في كل ما ينزل به من نوائب. والإنابة قد تعني الدعاء، وعندئذ يكون المعنى وله أدعو. وفي داود قال تعالى:

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص٢٤)، وأناب: يعنى تاب من خطيئته ورجع إلى الله. وفى سليمان قال:﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص٣٤)، أى رجع إلى الله وتاب. وكانت دعوة النبىّ ﷺ : ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، يعنى أنه يعتمد عليه ويرجع إليه فى كل أموره. وفى معنى الإنابة أنه تعالى يستخلص لدينه من يرجع إليه، كقوله:﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى١٣)، ـ وفى تعريف الذين هداهم قال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (الزمر١٧)، والطاغوت: هو الأوثان؛ ولهم البشرى: يعنى فى الدنيا بالحياة الطيبة، وفى الآخرة بالجنة. وقيل الذين أنابوا إلى الله فى الآية هم: عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقّاص، وسعيد بن زيد، وطلحة، والزبير،وزيد بن عمرو بن فضيل، وأبو ذرّ، وسلمان الفارسى، وغيرهم ممن وحّد الله قبل مبعث النبىّ ﷺ، فهؤلاء هم المنيبون فى الآية، والمبَشّرون، لأنهم لم يعبدوا الطاغوت فى الجاهلية، ورجعوا إلى عبادة الله وطاعته. ومن المأثر فى القرآن: أن الإنسان فى طبعه، لو أصابته شدة وبلاء، يرجع إلى الله مُخبتاً مُطيعاً مستغيثاً، فإذا رفع عنه الغُمّة وأنعم عليه، نسى كأن لم يدعُ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ (الزمر٨) فالإنابة هى الرجوع والإخبات والطاعة والاستغاثة. جعلنا الله من المنيبين.



١٧٧٢ - ﴿الناس ثلاثة: مؤمنون وكافرون ومنافقون﴾

يأتى فى القرآن فى نعت المؤمنين ٢٠٢ مرة، وفى نعت المؤمنات ٢٣ مرة، وفى نعت الكافرين ١٢٩ مرة، وفى نعت الكوافر من النساء مرة واحدة، وفى وصف المنافقين ٦٧ مرة، وفى وصف المنافقات خمس مرات. وهؤلاء الثلاثة: المؤمنون والمؤمنات،والمنافقون والمنافقات، والكافرون والكوافر، هم أصناف الناس باعتبار الاعتقاد والعمل. والمؤمنون هم: التّوابون والمهتدون والمتّقون، والمتوكلون، والمفلحون والمُحصَنون، وفى صَلاتهم خاشعون، وإذا ذكر الله وجلت قلوبهم، يؤمنون بالله ورسله وملائكته وكتبه، وبالآخرة والحساب، ويخلصون دينهم، ويسمعون ويطيعون، ويصدقون ما عاهدوا الله عليه، ويحبهم الله ويحبونه، ويؤاخى بينهم الإيمان، ولايتخذون الكافرين أولياء. والمؤمن من أسمائه تعالى، كقوله: ﴿هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ (الحشر٢٣). وفى القرآن إذا ذُكر الكافرون أو المنافقون، يأتى ذكر المؤمنين كمقابل لهم، لشرفهم وفضلهم، لأن الكفر والإيمان

متقابلان، والتقابل من مناهج القرآن، كالليل والنهار، والجنة والنار، والحياة والموت. وتشير الآية: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾**(البقرة٨) إلى المنافقين والمؤمنين ، و«**النَّاسِ**» اسمٌ من أسماء الجموع، جمع **إنسان وإنسانة**، وتصغيره نويس، من النَّوس وهو الحركة، أو من نسى وقُلب فصار نيس ، ثم الناس، ولما نسى آدم سمى إنساناً، فكان النسيان فى ذريته، وهم الناس:

وما سُمّى الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا لأنه يتقلب

وفى الآية : **﴿ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾**(آل عمران ١١٠)، أن المؤمنين تقابل الفاسقين، والفاسقون تطلق على الكافرين وعلى المنافقين، فأما أن الكافرين فاسقون، فمثل قوله تعالى: **﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾**(التوبة٨٤)، وأما أن المنافقين فاسقون، فمثل قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾**(التوبة)، وأما أن المنافقين بخلاف الكافرين، فمثل: **﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾**(الأحزاب١). **والكافر** منكر وجاحد، ويشهد على نفسه بالكفر، وقلبه مطبوع به؛ **والمنافق** منكر إلا أنه يستر إنكاره ويخادع، ويظهر غير ما يضمر، كاليربوع له حجران، واحد اسمه **نافقاء**، والآخر اسمه **قاصعاء**، فإذا هوجم فى واحد هرب من خلال الثانى، ومن خداعه أنه يحفر الأرض حتى إذا كاد يبلغ السطح أبقى عليه تراب رقيق، فإذا رابه ريب، دفع ذلك التراب برأسه وخرج، فظاهر حجره تراب، وباطنه سرداب، وكذلك المنافق، ظاهرة إيمان وباطنه كفر.

●●●

١٢٧٣- ﴿النسىء زيادة فى الكفر﴾

من **نسأه وأنسأه**: يعنى أخّره ، يقال نسأ الشىء، وهو منسوء، يعنى أخّره. ومن ذلك أن تقول: نسأ الله فى أجلك يعنى أخّره، أى زاده، وفى الحديث: «**من سرّه أن يُبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره، فَلْيَصِل رَحِمَه**» أخرجه البخارى. وكانوا فى الجاهلية يحرمون القتال فى المحرم، فإذا احتاجوا أن يقاتلوا فيه حرّموا صفراً بدله، وقاتلوا فى المحرم، فذلك هو **النسىء**، والسبب فيه أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لايغيرون فيها، فينسئون المحرّم أى يؤخرونه، ويجعلونه فى صفر، فيحلّ لهم المحرّم، وشهراً فشهراً استدار التحريم على السنة، فأرجع الإسلام المحرّم إلى موضعه حيث كان وضعه منذ بدء الخليقة. ولذلك حجّوا فى ذى الحجة عامين، وفى المحرّم عامين، وفى صفر عامين، وكذلك فى الشهور كلها، حتى أن حجة أبى بكر قبل حجة الوداع وافقت ذا القعدة فى السنة التاسعة، ثم حجّ النبىّ ﷺ فى العام المقبل حجة

الوداع فوافقت ذا الحجة، فذلك قوله في الحديث: «إن الزمان قد استدار لهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» ، أراد بذلك أن أشهُر الحج رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذى الحجة وبطل النسىء. وقيل إنهم كانوا فى الجاهلية يزيدون شهور السنة خمسة عشر يوماً، فكان الحج يقع مرة فى رمضان، ومرة فى ذى القعدة،وفى كل شهر من السنة، بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوماً، حتى أن أبا بكر حجّ سنة تسع فى ذى القعدة بحكم الاستدارة، ولم يحج النبىّ ﷺ ، فلمّا كان فى العام المقبل وافق الحج ذا الحجة فى العشر، ووافق ذلك الأهلّة، ولذا قال النبىّ ﷺ الحديث: «إن الزمان قد استدار..» ، أى زمان الحج عاد إلى وقته الأصلى الذى عينّه الله، ثم قال: «السنة اثنا عشر شهراً» ينفى الخمسة عشر يوماً التى زادوها فى السنة، وبذلك تعيّن الوقت الأصلى، وبطل التحكّم الجاهلى. وأما أول من نسأ، قيل: بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة؛ وقيل: عمرو بن لحى؛ وقيل: رجلٌ من بنى كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة؛ ثم رجلٌ يقال له : جنادة بن عوف، وهو الذى أدركه رسول الله ﷺ . وقيل: رجلٌ يقال له القَلَمس، واسمه حذيفة بن عبيد، من بنى فُقيم. وقيل: مالك بن كنانة. وقيل: كان الذى يفرضه يصبح رئيساً لهم. وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾(التوبة٣٧) لأن العرب جمعت إنكار الله فقالوا: ما الرحمن؟ وإنكار البعث فقالوا: من يحيى العظام وهى رميم؟ وأنكروا بعثة الرسُل: أبشرٌ منّا نتّبعه؟ وأضافت إلى ذلك أنها شرّعت أن تستبدل شهراً بشهر وهكذا ، فذلك هو معنى أن النسىء زيادة فى الكفر.

•••

١٢٧٤- ﴿النصح﴾

النُصح:إخلاصُ العمل من الغش؛ ويأتى فى القرآن ثلاث عشرة مرة، والأنبياء من الناصحين يبلّغون رسالات الله وينصحون لأقوامهم(الأعراف٧٩)، وهم لهم الناصحون الأمناء(الأعراف٦٨) ومن النصح: التوبة النصوح(التحريم٨)، ونَصَح الشىء، يعنى إذا خلص، ونصح له القول، أى أخلصه له، وفى الحديث عند مسلم: «الدين النصيحة» قالها النبىّ ﷺ ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: «لله،ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامّتهم». و«النصيحة لله»: تكون بإخلاص الاعتقاد فى الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة فى مَحابّه، والبُعد من مساخطه؛ و«النصيحة لرسوله»: تكون بالتصديق بنبوّته، والتزام طاعته فى أمره ونهيه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره ومحبته ، وتعظيمه وتعظيم سُنّته، وإحيائها بعد موته ونشرها، والدعوة إليها؛

و«النصح لكتاب الله»: يكون بقراءته، والتخلُّق به، والتفقه فيه، وتعليمه؛ «**والنصح لأئمة المسلمين**»: يكون بإرشادهم إلى الحق وتنبيههم إلى ما أغفلوه، وتحذيرهم من أن يكونوا **فقهاء للسلطة** يفتون بحسب طلب الحكام؛ و«**النصح للعامة**:» بإرشادهم وإرادة الخير لكافتهم. وفى الحديث: «**مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».



١٢٧٥- ﴿الهدى هديان﴾

الهُدَى: معناه الرشد والبيان، والهدى هُديان: **هدى دلالة، وهدى معونة**؛ والأول: هو الذى تقدر عليه الرسُل وأتباعهم، ودلالته بالأنبياء وكتُبهم، كقوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾(الرعد٧)، وقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (الشورى٥٢)، فأثبت لهم الهُدَى الذى معناه: **الدلالة والدعوة والتنبيه**؛ وتفرّد الله تعالى **بهُدَى المعونة** الذى معناه: **التأييد والمعونة والتوفيق من الله** مباشرة، فقال لنبيهﷺ: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ (القصص٥٦)، يعنى أنه ﷺ لا يخلق الإيمان فى قلوبهم، **فنفى هدى المعونة** عن الرسول ﷺ، وأثبته لنفسه لكل الناس، المؤمنين والكافرين على السواء، كقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾(لقمان٥)، وقوله: ﴿**وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ (يونس٢٥). والهدى: هو الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى **الإرشاد** كيفما تصرفت. وقد تُراد **الهداية** بمعنى **إرشاد المؤمنين**، كقوله: ﴿**فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ**﴾(محمد)، وقوله: ﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾ (الصافات)، أى فاسلكوهم إليها. **وعموم** الهداية أنواع، **الأول**: أن يؤتى الله مَن يهدى القُوَى التى يتمكن بها من الاهتداء، كالقوة العقلية، والحواس الظاهرة والباطنة؛ **والثانى**: أن يعرّفه الدلائل الفارقة بين الحقّ والباطل، وبين الصلاح والفساد، كقوله: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾(البلد١٠)؛ **والثالث**: الهداية بإرسال الرسُل وإنزال الكتب، كقوله: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** ﴾ (الأنبياء٧٣)، وقوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ (الفتح٢٨)، وقوله: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ**﴾ (النحل٨٩)؛ والرابع: أن يكشف عن بصائرهم ويريهم الأشياء على حقيقتها بالوحى والإلهام والكشف، ويختص بذلك **الأنبياء والأولياء**، كقوله ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ (الأنعام٩٠)؛ **والخامس**: أن الهداية هى الدلالة بلطف، ولذلك لا تستعمل إلا فى الخير؛ **والسادس**: أن الهداية قد تتعدى نفسها كما فى قوله: ﴿**لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت٦٩) فقد تتعدى بالحرف«اللام» أو «باللام» كقوله ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ**

مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى٥٢)، وقوله: **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾**(الإسراء٩)، ومعناها حينئذ الدلالة على ما يوصّل إلى المطلوب، أو التعريف على الطريق، أو الدعوة إلى الإيمان والطاعة، وإيضاح السبيل الراشد، والزجر عن طريق الغواية، وذلك هو المسمى توفيقا، كقوله: **﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾**(فصلت١٧). ومن كل ما سبق فإن **الهدى والهداية** يستعملان إما بالمعنى اللغوى العرفى المشهود، وإما بالمعنى الشرعى. **والإضلال يقابل الاهتداء، والضلال يقابل الهدى.**

•••

١٢٧٦ - ﴿الهوى فى القرآن﴾

قال ابن عباس: ما ذكر **الله** هوى فى القرآن إلا ذمّه. والهوى: إرادة النفس وميلانها إلى ما تستلذ؛ والجمع **أهواء**.وفى القرآن يأتى **الهوى ست مرات**، كقوله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾**(الجاثية٢٣)، وقوله: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾** (القصص٥٠)، وقوله: **﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾** (النجم٣)، ويأتى عن **الأهواء**:سبع عشرة مرة، كقوله تعالى: **﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾** (المائدة٤٨)، **﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾** (الرعد ٣٧) وفى الحديث قوله ﷺ: **«لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»**؛وقوله: **«ما عُبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى»**، وقوله **«والفاجر من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**،وقوله: **«إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مُؤثَرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة»**، وقوله: **«ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات؛** فالمهلكات: **شُحٌّ مطاع،و هوىً مُتَبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه»**، وقال بعض أهل الله: **إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومُه يوم سوء، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يومٌ صالح**. وقالوا: **هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك!**

•••

١٢٧٧ - ﴿الوقت والساعة واليوم والشهر والسنة﴾

إدراك الزمن والروح الإسلامية

المستشرقون والفلاسفة خصوصًا،على القول: بأن إدراك الساميين للزمن إدراك عام، وأنهم يجهلون الخصوصية فى الزمن،وليست كذلك الروح الآرية. ودراسات هؤلاء يحددها البُغض لليهودية، وأدرجوا المسلمين عامة، والعرب خاصة، مع اليهود فى القول بعمومية الزمن كنقيصة فى الروح السامية، وقالوا إن اصطلاح **«الزمن»** لا يوجد أبداً فى التوراة، ولافى الأناجيل. وكذلك قالوا إن الساميين لم يعرفوا **«أدب اليوميات»**، وهو المعنىَ

بالتسجيل اليومي للأحداث، ومتعلّق الحدث في اليوميات بالزمن. وكذلك ينقص الساميون الإحساس بالتاريخ، وكتاباتهم فيه قليلة. والمستشرقون كاذبون فيما يخصّنا نحن أصحاب لغة القرآن. فليس أكثر من المؤرخين ومؤلفات التاريخ واليوميات عند العرب. وينفرد القرآن بمصطلح له دلالته الكبيرة عن الزمن، وهو مصطلح «الساعة»، وفي القرآن علمٌ هو «علم الساعة». ومصطلح الساعة كمصطلح الزمن لايوجد حقيقة في التوراة جميعها، ولا في الأناجيل. ويتكرر في القرآن ٤٨ مرة، و«الساعة الصغرى» فيه هي هذه الساعة التي نعرفها بالدقائق والثواني، كقوله تعالى ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾(الأعراف٣٤)، وقوله: ﴿يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ (الروم٥٥)، وقوله: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ (الاحقاف ٣٥). وقد تعني الساعة الوقت عموماً، كقوله تعالى: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ (التوبة١١٧)، وقد تكون الإشارة إلى «الساعة الكبرى» أي يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ (غافر٤٦)، وقوله: ﴿يمارون في الساعة﴾ (الشورى١٨)، وقوله: ﴿يسألونك عن الساعة﴾ (النازعات٤٢). واليوم: مصطلح من مصطلحات الزمن في العربية وفي غيرها، ويتألف من ليل ونهار يقسمانه مناصفة، وقد يطول النهار ويقصر الليل أو العكس بحسب الفصول، وبسبب الحالة الوجدانية، فليل المحزون طويل نسبياً. والزمن: منه الزمن الحسيّ، كتحديدك ليوم الجمعة، ومنه الزمن المعنوي، كأن تقول يوم الحسرة، واليوم العصيب. والنهار: ينقسم إلى فجر، وضحى، وظهر، وعصر (البقرة ١٨٧، والمدثر٣٣، والضحى٢)؛ والليل: ينقسم إلى مغرب، وعشاء، وغسق. والنهار والليل، يُحسبان بالساعات، ويُعدّان (يونس٦)؛ وكذلك الشهر والشهور (التوبة٣٦)، والسنة والسنوات (يونس٥). وتقسيم بداية النهار إلى فجر، وفجر كاذب وصبح وضحى لاتعرفه اللغات الآرية، وكذلك تقسيم وسط النهار إلى ظهر وعصر، وأول الليل إلى مغرب، وعشاء. والعصر في القرآن يرادف الزمن والدهر. وهذه الأسماء تخلو منها اللغات الآرية، وعلى ذلك فالعربي، ومن ثم المسلم، يدرك إدراكاً رهيفاً الزمن بطوله وأقسامه، ومدلولات هذه الأقسام، ويعيشها كاملة. وعند اليهود والنصارى لافرق بين الزمن والوقت، فكلاهما **Time** ليس غير. فأي الأجناس إذن لايحس الزمن ـ العرب أم الآريون؟ ومن الزمن عند العرب السرمد (القصص٧١)، والأزل، والأبد (البينة٨)، وليس عند الآريين شيء من ذلك، لأن لفظة **eternity** لا تعني عندهم بالضبط «الأبد»، مثلما في القرآن كقوله تعالى: ﴿ماكثين فيه أبداً ③﴾ (الكهف)، فالأبد استمرار الوجود في أزمنة غير متناهية من المستقبل، فالأبد في القرآن دوام الوجود في المستقبل، والأزل هو دوام الوجود في الماضي،

ولفظة **pre-eternity** أو **acternitas a parte ante** إذن لا تساوى فى معناها الأزل العربية، والله تعالى أزلى أبدى حيث الأبد والأزل صفتان أظهرتهما الإضافة الزمانية لتعقل وجوب وجوده، ولا شيء من ذلك عند اليهود والنصارى، وأما من ناحية تقسيم الأفعال بحسب الزمن، فإن المستشرقين يدّعون أن القرآن لايوجد به إلا الأزمنة البسيطة، وهى الأزمنة الأصلية: الماضى، والحاضر، والمستقبل، والأمر، وأما الأزمنة المركبة فلا وجود لها فى كتبُ النحو العربى. والزمن المركب كالماضى التام، والحاضر التام، والماضى المستمر، و الحاضر المستمر، والمستقبل القريب. وهذه الأزمنة إن خلت منها كتُب النحو إلا أنها موجودة فى الكلام العادى، والناس قد يقولون: **انتظرتك، وقد انتظرتك، وظللت أنتظرك، وبينما كنت انتظرك، وسأظل أنتظرك، ولسوف أنتظرك، وسأنتظرك، وهأنذا انتظرك**، وكلهما تستوفى الأزمنة المركبة أكثر مما فى اللغات الآرية. وأيضاً فإن المستشرقين يزعمون أن التوراة وكذلك الأناجيل والقرآن، وكلها كتب سامية تناولت التاريخ كأساطير، وخلت من تحديد تاريخ أى حدث أو واقعة، ودللوا بذلك على عدم الدراية بالزمن وبالتاريخ عند الساميين، وذلك صحيح فعلاً بالنسبة للتوراة والأناجيل، ولكنه غير صحيح بالنسبة للقرآن، فنحن نعرف تحديداً وبالتواريخ مناسبة كل سورة وآية فى القرآن، وأسباب نزولها، والشخوص التى ارتبطت بها، وعلى ذلك فإدراك التاريخ عند المسلمين هو إدراك خاص وليس عاماً كما فى التوراة، والغريب أن الآريين لا شيء عندهم من المؤلفات أو الآثار يثبت لهم **الإدراك العام أو الخاص** للتاريخ، وأما علم التاريخ فذلك من العلوم الحديثة عند الغربيين، وكان من العلوم الثقات عند المسلمين قبل الأريين بقرون. والفرق بين الحدث فى التوراة والحدث نفسه فى القرآن، أن يرد فى التوراة سرداً كحدث من الأحداث، أو عَرْضاً كتاريخ لشعب اليهود، وكتعبير عن تضخم الذات عند هذا الشعب، بينما قد يرد هذا الحدث فى القرآن قصداً للعبرة والاعتبار. والفرق بين مفهوم التاريخ فى القرآن ومفهومه عند اليهود أو عند الآريين، كالفرق بين **الأدب** كفن فى القرآن ومرادفه **literature** عند اليهود والآريين، ففى العربية يرتبط الأدب بالتربية، وبالتأديب، وفى غير الغربية فإنه علم الحروف أو الكلام لاغير. والتاريخ بمعيار القرآن ليس تراكم أحداث، وإنما **عملية انتقاء من الأحداث لما يكون فيه الاعتبار والعظة، ولما يفيد فى تربية المسلم ويصلح أن يحيل على حاضره**، فيكون الحدث الوارد بمثابة الإشارات والتلميحات بما ينبغى على المسلم أن يفعله فى مثل هذه الحالات، وإذا صادفته مثل تلك الأحداث. وانظر إلى طريقة العنعنة فى رصد تاريخ الاحاديث، أو إلى التأليف فى التاريخ بحسب السنوات كما عند الجبرتى، أو تقسيمه

طبقات، أونسبته إلى **الأشخاص**، وكل ذلك من باب التحديد وباعتبار الخاص وليس العام، وتلك أمور خلت منها تماماً كتب التاريخ فى أوروبا وفى الهند والصين وانفرد بها العرب، وكان العرب من أولى الأمم التى كان لها تقويم، ومع أنه **تقويم قمرى** إلا أنه متقدم جدا على **التقويم القمرى العبرى**، والتقويم الهجرى أساسه تاريخ الهجرة ـ وهو أول المحرم من السنة التى جرت فيها الهجرة، وشهور هذا التاريخ مأخوذة من رؤية الهلال، ولايزيد الشهر عن الثلاثين يوماً، ولا ينقص عن تسعة وعشرين يوماً، ويمكن أن يجىء **أربعة أشهر** ثلاثين يوماً على التوالى لا أزيد منها، وأن تجىء **ثلاثة أشهر** تسعة وعشرين يوماً على التوالى لا أزيد منها. والسنة اثنا عشر شهراً، **والسنون والشهور اصطلاحية**. وأما **التاريخ العبرى** أو اليهودى **فسنوه** شمسية، **وشهوره** قمرية، وتسمية شهوره: تسرى، ومرخشوان، وكسليو، وطيبث، وشفط، وآذر، ونيسان، وايرسيون، وتموز، وآب، وأيلول. وهم يكبسون بعض السنين بشهر زائد، ويسمون **السنة الكبيسة** : عبورا، وغير الكبيسة **بسيطة**، وكبسوا تسع عشرة سنة سبعة أشهر قمرية، ولكن العرب كانوا يزيدون الشهر الزائد على جميع السنة ، وأما اليهود فالشهر السادس عندهم وهو آذر يتكرر مرتين، فيصير عندهم آذران، **آذر الكبس** ويعدّونه زائدا، وبعده آذر **الأصل** ويعدّونه من أصل السنة، وبعدهما نيسان. وأول سنتهم يتردد بين أواخر آب وأيلول من السنة الشمسية، والشهور إما ٢٩ أو ٣٠ يوماً،ويشترطون أن يكون أول أيام السنة إما السبت، أو الاثنين، أو الثلاثاء، أو الخميس، وأن يكون الخامس عشر من نيسان إما الأحد أو الثلاثاء، أو الخميس، أو السبت لاغير. وكما ترى فإن التاريخ عندهم **مسألة وطنية** وليس علماً ولاهو قريب من العلم! وأما **التاريخ الإفرنجى** أو **النصرانى** فجرت به مجموعة من التلفيقات لضمان توافق التاريخ مع أحداث النصرانية كصلب المسيح وقيامته وغير ذلك، فالمسألة عندهم لم تكن علمية ولا فلسفية ولا قومية ولكنها **كنسية فى المحل الأول، فأين هو الإحساس بالزمن أو بالتاريخ فى ذلك كله، سواء عند اليهود أو النصارى؟** وذلك هو ردّنا بإيجاز على دعاوى المستشرقين واليهود فى **مفهوم التاريخ والزمن** عند العرب وفى القرآن، والله الموفق.

•••

١٢٧٨ - ﴿يثرب اسم المدينة﴾

فى الآية: ﴿**يا أهل يثرب**﴾(الأحزاب١٣) فإن «يثرب» هى «**المدينة**»، فإذا كانت الآية قد نزلت فى **السنة الخامسة** من الهجرة، فإن معنى ذلك أن الاسم «**المدينة**» لم يكن الرسول

ﷺ قد أطلقه عليها بعد. ومن أسماء المدينة «طيبة»، و«طابة»، وقيل: إن لها أربعة وتسعين اسماً، وكثرة الأسماء تدل على شرف المُسمّى.

واسمٌ يثرب اسمٌ للأرض، والمدينة ناحية منها، ويبدو أن اسمها يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم، وفى بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عميل هم الذين سكنوا الجحفة فأجحفت بهم السيول فيها، وبهذا سميت الأرض هناك بالجحفة.



وبذلك ينتهى بحمد الله ومنّه الباب الحادى عشر من موسوعة القرآن عن مصطلحات القرآن، ويبدأ إن شاء الله الباب الثانى عشر عن الموت والساعة والقيامة والجنة والنار فى القرآن...



الباب الثاني عشر
﴿الموت والساعة والقيامة والجنة والنار﴾

١٢٧٩. ﴿ملك الموت﴾

عـزرائيل هو ملك الموت الموكول به البشر حين انقضاء الأجل، كقوله تعالى: **﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾**(السجدة١١)، والاسم عزرائيل هو اسم الوظيفة التى يشغلها، وقيل هو اسم توقيفى، وقال آخرون هم اسم سريانى الأصل، ويتكون من مقطعين، الأول عزرا ويعنى المعاون، وإيل أى الرّب، فهو معاون الربّ، ويرد معناه خطأ فى كتب التفسير العربية «عبدالله»، والمقابل لعبد الله بالعبرية هو إسرائيل، وليس عزرائيل. وفى الحديث أن: «**البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت**»، يعنى أنها تُعدم الحياة ولا تُقْتضّ لها أرواح. وقيل: كل حىّ له روح، وجاء من روح، وعزرائيل موكول به قبض الأرواح سواء للبشر أو لغيرهم. ويبدو أن اصطلاح «عزرائيل» يعنى المؤسسة الربّانية الموكول بها قبض الأرواح، لأنه فى الآية: **﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾**(الزمر٤٢)، أن الموت بيد الله ولكنه بحسب الآية السابقة: **﴿يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾**(السجدة١١) فإن عزرائيل هو الموكول بذلك من الله، فما من نفس إلا ويقبضها بأمره. والأنفس هى الأرواح. وكذلك فى الآية: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾**(الأنفال٥٠)، والآية: **﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾** (الأنعام٦١)، أن الملائكة أو رسُل الله تعالى يعاونون فى هذه المهمة، فكأننا فعلاً إزاء مؤسسة، وبذلك يستقيم المعنى وتتوافق الآيات، فلما كان ملك الموت يتولى ذلك بالوساطة والمباشرة، أضيف التوفّى إليه، ثم إلى الملائكة، والناس مع ذلك إذا ذكرت الموت لاينسبونه إلى عزرائيل، ولا إلى الملائكة، ويكتفون بذكر أسباب الوفاة من مرض أو غيره، ولايذكرون عزرائيل بسوء.

●●●

١٢٨٠. ﴿الموتة الأولى﴾

الموت يجرى على الخَلْق مرة واحدة، كقوله تعالى: **﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾** (الدخان٥٦)، لأنه بعد البعث فلا موت وإنما حياة أبدية، ومن جعل الحياة بأجَل قادر على أن يجعلها أبدية، وإذن فلا موت إلا موتة الدنيا، وهى الموتة الأولى والأخيرة، على الاستثناء المنقطع، وإلاّ بمعنى سِوَى. والموت عَرَضٌ لا يُذاق وإنما جعلته الآية كالطعام الذى يُكره ذوقه، واستعير فيه لفظ الذوق.

والمنكرون للبعث يقولون ببرهان الموت لنفى البعث، كقوله تعالى: **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا**

الأولى وما نحن بمنشرين﴾ (الدخان٣٥)، وعندهم أن الموت نهاية للحياة ولاحياة بعد هذه الحياة، ومن القائلين بذلك **الماديون وأخصّهم ماركس**، والليبراليون والعلمانيون والوجوديون، ومن أقوال **هايدجر** في كتابه: «**الوجود والزمان**»، والدكتور **عبدالرحمن بدوى** فى كتابه «**الزمان الوجودى**»: أنه لاوجود خارج هذا الزمان، وأن الموت هو خاتمة الحياة، ونهاية كل موجود، وبعد ذلك العدم!

•••

١٢٨١. ﴿الموت موتتان والحياة حياتان﴾

فى الآية: ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾(غافر١١)، وفى الآية الأخرى: ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾(الدخان٥٦)، أن هناك رأيين أو جماعتين إزاء الموت، فالجماعة **الأولى** قالوا إن الموت **موتتان**، والجماعة الثانية أكدوا أنه لاتوجد إلا **موتة واحدة**، فأيهما صحيح؟ فأما الجماعة **الأولى** فقولهم فيه تجاوز، وهؤلاء هم أهل الفكر، يعتبرون أن **العدم** موت، فقبل أن تكون لنا الحياة فى الدنيا كنا موتى وإن كنا موجودين بالإمكان، إلا أننا لم نوجد بالفعل إلا فى الحياة الدنيا، وإذن فقبل الحياة الدنيا كانت **حياة أولى هى حياة الإمكان**، ولم يكن ثمة موت، وفى **الحياة الدنيا** كانت **الموتة الأولى** ولم يكن بعدها ثمة حياة؛ وأما الجماعة **الثانية** فإنه مع البعث كانت **الحياة الثانية**، ولكنها بالنسبة للمغضوب عليهم والضالين والمنكرين والمبطلين والملحدين ليست كالحياة، وإنما هى **موت فى الحياة**، فهم فى النار موتى وإن كانوا أحياء، وكذلك الكفرة فى الحياة الدنيا موتى وهم أحياء، ثم هم موتى بالفعل من هول العذاب فى النار فى الآخرة، بينما المستضعفون والمضطهدون أحياء فى الدنيا وإن كانت معيشتهم معيشة الموتى، وهم فى الآخرة أحياء بالفعل بما ينعمون من خيرات فى الجنة. وقيل: الموت **موتتان**، لأنهم أُميتوا فى الدنيا ثم أحياهم فى القبور للمسألة، ثم أميتوا، ثم أُحيوا فى الآخرة، فهاتان **موتتان وحياتان**. وقيل كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم، ثم أحياهم بالخَلْق، ثم أماتهم موتة الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان **حياتان وموتتان**. وقيل خلقهم فى ظهر آدم، ثم أخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم، ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. وقيل أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم القيامة، ثم إنهم يطلبون أن يحييهم للدنيا مرة أخرى، فيعملون صالحاً، ثم يميتهم، فهاتان الحياتان والموتتان.

•••

١٢٨٢. ﴿الموت ثلاث موتات﴾

فى الآية: ﴿ **وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون**﴾(البقرة٢٨) أن

الموت موتتان والحياة حياتان، واختلفوا فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من موتة وحياة للإنسان؟ فقالوا كان الناس معدومين قبل أن يُخلقوا فأحياهم ـأى خلقهم، ثم يميتهم عند انقضاء آجالهم، ثم يحييهم يوم القيامة. وقيل: كان الناس أمواتاً فى ظهر آدم، ثم أخرجهم من ظهره كالذّر، ثم يميتهم موتة الدنيا، ثم يبعثهم. وقيل: كان الناس أمواتاً ـ أى نطفاً فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ـ ثم نقلهم من الأرحام فأحياهم، ثم يميتهم بعد هذه الحياة، ثم يحييهم فى القبر للمسألة، ثم يميتهم فى القبر، ثم يحييهم حياة النشر إلى الحشر، وهى الحياة التى ليس بعدها موت.

فكأنها بحسب هذه التأويلات ثلاث موتات، وثلاث إحياءات. وكونهم موتى فى ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم ثم موتهم، غير كونهم نطفاً فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، فعلى هذ تكون موتاتهم أربع موتات، وتكون إحياءاتهم أربع إحياءات. وقيل المعنى خلاف ذلك تماماً: وكنتم أمواتاً بالخمول فأحياكم بأن ذكرتم وشرّفتهم بهذا الدين وبالنبىّ الذى جاءكم، ثم يميتكم فيموت ذِكركم، ثم يحييكم للبعث. والقول الأول هو المراد بالآية.

●●●

١٧٨٣.﴿الموت حتم﴾

قال الشاعر : ومن لم يمت عَبْطةً يمت هَرَماً .·. للموت كأس والمرء ذائقها

وقال آخر : الموت بابٌ وكل الناس داخله .·. فليت شعرى بعد الباب ما الدار

فالموت حتم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾(آل عمران١٨٥)، ولكن الموت يكون باجل، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾ (آل عمران١٤٥)، والآجال مجهولة، كقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان٣٤). وللموت أسباب وأمارات، وفى الحديث: «المؤمن يموت بعرق الجبين» أخرجه النسائى، يعنى الموت غالباً عَسِر، والمسلم إذا احتُضر وجب أن يلُقّن الشهادة، لقوله ﷺ : «لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله » أخرجه مسلم، فيختم له بها، فإذا قضى ارتفعت عنه العبادات،وزال التكليف، وتوجّبت على الأحياء احكام، منها تغميض العينين، وإعلام إخوانه الصلحاء بموته، والأخذ فى تجهيزه بالغسل والدفن لئلا يسرع إليه التغيير. وفى الحديث: «عجّلوا بدفن جيفتكم»، و«أسرعوا بالجنازة». والغُسل سُنة حاشا الشهيد، وقيل: غُسل الشهيد واجب، وفى الحديث «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك»، ولايجاوز الغُسل السبع غسلات، فإن خرجَ منه شيء بعد، يغُسَل موضعه وحده. والتكفين واجب على أهله، أو على جماعة

المسلمين، والمستحب منه البياض، ولا إسراف فإنه للمُهْلة - أى للتلف. والمشى فى الجنازة دون الخبب، أى العدو، وإن يكن خيراً يُعجّل بالجنازة، والعجلة أحبّ من الإبطاء؛ والصلاة عليه واجبه على الكفاية؛ ودفنُه فى التراب ودسُّه وسَتْره واجب، كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾(المائدة٣١). فهذه جملة من أحكام الموتى، وفى الحديث: «لاتسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا» أخرجه مسلم، «ولاتذكروا هلكاكم إلا بخير».

●●●

١٢٨٤. ﴿أجل الموت﴾

الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾(آل عمران١٤٥) إعلامٌ بأن الموت لابد منه، وأنه ما من إنسان يحين أجله إلا وميت لا محالة، والآية فيها حضٌ على الجهاد، لأنه طالما أنه لا موت إلا بإذن الله فلا خوف أن نُقتَل فى الجهاد. والمؤجل يعنى إلى أجله، وبإذن الله أى بقضائه وقدره، و«أجل الموت» هو الوقت الذى فى معلوم الله، و«أجل الموت» هو أن تفارق الروح الجسد، فمتى فارقته علمنا أن ذلك أجله. ولا يصحّ أن يقال لو لم يقتل، أو لو لم يمرض، لعاش!

●●●

١٢٨٥. ﴿الصبر عن الميت﴾

الصبر عن الميت ترك الجزَع، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة١٥٦)، وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة٤٥). ومن أسرار الصلاة أنها تعين على الصبر لما فيها من الذكر والدعاء والخضوع، وكان الرسول ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلىّ. والصبر منع النفس محابّها وكفّها عن هواها، ويقال لمن لم يجزع «صابر» لكفّه نفسه. وفى الحديث: «الصبر عند الصدمة الأولى». ولما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ قال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضى ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

١٢٨٦. ﴿الميّت﴾

الميّت والمَيْت: هو الذى فارق الحياة، أو الذى ما تزال به حياة ولكنه فى حكم الميّت، والجمع أموات، وموتى. والموت مقدور ولا فرار منه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(الزمر ٣٠)، وقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾(الواقعة ٦٠)، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

﴿المَوْتِ﴾(العنكبوت٥٧)، فالموت حق، وله آداب، **فيستحب للمحتضر** أن يليه أرفق أهله به، وأتقاهم لربّه،ليذكّره بربّه، وبالتوبة، والخروج من **المظالم**، وبالوصية، وإذا رآه منزولاً به تعهد بَلّ حَلْقه بتقطيرالماء أو شراب فيه، ويُندّى شفتيه بقطنة، ويستقبل به **القبلة**، **ويلقّنه** قول «**لاإله إلا اللّه**». ويقرأ الأهل عند الميّت «**سورة يس**» ليُخفّف عنه، **وفاتحة الكتاب**. وإذا تيّقن موته وُجّه إلى القبلة، وغُمّضت عيناه، وشُدّ لحياه بعصابة عريضة تُربط من فوق رأسه لئلا يسترخى فكّه، ويقول الذى يقوم بذلك: «**باسم اللّه، وعلى وفاة رسول اللّه** ﷺ». ويكره **للحائض والجُنب** تغميضه، وأن تقرباه، والأوْلى أن الذى يتولى تغميضه وتغسيله يكون طاهراً. والواجب فى **غسل الميت** النية والتسمية، **ويُجرّد** من ملابسه قبل الغسل، **وتُستر عورته** بين السُّرّة والركبتين بثوب مع نزول الماء إلى العورة من تحت الثوب، ويستحب الغسل فى **البيت**، أو داخل ستر، ولايحضر الغسل إلا من يُعين فيه، بشرط أن يغض البصر عنه، وإن رأوا شيئاً عليه لايتحدثون به، إلا إن كان خيراً كوضاءة الوجه والتبسُّم ليكثر الترحُّم عليه، ويستحب **تليين مفاصله** عقيب موته وعند غسله، **ويحنيه** الغاسل كأنه يجلسه، ويضغط على بطنه رفيقاً ليخرج ما معه من نجاسة، ويصب عليه الماء كثيراً، ويستحب أن يكون إلى جواره **مجمر فيه بخور** حتى لايظهر منه ريح، ويستخدم الغاسل ليفة يمر بها على بدنه،ويجفف السبيلين بخرقة، وإن كان الميت **امرأة حاملاً** لم يُعصَر بطنها، ثم يوضىء الغاسل الميّت **وضوء الصلاة**، ويبدأ بكفّيه، ويمسح بالخرقة أسنانه وأنفه، ثم يغسل وجهه، ويتمم الوضوء، ثم يصب عليه الماء ليعمّ سائر جسمه، وقد يفعل ذلك بالماء الحار والطيب، ويستحب الغسل مرة **واحدة أو ثلاثاً** أو أكثر. **والحائض والجنب** إذا ماتا كغيرهما فى الغسل، ثم ينشّف الميت، وتجمّر **الأكفان** بالبخور، ويُرَش عليها بعض الطيب. ويُستَحب لمن غسّل ميتاً **الاغتسال**، ولايصّح أن **يغُسِّل** كافرٌ مسلماً، فإن لم يوجد مسلم يُيَمّم ، ويصحّ للمسلم أن يُغسّل **كافراً**، وأن يواريه التراب، **وتغُسِّل المرأة زوجها، ويغُسِّل الزوج امرأته**، وإن كانت **مطلقة** وفى العدّة فحكمها حكم الزوجة، ويحتمل أن لايباح للزوج الذى **لم يدخل بامرأته** أن يغسّلها، وإن لم يوجد من يغسل المرأة من النساء غسّلها ذو رحمها وعليها ثيابها، ويصب عليها الماء صبّاً، وإذا **مات المُحرم** يصحّ لغير المحرم أن يغسله، ويُجنّب الطيب، ولبس المخيط، ويصب عليه الماء ولا يُعرَك جسمه، وتغطّى رجلاه ووجهه . ويُصب الماء على **المرأة المُحرمة** التى تموت، وتغسل بثيابها، ولاتقرب الطيب. **والشهداء** فى المعركة قد يكثرون فيشق غسلهم، غير أن الشهيد عموماً

لايُغسّل ولايصلّى عليه، وقيل يغسّل ويُصلى عليه استحساناً. ومن يُقتل من أهل العدل فى قتاله للبغاة فهو شهيد، وقيل لا يُغَسل ولايُصَلى عليه، وروى أنه يُغسّل ويصلّى عليه، ولايتحتم دفنه بثيابه. ويُكره **نعى الميت، والندب والنياحة** عليه مكروهان . وتجب مؤنة **تجهيز الميت ودفنه** من ماله مقدماً على الدين والوصية والميراث. ويُحدّ **الزانى الذى وطىء امرأة ميتة، وفى** رواية لايُحَد . ويستحب **تلقين الميت** بعد مداراته التراب ، وقيل إن الميت يسمع ولايجيب، ويقف أحدهم عند رأس الميت ويقول «**يا فلان بن فلانة . اذكر ما فارقتنا عليه : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد** ﷺ نبياً . ويُستحَب **تعزية أهل الميت** قبل الدفن وبعده، وجميع أهل المصيبة كبيرهم وصغيرهم، وبالأخصّ خيارهم، وذا الضعف منهم، وجواب **التعزية: استجاب الله دُعاك، ورحمنا وإياك،**». ويجوز **تعزية أهل الذمة** ، ويقال لهم: **غفر الله لميتك وأخلف عليك**» ويستحب **إصلاح طعام** لأهل الميت يُبعث به إليهم، **وقضاء دينه، وتنفيذ وصيته.**

●●●

١٢٨٧.﴿غسل الميت ووضوؤه﴾

غُسل الميت فرض كفاية، وقيل سُنّة، وتوارد به **القول والعمل**، والنبىّ ﷺ غُسّل وهو الطاهر المطهَّر، **فكيف** بمن سواه؟ وفى الحديث: «**غسل الميت ووضوؤه بالماء والسِّدْر**» جعلهما معاً لغسل الميت، فيخلط السِّدر بالماء ويخضخض إلى أن تخرج رغوته كالصابون، ويدلّك به جسد الميت، **والصابون** إذن عوض عن السِّدر ويتم الغسل مرتين، والثالثة **بالماء المعطّر** كماء الورد ونحوه، والغرض هو **التنظيف** فيجزىء الماء، ويكره الإسراف. والمشهور أنه **غُسل تعبُّدى** كبقية الأغسال الواجبة والمندوبة، وشرع احتياطاً لاحتمال أن يكون على الميت جنابة. و«**تحنيط الميت**» يعنى غسله بالماء المخلوط بالطيب. والمسلم لاينجس حياً ولاميتاً، ومن يغسّله لاينجس. ولمّا ماتت زينب بنت الرسول ﷺ أمر بتغسيلها **وتراً ثلاثاً أو خمساً** ، لأن الإيتار مطلوب **والثلاث** مستحبة، فإن احتاج الأمر لأكثر تزاد **وتراً** حتى يحصل الإنقاء. والغُسل يبدأ **بالميامن ومواضع الوضوء**، ولابأس أن يُنقض شعر الميتة ويُغسل ويمشّط. وتكفّن **المرأة** فى خمسة أثواب وتخمّر كالأحياء، والكفن الخامس يشدّ على صدرها ليضم أكفانها. **والثياب البيض** للكفن. وكُفّن الرسول ﷺ فى **ثلاثة أثواب**، وفى الحديث: «**وكفّنوه فى ثوبين ولاتُخمّروا** رأسه». والكفن من **مال الميت** قبل الدين والوصية. **وأجر القبر والغسل من الكفن**، وإن لم يوجد إلا **ثوب واحد** كُفّن فيه ولو كان لايوارى جسده كله. **والنساء** ممنوعات من **اتباع الجنائز**، ليس لأنهن نساء، ولكن

لصياحهن وصراخهن، واتباعهن الجنائز لذلك مكروه وليس منهياً عنه، لأن النهى يقتضى التحريم. وإحداد المرأة على غير زوجها ثلاث ، وعلى زوجها أربعة أشهر وعشراً، وزيارة القبور مكروهة، غير أنها مباحة للرجال والنساء، لانها تذكّر بالآخرة، وترقّق القلب، وتُدمع العين. ولايعذّب الميت ببكاء أهله عليه، إلا إذا كان فى حياته سمح بذلك وتلك طريقته. والنياحة على الميت مكروهة ، وكذا شقّ الجيوب، وضرب الخدود، والدعاء بدعوى الجاهلية .والمسلم لايُفرط فى الحزن ولافى التجلّد،والبكاء مباح، وفى الحديث«إن الله لايعذّب بدمع العين ولايحُزن القلب، ولكن يعذّب بهذا»، وأشار إلى لسانه . والمشى فى الجنازات مأمورٌ به ، فإن لم يمش فليقم للجنازة. ويحمل الجنازة الرجال دون النساء، والمستحب الانتظار حتى يُصلّى عليه ويُدفن، وتكون الصلاة بالمُصلَّى أو بالمسجد. ولاتُتخَذَ المساجد على القبور.

•••

١٢٨٨.﴿الجنازة﴾

يستحب فى الإسلام المسارعة إلى تجهيز الميت، وتُخلَع ثيابه ويُسجّى بثوب يستره جميعه، وتُستر عورته عند تغسيله، ويتم التغسيل على سرير أو لوح، ويُكفّن بحسب حاله، ويُسَنّ التربيع فى الجنازة، والإسراع بها، واتّباعها للصلاة عليها، وقد تُتبع إلى القبر حتى الدفن، ويُستغفر للميت ويُدعى له. ويُكره فى الجنازة رفع الصوت ومسّ جسد الميت وتوديعه بالإشارة بالأيدى والمناديل، ويستحب لمن تمر به جنازة أن ينهض لها إن كان جالساً. وصلاة الجنازة واجبة، وتجوز فى المسجد، وعند المقبرة، ومن تفوته صلاة الجنازة فله أن يصليها عند القبر إما جماعة أو فرادى، وتجوز الصلاة على الغائب، وأحق الناس بالصلاة على الميت مَن أوصَى له أن يُصليّ عليه، ولايستحب دفن المسلم فى تابوت، ويستحسن دفن الشهيد وقتيل الحرب حيث قتل..

•••

١٢٨٩.﴿الصلاة على الجنائز﴾

فى الحديث«صلّوا على صاحبكم» سمّاها رسول الله ﷺ صلاةً، وليس فيها ركوع ولا سجود، ولا يتكلَم فيها، وفيها تكبير وتسليم. وتكون الصلاة على طهور، ويُرفَع فيها اليدين، وفيها صفوف وإمام، ويجوز أن يشترك فيها الصبيان، ويُصفّ بالمصلين فى مُصلّى ، ويُصلَّى على المرأة كالرجل، ويُكبَّر فيها أربعاً، وتُقرأ الفاتحة فى الأولى جهراً، ويُصلّى على النبىّ ﷺ ، ويُدعى للميت، وكان النبىّ ﷺ يقول: «اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً

وأجراً» ، ثم تُستكمل ثلاث تكبيرات ويُسلّم. . ومن دعاء ابن عباس: اللهم عبدك وابن عبدك أصبح فقيراً إلى رحمتك وأنت غنيٌ عن عذابه. إن كان زاكياً فزكّه، وإن كان مخطئاً فاغفر له. اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تضلنّا بعده». ومن لم يعلم بموت إنسان يمكن أن يأتي قبره ويصلي عليه.

●●●

١٢٩٠.﴿هل نعذب في القبور؟ ﴾

يأتي ذلك في أربع آيات، الأولى قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾(الأنعام٩٣)، والثانية قوله:﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة١٠١)، والثالثة قوله:﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾(غافر)، والرابعة قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾(إبراهيم٢٧). وفي الأولى: «غمرات الموت» هي شدائده وسكراته، و«بسط الملائكة أيديهم» هو لقبض الأرواح، وفي التنزيل: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾(الأنفال٥٠)، و﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾(الأنعام ٩٣) أي خلّصوها من عذاب القبر إن أمكنكم؛ وفي الثانية: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾(التوبة ١٠١)، أي في الدنيا بالأمراض والمصائب ثم بعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة١٠١) وهو عذاب الآخرة؛ وفي الثالثة : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾(غافر ٤٦)، قيل هو عذاب القبر ما دامت الدنيا، وفي الحديث: «إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشي»، وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر٢٢)، يعني أن الموتى لايجيبون على الأحياء. ولكن هل يسمعونهم بأداة السمع، والجواب: إن الله يُسمع من يشاء، وفي الحديث قال ﷺ: «ما أنتم بأسمع منهم ولايجيبون»، وقال:«إنهم ليعلمون الآن أن ماكنتُ أقوله حق» ؛ وفي الرابعة قيل إن الميت يُسأل في القبر: مَن ربُّك؟ فيقول: ربّي الله ؛ فيُسأل : ما دينُك؟ فيقول: ديني دين محمد ـ فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴿٢٧﴾﴾(إبراهيم) ، و«تثبيتهم في الدنيا» أي في القبر عند العرض، وفي الآخرة عند الحساب. وكان النبيّ ﷺ يتعوّذ من عذاب القبر ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر»، وكان يقول: «استجيروا بالله من عذاب القبر فإنّ عذاب القبر حقّ» ، وقال«إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم

القيامة»؛ وعنه ﷺ: «إن الميت يتكلم على الجنازة والناس يحتملونه على أعناقهم، فإن كان صالحاً قال قدّموني قدّموني، وإن كان غير صالح قال يا ويلتي، أين يذهبون بي؟ ويسمع صوته كل شيء إلا الإنسان». وقال عن موت الفجأة الذى يقع بغتة: «أكره موت الفوات»، لأن فيه يُحرَم من أن يُوصِي. وقال فى الأموات: «لاتسبّوا الأموات» إلا الأشرار.

●●●

١٢٩١. ﴿الدفن﴾

الدفن من ملحقات الموت، وهو مواراة الميت في التراب، كقوله تعالى فى قصة قابيل وهابيل: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴿٣١﴾﴾(المائدة)، فكان هابيل هو أول ميّت من بنى آدم، ولذلك جُهلت سُنّة المواراة، فكان الغراب مبعوثه تعالى للبشر ليريهم كيفية الدفن أو المواراة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾(عبس)، والإقبار هو الدفن، وصار فعل الغراب فى المواراة سُنّة باقية فى الخلق، فرضاً على جميع الناس على الكفاية. والأعمّ عند البشر مواراة الميت فى القبر، والقبور تُعمَّق إلى الصدر، والأفضل بقدر القامة وبسطة، ويُستَحب تحسين القبر وتوسيعه؛ والسُنّة أن يُلحد قبر الميت، ومعنى اللحد أنه إذا بلغ أرض القبر حفِر فيه من جهة القبْلة مكانٌ يوضع الميت فيه، فإذا لم يكن اللحد شُقّ له فى الأرض ويُسقف عليه. ويوضع الرأس عند رجل القبر، والجسد على الجنب الأيمن مستقبل القبلة بوجهه، وتوضع لَبِنة أو حجر تحت الرأس كالوسادة، ويُدنى من الحائط حتى لاينكب على وجهه، ويُسند من ورائه بتراب حتى لاينقلب، ثم يُنصب عليه اللبن، ويُسد بالطين أو بالجبس والرمل حتى لايصل التراب إليه، ثم يُحثَى على القبر ثلاث حثيات، ويقال عند وضعه: «بسم الله وعلى سُنّة رسول الله ﷺ. اللهمّ أجِرْه من الشيطان، ومن عذاب القبر، وجاف الأرضَ عن جنبيه، وصعّد روحه، ولقّها منك رضواناً». وإذا فرغ من اللحد أُهيل عليه التراب، ويُرفع القبر قدر شبر عن الأرض ليُعرف أنه قبر، ويُرش عليه ليلتزق التراب، وتسنيمه أفضل، ويُكره التسطيح، ولا يُكرَه الوقوف على القبر بعد الدفن للدعاء للميت. وإذا دفنت الجماعة فى القبر الواحد، قُدّم الأفضل منهم إلى القبْلة، ثم الذى يليه على حسب تقديمهم فى إمامة الصلاة، ويُجعل حاجز من التراب بين كل اثنين، أو يُجعل رأس أحدهم عند رِجل الآخر، وإذا كانت الجماعة رجلاً وامرأة وصبياً فى قبر واحد، جُعل الرجل مما يلى القبلة، والمرأة خلفه، والصبى خلفهما، وبين كل اثنين حاجز من التراب. ولا يدفن اثنان فى قبر واحد إلا لضرورة. والدفن فى مقابر المسلمين أفضل، وحيث يكثر دفن الصالحين والشهداء وفى البقاع الشريفة، وأولى الناس بدفن

الرجل أقاربه، وأولى الناس بدفن الزوجة محارمها، ثم الزوج، ثم أهل الدِّين، ويُستحب دفن الشهيد وقتيل الحرب حيث قتل، ولاينقل الميت إلى بلده إلا لغرض صحيح أو ضرورة. وإن مات الميت في سفينة مبحرة، انتظروا أن يصلوا ميناءً مدة يوم أو يومين، فإن خافوا الفساد غسّلوه وكفّنوه وحنّطوه وصلّوا عليه، وأُثقل بشيء وأُلقي في الماء. ويُدفن الشهيد بثيابه - وليس هذا بحتم. ومن فاتته الصلاة على الميت في المسجد فله أن يصلي عليه قبل أن يدفن،وتعاد الصلاة عليه قبل الدفن جماعةً أو فرادى. فإذا دفن صلى عليه على القبر.ويجوز الدفن ليلاً كالنهار، والنهار أفضل، وإن دفن من غير غسل أو إلى غير القبلة، يجوز نبش القبر واستخراج الجثة لغسلها، ثم تدفن وتُوجَّه إلى القبلة، إلا أن يُخاف أن تتهرأ الجثة، فتترك مكانها.

●●●

١٢٩٢. «زيارة القبور وقبر الرسول  »

زيارة القبور،كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾(التكاثر)، من شواغل المباهين بالكثرة في المال والعيال، وكان أهل الجاهلية يفتخرون بالأموات؛ وفي اللغة يقال لمن مات: «قد زار قبره»؛ وفي الآية وعيد لمن اشتغل بالدنيا حتى ليزور قبره. والمقابر جمع مقبرة، والقبور جمع قبر، وزيارتها في الطب النفسي لايُنصح بها لمن يشكو اضطرابات نفسية، فقد تتحول الزيارات إلى هوس بالقبور، وبالموتى، وشُغْل بهما، وهو ما يسمى **necrophilia**، فإذا كانت الزيارات للقبور من باب التأسّي فإنها تُلين القلب القاسي بالتذكير بالأعزاء من الموتى، وعند الذين يخشون الله فإنها تذكّر بالآخرة، ويُحمل ذلك على قصر الأمل، والزهد في الدنيا. وفي الحديث: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تُزهّد في الدنيا وتُذكّر الآخرة» أخرجه ابن ماجه، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور، يعني النساء، وكأنه ﷺ كره لهن زيارتها لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن، ومع ذلك فالرخصة كما وردت في الحديث للرجال والنساء، وقوله ﷺ «زوروا القبور» تَعُمّ الرجال والنساء طالما أن الزيارة للاعتبار، وفيها المشاهدة والمعاينة لمن يقصد وجه الله وإصلاح فساد قلبه، ونفع الميت بتلاوة القرآن والدعاء، وإلا فالزيارة مكروهة. وللزيارة آداب منها: تجنّب المشي على المقابر والجلوس عليها. والسلام على الموتى، والتأمّل لما آلوا إليه، وصيرورتهم تحت التراب، وانقطاعهم عن الأهل والأحباب، وربما كان منهم قوّاد الجيوش، وعباقرة العلماء، وأصحاب المناصب والأموال، حتى جاءهم الموت لم يحتسبوه، وهبط عليهم الهول لم يرتقبوه، ويفكّر الزائر

في ذلك، وكيف أن المال والمنصب والجاه والسلطان قد زالوا جميعاً، وانصرف عنهم الأحياء والأنبياء، والأزواج والأبناء والإخوة والخلاّن، ولم يبق لهم إلا صالح الأعمال، وأما أجسادهم التي كانت مثلاً في القوة والجلاد، ووجوههم التي كانت علامات في الحُسن والجمال، وألسنتهم التي كانت آيات في البلاغة والبيان، فكل ذلك أكله الدود وأبلاه التراب، وهكذا سيكون الزائر، ويكون مآله، فإذا قدّر الأمور هكذا فربما يعتبر، وتزول عنه أغيار الدنيا فيزهد فيها، ويُقبل على طاعة الله. ومن التذكير بالموت في الحال والمآل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾(التوبة٨٤)، والآية نصّ في عدم الصلاة على الميت: **الفاسق، أو الكافر**، أو المنافق، وعدم القيام على القبور إلا للمؤمنين، للاستغفار لهم، وهومن أكبر القُربات في حقّهم، وشُرع لهم، وفي الرواية أن رسول اللهﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت، وقف على قبره وقال: «**استغفروا لأخيكم وأسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل**» أخرجه أبو داود، وكان يزور قبور أصحابه ويسلّم عليهم كلما ألمّ به المرض واشتدت به العلّة، وكان يقول لهم: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**» ، أو يقول: «**السلام عليكم أهل القبور - ، من كان منكم من المسلمين والمؤمنين. أنتم فَرَطٌ لنا، وإنّا بكم لاحقون، وإناّ للّه وإنّا إليه راجعون. اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تَفْتنّا بعدهم**». وفي الحديث عن زائر القبور: «**لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه**»، يقول ذلك لحزنه على الدين الذي ذهب، وغلبة الفلسفات الباطلة وكثرة الداعين لها، وظهور الاستبداد والطغيان، والعمالة للأجنبي، وفساد نُظم الحكم، وسيادة اليهود والدول الإمبريالية، وسَحْقها للقومية والوطنية، ومحاربتها للعقيدة والقيم والمبادىء والأخلاق، وانتشار العلمانية والإلحاد، والعولمة، والليبرالية. وفي الآية: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾(فاطر٢٢) تشبيه لهؤلاء بالموتى في القبور، قد سُلبوا المدارك والحواس، وهكذا هؤلاء **العلمانيون والليبراليون والعَوْلميون** أعداء الإسلام، صمّوا آذانهم عن الدعوة، ونأت قلوبهم عن الإيمان، فلم تعد تنفعهم هداية، وذلك هو بعض اعتبار زيارة القبور. وأما أن الموتى: يسمعون على الحقيقة وليس على المجاز، فربما ذلك معنى الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ**﴾(فاطر٢٢)، فهو تعالى قادر على أن يسمع الموتى من المؤمنين استغفار ذويهم من زائريهم، وهو قوله تعالى: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ (الأنعام١٢٢)، وقوله: ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**﴾ (هود٢٤)، فالمؤمن - كما قيل - بصير سميع، سواء كان حياً أو كان ميتاً، وله نور يكتنفه

من حوله في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة، إلى أن يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون. والكافر أعمى وأصم ومن حوله الظلمات، سواء في الدنيا، أو في القبر، أوفي الآخرة، ولاخروج له منها، إلى أن يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم. وإذن فزيارة القبور مستحبة بقصد الاعتبار والاستغفار، وليس بقصد التكاثر والتباهي والتفاخر، ومن القبور المستحب زيارتها : قبر النبيّ ﷺ، ومن آداب زيارة مسجده ﷺ « أن يقدّم الزائر رجله اليمنى ويقول"باسم الله، و الصلاة على رسول الله؛ اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لي، وافتح لي أبواب رحمتك"، فإذا خرج قال مثل ذلك وعندما يتجه إلى قبره ﷺ ، يولّي ظهره للقِبْلة، ويستقبل القبر ويقول: "السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته . اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين. وخاتم النبيين، محمد، عبدك، ونبيّك، ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة .اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد. وعلى إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم ترحّم على محمد، وعلى آل محمد، كما ترحّمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم تحنّن على محمد، وعلى آل محمد، كما تحنّنت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد". ثم يدعو الزائر لوالديه، ولأهله وإخوانه، والمسلمين أجمعين، ثم يتقدّم قليلاً ويسلّم على صاحبَي رسول الله ﷺ أبي بكر، وعمر. ولايُستحب التمسُّح بحائط القبر، ولا تقبيله، وأما المنبر فيضع يده على مقعد النبيّ ﷺ ، ثم يضعها على وجهه، وهذه الطقوس يؤدّيها المؤمن ولها تأثيرها النفسي الهائل عليه، وتستحدث له السكينة والطمأنينة، وليست من قبيل التخلّف العقلي أو الحضاري، فالطقوس نفعلها في كل شيء وفي كل مجال، وما من فكرة إلا وتُلهم بسلوكيات معينة .

●●●

١٢٩٣. «أسماء يوم القيامة»

يقسم الله تعالى بيوم القيامة فيقول: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ (القيامة١)، وهو اليوم الذي **يقوم** فيه الناس من القبور للحساب، ولذا كان اسمه «يوم القيامة»؛ وهو﴿**يَوْمِ الدِّينِ**﴾ (الفاتحة٤) أي يوم الجمع، ويوم الجزاء والحساب على الأعمال كقوله: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ**﴾(التغابن٩)، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه أهل السماء وأهل الأرض، ويجمع الأولين والآخرين، فعندئذ يعرف الكافر أن دينه الكفر، ويعرف المؤمن أن دينه الإيمان.

ويجمع بين كل عبد وعمله، وبين الظالم والمظلوم، وبين كل نبيّ وأمته، وبين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصى، وذلك ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾(التغابن٩) سُمّى كذلك لأن أهل الجنة غَبنوا فيه أهل النار، واستقلّوا بالجنة دون أهل النار،والله تعالى قد خلق الجنة لتسع الناس جميعاً، فلما انقسموا إلى أهل جنة وأهل نار، آل ما كان من نصيب أهل النار من الجنة إلى أهل الجنة، وما كان من نصيب أهل الجنة من النار إلى أهل النار، فكأن كلا منهما أخذ ما يستحق بالمبادلة، فوقع الغُبن لمّا استبدل أهل النار الخير بالشر، والجيد بالردىء، والنعيم بالعذاب. «ويوم القيامة» هو ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (العنكبوت٣٦): نسبةً إلى الآخرة المقابل «للأولى» وهى الدنيا؛ والآخرة: هى النهاية ودار البقاء، والآخر يفيد أن هناك «أول» ، وكل ما له أول له آخر، والحياة كانت ابتداءاً وآخرتها الموت ثم البعث. و«اليوم الآخر»: هو يوم يُنفَخ فى الصور فتموت كل الخلائق (طه ١٠٢)، ثم ينفخ النفخة الثانية فيقومون يسعون إلى ربّهم. ويوم القيامة هو «اليوم المحيط»، كقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ (هود): لأنه يحيط بالكفّار؛ و﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ (إبراهيم): لأن فيه الحساب الشديد والحساب اليسير؛ و ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ (مريم٣٩): لأن فيه يُعطى كل إنسان كتابه فعندئذ تنتابه إما البهجة وإما الحسرة، وهو بالنسبة للكافرين يوم الحسرة وليس يوم البهجة؛ و«يوم الحشر» ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ (مريم٨٥) لأن فيه يجمع المتقون إلى الرحمن وفداً، ويساق المجرمون إلى جهنم ورداً يعنى مشاةً عَطاشى؛ و﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ (الروم٥٦) لأن فيه يُبعث الناس من قبورهم مع النفخة الثانية فى الصور؛ و﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (الصافات٢١): وفيه يُفصَل المجرمون عن المؤمنين، ويفصل بين الظالم والمظلوم، وبين أهل الحق وأهل الباطل، ويفصل فى أمر كل إنسان، فإما إلى الجنة أو إلى النار، و﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ (غافر١٨): وسميت القيامة بالآزفة لأنها قريبة، وكل ما هو آتٍ قريب، كقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ (النجم٥٧) أى قَرُبت الساعة؛و﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾(ق) الذى وُعد الكفار أن يكون عذابهم فيه؛و﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (ق٤٢): أى الخروج من القبور؛ و﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (غافر٣٢): وسُمّى كذلك لمناداة الناس فيه على بعضهم البعض، فينادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة؛ كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(آل عمران٢٥): وهو اليوم الذى لاشك آت؛ و﴿الْيَوْمَ الْمَشْهُودُ﴾ (هود١٠٣): اى الذى يشهده البرّ والفاجر، ويشهده أهل السماء؛و ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (غافر١٥): هو يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض، ويلتقى الخلق والخالق، والعابدون والمعبودون، والظالم والمظلوم، ويوم يلقى كل إنسان جزاء عمله، ويوم يلتقى

الأولون والآخرون؛ و﴿**الْيَوْمِ الْمَعْلُومِ**﴾(الواقعة٥٠):وهو الذى حدّده الله تعالى، ولايعلمه سواه؛و﴿**الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ** ﴾(البروج٢): أى الموعود به؛ و ﴿**الْيَوْمِ الْعَظِيمِ**﴾ (الأنعام١٥): هو الشاق والصعب. **والعظيمة**: هى النازلة الشديدة؛ و ﴿**يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾ (هود٣): يسمى كذلك لما فيه من أهوال؛ و﴿**يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ (هود٢٦): لأنه يوم الألم الذى لايتصوره إنسان ولايخطر فى بال بشر. والألم الموجع أشد من الألم المؤلم؛ و﴿**يَوْمٌ عَصِيبٌ**﴾(هود٧٧): هو الشديد فى وطأته، ومجمع الشر؛ ﴿**وَيَوْمَ الْفَتْحِ**﴾ (السجدة٢٩): والفتح هو القضاء. أى هو اليوم الذى يُقضَى فيه بين الناس، فيُثاب المحسن ويُعاقب المسىء.

•••

١٢٩٤.﴿يوم التناد من أسماء يوم القيامة﴾

سُمّى يوم القيامة «**يوم التناد**»، لمناداة الناس بعضهم بعضاً فى ذلك اليوم، فينادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿ **أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا** ﴾(الأعراف٤٤)؛ وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿ **أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ**﴾(الأعراف٥٠)؛وينادى المنادى عند وزن الأعمال فلان قد سعد سعادة لايشقى بعدها أبداً. وتنادى الملائكة أصحاب الجنة:﴿**أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(الأعراف٤٣) ويُنادَى كل قوم بإمامهم.

ويوم **التناد** أيضاً هو **يوم التنافر**، من ندّ يندّ، يعنى يولّى هارباً، فإذا سمع المجرمون زفير جهنم نَدُّوا هاربين، فسمّوه لذلك: ﴿**يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ**﴾ (الأنبياء)، يوم ينفخ **إسرافيل** فى الصور **نفخة الفزع**، فترتجف الأرض، ويميد الناس عن ظهرها، وتُذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، ويتطاير الناس هاربين مدبرين، ينادى بعضهم بعضاً، كقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (غافر) . وقيل سمى يوم القيامة «**يوم التناد**»، لأن الكافر ينادَى فيه بالويل والثبور والحسرة.

•••

١٢٩٥.﴿الطامة الكبرى من أسماء القيامة﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ**﴾ (النازعات): أن **الطامة الكبرى** هى الداهية العظمى، يوم يُنفَخ فى الصور **النفخة الثانية** فتكون القيامة ، سميت بذلك لأنها تطمّ على كل شىء، **وتعمّ** كل شىء. **والطامة** فى اللغة: هى الداهية التى لا تستطاع، حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. .

•••

١٢٩٦.﴿القارعة من أسماء القيامة﴾

«القارعة» هى القيامة، واسمها «القارعة»: لأنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، فاستحقت أن يُعبّرعنها بهذه الآيات: ﴿الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (القارعة)،وفى اللغة يقال: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة، إذا وقع بهم السوء الشديد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾(الرعد٣١)، وهى الواحدة من شدائد الدهر، وأصل القرع الضرب بشدة. وتكرار كلمة «القارعة» ثلاث مرات، فى الآية الأولى للتذكير، وفى الثانية للتهويل، وفى الثالثة للاستفهام تقريراً لبيان عِظَم شأنها، فهى أكبر وأخطر من أن يدركها خيال ويبلُغها وَهْم إنسان.



١٢٩٧.﴿الغاشية من أسماء القيامة﴾

قيل سُمّيت النار فى الآية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾(الغاشية١) بالغاشية، لأنها تغشى الوجوه، من قوله تعالى﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾(إبراهيم٥٠). وقيل: الغاشية هم أهل النار يغشونها، أى يقتحمونها. وقيل: «الغاشية» هى القيامة، تغشى الناس بأهوالها، وواضح من مشاهد السورة أن المقصود بالغاشية القيامة، لأن بعض هذه المشاهد يتناول عذاب أهل النار، وبعضها ما يلقاه المؤمن فى ذلك اليوم من وجوه البِرّ والإحسان.



١٢٩٨.﴿الطبيعة يوم القيامة﴾

فى يوم القيامة: ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض (الزمر٦٨)، ثم ينفخ للمرة الثانية فيبعث الخلق (الزمر٦٨)، ويُجمعون جمعاً، ويُحشَرون إلى ربّهم (البقرة٣-٢)،وترجف الأرض (المزمل ١٤)، وتُزلزَل، وتُخرج أثقالها (الزلزلة ١ / ٢)، وتمور السماء موراً، وتسير الجبال سيْراً كأنها السراب(الطور-١)، وتكون السماء كالمُهْل، وتكون الجبال كالعِهْن (المعارج٩)، وتُحمل الأرض والجبال فتدكّان دكة واحدة (الحاقة١٤)، وتُنسف الجبال(المرسلات-١)، وتُبَسُّ بَسّاً (الواقعة٥)، حتى تصير كثيبًا مهيلاً (المزمل١٤)، وتنفطر السماء (الانفطار١)، وتشقّق بالغمام (الفرقان٢٥)، فكأنها وردة (الرحمن٣٧)، ثم تُكشَط (التكوير١١)، فتنتثر كواكبها (الانفطار٢)، ويُخسف بالقمر ويُجمع بالشمس (القيامة٨)، وتكوّر الشمس(التكوير١)، وتنكدر النجوم (التكوير٢)، وتُسجّر البحار التكوير٦)، وتتفجّر (الانفطار٣)، وتُمدّ الأرض (الانشقاق٣)، وتشقّق(ق٤٤)، ويقبضها الله جميعاً (الزمر٦٧)،وتُبعثر القبور(الانفطار٤).



١٢٩٩.﴿مشاهد يوم القيامة﴾

مشاهد يوم القيامة رهيبة ومفزعة، وأوصاف هذا اليوم في القرآن إنما للإنذار والتحذير كقوله تعالى: ﴿**هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** (٥٢)﴾ (إبراهيم). وبلاغات القرآن للتخويف من عقابه تعالى، وموضوعها إعلام السامعين أن الله قادرٌ وعالمٌ، وأنه إله واحد، استدلالاً بالحجج والبراهين. ولتكون مشاهد يوم القيامة ذكرى لأصحاب العقول لعلهم يتعظون. ومن أوصاف هذه المشاهد قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** (٤٨) **وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** (٤٩) **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ** (٥٠)﴾ (إبراهيم). وتبديل الأرض: هو تغيير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها. ويوم القيامة تُمَدّ الأرض مَدّ الأديم، وتزيد سعتها. وتبديل **السماء** هو تكوير شمسها وقمرها، وتناثُر نجومها، وأن تصبح مرة كالمُهل، ومرة كالدِّهان. وفي الحديث: أن الأرض تزول. فقد سأله اليهودى أين يكون الناس يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال **رسول** الله ﷺ: «**في الظلمة دون الجسر**». وفي حديث **عائشة** قال لها «**على الصراط**». وإذن فتبديل الأرض والسموات هو إزالتهما، وهو أمرٌ منطقى ومعقول، فقنبلة **هيروشيما ونجازاكي** أزالتا المدينتين تماما، فما بالنا بأن تُنسَف الشمس والقمر والجبال ؟ ألا تُزال الأرض أيضاً والسموات ؟! إنه الدمار الكامل فلا يكون شيء ! وفي الحديث: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النَّقى**(يعنى الدقيق الخالص)، **ليس فيها علَم** (أى أثر) **لأحد**». وفي قوله تعالى ﴿**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** (٤٩) **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ** (٥٠)﴾(إبراهيم) المجرمون ـ هم الكفار والمشركون ـ أعطاهم اسم «المجرمين»، و«**مقرّنين**» أى مشدودين، و«**في الأصفاد**»، أى الأغلال، فيُقْرن كل كافر مع قرينه من أهل المعاصى في الدنيا، وقد تسربلوا بقمصان من قطران، بينما النار تضرب وجوههم حتى لتغشيها!

●●●

١٣٠٠.﴿الصور والنفخ فيه يوم القيامة﴾

المستشرقون على القول بأن محمداً سرق مصطلح «الصُّور» عن اليهودية، ويشهد الله أن الصُّور مصطلح قرآنى محض، قيل هو سريانى. والأصح أنه إن كان في العربية وفي السريانية فهو توافق بين اللغتين، لأن **صور** منها الفعل صار، أى **صوّت**، والعامة تقول صورّه بصوته، أى أصمّه بشدّة صوته. والصُّور هو البوق، وهو القرن، وميزة الصور عن

الكلمتين الأخريين: أن البوق: للتزمير للّهوْ، ولجمع الناس؛ والقرن: للاستنفار فى الحرب، وأما الصور: فهو وحده آلة النفخ يوم القيامة، يخترق حاجز الصوت فيميت مرة ويحيى أخرى. والبوق والقرن عند اليهود فى التوراة، ولا يوجد فى أى من أسفار اليهود كلمة «صور» ، وعندهم «عيد الأبواق»، يبوّقون بالأبواق فى أول أكتوبر، ويحتفلون بجمع الثمار وزراعة البذور، ويذبحون الذبائح، و«أبواق الهتاف» ذات أصوات عالية. والصور فى القرآن يتكرر عشر مرات والفرق بين البوق والقرن والصور، أن البوق والقرن أداتان يصنعهما البشر، ولكن الصور أداة من صنع الله، وينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة نفخةً واحدة (الحاقة ١٣)، فيفزع مَن فى السموات ومن فى الأرض (الزمر ٦٨، والنمل ٨٧) ، ويُصعَق الناس ولا يبقى أحد إلا مات، ثم ينفخ فيه مرة أخرى (الزمر ٦٨)، فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون (يس ٥١)، فيُجمَعون جمعاً (الكهف ٦٩)، ويُحشَر المجرمون زُرقاً (طه ١٠٢)، أى من الخوف، ويأتون أفواجاً (النبأ ١٨)، لا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (المؤمنون ١٠١)، ذلك﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ (ق). وفى الحديث ان الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور وأعطاه إسرافيل، فهو ينتظر الأمر له بالنفخ فيه. وقال: «الصور من العظم، كهيئة البوق، ينفخ فيه ثلاث مرات، فالنفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث والقيام لرّب العالمين». والحديث مختلَفٌ فيه، وقيل هما «نفختان» لا غير، لأن نفخة الفزع هى نفخة الصعق، فلأنهم فزعوا ماتوا منه، وفى النفخة الثانية يحيون فزعين يقولون ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾﴾ (يس). وقد يكون الفزع هو الإسراع فى الاستجابة، أو يكون هو الخوف المعهود.



١٣٠١.﴿الصيحة يوم القيامة﴾

الصيحة: هى الصوت الشديد كالصاعقة، عوقب بها قوم صالح فى الدنيا، فصاح فيهم جبريل صيحة واحدة (هود ٦٧)، فتقطّعت بها قلوبهم وصاروا هلكى هامدين كغثاء السيل (المؤمنون ٤١)، وجعلتهم كالهشيم المحتظر (القمر ٣١)؛ وقوم شعيب (هود ٩٤) أصبحوا بالصيحة جاثمين فى ديارهم، كأن لم يغنوا فيها؛ وقوم لوط (الحجر ٧٣)، أخذتهم الصيحة مشرقين، يعنى وقت شروق الشمس؛ وأصحاب الأيكة (الحجر ٨٣)، أخذتهم الصيحة مصبحين، أى وقت الصبح؛ وأصحاب القرية (يس ٢٩)، قضت عليهم الصيحة وخمدت بها أنفاسهم؛ وكل هؤلاء ما أصابتهم إلا صيحة واحدة ما كان لهم منها رجوع (ص١٥). فإذا كان يوم القيامة أوكلت الصيحة بإسرافيل، وصيحته يومئذ صيحتان، فى الأولى: يكون الموت يأتى الناس بغتة وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا

يرجعــون إلى أهلهم (يس ٤٩/ ٥٠)، وفي الثانـية: يخرجــون من الأجداث ينسلون (يس ٥٣). وفي يوم القيامة ينادى جبريل، **وينفخ** إسرافيل. فإذا كانت **الصيحة الثانية - صيحة البــعـث** يكون الخروج، أى الاجتماع للحســاب، وتشقق الأرض عنهم سراعاً، ويحشرون (ق ٤١/ ٤٤).



١٣٠٢. ﴿يوم القيامة فى سورة التكوير﴾

من سرّه أن يُرضى نزعته للمعرفة، وأن يرى يوم القـيامة كأنه رأى عيْن، فليقرأ: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ①﴾، ففيها المشاهد المذهلة، والصُّوَر المُبهرة، مما يقشعر له الجلد، ويصيب القارئ الخاشع بالخوف الشـديد يأخذ بمجامع النفـس، **فـالنجـوم** فى هذا اليـوم تنكدر، والجبال تُسيَّر، **والعشار** تُعطَّل، **والوحـوش** تُحشر، والبحار تُسجَر، **والنفوس** تُزوَّج، وتُسـأل **المـوءودة** عن الذنب الذى به قُتلت، وتُنشَر **الصـحف**، وتُكشَط **السماء**، وتُسـعَّر **الجحيم**، وتُزلَف **الجنة**، فهذه بعض بانوراما هذا اليوم الذى لا نعلم حقيقة: هل هو يوم؟ وكيف يكون يوماً كأيامنا والشـمس فيه قد كــوِّرت، أى تظل تلف إلى أن تنمـحى أو تسقط، وأصل **التكوير** من كار العمامة يكوِّرها أى ينكّسها. **وانكدار النجوم** يوم القيامة هو: تناثرها وتهافـتها وسقوطهـا. وتسيير الجـبال أن تُقلَع من الأرض فتتطاير فـى الفضـاء. **وتعطيل العـشـار**: أن لا تلد، وخوطب العرب بأمر العشار، لأن مـالهم وعيشهم أكثر من النوق العشار، إلا أنهم يـوم القيامة يشهـدون الوحوش والدواب محشورة بعـشارها، فلا يعبأون بها. **وحَشْـر الوحوش**: يعنى جمعها. **وتسجير البحار**: أى امتلاؤها حتى لتفيض على بعضها البعض، ويرُسَل عذبُها على مالحها، ومالحُها على عَذْبها، وتصير بحراً واحداً ويُرفَع البرزخ بـينها. **وسـؤال الموءودة** عن الذنب الذى به وُئدت. أى دُسَّت فى التـراب. وقرئ سألت بالفتح. أى تَسأل هى مَن وأدها. وسـؤالهُا سؤال توبيخ وتبكيت. لأن قتْلها لا يصح إلا بذنب، فبأى ذنب فعلوا بهـا ما فعلوا، وفى ذلك دليلٌ على **أن التـعـذيب لا يستـحق إلا بذنب**، ومن ثم كان السؤال **هل يُعذّب أطفال** المشـركين بشِرْك آبائهم؟ والجواب كلا، لأنهم لا ذنب لهم فى شِرْك الآباء.

وهذه المظاهر المادية ليوم القيـامة يقول **الصـوفيـة** إن مثلها يحدث لـهم عند استيلاء الأحوال عليهم، وحينئذ تكون **قيامتهم**، فتتجلى مثل هذه المشاهد معانٍ فى قلوبهم، ومع تراوحهم بين البسط والقبض، تنكسف شموسهم، وتنكدر نجوم علومهم.



١٣٠٣. ﴿للساعة زلزلة﴾

فى الآية: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ (الحج)، أن للساعة أو القيامة زلزلة، وهى شدّة الحركة، كقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ ٢١٤﴾ (البقرة)، وأصلها من زلّ عن الموضع، أى زال عنه وتحرك، وتزلزلت قدمه أى تحركت، والزلزلة فى الاصطلاح: إحدى شرائط الساعة، ومن إرهاصات يوم القيامة، يقول البعض رجماً بالغيب تكون فى النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها إن كانت تطلع!!



١٣٠٤. ﴿الساعة من يوم القيامة﴾

يتكرر هذا المصطلح فى القرآن: «الساعة» ٤٨ مرة، وليس فى اليهودية ولا النصرانية شبيهٌ به. وقيل الساعة هى يوم القيامة، وقيل: الساعة ليست هى هذا اليوم بطوله مهما كان هذا الطول، ولكنها من يوم القيامة، وفارق بين أن نقول ساعة ونقول يوماً. ويوم القيامة يوم ينفخ فى الصور فيصعق الناس، فليس من أحد إلا ويموت، ثم ينفخ فى الصور مرة ثانية فيبعث من فى القبور، ينسلون إلى ربّهم زرافات، فهذه هى الساعة: ساعة البعث والهرولة إلى حيث الحساب، سُمِّيت كذلك لسرعة مجرى الأحداث فيها، وسرعة الحساب، ولأننا يومئذ لا نرى إلا أننا قد عشنا فى الدنيا بمقدار ساعة، فإذا حانت الساعة، أى حان الحين، ووقعت واقعة القيامة جهاراً (الأنعام ٤٧)، فلا نشعر بها (الأعراف ٩٥)، ونُبهَت فلا نستطيع ردّها (الأنبياء ٤٠)، ويُبلس منا المجرمون (الروم ١٢)، ويتحسّرون على ما فرّطوا (الأنعام ٣١)، ويتفرّقون (الروم ١٤)، ويخسر المُبطلون (الجاثية ٢٧). وكان الكفار يحتجّون بأنهم لا يعرفون بالساعة، وأن معرفتهم بها ظنية لم يستيقنوها (الجاثية ٣٢)، وتساءلوا: أيّان مُرساها ؟ (الأعراف ١٨٧). ولم يكن المسئول عنها ـ وهو النبىّ ﷺ ، بأعرف عنها من السائلين، فكان جوابه: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ (الأعراف ١٨٧)، وقال للسائل عنها: «ولكنى سأخبرك عن أشراطها: إذا ولَدت الأمَة ربّها، وإذا تطاول رُعاة الإبل البُهْم فى البنيان». وقال «أشراط الساعة فى خمس لا يعلمهن إلا الله» ، والخمس التى لا يعملها إلا الله هى المشار إليها بمفاتيح الغيب (الأنعام ٥٩)، وفى الحديث: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله ـ لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطر إلا الله، ولا تدرى نفسٌ بأى أرض تموت إلا الله، ولايعلم متى تقوم الساعة إلا الله» أخرجه البخارى. ومعنى «أن تلد الأمة ربّها» أى يكثر العقوق فيعامل الأولاد أبويهما معاملة دنيا، بالإهانة ، والسب، والضرب، والاستخدام، ويحدث ذلك إذا فسدت البيوت، وساءت

التربية، وانهيار التعليم. ومفاده أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور: بحيث يصير الولد كأنه الأب، والبنت كأنها الأم، بينما الأب والأم لا حول لهما ولا طول، ويعملان للأولاد كالأُجراء لتحصيل المال لهم، ففى مثل أحوال مقلوبة كهذه، أن يصبح السافل عالياً، والعالى سافلاً، والجاهل يصير ملكاً ورئيساً للدولة، بينما العلماء مغمورون. وقوله «البُهْم» يعنى لا أحد يعرف عن أنساب هؤلاء الذين يتولون الحكم فى بلادنا شيئاً، فلا أصل لهم ولا فصل، فكأنهم حفاةٌ عراة، حفوا عن كل علم، وتعرّوا عن كل فضيلة، فكانوا طغاة مستبدين، جمعوا كل مقاليد الحكم فى أيديهم، والثروة فى خزائنهم. والحديث إشارة إلى أنه فى أوقات التردّى يتحكم قلة فى رءوس الأموال، ويملكون البلاد، قهراً واحتيالاً، فيسنون القوانين، لأن من يملك هو الذى يحكم. فإذا حكموا احتكروا لأنفسهم ولأولادهم وأنسبائهم وأصهارهم كل شيء، فتكثر أموالهم، وتنصرف همّتهم إلى بناء الفيلات، وإنشاء العمارات والمدن والمصايف والمشاتى، للهوهم وراحتهم، وليتفاخروا بها. ومن ذلك الحديث الآخر: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع»، ونحن نشهد ذلك فى بلادنا هذه الأزمان، فمن يكون هذا أو ذاك ممن نسمع عنهم ؟ ومع كل ذلك هل كان بوسع النبىّ ﷺ أن يعرف أشراطها أو علاماتها؟ فمن يعرف الأشراط والعلامات بوسعه أن يعرف التوقيت، وما كان النبىّ ﷺ يعرف أيهما: الأشراط والتوقيت! وقوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ①﴾ (القمر)، أنه حين تحين الساعة ينشق القمر، وفى آية أخرى تُكوَّر الشمس: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ①﴾ (التكوير)، يعنى ينهدم صرح العالم، ولكل إنسان ساعته، كقوله تعالى: ﴿**قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ** ③⓪﴾ (سبأ)، والميعاد الميقات، مثله مثل الأجل، كقوله: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ③④﴾ (الأعراف)، فمثلما الأجل علمه عند الله، فكذلك الساعة علمها عنده تعالى. والساعة مدة من الوقت، كقوله: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ** ④⑤﴾ (يونس)، استقصروا طول مقامهم فى القبور لهول ما يرون من البعث، ومثل ذلك قولهم: ﴿**قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ①①③﴾ (المؤمنون).



١٣٠٥. ﴿الساعة علمها عند الله وتأتى بغتة﴾

سأل اليهود النبى ﷺ عن الساعة، وسأله المشركون لفرط الإنكار: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا**

تَأتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ (الاعراف). والسؤال يثقل عن المسألة، لأنه ﷺ لا يعلم الساعة، ولا يُظهر علاماتها إلا اللّه تعالى، ولا تأتى إلا بغتة، وما كان لهم أن يسألوا النبىّ ﷺ وكأنما هو يعلمها، وأنه الحفىُّ العالم بها، والمستقصى فى السؤال عنها، وكان إلحاحهم فى سؤاله لأنهم قالوا بيننا وبينك قرابة، فأسِرّ إلينا بوقت الساعة. وكان الجواب: **﴿عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾**، تأكيداً لما سبق: **﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾**، ليس من باب التكرار، وإنما أحد العِلْمين لوقوعها، والآخر لكُنهها.

•••

١٣٠٦. ﴿علامات الساعة عشر﴾

فى التنزيل: **﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾** (الاحزاب)، والآية إثبات بأنه لا يعلم الساعة إلا الله، وقيل إن النبىّ ﷺ يعلم علاماتها، وقيل من يعلم علاماتها فقد علم وقتها. وهذا مخالف للآية، وليس فى ذلك طعنٌ فى نبوته، لأنه ليس من شرط النبىّ أن يعلم الغيب، كقوله: **﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾** (الأنعام)، وقوله: **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾**(الأعراف). وقوله تعالى: **﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾** أى وما يعلمك، يعنى أنه لا يعلم الساعة يقيناً، إلا أنها ربما تكون قريبة، كقوله: **﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾**، أى فى الزمان القريب. غير أن بعض أحاديث آخر الزمان فيها أن النبىّ ﷺ يعرف علامات الساعة، وأبو هريرة هو ناقل هذا الحديث، يقول: **«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة؛ وحتى يُبعث دجّالون كذّابون، قريبٌ من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يُقبَض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرَج ـ وهو القَتْل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض، يهُمّ رَبّ المال مَن يقبل صدقته، وحتى يعرضه عليه فيقول: لا أَرَبَ لى به؛ وحتى يتطاول الناس فى البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتنى مكانه! وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت فى إيمانها خيراً. ولتقومن الساعة، وقد نَشَر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه؛ ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نفحته فلا يَطعَمُه؛ ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه؛ ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**، وكل هذه العلامات عادية ومتوقعة، ولا تدّعى العلم بالغيب أو العلم بالساعة، والحديث على ذلك ضعيف لأنه لايضيف جديداً ولايخبر عن غيب. وفى الرواية عن أبى هريرة

أيضاً أن النبىّ ﷺ حضر أصحابه يتذاكرون الساعة فقال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات**»، فذكر: **الدخان؛ والدجّال؛ والدابّة؛ وطلوع الشمس من مغربها؛ ونزول عيسى بن مريم؛ ويأجوج ومأجوج؛ وثلاثة خسوف**: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، **وخسف بجزيرة العرب**؛ وآخر- ذلك نار **تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى محشرهم**. وهذه آقل من عشر آيات! وكلها رجمٌ بالغيب، والنبىّ ﷺ لا يعلم الغيب، والحديث يعارض حديثاً آخر لأنس، فيه: «**أن أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب**»، وفى هذا الحديث أنّ **النار** هى آخر الأشراط. وحديث آخر لابن مسعود، يقول: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**» وفى رواية «**حثالة الناس**». وحديث لحذيفة بن اليمان يقول: «**ويبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز، يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله فنحن نقولها**». وكل هذه الأحاديث مستشكلة لأنها تنفى بعضها البعض وتعارض القرآن! والغالب أنها من **الإسرائيليات يقيناً**!



١٣٠٧. ﴿يوم التغابن هو يوم القيامة﴾

سُمّى كذلك للآية **﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴿٩﴾﴾** (التغابن)، وهو اليوم الذى يغبن فيه أهل الجنة أهل النار، أى أن أهل الجنة يأخذون الجنة، وأهل النار يأخذون النار على طريق **المبادلة**، **فيقع الغبن** لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالردىء، والنعيم بالعذاب، يقال: **غبنتُ فلاناً**، إذا بايعته أو شاريته، فكان النقص عليه والغلبة لى. وكذا أهل الجنة وأهل النار. **وغُبن المؤمن** بتقصيره فى الإيمان، وكذا الكافر، غُبنه بترك الإيمان. ومن ارتفعت منزلته فى الجنة فقد غبن من كان دون منزلته. وتمثيل الغبن بالشراء والبيع فى قوله: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾** (البقرة)، فلما ذكر أن الكفّار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا فى تجارتهم بل خسروا، ذكر أيضاً أنهم غُبنوا، ومع ذلك فإن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة. والله تعالى خلق فريقاً للجنة وفريقاً للنار، ومنازل كلٌ موضوعة فى الجنة والنار، وقد يسبق الخذلان على العبد فيكون من أهل النار، فيحصل **الموفّق** على منزل **المخذول** فى الجنة، ويحصل المخذول على منزل الموفق فى النار، فكأنه وقع **التبادل** فحصل **التغابن**. وقد يقع التغابن فى غير ذلك، والمراد فى الآية التغابن الذى لا جبران لنهايته. ومن أمثلة التغابن فى الدنيا: الرجل يَعْلم العلم، فيعلّمه للناس ليعملوا به ويضيّعه هو ولا يعمل به، فيشقَى به ويعمل به من تعلّمه؛ والرجل يكسب المال ويشحّ عليه، وبسببه يفرّط فى طاعة ربّه، ولا يعمل بماله خيراً، ويتركه للورثة فيعملون به الطيب، فكسبوا وخسر هو؛ والرجل له الزوجة يتعسّف لها النفقة من الحلال والحرام، وتأكله الزوجة حلالاً، فيدخل النار وتدخل هى الجنة!

والغبن فى الدنيا محرّم لأنه من باب الخداع، والفرق بين غبن الدنيا وغبن الآخرة، أن غبن الدنيا يمكن أن يستدرك، بينما غبن الآخرة لا يُستدرَك أبداً.

ويقول بعض أهل الصلاح: إن الغبن مكتوب على الخَلْق أجمعين، ولا يلقى العبد ربّه إلا مغبوناً، لأن أى عمل لا يستوفى له ليحصل على ثوابه مستوفى، وفى الحديث من ذلك : «لا يلقى الله أحداً إلا نادماً، إنْ كان مسيئاً أن لم يحسن، وإن كان محسناً أن لم يزدد».

●●●

١٣٠٨. ﴿عند البعث الناس طبقات ثلاث﴾

الخَلْق عند الموت وعند البعث على درجات أو طبقات ثلاث : **﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾** (الواقعة)، فالطبقة الأولى: هى طبقة المقرّبين : وهم المحسنون السابقون بالدرجات العلا، وهؤلاء لهم الروْح، أى يُروَّح عنهم ويرحمون سواء عند الموت أو عند البعث؛ والريحان هو النبت المعروف، يراح لهم به برائحته الطيبة؛ والطبقة الثانية :طبقة أصحاب اليمين : وهؤلاء عليهم السلام: **﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾** (النحل)، أى يسلّم عليهم الملائكة، ويَسْلَمون من العذاب، ولنا منهم السَّلام، وعلينا لهم السَّلام، وذلك لهم إكرام بعد إكرام؛ والطبقة الثالثة: هى طبقة المكذّبين الضالين : وهم الذين يكذّبون بالبعث وقد ضلّوا عن الهدى والحق، فإنهم يُعنَتون عند الموت، وفى الآخرة يُستضافون بالحميم، وهو نقع النار يشوى البطون، ثم يصلون الجحيم.

●●●

١٣٠٩. ﴿الناس فى الآخرة إما أشقياء وإما سعداء﴾

يوم الآخرة **﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾** (هود)، يشهده البرّ والفاجر، والناس فيه صنفان: **﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾** (هود)، فالشقىّ يوم القيامة هو الذى كتبت عليه الشقاوة، والسعيد الذى كتبت عليه السعادة. وفى الرواية أن عمر بن الخطاب لمّا نزلت هذه الآية: **﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾**، سأل رسول الله ﷺ قال : يا نبىّ الله ، فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرغ منه، أو على شىء

لم يُفرغ منه ؟ فقال : «بل على شيء قد فُرغ منه وجرت به الأقلام، ولكن كلٌّ ميسرٌ لما خُلق له» أخرجه الترمذي، يعني: **أن كلّ إنسان له حدوده، وقدراته، وإمكاناته، وذكاؤه، ومواهبه، وطاقته، ووسعه، وفهمه، واستيعابه، وهذه أشياء معروفة له تعالى قبل أن يخلقه، فإذا خلقه في هذا النطاق، فما هو ميسرٌ له يأتيه ربما بالخير وربما بالشر، وله حرية أن يختار، وهو لذلك مسئول**، ومن ثم كان عليه أن يحاذر فيما يأتيه، فلا يتصادم مع آخرين، ومع القانون أو المجتمع، أو مع الشريعة، والله تعالى يعلم ما يمكن أن نأتيه، لأنه الذى خلقنا بهذه الإمكانات، وأهّلنا بها لأدوار إن نشأ نجعلها أدوار شر، وإن نشأ نجعلها أدوار خير، **والسعيد** هو من كان على وفاق مع أوامر ونواهى الله، **والشقى** من كان على غير وفاق معها وساير الشرّ والأشرار.

•••

١٣١٠. ﴿فى الحشر: هل تزوج النفوس؟﴾

فى الآية : ﴿**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** (٧)﴾ (التكوير)، قال النبىّ ﷺ : «**يُقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله**»، وقال عمر بن الخطاب: **يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح**. وقال ابن عباس : يقْرن كلُّ شكلٍ بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيُضم المُبرِّز فى الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى أمثالهم، **فالتزويج**: أن يقرن الشيء بمثله، والمعنى: وإذا النفوس قُرنت إلى أشكالها، سواء إلى الجنة أو إلى النار. وفى الآية : ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** (٢٢)﴾ (الصافات)، جُعل لهم أزواجٌ على أشباه أعمالهم، ليس بتزويج حقيقى، ولكنه تزويج معنوى، فأصحاب اليمين هؤلاء زوج يعنى **جماعة**، وأصحاب الشمال زوج، والسابقون زوج.

•••

١٣١١. ﴿الدار الآخرة هى الحيوان﴾

هى الجنة، سميت داراً لأنها للإقامة فيها والسكنى، كقوله تعالى : ﴿**الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** (٣٥)﴾ (فاطر)، وحددها فقال : ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** (٣٣)﴾ (فاطر)، والجنات ـ كقول ابن عباس ـ سبعٌ، هى : **جنة عدن**، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وجنة الوراثة، وجنة المتقين. وسميت الدار الآخرة : دار المتقين، كقوله: ﴿**وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** (٣٠) **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** (٣١)﴾ (النحل).

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ (الرعد)، فالدار غداً داران: دار للتقيّ المطيع، ودار للفاجر العاصي. والعُقبى آخر كل شيء، وعقبى الدار: هي الدار الآخرة؛ وأما عاقبة الدار: فهي دار الجزاء وهي سوء الدار، كقوله تعالى: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾ (القصص)، ونقيض ذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ (الرعد)، وسوء الدار هي جهنم، وهي أيضا دار البوار، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ (إبراهيم)، والبوار: هو الهلاك؛ والقرار: هو الإقامة، وبئست الإقامة في جهنم، مقارنةً بالإقامة في الجنة - وهي الدار الآخرة للمؤمنين: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ (العنكبوت): أى دار الحياة الباقية التي لاتزول ولا موت فيها، والحيوان: بمعنى الحياة، ويقال لكل شيء حيّ أنه حيوان، والدار الحيوان وعدها الله للمتقين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ (القصص).

●●●

١٣١٢. ﴿الجنة﴾

الجنة في القرآن لها دلالات، بعضها يعني أنها البستان كقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ... (٣٢)﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ (١٥)﴾ (سبأ)، وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧)﴾ (القلم)، وقوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾ (نوح). وأكثر دلالات الجنة أنها دار الجزاء تكون بعد الموت، وهذه هي الدلالة الاصطلاحية. وعند الصوفية الجنة ثلاث جنات: جنة الأفعال: وهي الجنة الصورية من جنس المطاعم اللذيذة والمشارب الهنية والمناكح البهية، ثواباً للأعمال الصالحة، وتسمى جنة الأعمال؛ وجنّة النفس: فلأن الصالح في هذا الاعتبار مادي، فالجنة مادية في مظهرها وإن كانت نفسية في مخبرها، وهي جنة الوراثة: وراثة الأخلاق الحاصلة بحُسن متابعة النبيّ ﷺ وأهل التُّقَى والصلاح، باعتبار الصالح هو الوارث للصالحين، وصلاحه أخلاقى، وسبب صلاحه كان صلاح مَن حوله كبيته، وأهل جيرته، وبلده، فالصالح يتحقق به في المكان جنةٌ، حيثما ظهر صلاحه وأثمرت دعواته؛

وجنّة الصفات : وهى الجنة المعنوية، من تجليات الصفات والأسماء الإلهية، وهى كذلك **جنة القلوب وجنة الذات** : وهى ما يكون عليه الموحّد من سعادة، وهو يشاهد فى الكون وفى نفسه دلائل وجوده تعالى، ويخلص منها إلى صفاته، ثم إلى ذاته تعالى، كواحد أحَد له مطلق العلم والقدرة.

والجنة فى اللغة من الجنّ والجنين، لاستتارهما، لأن الجنة ليست هى ما نشاهد ولكنها ما ندرك مما نشاهد، وما يتحصل فينا من مشاعر لما نشاهد، وهى مسائل مستترة تظل كذلك ما لم نَبُح بسرّها.

والجنة فى القرآن جنّات: **جنات عدن** ـ وهى **جنات الإقامة**؛ **وجنّات الفردوس** : وهى أعلى الجنان جميعها؛ **وجنة الخلد** : وهى التى وُعد المتقون، وكانت لهم جزاء ومصير (الفرقان ١٥)؛ **وجنات النعيم** : جُعلت للذين آمنوا وعملوا الصالحات، كقوله: **﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١)﴾** (التوبة)؛ و**﴿رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ(٢٢)﴾** (الشورى) : هى أعاليها وتمتاز بالخضرة والجمع رياض وروضات، وفى الآية **﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥)﴾** (الروم) أى فى روضة من رياض **الجنة** ينعمون، والحبرة هى السرور والفرح، والحبور هو السرور، وحبور أهل تلك الرياض هو **التسبيح** ؛ **وجنة المأوى** : عند سدرة المنتهى (النجم ١٤)، وهى «**جنة المبيت**»، قيل إنها الجنة التى آوى إليها آدم إلى أن أُخرج منها، وقيل هى فى السماء السابعة، وسميت كذلك لأن أرواح المؤمنين **تأوى** إليها، أو لأن جبريل وميكائيل **يأويان** إليها؛ **وجنات الخائفين** (الرحمن ٤٦)، يخافون أن يعصوا الله: **﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾** (الرحمن)، أى خاف قيام ربّه واطّلاعه عليه، أو خاف مقامه بين يدىّ ربّه للحساب فترك المعصية، وهما بستانان فى عرض الجنة، **﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾**(الرحمن) ، فهذه **أربع جنان**، يقال لهن «**جنات من خاف مقام ربّه**»، جنتان منهما **للسابقين المقرّبين**، وجنتان **لأصحاب اليمين**، وفى الأوليين من كل فاكهة زوجان، فعمّ ولم يخصّ، وفُرُش من الديباج، وحُور حُسنهن كحُسن الياقوت والمرجان؛ وفي الأخريين فاكهة ونخل ورمان ولم يقل من كل فاكهة، والفُرش لها رفارف خضراء ووشْىّ حسن، وحور خيّرات حسان لا يرقى حُسنهن إلى حُسن الياقوت والمرجان. والجنتان الأوليان كثيرتا الأغصان، والأخريان كثيرتا الخضرة. فهذا بعض ما فى هذه الجنات للمؤمنين، وما خفى كان أعظم: **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾** (السجدة)، وفى الحديث فى معنى الآية أن النبى ﷺ قال : قال **الله** عز وجل : «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» قيل ذلك لأعلى أهل الجنة منزلاً.

●●●

١٣١٣.﴿في القرآن: كلما تذكر النار ذكرت الجنة﴾

يتعاقب ذكر المؤمنين والكافرين في القرآن، وإذا ذكر جزاء الكافرين يتلوه جزاء المؤمنين، وكل عقاب يأتي بعده الثواب، ولا يُذكر الضلال إلا إذا ذُكر الهدى، يترافق التبشير والتحذير؛ وطريقة القرآن هي **الطريقة الجدلية**، بأن يعرض الشيء ونقيضة، ونقول عن ذلك : **طريقة المتقابلات**، ومنها أنه كلما تذكر النار ذكرت الجنة، فالأولى للتخويف، والثانية للترغيب، كقوله تعالى : **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾** (القمر)، و**﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾** (القمر)، أو كقوله تعالى : **﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾** (الحجرات)؛ أو كقوله : **﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿٥﴾﴾** (الفتح)، و**﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴿٦﴾﴾** (الفتح)؛ أو كقوله : **﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾** (الأعراف) و **﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾** (الأعراف).

●●●

١٣١٤.﴿الحسنى من أسماء الجنة﴾

يقول تعالى: **﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴿٩٥﴾﴾** (النساء): و«الحُسنى» هي الجنة وتأتي بهذا المعنى في القرآن **إحدى عشرة** مرة، وهي للذين أحسنوا (يونس٢٦)، وللذين استجابوا لربّهم (الرعد ١٨)، ويُجزَى بها المؤمنون الصالحون (الكهف ٨٨) والمصدّقون (الليل ٦)، وعكسها «السُّوأى»، وهي جهنم، كقوله: **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ ﴿١٠﴾﴾** (الروم).

١٣١٥.﴿الجنة مقام أمين﴾

يقول تعالى : **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾** (الدخان)، **والمقام** هو المكان، وهو **الإقامة** أيضاً، **والأمين** الذي يؤمن فيه من العذاب، والجنات العيون بدل من المقام الأمين، يعني أن الجنات والعيون مقام أمين لهم.

●●●

١٣١٦.﴿جنات عدن بين القرآن والتوراة﴾

يتكرر هذا المصطلح ـ **«جنات عدن»** في القرآن **إحدى عشرة** مرة، وتأتي عَدْن متقارنة **بجنات** بالجمع، والمفسرون على القول بأنها هي **جنات الإقامة**، يعني من يدخلها يتوطّن فيها فتصبح كوطنه، من قولهم في العربية **عَدَنَ المكان** أي توطّن فيه. وقيل : جنات عدن هي **قَصَبة الجنة**، أي أحسن ما فيها، كالمدينة تكون قَصَبة للقرى. وقيل : هي **بُطنان الجنة**،

أي وسطها. وقيل : هي قصور من ذهب، لا يدخلها إلا نبيّ، أو صدّيق، أو شهيد، أو حكَمٌ عدلٌ. وقيل : عَدْن أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محفوفة بها، ينزلها الأنبياء، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون، ومن يشاء الله. وبالاختصار فإن جنة عدن، «مدينة الله»، وهي «**الطوبى**» أو «**اليوتوبيا الربّانية**». فهي أصل الخير ومنبته. ومدينة عَدْن أو عَدَن في اليمن على ذلك المعنى، فهي مدينة الخير. ويقولون أنها مدينة الذهب، والذهب أنزله اللّه من السماء، مثله مثل المعادن الأخرى، وتكوّن بالانفجارات النووية في النجوم العماليق. ومثلما أن الأرض هي كوكب الحديد حيث لب الأرض تصل نسبة الحديد فيه إلى ٩٠ في المائة، فإن جنة عدن هي كوكب الذهب. وفي القرآن: ﴿**الذى أحلّنا دار المُقامة من فضله (٣٥)**﴾ (فاطر)، فأطلق عليها اسم «دار المقامة»، ويحرّفها البعض إلى «**جنات الإقامة**»، وهي كما يأتي عنها في القرآن: ﴿**خالدين فيها (٧٦)**﴾؟ (طه). والأحاديث في نعيم أهل هذه الجنان لاتُحصَى، وأكثرها تناول النعيم المادي، وفي الجانب النفسي يصف القرآن أهل هذه الجنات بأن الحزن قد ذهب عنهم (فاطر ٣٤)، والحزن هو الوحشة والخوف والحذر، وأنهم ما عادوا يعانون نَصَباً ولا لغوباً (فاطر ٣٥)، **والنصب**: هو تعب الأبدان في العبادات والسعي لتحصيل الأرزاق؛ **واللغوب**: هو التعب النفسي الروحي، وفي الحديث : «**ليس على أهل لا إله إلا اللّه له وحشة في الموت، ولا في القبور، ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب، يقولون : الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن إن ربّنا لغفور شكور**». ولهذه الجنات أبواب (ص ٥٠)، وفي الأحاديث أنها ثمانية أبواب، وهي مفتّحة للمتّقين، فهؤلاء روادها، وهي لذلك ﴿ **دار المتّقين (٣٠)** ﴾ (النحل)، وأوصافهم فيها أنهم محلّون بأساور من ذهب ولؤلؤ، ويلبسون الثياب الخضر من السندس والاستبرق والحرير، ويتكئون على فُرُش، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب، وعندهم قاصرات الطرف أتراب (ص ٥١، والكهف ٣١، وفاطر ٣٣)، والأنهار تجرى من تحتهم، ومساكنهم فيها طيبة، ويزيدهم منها ما يشاءون (ص ١٢/١٣)، وفي الحديث: «**إن في الجنة لغرفاً ترى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها**». وفي توصيف المتقين أصحاب هذه الجنات : أنهم يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، ويَصلون ما أمر الله به أن يُوصل، ويخشون ربّهم، ويخافون سوء العذاب، ويصبرون ابتغاء وجه الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم سراً وعلانية، ويدرءون بالحسنة السيئة، فأولئك لهم عقبى الدار، يعني عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، إذ الدار غداً داران : الجنة للمؤمنين، والنار للكافرين (الرعد ٢١/٢٥)، وهؤلاء

«الطيبون» إذن هم الذين يدخلون جنات عدن، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، تُحييهم الملائكة من كل باب، يقولون لهم قبل الدخول: **﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾** (النحل)، ويقولون لهم بعد الدخول: **﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾** (الرعد).

والمستشرقون على القول بأن جنة عدن أخذها محمد من التوراة، من سفر التكوين، الفصل الثاني، العبارة ٨، ولا أجد مناسبة إطلاقاً بين ما في التوراة عن هذه الجنة وما في القرآن، فجنة التوراة بمعنى «بستان»، جعله الله لأدم في الدنيا، وعلى الأرض، ليزرع فيه ويأكل من زرعه، وأنبت له من كل الثمرات، ويخرج منه نهر يسقيه ويتشعب إلى أربعة أنهر، أحدها في الحويلة، والآخر في الحبشة، والثالث في أشور، والرابع هو الفرات !!!

والكلام ـ كما ترى ـ غير علمي، ويتصادم بشدة مع حقائق الجغرافيا، وكما ترى فإن جنة أو بستان عدن ـ كما يجيء في التوراة ـ هي جنة واحدة ، يعني بضعة قراريط من الأرض بوسع آدم وزوجه أن يفلحها وتكفيه لطعامهما! وأما جنات عدن في القرآن فهي بصيغة الجمع في الإحدى عشرة مرة التي أتت فيها في مختلف سُوره، ومكانها الآخرة، وأما مفسرو التوراة ، فلمّا صدّقوا أن جنة عدن في الأرض، ذهبوا كل مذهب يبحثون أين كانت وفي أي مكان، قالوا: إنها كانت في تركيا، لأن الفرات والدجلة ينبعان منها؛ وقال غيرهم: كانت في جنوب العراق حيث يتفرّع الفرات والدجلة ويصبان في شط العرب؛ وقيل: إن سهل بابل كان قديماً يسمى عدنو، والحويلة جزء من الجزيرة العربية يجاور العراق، فمن المحتمل أن جنة عدن هي عدنو هذه. وسبب تكهنات اليهود حول الاسم عدم اعتقادهم بوجود زمان ومكان خارج التاريخ، وما قاله هايدجر في ذلك هو بتأثير الثقافة اليهودية فيه، وما أخذه عنه الدكتور عبد الرحمن بدوى هو ذلك الجانب من اليهودية المتعلق بنفي الآخرة زماناً ومكاناً، وفي كتابه «الزمان الوجودى» يشرح ذلك بإسهاب، فهو ابن الثقافة اليهودية بلا منازع، وكذلك معلمه هايدجر الألماني! والمسلمون على الاعتقاد بوجود زمان ومكان خارج هذا الزمان وهذا المكان، واصطلحوا عليه باسم الآخرة، والجنة والنار، ولذلك قالوا بأن جنّات عدن هي دار المقام بالآخرة، وأما اليهود فقالوا إن عدن معناها البهجة والسرور، وجنة عدن هي حديقة الله لأدم على الأرض، فانظر إلى مقصد اليهود والمسلمين من تفسير كلمة عدن، والتفسير العربى هو المنطقى، لأن المعادن والمعدن وفعل عَدَنَ كلها مشتقة من الإقامة ولا تشتق من السرور. وما كانت جنة عدن العبرية دار سرور وبهجة، بل كانت دار نحس ورُزء، لأن فيها عصى الله آدمُ فكان ما كان ، وفي القرآن أن

آدم لمّا غوى وعصَى أُمِر أن يهبط ومن معه إلى الأرض، **والهبوط نزول من الأعلى إلى الأسفل**، يعنى أنها فى السماء وليست فى الأرض كقول اليهود. وكما ترى: هناك اختلاف شديد بين مصطلح عدن العربى والمصطلح العبرى، وهو اختلاف لغوى، وإيتيميلوچى، وإيديولوچى، وفلسفى، وغائى. **فكيف يقال إن محمد سرق الاسم من التوراة ؟!** وإنى لأحسب أننا بإزاء الملّة اليهودية كأننا إزاء بناء متواضع، بسيط كل البساطة، وفقير كل الفقر، بالمقارنة **بصرح الإسلام**، الغنى فى دلالاته، والثرى فى معانيه. ولله الحمد والمنة.

●●●

١٣١٧. ﴿جنات الفردوس﴾

هى جنات وليست جنة واحدة، ، كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾(آل عمران١٥) وقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ⑧﴾(لقمان)، وقوله: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ (السجدة١٩) والجنة درجات، أعلاها جميعاً جنّات الفردوس، فهى الأفضل والأرفع والأعلى، وهى سُرّة الجنان، وليس فيها ما هو أعلى منها ولا أزكى، وأهلها من شروطهم أنهم : الحافظون على صلواتهم وفروجهم، والخاشعون كلما كانوا فى صلاة، والمُعرِضون عن اللغو، والفاعلون للزكاة، والمراعون لأماناتهم وعهودهم، فأولئك هم ورثة هذه الجنات. وقيل الفردوس فارسية أو رومية أو حبشية وعُرِّبت، فإن كان الأمر كذلك فالأغلب أنها توافق بين اللغات، وجمعها فرادس، والصحيح أنها عربية، وكان العرب يطلقون على الكروم اسم الفراديس، وعلى الكرم اسم الفردوس، وفى اليمامة مكان يُدعَى هكذا، وأيضاً فى الشام. وفى الشعر عند أمية بن الصلت (المتوفى ٥ هـ) :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة ∴ فيها الفراديس والفومان والبصل

وأمية جاهلى ، واستخدامه لكلمة فراديس فى الجمع يجزم بشيوع الكلمة. وفى الحديث عند مسلم : «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفجّر أنهار الجنة» وقيل: الفردوس جبل الجنة الذى تنفجر منه أنهار الجنة.

●●●

١٣١٨. ﴿جنة المتقين﴾

المتقون وُعدوا الجنة، فما هى هذه الجنة ؟ وما شكلها؟وما أوصافها؟ وماذا يميزّها عن الدنيا، وعن النار؟ يضرب الله لها مثلاً فى الآية : **﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**

﴿١٥﴾ (محمد)، يضرب الله للجنة مثلاً يرسم لها به صورة تقريبية يمكن أن تعبّر عنه لغة الناس من خبراتهم مما يشاهدونه في الدنيا، وبوسعهم أن يتصوروه مقارناً بما فى الجنة، ففى الجنة ثلاثة أشياء يوجد مثلها فى الدنيا وتُعد من نِعَمها، هي: الماء، والخمر، والعسل، ولكن شتّان بين نِعَم الدنيا ونعم الجنة، فماء الجنة غير آسن :أى غير متغيّر الرائحة، والآسن من الماء مثل الآجن، ويقال للماء تتغير رائحته أسِنَ؛ وأنهار الجنة من اللبن لا يتغير طعم لبنها : أى لا يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا؛ وبها أنهار من الخمر، بها لذة للشاربين : أى لم تدنسها الأيدى كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا ينكرها الشاربون، كقوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(الصافات)، فنفى اللّه عزّوجلّ عن خمر الجنة الآفات التى تلحق فى الدنيا من خمرها، من الصداع والسُكْر؛ وبالأنهار من العسل المصفىّ : والعسل هو ما يسيل من لعاب النحل، ومُصفّى ليس به شمع ولا قذى، ولم يطبخ على نار، ولا دنّسه النحل، ولم يخرج من بطونها، وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ : يعنى: أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار ؟ ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم؛ فلمّا وَعَد المتقين بأنهار الماء غير الآسن واللبن والخمر، وقارنَ ذلك بشراب أهل النار، قال: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ : أى حاراً شديداً يقطع الأمعاء.

●●●

١٣١٩.﴿أصحاب الجنة﴾

الصُحبة : هى الإقتران بالشىء فى حالةٍ ما، فإن كانت الملازمة والخُلطة فهى كمال الصحبة. وهكذا فى صحبة أصحاب الجنة، وأصحاب النار. وأصحاب الجنة: هم أهلها المستحقون لنعيمها، ويطلق أيضاً اسم أصحاب الجنة على الملائكة المشرفون عليها وعلى سكانها من الحور والولدان وغيرهم.

وأصحاب الجنة من المؤمنين هم : (١):عباد الله المخلَصون (الصافات)، (٢):الذين آمنوا وعملوا الصالحات (البقرة٢٥)؛ (٣): والذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس (آل عمران١٣٤)؛(٤): والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون (آل عمران١٣٥)؛ (٥): والذين يتّقون ربّهم (آل عمران١٩٨)؛ (٦): والمطيعون لله ورسوله (النساء١٣)؛ (٧):والصادقون (المائدة١١٩)؛ (٨):والذين يعون كلام الله ويذكرونه(الأنعام١٢٦)؛ (٩): والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم (التوبة٢٠)؛ (١٠): والذين يقاتلون فى سبيل الله فيُقتَلون ويَقتُلون (التوبة١١١)؛ (١١): والذين أحسنوا (يونس٢٦)؛ (١٢): والذين أخبتوا إلى ربهم (يونس٢٣)؛ (١٣): وأولو الألباب (الرعد١٩)؛(١٤): الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (الرعد٢٠)؛(١٥): والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب (الرعد٢١)؛ (١٦): والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة (الرعد٢٢)؛ (١٧): يدخلونها ومن صلح من آبائهم وآباء المؤمنين وأزواجهم وذرياتهم من الصالحين (الرعد٢٣)؛ (١٨): والذين تتوفاهم الملائكة طيبين (النحل٣٢)؛ (١٩): والذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحاً (مريم٦٠)؛ (٢٠): والذين يتزكّون (طه٧٦)؛ (٢١): والذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون (العنكبوت٥٩)؛ (٢٢): والذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا (فصلت٣٠)؛ (٢٣): والذين آمنوا وكانوا مسلمين (الزخرف٦٩)؛ (٢٤): وكل أواب حفيظ (ق٣٢)؛ (٢٥): ومن يخشى الرحمن بالغيب، وجاء بقلب منيب (ق٣٣)؛ (٢٦): والذين كانوا قبل ذلك محسنين وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار يستغفرون، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (الذاريات١٦-١٩)؛ (٢٧): وذرية الذين آمنوا واتبعتهم بإيمان (الطور٢١)؛ (٢٨): والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان (التوبة١٠٠)؛ (٢٩): والمقتصدون والسابقون بالخيرات (فاطر٣٢)؛ (٣٠) وأصحاب اليمين (الواقعة٢٧)؛ (٣١): ومن يؤتى كتابه بيمينه (الحاقة٩)؛ (٣٢) : والمصلون، الذين يصدّقون بيوم الدين، ومن عذاب ربّهم مشفقون، ولفروجهم حافظون، ولأماناتهم وعهدهم راعون، وبشهاداتهم قائمون (المعارج٢٢/ ٣٤)؛ (٣٣): والأبرار الذين يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً، ويطعمون الطعام على حبهم مسكيناً ويتيماً وأسيراً (الإنسان ٥/ ١٠)؛ (٤٣): والذين يخافون مقام ربّهم وينهون النفس عن الهوى (النازعات ٤٠)؛ فهؤلاء هم أصحاب الجنة، طوبى لهم وحُسن مآب (الرعد ٢٩)؛ وطوبى هى الجنة، والجنة هى حُسن المآب وعُقْبى الدار.



١٣٢٠. «أحوال أصحاب الجنة»

الأحوال: هى صفات الشىء وهيئاته وكيفياته؛ **وأحوال أصحاب الجنة** : هى ما هم عليه من ظروف وطُرق معيشة وحاجات؛ والجنة هى يوتوبيا الدين. واليوتوبيا فى اصطلاح أهل الحكمة هى المكان المثالي، وعند حكماء اليهود هى مدينة الله، غير أن اليهود يجعلون

في أورشليم، فعندئذ يكون الله في بيته بعد شتات دام مئات السنين، وحينئذ يعتدل الميزان، ويسود السلام والخير وتكون الأرض الجنة الموعودة. وعند النصارى الجنة في السماء، لأن عيسى عرشه فيها، ويحكم الكون منها، والمؤمنون حول المسيح ومعه أرواحاً، والجنة فيها من الطيبات ما لاعين رأت ولا أذن سمعت، وهم فيها أزواج، وتلحقهم ذرياتهم بإحسان. وفي القرآن أن الجنة جنّات بحسب الأعمال ومراتب المؤمنين والمؤمنات، وهم فيها خالدون (البقرة ٨٢)، لايذوقون فيها الموت ووقاهم عذاب الجحيم (الدخان ٥٦)، وفيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّى، ولهم فيها من كل الثمرات (محمد ١٥)، ولهم ما يشاءون عند ربّهم (الشورى ٢٢)، يدخلونها هم وأزواجهم (الزخرف ٧٠)، ومن صَلُح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم (غافر ٨)، يساقون إليها زُمراً، فتُفتَح لهم الأبواب، ويقول لهم خزنتها: سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين، فيحمدون الله أن صَدَقهم وعده (الزمر ٧٣/ ٧٤)، وهداهم لهذا، وما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم ، وينادى عليهم الملائكة: أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. وينادى أصحاب الجنة على أصحاب النار : قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقاً ؟ وينادى على أصحاب الجنة رجالٌ على الأعراف : سلامٌ عليكم (الأعراف ٤٣/ ٤٦)، رضى الله عن أصحاب الجنة ورضوا عنه (المائدة ١١٩)، ويبوأون الغرف تجرى من تحتها الأنهار (العنكبوت ٥٨)، والمساكن الطيبة (التوبة ٧٢)، لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً، ولهم رزقهم بكرة وعشياً (مريم ٦٢)، ولنِعْم دار المتقين (النحل ٣٠/ ٣١)، وما هم منها بمخرَجين، ونُزِع ما فى صدورهم من غل فهم إخوان على السرر متقابلين (الحجر ٤٧/ ٤٨)، يتكئون وأزواجهم على الأرائك، يفكهون في شغلهم، ويحمدون على ما هم فيه ، ويسبّحون (يس ٥٥)، لا يرهق وجوههم القتر ولا الذلّة (يونس ٢٦)، ولهم الخيرات (التوبة ٨٨)، والأكل والظلال (الرعد ٣٥)، والزوجات المطهّرة (النساء ٧٥)، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (الرعد ١٣)، ويطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين، لا غَول فيها، ولا هم يُنزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيضٌ مكنون (الصافات ٤٥/ ٤٩)، وقاصرات الطرف أتراب (ص ٥٢)، يحبرون في الروضات (الروم ١٥)، وزُوِّجوا بحور عين (الدخان ٥٤)، يحمدون الله أن أذهب عنهم الحزن، وأحلّهم دار المقُامة من فَضْله، لا يمسّهم فيها نصبٌ ولا لغوب (فاطر ٣٤/ ٣٥)، فإذا اطّلعوا على قرنائهم في النار، هالهم ما هم عليه فيهتفون : كادوا ليردوننا، لولا نعمة الله لكنا من المحضرين،

إن هذا لهو الفوز العظيم (الصافات ٥٥/ ٦٢)، وإنه لفوز عظيم أن تكون لهم الجنات والنعيم (الطور ١٧)، والعيون الجارية (الرحمن ٤٦)، والنضّاخة (الرحمن ٦٦)، والفواكه الكثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة (الواقعة ٣٢,٣٣)، قطوفها دانية (الحاقة ٢٣)، يتخيّرون منها (الواقعة ٢٦)، ولحم طير مما يشتهون (الواقعة ٢١)، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا (التحريم ٨)، وتطمئن نفوسهم (الفجر ٢٧)، ويعيشون فى النعيم (المطففين ٢٢)، وتبدو عليهم النعمة (الغاشية ٨) وفى وجوههم النضرة (المطففين ٢٤)، يُسْقَون من رحيق مختوم، ختامه مسك، ومزاجه من تسنيم (المطففين ٢٥/ ٢٧)، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب قواريراً، ويُسقَون كئوساً مزاجها زنجبيل، من عين تسمى سلسبيل، وثيابهم سندس خضر، وحُلّوا الأساور من فضة (الإنسان ١٥, ٢١)، وخُصّوا المتقون بالكواعب الأتراب، والكأس الدهاق (النبأ ٣٣/ ٣٤). **وأصحاب اليمين** لهم السدر المخضود، والطلح المنضود، والظل الممدود، والماء المسكوب، والفاكهة الكثيرة، والأبكار العُرب الأتراب (الواقعة ٢٧/ ٣٧)، **وللمقرّبين** الرَّوْح والرّيحان، يتكئون على السرر الموضونة، ويطوف عليهم ولدان مخلّدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا يُنزفَون (الواقعة ١١/ ١٩).

فهذه بعض المشاهد التى يحياها أصحاب الجنة، ينتقدها **المستشرقون**، باعتبارها ملذات غارقة في الماديات، وجوابنا على ما يروّجون : أن الجنة بما هى كذلك **«مجتمع وفرة»** لا فقر فيها ولا حاجة، ولا عوز، ولا أمراض، ولا إحن، ولا خلافات سياسية أو اقتصادية، وهي الأشياء المتولدة عن **مجتمعات النُّدرة**. والقرآن ينفي أن تتحقق على الأرض مجتمعات الوفرة، إلا للمستقوين، بعدوان الأقوياء على المستضعفين، والاستئثار بخيرات الأرض، دون أصحابها كما فى أمريكا والدول الغنية، وحتى فى تلك المجتمعات هناك **المظالم الاجتماعية، والتفاوت فى الدخول، وصراع الطبقات، وانتشار الأمراض، وغلبة الأمية**، حتى أن المجتمع الأمريكى وهو مجتمع يصفونه بالرفاهية، تبلغ نسبة الأمية فيه ١٨ ٪، ولا يمثل خريجو الجامعات إلا ٣٦ ٪ من الشباب الأمريكى، وتبلغ نسبة عدد الفقراء إلى عدد السكان ٥٨ ٪، وليست صورة الجنة كما يصفها القرآن من نوع الأماني لتخدير الفقراء وصرف الشعوب الفقيرة عن أن تطالب بحقوقها، **فلم يوجد كتاب كالقرآن يطالب بحقوق الفقراء** ويسن التشريعات لضمان صيانتها، وما كانت الدعوة إلى الإسلام إلا بين **الفقراء** أصلاً، وما تعتنق الشعوب الإسلام إلا بسبب مطالباته من أجل **الشعوب والطبقات المضطهدة**، ومن أجل ذلك كانت الاستراتيجية الجديدة لحلف الأطلنطى هى ضرب

الإسلام، لأنه ضد الإمبرالية والاستعمار والعولمة، وضد الثقافة الواحدة، وحكومة الصفوة، والاستعلاء العنصرى، ومع الاشتراكية التعاونية أو التكافلية، وعالمية الإقرار بالله، وتعدد الثقافات، والحكومة النيابية، والحوار ، والشورى، والمرجعية الدينية. والقرآن يدعو إلى الجهاد لدفع الظلم عن الناس والشعوب، ولا يعد بقيام حكومة أرضية مثالية، فالمدينة أو المجتمع المثالى لن يتحقق إلا فى الجنة، وإنما الدنيا دار اختبار وابتلاء، كى يُعرف فيها الصالح والطالح، والذى يعمل بجدارة ليستحق أن يكون مواطن الجنة، والذى يعمل بحقارة ليكون من حصب النار، والأولون هم أصحاب الجنة، والآخرون هم أصحاب النار.

●●●

١٣٢١. ﴿أصحاب الجنة المنعمون﴾

فى الحديث فى تفسير الآية: **﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾** (الفرقان٢٤) قال ﷺ: «**إن الله تعالى يفرَغ من حساب الخلق فى مقدار نصف يوم، فيقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار**»، والمعنى أنه لاينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة، وهؤلاء فى النار، **والمَقيل**: موضع القيلولة، من **قال يقيل قيلاً** أى نام فى القائلة، أى منتصف النهار، **وأصحاب الجنة مستقرهم ومقيلهم هو الأحسن، وأصحاب النار مستقرهم ومقيلهم هو الأسوأ.**

●●●

١٣٢٢. ﴿أطفال المشركين فى الجنة أم فى النار؟﴾

فى الحديث عن ابن عباس: لايزال أمر هذه الأمة مواتياً أو متقارباً حتى يتكلموا أو ينظروا فى **الأطفال والقَدَر**. وقيل لابن المبارك: فهل يسكت المسلمون مخافة الغلط فلايتكلمون فى أيهما؟ وهل يصمتون على الجهل؟ فسكت، فقيل له فتأمر بالكلام؟ قيل: فسكت. ـ والقرآن على القول أن الأطفال، إن ماتوا وكانوا من أولاد المسلمين أو أولاد غيرهم قبل أن يجرى عليهم القلم، فهم فى الجنة، لأنهم ماتوا ولايعقلون الكفر أو الإيمان، وكان موتهم **على الفطرة**، أى قبل أن تكون لهم ملكة الفهم عن الدين، والتمييز بين الحق والضلال. **والإيمان قولٌ** باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وهذا معدوم فى الأطفال، ولايجهل ذلك ذو عقل. وفى الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من**

جدعاء»؟ وذكْرُه للأبوين لأنهما مثال للعوارض التى هى كثيرة، وتعترض الفطرة السليمة فى الطفل، والله خَلَق الخَلْق مؤهلين لقبول الحق، كخلقه للأعين والأسماع قابلة للمرئيات والمسموعات. فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية، أدركت الحق. وفى الحديث: أن البهيمة تلد وَلَدها كامل الخلقة سليماً من الآفات، فلو تُرك على أصل تلك الخلقة لبقى كاملاً بريئاً من العيوب، لكن الأبوين والمجتمع يتصرفان فيه فيجدعان فطرته، كجَدْع الأذنين عند البهيمة، ويوسم اعتقاده فيكون يهودياً أو نصرانياً إلخ. ولما أخرج الله ذرية آدم من صلبه فى صورة الذرّ، أقرّوا له بالربوبية، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا**﴾(الأعراف١٧٢)، فلما شهدوا أعادهم فى صلب آدم بعد إقرارهم أنه الله لا إله غيره. فمن مات صغيراً مات على هذا الميثاق الذى أُخذ عليه فى صلب آدم. **وهذا أصحّ ما يذهب إليه القرآن فى شأن الأطفال**، سواء أكانوا أولاد مسلمين أو نصارى أو مشركين أو مجوس؛ وإن ماتوا كباراً فالقول فيهم قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٦)﴾(الطور)، وقوله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾(المدثر٣٨)، وقوله: ﴿**وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾(الأنعام١٦٤). وأما الأطفال فماذا عملوا ليحاسبوا عليه؟ فلايُعقل أن يؤخذوا بجريرة آبائهم!

١٣٢٣. ﴿النار وأوصافها﴾

النار جوهر لطيف مضيء مُحرق؛ والكلمة مؤنّثة وقد تُذكّر، وتصغيرها نويرة. والنار هى ما نعرفه، نقول: «**أوقد نار الحرب**» أى أوجد شرّها؛ و«**نار التهويل**»: كانت للعرب يوقدونها فى الجاهلية عند التحالف، ويجعلونها عظيمة للتهويل وتأكيد خطورة حِلْفهم؛ «**ونار القِرى**»: هى التى يوقدونها التماساً للقِرى، وهو أن تأتيهم الضيفان؛ و«**نار الإنذار**»: يوقدونها فى الحرب ينذرون بها قبائلهم؛ و«**نار الاستكثار**»: يريدون بها أن يظهروا بمظهر الكثرة العددية فيكثروا من النيران كأنها بعدد ما لديهم من كتائب. والنار التى نعرف هى «النار الدنيوية»، لقوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**﴾(آل عمران١٨٣)، : وقوله: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾(المائدة٦٤)، وقوله: ﴿**قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا**﴾(الكهف٩٦)؛ وقوله: ﴿**إِذْ رَأَىٰ نَارًا**﴾(طه٩)؛ وقوله: ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾(النور٣٥)؛ وقوله: ﴿**الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا**﴾ (يس٨٠)؛ وقوله: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ**﴾ (الواقعة٧١)؛ وأما النار فى الاصطلاح فالمراد بها نار الآخرة؛ «وهى النار الكبرى» فى الآية: ﴿**الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ**﴾(الاعلى١٢): وهى أفظع دَرْكة من أدراك

النار، ويقال لها: ﴿الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾(النساء١٤٥). وقيل: النار دركات سبع، أى طبقات ومنازل، إلا أننا نقول دَرَك لكل ما تسافل كالبئر والنار، والمنافقون مثلاً فى «الدرك الأسفل من جهنم»، وهى «الهاوية»، لغلَظ كُفرهم وكثرة غوائلهم، وتمكُّنهم من أذى المسلمين. وأعلى الدركات «جهنم»، ثم «لظى» ثم «الحُطَمَة» ، ثم «السعير»، ثم «سقر»، ثم «الجحيم»، ثم «الهاوية». و«النار الكبرى» : هى نار جهنم؛ و«النار الصغرى» هى نار الدنيا. ومعنى أن النار أطباق، أن أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم، وفى الآية : ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ۝١٥﴾(الليل) هى: أن النار التى هى اللّظى: للأشقى، كما فى الحديث: «وجدته فى ضمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح»، أى إلى فسحة؛«وغمرات النار» هى اللّظى؛ . ؛ وإذا قلنا إن النار درجات فإن الدرجة هى الرتبة، ومنها الدَّرج، لأنها تطوى رتبة بعد رتبة، والأشهر أن النار منازل أو دركات، بينما الجنة درجات؛ والدرك إلى أسفل، والدرج إلى أعلى. ويقال للنار الكبرى أنها «الغاشية»، كقوله :﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾(إبراهيم٥٠)، أى تغشى وجوه الكفار، يعنى تغطّيها، أو أن أهل النار يغشونها، أى يقتحمون فيها. وتُطلق على النار أسماء بحسب شدّتها: «فالسعير» فى قوله تعالى:﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾(الفرقان١١): هى جهنم تتلظىّ على المكذّبين، وأصل «السعير» لهب النار، والجمع سُعُر، كقوله:﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾(القمر٤٧)؛وقوله:﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾(الملك٥) أى أشدّ الحريق؛ ويقال «سُعِّرت النار» فهى مسعورة وسعير، مثل مقتولة وقتيل؛ و﴿لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(الملك١١) هم أهل النار. والجحيم كل نار فى مهواة تتأجّج، والجمع جُحَم. «وأصحاب الجحيم» هم أهلُها، «وخزنة النار» هم الملائكة المكلّفون بها؛ وسرادق النار فى قوله تعالى:﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (الكهف٢٩) هو دخانها يشيع وينتشر كالظل، كقوله:﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، (الواقعة٤٣). وفى الحديث: «السرادق النار أربع جُدر كُثُف (جمع كثيف)، كل جدار مسيرة أربعين سنة» ، والعدد أربعين للتضخيم والتهويل وليس عن واقع.«والنار الحامية» فى قوله:﴿نَارًا حَامِيَةً ﴾ (الغاشية٤) هى شديدة الحر، وقيل: فما معنى وصفها بأنها حامية وهى أصلاً كذلك؟قيل للتنبيه إلى أنها دائماً حامية وليست كنار الدنيا التى قد تخبو وتنطفىء، أو للتنبيه إلى أنها لاتلمس أبداً فهى دائماً حامية، أو للتنبيه إلى شدّة غيظها وغضبها، مبالغة فى شدة الانتقام كقوله:﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾(الملك٨)؛ «والنار ذات اللهب» فى قوله: ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾(المسد٣): هى التى تخرج منها ألسنةٌ اللهب من شدة اشتعالها؛ «والنار ذات اللظى»: فى قوله:﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾(الليل١٤) أى المتوقدة، كقوله :﴿نَارُ اللَّهِ

الْمُوقَدَةُ﴾(الهمزة٦)، سمّاها «نار الله» لأنها «نار الآخرة» وليست «نار الدنيا». و«النار المؤصدة»(البلد٢٠): هى النار التى لافكاك منها، وتوصد عليهم وتنغلق؛ و﴿**النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾ (البروج٥): هى النار المضرمة؛ وقوله فى النار: ﴿ **مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ**﴾ (الحديد١٥)، أى أنها السكن الذى لا بديل له، مثل قوله: ﴿**فَالنَّارُ مَثْوًى**﴾(فصلت٢٤) «**والنار المولى**» أى المتحكمة؛ و﴿**شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ**﴾(الرحمن٣٥): هى لهبها؛ و﴿**مَارِجٍ مِّن نَّارٍ** ⁽١٥⁾﴾ (الرحمن١٥): هو اللهب الخالص الذى لادخان فيه أو المختلط بسواد النار؛ وفتنة النار فى قوله: ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ** ﴾ (الذاريات١٣) : هى الحرق بها للاختبار، من قولهم فتنتُ الذهب، أى أحرقته لنختبره، **والفتنة** هى الاختبار؛ و﴿**ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ**﴾ (الزمر١٦): هى ألسنة النار، وسماها ظلل لأنها تحيط بها كالظلّة، وتشملهم من فوقهم ومن تحتهم، مثل قوله: ﴿**يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** ﴾ (العنكبوت٥٥)، وقوله: ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** ﴾ (الأعراف٤١). «**وأئمة النار**» فى قوله: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾ (القصص٤١) هم زعماء الكفر أو الباطل والضلال يدعون إليه الناس فيتسببون فى دخولهم النار، وهم **الأئمة** يعنى الزعماء الداعون؛ «**والنار اللافحة**» (المؤمنون١٠٤) أى المحرقة؛ «**وثياب النار**» (الحج١٩): شُبِّهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب؛ «**والنار الباردة السالمة**» (الأنبياء٦٩) هى النار التى حرّقوا بها **إبراهيم**، وجعل اللّه فيها بردًا يزيل حرّها فصارت سلامًا عليه؛ و«**قبس النار**» (طه١٠): شعلةٌ منها، يقال **قبستُ منه نارًا، وأعطانى منه قبسًا**؛ و«**نار السموم**» (الحجر٢٧): هى النار التى خلق اللّه منها الجان؛ وقيل: هى نار لادخان لها. وفى الحديث عن عائشة: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم**». وأصل السموم: الريح الحارة؛ **والسموم** بالنهار، **والحَرُور** بالليل، وقد تكون بالنهار. «**وزفير وشهيق النار** » (هود١٠٦) هو زفير وشهيق أهل النار، **والزفير** إخراج النفس، **والشهيق** ردّ النفس، وفى حالة أهل النار الزفير من شدة الأنين، والشهيق من الأنين المرتفع. و«**حُفَر النار**»(آل عمران١٠٣) هى النُّقَر والأخاديد المتسبّة فيها النار. و«**وقود النار**»(آل عمران١٠): هو حطب النار، والناس والحجارة من وقودها (البقرة٢٤). و«**عذاب النار**» : **هو عذاب الحريق** (آل عمران١٨١) ، **وهو العذاب العظيم** (البقرة٧)، **والعذاب المهين** (البقرة٩٠)، **والعذاب الأليم**(البقرة١٧٦)، **والعذاب المقيم**(المائدة٤١). وقوله: «**كلما نضجت**، جلودهم» أى احترقت، بدلهم جلودًا غيرها (النساء٥٦). و«**المسرفون من أهل النار**» لهم العذاب ضعفان (الأحزاب ٦٨). وفى الحديث «**كل مؤذ فى النار**»؛ وقيل: إن الجنة والنار احتجّتا، فقالت النار : يَدخُلنى الجبّارون والمتكبّرون؛ وقالت الجنة: يدخلنى الضعفاء والمساكين!

●●●

١٣٢٤. ﴿أصحاب النار﴾

أصحاب النار هم أهلها، وأيضاً هم خزنتها : أى الملائكة المشرفون عليها ، وأكثر استخدام أصحاب النار بمعنى أهل النار ، ويأتى عنهم تسع عشرة مرة، وهم الذين كذّبوا بآيات الله (البقرة٣٩)، ومن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته(البقرة٨١)، والمرتد عن دينه (البقرة٢١٧)، والمرابون(البقرة٢٧٥)، والطاغون(المائدة٢٩)،و المستكبرون (الأعراف٣٦)، والذين كسبوا السيئات(يونس٢٦)، والمنكرون للبعث(الرعد٥)، والمشركون الذين جعلوا للّه أنداداً الزمر٨)، والمسرفون (غافر٤٣)،والذين يتولون غير المؤمنين، ويحلفون على الكذب ويتخذون أيمانهم جنة(المجادلة١٧)، وهم من بعد ميثاقه يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون فى الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار (الرعد٢٥ ـ٢٦).

•••

١٣٢٥. ﴿الرّد على الجهمية بشأن الجنة والنار﴾

الجهمية كانوا جبرية خالصة، وهم فرقة من الفرق الإسلامية، أتباع جهم بن صفوان، قالوا لا قُدرة للعبد أصلاً، لامؤثّرة ولاكاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات، يعنى أنكروا الاختيار، وأسقطوا المسئولية، وقالوا الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما، فلايبقى موجود سوى اللّه، يعنى أن الوجود إلى الفناء والعدم، فليس ثمة إلا الله. فأما عن المسئولية فالنظام الإسلامى، بل وكل الأديان،يقوم على المسئولية، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾(الإسراء٣٦)، وقوله: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾(الصافات٢٤)، وقوله: ﴿**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(النحل٩٣)، وقوله: ﴿**تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ**﴾ (النحل٥٦)، وطالما هناك مسئولية فهناك اختيار وحرية، وهو عكس ما يقول الجهمية. أما عن الجنة والنار فإنه تعالى يقول فى الجنة : ﴿ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا**﴾(الرعد٣٥) يعنى لاينقطع أبداً، ويقول: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ (البيّنة ٨)، ويقول فى النار: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾(الجن٢٣)، ومعنى «الأبد» الأزل الدائم، فالجنة والنار وجدتا لتظلا للأبد، والجهمية كاذبون ومتخرّصون وأفّاكون!

•••

١٣٢٦. ﴿أصحاب النار تسعة عشر﴾

أصحاب النار هم خزنتها، وهم أيضاً أهلها، ومثل ذلك أصحاب الجحيم، وأصحاب السعير، والعدد تسعة عشر يأتى مرة واحدة، إحصاءً للملائكة الموكول بهم النار، يقول

تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)**﴾ (المدثر)، فاستقل بعضهم العدد، وذهب إلى أن عدد الملائكة أصحاب النار تسعة عشر ألف مَلَك، فذلك معقول أكثر، فكانت فتنة، فكيف لا تحرقهم النار؟ غير أنهم فى الآية ملائكة وليسوا بشراً، تأكيداً لاستحالة مغالبتهم، واستحالة أن يتأثروا بالنار، وأن تأخذهم بالمعذّبين رأفة ورحمة، فالذى صدّق أنهم تسعة عشر فقط كان من المؤمنين، وأهل الكتب لم يداخلهم الشك، ربما لأنه لايعنيهم العدد، وأهل الجحد والمراء هم الكفّار. وقال البعض إن مسألة الملائكة أصحاب النار تسعة عشر إنما هى «مَثَل» ضربة الله وساقه تهويلاً، لأن الموت مكلفٌ به مَلَكٌ واحد، فكيف إذا كان المكلّفون تسعة عشر ملكاً! و«المثل» لاختبار الإيمان، وتصنيف الناس حسب تصديقم وإنكارهم، والأمر لله من قبل ومن بعد، فهو العارف بجنوده وكم يكون عددهم، وما يحتاج سبحانه إلى أعداد، والواقعة إنما تذكرةٌ لهم ليعلموا أنه تعالى قادر قدرة مطلقة، وأنه الذى يُعين وينصر، ولا يُعان ولا يُنصر، وجنوده يأتمرون بأمره وهو خالقهم. والبهائية قدّسوا العدد تسعة عشر، وقالوا أن السنة تسعة عشر شهراً،والشهر تسعة عشر يوماً إلخ.وقيل إن آية أصحاب النار التسعة عشر من المتشابة من القرآن، ومتبعو المتشابه لايخلو أن يتّبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك فى القرآن وإضلال العوام.



١٣٢٧. ﴿حجراً محجوراً﴾ قول الملائكة للمجرمين يوم القيامة

يوم القيامة يرى الناس جميعاً الملائكة، فيتلقون المؤمنين بالبشرى، ولا بشرى للمجرمين، كقوله: ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ (الفرقان٢٢)، أى يقولون: «حراماً حراماً»، يعنى الجنة حرامٌ على المجرمين، محرّمةٌ عليهم. وصارت «**حجراً محجوراً**» مثلاً، فإذا التقى الرجل من يخافه قال: «**حجراً محجوراً**»، أى حراماً عليك التعرّض لى، بمعنى حجرتُ عليك، أو حَجَر الله عليك، كقول القائل سقياً، ورعياً. وقيل: قد يكون «**الحجر**» من قول المجرمين، و«**محجوراً**» من قول الملائكة، فإذا التقى المجرمون بالملائكة يوم القيامة، قال الأولون: «حجراً»، يعنى نعوذ بالله منكم أن تبشّرونا بالنار، فيردّ عليهم الملائكة: «**محجوراً**» أى مستحيل أن تعاذوا من شرّ هذا اليوم ومن النار.



١٣٢٨. ﴿جهنم وخزنتها﴾

يزعم المستشرقون أن اسم «جهنم» عبرى Ge-Hinnom، ويُنطق Ghinnom، ومعناه «وادى هنوم»، وكأنما «جيهينوم» العبرية تساوى «جهنم» العربية، وأن القرآن أخذ الكلمة من التوراة، والصحيح أن الكلمة أرامية، وكانت اسم الوادى الذى يمر إلى الجنوب والغرب من مدينة القدس، ويستعمل كمقلب زبالة توقد فيها النار؛ ولم يعرف الاسم كمرادف للجحيم إلا فى إنجيل لوقا عند النصارى، الباب التاسع، العبارات ٤٢و٤٤و٤٦؛ ويعرّف لوقا الجحيم: بأنها «النار الأبدية». كذلك يأتى فى رسالة بطرس الثانية، قوله: الذين أخطأوا أُهبطهم إلى أسافل الجحيم(٢ / ٤)، وهذا هو كل ما ورد عن الجحيم «فى التراث اللاهوتى اليهودى والنصرانى! فى حين أن القرآن وردت به اللفظة ٧٧ مرة فى ٧٧ آية، وتعرّضت الآيات لأوصاف جهنم تفصيلاً، وأوصاف أصحاب جهنم وخزنتها، فكيف يكون إذن أن القرآن استعار أو «سرق» الاسم من الكتب القديمة، سواء اليهودية أو النصرانية؟! ولم يصف لنا أىٌّ من هذه الكتب القديمة «جهنم»، فى حين أسهب القرآن فى وصفها، ومن يعرف أكثر فهو الأصدق! وجهنم فى القرآن: بئس المصير (آل عمران١٦١)؛ وبئس المهاد (آل عمران١٩٧)؛ ومَن يدخلها يخلد فيها (النساء٩٣). وطريقها طريق أهل الكفر والظلم (النساء١٦٩)؛ وهى ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم٢٨)؛ولها سبعة أبواب ، لكل باب جزء مقسوم من الخطاة (الحجر٤٤)؛ وكلما تخبو تُزاد سعيراً (الإسراء٩٧)؛ وفيها شجرة يقال لها الزقوم، تخرج فى أصل الجحيم، وطلعُها كأنه رءوس الشياطين (الصافات٦٢ـ٦٥)، وهى طعام الأثيم، كالمُهْل يغلى فى البطون (الدخان٤٤ـ٤٥)؛ وكلما أُلقى فيها من المجرمين يسألها خزنتها : هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟(ق٥٠)؛ ويوُضع المجرمون فى السلاسل، طول الواحدة سبعون ذراعاً؛ واللّظى من دركاتها؛ ومن صفاتها أنها نزّاعة للشوى؛ وبها أنكال، وطعام أهلها غُصّة (المزمل١٢ـ١٣)، وأهلها يسقون من ماء صديد (إبراهيم١٦)، وظلُها من ثلاث شعب، لاظليل، ولا يغنى من اللهب؛ وشررُها كالقصر، كالجمالات الصُفر(المرسلات٣٠ـ٣٣)؛ ويوم القيامة تبرز للناس (النازعات٣٦)؛ ونارها الأشد حرّاً (التوبة٨١)؛ وهى المهاد والمستقر والمأوى لأهل الكفر (آل عمران١٦٢)؛ وهى ملجأ كل خبيث (الأنفال٣٧)؛ وفى نارها يُحمَى على الأموال المكنوزة، فتكوى بها جباه وجنوب الكانزين وظهورهم (التوبة٣٥)، والكىّ هو الصاق الحار من الحديد والنار بالجسم حتى يحترق الجسد، وأشهر الكى وأشنعه فى جهنم ما كان فى الوجه، وآلمه وأوجعه ما كان فى الظهر، فلأنهم لم يطلبوا غير المال يكتنزونه وتوجهوا إليه، تُشاه وجوههم، ولأنهم

أعرضوا عن الفقراء بجنوبهم كواها الله لهم، ولأنهم أسندوا ظهورهم لأموالهم من دون الله، أذاها بالكى، وخصّ **الوجه والجنب والظهر** بالكى فى جهنم، لأن الكانزين يشيحون بوجوهم للفقراء فاستحق الوجه الكى، فإذا سألوهم مالوا عنهم، وإذا زادوهم فى السؤال ولّوهم ظهورهم، فرُتّبتْ العقوبة فى جهنم بحسب المعصية؛ وكلما خبت نارها زيدت سعيراً(الإسراء٩٧)؛ وعليها رصد (النبأ٢١)، لايدخلها داخل إلا يجتاز عليه أولاً؛ وهى مُعدَّة مترصّدة للكافرين ومن على شاكلتهم، وهم حصب جهنم (الأنبياء٩٨)، أى حطبها، وكل ما يعبدون من دون الله من وقودها، (غافر٧٦) . ونار جهنم لا زمان لها، كقوله: ﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)**﴾(النبأ).

●●●

١٣٢٩. ﴿أحوال أصحاب النار فى النار﴾

أصحاب النار أو أهلها يخلدون فيها (البقرة٣٩)، ولهم عذاب مهين (النساء١٤) ، يُصلوْن ناراً، كلما نضجت جلودهم بُدّلت غيرها ليذوقوا العذاب(النساء٥٦)، يلعنهم الله وعذابهم عظيم (النساء٩٣)، والمنافقون منهم فى الدرك الأسفل ليس لهم نصير (النساء١٤٥)، وإذا وُقفوا على النار تمنوا لو يُردون فلا يكذّبون بآيات الله (الأنعام٢٧)، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً، ترهقهم ذلة (يونس٢٧)، حبط ما صنعوا فى الدنيا وكان باطلاً (هود ١٦)، يزفرون ويشهقون (هود١٦) ويمشون مقرّنين فى الأصفاد، سرابيلهم من قطران، وتغشاهم النار(إبراهيم٤٩/ ٥٠) ، يُغاثون بماء كالمُهْل يشوى الوجوه (الكهف٢٩)، وتقُطّع لهم ثياب من نار، ويُصبّ من فوق رءوسهم الحميم، ويُملأون به، يُصهر به ما فى بطونهم، ولهم مقامع من حديد، وكلما أرادوا أن يخرجوا من النار أعيدوا فيها، وزادوهم عذاب الحريق (الحج١٩/ ٢٢)، وتلفحهم النار وهم فيها كالحون(المؤمنون١٠٤)، ويُكبّون فيها (النمل٩٠)، ويغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم (العنكبوت٥٥)، ويذوقون من العذاب عذابين، الأدنى دون الأكبر لعلهم يرجون (السجدة ٢٠/ ٢١) ، وكلما قُلبت وجوههم قالوا ياليتنا أطعنا الله والرسول، وتعللوا بأنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلّوهم السبيل (الأحزاب٦٦/ ٦٧)، ويدعُون عليهم (الأحزاب ٦٨)، ويُسحبون فى الحميم، ويسُجرون فى النار، ويقال لهم أين شركاؤكم من دون الله؟ يقولون ضلّوا عنا! ويُحشرون إلى النار فيوزعون، ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، فإذا سألوا جلودهم: لِمَ شهدتم علينا؟ يجابون: أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء (فصلت ١٩/ ٢١)، فيقال لهم: أذهبتم طيباتكم فى

حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (الأحقاف٢٠)، ويُعرضون على النار ، يُفتَنون عليها (الذاريات١٤)، فيشهدون على أنفسهم، فيقال لهم: ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون(الأحقاف٣٤)، فيسحبون على وجوههم (القمر٤٨) ، ويَنصبون ويَشقُون،وتخشع وجوههم ، ولايجدون من طعام إلا الضريع (الغاشية ٢/٦)، أولئك أصحاب النار، أصحاب المشأمة(البلد٢٠) وأصحاب الشمال(الواقعة٤١)، هم في سموم وحميم، فالحرارة من حولهم تحرقهم حتى المسام، والماء المغلى هو شرابهم، وليس لهم ظل يحتمون به إلا يحموم من الدخان كالسحاب الأسود، لا هو بالبارد يرطّب أجسامهم، ولا هو بالكريم ليست له عذابات وفظائع. وكانوا من قبل مترفين متنعّمين في الدنيا، فسبحان مغيرّ الأحوال، وما أرداهم إلا حنثهم العظيم، فلقد أصرّوا على الكفر، وأنكروا البعث، وأن يلتقوا آباءهم الأولين في يوم القيامة الذى أنكروه، أو في النار، وإنهم لمجموعون بهم، وآكلون من شجرة الزقوم، لاثمر فيها إلا ما يملأ البطن ولايغنى من جوع ولايسمن، وهو نتن يزقم أو يزكم الأنوف، وكلما أكلوا منه عطشوا فيشربون من الحميم لايرتوون، ويشربون شُرب البهائم الهيم المصابة بداء العطش!



١٣٣٠.﴿أصحاب المشأمة وأصحاب الشمال﴾

أصحاب المشأمة هم أحد ثلاثة صنوف ينقسم إليها الناس يوم القيامة، هم: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (الواقعة٩)، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (الواقعة٤١): وهم الذين يؤخذ بهم جهة الشمال إلى النار، ويقال المشأمة ، وكذلك الشأمة، مثل قول القائل قعد فلان شأمةً؛ وشائم يا فلان بأصحابك، أى خذ بهم ذات الشمال. والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى، وللجانب الشمال الأشأم.وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن، ولما جاء عن الشمال الشؤم. وأما السابقون فهم المقرّبون في جنات النعيم.

وأصحاب المشأمة أو أصحاب الشمال : هم أهل النار، وهم أهل السيئات، المترفون المنعّمون، المستحلّون للحرام، كانوا مشائيم على أنفسهم بالذنوب؛ وهم أصحاب التأخر، والعرب يقولون: اجعلنى في يمينك ولاتجعلنى في شمالك - أى اجعلنى من المتقدمين ولاتجعلنى من المتأخرين، للتفظيع والتعجيب والتكثير من العقاب لهم؛وأصحاب المشأمة يتنفسون في النار السموم تحرق مسامهم، ويشربون الحميم يغلى في أبدانهم، وإذا طلبوا

الظل لم يجدوا إلا الدخان اليحموم يتجمع كالسحابة فوقهم، لا هو البارد يحميهم من الحرارة، ولاهو بالكريم فيه بعض الخير، وإنما النار صارت لها الظُلل من فوقهم. وأصحاب المشأمة هم أصحاب الحنث العظيم(الواقعة٤٦)، فأعظم ذنوبهم إنكار البعث وتكذيب الخبر به، وإنهم لمجموعون لميقات يوم معلوم هو يوم القيامة، وآكلون من شجر الزقوم تزقم أو تزكم أنوفهم رائحته ونتنه ، يملأون من خائه وورقه بطونهم فتصيبهم مرارته أو مرارتها بالعطش، فلايجدون إلا اليحميم المغلى صديد أهل النار. وكلما شربوا عطشوا، كأنهم الحيوانات الهيم تشرب كالمرضى بداء العطش، فذلك نزلُهم يوم الدين (الواقعة٤١-٥٦)، وتلك حياة أصحاب المشأمة يوم الدين.

•••

١٣٣١.﴿أهل النار يأكلون من شجر الزقوم﴾

تأتى شجرة الزقوم ثلاث مرات فى القرآن، من التزقّم وهو البلع الغصب لشدة صلابة ومرارة ما يُطعم به. والتزقُّم هو أيضاً التزكُّم. تكون للشيء المبلوع رائحة نتنة تزكم الأنوف. ولاتوجد هذه الشجرة إلافى النار. يقول الله تعالى فيها: ﴿ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ** ﴾ (الصافات)، وفى الآية مقارنة بين أن يكون نُزل الناس الجنة أو يكون حيث شجرة الزقوم هذه ، وإنها لشجرة تنبت فى قعر الجحيم، وبذرتها ومنشؤها النار، وتحيا بلهب النار، وأفرعها مشرعة كأنها رءوس الشياطين، والتشبيه تخييلى، ولمّا نزلت الآية قال الكافرون ما نعرف هذه الشجرة؟! يزعم محمد أن النار تنبت الشجر ونحن نعرف أن النار تحرق الشجر، فكانت الشجرة لهم فتنة، كقوله في النار: ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾(المدثر٣٠) ، قالوا فلماذا هذا العدد بالذات؟ وكذلك قالوا ما لهذه الشجرة لا تحرقها النار، بل إن النار لتنبتها؟ والفتنة اختبار، فتنتهم الشجرة عن ربهم فلم يقدّروه قدره، ولو آمنوا لعلموا أنه يقدر على كل شىء، وأنه خالق الأسباب. وما وقع فيه الكفرة وقت النبىّ ﷺ يقع فيه الآن الملاحدة، حتى أنهم ليأوّلون الجنّة والنار بأنهما الثواب والعقاب، وإنما لاوجود لشيء اسمه الجنة والنار على الحقيقة، وحملوا وزن الأعمال، والصراط، واللوح، والقلم، على معانى زوّروها فى أنفسهم، وقالوا العامة تحسب ذلك حقيقة، والخاصة تفهمها كرموز. والزقوم هذه منها طعام أهل النار، يملأون من لحائها وأوراقها بطونهم، كما أن من طعامهم الضريع، كقوله تعالى: ﴿ **لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ** ﴾(الغاشية٦).

والضـــريع: هو الآخر نبتٌ شائك من نبت النار، منتن الرائحة ، وأشد مرارة من الصبر، ومن هذين طعام أهل النار، وشرابهم الحميم،كقوله تعالى:﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)** ﴾(الدخان)، وقوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)**﴾(الواقعة)، **والأثيم**: هو المشرك الفاجر، والضال المكذّب المكتسب للإثم، **كأبي جهل** وأضرابه، وهؤلاء طعامهم شجر الزقوم، أو من شجر الزقوم، يزقمـونه، أي يبتلعونه، ويشربون عليه الحميم يغلي كالمهل، كالهيم لايرتوون، ويعبونه عباً. فهذه إذن هي حياة أصحاب النار في طعامهم للزقوم وشرابهم.

•••

١٣٣٢. ﴿الضريع طعام أهل النار﴾

طعـام أهل النار الزقـوم، والضريع، كقـوله تعالى: ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤)** ﴾ (الدخـان)، وقـوله: ﴿ **لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)** ﴾ (الغاشية)،ولقد عرفنا **الزقوم**، فأما **الضريع** فقيل فيه: هو شجرة كالزقوم، تنبت في الجحيم، والفرق بينهما وبين الزقوم أن الزقوم تنبت في **أصل الجحيم**، وأما الضـريع فينبت في كل **الجحيم**،ثم إن الزقوم ضخمة متفرعة كأنها **رءوس الشياطين**، والضريع أقل من ذلك، ولها **أشواك ورائحة منتنة**، وطعمها أشد من الصبر، ويرويها القيح والدم. ولا تذكر الآية أنها شجرة، فلابد إذن أنها **طعام**، واسمه ضريع، لأن من يأكل منه مرة يدعو ويتضـارع لو أنه أعفي من أكله، وأن لا يُذَلّ بتناوله قســراً عنه، من شدة خشـونته ونتنه. والضـــارع في اللغة هو الذليل. فمن طعـمه تلحقه الضـراعة. وقيل إن طعـام الضالين المكذبين في النار هو **فقط** من شجـر الزقوم؛ وأما الضريع فهو واد في جهـنم يُستقدم منه أقذر الطعام، وذلك كله رجمٌ بالغيب.وآيات الزقوم والضريع من متشابه القرآن، أي الذي يحتمل وجوها.

•••

١٣٣٣. ﴿طعام أهل النار من غسلين﴾

قالوا: هل القرآن متعــارض؟ فمرة يقول إن طعام أهل النار من **زقـوم**، ومـرة أنه من **ضريع**، ومرة من **غسلين**؟ فما حقيقة ذلك؟ **والزقوم** بخلاف الضريع والغسلين، فلما كـانت النار دركـات، فإن الطعام يختلف بحسـب الدرجة أو الدركة، فمن أهل النار من طعامه من الزقوم، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ** ﴾(الدخان)، ومنهم من طعامه من ضريع كـقوله: ﴿**لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)**﴾

(الغاشية)، ومنهم من طعامه من غسلين، كقوله: ﴿**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ**﴾(الحاقة). أو أن الزقوم طعام الأثيم وهوالكافر الفاجر، من أثم يأثم إثماً، وهو الخطيئة، والأثيم هو المجاهر بالإثم، ومثاله **أبو جهل**؛ **والضريع**: طعام أهل النار عموماً؛ **والغسلين** :طعام المذنبين والخطاة ويشتق من **الغَسْل**، على وزن فعلين، فكأنه غُسالة أبدان أهل النار والصديد السائل من حروقهم.

•••

١٣٣٤.﴿شراب أهل النار﴾

أهل النار جميعاً بمختلف دركاتها شرابهم من **حميم وغساق** ، كقوله تعالى: ﴿**فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ(٥٨)**﴾(ص)، **والحميم**: وهو الماء المغلى يشربونه﴿**مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(٥)**﴾ (الغاشية) من **الإيناء**، تقول **آناه** أى أخرّه وحبسه وأبطأه؛ **والعين الآنية**: هى المتناهية الحرّ، أوقدت عليها جهنم منذ خلقت؛ أو أنها **آنية** يعنى بلغ حرُّها أوجه، فحان أن يُسقى منها هؤلاء العاملون الخطاة الذين أُثقلوا بذنوب الدنيا، وميّزهم بطريقة شربهم: ﴿ **فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٥٥)**﴾(الواقعة)، أى يشربون شُرب **البهائم العطشى** تشكو شدّة العطش؛ **والغسّاق** هو البارد ضد الحار، وهو بارد لدرجة أن لا يُحتمل من شدّة برده المؤلم، من **غسَق** يغسق فهو **غسّاق** ، وهو الزمهرير يخوفهم ببرده. لأنه يحرق ببرده، كما يحرق **الحميم** بحرّه، وشرابُهم إذن يتراوح بين هذين، : **الحميم والغساق**، أو الحار شديد الحرارة، والبارد شديد البرودة، وبين هذين أنواع أخرى من الشراب فيها كل العذاب، كقوله:﴿**وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)**﴾(ص) أى أصناف وأنواع من الشراب من نحو الحميم والغسّاق.

•••

١٣٣٥.﴿تخاصم أهل النار﴾

أهل النار يتخاصمون، وأهل الجنة **يتصالحون**. والأولون يتكأكاون ويتجمهرون ويتشاجرون، والآخرون فرحون مبتهجون في وئام، والسبب أن الأولين **طاغون**، كقوله: ﴿**وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ(٥٦)**﴾(ص)، والطاغون: هم الخارجون عن طاعة الله، والمخالفون للرسُل؛ «وشرّ المآب»: هو سوء المنقلب والمآل، فسّره فقال: «جهنم يصلونها»، يعنى يدخلونها فتشملهم من جميع نواحيهم، «**فبئس المهاد**» أى بئس ما مهدوا لأنفسهم، وبئس الفراش لهم، ووصفَ دخولهم. فقال: ﴿**هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ**

﴿٦٠ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ٦١ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ٦٢ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ٦٣﴾ (ص)، والمشادة بين أهل النار، من الداخلين الجدد تنبيء عمّا يكون بين الجميع في النار من منازعات، ومهاترات وصراخ، وسباب، وتماسك، وفي هذا المشهد في الآية، فإن القادمين إليها كانوا من قبل أسياداً في الدنيا، والمستقبلون لهم هم الأتباع والأشياع. وقدوم هؤلاء أو هؤلاء يكون أفواجاً، ولايكون قدوماً في سلام، ولكنه «اقتحام» يناسب أنهم «طاغون»، سواء كانوا أسياداً أو أشياعاً، ويدعو الأسياد على الأشياع: لا مرحبا بكم، فالنار مثواكم، ولكن الأتباع بهم سلاطة لسان، ويردّون على السباب بمثله، يقولون: بل أنتم لامرحباً بكم. أنتم السبب في كل ذلك، وأنتم الذين دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، وبئس النار منزلاً ومستقراً لنا ولكم! ويستمر الأتباع في الدعاء عليهم، أن يزيدهم الله عذاباً ضعفاً في النار بما أذنبوا، وبما غرروا بهم، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف٣٨). ويفتقد هؤلاء وهؤلاء رجالاً كانوا في الدنيا يسخرون منهم، وظنوا أنهم أشرار، واعتقدوا أنهم على الضلالة - يقصدون المؤمنين - أم أن أبصارهم زاغت عنهم فلم تبصرهم معهم، وعندئذ يأتيهم العلم أن هؤلاء في الجنة، فيتنادون، أصحاب الجنة من فرحتهم ينادون أولاً على أصحاب النار، ويردّ الأسياد كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ٤٤﴾(الأعراف)، وأصحاب النار من الأتباع يلعنون الأسياد الذين كانوا السبب في ضلالهم. وتستمر هذه الدراما والحوار بين هؤلاء وهؤلاء، فيهما التنازع والشجار والسباب والصراخ، وهذا إذن هو تخاصم أهل النار بعضهم مع بعض، ولَعْنُ بعضهم لبعض، وهو حقٌّ لا مرية فيه.

•••

١٣٣٦. ﴿الكُبَر اسمٌ من أسماء النار﴾

قيل في قوله تعالى ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٥﴾(المدثر) أنه وصفٌ للنار، والكُبَر هي الدواهي والفظائع من العقوبات، واحدتها كبرىَ مثل صُغْرى وصُغَر، وعُظمى وعُظَم. وقيل لذلك: الكُبَر اسمٌ من أسماء النار، وهذا هو التفسير الصحيح، لأنه يأتي بعدها قوله ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦﴾المدثر)، فلاشيء يوصف بأنه نذير للبشر سوى النار، وما أُنذر الخلائق بشي أدهى منها وأفظع!

•••

١٣٣٧. ﴿النار اسمها سقر﴾

قيل: سميت النار «سقر» في الآية: ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)**﴾(المدثر)، لأنها تسقر أصحابها كالشمس الحارقة، فتذيب الجلود وتحرقها وتلوّح الخِلقة، ولا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولادماً إلا أتت عليه، فلا يبقي منهم شيء، ثم يعاد خلقهم فلا تذر تعاود إحراقهم، فذلك قوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ**﴾ مبالغة في وصفها، وتعظيماً لشأنها، وهو استفهام إنكاري، بمعنى وما أعلمك أي شيء هي سقر؟ وقيل في سقر: هي نار داخلها أشد الناس عذاباً. وقيل هي الدركة السادسة من درك النار. وفي الحديث: «**إن أفتر الناس هو صاحب سقر**». لأنها لاتبقي لمن يدخلها من نفسه شيئاً، وتأتي عليه أولا بأول، فلا هي تبقيه حياً، ولا هي تذره ميتاً. وهي لوّاحة للبشرة تلفحها وتحرقها حتى السواد.

●●●

١٣٣٨. ﴿الهاوية من أسماء النار﴾

الهاوية من هَوَى أي سقط. **والهاوية** من أسماء النار، كقوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)**﴾(القارعة)، أطلق عليها ذلك لأن الذي تخف حسناته ويخف ميزانه، يسقط في النار، كالذي يسقط من حالق على أم رأسه. وقيل: كأن الهاوية أمّه قد نادته إليها فهرع نحوها ليرتمي في حضنها، وسيظل في حضنها أبداً، أي سيخلد فيها. وفي الحديث: «**ذُهب به إلى أمّه الهاوية، فبئست الأم**»!

●●●

١٣٣٩. ﴿الحطمة من أسماء النار﴾

الحطمة من أسماء نار الآخرة، سميت كذلك لأنها تحطم، وتدمّر، وتهشّم، وتكسر وتضعضع، كل ما يلقى فيها. وقيل: هي الدركة الثانية من درك النار؛ وقيل هي الدركة الرابعة، وهو اسم من أسماء جهنم، وفي قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)**﴾ (الهمزة) وصفٌ مفسّر للحطمة، فهي نار ما تزال موقدة، لاتخمد، أعدّت للعاصين، فتعذبهم بمقدار ما في قلب كلٍّ منهم من العصيان، وبمقدار ما يستحقه؛ وقوله «**تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**» يعني تنكشف عليها الأفئدة، والفؤاد هو موضع السرائر، ومن شأن نار الحطمة أنها نار محيطة توصد عليهم، أي تحبسهم داخلها فلايفلتون منها. و«**عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ**»: هي أعمدة يشدّون إليها ممدودين. اللهم نسألك النجاة والعافية!

●●●

١٢٤٠.﴿هل الجميع يردون النار؟﴾

في الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا(٧١)﴾(مريم)، والورود هو الدخـول، و«هـا» تعود على النار، ويوم القيامة لايبـقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها. وكمالة الآية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(مريم٧٢) أي أن المؤمنين يُنجّون منها حال دخـولهم فتكون برداً وسلاماً عليـهم كما كـانت نار الدنيا على إبراهـيـم، وفـي الحديث: «يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم»، والورود لايعني الدخول، فقد تقول: وردتُ القاهرة ولكنى لم أدخلها، فالورود هو أن تمر على الصراط، وقد كذب المستشرقون لما قالوا: إن القرآن يعارض بعـضه بعضاً، فإنه في الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(١٠١)﴾(الأنبـياء) يأتي النفي القـاطع أن يدخل المؤمنون النار، فكـيف يكونون مبعدين عن النار ويردونها مع ذلك؟ والصحيح أن الناس جميعهم يردون النار بحسب الآية الأولى، أي يدخلونها، ثم يُستبعـد منهم من سبقت له الحسنى من الله، وهؤلاء هم من تصدق عليهم الآية الأخـرى كمالة الآية الأولى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾، ونتجيهم يعنى نخلّصهم: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، مما يدل على الورود، يعنى الدخول: ومع ذلك فالآية من متشابه القرآن، أى الذى يحتمل أكثر من تفسير، ولذلك اختـلفت المذاهب حول مـعنى الآية كالشـأن دائماً فـي المتشـابه، مما لم يرد عنه شيء من القرآن يزيده وضوحاً، فمذهبٌ يقول إن صاحب الكبيرة يعاقب بقدر ذنبه، أي يدخل النار ثم ينجو، وقال المرجئة: لايدخل صاحب الكبيرة النار؛ وقال الوعيـدية صاحب الكبيرة يخلد في النار. وقيل إن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾(مريم٧١) المخاطب بها الكفار، رداً على الآيات قبلها فيهم: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا(٧٠)﴾(مريم)، فالكفـار هم المعنيون بالآية، وهي الحتم المقضى، أى القـضاء الموجب، قضاه الله على الكافرين. وأما الأطفال عموماً ـ سواء كانوا أطفال الكفار أو أطفال المسلمين ـ فـهـؤلاء «لم يبلغـوا الحنثْ» كمـا في الحديث، أي لم يبلغـوا الحُلُم، ومن ثم الإدراك، فكيف يُحاسبون؟، وقالت بذلك أغلب المذاهب الإسلامية إلا جماعة من الجبرية قالوا: أطفال المسلمين في المشيئة، أى كما يشاء لهم الله تعالى. وفي الحديث: أن من مات من الأطفـال قـبل الاكتـسـاب فـهو ممـن سعـد في بطـن أمه، وأن مـن يموت لـه ثلاثة من الوَلَدَ فيحتـسبهم، إلا كانوا له جُنة من النار»، والجُـنّـة هي الوقاية والستـر، ومن وُقِيَ النار وسُتِر عنهـا فلن تمسه أصـلاً، ولو مـسّـتـه لما كان مـوُقَى، فلزم أنه إذا دخلهـا لن يصيبـه منهـا

شيء. وذلك معنى الآية. وأما الحديث الذى نسبوه لعائشة: «ياعائشة، إن الله خلق الجنَّة وخَلَق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم» فهو حديثٌ ساقطٌ ضعيف ومردود بالإجماع، ولو كان ذلك صحيحاً لما كان هناك حساب ولامسئولية ولاحرية اختيار! فلماذا نحاسَب ونعاقب على شيء لم نختره لأنفسنا ولم تكن لنا له إرادة؟! والآية إذن لابد أن تعنى: **أنه ما من أحد إلا يرد على النار**، لا ليعذَّب وإنما ليراها ويعاينها إذا كان مؤمناً، وليصلاها إن كان من أهلها؛ ودخولها إنما لمن يستحق العذاب؛ **وليس صحيحاً إذن أن المؤمنين يدخلونها مثلهم مثل الكفار!**

•••

١٣٤١. ﴿سواء الجحيم﴾

الجحيم: مأوى الكافرين (النازعات٣٩، والفجار (الانفطار١٤) والمكذِّبين (المائدة ١٠) والجحيم لها أصل (الصافات٦٤)، ولها صراط (الصافا ٢٣)، ولها سواء، كقوله تعالى: **﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨)﴾** (الدخان)، **والسواء**، هو الوسط، وما كان له وسط فله أطراف؛ **والعَتْل** هو الأخذ بالتلابيب فيُجَر جراً. والعذاب فى وسط الجحيم أشد وأعتى، وفيه يُصب **الحميم** فوق رأس أصحاب الجحيم، الحميم وهو الماء المغلى، فإن كان ما تشعّه الشمس من حرارة فى الكون يساوى ٣,٩ ألف مليون مليون مليون مليون أرج، ويوازى ٥٢٣ ألف مليون مليون مليون حصاناً ميكانيكاً، فكيف تكون درجة حرارة النار؟ ثم كيف تكوى درجة حرارة الجحيم وهى الدرك الأسفل من النار، وهى أضعاف أضعاف ذلك؟ ثم كيف تكون حرارة **سواء الجحيم**؟! فمَن خَلَق الشمس وحرارتها هذه المذهلة لقادر على أن يخلق ما هو أشدّ منها وأمرّ!

•••

١٣٤٢. ﴿الموبق فى جهنم﴾

فى قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾** (الكهف٥٢)، وكل حاجز بين شيئين هو **مَوْبِق**، مثل قوله: **﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾** (يونس٢٨)، أى فرّقنا ومنعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا. وقيل: المَوْبِق **واد فى جهنم يحجز بين أهل النار وأهل الجنة**. ويقال **أَوْبقته** ذنوبه **إيباقاً**، يعنى أهلكته، والمَوْبِق مثل المَوْعِد. نسأل الله العافية والرضا، ونحمده تعالى على الإيمان والقرآن والإسلام.

•••

﴿انتهى الفصل الثانى عشرة بحمد الله ومنّته

ونبدأ الفصل الثالث عشر إن شاء الله بعنوان «القرآن والعلم»﴾

الباب الثالث عشر

«القــرآن والعلــم»

أولاً: العلم فى القرآن

١٣٤٣. «الخروج فى طلب العلم»

المسلمون على هذا النهج: أن من يطلب العلم يلزم الكثير ليحصّله، وأن يرحل فى سبيله ليعلم ما عند غيره منه، وكانوا فى عصور الإسلام الزاهية يرحلون الأيام والليالى فى طلبه، وفى الرواية أن رجلا جاء إلى موسى يسأله: **أتعلم أحدًا أعلم منك؟** قال: لا. فأوحى الله إليه: **بَلَى، عبدُنا الخَضِر**، وهو نفسه «**عبد الله**» فى سورة الكهف، فسأل موسى السبيل ليلقاه، وفى الحديث: «**من سَلَك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله به طريقاً إلى الجنة**». ونفَى موسى لوجود مَن هو أعلم منه غير مستحب منه، ومن المكروهات للعالِم إذا سُئل: أى الناس أعلم؟ أن يجهل أن فوق كل ذى علم عليماً. ولو علم موسى حقّ العلم لعرف أن الله تعالى علّمه ما لم يعلّم الخَضِر، وعلّم الخَضِر ما لم يعلّم موسى. ولا يُنتقص فى النبىّ أن يأخذ العلم ممن يساويه منزلةً فيه، وأحرى بالعالِم إذا لم يكن يعلم أن يقال عن سؤال يُسأله ويجهل الجواب عليه: «**لا أعلم**»، أو «**لا أدرى**».

•••

١٣٤٤. «فضل الذين أوتوا العلم»

فى الصحيح أن عمر بن الخطاب كان يقدم عبدالله بن عباس على الصحابة، وكان عبدالله عالماً، والصحابة منهم الشيوخ الكبار، فآثره بالمنزلة العالية لعلمه، كقوله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**(١١)﴾(المجادلة)، قيل: يرفع **المؤمن العالم على المؤمن غير العالم**، وقيل: يرفعه فى الثواب فى الآخرة، وفى الكرامة فى الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم، ورِفعة الدرجة تدل على الفضل، ومنها **الرفعة المعنوية**، بعلو المنزلة وحُسن الصيت، **والرفعة الحسّية** فى الآخرة، بعلو المنزلة فى الجنة. وفى هذه الآية فإن الرفعة عند الله تعالى **بالعلم والإيمان**، فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً. وفى الرواية أن نافع بن عبدالحارث أحد عمّال عمر على مكة، لمّا غادرها إلى عمر فى المدينة سأله عمر: ومن استخلفت فى مكة؟ قال: ابن أبزى؟ وسأله: ومَن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفتَ على الناس مولى؟ قال: إنه قارىء لكتاب الله، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**». وفى الحديث: «**بين العالم والعابد**

مائة درجة، و«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»، و«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»، فتلك هى منزلة العالم إذن تتوسط بين النبوة والشهادة. فأعظِمْ بها منزلة! وفى الخبر أن سليمان خُيِّر بين العلم والمال والمُلك، فاختار العلم، فأُعطى المال والمُلك معه. وعلّم ربّنا النبىّ ﷺ أن يدعو: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤)﴾(طـه)، وهذا نصٌ صريح فى فضل العلم. لأن الله تعالى لم يأمر النبىّ ﷺ بطلب الازدياد من شىء إلا من العلم. وفى الحديث: «مَن التمس طريقاً يلتمس فيه علماً سهلَ الله له طريقاً إلى الجنة.» ولو قارنت بين القرآن والتوراة والإنجيل لوجدتَ عجباً. فلا ذكر للعلم والعلماء فى هذين الكتابين الأخيرين، فى حين يأتى العلم فى القرآن ٧٤٥ مرة!

●●●

١٣٤٥. ﴿العلم قبل القول والعمل﴾

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات(١٩)﴾(محمد) فبدأ بالعلم، ثم أمره بالعمل. والخطاب وإن كان للنبىّ ﷺ إلا أنه عام لأمّته. والأحاديث فى العلم كثيرة. منها: «العلماء هم ورثة الأنبياء»، وشاهده فى القرآن: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا (٣٢)﴾(فاطر)، وميراث الأنبياء هو العلم؛ ومنها: «من سلك طريقاً يطلب به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة»؛ ومنها: «من يُرد الله به خيراً يفقهه» - والفقه عام لكل شىء؛ ومنها: «إنما العلم بالتعلّم». وفى القرآن: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٧٩)﴾(آل عمران)، والربّانى: الذى يربّى الناس بصغار العلم قبل كباره. والله يتوعدَ من كتم علماً يعلمه، وتبليغه واجب فى كل حال، ولاينتهى المسلم عنه أبدا. والعلماء هم أصحاب الأفهام والعقول، كقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾(العنكبوت)، والعلم والجهل لايتعادلان، كقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ(٩)﴾(الزمر).

●●●

١٣٤٦. ﴿ليبلغ العلم الشاهد الغائب﴾

هذا كلام ابن عباس عن النبىّ ﷺ، قال: «ليبلّغ العلمَ الشاهدُ الغائب»، يعنى من يشهد علما سمعا أو مشاهدة عين، فلينقله إلى غائب لم يعاينه، وحذّر النبىّ ﷺ أن يكذب المبلّغ فيما بلّغه، وأن يكذب وينسب إلى الرسول ﷺ مالم يقله، والكذب أعدى أعداء العالِم، وعن النبىّ ﷺ: «لاتكذبوا علىّ»، ومن كذب من أهل العلم أثم إثماً كبيراً. وقد اغتر البعض فنسبوا أقوالاً للرسول ﷺ وادعوا فقالوا: نحن لم نكذب عليه

وإنما فعلنا ذلك لتأييد شريعته، وجوّزوا وضع الكذب لتثبيت ما ورد فى القرآن والسُّنّة، واحتجوا بأنه كذب له لاعليه ! وقالوا: فى الحديث: «من كذب عليّ ليضل به الناس فليتبوأ مقعده من النار»، وفى القرآن: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ (١٤٤) ﴾ (الأنعام). وهم كذبوا حقاً وإنما ليهدوا لا ليضلّوا، وهذا هو عذرهم، والعُذر أقبح من الذنب ، فمن يضمن أنهم سيكذبون ليهدوا ؟ وما هو فهمهم للهداية؟ ويهدون إلى ماذا؟

●●●

١٣٤٧. ﴿رُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع﴾

المسلم مبلّغ ومُبلَّغ، ولايستنكف مسلم أن يبلّغ ما يسمع من العلم، ولايتقاعس عن أن يأخذ عن المبلّغين، وأن يكون مبلّغاً، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ (٦٧)﴾(المائدة)، والخطاب للرسول ﷺ ، ومن بعده لكل مسلم قد خلفه، كقوله: ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ (٢٣) ﴾ (الأحقاف)،وكل علم هو رسالة من الله تعالى واجبة التبليغ. وفى الحديث: «رُبَّ مبلَّغ أوعى من السامع وليبلّغ الشاهد الغائب» أى رُبّ مبلَّغ عن الرسول ﷺ أفْهَمُ لما يقول من سامع قد سمع منه شخصياً؛ وفى المعنى العام أن المبلَّغ بالعلم من غير عالم، والغائب الذى يسمع بالعلم من آخر شهد أهل العلم واستمع لهم ، قد يدرك به تطبيقات ومجالات من الفهم أوسع وأكثر ممن سمعه منهم مباشرة. وليست العبرة بما نسمع ونشهد ونقرأ، ولكن العبرة بما يتخلّف من القراءة والسماع والرؤية، والناس فى الفهم متباينون، فهناك من يسمع ويرى ولايجدى معه ما يسمع وما يرى، كالأرض الصلبة ينزل عليها المطر فيسيل عنها ولايبقى منه شىء لها تفيد منه؛ وهناك من يسمع ولا يفيد إلا القليل، كالأرض السبخة يرويها المطر ولكنها لاتتقبل الزرع بها إلا قليلاً، وأما الأرض الجيدة فهى التى ينمو فيها الزرع ويصحّ، فكذلك الناس، فمنهم الواعى الذى يعقل ما يسمع، والأوعى منه وهو الذى ينفعل به ويدعو إليه لأنه ينفع الناس، فهكذا المسلم العالم الداعية المبلّغ.

●●●

١٣٤٨. ﴿العالم يعلم ويَعلم﴾

العلماء ثلاثة: العالم العامل المعلّم : كالأرض الطيبة شربت الماء فانتفعت به فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها؛ والعالم الجامع للعلم: المستغرق فيه لزمانه، غير أنه لم يعمل به ، ولم يتفقه فيما جمع، ولكنه أدّاه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقول الرسول ﷺ : «نضّر الله امرءاً سمع مقالتى فأدّاها كما

سمعها»؛ والثالث: هو العالم السامع للعلم فلا يحفظه ، ولا يعمل به، ولاينقله لغيره، فهو كالأرض السبخة لاتقبل الماء، وتفسده على غيرها. وأولى الناس بعلم العالم أهْلُه، وتعليم العالم لأهله من أحسن الأعمال . ومن مناهج العلم فى الإسلام التناوب فى العلم، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك، فإذا غاب كلف صاحبًا له ليحضر مجلس العلم عند الرسول ﷺ وينقل إليه ما عَلِم. ومن وصايا النبىّ ﷺ لأهل العلم: «ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم»؛ ومن وصايا أهل العلم لبعضهم البعض: لا ينبغى لأحد عنده شيء من العلم أن يضيّع نفسه فالعلم يُنْتَجى. وفى الحديث: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويثبت الجهل»، ولايرفع العلم انتزاعاً ينتزعه اللّه من أهل العلم، وإنما كما فى الحديث: «ويُقبَض العلم بقَبْض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمٌ، اتخذ الناس رءوساً جهّالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا» ، وقد نصح النبىّ ﷺ المسلمين فقال: «خذوا العلم قبل أن يُقبَض أو يُرفَع». ولمّا دعا لابن عباس قال: «اللهم علّمه الحكمة وتأويل الكتاب» ،فلم يدْعُ له بالمال والسلطان وإنما بالعلم. وفى رواية أنه ضمّه وقال: «اللّهم علّمه الكتاب»، وكان ابن عباس فى الرابعة أو الخامسة ويتلقى عن النبىّ ﷺ ، ولايدع مجلس علم إلا يحضُره؛ ومثله ابن الزبير وكان فى الثالثة أو الرابعة، وكان الصبيان يحضرون مجالس العلم، وليس تحديد الخمس سنوات أو الأربع شرطاً للحضور، ولكنها مظنة، وكانوا يرسلون أبناءهم للشيوخ فى سن الثالثة إذا كانوا قد فهموا. ولايَهُمّ كثيراً فى دعوة النبىّ ﷺ لابن عباس أنه ـ أى ابن عباس ـ كان من أكبر مروّجى الإسرائيليات من بعد!

•••

١٣٤٩. ﴿علم الإنسان مالم يعلم﴾

يولد الإنسان على الفطرة، قيل: يولد صفحة بيضاء **tabula rasa**، لم ينقش بها شيء، وقيل: بل الفطرة تعنى أن كل خبرات النوع والجنس مسطورة فى شفرته الجينية، وهو تعليمه تعالى للإنسان،كقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**(٣٢)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** (٥)﴾(العلق)، والعلم مشاع ويختص الله به من يصطفى، كقوله: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (٦٥) ﴾(الكهف)، وقوله: ﴿**وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** (٢٥١)﴾ (البقرة)، ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾(يوسف٦٨) ، إلا أن العلم يتنزّل من اللّه قليلاً، وكلما أراد، بحسب استعداد الإنسان وظروف العصر والمصر: ﴿**وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** (٢١)﴾ (الحجر).

•••

١٣٥٠.﴿لايتعلم العلم مُستح ولامستكبر﴾

الاستحياء من الحياء، كقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾(الأحزاب٥٣) وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾(البقرة٢٦) ، والاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع عنه خوفاً من مواقعة القبيح، وهذا محال عن الله . غير أن الحياء من الإيمان، ومنه الشرعي الذى يكون عن إجلال واحترام للأكابر، والمذموم الذى يكون سبباً لترك أمر شرعي، وهو ليس حياءً فى الحقيقة ولكنه ضعف ومهانة. والمتعلّم عليه أن يترك العجز والتكبّر. وقد امتدحت عائشة نساء الأنصار لما سألت أم سليم إذا كان على المرأة أن تغتسل إذا احتلمت؟ فقالت: نِعْمَ نساء الأنصار! لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن! وكانت عائشة تظن بدايةً أن أم سليم فضحت النساء بسؤالها،ثم صححت نفسها وأبدت إعجابها. وقد يستحى أحدهم فيطلب من غيره أن يسأل بدلاً عنه وذلك جائز، على أنه لاحياء فى العلم والدين.

●●●

١٣٥١.﴿أول العلم الاستماع ثم الإنصات﴾

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾(الأعراف)، فتحصيل العلم بالاستماع والإنصات لأهل العلم، فأما «الاستماع» فيكون مع السكون، أومع النطق بكلام يمنع المتكلم من الاشتغال بالاستماع للعلم، وأما «الإنصات» فهو السكون،ويحصل ممن يستمع وممن لا يستمع على السؤال، كأن يفكر فى أمر آخر يصرفه عن الاستماع وإن كان ساكناً. وفى الأثر: «أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر». وقيل إن المرء ليستمع أولاً، ثم ينصت، والاستماع بالأذنين، وأما الإنصات فهو بالعينين، فأنت إذا حدّثت رجلاً فلم ينظر إليك بعينيه اعتبرته غير منصت.

●●●

١٣٥٢.﴿من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه﴾

لم يكن النبىّ ﷺ ينهى عن المراجعة فى العلم، وهكذا يجب على كل عالم، والمناظرة أجازها اللّه تعالى: قال: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (١٢٥)﴾(النحل) وعند المسلمين يجوز مقابلة السنّة بالكتاب، والسؤال عن مثل هذا لم يدخل فيما نهى الصحابة عنه فى قوله تعالى: ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ (المائدة). وفى الحديث عن حفصة أنها لمّا سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يدخل النار أحد ممن شهد بدراً والحديبية» ، قالت: أليس اللّه يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا (٧١)﴾ (مريم)؟فردّ عليها النبىّ ﷺ ،وقال عن ربّه: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ

أَتَّقَواْ (٧٢)﴾ (مريم)! وسأل الصحابة لما نزلت: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ (٨٢)﴾** (الأنعام): أيّنا لم يظلم نفسه؟ فأجابهم: **«إن المراد بالظلم الشرك»**.. وكانت **عائشة** لاتسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، فلمّا قال النبيّ ﷺ: «من **حوسب عُذّب**». قالت **عائشة**: أوَ ليس يقول الله تعالى: **﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)﴾** (الانشقاق)؟ فردّ عليها: «**إنما ذلك العَرْض، ولكن من نوقش الحساب يهلك**».وفارقٌ بين من يسأل ليراجع في ما استشكل عليه ولم يفهمه، ومن يسأل تعنُّتا كما قال تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ (٧)﴾**(آل عمران).

●●●

١٣٥٣.﴿لاتكتموا العلم﴾

تعليم العلم وإذاعته تؤكده الآية: **﴿إنَّ الَّذين يكْتُمُون ما أنزلنا من البيِّنات(١٥٩)﴾** (البقرة)، وهى عامة فى كل مَن كتم علماً، وفى الحديث: «**من سُئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**» أخرجه ابن ماجة، ويعارضه الحديث برواية ابن مسعود: «**ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»، وقال ﷺ: «**حدّث الناس بما يفهمون**»، وهذا الكلام محمولٌ على **بعض العلوم**، كعلوم الحكمة، وعلم الكلام، أو أى علم من العلوم التخصّصية كالطب والهندسة إلخ، مما لاتستوى فى فهمه العوام، فحُكم العالِم أن يُعلّم ما يفهمه الناس، وأن يتولى الشرح لهم، وأن يكون **مقاله بحسب المقام**، وأن يُنزل الناس منازلهم بحسب استعداداتهم واحتياجاتهم ورغبتهم فى تحصيل العلم. وهذه الآية استشهد بها العالم الكبير **أبو هريرة** لمّا لاموه أنه كثير الحديث عن النبىّ ﷺ، فقال: **لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكم حديثاً**.. والآية التى يقصدها هى آية كتمان العلم السابقة، وبها استدل العلماء على **وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيانه على الجملة**. وتحقيق هذه الآية: أن العالم إذا قصد كتمان العلم كما يفعل علماء الغرب ـ عصى الله، والإسلام يحضّ أهل العلم إذا سئلوا العلم أن يبلّغوه، وفى الحديث: «**لاتمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولاتضعوها فى غير أهلها فتظلموها**»، ونسبوا إلى النبىّ ﷺ حديثاً لم يقله ولكنه من أمثال عيسى عليه السلام، فقيل إنه قال: «**لاتعلّقوا الدُّر فى أعناق الخنازير**»، وأصله فى إنجيل متّى: «**لاتعطوا القدس للكلاب ولاتلقوا جواهركم قدّام الخنازير**» (متّى٦).

●●●

١٣٥٤.﴿مَن لم يخشى الله فليس بعالم﴾

العلم علمان: عِلمٌ عقيم، وعلماؤه يكتفون بالعلم ولايسألون: وماذا بعد أن علمنا؟

وعلمٌ منتج، حيث العالم يخلص بما علم إلى نتائج لم يكن يبلغها لو لم يعلم. والعلم يجيب عن الكيف والكم، ولكنه لايجيب عن: لماذا؟ إلا طبقة من العلماء العابدين، عرفوا الله بالعلم، ولم يتوقفوا عند مجرد الإحاطة بالكيف والكم، وهؤلاء تقصدهم الآية: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ(٢٨)﴾(فاطر)، فلأنهم عرفوا، أقدروا الله حقّ قدره، وخافوا قدرته، ومن عَلِم أن الكون له صاحب وهو خالقه ومبدعه، وأنه عالم ولكن ليس كالعلماء، فأهل العلم يختصون بالجزئيات، والله عالمٌ محيط بكل شيء، فإنهم يجلّونه ويقدّسونه، ومعنى خشيتهم له معرفتهم به، ومن لم يعرف الله فليس بعالم، وهي قضية تماثل قولنا: من لم يخش الله فليس بعالم: فالعالم هو من يعرف الله فيخشاه، وكفى بخشية الله علمًا، وبالاغترار جهلاً. وأفقه العلماء هو أتقاهم لربّه، ولا خير في علم لا عبادة فيه، ولا خير في عبادة لا علم فيها ولاقراءة ولاتدبر، وفي الحديث: «إن الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضه، والنون (أي الأسماك) في البحار، يصلّون على الذين يعلّمون الناس الخير»، ولا بارك الله في علم يتعلم علماؤه لغير العبادة، ويطلبون به الدنيا.وأن يستعمروا ويستولوا، ويضطهدوا، ويستعلوا في الأرض. وليحذر علماء المسلمين أن يكونوا مثل هؤلاء، ولاتزال أمة الإسلام بخير طالما كان علماؤها يخشون الله. ومن خشى الله زاده علماً،والعلم لايكون اكتساباً فقط ولكنه لمن يفتح الله عليه به، والذى يفتح الله به ليس هو العلم العقيم. وأفضل العلماء الذى يعلّم، ويعمل بما يعلّم، ويعلّم ما يعلم،والعلماء أصناف كما في الحديث:«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كَمَثَلِ الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير؛ وكانت منها أحادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا؛ وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل مَن فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به»، فكما أن الغيث يحيي البلد فكذا العلم يستنهض العقول الراكدة، ويحيي القلوب الميتة. والآخذون بالعلم المقبلون عليه ـ كما قلنا ـ كالأرض المختلفة في تلقّيها للماء، فمنهم العالم العامل المعلّم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت ونفعت غيرها، وهذا الذى يخشى الله ويعلم، ويعمل، ويعلّم، يقصد بذل نوال رضاه.ومنهم الجامع للعلم الذى لايعمل به، ولايخلص له، ولايخدم به الله، ولم ينفع به نفسه ولكنه يؤدّيه للناس كما علمه، ويعلّمه غيره، فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به. ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه،ولايعمل به،ولاينقله لغيره،فهو كالأرض المستوية الملساء التى لاتقبل الماء وقد تفسده على غيرها.

•••

١٣٥٥.﴿من يرد الله به خيراً يفقهه في العلم﴾

هذا القول المشهور من حديث النبيّ ﷺ ، ويثبت الخير لمن ينفقه فى العلم، ولايكون العلم بالاكتساب فقط، بل لمن يفتح الله عليه به. وفى الحديث: «**لاحسد إلا فى اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلّط على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلّمها**». والحسد تمنّى زوال النعمة، ولكن الحسد فى الحديث هو **الغبطة**، وأطلق عليها الحسد مجازاً، وهى أن يتمنى الحاسد أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن تزول عنه النعمة، والحرص على هذا منافسة، فإن كانت فى الطاعة فهى **محمودة**، كقوله: ﴿**فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴿٢٦﴾﴾(المطففين) وإن كانت فى المعصية فهى **مذمومة**، ومنها قول النبيّ ﷺ : «**لاتنافسوا**» ، وإن كانت فى الجائزات فهى مباحة.

●●●

١٣٥٦.﴿كتابة العلم﴾

العلم للتوثيق، وكتابة العلم من أولى واجبات أهل العلم، ولايبعد وجوبه على من يخشى عليه النسيان، والكتابة لا تكون إلا بالعدل، أى بالحق، كقوله: ﴿**وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ**﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقرة)، ويستوى فى ذلك أن يكون الكاتبون من البشر أو من الملائكة أيضاً: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** ﴿١٠﴾ **كِرَامًا كَاتِبِينَ** ﴿١١﴾﴾ (الانفطار)، والله تعالى أحرص على أن يُنزل وصاياه فى كتاب كقوله فيه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**﴿١﴾﴾(هود)، وأطلق على الكتاب المرجع اسم «أم الكتاب»، كقوله: ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد). وفى الإسلام لم يكن هناك من هو أكثر اشتغالاً بالتعليم ـ من الرجال ـ من «**أبى هريرة**»، **ومن النساء من عائشة بنت أبى بكر**، وكانا يتصديان للفتوى والتعليم إلى أن ماتا، ويظهر هذا من كثرة ما روى عنهما. وكان من العلماء الكاتبين **عبدالله بن عمرو**، وقد استأذن رسول الله ﷺ أن يكتب بيده ما يسمع منه فأذن له، وقال عبد الله: كنت أكتب كل شىء سمعته من رسول الله ﷺ ، ومما قاله له النبيّ ﷺ : **اكتب، فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا الحق**». وقد كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة العلم، واستحبوا أن يؤخذ عنهم **حفظاً** كما اخذوه حفظاً، لكن لمّا قصرت الهمم، وخشى العلماء ضياع العلم دوّنوه.

وقيل إن **أول من دوّن العلم من العلماء**: ابن شهاب الزهرى على رأس المائة، بأمر عمر بن عبدالعزيز، ثم كثر تدوين العلم بعد ذلك، ثم التصنيف، فحصل الخير الكثير.

●●●

١٣٥٧. ﴿العلم لينتفع به﴾

في الحديث: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار.. فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، مالك؟ «ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه،وأنهى عن المنكر وآتيه». وفي القرآن في هذا المعنى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾(البقرة) والآية تنكر على الناس أن يخالفوا حقائق المعانى، وتوبّخهم بسبب تَرْك البِرّ وهم يعلمونه من كتُبهم، وهؤلاء هم أهل العلم يقولون ما لا يفعلون. والبرّ هو العمل الصالح. والعلم والعمل متقارنان. ولم يقل فى الآية وأنتم تقرأون الكتاب وإنما قال وأنتم تتلونه، والتلاوة أشدّ لأنها تعنى الاتّباع، ولأن الكلام يتبع بعضه بعضاً ليأتى على نسقه.



١٣٥٨. ﴿الوحى: هل هو حقيقة علمية؟﴾

الوحى من الحقائق العلوية، وصارت المدارس المتشبهة فى برامجها بالبرامج الأوروبية لاتعتمد فيما تقدم من دراسات إلا ما يخدم الفهم العقلى ويقوّى فى التلاميذ المنهج الوضعى التجريبى، ولذا فقد ينكر خريجو هذه المدارس الوحى ويتأبوّن على الموافقة عليه ويذهبون فى تفسيره مذاهب مادية. ولكى نفهم الوحى كما تنزّل على الرسول ﷺ وكما وردت الآيات فى القرآن، علينا أولاً أن نبدأ بالتعريف به، وهو فى الشرع: كلامٌ خفىٌ من اللّه لمن يصطفى، وقد يكون إلهاماً، كما فى الآية: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (٦٨)﴾ (النحل)، والآية: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا (١٢)﴾(فصلت)؛ أو يكون كالرؤيا كما وقع لإبراهيم، يقول: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (١٠٢)﴾(الصافات)؛ أو يكون بواسطة مَلَك فى هيئة رجل كما فى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)﴾ (مريم) أى فى صورة آدمية؛ أو رآه على صورته الملكية، كقوله: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾(النجم)، قالت عائشة: رآه أى رأى جبريل، ولم يره فى صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة فى أجياد، وله ستمائة جناح قد سدّ الأفق» أخرجه الترمذى، أى رآه فى صورته الحقيقية كما خلقه الله. ومن الوحى ما يكون بالقلب ويسمونه الوحى الجلىّ كما فى قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨)﴾(طه) فهو يتنزّل على القلب بالعلم الضرورى، فلا يملك المُوحَى إليه دفعاً له. وفى التوراة، فى سفر العدد، يأتى: «كان على بلعام أن ينطق بما وضعه الله فى فمه»(٢٤ / ٣و١٣و١٥و١٦)؛ وفى سفر إرميا يأتى: ومدّ الربّ يده ولمس فمى (١ / ٩)، وكان بولس يرى أنه يتكلم من روح اللّه وقال: إنه يقدم

للكنيسة وصايا الربّ» (كولوسي٢)، والوحي في الأناجيل يعني أن أشخاصه لايتكلمون باسمهم، والفرق بين الوحي في التوراة والأناجيل والوحي في الإسلام: أنه في الإسلام له خصوصية لم تكن له في أي من الديانتين السابقتين، فالعلاقة بين جبريل والنبيّ ﷺ لم يكن لها مثيل في هاتين الديانتين، وفي القرآن يأتي قوله: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ④﴾** (التحريم)، وقوله: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ⑨⑦﴾**(البقرة)، وفي الأثر أن اليهود سألوا النبيّ ﷺ عن اسم صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي، فقال: «جبريل»، قالوا: فإنه عدو لنا ولايأتي إلا بالحرب والشدّة والسَنة(أي القحط) والقتال، فنزلت: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾**الآية: وجبريل من الجبر **والتجبُّر**، وتتضح المؤامرة على الإسلام منذ ذلك الحين في هذا التفسير، فأن يكون مَلَك محمد، يعني بالنسبة لهم أن محمداً قد أتى بالسيف! فهذه هي الفرية التي روّجوا لها من زمنه ﷺ . ومن الإسرائيليات في الحديث عن وقعة خيبر، أن جبريل بعد الخندق جاء إلى النبيّ ﷺ مغبرًا فقال له: أوضعتَ سلاحك؟ إن الملائكة لم تضع سلاحها! وأمره أن يتجه إلى يهود خيبر! وكأن خيبر كانت بأمر جبريل وليست بسبب نقض اليهود للعهد؟! وأما القرآن فيصحّح هذه الفكرة عند اليهود عن جبريل وميكال فيقول: **﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ⑨⑧﴾** (البقرة). واليهود كانوا يريدون أن يكون مَلَكه ميكائيل، وهو بالعبرية يعني الذي يأتي بالرحمة والمطر والنبات والرزق. ونسأل : ألم يأت المسيح بذلك فلم يتقبلوه؟ - ونعود إلى الوحي والوحي أشدّ من الإلهام، وفي التنزيل: **﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧﴾**(الشمس) أي جعل في النفس الخير والشرّ، وأن يميزّ بينهما فيختار في حرية أيهما شاء، ويُسأل عمّا اختار وفعل. **والدليل العلمي على صحة الوحي** أننا قد نُوحي لبعضنا البعض ونُقبل على فعل الشيء أو نعزف عنه. وعلماء التحليل النفسي استخدموا الوحي في التنويم المغناطيسي، ومن هذا النوع التجريبي من الوحي ما يتم بعد اليقظة **waking suggestion**، وما يتم بعد التنويم **post-hypnotic suggestion**، ومنه الوحي المباشر وغير المباشر، والسالب - لمحو سلوك معين مثلاً أو منعه، والموجب، والجمعي أو الجماهيري، والذاتي **auto - suggestion** الصادر عن الشخص نفسه، والغيري **hetero- suggestion**، الصادر من كلمات أو اتجاهات أو أفعال الآخرين، والاجتماعي من الشخص لآخر. وفي الطب النفسي يعالجون الناس بالوحي، ومن أئمة العلاج به كوويه الفرنسي، وكان يوحي إلى المريض أنه في تحسّن مستمر، ويدفعه إلى أن يوحي إلى نفسه بأنه يتحسّن باستمرار. وتترتب على الوحي عند

الأنبياء ظهور المعجزات وهى الأفعال الخارقة. وقيل **الآيات لله، والمعجزات** للأنبياء، **والكرامات** للأولياء وأخيار الناس، وكل ذلك مصدره الوحى أو الإلهام. والفرق فى ذلك أن المعجزة للنبىّ مأمورٌ أن يُظهرها بينما الواجب على الولىّ أن يستر كراماته ويخفيها. والنبىّ يحتج بمعجزته ويثبت بها أنه يوحى إليه، وكرامة الولىّ يحتج بها على نفسه لتطمئن وتوقن ولاتضطرب، والقرآن دليل المعجزة بالنسبة لمحمد ﷺ؛ ودليلها عند مريم، ولم تكن نبيّة، أن قيل لها: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ** (٢٥)﴾ (مريم). فالوحى إذن حقيقة علمية، وليس فى القول به فى الإسلام وعند غير المسلمين أيما تثريب. وكذلك **الإلهام** الذى ورد فى سورة الشمس لا تُمارَى حقيقته، وليس فى القرآن شىء من الوحى أو الإلهام يمكن أن يُمارِى فيه العلم، أو يصادم نظرياته. واكتشاف **فليمنج** للبنسلين كان بالإلهام ولم يكن بالتدبير، وكذلك خوارق الأطفال المعجزين. ويأتى **الإلهام كالتنوير**، مثلما كان عند نيوتن، عندما صاح فجأة **«وجدتها»**. وكان اكتشاف ديكارت للهندسة التحليلية، **وكيكول** لفكرة الشكل الحلقى لجزىء البنزين، **وهنرى بوانكاريه** لحساب التفاضيل والتكامل بتأثير الإلهام. وبعض الملاحدة الذين لايؤمنون باللّه لايدرون من أين يأتيهم الإلهام، وقال موتسار إنه - أى الإلهام - كالوحى. وأهل العلم يعرّفونه **بأنه تفكير حدسى**، والمؤمنون ينسبونه إلى اللّه وهذا هو الفرق.



١٣٥٩. ﴿لأنه خلق كل شىء لزم أن يعبده كل شىء﴾

الناس فى أيامنا جعلوا لله شركاء، بدعوى أنهم صاروا يخلقون كما يخلق اللّه - كهؤلاء العلماء الملاحدة الذين اشتركوا فى ميلاد **النعجة «دوللى»، والدين لايتعارض مع العلم**، وللعلم أن يبلغ مداه فى مجاله، ولكن القول بأنهم يخلقون مثل اللّه، وأن الإنسان خالق، مسألة تتجاوز العلم إلى الفلسفة، وهنا يكون الجدال وليس الجدل، والجدال فيه سفسطة، ولكن الجدل قوامه المنطق والحق، والقضية التبست على هؤلاء، وتشابه الخلق عليهم، **فاللّه يخلق من عدم وبلا مثال**، وهؤلاء يخلقون بخلق اللّه، فقوانين الخلق، ومداد الخلق، والعقول المفكّرة فى الخلق، جميعها للّه، وفيهم يقول تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** (١٦)﴾ (الرعد)، و**«لأنه خلق كل شىء فلزم أن يعبده كل شىء»**، والآية ردٌّ على هؤلاء القدرية الذين يزعمون أن بقدرة الإنسان أن يخلق كل شىء، وهذا كذب وافتراء، فاللّه غالبٌ لكل شىء، ويغلب فى مراده كل مريد، وهو واحدٌ - كان قبل كل شىء. ولو خلق هؤلاء النعجة دوللى، فهل بوسعهم أن يخلقوا سماءً كالسماء، أو أرضاً كالأرض؟ وإنما الخلق الحق لله إلزاماً للحجة، إن لم يقولوا ذلك وجهلوا من هو الله،

فبمنطقهم - طالما أن لكل شيء خالقاً، فالخالق هو من خلق كل ذلك، والله هو ذلك الخالق. فيلزم أن نُخلص له العبادة، وهو إلزام صحيح.



١٣٦٠. ﴿لماذا تكثر في القرآن القضايا العلمية الكونية؛ هل القرآن كتاب علمي؟﴾

الجواب: أن القرآن بما أنه كتاب من عند الله فلا يمكن أن تأتي به عبارة واحدة تخالف الواقع العلمي للكون، وما ورد في القرآن من ذلك كثير، ولو كان من عند محمد لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، ولارتاب المبطلون، وإنما كان القرآن آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، من هؤلاء العالم الجليل **الدكتور زغلول النجار**، وهو بحرٌ من العلم، سواء في علوم القرآن أو علوم الكون، وانظر مثلاً إلى **قضية تولّد المطر من السحاب**، وتصادمه في شحنات سالبة وموجبة ينتج عنها البرق، ويتخلّق بها الماء، فهذه قضية لم يعرفها العلم إلا مؤخراً، وبعد بحوث مستفيضة ومتقدمة، ونبّه إليها القرآن وأوجزها في الآيات: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾** (النور)! وقضية أخرى منطقية ثبتت بالدليل العلمي المتقدّم جداً، أن بصمة كل إنسان تختلف عند الواحد عن الآخر، فلا تتشابه البصمات، فالله تعالى جعل لكل إنسان فردية خاصة، ولم نكتشف ذلك إلا مؤخراً، فاستعنا بالبصمة على التعرّف إلى الشخصية وتعيين الهوية: فأنْ ينفرد القرآن بذلك سواء من ناحية المنطق أو بالعلم، في الآية: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾** (القيامة) فذلك إعجازٌ علمي لايُمارَى، وبرهان منطقي لاجدال فيه. ومع ذلك فالقرآن ليس كتاباً في العلوم، ولا في المنطق، والفلسفة، والحكمة، ولم يتنزّل لينتصر لنظريات على نظريات، وإنما هو كتاب في الدعوة إلى الله، وهو يستعين لإظهار دعوته بالآيات الكونية، ويصوغ عنها عبارات معجزة الكلمات. ويستنفر المسلم الذي يؤمن به أن لايمر على آيات الكون دون أن يدرك أسرارها، ويعي عنها، ويفهم أسبابها، ويفيد بها، كقوله: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (٢٠)﴾** (العنكبوت)، وقوله: **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٠١)﴾** (يونس)، وقوله: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا (٤٦)﴾** (الحج)، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)﴾** (الجاثية)، فمن الدعوة إلى الله أن يكون الإنسان المستخلف لله في الأرض على علم بأسباب الله، وأن يعمر الأرض بالعلم كما قضى بذلك الله، ولأن يكون مسلماً قوياً واعياً فاعلاً، خيرٌ من أن يكون مسلماً ضعيفاً مسكيناً مستعبداً، **والعلم** الذي هو أداته في الوجود الفاعل هو ميراثه عن الله تعالى، ليخرجه به من الظلمات إلى النور، ومنهجه لتحقيق

ذلك يلخّصه النبىّ ﷺ فيقول: «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خير. احرصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنّ «لو» تفتح عمل الشيطان». رواه مسلم عن أبى هريرة. وهى دعوته إلى تطبيق العلم الصُراح. ومادة «علم» تأتى فى القرآن ٧٤٥ مرة، ولاشىء من ذلك إطلاقاً فى التوراة ولا فى الأناجيل. والقرآن يحضّ على استخدام العقل، ويستحث على التعقلّ، وتأتى مادة «عقل» فيه ٤٩ مرة، ويأتى قوله «لعلكم تعقلون» ثمانى مرات، ولاشىء من ذلك البتة فى كُتب التوراة أو العهد القديم، ولا فى كتب الأناجيل أو العهد الجديد. فكيف إذن قول اليهود والنصارى: أن الإسلام ضد العلم أو ضد العقل؟ إن يتّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون، وما عقلوا القرآن ولا الإسلام، ويحسبون أنهم على شىء وهم كاذبون، ومن أظلم ممن افترى الكذب، وكذّب بالحقّ، ليضلّ الناس بغير علم.

●●●

١٣٦١. ﴿الدلالة العلمية للآيات الكونية﴾

القرآن ليس كتاباً فى العلوم، ولكنه مع ذلك لا يتصادم مع العلم، والآيات العلمية فى القرآن تنتصر للعلم المكتسب وليس العكس، لأن العلم المكتسب يقوم على التنظير فى القضايا التى لاتخضع لحسّ الإنسان وإدراكه الحسّى، كقضايا الخلق والإفناء وإعادة الخلق، وتكثر النظريات فى ذلك، وأكثرها يدفع إليها الإلحاد، إلا أن نتائجها الإيمانية توافق آيات القرآن، وذلك دليل على صحة هذه النتائج، وعلى أن من ذهبوا إليها كانوا على الطريق الصحيح فى الكشف والاستنتاج وإن كانوا قد بدأوا منكرين للألوهية، وبعد أن كانوا يقولون مثلاً أن الكون ثابت، وأنه أزلى ولا نهائى، ينفون بذلك الخلق والآخرة والمعاد، اضطروا بما أجروا من تجارب إلى القول بأن الكون كانت له بداية، وأنه يسير حتماً إلى نهاية، وأنه كما بدأ فإنه يعود، والقرآن نبهّ إلى ذلك منذ ألف وأربعمائة سنة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾(الأنبياء)، يؤكد أن هذا الكون الذى نحيا فيه هو كون مخلوق ، وأنه تعالى خلقه من جرْم ابتدائى واحد عالى الكثافة كانت فيه السماء غير متمايزة عن الأرض، وهو ما عبّرت عنه الآية بالرتق، ثم كان الفتق ـ وهو الانفجار، ويسميه أهل الفلك «الانفجار الكبير The Big Bang»، فتحوّل هذا الجرم إلى دخان ، وتأدّت الحرارة الشديدة المصاحبة لذلك إلى تفاعلات نووية، تكونت بها عناصر أولية كالإيدروجين والهيليوم. والرتق فى اللغة هو الضم والالتحام، ونقيضه الفتق وهو الفصل والانشقاق والانشطار. وفى الرتق كما قلنا

يزيد الضغط والحرارة فتؤدي زيادتهما المستمرة إلى الفتق، ومع تكوّن العناصر تكونت الأرض والسماء، مصداقاً للآية: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)** ﴾(فصلت). ومع الانفجار الكبير تمدد الكون وتضخّم بسرعة فائقة تضاءلت مع الزمن إلى معدلاتها الحالية، ولكن هذا التمدّد لن يستمر للأبد، فالكون ليس كوناً **منفتحاً** آلياً كما يقول الملحدون، وتؤكد حسابات **الكتل المفقودة** بأن الكون مصيره إلى الانغلاق، وأنه على ذلك كونٌ **مغلق**، أي **له نهاية**، وأن التمدّي سيتوقف عند لحظة في المستقبل، يعود بعدها إلى **الانكماش والتكدّس والانطواء والتقارب والالتحام**، وهي مرحلة **الرتق الثانية**، فيعود سيرته الأولى، بحسب غلبة قوى الجذب فيه على **قوى الدفع** إلى الخارج، **وينطوي** الكون على نفسه، ليعود إلى حالة الكثافة اللانهائية الأولى التي بدأ بها. وهو المُعبَّر عنه في الآية: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)** ﴾(الأنبياء)، والآية: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)** ﴾(إبراهيم). وذلك مايسميه الفلكيون «**الانسحاق الكوني العظيم The Big Crunch**».

وهذه الدلالات العلمية للآيات الكونية لم يتبينها الإنسان إلا بعد نزول القرآن بألف وأربعمائة سنة كما ذكرنا، أو أن القرآن قال بها منذ ذلك الوقت البعيد يوم كانت البشرية في عماء علمي كامل، ومن ذلك في سفر الخروج من التوراة، في الفصلين الأول والثاني، أن الكون ساكنٌ ثابت في مكانه، لايتغير، وأن النُجوم ثابتة في السماء التي تدور بها حول الأرض، وأن الكون كله مركب من عناصر أربعة هي الماء والهواء والتراب والنار، وبذلك تختلف الصورة العلمية في القرآن للكون عن مثيلتها في التوراة، مما يدل على أن كلام القرآن هو كلام الخالق وليس كلام بشر، وأن محمداً الذي تنزّل عليه القرآن وبلّغه، هو رسول من عند الله تعالى يُوحى إليه. وقد شهد العلم بصدق القرآن في كل ما ورد فيه من قضايا علمية، وبأن آياته قد صيغت بحيث يفهم منها كل عصر ما يتناسب مع مستواه العلمي، وهذه معجزة أخرى للقرآن، وما تزال عجائب القرآن ومعجزاته تتضح الحين بعد الحين، كلما اتسعت دائرة المعارف الإنسانية.



١٣٦٢. ﴿من الآيات الكونية الدالة على وجود الله ووحدانيته﴾

الإعجاز العلمي في القرآن، وكذلك الإعجاز العلمي في الأحاديث النبوية، يحتاجان

إلى مجلدات، وفى هذا الباب «القرآن والعلم» نحاول أن نلفت النظر إلى بعض الآيات المتضمنة للإعجاز دون الآيات كلها، ونبيّن ما فيها، وما تشير إليه، وما تتضمنه.

ومن الآيات التى تتضمن إشارات إلى الاعجاز العلمى للقرآن، ومن ثم تشتمل على الدليل على وجود الله وعلى وحدانيته، الآية: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴿١٢٥﴾**﴾(الانعام)، وفيها يقابل الله تعالى بين ضيق صدر الكافرين بالهداية، **وضيق صدر الذى يصعّد فى السماء بغير وسائل واقية،** فمن أين يتسنّى للنبىّ ﷺ أن يعرف هذه الحقيقة العلمية، والعلوم فى وقته لا ذكر فيها لذلك، إلا أن يكون مبدع القرآن هو الله الذى خلق هذا الكون، وهو أعرف بما فيه؟ وفى **علوم الفلك**: أن للأرض غلافاً غازياً يمتد **ثلاثة** كيلو مترات فوق سطح الأرض ويمكن للإنسان أن يتواجد فيه، فإذا ارتفع عن ذلك ١٦ **كيلو متراً** فإن هذا الجزء حتى نصفه يمكن للإنسان أن يعيش فيه بصعوبة، فتعترى خلاياه الاضطرابات نتيجة **نقص الأوكسجين وانخفاض الضغط** الجوى، ويعانى صعوبة فى التنفس، فإذا ارتفع عن ذلك كان لابد له أن يرتدى حلة **كحلل رواد الفضاء** لتحميه، وإلا بدأ صدره يضيق حرجاً كما تقول الآية، وتبدأ كل وظائف الجسم فى التوقف، وتتمدد الغازات فى الجسم وأنسجته وتنفصل عنه، وتتسبب فى آلام مبرحة، وفى صدمة عصبية، وزرقة فى الجسم، وشلل جزئى، ويتوقف القلب والرئتين، وهذه حقائق تضمنتها الآية وأشارت إليها ولم يبينها **إلا العلم** الحديث، فنعلم بذلك **عظمة القرآن**، وأنه كتاب لايمكن أن يكون قد ألّفه بشر، وندرك **عظمة خالقه سبحانه**، وأنه عالم قادر لا مثيل له، ولا ند، ولاشبيه.



١٣٦٣. ﴿السماء فى القرآن والعلم﴾

تتكرر لفظة السماء فى القرآن ١٢٠ مرة، وجمعها **السموات** ويتكرر لفظه ١٩٠ مرة، وقال تعالى عن السماء: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٢٢﴾**﴾(البقرة)، وبناء السماء كما يقول العلم، كما لو كانت السماء سقفاً للأرض: ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴿٣٢﴾**﴾(الأنبياء)، وتشمل السماء كل ما فوق **منطقة** المناخ من الأرض، وهى المنطقة التى توجد فيها السحب وتأتى منها الأمطار، وتُلحق بالأرض، وأما ما بعدها فهو من السماء، أو بالأحرى من **السموات**، جعلهن الله **سبعاً طباقاً** (نوح١٥)، يعنى طبقات فوق بعضها البعض، ولا تقوم على عُمد وإنما تجمعها القدرة، **وتشدّها بعضها إلى بعض** الجاذبية،ولها **أقطار** (الرحمن٢٩)، ويقع **قطر** السموات عند نهاية قطر الأرض وبعد منطقة

المناخ، وجميع السموات تتطابق حول مركز واحد، وهى مجموعات فلكية، منها **مجموعتنا الشمسية**، وتدخل ضمن مجموعات أكبر هى **المجرات** وكأنها الحشود. **والشمس** أكبر كواكب هذا البناء ضمن **المجموعة الشمسية**. وهى من الخارج عبارة عن كتلة غازية ملتهبة ومشتعلة ومضيئة بذاتها، سُمكها ثلثا نصف قطر الشمس، وتدور حول مركز الشمس في نحو ٢٤ يوماً، بينما قلب الشمس يدور كجسم صلب، وتستغرق دورته ٣٦٥ يوماً، وتقدر درجة حراراتها بنحو ٥٨٠٠ درجة مطلقة، ودرجة حرارة اللُّب نحو ١٥ مليون درجة، ودرجة حرارة الهالة أو الإكليل بنحو ٢ مليون درجة، وتتكون من غاز الإيدروجين(٧٠٪) والهيليوم (٢٨٪) وعناصر أخرى(٢٪). وتجرى الشمس ـ تجرُّ معها مجموعتها ـ نحو نقطة محددة فى كوكبة هرقل(كوكبة الجاثى) بالقرب من النسر الواقع **Vega**، بسرعة تقدر بنحو ١٩٥ كليو متر فى الثانية، وتجرى حول مركز مجرتنا بسرعة ٢٥٠ كيلو متراً فى الثانية لتتم دورتها فى نحو ٢٥ مليون سنة. والمجموعة الشمسية بحسب قُربها من الشمس تتكون من **عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ**، وهذه كواكب صخرية، **والمشترى، وزحل، ويورانوس**، ونبتيون، **وبلوتو** ـ وهي كواكب غازية، وبالإضافة إلى عدد من مدارات المذنبات والأقمار التوابع وآلاف الكويكبات. وهذه الكواكب جميعها تدور حول الشمس في اتجاه واحد، وفي مستوى واحد ما عدا **بلوتو، وفى** مدارات إهليلجية. والمسافة بين الأرض والشمس نحو ١٥٠ مليون كيلو متراً. وتكوّن المجموعة الشمسية بالإضافة إلى حشد من النجوم يقدّر بنحو التريليون (مليون مليون)، ما يسمى باسم **مجرة الدرب اللّبنى أو درب اللبّانة** ،وتشد الجاذبية هذه الكوكبة فتتحرك كجسم واحد. وبمجرة درب اللبانة نحو **عشرين مجرة**، بعضها حلزوني، وبعضها بيضاني، وهناك مجرات أكبر مثل مجرات **برج العذراء**، وتكوّن تجمعاً أكبر يقال له **الحشد المجرّى المحلى الأعظم**، ويضم نحو المائة من الحشود المجرّية، وتبدو كروية. وفى النجوم تُصنَّع مختلف صور المادة، وتعتبر هذه النجوم لذلك **أفران الصهر الكونية**. وهناك غير ذلك **السُّدُم Nebulae** ،**والمادة بين النجوم،والمادة الغامقة**، ويقدر الجزء المُدرَك من السماء الدنيا **بمائة ضعف كتلة المادة والطاقة والأجرام المرئية والمحسوسة فيه**، والمقدّر أننا لاندرك إلا **أقل من عشرة فى المائة** من الجزء الذى وصل إليه علمنا من السماء الدنيا، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾(الإسراء)، وقوله: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٥٧) ﴾ (غافر). سبحانه!

●●●

١٣٦٤.﴿السموات السبع والأرضين السبع﴾

من معجزات القرآن تحديده للسماء بأنها سبع سموات، وللأرض بأنها سبع أرضين، فقال تعالى: **﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ (١٢)﴾**(فصلت)، وقال: **﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢)﴾**(الطلاق)، وقال: **﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (٣)﴾**(الملك)، وقال: **﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢)﴾**(النبا)، وقال: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ (١٧)﴾** (المؤمنون)، ومن هذه الآيات عرفنا أن السموات سبعٌ تأكيداً، وهى متطابقة حول مركز واحد، يغلف الخارج منها الداخل. ويصف القرآن الحركة فى السماء بالعروج، أى الانحناء، وثبت علمياً أن حركة الأجسام فى الجزء المدرَك من الكون ليست فى خطوط مستقيمة، بتأثير الجاذبية والمجالات المغناطيسية، كقوله: **﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)﴾** (الحجر)، وقوله: **﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾**(السجدة)، فلو أن الإنسان ـ فرضاً ـ تحرك حول الجزء المدرَك من السماء الدنيا ـ وهذا مستحيل فى حدود إمكاناته. فإنه لابد أن يعود إلى النقطة نفسها التى بدأ منها، مما يثبت كروية السماء الدنيا، وكروية السموات السبع التى تطابقها. والسرعة المطلوبة للإنسان ليفعل ذلك لا يطيقها إلا بأمر الله، وأما بالنسبة للملائكة والجن، فذلك ممكن، لأنها مخلوقات ليست مادية من طين كالإنسان، وكذلك الروح إذا خرجت من البدن فتزيد سرعتها كما قال تعالى: **﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾**(المعارج). ويتضح من ذلك تحدُّب المكان والزمان، وأن السموات يغلف الخارج منها الداخل، وأننا لانرى من ذلك سوى الجزء المدرَك وهو محدود، ولذا فليس لنا سوى أن نصدّق القرآن والحديث لأنهما الوحيدان اللذان أخبرانا عن ذلك فى حدود العلم؛ وكذلك الأرض فإنها سبع أرضين .والأرض من كواكب المجموعة الشمسية التسعة، وهى الثالثة بُعداً عن الشمس، ومتوسط قطرها ١٢٧٤٢ كيلو متر، ومتوسط محيطها ٤٠٠٤٢ كيلو متر، ومساحة سطحها ٥١٠ ميلون كيلو متر، وأقصى ما استطاع الإنسان أن يصل إليه من عمق الأرض لم يتجاوز ١٢ كيلو متر، وما توصل إليه هو بضع استنتاجات، منها: أن للأرض نواة صلبة مصمطة من الحديد وبعض النيكل وعناصر من الكبريت والفوسفور أو السليكون، ويبلغ قطر هذه النواة ٢٤٠٠ كيلو متر تقريباً، وتعرف باسم «اللُّب الصُّلب للأرض»، ويليها إلى الخارج نطاق من نفس التركيب ولكنه منصهر، ويسمى«لُبّ الأرض السائل»، ويبلغ سمكه نحو ألفى كيلو متر، وبين اللُّبّين منطقة انتقالية سمكها ٤٥٠ كيلو متر؛ ويلى ذلك ما يعرف باسم «وشاح الأرض»، ويبلغ

سمكه نحو ٢٧٦٥ كيلو متر، ويقع تحت سطح الأرض من عمق ١٢٠ كيلو متر إلى ٢٨٨٥ كيلو متر، وهو عبارة عن **ثلاثة نُطُق**. تقسم الوشاح إلى **وشاح سفلي، ومتوسط، وعلوي**، والنطاقان الأخيران يكونان ما يعرف باسم «**نطاق الضَّعف الأرضي**»؛ ويلي الوشاح إلى الخارج «**الغلاف الصخري للأرض**»، ويصل سمكه من ٦٥ كيلو متر تحت قيعان المحيطات، إلى ١٢٠ كيلو متر تحت القارات، ويقسمه خط الانقطاع الاهتزازي المسمى «**الموهو**» إلى نطاقين، الخارجي يشكل «**قشرة الأرض**»، ويتراوح سمكها بين ٥ - ٨ كيلو متر تحت قيعان المحيطات، وبين ٢٠ إلى ٨٠ كيلو متر تحت القارات بمتوسط ٣٥ كيلو متر. وهذه النُطق عددها **سبعة**، هي: لب الأرضي الصلب، ولب الأرض السائل، ووشاح الأرض، ونطاقا الضعف الأرضي، ثم نطاقا الغلاف الصخري، وهذه **النطق السبعة** هي المقصودة **بالأرضين السبع**، فسبحان خالق السموات الأرض، وجاعلهن سبعاً سبعاً! وسبحان منزّل القرآن وفيه الخبر عمّا لايعرف الإنسان، تأكيداً أن هذا الكتاب من لَدُنّ اللّه، نزّله على عبده فلم يكتم منه شيئاً، فكان ما جاء به القرآن عن آيات الكون مصدقاً لكشوفنا فيه، وهو لذلك مصدّقٌ كذلك لكل ما حوى القرآن من أوامر ونواه، وأخبار عن الجنة والنار والحساب والبعث، **فهي حقٌّ مطلق** لاريب فيه.



١٣٦٥. الإعجاز في الآية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ (ق)»

ينبّه القرآن إلى أن السماء بناء محكم، لا نقص فيه ولاخلل، ورغم ارتفاعاتها المذهلة فإنها بلا عمد تحملها، بينما الكواكب والنجوم تزينها وقد ترابطت معاً في اتساق. وأي بناء يمكن أن يأتيه النقص أو تقع له الفروج والتصدّعات، إلا السماء لأنها خلق اللّه. ولمّا اكتشف العلماء منذ عدة سنوات أن بالسماء المنظورة مناطق مظلمة تماماً تخلو من النجوم وتجمّعاتها، سمّوها مجازاً **بالفراغات أو الفجوات**، فظن البعض أن القرآن قد أخطأ، وأن الآية: «**ومالها من فروج**» ليست من العلم في شيء، إلا أن الدراسات الفلكية الحديثة أثبتت صواب القرآن، وأنه كتابٌ لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه «**لا فراغات في الكون**»، وأن ما حسبوه فراغاتٍ أو فجوات، تمتلىء بالدخان الكوني والأشعة الكونية، قد يكون بها من صور المادة والأجرام الخفية ما يفوق كتل المجرات المحيطة بها، وذهب العلماء إلى أن هذه المناطق المظلمة تتكون أساساً من **المواد الداكنة الباردة**، وتحتوى على **نجوم خانسة** ذات كثافات فائقة، وهى التى تسمى «**الثقوب السوداء**»، وأنها تنتشر في الكون،

ومن أساسيات نظامه وتماسك بنائه . والحق أن الكون طالما يتمدّد ويتّسع باستمرار نتيجة تباعد المجرات عنا، وعن بعضها البعض، فإن المادة والطاقة يتولدان باستمرار لملء هذا الاتساع، فمع **تواجد المكان يتواجد الزمان**، وإذا تواجد المكان والزمان تخلّقت المادة والطاقة. وتنفى المادة الموجودة فى الكون إمكان أن توجد به فراغات، وليس صحيحاً أن أجرام السماء تسبح فى فراغ تام، وأثبتت الدراسات الحديثة أن المسافة بين النجوم وتجمعاتها تنتشر فيها الأشعة الكونية والجسيمات الأولية والدخان الكونى وما يحمله من هباءات الرمال، بالإضافة إلى ما يعرف **بالمادة الداكنة**، وتتركب من جسيمات ثقيلة تمثل نوعاً من الخيوط الكونية التى تربط بين الأجرام، وتحمل الأوامر الكونية كما تحملها لبنات الشفرة الوراثية فى أجساد الكائنات الحية. وعلى ذلك فلا وجود لفراغات مدّعاة فى الكون، ولا لفروج فى السماء، وسبحان من قال ممتناً على عباده: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ** ﴿٣﴾﴾(الملك)، يعنى أنها لا فوت فيها فيقع الخلل بسببه، ولافطور بها، أى فروق، فيحدث التشقق والتصدّع، وسبحان من أنزل القرآن بهذه الحقائق منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة وكان الناس فى جهل شديد، ولم تتضمن التوراة والأناجيل شيئاً من ذلك.

•••

١٣٦٦.﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية)﴾

تسخير السموات فى عهد النبىّ ﷺ لم يكن شيئاً، ولايوجد مثل هذا التعبير فى **الأناجيل ولا فى التوراة؛ والتسخير**: تكليفٌ بالعمل فى خدمة هدف بدون أجر، والمقصود بتسخير السموات هو استخدامات الفضاء كما فى صناعات الطيران ومركبات الفضاء، والبث عبر الأقمار الاصطناعية، ومن فوائد هذا التسخير **ثورة المعلومات**، وسهولة انتقالها، والتجسس بواسطة الأقمار الاصطناعية فى الحروب، والتنبؤ بالأحوال الجوية، وفوائدها للزراعة والمواصلات البحرية والجوية، واستخدامات الإنترنت فى الطب والصناعة والتجارة والتعليم والدعاية، واستخدامات الطاقة الشمسية فى الزراعة وتنقية المياه والتدفئة ، ولولا العلم الحديث ما عرفنا معنى **التسخير**. فالعلم الحديث كاشف لمعانى القرآن وإعجاز آياته. وما كان لمحمد أن يحيط علما بهذا التسخير منذ **ألف وأربعمائة** سنة، وذلك دليل على صدق القرآن، وأنه من لدن عليم خبير، وعلى صدق النبىّ ﷺ وأنه من رسُل الله تعالى.

•••

١٣٦٧.﴿ ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا(٢)﴾(الرعد)﴾

الآيـة **حجـةُ** كونية مرئيـة **على وجود** الله ، فالسماء نراها مرفوعـة، ووصفها اللّه تعالى فقال: «بغير عَمَد ترونها»، ولم يقل: «ترونها بغير عَمَد»،والأولى إثبات للعمد ترفع السماء دون أن يراها الإنسان، والثـانية إثباتٌ بأن السماء مـرفوعة كما يراها الإنسان بغـير عمد، وفارق بين المعنيين، والآية القرآنية أثبتـها العلم الحديث، وأكد أن السماء ترتفع **بالجاذبـية،** وأن الجاذبية تمسكها أن تقع، وأن ينهـدم بناؤها الشاسع، كقوله: **﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ(٦٥)﴾**(الحج)، والأولون قالوا: إن العَمَد هي الضرورة ،وهي غاية علمهم، والمُحْدَثون قالوا: إنها «**الجاذبيـة العظمى**»، وتتألف من قوى، منها **القـوى النووية** الشـديدة: التي تربط جـزئيات المادة، وتدمج وتلحم نوى الذرات مع بعـضهـا البعض، **والقوى الـنووية التي تتحكم في فناء العـناصر** حيـث أن لكل عنصر أجـلاً مسمى، **والقـوى الكهرومغناطيسية التي تربط الذرات ببعضها البعض داخل** جزيئات المادة، **وأخيراً** قوة الجاذبية.

وهـي **القـوة العظمى،** وتمسك بكافة أجزاء السماء بمختلف تجمـعاتها، وتنتشر موجاتها في أرجاء الكون كله بسرعـة الضوء دون أن تُرى. وهذه القوى هي **العَمَد التي ترفع السـماء وتمسكها** أن تقع ولا نراها. وترتبط **الجاذبية** بكُتَل الأجرام ومواقعها، وكلما تقاربت زادت كُتَلُها، وزادت قوة الجذب بينها، فالأكبر منها يمسك بالأصغر بواسطة قوى الجاذبية، ومع دورانها حول نفسها تنشأ **القوة الطاردة المركزية** ،وتدفع الأجرام الصغيرة بعيداً عن الكبيرة، إلى أن تتساوى القوتان المتضادتان ـ **قوة الجذب إلى الداخل، وقوة الطرد إلى الخارج** ـ فتتحدد بذلك مدارات النجوم كافة دون اصطدام. وهذه القوى **الأربع** هي القوى الخفية التي يقوم بها بناء السماوات، وتتوحـد جميعها في **قوة جـاذبية عظمى** تنتشر في كـافة أرجاء الكون، وتظهر في صـورة الطاقة، **والطاقـة** هي الوحدة الأساسـية في الكون، **والمـادة** مظهـر من مظاهرها، والكون عبارة عن **المادة والطاقـة،** وبدون الجاذبية فلا وجود للكون. وهي التي تربط أجزاءه ببعضها الـبعض، وتمسكها أن تنفرط وأن تقع. وتكوّر كافة النجوم والأرض، وتحكم دوران الأجرام وتخلّقهـا، وتمنعها أن تصطدم في مداراتهـا. وتحدّب الكون وتجعل لمسارات الطاقة والمادة خطوطاً متعـرجة، وتمسك بالأغلفة الغازية والمائية، **فهـذه هي العَـمَد التي تـرفع السـمـاء ولا نراها،** وأخبـرنا بها ربُّنا في الـقرآن، وهي دليل صـدق أن القرآن لايتصادم مع العلم،وأنه كتـاب منزلٌ من عند اللّه، وأن **محمـداً** ﷺ **الذي تنزل عليه وبلّغه للناس، هو فعلاً رسول من عنده تعالى.**

●●●

١٣٦٨.﴿﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾(الذاريات)﴾

هذا الوصف للسماء يأتى فى القرآن مرة واحدة، وكلمة الحُبُك لم تتكرر فيه، وأكثر استخدامنا لها فى اللغة بمعنى الثبات، نقول ثوبٌ محبوك أى لابسٌ على صاحبه فلا زيادات فيه، والخياط حَبَكَ الثواب أى فصّله على الجسم حسنًا، والقصّاص حَبَكَ القصة أى أجادها وأحكمهات. وقيل فى السماء ذات الحبك: أنها أُحسنت صَنعتُها، وأُحكمت أطرافُها، واحتبكت ما فيها، أى احتوته واستوعبته، وفى الحديث أن عائشة كانت تحتبك تحت الدرع فى الصلاة، أى تشد الإزار وتُحكِمه، وعلى ذلك فالسماء ذات الحُبُك هى المشدودة الأطراف على نفسها. والحباك هو الطريقة فى الرمل إذا أصابته الريح فيكون جعداً، وجمع الحباك حُبُك، وجمع الحبيكة حبائك، وقُرِىء والسماء ذات الحُبُك، والحِبْك .وقيل ذات الحُبُك: المراد ذات الزينة، أو ذات النجوم، أو ذات الطرائق. والطُّرق هى المجرات التى فى السماء، سميت بذلك لأنها كأثر الجرّ، وقد أقسم بها لأنها قد خُلقت على هيئة عظيمة، والعلم أثبت لها هذه العظمة، فهذه السماء مصنوعة بشكل محكم دقيق، والجزء الذى ندركه منها ونستطيع آن نتحدث عنه يتكون من مائتى بليون مجرة على الأقل! وما خفى كان أعظم! وتختلف أشكال مجراتها وأحجامها وكتلتها وسرعتها، ومنها مجرات عملاقة يصل طول قطرها ٧٥٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وتتجمع فى مجموعات محلية، ثم فى مجموعات مجرية أكبر، ثم فى مجموعات أعظم وأضخم، «والتجمّع الأعظم» الذى تنتسب إليه مجرتنا به مائة من التجمعات المجرية على هيئة قرص، قطره نحو مائة مليون سنة ضوئية، وتشكل هذه التجمعات ما يسمى«الحائط الأعظم»، وتحيط بمركز الانفجار العظيم نُطُق، منها «نطاق الانفجار العظيم » أو «نطاق كرة النار»، وقطره حوالى بليون سنة ضوئية، و«نطاق السحب البيضاء» حول الانفجار العظيم، وسُمكه نحو بليونى سنة ضوئية، ونطاق سحابى آخر سمكه نحو الثلاثة بلايين من السنين الضوئية، «ونطاق أشباه النجوم السحيقة» وسُمكه نحو خمسة بلايين سنة ضوئية، «ونطاق أشباه النجوم القديمة»، وسمكه حوالى سبعة بلايين سنة ضوئية، و«نطاق المجرات» وسمكه نحو أربعة بلايين سنة ضوئية، وبذلك يبلغ قطر هذا الجزء المُدرَك من السماء نحو ٢٣ بليون سنة ضوئية! فكأن مجرّتنا ـ مجرة درب اللبّانة ـ وسط هذه المتاهة من السماء التى ندركها لاتعتبر شيئًا مذكوراً، وكأنها ذرة وسط هذ الاتساع الهائل والمجرات العظمى، ومع ذلك فإنها تضم نحو تريليون نجم تتباين أعمارها! ومنها «الشمس»، وما يسمى «العماليق الحمر»، «والعماليق الكبار»، و«النجوم الزرقاء»، «والأقزام البيض»، و«النجوم النيوترونية»، و«النجوم الخانسة» التى هى «الثقوب

السوداء» إلخ. ويبلغ طول قطر قرص مجرتنا نحو مائة ألف سنة ضوئية، وسُمكها عشرة آلاف سنة ضوئية، ولها توابع من الكواكب والأقمار والمذنبات، لها أقطارها المهولة، ولها توابعها هي الأخرى إلخ. وتبلغ كتلة مجرتنا قدر كتله الأرض بحوالى ٣٣٣,٠٠٠ مرة، ودورانها حول مركزها يستغرق ٢٥٠ مليون سنة من سنينا، وهى بالنسبة لها كاليوم بالنسبة لنا! فهذا وغيره هو صورة السماء التى ندركها، وهو بناؤها المحكم المشدود المتين المقصود بقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾، وما يمسك هذا النظام،وهذا المُلك الكبير الضخم إلا الله؛ وما يقدره ويحفظه إلا هو، سبحانه ، كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۝٦٥﴾(الحج).

●●●

١٣٧٠.﴿﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ ﴾(البروج)﴾

يقسم الله تعالى بالسماوات ذات البروج، والبروج هى منازل الكواكب والشمس والقمر، وهى اثنا عشر برجاً، وسير القمر فى كل برج يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستتر لليلتين؛ وتسير الشمس فى كل برج منها شهراً، وهى: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والعذراء، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى،والدلو، والحوت. والعرب ببركة القرآن وتنبيهاته المستمرة لعظمة السماء وما فيها هم الذين أبطلوا خرافات علم الفلك وجعلوه علماً استقرائياً يعتمد على المقايس والحسابات الرياضية والهندسية، وعرفوا منازل الشمس بالنسبة للبروج، وقسموها إلى أربعة منازل تمثل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وخصّصوا لكل منزل ثلاثة بروج: الحمل والثور والجوزاء للربيع؛ والسرطان والأسد والعذراء للصيف؛ والميزان والعقرب والقوس للخريف؛ والجدى والدلو والحوت للشتاء، والقرآن هو أول كتاب سماوى ينبّه إلى أهمية البروج، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦ ﴾(الحجر)، فهى لعمارة السماء، وبرزت فيها الناحية الجمالية، ومن ثم ارتبط فن العمارة بفن الجمال. والبروج نجوم رتبت فى مجموعات من الكواكب، وبها تتحدد الاتجاهات الأربع الأصلية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۝٩٧﴾(الأنعام)، ومن ذلك النجم القطبى، وهو نجم ثلاثى ، وألمع نجم فى كوكبه الدُّبّ الأصغر، ويبعد عنا مسافة ٦٥٠ سنة ضوئية، وبالنظر إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، فإن القبة السماوية تبدو وكأنها تتحرك من الشرق إلى الغرب فى حركة ظاهرية

بكافها نجومها، إلا النجم القطبى الذى مكانه الامتداد الشمالى لمحور دوران الأرض، فيبدو لنا ساكناً، ويحدد بموقعه اتجاه الشمال الحقيقى، ولهذا يُعين على تحديد الجهات الأصلية، ويساعد الناس فى ظلمات البرّ والبحر، وفى تحديد القِبْلة إلخ، ولولا ذلك ما استطاع الإنسان أن يحدد مكانه فى ظُلمات البر والبحر. والبروج مصابيح، تنير السماء وإلا لكان ليل الأرض شديد السواد، وتحفظها من تسمُّع الشياطين بالشهب ترصدهم كقوله: **﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا (١٢)﴾**(فصلت) وقوله: **﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (٥)﴾**(الملك) وتُصنع الشهب من مادة البروج. والبروج مصدر الرزق للأرض، كقوله: **﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾**(الذاريات)، فكل العناصر الأرضية منها وأنزلت على الأرض. ومن ذلك نرى أهمية البروج، ولماذا أقسم الله تعالى بها: فقال: **﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١)﴾** (البروج). سبحانه!

•••

١٣٧١.﴿﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ (١٢)﴾(النحل)﴾

النجوم آية من آياته تعالى تدل على عظمة الخالق وأنه واحد لاشريك له، وعالِمٌ قادر، ولم يرد فى التوراة والأناجيل أى قسم بالنجوم، وليس فيهما من آيات الكون شىء، إلا القرآن فيحفل بالآيات الكونية، ومنها النجوم، ولم تعرف عظمة النجوم إلا مؤخراً، وبعد أن نبّه إليها القرآن بأربعة عشر قرنًا، فقيل إنها أجرام سماوية تنتشر بالسماء الدنيا، وشكلها كروى، أو شبه كروى، وهى غازية وملتهبة ومضيئة بذاتها، ومتماسكة بقوة الجاذبية على رغم بنائها الغازى، وكتلتها هائلة، وتشع أضواء مرئية وغير مرئية بجميع الموجات، ويُهتدى بأضوائها، وفى ذلك قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾**(الانعام٩٧)، وسخّرها كما سخّر الشمس والقمر، كقوله تعالى: **﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ (٥٤)﴾**(الأعراف). ومن أضواء النجوم عرف العلماء صفاتها الطبيعية والكيميائية، ودرجة لمعانها ، وشدة إضاءاتها، ودرجات حراراتها، وأحجامها، وكتلتها، ومواقعها، وسرعة دورانها حول محورها وفى مداراتها، وتفاعلاتها النووية. والنجوم بحسب درجة حرارة أسطحها تنقسم إلى «نجوم حمراء» وهى أقل النجوم حرارة ـ ودرجة حرارتها ٣٢٠٠، «ونجوم برتقالية»، وصفراء، وبيضاء تميل إلى الصفرة، وبيضاء تميل إلى الزرقة ـ وهى أشدها حرارة ـ ٣٠,٠٠٠ درجة .والشمس من النجوم الصفراء متوسطة الحرارة ـ ٦٠٠٠ درجة. وبعض النجوم عادية، وبعضها فى مرحلة الطمس أو الانفجار والتلاشى. وتمر النجوم بمراحل من الميلاد والشباب والشيخوخة قبل أن

تنفجر. وتتولد من **الدخان الكونى**، وتصبح **نجومًا ابتدائية**، ثم **عادية**، ثم تنتفخ وتصبح من «**العماليق الحمر**»، فإذا فقدت هالاتها الغازية تحولت إلى **سُدُم كوكبية**، ثم تنكمش إلى ما يعرف باسم «**الأقزام البيض**»، وقد يصبح النجم عملاقًا أحمر، ثم قزماً أبيض، ومع تكرار ذلك قد ينفجر وتتولد منه **النجوم النيوترونية النابضة**، **وغير النابضة**، **أو الثقوب السوداء**، **أو** **النجوم الخانسة**، أو بعض النجوم العادية المفردة، ومنها **الشمس**، وبعضها **مزدوج**، وبعضها **متعدد**، وأغلبها **مزدوج ومتعدد**. والنجوم أفران كونية بفعل التفاعلات النووية، وتصبح بها نجوما **مستعرة** أو **عمالقة حمراً**، ويتحول قلب النجم إلى حديد يستهلك طاقة النجم، فتتوقف عملية الاندماج النووى وينفجر النجم إلى **قزم أبيض**، أو إلى **نجم نيوترونى**، **أو ثقب** أسود، بحسب كتلته.

وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس: **القنطورى -٤٢٠** سنة ضوئية، ثم **النجم القطبى -** ٤٠٠ سنة ضوئية، ثم **منكب الجوزاء-** ١٦٠٠ سنة ضوئية. وتحتوى مجرتنا- درب **اللبانة** - على **مليون مليون نجم**، وبالجزء المدرَك من السماء الدنيا ٢٠٠,٠٠٠ **مليون مجرة**، تسبح فى ركن من هذه السماء الدنيا، ويقدّر قطره بأكثر من عشرين ألف مليون سنة ضوئية. **والمجرات** تجمّعات للنجوم، وهناك أشباه **نجوم** وهى أجسام ضعيفة الإضاءة كالمصابيح وزينة، كقوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** (٥)﴾ (الملك)، وقوله :﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** (٦)﴾(ق)، فسبحان الخالق المبدع ولا إله إلا هو.



١٣٧٢.﴿آية مواقع النجوم﴾

لايقسم الله تعالى بشىء إلا تعظيماً لأمر هذا الشىء المقسوم به، وإظهاراً لآية خلقه، وبديع صُنعه. ولقد أقسم تعالى **بمواقع النجوم**،وهى مواقعها فى السماء أثناء دورانها، إظهاراً لعظمة الخالق سبحانه، قال: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ** (٧٥) **وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** (٧٦)﴾ (الواقعة)، وكانت الآية القرآنية **سبقاً علمياً** يدل على **إعجاز القرآن**، ويثبت أن هذا الكتاب من عند الله، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغٌ عنه تعالى . والإنسان على الأرض لايتسنّى له فى الواقع أن يرى النجوم، وإنما هو يرى «**مواقع النجوم**»، لأنها مواقع متغيّرة وغير ثابتة، وكلها نسبية وليست مطلقة، وثبت علمياً أن هناك نجوماً اندرست وخبت وتلاشت من قديم الزمان، إلا أن الضوء الذى صدر عنها فى عدد من المواقع التى كانت لها، لايزال يصلنا عبر السنين، ولايزال يتلألأ فى السماء فى ظلمة الليل، بالإضافة إلى

حقيقة ظاهرة انحناء الضوء فى السماء، ومن ثم تبدو لنا النجوم فى مواقع غير مواقعها الحقيقية، وذلك دليل على أن ما نراه فى السماء ليس النجوم على الحقيقة وإنما هو مواقع النجوم كما يقول القرآن، ولذلك كان هذا القسم العظيم بمواقع النجوم لأنها من آيات إعجاز الله تعالى فى كتابه القرآن.

●●●

١٢٧٣.﴿آية النجم الطارق﴾

فى الآية: ﴿والسَّماءِ والطَّارِقِ ① وما أدْراكَ ما الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ (الطارق): **الطارق** اسم فاعل من **الطَّرْق** بمعنى الضرب بشدة، وهو الدّق، **والمطرقة** التى يُطرَق بها، والنجم الطارق من مجموعة النجوم النابضة أو «النوابض **Pulsating stars**»، وتتميز بكثافتها وجاذبيتها الشديدة وحجمها الصغير، فتدور حول محورها بسرعات يقال لها النوابض الراديوية **Radio Pulsars**، لأنها ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية فى كل جزء من الثانية بحسب سرعة دورانها حول محورها وحجمها، وكذلك تطلق بعض «**أشباه النجوم Quasars**» موجات راديوية تطرق السماء وتثقب صمتها بنبضاتها السريعة وموجاتها الخاطفة، وتميّزها فى مرحلة من مراحل احتضارها وانكدارها التى تسبق مراحل طمسها وخنسها كما فى قوله: ﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** ② ﴾(التكوير)، وقوله: ﴿ **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** ⑧ ﴾(المرسلات)، وقوله: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ** ⑮ **الْجَوَارِ الْكُنَّسِ** ⑯ ﴾(التكوير) وهو معنى القسم بالطارق النجم الثاقب، من آيات الله تعالى الكبرى.

●●●

١٢٧٤.﴿آية النجوم الخنس﴾

لايقسم الله تعالى فى القرآن إلا للتنبيه إلى عظمة المقسوم به وأهميته فى حركة الكون، ويشهد العلم الحديث بصدق القرآن ودقة التعبير العلمى فيه، ومن ذلك وصفه تعالى للنجوم **بالخُنَّس الجوارى الكُنَّس**، يقول: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ⑮ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ⑯ ﴾ (التكوير) وكان التفسير السائد هو **التفسير اللغوى**، **والخُنّس** فى اللغة من **خَنَس** بمعنى استتر وخفى، ووصفه تعالى للشيطان بأنه خنّاس، لأنه يخنس، أى يختفى إذا ذُكر اسم الله؛ والجوارى تعنى الجاريات فى أفلاكها، **والكُنّس** من **كناس الظبى** الذى يختفى فيه، فيكون القسم فى الآيات: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ** ⑮ **الْجَوَارِ الْكُنَّسِ** ⑯﴾ هو قسمٌ مؤكد بالنجوم المُضيئة التى تختفى بالنهار وتظهر فى الليل، والتى تجرى فى أفلاكها لتختفى وتستتر وقت غروبها كما تستتر الظباء فى كناسها. غير أن **التفسير العلمى** الذى قيل به مؤخراً هو

الأصدق. وهو الذي يوضح بجلاء الإعجاز العلمي في الآية. فالخنس الجوارى الكنس: هي النجوم التي اكتشفت مؤخراً وأطلق عليها العلماء اسم«الثقوب السوداء The Black Holes»، وهي أجرام سماوية لها كثافتها الكبيرة وجاذبيتها الشديدة ، فلا تفلت منها أي مادة كونية، ولا أي من صور الطاقة، ومنها الضوء، فإنها تجذبها إليها وتبتلعها فلا تستطيع أن تخرج منها، ولا أن ترسل آية إشارات عنها، فهي كالثقوب أو كالهاوية، ووصفت بأنها سوداء لشدة عتمتها، لعدم قدرة الضوء على الإفلات من مجال جاذبيتها. وقيل فيها إنها نجوم نيوترونية في مرحلة الشيخوخة، وهي المرحلة التي تسبق انفجارها وتحول مادتها إلى دخان، وليس هناك أبلغ من وصف القرآن لها، بأنها خنس وجوار كنس ، فأما أنها خُنس فلأنها معتمة وحالكة السواد، وأما أنها جارية: فلأن لها أفلاكها المحددة التي تجري فيها، وأما أنها كُنس: فلأنها تبلع كل شيء وتكنسه كنساً، حتى أن العلماء قالوا عنها فعلاً أنها أشبه في عملها بالمكانس العملاقة التي تشفط كل ما يمر بها من المادة المنتشرة بين النجوم. وهذه الحقائق عنها قال بها القرآن منذ حوالي ألف وأربعمائة سنة، في حين أن اكتشافها حديثاً لم يتحقق إلا في القرن العشرين، فكيف تسنى لنبي أُمّي، في أمة غالبيتها من الأميين، أن ينبه إليها ويشيد بها، ويقسم بصدقها، لو لم يكن ما ذُكر فيها علماً موحى به ليبلغه النبي ﷺ ، ففهم الناس منها ما فهموه لغوياً، كما هو ، إلى أن تغير الزمن وحان وقت التفسير العلمي الصحيح للآية ، وصدق الله تعالى، وصدق القرآن، وصدق النبي ﷺ .

•••

١٣٧٥.﴿آية رجع السماء﴾

يصف القرآن السماء بأنها «ذات الرجع » يقول:﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪**﴾(الطارق) **والرجع**: يعني أن من خواصها أن ترجع الأشياء، أي تردها. والسماء في القرآن هي ما حول الأرض، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ㉗**﴾(ص) المقصود به **الغلاف الغازي** بين السماء والأرض، والسماء خلقها سبع سماوات يعني سبع طبقات. والجزء السفلي من الغلاف الغازي يسمى نطاق المناخ، وسمكه لايزيد عن ١٦ كيلو متراً فوق مستوى سطح البحر عند خط الاستواء. والمقصود بالسماء ذات الرجع: السماء الدنيا التي تحفل بالأجرام، وهذه الأجرام تكونت من دخان السماء الذي نتج عن عملية **الانفجار العظيم** .وهو قوله تعالى: ﴿**أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾(الأنبياء ٣٠) . والرتق: أنهما كانت شيئاً واحداً ففتقهما أي فصل بينهما. وقوله: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**

(١١)﴾(فصلت)، دليل أن **الدخان** هو **الأصل** إذن، وكل ما في الكون يمر في دورات حياة تنتهي بالعودة إلى الأصل ـ وهو **الدخان في السماء** ـ في صور ما يسمى **بالرجع**، أي **بالعودة الدائمة**، وتتمثل هذه العودة أو ذلك الارتداد، في ترجيعات متعددة، فالسماء ترجّع **الاهتزازات الصوتية فتتحرك في** شكل أمواج في هواء الغلاف الغازى للأرض، فالصوت لاينتقل في فراغ، **والرجع** الاهتزاز للهواء على هيئة الأصوات، وصداها هو صورة من صور **رجع السماء**. وأيضاً فإن السماء **ترجع الماء**، حيث يتبخر من الأرض من أسطح المحيطات والبحار وسطح اليابسة، وتدفع السحب البخار وتحمله إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازى للأرض، فيتكثف ويعود إلى الأرض مطراً. وهذه **الدورة للمياه** حول الأرض هي من **رجع السماء**. وهناك **الرجع الحرارى**، **فالغلاف الغازى** يقى الأرض من حرارة الشمس أثناء النهار، ويمسك على الأرض حرارتها أثناء الليل؛ **والرجع الغازى** بأن يحمل الهواء الغازات والأبخرة والغبار إلى **منطقة المناخ**، غير أن الضغط الجوى يضعف كلما زاد ارتفاع الهواء حتى إذا وصل إلى ارتفاع ألف كيلو متر فوق سطح البحر، عاد كل ذلك إلى الأرض، وأعيد توزيعه على يابستها؛ **ورجع الأشعة فوق البنفسجية** بواسطة طبقة **الأوزون**، بأن تردّ هذه الطبقة جزءاً كبيراً منها إلى خارج نطاق الأرض؛ **ورجع الإشارات الراديوية** بواسطة النطاق المتأيّن؛ **ورجع الأشعة الكونية** بواسطة النطاق المغناطيسي للأرض وأحزمة الإشعاع. فلا يصل منها إلى سطح الأرض شيء. وذلك كله، وربما أكثر منه، هو معنى قسمه تعالى **بالسماء ذات الرجع**، فهذه الخاصية ـ الرجع ـ آية كبرى من آياته تعالى نبّه إليها القرآن فدلّل على إعجازه العلمى، وأنه ﷺ هو رسوله الذى بلّغ عنه كتابه العظيم.

•••

١٣٧٦. ﴿آية تمدد الكون﴾

التفكير في خلق الكون وما فيه من عجائب وآيات، فريضة إسلامية، والقرآن دائماً وأبداً يذكّر بضرورة التفكير في خلق السموات والأرض، لأن التفكير فيهما عبادة من أجلّ العبادات، والمعرفة بالله لاتكون إلا بالاحاطة بأسبابه وقوانينه في الخلق والحياة، وفي الإفناء والبعث. ومن آيات القرآن المبهرات هذه الآية: ﴿**والسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** (٤٧)﴾ (الذاريات) التى اختلف المفسرون حولها ولم يفسّرها التفسير الصحيح إلا العلم الحديث، فقد لاحظ علماء الفلك في القرن العشرين، أن معظم المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة، واستنتجوا: أن **الكون** إذن يتمدد **باستمرار ويتوسّع**، وأن

المسافات بين الأجرام تمتلىء بالغازات والجسيمات الصلبة المتناهية فى الصغر، وتنتشر بالمجالات المغنطيسية بين كل أجرام السماء، وتربط بينها فى بناء محكم متماسك، وهو تفسير قوله تعالى عن السماء : «**بنيناها بأيد**»، **يعنى** بإحكام ودقة فلا تتصدع ولاتنهار. ومعنى **السماء** فى اللغة ما يعلو الأرض، وفى الاصطلاح هى كل ما حول الأرض من أجرام ومادة وطاقة، والعلم لم يدرك كل ذلك إلا بعد دراسة **السماء الدنيا**، وقال عنها إنها **الجزء المُدرَك من السماء** بالمعنى الشامل، وفى هذا الجزء المدرك تبيّن أن هناك **مائتى بليون** من المجرات، وبعضها أكبر كثيراً من مجرتنا المسماة **درب التبّانة** أو **اللبّانة**، وبعضها أصغر، وأن أعداد النجوم فى المجرات تتراوح بين المليون والعشرة ملايين الملايين، وأن لها أعماراً ومراحل عمرية، وتوابعاً وأقماراً، وأن الكون لذلك شاسع لا يتصوره عقل ولايحيط به، ومايزال يتوسَع، وماتزال تتخلّق فيه المواد بكثافات كانت متقاربة لتملأ المساحات الناتجة عن التوسع، وأنه مثلما كان تخلّق الكون بعملية «**انفجار عظيم**» من نقطة واحدة، فمن المؤكد أن الكون **له** بداية، ولابد أن تكون **له نهاية**، وهذا كله تضمنته الآية التى **سبق بها القرآن قبل أربعة عشر قرناً**، فلا بد أن هذا القرآن إذن من لَدُن الخالق للكون، العالم به، وأن هذا الرسول الذى بلّغ بالقرآن مُوحَى إليه من عند الله، ومُكلَّف بالرسالة، فكما صدق العلم الآية؛ فإنه يصدق أن القرآن كتاب اللّه، وأن محمداً رسول الله لاشك فى ذلك.



١٣٧٧. ﴿الشهب، وما ذكره القرآن فيها، هل هو من العلم؟﴾

يأتى عن **الشُهب** فى القرآن **ست** مرات فى سور **الحجر والنمل والصافات والجن**، وهى من آيات قدرته تعالى ووحدانيته. **والشُهُب والأشْهُب** جمع شهاب، وهو كل مضيء متولد من النار، ومنه يقول **موسى** عليه السلام: ﴿**سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ⑦﴾ (النمل)، و«**الشهاب القبس**» هو شعلة من النار التى رآها تضطرم وتتأجج ويمكن استخدامها للاستدفاء وأن تكون نوراً. والشُهب من الظواهر الجوية، وهى كما يصفها موسى «**أقباس**» من جسيمات صلبة صغيرة جداً لايتجاوز قطرها المليمتر الواحد، تجذبها الأرض فتخترق الغلاف الجوى بسرعة هائلة عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿**فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ** ⑱﴾(الحجر)، وبقوله: ﴿**شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ⑩﴾(الصافات)، وهو «مبين» لأن حركته السريعة المذهلة التى قد تتراوح بين ١٢و٧٢ كيلو متراً فى الثانية الواحدة، تتسبب فى احتكاكه بذرات الغلاف الجوى فترفع من حرارتها لدرجة التوهج والاشتعال، فترسم خطاً لامعاً فى السماء؛ وهو «**ثاقب**» لأنه بارتفاع درجة حرارة الهواء الذى يمر خلاله تتبخر معظم مكوناته

قبل وصول الشهاب إلى الأرض بمسافة تتـراوح من ٧٠ إلى ١٠٠ كيلو متر، فيحدث فى الغلاف الجوى كما «الثقب». والشهاب الواحد يتألف من عدد من هذه الجسيمات الصلبة، وخلال الأربع والعشـرين ساعة التى تصنع اليوم، يمكن رصد نحو ٢٥ مليـون شهاب فى جميع الكرة الأرضة، وكأنها بوصف القرآن «أرصادٌ» والواحد الرَّصَد، يقال﴿ **شِهَابًا رَّصَدًا** ﴿٩﴾ ﴾ (الجن)، يرصدها، أى يرقب السماء ويحرسها أن تدنو منها الشياطين والجن، فإذا فعلت أحرقهـا، وتكون الشهب فى مجموعات كـبيرة تسمى«رخّات الشـــهب **Meteor** **showers**»، ومنها المئات فـى الدقيقة الواحدة، وتحـدث إذا مرت أجسام غريـبة بالقرب من الشمس أو أعمـاق الفضاء الكونى أوعند مرور المذنبـات، وتطلق هذه المذنبات الآلاف من الجسـيمات الصلبة الصغـيرة التى تنفصل عنها وتتناثر مـحدثةً تلك الرخّات عند اختـراقها للغلاف الجـوى أثناء مرور الأرض فى مسار المذنب، وكـأن «السماء المحروسـة» فى سورة الجن هى السـماء الدنيا.



١٣٧٨.﴿الحديد فيه بأس شديد﴾

فى قـوله تعـالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴿٢٥﴾ ﴾(الحديد) فعندما لايتبع الناس الرسُل فيما أخبروا به عن ربّهم، ولايطيعون فيما أُمروا به، فإن فى الحديد رادعٌ لمن يأبى الحق ويعاندة بعد قيام الحجة عليه، ولهذا ظل الرسول ﷺ يدعو الناس بالحسنى فى مكة ثلاث عشرة سنة، وفى أثنائها كان يناقشهم ويجـادلهم، ويبيّن لهم، وينبّـه إلى الأدلة، ويسوق البـراهين، حتى قـامت الحجـة على المخالفين، ثم شُرِع القتال لمن ينتصر بعد ظلم، والقتال أداته الحـديد، وبأسه أن السيوف والحِراب والسنان وغيـرها تُصنع منه، ومنافعه كـثيرة بخلاف القتـال، فمنه تُصنع الآلات والعـدد التى يستـعـان بها فى كل منـاحى الحيـاة وأنواع النشـاط الإنسانى، فى الزراعـة والصناعة والصيد، وفى البر والبحر والجو. والجهاد مشروع فى الحرب والسـلم، والجهاد يكون ببذل النفس،أو مجاهدة الهوى، أو السـعى للرزق، ولذا قال الله تعالى «**إن الله قوى عـزيز**»، يعنى يؤتى القوة رسُلَه وعُمّاله فى الأرض، ويعزّهم بكـتُبه كما يعزّهم بالحـديد، يريد به جنسه من المعادن، «**والقوة**» فى رسالات الرسل هى **قوة القيم**، وفى «**الحديد**» هى **قـوة الآلة**. وللحديد خواصه المتعددة،فى مـقاومة الصدأ والبلى. ولأن الأرض قد تكونت فى البدء بانفصالـها عن الشمس، والحديد أحد العناصر الموجـودة فى الشمـس بوفرة، فإن

قوله تعالى «أنزلنا» فيه **إعجاز علمي** لاشك فيه، وتؤكد البحوث النووية أن الحديد هو العنصر المستقر الذي تنتهي عنده التفاعلات النووية الاندماجية في باطن النجوم، ويعتبر لذلك المكوّن الرئيسي في رماد النجوم، ولذا تتكون **الشهب والنيازك من الحديد والنيكل**. كما أن جوف الأرض يحتوي على الحديد، وتتكون طبقة اللُّب فيها من **الحديد والنيكل** أساساً. ولذلك كان لكوكب الأرض **مجاله المغنطيسي**. ويمتد تأثيره إلى الفضاء الخارجي. ويتألف **كوكب عطارد** الأقرب إلى الشمس في المجموعة الشمسية في الأغلب من الحديد، ولذا يطلقون عليه اسم **الكوكب الحديدي**.. ويمثل الحديد نقطة تحوّل مهمة في دورة حياة النجوم منذ ولادتها، وخاصة «**النجوم العملاقة** التي يتألف لُبّها من الحديد، ويؤدي انفجارها إلى تكوين ما يسمى «**المستعر الأعظم**» أو «**السوبر نوفا**».

وللحديد منافع كثيرة بكافة الكائنات الحية سواء للنبات أو الحيوان أو الإنسان. ويدخل في تركيب مادة الخلية الحية في النبات والحيوان، ويتحد بالبروتين ويكون هيموجلوبين الدم. وهبوط نسبة الحديد في دم الإنسان يصيبه بالاعتلال بما يسمى **فقر الدم**، وهو من أخطر الأمراض. وحتى الآن لم يكتشف العلم عنصرا من العناصر له مثل كل هذه الخصائص الفريدة التي تجعل الحديد ذا بأس شديد ومنافع للناس كما يذكر القرآن. فتبارك الله ربّ العالمين، والحمد لله على نعمة القرآن والإسلام.



١٣٧٩. ﴿إتيان السماء والأرض﴾

«الإتيان» في الآية: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** (١١) ﴾ (فصلت) هو التسخير. أي قال لهما الله تعالى كونا - فكانتا، كقوله: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٤٠) ﴾(النحل).. وفي الآية: «قالتا أتينا طائعين» لم يقل طائعين على اللفظ، أو طائعات على المعنى، حيث أن السماء سماوات والأرض أرضون، وإنما قال «طائعين» بحسب ما فيهما من كل شيء؛ و«استواؤه إلى السماء» صمدوها للأمر؛ و«قضاؤه **لهن سبع سماوات في يومين**» يعني أنه أكمل خلقها وفرغ منه، وأوحى إلى كل سماء أمرها، وخلق لها خلقها ونجومها وشموسها. ويصدق العلم الحديث الآية، وكانوا يقولون قديماً إن الكون ثابت **لايتغير**، وفي التوراة في سفر التكوين - أن **الكون ثابت** ! وثبت حديثاً زيف هذا الزعم، وأنه كما جاء في القرآن **يتوسّع ويتمدّد**، وتتباعد مجرّاته **بمعدلات** تقترب أحياناً من سرعة الضوء المقدّرة بنحو **ثلاثمئة ألف كيلو متر** في الثانية، فإذا عدنا بهذا الاتساع الكوني إلى بدايته مع الزمن، فلا بد أن تجتمع كل صور المادة والطاقة في الكون، وتتكدّس على بعضها البعض في نقطة تتناهى في الصغر إلى ما يقرب من الصفر أو العدم، وتنكمش في هذه النقطة أبعاد المكان والزمان، حتى تتلاشى

فلا يكون مكان ولازمان، ولا مادة ولاطاقة، ولاشيء إلا العدم، ويسمى القرآن ذلك «الرتق»،كما فى قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾(الأنبياء٣٠)، **والرتق**: يعنى أن تكون كل الأشياء جسماً واحداً، وضده «**الفتق**»: وهوأن تنفصل الأشياء عن بعضها. وفى مرحلة **الرتق** تكون المادة والطاقة وكل شيء مؤتلفة فى شيء واحد، أو جرم ابتدائى متناه فى الكثافة والحرارة، ففتقه **الله** تعالى، **والفتق** يسمونه فى العلم الحديث «**الانفجار الكبير The Big Bang**»، وذلك أن تكدُّس المادة والطاقة من شأنه أن يحدث تضاغطاً هائلاً فيكون الانفجار، فيتحول كل شيء **دخاناً**، وما تزال لهذا الدخان الكونى الأول بقايا عالقة على أطراف الجزء المُدرَك من الكون، وعلى أبعاد تصل إلى **عشرة مليارات من السنين الضوئية**، لتثبت صدق القرآن ودقة **مصطلح الدخان** الذى استخدمه تعبيراً عن هذه الحالة. وبانفجار هذه **النقطة**، أو هذا الجرم الصغير المتناهى فى الصغر لدرجة العدم، تحول إلى كرة من الإشعاع والجسيمات الأولية أخذت تتمدد نتيجة الحرارة الشديدة، ولكنها تبرد بسرعة هائلة أيضاً ومن ثم تحولت **إلى هذا الدخان** الذى يتركب من **فوتونات Photones**، **وإلكترونات**، **ونيوترينوات Neutrinos**، **وأضداد لها** مع **بروتونات ونيوترونات Neutrons**، ولولا عملية تمدُّد الكون وتوسُّعه، لأفنت الجسيمات الأولية وأضدادها بعضها بعضا وانتهى الكون، ولكنه حُفظ بحفظ **الله**،واستمر فى التمدد، وانخفاض درجة حرارته حتى **ألف مليون درجة مطلقة**، فاتحدت النيوترونات والبروتونات، وكونت **الإيدروجين والهليوم** وعناصر أخرى، ومع انخفاض درجة الحرارة إلى آلاف قليلة، بدأت ذرات العناصر فى التكون والتجمع، وتكدس الدخان الكونى على هيئة **سُدم كونية** هائلة، تكثفت على ذاتها بفعل الجاذبية والدوران حول نفسها بسرعات متزايدة تدريجياً، جعلت الغازات تتجمع فى كُتل **وتتضاغط**، فتزيد حرارتها، فبدأت **الاندماجات النووية للإيدروجين والهيليوم**، فتكونت **النجوم**، واستمرت الاندماجات النووية فيها **فتخلقت العناصر الأعلى** فى وزنها الذرى، مثل **الكربون**، **والأوكسجين** ومايليهما، إلى أن تحول لُبّ بعض النجوم بالكامل إلى الحديد، وتحول بعضها الآخر من **نجوم مستعرة إلى فوق مستعرة**، انفجرت لتتكون مما تناثر منها من عناصر ثقيلة، **الكواكب والكويكبات**، **وشمسنا** هذه.
وعلى الرغم من الانفجارات فى الكون وعدم التجانس فيه،فإنه يبدو لنا من الأرض **متجانساً**، وتحده خلفية إشعاعية متساوية، ولم يصل التوسع به إلى الحد الحرج الذى يمكن أن يؤدى إلى انهياره على ذاته، الأمر الذى يثبت أنه **محكم البناء**، **ومضبوط بقوانين بالغة الإحكام**، وهذا ما تقصد إليه الآية من قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا**

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾(فصلت)، يعنى أنه تعالى خلق الكون فى يُسرٍ ولم يـعسر عليه شىء سبحـانه، وما كان يمكن لمحمـد ﷺ أن يعلم بهذا كله فى زمنه، وليس من ذلك شىء فى كتـاب الخلق **Genesis** فى **التوراة** مثلاً، وهو الذى كتبه عزرا الأمر، الذى يثبت أن القرآن وقـد صدقه العلم هو كـتابٌ من عند الله، وأن محـمداً رسوله تعـالى حقاً ليـبلّغه للناس. ومـا علمنا بما نعلم به عن الكـون إلا مؤخـراً، وما علم بـه الأقدمـون، كقـوله تعـالى: ﴿ **مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ** ⑤١﴾(الكـهف). وسبـحانه القادر العليم.

●●●

١٣٨٠.﴿لأهلة مواقيت للناس والحج﴾

سأل اليهود النبىّ ﷺ عن **الأهلّة**، واعترضوا بسؤالهم عليه: **لماذا يبدو الهلال دقيقاً ثم يزيد حتى يستوى ويستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟** فأنزل الله هذه الآية: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾(البقرة)، والأهلة جمع **هلال**، والمراد بالأهلة شهور السنة، فقد يُعبِّر عن الهلال بالشهر لحلوله فيه. والهلال غرّة القمر، ويسمى «هلالاً» لليلتين من أول الشهر، أو إلى **ثلاث** أو إلى **سبع**، **ولليلتين** من آخر الشهر، أى ست وعشرين وسبع وعشرين، وفى غير ذلك هو «**القمر**». وقيل إنما سمى **هلالاً** لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه، وزيادة القمر ونقصانه للتذكير بالآجال والمعاملات، ولبيان الأيمان، والحج، والعدد، والصوم، والفطر، ومـدة الحمل، وغير ذلك من مصالح العـباد، عندما لم تكن هناك مثل ما لدينا الآن من وسائل الحـساب. والهلال ظاهرة طبيعية سببـها اختلاف موقع الأرض بين القمر والشمس. وإحصاء الأهلة أيسـر من إحصاء الأيام، ولذا كانت مواقيت للناس، وخاصةً للحج، لأنه مما يُحـتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولايـجوز النسىء فيه عن وقته. بينما كان العرب يحجّون بالعدد وتبدّل الشهور، فأبطل الله قولهم وفعلهم.

●●●

١٣٨١.﴿الشمس فى القرآن وتوافق آياتها مع العلم﴾

الشمس أكـبر كـواكبنا، وإليهـا تنسب مجـموعة الكواكب التى مـنها الأرض فيـقال **المجموعة الشمسية**، وكانوا يعدّونها **مركز الكون the heliocentre**، وقدّسوها **وجعلوها إلهاً**، كان اسمه **Helios** عند الإغريق، وعند المصريين رع **Re**، وعند الشعوب الأوروبية الهندية **Sun**، يكتبونها **Sunne**، وعند التيوتون **Sunnon**، وعند الفرس **Zend**، وكان الإغريق يسمونه أحياناً أبوللو **Apollo**، **وفى سفر ملاخى** أن اليهود ألّهوا الشمس.

ويأتى عن الشمس فى القرآن ٣٣ مرة، وهى من آيات الله، جعلها ضياء وسراجاً، والقمر نوراً (يونس٥، ونوح١٦)، وسخّرها بأمره دائبة(الأعراف٥٤)، وجعل لها اثنى عشر برجاً فى السماء (البروج١)، تسير الشمس فى كل برج منها شهراً، وهى أبراج: **الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبل، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت** (يونس٥)، وأجراها لأجل مسمى (الرعد٢٢)، ولأجل لاتعدوه (يس٣٨)، وفى جريانها لايدركها دارك (يس٤٠)، وجريانها بحسبان(الرحمن٥)، يعنى بحساب دقيق، وبه تضبط ساعات النهار وأوقات الصلاة .

والشمس تمدّنا بالدفء والضوء، وبسببها تتخالف الفصول، وتنزل الأمطار،ويكون الحر والبرد، وينبت الزرع، فكانت بلا منازع **أهم الكواكب الأرضية، وأقسم بها الله** فقال ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ①﴾(الشمس) لعِظَمها وعِظَم هيئتها ووظائفها، فكتلتها تفوق كتلة الكواكب السيّارة جميعها التى تدور حولها،وهى مثلاً قدر كتلة الأرض ٣٣ مرة، وقوامها غازات ساخنة هائلة، تكونت عن **الدخان** الذى كان ملء الكون (فصلت١١)، ويبلغ قطرها ١٠٩ مرات قدر قطر الأرض، وكثافتها ١,٤ جرام لكل سنتيمتر مكعب، وتدور حول نفسها حوال ٢٦ مرة عند خط الوسط للشمس، وتبلغ الطاقة التى تشعّها فى الفضاء ٣,٩ ألف مليون مليون مليون مليون أرج، وهو ما يوازى ٥٢٣ ألف مليون مليون مليون حصاناً ميكانيكياً! وهذه الطاقة الهائلة تُنتجَ من اندماج **الهيدروجين** - وهو الغاز المكوّن الأساسى للكون وللشمس - نتيجة الاندماج النووى داخل بطن الشمس، حيث تبلغ درجة حرارة مركز باطن الشمس ١٥ مليون درجة، بالإضافة إلى الضغط والكثافة المرتفعين فى باطنها، وكأن باطن الشمس **مفاعل نووى طبيعى أو ربّانى**، تنتج عنه أشعة **جاما** وأشعة **إكس** المهلكة، إلا أن هذه الأشعة عند انتقالها من باطن الشمس حتى سطح الشمس تكون قد تحولت نتيجة لعمليات امتصاصها ثم إعادة بثها عبر طبقات الشمس المختلفة فى شكل أشعة مرئية لها أطوال موجية يمكن الإحساس بها بالعين، وهى المصدر الأساسى للطاقة الشمسية .

وتبلغ **درجة حرارة سطح الشمس** نحو ستة آلاف درجة، وتوجد عند السطح دوّامات حمل لنقل الحرارة العالية من أسفل السطح إلى أعلى السطح، وتنتج عنها فرقعة صوتية وفوق صوتية كفرقعات الصوت عند تجاوز الطائرات لحاجز الصوت وزيادة سرعتها على واحد ماخ فما أكثر، وتسرى الفرقعات داخل الغلاف الجوى الشمسى كمجموعات صوتية لها طاقة ميكانيكية، تتكسّر فى طبقة **إكليل الشمس** (الكورونا **Corona**)، وتتحول طاقتها

إلى طاقة حرارية ترفع درجة الإكليل إلى أكثر من مليون درجة، ليصبح الإكليل مصدراً للأشعة الراديوية على الأطوال الموجية المختلفة، ابتداءً من الموجات المليمترية حتى الموجات الكيلومترية، بما في ذلك أشعة الميكروويف. وكذلك يصبح الإكليل مصدراً لأشعة إكس. والأشعة فوق البنفسجية المهلكة والقاتلة ذات الطاقة العالية. لولا أن الله تعالى خلق طبقة **الأيونوسفير** فوق سطح الأرض بنحو مائة كيلو متر لامتصاص أشعة إكس القادمة من الشمس. وكذلك خلق طبقة **الأوزونوسفير** في طبقات الجو العليا، والاستراسفوسفير ليقوم الأوزون بامتصاص الأشعة فوق البنفسجية ذات الطاقة العالية من النوع C، ولولا الأوزونوسفير لهلكت الأحياء على الأرض في دقائق. فإذا قامت الساعة كُوِّرت الشمس (التكوير١)؛ أي انكمشت وتضاءلت فيذهب ضوؤها، وتزول حرارتها، وتُجمع والقمر فلا ضوء للشمس ولانور للقمر (القيامة٩) ، ويسقطان وينتهي أمرهما. وفي الآية: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ(١٨)** ﴾(الحج). تنصيص استلزمه أن الشمس كانت تُعبد من دون الله، فبيّن أنها مربوبة ومسخرة لله ، والإسلام أبطل عبادة الشمس بقوله تعالى: ﴿ **لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ(٣٧)** ﴾(فصلت)، وفي الحديث: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله» أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه. وعبادة الشمس كانت مع ذلك إقراراً بمخلوقيتها لله، كقوله: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ(٦١)** ﴾(العنكبوت)، فجعلوا الشمس دليلاً على وجوده تعالى وكانت الشمس ربَّ إبراهيم في مرحلته الأولى من البحث عن الله، فهاله منها عظمها وإشراقها على الكون(الأنعام٧٨). فلما أمن أنها لاتعدو أن تكون جرماً ولابد لها من خالق، جعلها من أدلته على وجوده تعالى لما حاور «الذي كفر» أي النمرود: ﴿ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ(٢٥٨)** ﴾(البقرة).

وكانت الشمس من شدة تبجيل الناس لها كآية من آياته تعالى رمزا من رموز لغة الأحلام ، وفي رؤيا يوسف رأى الشمس والقمر ساجدين له (يوسف٤). والشمس رمز الأبوة، وهذه الرمزية منطوٍ عليها الإنسان وكانت في عبادة القدماء لها، وهي قوة من قوى الله وتقديسهم لها بهذا الاعتبار. والثابت أن الشمس في الآخرة ينتهي أمرها تماماً، وفي الجنة لا شمس ولا زمهرير (الإنسان١٣)، **والزمهرير** هو المقابل للشمس في الدفء. وكانت الشمس تزاور عن **أهل الكهف** في مرقدهم حتى لاتفسد أجسامهم بحرارتها (الكهف١٧).

وفى قصة ذى القرنين كانت الشمس عذاباً لأصحاب العين الحمئة لا ستر لهم دونها (الكهف ٩٠). وفى قصة ملكة سبأ كانوا يسجدون للشمس من دون الله (النمل ٢٤). والشمس فى الإسلام دليل على أوقات الصلاة، والمسلمون يصلّون لدلوك الشمس أى زوالها (الإسراء٧٨)، ويسبحون بحمد ربّهم قبل طلوع الشمس وقبل غروبها (طه ١٣٠). فلكل ذلك أقسم الله تعالى بالشمس، وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم.



١٣٨٢.﴿الليل والنهار آيتان﴾

الليل والنهار آيتان على وجوده تعالى ووحدانيته وكمال علمه وقدرته، والليل والنهار يقبلان ويُدبران، ويُنقَص منهما ويُزاد بحسب تقديره تعالى. وآية الليل هى القمر، محاه الله تعالى ـ أى طمس ضوءه وترك نوره، وجعل آية النهار ـ وهى الشمس ـ مبصرة أى مضيئة للأبصار، لينام الناس فى الليل فيجدّدوا نشاطهم، ويشتغلوا بالنهار. وأفضل نوم للإنسان هو نومه فى الليل، وأفضل عمل هو عمله بالنهار. وبتوالى الليل والنهار يكون حساب الأيام، والأسابيع، والشهور، والسنين، ولولا هذا التوالى لرفلت الأرض فى الظلام أو فى النور دوماً، ولما كان اختلاف الحرارة والمناخ والرطوبة، والنتح فى النبات، والتمثيل الضوئى، ولما نزلت الأمطار، وكان الصيف والشتاء، والسحاب فى السماء، والمدّ والجزر، والرياح، وتفتيت الصخور والتربة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)﴾ (الإسراء). وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣)﴾(الفلق) هى ظلمة الليل تأتى بالمجهول، ويُسفر الشرّ فيها عن نفسه، وانكماش الطبقة الحامية من الغلاف الجوى يكون للأرض ليلاً، فيكون توقُّع الدواهى، وتنفذ الإشعاعات المهلكة، فتقضى على من يتعرّض لها، وهذه الطبقة الحامية هى التى تحمى سكان الأرض من الظواهر الضوئية ليلاً فتصلح الأرض كسكن للإنسان. وجعل الليل سكناً والنهار للسعى فى الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾(القصص) فسبحانه هو القدير، وهو الكبير المتعال.

ويذهب العلم الحديث إلى تفسير لآية اختلاف الليل والنهار، جديد تماماً، فيما يسمى ظاهرة الفجر القطبى ، وكانت هذه الظاهرة مصدر حيرة للعلماء حتى تبين أمرها بعد رحلات الفضاء، فإنه تعالى قد جعل للأرض غلافاً غازياً عبارة عن حزامين لحماية الحياة فيها يسميان «حزاماً الإشعاع» ، وهما يرقّان رقّة شديدة عند القطبين، ويسمكان سمكاً

شديداً عند خط الاستواء، وتبيّن للعلمـاء، أن الوهج الذى يُرى فى ظلمة الليل هو نتيجة لارتطام الأشعة الكونية بالغلاف الغازى فيُـرَى هذا الوهج عند القطبين وما جاورهما حيث يرقّ الغلاف، ولا يُرَى فى أجزاء الأرض لأن سُمك حزامىّ الإشعاع فيها يردّ تلك الأشعة فلا يظهـر لها الوهج الذى يُرَى عند القطبـين، والغالب أن هذين الخـزامين تكوّنا للأرض على مرّ الزمن، وقبل ذلك كـانت الأرض تضاء ليـلاً بارتطام الأشعـة الكونية بالـغلاف الغازى، وتضاء نهاراً بالشمس، ثم إن الله لمّا خلق الحـياة على الأرض خلق معها حـزامىّ الإشـعـاع لحماية الحياة فـيها، ويفسر ذلك الآية: ﴿ **فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** (١٢)﴾(الإسراء).

١٣٨٣.﴿الليل والنهار الآن وعند بداية الخلق﴾

قال تعالى ينبّه إلى ظاهرة الليل والنهار: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٣)﴾(القـــــصص)، وقال: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** (١٠) **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** (١١)﴾(النبأ)، وهذه جميعها آيـات تثبتها المشاهدة، غيرأنه فى الآية: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**(٥٤)﴾(الأعراف) يلفت الانتباه إلى معنى جديد غير مشاهد، كان يحتاج إلى العلم الحديث، وهذا المعنى يرتبط بمراحل الخلق الأولـى دون بقيـة المراحل، ويصف الليل والـنهـار فى هذه المراحل الأولى دون غـيرها، والسبب عبارة «**يطلبه حثيثا**»، وتعنى سريعاً، وهذه السرعة تصف حالة **تتابع الليل والنهار** فى الأزمان الغابرة، وتصف بالتالى **حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس**، وأنها كانت **حركة سريعة** بمعدلات أسرع منها الآن، واستوجبت لذلك وصفها بلفظة«حثيثاً»، ولولا أن سرعتها كانت أكبر لما **غشى الليل النهار يطلبه حثيثاً**» وثبت أخيراً من دراسة **هياكل الحيوانات وجذوع الأشجـار المعمرة**، وما مرّ بها من ظروف معاشيـة، وأعمارها، ومقادير الأزمان فى السنة والشهر والـيوم فى الأزمان الغابرة، أن عدد الأيام فى السنة كان يتزايد بـاستمرار مع تقـادم عمر العـينة المدروسـة، ومعنى ذلك أن سـرعة دوران الأرض حـول محورهـا أمام الشمس كـانت قديماً أسـرع منها الآن، ويتـضح بذلك المعنى الرائع والمعجـزة الباهرة فى التعبير القرآنى «**يطلبه حثيثاً**»، وصفاً للزمن فى الماضى البعيد عند بداية الخلق، ولقد اتضح من هذه الدراسات أن عـدد أيام السنة فى **العصر الـكمبرى Cambrian**، أى منذ حـوالى ٦٠٠ مليون سنة، كان ٤٢٥ يوماً، ثم أنه صار ٤١٥ يوماً فى منتصف **العصر الأوردوفيشى**

Ordovician أى منذ حوالى ٤٥٠ مليون سنة، وآل إلى ٣٨٥ يوماً بنهاية العصر الترياسى **Triassic**، أى منذ حوالى ٢٠٠ مليون سنة، وظل هذا التناقص فى عدد أيام السنة يتزايد بالتدريج إلى أن وصل فى زماننا إلى ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات، و٤٩ دقيقة، و١٢ ثانية، أى صارت أيام السنة تقريباً ٣٦٥ يوماً وربعاً، ويعكس ذلك بالتالى التناقص التدريجى فى سرعة دوران الأرض حول محورها، أى أن الأرض تفقد من سرعة دورانها واحداً من الألف من الثانية فى كل قرن منذ خلقها الله حتى الآن، وأرجعوا السبب فى ذلك إلى عمليتى المدّ والجزر، وتأثير الرياح المعاكسة لاتجاه دوران الأرض، بمعنى أنها تعمل عمل الفرامل لسرعة دوران الأرض. ولو أننا طبّقنا هذا الكلام حتى فترة تيبُّس القشرة الأرضية الخارجية عند بداية الخلق، أى منذ حوالى ٤٦٠٠ مليون سنة مضت،لوجدنا أن عدد الأيام فى السنة كان وقتها ٢٢٠٠ يوماً تقريباً، وأن طول الليل والنهار معاً كان حوالى أربع ساعات، وهذا يفسر أن عمر نوح كان **ألف سنة إلاخمسين**، مقدّراً بزمن ذلك الوقت، فيكون عمره بتقدير الزمن الآن نحو ١٥٨ سنة، وبذلك ينتهى وجه العجب فى عمر نوح، ونعرف أن الأرض كانت تدور فى ذلك الزمن البعيد بسرعة تفوق سرعتها الآن ستة أضعاف، فسبحان من قال منذ ألف وأربعمائة سنة: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**(٥٤)﴾(الأعراف).

●●●

١٣٨٤.﴿في معنى الجبال رواسي وأوتاد﴾

أنّ القرآن معجزٌ علمياً، حقيقةٌ تثبتها آياته،وحقائق القرآن ردٌّ على المتخرّصين الذين قالوا إن القرآن إفكٌ افتراه محمد. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)** ﴾(النبأ) فهذه إحدى عشرة معجزة قد نبّه إليها القرآن ولم يسبق أن نبّه إليها **التوراة ولا الأناجيل**، وفيها حتى الآن ملاحاةٌ لأهل الكتاب والمستشرقين خاصة، وكانوا فى زمن الرسول ﷺ ينكرون **البعث**، وما يزالون حتى اليوم، فوصفه تعالى **بالنبأ العظيم** ـ أى الخبر أو الأمر الجلل، لأنهم جادلوا فيه وأكثروا الجدل، وكانوا بين مصدّق مؤمن، ومنكر كافر، فهو قول بالنسبة لهم عظيم، فذكر لهم أن من يأتى بهذه المعجزات قادر على أن يبعثهم يوم الدين، ومن ذلك هذه الجبال الراسيات التى قد تبهرنا ولا ندرى لها وظيفة، فقال إنها **أوتاد الأرض**، تقرّها

وتثبّتها، وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ**(٣)﴾ (الرعد)، وقال: ﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ**(١٩)﴾ (الحجر)، وقال: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ**(٣١)﴾(الأنبياء)، وقال: ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا** (٢٧)﴾ (المرسلات)، يذكّر أن الأرض قد مدّها وبسطها ومهّدها، وألقى فيها الجبال راسيات، مستقرة عليها، تحفظها أن تميد، وكلما تُذكر الجبال تُذكر الأمطار، لأنها مقرونة بها، لأن الجبال تناطح السحاب، وتتولد طاقة كهربية، تُنزل الأمطار وينحدر ماؤها فراتاً إلى الأرض، ينساب أنهاراً، ويتدفق ينابيع، فيسقى الزرع والأنعام والناس، وتُذكر الجبال كرواسي تسع مرات، وتذكر كأوتاد مرة واحدة، وقولنا الجبل راسٍ، والجمع رواسى، أى مستقرة، وأما **الأوتاد** فهى جمع **وتد**، وهو الشيء الصلب المغروس فى العمق. ويكشف العلم الحديث أن الظاهر من الجبال فوق سطح الأرض لايمثل إلا جزءاً بسيطاً منها، وأما بقية الجبل فهى تحت الأرض، ولذلك كانت **الجبال أوتاد الأرض ورواسيها**. ومن شأن وتد الخيمة مثلاً أن يتوغل فى الأرض فيحفظها أن تقع ، وكلما زاد توغله فى الأرض كلما لم تقو الريح أن تعصف بالخيمة، وأوتاد الجبال إذن كأنها الجذور المتعمقة، تمتد داخل الأرض مسافات تتراوح بين ضعفى الجبل إلى ثلاثة أضعاف حجمه، غير أن ما يظهر منه للعيان نحو الربع فقط، أو الثلث. ولولا أن الجبال راسية وثابتة لانهارت القشرة الأرضية وتآكلت فى مواجهة المحيطات، وحيثما كانت الجبال على الشواطيء كانت المحيطات خطرة على الأرض تلطمها بمياهها وتكاد تغرقها وتبتلعها، فتظهر الجبال بأمر ربّها على نقاط التماس بين المحيطات وبين اليابسة، لتحفظ الأرض من أن تتآكل، مثلما تفعل **جبال اليابان، وجبال الأنديز**، فإذا لم تشكل المحيطات خطورة على اليابسة، كما فى إفريقيا الغربية، لم تكن ثمة ضرورة للجبال بمناطقها فنفتقدها، فتكون الأرض ممتدة منبسطة ممهدة لا جبال فيها، وذلك من دلائل قدرته تعالى، ومن دلائل أن القرآن من لدنه تعالى، وأن محمداً ﷺ لم يفتره كما زعموا، وما كان محمد ﷺ عالماً لينتحل العلم، وإنما العالم من العالم وهو الله ، وما كان تذكيره تعالى بالجبال الرواسي إلا مثلاً لعل المنكرين يتعظون.

•••

١٣٨٤.﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾(الذاريات)

فى القرآن حقائق علمية عن **الأرض** لم تكن معروفة قبل هذه **الثورة العلمية** التى نعيشها، ومنها حقائق لم يكتشفها أحد إلا مؤخراً، وسبق القرآن إليها وطرحها وذكّر بها بأسلوب آية فى البلاغة والدقة، وهو جانب من **الإعجاز العلمى** يستوجب الالتفات إليه

وتنبيه الناس ليتبينوه، ولو فعلنا ذلك لكان منهجنا فيه من أنجح أساليب الدعوة إلى الله وإلى الإسلام فى عصر العلم. والأرض ـ كمثال ـ فيها آيات وعجائب يعددها القرآن ويأتى ذكرها فيه ٤٦١ مرة، وجميعها حقائق أثبتها العلم، ومنها آيات تشير إلى شكل وحركة الأرض، وكرويتها ودورانها، ومواقع النجوم منها، واتساع الكون الذى يشملها، وبدئه دخاناً، ثم تخلُّقه جرماً، ثم انفجاره فكانت السماء والأرض، وتطابقتا، وانتشرت المادة بينهما وبين النجوم والمجرات، ونزل الحديد فى الأرض من السماء، وتصدّعت الأرض، وكانت ظلمات البحار والمحيطات فيها، وتسجير القيعان، وتمايز المياه، وكانت الجبال أوتاداً لتثبيتها، ولاتزان دورانها حول محورها، كما كانت أشكال الجبال وألوان صخورها، وكان دورها فى نزول الأمطار وتغذية الأنهار؛ ونشوء الغلافين المائى والهوائى للأرض، ودورة المياه حول الأرض وتخبرنا الآيات أن ذلك كله مصيره إلى الفناء بعملية معاكسة للخلق، ويخلق الله من جديد أرضاً غير الأرض، وسماوات غير السموات، وسبحان من خلق الأرض والسموات، وأحكم كل ذلك وأتقنه، وسبحان من خلق الأرض صالحة للحياة وللعمران، وباعد بينها وبين الشمس بحوالى ١٥٠ مليوناً من الكيلوات، فأمّنها حرارة الشمس ولم يحرمها دفأها ولانورها، وأدارها حول الشمس فى ٣٦٥ يوماً وربع تقريباً، وحول نفسها فى ٢٤ ساعة تقريباً، فكان الليل والنهار، وكانت الفصول، والدورات الزراعية، وهبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار، وتمايز أشكال الناس، وجميعها آيات تشهد لخالقها بطلاقة القدرة، وإحكام الصنعة، والتفرّد بالوحدانية. وسبحان الذى أنزل هذه الآية الكريمة: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾(الذاريات ٢٠) منذ ألف وأربعمائة سنة! ليدل دلالة قاطعة على أن القرآن من عند اللّه، وأن محمداً ﷺ هو نبىٌّ مرسل لاشك فى ذلك.

●●●

١٣٨٦. ﴿القرآن يقول بكروية الأرض ودورانها حول نفسها﴾

تقول التوراة بثبات الأرض والسماء ولاتذكر شيئاً بالمرة عن ظواهر الأرض الطبيعية وصفاتها، على عكس القرآن الذى يحفل بالآيات العلمية والبراهين العقلية، تأكيداً لما أثبته العلم وبيّنه بجلاء، فلم يتعارض العلم مع القرآن، ولاتناقض القرآن مع العلم، وكانت عبارات القرآن فى ذلك دقيقة غاية الدقة، بالغة البيان، تنبّه إلى أن الأرض كروية، وأنها تدور حول نفسها أمام الشمس، ودليل القرآن على ذلك اختلاف الليل والنهار، وأنهما خلفة، وأنه تعالى يقلّبهما ويولجهما الواحد فى الآخر، ويسلخهما من بعضهما البعض، و أن الليل والنهار، والشمس والقمر، كلٌّ يسبّح فى فلكه، أى كلٌّ يتحرك ويدور، ومن دلائل هذا

الدوران مرور الجبال مرّ السحاب، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** (٦)﴾ (يونس)، ويقول: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** (٦٢)﴾(الفرقان) ويقول: ﴿ **يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ** (٤٤)﴾(النور) ويقول: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**(٢٩)﴾ (لقمان)ويقول: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**(٣٧)﴾(يس)، وفي كل ذلك إشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس. و«الولوج» هو الدخول، أي أن: نصف الأرض الذي يخيم عليه الظلام يحلّ بالتدريج محل النصف الذي يعمّه النهار؛ كما أن نصف الأرض الذي يعمّه النهار يحّل بالتدريج محل النصف الذي يخيّم عليه الظلام، وهو برهان على أن الأرض كروية، وأنها تدور حول محورها أمام الشمس . ومعنى قوله «يسلخ النهار من الليل»: أنه تعالى ينزع نور النهار من أماكن الأرض التي يتغشّاها الليل بالتدريج، كما ينزع جلد الذبيحة عن كامل بدنها عند سلخها، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس. وجاء تشبيه انحسار طبقة النهار عن ظلمة الليل بسلخ جلد الذبيحة إشارةً علمية لم نعرف معناها إلا مؤخراً، ونُبّه إلى رقّة طبقة النهار في نصف الكرة المواجهة للشمس، فثبت أن سُمك طبقة النهار حول الأرض لايزيد عن المائتي كيلو متر، فإذا قارنا ذلك بالمسافة التي تفصل بيننا وبين الشمس وهي نحو مائة وخمسين مليوناً من الكيلو مترات، لأدركنا ضآلة هذه الطبقة، فهي لاتتجاوز، بالنسبة لبُعد الشمس، الواحد إلى السبعمائة والخمسين ألفاً تقريباً، وبالنسبة لنصف قطر الجزء المُدرَك من الكون، والمقدّر بأكثر من عشرة آلاف مليوناً من السنين الضوئية ×٩,٥ مليون مليون كيلو متر، فإنها تكون تافهة جداً والتعبير القرآني بأن النهار كأنما هو جلد ذبيحة ينسلخ عنها هو تعبير معجز غاية الإعجاز، وفيه أن الظلمة هي أصل الكون، وأن النهار لايعدو ظاهرة عارضة متهافتة فيه، ولايظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الجوي للأرض في نصفها المواجه للشمس.

وفي قوله: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠)﴾(يس)، وقوله: ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** (٨٨)﴾(النمل). دليل أكيد على أن لكلٍّ مداراته، وأن السحاب يمرّ مع الجبال في حركة الأرض، لارتباط الجبال بالأرض، وارتباط الغلاف الغازي الذي منه السحاب بالأرض برباط الجاذبية، فتنضبط حركة السحاب بحركتها . ونفس المعنى تؤكده آيات غشيان الليل والنهار، كقوله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** (١) **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا** (٢) **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** (٣) **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**

﴿٤﴾ (الشمس)، وقوله تعالى: ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا** ﴿٥٤﴾ ﴾(الأعراف)، ومعنى «يغشى» يغطّى، فالنهار يغطيّه الليل بالظلمة بالتدريج، فيحلّ الليل، ثم يغطّى نور النهار ظلمة الليل بالتدريج فيحلّ النهار، وهذا دليل على **كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس دورة كاملة فى كل يوم مدته ٢٤ ساعة**، يتقاسمها الليل والنهار بتفاوت قليل، وفى **تعاقب تدريجى** ينطق بطلاقة قدرة اللّه، ولو لم تكن الأرض كروية ما استطاعت الدوران حول محورها أمام الشمس،وما تبادل الليل والنهار، فسبحان الله الذى أطلعنا على ذلك فى كتابه، ثم أمكن أهل العلم من اكتشافه، لتثبت صحة كتابه، وأنه الكتاب المنزّل على محمد ﷺ من لدن عليم خبير قدير، منذ أكثر من **ألف وأربعمائة** سنة، فلم يختلف ما فيه من حقائق عمّا أثبته العلم منها.



١٣٨٧.﴿معجزة تنبيه القرآن إلى أن الأرض تنقص من أطرافها﴾

«سورة الرعد» من السور التى تحفل بالظواهر الكونية،وهى الوحيدة التى تحمل اسم ظاهرة جوية: الرعد، ومن آياتها قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴿٤١﴾ ﴾(الرعد)، **وإنقاص الأرض من أطرافها** ظاهرة فريدة وعجيبة ينبّه إليها القرآن، ويتكرر ذكر القرآن لها فى الآية: ﴿**أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴿٤٤﴾ ﴾(الأنبياء)، ولم يكن التنبُّه إلى هذه الظاهرة إلا مؤخراً، ويأتى ذكرها فى القرآن كدليل مادى على أن الله تعالى هو الغالب، وأن من يكفرون به مهما طالت أعمارهم فإنهم فى النهاية إلى الموت ثم البعث، ونقص أعمارهم دليل مادى على صدقه فى قوله تعالى إن الأرض تنقص فى أطرافها، ومن ثم فى عُمرها، فالكون كله محكومٌ بأمره تعالى. **والقيامة على ذلك حق، فما معنى أن تنقص الأرض من أطرافها؟** يقول أهل العلم: إن الأرض **تنكمش على نفسها باستمرار**، ويتناقص من ثمّ حجمها، وثبت أنها كانت فى بداية الخلق **مائة ضعف حجمها** الحالى على الأقل، ثم تكونت منها «**الأرض الابتدائية**» التى تمايزت إلى «**سبع أرضين**»، هى: **لُبّ الأرض الصلب من الحديد والنيكل وغير ذلك** من العناصر، ويبلغ قطره حالياً ٢٤٠٢ كيلو متر؛ **ونطاق اللُّب** من العناصر المنصهرة السائلة، ويقدّر سُمكه بحوالى ٢٢٧٥ كيلو متر؛وبين اللُّب ونطاق اللب **منطقة شبه منصهرة** يبلغ سُمكها ٤٥٠ كيلو متر؛ ثم «**وشاح الأرض**»، وهو **ثلاثة أجزاء**: **الجزء السفلى**: وهو صلب،ويحيط بلُب الأرض السائل، وسُمكه نحو٢٢١٥ كيلو متر؛ **والجزء الأوسط**: وهو صلب، ويبلغ سُمكه ٢٧٠ كيلو متر، ثم **الجزء الأعلى**: وهو لَدِن شبه منصهر، ويسمى

نطاق **الضعف الأرضى**، ويتراوح سُمكه بين ٣٣٥ كيلو متر إلى ٣٨٠ كيلو متر. والمعتقد أن وشاح الأرض بأجزائه الثلاثة كان فى البداية منصهراً، ثم أخذ فى التصلب بالتدريج. ثم بعد ذلك يأتى **النطاق السفلى من الغلاف الصخرى للأرض**: وسمكه من ٤٠ إلى ٦٠ كيلو متر. **فالنطاق العلوى**: وهو قشرة الأرض، وسُمكها من ٦٠ إلى ٨٠ كيلو متر. وهذا التمايز فى التركيب تسبب فى تفاوت فى التفاعلات، نشأ عن تمزق فى الغلاف الصخرى للأرض. وترتب عليه ظهور **البراكين والزلازل، وبروز الجبال، ودحو الأرض** فى مناطق دون مناطق. ومن شأن ذلك أن يحدث **انكماش** فى حجم الأرض، وكان لابد منه طالما الشمس أيضاً **تنكمش**، وبانكماش الأرض **تظل** العلاقة النسبية بين كتلتى الأرض والشمس ثابتة، وتظل المسافة بينهما ثابتة، وكذلك **كمية الطاقة** الشمسية الواصلة إلينا. ولو لم تكن هذه العلاقة النسبية ثابتة لانجذبت الأرض اكثر إلى الشمس فاحترق كل شىء فيها، واحترقت كل الأحياء، أو لابتعدت الأرض عن الشمس، فتتوه فى الكون، ويموت كل الأحياء فيها أيضاً. والأرض **تنقص أيضاً** بما يخرج منها من أفواه البراكين من **غازات و أبخرة وهباءات، يصل بعضها** ويفلت من جاذبية الأرض وينطلق إلى السماء. وتلعب **النيازك والشهب** دوراً أساسياً فى تعويض الأرض عما تفقده، والمحافظة على العلاقة بين كتلتى الأرض والشمس. وأيضاً فإن من أسباب نقصان الأرض من أطرافها: **تأثرها بالقوة الطاردة المركزية** لحركة الأرض حول محورها، وتزداد هذه القوة حتى الذروة عند خط الاستواء، وتقل إلى أدنى مستوى عند القطبين، **فيحدث انبعاج** للأرض **عند خط** الاستواء **وتفلطح** عند القطبين. ونتيجة اختلاف القوة الطاردة عند القطبين، يكون **القطب الجنوبى** أكثر تفلطحاً من القطب الشمالى، ومعنى ذلك **أن الأرض تنقص حقيقة من أطرافها**. وأيضاً فإن **قيعان المحيطات والبحار** بسبب تصدّعها الكثير، تتّسع وترتفع فيها المياه بسبب زيادة الصهارة الصخرية، وتندفع المياه يمنةً ويسرةً فتغرق أجزاء من الشواطىء عدة سينتميترات كل سنة، وهى صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. وأيضاً فإن إنقاص الأرض من أطرافها تستحدثه عوامل **التعرية** المختلفة، فتنبرى الصخور فى المرتفعات، ويُلقَى بها فى المنخفضات، وتَحُتّ مياه الأنهار فى الصخور، ويتحوّل **النحات** بعد ذلك إلى **نحر**، وتتكون من ثم **السهول أو السهوب**، ثم تبدأ الدورة من جديد، **ودورة تكوين السهوب هذه صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها**، ولهذا تنخفض القارة الأمريكية مثلاً بمعدل يصل إلى ٠٣, ملليمتر فى السنة. ومن أسباب هذا النقص فى أطراف الأرض: ظاهرة **طغيان مياه البحار والمحيطات على اليابسة**، ومن ذلك مثلاً تكوين **البحر الأحمر، وخليج**

كاليفورنيا . والثابت أن غالبية الماء العذب على الأرض مجمّد على هيئة جبال جليد فى القطبين الشمالى والجنوبى، وارتفاع درجة حرارة الأرض يتسبب فى انصهار هذا الجليد بمعدلات أكبر، فيرتفع منسوب المياه فى المحيطات والبحار، ومع استمرار هذا الوضع ستغرق معظم مساحات اليابسة ذات التضاريس المنبسطة مثل دلتا نهر النيل ، وهى صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. وكذلك فإن من ظواهر هذا الإنقاص زحف الصحراء على المناطق الزراعية، وهى الظاهرة المسماة بالتصحُّر. وهذا جميعه معنى الآية أن الأرض تنقص من أطرافها، صاغها القرآن صياغة بلاغية وعلمية كانت معجزة فى دقتها وشمولها وكمالها.

•••

١٣٨٨. الإعجاز العلمى فى آية: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ (الطارق)

يخبر القرآن منذ ما يزيد على الألف والأربعمائة عام أن الأرض ذات صدع كما فى الآية، ويقسم بها الله تعالى بصفتها هذه، وهو دليل أهمية هذه الظاهرة. ومعنى «الصدع» أنها مشقوقة، وتكثر بها الصدوع، وأثبت العلم مؤخراً أن الأرض محاطة بصدوع عملاقة إحاطة كاملة، تمتد لآلاف الكيلو مترات فى جميع الاتجاهات، وبأعماق تتراوح بين ٦٥و٧٠ كيلو متراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وعدد من بحارها، وبين ١٠٠ إلى ١٥٠ كيلو متراً تحت القارات، وينصدع بها الغلاف الصخرى للأرض إلى عدد من الألواح التى تطفو فوق نطاق الضعف الأرضى، وهو شبه منصهر، عالى الكثافة، وتندفع فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، فتباعد بين الألواح وتُصادِمُها ببعضها البعض، وبذلك تتسع قيعان البحار والمحيطات، وتتجدد صخورها، وتتكون الجزر البركانية وسط المحيطات، وتعلوها سلاسل الجبال، ويصاحب ذلك هزات أرضية وطفوح بركانية، وتزحف القارات أو تجتمع، وقد تنقسم قارة ببحر طولى مثل البحر الأحمر، أو تصطدم كتلة أرضية من المحيط بقارة، مكونةً أعلى سلاسل الجبال مثل الهملايا. وتعمل الصدوع العملاقة المحيطة بالأرض كمراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخرى، وتندفع ملايين الأطنان من الصهارة البركانية على هيئة طفوح بركانية تُثرى سطح الأرض بالصخور والمعادن ، وتجدّد شباب التربة الزراعية، وتنطلق الغازات والأبخرة التى تكوّن غلاف الأرض المائى والغازى، وبمقدار ما تفقد الشمس من كتلتها بالاحتراق ، تفقد الأرض من كتلتها كذلك فتتناسب مع ما تفقده الشمس، وبذلك تظل المسافة بينهما ثابتة، فلا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس بحرارتها التى تصل إلى ١٥ مليون درجة مئوية، أو تبتلعنا بجاذبيتها، ولا تزيد المسافة

بابتعاد الأرض فتتجمد، وتتجمد عليها كل مظاهر الحياة، أو أنها تنفلت من عقال جاذبية الشمس فتضيع فى فضاء الكون. ومن **فوائد انصداع الأرض**: أن تتكون التربة من حبيبات تتشرب ماء المطر فتنتفش وترقّ وتنشقّ، وبذلك ينفسح المجال لجذر النبات أن يشقّ طريقه إلى أسفل، ولساقه أن يشقّ طريقه إلى أعلى. وللماء أن يجد لنفسه مكاناً تتكون به الخزانات الجوفية والمجارى المائية. ولولا انصداع التربة لما نبت النبات، ولا كان الحَبّ والثمر، ولا اختُزن الماء للاستعمال عند الحاجة، ولهذا كان قَسَمُه تعالى **بالأرض ذات الصدع**، كآية كبرى من آياته تعالى، تثبت قدرته وعلمه ووحدانيته. ثم إن **التربة تتعرض لعمليات التعرية**، فتنزاح كميات من الصخور عن السطح، ويخفّ الضغط على الصخور أسفلها، فتستجيب بالتمدد، فتنشق وتتصدّع، فتندفع الصهارة الصخرية من باطن الأرض كطفوح بركانية، تتعرض للتبريد عند سطح التربة وتتشقق، ويتكون بها المزيد من التربة، ومن خلال هذه الشقوق تكون تجوية الصخور تحت التربة وتعريتها ، وتكوين الرسوبيات. والتربة لازمة **للزراعة**؛ والصخور الرسوبية لازمة لتكوين النفط، **والغاز الطبيعى، والفحم، والفوسفات** إلخ، وتتحدد بها ركازات **الذهب، والفضة والنحاس** ، **والرصاص، والقصدير** إلخ. وتتكون مجارى الأنهار وبعض الكهوف. والقرآن سبق إلى التنبيه إلى هذه الصدوع وأقسم بها الله تعالى، وذلك دليل على أنه كتاب من لدن الله، وأنّ مَن بشّر به وبلّغ آياته هو نبىٌّ حقًا أرسله الله تعالى بالحق .



١٣٨٩. ﴿إعجاز آيات خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾

ينبّه القرآن إلى خلق السموات والأرض فى ستة أيام فى ثمانى آيات من القرآن، كقوله تعالى : **﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ (٧)﴾**(هود)، وقوله : **﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾** (فصلت). وهذه الأيام المشار إليها فى الآيتين ليست من «أيام الأرض»، لأن الأرض لم تكن قد خُلقت بعد. واليوم نسبى فى كل كوكب من الكواكب التى خلقها الله، **فيوم الأرض الشمسى** مثلاً هو الفترة التى تتم فيها للأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، وتقدّر حالياً بأربع وعشرين ساعة. **وأما يوم الأرض النجمى** فيقدر بالفترة بين رؤية أحد النجوم الثابتة من فوق نقطة محددة من الأرض، ثم رؤيته من جديد بعد دوران الأرض

حول محورها، وهذه المدة تزيد عن يوم الأرض الشمسى بثلاث دقائق وستة وخمسين ثانية. ولما كان لكل جرم من أجرام الكون سرعته ودورته المحورية الكاملة، فإنه يترتب على ذلك اختلاف طول اليوم فى كل منها ، واختلاف مدة السنة، فيوم عطارد مثلاً: ٨٨ يوماً أرضياً؛ويوم المريخ: ٩ ساعات و٥٣ دقيقة؛ ويوم المشترى : ١٠ ساعات و١٤ دقيقة و٢٤ ثانية؛ ويوم زُحَل: ١٠ ساعات و ٤٨ دقيقة؛ ويوم يورانوس: ١٥ ساعة و٤٠ دقيقة. والسنة فى الزهرة:٧, ٢٢٤ يوماً أرضياً، وفى المريخ: ٩٨, ٦٨٦ يوماً أرضياً، وفى المشترى: ٨٦, ١١ يوماً أرضياً؛ وفى يورانوس :٠٧, ٨٤ يوماً أرضياً، وفى الشمس: ٢٢٥ مليون سنة من سنى الأرض. وكل ذلك ضمن المجموعة الشمسية، وهى جزء ضئيل من مجرة درب التبّانة ،التى تشكل بدورها جزءاً ضئيلاً من التجمُّع المجرّى الأعظم، وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾(الحج)، وقال: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾(المعارج). وفى النظرية النسبية: أن كل زمن فى الجزء المُدرَك من الكون هو زمن نسبى، يعتمد على سرعة تحرُّك الجسم، وكلما زادت سرعته بالنسبة إلى جسم آخر قلّ إحساسه بالزمن، فإذا وصلت سرعته إلى سرعة الضوء تصبح السنة بالنسبة لهذا الجسم تعادل مائة سنة من سنى الأرض، ومعنى ذلك أننا إذا حوّلنا معلومات السور الكونية فى اليوم والسنة والسرعة، إلى معادلات رياضية، لثبت لنا أن القرآن سبق إلى سرعة الضوء كما أكدها العلم. وتشير الآيات من سورتى هود وفُصلت إلى أنه تعالى بدأ بخلق الأرض ثم السموات، واستغرق ذلك يومين، واستكمل الأرض فى أربعة أيام، فيصير المجوع ستة أيام: يومان فى خلق السموات السبع وتخليق الأض وباقى أجرام السماء، وأربعة أيام فى دَحْو الأرض وخلق الحياة عليها. وكان خلق السماء والكون بحسب تقدير علماء الفلك والفيزياء الفلكية منذ عشر إلى خمس عشرة بليون سنة، بينما خُلقت الأرض منذ نحو ٦, ٤ بليون سنة، وهذا كله قال به العلم الحديث مؤخراً وأثبته، وسبق إليه القرآن بألف وأربعمائة سنة ونبّه إليه، وفى ذلك إثبات أن القرآن من لدن الله، وأن محمداً ﷺ هو رسول الله، وإلا لكان القرآن متناقضاً مع العلم ومخالفاً له.

●●●

١٣٩٠.﴿والبحر المسجور﴾

من آيات القرآن المبهرة فى أوصاف البحار والمحيطات قوله تعالى: ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾(الطور) يقسم به لعباده؛ والمسجور فى اللغة هو الذى أوقد عليه حتى حمى، وكان أهل التفسير والبيان قد حاروا فى معنى المسجور، وكيف يكون البحر مسجوراً، وكيف

يجتمع الماء والنار؟ ولم يحلّ هذا الطلسم إلا **علماء البحار فى القرن العشرين**. فقالوا إن جميع المحيطات والعديد من البحار قيعانها مسجّرة بالنيران، وهى الحقيقة التى ذكرها القرآن منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة! وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** ﴿٦﴾﴾ (التكوير) قسم آخر يبيّن أن **البحار يوم القيامة تُسجّر**، أى تزداد نيرانها، وتغلى حتى لتفيض على بعضها البعض فتصير **بحراً واحداً، فيرتفع الحاجز** الذى ذكره الله يفصل بين البحار بعضها البعض. وبينها وبين المحيطات والأنهار. فهذا عذب، وذاك مالح، وذاك أكثر ملوحة، فالبحر الأسود مثلاً من أقل البحار ملوحة، والبحر المتوسط أشد ملوحة، ويوم القيامة تختلط الأمور إذا سُجّرت القيعان وغلت المياه وفارت. ولفظ «**سُجّرت**» من قولنا: «**سَجَرْتُ التنور**» أى أحميته، إذا سُلط عليه الإيقاد، فتجفّ رطوبته. وهكذا البحار، تجف رطوبتها وتشتعل نيراناً، وهو ما نعرفه الآن عن قيعانها، فسبحانه ما أقدره! ولولا العلم الحديث ما عرفنا ما بهذه الآيات من علم كثير، وذلك دليل على أن القرآن من عند الله، وأن محمداً ﷺ رسوله حقاً. والحمد لله على نعمة القرآن، ونعمة الإيمان.

١٣٩١. ﴿حواجز البحار﴾

من الإعجاز العلمى للقرآن قوله تعالى: ﴿**وجعل بين البحرين حاجزا** ﴿٦١﴾﴾(النمل)، والمفسرون أوّلوا **الحاجز** بأن الأنهار عندما تصب فى البحار فإن ماء النهر العذب لايختلط به ماء البحر الأجاج، وهذه ظاهرة نجدها عند مصبات الأنهار، ولكن العلم الحديث ذهب مذهباً آخر، فبيّن أنه فى البحر الواحد تكون عدة بحار بعدة ألوان، وظهر ذلك من تصوير البحار من الجو، وحلّل العلماء تلك المياه فوجدوا أنها قطع مياه متجاورة منعزلة عن بعضها البعض، وبرغم تجاورها، إلا أن كل بقعة منها لها من الصفات الطبيعية والكيميائية والبيولوجية ما يجعلها تشكّل وسطاً منفصلاً من المياه، وتبين أن ذلك يصدق على المياه فى المستويين الأفقى والرأسى، وسبب ذلك أن أملاح البحار توجد متأيّنة، فتتكون عند حدود كل ماء شحنات متنافرة، من شأنها أن تكون فاصلاً بين هذه المياه، فتتغير بذلك البيئات البحرية، فتصلح أحوالها لأنماط مختلفة من الحياة فى الوسط المائى الواحد. فسبحان ربّ العرش العظيم! وهذه الحقيقة العلمية أثبتها القرآن قبل الكشوف العلمية بألف وأربعمائة سنة، وهو دليل على أن القرآن كتاب الله، وأن محمداً ﷺ نبىُّ الله حقاً وصدقاً.



١٣٩٢. ﴿يوم الله مقداره ألف سنة بحسابنا﴾

فى الآيتين: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴿٤٧﴾﴾(الحج)، ﴿**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴿٥﴾﴾(السجدة)، أن اليوم الواحد عند الله بألف سنة قمرية،

لأن الحساب الفلكي عند العرب هو حساب قمري، فلم يكونوا يعرفون السنة الشمسية، وإذا تساوى قدران من الزمان غير متكافئين فإن ذلك يدل على اختلاف السرعة فى أحدهما، والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمرياً، وطول الشهر القمرى هو مدار القمر حول الأرض، وهو مسافة ٢,٤ مليون كيلو متر، فإذا ضربنا هذا الرقم فى اثنى عشر شهراً وهى السنة القمرية، ثم ضربنا الناتج فى ألف سنة قمرية، ثم قسمنا ذلك على ٢٤ ساعة ×٦٠ دقيقة ×٦٠ ثانية، فإننا نصل إلى السرعة التى ينبغى أن تكون عليها الرحلة فى يوم الله، وهى أعلى من سرعة الضوء، وهذه حقيقة جديدة، وتفسير علمى محض لآية من آيات القرآن لم يكن معروفاً تفسيرها من قبل، وسبحان الله الخالق العليم! والآية دليل آخر على أن القرآن كتاب الله، وأن محمداً الذى بلّغه هو نبىّ الله، وإلا ما كان يمكن أن يسبق إلى هذه الحقائق المذهلة والمعجزة.

●●●

١٣٩٣.﴿آية الرياح والمطر والسحاب﴾

السحاب جمع سُحُب، والواحدة سحابة، وهى الغيم، ويقال سَحَب، وانسحب، وسَحّب أى تسلل وانقشع فى خفّه؛ والسُّحبة فضلة الماء؛ والمطر هو ماء السحاب.

والآية: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾** (النور) من الإعجاز العلمى فى كيفية تكوين السحاب ليكون منه المطر، وهى حُجة من حججه تعالى على وحدانيته وكمال قدرته، و«الرؤية» فى الآية هى الرؤية بالفهم، ، و«إزجاء السحاب» يعنى سوْقه إلى حيث يشاء، والسحاب يتكون من بخار الماء المتصاعد من الأرض، فتدفعه الرياح، وتجمعه، وتؤلف بينه: **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ (٥٧)﴾** (الأعراف)، وبتراكمه يصطدم ببعضه فتتواصل شحناته من الطاقة، فيخرج منها البرق، وينزل المطر مدراراً أو ودقاً، يُفرغ ما فى السحاب من البخار، وبعضه يكون بَرَداً كالجبال، تسوقه الرياح كسَوْقها للسحاب، فإذا صادف الطبقة المحيطة بالأرض وهى أعلى حرارة تحوّل إلى ماءً. والريح هى الهواء، والجمع أرياح، وهى أربع: الجنوب وهى القِبلية، والشمال وهى الشمالية، والصَّبا وهى الشرقية، والدَّبور وهى الغربية؛ ومنها الريح الطيبة وهى الرخاء المطيرة، وضدها الريح القاصف العاصف الصرصر العقيم، وعِلْم ذلك هو علم تصريف الرياح: **﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ(١٦٤)﴾** (البقرة)؛ وريح النشور: التى تنشر السحاب المثقل بالماء فتمطره على مختلف البلاد،

والسحاب آلة لإنزال الماء. ونزول المطر من السحاب من **المعجزات الكبرى**، والأرض بما ينزل عليها من الماء أغنى كواكب المجموعة الشمسية به. وماء المطر :**مَاءً طَهُورًا** (الفرقان) وفيه قال ربّ العزة: **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**(الانبياء ٣٠)،وخلق منه البشر (الفرقان٥٤). وخلق كل دابة (النور٤٥)، وكانت المراعى(النازعات٣١)، و سلكه ينابيع فى الأرض وأنهاراً (الزمر٢١). وتقدّر كمية **الماء** فى الأرض: بحوالى ١٣٦٠ إلى ١٣٨٥ مليون مليون كيلو متر مكعب، أغلبه **فى البحار والمحيطات**: ٢ ,٩٧٪ . وأقلّه ماء **عذب**: من ٢,٠٥٢ إلى ٢,١٥ ٪ على هيئة جليد فوق القطبين وعلى قمم الجبال، والباقى مختزن **فى الصخور** :٢٧, ٠٪. **وفى البحيرات**:٣٣, ٠ ٪. **وعلى هيئة رطوبة فى التربة**: ١٨, ٠ ٪، وفى **الغلاف الغازى للأرض**: ٣٦, ٠ ٪، وأقل الماء فى **الأنهار والجداول** :٠,٠٠٤٧ ٪. وهذا الماء الأرضى يخرج منها **بالبراكين**، ويتوزع بحكمة بين الأرض والغلاف الغازى. ولولا دورة مياه **المطر والسحاب والرياح** لفسد ماء الأرض، لوجود البلايين من الكائنات الحيّة فيه، وكل ذلك يتم بقدر منضبط، كقوله: ﴿**وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ⑪﴾ (الزخرف) يفى بمتطلبات الأرض والناس والدواب. ويحفظ التوازن الحرارى على سطح الأرض في مختلف الأماكن والفصول، ولو زاد قليلاً لغمر الماء الأرض وغطّى سطحها، ولو قلّ لقصر دون متطلبات الحياة. **ويتصاعد بخار الماء** من أسطح البحار والأنهار والبرك وجليد الجبال، ومن تنفّس الإنسان والحيوان، ونتْح النبات، إلى الغلاف الغازى للأرض، فتتناقص فيه الحرارة ، ويقل الضغط فيتكثفّ البخار الصاعد على نوى الغبار العالق بالهواء، ويتكون منه السحاب، ثم يتكون المطر، وهكذا يعود الماء إلى الأرض بعد أن يكون قد تطهّر وتصفّى. ويتبخّر من ماء الأرض ٣٨٠ ألف كيلو متر مكعب فى كل سنة، أغلبها - قيل ٣٢٠ ألف كيلو متر مكعب - من أسطح البحار والمحيطات. وأقلّها - قيل ٦٠ ألف كيلو متر مكعب - من أسطح اليابسة، ثم تعود هذه الكمية إلى الأرض بمعدلات مختلفة، قيل ٢٨٤ ألف كيلو متر مكعب تتنزل على البحار والمحيطات، و٩٦ ألف كيلو متر مكعب على اليابسة، والفارق بين ما يتبخّر من الأرض وما يعود إليها - وهو ٣٦ ألف كيلو متر مكعب - يفيض منها إلى البحار والمحيطات. وقيل إن معظم المطر لايأتى من السحاب، إذ أن نسبة الماء فى السحاب لاتتعدى ٢٪ من الماء الموجود في الغلاف الجوى للأرض (النطاق المناخى)، وأن كمية الماء في هذا الغلاف تقدّر بنحو ١٥ ألف كيلو متر مكعب، ويوجد على شكل قطرات صغيرة أكبر من واحد ميكرون، وتلتصق بالهواء للزوجتها، ولاتسقط **مطراً** إلا بعد تلقيحها بامتزاج سحابتين، إحداهما ساخنة والأخرى

باردة، أو أن إحداهما تحمل شحنة كهربية موجبة والأخرى سالبة، أو أن ما تحمله الريح من جسيمات عالقة تتداخل فى السحب فتعين على تكثف بخار الماء، فينزل المطر بقطرات دقيقة أو كبيرة قد يزيد قُطرها أحياناً حتى يبلغ من ٤ إلى ٨ ملليمتر، وسبب هذه الضخامة أن الماء يعلق بالجسيمات السابحة وينمو بالتدريج عليها حتى يصل إلى تلك الأحجام.



١٣٩٤. ﴿كل شيء حيّ من الماء﴾

الماء ضرورة من ضرورات الحياة، وهذه حقيقة معروفة قبل نزول القرآن وبعده، فلولا الماء لما كانت الأحياء. والماء جعله **الفلاسفة الأولون** عنصراً من العناصر **الأربعة** التى هى أصل الحياة، لكن الغريب أن **التوراة** لم تشر إلى ذلك، ولم يذكره المسيح، ولا أوردت شيئاً **الأناجيل** عنه، إلا القرآن فإنه نوّه بالماء **ثلاثاً** وستين مرة، وأثبت أن السماء هى **مصدر الماء**، إشارةً **إلى المطر**، وأن الله **تعالى** هو منزّل المطر بما هيأ له من الأسباب، وفى القرآن عن الإحياء بالماء، والإنبات به والإثمار، والاغتسال، قوله: **﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾** (البقرة١٦٤)، وقوله: **﴿فأخرجنا به نبات كل شيء(٩٩)﴾**(الانعام)، وقوله: **﴿ فأخرج به من الثمرات رزقا لكم (٢٢)﴾**(البقرة)، وقوله: **﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به(١١)﴾** (الأنفال)، وقوله: **﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر(١٠)﴾**(النحل) إشارة إلى الرى والسقيا؛ ومن الماء المنى الذى به التناسل، كقوله: **﴿والله خلق كل دابة من ماء(٤٥)﴾** (النور)، وقوله: **﴿وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا (٥٤)﴾** (الفرقان)؛ وقال: **﴿أرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء(٢٢)﴾** (الحجر) إشارة إلى دورة الماء بين السماء والأرض وتحوله إلى سحاب تدفعه الرياح، كقوله: **﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز(٢٧)﴾** (السجدة)، وقوله: **﴿فسلكه ينابيع فى الأرض (٢١)﴾** (الزمر)، وقوله: **﴿والذى نزل من السماء ماء بقدر (١١)﴾**(الزخرف) إشارةً إلى تفاوت كمية الأمطار والأرزاق تبعاً لذلك، بحسب تقدير الله تعالى. ويأتى وصف الماء بأوصاف عدة: فهو **الماء المنهمر** (القمر١١) يعنى الذى ينزل مطراً بكثرة؛ و الماء المسكوب(الواقعة٣١) أى المصبوب؛ **والماء الغور** (الملك٣٠) أى الذاهب فى الأرض؛ **والماء الغدق** (الجن١٦) كثير القطر؛ **والماء المهين** (المرسلات٢٠) أى الضعيف وهو النطفة؛ **والماء الفرات** (المرسلات٢٠) أى العذب؛ **والماء الثجّاج** (النبأ١٤) وهو الضباب المتتابع؛ **والماء الدافق** (الطارق٦) أى المتدفق بشدة. وكما ترى أن الماء معجزة بينّها القرآن خير بيان، ويحتوى جنين **الإنسان** على ٩٧ ٪من

وزنه ماء، وتقل هذه النسبة إلى ٩١٪ في جسد **الطفل الوليد**، ثم إلى ٦٦٪ في جسد **الفرد البالغ**، وتختلف نسبة الماء في كل عضو من أعضاء جسم الإنسان باختلاف وظيفته، وهي في **الرئتين** ٩٠٪، وفي **الدم** ٨٢٪، وفي **خلايا الدماغ** ٧٠٪، فإلى هذا الحد تبلغ أهمية الماء للإنسان؛ وبالمثل للحيوان والزروع، ويستطيع الإنسان أن يعيش **أسابيع عديدة بدون طعام** ولكنه لايستطيع العيش بدون ماء إلا **بضعة أيام**، لأن الماء يدخل في كل عملياته الحيوية: في الهضم، والإخراج، والتنفُّس، وتجديد الدم؛ ولا يفيد النبات من عناصر التربة بامتصاصها بدون عملية نتح وتنفُّس، أي بدون ماء. ولذا كانت هذه الآية المعجزة علمياً والتي تلخص كل ذلك: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ (الأنبياء٣٠). والماء سائل عجيب يوجد **صلباً وسائلاً وغازياً**، وله قدرة على إذابة الكثير من العناصر، وعلى التماسك بسرعة، والتكوّر على هيئة قطرات، وعلى تسلق جدران الأوعية، وهي الخاصية المعروفة باسم **الخاصة الشعرية**، وبدونها ما كانت العصارات تصل إلى أعلى الأشجار، ولا الدماء تصل إلى الرأس. وحرارة الماء النوعية **عشرة أضعاف** الحرارة النوعية للحديد، **وخمسة أضعاف** الحرارة النوعية لرمال الشاطىء، وله منحنى كثافة فريد، فإذا ارتفعت درجة حرارته إلى **أربع درجات مئوية** يصل إلى أقل حجم له وأعلى كثافة، وإذا انخفضت حرارته دون ذلك يتمدّد الحجم وتقل الكثافة، ويفسّر هذا **طفو الجليد** على سطح المحيطات والبحار، فيمنع تجمد الماء أسفله، فتستطيع الكائنات البحرية أن تعيش في الأعماق دون أن تتجمد. فهذا هو الماء الذى تنبّه إليه الآيات، وخاصة الآية الجامعة: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾(الأنبياء٣٠)، وما كنا نعرف قدر ما في هذه الآية من إعجاز لولا العلم الحديث، وسبحان الله الخالق العليم.

•••

١٣٩٥. ﴿الإعجاز العلمى فى قسَمه تعالى بالهواء﴾

يقسم الله تعالى بآياته المعجزة في الكون، ومن ذلك قوله: ﴿ **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾** ﴾ (التكوير)، **والتنفُّس هو**: إدخال الهواء إلى الرئتين وإخراجه منهما، **والنفس: الهواء** يدخل ويخرج من فم الحيّ في **الإنسان والحيوان**، وكذلك يتنفس النبات وكل شيء في الوجود، فليس هناك شيء إلا ويتنفس الهواء، فحتى **الجماد** له عملية تنفس وإذا انبلج **الصبح** يقال إنه تنفّس، فينقشع الظلام وينشق عن النور؛ ويتنفس **البحر** فيزيد في المدّ، وينقص في الجزر. والهواء غاز خفيف، وفي الآية: ﴿ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾** ﴾(إبراهيم) لأن الهواء لا ثقل له، وهو معروف وشائع، فضرب به المثل دليلاً على تفاهه تفكيرهم. والهواء نعمة كبرى

من نعم الله، ومثله مثل الماء، فهو من **الضرورات**، بل إنه **أشد ضرورة** من الماء، **فالماء أهم من الطعام**، لأننا يمكن أن نستغنى طويلاً عن الطعام ولانستغنى عن الماء إلا أياماً، **والهواء أهم من الماء**، لأننا لانستغنى عن الهواء إلا لبضع دقائق لاغير، وكذلك يمكن أن نستغنى عن كل شيء في الوجود **إلا الهواء والماء**، ومثل الماء فإن الهواء يغلب في تركيبه **الأكسجين وثاني أكسيد الكربون**، ولأنه أهم شيء بمعايير الحياة فقد استكثر منه الله عن الماء، وجعله **مجاناً للجميع**، ويُقدّر وزنه على سطح الأرض بنحو **خمسة ملايين بليون طن**، ويستهلك منها الإنسان أكثر مما يتناوله من طعام وشراب، والإنسان العادى يستهلك نحو ثلاثة كيلو جرامات من الطعام والشراب، إلا أنه يستنشق من الهواء نحو **تسعة كيلو جرامات**، أى **ثلاثة وثلاثين ألف لتر يومياً**؛ أو ما يزيد على ٣٢٩٥ كيلو جرامات سنوياً، أى أكثر من **اثنى عشر مليون لتر سنوياً**!

ويرتبط الهواء بالأرض **بالجاذبية**، وتتخلله جسيمات متناهية في الصغر من المواد الصلبة والسائلة، وليس له طعم ولا لون ولارائحة، ونعرف حركته إذا كان **رياحاً أو إعصاراً**، ولولا الهواء لما استطاع الإنسان أن يطير، ولما فارق بخار الماء سطح البحار، ولما تكونت السحب وهطل المطر، وبدونه يستحيل أن تتحرك السحب إلى بلاد دون بلاد، وهو الذى يعوق النيازك وتحترق فيه ،ولولاه لكان لنزولها على الأرض دوىٌّ، ولاحترق كل شيء. وبالهواء تتحدد الزراعات والمحاصيل، وتتأثر أحوال العمل،وتنشط الأمراض أو تمتنع، وتتفشى الجراثيم، وتتوطن الأوبئة، وتتأثر طبائع الناس وأخلاقهم، ويشكل الهواء فى الغلاف الجوى تأثيراً أساسياً على الغطاء النباتى، وتقلّبات الطقس والمناخ، وعلى زيادة الأمطار أو قلّتها، وسرعة الرياح، وارتفاع الرطوبة والحرارة، فليس عجيباً إذن أن يقسم اللّه تعالى بالهواء، وأن ينبّه إليه كمعجزة إلهية، ما نبّهنا إليها كتاب آخر **كالتوراة والإنجيل**، وهذه هى عظمة القرآن!



١٣٩٦.﴿أرزاقنا من الأرض والسماء﴾

آيات الرزق فى القرآن، كقوله تعالى: **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾** (الذاريات)، وقوله: **﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴿٧﴾﴾** (المنافقون)، وقوله: **﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴿٣١﴾﴾** (يونس)، وفى هذه الآيات، ومنها الكثير، نعلم أن الرزق مصدره **السماء والأرض**، وأكثره من **السماء**، أو أن **السماء هى الأصل** فى رزق الأرض، **وخزائن الرزق** فيهما. **والرزق** فى اللغة: هو ما ينتفع به من النِّعم، والجمع أرزاق، وهو

العطاء الجارى دنيوياً أو أخروياً، والنصيب المقسوم للإنسان من الطعام والشراب واللباس، والمال والأولاد، والصفات الشخصية، وفُرص الحياة؛ والرازق أو الرزّاق هو الله، واهب الرزق، ومعطيه، ومقدّره، ومسبّبه،وموزّعه. والسماء: من سما يسمو اى يعلو، فهى كل ما فيه العلو، وكل ما يظلّك. والرزق الذى يأتى من السماء قد فهمه الأولون على أنه المطر الذى يسقى الزروع والحيوان والإنسان، وهو يأتينا من الغلاف الموسوم باسم «**نطاق التغيرات الجوية The troposphere**»، ولم نعلم عن الإعجاز فى آيات «**الرزق من السماء**» إلا من العلم الحديث، وصادق التفسير العلمى على أقوال القرآن، فمثلما الماء منه كل شىء حىّ، فكذلك الهواء ضمن نطاق التغيّرات الجوية، ويشتمل على غاز الأكسچين الذى نتنفسه ويتنفسه الحيوان والزرع، وغاز ثانى أكسيد الكربون الذى تتنفسه النباتات،وغير ذلك من الغازات. ويمتد هذا النطاق من سطح البحر إلى ارتفاع ستة عشر كيلو مترات فوق خط الاستواء،ويتناقص إلى نحو عشرة كيلو مترات فوق القطبين، وإلى أقل من سبعة أو ثمانية كيلومترات فوق خطوط العرض الوسطى. وتؤثر حركة دوران الأرض فى دورة الهواء، وتنخفض درجة حرارته كلما ارتفعنا حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فى القمة، ولولا انخفاض درجة الحرارة هذا لفقدت الأرض مياهها بمجرد اندماج أبخرة الماء إلى أعلى ليتكثف بالبروردة وينزل مطراً، فيصنع فى الأرض البحار والأنهار والمحيطات، ولولا حركة التبخر والتكثيف لركد الماء فى الأرض وتعفّن، ونزول المطر على الأرض يفتت صخورها، ويسوّى سطح تربتها ويمهدها، ويباين أنواعها، ويركّز معادنها، فتكثر الأرزاق وتتنّوع. ويغطى الماء ٧١ ٪ من مساحةالأرض، وتبلغ كميته فيها نحو ١,٣٦ مليار كيلو متر مكعب، منها ٩٧,٢ ٪ محيطات وبحار،و٢,١٥ ٪ جليد فى القطبين وفوق الجبال، و٦٥, ٪ فى الأنهار والبرك والبحيرات. ومن هذا الماء يتبخّر سنوياً ٣٨٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب، تعود إلى الأرض أرزاقاً من الأمطاراً العذبة النقية طاهرة، أو تعود ثلجاً وبرداً .
وتستمر دورة مياه الأرض كمعجزة من المعجزات فى دقتها وكمالها، فيكون الزرع والحرث والحصاد، ويكون الطعام والعمران والتكاثر، ولولا ذلك لقحلت الأرض وصارت جرداء. وكذلك الهواء الذى مصدره السماء فهو كالمطر، والسماء المقصود بها السماء الدنيا، ورزق السماء هو كل صور المادة والطاقة المتولّدة داخل النجوم بفعل الاندماجات النووية فيها، فتتكون بها مختلف العناصر: كالبريليوم، والحديد، والفضة، والذهب، واليورانيوم، والكربون، والصوديوم، والبوتاسيوم، فإذا انفجر النجم تناثرت شظايا العناصر وتخلّفت فى الكون، فتحملها الشهب والنيازك إلى الأرض، ويصل منها إلى الأرض يومياً بين الألف

والعشرة آلاف طن، من مادة الشهب والنيازك لتجدد إثراء الأرض بالعناصر المختلفة، وتمثل هذه العناصر صوراً من صور الأرزاق التي وُعدنا بها من السماء، وتوزع على الأرض بتقدير من الله، موزّع الأرزاق سبحانه. فكم هي معجزة الآية: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** (٢٢)﴾(الذاريات).



١٣٩٧. ﴿معجزة الطير في القرآن﴾

يُذكر الطير في القرآن **٢٩** مرة، ولايوجد في **التوراة** ولا في **الأناجيل** أي ذكر لمعجزة خلق الطير، ولم ينبّه إلى هذه المعجزة **إلا القرآن**، وما ذكره القرآن في الطير هو معجزةٌ علميـة عن حق، وفي الآية: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**(٣٨)﴾ (الأنعام) إشارةٌ إلى **أصناف الطيور والحيوان، والدابة هي الحيوان، والأمم** العائلات التي تنتمي إليها، وتخصيص الطيور **بالأجنحة** تأكيدٌ وإزالة للإبهام، فإن العرب تستعمل **الطيران** لغير الطيور، فتقول للرجل: **طِرْ في حاجتي**، أي أسرع، فذكّر الله تعالى الطيران بالجناحين ليتمحض القول في الطير، وقيل إن في أمريكا وحدها أكثر من **ألف وأربعمائة نوع** من الطيور، وفي أوروبا أكثر من **ألف نوع**، وفي الروسيا أكثر من **ألف وخمسمائة نوع**، ولكل نوع خواصه، وصفاته، وعاداته، وطُرق تكاثره، وهذا **التصنيف** نبّه إليه القرآن قبل **ألف وأربعمائة سنة**، وقوله تعالى **إن الطيران بالجناحين** يلفت الانتباه إلى هذا الإعجاز فيها، فالطيور **مكيّفة للطيران**، سواء في بنيتها، أو في وظائف أعضائها، أو في سلوكها، وهي سيدة **الأجواء** لاشك في ذلك، وكان تطورها على مدى **مائة مليون سنة وخمسين**. وقيل إن منها نحو **تسعة آلاف نوع** تنقسم إلى نويعات، وتنتمي إلى **نحو مائة وثمانين** فصيلة، تتبع نحو **ثلاثين** رتبة، وتتفاوت في أحجامها من أصغر الطيور وهو **الطائر الطنّان**، ولايزن سوى **كيلو جرام واحد وثمانية من عشر من الكيلو جرامات**، وأكبر الطيور وهو **النعام**، ويبلغ وزن الواحدة **مائة وخمسة وثلاثين كيلو جراماً**. والطيور هي الأسرع في المخلوقات، **فالفهد** مثلاً وهو **أسرع الثدييات** يعدو **ثمانية عشر مثلاً** لطول جسمه في الثانية، بينما **الزرزور** الأوروبي يطير **ثمانين مثلاً**، وهو ما يقارب سرعة **الطائرة** عندما تتجاوز الصوت! وينقض **صقر الشاهين** على فريسته بسرعة **سبعين كيلو متراً** في الثانية، وتقطع العصافير المهاجرة **ألف كيلو متر** في اليوم الواحد دون توقف!! وهذه الإشارة إلى **إعجاز الطيران** في القرآن لم يكتشفه العلم إلا بعد تقدم **علم الديناميكا الهوائية وصناعة الطائرات**، وتتفوق الطيور على الطائرات، لأن مهمة الطيران في الطائرات تؤديها آلتان، الأولى

محركاتها الدافعة إلى الأمام، والثانية هي **الجناحان** يرفعانها إلى أعلى؛ وأما في الطيور **فالجناحان** يقومان بهذين العمليين معاً، فالجزء الأمامي منها يقوم بالدفع، **والقوادم**،وهو الريش الكبير يحرك الطائر، ولكل ريشة عضلة تغير وضع الريشة وزاويتها لحظة بلحظة وفقاً لمتطلبات الطائر ومناوراته، والجزء الداخلي للجناح مستدير الحافة لايقاوم الهواء، والحافة الخلفية مستدقة وسطحها العلوي محدّب،والسفلي مقعر. فييسر ذلك مرور الهواء على السطح السفلي، فيزيد ضغط الهواء، فتتولد قوة عمودية ترفع الجسم إلى أعلى. وكلما زادت سرعة الطائر زادت القوة الرافعة له، فإذا أراد الطيران ضرب بجناحيه المبسوطين إلى الأسفل والأمام ثم يرفعهما إلى أعلى والخلف وهو يضمهما قريباً من جسمه استعداداً للضربة التالية، ويساعد على الرفع مجموعة الريش **القصير في الجُنَيح**. وميلان حافة الجناح الامامية إلى أعلى قليلا، وانفراج الريشات القوادم . ويتحكم الطائر بذيله في اتجاه الطيران، ويبسطه لزيادة قوة الرفع في الطيران البطيء، أولكبح الاندفاع عند الحط.

ومن الإعجاز العلمي في القرآن فيما يخصّ الطيور تصنيفه لطرق الطيران، وخصّ منها «طريقة **الصف والقبض**» : قال: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ⁽¹⁹⁾ ﴾(الملك)، فالطائر إما يستخدم «**طريقة الانزلاق**» وهي أن يُسقط نفسه من مرتفع، فإذا أراد أن يتقدم إلى الإمام وهو يهبط بسط جناحيه دون حراك. فإذا أراد أن يكون سقوطه عمودياً قبضهما ولم يبسطهما إلا عند الارض؛ وإما يستخدم «**الرفيف**»، هو أن يرف بجناحيه ويخفقهما، وهذه الطريقة مكلّفة للطاقة لكثرة الحركة فيها، بينما لاتكلّفه طريقة الانزلاق إلا القليل. وأكثر الطيور خفقاً هو **الطائر الطنّان**، ويبلغ معدل خفق الجناحين عنده ثمانين **خفقة في الثانية**، وأقلها خفقاً العصافير، ومعدلها **خمس** عشرة خفقة في الثانية، **والبوم والبلشون والنسر**، ومعدلها من **خفقة إلى خفقتين** في الثانية. وأمّا «**الصّف**» فهو أعجب الطرق جميعها. وفيه يبسط الطائر جناحيه لايكاد يحركهما إلا للتوازن. ووجه العجب أن هذا الطائر المستدق الرأس، الصغير المخ، لديه الادراك والبصيرة بتيارات الهواء الساخن الصاعدة، فيحلّق حول حافتها فتصعد به، فإذا دفعت الريح الهواء إلى الأمام حملته إلى الإمام في مستوى أفقي، وإذا صادف الطائر تلاً ارتفع مع الهواء الصاعد إلى أن يتجاوز التل، وإذا أبصر سفينة تبع تيار الهواء المتخلف من اندفاعها، وأكثر ما يفعل ذلك الطيور كبيرة الحجم، **كالنوارس**. لتوفر الجهد والطاقة. وتساعدها خفة هياكلها، وانتشار الأكياس الهوائية بأجسامها حتى أصابع القدمين، وقوة

الأوتار في الجناحين. وتتراوح مناورات الطيور بين الانزلاق إذا أرادت الهبوط، والرفيف إذا أرادت الارتفاع، والبسط والقبض أثناء التحليق. ويعبر القرآن عن هذا الإعجاز فيقول: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)**﴾(النحل)، «والمسخّر»: هو المذلّل لأمر الله بقوانين الله، وأنفذها بالقُدرة؛ و«جو السماء»: هو الجو بين السماء والأرض، نسبة إلى السماء لارتفاعها عن الأرض، والعلماء يسمونه «نطاق الأرض» أو «نطاق المناخ»؛ و«إمساك الله»: يكون في حال قبضها وبسطها واصطفافها، وهذه دلائل على علمه تعالى وقدرته، وأنه واحد لاإله إلا هو، وأن النبيّ ﷺ هو المبلّغ لرسالته، وصدَق في تبليغه، فجاء مطابقاً للواقع ولايخالف العلم والكشوف في شيء. والتنبيه في الآية إلى أن الطيور، وهي من الفقاريات البيوض، أمكنها الله الطيران ـ وهو هذا الفعل المعجز ـ بالريش يكسو جسمها، بل إن الريش نفسه معجز، ومنه يصنع الناس زينة الملابس كقوله: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا (٢٦)**﴾(الأعراف)، أو أن اللباس بالنسبة للإنسان كالريش بالنسبة للطيور، وهو ستر وحفظ وزينة، وكالوبر والأصواف بالنسبة للحيوان، والله تعالى أمر بالتزين فقال: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ (٣١)**﴾(الأعراف). فلكل شيء، ولكل مناسبة، ولكل مخلوق زينة. وضرب الله تعالى لنا المثل بالطيور، والزينة يحضّ عليها ولايحرّمها: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ (٣٢)**﴾(الأعراف) ، وريش الطيور مختلف ألوانه، واختلاف الألوان في كل المخلوقات آية كما قال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (٢٢)**﴾(الروم) ، وقال: ﴿**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (١٣)**﴾(النحل)، وقال: ﴿**ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (٢١)**﴾(الزمر)، وقال: ﴿**فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا (٢٧)**﴾ (فاطر)، وقال: ﴿**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)**﴾ (فاطر). فالألوان آية: والطيور هي أجمل مخلوقات الله في الألوان، والذكور أجملها في تلك الألوان، وتزهو هذه الألوان في فصل التزاوج. وأصوات الطيور آية كالألوان، وتغريدها أنغامه من أمتع الأنغام، وأصواتها تتباين، فلكل جنس من الطيور لغة كأجناس البشر، والقرآن يسمّي لغة الطير «منطق الطير»، فقال: ﴿**عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ (١٦)**﴾(النمل)، لأن ما يأتيه الطير من الأصوات ينطق به، أي يصدر عنه صدوراً فهو ليس كلغة الإنسان أو أي من أجناس البشر، غير أن منه الأصوات للتحذير، وللغزل، وللتزاوج، ولطلب الطعام، بل إن الطائر ليعبر عن نفسه بأن يجعل لجسمه هيئة معينة، ويشكلّ ريشه بأشكال معينة، عند الغضب، والغزل، والقتال، وله أصوات يصدرها بأعضائه، كالأصوات بالجناحين،

وبالذيل، ومنها أصوات كالتسبيح، كقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** (٧٩)﴾(الأنبياء) وهو تغريدها، قيل تقول: ﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**(١)﴾(التغابن). وتسخيرها أي أنه جعل التغريد من دأبها. والتسبيح مأخوذ من السباحة، أو أن تنصاع لمطلوبات الله. وهذا التغريد تأتيه كما الألوان فيها عندما تزهو، وكما يتجدد الريش ويغزر في موسم التزاوج. وهذا التغريد هو تأويبها أيضاً. وهو التسبيح في قوله تعالى: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** (١٠)﴾(سبأ)، ومعنى تسبيح الجبال أنه تعالى خلق فيها مثلما يُسمع من المسبّح، وهو الصدى، وكذلك في الطيور، وهو نوع منها يسمى الطيور المغرّدة، وكان داود من دأبه أن ينفخ في المزمار من فوق قمم الجبال، فكانت الطيور تجتمع إلى الزمر وتصدح بأصواتها كما لو كانت تردد أنغامه. ومن الطيور ما هو عنيف، وصوته حاد كالنفير في الحرب، كالنسور والصقور، ويميل إلى القتال، ويلجأ إلى الافتراس، ولذا قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**(٤١)﴾(يوسف). وهذه هي الطيور الجارحة، ومَثّل بها الله تعالى فقال: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ**(٣١)﴾(الحج) فجعل من الجوارح طائر الخطاف الذي يتخطّف الأشياء، وهو نوعٌ هجّام ذو مخالب كالكلاليب، ومنقار حاد، ومن طبعه الشراسة والغدر؛ وعلى عكس ذلك الطيور الداجنة، أحلّها الله للإنسان وأفردها القرآن بالآية: ﴿**وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** (٢١)﴾(الواقعة)، أي أنها تؤكل، ولحمها حلال، على عكس الطيور الجارحة. وينبّه القرآن إلى صنف رابع من الطير يسميه الأبابيل كقوله تعالى: ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** (٣) **تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ** (٤)﴾ (الفيل)، قيل هي خطاطيف الجبال، وهي نوع كالوطاويط تعيش جماعات، وقيل أبابيل يعني جماعات، وقيل مأخوذة من الإبل المؤبلة، وهي الأقاطع، أي الجماعات الكثيرة منها. والطيور رغم دقة تكوينها إلا أنها في الأصل تطورت من الديناصورات منذ نحو مائة وخمسين مليوناً من السنوات، وأقدم حفرية لها هي الأركيوبتيريكس **Archaeopteryx**، وكانت له بعض خصائص الزواحف مثل الأسنان، والطيور الآن بلا أسنان، وتقوم القانصة المستقرة قريباً من مركز ثقل الطائر بهذا الدور. وربما الطير الأبابيل التي تقذف بحجارة من سجيل هي من أمثال هذا الأركيوبتيريكس العملاق. وليس لحم الطير وحده هو المفيد للإنسان، والمطلوب منه، فالبيض أيضاً مطلوب كغذاء، والبيضة الواحدة من الدجاج تغني عن عشرة جرامات من اللحم. ومن فوائد الطيور بخلاف ريش الزينة كما في الطاووس، الزرق ويستخدم كسماد، وأشهره سماد الجوانو بسواحل بيرو، من الطيور البرية، وينتج منه سنوياً نحو ٣٠٠,٠٠٠ طن. ومن الطيور ما يُربّى للزينة كالببغاوات، ومنها ما يستمتع

بصيده كالبط والحمام، وما يُربّى للاستعانة به فى الصيد كالصقور، أو فى الاستدلال على أماكن الأسماك ، وبعضها يستعمل فى جمع الأسماك ، والبعض كالحمام الزاجل كان يُستخدم فى إرسال الرسائل، والبعض - كطائر البلشون - يفيد الفلاح فى الخلاص من الآفات الزراعية كالديدان والجرذان، وبعضها يضرّ بالحاصلات ويستهلك منها الكثير كالعصافير، وبعضها يصطدم بالطائرات، وكانت العرب تتطيّر بالطيور: كقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ(٤٧)** ﴾(النمل)، والطِّيرة تعنى التفاؤل والتشاؤم بالطير، فكانوا يزجرون الطير، فإن طار إلى اليمين تفاءلوا، وإن طار إلى اليسار تشاءموا، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال: «الطيرة شرك»، وقال: «من رجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، وفى القرآن : ﴿ **أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ(١٣١)** ﴾(الأعراف)، أى أن ما لهم وما عليهم إنما هو من قدر الله تعالى وليس بالتيامن أو التياسر للطير. ولعل أشهر الطيور فى القرآن هو «الهدهد» فى قصة سليمان، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ(٢٠)** ﴾(النمل)، واسمه من هَدْهَدة أو قَرْقَرة صوته، ويُعرف بشدة البصر، ولذا يقال فى الأمثال: «أبصَر من هُدْهُد»، بزعم أنه يرى الماء تحت الأض! وقصة الهدهد مع سليمان وملكة سبأ من أعاجيب القصص فى القرآن، ومن أكثرها تعليماً ودروساً مستفادة. وسبحان الخالق الذى تنوعت مخلوقاته كل هذا التنوع فى نوع واحد منها وهو الطيور، فأكثر من أصنافها، وعدّد فوائدها، وهو الواحد الأحد لاشريك له فى خَلْقه وفى ملكوته، وصدَق قرآنه ونبيّه ﷺ .



١٣٩٨. ﴿اختلاف الألوان كدليل ومعجزة﴾

اللون من معجزاته تعالى، وينبّه القرآن إلى تكوين الألوان وتميّزها ووظائفها فى آيات ينفرد بها عن التوراة والأناجيل، حتى أننا لنلحظ ذلك بشدّة مما يوحى بأن كتبة التوراة والأناجيل ما كانت لهم دراية كلية بهذا الفرع من العلوم، على عكس القرآن، مما يجزم بأنه من لدُن عزيز حكيم. وتظهر الألوان فى النباتات والطيور خاصة، وعند الحيوان والإنسان، وفى صخور الجبال، ويخضع تكوينها لما يسمى بالصبغيات **pigments** ، وهى موجودة فى الحيوان والأسماك والزواحف والإنسان تحت الجلد، وفى الشعر، وفى ريش الطيور، وأصداف السلاحف والبحريات، وفى قشريات الأسماك، وصفاتها موروثة كما فى الزهور، ويمكن التحكم فيها فسيولوجياً، وللبيئة وتغيّر الفصول والمناخ آثارها الحتمية فيها كما فى الصخور، وقد تتغاير الألوان بتغاير المزاج النفسى ومع الانفعالات، وكل ذلك وغيره تشير إليه آيات القرآن، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**

واختلاف ألسنتكم وألوانكم (٢٢)﴾(الروم)، وقوله : ﴿**ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه(٢٨)**﴾(فاطر)، وقوله : ﴿**وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه(١٣)**﴾(النحل)، وقوله: ﴿**ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا(٢١)**﴾(الزمر)، وقوله: ﴿ **فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها (٢٧)**﴾(فاطر)، وقوله : ﴿ **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (٢٧)** ﴾(فاطر) وفي ذلك آيات لمن يعقل ويفهم حجج الله تعالى ودلائله على قدرته، وأن القرآن هو كتابه. وفيما سبق هذه الآيات نبه تعالى إلى ما في السماء من معالم، وانثنى إلى الأرض يلفت إلى ما خلق فيها من مختلف المعجزات، من حيوان ومعادن ونباتات وجماد وإنسان، على اختلاف ألوانها وأشكالها، ومن الجبال جددٌ بيض وحمر وغرابيب سود، والجدد هي الطرائق في الجبال تعكس ألوانها التركيب الكيميائي والمعدني لصخورها، فالصخور الحامضية وفوق الحامضية منها الجرانيت الأبيض، والفولسبار الأحمر، والبايوتايت الأصفر والبني، وصخور الدايورايت البيضاء والحمراء والسوداء شديدة السواد، ولو لم يكن القرآن كتاب الله فمن أين يأتي محمدٌ بهذه المعلومات العلمية إن لم يكن موصولاً بوحي السماء. وما في هذه الاختلافات من بدائع لايستطيعها إلا إله، وفي ذلك ذكرى لمن يذكّر، ومن ذلك عسل النحل، جعل منه الأبيض، والأصفر، والأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومآكلها. وهو الذي ينزل الماء من السماء، فيخرج به الثمرات المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، فيأتي الثمر أصفر، أو أحمر، أو أخضر، أو أبيض، إلى غير ذلك من الألوان، وتتغير بها الطعوم والروائح . والألوان تتخالف في نطاق الأطوال الموجية التي تحسّها عين الرائي، من البنفسجي، إلى الأزرق، فالأخضر، فالأصفر، فالبرتقالي، فالأحمر. واللون يتحدد ، بحسب درجة التشبع ودرجة الزهاء. وفي الجبال صخور تتخالف ألوانها بحسب اختلاف ترتيب ذراتها، ومن الصخور تتكون المعادن، ولكل معدن بصمته اللونية كما للإنسان بصمة تميزه بين البشر، وما يميز الصخور والمعادن والعناصر هو ألوانها، وكذلك الإنسان، فمن الناس الزنوج والأحباش، ولونهم في غاية السواد، والأوروبيون في غاية البياض، والصينيون واليابانيون صُفر الجلود، والشماليون حُمر الوجوه، وكذلك الدواب والأنعام، حتى في الجنس الواحد، والنوع الواحد، وفي الحيوان الواحد قد تجتمع عدة ألوان. وقد يأتي الزرع على لون في نضارته، ثم يكتهل فيصفر، فنعرف في الخالين عن عمره كما عرفنا عن شكله، وطعومه، وروائحه، ومنافعه، من سابق لونه. وكل ذلك يذكره القرآن في تفرد ينشرح به صدر الذين آمنوا، وويل للقاسية قلوبهم لا تلين لمشاهد الإيمان،

ولاتخشع لدلائل القدرة. ولو كـان اللون وحده دليلاً وبرهاناً على القادر، وعلى مـعجزة القرآن العلمية، لكفى به دليلاً وبرهاناً، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

١٣٩٩. ﴿لغة الطير والحيوان وتسبيح الرعد والجبال﴾

فى القرآن أن **لغة الطير والحيوان** هو **منطقها**، ولم يقل لغة، لأن اللغة للإنسان، ولكن الطير والحيوان له **منطق**، وهو ما ينطق به **بالأصوات، أو بالإشارات، أو بالروائح**، وكلها ناطقة بحال الطير أو الحيوان، وتعلّم **سليمان** هذا المنطق كما فى سـورة **النمل**، وعرف ما يقول النمل، وما قاله **الهدهد**، وسُخّرت الجبال **تسبّح مع داود** والطير، فكلما رتَّل مزاميره فوق الجبال كان يُسمَع لها صدى، وكانت **الطيـور** تجتمع إلى عزفه على المزمار، كما جاء **فى سورة الأنبياء**، وحتى **الرعد** يسبّح، وصوته هو تسبيحه، ومعنى **التسبيح** الخضوع لقوانين الله **والسَّبح** فى الكون بمقتضاها، ولذا قال تعالى: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤)﴾**(الإسراء)، وقال: **﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ (١)﴾** (التغابن) فاستخدمت الآية «ما» ولم تستخدم «من»، لأن أغلب ما فى السموات والأرض **أشيـاء** وليس بشراً أو ملائكة أو جاناً، فكان الأنسب لها «ما» وليس «من». وقد أثبت العلم الحديث، أن الأصوات التى تصدر من **الحيـوان والطيـر**، ومـن **الحجارة والصخور**، ومن الماء، وحتى **الهواء**، لها معان وتفسيرات، **وللجبال** مثلاً أحوال تكون الأصوات منها على منوال معـين ولاتكون على منوال آخر، وكذلك **السُّحُب** فـى السماء، **والأشجار** وحفيفها، **والحشرات** برفرفة أجنحتها وما تصدره من **روائح**، وتتفاهم **مع بعضـها** بوسائل مختلفة لها دلالاتها، فبعضها يتحاور بطريق **الإشارات الضوئية** مثلاً؛ ويضـرب جنود **النـمل الأبيض** برءوسهم الكبيرة جدارن الأنفـاق إذا شعروا بهجوم على عشّهم، فيفهم هذا التحذير باقى أفراد النوع؛ ولبعض الخنافس خاصية إصدار أضواء من الخلف كالبطاريات الصغيرة، تتحكم الأنثى فى إضاءتها وإطفائهـا بأحبالها العصبية، فتأتى إليهـا الذكور؛ وللذكور كذلك نـفس هذه البطاريات وإن كانت دائمة، لتـعلن عن مكانها للإناث. وهـذه هى **لغـة أو منطق** هذه الأنـواع. **واللغة الكيميـائية** أكثر ذيوعـاً بين الحيوان والطير، وتستـخدمها مثـلاً الكلاب والقطط، وتُصدر هذه الروائح الكيميـائية أو تفْرِزها، موادٌ تخلّفها فى الأماكن لتنبىء عن وجودها. وللحيوان أو الطير **شعيرات حـسّية** كأجهزة الإرسال والاستـقبال، وتكون بالنسبة للحيـوان أو الطير كـالشـفـرة، وتســمى الإفـرازات الكيمـيائية «**فرمونات**»، وتتنوع فى تركيبها، وتتـعدد أغراضها، ومنها **الفرمونات الجـنسية**

تفرزها الأنثى فى الحشرات، لتدل الذكور على مكانها، فتتجه نحوها فلا تخطئها إلى غيرها حتى فى الظلام. ويفرز **النحل** موادًا متطايرة فى مكان اللدغ لتمييز الشخص الذى تمت مهاجمته، فتطارده باقى أفراد الخلية. ولكل «**خلية نحل**» رائحتها المميزة فلا تضل عنها الشغّالات عند خروجها لجلب الغذاء، فإذا عادت رقصت **رقصات معينة** تدل بها زميلاتها على مكان الغذاء. و كذلك يفعل **النمل** فيفرز إفرازات مميزة يحدد بها لزملائه **خطوط سيره** ويحذرهم بها. وتتنوع الروائح وإشارات الحشرات والطيور والحيوان بتنوع أجناسها وأصنافها، وفى العلم الحديث أمكنهم تصنيع بعض هذه الإفرازات لاستخدامها فى التمويه على الحشرات وتضليلها والقضاء عليها. **والقرآن قد سبق العلم فى التنبيه إلى لغة الطير والحيوان والجماد، فدلّ على أنه كتاب اللّه، وأن من بلّغه هو النبىّ المرسل حقاً من عنده تعالى .**

•••

١٤٠٠. ﴿العيافة والطيرة والطَّرْق شأنها شأن الحسد﴾

الاعتقاد فى هذه الأمور ليس من الإسلام، ولم تتنزّل **المعوذتان** إلا للحثّ على ترك الاعتقاد والعمل بهذه الخرافات. ومنها «**النفث فى العُقد**»، و«**السحر**»، فهذه أمور من باب **الشِّرك الخفى**، لأنها تجعل للّه شركاء بوسعهم التأثير فى مقادير الناس. و«**العيافة**»: من **عاف** الطيرُ أى حام، **والعيافة** هى تردّده بين اليمين واليسار، وهى زجر الطير بقصد التيمن أو التياسر أو التشاؤم أو التفاؤل، فإن طار الطير إلى جهة اليمين تفاءلوا، وإن طار جهة اليسار تشاءموا، **والطِّيرة** هى العيافة، من **طار وطائر**، فهى استخدام الطيور للتكهّن؛ و«**الطَّرْق** » **من ذلك**، وهو ضرب الحصى على سبيل التكهن، **كضرب الودَع، وضرب الرَّمْل**، وفى الحديث: «**العيافة والطيرة والطرق من الجبت**» ، وكل ما عُبِد من دون الله هو من **الجبت**. ولذلك كان الاعتقاد فى **ذلك** من الشرك الخفى. وكل هذه الطرق **كالكهانة والعرافة**، ضد التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر، وفى الحديث: «**من أتى عرافاً فصدّقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً**»، ومثل ذلك **تحضير الجان والأرواح، وقراءة الفنجان والكفّ، وقراءة النجوم**، وكلها من أعمال **الشعوذة**، وقيل فى قراءة **النجوم** أنها علم وهى خرافة، والعلم المتصل بالنجوم حقاً هو **علم الفلك**، وهو علمٌ مندوب إليه ويقوم على **الملاحظة والتجربة والاستنتاج**، وقد نهى الرسول ﷺ عن إتيان الكُهّان أو تحضير الجان والأرواح. والعلم الحديث ينكر كل ما أنكره الإسلام من هذه الممارسات، والنجوم يستحيل أن تؤثر فى الإنسان، وكذلك الجان، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾**(الحجر)، وكل ذلك ضد المنهج العلمى وهو منهج

القرآن، والقاعدة فى القرآن: أن كل ما وافق العقل والعلم فهو من الشرع والدين، وكل ما هو من الدين فلابد أن يوافق عليه العقل والعلم.

•••

١٤٠١.﴿التنجيم؟﴾

يقول تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾**(الجن)، والغيب هو ما غاب عن العباد، فإنه يظهره على من يشاء، وهم الرسُل، ومنهم جبريل من الملائكة، ومن البشر، فعن عيسى ابن مريم قال: **﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾**(آل عمران٤٩)، ويوسف قال: **﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾**(يوسف٣٧)، وهؤلاء يُودعهم الله تعالى من غيبه ما يشاء بطريق الوحى، وجعله دلالة على صدق نبوّتهم، وليس من ذلك المنجّم، ومَن ضاهاه ممن يضرب الودع والرمل والحصى، وينظر فى الكُتب، ويقرأ الفنجان والكفّ، ويطالع النجوم، ويزجر الطير، ويستخدم التنويم، فهؤلاء جميعاً لايطلعهم على غيبه. والمنجمون قومٌ فيهم حاسة الحدس والتخمين قوية، ومن شأنها أن تجمّع ما يسمع المنجّم من أقوال وأفعال وتعتبرها علامات وإشارات، ويسمون ذلك قراءة الغيب أو الطالع، وليس من ذلك أن يتحدث المنجّم بما يمكن أن يتحدث به نبيّ كعيسى أو كيوسف، وأقوال المنجّمين افتراءات واختلاقات وتخرّصات، كقول القائل:

حكَم المنجّمُ أن طالعَ مولدى .٠. يقضى علىَّ بميتة الغرق
قُل للمنجم صَبْحة الطوفان .٠. وُلِد الجميع بكوكب الغَرَقَ؟

يعنى هل لو صدق تخمينه على واحد، فهل يصدق على الجميع؟ وإذا كان أحدهم مكتوب أنه من أهل كوكب الغَرَق، فهل كان مكتوباً أن أهل الطوفان جميعاً سيغرقون دفعة واحدة؟ وعن علىّ بن أبى طالب لمّا اعتزم لقاء الخوارج أنهم سألوه: أتلقاهم والقمر فى العقرب؟ فقال: فأين قمرهم؟ ـ يعنى إنْ كان قمرنا فى العقرب فأين قمرهم؟ فالقمر واحد، فإن كان فى العقرب، فما سيلحق بعلىّ وجماعته هو نفس ما سيلحق بالخوارج! ولمّا قيل له: لاتَسِرْ فى هذه الساعة، وسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار، سأل: ولِمَ؟ قيل له: إنك إن سِرْتَ فى هذه الساعة أصابك وأصحابك بلاء وضُرّ. قال: ما كان لمحمد ﷺ منجّم، ولا لنا من بعده. ومن يصدّق هذا القول لم آمن عليه، كمن اتخذ من دون اللّه نداً أو ضداً. ثم قال : اللهم لاطير إلا طيرك، ولاخير إلا خيرك. ثم قال لمن يدّعى التنجيم: نكذّبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها ! ـ ثم قال للناس: أيها

الناس ! إياكم وتعلُّم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البرّ والبحر! إنما المنجمّ كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، ثم قال لمن يشير عليه من المنجّمين: والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها، لأخَلدنّك في الحبس ما بقيتَ وبقيتُ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي من سلطان! وموقف عليّ هو موقف العلم وأهله، ويزيد عليه بعد أن يأخذ بالأسباب ، أن يذكر المسبّب وهو الله، ولذا فقد استدار عليّ إلى النار وقال: يأيها الناس! توكّلوا على الله وثقوا به، فإنه يكفر من اعتقد في سواه!

•••

١٤٠٢. ﴿الإبل آية من آياته تعالى﴾

لمّا ذكر الله تعالى أوصافاً للجنّة عجب لها الناس واحتجوا بأنهم لم يروها فلن يستطيعوا أن يجزموا بشيء حيالها، فذكّرهم الله تعالى بقدرته بحيوان هم أكثر الناس دراية به، وأمرُهم فيه عجب العُجاب، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ (الغاشية)، فمن قدر على خلق الإبل فهو قادر على خلق أي شيء آخر ولو كان الجنة! والعرب لم يعرفوا الفيل ولكنهم عرفوا الإبل ،وحديث القرآن في الإعجاز فيما يعرفون، وخصّ الله تعالى الإبل بالذكر لأنها رغم ضخامتها مذللة للصغير، وبوسعه أن يقودها، وينيخها، وينهضها، ويحمل عليها الأحمال الثقال وهي باركة، فتنهض بها، وليس من حيوان آخر يقدر على ذلك سواها. والإبِل هي الجمال، لا واحد لها من لفظها، وربما تُنطق إبْل، والجمع آبال. ولمّا ذكر الله تعالى السُّرر المرفوعة من أوصاف الجنة (الغاشية١٣) قالوا: كيف نصعدها؟ قيل فأنزل الله هذه الآية، وبيّن أن الإبل تَبْرُك حتى يُحمل عليها ثم تقوم، فكذلك تلك السُّرُر، تتطامن ثم ترتفع. والإبل تجتمع فيها المنافع لسائر خلق الله، وهي من النَّعَم، وتفوقها جميعاً، فهي : حَلوبة، وركوبة، وأكولة، وحَمولة، واجتماع هذه الخلال الأربع فيها يجعل النعمة بها أعمّ، وظهور القدرة فيها أتمّ، وفي الحديث: «الإبل عزٌ لأهلها»؛ وكل ما فيها من المنافع، سواء اللحم، أو اللبن؛ ومن وبَرها تُصنع العباءات والأكلمة والخيام؛ وحتى الروث يستخدم كوقود، وليست له أدخنه إذا استخدم وقوداً للتدفئة داخل الخيام. واقتناء الإبل غير مكلِّف، فهي تأكل أي نباتات في الصحراء، والعربي يأكل التمر ويلقي بالنوى للإبل فتأكله، وتعيش على القَت وهو أخسّ الأعشاب التي تكثر بالبادية.

والإبل من رتبة الخُفّيات زوجية الأصابع، ومن المجترات، ومنها نوعان: الإبل العربية أو العراب ذات السنام الواحد، والإبل الفوالج أو العوامل ذات السنامين، ونحو ٩٠٪ من إبل العالَم من ذات السنام الواحد. والفوالج: وبَرُها أطول وأقتم، وأرجلها أقصر، وأجسامها أغلظ. وكل صفات الإبل لتتكيفَ بها مع الأجواء التي تعيش فيها، فطول قوائم البعير يرفع

جسمه عن الأرض الساخنة، **ويحميه الكلكل تحت صدره، والوسائد على مفاصل أرجله** من حرارة الرمل وخشونته إذا برك، **وبوسعه أن يغلق عينيه ومنخريه**، ويلصق ذيله بجسمه، ويسير **كالدبابة لا يبالي** الرياح الذاريات، ومن أجل ذلك **أطلقوا على الإبل أنها «سفن الصحراء»**، ويسمح لها طول أعناقها أن تقتات من نبات الأرض وفروع الشجر العالية، وتمكّنها شفتاها المتحركتان والقابضتان، وانشقاق شفتها العليا، من لملمة الأوراق من بين الأشواك، وتساعدها أخفافها على السير فوق الرمل الناعم من غير أن تغوص أرجلها فيه، ولا تتلف بها التربة كحوافر الماعز والبقر. وأعجب ما فى الإبل صبرها على العطش أكثر من **أسبوعين فى الصيف**، وأكثر من **شهرين فى الشتاء**، وبوسع الجمل أن يقطع ألف كيلو متر دون أن يشرب، وإذا طال حرمانه من الماء فإن عملياته الفسيولوجية والمناخ من حوله قد يفقدان من المياه فى جسمه ما يعادل نحو **ثلث وزنه**، ومع ذلك يستمر صامداً، وهو شيء **خارق ومذهل معاً!** ولذلك فإنه إن وجد الماء ظل يشرب منه كمية هائلة فى زمن قصير، حتى أنه لينتهى من شرب **مائتى لتر** من الماء فى ثلاث دقائق! وصدق الله تعالى وهو يصف شُرب الناس فى الجحيم فيقول: ﴿**فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾**﴾(الواقعة)، **والهيم والهيام** (بالكسر) هى الإبل العطاش.

وأعجب ما فى الإبل **قلّة عرقها إلى أدنى حدّ**، لأن كِبَر حجم الجسم يقلل من حرارته، ووجود الدهن فى السنام، يرقّق الجلد ويسهم بتبدُّد حرارة الجسم فى الليل، وفى الصيف يسقط الوبر ولا يبقى منه إلا ما يحمى الجسم من الحرارة الأسخن، وللعرق بالتبخر، وتبخُّره فى الإبل من الجلد لا من أطراف الشعر كالثدييات، وذلك أجدى لها، فإذا اشتد الحر زاد العرق لتبريد الجسم، ولاتعمل أجهزة ضبط حرارة الجسم فى الإبل طالما الحرارة لاتزيد عن ٤١ درجة مئوية، فإذا زادت دفعت غدد العرق إلى العمل لتتوازن حرارة الجسم. والماء الذى يسحبه البعير عند اشتداد درجة الحرارة يسحبه من أنسجة الجسم وليس من الدم، وبذلك يظل الدم سائلاً فى العروق فى دورته المعتادة، فينجو البعير من ضربة الشمس ومن الموت عطشاً. ومن أجل ذلك لّما حدث الجفاف فى أفريقيا الشرقية عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٥ هلكت القبائل التى تعيش على **الأبقار**، لأن الأبقار نفقت ولم تقو على العطش، وعاشت الإبل لأنها استطاعت أن تصمد الشهور الطوال، وكانت تجود مع ذلك بألبانها، ولم يقتل الجفاف القبائل التى تعيش على تربية الإبل. ومن هذا يتبين سرّ تنبيه الله تعالى إلى الإعجاز فى الإبل، ولماذا جعل **الناقة معجزة النبىّ صالح**، وكانت تكفى قومه كلهم وتُعيشهم، واشتهرت لهذا أيضاً **ناقة النبىّ** ﷺ **«القصواء»** كما لم يشتهر حيوان لنبىّ أو لواحد من المشاهير، ولهذا فإن الناس لّما نزلت الآية الكريمة تُلفت النظر إلى

الإبل: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ⑰﴾(الغاشية)، صار الناس يعاودون النظر إلى الإبل ويتأملون عظيم قدرة الله تعالى فيها ويدعون بعضهم البعض يقولون: **هيا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت!** وسبحان الله العظيم الذى أنزل عن ذلك فى كتابه الكريم من قبل ألف وأربعمائة سنة، يذكّر بمعجزة لم يكشف سرّ عظمتها إلا العلم الحديث.

•••

١٤٠٣.﴿لأنعام وجلودها وأصوافها﴾

الأنعام: النَّعَم هى الإبل؛ **والأنعام**، هى الإبل وكل ما يرعى، أى كل المواشى من الإبل والبقر والغنم. وفى الآية: ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ** ⑧⓪﴾(النحل) أن الأنعام يستفاد منها على خير وجه، فبالإضافة إلى لحومها وألبانها، فإن جلودها تُصنع منها الخيام **والقباب والأحذية والحقائب** التى يخفّ حملها، ومن **أصوافها** تصنع الملابس والعباءات والأغطية والأكلمة والسجاجيد. وكانت للنبىّ ﷺ قبّة من **الأَدَم** أى الجلد، وكان يستظل بها. وأشهر الأصواف من الغنم، ومن وبر الإبل وشعر المعز. وفى الآية جواز الانتفاع بجلود الأنعام وأوبارها وأصوافها وأشعارها، وكذلك قرنها، وأسنانها، وعظامها يُنتفع بها كالانتفاع بجلودها، ولم تخصّ الآية جلود الميتة من المُذكّاة، وهى عامة فى جلد الحىّ والميت، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة بعد دبغها ومعاملتها بالأملاح والشبّ أو غير ذلك من المطهِّرات، وكان الشبّ والملح هو المشهور أيام النبىّ ﷺ.

•••

١٤٠٤.﴿المرض﴾

المرض فى القرآن مرضان: المرض البدنى والمرض النفسى، والأول: كقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** ⑰﴾(الفتح)، فأسقط الحرج على المريض فى بدنه فى مسائل كثيرة؛ والثانى وهو: المرض النفسى: كقوله تعالى: ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**③②﴾ (الأحزاب)، ومرض القلوب: نفسى، وهو التشوّف للفجور والخنا والفسق، وقوله: ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**⑥⓪﴾(الأحزاب)، فهؤلاء ثلاثة أصناف من المرضى النفسانيين: فأما المنافقون: فهم الذين يظهرون بخلاف ما يضمرون، تشبيهاً **باليربوع** له حجر يقال له **النافقاء**، وآخر يقال له **القاعصاء**، وظاهر حُجره تراب وباطنه حُفر، وكذلك المنافق، ظاهره إيمان، وباطنه كفر، أو ظاهره الصداقة وباطنه العداوة؛ وأما «**الذين فى قلوبهم**

مرض»: فهم الذين يُضمرون الفسق والزنا؛ وأما «المرجفون»: فهم الكذّابون، والإرجاف هو إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به، فتسود الكآبة الناس لسماعهم ما يسوءهم. وفى وصف «الذين فى قلوبهم مرض» يقول تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾**(محمد)، **والضِّغْن والضغينة**: الحقد، وهو من شرّ ما يُبتلى به المرضى النفسانيون. والمرض النفسى من الإنسان بسوء طويته والمرض البدنى من الإنسان بإهماله وتلويثه لطعامه وبيئته. وفى الحديث عن التداوى من المرض البدنى والنفسى، قوله ﷺ: «**يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء، إلا داء واحداً ـ الهَرَم**»، **والهَرَم يعنى الشيخوخة**. والدواء للأمراض من قدر الله، وإباحة التداوى من **الإسلام**. ومنه التداوى بالماء، بشُرب المزيد منه، وكان معروفاً عند العرب، وقال به الطب الحديث. وفى التزيل: **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴿٩﴾﴾**(ق)، وبركته فى شفائه ولزومه للحياة كقوله تعالى فى زيت الزيتون: **﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾**(النور)، **وبركة شجرة الزيتون** أن الشفاء يكون **بزيتها**، وبركة **النحل** أن الشفاء فى عسله. والنبيّ ﷺ أوصى **بزيت الزيتون** فقال: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه مبارك**»، وأقسم الله تعالى **بالزيتون وبالتين**. (سورة التين) وكلاهما **طعامٌ ودواء، ودهن الزيتون** هو زيته، وشجرته معمرة قد تستمر لألف عام، ونسبة **الأحماض** فى زيتها قليلة جداً ودهنها مشبع، وقيمته الصحية عالية، وتناوله باستمرار يقى من **تصلب الشرايين، وانسداد شرايين القلب التاجية، وارتفاع ضغط الدم، والبول السكرى، وسرطانات المعدة والقولون، والثدى، والرحم، والجلد، وقرحات الجهاز الهضمى، وأكسدة الكولسترول**، ويفيد الزيت فى ذلك من طريق فيتامين هـ **ومركبات الفينولات**، ويمنع زيادة **الكولسترول الضار** المعروف باسم **LDL**، ويمنع آكاسيد الشحوم.

وفى المرض البدنى والنفسى معاً يقول تعالى: **﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾** (الشعراء)، والشفاء يتم بالدواء الذى جعله تعالى لكل داء، والإيمان من طُرق العلاج، وفى الإسلام، هو الإيمان بالقرآن ـ وبكلامه تعالى، وبقدره، كقوله: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾** (الإسراء)، وشفاؤه **شفاء القلوب** بإزالة الريب والخلاص من **التهافت النفسى المُضعف للمناعة، والمسبب للمرض النفسى**. والشفاء من المرض البدنى: بالعلاج. ومن نعَمه تعالى على المريض رُخصُه فى المرض ورفعه الحرج عن المرضى، بقوله: **﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴿٩١﴾﴾** (التوبة)، فالمريض من المعذورين، ولاعليه أن يكون فى الجهاد من الخوالف، وهو من المعذورين فى الصيام، بقوله: **﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴿١٨٤﴾﴾** (البقرة). ومن المعذورين فى قيام الليل بقوله: **﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ**

منكم مرضى (٢٠)﴾ (المزمل). والمريض له أن يصلى ما تيسّر له لمرضه، والقرآن فى الآية: ﴿**وقرآن الفجر (٧٨)**﴾ (الإسراء) هو صلاة الفجر، أو أن قراءة القرآن فى الفجر المقصود بها التلاوة فى وقته، فعند المرض له أن يختصر فيها. وفى الحديث: «من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين..».

والتداوى فى المرض مأمورٌ به، إلا ماكان من مُحرَّم كالخمر، وما كان فيه سُمٌّ ويرجى منه شفاء لايحرم. ومن الأدوية الشافية فى القرآن عسل النحل: ﴿ **شراب مُختلف ألوانه فيه شفاء للناس (٦٩)** ﴾ (النحل)، وعن علىّ قال: «أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة». ـ يقصد بالدودة دودة القز، والحرير من لعابها، وشراب النحلة هو العسل، ومنه أكثر الأشربة والمعاجين، ويُكتحل ويستمشى به ويُتداوى، ويُخلَط بالماء والخل ويطبخ فيكون شراباً ناجعاً. وكما ترى فإن القرآن لايتصادم والطب الحديث، على عكس التوراة والإنجيل.



١٤٠٥. ﴿الإنسان آخر ما خلق الله من أصناف الخليقة﴾

أثبت العلم أن الإنسان عندما يموت ويتحلل، فإن عناصره هى نفس عناصر التراب، وكما كانت نهايته كانت بدايته، بقوله تعالى: ﴿**كمثل آدم خلقه من تراب (٥٩)**﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿**فإنا خلقناكم من تراب (٥)**﴾ (الحج)، وقوله: ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا (٣)** ﴾ (ق). وقيل عناصر التراب ستة عشر عنصراً، والعناصر التى ينحل إليها جسم الإنسان ستة عشر عنصراً. وفى قوله تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١)**﴾ (الإنسان) تأريخ لتطور الإنسان فى الخلقة، وتطوره الحضارى، فلما خلقه الله كان على الفطرة ولم يكن شيئاً مذكوراً، وظل كذلك حيناً من الدهر، لاتعرف له الخلائق قدراً، ثم إنه عرف الله، وجعله الله تعالى خليفة فى الأرض، وحمّله الأمانة لمّا ظهر فضله على الكل. وكان آخر ما خُلق من أصناف الخليقة، فكان على قمة السُلّم الحضارى، وخلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيواناً. والإنسان هو جنس بنى آدم. وقيل «الحين» فى الآية هو التسعة أشهر مدة الحمل، وفيها لايكون شيئاً مذكوراً، وفى النظرية التلخيصية فإن الإنسان وهو يتخلّق فى الرحم يلخّص ويوجز قصة خلقه من البداية، وكما يتخلّق الجنين كان تخلُّق آدم، وكذلك كل جنس الإنسان، وتطوّر كتطور الجنين، ومرّ تاريخه بأطوار ودورات وأطباق، طوراً بعد طور، ودورة إثر دورة، وطبقاً فى عقب طبق، ولم يصبح الإنسان مذكوراً إلا بعد أن صار له تاريخ وحضارة ومعرفة. وسبحان من جعل كل هذه الحضارة بمخلوق لم يكن شيئاً مذكوراً !



١٤٠٦. ﴿معجزة إعادة الخلق من عظام الميت﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾(يس)، والرميم من رَمّ العظم أي بَلي وصار رِمّة، مع ذلك فهو تعالى يعيده حياً في النشأة الثانية؛ وشرح ذلك رسول الله ﷺ فقال: إن الإعادة تكون بما يُسمّى عَجْب الذَنَب، وهو أصل الذنب عند رأس العصعص من العمود الفقرى، وفى الحديث: «كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجْب الذَنَب، منه خُلق، وفيه يُركّب»أخرجه أبو داود والنسائى وأحمد وابن ماجة، وفى رواية أخرى: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذَنَبه» قيل: ما هو يارسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه نشأ»، وفى رواية أخرى، قال: «ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحداً هو عَجْب الذَنَب، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة» قالوا: أى عظم يارسول الله؟ قال: «عَجْب الذَنَب». وهذه الأحاديث حول تفسير الآية يؤكدها العلم الحديث بعد ألف وأربعمائة سنة من نزول القرآن، فقد ذكر علماء الأجنة أن تخليق الجسد فى الإنسان يأتى وفق شريط دقيق للغاية يسمى الشريط الأولى، يتخلّق فى الأسبوع الثانى من تلقيح البويضة وانغراسها فى جدار الرحم، وتتكون به كل التعليمات حول شكل الجنين، وأوامر تنشيط الخلايا للانقسام وتكوين أجهزة الجسم، وتخصّصها، وتمايزها، وتكاملها، وتناسقها، فإذا تمّ التخلّق اندثر الشريط إلا من جزء صغير للغاية يبقى فى نهاية العُصعص، وهو المسمّى عَجْب الذَنَب، فإذا مات الإنسان بلى إلا عجب الذنب يكون رُفاتاً، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ (الإسراء)، والرُفات: ما تكسّر وبَلِيَ، كالفُتات والحطام والرُضاض، وعَجْب الذنب من هذا الفتات، ويبقى ولايندثر، وبه يُعاد الخلق: بما يحتوى من أوامر، كما فى الحديث: «ثم يُنزّل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل»، والذى ينبت هو عَجْب الذَنَب، كما ينبت النبت من البذرة، يعنى تكون به النشأة الثانية، وثبت علمياً أنه يستحيل فناء عجب الذنب هذا أو الشريط الأولى ولو بأقوى الأحماض، أو بحرقه، أوسحقه، أو إبطال مفعوله بالأشعة. والآيات والأحاديث فى ذلك من المعجزات العلمية التى سبق بها الإسلام، دليلاً على صدق ماجاء به ومن جاء به.

●●●

١٤٠٧. ﴿الخلق فى ظلمات ثلاث﴾

لفتت الآية: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (٦)﴾ (الزمر) انتباه علماء الأجنة من غير المسلمين لّما نبههم إليها علماء المسلمين، وكانت الآية

سبباً فى إسلام بعض من العلماء غير المسلمين، منهم العالم الكندى كيث مور وله كتاب مشهور فى علم الأجنة، وقد بُهر بالآية وفسّرها بأن الظلمات الثلاث من واقع دراساته هى: ظلمة جدار البطن، وظلمة الرحم، ثم ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين. وكان مفسرو القرآن من المسلمين يقولون عنها بأنها ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. وقال بعضهم بما سمّاه ظلمة الليل فى البطن.

•••

١٤٠٨. ﴿الخلق من نطفة أمشاج﴾

إعجاز هذه الآية: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)** ﴾ (الإنسان)، أن العلم الحديث كشف عن صدق ما جاء بها، ولم يعارضها علم الأجنّة فى شيء مما ذكرته، فالنطفة التي يخلق منها الجنين هى نطفة أمشاج أى أخلاط، والمشج فى اللغة هو الخلط، والممشوج المخلوط، والجنين هو جماع منىّ الرجل وبويضة الأنثى، ولم يُكتشف أمر البويضة إلا سنة ١٨٢٧، وقبل ذلك كان الاعتقاد أن الجنين يتكون من ماء الرجل، أى منيه، ومن ماء المرأة - وهو السائل اللزج الذى يسهّل عملية الجماع، وذلك خطأ صحّحه العلم مؤخراً فقط، وكان المظنون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة، ولكن الآية أكدت نظرية الأمشاج وهى التخلُّق من المنى والبويضة، وهو قوله تعالى: ﴿ **مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾، وأثبت العلم أن خلق السمع يأتى قبل خلق البصر كما فى الآية، وأن الطفل حين يولد فإن سمعه يسبق بصره. والسمع طريق الهداية، ولذلك يكون الإنسان إما مقتنعاً بما يتلقى من العلم ويتحصّل من الخبرات، فيكون شاكراً لله عارفاً به وبفضله، وإما أنه لايقتنع ويجحد، ويمارى، ويكابر، وينكر، فيكون كفوراً بنعمه تعالى وبأنه خالقه جلّ وعزّ.

•••

١٤٠٩. ﴿إعجاز آيات أطوار تخلق الإنسان﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا (٥)** ﴾ (الحج)، وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤﴾(المؤمنون)، تلخّصت أطوار تخلُّق الإنسان، وكان انبهار علماء الأجنة من الأوروبيين بهذه الآيات انبهاراً كبيراً، لدقة وصف هذه الآيات للرحم كقرار مكين، بما فيه من أربطة وعوامل استقرار، وبالتخلّق عبر مراحل، وتطابق الوصف لواقع التخلُّق، ولقوله تعالى بأن العظام تتكون قبل اللحم وليس العكس، وأن الخلق من تراب كان فى البداية مع آدم، والإنسان عندما يموت يتحلل إلى تراب يتكون من نفس عناصر التراب الذى نعرفه، بالإضافة إلى ماء يتبخر، وغازات متصاعدة، والماء أضيف إلى التراب عند خلق آدم فكان طيناً ، وفيه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ١٢﴾(المؤمنون)، وأما الغازات فهى نتيجة تخمُّر بقايا الأغذية فى الجسم، وإنما الأصل فى الخلق، هو ما يتبقى بعد الممات، وهو هذا التراب لاغير، وبعد آدم كان التخلُّق من المنىْ من الإنسان المخلوق من تراب، فكان أيضاً أن تخلّق الإنسان من منىّ أى من تراب؛ ثم كانت النطفة من المنى والبويضة، ثم كانت العلقة وهى التخلُّق الطرى الأحمر الذى تتطور إليه النطفة إثر التلقيح، وسميت كذلك لأنها تشبه الدم الجامد أو الدم العالق، ثم تكون المضغة سمّاها كذلك لأنها تشبه اللحم قدر ما يُمضغ، وهذه الأطوار تستغرق أربعة أشهر، ثم تدبّ الحياة فى الجنين بعد هذه الشهور الأربعة، فى الأيام العشر الأولى؛ ومثل ما دبّت الحياة فى الجنين فى أربعة أشهر وعشرة أيام، فكذلك جُعلت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام، فإذا دخلت المرأة فى الشهر الخامس ولم يظهر لها حمل برئت منه، وبرىء رحمها. وفى الحديث: «يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة». فهذه أربعة أشهر، ثم تدبّ الحياة فيه فى الأيام العشرة التالية. والنطفة لاتستقر فى الرحم إلا إذا صارت علقة، وهذا هو سبب تسميتها كذلك: أنها تعلق بالرحم، ويكون وضعها فيه وضعْ حمل، والمضغة المخلّقة فى الآية تكون كذلك عندما يظهر شكل الجنين ويكون له الرأس واليدان والرجلان إلخ. والمضغة غير المخلّقة هى التى لم تُصورّ بعد . والتخليق من الخلق تتابعت عليه الأطوار، فقد خلق خلقاً بعد خلق ، وفى الآية أن بيان ذلك متاح للناس مما يُظهر كمال قدرة الله بتصريفه هذا العجيب لأطوار خلق الإنسان. والاستقرار فى الرحم آية، لأن الجنين يثقل ويمكن أن يبلغ وزنه من ٢,٥ كيلو إلى ٤ كيلوات، وأحياناً خمسة، فما لم يكن الرحم متيناً غاية المتانة فلن يقدر على استيعاب الحمل مدة الشهور التسعة، وسيسقط الجنين؛ ثم يكون الميلاد. «والطفل» يصدق عليه هذا الاسم من وقت انفصال الولد بالولادة حتى البلوغ؛ «وبلوغ الأشُدّ» هو بلوغ الحُلم واكتمال النضوج البدنى والعقلى والنفسى، ومن الناس من يموت فى ميعة الصبا، ومنهم

من يشيخ ويكبر حتى الهَرَم والخرف. والإعجاز البلاغي في هذه الآيات نوعٌ آخر من الإعجاز بالإضافة إلى **الإعجاز العلمي**، فقد اختصرت وأوجزت الحياة بكاملها من البداية حتى النهاية في بضع عبارات كانت قمة في التعبير والوفاء بالمعنى في جمال واتساق.



١٤١٠. ﴿الإعجاز العلمي في آية البنان﴾

البَنان عند العرب هي الأصابع، واحدتها **البنانة**، والإشارة في الآية: ﴿ **بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ** (٤)﴾ (القيامة) إلى بصمات الأصابع. والآية القرآنية لم يكتشف الإعجاز فيها إلا العالم الباحث في البصمات «**فرنسيس جالتون**»، واستخدم البصمات في **تحقيق الشخصية**. بعد أن ثبت بغير منازع أنه لايوجد اثنان يتشابهان في هذه البصمات، وأتم عمله ووافق عليه **إدوارد هنري** من اسكتلنديارد. ويتوقف تحقيق الشخصية عن طريق البصمات على تميُّز كل عُقْلة من الأصابع بالجلد الذي يغطي خلايا الأصابع، وبالمسام التي لهذا الجلد. وتختلف أشكال البصمات في كل إنسان عن غيره، حتى عند التوائم، ولايوجد مطلقاً شخصان متشابهان. ولنا أن نتساءل: أليست الآية دليلاً على أن القرآن من عند الله تعالى؟ لأنه لو كان من عند محمد فمن علّمه هذا العلم المتقدِّم جداً، إن لم يكن مُوحى به إليه من الله ليبلِّغه إلى الناس؟!



١٤١١. ﴿البلـوغ﴾

البلوغ: هو الإدراك، **والبالغ**: هو المُدرِك. ويقال: غلامٌ بالغ، وجاريةٌ بالغٌ **وبالغة**. وفي الآية: ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا** (٥٩)﴾(النور)، أن بلوغ الطفل **الحُلُم** يعني أن يبلغ مبلغ الرجال، والفعل **حَلَم حُلُماً**، **و احتلم**، ومن مظاهر هذا البلوغ: أن يُخط شارب الولد، ويخشوشن صوته، ويكبر ثديا البنت ويمتلىء حوضها، ويظهر شعر العانة عند الأولاد والبنات، وبلوغ الذكور يسبق بلوغ الإناث بنحو السنتين، وتختلف سن **البلوغ** بحسب البلاد والمجتمعات، وباختلاف الظروف الاجتماعية والصحية والبنيوية والنفسية لكل ولد وبنت، ولايعني ظهور **الصفات الجنسية الثانوية السابقة** تمام البلوغ وإنما هي إرهاصات به، فإذا حاضت البنت وانتظمت **دورة الحيض** عندها في أول كل شهر حيضي، ونزل **المني** من الولد بالاحتلام أو بغيره، فإن ذلك يعني **النضج**، وبذلك يعامل الطفل كفرد مسئول، وتُراعى تربيته والتعامل معه على هذا الإساس. وفترة بلوغ البنت تقع بين **الحادية عشرة والثالثة عشرة**، وفترة بلوغ الولد بين **التاسعة والحادية عشرة**، وقيل إن السيدة **عائشة** بلغت في **التاسعة** عندما تزوجت الرسول ﷺ. ومعنى البلوغ: أن الطفل صار يدرك، فيتوجب عليه أن **يستأذن** على أهله وعلى غيرهم، كلّما عنّ له أن يدخل عليهم، في

الأوقات التى من عادة الناس الانكشاف فيها وملازمة التعرّى. وقوله تعالى: «وإذا بلغ **الأطفال منكم الحلم»** كقوله: **﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا (١٤)﴾**(القصص)، وكقوله: **﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ (٦)﴾** (النساء)؛ **والأشُدّ** تعنى القوة فى البدن، وفى المعرفة والخبرة؛ **وبلوغ النكاح** يعنى أن يكون الولد أو البنت قادرين على الزواج وإنجاب مثلهما. وقيل إن حدّ البلوغ لمن لم يحتلم هو خمس عشرة سنة، وإنما تجب الأحكام والفرائض بحدّ البلوغ، وفى هذه السن يكون الإقبال على التعلمّ أقوى ما يمكن فى المراهق، ويظهرحبّه للعلم والحكمة، ويكون أرشد فى إنفاق المال، فيمكن أن يُعهد إليه بماله إن كان ذا مال.

•••

١٤١٢.﴿التصنيف الحركى للكائنات﴾

فى الآية: **﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾**(النور): تنبيهٌ إلى تنوعَ الحركة فى الدواب، **وتصنيفها بحسب حركتها ثلاثة أصناف رئيسية،** وهو نوعٌ من التصنيف جديدٌ فى بابه ولم نعهده فى العلوم، وخصّ الدواب بهذا التصنيف، وهى كل ما دبّ على وجه الأرض من الحيوان، ويشمل ذلك **من يعقل وما لايعقل،** ولمّا كان الإنسان هو الغالب على انتباه الناس دون سائر المخلوقات، لشرفه وعلوّه فى سُلّم الأنواع والأجناس، غلب استعمال «مَن» وهى للعاقل، ولم يستعمل«ما» وهى لغير العاقل، وقصر الحركة فى الآية على ما خلَق من ماء، أى من **أَمْنية الذكور،** فلم يتعرض لحركة الأجرام والضوء والطاقة، واقتصر على **الحيوان، والنبات، والحشرات، والطيور،** دون الفيروسات والميكروبات، وجعل خلق الماء سابقاً على خلق الحيوان، كقوله تعالى: **﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٣٠)﴾**(الأنبياء) فلولا الماء ما كانت **الحياة**، والحياة نقيض الممات، **والحيوان** من الحياة، وآية حياته **«الحركة»**، ومن تعريفاته أنه الكائن الحىّ الذى يتحرك، والحركة هى دبيب الحياة، ومن الحيوان **ما يمشى على بطنه،** مثل الحيّات والثعابين والأفاعى، ورغم أنها لا أرجل لها ولا أقدام، إلا أنها سريعة الحركة والتنقُّل، بما لها من عضلات بطنية وضلوع كثيرة تمتد من كل فقرات الجسم، فكأنها **الأرجل الباطنة** تندفع بها إلى الأمام والخلف، واليمين واليسار، وتحت وفوق؛ ومنها ما يمشى على رجلين، وأقومها جميعاً **الإنسان**، وبسبب ذلك كان تميزُّه بارتفاع القامة؛ وأما بقية الحيوانات فأغلبها يمشى على **أربع**، ومنها الطيور إلا أن الرجلين الأماميين تحوّرتا إلى جناحين، كما أنه فى الأسماك تحوّرت الأرجل

إلى زعانف، واكتفت الآية بذكر ما يمشي على أربع على ذكر ما يمشي على أكثر من ذلك، لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، والأربع قوام مشيه وحركته، وما زاد على ذلك كما في الحشرات ليس من باب الإضافة التي لا داعي لها، فنبّه بالاختلاف إلى ثبوت الصانع، فلولا أن للجميع صانعاً واحداً لما اختلفوا بل كانوا من جنس واحد، وعلى الهيئة الواحدة، ولكنه يخلق ما يشاء، على أية صورة يشاء، وفي ذلك دليل على طلاقة قدرته.

•••

١٤١٣. ﴿الزراعة من أعلى الحرف﴾

في الآية: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ (٢٦١) ﴾ (البقرة) دليل على أن اتخاذ الفلاحة والزراعة حرفة من أعلى الحرف التي يمكن أن يمتهنها إنسان، ولذلك ضرب بها هذا المثل، وفي الحديث الصحيح: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة»، وعن عائشة قال: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعني في الزرع.

•••

١٤١٤. ﴿التين والزيتون آيتان﴾

أقسم الله تعالى بالتين والزيتون، فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١)﴾(التين) فكان قسمه بهما عظيماً، ودلّ على أنه قد أقسم بعظيمين. و«التين» جاء مرة احدة في القرآن، وأما «الزيتون» فجاء عنه أربع عشرة مرة، وقال تعالى في شجرة الزيتون: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) ﴾(المؤمنون)، وقال: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ (٣٥) ﴾ (النور)، وهي مباركة كشجرة التين، لقلة تعاهدها بالسقي والحفر والعزق والفلاحة، وغير ذلك من المراعاة التي تكون للأشجار، وتصلح لهما الأراضي الرملية ويجودا فيها؛ ويستخرج من شجرة الزيتون زيت الزيتون ، وهو أغلى الزيوت وأنفعها وأرقاها، وتنبّه الآية إلى أن نعمة هذا الزيت من أفاضل النعم التي لاغنى للصحة عنها، وسمّى الزيت «صبغاً» لأنه يُصبَغ به الأكل، أي يُطيَّب، وفي الحديث : «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» أخرجه الترمذي. وقيل إن أول شجرة نبتت في الأرض بعد الطوفان كانت شجرة الزيتون. ولمّا ضرب الله تعالى المثل بنوره، شبّهه بنور مصباح يوقد بزيت الشجرة المباركة التي هي شجرة الزيتون، لأنه زيتها صاف رائق مطهّر، ويسمونه في الاصطلاح الآن «الزيت البكر»، وكان العرب يطلقون عليه اسم «الزيت الطيّب»، وثمره من أشهى

الثمار، ويفوق ثمر التين. واستخدام زيت الزيتون الطبيعي يومياً بمعدل ملعقة ينقص من حدوث سرطان الثدى والمعدة والقولون، ويخفض مستوى الكوليسترول في الدم، ويحمى من الجلطة، ومن تصلب الشرايين، ويقوّى الجهاز المناعى، ويقاوم الالتهابات ويمنع تقرّح المعدة، ويلين التبرز،ويدر الصفراء، ويفتت الحصى.

ويفيد زيت الزيتون فى علاج السكر، ويُشرب لذلك ملعقتان من الزيت مرة كل صباح،ومثلهما فى المساء قبل النوم، ويمكن إضافة عصير الليمون إليه. ولعلاج الروماتيزم والتهاب الأعصاب يُصنع مرهم من رأس ثوم يُشر فى كوب زيت زيتون ويُترك ثلاثة أيام، ثم يُدهن به مكان الآلم عدة مرات مع الدعك. وبالنسبة للنساء فإن زيت الزيتون يعالج تشقق الجلد، ويزيل التجاعيد فى الوجه والرقبة، فيطلى الوجه والرقبة بمزيج مكون من نصف ملعقة صغيرة من الزيت، زائد صفار بيض وبضع نقاط من عصير الليمون، ويترك على الوجه والرقبة ثلث ساعة، ثم يزال بالماء الفاتر. ويدهن به الجسم حفاظاً عليه من خطر أشعة الشمس خاصة فى المصايف . وبالنسبة للشعر فهو يساعد على وقف تساقطه ويغذّيه ويعطيه لمعة وبريقاً وطراوة ونعومة، وتدلك به فروة الرأس كل مساء، ويغطى لمدة عشر ساعات، ويُغسل فى الصباح. ويعالج تشقق الجلد بزيت الزيتون، وخاصة خشونة الأيدى والكعوب، ويضاف إلى الزيت الجليسرين بنسب متساوية. وزيت الزيتون أصحّ من السمن والزبد والدهون النباتية فى الطبخ، ويضاف طازجاً إلى طبق الفول مع عصر الليمون ليصبح وجبة غذائية كاملة. وفى المجال الصناعى يستخدم زيت الزيتون فى صناعة الصابون الفاخر والشامبوهات المغذية. والزيتون منه الأخضر التفاحى الكبير، والعزيزى صغير الحجم الذى يصلح للتخزين، والأسود بأنواعه المختلفة.

وأما التين فكان ستر آدم وحواء فى الجنة، كقوله تعالى: ﴿ **يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** (٢٢)﴾(الأعراف)، وكان ذلك بورق التين، وشجرته جميلة، ومخبرها طيب، ورائحتها زكية، ويَسْهل جَنْيُها. والتين غذاء كامل، ويحبه كبار السن لأنه لايحتاج لأسنان قوية، ويلطِّف الأمعاء،و يليّن الإخراج، ويؤكل طازجا وجافاً، ومذاقه حلو، ولايستغنى عنه الصائم، وهو علاج لأمراض الدورة الدموية والكبد والكُلى، فحقّ له تعالى أن يقسم ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** ﴾(التين) لأنهما من نعم الله الكبرى.

●●●

١٤١٥. ﴿الإنجاب فى القرآن وفى العلم﴾

الإنجاب من الأمور العلمية،والإحاطة به مجاله العلوم. وفى القرآن إشارات إلى وضعية الإنجاب فى الدين، كقوله تعالى: ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ**

لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ (الشورى)، فبدأ بالإناث لأن أكثر الإنجاب بحسب الإحصائيات للإناث. ومعنى الآية أن مسألة الإنجاب هى من مشيئة الله، فقد تلد المرأة: الإناث، وقد تلد الذكور، وقد تلد الإناث والذكور، وقد لايولد للأبوين. والأنبياء مَثَلٌ وقدوة، فلوط رزق الإناث فقط، وإبراهيم رزق الذكور فقط، وآدم ومحمد رزقا الإناث والذكور، ويحيى وعيسى كان عقيمين. ومن الطب النبوى أنه ﷺ قال لليهودى: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا ماؤها ماء الرجل، أشبه الولد أخواله.وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه» . فباعتبار هذا الحديث فإن العلو يقتضى الشبه. وقال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منّى الرجل منىّ المرأة، أذْكرا بإذن الله، وإذا علا منىّ المرأة منى الرجل آنثا بإذن الله»، فجعل فى هذا الحديث أيضاً العلو يقتضى الذكورة والأنوثة، ويقتضى الشبه؛ غير أنه لاعلو فى الماء فى الرحم وإنما هو غلبة ماء أى من الزوجين، يعنى غلبة «الصفات الوراثية» لأيهما، بأن تكون هى الأقوى، فيكون الشبه لها أو له، فسبحان مسبّب الأسباب، وله فى خلقه شئون، وليس أدلّ على أن القرآن من لدن الله من هذه الآية التى نبهَت إلى الإنجاب وتصاريفه تعالى فيه.

●●●

١٤١٦. ﴿اللبن طعام معجز﴾

فى القرآن آيات كثيرة عن الأغذية للحيوان والإنسان، منها قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)** ﴾(النحل)، فقد ذكر من هذه الأغذية اللبن، وناسب إعجاز هذه الأغذية أن يذكّر بها العقلاء، والعقل أشرف ما فى الإنسان، والعبرة التى يستخلصها العقل من طعام اللبن، هى الدلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته، والعبر فى الأنعام تسخيرها، وفى اللبن أنه خالص البياض، ومع ذلك فاللبن من الفَرْث والدم،والفرث هو بقايا الطعام التى يخرجها الجسم بعد الاستفادة مما بالطعام وتصنيعه دماً يتحول فى الثدى إلى اللبن. وما تأكله كل أنثى من حيوان أو إنسان يُهضم فيكون أسفله فرثاً، وأوسطه دماً، وأعلاه لبناً، فاللبن أعلى من الدم، وينتجه الضرع أو الثدى. والمنى يشبه اللبن إلا أنه: ﴿ **يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)** ﴾ (الطارق)، ومنفذه مخرج البول، ومع ذلك فهو الطاهر طُهر اللبن المستساغ. واللبن من المحاليل المركبة ويحتوى على جميع العناصر الغذائية التى يحتاجها الجسم، ولا ترتبط بمركبات تمنع الجسم من الاستفادة منها رغم تزاحمها فيه، ولاتتداخل مع بعضها بصورة

سلبية،ولا تعوق الجسم من امتصاصها، ولا تمنع من الاستفادة من كافة ما فيها، والإعجاز أن يستطيع الجسم أن يصنع طعاماً هو اللبن يناسب الإنسان والحيوان، ويحوى كل العناصر الغذائية اللازمة، والإعجاز الأعظم فى اللبن أن تتواجد فيه هذه العناصر بنسب محسوبة دقيقة، تخلق بينها توازناً مثالياً ، يشجّع على امتصاصها فى الجسم ويخلق فيما بينها تداخلاً إيجابياً، يستحيل أن يوجد مثله فى أية أغذية حيوانية أو نباتية أخرى، وبذلك يكون اللبن «معجزة غذائية» بكل المقاييس العلمية. ثم إن وجود هذه العناصر فى حالة ذائبة ممتزجة فى محلول واحد، يشكل إعجازاً علمياً آخر، لأن كل العناصر الغذائية لا تقبل الامتزاج فى محلول واحد، ولا يمكن علمياً تخليق محلول غذائى يشمل كل العناصر الغذائية دون ترسيب جزء منها، إلا فى اللبن وهو المحلول الوحيد الذى يتضمن كل أنواع وصور المحاليل المعروفة الذائبة، والغروية، والدهنية المستحلبة، والسكرية، والبروتينية، والعناصر المعدنية والفيتامينات المختلفة، وكل من هذه المواد له صفاته وأنظمته المستقلة، وبعضها من صفاته الذوبان، وبعضها لايذوب، وبعضها لايتفق مع غيره ولاينسجم ولايمتزج فى حالة خلطه. ونظام تركيب اللبن لذلك من أعقد الأنظمة، وهو المزيج الوحيد الذى يتميّز بهذا التآلف الفريد، والانسجام المعجز، ومن صور إعجازه أنه متغيّر التركيب وليس ثابتاً، فمكوناته تتغير خلال فصول السنة، متوافقة مع حاجات الرضيع من الإنسان أو الحيوان، وهى حاجات تختلف فى الصيف عنها فى الشتاء، ففى الشتاء تزداد نسبة الدهون فى اللبن حيث يحتاج الكائن الرضيع إلى نسبة من الدهون أكبر، عنه فى الصيف الذى تزداد فيه الحاجة إلى نسبة بروتين وأملاح معدنية أكبر، وبذلك يكون اللبن غذاء مثالياً للصيف والشتاء، وهذا التغير فى المكونات بحسب المناخ واختلاف الفصول هو إعجاز لايمكن أن يكون تنظيمه وبرمجته وإنتاجه إلا بتدبير إله عظيم،وينفرد الإنسان بأنه المخلوق الوحيد الذى يحتاج للبن طوال مراحل عمره كلها فيناسب حاجاته كغذاء دائم. وسبحانه ربّ العزة تعالى عمّا يشركون،لاعلم لنا إلا ما علمنا، وقد سبق القرآن ونبّهنا إلى آية اللبن قبل الكشوف الحديثة التى أثبتت صدقه، فكان ذلك دليلاً على أنه كتاب من عند الله، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

١٤١٧.﴿الخلق قبل التصوير﴾

الخلق هو الاختراع والإيجاد بعد العَدَم، وينسب لله تعالى ، وقد يقال للإنسان خَلَق عند إنشائه شيئاً، وفى الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾(الأعراف): أن الخلق يأتى أولاً، فتكون النطفة، ثم يصورنا خلقاً آخر. وهناك النظرية الأخرى فى القرآن: أن الخلق كان

فى ظهر آدم، ثم كان التصوير لمّا أخذ على بنى آدم الميثاق: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (١٧٢)﴾** (الأعراف)، يعنى أن الخلق كانوا فى ظهر آدم بالإمكان، وصار الإمكان تعييناً عند الميثاق، فجعلهم مثل الذّر، وفى الحديث: «أنه أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق». وقيل إن الخلق كان فى ظهر آدم إمكاناً، ثم كان تصويراً وتعييناً فى الأرحام. وقيل إن الخلق كان خلق آدم من التراب، ثم حواء من ضلع لآدم، ثم كان التصوير لاحقاً، ويؤيد ذلك قوله: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢)﴾**(المؤمنون) يعنى آدم، **﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**(النساء١) يعنى حواء: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾** (المؤمنون)، فآدم خلق من طين، ثم صوِّرت ذريته فى أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فى أصلاب الآباء. وكل إنسان مخلوق من تراب ونطفة، وفى سورة الأعراف قال: **﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ (١١)﴾**، وفى آخر سورة الحشر قال: **﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ (٢٤)﴾**، فذكر التصوير بعد البرء، أى أنه خلق الأرواح أولاً، ثم صوّرها أشباحاً آخراً.

●●●

١٤١٨. ﴿تسخيره تعالى للطبيعة فى خدمة الإنسان﴾

الطبيعة جميعها كما فى القرآن ـ مسخّرة للإنسان، فالسموات والأرض مسخرةٌ، كقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٠)﴾** (لقمان)، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا (١٣)﴾**(الجاثية)، وقوله: **﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (١٢)﴾** (الجاثية)، وقوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا (١٤)﴾**(النحل)، وقوله: **﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦٥)﴾**(الحج)، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (٣٢)﴾**(إبراهيم)، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢)﴾** (إبراهيم)، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ (٣٣)﴾**(إبراهيم)، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾** (إبراهيم)، أى أنه تعالى جعل كل شىء فى الأرض وفى السماء فى خدمة الإنسان، فله أن يتواصل بهذه الأشياء فى الأرض وفى السماء، وأن يُجرى عليها تجاربه، ويعرف قوانينها، ويفيد من أسبابها، ولاشىء يحول بينه وبين أن يفعل ذلك، وبالأولى فإن العلم بهذه الأسباب مسخرٌ أيضاً للإنسان.

●●●

ثانياً: علم النفس فى القرآن

•••

١٤١٩. ﴿التربية ودورها فى التنشئة﴾

الآيات كثيرة فى التنبيه إلى دور التربية فى التنشئة، فكل نبت يخرج منه شبيهه، ولمّا عادت مريم تحمل ابنها عيسى قال لها أهلها: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ (٢٨)﴾ (مريم) يعنى كان المتوقع أنه تكون كأبويها، وهى من بيت هارون، أى من أرومة طيبة، فكيف خالفت الموروث العائلى؟ والنعمة التى قصدها يعقوب فى دعائه ليوسف: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ (٦)﴾(يوسف) هى الصلاح الذى كان عليه آباؤه وتوارثه عنهم. واتّباع الآباء فى قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا(١٧٠)﴾ (البقرة) هو ما يسميه علماء النفس والطب النفسى «اللاشعور الجمعى»، وهو الذى يشكّل السلوك ويطبع الإنسان بطابع أهله. والضلال والهدى يورثان: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾(الصافات)، يعنى يفعلون فعلهم بدافع غريزى داخلى يدفعهم إلى تقليدهم، ومعنى يُهرعون يسرعون، والإهراع هو الإسراع، والمُهرع هو المستحَثّ. والسلوك الغريزى سلوك مُستَحثّ، الأداء فيه طبعى سريع.

•••

١٤٢٠. ﴿ عقوق الوالدين فى علم النفس التربوى الإسلامى ﴾

فى القرآن يقرن الله حقّ الوالدين على الأبناء بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، ثم تكون النشأة الثانية أو التنشئة أو التربية من جهة الوالدين، فجعل الإحسان للوالدين ميثاقاً، مثلما جعل عبادته تعالى ميثاقاً، وربط بينهما، وجعلهما ميثاقًا واحداً، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٨٣)﴾(البقرة)، وقَرَن الشُكر لهما بشُكره تعالى، فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ (١٤)﴾(لقمان)، وجعل «عقوق الوالدين» من المحرّمات فقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (١٥١)﴾(الأنعام)، وجعل البرّ بالوالدين من الإيمان، فجاء فى وصف تقوى النبىّ يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ(١٤)﴾ (مريم)، وفى وصف الرحمة عند النبىّ عيسى قال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي(٣٢)﴾ (مريم)، فالبرّ بالوالدين من التقوى، ومن الرحمة. والتوصية بالوالدين فى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا (٨)﴾ (العنكبوت) هى توصيةٌ بأحسن المعاملة، وأخلص الطاعة، وأوفى الخدمة، فى حدود عدم مخالفة الله، وعدم الشك به، فإن جاهداه على الشرك، واختلفا معه عليه، فلايطعهما ولو بلغ خلافهما حدّ المنازعة. والفرق بين معاملة الوالدين بالإحسان

ومعاملتهما بالحُسْن، أن المعاملة بالإحسان هي المعاملة بالفضل،والإحسان ضد الإساءة، وأما المعاملة بالحسْن، فالحُسْن ضد القبح، ومعاملة الحُسْن هي التي توصف بأنها المعاملة الكريمة. وفي قوله: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)**﴾ (الأحقاف) أن هذه المعاملة ليست مجرد وصية، وإنما هي مترتبات على كرم الوالدين مع ابنهما. فالأم حملته قسراً عنها ، ووضعته برغمها، ونما في بطنها وعانت ثقله وإطعامه، وانزعج نومها به واضطرب، وشكت أوجاعاً بسببه لم تعرفها من قبل. وانشقت نفسها نفسين في ولادته، وانفصل عنها جسماً مستقلاً عن جسمها، ثم تعهدته، وأرضعته، ونظّفته، وعلّمته الكلام، وحمته من الأغيار،ومن الظروف حولها، والآية تُسمّي ذلك **حَمْلاً وفصالاً**، والفصال هو الانفصال. وإنما رعاية الأم لا تتوقف أبداً، وحماية الوالد لابنهما لاتنتهي، فإذا نضج الابن وبلغ أشده، أي رُشْده، لم تنقطع رعايتهما مع ذلك، وينضج عقلياً وانفعالياً فيبلغ **الأربعين** وما يزال يحتاج إليهما. فلا عجب أن يسأله الله أن يظل يشكر نعمه تعالى عليه، وعلى والديه، أن مكّنهما من تربيته، وأن يسأله الصلاح الذي يرضاه، وهو أن يرحم والديه في شيخوختيهما، كما رحماه صغيراً، ولقد رأى كيف يكون الأبوان معه، وهو الآن أبٌ مثلهما، فيسأل ربّه أن ينبت أولاده صالحين برعايته، كما أنبته صالحاً برعاية والديه. ولعل أمثل وأكمل الآيات في معاملة الوالدين هي الآيات: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)**﴾(الإسراء). والقضاء في السورة ليس **قضاء حُكم**، ولكنه قضاء أمر، وقضى بمعنى وصىّ، والوصية واجبة. وفي الحديث عندما سأله أحدهم: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عز وجلّ؟ قال «**الصلاة على وقتها**»، فسأله: ثم أيّ؟ قال: «**ثم برّ الوالدين**» فسأله: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» أخرجه البخاري. فجعل برّ الوالدين بعد الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام، وقبل **الجهاد** الذي هو أعظم مُدافعة عن الإسلام، وجعل بين ذلك «**ثم**» التي تعطي الترتيب والمهلة، فبرُّ الوالدين عبادةٌ مستمرة كالصلاة، وهو أيضاً جهادٌ موقوت كالجهاد، ونقيض البرّ **العقوق، أي المخالفة**، وإذن فالبرّ هو **الموافقة**، ومن برّهما ألاّ تتعرّض لسبهّما، فذلك من **الكبائر**، ففي الحديث في صحيح

مسلم: «إن من الكبائر شتْم الرجل (أو المرأة) والديه» ، ومن ذلك : « أن يسبّ الرجل(أو المرأة) أبا الرجل، فيسبّ أباه، ويسبّ أمه فيسبّ أمه» .وفى الحديث، لمّا سأل الرجل النبىّ ﷺ : مَن أحقُّ الناس بِحُسن صحابتى؟ قال: «أمّك» قال: ثم مَن؟ قال: «ثم أمك»؟، قال : ثم مَنْ ؟ قال :«ثم أمّك»، قال: ثم من ؟ قال: «ثم أبوك»، وهذا دليل على أن المحبة للأم، والشفقة عليها، ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب، لأنه ﷺ ذكرها ثلاث مرات، وذكر الأب مرة واحدة، فكأن جهد الأم فى تنشئة ابنها ثلاث مرات جهد الأب، فهى التى حملت تسعة أشهر، وعانت مشقة الوضع، ومشقة الرضاع، ومشقة التربية، فهذه ثلاثة أمور تنفرد بها الأم دون الأب، ثم بعد ذلك تتشارك والأب، وعلماء النفس على القول بأن للأم ثلاثة أرباع البرّ، وللأب الربع .ومن الإحسان إليهما ألا يجاهد الابن إلا بإذنهما، وفى قوانين التجنيد فى مصر يُعفَى الابن الوحيد لرعاية أبويه المسنين. ولمّا سأل النبىّ ﷺ ، أن يصحبه للجهاد، قال له النبىّ ﷺ :«أحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»، قال: لقد تركتهما يبكيان! قال:«اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما»، وفى رواية قال:«نومك مع أبويك على فراشهما، يضاحكانك ويلاعبانك، أفضل لك من الجهاد معى»،وفى الحديث:«مِن أبرّ البِرّ: صلَةُ الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يُولّى» وسأله أحدهم: هل بقِى من برّ الوالدين بعد موتهما شىء أبرُّهما به؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قِبَلهما، فهذا الذى بقى عليك».

وخصّ الله تعالى حالة الكِبَر فى قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ﴾(الإسراء٢٤)، لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى برّه، لتغيرّ الحال عليهما بالضعف، فألزم هذه الحالة بالمراعاة أكثر مما ألزمه من قبل. وفى الكبر يكون الوالدان كَلّاً على ابنهما، فيحتاجان أن يلى منهما فى الكبر ما كان يحتاجه فى الصغر، وأمره أن يقول لهما ما فيه الإكرام بهما،فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(الإسراء٢٣) وسُمع النبىّ ﷺ يقول:«رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه»، فقيل له: من يارسول الله؟ قال:«مَن أدرك والديه عند الكِبَر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة.» ومعنى ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ (الإسراء٢٣) لا تظهر لهما أدنى تبرُّم، والأفُّ الكلام القذر الردىء، فلو رأى منهما فى حال المشيخ الغائط والبول اللذين رأياهما منه فى الصغر، فلا يقذّرهما ويقل أفّ. والأف والتّف: كلاهما الشىء المستقذر، ولو علم الله شيئاً أردأ من «أف» لذكره، وصارت قولة:«أفّ» بمعنى الشىءالأردأ، لأن فيها كُفر النعمة التى أنعم الله عليه وعليهما بها، وهى نعمة البنوة

والأبوة ، وفيها جَحْد التربية التى اختصاه بها، وكذلك ردّ الوصية كما أنزلها الله تعالى فى كتابه. وأُفّ كلمة مقولة لكل شيء مرفوض، ولذلك قالها إبراهيم لقومه: ﴿ **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴿٦٧﴾ ﴾(الأنبياء). وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنْهَرْهُمَا**﴾ (الإسراء٢٣)، النَّهر هو الزجر؛ ﴿**وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾(الإسراء٢٣) أى لينًا، مثل أبناه، وأمّاه؛ ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾(الإسراء٢٤): استعارة في الشفقة والرحمة، شبّه الرحمة بخفض جناح الطائر حين ينتصب به لولده؛ **والذل**: الانكسار، والانقياد، والتواضع، والرقة، وكأنك الخادم مع السيد، أو الرعية مع الأمير. وفى الحديث: «**لايجزى ولدٌ والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه**»؛ وقوله: ﴿**كَمَا رَبَّيَانِي**﴾(الإسراء٢٣)، خصّ التربية ليتذكر الولد مشقة الوالدين وتعبهما فى التربية، فيزداد إشفاقاً لهما، وحناناً عليهما؛ «**وقل ربّ ارحمهما**»، هو دعاء لهما، وفى الحديث: «**ومن أمسى وأصبح مُرضياً لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى الجنة، وإنْ واحداً فواحداً؛ ومن أمسى وأصبح مسخطًا لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار، وإن واحداً فواحداً**»، فقال رجل: يارسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «**وإنْ ظلماه، وإنْ ظلماه، وإنْ ظلماه**». أخرجه الدارقطنى. ولمّا اشتكى الابن أباه أنه يأخذ ماله، أحضره النبىّ ﷺ، وسأله لماذا يشكوه ابنه؟ ولماذا يأخذ ماله؟ فقال الأب أبياتاً من الشعر منها:

فلمّا بلغتَ السن والغاية التى ... إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائى غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المُنعمُ المُتفضِّلُ
فليتك إذ لم ترْعَ حقّ أبوّتى ... فعلتَ كما الجار المُصاقب يفعل
فأوليتنى حقّ الجوار ولم تكن ... علىّ بمال دون مالك تَبْخلُ

فحينئذ أخذ النبىّ ﷺ بتلابيب ابنه: وقال: «**أنت ومالك لأبيك**». وأما قوله تعالى: ﴿**رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ**﴾(الإسراء٢٥)، أى من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جَعْل ظاهر برّهما رياء، كقوله تعالى: ﴿**إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا** ﴿٢٥﴾ ﴾(الإسراء) يعنى إن صدقتم فى نية البّر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة، ووعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة.

فهذه من الوصايا التربوية للقرآن فى معاملة الابن لوالديه، ولا عقوبة على الابن العاق؛ وفى اليهودية لانصائح، ولاوعظ، ولاوصايا بخصوص ذلك، وإنما تُعنى شريعتهم بالأحكام، وفى سفر تثنيه الاشتراع يأتى عن ذلك: إذا كان لرجل ابن عاق مارد لايطيع

أمر أبيه ولا أمر أمه وهما يؤدّبانه فلا يسمع لهما، فليقبض عليه أبوه وأمه ويخرجاه إلى شيوخ مدينته، ويقولا للشيوخ: إن ابننا هذا عاق مارد لايطيع أمرنا، وهو أكول شريب، فيرجمه جميع رجال مدينته بالحجارة حتى يموت، وحتى ينقلع الشرّ من بين إسرائيل فيسمعوا ويخافوا» (الفصل ٢١ / ١٨ـ٢١) !! فالعقوق إذن فى اليهودية جزاؤه الرجم!! فشتّان بين التربية الإسلامية التى عمادها إعادة التعليم والتأثير بالقدوة، والتربية اليهودية القائمة على الردع العنيف والتخويف والترهيب!

•••

١٤٢١. «التربية الجنسية والإسلام»

فى القرآن والسنّة الكثير من التربية الجنسية، وفى أسفار اليهود الكثير من الحكايات عن الجنس، وفى نشيد الأنشاد يكثر التغنىّ به، ومن مشاهد الجنس فى القرآن مشهد الغواية فى سورة يوسف، ورَفَضَ الخوارج اعتبار السورة من سور القرآن بسبب هذا المشهد، ومع ذلك فالمشهد موظَّفٌ فى القرآن للتربية الجنسية، وجمالية المشهد مما به من دعوات أخلاقية، وليس كذلك الأدب الفاضح، فمشاهد الجنس فيه لترويجه تجارياً، ولاسترضاء الجمهور من أقوى غرائزه وهى غريزة الجنس. والتربية الجنسية فى القرآن: لتعليم الأطفال فى البلوغ، ولتوعية الفتيان والفتيات فى المراهقة، ولتدريب الأزواج فى علاقاتهم ببعضهم البعض، ولترشيد الشيوخ عندما تتغير بهم الأحوال ويبلغون سن الإياس. ومن سور القرآن فى ذلك سورة النور، وفى الحديث عن عائشة: أن النبىّ ﷺ قال فى تعليم النساء: «علّموهن سورة النور»، ومن التربية فيها: استئذان الذين لم يبلغوا الحُلُم ثلاث مرات على والديهم، وقد تظهر فى هذه المرات عورة الوالدين (النور٦٠). وعن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى العورات الثلاث التى أمر الله بها فى القرآن؟ فقال: إن الله ستّير يحب الستر. كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال(أى ستر أو حجاب) فى بيوتهم، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولدُه،أو يتيمُه فى حَجْره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمّى الله. ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أُمروا به». وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٥٩) ﴾ (النور) أنه إذا بلغ الأطفال الذين كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ـ إذا بلغو الحُلُم، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث. فالتربية الجنسية الإسلامية تعليمٌ عالٍ، وتدريب سامٍ، من شأن الأخذ بها تهذيب الجنس عند المرأة والرجل

على السواء. وهناك الكثير من الدروس فى الدين تُعطى للأطفال فى المدارس، وتتناول بالشرح آيات القرآن التى لها علاقة بالمسائل الجنسية، كالحيض، والغُسل، والجنابة، والتفريق بين الجنسين فى المضاجع، واحتلام الصبية. والأحاديث التى تخوض فى هذه الأمور كثيرة، ينفرد بها الإسلام عن **اليهودية والنصرانية**، وجميع ذلك يتاح للأولاد فى السن التى تقارب البلوغ. غير أنه تتبقى مسائل حيوية ليس فى المناهج ما يمسّها عن قريب أو بعيد، فبينما يحرص التعليم فى البلاد الصناعية على أن يضم فى برامجه بعضاً من الدروس المتّسمة بالجرأة، فإن التعليم في مدارسنا الإسلامية يخلو من ذلك، وما أحرانا أن ننهج نهج نبينا ﷺ، فلا نخجل مما يتصل بالجنس بسبب، وعن **عائشة** فيما يرويه مسلم أن أحدهم جاء رسول الله ﷺ، فسأله عن الرجل يجامع أهله ثم يُكسَل (أى يضعف عن الإنزال) - هل عليهما الغُسل؟ وعائشة جالسة، فقال رسول الله ﷺ: «**إنى لأفعل ذلك أنا وهذه** (أى عائشة)، **ثم نغتسل**». وكما ترى **لا حياء فى العلم وفى الدين**، وما من شك أن الدروس فى التربية الجنسية تعمل على التوعية الصحيحة بمضار **الاستمناء** عند المراهقين، وتقلل من حوادث **الإجهاض** بين البنات، وتحول دون ارتكاب **الفحشاء**، وتخلق الشباب المسلم الواعى الذى يعرف عن **الانحرافات الجنسية** وإتيان الخطيئة ويمتنع عنها عن علم وبصيرة، وليس عن خوف من عقاب. وتؤكد التربية الجنسية الإسلامية على تصحيح المسار الجنسى لكى يُؤتى داخل إطار **الزواج** وليس خارجه. ومن أهداف التعليم الجنسى الذى اضطلع به الرسول ﷺ، واضطلعت به أمهات المؤمنين **كعائشة، وأم سلمة** من بعده، تزويد الناس بالمعلومات الجنسية التى تناسب كلاً بحسب ثقافته وعمره، وتساعد على تطوير نضجه الذهنى والنفسى، بالإحاطة بكل ما يهم حياته من مسائل الجنس الحيوية، وعملياته الجسمية وغير الجسمية. ومن هذه الأهداف التقليل من الخوف من الجنس، ومطامنة قلق الشباب إزاء المستحدث من التطورات والتغيرات الجسمية، وأن تتنامى بهم الاتجاهات الجنسية السليمة والفهم العلمى للموضوعات الجنسية، فتكون لهم البصيرة بطبيعة العلاقات بين الجنسين، والفهم للواجبات والمسئوليات التى لكلٍ من الجنسين إزاء بعضهم البعض، والتذوق لمزايا السلوك الجنسى الصحيح، والوعى بأهدافه وغاياته ومراميه، والمردود الطيب الذى يمكن أن يعود على البيت والأسرة، وعلى المدرسة والمصنع والشارع، باحترام كل جنس للآخر. ومن أهداف التربية الجنسية الإسلامية تعميم القيم المرتبطة بالجنس، وأن يعى الشباب أن الفضيلة أساس كل تعامل صحيح، وبدون الوعى بالفضيلة والقيم الأخلاقية لن يستطيع المسلم أن تكون له بالناس علاقات بنّاءة

صحيحة. وتقوم التربية الجنسية فى الإسلام على كثير من الحوارات الدينية بين النبىﷺ والشباب المسلم، تثقيفاً لهم ولإعطائهم الفكرة الملائمة عن الانحرافات الجنسية ومضارها، ومعنى «سوء الاستخدام الجنسى»، فيكونون قادرين على حماية أنفسهم من التردّى فى الرذيلة، وأن يتّقوا مزالق الأذى الذى يمكن أن يلحق بصحتهم نتيجة الممارسات الخاطئة.



١٤٢٢. ﴿الزواج فى علم النفس الإسلامى﴾

فى القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾(الروم)، فالزواج فى الإسلام آية من آيات الله، وأصل من أصول الخلق، ومبدأ من المبادىء الأولية التى ترتكز عليها الحياة والاجتماع. وآية الزواج دلالتها عظمة الله وكمال قدرته، فكل إنسان يهوى من جنسه الموافق له، والذى يسكن إليه، وتتوفر له معه راحة البال، وتكون له به طمأنينة النفس. والتوافق فى الزواج علاقة موائمة وتكيّف بين الزوجين. وعدم التوافق قد يدفع إلى الانتحار، وسوء التوافق هو المسئول عن انهيار الأسرة، واضطراب سلوك أفرادها، ومن التوافق بين الأزواج أن يتعين الواحد منهما بالآخر، وبأهدافه وتقاليده وأعرافه، والزواج الناجح يقوم على الفهم المتبادل، والإخفاق فى الفهم يؤدى إلى اللجوء إلى وسائل تعويضية لإنجاح الزواج، والطلاق وسيلة متطرفة ضد الإخفاق فى التعويض عن التوافق، وقد يلجأ الزوج سيء التوافق إلى سلوكيات يغالى فى إتيانها ويظهر بها أنه متوتر وعصبى، وقد يؤدى سوء التوافق إلى أن تتحول وسائل الزوج أو الزوجة الدفاعية إلى دفاعات ذُهانية، فيشك فى زوجته، أو يتهمها بالخيانة. والزوجة إن لم تجد الحب والفهم قد يصيبها الإنهاك النفسى. وإذن تكون السكينة مطلباً أساسياً فى الزواج، وهى قوامه، ولا تتأتى إلا على المودة وهى الآصرة التى تجمع بين الأزواج فى شبابهم، وقد يقع المرض لأحد الزوجين، أو قد تلحقهما الشيخوخة، وعندئذ فقد تذهب المودة فتبقى الرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ (الروم) فعندما يولىّ الحب فالرحمة تتكفل بأن يحنو الزوج على زوجته، أو الزوجة على زوجها، والمودة والرحمة على ذلك من آيات الله التى توجب على الناس التفكير فى الخالق وتدبيره وحكمته، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا (١)﴾ (النساء) له معنى الحديث: «النساء شقائق الرجال»، وكل واحد له من يهوى، والهوى يكون مع الشبيه، وكأن الزوجين المتوافقين نواة قد انفلقت نصفين، والله تعالى يقول: ﴿هُنَّ

لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ (١٨٧) ﴾(البقرة) فالزوجان متكاملان، وكلاهما ناقص حتى يُكمله شريكه. والأمر ليس كذلك فى **اليهودية**، فالرجل يشترى المرأة بالمهر، **ومهر الزوجة** ليس لها وإنما **لأبيها** (الخروج ٢٢ / ١٧) ، والمرأة **الحائض والمستحاضة** نجس لايقربها زوجها ولا الناس (الأحبار ١٥ / ١٩). و فى الإسلام المهر **عطية** للمرأة كقوله تعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً (٤)** ﴾(النساء)، وهو هبة ورمز للمحبة، ويأتى فى عقد الزواج تعبير «**الزواج على مهر**» لا «بمهر»، لأن **الباء** تعطى معنى **العوضية**، والمهر ليس عوضًا وإنما شرط ضمن العقد. وفى الحديث: «**شُؤم المرأة غلاء مهرها**». ولو كانت الأوضاع المادية هى التى تحدد الزواج فى الإسلام كما فى **اليهودية**، لما كان قوله تعالى: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ (٢٢١)** ﴾(البقرة)، وقوله: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (٢٢١)** ﴾(البقرة). وعن النبىّ ﷺ قال: «**لاتنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولاتنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل**». والنساء فى المحيض لايُقرَبن حتى يطهرن ولكنهن لسن بنجس، وكان النبىّ ﷺ يؤاكل **عائشة** ويشاربها ويشاركها الضجاع ويقبّلها وهى حائض، وكان يصنع كل شىء معها وهى حائض إلا النكاح، وكانت تغسل رأسه وهى حائض، ويتكىء فى حجرها ويقرأ القرآن. وفى **النصرانية** المرأة كالأَمَة عليها الخضوع (**بولس** رسالته الأولى إلى **أهل كورنتس** ١٤ / ٢٤). وفارق بين الطاعة والخضوع، فالطاعة للزوج فى غير معصية، وهى علاقة حميمة بين ندّين أو توأمين، ولكن الخضوع علاقة متدنية بين سيد ومسود، وفى رسالة بولس إلى أهل أفسس يأتى: «**لتخضع النساء لرجالهن كما للربّ**» (٥ / ٢٢)، ويأتى أيضاً بأن المرأة جسدٌ وعلى الرجل أن يحبها كجسده ـ ولايقول بولس كروحه (٥ / ٢٨). وكلها تعاليم فجّة وشتّان بينها وبين مايدعو إليه الإسلام، وفيه حكمة وتسامٍ وعلم وحضارة.



١٤٢٣. ﴿الرُّشد والرشاد والرشدون﴾

يقال رَشَدَ: أى اهتدى واستقام، كقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)** ﴾(البقرة)، والرُّشد: هو الهدى والاستقامة، كقوله تعالى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾(البقرة)، **فالغىّ** نقيض الرُّشد، والغىّ هو الضلال، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** ﴾(الاعراف). ويقال سبيل الرشد، وسبيل الرشاد أيضاً، كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨)﴾(غافر). والرشد

بخلاف البلوغ، وسن الرشد **adulthood** هو الحادية والعشرون، بينما سن البلوغ أو الحُلُم **puberty** هوالثانية عشرة، وقيل حتى سن الخامسة عشرة، وهى السن التى يبلغ فيها الصبى مبلغ الرجال، ويحتلم ويمنى ويمكن أن ينجب مثله. والرُّشد فى الآية: ﴿ **فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ۝٦ ﴾(النساء) ليس مجرد العقل ولكنه صلاح العقل، وشرط الحادية والعشرين إذن من تعريفات الرشد كمصطلح قانونى، وإنما المصطلح الشرعى ينصرف إلى صلاح العقل. والآية خاصة باليتامى ومعناها إن بلغوا هذه السن أى الحادية والعشرين، وكان بهم صلاح فى العقل وحفظ للمال، فادفعوا إليهم أموالهم. **وفى الإسلام لايُدفع إلى اليتيم ماله وإن بلغ مائة سنة، حتى يُعلم عنه صلاح عقله.** والرشد إذن كمصطلح نفسانى، لايتحقق للفتى أو الفتاة بالبلوغ، فإذا لم يرشد بعد بلوغ الحُلُم، وإن شاخ، لايزول الحجر عنه. وقيل إن الرسول ﷺ لم يحجر على حبّان بن مُنقذ، وكان به ضعف فى العقل، غير أن حبّان لم يكن ضعفه غَبْناً فى تصرفاته، والأمر فى الإسلام أن السفيه يُحجَر عليه، ولم يكن حبّان سفيهاً. وشرطا الرشد والبلوغ هما إذن شرطا أن يكون للفرد المسلم كيانه القانونى المستقل. وأبو حنيفة جعل بلوغ الخامسة والعشرين شرط هذه السن. والأولى إذن فى القوانين الوضعية أن لا يُحكم ببلوغ المرء الرشد إلا باختباره، وأن يُمهل لفترة يُفوَّض فيها التصرفات التى يتصرّف فيها أمثاله، فإن كان من أولاد التجار، فُوّض إليه البيع والشراء، فإذا تكرر منه فلم يُغْبَن أى يُخدع، ولم يضيّع ما فى يديه، فهو رشيد. وإن كان من أولاد الكبراء رُفعت إليه نفقة لينفقها لمدة فى مصالحه، فإن كان قيّماً بذلك، وصرَفها فى مواقعها، فهو رشيد. ويفوَّض إلى المرأة بالمثل فإن كانت ربّة بيت، وكانت ضابطة لما فى يديها، فهى رشيدة. ولا يتم هذا الاختبار إلا بعد بلوغ السن القانونية، فيأذن له وليّه بهذا التصرُّف إلى حين. وتسقط الحضانة عن الرشيد، فيصحّ له أن يقيم عند من يشاء من أبويه، وله أن ينفرد بمعيشته. على أن ذلك لايمنع أن تظهر مخايل الرشد على المراهق قبل هذه السن، كقوله تعالى فى إبراهيم: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ** ۝٥١ ﴾ (الأنبياء)، فقد عُرف بصلاح العقل فى سن مبكرة - قيل كان فتى فى السادسة عشرة، وكذلك عُرف «يحيى» بصلاح الحُكم كما قال تعالى فيه: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ۝١٢ ﴾(مريم) - فإذا بلغ المرء رُشده سقطت عنه الحضانة، وصار له أن يقيم عند أىٍّ من الأبوين إن كانا مطلّقين، أو تكون له معيشته المستقلة إن أراد. والرشيد فى الآية: ﴿ **أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ۝٧٨ ﴾(هود) هو الراشد أى الصالح، وهو المرشد أى المصلح، والرجل الرشيد: هو العاقل غير المضيّع للدين، وهو الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وجاء قوله تعالى فى وصف

شعيب: ﴿**لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** (٨٧)﴾(هود)، فقرن الرشد بالحلْم وهو ضد الطيش والجهل والسفه. وفي الآية: ﴿**وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** (١٧)﴾(الكهف) فقرن الولاية بالإرشاد، وقال في الوليّ، وهو الصديق، والنصير، والحليف، أنه المرشد، أي من يدلّ على الطريق الصحيح، وينصح بالحق، وفي الدعاء يقال: «**الله وليّك**» يعني مرشدك وناصرك. **والراشد** مثل ذلك، وهو العاقل والمرشد إلى الخير ، وفي تعريف **الراشدين** يقول تعالى : ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** (٧)﴾(الحجرات)، أي أنهم من وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان، وكرّه إليهم الكفر، وهو معنى المصطلح «**الخلفاء الراشدون**»: «والرُّشد هو الالتزام بطريق الحقّ والتصلّب فيه، من الرَّشاد وهي الصخرة.

•••

١٤٢٤. ﴿الفطرة من فلسفة القرآن﴾

الفطرة نزل عنها في سورة الروم وهي مكية: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** (٣٠)﴾، والحنيفية هي هذا **الدين القيم**، أضاف **الدين** إلى **القيمة، ومعنى الحنيفية**: الميل عن كل ما ليس حق، والتوجه باعتدال وبمقصد قويم وقوة على الجدّ إلى عبادة الله، **والعبادة معرفة**، والمعرفة لم تتولد كزعم التوراة نتيجة أن آدم عصى الله وأكل من **شجرة المعرفة**، فعرف نفسه وشاهد عُرْيَه، فصارت لديه الرغبة أن يعرف كل شيء، وأن يحصّل المعرفة أنّى كانت!!وإنما في القرآن أن الله خلق الإنسان **ليعرف**،وهو المخلوق الوحيد العارف، فإذا عرف انتهى إلى ربّه وذلك مقصود العبادة أي تحصيل المعرفة، أو مقصود العيش عموماً والوجود: أن يُعرَف الله، فيُعبَد. والمعرفة وتحصيلها **فطرة في** الإنسان، فهكذا هو مجبول. والقول بالفطرة من **فلسفة القرآن**، والعودة إلى الفطرة من **تربية القرآن**، فليس صحيحاً إذن أن **جان جاك روسو** سبق إلى القول بالفطرة أو بتربية الفطرة، ولا أن **المدرسة الاسكندرية** في الفلسفة سبقت إلى القول **بالإدراك الفطري Common sense** ،وإنما القرآن كان الأسبق، وسمى الدين «**فطرة**»، و«**الفطرة**» ديناً: وهي أن يعود الإنسان إلى طبيعته التي خلقه الله عليها، كقوله: ﴿**أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** (٤)﴾ (التين). والفطرة باعتبار القرآن هي «**ملكة الفهم**» التي يتم بها الإدراك العادي، أو هي «**ملكة الحقائق الأولية**»، وهي الحقائق التي تحظى بالموافقة الضمنية العامة. والاعتقاد في الله **مغروس innate في فطرة الإنسان** ، وهو حقيقة أولية في إدراكه، **وإنكار** الدين ضد الفطرة، وليس استمرار الأديان من بداية التاريخ إلا من باب ما يُسمى «**البرهان الفطري في**

إثبات وجود الله». وفى القرآن أنه تعالى الفاطر، والفاطر من أسمائه الحسنى، فطر الناس وكل شيء، والسموات والأرض، وفى القرآن سورة «باسم فاطر» هى السورة الخامسة والثلاثون. وكان الفيلسوف توماس ريد مؤسس مدرسة الفطرة الاسكتلندية (توفى ١٧٩٦م)، وعرّفها وليام هاملتون (١٨٥٦م) بأنها الفطرة الناقدة، وعلى ذلك يصبح أرسطو أول الفطريين، لأنه القائل بأن الأفكار الفطرية هى الأفكار الناقدة الأكثر تسلطاً، وقال عنها برتراند رسل : إنها أساس الأفكار العلمية، ونقطة الانطلاق التى يبدأ منها العلم. فهذه هى الفطرة فى الحكمة المغربية، فلنتعرف إليها فى الحكمة المشرقية الإسلامية: ففى الحديث عن أبى هريرة: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، أبواه يهوّدانه، أوينصّرانه، أويمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء (أى سليمة) ، هل تحسّون فيها من جدعاء ؟»، أو قال: «حتى تكونوا أنتم تجدعونها» وقال: «واقرءا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم ٣٠). ومعنى «تجدعونها» أن تفسدوا هذه الفطرة بتعليم ومعتقدات وأفكار خاطئة أو مضلة أو منحرفة، ويسمى علماء الطب النفسى وعلم النفس ما يجرى من الإفساد للفطرة بأنه بمثابة البتر للشخصية amputation of personality ، أى الإفساد لها والانحراف بها. وفى القرآن أن الفطرة هى البداءة، وهى الخلقة، ويروى ابن عباس أنه لم يكن يعرف معنى «فاطر السموات والأرض» كما فى سورة الأنعام، الآية ١٤ مثلاً، إلى أن اختصم إليه أعرابيان فى بئر، يدّعى كلٌّ ملكيته، فقال كل واحد: أنا الذى فطرته ـ يعنى بدأته، فعرف ابن عباس معنى أن الله هو الفاطر، أى أنه المبدىء، ومن كان مبدئاً فهو أيضاً المعيد، فذلك من براهين البعث. واحتجت فرقة من فرق الفلاسفة على القول: بأنه تعالى قد فطر الناس على الدين، فلو كانوا كذلك فَلِمَ يجحدون وينكرون ويختلفون؟ ولِمَ لم يكونوا جميعاً على الإسلام؟ والجواب: أن الفطرة هى خميرة الاعتقاد، والميل إليه، فالإنسان مفطور بالتفكير فى خالق لهذا الكون، وحتى وهو يجحد، فإن الجحود نوع من التفكير فى خالق الكون. ومَن قال إن الفطرة هى الخِلْقة، قَصَد إلى أن الله خلق كل مولود وبه جهاز للاعتقاد يعرف به ربّه ، قال فرويد إنه الضمير، أو الأنا الأعلى، وقال كنط إنه الأمر الخلقُى، والمعنى فى القرآن أن الله قد ميّز البشر عن البهائم بإرادة للاعتقاد هى فطرةٌ فُطر عليها الإنسان دون البهائم: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي(٢٢)﴾(يس)، يعنى الذى خلقنى. والفطرة استعداد للإيمان وليست الإيمان نفسه، والأطفال يولدون ليس بهم كفر ولا إيمان، كالبهائم تولد سليمة، ثم يحدث لها «الجدع »من بعد، يعنى يحدث الإفساد للفطرة السليمة. ومثل الفطرة مثل الأبجدية الجينية G.C.A.T فى الخلية البشرية، فكل الخلايا فيها هذه الأبجدية، ولكن

التآليف من هذه الحروف تختلف بحسب كل شخصية، ويدخل فى ذلك **الوراثة والبيئة**. والطفل حين يولد يستحيل أن يعى الكفر والإيمان كما فى الحديث، وإنما الكفر والإيمان يحدثان من بعد، كقوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا (٧٨)﴾**(النحل)، ومن لايعلم يستحيل منه كفر أو إيمان، ولايتأتى منه موافقة أو إنكار، ولاحساب له أو جزاء، كقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾** (الطور)، وقوله: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾**(المدثر)، فمن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء، كقوله: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾**(الإسراء). والإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، وهذا معدوم فى الطفل. وفى الحديث: «**إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم**»، والمعنى أن قسمة الإيمان والكفران فطرة، وبهذا الاعتبار فلا بد أن تكون جنة ونار، طالما سيكون هناك **مؤمنون وكافرون**. وفى الحديث: «... **هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً...**» تثبيتٌ للمعنى السابق: وهو **سبق العلم لله foreknowledge** . وفى الحديث: «**ألا إن بنى آدم خلقوا طبقات شتى، فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمنا ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً، ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمنا ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حسن القضاء حسن الطلب**» فصنّف الناس طبقات بحسب الاعتقاد، كما هم طبقات بحسب **الفهم والذكاء والرزق والعلم والوضع الاجتماعي**. وقوله «**يولد مؤمناً**» يعنى يولد ليكون مؤمناً، أو يولد ليكون كافراً بحسب العوامل الوراثية فيه، والعوامل الاجتماعية المهيئة للإيمان أو للكفر، وبحسب مجاهداته الشخصية، وكل ذلك يجرى بسابق علم **الله** فى خلقه، وليس قوله فى الحديث: «**خلقتُ هؤلاء للجنة وخلقتُ هؤلاء للنار**» إلا للتنويه بالمحصّلة النهائية: أن البعض للجنة والبعض للنار، وليس أنه قد خلقهم من البداية باستحقاق النار أو باستحقاق الجنة، أو أن الكفر والإيمان مما يُخلَق به الإنسان، كخلقة سائر أعضائه، فالقرآن على القول بأن الإنسان حرّ ومُخيّر، ومن ثم هو مُكلّف ومسئول.



١٤٢٥. ﴿الحلم فى علم النفس الإسلامى﴾

يُفرّق فى علم النفس الإسلامى بين **الرؤيا والحُلم** (بضم الحاء وإسكان اللام)، ومذهب المسلمين أن **الله** تعالى جعل من آليات النفس الإنسانية للإنسان النائم أن ترى

صوراً يتحصّل لها بها عِلم عن أمور أُخَر قد مضت من حياة صاحبها وتتعلق بأحداث من حاضره يهتم بها أو يخشى عواقبها، والله تعالى قد اختص الحلم بلغة كاللغات، فيها التشبيهات والاستعارات، ومنها ما يبيّن ويكشف، ومنها ما يغمض ويلغز. ولغة الحلم إشارية، فإذا رأى الحالم الغيم مثلاً فلربما يشير ذلك إلى ما يراه من كدورات فى واقعه، أو ما يتوقعه منها فى مستقبله، ولربما يكون الغيم عَلَماً على المطر، أو سابقةٌ لانفراج وشيك، وإنما التفسير تحدده بقية الحلم، والحالة المزاجية للحالم، وشخصيته، وما يعانى فى حياته أو يطمح إليه فى لاحق أيامه. والله تعالى قد جعل من صفات النفس الإنسانية أن ترى تهاويم الحياة فى المنام واليقظة، وأن تراها كما تحب، وذلك ما يسميه الإسلاميون **الرؤيا**، أو تراها كما تكره وهو ما يطلقون عليه اسم **الحلم**. فالرؤيا اسمٌ للمحبوب، والحلم اسمٌ للمكروه، والمحبوب والمكروه كلاهما من صُنع الله، ومما اختص به تعالى الإنسان. وفى الحديث مما رواه أبو قتادة عن الرسول ﷺ قال: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان**» أخرجه مسلم، وإضافةُ الرؤيا إلى الله إضافةُ تشريف، بخلاف المكروهة فإن إضافتها إلى الشيطان مجازاً، فلا فِعل للشيطان فيها على الحقيقة، فإنما الأحلام مصدرها **اللاشعور**، وهو مخزون الرغبات الشريرة، والحاجات اللامعقولة، والأمانى والآمال المستحوذة، وكل ذلك عَلَمٌ على الشيطان، وفى الإسلام، بل وفى كل الأديان فإن الله موجود فى الإنسان ويمثله **الضمير** أو **وازع الخير**، وفى المصطلح العلمى هو **الأنا الأعلى** أو **الأنا الأخلاقى**؛ وكذلك الشيطان مكانه فى الإنسان **وازع الشر**، وله **وسْوَسات**، وفى المصطلح العلمى هو **اللاشعور**، سُمى كذلك لأنه يفعل فعله فى الإنسان دون وعى منه، متستراً بصور شتى. وفى الحديث عن النبىّ ﷺ فى رواية أخرى: «**الرؤيا الصالحة من الله، والرؤيا السوء من الشيطان**»، وإضافة الصلاح والسوء للرؤيا يراد بها حُسن ظاهرها أو سوء هذا الظاهر، وقد ينصرف المعنى إلى حُسن تأويلها أو سوء هذا التأويل. وفى الحديث عن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال: «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة. والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدّث المرءُ نفسه، فإنْ رأى أحدكم ما يكره فليقم فليُصلِّ، ولايحدِّث بها الناس**» أخرجه أبو داود. ومعنى «**إذا اقترب الزمان**» أى إذا أوغل وساءت الأحوال، فالإيمان يكشف المستور، ويرفع الحجاب عن الغيب، فيرى المؤمن بنور الإيمان، ويتوقع ما لا يكذبه قابل الأيام. وقوله: «**أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً**» هو كما يقول عِلم **الأحلام**: أن الإنسان الصادق فى حديثه، ومع نفسه والناس، صادقٌ كذلك فى

رؤياه. فالإنسان فى الرؤيا كما هو فى الواقع، والكاذب فى الواقع يتطرق الخلل فى شخصيته إلى رؤياه، وإلى سرده للرؤيا وتأويله لها جميعاً. ولربما يكون المعنى أن صدق الرؤيا لايتحقق للناس إلا فى آخر الزمان عند انقطاع العلم، وموت العلماء والصالحين ومن يُستضاء بأقوالهم وأعمالهم، فيجعل الله تعالى للمؤمن جابراً وعوضاً ومنبّهاً له وهو الرؤيا. وقوله «ورؤيا المسلم جزءٌ من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة»، وفى رواية: «جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»، وفى رواية: «رؤيا الرجل الصالح جزءٌ من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة، وفى رواية: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة»، وفى رواية: «من أربعين جزءاً» ، وفى رواية :«من تسعة وأربعين» وقيل خمسين، وستة وعشرين، وأربعة وأربعين، وهذا الاختلاف مقصود، فهو اختلاف بحسب حال الرائى من الإيمان والصلاح. والرسول ﷺ ظل يُوحَى إليه ثلاثاً وعشرين سنة، منها عشر سنين بالمدينة، وثلاث عشرة بمكة، وكان قبل ذلك ولمدة ستة أشهر يرى الوحى فى المنام. وربما المراد أن ذلك ما كان معه ﷺ خصيصاً، فكانت مناماته شبيهة بما كان يحصل له وحياً، والفرق بين الرؤيا والوحى، أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من الوحى. غير أنه من ناحية أخرى لم يثبت أن أمد الرؤيا قبل الوحى أو النبوة كان ستة أشهر، وثبت أنه رأى بعد النبوة أو المبعث منامات كثيرة، ولهذا تغيرت النسبة. وقيل هذا استنتاج باطل، لأن كل مناماته ﷺ إنما كان يُوحَى بها. والمراد برؤى النبوة أنها منامات فيها إخبار بالغيب، وهو إحدى ثمرات النبوة، ولكنه ليس فى حدّ النبوة، فليس شرطاً أن يبعث الله نبيًا ويخبره بالغيب، ولايقدح ذلك فى نبوته ولايؤثر فى مقصودها . وهذا الجزء من النبوة وهو الإخبار بالغيب إذا وقع لايكون إلاّ صدقاً، وبذلك يكون مضمون الحديث مقصوراً على النبىّ ﷺ، وفيه وصْفٌ لأحواله من النبوة والغيب والاحلام، وبذلك يُفرَد اسم «الرؤيا» لأحلام الأنبياء دون غيرهم، وكان وصفها بأنها «جزء من النبوة» فيما يتعلق بأحلام الأنبياء دون غيرهم، والأنبياء بلا استثناء هذا دأبهم: يوحى إليهم فى منامهم كما يوحى إليهم فى يقظتهم، وقال البعض لذلك أن الإسراء والمعراج كانا رؤيا، والرؤيا تأتى على موافقة النبوة، أى مقيّدة بها وفى حدودها، وهى لذلك جزء من النبوة. وفى رواية لأبى هريرة أدرجت فى الحديث : «... فيعجبنى القيد وأكره الغُلّ، والقيد ثباتٌ فى الدين» أو قال: «وأحب القيد، وأكره الغُلّ»، وحبُّه للقيد فى الأحلام لأن القيد يكون فى الأرجل يكفُّها عن المعاصى والشرور، بينما الغُلّ موضعه العنق، وهو صفة أهل النار. والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً** (٨)﴾(يس)، وقال: ﴿**إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** (٧١)﴾(غافر). وتأويل

الحلم فى علم النفس الإسلامى يقال له أحياناً «علم تعبير الرؤيا»، و«أهل العبارة أو التعبير» يأوّلون لفظتى القيد والغل تأويلات شتّى، فيقولون: إذا رأى القيد فى رجليه وهو فى مشهد خير كالمسجد مثلاً، أو على حال حسنة عموماً، فهو دليل ثباته على هذه الحال الحسنة. ولو رآه مريض، أو مسجون، أو مسافر، أو مكروب، كان دليلاً على ثباته على حال المرض، أو السجن، أو السفر، أو الكرب إلخ. وقالوا: ولو قارن القيد مكروه، بأن يكون مع القيد غُلٌّ، غَلَب المكروه، لأن الغُلّ أداة تعذيب يُختص به المعذَّبون. والغُلّ مذموم إذا كان فى العنق، فإذا كان فى اليدين فهو كفهمّا عن الشرّ وهو حسَن. وهكذا فى كل رموز الأحلام. وفى القرآن عن يوسف عليه السلام: ﴿ **إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)** ﴾(يوسف)، والكواكب والشمس والقمر فى الحلم رموز، والرمزية فى حلم يوسف هى لغة بسيطة وعالمية، وهى لغة الفطرة، واللغة التى تناسب العقل الباطن، وهو العقل البدائى أو الفطرى فى الإنسان . ومدارس التفسير للأحلام مدرستان، واحدة تقول بالتفسير المادى للرمز، فالرمز له معنى ثابت كرمز الثعبان مثلاً للتشابه بين الثعبان والشرير، فنرى الشرير فى الحلم فى شكل ثعبان؛ ومدرسةٌ تقول بالتفسير الوظيفى للحلم، بأن لانرى مشابهةً بين الشمس والأب، والقمر والأم كما فى حلم يوسف، ولكن الشمس والقمر والكواكب فى الحلم لمعنى وظيفى، فالأب وظيفته التنوير، كما أن الشمس وظيفتها التنوير، والمشابهة بين الأم والقمر ربما فى الجمال، وربما لملازمة القمر للشمس واعتماده عليها كاعتماد الأم على الأب فى الحياة. والقرآن فى أحلام يوسف التزم التفسير الوظيفى، وعلم التأويل أو تعبير الرؤيا الإسلامى هو علم يؤسس للمدرسة الوظيفية للأحلام، ورمز القمر فى حلم يوسف يجمع فى نفسه عدداً من الصور عن المرموز، فالقمر مثلاً ينتظم به للمرأة الطمث والحمل والولادة، ودورة الحيض والولادة دورة قمرية تحسب بالشهور القمرية. والمرأة إذا اكتمل حملها نعرفه باستدارة بطنها كالقمر إذا اكتمل . والقمر كالمرأة أوهن من الشمس كالرجل، والشمس تصور الذكورة من حيث قوتها وعنفها وثبات عواطفها ورسوخها، بينما القمر قد تصور به عواطف الأنثى من حيث سرعة تغييرها. والقمر يبدأ وليداً ضعيفاً كالحب، ويكبر إلى أن يصبح بدراً، وكل ذلك فى الشهر يعود بعده إلى الأفول، وما أسرع ما تتقلب المرأة فى عواطفها وكأنها القمر، بل ما أسرع ما يتغير جمالها كالقمر فيصيبه الأفول والاضمحلال إلخ. ونلاحظ أن حلم يوسف كان ويوسف طفلاً بعد، والأطفال يحلمون كما يحلم الكبار، وينفّس الأطفال عن أنفسهم ما يعانون ويكابدون، ويصبّون فى الأحلام آمالهم ومخاوفهم، وتعكس الأحلام إحباطاتهم

وفشلهم وعداواتهم، غير أنه للفارق بين التركيب النفسى للطفل والتركيب النفسى للبالغ، فإن أحلام الأطفال تتسم بالمباشرة والبساطة والوضوح. وفى **القصص اليهودى** أن يوسف حلم وهو فى الرابعة من عمره، وكان نائماً فى حجْر أحد إخوته. وكان ليوسف فى الواقع - كإخوته - قضيب أوعصى صغيرة مثله، يتوكأ عليها ويهش بها على الغنم، ومن عادة الرعاة عندما يداهمهم النوم يغرسون العصى فى الأرض إلى جانبهم وينامون، ويوسف فعل مثلهم ونام، فحلم أن عصاه غرسها إلى جانب عصىّ إخوته الأكبر منه. فما لبثت عصاه أن استطالت ونمت حتى بلغ طولها أطوال عصى إخوته. وتثبّتت فى الأرض وصارت لها جذور تشعبت، وغلظت حتى أزاحت عصى إخوته، وانتصبت قائمة فى شموخ، فلما استيقظ ذكر لإخوته حلمه، فقالوا: **يوشك ابن راحيل أن يقول أنتم عبيدى وأنا سيدكم!** والحلم كما ترى **رمزى**، ومضمونه **التنافس بين الإخوة**، وخاصة أنهم **إخوة غير أشقاء**. وهو تعبير عن عجز يوسف وهو طفل وانعكاس لتصور يوسف العالى عن ذاته، فهو يرى أنه سيتفوق على إخوته. والحلم من **أحلام الطموح**، ويعبر عن رغبة فى **التفوق**، ورموز الحلم كلها من **البيئة**، وتصور حقيقة العلاقة بين يوسف وإخوته، ومردوده سرعان ما نجده فى قصة إلقائهم له فى البئر. وكذلك كان حلمه **بالشمس والقمر والكواكب تسجد له**، فهو حلم لطفلٍ تحتدم به الرغبات الطموحة، وكأن ما يستشعره يوسف ولايستطيع أن يفصح به لسانه مباشرة يجد التعبير عنه تعبيراً غير مباشر فى الحلم الذى تفسيره ما قاله إخوته فى الحلم الآخر «**يوشك ابن راحيل أن يستعبدنا**». والحلمان معاً من **أحلام القدرة المطلقة**. وقد صدق الحلمان لأن يوسف من الصدّيقين، وفى الحديث عن الرسول ﷺ برواية أبى هريرة وأخرجه البخارى قال: «**فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا**» ،**والجاهلية** قد تكون ما نعرف مما كان قبل الإسلام، وقد تعنى أيضاً الطفولة، فخير الناس فى طفولته **هو** أيضاً خيرهم فى رجولته. ويوسف كان من أتقى الناس، ولذا قال فيه النبىّ ﷺ «**فأكرم الناس يوسف نبىّ الله، ابن نبىّ الله، ابن خليل الله**» أخرجه البخارى. ولمّا قصّ يوسف حلمه على أبيه قال له: ﴿ **لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا** ⑤﴾(يوسف)، ولذا قال النبىّ ﷺ: «**إذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرّها، ولا يحدّث بها أحداً فإنها لاتضرّه**»، وهو نفس المعنى فى الحديث الآخر: «**استعينوا على قضاء الحوائج** بكتمانها، فإن كل ذى **نعمة محسود**»، والحديث : «**الرؤيا على رِجْل طائر ما لم تعبَّر، فإن عُبِّرت وقعت**»، ولهذا جاء فى الحديث: «**لايحدثن أحدكم بتلعُّب الشيطان به فى منامه**»

رواه مسلم، فلم يكن الرسول ﷺ يميل إلى تأويل أضغاث الأحلام، ومذهبه فى ذلك دلالة الحلم ذاته، ويرى أن أمثال هذه الأحلام من نوع أحلام التحزين. وفى الحديث عن أبى هريرة قال: «من رآنى فى المنام فقد رآنى»، وفى رواية أخرى: «من رآنى فى المنام فقد رأى الحق»، يعنى أن الرؤيا ليست أضغاث أحلام، وصحيحة، والمراد من رآه فقد أدرك الحقّ، ولاتعنى رؤيته أنه يراه عياناً، فالرؤية فى الأحلام تكون للصفات المتخيلة لاالمرئية، والرؤيا هى رؤيا تأويل لارؤيا حقيقة. ورؤية الله تعالى فى المنام جائزة رغم أنه لايجوز التجسيم على الله، وتأويلها أنها خواطر فى القلب، ودلالات على أمور مما كان أو يكون. والعلم بالأحلام يقوم على أن الأحلام تأتى على شخصية الحالم، والذى يحلم بالنبىّ ﷺ أو بالله تعالى إنما لاشتغاله بالتقوى، وخوفه من العقاب، أو رجائه فى الثواب، أو طلباً للعون، وكلها من الأمور التى تعنّ للشخص المتديّن ولا تأتى غير المتدين. وقد حثّنا الرسول ﷺ على التزوّد من علم الرؤيا، والسؤال فيها، وتأويلها فقال: «من رأى منكم رؤيا فليقصّها أعبّرها له» رواه مسلم، والحديث محمول على أنه ﷺ يعلمهم تأويل الأحلام، وفضيلة التأويل بالخير، واشتمال الأحلام على ما شاء الله من الإخبار بالغيب. والتعجيل بسرد الرؤيا أو تسجيلها من أصول علم التأويل. وعن سمرة بن جندب قال: كان النبىّ ﷺ إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه فقال: «هل رأى أحدٌ منكم البارحة رؤيا»؟ فالمبادرة الى تأويل الرؤيا مستحبٌّ، وتعجيلها فى أول النهار بعد اليقظة مباشرة، لصفاء الذهن من الاشتغال بمسائل اليوم إلا منها، ولأن عهد الرائى بالحلم قريب لم يطرأ عليه ما يهوّشه عليه، ولأنه قد يكون فى الحلم ما يستحب تعجيله كالحثّ على الخير، أو التحذير من معصية. ومن الأحلام المهددة الحلمان اللذان رآهما صاحبا يوسف فى السجن: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (يوسف)، وأوّلهما يوسف قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ (يوسف)، ومعنى «قضى الأمر» أنه قد فرغ من التأويل وهو واقعٌ لا محالة، لأن الرؤيا كما سبق فى حديث رسول الله ﷺ: «على رِجْل طائر ما لم تعبّر، فإذا عُبّرت وقعت. ومن شروط تأويل الحلم اعتبار مكانة الحالم الاجتماعية، ومعنى الرمز محلياً، والحالم الأول كان ساقى خمر الملك وسجن لسبب ما، ومن الطبيعى أن يُفرج عنه طالما أنه برئ، ويوسف علم بسبب سُجن الحالمين، ويعرف جيداً أن الأول برئ مما روى له من حكايته. والحالم من اشتغاله بأمر نفسه حلم انه يعصر الخمر، فبديهى أن يعنى ذلك أنه

يعود إلى عمله الأول. وأما الثانى فمصيبته أكبر لأنه رأى أنه يحمل الخبز فوق رأسه تأكله الطير، وحلمه من نوع ما يسمونه فى علم التأويل بالأحلام المكشوفة، وهى التى تفسّر نفسها، ولم يكن هناك من تفسير للحلم إلا أنه سيدان ويُصلب ويُترك فى العراء لتأكل الطير من رأسه. وأما حلم فرعون كما يرويه الملك: ﴿**إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** (٤٣)﴾ (يوسف)، فهو من **الأحلام الكاشفة**، أى التى تكشف عن المستقبل، ولقد صدقت فكانت **رؤيا صادقة**، والصدق المستقبلى دليل على صحة التفسير، **والإنباء** طريقة من طرق التحقق من صدق التفسير، وهذا الحلم تجتمع فيه كل حِيَلَ الأحلام من **التكثيف، والإبدال، والقلب، والنكوص، والترميز، والإخراج الدرامى**. ولو حلم بهذا الحلم فلاح أو عامى لكان تفسيره تفسيراً آخر، ولكن الذى حلم به هو **الملك** نفسه، فما شأن الملك بالبقر وبالسنابل إلا أن يكون مشغولاً بأمر الزراعة فى مصر كلها من حصاد وتربية ماشية إلخ ... ومصر بلد ترتبط الزراعة فيها بالنيل، والنيل قد يفيض وقد لا يفيض، وعهد المصريين به أن يفيض سبع سنوات متتاليات، ثم لا يفيض سبع سنوات أخرى عجافاً. ولا يمكن تفسير الحلم إلا بما فسّره به يوسف: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ** (٤٧) **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ** (٤٨) **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (٤٩)﴾ (يوسف). وشبيه بهذا الحلم حلم فرعون موسى الذى تقصّه التوراة، فقد رأى حلماً فظع به وهاله: كأن ناراً خرجت من الشام ثم أقبلت حتى انتهت إلى مصر فلم تدع شيئاً إلاّ أحرقته، وأحرقت بيوت مصر كلها ومدائنها وحصونها. ـ فاستيقظ الفرعون من نومه فزعاً فجمع لها ملأ عظيماً من قومه فقصّها عليهم، فقالوا له: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من الشام رجلٌ من ولد يعقوب يكون هلاك مصر وهلاك أهلها على يديه، وهلاكك أيها الملك. وتقول الميثولوجيا اليهودية: فعند ذلك أمر فرعون بذبح الصبيان حتى أظهر الله تأويل رؤياه، ولم تغن عنه حيلته شيئاً، وربّى موسى فى حجره، ثم أهلكه على يديه. ـ والحلم واضح أنه من وضع **الأحبار**، أو أنهم قد زادوا فيه، لأن حكاية أن محدث الفتنة من ولد يعقوب، وعلى يديه يكون هلاك مصر، ملفقة ولا تأتى فى تفاصيل الحلم. وموسى ولد بمصر، وعاش بها قومه مدة ربما تزيد على **الأربعمائة** سنة أو تقل عن ذلك، حتى اندثرت قوميتهم، وصارت لهم عادات ولغة المصريين. ويقول **فرويد** ـ وهو يهودى ـ فى كتابه «**موسى والتوحيد**»: (ترجمة الدكتور الحفنى) أن **العىّ** بلسان موسى كان عَجْزَه عن التحدّث

بالعبرانية، وأن الختان اليهودى هو عادة مصرية لها ما يبررها عند المصريين وليس لها ما يبررها عند اليهود، وأن تحريم لحم الخنزير لأن المصريين حرّموه على أنفسهم، فقد كان شكل الخنزير من الصور التى اتخذها الإله ست فى عراكه مع أخيه أوزيريس، فكان الخنزير نجساً عند المصريين لهذا السبب، وحرّمه اليهود عندهم بلا سبب. وتحريم اليهود للتماثيل كان لأن المصريين تعبّدوا التماثيل، فكأن الديانة اليهودية مصرية المنشأ والطابع، وليس فى الحلم ثمة ما ينبئ بأن الفتنة أو الغزو يمكن أن يرتبط بقوم موسى من نسل يعقوب. والحلم يصور على العكس هموم الملك بمشاكل بلده، وكان يخاف من الغزو من ناحية الشام، فرأى النار تأتى من هذه الناحية. والحلم هو رأى الملك الشخصى فيما يشهد من غزو فكرى قد اجتاح بلده ومصدره الشام، وكان ذلك وقت أن غزا الهكسوس وليس اليهود أرض مصر واستولوا على إقليم جاسان. والحلم بالنار من الأحلام النمطية، والنار رمز للحرب، وللفتنة، والوباء ينتشر انتشار النار فى الهشيم، والنار من دلالات الهدى فقد اهتدى بها موسى، وهذا الذى أوردناه عن بعض الأحلام من القرآن هو قليل من كثير، وعلم الأحلام الإسلامى علمٌ متفرّد أساسه الشخصية الحالمة، فطالما هى شخصية مؤمنة فإنها لصدقها تصدق أحلامها، وإلا كانت كوابيس وأضغاث أحلام. والمؤمن فى القرآن أحلامه رؤى وليست أحلاماً عادية، وهو ما ننبّه إليه كمقولة مهمة من مقولات الحلم فى علم النفس الإسلامى.

١٤٢٦. ﴿ضرب الرمل﴾

فى القرآن اسمه: ﴿ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ (الأحقاف ٤)، وكان العرب يخطون خطوطاً فى الرمل ويقرأونها، وهو نوع مما كانوا يسمونه علوم الغيب، أو الباراسيكولوچيا Parapsychology الآن، ومنها الطِّيَرة، والزجر، والفأل، والرؤيا، وكل ذلك ممنوع تربوياً بالنصّ القرآنى، وينبغى أن يُربّى المسلم ويُنشّأ على الأخذ بالأسباب، وبالاستدلال، والنظر إلى الأمور بواقعية وموضوعية، وهو ما يدأب القرآن على الدعوة إليه.



١٤٢٧. ﴿النفاق: مرض نفسى﴾

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (٢٩)﴾ (محمد) وهؤلاء هم أدنى المنافقين؛ والنفاق يكون فى القلوب، يعنى يظهر على المشاعر؛ والناس فيه على مراتب، فمنهم من يكون أشد نفاقاً (التوبة ٩٧)، ومنهم من يمرد على النفاق (التوبة ١٠١)، يعنى يتمرّس به حتى ليعدّونه من خبرائهم فيه، كقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن

بَعْضٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة). وقيل الفرق بين المنافق الذى يمكن أن يتسمىّ **منافقاً** وبين: ﴿**الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ أن الأخيرين عهدهم حديث بالنفاق، وخبرتهم فيه بسيطة، وفيهم ضعف نيّة. وأما **المنافقون** فهم الذين يوصفون فى القرآن بأنهم **فاسقون** (التوبة ٦٧)، وكاذبون (المنافقون ١). وفى القرآن المقصود بهم عبد الله بن أبىّ **وأصحابه**، وأمثالهم.



١٤٢٨. ﴿النفاق والمنافقون﴾

ثلاث فرق كانت معادية للرسول ﷺ وللإسلام، **الأولى**: مشركو مكة، **والثانية** يهود المدينة، **والثالثة** المنافقون، وتناولت النفاق والمنافقين **اثنتا عشرة** سورة من القرآن، وكانت سورتا «**المنافقون**»، و«**التوبة**» أكثرها خوضاً فى موضوع النفاق، وصفات المنافقين، ومن كان منهم يعادى النبى ﷺ ، وما هم عليه من أخلاق وصفات، أظهرها **الكذب** والخداع، وأن **يقولوا ما لا يفعلون، وما لا تعتقده قلوبهم**. ولمّا فضحتهما السورتان قيل فيهما إنهما السورتان **الفاضحتان**، فقد نبهتا إلى تخاذل المنافقين وتعلّلهم بالعلل السقيمة؛ وتآمرهم على المسلمين، وصدّهم عن الإسلام، وتوهينهم للروح المعنوية للمجاهدين. والمنافق لا أمان له ولا أيمان ولا عهد، ويقول بلسانه ما يرضى ظاهره، وهو **المتنقض** للدين والمستخف به بباطنه، أو المعرّض له ظاهراً، وأمثالهم حالياً فى مصر كتبة الروايات المشهورة **الأربع** التى أصدرتها قصور الثقافة وكلها سبٌّ فى الدين، وسردٌ للفحش، وتوصيفٌ للعهر، ومن يتولهم فهو منهم، وآية النفاق فيهم أن: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة)، أى هم متشابهون فى الشرّ، ولا يؤدّون الحق، ويتركون ما أمر الله، ويحلفون أنهم مؤمنون وهم ليسوا على الإيمان. والأمر معهم كما قال تعالى: ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴿٧٣﴾﴾ (التوبة)، ومجاهدتهم لساناً بلسان، وإن اشتد زجرهم فليشتد زجر المؤمنين لهم، وليغلظوا لهم القول. وفى أيامنا لا أقل من مقاطعة أمثالهم وعزلهم، والعبوس فى وجوههم، وإقامة الحجّة عليهم باللسان، مع ملاحظة أن **العاصى** ليس منافقاً، وإنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامناً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً. وما أيسر على المنافق أن يتبرأ مما يقول، أو يسحبه، أو يأوّله، وما أكثر ما يلجأ الى التآمر، ولقد تآمر المنافقون على قتله ﷺ **ليلة العقبة فى غزوة تبوك**، وكانوا اثنى عشر رجلاً، وصفهم القرآن فقال: ﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ** ﴿٧٤﴾ ﴾ (التوبة)، أى أغنى المؤمنين . والمنافق به شُحّ يتعلل بأنه لا مال له، ويتعهد

إن أفاء الله عليه من فضله ليتصدقن ويكونن من الصالحين، فإذا أتاه الله من فضله بخل به وتولى وأعرض، فالله يعقبه نفاقاً فى قلبه إلى يوم يلقاه.

وفى القرآن فإن النفاق إذا كان فى القلب فهو كفر، وإذا كان فى الأعمال فهو معصية، وفى الحديث: «أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهم، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»، وفى رواية: «وإذا وعد أخلف»، وشرحه رسول الله ﷺ فقال: «المنافق إذا حدّث وهو يحدّث نفسه أنه يكذب، وإذا وعد وهو يحدّث نفسه أنه يخلف، وإذا ائتمن وهو يحدث نفسه أنه يخون». ولمّا رأى رسول الله ﷺ الحيرة فى وجوه أصحابه وتخوّفهم أن تكون بهم خصال من المنافقين، قال: «ما لكم ولهن ؟ إنما خصصت بهن المنافقين كما خصّهم الله فى كتابه. أما قولى «إذا حدث كذب» فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1)﴾ (المنافقون)، قال: «أفأنتم كذلك» ؟ قالوا: لا. قال: «لا عليكم! أنتم من ذلك برآء. وأما قولى «إذا وعد أخلف» فذلك فيما أنزل الله علىّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77)﴾ (التوبة)، قال: «أفأنتم كذلك» ؟ قالوا: لا. قال: «لا عليكم! أنتم من ذلك برآء. وأما قولى «وإذا أئتمن خان»، فذلك فيما أنزل الله علىّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)﴾ (الأحزاب). وقال: «فكل إنسان مؤتمنٌ على دينه، فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السرّ والعلانية، والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية.. أفأنتم كذلك»؟ قالوا: لا. قال: «لا عليكم! أنتم من ذلك برآء».

ونتبين أن النفاق نفاقان: أحدهما نفاق الكذب، وهذا أخف أنواع النفاق وطأة وضرراً، كالآية: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (2)﴾ (المنافقون)، وجنّة يعنى سُترة، كمن يقول أقسم بالله، وأشهد بالله، أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله، أو كما فى الآية ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا (74)﴾ (التوبة). والنفاق الثانى نفاق العمل: وهو أخطرهما وأكثرهما أذى وشراً، لأنه لا يكون مجرد كذبة وتنتهى، وإنما تترتب عليه أعمال، ويجر إلى مشاكل ومصائب وربما حروب. وكما ترى فإن نفاق البعض من المفكرين والصحفيين والسياسيين فى أيامنا من نوع نفاق العمل، وينطلى على الكثير من سواد الناس، ويخدمهم أنهم من أصحاب السلطان أو الجاه، ولهم حول وطول، وهؤلاء هم المعنيون بالآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ

فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)﴾ (المنافقون)، فوصفهم بجمال الصورة والسمت والهيئة، وحسن الإبانة، إلا أنهم أجساد بلا أرواح ولا أحلام، يعيشون فى قلق وشك وريبة، ويظنون أنهم انكشفوا، وتعرّت أسرارهم، وافتضح نفاقهم، وأن الناس يتناجون فيهم ويتآمرون عليهم، ولذلك كانت خطورتهم، فقد يلجأون الى وسائل أعنف، فاحذروهم لأنهم العدو. والآية نزلت فى عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين، وفى وَجَدّ بن قيس، ومصعب بن قشير، فلما قالت لهم عشائرهم توبوا، لووا رءوسهم استهزاء وإباءً، فوصفتهم الآية التالية وصفاً أدق فقالت: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥)﴾** (المنافقون) ، وقال عبد الله بن أبىّ لمّا لوى رأسه : أمرتمونى أن أومن فقد آمنت، وأن أعطى زكاة فقد أعطيت، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد! ولعمرى إنه لسيد المنافقين عن حق !

•••

١٤٢٩. ﴿علامات النفاق﴾

علامات النفاق كما ينبّه إليها القرآن، تدلّ عليها الآيات : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾** (البقرة)، **فالتمويه على الناس** من أولى العلامات: وهو أن يضمروا خلاف ما يظهرون، وأن يسلكوا كمؤمنين خلاف ما يبطنون ككافرين، يريدون أن يحفظوا أنفسهم من أن ينزل بهم عقاب، وليحقنوا دماءهم، ويصونوا أموالهم. **والإيمان** من أعمال الله، **والتمويه بالإيمان** فيه مخادعة لله ، وأصل الخداع الإفساد، وهم يفسدون اعتبارهم عند الله والناس بالرياء، وما تحل عاقبة الخداع إلا بهم، وفى المأثورات : **من خدع من لا يُخدَع فإنما يخدع نفسه**. وخداع الله هو أن يعملوا ما يأمر به **ويطلبوا به غيره**، ولا تنطلى حيلتهم عليه تعالى، ويصدقون بها أنفسهم ولا يفطنون لغفلتهم وغبائهم وجهلهم، ولا يفكرون في وبال خداعهم. والنفاق بهم مرض فى القلوب، يخلف فساداً فى العقيدة، وشكاً وجحداً وتكذيباً، فكان أن زادهم الله مرضاً على مرضهم، كقوله: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾** (التوبة). وعلل القلوب من اتباع الهوى، والنفاق هوى.

•••

١٤٣٠. ﴿من سمات المنافق﴾

النفاق : إظهار خلاف الباطن، والمنافقون لهم سماتهم، يقول تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾** (الحج)، فالمنافق لا إيمان له ولا دين ولا معتقد،

وإن أظهر شيئاً من ذلك فلغرض، ودليلنا إليه أنه شكّاك، وضعيف فى اعتقاده، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه، وحرف كل شىء طرفه وشفيره وحده، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه، والتزامه بمعتقده طالما فيه منفعة له، ففى الدين هو يعبد الله فى السرّاء دون الضرّاء، ولو عبَدَ الله على الشكر فى السرّاء، والصبر فى الضرّاء لما كانت عبادته له على حرف. وقيل : المنافق يعبد الله على حرف، يعنى بشرط، وكان شيبة بن ربيعة يسأل النبى ﷺ الدعوة له ليرزقه الله المال والولد ليؤمن به، وليعدل إلى دينه، فدعا له فآمن، ثم أراد الله أن يفتنه فأخذ منه ما رزقه، فارتد عن الإسلام، فذلك إذن الذى يؤمن على حرف، وتلك علامته.

•••

١٤٣١. ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾

قيل فى الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)﴾ (البقرة) أن من عباد الله قوماً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ويشترون الدنيا بالدين، ويغترّون بالله، ويجترئون عليه. ويعلمنا علم النفس الإسلامى الاحتياط فى أمور الدين والدنيا، واستبراء الناس إلا ان يكونوا من نوع هؤلاء الذين تحذّر منهم الآية، ولهؤلاء سيكولوجية خاصة ينبغى العلم بها، والحصيف من لا يأخذ بظاهر أحوال الناس، وما يبُدون من الإيمان والصلاح، الى أن يبحث عن بواطنهم، والآية وغيرها تحذّر من هذا النمط من أنماط النفاق؛ وهو النمط الذى يُظهر الأقوال الجميلة وهو ينوى الأفعال القبيحة وفى قلبه ألد الخصام، وفى الحديث : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

•••

١٤٣٢. ﴿المنافق تأخذه العزة بالإثم﴾

المنافق لا يسمع لنصح، وآية نفاقه الكِبْر والزهو، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾ (البقرة)، وكفى بالمرء إثماً أن يقول له أخوه : اتّقِ الله، فيقول : عليك بنفسك، مِثلُك يوصينى ! واعتزازه بنفسه يوقعه فى الإثم.

١٤٣٣. ﴿رأس النفاق عبد الله بن أبىّ بن سلول : دراسة فى شخصية المنافق﴾

هو عبد الله بن أبىّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجى، وكنيته أبو الحُباب، وشهرته ابن سلول، وسلول هى جدته لأبيه، وكان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم، ورأس المنافقين

في المدينة زمن الرسول ﷺ ، وأظهر الإسلام بعد بدر، ولكن إسلامه كان تقية، ولما تهيأ النبيّ ﷺ **لأحد**، انخذل عنه ومعه ثلاثمئة رجل، وعاد الى المدينة، ثم كرر فعلته **يوم** تبوك. وكلما حلّت بالمسلمين نازلة أبدى الشماتة فيهم، وإذا سمع سيئة تُروى عنهم أو تُنسب إليهم أذاعها ونشرها، وله في ذلك أخبار، ومنها حديث **الإفك** المشهور، وما روّجوا على عائشة أم المؤمنين حتى اتهموها في **صفوان بن المعطل**. وكان عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين المروّجين للإفك، ولذا وصفه القرآن فقال: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ** ⑪﴾ (النور)، ولقد قيل إن النبيّ ﷺ حدّه ثمانين جلدة، والصحيح أنه لم يُحَدّ، لا هو ولا أي من أصحاب الإفك، **لأن الحدود لا تقام إلا بالإقرار أو البينة** ، ولم يكن هناك إقرار ولا بينة، والرسول ﷺ لم يتعبّده الله أن يقيم الحدود بإخباره عنها، كما لم يتعبّده بقتل المنافقين وقد أخبره بكفرهم كما جاء في سورة التوبة، يقول: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ⑭٧﴾ (التوبة)، قيل نزلت في عبد الله بن أُبيّ، قال: ما **مثلُنا** ومثل **محمد إلا** كما قال قائل: تُسَمِّن كلبك يأكلك ! ولئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ !» وفي رواية أخرى: أن عبدالله أُبي قال: لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضّوا؛ وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن **الأعزّ منها الأذلّ**، فلّما واجههم النبيّ ﷺ أنكر وجحد وأقسم أنه ما قاله، فنزلت الآية: ﴿**لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا**⑦﴾ (المنافقون)، والآية: ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**⑧﴾(المنافقون)، وفضحت سورتا «**التوبة**»، و«**المنافقون**» عبدالله **بن أبي** ومَن ذهب مذهبه في النفاق. و«كلمة الكفر» في الآية هي قول عبدالله بن أبي: ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**⑧﴾؛ وقوله تعالى: «كفرو ا **بعد إسلامهم**» أي ارتدوا، فدلّ على أن المنافق كافر، والكُفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة، بالمقارنة إلى **الإيمان** الذي لا يكون **إلا بلا إله إلا** الله دون غيره من الأقوال والأفعال، وقوله تعالى: ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ (التوبة٧٤) يعني المنافقين وكبيرهم **عبد الله بن أبيّ**، فقد دبّروا لقتل النبيّ ﷺ **ليلة العقبة ـ في غزوة** تبوك، وكانوا اثنى عشر رجلاً سمّاهم الرسول ﷺ بأسمائهم، ولمّا سأله حذيفة: ألا تبعث إليهم لتقتلهم؟ قال: «**أكره أن تقول العرب لمّا ظفر محمدٌ بأصحابه أقبل يقتلهم**». وقال: «**بل يكفيهم** لله بالدّبيلة» ، سأله: ما الدبيلة؟ قال: «**شهاب من جهنم يجعله على نياط فؤاد** أحدهم حتى تزهق نفسه» أخرجه مسلم، يعني: **أنه ترك عقاب نفاقهم إلى الله**: ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا**

فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾(التوبة٧٧) ، يعنى زادهم نفاقاً وثبّتهم عليه إلى يوم مماتهم، فلما مات عبدالله بن أبىّ جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ وسأله قميصه ليكفنّ فيه أباه تبركاً، فأعطاه رسول الله ﷺ قميصه، قيل إكراماً للابن وتطييباً لقلبه، وقيل لأن عبدالله فى حياته أعطى قميصه للعباس عمّ النبىّ ﷺ يوم بدر، لما أسر العباس وأتى به وسلبوا ثوبه، ورآه النبىّ ﷺ بلا قميص ولاثوب، فأشفق عليه وطلب له قميصاً؛ فلم يجدوا له ما يقدر عليه إلا قميص عبد الله بن أبىّ، فكساه النبىّ ﷺ إياه، فلذلك نزع النبىّ ﷺ قميصه ليكفَّن فيه عبد اللّه، فبذلك يرفع اليد التى كانت لعبد اللّه عنده، فلا يكون له شيئ عليه يوم القيامة. والصحيح أن النبىّ ﷺ أعطى القميص عن طواعية، يفعل به خيراً، فذلك هو مطلوب دينه، وقال لعمر حين عاتبه: «**إن قميصى لايغنى عنه من الله شيئاً، وإنى لأرجو أن يَسْلم بفعلى هذا ألف رجل من قومه**» ،ويبدو أنه بسبب ذلك فعلاً تاب وأسلم ألف رجل من الخزرج. ثم إن ابن عبدالله بن أبىّ أراد أن يصلى النبىّ على أبيه، فقام رسول الله يصلى عليه، فنزلت الآية: ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٨٤﴾ ﴾(التوبة)، وقيل إنه استغفر لعبد الله بن أبىّ أو كان بسبيله إلى أن يستغفر له، فنزلت : ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴿٨٠﴾﴾ (التوبة) وقيل لما عاتبه عمر، قال: «**إنما خيّرنى الله تعالى فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴿٨٠﴾﴾**(التوبة)». وقال: «**سأزيد على سبعين**» . وقيل :إنما استغفر النبىّ ﷺ على عبدالله بن أبىّ وصلى عليه بناءً على الظاهر من لفظ إسلامه. وقيل إن عمر بن الخطاب لما عاتبه لم تكن هذه الآية قد نزلت بعد، وإنما كان فى باله الآية الأخرى التى نزلت فى مكة عند موت أبى طالب، تقول: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة)، فَفُهِم منها النهى عن الاستغفار لمن مات كافراً، وعبدالله بن أبىّ باعتباره منافقاً كان من الكافرين. وقيل الفرق بين استغفار النبىّ ﷺ لعمّه أبى طالب، واستغفاره لعبد الله بن أبىّ، أن الاول كان استغفاراً مرجو الإجابة، يعنى من القلب، بينما استغفاره لابن أبىّ كان استغفاراً باللسان وليس من القلب، فذلك هو نوع الاستغفار للمنافقين الذى أملته مصلحة الدعوة والإسلام على الرسول ﷺ بشأن عبدالله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة وكبيرهم، وكانت رياسته للمنافقين عن جدارة، وفيه قال ابن عباس، كان وسيماً صبيحاً جسيماً صحيحاً ذَلِقَ اللسان، فإذا قال سمع النبىّ ﷺ مقالته، ووصفه الله بتمام الصورة

وحُسن الإبانة فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)﴾(المنافقون)، فرغم هيئته ومنظره وذلاقة لسانه، إلا أنه كان كالخشبة المسندة، أى كان جسماً بلا روح ولاعقل، وأحمق يظن كل كلام هو المعنيّ به، ويرتاب فى كل الناس ويعاديهم من ثم للاسبب، ومثله يُحذَر منه ـ قاتله اللّه ـ أى لعنه، طالما عَدَل عن الحق وصُرِف عن الرشد.

●●●

١٤٣٤. ﴿النفاق والإدهان﴾

من المصطلحات الجديدة الخاصة بالقرآن مصطلح «**الإدهان**»، وهو نوع من **النفاق** يشمل ظاهر المرأ وكلامه، والفرق بينه وبين النفاق: أن **النفاق** يختص **بالباطن** وهو مشتق من نافقاء **اليربوع**، أى حجره، لأن صاحبه يخفى خلاف ما يظهر؛ وأما **الإدهان**: فهو أن يظهر خلاف ما يبطن، ويزيّن كلامه، تقول **دَهَنَه** أى خدعه وختله وأظهر له خلاف ما يبطن. يأتى ذلك فى القرآن مرتين، **الأولى**: فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ (القلم)، والإدهان: التليين لمن لاينبغى له التليين، ودّوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك فى دينهم، وأن تنافق وترائى فينافقون ويراءون. **والإدهان**: هو اللين والمصانعة، ومجاملة العدو وممايلته، والمقاربة فى الكلام والتليين فى القول. يقال: **أدهن فى دينه**، **وداهن** أمره، أى خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر. **وداهنتُ** بمعنى واريتُ، **وأدهنت** بمعنى غششت؛ وفى قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ (الواقعة)، **والمدهن** هو الكاذب الذى ظاهره خلاف باطنه، كأنه شُبِّه **بالدُّهن** فى سهولة ظاهره وعُسر باطنه. **والمدهن**: المنافق أو الكافر الذى يلين جانبه ليخفى كفره. **والإدهان والمداهنة**: النفاق والتكذيب والكفر، وأصله اللين، وأن يُسِرّ خلاف ما يُظهر، ويغشّ، ويُعرِض، ويمالىء الكفّار على الكفر؛ والمدهن: الذى لايعقل ما حقّ اللّه عليه ويدفعه بالعلل، ولذلك قال: ﴿تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(الواقعة٨٢)، يعنى بدلاً من الشكر للّه على ما أنعم ورزق، فأنتم تكذّبون أنه أنعم ورزق.

●●●

١٤٣٥. ﴿الصمم والبكم والعَمَى النفسى﴾

الصُّم والبُكم والعُمْى: هؤلاء ثلاثة أنماط من الشخصية فى القرآن، **والأصم**: هو الذى انسدت خروق مسامعه؛ **والأبكم**: الأخرس بيّن الخَرَس والبَكَم، **والأعمى** هو ذاهب البصر؛ وفى الآية ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾(البقرة): أن صمم هؤلاء وبكمهم

وعَماهم هو: صمم نفسى، وبكم نفسى، وعَمَى نفسى، وفى الاصطلاح يقال صمم نفسى المنشأ psychogenic deafness ،أى أنه ظاهرة مرضية نفسية وليست عضوية، والمرضى بالأمراض نفسية المنشأ يتداعون بها لعجز عن احتمال مواقفهم، أو لهوى فى نفوسهم فلا يريدون أن يروا الحق أو يسمعوا به ، فيفقدون أسماعهم وأبصارهم وقدراتهم على الكلام، وفى الخبر أن حكيماً انتهت به حكمته إلى أن «لايرى ولايسمع ولايتكلم» بما يعرف،فتحول واقعاً أو مجازاً فصار قرداً. وفى القرآن يأتى عن ذلك اثنتى عشرة مرة، وفى الآية لم تُنفَ الإدراكات عن حواسهم جملةً وإنما الغرض نفيها عن رؤية أو سماع أو التحدُّث بالحق؛ وقوله «لايرجعون» يعنى إلى الحق، وفى الآية: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾ (البقرة) لأن من أصمّ أذنيه، وأعمى عينيه، وأبكَمَ فمه، لن يعقل من أى أمر شيئاً، ويصفهم القرآن يقول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾(الأنفال)، فجعلهم كالدواب، أى الحيوانات ، وزاد فقال فيهم إنهم من شرّ الدواب، وفى آية أخرى حددّ شرّ الدواب فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنفال٥٥) ويوم القيامة يحشرون كما كانوا فى الدنيا ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا (٩٧)﴾(الإسراء).



١٤٣٦.﴿علم السيما﴾

السيما ـ مقصورة ـ : هى العلامة، وقد تُمَدّ فيقال السيماء؛ وتأتى فى القرآن ست مرات؛ والسيما فى الآية: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩)﴾ (الفتح) هى سيما التديّن، تكون علامة بالجبهة مما يعلق بها من الأرض عند السجود، دليل كثرة الصلاة واللجوء إلى الله، والشخصية التى لها هذه السيما من النمط المتدين، ويوصف بأنه نمط غيبى، وقيل : سيما التديّن حُسْنٌ يكون بالوجه وضاءةً ونوراً، ويعكس طمأنينة نفس صاحبه؛ وقيل : هى الخشوع والتواضع اللذان يميزان الشخصية الدينية؛ وقيل :سيما التدين هى علامة على توجُّه صاحب السيما إلى الله، وأن مرجعيته دوماً ليست نفسه ولكنها كتاب الله، بمعنى أنه «إنسان مرجعى» لا يفعل من نفسه، ولكنه بحسب النّص الذى يستند إليه. وفى الآية ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ (٣٠)﴾ (محمد)، والسيما هنا من نوع آخر مناقض، هى سيما النفاق، وأصحابها هم المنافقون، وأبرز سمات النفاق «لحن القول»، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (٣٠)﴾ (محمد) وهو أن نقول ما لانفكر فيه ولا نشعر به، وأن نتكلم بالشىء ونريد غيره.

وللمجرمين سمات هى تعلُّق «**علم النفس الإجرامى**»، والقرآن سابق فى تحديد الصفات النفسية للمجرم قبل أن ينبّه إليها أمثال **توبينارد، وسيزار بيكاريا، وجيريمى بنتام** فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ولعل أكبر العلماء فى هذا الميدان **سيزار لمبروزو** (المتوفى سنة ١٩٠٩)، زعيم **المدرسة الوصفية**، وما يذكره القرآن عن سمات المجرمين ضمن المدرسة الوصفية، وكنموذج للمجرمين كما يعددّهم القرآن : **فرعون موسى** : وكان جبّاراً عصياً، متضخم الذات، ومتمركز التفكير في نفسه؛ **وهامان**: وكان من الإمّعات، يوظّف علمه للأقوى، ويقيم الصروح وفق طلب المستبدّين؛ **وقارون**: وكان من ملوك المال، ويظن بنفسه الألوهية. والمجرمون الذين يحفل القرآن بتوصيفهم كثيرون، ومنهم الكفرة، والمكذبين، والمعاندين، والمتآمرين، ولصوص المال، والمصابون بالشذوذ النفسى الجنسى كاللواط، والزنا، والنمامون والغمّازون ...إلخ، ولكل هؤلاء صفات بدنية ونفسية واجتماعية إجرامية. **والملائكة**، كما يرد عنهم من **أهل الفراسة** المتضلّعين فى علم السيما، وفى ذلك يأتى فى القرآن ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾**﴾ (الرحمن)، ومثل الملائكة: **أصحاب الأعراف**، يقول فيهم ربُّهم: ﴿**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴿٤٨﴾**﴾ (الأعراف)، فهؤلاء الذين على الأعراف يطالعون سيما الناس ويتعاملون معهم بحسبها. وكما أن السيما فى **الدين والجريمة**، فهى فى غير ذلك من النواحى الاجتماعية، وفى مجال **علم الاجتماع الاقتصادى** مثلاً تأتى هذه الآية: ﴿**تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴿٢٧٣﴾**﴾ (البقرة)، وهؤلاء هم الفقراء، **أو صنفٌ منهم**، يستحون أن يسألوا الناس، ومن السهل اكتشافهم مع ذلك بالنظر إلى رقّة مظهرهم، ونظرة الذُلّ فى عيونهم، واستطالة وجوههم، وصُفرتها، وارتعاش أصواتهم، وتلعثمهم الكثير خشية الناس.

●●●

١٤٣٧. ﴿الصراع بين الأفراد كما هو بين المجتمعات﴾

دليل ذلك الآية: ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴿١١١﴾**﴾ (النحل) أى تخاصم وتحاجّ عن نفسها، وكل واحد فى يوم البعث لا يقول إلا نفسى ! نفسى! وكل أُمة تشهد لنفسها، وتتصارع الأمم من شدّة هول القيامة، وما تزال **الخصومة** بالناس حتى أن الروح لتخاصم الجسد، فالروح تلقى المسئولية على الجسد، والجسد يلقى المسئولية على الروح، والصحيح أنهما مسئولان معاً، كأعمى ومُقعَد فى بستان، يطلبان ثمراً على شجرة، فالمُقعد يستعين بالأعمى ليحمله، فيقطف المقعد ويأكل ويعطى الأعمى، فأيهما مسئول ؟

هل هو الأعمى الذى حـمل ، أم المقعد الذى قطف ؟ والصـحيح أنهمـا معاً مسئولان، والعقاب لهما معاً، فكذلك الروح والجسد.

•••

١٤٣٨.﴿الصراع مقدور على الناس إلا من رحم ربه﴾

لما عصى آدم وغوى، طُرد من الجنّة وزوجه حـواء وإبليـس : **﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ (١٢٣)﴾** (طه) ، يعنى آدم وزوجه من ناحية، وإبليس من ناحية، وكلٌّ منهم سيكون له النسل، وسيجتهد بنوهم الرأى، وسيلجئون مثل آدم وإبليس إلى التأويل، وراثةً عنهما، وسيـنشب بينهم النزاع، وتتولد العداوة وتزيد البغضاء، واسـتثنى الله تعالى فقال: **﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾** (طه)، والهدى : يعنى الرسُل والكُتب، فكأن **الصراع** والحرب والعداء قد كتبوا على مخلوقات الله فى الأرض، **فجميعها فى** تناحر، وكلها **فى** صراع، **والبقاء للأصلح**، ولكنه ليس الأصلح باعتبـار الموائمة مع ظروف الحياة، وإنما الأصلح **باعتبـار الأخذ بناموس الله**، وأن يكون الإنسان عبداً صالحاً حقاً، وخليفة الله فى الكون صدقاً، جديراً بالخلافة، وحـقيقاً بالإعمار. والقول **بالمعـايشة بين الحضـارات أو الثـقافـات** وَهْم، لأنه لا وجود للباطل مع الحق، والباطل والحق لا يتـماشيان، وأصحاب الحق يريدون أن يسود الحق بالحوار والمحاجاة، وأصـحاب الباطل يريدون للباطل أن يسود بالقوة والجبر والطغيان. والله تعالى جـعل مع الحق التسليم والقناعة والتوكل عليه تعالى، **وصــاحب الحق** سمح النفس، وعـيشُه سـهلٌ ورافغٌ (يعنى به سعـة)، كما قـال تعالى **﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (٩٧)﴾** (النحل)؛ **والمُعرِض عن الحق** مستولٍ عليه الحرص الذى لايزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلّطٌ عليه الشحّ الذى يجـعله دائم الاعتراك مع الغير، فعـيشُه ضنك، وحـاله مظلمة، وستـبقى الحروب ما دام هنـاك حق وباطل، وما لم تكن الحرب السجال بينهما بالحوار لا بالقتال.

•••

١٤٣٩.﴿القنوط من الكبائر﴾

القـنوط عَرَض نفسىٌّ صنو الإحباط واليأس، إلا أن القنوط **Despondence** يأتى فى البداية، والإحباط **Frustration** يكون فى النهاية، واليأس **Despair** هو محصلة الاثنين معاً، كقوله تعالى : **﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾** (الروم)، والقنوط والبَطَر صفتا الكافر، يقنط عند الشدّة، ويبطر عند النعمة،

وقنوطه يصيبه منه اليأس أن تأتيه رحمة الله وفرجه، والقانط قد يبلغ به حدّ اليأس أن ينسى الفرائض ولا يأتيها، لاعتقاده فَقْد الأمل، كقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الحجر) أى من الآيسين. وقد يأتيه القنوط إذا كثرت ذنوبه، وفى الخبر أن الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر) نزلت فى قوم أسرفوا على أنفسهم، قيل نزلت فى «وحشى» قاتل حمزة عمّ النبىّ ﷺ، سأل النبىّ ﷺ: أشركتُ بالله، وقتلتُ النفس التى حرّم الله، وزنيت، هل يقبل الله منى؟ فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان)، تبيّن أن التوبة تجبُ ما قبلها إذا عمل صاحبها صالحاً، وهنا قال وحشىّ: فلعلى لا أعمل صالحاً؟ فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر)، فدلّ على أن التائب تُغفَر له ذنوبه جميعاً، حتى« وإن لم يعمل صالحاً»، فيكفيه من الصلاح الامتناع عن الشرّ، واستبشر أصحاب الذنوب الكثيرة بالآية، ولذلك قال فيها علىّ بن أبى طالب: ما فى القرآن آية أوسع من هذه الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾. وقال عبد الله بن عمر: هذه أرجى آية فى القرآن. ونعود إلى القنوط واليأس والفرق بينهما، وفى الآية: ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ (فصلت) يأتى اليأس أولاً ثم يترتب عليه القنوط، وربما من السياق كله أن اليأس يكون من رَوْح الله، وأما القنوط فمن رحمته تعالى، وأما فى هذه الآية فإن اليأس يكون من زوال ما به المكروه، بينما القنوط أن يظن أنه يدوم.

●●●

١٤٤٠. ﴿المستضعفون والمستكبرون من أنماط الشخصية﴾

الناس صنفان فى الحق: إما مستضعفون وإما مستكبرون، ويوم القيامة يبرزون لله جميعاً، يقول المستضعفون للمستكبرين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ (إبراهيم)، ذلك لأن علامة المستضعَف أو الضعيف نفسياً واجتماعياً: أنه تابع يأتمر بأمر القوى أو المُستقوى، والمجتمعات فيها من الفئتين، والمستقوون من دأبهم الاستكبار، واستكبارهم يجعلهم فى المقدمة، وينحّى من أمامهم الضعفاء، ولذلك تؤول الأمور فى المجتمعات إلى المستقويين المستكبرين، وهؤلاء خارجون على القوانين، وهم ترزية

القـــوانين، والقوانين فى مجتمعـات المستقويين لتطبيقها على المستضعفـين؛ والمستضعفون يأتمرون بأمر المستقـويين، وكان قولهم لهم فى الدنيا : افعلوا ونحن المسـئولون، فلما كان الحسـاب في الآخرة، سألوهم : هل ستتحـملون عنا عذاب ما كنتـم تأمروننا به ؟ وهذا تحذير للمســتضـعفين المأتمرين بأمـر المستقـويين، فلو كان هؤلاء ناجـين من النار لأنجوهم معهم، والإحباط هو الشعور السائد يومئذ، ويدفع إلى الجزع، والجَزِع هو المحُبَط اليائس، وما كان يمكن أن يصبر، فالُمحبَط الجَـزِع لا يصبر وكلما فكر فى العذاب زاد به الإحباط والجزع، فلا مهرب ولا فكاك من العذاب، وبقدر الجُـرم يكون العقاب، وجُرم المستقويين أكبر من جُرم المستضعفين، وجرم الاستقواء هو أبشع الجرم. وفى الجزع يكون الصراخ، وهو عكس الصمت فى الصبر، وسواء جزعوا أم صبروا لا محيص ـ أي لا منجى. (انظر أيضاً **الكبر ليس من شيم الإسلام ضمن باب القرآن والفنون والصنائع والآداب واللباس**).



١٤٤١.﴿المخادع يخدع نفسه﴾

من أنماط الشخصية فى القرآن نمط المخادع، وأصل الخداع فى كلام العرب الفساد، والمخـادع فى الدين يخدع الرسول، ويخدع الله والمؤمنين، كقوله تعالى: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴿٦٢﴾﴾** (الأنفال)، وقوله: **﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾** (البقرة)، وقوله: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾** (النسـاء)، وخداعهم لله ولرسوله وللمؤمـنين بإظهار الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويظنوا أنهم نجـوا وخدعوا، وهم فى الحقيقة أفـدوا إيمانهم وأعمالهم بالرياء، والمراءاة هى الإخفاء. ومن الأمثال فى الخداع قولهم : **انخدع الضب فى جُحره؛ وما تحل عاقبة الخداع إلا بصاحبه** ؛ ومن كلام أهـل الإسلام : **«مَن خَدَع من لا يُخدَع فإنمـا يخدع نفسه»**، وهذا صحيح، لأن الخـداع إنما يكون مع من لايعرف البواطن، وأما من عرف الـبواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يـخدع نفسه، ودلّ ذلك على أن المنافـقين لم يعـرفوا الله، ولو عـرفوه لعرفـوا أنه لا يُخدَع، وفـى الحديث : **«لا تخادع الله فإن من يخـادع الله يخدعه الله، ونفسَه يخـدع لايشعر»**، قالوا : يارسـول الله كيف يُخادَع الله ؟ قال : **«تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره»**. وليس القول **الله يخدعهم**، أنه تعـالى مـخـادِع، وإنما هذه هى عادة العرب إذا وضعـوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء، ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له فى معناه، وعلى ذلك جاء قوله: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ**

﴿١٩٤﴾ (البقرة)، والجزاء لا يكون سيئة، والقصاص لا يكون اعتداء، لأنه حقٌ وَجَب، ومثله، وقوله: ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴿٥٤﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴿١٥﴾ (البقرة)، وليس منه تعالى مكرٌ، ولا هزء، ولا كيد، ولا خداع، وإنما هو جزاء مكرهم واستهزائهم وخداعهم، وكلها صفات غالبة على شخصية المنافق.

●●●

١٤٤٢. ﴿الهُمزة واللمزة﴾

الهُمَزة واللُّمَزة: نمطان من الأنماط النفسية للشخصية، ينفرد بهما القرآن ضمن ما نسميه بعلم النفس **الإسلامى**، يقول تعالى ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴿١﴾ (الهمزة) ؛ **والهُمَزة** : الفتّان؛ **واللمزة**، العيّاب؛ أو أن **الهمزة** : الذى يغتاب ويطعن الناس فى وجوههم، واللمزة: الذى يغتابهم من خلفهم، كقوله تعالى : ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ** ﴿٥٨﴾ (التوبة). وقيل إن **الهمزة**: الطعّان فى الناس، **واللُّمَزة** : الطعّان فى أنسابهم. **والهُمَزة والهامز** أيضاً : الذى يزغدنا باليد، يعنى بالدفع؛ **واللُّمَزة** : يزغد باللسان، يعنى يسىء به. وقيل : **الهمّاز** : باللسان؛**واللمّاز** : بالعينين، أو بالعينين والحاجبين.

والهُمَزة اسم وضع للمبالغة، كما يقال **ضُحَكة** للذى يضحك بالناس. وأصل «الهمزة واللمزة» الضرب والدفع. ومثل «**الهمزة اللمزة**» : **الوليد بن المغيرة**، الذى كان يغتاب النبىّ ﷺ من ورائه، ويقدح فيه فى وجهه، وكذلك **أُبىّ بن خلف، وجميل بن عامر الثقفى**.

●●●

١٤٤٣. ﴿القرين فى القرآن وعلم النفس﴾

القرين Peer : فى علم النفس هو الصاحب أو الزميل، وهو الذى يُقرَن به دوماً للمشابهة بينهما. والقرين فى «**جماعة اللعب**» بين الأطفال، فهو الملازم لقرينه، وفى «**جماعة الأصحاب**» توزّع الأدوار بين القرناء بحسب الوسع والقدرات والزعامة. **والقرناء** يكونون منذ الطفولة، وتكون لهم تخيّلاتهم وطموحاتهم المتشابهة. **والقرين** فى اللغة: المقرون بآخر، والمصاحب، والعشير، والزوج، والنفس؛ والمؤنث **القرينة**، والجمع **أقران** وقرناء. والفرق بين القرين **والصاحب**، أن القرين ألصق بالصفات النفسية المشتركة بين اثنين من الأقران، بينما **الصاحب Companion** هو المرافق، يقال **صحبه** أى رافقه، **والصاحب** لا ينافر صاحبه وهما لذلك يتلازمان. **والرفيق Comrade** هو الصاحب أيضاً، ومن صفته أن يرفق بصاحبه فينفعه ويعينه، والجمع رفقاء.

والقرين : مصطلح قرآنى، وينصرف إلى ثلاثة معان، فقد يعنى المَلَك الموكل بالمرء كما فى قوله تعالى : ﴿**وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ** ﴿٢٣﴾ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** ﴿٢٤﴾

(ق)، وما لديه هو كتاب عمله، وقوله ألقيا مُثنّى، لأن كل امرء ليس له قرين واحد من الملائكة ولكنهما «قرينان»: السائل والحافظ. والمَلَك بالطبع يتجاوز مجالىّ الخير والشرّ Amorality، ولا يُحكم بهما على ما يفعل أو يقول.

وقد يعنى القرين «الصاحب من البشر»، كقوله تعالى ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ (الصافات)، وكان قرينه هذا يوعز إليه بالكفر، فلما كانت الآخرة سأل عنه ووجده فى النار، فقال مقالته فيه: **أنه كاد يضله لولا ستر الله.**

وقد يعنى القرين **الشيطان**، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ (الزخرف)، والعشا هو العمى الليلى، وهو فى الآية العمى إطلاقاً، والشيطان إذا قُيِّض كقرين يصاحب قرينه فى الدنيا فيمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة. وفى الخبر أن الكافر يُشفَع بشيطان، والمؤمن يُشفَع بِملَك، فهما للكافر والمؤمن قرينان. والقرين إذن يمكن أن يكون قرين سوء أو قرين خير، ويأتى فى التنزيل ثمانى مرات بمعنى قرين السوء: ﴿فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ (النساء). وفى علم النفس كذلك يأتى القرين غالباً فى مجال الشر، والقرناء هم الشلّة أو العصابة، والأمر بينهم على السواسية، وهم جميعاً على الآخرين عُصبة.



١٤٤٤. ﴿الإنسان بفطرته هلوع جزوع وللخير منوع﴾

من صفات الإنسان الدنيّة: **الهلع، والجزع، ومنع الخير**، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ (المعارج)، وهذه صفات مركوزة فى النفس، قال أهل التحليل النفسى: إنها من **مخلّفات مراحل النمو النفسى الجنسى**؛ وقال أهل علم النفس الجينى: **إنها صفات فى الفطرة أو الجبلّة**؛ وقال **أهل الطب النفسى** إنها من آثار **اللاشعور الجمعى والوراثة والبيئة**. **والهلع** فى اللغة أشد الحرص، وهو أسوأ الجزع وأفحشه، ولا يصبر **الهلوع** على خير ولا على شر؛لأنه جزوع، أو أنه يصيبه الجزع من الهلع؛ **والجزوع** هو الضّجوروهو شديد الضجر، **والضَجَر** القلق من الغمّ وضيق النفس؛ **والمنوع** الذى يمنع الخير عن الناس وينازع عليه ويحرمهم منه. وقيل **الهلوع** هو الذى إذا مسّه ما يكره انتابه الجزع الشديد، وإذا ناله الخير بخل به ومنعه الناس، وفى الحديث : «**شرّ ما أعطى العبد شُحٌّ هالع وجُبنٌ خالع**»، وهذه علامات غير سوية لنفس غير

الحديث : «شرّ ما أعطى العبد شُحٌّ هالع وجُبنٌ خالع»، وهذه علامات غير سوية لنفس غير مطمئنة، وقلقة، تتوجس الشر، وتبدأ به، ونقيضها فى القرآن ضمن بقية السورة: النفس السوية، وعلاماتها تقوى الله، ودوام الصلاة، وإعطاء الزكاة، والإيمان بالآخرة، والالتزام بالأخلاق الحميدة(المعارج٢٢/ ٣٤).

•••

١٤٤٥.﴿البغض والكره والمقت﴾

البُغض : نقيض الحب؛ **والبغيض** : المكروه كراهية شديدة؛ **والبغضاء** : شدّة الكراهية، كقوله تعالى: ﴿**فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** ⦗١٤⦘﴾ (المائدة). فالبغضاء وليدة العداوة، والعداوة هى الخصومة والمباعدة، فكلاهما متلازمان، ولذا قال تعالى: ﴿**فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ**﴾ أى ألصقنا بهم، مأخوذ من الغراء، وهو ما يلصق الشىء بالشىء كالصمغ وشبهه، يريد بذلك طوائف اليهود، فكأن العداوة والبغضاء صفتان ملتصقتان بهم، وكأنهما الطبع فيهم، ومن يلازمه الشىء فكأنه قد التصق به، مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ⦗٦٤⦘﴾ (المائدة)، فهم متخاصمون متباغضون، كما قال: ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ⦗١٤⦘﴾ (الحشر)، وهم أبغض خلق الله إلى الناس: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ⦗٦٤⦘﴾ (المائدة)، فما من حرب إلا وراءها اليهود، وما من فساد فى الأرض إلا وكان المروّج له **اليهود**. وما كانت رذيلة إلا واتصفوا بها، وهم أساتذة النفاق، وأستاذهم جميعاً «السامرى» **فى قصة موسى**، كقوله تعالى: ﴿**وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** ⦗٨٥⦘﴾ (طه)، ثم «**يهوذا الأسخريوطى**» **فى قصة المسيح، فكان السامرى أول تلميذ يخون معلمه، ويوقع بقومه**. وكان **الاسخريوطى أول تلميذ يُسلم معلمه إلى أعدائه** بثلاثين من الفضة (يوحنا ٦/ ١٥). والسامرى عادَى موسى وأبغضه، وكذلك الاسخريوطى عادَى المسيح وأبغضه، وكانا فى ذلك مثلاً للبُغض الذى أودى بصاحبه، وكلاهما كان إذا تكلم بدت البغضاء فى كلامه، وكذلك كان اليهود كافة، كلما تحدثوا إلى النبىّ ﷺ ظهر بغضهم، وفيهم قال تعالى: ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ⦗١١٨⦘﴾ (آل عمران)، وفى الآية أن **خروج الكلام من الأفواه وليس بالألسنة**، إشارةً الى تشدّقهم وثرثرتهم فى أقوالهم، ومن هذا التشدّق أن يقول قائل اليهود فى سلامه على النبىّ ﷺ «**السام عليك**» بدلاً من أن يقول «**السلام عليك**»، فإما أنه قالها عن عمد، وإما أنها خرجت منه زلّة لسان. وزلآت اللسان هى المعبر عن **المشاعر المكبوتة**، وفى الحالتين أفصح اليهودى عن بُغضه وبُغض قومه

للنبىّ ﷺ ، وفى هذه الآية تنبيهٌ إلى أن الصدور مكان المشاعر المكبوتة، ولكنها لا تجد طريقها للتعبير من طريق اللسان، فاللسان للمشاعر الظاهرة، وأما المشاعر المكبوتة فتظهر فلتات من خلال الثرثرة والتشدق، وعبّر القرآن عن ذلك بقصر التعبير عن البغضاء على الأفواه، وهى حالة فوق حالة المتستر الذى تبدو البغضاء فى عينيه، ومن هذا المعنى نهيه ﷺ أن يشتحى الرجل فاهه فى عرض أخيه، والاشتحاء هو أن يفتح فاهه، يقال شحى الحمار أى فاه بالنهيق، وجاءت الخيل شواحٍ، أى فاتحة أفواهها، والشحو فى الحديث إشارة إلى معنى التشدُّق فى الآية.

والكُره ضد الحب، وهو أقل من البُغض، فإذا اشتد الكُره واستحكم تحوّل إلى بُغض، وإذا زاد البغض صار مَقتاً. والكره والكراهية من كره، فهو كاره، والشئ مكروه. وتقول الكَرْه بالفتح وتقصد ما تُكرَه عليه، كقوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (آل عمران) أى رغبة أو اضطراراً، والمسلم يؤمن طوعاً، وغير المسلم قد يُظهر الإيمان اضطراراً وخوفاً كالمنافقين، والإيمان على المؤمنين غير ثقيل، ولكنه على غيرهم مستثقل وله وطأة وشدّة، لأن التزام التكليف مشقة، فمن آمن تحمّلها إخلاصاً، ومن لم يؤمن اضطر أن يألفها ويمرن عليها، وإسلام المؤمن لذلك إسلام عبادة، بينما إسلام الآخر إسلام دلالة، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت) فإتيانهما بكُره هو إتيانهما بتسخير، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ (النحل)، وأما الكُره بالضم: فهو ما أكرهتَ نفسك عليه ، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴿١٥﴾﴾ (الاحقاف)، فالكُره بالضمة المشقة، وفى كل القرآن فإن لفظ الكَرْه بالفتح، إلا فى آية الأحقاف، والآية الأخرى فى سورة البقرة، وفيهما أن المشاعر فى الكُره بالضم هى مشاعر قهر وكبت وغضب، فالكُره بالضم للمَخْبَر، بينما الكَرْه بالفتح للمظهر، وكلاهما من الكراهية. والكُره بالضم للمشقة، والكَره بالفتح ما أُكرهتَ عليه. وفى الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة)، فإن القتال هو الجهاد، فكان كُرها لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الأوطان والأهل، والتعرّض بالجسد للقتل والجراح وقطع الأطراف، فكانت الكراهية له لذلك، ومثله الذى يتألم ويخاف مع ذلك أن يخلع ضرسه، أو يبتر الجزء من جسمه المسبب للألم والذى يخشى منه على حياته. فمعنى الكُره إذن : أن تأتى الشىء عن اضطرار. ورُبّ أمر نكرهه وفيه نجاتنا،

والإكراه : هو أن تحمل الناس على الشيء يكرهونه، كقوله تعالى **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ (١٠٦)﴾** (النحل)، ولا يؤاخذ المُكرَه، وفى الحديث : «**يُرفَع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه**» ، ومن استُكره على الشرك كان مرتداً فى الظاهر، وطلاق المُكره لا يُعتد به، وكذلك بيع المُكره ظلماً أو قهراً لا يجوز، ويبطل نكاح المُكره والمُكرهة. وإذا استُكرهت المرأة الى الزنا فلا حدّ عليها، ويمين المكره تسقط إذا كانت فى معصية. وفى الآية: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦)﴾**(البقرة)، أى لا إجبار، كقوله: **﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾** (الشعراء)، أى أنه تعالى لم يشأ أن يجعل إيمانهم إجباراً ولكن عن طواعية، ولم يرد لنفسه أعناقاً خاضعة ولكن قلوباً خاشعة، وإذا ذلت الرقاب ذلّوا، والإخبار عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، وقوله تعالى: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** قطعٌ بأن **الأمر فى العقائد موكول بأصحابها**، وكيف يصبح ما نكرهه وتخضع له الرقاب عقيدةً تنشرح لها الصدور، وتستنير بها العقول ؟ وهو تعالى القائل: **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾** (يونس) فالدين اختيار، والإنسان حرٌ أن يؤمن أو يكفر، وعلى ذلك تترتب المسئولية، وليس أشق على النفس من الانصياع لما نكره، والإنسان الصحيح هو من يكره ما ينبغي أن يكره، ويحب ما يتوجب عليه محبته.

والمَقْت : أشد البغض، وكان زواج الابن من امرأة أبيه المتوفى **ممقوتاً**، واطلقوا عليه زواج المقت، لأنه بُنى على الكراهية من المجتمع والناس، ومن الابن الكاره أساساً لزوجة أبيه، وألغى الإسلام هذا الزواج ونزلت فيه الآية: **﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢)﴾** (النساء) فذمّه الله ذماً بالغاً متتابعاً، لقيامه على المصلحة الخالصة وعلى الكراهية غير المصرّح بها بين أفراد هذا النوع من الزواج، واعتبره القرآن من الزنا، وبغّض فيه المسلمين وحرّمه عليهم، ووصفه بما يجعله من القبح فى الغاية، وكان العرب رغم إقرارهم به يكرهونه ويتأففون ممن يفعله، واطلقوا لذلك اسم «**الضَّيْزن**»على الابن الذى يتزوج امرأة أبيه، ويوازى فى المعنى اسم **الزانى بامرأة أبيه**، وأعطوا **الوليد** من هذا الزواج اسم المَقتىّ، أى ولد الزنا بامرأة الأب.

ولأن المقت صفة نفسية، فإن الله قد وصف به الأعمال النفسية التى تتنافى مع الآداب، فقال تعالى **﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ (١٠)﴾** (غافر) وهؤلاء المقصودون بالآية هم الذى يتبّعون هواهم، فلما زال عنهم تأثير نفوسهم وعلموا أنها التى أبقتهم فى المعاصى مقتوها، ومقت النفوس أبشع المقت، ويؤدى إلى اليأس والانتحار، ومقت الله فى الآية هو غضبه.

الآية هو غضبه.

والنفس اللّوامة من كثرة لومها لنفسها تنتهى بأن تمقت نفسها، «وكاره نفسه» نمط من أنماط الناس في الحياة، ويقابل «نمط المحب لنفسه» الأنانى، والمحب لغيره، والفرق بين المحب لغيره وكاره نفسه، أن الأول لا يعنى حبه لغيره أنه يكره نفسه، وأما الثانى فبغضه للآخرين يتحوّل عنده حتماً إلى بغض لنفسه، ولا يوجد انسان يبغض نفسه ويحب غيره، ونمط المتحر من أنماط المبغض لنفسه، ولولا أنه مبغض لنفسه ما حاول الانتحار، أو ما انتحر فعلاً، وفي الاكتئاب ـ يبغض المصاب به ـ نفسه والناس جميعاً. ومقت الله له تصويرٌ لتدنّى منزلته عند ربّه لمّا كفر به، وللكافر الذى يمقت نفسه أن يتصوّر مقت الله له حينئذ.

والإكراه فى الشرع من شروطه : أن يكون من قادر بسلطان، كاللص المسلّح ونحوه، وأن يغلب على المكره الظن أن وعيد الآخرة سينزل به حتماً إن لم يجبه إلى طلبه؛ وأن يكون ما يهدده به مما يلحق به الضرر لو تحقق، كالضرب الشديد، أو القتل. وأما الشتم والسبّ فليس بإكراه، وكذلك أخذ المال اليسير. وأما الضرب اليسير، فإن كان فى حق من لا يبالى به فليس بإكراه، وإن كان من ذوى المروءات فهو كالضرب الكثير فى حقّ غيره. وإن أقرّ الرجل بحقّ، ثم ادّعى أنه كان مكرهاً لم يقبل قوله إلا ببيّنة.

●●●

١٤٤٦.﴿من علامات المؤمن الطيب من الأقوال﴾

المؤمن له سماته النفسية، والقول من هذه السمات، وهو كالفعل، ومن سمات المؤمنين كما يقول الله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ (الحج)، فلأنهم طيبون فكلامهم طيب، وصراطهم هو الصراط المحمود، أى الصراط الطيب، فالطيبة سمة عامة لها مظاهرها فى السلوك والكلام، ولا يكون المرء طيباً إلا إذا عمر قلبه بالإيمان، وإلا فالقلب الفارغ لا يكون طيباً، ولكنه بالقطع سيكون خبيثاً، فحتى لو كان محايداً، فالحياد تفكير وسلوك سلبيان، وكل ما هو سلبى فهو خبيث.

●●●

١٤٤٧.﴿عمى القلب﴾

الأعمى من العمى، ومنه العمى الوظيفى : وهو ذهاب البصر بالكلية، ويقال له عمى العين، كقوله تعالى ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ (عبس)، والمقصود به فى الآية عبد الله بن أم مكتوم، وفيه نزلت أكثر من آية، وعاتب الله رسوله بسببه، ومن ذلك قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴿٦١﴾﴾ (النور) فجعل الأعمى من أهل الأعذار، واعتذر عنه إن قصر عن درجة

الأصحاء، في الأكل أو في غيره، وكانوا قبل الآية يتقذّرون الأعمى ويتجنّبون الأكل معه، لجولان يده في الطعام، وظاهر الآية يدل على أن الحرج مرفوع عنه في كل ما يضطره إليه العذر، كالغزو، وكل ما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر.

ومن العمى ما يسمى **عمي القلب**، وهو عمي يتعلق بالإيمان، وأعمى القلب يعمه في الضلالة، كقوله: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (٤٦)﴾ (الحج) فأثبت للمكذبّين إبصار العيون، ونفى عنهم أن يدركوا الحق والاعتبار، وجعل البصر الناظر للمنفعة، وأما **بصر القلب** فهو البصر النافع حقاً، وقيل: إن لكل إنسان **أربع أعين**: عينان في رأسه للدنيا، وعينان في قلبه للآخرة، فإن عميت عينا رأسه، وأبصرت عينا قلبه، لم يضرّه عماه شيئاً؛ وإن أبصرت عينا رأسه، وعميت عينا قلبه لم ينفعه نظره شيئاً، ويروى أن **ابن أم مكتوم** سأل رسول الله ﷺ: إن كان سيُبعث يوم القيامة أعمى كما هو في الدنيا، فنزلت الآية: ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** (٧٢)﴾ (الإسراء)، و«**هذه**» المقصود بها الدنيا، فمن يعمى عن الحق في الدنيا فهو في الآخرة أعمى، كقوله: ﴿**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) **قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى** (١٢٦)﴾ (طه)، فإنه لمّا اختار **عمى القلب** في الدنيا، جعله الله تعالى **أعمى البصر** في الآخرة، ومن يعمى عن دلالات الله في وحدانيته وقدرته في الدنيا، يُعاقب يوم القيامة بعمى البصر ﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى** (١٢٧)﴾ (طه)، وأما من آمن في الدنيا كحال **ابن أم مكتوم** - **فهو** بصير القلب فيها، وبصير العينين والقلب في الآخرة.

وإمامة الأعمى جائزة، وكذلك **أذانه**، وكان ابن ام مكتوم يؤذّن ويؤم الناس، وولاّه النبي ﷺ على المدينة في خروجه لغزوة من الغزوات، **والصلاة في المسجد** واجبة على الأعمى، وقد أوجبها الرسول ﷺ على **ابن أم مكتوم**. ويصحّ بيعه وشراؤه إن أمكنه معرفة المبيع بالذوق إن كان مطعوماً، أو بالشم إن كان مشموماً، وإن لم يمكنه ذلك جاز بيعه على أي الأحوال. **ولا تجوز شهادته** إلا إذا تيقن الصوت وعلم المشهود عليه يقيناً؛ فإن تحمل الشهادة على فعل ثم عمي، جاز أن يشهد بما أبصر. ولا يجوز قتل الأعمى في الحرب، إلا إذا كان حاملاً لسلاح ويقاتل مع المقاتلين، وكانوا قديماً يسقطون عنه **الجزية**، ولم يكن عليه أن يتحمل شيئاً من **الدية** عن عُصبته.

●●●

١٤٤٨.﴿من سمات الكافر﴾

يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)﴾ (الحج)، والآية فى الذى يجادل فى الحق اجتهاداً من عند نفسه، ويتبع هواه، ومن أوصافه هذه السمة البارزة: إنه إذا تكلم أو أصغى يلوى عنقه ويميل بجانبه صداً واستكباراً، كقوله تعالى: **﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥)﴾** (المنافقون)، أو كأنه لم يسمع، كقوله: **﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا (٧)﴾** (لقمان)، أو أنه يعرض وينأى كقوله: **﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ (٨٣)﴾** (الإسراء)، ثم إنه فى النهاية ينصرف لحال سبيله وكأنه لم يحدث شىء ولم يقع أمر، كقوله: **﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣)﴾** (القيامة)، فهذه سماته غالباً، وكل من ليس على الحق له طرقه فى السلوك، يسميها علماء النفس والطب النفسى **mannerisms** ، لا خلاص له منها إلا بالخلاص أولاً من داء المعاندة والمكابرة.

●●●

١٤٤٩. ﴿قلوب الكفار لها عشرة أوصاف فى القرآن﴾

وصفها تعالى : بالختم، وبالطبع، والضيق، والمرض، والرَّين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار. فهذه عشرة أوصاف، ففى الإنكار : **﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ (٢٢)﴾** (النحل)؛ وفى الحمية: **﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ (٢٦)﴾** (الفتح)؛ وفى الانصراف : **﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧)﴾** (التوبة)؛ وفى القساوة: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم (٢٢)﴾**(الزمر)؛ وفى الموت: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (١٢٢)﴾** (الانعام) يعنى ميت القلب؛ وفى الرَّين: **﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم (١٤)﴾** (المطففين)؛ وفى المرض: **﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (١٠)﴾** (البقرة)؛ وفى الضيق: **﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا (١٢٥)﴾** (الأنعام)؛ وفى الطبع : **﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (٣)﴾** (المنافقون)؛ وفى الختم : **﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (٧)﴾** (البقرة).

●●●

١٤٥٠. ﴿الشك مرض القلوب﴾

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من اصطلاحات القرآن فى علم النفس، وتتكرر فى القرآن عشر مرات، ويأتى ترتيبهم بعد المنافقين، يقول تعالى: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (٤٩)﴾** (الأنفال)، ومرض القلوب هو **الشك**، والمنافقون هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأما «الذين فى قلوبهم مرض» فهم دون المنافقين، وفى قوله: **﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾** (البقرة) نفهم أن الشك يورث الجحد والتكذيب، والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم، والمعنى

الشك يورث الجحد والتكذيب، **والمرض** عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم، والمعنى أن قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. والمرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة. وأخطر الأمراض ما كان نفسياً، **والقلب المريض** لا يعنى أن مرضه عضوى ولكنه نفسى، فإذا اعتلت النفس لم تر الأمور كما هى وارتابت فيها، فيزيد مرضها، ويزيد الشك بها، وهو الذى يقعد بصاحبه عن أى عمل، فيضعف عن الانتصار، ويعجز عن القدرة، ويكله الله إلى نفسه، فيجمع عليه هموم الدنيا فلا يتفرغ إلى الاهتمام بدينه. **وعِلل القلوب** من اتّباع الهوى، كما أن **علل الجوارح** من أمراض البدن.



١٤٥١. ﴿القلب وفضله على الجوارح﴾

تأتى مادة قلب فى القرآن ١٣٢ مرة، ويوصف بصفات فيقال: القلب الغليظ، والسليم، والمنيب، والذاكر، والمختوم عليه، والمخاصم اللدود، والآثم، والمؤمن، والمريض، والمهدى، والمربوط عليه، والمطمئن، والمطبوع، والمرعوب، والكافر، والذى لا يفقه، والزائغ، والمعتدى، والمجرم، والتّقى، والعاقل، والأعمى، والمتقلّب، وغير العالِم، وبالغ الحنجرة، والمشمئز، والكاظم، والمقفل، والساكن، والرائف الرحيم، والصاغى، والقاسى، والمتألّف، والممحَّص، والخيِّر، والمتعمِّد، والمطهَّر، والمزيَّن له، والأغلف، والمغلول، والمُشرَب العجل، والمحسور، وغير المؤمن، والمغيظ، والمنافق، والمصروف، والمشدود عليه، والمنكِر، والمكنون، واللاهى، والوَجِل، والمخبوت، والمغمور، والمفزوع، واللّين، والجاهل، والخاشع، والمشتّت، والطاهر، والمرّين. فهذه ستون صفة للقلب، وذلك دليل على فضل القلب على كل الجوارح. وهو للإنسان ولغير الإنسان، وخالص كل شىء وأشرفه قلبه، فهو موضع الفكر، وأصله مصدر قلبتُ الشىء إذا رددته على بداءته، ونُقل اللفظ وسمى به العضو الذى هو أشرف الأعضاء، لسرعة ما يرد إليه من الخواطر وترددها عليه، كقول القائل:

ما سُمى القلب إلا من تقلّبه .·. فاحذر على القلب من قلب وتحويل

وفى الحديث: «**مثل القلب مثل ريشة تقلبها الرياح بفلاة**»، وفى الدعاء: «**اللهم يا مثبّت القلوب، ثبّت قلوبنا على طاعتك**»، وفى القرآن: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** (٢٤)﴾ (الأنفال). ورغم أن الجوارح تابعة للقلب وهو رئيسها، إلا أنه يتأثر بها للارتباط بين الظاهر والباطن، وفى الحديث: «**إن الرجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء. وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسوّد قلبه**» رواه الترمذى، **وسواد القلب** هو الرّين فى

قوله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⦗١٤⦘﴾ (المطففين)، وفى الحديث: «إن فى الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» أخرجه مسلم.

والقلب قد يعبَّر عنه بالفؤاد، وبالصدر، كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ⦗٣٢⦘﴾ (الفرقان)، وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ⦗١⦘﴾ (الشرح)؛ وقد يعبّر به عن العقل، كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ⦗٣٧⦘﴾ (ق).

●●●

١٤٥٢. ﴿القرآن واللواط﴾

اللواط Sodomy هو فعل قوم لوط، أخبرت بهم التوراة لأول مرة فى سفر التكوين، الفصل الثامن عشر، العبارات من ٢٠ حتى ٣٣، ثم فى الفصل التاسع عشر، العبارات من ١ إلى ٢٠، وجاء تحريم اللواط فى سفر الأحبار، الفصل الثانى عشر، العبارة ٢٢ : «والذكَر فلا تضاجعه مضاجعة النساء إنها رجاسة» ، ثم العبارة ٢٩ : «لأن من ارتكب هذه الرجاسات تقطع تلك النفوس المرتكبة من بين شعبها...» يعنى حُكمه العزل. وكان اللواط كما تحكى التوراة فى أهل سدوم وعمورة، وتفشّى فيهم فأمطرهما الله كبريتاً وناراً، سماهما كما جاء فى القرآن رجزاً من السماء ،وأحرقت المدينتان وجميع سكانهما بما كانوا يفسقون، وما تزال آثار مساكنهم باقية فى فلسطين، وحكى القرآن عن ذلك فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ⦗٨٠⦘ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ⦗٨١⦘ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ⦗٨٢⦘ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ⦗٨٣⦘ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ⦗٨٤⦘﴾ (الأعراف)، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ⦗٧٧⦘ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ⦗٧٨⦘ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ⦗٧٩⦘ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ⦗٨٠⦘ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ⦗٨١⦘ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ⦗٨٢⦘ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ⦗٨٣⦘﴾ (هود). وقيل: إن النبىّ ﷺ قد أمر بقتل اللوطى والمأبون، وفيما رواه ابن عباس أنه قال : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»،

قائلها ثلاثاً. غير أن ذلك لم يقل به القرآن حيث قال فى جزاء اللواط فى الذكور: أن يُؤذى الفاعلان إلى أن يتركا هذه العادة الرذيلة، وفى الإناث: أن تُحبس النساء حتى يتزوجن أو ينتهى أجلهن، قال: **﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾**(النساء). ولوط فى آيات اللواط أرّخ له فقال إن قومه كانوا **أول من فعل ذلك من العالمين**، وعرّفه: أنه إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ووصف ذلك باسم **الإسراف الاخلاقى**، ونقيضهم أن لوطاً وأهل بيته كانوا **متطهرين**. فالمتطهر فى المصطلح القرآنى كالسوى فى المصطلح النفسانى. وشخّص لوط حالة المصابين باللواط بأنه ناتج عن اضطراب فى الشخصية، والرشد عنده فى قوله **﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾** (هود): هو سلامة الشخصية وخلوّها من الاضطرابات كأمثال اللواط. وفى سورة الأنبياء صنّف الله تعالى اللواط ضمن **الخبائث**، وسمّى الممارسين له **﴿فاسقين﴾** (٧٤)، وفى سورة النمل ردّ ذلك فيهم إلى الجهل ووصفهم بأنهم **قوم يجهلون** (٥٥)، وفى سورة العنكبوت أطلق على ناديهم الذى يجتمعون فيه ويأتون ما يأتون اسم **«النادى المنكر»** (٢٩).

واللواط فى الطب النفسى يطلق عليه اسم **الجنسية المثلية Homosexuality**، وهو من اضطرابات الشخصية، ومن الانحرافات الجنسية الشائعة، وعقوبته فى القرآن توردها الآية: **﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾** (النساء)، والإيذاء على تفسير ابن عباس يكون بالشتم **والضرب**، وقوله تعالى بعد الأذى: **﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾** أى إن أقلع الفاعل والمفعول به، ونزعا عمّا كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت: **﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾** أى لا تعنفوهما بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾**، فلا يعيّرهما أحدٌ بما كانا يصنعان قبل التوبة.

واللواط يكون بين الذكر والذكر، كما يكون بين الانثى والانثى **Female homosexuality**. والإنسان منذ أن يكون جنيناً إثنينى الجنسية، أى يجمع فى نفسه بين الميل إلى الذكور والميل الى الإناث، وبه عضوا الذكورة والأنوثة معاً؛ وله من الهرمونات ما هو ذكرى وما هو أنثوى بنسب تختلف من فرد لآخر، فإذا اكتمل الجنين انفرقت فيه الجنسية الذكرية عن الجنسية الأنثوية، وغلب عليه إما الطابع الذكرى أو الطابع الأنثوى، وتكون له اتجاهات وتفكير هذا أو ذاك، إلا أن كل جنس يظل به شوق إلى الآخر، وأن

يتحـد أو يكتمل في وحدة إثنينيـة، إلا اللوطي مثليّ الجنـيـة، فإنه يهفـو إلى مثله وليس للجنس الآخـر، وينشأ ذلك المـيل عن اضطرابات في شخـصـيتـه أو في تكوينه. وبعض الممارسين للواط تكون ممارستهم له بحكم الظروف كـما هو الشأن مع المساجين والرهبان، وبعضهم يجـمع بين ممارسته وممارسة الجنسيـة الغيرية **heterosexuality** وهي الجنسيـة السوية. وبعضهم يكون به هذا الميل باعتباره فاعلاً، وبعضـهم يأتيه باعتباره مفعولاً به وهو المأبون. والجنسية عند الأول تسمي **اللواطة**، وعند المأبون تسمى **الإبانة**. وقد تكون اللواطة والإبانة كـامنتين أو مـسـتورتين لا يدرى بـهمـا اللوطي أو المأبون، وقـد تكونا ظاهرتين ومفضـوحتين. وبعض المصـابين بالجنسية المثلية يعـانون من اضطرابات نفسيـة واضحة، وبعضهم قد يبـدو في أكمل صحة نفسية، والجنسي المثلي في كل الأحوال إنسان مريض لا شك في مرضـه، سواء في توافقـه أو في تقديره لنفـسه، أو في دفاعـاته الشخصـية. ولبعض هؤلاء مظهر الإناث الضعيف، وبعضـهم قد يبدو على فحولة واضحة، ولا دخل للمظاهر البدنية في الدور الجنسي الذي يفضله هـذا أو ذاك، ويذكر التاريخ من المشهورين من المصابين باللواط أصحاب الغزوات والفتوحات والجبروت والسلطان: نيرون، ويوليوس قيصر، والإسكندر الأكـبر، وفيليب المقدوني، وإدوارد الثـاني ملك انجلترا الذي كانوا يلقبونه عن جدارة الملك اللوطي.

واللوطي **sodomite**أو **homosexual** أناني، ويكبت الكراهية للناس، ويضمر لهم العداء، ويشكـو الاضطهاد، وكثـيراً ما تأتـيه نوبات من الاكتـئاب والقلق. وكـان ابتلاؤه بالجنسية المثلية منذ الطفولة نتيجة تعيّن فاشل بأحد الأبوين، فبدلاً من أن يتعين الولد بأبيه فإنه يتعيّن بأمه، وبدلاً من أن تتعين البنت بأمهـا فإنها تتعين بأبيها، وينشأ على ذلك حتى النضوج فيسـعى لإشباع الجنس فيه إلى شريك من جنسـه،فالرجل ينجذب الى الرجال ، والمرأة تنجـذب إلى النسـاء. وللبيئة دور في تأمين التربية والتنشـئة السليمة للطفل منذ ولادتـه، وللوراثـة دور في أن يكون إنجاب الطفل بلا عيوب خلقـية أو خُلقية. وعلاج الجنسية المثلية المعروفة باسم اللواط تجاوزاً لا يختلف عن العلاج الذي وصفه ربّ العزة له في سورة النساء الآيتين ١٥و١٦، وذلك شيء ينفرد به القرآن، والأذى الموصوف في القرآن يقابله بلغة العصر عن أهل الطب النفسي ما يسمى بالعلاج بالتنفير، بالإشراط المنفر، لإطفاء الاستجابات الجنسية المثـلية غير المرغوب فيها وإنشاء استجـابات بديلة غيرية الجنسية وهي الاستجابات المطلوبة. والعلاج القرآني يتوافق مع العـلاج الحديث ولا يتعارض معه البتة، والقرآن لا يتناقض والعلم أبداً، وكل قضـية علمية وردت في القرآن يثبـتها العلم الحديث

ويدلل عليها، ونحن مطالبون بالأخذ بالعلم لما فيه من فوائد ومزايا ، ولأنه الدليل البرهانى على صدق قرآننا وأنه من لدن عزيز حكيم، ولله الحمد والمنة.



١٤٥٣.﴿القرآن واللواط الأنثوى﴾

اللواط الأنثوى Female homosexuality لم تذكره التوراة، ولا الإنجيل، وانفرد القرآن بالتحذير منه، ووصمه بالفحش، فيقول: **﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)﴾** (النساء)، فجعل ممارسة هذه الفاحشة عند النساء جماعية لأنها فى الغالب تتم جماعية، بينما جعل اللواط الذكرى عند الذكور بين كل اثنين منهم فقال: **﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ﴾**(النساء١٦).

واللواط الأنثوى من اضطرابات السلوك الشاذ، وينبئ عن علّة نفسية فى المرأتين اللتين تمارسانه، وتقوم إحداهما بدور الذكر، بينما الأخرى تقوم بدور الأنثى. والمرأة الذكر لها مواصفات الذكورة، وتمتاز ببسطة فى الجسم، وجرأة، وفيها الكثير من العنف، وصوتها كالرجال، وتعلو المرأة الأخرى فى الفعل الجنسى، وتنفق عليها من مالها، وتدرأ عنها العدوان من الآخرين، وتغار عليها، بينما الأخرى لها سمت الإناث المستدق، وسلوكها أنثوى يتسم بالسلبية، وتنشد من زميلتها الرعاية والحماية والمحبة، وتتلقى عنها وتأتمر بأمرها، وتغار عليها إذا انصرفت عنها الى أخرى. وفى اللواط الأنثوى تفرك المرأة عورتها فى عورة الأخرى، وتدعكها بها، وتدعسها ، وتهيج بظرها، وتداعبها أثناء ذلك، باللعق والتقبيل والتحضين والتحنين حتى تمام بلوغ الهزة من كلتيهما. وقد تعاود اللوطية الذكر الفعل كالرجال وتنهك اللوطية الأنثى. ويطلق الأخصائيون على ممارساتهما اسم **السحاق**، من السحق وهو الدقّ الشديد فى الفعل الجنسى. وبلغة الطب النفسى هو اللزبيانية **Lesbianism**، نسبةً الى جزيرة لزبوس الإغريقية، وكانت فيها النساء من أتباع الشاعرة سافو **Sapho** يمارسنه، فيسمى السحاق أيضاً باسم هذه الشاعرة **Saphism**.

وشَرَط القرآن فى المساحقة أن يشهد على المرأتين أربعةٌ، أنهما كانتا تمارسانه مع بعضهما، وعلاج القرآن لذلك هو العزل فى البيوت، وإبعاد المرأتين عن زميلات السوء، والعزل أو الاستبعاد هو أقصى ما يقدمه القرآن منذ ألف وخمسمائة سنة، واستننه التوراة كذلك (الأحبار ١٨ / ٢٩). ويوازى العزل الآن الإيداع فى مستشفى للعلاج. ويستمر هذا الإيداع إلى ما شاء الله، إلى أن تشفى المرأة مما بها، ويتغير سلوكها، وتقبل الزواج ممن يرضى بها. والقرآن بالعزل يصادق على العلاج الطبى النفسى المعاصر، ويؤيده ويسبقه، وعلينا أن نبنى على هذه الآية بما نقترحه من أساليب العلاج، وأن نطوّر هذه الأساليب

باستمرار كلما مَنّ الله علينا بكشوف علمية ونظريات نفسية جديدة. والله المستعان، وله الحمد والمنّة.

●●●

١٤٥٤. «إتيان المرأة فى دُبرها لواط»

نهى الله عن اللواط (الأعراف ٨٠/ ٨٤)، وفى التعريف فإن اللواط هو أن يأتى **الذكران الذكران فى الدُبر**، ومنه لواط آخر يأتى فيه **الرجال النساء فى الدُبر**؛ وهذا اللواط كان جماعةٌ من **المهاجرين** أيام الرسول ﷺ يمارسونه، ولم يكن يفعله **الأنصار**، فقد كان اليهود يسكنون إلى جوارهم، وفى **التوراة** اللواط بصنوفه حرام، وكذلك فى **الإسلام** وفى **النصرانية**، واستهجن الأنصار لواط هذا النفر من المهاجرين، قال ابن عباس فيما أخرج الحاكم والبيهقى وأبو داود : كان الأنصار يساكنون اليهود ويرون لهم فضلاً عليهم فى العلم، ويقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر اليهود ألاّ يأتوا النساء إلاّ على حرف - يعنى على جنوبهن، فكان الأنصار يفعلون مثلهم، بينما كان المهاجرون يشرحون النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، وحدث أن تزوج رجلٌ من المهاجرين امرأةً من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى، حتى شَرَى أمرُها ـ أى عظم واشتد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنزل قوله تعالى: **﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾**(البقرة٢٢٣).

وقالت **أم سلمة** زوجة رسول الله ﷺ فيما أخرج أحمد والبيهقى : لمّا قدم المهاجرون المدينة على الأنصار تزوّجوا من نسائهم، وكان المهاجرون **يَجَبُّون** نساءهم ـ من **التجبية** وهى أن تضع المرأة يديها على الأرض وتنكبّ على وجهها وتقوم على ركبتيها. وكان الأنصار لا يجبون، فأراد رجلٌ من المهاجرين امرأته على ذلك، فأبت عليه حتى تسأل رسول الله ﷺ ، فأتته، فاستحت أن تسأله، فسألت أم سلمة ، فنزلت الآية: **﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾**، والحرث فى قوله **﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾** هو موضع الولد، وقوله **﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾** أى كيف شئتم مقبلة، أو مدبرة، **فى صمام واحد**، فعن جابر قال : كان اليهود تقول : إذا جامع الرجل امرأته من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: **﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾** ، وعن جابر أيضاً : أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأةً وهى مدبرة، جاء الولد أحول فأنزل الله الآية، فقال رسول الله ﷺ : «**مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك فى الفرج**»، وعنه ﷺ قال : «**تأتيها على كل حال إذا**

كان فى الفرج». وعن عبد الله بن سابط دخل على عمّته حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر وسألها فى استحياء عن إتيان النساء فى أدبارهن فقال: حدثتنى أم سلمة ان الأنصار كانوا يَجبُون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من آجبى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا نساء الأنصار، فأجبُوهن، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت: اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ. فلما جاء استحت الأنصارية، فخرجت، فسألته أم سلمة، فقال: ادعى الأنصارية، فدعتها، فتلا عليها هذه الآية: **﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾** وقال: «صماماً واحداً» ـ يعنى فى مكان واحد هو الفرج. وعن ابن عباس أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله هلكت! قال: «ما الذى أهلكك؟» قال: حوّلت رحلى البارحة ـ يعنى أنه لم يأت امرأته فى قُبُلها، فلم يردّ عليه النبىّ ﷺ، فأوحى الله إليه هذه الآية: **﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾**، وقال له: «**أقبل وأدبر، واتق الدبر والحيضة**» رواه أحمد. وعن النبىّ ﷺ قال: «**استحوا إن الله لا يستحى من الحق: لا يحل أن تأتوا النساء فى حشوشهن**»، وفى رواية أخرى قال: «**لا تأتوا النساء فى أعجازهن**»، وشرحه ابن عباس: يعنى والمرأة قائمة، وقاعدة، ومقبلة ومدبرة، فى قُبلها ـ أو فى أقبالهن ـ ولا تعدوا ذلك الى غيره». وعن أبى جويرة قال: سأل رجل علياً عن إتيان المرأة فى دبُرها فقال: سَفُلتَ سَفَل الله بك! ألم تسمع قول الله عز وجلّ: **﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** (الأعراف ٨٠). وسئل ابن عمر: ما تقول فى الجوارى: أيُحَمَّض لهن؟ قال: ما التحميض؟ فذكر الدُبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحدٌ من المسلمين ؟!! وهو قولٌ حقٌ أى أخى المسلم وأختى المسلمة، ولمّا سُئل مالك بن أنس: ما تقول فى إتيان النساء من أدبارهن؟ قال: ما أنتم إلا قومٌ عرب! هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ؟! لا تعدوا الفرج!



١٤٥٥. ﴿القرآن يعزر المتشبه والمتخنث بالإخراج والنفى﴾

التشبُّه والتخنث: من الإنحرافات الجنسية، وشأنهما شأن اللواط والسحاق، وفى الصحيح عن الرسول ﷺ قال: «**لعن الله المتشبّهين من الرجال بالنساء، والمتشبّهات من النساء بالرجال**»، وعند أبى داود برواية أبى هريرة قال: «**لعن الله الرجل يلبس لِبسة المرأة، والمرأة تلبس لِبسة الرجل**»، وعن ابن عباس فيما أخرج البخارى قال: «**لعن الله المخنّث من الرجال، والمترجّلة من النساء**»، وعن ابن عمرو بإخراج أحمد قال: «**ليس منا من تشبّه**

بالرجال من النساء، ولا من تشبّه بالنساء من الرجال». والتشبُّه: هو أن يتخذ الرجل هيئة النساء، أو أن تتخذ المرأة هيئة الرجال، ويغلب ذلك على اللباس. واللذة المتحصّلة للمتشبه أو المتشبهة تتأتّى عن توهُّمه أنه من الجنس الآخر. وقد يتخنّث المتشبّه إلا أن التشبُّه بخلاف التخنُّث، وغالباً ما يتشبّه المتشبّه دون أن يتخنّث. ومعنى التخنّث: أن يتوهّم المخنث أنه من الجنس الآخر، فيسلك على أنه كذلك، ويتسمى باسم من الأسماء التى لأفراد الجنس الآخر، ويطلب أن يتحوّل نهائياً إلى الجنس الآخر، بالعقاقير أو بالجراحة، أو بالاثنين معاً. وليس شرطاً أن يرتدى المتخنّث ملابس الجنس الآخر، وأما فى التشُّبه فالمتشبّه لا يفعل سوى أن يرتدى ملابس الجنس الآخر، فإن كان ذكراً فإنه لايستثار إلا إذا وضع على جسمه ثياباً تخصّ النساء، فعندئذ يمكن أن ينتصب ويضاجع النساء، ولذلك كان أكثر المتشبهين متزوجين. والزوجة التى تقبل أن يفعل زوجها ذلك لابد أن تكون لها ميول جنسية مثلية، طالما أنها ترضى أن يكون المضاجع لها له هيئة النساء، ويؤثر أن يأتيها بإحساس أنه امرأة وأنها ذكر. ومن ناحية أخرى فقد تكون للمتشبّه طبيعة جنسية مزدوجة، إذ يغلب عليه التشبّه فى مرحلة المراهقة بالذات، والمراهق المتشبه ربما يرضيه أن يمارس العادة السريّة فيكون ذكراً فى الممارسة وأنثى فى المشاركة فى هذه الممارسة، ويقوم بالدورين الذكرى والأنثوى معاً، وهو ما يسمى الازدواجية الجنسية. ولا شك أن للتربية والتعيّن بأحد الوالدين من الجنس الآخر دورهما الكبير فى الانحراف إلى التشبّه الذى لعنه الرسول ﷺ ، واللعن هو إبداء للسخط وعدم الرضا، وهو نهيٌ عن ذلك، وتنبيه للآباء أن يكونوا أكثر حذراً فى معاملاتهم مع أطفالهم. والتشبه فى المجتمعات الأوروبية ظاهرة واضحة، وفى الإحصاءات أنه من بين كل مائة من الإناث هناك ٢٦ متشبّهة، ومن بين كل مائة من الذكور هناك ١١ متشبهاً. ولا توجد إحصاءات من ذلك فى بلاد الإسلام، وإن كان الملاحظ أن التشبه أكثر بين الإناث منه بين الذكور، ويكاد ينعدم عند الطبقات الفقيرة والتى تشكو الأمية، ويكثر عند الطبقات المترفة، وبين تلاميذ المدارس الأجنبية الذين يتلقون تربية أوروبية. وفى مصر لوحظ أن التشبه بالذكور أكثر بين البنات المسلمات فى المدارس الأمريكية، بينما التشبه بالإناث أكثر بين تلاميذ المدارس الفرنسية. ويتمشى بروز ظاهرة التشبه فى المدارس الأجنبية فى مصر مع إهمال المسلمين للتربية الدينية، وترك الآباء للفرائض، وإقبالهم على تقليد الحضارة الغربية . وكلما زاد الغزو الحضارى الغربى للبلاد الإسلامية زاد ظهور أمراض وعلل هذه الحضارة فى المجتمعات الموسرة للمسلمين، وبين أولاد وبنات أصحاب السلطة والمتبوئين للمناصب العليا. والمسلم الذكى هو الذى

يأخذ من الحضارة الغربية ما يتفق وحاجات أمته، وينبذ ما سوى ذلك مما يلحق به وبأولاده وبناته الضرر وهم من شباب أمة الإسلام، والمعوّل عليهم أكثر من غيرهم في إعادة بناء الدولة الإسلامية البناء الصحيح القائم على العلم الخالص وسلامة الاعتقاد. وعن أم المؤمنين أم سلمة : أن الرسول ﷺ نهى عن دخول المتشبّهين بيوت المسلمين. وروى المستغفري عن ابن المنكدر أن النبيّ ﷺ قال : «**اشتد غضب الله على قوم رغبوا عن خلق الله وتشبّهوا بالنساء**» ونحن بدورنا ننهى عن دخول المتشبهين مدارس المسلمين.

وخطورة دخول المتشبّه أو المتشبهة بيوت المسلمين أن يقلّده أو يقلدّها الأولاد والبنات، وكانت المتشبهات والمتشبهون ممنوعين من دخول بيوت الرسول ﷺ وبيوت أصحابه. وفي الحديث أيضاً أن **المخنثين** كانوا ممنوعين ضمناً. والمخنث أو المتخنث هو الذي يتكلف سلوك النساء، ويشبه خُلقه النساء في حركاته وكلامه وغير ذلك، وأخرج أبو داود عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ أُتي بمخنث قد خضّب يديه ورجليه. فقيل له : يارسول الله ! إن هذا يتشبّه بالنساء، فنفاه الى النقيع، فقيل ألا تقتله ؟ فقال : «**إني نُهيت عن قتل المصلّين**»، ويستفاد من ذلك ان التشبه والتخنث **لا عقوبة عليهما** طالما لم تُعرف عمّن يأتيها فاحشة، ويتوجب إبعادهما عن مجتمعات المسلمين حتى لا يكونا مثلين يقتدى بهما الشباب.



١٤٥٦. «إتيان البهائم ليس زنا»

إتيان البهائم **bestiality** شذوذ جنسي لم يرد صراحةً في القرآن، لكن الفقهاء تناولوه ضمن ما تناولوه من **شذوذ قوم لوط** وهو المسمى اللواط، **وشذوذ التشبّه والتخنث وإتيان النساء في الدبر، وإتيان الصبية**، وقالوا عن إتيان البهائم: إن الذي يأتي البهيمة مثلاً، أو التي تأتي ذكراً من البهائم، يُقتل والبهيمة، وتعللوا بحديث وضعوه : «**من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه**»، والأسخف قولهم إن البهيمة تقتل حتى لا تحمل وتلد مخلوقاً مشوهاً ! وهذا مستحيل طبعاً لأن **كروموسومات الإنسان لا تجانس كروموسومات الحيوان** فلا يمكن أن يتلاقحا. والبعض ممن اعتبر **غشيان البهائم** زنا قال بالجلد مائة، أُحصن أو لم يحصن. والصحيح أن هذا الفعل من **الشذوذ لا عقاب بدني عليه**، فلا هو يقتل ولا يجلد، ولا تقتل البهيمة، **لأنه وطء في غير محل الوطء، ولا يتعلق به إحلال، ولا إحصان، ولا حدّ**.



١٤٥٧.﴿اللوم والنفس اللوامة﴾

هى نفس المؤمن الذى لا تراه إلا يلومها ويعاتبها، وتلومه بدورها، على ما فات، وما ارتكب، وتلوم نفسها على ما فعلت من شرّ، وما لم يستكثر من الخير، وتلوم غيرها على ما تلومه به نفسها. **واللوّامة** إذن هى **اللائمة**، وفى قوله تعالى: **﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾** (القيامة) : **اللوّامة** صفة مدح يستساغ القسم بها. وقيل هى صفة ذم، لأن التى لا يقسم بها هى نفس الكافر الدائم اللوم لنفسه، يتحسّر فى الآخرة على ما فرّط فى جنب الله. وقيل ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهى تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه لو كان ازداد إحساناً، والمسيء يلوم نفسه ألاّ يكون ارعوى عن إساءاته. والنفس اللوامة تقابل فى الطب النفسى **الأنا الأعلى Super ego** . واللوم **دافع عدوانى** قد يتجه نحو الآخرين أو نحو الذات، وتكوين النفس اللوامة، أو الأنا الأعلى، أو الضمير، يرجع الى نوع التربية التى كان عليها الطفل منذ صغره. ودور النفس اللوامة هو نفس **دور الأب أو المربّى**، وتتشكل هذه النفس بحسب استدخالات واستدماجات الطفولة. وبعض الناس يشكون من شدة وقسوة النفس اللوامة معهم، وعلاجها يكون بإجراء تعديلات فى بنائها النفسى بحيث تتعلم التسامح والنظر الى الأمور بواقعية. وتجنب اللوم **Blame-avoidance** آلية نفسيه للتقليل من لوم الشخص لنفسه وذلك بنقل اللوم إلى آخرين. والخوف من اللوم قد ينكص بالشخص الى سلوك لا يناسب عمره الزمنى، وفى الآية: **﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۝٥٤﴾** (المائدة) فإن عدم الخوف من اللوم **علامة ثقة نفسية**. ومليم فى الآية: **﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾** (الصافات) تعنى ملوماً، والملوم مقابل الملام. **والتلاوم** هو تكلّف اللوم. **واللائمة** هى اللوم أيضاً ولكنها مؤنثة، تقول **استحق اللائمة**، يعنى استحق أن يلام. **واللوّام** الكثير اللوم. **واللوم** بخلاف **العتاب** : وهو الإنكار على بعض فعل الآخرين؛ والفرق بين اللوم والعتاب ، أن اللوم اتهام للآخرين، وأما العتاب فهو لوم بأدب وليس فيه عنف اللوم. وفى الآية: **﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ۝٢٩﴾** (الإسراء)، والآية: **﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ۝٣٩﴾** (الإسراء) أن اللوم يستحدث مشاعر حسرة واندحار فى النفس، فيها اتّهام للذات وتقليل من شأن النفس.



١٤٥٨.﴿نزغ الشيطان﴾

فى قوله تعالى: **﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾** (الأعراف)، النزغ: هو الطعن، يكون نفسياً، تقول : نزغ الشيطان بينهم، يعنى أغرى

بعضهم ببعض، **ونزغه الشيطان إلى المعاصى**، يعنى حثّه، **فالنزغ نفسى**، وهو **كالوسوسة** ، والاستعاذة بالله تنجى من النزغ أياً كان مصدره، فلما كان نزغ النفس يقدر الإنسان عليه، فإن نزغ الشيطان لابد فيه من عون الله. وفى الرواية أن السلف قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده. قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده. قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده. قال : هذا يطول! أرأيت لو مررت بغنم فنبحكَ كلبُها، ومنعك من العبور، ما تصنع ؟ قال : أكابده وأردّه جهدى. قال : هذا يطول عليك ، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفّه عنك ـ يعنى استعذ بالله واستنجد به يُعنك.

•••

١٤٥٩.﴿الطائف من الشيطان يمسّ النفس﴾

الطائف فى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾** (الأعراف)، هو ما يُتخيَّل فى القلب أو يُرىَ فى النوم، والمعنى: أن الذين اتقوا المعاصى، إذا لحقهم شىء تفكّروا فى قدرة الله وفى إنعامه عليهم فتركوا المعصية. **والطيف والطائف** بمعنى واحد، قيل هو، التخيُّل، وما تتخيله قد يظل فى النفس، أو تخرجه فيكون الشيطان ويسمى طائفاً، اسم فاعل من **طاف يطيف**، فكأن الطائف الذى يطوف بالنفس إما أن يكون نفسانى ويُحبَس داخلها ، أو يكون شيطانى ويخرج عن إطارها. والطائف يكون أيضاً ملاكاً، كقوله: **﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)﴾** (القلم)، مثلما نقول **لمة النفس، ولمة الشيطان، ولمة الملَك، واللَّمة**: هى التى تلم بصاحبها. والجنون، والغضب، والوسوسة، جميعها تسمى طيفاً، لأنها لمة وتُشبّه بلمّة الخيال.

•••

١٤٦٠.﴿المس من الشيطان﴾

تذكر الآية فى المرابين أنهم: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (٢٧٥)﴾** (البقرة)، **والشيطان لا يتخبّط** أحداً من المس، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾** (الحجر) وإنما هو **مثلٌ مما يعرفه** الناس، ولا يعنى أن ذلك حقيقة علمية، **فالشيطان جنس، والإنسان جنس** آخر، ولا تماس بينهما، والممسوس فى الطب الشعبى هو ـ علمياً ـ المريض المصاب **بالهستيريا**، ولكن العامة ترد ذلك الى فعل الشيطان، وكل إنسان له شيطان يوسوس إليه أن يحيد عن الصواب، وذلك هو نزغ الشيطان، ولكنه لا يجبر أحداً على شىء، وليس بوسعه ذلك. والأمراض أسبابها نفسية بدنية وليس من أسبابها مسّ الشيطان.

•••

١٤٦١.﴿إخوان الشياطين﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ (الأعراف)، والمقصود إخوان الشياطين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ (٢٧)﴾ (الإسراء)، والتبذير غيّ، والغيّ عموماً هو الشرّ والضلال، وإخوان الشياطين هم أولياؤهم كقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ (١٢١)﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ (١٩)﴾ (المجادلة). ومعنى «يمدّونهم في الغيّ»: يزيدونهم فيه، ومعنى «ولا يُقصِرون»: لا يتوبون ولا يرجعون، والمعنى: أن المؤمن إذا مسّه طيف من الشيطان تنبّه عن قُرب، فأما المشركون فيمدّهم الشيطان ولا يقصر عنهم ولا يرحمهم، والإقصار: هو الانتهاء عن الشيء.



ويتهي بحمد الله ومنّته الباب الثالث عشر، ويبدأ إن شاء الله الباب الرابع عشر، بعنوان «القرآن والفنون والصنائع والآداب والأخلاق».



الباب الرابع عشر
﴿القرآن والفنون والصنائع والآداب والأخلاق﴾

•••

﴿أولاً: الآداب والفنون والصنائع﴾

•••

١٤٦١. ﴿نحو نظرية للجمال فى القرآن﴾

قال تعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ⑦﴾(السجدة)، يعنى أنه تعالى أحكَمَ خلْق كل شيء، وجاء به وفق إرادته لم يحد عنها، فكان خَلْقُه حسَناً، ويدل على الخالق الذى هو الله، وأنه بالهيئة التى خلقه عليها كان على أحسن ما يكون، وهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها، لأنه متناسب مع بعضه البعض شكلاً كما تقول نظريات الجمال الشكلى، باعتبار أن الجمال هو ميزة الشيء الجميل ككل، وهو خاصة صورية كما وصفها أرسطو، وقال إنها الوحدة التى يتبدّى عليها الشيء الجميل على كثرة ما يحتويه من تفاصيل وعناصر، فرغم أنها وحدة إلا أنها تجمع فى داخلها كل ضروب التنوّع والاختلاف، ألّفت بينها هذه الوحدة فى كلٍّ منسجم، والجمال إذن هو هذا الانسجام الحاصل والمتبدّى فى وحدتها ككل. وأما نظرية الجمال عند أفلاطون فإنها تقول بأن خاصة الجمال ليست خاصة صورية ولكنها ما وهبه الله للمخلوقات ونفخ فيها من روحه، ومن ثم فالشيء الجميل هو الذى يشعّ بالحياة، والوجه الحيّ يكون مشرقاً، والوجه الميت يكون منطفئاً، ونحن نصف المُشرق بالجمال وأما الميت فلا نصفه بشيء. وأما نظرية الجمال فى القرآن فإنها تُدخل القبح كنقيض للجمال ضمن التذوق الجمالى، والجميل هو المعبّر وإن كان قبيحاً، طالما أنه قد أحسن التعبير عما قَصَد إليه، والقبح قيمة جمالية، وإن كانت سالبة مثلما الجمال قيمة جمالية موجبة. والجمال والقبح قطبا قيمة واحدة، كالصواب والخطأ فى الأخلاق، والحق والباطل فى المعرفة. وفى النظرية اليهودية ومن ثم المسيحية، فإن القبح فى الوجود نقص فى الشكل عن الشكل الواجب للنوع ككل. وليس كذلك الأمر فى القرآن، فالجميل له موضعه، والقبيح له أيضاً موضعه، وكلاهما مطلوبان. فالقرد مثلاً ليس حسن المنظر، ولكنه متقن محكم. ولو أننا تصورنا أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار، فبحسب نظريات أرسطو وأفلاطون، والنظرية اليهودية أو اليهودية النصرانية، يكون ذلك تشويهاً فى خلقة أيّ من هذه المخلوقات، ولا ينسجم معها، ولا يناسبها. وأما بحسب القرآن، فإن طول عنق

الجمل، والشق فى شفته، إنما ليسهلا عليه تناول الكلأ أثناء السير، وكذلك الفيل، فلولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير كى يتمكن أن يتناول طعامه، فالخرطوم يقوم له بذلك دون أن يبرك، وذلك هو صُنع الله ومَن أحْسَن من الله صُنعاً، ومن أتقن منه وهو يصنع ويخلق ويبدع؟ وعندما نتأمل الثعبان وهو يزحف، ويثير قشعريرة الخوف فى الإنسان والحيوان، فإننا دون الحيوان لا يسعنا مع شدة الخوف إلا أن نعجب لإحكام خَلْق الله له، وهذا الإحكام هو ما اصطلح عليه المسلمون بأنه الجمال، وهو الذى يثيرنا أن نهتف حال مشاهدته وإدراك عظمته: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)**﴾(المؤمنون)، وما يبدعه أحْسَنُ من الحُسْن، وهو الأجمل، وهو تعالى خالق الجمال. وفى الآية: ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)** ﴾(النحل): أن الجمال ما يُتجمّل به ويُتزيَّن، فهو النافع اقتصادياً، وله أيضاً وظيفة التزيُّن والتجمُّل؛ تقول جَمُل الرجل جمالاً فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضاً. والجمال فى الأنعام، كما هو فى الطير والحيوان والشجر والزروع والجماد والطبيعة، وهو فى الصورة وتركيب الخلقة، ويكون فى الأخلاق الباطنة وفى الأفعال. فأما جمال الخلقة: فيدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس من غير معرفة. وأما جمال الأخلاق؛ فكونها على الصفات المحمودة من العلم، والحكمة، والعدل، والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير. وجمال الأفعال هو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع فيهم، وصرف الشرّ عنهم. والجمال فى الصياغة عموماً، وفى نِسَب الألوان، واتساق الأشكال والخطوط، وانسجام الإيقاعات والأنغام إلى بعضها البعض، وتُنظَر بالعين، ويُنصَت إليها بالأذن، وتُلمس باليد، وتوافق الحسّ والطبع والفهم.

●●●

١٤٦٢ - ﴿الله جميل يحب الجمال﴾

فى الحديث: «**إن الله جميل يحب الجمال**»، وكان رسول الله ﷺ يتحرّى الجمال فى كل شيء: فى القول الحسن، والعبارة البديعة، والشِّعْر الداعي للخُلُق، والمشية المهذبة، والنظرة الوقور، والأفعال الحميدة. وحُسن الهيئة عنده من حُسن المخبر. والمسلمون على التجمُّل بالمعنويات كتجمُّلهم بالماديات، وتجمُّلهم أكثر فى الأعياد وأيام الجُمَع، وفى الزيارات ولقاء الناس، ومن أقوال أبى العالية: **كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا**. وكان رسول الله ﷺ يسافر **بالمشط، والمرآة، وزيت الشعر، والسواك**، وما يُصلح عينيه **كالكحل**، وعن أنس أنه ﷺ كان **يضع زيت الشعر على رأسه ويسرّح لحيته بالماء**، وكانت له **مكحلة** يكتحل بها عند النوم ثلاثاً فى كل عين. والجمال مطلوب حتى فى **البهيمة**، وفى **الأسماء**، وفى كل مُنتج من صنعةٍ، وفى كل شيء.

●●●

١٤٦٣- ﴿لا سرف ولا مخيلة﴾

يلخّص الحديث: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا فى غير إسراف ولا مخيلة، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» فلسفة الإسلام فى الزينة واللباس والطعام والشراب، والإسراف: مجاوزة الحد فى كل فعل وقول، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ (٥٣)﴾(الزمر)، على أن الإسراف فى الإنفاق أشهر. والمخيلة: هى الخيلاء والتكبُّر، والإسراف قد يستلزم المخيلة. والحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان لنفسه، وتدبير مصالح النفس والجسد فى الدنيا والآخرة، فإن السرف فى كل شىء يضر بالجسد، ويضر بالمعيشة، فيؤدى إلى الإتلاف، ويضر بالنفس إذا كانت تابعة للجسد فى أكثر الأحوال. والمخيلة تضر بالنفس فتكسبها العُجب وهو إثم، والمقت من الناس. وفى الحديث: «كُلْ ما شئت، واشربْ ما شئت، ماأخطأتك اثنتان: سرفٌ أو مخيلة». ومجمل الإسلام فى أمور الطعام والشراب واللباس والزينة: التنعُّم بطيّبات الله. ومَن قَصَد بالملبوس الحسن إظهار نعمة الله عليه، يستحضرها، ويشكر عليها، ولا يحتقر من ليس له مثلها، لا يضره ما لبس وشرب وتزيّن من المباحات. ولمّا قال رسول الله ﷺ فى ذلك: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر»، قال أحدهم: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ فقال النبىّ ﷺ: «إن الله جميلٌ يحب الجمال. الكِبْر بَطَرُ الحق، وغَمْط الناس»، وغَمْطُهم يعنى احتقارهم. ولمّا رأى النبىّ ﷺ أحدهم رثّ الثياب قال له: «إذا آتاك الله مالاً فلير أثره عليك»، أى يلبس ثياباً تليق، مع مراعاة القصد وتَرْك الإسراف.



١٤٦٤ - ﴿جماليات الزينة والتزيُّن﴾

الزينة: على قسمين، خِلْقية ومكتسبة، فالخلقية: ما كانت فى الفطرة والخِلْقة، فريش الطاووس زينة وهو مخلوق به، وكذلك عُرف الديك، ولبدة الأسد، والمكتسبة: كتزيُّن المرأة والرجل ليكونا على صورة أبهى وأجمل، كما فى قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ (القصص ٧٩)، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤)﴾(يونس) وزُخرف الأرض وزينتها مكتسبتان بما يهيؤه الإنسان لها من هندسة معمارية، وإصلاحات وتحسينات، وما يضفيه عليها من زخارف وزينات. والزينة هى الأبهة تصنعها الأموال، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٨٨)﴾(يونس)، وقوله: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾(الحديد). ومن الزينة الملبس الحسن والثياب الرفيعة، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ (٣١)﴾(الاعراف)، أى تزيّنوا وارتدوا

أحسن ما عندكم من ثياب، ومشّطوا رءوسكم، والبسوا النعال، وليكن المؤمن فى أبهى صورة، وليكن شامة بين الناس، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** (٣٢)﴾(الأعراف). وكان اليهود والنصارى يحرّمون ما لم يحرّم الله، فقال عمر: «**إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا**». **وطيبات الرزق**: هى أطايب الأطعمة، وهى زينة وجمال، وكان **علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب** يلبس الكساء الغالى فى الصيف، فيجىء الشتاء فيتصدّق به، وكان يقول: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ** (٣٢)﴾(الأعراف)، ومعنى الزينة عند ابن حنبل لا ينصرف إلى الغالى من الثياب، فالرخيص يمكن أيضاً أن يكون زينة: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** (٢٦)﴾(الأعراف)، وقيل: ولماذا لا يكون معنى **لباس التقوى** هو هذا اللباس الجميل، فالمهم الإنسان داخل اللباس، فإذا كان جميلاً فى خُلُقه وخَلْقه، فلماذا لا يجعل ثيابه جميلة مثله، والخطاب يُعرَف بعنوانه، وتجويد اللباس أُمِرنا به، وأُمرنا أن تكون أفعالنا لله وللخَلْق، وكل إنسان يجب أن يُرىَ جميلاً، ولا يلام عليه إن فَعَل، فهذّبَ شعره، ونَظَر فى المرآة، وسوّى هندامه، ولَمّع حذاءه، وغسلَ وجهه، وطامن من مشيته وكلامه، ورآه الناس جميلاً. والتزيّن ليس فيه ما يُكره أو يُذَم. **والمرأة زينتها مكتسبة** منذ بداية التاريخ، وفى فطرتها أن تتزين وتتجمّل، وتختلف زينتها باختلاف العصور والثقافات والأمصار والقدرات المالية، وعموماً فإنه منذ القِدَم **فالقُرط** عند المرأة الفقيرة والغنية مكانه الأذنان، **والعقد** مكانه الصدر، **والخلخال** مكانه الساقان. وتهتم النساء كثيراً **بملابسهن**، غير أنهن يملن إلى تعرية أطرافهن والاستعراض بأجسامهن. ومن زينة المرأة **الكحل والخضاب**. **ومن الزينة ظاهر وباطن**، وما ظهر مباح لكل الناس من المحارم والأجانب إلا أن تُظهر المرأة ما هو باطن، فما بطن لا يحل إبداؤه، وليس من الحكمة إبداؤه، ولم تزدد حوادث **الاغتصاب** إلا بسبب إبداء ما هو باطن. **والسوار** من الزينة الظاهرة لأنها فى اليدين. **والزينة فى الرجال لا تقل عنها فى النساء**، وعن **عائشة**: أن نفراً كانوا ينتظرون النبىّ ﷺ على الباب، فخرج يريدهم، وكانت فى الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر فى الماء ويسوى لحيته وشعره، فسألته: أأنت تفعل هذا؟ قال: «**نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهىء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال**». **والخيل والبغال والحمير** زينة عند الركوب، وكذلك **المنازل والأثاث**، وعرفت الزينة **خطوط الكتابة، وزخارف المساجد**، وفن **الأرابيسك** من مآثر فلسفة القرآن فى الجمال.

●●●

١٤٦٥. ﴿الشَّعر وحلقه ونتفه ووَصله﴾

الشعر زينة لم يحرّمها الله تعالى، قال: ﴿**وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ**

حِينٍ ﴿٨٠﴾ (النحل) والزينة أمَر بها الله تعالى عند المساجد فقال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴿٣١﴾(الأعراف)، وزينة الشعر عند المساجد وغيرها توفيره وترجيله وإكرامه. وكانت عائشة ترجّل شعره ﷺ، وكان يضع عليه الدهن. وشعر المرأة من آيات حُسنها، وأُمرت ألا تُظهره إلا لزوجها، وجُعل له الخمار فى قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴿٣١﴾(النور)، والخِمار جمع خُمر، وهو ما تغطى بها النساء شعورهن. وفى الغسل يفيض الرجل على شعره ثلاثاً، وتنفض المرأة شعرها لتروى أصوله، ويستحب نقضه من الحيض والجنابة على السواء. ولا يجوز لها وصله بشعر آخر تدليساً، إلا أن يكون لمصلحة تحسين شكلها لزوجها من غير مضرة. وقد لعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة. ويُكره حلق شعر المرأة، وتقصيره للرجل أفضل، ويُكره حَفّ الوجه ونتف شعره للرجال والنساء تزيّناً لا تجمُّلاً، وقد لعن رسول الله ﷺ النامصة والمتنمّصة، وهى التى تنتف شعر وجهها للتبرُّج، أو التى عملها نتف الشعر للنساء وتحفيفهن، إلا أن يكون ذلك لصالح أن يراها زوجها أجمل. ويُكره للرجال القزع مثلما الموضة، وهو أن يحلق الصبى بعض الرأس ويترك البعض تشبُّهاً وتخنُّثاً؛ ويكره نتف الشيب للرجال بقصد التصابى. ومن السُنة والصحة معاً نتف شعر الإبط، لأنه من الفطرة، ويفحش بتركه، ويجوز إزالته بالحلق أو بالنورة. ويُستحب حلق شعر العانة، وهو المسمى بالاستحداد، من حَدّ، أى شحذ أداة حلق الشعر. ويُمنع المحرم من حلق شعر رأسه أو لحيته أو شعر جسده إلا لعذر، كى لا يلتفت إلا لطقوس العبادة، وعليه فدية إن حلقه عقاباً له حتى لا يفعل ذلك: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة. ويستوى فى ذلك شعر الرأس والجسد، وإن حلق الاثنين فعليه بَدَنة. ويستحب صحيًا دفن ما أزيل من الشعر أو التخلص منه بطريقة صحية، ويجوز خضاب الشعرللزينة والتجمُّل. ولا تزول طهارة شعر الآدمى والحيوان الطاهر بالموت، ولا يُحلق أىٌّ من شعر الميت عند تغسيله. ويجب الدية ـ أى التعويض ـ فى الشعر إذا زال ولم يُرج عَوْدُه.

●●●

١٤٦٦- ﴿الحلية زينة وحق﴾

الحليــة نحلَةُ الله تعالى للبشر، ومن حقّ كل إنسان أن يتحلّى، وفى التنزيل عن البحر: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٤﴾(النحل)، يشير به إلى اللؤلؤ والمرجان والأصداف، وأنه تعالى لم يحرِّم على الإنسان أن يتحلّى، وأن يلبس الحلية، وكل حلية تُلبَس بحسبها، فالخاتم فى الإصبع، والسوار فى الذراع، والقلادة فى العنق، والخلخال فى

الرِّجال. وفي التنزيل: ﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ** ﴿١٧﴾﴾(الرعد) أن الحلية هي حلية الذهب والفضة وسائر المعادن، تُلبَس ويستمتع بها، وفيها إبداعات الإنسان بالصياغة بالرسوم والزخارف، ولذا كان الوعد بها في الآخرة، فقال: ﴿**وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ** ﴿٢١﴾﴾ (الإنسان)، وقال: ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴿٢٣﴾﴾ (الحج) فلم يفرّق بين الأنثى والذكر في لبس الذهب واللؤلؤ والحرير، غير أنه من أصول التربية أن الذكور لا يصلح لهم أن يبالغوا في استعمال الملذ وذات لكون ذلك من صفات الإناث، وفي القرآن: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** ﴿١٨﴾﴾ (الزخرف) يقصد الإناث، فهن يربين من صغرهن على لبس الأقراط والحلي، ولذا قيل إن النبيّ ﷺ أحلّ الذهب والحرير للإناث دون الذكور، إلا أنه كان مع ذلك يمنع أهله الحرير والحليّ لأنهم قدوة. والإسلام مع التوسط في كل شيء إلا في الأزمات الاقتصادية، وحديثه ﷺ في ذلك: «وتمعددوا واخشوشنوا واخلولقوا» بمعنى واحد وهو الدعوة للتقشف، وفي الخبر أن عمر أرسل إلى واليه لما رآه يلبس الحرير، يسأله: أيشبع المسلمون من هذا؟ - يعني سأله هل الناس جميعاً سواء ويلبسون الذهب والحرير كما تفعل؟ فما لم يكن الناس في نِعمة من العيش، فلا يكون بينهم هذا التفاوت الكبير في المظاهر، بين مَن يلبس الحرير ويتحلّى بالذهب والفضة، أو يركب المطهّم من السيارات، ويسكن الفاخر المُترف من المنازل،وبين من لا يجد قوت يومه، ولا ما يردّ به عن نفسه غائلة البرد! وهذه هي اشتراكية الإسلام، وهي اشتراكية تعاونية تكافلية. والتزيّن الشديد مكروه ومثله الترف، وهو ليس من الجماليات، وأقرب إلى القُبح، وليس من العقل ولا الدين أن يلبس الناس كِبْراً وخيلاء! وأبيح الحرير عند اللزوم كما في حالة عبد الرحمن بن عوف، فقد كانت به حساسية لأنواع اللباس من الصوف، وفَهِم عبد الرحمن من إذن الرسول ﷺ له في لبس الحرير نسخ التحريم، ولم ير تقييد الإباحة. غير أن الذهب والفضة واللؤلؤ والماس والحرائر وإن كانت زينة، والله لم يحرّم الزينة، إلا أنها من الرفاهية، وللمترفين خاصة، ولم يحرّم الله الترف، إلا أنه كان سبيلاً إلى غِلظ القلب، وسوء القصد، وفساد العقل والذوق، والترف ذُكر في القرآن ثماني مرات، وفيها جميعاً يتوعد الله تعالى المترفين، كقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ** ﴿٦٤﴾﴾ (المؤمنون). ويتأتى فساد الحُكم في بلد ما من استغراق أصحاب الحلّ والعقد والصفوة من أبنائه في الترف، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴿١٦﴾﴾ (الإسراء). ولباس الحرير والتحلّي بالفضة والذهب وغيرهما يليق بالنساء دون شهامة

الرجال، لأن النساء قليلات الصبر عن التـزين، فلَطَف بهن فى إباحته، ولأن تزينهن غالباً للأزواج، وفى الحـديث: «حُسن التبعُّل مـن الإيمان». والنهى عن لبس الحـرير والتحلّى بالذهب وغـيـره ليس لنجـاسـة بعـين أىٍّ منهـا، بل لأن ذلك ليس من لبـاس المتقـين، كقوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۝٢٦﴾(الاعراف)، وأما عَيْن هذه الأشـياء فهى طاهرة، وعلى ذلك يجوز مسّها وبيعهـا والانتفاع بثمنها، وقد ثبت لبس الخـز عن جمـاعة من الصحابة، ولبسه منهم أكثر من عشـرين نفسـاً، واتخذ النبىّ ﷺ خـاتماً من ذهب عليه «محمد رسول الله»، فمحمد على سطر، ورسول على سطر، والله على سطر، نُقش هكذا حتى لا يسـتطيل، وكان يختم به مراسـلاته، ووضعه فى إصبع الخنصـر من يده اليمنى، واستـمر ذلك ثلاثة أيام، ثم ألقى به واتخذ خاتماً من فضـة لنفس الغرض، وكان يجعل فصَّه ناحية كفّه حتى لا يبدو أنه للزينة، ونهى عن تختيم الذهب إلا للنساء، واتخذ كل من أبى بكر، وعمر، وعـثمان خواتم، أو أنهم استعـملوا نفس خاتم النبىّ ﷺ لختم الأوراق به. وقيل كان خاتم النبىّ ﷺ من حديد ملوياً عليه فضة. والتمس لمن أراد أن يزوّجه التى وهبت نفسـها خاتماً ولو من حديد يمهر به المرأة. وفى بعض الروايات أنه ﷺ لبس الخاتم فى يده اليسرى، والأرجح أنه كان يلبسه فى اليمين، لأن اليسار آلة الاستنجاء فيُصان الخاتم إن كان فى اليمين. وكـانت النساء يتختمن بالـذهب ويلبسـن المعصـفر، ويتـحلين بالقلائد، يفوح منها الطيب والسُك، ويطلق عليها السّخاب جمع سُخُب (وهى القلائد ليس فيها لؤلؤ ولا جوهر، والسُّك نوع من الطيب)، وكن يلبسـن الخُرص وهى الحلقان الصغيرة من الذهب أو الفضة.

●●●

١٤٦٧ - ﴿لباس المسلم فى الحياة والصلاة﴾

يقال لَبِس الثوب أى استتر به، وألبسه الثوب بمعنى جعله يلبسه، وفى القرآن: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ ﴾ (الأعـراف)، أى جعل لكم لباسـاً، فأنزل المطر الذى ينبت القطن والكتان ومنها تصنع ألبسة عظيمة، والمطر يُقيت البـهائم التى منها الأصـواف والأوبار والأشعار، ويقيت الطير التى منها الريش، ومن ذلك كله تصنع الرياش - أى المترف الفاخر من الأثاث واللباس، وكل ذلك مادى، ولباس التقوى معنوى وهو العمل الصالح، وبدونه لا يبقى الإنسان إنسانًا، كقول القائل:

إذا المرء لم يلبس ثـيـابًا من التـقى ... تقلّب عـرياناً وإن كـان كـاسـيًا
وخـيـر لبـاس المرء طاعـة ربّه ... ولا خـير فـيـمن كـان لله عـاصياً

والصوفية يجعلون لباس تقواهم الصوف الخشن من الثياب، يتواضعون به لله، ويتعبدون به خيراً من غيره، ولباس تقواهم خشية الله. وفى الآية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾ (الأعراف) أن اللباس هو لباس التقوى، ومن لا يتقى الله فهو الكاسى العارى، والعرى البدنى مظهرٌ للعرى الخُلقى، والشيطان وقبيلُه يرى غير المؤمن عارياً، لأنه ينفذ إلى أعماقه: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)﴾(الناس)، وفى الحديث: «وللشيطان لَمّة» (أى بالقلب)، :«وأما لَمّة الشيطان فإبعاد بالشرّ وتكذيبٌ بالحق». والمؤمن بعكس الشيطان، فهو لباس لأخيه المؤمن، كقوله تعالى عن الأزواج والزوجات: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة ١٨٧)، فسمّى الله تعالى امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً، لانضمام جسديهما، وامتزاج نفسيهما، وتلازم عقليهما وحاجاتهما، تشبيهاً بالثوب يلاصق البدن، وكل ما يستر فهو لباس، والزوجات والأزواج سترٌ لبعضهما البعض عما لا يحلّ، ويقال للمرأة: هى لباسُك وإزارُك. وفى الآية: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ (النحل) سمّى الجوع والخوف لباساً، لأن مَنْ يصاب بهما يظهر عليه من الهزال والشحوب وسوء الحال ما هو كاللباس، ومن ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠)﴾ (النبأ)، واللباس ما يكون به الستر وسكينة النفس، والليل بظلمته ستّار. واللبوس فى الآية: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ (الأنبياء ٨٠) هو كل ما يُلبس، فالثياب لبوس، والدروع لبوس كذلك. وفى الآية: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل ١٤): أن الحُلىّ المستخرجة من البحر ـ كاللؤلؤ والمرجان والأصداف هى ألبسةٌ للزينة. واللباس من حلىّ وثياب، كقوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)﴾ (فاطر)، وقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (الكهف ٣١)، ونعلم أن اللون المفضل فى الثياب فى الجنة هو الأخضر، وأن خير الألبسة ما كان من الحرير السِّندسى ـ أى الرقيق، والاستبرق هو الديباج، وخصّ الله تعالى اللون الأخضر لأنه اللون الموافق للبصر، لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم العين، والسواد مذموم، والخُضرة على عكس البياض والسواد، تجمع الشعاع ولا تبدده، فتظهر الصورة وتزهو. ولما سألوا الرسول ﷺ عن ثياب الجنة: أهى تُخلق أم تُنسَج؟ قال: «لا، بل تشقّق عنها ثمر الجنة». ومن أجل ذلك حُرّم الحرير والذهب فى الدنيا على الرجال ليكونا لباسهما فى الجنة، وتحرّم الصلاة بهما، ويحرّم الافتراش على الحرير والديباج، وأجاز النبىّ ﷺ لعبد الرحمن بن عوف لبس الحرير على

جسده لحكةٍ به أو مرض على الصحيح، وعموماً فالحرير مباحٌ عند الحاجة، وكذلك الأعلام من الحرير، ولا بأس بلبس الخزّ، وهو الحرير يخالطه الصوف، فهو ليس حريراً خالصاً، ولا يجوز لولى الصبى أن يُلبسه الحرير. ويباح للنساء من الحلى ما جرت عادتهن بلبسه، وقليلها وكثيرها لهن سواء، ولا يباح للرجال إلا الخاتم من الفضة، واليسير من الذهب مطلقًا، وتُكره الثياب التى عليها تصاوير أو صليب. ويجزئ من الثياب فى الصلاة ما يستر العورة عن نفس صاحبها وعن غيره؛ ويُجزئ المرأة ما يسترها الستر الواجب، ولها أن تكشف وجهها وكفيّها، وعليها أن تُخمِّر رأسها. ويُكره للرجل إسبال ملابسه خيلاءً، والتلثُّم بلا سبب، وأن يكون ثوبه بألوان زاهية. ولا تستحب الزينة للمرأة فى الحداد.

●●●

١٤٦٨- ﴿الإنسان فى أحسن صورة﴾

خلق الله تعالى الإنسان فى أحسن صورة، فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ③﴾ (التغابن) والتصوير هو التشكيل، والله صوّر الإنسان والحيوان، والإنسان من جنس الحيوان، وقد جعله الله أحسن الحيوانات كلها، وأبهاها صورةً، ولا يتمنى إنسان أن يكون على شكل حيوان من الحيوانات، ومن حُسن صورته أنه خُلق منتصباً كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④﴾(التين)، أى لم يخلقه منكباً على وجهه، وجعله مستوياً، وزيّنه بالعقل والحكمة، ووهبه اللسان الذلِق، واليد والأصابع التى يقبض بها، وخصّه مهدياً بالتمييز، مديد القامة، حياً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبّراً، وهذه صفات الربّ، ولذا كان هذا الحديث المنسوب للنبىّ ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» أى على صفاته تعالى لا على هيئة الله سبحانه، فالصورة هنا هى المعانى، والإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، بجمال الهيئة، وبديع التركيب، فالرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والرجلان وما احتملتاه، فالإنسان هو العالم الأصغر، وكل المخلوقات مجتمعة فيه، ولذلك فإن من يشوّه خلقة الله، ويفسد صورة الإنسان بالقذارة والثياب الرثة، واللفظ القبيح، فإنه يرتكب أكبر الجُرم فى حقّ نفسه وحقّ ربّه، والإنسان لكى يحافظ على هذه الصورة عليه أن يتعهد نفسه بالنظافة والتجميل، وهما فطرة فى الإنسان، وطرق المحافظة عليها فطرةٌ فيه، وفى الحديث: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقصّ الشارب»، وبعضهم جعل هذه الخصال ثلاثين، وبعضهم روى أنها عِشر، ومنها بخلاف ما سبق: إعفاء اللحية، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق، وغسل البراجم والرواجب، والاستنجاء، والانتضاح، والحياء،

والتعطّر، والنكاح، والحلم، وغسل الجمعة، والحجامة. والختان: هو قطع جلدة الذكر التى تغطى الحشفة لتنكشف الحشفة، وعند النساء قطع الجلدة التى تكون فى أعلى الفرج فوق مدخل الذكر كالنواة أو كعُرف الديك، والأصل أن لا تُنهك المرأة، أى لا تزيد الخاتنة فى القطع، ويسمى ختان الذكر **أعذاراً**، وختان الأنثى **خفضاً**، ويُختلف حول ختان الإناث. والقصّ المقصود به قطع الشعر النابت فى الرأس، وعلى الشفة العليا؛ **وقصّ الظفر** أخذُه من أعلاه. **والبراجم والرواجب** هى مفاصل الأصابع كلها. وتُغسل اليدان عقب كل طعام وفى الوضوء، لإزالة الوسخ العالق بها، ويلحق بها إزالة ما يجتمع من وسخ فى **معاطف الأذن وقعر الصماخ**. **والانتضاح**: أن يأخذ قليلاً من الماء فينضح به مذاكيره، وهو أيضاً الاستنجاء. وهذه الخصال مما فرضه الله على أنبيائه، وهى من موروث إبراهيم، وفى التنزيل: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** (١٢٤)﴾(البقرة)، قيل: ابتلاه **بالطهارة**، وهى **خَمْسٌ فى الرأس، وخَمْسٌ فى الجسد**. وهذه الخصال تتعلق بها مصالح دينية ودنيوية، منها **تحسين الهيئة، وتنظيم البدن جملة وتفصيلاً، والاحتياط للطهارتين، والإحسان إلى المخالطين، وكفّ ما يمكن أن يتأذّى به الناس من روائح كريهة، ومخالفة لقَذَر الكفار والمشركين، وامتثال أمر الشارع، والمحافظة على ما أشار إليه** قوله تعالى: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** (٣)﴾(التغابن)، وكأنه يقال: حَسِّنوا صوركم فلا تشوّهوها بما يقبّحها، فالله قد خلقكم على هيئة جميلة وصورة كريمة، والإنسان إذا نظر فى المرآة فرأى نفسه جميلاً، وإذا لمس ذلك فى نظرة الآخرين إليه، أدرك على الفور ما امتنّه الله على الإنسان عندما قال إنه **صوّره فى أحسن صورة**، والإنسان إذا بدا فى الهيئة الجميلة كان ادعى **للانبساط**. فالجمال له فوائد نفسية كما له فوائد اجتماعية وبدنية ودينية. **والفطرة** التى فطر الله الناس عليها هى خِلْقة الله التى خلقه بها وقت أن كان فى رحم أمِّه، **فكان على أحسن حال**، وهذه الخصال هى التى بها يكون إقامة الفطرة، أو العودة إلى الفطرة. ومن الفطرة الحياء، وبالحياء كان اختيار لفظ «**الاستحداد**» لعملية حلق العانة، وهى مشتقة من الحديد وهى الموسى. ومِثْل الاستحداد: **النتف، والقصّ، والتنوّر** أى معالجة العانة. **وغسل الأرفاغ** من خصال الفطرة، وهى مغابن الجسم، كالإبط، وما بين الخصيتين، والفخذين، وكل موضع يجتمع فيه الوسخ، وكل ذلك من باب **إتمام الجمال فى الشكل والهيئة والسمت والمظهر**. **والخضاب** يتغيّر به الشيب، وكان **أبو بكر وعمر يختضبان**، وتركه **علىّ، وأبىّ بن كعب، وأنس**، وجماعة. **فهذه هى جماليات الشكل فى المسلم فأين منها ذلك فى التوراة أو الإنجيل؟ وأين منها التقذّر الذي عليه الغربيون واليهود خاصة؟** وبعد ذلك يقول **بيرلسكونى** رئيس وزراء إيطاليا: إن

المسلمين برابرة! ويوافقه تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا، والرئيس الألمانى شرويدر، ويؤمّن على كلامه شارون رئيس وزراء إسرائيل، مع أن هذا الأخير ينضح عرقاً منتناً بشهادة كل من التقوه من الصحفيين!

●●●

١٤٦٩- ﴿فلسفة الألوان فى القرآن﴾

فى قوله تعالى فى أهل الجنة: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ (٣١)﴾ (الكهف) خُصّ الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر، لأن البياض يبدد النظر ويؤلم العين، والسواد مذموم مكروه، والخضرة بين البياض والسواد فتجمع الشعاع. والله تعالى جعل اللونين الأخضر والأبيض من الفطرة الجميلة فى الإنسان، ولذا غلبت الخضرة على النبات، فتمتد الأراضى بها مبسوطة تسرّ الناظرين، وأنزل المطر منةً منه تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (الحج ٦٣). والأخضر اللون المفضل فى الجنة، وهو لون لباس المؤمنين وفُرشهم، كقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ (الرحمن ٧٦)، والرفرف فضول الفُرش والبُسُط والزرابى، وحواشى الثياب، وجوانب الدروع. وأما الأبيض فنقيضه الأسود، ويوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران ١٠٦)، والوجوه المبيضة وجوه المؤمنين، وعكسها وجوه الكافرين. والسواد صنو الحزن، وعلامة أهل الزيغ والأهواء والبدع. وفى الطب النفسى فإن السواد يستحدث الاكتئاب، ويقال للشخصية المكتئبة «السوداوية»؛ والبياض فيه سعة للنفس، وفرحة وبهجة، واختاره الرسول ﷺ لون ثياب المسلمين، ولون أكفانهم، وكانت خمر الجنة: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ (الصافات)، وأعلى الخمور وأبهجها البيضاء؛ وأجمل البنات البيض؛ والعامة تجعل البياض مثلاً للصلاح، والسواد مثلاً للفساد؛ والخيط الأبيض فى آية الصيام يكنّى به عن الفجر؛ والبيض من الليالى هى المقمرة؛ والأيام البيض أيامها؛ والأبيضان: الماء واللبن؛ والبيضاء النعمة، ومن ذلك ترى أن البياض صنو كل ما هو جميل.

●●●

١٤٧٠- ﴿هل الإسلام ضد الشعر؟ أو ضد أىّ من فروع الأدب أو الفن؟﴾

الشعر كلام موزون مقفّى، قُصد إلى وزنه وتقفيته، والمتكلم به هو الشاعر، ومع ذلك فإن مَنْ يصدر عنه كلام موزون مقفّى لم يقصد أن يكون شعراً فهو ليس بشاعر، وكلامه ليس شعراً، وفى القرآن كثير من الآيات الموزونة المقفّاة، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾(آل عمران) وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا

لَكَ ذِكْرَكَ ④﴾(الشرح)، ولكنها ليست بشعر، لأن الإتيان بها موزوناً ليس على سبيل القصد، يعنى أن الله تعالى لم يكن مقصوده أن يكون هذا الكلام شعراً بحسب اصطلاح الشعراء، ولذا قال عن النبىّ ﷺ ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ④١**﴾(الحاقة)، وقال: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ⑥٩**﴾(يس)، فأخبر أن الشعر ليس من طبعه، ولا يحسنه، ولم يتعلمه عن الله وإنما تعلم عنه القرآن العظيم، وفي ذلك قيل: «**ما وَلَد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلاّ يقول الشعر، إلا رسول الله ﷺ**»، ومع ذلك فلم يكن النبىّ ﷺ يكره الشعر، وكان يستحسنه إن كان فيه الخير، ويذكر **الحسن البصرى**: أن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يتمثّل بهذا البيت ويخطىء فيه: «**كفى بالإسلام والشيبُ للمرء ناهياً**»، فكان **أبو بكر** يُصلحه له ويقول: يارسول الله: «**كفي بالشيبُ والإسلامِ للمرء ناهياً**»، ثم يقول: **أشهد أنك رسول الله، وَصَفَك** فقال: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾»؛ فلم تكن سجيته تقبل صناعة الشعر طبعاً وشرعاً. والشاعر الحق هو الذى يكون المعنى منه تابعاً للفظ، لأنه لا يقصد إلا إلى الألفاظ التى يصحّ بها وزن الشعر وقافيته، فيحتاج من ثم إلى التخيّل للمعانى يأتى بها من أجل اللفظ، وليس كذلك قول الله تعالى، ولا قول نبيّه، **فالمعانى فى القرآن تسبق اللفظ**، وكذلك تجيء **الألفاظ فى كلام الرسول** ﷺ **تبعاً للمعاني**. ومن كلامه ﷺ الذى يبدو كالشعر، أنه لمّا أُصيبت إصبعه وجُرحت، وكان يقوم بعمل من أعمال الجهاد، قال تحسراً وحزناً: «**هل أنتِ إلا إصبع دَميت، وفى سبيل الله ما لقيت؟**»، وهو كلامٌ كالشعر ولكنه ليس شعراً، لأنه لم يقصد إلى أن يقول شعراً؛ وقيل هو رجز، والرجز شعر يكون كل مصراع منه مفرداً، ويبدو أنه لم يجر على لسان النبىّ ﷺ من ضروب الرجز إلا ضربان: **المنهوك، والمشطور**، كقوله هذا السابق «**هل أنت إلا إصبع**». **والله تعالى قد نفى** الشعر عن القرآن، ونفى وصف الشاعر عن النبىّ ﷺ بقوله: ﴿**إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ④٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ④١**﴾(الحاقة)، وقوله: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾(يس). وقيل إن النبىّ ﷺ بعد نزول آية: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ لم يقدر على قراءة الشعر موزوناً. ونفى الله تعالى أن تكون آياته تخييلات شاعر، ونفى عنه جنون الشعر فى قولهم: ﴿**أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ③٦**﴾ (الصافات)، وردّ عليهم الردّ المفحم فقال: ﴿ **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ③٧** ﴾ (الصافات)، فلم يكن ما جاء به إلا ما أُرسل به المرسلون من قبله كموسى وعيسى، ولفته إلى اتهاماتهم وفحواها فقال: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ④٣**﴾(فصلت)، وتمنوا له الردى خلاصاً منه كشاعر: ﴿**يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ③٠**﴾(الطور). وإذن فلم تكن الآيات التى

ورد بها عن الشعر إلا ردوداً استوجبها ما قالوه عن النبيّ ﷺ، وعن القرآن. ولمّا نزل قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾(الشعراء)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا (٢٢٧)﴾(الشعراء)، قال ابن عباس: المقصود «بالشعراء يتبعهم الغاوون» هؤلاء النفر من الشعراء الضالين يتبعهم من الناس ضالون مثلهم، وكان على عهد رسول الله ﷺ رجلان أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وأنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء». وقيل: كان الشاعران فى الجاهلية يتناجيان، فينتصر لهذا فئام من الناس، وينتصر لهذا فئام من الناس. وقيل: بينما كان الرسول ﷺ يسير مع أصحابه بالعرج، إذ عَرَض شاعر يُنشد، فقال النبيّ ﷺ: «أمسكوا الشيطان! لأن يمتلىء جوف أحدكم قَيْحاً خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً» رواه البخارى.

وفى قوله تعالى: «ألم ترى أنهم فى كل واد يهيمون» قال الحسن البصرى: قد والله رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها مرة فى شتيمة فلان، ومرة فى مديحة فلان! وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل، ويذم قوماً بباطل». وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه، فإن الشعراء يتبجّحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا عنهم، فيتكثّرون بما ليس لهم، ولهذا جاء الحديث «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً». وكان المراد بهذا الطعن نوعاً من الشعر استهجنه كل من سمعه أو يسمعه، ونفى ابن عباس أن يكون النبيّ ﷺ شاعراً، فحاله مناف لحال الشعراء. وكان حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، من الشعراء، ولمّا نزلت هذه الآيات القادحة فى الشعر والشعراء، جاءوا إلى رسول الله ﷺ يبكون، وقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شعراء، فتلا النبيّ ﷺ: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشعراء٢٢٧) وأشار إليهم وقال: «أنتم» رواه ابن أبى حاتم، ثم قرأ ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾(الشعراء ٢٢٧) وأشار إليهم وقال: «أنتم» ، وقرأ ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾(الشعراء ٢٢٧) ، وأشار إليهم وقال: «أنتم». وقيل: لمّا نزلت: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾(الشعراء) إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾(الشعراء)، قال عبد الله بن رواحة: يارسول الله! قد علم الله أنى منهم. فأنزل الله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً (٢٢٧)﴾ (الشعراء) ، ومعنى «ذكروا الله كثيراً»، ذكروه كشعراء فى شعرهم. وقيل عن قوله تعالى: وانتصروا من بعد ما ظلموا»، يردّون على الكفار الذين كانوا يهجون بشعرهم المؤمنين. وإذن فالمقصود بالآيات نقد نوع من الشعر وليس الشعر نفسه. وقد ثبت فى

الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسّان: «أهجهم» - أو «هاجهم وجبريل معك». وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، أنه قال للنبيّ ﷺ: إن الله عز وجلّ قد أنزل في الشعراء ما أنزل. فقال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه. والذى نفسى بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»، يقصد به الشعر يستخدمه المسلمون فى ردّ هجاء أعدائهم. ورُوى: أن رسول الله ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر وهو يقول: «نُفَلِّق هاماً»، فيقول الصديّق رضي الله عنه متمماً للبيت:

... من رجال أعـزّة عليـنا وهـم كانوا أعقّ وأظلما

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثّل فيه ببيت طرُفة: «ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزود» أخرجه أحمد والنسائى والترمذى، وهو من شعر طرفة بن العبد فى معلقته المشهورة:

ستبدى لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وثبت فى الصحيح أنه ﷺ تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، فكان أصحابه ﷺ يرتجزون وهم يحفرون ويقولون:

لا هُم، لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلنّ سكينةً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن أولاء قد بغوْا علينا إذا أرادوا فتنة أبيْنا

فكان النبىّ ﷺ يرفع صوته ويردد خلفهم قولهم: «أَبَيْنا» ويمدُّها. وروى هذا بزحاف فى الصحيحين أيضاً. وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حُنين، وهو راكب البغلة يقدم بها فى نحور العدو:

أنا النبىّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وإذن فالشعر ليس كله مرفوضاً، بل إن فيه الحِكَم، والمواعظ والآداب، ومن الشعراء الذين أجادوا فى ذلك أمية بن الصلت، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن شعْرُه، وكفَر قلبُه». وقال: «إن كاد ليُسلِم»، أو قال: «فلقد كاد يُسلم فى شعْره». وكان النبىّ ﷺ يطلب أن يسمع شعر أمية من أصحابه - أصحاب النبىّ. وروى مسلم بطريق عمرو بن الشريد عن أمه قال: ردفتُ رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيئاً»؟ قلت: نعم، قال: «هيه» فأنشدته بيتاً فقال: «هيه»، ثم انشدته بيتاً فقال: «هيه»، حتى أنشدته مائة بيت». ولذا كان يقول عن الشعر: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حِكَماً» أخرجه أبو داود. وفيما أخرجه مسلم بطريق أبى هريرة عن النبىّ ﷺ

قال: «أشعَرُ كلمة تكلمت بها العرب كلمة لَبِيد: ألا كل شىء ما خلا الله باطل»، وفى رواية قال: «وأصدَقُ كلَمة قالها شاعر كلمة لَبِيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل». ولبيد هو لبيد بن ربيعة، وكان صحابياً، والحديث فيه منقبة له باعتباره شاعراً. والإسلام على هذا ليس ضد الشعر، وإنما ضد إساءة استخدامه، ومَثَل الشعر فى ذلك كمثل فروع الأدب الأخرى، كالرواية، والقصة، والمسرحية، وفروع الفنون كالتصوير، والباليه، والأوبرا، والموسيقى والغناء، ولقد رأينا أن النبىّ والصحابة كانوا يقولون الشعر ويتفننون به، ويكافئون الشعراء مثل حسّان بن ثابت.



١٤٧١- ﴿هل الإسلام ضد الغناء أو الموسيقى؟﴾

القرآن ضد اللهو لأنه مفسدة وضياع وقت، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴿٦﴾﴾(لقمان)، ولهو الحديث: هو ما يُتلَهى به من الأحاديث كما فى مجالس السُّمّار، واللهو أصلاً هو ما يُلهى من الباطل ويشغل صاحبه به، يقال فلان لَهُوٌّ عن الخير أى كثير اللها عنه؛ والألهية ما يُتلاهى به؛ والمَلْهَى اللهو، أو موضع اللهو، والمفسرون للآية قالوا: إن لهو الحديث هو الغناء، وهذا غير صحيح لأن من الغناء ما يعدّ من لهو الحديث، ولكنه ليس كل لهو الحديث، ومن الغناء ما لا يكون لهواً ولا هزلاً، وقوله: «من يشترى لهو الحديث»، يعنى يدفع فيه الأجر، ولذلك أصرّ هؤلاء على أنه الغناء لأنه الحديث الوحيد الذى يُدفع أجر للاستماع إليه، والذى يشترى هذا اللهو ذو لهو أو ذات لهو، واستدل هؤلاء بهذه الآية ضمن ثلاث آيات على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية: هى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النجم)، تقول للمغنية: اسمدى لنا أى غنىّ لنا. والسُّمُود هو الغناء، وتقول: سمّده أى ألهاه. والآية الثالثة: هى قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴿٦٤﴾﴾ (الإسراء)، والاستفزاز هو الاستخفاف، فإذا كان بالصوت فهو الغناء الآدمى، أو العزف بالمزامير، أو هو لهو الحديث عموماً ـ والكلام لإبليس يفعل ذلك لإلهاء المؤمنين، ومن ثم فقد حرّموا الغناء، واللهو، والمزمار لهذا السبب، لأنها من عمل الشيطان، ومن الواضح أن السياق فى هذا التفسير، يُحمِّل الآيات ما لا تحتمل، ومن ذلك أنهم وضعوا حديثاً يناسب هذا التفسير، يقول: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلّموهن، ولا خير فى تجارة فيهن، وثمنهن حرام». والحديث مضعّف وغريب، ونسبوا إلى ابن مسعود وابن عمر وآخرين أن لهو الحديث هو الغناء، أو الاستماع إلى الغناء، وأن الغناء باطل، والباطل فى

النار، وترجم البخـارى ذلك فقال: كل لهو باطل إذا شـغل عن طاعة الله. وهذا حســن من البخـارى، لأنه شرَط البطلان بأن يشغل الغـنـاء عن طاعة الله، ولكـن الغناء مطلقـاً ليـس باطلاً. ورأى آخر قـال: إن هذه الآية نزلت فى النضـر بن الحـارث، لأنه اشتـرى قصص الأعاجم، وكان يجلس بمكة ويحدّث بأحاديث ملوك الفرس، ويقول: قصـصى أحسن من قصص مـحمد! واشتـرى القـينات، وكان يرسل مستمـعيه إليهن، يؤاكلنهم ويغنين لهـم، ويسقونهم، وكان يقـول: هذا خيرٌ مما يدعوكم إليه محمد من الصـلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه!والصحيح أن الآية نزلت فى أحاديث قريش التى كانت تلهيهم عن تحرّى صدق الإسلام، وكانوا بها يخوضـون فى الباطل، فهؤلاء بتضـييع وقتهم والاستماع للباطل اشتروا الكفـر بالإيمـان. ولهـو الحـديث هو استحـبابه، ولعله لا يُنفَق فيه المال، ولكن سـماعه كشرائه، لأنه مضيعـة للوقت، والوقت مال. والأحاديث كقوله: «ما من رجل يـرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليـه شيطانين...»، وقـوله: «صوتان ملعونان فاجـران أنهى عنهما: صوت مزمار ورنّة شيطان عند نعمة، وعند مـصيبة لطم خدود وشق جيوب»، وقـوله: «بُعثت بـكسر المزامير»، وقوله: «بُعثت بهدم المزامير والطبل»، وقوله: «إذا فعلت أمتى خمـس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء...» فذكر منها: «إذا اتُّخذت القينات والمعازف»، وقوله: «من مات وعنده جارية مغنـية فلا تصلّوا عـليه» إلخ، وكلها مردودة، فالدين والعـقل والتربية والعلم ضد الـغـنـاء العابث، ولا يقرّه عاقل ولا سياسى، ولا حزبٌ من الأحزاب أو حاكم من الحُكّام، ولكن الأناشيد العسكرية، وطبول الحرب، وأصـوات الآلات النحاسية مما يحمّس الجنود ويَرفَع روحهم المعنوية، والأغانى الحـماسية وقت الحـروب والأزمات، والأغانى التى تدعـو إلى مكارم الأخلاق وفيها الحكمة، والأغانى والأناشيد الدينية، وأغانى أم كلثوم مثلاً التى تحضّ على حبّ الحياة والأوطان، والحب الشريف العفـيف، من أمثال قصـائد شوقى، ونهـج البردة ـ فكـل ذلك مستحسن ومطلوب فى التربية السياسية والوطنيـة والاجتماعية، وكذلك الموسيقى الخالصة كالسـوناتات والسيـمفونـيات، وكذلك الأوبرات، وكلهـا من الفنون الراقيـة والسامـية، والإسلام يدعو إلى الرقى والسـمو، ويُحرّم الإسفـاف والمجون، ونحن مع الإسلام، ومع العلم والعقل، ومع ما تعلمّ الجامعات والمدارس، وما تنصح به أفراد العائلات، وما يدعو إليه المجتمع المدنى. والآلات الموسيقية لا شىء فيها مُحرَم، وإنما المستحسن والمستهجن هو ما يمكن أن توظّف فيه. ولقد ضربت المغنيات بالدف بين يدىّ النبىّ ﷺ يوم دخل المدينة، فَهمّ أبو بكر أن يزجرهن فقال رسول الله ﷺ: «دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح»، فكنّ يضربن ويقلن: نحن بنات النجّار، حبذا محمدٌ من جار! ـ ورقَصَ الأحباش

فى المسجد رقصاً إيقاعياً، ومكّن الرسول ﷺ **عائشة** أن تشهدهم حتى ملّت؛ وكانت **عندها جاريتان تغنيان فى العيد**، وأمــر **أبا بكر** أن يتركهما لأن لكل أمة عيداً وهذا عيدنا. وطلب من **عائشة أن تغنى النسوة فى فرح** إحدى بنات الأنصار. **والخلاصة**: أن المباح من الغناء والموسيقى هو ما كانت له أهداف نبيلة وأغراض متسامية. وأما غير ذلك فإن فقهاء كمالك بن أنس، وأبى حنيفة، وابن حنبل، والشافعى قصدوا بتحريم الغناء هذا الضرب الفاسق والموسيقى الداعرة، ولذا سمّوا الممتهنين لهذين الفنين **«الفُسّاق»**. **والعلم** يقول نفس الشىء، وكذلك **العقل**، وهو ما تقضى به **الحكمة**. وفى الحديث: **«عليكم بالسواد الأعظم، ومَن فارقَ الجماعة مات ميتة الجاهلية»**، **والسواد الأعظم** مع الغناء لأنه من **الفطرة**، وكل أمة الإسلام، وطبقاتُ الناس فيها، وأعيانُها وعقلاؤها ضد الإسفاف فى أى مجال من مجالات الفنون والآداب. **والإسلام مع الحضارة والرقى دائماً**.

•••

١٤٧٢- ﴿فن القص فى القرآن﴾

القَصَصُ من مصطلحات القرآن، وأصله القصّ وهو تتبُّع الأثر، تقول قصّ، وتقصّص، **واقتصّ** أثره، **والقصة والأقصوصة** هى الرواية والحديث، **والقاص** من يأتى بالقصة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ** (١١)﴾(القصص) أى تتبعى أثره، **فالقاصّ** يتبع الآثار فيخبر بها. وقوله تعالى: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** (٣)﴾(يوسف) فإن الحُسن هو حُسن القصّ وهو فن الرواية، فيقال فلان حَسَن **الاقتصاص** للحديث، أى جيد السياقة له. **وجمال القصة** فى جمال وحبكة صياغتها وسردها. وقيل: **القَصَص** تعنى الأخبار، كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ**(٢٥)﴾ (القصص)، **فأحسن القصص**: أحسن الأخبار، وأحسنها ما كان عن حق وبعلم. **والقصة حكاية من الماضى**، كقوله: ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ** (٩٩)﴾(طه) والقصّاص نوعان، فنوع نفّاج كذّاب، ونوعٌ يقصّ بالحق، كقصص القرآن، كقوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ** (١٣) ﴾(الكهف)، وقوله: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ** (٥٧)﴾ (الأنعام)، والحق لا يعلمه إلا عليم، كقوله: ﴿**فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** (٧)﴾(الأعراف)، وعلّة القصص فى القرآن **العبرة والعظة**، كقوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ**(١١١)﴾(يوسف). والقصص القرآنى تحكى عن الأنبياء، ومجاهداتهم، ومعاناتهم، وصبرهم، وعن مصارع الجبابرة، ومهالك الأمم الظالمة، ودمار الدول الغاشمة، وفى القصص القرآنى عن الإنس والجن، والملائكة والشياطين، والجنة والنار، والحيوان والطير، وغرائب المخلوقات، وأساطين الجبروت، وأماثل الصالحين والمتّقين

والمؤمنين، وسير الملوك والممالك، وجهابذة التجار والعلماء، وأسافل الجهّال، وأكابر الرجال والنساء، والبنات والولدان، وفيها عن الأسوياء من الناس والشذّاذ، من الأفاقين والممروضين، وحيَل هؤلاء وهؤلاء، ومكائد الأشرار، وأحابيل قطّاع الطرق والسرّاق، ومخازى الزناة، وفيها ذكر التوحيد، والفقه، وتعبير الأحلام، والسياسة، والاقتصاد، والمال، وتدبير الأمم والمعاشات، والحروب وأوضارها، وقادتها وضحاياها وخسائرها، والسلم وفوائده، والسلام ونعَمه، والصلح وجناه، والزهد فى الدنيا والإقبال عليها، والعزوف عنها والسعى إليها، وعن الزواج والطلاق وعشق العشاق، ومحبة المحبين، وبُغض المبغضين. **وسورة يوسف هى بلا شك أحسن القصص القرآنى**، لتجاوز يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم، وكرمه معهم حتى قال: ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ (٩٢)**﴾(يوسف)، فالدرس الذى تُعلّمه عظيم، وعائدها عميم.



١٤٧٣ - ﴿الأخلاقية فى القصص القرآنى﴾

للقصص القرآنى وظيفة أخلاقية، كما فى قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)**﴾(هود)، ومن شأن القصص أن تعيد إلى الذاكرة ما قد نسيته، وتبيّن عواقب الأحداث، وهذه القصص فى القرآن عن أشياء وقعت، بعضها ما تزال آثاره تشهد على وقوعه، وبعضها درَس وصار أطلالاً لا تكاد تبين، كحصيد الزرع لا يتبقى منه إلا الجذور العالقة بالتربة. وفائدة هذه القصص ليعرف الناس أن الله **لم يظلم السابقين**، ولكنهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى، فما أغنت عنهم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الفاسدة لمّا كفروا وعصوا وجاء أمر الله، فالحق حقٌّ والباطل باطل، والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وهذه **هى رسالة القصص القرآنى، فللأدب دوره فى تشكيل الشخصية القرآنية، وفى الجدل القرآنى**، ولم يكن القصص فى القرآن إلا لإعلاء الحق وإبطال الباطل، **ورسالته لذلك فلسفية أخلاقية**، وليس من فراغ أن يُسمّى **الأدب فى العربية «أدباً»، والأدب هو الأخلاق**، وتنفرد بهذه الخصيصة قصص القرآن، كما ينفرد بهذا المعنى الأدب القرآنى والإسلامى بعامة، دون بقية الكتُب الدينية عند اليهود والنصارى، ودون الثقافات الأجنبية عموماً، والقصص فى اللغة العربية هو الذى يتتبع آثار الشىء ليصل إلى الحقيقة والحق، والأديب صنوه المؤدِّب، وكلاهما يعلّم الفضيلة ويُعلى الحق.



١٤٧٤- ﴿الكتاب والكتابة﴾

مصطلح «الكتاب» يأتى فى القرآن ٢٣٠ مرة، والكتاب فى اللغة وريقات تتناول موضوعاً وتخطه حروفاً وكلمات وعبارات ومعان مجتمعة، وتُسمى كتاباً، لأنها مكتوبة، كقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿٣﴾﴾(فصلت)، يعنى الآيات جُمعت فيه بشكل مفصّل وفى لغة هى لغة العرب؛ وقوله: فى كتاب موسى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ (الإسراء ٢) فإن الكتاب هو التوراة، وهى مجموعة الشرائع مكتوبة، وما زاد عن ذلك فهو ليس من التوراة؛ وفى قوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴿٣٠﴾﴾(مريم)، أن الكتاب هو الإنجيل آتاه الله عيسى، وهو مجموع الأمثال كما أوحى الله بها إلى عيسى، وما زاد عليها فهو ليس من الإنجيل. وقد يكون الكتاب إشارة إلى اللوح المحفوظ، كقوله: ﴿أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾(الرعد)، وهو القدَر والأحكام، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴿١٤٥﴾﴾(آل عمران)؛ أو هو الحساب، كقوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ (الإسراء)؛ أو هو المكتوب، كقوله: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴿٢٨﴾﴾(النمل). و«أهل الكتاب» هم اليهود والنصارى، كقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴿١٥٣﴾﴾ (النساء)، سُمّوا كذلك لأنهم: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿٤﴾﴾(البينة)، والكتاب هو التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى، والمسلمون بالقرآن صاروا «أهل كتاب»، والمقابل لهؤلاء هم «الأميّون»، أى من ليس لهم كتاب. ويوصف كتاب الله بأنه «كتاب عزيز» (فصلت ٤١)، و«كتاب مبين» (الزخرف٢)، و«كتاب مستبين» (الصافات ١١٧)، و«كتاب منير» (آل عمران ١٨٤)، وهو «الكتاب» أى الحاوى لكل شىء بين دفتيه، كقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل) ، وهو النور والهدى للناس (الأنعام ٨١)، والبشرى (النحل ٨٩)، كقوله: ﴿ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴿٩١﴾﴾(الأنعام)، ويوصف بأنه الهدى والرحمة (النحل ٨٩)، والإمام والرحمة (هود ١٧)، والكتاب المعلوم (الحجر ٤). وعند اليهود يقال لمعلم الكتاب «الربّانى» (آل عمران ٧٩).

والقرآن ككتاب كان مخطوطاً على الرقاع - أى قطع الجلد، والأكتاف - أى قطع العظم العريضة من هياكل الحيوانات، والعُسُب - أى جريد النخل. وأصل الكتابة كانت فى القراطيس، ولكن لقلتها استعيض عنها بهذه الأشياء. وكان المصريون يكتبون على أوراق البردي، وكتب اليهود كتابهم على اللفائف Scrolls، وأطلقوا عليها اسم المخطوطات codices، والأسفار Sephers جمع سِفر وهو المكتوب يُسفر عن مهارات الكاتب أو يسافر بها إلى المعنىّ من الناس.

والكتابة مصدر كَتَب يكتُب، وهى من جملة البيان، والبيان اختص به الإنسان، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ (الرحمن). ولم يكن للعرب كتاب، وقيل كانوا أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفةً به كان النبىّ ﷺ ،وفى ذلك قوله

تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ (٤٨)﴾(العنكبوت)، فصرفه الله عن العلم بكتُب اليهود والنصارى ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى فى حجته. ومن الأحاديث الموضوعة: «لا تعلموا نساءكم الكتابة» باعتبار تعليم الكتابة قد يكون سبباً للفتنة، إلا أن الحضّ على تعلُّم الكتابة من أدبيات الإسلام. وبذلك أمر الله تعالى فى خمسة وأربعين موضعاً من القرآن، يستوى فى ذلك أن يكون الكاتب من النساء أو الرجال، والكتابة كما يروى عنها القرآن عينٌ من العيون، وبها يبصر الشاهد الغائب، والكتابة خطٌّ هو آثار يد الكاتب، فكأن الإنسان يصبح حاضراً رغم أنه بالفعل غائب، والكتابة تعبير عن ضمير الكتبة بما لا ينطق به اللسان أو يُخشَى عليه من النسيان، ومنه القرآن، فالكتابة على ذلك أبلغ من اللسان.



١٤٧٥ - ﴿الكتابة قديمة فى العرب قبل التاريخ اليهودى والنصرانى﴾

المفسرون يصرّون على تفسير الأميين فى الآية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ (٢)﴾(الجمعة) بأنهم الذين لا يعرفون الكتابة ولا الخط، ونحن نقول إن «أميين» نقيض «أهل الكتاب»، ومعنى ذلك أن العرب لم يكن لهم كتاب كما كان لليهود وللنصارى، فاستحق هؤلاء أن يقال لهم «أهل كتاب» بينما العرب «أميون» لا كتاب لهم، وساعد على ذلك أن اصطلاح «أميين» كان يهودياً، فكل من لم يكن يهوديا فهو «أمى» - أى من «الأغراب»، وهؤلاء أحط وأدنى، لأنهم لا يطالعون التوراة، ومعنى أميون: أنهم على حال البداوة والفطرة كما ولدتهم أمّهاتهم. وكان كل الرسل من العبرانيين، بينما النبىّ ﷺ ليس منهم، وبُعث لغير العبرانيين أو للأميين، لينقلهم نقلة حضارية، بأن يجعل لهم كتاباً مثل اليهود والنصارى، فيكونوا بدورهم «أهل كتاب». وأما «الكتابة» نفسها فالعرب تعرفها من قديم، وهم يؤرخون أخذهم بالكتابة على يد حرب بن أمية بن عبد شمس، وقالوا إن حرباً تعلّمها من عبد الله بن جُدعان، وهذا تعلّمها من أهل الأنبار، وهؤلاء تعلموها من أهل اليمن من كندة، وهؤلاء تعلموها من كاتب كان للنبىّ هود، وهود كان من أنبياء العرب. فالكتابة إذن قديمة عند العرب أقدم من الكتابة العبرية. وقيل: إن حرباً تعلمها من بشر بن عبد الملك، وكان الخط العربى جزماً - أى قطعاً، من الخط المسمى بالمسند وهو خط حِميَر، وأول من كتب به ثلاثة هم: مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، وهم من عرب طىّ، وتعلموها على كاتب النبىّ هود، ثم علّموها أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة بالعراق، وكانت الأرامية، نسبةً لأرام، قيل هو النبىّ هود. وتعلّمها حرب من بشر، ثم ارتحل معه بشر فتزوج الصهباء بنت حرب

أخت أبى سفيان، وعلمّها عرب مكة. ويجوز أن يكون مؤلفو هذه الرواية هم الأمويون، لأسباب سياسية، وليرجعوا الفضل إليهم. وإلا فإذا كان فضل تعليم الكتابة لأهل مكة يعود إليهم، فمن علّم أهل المدينة؟ قيل: اليهود! فهل اليهود كانوا يعلّمون الكتابة العربية للعرب؟! والصحيح أن كل أمة فيها من يكتب، ولم توجد أمة لا تكتب أبداً، حتى فى الأدغال وقمم الجبال، فمثلما يتكلم الإنسان بطريقة ما، وبألفاظ مفهومة من الآخرين، فهو أيضاً يكتب برسوم ونقوش يعرف رموزها الآخرون. والمهم أنه فى عصر النبىّ ﷺ كان هناك كثيرون يكتبون ويقرأون - حتى من بين العبيد، وكذلك كان من النساء من يكتب ويقرأ مثل عائشة. وفى المدينة اشتهر من الكُتّاب: المنذر بن عمرو، وأُبىّ بن وهب، وعمرو بن سعيد، وزيد بن ثابت. وجعل الإسلام للكتابة والقرءاة شأناً وأى شأن، وإلا فكيف سيُقرأ القرآن؟ وما كان اسمه «القرآن» إلا ليُقرأ. ونزلت أول آية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾(العلق) تحضّ على القراءة والكتابة، والآية دليل على أن النبىّ ﷺ كان يقرأ ويكتب، ولم يكن أمياً بمعنى «أمية القراءة والكتابة»، ولكنه «أمى» بمعنى أنه من «الأمم» وليس عبرانياً، وليس من «أهل الكتاب»، وليس قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ㊽﴾ (العنكبوت) أنه كان يجهل الكتابة والقراءة، وإنما الآية تنفى عنه أنه كان يقرأ الكتُب أو يخطها وخاصةً كتابىّ التوراة والإنجيل، وما كان قد ترجما إلى العربية ليقرأهما. غير أن تقديره للكتابة والقراءة كان عالياً، ففرض على الأسرى فى غزوة بدر - كفداء لهم - أن يعلّم كل واحد منهم عشرة من المسلمين ممن يجهلون القراءة والكتابة. وفى صلح الحديبية لما رفض علىّ أن يكتب ما أملاه عليهم المُشرك، أخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب - وإن كان خطه ليس حسناً. وروى النبىّ ﷺ أنه ليلة أُسرى به رأى مكتوباً على باب الجنة: الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر - يعنى أنه كان يقرأ! وقوله ﷺ: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسُب» كان كلاماً عن العرب إجمالاً وليس عن نفسه. وكان أعظم اختبار للكتابة عند العرب كتابتهم للقرآن، وجَمعَهم لآياته وسوره فى كتاب القرآن، وبالقرآن ككتاب صار العرب «أهل كتاب»، وارتقوا حتى أصبحوا أعلاماً للحضارة، وآلت إليهم سيادة الفكر فى العالم، وأصبحت الثقافة العربية أعظم الثقافات، وتألّفت حول القرآن علومٌ لم تسبق إليها أمة من الأمم، لا قديماً ولا حديثاً.

●●●

١٤٧٦ - ﴿الحضُّ على تقييد العلم بالكتابة﴾

تدوين العلوم وكتابتها ضرورة وواجب، والحفظ الشفهى قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان، وقد لا يحفظ الإنســان ما يسمع، فالأَولى به أن يقيّده لئلا يذهب عنه. ولما سئل أحدهم: أنكتب ما نسمع من أئمتنا؟ قال: وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك الله تعالى:

﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾(طه). وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه ـ فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي» أخرجه مسلم. وشكا أنصارىٌّ أنه يستمع الحديث فيعجبه ولا يستطيع أن يحفظه، فقال له: «استعن بيمينك» وأومأ إلى الخط. وأمر النبىّ ﷺ بكتابة خطبته فى الحج، وعهد ذلك إلى أبى شاه اليمنى، وقال: «قيّدوا العلم بالكتابة» فصار هذا الحديث شعاراً إسلامياً. وفى الأمثال: مَن لم يكتب العلم لم يُعَدُّ علمُه علماً. ولم يتخوّف العرب من كتابة أى علم إلا الحديث، لئلا يختلط بالقرآن، أو حتى لا يُجعَل قرآنا، ولذا كان بعضهم يؤثر الحفظ الشفهى، وكان بعضهم يكتب الحديث إلى أن يحفظه، فإذا حفظه محاه، وبعضهم قال ما كتبت إلا حديث الأعماق ثم محوته، وحديث الأعماق أخرجه مسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق»، وكتب بعضهم وحفظ فى نفس الوقت. وعن الكتابة جاء فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٤٥﴾﴾(الأعراف)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء)، وقوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴿١٥٦﴾﴾ (الأعراف)، إلى غير ذلك من الآيات. ولا يُضبَط العلم إلا بكتابته: ومن طريقها تتيسر المقابلة بين العلوم، وتسهُل المدارسة، ويكون التعهُّد والحفظ والمذاكرة، والسؤال والفحص عن الناقلين والكاتبين والقائلين. وتقييد العلم بالكتابة أوْلى وأكمل، ووجوبه أقوى. وعندما قال النبىّ ﷺ: «لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحه»، كان المقصود الحديث، وكان ذلك فى بداية الدعوة، فلما كثرت الأحاديث وكثر القرآن، كان لابد من كتابة كل شيء. وفى المجال الدينى كانت الكتابة ضرورة لئلا يُخلَط بالقرآن ما ليس منه، ومُيِّز الحديث عن القرآن، فكان الحديث يُكتب بالسواد أو المداد الأسود، والسواد أصْبَغ الألوان، والحبر أبقاها. والقلم آلة ذوى العلم فى الكتابة، وهو عدّة أهل المعرفة. وقيل فى الحبر وقتها هو سوادٌ فى الأبصار، وبياضٌ فى البصائر، وحبر الكاتب على يديه وثوبه مثل الطيب فى ثوب العروس، كقول القائل:

مداد المحابر طيب الرجال وطيب النساء من الزعفران



١٤٧٧ - ﴿القلم والكتابة﴾

القلم والأقلام يأتيان فى القرآن أربع مرات، والقلم اسم سورة هى سورة القلم، وترتيبها فى المصحف ٦٨، وهى مكية إلا من الآية ١٧ إلى الآية ٣٣، ومن الآية ٤٨ إلى الآية ٥٠ فمدنية، وآياتها ٥٢ آية، وكان نزولها بعد العلق. وفى قوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾(القلم) فإن «ن» هى الدواة، وفى الحديث: «أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون

وهي الدواة، ثم قال له (أي للقلم) اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، من عمل، أو أجل، أو رزق، أو أثر، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة». قال: «**ثم خُتم فَمُ القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة..**» رواه ابن كثير وابن عساكر، وهو حديث رمزي، وفي الغالب موضوع، لأسباب سنذكرها لاحقاً. والحديث في رواية أخرى قال: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال: يارب، وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر، فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد**». فالقلم نعمةٌ من الله، وهو في السورة يقسم به لما فيه من البيان، كما في اللسان من بيان، والقلمُ المعنيّ هو **أي قلم**، سواء كان ربّانياً أو إنسياً. **والقلم للكتابة**: وفي قوله «**وما يسطرون**» أي ما يكتبون ويصطلحون عليه من لغات وخطوط، فيسجل القلم الأحداث والحاجات والمخابرات والمعلومات، ويرصد العلوم والآداب والمفاهيم والصنائع والفنون. والقلم للاقتراع: كقوله: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ﴿٤٤﴾﴾(آل عمران)، **والأقلام هي القداح والسهام**، وكانوا يلقونها في الماء، فمن لم يجرف الماء قلمه كان هو حاضن مريم. ومن ثم فإن الأقلام تكون ثلاثة: **القلم الأول**، الذي خلقه الله بيده وأمره ـ كما قيل ـ أن يكتب ما هو كائن وسيكون؛ **والقلم الثاني هو قلم الملائكة** يسجلون به أعمال الناس؛ **والقلم الثالث**، أقلام الناس يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم.

وفي **آية القلم** فإن وجه القسم بالقلم النفي أن يكون محمد ﷺ **مجنوناً** كما يشيعون، فالمجنون لا يعي ما يقول الوحي، ولا يحفظ منه شيئاً، ولا يهمه إن حُفظ أو ضاع، ولا يعنيه أن يسجله ويكتبه في الدفاتر ويمليه على الأصحاب يحفظونه في الصدور، ومحمد ﷺ وقد فعل كل ذلك يستحق الثناء والثواب، وما فعله ينبىء عن صفات أخلاقية عالية، وأنه أعقل العقلاء. **والدرس المستفاد من الآية**: أن **أصحاب الأقلام** مطلوب منهم أن يكونوا القدوة في الأخلاق، وأن يكون لنا فيهم أسوة حسنة، وحقيقة الخُلق أن يأخذ الإنسان نفسه بالأدب، **ونظرية الإسلام في الأدب** أساسها هذه المقولة القرآنية: أن **القلم** أشرف الأدوات، وأنه مخلوق **ربّاني**، وأن العالم في بدايته استلزمه كأول شيء من أدواته، وأن **صاحب القلم** هو صاحب خلُق عظيم، **وأن الأدب** ـ أي هذا الفرع من المعرفة، فيه من **الأدب الذي هو علم السلوك**، فلا أدب **literature** بدون أدب **good conduct**. والحديث السابق في القلم أنه كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، يتعارض مع الآية: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴿٢٧﴾﴾(لقمان) وورود هذه الآية في سورة لقمان دليل على أنها من مصاف الحِكَم، فقُدرة الله تعالى ليست لها حدود، وإبداعه وخلْقه لا يتوقفان وليست لهما نهاية، ولَو كانت الأقلام التي يمكن استخراجها من كل أشجار الأرض،

ماضيها وحاضرها ومستقبلها، تتفرغ لكتابة ما هو كائن من مخلوقات ومصنوعات الله، وما سيكون، والبحر كمداد تمدّه سبعة أبحر، لعجزت الأقلام والبحار أن تستوفى ما يخلقه تعالى، لأن صُنعه تعالى أبدى، ومفتوح على الأبدية، وهو المعبَّر عنه بكلماته، حيث **الأشياء أسماء** يقول للاسم منها كن فيكون شيئاً، وناسب أن يسمِّى الله تعالى مخلوقاته ومصنوعاته «**كلمات**» لمناسبة الكلمات للأقلام والمداد والكتابة، ولأن الكلمات يتكلم بها فى أقواله للأشياء أن تكون فتكون.

والقلم فى القرآن هو الأليق والألصق بمحمد ﷺ، وفى **سورة العلق** أن الله خلق الإنسان من علقة مهينة وتعهّده إلى أن صار بشراً سوياً عاقلاً ومميزاً، فحينئذ قال له «**اقرأ**»، واختص نبيّه محمداً بالأمر أن يقرأ، ولمَ لا وقد صار لديه كتاب كأهل الكتاب؟ والأمر مع ذلك للعموم، ومعنى: **﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾**(العلق)، أن **الإنسان عليه أن يتعلم القراءة والكتابة**، وسيكرمه الله ويعينه، **والقراءة تسبق الكتابة**، فإذا تعلم القراءة فعليه أن يثنّيها بتعلّم الكتابة وهى فعل التعلم، والكتابة والقراءة هما باب الإحاطة بالعلوم، والله تعالى **هو المعلّم الأول**، علّم آدم أسماء الأنبياء وعرّفه بهم فصار عالماً وعارفاً، والمقصود بآدم الإنسان بالمعنى العام، والقلم ألزم أدوات الحضارة للإنسان دون سائر المخلوقات، وهو أساس القراءة والكتابة، والتعلّم وتحصيل العلوم والمعارف، وبدون القلم لا علوم، ولا آداب، ولا معارف، ولا حضارة. فذلك إذن **قَدْر القلم** فى القرآن أو فى الإسلام، وقدر **القراءة والكتابة والتعلُّم**. فإذا سألتم: **فلماذا تخلّف المسلمون**؟ لكان الجواب: لأنهم نسوا تعاليم القرآن ولم يأخذوا بما أوصى، فتفشّت الأمية وانتشرت، بحسب مخططات الحكام والاستعمار، لأن الشعوب الأمية أسلس قيادة وأسهل فى الإقناع، فإذا قرروا الدِّين كمادة للتعليم، كانت دروسهم فيه فى الصبر والمثابرة، وانتظار أن تأتى العدالة من السماء، والرضا بالمقسوم، وليس فى واجبات الحكّام والأفراد و(الدولة) وفى ضرورة التغيير، وإصلاح المفاسد، والترقّى بنشر العلم، والله تعالى لا يرضى بالظلم الاجتماعى، وصدق من قال: «**الدين أفيون الشعوب**»، لأنه بالدين ترضخ وتستسلم، وفى بلادنا العربية والإسلامية، وخاصة مصر، يخصصون للدين أكبر أبواب الميزانية، دون عائد اجتماعى سوى تدجين الناس لما يُخطّط له الحكام. وحسبنا الله.

●●●

١٤٧٨- ﴿الكتابة أمانة والكاتب مؤتمن﴾

مهنة الكتابة أمانة، والكاتب مؤتمن، وأمانة الكاتب أن يكتب بالعدل، كقوله تعالى: **﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۝٢٨٢﴾**(البقرة)، ومن كتّاب الإسلام **زيد بن ثابت**، وصفه أبو بكر فقال: «**شاب عاقل، لا نتهمك**»، فوصفه بالعقل لثبوت أمانته وكفايته وعقله لما كان يكتبه، وليت كل صحيفة ومجلة تُصَدَّر بالآية الكريمة، وليت كل كاتب يتحلّى بما كان يتحلى به أمثال **زيد بن ثابت**، **وعبد الله بن الأرقم**،

وجعفر بن أبى طالب، وهؤلاء كانوا كتّاباً لقومهم فلم يُعرَف أنهم باعوا أقلامهم، واتُّهموا فى ضمائرهم، أو خانوا عهودهم. ولينا نذكر باستمرار أن أكبر كاتب محرِّف كان عـزير أو عزرا الذى كتب التوراة، فأضاع أمته، وتسبب فى الفتن والخراب والدمار بين الشعوب بما رسّخ من العنصرية ووجوه الاستعـلاء العنصرى، والاستكبار، وشارك عـزرا آخـرون، قيل بلغوا الأربعـين، واستمروا يعملون فى تحريف كتابة التوراة **ألفاً وسـتمائة سنة!!!** ثم واصـل **النصـارى** التحريف والتزوير فى كتابهم الإنجـيل حتى تجاوز ما كتبوه منه **الثـلاثين** كتاباً، لم تقر الكنيسـة إلا بأربعة مـنها فقط!! وهذه الأربعة توفر عليها مـتّى، ومـرقس، ولوقا، ويوحنا، فكانوا أساتذة فى التحريف والتزوير!



١٤٧٩- ﴿المترجم شاهد﴾

الترجـمة كالكتـابة أمانة، والمترجم أو الـترجمان شاهد ومـؤتمن، والرسول حثّ على تعلّم اللغات والترجمة منها وإليها، وقال لزيد بن ثابت: «**تعلّم لغة اليهود**»، فتعلّمها زيد فى خمس عشرة ليلة، وفى رواية أمره أن يتعلم **السريـانية**، وقال فى تبرير تعلّم اللغات: «**إنى أكتـب إلى قوم فأخـاف أن يزيدوا علىّ ويُنقـصوا**»، والألسنة كثـيرة وتحتاج إلى تكثـير المترجمين، ومن تعلّم لغة قوم أمن شرّهم. وعند الأمم كان المتـرجم أو الترجمان يجرى مجرى الخبر لا مجرى **الشهادة**، ووضع الإسلام أساس أن يكون المترجم للنصّ اثنين وليس واحداً، لترقَى ترجمتُهما لمستوى **الشهادة**، وليس حُكم الواحد كحكم الاثنين، والواحد لا يصنع بيّنة كاملة، ولا يُحتج بأن النبىّ ﷺ كان له مترجم واحد، لأن ما كان يغيب عنه بسـوء الترجـمة أو نقصها يكـمله الوحى، وإنما الأمر مختلف مع الحكام والمحـافل العلمية والأدبية، فلا يـنبغى أن يعوّل إلا على اثنين من المترجـمين، كما جـرى العرف بذلك فى الإسلام، ولا يُكتفى بالواحد.



﴿ثانياً: الأدب والأخلاق﴾



١٤٨٠- ﴿النظرية الأخلاقية فى القرآن﴾

فى سورة الكهف، وفى قصة الخَضِر مع موسى: أن المتعلّم تبعٌ للعالِم وإنْ تفاوتت المراتب، وقد يشـذّ عن الفاضل مـا يعلمه المفـضول، والفضل فى القـصـة لمن فـضّله الله، والخضر كان ولياً، وموسى أفضل منه لأنه نبىّ، والنبى أفضل من الولى. ولقد خرق الخضر السـفينـة وهو عملٌ باطل، وقتل الغلام وهو جُـرم مُستشنع، وأقام الجـدار فى قرية رفض

أهلها أن يطعموهما وليس ذلك من العقل ولا من الحكمة، وكلها أعمال كانت فى حاجة إلى تفسير، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ عن **علم موسى والخضر، وعلم الله تعالى**، أن الخضر قال: «**ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثلُ ما نقص هذا العصفور من هذا البحر**»، يريد أن الله تعالى له علمه، والخضر له علمه، وموسى له علمه، وعلمه تعالى هو **مطلق** العلم، وبعلمه تعالى فُطر الإنسان على الأخلاق، فالأخلاق من عند الله، والأخلاق هى لُبّ كل العلوم، والأخلاق تُترجم عن قيم، والقيم جميعها خلقها الله ووضع ناموسها، وعِلْمُ الخضر بها هو **العلم الذى يتجاوز الأخلاق الإنسانية إلى الأخلاق المطلقة**، ولذلك قَتل الخضر الغلام، وخرق السفينة، ولم يعتبر أياً من ذلك عملاً **لا أخلاقياً**، واعتبره موسى من الأعمال **اللاأخلاقية**، وعلم الخضر لذلك **هو علمٌ لدنّى**، أى من لدنَ الله، أى علمٌ يتجاوز العلم، وهو **الحكمة الإلهية**، بينما علم موسى هو **العلم التكليفى الشرعى: افعل ولا تفعل**، والله تعالى قد كلف الناس أن لا يقتلوا، وأن لا يسعوا فى الأرض فساداً. ونفهم من آيات سورة الكهف وغيرها من السور، **أن فلسفة القرآن، أو فلسفة الإسلام، فلسفة مثالية أخلاقية**، تفترض أن للإنسان **ملكة أخلاقية moral faculty**، له بها **الحدس المباشر** بالحقائق والصفات الأخلاقية التى تنبهه إليها تكليفاته تعالى، وبالتربية القرآنية يتقوّى النزوع الفطرى الباطن فى الإنسان نحو استحسان بعض الأفعال، واستهجان البعض الآخر، والقدرة على تقويم الأفعال **ببواعثها**، وليس بنتائجها. ومن **مجمل** سور القرآن: **أن الفعل الأخلاقى هو الفعل الحرّ** الذى يقوم على **الإرادة** الحرّة الإنسانية، ومجال **حرية الإنسان** وجوهره كأعظم مخلوقات **الله** هى فى ممارسة إرادته الحرة، كما أن الطبيعة والكون كله هما مسرح الإرادة الحرّة **لله** تعالى. والأفعال التى تصدر عن الإنسان إما أنها أفعال **تلقائية لا إرادية** فطره **الله** بها، وأداؤها موكول إلى **الله** تعالى، كالتنفُّس، وضربات القلب، والنمو، والحزن، والفرح، والرغبة، والطموح، وكل منها يدفع إليه دافع فطرى واحد، إلا **الأفعال الإرادية**، وهى النوع الثانى من الأفعال الصادرة عن البشر، وشرطها أن يكون لها أكثر من **باعث**، وتكون هناك **مفاضلة** حرة بين البواعث، **ويختار** الإنسان من بينها ما يناسبه فى **حرية**، وهو **مسئول** عن اختياره تماماً، **والخير** هو اختيار الباعث الأسمى نسبياً. وكذلك لم يكن هناك أدنى تثريب على ما فعل الخضر، لأن ما فعله هو اختياره، بناءً على الباعث الأسمى بالنسبة له. والباعث الأسمى فى سُلّم الدوافع عند **موسى**، وعند بنى البشر، هو **الباعث الأخلاقى**، ويتلو ذلك بواعث أخرى أقل أهمية فأقل. ولما وصف القرآن فعْل النبىّ ﷺ قال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴿٤﴾﴾(القلم)، والرسول ﷺ أسوة وقدوة، كقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴿٢١﴾﴾(الأحزاب)، يعنى أنه هكذا ينبغى أن يكون خُلق المسلم، وقالت **عائشة**: «**إن خُلقه** ﷺ **كان القرآن**»، وقال **علىّ**: «**إن أدّبه** ﷺ هو

عليّ: «إن أدبَه ﷺ هو أدب القرآن»، والخُلق فى القرآن هو أوامره تعالى ونواهيه، وأدب القـــرآن هو السلوكيـات التى دعا الناس أن يأتوها، والتـى بإتيانها يتـشكّل طبع المسلم، ويصبح ما كان خُلقاً مدعواً إليه، طبعاً متأصّلاً فيه. وحقيقة الخُلق فى اللغة: أنها ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب، فيصير باستمرار الأخذ به كالخِلْقة فيه. والإنسان مجبول على حُبّ الخير، وخِلْقة الخير فيه هى ما نسميه الطبيعة أو السجية، والسجية السيئة أو الطبيعة الشريرة هى خُلُقَ متكلَّف، كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٦ ﴾(التين)، أى أن خلقته كانت أحسن الخلَق، فلم يكن له تعالـى خَلْقٌ أحسن من الإنسـان، فخَلَـقه تعالى عالماً، قـادراً، مريداً، متكلماً، سميـعاً، بصيراً، مدبّراً، حكيماً، وهذه صفات الربّ سـبحانه، ولذا جاء القول المشـــهور: «إن الله خلق آدم علـى صـورته»، يعنى على صـفاته، وفى رواية «على صــورة الرحمن»،وهو صورة معنوية وليست متشخّصة، ومن أين تكون صورته تعالى متشخّصة؟ وأنّى لنا أن نحيط علماً بشىء كهذا؟ فـلم يبق إلا أن تكون هذه الصورة «معان». والإنسان هو أحسن مـا خَلْقه تعالى باطناً وظاهراً، لجمـال هيئته، وبديع تـركيبه، فالرأس بمـا فيه، والصدر بما جـمعه، والـبطن بما حواه، واليدان ومـا تصنعان، والرِّجـلان وما تحتـملان، ولذلك قال الفلاسفـة فيه: الإنسان هو العالم الأصـغر، وهذا الكون جمـيعه هو العـالم الأكبـــر. فهذا ما نعنى به جِبلّـة الإنسان وسجيته وفطرته وطبيعتـه، وأما شرّه، وفساده، وعصيـانه وفسوقه، وذنوبه وآثامـه وخطاياه وضلاله، فكل ذلك كان له خُلقاً مـتكلّفاً، لما هجر العقل الذى يعقله عن النقـائص، وتابع الهوى الذى يُردى النفس، وهو قوله تعالى: ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ (التـين)، فلما خـرج عن الصراط ضلّ وأضلّ، إلا من تاب وأناب إلى ربّه وعمل صالحاً، وهو قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٦﴾(التين)، وفى ذلك المعنى الأخيـر قوله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣﴾(العصر)، فالعودة بالإنسان إلى خلقته الجبلّـية لابد فيها من العودة إلى الله، وهذا مضمون الدعوة الإسلامـية، وما اشتملت عليـه رسالة القرآن، فقوام الحيـاة بالأخلاق، وقوام الأخلاق بالدين، ونظرية الأخلاق فى القرآن نظريةٌ فى الدين.

●●●

١٤٨١ - ﴿وصيته تعالى بالوالدين﴾

شدّد الله تعالى فى التوصية بالوالدين فى ثلاثة مواضع، فى الأول قال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ (العنكبوت)؛ وفى الثانى قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن

تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ (لقمان)، وفي الثالث قال: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)**﴾(الأحقاف). وفي الآيات الثلاث الوصية بالوالدين عامة لكل الناس، وكل آية لها مجالها وأسبابها للتوصية بهما. والحُسن في الآية الأولى نقيض القبح؛ والإحسان في الآية الثالثة نقيض الإساءة؛ وشرط معاملة الأبوين أن تجمع بين الحُسن والإحسان. وأسباب هذه التوصية يعدّدها الله تعالى في الآيتين الثانية والثالثة، فالأم في الآية الثانية تحمل في طفلها - وهي أصلاً ضعيفة البنيان. وكلما كبر الجنين في بطنها زاد أخذه من غذائها فازداد ضعفها. وفي الآية الثانية تحمله الأم كرهاً وغصباً، وتقاسي المشقة من الوَحَم، والتعب من الغثيان، والكرب من الثقل، وتضعه كُرهاً عنها، وفي مشقة، وتعاني الطلق وآلام وعُسر الولادة، ويُذكر الوهن في الآية الثانية مرتين، والكُره في الآية الثالثة مرتين، تأكيداً على ما تقاسيه الأم، فحقّت التوصية بها؛ ثم إنها في الآيتين تتعهده بالرضاعة فلا يُفطم عنها مدة عامين أو أقل من ذلك أو أكثر، وتحمله وترضعه مدة ثلاثين شهراً، فأي عناء تتحمل الأم، وأي مشقة تُبتلى بها! وفي الآية الثالثة تنبيهٌ إلى ما يسمى في علم النفس بالرضاع النفسي، ولو اعتقدنا أن علاقة الإنسان بأمه هي علاقة حَمْل ورضاع، وأنها إذا ولدته وقُطع الحَبْل السُّرّي بينهما، انقطعت صلة الأم بطفلها. فإننا نخطيء أيّما خطأ، فالحبل السُّري النفسي مستمر، والعلاقة النفسية بين الأم وطفلها قائمة وعلى أشدّها وإن اختلفت نوعيتها، ولا تضعف هذه العلاقة إلا وابنها قد بلغ الأربعين وأنجب الأولاد، وعندئذ تلتفت الأم إلى أحفادها توليهم رعايتها كرعايتها لابنها طفلاً. والأب أثناء ذلك يشارك الأم في أعباء التنشئة والتربية، ويتعهدها بالنفقة، فهذا هو فضل الأبوين بعامة، والأم بخاصة، فاستحقا أن يُوصي الله تعالى بهما. ولا يدرك الإنسان هذا الفضل لهما ولله تعالى إلا في سن تمام النضج - في الأربعين، فيشكر لهما ولله، ويدعو لأولاده أن تكون لهم الرعاية التي كانت له من أبويه ومنه تعالى. فكأن الإنسان يدرك ربّه ويدين له بالفضل، لو أدرك دور أبويه وشكر لهما، ومن لم يحمد لأبويه فلن يحمد لربّه، إلا أن يجاهده الأبوان في إيمانه بالله فعندئذ لا طاعة لهما ولا حمد، وذلك ما تضمنته الآيتان الأولى والثانية دون الثالثة. والآيات الثلاث فيها التنبيه لدور الأسرة باعتبارها وحدة المجتمع ونواته، ويجعل لها مرجعية تعليم الطفل، بأن له إله خالق يرعاه وأبويه، وفي الآيات الثلاث تأكيدٌ على دور الأبوين معاً في التنشئة والتربية، وأن يكونا على وفاق حتى ينمو الطفل عارفاً بفضلهما وفضل ربّه، ويتعين بدوريهما التعين

النفسى والاجتماعى السليم. وفى الآيتين **الأولى والثانية** تحذيرٌ للأبوين من الإفراط أو التفريط فى دوريهما، وتحذيرٌ للأبناء أن يقصّروا، لأنه فى النهاية مرجعنا إلى الله، فيكون حسابنا على ما أسلفنا فى حق كلٍّ.

ووصايا الآيات الثلاث، من أعظم الوصايا، ومن عيون الحكمة فى مجال علوم النفس والتربية والاجتماع، وطب الأطفال، والفقه، وفيها جُماع تعاليم هذه العلوم وخلاصتها.

•••

١٤٨٢- ﴿الأم لا تعق أبدا﴾

فى التوصية بالأم قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** (١٤)﴾(لقمان) فذكرضعف الأم وحاجتها للرعاية دائماً، وسوّى بين الأم والأب فى الوصاية، وخصّ الأم بالأمور الثلاثة: الحمل والولادة والرضاعة. وفى قصة موسى كانت الأم هى القلقة على ابنها، والمتألمة والملتاعة، ولذا قال فيها: ﴿**فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ** (١٣)﴾ (القصص) فلم يقل أنْ لا تحزن أخته، أو أبوه، أو جدّه، أو خاله إلخ، وإنما اختصّ أمه: ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا** (١٥)﴾(الأحقاف) لأنه تكوّن من عظمها ولحمها، وشَقَت فى حَمْله أيما شقاء، وتعبت فى ولادته ورضاعته أيّما تعب، ولذا قال ﷺ عندما سئل: مَنْ أحق بحُسن صحابتى؟ قال: «**أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم الأقرب فالأقرب**»، فكرر الأم **ثلاثاً**، وذكر الأب **فى الرابعة**، والمراد أن الأم تستحق من أولادها الحظ الأوفر من البرّ، وحقُّها فى ذلك مُقدَّم على حق **الأب** عند المزاحمة. وفى الرواية أنه ﷺ بعد الأم والأب، ذكر **الأخت** ثم **الأخ**، وقدّم الجدّ على **الأخ**، وتُقدَّم القرابة من **ذوى الرحم**، ويُقدّم منها **المحارم** على مَنْ ليس بمحرم، ثم سائر **العصبات**، ثم **المصاهرة**، ثم **الولاء**، ثم الجار. ومن الأدب مع **الأبوين**: أن لا يخرج الولد مجاهداً، أو يقبل التجنيد فى الجيش إلا بإذنهما، ومن وصاياه ﷺ فى ذلك قال: «**ففيهما فجاهد**»، ومن الأدب أن **لا يسبّ** الرجل والديه، وعقوقهما من الكبائر، وفى الحديث: «**إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات**»، **والعقوق** مشتق من العق وهو القطع، والمراد به صدور ما يتأذّى به الوالدان من ولدهما من قول أو فعل، ووجوب طاعتهما فى المباحات، فعلاً وتركاً، واستحبابها فى المندوبات وفروض الكفاية، كما لو تعارض الأمران إذا دعته أمه ليمرّضها مثلاً، فتضيع عليه فضيلة الصلاة أول الوقت أو فى الجماعة. ولمّا استفتت **أسماء بنت أبى بكر** الرسول ﷺ فى أمها ـ وكانت مشركة ووفدت لتزور ابنتها، أمرها أن تَصِلها، ونزل القرآن يقول: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ** (٨)﴾(الممتحنة). وفضل **صلة الرحم** عظيم، لأنه من فضل **صلة الأم**، وواصلُ الرحم يعيد

الحبل السُّرِّى إلى ما كان عليه وإنما نفسياً، **وقاطع الرحم** هو قاطع لهذا الحبل وجزاؤه أن لا يدخل الجنة، وفى الحديث: «**إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع الرحم**»، وذلك أن **الرحمة** من الرحم، فمن قطع الرحم قطع عن نفسه الرحمة، وقوله: «**لا تنزل على قوم**» يقصد بالقوم من يساعدون قاطع الرحم على قطعها ولا ينكرون عليه. **والأرحام** هم الأقارب من جهة الأم، وخاصة الأخوات والإخوة، وفى التنزيل: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** (٢٢)﴾(محمد) يقصد بها من يسعى فى قطع الأرحام، وفى الحديث: «**ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذى إذا قُطعت رحمه وصلَها**»، **والمكافىء** يعنى الذى إذا زاره أقاربه زارهم، واحدة بواحدة، **والوَصْل** ليس أن تصل مَن وَصَلَك، ولكنه أن **تصل مَن قطعك**. فهذا من أصول **علم الاجتماع الإسلامى**، وهو بعض بركات الأم، وأن يرتبط الناس بالحبال السُّرِّيَّة التى كانوا يرتبطون بها وهم فى بطون أمهاتهم، ومن الأحاديث العظيمة فى صلة الأرحام الحديث: «**بلّوا أرحامكم ولو بالسلام**» وقوله «**بلّوا**» من «**البلل**» أى السقى، شبّه الرحم بالأرض التى إذا وقع عليها الماء وسقاها، أزهرت ورؤيت فيها النضارة، فأثمرت المحبة والصفاء، وإذا تُركت بغير سقى يبست وبطلت منفعتها فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء.



١٤٨٣ - ﴿الوصية بالأهل والجيران والأصحاب والزملاء والشغيلة﴾

أجمع أهل العلم على أن الآية: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** (٣٦)﴾(النساء) من المحكم المتفق عليه، وفيها **الإعلان بانقضاء العبودية لغير الله**، والآية على ذلك **أصلٌ** فى **خلوص الأعمال لله**، ومنها **الإحسان للوالدين**: وفى الحديث: «**رضى الربّ فى رضى الوالدين، وسخطه فى سخط الوالدين**»؛ **ولذى القربى**: أى القربات بصلة أرحامهم؛ **ولليتامى**: جمع **يتيم**، ويقال عن الطفل عند فقد الأب أو الأم أو فقدهما معاً، وفى الحديث: «**كافل اليتيم، له أو لغيره، أنا وهو كهاتين فى الجنة**» وأشار بالسبابة والوسطى؛ **وللمساكين**: وهم الذى أسكنتهم الحاجة وأذلّتهم، وفى الحديث: «**الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر**»؛ **وللجار ذى القربى والجار الجنب**: والأول هو الجار القريب، والثانى هو **الجار الغريب أو البعيد**، وقيل الأول هو الجار المسلم، والثانى هو الجار **غير المسلم**، والإحسان إلى الجار مأمورٌ بها، ومندوبٌ إليها، مسلماً كان أو غير مسلم؛ بالمواساة، وحُسن العشرة، وكفّ الأذى، والمحاماة دونه، وفى الحديث: «**ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» أخرجه البخارى، وفى رواية: «**حتى ظننت أنه يجعل**

له ميراثاً»، والتوريث فعلاً لم يقع للجار، إلا أن الميراث قسمان: حسّى ومعنوى، والحسّى هو المشاركة فى المال بفرض سهم، ولم يفرضه الله للجار؛ والمعنوى هو ميراث العلم، ومن حق الجار على الجار أن يعلّمه إن احتاج إلى التعليم، وأن يُعلمه إن احتاج للإعلام. والجيران مراتب، فمنهم الفاسق والعابد، والصديق والعدو، والأجنبى والقريب، والغريب وابن البلد، والنافع والضار، والأقرب داراً والأبعد، ومنهم من تجتمع فيه صفات أكثر من الباقين، والأجدى معهم أن يُعطي كلٌ حقه بحسب حاله. وفى الحديث: «الجيران ثلاثة: جار له حق - وهو المشرك له حقّ الجوار؛ وجارٌ له حقّان - وهو المسلم له حقّ الجوار وحقّ الإسلام؛ وجارٌ له ثلاثة حقوق - وهو المسلم ذو القرابة - له حقّ الجوار، وحقّ الإسلام، وحقّ الرحم». والجار يُطلق يُراد به الداخل فى الجوار، ويُطلق ويراد به المجاور فى الدار وهو الأغلب. وحفظ الجار من كمال الإيمان، وكان أهل الجاهلية يحفظون للجار حقّه، وأنزل الله فى هذا الحق الآيات، وأوصى ورسوله ﷺ بالإحسان إليه بحسب الطاقة، كالهدية، والسلام، وطلاقة الوجه عند اللقاء، وتفقّد الحال، والمعاونة عند الحاجة، وكفّ أسباب الأذى، ونفىَ ﷺ الإيمان عمّن لا يأمن جاره أذاه فقال ثلاث مرات: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، فسئل: مَن يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» أخرجه البخارى. وفى الحديث تأكيد لحق الجار، لقسمه ﷺ وتكرير اليمين ثلاث مرات، ونفيه الإيمان عمّن يؤذى جاره بالقول أو الفعل. ولمّا سألت عائشة النبىّ ﷺ عمّن تبدأ به من جيرانها فى الهدية، أخبرها أن مَن قَرُب بابه فإنه أولى من غيره. وحدّ الجيرة الذى قال به الرسول ﷺ أربعون داراً، وفى الآية: ﴿ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) ﴾(الأحزاب) أن المدينة التى يسكن فيها المسلم كلها جوار، غير أن الألصق هو الأولى، ومن يصلى معك صلاة الصبح فى المسجد فهو جار، وفى الحديث: «يا نساء المسلمات: لا تحقّرن جارة لجارتها»، أى لا تحقرن أن تهدى الجارة إلى جارتها شيئاً، وهو كناية عن التحابب والتوادد، وخَصّ النساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، وقال ﷺ فى حقوق الجار: «إنْ استقرضك أقرضته، وإنْ استعانك أعنته، وإن احتاج أعطيته، وإن مرض عُدته، وإن مات تبعتَ جنازته، وإن أصابه خير سرّك وهنّيته، وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزّيته، ولا تؤذه بقُتار قدرك (رائحة الطبخ لطعامك) إلا أن تغرف له منها، ولا تستطل عليه بالبناء لتُشرف عليه وتَسدّ عليه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فأهد له منها، وإلا فأدخلها سراً، ولا يخرج ولدُك بشىء منه يغيظون به ولدَه - هل تفقهون ما أقول لكم؟ لن يؤدّى حقّ الجار إلا القليل ممنّ رحم الله!». ويستوى فى ذلك الصاحب بالجنب، وهو زميل العمل، ومثلهما ابن السبيل، وما ملكت اليمين، وهم الآن الشغّيلة والعمّال والخدم، وفى الحديث: «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» يحضّ على

عدالة الأجور وكفايتها، وحُسن المعاملة، والتكليف بما في الوسع من العمل، والمساعدة عليه، وهذا درسٌ آخر مستفاد من دروس الاشتراكية في الإسلام، فمن يعمل بهذه الوصايا فهو المؤمن حقاً، ومن لا يعمل بها فإنما لصفات سيئة فيه أبرزها: الخيلاء والتفاخر، والأولى تدفع إلى التكبر عن الإحسان، والثانية تجعله يتعاظم على الناس ويرى في الإحسان حِطةً له لا تليق به، والصفتان لا يحبهما الله ولا يحب من كانت فيه.

•••

١٤٨٤- ﴿السلوك مع اليتيم﴾

يأتي عن اليتيم واليتامى في القرآن ٢٢ مرة، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** (١٥٢)﴾(الأنعام)، أي لا تستعملوه إلا بما فيه صلاحه ويكون به استثماره أحسن استثمار، إلى أن يبلغ اليتيم رشده فيُدفع إليه المال، كقوله: ﴿**وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ** (٦)﴾(النساء)، والآية بيان لكيفية دفع أموال اليتامى إليهم باختبار نجابتهم ومعرفتهم بما فيه مصالحهم، ويجب على الوصي تسليم اليتيم جميع ماله بارتفاع الولاية عنه، إلا السفهاء لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** (٥)﴾ (النساء). وللوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنعه من تجارة وشراء وبيع بموافقة المجلس الحسبي، وعليه أن يؤدي الزكاة من سائر أمواله. ولمّا سُئل النبيّ ﷺ عن اليتامى أتاه الجواب: ﴿ **قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ** (٢٢٠)﴾(البقرة) يعني يجوز للكفيل أو الوصي التصرف في مال اليتيم بما فيه صلاحه؛ ومخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم مال ويشقّ على وصيّه أو كافله أن يفرد معيشته بمعزل عن عياله، فيضمه إليهم، فيأخذ من ماله ما يرى أنه كافيه، ويجعله مع نفقة أهله. وفي الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** (١٠)﴾(النساء)، وهؤلاء هم الذين دأبوا على أن لا يورثوا البنات ولا الصبيان، وسمّى الله تعالى أخذهم لمال اليتامى بأنه «أكل» وخصّ البطون بالذكر لتبيين نقصهم والتشنيع عليهم، وسمّى المأكول ناراً بما يئول إليه. والآية من آيات الوعيد.

وخصّ الله اليتامى بالإنفاق من مال الدولة حينما لا يكون لهم مال، فجعلهم ضمن المصارف الاجتماعية لما تتحصله الدولة من ضرائب، وفي الآية خصّهم بالخمس، قال: ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** (٤١)﴾(الأنفال) وإلا كان المال دُولة ـ أي وقفاً ـ على الأغنياء دون الفقراء. والضرائب مغانم للحكومة تعيد بها

توزيع الثروة القومية فى وجوه الإنفاق الاجتماعى المختلفة كالتعليم والصحة إلخ، فهذه بحسب أوامره تعالى وفى إطار الفلسفة الاجتماعية للإسلام مصارف إجبارية على الدولة للفقراء والمحتاجين. وحتى عند تقسيم ميراث أحد الأغنياء فإن للفقراء نصيباً فيه، ومنهم اليتامى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴿٨﴾﴾(النساء). ومن علامات الإيمان العناية بالأيتام وإطعامهم وخاصة ذوى القربى، كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾(البلد). وخصّ الله تعالى اليتيم بكل هذه العناية لأنه لا نصير له، وكان الرسول ﷺ يتيم الأبوين فآواه عمه أبو طالب وكفله، ونزلت فى ذلك الآية: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾(الضحى)، والله يأمر بالإحسان إلى اليتيم: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ (الضحى) ومع أن الخطاب للرسول ﷺ إلا أنه لعموم الأمّة، وفى الأمثال: كن لليتيم كالأب الرحيم»، ولمّا شكا أبو هريرة إلى الرسول ﷺ قسوة قلبه قال له: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»، وقال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى.



١٤٨٥ - ﴿من أدب المسلمين مع بعضهم البعض﴾

من السور المعنية بالأخلاق سورة الحجرات، وفيها الكثير من أدب المسلمين مع النبىّ ﷺ، وأدبهم مع بعضهم البعض، والآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾(الحجرات) فيها النهى عن السخرية من الآخرين، ومن اللمز والتنابز بالألقاب، والظن بالسوء، والتجسّس والغيبة. والسخرية: هى الاستهزاء، وتخصيصها للنساء لأن السخرية منهن أكثر؛ واللمز من السخرية، ويكون بالعين والإشارة، ومثله الهمز ويكون باللسان، والمعنى نهى العيّاب عن ذكر الناس بما يكرهون، فربما كانوا خيراً منه، والمسلم لا يعيب، وإذا أردتَ أن تنظر العيوب جَمّةً فتأمّل العيّاب، فإنه إنما يعيب الناس بدافع ما فيه من العيب، وعنه ﷺ قال: «يبصر أحدكم القذاة (الشظية) فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه». والعاقل من اشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. وفى الآية: «النهى عن التنابز بألقاب السوء» ، يقال نَبَزَه أى لقّبه بما يكره، ولبئس أن تقول مثلاً لأخيك: يا فاسق، أو تصفه فتقول: إنه فاسق، وفى الصحيح: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه» أخرجه البخارى، وفى الرواية أن أبا ذرٍّ تنازع ورجل فقال له: «يا ابن اليهودية» ! فقال النبىّ

ﷺ: «**ما ترى ها هنا أحمر وأسود! ما أنت بأفضل منه**» يعني كما أنه لا أفضلية لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، فكذلك لا أفضلية لأحد على أحد إلا بالتقوى. وقيل **التنابز بالألقاب** أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يُعيَّر بما سلف، وفي الحديث: «**من عيّر مؤمناً بذنب تاب منه كان حقاً على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة**» أخرجه الترمذي. ومع ذلك يجوز أن يُلقَّب المرء بما يُحب، وقد لقّب النبيّ ﷺ عمر: **بالفاروق**، وأبا بكر: **بالصدّيق**، وعثمان: **بذي النورين**، وخزيمة: **بذي الشهادتين**، وأبا هريرة: **بذي الشمالين، وبذي اليدين**، وروى عنه ﷺ أنه قال: «**من حقّ المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه**»، ولهذا كانت **التكْنية من السنّة والأدب الحسَن**، وعن عمر قال: **أشيعوا الكُنَى**.

والظن في الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهى أن تظن في إنسان ظنوناً لا موجب لهـا، وللظن **حالتان: حالة يتوافر بها الدليل** فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن، كالقياس؛ والحالة **الثانية الظن فيها من غير دليل**، فهذا هو **الشك**، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهيّ عنه، والأول هو **الظن المحمود**، والثانى هو الظن المذموم، كقوله تعالى: ﴿**ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**(١٢)﴾(النور)؛ وقوله: ﴿**وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ** (١٢)﴾(الفتح). والظن المذموم هو المعنىّ بقوله تعالى: فى الآية: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ (الحجرات ١٢). وأما **التجسّس**: فهو البحث عمّا يُكتَم عنك، وهو بخلاف التحسّس: وهو طلب الأخبار والبحث عنها؛ **والجاسوس هو** الذى يبحث عن الأمور المخبوءة فيكشفها.
والغيبة:هى أن تذكر الرجل بما فيه من عيوب، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو **البهتان**.والغيبة **ثلاثة** أوجه هى: **الغيبة، والإفك، والبهتان؛ فأما الغيبة**: فهوأن تقول فى أخيك ما هو فيه؛ وأما **الإفك**:فأن تقول فيه ما بلغك عنه؛ وأما **البهتان**: فأن تقول فيه ما ليس فيه. وقد مثّل الله تعالى الغيبة بأكل الميتة فقال: ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الحجرات ١٢)، لأن الميت لايعلم بأكل لحمه، كما أن الحيّ لايعلم بغيبة من اغتابه، فكما أكل لحم الميت حرامٌ مستقذر، و فكذلك الغيبة حرامٌ وقبيحة، وفى الحديث: «**ما صام من ظل يأكل لحوم الناس**» وليس من ذلك **غيبة الفاسق المُعلن به المُجاهر**، وفى الخبر: «**من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له**»، وقال ﷺ: «**اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس**» وقيل: **لا حُرمة لثلاثة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والحاكم الجائر**.

●●●

١٤٨٦ - ﴿المسلم أخو المسلم﴾

فى التنزيل: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**(١٠)﴾(الحجرات)، **وأُخُوَّتهم فى الدين والحُرمة** لا فى النسب، **وأخوّة الدين** أثبت من **أخوة النسب**، وتنقطع أخوة النسب وما تنقطع أخوة الدين.

ولذا كان الصلح أوجب بينهم وأحرى بهم. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ⑩﴾(الحجرات) خبرٌ عن الحالة التى شرِّعت للمؤمنين، فهو بمعنى الأمر أن يكونوا كالإخوة، والذى يمنع الأخّوة رذائل حَصَرها الرسُول ﷺ فقال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولاتحاسدوا، ولاتباغضوا، ولاتجسّسوا ولاتحسّسوا، ولاتناجشوا (يزايد بعضكم على بعض) ،وكونوا عباد الله إخواناً» ، أخرجه البخاري، وفى رواية قال: «ولاتحاسدوا، ولاتناجشوا، ولاتباغضوا، ولاتدابروا، ولايبع بعضكم على بعض وكونوا عباد الله إخواناً»، وقال: «المسلم أخو المسلم، لايظلمه، ولا يخذله ،ولايحقره. التقوى ها هنا (وأشار إلى صدره ثلاث مرات). بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام، دمه ، وماله ، وعرضه» أخرجه مسلم، وقال: «المؤمنون كجسد واحد، إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى».

•••

١٤٨٧- ﴿«المعروف» من مكارم الأخلاق﴾

المعروف:اسمٌ لكل فعل يُعرَف حُسْنُه بالشرع والعُرف والعقل معاً، ويأتى ذِكرُه فى القرآن ٣٩ مرة، والأمر بالمعروف يلازمه النهى عن المنكر، كقوله تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ⑪⓪﴾(آل عمران) وقوله نقيض ذلك فى صفة العاصين: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ⑥⑦﴾(التوبة)، وقوله: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ⑪②﴾(التوبة)، وصفٌ لأمة الإسلام، ما أقاموا على ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا المعروف، وتواطئوا على المنكر، زالت عنهم هذه الصفة ولحقهم الذم. وفى الحديث: «كل معروف صدقة»، و«على كل مسلم صدقة»، قالوا: فإن لم يجد يا رسول الله؟ قال: «فيعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدّق» ،و قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف»، قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: «فليأمر بالمعروف»، قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: «فليمسك عن الشرّ فإنه له صدقة» . والحديث من عيون الحكمة، وأصل من أصول الخُلق الإسلامى ،وفى الحديث أن الصدقة:هى الثواب، ولاتنحصر فى الأمر المحسوس، ولاتختص بأهل اليسار، وكل واحد بوسعه أن يفعلها فى أكثر الأحوال، وبغير مشقة. وأصل الصدقة: مايخرجه المسلم من ماله متطوعاً به، وقد تطلق على الواجب لأن صاحبه يتحرّى الصدق بفعله. والآية والحديث من جملة ما يُعرف به المسلم، فمن أراد أن يعرف ما هو الإسلام، فليتأملهما ليدرك تواً أن هذا الدين يدعو إلى العمل والتكسّب، ليجد المرء ما ينفق به على نفسه، وما يتصدّق به، وما يغنيه عن ذُلّ السؤال؛ وأنه دين يحثّ على فعل الخير كلما أمكن، وأن من قصد باباً من أبواب الخير فتعسّر عليه فلينتقل إلى غيره. وكان المتكلمون يقولون: إن تَرْك فعل الشر ليس من العمل، وفى الحديث أنه عمل، كقوله ﷺ :

«مَن هَمّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حَسَنة»، وقوله: «إن الحسنة إنما تُكتب لمن هَمّ بالسيئة فلم يعملها، إذا قصد بتركها الله تعالى»، وفى الحديث عن الكلمة أو الفعل الطيب قوله: «الكلمة الطيبة صدقة»، وقوله: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة، فإن لم يكن فبكلمة طيبة»، وأصل الطيب ما تستلذه الحواس، ويختلف باختلاف متعلقه، وطيب الكلام من جليل عمل البِرّ، لقوله تعالى: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴿٣٤﴾ ﴾(فصلت)، والدفع قد يكون بكلمة، وقد يكون دفعاً بالفعل والعمل.

•••

١٤٨٨- ﴿الدفع بالتى هى أحسن﴾

الدفع بالتى هى أحسن من مكارم أخلاق المسلم، وفى التنزيل قوله: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** ﴿٩٦﴾ ﴾(المؤمنون)، وقوله: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾(فصلت) ، والحسنة ضد السيئة؛ ومن الحسنات: المداراة، والعفو، والعلم، والتحية؛ ومن السيئات: الغلظة، والانتصار، والفُحش، والمخاصمة. وفى الأثر قوله: «تصافحوا يذهب الغلّ»، وقوله: «من تمام المحبة الأخذ باليدين»؛ وفى الحديث: «مامن مسلِمَين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً، إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما»، والآية تأمر بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. والدفع قد يكون بالقول أو بالفعل.

•••

١٤٨٩- ﴿الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة﴾

الشفاعة من الخُلق الإسلامى، وأصل الشفاعة من الشَّفْع، وهو الزوج فى العدد، ضد الوتر، ومنه الشفيع سُمى كذلك لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً؛ والشُفعة ضمّ مِلك الشريك إلى ملك الآخر، والشفاعة مثلها، وهى ضمّ غيرك إلى جاهك ووسيلتك، وفى التنزيل: ﴿ **مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا** ﴿٨٥﴾ ﴾ (النساء)، والشفاعة الحسنة لايفعلها إلا المتّقون، والشفاعة السيئة لا يفعلها إلا الأشرار ، والأولى فى البِرّ والطاعة، والثانية فى المعاصى، وكل من يشفع سواء بالحسنة أو بالسيئة له أجره أو وزره، ومن الشفاعة الحسنة أن تدعو للناس، ومن الشفاعة السيئة أن تدعو عليهم، وكان اليهود يدعون على المسلمين. والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم تتحقق شفاعته، والشفاعة قد لا تُنجز، لأنه تعالى قال: «من يشفع» ولم يقل «ومن يُشفَّع»، وفى الحديث: «اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما شاء» ، والأجر على الخصوص وليس على العموم، وهو فى الشفاعة الحسنة ما تجوز فيه الشفاعة، وضابطها ما أذن فيه الشرع دون مالم يأذن فيه، ومن شَفَع بالباطل كان له نصيبٌ من وزره، والرسول شفيعٌ

للمسلمين، والله تعالى يقضى الحاجة بشفاعته إن شاء، وكل الحاجات يُشفَع فيها إلا الحدود ،وما تجوز الشفاعة فيها، ولمّا تشفّعوا فى السارقة أنكر عليهم الرسول ﷺ أن يشفعوا فى حدّ من حدود الله، وما كان الرسول ﷺ يقبل شفاعةً إلا ممن وقعت منهم الهفوة من أهل الستر والعفاف، وأما المصرّون على فسادهم، المشتهرون فى باطلهم، فلا يشفع فيهم، ليُزْجَروا عن ذلك. وكان إذا جاءه السائلون أو طالبوا الحاجة أقبل عليهم بوجهه يقول: «اشفعوا» ،وفى الحديث: «إنى أُوتى فأُسأل أو تُطلب إلى الحاجة وأنتم عندى فاشفعوا».

•••

١٤٩٠- ﴿الابتداء بالسلام سنّة﴾

إذا كان الابتداء بالسلام سنّة فإن ردّه فريضة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴿٨٦﴾﴾(النساء)، والتحية هى السلام، وهى خلاف الردّ. والابتداء بالتحية تطوّع، وردّها من الفروض المتعيّنة، ويلزم كل إنسان بعينه، غير أنه فى الحديث: «يجزىء من الجماعة إذا مروا أن يسلّم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يردّ أحدهم» أخرجه أبو داود، يعنى الواحد يسلّم على الجماعة وينوب عن الباقين كفروض الكفاية. وردّ السلام يكون بردّ المثل لا ردّ العين، بقول: «وعليك» أو «وعليكم السلام»؛ وحُسن السلام بأن يقال: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، فزيدت ورحمة الله وبركاته. والسلام مأمورٌ به بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٤﴾﴾(الانعام)، وبقول الرسول ﷺ: «أفشوا السلام تسلموا»،وإفشاء السلام ابتداءً يقتضى إفشاءه جواباً، وقد يقال فى الجواب «وعليكم» أو «السلام» فقط، وقد يقال فى السلام :﴿سَلَامٌ﴾(يونس ١٠)، أو «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ (الأنعام ٥٤)، وفى الردّ عليه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾(هود٦٩) وأكثر ما يأتى فى القرآن سواء فى التحية أو فى الردّ «سلام» أو «سلاماً»(هود ٦٩)، أو «سلامٌ عليكم»(الرعد ٢٤). وكان المسلمون يدعون فى الصلاة فيقولون: «السلام على الله قبل عباده، والسلام على جبريل، وعلى ميكائيل،وعلى فلان وفلان»، فعلّمهم النبىّ ﷺ فى التشهُّد أن يقولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» . وقال : «فإن الله هو السلام» ،وفى القرآن أن من أسمائه تعالى: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴿٢٣﴾﴾(الحشر)، ومعنى السلام أنه السالم من النقائص. وفى الحديث عن السلام قال ﷺ : «وضعه الله فى الأرض، فأفشوه بينكم» اخرجه الطبرانى. والسلام تحية أهل الجنة لبعضهم لبعض: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ ﴾(إبراهيم)، وتحية الملائكة لهم: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾(الزمر ٧٣)، وتحيتهم لله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴿٤٤﴾﴾ (الاحزاب)، وتُقرن أسماء النبيين بالسلام، كقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾(الصافات)، و﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾

طلب السلامة لهم، كقوله تعالى: ﴿**فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٩١)﴾(الواقعة). **وفلسفة السلام وإفشائه في قوله** ﷺ: «**أفشوا السلام**» أن المسلم يُعلم من يسلّم عليه أنه سالم منه، ويدعو له بالسلامة. وقيل في التحية في الآية: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** (٨٦)﴾(النساء) أن التحية هي **تشميت العاطس** والردّ على المشمّت، وهذا قول بعيد. **ولا يجزىء في السلام إلا الردّ بالسلام،** وليس بأن يقال «**صُبِّحت بالخير**» أو «**بالسعادة**» ونحو ذلك، وفي الحديث: «**لا تسلّموا تسليم اليهود**» لأن اليهودي ضنين بقول السلام. والتحية للنساء تجوز برفع اليد، والرسول ﷺ ألوى لهن بيده بالتسليم، وما منعه من إزجاء السلام إلا بُعدهن، ولمّا جاء الولد يقول للنبيّ ﷺ: إن أبي يُقرئك السلام. قال: «**وعليك وعلى أبيك السلام**»، والسُّنّة في السلام: **أن القليل يسلم على الكثير، والصغير على الكبير، والمار على القاعد، والراكب على الماشي، والماشي على القاعد،** فإذا تساوى المتلاقيان فمن يبدأ بالسلام أفضل، وأولى الناس بالله مَنْ بدأ بالسلام. **والفلسفة** في السلام من تسليم **القليل على الكثير،** أن حق الكثير أعظم، ومن تسليم **المار على الجالس،** لأن المار يشبه الداخل على أهل المنزل، ومن تسليم الراكب، لئلا يتكبّر بركوبه فيرجع إلى التواضع. **والجهر** واجب في السلام والردّ، لقوله ﷺ: «**إذا سلمتم فأسمعوا، وإذا رددتم فأسمعوا**». ولا يُسلّم على المُصلّي، ولا قارىء القرآن، وأثناء خطبة الجمعة، ولمن يشتغل بالدعاء، أو بالأذان، أو بالتلبية في الحج، وبعد الفراغ من ذلك يمكن الردّ. **والسلام على النفس:** لمن دخل مكاناً ليس فيه أحد، لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** (٦١)﴾(النور) فيقول الداخل: **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**». ويُكره إذا لقي المسلم جماعة أن يخص بعضهم بالتحية، لأن القصد من التحية تحصيل **الألفة،** وفي تخصيص التحية **إيجاش** (أي تحريك الغل) لمن أُهمل أمره في التحية. وفي الحديث: «**وتقرأ السلام على مَنْ عرفت وعلى مَنْ لمْ نعرف**»، **فلماذا لمن لم نعرف؟** يقول ﷺ: «**إنه سيأتي على الناس زمان يكون السلام فيه للمعرفة**» أي لمن نعرفهم فقط ونترك الباقين، ويقول: «**إن من أشراط الساعة السلام للمعرفة**».



١٤٩١ - ﴿دخول البيوت بالاستئذان والسلام على أهلها﴾

الاستئذان هو طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن، وفي الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (٢٧)﴾(النور) تأديب للمؤمنين بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطّلع أحد على عورة

لهـم؛ والاستـئناس هو الاستئذان، وهو أن يفعل الزائر أو يقـول قدر ما يعلم أن أصحاب البيت قد شعروا به: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴿٦﴾﴾(النساء) فادخلوا. ولمّا سُئل النبىّ ﷺ عـن الاستـئذان قـال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح ويُؤذن أهلَ البيت» أخرجه ابن ماجة. والسُنّة فى الاستئذان ثلاث مرات إلا لو عَلم المستأذن أنه لم يُسمع، وفى الحديث: «إذا استأذن أحـدكم ثلاثاً فلم يؤذَن له فليرجع» أخرجه البخارى. والاستئذان تَرَك الناسُ العـمل به لاتخاذهم الأبـواب والأجراس وسـمّاعـات الصوت. وإذا سُئلت: مَنْ بالباب؟ فلا تقل أنا، بل قل اسمك وحاجتك ، وابدأ بالسلام، وفى الحديث: «مَنْ لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له».



١٤٩٢- ﴿السلام عند دخول البيوت﴾

البـيـوت أنواع: فهناك بيـوت الله، والبيوت المسكونـة من الغير، والبـيوت المسكونة بالأهل، والبيوت غير المسكونة. ويقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾(النور). قيل: إذا دخلـتَ المسجد فـقل: السلام عليكم تحية مـباركة طيبة من عند الله. السـلام عـلى رسـول الله. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وإذا دخلت البيوت غير المسكونة يسلم المرء على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصـالحين. وإذا دخلت البيـوت المسكونة فقل: السلام عليكم، تحيةً من عند الله. وإذا دخلت بيتك فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وهذا عام فى دخول كل بيت. فإذا كان بالبيت ساكنٌ مسلم فليقل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تحيةً من عند الله. وإن كان فى البيت غير مسلم فليقل: السلام على مَنْ اتبع الهدى، أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.وفى الحديث: «إذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أهلها، واذكروا اسم الله، فـإن أحـدكم إذا سلّم حين يدخل بيـته وذكـر اسم الله تعـالى على طـعامـه يقـول الشـيطان لأصحابه: لا مبيـت لكم ها هنا ولا عَشاء. وإذا لم يسلّم أحدكم إذا دخل، ولم يذكر اسم الله على طعامه، قال الشيطان لأصحابه: أدركتم المبيت والعشاء». والكلام رمزى بطبيعة الحال.



١٤٩٣- ﴿السلام كتحية لغير المسلمين﴾

السـلام من أدب السلوك الإسلامى، وكذلـك من حُسن السياسة. واليـهود يسلمون فيقولون: شالوم أو سلام، وليس ذلك السلوك من أدبيات التوراة ولكنه من تعليم الأحبار والسلام بمعنى التحية خُصّت به أمة الإسلام، فيجوز السلام على غير المسلم، وفى القرآن

سلمَ إبراهيم على أبيه آزر لمّا أعلنه آزر بالكفر وباداه بالخصام والهجر، فقال له إبراهيم: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكَ** (٤٧)﴾(مريم)، وفى أدب ذلك قال تعالى فى المؤمنين: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** (٦٣)﴾ (الفرقان)، وفى حكمته وفلسفته قال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** (٨)﴾(الممتحنة). وفى الحديث: «**إن الله تعالى أعطى أمتى ثلاثاً لم تعط أحدًا قبلهم: السلام وهو تحية أهل الجنة**» الحديث، ذكره الترمذى. وروى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب، وكانوا لا يمرون بمسلم ولا نصرانى، ولا صغير ولا كبير، إلا سلّموا عليه، فهكذا أُمر المسلمون: أن **يفشوا السلام**. والذين يسلّمون هم الصالحون، وعن الحسن البصرى قال: إذا مررت بمجلس وفيه مسلمون وكفّار فسلّم عليهم، فهكذا كان يفعل النبىّ ﷺ، وفعله نبىّ الله إبراهيم، والله يقول: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ** (٤)﴾(الممتحنة).

•••

١٤٩٤- ﴿لا حرج أن يأكل الناس من بيوت أقاربهم﴾

القرابة إذنٌ للقريب أن يأكل من بيت قريبه، ولا حَرَج على من يفعل ذلك: ﴿**أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ** (٦١)﴾(النور)، والآية كلها فى المطاعم، وفى القرابة عطفٌ تسمح النفوس به، أن يأكل القريب من أشياء أقربائه إذا دعوه وكانوا به أحفياء، فإذا كان الطعام مبذولاً فلا حرج أن نأكل منه بلا استئذان، فإذا كان محرزاً لم يكن لنا أخذه، وإذا دعينا فلا يجوز أن نزيد على ما نتناوله عادة من كميات، وأن لا نحتفظ ببعضه، أو تمتد أيدينا إلى ما لم يُبذل لنا. **وبيت الابن** من بيوت الأقارب ولو أنه لم يذكر فى الآية، وفى الحديث: «**أنت ومالُك لأبيك**»، ويباح للرجل إذا وَكَل آخر فى ضيعته أن يأكل من ثمرها، وهو معنى ﴿ **أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ**﴾، **ومالك المفتاح** يسمى **الخازن**، فلا بأس أن يطعم الشىء اليسير، وله أن يأكل مما يُخزن إذا لم تكن له أجرة، فإذا كانت له أجرة حَرُم عليه الأكل. وكذلك يباح الأكل عند **الصديق**، وهو من يصدقك فى مودته، بشرط أن يجيزه الصديق، وفى الحديث: «**لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيبة نفس منه**» أخرجه أحمد.

•••

١٤٩٥- ﴿رفع الحرج عن المعوق﴾

رفع الله الحرج عن **الأعمى** فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر، وعن **الأعرج** فيما يشترط فى التكليف به من المشى، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج،

وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، كالصوم، والصلاة، والجهاد ونحو ذلك، قال: **﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ (٦١)﴾**(النور). والحرج عن هؤلاء وأمثالهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضى نيتهم فيه الإتيان بالأكمل، فيقع منهم الأنقص. ويُعذَر أمثال الأعمى إذا جالت يده في الطعام، والأعرج إذا انبسطت جلسته، والمريض إذا كانت له رائحة، وهؤلاء يعذرون عن درجة الأصحاء، فنزلت الآية تبيح الأكل مع الأعمى والأعرج والمريض رغم عجز الأعمى عن الرؤية، والأعرج عن المزاحمة، والمريض لضعفه.

•••

١٤٩٦- ﴿دعاء الأكابر بالأدب﴾

كان المؤمنون يصيحون على النبيّ ﷺ من بعيد: **يا أبا القاسم!** فنزلت الآية: **﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا (٦٣)﴾**(النور) يعنى عظّموه، كقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ (٣)﴾**(الحجرات) أى الذين كانوا يرفعون أصواتهم في محضره. والدرس المستفاد أن يكون ذلك هو سلوك المسلمين مع كبرائهم وأعيانهم.

•••

١٤٩٧- ﴿النميمة من الكبائر﴾

النَّم: إظهار الحديث بالوشاية، وأصل النميمة الهمس والحركة، وفى الاصطلاح: النَّم هو نقل القول إلى المقول فيه، وكشف ما يُكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو غيرهما، وسواء كان المنقول قولاً أو فعلاً، **والنَّم** بخلاف **الغيبة**، ومع ذلك يتشابهان، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ، لأن **النميمة**: هى نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد، وبغير رضاه، سواء كان بعلمه أم بغير علمه؛ **والغيبة** ذكْرُه فى غيبته بما لا يُرضيه، فامتازت **النميمة** بقصد **الإفساد**، ولا يشترط ذلك فى الغيبة. وامتازت **الغيبة** بكونها فى غيبة المقول فيه، واشتركت فيما عدا ذلك. وكلاهما الغيبة والنميمة من الكبائر، وفى التنزيل: **﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾**(القلم) وجميع هذه الصفات وجوه لشخصية النّمام، فمن كانت صفته النَّم لن يعدم أن يكون كل ذلك، فلأنه نمّام فهو إنسان حقير وواشٍ مهين وضيع، والنّم يكون **همزاً** أى باغتياب الناس، والنمام على ذلك **همّاز وهُمَزَة، ومنّاع** للخير يسعى للإفساد، **ومعتد أثيم**، لأن كل ما يقوله أو يفعله ظلم ومن الإثم، وهو **عتُل فاجر فى الخصومة**، وفاحش **زنيم** - أى دَعِيٌّ وابن زنا لا أصل له. **والآية أصل من أصول علم نفس السمات**، وتصف النّمام **وصفاً** محيطاً آيةً فى الشمول، وهى من **الإعجاز العلمى فى هذا المجال**، وفى **الطب النفسي**، وفى **الأدب** وما ينبغى أن ينأى عنه المسلم خُلقياً.

١٤٩٨- ﴿المسلم لا يحسد﴾

الحسـد: تمنّي الشخص زوال النعـمة عن مستحـق لها وإنْ لم يصر للحاسـد مثلها؛ والمنافسة: تمني الشخص مثل النعمة وإن لم تزل؛ والحسد لذلك شرٌّ مذموم: **﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾**(الفلق). والمنافسة مباحة وهي **الغبطة**، وفي الحديث: «**المؤمن يغبط، والمنافق يَحْسُد**»، واليهود والنصارى يحسدون المسلمين على **نبيّهم** ﷺ، وعلى كتابهم القرآن، وعلى لغتهم العربية. والحسود عدوٌّ ينقم على الله، ويسخط لقضائه، ولا يرضى بقسمته. والحسد **أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض**، فأما في السماء **فحسد إبليس لآدم**، وأما في الأرض **فحسد قابيل لهابيل**. والحاسد لا ينال في المجالس إلا الندامة، ولا ينال من الناس إلا اللعنة والبغضاء، ولا ينال عندما يخلو إلى نفسه إلا الجزع والغم، ولا ينال في الآخرة إلا غضب الله وعقابه، ولا ينال من الله إلا البُعد والمَقْت، وروى عن النبيّ ﷺ قال: «**ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومُكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غِل أو حسد للمسلمين**»، وقال: «**ثلاث لا يسلم منها أحد**: الطِّيرة، والظن والحسد»، قيل: فما المخرج منها يارسول الله؟ قال: «**إذا تطيّرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ**»، ومضمون الحديث أنه **ما من آدمي إلا وفيه الحسد**، إلا أن المسلم لا ينبغي أن يجاوز ذلك إلى **البغي والظلم**، فحينئذ لا يضرّه إن اعتمل فيه حسدٌ.

●●●

١٤٩٩- ﴿اجتناب قول الزور﴾

من الأدب في الإسلام اجتناب **قول الزور**، وفي الآية: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)﴾**(الحج) قرنه الله تعالى بالشرك بالله، وقال اجتنبوا أي تحاشوا، والنهي بالاجتناب أشد من **النهي** بعدم التعبّد للأوثان أو قول الزور، لأن **الاجتناب** فيه **الحظر من إتيان أي شيء يُشتَمّ فيه أنه من رجس الوثنية أو من رجس الزور**، ومثلما أن الوثنية رجس أي نجس، فقول الزور أيضاً رجس، والرجس نجسٌ حُكماً، وليست النجاسة وصفاً ذاتياً للأعيان، وإنما هي **وصفٌ شرعيٌّ** من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلا بالإيمان، كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء، فكذلك قول الزور ضد الحق، وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل، وفي الحديث: «**عدلت شهادة الزور الشرك بالله**»، والشرك أعظم الزور، ولذا كان قول الزور، وشهادة الزور، من **الكبائر**، وَحدُّها في الإسلام **أربعون جلدة**، وليس في القرآن شيء من ذلك، وقيل إن **عمر بن الخطاب** كان يأمر بأن يُسخّم وجه قائل الزور، وتُحلق رأسه، ويُطاف به في الأسواق! ولا تُقبل شهادته إلا بعد إصلاح وصلاح.

●●●

١٥٠٠- ﴿إدهان ذي الوجهين﴾

المُدهِن هو المُصانع، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾(القلم)، أى لو تُصانع، والمدهن ذو وجهين، وظاهرة خلاف باطنه، وفى الحديث: «من أشرّ الناس ذو الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»، وهو المنافق المتملق بالباطل وبالكذب، ومُدخل الفساد بين الناس، ومصانعته للأطراف المتضادة خصوصاً، يتحايل عليهما ليطّلع على أحوالهما، والمداهنة محرّمة. وقيل الإدهان أو المصانعة وأن يكون المرء بوجهين، منه المحمود ومنه المذموم؛ والمحمود: ما كان بهدف الإصلاح بين المتخاصمين أو المتعادين، وشأنه كشأن الكذب الأبيض؛ والمذموم: ما زَينّ لكل طائفة عملها، وقبّحه عند الأخرى، وما ذمّ كل طائفة. والعميل المزدوج: هو الجاسوس الذى يعمل للطرفين، ويصانع الفريقين، وله وجه مع كلٍّ، وفى الحديث: «من كان له وجهان فى الدنيا، كان له فى الآخرة لسانان من نار».



١٥٠١- ﴿العدل والإحسان من أعظم الأخلاق﴾

العدل والإحسان من أدب الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾(النحل)، وهذه الآية لمّا سمعها أبو طالب عمّ النبىّ ﷺ قال: اتّبعوه تفلحوا. والله إن الله أرسله ـ أى النبىّ ﷺ ـ ليأمركم بمكارم الأخلاق. وقال: اتّبعوا ابن أخي، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق. وقيل: هذه أجمع آية فى القرآن لخير يُمتثل، ولشرٍّ يُجتنَب. وقيل: ما فى القرآن آية أجمع لحلال وحرام، وأمرٍ ونهيٍ من هذه الآية». ـ والعدل فى الآية إنزال العقاب بالجانى بما يستحق، والإحسان تركُ العقوبة. والعدل إنصاف، والإحسان تفضُّل. والعدل ضربان: مطلق: يقتضى العقل حُسْنه ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو أن تحسن لمن أحسن إليك، وتكفّ الأذى عمّن كفّ أذاه عنك؛ وعدلٌ يُعرَف بالشرع: ويوصف بالاعتداء مقابلةً، كالقصاص، وأرْش الجنايات (أى الدية)، وأخذ مال المرتد، كقوله تعالى﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۝١٩٤﴾(البقرة)، فالعدل: هو المساواة فى المكافأة فى الخير أو الشر؛ بينما الإحسان: مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بالترك أو بأقل منه، وفى الآية أن إيتاء ذى القربى إحسان، وترك الفحشاء والمنكر والبغى عدل.



١٥٠٢- ﴿منْ بغى فإنما يبغى على نفسه﴾

البغي من الرذائل ، وهو مجاوزة القصد فى الشيء،ومن سُنّته تعالى في الكون تأنيساً لعباده أن جعل وبال البغى يعود على الباغى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم

(٢٣)﴾ (يونس)، ووَعَد مَن بُغى عليه بالنصر فقال: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ (٦٠)﴾ (الحج)، فكان على من بُغى عليه أن يشكره تعالى ويقابل ذلك بالعفو عمن بغى عليه، كقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾(الشورى)، والله تعالى: ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ (٩٠)﴾(النحل)، **والعدل** هو الإنصاف، **والإحسان** هو التفضُّل، وفي نفس الآية أمر تعالى بالنهي عن البغي ،فجعل حدّ الإجزاء في البغي ضمن **العدل**، وجعل التكميل الزائد على الإجزاء ضمن **الإحسان**. والبغي مع ذلك منه ما يُحمَد، ومنه ما يُذَمّ، **والبغى المحمود**: ماجاوز العدل إلى الإحسان. **والبغى المذموم**: ما جاوز العدل إلى الجَوْر، وما جاوز الحق إلى الباطل. غير أن أكثر ما يُطلق البغى على المذموم ،كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ (٧٦)﴾(القصص) ، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ (٢٢)﴾(ص)، وقوله : ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي (٩)﴾(الحجرات)، وإذا أُطلق البغى وأُريد به المحمود يزاد فيه غالباً التاء، كقوله تعالى: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ (١٧)﴾(العنكبوت).

●●●

١٥٠٣- ﴿الكبر ليس من شيم المسلم﴾

الكبر **والتكبُّر والاستكبار** متقاربة المعنى؛ فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره وأعظم؛ **والمتكبّر** هو الذى يتصرّف باستكبار؛ **والتكبُّر** على وجهين ،**أحدهما**: أن تكون الأفعال حسنة زائدة على محاسن الغير، ولذلك وصف الله تعالى نفسه بالمتكبّر فقال: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ (٢٣)﴾(الحشر)، لأنه تكبّر بربوبيته فلا شيء مثله، وهو المتكبّر عن كل سوء، والمتعظّم عمّا لايليق من صفات الحدث والذم. وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد. والكبرياء في الإنسان صفة ذم، وفي الله صفة مدح؛ **والوجه الثانى**: أن يكون المتكبّر متكلفاً لذلك، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾(غافر)، والمستكبر مثله، **والمستكبرون** فى كل أمة هم المترفون أصحاب الجاه والسلطان يعتون ويستضعفون الناس؛ **والمستضعفون** هم المقابل للمستكبرين، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا (٧٥)﴾(الأعراف)، وقوله : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا (٢١)﴾ (إبراهيم). وقيل: إن الكبر إنْ ظهر على الجوارح فهو التكبُّر، وإلا قيل: في نفسه كِبْر، والكبر في النفس هو أصل **الكبر**، وهو الاسترواح إلى رؤية النفس. والكبر يستدعى **مستكبراً عليه** يرى نفسه فوقه، **ومتكبَّراً به**، وبه ينفصل الكبر عن **العُجب** ،فمن يظن أنه ليس في الدنيا سواه يُعجَب بنفسه ولا يكون متكبّراً. والكبر يبدأ **بالعُجب**. ولذلك لم يكن الكبر من شِيَم المسلم. والمستكبرون لهم علامات، كقوله: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ (٥) ﴾(المنافقون) وقوله: ﴿**قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ (٢٢)**﴾(النحل)، وقوله: ﴿**وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)**﴾(الفرقان)، وكلها صفات مستهجنة تصف المستكبر، وكان إبليس - **أول مرتكب لأول رذيلة في الكون** - وهي الكبر؛ وكان **رئيس المستكبرين في الدنيا فرعون موسى**، وفيه قال ربّ العالمين: ﴿**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (٣٩)**﴾(القصص)، وفى التنزيل أن أبرز صفات المتكبّر أنه: ﴿**ثَانِيَ عِطْفِهِ (٩)**﴾(الحج)، والعطف هو الرقبة، والمعنى أنه مُعرِض من العظمة. وفى الحديثَ عن **الضعفاء** قال ﷺ: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبرّه**»، وقال: «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتلّ جوّاظ مستكبر**»، **والعُتلّ** هو الجافى الغليظ، **والجوّاظ** المختال فى مشيه. وفى الأحاديث عن الكبر والمتكبّرين قوله ﷺ: «**الكبر بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس**»، **والغمط** هو الازدراء والاحتقار. وقوله: «**الكبر السفه عن الحق وغمص الناس**»، **والسفه عن الحق** إنكاره، **وغمص الناس** تحقيرهم. **والتواضع** نقيض الكبر. وكان النبيّ ﷺ شديد التواضع، ولما سئل فى ذلك قال: «**إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لايبغى أحدٌ على أحد**»، لأن الكبر طريق البغى، والأمر بالتواضع نهيٌ عن الكبر، وفى الحديث عنه ﷺ: «**من تواضع للّه درجة، رفعه درجة، حتى يجعله الله فى علّيين، ومن تكبّر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله فى أسفل سافلين**» أخرجه أحمد.

•••

١٥٠٤- ﴿المسلمون معافون إلا المجاهدين﴾

المسلم مأمور بالستر على نفسه، وفى الحديث: «**اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها، فمن ألمّ بشىء منها فليستتر بستر الله**». أخرجه الحاكم، وفى التنزيل: ﴿**لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ (١٤٨)**﴾(النساء)، ومنه **الجهر بالمعاصى**، وهو الذى يفعلها العاصى جهاراً، أو يتحدث بها ويكشف عما ستره الله عليه منها، ومن يجاهر بفسقه أو ببدعته يسمى **مجاهراً**. وفى الحديث: «**كل أمتى معافى إلا المجاهرين**»، وفى **الجهر بالمعصية استخفافٌ**. والمعاصى تذل مرتكبها، وتقيم **الحدّ** عليه إن كان فيها حدّ، أو **التعزير** له إن لم توجب حداً. وإذا ستر الله الفاسق فى الدنيا لم يفضحه فى الآخرة، والذى يجاهر يفوته عفو الله ورحمته. **والمجاهرون بالمعاصى لا يعانون ولا يُسترون**. والحال مع العصاة من المسلمين يوم القيامة على **قسمين**: أحدهما من معصيته بينه وبين ربّه، وهذا القسم على **قسمين: قسمٌ** معصيته مستورة فى الدنيا فيسترها الله عليه يوم القيامة؛ **وقسمٌ** معصيته مجاهرة فيفضحه الله يوم القيامة؛ **والقسم الثانى**: من تكون معصيته بينه وبين العباد فهم على **قسمين** أيضاً: **قسمٌ** ترجح سيئاتهم على حسناتهم، فهؤلاء يقعون فى النار ثم يخرجون **بالشفاعة**، **وقسمٌ** تتساوى سيئاتهم وحسناتهم فهؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاص.

•••

١٥٠٥ - ﴿المؤمن لايكذب﴾

في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وهو الكاذب عندما يحدّث، وعندما يعد، وعندما يؤتمن. **والكذب**: من قبائح الذنوب، ويجانب الإيمان. والصدق ضد الكذب؛ **والصدق**: مطابقة القول للمُخبر عنه، فإن لم يطابقه فإنه إما أن يكون كذباً، أو متردداً بين الصدق والكذب، كقول المنافق محمد رسول الله، فإنه يصحّ أن يقال صَدَقَ، إذا كان يعتقد ذلك حقاً، فعندئذ يكون صادقاً؛ ويصحّ أيضاً أن يقال كذب، إذا كان قوله يخالف ضميره، وفي التنزيل قال المنافقون: **﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ①﴾**(المنافقون)، وقال تعالى في الصادقين: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ⑪⑨﴾**(التوبة) يعني أن الصدق قرين الإيمان، والصادقون هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم، كقوله تعالى: **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ②③﴾**(الأحزاب) يعني أوفوا بما عاهدوا، وبالصدق ينتفي النفاق في العقيدة، والمخالفة في الفعل، وصاحب هذه الصفة يقال له **الصادق**، فإذا كثر منه الصدق يقال له الصدّيق، كأبي بكر. والمسلم حقّ أن يلازم الصدق في الأقوال، والإخلاص في العمل، لو فَهِم الإسلام، ووعى القرآن، وفي الحديث: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ، وإن البرّ يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتَب عند الله صدّيقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذّاباً**» أخرجه مسلم. وقد ردّ رسول الله ﷺ شهادة رجل في كذبة كذبها، فالكذب لايصلح منه جدٌ ولا هزل، وقبول شهادة الشاهد مرتبة شريفة لاتكون إلا لمن كملت خصاله وعُرف عنه الصدق، ولا خصلة أشرّ من الكذب.

●●●

١٥٠٦ - ﴿مدار الإسلام على الحياء﴾

أصل الحياء الامتناع، وهو في الاصطلاح الامتناع عن فعل ما يُعاب. ومنه الاستحياء يعني الاحتشام والخجل، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ⑤③﴾**(الأحزاب)، وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ②⑥﴾**(البقرة) يعني لايمتنع، ولمّا سئل رسول الله ﷺ: الحياءُ من الدين؟ قال: «**بل الدين كله**»: وقال «**الحياء من الإيمان**»، يقصد الحياء الشرعي المكتسب بالدين، فذلك هو الذي جعله رسول الله ﷺ من الدين، وأما الحياء بمعنى الخجل من المطالبة بالحق ورفع الظلم، ومواجهة من يرتكب المنكرات، فذلك عجزٌ ومهانة . والمسلم **حياؤه غالباً غريزي ومكتسب**، يعني أن الحياء فيه غريزة ومن ثم يعينه على المكتسب .وقد ينطبع المسلم

بالمكتسب حتى يصير غريزياً فيه، وكانت فى النبىّ ﷺ الخصلتان: **الحياء الغريزى والحياء المكتسب**، وكذلك الصحابة كأبى بكر،وكانوا فى الحياء الغريزى والمكتسب فى الذروة. وفى الحديث: «**الحياء لا يأتى إلا بخير**»، لكونه إذا صار عادةً وتخلّق به صاحبه، يكون سبباً لجلب الخير، فيأتى منه الخير بالذات وبالسبب. ومن الأقوال الإسلامية المأثورة: «**إن من الحياء وقاراً، وإن من الحياء سكينة**»، والمعنى أن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار عندما يوقّر غيره ويستحى منهم، ويتوقّر هو فى نفسه، ويستحى من نفسه، ومنه ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما ينشده الناس ويسعون إليه من الأمور التى لاتليق بذى المروءة. والقول بأن **الحياء من الإيمان**، لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم، وفى الحديث: **إذا لم تستحى فاصنع ما شئت**»، قيل هو من كلام **النبوة الأولى**، وأنه آخر ماتعلّق به أهل الجاهلية من كلام الأنبياء الأُوَل، والمعنى أن الذى لايكفّ الإنسان عن مواقعة الشرّ هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور بطبيعته على ارتكاب الشرّ، فإذا أراد فعل شىء، فإن كان مما لايستحى إذا فعله من الله ولا من الناس فليفعله، وإلا فلا. **ومدار الإسلام على هذا الحياء**: وهو أن المأمور به،و الواجب والمندوب، يُستحى من تركه، والمنهى عنه إلى الحرام والمكروه، يُستحَى من فعله. وأما المباح فالحياء من فعله جائز، وكذا من تُركه، مثلما فعلت **أم سليم** عندما سألت بلا حياء عن غُسل المرأة إذا احتلمت، فهال سؤالها **أم سلمة** ظناً أنه كان عليها أن تستحى، غير أن الرسول ﷺ أفهمها **أنه لاحياء فى الدين**، يعنى أن لها تسأل فيما تجهله وإن كان يوجب عليها أن تستحى أن تسأل فيه، وهذا يثبت أن الحياء المقصود فى الإسلام هو **الحياء الشرعى** وليس اللغوى، وحياء المسلم هو هذا الحياء، لأن غير الشرعى يعوق عن تحصيل الحقوق وقول الحق، وذلك منهىٌّ عنه.



١٥٠٧- ﴿المسلم مضياف﴾

حُسن **الضيافة** من مكارم الأخلاق فى الإسلام، **والضيافة**: هى **القِرَى**؛ **والضَّيف**: هو النزيل؛ والفعل ضاف أى نزل به ضيفاً؛ **وأضافه واستضافه**: أنزله عليه ضيفاً؛ **والمضياف**: كثير **الضيوف**، وفى التنزيل أن إبراهيم **ولوطاً** كانا مضيافين، فعن إبراهيم يقول القرآن: **﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾**(الحجر)، ووصفهم فقال: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾** (الذاريات ٢٤)، فأكد لإبراهيم صفة الكرم. وعن لوط يقول: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي(٧٨)﴾** (هود)، وفى الحديث عن الرسول ﷺ: «**وإنّ لزَوركَ عليك حقاً**»، **والزَّوْر** هو الزائر، يقال للواحد وللجمع، وكذلك ضيف، وتقول أيضاً أضيافاً وزوّاراً، وقرن الرسول ﷺ حُسن الضيافة بالإيمان، فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل**

(أى الضيف) **أن يثوى** (أى يقيم) **عنده حتى يحرجه**»، وفي الحديث تشريع جديد: أن الضيافة **ثلاثة أيام**، قيل يتكلف المضيف للضيف **في اليوم الأول**، ثم في **الثاني والثالث** يقدِّم له ما يحضره ولا يزيد على عادته، فإن زاد على الأيام الثلاثة **فهو صدقة**، سمّاها كذلك لتنفير الضيف أن يمكث بعد الأيام الثلاثة. وأما **الجائزة**: فهى المؤنة التى تمكن المسافر العابر إذا نزل ضيفاً أن يجوز بها مقدار **يوم وليلة** من هذا البلد إلى البلد الآخر الذى يقصده، وتسمى لذلك **الجيزة** أيضاً. واستدل بجعل ما زاد على الأيام الثلاثة **صدقة**، على أن هذه الأيام الثلاثة، وكذلك الجائزة، **واجبة**، ولا يحلّ للضيف أن يستمر فى الإقامة بعد الأيام الثلاثة، وهو معنى **الثواء**، إلا لو قَبِل ذلك المضيف وطلبه منه، وهو معنى «**حتى يحرجه**»، لأنه إذا ارتفع الحرج عن الضيف والمضيف فإن الإقامة تجوز. وفى رواية لمسلم «**حتى يؤثّمه**» أى يوقع المضيف فى الإثم، لأن إقامة الضيف أكثر من الأيام الثلاثة، تجعل المضيف يغتاب الضيف، أو يُغلظ له فى القول، أو يظن به السوء، وكل ذلك إثم. وفى الرواية أن الصحابى **سلمان** نزل ضيفاً على **أبى الدرداء**، وأقام أكثر من الأيام الثلاثة حتى اضطر أبو الدرداء أن يرهن **شيئاً** من بيته ليحصل على المال لضيفه، وقال سلمان يوماً يشكر **لأبى الدرداء** حُسن ضيافته: الحمد لله الذى قنّعنا بما رزقنا. فقال **أبو الدرداء** غاضباً: لو قنعتَ ما رهنتُ بعض مِلكى كى أضيفك! ـ ويُكره للمضيف والضيف أن يُظهر الغضب أو الجزع لشىء يقع من أحدهما.



١٥٠٨- ﴿المسلم غير مسرف﴾

أحلّ الله **الأكل والشُّرب واللبس** للناس جميعاً بلا تمييز، فقال: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (٣١) ﴾(الأعراف)، والخطاب فى الآية **لبنى الإنسان ولكل العالم**، وقوله تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾ قاله كل حكماء الطب **كأبقراط** وغيره. والزينة **فى اللباس هى التجمِّل**، وهى حالة لا تكون إلا فى المناسبات، كالذهاب إلى المساجد، فلا يذهب المسلم **بملابس العمل**، واستن الرسول ﷺ **غُسل الجمعة** لهذا السبب، والله تعالى **جميل يحب الجمال**، ويحب أن **يرى أثر نعمته على عبده**، والتجمُّل فى اللباس من غير إسراف ـ من العبادة، مثلما الاقتصاد فى الأكل والشُّرب. وفى الإسلام لا سَرَف ولا مخيلة، وما يستر الجسم وتدعو إليه الحاجة، ويسدّ الجوع، ويُسكن الظمأ، فهو مندوبٌ إليه عقلاً وشرعاً، لما فيه من حفظ النفس، ولذلك ورد الشرع **بالنهى** عن الإسراف **فى كل شىء**، **ويختلف ذلك باختلاف البلدان والأزمان**

والأعمار؛ وفي **الاقتصاد** منافع كثيرة، **والبهرجة في** الثياب محل نقد ومضيعة للمال، **وكثرة الأكل** كظّ المعدة ونَتَن التّخمة، وفي الأثر: «**جوعوا تصحّوا**»، والجوع بمعنى أن لا نأكل إلا عن جوع، لأن من الناس من يأكل **عن شَرَه**، وقلّة الأكل يصحّ بها الجسم، ويجود بها الحفظ، ويزكو بها الفهم، ويعتدل بها النوم، وينصلح المزاج، ومن الأقوال المأثورة عند أهل الإسلام: «**أكبر الدواء تقدير الغذاء**»، لأن الأكل الكثير تتولد منه الأمراض، ومن أقوال أهل الطب في الإسلام: **قُل لي ماذا تأكل، أقُلْ لك ما الذي سيصيبك من أمراض**»، وفي حديث الرسول ﷺ ما يغني عن كل كلام للأطباء، قال: «**ما ملأ آدميٌّ وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صُلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه**»، ولو سمع أبو الطب أبقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة، والعلم علمان: **علم الأديان وعلم الأبدان**، وعند المسلمين لا تعارض بين العلْمين، ومن أقوال **عليّ بن أبي طالب**: إن الله تعالى قد جمع الطب كله في **نصف آية من القرآن**، قال: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**﴾ (الأعراف ٣١)، وجمع الرسول ﷺ الطب كله في ألفاظ يسيرة فقال: «**المعدة بيت الداء، والحِمْية رأس كل دواء**»، **والحِمْية** من حَمَى المريض إذا منعه عما يضرّه. وفي **الطب الإسلامي: معالجة المريض نصفان، نصفٌ دواء، ونصفٌ حمية**»، فإذا اجتمع النصفان برأ المريض وصحّ، وإلا فالحمية به أوْلى، لأنه لا ينفع دواء مع ترك الحمية، وعلى العكس ـ قد تنفع الحمية مع ترك الدواء، ومن أقوال الرسول ﷺ يوجز الطب كله: «**أصل كل دواء الحمية**»، يعني لا تَداوِي من غير حمية، **والحمية فيها الغَنَاء عن كل دواء**، وأطباء النفس اليوم من أهل الإسلام، من غير تلاميذ المبشّرين، كثيراً ما يعالجون الناس بالحمية، **والحمية من الطب الإسلامي البدني والنفسي**: يمنع المريض من **الأكل والشرب والكلام** عدة أيام أقلها **ثلاثة أيام**، غالباً فيبرأ بإذن الله ويصحّ، **والعلاج بالامتناع** عن الكلام **من تعاليم القرآن** مثلما العلاج بحمية الأكل والشرب، ومن ذلك قوله تعالى لزكريا: ﴿ **أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ** ﴿٤١﴾ ﴾(آل عمران)، وقوله تعالى عن مريم: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴿٢٦﴾﴾ (مريم٢٦) وفي عدم الكلام اختزان للطاقة النفسية، وتوفيرٌ لها، وتوجيهها لمطلب العلاج، وتجنيبٌ للنفس الدخول في المهاترات، ثم إنه توطينٌ لها أن تسكن وتطمئن، وتؤمن بربّها وتسلّم نفسها إليه تعالى. وأقل مدة للصوم عن الكلام من يوم إلى ثلاثة، ويصحّ أكثر من ذلك، وقد صام موسى عن الكلام **أربعين يوماً**، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** ﴾ (البقرة ٥١) والحمية إذن تكون من الطعام ومن الكلام. وفي الحديث: «**الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد**» أخرجه مسلم، والمعنى: أن المؤمن يتناول الطعام دون شبع، وقد يوجد

الكافر الأقل أكـلاً من المؤمن، غير أن القلب إذا تنوّر بنور الإيمان، نظر إلى الطـعام بعين التقوى، فأخذ منه قدر الحاجة، بينما الكافر إذا أظلم قلبه بالكفر، كان أكله كالبهيمة. وفى الحديث: «منَ السَرَف أن تأكل كل ما اشتهيت» أخرجه ابن ماجه ورواه أنس بن مالك. ومن حكَم لقمان: يا بنُىّ، لا تأكل شبعاً فوق شبع، فإنك إن تنبذه للكلب ـ يعنى تطرحه ـ خيرٌ من أن تأكله.

•••

١٥٠٩- ﴿المسلم يسبّح لله ويكبر إذا تعجب لأمر﴾

التسبيح هو أن تقول: «سبحان الله»، والمسلم يقولها إذا لم يعجبه أمر، ويتكرر ذلك فى القرآن ست مرات، وإذا استعظم أمراً قال: «الله أكبر»، وفى الرواية أن أبا هريرة لمّا اعتذر بجنابته للرسول ﷺ، قال الرسول ﷺ: «سبحان الله! إن المؤمن لا ينجس»؛ وفى قصة المرأة التي نذرت أن تنحر ناقة النبىّ ﷺ قال: «سبحان الله! بئسما جَزيَتْها»، ولمّا تأكد عمر أن الرسول ﷺ لم يطلّق نساءه سُرّ لذلك وقال: «الله أكبر».

و«سبحان الله» اسمٌ موضوع موضع المصــدر، ومعناه التنزيه والبراءة لله من كل نقص. وسُئل النبىّ ﷺ عن معنى «سبحان الله»؟ فقال: «تنزيه الله من كل سوء»، فكأنه عند سماع الشىء لا يعجبه، يسبّح لله، تذكيرًا لنفسه بكمـاله تعالى، وتنزيهاً له من كل نقص مقارنةً بالبشر. وأما تكبيره تعالى كقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴿١٨٥﴾﴾(البقرة) وهو أن نقول الله أكبر الله أكبر هكذا، كما فى ليلة الفطر، وعند ذبح الأضحية (الحج ٣٧)، مثل قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾(الإسراء) أى عظّمه عظمةً تامة. وأبلغ ما قاله العرب فى معنى التعظيم والإجلال لفظة: «الله أكبر»، أى أنه تعالى أكبر من كل شىء، وكان النبىّ ﷺ إذا بدأ فى الصلاة يقولها.

•••

١٥١٠- ﴿المسلم يتوكل على الله﴾

التــوكُّل عـلى الله: هو الاعتـماد عليه، والتفـويض إليه، والاكتفـاء به، وهو بخلاف التــواكل: وهو أن يتّكل بعضنا على بعض، ولا يفـعل أىٌّ منا شيئاً، ولا يبـذل جهداً، وحقيـقة التـوكل: أن تأخذ بالأسباب، وتدع النتائج إلـى الله، كقوله تعالى فى الدعاء: ﴿رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ (الشورى)، وقوله فى أسباب التوكل: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴿٨٩﴾﴾(الأعراف) وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾(النحل)، وقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾(يوسـف). وفى أسباب اختيـاره تعالى وكيلاً

قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (٥٨)﴾(الفرقان)، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)﴾(الشعراء)، وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾(الزمر)، فالله كل شيء فى حياة المسلم وتفكيره، فكان هو وكيله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾(النساء)، ويبدو أن غير المسلمين لن يفهموا هذه الحقيقة، أو أنهم سيظلون يكابرون ويصرّون على المكابرة وعلى الخطأ، كما فى حادث الطيّار المصرى فى الطائرة التى أسقطوها عمداً، عندما قال: توكلت على الله» ففسّروا توكلَّه بأنه إقبال على الانتحار!! وحسبنا الله!

•••

١٥١١ - ﴿غضُّ البصر والصوت واجب﴾

البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وهو أرهف حاسة من حواس الإدراك للجمال، ومدخل الشهوات، فوجب التحذير منه، وغضُّه واجب عن جميع المحرّمات وما يُخشى فتنته، وفى الحديث: «إياكم والجلوس على الطرقات، فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقّه»، قالوا: وما حقّ الطريق يارسول الله؟ قال: «غَضُّ البصر، وكَفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» أخرجه البخارى. وكان الجلوس على الطرقات فى القديم، وهو الآن الوقوف على الطرقات، وقال ﷺ: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الثانية» أخرجه أبو داود، ويقال للذى ينظر إلى النساء البصّاص، واللّحّاظ. وتسمى النظرة الأولى نظرة الفُجاءة. وفى التنزيل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾(النور)، والغضّ: هو خفض الطرف استحياءً وخزياً، وغَضُّ الصوت من ذلك أيضاً، وهو عدم تكلُّف رفع الصوت كقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾(لقمان)، والقصد فى المشى: هو التوسّط فيه، وهو بين الإسراع والبطء، ورسول الله ﷺ كان أسوتنا فى ذلك، وتروى عائشة أنه كان إذا مشى أسرع، أرادت بالسرعة أنها نوعُ المشى المرتفع عن دبيب التماوت، والمشى المتكلّف كالتكلّف فى الصوت، وتشبّه الآية الصوت العالى بصوت الحمار وما أنكره! فلما كان الجهر من مساوىء الأدب ذُكر الحمار

مثلاً في الذمّ البليغ، ويقال لصوته **النهيق**. وهذه الآيات أدبٌ من الله تعالى بترك الجهر بالصوت والتنظرّ على الخَلْق، وكلاهما يدرجان ضمن **اضطرابات السلوك من أبواب الطب النفسي**. **وحفظ الفرج**: سَتْره، والمراد ما لا يحل رؤيته من جسم المرأة، والخطاب في الآيات عام **للرجال وللنساء**، وفيها **الحضّ على الغضّ من الأبصار** عمّا لا يحلّ، وفي ذلك قال ﷺ: «**فالعينان تزنيان وزناهما النظر**.» أخرجه مسلم، وقال: «**الغَيْرة من الإيمان والمذاء من النفاق**»، والمذاء (بالكسر) هو المخالطة بين الرجال والنساء، **والمذّاء** (بالفتح) هو المخالط من الرجال أو النساء، والمرأة مأمورة أن تغضّ بصرها كالرجل، وأن لا تبدى زينتها إلا ما ظهر منها، ولا تبدى من جسمها إلا ما ظهر منه، وقيل هو **الوجه والكفّان**. وذلك ليس انتقاصاً من شأنها، ولكنه إعلاءٌ لقدرها، وحفظٌ لها، وإكرامٌ لمكانتها، فلا تُنتهب بالأنظار، ولا يُغتال جسمها من حيث لا تدرى، وزينة المرأة ظاهرة وباطنة، فما ظهر مباحٌ لكل الناس، وما بطن لا يحل إبداؤه إلا لمن سمّاهم في الآية. **والخمار**: واجبٌ لتغطية الرأس والصدر؛ **والبَعْل**: هو الزوج، وله أن يرى كل زينة المرأة، ولا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف بدنها بين **غير المسلمات**، ولها أن تظهر على **خادمتها والماشطة أو البلاّنة**. وأما **التابعون أولو الإربة من الرجال أو الطفل**: فهؤلاء ذوو الحاجة من الأطفال والصبيان والشيوخ وليس لهم طاقة على التنظُّر الجنسي.

●●●

١٥١٢- ﴿أوصاف عباد الرحمن﴾

«**عباد الرحمن**» من مصطلحات القرآن، وتأتى أوصافهم في سورة **الفرقان**، في الآيات من ٦٣ حتى ٧٣، وهي **اثنتا عشرة صفة** تميزهم عن باقي المؤمنين، وينسبون بها للرحمن، قيل هو اسم الله الأعظم، ووصفهم بأنهم «عباد الرحمن»، وأنهم **المُتخلقون**، أى كرام الأخلاق، فهم أولاً: **﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾** (الفرقان ٦٣) أى في قصد وتؤده، وحُسن سمت، وحلم، وتواضع، وفي الحديث: «**أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البرّ ليس في الإيضاع** - أى سرعة السير». وسرعة السير أو المشى تخل بالوقار، والخير في التوسط، ونظير ذلك: **﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾** (لقمان)، وكان الرسول يتكفّأ في مشيه؛ **وثانياً**: **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾** (الفرقان). وكان عليه الصلاة والسلام يقف على أندية أعدائه ويدانيهم ويحييهم ولا يداهنهم؛ **وثالثاً**: **﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾** (الفرقان)؛ ورابعاً: **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾** (الفرقان) فمع طاعتهم يشفقون على أنفسهم، ويخافون، ويدعون ربهم سجوداً وقياماً؛ وخامساً: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا**

أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٦٧)﴾(الفرقان)، والإسراف: ما كان فى غير طاعة الله، والإقتار: هو الإمساك عن طاعة الله، والقوام: هو الإنفاق فى طاعة الله، وهو فى كل مسلم بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، وخير الأمور أوساطها، ونظير ذلك الآية: **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط (٢٩)﴾**(الإسراء)؛ وسادساً وسابعاً وثامناً: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾**(الفرقان)، وهذه الصفات الثمانية صفات تحلّى، وبدأ بها تشريفاً لهم، ثم أعقبها بصفات التخلّى تبعيداً لها؛ وتاسعاً وعاشراً: **﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢)﴾** (الفرقان)، والزور هو الكذب، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد؛واللغو: كل سقط من قول أو فعل؛وحادى عشر:**﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا (٧٣)﴾** (الفرقان) يعني لم يعرضوا عنها؛ وثاني عشر: **﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما (٧٤)﴾** (الفرقان) فهذه الصفات الاثنتي عشرة تجعلهم من مصاف المؤمنين أخلاقاً، ولذا قال تعالى فيهم: **﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما (٧٥) خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما (٧٦)﴾**(الفرقان)، والغرفة هى الدرجة الرفيعة، وأعلى منازل الجنة وأفضلها، كما قال: **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠)﴾** (الرحمن).



١٥١٣- ﴿لا تبتذل اليمين فى كل حق وباطل﴾

فى حديث الإفك لما أشاع مسطح أكاذيبه عن عائشة، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه - وكان يساعده فى معيشته، فنزلت الآية: **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس (٢٢٤)﴾**(البقرة)، تنهى أن يحلف الناس ألا يصلوا أرحامهم، ولا يتصدّقوا، ولا يصلحوا، وأشباه ذلك، ونزلت: **﴿واحفظوا أيمانكم (٨٩)﴾** (المائدة) تنهى الذى يستكثر من اليمين، وذمة الله تعالى فقال: **﴿ولا تطع كل حلاف مهين (١٠)﴾**(القلم). والأيمان جمع يمين، واليمين الحلف وفى اليمين اللغو نزلت الآية: **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم (٢٢٥)﴾**(البقرة)، واللغو: مصدر لغا يلغو ويلغَى، وفى الحديث: «إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطبُ يوم الجمعة فقد لَغَوْت» أخرجه الشيخان. واليمين اللغوّ: هو القول فى الكلام العادى: لا والله؛ وبلَى والله، دون قصد لليمين ولا يعتقدها، ولا يريدها. وفى قول عائشة: «أيمان اللغو فى المراء والهزل والمزاحة،

وفى الحديث الذى لا ينعقد عليه القلب». **واللغو** ما يُحلَف على الظن فيكون بخلافه، والرجل إذا حلف على الشيء لا يظن إلا أنه إياه، فإذا ليس هو، فهو اللغو، **وليس فيه كفّارة**. وإنما الكفّارة على من حلف ألا يفعل الشيء المباح له فعله ثم لم يفعله. وقيل **لغو اليمين** هى أن تحلف وأنت غضبان. وفى الحديث: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليتركها، فإنّ تركها كفّارتها**» أخرجه ابن ماجه. وقيل: **لغو اليمين** دعاء الرجل على نفسه. ويمين المكره بمثابة يمين لغو. وقوله: **﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾** (البقرة ٢٢٥) مثل قوله: **﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ ﴿٨٩﴾﴾**(المائدة).

•••

١٥١٤- ﴿أقسام الأيمان﴾

الأيمان: من اليُمْن وهو البركة، سمّاها الله تعالى بذلك لأنها تحفظ الحقوق. وفى الآية: **﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴿٨٩﴾﴾**(المائدة) أن اليمين قسمان: **لغو، ويمين كفّارة أو منعقدة**؛ وقيل: الأيمان على أربعة أقسام: قسمان فيهما كفّارة، وقسمان **لا كفّارة فيهما، فاليمينان اللذان يُكفّران**: الرجل يحلف والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعل، والرجل يحلف لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله. **واليمين المنعقدة**: هى عَقْد القلب فى المستقبل ألا يفعل فَفَعَل، أو ليفعلن فلا يفعل، فهذه هى التى تحلّها الكفّارة. وقوله: **﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾** معناه: بما تعمدتم، والتعمّد يقتضى التكرار، غير أنه فى الحديث: «**إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وكفّرت عن يمينى**» فإنه يوجب كفارة اليمين الواحدة.

واليمين الغَمُوس: هى يمين مكر وخديعة وكذب، فلا تنعقد، ولا كفّارة فيها. وفى الحديث عن **الكبائر** قال ﷺ أنها: «**الإشراك بالله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**عقوق الوالدين**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**اليمين الغموس**»، وسُئل: وما اليمين الغموس؟ قال: «**التى يقتطع بها مال امرىء مسلم، هو فيها كاذب**»، وقال: «**من اقتطع حقّ امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة**»، وقال له رجل: «وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله؟ قال: «**وإن كان قضيباً من أراك**»، أو قال: «مَن حلف على **يمين صبر** (أى أُلزم بها وحُبس عليها) **يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر، لقى الله وهو عليه غضبان**»، فنزلت: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴿٧٧﴾﴾** (آل عمران)، **فاليمين الغموس** إذن هى: أن يستخف الحالف باليمين بالله، ويحلف كذباً، ليستحل بذلك مال الغير. **وسميت اليمين**

الغموس غموساً، لأنها تغمس صاحبها فى النار.

والمحلوف به هو الله وأسماؤه الحسنى وسائر صفاته، كأن يقال: وعزة الله، وجلال الله، وحقّ الله إلخ. وقد يحلف الحالف بالقرآن، أو بالمصحف، أو بأبويه، أو بالكعبة، أو بالنبىّ، وقيل: لا تنعقد اليمين بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. والكفّارة إنما لرفع الإثم، وهى على التخيير، إمّا إطعام عشرة مساكين مما يطعمه الحالف، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، أو صيام ثلاثة أيام، ويُجزىء أن تعطيهم قيمة ذلك، لأن الغرض سدّ الخلّة ورفع الحاجة، ولا يهم أن تُعطى الكفارة لذمّى أو لمسلم طالما هو مسكين. وفى الحديث: «اليمين على نية المستحلف»، فمن يحلف فى حق عليه واستثنى فى يمينه لم ينفعه ذلك، لأن النية نية المحلوف له، وفى الحديث: «يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك». وأما صيام الكفّارة فيمكن أن يكون متتابعاً أو متفرقاً، وعموماً فمن يحلف على خير، فكفّارته عل هذا الخير، ومن يحلف على شرّ، فكفّارته أن لا يفعل الشر.

●●●

١٥١٥- ﴿النجوى التى لا خير فيها﴾

النجوى هى السرّ بين اثنين، تقول: ناجيت فلاناً مناجاةً، وفى قوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ (١١٤) ﴾(النساء)، ميّز بين النجوى فى الشر والنجوى فى الخير، وقصر الثانية على ثلاثة أشياء: الأمر بالصدقة، أو الأمر بالمعروف، أو الإصلاح بين الناس، وكل ذلك من «المعروف» وفى الحديث: «كل معروف صدقة». وقيل: المعروف لا يتم إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغّرته عظّمته، وإذا سترته أتممته.

●●●

١٥١٦- ﴿البُغض ليس مدعاة للاعتداء﴾

فى الحديث: «ولاتخن من خانك»، وفى الآية: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا (٢) ﴾(المائدة)، يعنى لا يحملنكم بُغض بعض الناس أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم. والشنآن: هو البُغض.

●●●

١٥١٧- ﴿تعاون المسلمين على البرّ والتقوى﴾

ينهى الله تعالى عن الإثم والعدوان ويأمر بأن نتعاون على البرّ والتقوى، ونتحاثّ على ما أمر ونعمل به، وأن ننتهى عمّا نهى عنه ونمتنع، وفى الحديث: «الدّال على الخير كفاعله» أخرجه الطبرانى فى الكبير، وقيل: الدّال على الشر كصانعه. والبرّ والتقوى بمعنى،

وكل برّ تقوى، وكل تقوى برّ، والبرّ يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى رعاية الواجب، وفى التقوى رضا الله، وفى البرّ رضى الناس، وبالجمع بين الاثنين تتم السعادة وتعمّ النعمة. والعالِم عندما يتعاون على البرّ فبعلمه، والغنىّ بماله، والقوىّ بقوته، ليكون المسلمون جميعاً متظاهرين كاليد الواحدة كقوله ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**». والمعتدى من المسلمين لا يُنصَر، ويُرَدّ عما هو عليه، ويُعرَض عنه.



١٥١٨ - ﴿واجب المسلم الصلح بين الناس﴾

الصلح نقيض **الخصام**، والصلح هو السِلْم، وهو اسمٌ من **المصالحة**، فيقال: هم لنا صُلحٌ أى مصالحون؛ وعند أرباب السياسة الصلح هو رفع الحرب على شروط تعرف بشروط الصلح. وقوله تعالى: ﴿**وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**(١٢٨)﴾(النساء) عامٌ مطلق يقتضى **الصلح الحقيقى** الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف، وهو خيرٌ على الإطلاق.

والصلح **أقسام**: منها صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الزوجين، والصلح بين الفئة الباغية والعادلة، والصلح فى المعاملات كالعفو على المال، والصلح لقطع الخصومات القضائية. وقوله تعالى: ﴿ **إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** (١١٤)﴾(النساء) عامٌ فى الدماء والأموال والأعراض، وفى كل شيء يقع التداعى والاختلاف فيه بين الناس، وفى كل كلام يراد به وجه الله. وفى الخبر: «**كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ما كان من أمرٍ بمعروف، أو نهىٍ عن منكر، أو ذكر لله تعالى**». وردّ الخصوم من الإصلاح بين الناس، وفى الحديث: «**ألا أدلّك على صدقة يحبّها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرّب بينهم إذا تباعدوا**»، وفى التنزيل: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** (١)﴾(الأنفال). والصلح بين الناس من البرّ والتقوى، كقوله: ﴿**أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ** (٢٢٤)﴾(البقرة). **والصلح بين المؤمنين** من أعلى مراتب البرّ، **والمؤمنون إخوة**، وأخوّتهم **أخوّة** دين وليست أخوّة نسب، وأخوة الدين أثبت من أخوة النسب: «**فأصلحوا بين أخويكم**» يريد بالأخوين أفراد المؤمنين أو جماعاتهم، والبغى بينهم لا يزيل أخوّتهم، ولمّا سُئل **علىّ** عن أهل الجمل وصفّين: أمشركون هم؟ قال: **لا، إخوانُنا بغوا علينا**.

والكذب قد يعقد صلحاً، والرسول ﷺ حذّر من **الكذّاب** يريد الإصلاح بين الناس، فقال: «**ليس الكذّاب الذى يصلح بين الناس فينَمِّى خيراً** (أى ينقل الحديث على وجه الإصلاح وطلب الخير) **أو يقول خيراً**». ويذهب بعض أهل الحكمة من المسلمين إلى جواز

الكذب بقصد الإصلاح، وقالوا: **الكذب المذموم** هو الذى يزيد الخصومة ولا يُصلح بين الخصوم، ولا يجوز الكذب مطلقاً لا لصلح ولا لغيره. وقالت جماعة: **الكذب مباح** للإصلاح بين الرجل وامرأته، وفى الحرب، وعند الاضطرار، كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختفٍ عنده، فله أن ينفى كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم.

ولو اصطلح الخصوم على صلح جَوْر فالصلح مردود، وفى الحديث: «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردٌّ**» ومعناه: أن من يخترع فى الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه، والحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع، وفيه: ردّ المحدثات، **وأن الصلح الفاسد منتقض. وصلح المسلمين مع غير المسلمين جائز، وكذلك الصلح على الديّة، والصلح بالدَّيْن.**

●●●

انتهى الباب الرابع عشر بحمد الله وبعونه، ويبدأ إن شاء الله

الباب الخامس عشر عن الإسلام الحربى.

●●●

الباب الخامس عشر
﴿الإسلام الحربى﴾

●●●

﴿السلم والحرب والجهاد والشهادة والهجرة والفئ فى القرآن﴾

●●●

١٥١٩ - ﴿القرآن يحض على السلم وأمة الإسلام أمة سلام﴾

يأتى فى القرآن عن الحرب: ست مرات ؛ وعن السّلم (بكسر السين وفتحها وسكون اللام وفتحها) والسلام: تسع وأربعون مرة. وموضوعات مادة الحرب: تتناول الحضّ على قتال المعتدين أعداء الله والخير والإنسانية، والذين يسعون فى الأرض فساداً، واتّباع السياسات التى من شأنها تقوية المسلمين، وحماية بلادهم، وتطوير عدة الحرب وأساليبها، وتوحيد أمة الإسلام وتقوية الجبهة الداخلية، وردّ الشائعات، وتحديد أعداء الأمة، ومن الآيات عن الحرب آية تخصّ اليهود وتصفهم بأنهم أهل فتنة يؤلبون الشعوب على بعضهم البعض، ويوقدون بينهم نار الحروب ، والله يطفؤها.

وموضوعات مادة السلم: الدعوة إلى أن تكون مجتمعات المسلمين مجتمعات سلام، فإذا مال أعداؤهم للسلم فليجنح المسلمون لها، وأن لا تنطلى على المسلمين دعوة الأعداء للسلم كلما بدا أن عدوهم سينهزم ، فالأولى أن يستمروا فى القتال حينئذ وإلا كان ذلك تخاذلاً منهم وتفريطاً ، فإذا أبدوا الاستسلام وانصاعوا وتركوا القتال، فليتركوهم لحال سبيلهم، وإن لم يجنحوا للسلم فليستمروا فى قتالهم، ولتحتر المعركة حتى النصر. والإسلام من السلم والسلام، والجنة هى دار السلام، وتحية أهلها السلام، ولايسمعون فيها إلا السلام، وأمة الإسلام أمة السلام.

●●●

١٥٢٠ - ﴿الأمر بالدخول كافة فى السلم﴾

المسلمون مأمورون بالدخول فى السلم إذا جنح عدوهم له كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ (البقرة)، والسِّلم والسَّلم بمعنى واحد، وقيل السلم هو الإسلام، فمن كان إسلامه بلسانه فليدخله بقلبه. وقيل السلم هو المسالمة والصُّلح.

●●●

١٥٢١ - ﴿الردّ على من يجادل تعنتاً﴾

الآية: ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾(الحج) من الأدب الحسن يعلّمه الله عباده فى الردّ على من يجادل تعنتاً ومراءً، ألا يجيبوا ولايناظروا، وأن يدفعوا بهـذا القول الذى علّمه الله لنبيّه ﷺ: وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهو قول ضعيف فلا يوجد تعارض بين هذه الآية وآية السيف التى تقول: ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴿٥﴾**﴾(التوبة)، حيث الآية الأولى فى آداب الجدال، والآية الثانية فى القتال والحرب.



١٥٢٢- ﴿الحرب ومشروعيتها، نظرية الإسلام وفلسفته﴾

الحرب: هى المقاتلة والمنازلة بالسلاح أو بغيره، والسلم: نقيض الحرب: وهو المصالحة والموادعة، والحرب المشروعة فى الإسلام تبيّنها آية القتال، قيل هى أول آية نزلت بهذا الشأن فى المدينة، يقـول تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾**﴾(البقرة) فكان الرسول ﷺ يقاتل من يقاتله، ويكفّ عمن كفّ عنه، والآية ملزمة لكل مسلم، وقوله: «الذين يقاتلونكم» من باب التحديد لمن يقاتله المسلمون، وفيها تهييج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، وقوله: «وقاتلوا المشركين كـافة كما يقـاتلونكم كافة»: معناها أنهم كما يقاتلونكم جـميعاً فقاتلوهم جميعـاً، ولهذا قال: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**﴾وفى ذلك حثٌّ للهمة على قتالهم، كانبعاث همّتهم على قتال المسلمين، وليكن الغرض من قتالهم هو إخراجهم من بلاد الإسلام التى أخرجوا المسلمين منها.

وكان الإسلام أسبق من الاتفـاقات الدولية على حظر الأعمال العدوانية غير الإنسانية فى حالة الحـرب فى قوله تـعالى: ﴿**وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾**﴾(البـقـرة)، والمسلمون بهذه الآية منهيون عن الـمُثْلَة (العقوبة والتنكيل)، وعن الغُلول (الغدر)، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، وقتل أصحاب الصوامع، وعن تحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مـصلحة، وفى الحـديث: «أغـزوا ولاتغلوا ولاتغـدروا، ولاتمثلوا (يعنى تجـدعـوا وتنكّلوا)، ولاتقـتلوا الوليـد، ولا أصحـاب الصـوامع» (أى الرهبـان فى الأديـرة)، وفى رواية أخـرى: «لاتعتدوا، ولاتغلوا، ولا تمثّلوا، ولاتقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع. رواه أحمد. وعن ابن عمر كـما جاء فى الصحـيحين قال: لما وُجِـدت امرأة فى بعض المغازى مقـتولة أنكر

رسول الله ﷺ . وقوله تعالى «**الفتنة أشد من القتل**»: أن الفتنة مطلقاً هى الظلم، فأن يظلموكم لَجُرمٌ أشد من جُرْم القتل، ومع ذلك فأنتم لا تقتلونهم عدواناً، وإنما منعاً لعدوانهم، وحتى فى المساجد والأماكن المقدسة، لو بدأوكم بالقتال فقاتلوهم دفعاً للمفاسد، والنبىّ ﷺ بايعه أصحابه على القتال يوم الحديبية تحت الشجرة دفعاً لشرّ الحروب التى شنّها المشركون واليهود عليه، فلمّا كفّوا كفّ عنهم: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم**﴿٢٤﴾﴾(الفتح)، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين، يعنى أن قتال المسلمين هو عن حق مغتصب، أو لردّ عدوان سافر، والمسلم لا يقاتل إلا من يقاتله، كقوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴿٤٠﴾﴾(الشورى)، وقوله: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**﴿١٢٦﴾﴾ (النحل). وفرقٌ بين من يقاتل حتى لاتكون فتنة كما فى الآية، وبين الذى يقاتل لتكون فتنة!

والخلاصة: أن الحرب المشروعة فى الإسلام ـ كما ورد عنها فى القرآن ـ هى الحرب الدفاعية ضد المعتدى، وتعريف المعتدى أنه: الذى يُخرج المسلمين من ديارهم وأرضهم، أو يمنعهم من إقامة شعائر الله، أو يعتدى على أعراضهم وأموالهم، أو يشنّع عليهم ويكيد لهم ويوقع بينهم وبين غيرهم الخصومات والفتن والعداوات، فهذه كلها أعمال عدوانية تستوجب الردّ عليها بمثلها، وليس أفضل من السياسة أولاً لتفريق شمل العدو، وكسر وحدتهم، وتشتيت كلمتهم، وتوهين عزمهم، ودفعهم إلى أن يحارب بعضهم البعض، والله يقول: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة)، ويقول: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ** ﴿٤٠﴾﴾(الحج)، والدفع والدفاع واحد، والله يقيّض الفاجر ليحدّ من غلواء الفاجر، ويوعز للباغى أن يبغى على الباغى مثله، وهذا هو دفعه تعالى الناس ليخلصوا الأبرار من الفجار، وفى الحديث: «إن لله ملائكة (يعنى قوى) تنادى كل يوم : لولا عباد رُكّع، وأطفال رُضّع، وبهائم رُتّع لصبّ عليكم العذاب صبّاً»، وفى رواية أخرى: «لولا فيكم رجالٌ خُشّع، وبهائم رُتّع، وصبيان رُضّع، لصبّ العذاب على المؤمنين صبّاً»،وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

لولا عبادٌ للإله رُكّع ... وصبيةٌ من اليتامى رُضّع
ومُهمَلات فى الصلاة رُتّع ... صبّ عليكم العذابَ الأوجع

ولما أوذى المسلمون نزلت الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴿٣٨﴾﴾(الحج) فكانت وعداً من الله بالمدافعة عن المسلمين، وتضمّنت أفصح النهى عن

أن يرتكبوا فى الحرب أية خيانة أو غدر، وفى الحديث : «**يُنصَب للغادر لواء بقدر غدرته**»، يعنى يُفتضح أمره. ودفاعه تعالى عن المسلمين بأن يسلّط الفجّار على الفاجر، والبغاة والطُغاة على المعتدى، ويسلّط عليهم من أنفسهم، ثم إنه تعالى ينصف المسلمين ليتمكن الإيمان من القلوب، لو اشتد العدو فى إلحاق الظلم بهم كما يحدث الآن من اليهود والأمريكان، فإن الله يعصم المسلمين حتى لا يرتدّوا بقلوبهم، أو أنه تعالى يدفع عن المؤمنين بأن يقبضهم إلى رحمته. وقد أذن الله لكل المسلمين إنْ قوتلوا أن يقاتلوا فقال: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** (٣٩) ﴾(الحج)، وقيل إن هذه الآية هى أول آية نزلت فى القتال للتشريع للحرب الدفاعية، فأنْ يُقاتَل الباغى من الشرع. لأن معنى «**أُذن**» أُبيح. وفى الآية: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**(٤٠) ﴾(الحج) فلأننا مسلمون، يخرجوننا من فلسطين، والشيشان، وكوسوفا، والبوسنة والهرسك، وجنوب السودان، ولولا إسلامنا ربما ما كانوا أخرجونا. وقبل بيعة العقبة لم يكن المسلمون مأذونين بردّ القتال، وإنما أُمروا بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وظل ذلك مدة عشرة أعوام طويلة؛ فقامت على المعتدين حُجة الله، فلما عتوا أُذن بالقتال والامتناع والانتصار من الظَلَمة. وقوله ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ** ﴾ هو هذا القتال، أى لولا القتال والجهاد لصارت الغلبة للظلم فى كل أُمّة وفى العالم قاطبة.

ويكذب المستشرقون عندما يتهمون الإسلام بأنه **دين قتال**، ويستبشعون الجهاد كركن من أركان الإسلام، ودعواهم تتنافى مع تواريخهم، وتناقض مذاهبهم فى الاستعلاء العنصرى والحضارى، ولولا أن الله شرّع **الحرب الدفاعية والثورات الأممية، والانتفاضات الاجتماعية**، لهدّمت المعابد والكنائس من قديم الأزمان، ولَمَا كانت يهودية ولا نصرانية، ولا كانت أمم وشعوب أصلاً، ولولا أنه دفع قوماً بقوم لساد الظلم وعمّ الفساد، وهو تعالى يدفع ظُلم الظلمة بعدل هيئات كالهيئات الدولية، وبالتوجّهات الحضارية لأهل الحكمة وأولى النهى والألباب، وكفاح الصالحين فى كل الأمم، والآية تتضمن **مدفوعاً من الناس، ومدفوعاً عنه**، والظَلَمة هم الأولون، بينما المضطهدون، والمستعمَرون، والمسحوقون، والفقراء ـ هم الآخرون. ونفهم من الآية: أن المسلمين ممنوعون من هدم الكنائس والبيع والصوامع، وحتى بيوت الأوثان عند البوذيين والهندوس، على عكس ما يفعل هؤلاء بنا فى كل مكان، ولم يحدث أن نقض المسلمون بيتاً من بيوت العبادة لهم. وإنما جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التى عاهدوا عليها فى الصيانة. وفى الآية قُدّمت بيوت الله لغير المسلمين على مساجد المسلمين.

فهذه إذن هى الحرب التى قالوا فيها إن الإسلام انتشر بسبب عدوانيته، وأنه دين يقوم على السيف. وقد نزلت الآيات تعتب على المسلمين تخلّفهم عن الحرب: ﴿ **مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ (٣٨)** ﴾(التوبة)، فما كانوا يسعون حثيثاً إذا دعوا إلى الجهاد، وكانوا يتكاسلون ويميلون إلى المقام فى الدعة والخفض، فأنذرهم: ﴿ **إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ (٣٩)** ﴾(التوبة)، فلم يكن المسلمون من أهل العدوان، ونبّه القرآن لذلك فقال: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ** ﴾ (البقرة ٢١٦). وحبُّ المسلمين للسلام من أركان دينهم بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ (البقرة ٢٠٨)، وكانوا كلما أوقدت نار الحرب، يستحبون أن يتمثّلوا بهذه الأبيات لعمرو بن معد يكرب:

الحرب أول ما تكون فتيّة	تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشبّ ضرامها	ولّت عجوزاً غيرَ ذات حَليلِ
شمطاء يُنكر لونها وتَغيّرت	مكروهةً للشَّمِّ والتقبيلِ

والمعنى أن الحرب فى أول أحوالها ووقت وقوعها، فتيّة، تزّين لمن لم يجربها، حتى يدخل فيها فتهلكه، ويصعب الخروج منها ولا تنتهى إلا بعد لأى، فتكون كالعجوز الشمطاء بعد أن كانت فى أولها فتية أو صبية. وقوله «يُنكر لونها» أى يُبدّل حُسنها بقبيح؛ وفى قوله «**شمطاء ينكر لونها، ومكروهة للشم والتقبيل**»: يصف فاها بالنتن مبالغةً فى التنفير منها. والمراد بهذه الأبيات التمثّل بها استحضاراً لما يشاهده المسلمون ويسمعون به من أحوال الحروب، فإنهم بإنشادها كانوا يتذاكرون أهوالها فيصدّهم تذاكرها عن الدخول فيها، فلا يغتروا بظاهر أمرها أولاً.

●●●

١٥٢٣ - ﴿الجهاد لا يكون إلا فى سبيل الله﴾

«فى سبيل الله» مصطلح قرآنى يتكرر نحو ٦٧ مرة، كقوله تعالى: ﴿ **فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** ﴾ (آل عمران ١٣). والناس فى التصنيف القرآنى إما مؤمنون وإما كافرون، والمؤمنون قتالهم فى سبيل الله، والكافرون قتالهم فى سبيل الطاغوت، فنقيض «فى سبيل الله»، هو «**فى سبيل الطاغوت**»، كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** ﴾ (النساء٧٦). **والسبيل** فى اللغة هو الطريق أو ما وضح منها، و«فى سبيل الله»: هو كل ما أمر به الله تعالى من الخير، كالجهاد، والغزو، وطلب العلم، والإنفاق فى وجوه الخير إلخ، يفعله المؤمن طلباً لرضا الله تعالى ومن أجل ثوابه، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ**

آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (٧٢)﴾(الأنفال) فهؤلاء جميعاً إخوة يناصرون بعضهم البعض، وهم المؤمنون حقاً، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا (٧٤)﴾(الأنفال)، وسبيل هؤلاء في المصطلح القرآني هو «سبيل المؤمنين»، كقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ (النساء ١١٥)، والمؤمنون أعظم درجة عند الله، وهم الفائزون، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾(التوبة)، والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال من أعظم الدجارت . ويُعطَى الغزاة والمرابطون من الزكاة حتى لو كانوا أغنياء، كما يعطى الحُجّاج والعُمّار، والحج والعُمرة في سبيل الله، وأفضل الزكاة ما كان لهؤلاء، لأنهم وفد الرحمن جاءوا في سبيل الله. ويُعطَى المغازي من الصدقة، في السلاح، وما يحتاج إليه من آلة الحرب، وكفّ العدو عن الحوزة، لأنه جميعه في سبيل الله وإعلاء كلمة الله. وقيل تحلّ الصدقة لغاز في سبيل الله قد احتاج في غزوته وغاب عنه غناؤة وَوَفْرُه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ (٦٠)﴾(التوبة). والنَّفر كذلك كالغزو ـ لا يكون إلا في سبيل الله، ولايكون لغير الله،وهو في اللغة: التنقُّل بسرعة من مكان إلى مكان لحادث جلل، فيقال نَفر إلى الأمر، وقومٌ نفور، وفي الاصطلاح النَّفر: تلبية داعي الجهاد بالنفس والمال كقوله تعالى:﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٩)﴾(التوبة)، والعذاب الأليم هو استيلاء العدو على أرض الوطن وطردهم منها، والنفير فرض كفاية، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً (١٢٢)﴾(التوبة)، والمراد بالآية : وجوب النفير على وجه «الاستدعاء» في سبيل الله، عند الحاجة وظهور الأعداء واشتداد شوكتهم. وكانت الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾(البقرة): أول ما نزل في الأمر بالقتال في سبيل الله، كما كانت الآية: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾(البقرة): أول ما نزل في الإنفاق في سبيل الله في الجهاد، وأن لايتركوا ذلك أبداً، وفي ترك الجهاد والإنفاق عليه هلاكٌ وأي هلاك، ويسميه الله تعالى: «الإلقاء باليد إلى التهلكة»، والآية نزلت تحضُّ على هذا الإنفاق، وفي الحديث : «الجهاد رهبانية الإسلام»، ورُهْبان الإسلام إذن: هم الذين أوقفوا أنفسهم على البذل في سبيل الله، والجهاد بالنفس والمال، والاصطلاح القرآني لذلك هو: «الإحصار في سبيل الله»، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٧٣)﴾ (البقرة): وهو أن يحبس المؤمن

نفسه على هذه الرسالة ويكرّس لها حياته. و«الإصابة فى سبيل الله» كقوله تعالى: ﴿**فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (١٤٦)﴾(آل عمران)، هى أن يلحق المؤمن الأذى من جرّاء إيمانه وجهاده، فَيَهن ويضعف، ومن أخطر ما يصاب به المؤمن فى الجهاد «الوَهَن النفسى» أو ما يسمى اصطلاحاً «وَهَن المعركة» ، والوهن هو الضعف، وانكسار الحماس بالخوف؛ والاستكانة: هى الذلّ والخضوع، وهى حال ضعيفي الإيمان، وأما الصادق الإيمان فلا يستكين، فالمؤمن الحق دائماً فى رباط، وصابر لايضعف لعدو، ولا ويُذَلّ، ولايوهنه جهاد، وكان شعار بعض الفلاسفة: «أنا أفكر فأنا موجود»، وشعار المؤمن حقاً: «أنا أجاهد فأنا موجود» ، والجهاد الحقّ لا يكون إلا فى سبيل الله، والمجاهدون لهم درجة الإحسان وهى أعلى الدرجات، وكل ما يصيبهم مجازون عليه، كقوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (١٢٠) **وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٢١)﴾(التوبة).

●●●

١٥٢٤- ﴿القتال مما امتحن به المسلمون﴾

القتال:هو الجهاد، تقول قَتَلَهُ أى أماته، وهى كلمة نستعملها يومياً، والقتال مكروه لأن الإنسان فيه إما قاتل وإما مقتول وكلاهما شرٌّ، وأمّا الجهاد فهو مصطلح قرآنى ، من جَهَد مجاهدةً وجهاداً، أى قاتل فى سبيل الله دفاعاً عن الدين، يفعله المرء طواعيةً وعن رضا، وفى الآية : ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٢١٦)﴾(البقرة)، ذكر القتال ولم يذكر الجهاد، لأن تخوّفنا من القتل وليس من الجهاد. والقتال مما امتحن به المسلمون، والمراد قتال الأعداء المعتدين، ولم يُؤذن للنبىّ ﷺ فى القتال مدة إقامته فى مكة، فلما هاجر واستمر أذى أعداء الإسلام للمسلمين، رغم تركهم مكة، أُذن لهم فى قتال من يقاتلهم، فقال تعالى : ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**(٣٩)﴾(الحج)، فلما تبيّنوا أن العدوان يأتيهم دوماً من المشركين وأهل الكتاب دون غيرهم، وبصرف النظر عن أى سبب، أُذن لهم فى قتالهم عموماً دون انتظار أن يهاجمهم هؤلاء أو أولئك. والقتال فى الطوارىء وأثناء الحرب فرض عين على كل مسلم، وفى أوقات السلم فإن الانضمام للجيش وقضاء فترة التدريب، يكونان على الكفاية، إلا أن ينزل العدو ببلاد الإسلام فهو حينئذ فرض عين. ويذهب

البعض إلى أن الجهاد تطوعٌ فى السلم، وأما فى الحرب فهو فرضٌ. والقتال مكروهٌ لأن فيه مشقة، وإخراج مال، ومفارقة وطن وأهل، والتعرّض للأذى، وأن تُقطّع الأطراف، وتذهب النفس، فكانت الكراهية له لهذا السبب، ووصفه تعالى فقال: «وهو كُرهٌ لكم» لأننا نُكرَه عليه . والمسلمون في أول الأمر كرهوه، لأن امتثاله فيه مشقة، فلمّا عرفوا الثواب فيه هان فى جنبه مقاساة المشقات فأحبوه وطلبوه. ومثاله فى الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان، فيخاف حتى من خلع الضرس، إلا أنه يرضخ ابتغاءً للعافية ودواماً للصحة، وعسى أن يُكره الجهاد لمشقته وهو خيرٌ وبركة، لأن المجاهدين إذا غلبوا ظفروا وغنموا وأُجِروا، ومن مات منهم مات شهيداً، وإيثار الدعة في النفرة، وترك القتال عند داعى الحرب، هما شَرٌّ مستطير، لأن تارك النفرة والقتال يُغلب ويُذَلّ ويَذهب أمره، والأندلس مثال، فلما ترك المسلمون في الأندلس الجهاد، وجبنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، استولى العدو على البلاد، وأسَرَ وقَتَل وسَبى واسترق، وإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، فذلك بما قدّمت أيدينا. وعموماً فالملمات عندما تقع، فلا يجب أن نبتئس لها، فلَرُبّ أمر نكرهه وفيه نجاتنا، ولَرُبّ أمرٌ نحبه وفيه عَطَبُنا.



١٥٢٥- ﴿لولا القتال لاندحر الحق فى كل أمة﴾

شرّع الله تعالى للمؤمنين والأنبياء أن يقاتلوا أعداءهم فقال: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ (٤٠)﴾**(الحج)، فلو لم يُشرّع القتال للمؤمنين، لاستولى أهل الشرك على بيوت الله، وأزالوا مواضع العبادات، وهو تعالى قد دفع بأن أوجب القتال ليتفرّغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمرٌ متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع، واجتمعت المتعبّدات، فكأنه تعالى قال: أُذن بالقتال، فليقاتل المؤمنون، ثم قوّى هذا الأمر فيهم فقال: «**لولا دفع الله الناس**» الآية، أى لولا القتال والجهاد لاندحر الحقّ فى كل أُمّة، ولما بقى الدين، ولَهُدّمت كنائس وبيَع وصلوات؛ والكنائس والبيع للنصارى، والبيع (بكسر الباء) هى المعابد، مفردها بيعة، وأما الصلوات فهى لليهود، وهى معابدهم، والصوامع جمع صَوْمعة، وهى أعلى الجبل أو المكان المرتفع يسكنه الراهب بقصد العزلة والانفراد، وصوامع الرهبان هى صياصيهم، والمساجد هى مواضع السجود، والمقصود بها مساجد المسلمين أو جوامعهم، وقدّمت كنائس وبيع أهل الذمة على المساجد لأنها الأقدم بناءً.



١٥٢٦- ﴿النفر﴾

يقال نَفَر ينفِر ـ بكسرالفاء ـ نفيراً؛ ونفرت الدابة تنفُر ـ بضم الفاء ـ نفوراً؛ والنفير: اسمٌ للقوم الذين ينفرون، وأصله من النفار؛ والنفور هو الفزع. والنفير: هو النَّفْر أيضاً. ويوم النَّفْر هو يوم ينفر الناس عن منى. وفي القرآن يأتي عن النفر تسع مرات، يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ(٣٩)﴾(التوبة)، وهذا تهديد شديد، ووعيد مؤكد في ترك النفير. والنفير هو النفير للجهاد، والخروج لمقاتلة المعتدين على المسلمين، لإعلاء كلمة الله، وفي الآية: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً(١٢٢)﴾ (التوبة) أن فَرْضَ النفر للجهاد هو فرض كفاية، وأن الجهاد ليس على الأعيان. وظاهر الآيتين أن النفور يكون على وجه الاستدعاء، فإذا الدولة عيّنت المستدعين للجهاد يصير التعيين فرضاً على من عيِّن. وفي الآية اعتراض المخلّفين على النفر في الحرّ، قالوا: ﴿ لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ(٨١)﴾ (التوبة)، مع أن النفير ليس له وقت دون وقت، بل بحسب الضرورة، وللتكتيك الإسلامي فيه طريقتان؛ الأولى: الوحدات الصغيرة للهجوم المباغت المتكرر، والثانية: الجيش بأكمله، أو ما يسمى بالهجوم العام والحرب الشاملة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)﴾(النساء)، وأخذ الحذر يسمى الخداع الاستراتيجي، ويكون قبل القتال بالتمويه على العدو والهجوم على الجيوب من خلال سرايا مفردة، وهو معنى الثبات، أي الجماعات المتفرقة. وأصل النفر: عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة ، ويصلح ذلك للتجسس، ويقابله النفر الجماعي، أي بالجيش الكثيف. والتثاقل عن النفر ضد الدين والإيمان بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ(٣٨)﴾(التوبة) ، والآية نزلت فيمن تخلّف عن غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام. ومن تكتيكات النفر: التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، ولذا يناقضه التثاقل. وفي الحديث لعائشة «أجرُكِ على قدر نَصَبِك» أخرجه البخاري. ويقول تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا(٤١)﴾(التوبة)، قيل قديماً: الخفيف الشاب، والثقيل الشيخ، أو أن الخفيف الفقير، والثقيل الغني، وقيل حديثاً: أن الخفيف جندي المشاة، والثقيل جندي الفرسان، أو أن الخفيف طليعة الجيش، والثقيل الجيش بأسره، والمعنى العام أن النفر ليس للكافة ولكنه لجميع القادرين، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً(١٢٢)﴾ (التوبة)، أي أن الجهاد على الأعيان، أي القادرين، وأنه فرض كفاية، إلا في حالة الاحتلال فيكون النفر عاماً، وعلى الجميع خفافاً وثقالاً، شباباً وشيوخاً ،نساءً ورجالاً. وفي هذا المعنى عن الخفة والثقل سأل ابن أم مكتوم الرسول ﷺ : أعليّ أن

أنفر؟ قال: «نعم»، فأنزل الله الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ (النور٦١)، والآية: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ**﴾ (التوبة٩١) فكانتا أصلاً في سقوط التكليف عن العاجز. فتارة يقوم العجزة بعمل مدني خلف خطوط القتال، وذلك فعْل بدلَ فعْل. وتارةً يدفعون بدلاً مالياً، ولا فرق بين العجز من جهة القوة وبين العجز من جهة المال، ونظيرهما قوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة٢٨٦)، فلا يُعفَى إذن من النفير إلا المعذّرون، وهم الذين يُعرف عُذرهم، كأرباب الزمانة والهَرَم والعَمَى والعَرَج إلخ. وقد فهم المسلمون الأوائل ذلك فلم يكونوا يتخلفون عن الجهاد، وفي الحديث: «**وإذا استنفرتم فانفروا**»، فإذا تعيّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من أقطار الإسلام، وجب على كل الدول الإسلامية أن تنفر وتخرج للمساعدة، وإذا عجز قطر إسلامي عن ردّ عدو غازٍ، فعلى الأقطار المجاورة استنفار أهلها للمدافعة عن المهزوم، فكما أن احتلال مدينة يستوجب استنفار شعب القطر كله، فكذلك سقوط قطر في يد العدو يستوجب استنفار أقطار المسلمين جميعها، فالمسلمون كلهم يدٌ على من سواهم، حتى إذا قامت بدفع العدو شعوب الأقطار الإسلامية المجاورة، سقط الفرض عن شعوب أخرى إسلامية في أقطار أبعد. ولو قارب العدو داراً من دور الإسلام، وهدد دولة من دوله، وإن لم يدخل الدار ولا أعلن الحرب على الدولة، لزم أيضاً على الجميع الخروج إليه، لتُحفَظ الحوزة، وتُصان بيضة الإسلام، ويُخزىَ العدو، وذلك من أصول الفكر الإسلامي، ومن المبادئ الثابتة في سياسة الدولة الإسلامية.

ومن النفر ما هو **نافلة**، وهو أن يخرج المسلمون جماعة بعد جماعة، ومن **نفير الثبات** كما في الآية: إعداد المخابرات، وإيفاد البعوث والوفود إلى بلاد العدو، لرصد دفاعاته ومواطن قوته وضعفه؛ **والتبرعُ للقوات المسلحة** زمن الحرب منصرفٌ للزكاة له الأولوية، والعاجز عن الجهاد بنفسه بوسعه أن يجاهد بماله، بتجهيز الجيش، ومن يجهّز مجاهداً فقد جاهد، والجهاد يكون **بالمال** كما يكون **بالنفس**، وفي الحديث: «**جاهدوا بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»، والجهاد باللسان يعني بالكلمة؛ وتوظيف الأقلام والإذاعات المسموعة والمرئية، والسينما، والمسرح، والمدرسة، والجامع، في خدمة التعبئة ـ من الجهاد، ،وهذا وصف لأكمل ما يكون النفير والجهاد؛ **والجهاد بالمال واللسان صنو الجهاد بالنفس**، وفي الحديث: «**من جهّز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقد غزا**»، يعني من انفق على المقاتلين فهو مقاتل، ومن أعال أهل المجاهدين فقد جاهد. **والجهاد باللسان كالجهاد بالقلم**، والمقصود به **الجهاد الإعلامي**.

●●●

١٥٢٧ - ﴿حرب المؤمنين وحرب الكافرين﴾

المؤمنون إذا دخلوا حرباً تُفرَض عليهم؛ والكافرون يشنون الحروب، ويؤلّبون الناس على بعضهم البعض، ويوقعون بين الدول. والمؤمنون يسعون فى الخير؛ والكافرون سعيهم فى الشر. وقضية المؤمنين يكسبونها فى مناخ السلم؛ وقضية الكافرين يخسرونها فى السلم ويكسبونها بالحرب الضروس، وفى القرآن عن الاختلاف بين الفئتين فى الحرب: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾(النساء)، والطاغوت: هو النقيض للحق والعدل والخير والجمال، وهو صنو الباطل والشرّ والقُبح، والقرآن يستنصر المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين إذا فُرض عليهم القتال، ويسمى الأفراد والمجتمعات والدول الباغية المعتدية أولياء الشيطان، وهذا هو الاسم الذى أطلقه الخومينى أبو الثورة الإسلامية الإيرانية رحمة الله عليه، على الأمريكيين وحلفائهم، وكان يقول: أمريكا هى الشيطان. وقانون الله وكلمته هما الحق: أن كيد الشيطان ضعيف، وكيد أمريكا ـ مهما كانت ـ هو الضعيف، ولذلك قيل فى أمريكا: إنها من ورق! فلايخشى المؤمنون أولياء الشيطان ـ ولا الشيطان نفسه ـ أمريكا!



١٥٢٨ - ﴿لن يرضى اليهود ولا النصارى عن الإسلام﴾

فى الآية: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا (٢١٧)﴾(البقرة)، والآية: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠)﴾ (البقرة)، تحذير دائم للمؤمنين من نوايا أعداء الإسلام، فطالما هناك إسلام فلا يزال اليهود والنصارى يبذلون جهودهم لإدخال المسلمين فى معامع، وينصبون لهم الشراك، ويوقعون بين بعضهم البعض، وبينهم وبين غيرهم، حتى يحيلوا حياة المسلمين إلى جحيم، فيتمنون لو هجروا الإسلام، وهذه هى غايتهم إن استطاعوا؛ فالمستهدف هو الدين، وشهادة المسلمين «لا إله إلا الله»، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾(التوبة)، فهى إذن «حرب دائمة» وإن لم تكن معلنة، و«حرب شاملة» وإن بدت على فترات وفى بلاد دون بلاد!



١٥٢٩ - ﴿أول آية فى القتال﴾

هى الآية: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ (البقرة)، وكانت أول آية تنزل فى القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ

يقاتل من يقاتله ويكف عمّن كفّ عنه. والمسلم أصلاً لايعتدى، ولكن إذا قوتل وأخرج من دياره وحورب فى دينه ومُنع من القيام به، فله أن يقاتل. وقوله «**الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**» هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أى كما يقاتلونكم فقاتلوهم كقوله تعالى: ﴿**فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**(١٩١)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿**اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ** (١٩١)﴾(البقرة)، يعنى إلى أن يخرجوا مما استولوا عليه من دوركم وأراضيكم. ولاخلاف أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**(٣٤)﴾(فصلت)، وقوله: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ**(١٣)﴾(المائدة)، وقوله: ﴿**وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** (١٠)﴾(المزمل)، وقوله: ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** (٢٢)﴾(الغاشية)، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة إخراجاً من ديارهم، أُمروا بالقتال لأول مرة. وروى عن أبى بكر **الصديق**: أن أول آية نزلت فى القتال قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**(٣٩)﴾(الحج)، والأصحّ أن أول آية فى القتال هى الآية: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** (١٩٠)﴾(البقرة).

●●●

١٥٣٠- ﴿آية السيف المزعومة فى القرآن﴾

قيل هى الآية: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٥)﴾(التوبة)، اطلقوا عليها هذا الاسم، وقالوا: إنها نَسَخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عقد، وكل مدة، وقال ابن عباس فى هذه الآية: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام، وأن ينقض ما كان سمّى لهم من العهد والميثاق.

والمفسرون على اختلاف فى هذه الآية التى قالوا فيها إنها آية السيف، فأولاً الآية ليست مطلقة فيقتل المسلمون كل سكان العالم من غير المسلمين، فهذا جنون لو أخذنا بهذا التفسير، وإنما الآية نزلت فى **أهل مكة** الذين نقضوا العهد ومالأوا بنى بكر حلفاءهم، على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم فى الحرم، فعندئذ غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان، ففتح مكة ومكّنه من نواصيهم، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسُمّوا **الطلقاء**، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ، بعث إليه بالأمان والإذن بالتسيير **لأربعة أشهر** يذهب فيها حيث يشاء، ومنهم **صفوان بن أمية**، وعكرمة **بن أبى جهل**، وغيرهما. ولم يصدر الأمر بالقتل اعتباطاً وإنما لأنهم قوم لا أمان

لهم، كقوله تعالى: **﴿وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٨)﴾**(التوبة)، وقال فيهم: **﴿وأولئك هم المعتدون (١٠)﴾** (التوبة)، واشترط لقتالهم شرطين: **﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (١٢)﴾** (التوبة)، فقصر القتال أولاً مع الأئمة منهم، أى الزعماء الكبار، كأبى جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف وأضرابهم. وعدّد مبررات قتالهم فقال: **﴿ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة (١٣)﴾** (التوبة) فهذه ثلاث مبررات مادية، ثم هناك المبررات المعنوية: **﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم (١٥)﴾** (التوبة)، وفى حالة مشركى مكة فإن هناك المبرر القوى لقتالهم وهو تخليص المسجد الحرام من أيديهم ،لأنهم كقوله تعالى: **﴿ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (٢٨)﴾** (التوبة) فهذه هى آية السيف إذن، وهى خاصة بأحداث معينة، والملاحظ أنه بعد نزول هذه الآية ما استحرّ قتال، وكان دخول المسلمين مكة بلا قتال ونودى بالعفو عن أهلها. ولم يكن الإسلام دين عدوانى، وهو الذى يدعو بالموعظة، واسمه الإسلام من السلام، ولو شاء الله ورسوله أن يكرهوا الناس على الإسلام لأنزل الله من السماء آية : **﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤)﴾**(الشعراء)، غير أن إيمان المكره لا نفع فيه، كقوله: **﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا(٨٥)﴾**(غافر)، وقوله: **﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل(١٥٨)﴾** (الأنعام)، وفى القرآن قد يُكرَه المؤمن على الكفر، كقوله: **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان (١٠٧)﴾**(النحل)، فماذا لو حدث العكس وأُكره الكافر على الإسلام وقلبه مطمئن بالكفر؟ والناس قد تنطق الشهادتين نجاةً بأنفسهم، وتؤمن باللسان وتوافق المسلمين لفظاً، وقلوبهم تأبى ما يقولون، وهم مطمئنون بالكفر، فهل ذلك مطلب الإسلام: أن يكون هناك مسلمون اسماً؟ والأصل فى طبقة المنافقين ـ سواء فى اليهودية أو فى النصرانية أو الإسلام ـ هو هؤلاء الذين يتهوّدون أن يتنصّرون أو يُسلمون رياءً. والقرآن بنصّه وروحه ضد الإقرار بالإسلام بلا إيمان، والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه اللسان. والحق أن الذى ارتبطت دعوته بالسيف هو موسى، ويشوع، وطالوت، وداود، وسليمان؛ وللمسيح قولٌ صريح فى الدعوة بالسيف، قال: **«لا تظنوا أنى جئت لألقى على الأرض سلاماً. لم آت لألقى على الأرض سلاماً ولكن سيفاً»** (متى ١٠ / ٣٤).

***

١٥٣١ - ﴿الإذن فى القتال﴾

تبيّن الآية: **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩)﴾** (الحج) الآية الأخرى: **﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا (٣٨)﴾**(الحج)، أى يدفع عنهم غوائل الأعداء، بأن

أباح لهم القتال، ووعدهم بالنصر. والآية فيها **إضمار**، أى أُذن للذين يصلحون للقتال فى القتال، **فالصلاحية واللياقة للجندية تكليف من الله**، ثم يأتى النصر بإذن الله.

•••

١٥٣٢ - ﴿لمن الإذن بالقتال؟﴾

الإخراج من الديار ومن الأوطان بغير حق هو أحد المظالم التى يُؤذَن القتال بسببها للمسلمين، فى قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠)﴾** (الحج)، وهذا هو ما يحدث الآن فى فلسطين، وفى السودان، وإندونيسيا وشيشانيا، والعراق، فعمليات **الإخراج** مستمرة، **والترويع** بقصد الدفع إلى ترك البلاد على قدم وساق، وذنب المسلمين انهم يقولون «ربُنا الله»، وأنه «**واحد لاشريك له، لم يتخذ له ولداً، ولا صاحبة**» ولأنهم متمسكون بالقيم، ويأخذون بأخلاق الصفوة. ولم يؤذن للمسلمين بالقتال قبل **بيعة العقبة**، وإنما كان الأمر لنبىّ الإسلام ﷺ أن يدعو إلى الله، ويصبر على الأذى، ويصفح عن الجاهل، وظل ذلك مدة **عشرة أعوام**، لإقامة حجة الله على الناس، ووفاءً بوعده الذى امتنّ بفضله فى قوله: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾** (الإسراء). ولما شرُع العقاب وجُعل من جنس العمل، وكان إخراج الكفار للمسلمين هو أهم جرائمهم ضد الإسلام، أذُن لهم بالقتال. والدليل أن الذين أخرجوهم هم **الكفار**، أنه تعالى نسب الإخراج إليهم، قال: **﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٤٠)﴾**(التوبة) أى أخرجوا النبىّ والذين معه، والإذن بالقتال لهؤلاء وحدهم الذين يُخرجون من ديارهم.

•••

١٥٣٣ - ﴿الأشهر الحرم أربعة﴾

فى قوله تعالى: **﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾**(التوبة)، يعنى أنه منذ خلق الله السموات والأرض وعدة الشهور **اثنا عشر** شهراً، هكذا استُنّ منذ النشأة الأولى، ولم يزل حكمها باقياً، والمقصود اتباع أمر الله فيها، ومنها **أربعة أشهر حُرُم** هى: **رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم**؛ ثلاثة سَرْدٌ أى متتابعة، وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وواحد فردٌ هو رجب؛ والقتال فيها محرّم مالم يُقاتَلوا ولاتُستَحلّ للغارة، ولا تُستَبدل وكانوا يستبدلونها فى الجاهلية، **والاستبدال** استحلال، وكانوا يفعلون ذلك فى **النسىء** - أى يؤخّرونه.

•••

١٥٣٤- ﴿المسلم لا يقاتل المسلم﴾

عموم القتل محرّم فى الإسلام بقوله تعالى: **﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢)﴾**(المائدة). ولاتفرق الآية بين نفس ونفس، وقتل الواحد كقتل الكل ، وإحياء الواحد كإحياء للكل، وهذا القول من أعظم الأقوال، ويعظّم تعاطى القتل ، والأحب أن نحيي الأنفس لا أن نقتلها، ولذا يجيء : **﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ(١٥١)﴾**(الأنعام)، فنهى عن القتل تأكيداً، ومن ذلك أن يقتل المسلم مسلماً، أو يقتل كتابياً فالأمر سواء، والحق الذى يجوّز القتل هو أن يرتكب ما يستحق عليه أن يُقتل، كأن يهمّ هو نفسه بالقتل فيدفع الآخر عن نفسه فيقتله، وفى الآية: **﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا (٩٢)﴾** (النساء) يفيد أنه **لا يقتل المؤمن أخاه المؤمن بوجه من الوجوه إلا خطئاً**، وفى الحديث عند البخارى: **«من قتل معاهداً له ذمة الله ورسوله فقد أخفر بذمة الله»**. ويحفل القرآن والحديث بالنهى عن القتل، **وللقتل العمد** أحكام فى الإسلام فى الدنيا والآخرة، سواء كان المقتول مسلماً أو ذمياً . وقد يحدث فى بلاد الإسلام أن يرفع المسلم السلاح على المسلم، كما فى الاضطرابات السياسية، وعند الغضب أو الثأر، وفى الحديث: **«إذا التقى المسلمان حمل أحدهما على صاحبه السلاح فهما على جرف جهنم، فإذا قتله وقعا فيها جميعاً»** أخرجه الطيالسى، **فهل إذا وقع الشر من أحدهما، أن يستسلم الآخر ولايدفع عن نفسه؟ وهل إذا أراد أحدهم ولو كان مسلماً أن يقتلنى، أفلا أقاوم ذلك؟** والجواب أن هذا الحديث وأمثاله ورد على من يضعف عن القتال، وفى الفتن قد يقصر نظرنا عن معرفة صاحب الحق لننضم إليه ونطالب له بحقه بالقوة، أو نعجز أن ندفع عنه ولو بالسلاح . ولو كان الواجب فى كل اختلاف يقع بين مسلم باغ عاتٍ، وبين مسلم لاحول له ولاقوة، أو بين دولة إسلامية معتدية وبين دولة إسلامية تجنح للسلم، أن نهرب من المواجهة وأن نلزم المنازل، ونكسر السلاح، لما أقيم حدٌّ، ولا أُبطل باطل، ولَوجَد أهل البغى من غير المسلمين أو الدول غير الإسلامية، وكذلك أهل الفسوق من المسلمين، سبيلاً إلى الطغيان والعدوان، وارتكاب المحرّمات، من أخذ الأموال، وسفك الدماء، واغتصاب الحريم. ولو كفّ المسلمون أيديهم عن الظَّلَمة والسفّاحين، بدعوى أنهم لو قاوموهم لكانت فتنة، وبدعوى أن الإسلام ينهانا عن القتال فى الفتن، لكان فى ذلك مخالفة للأمر بالأخذ على أيدى السفهاء سواء ادّعوا الإسلام أو كانوا من غير المسلمين. وهذا الحديث وأمثاله للنهى عن اقتتال المسلمين **على الدنيا**، وإنذار القاتل والمقتول أنهما جميعاً فى النار. وفى مثل ذلك كان الحديث: **«لا تذهب الدنيا حتى يأتى على الناس**

زمان لايدري القاتل فيما قتل ، ولا المقتول فيما قُتل» فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: «الهرج. القاتل والمقتول في النار»، والهرج: هو الاختلاط والفتنة والقتل، والحديث يعني أن القتال يندلع بين المسلمين عن جهل وطلب للدنيا، واتباع للهوى. فذلك معنى أن يكون القاتل والمقتول في النار. فالأول لأنه معتد أثيم، والثاني لأنه كان ينوي هو الآخر قتله. وأي قتال لايجيزه الإسلام إن لم يكن عن تقوى الله، وفي الحديث: «من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعُصبة، أو يدعو إلى عُصبة، أو ينصر عُصبة، فقُتل، فقِتْلته جاهلية» ، والراية العمية: هي أن يقاتل لضلالة، أو يقاتل للقتال ولايعرف لماذا يقاتل، فحاله حال الإمّعة.

●●●

١٥٣٥ - ﴿القوة لازمة للدولة الإسلامية﴾

الآية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾ (الأنفال) جامعة فاذة تحث على الإعداد الحربي، والاستعداد للجهاد، وملاقاة أعداء يبدأون المسلمين بالقتال، ويظهرون لهم البغضاء، وهؤلاء هم الظاهرون، وغيرهم مستترون، يعادون المسلمين في الخفاء لايعلمهم إلا الله. واستخدام الجيوش لا يكون إلا لردّ العدوان وليس لأن يستأثر الطغاة بها ضد شعوب الإسلام، أو للفخر والرياء والنواء، فإن كانت لهذا الغرض فهي وزر على أصحابها. وفي الآية أن المسلمين مهما أنفقوا في الجهاد فإنه يوفَّى إليهم بالتمام والكمال، والجنيه يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف. وكل ما تعدّه الدول والحكومات والشعوب الإسلامية من جيوش فهو خير للأصدقاء وشرٌ للأعداء، ويدخل ضمن اصطلاح الإعداد في الآية. والقوة هنا هي القوة الحربية والاقتصادية، وتماسك الجبهة الداخلية، وارتفاع مستوى الخدمات التعليمية والصحية، وأن يجد كل فرد في الأمة ما يناسبه من التعليم وما يلائمه من السكن، وما يكفيه من الدخل ، وأن يستشعر الأمن والمساواة والعدل، وأن يُكفل له المعاش عند الشيخوخة، ويختلف معنى القوة من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، وكانت القوة في الماضي هي الرمي، ورباط الخيل، واليوم القوة في السلاح النووي والجوي والبحري، وفي الصواريخ والمدفعية والدبابات، وأوصى النبيّ ﷺ أمة الإسلام: أن تحرص على القوة، وأن تُعلي من قيمة الجندية، ومن أحاديثه ﷺ قال: «يا بني إسماعيل، ارموا فإن أباكم كان رامياً» يعني كان جندياً ومقاتلاً . والجندية فرض كفاية في السلم، وفرض عين في الحرب، على المرأة والرجل على السواء، والجهاد يُشرع للمرأة كالرجل حسب وسع كل منهما، وفي الحديث: «كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنه من

الحق» ، يعنى أن كل ما يتلهى به المسلم والمسلمة مما لايفيدهما فى العاجل ولا فى الآجل فهو باطل والإعراض عنه أولى. والزواج واجب للإنجاب وإكثار الأمة وليس للتلهى، وبالأولاد تعمر الدولة بالأفراد، والرياضة البدنية إن كانت للهو فهى باطل، وإن كانت من نوع رياضيات القوة الدفاعية كالكاراتية فهى حقّ. ولو كانت الآية اقتصرت على قوله : **﴿وأعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾** كان يكفى، ولكنها خصّت الرمى ورباط الخيل لأنهما كانا أصل الحروب وأوزارها، ويقابلهما الآن معانى للقوة ورباط الخيل مختلفة فى زمنٍ الحربُ فيه إلكترونية . ويظل الجندى المدرّب هو أقوى القوة وأشد العدّة، ويظل إعداد هذا الجندى بالعقيدة هو أفضل الإعداد. وفى الآية فإن الوقف على رباط الخيل جائز، وكذلك الوقف الآن على إعداد الجيوش، وتقوية الجبهة الداخلية، والإنفاق على البحوث، وإنشاء الجامعات المدنية والعسكرية، وكل مال ينتفع به فى تقوية الدولة فجائز أن يوقف، كالأرض الزراعية، والعمارات السكنية، واستثمارات الأموال فى الشركات والمصارف وغيرها.

●●●

١٥٣٦- ﴿الرباط﴾

فى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾**(آل عمران) جَمَع الله تعالى ثلاث وصايا لاغنى عنها فى الحرب، فحضّ على الصبر على مكاره الحرب، وأمر بمصابرة الأعداء، وبالمرابطة بالعدة والعتاد، ونظيره قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾**(الأنفال). ورباط الخيل هو كل ما من شأنه تسهيل وتسريع وتفعيل الرمى، وفى الحديث: «**ألا إن القوة الرمى**» ، وسلاح المدرّعات، والطيران، والسلاح البحرى، وسلاح الدبابات، والمدفعية، كل ذلك حلّ محل الخيل، والمرابطة بهذا العتاد من الدين. والمرابطة أصلاً هى ملازمة المواقع العسكرية على أهبة استعداد لخوض المعركة، ومنها الرباط المعنوى، برفع الروح المعنوية ونشر التوعية. والمرابط فى سبيل الله: هو المدافع عن وطنه وعقيدته. وجاء فى فضل الرباط: «**رباط يوم فى سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها**» ، والرباط هو الجندية، والمرابطة هى الخدمة العسكرية، والرباط هو أفضل الأعمال التى يبقى ثوابها بعد الموت، ويضاعف أجره إلى يوم القيامة، وكذلك انتظار الصلاة بعد الصلاة فإنه رباط، والمسلمون لم يؤمروا بالجهاد من غير تقوى، والرباط أساس كل تقوى وفلاح وبقاء.

●●●

١٥٣٧- ﴿الجهاد﴾

الجهاد: في اللغة بذل الوسع من القول والفعل، كقوله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي**﴾ (العنكبوت ٨)؛ وفي الشرع فإن الجهاد هو بذل الوسع في سبيل الله وخدمة الدين والزود عن حياض الأمة والدعوة إلى الإسلام، ويقال **جهادٌ في سبيل الله**، وفي الإسلام يتوجه الجهاد إلى الكفار والمنافقين وأعداء الله والمسلمين. كقوله تعالى: ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ (التوبة ٧٣)، ويأتي الجهاد في المرتبة بعد الإيمان ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١١)**﴾ (الصف). والهجرة والجهاد علامتان للإيمان، كقوله: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢١٨)**﴾ (البقرة). ويأتي عن الجهاد والمجاهدين في القرآن تسعاً وعشرين مرة، وحقيقة من يجاهد لله إنه يجاهد لخلاص نفسه ونجاتها، كقوله: ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ (٦)**﴾(العنكبوت). والإخلاص شرط الجهاد، ومن الجهاد ما هو صغير وما هو كبير، والجهاد الشرعي هو **الجهاد الكبير**، كقوله: ﴿**فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)**﴾ (الفرقان)، والمجاهد نقيضه القاعد عن الجهاد. كقوله: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٩٥)**﴾ (النساء). والجهاد جهادان: جهاد عرفي وهو الجهاد في الحياة. وجهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، والردّ على الظالمين، وأعظمُه **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، ومنه **مجاهدة النفس في طاعة الله** وهو **الجهاد الأكبر**.

•••

١٥٣٨- ﴿الحض على الجهاد﴾

الجهاد فرضٌ، والحض عليه وتحريض المسلمين ليجاهدوا من أولى مهام الداعية، والله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)**﴾(النساء) . وفي هذه الآية يتوجه الجهاد ضد **الدولة الظالمة** كالدولة اليهودية التي تظلم الفلسطينيين، والدولة الروسية التي يعيش فيها المسلمون مضطهدين، والدولة الهندية التي يُفزَع فيها المسلمون ويُقتَلون، وتُهدَم مساجدهم. ومن البلاد الإسلامية من يضطهد المسلمين ويغلق مساجدهم قسراً ويصادر ملكيتها، ويمنع دراسة الدين، ويحكم بالطاغوت. والجهاد في الآية بغرض تخليص المستضعفين، أوجبه تعالى لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في الجهاد تلفٌ للنفوس. وإنقاذُ المسلمين من أحوالهم المتردّية، ومظالم الدولة الجائرة والحاكم الظالم، واجبٌ على جماعة

المسلمين، إما بالقتال، وإمـا بالأموال ـ وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هى أهون، فى الحديث: «**فكّوا العانى**»، وهو الذى يعانى الظلم والاضطهاد ويُحرَم من حقوق المواطنة وحقوق الإنسان.



١٥٣٩ - ﴿الجهاد وحق الجهاد﴾

تقول صوفية المسلمين: إن الجهاد فى سبيل الله هو «**الجهاد الأصغر**»، وعندهم «**الجهاد الأكبـر**» وهو مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء، والحـق أن الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله هو أعلى الجـهاد، وهو «**حق الجـهاد**»، والجهاد لا يكون جهـادًا إلا إذا كان جهاداً بحق، كقوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**(٧٨)﴾(الحج)، ومعنى «**حقّ جهاده**» أن يمتثل المجاهد جـميع مـا أمر الله، وأن ينتهى عن كل مـا نهى عنه،ويجاهد نفـسه على طاعـته تعالى، ويردّها عن هواها،ويجاهد الشيطان ويردّ وسوسته، ويجاهد الظَلَمة ويردّ ظلمهم، ويجاهد الكافرين ويردّ كفرهم، كقوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**(١٦)﴾(التغابن)، وفى الحديث «**خير دينكم أيسره**»، والأيسر هو الوسع ، فكأن حق الجهاد هو بذل ما فى الوسع والاستطاعة، وفى الحديث أيضاً: «**المجاهد من جاهد نفسه لله عزّ وجلّ**» أخرجه الترمذى، أى جعلها فى طاعـته، ولما سُئل النبىّ ﷺ: أى الجهـاد أفضل؟ قال:«**كلمة عـدل عند سلطان جائر**» أخرجه ابن ماجه، والحديث عن **الجهاد فى دولة الظلم**، ويبقى دائمًا أن **أفضل الجهاد هو الجهاد بالمال والنفس**.



١٥٤٠ - ﴿فضل الجهاد﴾

لا عمل يفـضل الجهاد أبداً، لقـوله تعالى: ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ**﴾ (التوبة ١٩)، فأى عمل مدنى لا يساوى الجهاد عن إيمان، وقوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٢٠)﴾ (التوبة)، وليس أعظم درجة عنده تعالى ممن هاجر مجاهداً وضحّى بنفسه وماله فى سبيل الله، وفى الحديث: «**من ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً وفقراً فى معيشته، ومَحقًا فى دينه**». والجهاد عزّ الإسلام، وباب من أبواب الجنة، وهو لباس التقـوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، ومن تركـه يشمله البلاء، وضُرب على قلبه، وأديل الحق عنه، وسيم الخسف، ومُنع النَّصف. والرباط من الجهاد، وهو انتظار العدو، وأن يكون مستعداً دائمًا للقتال حذر المفاجآت، كقوله تعالى: ﴿**اصْبِرُوا**

وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (آل عمران ٢٠٠). والرباط حراسة، وفى الحديث: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله» رواه الترمذى.

•••

١٥٤١ - ﴿من يجب عليه الجهاد؟﴾

من اجتمعت فيه ست شرائط وجب عليه الجهاد: **الإسلام**: فلا استعانة بغير مسلم فى القتال، وقد يستأجر غير المسلم للخدمة لا غير؛ **والبلوغ**: فلا يكون صبياً غير مميز؛ **والعقل**: فلا يكون مجنوناً؛ **والحرية**: فلا يكون مسجوناً أو متَّهماً فى شرفه؛ **والسلامة**: فلا يكون ضريراً، أو به عرج شديد، أو مريضاً بمرض مزمن أو شديد، ومع ذلك فيمكن للضرير والأعرج المشاركة فى التعبئة المدنية. ولا يهم فى الجهاد إن كان المجاهد **ذكراً أو أنثى**، فلكل مجاله الذى يجاهد فيه، ويمكن للنساء القيام بكافة الأعمال خلف خطوط القتال.

•••

١٥٤٢ - ﴿زمان الجهاد ومكانه﴾

القتال جائز فى زمان دون زمان، وفى مكان دون مكان؛ فأمّا المكان الذى لا يجوز فيه القتال فهو المسجد الحرام، إلا إذا ابتدأ المعتدى بالقتال، كقوله تعالى: **﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾** (البقرة ١٩١)، و«عند» تفيد المكان والبلد، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحُرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» أخرجه مسلم، ومكة حرامٌ تعظيمًا للمسجد الحرام؛ والقتال عنده حرام، وقتال المسلم عنده لردّ العدوان، وهو **قتال دفاعى**. ويتعيّن على المسلم الجهاد فى **ثلاثة** مواضع: **الأول**: التقاء الجيوش، فلا يهرب من القتال، كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾** (الأنفال)، والأمر بعدم الإدبار مقيّد بالشريطة المنصوصة فى مِثْلى المؤمنين، فإذا لقيتْ فئةٌ من المؤمنين فئةً هى ضعف المؤمنين من الأعداء، فالفرض ألا يفروا أمامهم، فمن فرّ من اثنين فهو فارٌ من الزحف، ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارٍ من الزحف، ولا يتوجّه عليه الوعيد. و«**التحرُّف**» فى القتال هو الانحراف من جانب إلى جانب، وسرعة نقل القوات، لمكايد الحرب، وكذلك «**التحيُّز**» وهو أن يأمر القائد قواته بالتوجه إلى نقاط الضعف لنصرة جماعة المسلمين المحاصرة؛ **والثانى**: إذا نزل العدو ببلد تعيّن على

أهله قتالهم ودفعهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(البقرة ١٩١)؛ والثالث: إذا استُنفر المسلمون لزمهم النفير، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة ٢١٦)، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾(التوبة ٣٨). والمكان: الذى يجوز القتال فيه ابتداءً للدعوة إلى الإسلام هو أى مكان ما عدا المسجد الحرام. وأما الزمان: الذى لا يجوز القتال فيه، فهو الأشهر الحُرم، وعددها أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب، إلا إذا ابتدأ المعتدى بالقتال فيها، فيجوز الدفع حينئذ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة ٥)، وقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة ١٩٤)، فمن استحلّ قتال المسلمين فى الشهر الحرام استحلّوا أيضاً قتاله فيه، قصاصاً على اعتدائه.

●●●

١٥٤٣- ﴿درجات المجاهدين فى سبيل الله﴾

المجاهدون درجات ومنازل عند الله تعالى، كقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا (١٩)﴾ (الاحقاف)، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥)﴾(طه)، وفى الحديث: «إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله»، وفى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ (٢٣)﴾ (الاحزاب)، فالأولون هم الشهداء، والثانون هم المرابطون. وفى الرواية أن أحدهم قال لرسول الله ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ قال: «مَن قاتل لتكن كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»، وذلك أعلى درجات الجهاد وأسمى درجات المجاهدين.

●●●

١٥٤٤- ﴿الحرب إثخان﴾

الجهاد من شريعة الإسلام، وجهاد الكفر واجب على كل مسلم، بالحوار دائمًا وبالقتال لو اقتضت الظروف. والحرب تُفرَض على المسلم ولايسعى لها، وحربُه دفاعية، فماذا تكون عليه طريقة الحرب كما ينصح بها القرآن؟ وتحدد الآية: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٤)﴾ (محمد) من يكون عدو المسلمين؟ وكيف تكون مجاهدته؟ والطريقة التى يحسن اتباعها معه. فأما العدو فهو الكافر الذى يخالف الإسلام، ويُظهر له العداء، ويكيد للمسلمين، وهذا لاعهد له ولا ذمة. والمعتدون على دولة مسلمة، كالشيشان،

وفلسطين، وأفغانستان، وإيران، والعراق، وليبيا، والسودان، أو على شعب مسلم كشعب فلسطين، بلادهم بلاد حرب، وطريقة القتال معهم أساسها «**الضرب فى المليان**» حتى الإثخان، **وضرب الرقاب**: خصّ به الرقاب بالذكر، لأن القتل أكثر ما يكون بالرقاب، وفى الآية **لم يقل اقتلوا العدو**، لأن فى عبارة «**ضَرْبَ الرقاب**» تغليظاً وشدة ليسا فى لفظ القتل، وتصويراً للقتل بأشنع صورة، وهو حزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن؛ **والإثخان**: هو الإكثار من القتل؛ **وشدّ الوثاق**: هو الأسر وربط الأسير بالأغلال فلا يفر؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها، كان للهيئة الحاكمة التى لها سلطة القرار السياسى أن تختار بين **الفدية**:وهي إطلاق الأسير لقاء فائدة تعود على المسلمين ، كأن تكون تبادل الأسرى، أو إعادة الممتلكات والأموال، أو الجلاء عن الأرض إلخ؛ وبين **المن**:وهو إطلاق الأسير دون مقابل، لأنه من الجرحى أو المعوقين، أو الزمنى، أو المرضى، أو المدنيين الذى لايحسنون القتال، وبين **العفو عن فئة المستضعفين** الذين لا يُخشَى أن يحملوا السلاح وينبذوا إلى القتال لو عادت جماعتهم لقتال المسلمين.

●●●

١٥٤٥- ﴿الحرب مَقدَرة بقدرها﴾

الحرب فى النظرية الإسلامية ضرورة، كتبها الله على المؤمنين وهو يعلم أنهم يكرهونها: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ** (٢١٦)﴾(البقرة)، ولذلك فقد جعلها مقدّرة بقدرها فقال: ﴿ **فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ** (١٩١)﴾(البقرة)، وقال: ﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٩)﴾(الممتحنة)، وقال: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا** (١٩٠)﴾ (البقرة)، فقصر القتال على **المقاتلين**، وأما من تجنّب الحرب فلا يحلّ قتالهم ولا قتلهم، ولا التعرّض لهم بأى سوء، ولذلك حرّم الإسلام قتل النساء، والأطفال، والمرضى، **والشيوخ**، والرهبان، **والأجراء**، طالما لم يحاربوا، وحرّم **المُثْلة**: وهى أن يُمثِّل بالقتلى أو بالأحياء، وحرّم قتل الحيوانات، **واقتلاع الزروع**، وحرث الأرض، وحرق المحاصيل، وتلويث الآبار، **وهدم البيوت**، مما يفعله اليهود فى فلسطين، والأمريكان فى أفغانستان، وحرّم **الإجهاز على الجرحى**. وكان الرسول ﷺ يوصى جنود الإسلام أن يتّقوا الله، ويقول لهم: «**اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولاتمثّلوا، ولاتقتلوا وليداً**» ، ومرّ فى إحدى الغزوات فعثر على امرأة مقتولة فاستنكر ذلك وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»، ثم نظر إلى وجوه أصحابه واختار أحدهم وقال له: «**إلحق بخالد بن**

الوليد: فلا يقتلنّ ذرية، ولا عسيفاً ـ أى أجيراً ـ ولا امرأة»، ونهى عن **النُّهبَى والمُثْلَة** ـ من النهب وهو الاستيلاء عنوة وقهراً، **والمُثْلة** هى التنكيل. وفى وصية **أبى بكر** لأسامة قال: **«لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولاتمثّلوا، ولاتقتلوا طفلاً صغيراً، ولاشيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولاتعقروا نخلاً، ولاتُحرّقوه، ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولاتذبحوا شاةً، ولابقرةً، ولابعيراً، إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع** (أى الرهبان) **فدعوهم لما فرّغوا أنفسهم له»**. وأصدر عمر أوامره على نفس المنوال، قال: **«لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، واتقوا الله فى الفلاحين»**، وقال: **«ولا تقتلوا هَرِماً، ولا امرأة، ولا وليداً، وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات»**.

وبعد، فهذه هى تعاليم القرآن، ومبادئ السُّنّة المشتقة من القرآن، والتى تمثّلها المسلمون، وكانت دائماً القاعدة السلوكية لهم فى الحرب لا يشذّون عنها، وهذه هى إملاءات حضارة الإسلام، فأين منها ما يُفعَل الآن بالمسلمين باسم **صراع الحضارات**؟ وأين هذه السلوكيات الراقية من دعواهم فى المسلمين بأنهم برابرة بينما هم المتحضرون؟!

●●●

١٥٤٦- ﴿الحرب خدعة﴾

الحديث للرسول ﷺ قال: «الحرب خدعة»، بضم الخاء أو فتحها، والأصح بالفتحة، والله قد أمر بخداع أعداء الإسلام، فلأنهم يلجأون للخداع، فعلينا أن نخدعهم، وخداعهم باطل، وخداعنا حق، والله تعالى، وهو الحق يخادعهم، يقول: **﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (١٤٢)﴾**(النساء)، ويقول: **﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ (٩)﴾**(البقرة)، ويقول: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ (٦٢)﴾**(الأنفال)، والخداع فى الحرب: هو استعمال الحيلة، وما أُمر المسلمون باللجوء للخداع إلا لأن العدو فى طبيعته الخداع، والحروب أصلاً قوامها الخداع، والخداع إن كان من المسلمين فالآيات والحديث تحضّ عليه، وإن كان من أعداء الإسلام فكأنه يحذرهم من مكرهم، فلا ينبغى **التهاون** بهم، لأن التهاون مفسدة ولو قلّ. وخداع العدو فى الحرب جائز كيف أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز. وفى الآيات والحديث إشارة إلى **استعمال الرأى فى الحرب**، فلأنها خدعة وجبت فيها **المشورة**، **والاحتياج للرأى آكد فى الحرب من الشجاعة، والمخادعة أفضل فى** نتائجها من المواجهة، لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة، بشرط أن لا تكون مخادعة ساذجة وإنما جيدة لصاحبها، كاملة فى مقصودها.

●●●

١٥٤٧- ﴿الكذب فى الحرب﴾

الكذب: من الخداع فى الحرب، والكذب مطلقاً رذيلة، وهو فى الحرب **فضيلة**، وفى الحديث: «**لايحل الكذب إلا فى ثلاث: يتحدث الرجل إلى امرأته فيكذب ليرضيها؛ والكذب فى الحرب، وفى الإصلاح بين الناس**». والكذب فى الحرب من المستثنى الجائز بالنصّ لحاجة المسلمين إليه، رداً على كذب أعداء الإسلام، وصفهم الله تعالى فقال: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** (٢٨)﴾(الانعام)، فالكذب ليس للعقل فيه مجال، ولو كان تحريم الكذب بالعقل ما انقلب حلالاً، ومن أمثلته أن النبى ﷺ أذن **للحجاج بن علاط** أن يقول عنه ما يشاء لأهل مكة لمصلحته فى استخلاص ماله منهم، وأذن للمسلمين أن يقولوا كذباً عن أنفسهم أن أهل خيبر هزموهم ليوقعوا بأهل مكة . ولايتعارض ذلك مع القصة مما أخرجه النسائى: أن الأنصارى طلب من النبىّ ﷺ أن يومئ إليه بعينه، فقال له: «**ما ينبغى لنبىّ أن تكون له خائنة الأعين**» ، لأن المأذون به فى الخداع **فى حالة الحرب خاصة**، وأما فى غير ذلك فليس بأحوال حرب، ومنها أنه ﷺ كلما أراد أن يغزو وُجهةَ الشرق، جعل كأنه يهتم بجهة الغرب، مع أن مراده الشرق. والكذب فى القرآن بالنسبة للمسلم من المعاريض ولا يُصرّح به، ولايوجد آية فى القرآن تصرّح بالكذب الحقيقى، **الذى هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو**، ومحال أن يتضمن القرآن آية تبيح الكذب، وفيه على العكس أكثر من ٢٠٠ آية تدين الكذب، ومحال أن يأمر بالكذب من قال: «**مَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» ، **إلاّ الكذب فى الحرب فإنه خدعة**، والخداع جائز فى الحرب.

●●●

١٥٤٨- ﴿الرَّجَز فى الحرب﴾

الرَّجز: من بحور الشعر، والعرب كانت تستعمله فى الحرب **ليُزيد فى النشاط ويستحث الهمم**، والجماعات تنشده طلباً للطمأنينة، واستئناساً بقومهم، واستنصاراً بالله، والنبىّ ﷺ استنّه للمسلمين، وارتجز بِرَجَز غيره فى **غزوة الخندق**، إلا أن يكون فى سماع أصوات الجماعة خطراً داهماً عليهم فيجب الصمت والتخفّى، ومما كان يرتجز به النبىّ ﷺ قوله

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تَصَدّقنا ولا صلّينا
فأنزِلنّ سكينةً علينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا
إنّ الأعدا قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنةً أبينا

●●●

١٥٤٩- ﴿البيعة في الحرب أن لايفروا﴾

المسلمون فى الحرب على البيعة أن يصمدوا فى المعركة، والصمود يعنى أن لايفروا، ويستلزم الصبر، ويقتضى أن يجاهد المسلم بنفسه وأن يبذلها لنصرة دينه، وفى الحديث عن بيعة الرضوان فى الحديبية لمّا بايعوا النبىّ ﷺ: قال بعضهم إنهم بايعوا على أن لايفروا، وقال آخرون: إن البيعة كانت على الموت؛ وأخبر بعضهم أن البيعة كانت على الصبر، أو كانت على الإسلام والجهاد؛ وأنزل الله تعالى الآية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾(الفتح)، فهذه الأركان الأربعة إذن هى التى كانت عليها تلك البيعة، وهى التى كانت رضا الله تعالى عنهم بسببها، واستوجبت أن يُنزل عليهم السكينة ويثيبهم الفتح القريب، وهى: الثبات وعدم الفرار، والموت، والصبر، والإسلام والجهاد، وما تزال هذه الأركان هى أركان كل حرب يدخلها المسلمون، فهم لايحاربون إلا صوناً لبلادهم ودينهم، وقد أقسموا أن لايفروا منذ بيعة الرضوان، ومن لايفر قد يموت، والموت لايخيفهم لأنه يعنى الشهادة، وهى إحدى الحسنيين، ولاتنافى بين عدم الفرار والموت، لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لايفروا، وليس المراد أن يقع الموت حتماً لمن لايفر، والصمود يقتضى الصبر، وكل حرب لها أهدافها، وخير أهداف المسلمين فى حروبهم نُصرة الإسلام، ووسيلتهم لتحقيقها الجهاد، وهو أشرف وسيلة، لأنه يعنى بذل الوسع لتحقيق النصر.

●●●

١٥٥٠- ﴿الحربىّ والذمىّ﴾

الحربى: هو من يعادى الإسلام والمسلمين، سواء من أهل بلد من بلاد الإسلام، أو من خارج بلاد الإسلام، وكل بلد تعادى نُظمه الاجتماعية والسياسية والإعلامية الإسلام والمسلمين فهو دار حرب ـ أقول تعادى ولا أقول تناقض أو تخالف أو تعارض، وفرقٌ بين العداء والمعارضة والنقض والمخالفة. . وقد يُصنّف الذين يظهرون الإسلام ويُبطنون له العداء من أهل بلد الإسلام باعتبارهم: منافقين، وهؤلاء كانوا منذ النبىّ ﷺ ضمن أهل المدينة نفسها، أى من داخل المجتمع الإسلامى، ومن حول المدينة، أى ضمن مجتمعات البلاد الإسلامية الأخرى، وأدرجهم الله تعالى مع الكفار والمشركين، واتهمهم بالفسوق والكذب، وشخّص نفاقهم بأنه مرض نفسى من أمراض القلوب وأرجعه إلى جهلهم وسوء طويتهم، ووصفهم بأنهم لايعلمون، ولايفقهون (الآيات١٢و٧٣ الأحزاب، والتوبة٦٧، ٦٨، ١٠٦، والمنافقون ٧، ٨)، وجميعها صفات تصنع منهم ما يسمى بالطابور الخامس.

وأما الذمّى: فهو **الكتابى** من **اليهود أو النصارى**، وهؤلاء قسمان، فمنهم **الأجنبى المقيم** أو العابر، وهذا له الأمان، ومنهم **المواطن**، من أهل البلد المسلم، وله ما للمسلمين، وعليه ما عليهم. وهذه هى **شروط الذمّة**: أنْ يلتزم بالمواطنة الصحيحة فلا يمايز أهل ملّته على المسلمين؛ ولا ينضم لأعدائهم ولو كانوا من أهل ملّته، وأن يدفع ما عليه من ضرائب كغيره من المواطنين، ويخضع لقوانين **الأغلبية** طالما يأخذ **بالديموقراطية**. والذمّى ليس بحربى، ولكنه **فى ذمة المسلمين وعهدهم**، فلايتعرضون له ولدينه بسوء، ويدفعون عنه. ويمكّنون له أن يعبد **الله** كما يشاء، طالما يوفىّ بشروط الذمة ـ وهى حُسن المواطنة، وعدم التعرّض للإسلام وللمسلمات، ولايبشّر بدينه، ولاينكح المحارم، ولايظهر ارتكاب المنكرات، ولايأوى إليه أعداء الإسلام، ولا يتجسّس على المسلمين لحساب أعدائهم، ولا يأكل الربا، فمن فعل ذلك برئت منه ذمة **الله** وذمة رسوله.

والحربى الذى يجىء **متاجراً** ومعه التصريح بذلك من السلطات المحلية المختصة والقنصليات والسفارات المعتمدة، عليه ضرائب أهل البلد المسلم مثلما الحال فى بلده، وكانوا قديماً يتقاضونه **عُشر الأرباح فقط** كما هو فى دينه. وإذا **أسلم الحربى** فى دار الإسلام دخل فى ذمة المسلمين. وتجوز **هدية أهل الحرب** لواحد من المسلمين، بشرط أن لا تكون على سبيل الرشوة. **وأموال أهل الحرب فى** حال الحرب المعلنة **غنائم حرب**. وما يغنمه المسلمون منهم بلا حرب من **الفىء**. ولا يدخل فى الغنيمة مال المسلم القاطن بدار الحرب. وتصحّ **وصية المسلم للذمّى، والذمّى للمسلم**، وتصحّ **وصية المسلم للحربى فى دار الحرب، والحربى للمسلم فى دار الإسلام ودار الحرب. والمسلم يقُطَع** بسرقة مال الذمىّ، كما يقطع الذمّى بسرقة مال المسلم ومال الذمى. والحربى إذا دخل بلاد الإسلام **مستأمناً** وسرق قُطع، ويُقطع المسلمُ والذمى بسرقة مال الحربى المستأمن، ومعاملة الذمى والحربى المستأمن هى نفس المعاملة للمسلم فى القصاص، سواء فى السرقة والزنا أو غيرهما. وقيل: يقتل الحربى المستأمن لو زنَى بمسلمة أو ذمّية فى **دار الإسلام**، وهذا غير صحيح لأن القتل ليس جزاء الزنا ولايقتل ذمّى ولا مسلم بحربّى غير **مستأمن**. ولا يُقتص منهما لأذى أو جرح يصيبه وإن أسلم قبل أن يموت، لاتجب له الدية ولا الكفّارة.

١٥٥١ - ﴿كل هزيمة أو نصر فبإذن الله﴾

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن فى الحرب: أن المؤمن يرى أن **الهزيمة** والنصر من عند الله، وغير المؤمن يراهما من عند نفسه، **كقارون** قال عن غناه: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي (٧٨)﴾**(القصص)، فكذلك **الظالمون** يرون أن النصر يؤتونه على علم عندهم، والله

تعالى يقول: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ (١٠) ﴾(الأنفال)، ويقول: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة٢٥١)، ونصره تعالى إنما لأهل الحق، فإن بدا أحياناً أن أهل الباطل ينتصرون، فليس انتصارهم نصراً ولكنه إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخسران، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١٨) ﴾(الأنبياء) أي يبين الحجة ويظهرها وإن كان بعد لأى، والنصر من عند الله مرة يكون بالقوة، ومرة بالحجة، وفى كل الحالات ينصر الله أهل الحق، كقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾(الروم)، **وهذه العبارة هى خلاصة كل حروب الإنسانية من يوم أن خلق الله الخلق.**

•••

١٥٥٢- ﴿الاستشهاد فى سبيل الله﴾

الاستشهاد من شَهِد يعنى أخبر به خبراً قاطعاً؛ واستَشْهَد تعرّض أن يُقتَل فى سبيل الله؛ واستُشهِد: قُتل شهيداً؛ والشهيد والشهيدة مَن قُتل فى سبيل الله، والجمع شهداء، والاسم الشهادة، وسُمّى الشهيد بذلك لقيامه بشهادة الحق فى أمر اللّه، كقوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾(آل عمران)، وفى الآيات إخبار بأن الاستشهاد أكبر نعمة من الله يمكن أن يُرزَق بها المؤمن، وأن الشهداء أحياء فى الجنة يُرزَقون، ولامحالة أنهم ماتوا، وأن أجسادهم فى التراب، ولكن الله يؤكد لنا أن أرواحهم حيّة كأرواح سائر المؤمنين، وأنهم فُضِّلوا بالرزق فى الجنة من وقت القتل، كأن حياة الدنيا دائمة لهم. وقيل: إن أرواحهم تُرَدّ إليهم فى القبور فينعمون، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيُعذّبون. وقيل: الكلام فى الآية على المجاز، ويعنى أنهم فى حُكم الله، مستحقون للتنعُّم فى الجنة، كما فى قولنا إن فلاناً ما مات، لأن ذكراه باقية، كقول الشاعر:

موت التَّقىّ حياةٌ لافناء لها .·. قد مات قومٌ وهم فى الناس أحياء

فالمعنى أنهم يُرزقون الثناء الجميل.والشهيد حاله فى الغُسل والصلاة كحال الأحياء، فهو يُغسَّل ويُصلّى عليه مثلهم، إلا قتيل المعترك، وفى الحديث: «ادفنوهم بدمائهم»، ودُفن الشهداء يوم أُحد ولم يُغسّلوا ولا صُلّى عليهم. وقيل: إن النبىّ ﷺ صلّى على حمزة وسائر شهداء أُحد، وقيل: لم يُغسَّل شهداء أحُد، وكان يُجمَع بين الشهيدين فى ثوب واحد، ويدفنان بدمائهما، ويقدّمَ الأقرأ للقرآن، ولم يُصَلّ على أىّ منهم. وقيل: من يُقتل

مظلوماً لا يُغسَّل، ولكن يُصلّى عليه، ولماّ قُتل **عمارّ بن ياسر فى صفّين لم يغسله علىّ**. وقيل: مات مظلوماً، ولا يُغسّل قتيل البغاة، والصحيح أن غُسل الموتى ثابت عقلاً وبالإجماع، وهو سُنة ثابتة. والآية فيها عِظَم ثواب القتال فى سبيل الله، وأن الشهادة تُكفّر الذنوب، وفي الحديث: «**القتل فى سبيل الله يكفّر كل شىء إلا الدَّين**»، والحديث غير معقول، فهل الدَّين أكبر وأقيم من الشهادة؟! وقيل: المدين وإن قُتل شهيداً لايدخل الجنة حتى يُقضَى عنه دينه، فأين يكون إذن؟ وعنه ﷺ قال: «**أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارقٌ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشياً**»، وقال: «شهيد البحر مثل شهيد البرّ، والمائد فى البحر (أى الذى يموت من دوار البحر) كالمُتشحِّط فى دمه فى البرّ (أى الذى يتخبّط فى دمه).

والأولياء عند الله تعالى مراتب، كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)**﴾ (النساء)، فأولى المراتب للأنبياء، ثم للصّديقين، ثم للشهداء، ثم للصالحين؛ فالشهداء فى المرتبة الثالثة. والصالحون هم صالحو أمة الإسلام، واللفظ يعمّ كل هؤلاء السابقين. والرفيق هو الصاحب يرتفق صاحبه، ولأنهم يرتفقون بعضهم البعض فإنهم رفقة، وهؤلاء السابقون أصحاب المراتب الأربع رفقة الشهيد فى الجنة.



١٥٥٣- ﴿دار البغى﴾

البغى: هو الظلم وتجاوز الحدّ فيه، وأن يقع الرجل فى الرجل فيتكلم فيه ويبغى عليه بغير الحق، كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ (٣٣)** ﴾(الأعراف)، فأخرج البغى من الفواحش وهو منها، لعظَم البغى وفُحشه، فنصّ على ذكره وحده، وقرنه بالإثم تأكيداً لأمره، وقصداً للزجر عنه. ودار البغى أو أرض البغاة: هى البلاد التى يحكمها البغاة أو أهل البغى ـ أى الطواغيت الظلمة، وقوانينها قوانين باغية، وكانت مكة تحت حُكم المشركين دار بغى، بَغَى أهلها على رسول الله ﷺ وآذوه وأخرجوه وأصحابه. وذكر الله الانتصار فى البغى فقال: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)** ﴾(الشورى)، والآية عامة فى بغى كل باغ، والمسلم لايرضى بالظلم ولايستسلم له، ومأمورٌ أن يتصدّى للباغى المعلن للفجور، الوقح فى الجمهور، والمؤذى للصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل، والمسلمون يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفسّاق. والآية فيمن تعدّى فى البغى وأصرّ عليه، ويأتى عقبها: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ**

سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠)﴾ (الشورى) فجعل الانتقام بمثل الإساءة، فإن اعترف الباغي بالزلة وسأل المغفرة، فالعفو أفضل، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى (٢٣٧)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم (٢٢)﴾(النور)، وأكد الله تعالى حق المظلوم في الانتصار عند تمادي الباغي في الظلم، فقال: ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤١) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٢) ﴾(الشورى)، فامتدح من انتصر ممن بغي عليه من غير اعتداء بالزيادة، وسمى الجزاء سيئة لأنه في مقابلتها، والانتصار من المعتدي غير المسلم حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

والباغي قد يكون فرداً، كما قد يكون جماعة أو دولة، فأما إن كان فرداً فحكمه ما سبق، وأما إن كان جماعة كالجماعة التي منعت الزكاة وقاتلها أبو بكر، أو كانت دولة كدولة معاوية التي خرجت على علي، كبغي العراق على الكويت، فهذه جاء فيها في التنزيل قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين (٩)﴾(الحجرات). ولا يعامل المسلمون جماعة البغي من المسلمين كأعداء، وجريحهم ومدبرهم لا يقتلان، ولا تغنم أموالهم، ولا تسبى نساءهم وذراريهم، ولا يضمنون ما اتلفوا في الحرب من الأنفس والأموال، ويغسل من يقتل منهم ويكفن ويصلى عليه. وأهل العدل نقيض أهل البغي، ولاينطبق وصف البغاة على الثوار على الحاكم الظالم. ويشترط في البغاة لكي يصح عليهم هذا الاسم أن يكون خروجهم للدنيا، وللحصول على الحكم، ومنازعة الشرعية الدستورية، وهذا الخروج يسمى محاربة. ولايعد من البغاة الخارجون الذين لايحملون السلاح، وليست لهم قوة، وليسوا جماعة سياسية لهم زعامة وقيادة ومطالب ودعاوى. والمحارب يخضع لأحكام آية المحاربة التي تقول: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم (٣٤)﴾(المائدة).



١٥٥٤ - ﴿دار الإسلام ودار الحرب﴾

يقال دار الإسلام، ودار إسلام، وديار الإسلام في الجمع؛ والدار هي البلد، ودار

الحرب: هى بلاد العدو؛ **ودار القرار**: الآخرة؛ **والداران**: الدنيا والآخرة؛ **ودار البغى**: هى التى يحكمها الطاغوت، وتجور فيها القوانين، وأهلها من البغاة المغتصبين. **والحربى**: هو المنسوب إلى دار الحرب،وليس لأهل الحرب دخول دار الإسلام بغير **أمان**، وإذا دخلوا بأمان فهم على أمانهم، وإن دخلوا مستوطنين بطل أمانهم فى أنفسهم وبقى فى أموالهم. ولايخرج المستأمن من دار الإسلام قبل أن تُستوفى منه الحقوق التى لزمته فيها. وإذا سرق أو قتل أو غَصَب ثم عاد إلى وطنه فى دار الحرب، ثم خرج مستأمنًا مرة أخرى، استوفى منه ما لزمه فى أمانه الأول؛ وإذا خرج وترك مالاً فى دار الإسلام، **وديعة** أو **قرضًا**، بقى الأمان لماله، وإن طلبه بُعث إليه به، وإن مات فى دار الحرب انتقل إلى وارثه ولم يبطل الأمان فيه، وإن كان له **وارث** فى دار الإسلام على ملّته ورثه، وإن لم يكن له وارث صار **فيئًا** للخزانة العامة للدولة. وإذا دخلت **المستأمنة** دار الإسلام فتزوجت ذميًا، ثم أرادت الرجوع لم تُمنَع، ومن دخل من المسلمين ديار الحرب بأمان، لم يخنهم فى مالهم ولم يعاملهم بالربا، فإن خانهم أو سرق منهم أو نحو ذلك وجب ردّ ما خانهم فيه؛ والفرد المسلم له أن يؤمّن الحربى، مثله مثل الدولة، بنصّ الحديث: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم** ويسعى بذمتهم أدناهم»، وأما فى الآية: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾**(التوبة) فإن حقّ تأمين الحربيين موكولٌ للدولة وليس للأفراد، وفى القوانين الحالية فإن **اللجوء السياسى** لا تأذن به إلا الدولة.

***

١٥٥٥ - ﴿الصلاة فى المعركة﴾

انظر باب الصلاة: «صلاة الخوف».

***

١٥٥٦ - ﴿التسلل فى المعارك فرارا ليس من الإيمان﴾

يقول تعالى: **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾**(النور)، والمعنى أن الإيمان لايتم ولايكمل إلا بالسماع إلى الرسول ﷺ والطاعة له، وفى أيامنا بالسماع للقائد، وأوامر الرسول كأوامر القرآن. **والأمر الجامع** فى الآية هو ما يستلزم جمع الناس له لإذاعة مصلحة أو إقامة سُنّة، أو إعلان حرب، أو تعبئة للجيش، وللقائد هذا الحق طالما أن الجمع لصالح الناس ونفعهم، والتخاذل عنه والفرار من **الخدمة العسكرية** مخالفٌ

للدين. وفي كل الجيوش يدأب المنافقون على التسلل لواذًا من كتائبهم، ويخرجون على الجماعة، وليس لأحد أن يأذن لأصحاب الأعذار إلا قائدهم. وقد كان ذلك في جيش المسلمين كثيرًا يوم الخندق وفي غزوة تبوك.



١٥٥٧- ﴿أحكام التجسُّس في الإسلام﴾

التجسس: هو التبحُّث، مِنَ جَسّ، وتجسّس، واجتسّ الأخبار والأمور، بمعنى بحث عنها وتفحّصها؛ **والجاسوس** الذى يتجسّس الأخبار ثم يأتى بها، والجمع جواسيس؛ **وأول جاسوس في الإسلام** كان **حاطب بن أبي بلتعة**، من المؤمنين؛ **وأول جاسوسة هي سارة**، من موالي قريش وكانت من الكفار. وكان حاطب من أهل اليمن، وله حلف بمكة في بنى أسد بن عبد العُزّى، فقدمت من مكة سارة مولاة أبي عروة بن صيفي إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة، فلما استجوبها: «**أمهاجرة جئت يا سارة؟**» قالت: لا، قال: «**أمسلمة جئت؟**» قالت لا. قال: «**فما جاء بك؟**»قالت: كنتم الأهل والموالى والأصل والعشيرة وقد ذهب الموالى ـ تعنى قُتلوا ببدر. وقد احتجتُ حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى. وكانت سارة مغنّية، وشكت كساد حالها، فحثّ رسول الله ﷺ المؤمنين ليعطوها، وأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير وبُردًا، على أن تبلّغ إلى أهل مكة كتاباً أعطاه لها، وكتب فيه أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، وضمّن الكتاب أخبار تجهز النبيّ ﷺ لمكة، ووقت ذلك، يعنى كان كتابه نموذجًا لكُتب الجواسيس، وخرجت سارة بالكتاب، وكان طبيعيًا أن يشك فيها المسلمون، فأرسل النبيّ ﷺ خلفها عليًا والزبير وأبا مرثد الغنوى، وكانوا فرسانًا، وأدركوا المرأة واستجوبوها وأمروها أن تُخرج ما معها، وحلفت أن ما معها شيء، وفتشوا أمتعتها فلم يجدوا شيئًا، وكادوا يرجعون، لولا أن عليًا استل سيفه وهددها أن يجرّدها ويضرب عنقها، ورأت الجدّ في وجهه، فأخرجت كتاب حاطب من ذؤابتها، أو حُجْزَتها ـ أي معقد سروالها، وعادوا بها إلى النبيّ ﷺ، وبدأوا استجوابها وحاطباً، ونزلت الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾**(الممتحنة)، وفيها النهى عن موالاة الأعداء، ونظيرها قوله تعالى: **﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٨)﴾**(آل عمران)، وقوله: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ**

(١١٨)﴾(آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ** (٥١)﴾(المائدة)، وتقدير الآية: أن لايتخذ المسلمون من أعدائهم أصدقاء وإخوانًا وأحلافًا،إن كانوا حقّا على الإسلام، فما ينبغى لمسلم أن يوالى عدواً له فى دينه، ولا أن يلقى إليه بالمودة، ومن يوافق عدوه فى الدين، ويُسِرّ إليه ويكاتبه، يخطىء قصد السبيل، لأنه يكون جاسوسًا، وهو أشرّ ما يُبتَلى به أهل مجتمع من المجتمعات: أن يساكنهم إنسان ويعاشرهم ويضمر فى نفسه الخيانة لهم والغدر بهم، ويمالىء أعداءهم، وحتى لو كانت للجاسوس تعلّة، بأنه من أصول الأعداء، وله بهم قرابة، فلايجيز له ذلك أن يخابرهم، فالعدو عدوٌ ولو كان قريبًا، كقوله تعالى: ﴿ **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** (٢)﴾(الممتحنة)، إشارة إلى ما يناله المسلم من التعذيب ومحاولات غسل المخ إذا اشتغل مع أعداء اللّه وأعدائه جاسوسًا، ولن يتورعوا أن يُسلِّطوا عليه فيُضرَب ويُشتَم، ولن يُترَك لحاله إلا لو كفر، فهذا هو ما يريدون من المسلمين: **أن يكفروا بلا إله إلا الله**.

والحُكم فى الجاسوس: أنه إن كان لدنيا يصيبها وليس كفرًا بالله كما كان حال حاطب، ولم ينو الرِّدة عن الدين، عُفى عنه إذا أظهر التوبة وأقرّ بالذنب، ويُستبعد بعد ذلك عن أية أسرار، وأما إذا كانت عادته التجسس والخيانة والغدر، فجزاؤه القتل لإضراره بالمسلمين وسعيه فى الفساد فى الأرض. **وحاطب** عُفى عنه لأنه أُخذ فى أول فعلة، وأقرّ وتاب وأناب. وإذا كان الجاسوس حربيًا من الأعداء وعلى غير الإسلام يُقتل. وروى **علىّ بن أبى طالب**: أن النبىّ ﷺ أُتى بعَيْنٍ لأعداء الله اسمه **فُرات بن حيّان**، فأمر به أن يُقتل، فلما صرخ فى الناس: أُقتَل وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! أمر به النبىّ ﷺ فخلّوا سبيله وقال: «**إنّ منكم من أَكِلُهُ إلى إيمانه، منهم فُرات بن حيّان**».

●●●

١٥٥٨ - ﴿الذين يُخاف منهم الخيانة فى الحرب﴾

حُكم القرآن عند الخوف من خيانة قوم لنا بهم عهد، وعلمنا منهم نقضه، أن لا نوقع بهم إلى النقض حتى نلقى إليهم أننا قد نقضنا العهد والموادعة، فنكون وإياهم فى علم النقض مستويين، كقوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** (٥٨)﴾(الأنفال). وهذا الحكم من معجز ما جاء فى القرآن مما لايوجد فى الكلام مثله، لاختصاره وكثرة ما به من المعانى. فأما إذا لم يكن للعدو عهد فينبغى أن يُتحيَّل عليه بكل حيلة، وأن تُدار عليه كل خديعة، وفى الحديث: «**الحرب خَدعة**».

●●●

١٥٥٩- ﴿لا تمنّوا لقاء العدو﴾

المسلم على سؤال العافية من الفتن، ومن أقوال الصدّيق: «لأن أعافَى فأشكر، أحبُّ إلىّ من أن أبتلى فأصبر»، وفى القرآن: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ (آل عمران)، والآية عتاب للمسلمين أن تمنّوا المعركة قبل وقوعها، وفى الحديث: «لا تمنّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا». وحكمة النهى: أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، ولأنه ربما يصدر عن إعجاب ووثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو، وذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم، ويُحمَل النهى على ما إذا وقع الشك فى المصلحة أو حصول الضرر، وإلا فالقتال فضيلة وطاعة، والدعاء عند اللقاء استنصارٌ بالله، ومراعاةٌ للأدب، وفى رواية أخرى للحديث: «لاتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون، عسى أن تُبتَلوا بهم»، لأن لقاء الموت من أشق الأشياء، ولانعلم ما يغيب عنا، ولا نأمن ما يكون عند الوقوع، فيُكرَه لذلك التمنّى، فقد يخالف ما يحدث ما نَعِدُ به أنفسنا.

•••

١٥٦٠- ﴿اليهود ينقضون العهود فى كل مرة﴾

مثلهم كمثل بنى قريظة والنضير: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأنفال) وقال فيهم لذلك إنهم: ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴿٥٥﴾﴾(الأنفال).

•••

١٥٦١- ﴿فى الحرب مع اليهود شرِّد بهم﴾

الآية: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾(الأنفال)، كالقول المأثور والحكمة الغالية، وتعنى: إذا لقيتم اليهود فنكّلوا بهم ليكونوا مثلاً لغيرهم من قومهم، فيتّعظون ويفرُقون، والتشريد هو التبديد والتفريق.

•••

١٥٦٢- ﴿الحشر لليهود هو جلاؤهم القسرى﴾

المقصود بالحشر فى سورة الحشر: الإخراج الجماعى وقد حُشدوا له كأنهم فى يوم القيامة، والمقصود بالمخرَجين بنو النضيرمن اليهود، وكان رسول الله ﷺ لما قَدِم المدينة قد هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لايقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد فأجلاهم النبىّ ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ظنوا أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئًا، وتفرّقوا بددًا، فذهبت منهم طائفة إلى أذرعات من أعالى الشام، وذهبت طائفة إلى خيبر. وكانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أُحُد، وبعد بئر معونة. وقال

البخارى بطريق عروة: كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر. **والحشر** هو الجلاء القسرى، وهو خروج الناس من البلد، وأعطى النبىّ ﷺ كل ثلاثة من بنى النضير بعيرًا واحدًا وسقاءً، وضرب لهم موعدًا لجلائهم لايتجاوزونه وهو **ثلاثة أيام**. والرأى فى اليهود عمومًا ما صنعه رسول الله ﷺ معهم، فلنتعلم من ديننا.



١٥٦٣- ﴿التخيير بين القتل أو الإسلام؟!﴾

الآية ﴿**تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ**(١٦)﴾(الفتح) ضمن سياق فيه خبر عن المستقبل، أن المسلمين سيدعونَ إلى قتال قوم أولى بأس، فهل ستعتذرون وستتخلون مرة أخرى؟ علماً بأن هؤلاء الناس لن يكون الحال معهم بالصلح كما فى **الحديبية**، بل هى الحرب والموت أو أن يُسلموا لو اختاروا الإسلام بلا إكراه، والآية إذن ليس فيها التخيير بين **القتل أو الإسلام**، وليس من معانيها أن من لم يُسلم يُقتل كما يروّج المستشرقون، خاصة **اليهود**.



١٥٦٤- ﴿يُراعَى الكافر فى حرمة المؤمن﴾

الدليل على ذلك الآية: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**(٢٥)﴾(الفتح): وهؤلاء هم المستضعفون من المؤمنين وسط الكفار والمشركين، لم يعرفهم المؤمنون ولم يعلموا بهم، وإلا لجاز للمؤمنين أن يقاتلوا أهل الكفر وهؤلاء المؤمنون بينهم، وإنما خشية إلحاق الضرر بالمؤمنين، وأن يقال المسلمون يتسببون فى قتل المسلمين، وقد يضار بالقتال من أهل هذا البلد مواطنون يريدون أن يدخلوا فى الإسلام بعد الصلح، لم يجز الإسلام الرمى وهؤلاء بينهم، إلا لو تميّز المسلمون بميزة يُعرفون بها من غير المسلمين، وإذن لتيسر مقاتلة غير المسلمين، وهكذا يدفع الله بالمؤمنين عن الكفّار، فلا يمكن إلحاق الأذى بالكفار طالما أن ذلك سيؤذى المؤمنين أيضاً، فلو أن **أسارى من المسلمين** لدى العدو فلا يجوز أن تُضرَب بلاد العدو بالمدافع والصواريخ وتُشَن عليها الغارات الجوية. وكذلك لو احتمى كافر بمسلم لم يجز رميه. وإن أصيب مسلم فى عدوان المسلمين على كَفَرة، فعلى فاعل ذلك الديّة والكفّارة، فإن لم يعلم أنه مسلم فلا ديّة ولا كفّارة، وذلك لأن المسلمين يعلمون أن من بين صفوف العدو مسلمين فليس لهم أن يرموا، فإذا رموا صاروا **قتلة خطأ**، والدية على عواقلهم، يعنى على حكوماتهم. وإذا لم يكن من الممكن أبدًا مفاداة قتل المسلمين فى حالة اتخاذ العدو لهم دروعًا بشرية، فإنه

يُغض النظر عن إمكان إصابة مسلمين، والضرورات تبيح المحظورات، مع ملاحظة أن المسلمين إذا انتصر العدو سيقتلون أصلاً، وقد يقتلهم انتقاماً إذا انهزم. ولو انتهى المسلمون عن حرب الأعداء بدعوى وجود مسلمين بين سكان العدو، فسينتهى الأمر باندحار كل المسلمين، وأهون الشرّ أن يموت بعض المسلمين من بلاد العدو ويبقى كل المسلمين الآخرين.



١٥٦٥ - ﴿حسنة الجهاد بسبعمائة ضعف﴾

ورد بالقرآن أن الحسنة فى جميع أعمال البرّ بعشر أمثالها، كقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا (١٦٠)﴾ (الأنعام)، بينما حسنة نفقة الجهاد بسبعمائة ضعف، كقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ (٢٦١)﴾ (البقرة)، وفى قوله «يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ» إعلامٌ بمضاعفة الأجر لأكثر من سبعمائة ضعف، كالمزارع الذى يُحسن الفلاحة، وانتقاء البذر، ويختار الأرض الخصبة، فذلك يكون محصوله أوفر من آخر لم يهتم به، فكذلك المتصدّق المُحسن فإن أجره يزيد عن سبعمائة ضعف إذا كان هو نفسه من الصالحين، وماله من حلال، ووضع نفقته فى مكانها الصحيح. وليس من ينفق فى الجهاد ويقيم فى بيته كمن ينفق ويغزو بنفسه، فعن رسول الله ﷺ: أن الأول أجره سبعمائة ضعف، والثانى أجره سبعمائة ألف ضعف.



١٥٦٦ - ﴿السائحون والسائحات هم المجاهدون والمجاهدات﴾

السياحة صفة الكُمَّل من المؤمنين والمؤمنات، فمن صفات المجاهدين فى سبيل الله أنهم السائحون (التوبة١١٢)، ومن صفات الزوجات الصالحات أنهن السائحات (التحريم ٥)، والسياحة هى التجوال فى الأرض للعبادة والترهُّب، وعن الرسول ﷺ: «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله»، أى أن سياحتهم وتجوالهم فى الأرض من أجل إعلاء كلمة الله؛ فالمهاجرون سُيّاح فى سبيل الله، والسياحة قد تكون تجوالاً بقطع المسافات، وقد تكون تجوالاً فكرياً، بالتفكرُّ فى ملكوت الله، وكل ذلك جهاد فى سبيل الله، لأنه من أجل نشر كلمة التوحيد. وأصل السياحة: الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء، فالزوجة السائحة هى الذاهبة فى طاعته تعالى كالماء إذا ذهب، وهى المهاجرة تذهب فى الهجرة، والصائم والصائمة سائح وسائحة، لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل من حيث يجد

الطعام، فهو يذهب فى الطعام ويستمر على الطاعة فى ترك ما يترك منه ومن غيره، فكان مجاهداً كما كانت الزوجة الصالحة مجاهدة.

•••

١٥٦٧ - ﴿شروط المجاهدين فى سبيل الله﴾

في تعريف المجاهدين قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ (١١١)** ﴾(التوبة)، وأصل الشراء بين الخلق أن يعوّضوا عمّا خرج من أيديهم، والله تعالى اشترى من عباده المجاهدين أنفسهم وأموالهم فى طاعته وأوعدهم الجنة عوضًا عنها، وعوضه لايدانيه المعوض ولايقاس به. وشروطه تعالى في المجاهدين أنهم كقوله: ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)** ﴾(التوبة)، فلا يدخل تحت المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف يبذلون أنفسهم فى سبيل الله، وهم الكَمَلة يستبق إلى صفاتهم أهل التوحيد ليكونوا فى أعلى مرتبة.

•••

١٥٦٨ - ﴿لايستوى القاعدون والمجاهدون فى سبيل الله﴾

القاعدون مصطلح قرآني، والفعل قعد: أي أقام بالمكان؛ **والقاعد** فى الاصطلاح: هو الذى لم يخرج إلى الجهاد، يقول تعالى: ﴿ **لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً (٩٦)** ﴾(النساء)، وأولو الضرر: هم العجزة والمرضى والشيوخ، أقعدهم المرض والعجز والزمانة عن الخروج للجهاد، وهؤلاء هم **أهل الأعذار**، أضرّت بهم أعذارهم فمنعتهم الجهاد فليست لهم درجة المجاهدين، والناس عند الله درجات، وفضّل الله **المجاهدين** على **القاعدين** من **أولي الضرر**؛ **والدرجة والدرجات**: هى العلو، والمجاهدون يثيبهم، ويُعلى ذكرهم، ويرفعهم بالثناء، وفى الحديث: «**إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيله**» أخرجه البخارى؛ **والمعذّرون والمجاهدون** كُلاًّ وعد الله الحسنى، أي الجنة. والمجاهدون يجاهدون إما **بالمال**، **أو بالنفس**، أو بهما معًا. وقد يكون **الجهاد بالمال** أفضل أحيانًا عندما تكون الحاجة للمال لتجهيز الجيوش، وقد يكون التطوّع بالنفس أفضل أحيانًا إذا توفر المال وكانت الحاجة للأفراد، ومَن تغلب عليه السلامة فضّل أن يجاهد بالمال، ومن زهد فى الدنيا فضّل أن يجاهد بالنفس.

•••

١٥٦٩- ﴿طبقات من يقتلون فى الحرب من النساء والصبيان والضعفاء عموماً﴾

الأصل فى الإسلام هو السلم، والحرب المشروعة هى الحرب الدفاعية، كقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا (١٩٠) ﴾(البقرة)، والقتال فقط يكون للذين يقاتلون المسلمين، ولا يعتدى المسلم على النساء والصبيان ومن أشبههم، فبهذا أوصى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام، إلا أن يكون لهؤلاء إذاية، وفى الحديث عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة، فكره ذلك. أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وأبو داود والنسائي والبيهقى. والنساء إنْ قاتلن قُتلن لعموم قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ (١٩٠)﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(البقرة) ونساء إسرائيل مقاتلات، وكذلك نساء الإفرنج عمومًا، وينخرطن فى الجيوش، ويُستخدمن فى التجسس، ويشاركن فى المجهود الحربى، وذلك يبيح قتلهن. ولا تُقتل ربّات البيوت، والبنات فى المدارس، والعاملات فى المحلات، والطبيبات والممرضات ومن فى حُكمهن. ولا يُقتل الرهبان، ولايُعتَدى على أموالهم ولا كتبهم، وقد أمر أبو بكر بذلك فى مقالته ليزيد، قال: وستجد أقوامًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له». ولا يُقتل الزَّمنَى والشيوخ، وهم الذين لايطيقون القتال، ولايُنتَفع بهم فى رأى ولا مدافعة. ولايجوز قتل كل من لايقاتل ولايعين العدو. والعُسَفاء لايُقتلون، وهم الأجراء والفلاحون، وفى الحديث لرباح بن الربيع قال ﷺ: «إلحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذريّة ولاعسيفاً» أخرجه ابن ماجه وأبو داود. وأحمد، والذرية هم الأطفال.

●●●

١٥٧٠- ﴿النهى عن قتل النساء والصبيان﴾

فى شريعة اليهود: الجزية، وسبى النساء، وضَرْب كل ذكر بحد السيف (سفر تثنية الاشتراع ٢٠ / ١١ ـ١٤، وسفر العدد٣١ / ١٧ـ١٨)، وفى الإسلام: الجزية تحلّ محل الزكاة. والجزية ضريبة دفاع وليست ضريبة احتلال، ويحظر قتل النساء والصبيان بحال حتى لو تترّس أهل الحرب بالنساء والصبيان، أو تحصّنوا بحصن وجعلوا معهم النساء والصبيان، لم يجز رميهم ولاتحريقهم، ونهى النبىّ ﷺ عنهم لأول مرة يوم حنين، وكانت أوامره: «لا يُقتل الذرية ولا العسيف»، والعسيف هو الأجير، ولما رأى المرأة المقتولة فى الطائف تحرّى أمرها فقال الذى قتلها: أرادت أن تصرعنى فتقتلنى فقتلتها، فنعلم أن المرأة إذا قاتلت جاز قتلها، وكذلك الصبى المراهق. وسبب منع قتل النساء والولدان،

فلضعف النسـاء، ولقصور الولـدان عن فَهْم الكفر، وهؤلاء هم المسـتضعـفون فى الآية: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ (٧٥)﴾(النساء)، والآيـة: ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) ﴾(النساء).

●●●

١٥٧١ - ﴿المسلمون لايعتدون﴾

فى قوله تـعالى﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا (١٩٠)﴾(البـقـرة) أن المسلمـين لايعـتدون، ولايـقاتلون مَن لم يـقاتلهم، ولاإكـراه فى الدين، ومـا لم يُقـاتَل المسلمون فإنهم لايبدأون قتالاً.

●●●

١٥٧٢ - ﴿على كل مسلم أن يجاهد ولو وحده﴾

المسلم لا يدع جهـاد العدو والاستنصار عليهم للمستضعفين من المؤمنين ولو وحده، كـقوله تعـالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ (٨٤)﴾(النســاء)، لأن الله وعـد المجاهدين الأجـر العظيم. قال: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾(النســاء)، وقـال: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾(النساء)، فمن أجل تخليص المستضعفين من أيدى العدو الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم فى الدين، وجب الجهاد لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، واستنقـاذ المؤمنين الضعفـاء من عباده، وإن كان فى ذلـك تلف النفوس. وتخليص الشعوب الإسلامية المستعبده واجب على كل جـماعة المسلمين، إما بالقتال وإما بالأموال. ولذلك ينبـغى على كل مـسلم أن يجاهد ولو وحـده، ومن ذلك قـول النبىّ ﷺ: «والله لأقاتلنهم حتى تنفـرد سالفتى» أى حتى لو بقـيت وحدى، وقال أبو بـكر فى الـردّة: ولـو حالفتنى يمينى لجاهدتها بشمالى.

●●●

١٥٧٣ - ﴿القتال لتجنب الفتنة﴾

فى قوله تـعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾(البقرة)، والفتنة هى الضلال والزيغ والظلم والجور، فجعل الغاية من القتـال إنهاء ذلك كله وتجنب أن تسود الوقيعة، وفى التـاريخ فإن الدول الاستعمارية من دأبها أن تـنشر الفـتن فى العـالم، وتنسب إثارة الفتن للمـسلمين، فإنّ فُرض القـتال على

المسلمين ليتجنوا أن يحيق بهم الأذى فلا ينكصوا ولا ينخذلوا؛ **وأصل الفتنة**: الابتلاء والاختبار والامتحان، تقول فتنتُ الفضة يعنى أدخلتها النار فتُجلى حقيقتها ويبين جيدها من رديئها، والقتال وإن كان شرًا إلا أنه قد يمنع الفتنة ويميز العدو من الصديق . ولا نهاية للقتال إلا أن يسود الدين ويكون لله، أى عند ظهور الحق والحقيقة، وينتهى الظالمون عن ظلمهم، والغويّون عن غيّهم، والضالون عن ضلالهم، ويعود الحق إلى أصحابه، وتُردّ المظالم، وإلا فالقتال مستمر وهم الظالمون ولا عدوان إلا عليهم، وتسمى الآية ما يُصنع بالظالمين **عدواناً** من حيث هو جزاء للعدوان، لأن الظلم يتضمن العدوان، فسُمّى جزاء العدوان **عدوانًا**، كقوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** (٤٠) ﴾(الشورى)، **والظالمون** هم من بدأ القتال، ومن أنزل الظلم واستحدث الفتنة والوقيعة.

•••

١٥٧٤- ﴿مشروعية المصالحة مع العدو عند الضرورة﴾

فى الآية: ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**  ﴾(الأنفال) حضٌّ على موادعة يهود بنى **قريظة** وقبول الجزية منهم، وفيها **مشروعية المصالحة** عموماً مع العدو. **والسلم**: هو الصلح، وجنحوا: مالوا، ومعنى الشرط فى الآية أن الأمر بالصلح مقيد بما إذا كان الأصلح للمسلمين المصالحة أم الحرب، فإذا كان المسلمون ظاهرين على أعدائهم وليست هناك مصلحة فى المصالحة فلا. والمصالحة معهم كانت **استئلافاً لليهود، وطمعاً فى دخولهم الإسلام**، أو كانت **بالمال**، ويُحتمل الاثنان. **وموادعة أهل الحرب** على مكاسب ومغانم أو جزية لاتجب إلا عن ضرورة، ولابأس فى الضرورة عن المصالحة على غير شيء سوى المصالحة، لأن الحرب تشغل عن تنمية المجتمع المسلم، وقد وقع ذلك فى **صلح الحديبية**. وإذا ضعف المسلمون عن قتال أعدائهم جازت لهم مهادنتهم على غير مكاسب، مخافة اصطلام المسلمين لكثرة العدو أو كثرة عتاده، أو لظروف دولية، وذلك من معانى الضرورات. ومهادنة الأعداء جائزة للسنة والسنتين والعشر سنوات. وقد هادن النبىّ ﷺ **عيينة بن حصن الفزارى، والحارث بن عوف المرى** يوم الأحزاب على أن يعطيهما ثلث ثمر المدينة وينصرفا بما معهما من جنود غطفان ويخذلا قريشاً. وكانت فعلته معهما مراوضة ـ أى مداراة، ولم تكن عقداً. فلما رأى أنهما قد رضيا استشار **سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة**، فسألاه: أهذا أمر تحبه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ فقال: «**بل أمر أصنعه لكم، فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة**» فقال له سعد بن معاذ: يارسول الله، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك

وعبادة الأوثـان، لا نعبد الله ولا نعرفـه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثـمرة، إلا شراءً أو قرىً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا؟ والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم! فَسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ، وقال: «**أنتم وذاك**»، وقال لعيينة والحارث: «**انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف**» وما أشبه الأمس باليوم، فهل من مُدّكر؟!



١٥٧٥ - ﴿فى الإسلام: إعلان الحرب شرطه التبيّن﴾

الحروب **مشروعة وغيرمشروعة**، والأولى هى **الحرب الدفاعية**، والمدافعون لايقال عنهم إرهابيون، وقبل إعلان أية حرب لابد من التبيّن، وفيه يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا**(٩٤)﴾(النساء)، والضرب فى سبيل الله هو **الحرب الإيمانية**، أى المشروعة التى ليست لمغانمٍ ولدنيا يصيبونـها، وإنما لطرد المعتدين والغاصبين ولإحقاق الحق وإقامة ميزان العدل، **والتبيّن هو التثبّت** ولكنه أوكد منه، لأن الإنسان قد يتثبت ولايتبين. والتبين من فعل **بان** أى وضح، ومنه **البيان** وهو ما يُتبيّن به الشىء من الدلالة، **والبيّنة** وهى الدليل والحجة، فلا حرب تُشَن دون سبب مشروع، وأن يكون للذى يعلنها الأدلة الدامغة على إدانة الطرف الآخر. والمسلمـون يُنسَب إليهم أنهم **إرهابيـون**، وبهذه الدعـوى تُشَن عليهم الحـروب ويُقتَلون، وتُدمَّر مُدنهم وبيـوتهم، والتبيُّن واجب، وإن لم يفـعله الكفرة فالمسلمون أحرى أن يقوموا به ويدعوا إليه.



١٥٧٦ - ﴿الحذر من الطابور الخامس بين المجاهدين﴾

الجندية شـرف لا يعادله شـرف آخر، وأى عـمل فى الدولة يُستَنّ لمن يكلّف به أن يُتحرَّى عنه، والواجب أن يُستبعد من الجهاد المخذّلون والمرجِّفون والجواسيس، وهم الذين ينشرون الأقاويل والإشاعـات بقصد تثبيط الهمم، وينقلون للعـدو أخبار المسلمين، ومنهم الهمّازون اللمّازون يسعون بالفساد والوقيعة بين المجاهدين.



١٥٧٧ - ﴿الاستعانة بأهل الذمة فى الجهاد﴾

تجوز الاستعـانة بأهل الذمّة وأهل الكتاب، فى غير القتـال بشرط أن يكون المسلمون فى حاجـة إليهم، وأن يأمنوا شرّهم إذا استـعانوا بهم، وركنوا إلى أمانتـهم، وضمنوا ألا يغدروا بهم. وقـد استعـان رسول الله ﷺ **بصـفوان بن أمية** قبـل إسلامه علـى حرب

هوازن، واستعان بيهود بنى قينقاع وخصهم بشىء من المال فإذا كان الذمى أو الكتابى غير مأمون، أو كان المسلمون فى غنى عنه فلا يجوز الاستعانة به إطلاقاً، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** (٥١)﴾ (الكهف)، وقوله ﷺ: «**لا أستعين بالمشركين على المشركين**» أى مع فقد الشرطين السابقين فلا حاجة للنصرة بهم، ومع ذلك فإن المشاهد أن الله تعالى ينصر الإسلام بقوم لا خلاق لهم.

●●●

١٥٧٨- ﴿لا تنازع واختلاف فى الحرب﴾

لا يصح التنازع والاختلاف بين مقاتلة المسلمين فى ظروف الحرب، وفى الآية: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** (٤٦)﴾(الأنفال)، والريح هى قوة المسلمين، والتنازع يعطبها ويفرغها من طاقتها فى الاختلافات، فيكون الفشل، فأول ما يجب على المسلمين فى حربهم أن يكونوا على قلب رجل واحد، كما فى الصلاة، ويأتمروا بإمامهم، وفى يوم أحد لما اختلفوا ولم يطيعوا ذهبت ريحهم فانهزموا.

●●●

١٥٧٩- ﴿لا تضرم الحروب بناءً على ظن ولا تؤخذ الأمة بجريرة واحد﴾

فى الحديث عن أبى هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قرصتْ نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه أنْ قَرَصَتْكَ نملة، أحْرقتَ أمّة من الأمم تسبح الله**»!، فلاحول ولاقوة إلا بالله، أن تؤخذ أمة بجريرة واحد، وأن يتّهم المسلمون جميعًا والإسلام أيضًا، ويُضرَب شعب كشعب أفغانستان بأعتى أدوات الدمار الشامل، لظن ظنوه، فهذا منهيٌّ عنه فى الإسلام على الأقل، وفى مثل ذلك يقول تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى** (٢٣)﴾(النجم)، ويقول: ﴿**وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا** (١٢)﴾(الفتح)، فالحروب لاتضرم بناءً على ظن، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

●●

١٥٨٠- ﴿عمل المسلم إذا مكن فى الأرض﴾

يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** (٤١)﴾(الحج)، والتمكين:هو أن يئول الأمر إلى المسلمين، وتُناط بهم سيادة الناس. والتمكين هو الفتح والنصر لتكون الولاية للمسلمين. وشَرْطُ الله على أمة الإسلام إذا فتح الله عليهم، أن يقيموا هذه الأركان الثلاثة: **الصلاة، والزكاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر**. وذلك الشرط هو نفسه شرطه تعالى على كل من يؤتيه

الحُكم. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تخصيصاً هو واجب الحكام والشرطة والمحامين وأساتذة الجامعات والمعلمين والصحفيين وأصحاب الفكر والقلم، وعلى كل هؤلاء أن يستنفروا المشرّعين وأصحاب النفوذ أن يقوموا بهذا الركن من أركان الإسلام.

•••

١٥٨١ - ﴿المحارب هو من حمل على الناس﴾

المحارب في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)** ﴾ (المائدة): هو من يحمل على الناس فى الحضر أو السفر، وفى بيوتهم أو فى الطريق، وقد يهددهم فى أنفسهم ويحتال على قتلهم، ويقال له بالمصطلح الحديث «قاطع طريق». واصطلاح المحارب من قوله تعالى ﴿**يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾. وحُكم المحارب أن يقام عليه الحدّ بقدر فعله، وللقاضى أن يحكم عليه بأىّ من الأحكام التى أوجبها الله كعقاب لجرمه، وأخفها النفى من دار الإسلام، ومن النفى السجن، لأنه نفيٌ من سعة الدنيا إلى ضيقها، وكان **عمر بن الخطاب** أول من قضى بالحبس فى السجون، وبرر ذلك بقوله: «**أحبسه حتى أعلم منه التوبة، و لا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤذيهم**». وأما المجرم المسجل خطر فيُغرّب ويسجن بحسب الخوف منه. **والحرابة**: هى فعل المحارب، ولشناعتها جاء فى عقابها أن يُقتّل المحارب أو يُصلّب أو تقطع يداه ورجلاه من خلاف، وهذا بعض عقاب الدنيا، ولا تفيد توبته فى إسقاط العقاب بسبب عِظَم الضرر الذى يخلّفه المحارب، واسمه **المحارب** لأن ما يفعله كالحرب يشنها على الناس فى المصر أو فى المنازل والطرق والقرى. وقيل المحاربة لا تكون فى المصر ولكنها خارج المصر، **والمغتال** كالمحارب، وهو الذى يحتال فى قتل إنسان على أخذ ماله. وإذا حُكم على المحارب بالتغريب فإنه يُسجن حيث يغرّب. ومن المحاربة سدُّ سبيل الكسب على الناس، لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات، وركنها وعمادها كثرة الأسفار كقوله تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ (المزمل ٢٠)، فإذا أُخيف الطريق انقطع الناس عن السفر، فينسد باب التجارة عليهم، وتنقطع أكسابهم، فشرع الله على قطّاع الطرق الحدود المغلّظة، ولم يجعل جرائمهم من أنواع السرقة ولكنه جعلها جرائم حرب.

•••

١٥٨٢ - ﴿أحوال المسلمين مع الأسرى﴾

من قواعد الحرب فى الإسلام أن **الأسير** يُصفَّد بالأغلال، إلى أن يُطلق سراحه، وإلا

يظل حبيسًا إلى أن تنتهى الحرب، ويفديه قومه، كقوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد). وإطعام الأسير، وعلاجه، حقٌّ حتى وإن حُكم عليه بالموت لغدر غدره، فإنه ينبغى أن يُطعم، ويُسقى، ويُداوَى، ويُرفق به على أى ملة كان، كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان٨)، والأسير بالمعنى الشامل كما قال النبىّ ﷺ هو «المملوك والمسجون»، وإطعامه يشمل كل شيء يحفظ عليه نفسه، كالطعام، أو الشراب، والنوم، والكسوة، والعلاج، وكل ذلك قُربة إلى الله، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ (الإنسان). وأما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال ٦٧) فإنه خاص بالنبىّ ﷺ ،وبيوم بدر، وليس عاماً، وكان المسلمون وقتذاك قليلين، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ (محمد ٤)، وفى نفس المعنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ (الأنفال)، والآية خاصة بالنبىّ ﷺ وعمّه العباس وجماعته يوم بدر، فتكلَّم الأسرى عن الإسلام ولكنهم لم يمضوا فيه جميعاً عزيمةً، ولا اعترفوا به اعترافاً جازمًا، وتلك كانت خيانتهم وكان مكرهم مع أن المسلمين عاملوهم أحسن معاملة. وفى التوراة عكس ذلك تماماً، فكل الذكور من الأسرى والولدان يُضرَبون بحدّ السيف، وتُغنم النساء والأطفال والبهائم ، وأما المدن فيُقتل كل من فيها فلا يتبقى منهم نسمة، وأما الشجر فلا يُقطع طالما ينتظرون منه الفائدة (تثنية الاشتراع ٢٠/١٣- ٢٠).
فشتّان بين أحكام الإسلام مع الأسرى وغيرهم، وبين أحكام التوراة فيهم.



١٥٨٣- ﴿المعاش للمجاهد للشهيد﴾

من يُقتل شهيداً فى الجهاد، استحق أولاده وزوجته ومن يعولهم من أهله كأخواته البنات، وأمه وأبيه الشيخين؛ ويشترط فى المعاش أن يكفيهم كما يشترط أن يخصص للمجاهدين تعويض يدفع لهم فى حالات الإصابة بعاهة بالإضافة إلى المعاش، ويُدفع التعويض لورثته الشرعيين عند استشهاده بحسب استحقاقهم.



١٥٨٤- ﴿الشهداء فى الإسلام لهم أعلى الدرجات﴾

فى اللغة أُشهد واستُشهد أى قُتل فى سبيل الله، والشهادة: الموت فى سبيل الله،

والشهيد: هو القتيل في سبيل الله، والجمع شهداء، والمؤنث شهيدة، وفي الحديث: «الشهداء أربعة: رجلٌ مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصَدَق الله فقُتل؛ والثاني: مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح، جاءه سهمُ غربٍ فقتله، فذاك في الدرجة الثانية؛ والثالث: رجل مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الثالثة؛ والرابع: رجلٌ مؤمن أسرف على نفسه إسرافًا كثيرًا، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الرابعة» أخرجه أحمد والترمذي. وكان عمر يدعو: «اللهم ارزقني الشهادة»، والدعاء إنما بقصد الحصول على درجة الشهادة العليا؛وتمنّيها إنما لإعلاء كلمة الله حتى يبذل الشهيد نفسه لتحصيل ذلك. وحتى النساء منهن الشهيدات، وكن يسألن الشهادة، وسألت أم حرام رسول الله ﷺ أن يرزقها الشهادة في سبيل الله، والشهادة هي الثمرة العظمى الأولى في أي حرب، وأي جهاد. وفي الحديث: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله»، وقال: إن في الجنة داراً هي «دار الشهداء»، وقال: إنه لا أحد يتمنى ليعود إلى الدنيا من الآخرة: « إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى». وفي الحديث: «لاتجف الأرض من دم الشهيد» ،يعني أن التاريخ لايهمله، والناس لاينسوه، والإسلام ولّاد، ولن يُحرَم المسلمون من شهداء منهم، وتمنّى الرسول ﷺ الشهادة فقال: «والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أُقتل» وقال: «من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم يصبها» أي أُعطي ثوابها ولو لم يقتل. أخرجه مسلم، وفي رواية أخرى قال: «من سأل القتل في سبيل الله صادقاً ثم مات، أعطاه الله أجر شهيد»، وفي رواية أخرى قال: «من سأل الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه».ولمّا أصيب أخو أم سليم في مقتل وهو يدعو إلى الله قال: «فزتُ وربِّ الكعبة! يعني فاز بالشهادة، قالها فرحاً. والمسلمون مبتلون ولهم العاقبة، وفي غلبة المسلمين لهم الفتح والنصرة والدرجة الرفيعة عند الله، وفي غلبة أعداء الإسلام فللمسلمين الشهادة ، وهذا معنى «إحدى الحسنيين» في الآية : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾(التوبة)، فالمسلمون إحدى جماعتين، كقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾(الأحزاب)، قيل: نزلت الآية في أنس بن النضر وفي أشباهه الذين قتلوا دفاعاً عن الإسلام، قيل: وجدوا به بعد أُحد بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة بالرمح، أو رمية بالسهم، ومثّل به أعداء الإسلام، فما عرفه أحد، إلا أخته عرفته ببنانه! وقال عمر للرسول ﷺ : أليس قتلانا

في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، ثم قال: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، يعني للشهداء في سبيل الله. وفي الحديث: أنْ لا نقول عن فلان أنه مات شهيداً: «ولكن قولوا: من مات في سبيل الله أو قُتل فهو شهيد» وقال: «الله أعلم بمن يجاهد في سبيله». رحم الله شهداءنا وأثابهم عنا خير الثواب.



١٥٨٥ - ﴿الشهداء أحياء عند الله﴾

نهى الله أن يقال عن الشهيد أنه ميت، قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾(البقرة)، وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (آل عمران). ولامحالة أنهم ماتوا، وأن أجسادهم في التراب، غير أن أرواحهم حية، وهي حية كأرواح غيرهم من المؤمنين، إلا أنهم فُضّلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل، بينما المؤمنون موتى حتى يحين الحساب، فكأن حياة الدنيا ما تزال للشهيد، مع فارق أنها حياةٌ في الجنة. قيل: نزلت هذه الآيات في الشهداء لئلا يزهد الناس في الجهاد، ولاينْكُلوا عند الحرب. وقيل: نزلت هذه الآيات تنفيساً عن أهل الشهداء وإخباراً عن حالهم عند ربّهم. ومعنى أنهم أحياء يرزقون، أنهم يجدون ريح الجنة وينعمون، وقد استحقوا التنعُّم، كقولنا في الأمثال ما مات فلان، - أي ذِكرهُ حيّ، وكقول الشاعر:

موت التقيّ حياة لافناء لها .·. قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

ولذلك قيل الشهداء يرزقون في الدنيا الثناء الجميل، وعند ربهم حُسن الجزاء. وقيل: إن الأرض لاتأكل أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء، والمعنى ليس على الحقيقة ولكنه على المجاز: أن ذكراهم باقية لا تفنى، وأما الأجساد فتفنى، فذلك قانون الله في الأرض، وكذب من قال إن جسد النبيّ ﷺ لم تأكله الأرض، فالرسول بشر من بشر، وهذا هو قانون الموت لاانفكاك منه، وفي الرواية أن الرسول لمّا مات يوم الاثنين ودفن يوم الأربعاء، كان جسمه قد انتفخ وعلا صدره، وانتفخت أصابعه، وصارت له رائحة، فذلك لأنه بشر، وأما عند الله فالأمر مختلف: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (العنكبوت)، والجبّانات كفات الأموات، والبيوت كفات الأحياء، وأما الشهداء والأنبياء فهؤلاء أحياءُ حكماً. والشهداء يُغسَّلون لو تيسر ذلك، ويُصلّى عليهم؛ وقيل: لا يُغسّل من مات في المعترك، ومن قتله البغاة، والواجب عقلاً غسل كل ميت والصلاة عليه طالما هو مسلم.



١٥٨٦ - ﴿أول شهيد في الإسلام: مهجع﴾

مِهْجَعَ بن صالح العَكيّ، مولى عمر بن الخطاب، أصله من عَك، أصابه ـ سباء ـ أي حرق، فأعتقه عمر، وكان من السابقين إلى الإسلام، وشهد بدراً واستشهد بها، فكان أول الشهداء في ذلك اليوم. وأول شهيد في الإسلام من الرجال يستشهد في قتال. وفي الحديث: «سيد الشهداء مهْجَع، وهو أول من يُدعَى إلى باب الجنة من هذه الأمة». وجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت الآية: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ (العنكبوت) وهذه الآيات قيل إنها ضمن آيات عشر نزلت في المدينة وضُمّت إلى سورة العنكبوت . وبدر كانت والمسلمون في المدينة.

●●●

١٥٨٧ - ﴿أول شهيدة في الإسلام: أم عمّار﴾

هي سمية بنت خباط، أو بنت خَبط، كانت مولاة لأبي حذيفة بن المغيرة. وهي والدة عمّار بن ياسر، وكانت سابعة سبعة في الإسلام، وعذّبها أبو جهل، واتهمها في شرفها، ونسب إليها أنها أسلمت لتكون بغي المسلمين، ولذلك لمّا ربطها بين بعيرين جاء بحربة وطعنها في فَرْجها حتى نفذت الحربة إلى فمها، فكانت أول شهيدة في الإسلام، وقتل معها زوجها ياسر، فكانا أول قتيلين في الإسلام.

●●●

١٥٨٨ - ﴿أول غنيمة وأول أمير وأول قتيل من المشركين﴾

أرسل الرسول ﷺ في رجب عبدالله بن جحش ومعه ثمانية من المهاجرين أو تسعة إلى نخلة بين مكة والطائف يترصّد قريشًا فيعلم من أخبارهم، ولما نزل بنخلة مرّت بهم عير لقريش تحمل تجارة وفيها عمرو بن الحضرمي، واسمه بالكامل عبدالله بن عبّاد، وكان من حضرموت، وتشاور المسلمون هل يهاجمونهم أم يتركونهم يدخلون مكة؟ واهتدوا أن يهاجموهم، ورمى أحد المسلمين ـ وهو واقد بن عبدالله التميمي ـ عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا اثنين، وأمر عبدالله بن جحش أن يعزلوا من الغنيمة خُمسها للرسول ﷺ، ففعلوا: فكان أول خُمس في الإسلام، ونزلت به الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ (٤١) ﴾(الأنفال)، فأقر الله ورسوله فعل عبدالله، ورضيه وسنّه للأمة، وهي أول غنيمة غُنمت في الإسلام، وأول أمير هو عبدالله بن جحش، وأول قتيل من المشركين هو عمرو بن الحضرمي.

●●●

١٥٨٩- ﴿الهجرة كجهاد﴾

الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، بقصد ترك الموضع الأول إيثاراً للموضع الثاني. وقيل: الهجرة قسمان: فهى إما هربًا، وإما طلباً، **فالأولى** تنقسم إلى ستة أقسام، وهى: **الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام**، كأن يُضطهد المسلمون فى أمريكا فيعودون إلى بلادهم الأصلية، أو يضطهدون في مصر فيلجأون إلى السعودية، كقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ﴾ (النساء ٩٧)، وهذا القسم من الهجرة كان فرضًا فى أيام النبىّ ﷺ، وقيل: وما يزال فرضاً إلى يوم القيامة، وننبّه إلى أنه فى زمن النبىّ ﷺ كان فى حاجة إلى المجاهدين، فكان يدعو المسلمين أن ينضموا إليه، وأما اليوم فينبغى أما أن لا يبارح مسلمٌ بلداً هو فيه مهما لاقى من الاضطهاد، وإلا استولى العدو على أرضه وبيته وأسقطوا حقة فى العودة كما حدث فى فلسطين ١٩٤٨ و ١٩٦٧..؛ **والثانية: الخروج من أرض البدعة**، وقيل لايحل لأحد أن يقيم بأرض يسَبُّ فيها الإسلام، وننبّه إلى أنه حتى بأرض الإسلام كثيراً ما يُسبّ الإسلام، فلا ينبغى للمسلم أن يترك بلده لسبب كهذا، بل عليه أن يصبر ويصابر ويثبت فى مكانه، وحاله فيه كحال المسلمين فى مكة فى أول الإسلام، فكان الله يأمرهم بالصبر والحسنى، وأن يكونوا قدوة؛ **والثالثة**: الخروج من أرض غلب عليها الحرام، وهو عُذرٌ واهٍ كما نرى، لأن الحرام صارت له الغلبة فى كل مكان، وصحيح أن طلب الحلال فرضٌ على كل مسلم، وإنما بوسع المسلم أن يطلبه فى أى بلد كان، وبلده أوْلى به؛ **والرابعة**: الفرار من الأذية فى البدن، والله تعالى أرخص ذلك للمسلم، فإذا خشى على نفسه فقد أذن له فى الخروج والفرار بنفسه، ليخلّصها من المحذور، وأول من فعل ذلك إبراهيم الخليل، فلما خاف من قومه قال: ﴿**إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى** (٢٦)﴾(العنكبوت)، وقال: ﴿**إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ** (٩٩)﴾(الصافات) وفعل ذلك موسى كقوله تعالى: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**(٢١)﴾(القصص)؛ **والخامسة**: خوف المرض وطلب العلاج إذا كان المناخ لايناسب حالة المسلم الصحية، وفى حالات انتشار الأوبئة، ففى بلد يكثر فيه الإيدز أو التهاب الكبد الوبائى ينبغى على المسلم أن ينأىَ بنفسه عن العدوى بالهجرة؛ **والسادسة**: خوف الأذية فى المال، كالمصادرة وانتشار السطو المسلح، فلا تكون للمال ولا للأهل حرمة. وأما **الهجرة للطلب**، فتنقسم قسمين: طلب الدين أو طلب الدنيا؛ وأما طلب الدين فيتعدد، فهناك السفر للعبرة، كقوله تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**(٩) ﴾(الروم)؛ وهناك السفر للحج؛والثالث سفر الجهاد، والرابع سفر المعاش طلبًا

للرزق، والخامس سفر التجارة والكسب، والسادس السفر طلبًا للعلم. والسابع السفر لزيارة الأماكن، والثامن زيارة الإخوان والأهل، والتاسع الملازمة فى الثغور للرباط وتكثير المدافعين عنه. وفى بعض هؤلاء قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ** (٢١٨) ﴾(البقرة)وقال﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** (١٩٥) ﴾(آل عمران)، وقال: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ** (٢٠) ﴾ (التوبة).

•••

١٥٩٠- ﴿أول المهاجرين إلى الله إبراهيم ولوط وسارة﴾

لما دعا إبراهيم قومه ليؤمنوا عذّبوه وحرّقوه، ولم يجد إبراهيم إلا أن يهاجر، فترك بلده بالكوفة إلى حران، ثم إلى الشام، ومعه لوط ابن أخيه، وامرأته سارة، تقول الآية: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٢٦) ﴾(العنكبوت)، وإيمان لوط به لما لم تؤذِ النار إبراهيم، وفى الآية أن إبراهيم ولوطاً هاجرا إلى الله، وفيها أيضًا أن الهجرة كانت لهما معاً. فكانا أول من هاجر من أرض الكُفر فى التاريخ، وكانت سارة أول المهاجرات من النساء.

•••

١٥٩١- ﴿أول المهاجرين إلى الله من المسلمين: عثمان ورقية﴾

هو عثمان بن عفان، وزوجه رقية بنت النبىّ ﷺ. هاجرا إلى الحبشة فى الهجرة الأولى، وقال فيهما رسول الله ﷺ: «**صحبهما الله. إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط**».

•••

١٥٩٢- ﴿المهاجر فى سبيل الله والمراغم﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** (١٠٠) ﴾ (النساء): أن المهاجر فى الاصطلاح: هو الذى يهجر بلدًا يضطهده بسبب دينه إلى بلد آخر فيه سماحة، والهجرة فى هذه الحالة تسمى هجرة فى سبيل الله. وأما المراغَم: فهو أيضًا من المظلومين المجبرين على الهجرة، لأى سبب من الأسباب سوى أن يكون فى سبيل الله. يقال أرغمه قومه على الهجرة فهو مُراغَم أُجبر على الهجرة رغمًا عنه، ورغم أنفه، ونحن نسمى المجتمع الذى هذه صفاته، والذى يستقبل المهاجرين والمراغَمين، مجتمعاً مفتوحًا، ولذا جاء أن المهاجر يجد فى مجتمع كهذا سعة، كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا**

إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (١٠٠)﴾ (النساء)، فالهجرة إلى الله لها ثوابها، والخروج بنية الـهجرة يتحصّل به الثواب، ومن مات في المهـجر أو وهو في طريقه إليه، فـأجره على الله، وفـي الحديث: «**إنما الأعمـال بالنيات، وإنما لكل امرئ مـا نوى، فمن كانت هجـرته إلى الله ورسوله، فهجـرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجـرته إلى دنيا يصيبـها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»، والآية دالة على أنه لا يحق لمسلم أن يقيم بأرض لا يُعبَد فيها الله، ولا يعلو فيها الحق والعدل والخير.

•••

١٥٩٣- ﴿التحريض على الهجرة﴾

ليس بصـواب البقاء في بقـعة يؤذَى فـيهـا المسلم من عدو للإسـلام، والصواب أن يتلمس المسلمون أرضًا يكونون فيها آمنين مع صالح الناس، يقول تعالى: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**  **﴾**(العنكبوت) والكلام ليس للمسلمين جملةً، **لأن في ذلك ترك الوطن للعدو يمرح فيه** ويحتله ويستعمره، ولن توافق دولة من دول الجوار على هجـرة شـعب بأكمله كالشـعب الفلسطيني. وإنما الكلام موجه **للمضـطهدين** من المسلمـين أفرادًا، فبوسع هؤلاء أن يهاجروا، وأن تقبلهم دول أخرى كلاجئين سياسيين. وهذه الآية نزلت في المسلمـين الذي ظلوا **بمكـة** بينما أهاليهم قد هاجـروا إلى المدينة، فالهجرة كانت **داخل الوطن الواحد**، وأما الهجرة إلى **خارج الوطن** فكانت زمن الرسول ﷺ **إلى الحبشة في الهجرة الأولى، ثم في الهجرة الثانية**، فلما آل الأمر إلى المسلمين في مكة عاد المهاجرون إلى بلادهم. ولايجوز الهجرة لشعب كشعب **البوسنة**، أو كشعب **الشيشان**، أو كالشعب الفلسطيني، وكان الخطأ كبيرًا لما هاجرت جموع الفلسطينين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧، ولما هجر أهالي القنال أرضهم ومُدنهم في حرب ١٩٦٧، والآن تعلم الشعب الفلسطيني أن لا يترك الأرض وإن استـشهـد على بكرة أبية. وإذا خرج المسلم من بلده مـهاجرًا فـعليه أن يحافظ على جواز سفـره وأوراقه الثبوتية ليعود إذا أمن حـاله. وكل مدينة أو قرية أو دولة يتحقق فيها ظلم أو منكر على يد عُمدتها، أو رئيس الدولة الطاغية، فإن أحكام هذه الآية تسري على مسلميـها، وتُلزمهم على الهجرة عنها إلى بلد فيـه العدل. ويقول تعالى: «**إن أرضي واسعة**» يعني فهاجروا وجاهدوا. وفي الهجرة ربما يمكن أكثر إزالة العدوان عن بلد المهاجر، ومـعاونة أهله فيها على المحتل، أو على الحـاكم الظالم. والمعنى العام للآية: **أن الهجرة واجبة لأسباب قد تكون سياسـية أو اقتصادية أو اجتماعية**، فإذا كنت بأرض ركَد فـيها الاقتصـاد مثلاً؛ أو تحكّمت فيـها القلة، فانتقل إلى غـيرها حيث الاقتـصاد حرّ، والحُكم

ديمقراطى، والناس أكثر تسامحًا، وأهدأ طبعًا، والبطالة منعدمة، والرزق وفير، والشرف والعِرض مصونان، وهكذا. والهجرة تساعد على الخروج على الحاكم الظالم، وإعلان الثورة على نظامه. وروى ابن عباس: أن النبىّ ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون: «**اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولاتجاوروا الظلمة**».

•••

١٥٩٤ - ﴿الذمة وأهل الذمة﴾

الذمّة فى الآية : ﴿**لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إلاًّ وَلا ذِمَّةً**﴾(التوبة ٨) هى **العهد**، وكل حُرْمة يلزمك إذا ضيّعتها ذنب. وفى الحديث: «**ويسعى بذمتهم أدناهم**» أن الذمة **الأمان**، والجمع ذمم. **والذمّيون** أو **أهل الذمة** مصطلح فقهى قديم عفا عليه الزمن، وليس من المصطلحات القرآنية ولا النبوية، وهم **المواطنون من غير المسلمين**، ولايعنى ذلك أن المواطنة فى الدولة الإسلامية **تمايز بين المسلمين وغير المسلمين**، أو أن الذميين **مواطنون من الدرجة الثانية**، فالدولة الإسلامية تضمن لمواطنيها من غير المسلمين **حرية الاعتقاد**، وممارسة طقوسهم الدينية، والاحتفال بمناسباتهم الاجتماعية، وتفسح لهم المجال لتكون لهم ثقافتهم الخاصة من داخل إطار الثقافة العامة للدولة. ويدفع أهل الذمة **الضرائب**، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين، وكانوا فى الماضى يدفعون **الجزية**، من **جَزَى تجزى جزاءً**، مقابل زكاة **المال** التى كان يدفعها المسلمون، **والجزية أقل من** زكاة **المال** (**انظر الجزية**). ولغير المسلمين كافة الحقوق، وعليهم كافة الواجبات كالمسلمين، ويرجع فى تنفيذها إلى قواعد القانون التى تكفل لهم المساواة، وهم لا يحرمون من الجنسية ولا المواطنة، ولهم الاختيار بين القضاء الإسلامى أو محاكمهم الطائفية، ويؤدون الخدمة العسكرية، ويلحقون بالجامعات المدنية والعسكرية. ولاينبغى أن نخلط بين **أهل الذمة وأهل الكتاب**: فالاصطلاح الأول فقهى **سياسى**، والاصطلاح الثانى **دينى**، وأهل الكتاب هم **اليهود والنصارى**، من المواطنين، أو الأجانب. وكذلك لاينبغى الخلط بين أهل الذمة **والمستأمنين**: وهم الأجانب من غير أهل البلاد. وليس **عقد الذمة** من العقود **التى** يمكن **لأحد** الطرفين أن ينكر أياً من بنودها تحت أى دعوى كانت، وكانوا **يطلقون** على عقد الذمة اسم **عقد الأمان**، أى العقد الذى **يعطى** أهل الذمة حق الحماية من الدولة **لأنفسهم** وأملاكهم، ويتمشى ذلك مع **المبدأ الأصولى** فى الفقة الإسلامى: بأن نظام **الحكم** كله قائم على أساس تعاقدى، فرئيس الدولة يتولى السلطة بناءً على **البيعة أى الانتخاب** ، وهو عقدٌ يخضع بصفة أساسية لأحكام العقود. وفى الدولة الإسلامية فإن علاقة الدولة بالأفراد ـ مسلمين أو ذميين أو مستأمنين ـ تؤكد

فكـرة المسـاواة بين المواطنين رغم اختلاف دياناتهم، وتجـعل من الممكن تطوير العلاقة بين الدولة ومواطنيها إلى أبعد مدى.



١٥٩٥- ﴿الجزية وأهل الذمة وأهل الصلح﴾

فُـرضت الزكـاة على المسلمين وكانت قـديمًا تُجمَع إلى بيـت المال (وزارة الخـزانة أو المالية)، وليس على غير المسلمين فى بلاد الإسلام زكـاة، وفى مقابل ذلك كانوا يفرضون عليهم الجزية بمواصفات خاصة، وتدفع طوعاً وعن رضا لبيت المال. وفى الآية : **﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾**(التوبة)، فلما قاتل المشركون المسلمين، وأخرجوهم من ديارهم، ومنعوهم من عـبادة ربّهم وبدأوهم بالقتال، كتب الله على المسلمين القتال رداً على من بدأوهم به، وهم صنفان: المشركون من أهل مكة وأهل الكتاب من يهـود المدينة، والأولون لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولايحرّمـون ما حرم الله ورسوله، وأمـا اليهود فقـد ضلوا عن الدين الحق وحرّفوه، وعادوا المسلمـين واعتدوا عليهم، وألّبوا عليـهم القبائل، إلى أن كُتب النصر للمـسلمين على هؤلاء وهؤلاء، وقُدّر لهم أن يعايشوهم وأن تجمعهم البلاد فكان علـى المسلمين ترتيب الحقوق والواجبات، فلما كانت الزكاة قد فرضت على المسلمين وأعفى منها غير المسلمين، فرضت الجزية على غير المسلمين كمقابل للزكاة على المسلمين؛ والزكاة تكون على المال، وتؤخذ سنوياً، والجزية تكون على الأفراد بأوصافهم؛ وقد تصل الزكاة إلى عُشر المال كما فى المُـستنبت المُقتات، وقد تصل إلى ربع العشر من المال كما فى الحليّ والنقود، وقد تكون أقل من ذلك كما فى زكاة الأنعام. وأما الجزية فيعفى منها الفقير، وقد يفرض عليه درهم فى العام، ولا تزيد الجزية فى المتوسط عن دينار واحد، وأما الأثرياء من أصحاب الذهب فلا تزيد الجزية عليهم علـى أربعـة دنانير عن الفـرد، وفى أوقات المجاعـات، وعندما يشح الطعام، تلغى تمـاماً. والجزية سنوية، وهى على الذكور فقط دون الإناث، وعلى الراشدين دون الصبية، وعلى القادرين على القتال، دون غير القادرين من أصحاب العاهات، والمجانين، والمغلوبين على عقولهم، والشيخ الفانى، والعبـيد، ويعفى منها الرهبان. ثم إن الذمىّ معـفىٌ من الانخراط فى الجيش والقتال عـن البلاد، وهذه الجزية تؤخذ منه نظير حمايتـه وحماية ماله وعرضه، دون أن يسهم فى هذه الحماية، لابالنفس ولابالمال، وتشبه البـدل النقدى أو البدلية التى كان الأغنياء يدفعونها للإعفاء من التجنيـد. وتحديد هذا البدل أو الجزية كان متروكًا لولى الأمر

بخصوص **أهل الذمة**، بشرط الا يتجاوز الحد. وأما **أهل الصلح** فالجزية التى يدفعونها على ما صولحوا عليه لا غير، وقد تكون أقل مما يدفعه أهل الذمة بكثير. وقد كانت العادة مع أهل الذمة إذا أدّوا جزيتهم التى ضُربت عليهم أوصولحوا عليها، أن يُخلّى بينهم وبين أموالهم كلها، وبين كرومهم وعصرها، طالما يسترون خمورهم ولم يعلنوا بيعها للمسلمين، ومُنعوا من إظهار **الخمر والخنزير** فى أسواق المسلمين، فإن أظهروا شيئاً من ذلك أريقت الخمر وأُدّب من أظهر الخنزير. وليس من حق المسلم أن يريق خمر الكتابى إن لم يظهرها، وإذا أراقها فقد تعدّى ويجب عليه **الضمان**، ولو غصبها وجب عليه **الرد**. ولايحق للمسلمين أن يعترضوا على أحكام الكتابيين ولا على متاجراتهم فيما بينهم بالربا، وإنْ تحاكموا أمام محاكم المسلمين فالحاكم مخيّر؛ إن شاء حكم لهم بما أنزل الله، وإن شاء أعرض إذا كان الأمر فيه ربا، وأما فى المظالم فيحكم بينهم ويأخذ من قويّهم لضعيفهم. وإذا عُرض الأمر على **الشرطة** قاتلت الشرطة عنهم عدوهم. وما صولحوا عليه من الكنائس هو لهم، ومن لم ينقض منهم العهد لايؤخذ بجريرة مَن نقضه، وفى الحديث: «**من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**» أخرجه أبو داود.

ومن الجزية ضريبة تشبه **ضريبة المبيعات**، ويستوى فيها المسلم وغير المسلم من التجار، وتُفرض على السلع التى يتاجرون فيها إذا نقلوها إلى خارج البلاد التى اتخذوها مقرّاً لهم فحينئذ يؤخذ منهم **العشر** من ثمن السلعة إذا باعوها وقبضوا الثمن نقداً، وهذه الجزية تكون **لمرة واحدة** فى الحول، إلا ما يخص التجارة فى الطعام والحنطة والزيت من ضروريات الشعب، فإنه يؤخذ منهم **نصف العشر**. وإذا أسلم الذمى تسقط عنه الجزية ويعامل كالمسلمين فتجبى منه الزكاة.



١٥٩٦- ﴿الجزية مع أهل الذمة، والموادعة مع أهل الحرب﴾

الجزية من جزأتُ الشىء إذا قسمته، وقيل من **الجزاء**، لأنها جزاء ترك أهل الذمة ببلاد الإسلام، أو من **الإجزاء**، لأنها تكفى من تُفرض عليه فى عصمة دمه، وكانت مشروعتها فى سنة ثمان أو تسع. وأما **الموادعة**: فهى المتاركة، والمراد بها متاركة أهل الحرب مدة معينة لمصلحة من المصالح، ولاجزية فى الموادعة.

١٥٩٧- ﴿حكم الفىء والخراج والجزية﴾

الفىء: كل ماحصل عليه المسلمون مما لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب (الحشر٦-٧)، من فاء أى غنم. **والخراج**: أصله ما يُخرَج من غلة الأرض والمال، ومصرف ذلك كله

واحد، وهو حقّ المسلمين، يعم به الفقير والغنى، وتُصرَف منه أعطية المقاتلين وأرزاق الأرامل واليتامى إلخ. والرأى فى توزيع ذلك هو ما كان يتّبعه النبىّ ﷺ، فيعطى كلاً على قدر حاجته، تأكيداً لما قلنا إن الإسلام اشتراكى النزعة، واشتراكيته تكافلية، والنبىّ ﷺ كان يعطى الآهل - أى الذى يعول حظّين، ويعطى الأعزب حظاً واحداً. وكان عمر لذلك يتّبع التفضيل والتعميم، وأما أبو بكر فارتأى التسوية بين الجميع، والكل على أنه: ما على الأرض مسلم إلا وله من هذا المال حق.

●●●

ويتهى بذلك الباب الخامس عشر فى الإسلام الحربى، ووجوه السلم والحرب فى القرآن،
ويبدأ إن شاء الله الباب السادس عشر فى الإسلام الاجتماعى، ولله الحمد والمنّة.

●●●

الباب السادس عشر
«الإسلام الاجتماعى»

•••

أولاً: المرأة فى الإسلام

•••

١٥٩٨ . «كذب مَن قال إن الإسلام يحط من شأن المرأة»

فى الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾(النساء ١٩) إخبارٌ عمّا كان عليه شأن المرأة فى الجاهلية، وبرواية البخارى وأبى داود والنسائى عن ابن عباس قال: كان أولياء الرجل إذا مات أحقّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يزوّجوها، فهم أحقّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية. وعن زيد بن أسلم قال: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم فى الجاهلية ورث امرأته مَن يرث ماله، وكان يُعضلها حتى يرثها، أو يزوّجها من أراد. وكان الرجل من أهل تهامة يسيء صُحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلاّ من أراد حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك. وعن ابن حنيف قال: لمّا توفى أبو قيس بن الأسلت، أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك فى الجاهلية، فأنزل الله الآية. وقال ابن جريج: نزلت فى كُبَيْشة بنت معن بن عاصم بن الأوس، توفى عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله: لا أنا ورثت زوجى، ولا أنا تُركت فأُنكَح. فأنزل الله هذه الآية، فالآية تعمّ ما كان يفعله أهل الجاهلية، وتعُمّ كل مانحن فيه من نوع ذلك الآن فى ريف خصوصاً.

والإسلام رفع من شأن المرأة، وأثبت لها الاستقلالية، على عكس اليهودية، فالأخ فى اليهودية يرث زوجة أخيه المتوفى وتؤول إليه كميراث (تثنية الاشتراع ٢٥/ ٥)، وإن رفض أن يخلف أخاه عليها أوذى أذى كبيراً (تثنية الاشتراع٢٥/ ٩ـ١٠) فأيهما الصحيح إذن: أن يقال إن الإسلام يحط من شأن المرأة، أم أن اليهودية هى التى تحط من شأنها!؟ وأيهما يحط من شأنها: الإسلام الذى يعطيها حق الطلاق، أم النصرانية التى لاتبيح الطلاق بالكلية إلا للزنا؟!

•••

١٥٩٩. «الإسلام يوصى بالنساء»

لم يوُص موسى ولا عيسى عليهما السلام بالنساء، وعن بولس الرسول (وليس معنى

الرسول أنه رسول من الله! وإنما هو رسول الكنيسة) فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثس قال: على النساء أن يخضعن كما يقول الناموس»(١٤/ ٢٤)، وأما فى الإسلام فما يُنصَح به للنساء يبلغ حدّ الكمال، فعن النبىّ ﷺ قال: «فاستوصوا بالنساء خيراً»، رواه أبو هريرة. والوصاية لغةً هى الوصية، وشرح ابن عمر سلوك المسلمين مع النساء بعد هذه الوصية، قال: إنهم كانوا يتّقون الكلام والانبساط إلى نسائهم، فلما كانت هذه الوصية صاروا يتكلمون معهم وينبسطون. ومعنى «استوصوا بالنساء خيراً» أن يحسنوا معاشرتهن كقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(النساء١٩)، وفى معنى ذلك قول النبىّ ﷺ: «فاستمتع بها وفيها عوج»، أى لايكن من الرجال سوء عشرة مع اعوجاج أحوالهن أحياناً، فعن سوء العشرة تنشأ المخالفة، وبها يقع الشقاق.



١٦٠٠. ﴿القرآن لا يحط من شأن المرأة﴾

المستشرقون على القول بأن القرآن فيه الكثير من الآيات التى تحطّ من شأن المرأة، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾(الزخرف)، غير أن لكل كلام سياقًا ومفهوماً عاماً، والآية وردت ضمن آيات أخرى تستنكر أقوالاً وأفعالاً تصدر من البعض رغم إدعائهم بأنهم يؤمنون بالله، وهى الآيات: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾(الزخرف) وهؤلاءالذين يجادلون فى الله، يقول فى إيمانهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(العنكبوت٦١)، ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(العنكبوت٦٣)، ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾(الزخرف)، فرغم أنهم يردّون الأمور لله إلا أنهم يفهمونه بطريقتهم، ويتصورونه تصوراً مادياً بحسب معتقداتهم، وعلى منوال بشريتهم، وما يجعلونه لله من أوصاف يأخذونها من أوصاف لهم عن أشخاص ظنّوهم أنداداً لله، كقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ (فصلت٩)، وقوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾(سبأ٣٣)، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾(إبراهيم ٣٠)، وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ (البقرة)، فكذلك جاءت آية: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (١٨)﴾(الزخرف) ضمن آيات

مضمونها أنهم كفروا بالله فجعلوا له أكفاء، وخصّوه تعالى بالبنات فقالوا: إن الملائكة بنات الله، فلماذا اختاروا له البنات مع أنهم لو أنجبوا البنات اسودّت وجوههم غيظاً وكمداً وغضباً، كقوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(النحل)،وفي آية أخرى قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾(النجم)، أي أتؤثرون لكم الولدان، وتجعلون لله البنات؟! وتختارون لأنفسكم الذكور وتختارون له الإناث؟! فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت قسمة ضِيزى، أي باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين لكانت جوراً وسفهاً!! وفي الآية «أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴿١٨﴾»(الزخرف) عَوْدٌ على منطق هؤلاء أن البنات منكورات منهم، اعتدتم أن تربوهن التربية الناعمة، وأن تُلبسوهن الحلى منذ طفولتهن الباكرة، فينشأن عاجزات عيّات عن أن يدفعن عن أنفسهن. فهل الملائكة هكذا؟ وهل الملائكة هم بنات الله حقاً كما تقولون كذباً وافتراءً؟! والنظرة في الجاهلية للمرأة كانت متدنية، بدعوى أن النساء ما كن يلبسن الحلى ويُسرفن في الزينة، إلاّ عن شعور بالنقص طَبعى وخلقىّ فيهن، فكيف جعلوا ذلك نفسه هو تصوّرهم للملائكة؟ ومن سوء هذه النظرة من أهل الجاهلية للنساء قول الشاعر في زينتهن وفي الحلى بخاصة:

وما الحلىُ إلاّ زينةٌ من نقيصة ... يتمّم من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قصّرا

وأما إذا كان الجمالُ مُوَفَّراً ... كحُسْنِكِ لم يحتج إلى أن يُزَوَّرا

واعتقادهم في الملائكة أنهم إناث يحطّ من فكرتهم عن الله، وكأنه سبحانه وتعالى لا يجمع حوله إلا الإناث، ويحاجيهم الله تعالى فيقول: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴾(الزخرف) أي هل شاهدوه وقد خلقهم إناثاً،ويجيب: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(الزخرف) أي يُسألون يوم القيامة، وقال: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾(الزخرف٢٠)، أي لو أراد لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التى صغناها على هيئة ملائكة، وجعلناها على شكل الإناث، اعتقاداً منا أن الملائكة إناث، فأوقعوا أنفسهم في أخطاء ما يزال يفعلها النصارى حتى اليوم، وقد أتاها **مصورو عصر النهضة** بتمثيلهم للملائكة على هيئة الإناث، بل إنهم ليصورون المسيح على هيئة الأنثى، فأخطأوا - كما جاء في هذه الآيات - بأن جعلوا لله تعالى ولداً، وادّعوا أنه اصطفى البنات على البنين، وأنه لذلك جعل ملائكته إناثاً، وهم ليسوا إلا خَلْقاً من خَلْق الله، وعبدوا الملائكة وصُوَرهم وأيقوناتهم وتماثيلهم وأصنامهم بلا دليل ولا برهان، سوى الهوى وتقليد السلف والكبراء، والخبط في الجاهلية القديمة والحديثة على السواء.

ويا أخي المسلم، ويا أختي المسلمة، الآية: ﴿**أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** (١٨)﴾(الزخرف) ليست حُكم الإسلام على المرأة، وليست حطاً من شأن المرأة في الإسلام، وإنما الآية تتحدث عن وضع النساء في الجاهلية ـ أيَّ جاهلية، سواء القديمة أو الحديثة. **والمستشرقون من اليهود والنصارى** هم الذين يروّجون هذه الافتراءات عن الإسلام، مع أن المرأة في اليهودية في حضيض الحضيض الفصل (سفر الأحبار ١٢/ ٢، ٥ ـ والفصل ١٩/ ١٥ـ٢٦)، وفي النصرانية المرأة غير مباح لها التعلُّم، وإن أرادت أن تتعلم فلتفعل ذلك وهي ساكتة بكل خضوع (رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس، الفصل الثاني ١١ ـ ١٢).

وفي الإسلام غير ذلك تماماً، فالمرأة في السماكين، وفي الذُّرى من رفعة الشأن، وسمو القَدْر، **والنساء شقائق الرجال** كما قال رسول الله ﷺ، وفي القرآن: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٧١) **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** (٧٢)﴾(التوبة) فالنساء مكلّفات بالبلاغ كالرجال، ولا بلاغ بدون علم، والبلاغ يستلزم أن يمهر المبلّغ، وتمهر المبلغة، في المنطق والجدل والحجاج، وتكاليف الجميع واحدة، وهم إخوة وأخوات متآزرون ومتآزرات، ومتعاضدون ومتعاضدات، وجزاؤهم واحد، وموعدهم واحد، ومساكنهم واحدة، ورضا الله عليهم واحد. فأي الأديان يعادي إذن النساء ويحط من شأنهن: الإسلام أم اليهودية والنصرانية؟! تفكّر يا أخي، وتفكري يا أختي، وتمعّنا الكلام وافهما. ولتعظّما دينكما: الإسلام، وليست أكاذيب المستشرقين وافتراءاتهم عليه، وتخرصّاتهم عنه إلاّ حسداً، وهم يتحالفون على الإسلام، ويضمّون إليهم العلمانيين في بلادنا، ومن يطلقون على أنفسهم اسم التنويريين، ليطعنوا الإسلام، وتحالفهم يصنع منهم حزب الشيطان في مقابل حزب الله وهم جماعة الإسلام، وفي هؤلاء المستشرقين والتنويريين يقول الله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٦٧) **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** (٦٨)﴾(التوبة)، فحسبنا الله!



١٦٠١. ﴿لماذا الخطاب في القرآن للذكور فقط دون الإناث؟﴾

المستشرقون على الدعوى بأن القرآن كتاب أُنزل للرجال دون الإناث. والخطاب فيه

للذكور، يقول: «ياأيها الذين آمنوا»، و«يا أيها الناس»، و«يا أيها الملأ»، و«يا أيها العزيز»، و«يا أيها المرسلون»، و«يا أيها الضالون»، و«يا أيها الذين هادوا»...إلخ، وليس العيب فى القرآن، أو فى الخطاب القرآنى، وإنما كان هذا ما تمليه التكوينات الاجتماعية فى ذلك الزمن وحتى الآن، فالمجتمعات القديمة ذكورية يقوم عليها الذكور،وفى الخطاب الحالى للمجتمعات المعاصرة فى أكثر الدول تحضراً فإن التوجه يكون للذكور، والحديث فيها للمواطنين بعامة ولقائل أن يقول: إن **citizen** مثلاً فى لغة غير العربية تعنى المواطن والمواطنة على السواء، ولا تخصّ الذكور دون الإناث، وكذلك الضمائر مثل **they**،يعنى «هم وهن أيضاً»، و **you**،وتعنى أنتَ وأنتِ، وأنتم، وأنتن»،و**I**، وتعنى «أنا» للمذكر والمؤنث على السواء، وليس الأمر كذلك فى العربية، فهناك تمييز بين المؤنث والمذكر سواء فى الضمائر أو فى ملحقاتها، ومع ذلك التباين بين العربية وغيرها، فالعربية أكثر واقعية وأصدق حالاً، فإنه لابد فى أية لغة أن تبين هذه الفروق، وإلا فهو قصور فى اللغة لا ينبىء عن حقيقة الأمر ويضلل السامع أو القارىء. وفى خطاب لكليتون إلى الشعب الأمريكى سنة ٢٠٠٠ ترد مثلاً العبارة الآتية: **his committance**، أى التزامه ـ يعنى التزام المواطن، فلم يذكر النساء وإنْ فُهم أن النص يخاطب المواطن من الذكور والإناث معاً، والحال إذن واحد! وفى التوراة يتوجه الخطاب باستمرار للذكور مع أنه يتوجه ضمناً للإناث، تماماً كالعربية،كقوله: «وإن ضربه بحجر فهو قاتل» **If he smites him he is a murderer**»،(سفر العدد ١٧)، أو قوله: الابن يكرم أباه والعبد يكرم سيده **A son honours his father, and a servant his master**» (ملاخى١/٦)، والله أو يهوه مذكر دائماً. وفى الإنجيل يأتى: «هو أبوك الذى فى السماء **Your Father which is in heavens**»، فجعل الله مذكراً، والخطاب فى العبارة لمذكر. وإذن فكل اللغات سواء فى قائمة الكلام للذكور وإن كان ذلك يشمل الإناث، وكانت كتابات الحكماء الأصول: بلوتارك، وزينون، وصولون، وهوميروس، وأبوقراط،وديموقريطس، وبطليموس؛ والحكماء السبعة: طاليس، وأنكساجوراس، وأنكسيمانس، وأنباذوقليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، كلها تخاطب الذكور وليس الإناث وإن قصدوا بها الإناث أيضاً، وكذلك كانت مؤلفات كونفوشيوس، ومينشيوس، وأسفار البادجادفيتا، والدامايادا، وأيوب، والأمثال، والمزامير. فلماذا إذن التحامل على القرآن واتهامه بما لم يتّهم به أىٌّ من هذه الكُتب؟! ومع ذلك فالقرآن سبق إلى التنبيه إلى هذه الملحوظة من قبل أن يذكرها أىٌّ من المستشرقين، ويروى الترمذى عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبىّ ﷺ فقالت: ما أرى كل شىء إلا للرجال،

وما أرى النساء يُذكرن بشيء! ـ يعنى كان فضل السبق لأم عمارة وليس للجمعيات النسائية التى تحفل بها مصر اليوم، ولا لملاحظات الموتورين والمتخرّصين من العلمانيين ودعاة التبشير، ويقول الترمذى: فلما قالت أم عمارة مقالتها نزلت الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ (الأحزاب)، فألغت ذلك فوراً، ونبّهت إلى أن الله تعالى لم يقصد أن يفرّق بين الجنسين، ولا عهد بشيء للذكور لم يعهد بمثله للإناث. ونفس الملحوظة ذكرتها أم سلمة زوجة النبىّ ﷺ، وقالت برواية النسائى: يانبىّ الله! ما لى أسمع الرجال يُذكرون فى القرآن، والنساء لا يُذكَرن؟ فأنزل الله «إن المسلمين والمسلمات» الآية. وعن ابن عباس قال: قال النساء: ما له يذكر المؤمنين ولا يُذكَر المؤمنات؟ (يقصد القرآن) فأنزل الله «إن المسلمين والمسلمات» الآية.

وهذه الآية وغيرها تساوى بين الرجال والنساء فى كل شيء، مع وضع الجنس فى الاعتبار، كأن تختلف التكاليف كمّاً ووسعاً باختلاف أعمار الناس وجنسهم، فالصبى بخلاف الشيخ، وكذلك المرأة متباينة عن الرجل، ولكنهم جميعاً على التساوى فى الحقوق والواجبات، فلا عسف ولا جور ولا تبذُّل ولا امتهان، ومن الإنصاف أن يكون لكل وسعه واستطاعته. وفى الآية فإن الجميع، إناثاً وذكوراً، منهم المسلم والمسلمة، والمؤمن والمؤمنة، والإيمان أخصّ من الإسلام،ولذا لزمت التفرقة بين المسلم والمسلمة، والمؤمن والمؤمنة؛ والقنوت فى قوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ(٣٥)﴾(الأحزاب) هو الطاعة تأتى بعد الإيمان، وعندئذ يؤتى الصدق طواعية وعن رضى؛ والصدق علامة الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق؛ والصبر وقوف مع البلاء بحُسن الأدب، والغناء فى البلوى بلا ظهور شكوى، ويكون عند المؤمن والمؤمنة على السواء؛ والخشوع مقام أهل الوقار والتواضع ومراقبة الله؛ والصوم زكاة البدن، وهو أغض للبصر وأحصن للفرج، ولذا جاء بعد ذلك مباشرة: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أى عن المحارم والمآثم، ومحك ذلك كله ذِكْر الله فى قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾، والذكر تُختَم به الآية، وفى الحديث عند أحمد: أن الذكر جهاد، والذكر أكثر أجراً لصاحبه من الصلاة والزكاة والحج والصدقة، حتى إن أبا بكر قال لعمر تعليقاً: ذهب الذاكرون بكل خير! فأمّن على ذلك رسول الله ﷺ، وحسّن الذكر فى الختام. وكل ذلك للنساء والرجال على حد سواء،

والأجر العظيم والمغفرة تلحق الاثنين ولا اختلاف، ولم تفرق الآية بين الذكر والأنثى إلا بحسب الوسع، وبذلك تبطل دعوى المكذّبين بأن القرآن للذكور فقط دون الإناث.

●●●

١٦٠٢. ﴿غَيْرة المسلم والمسلمة﴾

الغَيْرة أمْرٌ صحيٌّ مستحسنٌ فى الإسلام. والغيرة الفطرية الصحية هى الحمية والأنفة، وقد تفرط فتصبح غيرة مرضية فيتعرض صاحبها أو صاحبتها للمشاكل، ويستحق بها اللوم، وعن جابر عن النبىّ ﷺ: **«إن من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التى يحب الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التى يبغض الله فالغيرة في غير ريبة»**. والأولى هى الغيرة لحق، والثانية هى الغيرة لغير الحق. وكان سعد بن عبادة شديد الغيرة على نسائه حتى ليمكن أن تودى به، وأبدى عجبه من آية الاستشهاد بأربعة على الزانى والزانية، فقال للرسول ﷺ: أهكذا أُنزلت؟ فلو وجدتُ «لكاعاً» مُتفخِّذها رجلٌ، لم يكن لى أن أحركه ولا أهيِّجه حتى آتى بأربعة شهداء!؟ فوالله لا آتى بأربعة شهداء حتى يقضى حاجته! فقال رسول الله ﷺ: **«يا معشر الأنصار! ألا تسمعون ما يقول سيدكم»؟ قالوا: يارسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور! والله ما تزوج امرأة قط إلا عذراء! ولا طلّق امرأة فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته»!** ولكاع هو اسم زوجة سعد. وفى رواية أخرى عن المغيرة: أن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مُصْفح عنه. فقال النبىّ ﷺ: **«تعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغْيَرُ منه! واللهُ أغْيرُ منى»!** وعن ابن مسعود أنه قال: **«ما من أحد أغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حرَّمَ الفواحش»**، وعن عائشة أنها قالت: **«يا أُمّة محمد! ما أحدٌ أغْيَرُ من الله أن يرى عبده أو أَمَتَهُ تزنى»!**، وعن أبى هريرة أنه قال: **«إن الله يغار، وغَيْرةُ الله أنْ يأتى المؤمن ما حرّم الله»**. وغيرة سعد على امرأته هى الغيرة الحسنة، وظواهرها إبداء الأنفة. وغيرة النبىّ ﷺ من أن تُؤتَى محارمه، وكان ﷺ من أشد الناس غيرة لله ولدينه. واشتهر بالغيرة الجنسية الزبير بن العوام، وكانت زوجته أسماء بنت أبى بكر تشكو من شدةّ غيرته، واشتهر بها كذلك عمر بن الخطاب، وعن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ حكى فقال: **«بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأةٌ تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: هذا لعمر. فذكرت غيرته فولّيت مدبراً»**، فبكى عمر ثم قال: أوَ عليك يارسول الله أغار؟!!

وفى حديث سعد بن عبادة كان يمكن أن يلجأ سعد إلى قتل من تزنى معه امرأته، والإسلام منع ذلك وشرّع الطلاق. ولم يفهم سعد وقتها حكمة التشريع فنطق بما قال،

واستنصر النبيّ ﷺ أصحابه عليه، واعتذر سعد. وفي الحديث الآخر أن غيرة الله أن يغضب من اجتراء عبده أو أمته على الزنا أو ارتكاب الفواحش. وكانت **عائشة** ﵂ تغار على النبيّ ﷺ، وكانت جُلّ غيرتها من **خديجة** مع أنها توفيت قبل زواج عائشة من النبيّ ﷺ، إلا أن غيرتها كانت من مجرد تذكُّره لها ونُطقه باسمها! وكانت **عائشة** في غيرتها تغضب حتى لتهجر اسم **محمد** فلا تقول كما هي عادتها «**وربّ محمد**»، وإنما تستبدل ذلك بقولها «**وربّ إبراهيم**»، فدللت على أن العاقل يُسلب بالغيرة اختياره وتمييزه وهدوء نفسه ورباطة جأشه، وإن كانت محبته مع ذلك تظل باقية، كما يقول الشاعر:

إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود أميل

ومراد عائشة أنها كانت تترك التسمية اللفظية للنبيّ ﷺ، ولا يترك قلبها التعلّق بذاته الشريفة وهو محبوبها، مودةً منها ومحبةً، وهذه هي **الغيرة الحانية**.



١٦٠٣. ﴿معنى قوله ﷺ: اتقوا النساء؟﴾

عن النبيّ ﷺ قال: «**اتّقوا الدنيا واتّقوا النساء، فإنّ إبليس طلاّعٌ رصّاد، وما هو بشيء من فخوخه بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء**» رواه الديلمي بطريق معاذ، وغاية الحديث التحذير من شهوات الدنيا، وأشرّ شهوات الدنيا **شهوة الجنس**، فما من غواية لإبليس يمكن أن تنجح مع التقيّ والتقيّة على السواء مثل **غواية الجنس**، وقوله: «**اتقوا النساء**» كقوله: «**اتقوا الدنيا**»، ولن نتّقيهما بأن ننفي أنفسنا من الدنيا وننتحر، أو نعاف الجنس ونترهّب، وإنما الاتقاء هو التحذير منهما، ومن ارتياد ملاذهما، والإقبال عليهما، والاستغراق فيهما، كما في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (آل عمران١٤)، والجنس من الشهوات، وهو المشار إليه **بالنساء**، وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء**»، يقصد بالنساء الجنس، **وإلا فالنساء هن أمهاتنا، وعمّاتنا، وخالاتنا، وبناتنا، وأخواتنا**، وهؤلاء لسن فتنة، والمقصود أن لا نأتي الجنس **إلاّ إعفافاً في الحلال**، فذاك هو المطلوب المرغوب فيه والمندوب إليه، كما في الأحاديث التي ترغّب في الزواج، وقد ورد عن النبيّ ﷺ ـ مما أخرجه النسائي ـ قوله: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة: إنْ نَظَر إليها سرّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله**»، وقوله في الحديث الآخر عن أبي هريرة: «**خير النساء امرأةٌ إذا نظرتَ إليها سرّتك، وإذا أمرتها أطاعتك. وإذا غبتَ عنها حفظتك في مالك**

ونفسها» والمقصود بالمرأة الزوجة وليس أية امرأة، وفي الحديث عن أنس قال: «حُبِّب إليَّ من الدنيا النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة» رواه النسائي،ومعنى النساء أن المسلم لايترهَّب، فذلك هو المحبوب عند رسول الله ﷺ.

•••

١٦٠٤. «هل في طاعة النساء ندامة كما يقول الحديث؟»

الحديث المشهور عند ابن عدى والعقيلي وابن لال والديلمي وابن عساكر عن عائشة مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**طاعة النساء ندامة**» ذَهَب كالأمثال، ومع ذلك فهو لا يُعتَدّ به، وقال عنه **السيوطي إنه حديث باطل ولا أصل له**، وقال **الألباني**: الحديث موضوع، وأخرج العسكرى فى الأمثال عن عمر الحديث الآخر المشابه: «**خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة**»، ومثله أيضاً حديث أنس: «**لا يفعلَنّ أحدكم أمراً حتى يستشير، فإن لم يجد من يستشير فليستشر امرأة، ثم ليخالفها فإن في خلافها البركة**»، وفيه ضعفٌ وانقطاع في سنده، وفي معناه هذا الحديث: «**شاوروهن وخالفوهن**»، وموضوع هذه الأحاديث جميعاً **الحطّ من شأن المرأة وليس هذا هو شأنها في الإسلام**، ولنا في سيرة رسول الله ﷺ دليلٌ على بطلان هذه الأحاديث، فقد استشار النبيّ زوجته **أم سلمة** يوم الحديبية، وعمل بمشورتها المباركة، وبرأيها السديد ولم يخالفها. والمرأة كالرجل قد تكون على هدى، وعلى ضلال، واستشارة الناصح الأمين ـ سواء كان رجلاً أو امرأة ـ أوجب وألزم وأنصح. وكانت ملكة سبأ كما ورد الخبر عنها في القرآن غاية في الحكمة، وكذلك كانت مريم واقتدى بها زكريا. وقد أوصى الله خيرا بالنساء، فلا تمسكهن إلا بالمعروف (البقرة٢٣١) ، ولاتعضلهن (البقرة٢٣٢)، ووصفهن بعشر صفات هي نفسها أرقى صفات الرجال (الأحزاب٣٥) فكيف تكون في مشاورتهن أو طاعتهن ندامة؟ والصحيح في الحديث أن **طاعة شرار النساء ندامة**، وذكر صاحب «تحفة العروس» عن الحسن البصرى أن النبيّ ﷺ قال: «**ما أطاع رجلٌ امرأةً فيما تهواه إلاّ كبّه الله في النار**»، والحديث محمول على طاعة المرأة فيما تهوى من السيئات لا فيما تهوى من المباحات، والسيئات تجرّ إلى المنكرات. ومن نوع ذلك هذا الحديث الآخر برواية أحمد بطريق القاسم بن محمد، يخبر عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا خير في جماعة النساء إلاّ في مسجد أو في جنازة قتيل**»، وفيه ضعف، وقيل هو موضوع، وربما الكلام فيه عن نوع معين من النساء وليس عن النساء على إطلاقهن. وفي الاجتماع ـ كما يقول علماء النفس ـ يميل السلوك العام إلى أن يكون هو سلوك أدنى الناس في الجماعة، والسلوك السيء مُعْدٍ، والسلوك من

الأمور المكتسبة ويخضع لعادات الأمم والشعوب، وهو من أمور الثقافة، وحيثما كانت الجماعة قد وصلت إلى مستويات معينة من الحضارة فإنها تنبو عن السلوك المستهجن، سواء كانت الجماعة هى جماعة رجال أم جماعة نساء. والكلام فى الحديث عن الجماعات من عامة النساء. ومن مثل هذه الأحاديث الحديث الآخر: «**لن يُفلح قومٌ أسندوا أمرهم إلى امرأة**» أخرجه الترمذى وابن أبى شيبة. فكيف يكون الأمر كذلك والله تعالى قد أسند إلى المرأة إنجاب الأطفال والقيام على تربيتهم؟! وحتى فى المجتمعات الريفية فإن النساء تُسنَد إليهن أعظم الأعمال أثراً فى حياة الأسرة والمجتمع. فكيف تكون الندامة فى طاعة النساء؟ـ فاحذر يا أخى المسلم الأحاديث الموضوعة التى تناقض القرآن والسُّنَّة الصحيحة ويستهجنها العقل الواعى المستنير.



١٦٠٥. ﴿كذبوا فقالوا إن للذكر مثل حظ الأنثيين، قاعدة مطلقة فى الإسلام﴾

يسىء الناس فهمْ آية الميراث: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾(النساء١١) اعتقاداً بأن الفوارق فى الميراث وُضعت على أساس اعتبارات الذكورة والأنوثة، وتفضيل الإسلام للذكر على الأنثى، وكأن للذكر دائماً نصيباً هو ضعف نصيب الأنثى، وهذا الخطأ من الشيوع حتى ليتردّى فيه الإسلاميون كما يتردّى فيه المستشرقون والعلْمانيون سواء بسواء، وكثير من النساء المسلمات يعتقدنه، والنساء الغربيات يحسبنه من الحقائق الأساسية فى الإسلام، وذلك غير صحيح، لأن النصّ الوارد فى هذا الشأن خاص بأولاد الرجل إذا توفى، يقول: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ**﴾(النساء١١)، أى يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم بحسب المسئوليات الاجتماعية لكلٍ، وأن يكون للذكور نصيب كما للنساء نصيب، يقول: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾(النساء٣٢)، وتوضح ذلك أكثر الآية: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ⑦** ﴾(النساء)، والنصيب المفروض هو حق الرجل والمرأة فى الميراث حقاً يتناسب والوضع القانونى لكل، كأصل من الأصول لا ينازع المرأة فيه منازع، ولا يقتصر حقّها فيه على ما يتركه الأب، وإنما يتعدّى ذلك إلى ما يتركه الأقارب ممن لهم بها وشائج قوية كالأخت، مثلاً، وراعى الشرع أن يأتى حق الذَكَر من الأولاد ضعف حق الأنثى، بالنظر إلى مسئولية الابن عن أبويه وعن كُلفتهما، وعن أخواته البنات وتعليمهن وتزويجهن، وإخوته الصبيان وتعهدهم بالتنشئة والتربية، فالولد إذا مات أبوه أو

هرم، يصبح هو المكلّف شرعاً باستمرار بيت أبيه مفتوحاً، واستمرار تجارته قائمة، وفى ذلك نفقةٌ وكُلفةٌ ومشاقٌ يحتملها، ومعاناة يتكبّدها فى التجارة أو التكسّب، ولا يناسب ذلك إلاّ أن يُعطَى الولد ضعفى ما تأخذه البنت. وفى قوله تعالى: «يوصيكم» تعليمٌ للآباء، وإعلامٌ للأبناء، أنه تعالى أرحم بالجميع من أنفسهم. وقال ابن عباس: «**كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع**». وقال ابن عباس: «**لمّا نزلت الفرائض التى فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها الناس أو بعضهم، وقالوا: تُعطَى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى الابنة النصف، ويُعطَى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة! اسكتوا عن هذا الحديث لعل الرسول ﷺ ينساه، أو نقول له فيغيّره! فقالوا: يارسول الله تُعطَى الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم؟ ويُعطَى الصبى الميراث وليس يُغنى شيئاً؟! - وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية، لايعطون الميراث إلاّ لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر، فنزلت الآية**». فالإسلام أصلَحَ الأوضاع، وراعى الحقوق، وجعلها **بقدر التكاليف، وبحسب موضع الوارث من المورث**، وذلك وحده هو المعيار، **فلا اعتبار للذكورة والأنوثة، ولا لأن هذا رجل وتلك امرأة**، وفى القرآن غير آية: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾، ستٌ **وعشرون** حالة ترث فيها المرأة نصيبها مماثلاً للرجل، أو تحصل على نصيب أكبر منه، فمثلاً: إذا ترك المتوفى أولاداً وأباً وأُماً، ورث كل من أبويه سدس التركة وتساويا فى النصيب، **لا فرق بين ذكر وأنثى**؛ وإذا ترك المتوفى أخاً لأمه وأختاً لأمه، فإن كلاً من الأخ وأخته يرث السدس، **لا فرق بين ذكر وأنثى!** وإذا تركت المرأة المتوفاة زوجها وابنتها، فإن الابنة ترث النصف، ويرث والدها وهو زوج المتوفاة الربع، أى أن **الأنثى ترث ضعف نصيب الذكر!** وإذا ترك المتوفى زوجة وابنتين وشقيقاً له، فإن الزوجة ترث ثُمن التركة، وترث البنتان الثلثين، وما يتبقى يكون من نصيب العمّ، أى أن نصيب الأم **ثلاثة أسهم** من أربعة وعشرين سهماً هى مقدار التركة، ونصيب كل بنت **ثمانية أسهم**، ونصيب العم خمسة، **فالبنت أكبر من عمها!** ونصيب الأنثى فى هذه الحالة أكبر من نصيب الذكر، ولا تتساوى البنت والأم وكلاهما أنثى، **فالأنوثة والذكورة** غير معوّل عليها، لا بين الذكور والإناث، ولا بين الإناث والإناث! وتغيّر الميراث فى هذه الأمثلة بتغير **المسئولية القانونية للورثة**. وقد فرض الله للورثة أنصبة مختلفة باختلاف قرابتهم من المورث، ولكنه ساوى بين الكل فى أصل الميراث، على خلاف ما كان الأمر عليه فى الجاهلية، وقال تعالى:

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾(النساء١١)، أى إنما فرضنا للأبناء والآباء والأقارب هذه الفرائض لما كان لهم من نفع للمتوفى المورث فى حياته، أو نفع متوقع أو مرجو منهم له ولعائلته وأولاده وأهله وأقاربه، لا تعلمونه ولكن الله يعلمه، والله تعالى هو العليم، وهو الحكيم، يضع الأشياء فى محالها، ويعطى كلاً ما يستحقه بحسب قُربهم من الميت، واحتياجهم إليه، وفقدهم له عند عدمه، ولم ينقص الله بعضهم، ولا زاد بعضهم إلا عن استحقاق وجدارة.

•••

١٦٠٦. ﴿فى الإسلام، هل يجوز للرجل والمرأة أن يختليا ببعضهما؟﴾

خلو الرجل بالمرأة لا يقدح فى الدين عند أمن الفتنة، وفى الحديث عن عقبة بن عامر: «**إياكم والدخول على النساء**»، وعن جابر: «**لا تدخلوا على المُغيبات**»، وعن عبد الله بن عمرو: «**لا يدخل رجل على مُغيبة إلا معه رجل أو اثنان**»، وعن سعد بن مسعود: «**إياكم ومحادثة النساء، فإنه لا يخلو رجلٌ بامرأة ليس لها محرمٌ إلاَّ هَمَّ بها**»، ولما سأله رجل من الأنصار: **يارسول الله!** أفرأيت الحَمُو؟ قال: «**الحمو الموت**» كلها صحيحة عند حذر الفتنة. **والمُغيبة**: هى التى غاب عنها زوجها. **والحمو**: أخو الزوج وما أشبه من أقارب الزوج كابن العم ونحوه، فهؤلاء يُحذَر أن تختلى بهم المرأة منفردين **إذا عُرف عنهم سوء الخلق**، وعند الطبرانى عن عَمْرة، عن **عائشة**، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تُدخلْ بيتَك إلاّ تقياً**». وقوله: «**الحمو الموت**» كقول العرب الأسد الموت، والحرب الموت، أى لقاؤه فيه الموت. والمعنى أن الخلوة بالحمو قد يكون فيها هلاك الدين إن وقعتْ المعصية، وهلاكُ المرأة بفراق زوجها إذا حملته الغيرة على مفارقتها. وفى أمريكا مثل ذلك، وفى أوروبا، وعند أصحاب الديانات كافة، وفى الهند والصين واليابان، وفى كوريا، والروسيا، **فهو شىء** عام إذا خُشى الفسق مع الخلوة، والإسلام ليس بدعة فى ذلك. **والمرأة الجاهلة** غير واعية ومحل آفة، وأكثر ما يُحذَر عند عامة الناس أن يخلو رجلٌ بامرأة، فلا يُؤمَن سلوك **أولاد السوقة والسفْلة**، وحتى لو كان المختلى أخاً للزوج، أو ابن عم أو ابن خال ... إلخ، وفى صُحفنا مئات من وقائع كهذه يُقضَى فيها فى المحاكم، وتُنظَر فى أقسام الشرطة. ولربما تكون خلوة المحرم بالمرأة أشد أثراً من خلوة غيره من الأجانب، لميل المرأة أن تسمع له أكثر، وقد تثُقل على زوجها بما تسمع فتسوء العشرة. **ومحرم المرأة** هو من يحرم عليه نكاحها.

ودليلنا على إمكان الخلوة لو أُمنت الفتنة، الحديث عن أنس بن مالك قال: «جاءت

امرأة من الأنصار إلى النبىّ ﷺ **فخلا بها**»، أى طلب أن يكون معها وحدهما ليسمع شكواها، فذلك إذن جائز، ومثله **الخلوة فى العمل، وخلوة المحامية مع عميلها، والمحامى مع** عميلته، وخلوة **الضابط مع المتهمة يحقق معها، وخلوة وكيلة النيابة الإدارية مع الموظف المسىء**، وخلوة **الطبيب مع المريضة**، أو **الطبيبة مع المريض**...الخ. وفى مدارس الولايات المتحدة، وهى أكثر بلاد العالم ليبرالية وتحللاً من الآداب، يُنبَّه على البنات أن لا يخلون إلى البنين وحدهن، ولا يقال عن ذلك أنه تخلُّف أو رجعية، **فلماذا إذن اتهام الإسلام بالرجعية دون سائر الديانات، واتهام المسلمين بها دون سائر خلق الله؟**

•••

١٦٠٧. ﴿ما معنى قوله تعالى: وَقَرْنَ فى بيوتكن﴾

الآية: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾(الاحزاب ٣٣) من الآداب التى أمر الله تعالى بها نساء النبىّ ﷺ خاصةً بقوله: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾(الأحزاب ٣٢)، تمييزاً لهن، فإنهن لا يشبههن أحداً من النساء، ولا يلحقهن أحد فى الفضيلة والمنزلة، فإنهن **أمهات المسلمين، وزوجات للنبىّ** ﷺ، فوجب عليهن أن يقرن فى بيوتهن، أى يلزمنها **فلا يخرجن لغير حاجة**، فإنْ خرجن فلا يتبرّجن مثلما كانت المرأة تفعل قبل الإسلام فى الجاهلية، فكانت تقصد إلى الخروج قصداً لتمشى بين يدىَ الرجال، وفى ذلك قال قتادة: **كانت للمرأة فى الجاهلية مشيةٌ وتكسُّرٌ وتغنُّجٌ**، فذلك هو **خروجها متبرّجة**. والآية رغم أنها نزلت فى نساء النبىّ خاصة إلا أنها **تعمّ نساء المؤمنين** فى التبرّج. **والتبرّج** منهىٌّ عنه فى كل الأديان وتمنعه قوانين الآداب فى مختلف البلاد حتى فى أكثرها انحلالاً كأمريكا. وما لم تُلجىء الحاجة المرأة إلى الخروج بنيّة قضائها فالأحرى بها لزوم دارها، والخروج لغير حاجة تسكعاً واستهتاراً وانحلالاً يطلقون عليه **soliciting**، وهو التبرّج عندنا فى الإسلام، وهو مُجَرّمٌ عندهم. **وليس الإسلام بدعة إذن أن يطلب من المرأة القرور فى البيت ما لم تكن هناك حاجة إلى الخروج**.

•••

١٦٠٨. ﴿للمرأة المسلمة أن تخرج لقضاء حاجاتها﴾

للمرأة المسلمة أن تخرج لقضاء حاجاتها، وفى الصحيح عن عائشة عن النبىّ ﷺ أنه قال للنساء: «**قد أذنَ الله لكُنَّ أن تخرجن لحوائجكنّ**»، فكل ما يلزم المرأة، أو يلزم بيتها أو أسرتها، فلها أن تخرج من أجل قضائه، استثناءً من الآية: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾ (الأحزاب٣٣)، إلاّ أن يكون خروجها لإثم، ويستحدث خروجها فتنة. وفى الأخبار عن زوجات

رسول الله ﷺ أنهن كن يخـرجن إلى المساجد، وإلى الغائط، ويحـججن، ويطفن، في عهد النبيّ ﷺ وبعده. وأيّما امرأة خرجت في طلب العلم، أو للعمل، أو لزيارة تصل بها أرحامها، أو تتودد بها لجاراتها وزميلاتها، فذلك مشروع لها ولا حرمانية فيه، والحاكم في ذلك كله أمْن الفتنة، وليس لزوجها أن يمنعها، والساعية إلى العلم أو العمل كالساعية إلى المسجد. وفي الصحيح عن سالم عن أبيه عن النبيّ ﷺ: «إذا استأذنت المرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها»، وطلب العلم عبادة، والعمل عبادة.

●●●

١٦٠٩. ﴿ما معنى الحديث «خيرٌ للنساء أن لا يرين الرجال»؟﴾

يُنسَب الحديث: «خيرٌ للنسـاء أن لايرين الرجال ولا يراهن الرجال» للسيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، وأورده الحسـن الطـبرسي في «مكارم الأخلاق»، ولم ترد صحـتـه مسنداً، ومع ذلك ليس فيه مـا يشير إلى حُكم شرعي يحـرّم على المرأة رؤية الرجال وأن لا يراها الرجال، وإنما هو تحذيرٌ من عواقب الاختـلاط وما يـتتبعه من فساد في الأخلاق، وإثارة للنوازع والغرائز، والشاعر يقول: **نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ .·. فكلامٌ فموعدٌ فلقاء!**

وفي الحديث يقول ﷺ: «**النظرة الأولى لك والثانية عليك**»، ويقول: «**النظر سهم من سهام إبليس**»، **والوجودية** من الفلسفات العصرية ولها كلام كثير في «**النظرة**»، فيه خير وحكمة، والنظرة المشروعة مطلوبة، ومن النظر ما يكون انتهاباً، وكان **تولستوي** في فلسفته يستهجن **النظرة الخُلسة إلى النساء**، ويقول إنها مخاتلة ومسالبة. وفاطمة بنت الرسول ﷺ كانت ترى الرجال ويراها الرجال، ولم تقصد إلى تحريم الرؤية وإنما يتوجه تحذيرها إلى ما يتولد عنها، وتنشد أن تتسم العلاقة بين الجنسين بالطهارة الروحية، وحديثها تقصد به إلى الكناية، وأن يغضّ الرجال والنساء من أبصـارهم كقوله تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴿٣٠﴾ ﴾(النور)، وقوله: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴿٣١﴾ ﴾(النور).

والنظر إلـى المرأة عند الخطبـة مأذونٌ بـه، وعن جابر أن رسـول الله ﷺ قال: «**إذا خَطَب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر منها إلى مـا يدعوه إلى نكاحها فليفعل**». وقال جابر: فخطبتُ امرأة من بني سَلِمـة، فكنتُ أختبيء لها حتى رأيتُ منها بعض مـا دعاني إليها. رواه أبو داود. وفي قوله: «**كنت اختبيء لها**»، فيه أن **اختلاس النظر بنيّة الزواج وفي غفلة من المرأة**، أمرٌ مـشـروع. وكان **الأعمـش** يقول: كل تزويج يقع على غير نظر فـآخره همٌّ وغمٌّ. والنظر هنا هو النظر الصـريح وليس الخلسة، فـالمهم في النظر **النيّـة**، والـنـاس بنيـاتهم. وطالما أن النظر بنيّـة الزواج فـهو مـشـروع، ولم ينْه الإسـلام أبداً عن أن ينظر الجنسـان إلى بعضهما البعض. كتقدمة للزواج.

●●●

١٦١٠. ﴿غض البصر﴾

حرّم الله على المسلمة أن تنظر إلى غير زوجها بشهوة، وثبت فى الصحيح أن رسول ﷺ ترك عائشة أم المؤمنين تنظر إلى الجند الأحباش يلعبون بحرابهم فى المسجد يوم العيد، وظلت تشاهدهم حتى ملّت ورجعت. وغَضُّ البصر: هو منعه مما لا يحلّ له رؤيته، وما لم يُخشَ من الرؤية فتنة فهى جائزة، كرؤية التلميذة لأستاذها، ورؤية الموظفة لرئيسها. **والمهم أن تمارس المسلمة حياتها العامة بلا فتنة**، وتنظر وتطالع لتتعلم وتفهم وليزدد وعيها، ولتتناقش فيما يحلّ لها من غير أن يكون فى ذلك تنظُّرٌ عن فُجر أو دعوةٌ لفسق. وغضُّ البصر للمرأة والرجل على السواء،وفى الآية: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾**(النور) حضٌّ على عدم النظر إلا بما هو مباح النظر إليه، وإغماض البصر لا يكون إلا عن المحارم. وفى الحديث عند الطبرانى عن أم سلمة: **«أنه يُكره للنساء أن ينظرن إلى الرجال، كما يُكره للرجال أن ينظروا إلى النساء»** يقصد النظر بشهوة. وفي الحديث الذى رواه جرير بن عبد الله البجلى لمّا سأل النبيّ ﷺ عن نظرة الفجأة، قال: **«فأمرنى أن أصرف بصرى»**، يعنى يصرفه عن المحارم، إلا ما كان نظراً شرعياً. وعن رسول الله ﷺ لعليّ: **«يا علىّ! لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»** أخرجه أبو داود والترمذى، **والنظرة المحرّمة**: هى التى على غير مقتضاها، **والتى بها انتهاكٌ لحُرمات**، كالذى يفعله المتنطّعون على الطرقات، ومن حقّ الطريق كما قال رسول الله ﷺ **«غضُّ البصر»**، حيث النظر المُحرّم، سواء من الرجل أو المرأة، داعيةٌ إلى فساد القلب، ولذلك قال: **«غضّوا الأبصار، واهجروا الدُّعّار»**، والداعر هو الفاسد المفسد، وهو الناظر المتنطّع، والداخل على النساء لغير حاجة، والمحادث عن تطفُّل وسوء طوية، وقرن الله تعالى غضّ البصر بحفظ الفرج فقال: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ (٣٠)﴾**(النور) وقال: **﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾**(النور٣١) فساوى بين الرجال والنساء فى ذلك، وهو أزكى للجميع، وأطهر لقلوبهم، وأنقى لدينهم، **والنظر المُفحش** كما قال الرسول ﷺ برواية أحمد - **«سهمٌ من سهام إبليس مسموم»**. وأيمّا امرأة أظهرت محاسنها لينظرها غير زوجها فدعوتُها دعوةُ شيطان، وفى الحديث عن أحمد **«ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغضّ بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها»**، والنظر إلى المحاسن هو النظر الخوّانَ، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وفى الحديث عند ابن أبى الدنيا: **«كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضّت من محارم الله..»**، ويتبيّن من ذلك أن **غضّ البصر** مقصودٌ به كفُّه عن المحارم.

وإلاّ فالمسلم والمسلمة كلاهما كيّس فَطِنَ، يرى بنور الله، ولم يُعطه اللّه البصر إلا ليتعلم ويفهم ويعى ويتقدم فى الحياة من خلاله، **والبصر من أهم الحواس للإدراك، والمسلم إن لم ينظر فلن يدرك**، والمطلوب هو **النظر الحلال**، وبه يكون الإدراك السليم الذى ليست له غاية الفساد أو الإفساد.



١٦١١. ﴿هل للمرأة أن يطالع عورتها رجل؟﴾

المسلم لا ينظر إلى عورة المسلم أو المسلمة، وفى الحديث عن أبى سعيد عند أصحاب السنن: «**لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة**» تحريمُ نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وكذا الرجل إلى عورة المرأة، والمرأة إلى عورة الرجل. **والعورة**: هى كل أمر يُستحيا منه، وكل شيء يستره الإنسان من أعضائه أنفةً وحياء. وسترها ـ أى العورة ـ من الفطرة، فلمّا أكل آدم وحواء من الشجرة المحرّمة: **﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾** (الأعراف٢٢)، استحياءً من بعضهما، فذلك موجب ستر العورة: **أنه فطرة وشرع**.

والتنظُّر للعورات اضطراب نفسى: وهو أن يختلس الرجل أو المرأة مطالعةَ العورات بشهوة، ويعاقب القانون على التنظُّر، ويستثنى من ذلك أن تكون المطالعة من زوجين لبعضهما البعض، أو أن تكون المرأة فى ولادة وتحتاج أن يراجعها طبيب أو طبيبة، فمطالعة العورة فى ذلك مما لا حُرمة فيه عن **ضرورة**، والنظر فيها يتمّ بلا شهوة، وفيه إحياءٌ للنفس. وعلى عكس ذلك **غشيان الشواطيء وحمامات السباحة** للتنظُّر للعورات ،ويخلّ هذا التنظُّر بالآداب العامة، ويمجّه الذوق، وتحرّمه الشرائع، وهو مدعاة لإثارة الشهوات وارتكاب المحرّمات، وعلى مَن يغشى أماكن الاستحمام العامة أن يصون نظره عن عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره،ويجب الإنكار على من يفعل ذلك لمن يقدر على الإنكار، ولا يسقط الإنكار بظن عدم القبول إلا أن يخاف المنكر على نفسه أو على غيره الفتنة. **والاستئذان** مطلوب لضمان عدم مطالعة عورات الناس، كقوله تعالى: **﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ (٥٨)﴾**(النور): من قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة عند الراحة، ومن بعد صلاة العشاء عند النوم. **وغضّ البصر** ألزم لحفظ العورات، سواء للرجال أو للنساء بقوله تعالى: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ (٣٠)﴾**(النور) أى أطهر للدين وأبعد عن الدنس، وهما الغاية من الآية ومن التحريم، وفى ذلك ترسيخ للفطرة، وإظهار لحقيقة الإسلام

والمسلمين. وفى اليهودية طالع اليهود عورة موسى فلعنهم، وفى التوراة أن حام طالع سوءة أبيه نوح فاستحق اللعن (التكوين٩/٢٣)، وتروى السيدة عائشة عن الرسول ﷺ أنها ما طالعت عورته ولا طالع عورتها. فذلك إذن ليس بدعة فى الإسلام، وقد حرّم تولستوى مطالعة العورات، ونهى غاندى عن ذلك بتاتاً!

•••

١٦١٢. ﴿هل مطلق اللهو محرّمٌ على المرأة فى الإسلام؟﴾

للنساء أن يلهين لهواً بريئاً، ولا تثريب عليهن فى ذلك، وفى الصحيح عن عائشة قالت: «**رأيتُ النبيّ ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد، حتى أكون أنا التى أسأم، فأقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو**». والحبشة كانوا جُنداً، وكانت المناسبة أنهم يلعبون بالحراب والسيوف فى المسجد فى عيد من الأعياد، وقد عاونها الرسول ﷺ وهى تتفرج، وأضفى عليها من حنانه، إلى أن شبعت فُرجة وزهدت ولم يقل لها كفى، ولا تعجّلها. **وأيّما لهو ليس فيه فتنة، ولا يُخشى منه مغبة، فهو حلال أن تراه أو تسمعه المرأة كرؤية الرجل سواء بسواء**. وقولها: «**أقدروا قدر الجارية حديثة السن الحريصة على اللهو**»، لأنها كانت فى سن المراهقة، وهو سن اللعب واللهو، ولا مانع من ذلك طالما هو **لعب مفيد ولهو برىء**.وفى قولها تنبيه إلى مراعاة حاجات السن التى هى من الأمور الفطرية فى الإنسان، غير أن الفطرة قد يُساء ويُحسَن استخدامها، والغرائز فى حدّ ذاتها مفيدة إن حَسُن استخدامها، وتصريف الغريزة يتوجه بالتربية إلى المشروعات ويتنكب المحرّمات، فمن كان توجّهه إلى المشروعات فأيّما لهوٌ أتاه، أو لعبٌ مارسه فهو حلال، يستوى فى ذلك الإناث والذكور.

•••

١٦١٣. ﴿الزينة مطلوبة للمسلمة والمسلم﴾

الزينة هى اللباس من جيد الثياب، وهى ليست محرّمة فى الإسلام كقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (الأعراف٣٢)، ويشارك فيها المسلمون غيرهم فى الدنيا، وهى للمسلمين خاصة فى الآخرة، فالزينة إذن فى **الدنيا والآخرة**،وفى الإسلام فإن أكثر التزيّن عند الذهاب إلى المساجد، كقوله: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ (الأعراف٣١)، والتجمّل للصلاة خصوصاً **يوم الجمعة وأيام العيد**، والمطور وغسل الأسنان من السُّنّة، ومن تمام التجمُّل، **والألوان الفاتحة** من خير ألوان الثياب.وعن الرسول ﷺ قال: «ألبسوا من

ثيابكم البيض» رواه أحمد، وقال: «عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب».
وحَفُّ الشوارب، والحَلْق، والقَصُّ، من زينة الرجال؛ وكذلك نَتْف الإبط، وحلق العانة، والغُسل، والتعطُّر، وصَبْغ الرأس، والتختُّم ـ خاصةً للنساء. وكانت عائشة. تنهى المرأة ذات الزوج أن تدع ساقيها لا تجعل فيهما شيئاً من ذهب، وتنصح النساء بصبغ الرأس وتقول: إن رسول الله ﷺ كان يكره الرَجُلَة ـ أي المرأة المسترجلة أو المتشبهة بالرجال، وكانت فاطمة بنت عليّ تضع في عنقها عقداً من خرز وتقول: إن رسول الله ﷺ كره التعطُّل للنساء ـ أي أن لا يتحلّين بشيء. وكان يقول: «إن الله تعالى جميلٌ يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس»، وكان يقول: «الشعر الحسن أحد الجمالين، يكسوه الله المرء المسلم»، فمابالك بالمسلمة!

***

١٦١٤. ﴿المسلمة لاتبدي زينتها إلا ما ظهر منها﴾

قيل: إن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متّزرات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله تعالى: **﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾**(النور). والزينة ـ كما في الآية ـ غير محرّمة على النساء، وإنما المحرّم الإسراف فيها، وأن تأتيها المرأة عن مخيلة، والله يحب أن يرى نعمته على عبده، غير أن من السرف للمرأة أن تتزين بكل ما تشتهي، وكذلك من التزمّت أن تسرف في التحريم، كقوله تعالى: **﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾** (الأعراف)، قوله: **﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾**(المائدة)، والمعتدون: هم الذين يتجاوزون الحدّ في الحلال والحرام، والمطلوب العدل بينهما. ومراد الإسلام من زينة المرأة أن تتوجه بها لزوجها، وأن تتزيّن ما وسعها في غير سرف، لاتبتغي بالزينة غير زوجها، وأن لا يظهر منها للغير إلاّ ما لا يمكن إخفاؤه. ومن حِكَم ابن مسعود: أن الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج، وزينة يراها الأجانب، وهذه الأخيرة تبدو على الظاهر من الثياب ومن البدن. والزينة تكون في الثياب وفي غير الثياب من أجزاء البدن، وتكون في الماديات

الحسّية وفى المجردّات المعنوية كالأخلاق، وكأساليب الكلام، وآداب التعامل مع الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين المناسبات. **ومطلوبات التزيّن للمسلمة فى البدن : أن تحجب صدرها** فلا تُظهر ثدييها وترائبها كما تفعل الأمريكيات والأوروبيات، وهن المتابعات للموضة، يصممها خبثاء الموضة من المنحرفين والشواذ؛ **وأن تضرب الخمار على جيبها:** يعنى أن تُغطّى **النحر والصدر** فلا يُرَى منهما شىء؛ وأن تحتشم وتقتصد وتلتزم فى تزيُنها - وإبداء الزينة لا يكون إلا للزوج وللمحارم ممن ذكرت الآية. والمقصود بالاقتصاد الزينة - سواء ظهرت أو لم تظهر - أن لا يكون فيها تبرُّج، أى مبالغة. والمرأة إذا دخلها العُجْب بالزينة مقتها ربُّها. وحدّد الرسول ﷺ مقصود أى لباس عندما قال فيما رواه الطبرانى: **«الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمّل به فى حياتى»**، يعنى: **الستر والتجمّل**. ومن خير ثياب الزينة للمسلمة **«السراويل»** كالتى تلبسها المسلمات الباكستانيات، وقد حضّ الرسول ﷺ على لباسها لأنها أستر أنواع الثياب وقال: **«وحصّنوا بها نساءكم إذا خرجن»** رواه البزار، وقال: **«اللهم ارحم المتسرولات»**. والنساء لهن أن يتزّين **بالذهب**، وأن يلبسن **الحرير**، ولباس الزينة المنهى عنه هو **اللباس الفاسق**، وبتعبيره ﷺ : **«الباس من لاخلاق له»**، ومطلوب اللباس كما فى الآية: **﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾**(الأعراف٢٦): أى اللباس الذى يُظهر لابسه أنه يخشى **الله**، فكل ما يلفت الرجل فى المرأة - كلما داراه اللباس - كان صدوره عن تقوى، والسرائر تُظهرها الزينة والألبسة، وهى مظهر للنفوس، وتُفصح عن المكنونات والمقاصد، وفى الحديث عن **عثمان بن عفان**: أن النبىّ ﷺ قال: **«والذى نفس محمد بيده، ما أسَرّ أحدٌ سريرة إلاّ ألبسه الله رداءها علانيةً، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر»** رواه ابن جرير. فمن كانت غايتها من زينتها ولباسها زوجها فهذه هى **المسلمة الذكية**، ومن كانت غايتها أن تُبهر الناس وتنال الإعجاب، فتلك هى المعجبة بنفسها والمُستعرِضة بجمالها، **والعُجب والاستعراض** كلاهما من أمراض النفس. وفى الحديث: **«الرافلة فى الزينة فى غير أهلها كَمَثَلِ ظُلمة يوم القيامة لا نور لها»** أخرجه الترمذى.

والمشى فى منتصف الطريق من التزيّن، وكانت النساء فى الجاهلية يلبسن الخلاخيل، فإذا مشين ضربن بأرجلهن لينبّهن إلى زينتهن، فنهى الإسلام عن ذلك، لما فى معنى الإلفات إلى المرأة من أن تنتهبها العيون، **والعين قد تزنى**، وصاحبها زان، والمرأة المنبّهة إلى زينتها زانية. ومَنْ كن على مثل تلك الخصال فهن فى جاهلية، والمسلمة الذكية هى التى تلبىّ أمر ربّها فى ثيابها، كقوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾**(الاحزاب٥٩)، ومناسبة الآية أن

فسّاق أهل المدينة كانوا يخرجون بالليل إلى الطرق حين يختلط الظلام، فيعرضون للنساء. فإذا رأوا المرأة عليها جلباب عرفوا أنها مسلمة فكفّوا عنها، وإذا لم يكن عليها جلباب وثبوا عليها. والجلباب في الحديث عن عمر برواية البزار ـ كان شبراً بعد الركبة، فطلب النساء من رسول الله ﷺ أن يطيله أكثر، بدعوى أن ذلك يعتبر قصيراً، فأطاله إلى ذراع بعد الركبة فلم يعجبهن أيضاً وطلبن أكثر، بحجة أن القدَم ما تزال عارية، فرفض أن يزيد عن ذلك. وفي الحديث برواية ابن سعد اشترط الرسول ﷺ في الجلباب أن لا يكون رقيقاً كاشفاً يصف العظام. وفي الحديث عن أسامة بن زيد قال: «مُرْها تجعل تحته ـ أي الجلباب ـ شيئاً لئلا يصف». وبعض الفقهاء يفسّر الخطاب في الآية: ﴿قُل لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴿٥٩﴾﴾(الأحزاب) أن مضمونه زوجاته وبناته ﷺ، وحرائر النساء دون الإماء، إلا أن معنى المؤمنين لا ينصرف إلى السادة دون العبيد، والمؤمن يمكن أن يكون سيداً أو عبداً طالما هو في طاعة الله وتقواه، ويلتزم أوامره ونواهيه، فلماذا إذن إخراج الإماء من مقصود الخطاب ـ وهن مؤمنات وأزواج لمؤمنين؟ والتفسير إذن خاطىء، وأخطأ سفيان الثوري عندما قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة، وقال إن النهي عن النظر إليهن لخوف الفتنة لا لحرمتهن!!! وهو خطأ شنيع في التفسير لأنه جعل دافع النظر إلى المسلمات كونهن مسلمات، فإذا لم يكنّ كذلك ارتفع التحريم!! والدافع في الآية هو إثم النظر ومخافة الفتنة وليس من يقع به الإثم. ومعيار الثوري في معنى التحريم مزدوج، والإسلام لا يعرف المعايير المزدوجة، فالحرمانية ارتباطها بالجُرم نفسه وليس بالأشخاص، وشبيهٌ بذلك فعلُ عمر بن الخطاب مع الإماء، فكان ـ كما تروي صفية بنت أبي عبيدة ـ إذا التقى بأمةٍ مخمرةٍ متجلبةٍ يأمرها أن لا تتخمّر ولا تتجلبب حتى لا تكون شبيهة بالمحصنة!! وكأن الأمَة المسلمة لايهمّ أن لا تكون محصنة؟ وهو منطق غريب! وعن أنس بن مالك قال: كان إماء عمر يخدمننا كاشفات عن شعورهن يضرب أثداءهن!! روى ذلك البيهقي. وكأن المطلوب منا أن نصدق أن عمر الذى كان يرقّع ثيابه ولا يجد ما يطعمه كانت عنده إماء!؟ والحديث يصادم الإسلام بشدّة، فالإسلام هو الدين الذى يساوي بين الجميع، ويعارض الرقّ ويعمل على تصفيته. ثم إن ما وصفه أنس فيه قُبح ولا أعتقد أن عمر كان ذلك مفهومه. وأمثال هذه الأحاديث عند أنس وغيره متهافتة وضعيفة، ولا يؤيدها المنطق، وتجافي روح الإسلام، فكوني ذكية أريبة أختي المسلمة، واستفتي قلبك ولا تصدّقي كل ما يُشاع عن دينك!

•••

١٦١٥. ﴿تبرّج النساء لم ينفرد الإسلام بالنهي عنه؟﴾

يرد التبرُّج فى القرآن مرتين فى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾(الاحزاب٣٣)، وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾(النور٦٠). وفى التبرُّج قال المفسرون: إن المرأة كانت تخرج تمشى بين يدىّ الرجال فذلك هو تبرُّج الجاهلية؛ وقيل: كانت للنساء فى الجاهلية مشْية وتكسُّر وتغنُّج فنهى الله تعالى عن ذلك فى الإسلام. وقيل: التبرُّج للمرأة هو أن تُلقى الخمار على رأسها ولكنها لا تشدُّه ليوارى قلائدها وقُرطها وعُنقها، فيبدو ذلك كله منها، فذلك هو التبرُّج، ثم إن الآية عمّت نساء المؤمنين فى التبرُّج. والتبرُّج على ذلك لا يليق بالمؤمنة التى تخشى الله، لأنه من المفاسد فى الأرض، ودليل فُحشٍ فى المرأة التى تفعله، وأطباء النفس يطلقون على ذلك اسم **الاستعراضية exhibitionism**: وهى أن تُظهر المرأة مفاتنها لتغوى الرجال، وإلاّ فلأى غرض تتبرج إن لم يكن للفتنة؟! **والقواعد من النساء - فى الآية -** هن اللاتى انقطع حيضهن، وكبرن فى السِن، ولم يعدن محل مطمع من الرجال، ولم تعد لديهن رغبة فيهم، واضمحلّ جمالهن فلم يعدن يَملن إلى الاستعراض، فهؤلاء لهن أن ينكشفن على الرجال، وإنما فى غير تبرُّج بزينة، لأن التبرج منهن مستهجن ممجوج. وعن أم الضياء أنها قالت: دخلتُ على عائشة فقلتُ: يا أم المؤمنين! ما تقولين فى: **الخضاب، والنفاض، والصباغ، والقرطيْن، والخلخال، وخاتم الذهب، وثياب الرقاق**؟ فقالت: يامعشر النساء! قصتكن كلها واحدة! أحلّ الله لكنّ **الزينة غير متبرّجات**، أى لا يحلّ لكنّ أن يُرَى منكن مُحرّمٌ. **والخضاب والنفاض والصباغ** كلها من تلوين الثياب والشعر واليدين والقدمين للزينة. والزينة فى حدّ ذاتها غير مُحرّمة، والله تعالى زيّن السماء للناظرين وقال: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ (٣٢)﴾(الاعراف)، إلا أنه قال أيضاً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)﴾(الكهف)، وحذّر من **زينة الشهوات** (آل عمران ١٤)، **وزينة المال والبنين** (الكهف ٤٦)، **وزينة الحياة الدنيا عموماً** (الحديد ٢٠)، وحبّب لنا الإيمان وجعله زينة القلوب (الحجرات ٧)، **والتقوى زينة الرجال**، والعفة **زينة النساء**. والمرأة لها أن تتزين لنفسها، والمطلوب أن لا تُبدى زينتها إلا لخاصة أهلها ولزوجها (النور ٣١)، والمعقول أن لا تبدى من الزينة إلا ما ظهر منها (النور ٣١) وأن لا تنبّه إلى زينتها لِيُرَى ذلك منها (النور ٣١)، **فإن فعلت ذلك فهو التبرُّج المَقيت!**

والنهى عن التبرّجُ فى **النصرانية** كما هو فى الإسلام، ولا أدرى لِمَ **التحامل إذن على**

الإسـلام؟! فمن القـديس بطرس يقول للنساء ـ كما في الإسلام: «فـلا تكن زينتكن الزينة الظاهرة، من تجعيد الشـعر، والتحلّي بالذهب، ولبس الحُلَل» (الرسالة الأولى٣/ ٣)، وكما في الإسلام يجـعل الإيمـان زينة القلوب يقـول: «بل زينة إنسان القلب المستـتر، أي زكاء الروح الوديع الساكن الذى هو كثير الثمن أمام الله» (الرسالة الأولى ٣/ ٤) . وفي أحـوال العجائز من النساء ـ وهن بالمصطلح الإسلامي القواعد من النساء، يقول القديس بولس: «أن تكون العجائز في هيئة تليق بالقداسة، غير ملقيـات الفتنة، ولا مستعبَدات للإكثار من الخمر» (الرسـالة إلى تيطس٢/ ٢)؛ وفي النساء وما يحدثن من الفتن قال: «لتكن النساء عفيفات غير ملقيات للفـتنة» (الرسالة إلى تيـموثاوس ٣/ ١١). فكما ترى أخي المسلم ويا أخـتي المسلمة، لم يكن الإسلام سابقاً إلـى تحريم التبرُّج، فالنصـرانية سبقته إلى ذلك بزمان، فلماذا التشنيع على الإسلام والمسلمين؟ حسبنا الله.



١٦١٦. ﴿المرأة تجاهد كالرجال ولا فرق﴾

انخـرطت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية فـي غزاة أُحـد، وانضـمت إلى صـفوف المقاتلين تزود عن النبيّ ﷺ، ولم يُفرض الجهاد على النساء فرض عين، وإنما هو فرض كـفـاية تقوم به من تقدر من النسـاء، والرجال أفضل من النساء في حَمْل أمـانة القتال، والآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾(البقرة ٢١٦) الخطاب فيها للجميع بلا استثناء، نسـاءً ورجالاً، ولمّا قاتلت أم عمارة لم ينهها الرسول ﷺ، ولا ردّها إلى بيتها.

وفي الرواية أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبيّ ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمـي يارسـول الله! أنا وافدة النساء إليك. إن الله عـز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك. وإنّا معشر النساء محصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فُضّلتم علينا بالجمع والجـماعات، وشهود الجنائز. والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً، أو معتمراً، أو مجاهداً، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابـكم، وربيّنا أولادكم، أفنشارككم هذا الأجر والخيـر؟ فالتفت النبيّ ﷺ إلى أصحابه بوجـهه كله وقال: «هل سمعتـم مسألة امرأة أحسن من مسألـتها في أمر دينها من هذه؟»، فقالوا: يارسول الله! ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا! فالتفت النبيّ ﷺ وقال: «افهمي أيتها المرأة، وأعلمي مَن خَلْفك من النساء: أنّ حُسْن تبعُّل المرأة لزوجها، وطلبها مـرضاته، واتّباعها ما يوافـقه، يعدل ذلك كله»، فانصرفت وهي متـهللة الوجه، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضـت عليهن ما قاله رسول الله ﷺ، ففرحن،

وآمَنّ به جميعهن. غير أنه في الحديث لم يقل الرسول ﷺ أن النساء ليس عليهن أن يفعلن مثل الرجال.

وتروى صفية بنت عبد المطلب عمة النبيّ ﷺ، عن جهادها في الغزو: أن النبيّ ﷺ كان إذا خرج لقتال عدوه من المدينة، يرفع أزواجه ونساءه في حصن حسّان بن ثابت، فلما كان يوم الأحزاب، صعدت صفية معهن، وتخلّف عندهن حسّان، فجاء يهودى فلصق بالحصن يتجسّس، فقالت صفية لحسّان: انزل إليه فاقتله! فتوانى حسّان، فأخذتْ صفية عموداً ونزلت، ففتحت الباب بهدوء وحملت على الجاسوس فقتلته. وصعدت إلى حسّان تطلب منه وهو الرجل أن ينزل لسلب اليهودى، ورفض حسّان بزعم أنه ما له بسلبه حاجة، فنزلت صفية فسلبته. ـ فهذه مسلمة مجاهدة، فهل كانت تقرّ في مكانها إلى أن يقتل اليهودى النساء والأطفال جميعاً؟! بينما كان حسّان وهو الرجل قد جَبُن وقبع في مكانه خائفاً! ويُروَى عن صفية أنها يوم أُحد رأت المسلمين يتراجعون، فتقدمت وبيدها رمح، تضرب في وجوه الناس وتقول: انهزمتم عن رسول الله! ولم تكفّ إلا بعد أن شاهدها النبيّ ﷺ فأشار إلى الزبير بن العوام أن يبعدها عن أخيها حمزة عمّ النبيّ ﷺ، وكان حمزة قد بُقرت بطنه، فكره الرسول ﷺ أن تراه، فناداها الزبير أن تتنحّى، فزجرته، وأقبلت تحارب حتى وصلت إلى جثة أخيها وقالت فيه شعراً ترثيه يُقطّع نياط القلب، فكانت تجاهد بيديها وبلسانها على السواء، وسلوكها هو ما يمليه عليها الدين والعقل وإن قال بعكس ذلك البعض.

وفى غزوة حنين حملت هوازن وثقيف على المسلمين حملةَ رجلٍ واحد، فانهزم جمهور المسلمين، وثبت رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته: علىّ، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه جعفر، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد ابن أم أيمن، وربيعة بن الحارث، والفضل بن عباس، وقُثم بن العباس، فهؤلاء تسعة والنبيّ ﷺ عاشرهم. وكانت المفاجأة: أم سليم الأنصارية! فإنها كانت في المعركة، وثبتت كالرجال، وأفضل من الرجال، وقد احتزمت بعيراً لأبى طلحة، وفى يدها خنجر! وهؤلاء النساء كن قليلاً من كثير غيرهن، بل كانت غالبية النساء المسلمات هكذا، فهل بعد ذلك يقال إن المرأة لا نصيب لها في الجهاد؟ وأن الإسلام جعلها من القواعد لا فائدة منها إلا أن يُستمتع بها؟!!!حسبُنا الله!



١٦١٧. ﴿هل المرأة فى الإسلام شؤم؟﴾

فى الحديث عن ابن عمر عند البخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «**الشؤم فى المرأة والدار والفرس**»، وفى رواية أخرى قال: ذكروا الشؤم عند النبىّ ﷺ فقال النبىّ ﷺ: «**إن كان الشؤم فى شىء ففى الدار والمرأة والفَرَس**». وفى الرواية عن سهل بن سعد قال: «**إن كان الشؤم فى شىء ففى الفرس والمرأة والمسكن**». وعن أسامة بن زيد فيما رواه البخارى، أن النبىّ ﷺ قال: «**ما تركت بعدى فتنة أضرّ على الرجال من النساء**». وفى القرآن يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾(التغابن١٤). وفى تفسير هذه الأحاديث قالت السيدة عائشة، برواية أبى حسان فيما نقله أحمد والحاكم، أن نبىّ الله **لم يقل ذلك بالضبط** ولكنه قال: «**كان أهل الجاهلية يقولون الطِّيَرة فى المرأة والدار والدابة**»، ثم قرأت عائشة قول الله عزّ وجلّ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ**﴾(الحديد ٢٢). وفى رواية أخرى عند الطيالسى عن مكحول قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود! يقولون إن الشؤم فى الدار والمرأة والفَرَس**». ورواية عائشة أصدق لموافقة قولها مع نهيه ﷺ عن الطيرة نهياً عاماً بقوله: «**يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يكتزون، ولا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربّهم يتوكلون**». والعدد لضرب المثل فقط، أن الجنة يدخلها كثيرون. وفى الحديث عن أبى هريرة قال: «**لا طِيَرة وخيرُها الفأل**»، وأصل التطيُّر أنهم كانوا فى الجاهلية يتفاءلون بالطّيْر تطير يمنةً، ويتشاءمون بها تطير يَسْرةً. وعن **عائشة**، عن رسول الله ﷺ قال: «**الطِّيَرة شِرْك**»، ومعنى أنها شِرك أن الذى يعتقد فى التطيّر إنما لما يجلبه من نفع أو يدفع من ضُرّ، فكأنهم أشركوا مع الله. والمقصود بهذه الأحاديث فى المرأة والدار أو المسكن، والدابة أو الفرس أو المركبة، إنما هى **المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركبة السوء**، وفى رواية للحاكم شرحٌ أكثر عن النبىّ ﷺ قال: «**المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، والدابة تكون قطوفاً فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحق أصحابك؛ والدار تكون ضيقة قليلة المرافق**»؛ وللطبرانى من حديث أسماء قال: «**إن من شقاء المرء فى الدنيا سوء الدار والمرأة والدابة**»، وفيه أن **سوء الدار** هو ضيق مساحتها وخُبث جيرانها؛ **وسوء الدابة**: منعها ظهرها وسوء طبعها؛ **وسوء المرأة**: عُقم رحمها وسوء خُلقها. وإذن فتخصيص الشؤم بالمرأة، ونسبة الفتنة إليها، إنما المقصود بهما من يحصل منها أو منه ذلك بالفعل، يستوى فى ذلك **الرجال والنساء**، ومن الجهل أن يقال إن المرأة إطلاقاً عدو للرجال، وأنها سبب الفتنة، وأنها شؤم. والشارع أطلق الكفر على من ينسب المطر إلى النَّوىَ، فكيف بمن

ينسب ما يقع من الشر إلى المرأة مما ليس لها فيه مدخل؟! وفى الحديث مع ذلك أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، وفى **علم النفس والطب النفسى**: أن **فتنة الجنس** هى أعظم الفتن، ولا يعنى ذلك أن المرأة سببٌ فيها، والله تعالى يقول: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾**(آل عمران١٤) فلا دخل للمرأة إذن فى ذلك، وليست الفتنة هى فتنة المرأة ولكنها «**فتنة الجنس**»، يستوى إزاءها الرجال والنساء، ومن أمثال العامة: **النساء شر كلهن، وأشرّ ما فيهن عدم الاستغناء عنهن!** وهو قول غريب فيه الجهل المطبق. فمن النساء من هن **أمهاتنا وأخواتنا**، ومنهن **عظيمات النساء، كمريم، وخديجة، وعائشة** فى الدين، وفى العلم مدام كورى، واليهود يعظّمون **استير ويهوديت**، وإن كان فى النساء **نقصٌ** فى العقل والدين، فإن الرجال أنقص عقلاً وديناً إذ يُفتنون بهن، ويُشغلون بهن عن الجاد من الأمور، وعن الدين، بالإيقاع بهن، والتهالك على الدنيا إرضاءً لهن، ففساد الرجال أكبر، فإذا وعظ الرسول ﷺ المؤمنين والمؤمنات بقوله - برواية أبى سعيد فيما أخرجه مسلم: «**واتقو النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت النساء**»، إنما معناه **اتقوا الجنس**، يقول ذلك **للنساء والرجال** معاً.



١٦١٨. ﴿هل شهادة المرأة فى الإسلام نصف شهادة الرجل؟﴾

الذين يقولون بذلك يستدلون عليه بأن الله تعالى قال: **﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾** (البقرة ٢٨٢)، والآية تنصرف إلى **الاستشهاد فى «الأموال» لا غير**، وأقيمت المرأتان مقام الرجل بدعوى أنه إذا ضلت إحداهما أن تذكّرها الأخرى، وفى سياق الآية معنى أن تضلّ: هو **أن تنسى الشهادة**، وتذكير الواحدة للأخرى فيه أن المرأة على إطلاقها لا تنسى دائماً، **فهذه واحدة قد تنسى بينما الأخرى لم تَنْسَ! فالنسيان ليس شيمة المرأة وليس طبعها**، والنسيان فى الرجل كما هو فى المرأة، وإلا ما طالبه المولى عزّ وجلّ أن يكتب المعاملات، وأن **يستشهد** عليها، وعلّل ذلك بأنه أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا، أى أعدل وأثبت للاستشهاد به، فإذا وضع خطّه ثم رآه تذكّر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه لنسيه كما هو الواقع غالبا، **والكتابة والشهادة** عليها أقرب إلى عدم الريبة، ويُرجع إليهما عند التنازع فيُفصَل بين المتنازعين بلا ريبة، فإن كانت **آفة النساء النسيان**، ودرؤه بأن تُظاهر المرأة امرأةٌ أخرى وتعينها على التذكّر، فإن **آفة الرجال الريبة، وإتيان الظلم، وقول الزور**. والنسيان يكون فى **الشهادة الشفوية** ولكنه لا يكون فى **الشهادة**

المكتـــوبة، وفى المكتوبة لا تلزم الشـهادة المرأة كمـا لا تلزم الرجل، والآية تنصرف إلى الشهادة الشفوية ولا تنصـرف إلى المكتوبة. وفى زمن الرسول ما كـان النسـاء فى الأغلب والأعم يعرفن القراءة والكتـابة، فما كانت شهادتهن تتيسر لذلك إلا شفـوية، وشـهـادة المرأتين عن المرأة الواحـدة تحرّزٌ لذلك من نسيـان إحداهما، وهو حقٌ وعـدل، ولا تثريب على المرأة فى ذلك ولا يهـينهـا، وليس فـيه حطٌ من شـأنهـا، ولا من قُدراتـها الذهنيـة والنفسـية. وأكرر أن شـهادتى المرأتين تحرُّزٌ من الـنسيان فى الشـهادة الشفـوية فى الأموال فقط. وقد أخذ الرسول ﷺ بشهادة المرضعة، وكان عُقبة بن الحارث قد تزوّج امرأة، فجاءته مرضعة وقالت له إنهـا أرضعتهما، فذهب عُـقبـة إلى الرسول ﷺ يقـصّ عليه الأمر ويكذّب المرضعة، فأعرض عنه الرسول ﷺ، فلما ألحّ عقبة ردّ عليه بحسم وقال: «كيف بها وقد زعمتْ أنها قد أرضعتمكا» رواه البخارى، وإذن فشهادة المرأة الواحدة تجوز.

•••

١٦١٩. ﴿هل عامة أهل النار نساء؟﴾

فى الصحـيح عن عمـران أن النبىّ ﷺ قال: «اطّلعتُ فى النار فـرأيت أكـثـر أهلهـا النساء»؛ وفى الرواية لأسامة جاء: «وقمت على باب النار فإذا عامةُ مَن دخلَهَا النساء»؛ وفى الرواية عن ابن عباس جاء عن النار: «أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء» قيل: لِمَ يارسول الله؟ قـال: بكُفْـرهن»، قيل: يكفُـرن بالله؟ قال: «يكفُرن العـشير، ويكفُرن الإحـسان! لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر، ثـم رأتْ منك شيئاً قالت: مـا رأيتُ منك خيراً قطّ». وفى روايـة عياض بن عبد الله قال للنساء: تصدّقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار»، فقلن: ولِمَ يارسول الله؟ قـال: تكثرن اللعـن وتكفُرن العشـير»، والمرأة تكفر عـشيرها يعنى لا تقـرّ بفضله، والعشير الزوج، قيل له عشير بمعنى معاشر، مثل أكيل ومؤاكل.

وهذه الأحاديث صيغت للتحذير وليس على الحقيقة، والكفر الذى من نصيب النساء لا يراد به الكفر المُخرج عن الملّة، ولكنه أراد أن يخوّف النساء أن يرتكبن هذا النهى المذكور، ومن ثم يكنّ أكثر من يدخل النار، والإكثار من اللعن وكفران العشير لا يختصّ بهما النساء دون الرجال، وقوله: «لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر» إشارةٌ إلى سبب التعذيب، لأن المرأة التى تفعل ذلك إنما حالها كحال المصرّ على كُفر النعمة، والإصرار على المعصية من أسباب العذاب؛ وكذلك قد يقول الرجل لعشيرته: ما رأيت منك خيراً قطّ، وقد يكثر اللعن وهو الأغلب. والحديث لذلك ضعيف وغير متوازن، وموضوع غالباً لإغاظة النساء.

•••

١٦٢٠. ﴿هل النساء ناقصات عقل ودين؟﴾

يقول مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ أنه قال: «يامعشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جَزْلة ـ أى ذات رأى: وما لنا يارسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تُكثرن اللعن، وتكفُرن العشير. ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن». قالت: يارسول الله! ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أمّا نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل؛ وتمكث الليالى لا تصلّى، وتفطر فى رمضان، فهذا نقصان الدين». وفى رواية البخارى عن أبى سعيد الخُدرىّ أن النبىّ ﷺ قال: «يا معشر النساء تصدّقنَ فإنى رأيتكن أكثر أهل النار»، فقلن: وبِمَ يارسول الله؟ قال: «تُكثرن اللعن وتكفُرن العشير! ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للُبّ الرجل الحازم من إحداكن». قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يارسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟»، قلن: بَلَى: قال: «فذلك من نقصان عقلها! أليس إذا حاضت لم تُصلّ ولم تَصُم؟» قلن: بَلَى، قال: فذلك من نقصان دينها».

ومعنى الحديث لا ينصرف إلى ما ينصرف إليه ذهن البعض من تقليل شأن المرأة فى الإسلام، فقوله ﷺ: «تكثرن اللعن» فذلك من شأن بذيئة اللسان وحدها، وبذاءة اللسان تستوي عند الرجال والنساء؛ وقوله: «تكفُرن العشير:» معناه تجحدن نعمة الزوج وتستقللن ما كان منه، وذلك دأب بعض النساء دون الغالبية، وكذلك هو دأب بعض الرجال دون الغالبية؛ واللُّب فى الحديث: هو العقل، واللبيب هو الرجل الحازم الضابط لأمره. وليست المرأة على عمومها ناقصة عقل ودين، والإسلام والقرآن قد ضربا المَثَل بملكة سبأ، وكانت أرجح عقلاً من قومها من الرجال بخاصة، وكانت الأكثر منهم حنكةً وكياسةً فى أمور السياسة والدين، ومقالتها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾(النمل٣٤) جعلها القرآن من الحِكَم المأثورة، وبها أوتيت ملكة سبأ جوامع الكلم، وأتمّ الله تعالى الآية بالتأمين على حكمتها فقال: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾(النمل)، أى أن ما قالته عن الملوك هو الصحيح. وبلقيس أو ملكة سبأ فكّرت ودبّرت وانتهت إلى الرأى: فما كان أعقلها فيما ذهبت إليه، وقد تحصّل لها العلم بأن الهدية تقع موقعاً حسناً من الناس، فسليمان إنْ قبِل الهدية فهو مَلِك فتنصح بقتاله، وهم أولو قوة وبأس وسيهزمونه حتماً، وإنْ لم يقبلها فهو نبىّ حقاً وعليهم أن يتّبعوه! فهل رأىَ الإسلام فى ملكة سبأ أنها ناقصة العقل فيما استنّته لقومها من التريث وإعمال الذهن وتجربة الحيلة، وفى طلبها المشورة حين قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ

قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾ (النمل)؟ ولقد بيّن القرآن أن خاصة قومها ممن جمعتهم للمشورة قضوا بأنها **الأحكم والأعقل**، وردّوا عليها قائلين: **﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾**(النمل)، فلمّا تأكّد لبلقيس ظنّها في سليمان قالت: **﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾**(النمل)، وواضح من النصّ القرآنى أن الإسلام يعلى من قدر هذه المرأة، وقد خلُصت إلى ما خَلَصت إليه، مما أعوز قومها، وينبّه إلى كمال عقلها واكتمال دينها معاً!

ومريم ابنة عمران قال فيها القرآن أجمل القول، ووصفها أحسن الوصف، **فقال إنها** كانت من القانتين (التحريم ١٢)، فاستحقت أن **تحمل بكلمة الله تعالى**، وكان حَمْلُها آيةً (المؤمنون ٥٠)، أي **حجّة قاطعة على قدرته تعالى قدرة مطلقة، فلقد خلق الله آدم** من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق **المسيح** من أنثى بلا ذكر، وخلق **بقية الناس** من ذكر وأنثى؛ ونبهت الآيات فى القرآن إلى ما يقال فى مريم من بهتان عظيم (النساء ١٥٦)، وإلى أن اختيارها لمهمة الحمل فى المسيح كان **اصطفاءً لها** على العالمين، ولولا أنها كانت أطهر العالمين ما **اصطفاها** لهذه المهمة (آل عمران ٤٢). وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى، عن النبىّ ﷺ، يجىء عن مريم: **«كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**. وهؤلاء جميعاً كن ممن جاء فيهن وصف الله تعالى **لفضليات النساء** عموماً: **﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾** (التحريم ٥) **فأين نقص العقل ونقص الدين فى هؤلاء وأولئك وهن الكاملات؟** ثم إن الله تعالى وقد ضرب المَثَلَ على الكمال فى النساء **بامرأة فرعون، وبمريم** (التحريم ١١)، **فقد** ضرب النبىّ ﷺ المَثَلَ على الكمال فى **النساء المسلمات** بخاصة ـ **بخديجة**، أعظم امرأة عرفها التاريخ، ظاهرت زوجها واحتملت معه عذابات الدعوة، **وبعائشة** التى وصفها صحابة الرسول فقالوا: **إنها كانت أعلم النساء، ولو جُمع علمها إلى علم نساء زمانها لكان علْمها الأفضل! بل كانت أفقه وأعْلَم** وأحسن الناس **رأياً، وكانت الأعلم بالحلال والحرام**، وقال فيها المقداد بن الأسود: **ما كان أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ أعلمَ بالفريضة من عائشة** رضي الله عنها! وعن أبى موسى قال: **ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يشكّون فى شىء إلا سألوا عنه عائشة فيجدون عندها من ذلك علماً»**. وروى مسروق: **أن مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسألونها»**، وكانت عائشة مدرسة وحدها، **فهل كانت ناقصة عقل ودين؟!!** وإنما عَنَى الرسول ﷺ بهذا الحديث صنف النساء اللاتى حذّر منهن ابن لقيط بن صبرة لمّا اشتكى

له طول لسان زوجته وبذاءها فقال له: «**طلّقها**» فقال ابن لقيط: إنّ لى منها ولداً! فقال رسول الله ﷺ: «**فَعِظْها، فإنْ كان لك فيها خيرٌ فستفعل، ولا تضرب ظعينتك كضربك أَمَتك**». رواه الحاكم. و«الناشز» من المصطلح الإسلامى، ويُقصَد بها صنف المرأة التى عناها الحديث، ونبّهت إليه الآية: **﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾**(النساء٣٤). **والناشز فى الرجال كما فى النساء لافرق**، كقوله تعالى: **﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴿١٢٨﴾﴾**(النساء) والخطاب فى الآية لجماعة المؤمنين دون غيرهم وليس لسفلة الناس، والمؤمن ـ من ناحية ـ لا يبغى، ومن ناحية أخرى لا تصلح له الناشز، كما أن المؤمنة لا يصلح لها الفاسق ولا الكافر، **والعظة والهجر والضرب** وسيلة المؤمن لزجر الناشز وبذيئة اللسان المُفحشة، ولا تُعامَل هكذا طيبة اللسان عظيمة الخُلق. وكان دعاء امرأة فرعون من نشوز وفسق زوجها: **﴿رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله﴾**(التحريم١١)، فالنشوز والفسق كما قد يكون فى المرأة، قد يكون فى الرجل، ونقص الدين يترافق مع نقص العقل، وكلاهما يمكن أن يتواجدا فى الرجال تواجدهما فى النساء، ويحذر الرسول ﷺ النساء والرجال معاً منهما، وإلاّ فالنساء لا يمكن أن يكن ناقصات عقل بسبب أن شهادتهن نصف شهادة الرجل!! وموضوع الشهادة جاء فى المعاملات المالية وحدها، وفى **الشهادة الشفوية دون الشهادة المكتوبة** مخافة «**أن تضل إحداهما**» (البقرة ٢٨٢)، أى أن تنسى، **والنسيان فى الشهادة الشفوية**، وأما المكتوبة فلا نسيان فيها. والنسيان تتميز به المرأة خصوصاً نتيجة عوامل **القمع والكبت** التى تتعرض لها، وبسبب **الضغوط النفسية الهائلة** التى تعانى منها حتى فى المجتمعات المتقدمة؛ وكذلك فإن الحيض، **والإياس، والحمل، والرضاعة**، وحتى الجماع نفسه، فى كل ذلك الكثير من المعاناة بالنسبة للمرأة. وفى البحوث المشهورة **لكينزى وچونسون وماسترز** فى أمريكا ثبت أن النسيان تتعرض له المرأة خصوصاً فى الفترة قبل الحيض، وأثناء الحيض. والحيض فترة مرض، وما بعد الحيض فترة نقاهة يفسدها أن يمارس الرجل الجنس مع المرأة. ويلحقها من الجماع بعد الحيض، وأثناء الحمل، وبعد الولادة، وأثناء الرضاعة ـ أذى بالغ، ربما من ضخامة آلة الرجل، أو من ثُقل وزنه، أو من تكرار ممارسته للجنس وإرهاقها به، أو من الشذوذ الذى قد يأتى عليه جماعُه بها. وفترة الحمل فترة مرض حقيقى وتستمر تسعة أشهر، تتلوها **الولادة والنفاس**، وتستمر الرضاعة لمدة سنتين، ثم تكون فترة تنشئة الطفل اجتماعياً، وإعداده نفسياً، وموالاته تربوياً وتعليمياً، والإشراف على شئون البيت أثناء ذلك، فإذا كان لدى أغلب النساء **ثلاثة أطفال** فى المتوسط، فمعنى ذلك أن المرأة تعيش فى كبد أغلب عُمرها! فإذا بدأت تفيق من هذه الشواغل، كانت مسائل زواج الأولاد، والقلق على البنات ومستقبلهن، ويتوج ذلك كله

الإياس، وهو مشكلة المشاكل بالنسبة للمرأة، وأكبر المسببات للنسيان. **والنسيان فى** الاصطلاح: هو ترك الشيء تهمله الذاكرة أو تُغفله عن ذهول، وهو طبيعى **فى** الذكور والإناث، إلا أنه أشد فى الإناث، وأسبابه عندهن **عضوية** غالباً، وقد علمنا دوافع ذلك من **الحيض والجماع والحمل والولادة والرضاع** ... إلخ، إلا أن **النسيان النفسى** عند المرأة يكاد يميِّزها عن الرجل، والفرق بين **نسيان المرأة العضوى والنسيان النفسى**، أنها **فى النسيان العضوى** تتعطل قدرات الذاكرة عندها عن **التسجيل والاحتفاظ والاستدعاء** معاً، بينما تتعطل فقط قدرة الذاكرة عن استدعاء الخبرة فى النسيان النفسى.

ولكل ما سبق فإن الله تعالى قد فرض فى **الشهادة الشفوية أن تكون لرجلين**، فإن لم يكونا رجلين **فلرجل وامرأتين، وجعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، والسبب علمى محض** كما رأينا، وليس فيه افتئاتٌ على مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، وذلك مفهوم **النقص العقلى** فى الحديث. ثم إنه بسبب **الحيض والحمل والولادة والرضاعة** أعفى الله تعالى المرأة من الصلاة والصيام، وهذا **تكريم ما بعده تكريم**، وهذا الإعفاء **دوافعه علمية** خالصة لا دخل فيه لاعتبارات تمس كرامة المرأة من بعيد أو قريب، ومَثَل المرأة فى ذلك مَثَل المريض الذى يُسمح له بالصلاة نائماً على ظهره أو جالساً، أو مَثَل الذى يؤذَن له بالتيمم دون الوضوء، أو بالإفطار فى رمضان، ويُستحب لكل هؤلاء أن يكثروا من التصدّق، تعويضاً عمّا انتقصهم مما تصلح به صلاتهم أو ينصلح به صيامهم، فلذلك **يعظ** الرسول ﷺ النساء بأن يكثرن من التصدّق تعويضاً عما فاتهن من أجر الصلاة والصيام اللذين اضطررن إلى تركهما غَصْباً عنهن فى قوله: **«تصدّقن وأكثرن»**، وليس فى الحديث ـ كما رأينا ـ أى انتقاص للمرأة من ناحية دينها، ولا من ناحية ملكاتها الذهنية وذكائها وحقوقها كمواطنة تتساوى فى ذلك مع الرجل عموماً، وساوى القرآن بينهما وقَرَن ذِكْر المؤمنين بذِكْر المؤمنات، متعادلين فى الحقوق والواجبات **إحدى عشرة** مرة، فالمؤمنون أولياء للمؤمنات، والمؤمنات وليّات المؤمنين (التوبة ٧١)، ووعد الله الجميع التوبة، مؤمنات ومؤمنين، سواء بسواء (الأحزاب ٧٣)، وتوّعد من يجترىء عليهم أو عليهن (الأحزاب ٥٨)، وقضى أن لا يصيبهم أو يصيبهن مكروه، بل إنه تعالى قد ساوى فى الأهمية والقيمة بين **تسعة** من المؤمنين واثنتين من المؤمنات، وفى هؤلاء كما يقول جنيد بن سبيع ـ نزلت الآية: **﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾**(الفتح٢٥)، وكان جزاء من فتنوا المؤمنات والمؤمنين من أصحاب الأخدود العذاب والتحريق (البروج ١٠)، وحَرّض الله تعالى المؤمنين أن لا يُرجعوا المؤمنات إلى الكفّار إذا هاجرن من دار الكفر إلى دار الإيمان، وقال: **﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾** (الممتحنة ١٠)، وأمر النبىّ ﷺ أن يُستَغفر لهم ولهن فلا فرق (محمد ١٩)؛ وعند الحساب يُدخل المؤمنات الجنة كالمؤمنين ولا اختلاف (الفتح ٥)؛ وفى

الجنة لكل نوره يسعى بين أيديهم وأيديهن بلا تمييز (الحديد ١٢)؛ وفى الدعاء لم يفرق نوح بين المؤمنين والمؤمنات، وأوصى الله تعالى المؤمنين بغض البصر وحفظ الفرج كما أوصى المؤمنات (النور ٣٠ و٣١)، وغضّ البصر ليس انشغالاً بالمسألة الجنسية كما يزعم العلمانيون وصبية العولمة الأمريكية، ولكنه بتعبير الله تعالى «أزكى لهم»(البقرة ٢٣٢)، أى أطهر لنفوسهم، وأنقى لقلوبهم، وأصفى لعقولهم، ولعمرى إنه لأقوى ما عرفت من تعبيرات العلم فى مجال الطب النفسى وعلم النفس وعلم الاجتماع معاً، فالنظر وسيلة الشهوة كما بيّن فرويد والآخرون، وأطلق الله تعالى على النظر بشهوةٍ هذا التعبير الرائع «خائنة الأعين» (غافر١٩)، والنظر يكون به الإدراك، والإدراك يولّد النزوع، ومن ثم يقع الفعل، فإذا هَدَفْنا إلى الوقاية فينبغى أن نلتزمها منذ البداية قبل أن يقع الإدراك، وذلك هو غض البصر، يفعله الرجال كالنساء سواء بسواء. وهذا الكلام فى المساواة كلُّه عِلْم متقدّم وليس فيه من الأوامر غير المبررة شىء، حتى استحق القرآن أن يكون كتاباً فى العلوم بسائر فروعها، كما هو كتابٌ فى الآداب، وكتابٌ فى الحقوق والواجبات، وفى المساواة والعدل بين النساء والرجال، ولعن الله العلمانية ودعواتها الفجّة، وشعاراتها السمجة!

•••

١٦٢١. «ما مدى صحة الحديث: إن المرأة خلقت من ضلع أعوج؟»

فى الحديث عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال: «واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلعٍ، وإنّ أعْوَج شىءٍ فى الضلع أعلاه، فإنْ ذهبتَ تُقيمه كسرتَه، وإن تركتَهُ لم يَزَل أعْوَج، فاستوصوا بالنساء خيراً». ومن أقوال ابن عباس: «أن حواء خُلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم»، ومفاد حديث رسول الله ﷺ أن المرأة بطبيعتها عوجاء لأنها خُلقت فى الأصل من شىء أعوج، وقوله: «أعوجُ شىءٍ فى الضلع أعلاه» فيه أن أعلى المرأة وهو رأسها ليس على سواءٍ، لأن فيه لسانها الذى يحصل منه الأذى. وفى قوله: «وإن ذهبتَ تُقيمهُ كسرتَه»، وفى رواية أخرى عند مسلم: «وإن ذهبتَ تقيمها كسرتَها، وكسرُها طلاقها». وفى رواية: «إن المرأة خُلقت من ضلعٍ أعوج، وإنك إنْ تُرِد إقامة الضلع تكسره، فدارها تعش بها». وفى رواية لأحمد: «المرأة كالضلع، إنْ أقمتها كسرتَها، وهى يُستمتَع بها على عِوَج»، وهذا التشبيه هو الأصح، فهى لم تخلق من ضلع أعوج وإنما فيها ضعف أو عوج، كأنما هى كالضلع الأعوج. ومدار كل ذلك الدعوة إلى التقويم برفق، لا إفراط فيه ولا تفريط، وأن لا تُترك المرأة على اعوجاجها إذا تعدّت طبعها كأنثى، إلى استخدام الأنوثة فى تعاطى المعاصى، بمباشرتها، أو بترك الواجب، وإنما المراد أن تُترك المرأة على اعوجاجها فى الأمور

المباحة، أى تكون على طبيعتها كامرأة، وليس المطلوب منها أن تسلك كالرجال، وإنما تكون فاضلة كفضليات النساء، فالفضيلة مطلب الجنسين معاً، وهى محك ومعيار إنسانية الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة. ومن سياسة الإسلام مع النساء العفو عنهن، كقوله تعالى: ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم**(٢٣٧)﴾(البقرة) والصبر على عوجهن إن ظهر منهن العوج. وحديث: «**المرأة خلقت من ضلع أعوج**» ورد عند عبد الرزاق بما ينفى أنه من أحاديث رسول الله ﷺ، وكان أحدهم قد جاء إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه خُلق النساء، فقال عمر: إنّا لنجد ذلك حتى أنى لأريد الحاجة (يعنى أن يذهب إلى الغائط) فتقول(يقصد زوجته): ما تذهب إلا إلى فتيات بنى فلان تنظر إليهن! فقال له عبد الله بن مسعود عند ذلك: أما بلغك أن إبراهيم شكا إلى الله ردىء خلُق سارة فقيل له: إنها خُلقت من الضلع. جالسْها على ما فيها ما لم تَرَ عليها خِربةً فى دينها! فقال له عمر: لقد حشا الله فى أضلاعك علماً كثيراً! ـ وهذه الأحاديث ـ كما ترى ـ مفتراة، فليس من خُلق عمر ما تقوله عنه زوجته! وليس من خُلق زوجات عمر أن يتقولن عليه هكذا ! وواضح أنها جميعاً أحاديث من الإسرائيليات. وفى حديث الضلع الأعوج مشابهةٌ بالتوراة، ففى الفصل الثانى من سفر التكوين، يأتى بدءاً من العبارة ١٨: «**وقال الربّ الإله لا يحسن أن يكون الإنسان وحده فأصنع له عوناً بإزائه**»، يتحدث عن خَلْق المرأة وأنها ليسكن إليها الرجل فى وحدته، ولتعينه على معيشته، ثم يجىء: «**فأوقع الربّ الإله سباتاً على آدم فنام، فاستل إحدى أضلاعه وسدّ مكانها بلحم، وبنى الربّ الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة، فأتى بها آدم، فقال آدم ها هذه المرّة عَظْمٌ من عظامى، ولحمٌ من لحمى. هذه تسمى امرأة لأنها من امرئ أُخذتْ، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته، فيصيران جسداً واحداً**». فحديث الضلع الأعوج إذن إسرائيلى لاشك فى ذلك. وأما حقيقة خَلْق حواء فى القرآن فمثلها مثل خلق آدم. وحواء مسئولة كآدم، على عكس التوراة فقد أسقطت عن آدم مسئوليته وقصرتها على حواء، ففى الفصل الثالث من سفر التكوين يأكل آدم وحواء من شجرة المعرفة فتظهر لهما سوءتاهما، فيخصفان عليهما من ورق الجنة، وسألهما الربّ عن ذلك فقال آدم: «**المرأة التى جعلتها معى أعطتنى من الشجرة فأكلتُ**»، فجعل الغواية من المرأة! وقالت المرأة: «**الحيّة أغوتنى فأكلتُ**»، والحية هى الشيطان. وهذه الحكاية بهذه التفاصيل لم ترد فى القرآن، ولم يرد فيه اتهام آدم لحواء ولا اتهام حواء للحيّة. وفى التوراة شمل التكليف بعدم الأكل من الشجرة آدم وحواء، وكذلك القرآن، فكان التكليف من نصيب الاثنين بلا فرق، كقوله تعالى: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة**

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾(البقرة)، وكانت الغواية لهما الاثنين معاً: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)** ﴾ (الأعراف)، ومن ثم عثر آدم وحواء معاً، كقوله: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**﴾(البقرة٣٦)، وأضلهما معاً: ﴿**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ (الأعراف٢٢)، واحتملا نتيجة المعصية معاً، وحاولا الإصلاح وسعهما معاً: ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾الأعراف ٢٢)، وتوجه لهما اللوم معاً، كقوله: ﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)** ﴾ (الأعراف)، واعتذرا معاً، واستغفرا الله معاً، وتابا إليه معاً، كقوله: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)**﴾ (الأعراف)، وطُردا من الجنة معاً،كقوله: ﴿**فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ (البقرة٣٦)، يشقيان معاً فى الدنيا: ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ (البقرة)، وفى الدنيا يكون النسيان مرة أخرى للتكليف، فيُنزل الله تعالى الرسُل والنبيّين مذكّرا لهما معاً، ومحذّراً ومبشّراً،كقوله: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)** ﴾ (البقرة) **فهذا هو الفرق بين الحكايتين فى** الكتابين، والنقص فى حواء ألصق بحكاية التوراة، فأولى بحواء التوراة أن تكون الأقل ديناً وعقلاً، وهو ما لايوجد مثله فى القرآن! وفى حكاية القرآن **مساواة تامة بين آدم وحواء،** والخطاب يتوجه إليهما معاً، وكلٌ منهما كان حراً ومسئولاً مسئولية كاملة، وعقابه أو ثوابه يحتمله وحده، وذلك منتهى العدل، وغاية ما يبلغه التفكير السليم والمنطق القويم. ولذلك فإن هذه الأحاديث عن الرسول ﷺ فى اعوجاج المرأة، وقلّة دينها وعقلها، أقرب إلى التأثّر بما فى التوراة، وخاصةً حديث ابن عباس، وإن كان قد زاد على حكاية التوراة أن ضلع آدم الذى خُلقت منه حواء كان **الأقصر الأيسر**.وابن عباس ـ كما نحذّر دائماً ـ من مروّجى الإسرائيليات!

وأيضاً **جاءت التوراة، فى الفصل الثالث من سفر التكوين،** العبارة ١٥ : «**وقال الربّ للمرأة: لأكثرنّ مشقّات حَمْلك، بالألم تلدين البنين، وإلى بَعلك تنقاد أشواقُك، وهو يسود عليك**»، والسيادة فى التوراة يقابلها **القوامة فى القرآن**، فى قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ (النساء٣٤)، وفرقٌ بين **السيادة والقوامة**، فى المنشأ، وفى المعنى، وفى التبعات. **فالسيادة فى التوراة كانت للرجل إطلاقاً، وتأكدت كعقاب للمرأة بغوايتها للرجل، فكأنما سُحبت منها ذاتيتها فصارت أمَةً للرجل، تتبعه وتأتمر بأمره، ويتسيّد عليها.** والقوامة فى

القرآن أسبابها تُعدِّدُها الآية نفسها، تقول: ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾(النساء٣٤). **والقوامة**: هى أن ينهض الرجل على أعباء المرأة، ويتولى تكاليف معيشتها، وأن يكون فى تعامله معها على حالة رفيعة من الأدب، وفى الحديث: «خيركم خيركم **لأهله**»، فخير الرجال من كان أديباً مع زوجه. وقال الله فى الحقوق والواجبات للنساء: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾(البقرة ٢٢٨)، أى أنه تعالى يساوى بينهما فى الحقوق والواجبات **بحسب الزمان والمكان**. والدرجة التى خُصّ بها الرجال لا تدخل ضمن حقوق الرجال ولكنها **فيما خَصّ به الله الرجال من الخَلْق** ـ أى **«القوة»** وما يستتبعها من القيام بالعمل، والإنفاق على الأسرة، وتعويض المرأة بحبسها عليه، وله على ذلك الفضل من الله فى الدنيا وفى الآخرة. وفى حديث معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جدّه، أنه سأل رسول الله ﷺ: ما حقّ زوجة أحدنا؟ قال: «**أن تُطعمها إذا طَعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبّح، ولا تهجر إلا فى البيت**». وعن جابر أنه ﷺ قال فى خطبته فى حجة الوداع: «**فاتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**». وذلك ما أوصى به النبيّ ﷺ، **وهو تفسيره لآية الضرب للنساء فى القرآن**. وفى **علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الإجرام**، فإن من البديهى أن ينفعل الرجل وقد وطأ آخر امرأته، أفلا يغار ويستشعر المهانة والعار؟ ذلك أمرٌ من معقولات العلم الحديث، وتفسير الرسول ﷺ للضرب بأنه غير مبرح وكأنما هو للتخفيف من غلواء الرجل الجريح فى كرامته وشرفه، فلا أقل من أن يعبّر عن غضبه بذلك الضرب الموصوف بأنه غير مبرح، يعنى لا ضرر منه وإنما هو للتنفيس عن الثورة المحتدمة فى نفس الرجل. **ولا ضرب إطلاقاً فيما سوى ذلك!** ثم إن الضرب لا يكون إلا لبذيئة اللسان، الناشز، ولنا فى القصاص حياة! والثواب والعقاب جزاء كل أعمالنا، فى التربية، وفى المرور، وفى السلوك، وفى الاجتماع. ولا تستقيم الحياة بدون ثواب وعقاب. ثم انظر إلى الاختلاف بين شريعة التوراة وشريعة القرآن فيما هو من سُنة المسلمين، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنى لأحب أن أتزيّن للمرأة كما أحب أن تتزيّن لى المرأة، لأن الله يقول: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(البقرة٢٢٨)، **والقوامة إذن فى القرآن** تكليف وتشريف، ومنهج وسلوك، ومبدأ وتشريع، وعلى عكس ذلك كانت فى التوراة بلا مبرر، **فما** أسرع ما تعلل آدم عند مساءلته عن خطيئته بأنها من فعل حواء وبغوايتها، فألقى المسئولية عليها دونه! وهذا لعمرى منتهى الظلم واللامعقول! ونعود إلى

الحديث عن النساء أنهن خُلقن من ضلع أعوج، فلم يرد فى القرآن أن حواء خلقت من آدم، وإلا لكان الله تعالى قارن خلق المسيح بخلق حواء ولما قارنه بخلق آدم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾(آل عمران ٥٩)، فكان الأولى أن يقول: إن مثل عيسى عند الله كمثل حواء، فحواء جاءت من آدم، والمسيح جاء من مريم! والذى جاء فى القرآن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(الاعراف١٨٩)، يعنى أنه فى البدء خَلَق آدم، ثم خَلَق حواء، وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات٤٩) يعنى أن كل المخلوقات من نباتات وحيوانات وإنسان أبدعها الله تعالى أزواجاً، فهذا قضاء الله وقدره منذ البداية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾(الحجرات١٣)، فلما خَلَق الله آدم جعل خلقه لحواء على نفس المنوال، ثم كان خلقه للموجودات كلها أزواجاً على نفس المنوال: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، والضياء والظلام، والإيمان والكفر، والموت والحياة، والشقاء والسعادة، والجنة والنار، فهذا منهج الله وفعله فى الوجود، ولم يأت أبداً أن حواء كان خلقها من ضلع لآدم، وإنما جاء قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾(فاطر١١)، وقوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾(الأنعام٢)، وقوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الحجر)، وهذه مراتب وما كان من الممكن أن يترك القرآن خبراً كهذا - خلق حواء من ضلع آدم - من غير أن يورده! والغواية وقصة آدم وحواء من قصص التوراة ولا وجود لها فى القرآن، ومن يستحضرها فهو متأثر بالغزو الدينى اليهودى. وحتى اسم حواء لاوجود له فى القرآن وهو اسمٌ من التوراة. فيا أخى المسلم ويا أختى المسلمة احذرا، فإلى هذا الحدّ كان الغزو الدينى اليهودى متغلغلاً فى كتب تفسير القرآن عند المسلمين! ولاحظا الفروق بين وضع المرأة المتردّى فى التوراة، بل ووضع الرجل أيضاً، وبين وضعهما الراقى والمتسامى فى القرآن. والدأب فى القرآن أن الرجل والمرأة كلاهما على سواء، وعن عائشة، عن الرسول ﷺ قال: «إنما النساء شقائق الرجال»، ومعنى شقائق أنهن نظراؤهم وأمثالهم، فلا تمايز ولا تباين إلا ما قد فرضه عليهن فى الخِلْقة، واستتبعه ما كان لهن من الجِبلّة، فتشابهت المنازع، وتخالفت الدوافع، وإلاّ فلا سيادة ولا إمارة للرجال، إلا بقدر تفاضل البعض، وبما عليهم من فروض وواجبات.

•••

١٦٢٢. «معنى الحديث عن المرأة، فدارها تعش بها»؟»

فى الحديث عن سمرة بن رافع عن النبىّ ﷺ قال: «خلقت المرأة من ضلع، فإن تُقمها تكسرها، فدارها تَعش بها» أخرجه ابن حبان والحاكم والطبرانى فى الأوسط. ومعنى المداراة المجاملة والملاينة، فالحديث إذن يعظ بمعاملة المرأة بالحُسنى، وليس من ذلك

تقبيحها، أو **إهانتها**، أو **ضربها**، وفيه الاعتذار عمّا قد يصدر عنها وفيه ما يخالف سياسة زوجها أو أبيها، والحديث يحضّ **على قبول المرأة على طبيعتها، فليست الأنثى كالذكر**، ولكلٍ تكوينه النفسى والبدنى والفسيولوچى والوظيفى، وعلى الرجال أن يأخذوا ذلك فى اعتبارهم عند التعامل مع النساء. ومعنى: «**إنْ تُقِمها تكسِرها**» هو المعنى نفسه الذى يقصد إليه **علماء النفس والطب النفسى** بمصطلح **إبادة الشخصية amputation of personality**، فأن نحاول التغيير من طبيعة المرأة لنجعلها تسلك كالرجال فذلك هو التشويه **للهوية**، وللدور الجنسى والنفسى والاجتماعى للمرأة **gendre**، فتُدرَج لذلك ضمن الشواذ. فهل نريد نساءً من الشواذ؟! سبحان الله!



﴿ تابع الإسلام الاجتماعى ﴾



ثانياً: النكاح والزواج فى القرآن



النكاح والزواج بمعنى واحد، وكلاهما من مصطلحات القرآن؛ **والزواج** اسم شائع وهو من شرعة الإسلام، **بينما النكاح** اسم اصطلاحى، ويأتى **النكاح** فى القرآن ٢٣ مرة، بينما يأتى **الزواج** ٨٢ مرة. **والنكاح** فى اللغة: بالضم هوالتداخل، ويقال للفرج **نُكَحٌ**؛ **والنِكاح** بالكسر يقال **للوطء**، وسُمى به **عقد الزواج**، لأن النكاح سببٌ له، وكل زواج لايتم إلا بالنكاح، لأن **الزواج** فى اللغة: هو الاقتران، بمعنى أن يختار المرء لنفسه شريكة حياة، ويقال للرجل **تزوّج**، وللمرأة **تزوجت**، أى تأهّلت، فصار لكل منهما **قرينٌ** أى **زوج**، والزواج على ذلك مشاركة فى الخصال النفسية، والزوج هو المكمّل لصاحبه، وذلك معنى: **﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾** (الأعراف١٨٣)، يعنى **الذكر والأنثى**. وعندما يقال إن فلاناً **نكح فلانة**: يعنون أنه عقَد عليها، فإذا قالوا: نَكَح زوجته، يعنون **الوطء**. وأصل النكاح لزوم شىء لشىء مستعلياً عليه، ويكون فى المحسوسات والمعانى، فإن شئت فى المحسوسات فهو **الوطء**، وإن شئت فى المعانى فهو **الزواج**، أى **الاقتران والعقد**. والنكاح والزواج فى كل المخلوقات، تقول: **نكح المطر الأرض** أى رواها؛ **ونكح النعاس عينيه. والنكاح فى الشرع**: هو **العقد** الذى يجيز الوطء، ويكثُر وروده فى القرآن بهذا المعنى حتى قيل إنه لم يرد منه إلا بمعنى العقد، إلا فى قوله تعالى: **﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا**

بَلَغُوا النِّكَاحَ (النساء٦) فإن المراد به الحُلُم. واختيار اسم النكاح كناية وهو أليق من اسم الجماع، ومن ذلك فى القرآن تأتى كثير فى الأسماء بهذا المعنى، كالملامسة، تعنى الجماع: كقوله تعالى: **﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾** (النساء٤٣)؛ والمماسة: كقوله: **﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾** (الاحزاب٤٩)؛ والقُرب: كقوله: **﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾**(البقرة٢٢٢)؛ والتغشّى، كقوله: **﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ﴾**(الأعراف١٨٩)؛ والإتيان: كقوله: **﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾** (النمل٥٥).

•••

١٦٢٣. ﴿النكاح من المرغوبات فى الإسلام﴾

فى الرواية عن الرهط من المسلمين الذين اجتمعوا يتذاكرون، فسألوا عن عبادة النبىّ ﷺ، فتقَالُّوها، وقال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبداً؛وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر؛ وقال آخر: وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً؛ فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنّتى فليس منى»**! أخرجه البخارى بطريق أنس. **«وتقالّوها»** يعنى استقلّوها؛ والرهط الجماعة، قيل كانوا عشرة وزعموا أنهم: أبو بكر، وعمر، وعلىّ، وابن مسعود، وأبو ذرّ، وسالم مولى أبى حذيفة، والمقداد، وسلمان، وعبدالله بن عمرو بن العاص، ومعقل بن معَرن، ويعض هذه الأسماء غير صحيح، بل إن بعضها أبعد ما تكون عمن يمكن أن يفعلوا ذلك؛ وقيل: كان اجتماعهم فى بيت عثمان بن مظعون، والواقع أنه هو الوحيد الذى كان يفعل ذلك. وقيل: أنهم اتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولاينامون على الفُرُش، ولاياكلون اللحم، ولايقربون النساء، وأن يَجُبّوا مذاكيرهم! والحديث فيه تعريض بالرهبانية، وقد عابها الله تعالى عند النصارى، بأنهم لم يوفّوا بما التزموه بها؛ والسنّة - طريقة النبىّ ﷺ، هى الحنيفية السمحاء، والمسلم السنّى: يفطر ليتقوّى على الصوم، وينام ليتقوّى على القيام، ويتزوّج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل؛ وقوله **«فليس منى»**: يعنى قد خرج على سنّتى ولكنه لم يخرج عن الإسلام.

والنكاح: عبادة، وقد حضّ عليه الرسول ﷺ الشباب فقال: **«يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»** أخرجه البخارى بطريق علقمة، وفى رواية قال: **«من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج»** والحديث خصّ الشباب بالخطاب، لأن داعى النكاح فيهم أقوى منه فى الشيوخ؛ والباءة أو الباهة: هى النكاح أو الجماع، وهى أيضاً لوازم الزواج ومؤنته، لأن من شأن

من يتزوج أن يبوّء من يتزوجها منزلاً وينفق عليها، والذى لا يقوى على الجماع، أو ليس بوسعه مؤنته، فعليه بالصوم يدفع به شهوته، ويقطع شرّ منيّه. وقوله من «استطاع منكم الباءة» يقسم الشباب قسمين: أحدهما من يتقدمون إلى الزواج ولهم اقتدار عليه، فهؤلاء ندبهم إلى أن يتزوّجوا دفعاً للمحذور؛ والآخر الشباب الذين لاقدرة لهم على الوطء، لفرط حياء، أو عدم شهوة، أو بسبب عُنَّة، أو لأنهم لايجدون شيئاً يتزوجون به ويعولون به زوجاتهم، فندبهم إلى التعفّف، وأن يستمروا على حالهم. والتقوى سببٌ لغض البصر وتحصين الفرج. والزواج أشد غضاً ، وأشد إحصاناً للفرج، ومنعاً للوقوع فى الفاحشة. والصوم الموصوف كعلاج لغير المستطيع من شأنه كسر الشهوة، والصائم عن النساء يمتلك نفسه، وبالجوع تقل فرص استثارة شهوته، وهو المقصود بقوله فإنه «له وجاء»: والوِجاء فى اللغة رضّ الأنثيين، أى الخصيتين، وإطلاق الوجاء على الصيام من مجاز المشابهة. ومَن لا تجتمع له فوائد الزواج، ولم تنتفِ آفاته، فتَرْكُ الزواج له أفضل . غيرأن الأحاديث فى الزواج كثيرة. ومن ذلك قوله ﷺ : «لارهبانية فى الإسلام»، وقوله: «تزوّجوا الودود الولود»، وقوله: «تناكحوا تكاثروا»، وقوله: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ولاتكونوا كرهبان النصارى»، وقوله: «من لم ينكح فليس منا»، وقوله :«إنما يمنعك من التزويج عجزٌ أو فجور»، وقوله: «النكاح سُنّتى، فمن رغب عن سنتى فليس منى» ، وقوله:«من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله فى الشطر الثانى». والقول بالصيام استعفافاً أراد به اتخاذ عبادة الصيام كبديل لعبادة الزواج. وشهوة النكاح تابعة لشهوة الأكل، وتَقْوَى بقوته، وتضعف بضعفه. ولا ينبغى أن نفهم أن استخدامه لمصطلح الوِجاء أنه يقول بالخصاء كما طالب البعض، فالخصاء محرّم ، والتقوى كبديل للزواج مثلها مثل تعاطى المسكّنات، والأحاديث تحصر العلاج لمن لا يستطيع الزواج، فيما يسمى فى الطب النفسى «العلاج بالإرادة»، وهو أن يروض نفسه على غضّ البصر وتحصين الفرج بكل ممكن طالما لا يستطيع الزواج، مع عدم التكليف بغير المستطاع، ويحرُم الاستمناء بالتبعية كبديل للزواج، لأنه ليس صوماً يقطع الشهوة، والحنابلة وبعض الحنفية يبيحون الاستمناء، إلا أن الاستمناء فى الطب النفسى يصيب صاحبه بالنهك العصبى، أو النيوراستينيا ، فكأنه يستعين على تحاشى ضرر بما هو أضرّ منه.

•••

١٦٢٤. ﴿الزواج سنة المرسلين﴾

قيل: عاب اليهود على النبىّ ﷺ كثرة الزواج، وقالوا: ما ترى لهذا الرجل هِمّة إلا

النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء؟ فأنزل الله: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾** (الرعد٣٨)، والآية ترغّب فى النكاح وتحضّ عليه، وتنهى عن التبتُّل: وهو ترك النكاح. وفى الآية أن الزواج: «**سُنّة المرسلين**». ومن سُنّة الرسول ﷺ فى الزواج قوله: «**تزّوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم**»، وقال: «**مَن تزّوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الثانى**». وكانت **لسليمان وداود** الزوجات والسرارى؛ وتزوج **موسى** امرأتين، **وإبراهيم** تزوّج امرأتين بخلاف السرارى؛ **ويعقوب** كانت له زوجتان بخلاف السرارى؛ وتزوج **نوح، ولوط، وشعيب، وإسحق، وهارون**، ولانعرف ممن لم يتزوج من المرسلين إلا **عيسى ويحيى**، وكانا **حصورين**، أى لايأتيان النساء.

●●●

١٦٢٥. ﴿التبتل مكروه فى الإسلام﴾

التبتُّل: المراد به الانقطاع إلى العبادة عن النكاح وما يتبعه من الملاذ. وفى الحديث عن **سعد بن أبى وقاص**: أن رسول الله ﷺ ردّ على **عثمان بن مظعون** التبتل. **والتبتل: فى** رأى البعض تحريم النساء، والطيب، وكل ما يُلتَذ به، ولهذا أنزل الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾**(المائدة٨٧). والتبتل: **خصاء نفسى** وليس خصاء على الحقيقة، وبعض المسلمين الأوائل **فهموا** التبتل أنه **خصاء على الحقيقة**. وفى حديث سعد السابق قال: ولو أجاز رسول **الله** ﷺ **لعثمان التبتل لاختصينا**».

●●●

١٦٢٦. ﴿الخصاء منهىٌ عنه فى الإسلام﴾

فى الحديث عن ابن مسعود فيما رواه البخارى قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شىء، فقلنا: **ألا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك**». **والخصاء**: هو الشق على **الأنثيين**،أى الخصيتين، وانتزاعهما. والذى يُكرَه من **التبتل** السابق ليس تحريم التبتل من أصله، و إنما نوع التبتل الذى يفضى إلى التنطُّع حتى إمكان **الاختصاء**. والخصاء جائز فى **الحيوان** المأكول، ولكنه غير جائز أن يمارسه المسلم على نفسه، أو على غيره من البشر. وعند الطبرانى من حديث **عثمان بن مظعون**: أنه قال يا رسول الله إنى رجل تشق علىّ العزوبة، فَأذَنْ لى فى **الخصاء**؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**لا، ولكن عليك بالصيام**». ومن طريق **سعيد بن العاص**، أن عثمان بن مظعون قال: يارسول **الله** ائذنْ لى **فى الاختصاء؟ فقال** له: «**إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة**.» والحكمة فى منع الاختصاء إرادة «**تكثير النسل**» عند المسلمين، ليستمروا **يجاهدون** فى **سبيل الله**، ولو أُذِن لهم **فى الاختصاء** لتواردوا عليه فينقطع النسل، ويقل المسلمون بانقاطعه، وتنتهى عبادة الله فى الأرض.

وكل الرسُل بُعثوا برسالة واحدة: أنْ يُعبَدَ الله. **والنهى عن الاختصاء** نهيُ تحريم بلاخلاف، فلا يجوز فى بنى البشر، **لأنه تعذيب** للنفس، وتشويه للبدن، وإدخال ضُر يفضى إلى الهلاك، وإبطالٌ لمعنى الرجولة، وتغيير لخَلق الله، وكفرٌ بالنعمة. والرجل الذى يختار الاختصاء، إنما يختار **النقص على الكمال**. ومن حديث ابن عباس عند الطبرانى: أن رجلاً شكا إلى رسول الله العزوبة فقال: ألا أختصى؟ قال: «**ليس منا من خَصَى أو اختَصَى**».

●●●

١٦٢٧. ﴿لعنته تعالى على الممتنع عن الزواج رهبانية﴾

فى الحديث عن النبىّ ﷺ قال: «**لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على رجل تحصَّر، ولاحصُور بعد يحيى بن زكريا**». رواه عطية بن بشر وأخرجه الديلمى. ونضيف: ولا حصور بعد المسيح، لأن المسيح أتى بعد يحيى. **والتحصُّر**: هو الإمساك عن الزواج رهبانيةً، وكان النبىّ **يحيى** بن زكريا حصوراً عصمه الله، لايأتى النساء، ولا رغبة له فيهن، وكذلك كان **عيسى ابن مريم**.

●●●

١٦٢٨. ﴿الزواج سنة محمد والسنّة فطرة﴾

فى الحديث عن النبىّ ﷺ قال: «**مَن أحبَّ فطرتى فليستن بسُنّتى**»، رواه أبو يعلى عن ابن عباس. والزواج **فطرة الله** التى فطر الناس عليها (فاطر١١) وكل ما خلقه الله جعل منه **الذكر والأنثى** (النجم٤٥)، وزاوجَ بينهما، **فالنبات** أزواج (يس ٣٦)، **والفواكه** أزواج (الرعد:٣)، **والأنعام** أزواج (الشورى ١١)، **وكل شىء** خلقه أزواجاً (الذاريات ٤٩) والزوجية جعلها الله تعالى سكناً (الروم٢١)، **وكل نفس** خلق منها زوجها، أى نظيرها ومثيلها وشبيهها. **والزواج سنّة** دعا إليها النبىّ ﷺ وأكد بها الفطرة، وجعلها الله شرْعة الإسلام.

●●●

١٦٢٩. ﴿مَن كانت فترته إلى السنة وتزوج فقد اهتدى﴾

فى الحديث عن النبىّ ﷺ قال: «**إن لكل عمل شِرّة، والشِرّة إلى فَتْرة، ومن كانت فترته إلى سُنّتى فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد ضلّ**». رواه ابن عباس وأخرجه البزّار. يقصد: أن الجنس الذى هو فى فطرة الإنسان، له وقت تزداد فيه شِرّته أو حدّته، والشِّرّة تستنفد فترتها أو وقتها وزمانها وهو الشباب، وشباب كل امرئ إلى انقضاء، وشِرّة الجنس مآلها إلى الأفول حتماً، فلنبتهل الفرصة، ولنتحيّن الوقت، ولنكن على الفطرة

والسُنّة ونتزوج ، ومن كان على الفطرة والسنة فقد اهتدى، ومن سار على غير ذلك فقد ضلّ.

•••

١٦٣٠. ﴿مسكينة امرأة لا رجل لها ومسكين رجل لا امرأة له﴾

عن أبى نجيح أن رسول الله ﷺ قال: «مسكينٌ مسكينٌ مسكينٌ رجلٌ ليس له امرأة - وإن كان غنياً من المال. ومسكينةٌ مسكينةٌ مسكينةٌ امرأةٌ ليس لها زوجٌ - وإن كانت غنية من المال» رواه البيهقى فى شعب الإيمان.

•••

١٦٣١. ﴿الزواج واجب على القادر﴾

وعن النبى ﷺ قال: «من كان منكم ذا طَوْل فليتزوج، فإنه أغَضُ للطَّرْف وأحْصنُ للفَرْج، ومن لايستطيع الزواج فإن الصوم له وِجاء» رواه عثمان وأخرجه أحمد. والطَّوْل هو القدرة ، وغضّ الطَرْف هو كفّ البصر أو تخفيف النظر؛ وإحصان الفرج هو التعفف عن الزنا.

١٦٣٢. ﴿الموسر الذى لاينكح ليس على الإسلام﴾

فى الحديث عن النبىّ ﷺ قال: «من كان موسراً لأنْ ينكح، ثم لم ينكح، فليس منى» رواه أبو نجيح وأخرجه الطبرانى فى الكبير؛ وعند البيهقى فى شُعَب الإيمان، والبغوى، جاء: «فليس منا» بدلاً من «ليس منى» ، وفى الأولى: «فليس منا»، يعنى فليس على الإسلام، وفى الثانية: «فليس منى»، يعنى فليس على سُنّة محمد.

•••

١٦٣٣. ﴿دين محمد وداود وسليمان وإبراهيم يشترط الزواج﴾

عن النبىّ ﷺ قال: «من كان على دينى، ودين داود ، وسليمان، وإبراهيم، فليتزوج إن وَجَد إلى النكاح سبيلاً، وإلاّ فليجاهد فى سبيل الله ، إنْ استُشهد يزوّجه من الحور العين، إلاّ أن يكون يسعى على والديه أو فى أمانة للناس عليه» روته أم حبيبة وأخرجه ابن لال. فأما دين محمد فدعوته إلى الزواج مثنى وثلاث ورباع، فإن خيف الجوْر للضرائر، والعيلة - أى الفقر مع كثرة العيال، فواحدة - وذلك هو الأحسن، والأوفق، والأفضل، والأنسب. وقيل توفى النبىّ ﷺ وله تسع أزواج ، والصحيح أن أزواجه اللاتى كنّ أربعاً فقط، وهن : عائشة وحفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وأما الباقيات فكن سرارى، وبعضهن أضافهن إليه كرماً منه أو ليُسلم أقوامهن؛ وأنجب أربع بنات وولدين، فكان النبىّ ﷺ فى النساء والأولاد مقلاً كما ترى، مقارنةً بغيره من الأنبياء والرسل، فداود تزوج عشر

زوجات خلاف عشر سرارى، وكانت له زوجتان فى السبى، وزوجة فى شيخوخته لم يقربها، وأنجب تسعة عشر ولداً بخلاف أولاد السرارى، وأنجب ابنته تمارا من زوجته الحيثية أم سليمان، ولم يكن هو أول من اتخذ زوجة أجنبية، فموسى تزوج حبشية، وأما سليمان فكانت له سبعمائة زوجة وثلاثمئة سرية، وفى الغالب فإن هذه الأرقام مبالغٌ فيها، والعرب واليهود على السواء يحبون الأرقام مثل السبعة والسبعين، والألف، والثلاثمئة وهكذا. ومن زوجات سليمان أخت زوجة فرعون مصر، وابنة فرعون مصر والواقع أنهما ما كانتا مصريتين، بل هما من الجنس الأشورى الذى كان يحتل أرض جاسان من الدلتا ـ وهى محافظة الشرقية الآن، ولفظة فرعون ليست مصرية . وقيل إن ابنة فرعون كانت هى الزوجة الأثيرة عنده، كما كانت الحيثية هى الزوجة الأثيرة لأبيه داود. وأما إبراهيم فكانت زوجاته ثلاثاً : سارة وهاجر وقطورة، ولم تكن هاجر سرية ولا كالسرارى، وابنها إسماعيل لم يكن كأبناء السرارى. وفى الحديث أن الزواج فريضة القادر. والزواج شِرعة اليهود، ولا حدود عندهم لعدد الزوجات، وللرجل أن يطلّق ما يشاء، وأن يراجعها بعقد جديد ما لم تتزوج بآخر. ودعت النصرانية إلى البتولة والرهبانية، ومن لم يستطع «فالزواج خيرٌ من التحرق» (بولس إلى أهل كورنتس ٧ / ٩).



١٦٣٤. ﴿الزواج سكن﴾

فى البدء خلق الله آدم ولم يكن غيره من البشر، ومن آدم خلقت حواء، لا من ضلع آدم كما يقول اليهود وإنما من نفسه، أى من ذاته، بمعنى من جوهره وهويته، كقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأعراف): والآية توجز قصة خلق البشر، وقصة الإيمان: فآدم هو أبو البشر، وكلهم من ذاته، الذكور والإناث على السواء، وحواء من ذاته وكذلك بنات جنسها، وغاية المزاوجة فى الجنس: أن يسكن كل جنس إلى جنسه، والسكن أنسٌ وطمأنينة، فلما تحقق السكن نفسياً كان السكن البدنى، فأنتج الذرية، والمرأة والرجل لاينتجان إلا إذا كانت بينهما السكينة، وهى المناخ النفسى والفيزيائى الذى بدونه لا صلاح للذرية، وواو الجماعة فى قوله «دعوا الله» عائد على آدم وحوّاء، ، إلا أن الدعاء يأتيه الأبناء كما يأتيه الآباء، ورغبة الصلاح شاملة للجميع، ولذا كان التعبير بواو الجماعة. ولأن الحمل كان فى جو من السكينة فإنه كان خفيفاً، والصلاح فى الذرية هو السوية فى التنشئة، وشأن آدم وحواء شأن كل بنى البشر، يدعون فى الشدة وينسون ربّهم

في النعمة. وربما قوله «خلقكم من نفس واحدة»يعني من هيئة واحدة، وشكل واحد، و«جعل منها زوجها» أي من جنسها من البشر، وقوله: «فلمّا تغشّاها» يعني جامعها ، فكان حالها في الجماع كأنها قد ألمّت بها غشية. والآية بهذا الإيجاز معجزة، وتلخص أشياء كثيرة، وقوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ هو أصل الحديث: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أويمجّسانه» ،والحديث عن كل البشر، وكذلك الآية عامةٌ لكل البشر بعد آدم، ودليلٌ على أن الحمل كالمرض، أو أنه في أوله يُسر، وفي آخره كأن الحامل مريضة، ولذا يكون الدعاء.



١٦٣٥. ﴿الزواج مودة ورحمة﴾

قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم٢١)، والمراد: أن الجنسين بالفطرة يتكاملان، وكمال المرأة بالرجل، وكمال الرجل بالمرأة، والنفس ذات،يعني جوهراً وهوية، والتوافق في الزواج هو أن يكون الزوجان كالذات الواحدة، وعند الفلاسفة أسطورة تقول: إنه في البدء خُلق الإنسان، وكان وحده ولم يك معه أحد من نوعه، ثم أنه أخطأ فعوقب بأن شُقّ نصفين، فكان منه إنسانان ، رجل وامرأة، وكانا بعيدين ابتلاءً، فكل منهما بمنأى عن الآخر، وعليهما أن يبحث كلاهما عن صاحبه، وكلٌّ بحسب نيّته، فمن كان صالحاً عثر على صاحبته الصالحة، ومن كان فاسداً ظل يختار لنفسه عن خطأ ولايجد بُغيته ونصفه الآخر المكمّل له. والقرآن يعبّر عن التوافق بمصطلح «السكينة» ، واصطلاح القرآن أروع وأعمق من المصطلح النفسي «التوافق » ـ وهو ضد «التخالف» ويعني التقارب والتساند؛ وأما «السكينة»: فهي الطمأنينة، تقول سكن إليه أي ارتاح؛ والسكن كل ما يُستأنَس به، وهو الرحمة والبركة، وتقول سكن عنه الوجع: فارقه؛ وسكن الدار أقام فيها مطمئناً، والساكن: هو الشاغل للمعين استقراراً واطمئناناً. والزواج فيه كل ذلك إذا توافق الزوجان، يعني إذا كانا من هيئة واحدة، ولهما التكوين النفسي المتشابه والمتآلف. فإذا سكنا إلى بعضهما تولدت المودة التي هي المحبة، وعندئذ تتولد الرحمة بنفسيهما، فيرحم كل منهما الآخر، والرحمة أوسع من المودة، والمودة أشمل من المحبة، والود والوداد هو المحبة الكثيرة ، والودود هو الكثير الحُبّ؛ وأما الرحمة: فهي الرقة،والشفقة، والعطف، والعفو، والمغفرة، والإحسان، واشتقاقها من اسمه تعالى «الرحمن الرحيم»، ومنه اشتقاق الرحم ، لأنه لا أرحم بالإنسان بعد الله من الرحم أي الأمّ، والذي قال إن الرهبوت خيرٌ من الرحموت،

أى أن تُرهَب خيرٌ من أن تُرحَم، هو أحمق، لأن الرحمة هى المادة الربّانية التى خُلقت منها كافة المخلوقات، **وذو الرحم** هو ذو القرابة، والمخلوقات جميعها ذات قرابة، والرحمة هى التاج المُعلّى على رأس الأسرة الموفّقة. وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾(الروم٢١) يعنى: **أن أول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها، فتحدث المحبة، ثم المودة، ثم تكون الرحمة هى الآصرة الأبقى.**

•••

١٦٣٦. ﴿الزواج يعصم ثلثى الدين﴾

عن رسول الله ﷺ، قال: «**إذا تزوج أحدكم عَجّ شيطانه، يقول: ياويله! عَصَم ابن آدم منى ثُلثَى دينه**»رواه جابر، وأخرجه أبو يعلى فى مسنده.

•••

١٦٣٧. ﴿أىّ النساء خيرٌ للزواج؟﴾

روت عائشة عن النبىّ ﷺ فيما أخرجه ابن ماجه، أنه قال: «**تخيّروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء**»، وموضوع الحديث مما يتناوله **علم الوراثة**، باعتبار أن صفات الأبوين يرثها الأبناء، فالواجب انتقاء الأزواج والزوجات، ممن تُعرف عنهم أو عنهن الصفات الحسنة. وفى الحديث عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال: «**خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش: أحناه على ولد فى صِغَره، وأرعاه على زوجٍ فى ذات يده**»، وقوله «**نساء قريش**» باعتبار الزمن الماضى، والمقصود النساء عموماً، أنه كلما كان نسب المرأة أعلى كان ذلك مستحباً للزواج منها، **والكفاءة فى النسب مطلوبة، والصلاح** هنا حُسن المخالطة مع الزوج، وأصلح النساء هى: **الشفوقة الحنية على الصغار، والقائمة عليهم بالتربية، والراعية لزوجها، والمدبّرة لأمور بيتها**. وعن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ، قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَربَتْ يداك**»، وفى رواية عند سعيد بن منصور جاء أنه قال: «**على دينها ومالها، وعلى حسبها ونسبها**»، **فالنسب والحسب** مطلوبان، والنسيب يُستحب له أن يتزوج نسيبة، إلا أن تكون على تعارضٍ مع دينه، بينما غير النسيبة قد تكون على دينه؛ وأما «**ذات الدين**» فإنها «**ذات الخُلق**»، والتى على غير دين ليست على خُلق، ومن أين يتأتى الخُلق إن لم يكن من الدين؟ **والذكاء** مطلوب فى الزوج والزوجة على السواء، ومعنى أنهما على خُلُق ودين أنهما ذكيّان، **والدين والخُلق** من الذكاء، وذات الخُلق أو ذات الدين مقدّمة على غير ذات الخُلق أو الدين. وهكذا فى كل الصفات، غير أن فى الحديث عن **بريدة** فيما أخرجه أحمد أنه ﷺ قال: «**إنّ حَسَب أهل**

الدنيا الذى يذهبون إليه: المال»، والمراد بالحديث: أن المال حَسَب مَن لاحَسَب له، ومن ذلك حديث سمرة: «الحسب المال، والكرم التقوى» أخرجه أحمد، باعتبار أن من شأن أهل الدنيا رفعة من كان كثير المال ولو كان وضيعاً، وَضعةَ مَن كان مقلاً ولو كان رفيع الصفات الباقية؛ إلا أن المال إلى زوال، ويبقى الدين والخُلق؛ والحَسَب بلا دين ولا خُلق، كشأن المال بلا دين ولا خُلق. والحسب مطلوب حتى فى الحيوان : فيختار للتزاوج ما كانت له شجرة عائلة سليمة وعظيمة الصفات ، وكذلك عند التلاقح فى الحشرات ، وللتهجين فى النبات. ومن الصفات المطلوبة «الجمال»، إلا أن الجمال بلا دين أو أخلاق مفسدة، مثل المال والحسب والنسب، فالدين والأخلاق هما الصفتان الحاكمتان والضابطتان لكل الصفات، والمال بلا دين باب لارتكاب المعاصى والرذائل، والحسب والنسب بلا دين طغيان واستبداد، وإنزالٌ للمظالم بالناس، ولم يحث الحديث على طلب الجمال والمال والحسب والنسب، وإنما طلب ذلك كله محروساً بالدين وبالأخلاق. والجميلة المطلوبة: هى الحَسَنة الذات، والحسنة الصفات. والكفاءة فى الزواج:هى أن يتعادل الزوج فى كل ذلك مع الزوجة، ومع ذلك قد يقارن بين زوج حَسَن الشكل، وآخر عادى ولكنه متدين وعلى خُلق متين، فتختار الذكية الزوج المتدين متين الخلق، على الزوج الجميل من غير خُلق ولا دين يتميّز بهما، وكان المقداد بن الأسود من الموالى وتبنّاه الأسود بن عبد يغوث الزهرى لما فيه من صفات رفيعة، وتزوج المقداد ضباعة وهى هاشمية، فلو كانت الكفاءة بالنسب فقط، أو بالشكل فقط، أو بالمال فقط، لما تزوجته، ولما جاز له أن يتزوجها ، لأنها فوقه فى النسب والمال والجمال معاً. وقوله ﷺ : «فاظفر بذات الدين» أو «عليك بذات الدين» معناه: أن اللائق بذى الدين والخُلق، أن يكون الدين والخُلق مطمح نظره فى كل شىء، وخاصة فى شريكة عمره أو شريك عمرها، فأمره النبىّ أن يختار فى الزوجة الصفات الذاتية ويؤثرها على الصفات العارضة. وفى الحديث عن عبدالله بن عمر عند ابن ماجه أنه ﷺ قال: «لاتزَوّجوا النساء لحُسنهن، فعسى حُسنهن أن يرديهن - أى يهلكهن. ولاتزوجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن؛ ولكن تزوّجوهن على الدين، ولأمَةٌ سوداء ذات دين أفضل». وقوله «تَرِبت يداك»فى الحديث الأسبق أى التصقتا بالتراب، أى افتقرتا إن لم تفعل ذلك. ومعنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هى التى يُرغب فى نكاح المرأة من أجلها، والدين أعظمها. وزواج المرأة لمالها إن اختاره مسلم لا ينبغى أن يكون بقصد أن يستمتع بمالها، وإنما لما عساه أن يحصل له منها من الولد فيعود عليه ذلك المال بطريق الإرث، أو لكونها تستغنى بمالها عن كثرة مطالبته بما يحتاج إليه النساء. والحديث فيه أن المقل يجوز له أن يتزوج المُثرية، وأن المُثرى كذلك يجوز له أن يتزوج المقلة، وعاب القرآن

على الناس فى الآية **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾**(النساء١٢٧) رغبتهم أن ينكحوا اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال، فإذا افتقدت ذلك رغبوا عنها وأخذوا غيرها، فعسى الجمال أن يصرف صاحبته عن الخُلق، وعسى المال أن يطغيها، ولربما تكون اليتيمة المُقلّة، أو الأمَة السوداء، هى الأفضل إذا كانت ذات دين. وفى الحديث : **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**، وصلاح المرأة يفسّره الحديث الآخر: **«المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته»**، والحديث: **«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّوجل خيراً من زوجة صالحة إنْ أمرها أطاعته، وإن نَظَر إليها سرّته، وإنْ أقسَمَ عليها أبرّته ، وإنْ غاب عنها حفظته فى نفسها وماله»**، ومن أجل ذلك قال ﷺ : **«تخيّروا لنطفكم فإنّ العرق دسّاس»** ، وقال : **«إياكم وخضراء الدمَن»**، قيل: يارسول الله! وما خضراء الدمن؟ قال: **«المرأة الحسناء فى المنبت السوء»**.ومهما قيل عن هذه الأحاديث أنها موضوعة أو ضعيفة، فإنها وغيرها من أحاديث أخرى وقصص وروايات قوية الإسناد، تلخّص وتنبّه إلى آداب اختيار الزوجة فى الإسلام، وليس من ذلك شىء فى اليهودية، سوى النهى عن زواج البغى، وتحريم المطلّقة على الكهنة (الأحبار ٢١ / ٧)، وفى المسيحية يوعظ باختيار الزوجة المطيعة والمحتشمة(بطرس: الرسالة الأولى (٣ / ١ـ٣). فافهم يا أخى المسلم، وافهمى يا أختى المسلمة، كم هو عظيم ما اختاره الله لنا من الدين، والحمد لله، وله المنّة.

●●●

١٦٣٨. ﴿الطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات﴾

الطيبات: هن العفائف، يقول تعالى : **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾**(النور ٢٦)، والخبيثات: هن الزوانى، والآية مبنية على قوله تعالى : **﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾**(النور٣)، ومقصد هذه الآية الأخيرة تشنيع الزنى وتبشيع أمره، وأنه محرّم على المؤمنين، واتصال هذا المعنى بالآية «الخبيثات للخبيثين» حسنٌ وبليغ، فالزانى لايطأ فى وقت زناه إلا زانية سواء من المسلمات، أو من المشركات، اى لايكون زناه إلا بزانية مثله، ومن ثم كان الزنا من جهتى الرجل والمرأة سواء. وفى الحديث : **«لاينكح الزانى المحدود إلا مثله»** (والمحدود هو الذى حُدَّ على الزنا)، فمن زنا بامرأة فهو الذى يمكن أن يتزوجها، وهذا معنى **«الخبيثات للخبيثين»**، وليس المراد بالآيتين أن الزانى أو الخبيث لاينكح قط إلا زانية أو خبيثة، فهو بالتأكيد يمكنه أن يتزوج غير زانية، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان، وكأنه قال: **لاينكح الزانية إلا زان**، فقلب المعنى، وذلك أنه لاينكح الزانية إلا وهو راضٍ بزناها، ولايرضى بذلك إلا إذا كان هو أيضاً زانٍ.

●●●

١٦٣٩. ﴿موانع الزواج﴾

الموانـع قسـمان: نسبٌ وسـببٌ: والنسب: أن يُعَدّ الـشخص من الأرحـام والأقارب؛ والنسـب الممنوع سبعة: **الأم**: وتشمـل الجدّات لأب أو لأم؛ **والبـنات**: وتشـمل بنات الابن وبنـات البنت وإن نـزلن؛ **والأخـوات**: وتشمل الأخـوات لأب أو لأم، أو لهما مـعاً؛ **والعمّات**: وتشمل عـمّات الآباء والأجداد؛ **والخـالات** :وتشمل خـالات الآباء والأجداد؛ **وبنـات الأخ** وإن نزلـن ، **وبنـات الأخت**؛ والأصل في ذلك كـله الآية: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾**(النساء٢٣). وأما «المحرّمات بالسـبب»، فمن دواعـيها: **المصاهرة**: ويحرم بها بعض أقـارب الزوجة أو الزوج عيناً أو جمعاً: فتحرم **زوجة الأب** مؤبداً بمجرد العقد لقوله تعالى: **﴿ ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَـاءِ(٢٢)﴾**؛ وتحـرم **زوجـة الابن على الأب** مؤبداً وإن عـلا ـ بمجرد العقد، كـقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ(٢٣)﴾** (النساء)؛ **وأم الزوجة** وإن علت، تحرم على زوج ابنتها مؤبداً بمجرد العقد، كقوله تعالى: **﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ(٢٣)﴾**(النساء)؛ وتحرم **بنت الزوجة** إذا دخل بالأم، فإذا لم يدخل بها لم تحـرم، كقوله تعالى: **﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ(٢٣)﴾**(النسـاء)؛ ويحرم **الجمع بـين الأختين**، لقوله تعالى: **﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ(٢٣)﴾**(النساء)، ويحرم **الجمع بين المرأة وعمّتها أو خالتها**، ولايحرم الجمع بين ابنتى العم وابنتى الخال ـ ولو أن ذلك مكروه؛ ولايجوز للرجل أن يتزوج بنته من الزنا، **أو أخته، ولا بنت ابنه، ولا بنت بنته، ولا بنت أخيه أو أخته**. والزنـا قبل العقـد يوجب تحريم المصاهرة، فـإذا فجر الرجل بامـرأة لا تحلّ له ابنتها أبداً، ولـو زنى بذات بعل أو فى عدّة رجعية حرمت عليه أبداً، ومن يزنى بامرأة وهى خلية لم يحرم عليه زواجها؛ ويفسد العقد على المعتدة، وعلى المتـزوجة، وما زاد على **أربع زوجـات**، ويحلّ له الزواج مـثنى وثلاث وربـاع بشرط العـدل بينهن والقدرة، وإلا فلا يحلّ له ذلك؛ وتحـرم الزوجة إذا **لاعنهـا** زوجهـا؛ وإذا طلق الرجل امرأته **ثـلاثـاً** بينهما رجعتان، حتى تنـكح زوجاً غيره فيطلقها برضاه بعد الدخول بها؛ ولايجوز للمسلم أن يتزوج **مَن لا دين لها**؛ والزواج من **الكتابية** مكروه، وبشـرط أن تكون مـن المحصنات، كقـوله تعالى: **﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾**(المائدة٥)، **والمحصنات** هن العفيفات؛ولايحلّ زواج المرتد ولا المرتدة، ولايجوز

للكتابي أن يتزوج المسلمة، وإذا أسلمت زوجة كتابية بانت من زوجها الكتابي؛ ولايحل للمُحرِم بالحج أو العمرة أن يتزوج او يزوّج، وكيلاً كان، أو أصيلاً، أو ولياً؛ وتشترط للزواج الكفاية وأن يكون الزوج قادراً على النفقة، وإلا فالزواج فاسد.

•••

١٦٤٠. ﴿الكفاءة في الزواج﴾

المولى من مصطلحات القرآن، وهو الرفيق، والتابع. والإسلام ألغى الفوارق الطبقية بين الناس، ويسّر الحراك الاجتماعي، وفي الآية: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات١٣) لم يقل الله تعالى: إن أكرمكم أحسبكم، أو أكثركم مالاً. وفي الحديث: «**من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله**»، والتقوى: معناها مراعاة حدود الله وأوامره ونواهيه، وقد جعل الله تعالى التقوى معياراً لمن يتزوج ولم يجعله المال ولا الحسب. وفي الحديث: «**إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة، وأتم به الناقصة، وأذهب به اللوم، فلا لوم على مسلم، إنما اللوم لوم الجاهلية**». والمال والحسب إن انضافا إلى التقوى فبها ونعمت، ولكن المال والحسب وحدهما لاشيء. وفي الصحيح عن عائشة، أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ـ وكان ممن شهد بدراً مع النبيّ ﷺ، تبنّى سالماً، وأنكحه هنداً بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان سالمٌ في الأصل مولى لامرأة من الأنصار. وكذلك أُنكح المقداد بن الأسود، ضباعة بنت الزبير. وكانت أخت الصحابي الجليل والمليونير العتيد عبد الرحمن بن عوف تحت بلال، وزوّج النبيّ ﷺ ابنة عمته: زينب بنت جحش، من وليّه زيد بن حارثة. ولماّ خطب بلال بنت البكير أبَىَ إخوتها، ومنعوه وآذوه، وغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال فزوّجوه. ورفض الناس ان يزوّجوا أبا هند لأنه كان حجّاماً، فقال النبيّ ﷺ يمتدح تديُّن أبي هند ويثني على تقواه: «**من سرّه أن ينظر إلى مَن صَوّر الله الإيمان في قلبه، فلينظر إلى أبي هند**»، وقال: «**أنكحوه وأنكحوا إليه**». والخلاصة: أن التقيّ المؤمن أفضل في الزواج من الفاجر النسيب، فإن كانا تقيّين فحينئذ يُقدَّم النسيب منهما، كما يُقدَّم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

•••

١٦٤١. ﴿أي الرجال خيرٌ للزواج؟﴾

الإسلام يحث على اختيار الزوج والزوجة، ومبدأ الاختيار من مبادىء الإسلام، ومن أصوله الثابتة. والإسلام وضع المعايير لاختيار الزوجة الصالحة، وهناك أيضاً الشروط لاختيار الزوج الصالح، والصلاح كمبدأ للاختيار تثبته الآية: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ**

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور٢٢)، والأيّم: هو المرأة أو الرجل لايجد نكاحاً، وقوله: «**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**» قال ابن عباس: رغبّهم فى التزويج وأمر به الجميع، ووعدهم عليه الغنى». قال أبو بكر: **أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى**». وعن ابن مسعود قال: **التمسوا الغنى فى النكاح بقوله تعالى: «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله»**. وفى الحديث: «**النساء تجلب المال**» يعنى أن الله يغنى من يتزوجهن. وعنه ﷺ قال: «**ثلاثة حقّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكُاتب يريد الأداء، والغازى فى سبيل الله**»، فقرر أن الله فى عون هؤلاء، وقرن بينهم، فالمكاتب: **هو** الذى يريد أن يعتق نفسه ويحررها؛ **والغازى**: هو **المجاهد** فى سبيل الله يريد تحرير الناس من شِركهم؛ **والناكح**: هو الذى ينشد الزواج ويريد به تحرير نفسه من شهواتها. **والصلاح** كشرط للزواج **هو صلاح النفس**، وهو أرقى معيار وصل إليه العلم النفسانى، وليس هو الصلاح المادى الذى أساسه امتلاك المال أو السلطان. **وزواج الصالح** هدف نبيل ينبغى أن يُعان عليه صاحبه، وقد زوّج الرسول ﷺ الرجل الصالح الذى لايجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد! وزوّجه بالمرأة الصالحة التى جاءته ﷺ تطلب أن يُزوّجها. **ولا تثريب على المرأة أن تطلب الحلال**، وطَلَبُه ليس خدشاً لحيائها، **فلا حياء فى الدين**، ونُشدان الزواج استكمالٌ للدين، وقد زوّجها النبىّ بهذا الرجل المُملق وجعل صداقها عليه أن يعلّمها ما معه من القرآن. والله قد وعد كل فقير وفقيرة أن يغنيهما بالزواج. ولمّا جاء الرجل إلى الحسن البصرى قال له: جاءنى أناس يخطبون ابنتى، فأيهم أزوّجها له؟ فقال: **زوّجها تقياً، إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها!** ولمّا عرَض أميرٌ من الأمراء على **سعيد بن المسيّب**، أن يتزوج ابنته رفضه لعدم تقواه، وزوّجها لفقير تقىّ، فكانت بعد ساعات تجلس إلى زوجها تقول له: اجلس أعلمك علْم سعيد! وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾**(النور ٢٦)! وعن الرسول ﷺ قال: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلُقَه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**»! **والعنوسة** فى النساء، **والعزوبة** فى الرجال، سببٌ لهذا الفساد، ومظنة سوء، وداعية زنا، ومحنةٌ وابتلاء للمؤمنين والمؤمنات، وعدم الزواج مخافة الفقر شرٌ مستطير، وهذا التحذير والتنبيه هو من الأدب العالى من أبواب الزواج فى الإسلام، ولا نظير له فى النصرانية ولا فى اليهودية، وهو من التعاليم الرشيدة التى تمليها الحكمة، وتفرضها الضرورات، وتقوم بها المجتمعات، وتنهض عليها الدول، والحمد لله على الإسلام، ولله كل المِنّة.

●●●

١٦٤٢. «هل صحيح أن من أزواجنا وأولادنا أعداءً لنا؟»

الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(التغابن١٤) ذهبتْ مثلاً، والناس يرددونها كلما عصت امرأة رجلها أو آذته، أو كلما تمرّد ابنٌ على أبيه وأساء إليه، والآية لا ينصرف معناها إلى هذا الذى فى بال الناس، وحقيقة معناها أن بعضنا ـ النساء والرجال ـ قد تشغلنا محبتنا لأزواجنا وأولادنا عن الله، كما فى قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(المنافقون٩)، أى لاينبغى أن نُشغَل بالأولاد والأموال عمّا يجلب علينا رضا الله، بحُسن العبادة، وبصالح الأعمال، ولذا قال الله تعالى «فاحذروهم»، والمعنى احذروهم على دينكم، والتحذير للأزواج من الزوجات كالتحذير للزوجات من الأزواج، فالمرأة والرجل كلاهما لاينبغى أن يلتهى بعياله وزوجه عن تقوى الله فى كل أمر وشأن. وقد ورد فى مناسبة هذه الآية وعمن تقصدُهم، عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾، فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين، فهمّوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (التغابن١٤) تكملة للآية السابقة، تحثُّ على العفو والصفح عن الأزواج والأولاد إذا جاءهم منهم الضرر، والمسلم مع أهل بيته عفوٌّ دائماً، يغفر ويستغفر لهم، ورحيم يرحمهم ويسترحم الله لهم، وشفوقٌ عطوفٌ، وصفوح يصفح الصفح الجميل. والحذر منهم فى الآية جاء تبريره فى الآية بعدها: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(التغابن١٥): أنهم اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه. وروى عن رسول الله ﷺ أنه كان يخطب فجاء الحسن والحسين حفيداه، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: **صدق الله ورسوله: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة! نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبرحتى قطعتُ حديثى ورفعتهما»** رواه أحمد وأهل السنن. وقال رسول الله ﷺ: **«الولد ثمرة القلوب، وإنهم مَجْبَنةٌ مَبْخَلةٌ مَحْزَنةٌ»** أخرجه البزّار، والمعنى أن الأولاد هم حبّات قلوبنا، ومن أجلهم قد يجبن الوالدن عن مدافعة الباطل، وقد يبخلان ادخاراً للمال لهم، وعند المرض أو الموت هم مصدر لهفة وحزن وحسرة. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ، عن أبى مالك الأشعرى، قال: «... **أعدَى عدوّك الذى خرج من صُلبك**»، يخصّ به الولد الذى يشغلنا عن ذكر اللّه وتقواه، أو الولد العاصى كابن نوح فى الآية: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(هود٤٦)، أو الولد العاق فى

الآيـة : ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الاحقاف١٧).

●●●

١٦٤٣. ﴿الوصايا العشر للزوجة المسلمة﴾

القرآن كتـاب تربية وحكمه كما هـو كتاب توحيد وأحكام، وصـارت دروس التربية جميعها تستقى من القرآن، وفى الأثر أن أعـرابية تخرجت من مدرسة القرآن قالت لابنتها ليلة عُرسـها : «أى بنيّة، إنك قد فارقت بيـتك الذى منه خرجت، وعُشّك الذى منه درجت، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكونى له أمـة يكن لك عبداً، واحفظى له عشر خصال يكن لك ذُخراً. أمـا الأولى والثانيـة : فالصُّحبـة والقناعة والمعـاشرة بحُسن السمع والطاعـة؛ وأما الثـالثة والرابعة: فالتعهُّد لموقع عَيْنه، والتفـقُّد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولايشم منك إلاّ أطيبَ ريح،والكُحـل أحسـن الحُسن، والماء والصـابون أطيَب الطيب المفـقـود. وأمـا الخـامسـة والسادسة: فالتفقدُ لوقت طعامه، والهـدوء عنه عند منامه، فإنّ حرارة الجوع مُلهبة، وتنغيص النوم مُغضبة. وأمّا السابـعة والثامنة: فالعناية ببيته وماله، والرعاية لنفسه وحَشَمه وعياله، ومَلاكُ الأمْر فى المال حُسن التدبير. وأمّا التـاسعة والعاشرة : فلا تفشين له سـراً، ولا تعصين له أمراً، فإنك إنْ افشيت سرّه لم تأمنى غَـدْره، وإنْ عصيْت أمْره أوغرت صدره، ثم اتّقى مع ذلك الفـرح إن كان غـاضبـاً ، والاكـتـئـاب عنده إن كـان فَرِحـاً، فـإن الخـصْلة الأولى من التـقـصيـر، والثـانيـة من التكدير.وكونى أشـد ما تكونين له إعظامـاً ، يكنْ أشد ما يكون لـك إكراماً؛ وأشـدّ ما تكونين له موافـقةً، يكنْ أطول ما يكون لك مرافقةً. واعلمى أنك لاتصلين إلا مـا تحبين حـتى تؤثرى رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يعينك ويوفّقك»

وأوصى أحدهم وهو يلخص دروس القـرآن ابنته ليلة زفافـها، فكادت وصيـته تكون نفس الوصية السـابقة، قال: «يابنية! قد كانت والدتك أحق بتـأديبك منى لو كانت باقية، وأما الآن فإنى أحـقّ بتأديبك من غـيرى. إفهـمى عنى مـا أقول: إنك قد خـرجت من العش الذى فـيه دَرَجْت، وصرتِ إلى فراش لاتعرفيه، وقرين لم تألفيه. كونى له أرضاً يكنْ لك سماء. وكونى له مهـاداً يكن لك عـماداً. وكـونى له أَمَةً يكن لك عـبداً. لا تلحـفى به فيـقلاك. ولا تـتباعـدى عنه فينسـاك، إذا دنا فاقربى منه، وإن نأى فـابعدى عنه. واحفظى أنفـه وسمعـه وعينه لايشمّ منك إلا طيباً، ولايسمع إلا حَسَناً، ولاينظر إلا جميلاً،وأنا الذى أقول لأمك ليلة بنائى بها:

خذى العفـو منـى تستـديمى مودّتى .·. ولاتنطقى فى سَوْرَتى حين أغضبُ
ولاتـنـقريـنـى نَقْرَكِ الدفّ مرةً.·. فـإنـك لاتـدريـن مـاذا المُـغـيَّـبُ
فإنى رأيت الحُبّ فى القَلب والأذى .·. إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهـب

والوصيتان كما ترى ـ الحقوق والواجبات فيهما متبادلة بين الزوجين، وتشتملان على الحِكَم الغالية التى يؤسس لها علماء النفس والاجتماع، وذات المرأة فيهما مصونة، والمراعاة فيهما للطرفين، لاعتبارات بعضها نفسى، وبعضها جسدى، وبعضها اقتصادى ومالى، وقوامها بثّ الطمأنينة، واستحضار السكينة، والتعامل بالمودة والرحمة. والوصايا من هذا النوع كثيرة فى الأدب الإسلامى، وتستهدى بآداب القرآن، وكانت لذلك دستور عمل للتوافق الزوجى عند المسلمين، لم أقرأ لهاتين الوصيتين شبيهاً فى أدب الزواج فى **اليهودية** ولا فى **النصرانية**، وتشبه الوصيتان وصايا **لقمان لابنه** التى أوردها القرآن فى باب المعاملات مع الناس، وعددها **ثلاث عشرة** وصية. وهى مواعظ عظيمة ونفعها جليل، وليس فى قصص القرآن إلا ما هو جليل ونفعه كبير، ولشد ما أعجب كيف قال الفيلسوف **سبينوزا**: أنه قرأ القرآن فلم يجد فيه عبارة يمكن أن تفيده ؟! والسرّ أنه يهودى! وحسبُنا الله، وله الحمد والمنة.



١٦٤٤. ﴿الإحصان شرط الزواج من المسلمة والكتابية﴾

الإحصان هو العفة، **والمُحصَنة والحصان** هى المرأة العفيفة، وشرَط تعالى الزواج من المسلمة والكتابية أن تكون المرأة من المحصنات فقال: **﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾**(المائدة٥)، **والمحصنات**: هن اللاتى أحصنّ فروجهن فلا يزنين، ولأنهن محصنات، سواء كن مسلمات أو ذمّيات، وجبت لهن المهور عن طيب نفس، وكما شرطت الآية الإحصان فى النساء، أى العفة، كذلك شرطتها فى **الرجال**، كقوله تعالى: «**غير مسافحين**» والسفاح هو الزنا، **والمسافحون** هم الزُناة، وقوله: **﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾** أى لاتكون لهم عشيقات. والبغى سواء كانت مسلمة أو ذمية لايصح تزويجها من رجل عفيف، ولايصح عقد الرجل الفاجر على العفيفة، إلا أن يكونا قد تابا وأقلعا عن الزنا، وفى الحديث: «**لاينكح الزانى المجلود إلا مثله**»، ومعنى أنه مجلود: أنه قد ثبت عليه الزنا.



١٦٤٥. ﴿الاستعفاف والصيام لمن لايجد زواجاً﴾

أمر الله تعالى بالزواج، وأوجبه النبىﷺ على كل من قدَر عليه، وفى الآية: **﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ﴾**(النور٣٢) استنّ الله ذلك كضرورة، وأظهر حكمة هذه السُنّة وذلك الأمر، وفى الحديثُ عن رسول الله ﷺ، قال: «**يامعشر الشباب من استطاع**

منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحصَن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» رواه ابن مسعود وأخرجه الشيخان، فقد جعله الرسول من مسائل الاستطاعة. والباءة هى الزواج، وقوله «فليتزوج» هو على الوجوب مع الاستطاعة، لسببين : الأول أن الزواج مدعاة لـغضّ البصر، والبصر قد يزنى، والزواج ثانياً أحصن للفرج، و ليس أحسن ولا أوثق للإحصان من الزواج، وفى الآية: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾(النور٣٣) أمرٌ من الله لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام. والاستعفاف من أعمال العقل، وتقتضيه الحكمة، وهو كقوله ﷺ :«**ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»، والوجاء هو الوقاية، وآية **الاستعفاف** هذه عامة، وأخصّ منها الآية الأخرى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾(النساء٢٥)، يعنى إن لم تكن بكم سعة وقدرة على الزواج من المؤمنات المُحَصَنات، فتزوّجوا من المؤمنات الفقيرات ممن يرضونكم أزواجاً ولا يتنكفن فقركم ، فإن لم تجدوا كذلك فالحل هو ما تقدمه الآية: ﴿**وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾(النساء٢٥). والصبر على **العزوبة أو العنوسة**، علاجٌ إيمانى ينصح به القرآن، **والاستعفاف الجنسى** من العلاجات المحتّمة فى العلاج النفسى، ويُنصح بها الشباب. وفى **النصرانية**: العزوبة والعنوسة أفضل للجنسين من الزواج بصرف النظر عن القدرة على الزواج أو العجز عنه، ومن لم يستطع الصبر على العزوبة فليتزوج(بولس ١ / ٧-٦)، وفى **اليهودية**: لم يُنصح ولم يَنْهَ عن الزواج ولاعن العزوبة والعنوسة، سواء للقادرين أو غير القادرين، وإنما الشغل الشاغل للمشرّع عندهم «**نقاء الدم اليهودى**» فلايختلط بدماء الأجانب بالزواج من أجنبيات.



١٦٤٦. ﴿زواج الزانى من الزانية والزانية من الزانى﴾

الزانى لاترضى به إلا امرأة زانية مثله، قد جربت الزنا وربما تابت وتاب هو أيضاً. والمشركة ترضى بالزانى لأن الزنا مباحٌ عند قومها، والله تعالى يقول: ﴿**الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾(النور٣) ، ولم يكن الصحابة يعتقدون أن نكاح الزانى والزانية هو نكاح حقيقى وإن وثّقا زواجهما. لأن القرآن قد نهى عن زواج المؤمن أو المؤمنة من زانية أو زان، وقصر زواج الزناة على أنفسهم، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**﴾ (النساء٢٥) والآية: ﴿**مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ**﴾(المائدة٥)، يعنى أن لايكون الزوج أو الزوجة من الزناة أو الزانيات، وأن لايكون له أو لها عشيقة أو عشيق، وفى الرواية أن رسول الله ﷺ قد نهى **مرثد بن أبى مرثد** أن يتزوج من البغى **عناق**، والبغايا

لاعهد لهن، وعناق لمآ رفضها مرثد وقال لها: إن الله قد حرّم الزنا، أفشت سرّه ـ وكان قد قدم مكة ليفك أسْر بعض المسلمين، فتبعه قومها لولا لطف الله به. وفى الحديث: «من أراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهّر فليتزوج الحرائر» أى المُحصَنات. وأما الرواية عن الرجل الذى سأل ابن عباس أنه كان يلم بامرأة يأتى منها ما حرّم الله، ثم تاب، فأراد أن يتزوّجها، فقال له الناس: الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة، فقال له ابن عباس: انكحها! وقول ابن عباس لأن الرجل كان زانياً مثلها وإن تاب، فهو أولى بها، ويَحرُم مثل ذلك على المحصنين من الرجال والمحصنات من النساء. فهكذا قال اللّه تعالى وهو أصدق القائلين، وصادق على هذه الحقيقة علم النفس والطب النفسى، فالحمد للّه على نعمة القرآن.



١٦٤٧. ﴿المسلم يؤثر له البكر﴾

البكْر هى التى لم تُوطأ، فلم تعرف الرجال ولم يعرفها الرجال، والله تعالى ميّز البكر عن الثيّب بغشاء البكارة، وتنفرد عذارى الإنسان دون سائر الثدييات بهذا الغشاء، ولم ير علماء الفسيولوجيا أية وظيفة مادية له تفسّر وجوده وتحدد عمله، سوى تمييزه البكر عن الثيّب، ويرتبط ببكارة الفتاة أنها شريفة عفيفة لم تَزْنِ، ولم يطمثها طامث. والشرف والعفة من المعنويات التى اختص الله بها الإنسان، وجعلهما من تكاليفه. والثيّب: امرأة عرفت الرجال، وربما طلّقها زوجها أو مات عنها،و ربما كانت تجربتها السابقة فى الزواج سيئة قد تركت بها ندوباً نفسية تفسد عليها زواجها التالى. وربما قد تركها زوجها وكانت تحبه فتتحسّر عليه، وتظل حسرتها معها حتى بعد زواجها الثانى. وقد يكون الزواج بالثيّب سبباً لأن تقارن بين زوجيها السابق والحالى، ولايحب الرجل أن يكون محل مقارنة بغيره، وخصوصاً فى مسائل الجنس. ومن علماء الجنس الذين نبّهوا إلى تفضيل الرجال للأبكار عن الثيّبات العالم الأمريكى كينزى فى تقريره المشهور المعنون: «السلوك الجنسى عند ذكر الإنسان» Sexual Behavior in the Human Male، و«السلوك الجنسى عند أنثى الإنسان» Sexual Behavior in the Human Female، ولاحظ علماء الحيوان أن الإناث فى كل الطيور والحيوانات اللاتى يأتين الجنس لأول مرة (أى الأبكار)، يكن أكثر حيوية وملاعبة ومداعبة. وفى الحديث عن السيدة عائشة لمآ خيّرت الرسول ﷺ بين البكر والثيب اختار البكر، وعبّرت السيدة عائشة عن بكورة البنت تعبيراً بليغاً قالت: قلتُ يارسول الله! أرأيتَ لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أُكِل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، فى أيها كنتَ تُرتِع بعيرك؟ قال: «فى التى لم يُرتَع منها»، رواه البخارى، والمعنى: أن رسول الله

ﷺ يفضّل البكر التى لم يسبق لها الزواج على الثيّب. وفى الحديث عن جابر بن عبدالله: أن النبىّ ﷺ سأله لمّا تزوّج قال: «**أبكراً أم ثيباً؟**» قال جابر: ثيباً. فقال رسول الله ﷺ: «**فهلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك؟!**». وفى رواية: «**مالك وللعذارى ولعابها!**» وفى رواية أخرى قال: «**هلاّ بكراً؟**» وفى رواية قال: «**تداعبها وتداعبك**»، والمداعبة كالملاعبة، غير أن الملاعبة فيها من المداعبة وليست كذلك المداعبة. ومن الملاعبة تقول لاعب لعاباً بالكسر وبالضم أيضاً، وفى الرواية عند أحدهم جعلها لُعاباً بالضم وهو الريق، إشارةً إلى مصّ اللسان ورشف الشفتين، تفعله البكر عن الثيب، وتُقبل عليّه، وتطلبه ويسعدها. والمصّ والرشف يقعان عند الملاعبة والتقبيل. وفى حديث جابر: أنه برّر اختياره للثيّب على البكر، قال: هلك أبى وترك سبع بنات ـ أو تسع بنات ـ فتزوجتُ ثيّباً، كرهتُ أن أجيئهن بمثلهن»! وفى رواية قال: فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن، ولكن امرأة تقوم عليهن وتمشّطهن، فقال له الرسول ﷺ: «**أصبت**»، أى أن جابراً قد أصاب حين اختار الثيب على البكر، لأنها أنفع لأخواته، وأطوع له، وأكثر تمرّساً بالحياة عن البكر. وفى رواية لابن جريج قال جابر: فأردتُ أن أنكح امرأة قد جرّبت». ويذكر المؤرخون أن امرأة جابر المقصودة كانت سهلة بنت مسعود بن أوس الأنصارية، وكانت قليلة الجمال هادئة الطبع، تدير بيتها بحنكة وإن كانت لا تتزين كالنساء. ونصيحة الرسول ﷺ أن نتزوج البكر يبررها الحديث عن عبدالرحمن بن سالم بن عتبة عن أبيه عن جدّه، قال: «**عليكم بالأبكار، فإنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير**». وعذوبة الفم عند البكر إنما لصغر سنّها. وقوله «**أنتق أرحاماً**» يعنى كثيرة الأولاد، باعتبار أنها فى ربيع عُمرها وقمة شبابها، فهى أكثر خصوبة، وأقدر على الولادة. والحديث زاده الطبرانى عن ابن مسعود قال: «**أرضَى باليسير**»، فالبكر صغيرة السن ترضى بالقليل من الجماع لوكان الأمر أمر جماع، وبالقليل من احتياجات المعيشة لوكان الأمر أمراً من متعلقات المعيشة من مال ومسكن وأثاث، عن الثيب المجرّبة، كثيرة المطالب، وكثيرة الجماع. والأبكار هن جائزة أصحاب اليمين فى الجنة (الواقعة٣٥ ـ٣٨)، أنشأهن الله إنشاءً فجعلهن «**عُرباً**»، أى عذارى مليحات. و«**البكر العُرُب**» هى المَلِقة لزوجها ـ أى المتوددة له، وهى الشَّكِلة بلغة أهل مكة، والغَنِجة بلغة أهل المدينة. والبكارة ليست صفة حسّية بقدر ما هى سمة خُلقية، فالبكر ـ فى تقرير كينزى الذى سبق التنويه إليه(١٩٥٢) قليلة الخبرة غالباً، ترضى ولاتسخط، قاصرةُ الطرف، فيها الحياء، ولم يطمثها طامث، كقوله تعالى: «**﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ﴾**(الرحمن٥٦)، وقوله: **﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾** (الرحمن٧٠). وفى كل

اللغات يقال عن الأرض أنها بكر، أى بخيرها لم ينتقص منها منتقص، ويقال «الدُّرّة البكر» أى التى لم تُثقب، فالبكارة إذن من المحاسن، وهى مطلب المسلم الذكى ، وكما تكون فى الأنثى فهى فى الذكر، وتعنى العفة، وأنه لم يسبق أن عرف امرأة، وبالمعنى الأوسع أنه على فطرة الصفاء والنقاء التى خلقه بها الله، فلم تنحرف به الخبرات، ولم تفسده على نفسه ويُصاب منها بالعُقد. وبكارة المسلم والمسلمة هى إذن أغلى ما يعتزان به من الأملاك الخَلْقية والخُلقية. وفى التوراة البكر مفضّلة على الثيب (الخروج ٢٢ / ١٧)، وفى الإنجيل أن من يتزوج مطلقة فقد زنا (متى ١٩ /٩)، وبالاختصار: فإن الزواج بالبكر أجلى للدين، وأطوع للحكمة. فهكذا يعلمنا القرآن.



١٦٤٨. ﴿هل تتزوج الصغيرة من الرجل الكبير؟﴾

المشهور أن الرسول ﷺ تزوج عائشة وكان عُمرها دون العاشرة أو أكثر من العاشرة، وإن كان واقع الحال يثبت غير ذلك، وأنها كانت فى الثانية عشرة أو أكثر. وكان الرسول ﷺ وقت أن تزوج عائشة فى نحو الثالثة والخمسين، فهل يسوغ ذلك جواز الصغيرة من الكبير؟ قيل: هذا شىء مخصوص بالنبىّ ﷺ وبأحوال ذلك الزمان، وقد عُرِف مثل هذا الزواج فى سائر الديانات، وتحفل أسفار التوراة بحكايات من ذلك ، فالنبىّ إبراهيم عليه السلام كان عمره ستاً وثمانين سنة حين بنى بهاجر وكانت بكراً لم تعرف الزواج، وصغيرة السن خرقاء ، وتزوج لمّا تجاوز المائة من العذراء قطورة، وانجب منها ستة أولاد. وتأخر زواج النبىّ إسحق إلى الأربعين، وكانت رفقة زوجته بكراً لم تتجاوز الثالثة عشرة، ولم يتزوج ابنه عيسو إلا فى الأربعين، وكانت زوجتاه يهوديت وبسمة صغيرتين؛ وكذلك تزوج النبىّ يوسف ابنة فوطيفار الأشورى وعمره ثلاثون سنة، بينما كانت هى فى العاشرة أو نحوها، ولم تنجب إلا بعد سبع سنوات؛ وتزوج داود وهو شيخ طاعن فتاةً فى عمر حفيداته، ومن ذلك الكثير فى التوراة وعند شعوب أوروبا وآسيا .

وفى الإسلام يجوز أن يخطب الكبير الصغيرة، وإنما لايمكّن منها إلا بعد أن تحيض وتصلح للوطء. ولم تتزوج عائشة من الرسول ﷺ إلا بعد أن رأت أمها أنها حاضت، ولم يرد عن عائشة أى حديث عن بلوغها مبلغ النساء وهى فى بيت الرسول ﷺ ، فلابد أن الحيض جاءها قبل ذلك وكان إيذاناً بصلاحيتها للزواج. ولم يحدث أن تزوج الرسول ﷺ بكراً إلا عائشة، وأما بقية زوجاته فكانت أصغرهن صفية بنت حيى فى السابعة عشرة

من عمرها، وأكبرهن سودة بنت زمعة في نحو الخمسين ، وكلهن ثيّبات. ومن المحتمل أن زينب بنت جحش طلقها زيد بن حارثة ولم تمكّنه من أن يدخل عليها، وتزوجها الرسول ﷺ بكراً ولكنها كانت كبيرة في السن. وفي القرآن: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾(الطلاق٤) جعل الله تعالى عدّتهن ثلاثة أشهر قبل البلوغ، فدلّ على أن نكاحها قبل البلوغ جائز، ولكن ليس في الآية تخصيص بذلك، وربما المعنى ينصرف إلى خطبتها وليس إلى الدخول بها، والأب على كل حال لايزوّج ابنته البِكر الصغيرة حتى تبلغ وتُستأذَن ، والزواج يُشترط له المكلَّف العاقل، ولا تكليف إلا بالبلوغ، والشرع مع القول بأن البلوغ في البنات يتأكد من سن السادسة عشرة وليس أقل من ذلك وهو أمرٌ معقول ومناسب جداً.

•••

١٦٤٩. ﴿لا زواج للأنثى إلا برضاها﴾

يروى البخاري بطريق أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكح الأيّم حتى تُستأمر، ولاتُنكح البكر حتى تستأذن»، وعلى ذلك فالثيب لايزوّجها الأب ولا من يحل محله، إلاّ برضاها، والبكر البالغ لايجبرها الأب على الزواج إذا امتنعت. والأيم في الحديث: هي الثيب التي فارقت زوجها بموتٍ أو طلاق. وقد تُطلَق الأيم على من لا زوج لها أصلاً. والاستئمار هو طلب الأمر، بمعنى أنه لا يُعقد عليها حتى يُطلب الأمر منها. وقوله : «لاتُنكح الأيم حتى تُستأمر ، ولا البكر حتى تُستأذن»، تمييزٌ بين الأيم والبكر، فعبّر للأيم بالاستئمار، وللبكر بالاستئذان،والاستئمار يدل على تأكيد المشاورة مع الأيم، ويجعل الأمر إلى المستأمرة، والولي لهذا يحتاج إلى صريح إذنها في العقد، فإذا صرحتْ بمنعه امتنع. والبكر قد يكون إذنها سكوتها كما في قوله ﷺ : «رضاها صَمتُها»، إلا أن بلوغها سن الزواج يسمح لها أن لا تستحي أن تفصح عن رأيها. وبناتنا اليوم لايُزوَّجن إلا بعد السادسة عشرة، وقيل الثامنة عشرة، وللبنت أن لاتستحي أن تعلن رأيها، ولا مجال لتزويج من تقل عن ذلك إلا بالتحايل. وفي زواج البكر تُعلَم أنها لو سكتت فإن ذلك يكون إذناً منها، ولو قالت بعد العلم أنها ما علمتْ أن صمتها إذنٌ، يبطل العقد. ويمكن أن يقال لها قبل العقد : إنْ رضيتِ فاسكتي، وإنْ كرهتِ فانطقي. وقد تظهر منها قرينة السُخط بالبكاء، أو قرينة الرضا بالتبسُّم. وإذا نفرت، أو بكت، أو قامت، أو ظهر منها ما يدل على الكراهة لم تُزوَّج. والزواج أصلاً لا يجوز إلا لبالغ ، لأن البالغ هي التي تُستأذن، ولا معنى لاستئذان مَن لا تدري ما الإذن، ومتى يستوي سكوتها وسُخطها. والاستئذان أو الاستئمار هو شرطٌ في صحة العقد، ولا إجبار على البكر أو الثيب طالما أنها

رشيدة، والرشيدة أحقّ بنفسها من وليّها، وظروفنا الآن تسمح بأن تكون البكر أو الثيب وكيلة نفسها ، وحديث عائشة: «أيما امرأة نُكحت بغير إذن وليّها ، فنكاحها باطل» صحيح فى وقتها، ولا يتعارض مع قولنا :«إن الرشيدة أحقّ بنفسها من وليّها»، فرغم أن وليّها يُستأذن، إلا أن أمره لاينفذ عليها بغير موافقتها وإنما وليّها يحافظ على حقوقها من أنْ تضيّع، ولكنه لا يجبرها.

•••

١٦٥٠. ﴿زواج الابنة وهى كارهة باطل ومردود﴾

يروى عبد الرزّاق بطريق ابن عباس أن النبىّ ﷺ قال: «لاتكرهوهن»، وعند البخارى عن خنساء بنت خدام الأنصارية : أن أباها زوّجها وهى ثيب فكرهتْ ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فردّ نكاحها»؛ وفى رواية الثورى قالت: أنكحنى أبى وأنا كارهة ـ وأنا بكر»، وفى رواية الأوزاعى عن عطاء بن جابر: أن رجلاً زوّج ابنته وهى بكر من غير أمرها، فأتت النبىّ ﷺ ففرّق بينهما»؛وعند ابن ماجه عن ابن عباس: أن جاريةً بكراً أتت النبىّ ﷺ فذكرت أن أباها زوّجها وهى كارهة، فخيّرها»؛ وعند الدارقطنى عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ ردّ نكاح بكر وثيّب أنكحهما أبوهما وهما كارهان»؛ وعند الطبرانى والدارقطنى عن أبى هريرة : أن خنساء بنت خدّام زوّجها أبوها وهى كارهة، فأتت النبىّ ﷺ فردّ نكاحها» ـ ولم يُعرَف إن كانت بكراً أوثيباً.وكما ترى لايجوز زواج الأنثى إلابرضاها، وإلاّ فزواجها بغير رضاها مردود، فهكذا يقضى الإسلام!

•••

١٦٥١. ﴿النظر إلى المرأة قبل خطبتها﴾

فى الحديث عند البخارى عن سهل بن سعد: أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ تهب له نفسها ـ أى تعرض عليه أن يتزوّجها، فنظر إليها رسول الله ﷺ : فصعّد إليها النظر وصوّبه. وعن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة، أن جبريل نزل بصورتها فى راحته يعرضها على النبىّ ﷺ حين أمره أن يتزوّج بها. وعائشة كانت وقتذاك طفلة، ومن ثم كان النظر إلى الصورة من المباحات. وفى الحديث عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ سأل من كان يريد الزواج من الأنصار إن كان قد نظر إليها وأمرة قائلاً: «اذهب فانظر إليها». وفى الحديث عند الترمذى والنسائى عن زواج المغيرة: أنه خطب امرأة فقال له النبىّ ﷺ : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدَّم بينكما» .وعند أبى داود والحاكم من حديث جابر أن النبىّ ﷺ قال: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أنا ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»؛

فالنظر إلى المرأة قبل العقد مشروعٌ إذن لصالح العقد ، ولا تثريب البتة على الخاطب أن ينظر إلى المخطوبة، وأن يجتهد وينظر إلى ما يريد منها إلا العورة، وله أن ينظر إلى ما أقبل وما أدبر منها، كما قال ابن حزم، ويجوز له أن ينظر إليها بغير إذنها،وهذا من سماحة الإسلام، وردٌّ على المتطرفين والمتزمتين والمتنطعين!

●●●

١٦٥٢. ﴿الخطبة فى الزواج﴾

تُستحب فى الزواج خُطبتان، الأولى: عقد طلب الزواج، والثانية عند العقد والخطبة وهى ما يقال «المقدمة»؛ أما الخِطبة (بالكسر) فهى الدعوة إلى الزواج. ومن كلام الخُطبة الأولى أن يحمد الله ويُثنى عليه، ويُوصى بتقوى اللّه، ثم يقال مثلاً: إن فلان ابن فلان ذكر فلانة بنت فلان، وهو فى الحسب ما قد عرفتموه، وفى النسب ما لا تجهلونه، وبذل لها من الصداق ما قد عرفتم، فرُدّوا خيراً تُحمدوا عليه، وتُنسبوا إليه،وصلى الله على محمد وآله وسلم؛ وأما الخطبة الثانية أمام العقد، فتكون:حمداً لله تعالى، وتذكر الشهادتان، ويُصلّى على النبىّ ﷺ ، وعلى آله، ويُوصَى بتقوى الله، ويُدْعى للزوجين، كأن يقال: الحمد لله، وصلّى الله على محمد وعلى آله، ويُستغفر الله، ويقال للعريس: قد زوّجناك على شرط الله تعالى.

وقيل المستحب أن تكون الخطبة واحدة قبل التواجب، ثم يكون العقد، ويخطبها الولى، أو الزوج، أو المأذون، أو القاضى؛ ويستحب أن يخطب بخطبة الحاجة، وقد خطبها النبىّ ﷺ فقال: **الحمدلله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله»** ويقرأ ثلاث آيات، هى: «﴿**واتقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ** (١٠٢)﴾ (آل عمران)؛ و﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذى تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيبًا** (١)﴾(النساء)؛ و﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَديدًا (٧٠) يُصْلحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾(الاحزاب). ويستحب أن يقال للمتزوج :**بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما فى خير وعافية.**

●●●

١٦٥٣. ﴿القول الحسن فى الخطبة﴾

عند البخارى عن ابن عمر: أن رجلين جاءا من المشرق ليخطبا، فقدّما نفسيهما أحسن تقديم، وتكلما بأحسن وأوجز كلام، فقال النبىّ ﷺ **«إن من البيان لسحراً»**، فأجاز بذلك الخطبة فى الزواج، ومن شروطها: أن تكون مقتصدة وذلك هو البيان، ومنه

ما يشبه السحر فعلاً، ويتحقق كالسحر ما يقصد إليه. فكذلك خُطبة الزواج فيها حُسن الكلام، ولكنه الحُسن الذى لايصرف عن الحق إلى الباطل. وقد علّق **صعصعة بن صوحان** على قول الرسول ﷺ: صدق رسول **الله** ﷺ، الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق، فيسحر الناس ببيانه، فيذهب بالحق. والخطبة شُرّعت للخاطب ليعرض أمره، وحُسن الكلام يمكّن من الزواج، ويرفع الأنَفه من نفوس أهل العروس، ليستحسنوه خطيباً لابنتهم؛ ومن الناس من لايُحسن الكلام. وبعض أهل العلم يقولون: إن النكاح جائز بغير خطبة. والمعقول أن **لا نكاح بغير خطبة، ولاخطبة بدون مشاهدة** ومعاينة.



١٦٥٤. ﴿المسلم لايخطب على خطبة أخيه إلا أن يدع﴾

كان ابن عمر يقول: نهى النبىّ ﷺ أن يبيع بعضكم على بعض، **ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حتى يترك الخاطب قبله، أو يأذن له الخاطب**. وتلك خصلة من خصال المسلم نعرفه بها، فمن صَدَق إسلامه وخَلص لله كان ذلك ديدنه مع الناس، فإذا خطب الرجل المرأة فرضيت به، وركنت إليه، فليس لأحد أن يخطب على خطبته، فإذا لم يعلم برضاها ولاركونها فلا تثريب عليه إنْ تقدم لخطبتها، ولم ينكر النبىّ ﷺ أن تقدّم **معاوية وأبو جهم** معاً لخطبة **فاطمة بنت قيس**، وخطبها - أى النبىّ ﷺ - **لأسامة بن زيد**، والاثنان **معاوية وأبو جهم** - خطبا معاً، أو أن أبا جهم لم يعلم بخطبة الأول، كما أن النبىّ ﷺ أشار بأسامة ولم يتقدّم فعلاً لخطبتها له، أو أنه لمّا تقدم **معاوية وأبو جهم** أظهرت فاطمة الرغبة عنهما فخطبها **لأسامة**، فالحُجّة فى ذلك هى **فاطمة** نفسها؛ فإنها لم تُخبر برضاها بواحد، ولو أخبرت النبىّ ﷺ بذلك لم يُشر عليها بغير من اختارت. والمعول عليه أن يصاحب الخطبة عملٌ يؤيدها، كأن يقرأ الطرفان الفاتحة ويتراضيا على الصداق. **ونهْى** الرسول ﷺ أن لايخطب أحد على خطبة آخر هو **نَهْى تأديب** وليس **نهْى تحريم**، وقال بعض العلماء لاتحرم خطبة المسلم على خطبة الذمى أو الفاسق إذا أراد المسلم أن يخطب ذمّية أو عفيفة، غير أن الحديث لايتضمن ذلك، **فلا يجوز إطلاقاً أن يخطب المسلم على خطبة آخر ولو كان هذا الآخر ذمّياً أو فاسقاً**، والمسلمون ليس من أخلاقياتهم أن يَزِنوا بمكيالين، أو أن يأخذوا فى معاملاتهم بمعيارين، والأمر فى النهى متعلقٌ بالعقد نفسه واحترامه، وبحقوق المتعاقدين فيه. وحتى لو خطب سوقىٌ بنت مَلِك ورضيت به، فلا يجوز الخطبة على خطبته. ومن الصور المألوفة أن ترغب امرأة فى رجل

أقل منها مكانةً وثروة، فلايُحتَج بانعدام التكافؤ بينهما. ومن ذلك أن تخطب امرأة رجلاً لنفسها فتجيء امرأة أخرى فتدعوه وترغّبه فى نفسها، وتزهّده فى التى قبلها، فذلك ليس من خُلق المسلم ولا المسلمة.



١٦٥٥. ﴿لا التزام بتفسير ترك الخطبة﴾

الخطبة مشروعة فى الإسلام، وفى القرآن: **﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾**(البقرة ٢٣٥)، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: **إن عمر بن الخطاب** حين تأيّمت **حفصة** قال: لقيتُ أبا بكر فقلت: إنْ شئتَ أنكحتُك **حفصة بنت عمر**، فلبثتُ ليال، ثم خطبها رسول الله ﷺ، فلقينى أبا بكر فقال: إنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضتَ إلاّ أنى **قد** علمتُ أن رسول **الله** ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سرّ رسول **الله** ﷺ، ولو تركها لقبلتها»، وكأن أبا بكر يقول: **كل من علم أن خاطباً لن يُصرَف إذا خطب، لاينبغى له أن يخطب على خطبته. والتزم أبو بكر بتفسير ترك الخطبة حتى لا يعلق النفوس شىءٌ** من هذا الترك، وعليه فكل خاطب أو خاطبة **ينبغى أن يفسِّر للطرف الآخر لمَ ترك الخطبة أو فسخها**، وذلك من خُلق المسلم.



١٦٥٦. ﴿الخلوة﴾

الخَلوة من الفعل «**خلا**» أى انفرد فى مكان، **والخلوة الشرعية**: هى أن يختلى الرجل بالمرأة وقد خطبها، خلوةً تامة، فلا يدخل بها رغم أنه لا يمنعه شىء من ذلك، **فهل تؤثر** هذه الخلوة على المهر **أو العدّة**؟ والمعول عليه أن يكون دخوله بها دخولاً حقيقياً وواقعاً، فما لم يدخل بها **فلا أثر للخلوة ولايجب لها الصداق إلا بالوقاع**، كقوله تعالى: **﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ (٢٣٦)﴾**(البقرة) **والمسّ**: هو الدخول بالمرأة، أى أن يجامعها، وإن حدث أن أغلق باباً، أو أرخى ستاراً، ولمس وقبّل، ولم يدخل بها، **فلا يوجب ذلك** صداقاً لها، وقيل بل يوجب لها المهر كله. والخلوة لا توقع حرمة المصاهرة، ولاتفسد بها العبادات، ولاتجب بها الكفّارة.



١٦٥٧. ﴿الأفراح مشروعة فى الزواج﴾

عن الرُبَيِّع **بنت مَعوِّذ بن عفراء**: أن النبىّ ﷺ حضر يوم زواجها وكانت الجويريات يضربن بالدُفّ، وقالت إحداهن: وفينا نبىّ يعلم ما فى غدٍ، فقال: «**دعى هذه وقولى**

بالذى كنت تقولين»،رواه البخارى. وفى الحديث أن ضرب الدفّ يُشرع فى الزواج وعند ابن ماجه من طريق خالد المدنى قال: «كنا بالمدينة يوم عاشوراء والجوارى يضربن بالدفّ ويتغنين». فشرع ضرب الدفّ فى أى احتفال. وقوله ﷺ للمنشدة «دعى هذه» أى دعى مدحى، والمدح المنهى عنه هو الذى يتضمن الإطراء والمبالغة التى تُفضى إلى الغلو. وعن عائشة كما جاء عند الطبرانى: أن النبىّ ﷺ مرّ بنساء من الأنصار فى عُرس لهن يغنين:

وأهدى لها كبشاً تنحنح فى المربد ... وزوجك فى البادى وتعلم ما فى غد

قصدوا بقولهن «تعلم ما فى غد» مدح النبىّ ﷺ، فقال: «لايعلم ما فى غد إلاّ الله». وفى هذا الحديث إعلان الزواج بالدف وبالغناء المباح؛ وفيه: الإقبال على العرس من الفضلاء، وإن كان فيه لهو لايخرج عن حدّ المباح؛ وفيه: جواز المدح للحاضرين، ما لم يخرج المدح إلى ما ليس فى هؤلاء الحاضرين. والرسول ﷺ بشر، ولايعرف الغيب كما امتدحوه، وكيف يعرف الغيب والله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (النمل٦٥)؟ ويقول لنبيه ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾(الأعراف١٨٨)، والاحتفال بالعرس يكون فى حدود الوسع، والله تعالى يقول: ﴿ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة٢٣٣). وأخرج النسائى عن قرظة بن كعب وابن مسعود الأنصاريين: أن الرسول ﷺ رخّص لنا (أى للمسلمين) فى اللهو عند العُرس. وعند الطبرانى من حديث السائب بن بريد عن النبىّ ﷺ: قيل له: أترخّصُ فى هذا؟ قال: «نعم، إنه نكاح لاسفاح! أشيعوا النكاح». وعند أحمد فى حديث عبدالله بن الزبير قال: «أعلنوا النكاح» وزادت عائشة :«واضربوا عليه بالدفّ».



١٦٥٨.﴿المنكر فى أفراح العُرس﴾

أفراح العُرس قد يداخلها المنكر، كتقديم الخمر، أو الراقصات العراة، أو أىّ مما نهى الله ورسوله عنه. وحضور الأفراح كهذه قد يُفسَّر على أنه رضا بالمنكر، ولابأس أن يزيل المسلم المحرّم من حفل العُرس ويستبعده لو كان ذلك فى مقدوره، وإن لم يكن فى مقدوره فليرجع. وإذا كان بالعُرس لهوٌ مما اختلف فيه فيجوز الحضور، والأولى الترك، وإن كان به محرّمات كالخمر وجب الترك، أو تُرفَع الخمر بحضور المدعو وإلا تَرَك، وقيل يحضر وينكر بحسب قدرته، وإن لم يقدر على منعهم فليخرج. والرضا بالحضور أصلاً إنما كالرضا بالمنكر، فإن كان قد حضر ولم يعلم بأن الفرح سيكون به منكر أو محرّم فلينههم، كقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(الأعراف١٥٧)، فإن لم ينتهوا

فليخرج. وإن كان من أهل العلم ومعروفاً بالصلاح فلاينبغى له أن يحضر ما فيه شبهة، وعن عمران بن حصين قال: «**نهى رسول الله ﷺ عن إجابة طعام الفاسقين**» ، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿**وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ**﴾(العنكبوت٢٩) وعن جابر قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يُدار عليها الخمر**».



١٦٥٩.﴿وليمة العرس وحضورها﴾

وليمة العُرس هى للاحتفال بالعُرس، وهى طعام مخصوص بذلك ويُدعى إليه الأقارب والأصحاب، **وإقامة الولائم** ابتهاجاً بالعُرس محمولة على الاستحباب، وقيل: إن الوليمة واجبة إذ أمر بها النبىّ ﷺ عبدالرحمن بن عوف، وقال له: «**أولم ولوبشاة**» ، و«لو» ليست الامتناعية، وإنما هى للتقليل. واستُدل بالحديث على أن الشاة أقل ما يُشرَع للموسر، وتقام الوليمة عند الدخول، وتُستدرك بعد الدخول إذا فاتت، والنبىّ ﷺ أَولَم على بعض نسائه **بأقل من الشاة**، وكانت وليمته على **صفية: حَيْساً**، وهو تمر ودقيق وسمن؛ وأولَم على أخريات بِمُدَّين من شعير، وأخرج ابن سعد عن الواقدى قول أم سلمة: أن النبىّ ﷺ لمّا خطبها أدخَلها بيت زينب بيت خزيمة، فإذا جَرّة فيها شىء من شعير، فأخذته فطحنته، ثم عصدتهُ فى البُرمة، وأخذت شيئاً من إهالة فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ . وعن أنس قال: «أولَم رسول الله ﷺ على **أم سلمة** بتمر وسمن» وعن أسماء بنت عيسى: «**أن علّى بن أبى طالب** أولَم فى زواجه من **فاطمة** شِطر صاع من شعير» . وهذه ولائم من الماضى وتناسب أحوال هؤلاء الناس، ونستنبط من ذلك أن **الوليمة مستحبة**، ومن يقدر على الوليمة بأكثر من ذلك فليفعل، ولاحدّ لأكثرها من غير إسراف، ولا لأقلها من غير بُخل، ومهما تيسّر أجزأ، وهى على قدر حال الزوج. وقد يتعدد زواج المسلم فلايقصد إلى تفضيل بعض مَن يتزوج على بعض فى الوليمة، وإنما **التباين باعتبار أحواله من الثراء، وباعتبار حسب المرأة ونسبها**.

والوليمة أصلاً تقام عن كل دعوة تُتخذ لسرور ، احتفالاً نكاح أو ختان وغيرهما، وقد أولم إبراهيم كقوله تعالى: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** ﴿٢٦﴾ ﴾(الذاريات)، وقوله: ﴿**أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** ﴿٦٩﴾﴾ (هود) وأشهر الولائم عند المسلمين ثمانية: **الإعذار** للختان؛ **والعقيقة** للولادة وتختص باليوم السابع، **والخُرْس** وهو طعام الولادة؛ **والنقيعة** (من النقع أى الغبار): وهى التى يصنعها القادم من السفر احتفالاً بسلامة وصوله، فأما التى يصنعها له الآخرون **فهى التُحفة؛ والوكيرة** (من الوكر أى السكن): للسكن المتجدد؛

والوضيمة : وهى طعام المأتم (سميت كذلك لأن الطعام يوضع فيها على وَضَم أى مائدة)؛ والمأدُبة لما يُتّخذ بلا سبب، فإن كانت لقوم مخصوصين فهى النَقَرى؛ وإن كانت عامة فهى الجَفَلى. وقيل الوليمة خاصة فقط باحتفال الدخول على العروس، فأما الاحتفال بالعقد عليها أو بخطبتها فهو الشُنْدُخ. وهناك غير هذه الولائم السابقة الحِذاق وهى احتفال يجرى ابتهاجاً بِحِذْق الولد أو البنت لِصَنْعة، ومن ذلك أن يختم القرآن ويحذق تلاوته؛ والخُرْس، والإعذار، والتوكير: وأنت فى إجابتها بالخيار. وكل ذلك من تقاليد الماضى وعاداته؛ وأما وليمة العرس أو الإملاك، فهى كما فى الحديث عن أبى هريرة : «الوليمة حق وسُنّة». ومن السنة أن تُجاب الوليمة. وليست لها مدة، فعن حفصة بنت سيرين أن أباها لما تزوج دعا الصحابة سبعة أيام، وفى الحديث عند عبدالرزاق: ثمانية أيام، وفى حديث أبى داود والنسائى بطريق قتادة أن النبىّ ﷺ قال: «الوليمة أول يوم حقّ، والثانى معروف، والثالث رياء وسمعة» ، وعنه ﷺ : «إذا دُعى أحدكم إلى الوليمة فليُجب» . وفى الحديث عن أنس: أن الرسول ﷺ أقام على صفية ثلاثة أيام حتى أعرس بها؛ وفى الحديث عن ابن مسعود أخرجه الترمذى: «طعام أول يوم حقّ، وطعام يوم الثانى حقّ، وطعام يوم الثالث سمعة» ؛ وعن ابن عباس عن النبىّ قال: «طعامٌ فى العُرس يومٌ سُنّة، وطعامُ يومين فَضْلٌ، وطعام ثلاثة أيام رياء وسمعة»، فالإجابة إذن فى اليوم الثالث مكروهة إذا كان المدعوون فى اليوم الثالث هم أنفسهم المدعوون فى اليوم الأول. وفى الحديث عن أبى موسى عن النبىّ قال: «فكّوا العانى، وأجيبوا الداعى، وعُودوا المريض» وعن البراء بن عازب قال: أمرنا النبىّ ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، وإجابة الداعى هى سابع ما أمرنا به». غير أن الوليمة للعرس لأكثر من يوم إسراف والله لايحب المسرفين.

وشرط إجابة الوليمة: أن لاتكون الدعوة إليها مقتصرة على الأغنياء دون الفقراء، و عن أبى هريرة قال: «شر الطعام طعام الوليمة، يُدعى لها الأغنياء ويُترَك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله». وعن ابن عباس قال: «بئس الطعام طعام الوليمة يُدعَى إليها الشبعان ويُحبَس عنها الجيعان.» والمراد بطعام الوليمة وليمة العرس، وإتيانها حق، وكان ابن عمر يجيب دعوة وليمة العرس صائماً ومفطراً، فإن كان مفطرا فليطعم، وإن كان صائماً فليدع وليشتغل بالصلاة ليحصل له فضلها، ويحصل لأهل البيت والحاضرين بركتها. والمفطر ولو حضر لم يجب عليه الأكل، لقوله ﷺ : «إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن شاء طعم، وإن شاء ترك».

●●●

١٦٦٠. ﴿النساء يحضرن العرس مع الرجال﴾

فى الحديث عن سهل قال: لمّا عرّس أبو أُسَيْد الساعدى دعا النبىّ ﷺ وأصحابه، فما صنع لهم طعاماً، ولا قرّبه إليهم، إلاّ امرأته أم أُسَيْد، بلّت تمرات فى تَوْر من حجارة، من الليل، فلما فرغ النبىّ ﷺ من الطعام أمالته له فسقته تتحفُه بذلك» رواه البخارى. وقوله: بلّت تمرات يعنى صنعت شراباً لا يُسكر فى العُرس؛ والتور: قِدْر؛ وأمالته مرّسته بيدها؛ وتتحفه به: تخصّه به. وفى الحديث ـ كما ترى: أن النساء يجوز حضورهن العرس مع الرجال والخدمة عليهم، بشرط أَمْن الفتنة ومراعاة الستر.



١٦٦١. ﴿هل تشهد النساء على الزواج أو الطلاق؟﴾

عَقْدُ الزواج عقد مُعاوضة مثل البيع، فيمكن أن تشهد عليه النساء، وفى الآية: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾(البقرة٢٨٢)، وشرط الشهادة أنها تنعقد لرجلين، فإن لم يتوفر الرجلان فرجل وامرأتان، غير أن ذلك فى الديون والبيوع بالأجل من غير كتابة، وفى غير ذلك تجوز شهادة المرأة على السواء بالرجل، ويشترط العدالة فى الشهود جميعاً، رجلين كانوا، أو رجلاً وامرأتين. وقوله «أن تضل أحداهما» أى المرأتان، أنّ إحداهما إذا نسيت ذكّرتها الأخرى. وشَرْط الرجلين: أن مجالس الزواج كان يحضرها قديماً الرجال غالباً وتعزل عنها النساء. وفى النصرانية لا تشترط الشهادة، وكذلك لايوجد شرط الشهادة فى التوراة، لا فى الزواج ولا فى الطلاق، على عكس الإسلام فقد اشترط لهما الشهود، واشترط أن يكونوا من الصالحين والصالحات، لم يعرف عنهم فسقٌ ظاهر، وأن يكونوا من العقلاء الراشدين من النظراء لهما. ولا يُحتج بالسُّنّة أنها قد مضت منذ الرسول ﷺ أن لا تُستشهد النساء فى الحدود، ولا فى الزواج، ولافى الطلاق، فقد كانت النساء وقتذاك فى عزلة، ومجتمعاتنا فيها السيدات المرموقات، والطبيبات الناجحات، ومعلّمات الجامعة والمحاميات إلخ، وهؤلاء يخرجن إلى الحياة العامة ويمارسنها كالرجال، وشهادتهن صحيحة ومشروعة. وقد روى عبدالرزاق وسعيد بن منصور عن عطاء بن يسار: أن عمر بن الخطاب أجاز شهادة النساء مع رجلٍ واحدٍ فى النكاح وذلك هو ديننا السمح كما وصفه الرسول ﷺ.



١٦٦٢. ﴿صيغة الزواج﴾

يشترط فى صيغة الزواج الإيجاب والقبول من المخطوبة والخاطب، ولايتم الزواج

بالمراضاة والمعاطاة، ولا بالإشارة والكتابة مع القدرة على اللفظ، وبهذا يفترق عقد الزواج عن غيره من العقود، ولا يتحقق الميثاق والالتزام بينهما إلا **باللفظ والتوقيع**، وهذا هو **الإيجاب**، ويقع بلفظ «زوّجتُ، **وأنكحتُ**» والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾(الاحزاب٣٧) وقوله: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم**﴾(النساء٢٢)، لأن الأصل تحريم الفرج، فينبغى لذلك أن يثبت سبب الحلّ شرعاً. وأما القبول فيكفى فيه اللفظ الدال عليه صراحة، مثل: «**قبلتُ، ورضيتُ**»، وتصح بداهة قيام الألفاظ المترادفة بعضها مقام بعض، كأن تقول المرأة: «**زوّجتك نفسى**»، ويقول الرجل: «**قبلتُ النكاح**»، **أو تقول**: «**أنكحتك نفسى**»، ويقول: «**قبلتُ الزواج منك**»، وقد يقتصر الأمر على قول «**قبلتُ**» فقط. وتلاحظ أن الصيغة تكون فى الماضى بقولها «**زوّجتك**» وليس فى الحاضر «**أتزوج**»،والماضى صريح فى الإنشاء، والأصل أن يكون **الإيجاب من المخطوبة، والقبول من الخاطب**، غير أن المرأة تستحى أن تبدأ بالإيجاب، فكان المشهور **تقديم القبول على الإيجاب**، ولايقبل عقد الزواج **الخيار**، لأن فيه شائبة العبادة، وفسخه محصور بالعيوب المنصوص عليها، ولذا لاتجرى فيه **الإقالة. والإشهار** شرط فى الزواج، لأنه لا زواج ألا بولىّ وشاهدين.

١٦٦٣. ﴿هل للمرأة أو الرجل أن يشترط عند الزواج؟﴾

للرجل والمرأة أن يشترطا عند عقد الزواج، وفى الحديث عن عقبة عن النبىّ ﷺ قال: «**أحق ما أوفيتم من الشرط أن توفوا به، ما استحللتم به الفروج**»، أى أحق الشروط بالوفاء شروط الزواج؛ وللمرأة مثلاً أن تشترط على الرجل أن **لايتزوج عليها، أو لاينقلها من منزلها إلى منزله**. وما كان من شروط **فى الصداق** فيجب الوفاء بها، وعن عمر قال: **إذا تزوج الرجل والمرأة وشرط أن لايخرجها لزم**». وعند أحمد: يجب الوفاء بالشرط مطلقاً. والشروط من مقتضى العقد وتستوى فى وجوب الوفاء بها، كأن تشترط المرأة **العشرة بالمعروف، والإنفاق، والكسوة، والسكنى**، وأن لايقصّر فى شيء من حقها. وقد يشترط الرجل عليها ألاّ تخرج إلاّ بإذنه، ولاتمنعه نفسها، ولاتتصرف فى ماله أو متاعه إلا برضاه. **فإذا** اشترطت المرأة على الرجل **أن لايطأها** لم يجب الوفاء بشرطها، لأن القاعدة كما فى حديث رسول الله ﷺ عن عائشة: «**كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل**»، والوطء من حقوق الزوج، فإذا شرطت عليه إسقاطه كان شرطها باطل لأنه ليس فى كتاب الله. وفى الحديث أيضاً عن النبىّ ﷺ: «**المسلمون عند شروطهم إلاّ شرطاً أحلّ** حراماً **أو** حرّم **حلالا**»، وعنه كذلك: «**المسلمون عند شروطهم ما وافق الحقّ**». وعن جابر: أن أم

مبشر بنت البراء بن معرور جاءت إلى النبىّ ﷺ فقالت: إنى شرطت لزوجى أن لا أتزوج بعده. وفقال النبىّ ﷺ: «إن هذا لايصلح». وإذا اشترطت المرأة على الرجل أن لايتزوج عليها إلا إذا أعلمها، أو أن تُطلَّق إذا رغبت فى ذلك، وجب عليه الوفاء بشروطها. وقد حكم عمر بذلك وقال برواية عبدالرحمن بن غنم: **لها شرطها**»، فقال الرجل: هلك الرجال! لا تشاء امرأة أن تطلق زوجها إلاّ طُلّقت! فقال عمر: **المؤمنون على شروطهم عند مقاطع حقوقهم**. وقال: **إن مقاطع الحقوق عند الشروط، ولها ما اشترطت**». وعن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ: «**لايحلّ لامرأة أن تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها**» أو قال: «**لايصلح لامرأة أن تشترط طلاق أختها لتكفىء إناءها**»، أو «**لتستفرغ إناء صاحبتها ولتُنكح**» ومعنى الحديث: نَهَىّ المرأة أن تشترط على الرجل لتتزوجه أن يطلق زوجته، فيصير لها من نفقته ومعاشرته ما كان للمطلقة، وعبّر عن ذلك بقوله «**تكفىء ما فى صحفتها**». والمراد بأختها غيرها سواء كانت أختها من النسب أو الرضاع أو الدين، ويلحق بذلك الكافرة فى الحكم وإن لم تكن أختاً فى الدين وإنما أختها فى الجنس الآدمى، أو أن يكون المعنى أن المرأة لاينبغى أن تسأل زوجها أن يطلق ضرّتها لتنفرد به، وذلك من **الأدب العالى فى الإسلام**، وشبيهٌ به قوله ﷺ للرجال: «**لايخطب الرجل على خطبة أخيه**»، فنهى المسلم أن يخطب المسلمة على المسلم، ونهاه أن يخطب الكافرة أو المشركة على الكافر أو المشرك!



١٦٦٤. ﴿المهر وأنواعه وأحواله﴾

المهر، ويسمى **الصداق، والفريضة، والأجر**، كقول تعالى: **﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾**(النساء٤)، وقوله: **﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾**(البقرة٢٣٦)، وقوله: **﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾** (النساء٢٤)، وقوله: **﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** (النساء٢٥)، فدلّت الآيات على وجوب المهر أو الصداق للمرأة، وأنه عطيتها من الله تعالى، بدليل قوله «**نحلة**»، تقول: **نحلتُ فلاناً شيئاً**، أى أعطيته عن طيب نفس، والصداق عطية وحق ثابت قد فرضه الله للنساء، لا ينازعهن فيه الرجال، ولاتكون النحلة إلا **المسماة المعلومة**، وهو من الدِّين، لأن كلمة «**نحلة**» تعنى الديانة والملّة. وقوله: «**بإذن أهلهن**» فيه أن الزواج لابد فيه من **موافقة أهل المرأة**، وأن يكون بولىّ وشاهدين، وبمهر ثابت. وقد تهب المرأة صداقها لزوجها، كقوله تعالى: **﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾** (النساء). والزواج حِلّ، والمهور أجورٌ لأن ما يقابله المنفعة يسمى أجراً، والمنفعة فى

الزواج هى الحِلّ. والمهور نوعان: **المهر المسمّى، ومهر المثل**، فأما **المهر المسمى**: فهو ما تراضى عليه الزوجان وسمّياه فى متن العقد، ولا حدّ لكثير، كقوله تعالى: ﴿**وآتيتم إحداهن قنطارا**﴾ (النساء٤)، ويستحب أن يكون كمهر السُّنّة، والمندوب شرعاً، ومعلوماً بجهة من الجهات، ويصحّ أن يكون نقداً، أو مصاغاً، أو ثوباً، أو عقاراً، أو منفعة، وقد زوّج النبىّ ﷺ رجلاً من أصحابه وجعل مهر المرأة أن يعلمها ما يُحسن من القرآن. وإذا تزوجها بمهر **سراً** وبآخر جهراً، فلها الأول سواء كان الزائد أو الناقص. ولايجوز أن **تهب** المرأة نفسها للرجل لينكحها من غير مهر، فإذا عقد عليها بلا ذكر للمهر ولم يشترط عدمه، سمى ذلك **تفويضاً** وتسمى الزوجة **مفوّضة**، والتفويض على ضربين: **تفويض بضْع**: وهو أن يتزوجها بغير صداق، وهو المراد **بإطلاق التفويض؛ وتفويض مهر**: وهو أن يجعل المهر إلى رأى أحد الزوجين أو رأى أجنبى ونحوه، ويكون للمفوَّضة **مهر المثل**، ويقاس بمهر مثيلاتها، وحالها فى الشرف والجمال والسّن، والبكارة، والعفة، والأدب، والعلم. ومعنى مهر مثيلاتها صداق نسائها: كأمها أو أختها، أو عمّتها، أو بنت عمّها. ومَن عقد على امرأة ودخل بها، ثم تبين **فساد العقد** لأنها أخته من الرضاعة، أو لغير ذلك، فإن لم يكن سَمى لها مهراً فى العقد استحقت **مهر المثل**.ومن أكره **امرأة على الزنا فعليه مهر المثل**، وإن طاوعته لم يجب عليه شىء لأنها بغىّ. وإن طالبت **المفوضة** زوجها قبل الدخول بفرض مهر لها أُجبر على ذلك، فإن اتفقا على فرضه جاز ما فرضاه، أو ما فرضه القاضى، وليس لها المطالبة بما سواه، لأن الزيادة ميل على الزوج، والنقص ميل على المرأة، ولايجوز الدخول بالمرأة قبل أن يمهرها الزوج بشىء، سواء كانت مفوضة أو مسمى لها؛ ولها، أن تمنع نفسها عليه حتى تتسلم صداقها. ويجوز **تأجيل المهر وتعجيله**، كله أو بعضه، أجلاً معيناً ظاهراً، أو غير ظاهر، كأن يكون أحد الأجلين : **الموت أو الطلاق**، وإن كان بعضه حالاً وبعضه مؤجلاً، فلها منع نفسها قبل قبض العاجل دون الآجل، ولو بقى من المهر جُنيهٌ واحد كان كبقائه جميعه.ولايبرأ الزوج من المهر إلا أن يسلمه إلى من يتسلم مال الزوجة وتقرّ بذلك فى العقد. والمهر فى الذمة دَيْن، فإن مات من هو عليه خُصِم من تركته. وقيل: يستحق المهر بالخلوة فى العقد الصحيح، **والخلوة** فى النكاح الفاسد لايجب بها شىء من المهر، لأنه لم يجب العقد وإنما وَجَب بالوطء، ولا أثر للمباشرة فيما دون الفرج،كالقُبلة ونحوها، طالما لم يحدث وقاع، وكذلك إن نظر إليها عريانة تغتسل، وقيل بل يجب عليه المهر كله. **وينصّف المهر** بالطلاق قبل الدخول، وللمفارقة **باللعان**، وللمدخول بها فى نكاح ثان بعد أن خالعها بعد الدخول ثم تزوجها فى عدتها، ثم طلقها ولم يدخل

عليها. وكل **فُرقة قبل الدخول**، إن كانت من قِبَل المرأة، كأن ترتد، أو لإرضاعها مَن ينفسخ نكاحه بإرضاعه، أو فسخ النكاح بعيبها، أو فسخه لإعساره أو عيبه، **يسقط به مهرها كله** ولا يجب لها متعة. وإن كانت الفُرقة قبل الدخول بسبب الزوج، كأن يرتد، أو بالطلاق، أو الخلع، أو بإرضاع ينفسخ به النكاح، **يسقط نصف مهرها**، ويجب عليه نصفه، وإن طُلّقت **بالإيلاء** كان كطلاقه لها. وإن كانت العصمة بيدها فطلقت نفسها فإن مهرها لا يسقط. ومن وَجَب لها نصف المهر لم تجب لها المتعة، سواء كان صداقها مسمّى أو لم يُسم، وإنما فُرض لها بعد العقد. ويُستحب أن تُمتّع كل مطلقة، وأما المتوفى عنها فلا متعة لها. وكل فُرقة يتنصّف بها المهر المسمى تُوجب المتعة إذا كانت مفوّضة. وما يسقط به المسمّى من أنواع الفُرقة، كاختلاف الدين، والفسخ؛ بالرضاع ونحوه، إذا جاء من قِبَلها، لاتجب به متعة. وتسقط **متعة المفوّضة إن كانت قد أبرأت زوجها من نصف المهر ثم طلقت قبل الدخول**.

•••

١٦٦٥.﴿المغالاة في المهور﴾

المهر أو **الصداق** هو ما يفرضه الرجل للمرأة على نفسه من مال، تنتفع به شرعاً، وتقبضه معجّلاً أو مؤجلاً. وهو ليس مال يشترى به الرجل المرأة من أبيها أو من نفسها، زعماً بأن نظام المهور من مخلّفات عصور الجوارى، فالفرق بين الأمة والحّرة، أن الأمَة تُشْرى بثمن، والحّرة تُمهَر، **والمهيرة** من النساء هى الحرة الغالية المهر. ولو كان مهر المرأة ثمناً لها لكان من حقّ أبيها، ولكن المهر هو حقٌ خالص للمرأة، وكان الرجل قبل الإسلام ـ إذا زوّج ابنته ـ أخذ مَهْرَها دونها، وكان كثير المساومة فى المهر فيغلب المتقدم لها ويقال لذلك إنه قد مهره، أى غالبه فى المساومة فغلبه، ولذلك جاءت الآية: **﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾**(النساء٤)، فنهى **الله** تعالى الآباء أن يأخذوا صداق بناتهن، وجعله حقاً خالصاً للمرأة. **والصداق** أصله من **الصدْق**، فهو المال الذى **يُصدق** به الرجل وعدّه للمرأة بالزواج. **والصدق** هو الفضل، وهو الصلاح، والصداق هو الذى به **يُصدق** الرجل خطبته للمرأة بالعمل، أو يصادق على خطبتها ويخبرها بما يدفع لها من مال. **والصداق** ـ وليس المَهر ـ مصطلح إسلامى. **والنحلة فى الآية** هى الفريضة أو الواجب، ومعنى الآية: لا تتزوج المرأة إلا بشيء واجب لها يفرضه الرجل على نفسه عن طيب خاطر ويسمّيه، إلا أن تتنازل المرأة عن شيء منه، كما فى قوله: **﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ**

هَنِيئًا﴾(النساء٤) ، والخطاب قد يكون للآباء، فتأذن المرأة لأبيها أن يحجز لنفسه بعض صداقها، أو يكون الخطاب للرجال الراغبين فى الزواج، فبعد أن يسمّى الرجل صداقه ربما تتنازل المرأة له عن بعضه. والمهر لايتقدّر أقله ولا أكثره، وقد جاء عن الرسول ﷺ فيما روى البخارى بطريق سهل بن سعد أنه قال للرجل العاجز عن أن يمهر من يريد الزواج بها: «**اعطها ولو خاتماً من حديد**»، فلما عجز الرجل حتى عن ذلك سأله: «**ما معك من القرآن؟**» قال : كذا وكذا. قال: «**فقد زوجتكها بما معك من القرآن**»، وكذلك نزلت الآية: **﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾**(النساء٢٠) فأجاز الله تعالى كثرة المهر لمن يطيق ذلك، كما أن الحديث السابق أجاز قلة المهر فقال: «**ولو خاتماً من حديد**». وكان عمر بن الخطاب يقول للناس: **لاتغالوا فى مهور النساء**، فقالت امرأة: ليس ذلك لك ياعمر! إن الله يقول «**وآتيتم إحداهن قنطاراً**» فقال عمر: **امرأة خاصمت عمر فخصمته**»، أو قال: امرأةٌ أصابت ورجلٌ أخطأ!» أخرجه أبويعلى، وأصل قول عمر: **لاتغالوا فى صدقات النساء**».

●●●

١٦٦٦. ﴿هل يجوز الزواج بغير صداق؟﴾

أخرج ابن ماجه ومسلم والنسائى والطبرانى وغيرهم أن رسول الله ﷺ كان فى المسجد، وأن بنت حكيم (أم شريك) جاءته تهب نفسها له،والحادثة رواها القرآن : **﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾**(الأحزاب٥٠)، يعنى فوّضت أمرها لله ولرسوله،وإن شاء تزوجها هو، وإن شاء زوّجها آخر. وفى رواية هشام بن سعد أن النبىّ ﷺ نظر إليها فصعّد النظر وصوّبه، ثم قال: «**مالى فى النساء حاجة**». وفى رواية أبى هريرة عند النسائى قال: «**لا حاجة لى**»، ثم قال: «**ولكن تملكين أمرك**» قالت: نعم. فنظر فى وجوه القوم، فدعا رجلاً فقال : **إنى أريد أن أزوّجك هذا - إن رَضِيْتِ**» . قالت: ما رضيتَ لى فقد رضيتُ». وفى رواية أخرى لابن عباس : أن رجلاً قال: إن هذه المرأة إنْ رضيت بى فزوّجها منى. قال له النبىّ ﷺ : «**فما مهرها؟**» قال الرجل: ما عندى شىء. قال النبىّ ﷺ : «**امهرها ما قل أو كثر**» ، قال الرجل: والذى بعثك بالحق ما أملك شيئاً». وفى رواية ابن جريج أن النبىّ ﷺ حينذاك قال له: «**اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً**». فذهب الرجل ثم رجع فقال: لا والله ما وجدتُ شيئاً: قال له النبىّ ﷺ : «**انظر ولو خاتماً من حديد**»، أو قال: «**اذهب فاطلب ولو خاتماً من حديد**». وفى الرواية أن الرجل عاد فقال: لا والله يارسول الله، ولا خاتما من حديد». وفى الرواية عند مالك قال له الرسول ﷺ : «**هل عندك من شىء تصدقها به؟**»؟ قال الرجل: ما عندى إلا إزارى هذا(يعنى

ثوبى)، فقال له : «**إزارك إنْ أعطيتها جلستَ لا إزار لك**» أو قال: «**ما تصنع بإزارك إنْ لَبِسْتَهُ؟**» ولمّا همّ الرجل بالرحيل ناداه الرسول ﷺ وسأله : «**ماذا معك من القرآن؟** أو قال: «**فهل تقرأ من القرآن شيئاً؟**» قال الرجل: سورة كذا وكذا. وفى رواية: أن النبىّ ﷺ زوّجها له على ما معه من القرآن؛ وفى رواية أنه زوجها له على سورة من القرآن، وفى رواية أخرى أن النبىّ ﷺ زوّجها منه على سورة البقرة ولم يكن عنده شىء. وفى الحديث عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال له : «**فعلّمها عشرين آية وهى امرأتك**»، وفى حديث ابن عباس أنه قال له : «**أزوّجها منك على أن تعلّمها أربع أو خَمس سور من كتاب الله**» ،وعن ابن عباس أيضاً: أن الرجل قال للنبىّ ﷺ أنه يحفظ إنآ أعطيناك الكوثر، فقال له النبىّ ﷺ : «**أصدقها إياها**». وفى الحديث عن ابن مسعود أنه قال له: «**أنكحتكها على أن تُقرئها وتعلمها، وإذا رزقك الله عوّضتها**»؛ فتزوجها الرجل على ذلك». ومن حديث أنس فيما أخرجه ابن أبى شيبة والترمذى: أن النبىّ ﷺ سأل رجلاً من أصحابه : «**يا فلان هل تزوّجت**»؟ قال: لا، وليس عندى ما أتزوج به. قال : «**أليس معك» قل هو الله أحد؟**» ـ وفى كل ذلك ردٌّ على مَن يزعم أن أقل المهر ربع دينار، باعتبار أن قطع يد السارق لأقل المال هو ربع دينار، ومن ثم فأقل المهر ربع دينار كذلك، والخاتم الحديد لايساوى ربع دينار، وقياس مقدار الصداق على مقدار نصاب السرقة باطل، لأن القياس أولاً فى مقابل النص غير صحيح، واليد وهى عضو السرقة تقطع وليس كذلك الفَرْج، فالقياس باطل، ويجب فى القدر المسروق أن يردّه السارق وليس كذلك الصداق، ثم إن اليد تُقطَع فى ربع دينار نكالاً للمعصية، فهل الزواج معصية ليماثل مقدار صداقه نصاب السرقة؟ والصحيح أنه ليس هناك حدّ لأقل المهر، والأحاديث كثيرة فى أقل الصداق، فعند ابن أبى شيبة من طريق أبى لبيبة: «**من استحلّ بدرهم من النكاح فقد استحلّ**»، فالدرهم يصح مهراً؛ وعند أبى داود عن جابر: «**من أعطى فى صداق امرأة سويقاً أو تمراً فقد استحلّ**». (والسويق هو دقيق الحنطة والشعير)؛ وعند الترمذى من حديث عامر بن ربيعة: أن النبىّ ﷺ أجاز نكاح امرأة على نعلين؛ وعند الدارقطنى من حديث أبى سعيد ضمن حديثه عن المهر قال: ولو على **سواك من أراك**، وعند مسلم من حديث جابر : كنا نستمتع **بالقبضة من التمر والدقيق** على عهد رسول الله حتى نهى عنها عمر. ويقصد بنستمتع: الزواج (زواج المتعة)، وقال البيهقى تعليقاً عليه: إنما نهى عمر عن النكاح (الزواج) إلى أجلٍ لاعن قَدر الصداق. بل إن قول الرسول ﷺ «**ولوخاتماً من حديد**» خرج بلو مخرج المبالغة فى طلب التيسير على طلب الزواج، ولم يُردْ عين الخاتم الحديد، ولاقدرقيمته

حقيقة، ومن ثم لاينبغى التعلّل بأن أقل الصداق هو ربع دينار ـ قيمة الخاتم الحديد. والمهم أن يكون هناك صداق ولو أقل القليل، وكلٌ بقدر وُسعه ، ولابد للصداق من منفعة ولو كان الصداق تعليم القرآن. بل إن أم سليم فيما أخرجه النسائى، قالت لطلحة لمّا خطبها ـ وكان كافراً: والله ما مثلك يُرَدّ، ولكنك كافر وأنا مسلمة، ولايحلّ لى أن أتزوجك. فإن تسلم فذاك مهرى ولا أسألك غيره»، فأسلم، فكان ذلك مهرها. وأخرج النسائى عن أنس قال: تزوج أبو طلحة أم سليم، فكان الإسلام صداقه لها . وعن ابن سعد أن النبىّ ﷺ أعتق صفية بنت حيىّ ، وجعل عتقها صداقها. **والمهر بالعُروض** جائز فى الإسلام، **والعَرْض** بفتح أوله وسكون ثانيه، هو ما يقابل النقد، وهو أى شىء بقدر وسع الرجل ومكانة المرأة. فالكفاءة دائماً شرط الزواج، **ومهر المثل** من شروط الزواج كذلك.

والمهر يثبُت بالزواج ولو لم يُنَصّ عليه فى العقد، ومن يمن المرأة قلّة مهرها، وقيل: إن الرسول ﷺ تزوج عائشة وأمهرها ما قيمته ديناراً؛ وتزوج أم سلَمة على مَهْر قيمته ربُع دينار، وعلى أثاث بيت عبارة عن رحى يد، وجَرّة ، ووسادة؛وزوّج ابنته فاطمة من علىّ بن أبى طالب على درع قميص حَرْب، وعن أم سلمة وعائشة قالتا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نجهّز فاطمة حتى نُدخلها على علىّ بن أبى طالب، فعمدنا إلى بيته ففرشناه تراباً ليّناً من أعراض البطحاء، ثم حشونا مرفقتين ليفاً، فنفشناه بأيدينا، ثم أطعمنا تمراً وزبيباً، وسقينا ماءً عذباً، وعمدنا إلى عود فعرضناه فى جانب البيت ليُلقى عليه الثوب، ويُعلّق عليه السقاء ، فما رأينا عُرساً أحسن من عُرس فاطمة !

هذا يا أخى المسلم ويا أختى المسلمة كان صداق المسلمات الأوائل، وكان جهازهن، فلا تعقيد ولاغلو، بل بساطة وفطرة، وكان الزواج مجلبة للرضا والسكينة،ومدعاة للرحمة والتوادّ. وآداب الزواج هذه فى الصداق والجهاز ليس منها شىء فى اليهودية ولا فى النصرانية، وإنما ينفرد الإسلام بها، ويتميز بتعاليمه الرشيدة فيها، ويؤسسها على الفهم الواعى للحكمة من الزواج،فليس المهم بهرج الدنيا، وإنما أن يكمُل نصف الدين، وتستقيم الحياة بشريك يعين عليها ويكون به إعمار الدنيا وإنجاب صالحين يعبدون الله . ولله الحمد والمنّة.

•••

١٦٦٧.﴿ تحريم الشغار لأنه بلا صداق ﴾

الشَغار: هو أن يقول الرجل للرجل: زوّجنى ابنتك وأزوّجك ابنتى؛ أو زوّجنى أختك وأزوّجك أختى، أو زوّجنى ابنة اختك وأنا أزوّجك ابنة أختى. والشغار عند الجمهور

باطل ، فعن أنس مرفوعاً: «لا شغار فى الإسلام» وعن جابر مرفوعاً: «نُهى عن الشغار ، والشغار أن ينكح هذه بهذه بغير صداق: بُضْع هذه صداق هذه، وبضع هذه صداق هذه». والمشاغرة فيها خلو بُضْع كل منهما من الصداق، وذلك مخالف لشروط عقد النكاح، والبُضع هو الفَرْج، وليس صداقاً، وتَرْكُ ذِكْر الصداق هو علّة البطلان.

•••

١٦٦٨. ﴿هل تهب المرأة نفسها للزواج؟﴾

فى الآية: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأحزاب ـ ٥٠) أن من الممكن أن تعرض المرأة نفسها للزواج، وقد يظن البعض أن هناك من النساء المسلمات من عرضن أنفسهن على النبىّ ﷺ ليتزوجهن، وأورد بعض المفسرين أسماء نساء فعلن ذلك، غير أن الثابت أنه ما من امرأة عرضت عليه نفسها؛ ولم يحدث أن تزوّج واحدةً وهبت له نفسها. والآية فيها «إنْ» تكررت مرتين، وهى للافتراض، يعنى: بفرض أن امرأة تهب نفسها للنبىّ ﷺ؛ وقيل تفسير الهبة فى الزواج: أنها زواج بلا مهر، وأن الواهبة تفوّض نفسها إليه فيكون هو وليّها، وفى حالة النبىّ ﷺ فإنه ولىّ كل المؤمنات. ولو كان هذا التفسير صحيحاً فإن الزواج يكون باطلاً، لأنه لا علاقة جنسية يمكن أن تقوم بين رجل وامرأة إلا بالزواج، ولا زواج إلا بمهر، ولاينعقد الزواج أصلاً بلفظ الهبة، بأن تقول المرأة: وهبتُ نفسى لك، فشرط انعقاد الزواج أن يكون بلفظ النكاح أو التزويج، وهما اللفظان الصريحان اللذان ورد بهما انعقاد الزواج فى القرآن والسُّنّة. وقيل: إن النبىّ ﷺ أُعطى رخصة الزواج «هبة»، أى بلا مهر، والدليل على ذلك أن الآية نفسها اشتملت على تحليل من دفع لهن مهوراً فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾(الاحزاب ـ ٥٠) ثم قال بعد ذلك: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأحزاب ـ ٥٠)، وكأن الآية بشطريها تتضمن تحليل الزواج ممن دفع إليها أجرها أو مهرها، وأيضاً أن تتنازل عن هذا الأجر. وعلى ذلك فالهبة: هى أن ترضى المرأة بالزواج بلا مهر، وهذا هو الصحيح فى تفسير هذه الآية.

•••

١٦٦٩. ﴿هل تعرض المرأة نفسها على الرجل الصالح؟﴾

عرضت خديجة نفسها على النبىّ ﷺ فى الجاهلية، فقالت له: ياابن عمّ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك، وَسِطَتك فى قومك، وأمانتك، وحُسن خُلقك، وصدق حديثك».

والسُّطة هى الأفضلية. والخُلق إذن هو ما أعجب خديجة فى النبىّ ﷺ، ولم تكن وسامته أو شبابه هو ما أعجبها فيه. ولم تكن خديجة كما زعم المستشرقون: امرأة معها المال وتريد زوجاً شاباً بعد أن جرّبت الزواج بالكهول وتوفوا عنها وتركوها أرملة، وإنما كانت خديجة من أشرف النساء نسباً، وأكثرهن مالاً وأدباً وعلماً وخُلقاً. ولم يكن النبىّ ﷺ ممن يمكن أن يتزوج من تعرض عليه نفسها، مهما كانت، فعن أنس: أن أمرأة قَدِمتْ على النبىّ ﷺ تعرض عليه نفسها وقالت: يارسول الله ألك بى حاجة»؟ وعن سهل بن سعد: أن امرأة عرضت نفسها على النبىّ ﷺ وزوّجها لرجل لم يكن معه ما يصدقها به سوى ما يحفظ من القرآن، فملّكها له بما معه منه. ونعلم من ذلك أنه لا تعارض بين أن يكون الحياء مطلوباً فى المرأة، وأن تعرض نفسها للزواج على رجل صالح، وتبدى له رغبتها فيه.

●●●

١٦٧٠. ﴿هل يعرض الرجل ابنته أو أخته للزواج؟﴾

فى الرواية عن عبدالله بن عمر: أن عمر بن الخطاب حين تأيّمت حفصة بنت عمر من خُنَيْس بن حُذافة ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وتوفى بالمدينة ـ قال عمر: أتيتُ عثمان بن عفان فعرضتُ عليه حفصة، فقال سأنظر فى أمرى، فلبثتُ ليالِ ثم لقينى، فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصدّيق فقلتُ له: إنْ شئتَ زوجتك حفصة بنت عمر، فصمتَ أبو بكر فلم يرجع إلىّ شيئاً، وكدت أوجَد عليه وعلى عثمان، فلبثت ليال ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه: أخرجه البخارى. ومعنى **تأيمّتْ**: فَقَدَت زوجها، **وأوجد عليه**: استشعر الغضب عليه. وفى هذه الرواية تفيد جواز عَرْضِ المسلم ابنته على من يعتقد خيره وصلاحه، ولا استحياء فى ذلك.

●●●

١٦٧١. ﴿لا تخطبَ المرأة فى عِدتها﴾

للرجل أن يعرض لخطبة المرأة المطلقة المبتوتة، أو التى مات زوجها، فى عدتّها، تعريضاً وليس تصريحاً، لقول الله عزّوجل: **﴿ولَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾**(البقرة ٢٣٥)؛ والتعريض: هو أن يذكر ما يدل به على رغبته فى الزواج منها، دون أن يقول لها ذلك مباشرة. ولاتثريب على الرجل أن يضمر فى نفسه أن يخطبها عند انتهاء عدتّها، وليس له أن يواعدها سراً إلا أن تكون

المواعدة ليقول لهـا قولاً معروفاً، ولايجوز أن يعقد عليـها فى العدّة إلا أن تنقضى. وعلّة المنع من التصريح فى العدّة: أن المرأة تكون فيهـا محبوسة على ماء الميت أو المطلّق، ولأن التصريح ذريعة إلى العقد، والعقد ذريعة إلى الوقاع.



١٦٧٢. ﴿محارم الزواج فى الإسلام واليهودية والنصرانية﴾

محـارم الزواج فى اليهودية يـشملها سفر الأحبـار من أسفار التوراة، دوّنوه ابتـداءً من العودة من سبى بابل (الجيل الخامس قبل المسيح)، ولم يكتبه موسى، ولم يُمله على أحد، ومؤلفه مـجهول. والأم فى اليهودية مـحرّمة، والأخـت مـن الأب أو الأم، وبنـت الابن أو الابنة، والخـالة، وزوجـة العم، وزوجـة الابن، وزوجـة الأخ، ولايجوز الجمع بين المـرأة وابنتها، ولا الزواج من ابنة الزوجة، ولا ابنة ابنتها، ولا الجمع بين الأختين. وتحرُم الزوجة فى طمثها، وزوجة الصاحب، ويحرم الذكر على الذكر، ويحرم إتيان البهائم أو أن تأتى البهائم المرأة. وفى النصرانية نفس الشىء بزيادة بطلان زواج المطلقة. والتحريم يحفظ النسل من الضعف، ويقى من وراثة الأمراض والعـيوب الخلقية والنفسية والـعقلية. والمحارم فى الإسلام، تشملهم الآية المعروفة بآية تحريم المحارم، وتقول. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣)﴾(النساء)، بالإضافـة إلى تحريم حليـلة الأب، فحرّم الله سبعاً من النسب، وستاً من رضاع وصِهر، وألحقت السـنّة المتواترة محرماً سابعاً وهو الجمع بين المرأة وعمتّها.وثبت فى الرواية عن ابن عباس، قال وحُرِّم من النسب سبع، ومن الصهر سبع. وقيل المُحرّم السابع هو قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾(النساء٢٤)، فالسبع المحرّمات من النسب، هن: الأمـهات، والبنات، والأخوات، والعمّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت؛ والسبع المحرمات بالصهر والرضاع: الأمهات من الرضاع، والأخوات من الرضـاع، وأمـهـات النســـاء، والربائب (بنات الـزوجـــة)، وحـلائل الأبناء، والجـمـع بين الأختـين، والمُحرّمة الســابعة: من كانت زوجـة للأب، كقـوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النســاء٢٢)، وهؤلاء لايجوز نكاح واحدة منهن، إلا أمـهات النساء اللواتى لم يدخل بهن أزواجهن، فالعقد على الابنة وإن لم يدخل بها يحرّم الأم، ولاتحرُم الابنة إلا بالدخـول بالأم. والأم والربيـبـة سـواء، لاتحـرُم منهمـا واحـدة إلا بالدخـول بالأخرى. وفى رأى أن الأم إذا وطـئها بزنا، أو قـبّلها، أو لمسـها بشـهوة، حُرّمـت عليه

ابنتها. ولا تحلّ أم المزنى بها، ولا بناتها، لآباء الزانى ولا لأولاده. وقالوا: إذا عقد الرجل على الابنة ولم يرها، ولاجامعها ثم طلّقها. فلا تحلّ له أمها. وفى الحديث: «**إذا نكح الرجل المرأة فلا يحلّ له أن يتزوج أمها، دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها، ثم طلقها، فإن شاء تزوج البنت**».

●●●

١٦٧٢. ﴿الشروط فى النكاح الصحيح﴾

شروط النكاح الصحيح على **ثلاثة** أقسام: **الأول**: ما يلزم الوفاء به، ويعود إلى الزوجة نفعه، مثل أن تشترط أن لايخرجها من دارها أو بلدها. فإن لم يَفِ فلها فسخ النكاح؛ فإن شرطت عليه أن يطلّق ضَرّتها ـ قيل: يلزمه الشرط لأنه لاينافى العقد؛ **والثانى**: ما يبطل الشروط ولكنه لايبطل العقد، كما إذا اشترط أن لامهر لها، أولا ينفق عليها، فهذان شرطان باطلان لأنهما يتضمنان إسقاط حقوق تجب بالعقد؛ **والثالث**: ما يُبطل النكاح من أصله، كما لو اشترط أن يكون النكاح لمدة، أو أن يطلقها بوقت بعينه، أو أن يعلّق الزواج على رضا والديها، فالنكاح صحيح والشرط باطل.

●●●

١٦٧٣. ﴿أهلية المتعاقدين على الزواج﴾

يشترط فى **الخاطب والمخطوبة: العقل، والبلوغ، والرشد**، حتى مع الولى. فمن غير المعقول أن تزوّج غير الرشيدة وإن كان الأوائل قد أجازوا ذلك، وخلوهما من **المحرمات. وأن يتعينا** بشخصيتهما، وأن يتوفر فى العقد **القصد، والرضا، والاختيار**. فلا إكراه فى الزواج، ولايعتد برضا **الهازل، والساهى، والنائم، والمغمى عليه، والسكران**، ولايجوز **للسفيه** أن يعقد لنفسه أو يعقد له آخر لأن الزواج يتطلب تصرفات مالية من مهر نفقة وهو ممنوع عنها، أفلا يمنع من باب أولى من الزواج وهو الذى له متطلبات وأهداف عليا؟ ولايصح **لوكيل المرأة** أن يزوجها إلا لمن أوكلته لزواجها، ولو فعل غير ذلك كان **فضولياً**.

والخلاصة: أن الأهلية شرط الزواج، وأنه يحظر زواج غير العاقل، وغير الراشد، وغير البالغ، حيث أن الزواج الصحيح يقتضى اكتمال البنت نفسياً، وعقلياً، وبدنياً، وفسيولوجيا، وبيولوجيا، وإجتماعياً، وهذا هو معنى **أهلية المتعاقد على الزواج**، وينبغى أن تحضر مجلس العقد وتنطق بالقبول وتوقع على العقد بنفسها.

●●●

١٦٧٤. ﴿الزواج الباطل والفاسد﴾

يبطل الزواج من المرأة : **المتزوجة، والمعتدة**، فإذا علم الرجل والمرأة التحريم فالوطء

زنا؛ ويحرم الزواج من المرتدة عن الإسلام. وإذا تزوجت المرأة زواجاً فاسداً لم يجز تزويجها لغير من تزوجها حتى يطلقها أو يُفسخ زواجه بها، فإن تزوجت بآخر قبل التفريق بينهما لم يصحّ زواجها الثانى، ولم يجز تزويجها لثالث حتى يطلق الأولان؛ أو يفسخ زواجهما، فإن فُرّق بينهما قبل الدخول فلا مهر لها تطالب به، وإن فُرّق بينهما بعد الدخول لها المهر المسمى، أو مهر المثل. ولا حدّ فى الوطء فى الزواج الفاسد، وتعتد الموطوءة بزواج فاسد كعدّة المطلقة، ولانفقة لها إلا للحامل.



١٦٧٥. ﴿عورة الرجل والمرأة﴾

العورة: هى ما يستره الإنسان من أعضائه أنفةً وحياءً، وكل أمر يُستحيا منه مطالعة العورات من المحرّمات، وكان آدم وحواء أول من استحيا من العورة، كقوله تعالى: ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾(الأعراف٢٢)، وقوله: ﴿**ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن**(٥٨)﴾(النور). **والعورات** جمع عورة، والمقصود بالعورات فى الآية السابقة الساعات التى يحتمل أن تتكشف فيها العورة، وهى: ﴿**من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء** (٥٨)﴾(النور)، ولايعنى أن مطالعة العورات محرّم فقط فى هذه الثلاث، فإنما كشفُ العورة ومطالعتها عموماً غير مباح. وحدّ **عورة الرجل**: ما بين السُرّة والركبة، وليست السُرّة والركبتان منها؛ **والمرأة جميعها عورة** إلا الوجه والكفّين، ولاينكشف منها شىء فى الصلاة غير ذلك، ويُعفَى عن اليسير من عورتها قياساً على يسير عورة الرجل، والواجب أن تستر نفسها بما يستر لون بشرتها، ولاتبطل الصلاة إن انكشف الشىء اليسير، وهو ما لايفحش. ومن لايجد ما يستر عورته يصلى قاعداً ويومى، وليس عليه إعادة، وإن لم يجد إلا ثوباً نجساً صلّى فيه ولايصلى عرياناً؛ وإن لم يجد إلا ما يستر بعض العورة ستر مقدمته ومؤخرته؛ ولابأس على المصلى أن يصلى **بالثوب الواحد** إذا كان يستر عورته وعلى عاتقه بعضه؛ والمستحب للمرأة أن تصلى **فى ثوب سابغ، وخمار** يغطى رأسها وعنقها، ويجزئها من اللباس ما يسترها الستر الواجب. ويجب ستر العورة عند **الاغتسال** ؛ وستر **عورة الميت** عند غسله؛ ويباح **للزوجين** النظر إلى عورتيهما حتى الملامسة، ويُكره النظر إلى **الفرج**؛ ويُكره للرجل أن ينظر **عورة الرجل**، كما يُكره للمرأة أن تنظر **عورة المرأة**. ويكره للرجل أن ينظرإلى ما يظهر من **ذوات المحارم**: كالساقين، والرقبة، والصدر، وإلى **ساق أمه وصدرها**؛ ويباح **للطبيب** النظر إلى ما تدعو إليه الحاجة من بدن المرأة وعورتها، **وللشاهد** أن ينظر إلى وجه

المشهود عليها؛ وللبائع أن ينظر إلى وجه المشترية، وللشيخ الطاعن، والغلام مادام طفلاً، والرجل إذا أمن الفتنة؛ ولاتثريب أن ينظر الرجل إلى المرأة العجوز التى لا يُشتَهى مثلها، والطفلة التى لا تصلح للزواج؛ ولايجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل إلا إلى مثل ما يجوز له أن ينظره منها؛ ويباح للرجل أن ينظر إلى المرأة التى يريد أن يتزوجها، بإذنها أو بغير إذنها من غير خلوة بها، وأن يردد النظر ويتأملها ويطالع وجهها.

●●●

١٦٧٦. ﴿رفضه ﷺ أن تكون لابنته ضرة؟﴾

فى الصحيح عن المِسور بن مخرمة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : «**إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلّق ابنتى وينكح ابنتهم، فإنما هى بضْعةٌ منى، يريبنى ما أرابها، ويؤذينى ما آذاها**» والضرّة للمرأة هى امرأة زوجها، أُطلق عليها ذلك لأنها تضُرّ بالزوجة الأخرى، وقيل فى الأمثال الحسد داء الضرائر، ولاتأتى المَضَرَّة إلاّ من الضَرّة. والحكاية أن علىّ بن أبى طالب زوج فاطمة بنت الرسول ﷺ أراد خطبة بنت أبى جهل عليها، فقال النبىّ مغضباً ما قاله على الناس، وكانت فاطمة قد سمعت بنبأ هذه الخطبة، وفى الرواية عند ابن حبان أنها جاءت إلى أبيها وقالت: إن الناس يزعمون انك لا تغضب لبناتك، وهذا علىّ ناكحٌ بنت أبى جهل؟!! والرواية عند الحاكم: أن علياً خطب بنت أبى جهل، فقال له أهلها: لانزوّجك على فاطمة. وفى رواية أخرى: أن علياً خطب بنت أبى جهل إلى عمها الحارث بن هاشم، وجاء إلى النبىّ يستشيره فقال له: «**أعن حَسَبها تسألنى**»؟ فقال : لا، ولكن اتأمرنى بها؟ قال: «**لا، فاطمة بضعةٌ منى، ولا أحسب إلا أنها تحزن أو تجزع**». وفى رواية الزهرى زاد ان النبىّ ﷺ قال على المنبر : «**وإنى لست أحرّم حلالاً ولا أحلل حراماً، ولكن والله لا تُجمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجلٍ أبداً**»، وذلك إذن مفاد القصة، فلم يشأ النبىّ ﷺ ان يحرّم على علىّ أن يتزوج إطلاقاً، وإنما كان اعتراضه أن يجمع بين ابنته كرسول الله وبين ابنة عدو الله أبى جهل فى بيت واحد، وعللّ ذلك بأن هذا الجمع بينهما يؤذيه شخصياً كما يؤذى ابنته، ولولا هذه العلّة لما أنكر هذا الزواج، لأنه لايمكن أن يحرّم الحلال، اى ان علياً له ان يتزوج مثنى وثلاث ورباع، وبنت أبى جهل له حلال لولم تكن عنده فاطمة، والحرام فى ذلك هو الجمع بينهما فذلك الذى يؤذى النبىّ ﷺ ويؤذى ابنته فاطمة. وقوله فاطمة مضغة منى، أو بضعةٌ منى، أى قطعةٌ منه، يؤذيه ما يؤذيها، وكانت فاطمة قد عانت كثيراً بوفاة أمها،

ثم بوفاة أخواتها الواحدة بعد الأخرى، حتى صارت وحدها لا أنيس لها يخفّف عنها، فرّق لها قلب النبىّ ﷺ وأنكر أن يؤذيها زوجها. وفى رواية لمسلم زاد على ما سبق قوله: «يريبنى ما يريبها»، «وأنا أخاف أن تُفتَن فى دينها»، يعنى أنها فى حالة الغيرة قد يقع منها فى حق زوجها ما لا يليق بها. وقد جاهر النبىّ ﷺ بإنكار هذه الزيجة ليمنع فى الحال ما يمكن أن يترتب عليها من أضرار فى المآل. وربما كان استنكاره تنبيهاً إلى استهجان **الزواج بأكثر من واحدة، وترسيخاً لمعنى التوجيه الإلهى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾** (النساء٣)، **﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾**(النساء١٢٩) . ولقد انتقد **المستشرقون والعلمانيون اختصاص فاطمة بهذا المنع من أن تكون لها ضَرّة، فلماذا لم يكن ذلك فى اعتباره ﷺ وهو يتزوج على بنت أبى بكر، وبنت عمر، وعلى زوجاته الأخريات؟ولماذا لم ير أن الغيرة تضرّهن؟ ولماذا لم يخش على دينهن من الافتتان؟!** وقال هؤلاء: إن النبىّ ﷺ على العكس كان يستكثر من الزوجات، وكانت لهن معه جولات وصولات، ولم يراع فى حقهن ما راعاه فى حقّ فاطمة؟! **وحاصل الجواب**: أن زوجاته ﷺ كن يجدن المؤانسة منه شخصياً، فكان يزيل وحشتهن ويلاطفهن، ويطيّب خواطرهن، ويُحسن إليهن فيخفف من غلواء غيرتهن، وأما فاطمة فلو ذهب عنها علىّ إلى غيرها، فمن يتبقى لها وقد فقدت الأم والأخوات؟ولم تكن لها بنات يؤنسنها، وكانت كثيرة المرض، شديدة الحزن، تعيش فى فقر عجيب وتتحمل ذلك رغم صحتها المتهافتة؟ والأهم من ذلك أنه ما كان يرضى أحداً أن تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبى جهل تحت سقف واحد ورجل واحد، فهذا كثير على رسول الله ﷺ وعلى فاطمة! ناهيك عن أن فاعل ذلك هو علىّ بن أبى طالب ركن الدعوة الركين كما قيل، وله المنزلة الكبرى من النبىّ ﷺ، حتى أنزله منه بمنزلة هارون من موسى كما قالوا، فكيف يأتيه الأذى منه بالذات؟! ذلك إذن هو سبب اعتراض النبىّ ﷺ، ولم يحدث أن حلل حراماً ولاحرّم حلالاً كما قالوا وادّعوا، ولم يزن بميزانين، ولا كال بمكيالين.



١٦٧٧. ﴿لاينكح المسلم زوجة أبيه﴾

نكاح زوجة الأب منهىٌّ عنه فى **اليهودية** (تثنية الاشتراع ٢٢/ ٣٠)، مثله مثل نكاح الأب لزوجة ابنه (سفر الأحبار ١٨ / ٧ ـ ١٥). وفى **الجاهلية** كان يجوز للابن أن يتزوج حليلة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، فلما جاء الإسلام حرّمته الآية: **﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾**(النساء٢٢): وروى ابن أبى

تحاتم عن أسباب نزولها: أنّ أبا قيس بن السلت وكان من صالحى الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه بعد وفاة الأب، فقالت له: إنما أعدُّك ولداً، وأنت من صالحى قومك! ولكنى آتى رسول الله ﷺ». فأتته وقالت: إن أبا قيس توفى، فجاءنى ابنه قيس يخطبنى وهو من صالحى قومه، وإنما كنتُ أعده ولداً، فما ترى ؟ فنزلت الآية: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا** (٢٢)﴾(النساء) وقوله تعالى: «**إلا ما قد سلف**» دلّ على أن زواج الابن من حليلة أبيه كان معمولاً به قبل الإسلام، وكان النضر بن كنانة من زواج كهذا، وكان يقول عن نفسه «**وُلدتُ من نكاح لامن سفاح**»، فدلّ على أنهم فى الجاهلية كانوا يعدّونه نكاحاً. وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرّم الله إلاّ امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ**﴾(النساء٢٢)، ﴿**وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ**﴾(النساء٢٣)، ووصف الله هذا الزواج بالفحش والمقت، وأطلق عليه المسلمون «**زواج المَقْت**»، لأنه كان مقيتاً. والمَقت هو البُغض؛ وقوله «**ساء سبيلاً**»: لأنه يؤدى إلى أن يمقت الابن أباه بعد أن يتزوج امرأته، والنفس البشرية جُبلت على أن من يتزوج امرأة يبغض من كان زوجها قبله، ويغار إذا تذكرته الزوجة بالخير، ولهذا حُرّمت أمهات المؤمنين على المسلمين، لأنهن أمهات لهم، لكونهن زوجات النبىّ ﷺ وهو كالأب، وحقّه أعظم من حق الآباء، فهو رسول الأمة، ومبلّغها، ومربيّها، ومُشرّعها، فوجب أن يكون حقّ زوجاته أعظم من حقّ الأمهات. ولو أجيز زواج نساء الرسول ﷺ، لأبغضه من يتزوج منهن، فنأى الله بالمسلمين عن ذلك، إذ كيف يجتمع للمسلم أن يتلقى دينه وعقيدته عن من يبغضه؟ وإنما يجادل فى ذلك المستشرقون والعلمانيون والعلمانيات عن جهل وتعصّب مقيتين. والذى يزنى بامرأة أبيه، تحرُم عليه فروعها كما تحرُم هى على فروعه، ومثله الذى يزنى بأم زوجته فإن زوجته، تحرُم عليه حرمة مؤبدة. والذى عليه النصارى فى أمريكا وأوروبا بخلاف ذلك تماماً، فالرجل يمكن أن يتزوج امرأة أبيه المطلقة أو المتوفى عنها، وأن يتزوج أم زوجته إذا توفت زوجته أو طلّقها، وكانت أمها مطلقة أو أرملة، وأن يستمر زواجه من زوجته ولو زنا بأمها!!

●●●

١٦٧٨. ﴿المتزوجة لايجوز أن تتزوج على زوجها﴾

فى قوله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ**﴾(النساء٢٤) تحريمٌ للنساء ذوات الأزواج، فلا يتزوج الرجل امرأة متزوجة من آخر ولو كانت وزوجها على غير دينه، ولايتزوج الرجل من المرأة المحصنة، أى العفيفة، يغصبها على الزواج منه، ولو كان زواجاً بشهود ومهر

وولىّ، ولا يتزوج بأكثر من أربع، أو بأكثر من واحدة كما فى قوله تعالى: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾**(النساء٣)، وقوله: **﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾**(النساء١٢٩).

●●●

١٦٧٩. ﴿زواج المتعة محرّم﴾

استدل من يقول بتحليل زواج المتعة فى الإسلام بالآية: **﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾**(النساء٢٤)، واحتجوا لذلك بأن زواج المتعة مشروعٌ بنصّ الآية، وهو قول الشيعة، وذهب الشافعى وطائفة من العلماء إلى أنه قد أبيح ثم نُسخ، ثم أبيح ثم نُسخ، مرتين. وقال آخرون: إنما أبيح مرة ثم نُسخ ولم يُبح بعد ذلك. وفى رواية أحمد: أن زواج المتعة أباحته الضرورة. والثابت عن علىّ بن أبى طالب قوله: **«نَهَى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة»**. والقول إذن بأن زواج المتعة هو زواجٌ، قولٌ خطأ، لأنه لم يرد أنه زواج. وفى صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهنى عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: **«يا أيها الناس ،! إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»**. وقال:**«وإنما كانت** (يقصد المتعة) **لمن لم يجد، فلما أُنزل النكاح، والطلاق، والعدّة، والميراث بين الزوج والمرأة نُسخت»**. وعن أبى ذر قال: إنما أُحلت لنا أصحاب رسول الله ﷺ متعة النساء: ثلاثة أيام، ثم نَهَى عنها رسول الله ﷺ وقال: **«كانت المتعة لخوفنا ولحربنا»**. وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ خرج معه المسلمون فى غزوة تبوك فنزلوا بثنية الوداع، فرأى رسول الله ﷺ النساء يبكين فقال: **«ما هذا؟»** قيل: نساءٌ تمتعَ بهن أزواجهن ثم فارقوهن فقال: **«حَرَّم أو هَدَم المتعة النكاح والطلاق والعدّة والميراث»**. والعقل والمنطق يقضيان بتفسير آية المتعة كالآتى: وكما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن فى مقابلة ذلك. وهو تفسير يتكرر معناه فى آيات مثل: **﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾** (النساء٤)، وقوله: **﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾**(النساء١٩) وقوله: **﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾** (النساء٢١). وآية المتعة إذن ليست للمتعة وتفسيرها مختلف عما ادّعاه القائلون بالمتعة. والعُرف وجمهور العلماء والناس ضد زواج المتعة هذا،وهو امتهان لكرامة المرأة، وكرامة أبويها وأُسرتها ولايمكن أن يقبله والدٌ أو والدة أو امرأة ممن وصفهن الله تعالى بالمحصنات أى العفيفات. وعن ابن أبى مليكة برواية البيهقى، قال: سُئلت عائشة زوجة رسول الله ﷺ عن متعة النساء (أى زواج المتعة) فقالت: بينى وبينهم كتاب الله عزّوجل. وقرأت هذه الآية: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ**

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون٧) فمن ابتغي وراء ما زوّجه الله أو ملّكه، فقد عدا»، فاستنبطت من الآية أنه **لاوجود لزواج المتعة**. وزواج المتعة هو **نكاح مؤقت**، قيل: **وُقّت بثلاثة أيام بلياليهن**، يتوافق الرجل والمرأة على ذلك، فإن أحبّا أن يتزايدا فلهما ذلك، وإن أرادا أن يتتاركا أو يتفارقا فلهما ذلك. وأيّما زواج عُلّق على وقت فهو **باطل**، ولو نوى الزوجان عند العقد أن يتفارقا بعد مدة لايصح زواجهما، **وناكح المتعة زان و لا يُعزّر**.

ومثل **زواج المتعة** ما يسمى «**زواج الأخدان**»، من قوله تعالى: **﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾** (النساء٢٥) وهو المعروف حالياً «**بالزواج العرفي**» ، أو «**الزواج السرّي**». ومن رأىْ من يأخذون به أن ما استتر **فلا بأس به**، وما ظهر **فهو لوم**. ومثل ذلك أيضاً **نكاح البدل**، وقد أخرج الدارقطني من حديث أبي هريرة، قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل أنزلْ لي عن امرأتك وأنزل لك عن أمرأتي وأزيدك». **والبدل** قائم حالياً ويشرّعه البعض، طالما أن الطرفين **قد طلقاً** زوجتيهما، وكلاهما يتزوج الأخرى بعد العدّة، وهو «**زواج هوى**» وليس زواجاً كما ينبغي، تُراعَى فيه الأصول الاجتماعية والعُرف الأخلاقي وجوهر الشريعة.



١٦٨٠.﴿الزواج المؤقت محرّم﴾

الفرق بين **زواج المتعة والزواج المؤقت**: أن **زواج المتعة** ليس زواجاً ، لأن الزواج يكون في بدايته عقد وفي نهايته طلاق. وأما **المتعة**: **فهي اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يقضي معها وقتاً معلوماً يتمتع بها فيه، فإذا انقضى الوقت فارقها بدون طلاق**. وزواج المتعة ـ أو بالأحرى المتعة **فقط** بلا زواج ـ لا يكون فيها **شهود**، ولا عقد، ولا التزام بالولد إذا حملت المرأة، ولايرث الرجل المرأة إذا ماتت ، ولا ترثه، ولايرثه ابنها، وليس لها عليه نفقة، ولاصداق.

والزواج المؤقت: فيه **الزواج بلفظ الزواج أو النكاح، والشاهدان**، **وعقد الزواج، والصداق**، ويتوفر به الإيجاب والقبول، ولكنه مرهون **بمدة**، فإذا انقضت المدة فإما يستمر الزواج وإما الطلاق، وللزوجة كامل حقوقها، فهو زواج كالزواج الصحيح، إلا أنه مشروط بشروط المدة، **وهذا يفقده معنى الزواج**، فالزواج الحقيقي للتكاثر، وحفظ النسل وتنشئتهم، وإنجاب البنين، وتربيتهم، وتكوين الأسرة ورعايتها، وفيه السكينة والمودة والرحمة، وذلك لايتوفر إلا إذا قام الزواج بنيّة الاستمرار فيه. والزواج لو تم والزوج ينوي التطليق بعد مدة **فهو زواج شكلي** وفاقد لمعناه، كأن يكون الرجل في بلد غير بلده،

فيتزوج بنيّة أن يظل مع امرأته طالما هو فى البلد، فإذا رحل عنها طلقّها، فأى زواج هذا إن لم يكن زواجاً للمتعة - وإن كان له شكل الزواج؟! ويا أخى المسلم، ويا أختى المسلمة، لا تلاعُب بالدين، فهذا زنا لاشك فيه، يقننه البعض بغرض الإفلات من عقوبة الزنا، وشرط الزواج هو الاستمرارية، لأن الزواج نظام اجتماعى ركين ، وبه تقوم المجتمعات الصحيحة، وتُبنَى الدول القوية، والأسرة إن لم تُحطها الدولة بكافة الضمانات تُزعْزِع بزعزعتها البنيان الاجتماعى كله فينهار . وليس زواج المتعة، والزواج المؤقت، والزواج العرفى، والزواج السرّى، إلا بغرض التحلل من تبعات ومسئوليات الزواج، وتدفع إليه نوايا خبيثة وميول فوضوية . ومثل ذلك زواج المسيار وهو آخِر ما اخترعه الإباحيون، وله شكل الزواج، ويبقى كل من الزوجين فى بيته، وينفق على نفسه دون الآخر ، ولا حقوق ولا واجبات لأى منهما على الآخر، فالزوج يسير على هواه، والزوجة على هواها، وحسبنا الله.



١٦٨١. ﴿الزواج العرفىّ حرامٌ﴾

الزواج العرفى هو الزواج يتفق عليه الرجل والمرأة بدون مأذون، وقد يكتبان به ورقة فيما بينهما، وفيه إيجاب وقبول، ويشهد عليه شاهدان ، ويتم ذلك فى سرية دون إعلان، ويتكتمان أمرهما، ولذلك يسمى هذا الزواج أيضاً بالزواج السّرى. وإسقاط الرجل والمرأة لدور الدولة أو المجتمع الذى تنوب عنه الدولة يبطل هذا الزواج، لأن المراد بالزواج تكوين الأسرة وإنجاب البنين وتنشئتهم وتربيتهم، والدولة هى التى تحفظ حقوق الزوجة والأولاد، وتضمن للزوج حقوقه قبَل الزوجة وحيال أولاده وبيته. ووجود الزواج الرسمى يجُبُّ الزواج العُرفى، فما الداعى إلى الزواج العرفى إن لم يكن بغرض التفويت على الزوجة أن تستقضى الزوج حقوقها منه إذا أهملها أو أهمل أولاده منها؟ أو إذا تنصّل من زواجها وأبوّته لأولاده؟ ثم كيف تفعل الزوجة إذا ظهر الحمل عليها؟ ثم عند الإنجاب؟ أليس فى الحمل والإنجاب إعلان؟ فما الداعى إذن من البداية للسرّية؟ والزواج السنّى هو الذى من أركانه الإعلان، والشاهدان، والولىّ - أى أبو الزوجة أو أخوها أو عمّها إلخ، فإن لم يكن هؤلاء فهو السلطان، أى الدولة ممثلة فى المأذون أو القاضى. وشاهدا الزواج العرفى ليسا شاهدى عدل، أى لم يُعرف عنهما التقوى، وإلا لما شهدا على مثل هذه الزواج السّرى، وشهادتهما لاتكفى كإعلان، لأن الرسول ﷺ قال: «أعلنوا النكاح ، ولو بالدُفّ» ، وقال أبو بكر الصدّيق: «لايجوز نكاح السّر حتى يُعلَن ويُشهَد عليه» وعن عائشة أن النبىّ ﷺ قال : «لا نكاح إلاّ بولىّ وشاهدى عدل، فإن تشاجروا فالسلطان ولىّ من لا ولىّ له». والإعلان

ليس مجرد أن يشهد العقد شاهدان ويتواصيا بالكتمان، فالشاهدان هما شرط الانعقاد، ويتبقى الإعلان وهو واجب اجتماعى وعُرفى، ولابد منه بعد تمام العقد بالإيجاب والقبول، فشهادة الشاهدين شرط، والإعلان شرط آخر، وحضور الولىّ أو من ينوب عنه شرط ثالث، ومن حق الدولة أن تشترط لصحة العقد أن تُمثَّل الحكومة فيه بموظف رسمى يضمن قانونيته، ثم ما الداعى لسرّية الزواج إن لم يكن بغرض إخفاء شىء، وفى إفشائه ضرر للزوج أو للزوجة؟ وكثيراً ما تكون المرأة غير محل للعقد، كأن تكون محرّمة لزواجها من آخر، أو تكون في العدة، وربما ينعدم شرط التكافؤ بين الزوجين، وغالباً ما ينعقد مثل هذا الزواج بين المراهقين ، وأكثرهم قُصّر لايعولون أنفسهم،وأمثال هذه النقائص والعيوب لاتجعل الزواج مقبولاً ويُطعن فى صحته، وما كان مطعوناً فيه فليس بزواج على الحقيقة. ناهيك عن أنه فى الطلاق لايتم بلفظ الطلاق، ولا يتوفر له الشاهدان، ويكتفى الرجل والمرأة بتمزيق الورقة العرفية. وفى الزواج العرفى لايوجد صداق، وعند الطلاق لاتوجد متعة ولا نفقة، وللرجل المتزوج زواجاً عرفياً أن يتزوج كما يشاء زواجاً رسمياً، دون أن يكون للمرأة العرفية حق الزواج، ولاحقّ المطالبة بالطلاق، لعدم الأخذ بالأوراق العرفية أمام المحاكم ، وليس لها أن تطالب بنفقة حيث لا تُسمع أية دعاوى من أى نوع للزواج العرفى ما عدا دعاوى إثبات النسب. وما كان منه ضرر فهو حرام قطعاً، وتلاعبٌ مقيت بالشرع والدين . وحسبنُا الله.



١٦٨٢.﴿لايحل للمسلم أن يتزوج مشركة﴾

فى الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(البقرة٢٢١) تحريم زواج المسلم من المشركة ، وينسحب ذلك بالأوْلى على الملحدة، والدهرية، والطبيعية، والمرتدة عن الإسلام، والهندوسية، والكونفوشية، والعلمانية، والوثنية. وسبب نزول الآية أن مرثد بن أبى مرثد واسمه كناز بن حصين الغنوى، بعثه رسول اللّه ﷺ مع سالم إلى مكة سرّاً ليخرج رجلاً من أصحابه، وكانت له بمكة امرأة يحبها فى الجاهلية، قالت له: تزوجنى. قال : حتى استأذن رسول الله ﷺ . فأتى الرسول ﷺ يستأذنه ، فنهاه لأنه مسلم وهى مشركة. وسبب تحريم المشركة أنه ليس لها دين يحرّم الخيانة ويوجب الأمانة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهى موكولة إلى طبيعتها، وما تربّت عليه بين أهلها وقومها، وما أخذتها به المدارس في بلدها، ومن ذلك أن لاتتأبّى على الانحلال الجنسى،وأن تنفر من مسئوليات الزوجية والأسرة، وأن تعتاد الاستقلاليةوالفردية واللاانتماء، وأمثالها من العدميات والفوضويات، فإن تزوجها المسلم فليس من سبب لزواجه بها إلا جمالها، وقد

يطغيه جمالها فيمرق من الدين كالسهم، ويغلب عليه استقباح النواهي، واستهجان الزواجر، على عكس الكتابية، فهي تؤمن بالله وبالأنبياء، وتستهدى الخيرات، وتستبعد المنكرات، وإن نسيت يوماً فقد تثوب إلى رشدها وتتوب إلى ربّها، ومن كان ذلك شأنها فقد يستهويها ما في الإسلام من حقّ وإيمان، وتصديق بالأنبياء، وتوحيد لله، وحضّ على الخير، ونُفرة من المنكر، فهي أقرب إلى أن تؤمن من الكافرة المعاندة. ومعاشرة الكتابية قد تغريها شريعة الإسلام التي تعطيها حقّها، وتضمن لها فرديتها وذاتها، وتجعل لها غاية وهدفاً في الحياة، على عكس الكافرة أو المشركة فإنها لاترى الشرائع بالكلية، وقد تزيد فتستعلى كامرأة، وتتنكر لكل الأصول الحضارية.

وفي اليهودية يباح زواج اليهود من المشركات والمشركين، وتزوّج موسى حبشية (العدد١٢ / ١)، وكان زواج السبايا المشركات مستباحاً (تثنية الاشتراع ٢١ / ١١)، وتزوّج داود حيثية (ملوك ٢ / ١١-٣) ، وتزوج سليمان ابنه فرعون الوثنية (الأحبار ٢ / ٨-١١). ونهى عزراً عن الزواج من الأجنبيات لأنهن وثنيات (عزرا ١٠ / ١٠) ، وحذر نحميا من الزواج من الأجنبيات من أجل الشرك (نحميا ١٣ / ٢٣)، ومع ذلك تزوجت إسرائيلية من مصرى (الأحبار ٢٤ / ١٠) ، ولم يكن مصرياً في الحقيقة ولكنه من سكان جاسان (محافظة من مصر) حيث كان الهكسوس يحكمون، وكان أشورياً أصلاً، ومصرياً نشأةً، وكان أقرب إلى العبرانيين لأنه كان يساكنهم في جاسان، وفي النصرانية أبيح الزواج من المشركات والمشركين(بولس٧ / ١٤ -١٥). والخلاصة: أن الإسلام - على عكس اليهودية والنصرانية - ينهى عن الزواج من المشركات، ويحظر زواج المسلمة من المشرك.



١٦٨٣. ﴿زواج المشرك أو الكتابى من مسلمة لا يجوز﴾

نهى اللّه تعالى عن الزواج من المشركين والمشركات، فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة٢٢١) وحرّم زواج المشرك من المسلمة؛ والمشرك: هو الذى يقول بإله ولكنه يشرك معه آخر أو آخرين، والآية بعمومها لا بخصوصها، وعموم الآية أن المشرك : هو كل من لايؤمن بالله الواحد، أو لايؤمن بإله أصلاً، أو يؤمن بإله ولكن لايرى البعث والحساب والجنّة والنار، أو يؤمن بالله ولايرى داعياً لرسالات الأنبياء والديانات القائمة، ويرى أنها مثار خلافات ومنازعات ومشاحنات بين الناس ولاداعي لها، وكل ذلك في عموم لفظ الشرك. والمشرك قد يغطى على شركه حُسن سمته أو خُلقه، أو حسبه أو نسبه، أو انتمائه

لدولة كبيرة أو جنس عريق، أو امتلاكه للجاه والسلطان، أو لعلو قدره فى العلم؛ وكذلك المشركة قد يُغفر لها شركها، لجمالها، أو مالها، أو انتمائها لشعب أو جنس. وفى الحديث: «لاتنكحوا النساء لحُسنهن فعسى حُسنهن أن يُرديهن، ولاتنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلأمةٌ سوداء جرداء ذات دين أفضل»، وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ أنه قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسَبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَت يداك»، وفى الحديث يستوى غير التقى وغير التقية مع المشرك والمشركة، وكلاهما نهانا الرسول ﷺ عن الزواج منهم، والسبب واحد: أن كليهما ـ المشرك أو المشركة، وغير التقية أو غير التقى ـ نهايتهما إلى النار، فمن أراد أو أرادت النجاة بنفسه أو بنفسها، وبعياله، أو بعيالها، من غضب الله وعذابه فى الدنيا والآخرة، فَلْينأْ بنفسه عن الارتباط بمن نسى الله أو أنكره. وبعض الناس يأخذون الآية بمعناها الضيق، ففى القرآن يجيىء ذكر المشركين ولايعنى بهم أهل الكتاب، والآية تخصّ المشركين ولاتشمل أهل الكتاب، والرسول ﷺ تزوّج كتابية يهودية هى صفية بنت حيى قيل إنها أسلمت، ومع ذلك فقد اشتكت جاريتها إلى عمر بعد وفاة رسول الله ﷺ أنها ما تزال على دين آبائها، وكانت عائشة وحفصة يذكرانها فيقولان اليهودية، وتسرّى الرسول بريحانة اليهودية وهذه ظلت على دين آبائها، وبمارية القبطية ولم يوجد من أقوالها وأفعالها ما يدل على أنها عرفت العربية أو تحولت إلى الإسلام. وكُتُب التفسير تقول فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة ٢٢١): أن الله استثنى من ذلك أهل الكتاب فقال: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(المائدة٥)، فأوقف المشركين على عبدة الأوثان، ولم يُرد بالآية أهل الكتاب بالكلية. ولمّا تزوج حذيفة «يهودية»، كتب إليه عمر يقول: خلِّ سبيلها. فكتب إليه حذيفة: أتزعم أنها حرام؟ فقال عمر: لا أزعم أنها حرام ولكنى أخاف أن يزهد الناس فى المسلمات. والحديث بين عمر وحذيفة يصدق كذلك على زواج الكتابى من مسلمة وخوف عمر هونفسه مضمون الآية: «ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ»، «ولأمةٌ مؤمنةٌ خيرٌ» والزوج الصالح أو الزوجة الصالحة، كما يقول النبىّ ﷺ: «خير متاع الدنيا»، والصلاح لايكون إلا بصلاح العقيدة أولاً، وصلاح الأعمال ثانياً، والعقيدة التى تشوبها شائبة تفسد، والنصارى يقولون المسيح ابن الله، والله ثالث ثلاثة، ولست أرى شركاً أعظم من ذلك! واليهود يقولون إنهم شعب الله المختار، ولا شعب سواهم اصطفاه الربّ لنفسه، ونسوا أن يتّقوا الله فأنساهم أنفسهم، فضلّوا وأضلّوا، وانحرفوا بالعقيدة، وزيّفوا الرسالة، فلم يعد جائزاً مِن ثَمّ أن يتزوج المسلم كتابية تدعوه إلى ذلك، وكره المسلمون زواج المسلمة من الكتابى فتدين له بالطاعة وتتعبّد بما يتعبّد، إلا

لو آمن الكتابى أو الكتابية، وإيمانه الذى يجيز الزواج منه هو بوحدانية الله وبنبوة محمد ﷺ ، وأن يصلى ، ويصوم، ويزكّى، ويحجّ ما استطاع، وقد صادق الرسول ﷺ على هذا المعيار، فمن شهد بذلك وفعله فقد حقّ أن نزوّجه ،ولو أنه غير مستحسن؛ وقد أقرّ بذلك علم الاجتماع وعلم النفس معاً، باعتبار أن لكل فرد «إطاره المرجعى» الذى يسلك بمقتضاه فى حياته، فإذا تزوج الرجل أو تزوجت المرأة بمن يختلف معها أو معه فى إطاره أو إطارها المرجعى، تصادم معه أو معها، ولم يقم التوافق بينهما، ولا زواج أصلاً إلا بالتوافق، فهو لُحمة الزواج وسُداه؛ وفيما أخرجه النسائى فإن أم سليم خطبها طلحة ولم يكن مسلماً، فقالت له: والله ما مثلك يُرَدّ، ولكنك كافر وأنا مسلمة، ولايحلّ لى أن أتزوجك، فإنْ تُسْلِم فذاك مَهْرِى ولاأسألك غيره، فأسلم طلحة، فكان الإسلام هو صداق ما بينهما.

●●●

١٦٨٤. ﴿زواج المسلم من الكتابية جائز﴾

يحلّ للمسلم أن يتزوج الكتابية من اليهود أو النصارى، بقول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة٥). ولمّا نزلت هذه الآية أقبل الناس على الزواج من نساء أهل الكتاب، وتزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى واليهود ولم يجدوا فى ذلك بأساً. وأهل الكتاب بخلاف المشركين، بدليل الآية : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (البينة١) فتمايز بالآية ما بينهما، وظاهر العطف بين اللفظتين فيها يقتضى المغايرة بينهما. وكما نعرف، تزوج رسول الله ﷺ صفية اليهودية، وكانت سريته ريحانة يهودية ، ومارية القبطية ـ أى المصرية كانت نصرانية ، وتزوج عثمان بن عفان: نائلة بنت القراقصة الكلبية، وكانت نصرانية، وتزوج حذيفة يهودية من أهل المدائن. ولمّا سُئل جابر عن نكاح اليهودية والنصرانية قال: تزوجنا بهن زمن الفتح مع سعد بن أبى وقّاص، غيرأن الزواج باليهوديات والنصارى وإن كان جائزاً إلاّ أنه مكروه ، فلا يُؤمَن على المسلم أن يميل إلى زوجته ودينها ويُفتَن عن دينه، فإن كانت حربية فالمصيبة أكبر، والحربية: هى التى بين المسلمين وأهل بلدها حربٌ قائمة وإن لم تكن معلنة وصريحة. والحرب من شأنها أن توغر الصدور، وتعمّق الكراهية، وتزيد النفرة، وتحضّ على الأذى، فينال المسلم منها ومن قومها ـ إنْ ساكنهم ـ ما يكره، أو قد ينالها منه ومن قومه ما تكره، فلا يستقيم الزواج، وتسوء العشرة، وقد يكون المسلم معايشاً للكتابية فى بلدها، فيعامله أهلها معاملة الأقلية، وتتسيّد زوجته عليه وتستكبر وتستعلى، وفى علم النفس: أن

الفرد من الأقلية يميل إلى التعّين بثقافة الأغلبية، فيسلك بحسب معاييرهم، ويُحرّم ما يُحرّمون، ويحلّل ما يحللّون، فيبرأ من دينه ولايدرى، ويُستمال أولاده إلى ما لا يجب، ويعتنقون ما كان يخشى، فكان مكروهاً لذلك الزواج من الكتابية وخاصة الحربية، والإسلام لم يقر الزواج من الكتابية إلا ليطلع أهل الكتاب على مضمونه، ويعرفوه عن قُرب، فلعل تعاليمه تعجبهم، وعساهم يؤمنون به. ومن يتزوج من كتابية عليه أن يجعل ذلك نُصب عينيه، وغاية مرامه، وشُغل أيامه، أنه فى حقيقته داعية إلى الإسلام، وإنما بطريقة مختلفة، وربما كانت هى الطريقة الأذكى، والوسيلة الأنجح، والأداة الأكثر فائدة، والقدوة خير من الوعظ، والمسلم الذى يتزوج من كتابية عليه أن يكون نموذجاً للمؤمن، فيحبّذ بسلوكه الآخر إلى الإسلام، ويُغرى غير المسلمين، برقيّه وتحضّره، إلى اعتناق الإسلام، ويقنعهم بعلمه وخُلقه. والمسلم الذى يتزوج من كتابية يتعرّض لما يسمى **التقارب بين الأديان، والمقارنة بين العقائد،والحوار بين الحضارات**، ولا بد له أن يكون صاحب علم ودراية، واسع الأفق ، بعيد النظر، أريب كيّس، يعرف طريقه، ويحدد أهدافه، خاصة وهو يساكن الكتابية فى بلدها، ويحتك بثقافتها فى كل وقت، وتدعوه بجمالها، ويغريه أن يتقلّد فى قومها المناصب، ويجد المأوى والملاذ، ومن ذلك كارلوس منعم وأسرته المسلمة فى الأرجنتين، فقد تنصّر لكى يعلو حتى صار رئيساً لدولتها، وتنصّر كثيرون لكى يستشعروا الانتماء وتنتهى غُربتهم، وتهوّد مسلمون فى إسرائيل تعيّناً بعقيدة الغالب كما يقول عالم النفس ليفين **Levin**، وهؤلاء وأولئك كان مدخل تنصّرهم أو تهوّدهم زواجهم من كتابيات حربيات، فلتحذر ذلك يا أخى المسلم، واعلم أن الحَقْلة لا تُنبت إلا البقلة، وأن المطامع تقطع أعناق الرجال، ولاينفعك من جار سوء توقّ.

●●●

١٦٨٥. ﴿زواج المسلم لايكون إلا من محصنة مؤمنة﴾

المسلم لايتزوج إلا محصنة مؤمنة، كقوله تعالى: **﴿أن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** (النساء٢٥) ، **والمحصنات** المؤمنات : هن الحرائر العفائف المؤمنات، اللاتى لايتعاطين الزنا، وقوله بعد ذلك: **﴿فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** (النساء٢٥) أى إن لم تجدوا زوجات من الحرائر، فانكحوا الفقيرات، بشرط أن يكن أيضاً : **﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾**(النساء٢٥)، **أى لايزنين علناً، ولا يرافقن الرجال سراً، وفى كل الأحوال فإن المطلوب من المسلم، فى عصر كهذا تفشّى فيه الزنا مع النقلة الحضارية ، أن يختار زوجته واعية، ومثقفة،**

ومتحضرة، ومتسلّحة بالإيمان، وفى كل الأحوال :هى الشريفة العفيفة التى لاتأتى الزنا أبداً، لا فى السّر ولافى العلن.

●●●

١٦٨٦.﴿ولاية النكاح﴾

كثيرون يذهبون إلى زواج المرأة بولىّ، ويشترط فى الولى: العقل، والبلوغ، والإسلام، وأن يكون ذكراً، عادلاً . وقيل أحق الناس بالولاية والد البنت، ولاولاية لأحد معه، ثم أبوه وإن علا؛ وأولى الأجداد أقربهم وأحقهم بالميراث، ويجوز أن يُقدّم الأخ على الجدّ، والأخ الشقيق مقدّم على الأخ من الأب، وتترتب الولاية على ترتيب الإرث بالتعصيب، ولا ولاية لغير العصبات من الأقارب. وإن لم يكن للمرأة ولىّ، من قرابتها، زوّجها رجل عدلٌ بإذنها؛ فإن تزوجت بغير إذن وليّها، وكان الزواج كفئاً أجيز الزواج. وإذا أرادت أن تتزوج بكفئها، ورغب كل واحد منهما فى صاحبه،وامتنع وليّها، فإنه يكون عاضلاً لها، كقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾(البقرة٢٣٢)، وقيل: الآية تثبت أنه لايجوز النكاح بغير ولىّ، ولو كان الأمر بيد النساء لزوجن أنفسهن ولم يحتج الأمر فى الآية إلى مخاطبة الأولياء، فالخطاب فيها لهم،و الأمر إليهم فى التزويج، كما أن الأمر للنساء فيما يرتضين من الأزواج، واحتج بها أصحاب أبى حنيفة: على أن للمرأة أن تزوج نفسها، لأنه تعالى أضاف أمرها إليها، فقال: ﴿ فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾(البقرة٢٣٠)، فلم يذكر الولى وجعل زواجها لنفسها. ولايجوز أصلاً للأب أن يزوج ابنته من غير كفء، ولا من غير رضاها، وإذا زوِّجت اليتيمة فلها الخيار ولو كانت لم تبلغ، وعلى الأب أن يستأذن ابنته عند تزويجها، وإذا نطقت بالقبول فهو أبلغ وأتم فى الإذن من صمتها. والخلاصة : أن البنت لايحق لها الزواج إلا إذا كانت راشدة وعاقلة بالغة،أى مكتملة عقلياً وبدنياً ونفسياً، ولها أن تقبل وترفض من يتقدم للزواج منها، ولها أن تزوّج نفسها بولىّ من أهلها، أو من غير أهلها، أو بدون ولىّ.

●●●

١٦٨٧.﴿المرأة وليّة نفسها﴾

فى الحديث عن أبى بردة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «لانكاح إلاّ بولىّ»، أى أن الزواج لايكون إلا بولى. وعن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبىّ ﷺ قالت فى شرح أنواع النكاح فى الجاهلية أن نكاحاً منها كان مثل نكاح الناس اليوم، «يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها». ونزلت الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ﴾(البقرة٢٣٢)، فى معقل بن يسار لمّا زوّج أخته من رجل فطلقها، فلما

انقضت عدّتها جاء يخطبها، فقال له معقل: زوّجتك وأكرمتُك فطلقتها ثم جئت تخطبها! لا والله لاتعود إليك أبداً! وكان مطلقها رجلاً لابأس به، فذهب يشكو إلى رسول الله ﷺ، وكانت امرأته تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله «فلا تَعْضُلُوهن» أى لا تمنعوهن، فرضخ معقل وزوّجها إياه. والآية تدخل فيها **الثيب**، وكذلك **البكر المطلّقة**، وفيها أن زواجهما لايكون إلا بولى. وفى الآية: **﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾** (البقرة٢٢١)، والآية: **﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾** (النور٣٢) الخطاب بالنكاح للرجال الذين هم أولياء النساء، وإذن فلا بد من الولىّ، إلاّ أن **عائشة** من ناحية أخرى **كانت تجيز النكاح بغير ولى**، وروى مالك أنها زوّجت بنت عبدالرحمن أخيها، وهو غائب. وأيضاً فإنه قد صحّ عن **عائشة** أنها أنكحت رجلاً من بنى أخيها فضربت بينهم بستر ثم تكلمت، حتى إذا لم يبق إلا العقد أمرت رجلاً فأنكح، ثم قالت: **ليس إلى النساء نكاح**» أخرجه عبدالرزاق. ولايشترط **أبو حنيفة** الولى أصلاً متى كانت المرأة **رشيدة**، والرشيدة يجوز لها أن تزوج نفسها ولو بغير إذن وليّها **إذا تزوجت كفؤاً**، واحتج **بالقياس على البيع والشراء** فإنها تستقل بهما، وحُملت الأحاديث الواردة فى اشتراط الولى على **الصغيرة غير الرشيدة**، والصغيرة غير الرشيدة لايحق لها الزواج فى ظل القوانين الحالية، ومن ثم فبحسب أبى حنيفة: **للمرأة حقّ تزويج نفسها إذا حسُن اختيارها**. وفى الحديث عن سهل بن سعد أن امرأة جاءت إلى النبىّ ﷺ تهب له نفسها، أى تزوّجه من نفسها، **فكان أمرُها إذن إلى نفسها**. والمرأة المتعلّمة والتى تشغل المناصب، كأن تكون أستاذة جامعية، أو طبيبة، أو مهندسة، أو مدرّسة إلخ، هى بالقطع **وليّة نفسها** متى بلغت **الواحدة والعشرين**، وتأخذ المجالس الحسبية بوصاية المرأة، وهى تعمل الآن وزيرة، ومديرة، ورئيسة لمجلس الإدارة، ووكيلة نيابة، ورئيسة للوزراء، وسفيرة، **فالولاية للمسلمة المتعلمة مسألة مفروغ منها،ومنطقية، ومتمشية مع ما بلغه العصر من تقدم، وما حققه المسلمون من ارتقاء.**



١٦٨٨. ﴿زواج اليتيمة بإذنها﴾

فى الحديث عن **عائشة** لمّا سُئلت عن الآية: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾** (النساء٣) قالت: **هذه هى اليتيمة تكون فى حَجر وليّها، فيرغب فى جمالها ومالها، ويريد أن ينتقص من صداقها، فنهوا عن نكاحهن، إلا أن يقسطوا لهن فى الصداق، وأُمروا بنكاح مَن سواهن من النساء**، فأنزل الله عزّوجلّ لهم فى هذه الآية: أن اليتيمة إذا كانت ذات مال وجمال، رغبوا فى نكاحها ونسبها، وطمعوا فى صداقها،وإذا كانت مرغوباً عنها من قلة مال وجمال تركوها، فليس لهم إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقّها

الأوفى من الصداق». ومعنى «اليتيمة» ينصرف إلى من توفى أبوها، أو لايُعرف لها ولىّ؛ «وتقسطوا» معناها تعدلوا؛ «واليتامى» المقصود بها «يتامى النساء» (النساء١٢٧)، و«المرأة اليتيمة» هى الرشيدة التى بلغت مبلغ النساء فلا تُزوّج إلا بإذنها. وفى الحديث: «إنها يتيمة، واليتيمة أولى بأمرها»، وقال ﷺ: «ولاتنكحوا اليتامى حتى تستأمروهن، فإذا سكتن فهو إذنهن» أخرجه الدارقطنى، فوجب أن لا يُستخف بزواج اليتيمة إطلاقاً مهما كانت صغيرة أو كبيرة، وأن تُستأذن فى زواجها، فلا تزوّج من أى أحد، وبأى صداق. وللنساء ـ سواء اليتيمات أو غير اليتيمات ـ مناكح وصَدُقات وأكفاء عُرفت لهن وعرفن لها، فإذا زُوّجت اليتيمة فلابد من استئذانها وموافقتها، وإذا تم الزواج فمن العدل حُسن معاشرتها كغير اليتيمة سواء بسواء.



١٦٨٩. ﴿الزواج: من أربع، أو من أكثر، أو من أقل، أو من واحدة؟﴾

ما وافق العقل فهو من الشرع، والله تعالى يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(النساء٣): «والطّيبات من النساء» هن اللاتى يحلّ الزواج بهن، لأن المحرمات من النساء كثير. والطيّبة هى الصالحة، ولايقال «النساء» إلا لمن يبلغن الحُلُم، وواحدة النساء نسوة، ولا واحد لنسوة من لفظه، ولكن يقال امرأة. ومثنى وثلاث ورباع» معدول عن لفظه ومعناه، فأحاد معدول عن واحد؛ ومثنى معدول عن اثنين اثنين، وثلاث معدول عن ثلاثة ثلاثة، ورباع عن أربعة أربعة. وكونه معدولاً عن معناه أنه لايستعمل فى موضع تستعمل فيه الأعداد غير المعدولة. تقول: جاءنى اثنان وثلاثة، ولايجوز مثنى وثلاث، حتى يتقدم قبله جمع، فتقول: جاءنى القوم وثلاث ورباع، والعدد مثنى وثلاث ورباع لايدل على إباحة تسع، والواو ليست جامعة. والتعدد فى النساء وإن أبيح إلا أن ذلك مخصوص لمن ينفردون بِشِرّة جنسية، ولأصحاب الحالات الخاصة، كأن تمرض زوجه ولايريد مفارقتها، فيتزوج عليها. ثم إن التعدد خير من الزنا ورفقة النسوان. والإنجاب فى إطار التعدد أفضل من الإنجاب سفاحاً. وفى أوقات الحروب قد يكثر أن يموت الرجال، ويختل التوازن فى أعدادهم والنساء، فيكون التعدد أصلح للمجتمع، فمثلما للتعدد سلبيات كثيرة فإن له فوائد كبيرة. وفى التعدد يُخشى أن لايعدل الرجل، وعندئذ يكون الأنسب الزواج من واحدة، والله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(النساء٣)، ويقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء١٢٩)، وكان ولىّ الله أبو نصر بشر بن الحارث يتحرّج أن يتزوّج حتى من واحدة، بسبب الآية فى القرآن: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(البقرة ٢٢٨) فكان يخشى لو

تزوّج أن لاينصف من يتزوجها، وأن يبخسها حقوقها بقدر ما يتقاضاها من واجبات. وفي الحديث: «**اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لايُوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**» رواه مسلم. وسُئل رسول الله ﷺ: ماحقّ زوجة أحدنا؟ قال: «**أن تُطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولاتقبّح، ولاتهجر إلا في البيت**». وعن ابن عباس قال: إني لأحب أن أتزيّن لامرأتي، كما أحب أن تتزين لي امرأتي، لأن الله يقول: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(البقرة ٢٢٨)». وتعددّ الزوجات إذن قد يناسب من لايتحرجون أن لايعدلوا، وهؤلاء يصنّفهم **علم النفس والطب النفسي** ضمن **النمط الشهواني الجنسي الشبقي النرجسي المحبّ** لنفسه، الذي يحفل برغباته ولو أضرّ بالطرف الآخر، ويجمع من حوله أكثر من واحدة من النساء. وصحيح أن الرسول ﷺ قد جمع بين **تسع** زوجات، وبعضهن كن سبيّات وسريّات، ولكن ذلك كان قبل تنظيم مسألة الزواج، وكان **لأسباب** سياسية واجتماعية، وما كان لأسباب جنسية، وقد روت **عائشة وأم سلمة** أنه ﷺ لم يكن يستكثر منهما، ولا من نسائه عموماً، وكان كثير الاعتلال، وكثيراً ما كان يعتزلهن ولايقربهن بالشهور، فلم تكن **دوافع الزواج عنده إذن** لكسر حدّة **الشهوة**، وإنما كانت **هذه عادة العرب أن يصاهروا بعضهم البعض ليعظّموا** في مجتمعاتهم ولتكون لهم تحالفاتهم، وتترابط بالمصاهرة عهودهم ومواثيقهم. والآية التي تقول: ﴿**مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ (النساء٣) ثار حولها الجدل، وتمسك بعضهم بها، بدعوى أن للمسلم حتى تسع زوجات، باعتبار مجموع الاثنين والثلاث والأربع هو العدد تسعة، وقد جمع الرسول ﷺ هذا العدد إليه فعلاً، وهم يقتدون بالرسول ﷺ. وذهب بعضهم إلى أقبح من ذلك، فأباحوا الجمع بين **ثماني عشرة!** بتأوّل **العدل** في الآية أنه التكرار والجمع، فيكون العدد تسعة مكرراً مرتين! وذلك جهل باللغة العربية، والمعروف أن الصحابة جميعاً لم يجمع أيٌّ منهم في عصمته أكثر من **أربع**. ولمّا أسلم **غيلان** بن أمية الثقفي كانت له **عشر** زوجات، فأمره الرسول ﷺ، قال: «**اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن.**» وأسلم حارث بن قيس **الأسدي** وعنده **ثمان** نسوة، فأمره الرسول ﷺ أن يطلّق **أربعاً** ويمسك أربعاً، وإن كانت مثل هذه الأحاديث لاترقى إلى مستوى اليقين، لأن تحريم الزواج من أكثر من أربع نساء كان ينبغي أن لاينصرف إلى ما قد سلف قبل الإسلام أسوة بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي**

حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا(٢٣)﴾ (النساء)، فما جرى فى الجاهلية من الجمع بين أكثر من أربع، أو الزواج من أى من هؤلاء المحرّمات، نكاحه صحيح، ولهذا لم يطلّق النبىّ ﷺ من زاد من زوجاته على الأربع. وقوله **﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾**(النساء٣) بعد قوله: **﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾**(النساء٣)، دليل على أن الله تعالى مع الزواج من واحدة، ومعنى «ألاتعولوا»: أن تعجزوا أن تعولوا كثرة الأولاد نتيجة لكثرة الزوجات، ومثله قوله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾**(التوبة٢٨) والعيلة هى الفقر. وقد فسّرت عائشة «ألا تعولوا» فقالت: ألاّ تميلوا»، فالذى يعدّد الزوجات يُخشى له أن يكثر عياله ويشكو الفقر، ولايحسن تربيتهم، وليس من العدل إذن أن تكثر زوجاته، ومن تكثر زوجاته يُخشَى له أن لايعدل بينهن، فيجور عليهن، ولايفلح أن يرضى أياً منهن، والقرآن بلا شك مع الواحدة، والواحدة كثير لو كان الرجل من المقسطين حقاً كما كان بشر بن الحارث. وأيضاً فإن البعض قد يذهب إلى تفسير مثنى وثلاث ورباع، أن الرجل قد يتزوج واحدة ثم يطلقها ليتزوج بأخرى، فله أن يفعل ذلك أربع مرات لاغير ولايزيد عن ذلك، ومثله يتسبب فى إفساد حياة من يطلق وتشريد الأطفال، واستحداث الفرقة والنُفرة بين العائلات من أبنائه وأصهاره، والزواج ليس من المسائل الشخصية، ومن الخطأ أن يُدرَج ضمن ما يقال له الأحوال الشخصية، وإنما الزواج مؤسسة اجتماعية، ومن حقّ الدولة تنظيمه، وعلى الفرد أن ينصاع لما تراه الدولة والمجتمع والعُرف، ولما يقضى به العقل، ولما يقتضيه التحضُّر، وكل ذلك لايتحقق إلا بالزواج من واحدة وتقييد عدد مرات الزواج طوال العمر، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة، فقد أمره الله تعالى أن يكفّ عن الزواج من بعد، فقال: **﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾**(الأحزاب٥٢). وأمّا أنه استبقى تسعاً من زوجاته ولم يحتفظ بأربع ويطلق خمساً منهن، إعمالاً للنصّ الذى ينهى عن جمع أكثر من أربع زوجات، ففضلاً عن أنهن كن مما سلف، فإن السبب الأهم أن الله تعالى حرّم على المسلمين الزواج من زوجاته من بعده، ومعنى «من بعده» سواء من بعد أن يطلقهن لو حدث وطلّق إحداهن، أم من بعد وفاته، وبناءً عليه لم يكن هناك إلا استبقاء التسع زوجات حتى لايؤذيهن الطلاق لو حدث، فالطلاق جُعل للتفريق بين زوجين لايتوافقان، ولتتاح الفرصة لكليهما أن يجد حظه مع زوج أو زوجة أخرى، لايكون معها أو تكون معه على الوفاق المنشود الذى حُرمه أو حرمته مع الزوجة السابقة أو الزوج السابق. وزوجات الرسول ﷺ لن يتزوجهن أحدٌ من بعده، وليس من سبيل من ثمه إلا أن يستبقيهن زوجات، وذلك إذن

هو السبب الأقوى، وهو مخصوص بالرسول ﷺ وحده، وأما غيره فيخصهم تحريم طلاق ما قد سلف.

وفى اليهودية لم يقيِّد الزواج بعدد من الزوجات، وقيل: تزوّج النبىّ سليمان سبعمائة زوجة، وامتلك ثلاثمئة سرِيّة، ولم يجىء فى التوراة عن التعدّد إلا عبارة واحدة تنهى أن يستكثر الرجل من النساء لئلا يزيغ قلبه (تثنية الاشتراع ١٧ / ١٧). وفى النصرانية لازواج إلا من واحدة، والطلاق منهىٌّ عنه لو كرهها وكرهته، ولاطلاق إلاّ عن زنا، والمطلقة لاتتزوج، بينما من حق الأرملة أن تتزوج، وكذلك يحق الزواج للمطلق أو الأرمل، وكل ذلك مشروط بواحدة. والإسلام يتوسط بين الإباحة فى اليهودية، والتضييق فى النصرانية، والوسطية هى طريقة ومذهب الإسلام، وهى الطريقة المثلى ، وفيها التوسعة والسماحة، ولله الحمد والمنّة.



١٦٩٠. ﴿آية: مثنى وثلاث ورباع، نزلت فى اليتامى من النساء وحكمها أعم﴾

مع كل ما قلنا فى معنى آية «مثنى وثلاث ورباع» فإن سياقها العام يقضى بشىء آخر، حيث تقول: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾**(النساء٣)، فالآية تتحدث عن اليتامى من النساء وليس كل النساء ، وفى الآية : **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾**(النساء١٢٧) ، فبعد أن يذكر النساء بعامة يخص اليتامى منهن، فقال فى مضمون الآيتين: فإن خفتم ألا تعدلوا فى مهور يتامى النساء، وفى النفقة عليهن، فانكحوا غيرهن، فالنساء كثيرات، وانكحوا ما حلّ لكم منهن مثنى وثلاث ورباع، وفى ذلك قالت عائشة فى أسباب نزول هذه الآية: أن المقصود بيتامى النساء: أن اليتيمة تكون فى حَجْر وليّها، تشاركه فى ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليُّها أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهُوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهنّ أعلى سنّتهن من الصداق، وأُمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهن»، فمن لم يخف القسط فى اليتامى فله أن ينكح أكثر من واحدة منهن : اثنتين،أو ثلاثاً، أو أربعاً، ومن خاف فله أن يتزوج من غيرهن، فالآية حكمها أعم من تجويز الزواج من النساء من أكثر من واحدة حتى أربع، وتنسخ ما كان فى الجاهلية وفى أول الإسلام: من أن للرجل أن يتزوج ما يشاء، فقصرتهن

الآية على أربع لمن فى وسعه أصلاً أن يتزوج بأكثر من واحدة ولا تكفه الواحدة، فله أن يعدّد حتى أربع إن استطاع أن يعدل بينهن، فإن لم يكن ذلك فى استطاعته فليقض شهوته فيما ملكت يمينه ، أى الإماء، ومع ذلك فالعدل مطلوب أيضاً فيهن، وإلا ما سمّاهن الله تعالى «ملك اليمين،» وهى صفة مدح، فاليمين مخصوصة بالمحاسن لتمكنّها، وهى المنفقة فى الحديث: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» أخرجه البخارى، واليمين هى المعاهدة والمبايعة، وبها سميت الألية (أى القسم) .والمعاملة بالعدل مع الإماء من مطلوبات حُسن الملكة والرفق بالرقيق، ولم يعد هناك رقيق والحمد لله ، ولم يبق موجب لهذا الجزء من الآية إلا التذكير بأن العدل واجبٌ فى كل الأحوال. والآية برمتها تمنع من الزيادة فى الزواج من النساء، لأن الزيادة تؤدى إلى ترك العدل فى القَسْم، وإسقاط حُسن العشرة. ويقرأ البعض «واحدة» فى الآية بالرفع، لتأكيد أن الزوجة الواحدة كافية وفيها الكفاية، وكل العقلاء والمتحضرين والمتعلمين على القول بأن الواحدة تكفى، ومع ذلك فإن «واحدة» قد تقرأ أيضاً بالنصب، وهى قراءة متواترة، بإضمار الفعل ،بمعنى: فانكحوا واحدةً، وهو أمرٌ من الله تعالى وجوبى كأوامره بالصلاة والصيام والزكاة والحج إلخ.



١٦٩١. «عدل الزوج فيما يكون؟»

العدل من مقتضيات الزوجية، وهو أوجب إنْ عدّد الزوج زوجاته، والعدل فى الزوجية يكون فى خمسة أمور: الميل، والمحبة، والجماع، والعشرة، والقَسْم، ومن العدل لذلك أن يكون الزواج من واحدة كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(النساء٣)، ونفت الآية ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ (النساء١٢٩) إمكان العدل بين الضرائر ومع تعدد الزوجات، فيتأكد أن الزواج من واحدة هو العدل الأمثل؛ ونفت الآية بالكلية إمكان العدل بين أكثر من واحدة، لميل الطبع إلى واحدة دون الأخريات، وللمحبة لواحدة أكثر من الأخريات، وللرغبة فى جماع هذه وليس تلك، ولحظ إحداهن من القلب، والناس بُحكم تكوينهم النفسى لايملكون ميل قلوبهم، وكان الرسول ﷺ يقول: «اللهم هذه قسمتى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» أخرجه أبو داود، فعلى المتعدّد أن يحذر أن يجور أويحيف، وفى الحديث: «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقّه مائل»، والعدل مطلوب إطلاقاً مع كل الناس، وفى كل الأمور، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ (النساء١٣٥) فإن اتباع الهوى مُردٍ، واللىّ والإعراض فى الزواج من أشرّ المعاملات للزوجة. وفى الخبر أن

أمرأة أتت إلى عمر بن الخطاب تشكو إليه زوجها، قالت: يا أمير المؤمنين! إن زوجى يصوم النهار، ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله. فقال لها: نِعْم الزوج زوجُك! فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب. فكان الصحابى كعب الأسدى حاضراً، فقال له: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها فى مباعدته إياها فى فراشه! فطلب إليه عمر أن يقضى فى أمرها، فقالت المرأة:

يا أيها القاضى الحكيم رَشَدُهْ ∴ ألهىَ خليلى عن فراشى مسجدُهْ
زهّده فى مضجعى تعبُّدُهْ ∴ فاقضِ القضا كعْبُ ولا تُرَدَّدُهْ
نهاره وليله ما يرقُدُهُ ∴ فلستُ فى أمر النساء أحمدُهْ

وكان زوجها قد استدعوه فحضر واستمع لشكايتها فقال:

زهّدنى فى فَرْشها وفى الحَجَل ∴ أنى امرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النحل وفى السبع الطُّوَل ∴ وفى كتاب الله تخويفٌ جلل

فقال كعب:

إنّ لها عليك حقاً يارجل ∴ نصيبُها فى أربع لمن عَقَل
فأعطها ذاك ودَعْ عنك العلل

والحجَل: بيت العروس المزيّن؛ والسبع الطُّوَل فى القرآن: سُوَر: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة باعتبارهما سورة واحدة، وقيل السابعة يونس. وقال كعب: إن الله أحلّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربّك. وفى مثل ذلك روى أنس: أن النبىّ ﷺ أتته امرأة تستعدى زوجها، فقالت: ليس لى ما للنساء؟! زوجى يصوم الدهر! قال: «لك يوم وله يوم، للعبادة يوم وللمرأة يوم»، وفى معناه قال لعثمان بن مظعون: «إن لأهلك عليك حقاً» أخرجه البخارى.

●●●

١٦٩٢. ﴿انتفاء العدل مع تعدد الزوجات﴾

العدل بين الزوجات عند تعدّدهن مستحيل، وفى الآية: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء١٢٩)، أن أشد الظلم الذى يمكن أن يقع على المرأة أن ينعزل الزوج تماماً عن زوجته ويؤثر الأخريات، وهذا هو معنى «كل الميل». والنهى عن «الميل كل الميل» هو طلبٌ للمساواة بقدر الوسع بين الزوجات، وعدم تعمّد الإساءة إلى أى منهن. و«المعلّقة» اصطلاح قرآنى محض: وهى المرأة، لاهى مطلّقة، ولا هى ذات زوج، تشبيهاً لها بالشىء

المعلّق، لا هو على الأرض استقر، ولاعلى ما علّق عليه انحمل. وفى حديث أم زرع فإن المُعَلّقة كالمسجونة، نعوذ بالله من ذلك! والآية نهيٌ صريح عن الزواج بأكثر من واحدة، لأن من لايعدل بينهن يصبح ظالماً، وفى الظالم قال تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان١٩).

●●●

١٦٩٣. ﴿القسم بين الزوجات﴾

القَسْم هو التقسيم ، والقسم بين الزوجات هو العدل بينهن، بمعنى أن يتساوين فى نصيب كل واحدة من الزوج، بقوله تعالى : ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾(المائدة٨)، والقسم بالعدل مستحيل: كقوله تعالى : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء١٢٩). والعدل بينهن يمكن أن يكون فى المبيت، وفى السكنى، والنفقة، والصّحبة، فهذه أربعة أقسام، وينتفى فى المحبة، فيُؤثَر لذلك الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، كقوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء٣) ، فإن تزوّج الثانية فلابد من القَسْم بينهما، فلايجوز أن يبتدىء بواحدة منهما إلا بقُرعة، فإن كانتا اثنتين كفته قرعة واحدة، ويصير فى الليلة الثانية إلى الزوجة الثانية بغير قرعة، فإن كن ثلاثاً أقرع فى الليلة الثانية، وإن كن أربعاً أقرع فى الليلة الثالثة، وإن شقّ عليه القسم فى مرضه، فله أن يستأذنهن فى الإقامة عند إحداهن. ويجوز أن يتْبِع الزوج النهار فى القسم تبعاً لليل. والأولى أن يكون لكل واحدة منهن مسكنٌ يأتيها فيه. ومن العدل أن يقضى ما يفوت على الزوجة من حقها فى القسم، ويأثم إن دخل على إحداهن فى غير ليلتها، إلا إذا دخل عليهن مثل ذلك وساوى بينهن وكان الرسول ﷺ يفعل ذلك. وعلى الزوج أن يعدل بين الزوجتين فى بلدين، فيقيم عند كل واحدة مثل الأخرى. ويصحّ أن تهب إحداهن حقّها من القسم لأخرى، وقد قسمت سودة يومها لعائشة؛ ويقسم الزوج للزوجة الجديدة سبعة أيام إن كانت بكراً، وثلاثة إن كانت ثيّباً، فإنْ شاءت الثيب سبعة أيام، فعليه أن يقضى للأخريات بعدها سبعة سبعة، وحُكم السبعة أو الثلاثة التى يقيمها عند الجديدة، هو حكم سائر القسم فيكون ليلاً، والنهار لمعاشه، ويُكره للرجل أن تُزفّ إليه امرأتان فى ليلة واحدة. ولايجوز سفره مع إحداهن إلابالقرعة.

●●●

١٦٩٤. ﴿قوامة الرجال على النساء ومتى تسقط؟﴾

القوامة فى الآية : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(النساء ٣٤) هى التكفُّل بالأمر، يقال قوّام، وقيّم، أى الذى يقوم بكل شىء.

وقيل: الآية نزلت في سعد بن الربيع، نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير، فلطمها، فقال أبوها: يارسول الله أفرشته كريمتي فلطمها، فقال الرسول ﷺ : «لتَقْتصَّ من زوجها»، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال رسول الله ﷺ «ارجعوا، هذا جبريل أتاني»، فأنزل الله هذه الآية، فقال عليه السلام : «أردنا أمراً وأراد الله غيره» أو قال :«أردتُ شيئاً وما أراد الله خيرٌ» ونُقض الحكم الأول. وقيل الآية نزلت في جميلة بنت أبيّ، وفي زوجها ثابت بن قيس بن شمّاس؛ وقيل نزلت في عُمَيْرة بنت محمد بن مسلمة وفي زوجها سعد بن الربيع. وأياً كان من نزلت فيه أو فيهما، فإن المعنى المستفاد: أن الرجال هم الأعرف بنسائهم، وأن منزلتهن عندهم يحددها احترامهم لهن ولدورهن في الأسرة، وعليهم أن يعدّوا لهن المنزل اللائق، وأن ينفقوا عليهن بحسب القدر الاجتماعي لكل واحدة، وبحسب وُسع الرجل على النفقة، اعتماداً على أنه في المجتمع زمن الرسول ﷺ كان الرجل هو الذي يعمل خارج البيت، وهو الذي يكسب المال، ومن ثم عليه أن ينفق على زوجته لاحتباسها عنده، ولتوفرها على عياله لتربيتهم. والمفترض أن الرجل أكثر تدبيراً، وأقدر على التصرف، وأحسم للأمور، على عكس المرأة فإن فيها طراوة ودعة، ولا تسعفها خبرتها المحدودة بالحياة والناس، فهذا هو الشأن مع الرجل والمرأة إجمالاً في كل الأديان والملل والمذاهب، وفي علم النفس والطب النفسي، وفي مواقف الحياة على مرّ التاريخ . غير أننا حيال هذه الوقعة التي نزلت الآية بسببها نجد أن والد المرأة يقرّ أمام الرسول ﷺ أن ابنته افترشت زوجها، يعني اعتدت عليه، وألقته أرضاً ووطأته،أو أنها أساءت القول فيه، فذلك إذن سبب لطمه لها. وبصرف النظر عن أنه زوجها فمعاملتها له بهذه الطريقة توجب القصاص منها، ناهيك عن أنه زوجها، ولو كانت احترمته لما لطمها. والقوامة ليست كما في القصة ضرباً وسوء معاملة، وإنما عللتها الآية بما فضل الله الزوج من صفات وأخلاق وفضائل، ولأنه هو القيم على البيت وينفق عليه. واستنبط البعض من قوله تعالى «بما فضل الله بعضهم على بعض» أن الرجل إذا لم يكن يفضُل المرأة علماً وأدباً وحكمة فلا قوامة له؛ ومن قوله تعالى:«وبما أنفقوا من أموال» أنه متى عجز الرجل عن إعالة بيته وامرأته لم يكن قوّاماً عليها ويجوز لها فسخ زواجها به، وقد ثبت فسخ النكاح لعدم التكافؤ، لرجاحة عقل المرأة وسعة الرجل وحمقه، وثبت الفسخ كذلك عند الإعسار بالنفقة والكسوة،وإذا كان الزوج غير أمين على زوجته، ويضربها، وتتضرر من عشرته. وهذا إذن هو معنى القوامة وحدودها، فمن فَهم منها أنها ضرب المرأة بحجّة تأديبها، أو ليحبسها في البيت لا تبارحه، أو لتطيعه حتى في المعصية، أو أن يسيء عشرتها ويتزوج عليها ضرّة واثنتين ويساكنهما معها، أو أن يكون من مدمني الخمر أو القمار أو المخدرات،

أو أن يكون كذوباً شرساً مفحشاً اعتاد السرقة والزنا والنمّ إلخ، فإنه لاقوامة لمثل هذا ويتوجب فسخ زواجه بها فوراً.

●●●

١٦٩٥. ﴿المرأة الصالحة كالرجل الصالح سواء بسواء﴾

من المحددات لعلاقة المرأة بالرجل بحسب القرآن الآية: **﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾**(النساء٣٤) ، فبعد أن جاء في الآية قبلها أن الرجال قوّامون على النساء، وقيدّ هذه القوامة **بالفضل والإنفاق**، وصف المرأة الصالحة بأنها التقية النقية، التى تقوم بحق بيتها، وتحفظ على زوجها ماله ونفسها في غيبته. وفى الحديث «**خير النساء التى إذا نظرتَ إليها سرَّتك، وإذ أمرتها أطاعتك، وإذا غبتَ عنها حفظتك فى نفسها ومالك**»، **والطاعة**: هى التوافق فى الحق والخير، وبالصدق والعدل، وليست الطاعة كطاعة الأَمَة لسيدها. والتوافق **adjustment** : اصطلاح علماء النفس، وهو أن يكون ما يريده أحدهما، وما يفهمه، متمشياً مع مطلوب الآخر وفهمه، وذلك نفسه هو مضمون الآية: **﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**(البقرة٢٢٨)، فإن تزيّنت له فهو يتزّين لها، وإن سرّته بهيئتها وكلامها، سرّها بما يبهجها منه، وأحسن لها القول إلخ،وبقدر ما يقدّم أحدهما يكون ردّ الفعل عند الآخر.

●●●

١٦٩٦. ﴿معنى أن تكون المرأة ناشزاً وعلاج النشوز؟﴾

النشوز: هو العصيان، مأخوذ من النَّشْز وهو ما ارتفع من الأرض، يقال: نشز الرجل ينشز، إذا كان قاعداً فنهض قائماً، ومنه قوله: **﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾**(المجادلة١١) أى قوموا للحرب أو أى أمر من الأمور ، وفى الآية: **﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾**(النساء٣٤)، أى اللاتى تخافون عصيانهن،والنشوز بين الزوجين كراهية كل منهما للآخر، يقال نشزت المرأة وتنشز، فهى ناشز بدون هاء؛ ويقال نشزت ونشصت بمعنى واحد، **والناشز والناشص**: هى سيئة العشرة، والتى تُسْتَصْعَب على زوجها، وإذا أساء الزوج معاملته لزوجته فهو ناشز، لأنه قد نشز عليها، كأن يضربها أو يجفوها. **وعلاج المرأة الناشز** طبقاً للقرآن، أولاً أن توعظ، أى تُذكّر بما أوجب الله عليها، من حُسن الصحبة وجميل العشرة لزوجها، فإن استمرت فى غيّها، **هجرها فى المضجع**، وإن كان ينام معها فى نفس الحجرة، وعلى نفس الفراش، إلا أنه يقاطعها، وينأى عنها، ويتباعد، فإذا كانت

تحبه فقد تراجع نفسها وتبادر إلى مصالحته، وإن كانت مبغضة له فإنها لا تبالى، ويتوالى نشوزها. وأخطأ من فسرّ «اهجروهن» من «**الهُجْر** وهو الفاحش من القول، أى يُغلظ عليها ويسبّها ويغصبها على مضاجعته ، وهو أشنع ما يمكن أن تُؤذَى به المرأة، لأن المضاجعة إذا كانت قسراً، كانت كأنما يغتصبها، وهذا التفسير يخالف روح الإسلام والسُّنّة. وتجربة الهَجْر، لو دخل فيها الزوجان، فلا يجب أن تستمر لأكثر من **شهر**، كما فعل النبىّ ﷺ حينما هجر زوجاته لمّا تظاهرن عليه، وإذا لم ينفع **الهجر** واستمرت فى النشوز والإساءة إليه، فله أن يلجأ إلى **الضرب**، ولكنه الضرب الذى يذكّرها به وليس الذى يرتكب به جُرْماً يمكن أن يُحاكَم عليه، وقد عرّفه النبىّ ﷺ فقال إنه **ضربٌ للأدب غير مبرِّح**، لايستحدث تلفاً، ولا يكسر عظماً، ولاحتى يؤذى جسماً، وليس منه أى ألم للبدن، ويكون **كالصدمة النفسية** للزوجة، كأن يلكزها، لأن هذا الضرب **ليس للانتقام** ولكنه **للصلاح**، وما من صلاح يُرجَى بضرر أو أذى؛ فإن انصلح أمر الناشز وفاءت إلى رشدها فيتوجب أن يكف الزوج عن التجنّى عليها **قولاً وفعلاً**، فلا يظلمها اعتماداً على قوته وتفوّقه البدنى، لأنه إن كان هو الأقدر على ردّ الإساءة، فليتذكر **قدرة الله**، وأنه لايحب الظالمين، فلايستقوى زوج على زوجته، **فالله** بالمرصاد. والزوجة الناشز لاحقوق لها عند زوجها، وتسقط نفقتها إلا نفقة عيالها وحضانتها لهم، فإن رجعت عن نشوزها عادت حقوقها.



١٦٩٧.﴿كيف يُباح ضَرْبُ الزوجة فى الإسلام﴾

جاء هذا المعنى صريحاً فى حديث عمرو بن الأحوص: أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فذكر حديثاً طويلاً فيه: «**فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرِّح**»، والحديث أخرجه أصحاب السنن، وصحّحه الترمذى شرحاً لقول الله تعالى: **﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾**(النساء٣٤). وفى الحديث الآخر عن معاوية بن حيدة، جاء فيه عن النبىّ ﷺ : «**ولاتضرب الوجه**» فخصّ الوجه لأن فيه كرامة الإنسان وهو ذاته. وفى الحديث عند عبدالرزاق عن **عائشة** قال: «**أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يُضرب العبد! يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره**»؟! وفى حديث لقيط بن صبرة لما اشتكى له بذاءة لسان زوجته قال له: «**طلقّها**»، فقال: لقيط: إنّ لى منها ولداً! قال: «**فعظْها، فإنْ كان لك فيها خيرٌ فستفعل . ولا تضرب ظعينتك كضربك أَمَتك**» أخرجه الحاكم، يعنى **الوعظ** أولاً، وإلا **فالطلاق** ، ولا تُضرَب الحرائر . وضربُ **الزوجة هو الضرب غير المبرِّح**» يعنى للتقريع، أو

كالتقريع ؛وقيل يضربها الرجل بما يعادل ضربة السواك، فليست المرأة أَمَةَ وإنما هى زوجة وإنْ أخطأت، وحتى الإماء لم نُأمر بضربهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، والأحرى بالمسلم إذن أن لا يقرب الضرب بتاتاً إلا فى الفاحشة المبينة نفثاً لغيظه، وحينئذ فقط قد يكون الضرب كالعلاج النفسى للمضرور.وفى الحديث لم يقل الرسول ﷺ امرأتك بل قال: «ظعينتك»، والظعينة هى السيدة ذات الخدر، تلزم بيتها وتتعهده كالتى تلزم هودجها وخباءها، ومثلها لا يُضرب. والإسلام يستبعد وقوع الضرب إطلاقاً، المبرِّح وغير المبرِّح، من المسلم التقىّ العاقل، وكما فى الحديث: لايُعقل أن يضرب الرجل امرأته أول النهار ثم يجامعها من بقية يومه أو ليلته! والمجامعة أو المضاجعة تستحيل إلا مع ميل النفس والرغبة فى المعاشرة وإلاّ فهى اغتصاب، والاغتصاب زنا فى الإسلام، ومن دأب المضروب أن ينفر من ضاربه ويدعو عليه ويضمر له الكراهية. وقد جاء النهى عن الضرب بالكلية فى الحديث عن إياس بن عبد الله بن أبى ذُباب، قال: «لاتضربوا إماء الله» ، يعنى سواء منهن الحرائر وغير الحرائر، فجاء عمر فقال: قد ذَئِر النساء على أزواجهن»، فأذن النبىّ لهم أن يضربوهن وإنما ضربٌ غير مبرِّح، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يتشكين ضرب أزواجهن، فقال: «لقد أطاف بآل رسول الله ﷺ سبعون امرأة كلهن يشكين أزواجهن، ولاتجدون أولئك خياركم» ، وقوله: «ذَئِرَ» معناه غَضِب واستَبّ؛ وقوله « ولاتجدون أولئك خياركم»، يعنى أن الذين يلجأون للضرب ليسوا من خيار الناس، وهم السفلة وأهل السوء،ونساؤهم منهم، والله تعالى يقول : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ**﴾ (النور٢٦)، يعنى الكلام والفعل الخبيث أنسب للخبيثين والخبيثات من الناس، وكذلك الخبيثات من النساء أليَق بالخبيثين من الرجال، والضرب والتَسَابُ يلائم هؤلاء وهؤلاء، وأما الطيبّون والطيبّات فأولئك مبرّأون من مثل هذه الدنايا، وأمّا أن يضرب رجلٌ مؤمنٌ زوجته المُحصَنة المؤمنة فهو من المحرّمات، والذى يلجأ إلى الضرب مع من لاتستحقه فالشرع يحميها منه، ولها القَوَد، أى أن يؤخذ منه القصاص، والله تعالى له بالمرصاد، كقوله تعالى :﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ**﴾(النور) ، وقوله: ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾(المائدة١٠٠) ، وأما الطيبون فأولئك الذين قال تعالى فيهم: ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾(الحج٢٤)، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة، فبرواية الطبرانى عن عائشة :«أن رسول الله ﷺ ما ضرب امرأة من نسائه قط»، وبرواية أحمد عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ يجزى بالسيئة مثلها، يعنى لايعاقب بالضرب أو السبّ .ومقصود آية ضرب النساء:﴿**وَاضْرِبُوهُنَّ** ﴾ (النساء٣٤) لأمر يتعلق بمعصية الله،وأما

لغير ذلك فالضرب مجلبة للنفرة المضادة لحُسن العشرة المطلوبة في الزوجية، لقوله تعالى **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** (النساء١٩)، ولقوله تعالى: **﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾** (النساء١٩) أي لاتضاروهن في العشرة. وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «**واستوصوا بالنساء خيراً**». وفي الحديث عند أحمد قال: «**المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وهو يُستمتع بها على عوج**»، يعني أن المرأة بها ضعف، فإن أنت تزوجتها فخذها على ضعفها، وتعامل معها كما هي، وعليك واجب تصحيح مفاهيمها وأسلوب تعاملها مع الناس، وإنما بالمعروف وباللطف، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ عن جابر أنه قال في حجة الوداع: «**واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عَوان**» أخرجه مسلم، وقوله **عَوان** (بالفتح) أي شريكات ومساعدات صارت لهن الخبرة بالعشرة، وأصبح لهن الإعزاز والتكريم فلايُضربن. وقوله تعالى في سورة النساء: **﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾** (٣٤) تهديدٌ للرجال إذا بغوا على زوجاتهم بالضرب، فإن الله العلي الكبير وليّهن، وهو المنتقم ممن يظلمهن ويبغي عليهن.

•••

١٦٩٨. ﴿الضرب لم يأمر به الله في كتابه إلا في الحدود العظام﴾

لم يأمر الله تعالى **بالضرب المُبَرِّح** إلا في الحدود العظام، فقال: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾**(النور٢)، وقال: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾**(النور٤)؛ وأما **ضرب الزوجة الناشز** فقال بشأنها: **﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾**(النساء٣٤) وفسّره النبيّ ﷺ فقال: «**اضربوا النساء إذا عصينكم في معروف ضرباً غير مُبَرِّح**» أخرجه أحمد، وسُئل ابن عباس في تفسير الحديث فقال: اضربوهن **بالسواك** ونحوه. يقصد أنه الضرب **المُذَكِّر**، الذي يلفت انتباه المرأة نفسياً، كأن **يلكزها** أو **يغمزها فتستصعب** ذلك على نفسها وعندئذ **قد** تُحقّ نفسها وينصلح حالها. ولنلاحظ أن هذا النوع من الضرب وكله **الله بالأزواج** وليس **بالقضاة**، ولم يجعل له شهوداً ولا بيّنات، أنتماناً من الله للأزواج على النساء. ولمّا ضرب ابن عمر زوجته سألوه عن السبب فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يُسأل الرجل فيم ضرب أهله**». ولربما يكون الأمر بإزاء هذه الحلول لعلاج الناشز، أنها حلول للاختيار من بينها بحسب مكانة المرأة الاجتماعية والثقافية، وبحسب عُمرها الزمني وشخصيتها. والمرأة رفيعة القدر، قوية الشخصية، المثقفة، والمرموقة، والتي تشغل منصباً، وذات الحسب والنسب، لزوجها أن يعظها ولا أكثر من ذلك. والزوجة العزيزة على أهلها، والتي نالت

قدراً من الثقافة، ولها عملها الوظيفى، فقد يزيد الزوج على الوعظ بأن يهجرها فى المضجع إذا كانت صغيرة السن لم تُصقلها التجارب، ولم تعلّمها الأيام، وأما السفلة من النساء، وهن الجاهلات المعروفات ببذاءة اللسان وانحطاط الأخلاق، واللاتى نشأن فى منابت السوء، فهؤلاء قد لايجدى معهن إلا الضرب، وربما الضرب المُبَرِّح أساساً. وفى الأمثال: أَدَبُ الرفيعة العَذْل، وأدب الدنيئة السَّوْط. والنبىّ ﷺ قد قصد هذا المعنى حتماً فى هذا الحديث الذى ينُسب إليه إن كان صحيحاً: «**رحم الله امرأ علّقَ سوطه وأدّب أهله**»، قيل قصد به زوجة **أبى جهم** وكانت من هذا النوع الرذيل من النساء كأغلب زوجات العمال فى المدن الحديثة، فقال بشأنها: «**إن أبا جهم لايضع عصاه عن عاتقه**»، ومع ذلك فالحديث لايُلتفت إليه، ووُصف بالضعف وفى الشعر يقال:

الحُـــرّ يُلــحَـــى .·. والعصا للعبد

بمعنى أن الحُرَّة الأبية يكفيها اللوم، وأما التى لها نفسية الإماء فلا ينفع معها إلا العصا، كقول الشاعر:

واللوم للحرّ مُقيمٌ رادعٌ .·. والعبد لايردعه إلا العصـــا

•••

١٦٩٩. ﴿ماصحة الحديث فى المرأة تبيت مهاجرة فراش زوجها؟﴾

فى الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجىء، لعنَتَهْا الملائكة حتى تصبح**»، أو قال: «**حتى ترجع**»؛ والحديث خصّ الليل يدعوها فيه الزوج ـ بقصد **المضاجعة**، فماذا لو دعاها بالنهار؟ ألا تلعنها الملائكة إذا رفضت فى النهار؟ وفى رواية الأعمش للحديث قال: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجىء، فبات غضبان عليها..**» الحديث، بزيادة **فبات غضبان عليها**، أكد أن الدعوة فى الليل دون النهار. وفى قوله «**إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها**»، **والمهاجرة** على وزن مفاعلة، يعنى أنها اضطرت إلى هجر فراش زوجها، أو أنه هجره هو نفسه، فلماذا تكون عليها اللعنة وهى لاتستحقها؟ والغالب إذن أن ينصرف مقصود الحديث إلى أن تكون المرأة هى التى هجرت فراش زوجها ظالمةً له، ولم تستفصل من ذنبها وعندئذ تكون مستحقة للوم ومستوجبة للعن. ومع ذلك فإن الرسول ﷺ لايمكن أن يقصد إلى اللعن الحقيقى، ولايمكن أن نفهم من الحديث جواز لعن العاصى، وإنما اللعن هنا أراد به معناه اللغوى وهو الاستبعاد من الرحمة. ولايليق أن يُدْعَى باللعن على المسلم، وإنمايُطلب له الهداية والتوبة والرجوع عن المعصية. وربما يكون المراد المعنى العرفى للعن، يعنى مطلق السبّ، لعل العاصى

يرتدع به وينزجر. ومع ذلك فإن لعن الزوجة يجعلها غير صالحة من بعد كزوجة، ومن يقبل على نفسه أن يكون زوجاً لامرأة ملعونة؟ وفى الحديث أن الملائكة تلعن الزوجة لعصيانها لزوجها، فكأن هناك ملائكة قد أوكل إليهم ذلك. وفى رواية عن أبى حازم عن رسول الله ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها**». وعند ابن خزيمة وابن حبان عن جابر قال: «**ثلاثة لا تُقبل لهم صلاة، ولايصعد لهم إلى السماء حَسَنة: العبد الآبق**(أى الهارب) **حتى يرجع، والسكران حتى يصحو، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى**». وعند الطبرانى عن ابن عمر، قال: «**اثنان لا تجاوز صلاتهما رءوسهما: عبدٌ آبق، وامرأة غضب زوجها حتى ترجع**». ومضمون ذلك كله: **أن منع الحق أياً كان يوجب سُخط** الله، وللرجل حقوق قِبَل امرأته، وكذلك للمرأة حقوق قِبَل رَجُلها، ومن يضيّع منهما حقوق الآخر أغضب الله، وكنّى عن ذلك بقوله: «**لَعَنَتْها الملائكة**». وفى الحديث عند مسلم بدلاً من الملائكة قال«**الذى فى السماء**»، فحلّ الإشكال وفهمنا أنه الله تعالى وليس الملائكة. والحديث إذن يحذر الرجل والمرأة، كليهما، أن يستغضبا الله بتضييع الحقوق، وأخصّها حقوق الزوجية. والحديث فيه إرشاد للمرأة لمساعدة الزوج، وإفهام لها **أن صَبْر الرجل على ترك الجماع أضعف من صَبْر المرأة**، ومدارالحديث حول هجرة المرأة لفراش زوجها، أى **أنها الأقدر على الصبر على هذا الترك**. وفى الحديث أن أكثر ما يشوّش على تفكير الرجل ويمنعه طمأنينة النفس هو **داعى الجنس**، والرسول ﷺ كمشرّع يحضّ النساء على أن يتفهمن ذلك عن الرجال، ويراعينه فى معاملاتهن معهم، وفى أحاديث أخرى كثيرة يثبت أن **الرجال فى مسائل الجنس فى حاجة إليه أكثر من النساء**، وعن البخارى برواية أبى هريرة عن الرسول ﷺ قال: «**لاتصوم المرأة وبعلها شاهدٌ إلا بإذنه**»، والصوم المقصود هو **صَوْم التطوّع**، وهذا الحديث مرتبط بما قبله، فإذْنُ الزوج فى الصيام التطوعى ضرورى لزوجته لأنه سيحرمه حق المضاجعة فى النهار، والامتناع عن الزوج فى النهار كالامتناع عنه فى الليل، وإعطاء الإذن للزوج فى ذلك لايعطيه الحق فى التعسف وإساءة استخدام هذا الإذن لحرمان المرأة من أن تتعبّد إلى الله بالنوافل، ولايعنى استئذان الزوجة للصوم أنها تأتمر بزوجها، أو أنه يتسيّدها، والله تعالى يقول: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾(النساء٣٤)، **والقوامة** هى الرعاية لهن، والقيام بأمورهن، والتكفّل بشئونهن، ويقال للرجل أنه قوّام على المرأة، وهو أيضاً قيّمُ المرأة أى الحافظ عليها كقيمة فلا يبخسها قَدْرها، ولايُنقصها حقها. ولا تنعقد القوامة لمطلق الرجل، ولكنها تصحّ

بشرطيها، فأولا: بما يتميز به الرجل من رجاحة عقل، وصدق عزيمة، وخالص نية، وقوة إيمان، ونزاهة قصد، وثانياً: بقدرته على الإنفاق على زوجه وبيته وأولاده، فحينئذ تكون له القوامة. والقوامة تعنى أن المرأة إنْ لم تفهم ما يطلب منها رجُلها، فعليه أن يصبر عليها ويحاول إفهامها، وعليه توعيتها باستمرار، وأن يستشيرها، فالشورى مطلوبة فى كل اجتماع إنسانى، والعائلة أكثر ما تحتاج إليها، وآفة الشورى الجهل وسوء الفهم كما يقول الحكيم سقراط، والرجل عليه لذلك تقويم جهل امرأته إن تواجد، وتصحيح فهمها إن احتاجت إلى ذلك، وبذلك وحده تصير له القوامة عن حق، ويستحقها عن جدارة، وسيؤدى كلاهما ما عليه لله وللناس من حقوق بنفس سمحة راضية، وسينمحى الغضب والقهر، وكما يقول الرسول ﷺ: «النساء شقائق الرجال» يعنى يعدلنهم ويماثلنهم، والحقوق لكليهما متساوية، والواجبات متعادلة.

●●●

١٧٠٠. ﴿هل للمسلمة أن تراجع زوجها وتهجره كما يهجرها؟﴾

فى الحديث عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب فى مناسبة نزول الآية فى سورة الأحزاب: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(التحريم٤) قال: وكنا معشر قريش نغلبُ النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قومٌ تغلبهم نساؤهم، فأخذ نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار». والحديث فيه أن أدب المرأة مع زوجها يختلف باختلاف الأمصار والأزمان، فقد تغلب النساء الرجال، وقد تكون الغلبة للرجال على النساء. ويقول عمر: «فصَخَبتْ علىّ امرأتى فراجعتنى، فأنكرتُ أن تراجعنى، قالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبىّ ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل! يقول عمر: فأفزعنى ذلك، فقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، ثم جمعتُ علىّ ثيابى، فنزلت، فدخلت على حفصة، فقلت لها: أى حفصة! أتغاضب إحداكن النبىّ ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت: «نعم». وفى الحديث: أن نساء النبىّ ﷺ كن يهجرنه رغم أن الهجر ورد فى القرآن كمسلك للرجال إذا نشزت نساؤهن، ونساء النبىّ ﷺ كن يغاضبنه ولم يكن يجد عليهن فى ذلك.

●●●

١٧٠١. ﴿الهجران للرجل والمرأة فى البيت أو فى غيره﴾

فى الصحيح عن أم سلمة: أن النبىّ ﷺ حلف لايدخل على بعض أهله شهراً»، وعن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب سأل النبىّ ﷺ: أطلّقتَ نساءَك؟ فقال: «لا؛ ولكن

آليتُ منهن شهراً»، **والإيلاء** هو الهجران، وكان هجرانه لهن فى المسجد، غير أنه فى الآية: **﴿واهجروهن فى المضاجع﴾**(النساء٣٤) أن **الهجران لايكون إلا فى البيوت**، وأكد ذلك الحديث فى حقّ المرأة على الزوج، قال: «**يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، و لايضرب الوجه، ولايقبّح، ولايهجر إلا فى البيت**» . وعلى ذلك **فالهجران يمكن أن يكون فى البيت أو فى المسجد** كما فعل النبىّ ﷺ ، وفى غير ذلك يمكن أن تكون المجافاة فى المضاجع، وهجرة المرأة لزوجها، أو هجرته لها والإقامة فى البيت مع الهجران، آلم للنفس للزوجين معاً، وأوجع للقلب لهما بما يقع من الإعراض فى تلك الحال. والهجران فى غير البيت أخف ضرراً لما فى الغيبة عن عين أحدهما عن الآخر من التسلية لهما، وربما كانت آلم للمرأة لحاجتها أكثر إلى الصحبة والمؤانسة. والنبىّ ﷺ قد فعل الهجر خارج البيوت، فهجر نساءه كلهن إلى المسجد، وهجر ميمونة، وصفية، وعائشة، وحفصة، وسودة، كلاً فى غير بيتها. **والهجران** هو ترك الدخول على الزوج أو الزوجة، والبُعد عنها أو عنه نفسياً وبدنياً. وللهجران معنى ضمنى هو عدم المضاجعة والامتناع عن الجماع. والمستشرقون على القول بأن الهجران مشتق من **الهُجر** بضم الهاء، وهو الكلام القبيح، أى أن يغلظ أحدهما للآخر، ولكن ذلك المعنى ليس من الإسلام فى شىء، وقد نهى الرسول ﷺ عن الفُحش والتفحّش. وقال بعضهم **الهَجْر** مشتق من **الهِجار** وهو الحبل يُشَدّ به البعير، فيقال **هَجَر** البعير أى ربطه، فالمعنى يكون إذن أوثقوهن فى البيوت واضربوهن، ولكن الرسول ﷺ أثّم المرأة التى حبست هرّة، لا هى أطعمتها وسقتها، ولاهى تركتها ترعى حشاش الأرض، والمرأة إنسانة وليسَت هرّة!! فإذا كانت الهرة الحيوان لا تحبس فما بالك بالمرأة الإنسان!! وضربُ المرأة محظور **كضربٍ** وإنما بمعنى التنبيه، وحتى ذلك لم يرخّصَ للرجال إلا مع **الناشز**، وقصره **الله** على المؤمنين من الرجال، فهؤلاء وحدهم هم المعنيون بالخطاب، وهم المؤتمنون على موعظة الناشز. واستثنى **الله** من هذه المعاملة **الصالحات**. **والناشز** المقصودة بالهجران وغيره هى المتكبّرة على زوجها، المعرِضة عنه، المُبغضة الكارهة، والعاصية له، البذيئة اللسان، والمشاكسة، المشاغبة. وهجران المرأة للرجل إنما لمعاملة شبيهة، **والنشوز** يكون بالرجال كالنساء تماماً؛ **والناشز من الرجال** هو الفاسق الفاجر الكافر، يجافى طبعه العدل والحق والصدق، ولاتعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه، **كالفرعون** الذى سألت امرأته المؤمنة ربّها فقالت: «**﴿ربِّ ابنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ونجّنى من فرعون وعمله ونجّنى من القوم الظالمين﴾** (التحريم١١) .

●●●

١٧٠٢. «إذا استحال الصلح فالتفرقة بينهما أولى»

الصُّلح هو الحل الإسلامى للخلافات بين الأزواج، وهو أليق بالرجل، فأن يُراجع امرأته فهذا ما ينبغى عليه، فإذا استحال الصلح واستنفد طُرقه، فالتفرقة أولى، وليُحسن الطرفان الظن بالله، فقد يقيِّض لهما من بعد أن يفترقا من يكون أقدر على فهمهما ومعاشرتهما، بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ (النساء ١٣٠).

•••

١٧٠٣. «الزوجة فى الإسلام لا تطيع زوجها فى معصية»

المسلمة إذا دعاها زوجها إلى معصية فعليها أن تمتنع، فإنْ ضَرَبها لامتناعها كان عليه القَوَد أى القصاص منه، وعن الحسن البصرى قال: جاءت امرأة إلى النبىّ ﷺ تشكو أن زوجها لطمها لأنها رفضت تطيعه في معصية، فقال رسول الله ﷺ: «القَوَد» أو قال: «القصاص». وعن علىّ بن أبى طالب، قال: أتت رسول الله ﷺ امرأةٌ من الأنصار فقالت: إن زوجها فلان بن فلان الأنصارى ضربها فأثّر فى وجهها، وأنه كان يريدها أن تطيعه فى معصية، فقال رسول الله ﷺ: «ليس له ذلك». وفي موضوع الحديثين قالوا: إن الله تعالى أنزل الآية: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾، يعنى أن الرجل له القوامة، وعليه رعاية امرأته والقيام على مطالبها، والله تعالى اختصه بالقوة الجسمانية ليعمل ويكد وينفق على تنشئة عياله وتربيتهم، وسياسة بيته، وذلك معنى القوامة، فلايستخدم قوته البدنية ولا غناه المادى ليغصب زوجته على ما تكره وتعصى ربّها، والمرأة تطيع زوجها فقط إذا لم يكن فى طاعته ما يغضب الله، ونحن جميعاً نطيع من يقول الحق ويحكم بالعدل والصدق، ونسمع لما يقول ونعمل به، وأما أن يوعز لنا بمعصية فلا سَمْع ولاطاعة. والنشوز فى الزوجة يمكن أن يقابله نشوز فى الزوج، وإعراض أيضاً أى نفور، وفى الآية: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ (النساء١٢٨) أن الزوج يمكن أن ينشز، أى يستعلى ويتكبّر ويامر بالمعاصى، ويمكن أن ينفر عن زوجته بدون وجه حق. ولما قَدمت الأنصارية تستنصح رسول الله ﷺ فيما أمرها بها زوجها من وَصْل شعر ابنتها الساقط وفى ذلك غشّ لمن تتزوجه، قال لها: «لا، إنه قد لُعن الموصلات». ووصْل الشعر: هو أن تضع مكان المتساقط منه شعراً ليس شعرها، والمعنى أن ذلك من المعاصى فليس لها أن تطيع زوجها فيه.

•••

١٧٠٣. ﴿الجماع فى القبُل لا فى الدُّبُر﴾

فى الآية: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾(البقرة٢٢٢) تأكيدٌ على أن الجماع يكون فى القُبُل سبيل الحيض؛ «واعتزال النساء» يعني أن لايُجامعن أثناء الحيض: ثم يقول الله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة٢٢٣) فإذا تطهّرت المرأة من الحيض فتؤتَى فى موضع الحرث ، أى فى الفرج. وسبب نزول هذه الآية: أن المهاجرين كانت عادتهم أن يؤتوا النساء مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، بينما كان الأنصار يؤتونهن على حرف ، يعنى مضطجعات على الجنب، فلما تزوج المهاجرون من الأنصار رفضت نساؤهن أن يؤتين مستلقيات فنزلت الآية. وقيل إن المهاجرين كانوا يجبون النساء، يعني يأتوهن من الخلف فى الفرج وهن راكعات، فلم يعجب ذلك نساء الأنصار. والآيتان نصٌّ فى إباحة كل الهيئات فى الوطء طالما أنه فى موضع الحرث، وقوله «أنّى شئتم» يعنى: من أى وجه شئتم، سواء كانت المرأة مقبلة أو مدبرة. و«أنّى» تفيد الإخبار عن الجهة . غير أن جماعة من المفسرين . وفى الغالب من أصحاب الغرض ـ فسّروا «أنّى» بأنها «أين» ، واستخلصوا أن الوطء فى الدُّبُر مباح، ونسبوا ذلك إلى بعض كبار الصحابة، ومنهم مالك، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، وهو إفك وتخرّصٌ. ومن ذهب إلى هذا الرأى ربما كان يعانى من الشذوذ ويفعل ذلك هو نفسه، واحتجوا بالآية: ﴿**أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ**﴾ (الشعراء)، وفسّروها بأنه بدلاً من أن تلتاطوا بالذكران التاطوا بالنسوان، يعنى اجتمعوا بنسائكم فى الأدبار إن شئتم،وهو تفسير غير صحيح، فليس النهى عن الجماع فى الدبر مع الذكور، لأنه أراد أن يستبدله بجماع فى الدبر مع الإناث، وإنما أراد أن يستبدله بجماع فى الفرج، حيث الفرج هو المأتى الطبيعى للجماع والذى يكون إتيانه حرثاً، وهذا لايكون إلا فى الزواج، والفرج موضع إنزال المنى تشبيهاً له بالبذور تُحرَث لها الأرض، وعلى ذلك يكون الجماع مقصوراً على موضع الولد . والعرب يردّون الرَّتْقاء التى لايوصل إليها، والتى تشكو ضيق المهبل حتى ليستحيل على الرجل أن يأتيها، فلو كان الجماع ممكن فى الدبر بدلاً من الفرج لما ردّوا الرتقاء. وأيضاً لَمَا احتاج أحد أن يطلّق العقيم التى لا تلد. والحكمة فى الزواج إذن بث النسل ، ومن ثم لاينال النكاح غير موضع النسل. والوطء فى دبر المرأة يستوى فى الحكم والوطء فى دبر الذكران، بل إن القذر والأذى بموضع النجو ـ أى الدبر ـ أكثر من دم الحيض، ومن ثم يكون إتيان النساء فى الدبر أشنع، ولا يقال إن الفرج به قذر البول، لأن صمام البول غير صمام المهبل. والله تعالى حرّم الفرج حال النجاسة العارضة، فالأولى أن

يُحرِّم الدبر لأجل النجاسة اللازمة. والحرث في الآية لايكون إلا في موضع المنبت، والأحاديث كلها متواردة في تحريم إتيان النساء في الأدبار، وربما يكون البعض قد فعل ذلك مع الجوارى، ويقولون فيه «قد أحمَضَ بهن»، والتحميض اصطلاح جديد مجاله علم نفس الشواذ والطب النفسي، وليس له شبيه في اللغات الأجنبية، ومعناه الإتيان في دُبر النساء، وفي الحديث: «أيها الناس، إن الله لايستحي من الحق. لاتأتوا النساء في أعجازهن» وسمّاه ابن عمر فقال: «تلك اللوطية الصغرى»، وأحسب أنه سبق علماء الطب النفسي إلى هذا الاسم لذلك الاضطراب النفسي، يعني إتيان المرأة في دُبُرها، وكانت بداية قوم لوط إتيان النساء في أدبارهن، ثم صار إتيان الذكران في أدبارهم. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ (البقرة٢٢٣)، يعني أن يتجه تفكيرهم إلى نوع الجماع الذى يطلب الولد والنسل، وقيل «التقديم» هو النية الطيبة بإكثار أمة الإسلام بالأولاد الصالحين، فهذا ما ينبغي أن يتوخّاه «الجماع المنتج»، ثم يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (البقرة٢٢٣)، وفيه التحذير من أى جماع شاذ، ويقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾ (البقرة٢٢٣) مبالغة في التحذير، لأنه تعالى يجازى على البّر والإثم، وتختتم الآية بقوله «وبشّر المؤمنين» تأنيساً: لفاعل البِرّ ومبتغى سُنَن الهدى. والحمد لله رب العالمين.

●●●

١٧٠٤. ﴿الحداد واجب المتوفى عنها زوجها﴾

الحداد بكسر الحاء، هو اجتناب الزوجة المتوفَّى عنها زوجها للطِّيب، والزينة، والحلى كله حتى الخاتم، والبيتوتة في غير منزلها. ولا إحداد على غير الزوجات، ولا على المطلقة الرجعية، ولا المنكوحة نكاحاً فاسداً، ولا المطلقة البائن. ولايجوز للورثة إخراج الزوجة من مسكنها في الحداد أو في غيره، وإن طلبوا بيع المسكن وتقسيم ثمنه بينهم فلا سلطان لهم على نصيبها منه، باعتبارها أحد الورثة، وليس لهم إخراجها من مسكنها بأى حال من الأحوال طالما كانت تشغل العين وكانت لها الحيازة، ولايكون اعتداد المتوفى عنها زوجها إلا في مسكنها، ولها أن تخرج لعملها إن كانت تعمل، أو لقضاء حوائجها، وليس لها المبيت في غير بيتها، ولا الخروج ليلاً إلا لضرورة؛ وإن كانت على سفر ومات زوجها فالحكم في ذلك كالحكم في سفر الحج، فلها أن تمضى فيه وتكمله، وكذلك إن كانت في عمل؛ وإن كانت في زيارة فلها أن تستمر فيها لثلاثة أيام، وإن خافت الرجوع لسبب أقامت في مكانها تستكمل عدّتها، ويجوز لها أن تحرم بالحج أو بالعمرة في حدادها.

●●●

١٧٠٥. ﴿المسلم لايجبر زوجته على الخدمة﴾

في الأثر أن فاطمة بنت الرسول ﷺ لمّا طلبت تخصيص خادم لها لعجزها عن الخدمة في بيت زوجها، لم يجبرها النبيّ ﷺ على الخدمة، ولم يُلزم زوجها على التكفّل بذلك. والزوجان تلزمهما خدمة البيت الظاهرة والباطنة، أو أن تختص الزوجة بالخدمة الظاهرة، أي العمل في البيت، ويختص زوجها بالخدمة الباطنة، أي الإنفاق والإشراف المعنوي، والأمر في الإسلام على ما يتعارف عليه الزوجان من حُسن العشرة وجميل الأخلاق، ولاتُجبَر المرأة على شيء من الخدمة إن لم تستطع، وعلى الزوج مؤنة الزوجة كلها وبيته جميعه، وإذا كانت الزوجة ممن تُخدَم، يفرض الزوج النفقة لها ولخادمها.



١٧٠٦. ﴿أليس للزوجة في الإسلام حقٌ على زوجها؟﴾

في الحديث عند النسائي وابن خزيمة، عن سعيد بن منصور وأحمد من طريق مجاهد عن **عبدالله بن عمرو** قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب وكان يتعاهدها، فسألها عن بَعْلها فقالت: نعْمَ الرجل من رجل! لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتش لنا كَنَفاً منذ أتيناه!! قال: فوقع عليّ أبي: زوّجتك امرأة فعضلتها، وفعلتَ وفعلتَ وفعلتَ! ثم انطلق أبي إلى النبيّ ﷺ فشكاني، فذكر ذلك له، فقال النبيّ ﷺ: «**القني به**»، فأتيته معه، قال: «**ياعبدالله! ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل**»؟ قلتُ: بلىَ يارسول الله. قال: «**فلا تفعل! صُمْ وأَفْطِر، وقُمْ ونَمْ، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإنّ لزوجك عليك حقاً**».

وفي الحديث عن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده أنه سأل رسول الله ﷺ: **ما حق زوجة أحدنا؟** قال: «**أن تطعمها إذا طعمتَ، وتكسوها إذا اكتسيتَ، ولاتضرب الوجه، ولاتقبّح ،ولاتهجر إلاّ في البيت**» وقال ابن عباس: **إني لأحبّ أن أتزيّن للمرأة** (يقصد زوجته) **كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** (البقرة٢٢٨) ـ فكأن حقّها مادي في شقّ منه، ونفسي في الشق الآخر، وجُماع أمر الحياة الزوجية **التوافق، وحُسن الفهم، والاحترام المتبادل، وتوفير حاجة كلٍّ من أسباب الحياة** المُقَوّمة لجسمه وذهنه، والموفّرة لأمنه، والمُطمئنة لنفسه، وبذلك وحده تستقيم الزوجية. وحق الزوجة: هو مطلوباتها من زوجها. وفي الحديث عن عائشة لما شكت إليها **امرأة عثمان بن مظعون** انصراف زوجها عنها بالصوم والقيام، بعث له النبيّ ﷺ يسأله: «**أرغبتَ يا عثمان**

عن سُنّتى»؟ قال : لا والله يارسول الله، ولكن سُنّتك أطلُب! قال: «فإنى أنام وأصلى، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء! فاتقِ الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصُم وأفطِر، وصَلِّ ونَمْ» أخرجه أبو داود. وقوله «لأهلك» يعنى لزوجتك. وعند الدارمى عن عائشة قال: «خيركم خيركم لأهله» أى من لاخير فيه لزوجته فلاخير فيه للناس.

•••

١٧٠٧. ﴿إنفاق المسلم على زوجه واجب وصدقة﴾

فى القرآن: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾(البقرة٢١٩) ،وفى الحديث عن أبى مسعود الأنصارى: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنفق المسلم نفقةً على أهله ـ وهو يحتسبها ـ كانت له صدقه». وقال:«أن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس فى أيديهم. ومهما أنفقت فهو لك صدقة،حتى اللقمة ترفعها فى فىّ(فَمِ) امرأتك». و«العفو»: فى الآية ما فضل؛ و«الأهل» : هم الزوجة والأقارب. والذى ينفق على الأهل يُؤجَر على ذلك بحسب نيته وقصده، ولا منافاة بين أن يكون الإنفاق واجباً ويكون صدقة، والإنفاق على الأهل أفضل من صدقة التطوع. وقد سمّاه الرسول ﷺ «صدقة» خشية أن يظن الناس أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه، فعرّفهم أن الإنفاق على الأهل صدقة، حتى لايُخرجوا صدقاتهم إلى غير الأهل إلا إذا كَفُوا الأهل أولاً، فرغّبهم فى تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع. وهذا التراحم والتكافل فى الإسلام يختص به وحده دون سائر الأديان والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية. وعن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال: «وابدأ بمن تعول». ويقال فى العربية «عال الرجل أهله» إذا مانهم ـ أى قام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة وتعليم وسُكنى إلخ، وهى مسئولية الأب أن ينفق على عياله حتى يبلغ الذكر أو تتزوج الأنثى، ويلحق بالولد ولد الولد. وفى الإسلام نهى الله أن تضار والدة بولدها، بأن تقول الوالدة لن أرضعه، مع أنها الأمثل له غذاءً، والأشفق عليه، والأرفق به من غيرها، فليس لها أن تأبى إرضاعه بعد أن يعطيها الأب من نفسه ماجعله الله عليه لها من أجرة الرضاع كما فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾(الطلاق٦).

•••

١٧٠٨. ﴿نفقة الزوجة﴾

النفقة اسمٌ من الإنفاق، وهى ما تنفقه من المال، ومن ذلك نفقة الزوجة ونفقة الأولاد. ونفقة الزوجة واجبة على الزوج ولو كانت الزوجة غنية، كقوله :﴿فأنفقوا عليهن﴾

(الطلاق٦)، وعليه نفقة الولادة والمولود، كقوله تعالى: **﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾**(البقرة٢٣٢) ، وبسبب احتمال الزوج لمسئولية الأسرة والإنفاق عليها، كانت له قوامة البيت، كقوله تعالى: **﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾** (النساء٣٣)، وفى هذه الآية الأخيرة دليل على ثبوت فسخ النكاح عند **الإعسار بالنفقة**. وكان تمييز الرجال على النساء فى **الإرث** لما على الرجال من الإنفاق. **ومهر المرأة** من إنفاق الرجل، ونفقة الزوجة والأولاد مقدّمة على نفقة أقاربه. ولايوجب العقد بمفرده النفقة، وليس **للزوجة الناشز** نفقة، ولاتسقط النفقة بالمرض أو بالحيض. وإذا **سافرت الزوجة** بدون إذن الزوج تسقط نفقتها، وإن كان **سفرها لواجب** كالحج لم تسقط حيث لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وتثبت النفقة «**للمعتدّة من طلاق رجعى**» حاملاً كانت أو حائلاً، كثبوتها للزوجة لأنها بحكمها، ولا نفقة «**للمطلقة ثلاثاً**» وإنما للتى لزوجها عليها رجعة . والمعتدة من **طلاق بائن** لها النفقة إن كانت حاملاً، وأجلُها أن تضع حملها. و«**النفقة للحامل**» لا للحمل، لقوله تعالى: **﴿فَأَنفِقُو عَلَيْهِنَّ ﴾**(الطلاق٦) ، وقوله ﷺ : «**عليه نفقتها**». وليس «**للممتدة عدة الوفاة**» نفقة، حاملاً كانت أو غير حامل. وعلى زوج «**الموظفة**» نفقتها إن كان قد تزوجها وهو يعلم بوظيفتها، وليس له أن **يطالبها** بترك الوظيفة حتى لو زاحمت الوظيفة وواجباتها حقّه فيها، وإن كان قد اشترط فى العقد أن تترك وظيفتها فله الحق فى فسخ الزواج إذا امتنعت، وتسقط نفقتها لنشوزها. وتقدّر النفقة للزوجة باعتبار الوضع المادى للزوج لقوله تعالى: **﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ⑦﴾**(الطلاق٧). ومن النفقة السكن، كقوله تعالى: **﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾** (الطلاق٥)، وللزوجة **حق الاستقلال** بالسكن مع زوجها أو بدونه، لقوله تعالى: **﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾** (الطلاق٦). والمرجع فى تحديد النفقة **للعُرف. ومن النفقة : مصاريف الأطباء والدواء**، والحاجة إليها أشد من الحاجة إلى المأكل والملبس والإخدام؛ وعلى الزوج **أجرة التوليد، ونفقة النفاس**. وللزوجة الحقّ عند إنشاء عقد الزواج أن تطالب الزوج **بضامن يضمن نفقتها** المستقبلة فى حالة غيابه أو امتناعه عن النفقة عليها وعلى أولاده، ولايمنع الضمان كفاية وجود المقتضى وهو الزوجية مع عدم النشوز. وكما يجوز ضمان النفقة المستقبلة تجوز **المصالحة** عليها أيضاً بمبلغ معين يتفق عليه الطرفان، ويجوز إسقاطها بالمرة. وتُقضى نفقة الزوجة **كالدين**؛ ولا تجب التسوية ين **الزوجات** فى النفقة والكسوة لاختلاف حاجاتهن. **ولزوجة المفقود** النفقة حتى يتبين أمره؛ **والزوجة الذمية**

كالمسلمة فى النفقة والمسكن والكسوة إلخ. وللزوجة أن تأخذ من مال زوجها من غير إذنه ما يكفيها وأولاده إذا كان شحيحاً، وإذا أعسر الزوج بالنفقة فلها فراقه أو الصبر عليه، ولايجوز الفسخ إلا بحكم القاضى.

وتشمل نفقة الزوجة مصروف جيبها لشراء ما تحتاجه لنظافتها ولزينتها، وثمن أثاث بيتها مما يحتاجانه للنوم والجلوس إلى الطعام واستقبال الضيوف، ولايلزمه تمليكها مسكناً خاصاً، وعلى الزوج نفقة الخادم ومئونته إن كانت الزوجة معتادة على أن يخدمها الخدم. ويجب على الزوج إخراج زكاة الفطر عنها، وإن حملت من نكاح فاسد أو وطء شبهة فعليه نفقتها أثناء حملها، ولايجب عليه تأخير النفقة بأى حال من الأحوال.

•••

١٧٠٩. ﴿هل تستأذن المسلمة فى صيام التطوع؟﴾

مجتمعات المسلمين كأية مجتمعات متحضرة، للرجل وللمرأة أن يأذنا فى بيتهما بما يعرفان أنه لا اعتراض عليه من أحدهما، وفى الحديث عن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ، قال: «**لايحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلاّ بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلاّ بإذنه، وما أنفقت من نفقة من غير أمره فإنه يؤدَّى إليه شَطرُه**» .والحديث يبدو أنه يقيّد حقّ المرأة فى الصيام التطوعى، وحقّها فى أن تدعو إلى بيتها من ترى دعوته، وحقها فى الإنفاق مما يعطيها زوجها لبيتها وعيالها، ويبدو الحديث بخلاف المشهور من معناه، ففى الصيام ليس للزوجة أن تستأذن زوجها فى صيام رمضان، واستئذانه فى غير صيام رمضان يعنى «إعلامه» حتى لاينتهك صيامها ويفسده، ولايمكن أن يعترض زوج مؤمن على صيام زوجته فى التطوع، والصيام حتى بدون إعلام الزوج صحيح وليس بمحرّم، ومن قال بعدم جواز صيام الزوجة فى التطوع بغير أن يسمح لها زوجها، اعتسف وجارَ فى الحكم، وفى الصوم الحقوق ثلاثة: حق الزوجة أن تتعبّد، وحقّ الله أن يتُعبّد له، وحق الزوج أن يدرى بصيام زوجته ليضع ذلك فى حسابه فى معاملاته معها. ولايتفوق حق الزوج على حق الله، ناهيك عن أن من حقّ الزوجة أيضاً أن تكون لها ممارساتها الروحية وهى أعلى وأرفع من ممارساتها الدنيوية. ومن حُسن المعاشرة أن يُشجّع الزوج زوجته على التعبّد ويستحسن منها ذلك، ويوفر لها المناخ المنزلى والعائلى والمادى والنفسى لتفعله،ولايبدى الامتعاض وتظهر عليه الكراهية كلما قامت بصيام أو بصلاة تطوعاً. وللزوجة أن تؤدى غير الفرائض بغير إذنه، وعن الرسول ﷺ قال: «**كتاب الله أحقّ وشرطه أوثق**» رواه هشام بن عروة عن أبيه وأخرجه أحمد عن عائشة، ومن حق الزوجة أن ترتقى فى مدارج الاعتقاد والإيمان ، وأن تطور

منهجها في التعبّد والله تعالى قد خلقنا جميعاً لنعبده حُسْن العبادة، وخلق الذكر والأنثى ليعملا الصالح، ولايضيع الله عَمَل عاملٍ منهما، وقال: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾** (النحل٩٧)، وقال: **﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾** (غافر٤٠)، فلم يفرق بين ذكر وأنثى، ومطالب الإيمان واحدة عند الاثنين، وما من امرأة تتقي ربّها ويمكن أن تُغضب زوجها، كما أنه ما من رجل يتّقي ربّه ويمكن أن يستغضب زوجته، **والتقوى** انسجام وتناغم بين العبد والربّ، وبين العبد والناس، وبين العبد والوجود المادي، والكون بأجمعه. وقول رسول الله ﷺ «**إلا بإذنه**» يعني **إلا بعلمه**، والزوج العالِم يعلّم زوجته فرائضها ونوافلها، وفي حديث الواهبة لنفسها، زوّجها الرسول ﷺ **لمن يعلّمها القرآن**، وكان صداقها أن تحفظ عليه ما كان يحفظ من السُّوَر وأوصى الرسول ﷺ بالنساء خيراً، وقال: «**خيركم خيركم لأهله**». ومن أين يأتي الخير إذا فهمنا من حديث **استئذان الزوجة من زوجها في صيام** التطوع أنه يمكن أن يَرفُض؟! والحق أن الأمر في هذا الاستئذان تحصيل حاصل، وهو **مجرّد إعلام**، ولها من زوجها على الصيام كامل الموافقة والاستحسان.

وأما **الإستئذان من الزوج لمن يمكن أن تدعوه المرأة إلى بيتها** فذلك واجبٌ على الطرفين، ويرفع الشبهة، ويزيل سوء الفهم، وبه يكبر الرجل في عينيّ زوجته، وتزيد مكانة المرأة عند زوجها. وبيت المسلم **هو بيت زوجته** كذلك، وينُسب البيت إلى الزوجة أو الزوج بحسب مقتضى الكلام و إلا فالبيت بيتهما معاً، والله تعالى يقول: **﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾**(يوسف٢٣)، يقصد **بيت امرأة العزيز**، وكان يوسف في بيتها بإذن زوجها، وفي سورة النور الآية٦١ يقول**﴿بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾**، و**﴿بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾**، و**﴿بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾**، و**﴿بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾**، و**﴿بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾**، فنسب البيت إلى صاحبه ذكراً أو أنثى. وفي سورة الأحزاب في الآية ٣٣ قال تعالى: **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾** فنسب البيوت إلى النساء. وفي سورة الطلاق الآية ١ يقول الله تعالى: **﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾**، فالبيوت كما هي للأزواج فهي للزوجات، وإذا كان على الزوجين أن يستأذنا بعضهما كلما دعيا من يزورهما في البيت، فمن باب أولى أن المغيّبات ـ أي من غاب عنها زوجها ـ ليس لها أن تُدخل بيتها أحداً تعرف أنه يكره دخوله، وليس للزوج أن يستبقي مع زوجته في غيابه من لا ترضى، وقد تفتقر المغيبة إلى استئذان زوجها وتكون مضطرة أن تسمح بإدخال من تُدخل في حدود علمها برضا الزوج به، ولو علمت برضاه سلفاً فلا حرج عليها. وذلك واجب الزوج أيضاً حيال زوجته. وللزوجة أن تدخل **أباها** ونحوه بيتها بغير إذن زوجها لأن

ذلك من صلة الرحم. وتروى كتب السيرة أن حفصة بنت عمر زوجة الرسول ﷺ دخلت عليه فى بيتها ووجدت معه مارية القبطية دون علمها فاستعبرت وقالت: «والله لقد سببتنى» أى أهنتنى، «وماكنتَ لتصنعها لولا هوانى عليك». وترضاها رسول الله ﷺ حتى رضيت.

ويشمل التساوى فى الحقوق مجال المال، والزوجة لها أن تأخذ من مال زوجها بدون استئذانه ما يكفيها وأولادها، فلما جاءت هند زوجة أبى سفيان إلى الرسول ﷺ تشكو له بُخله عليها وعلى عيالها، قال لها: «خذى من ماله بالمعروف». ومن واجبات الزوج أن يأذن لزوجته صراحةً به، وإلاّ كان ذلك حقّها بالعُرف، وليس لها أن تزيد، وليس للزوج أن يأخذ من مال زوجته إلاما تسمح به نفسها. وإذا أنفقت الزوجة منفلها ذلك، وذمّتها المالية منفصلة. وفى الحديث الذى أخرجه أبو داود عن سعد قال: قالت امرأة: يا نبىّ الله! إنّا كَلٌّ على آبائنا وأزواجنا وأبنائنا، فما يحلّ لنا من أموالهم؟ قال: «الرُطَب تأكلنه وتهدينه»، والرطب هو أحسن ما فى البيت من الطعام، وعند الترمذى وابن ماجة عن أبى أمامة عن النبىّ ﷺ قال: «لاتنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلاّ بإذنه»، قيل: ولا الطعام؟ قال: «ذاك أفضل أموالنا»، فكل ما فى البيت هو ملك للزوجين وللعائلة، والإخراج منه ينبغى أن يكون بعلم الزوجين، وبسماحة نَفْسيهما، وبموافقتهما، وكانت عائشة ﷺ تهدى جاراتها فى السكن وتُؤذن النبىّ ﷺ بعد ذلك، وروى أبو ميسرة عنها أنها قالت للنبىّ ﷺ: أنهم ذبحوا شاةً، فقال النبىّ ﷺ: «مابقى منها»؟قالت مابقى منها إلا كتفها، قال: «بقى كلُّها غَيْرَ كَتفها»، أخرجه الترمذى. فهل كان من الممكن أن ينكر عليها ما فعلته من خير من نفسها؟!



١٧١٠. «هل للمرأة الحق أن تتصرف فى مالها؟» «وهل لها أن تتصدق من مال يعطيه لها زوجها؟»

هبة المرأة لأىّ مَن كان جائزة، ولها أن تتصرف فى مالها كما تشاء، وهبتُها من مال أعطاه له زوجها جائزة أيضاً، وفى الصحيح عن أسماء بنت أبى بكر زوجة الزبير، أنها سألت الرسول ﷺ، قالت: قلتُ يارسول الله، ما لىَ مالٌ إلا ما أدخل علىّ الزبير، افأتصدّق منه؟ قال: «تصدّقى، ولا توعى فيوعَى عليك»، يعنى لا تكتنزى المال وتبخلى بالنفقة. وفى رواية أخرى قال: «أنفقى، ولاتُحصِى فيُحصِى الله عليك، ولاتوعى فيُوعِى الله عليك». وأعتقت ميمونة زوجة النبىّ ﷺ جاريتها ولم تستأذنه، وعمل الخير لايُستأذنَ فيه، وحبذا لو

كانت الهبة أو العطية لذى رحم، فعن سلمان بن عامر الضبى مرفوعاً أن النبىّ ﷺ قال: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة**». ولم يثبت عن الرسول ﷺ قول الفقهاء أن الهبة لاتجوز من المرأة إلا فى الشىء التافه أو اليسير!! ولا قولهم أنه لايجوز لها أن تعطى بغير إذن زوجها ولو كانت رشيدة إلا من الثلث، وأما حديث رسول الله ﷺ عن عمرو بن سعيد عن أبيه عن جدّه: «**لاتجوز عطية امرأة فى مالها إلا بإذن زوجها**» فمردودٌ عليه بأن المرأة المقصودة هى غير الرشيدة، فكما ترى: **فإن المرأة الرشيدة العاقلة لها مطلق الحرية أن تتصرف فى مالها وفى مال زوجها كيف شاءت. فهل يقال بعد ذلك إن الإسلام يعادى المرأة؟ وأن القرآن كتابٌ أُنزل من أجل الرجال دون النساء؟** مع ملاحظة أن أحاديث الرسول ﷺ فى صدقة المرأة جميعها من وحى القرآن.



١٧١١. ﴿هل للمرأة أن تهدى من مالها أو مال زوجها؟﴾

نعم لها ذلك، ففى الصحيح عن عائشة أنها سألت الرسول ﷺ: إن لى جارين، فإلى أيهما أهدى؟ قال: «**إلى أقربهما منك باباً**»، يعنى: **أنه لم يكن ضد مبدأ الإهداء**. وفى الصحيح كذلك عن ابن عباس: أن ميمونة زوج النبىّ ﷺ أعتقت وليدة لها، فقال لها: «**ولو وَصَلْتِ أخوالك كان أعظم لأجرك**»، والوليدة هى الجارية، **فلم ينكر عليها أن وهبت من مالها أو ماله، ولكنه أعرب لها عن تفضيله أن تكون الهبة أو العطية للأقارب المحتاجين**، وبذلك تكون صدقةً وتكون صلة رَحِم، والقريب أوْلى من الغريب. وفى كل الأحوال **للمرأة الرشيدة حقّ التصرف فى مالها ومال زوجها** الذى وهبه لها أو أعطاها حقّ التصرف فيه. وكانت عائشة ؓ تُعير ثيابها الغالية للعرائس يلبسنها فى أعراسهن، ولم تكن تستأذن رسول الله ﷺ، وتصدّقت بُربع الشاة قبل أن تعلمه، فامتدحها وأثنى عليها!!!



١٧١٢. ﴿مسئولية الزوجة كمسئولية الزوج سواء بسواء مع مراعاة التخصص﴾

فى الصحيح عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته**». والراعى هو كل من وَلِىَ أمراً، يديره، ويسوسه، ويحافظ عليه، ويذود عنه، ويتدبره، ويفكر فيه. **والرعاية** هى عمل الراعى، يقوم به بحسب تخصّصه وثقافته وتعليمه وخبرته، وبحسب مقتضيات ما يقوم به من العمل، وبحسب أصوله، ويظل يروضه ولايهمله، ولايؤخره، ولايتكاسل ولايتوانى عنه، ويشرف عليه ولايتراخى

فى إشرافه، ويجدّ فيه ويتعب، ولايملّ ولايكلّ. والراعى فى بيته هو الزوج عملهُ رعاية أهل بيته، كرعاية الأمير لرعيته، وكذلك المرأة، مناط رعايتها بيتها وأولادها، ومسئولية الزوج كمسئولية الأمير، وكذلك المرأة، وكل إنسان فى عمله هو الراعى أى المراقب لله، يتّقيه فيما أوكله عليه وعهد له به.



١٧١٣.﴿المسلم يعين زوجته فى البيت﴾

فهكذا علّمنا الرسول ﷺ، فعن عائشة زوجته ﷺ، لمّا سئلت عمّا كان يصنع فى البيت، قالت: كان يكون فى مهنة أهله، يعنى فى عونهم، يساعدهم ويبذل جهده فيما يتقن ولايتقنون، ولم يكن يُدفع على ذلك وما كان يرفضه أو يتأبّاه.



١٧١٤.﴿العشرة بين الأزواج﴾

العشْرة: هى الصُحبة، والعشير هو الصاحب، كقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ (الحج١٣)، وهو فى الآية: الزوج، من المعاشرة، كقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء١٩)، والمقصود بالمعاشرة: الزوجية، وأما المعروف فى العشرة: فهو أن يوفّى الزوج حقّ زوجته من المهر، والنفقة، وألاّ يعبس فى وجهها بغير ذنب، وأن ينطلق فى القول، لا فظّاً، ولا غليظاً، ولامُظهراً ميلاً إلى غيرها، لتكون الأُدْمة - أى الصحبة - بينهما، على الكمال، فإنّ توافُقَ الزوجين أهدأ للنفس، وأهنأ للعيش، وعليه أن يتصنّع لها وتتصنّع له، وكان ابن عباس يقول: إنى أحب أن أتزيّن لامرأتى، كما أحب أن تتزين امرأتى لى». وعلى المرأة أن ترعى نفسها، وبيتها، وزوجها، وأولادها، وعليه إن كانت له امرأة ثانية أن يقسم بينهما بالعدل فى المبيت والنفقة، وليس له أن يترك وطأها لأكثر من أربعة أشهر، فإذا كان على سفر وغاب أكثر من ستة أشهر، فلها أن تطلب الطلاق، ويكره له أن يطأ ويعزل إلا عن ضرورة وبإذنها؛ وإذا خافت نشوزه وإعراضه عنها، لمرض بها، أو كِبَر، أو دمامة، فلابأس أن تضع عنه بعض حقوقها أو نفقتها، فإن رجعت فلها ذلك، وإذا ظهرت منها إمارات نشوز، فعليه أن يعظها، ويخوّفها الله تعالى، ويذكّرها بواجباتها، وما يلحقها من الإثم بالمخالفة، وما يسقط بذلك من حقوقها من النفقة، وما يباح له من هجرها. ولايجوز للزوج أن يقاطع زوجته أكثر من ثلاثة أيام، وليس له ضربها، ولاينبغى له أن يمنعها من الخروج لقضاء حاجاتها، أو عيادة والديها، أو حضور جنازة أحدهما، ولايجوز له أن يمنعها من المساجد، وعليه أن يحضّها على تعلّم القرآنّ، وعلى التعلُّم

عموماً، والمحافظة على الصلاة، وأن تغتسل من الجنابة، وأن تتوضأ كما يجب، وأن تراعي بيتها وأولادها وأهلهما وجيرانها، ومكارم الأخلاق، فإذا اختلفا واستحكم خلافهما فلهما التحكيم كقوله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا (٣٥)﴾**(النساء).

•••

١٧١٥. ﴿المسلمة حانية على أولادها حافظة لزوجها﴾

في الحديث عنه ﷺ لما سُئِل عن أفضل النساء؟ قال: «**أحناهن على ولد في صغَره، وأرعاهن على زوج في ذات يده**»، يقصد: أن الصالحة هي الحانية على أولادها، والراعية لمال زوجها. ولمّا تزوج جابر بن عبد الله، وكانت له شقيقات من والده صغيرات في السن، قال للنبيّ ﷺ: أنه اختار لنفسه زوجة ثيّباً تقوم عليهن وتصلحهن. واعتبر أفضل النساء هي التي تعينه على تربية إخوته، وإدارة بيته وماله، وتصل رحمه، وقال: إن جميل العشرة من شيمة الصالحات .

•••

١٧١٦. ﴿هل تسجد الزوجة لزوجها؟﴾

في الحديث عن سعيد بن المسيب عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها**» أخرجه ابن ماجة وأحمد. والحديث مناسبته أن معاذ بن جبل كان قد رأى الناس يسجدون لأساقفتهم في الشام، فودّ لو يفعل المسلمون ذلك للنبيّ ﷺ احتراماً وتبجيلاً، فذكر له ذلك فقال: «**لاتفعلوا، فإني لوكنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسُ محمد بيده لا تؤدي المرأة حقّ ربّها حتى تؤدّي حقّ زوجها، ولو سألها نفسها وهي على قَتَب لم تمنعه**» أخرجه ابن ماجة . والحديث يؤصّل لمبدأ التوافق بين الأزواج بالتراضي لا بالتنازع، وفي علم الاجتماع حيثما كان هناك اثنان، فأحدهما الغالب برجحان عقله أو بظهور علمه، أو بفاعليته ونشاطه وإيجابيته وفائدته للناس، ومن ذلك مجتمع الأسرة الصغيرة المؤلفة من الزوج والزوجة ـ وكلاهما سويّ، وأولادهما . والرجل الذي يُسجد له هو الذي يُكرم زوجته ويحترمها، ويرفع من شأنها وشأن أولاده، ويحضّها على البرّ وفعل الخيرات، وهو الرجل الذي يبذل وسعه من أجل إسعاد أسرته ورفاهيتها وخيرها في الدنيا والآخرة، فمثل ذلك يُبجّل ويُحترم ويُنزَل المنزلة الواجبة في نفس زوجته وأولاده. و«لو» في الحديث حرف امتناع، يعني: أنه لم يأمر المرأة أن تسجد لزوجها ، والرسول ﷺ لم تسجد له أية امرأة

من زوجاته، وينهى أن يسجد إنسان لإنسان. وفى الأحاديث عن «الرسول ﷺ فى بيته»: أنه كان فى خدمة أهله، وفى السيرة أنه ما ضرب أياً من زوجاته، ولا رفع صوته على إحداهن، ولا طلب من أيهن عُسرا، وكان يهش فى وجوههن، ويبتسم ويدعو لهن، وكان يخدم نفسه، ولم يُبد التأفّف يوماً من طعام، ولم يقبّح الوجه، ولم يَسُبّ. والمرأة المؤمنة تطيع رجلها، أى لا تتعاند مطالبها مع مطالبه، ولاتنشز عليه، أى لا تتكبر ولا تتجبّر، ولا تفحش معه فى قَوْل، ولا تعتدى عليه فى فعل، وتكون أمينة على بيته وماله وعياله، وتستأذنه فيما يعنّ لها، والاستئذان مشورة ونصح، وتحفظه فى شرفه، ولا تحمّله ما لا يطيق، وإذا دعاها لبّت لأنها تحبه وتميل إليه نفسها، فتُحسن معاشرته، وتقول له معروفاً، وهذا كله حق الزوج على زوجته ،ومثله حقّ الزوجة على زوجها، فعليه أن يحترمها، ولايسيء فهمها، ولايتعالى عليها، ويُحسن إليها ويكرمها.وفى الحديث عن أبى داود وأحمد عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه: أن رسول الله ﷺ قال: **«إئت حَرْثك أنّى شئتَ، وأطعمها إذا طعمتَ، واكسها إذا اكتسيت، ولاتقبّح الوجه، ولاتضرب»**، فبمثل ذلك تجود نفس المرأة أن تطيع زوجها، وأن تلبى دعوته لها ولو كان على ظهر بعير!



١٧١٧. ﴿مامعنى الوصية: لاتضع عصاك عن أهلك؟﴾

الحديث عند ابن جرير عن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ فقال: **«لاتضع عصاك عن أهلك، وأنصفهم من نفسك»**، فيه شقّان، والثانى يفسّر الأول، وقوله **«لاتضع عصاك عن أهلك»** يعنى الزم الحزم مع أهل بيتك، ومن ذلك الزوجة، وإن لم يصرّح، **ورفعُ العصا** هو المقابل لوضعها، وكأنه يقول ارفع عليهم العصا وهددهم بها، وهو كناية عن أخذ الأهل ـ ومنهم الزوجة ـ بالشدّة، وفى المَثَل: **«الناس عبيد العصا»**، أى يهابون الشديد الحازم، ويقال **«راعٍ صُلب العصا»** وضده **«راع ليّن العصا»**، والصلابة واللين سياسة الحكيم، ومن **يرفع العصا** عليه أن يلزم العدل فلايبغى ولايظلم، ولذا كان الشطر الثانى من الحديث فى قوله **وأنصفهم من نفسك**، أى إذا جُرْتَ عليهم فعليك النَصَفة حتى ولو كان ذلك من نفسك، والنصفة هى العدل ، وهى مطلوبةٌ من الزوجين فيتعادلان فلايجور أحدهما على الآخر، فللزوجة حقوق وواجبات، وللزوج مثلهما، وسياسة الأسرة هى مراعاة ذلك، عملاً بالآية: **﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾**(البقرة ٢٢٨)، والمعروف: هو الحاكم الضابط فى اقتضاء الحقوق وفرض الواجبات، وبالنظر لفضل الرجال، واحتمالهم الإنفاق فلهم درجة على النساء، وهذه الدرجة هى

القوامة، كقوله تعالى: «﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾(النساء٣٤)، يقومون عليهن بالقسط، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء٣٥)، وهو معنى الحديث «وأنصفهم من نفسك»، أى أن قوامة الرجال أساسها العدل، فلايحيدون عنه يميناً ولاشمالاً، ولا يصرفهم عنه صارف، ويراعون الله فى معاملاتهم لزوجاتهم، إشهاداً لله فى عدلهم معهن، يبتغون به وجه الله، ويشهدون على أنفسهم معهن بالحق ولو عاد ضرر عدلهم عليهم . فأى عظمة فى التشريع، وأى بُعد عن الدنيّة والظلم! وقوامة الرجال فى الإسلام يتحقق بها للمرأة الكرامة، وترفع من شأنها كل الرفعة، وحسبنا الله فى المُرجّفين والمتأوّلين على الإسلام، ولله الحمد والمنّة.

●●●

١٧١٨.﴿فى معنى قوله «أعدى عدوك زوجتك»﴾

فى الحديث عند الديلمى، عن أبى مالك الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «أعدى عدوُك زوجتك التى تضاجعُك وما ملكت يمينُك»، مثل الحديث الآخر عند الطبرانى عن حذيفة: «إن فى مال الرجل فتنة، وفى زوجته فتنة وولده»، كما فى قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(الانفال ٢٨)، أى اختبار وامتحان لكم، والزوجة التى يمتحن بها الرجل هى غير الصالحة، لا يأمنها على عرضه، ولاعلى ماله وبيته وأولاده، وتصرفه عن التقوى بكثرة المطالبات والمشاحنات، و يَسلُط لسانها عليه، وقد تمتد يده إلى الحرام بسببها، ولذا قال رسول الله ﷺ فى الحديث الآخر عن أنس: «لولا المرأة لدخل الرجل الجنة»، يقصد بالمرأة الزوجة التى تسيء عشرة رجُلها، وضرب الله مثلاً لها بامرأة نوح، وامرأة لوط، قال: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحريم ١٠)، أى لم تكونا على وفاق معهما، وكانتا كثيرتى المشاحنة والمنابذة، واستهزأتا بدعوتيهما. وعلى عكسهما كانت امرأة فرعون التى ضرب الله بها المثل فى التقوى والصبر، وكان زوجها شديد الإساءة إليها، فكانت تدعو: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾(التحريم١١) تتبرأ من عتوّه وظلمه. وإذن فالمرأة كالرجل سواء بسواء، ومن الممكن أن يسوء سلوكها مع زوجها، كما يمكن أن يسوء سلوك الرجل مع زوجته، والحديث يتحدث مباشرة لمجتمع الرجال، عن الزوجة غير الصالحة، كامرأتى نوح ولوط، ولمجتمع النساء ضمناً عن الزوج غير الصالح كفرعون. وفى إنجيل متّى معنى كهذا المعنى أيضاً، يقول المسيح: «وأعداء الإنسان أهل بيته» (الفصل١٥ـ ٢٦).

●●●

١٧١٩.﴿لاتدعو للعروسين بالرفاء والبنين﴾

كان الدعاء للعروسين بالرفاء والبنين فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام علّمنا النبىّ ﷺ قال: «**قولوا بارك الله لكم، وبارك فيكم، وبارك عليكم**» .وعن عقيل بن أبى طالب أنه قَدِم البصرة فتزوج امرأة، فقالوا له: **بالرفاء والبنين**، فقال: لاتقولوا هكذا، وقولوا ما قال رسول الله ﷺ «**اللهم بارك لهم وبارك عليهم**». ودعاء «**بالرفاء والبنين**» كان مشهوراً فى الجاهلية، وما يزال الناس يأخذون به حتى اليوم، وكان يسمى **الترفئة** ، تقول رفأتُ العروسين يعنى هنّأتهما وطلبتُ لهما الخير، وأن يجتمعا دائماً فى خير. **والرفاء** بمعنى الالتئام، من رفأتُ الثوب، **ورفوته رفواً ورفاءً** . **والرفاء للزوجين**: هو إذن أن تتمنى لهما الالتئام والائتلاف، ولكنه فى إطار التمنّى والتفاؤل **وليس من باب الدعاء**، وكراهيته فى الإسلام هو لأنك بقولك **بالرفاء والبنين** تطلب للزوجين أن يُوفَّقا ويُرزَقا **بالأولاد الذكور دون الإناث**، وفى ذلك **جاهلية** غير منكورة، وإنما دعاء الرسول ﷺ فيه توجُّه إلى الله، واستنزالٌ للبركة منه تعالى على العروسين. وفى حديث جابر عندما سأله الرسول ﷺ عن زواجه، فقال له إنه تزوج ثيباً لأسباب ذكرها، دعا له فقال: «**بارك الله لك**». وأما حديث معاذ بن جبل عن زواج الأنصارى ودعاء الرسول له بقوله : «**على الألفة والخير والبركة والطير الميمون والسعة فى الرزق**» فهو حديث سنده ضعيف ولم يثبت، والأغلب أنه مما كان يقول الأنصار للأزواج قبل إسلامهم، وكانوا ما يزالون يرددونه فى الإسلام . ومن ذلك أيضاً قول نسوة الأنصار لعائشة وأمها عندما بنى الرسول ﷺ بعائشة: **على الخير والبركة ، وعلى خير طائر**. ومنه أيضاً غناء النسوة «**فحيّونا نحيّيكم**»، فلما سمعه الرسول ﷺ قال لهن: قلن: «**حيّاناً الله وحيّاكم**» . والمقصود دائماً بتربية الرسول للمسلمين والمسلمات بهذه التربية، أن يكون شُكرهم لله، واستعانتهم بالله، ودعاؤهم إلى الله، وأن يدأبوا على ذلك فيلازمهم هذا السلوك ويصبح عادة راسخة فيهم، وهذا ما يميز المسلم، وهو سَمْتُ الإسلام فى كلام المسلمين: أن يذكروا الله دائماً.



١٧٢٠.﴿الزواج أولاثم الحج﴾

أيهما الأولى: أن تحجّ أو أن تتزوج؟ حَسَم ذلك النبىّ ﷺ عندما قال: «**غزا نبىٌّ ﷺ من الأنبياء فقال لقومه: لايتبعنى رجلٌ مَلَك بُضْعَ امرأة وهو يريد أن يبنى بها**»، وقوله: «**مَلَك بُضع امرأة**»، يعنى خطبها، و«**الغزو**» الجهاد، و«**البِناء بها**» الدخول بها .ومفاد الحديث: أنه ليس لك ان تجاهد فى سبيل الله وأنت لم تتزوج بعد، والحديث يفيد كذلك الردّ على عامة الناس الذين يقدّمون الحج على الزواج، ظناً منهم أن التعفّف يتأكد بالحج

أولا، والأولى أن يتعفف الرجل أو تتعفف المرأة أولاً بالزواج ثم يحج أو تحج، وعلى ربّ الأسرة أن يزوّج بناته أولاً ثم يحــج، أو أن يعين أولاده الذكور على الزواج قــبل أن يقوم هو نفسه بالحج، أو قبل أن يشرع أىّ منهم فى الحج.

•••

١٧٢١. ﴿هل نهدى العروسين؟﴾

عن أنس بن مالك قال: كان النبــىّ ﷺ يحتفل بزواج ابنته زينــب، فقــالت لى أم سليم: لو أهدينا لرسول الله ﷺ هدية؟ فــقلتُ لها افعلى، فعــمدتْ إلى تمر وسمن وأقط فاتخذت حَيْسَة فى بُرْمَة، فــأرسلت بها معى إليه، فقال لى: «ضعــها»، ثم أمرنى فــقال: «ادعُ لى رجــالاً» سمّاهم، «وادعُ لى مَن لقــيت». قال: ففعلت الذى أمرنى، فرجعت فإذا البيت غــاصّ بأهله، فرأيت النبىّ ﷺ وضع يديه على تلك الحــيسة وتكلم بها مــا شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم: «اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليــه». والحَيْسَــة طعام من تمر وســمن وسُوَيْق، وهو الناعم من دقيق الحنطة والشــعير، والبُرمة القِدْر، والأقْط الجبن، والحديث فيه: أن المسلمين يتهادون فى مناسبة الزواج ليعينوا الزوجين ببــعض تكاليف الاحتــفال بالزواج، ولابأس أن تكون الهــدايا مما يســتعان به فى المنزل، وينفع اقتــصادياً، وهو تكافلٌ محــمود. وفى زواج عــائشــة كــانت نسوة الأنصــار يهدينها، وكانت أخــريات يغنين: «فحيونا نحييكم»، يعنى إن أهديتمــونا اليوم فسنهديكم غداً، وصحّح لهم الرســول ﷺ غناءهم فقال: «قلن: حيّانا الله وحيّــاكم» وذلك دعــاء للنسوة اللاتى يهدين العروس.

•••

﴿ثالثاً: الحمل والولادة والرضاع والفطام والحضانة﴾

•••

١٧٢٢. ﴿الحمل ومستتبعاته﴾

فى الحــديث: «مفاتيح الــغيب خمس» أنــه: «لايعلم ما تغــيض الأرحام إلا الله» أخرجــه البخارى. وفى الآية: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ⑧﴾ (الرعد): أنه سبحانه منفرد بعلم الغيب؛ وقوله: «وما تغيض الأرحام»: يعنى ما تُسقط قبل التسعة أشهر، وما يزيد بها فوق التسعة. والغيض: انقطاع دم الحيض؛ وما تزداد: بدم النفــاس بــعد الوضع. وفى هذه الآية دلــيل: على أن الحــامل يمكن أن ينــزل منهــا الدم وتحيض، وهو حيض الحبالى. وكانت عائشة تفتى النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة.

وفى الآية كذلك دليل : على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر أو لأكثر من ذلك، وأقل الحمل ستة أشهر. ولايكون الحمل عادةً لأكثر من تسعة أشهر، والأمر مختلف فيه اجتهاداً، وبعض النساء يحملن لأكثرمن ذلك، ومن أعاجيب الحمل ما يقال له حمل الفيل، وهو كل أربع سنوات، وقيل: سمى هَرِم بن حيان هَرِمًا، لأنه بقى فى بطن أمه أربع سنوات ـ وهو خرافة. وأقل الحيض والنفاس والحمل وأكثره، مأخوذ من طريق الاجتهاد، لأن علم ذلك استأثر به الله، ولايعارض ذلك إلا العلماء من الطبائعيين الذين يردّون كل شيء للأسباب دون الله، وهو تعالى الذى يقدّر خروج الولد من بطن أمه، ويقدر مكثه فى بطنها إلى خروجه. وبعد الحمل تكون الولادة ثم الرضاعة. وفي القرآن قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾(لقمان١٤)، وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾(الأحقاف١٥)، وقال: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾(البقرة٢٣٣). والحمل والولادة والرضاعة جميعاً عمليات كبرى ومهولة بها تستحق المرأة خالص الاحترام.

●●●

١٧٢٣. ﴿الرضاعة تحرم النكاح﴾

تتناول الآية: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ(٢٣) ﴾(النساء) التحريم بالرضاع ،ويشرحها الحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فإذا أرضعت المرأة طفلاً حُرِّمَت عليه لأنها أمه، وحُرّمت بنتها لأنه أخته، وحُرّمت عليه أخت الأم بالرضاع لأنها تصير خالته، وتحرَّم أمها لأنها جدّته، وتُحرَّم بنت زوجها لأنها فى حكم أخته، وكذلك أخت الزوج لأنها تصير عمّته، وبنات بنيها، وبناتها، لأنهن بنات إخوته وأخواته، وأم الزوج لأنها جدته. وبالاختصار : فإن المحرّمات بالرضاع هن: الأمهات من الرضاع، وأمهاتهن، وجدّاتهن وإن علون؛ والأخوات من الرضاع، سواء رضع الرجل من أمها، أو رضعت المرأة من أمه، أو ارتضعا سوياً من امرأة أخرى، أو ارتضعت هى من امرأة رجل له امرأة أخرى ارتضع هو منها ، وكل امرأة حَرُمت من النسب تَحرُم من الرضاع ،وهن: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمّات،والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ويَحرُم الجمع بين الأختين من الرضاع. ويحجّ مع المرأة أخوها من الرضاع، والتحريم بالرضاع يحصل إذا اتفق الإرضاع فى الحولين، ولا فرق بين قليل الرضاع وكثيره إذا وصل إلى الأمعاء وأنبت اللحم والعظم. والأخوات من الرضاع هن: الأخت لأب وأم ، والأخت من الأم دون الأب.

●●●

١٧٢٤. ﴿الإرضاع فى الزوجية وفى الطلاق﴾

فى الآية: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ(٢٣٣)**﴾(البقرة) أن الوالدين أحق وأولى بإرضاع أطفالهن، وهو واجب عليهن. وخاصة المطلقات، لأن الأم أحنى وأرق على طفلها، وانتزاع الصغير منها إضرارٌ به وبها، والولد وإن فُطم فالأم أحق بحضانته، لفضل حنوها وشفقتها. وقد لايقبل الولد غيرها ليرضع منها فتُجبَر على الإرضاع، وعلى المولود له أن ينفق عليها طعاماً وشراباً وكسوةً، بما يناسب وضعها الاجتماعي وانتماءاتها الطبقية، وخاصةً أن الوالدة فى الإرضاع تتفرغ له، فإن كان لها عمل تتعطل عن عملها وكسبها، وعليها تكاليف لاتستطيع الوفاء بها، من مسكن وقوت وكسوة ومطالب حياة لها ولطفلها، سواء كانت على ذمة الرجل أو كانت مطلقة، وقوله: «**وعلى المولود له**» أوجب ذلك على **الزوج**. وإرضاع الحولين ليس حتماً بقوله: «**لمن أراد أن يتم الرضاع**»، لكنه تحديد لقطع التنازع فى مدة الرضاع بين الزوجين. وعلى ذلك تكون الرضاعة المحرِّمة الجارية مجرى النسب، إنما هى ما كان فى الحولين، لأنه بانقضاء الحولين تتم الرضاعة، ولا رضاع معتبرة بعدهما، وبذلك تنتفى رضاعة الكبير الذى قالت به عائشة ولاتكون لها حرمة.



١٧٢٥. ﴿الوالدة والوالد لايُضاران بولدهما﴾

فى الآية: ﴿ **لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ(٢٣٣)**﴾ (البقرة) أن الأم قد تأبى أن ترضع طفلها إضراراً بأبيه، وقد تطلب نفقة أكثر من اللازم لترضعه، ولايحلّ للأب أن يمنع الأم من إرضاعه مع رغبتها فى الإرضاع. وإذا مات الأب وآلت ثروته إلى الآخرين، وتئول إليهم كذلك الوصاية على الصغير، فإنهم ملزمون بتكاليف إعالة الصغير وإرضاعه، وتجب النفقة له على كل ذى رحم محرم، والمراد بهم عُصبة الأب فهؤلاء عليهم النفقة والكسوة، فإن كان للصبى مال أُخذ رضاعه من ماله، وإن لم يكن له مال أخذ من العُصبة. والأب لو مات فعلى الأم كفاية الطفل إذا لم يكن له مال، ويشاركها العاصب فى إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث. ولو كان الطفل فقيراً لامال له، وجب على الدولة القيام به من الخزانة العامة، فإن لم تكن هناك قوانين بذلك، وجبت النفقة على المسلمين، الأخص به فالأخص، والأم أخص به إذا توفى الأب، فيجب عليها إرضاعه والقيام به.



١٧٢٦. ﴿نفقة الرضيع وأمه على الأب﴾

في الآية: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا (٢٣٣) ﴾(البقرة): في الآية: أن نفقة الرضيع وأمه على الأب، وأن الرضاعة على الأم، وإنفاق الأب على قدر غناه، لايُكلَّف في الإنفاق فوق ما يطيق، ولاتُكلَّف المرأة أن ترضعه من غير أن تقدر، كما لاتكلف على الصبر على تقتير الأب وشُحّه، و«القصد» هو المطلوب. وللأم حضانة الرضيع خلال عامَي الرضاعة وحضانته ما بعدهما من سنين، لصغره وحاجته إليها، إلى أن يبلغ فيخيَّر، ولاشك أن الطفل سيختار أمه، والآية لا تحدد سنًا للطفل ترعاه فيه أمه، والأولى أن يُترك لها أمر رعايته إن كان ولدًا أو جارية، والنبيّ ﷺ خيّر الابن فاختار أمه، وفى الخبر أن امرأة جاءت إلى النبيّ ﷺ وقالت: يارسول الله، إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء، وثديى له سقاء، وحجرى له حواء، وإن أباه طلقّنى وأراد أن ينتزعه منى. فقال لها رسول الله ﷺ: «أنت أحق به ما لم تنكحى» أخرجه أبو داود. فإذا تزوّجت الأم فالخالة أحقّ بالصغير، وفى الحديث: «فإنما الخالة أم»، ثم أُم الأم، ثم أم الأب إذا لم يكن للصغير خالة، ثم الأخت، ثم العمّة، فإذا لم تتوفر الحاضنة المؤتمنة التى يكون عندها فى حرز وكفاية، يُنظر إلى من يحوط الصبى، ومن يُحسن إليه فى حفظه وفى تعليمه، وقيل الأم أولى ولايسقط حقها فى الحضانة بالزواج.

••

١٧٢٧. ﴿الحضانة حق الولد﴾

الولد يعنى المولود، ذكرًا كان أو أنثى. ولاحضانة لفاجرة، أوضعيفة عاجزة عن القيام بحق الصبى، لمرض أو زمانة . والحضانة أولى بها الأم، ثم الخالة، ثم الجدّة للأم، ثم الجدّة للأب، ثم أخت الصبى، ثم عمّته، ثم ابنة أخيه، ثم الأب. وليس لابنة الخالة، ولا لابنة العمة، ولا لبنات أخوات الصبّى من حضانته شىء، والمعقول أن الأنفع له هو الأصلح، وتستمر الحضانة طالما لايُخاف على الطفل تضييع أو دخول فساد ممن يكون حاضنًا له. وتستوى الزوجة المسلمة والزوجة الذمّية فى حقّها فى حضانة طفلها، لأن المبدأ الحاكم لذلك كله أن الولد لابد له من حاضنة، وهى الأصلح له.

•••

١٧٢٨. ﴿فصال الطفل أو فطامه﴾

يقول تعالى فى آية الرضاع: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا (٢٣٣) ﴾(البقرة)، والفصال والفصل: هو الفطام، أصله التفريق، فهو تفريق بين الطفل والثدى، ومنه سمى الفصيل، لأنه مفصول عن أمه. «والتراضى على الفصال» المقصود به أن يأتى قبل الحولين، وقبل التراضى يكون التشاور وهو استخراج الرأى، فلمّا

جعل الله تعالى مدة الرضاع حولين، بيّن أن للأبوين وحدهما حق البتّ فى موعد الفطام أو الفصل، بعد التشاور فيما بينهما، ومع الطبيب الخاص بالأطفال إن أمكن. وإن كانا مطلّقين، وقبل الحولين، يكون الرضاع واجبًا، ويحرم الفطام قبلهما، ويجوز لهما الاجتهاد بتقليل مدة الرضاع عن الحولين إن لم يكن فى ذلك ضرر بالصغير، إلا أنه اجتهاد عن مشورة، والوصول به إلى الرأى موقوف على غالب ظنهما لاعلى الحقيقة واليقين.

•••

١٧٢٩. ﴿جواز الاسترضاع إن كان لمصلحة الطفل﴾

الاسترضاع: هو أن تكون للطفل مرضعة غير أمه، سواء كان ذلك **استرضاعًا اصطناعيًا، أو استئجاراً لمرضعة، أو حاضنة**، ويكثر ذلك فى ملاجىء الأيتام وقُرَى إيواء الصغار، وتسمى المرضعة أو الحاضنة **بالأم البديلة**، ولاتثريب على الوالدين لو أخذا بذلك طالما أنه لمصلحة الصغير بحسب ما تمليه ظروفهما وظروف تنشئة الصغير. وقد تُستخدم المربيات والزوجية قائمة إذا كان الزوجان موسرين. والبعض لايُلزم **الأم الحسيبة** بالرضاعة، وكان الناس فى الجاهلية من **ذوى الحسب** يلجأون إلى المراضع، وأقر الإسلام ذلك ولم يغيّره، وجاء عنه فى القرآن: **﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ (٢٣٣)﴾** (البقرة)، **والاسترضاع الاصطناعى** أسلم صحياً من **الاسترضاع البشرى** - أى من مرضعة بسبب الأمراض المتوطنة فى المرضعات من الأصول المتدنية اللاتى يقبلن أن يعملن مرضعات، وكانوا يسمون المرضعة ظِئراً. وليس من المستحب استئجار المرضعات الآن، وخاصةً لما قد يترتب على الرضاع من **التحريم** كما فى النسب، وكثيرون يرون أنه من غير المستحسن أن ترضع العمة أو الخالة أو الجارة أو القريبة طفلاً أو طفلة قد يكون زوجًا لابنتها أو زوجةً لابنها فى المستقبل إذا لم ترضعه أو لم ترضعها. والتراضى على المرضعة أو الحاضنة ينبغى أن يقترن بتسليم الأبوين للطفل ولما يلزمه من نفقة وأُجرة بالتراضى والمعروف، لايعوّق أحدهما لئلا يضار الطفل.

•••

١٧٣٠. ﴿الحمل والرضاع والفصال ثلاثون شهرا﴾

يُفطم الرضيع خلال عامين، للآية: **﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ (١٤)﴾**(لقمان)، فلم يقل بعد عامين، ومثل ذلك قوله تعالى: **﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ (٢٣٣) ﴾**(البقرة)، يعنى تمام الرضاعة **حولان كاملان** لمن أراد أن يتم الرضاعة. وفى الآية الأخرى: **﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥) ﴾**(الأحقاف)، فإن حملت الأم فى الولد **تسعة أشهر** فإنها ترضعه إحدى وعشرين شهرًا، فذلك معنى «فى» فى الآية: **﴿وَفِصَالُهُ فِي**

عَامَيْنِ﴾ (لقمان١٤)، أى في أقل من عامين، وهو المنوه عنه بإحدى وعشرين شهراً. فإن كان الإرضاع حولين كاملين، يعنى أربعة وعشرين شهراً، فيكون الباقى من الثلاثين شهراً ستة شهور، فاستنبطوا من ذلك أن أقل الحمل هو هذه الشهور الستة. وقيل إن الستة شهور هى بحساب الأشهر الأخيرة فى الحمل، ولم تحسب الشهور الثلاثة الأولى فى ابتداء الحمل، لأن الطفل فيها يكون نطفة وعلقة ومضغة، فلا يكون له ثقل يُحَس به حتى يوصف بأنه حَمْل. والقرآن يسميه «الحمل الخفيف» قال: **﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴿١٨٩﴾﴾**(الأعراف).

●●●

١٧٣١. ﴿هل تحرِّم الرضاعة بعد الحولين؟﴾

يقول الله تعالى: **﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴿٢٣٣﴾﴾** (البقرة)، فكمال الرضاعة سنتان، ولا اعتبار لما بعد ذلك، ولو ارتضع المولود وعمره فوق السنتين لايحرم، إذ العادة أن لايفطم الصبى دفعة واحدة بل بالتدريج. وللفترة التى تحاول فيها الأم ـ بعدالحولين ـ أن تفطم طفلها حكم الحولين. وبعض الأطفال يحتاجون للرضاعة بعد الحولين لضعفٍ بدنى، أو نفسِى، أو عقلِي، ولمن يحتاج إلى ذلك فلا تثريب أن يرتضع بعد الحولين، وقد تستمر الرضاعة إلى ثلاث سنوات، وقد يغتذى الصبى فى المدة الزائدة باللبن والطعام، أو يجتزى بالطعام ولو قبل الحولين، وما رضع بعد الفطام لايكون رضاعاً والرضاع المقصود هنا هو الرضاع من الأم أو من مرضعة، وأما الرضاع الاصطناعى فهو غير مقصود البتة، وبتعميم الرضاع الاصطناعى ينتفى باب الرضاع من الفقة الإسلامى وتتجاوزه الأحداث.

١٧٣٢. ﴿الرضاعة للكبير﴾

الرضاعة تُثبت النسب وتجعل الرضيع محرماً، وعن عائشة فيما رواه البخارى أنها استقبلت ابن أبى القيس بدعوى أنه أخوها بالرضاع، فقال لها النبىّ ﷺ: «انظرنَ ما إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة»، والمعني تأملن ما وقع من الرضاع: هل هو رضاع صحيح بشروطه أم لا، فالرضاع المحرِّم هو المُشترَط، وهو الذى يتسبب فى الأخوّة، حيث يكون الرضيع طفلاً، وينشد أن يسد اللبن جوعته، وتكون معدته ضعيفة يكفيها اللبن، وبه ينبت لحمه، فيصير الطفل به كجزء من المرضعة، فيشترك فى الحُرمة مع أولادها، والرضاعة المعتبرة هى المغنية عن المجاعة، أو المُطعِمة من المجاعة، وفى الحديث عن ابن مسعود: «لارضاع إلاّ ماشدّ العظم، وأنبت اللحم» أخرجه أبو داود، وعن أم سلمة: «لايحرِّم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام» أخرجه الترمذى، والرضعة الواحدة إذن لاتحرِّم لأنها لاتغنى من جوع، وعن أم الفضل زوج العباس أن رجلاً سأل النبىّ ﷺ،

قال: يارسول الله: هل تُحرِّم الرضعة الواحدة؟ قال: «لا»، وفى رواية قال: «**لاتُحرِّم الرضعة ولا الرضعتان**»، وجاء عن عائشة: **عشر رضعات، وسبع رضعات، وخمس رضعات**، والثابت من الأحاديث حديث عائشة فى الخمس. والبعض قال مجرد الرضاعة تُحرِّم ولايشترط العدد، مثلها مثل المنى. وقال آخرون التغذية بلبن المرضعة يُحرِّم سواء كان بِشُرب أمْ بِأكل، أم بأى صفة كان، طالما استوفى الشرط المذكور من العدد. والبعض قال إن الرضاعة المحرِّمة إنما تكون بالتقام الثدى ومصّ اللبن منه، وأنها تعتبر فى حال الصِّغر، وهى التى يمكن طرد الجوع منها باللبن بخلاف حال الكِبَر، وضابط ذلك قول الله تعالى: ﴿**حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**(٢٣٣)﴾(البقرة). ومما يثبت أن «**الصغر**» معتبر فى الرضاع قصة **سالم مولى أبى حذيفة**، فقد تحرّجت زوجة **أبى حذيفة** أن تنكشف على سالم عندما كبر وصارت له لحية، فذهبت إلى النبىّ ﷺ تشكو إليه أبا حذيفة أنه يأنف أن تحتجب عن سالم، فقال لها النبىّ ﷺ: «**أرضعيه**»، **قالت**: وكيف أرضعه وهو رجلٌ كبير؟ فتبسّم النبىّ ﷺ وقال: «**قد علمتُ أنه رجل كبير**» رواه مسلم. وإرضاع الكبير ليس بأن تلقمه ثدييها وإنما بأن تعتصر ثدييها وتسقيه لبنها فى وعاء، وبذلك يصبح من محارمها، فتنكشف عليه بلا تثريب. وكانت عائشة ـ كما جاء فى الصحيحين ـ تفتى بذلك وتقول إن الكبير يصير من المحارم بالرضاع، وكانت تأمر بنات إخوتها وأخواتها أن ترضع الواحدة من تحب أن يدخل عليها ويراها بلا حجاب، وإن كان كبيرًا، وأن تكون رضعاته لخمس مرات، وبذلك يدخل عليها!! **والجمهور يرد هذا الحديث**، بدعوى أن **قصة** رضاع الكبير خاصة بسالم، أو بالأحرى **قصة ملفقة**، وأن **الرضاعة لا تجوز إلا لمن يحتاجها وكان دون الحولين**، وأنها إن جرت **بعد الحولين لاتحرّم**. وحجة الجمهور ما سبق إثباته من حديث عن عائشة للنبىّ ﷺ، قال: «**انظرن مَن إخواتكن! فإنما الرضاعة من المجاعة**»، يعنى يشترط للرضاعة أن تكون **لصغير دون الحولين**، وأن **تكون بدافع ما يستشعره من جوع**، فيستمر **يرضع إلى أن يشبع**، فهذه هى الرضاعة المحرّمة، وأما **إرضاع الكبير** فليس فيه أىٌّ مما سبق. **والقول لذلك قول الجمهور والعقل والمنطق**، وحديث إرضاع الكبير إذن: وَهْم!

●●●

١٧٣٣. ﴿فى معنى تحريم إخوة زوج المرضعة﴾

عن **عائشة** أن «**أفلح**» أخا **أبى القعيس** جاء يستأذن عليها بعد أن نزل الحجاب، فأبت **عائشة** أن تأذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته، قالت: «**فأمرنى أن آذن له**» رواه البخارى. وأبو القعيس هو **زوج مرضعة عائشة** كما جاء فى رواية مسلم، قالت: فأبيت أن آذن له، فقال أتحتجبين منى وأنا عمك؟ وفى الرواية عن الزهرى قالت: فقلت لا آذن له حتى استأذن رسول الله ﷺ، فإنّ أخاه **أبا القعيس** ليس أرضعنى، ولكن أرضعتنى امرأة

أبي القعيس! وفي رواية لمسلم قال: وكان أبو القعيس زوج المرأة التي أرضعت عائشة. قيل: وتحريم زوج المرضعة إنما لأن لبنها كان السبب فيه لبن الرجل، أى منيّه، فلولا أن الرجل وطأها ما درّت اللبن، فللرجل في لبنها نصيب، ومنه انتشرت الحُرمة إلى أخيه، وبذلك صار أخوه عماً لعائشة. ولكن عائشة من ناحية أخرى، قبل أن تستأذن الرسول ﷺ ـ وطبقًا للروايات المختلفة ـ صحّ عنها أن لا اعتبار بلبن زوج المرضعة، وصحّحها الرسول ﷺ. وعن زينب بنت أم سلمة:أن أمهات المؤمنين بخلاف عائشة ذهبن إلى أن الرضاعة من قبل الرجل لا تحرّم شيئاً، بدعوى أن اللبن لاينفصل للطفل من الرجل وإنما ينفصل من المرأة، فكيف تنتشر الحُرمة إلى الرجل؟ غير أن ابن عباس شبّه المسألة بالجَدّ ـ وهو سبب الولد فأوجب تحريم ولد الولد به، وقال: اللقاح واحد» أخرجه ابن أبي شيبة، وقال أغلب أهل المدينة أن لبن الرجل لايُحرِّم، بينما كان الجمهور من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار على القول: إن لبن الرجل يُحرِّم، وحجتّهم هذا الحديث. والعلم الحديث مع الرأى بأنه لايحرّم، لأنه لا علاقة بين لبن المرضعة وبين لبن زوجها، ثم بين لبن المرضعة وشقيق زوجة المرضعة، ولو كان الأمر هكذا لحرّمت كل النساء على كل الرجال من أولاد وبنات آدم، لأننا جميعاً أقرباء! وعلى كل فهذا الباب من الرضاع تجاوزته الأحداث، فلايوجد من يرضع من ثدى امرأة أخرى لأسباب صحية محصنة واجبة المراعاة، ومنعاً لنقل المرض، لاحتمال أن تكون المرضعة أو الرضيع مصاباً بمرض فينتقل منها أو من ابنها إليه، أو ينتقل منه إليها وإلى ابنها؛ وهذا الحديث كحديث إرضاع الكبير فيه تحايل مقيت، وليس هكذا الإسلام.

●●●

«تابع الإسلام الاجتماعي»

●●●

رابعاً: الأولاد

●●●

١٧٣٤. «أنقلل النسل أم نكثره؟»

من الأحاديث ما يدعو إلى تقليل النسل، ومنها ما يدعو إلى تكثيره، فأيهما نتّبع؟ فمن الأولى: عن سهل بن حنيف عن النبيّ ﷺ قال: «تزوّجوا إنى مكاثر بكم الأمم» أخرجه الطبراني في الأوسط، يعنى إنى مكاثر بكم بالأولاد ثمرة الزواج. وعن ابن عباس قال: «بيتٌ لاصبيان فيه لابركة فيه»،وقال: «ريح الولد من ريح الجنة» ، وعن ابن حيدة أنه قال: «وإنى مكاثر بكم الأمم»، وعن ابن عمر أنه قال: «ما وُلد في أهل بيت غلام إلا أصبح فيهم عزٌّ لم يكن»، وعن أبي حفصة قال: «لايدع أحدكم طلب الولد، فإن الرجل إذا مات

وليس له ولد انقطع اسمه»، وهذه الأحاديث قد نظن أنها دعوة لتكثير النسل حتى وإن كان الوالدان من الفقراء، ولم ينالوا علماً والصحيح أن التكثير المقصود هو الذى يتحقق مع يُسر الحال وتعليم العيال، وتعهدهم بحسن التربية، وتنشئتهم ليكونوا مواطنين صالحين، وعندئذ فقط يباهى بهم النبى ﷺ الأمم يوم القيامة، وإلاَّ فبأى شىء يباهى بهم الأمم؟ هل يباهيهم بالكثرة من الفاشلين والخاملين والعاطلين والفاسقين؟ والرسول ﷺ يحضّ على السعى من أجل خير الأولاد . وهذا الحديث الأخير عن انقطاع الاسم بالموت إذا لم يكن له ولد يشبه ما قالوه عن النبى ﷺ وكان سبب نزول سورة الكوثر، فقالوا إن ابنه مات فصار أبتر، أى بلا وريث ذكر؛ وفى الحديث عند الديلمى عن جابر أنه قال: «إذا خرج العبد فى حاجة أهله كتب الله له بكل خطوه درجة، وإذا فرغ من حاجتهم غُفِر له»، وعند ابن عساكر عن المقداد أنه قال: «من كان فى مصرٍ من الأمصار يسعى على عياله فى عُسْرة أو يُسْرة، جاء يوم القيامة مع النبيين. أما إنى لا أقول يمشى معهم ولكن فى منزلتهم».والعيال المقصودون هم مَن كان فى وسعه أن يعولهم ويحسن إعالتهم، وليست الإعالة إطعاماً وكساءًا وإسكاناً، ولكنها بالدرجة الأولى تربيةٌ وتعليماً. وفى الحديث عند الطبرانى عن عبادة بن الصامت: «استعيذوا بالله من الفقر والعَيْلة» ، والعَيْلة هى كثرة العيال مع الفقر فذلك الذى يورث الإجرام. وفى الحديث عند الطبرانى ابن عمر أن الرسول ﷺ قال: «إن أكبر الإثم عند الله أن يضيّع الرجل من يقوت»، أوقال: «كفىَ بالمرء إثماً أن يضيِّع من يقوت»، وضياعهم بأن يتركهم يتكفّفون الناس ويخاصمون العلم والتعلمّ وينفرون من محامد الأخلاق، وقال: «جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشىء»، وبرواية الديلمى عن بكر بن عبدالله المزنى عن أبيه قال: «قلة العيال أحد اليسارين» ، واليسار الأول هو كثرة المال، والثانى قلة العيال، فجعل قلة العيال يساراً.

والإسلام حريصٌ فى مسألة العيال على الكيف وليس على الكم. وعن أبى الدرداء عن النبىّ ﷺ قال: «ذريةٌ صالحة يُرزَقُها العبد، يدعُون له من بعد موته، يلحقه دعاؤهم»، وصلاح الذرية: بالعلم والتربية، والتعويل على الأخذ بالأسباب، أى بالمنهج العلمى، وبذلك وحده يكون الصلاح.



١٧٣٥. «تنظيم النسل من الإسلام»

يُطلق على ذلك فى الإسلام اسم «العزل»، وهو أن يمتنع الرجل عن الإنزال فى الفرج إذا لم يُرد لامرأته أن تحمل، وعن أبى سعيد الخدرى قال: ذُكر العزل عند رسول الله ﷺ قال: «وما ذلكم؟» قالوا: الرجل تكون له المرأة تُرضع له، فيصيب منها ويكرَه أن تحمل منه»، بمعنى أنه يكرَه للموطوءة أن تحمل وهى ترضع فيضرّ ذلك بالولد المرضع،

وليس ذلك هو السبب الوحيد للعزل، فقد يأتيه البعض فراراً من كثرة العيال إذا كان الرجل مقلاً، فيرغب عن قلة الولد لئلا يتضرر بتحصيل الكسب، وقد تكون صحة الأم متوعكة لا تحتمل الحمل والرضاع، وفيهما ضرر بالغ لها، وقد يكون أحد الوالدين به مرض أو ضعف وراثى فينأى بنفسه عن أن ينجب نسلاً ضعيفاً أو مريضًا، وكثيراً ما تكون الزوجة من أقارب الزوج فيخشى على نسله أن يأتى ممروضًا. وفى الصحيح عن جابر قال: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل»، وزاد مسلم قوله: «فبلغ ذلك نبىّ الله ﷺ فلم ينهنا». وعن ابن عباس أن الزوجة تُستأمَر فى العزل. وعن مالك: أن لها حق المطالبة أن لايعزل زوجها إذا قصد به إضرارها. وعن عمر بإخراج أحمد وابن ماجه: أن النبى ﷺ نهى عن العزل إلا بإذن المرأة؛ وفى الحديث المنسوب إلى النبىّ ﷺ من طريق جذامة بنت وهب، أنه لما سُئل عن العزل، قال: «ذلك الوأد الخفى» أخرجه مسلم، وصحيحه عن جابر كما قيل: أن اليهود قالت عن العزل تلك «الموءودة الصغرى»، فسئل الرسول ﷺ فقال: «كذبت اليهود». واليهود لم يكذبوا، لأنهم يتمنون كثرة النسل ليزيد عددهم. والذين نهوا عن العزل من المسلمين، وفعلوا ذلك بدعوى شرعية وليس لأسباب قومية، بزعم أن فيه تفويتاً لحق الزوجة، ومعاندةً للقدر، وإسقاطًا للنطفة. والذين قالوا بالإباحة فعلوا ذلك إطلاقًا، وجوّزوا للزوج أن ينزع متى يشاء حتى لو أنزل خارج الفرج، وبذلك لايكون هناك علوق ولا حَمْل، والرسول ﷺ كان على عكس هؤلاء وهؤلاء، يحضّ على الزواج والإنجاب، من منطلق قومى، لتكثر أمّة لا إله إلا الله، فلا يكونوا قلة، ومن ثمة يصحّ القول بأنّ العزل هو وأدٌ خفّى حقاً.



١٧٣٦. «هل يفرّق بين الولد والبنت فى الهبة؟»

لايجوز فى الإسلام أن يخص المسلم أولاده الذكور بشىء يحرم منه بناته، حتى يعدل بين أولاده وبناته، ويعطى الذكور كما يعطى البنات، وفى الصحيح عن النعمان بن بشير أن النبىّ ﷺ قال: «اعدلوا بين أولادكم فى العطية»، وفى رواية المغيرة عن الشعبى عند مسلم قال: «اعدلوا بين أولادكم فى النُّحَل كما تحبون أن يعدلوا بينكم فى البرّ»، وفى رواية مجالد عن الشعبى عند أحمد قال: «إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم»، ولأبى داود من هذا الوجه قال: «ألاّ سويت بينهم»؟، فالتسوية بين الذكور والإناث واجبة إن قصد الأب بتفضيل الذكور على الإناث والإضرار بالإناث. وفى رأى البعض أن الأب إذا كانت عنده بنت لم تتزوج وكبرت فى السن، أو كانت مريضة مرضًا مزمنًا، أو طُلّقت ولامورد لها، أنْ يفضّلها على سائر أولاده الذكور والإناث معًا، على أن التسوية مستحبة مع ذلك، لأن التفضيل ـ خاصةً إنْ كان للأولاد الذكور على الإناث بلا سبب غير الذكورة والأنوثة ـ

يقطع الرحم ويستجلب العقوق وهما محرّمان، وما يؤدى إليهما يكون من ثمّ محرمًا. **ولا فرق إذن فى الإسلام بين الذكر والأنثى، ويشهد بذلك الأمر بالتسوية**، وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعًا: «**سووا بين أولادكم فى العطية، فلو كنت مفضّلاً أحدًا لفضّلتُ النساء**» أخرجه سعيد بن منصور والبيهقى. ولكن الرسول ﷺ **لم يفضّل أحدًا فى واقع الأمر**، لا النساء ولا الرجال ـ وسوّى بين الجميع. وقد فضّل أبو بكر ـ على العكس ـ ابنته عائشة على سائر أولاده الإناث والذكور، ثم رجع قبل وفاته فى عطيته، وقال لها برواية الموطأ عن عائشة: إنى كنت نحلتك نحلاً، فلو كنت اخترتيه لكان لك، وإنما هو اليوم للوارث». وسبب العطية لعائشة وتمييزها عن إخوتها وأخواتها أنها كانت الأبّر بهم ذكوراً وإناثًا، وكانت تصلهم، وتُعنَى بهم، وتشرف عليهم جميعاً. ورجوعه فى العطية أو الهبة يجوز. ومن العجيب أن الفقهاء جوّزوا أن ترجع الزوجة التى تهب زوجها شيئاً فى هبتها، ولم يجوّزوا للزوج الذى يهب زوجته أن يرجع فى هبته، قيل: رحمةً بالنساء من غضبات الرجال وتحوّل ميولهم، **فكيف يقال إن الإسلام يعادى المرأة؟** وقد يميل الأب إلى زوجة، أو ولد، أو بنت، دون بقية أهل بيته، وذلك حقّه لاسبيل له فيه، وإنما تجب التسوية بينهم فى غير ذلك، وهذا هو حُكم الإسلام. على أننا يجب أن نراعى أن بعض أولادنا فيهم سفه، فكيف نسوّى بينهم وبين العقلاء؟ والله تعالى يعطى بقدر العمل، والابن الصالح البار بأبويه وأهله يستحق التمييز لصلاحه وبرّه، ولما يعود به ذلك على عائلته وإخوته وأمه، وعلى مجتمعه، فليست التسوية إذن مطلوبة دائماً.



١٧٣٧. ﴿هل صحيح أننا نعق عن الصبى ضعف عقيقة البنت؟﴾

العقيقة: اسم لما يُذَبح عن المولود، وأصلها **شعر المولود**، وسمّيت به الشاة التى تذبح عنه، لأنه يُحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح. وفى سفر **الأحبار** اليهودى، الفصل الثانى عشر يأتى: أن الحبلى التى تلد ذكراً تظل نجسة **سبعة أيام**، كحُكم أيام طمثها يكون حُكم نجاستها، وفى اليوم **الثامن** يُختن الولد، وتظل المرأة **ثلاثة وثلاثين** يومًا فى دم طهرها لا تلامس شيئًا من الأقداس إلى أن تتم أيام **طهرها**، فإن ولدت أنثى فنجاستها الضعف ـ أى لأسبوعين، وتقيم فى دم التطهير ستة وستين يومًا، ثم إنها بعد تمام أيام تطهيرها، بالنسبة للولد أو للبنت، تذبح حَمَلاً وفرخ حمام أو يمامة، فتقرّبهما قرباناً، فإن كانت فقيرة تكتفى بيمامتين **أو** حمامتين». ـ **ونجاسة الوالدة** غير واردة فى الإسلام، وطُهرها من طمث الولادة وما بعدها لايكون بالذبح، والولادة ليست خطيئة كما فى اليهودية، والذبح فى الإسلام ليس قسراً بل لمن يقدر عليه. وشعائر الإسلام أكبر، فغداة يولد الطفل عند المسلمين يُسمَّى بعد أن يُعقّ عنه أو لا يُعَقّ بحسب وُسع الوالد، ثم **يُحنَّك**، وقد فعل ذلك

النبيّ ﷺ مع عبدالله بن الزبير لمّا ولدته أسماء بنت أبي بكر، فكان أول مولود وُلد في الإسلام، وفرح المسلمون به كثيراً لأنه قد قيل لهم إن اليهود سحرتهم فلا يولد لهم. والتحنيك يكون بالتمر أو بشيء حلو كعسل النحل. ولم يحب النبيّ العقيقة لأن الاسم من العقوق، وقال فيها: «مَن وُلد له ولد فأحَبَّ أن ينسك عنه فليفعل» رواه أحمد، ولأن النبيّ كره اسم العقيقة فقد آثر البعض أن يسميها «النسيكة» أو «الذبيحة». والتحنيك بعد التسمية، ولا ينتظر الوالدان للتسمية إلى اليوم السابع. وتسمية المولود يوم يولد أصحّ من تسميته في اليوم السابع، غير أنه كما ورد عن عائشة فإن النبيّ ﷺ عقّ عن الحسن والحسين في اليوم السابع، وسمّاهما في اليوم السابع. والصبي يُعَقّ عنه كالجارية، إلا أن البعض يعقّ عن الصبيّ بشاتين مكافئتين ـ أي متعادلتين، وعن الجارية بشاة واحدة. وقد ورد عن أبي هريرة أن اليهود تعق عن الولد بكبش ولاتعقّ عن الجارية، والصحيح عن اليهود هو ما قلناه أنهم يعقّون بحَمَل. واستخدم في التفرقة بين وضع الصبي والجارية من بعد، وتفضيل الصبي على الجارية، الاختلاف حول: هل يُعَق بشاة واحدة أو بكبش عن كل من الصبي والجارية؟ أو يُعَق عن الصبي بكبشين والجارية بكبش؟ إلا أن مالكاً لم يفرّق بين الصبي والجارية وجعلهما سواء، وقال بأنه يُعَق عن كل أحد منهما بشاة، واحتج لذلك بأن النبيّ ﷺ عقّ عن الحسن والحسين كبشًا كبشاً، فلو كان الصبي يُعق عنه بكبشين لفعل، ومن ثم فلا تفرقة بين الصبي والجارية، وهذا هو الصحيح أيضاً. وقد فهم البعض أن قصر العقيقة على الشاة أو الكبش يتعيّن به أن تكون من الغنم، إلا أنه في الحديث عند الطبراني عن أنس قال: «يعق عنه من الإبل والبقر والغنم»، والجمهور على إجزاء الإبل والبقر أيضًا كالغنم، والسبب في إيثار الغنم أن العرب كانوا رعاة غنم ولم يكونوا رعاة إبل ولابقر. ويُسمّى على العقيقة كما يسمى على الأضحية، ويقال: «بسم الله عقيقة فلان» أو يُزاد على ذلك: «اللهم منك ولك عقيقة فلان، بسم الله والله أكبر»، ثم يذبح. وليس صحيحًا أن رأس الطفل يُطلّى بدم العقيقة!! وقد ورد عن عائشة قالت: كانوا في الجاهلية إذا عقّوا عن الصبي خضّبوا قُطنة يوم العقيقة، فإذا حلقوا رأس الصبي وضعوها على رأسه، فقال النبيّ ﷺ: «اجعلوا مكان الدم خلوقاً» ونهى أن يُمس رأس المولود بدم. والخلوق ضربٌ من الطيب. وفي الحديث «يُعَقّ عن الغلام ولا يُمس رأسه بدم». وعند أبي داود والحاكم في حديث الجاهلية قالت عائشة برواية مختلفة: فلما جاء الله بالإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ـ أي المولود ـ ونلطخه بزعفران، والزعفران طيب. وعن مالك أن من مات قبل السابع تسقط عنه العقيقة، وأنه من يفوته أن يعق في السابع الأول، يعق عنه في السابع الثاني، وربما في السابع الثالث. وأول السبعة اليوم الذى يلي يوم الولادة، واليتيم يعق عنه من ماله . ويكره حلق رأس الجارية. وقد يؤثر عن العقيقة أن يحلق رأس

الصبى ويتُصدَّق بوزن شعره ذهبًا أو فضة، وفى حديث العقيقة عن الحسن والحسين قال النبىّ ﷺ : «يا فاطمة، احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره». وقال علىّ بن أبى طالب: **وزنّاه فكان درهمًا أو بعض درهم** ـ وهذا غير معقول طبعاً أن يزن شعر الطفل المولود درهماً!! وعند أحمد من حديث أبى رافع: لما ولدت فاطمة حسنًا قالت: يارسول الله ! ألا أعق عن ابنى بدم؟ قال: **لا،ولكن احلقى رأسه وتصدّقى بوزن شعره فضة»**، ففعلتْ، فلما ولدت حسيناً فعلت مثل ذلك. والخلاصة: **أن الأمر فى العقيقة سيّان**، أن تعقّ أو لا تعقّ، والتصدّق بالمال أفضل فى أيامنا، شكراً لله تعالى على جزيل نعمه، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

١٧٣٨. ﴿الابن الدعىّ والابن بالتبنّى﴾

يأتى اسم زيد بن حارثة فى آية واحدة فى القرآن كواحد من **الأدعياء**، أى الذين يُدْعَوْن أبناء وليسوا كذلك على الحقيقة. ولم يأت ذكره إلا لأهمية ذلك فى التشريع، ومناسبة الآية المرتبطة باسم زيد تحفل بالأحداث التى كانت موضع الكثير من التساؤلات ومثار الكثير من التشنيع على الإسلام والطعن على النبىّ ﷺ، وقد أنزل الله تعالى الآية: ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ④ ﴾ (الأحزاب) لتزيل الشبهات حول معنى الدعىّ، وقبلها يأتى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ④ ﴾(الأحزاب) توطئةً للمقصود المعتوى من آية الأدعياء، بأمر حسّى معروف، وهو أنه كما لايكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه، كذلك لايصير الدعىّ ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له، والمقصود بالنفى ليس أن الرجل يستحيل أن يكون له قلبان فى جوفه، وإنما المقصود نفى أن يكون الدعى ولداً على الحقيقة لرجل بمجرد أن يُدعَى كذلك قولاً. والآية نزلت فى شأن **زيد بن حارثة** مولى النبىّ ﷺ، وكان قد تبنّاه قبل النبوة، فكان يقال له : **«زيد بن محمد»**، فقطع الله تعالى هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ** ④ ﴾(الأحزاب)، كما قال: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ④٠ ﴾(الأحزاب)، وقال: ﴿ **ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ** ④ ﴾ (الأحزاب) يعنى تبنيكم لأدعيائكم هو بالقول فقط، ولايقتضى القول أن يصبح حقيقة، فإن الدعى فى الحقيقة هو ابن لرجل آخر، **وما يمكن أن يكون له أبوان، كما لايمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان.**

وزيدٌ فيما روى عن أنس وغيره سبته فى الشام خيلٌ من **تهامة**، فابتاعه **حكيم بن حزام بن خويلد**، ووهبه لعمّته **خديجة بنت خويلد**، التى وهبته بدورها لزوجها محمد ﷺ، وكان ذلك قبل الإسلام، وأعتقه النبىّ ﷺ وتبنّاه، فأقام عنده مدة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فدائه، فقال لهما النبىّ ﷺ قبل البعث: «**خيّراه، فإن اختاركما فهو لكما دون**

فداء»، فاختار زيدٌ صُحبة النبيّ ﷺ على صحبتهما وقومه، وآثر أن يكون رقيقاً مع محمد ﷺ، على أن يكون حرًا مع غيره حتى لو كان هذا الغير هم قومه وأهله، فقام النبيّ ﷺ لتوه وقال: «**يامعشر قريش! اشهدوا أنه ـ أي زيد ـ ابني يرثني وأرثه**» وطاف على الناس يُشهدهم على ذلك، فرضي عمه وأبوه وانصرفا. وكان ذلك قبل المبعث، وقيل إن أباه ظل يبحث عن ابنه ويدور بالشام ينادي:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ⁖ أحيٌّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجل؟

فأخبروه أنه بمكة، فجاء إليه وحدث ما حدث. وفي زيد نزلت الآية: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا**(٣٧)﴾ (الأحزاب)، ادعيائهم، فكأن السبب في تزويج النبيّ ﷺ من زينب امرأة زيد بعد أن طلقها زيد، هو أن لا يكون على المؤمنين حرج إذا تزوّجوا من مطلقات ادعيائهم، وقبل ذلك نفى الله تعالى أن يكون الدعي ابنًا على الحقيقة، فمطلقات الأبناء من الصلْب هن فقط المحرّمات على الآباء.

وقُتل زيد في مؤته من أرض الشام سنة ثمان هجرية، وكان النبيّ قد أمّره على تلك الغزاة، وقال: «**إن قُتل زيد، فجعفر** ـ يعني تكون الإمارة لجعفر، **فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»، فقُتل الثلاثة في تلك الغزاة.

ويقول الله تعالى في الأدعياء: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**(٥)﴾(الأحزاب). وفي ذلك قال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا «زيد بن محمد»، وقوله هذا دليل على أن التبني كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام، ويُتوارث به، ويُتناصر، إلى أن نسخ الله تعالى ذلك بقوله: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾(الأحزاب٥)، فجعل من العدل أن يُدعَى الابن بالتبني لأبيه الحقيقي، أي أبيه نسبًا. ولم تنسخ الآية التبنّي وإنما نسخت أن يُدعَى الولد بغير اسم أبيه الحقيقي، كما نسخت كل ما كان يترتب على اعتباره ابناً على الحقيقة، فإن لم يكن معروف الأب، فالآية تقول يُنسب إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف، فيُعامل معاملة الأخ في الدين، والله يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**(١٠)﴾(الحجرات). وكان العرب قبل ذلك يعاملون أبناء التبني معاملة الأبناء من كل وجه، كالخلوة بالمحارم وغير ذلك، فلما نسخت هذه المعاملة أبيحت زوجة الدعي، وتزوج الرسول ﷺ مطلقة زيد. وفي آية التحريم شَرَطهُ بقوله: ﴿**وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ**(٢٣)﴾(النساء) احترازاً عن زوجة الدعي فإنه ليس من الصلب. فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نُهي عنه، والرسول ﷺ كان يقول لأنس بن مالك: «يا بُنيّ»، وقال لأولاد بني عبدالمطلب: «يا بَنيّ»، وعلى ذلك فإن

النبىّ ﷺ بعد هذه الآية قال لزيد: أنت أخونا ومولانا»، كقول الله تعالى: ﴿فإخوانكم فى الدّين ومواليكم﴾، (الأحزاب٥)، وقد نهى الرسول ﷺ أن يتحرّج مسلم أن يُدعَى باسم أبيه، فقال: «لاترغبوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم»،والكفر هنا هو الفسوق، وفى الحديث: «ثلاث فى الناس كفر..»، منهم الطاعن فى النسب، فالذى يطعن فى نسب آخر فقد كفر، أى فسق، وكذلك الذى يُدعَى لغير أبيه وهو يعلمه.

●●●

﴿تابع الإسلام الاجتماعى﴾

●●●

خامساً: الأسرة

●●●

١٧٣٩. ﴿الأب والأم والابن والابنة والأخ والأخت﴾

الأب هو الوالد، والأم الوالدة، والأولاد والبنات منهم الابن والابنة، ويقال إنهم إخوة وأخوات، جمع أخ وأخت. والأبوة قد تكون أبوة جسد، كقوله تعالى ﴿فلمّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أبويه (٩٩)﴾(يوسف)، والأبوان هما الأب والأم، غلب عليهما اسم الأب. ويقال«يا أبتى» صيغة إعزاز او احترام لمخاطبة الأب كقوله تعالى: ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت﴾ (يوسف٤)، والعرب يقولون: «فديتك بأبى» كناية عن الإعزاز، ومثل ذلك قولهم: «بأبى أنت وأمى». وفى الآية ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحد من رّجالكم (٤٠)﴾(الأحزاب) نفىٌ أن يكون للنبّى ﷺ ولد بعد أن مات أولاده إبراهيم والقاسم، وقال تعالى: ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم(٤)﴾ (الأحزاب) والدعىّ هو الابن بالتبنى، وقال: ﴿ادعوهم لآبائهم(٥)﴾ (الاحزاب) فذكّر بأن الأولى والأعدل أن يُنسَب الرجل إلى أبيه نسبًا، وأسقط نظام التبنى.

وكما تكون الأبوة بالجسد تكون كذلك بالقلب ، وكان العارف بالله إبراهيم الدسوقى يدعو اتباعه «أولاد القلب» ، ويقول: إن ابن الجسد أو الابن من الصلب، يرث المال، وأما ابن القلب فميراثه المذهب. ولم يورث الرسول ﷺ مالاً ولكنه ورّث القرآن والسُنّة. وفى دعاء زكريا، قال: ﴿فهب لى من لّدنك وليًّا (٥) يرثنى ويرث من آل يعقوب﴾(مريم)، كان يعنى يرث عنه المال، ويرث عن آل يعقوب الحكمة والنبوة.

والأم والأب يرثان عن ابنهما: ﴿ولكلّ واحد مّنهما السّدس ممّا ترك إن كان له ولدٌ فإن لّم يكن لّه ولدٌ وورثه أبواه فلأمّه الثّلث فإن كان له إخوةٌ فلأمّه السّدس(١١)﴾(النساء) . ﴿ وإن كان رجلٌ يورث كلالةً أو امرأةٌ وله أخٌ أو أختٌ فلكلّ واحد مّنهما السّدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثّلث(١٢)﴾(النساء).

ويرث الأبناء عقائد الآباء وآدابهم، كقوله تعالى : عن آبائنا الأقدمين: ﴿ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿٢١﴾ ﴾(لقمان)، وقول إسماعيل لأبيه إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(الصافات)، ومثل نصيحة بنت شعيب لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾(القصص)، ونبّه القرآن إلى ذكاء هذه الابنه وأدبها العالى باعتبارها البنت الكبرى، فقال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (القصص)، ومثل ذلك أدب يوسف مع أبويه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (يوسف)، ويُعدّ حوار إبراهيم مع أبيه نموذجاً للنقاش مع الأب فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾(مريم)، فلم يعارض أباه بسوء الردّ. وقد يقال للعم أبًا، وقيل: كان آزر هو عم إبراهيم الذى ربّاه، ومع ذلك جاء عنه في القرآن أنه أبوه، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴿٧٤﴾ ﴾(الانعام)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ ﴿١١٤﴾ ﴾(التوبة). وفى القرآن نوديت مريم أم عيسى بالأخت فقيل: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾(مريم)، ولم تكن أخت هارون على الحقيقة ولكنها من بيت هارون؛ وفى التوراة والإنجيل نفس الشيء، فقال عن الأعمام أنهم آباء، ويقال للسيدة «يا أخت»، كما يقال للرجل: «يا أخ» ومن قصة يوسف مع إخوته وأبيهم خلصنا إلى ما أطلقنا عليه اسم «عُقدة الإخوة» ، ويسميها أهل الطب النفسى تنافس الأشقاء، وهو أن تعتمل الغيرة فى نفوسهم ضد الابن المقرّب من أبيه، وفي قصة يوسف بلغ من شدّة غيرتهم أنهم دبّروا قتله، قالوا: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴿٩﴾ ﴾(يوسف).

وفى تعاليم القرآن عن الوالدين: البرّ، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٨٣﴾ ﴾(البقرة)، والوصية لهما، كقوله: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ﴿١٨٠﴾ ﴾(البقرة)، والنفقة عليهما، كقوله: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (البقرة)، والإحسان بهما، كقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (النساء)، والشكر لهما ، كقوله :﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴿١٤﴾ ﴾(لقمان). ومن دعاء إبراهيم للوالدين قوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾(إبراهيم).

والأم كالأب، وهى أمٌ على الحقيقة، وأمٌ بالرضاع، ولها حقوقها وآداب التعامل معها، كالأسرة جميعاً، ويحرُم الزواج منها سواء كانت أماً بالولادة أو بالرضاع، وشأنها شأن البنات والأخوات. والأخوات بالرضاع يحرم الزواج منهن كتحريم الزواج من الأخوات بالولادة، والبنات، والأم، والأخوات إلخ، ، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ

تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ (٢٣) ﴾(النساء)، والربيبة هى بنت المرأة من رجل آخر بخلاف زوجها الحالى وتنشأ فى كنف زوج أمها.

وفى الآية عن مريم، عن مستتبعات الوالديه قوله: ﴿**مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)**﴾ تنبيهٌ إلى ميراث الصفات الأخلاقية عن الأبوين، وعن الأم خصوصاً، ولقد أوصى الله بها، ونبّه إلى سبب الوصية فقال: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا (١٥)**﴾ (الأحقاف)، وقال: ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ (١٤)**﴾(لقمان). ولمّا لم تنجب نساء النبىّ ﷺ اللاتى كن معه فى المدينة، عوّضهن الله خيراً، وكرّمهن أجمل تكريم، وجعلهن «أمهات للمؤمنين»، قال: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (٦)**﴾(الأحزاب). وكرّم الله تعالى المرأة عموماً فحرّم الظهار: وهو أن يقول الرجل لزوجته: أنت علىّ كظهر أمى»، فتحرم عليه، فقال: ﴿**إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ (٢)**﴾ (المجادلة) فمايز بين **الزوجة والأم**، وجعل لكلٍّ مكانتها العالية، وفى كل الأحوال فإن كل الأمهات زوجات، وأغلب الزوجات أمهات، واختص الأم **بحضانة طفلها وإرضاعه، كما اختص الأب بحق تربيته. والأب**: ليس من حقه أن يجبر ابنته على **الزواج**، وله حقّ **تولّى** مال أولاده القُصّر، وله دون غيره أن يأخذ من مال **ولده** ما يشاء، مع حاجة الأب إلى ما يأخذه، صغيرًا كان الولد أو كبيراً، شريطة أن لا يُجحف بالابن ولا يضرّ به، ولايأخذ إلا ما تتعلق به حاجته. وليس للأب أن يتصرّف فى مال **الصغير**؛ وعليه **التسوية بين أولاده فى** العطية. ولايجوز للابن **الخروج للجهاد** إلا بإذن **الوالدين**، ولا حدّ للأب وللأم إن قذفا ابنهما، وإن سرقا ماله لا يقطعان فيه، ولايقطع الابن وإن سفل بسرقة مال والده وإن علا؛ وأما **الإخوة والأخوات فيقطعون** بسرقة أموال بعضهم البعض. **ولا يُقتل** الرجل بولده، ولابولد ولده وإن نزلت درجته، سواء فى ذلك ولد البنين وولد البنات. **وقَتْلُ الأب والأم لابنيهما فى الأصل** مُوجِب للقصاص، وهو أعظم ذنب بعد الشرك بالله، وقد ساوى الله تعالى بينه تعالى وبينهما فقال: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ (١٤)**﴾(لقمان)، وإنما سقط وجوب القصاص لمعنى مختص بالوالدين وهو **الولادة**، بينما ويُقتل الولد بكل من والده ووالدته، وروى أن الابن لايقتل بأبيه أو أمه.

وليس للأبناء من الرجل إرث مقدّر: فإن كان معهم ذو فرض أخذوا ما فضل عنه، وإن انفردو أخذوا الكل، فإن استغرقت الفروض المال سقطوا ولم يأخذوا شيئاً. ويعصب **الإخوة أخواتهم**، ويقتسمون معهن، **للذكر مثل حظ الأنثيين، وتشمل** العصبات: الابن، وابن الابن وإن نزل والأخ، والأخ من الأب، وأما بقية العصبات فينفرد الذكور منهم بالميراث دون الإناث، وإذا كان ضمن العصبات أخٌ لأم وأخٌ لأب، أخذ الأخ لأم السدس،

والباقى للأخ من الأب. والوارثون من الرجال هم: الابن؛ ثم ابن الابن وإن سفل، والأب؛ثم الجد وإن علا؛ والأخ؛ ثم ابن الأخ، والعمّ، ثم ابن العم؛ والزوج، وكلهم قد يسقطون ما عدا الأب والابن والزوج. ويسقط الإخوة الأشقاء بالابن، وابن الابن وإن سفل.

وفى الشهادة : تقبل شهادة الأخ لأخيه، ولايستحق الأخ لأم الحضانة. وفى الإرث: يسقط الإخوة لأم، ذكورهم وإناثهم، بالولد، وولد الابن، وبالأب، وبالجدّ والد الأب وإن علا.



١٧٤٠. ﴿الأسر المسلمة نواة المجتمع المسلم والدولة المسلمة﴾

يتحدث القرآن عن الأسرة تحت اسم الأهل، مِن أهَلَ أى تزوّج، وتأهّل أى اتخذ أهلاً وصارت له زوجة، والأهل هم الزوجة والعيال؛ وفى القرآن: ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾(هود ٤٠) والآية دليل على أن الأهل هى الزوجة، أو هى الزوجة وعيالها، كقوله تعالى: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾(هود ٤٦) يعنى أنه وإن كان من صُلبك إلا أنه عدوك، فالأهل كما تربط بينهم صلة الرحم، فإنهم لابد أن يكونوا متراحمين فعلاً، وإلا فغير المتراحم ليس من الأهل اخلاقاً وديناً. وفى قوله تعالى:﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾(العنكبوت٣٢): أن عيال الرجل هم أهله إضافةً إلى امرأته، كقوله:﴿ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي﴾(هود٤٥) .ويقال مجازاً عن المكان أنه «مأهول» يعنى مسكوناً، وسكانه هم أهله، كقوله تعالى: ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾(القصص٤٥)، و﴿ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾(العنكبوت٣١) أى سكانها. وفى أقواله تعالى عن أهل نوح، وهود، ولوط، وإبراهيم إلخ، أنهم الجماعة، أو الوحدة الاجتماعية التى يتألف منها مجتمع المكان، ويتعاونون معاً اقتصادياً. وأبرز الوظائف للأهل بمعنى الأسرة: هى الوظيفة الاجتماعية. وأهل الزوج هم زوجته، وتتميز علاقته بها دون سائر علاقاته مع النساء الأخريات، بأنها علاقة جنسية شرعية بين زوجين. ولايكون الأهل أهلاً، ولا الأسرة أسرةً إلا إذا تحقق أن يكون لها الأولاد. والرجل بالزواج يصبح زوجاً، وبالإنجاب يصبح ربّ أسرة، ويصير له «أهل»، والأسرة المسلمة كما يأتى عنها فى كثير من الآيات، هى الأسرة النواة nuclear family، وهى التى تتألف من الزوجين وطفل أو أكثر، وتتجمع هذه الأسَر كما تتجمع الذرّات وتصبح جزيئاً، فتكوّن مجتمعات أكبر هى المجتمعات المدنية. والقرآن يحضّ على الزواج لإكثار النسل وإعمار الأرض.وفى القرآن يوجد نوعان من الأُسر: الأسرة أحادية الزوجة monagmous family ، التي تتكون من زوج وزوجة واحدة، كأسرة آدم وحوّاء قال تعالى:﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة٣٥)؛ والأسرة متعددة الزوجات polygamous family، وهى التى تتكون من زوج

وعدّة زوجات، كأسرة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(الأحزاب٦)، وقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾(التحريم٣)، إلا أن الأصل فى الزواج أنه من واحدة، قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(الزمر٦)، وقال: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥)﴾ (النجم٤٥)، والأصل فى الخلق أيضاً أنه من زوجين، كقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات٤٩). وفى الأسرة متعددة الزوجات يصبح **الرجل** هو همزة الوصل الذى يربط الزوجات وأولادهن، ويخلق ما يسمى **بالأسرة الممتدة**، وفى أى مجتمعات فإن الأسرة **قد تكون مرتبطة بالأم** وتنتسب إليها **matriarchal family**، وإقامتها عند **أهل الأم matrilocal**، **وقد تكون مرتبطة بالأب petriarchal family**، وإقامتها **عند أهله patrilocal**، **والأسرة** المسلمة من النوع الثانى، وترتبط بالأب وتنتسب إليه، وإقامتها عند أهله أو مرتبطة بهم، ولايعنى ذلك تهميش دور الأم وأهلها، فالانتساب عادة يكون لمن **يعول ويعمل ويكسب**، ويُعرف بجدّه ونشاطه وحركته فى الحياة. وفى القرآن فإن مبدأ التكوين الاجتماعى للأسرة يقوم على «**تقسيم العمل**»، فالرجل بما له من صفات وقدرات له مجالات عمله، كما أن للمرأة مجالات عملها، ولأنها تحمل وترضع فإنها تنقطع تقريباً لعملها هذا نحو السنتين تعتمد فيهما على زوجها، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ **(الطلاق٦)**. ويقوم بناء المجتمع الإسلامى وتنشئة الفرد المسلم على **أربع وظائف للأسرة** المسلمة: جنسية، **واقتصادية، وإنجابية، وتربوية، فالوظيفتان الأولى والثالثة**: مهمتهما بقاء المجتمع المسلم، وتكاثر أفراده؛ **والوظيفة الثانية**: يعتمد عليها استمرار حياة المسلمين ومجتمعاتهم ودولهم؛ **والوظيفة الرابعة**: يعتمد عليها استمرار الحضارة الإسلامية. وقد رتبت الشريعة حقوقاً للمرأة وللرجل، وللأولاد، ونظمت العلاقة بينهم، فلم تجعل للابن الخروج إلى الجهاد إلا بإذن أبويه، ولا أن أن يُقتص من الوالد للولد، ولا للولد من الوالد، وألزمت الأبوين بالتسوية بين الأبناء فى العطايا، وفرضت للزوجة وأولادها النفقة على والدهم إلخ. **والخلاصة**: أن الأسرة فى الإسلام هى **عماد المجتمع، وهى الوحدة** التى يتألف منها بناؤه، ولامحيد عنها، ولأفرادها حرياتهم الشخصية من داخل إطار **المصلحة العامة** للأسرة وللمجتمع ككل، وهو أمرٌ يخالف فيه القرآن نظريات **العولمة**. ولأن الاجتماع الإنسانى ضرورة، كانت **الأسرة** ضرورة؛ وكذلك **الزواج**، فالزواج تتكون به العائلات، وتنشأ المجتمعات وتأتلف، وتكون الأمم والشعوب، سواء فى الإنسان، أو الحيوان، أو الطير، وحتى الجن، كقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (٣٨)﴾(الأنعام)، وقوله: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ (٣٨)﴾(الأعراف)، وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا (١٦٨)﴾(الأعراف)، وكما ترى فإن الاجتماع كله قائم على التزاوج والتكاثر، فى

مجتمعات وشعوب وأمم، تتباين فيما بينها بحكم أعراقها، وحكمة ذلك التباين بين المجتمعات والأمم والشعوب، هو أن تتعارف، وتتواصل، وتتبادل المعارف والمنتجات، وتتثاقف وتتلاقح حضارياً، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا(١٣)﴾(الحجرات).

●●●

١٧٤١. ﴿نفقة المولود والوالدين والأقارب﴾

تجب نفقة الوالدين على الأبناء وإن نزلوا، ذكوراً وإناثاً، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(البقرة٨٣)، وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾(مريم١٤)، وتجب نفقة المولودين على الوالدين، كقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(البقرة٢٣٣)، ويجب على الأم أن تنفق على ولدها إذا لم يكن له من ينفق عليه سواها، وإن أعسر الأب وجبت النفقة على الأم. ويجب الإنفاق على الأجداد والجدات وإن علوا، وولد الولد وإن سفلوا. ومن كان له أب من أهل الإنفاق لم تجب نفقته على سواه. والقدرة على الإنفاق شرط في التكليف، والنفقة على الأصول والفروع واجبة حتى مع فسوقهم أوكفرهم، كقوله تعالى عن الأبوين الكافرين: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾(لقمان١٥)، وشرط الإنفاق: الفقر والعجز، لقوله ﷺ: «لا حظّ في الصدقة لغنيّ ولا لقويّ مُكتسب»، لأن النفقة معونة على سدّ الحاجة، طعاماً، أو كسوةً، أو سكناً، أو مصاريف مدارس، أو علاجاً، وهذه جميعاً لحفظ الحياة، ودفع الضرورة. ولايجب على الابن أن يزوّج أباه إن احتاج لذلك، ولا على الأب أن يزوّج ابنه، لأن الزواج ليس من النفقة ـ أي الصدقة، وقيل: يجب على الولد إعفاف أبيه، وعليه نفقة زوجته، والفرق بين نفقة الزوجة ونفقة القريب: أن الغرض من نفقة القريب مواساته وسدّ خلته، فوجوبها لدفع الخلة، لا لعوض، فإذا أخلّ بها أثم، ولكنها لاتستقر في الذمة، ولايجب قضاؤها، بخلاف نفقة الزوجة، فإنها عوض الاستمتاع، فكانت كالمعاوضة المالية، فإذا لم يؤدّها استقرت في ذمّته ووجب قضاؤها، وإذا اجتمعت على الشخص الواحد عدة نفقات عليه أن يقوم بها ـ ولم يستطع إلا القيام ببعضها دون البعض، فنفسه أولاً مقدمة على جميع الحقوق، لأهمية النفس لحياة صاحبها، فإن فضل منه شيء ابتدأ بزوجته، لأن نفقتها تثبت على سبيل المعاوضة، وإن فضل شيء فهو بين الأقارب، حتى القريب مدّعى الفقر، وحتى تكفين الميت المعدّم قد يقوم به قريبه.

●●●

١٧٤٢. ﴿ترتيب أفراد الأسرة في استحقاق النفقة﴾

النفقة للزوجة أولاً دون الأقارب، ثم من بعد ذلك الأقرب فالأقرب، فإن اجتمع أبّ وجدّ، أو ابن وابن ابن، قُدّم الأبّ على الجدّ، والابن على ابن الابن. وإن اجتمع ابن

وجدّ، أو أبّ وابن ابن، قُدّم الابن والأبّ، ويحتمل التسوية. فإن اجتمع جدّ وابن ابن فهما سواء. وإن اجتمع أبّ وابن، فإن كان الابن صغيراً، وما يزال فى المدارس، أو مريضاً يشكو علة أو عجزاً، قُدّم. وإن كان كبيراً ، والأب زَمِن، فالأبّ أحقّ، وإن كانا صحيحين فقيرين احتمل التسوية بينهما، وإن اجتمع أبّ وأم تَقدَّم الأم، وإن اجتمع جدّ وأخ أو جدّ وابن عمّ، أو عمّ، فالجدّ أحقّ. وإذا اجتمعت على الواحد نفقات كثيرة يعجز عن الوفاء بها جميعاً، فليبدأ بنفسه أولاً، لأن نفسه مقدّمة على جميع الحقوق.

●●●

١٧٤٣. ﴿الختان واجب على الرجال دون النساء﴾

الختان: من خَتَن أى قطع، يقال: ختن الصبى: يعنى قطع قُلفته، فالصبى ختين، ومختون، والختان عند اليهود للصبيان ولا ختان للبنات، وعند المسلمين فإن العادة كانت أن يختتن الذكور والإناث، ولايوجد ما يدل على ذلك فى القرآن، وقيل: إن الختان فى السنة واجبٌ على الرجال ، ومكرمةٌ فى حق النساء، وليس بواجب عليهن؛ والكبير الذى لم يختن ويخاف الختان يسقط عنه، وإن أمن على نفسه لزمه؛ ولا إثم على من مات قبل أن يختن. والدعوة لوليمة الختان مستحبة، والإجابة إليها مستحبة وغير واجبة. والاحتفال لابأس به.

●●●

﴿تابع الإسلام الاجتماعى﴾

●●●

﴿سادساً: الطلاق﴾

●●●

١٧٤٤. ﴿ماهو الطلاق فى الإسلام؟﴾

الطلاق فى اللغة: هو حلّ الوثاق، مشتقٌ من **الإطلاق** وهو الإرسال والتَّرْك، ويقال فلانٌ طَلَقُ اليد بالخير أى كثير البذل. والطلاق فى **الشرع**: هو حَلّ عُقدة التزويج. ولفظ الطلاق جاهلى، وكان الطلاق موجوداً فى الجاهلية، وأقرّه الإسلام وهذّبه، ووضع له الضوابط، وواسطه أى جعل الأمر فيه وَسَطًا بين **إطلاق الجاهلية** حيث لم يكن للطلاق ضابط ولارابط، وبين تشدّد وتطرفّ **اليهود والنصارى**، فاليهودية إذا طُلّقت **فلا رجعة لها إلا بصداق وعقد جديدين**، وإذا نَسَب الزوج إلى من يتزوجها بكرًا أنها ليست بكرًا غُرّم لذلك وجُعلت البنت زوجة له **مدى الحياة لا يطلقها**. والكاهن لايتزوج مطلقة غيره فى اليهودية. والزواج من أكثر من **واحدة** مباحٌ بلا إحصاء، وكان **لسليمان سبعمائة** زوجة **وثلاثمئة** أَمَة

يملك يمينهن. وعند النصارى الزواج من واحدة فقط، ولاطلاق فى المسيحية إلا عن زنا.

والطلاق فى الإسلام لا إفراط فيه ولاتفريط، وقد يكون حرامًا، أو مكروهاً، أو واجبًا، أو مندوباً، أو جائزاً؛ فأما الأول ففيما إذا كان بدعيًا، وله صور؛ وأما الثانى ففيما إذا وقع بغير سبب مع استقامة الحال؛ وأما الثالث فله صور ومنها الشقاق إذا رأى الحكمان؛ وأما الرابع ففيما إذا كانت المرأة غير عفيفة؛ وأما الخامس ففيما إذا كان الزوج لا يريد زوجته، ولاتطيب نفسه أن يتحمل مؤنتها من غير حصول غرض الاستمتاع، والطلاق فى هذه الصورة لايُكره.



١٧٤٥ـ ﴿الطلاق فى الإسلام هو أبغض الحلال﴾

لم يُحلل الطلاق فى المسيحية، ويجىء فى إنجيل متَّى: من طلق امرأته إلا لعلّة زنا فقد جعلها زانية، ومن تزوجّ مطلقة فقد زنى (الفصل الخامس٢٢) .وفى اليهودية: الطلاق حلال، وللمطلق أن يعود إلى الزواج من مطلقته إذا أراد، إلا إذا تزوجت غيره فطلّقها الآخر أو توفى عنها، فلا يجوز للأول رجاعها، فإن ذلك رجس بعدما تدنَّت بالثانى (تثنية الاشتراع٢٤ / ١ـ٤). والإسلام لم يذهب إلى ذلك بالكلية، فشرّع الطلاق والرجاع، وجعل الطلاق حتى ثلاث طلقات، وبعد ذلك تبين المطلقة ولاتجوز لها رجعة، ولو تزوجت البائنة ثم طُلّقت جاز لزوجها الأول أن يعقد عيها من جديد. والمستشرقون دأبوا على الاستهزاء من الإسلام لمخالفته لشرائعهم، وقالوا إن الإسلام دين يطلّق معتنقوه زوجاتهم لأوهى الأسباب، فما أسهل أن يقول الرجل لأمرأته «أنت طالق» حتى تكون مطلقة فعلاً، وما أيسر أن يحلف عليها بالطلاق فإذا عاندته وقع يمينه وصارت مطلقة. وليس كذلك الحال فى الإسلام، فالطلاق منه السُّنّى والبدعى: والسُّنّى هو الذى يكون فى طُهر من غير جماع، ولايكون عن غضب؛ والبدعى ما كان غير ذلك. ولاتكون الزوجة مطلقة نهائياً إلا بعد انقضاء عدّتها. ثم إن الطلاق فى الإسلام مكروه تماماً ولايأتيه إلاّ القلة من الناس. وفى الحديث برواية معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يبغض الطلاق»، وبرواية أخرى قال: «ما أحلّ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق»، وبرواية ابن عمر قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» ؛وقال: «ما أحلّ الله عزّ وجلّ حلالاً أحبَّ إليه من النكاح، ولا أحلّ حلالاً أكره إليه من الطلاق»؛ وبرواية أبى موسى الأشعرى قال: «تزوّجوا ولاتطلّقوا، فإن الله لايحب الذّواقين والذوّاقات» ،وفى رواية أخرى قال: «لاتُطلّق النساء إلاّ من ريبة، فإن الله لايحب الذوّاقين ولا الذّواقات»، والذوّاقون والذوّاقات: من كانت هوايتهم الزواج والطلاق سواء من الرجال أو النساء، يطلبون الزواج شهوةً فى النساء فإذا قضوا وطرهم وأصابهم الملل طلّقوهن ليتزوجوا غيرهن، وكذلك قد تفعل النساء. وقوله «لاتطلق النساء إلا من ريبة»

كقول المسيح عليه السلام: «إنّ الطلاق لايجوز إلا من زنا». فافهم عنى يا أخى المسلم الذكى، ويا أختى المسلمة الذكية، فطريقتنا أفضل الطرق، وديننا أفضل الأديان، وهو الدين الخاتم، وتشريعاته أفضل التشريعات، وإنى لأعجب أين الإباحة التى يرجّفها المرجّفون ويشيعها المغرضون؟! وحسبنا الله، وله الحمد والمنّة.

●●●

١٧٤٦- ﴿الطلاق مرتان فلِمَ صار ثلاثاً؟﴾

الطلاق - فى قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ (٢٢٩)﴾(البقرة): هو حلّ العصمة المنعقدة بين الأزواج بألفاظ مخصوصة، والطلاق مباح بهذه الآية وبغيرها، وبقوله ﷺ: «فإن شاء أمسك وإن شاء طلّق» ، ومن طلّق امرأته طاهراً فى طهرٍ لم يمسها فيه، فقد طلّق للسُنّة، وللعدة التى أمر الله بها، وله الرجعة إذا كانت مدخولاً بها قبل أن تنقضى عدّتها، فإذا انقضت صار خاطبًا يتقدّم لها كسائر الخطّاب. وفى الحديث: «ماخلق الله شيئاً على وجه الأرض أحبّ إليه من العَتاق، ولاخلق الله شيئاً على وجه الأرض أبغض إليه من الطلاق». والعَتاق أن تحفظ الزوجة وتَقْدُم عندك فلا تفرّط فيها. وفى الآية «الإمساك»: يعنى إمساك الزوجة، ويُشترط له«الإحسان»، أى لايظلمها شيئاً من حقّها، ولايتعدى فى قول. والإمساك خلاف الإطلاق، والتسريح: وهو إرسال الشيء، وفيه تسريح الشَّعر ليخلص البعض من بعض، وسرح الماشية: أرسلها. والتسريح يحتمل معنيين: ترك الزوجة حتى تتم العدة من الطلقة الثانية فتكون أملك لنفسها، أو أنه يطلقها ثالثة فيسرّحها. وسُئِل النبىّ ﷺ عن الآية: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ : فَلِمَ صار ثلاثاً؟ قال: «إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان - هى الثالثة». والتسريح من ألفاظ الطلاق: وقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ هى الطلقة الثالثة بعد الطلقتين، وهى التى تعنيها الآية: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ (٢٣٠)﴾(البقرة). وهذا المعنى من محكم القرآن ولم يختلف أهل العلم فى تأويله، فالطلقة الثالثة مذكورة فى صُلب الخطاب، ومفيدة للبينونة الموجبة للتحريم إلا بعد زوج، والمقصود بالآية بيان عدد الطلاق الموجب للتحريم، وإبطال ما كان جائزاً من إيقاع الطلاق بلا عدد محصور. وهذا التعديد هو فسحة للمسلمين فلا يضيّقوا على أنفسهم بجعل الطلقات الثلاث طلقة واحدة، تقال فى كلمة واحدة، فمن طلّق ثلاثاً فى كلمة فلا يلزم، وتحتسب واحدة. وأنكر عمر هذه البدعة وهى إيقاع الطلقة الواحدة بدل إيقاع الناس ثلاث تطليقات، فقد أحدثوا فى الطلاق واستعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة!

●●●

١٧٤٧ـ ﴿الإسلام ينصح بالصبر لا بالطلاق﴾

فى الحديث عن رسـول الله ﷺ قال: «من صبر على سوء خُلق امرأته، أعطاه الله من الأجر مثل مـا أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجـها أعطاها الله مثل ثواب آسية امـرأة فرعون»، وأجر أيـوب لقاء صبره بيّنته الآية: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** (٨٤) ﴾(الأنبياء) فكان صبـره أسوةً لغيره، شبّه به الرسول ﷺ من يصبر على سـوء خلق امرأته، وامرأة فرعون عتّى عليها زوجها كما فى الآية: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (١١) ﴾(التـحـريم)، وكفـر بالله وآمنت، وصبـرت على أذاه وكُفره، فكافأها الله فى الدنيـا والآخرة، فذاك جزاء الـصبر، والله مع الصابرين، ذكـرهم فقال: ﴿**وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ**(٣٥)﴾(الأحـزاب)، أولئـك هم الأثبات، لايضيع الله أجرهم، وصبرهم هو الصبر الجميل. وفى الأثر أن عمر بن الخطاب لمّا جاءه الرجل يشكو إليـه سوء خلق امرأته، لم يدخل على عمـر مرة واحدة ولكنه وقف بالباب فترة، فسمع امرأة عمر تستطيل عليـه بلسانها، وعمر ساكت لايردّ عليها، فانصـرف الرجل يقول لنفسه: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين! فكيف حالى؟ فخرج عمر فرآه موليّاً، فناداه ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خلق زوجتى واستطالتها علىّ، فسمعت امرأتك كذلك، فرجعتُ، وقلتُ: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع امرأته فكيف حالى؟ فـقال عمر: إنى احـتملتهـا لحقوق لها علىّ: إنـها طابخة لطعامى، خـبّازة لخبزى، غسّالةٌ لثيابى، مرضعةٌ لولدى، وليس ذلك بواجب عليها، ويـسكن قلبى بها على الحرام، لذلك فأنا احتملتها! فقال الرجل: يـا أمير المؤمنين، وكذلك امرأتى ! فقال عمر: فاحتـملْها يا أخى فإن أمرها يسـير، فلا تشكُ زوجتك لأحـد، وإذا كان لابد من الشكاية فلتكن لله ربّ العالمين. أما سمعت قول العبد الصالح: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ (يوسف٨٦). وفى النصرانية من ذلك أيضاً قول بولس: إن المتزوجات لايفارقن أزواجهن، ولايفارق المتزوّجون زوجاتهن، والخـير أن يتصالحا» (رسـالة١ / ٧ـ١٠)، وهـذا الأدب لا شىء منه فى اليهودية.

•••

١٧٤٨ـ ﴿التحكيم عند استحكام الخلاف بين الزوجين﴾

الخلاف بين الزوجين فى الإسلام له أحوال ثلاث، فحـالةٌ يكون فيها النفور والنشوز من الزوجة، وذلك تناولته الآية: ﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** (٣٤)﴾(النسـاء)؛ وحـالةٌ يكون فيها النفور من الرجل وتشرحه الآية: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا**

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ(١٢٨)﴾(النساء)؛ وحالةٌ يكون النفور فيها من الزوجين، وفيهـا يقول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا(٣٥)**﴾(النساء). والتحكيم فى الآية من سلطة القاضى إذا وقع الشقاق بين الزوجين، وتفاقم خلافهمـا، وطالت خصومتهما، وشَرْطُ الحَكمين أن يكونا من ثقات أهل الـزوجة وأهل الزوج، ويجتمع الحكمان، ويستمعان إليهما، وينظران فيما آل إليه حالهمـا وإمكان التوفيق بينهما، وما يريانه فى صالحهمـا بالتفريق أو التوفيق، وإذا اجتمع رأيهـما على التفريق أوالتـجميع فأمرهمـا جائز، وعليهما أن يبـيِّنا ما إذا كان الرجل هو المسيء أو أنها المـرأة، وتحديد ذلك فيـه أن الرجل يجب عليه مـؤخـر الصـداق والمتعة والنفقة، أو أن المرأة عليها أن تبرئه من ذلك. وقضى عثمان بن عفان بالحكمين، ولمّا قضى بهما علىّ بن أبى طالب نبهّ الحكمين فقال: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمـعتما. ورضيت المرأة ورفض الرجل أن يحكما بالفرقـة فقال علىّ، كذبت ! والله لاتبرح حتى ترضى بكتـاب الله عز وجل. رواه ابن أبى حاتم. فالتـحكيم من كتاب الله، والإسلام يقـول به، وهو آخر ما أشـارت به التشريعـات المعاصرة، ومـا أخذت به. والحَكمان لهما أن يفرّقـا طالما قد قبلهما الزوجان وقضى بهما القاضى، فـهما وكيلان عن الزوجين، ومن شأن الحَكَم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه وهو ظاهر الآية، والحمد لله الذى فى دينه كل هذه السعة، فلا اليهودية ولا النصرانية تقضى بالتحكيم أو تعرف عنه، وإنما فى النصـرانية المصـالحـة، ووعظ بهـا بولس الرسـول، فلا تفـارق المرأة الرجل، ولايفارقها، وليبقيا زوجين وليتصالحا (الرسالة الأولى لاهل كورنثس ٧ / ١١).

●●●

١٧٤٩. ﴿أنواع الطلاق﴾

الطلاق إمـا واجب، أو مندوب إليـه، أو مباح، أو مكروه، أو مـحظور. **والطلاق الواجب**: مثل طلاق المُؤلى بعد التربُّص إذا أبى الفدية، أو الذى يستوجبه تفريط المرأة فى حقوق الله الواجبة عليها كالصلاة ونحوها، أو تكون المرأة غير عفيفة؛ **والطلاق المندوب إليه**: كالطلاق إذا استـحكم الخلاف وقـضى به الحكمان كـما فى الحـال التى تُحوِج المرأة إلى المخـالعة؛ **والطلاق المباح**: هو ما يُلجأ إليه عند الحاجة لسوء خُلق الزوجة؛ **والطلاق المكروه**: هو الذى لاحاجة إليه، وقيل هو محرّم، وقيل هو مباح؛ **والطلاق المحظور**: هو الطلاق فى الحيض أو فى طُهر جامعها، والإجماع على تحريمه، ويسمى **الطلاق البدعى**.

●●●

١٧٥٠. ﴿الخلع والفدية والمباراة﴾

الخُلع: هو إبانة الزوجة على مال تفتدى به نفسها، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** ﴾(البقرة٢٢٩)، وقوله: ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** (٤) ﴾(النساء٤). ولايقع الخلع إلا بلفظين هما الخلع والطلاق مع الفدية، فأيهما حصل كفى، فإذا قالت له: بذلتُ لك كذا لتطلقنى، فقال هو: خلعتك على ذلك، أو قال: أنت طالق على ذلك، صحّ، والأفضل الجمع بين الصيغتين فيقول: خلعتك على كذا فأنت طالق. والفدية: هى العوض الذى تبذله المرأة للزوج كى يطلّقها، وكل ما يصحّ كمهر فهو فدية، ويجوز أن يكون المهر هو الفدية، أو أقل منه مما يتراضيان عليه، ولايجوز أن تكون الفدية أكثر من المهر. والمبارأة: هى المفارقة، وهى كالخلع، إلا أن الكراهية فى الخلع من الزوجة، وفى المبارأة من الزوجين، ويصح الخلع بلفظ خلعتك، وتصحّ المبارأة بلفظ بارأتك وأنت طالق.



١٧٥١. ﴿المسلمة بوسعها الطلاق، والخلع طلاق﴾

بوسع المسلمة الطلاق إذا رأت أن استمرارها مع زوجها فيه غُبن لها، وظُلمٌ لوضعها، والخُلع وسيلة من وسائل الطلاق المنشود، وهو أن تفتدى المرأة نفسها من زوجها بقدر من المال يتفقان عليه، ويكون تعويضاً للزوج عما أنفقه فى زواجه منها. والخُلع إذن افتداء، وما تدفعه المرأة أو تعيده إلى الزوج يقال له «فدية». ولفظة «الخُلع» مأخوذة من خَلْع الثياب، فقد ورد عن الله تعالى قوله فى علاقة الأزواج ببعضهم: ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** (١٨٧) ﴾(البقرة). ولم يكن الخلع جديداً حينما دخل الإسلام، فكان العرب فى الجاهلية يتخالعون، ويُروَى أن أقدم خلع للعرب كان خُلع ابنة عامر بن الظرب، تزوجت ابن عمها عامر بن الحارث بن الظرب، فلما دخلت عليه فوجئت بقبحه. ولم تكن قد رأته من قبل، فنظرت منه ولم تمكّنه من نفسها، فشكا إلى أبيها، ولم يريا إلا الطلاق، فقال له أبوها: لا أجمع عليك فراق أهلِك ومالك، وقد خلعتها منك بما أعطيتها» ، يعنى بإعادة ما أعطاها. وفى الإسلام فى خلع حبيبة بنت سهل امرأة ثابت بن قيس، أنه ضربها فكسر يدها، وأصرّت على الطلاق، فانخلعت منه بمالٍ افتدت به نفسها، ويبدو أن ثابت بن قيس هذا قد تكرر معه الخُلع، فقد اختلعته أيضاً جميلة أخت عبدالله بن أبىّ ـ كبير الخزرج ورأس النفاق المشهور، ويبدو أن دمامته كانت السبب فى انخلاع النساء عنه، وفى الرواية أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبىّ ﷺ فقالت: يارسول الله! ما أعيب على ثابت فى خُلق ولادين،

ولكنى أكره الكفر فى الإسلام! ـ قصدت بذلك أن دمامته تنفّرها منه وتخشى من ذلك أن لاتقيم حدود الله، ولاتمكّنه منها، فيكون الشقاق. وكان ثابت بن قيس قد أصدقها «حديقة»، فقال لها النبيّ ﷺ : «أتردّين عليه الحديقة؟» ، فوافقت وقالت: وإن شاء زدته! ففرّق الرسول ﷺ بينهما. وعن ابن عباس أن الخلع فَسْخ وليس بطلاق، وقد أمر الرسول ﷺ امرأة ثابت بن قيس أن تتربص حيضة وتلحق بأهلها، وفى ذلك دليل على أن الخلع فسخ، بينما فى الطلاق لا تحلّ المرأة لغير زوجها إلا بعد ثلاثة أقراء. وشَرْط طلب الخلع من جانب المرأة أن تؤسسه على أسباب، وإلاّ فإن النبيّ ﷺ قد نهى أنْ تطلب المرأة أن تنخلع عن رجلها، فقال: «أيّما امرأة سألت زوجها طلاقها فى غير بأس فحرامٌ عليها رائحة الجنّة»، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة، وقال: «المختلعات هن المنافقات» رواه الترمذى، وبراوية أحمد قال: «المختلعات والمنتزعات هن المنافقات» وفى الرواية عن جميلة امرأة ثابت بن قيس أنها قالت للرسول ﷺ : يارسول الله، بى من الجمال ما ترى، وثابتٌ رجلٌ دميم. والله لولا مخافة الله، إذا دخل علىَّ لبصقتُ فى وجهه! وفى رواية قالت: يارسول الله! لايجتمع رأسى ورأس ثابت أبدًا! إنى رفعتُ جانب الخباء فرأيته أقبلَ فى عدّة، فإذا هو أشدّهم سواداً ، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهًا! .وفى الرواية أيضًا أن النبيّ ﷺ أمره ففارقها.

والخلع مشروع وأجازه عمر بن الخطاب بالاتفاق بين الزوجين بدون القاضى، وغالى عثمان بن عفان فأجازه دون عِقاص الرأس، والعقاص هو منديل الرأس للمرأ، أى أنه أجاز أن يأخذ الرجل من امرأته الفداء كل شىء عندها، فلايبقى لها إلا ما عليها من ثياب!!! ولذلك كان الخلع مكروهاً. ويحتج القائلون بأنه فى الخلع يجوز للرجل أن يأخذ من المرأة أكثر مما أعطاها بالآية: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ(٢٢٩)﴾(البقرة)، غير أنه فى الآية: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ(٢٢٩)﴾(البقرة) فألزم الله تعالى الرجل أن لايأخذ مما يؤتى امرأته شيئًا، وشرط الفداء بمخافة الشقاق والفساد، وكان عروة يقول: لايحلّ للرجل الفداء حتى يكون الفساد من قبل المرأة، فإذا كرهت المرأة رجلها وطلبت الطلاق فله أن يأخذ منها ما يعوّضه، ثم يخلى عنها. وكراهية الخلع تتأتى من الخوف أن تتمحّله النساء الذوّاقات، أى المحبّات للزواج واستبدال الأزواج، والرسول ﷺ لعن الذوّاقات. وقد يتحمل الخلع الرجال ويتخذونه تجارة، أو يستخدمونه ليضيّقوا على النساء ويضجروهن ويجبروهن على أن يفتدين أنفسهن، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾(النساء

١٩). والشقاق إذا كان من قِبَل المرأة أو الرجل جاز الخلع لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴿٣٥﴾﴾(النساء). والخلع يشرع إذا كرهت المرأة عشرة الرجل ولو لم يكرهها ولم ير منها ما يقتضى فراقها؛ ولايشرع الخلع إذا كرهها الرجل ولم تكرهه، فيضاجرها لتفتدى منه . وفى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾(النساء١٩) أن الفاحشة المبيِّنة هى الشرط الذى يؤسَّس عليه الخلع أو الافتداء للرجل، وقال ابن عباس وابن مسعود فى تفسير الفاحشة أنها الزنا، وقالا: إذا زنت المرأة فلَكَ أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتَها، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها». واستدل أحمد على أن الفدية فى الخلع لاتكون إلا بما أعطى الرجل المرأة عينًا أو قدره، لقوله ﷺ : «أتردِّين عليه حديقته»؟ وفى رواية ابن ماجة والبيهقى عن ابن عباس قال: فأمره الرسول ﷺ أن يأخذ منها ولا يزداد» ، وفى رواية أخرى قال له الرسول ﷺ «ولاتزدد» وفى رواية أخرى قال: «أما الزيادة فلا» ، وفى رواية الثورى أنه: كرِّه أن يأخذ منها أكثر مما أعطى، وفى رواية الدارقطنى والبيهقى عن ابن عباس قال: «أتردين عليه حديقته التى أعطاك؟»، قالت: نعم وزيادة، قال: «أما الزيادة فلا ولكن حديقته» قالت: نعم. فأخذ ثابت بن قيس ماله وخلّى سبيلها. وأخرج عبدالرزاق عن علىّ بن أبى طالب: «لايأخذ منها فوق ما أعطاها». غير أن الله تعالى يقول ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴿٢٢٩﴾﴾(البقرة)، وعن ميمون بن مهران قال: من أخذ أكثر مما أعطى لم يسرّح بإحسان. وعن سعيد بن المسيب قال: ما أحب أن يأخذ منها ما أعطاها! ليَدَع لها شيئًا! ـ وقال مالك: لم أزل أسمع أن الفدية تجوز بالصداق وبأكثر منه، لقول تعالى: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴿٢٢٩﴾﴾(البقرة) ، فإذا كان النشوز من قِبَلها حلّ للزوج ما أخذ منها برضاها، وإن كان من قِبَله لم يحلّ له ويَرُدُّ عليها ما أخذ، وتُمضَى الفرقة». وفى كل الأحوال يُشترط للفدية: أن تكون عن سبب من المرأة، وأن تدفعها برضاها وعن طيب نفس. وقد تقدم أن الفداء يكون «بالعينى» وليس «بالنقدى»، والعينى هو ما أخذته المرأة منه كالحديقة مثلاً ولايكون مالاً، لأن الحديقة موجودة لم تنفقها، ولكن المال أنفقته، فمن أين تحصل عليه لتفتدى نفسها؟ ويفرق مالك بين المختلعة، وبين المفتدية ، وبين المبارئة: فالمختلعة: هى التى تختلع عن كل مالها؛ والمفتدية: هى التى تفتدى ببعض مالها، والمبارئة: هى التى تبارىء زوجها قبل الدخول. وكما ترى أخى المسلم الذكى، وأختى المسلمة الذكية، فإن الخلاف بين أهل العلم والرواية واسع، وفى خلافهم رحمة ومتسع، والاختلاع إن قُصِد به أن تختلع المرأة عن زوجها فليس فى اللفظة ما يشير إلى عوضٍ من مال أو غيره، فإذا قلنا إنه افتداء فإن الله تعالى لم يفرضه على الزوجة وجعله اختياراً، وشرطه بأن يتوافقا عليه .وفى

الحديث عن سعيد بن جبير أن النبىّ ﷺ لّما اختلف الزوجان من **عجلان**، وعرضا أمرهما عليه، وأصرّ كل منهما على موقفه، واستتابهما فلم يتوبا؛ فرّق بينهما، فلمّا طلب الرجل ماله، يقصد ما دفع من صداق، قال له الرسول ﷺ: «**لامال لك - إنْ كنتَ صادقاً فقد دخلت بها، وإن كنت كاذباً فهو أبعد منك**». فبقول الرجل «**مالى**» كأنه يسأل: **أيذهب مالى**؟ فأُجيب بأنه: **قد استوفى ماله بدخوله عليها وتمكينها له من نفسها، فإن كانت قد كرهته أو كرهها، فلامال له عندها، فقد استحلّ به فَرْجها واستمتع بها**. وقد حذّر الله تعالى من الشُّحَ فقال: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝**﴾(الحشر)، وعن عبدالله بن عمرو: أن الشحيح بالمعنى الذى فى القرآن ليس هو الذى لا يُخرج المال من يده، فذلك هو **البخيل**، وإنما **الشحيح**: هو الذى يأكل مال أخيه ظلماً، فالرجل الذى يغصب المرأة على أن تفتدى نفسها بصداقها، وربما بأكثر من ذلك حتى ليعريّها إلا من منديل رأسها وثيابها التى تسترها، فذلك هو **الشحيح الذى لن يفلح!** وقانا الله الشُّحَّ أخى المسلم، وأختى المسلمة، اللّهُم آمين.

•••

١٧٥٢. ﴿الخلع﴾

ألفاظ الخلع منها الصريح:كقول القائل لزوجته: **خالعتك، وفاديتك، وفسخت نكاحك**، فإذا قال أحد هذه الألفاظ وقع الخلع من غير نية، وما عدا ذلك كأن يقول: **بارأتك، وأبرأتك، وأبنتُك**، **فهو** كناية، فإذا طلبت الزوجة الخُلع وبذلت العوض، فأجابها بصريح الخلع أو كنايته، صحّ من غير نية، وإن أتى بصريح الخلع وقع من غير نية، وكل **ذلك يشترط** له بداهةً **شاهدان** وأن يكون **أمام القاضى أو الموثق** إثباتًا للأمور، وإن كانت المرأة دون الرشد فيشترط لها حضور وليّها، لأنه لايصح خلع الصغيرة. وتعتد المختلعة كعدة المطلقة. والخلع باطل شرعاً إن كان دفعاً من الزوجة لأذى الزوج، وضربه لها، وتضييقه عليها، ومنعها حقوقها ونفقتها ونحو ذلك لتفتدى نفسها. وأما إن كان برضا الزوجة لكراهيتها للزوج، لكِبَر سنّه، أو مرضه، أو قُبحه، أو قلة دينه، أو ضعفه، أو نحو ذلك، وخشيت أن لاتؤدّى حق الله فى طاعته، أو خشيت على نفسها الفتنة، جاز لها أن تخالعه بعوض تفتدى به نفسها، ويسمى **افتداءً أو خُلعاً**. ولا نرى **التوكيل** فى الخلع إلا لسبب قهرى. ويكون الخلع بردّ المهر، أو مهر المثل. ولا بأس أن يقع الخلع فى **الحيض** أو فى الطهر. ولايصحّ خلع **المحجور عليها أو المجنونة**، وشأنهما فى ذلك شأن **الصغيرة**. ومخالعة الزوج لأى من هؤلاء الثلاثة **طلاق**، ولايستحق عنه عوضاً. والمخالَعَة **فى المرض**

صحيحة. ولا نفقة للبائن بخلع ما لم تكن حاملاً. وقيل: يجوز للمختلع أن يخالع امرأته على نفقة عدّتها إن كانت حاملاً! وعلى رضاع ولده!! وعلى كفالته!!! ويجوز تحديد المدة، ويمكن تقسيط العوض، ولارجعة في الخلع، وتصحّ المخالعة على المهر كله أو بعضه قبل الدخول.

•••

١٧٥٣.﴿أول خلع في الإسلام﴾

قيل: أول منَ خالع في الإسلام: أخت عبدالله بن أُبي، أتت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، لايجتمع رأسي ورأسه أبدًا ـ تقصد زوجها ثابت بن قيس. إني رفعتُ جانب الخباء فرأيته أقبل في عِدّة إذ هو أشدّهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهًا!. فقال: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، وإن شاء زدته. ففرّق بينهما. قيل: وهذا الحديث أصلٌ في الخلع، وهو أن الرجل إذا لم يضر بالمرأة، ولم يسيء إليها، ولم تؤتَ من قِبله، وأحبت فراقه، قيل: فإنه يحلّ له أن يأخذ منها كل ما افتدت به.

•••

١٧٥٤.﴿الطلاق سنّي وبدعي﴾

الطلاق ثلاثة أقسام: سنّي وبدعي، وطلاق ثالث لاوصف له. وطلاق السُنّة: هو الذي شرعه الله وبيّنه رسوله ﷺ، ويقع صحيحاً، وتنحل به العصمة بين الزوجين؛ وطلاق البدعة: هو غير المشروع، ومنه أن يطلق الرجل امرأته الحائض أو النفْساء، أو أن يطلقها في طُهر واقعاً فيه، أو أن يطلقها ثلاثاً بصيغة واحدة أو أكثر حيث تصحّ منها تطليقة واحدة، أو أن يطلق بغير شهود، أو أن لايوثق طلاقه. وأما طلاق السنة فهو أن يطلق زوجته مع الشروط المقررة وتوافرها كاملة، فيطلقها طاهرةً من غير جماع، وبشهادة الشهود، ويوثقه قاض، كقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ①﴾ (الطلاق) أى في الطهر من غير جماع، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ②﴾ (الطلاق) وقبل ذلك كان الناس يطلقون لغير عدّة، ويراجعون بغير شهود، فنزلت الآية. والناس الآن في جاهلية أخرى، ويفعلون نفس الشيء، وصاروا يطلقون في الحيض، أو في طُهر يجامعون فيه. وطلاق القاضي إذا صدر والمرأة في حيض في حُكم الطلاق البدعي. والطلاق الثالث الذي هو لا سنّه ولابدعة، هو طلاق الصغيرة التي لم تحض بعد، والآيسة التي انتهى حيضها، وغير المدخول بها.

•••

١٧٥٥.﴿طلاق السنة﴾

له سبعة شروط: هو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهرة لم يمسّها الزوج في

ذلك الطُّهـر، ولاتقـدّمه طلاق فى حـيض، ولا تبـعه طلاق فى طُهْـر يتلوه، وخـلا عن العوض.

•••

١٧٥٦. ﴿الطلاق صريح وكناية﴾

الطلاق على ضـربين: صـريح وكناية، فـالصـريح كـمـا فى الآية: ﴿ **أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** (٢٢٩) ﴾(البقرة)، والآية: ﴿**أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** (٢) ﴾ (الطلاق)، والآية: ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** (١) ﴾(الطلاق)، فألفاظ الطلاق الصريح ثلاثة هى: **الطلاق، والسراح، والفراق**،كأن يقول: «**أنت طالق**»، أو«**أنت مطلقة**»، أو «**قد طلقتك**» إلخ؛ ومنها: **الحرام، والخلية، والبرية، كأن يقـول**: «**أنت علىّ حرام**» إلخ. **والطلاق الكـناية** ماعدا ذلك، والفرق بينهما أن الصريح لايفـتقـر إلى نيّـة، بل بمجـرد اللفظ يقع الطلاق، وبالطبع لابد مـن شهـود، وأن يكون محـررًا، فهذه شيمة العصر والمعـروف فيه، ولايعتد بغير ذلك، وأما **الكنـاية فيفـتقر** إلى النيـة. والحجة فى ذلك أن ألفاظ الحرام، والخلية، والبريـة، يكثر استعمالها فى الطلاق، فهى واضحة فى إيقاعه؛ وأما ألفاظ مثل: «**حَبْلُك على غاربك**»، أو «**الحقى بأهلك**»، أو «**قد وهبتك لأهلك**»، أو «**قد خلّيتُ سبيلك**»، أو «**لاسبيل لى عليك**»،أو «**استقلّى بأمرك**»، فهى من الكنايات، ويلزمها النية، ويلزمـه من الطلاق ما نوى، فإن قال: أردتُ بمخرج الكلام منى طلاقًا، فيكون ما نوى. وقيل: كل كلمة، سـواء كانت: فارقتك، أوسرّحتك، أو البرية، أو الخلية، وسائر ذلك من الألفاظ، **فهى على نية المطلّق**، لأن كل كلمة تحتمل أن تكون طلاقًا أو غير طلاق، **فلايجـوز** أن يلزم بها الطلاق، إلا أن يقرّ المتكلم أنه أراد بها الطلاق فيلزمه ذلك بإقراره. وأصل هذا الباب فى **كناية الطلاق**، ما روى عن النبىّ ﷺ أنه قال للتى تزوجها حين قالت أعوذ بالله منك: «**قد عذت بمعاذ، الحقى بأهلك**» فكان ذلك طلاقاً. ومع ذلك فإنه ﷺ أمَر كعب بن مالك أن يعتزل زوجته، فقال لها كعب «**الحقى بأهلك**»، فاستخدم نفس الألفاظ التى استـخدمها الرسول ﷺ. ولـم يكن ذلك طلاقاً، فدلّ على أن هذه الألفاظ مفـتقرة إلى النية، وأنهـا لا يُقضى فيها إلا بما ينـوى اللافظ بها، وكذلك سائر الكنايات المحتملات للفراق. وخيرٌ من ذلك جـميعاً أن لا يُعتدّ بما يقال من كلمات، وإنما يكون الاعـتداد **بالطلاق الموثق، والمشهود عليـه بالشهود العدول**،أمـام **قـاض** للأحـوال العائلية، فلا يكون القول **بالنيـة**، وفى ذلك تلاعبٌ بالألفاظ أو تحللٌ منها، وادّعاء أنه لم يقصد بها الزوج الطلاق، وأن نيته لم تكن أن يطلق.

•••

١٧٥٧.﴿الطلاق رجعي أو بائن﴾

الطلاق السُّنّي إما رجعي وإما بائن، **والطلاق الرجعي**: هو ما يملك معه المطلق الرجعة إلى المطلّقة ما دامت فى العدّة، ومن شرطه أن تكون مدخولاً بها، ولايكون الطلاق عوَض مال تدفعه الزوجة لِتُفتَدى به وتتحرر، وأن لا يكون مكملاً للثلاث . وتعتبر المطلقة الرجعية بحكم الزوجة، وللمطلق كل حقوق الزوجية عليها، ويحصل التوارث بينهما لو مات أحدهما قبل انقضاء العدة، ولايحدث الطلاق الرجعى شيئاً سوى أنه يعدّ من التطليقات الثلاث. وأما **الطلاق البائن**: فهو الذى لايملك المطلق فيه الرجعة إلى المطلقة، ويشمل غير المدخول بها، والمطلقة ثلاثاً، والمطلقة خُلْعاً، والآيسة الحيض، والصغيرة التى لم تحض، والحامل التى استبان حملها.

●●●

١٧٥٨.﴿لاتمسك المرأة ضراراً﴾

لايجوزلمسلم أن يحبس المرأة ويراجعها قاصداً إلى الإضرار بها، لقوله تعالى: **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ(٢٣١)﴾**(البقرة)، ويوافق ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ(٢٣١)﴾** (البقرة)، ومن الإمساك بالمعروف أن يطلق الزوج زوجته إذا لم يجد ما ينفقه عليها، وإن لم يعرض عليها ذلك فقد خرج عن حدّ المعروف، وللقاضى أن يطلقها منه من أجل الضرر اللاحق لها من بقائها عند من لايقدر على نفقتها، والجوع لا صبر عليه، وتتعلق النفقة بذمته. وقيل: بل تصبر الزوجة بدليل الآية: **﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ(٢٨٠)﴾**(البقرة)، والآية: **﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ(٣٢)﴾**(النور) وهم الفقراء، فلا يجوز أن يكون الفقر سببًا للفرقة. «**والتسريح بإحسان**» هو الطلاق، وقد تقدم: «**ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا**»، وكان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ثم يراجعها ولاحاجة له بها ولايريد إمساكها، كيما تطول مدة العدة عليها ليُضارّها، فأنزل الله: **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ(٢٣١)﴾** يعنى يعرّض نفسه للعذاب.

●●●

١٧٥٩.﴿لايحق للمسلم أن يطلق إلا فى طهر﴾

فى الآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ(١)﴾**(الطلاق)، يوجه الله الخطاب للنبىّ ﷺ تشريفاً وتكريماً، ويخاطب من خلاله الأمّة تكليفاً، والتقدير يا أيها النبىّ وأمّته على إضمار قُلْ لأمتك، فخصّ النبىّ ﷺ بالنداء لأنه إمام الأمة ومبلّغها. يقول : إذا أردتم التطليق واستقر عليه رأيكم من بعد ما يتبين لكم أنه الحلّ

الذى لم يعد عندكم غيره، **فطلقوا للعدّة،** أى عند ابتداء شروع الزوجة فى العدة، وأحصوا هذا اليوم الذى تبدأ به العدة واحفظوه . **والطلاق الصحيح** :أن يطلقها فى طُهر من غير جماع، ويشهد على الطلاق **شاهدان عدول**، كقوله تعالى:**﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۝٢﴾**(الطلاق) والآية نزلت ـ كما يقول ابن عباس فى نفر من المهاجرين: كانوا يطلّقون لغير عدة، ويراجعون بغير شهود». والطلاق الصحيح هو **الطلاق السنّى**، وعكسه **الطلاق البدْعى** وهو الذى يتم فيه الطلاق فى **الحيض**، أو فى **طُهْرٍ جامعها فيه** ولم يتبين هل حملتْ أم لا، ونوع ثالث من الطلاق منه **طلاق الآيسة والحامل** التى قربت ولادتها، والخُلع. **وطلاق الحائض محرّم قطعاً إلا فى حالات**.وعن **عبدالله بن عمر بن الخطاب** أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ، وسأل عمر النبىّ ﷺ عن ذلك فقال له: «**مُرْهُ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر**، ثم إن شاء **أمسك بعد، وإن شاء طلّق قبل أن يَمَسّ، فتلك العدّة التى أمر الله أن تُطلقّ لها النساء**»، والحديث برواية ابن مسعود: «**ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإنْ بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسّها، فتلك العدّة التى أمر بها الله عزّوجل**» ، والتشريع ليس له مثيل ولا ضريب فى أية شريعة على الأرض، ولم تكن له سابقة أبداً، وفيه الكثير من العقل والرحمة حتى لأعجب من جُرأة المستشرقين والعلمانيين على الفقة الإسلامى بعامة وهو أعلى وأسمى وأسمق فقه، بما يحوى من قضايا، وما يشتمل من آراء ومجادلات ومناقشات. يقول ابن عباس: لايطلقها وهى حائض، ولافى طُهر قد جامعها، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلّقها تطليقة». والعدّة عند البعض هى **الطُهر؛ والقرْء** فى الآية: **﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۝٢٢٨﴾**(البقرة) هو الحيض أو الطهر وهو ما اصطلح عليه باسم **العدّة**، يعنى: عليها أن تتربّص بنفسها **ثلاث حيضاتٍ أو ثلاثة إطهار**، ثم يحلّ لها أن تتزوج إن شاءت بعد أن تأكد خلوها من الحمل. **ولايحق للمرأة أن تكتم حَمْلها** إذا كانت حاملاً، أو أن **تدّعى الحيض**، ومرجع ذلك ضميرها وشهادتها، وذلك إكبار وأى إكبار لأنوثة المرأة وشهادتها، وقد خصّها **الله بالمرجعية فى** هذا الأمر، لأن الحمل والحيض لا يُعلمان إلا من جهتها، وتوعدها **الله** إن شهدت بغير الحق استعجالاً منها لانقضاء العدّة، أو رغبةً منها فى تطويلها لما لها فى ذلك من مقاصد. والعلوم الطبية الآن يمكن أن تؤكد حمل المرأة أو عدمه، ومن ثم قد لايكون هناك مبرر للعدّة.والمرأة ـ بحسب الطريقة

قبل العلمية ـ إذا تبين حَمْلُها وهى فى العدة، أو إذا رغب الزوجان فى استئناف حياتهما وقد ثابا إلى رشدهما، فالأولى بهما أن يفعلا ذلك لأنه خير، وذلك ما جعل الرسول ينهى عن **الطلاق فى الحيض**، ليعطى الزوجان فسحة أن يتصالحا، فالتشريع الإسلامى ليس كتشريعات اليهود والنصارى، حيث لامناسبة للتشريع فى اليهودية والنصرانية، ولا مسوغ ولاسبب ولاداع يستلزمه، ولاهو يخفف عن الناس، وعلى عكس ذلك فى الإسلام فإن **التشريع يتنزل وفق الحاجة إليه، ولمصلحة الناس**. وتروى **أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية** أنها: طُلِّقت على عهد رسول الله ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله عزوجل العدّة للطلاق، **فكانت أول من نزلت فيها العدة**». وأيضًا فإن **الطلاق البائن والطلاق الرجعى** هما من الإبداع التشريعى فى الإسلام، فلمّا نزلت الآية: **﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا (٢٢٨)﴾**(البقرة)، لم يكن هناك ـ حال نزولها ـ مطلقة بائن ، وإنما كان ذلك لمّا حُصروا فى الطلاق بالآية: **﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ (٢٢٩)﴾** (البقرة)، فكان الرجل قبلها أحق برجعة امرأته وإن طلقها **مائة مرة!** ثم إنه من بعد هذه الآية لم يعد له إلا طلقتان رجعيتان، **ثم الثالثة بائنة**، فصار فى المطلقات هذا المصطلح الجديد «**البائن وغير البائن**». ورجعة المرأة ليست عن ذل كما يرّجف المرّجفون، ولا هى بالغصب فما من تشريع يغصب المرأة على معاشرة رجل لاتطيقه.، وليس معنى **أن بعلها أحق** بمراجعتها أن له ذلك بلا شروط، وإنما الشرط الحاكم للمراجعة **موافقتها**، باعتبار **أن لها من الحقوق مثل ما عليها، وأنها تتساوى فى ذلك مع الرجل، فلا سيد ولامسود فى نظام الزواج، ولااستكبار ولا استعلاء، وللرجل درجة زيادة عليها**، وهى مسئوليته عن البيت، ماديًا وأدبياً، لأن له الدراية الأكثر، والخبرة الأعرض، وهو الأحق ـ بمنطق أهل علم الإدارة وبمقاييس علم النفس الإدارى ـ أن تكون له القوامة على البيت، **والقوامة** ليست رئاسة مطلقة ولا استبداد وديكتاتورية وإنما هى القيام بالمصالح، والنهوض على شئون الزوجة والأولاد، بما يحقق التكافل والتربية الفاضلة، وأما الرجعة فهى موضوع آخر يخصّ المرأة بالدرجة الأولى، ويقتضى **موافقتها**.

●●●

١٧٦٠.﴿من يصح طلاقهن فى الحيض﴾

يصحّ طلاق خمس من الزوجات فى الحيض وغيره: **فأولاً**: الصغيرة التى لم تبلغ التاسعة؛ **وثانياً: التى لم يدخل بها الزوج**، ثيّباً كانت أو بكراً، مع الخلوة وعدمها؛ **وثالثاً: الآيسة**، وهى التى انقطع حيضها ببلوغها **سن الإياس؛ ورابعاً**: التى غاب عنها زوجها مدةً تحيض فيها وتنتقل إلى طُهر، ومقدارها شهر، **وخامساً: الحامل** المتيقن حملها، رغم أنه لم يدخل بها، أو رغم أنه غائب عنها مدة أطول من مدة حملها.

●●●

١٧٦١. ﴿المسترابة﴾

المسترابة: من المصطلحات فى الطلاق، وهى المرأة فى سن من تحيض ولكنها لاتحيض خلقةً، أو لمرض، أو نفاس، من راب ريبةً، وهو الشك والمظنّة ويقال أرابه أى أقلقه وأزعجه، واسترابه أى رأى منه ما يُريبه. وعلى ذلك فالمسترابة: هى التى يُظن أنها لاتحيض وسن ثم لاتحمل،وهذه يحق لزوجها أن يمسك عنها ثلاثة أشهر، ثم يطلقها إذا أراد.

•••

١٧٦٢. ﴿طلاق المسلم ثلاث طلقات متفرقات﴾

الطلاق محرّم فى النصرانية إلا لعلّة زنا، ومن يتزوج مطلّق فقد زنا (متى٥/-٣٢)، ومباحٌ فى اليهودية، وللمطلّق أن يعاود الزواج من مطلقته ما شاء من مرات لاحدود لذلك إلا أن تتزوج غيره، فليس له أن يتزوجها من بعد طلاقها من الآخر، لأنها بهذا الزواج قد تدنّست. والإسلام بخلاف ذلك، والمسلمون يتوسطون اليهود والنصارى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا(١٤٣)** ﴾(البقرة)، فلا هم مع الإباحة الكاملة، ولا هم مع التقييد والتضييق الكاملين، وديانتهم لذلك من أكمل الديانات، وشريعتهم من أقوم الشرائع، ومنهجهم من أسلم المناهج، ومذهبهم من أوضح المذاهب. وهذه الوسطية هى التى يحسدنا عليها اليهود، وتهجّمهم علينا من خلال المستشرقين منهم، وتشنيعاتهم على ديننا، وكراهيتهم لنا، إنما مصدرها جميعاً هذه الوسطية أو التكاملية. فلما كان المسلمون فى ابتداء الإسلام ولم تكن تشريعاتهم قد اكتملت بعد، كان الناس يطلّقون كاليهود ما شاء لهم الطلاق ولو مائة مرة، وما دامت المرأة فى العدة يراجعها زوجها، وهو الأحق برجعتها فى كل الحالات، وكان ذلك من أكبر الضرر على الزوجات. فنزل التشريع يقصر الطلاق على ثلاث مرات متفرقات، وأباح الرجعة بشروطها فى العدّة للطلقتين الأولى والثانية، وأبانها بالكلية فى الطلقة الثالثة، فقال: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ(٢٢٩)** ﴾ (البقرة). وعن هشام بن عروة عن أبيه: أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا آويك أبداً! قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك! - فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ** ﴾ الآية وعن عائشة قالت: لم يكن للطلاق وقت، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدّة. وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس،فقال: والله لأتركنك لا أيّماً ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضى راجعها. ففعل ذلك مراراً، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ(٢٢٩)** ﴾، فوقّت الطلاق

ثلاثاً لارجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره». وعن ابن عباس قال: «إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتّق الله في ذلك - أي في الثالثة - فإما أن يمسكها بمعروف فيُحسن صُحبتها، أو يسرّحها بإحسان فلا يظلمها من حقّها شيئاً»، يعني: أن المعاشرة لها أصول، والمفارقة لها أصول، ولاتجاوز لهذه الأصول لمن كان يؤمن بالله. ومراجعة المرأة بعد الطلاق الأول أو الثاني لها أيضاً أصول، ولابد فيها من الشهادة، وأن تكون في العدّة قبل أن تنقضي. وكذلك الطلاق له أصول وقواعد لايتعداها مطلّق وإلا فقد تعدّى حدود الله، ومن ثم كان لابد من وجود تشريعات تطبيقية تنظم ذلك كله في إطا مصلحة الناس، وظروف العَصْر والمِصْر، ويقتضي الأمر أن يقوم بذلك قاضٍ له دراية بالفقة، وله ما يستند إليه من القوانين. والزواج والطلاق والرجعة كلها تستلزم محرّرات قد يستدعي الأمر التحقيق فيها، والتحقق من أية بيانات تشتمل عليها، وما هو موجود الآن ليس سوى فوضى، المسئولة عنه الحكومات والمجالس التشريعية ولادخل للشريعة فيه. وحسبنا الله.

●●●

١٧٦٣. «طلاق الثلاث لايقع إلا واحدة»

عن ابن عباس فيما أخرجه مسلم، قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم». وبرواية عبدالرزاق بطريق طاوس: أن أبا الصهباء قال لابن عباس: أتعلم إنما كانت الثلاث تُجعَل واحدة علي عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وثلاثاً من إمارة عمر؟ قال ابن عباس: «نعم». وبرواية حماد بن زيد بطريق طاوس أيضاً: أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم يكن طلاق الثلاث على عهد رسول الله واحدة؟ قال: قد كان ذلك، فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم»، يعني أن قول الرجل لامرأته أنت طالق ثلاثاً هي طلقة واحدة، والكلام في قوله «طالق ثلاثاً» متصل غير منفصل، يقوله الرجل مرة واحدة، ويقع به الطلاق مرة واحدة وليس ثلاثاً. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد امرأته ثلاثاً في مجلس واحدة، فحزن عليها حزنًا شديداً، فسأله النبيّ ﷺ: «كيف طلقتها؟» قال: ثلاثاً في مجلس واحد، فقال النبيّ ﷺ: «إنما تلك واحدة، فارتجعها إن شئت»، فارتجعها»، والحديث نصٌّ في المسألة لايقبل التأويل برواية سعيد بن منصور عن أنس: أن عمر كان إذا أُتي برجل طلق امرأته ثلاثاً أوجع ظهره». وفي حديث محمود بن لبيد قال: أُخبر النبيّ ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات

جميعاً، فقال: «أيُلعَب بكتاب الله وأنا بين أظهركم»؟ يشير إلى الآية: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ(٢٢٩)﴾ (البقرة) يعنى يطلقها مرة فى وقت، ويطلقها مرة ثانية فى وقت آخر، فهاتان طلقتان رجعيتان، فإذا طلق للثالثة بانت. وجعل الله تعالى الطلاق ثلاث متفرقات للحكمة التى أوردها رسول الله ﷺ فى الحديث «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» فمن يحلف بالله ثلاثاً لايعد حَلِفه إلا يميناً واحدة، فليكن المطلّق مثله، وليكن الطلاق المشروع كما فى الآية لايكون بالثلاث دفعة، بل على الترتيب المذكور.

•••

١٧٦٤. ﴿الفسخ والطلاق﴾

يفترق الفسخ عن الطلاق، فالفسخ من غير شهود، ويحتاج إلى حُكم القاضى، والطلاق قد يكون بيد القاضى، وقد يكون من الرجل، والأولى أن يكون بيد القاضى. ويشترط للطلاق شاهدان عدلان؛ كما يشترط فى المطلقة المدخول بها أن يكون طلاق زوجها لها فى طُهر لم يواقعها فيه، ولايشترط ذلك فى الفسخ الذى تُردّ فيه المرأة بالعيب. ولايحسب الفسخ من التطليقات الثلاث التى تُحرّم بها المطلقة على المُطلّق، وإذا طُلّقت المرأة قبل الدخول بها لها نصف المهر، ولاشىء لمن تُردّ بالفسخ قبل الدخول إلا فى العنن.

•••

١٧٦٥. ﴿عيوب المرأة والرجل الموجبة لفسخ الزواج﴾

التدليس فى الزواج: هو أن يخفى الخاطب أو المخطوبة نقصاً، كأن يكون أحدهما مسلولاً، أو أعور، أو تدّعى المرأة أنها بكر وشابة، أو يدّعى الرجل أنه حاصل على مؤهل عال، وذو مكانة وشرف، ثم يتبين كذب الدعوى. والعيوب التى يكتشفها أحد الزوجين فى الآخر على نوعين، الأول: يوجب الخيار بين فسخ الزواج أو إمضائه، والثانى لا تأثير له، ووجوده وعدمه سواء ومن ذلك الاضطراب النفسى أو العقلى، وهو صفة مشتركة بين الرجل والمرأة ، وأيما امرأة يتبين لها أن زوجها به هذا المرض، فلها أن تردّ زواجه بها وتفسخه، والمجنونة، والبرصاء، والمجذومة تُرَدّ، لأن مثل هذه الأمرض لا شفاء منها، وكذلك عدم المناعة المسمى بالإيدز وإذا تمّ فسخ عقد الزواج قبل الدخول فلا مهر للمرأة ولا عدّة، وإن كان بعده فلها المهر وعليها العدّة، ولافرق فى ذلك بين أن يكون الفاسخ هو الزوج أو الزوجة. والخصاء من العيوب الموجبة للفسخ، وهو سَلّ الأنثيين أو رضّهما، والخصىّ يُولج وقد يبالغ ويكون أكثر من الفحل ولكنه لا يُنزل. وكذلك المجبوب، والجب هو قطع ذكر الرجل من الأساس، وللمرأة الحق أن تُطلّق منه، فإن كان له بعضه مما يمكن

به الوطء فليس لها الفسخ. وكذلك العنين ،والعَنَن أو العُنَّة داءٌ يعجز منه الرجل عن العملية الجنسية لعجزه عن الانتصاب، وقد تكون عُنّته عُنّة إنزال. والعمى والعرج موجبان للخيار. وتختص بالمرأة عيوب أربعة هى: القَرْن، والعَفَل، والإفضاء، والرتق.

والقَرْن: شىء يبرز فى الفرج كقرن الشاة؛ والعَفَل: لحمٌ فيه لايخلو من رشح؛ والإفضاء:اختلاط المسلكين؛ والرتق: انسداد مدخل المهبل من الفرج فيتعسّر الجماع. وبهذه العيوب الأربعة تصبح عيوب المرأة تسعة أو أكثر أو أقل، هى: المرض النفسى أو العقلى، والأمراض الجلدية المستعصية، والجذام، والبرص، والعمى، والعرج، والقَرْن، والإفضاء، والعَفَل، والرتق. وإذا فسخ الرجل زواجه لها لأى من هذه العيوب بعد أن دخل بها فلها تمام المهر المسمى أو مهر المثل بما استحل من فرجها. والعيْب الموجب للفسخ، سواء فى المرأة أو الرجل، منه الجلى كالبرص، ومنه الخفى كالعنن والرتق، فإن كان العيب جلياً فلا حاجة إلى بيّنة،وإن كان خفياً واختلفا فى وجوده فعلى المدّعى البيّنة وعلى منكره اليمين، لأن الأصل السلامةمن العيوب، وقد يحال الأمر إلى الطب الشرعى ليقضى فيه. وللمرأة أن تطلب فسخ زواجها إذا تبيّن لها بعد الدخول أن زوجها قد دلّس عليها وأن به عيباً اجتماعياً أو نفسياً أو بدنياً أو عقلياً كبيراً، وفى هذه الحالة يكون التدليس سبباً للخيار ويثبت الخيار للمرأة إذا كان فى التدليس ضررٌ عليها، لشرط «لاضرر ولاضرار» فى الإسلام، ويشمل ذلك المعاملات والعبادات. وقيل: إن المرأة التى تدّعى أنها بكر ثم يتبين أنها ثيّب لايكون لزوجها أن يفسخ زواجه منها، وله أن يُنقص من مهرها.



١٧٦٦. ﴿التدليس فى الزواج﴾

التدليس هو التغرير والتمويه، بإخفاء نقص موجود، أو ادعاء لمال غير موجود،وقد يكون فى الزواج كما يكون فى التجارة. وفى التجارة لايجوز ردّ المبيع إن كان المشترى عالماً بالعيب، أو وُجد منه ما يدل على الرضا به، وإن لم يكن عالماً بالعيب فله الردّ. وإذا استغل المشترى المبيع أو عرضه على البيع، أو تصرّف فيه تصرفاً دالاً على الرضا به قَبْل علمه بالبيع، لم يسقط خياره فى الردّ بسبب العيب وفى معنى العيب الذى تُردّ به السلعة، أنْ يدلّس البائع المبيع بما يختلف به الثمن، أو يشترط فى المبيع صفةً يختلف بها الثمن فيتبين خلافها. وكل تدليس يختلف الثمن لأجله يثبت به الخيار للمشترى. وبيع الغَرَر أى الاستغفال ـ هو تدليس، ويثبت به الخيار للمشترى. وقد نهى الله تعالى عن التدليس بمعنى الخداع إلا فى الحرب، وجعله الله من صفات المنافقين، كقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ

آمَنُوا﴾(البقرة٩) ومن التدليس الذى نهى الله تعالى عنه فى الزواج أن يكون للمرأة أو للرجل خدن أى صاحب أو صاحبه ولا يدرى به أيهما قبل الزواج، ثم يتبين ذلك من بعد. كقوله تعالى﴿ **وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**﴾(النساء٢٥)، وقوله : ﴿**وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ**﴾(المائدة٥)، وإخفاء ذلك خداع وتدليس لاشك فيهما، وادّعاء أن المرأة أو الرجل من أصحاب الشرف والعفة، أو أنها بكر وهى فى الحقيقة ثيّب من وجوه التدليس التى تجيز فسخ الزواج.



١٧٦٧.﴿فى الشقاق بين الزوجين يخير المسلم زوجته﴾

فى الآيتين : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)**﴾(الاحزاب) أمر الله رسوله ﷺ خاصةً والمؤمنين عامةً بأن يُخيّروا نساءهم إذا أعسرتهم نساؤهم بين أن يفارقوهن فيذهبن إلى غيرهم، ممن يحصل لهن عندهم الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عندهم من ضيق الحال، وللصابرات عند الله تعالى الثواب الجزيل. وفى حالة النبىّ ﷺ اختارت نساؤه الرسول ﷺ والدار الآخرة، فجمع الله لهن بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. وكان النبىّ ﷺ قد اعتزل نساءه فى المسجد لمّا أثقلن عليه فى مطالبهن، وقام أبو بكر وعمر إلى ابنتيهما يهمّان بتأديبهما لمّا قال لهما النبىّ ﷺ : «**هن حولى يسألننى النفقة**» .وقال أبو بكر وعمر لبنتيهما: تسألان النبىّ ﷺ ما ليس عنده! فنهاهما النبىّ ﷺ فقالت نساؤه: والله لانسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده! وأنزل الله تعالى الخيار، فبدأ النبىّ ﷺ بعائشة فقال: «**أنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك**» قالت: وما هو؟ فتلا عليها قول الله : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ**﴾ الآية: قالت عائشة: أفيك أتستأمر أبوى؟ بل أختار الله تعالى ورسوله.

والتخيير فى ذاته ليس طلاقاً ولكنه **تفويض من الزوج لزوجته بالطلاق** إن اختارت الطلاق، والخطاب وإن كان موجهاً للنبىّ ﷺ فإنه تطبيقاً وعلى نفس المنوال لعموم المسلمين والمسلمات، وهو فى حقّ الأمة الإسلامية كلها.

والتخيير إذن واجب إذا أبدت الزوجة النشوز، وأظهرت النفور، وأكثرت الشكوى، وبه أخذ الرسول ﷺ ، وهو القدوة لنا، نتأسّى به ونسير على نهجه. ومن الإنصاف أن تخيّر الزوجة إذا استمرت على سؤال الزوج ما ليس عنده، وليس من حق الزوج أن يمسكها غصبًا، وأن يعايشها على مضض منها، ففى ذلك مضرة وأذى بالغين وأدعى إلى ترسيخ النفور واستبداد الخلاف.

والتخيير من مناهج الشورى أو ما يسمى بالديمقراطية، ممارسةً فى أهم المؤسسات الاجتماعية وهى الأسرة المسلمة. وفى التخيير تكريم للمرأة ولذاتيتها وشخصيتها. والإسلام يعقد للمرأة حق الاختيار أولاً فى الزواج، فلا تنكح إلا من ترضاه لنفسها زوجاً، ثم يعقد لها الاختيار ثانياً بين الاستمرار مع زوجها واحتمال أوضاعه جميعاً، أوالطلاق إذا أظهرت عدم الرضا وتأففت، وآثرت الانفصال. والجمهور على أن مَن خيّر زوجته فاختارته لايقع عليه بذلك طلاق، وإن اختارت نفسها فهى طلقة واحدة بائنة، لأن اختيارها لنفسها معناه الفراق. وفى الآيتين أن اختيار الاستمرار هو الأحسن والأفضل. وفيهما أن المرأة إذا اختارت الطلاق فعلى الزوج أن يمتّعها ويسرّحها سراحاً جميلاً، أى يعطيها حقوقها كاملة، ولايبخس منها شيئًا، ولايعضلها، كما قال: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (٢٣٧)﴾(البقرة)، والفضل هو المعروف، وقوله «أمتعكن» دليل على أن المتعة من حق الزوجة ولو كان طلب الطلاق منها، على عكس الخلع. وفى الآية: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾(البقرة) أن المتعة للمطلقة عموماً. وكان من دأب النبىّ ﷺ أنه يمتّع، وروى سهل بن سعد وأبو أُسَيْد أنهما قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين»، يعنى أنه متّعها

ذلك إذن الشأن مع المرأة فى تخييرها فى الخطبة، وفى الاستمرار فى الزواج، وفى إكرامها عند الطلاق، فأى شيء من ذلك للمرأة فى اليهودية أو النصرانية؟ لاشيء من ذلك أبدًا، لافى التوارة، ولافى الأناجيل، ولا فى رسائل الرُسل! فلماذا إذن هذا الافتراء الذى يعلنه الساخطات على وضع المرأة فى الإسلام، والمشنّعات على المسلمين والمسلمات؟ ويا أخى المسلم ويا أختى المسلمة، اسألا هؤلاء الساخطات عمّا فى الديانات الأخرى إن كان لهن علمٌ بذلك، وقارنا وتفكّرا، وعظّما دينكما وحسبنا الله!



١٧٦٨. ﴿هل يقع الطلاق بلفظ آخر خلاف لفظ الطلاق؟﴾

الصريح فى القرآن فى الطلاق هو لفظه وما تصرّف منه (راجع الطلاق صريح وكناية)، وفى القرآن كذلك «الفراق» و«السراح» وردتا فى الطلاق وفى معان أخرى بخلافه. والخلية والبرية والحرام والبائن من الألفاظ غير الصريحة، وإذا قال رجل لزوجته فارقتك، أو سرّحتك، أو أنت خليّة، أو بريّة، فهو على نيته. وعن عبدالله بن شهاب الخولانى عن عمر بن الخطاب: أنه رُفع إليه رجلٌ قالت له امرأته شبِّهْنى، فقال: كأنك ظبية. قالت: لا. قال: كأنك حمامة. قالت: لا أرضى حتى تقول: أنت خلية طالق.

فقالها. فقال له عمر: خذ بيدها فهى امرأتك». فالرجل قال لها «أنت خلية طالق» على نيته، يشبّهها بالناقة تكون معقولة ثم تُطلَق من عقالها ويُخلَى عنها فتُسَمّى خلية، لأنها خُليت عن العقال، وطالق لأنها أطلقت منه، ولم يقصد إلى ما أوقعته فيه المرأة التى كانت تنشد الطلاق، فأسقط عمر عنه الطلاق لصدق نيته. ومثل هذه القصة ما كانت تحدث لو كان الطلاق أمام قاضى الأحوال العائلية، فلا يأخذ بالأقوال المرسلة، ويقضى بالأصلح للجميع. وإلى أن يصبح الطلاق بيد القاضى فالمعمول به أن كل من يتكلم بشىء من الفاظ الطلاق، فالأمر فيه بحسب نيته. والشرط فى الطلاق من باب أوْلى أن يكون بلفظ الطلاق لمعنى الطلاق، حتى لا يقع الأعجمى مثلاً فى محظور كالذى وقع فيه بطل قصة عمر. ونُطْق لفظ الطلاق يشترط فيه لذلك العمد احترازاً عما يسبق به اللسان، واختياراً حتى لا يُحسب على المُكرَه، ووعياً حتى لايؤخذ بطلاق السكران ولا الأحمق والمجنون. ولو نطق الرجل بأى الألفاظ غير الصريحة ويقصد إلى الطلاق وقع طلاقه، فإذا قال: أنت علىّ حرام كانت تطليقة رجعية، وكذلك لو قال: أنتِ بريّة، أو خليّة، أو بائن. والبتة والبتلة تتضمان إيقاع الطلاق، ومعناه فى ذلك كله كما لو كان يقول لها: أنت طالق منى طلاقًا تبينين به منى، أو تخلين به من زوجيتى، أو تبرين منها. وهذه الألفاظ كلها كنايات لايقع الطلاق بها إلا مع القصد إليه. ولا حساب لنية الطلاق المضمرة إذا تجرّدت عن الكلام أو الفعل، وفى حديث أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال: «تجاوز الله عن أمتى عمّا حدّثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم».فكما ترى يا أخى المسلم ،وكما ترين يا أختى المسلمة، ديننا يُسر، ومُحكَم، وليس اليهود والنصارى على شىء من ذلك أبدًا. ولله الحمد والمنّة.



١٧٦٩.﴿لا طلاق للغاضب ولا السكران ولا المستكرة ولا المجنون﴾

فى الحديث عن عثمان بن عفان أنه ﷺ قال: «ليس لمجنون ولا لسكران طلاق»، وعن ابن عباس قال: «طلاق السكران والمستكره ليس بجائز» ،وقال: «ليس لسكران ولامضطهد طلاق»:وعن عقبة بن عامر قال:«لا يجوز طلاق الموسوس»، وعن علىّ بن أبى طالب قال: «ألم تعلم أن القلم رُفِع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يُفيق ، وعن الصبىّ حتى يُدرِك؛ وعن النائم حتى يستيقظ»، وقال: «وكل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه»؛ ومن يطلق فى نفسه فليس طلاقاً، وعن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتى ماحدّثت به أنفسها، مالم تعمل أو تتكلم به» ولا تتوافر النيّة لغير العاقل، ولا للغالط والناسى والمستكره على الطلاق ، وفى الحديث: «الأعمال بالنيّة، ولكل امرئ ما نوى»، وفى القرآن: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا

إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾(البقرة٢٨٦)، وفى الحديث عن عائشة : **«لاطلاق فى غلاق»**، والغلاق والإغلاق هو الغضب، ومنه الطلاق على غيظ، والطلاق عن إكراه، وفى الآية: **﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ(١٠٦)﴾**(النحل)وضع الله تعالى الكفر عمّن تلّفظ به حال الإكراه، وأسقط عنه أحكام الكفر، فكذلك يُسقط عن المُكره ما دون الكُفر، لأن الأعظم إذا سقط سقط مـا هو دونه بطريق الأولى. وفى الآية: **﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾**(النساء٤٣) أن السكران، والمجنون، والشاك، والمخطىء، والغالط، والناسى، **لايعلمون بالتأكيد ما يقولون، وطلاقهم لايقع.**

وطلاق كل قـوم بلسـانهم، أى أن الفارسى إذا طلّق بالفارسية جائز، والإنجليزى بالإنجليزية وهكذا. وعن ابن عباس: **«الطلاق عـن وَطَر»**،أى أن من يلجأ إلى الطلاق إنما يلجأ إليه عن حاجة، يعنى أن يستبين أنه لم تعد ثمة سبيل إلا الطلاق. و**«الطلاق المشروط»** ـ يعنى أن يقول: إنْ فعلتِ كذا طُلّقت ـ وإن لم يَنْو الطلاق حين أوقع يمينه فلا طلاق، وكل امرىء ومـا نوى، فإن كانت نيته مع الطلاق فهـو ما نوى. والأمر إذن فيه سَعَة على المسلمين، وليس من ذلك شىء البتة لا فى اليهودية ولا فى النصرانية، ولم أعثر على شىء من أى من ذلك فى التوراة ولا فى الأناجيل ورسائل الرسُل. وحسبنا الله، فللّه الحمد والمنّة.



١٧٧٠.﴿لايقول المسلم لامرأته يا أختى﴾

فى التوراة أن إبراهيم لمّا ارتحل إلى الجنوب وأقام بين قادش وأشور، قال عن سارة امرأته: هى أختى، فبعث ملك جيرار فأخذ سارة، ثم إنه رأى حلماً فسارع إلى إبراهيم يعتب عليه ما كان سيرتكب من الإثم، وسأله لِمَ فعلت ذلك؟ قال: إنه ظن أنه ليس فى هذا المكان خوف من الله فيقتلوه بسبب امرأته، ثم إنها على الحقيقة **أختى ابنة أبى**، غير أنها ليست ابنة أمى، فصارت امرأة لى»(التكوين٢٠ / ١-١٢). والقصة التى تسوقها التوراة فيها خوف إبراهيم، لأن المتزوجة فى زمنه كانوا يغتصبونها من زوجها إذا رغبوا فيها، بخلاف الخليّة، فكانوا لايقربونها إلا بخطبة، فاضطر إبراهيم لذلك أن ينسب زوجته إليه كأخته، وأوضح ذلك للملك من بعد بأنها **أخته من الأب**، وكان من الجائز فى زمنه أن يتزوج الرجل أخته من الأب. ولكن فى الرواية عن الرسول ﷺ أنه قال: **«قال إبراهيم لسارة هذه أختى، وذلك فى ذات الله»** ، أى أن الأخوة ليست كما ذكرت التوراة، أن إبراهيم أخوها من الأب، بل لأنه **أخوها فى الله**، فصحّح النبىّ ﷺ قصة التوراة. وفى الإسلام لايجوز

أن يقول الرجل عن زوجته أنها أخته، وفى رواية عبدالرزاق من طريق أبى تميمة الهجينى قال: مرّ النبىﷺ على رجل يقول لامرأته يا أخيّة فزجره»، ينبّه إلى أن النبىّ ﷺ أمر أن نجتنب هذا **اللفظ المُشكل** حتى لايكون القول به كما فى **الظهار**، فتحرم المرأة به على زوجها. وأما إذا قال القائل عن امرأته أنها أخته وقصد إلى أنها كذلك فى وُدّها وصُحبتها الطيبة معه، ومعاشرتها الحسنة له، فلاشىء فى ذلك وأيضاً لايضر المُكْرَه أن يقول عن امرأته أنها أخته كما فى القصة عن إبراهيم، يقصد بالأخوّة **أخوّة الدين**، فلخوف إبراهيم على سارة قال إنها أخته وتأوّل **أخوّة الدين**.

●●●

١٧٧١. ﴿لا طلاق إلا بعد نكاح﴾

فى الآية: **﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ (٤٩)﴾**(الأحزاب) عقب الله تعالى النكاح بالطلاق، وأطلق على العقد وحده اسم **النكاح**، وليس فى القرآن آية أصرح من هذه الآية فى تخصيص النكاح **للعقد** لقوله: «**مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ**»، والآية دليل على إمكان وقوع الطلاق قبل الدخول، ولايقع طلاق إلا إذا كان هناك **نكاح**، أى **عقد**. ويفسِّر ذلك الحديث: «**لاطلاق لابن آدم فيما لايملك**» أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة، والحديث: «**لاطلاق قبل النكاح**» أخرجه ابن ماجة. **فكيف تطلّق وأنت لم تتزوج؟** وعن ابن عباس قال: **جعل الله الطلاق بعد النكاح**. يعنى بعد **العقد**؛ وفى رواية أبى ذرّ قال: **لا طلاق قبل نكاح** .وسئل ابن عباس عن الرجل يقول: إذا تزوجت فلانة فهى طالق؟ قال: ليس بشىء، **إنما الطلاق لما ملك**. وسُئل عن الرجل يقول: كل امرأة أتزوجها **فهى طالق**؟ قال: ليس بشىء»، فالطلاق فى الإسلام حقٌ يملكه الزوج، فإذا لم يكن زوجاً، فأى شىء يملكه حتى يتصرف فيه؟ والأصل فى الطلاق أن يكون **للمنكوحة المقيدة بقيد النكاح**، وليس **للمخطوبة**، فالخطبة ليست نكاحاً ولاهى من ثم عقداً.

●●●

١٧٧٢. ﴿ليس بشىء أن يقول المسلم لزوجته أنت علىّ حرام﴾

فى الأثر عن سعيد بن جبير أن رجلاً جاء إلى ابن عباس قال: إنى جعلتُ امرأتى علىّ حرامًا؟ فقال ابن عباس: كذبت، ماهى حرام! ثم تلا: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾** (التحريم١). وأصل هذه الآية كما يقول أنس بإخراج النسائى: أن النبىّ ﷺ كانت له أَمَة يطؤها، فلم تزل به **حفصة وعائشة** حتى حرّمها، فأنزل الله تعالى هذه الآية يلغى بها هذا التحريم ـ **فقول الرجل** لامرأته «**أنت علىّ حرام**» لغو، وإنما تلزمه كفّارة يمين إنْ حلف. وعن ابن عباس برواية سعيد بن جبير قال: إذا حرّم الرجل امرأته ليس بشىء. وابن عباس جعل الكفّارة بحسب الوسع.

●●●

١٧٧٣.﴿الطلاق كالزواج لايجوز إلا أمام قاض﴾

الطلاق كالزواج يحتاج لشهادة الشهود وللتوثيق، وأيّما طلاق لم يُشْهَد عليه ولم يوثّق فهو باطل ولغو. وفي الديون مهما قلّت تجب الشهادة عليها وأن تُكتَب، فالأولى أن يُكتَب الطلاق ويُستشهَد عليه. وكما في الديون تجب شهادة اثنين ذوى عدل فكذلك الطلاق. وفي زماننا صار من المعتاد أن ينطق الرجل بألفاظ الطلاق لغلبة الطلاق الشفاهي على الطلاق المحررَّ قبل أن تُنظَّم الدولة وتُسَن القوانين وتصبح للأحوال الشخصية لوائح. والطلاق البدعي هو الذي يكون بين الرجل وزوجه ولايستشهد عليه ولايُوثّق. والطلاق كالزواج كلاهما علِم له العارفون به، ومن ثم يجب عند الطلاق الرجوع إلى صاحب العلم فيه وهو قاضي الأحوال الشخصية، أو قاضي الأسرة ولما طلّق ابن عمر امرأته النّوار طلاقاً بدعياً وهي حائض، أمره الرسول ﷺ أن يراجعها وينتظر حتى تطهر ولايجامعها ثم يطلقها بشهادة شاهدين، وكان الرسول ﷺ هو القاضي في هذه المسألة، فعلّمنا أن القاضي ضروري في مسائل الطلاق كضرورته في مسائل الزواج. وفي الآية: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ (١)﴾ (الطلاق) العدّة هي الطُهر، فإذا شارفت العدّة على الانقضاء دون أن تفرغ بالكلية فله أن يطلقها ويُشهد على طلاقه كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ (٢)﴾(الطلاق) .وعن عمران بن حصين لما سأله أحدهم وكان قد طلق امرأته، ثم وقع بها ولم يُشهد على طلاقها ولاعلى رجعتها، فقال له: طَلَّقتَ لغير سُنّة، ورجعتَ لغير سُنّة. أشْهِدْ على طلاقها وعلى رجعتها ولاتَعُد» فالحاجة إلى القاضي ماسة، ولاينبغي ترك الأمور لفَهْم الناس، ولاسبيل لضمان سلامة الإجراءات وصحة الدين إلا أن يكون الطلاق أمام قاضٍ وبحضور شاهدين، وأنْ تعلم المرأة به، بحضورها أو حضور وكيلها، أو أن يكون إعلامها بطريق رسمي، ولايجوز النكاح ولاالطلاق ولاالرجاع بدون شاهدى عَدْل، وإقامة الشهادة من الحق والعد،ل ولذا أمر بها الله تعالى.



١٧٧٤.﴿الرجل مندوب إلى مراجعة امرأته﴾

الذى يطلق امرأته مندوبٌ إلى مراجعتها في العدّة إذا قصد إزالة الوحشة بينهما وإصلاح حاله معها، بقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ (٢٢٨)﴾(البقرة)، وأما إذا قصد الإضرار بها وتطويل العدة فمحرمٌ عليه مراجعتها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا (٢٣١)﴾(البقرة). والبعولة: جمع البعل وهو الزوج،، والمباعلة والبعال: الجماع، والرجل بَعْل المرأة، والمرأة بعلته، وباعَلَ مباعلة أى باشرها. ولاتكون مراجعة المرأة إلا لمن

كان طلاقها دون الثلاث. ولابد من **الإشهاد** في المراجعة لقوله تعالى: **﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ (٢) ﴾**(الطلاق) فالإشهاد ضروري للمراجعة، وينبغي للمرأة أن تمنع الرجل من وطئها طالما لم يُشهد على مراجعتها، وينبغي للرجل أن تكون نيّته المراجعة، وإن قبّل وباشر ولم ينو الرجعة كان آثمًا وليس بمراجع، ولابد من ترجمة النية إلى قول، ولاتصح الرجعة إلا **بالقول**، ولايسافر بها حتى يراجعها، ولايخلو معها، ولايدخل عليها، ولاينظر إليها إلا بإذن وعليها ثيابها، وإذا طلّق الرجل امرأته تطليقة فإنه يستأذن عليها. **والرجعة فى الإسلام** تمنع زوال الزوجية بالكلية بانقضاء العدة، فطالما العدّة لم تنقض فأحكام الزوجية باقية، والمرأة ترث زوجها فى العدة، وزوجها في العدةّ أحق بالمرأة من نفسها، وأما بعد العدة فهى **تملك** نفسها.

●●●

١٧٧٥. ﴿هل تغصب المسلمة على أن ترجع لزوجها إذا طلقها ولم تستوف العدة؟﴾

إذا طُلّقت المرأة طلاقًا رجعياً، أى لم تكن هذه هي المرة **الثالثة** التي تُطلّق فيها، وكانت ما تزال فى عدّتها ـ أي لم تمر عليها **ثلاثة أقراء**، **فللزوج** أن يراجعها، والفقهاء يقولون إنها لاتُستأذن في الرجاع، والقرآن يقول: **﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (٢٢٨)﴾**(البقرة)، أي يشترط لحقّ الرجل فى ردّ مطلقته وهى فى العدةّ أن يريد **الإصلاح** مثلما تريده، والإصلاح مقصوده إصلاح ما أفسده طلاقه لزوجته، والطلاق يضرّ بالمرأة غاية الضرر، نفسيًا واجتماعيًا، وشرْط الردّ: **أن يتعهد الرجل بأن يكون لها من الحقوق مثلما عليها من الواجبات**، وتزيد حقوق الرجل على حقوقها في **الدرجة** وليس في **الكم**، وأبانت ذلك الآية: **﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ (٣٤)﴾**(النساء) وهذه الدرجة هى التى صارت القوامة، **والقوامة** تعنى رعايته للأسرة، والقيام على شئونها، والنهوض بأعبائها، وسياسة أمورها، ويستلزم ذلك **نفقات مالية** يتحملها عن طيب خاطر، والقوامة على ذلك **تكاليف وواجبات** أهّله **الله** لها، وأعدّه لاحتمالها، وتترتب عليها حقوقٌ له بدونها لن يكون بوسعه القيام بمسئولياته، ومدار الحقوق والواجبات للطرفين على **ماهو معروف** منهما فى أي مجتمع من المجتمعات فى إطار الزمان والمكان. وينعقد استئناف الزوجية على **الإرادة الحرة** للزوجين، وشَرْط الإرادة **الرضا والقبول**، ومراجعة المطلقة المعتدة لابد فيها إذن من أخذ **رأيها وموافقتها**، وهذا ما نعرف أن العقود لاتستقيم إلا به وإلاصارت **عقود إذعان**، والإذعان لايقيم حياة زوجية، ولاينتج سوى المشاحنات والمخاصمات، ويتولد منه النفور،

وتستحكم به البغضاء، والآية ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**(٢٢٨)﴾(البقرة) من أعدل الصياغات القانونية فى تشريعات الأحوال الشخصية، وفيها كافة الموازنات بين الحقوق والواجبات للجنسين، ويفسرها الحديث عن جابر عن الرسول ﷺ فى خطبة الوداع، قال: «**فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»، وتقتضى التقوى والأمانة أن تكون المعاشرة بالحسنى، وأن تستهدى إرضاء الطرفين، وأن تسترشد بكلمة الله التى هى التقوى، وتقوى الله فى النساء بيّنها الحديث عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**، ولما نزلت آية التخيير: ﴿**إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**(٢٨)﴾(الاحزاب) فكان فيها أن المعاشرة بالاختيار لا الغصب. وفى الآية ﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**(٢٢٩)﴾ (البقرة) يدور الاختيار بين **الإمساك** بالمعروف **أو التسريح** بإحسان، وكان الناس يعتسفون ويجورون على النساء، فقد لا يطلقها البتة ويدعها كالمعلقة، لاهى أيّم، ولا هى ذات زوج، أو قد يطلقها فإذا شارفت العدّة على الانتهاء راجعها بلا استئذان، فرفع الله ذلك الغبن، وأبطل هذا الظلم، ووقّت الطلاق ثلاثاً لاغير، فإن كانت طلقتها واحدة أو اثنتين، كان له الخيار فى عدّتها بين أن يستبقيها زوجةً أو يسرّحها، وشرطه الإمساك بالمعروف، والتسريح بالإحسان، وكان ذلك أمرًا على المتقين. والخيار عماد الإسلام، والرسول ﷺ برواية أبى موسى انتقد على المسلمين استهانتهم بأوامر الله فقال: «**ما بال أقوام يلعبون بحدود الله، يقول أحدهم: قد طلقتك ـ قد راجعتك ـ قد طلقتك**». واشترط الله لضبط هذه الفوضى «**إرادة الإصلاح**» من الزوجين، فلا رجاع للمطلقة إلا إذا انعقدت إرادتهما على إصلاح ما فات، ولا تنعقد إرادة المرأة على الرجاع إلا إذا كان لها **الخيار فيها**، **والرضا والقبول به**، وعماد الرجاع الآية: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (البقرة٢٢٨)، فساوى الله تعالى بين الحقوق والواجبات، فإن ضمن الرجاع هذه الحقوق وقابلها بالواجبات، فالرجاع جائز. **والتشريع الإسلامى فى ذلك فى القمة**. والرجاع فى **اليهودية**، وليس للزوجين أن يتراجعا لو تزوجت المرأة بآخر بعد طلاقها ثم طلقت من الآخر، لأن زواجها بالآخر يدنّسها، فهكذا جاء فى التوراة (تثنية الاشتراع ٢٤ / ٤) فحرّم كَتَبة التوراة وحلّلوا ما ليس فى مصلحة الناس. ولا رجاع فى **النصرانية**، لأنه لاطلاق أصلاً إلا للزنا. والتشريع الإسلامى فى حدود النصوص حافلٌ بالمعانى، ويحتمل أشرف المقاصد وأنبل الغايات، وياليت تشريعات البلاد الإسلامية تأخذ بنصّ ماجاء به كتاب الله وسنّة نبيّه وتترك القوانين الوضعية، وإذن

لاستقامت مجتمعاتنا وانصلحت أحوال عائلاتنا، وكنا للناس أئمة، وآلت إلينا مقاليد الحضارات. ولله الحمد والمنّة!

•••

١٧٧٦. ﴿الصلح خير﴾

الصلح الحقيقى الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق، وفى مجال الأسرة **الصلح ضرورة**، والقرآن يدين **المرأة الناشز والرجل الناشز** على السواء، والنشوز هو المخالفة والخروج على الحق، ونشوز الرجل أكبر فى نتائجه وأخطر، لأنه عماد الأسرة وقدوتها ومثالها الأعلى، وفى الآية: **﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)﴾**(النساء): أن الصلح على أى وضع - بما لايتعارض مع مبادىء الشريعة وروح الإسلام - فإنه خيرٌ. وفى الحديث عن **البغضة** قال ﷺ: «**إنها الحالقة**»، أى القاضية التى تقضى على كل شئ فتحلقه كحلاقة الشعر، وهى تحلق الدين والدنيا معًا، فهذه هى **البغضة**: وهم الذين لا يصدرون فيما يقولون ويفعلون إلا عن البغض الشديد. وفى الحديث والآية، تحذيرٌ للنساء وللرجال أن يطاوعوا أنفسهم على أن يبغضوا أزواجهم وزوجاتهن، كقوله تعالى: **﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾**(النساء). **والشُّح** فى الآية الأسبق، أكثر ما يصيب الرجال، ولايكون فى الأموال فقط فيبخل الرجل على امرأته وأسرته، ولكنه يكون أيضًا فى الدين، كقوله: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾**(الحشر). والشح المقصود هو الذى يصير إلى حيز منع الحقوق الشرعية، أو منع الحقوق التى تقتضيها المروءة، فهذا الذى تحذّر منه، والخطاب فيها للأزواج من حيث أن الزوج يمكن أن يشح، وأن يتّقى الله فى عِشْرة زوجته، فلايظلمها ولايجور عليها.

•••

١٧٧٧. ﴿نفقة السنة للمتوفى عنها زوجها﴾

عدّة المتوفى عنها زوجها: **أربعة أشهر وعشر**، تعتدهَا عند أهل زوجها، ولها أن تبقى معهم تساكنهم بقية السنة، كقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ (٢٤٠)﴾** (البقرة) فإن شاءت ساكنتهم **سبعة أشهر أخرى وعشرين ليلة**، وليس لأولياء الميت إخراجها، فإذا كان البيت من الميراث فلها فيه بحكم الشرع، فلايخرجها من بيتها

أحد. وخاصة إذا كان لها ولد، ولها أن تخرج بعد العدة لتتشوف إلى الأزواج. والمتاع في الآية هو نفقة سنتها.

•••

١٧٧٨. ﴿للمفروض لها نصف ما فرض﴾

المرأة التي لم يُدخل بها، طالما أنه قد فُرض لها، فمن حقها نصف ما فُرض إن طُلّقت قبل الدخول بها، وهو شيء تمتاز به المرأة في الإسلام عن غيرها في غير الإسلام. يقول تعالى: ﴿**وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** (٢٣٧)﴾(البقرة)، **والنصف** هو الجزء من اثنين، إلا أن تترك النصف الذي وجب لها عند الزواج، فأذن الله لها في إسقاطه بعد وجوبه، وجعله خالص حقها، فتتصرف فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شاءت إذا ملكت أمر نفسها، وكانت بالغة عاقلة راشدة. وفي الآية الخطاب للأزواج، ثم للنساء، ثم للولي ـ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿**أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ وليس لكل امرأة أن تعفو عن نصف صداقها، فإن **الصغيرة والمحجور عليها** لا عفو لهما. **فالأهلية** شرط فيمن تعفو، ويجوز عند الولي إذا كان من أهل السداد. والأصل هو العفو. والخطاب للرجال والنساء، فلاينسوا الفضل بينهم، **والفضل** هو أن تترك المرأة النصف الذي لها إن أرادت، أو يتم الرجل الصداق كله ويجعله لها إن سمحت نفسه. وروى الدارقطني عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بني نصر فطلقها قبل أن يدخل بها. فأرسل إليها صداقها كاملاً، وذكر قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾، وقال وأنا أحق بالعفو عنها ـ فقصد نفسه بأنه الذي بيده عقدة النكاح، ودليل ذلك قوله تعالى في **متعة المطلقة** كما سنرى لاحقاً.

•••

١٧٧٩. ﴿متعة المطلقة واجبة على المسلم﴾

في الآية: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** (٢٣٦)﴾(البقرة) أن إمتاع المطلقة واجب. **والمتعة** مال يفرضه الرجل على نفسه تعويضاً للمرأة عمّا يلحقها من الطلاق من ضرر، بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره. وقد متّع الحسن بن علي بن أبي طالب بعشرة آلاف، وكان ـ كما قالت مطلقته ـ متاعاً قليلاً من حبيب مفارق». **والمتاع لا حدّ له**، وهو بحسب المعروف، والزيادة فيه من الإحسان. وقيل: إنه لمّا نزلت: ﴿**مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** (٢٣٦)﴾(البقرة)، قال رجل: إن شئتُ أحسنتُ ففعلتُ، وإن شئتُ لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** (٢٤١)﴾(البقرة). والآية دليل على وجوب المتعة لكل مطلقة.

وتفسير هذا الرجل للإحسان تفسير غير صحيح، لأنه أعلى درجات الإيمان، ولذا قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾، فجعل هذا الإحسان حقاً من الحقوق على كل من يتقى الله، كهذا الرجل فى الموضوع عالية الذى كان متزوجاً من بنى نصر ولم يدخل بزوجته وطلقها فأرسل إليها كل صداقها، فكان من المحسنين حقاً والمتقين صدقاً.
وفى الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ (٢٤٠)**﴾(البقرة) أن للمرأة التى يتوفى عنها زوجها متعة أن تبقى فى مسكنه لايخرجها ورثته مدة سنة. ولادخل للعدّة فى متعة السكن وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر إن لم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً، فعدتها إلى أن تضع حملها، وفى كل الأحوال يتوجب أن تظل الزوجة بمسكن عائلة زوجها، ولها النفقة مدة سنة، ولو كانت له تركة فلها الربع إن لم يكن له ولد، والثمن إن كان له ولد، ولها أن تستمر فى المسكن بعد السنة باعتبارها وريثة وحاضنة.
وفى الآية: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً (٢٤)**﴾(النساء) أن المتعة للمرأة نظير ما استمتع الرجل بها . وقوله فى الآية: ﴿ **فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)**﴾ (الأحزاب)،ثم فى الآية: ﴿ **إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)**﴾(الأحزاب): أن المتعة زيادة على الفريضة :أى الصداق، وأنها على قدر عُسر الرجل ويُسره، وذلك مقصوده تعالى من السراح الجميل. وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد أن النبىﷺ أمر أن تُجهّز أميمة بنت شراحبيل وتُكسَى لمّا أراد أن يصرفها إلى أهلها، وكان ذلك من قبيل المتعة.



١٧٨٠.﴿المتعة للمطلقات ينفرد الإسلام بفرضها﴾

لامتعة للمرأة المطلّقة فى **اليهودية** ، فكل ما يفعله الرجل لطلاقها هو: **أن يكتب لها كتاب طلاق ويدفعه إلى يدها ثم يصرفها من بيته**» (تثنية الاشتراع٢٤ / ١). وفى **المسيحية** لاطلاق أصلاً إلا لعلّة زنا **ولا مُتعة بالتبعية** (متّى ١٩ / ٩). **والإسلام هو الديانة الوحيدة التى تفرض للمطلقة متعة** ، وهى **التعويض** الذى يفرضه الزوج أو القاضى للمطلقة عند الطلاق، وفى الآية: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)**﴾(البقرة) أن المتعة بحسب حال المطلق، على الموسع قدره وعلى المُقتر قدره، وكان الحسن بن علىّ يمتع نساءه **بعشرة آلاف**، وقالت إحداهن فى ذلك: متاع قليل من حبيب مفارق!». وقد يجادل الزوج وينازع فى مقدار المتعة، وأبو حنيفة يرى أن المتعة

نصف مهر مثلها، غير أن ذلك يحدد مقدارها بالوضع الاجتماعى للمرأة وليس بوسع الرجل، والوسع تحدده طُرق حَصْرِ الدخل للمطلّق، والمتعة واجبة لكل مطلقة مدخولاً بها أو غير مدخول بها، ويؤخذ فى الاعتبار عدد سنوات المعاشرة بين الزوجين، وقد أوجب الله تعالى ذلك فى الآية: ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** (٢٤١)﴾(البقرة)، قيل لما نزلت: ﴿ **مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** (٢٣٦) ﴾(البقرة) قال رجل : إنْ شئتُ أحسنتُ ففعلتُ ، وإنْ شئتُ لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** (٢٤١)﴾(البقرة) فأوجب الله المتعة للمطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضًا لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وجعلها مستحبة مطلقاً وحقاً لها على مطلّقها. وأما الآية: ﴿**وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**(٢٣٧)﴾ (البقرة) فالحديث فيها عن «الصداق»، فإذا وقع الطلاق بعد دفع المهر وعقد الزواج فللمرأة نصف هذا الصداق، إلا أن يكون قد خلا بها وإن لم يدخل ـ فلها الصداق كله. وفى أيامنا هذه والاختلاط جارٍ فالأوْلى الصداق كله، وللمرأة أن تعفو أو يعفو وليُّها ـ الأب أو الأخ ـ بإذنها. والرسول ﷺ متّع وأحْسَن، وامر ابا أُسَيْد أن يجهّز أميمة بنت شراحيل ويكسوها لمّا ردّها إلى أهلها قبل أن يمسّها أو يدخل عليها، وهو نفسه مقصود التسريح الجميل فى قوله تعالى: ﴿ **فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً** (٢٨) ﴾(الاحزاب) قال ذلك لزوجاته ﷺ إذا اخترن الطلاق. فذلك إذن هو شرع الله، والعجب من المتعالمات من العلمانيات وتلاميذ المستشرقين الأوروبيين فى نقدهم لوضع المرأة فى الإسلام، والإسلام من تشنيعاتهم برىء، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

●●●

١٧٨١.﴿ما موقف الإسلام من المحلل؟ وما هو التحليل أصلاً؟﴾

فى اليهودية لايوجد ما يسمى التحليل عند الطلاق، وهو أن يطلق الرجل المرأة باتاً فلا تحلّ له إلا إذا تزوجت بآخر، والمرأة فى اليهودية إذا طلقت يمكن مراجعتها بزواج جديد ما شاء للزوجين ذلك من المرات، أما إذا تزوجت بآخر بعد طلاقها من الأول، ثم كرهها الثانى فطلقها لا يجوز البتة أن تتزوج الأول بدعوى أن زواجها الثانى دنّسها فلم تعد تحلّ للأول (تثنية الاشتراع٢٤ / ٤). والأمر عكس ذلك تماماً فى الإسلام، فالطلاق مرتان فقط، ويمكن مراجعتها خلال العدة، فإذا انقضت العدة فزواج جديد بمهر جديد، فإذا طلقها للمرة الثالثة فلا يحل له مراجعتها ولا الزواج منها من جديد إلا إذا تزوجت بآخر وطلقت منه فيحل لها أنا تعود إلى زواج الأول وقد روى أن الآية﴿ **فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ**

حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴿٢٣٠﴾(البقرة) نزلت فى **عائشة بنت عبدالرحمن** بن عقيل النضرية، وكانت تحت **رفاعة بن وهب بن عنيك** وهو ابن عمها، فطلقها طلاقًا **بائنًا**، فتزوجت بعده **عبدالرحمن بن الزبير** ثم طلقها، فأتت النبىّ ﷺ ، فقالت: إنه طلقنى قبل أن يمسنى، أفأرجع إلى ابن عمى - زوجى الأول؟ قال: «**لا، حتى تذوقى عُسَيْلته ويذوق عسيلتك**» وفى الحديث عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ ، فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها، أترجع إلى الأول؟ قال: «**لا، حتى تذوق عُسَيْلته ويذوق عسيلتها**». وفى الحالتين لا تحلّ للأول إلا إذا وطأها الثانى فى نكاح صحيح، فلو وطأها فى غير نكاح صحيح لم تحل للأول، لأنه لم يكن زوجاً على الحقيقة، ولم يدخل بها، ولم يجرّب جماعها، ولم تخبُر هى جماعه. **والعُسَيْلة** تصغير **عسل** وهى حلاوة الجماع، والعرب تسمى كل شيء تستلذه عسلاً. **وذوق العسيلة** كناية عن المجامعة وحصول الإنزال. وهذه الشروط الإجرائية ليست غاية لذاتها وإنما لتوقى الحذر أن لايكون الزواج الثانى صورياً لتحليل رجوع المرأة لزوجها الأول، فأمّا إذا تزوجها الثانى زواجاً صحيحاً وتزوجته المرأة بنية الزواج لاتريد بزواجها إحلالها للأول، وتبينت أن زوجها الثانى عنّين، وطُلّقت منه ولم يدخل بها، فلا تثريب عليها إنْ تزوجها الأول، ومن البديهى أن العنين لاسبيل إلى أن تذوق عُسَيْلته، فهل تُطلّق منه ويتزوجها آخر وهكذا لتحلّ للأول؟ أم أن يُكتفى بالثانى ولو لم يدخل بها عملاً بظاهر الآية: ﴿**فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴿٢٣٠﴾**﴾(البقرة) ؟ وفى الحديث عن عائشة أن تميمة بنت وهب كانت زوجة لعبد الرحمن بن الزبير فطلقها طلاقاً بائناً، وخلفه عليها رفاعة القرظىّ، فأتت النبىّ ﷺ فذكرت أن رفاعة لايأتيها، وأنه ليس معه إلا مثل هُدْبة، تريده بذلك أن يطلقها للعنّة فترجع إلى عبد الرحمن بن الزبير، فقال لها: «لا، **حتى تذوقى عسيلته ويذوق عُسَيْلَتَك**». **والهدبة** التى شبّهت بها ذكَر رفاعة هى طرف الثوب فيه رخاوة، تعنى أن جماعه بها متعذر، وسياق الخبرُ يفهم منه أن جماع رفاعة مستحيل، وأنها تشكو منه عدم الانتشار. وقول الرسول ﷺ «**حتى تذوقى**» شرطٌ علّته على الإمكان وهو جائز الوقوع، فكأنه نصحها أن **تصبر** لعله يستطيع الجماع، ولو طلقت من رفاعة لوجب عليها أن تتزوج بثالث بنية الزواج، وتحدث منه المواقعة، فلو طلّق فإنها تحل للأول. فالحديث يحذر أن تكون المرأة كاذبة فى دعواها عن زوجها الثانى لغاية فى نفسها أن ترجع لزوجها الأول دون أن يمسّها الثانى. **والذوق** المشترط يقتضى تبادل **العواطف** بين **الزوجين** وهو ما يدل على أن الزواج الثانى تمّ بنية الزواج فعلاً، وإذن لو حدث الوطء عن كراهية من المرأة فلا تحل

للأول إذا طلقها الثاني. ولو حدث وأُغمي على المرأة أو استغرقها النوم ووطأها الثاني فلا تحلّ مع ذلك للأول لأن شرط الذوق لم يُستوفَ. وخلاصة الأمر أن لاتكون هناك مخادعة من أي نوع من الزوج الثاني بإرادة تحليلها للأول. والرسول ﷺ لمس في هذه القضية تحايل المرأة، وإلا فإنه في قضية مماثلة قد حكم حكمًا مغايراً لمّا عرف صدق المرأة في ادعائها، فعن ابن عباس فيما أخرجه أبو داود قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة، ونكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى النبيّ ﷺ فقالت: «ما يغنى عنى إلا كما تغنى هذه الشعرة ـ لشعرةٍ أخذتها من رأسها ـ ففرّقْ بيني وبينه»، قال: فقال النبيّ ﷺ لعبد يزيد: «طلِّقها وراجع أم ركانة» ففعل»، يعني أنه أخذ بدعواها وفرّق بينه وبينها لعنة الزوج، فلم تكن العُنّة إذن هي التي لم يقبل بها عذرًا للطلاق في قضية امرأة رفاعة القرظي وغيره، وإنما كان هو التحايل على الزواج، ثم الطلاق من أجل أن تحل المرأة لزوجها الأول، والتحايل منهيٌّ عنه .وفي الرواية: أن النبيّ ﷺ أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ـ يعني مرة واحدة في مجلس واحد، فقال: «أيُلعَب بكتاب الله وأنا بين أظهركم»؟ يقصد أن التطليقات الثلاث طالما هي في مجلس واحد فهي طلقة واحدة رجعية فقال: «إنما تلك واحدة فارجعها إن شئت». وكذلك قال ﷺ في النكاح: «لانكاح إلا نكاح رغبة، لانكاح دَلُسة ولامستهزيء بكتاب الله لم يذق العُسَيْلة»، والدُلسَة هو المتحايل، وتحايله هو استهزاء بكتابِ الله، والله تعالى قد اشترط الزواج الثاني لتحل للأول من بعد، فإن كان زواج دُلسَة ولا مستهزيء بكتاب الله لم يذق العُسَيْلة»، والدُلْسَة هو المتحايل، وتحايله هو استهزاء بكتاب الله، وليس الزواج الدُلْسَة بالزواج المُحلِّل. والزوج الذي يتزوج مطلقة بتاتاً بنيّة تحليلها لزوجها الأول ملعونٌ، والملعونُ مطرودٌ من رحمة الله، وهو المقصود بالحديث عن ابن مسعود، قال: «لعن الله المُحلّ والمُحلَّل له»، والحديث عن عقبة بن عامر، قال: «ألا أخبركم بالتَّيس المستعار: هو المُحلِّل، فلعن الله المحلِّل والمُحلَّل له»، والتَّيس ذَكَر الماعز، وطبعُه التيوسة ـ أي الخسّة وقلة الحمية، فلا ينفعل إذا نزا ذكرٌ آخر على أنثاه. وقوله تيس مستعار، لأن المحلل يؤجر على هذا العمل الخسيس.

فكما ترى يا أخي المسلم الذكي، ويا أختي المسلمة الذكية، الإسلام بريء مما يتقوّلون به عليه، وتشريعاته في قمة التشريعات ولاتضاهيها أية تشريعات، والدفوع القانونية والنفسية في مجال التحليل لم يرد مثلها في التوراة، وفيها من بُعد النظر، والأخذ بالأحوط، والذي ييسّر على الناس، ما يجعل منهج الإسلام في الأحكام هو الأفضل والأرقى من كافة المناهج الوضعية، ولقد عرفنا أن التوراة والأناجيل كتبٌ موضوعة،

ومناهجها من ثم موضوعة، ولايُقارَن ما كان من عند إله بما يصوغه بشر، وحسبنا الله وله الحمد والمنّة!.

●●●

﴿باب الإسلام الاجتماعى﴾

●●●

﴿سابعاً العدّة﴾

●●●

١٧٨٢.﴿أسماء بنت يزيد أول من أنزلت فيها العدة﴾

لم يكن للمطلقة عدّة قبل نزول الآية: ﴿ **إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ**(١) ﴾(الطلاق)، ولمّا طلقّت أسماء بنت يزيد بن السكن أنزلت آية العدة، فكانت أول امرأة مسلمة تُقرّر لها العدّة للطلاق.

١٧٨٣.﴿عدة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها﴾

المطلقة تذكرها الآية: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**(٢٢٨) ﴾(البقرة)، والمطلقات لفظ عموم، والمراد به الخصوص في المدخول بهن، وخرجت منه المطلقة قبل البناء بها، بالآية: ﴿**فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**(٤٩)﴾(الأحزاب)، وكذلك الحامل بقوله: ﴿**وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** (٤)﴾(الطلاق). وعدّة الأمة كعدّة الحرة لعموم الآية، ولأن النساء فى أمور الفطرة والجبلة سواء، فالإماء كالحرائر، ولو أنه لم تعد هناك إماء. والتربُّص هو الانتظار؛ **والأقراء**:عند البعض هو **الحيض**، وعند آخرين هو **الأطهار**، فمن جعل **القُرْء** اسماً للحيض سمّاه بذلك لاجتماع الدم فى الرحم، ومن جعله اسمًا للطُّهر فلاجتماعه في البدن. **والقُرْء** مأخوذ من قرء الماء فى الحوض يعنى اجتماعه، ومنه القرآن، لاجتماع معانيه أو حروفه، فكأن الرحم يجمع الدم وقت الحيض، والجسم يجمعه وقت الطهر. والصحيح أن القرء هو الانتقال من حيض إلى طهر، ولذلك ليس الطلاق فى الحيض طلاقاً سُنّياً مأموراً به، **ولاهو الطلاق للعدّة**، فإن الطلاق للعدة ما كان فى الطهر، ويكون تقدير معنى الآية: فعدّتهن ثلاثة انتقالات من حيض إلى طهر، وجُعل هذا الانتقال قُرءاً، لأنه دلالة على براءة الرحم أو أنها غير حامل، **فإذا طلّق كان الطلاق فى طهر** وهو المعتبر فى العدة وتطلّق فيه النساء، وإذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدت المرأة بما بقى منه ولو ساعة ولو لحظة، ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة، ثم ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلّت للأزواج وخرجت من العدة.

وعدّة المتوفّى عنها زوجها: أربعة أشهر وعشر، وآيتها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾(البقرة) فجعل الله تعالى عدة الوفاة بخلاف عدة الطلاق، وليس صحيحاً أن الآية شاملة للحوامل من النساء وغير الحوامل، وأن الآية: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ (٤)﴾(الطلاق) نسختها فيما يتعلق بالحوامل، فليس فى ذلك نسخ وإنما هو تخصيص، فآية العدة أربعة أشهر وعشرة أيام لغير الحوامل اللاتى يتوفى أزواجهن، وآية أولات الأحمال للحوامل اللاتى يتوفى أزواجهن أو يطلقن. وفى حالة سبيعة الأسلمية فإنها لما نفست بعد وفاة زوجها بنصف شهر أوأربعين ليلة، ذكرت ذلك للنبىّ ﷺ، فأفتاها بأنها قد حلّت للزواج حين وضعت حملها، وأباح لها الزواج إن ارتأت ذلك. ولا يحل للحامل أن تتزوج بانقضاء عدة الوفاة بل يحل زواجها بالوضع. ولايحل زواجها فى نفاسها إلا بعد أن تطهر.

●●●

١٧٨٤.﴿لماذا عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر أيام؟﴾

فى الحديث عن ابن مسعود فيما جاء فى الصحيحين عن حكْمة الأربعة أشهر والعشرة أيام عدة المتوفى عنها زوجها، قال:«إن خَلْق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يُبعَث إليه المَلَك فينفخ فيه الروح» ، فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعدها بعشر لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لتتضح حركة الجنين بعد نفخ الروح فيه. ولاتبرأ المرأة إذا كانت ممن توطأ إلا بحيضة تأتى بها فى الأربعة أشهر والعشر، وإلا فهى مُسْتَرابة، وليس عليها أكثر من أربعة أشهر وعشر، إلا أن تستريب نفسها ريبة بيّنه، لأن هذه المدة لابد فيها من الحيض فى الأغلب إلا أن تكون المرأة ممن لاتحيض. واختبار الحمل عند طبيب أمراض النساء يغنى عن ذلك جميعه. وكان سنّ الأربعة أشهر والعشر لمجتمع لم تكن فيه مثل مختبراتنا الطبية الحالية، واختبار الحمل يؤكد الحمل من عدمه فور حدوث الحمل. والأربعة أشهر والعشر مثلها مثل رؤية هلال رمضان بالعين المجردة وشهادة الشهود، حيث التلسكوب يغنى عن ذلك. والعدة سواء للمطلقة أو للمتوفّى عنها زوجها للتأكد من أن المرأة غير حامل، فإن كان من الممكن التأكد من ذلك يقيناً بالعلم فلا داعى لهذه المدة كلها. وهذا الرأى من وجهة نظر العلم، وأما من جهة الشرع وفى مواجهة الأهل والكافة فينبغى التزام هذه المدة.

●●●

١٧٨٥. ﴿عدة اللائي يئسن من المحيض﴾

لمّا نزلت عـدّة النساء في المطلقـة والمتوفّى عنهـا زوجهـا، لم يبق إلا الصـغار وذوات الحمل، فنزلت: **﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ(٤)﴾**(الطلاق) جواباً لمن سأل: **ما عدّة التي لم تحض؟ وما عدة التي انقطع حيضها؟ وعدّة الحُبْلى؟** ومعنى: «**اللائي يئسن من المحيض**»: اللائي انقطع عنهن الحيض في غير أوانه. فإن شككتم وارتبتم هل بلغن سن اليأس، فـإن عدتهن لاتقل عن ثلاثة أشهر. وإذا كانت المرأة كبيرة السن وتشكو **الاستحاضة**، يعني تظل تحيض مراراً في الشهر، وفي كل شهر. فالعدة أيضا ثلاثة شهور. وقيل عدة التي ارتفع حيضها وهي شابه سنة، وأما من تأخر حيضهـا لمرض فإنها تعتد **تسعة أشهر** ثم ثلاثة، وهي كالمرضـع التي لاتحيض لأجل الرضاع. ولو تأخر الحـيض لغير مرض ولا رضاع فـإنها تنتظر سنة لاحيض فيهـا: تسعة أشهر ثم ثلاثة. وأما اللائي لم يحضن وهن **الصغيرات**، فعدتهن ثلاثة أشهر. **ويغني عن ذلك كله إجراء التحاليل الطبية التي تؤكد الحمل من عدمه والحصول على شهادة طبية بذلك.**

•••

١٧٨٦. ﴿عدة الأمة كعدة الحرة﴾

لا إمـاء لدنيا اليـوم، ولكن قيل إن الإماء كن إذا طُلِّقن زمن الصـحابة كانت عدّتهن حيضتـين، أي نصف عدة الحرّة، **وهذا غير صـحيح**، لأن الله تعالى هو المشـرّع، وقد جعل عدة المرأة، حـرّة أو أمة، ثلاثة قــروء: **﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ(٢٢٨)﴾** (البقرة) يعنى **ثلاث حيضات**، والإسلام يساوي بين **الأمة والحرة**، وعدة الأمة لذلك هي كـعدّة الحـرة، والآيات في عدة الطلاق والوفـاة بالأشهـر والأقراء، عـامة في حق الأمـة والحرة. فعدة الحرة والأمة سواء، وأما الحديث الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ: «**طلاق الأمة تطليقتان وعـدّتها حيضتان**» فهو حديث ضعـيف ويعارض القرآن، ولا شك أنه حديث موضوع.

•••

١٧٨٧. ﴿لا يحل للمطلقة أن تكتم حملها﴾

الحـيض والأطهار والـعدّة والحـمل مسـائل لا اطّلاع عليها إلا من جهـة النساء، وفي الآية: **﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ(٢٢٨)﴾**(البقرة) أنه تعالى جعل القول في هذا الشـأن هو قــول المرأة إذا ادّعت انقضاء الحيض أو عدمـه، وجعل النساء مؤتمنات على ذلك، ولم يؤمـر المسلمـون أن يفتـحوا نسـاءهم لينظروا إلى فـروجهن ليـروا ذلك

ويتأكدوا منه، ولكن الله تـعالى تكريماً للمرأة فى الإسلام وكَل ذلك إلـيهن، ونهاهن عن الكتـمان للإضرار بالـزوج وإذهاب حقّه فى الـولد، أو الادعاء بالحمـل لإلزامه بالنفـقة، وكانت النساء فى الجاهلية يكتمن الحـمل لتلحق الولد بالزوج الجديد، وحالياً لم يعد الأمر للنساء إزاء أى ادعـاء بالنظر إلى التقـدّم العلمى وإمكان التـحليل الطبى لمعرفـة الحمل من عدمه.

●●●

١٧٨٨. ﴿خطبة المرأة فى العدة ومواعدتها﴾

لاوزر فى التعرّض بالخطبة فى عدة المتوفَّـى عنها زوجها، بقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا(٢٣٥)** ﴾(البقرة)، والتعريض ضد التصريح، وهو إفهام المعنى بالشىء المحتمل له ولغيـره، وهو من عُرض الشىء وهو جانبه، والكلام مع المعـتدة بماهو نصّ فى تزوّجـهـا لايجوز، كـذلك الكلام مـعهـا بما هو رَفَث، أو تحـريض على الفسق، وما أشبهه، وغير ذلك جائز.

ولايجوز التعريض لخطبة الرجعية لأنها كالزوجة، ويصّح التعريض فى عدة البينونة. وللتعريض ألفاظ على قـسمين، فقسـمٌ يُذكر لوليّهـا، كأن يقول له أريد الزواج من فلانة؛ وقسمٌ يذكـره لها دون واسطة، كأن يقـول لها: أريد زواجك، أو إنى أرغب فـيك. وقد تدهش النساء إذا تقدم لهن زوج فى العدّة، أو أهدى إليهـن شيئًا، وقد عابت سكينـة بنت حنظلة على من تقدّم إليها فى عدتها من وفاة زوجها فقالت له: غفر الله لك! إنك رجل يؤخذ عنك! تخطبنى فى عدّتى؟! غير أن النبىّ ﷺ فعل ذلك مع أم سلمة وهى متأيّمة من أبى سلمة. وقد يضمر الرجل الزواج من المرأة بعد أن تتم عدّتها، ونهى الإسلام عن مواعـدة النساء فى العدة سرًا، أو أن تتزوج المرأة سـرًا فى العدة، فإن حلّت أعلنت ذلك، إلا أن يقال فى المواعدة قولاً معروفاً مما أبيح من التعريض.

●●●

١٧٨٩. ﴿لاعقد زواج فى العدة﴾

العدّة للمطلقة ثلاثة قروء، وللمتوفَّى عنها زوجها أربعة شهور وعشرة أيام، ولايعقد على المرأة بالنكاح من آخـر خلال العـدة، وفى الآية: ﴿ **وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ(٢٣٥)** ﴾(البـقرة) أى تنوون عقدالنكاح إلا بعـد نهاية العدة، وبلوغ الأجل أى انقضاء العدة، وفى ذلك تحريم للخطبة فى العدة.

●●●

١٧٩٠. ﴿إحداد المرأة فى عدة الوفاة﴾

الإحداد: هو ترك المرأة الزينة كلها من اللباس والطيب والحليّ والكحل والخضاب وما شابه، ما دامت فى عدّتها، لأن الزينة داعية إلى الأزواج، فنهيت عن ذلك، وفى الحديث: «**لا تُحد امرأة على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً، ولاتلبس ثوبًا مصبوغًا إلا ثوب عَصب** (أى غير مصبوغ، أى تمتنع عن الثياب الملونة)، **ولاتكتحل، ولاتمس طيباً، إلا إذا طهرت: نبذة من قسط أو أظفار**»، يعنى القليل من الطيب تضيع به رائحتها إذا كانت نفساء أو فى المحيض. والمطلقة طلقة رجعية ولم تنقض عدّتها عليها عدّة الوفاة، وترثه. والعدة فى الوفاة أو فى الطلاق من يوم يموت أو يطلق. **وعدة الوفاة** تلزم كل النساء، الصغيرة والكبيرة والتى تحيض واليائسة من المحيض، والكتابية، وعدّتهن جميعاً **أربعة أشهر وعشرة أيام**، ولاعبرة بما ذهب إليه البعض أن عدّة **الأمة** نصف عدّة الحرة، فالأمة كالحرة فى الإسلام، وعلى كل فلا إماء الآن.

●●●

١٧٩١. ﴿نفقة المطلقة الحامل﴾

المطلقة ثلاثاً، أو المطلقة وعليها رجعة وهى حامل، نفقتها واجبة لقوله تعالى: **﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴿٦﴾ ﴾**(الطلاق). والحامل المتوفَّى عنها زوجها لها النفقة من جميع المال، ولا تسقط النفقة بالموت كما يقول البعض، وحُكمها أقوى من الدين الثابت، لأنها تتعلق بحياة الأم وحياة صغيرها. .

●●●

١٧٩٢. ﴿الحضانة وترتيب استحقاقها بين الأقربين﴾

تكون الحضانة أولاً **للأم** بلا منازع، ثم **أمهاتها** وإن علون، يُقدَّم منهن الأقرب فالأقرب، ثم **الأب، ثم أمهاته، ثم الجدّ**، ثم أمهاته، ثم **جدّ الأب**، ثم **أمهاته** وإن كن غير وارثات. وروى أن **أم الأب** وأمهاتها مقدّمات على أم الأم، فعلى هذه الرواية يكون الأب أولى بالتقديم ويتلو الأم، ثم أمهاته. وإذا انقرض الأباء والأمهات انتقلت الحضانة إلى الأخوات، للأخت من الأبوين أولاً، ثم الأخت من الأب، ثم الأخت من الأم، وتقدم الأخت على الأخ، ولا حضانة للأخ لأم؛ فإذا عدموا صارت الحضانة للخالات، ولا حضانة للأخوال؛ فإن عدم الخالات صارت الحضانة للعمّات ويقدمن على الأعمام. ولا حضانة للرجال من ذوى الأرحام كالخال، **والأخ من الأم، وأبى الأم، وابن الأخت**، مع وجود أحد من أهل الحضانة سواهم، فإن لم يكن هناك غيرهم فهم أحق.

●●●

١٧٩٣. ﴿حضانة الولد بين حضانة الأم أو الأب﴾

إذا بلغ الصبي وليس بمعتوه، خيّر بين أبويه إذا تنازعا فيه، فمن اختاره منهما فهو أولى به. وإذا كان الأب متوفيًا أو من غير أهل الحضانة وحضر غيره من العصبات كالأخ، أو العم، قام مقام الأب. ويُخيّر الصبي بين أمه وعصبته. وكذلك إن كانت أمه متوفية أو من غير أهل الحضانة، فيسلّم الولد إلى الجدة، فإنه يخيّر بينها وبين أبيه أو من يقوم مقامه من العصبات. فإن كان الأبوان متوفيين، أومن غيرأهل الحضانة، فيسلّم الولد إلى امرأة كأخته، أو عمته، أو خالته، فإنها تقوم مقام أمه فى التخيير بينها وبين عصباته. ولايمنع الولد من عيادة أبويه وهو عند أيهما، ويؤذن له فى حضور جنازة من يموت منهما. والزيارة من الولد أو له مأذونٌ بها . وللأم حضانة ابنها المتخلّف عقلياً بلا نهاية، وحضانة ابنها الضعيف صحياً والمحتاج إلى رعايتها باستمرار. وتكون البنت فى حضانة أمها حتى تحيض، ثم تخيّر، ولا يُمنع أيٌّ من الأبوين من زيارتها أو زيارته، وإن مرضت البنت فالأم أحق بتمريضها فى بيتها. والمقيم أولى بالحضانة من المسافر، ومن المتنقل، وقيل إن البنت تظل فى حضانة أمها حتى الزواج، وقيل إن زواج الأم لا يُسقط حق حضانتها لأولادها. وإن تركت الأم حقّها فى الحضانة انتقلت الحضانة إلى الأب.



وينتهي بذلك الباب السادس عشر ويبدأ الباب السابع عشر

بإذن الله عن العبادات، ولله الحمد والمنّة



الباب السابع عشر

●●●

﴿العبادات﴾

العبادات: من عَبَد أى وحّد وخضع وذلّ وطاع؛ **والعبادة**: هى نهاية التعظيم ولا تليق إلا فى شأنه تعالى؛ **والعبودية** هى الانتساب إليه تعالى بأن تكون له عبداً؛ **والعبادة**: لعوام المؤمنين، وبها ينال المؤمن شرف الانتساب إلى الله فيسميه «عبداً»، كقوله تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ (١٧)﴾**(ص)، وقوله: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ (٤١)﴾**(ص)؛ **والعبودية**: لخواصهم، وهى منع النفس عن هواها، وزجرها عن مناها، والطاعة فى أمر مولاها. ونهاية العبودية الحرية، لأن العبد إذا وصل إلى الله فقد صار حراً من جميع ما سوى الله، فعندئذ يكون فى الحقيقة عبداً لله. **والعبودة**: لخاصة الخاصة، وهم الذين يشهدون نفوسهم قائمة به فى عبوديته، وهم بها يحسّون أنهم بشرٌ وآدميون حقاً. **وتطلق العبادات على الأحكام الشرعية العملية**، وهى إما أحكام تتعلق بأمور الآخرة ـ وهى العبادات: **كالطهارة، والوضوء، والغُسل، والصلاة، والحج، والصيام، والزكاة**؛ أو بأمور الدنيا ـ وهى المعاملات: كالربا، **والدَّين، والقرض، والدِّية**؛ أو بأمور الأسرة: **كالزواج والطلاق**؛ أو **بأمور المجتمع**: وهى العقوبات. وسنتناول كلاً بإذن الله إلا الزكاة فقد جعلناها ضمن **الإسلام الاقتصادى** فى **الباب الثامن عشر**.

●●●

١. ﴿الوضوء والاغتسال﴾

●●●

١٧٩٤ - ﴿آية الوضوء﴾

آية الوضوء هى الآية: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾**(المائدة)، وكان نزولها لمّا فقدت السيدة عائشة العقد فى غزوة المريسيع، فاضطر المسلمون إلى أن يبقوا فى مكانهم فلم يجدوا ماء فى الصباح للوضوء، فنزلت الآية. ولم يكن الوضوء جديداً عليهم، وكان متقرراً عندهم ومستعملاً، ولم تتضمنه الآية إلا ليُتلى فيها، وكان نزولها أصلاً لتعطيهم رخصة التيمُّم. والفاظ الآية

تقتضى الموالاة بين الأعضاء، من غير تراخ بين أبعاضه، ولا فصل بفعلٍ ليس منه؛ وتقتضى الترتيب كذلك، والترتيب سُنّة، ولا بد فى الوضوء من النّية، والآية فيها ذِكْر أربعة أعضاء: الوجه ـ وفرضُه الغسل؛ واليدان وفرضهما الغُسل إلى المرافق؛ والرأس ـ وفرضه المسح اتفاقاً، والرِّجلان ، وفرضهما المسح إلى الكعبين؛ ولم يذكر سوى هذه الأربعة، فدلّ على أن ما عداها آداب وسنن، والوضوء إذن غسلتان ومسحتان. وفى الحديث: «ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار»، فالفرض المسح، والإحسان غسل الأعقاب وبطن الرجلين، وكان رسول الله ﷺ يتوضأ ويمسح على الخُفّين والنعلين والجوربين، ومسح علىّ على الجوربين؛ وفى غزوة تبوك مسح النبىّ ﷺ أعلى الخفّ وأسفله. وفى الآية: الطهارة من الجنّابة بالغسل، فإذا لم يوجد الماء فالتيمم من ملامسة النساء، وهو كل ما دون الجماع، وفى حالة المرض كما فى سلس البول، وفى السفر؛ وفى الحديث: «لا يقبل الله صلاةً بغير طهور» لمن قدر على الطهور، ومن لم يقدر فلا عليه، لأن الوقت فرضٌ فيصلى كما قدر فى الوقت، ثم يعيد. والتيمم بالصعيد الطيب، أى التراب النظيف الجاف من مكان مرتفع، حيث لا يجتمع فيه ماء ولا رطوبة فى الأرض. ومن آداب الوضوء المضمضة وهى تحريك الماء فى الفم؛ والاستنشاق: وهو صبّ الماء فى الأنف؛ وكذلك الاستنثار: وهو استنشاق الماء وإدخاله فى الأنف واستخراجه منه. والمراد بكل ذلك أن الوضوء مشروعٌ عبادةً، لدحض الآثام وحصول التطهّر، إعداداً للمصلّى للوقوف فى حضرة الديّان.

•••

١٧٩٥- ﴿الوضوء عند كل صلاة﴾

فى الآية: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ...(٦)﴾(المائدة)، اللفظ عام فى كل قيام إلى الصلاة، فينبغى الوضوء، وكان علىّ يفعل ذلك ويتلو هذه الآية، وكان الخلفاء يتوضأون لكل صلاة. وكان النبىّ ﷺ لا يعمل عملاً إلا وهو على وضوء، ولا يكلم أحدًا ولا يردّ سلاماً إلا على وضوء، وظل يتوضأ لكل صلاة طلباً للفضل، إلى أن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوء واحد، وليس هذا بنسخ للآية، لأن السُنّة تبيّن القرآن ولا تلغيه. وقيل: إن النبىّ ﷺ صلى بالصهباء العصر والمغرب بوضوء واحد فى غزوة خيبر، وهى سَنَة ست قبل فتح مكة سَنَة ثمان، يعنى أنه كان فى الغزو فقط يجمع بوضوء واحد. وقيل إن قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ يعنى من النوم؛ وإذن يكون الغسل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ﴾، ﴿أَوْ

لامستم النساء ﴾ الملامسة الصغرى، فاغتسلوا، وأما الجنابة فلها الطهارة، وأما المرض والسفر بلا ماء فله التيمم. وفى الحديث: «الوضوء على الوضوء نور»، فكان النبىّ ﷺ يتوضأ مجدداً لكل صلاة، ولمّا سلّم الرجل عليه وهو يبول، لم يردّ عليه حتى تيمم، ثم ردّ السلام وقال: «إنى كرهت أن أذكر الله إلا على طُهر» رواه الدارقطنى.

●●●

١٧٩٦ - ﴿استحباب الوضوء﴾

الوضوء شطر الإيمان، وفى الرواية أن رسول الله ﷺ قال لأنس: «يا أنس، أكثر من الطهور يُزِد الله فى عمرك، وإن استطعت أن تكون فى الليل والنهار على طهارة فافعل، فأنت تكون إذا مت على طهارة ـ شهيداً»، وعنه ﷺ قال: «من أحدث ولم يتوضأ فقد جفانى». فالوضوء وسيلة وغاية، وللإنسان أن يتوضأ ليكون على طهارة، وهو واجب لغيره كالصلوات الخمس، والطواف، والنذر، ومستحبٌ لنفسه ولغيره كالصلوات النافلة، ويستحب لدخول المساجد، وللسعى فى الحج، ولصلاة الموتى، وزيارة القبور، وقراءة القرآن، وللدعاء وقضاء الحاجة، ولسجدة الشكر، والأذان، ولورود المسافر على أهله، وقبل النوم، وقبل مقاربة الزوجة، وللزوجين ليلة الزفاف، ويستحب تجديد الوضوء لأنه نور على نور، وتوبة من غير استغفار. ويستحب للحائض أن تتوضأ وتجلس فى مصلاها مدة الصلاة، وللجُنُب قبل النوم، وللأكل والشرب، والجماع ثانية، وقبل أن يُغسل الميت.

●●●

١٧٩٧ - ﴿موجبات الوضوء﴾

الوضوء فريضة، ولا صلاة إلا بوضوء، والوضوء افتتاح الصلاة، ويُبدأ فيها بالوضوء جلباً للطهارة من الأدناس والنقاء من النجاسة. والوضوء يُذهب الكسل، ويطرد النعاس، ويزكّى القلب. وموجبات الوضوء: الغائط، والبول، والريح يسمع صوتها أو تُشَمّ رائحتها، والنوم ـ وقد تنام العين ولا ينام القلب والأذن، فإذا نامت العين والأذن والقلب وجب الوضوء. وينُقض الوضوء: بالجنابة، والحيض، والاستحاضة، والنفاس، وزوال العقل بالسُّكر، والجنون، والإغماء. والأصل فى الوضوء أنه لا يجب إلا مع الإسلام، والبلوغ، والعقل، وعدم الضرر. ومن توضأ وشكّ هل أحدث أو لا، بنَى على أنه متطهر، ومن نوى الغُسل والوضوء أجزأه الغسل عنهما. وتجب التسمية فى طهارة الأحداث كلها، والتسمية هى قول: «بسم الله»، وموضعها بعد النية قبل أفعال الطهارة كلها، والنية شرط من شرائط الطهارة الشرعية، وهى مقدّمة على الطهارة. ويستحب تجديد الوضوء لكل صلاة. وتتوضأ المستحاضة لكل صلاة، وينتقض الوضوء: بالخارج من السبيلين، سواء كان معتاداً

كالبــول والغائط والمنى والمذى والودى والريح، أو نادراً كــالدم والدود والحصى والشَّــعر. ويتوجب الوضوء: من الخــارج من غير السبيلين كالقئ إذا كــان فاحشاً. وإذا مسّ الرجل ذكره قصداً، والمرأة فرجها. والمرتد إذا عــاد للإسلام، والمتعاطى لعقار يُذهب العقل بالنوم أو الذهول، وبملامســة الرجال للنساء بشــهوة. وبملامســة النساء للرجال بشــهوة. وإذا نام قاعداً نوماً كثيــراً. وإذا غسّل ميتاً. **ويستــحب الوضوء**: للجُنــب إذا أراد النوم أو الأكل أو العود.

●●●

١٧٩٨ - ﴿الغَسـل﴾

الغُسل ـ بضم الغين ـ اسمٌ للاغتسال، وللماء الذى يُغتسل به؛ **والغَسْـل** ـ بالفتح ـ فعل المغتسل. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** ﴿٦﴾﴾(المائدة) فيه أن الغُسل من الجنابة فرضٌ أمر به الله، وقوله: ﴿**وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴿٢٢٢﴾﴾(البقرة) يعنى حتى يغتسلن، وحقيقة الاغتسال: غسل جميع الأعضاء مع تمييز ما للعبادة عمّا للعادة. ويستحب الوضوء قبل الغُسل، ويجوز للرجل أن يغتســل مع امرأته. وأقل الغسل أن يفيض على رأسه ثلاثاً. واغتســل النبىّ ﷺ مرة واحدة، وتمضمض واستنشق، وكان إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه وقدميــه، وكان يقول: «**إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعــود، فليتوضأ بينهــما وضوءاً**». وقال: «**لابد من غسل الفرج إذا أراد العود فإنه أنشط للعود**». وإذا أمذى الرجل فله أن يغسل ذَكَره ويتوضأ فقط، وللمرأة إذا **احتلمت** أن تغتسل. والغُسل يجب إذا جلس الرجل بين شُعَب المرأة الأربعــة ثم جهدها، وإذا ألزق الختــان بالختان، ومن يضــاجع امرأته ولم يُمْنِ فليتوضأ كما يتوضأ للصلاة ويغسل ذكره وما مسّ المرأة منه.

●●●

٢ . ﴿الطهارة﴾

●●●

١٧٩٩ - ﴿لا تقبل صلاة بغير طهور﴾

القبــول هو الإجزاء، وحقيقته وقوع الطاعــة مجزئة رافعة لما فى الذمة، وكان السلف يقولون: لأن تُقبَل لى صلاة واحــدة أحبّ إلىّ من جمــيع الدنيا، لأن الله تعــالى يقول: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴿٢٧﴾﴾ (المائدة)، **والتــوضؤ** من التقوى، ولا يــكون التوضؤ إلا بالماء، كما أن التيمم لا يكون إلا بالتراب الطاهر. وفى الحديث: «**الصعيد الطيب وضوء المسلم**»، يعنى أن التيمم وضوء لكونه قام مقامه. وأمة محمد ـ **أمة الإجابة** ـ هم **الغُرّ المحــجلون** يوم القيامــة من آثار الوضوء. **والغُــرّ** من الغُرّة وهى اللمعة البيــضاء فى جبهة

الفرس. والمحجّلون من الحِجل بكسر الحاء ـ والمراد هنا النور، وهم مخصوصون بالغُرّة والتحجيل، أثرًا من الوضوء، ويكون الوضوء خفيفاً أو إسباغاً، ومنه الاستنجاء، ويستحب باليسار، وكذلك عند التبول يُمسك الذَّكَر باليسار، ويجوز الوضوء مرة مرة لكل عضو، ومرتين مرتين، وثلاثاً ثلاثاً. والاستنثار بطرح الماء الذى يستنشقه المتوضىء، ويستحب باليد اليسرى. ويعمم غسل الرجلين والأعقاب. والمضمضة من الوضوء، وهى وضع الماء فى الفم. وتحريكه ثم يمجّه. وكان النبىّ ﷺ يحب التيمّن فى الوضوء، وفى كل شيء، لأنه كان يحب الفأل الحسن، وأصحاب اليمين هم أهل الجنة. والبداءة باليمين مستحبة فى كل ما كان من باب التكريم والتزيين، وما كان بضدهما استحب فيه التياسر. والرأس يُمسَح كله لقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ (٦)﴾(المائدة)؛ ويُغسَل المنى ويُفرَك من الثوب، وكذلك دم الحيض يُحَتّ ويُقَرَّص بالماء ويُنضَح؛ ويستحب التسوك أو غسل الأسنان عند القيام من النوم، لأن النوم مقتض لتغيّر الفم.

●●●

١٨٠٠ - ﴿الطهارة الصغرى والطهارة الكبرى﴾

ينقض ما يسمى بالطهارة الصغرى ثلاثة أحداث: زوال العقل، والخروج المعتاد، وملامسة النساء. والخروج يعنى ما يخرج من الجسد من النجاسات، أو ما يخرج من السبيلين، وفى هذه الأحوال الثلاثة ينبغى الوضوء. وزوال العقل يكون بالإغماء، أو الجنون، أو بشُرب الخمر، أو تعاطى المخدرات، والنوم فيه غياب العقل، ولا شك أنه مظنة حدث، فمن نام مضطجعاً فعليه الوضوء، لأنه يُرخى عضلاته فربما يُحدث. وليست ملامسة النساء جماعاً، وإنما الجماع هو مباشرة النساء، وتقتضى الملامسة الوضوء إذا كانت بلذة، وقيل الملامسة باليد هى الناقضة للوضوء، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (الأنعام٧). والقُبلة، والجسّ باليد ـ من الملامسة، وفيهما الوضوء. واللمس يطلق فى الشرع على الجسّ باليد، والرسول ﷺ قال لماعز الذى أقرّ الزنا على نفسه، يعرض له بالرجوع عن الإقرار: «لعلك قبّلت أو لمست؟» وعن عائشة أن النبىّ ﷺ قلّ يوم إلا يطوف على نسائه فيقبل ويلمس ثم يصلى ولم يتوضأ.

والطهارة الكبرى: هى الاغتسال من الجنابة كقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا(٦)﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا (٤٣)﴾(النساء)، وكقوله بشأن الحائض: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ (٢٢٢)﴾(البقرة) أى يغتسلن، وحقيقة الاغتسال غسل جميع الأعضاء. والاحتلام بالنسبة للمرأة والرجل فيه غُسل. والجمهور على أن الجُنب هو

غير الطاهر من إنزال، أو مجاوزة ختان، وقيل أنه لا غُسل إلا من إنزال للحديث: «**إنما الماء من الماء**» أخرجه مسلم، وقال ﷺ في الرجل يجامع ولا ينزل: «**يغسل ما مسّ المرأة منه ثم يتوضأ ويصلى**» أخرجه البخارى.



١٨٠١- ﴿الطهارة والمطهرات والطُهر﴾

المطهرات: هى التى تطهّر غيرها من النجاسة، من **الطهارة**: وهى فى **اللغة** النزاهة عن الأقذار، وفى **الشرع** هى رفع ما يمنع من الصلاة من حدث أو نجاسة بالماء، أو رفع حُكمه بالتراب. **والمطهّر الأول هو الماء**، وهو فى الدين وسيلة التطهّر، وقيل: ولا يضر تغيّر لون الماء أو ريحه، أو طعمه، غير أن العلم يقول: بأن بقاء شىء من هذه الأوصاف يدل على استمرار وجود ذرات من النجاسة فيه، وإن كان المعول عليه، هو **العرف** وتسامحه، وليس العلم وتجاربه، **والأصح الأخذ بالعلم لا العرف**، ولذا تشترط **الطهارة فى** الماء، أى عدم النجاسة فيه، فلا يكون لونه أو ريحه أو طعمه متغيّراً، لأنه لن يكون طاهراً، فكيف يكون وسيلة طهارة؟ وفاقد الشىء لا يعطيه، ولو كان الماء نجساً وضُمّ إلى نجس مثله، فإن المجموع لا يصبح طاهراً. ولابد أن يكون الماء **مطلقاً** لا مقيداً، لأن **المضاف** إن كان طاهراً فى نفسه فإنه غير مطهِّر لغيره. فالأصل فى الماء إذن الطهارة، وتجوز الطهارة من **الحدث والنجاسة** لكل ماء طاهر مطلق؛ ولا يكره الوضوء والغسل بماء زمزم، **وماء المطر والثلج والبَرَد** طهور. وإذا خالط الماء الطاهر غيره من الطاهرات تغيّر اسمه، وغلب على أجزائه، حتى صار اسمه **صبغاً** أو **خلاً** مثلاً، أو غير ذلك فتزول طهوريته. ولو تغيّر الماء **بالتراب** لم يفقد طهوريته. **وغسل اليدين من نوم الليل من الطهارة**، وليست العلّة فى ذلك النجاسة ولكنها التعبُّد، ويفتقر غسلهما إلى النيّة والتسمية. وحدّ اليد المأمور بغسلها من الكوع، والنوم الذى يتعلق به الأمر هو ما نقض الوضوء. وتحصل **طهارة المحل بالاستجمار**؛ **وطهارة القُبُل والدُبُر** من البول والغائط **بالاستنجاء**. وتستحب الطهارة **للسعى بين الصفا والمروة**، ويستحب الغسل **للوقوف بعرفة**. ويتوجب الغسل **من الحدث الأكبر**، وأقل **الطهر عند النساء** بين الحيضتين **ثلاثة عشر** يوماً. **والنجاسة** نقيض الطهر. **وكل ما ليس له دم سائل** فإن سائله طاهر بجميع أجزائه وفضلاته. وما كان طاهراً من الحيوان **فشعره** طاهر، وما كان نجساً فشعره نجس، ولا فرق **فى ذلك** بين حال الحياة وحال الموت، **والريش** كالشعر فى الحكم. **وشعر الآدمى** طاهر. **والمنى كالبول** يُعفَى عن يسيره، ويجزئ فَرْك يابسه. **والآدمى** طاهر حياً أو ميتاً، وأجزاؤه إذا انفصلت منه فى حياته طاهرة، **وسؤره** طاهر، سواء كان مسلماً أم كافراً. **والكلب والخنزير** وما تولد منهما نجسٌ عينه وسؤره، وجميع ما

خرج منه، وسائر سباع البهائم، وجوارح الطير. ويتوجب غسل الإناء الذى يشرب منه الكلب سبع مرات، منها مرة بالتراب، ويجزئ الصابون فى كل المرات، ولا يُتوضأ بفضل الكلب. وللتطهّر من البول يُغسل الجسد بالماء مرتين، ويصب الماء على بول الصبى والبنت، وقيل يجزىء الرش بالماء على بول الصبى الذى لم يأكل الطعام، ويُغسل بول البنت وإن لم تطعم. ويُغسل الثوب إذا أصابته خمر أو نحوه، ويغسل الإبريق من أثر الخمر فيه. والفأرة تنجّس ما تقع فيه من طعام أو ماء، ويُغسل الوعاء سبع مرات، وإذا تنجّس إناء أو غيره بنجاسة خنزير أو كلب، وجب غسله سبع مرات، إحداهن بالتراب، ويجزىء الصابون حالياً عن التراب. وفى غير ذلك فاشتباه التنجس يوجب الغسل ولو مرة واحدة. وحُكم الغُسالة النجاسة إذا كانت لطهارة الشيء، وإلا فهى طاهرة.

والتراب هو المطهرّ الثانى، وهو وسيلة الفقراء حالياً، ويستخدم للتيمم إن لم يوجد الماء، والأرض تطهّر بعضها بعضاً، وتطهّر باطن القدم والنعل، بشرط زوال النجس منها. والشمس هى المطهر الثالث، وما تجففه الشمس طاهر يُصلَّى عليه. والرابع من المطهرات هو التحوّل، كأن تتحول الخمر إلى خلّ، فتطهر بتغيّر اسمها وموضوعها. والمطهر الخامس هو الاستحالة، فالعذرة مثلاً تستحيل تراباً أو رماداً. ويجوز استعمال المطعومات فى التطهير، كالملح؛ ويجوز غسل الأيدى بالنخالة؛ وجلد الميتة يطهر بالدباغ، ولا يجوز أكل جلد ميتة مأكول اللحم ولو دُبغ، ويجوز الانتفاع بشحومات الميتة وشحم الخنزير وبالعظم، إلا أن يكون ذلك فى طعام، وكل طعام خلط به ذلك يتنجّس، ويحرم بيعه.

●●●

٣. ﴿النجاسات﴾

●●●

١٨٠٢ - ﴿النجاسات وأنواعها﴾

النَّجس فى اللغة هو القَذر، غير الطاهر، ولا النظيف، والجمع أنجاس، ويقال نجّسه وأنجسه أى صيّره نجساً، وتنجّس الثوب: صار نجساً، وتنجّس الرجل: بمعنى فعل ما يخرج عن الطهارة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ (التوبة ٢٨)، فلأنهم مشركون كانوا أنجاساً، فصار على من يصافحهم أن يتوضأ، والكلام عن المشركين وليس عن أهل الكتاب، وبمقتضاه فإن الكافر إذا أسلم وجب عليه الغسل مما كان عليه من نجاسة الشرك، وقد أمر بذلك النبىّ ﷺ. وشِرك المشركِ جنابة، فإن أسلم المشرك قبل احتلامه - أى البلوغ - فغُسله مستحب، وإن أسلم بعد بلوغه، لزمه أن ينوى بغسله إزالة جنابة الشرك، والنبىّ ﷺ أمر المشركين إذا أسلموا أن يغتسلوا بماء وسدر - أى

وطيـب - **والمسجد الحرام** في الآية عام على جميع المساجد، ويُحرم تمكين المشرك من دخولها، بقوله تعالى: ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه**﴾ (النور ٣٦)، فالمشرك يحرم عليه دخولها لأن دخوله فيها مناقض لترفيعها، وفي الحديث: «**لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب**»، والشرك جنابة، وتسمية الله تعالى للمشرك أنه نجس لا يخلو أن يكون نجس العين، ومنعه إذن من المسجد واجب.

والبول والعُذْرة من الإنسان نجسان، على عكس **فضلات الطيور**، فإنها ليست نجسة؛ وكل حيوان جاز أكله شرعاً، إذا أكل **العُذرة** واشتد لحمه منها حتى صار **جلالاً**، يحرم أكله. **والحيوان الجلال** هو الذي جعل علفه العُذرة، ويترك ليأكل علفاً طيباً مدة ليبرأ من الخلل، وهو آكل الروث والبعرة، ويقال لها **الجلّة** من **جلّ واجتلّ**: أي التقط الروث والبعر. وكذلك يحرم لحم الحيوان الذي **يطؤه إنسان**، أي يجامعه، ومتى حُرم فإن بوله وخرءه ينجسان، ولا يحل شرب لبنه. وروى في منيّ الآدمي أنه نجس، وليس هذا صحيحاً، وقيل يعفى عن يسيره، ويجزئ فيه أن يُفرك يابسه. **والمذْي والودْي ليسا نجسين**. **والمذي** هو الماء الأبيض يخرج من القضيب عند الملاعبة، بينما **الودي** هو الماء الأبيض يخرج إثر التبول. وقيل: **الدم** نجس لما يتولد منه من القيح والصديد. وكل **حيوان مأكول اللحم** دمه نجس. وما يبقى من الدم في **الذبيحة** بعد خروج المقدار المتعارف عليه منها، فإنه طاهر. وكل **ما ليس له دم سائل**، كالحيّة والجراد فميتته طاهرة، **والذباب** له دم وهو نجس. وكل أعضاء الحيوان والطير النجس، من **شعر، وقرن، وظفر، وريش، وصوف، وعظم**، فإنها طاهرة إلا ما كان نجس العين كالخنزير، ولا بأس بالصلاة فيما كان من **صوف الميتة**، لأن الصوف لا روح فيه. وكل **حيوان أو طائر ميت فهو نجس**. **والخمر** وكل ما خامر العقل نجس، ومن ذلك **الأفيون والهيروين والكوكايين والماريجوانا والحشيش** وغيرها. **وما يخرج من البهيمة التي لا يؤكل لحمها** من بول أو غيره فهو نجس. ويعفى عما يعلق بمحل **الاستنجاء**، وما يصيب **الخف والحذاء** من النجاسة، **واليسير من الدم والقيح والصديد**. والطهارة شرط الماء الذي تزول به النجاسة، وطهارته طهارة **مطلقة**، يعني لم يخالطه سائل يفقده طهارته. **وغسل النجاسة** يختلف باختلاف محلها. وينجس الماء إذا وقع فيه ما ينجسه ويغير طبيعته، ويزول تنجُّسه بزوال ما غيّر طبيعته وأفسد طهارته، ويكاثر بغيره من الماء الطاهر. ويطهر ثوب **المرأة** من دم الحيض بحتّه وقرصه قبل غسله بالماء، ويجوز غسل بعض الثوب النجس. ويطهر **جلد الميتة** بدبغه. ولا يؤكل **الطعام المتنجّس**. **وتحرم الزروع والثمار المسقية بالنجاسة**. ويجزئ التيمم عن النجاسة عند عدم الماء، وتبطل الصلاة للمرأة في **ثوبها الذي تحيض فيه** إذا لم تتحقق إصابة الطهارة له. وإثبات **الطهارة** لا يحتاج إلى دليل

طالما أن الشك فى النجاسة يكفى للحكم بالطهارة؛ وأما النجاسة فلا تثبت إلا بدليل. وإذا أصيب أحدهم بقروح، وكانت الدماء تخرج منها ولا تزال تدمى، كأيوب، فلا بأس أن يصلى. وتطهير المساجد واجب، وفى الحديث: «جنّبوا مساجدكم النجاسة». ومن صلى بالنجاسة عامداً متعمداً بطلت صلاته، وإذا لم يكن لديه إلا الثوب الذى عليه وأصابه البول، صلى فيه مضطراً. وإذا كان عنده ماء قليل بقدر ما يتوضأ، وكانت على بدنه نجاسة، فهل يتوضأ ويصلى بالنجاسة أم يزيل النجاسة ويتيمم للصلاة؟ والجواب: عليه أولاً أن يزيل النجاسة ثم يتيمم للصلاة، لأن للوضوء بدلاً وهو التيمم، ولا بدل لإزالة النجاسة.

●●●

٤. ﴿الجنابة﴾

●●●

١٨٠٣- ﴿الجنابة والجنب﴾

الجنابة: هى مخالطة الرجل المرأة، ويقال رجلٌ جُنُب: وهو غير الطاهر من إنزال أو مجاوزة ختان، وفى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا... (٤٣)﴾**(النساء): أن الجُنب لا يقرب الصلاة حتى يطهر، لقوله تعالى: **﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا (٦)﴾**(المائدة)، وطهارة الجُنب أن يغتسل. ويتوجب الغُسل كما فى الحديث: «**إذا قعد بين شُعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب عليه الغُسل**»، والغُسل لا يتوجب إلا إذا كان هناك إنزال، لقوله ﷺ: «الماء من الماء» أخرجه مسلم. فالجنابة لا تتحقق إلا بالجماع الذى فيه إنزال، والاغتسال لا يتوجّب إلا من إنزال، وحتى فى الاحتلام فإنّ المحتلم إذا أمنى يجنُب، وإن لم يكن إنزال - حتى وإنْ رأى أنه يجامع - لا يجنُب ومن ثم لا يغتسل. ولا يصحّ لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد الاغتسال، إلا المسافر - كما فى الآية - فإنه يتيمم، فالحاضر يغتسل من الجنابة بالماء لوجود الماء فى الحضر، والمسافر يتيمم إذا لم يجد الماء. وفى الحديث: «**لا أُحلُّ المسجد لحائض ولا جُنب**» أخرجه أبو داود، وقد منع رسول الله ﷺ المسلمين أن يتواجدوا فى المسجد أو يمروا فيه وهم جُنب.

والجنب لا يمس المصحف بنصّ الآية: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾**(الواقعة)، وبنصّ الحديث: «**لا تمسّ القرآن إلا وأنت طاهر**»، ولما دخل عمر على أخته وهو لم يزل مشركاً، ودعا بالصحيفة، فقالت له: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾**(الواقعة)، لأن الشرك جنابة،

فقام فاغتسل وأسلم. ويُمنع الجُنب غالباً من **قراءة القرآن**، إلا الآيات اليسيرة للتعوّذ، وفى الحديث: «**لا يقرأ الجُنب والحائض شيئاً من القرآن**» أخرجه ابن ماجة، وعن عليّ قال: كان رسول الله ﷺ لا يحجبه عن قراءة القرآن إلا أن يكون جُنباً. **واغتـــسال الجُنب** بمثابة أن يدلّك جسمــه بالماء، بخلاف **الغـسل** ويكــون فى **الوضــوء** ـ وهو إمرار اليـد مع الماء على المغسول. وهذه التفرقة بين «**الاغتسال والغسل**»، لأن الاغتسال من **الافتعال**، فكان على المغتــسل من الجنابة أن **يفيض على** نفسه **الماء** ويغمس فيه جســمه، ومن لم يفعل ذلك غير صبّ الماء لا يسميــه أهل اللسان **غاسـلاً**، بل يســمونه **صاباً للماء عـلى نفسه**. وكثيــراً ما يستعمل الغسل بمعنى الاغـتسال، فتقول: غسلـتُ الثوب، أى فركتــه ودعكته بالماء، وفى الحديث: «**تحت كل شعرة: جنابة، فاغسلوا الشعر، وأنقُوا البَشرة**»، **وإنقاؤها** يعنى تتبُّع ما بها من نجاسة، وأراد بذلك غســل بعض الأماكن دون الــبعض، ويقصد الفرج، فكنّى **بالبـشرة عن الفــرج**، ويقتضى ذلك استخدام الماء فى الغسل **باعـتدال** دون إفراط ولا تفريط. فإذا استُعمل الماء فى غســل الجنابة لا يصبح مُطَهِّـراً، ولا يُستعمل ثانية ليرفع حدثاً، ولا لإزالة نجاسة. وما لم يستعمل فى الطهارة يسمى **طَهُــوراً**، أى صالحاً يُتطهَّر بــه، ويستعمل فى الوضوء، أو فى طهارة مستحبة، كغُسل الجمعة، أو فى غسل اليدين من نوم الليل، ويبقى على إطلاقه طالما لم يستعمل فى غسل الجنابة، فإذا غَمَس الجنب يديه فيه دون نيّة التطهّر، فإنه يظل طاهراً كمـا هو، ما لم تكن على يديه نجاسةٌ مـا. وما لم ينو الجُنب رفع الحدث فإنه إذا غمس يديه فى الماء يظل الماء على طهوريته، وإن نوى رفع الحدث وغمس يديه فى الماء، أو اغترف منه، يصبح الماء مستعـملاً وتبطل طهوريته. ومن فروض الغُسل من الجنابة **المضمضة والاستنـشاق**، ولم يتركهما النّبى ﷺ فى غسل الجنابة.

ولابد فى غُسل الجنابة من **النّيـة**، لقوله تـعالى: ﴿**حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴿٤٣﴾﴾(النساء)، فيقتــضى فى الاغتسال النيــة، سواء كان اغتســالاً من الجنابة، أو للوضوء، وحتى التيمم يقتضى النيّة، ودليل ذلك قوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴿٥﴾﴾(البينة)، **والإخــلاص** هو النيّة فى التقرّب إلى الله تعالى، والقصـد له بأداء ما افترض على عباده، وفى الحـديث: «**إنما الأعـمال بالنيـات**» أخرجه البخـارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، وأحمد.

●●●

١٨٠٤ - ﴿المــذى﴾

المَـــذْى ماء يخرج زجـاً ـ أى زلقا ـ عند الشهوة على رأس القـضيب، وهو يوجب

الوضوء، وغسل الذكر والأنثيين، ويجزؤه غسلة واحدة، سواء غسلة قبل الوضوء أو بعده، وعند البعض لا يوجب أكثر من الاستنجاء والوضوء، ويستحب غسل الذكر والأنثيين.

●●●

١٨٠٥- ﴿الأغسال المستحبة﴾

قيل إن الأغسال المستحبة أكثر من مئة، وقيل هي ثمانية وعشرون غسلاً، ومنها: غُسل الجمعة، وغسل أول ليلة من رمضان، وليلة النصف، والليلة السابعة عشرة، والتاسعة عشرة، والواحدة والعشرون، والثالثة والعشرون، وليلة الفطر، ويوم العيدين، وعرفة، وليلة النصف من رجب، واليوم السابع والعشرون منه، وليلة النصف من شعبان، وغسل الإحرام، والتوبة، ودخول الكعبة، وزيارة قبر الرسول ﷺ. وإذا اجتمعت أغسال عديدة كفى منها غُسل واحد، وصورة الغسل كصورة غُسل الجنابة، والغسل نفسه مستحب دون مناسبة، لقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة ١٠٨).

●●●

١٨٠٦- ﴿الارتماس من صوَر الاغتسال﴾

يقال رَمَسه أي غطّاه ودفنه، وارتَمَسَ في الماء، أي انغمس؛ والارتماس صورة من صور الاغتسال من الجنابة، وهو أن يرمس الجُنُب جسده بالماء الطاهر دفعة واحدة بحيث يستوعب جميع أجزائه، كأن يغطس في مغطس ماء، أو في ماء ترعة، أو يعرّض نفسه عارياً لماء المطر يغسله كله، مع نية الغُسل، وأن يمر بيده على أعضاء جسده بحسب الترتيب.

●●●

٥. ﴿الحيض والاستحاضة﴾

●●●

١٨٠٧- ﴿الحائض وأصل الحيض﴾

الحائض، والمحيض أيضاً، تقول حاضت المرأة حيضاً، ومَحَاضاً، ومحيضاً، فهي حائض وحائضة، ونساءٌ حُيَّض، وحوائض. والحيضة المرة الواحدة، والحِيضة بالكسر الاسم، والجمع الحِيَض. والحيضة الخرقة التي تستثفر بها المرأة، و«الاستثفار» هو أن تشدّ المرأة على فرجها بقطعة قماش أو قُطنة تحتشي بها وتوثق طرفيها في شيء تشدّه إلى وسطها فتمنع سيلان الدم. والأصل أن لا تتحرك كثيراً وتقيم في بيتها إلى أن يرتفع عنها الدم، وذلك

من أسباب أن الإسلام نصح بأن تقرّ النساء فى بيوتهن. وأصل كلمة حيض من السيلان والإفاضة، تقول حاض السيل وفاض. والحيض اجتماع الدم إلى ذلك الموضع. تقول: حاضت المرأة، وتحيّضت، ودَرَست، وعَرَكت، وطَمثت، إذا سال الدم منها فى أوقات معلومة، فإذا سال فى غير الأيام المعلومة فهو «استحاضة»، ويقال المرأة استُحيضت، وهى مستُحاضة، وللحائض ثمانية أسماء: الحائض، والعارك، والفارك، والدارس، والكابر، والضاحك، والطامث؛ وفى القرآن فى سارة امرأة إبراهيم لمّا بشرّتها الملائكة بالولد قال: ﴿فَضَحِكَتْ (٧١)﴾(هود) يعنى حاضت، وفى نساء المدينة التى دعتهن امرأة العزيز ليرين يوسف، قال: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ (٣١)﴾(يوسف) يعنى حضن. وفى الحديث أن النبىّ ﷺ أسمى الحائض «النُّفَساء» وسأل عائشة: أنَفِست؟ وقيل: بضم النون فى الولادة، وبالفتح فى الحيض، وأصله خروج الدم لأنه يسمى نفاساً.

والحيض خِلْقة فى النساء، وطبعٌ معتادَ معروفٌ منهن، ولذا فهو ليس نقصاً فى دينهن كما فى الحديث الموضوع، يقول: «أليس إذا حاضت المرأة لم تصلِّ ولم تَصُم؟»، قلن: بلى يارسول الله. قال: «فذلك من نقصان دينها»!!وفى الحديث الصحيح عن الحيض عند النساء قال: «هذا شىء كتبه الله على بنات آدم»، فكوْن الإنسان له رجلان اثنان لا يعنى أنه ناقص بالنسبة لحيوان له أربعة أرجل، والنقص يكون بالمقارنة لشىء كامل، فإذا كانت المقارنة بين النساء والرجال، فالرجال لا يحضن حتى تقارن النساء بهم، وإنما الكمال فى جنس النساء أن يحضن، فمن لا تحيض منهن فهى غير كاملة وناقصة.



١٨٠٨ - ﴿الحائض والمستحاضة والنفساء﴾

الفرق بين الحائض والمستحاضة: أن «الحائض» ينزل عليها «دم الحيض» فى وقت معلوم ولفترة معلومة، ولا تصوم، ولا تصلى، ولا يأتيها زوجها؛ و«المستحاضة»: ينزل عليها الدم بلا وقت معلوم، وبلا فترة معلومة، وتصوم، وتصلى، وتطوف، وتقرأ القرآن، ويأتيها زوجها، وإن كان دمها كثيراً. وإذا ميزّت المرأة دم الحيض من دم الاستحاضة، فإن كان دم حيض وانقضى قدره، اغتسلت عنه؛ وإن كان «دم الاستحاضة»، فله حُكم الحَدَث، فتتوضأ لكل صلاة، ولا تصلى بذلك الوضوء أكثر من فريضة واحدة، مؤدّاة أو مقضية، وفى الحديث عن الاستحاضة: «إنما ذلك عِرْق وليس بالحيضة، فاتركى الصلاة، فإذا ذهب قدرُها فاغسلى عنك الدم وصلّى». وفى رواية زاد فقال: «ثم توضئى لكل صلاة».

والفرق بين دم الحيض ودم الاستحاضة: أن «دم الحيض» أسود خاثر تعلوه حُمرة، وتُترك

له الصلاة والصوم. وأما «**دم الاستحاضة**» **فهو أحمر كشأن الدم** دائماً في الجروح. وكان النبيّ ﷺ يأمر نساءه في شأن الحيض أن **يقضين الصوم** ولا يأمرهن بقضاء الصلاة. والحيض لا يكون لأكثر من **خمسة عشر** يوماً فما دون، وما زاد على خمسة عشر يوماً لا يكون حيضاً وإنما هو استحاضة. **وأقل الحيض** يوم وليلة. وأما **النُّفَساء**: فهي التى يأتيها دم النفاس بعد ولادة، وقيل حدّه المعلوم شهران، وقيل أربعون يوماً، وطُهره عند انقطاعه، والغُسل منه كالغُسل من الجنابة.

ومن الدماء عند النساء ما ليس بعادة ولا طبع ولا خِلقة، وإنما هو جُرح، وقيل: المرأة طاهرة منه، ولا يمنعها من صلاة، ولا صوم.



١٨٠٨ (ب) ﴿حيض المبتدئة﴾

المبتدئة التى بدأ بها الحيض ولم تكن حاضت من قبل، فإن جاءها الدم وهى فى نحو **التاسعة** فصاعداً، وكان من الممكن أن تحيض، تجلس **يوماً وليلة** وتترك الصوم والصلاة. فإن زاد الدم على **يوم وليلة** اغتسلت عقيب اليوم، وتتوضأ لوقت كل صلاة، وتصلى وتصوم. فإن انقطع الدم لأكثر الحيض فإنها تغتسل غسلاً ثانيًا، وتصنع مثل ذلك فى الشهر الثانى والثالث. فإن كانت أيام الدم فى **الأشهر الثلاثة** متساوية صار ذلك **عادة**، وتأكد لها أنها **حيضة**، ويكفى فى التكرار **المرات الثلاث**، وقيل بل تكفى **مرتان**. وإن اختلف انقطاع الدم فى الأشهر الثلاثة، فكان مثلاً فى الأول لمدة **سبعة** أيام، وفى الثانى لمدة **ستة** أيام، وفى الثالث لمدة **خمسة** أيام، نظر إلى أقل ذلك وهو **الأيام الخمسة** فجعلتها حيضاً، وما زاد عليها لا يكون حيضاً، إلا أن يتكرر. وربما تأخذ المبتدئة **بعادة النساء من أهل بيتها**. فتعتبر الحيضة **ثلاثة أو أربعة أيام** بحسب الشائع بين النساء ممن حولها، ومتى اغتسلت من حيضتها حلّ **وطؤها**.



١٨٠٩ - ﴿أقل مدة الحيض وأكثرها﴾

أقل الحيض **يوم وليلة**، وأكثره **خمسة عشر يوماً**، أو **سبعة عشر**، وأقل **الطُّهر** بين الحيضتين **ثلاثة عشر يوماً**. ولا توقيت للطهر أثناء الحيضة، ولايلتفت إلى الطهر إن كان أقل من يوم.



١٨١٠ - ﴿مخالفة الإسلام لليهودية بشأن الحائض﴾

يخالف القرآن التوراة بشأن الحائض، ففى سفر **الأحبار** (١٥/١٩ ـ ٣٢): «أن الحائض **لا تُؤاكل، ولا تُجالس، ولا تُنكح، ولا تُلمس، وكل من يلمسها يصير نجساً، وكل ما تلمسه من**

أدوات يتنجّس، وكل ما تجلس عليه أو تلبسه أو تنام عليه. وتظل نجسة لمدة سبعة أيام ثم تطهر».

وكان عرب المدينة وما حولها ـ قبل الإسلام ـ على سُنّة اليهود، فجاءوا إلى النبىّ يسألونه، فنزلت الآية: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾**(البقرة)، وقال الرسول ﷺ: «**اصنعوا كل شىء إلا النكاح**»، يعنى آكلوا النساء فى المحيض، وشاربوهن، والمسوهن، وحدّثوهن إلا أن تجامعوهن، ولمّا بلغ اليهود ذلك قالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه!

●●●

١٨١١ - ﴿الحائض فى الصوم والصلاة والحج﴾

الطهارة مشترطة لصحة الصلاة، والمرأة الحائض غير طاهرة وتترك الصلاة، وأما **الصوم** فلا تشترط له الطهارة، فتتركه الحائض تعبُّداً، وفى الحديث: «**إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُم**»، ولا تأثم الحائض بتركهما، وليس هذا نقصاً فى الدين. وفى **الحج** تقضى الحائض المناسك كلها غير **الطواف** بالبيت والصلاة. والحيض وما فى معناه من الجنابة لا ينافى جميع العبادات، وتصحّ معه **الأذكار** وغيرها، **ومناسك الحج** مما لا ينافيها الحيض، إلا **الطواف** لكونه صلاة مخصوصة. وتشتمل أعمال الحج على الذكر والتلبية والدعاء. ولا تُمنَع منها الحائض والجُنب. **وقراءة القرآن** لا تُمنَع لأنها ذِكْر **الله**، ولا فرق بينها وبين الذكر، غير أنه فى الحديث: «**أربعة لا يقرأون القرآن: الجُنب، والحائض، وعند الخلاء، وفى الحمام، إلا الآية ونحوها للجنب والحائض**». ولفظة الحمام دخيلة على مفردات الرسول ﷺ، الأمر الذى يجعل الحديث محل شك. **ولا تقضى الحائض الصلاة**.

●●●

١٨١٢ - ﴿ما يحرم على الجنب والحائض والنفساء والمحدث﴾

الجُنب والحائض والنُّفَساء يقرأون **القرآن** ما شاءوا ولا يسجدون عند السجدة، ويذكرون **الله** على كل حال، ولا يجوز لهم مسّ المصحف إلا أطهاراً، ويجوز لهم وللمُحدث أن يتيمم إن أراد مسّه ولم يوجد ماء يتوضأ به، ويتناول الجُنب والحائض المتاع من المسجد دون دخوله.

●●●

١٨١٣ - ﴿حكم دم الاستحاضة حكم الحدث﴾

إذا ميّزت المرأة دم الحيض من دم الاستحاضة، تعتبر دم الحيض وتعمل على إدباره،

فإذا انقضى قدره اغتسلت عنه، ثم صار حُكم دم الاستحاضة حُكم الحَدَث فتوضأ لوقت كل صلاة.

●●●

١٨١٤ - ﴿ما يحل من المرأة في المحيض؟﴾

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة)، سُمّي الحيض «أذى» لنتنه وقذره ونجاسته، ولأن المرأة تتأذّى به فسيولوجياً ونفسياً، ويتأذّى غيرها برائحته. والأذى كناية عن القَذَر على الجملة. والمعنى في الآية: أن المحيض أذى، يُعتزل من المرأة موضعه، ولا يتعدّى ذلك إلى بقية بدنها. ومعنى اعتزالهن ترك مجامعتهن . وفَهِم البعض الاعتزال كاعتزال اليهود للنساء في المحيض، فلا يؤكلوهن ولا يلمسوهن إذا حضن، وعموم الآية يقتضي هذا النهي فعلاً، إلا أن السُّنّة بخلافه، وفي الحديث: «أن للرجل من زوجته ما فوق الإزار»، ولما سأله أحدهم: ما يحلّ لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشدّ عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها»، وقال لعائشة حين حاضت: «شُدّي على نفسك إزارك ثم عودي إلى مضجعك»، وقال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». وسئلت عائشة عما يحلّ من المرأة لزوجها وهي حائض، فقالت: «كل شيء إلا الفرج». فماذا لو أتى أحدهم امرأته وهي حائض؟ قيل: عليه كفارة؛ وقيل: استغفار وتصدّق بنصف دينار أو دينار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، أي لا تجامعوهن حتى يطهرن، والطُّهر الاغتسال بالماء، وبه يحلّ جماع الحائض الذي ذهب عنها الدم؛ وطُهر الحائض كطهر الجُنُب، وإذا لم تجد ماء تيممت فتحلّ لزوجها وإن لم تغتسل. وليس عليها نقض شعرها، وفي الحديث عن أم سلمة قال لها الرسول ﷺ: «يكفيك أن تَحثي على رأسك ثلاث حَثَيات ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين»، وفي رواية سألته: أفأنقضه (تقصد شعرها) للحيضة والجنابة؟ فقال: «لا».

وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني فجامعوهن في الوجه الذي أُذن لكم فيه، أي في القُبُل، بشرط أن يكون ذلك في غير صوم، ولا إحرام، ولا اعتكاف. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي الذين اعتدوا من قبل ذلك وجامعوا من غير طهر دون قصد وتابوا، وصاروا بعد هذه الآية يتطهرون.

●●●

١٨١٥ - ﴿ما يحرم على الحائض﴾

يحرُم على الحائض مـا يحرم على الجُنب، سوى أن الجُنب يصوم ويـغتسل، ويصلي إذا اغتسل، ولا يجوز ذلك للحـائض، فلا يُقبل منهـا صيام، وتـقضيــه، ولا تصحّ لها صلاة، ولا تقـضيهـا، والجُنب يمكن وطؤها في الجنابة، ويمكن طلاقـها، ولا يصحّ ذلك للحائض، لقوله تعالى: **﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** (البقرة ٢٢٢)، والحائض تقضي الصوم ولا تقـضي الصلاة. وفي الطـلاق السُنّي لا يجوز طلاق المـرأة في المحيض إلا أن تطهر. واعتزال النساء في المحيض بترك المجامعة، ولا يجوز وطؤهن حتى يغتسلن.

●●●

١٨١٦ - ﴿ما يُحرَم بالحيض أو يمتنع﴾

الحائض: لا تصلي، ولا تصوم، وتقضي الصوم دون الصلاة، ولا تلمس المصحف، ولا تلبث في المسجد، ولا تطوف بالبيت، ويحرم طلاقها، ويحرم وطؤها في الفرج، ولا تنقضي عدتها إذا طلّقت إلا بثبوت الحيض.

●●●

١٨١٧ - ﴿دم المحيض﴾

إذا أصاب الثـوب الدم من الحيضة يُنضح الثـوب بالماء ويُصلّى فيه، وهو كغـيره من الدماء يجب غسله. وإذا اغتسلت المرأة من محيـضها عند الطُهر يجوز لها أن تتطيّب، وأن تدلك نفسها ثم تصب على نفسـها الماء، وتأخذ فِرْصَة من مِسْك - يعني القليل منه - وتتبع أثر الدم فيها. واغتســال المرأة يكون بأن تصب الماء عليها ثـلاث مـرات، وتنقض شـعرها وتمشط. ونقض الشعر للاستحباب.

●●●

٦. ﴿التيمم﴾

●●●

١٨١٨ - ﴿آية التيمم﴾

يُذكَر التيمم في سورتين: النساء، والمائدة، والأولى أسبق من الثانية، وقد قيل إن آية المائدة هي آية الوضوء، بينما آية النساء هي آية التيمم، تقول الآية: **﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم (٤٣)﴾**(النساء)، وفيها أنه لا يجوز التيمم في المرض إلا إذا كان

يخاف الموت على المريض لبرودة الماء، أو كانت به جراحة، أو قروح، أو جدرى، أو نزلة، أو حمى، أو مرض جلدى، فيحق له أن يتيمم، وقد تيمم عمرو بن العاص لما خاف أن يهلك من شدة البرد، ولم يأمره النبىّ ﷺ بالإعادة ولا بالغُسل، واحتج عمرو بالآية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾(النساء)، وكل من يُطلق عليه اسم المريض فجائز له التيمم، لقوله تعالى فى الآية: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ ويجوز التيمم للملامس للنساء، والملامسة بمعنى التقبيل أو نظيره، وقيل اللمس هو الجماع، والجُنُب الذى لا يجد ماءً يتيمم، وكذلك يتيمم القادم من الغائط أى المُحدِث. وكذلك يجوز التيمم بسبب السفر إذا لم يوجد الماء، ولا يهم إن طال السفر أو قصر، وكذلك يجوز فى الحضر إذا خاف فوات الصلاة إذا ذهب إلى الماء. والتيمم خُصّت به أمة الإسلام توسعةً عليها، ويلزم كل مكلّف لزمته الصلاة إذا عدم الماء ودخل وقت الصلاة، ويكون بالصعيد وهو التراب الطيب ذو الغبار، ويجوز أن يضرب يده على شجرة أو حائط ضربة واحدة، أو ضربتين: واحدة للوجه، وواحدة لليدين، وقد مسح النبىّ ﷺ على الجدار مسحة واحدة، ثم مسح بوجهه ويديه مرة واحدة، والمسح هو جرّ اليد على الممسوح، وهو الوجه أولاً ثم اليدين.

•••

١٨١٩ - ﴿شروط التيمم وأحكامه﴾

لا يصح التيمم إلا بالنيّة، لأنه من العبادات، ويجب أن يباشره المتيمم بنفسه، فإذا كان عاجزًا فله أن يستعين بالغير، ويختلف ما يباح به باختلاف النيّة، فمن نوى بتيممه فريضة، فله أن يصلى ما شاء من الفرض، وإن نوى نفلاً لم يجز أن يصلى به فريضة، ويجوز التيمم لكل ما يتطهر له من نافلة، أو مسّ مصحف، أو قراءة قرآن، أو سجود تلاوة، أو شُكر، أو للجلوس فى المسجد، وللنجاسة على بدنه. والتيمم لا يرفع الحدث وإن كان يبيح الصلاة، ومتى وُجد الماء أعاد المتيمم الطهارة، جُنباً كان أو مُحدثًا، وقد لا يوجد الماء فى الحَضَر فيجوز عندئذ التيمم، ويجوز كذلك لمن كان مريضاً لا يستطيع مسّ الماء، أو مقطوع اليدين، أو معه الماء ولكنه يحتاجه للشُرب، أو يخاف عدواً بينه وبين الماء، أو يخاف أن تفوته الصلاة، وله أن يصلى فرضيتين بتيمم واحد. ويبطل التيمم بالقدرة على استعمال الماء، وبخروج الوقت ودخوله، وبكل نواقض الوضوء. وتجب الفورية والموالاة فى التيمم، بحيث يمسح المتيمم ظاهر الكف اليمنى بعد مسح الوجه، وظاهر الكف اليسرى بعد اليمنى بلا فاصل، وشرط عدم وجود حائل لا يتحقق به المسح. وإن وُجد الماء بعد أن تيمم، وقبل أن يدخل فى الصلاة يبطل تيممه؛ وإذا وجده بعد الفراغ من

الصلاة، لا تجب له إعادتها ومضت صلاته؛ وإن وجده أثناءالصلاة فيرجع عنها ويتوضأ ويصلي. وإن كان قد ركع ورآه في ركوعه يمضي في صلاته، ولو طاف ووجد الماء أثناء ذلك بطل الطواف وتطهّر وأعاد، والسرّ أن النصّ الذى دلّ على عدم الإعادة مختص بالصلاة فقط، ولا يجوز قياس غيرها من العبادات عليها.

●●●

٧٠﴿الأذان﴾

●●●

الأذان ـ لغةً ـ هو الإعلام. وفى التنزيل: ﴿**وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ③﴾(التوبة)، ويشتق من **الأَذَن** ـ بفتحتين ـ وهو الاستماع؛ **وشرعاً**: هو الإعلام بوقت الصلاة، بألفاظ مخصوصة، ورغم إيجازها فإنها تشتمل على أركان العقيدة؛ فالله أكبر: إعلانٌ بوجود الله وكماله؛ وشهادة أن **لا إله إلا الله**: إثباتٌ للتوحيد ونفيٌ للشريك؛ **وشهادة أن محمداً رسول الله**: إثباتُ الرسالة لمحمد ﷺ؛ **وحىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح** للدعوة إلى **الصلاة والفلاح**، وإقرارٌ بالمعاد؛ **وإعادة الأذان**: للتوكيد؛ **ومعنى أن تؤذّن للصلاة**: أن تعلن للناس دخول وقتها، وأن الصلاة جماعة.

●●●

١٨٢٠ - ﴿بدء الأذان﴾

قيل: كان المسلمون حين قدموا **المدينة** يجتمعون فيتحينون الصلاة من غير نداء ولا دعوة، فتكلموا في ذلك، وقال بعضهم: نتخذ **ناقوساً** مثل ناقوس النصارى؛ وقال بعضهم: نتخذ مثل **قَرْن اليهود**، ويسمى عندهم «**الشبور**». وقال **عمر بن الخطاب**: تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بلال، قم فناد بالصلاة**». فابتداء الأذان كان **بالمدينة**، وقوله لبلال «قُم» حجة لشرع الأذان **قائماً**، ولمّا سمعه اليهود قالوا للنبىّ ﷺ: لقد ابتدعت يا محمد شيئاً لم يكن فيما مضى! فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر!! فنزلت الآية: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ٥٨﴾(المائدة)، وكانوا يقولون: قد قاموا لا قاموا! وكلما ركع المسلمون وسجدوا ضحكوا!

والنداء: هو الدعاء برفع الصوت، وقد يُضم مثل دُعاء. والنداء أو الأذان لم يكن بمكة قبل الهجرة، وإنما كانوا ينادون: **الصلاة جامعة**، فلما هاجر النبىّ ﷺ، وصُرفت القِبْلة إلى الكعبة، أمر بالأذان، وبقيت «**الصلاة جامعة**» للأمر يَعرِض. وكان أمر الأذان

يهُمّ النبيّ ﷺ فأُريه فى المنام عبدالله بن زيد، وعمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، وقيل أريه بضعة عشر رجلاً، وقيل سبعة، ولم يثبت شىء من ذلك إلا لعبد الله بن زيد. وقيل: كان النبيّ ﷺ قد سمع الأذان فى الإسراء، وأمر بلالاً به، غير أن الإسراء كان فى مكة، والأذان كان فى المدينة، وربما سمعه فى الإسراء ولم يقرره إلا فى المدينة. وزاد بلال فى الصبح: «الصلاة خيرٌ من النوم»، وأقرّها الرسول ﷺ. وقيل: الحكمة فى مجىء الأذان على لسان الصحابى عبد الله بن زيد أن النبىّ ﷺ سمعه فى الإسراء فوق سبع سموات، فلمّا تأخرّ الأمر بالأذان عن فرض الصلاة، أراد إعلامهم بالوقت، فرأى عبدالله بن زيد فى المنام أنه يؤذّن، فقصّ منامه على النبىّ ﷺ، فوافقت كلمات الأذان ما كان قد سمعه فى السماء، فقال: «إنها لرؤيا حق»، وعلم أن مراد الله بما رآه فى السماء أن يكون سُنّة فى الأرض، وتقوّى فى ذلك بموافقة عمر، لأن السكينة تنطق على لسان عمر. والحكمة فى إعلام الناس بالأذان بغير لسانه ﷺ، أن يكون التنويه بقدْره، والرفع لذكره، بلسان غيره، ليكون أقوى لأمره، وأفخم لشأنه. ولمّا كان مبدأ الأذان عن مشورة أوقعها النبيّ ﷺ بين أصحابه حتى استقر برؤيا بعضهم فأقرّه، كان ذلك بالمندوبات أشبه. ثم لمّا واظب على تقريره، ولم يتركه، ولا أمر بتركه، ولا رخّص فى تركه، كان ذلك بالواجبات أشبه. واستشكل البعض إثبات حكم الأذان برؤيا صحابىّ باعتبار أنه من غير الأنبياء، وأن رؤياه لا ينبنى عليها حُكم شرعى، إلا أن النبىّ ﷺ أقرّه بالصيغة التى سمعه بها الصحابى فى منامه، وأخبر الرسول ﷺ أصحابه أنه وجد الوحى فيه. وقيل: يستحب الأذان فى أُذن المولود.

●●●

١٨٢١ - ﴿الدعاء للنبىّ بعد الأذان﴾

فى الحديث عن الأذان: «قولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا علىّ، ثم سلوا الله لى الوسيلة» فبعد ترديد الأذان مع المؤذن، وقول «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند الحيعلة، أى قول «حىّ على الفلاح»، و«الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله» عند فراغه من الأذان، يقول المصلى: اللهم صلّ وسلم وبارك على محمد، ثم يقول كقول النبىّ ﷺ: «اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته» أخرجه البخارى، وفى رواية زيد فيه: «إنك لا تخلف الميعاد». والدعوة التامة: المراد بها دعوة التوحيد، كقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴿١٤﴾﴾ (الرعد)، ووُصفت بالتمام، لأن الشركة نقص، ولأنها دعوة لا يدخلها تغيير ولا تبديل، وفيها أتم القول، وهو: «لا إله إلا الله،

محمد رسول الله». والصلاة على النبيّ ﷺ هي الدعاء له، بسؤال **الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود** له. فأما **الوسيلة**: فهي منزلةٌ، الواصلُ إليها قريبٌ من الله، وهي قُربةٌ يُتوصَّل بها إليه؛ وأما **الفضيلة**: فهي صفةُ هذه المنزلة التي تفضل أية منزلة أخرى؛ **والمقام المحمود**: زيادةٌ في صفة هذه المنزلة التي يُحمَد القائم فيها. **والمعنى العام**: هو الدعاء للنبيّ ﷺ أن يوفقه الله للوسيلة التي تفضُل غيرها، وتؤهله أن يفضُل غيره، في كلّ ما يقربُه من الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأن يبعثه في الآخرة فيقيمه مقاماً محموداً، يُحمد عليه من كل أحد. وقد وعده به في قوله تعالى: ﴿**عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴿٧٩﴾﴾(الإسراء). فأطلق عليه الوعد، لأن «عسى» من الله واقعٌ. وقيل **المقام المحمود** هو مقام **الشفاعة**، فيكون شفيعاً عنده تعالى لكل الناس يوم الحساب. وفي الحديث الحضّ على الدعاء للنبيّ ﷺ في أوقات الصلوات كلها ومع كل أذان.

•••

١٨٢٢- ﴿وجوب الأذان والإقامة﴾

قيل: **الأذان** سُنّة مؤكدة واجبة على الكفاية في المصر، وما جرى مجرى المصر من **القرى**. وقيل: هو فرضٌ على الكفاية. وقيل: هو واجبٌ على كل مسافر. للحديث: «**إذا كنتما في سفر فأذّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما**». **فالأذان والإقامة واجبان في الحضَر وفي السَّفَر. والأذان مثنى، والإقامة مرة**. وقالوا: في أول الأذان والإقامة يرجّع المؤذن «الله أكبر» أربع مرات. وأيّما كان الأذان والإقامة مرة أو بالترجيع مرتين أو أربعاً، فهو جائز.

ويستحب أن يكون **الذي يؤذن** نفسه الذي يقيم. وفي عهد النبيّ ﷺ، كان الأذان للصلاة بعد دخول وقتها، إلا الفجر، فإنه يؤذّن لها قبل طلوع الفجر، فكان للمسجد **مؤذنان**، يؤذّن أحدهما قبل طلوع الفجر، والآخر بعد طلوع الفجر. وكان **بلال** يؤذّن للصلوات وآخر يقيم. ويُستحب للمؤذن أن يدور يميناً وشمالاً في قوله: «**حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح**»، ليُسمع الجميع. ويستحب **لسامع الأذان** أن يحكيه إلى آخر التشهدين، فإن قال المؤذن: «**حيّ على الصلاة**» قال: **لا حول ولا قوة إلا بالله**. فإذا قال: «**حيّ على الفلاح**»، قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**» ثم يقول بعد المؤذن: «**الله أكبر الله أكبر**»، وهذه نهاية الأذان. وبعدها يقول من قلبه: «**لا إله إلا الله**». وحَسْبُ المؤذن فضلاً أنه يعلن **شعار الإسلام**، ولا بأس أن يأخذ أجراً على الأذان. ويشترط في المؤذن أن يرفع صوته بالنداء **سمحاً**، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال له: «**إذا أذّنت فارفع صوتك فإنه لا يُسمَع**»، واستحباب رفع الصوت ليكثر مَن يستمعون له.

•••

١٨٢٣ - ﴿من دلائل أن الأذان ابتدأ بالمدينة﴾

تشير الآية: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ۝٥٨﴾(المائدة) إلى أن ابتداء الأذان كان بالمدينة، لأن هذه الآية نزلت بالمدينة، وكذلك الآية: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ۝٩﴾(الجمعة) تشير إلى الابتداء، لأن صلاة الجمعة إنما تقررت بالمدينة، والراجح أن ذلك كان فى السنة الأولى للهجرة، وقبل ذلك لم يكن هناك أذان.



١٨٢٤ - ﴿صيغة الأذان﴾

صيغة الأذان كما ألقاها رسول الله ﷺ: «الله أكبر الله أكبر؛ الله أكبر الله أكبر؛ أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله؛ أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله؛ حىّ على الصلاة، حىّ على الصلاة؛ حىّ على الفلاح، حىّ على الفلاح؛ الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله». وعند الشيعة الأذان كالتالى: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر؛ أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله؛ أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله؛ أشهد أن علياً ولىّ الله، أشهد أن علياً ولىّ الله؛ حىّ على الصلاة، حىّ على الصلاة؛ حىّ على الفلاح، حىّ على الفلاح؛ حىّ على خير العمل، حىّ على خير العمل؛ الله أكبر، الله أكبر؛ لا إله إلا الله».

ومن السُّنّة إضافة: «الصلاة خيرٌ من النوم» - مرتين، فى صلاة الصبح، قيل إن عمر أمر بها، والصحيح أن بلالاً كان يؤذن بها فى حياة النبىّ ﷺ، وأذّن بها أبو محذورة للنبىّ ﷺ، وتأتى بعد: حىّ على الفلاح، وتسمى التثويب. ولا فرق بين الأذان والإقامة إلا فى إضافة: «قد قامت الصلاة». وصيغة الإقامة عند الشيعة تتضمن أيضاً بعد حىّ على الفلاح: حىّ على خير العمل. والأذان شفع، والإقامة وتر. ومعنى شفع أنه مرتين مرتين، ومعنى وتر أن الإقامة مرة واحدة. والحكمة فى تثنية الأذان وإفراد الإقامة: أن الأذان لإعلام الغائبين، فيُكرَّر ليكون أوصل إليهم، بخلاف الإقامة فإنها للحاضرين، وصيغتها كالتالى: الله أكبر الله أكبر؛ أشهد أن لا إله إلا الله؛ أشهد أن محمداً رسول الله، حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح؛ قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة؛ الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله». ولأن الأذان للحاضرين، يستحب أن يكون من مكان عال، بخلاف الإقامة، وأن يكون الصوت فى الأذان أرفع منه فى الإقامة، وأن يكون الأذان مرتلاً والإقامة مسرعة، وتُكرر فى الإقامة «قد قامت الصلاة» لأنها المقصودة من الإقامة بالذات. ويستحب الفصل بين الأذان والإقامة بقدر الوضوء وصلاة ركعتين ليستعد الناس للصلاة، وفى صلاة المغرب يفصل بجلسة خفيفة. ويستحب فى الإقامة «الحَدْر»، وهو الإسراع وقطع التطويل، ولمن يسمع الإقامة

أن يقول مثلهـا، وأن يقول عند كلمة: «قد قامت الصلاة»: «أقامها الله وأدامها»، وأن يقـوم للصلاة إذا قيل: «قد قامت الصلاة»، ولا يكبّر إلا بعد الفراغ من الإقامة وتنظيم الصفوف.

●●●

١٨٢٥- ﴿الإعلام في الأذان بأن الصلاة في الرحال﴾

يجوز للمؤذن أن ينهي أذانه في يوم مطير شديد البرد قد يُؤذَى منه الناس إذا خرجوا لصلاة الفجر فيقول: «الصلاة فـي الرحال»، وقد أمره بذلك ابن عباس وقال فعَلَه مؤذن النبيّ ﷺ، وهي عزمة. والرحال جمع رَحْل وهو مسكن الرجل وما فيه من أثاثه، وقوله إنها عَزْمة يعنى رخصة، وفي تبرير ذلك قيل إنه قال: **إني كرهت أن أخرجكم فتمشون في الطين، فأجيزت هذه الزيادة في الأذان للحاجة إليها.**

●●●

٨. ﴿الصــلاة﴾

●●●

١٨٢٦- ﴿القرآن والصلاة﴾

الصلاة: في اللغة هي الدعاء، مأخوذة من صلّى يُصلّي إذا دعا، فلما وَلَدت أسماء بنت أبي بكر، ابنها عبد الله بن الزبير، أحضرته إلى النبيّ ﷺ، قالت: ثم مسحه وصلّى عليه ـ أي دعا له، تقول: «اللهم صلّ على محمد»، يعني له الدعاء بالخير والرحمة. وقال تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴿١٠٣﴾﴾(التوبة)، أي ادعُ لهم.

وقيل: الصلاة مأخوذة من الصَّلا، وهو عرقٌ في وسط الظهر ينفر عند الجهد، ومنه المُصـلِّيّ: وهو الفرس يكاد يبلغ الذي أمامه حتى أن رأسه تكون عند صلاه، وهكذا يكون وَضْع المصلّي في صلاة الجماعة بالنسبة لمن يكون أمامه.

وقيل: الصلاة مأخوذة من اللزوم، لأن المصلّي يلازم الصلاة، تقول صَلِي بالنار إذا لزمها، ويَصلَى ناراً حامية أي يلزم حرّها، فكأن الصلاة هي الملازمة والدوام على ما فرضه الله منهـا، والمصـلّي يقوّم نفسه بالمعاناة فيها، فـيلين قلبه ويخشع، والصلاة عبادة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ ... ﴿٣٥﴾﴾(الأنفال) أي عبادتهم، وأمر بها الله تعالى، كقـوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴿١٣٢﴾﴾ (طـه) يعني الفرائض والنوافل. والتسـبيح صلاة، كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾(الصافات) أي من المصلّين، ومنه سُبحة الضحى أي صـلاتُهـا، وفي تأويل: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة) أي نصلّيّ؛ وفـي قـوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴿١١٠﴾﴾(الإسراء) يعنى في القراءة في الصلاة.

وللصلاة شروط منها: الطهارة؛ ولها فروض: كاستقبال القِبْلة، والنيّة، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة الفاتحة والقيام لها، والركوع والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثانى والطمأنينة فيه، وتعظيم الله فى الركوع بالتسبيح، وفى السجود بالدعاء. والتكبير، والجلوس، والتشهّد، والسلام. ولا يجزىء فى تكبيرة الإحرام إلا «الله أكبر»، وهذا اللفظ هو المتعبّد به فى الصلاة والمنقول عن النبىّ ﷺ، وقيل: لما نزلت ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ ٣ ﴾ (المدثر) قام رسول الله ﷺ وقال: «الله أكبر»، وقيل أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال: «الله أكبر»، كقول الشاعر:

رأيت الله أكبر كل شىء   محاولةً وأعظمهم جنودا

والمقصود بالنيّة فى الصلاة التقرّب إلى الله بفعل ما أمر به. وأركان الصلاة: يوجزها الحديث: «إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، ثم كبّر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها» أخرجه مسلم. والجلوس مقدار التشهُّد فرض. وفى الحديث: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم» أخرجه أبو داود. وإقامة الصلاة فرض، كقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ۝ ٣﴾(البقرة)، وهو أداؤها بأركانها، وسُننها، وهيئاتها فى أوقاتها؛ تقول «قام الشىء» أى دام وثبت، وليس من ذلك القيام على الرِّجل، وإنما هو من قولك: قام الحق، أى ظهر وثبت، والقيام هو الديمومة، وأقامَهُ أى أدامه، وفى ذلك يقول عمر: «من حفظ الصلاة وحافظ عليها، حفظ دينه، ومَن ضيّعها فهو لما سواها أضْيَع». والقضاء فى الصلاة: فى الأفعال والأقوال. وفى الحديث: «إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين، ثم يكبّر الله تعالى ويثنى عليه، ثم يقرأ أُمّ القرآن وما أُذن له فيه وتيَسّر، ثم يكبّر فيركع، فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ،ويسترخى، ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائماً حتى يقيم صلبه ويأخذ كل عظم مأخذه، ثم يكبّر فيسجد فيمكّن جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى، ثم يكبّر فيستوى قاعداً على مقعده ويقيم صلبه». وكان الرسول ﷺ يستفتح بالتكبير والقراءة بالحمد لله ربّ العالمين، فإذا ركع لم يُشخص راسه ولم يصوّبه، ولكن بين ذلك، وإذا رفع من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائماً، وإذا رفع راسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالساً، وكان يقول فى كل ركعتين التحية، ويفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السَّبُع، و كان يختم الصلاة بالتسليم. وكان النبىّ ﷺ

يشير بـإصبعه إذا دعا ولا يحـركها، إشارةً إلى دوام التـوحيد، وقال البـعض عن تحريك الإصبع وموالاة ذلك أنه للتـذكير بموالاة الحضور فى الصلاة، ومدفـعةً للشيطان، وتأولوا الحركة كأنها نطق بجارحة الإصبع بالتوحيد.

والمرأة كـالرجل فى الجلوس فى الصلاة، وتجلس كأيسر مـا يكون لها. والبعض ينهى عن الإقعاء وهو أن يجعل المصلي إلـيتيه على عقبيه فى الجلـوس بين السجدتين. والبعض ذكر أنه من السنة. والبعض يسلم تسليمة واحدة، والبـعض تسليمتين. وقالوا الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة فيكون الخروج منها بتسليمة واحدة. ومن السُّنَّة إخفاء التشهد. فهذه جملة أحكام تتضمنها آيات كقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** (٤٣)﴾(البقرة)، ﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** (٢٣٨)﴾(البقرة).



١٨٢٧ - ﴿كيف فرضت الصلاة؟﴾

قيل: فرضت الصلاة في **المعراج**، والأحاديث فى ذلك تدور على **أنس بن مالك**. مع اختلاف أصحابه وطرقه وتغاير ألفاظه. **والمعراج جمع معـارج** وهو السُّلَّم والمصْعَد، من **عَرَج** أى ارتقى. وقيل: **الإسراء والمعراج كانا فى ليلة واحدة فى يقظته** ﷺ وهو المشهور؛ وقيل: كان الإسراء إلى بيت المقدس خاصةً فى **اليقظة**، وكان المعراج مناماً، إمّا فى تلك الليلة أو فى غيرها. **وفرضت الصلاة فى المعراج**، وقيل: الحكمة فى فرضها فى ليلة الإسراء أنه لمّا جاءته الملائكة فشقّت صدره وغسّلته ظاهراً وباطناً بماء زمزم بالإيمان والحكمة، صار طاهراً، والصلاة يتـقدمهـا الطهور، فناسب ذلك أن تفرض الصـلاة فى تلك الحالة، وأن يصلي بالأنبياء والملائكة، وأن يناجي ربّه. والصحيح أن الصلاة فرضت بمكة قبل الهجرة. وقيل: الإسراء كان قبل الهجرة، وكانت سورة الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (١)﴾ (الإسراء) مكية، **وعُرِّج** به إلى السموات العلى، وفى كل سماء كان يلتقى بأحد الأنبياء. ومنهم: آدم، وإدريس، **وموسى، وعيسى، وإبراهيم**. ثم عُرِّج به حتى صار إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أُمته **خمسين صلاة**، ورجع ليلقى **موسى**. فيسأله موسى عمّا فرضه الله على أُمّته، ويطلب إليه أن يراجع فى عدد الصلوات ربّه. لأن أمته لا تطيق هذا العدد، ويعود النبيّ ﷺ ليراجع، فيوضع **شطرها** ـ أى نصفها. فيرجع إلى موسى، فيطلب منه نفس الطلب، فيـراجع فيوضع شطر الشطر ـ أى تصبح ثلاث عشـرة **صلاة**، ثم يراجع فتصبح **سبعاً**، ثم خمساً، وهو العدد، ولكنها تساوى **خمسين** قدراً، ولا

يُبدِّل القول عند الله، ويستحى النبىّ ﷺ أن يراجعه تعالى أكثر. وقيل تكرار رؤية موسى للنبىّ ﷺ إنما ليرى فيه أثَر مَن رأى، وكان موسى قد مُنع الرؤية، فكان حاله كقول القائل: لعلّى أراهم أو أرى من رآهم. والمهم أن أحاديث الإسراء والمعراج مهما كان الرأى فيها، أكدت أن: الصلوات خمسٌ عدداً باعتبار الفعل، وخمسون اعتداداً باعتبار الثواب.

وتجتمع الأحاديث على أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة، وبعد أن اطمأن المسلمون فى المدينة، أى فى الحَضَر، ففُرضت فيها ـ أى الحضر أربعاً، ثم بعد أن استقرت الأوضاع أكثر خُفّفت الرباعية فى السفر إلى ركعتين، ولم يتناول التخفيف الفجر لطول القراءة فيه، ولا المغرب لأنه وتر النهار. وكان قَصْر الصلاة فى السنة الرابعة من الهجرة، وفيها نزلت آية الخوف: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١٠١﴾﴾(النساء)؛وقيل: كان قَصْر الصلاة فى ربيع الآخر من السنة الثانية بعد الهجرة بعام أو نحوه؛ وقيل: بعد الهجرة بأربعين يوماً؛ وقيل: إنه قبل الإسراء لم تكن صلاة مفروضة، إلا ما كان قد وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد. غير أنه لا شىء فى القرآن يثبت أن الصلاة فرضت فى الإسراء، وعلى العكس فإنه فى سورة المزمل ـ وترتيبها الثالثة فى السور المكية بحسب النزول، يأتى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾(المزمل)، و﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿٢٠﴾﴾(المزمل) أى صلاة الليل، وليس هناك ما يدل على أن الصلوات الخمس لم تكن موجودة. وفى قوله فى سورة المزمل وهى المكية: ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٠﴾﴾(المزمل)، والقتال إنما وقع بالمدينة لا بمكة، والإسراء كان بمكة قبل ذلك، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ ﴿٢٠﴾﴾ (المزمل) يعنى فى المستقبل، فكأنه سبحانه عجّل التخفيف قبل وجود المشقة التى علم أنها ستقع لهم. وفى سورتى الروم وطه ـ وهما مكيتان ـ يأتى عن الصلوات الخمس: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾(الروم)، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴿١٣٠﴾﴾(طـه) وفى ذلك ما يثبت أن الصلوات الخمس كانت معروفة فى مكة، رغم أن المفسرين يصرون على أن الآيتين نزلتا فى المدينة ولم يتنزّلا فى مكة.



١٨٢٨ - ﴿حدود أوقات الصلوات﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ (هود ١١٤)، فالطرف

الأول من النهار لصلاة الصبح، والطرف الثانى منه لصلاة الظهر والعصر، وزلفاً من الليل لصلاة المغرب والعشاء؛ ويقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾ (طه). ويقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ (الإسراء). ودلوك الشمس زوالها، وهو وقت صلاة الظهر والعصر؛ وغسق الليل ظلمته، وهو وقت صلاة المغرب والعشاء؛ وقرآن الفجر يعنى صلاة الصبح. وهذه الأوقات مجملة، والسُنّة هى الموضحة لها، وفى الحديث: «من صلى الصلاة لغير وقتها رُفعت له سوداء مظلمة، تقول: ضيعتنى ضيعك الله، وأول ما يُسأل العبد إذا وقف بين يدىّ الله تعالى عن الصلاة، فإنْ زكتْ صلاته زكا سائرُ عمله، وإن لم تزكُ صلاته لم يزكُ عمله». والشمس إذا زالت دَخَل وقت الظهر حتى يمضى مقدار ما يصلى المصلى أربع ركعات، فإذا مضى ذلك حتى يمضى ولم يبق من الشمس إلا مقدار ما يصلى المصلى أربع ركعات، خرج وقت الظهر ولم يبق إلا وقت العصر حتى تغيب الشمس. ولكل صلاة وقتان، وأول الوقت أفضلهما، فإذا كان ظلُّك مثلك فصلّ الظهر، وهذا هو وقت فضيلة الظهر، وإذا كان ظلُّك مثليك فصلّ العصر، وهذا هو وقت الفضل للعصر. وأول صلاة فرضت فى الإسلام كانت الظهر، ثم فرضت بعدها العصر، ثم المغرب، ثم العشاء، ثم الصبح. وأول وقت المغرب غياب الشمس المعلوم بذهاب الحمرة المشرقية. ووقت العشاء من حين الفراغ من المغرب إلى نصف الليل. وتختص المغرب بمقدار ثلاث ركعات من أول الوقت، والعشاء بمقدار أربع ركعات من آخر الوقت، ولكل من المغرب والعشاء وقتان، أحدهما للفضيلة والآخر للإجزاء، ويمتد وقت الفضيلة للمغرب من زوال الوقت إلى ذهاب الحمرة المغربية، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب هذه الحمرة إلى ثلث الليل. وأول صلاة الصبح هو الفجر الصادق، ولا تحلّ الصلاة فى الفجر الكاذب، وأول وقت الفجر من حين الفجر إلى أن يتخلل الصبح السماء، وآخر وقته طلوع الشمس، وأول الوقت أفضل من غيره. ويدخل وقت نافلة الظهر بالزوال، ويمتد إلى أن يصير الفئ مقدار قدمين، وبينما نافلة العصر يمتد إلى أن يصير أربعة أقدام، ووقت نافلة المغرب من حين الفراغ من الفريضة إلى ذهاب الحمرة المغربية، ويمتد وقت نافلة العشاء بامتداد وقت العشاء. ووقت نافلة الصبح من الفجر إلى طلوع الحمرة المشرقية؛ ووقت نافلة الليل من نصفه إلى طلوع الفجر؛ وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾ (آل عمران ١٧) أن الأسحار هى صلاة الليل. وكل هذه العلامات جائزة فى بلاد بها الشمس كالجزيرة العربية، وخيرٌ من ذلك كله التوقيت المحلى والاستماع إلى مختلفة الإذاعات.

•••

١٨٢٩- ﴿آية الصلوات الخمس﴾

هى الآية: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾(الروم)، وفيها كل الصلوات الخمس، وقوله: «سبحان الله حين تمسون» هى صلاة المغرب والعشاء، و«حين تصبحون» هى صلاة الفجر، «وعشياً» هى صلاة العصر، «وحين تظهرون» هى صلاة الظهر. وقيل «حين تمسون» هى المغرب، أما العشاء ففى آية أخرى من سورة هود، تقول: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۝١١٤﴾، والرأى الأول أصح.

وأيضاً فإن الآية: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ۝١٣٠﴾(طه) فيها كل الصلوات الخمس، حيث «قبل طلوع الشمس» إشارة إلى صلاة الصبح، «وقبل غروبها» إشارة إلى صلاة العصر، «ومن آناء الليل» إشارة إلى صلاة العتمة وهى العشاء، «وأطراف النهار» إشارة إلى صلاتى المغرب والظهر، لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر، فهى من طرفين منه، والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب. وقيل: النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان هما الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر، وقال تعالى عن الطرفين أنهما أطراف، على نحو قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم ٤) والمقصود قلباكما. وآناء الليل: ساعاته، وواحد الآناء أنى، وأنّى.



١٨٣٠- ﴿الصلاة مواقيت﴾

من أقوال عمر: أن جبريل هو الذى أقام لرسول الله ﷺ وقت الصلاة. وفى الآية: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾(النساء)، فكل شىء جُعل له حين وغاية فهو موقّت، ويقال: وقّته ليوم كذا، وموقوتاً، من التوقيت، أى مفروضاً أو محدوداً، فالصبح لها وقت، والظهر لها وقت، والعصر والمغرب والعشاء جميعها لها أوقاتها وفى الحديث عن أى العمل أحبّ إلى الله، قال ﷺ: «الصلاة على وقتها، ثم برّ الوالدين، ثم الجهاد فى سبيل الله» ، فالصلاة لوقتها هى أفضل الأعمال.

•••

١٨٣١- ﴿أركان الصلاة﴾

أركان الصلاة: هى ما لا يسقط عن عمد ولا سهو، وهى عشرة: تكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة للإمام المنفرد، والقيام، والركوع حتى الاطمئنان، والاعتدال عنه حتى الاطمئنان، والسجود حتى الاطمئنان، والاعتدال عنه بين السجدتين حتى الاطمئنان،

والتشــهُّد فى آخر الصلاة، **والجلـوس له، والسـلام**. ولا يُدخَل فى الصلاة بدون **تكبـيرة الإحـرام**، ولا تنعقد الـصلاة إلا بها. **وواجبـات الصلاة** بخلاف الأركان **ثمانيـة**، وهـى: التكبيرات بخلاف تكبيرة الإحرام، **والتسبيح فى الركوع، والتسبيح فى السجود**، وقول: **سمع الله لمن حمده**، وقول: **ربّنا ولك الحمد**، وقول: **ربّ اغفر لى ولوالديّ**، **والتشـهد الأول، والصلاة على النبيّ** ﷺ فى التشهد الأخير.



١٨٣٢ - ﴿سنن الصلاة﴾

هـى **اثنتـــان وثلاثون** سنّة، وهى: رفع اليدين عند الإحرام، ورفعـهما عند الركوع، ورفعـهمـا عند الرفع من الركوع، ووضع اليـمنى على اليســرى فى القيام، وحـطّها تحت السُّرّة، والنظر إلى موضع السجود، والاستفتــاح، والتعوّذ، وقراءة الفاتحة، وقول: آمين، وقراءة الـسورة بعد الفاتحـة، والجهر والإسرار فى موضعهما، ووضع الـيدين على الركبتين فى الركوع، ومدّ الظهر والانحناء فى الركوع والسجود، وما زاد على التسبيحة الواحدة فى الركوع والســجود، وما زاد على المرة فى سؤال المغـفرة، وقول: «اللهم لك الحمـد حمداً كثيـراً طيباً مبــاركاً فيه» بـعد التحمـيد، والبداية بوضع الركبـتين قبل اليدين فى الـسجود وبرفعهما فى القـيام، والتفريق بين الركبتين فى السجـود، ووضع اليدين حذو المنكبين أو الأذنين، وفتح أصـابع الرجلين، وفتـحها فى الجلوس، والافـتراش فى التشــهُّد الأولى، والجلوس فى الســجدتين، والتورُّك فى الـتشهـُّد الثانى، ووضع اليـد اليمنى على الفـخذ اليمنى مـقبـوضة محلقـة والإشارة بالسـبابة، ووضع اليد الأخـرى على الفخـذ الأخرى مبسوطة، والالتفات على اليمين والشمــال فى التسليمتين، والسجود على الأنف، وجلسة الاستراحة، والتسـليمة الثانية، ونية الخروج من الصلاة.

١٨٣٣ - ﴿الصلاة توقيفية﴾

للصلاة نظامٌ وترتيبٌ خاص لا ينبغى الزيادة عليها أو الإنقاص منها، وأى خلل مهما كان يقع عمداً أو جهلاً، أو سهواً أو نسياناً، فى شرط من شروطها، أو جزء من أجزائها، أو وصفٍ من أوصـافهــا، يستـدعى فـــادها، لأن الإخلال بالشــرط إخلالٌ بالمشــروط، والإخلال بالجزء إخلالٌ بالموصوف، وإذن فليس لنا أن نحيد قـيد شعرة فما دونها عن كل ما يمت إلى الصلاة كما عرّفها الشارع، وهذا معنى وصف الصلاة بأنها **توقيفيّة**.



١٨٣٤ - ﴿الصلاة من الإيمان﴾

فى الصلاة: **النية والقـول والعمل**، وهى **أركان الإيـمان**، ولذا أطلق الله تعالى على

الصلاة أنها إيمان فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴿١٤٣﴾﴾(البقرة)، والآية فيها ردّ على المرجئة، وهى فرقة إسلامية قالت بأن الصلاة ليست من الإيمان.

●●●

١٨٣٥- ﴿قضاء الصلاة واجب على النائم والغافل﴾

فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾(طه)، يعنى إذا نسيتَ فتذكرتَ، فصلِّ كما فى الخبر: «فليصلها إذا ذكرها»، أى أن الصلاة لا تسقط بالنسيان، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ سُئل عمن يرقد عن الصلاة ويغفل عنها، قال: «كفّارتها أن يصليها إذا ذكرها» أخرجه مسلم، وقال: «مَنْ نسى صلاة فوقتُها إذا ذكرها»، يعنى أن قضاء الصلاة واجب على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قلّت. وللصلاة عموماً أوقاتها المعينة كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴿٧٨﴾﴾(الإسراء)، وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴿١١٤﴾﴾(هود)، وقوله: ﴿صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴿٥٨﴾﴾(النور)، وقوله: ﴿ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴿٥٨﴾﴾ (النور)، والصلاة ﴿مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴿٩﴾﴾(الجمعة)، ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴿٢٣٨﴾﴾(البقرة)، ومن أقام بالليل ما أُمر بإقامته بالنهار أو بالعكس، لم يكن فعله مطابقاً لما أُمر به، وفى القرآن: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾(النساء)، ولولا الحديث: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» لم يُنتفَع بصلاة فى غير وقتها، وبهذا الاعتبار كانت الصلاة فى غير وقتها قضاء: لأن القضاء أداء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول. وكذلك من ترك الصلاة متعمداً وجب عليه القضاء، والفرق بين المتعمد والناسى والنائم، أن المتعمد مأثوم، وجميعهم قاضون. وفى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿٤٣﴾﴾(البقرة) لم يفرّق بين أن تكون الصلاة فى وقتها أو بعدها. وتوفية التكليف حقّه واجبة بإقامة القضاء مقام الأداء. ومن ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتى نسى إذا كانت خمس صلوات فأدنى، وإن كانت أكثر من ذلك بدأ بالتى حضر وقتها، وقيل: الترتيب فى اليوم والليلة إذا كان فى الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت، فإن خشى فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب. وفى الحديث: «إذا ذكر أحدهم صلاةً فى صلاة مكتوبة، فليبدأ بالتى هو فيها، فإذا فرغ منها صلى التى نسى» أخرجه الدارقطنى. غير أنه ﷺ والمسلمون صلوا يوم الخندق العصر بعد المغرب، أى الفائتة قبل الحاضرة. وقيل إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء الله، فأمر بالأذان بلالاً فقام فأذّن، ثم أقام فصلى الظهر: ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء. وكل من ذكر صلاة وهو فى صلاة يتمادى مع

الإمام حتى يكمل صلاته ثم يصلى الفـائتة، وقيل وليُـعد صلاته التى مع الإمـام إذا كان الوقت يســمح. وفى الحـديث: «**أما إنه ليس فى الـنوم تفريط، إنما التفـريط على مَنْ لم يصلِّ الصلاة حتى يجىء وقت الصلاة الأخـرى، فمن فعل ذلك فليصلها حتى ينتبه لـها، فإن كان الغد فليصلها عند وقتها**» أخرجه مسلم. وظاهر الحديث يقتضى إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضـور مثلها مـن الوقت الآتى، والصحيح أنهـا لا تعاد إلا مـرة واحدة. وهذه الزيادة مشكوك فيها بدليل الحديث لمّا سألوه عن قضاء الفائتة لوقتها من الغد قال: «**أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم**» أخرجه الدارقطنى.

●●●

١٨٣٦- ﴿صـلاة المريض﴾

من قدر على القيام وعجز عن الركوع أو السـجود، لا يسقط عنه القيام ويصلى قائماً فيومىء بالركـوع، ثم يجلس فيومىء بالسجود. ومن لا يطيق القيـام له أن يصلى جالساً. وإن كان يستطيع القـيام إلا أنه يخشى زيادة مرضه بسبب القـيام، أو تباطؤ بُرئه، أو يشق عليه القيـام مشقة شديدة، فله أن يصلى قـاعداً. وإن كان يستطيع القـيام مع الاستناد إلى عصا أو حائط لزمه القيام. وإن كان مريضـاً بعينيه ويخشى عليه الركوع والسـجود، يصلى قاعـداً متربعـاً، ويثنى رجليه إذا أراد الركوع أو الـسجود. وإن لم يقـدر على الصلاة مع الجماعة فليصلِّ وحده. وإذا لم يطق القيام ولا القعود صـلى مضطجعاً على جنبه مـستقبلاً القبلة بوجهه، والمـستحب الصلاة على جنبـه **الأيمن**، فإن لم يقدر فالأيسـر، فإن عجز فليصلِّ مستلقياً. ومن عجز عن الركوع والسجود أومأ بهما. ولا تسقط الصلاة عن المسلم ما دام عاقلاً صحيح العقل.

١٨٣٧- ﴿التهجُّـد﴾

التهجد: من **الهجود** وهو من الأضداد، يقال: **هجد** يعنى نام، **وهجد** يعنى على الضد سـهر. وفى الآية: **﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾**(الإسراء) أن التهجد هو التيقظ بعد رقدة، فصار اسماً للصلاة، لأنه ينتبه لها، وهو إذن **القيام إلى الصلاة من النوم**، ويسمى من قام إلى الصلاة **متهجداً**، لأنه يُلقى الهجود عن نفسه الذى هو النوم؛ **ونافلة** يعنى زائدة، فكانت **صلاة الليل**: **صلاة تطوع**، تزيد الدرجات وتكفّر عن السيـئات، وتدارك الخلل يقع فى الفرض، وقيام الليل فـيه الخلوة مع البارىء، والمناجاة دون النـاس، وهو معنى **المقـام المحمـود** للنبىِّ ﷺ ولمن يقوم الليل من أمـته، وعلّمه ربُّه أن يدعو فيه ومن بعده أمتّه: **﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ**

وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾(الإسراء)، يعنى أمتنى إماتة صدق، وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق، وأعزّنى بنصرك فيتصل الدعاء بوعده تعالى أن يبعثنا ربُّنا مقاماً محموداً، وكل ذلك من أركان **صلاة التهجد** أو **صلاة قيام الليل**.

●●●

١٨٣٨ - ﴿صلاة الفجر﴾

وقتُها **قبل طلوع الشمس**، بقوله تعالى: **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا (١٣٠)﴾**(طه)، وأول وقت الصبح طلوع الفجر، وكان النساء يشهدن صلاة الفجر مع الرسول ﷺ، وفى الحديث: «**لا تحرّوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها**». والصلاة بعد الصبح أو بعد العصر **غير مكروهة** إلا ممن قصد بصلاته طلوع الشمس وغروبها، وكان النبىّ ﷺ يصلى ركعتين قبل صلاة الصبح، وركعتين بعد العصر.

●●●

١٨٣٩ - ﴿صلاة الضحى وصلاة الإشراق﴾

لم يكن **ابن عباس** يصلى الضحى، وكان فى نفسه شىءٌ منها، ثم وجدها فى القرآن: **﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)﴾**(ص)، والإشراق هو الضحى، وفى الحديث عن **أم هانىء** قالت: إن رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلّى **صلاة الضحى**، وقال: «**يا أم هانىء ـ هذه صلاة الإشراق**»، فصلاة الضحى إذن هى صلاة الإشراق، وأم هانىء ثقة وكانت بنت عم النبىّ ﷺ، وفى الآية تأتى صلاة الإشراق مرتبطة بداود، وكان إذا صلى العشاء والضحى جاهر بصلاته فترجّع الجبال تسبيحه، فهذا هو **تسبيح الجبال**، فقال فيه **رسول الله** ﷺ إنه: «**صلاة الأوّابين**»، لقوله تعالى عن داود: **﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾**(ص). وصلاة الضحى إذن **نافلة مستحبة**، وهى فى الغداة بإزاء العصر فى العشىّ، وتُصلّى إذا ابيضّت الشمس طالعةً، وارتفع قدرُها، وأشرقت بنورها، كما لا تصلى العصر إذا اصفرّت الشمس. وفى البلاد التى لا شمس فيها تكون صلاة الضحى بين الصبح والظهر. وعن أنس أن **رسول الله** ﷺ صلاّها **ثنتى عشرة ركعة**، وعن أبى ذرّ أنه صلاها ركعتين، وعن أبى هريرة أنه ﷺ ذكرها باسم «**شُفْعَة الضحى**» أى ركعتان، من الشفع، وهو الزوج من العدد، وقال أبو هريرة: «أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، **وركعتى الضحى**، ونوم على وتر، أخرجه مسلم. وإذن يكون **أقل صلاة الضحى أو صلاة الإشراق** ركعتين، **وأكثرها ثنتى عشرة**.

●●●

١٨٤٠- ﴿صلوات الدلوك وصلاة الغسق وقرآن الفجر﴾

صلوات الدلوك: هي **الظهر والعصر والمغرب**، لقوله تعالى: **﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾**(الإسراء)، قيل: أول الدلوك هو **الزوال**، وآخره هو **الغروب**، ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى **دلوكاً**. لأن الشمس تكون في حـالة ميل، **والدلـوك** هو الميل، فذكر الله تعـالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وهي **الظهر والعصر والمغرب**. وأما **غسق الليل** فهو اجتماع الليل وظلمته، ويبدأ من آخر المغرب حتى إظلام الليل، **وصلاة الغسق** هي **العشاء**. وأما «**قرآن الفجر**» فهو اسم **صلاة الصـبح**، عبّر عنها بالقرآن دون غيـرها من الصلوات، لأن القراءة فيها للقرآن طويـلة ومجهور بها، والقرآن هو أهم شعائرها، ويُقـرأ فيها بطوال الفصّل، ويليها في ذلك الظهر والجـمعـة. وهذه الآية إذن تختص بصلـوات: الظهر، والعـصر، والمغـرب، والعشـاء، والفجر.

١٨٤١- ﴿الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾

الصـلاة ثانيـةُ الإيمـان، وإليهـا يُفزَع في النوائب، وكان النبيّ إذا مر به أمـرٌ فزع إلى الصـــــلاة، والآية: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (١١٤)﴾**(هود) يراد بها استغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً، **وطرفا النهار: صلاة الصبح، وصلاة الظهر والعصر؛ والزُلَف** الساعات القريبة من بعضها البعض، ومنه سميت «**المزدلفة**» لأنها منزل بعد **عرفة** بقرب مكة، والواحدة زُلْفَة. وقيل **الزلفة** أول ساعة من الليل بعد مغيب الشـمس، والصحيح هنا أن الزُلَف: هي **المغـرب والعشـاء**. وإقامـة هذه الصلوات حسنات تُذهب السـيئات. وهذه الآية إذن تخـتص بصلوات الصبح، والظهـر، والمغرب، والعشاء.

•••

١٨٤٢- ﴿وقت صلاة الظهر عند الزوال﴾

الزوال ـ أي زوال الشمس، هو ميلها إلى جهة المغرب، ويسمى هذا الوقت **الظهيرة**، من ظَهَر أي بان ووضح، **والظهيرة** وسط النهار، أي أوضح وقت فيه، كقوله تعالى: **﴿مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ(٥٨)﴾**(النور). وكان النبيّ ﷺ يصلي **الظهر في الظهيرة**، أي عند الزوال، وكان يصلي **بالهاجرة** وهي اشتداد الحر في نصف النهار، وسميت بذلك من **الهَجْر** وهو الترك، لأن الناس يوفون العمل من شدة الحر ويقيلون. والزوال أول وقت الظهر، وإذن تجوز صلاة الظهر **في أول الوقت**.

•••

١٨٤٣- ﴿الصلاة الوسطى﴾

اختلف الناس فى تعيين **الصلاة الوسطى** فى الآية: **﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾**(البقرة)، ووسط الشىء خيره وأعدله، والمحافظة على الصلوات مخاطبٌ بها الأمة كلها، والآية أمر بإقامة الصلوات فى أوقاتها بشروطها.

وقيل: الصلاة الوسطى هى **الظهر**: لأنها وسط النهار، **وهى أول صلاة صُلِّيت فى الإسلام** ومايزت **عائشة** بين الظهر والعصر حينما أملت الآية هكذا: **«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر»**، فأضافت **«صلاة العصر»** تنبيهاً إلى أنها غير الظهر، وروى أن صلاة الظهر كانت أشق على المسلمين، لأنها كانت تجىء فى الهاجرة، فنزلت فيها الآية توصيةً بها، وقيل هى **وسطى** لأن قبلها صلاتين، وبعدها صلاتين.

وقيل: الصلاة الوسطى هى **العصر**: لأن قبلها صلاتى نهار، وبعدها صلاتى ليل؛ وأنها الوسطى لأنها بين صلاتين إحداهما أول ما فُرض، والأخرى ثانى ما فرض، وفى الحديث: **«الصلاة الوسطى: صلاة العصر»** أخرجه الترمذى.

وقيل: الصلاة الوسطى هى **صلاة المغرب**: لأنها تتوسط فى عدد الركعات، فليست بأقلها ولا أكثرها، ولا تقصر فى السفر، ولم يؤخّرها **رسول الله** ﷺ عن وقتها، ولم يعجّلها، وبعدها صلاتا جهر، وقبلها صلاتا سرّ، وفى الحديث: **«إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب، لم يحطّها عن مسافر ولا مقيم، فتح الله بها صلاة الليل، وختم بها صلاة النهار، فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين، بنى الله له قصراً فى الجنة، ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنوب عشرين سنة** - أو قال **أربعين سنة»**.

وقيل: الصلاة الوسطى هى **صلاة العشاء الآخرة**: لأنها بين صلاتين لا تقصران، وتجىء فى وقت نوم، ويستحب تأخيرها وذلك شاق، فوقع التأكيد فى المحافظة عليها.

وقيل: الصلاة الوسطى هى **صلاة الصبح**: لأن قبلها صلاتى ليل يُجهَر فيهما، وبعدها صلاتى نهار يُسَرّ فيهما؛ ولأن وقتها يدخل والناس نيام، والقيام إليها شاق فى زمن البرد لشدة البرد، وفى زمن الصيف، ولقِصَر الليل. والدليل على أنها صلاة الصبح قوله تعالى فى الآية: **«وقوموا لله قانتين»**، يعنى قوموا فى صلاة الصبح قانتين، وليست هناك صلاة مكتوبة فيها قنوت إلا الصبح.

وقيل: الصلاة الوسطى هى **صلاة الجمعة**: لأنها خُصّت بالجمع لها، والخطبة فيها، وجُعلت عيداً للمسلمين. وقيل: الصلاة الوسطى هى **الصبح والعصر معاً**: بدعوى الحديث: «... **فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها**»،

يعني العصر والفجر، والآية: **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا (١٣٠)﴾**(طه)، والحديث: «**لن يلج النار أحدٌ صلّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**»، يعني الفجر والعصر. وقيل: الصلاة الوسطى هي **صلاة العتمة** (أي العشاء) **والصبح**: وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال: «**ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حَبْواً**» وقال: «**إنهما أشدّ الصلاة على المنافقين**» أخرجه البخاري. وقال: «**من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة**».

وقيل إجمالاً لما سبق: **الصلاة الوسطى هي كل الصلوات الخمس** بجملتها، لأن قوله تعالى: «**حافظوا على الصلوات**» يعمّ الفرض والنفل، ثم قال: «**والصلاة الوسطى**» فخصّ الفرض بالذكر. ولم تعيّن الآية الصلاة الوسطى تحديداً، فخبّأها الله في الصلوات كلها، كما خبأ **ليلة القدر** في رمضان، وكما خبأ **ساعة يوم الجمعة**، **وساعات الليل المستجاب فيها الدعاء** ليقوم الناس بالليل في الظلمات لمناجاة عالم الخفيات.

●●●

١٨٤٤ - ﴿وقت المغرب إذا توارت الشمس بالحجاب﴾

كان المسلمون يصلون المغرب مع النبيّ ﷺ إذا توارت بالحجاب - يعني الشمس، كقوله تعالى: **﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾**(ص) أي استترت، كناية عن الغروب، ووقتها تحين صلاة المغرب، وكان الرسول يصليها في ذلك الوقت.

●●●

١٨٤٥ - ﴿صلاة العشاء هي صلاة العتمة﴾

في قوله تعالى: **﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ (٥٨)﴾** (النور) يريد العتمة، وفي الحديث: «**لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم، ألا إنها العشاء وهم يعتمون بالإبل**» أخرجه مسلم، وفي البخاري: كان النبيّ ﷺ **يؤخّر العشاء**. وفي مسلم: أنه ﷺ كان **يؤخّر العتمة**. وتسمية العشاء **بالعتمة** ثابت، غير أن الاصطلاح الإسلامي والشرعي هو **صلاة العشاء** وليس العتمة. وفي الآية عاليه سمّاها الله تعالى **العشاء**، فليعلّمها كل امرئ، وامرأة لولده أو ولدها أنها **العشاء**، ولا يقال **عتمة** كقول الأعراب، فلا يعدل مسلم بالعشاء عمّا سمّاها الله في كتابه. ووقت العشاء إلى نصف الليل، وكان النبيّ يحب تأخيرها، فوقّت أداءها اختياراً.

●●●

١٨٤٦ - ﴿واجبات الصلاة﴾

واجبات الصلاة بخلاف الأركان ثمانية، هي: **التكبيرات؛ والتسبيح في الركوع؛ والتسبيح في السجود**؛ وقول: **سمع الله لمن حمده**؛ وقول: **ربّنا ولك الحمد**؛ وقول: ربّ

اغفر لى؛ والتشهُّد الأول؛ والصلاة على النبىّ ﷺ فى التشهد الأخير؛ فمن ترك هذه الواجبات أو شيئًا منها عامداً، بطلت صلاته. ومن ترك شيئًا منها ساهياً أدّى سجدتى السهو.

●●●

١٨٤٧ - ﴿العمل الجائز فى الصلاة﴾

لا بأس بالعمل اليسير فى الصلاة للحاجة، ويُكره لغير الحاجة. ومن أمثلة الحركة الجائزة مما وردت به السُّنّة: أن يحمل المصلىّ ولده، أو يفتح الباب لطارق، أو يقتل حيّة أو عقرباً، أو يرفع الرداء إن سقط، أو يشدّ المئزر إذا انحلّ، أو يدفع المار بين يديه.

●●●

١٨٤٨ - ﴿مبطلات الصلاة﴾

الحَدَث المُبطل للطهارة يبطل الصلاة. ويستحب فى الصلاة التكتيف: وهو وضع إحدى اليدين على الأخرى، وتبطل الصلاة بالالتفات إلى الوراء أو اليمين أو الشمال بكل البدن، أو بكامل الوجه بحيث يخرج عن حدّ الاستقبال، ولا بأس لو كان سهواً ويسيراً، وكذلك لا بأس مع الكلام عن سهو أو نسيان، ولا يضر التبسُّم، وتقطع القهقهة والبكاء الصلاة، إلا البكاء الذى عن خشية، وتبطُل بالأكل أثناءها، وكل فعل لا تبقى معه صورة الصلاة يُبطلها، وإذا ذهبت الصورة ذهبت الصلاة من الأساس، وكل من أخلّ بجزء من أجزاء الصلاة، أو بشرط من شروطها، أو وصف من أوصافها، فسدت صلاته، إلا ما قام الدليل على أنه غير مفسد، كالجهر مكان الإخفات، والجهل بنجاسة الثوب أو البدن أو مكان السجود. وتُشترط للصلاة ستة أشياء: **الطهارة من الحدث، ومن النجاسة، وستر العورة، واستقبال القبلة، ودخول الوقت، والنيّة،** فمتى أُخلّ بشىء من هذه الشروط لم تنعقد الصلاة. وتجب الصلاة بدخول وقتها فى حق من هو من **أهل الوجوب**، وتسقط عن **أهل الأعذار**، كالحائض، والمجنون، والصبى، والكافر.

●●●

١٨٤٩ - ﴿البيعة على إقامة الصلاة﴾

كان الرسول ﷺ **يأخذ البيعة** من كل من يريد الدخول فى الإسلام، ذكراً أو أنثى، وفى الرواية عن **قيس بن عبد الله** قال: **بايعت الرسول ﷺ على إقامة الصلاة،** وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم. **والبيعة** استنّها الله تعالى للمسلمين فى قوله: **﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾(١١١)**(التوبة)، وفى قوله: **﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾(١٢)**

(الممتحنة)، وإقام الصلاة تأتي في مقدمة شروط البيعة، لأن الصلاة رأس العبادات البدنية، ثم بعد الصلاة تأتي الزكاة، لأنها رأس العبادات المالية، ثم النصح لكل مسلم بقدر وسعه وفي مجاله.

●●●

١٨٥٠ - ﴿آية من أعظم آيات القرآن في فضل الصلاة﴾

هي الآية: ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (٣١)﴾(الروم) والمنيب هو التائب، من الإنابة وهي الرجوع، وهذه الآية مما استدل به مَن يرى تكفير تارك الصلاة لما يقتضيه مفهومها، والصحيح أن المراد بها أن ترك الصلاة من أفعال المشركين، فورد النهي عن التشبُّه بهم، لا أنَّ مَنْ وافقهم في الترك صار مشركاً. والآية من أعظم ما رد في القرآن في فضل الصلاة، وفي الحديث لـمّا طلبوا من الرسول ﷺ أن يأمرهم بشيء يأخذونه عنه ويدعون إليه، قال: «**آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله** ـ وفسّرها لهم: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأنيّ رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة...**». وكما ترى فالآية فيها: اقتران نفي الشرك بإقامة الصلاة، والحديث فيه: اقتران إثبات التوحيد بإقامة الصلاة.

●●●

١٨٥١ - ﴿الصلاة كفّارة﴾

الصلاة كفّارة بقوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** (١١٤)﴾(هود)، وفي الحديث: «**فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفّرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي**»، والفتنة هنا معناها البلية. وأخصّ من هذا الحديث، حديث الصلوات الخمس كفّارة، يقول: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول ذلك يُبقى من دَرَنه؟ فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**»، والدرن: هو الوسخ.

●●●

١٨٥٢ - ﴿الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾

في الآية: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** (٤٥)﴾(العنكبوت)، والصلاة هي الصلوات الخمس التي تكفّر ما بينها من الذنوب، كالحديث: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درَنه**» (أي وسَخه) **شيء؟**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**».

أخرجه الترمذى. وقال أيضاً: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بُعداً». والصلاة بنفسها لا تنهى، ولكنها سبب الانتهاء.

●●●

١٨٥٣ - ﴿التجافى فى الصلاة﴾

فى الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴿١٦﴾﴾ (السجدة) أن المؤمنين تتجافى جنوبهم، أى تنبو عن مواضع الاضطجاع، إما لذكر الله، وإما فى الصلاة: فى التنفُّل بالليل فيما يسمى «قيام الليل»، وفى الحديث أن من أبواب الخير: «صلاة الرجل من جوف الليل». وفى صلاة العشاء ـ ويقال لها: صلاة العَتَمة ـ قيل هذه الآية نزلت فى انتظار هذه الصلاة: صلاة «العشاء الآخرة» أو «صلاة العتمة»، سُمِّيت كذلك لأن رسول الله ﷺ كان يؤخّرها إلى نحو ثلث الليل، يتنفّل ما بين المغرب والعشاء، ويتنفل لصلاة العشاء، ثم لصلاة الصبح، وهكذا يحصل التجافى أول الليل وآخره. وفى معنى «التجافى» فى الصلاة قال ﷺ: «من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله»، وقال: «من شهد العشاء فى جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلى العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة».

●●●

١٨٥٤ - ﴿لماذا خصّ الركوع بالذكر؟﴾

فى الآية: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾(البقرة) خصّ الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع، ولأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية، واعترض عليه عمران بن حصين. والركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه، ويمد ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه، ويقبض على ركبتيه، ثم يطمئن راكعاً، يقول: «سبحان ربىّ العظيم» ثلاثاً، وذلك أدناه. وكان الرسول ﷺ إذا ركع لم يُشخص رأسه، ولم يصوبه، ولكن بين ذلك، وكان يمكّن يديه من ركبتيه ويهصر ظهره. والركوع فُرِض قرآناً وسُنّة، وكذلك السجود.

●●●

١٨٥٥ - ﴿أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة﴾

يشمل ذلك جميع النوافل، لأن المراد بالمكتوبة المفروضة، ولكنه محمول على ما لا يشرع فيه التجمع، وفى الحديث: «فصلّوا أيها الناس فى بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته، إلا المكتوبة» أخرجه البخارى، وما يجوز للرجال يجوز للنساء، وفى الحديث: «لا تمنعوهن المساجد وبيوتهن خير لهن»، فحثّ على النافلة فى البيت لأنه أخفى وأبعد من الرياء، وليتبرّك البيت.

●●●

١٨٥٦- ﴿أنجهر بالصلاة أم نخافت بها؟﴾

يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا** ﴿١١٠﴾ ﴾ (الإسراء)، **والجهر**: هو رفع الصوت، **والخفوت**: نقيضه، وهو القراءة بصوت منخفض، والمندوب له **التوسط** بين الجهر والخفوت، وذلك ما اقتضته مناسبة الآية، فعن ابن عباس في أسباب نزولها قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع صوته بالقرآن سبّه المشركون، ومَنْ أنزله، ومن جاء به، فأنزل الله «**ولا تجهر بصلاتك**»، «**ولا تخافت بها**» عن أصحابك، بأن تسمعهم حتى يأخذوا عنك القرآن» أخرجه مسلم، وفي رواية أخرى قال: نزلت ـ أى هذه الآية ـ ورسول الله ﷺ مُختَفٍ بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فكان المشركون إذا سمعوه شتموا القرآن، ومَنْ أنزله، ومَن جاء به، فقال الله لنبيّه: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ**﴾ أى بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبّوا القرآن؛ ﴿**وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ عن أصحابك، ﴿**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا**﴾.

●●●

١٨٥٧- ﴿الصلاة قبل الإسلام مكاء وتصدية﴾

كان الكفّار يصلّون عند البيت الحرام قبل الإسلام، فالصلاة لم تكن بالشىء الجديد على العرب، غير أنه شتّان بين صلاة وصلاة. وتشرح الآية: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴿٣٥﴾ ﴾(الأنفال)، **والمُكاء** التصفيق بالأيدى، **والتصدية** الترتيل، فكأن الصلاة كانت صفقاً وتراتيل، وكانوا أثناء ذلك يطوفون بالبيت عُراة، وورث **الصوفية** ذلك عن أهل الجاهلية من قبيلة **الصوفة**، وهم خدم البيت، يلازمونه ويعيشون عراةً كالنُّسّاك، ويستترون بصوف الغنم ، ويصلّون ينشدون ويصفقون، وسُمّوا صوفية، وصوفية هذا الزمن يفعلون مثلهم ويجتمعون حلقات فى المساجد كما كان هؤلاء يفعلون، وكانوا يتحلّقون فى اليوم الواحد خمس مرات، ولّما أخذ المسلمون يصلون فى البيت مع النبىّ ﷺ كان هؤلاء يشوّشون عليهم، وتعمّدوا أن يخلطوا عليهم صلواتهم.

●●●

١٨٥٨- ﴿الصلاة صدقة عن كل أعضاء الجسم﴾

فى الحديث عن عائشة. أن رسول الله ﷺ قال: «**خُلق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبرّ الله، وحَمَد الله، وهلّل الله، وسبّح الله، واستغفر الله، وعَزَل حجراً أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف أو نهى عن منكر، عَدَد تلك الستين والثلاثمائة**

سلاميّ، فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»، وقال: «ويجزى من ذلك ركعتان» ـ أى يكفى من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان، لأن الصلاة عملُ جميع أعضاء الجسم، فإذا صلّى المصليّ، ولو ركعتين، فقد قام كل عضو فيه بكل هذه الصدقات، كقوله تعالى لمريم: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران٤٣).

●●●

١٨٥٩ - ﴿ما يجوز من العمل فى الصلاة؟﴾

فى الرواية عن عائشة أنها كانت تنام فى قِبْلة النبى ﷺ، وكانت تمدّ رجليها وهو يصلى، فكان إذا سجد يغمزها فى رجلها، فترفعها، فإذا قام مدّتها. وحكى النبيّ ﷺ لمّا خُسفت الشمس، أنه أثناء الصلاة، رأى كأنه فى الجنة وهو يأخذ قطفاً من العنب، فجعل يتقدم، ثم رأى جهنم فجفل يتأخر، ورأوه فى الصلاة يفعل ذلك. وفى هذا الحديث: «أن المشى القليل لا يبطل الصلاة، وكذا العمل اليسير»، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (البقرة).

●●●

١٨٦٠ - ﴿التفكر أثناء الصلاة﴾

التفكُّر أمر غالب لا يمكن الاحتراز منه فى الصلاة ولا فى غيرها، وفى الحديث عن الشيطان فى الصلاة: «فلا يزال بالمرء يقول له اذكر ما لم يكن يذكر حتى لا يدرى كم صلى»، وكان عمر يقول: إنى لأجهّز جيشى وأنا فى الصلاة، وأحسب جزية البحرين، فكان لذلك يسهو عليه أن يقرأ إلى أن يُذكّر، وفى الحديث: «إذا فعل أحدكم ذلك فليسجد سجدتين وهو قاعد»، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ (النحل)، قيل: قرأتَ يعنى صلّيتَ، فكلما تزاحمت عليه الأفكار فى الصلاة استعاذ بالله.

●●●

١٨٦١ - ﴿التعجيل بالصلاة﴾

فى الحديث: «خير الأعمال الصلاة فى أول وقتها»، ولمّا قال ﷺ: «أول الوقت رضوان الله، ووسط الوقت رحمة الله، وآخر الوقت عفو الله»، علّق أبو بكر فقال: رضوان الله أحب إلينا من عفوه، فإن رضوانه عن المحسنين، وعفوه عن المقصّرين. وفى القرآن: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴿١٤٨﴾﴾(البقرة): المراد المبادرة بالصلاة وبكل الطاعات أول وقتها. وأول الوقت فى الصبح والمغرب أفضل؛ وتأخير العشاء أفضل لمن قدر عليه، وأخّر النبيّ ﷺ العشاء إلى نصف الليل ثم صلى، وكان يستحب تأخيرها؛ وتأتى الظهر على غفلة من الناس فيستحب تأخيرها قليلاً ليتأهبوا ويجتمعوا. وقيل: أول الوقت أفضل فى كل صلاة.

●●●

١٨٦٢ - ﴿الصبر والصلاة متقارنان﴾

قال تعـالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴿٤٥﴾﴾(البـقرة) فقرن بين الصبـر والصلاة؛ والصبـر: هو الحبس في اللغة، تقول: صبرتُ نفسي: أي حبستها؛ ويقال: **فلان صـابر عن المعـاصي، وصابر على الطاعـات،** وفي التنزيل: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾﴾(الزمر). **والصلاة** فيها أقوال، فهي هذه العبادة، خصّها بالذكر لأن في الصلاة تربية للنفوس، والـذي يصبر عليـها يكون قـد صبرعلى أصـعب العبـادات، وأشق الطاعات؛ والصلاة هي الأفضل والأهم، فأدخل كذلك الصبر فيها. وقد تكون الصـلاة هي **الدعاء**، وبالصبر وبالدعاء يسـتجاب للداعي. وقد يكون الصبر بمعنى الصيـام، والمشهور أن رمضان **شهر الصبر**، غير أن الصائم يُمنَع **بعض** الشهوات، والمصلِّي يُمنع **كل الشهوات**. والصلاة كشـعيرة ـ كـان النبيّ ﷺ إذا حزبه أمر فـزع إليها، فـالصلاة ملجأ المحـزونين، وملاذ المكروبين، والصبر على البلاء تقوّيه وتدعمه الصــلاة. والصبر والصلاة من أخلاق الأنبياء والصالحـين. والصبــر هو الرضا بقضــاء الله، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجـسد، فـالإيمان مـعرفـة بالقلب وإقرار باللســان وعـمل بالجوارح، ومن لا يصـبر على العـمل بجوارحه لـم يسـتحق الإيمان. **وخير الصبر: العمل بالشرائع، والصلاة من العمل: نظير الرأس من الجسد للإنسان.**



١٨٦٣ - ﴿الصلاة ركعتين للمسلم يقتل صبراً﴾

سنّ ذلك **خُبيْب الأنصاري**، وكان الرسول ﷺ قد أرسله ضمن رهط سرية عيناً، وجاءته جماعة من هُذيْل يقال لهم بنو لحيان، وأسروا خبيباً، ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحلّ، فقال لهم: دعوني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أن بي جزعـاً من الموت لزدت، ثم قال: اللهم أحـصهم عـدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُبقي منهم أحـداً ـ وقتلوه ـ وكان **خـبيب** هو الذي سنّ الركعتين لـكل امرئ مسلم يقتل صبراً، أي في الأسر.



١٨٦٤ - ﴿التأمين هو قول آمين﴾

التأمـين من أمّـن، وهو أن يقول آمـين **amen** ، والمصطلح موجود في اليونانية عن العبرية، وكذب **جولدتسيـهر ونولدكه** عندما أرجعا آمين عند المسلمين إلى اليهودية، وفي اليهودية لا تصريف للكلمة ولا ترد إلا في نبوءة زكريا، وفي المزامير ضمن صلوات داود، فهي ليست من الديانة وكانت إضافتـها من بعد، ويختتم بها **النصـارى** صلواتـهم، وتورد

الموسوعة اليهودية أن المسلمين نادراً ما يستعملون آمين!! وادعاؤهم من باب التشنيع، لأن الصلاة عند المسلمين لابد فيها من الفاتحة، ولا تقال الفاتحة إلا وتختتم بآمين، وتقال جهرة خلف الإمام، وهى فى الديانات الثلاث دعاء بمعنى «**اللهم استجب**»، ولم يُذكر فى اليهودية ولا النصرانية أن آمين واجبة كما فى الإسلام، وفى الحديث: «**إذا أمّن الإمام فأمّنوا**» وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ «**ولا الضالين**» قال: «آمين»، يرفع بها صوته فيرددونها خلفه حتى يرتج بها المسجد. وفى الحديث: «**ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين**» أخرجه ابن ماجه، وفى رواية أخرى بزيادة: «**فأكثروا من قول آمين**».

●●●

١٨٦٥ - ﴿الشفع والوتر﴾

الشفع: الاثنان؛ **والوتر** بكسر الواو أو فتحها: الفرد؛ والصلاة فيها شفع، ومنها وتر. وفى التنزيل: ﴿**وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③**﴾(الفجر)، فالفجر: هو الصبح، **والليالى العشر**: هى عشر النحر، **والوتر**: يوم عرفة؛ **والشفع**: يوم النحر. وفى الحديث: «**الشفع: يوم عرفة، ويوم النحر؛ والوتر ليلة ويوم النحر**» ذكره السيوطى وابن كثير. ثم إن الشفع خَلْقُه تعالى، قال: ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧**﴾(النبأ)، وقال ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ㊾**﴾(الذاريات)، فالكفر يقابله الإيمان، والشقاوة تقابلها السعادة، والموت تقابله الحياة، والصيف يقابله الشتاء، وكذلك السماء والأرض، والجن والإنس إلخ؛ وأما **الوتر فهو الله** عزّ وجلّ، قال: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ②**﴾ (الإخلاص)، فهو وتر يعنى واحداً، وفى الحديث: «**الله وتر يحب الوتر**». **والشفع فى الصلاة**: الصبح؛ **والوتر**: صلاة المغرب؛ وأيضاً الشفع فى صلاة المغرب ركعتان، والوتر **ركعة واحدة هى** الثالثة. وفى **الحج** الشفع **يوما منى، الحادى عشر والثانى عشر**، وأما **الثالث عشر فهو وتر. والقرن** بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج، شفع. والوتر **الإفراد** فيه. **والشفع عشر ذى الحجة**، والوتر **أيام مُنى الثلاثة**. والشفع **آدم وحواء**، فكان آدم فرداً فشُفع بزوجته حواء، فصار شفعاً بعد وتر. وأيضاً آدم وحواء شفع، والله تعالى وتر. والشفع فى الجنة **درجاتها الثمانى**، والوتر فى النار **دركاتها السبعة**. والشفع **الصفا والمروة**، والوتر **الكعبة**. والشفع **الأيام والليالى**، والوتر **يوم القيامة** لأنه لا ليلة بعده. وأوصاف المخلوقين شفع، ففيها **العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعمى، والسمع والصمم، والكلام والبكم**. والوتر **انفراد صفات الله**، فالعز بلا ذل، والقدرة بلا عجز، والقوة بلا ضعف، والعلم بلا جهل، والحياة بلا موت، والبصر بلا عمى، والكلام بلا خرس، والسمع بلا صمم. والعدد كله لا يخلوا من شفع ووتر. والشفع مسجداً مكة

والمدينة، والوتر مسجد بيت المقدس. وهكذا في كل شيء، والكون جميعه له هذه الهندسة المعمارية الواحدة، والأعداد والموجودات هذه فلسـفتها في القرآن. وليس من ذلك شيء في التوراة ولا في الأناجيل.

●●●

١٨٦٦ - ﴿صلاة الليل وصلاة الوتر﴾

الوتـر ركعة واحدة، وفي الحديث: «**صَلِّ ركعـة واحدة**»، ولما سُئل النبيّ ﷺ عن صــلاة الليل قــال: «**صلاة الليل مثنى مـثنى، فإذا أردت أن تنصرف فاركع ركـعة توتر لك ما صـــليـــت**». ويُسلِّم بين الركـعتين والركـعة في الوتر. وصلى النبــيّ ﷺ صلاة الليل ركعتين، ثم ركــعتين، ثم ركعتين، ثم ركــعتين، ثم ركعتين، ثم ركــعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فخرج يصلي الصبح. وفي رواية **عائـشة** أنه ﷺ كان يصلي بالليل إحدى عـشرة ركعة، يسلّم من كل ركعتين، ثم يركع **ركعــتين** قبل صلاة الفجر. وعن ابن عمر: صلاة الليل والنهار **مثنى مـثنى**؛ ومـعنى مـثنى أن تسلّم من كل ركعتين، والسلام بين كل ركعــتين أخف على المصلي من الأربع فما فـوقها، إذ قد يقـضي بينهما ما يعرض له من أمور مهمة وحوائج عاجلة. ويستدل من ذلك أن **النافلة** لا تقل عن ركعتين إلا **الوتر**. وفي الحديث: «**الصلاة خير موضوع، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل**». والذى اختـاره النبيّ ﷺ **لصـلاة الليـل مـثنى مثنى**، وعن ابن عمر: من صـلى من الـليل فليجعل **آخر صلاته وتراً**، فإذا جاء الفجر ذهب كل صلاة الليل والوتر. ومن نسي الوتر أو نام عنه فليصله إذا ذكره. والوتر لا يفـتقر إلى **نيـة**، ولا ينبغي لأحد أن يتـعمد تركه. وفي رواية **عائشة**: أن النبيّ ﷺ إذا نام من الليل من وجع أو غيره، فلم يقم من الليل، صلّى من النهار **ثنتي عشرة ركعة**. وفي الحديث: «**اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وتراً**»، والوتر ركعة واحدة، وكانت عائشة وابن عباس يكرهان الوتر بثلاث، وقيل إن النبيّ ﷺ كان **يوتر بثلاث**، وأوتر بعضهم **بخمس**، وكان النبيّ ﷺ يوتر كل الليل، وانتهى وتره إلى السَّحَر وهو أول الفجر. والوتر من العشاء إلى طلوع الفجر. وتجوز صلاة الوتر على الدابة، يعني في السفر. **والمغرب وتر النهار**، وكان النبيّ ﷺ يقنت ـ أي يدعو ـ في المغرب والفجر.

●●●

١٨٦٧ - ﴿صلاة الوتر﴾

الـوتـر سُنّة مؤكدة، فإن فــات قضاه، وإن شاء لم يقضه. والوتر آكد من ركــعتي الفجر. ووقـتـه: ما بين العشاء وطلوع الفجر الثــاني؛ ولو أوتر قبل صلاة العشاء لم يصح، وإنْ

أخّره حتى يطلع الصبح فات وقته وصلّاه قضاءً، والأفضل فعله فى آخر الليل، فإن خاف أن لا يقوم من آخر الليل استحب أن يوتر أوله، وأى وقت أوتر من الليل بعد العشاء أجزأه. **وركعات الوتر تصحّ واحدةً، أو ثلاثاً، أو خمساً، أو سبعاً، أو تسعاً، أو إحدى عشرة،** والأشهر أنها **ثلاث ركعات**؛ وإنْ أوتر **بخمس** لم يجلس إلا فى آخرهن؛ وإن أوتر **بسبع** جلس عقيب السادسة وتشهّد ولم يسلّم، ثم يجلس بعد السابعة فيتشهّد ويسلّم؛ وإن أوتر بتسع، لم يجلس إلا عقب الثامنة فيتشهّد، ثم يقوم فيأتى بالتاسعة فيتشهد ويسلّم، وإن أوتر **بإحدى عشرة** سلّم من كل ركعتين. ويستحب أن يقرأ فى صلاة الوتر، فى الركعة الأولى **بسبّح**، وفى الثانية **بقُل يا أيها الكافرون**، وفى الثالثة **بقُل هو الله أحد**، وإن قرأ معها **المعوذتين** فحسن. ويُسن **القنوت** فى الوتر، وفى **الركعة الأخيرة** بعد الركوع، ويصحّ القنوت قبل الركوع بشرط التكبير قبله وبعده، ويُستحب بعد صلاة الوتر أن يقول المصلى: «**سبحان الملك القدوس**» ـ ثلاثاً. ومن أوتر من الليل ثم قام **للتهجّد** فالمستحب أن يصلى مثنى ولا ينقض وتره. ونقض الوتر: أن يصلى من أول التهجّد ركعة تَشْفَع الوتر، ثم يصلى مثنى، ثم يوتر من آخر التهجد، وتجوز الصلاة ركعتين بعد الوتر.

●●●

١٨٦٨ - ﴿صلاة الجماعة﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴿٤٣﴾ ﴾(البقرة) أن **الصلاة تقتضى المعية** والجمعية، ولم يكن الأمر بالصلاة أولاً يقتضى شهود الجماعة، فأمروا بقوله تعالى «مع» أن يشهدوا الجماعة، وهى من **السنن المؤكدة**، وأوجبها البعض **فرضاً على الكفاية**، فالمساجد لا يجب أن تتعطل من الجماعات، فإذا امتلأت المساجد فصلاة الفرد فى بيته جائزة، لقوله ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ** (يعني الفرد)»، وقوله: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده**»، وقوله: «**لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد**». **والاجتماع من سنن** الهدى، وتركُه ضلال، **وأفضل الجماعة** ما كانت فى المسجد، **والاثنان فما فوقهما جماعة**. وفى الحديث: «**صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله**». ومن صلّى صلاةً مع جماعة فليس عليه أن يعيدها لو تواجد مع جماعة أخرى؛ وإذا صلاّها فهى له نافلة. وفى الحديث: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء، فأعلمهم بالسُّنّة، فإن كانوا فى السُّنّة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا فى الهجرة سواء، فأقدمهم إسلاماً، ولا يؤمّنّ الرجل الرجل فى سلطانه، ولا يقعد فى بيته على تكرُمته إلا بإذنه**»، والتكرُمة هى السجّادة. **وإقامة الصغير** جائزة إذا كان قارئاً، ويجوز **للمرأة** إذا كانت حافظة للقرآن أن تقرأه فى إمامة الرجل حتى إذا

انتهت كبّر هو ورجع وسـجد وهى خلفه تصلى، وكانت أم ورقة **بنت عبد** الله تؤم أهـل دارها، ولا تجوز الصلاة خلف أئمة الجور، ولا أهل البدع ولا الفاسق. وفى الحديث: «**إنْ سرّكم أن تُزَكّـوا صلاتكم فقدّمـوا خياركم**». والإمـام لِيُؤتم به، وفى الحـديث: «**استـووا ولاتختلفوا فتختلف قلوبكم. لِيَلِنى منكم أولوا الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**». وليست الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويباح حضور النساء مع الرجال، ويُعذر بترك الجمـاعة: مدافعـة الأخبثين، وعند حـضور الطعام وهو جائع تتوق لـه نفسه، وفى حالات المرض، وعند الخـوف، وفى المطر المنهمر، والعواصف، وأن يغلبـه النعاس. ولا يشترط المسـجد لصلاة الجماعة، وتجوز فى البيت، وفى الصحراء، وفى المصنع. وأفضل المساجد ما كـان يستوعب أكبر عدد من المصلين،والمسـجد الأبعد، والأولى الأقرب. ومن صلى منفرداً، ثم أدرك الصـلاة نفسها فى جـماعة، يستـحب له إعادتها معـهم، والصلاة المعادة نافلة.

•••

١٨٦٩- ﴿ما تسنّ له الجماعة﴾

التطوّعات قسمان، أحدهما: ما تُسَنّ له الجماعة: وهو **صلوات الكسوف، والاستسقاء، والتراويح؛ والثانى**: ما يُفعل على انفراد، وهو **قسمان**: سُنّة معينة كالسُّنن النوافل، ونافلة مطلقة.

•••

١٨٧٠- ﴿تسوية الصفوف فى الصلاة﴾

كـان الناس يصلون مـتبـدّدين، فـأنزل الله الآية: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّـافُّـونَ** ﴿١٦٥﴾﴾ (الصافـات)، فأمرهم النبـىّ ﷺ أن يصطفوا لربّهم فى الأرض، كمـا تصطف الملائكة لربّها فى السماء، وقال: «**ألا تَصفُّون كما تَصُفّ الملائكة عند ربّها**»، وسأله الصحابة: وكيف يصفّـون؟ قال: «**يُتمّـون الصفوف الأوَل ويتـراصّون فى الصف**» أخرجـه مسلم. **وتسـوية الصفوف**: يعنى اعتدالها واستواءها؛ **والصف الأول** فى الصلاة أفضلها بقوله ﷺ: «**ولو يعلمـون ما فى الصف المقـدّم لاستـهمـوا**» والمراد مَن سَبَق إلى الصلاة، بدخـول المسجـد، والجلوس بالقُرب من الإمام، والاستماع لقراءته، والتعلّم منه، وأن يأمن اختراق المارة بين أيدى المصلين، وسلامة البال من رؤية من يكون قدّامـه، وسلامة موضع سجوده من أذيال المصلين. وفى الحـديث: «**وأقيمـوا الصف فى الصلاة، فإن إقامة الـصف من حُسن الصلاة**»، وفيه: «**سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة**». فكل ذلك واجب ومن ترك واجبـاً فهـو آثم، ومَنْ لا يتم الصـفوف يأثم، وكـان الناس زمن الرسول ﷺ يُلـزقون

مناكبهم بمناكب أصحابهم، وأقدامهم بأقدامهم، وفى الحديث: «**والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم**».



١٨٧١ - ﴿النساء لا يصفّون مع الرجال﴾

أصل ذلك ما يُخشَى من الافتتان بالنساء، ولو كانت امرأة واحدة لصحّ أن تشكّل صفاً وحدها، ولا مخالفة للحديث: «**لا صلاة لمنفرد خلف الصّف**» فهو مختص بالرجال، وتسوغ صلاة المرأة المنفردة خلف الصّف ولا تسوغ صلاة الرجل المنفرد، ولا يقاس الرجل بالمرأة، ولا يقال إن ثبت ذلك للمرأة كان للرجل أولَى، فإنما ساغ ذلك لامتناع أن تَصُفّ المرأة مع الرجال، بخلاف الرجل فإن له أن يصف معهم وأن يزاحمهم.

وإذا صلّت امرأتان، فإن المأمومة تقف إلى يمين الإمامة. وإن صلّت امرأة واحدة مؤتمة برجل وليس معها آخرون، لم تقم عن يمينه ولكن خلفه؛ وإن صلّت ومعها رجل وصبى، قام الرجل والصبى خلف الإمام والمرأة خلفهما. وإن صلّت ومعها رجل، صلّى الرجل عن يمين الإمام والمرأة خلفهما، وإن كان الرجل من محارمها، فلها أن تقف معه والصبى عن يمين الإمام أو وراءه. وتصلى النساء على الميت جماعة، وإمامتهن وسطهن.



١٨٧٢ - ﴿المرأة تصلى فى المساجد﴾

الواجب على المرأة أن تصلّى وقد غطت بدنها ورأسها، وصلاتها فى بيتها وفى المساجد، وفى الحديث: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»، وكانت النساء يصلين مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات، والتلُّفع بتغطية الرأس.

١٨٧٣ - ﴿الصلاة فى النعال والخفاف﴾

كان النبىّ ﷺ يصلى فى نعليْه وخُفّيه ويقول: «**خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم ولا خفافهم**»، وذلك من الرُّخَص ومحمول على ما إذا لم يكن فيهما نجاسة، وإذا تعارض الاثنان قُدّمت مراعاة إزالة النجاسة لأنها من باب دفع المفاسد. وكان النبىّ ﷺ إذا توضأ يمسح على نعليه أو خُفّيه ثم يصلى.



١٨٧٤ - ﴿الإيجاز فى الصلاة وإكمالها﴾

كان النبىّ ﷺ - برواية أنس - يوجز الصلاة ويكملها. ومَن أوْجز وأتمّ لا يُشْكَى منه تطويلٌ فى الصلاة، وفى الحديث: «**أيها الناس، إن منكم منفّرين، فمَن أمّ الناس فليتجوّز،**

فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة» أخرجه البخارى، وممن كان يُشكَى منه التطويل: **معاذ** بن جبل، قال عنه جابر: أنه أمّهم فى العشاء فقرأ عليهم بالبقرة!!

•••

١٨٧٥- ﴿قراءة الفاتحة واجبة﴾

فى الحديث: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**». والمعنى وجوب القراءة فيما يجهر فيه ويخافت من الصلوات، فلا يختص الوجوب بالسرية دون الجهرية. وأما حديث: «**مَن صلى خلف إمام فقراءة الإمام له قراءة**» فهو ضعيف، وفى الرواية أن النبىّ ﷺ ثقلت عليه القراءة فى الفجر، فلما فرغ قال: «**لعلكم تقرأون خلف إمامكم**»؟ قالوا: نعم. قال: «**فلا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها**». وأمّ القرآن لابد منها. وقيل: الفاتحة تتحتم على من يُحسنها، ومن لا يحسنها يقرأ بما تيسر عليه، وإلا انتقل إلى الذكْر.

•••

١٨٧٦- ﴿الجهر والمخافتة فى الصلاة﴾

تُخافَت قراءة صلوات **الظهر والعصر**، ويُجهَر بقراءة **المغرب والعشاء والصبح**، ويجهر الإمام والمأموم بالتأمين.

١٨٧٧- ﴿الصلاة بعد العودة من السفر﴾

كان النبىّ ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد **فصلى فيه صلاة القدوم**، وليست هى صلاة **تحية المسجد** التى أُمر الداخل إليه أن يأتيها قبل أن يجلس.

١٨٧٨- ﴿القصر فى الصلاة﴾

يقال قَصَرتُ الصلاة **قَصْراً**، وقصّرتها **تقصيراً**، وأقصرتها **إقصاراً**، والأول أشهر، والمراد به تخفيف الرباعية إلى ركعتين؛ ولا تقصير فى **صلاة الصبح**. ولا فى **صلاة المغرب**؛ ويجوز القصر فى كل **سفر** مباح؛ وصلّى النبىّ ﷺ على راحلته حيث توجّهت به، وكان يصلى **التطوّع** وهو راكب فى غير القِبْلة ويستقبل بوجهه ما استقبلته الراحلة؛ وكان ابن عمر يصلى فى السفر على راحلته، أينما توجهت يومىء، إلا **الفرائض**، كقوله تعالى: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴿١١٥﴾﴾**(البقرة)؛ وقد جعل الله التيمم رخصة للمريض والمسافر؛ **وجمع** النبىّ ﷺ فى السفر بين **المغرب والعشاء**، وجمع بين صلاتى **الظهر والعصر**؛ وصلى **جالساً** وأجاز **صلاة المضطجع**، أو **على جنب** للمرض، وإن شاء المريض صلى ركعتين **قائماً** وركعتين **قاعداً**. والقصر سُنّة للرجال والنساء فى **غير الخوف**، ولا يوجد فى القرآن عن قصر الصلاة فى السفر، وأما عن القصر فى الخوف مع السفر فبالقرآن والسُّنّة، فى قوله تعالى: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن**

يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (١٠١) ﴾ (النساء)، ولم يُبح القصر فى القرآن إلا مع هذين الشرطين: السفر والخوف، ثم قال تعالى: ﴿**فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (١٠٣)**﴾ (النساء)، يعنى فأتوها بأركانها وبكمال هيئتها فى السفر، وبتمام عددها فى الحضر كما قال: ﴿**كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)**﴾(النساء)، أى مؤقتة مفروضة. وقد أتمت السيدة عائشة وكانت تصلى فى السفر أربعاً. وفى السُّنّة قيل إن رسول الله ﷺ قصر فى صلاة السفر دون خوف، من أربع إلى اثنتين، إلا المغرب، مع أن ذلك خلاف ما يقول القرآن، وفيه أنه عند الاطمئنان تكون الصلاة المعهودة، وقيل إن الرسول ﷺ كان يقصر فى كل أسفاره آمناً، وقيل: كان ذلك سُنّة مسنونة منه زيادة فى أحكام الله، كسائر ما سنّه مما ليس له فى القرآن ذكر، وقال فى ذلك: «**تلك صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**» أخرجه مسلم. وقيل: تقصر الصلاة فى كل سفر طويل أو قصير، والإجماع على أن القصر فى السفر فى الجهاد والحج والعمرة، وما ضارعها كالتجارة ونحوها، ولا قصر فى سفر متعة، أو سفر معصية، لأن التخفيف شُرّع فى سفر المشقات، لقوله: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ**﴾ (النساء ١٠١). ويذهب البعض إلى القصر حتى يرجع المسافر إلى وطنه.

●●●

١٨٧٩- ﴿صلاة التطوع﴾

التطوّع بالشىء هو التبرُّع به، والمتطوِّع هو المتنفِّل الذى يأتى ما يزيد على الفرض والواجب. وصلاة التطوع هى صلاة نافلة، وتُصلّى فى الليل والنهار مثنى، يسلّم من كل ركعتين، فإن تطوّع فى النهار خاصةً بأربع فلا بأس. ولا يزاد فى الليل على اثنتين، ولا فى النهار على أربع، ولا يصحّ التطوع بركعة، ولا ثلاث. ويجوز للمتطوّع أن يصلى جلوساً، والقيام أفضل، وإذا تطوّع جالساً فيستحب له أن يكون فى حال القيام متربعاً، ويثنى رجليه فى الركوع والسجود، هو مخيّر فى الركوع والسجود، إن شاء ركع وسجد وهو قاعد، وإن شاء قرأ قاعداً، ثم قام فركع، ثم سجد. وأفضل أوقات التطوع يكون بالنوافل المطلقة، وتشرع فى الليل، وفى النهار فيما سوى أوقات النهى. وتطوّع الليل أفضل من تطوّع النهار. ويستحب لكل مسلم أن تكون له تطوعات يداوم عليها فإذا فاتت يقضيها. والأوقات المنهى عن التطوع فيها خمسة: من الفجر إلى طلوع الشمس؛ ومن طلوعها إلى ارتفاعها، وحال قيامها، ومن العصر إلى شروع الشمس فى الغروب؛ والوقت الخامس من حين شروع الشمس فى الغروب إلى أن تغرب. والتطوع فى البيت

أفضل، لأنه أقـرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء. ومن الـتطوع ما تُسن له **الجـمـاعـة** كصلوات **التراويح**، **والاستسقاء**، **والكسوف**. ومنه ما يُؤدّى على **انفراد**،وهذا الأخير منه السُّنة المعينة كـالسنن الرواتب، كالركـعتين قبل الفـجر وبعد المغـرب. وكان أكثـر تطوعه ﷺ منفرداً. ويُستحب مع **السنن الرواتب** التطوع قبل الظهر وبعده **بأربع** ركعات، **وأربع** قبل العصر، **وأربع** بعد المغرب، **وأربع** بعد العشاء. ويُستحب **الدعاء في** صلاة التطوع، ويجوز فيـها الخروج **بتسليمـة واحدة**. ويُسَنّ للإمام الانتـقال من مكانه إذا أراد التطوّع. ويُسن لمن يدخل المسجد أن يصلى **ركعتين** قبل جلوسه **تحيةً للمسجد**. ويستحب لمن **حجّ** أن يدخل الكعبة **فيكبّـر** فى نواحيها ويصلى **ركـعتـين** ويدعو الله، وأن يصلـى بعد الطواف **ركعـتين**، يكررهما بعد كل طواف، وبعد أن يفرغ من الأشـواط السبعة الأولى ثم الثانية. وتباح صلاة التطوع فى **السفر على** وسيلة المواصلات أياً كانت، سواء كانت **سيارة أو قطاراً أو** طائرة، أو حتى راحلة، وتكون **قِبْلة المصلى** حيثما اتجهت الوسيلة التى يركبها، **ويومئ** المصلى بالركوع والسجود، ويجعل سـجوده أخفض من ركوعه، ولو اضطر إلى النزول أو الصعود أثناء الصلاة فَعَل. ويباح **للماشي** أن يصلى وهو يمشى، وعليه أن يستقبل القبلة فى افتـتاح الصـلاة ثم ينحرف إلـى جهة سـيره، ويقـرأ وهو ماش، ويومىء فى الـركوع والسجود.

●●●

١٨٨٠ - ﴿صلاة النافلة هى صلاة التطوّع﴾

كصلاة **السُّنة الراتبة**، وصـلاة **الضحى**، وصلاة **قيـام الليل**،وصلاة **الوتر**. والنافلة **المعـينة**: **كصلاة الكـسوف، والاستسقـاء، والتراويح، والوتر**. **والسـنن الرواتـب**: شرطها نية الـتعيين، **والنافلة المطلقة: كصلاة الليل**، يجزىء فيها نية الصلاة لا غير.

●●●

١٨٨١ - ﴿صلاة التراويح﴾

التراويح جمع **ترويحة**،وهى فى الأصل اسم للجلسة مطلقاً، ثم سميت بها الجلسة التى بعد أربع ركعات فى ليالى رمضـان لاستراحة الناس بها، ثم سمّى كل **أربع ركـعـات ترويحة**. **والتراويح** اسم **لعشرين** ركعة فى **ليالى رمضان**، وحكمها قيام رمضان، وهى **سنة مؤكـدة** استنها الرسـول ﷺ، ونُسبت إلى عمـر لأنه جـمع الناس على **أُبيّ** بن كـعب. والأفضل أن تُصلّى التراويح **جماعة**، ويختلف عدد ركعاتها، والمختار أنها **عشرون** ركعة، والأمر فى العدد على ما يحـتمله الناس، ويُقرأ فيها القرآن، والمستـحب أن يُختَم، لِيُسمَع

كله ولو مرة فى السنة لأكبر عدد من الناس، فإذا خُتم رفع الإمام يديه قبل أن يركع ودعا وأطال القيام، ويدعو بما يشاء. (انظر أيضاً باب الصيام).



١٨٨٢- ﴿صلاة الكسوف﴾

قيل: الكسوف والخسوف واحد، تقول كسف الله الشمس أو القمر أى حجبهما، وكسوف الشمس احتجابها بالنهار لحلول القمر بينها وبين الأرض. ويقال خسف القمر أى ذهب ضوءه، والمشهور بين أهل العلم والفقهاء أن الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، وفى التنزيل: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ ﴾(القيامة). ومدلول الكسوف غير مدلول الخسوف، لأن الكسوف: التغير إلى سواد؛ والخسوف: النقصان؛ فإذا قيل فى الشمس كسفت أو خسفت، فذلك لأنها تتغير ويلحقها النقص، وكذلك القمر، ولا يلزم من ذلك أن الكسوف والخسوف مترادفان. وفى التنزيل إشعار بأن الخسوف للقمر، فيكون الكسوف للشمس. وصلاة الكسوف لكسوف الشمس والقمر، والنبىّ ﷺ صلّى وجماعة المسلمين فى كسوف الشمس، وفى قوله ﷺ: «فإذا انكسف أحدهما»، وقوله: «أيهما انكسف»: أن صلاة الكسوف مندوبة فى كسوف القمر كما هى مندوبة فى كسوف الشمس، وقيل: إن النبىّ ﷺ صلّى فى كسوف الشمس والقمر ركعتين، وقيل: لم يُنقَل أنه صلى فى كسوف القمر فى جماعة، وفى الرواية أن القمر خسف فى السنة الخامسة، فصلّى النبىّ ﷺ بأصحابه صلاة الكسوف، وكانت أول صلاة كسوف فى الإسلام. وأما كسوف الشمس فكان فى السنة العاشرة من الهجرة، وقيل: وقع ذلك فى ربيع الأول فى عاشر الشهر أو رابع عشرة لمّا مات ابنه إبراهيم. وصلاة كسوف الشمس جهرية، ولا وقت لها، وهى بطبيعة الحال بالنهار، وتُؤدَّى قبل انجلاء الشمس، بينما صلاة كسوف القمر بالليل، وكانوا قد قالوا إن الشمس كسفت حزناً على موت إبراهيم ابن النبىّ ﷺ، فلمّا انجلت خَطَب النبىّ ﷺ، قال: «إن الناس يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء، وليس كذلك»، ونزلت الآية: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ۝ ﴾(فصلت)، فنبّه التنزيل ونبّهت السُّنَّة، إلى بطلان هذا الاعتقاد، وهو كقوله ﷺ فى صلاة الاستسقاء: «يقولون مطرنا بنوء كذا»، يعنى أن ينسبوا المطر للرياح وليس لله، وكانوا فى الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغيّر فى الأرض من موتٍ أو ضرر، فأعلمهم النبىّ ﷺ أن الشمس والقمر مسخّران لله ليس لأحد سلطان عليهما، ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، وفى الحديث: «ولكن الله

تعالى يخوّف بهما عباده»، وهذه العبارة وردت زائدة لا أصل لها، لأنه بحسب كلام رسول الله ﷺ، وباعتبار ما جاء فى التنزيل، فإن **الكسوف** أمرٌ **عادى لا يتأخر ولا يتقدم**، وهو ظاهرة كظاهرة **المدّ والجـزر**، ولا يُعقل والنبىّ ﷺ يعرف ذلك أن يقوم **فزعاً** كما تقول الرواية، مخـافة أن تكون **السـاعة**، فإذا كان الكسـوف يقع كظاهرة فلِمَ الفزع؟ ولِمَ الأمر بالصلاة والدعاء والصدقة والذكر؟ والشمس لا تنكسف فى الحـقيقة، ولا القمر ينخسف، وإنما فى الكسـوف يحـول القمر بينها وبين أهل الأرض. **والغـــزالى** استشكل صـلاة الكسوف، وقال: **إنها لم تثبت، فيجب تكذيب ناقلها**. والذى يؤكده **علماء الفلك** أن قوله فى الحديث: «**يخوّف الله بهما عباده**» أى كسوف الشمس والقمر، ليس بشيء، لأن الكسوف والخسوف من أفعال الله فى الكون مثل **تغاير الليـل والنهار**. وعلى أى الأحوال فإن صلاة الكسوف ـ كما هو شائع ـ **ركعتان** مثل الصبح، والمشهور أنه **لا خطبة لها**، وما قاله ﷺ فيها ـ كما قيل ـ لم يقصد به خطبـة بخصوصها، وإنما أراد أن يبين لهم الردّ على من يعتقد أن الكسوف إنما لموت بعض الناس. والصلاة فيها **جامـعة**. وفى التنزيل والأحاديث إشارة إلى تقبيح من يعبد الشمس أو القمر. وقد أطال النبىّ ﷺ فى القراءة والركوع والسجود ـ كما قيل ـ حـتى تنجلى هذه الظاهرة، وليتأكد أنها انجلت، وإذا انتـهت الركعات يُصلّى غيرهما إلى أن تنجلى. والجمهور على أن هذه الصلاة **سُنّة مؤكدة**، وقيل بوجوبها، وإذا وقع الانجلاء أثناء الركعـة الأولى تكمل الثانية. وفى دعاء هذه الصلاة يستـعيذ المصلى من عذاب **القبر**، ومناسبـة ذلك أن الكسوف **ظُلمة الـنهار** وتشابه ظلمة القـبر وإن كان نهاراً، والشيء بالشيء يذكر، فيُـخاف من هذا كما يُخاف من هذا، فيـحصل الاتّعاظ، وتشارك **النســاء** فى الصـلاة وكانت **عـائشـة** من المشاركـات، والسُّنّة فى هذه الصلاة أن تُصلّى **بالمسجد**، وإلا لكانت صلاتها فى الصحراء أجدر برؤية الانجلاء. غير أن المهم أن نعرف أن صلاة الكسـوف لم تثبت، وأن الكسوف والخـسوف ظاهرة كـونية لا ينبغى أن نحـفل بها كسواد ولكنها تهم العلماء.

●●●

١٨٨٣ - ﴿صلاة الأيات﴾

المراد بالآيات: **كسـوف الشمس، وخسوف القمر، والزلازل، وكلّ مخوّف سماوى**، كالريح العاتية، والظلمة فى أول النهار. وقيل: هى بدعة ولا بأس بها.

●●●

١٨٨٤ - ﴿صلاة الاستسقاء﴾

الاستسقاء لغةً: طلب سقى الماء من الغير للنفس أو للغير؛ **وشرعاً**: طلبه من **الله** عند

حصول الجدب على وجه مخصوص. والمطر ظاهرة مناخية تحدث بحسب اعتبارات مناخية مضبوطة هيّأها الله تعالى أسباباً. والظواهر الكونية لا يتحكم فيها أحد بالدعاء. وصلاة الاستسقاء لم تثبت فى حقّ النبىّ ﷺ ومع ذلك قال بها البعض، ونسبوا للنبىّ ﷺ بشأنها الأحاديث. والشائع أنه يستحب الخروج لهذه الصلاة، وقيل: إن النبىّ ﷺ شرّع الدعاء بالاستسقاء للمؤمنين، وكذلك شرع الدعاء بالقحط على الكافرين لصالح المؤمنين. والمُصلِّى ليس بشرط فى الاستسقاء، لاجتماع عدد غفير من الناس لا يستوعبهم. وبنزول المطر قد تكون هناك رياح وعواصف، وقد تصحبه الزلازل، فيستحسن الدعاء فى صلاة الاستسقاء: «اللهم إنى أسألك خير ما أمرت به، وأعوذ بك من شرّ ما أمرت به». ولمّا نزل المطر عقب الصلاة قال ﷺ: «هل تدرون ماذا قال ربُّكم»؟ قال: «أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بى مؤمنٌ بالكوكب». وقيل: مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فأنزلت هذه الآية: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ (الواقعة)، والمعنى تجعلون الرزق الذى وجب عليكم به الشكر تكذيبكم بالله، وتنسبون المطر إلى النَّوْء؛ وكانوا لا يقولون «أمْطَرنا الله» وإنما قالوا: «مُطرنا بنَوْء الشعرَى. والمطر لا يفعله ويعلم بمجيئه إلا الله، وفى الحديث: «خمسٌ لا يعلمهن إلا الله ...» منها «وما يدرى أحد متى يجىء المطر». وقيل: صلاة الاستسقاء سُنّة مؤكدة ثابتة، والاستسقاء ثلاثة أنواع: استسقاء بأن يدعو الناسُ الله لإنزال المطر فى أعقاب كل صلاة وفى الخلوات؛ واستسقاء بأن يدعو الإمام يوم الجمعة على المنبر ويؤمّن الناس؛ واستسقاء بالصلاة. وليس لصلاة الاستسقاء وقت معين، ولا تُفعل فى الأوقات المنهى عنها، ولا أذان لها ولا قيام، وإنما ينادى لها: «الصلاة جامعة». وتكون الصلاة فى وقت الجدب واحتباس المطر، ويستحب أن يخرج لها كافة الناس، إلا غير المسلمين، فإن خرجوا فلا بأس. وإن تأهبوا للخروج فسقط المطر قبل خروجهم، لم يخرجوا وشكروا لله، وإن خرجوا فمُطروا قبل الصلاة شكروا وحمدوا ودعوا. وهى ركعتان، ويُكبّر فيها كتكبير العيد سبعاً فى الأولى، وخمساً فى الثانية. وقيل لا يُكبّر، ويجوز كل ذلك، ويُسَن الجهر بالقراءة، وتعقبها خطبة أو أن الخطبة قبل الصلاة، أو أنه لا خطبة بل دعاء وتضرُّع. ويستحب الدعاء فى الخطبة وأن يؤمّن الناس، ويُستحَب للإمام أن يبدأها: اللهم أمرتنا بدعائك، ووعدتنا إجابتك، فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. اللهم فامنُن علينا بمغفرة ذنوبنا وإجابتنا فى سقيانا وسعة أرزاقنا ـ ثم يدعو بما يشاء. ويستحب له أن يحوّل رداءه، أى يقلبه فيجعل ما على اليمين على اليسار

وبالعكس، ويفعل ذلك المأمومون طلباً لتغيير الحال. وإن تأخر المطر مع ذلك فتعاد الصلاة في اليوم الثاني، والثالث وهكذا. فإن سقط المطر غزيراً يضرّهم دعا الناس: **اللهم حوالينا ولا علينا**.

•••

١٨٨٥ - ﴿صلاة الاستخارة﴾

في الحديث: «**إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقُدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب. اللهم إنْ كُنتَ تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري** ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ **فأقدره لي، ويسّره لي، ثم بارك لي فيه. وإنْ كنتَ تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري** ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ **فاصرفه عني واصرفني عنه، وأقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به**»، ويسمّي حاجته.

•••

١٨٨٦ - ﴿صلاة التوبــة﴾

عن عليّ بن أبي طالب، عن أبي بكر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهّر، ثم يصليّ ركعتين، ثم يستغفر الله تعالى، إلا غفر له**»، ثم قرأ: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾**(آل عمران).

•••

١٨٨٧ - ﴿صلاة الخوف﴾

القصر في الصلاة بحسب القرآن لا يحل إلا أن تخاف: **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ (١٠١)﴾**(النساء)، فهذه الآية تبيح أن تصلى ركعة **لا تزيد عليها شيئاً**، وقد صلّى النبيّ ﷺ في الغزوات ركعة لكل طائفة ولم يقضوا بعدها، وروى ذلك النسائي والبخاري وأبو داود. وقيل: المراد **بالقصر في** صفة الصلاة تَرْك الركوع والسجود إلى الإيماء، وترك القيام إلى الركوع. وقيل: الآية تبيح في حالة الحرب والخطر القصر من حدود الصلاة وهيئتها، فيصلي المصلي إيماءً برأسه، ويصلي ركعة **واحدة** حيث توجّه، وهذا يعادل قوله: **﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ (١٠٣)﴾**(النساء)، أي أقيموها بحدودها وهيئتها كاملة. **والقصر في غير الحرب** سنّة إذا أمِن الناس بقول النبيّ ﷺ أنه: «**صدقةٌ تصدّق الله بها عليكم فاقبَلوا الصدقة**» أخرجه مسلم. وقيل: ليس شرطاً **الضرب في الأرض والسفر**، فإذا جاء الغزاة وحورب المسلمون في ديارهم، فتجوز صلاة الخوف، فليس شرطا السفر والخوف معاً. وقيل: الآية تبيح القصر للخائف من العدو، فمن كان

آمناً وعلى سفر فلا قصر له. وعن عائشة أنها كانت تقول فى السفر: أتموا صلاتكم. فقالوا لها: إن رسول الله ﷺ كان يقصر، فقالت: إنه كان فى حرب، وكان يخاف. وهل أنتم تخافون؟



١٨٨٨- ﴿كيفية صلاة الخوف﴾

آية صلاة الخوف هى الآية: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾(النساء)، وكانت سبباً فى إسلام خالد بن الوليد، وتتصل بما قبلها عن الجهاد، وفيها بيان أن الصلاة لا تسقط أبداً بعذر السفر، ولا بعذر الجهاد وقتال العدو، وهى خطاب للنبىّ ﷺ، ثم لأمته من بعده إلى يوم القيامة، وفيها: أن صلاة الخوف لكل جماعة ركعة واحدة، وقد صلاّها النبىّ ﷺ فى عشرة مواضع، وقيل: صلاّها أربعاً وعشرين مرة، وكيفيتها: أن يقوم الإمام ومعه جماعة من الجند تحرسها جماعة أخرى فى مواجهة العدو، فيركع الإمام ركعة ويسجد بالذين معه ثم يقوم، فتحلّ جماعة المواجهة محل جماعة المصلين، فيكبّرون وراءه، ويركع بهم ويسجد ثم يسلّم، وهكذا مع الجماعات كلها. فإذا كان الخوف أكبر من ذلك، صلّى كل جندى راكباً أو قائماً يومىء إيماءة. ولا يهم إن استدبر القِبْلة أو صلّى قبالتها. وفى قول آخر: أنه ﷺ لمّا حانت الصلاة، أمرهم أن يأخذوا السلاح، وصفّهم خلفه صفين، وركع فركع الصف الأول، ورفع فرفعوا، ثم سجد بالصف الثانى والآخرون قيام يحرسونهم، فكانت صلاة الخوف لهم ركعة، وفى صلاة المغرب ثلاث ركعات كما هى، وعند التحام الحرب وشدّة القتال والخوف، تكون إيماءً الصلاة كيفما أمكن، وكل امرىء لنفسه، وأينما كانت القِبْلة، فإن لم يقدروا على الإيماء أخّروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلّوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلّوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. ويظل المصلون شاكو السلاح مع المصلين وذلك أهيب للعدو، وحملُ السلاح واجبٌ فى صلاة الخوف لأنه أمرٌ من الله، إلا لمن كان به أذى، وهذا الأذى قديماً كان المطر، وتغيّر الآن، والأذى المنصوص عليه هو الذى لا يمكّنهم أن يحملوا السلاح. وفى هذه الآية أول دليل على تعاطى الأسباب.



١٨٨٩ - ﴿من لا تجب عليه الصلاة﴾

لا تجب الصلاة على الصحيح: على الصبيّ، والكافر، والحائض، والمجنون، والمرتد عن الإسلام، وإذا عاد المرتد إلى الإسلام، لم يلزمه أن يقضي ما فاته أثناء ردّته.

١٨٩٠ - ﴿قضاء الصلوات الفوائت﴾

الفوائت المعنية في الصلاة: هي ما فات المسلم أن يؤديه منها في وقتها. والفوت من فاتَ أي مضَى وانقضى، تقول: **فاته الأمر**: يعني أعوزه وذهب عنه؛ **وفات الشيء**: جاوزه. وتُقضى الصلاة الفائتة في ترتيب، فمن فاتته صلاة الظهر ثم صلاة العصر، صلاّهما إذا ذكرهما فيقضى الظهر أولاً ثم يقضي العصر. ومن دخل في صلاة، ثم ذكر أن عليه فائتة، وخشي خروج وقت الصلاة قبل انقضاء الفائتة وإعادة الصلاة التي هو فيها، سقط عنه الترتيب بين الفائتة والحاضرة، ويتم صلاته الحاضرة ثم يقضي الفائتة. **والترتيب** واجب مع سعة الوقت، والمصلّي عليه حينئذ أن يصلّي الفائتة أولاً ثم الحاضرة. ومن **يجهل وجوب الترتيب** لا يُعذَر في تركه. ومن كانت عليه فوائت وخشي أن تفوته **صلاة الجماعة**، فإنه يصلي معهم ويحتسبها فائتة، ثم يصلي الحاضرة. فإذا كانت الصلاة الحاضرة **جُمعة** بدأ بها ولا يعيدها، لأنها صلاةٌ يُخاف فوتُها، ويصلي **الظهر** بدلاً عنها. **والترتيب في الفوائت شرط في قضائها**. ومن دخل في صلاة حاضرة، ثم ذكر أن عليه فائتة، أكمل الحاضرة نفلاً، ثم يقضي الفائتة، ثم يعيد الصلاة التي كان فيها. وإذا صلى خلف إمام فإنه يمضي معه في صلاته، ثم يعيد الصلاتين، الفائتة ثم الحاضرة، وما صلاّه مع الإمام يعدّ نفلاً. وإذا كان الذي فاتته صلاة إماماً، وذكر أثناء صلاته أن عليه فائتة، عليه أن يُتم صلاته ثم يقضي الفائتة، ويعيد الحاضرة، وتجوز صلاة المأمومين خلفه، لأن صلاة المفترض تجوز خلف المتنفّل. ولا تجوز صلاة فائتة دون تعيين الصلاة: هل هي ظهر أم عصر؟ ولو نسي صلاة لا يدرى هل هي ظهر أم عصر لزمته صلاتان. ومن كثرت الفوائت عليه يشتغل بقضائها ما لم تلحقه مشقة، فإن لم يعلم قدر ما عليه فإنه يعيد حتى يتحصّل له اليقين أنه قد أبرأ ذمته. ويجوز قضاء الفرائض الفوائت في أوقات النهي. ولا يجوز فيها قضاء النوافل والسنن الرواتب، باستثناء ركعتي الفجر والركعتين بعد الظهر كما كان يفعل الرسول ﷺ. ويستحب قضاء التهجد إذا فات، ولا يجب القضاء على المرتد، ويجب على من تفوته الصلاة بإغماء أو نوم أو نحوهما.



١٨٩١ - ﴿صلاة الاحتياط﴾

من شك فى صلاتـه، أو فى عدد ركعـاتها أو غيـر ذلك، يمكنه أن يصلى صـــلاة **الاحتياط**، وفيها كل ما يجب فى الصلاة المستقلة، ولابد فيها من النّية وتكبيرة الإحرام.

●●●

١٨٩٢- ﴿القنوت﴾

يتكرر عن القنـوت فى القرآن **ثلاث عـشرة مرة**. **والقنوت** فى اللغة: الدوام على الشيء. فجاز أن يسمى مُديم الطاعة **قانتاً**، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء فى الصلاة، أو أطال الخشوع والسكون، فكل هؤلاء يفعلون القنوت، كقوله تعالى: **﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾**(البقرة)، قيل طائعين وخاشعـين يطول قيامهم، كقوله تعالى: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا(٩)﴾**(الزمـر)، والآية تفيد أن القنوت مـن صفاته الطول، ولَمّا سُئل النبىّ ﷺ: أى الصلاة أفضل؟ قال: «**طول القـنوت**». وروى افتراءً أن رسول الله ﷺ قنت شهـراً يدعو على **رِعْل وذكـوان**. وقيل: كـان المسلمون الأوائل فى بداياتهم يكلمون بعـضهم البعض فى الصـلاة، ويردّون السلام إذا حُيّوا وهـم يصلون، فنهوا عن ذلك، وقال النبىّ ﷺ: **﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾**(البقرة) فأمروا بالسكون، ونُهوا عن الكلام. وهناك من **ينكر القنوت** بدعوى أنهم صلوا خلف النبىّ ﷺ، ثم خلف **أبى بكر**، ثم خلف **عمر**، فلم يشاهدوا أحدهم يقنت بالطريقة التى صوّروا القنوت بها، ولـم يقنت **عثمان**. وقيل: **القنوت بهـذه الطريقة بدعـة**. وقيل **القنوت مستحب إذا نزلت بالمسلمـين نازلة**، ويكون فى **صلاة الفـجر**، وفى **سـائر الصلوات** إذا استدعى الأمر. وقيل: القنوت سُنّة. وروى الدارقطنى عن أنس قال: ما زال رسول الله ﷺ **يقنت فى صلاة الغداة** حتى فارق الدنيا. ورُوى أن جـبريل علّم النبىّ ﷺ هذا القنوت ـ يقول: «**اللّهم إنا نسـتعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونخنع** (نخضع) **لك، ونخلع ونترك من يكفُرك. اللهم إياك نعبد، ولك نصلى و نسجـد، وإليك نسعى ونحـفد** (نسـرع)، **ونرجو رحـمتك، ونخاف عـذابك الجدّ، إن عذابك بالكافرين مُلحق**». وفى هذا الدعاء المعنى الحقيقى للقنوت وليس ما قالوه عن فعله ﷺ إزاء رِعلة وزكوان!

●●●

١٨٩٣- ﴿صلاة العيدين﴾

العيدان هما **عيد الفطر وعيد الأضحى**، وفيهما يحـسن **التجمُّل**، والتجمُّل فيهما سُنّة، وكذلك **الغناء**، وغنّت **لعائشة مغنيتان** فى حضور النبىّ ﷺ، ولهما **مزمار**، وفى ذلك إظهار السرور فى الأعياد وهو من شعار الدين، وفيه قال النبىّ ﷺ: «**لتعلم يهود أن فى**

ديننا فسحة. إني بُعثت بحنيفية سمحاء»، وأطلع النبيّ ﷺ عائشة على الأحباش يلعبون بالحراب. وكان أول ما بدأ به يوم العيد الصلاة، ثم عاد لينحر، وكان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات قبل أن يخرج من البيت إلى المسجد، ونهى عن الذبح قبل الصلاة، وقال في يوم النحر: «هذا يوم يُشتهَى فيه اللحم، إن اليوم أكل وشُرب». ومن السُّنَّة أن لا يخرج المسلم يوم الفطر حتى يُخرج الصدقة ويَطعَم شيئاً قبل أن يخرج، ووقع أكل النبيّ ﷺ في العيدين في الوقت المشروع لإخراج صدقتهما الخاصة بهما، وإخراج صدقة الفطر يكون قبل الغدو إلى المصلى، وإخراج صدقة الأضحية بعد ذبحها. وكان النبيّ ﷺ يصلي في الأضـحى والفطر ثم يخطب بعـد الصـلاة، ولم يكن يُـؤذن بالصـلاة يوم الفطر ولا يوم الأضحى. ويستحب التبكيـر إلى العيد. ويخرج المسلمون في أيام العـشـر يكبّـرون، ولا يكون الذبح إلا بعد أن تشرق الشمس، ولذلك سميت هذه الأيام بأيام التشريق، فكانوا يشرقون فيها لحوم الأضاحي، أي يقدّدونها ويبرزونها للشمس، والأيام المعدودات في الآية: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴿٢٠٣﴾ ﴾(البقرة) هي أيام التشريق؛ والأيام المعلومات في الآية: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴿٢٨﴾ ﴾(الحج) هي أيام العشر. وقيل: المعلومات: الأيام قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة، والمعدودات: أيام التشريق. وقيل: المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. والأيام العشر أيام تكبير، وأيام التشريق أيام أكل وشُرب، ولم يُمنع فيها إلا الصيام، وفيها وقعت محنة الخليل بولده إسماعيل، ثم مَنّ عليه الله بالفداء، فثبت لها الفضل بذلك. وبقـية أيام الحج تقع في أيام التشريق، كـالرمي والطواف وغيـر ذلك من تتماته. وبعض أيام التشريق هي بعض أيام العشر، وهو يوم العيد، وكما أنه خاتمة أيام العـشر فهو مفتـتح أيام التشريق، فمهما ثبت لأيام العشر من الفضل شاركتها فيه أيام التشريق. وفي أيام مِنًى كان المسلمون يكبّرون حتى ترتج بتكبيرهم الأسواق، وكانت النساء يكبّـرن في ليالي التـشريق مع الرجـال في المساجـد. وكانت بعض النسـاء يتوليـن دعوة أخريات للخروج إلى المـصلى، ويخرج الصبيان، وكـان النبيّ ﷺ يخطب في الرجال، ثم يعظ النساء ويأمـرهن بالصدقة، ولم تكن الحُـيّض يدخلن المساجد. ويسـتحب للناس جميعاً التكبير في ليلة العيدين، في المساجد والمنازل والشوارع والمركبات، ويبتدىء التكبير يوم عـرفة من صلاة الفجر إلى العصر من آخر أيـام التشريق، وصفة التكبير: الله أكبـر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد». والتكبير جماعي وليس منفرداً. والأصل في صلاة العيد الكتاب والسُّنَّة والإجماع، وهي فرض كفاية، وتكون في المُصلَّى، وتصحّ في الطرق عند الزحام، ووقتـها: من ارتفاع الشمس إلى قائم الظهر، ويسن تقديم صلاة عيد

الأضحى ليتسع وقت التضحية، وتأخير صلاة الفطر ليتسع وقت إخراج صدقة الفطر. ويستحب التطهّر بالغُسل للعيد، والوضوء يُجزيء، ولبس أحسن الثياب، والتطيّب والتسوّك، وتخرج النساء إلى المصلى يوم العيد، ولا أذان ولا إقامة لصلاة العيدين، وعددها ركعتان، ويُدعى بدعاء الاستفتاح عقب التكبيرة الأولى، ثم يُحمد الله ويُثنىَ عليه، ويُصلّي على النبيّ ﷺ بين كل تكبيرتين، ويُقرأ فى كل ركعة بالفاتحة وسورة، ويُجهر بالقراءة، ويُكبّر سبعاً فى الأولى منها تكبيرة الإحرام، وخمساً فى الثانية، ورفع اليدين مع التكبير، ولا قضاء لصلاة العيد. ووقت الخطبة: بعد الصلاة، وهى كخطبة الجمعة، إلا أن الخطيب يستفتح الخطبة الأولى بتسع تكبيرات متواليات، والثانية بسبع متواليات. ويحضّ الخطيب الناس على صدقة الفطر ويبين أحكامها. والخطبتان سُنّة.

•••

١٨٩٤ - ﴿الصلاة رجالا أو ركبانا﴾

القيام فى الصلاة ـ كما فى القنوت ـ يغلب عليه الوقار والسكينة وهدوء الجوارح، مع الشعور بالأمن والطمأنينة، فأما فى حالة الخوف فتختلف الصلاة كما فى الآية: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴾(البقرة)، فالصلاة لا تسقط بالخوف، ولا تسقط فى أى حال، والمصلّى يستطيع الصلاة راجلاً على قدميه، أو راكباً، إيماءً، أو إشارةً بالرأس حيثما توجّه، وهذه هى صلاة الفذّ، أى الصلاة الاستثنائية يلجأ إليها المسلم كشكل من أشكال الصلاة إذا ألمّ به الخوف، أو عجز عن أن يصلى كما يصلى عادةً بسبب ظروف طارئة، كأن يكون فى طائرة، أو قطار، أو سيارة عامة، فيباح له ما تضمنته الآية، مستقبلاً القبلة أو غير مستقبلها، وتنقص عدد الركعات، وقيل إن صلاة الخوف لذلك ركعة وليست ركعتين كصلاة المسافر. فإذا ذهب الخوف، وأمِن المصلِى، فليرجع إلى ما أُمر به من إتمام أركان الصلاة. وقيل: استشعار الأمان الموجب لإكمال الصلاة لا يكون إلا بالخروج من «دار السفر» إلى «دار الإقامة». وقيل: إن الخائف إذا صلى ركعة آمناً، ثم استشعر الخوف، ركب وأكمل الصلاة راكباً، وإن صلى ركعة راكباً وهو خائف، ثم أمِن أكمل الصلاة. وذِكر الله كما فى الآية إنما لشكره على هذه الرخصة، فالصلاة أصلها الدعاء، وحالة الخوف الأولى يستعين المصلى فيها بالدعاء، فلهذا لم تسقط الصلاة بالخوف، فإذا لم تسقط بالخوف فأحرى ألا تسقط بغيره من مرض أو نحوه، فالصلاة لا تسقط أبداً على المكلف، ولا اختلال فى فرضيتها، والمقصود أن تؤدّى الصلاة كيفما أمكن، ولا تسقط بحال حتى لو لم يتفق أداؤها إلا بالإشارة بالعين، وبهذا تميزت صلاة الخوف عن سائر الصلوات والعبادات، وعن الصلوات والعبادات فى سائر الديانات، فكل العبادات تسقط بالأعذار وخاصة الخوف، ويترخص فيها بالرُّخص، إلا

الصلاة، وصلاة المسلمين بالذات. **والصلاة مسألة عظمى فى الإسلام**، وهى إحدى دعائمه، ولا تجوز النيابة عنها ببدن ولا مال.

•••

١٨٩٥ - ﴿القيام فى الصلاة﴾

القيام: أحد أقسام القنوت بقوله تعالى: ﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** (٢٣٨)﴾(البقرة)، والمسلمون على **القيام فى صلاة الفرض** لكل صحيح قادر عليه، منفرداً كان أو إماماً. وفى الحديث: «**إنما جعل الإمام ليـؤتم به، فإذا صلى قائماً فصلّوا قـياماً**»، وهو بيانٌ للآية يـشرحهـا، ويجوز للمأموم الصحيح أن يصلى قاعداً خلف إمام مريض يصلى قاعداً ولا يستطيع القيام، وفى الحـديث: «**وإذا صلى جالساً فصلوا جلوســاً أجمعون**»، فإن كلاً من الإمـام والمأموم يؤدى فرضه على قدر طاقته، تأسّياً برسول الله ﷺ لمّا صلى فى مرضه الذى توفى فيه قاعداً، وكان **أبو بكر** إلى جنبه قائماً يصلى بصلاته، والناس قيام خلفه، فلم يشر إلى **أبى بكر** ولا إلى الناس بالجلوس، وأكمل صلاته بهم جالساً وهم قيام. فلما انتهى من صلاته، نبّه كما سبق إلى أن يصلوا جالسين إذا صلى الإمام جـالساً، إلا أن البعض خالف ذلك، رغم أن النبىّ ﷺ فى حـديث قد ذكـر أن من طاعة الله أن يطيـعوا الرسول ﷺ، ومـن طاعة الرسول أن يطيعوا الإمام ويتابعوه، فإذا صلى جالساً يصلون جالسين؛ وكان **أول من أبطل فى هذه الأمة صلاة المأموم قـاعداً إذا صلى إمامه جالسـاً، المغـيرةبن مقسم**، صاحب النـخعى، وأخذ عنه حماد بن أبى سليمان، ثم أخذ عن حماد **أبو حنيفة**، وتابعه أصحابه على ذلك، وحُجّتهم الحديث: «**لا يؤمَّنّ أحدٌ بعدى جالساً**»، والحديث مرسل، وينقضه الحديث الآخر الصحــيح: «**كدتم أن تفعلوا فعل فارس والروم، يقومـون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا. ائتموا بأئمتكم، إن صلّى قائماً فصلّوا قـياماً، وإن صلّى قاعداً فصلّوا قعوداً**» أخرجـه أبو داود. وقد صح أن النـبىّ ﷺ اعتلّ **ثلاث** مرات، فمرةً حين سقط عن فـرسه فجُحش شقُّه الأيمن، وكان ذلك فى ذى الحجة آخر سنة خمس مـن الهجرة، فصلى بالناس قاعداً وأبو بكر يرفع صوته بالـتكبير ليـقتدى به الناس؛ ومـرةً فى مرضه الذى توفى فـيه، وفى ذلك روايتان، فرواية تذكر أنه خرج إلى المسجد بين **بريرة ونُوبة**، وصلى قاعداً خلف **أبى بكر**، ورواية تذكر أنه خرج بين رجلين هما **العباس وعلىّ**، وصلى أبو بكر بالناس ورسول الله ﷺ خلفه يصلى قـاعداً، غير أن تلك المرة بخلاف السـابقة، وبذلك تكون المرات التى صلى فيها قاعداً **ثلاث** مرات، فمن يأخذ بالحديث: «**لا يؤمَّنّ أحد بعـدي جالسـاً**» قد آثر

حديثاً منفرداً لم يعدُّ أن يكون خبراً، والأصّح منه الحديث: «وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون».

●●●

١٨٩٦- ﴿رخصة الصلاة فى الرحل عند المطر أو المرض﴾

عن ابن عمر: أنه أذّن بالصلاة فى ليلة ذات برد وريح، ثم قال: ألا صلّوا فى الرحال، ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان يأمر المؤذّن ـ إذا كانت ليلة ذات برد ومطر، يقول: «ألا صلّوا فى الرحال». والرَّحْل هو البيت. وصلى الرسول ﷺ فى بيت عتبان بن مالك وكان عتبان هذا يؤم قومه وهو أعمى، فصلى الرسول ﷺ فى بيته ليكون بيته مُصلّى له لمضرّة الخروج إلى المسجد فى الظلمة وأثناء السيل وهو الضرير البصر.

●●●

١٨٩٧- ﴿صلاة الغفلة﴾

هى الخلوة التى بين المغرب والعشاء، يثوب الناس فيها إلى الصلاة، وكانوا يصلون فى تلك الساعة ويقولون: «صلاة الغفلة» بين المغرب والعشاء، والغفلة من غَفَل أى سها عنه وتركه، وهى صلاة الغفلة لأنها تكون فى هذا الوقت، وقت الغفلة..

●●●

١٨٩٨- ﴿صلاة المنافقين﴾

النفاق: مشتقٌ من نفقاء اليربوع لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر، والمنافق من ستر الكفر بقلبه، وأظهر الإيمان بلسانه، وفى الصلاة ينكشف نفاقه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾﴾(النساء)، وعلامة المنافق فى الصلاة أنه لا يقوم إليها إلا وهو متكاسل متثاقل، لأنه لا يرجو ثواباً، ولا يعتقد على تركها عقاباً، وفى الحديث: «إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح»، لأن العتمة تأتى وقد أتعب المنافقين عمل النهار، فيثقل عليهم القيام إليها، وصلاة الصبح تأتى والنوم أحبّ إليهم. ومراءاتهم يتوجهون بها للناس، يظهرون أنهم يصلون وليسوا يصلون. والدليل الثانى عليهم: عدم ذكرهم لله إلا قليلاً، وفى الحديث: «تلك صلاة المنافقين، يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكرالله فيها إلا قليلاً». والنقر يعنى أداء الصلاة فى عجلة كأنه ينقر الأرض نقراً، وعلى العكس «صلاة المؤمنين»، فعلامتها الخشوع، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ (المؤمنون)، والصلاة التى فيها الخشوع هى التى يُشهد لها بالإيمان. والرياء يدخل صلاة الفرض كما يدخل صلاة النفل،

لأنه تعالى قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ فعمّ. ووصفهم أكثر فقال: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ (١٤٣)﴾(النساء)، والتـذبذب التـردد، وترددهم بين الإيمان والكفـر، فلا هم أخلصـوا الإيمان، ولا هم صـرّحوا بالكفر، ومَـثَلُهم كمـا قال ﷺ: «مَثَل المنافق كمثل الشاة العائرة (أى المترددة) بين الغنمين (القطيعين من الغنم). تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى».

•••

١٨٩٩ - ﴿الصلاة إذا حضر الطعام﴾

فى الحديث: «إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء»، والحديث: «إذا كـان أحدكم على الطعام فلا يعجل حتى يقضى حاجته منه وإن أقيمت الصلاة»، وهذا الأمـر على الندب عـمومـاً فى كل طعـام، لمن كان محـتـاجاً إلى الأكل، أو كان صـائماً. وفى هذين الحديثين وغـيرهما كراهة الصلاة بحضـرة الطعام للجائع، لما فيه من ذهاب كـمال الخشوع، ويلتحق به فى معناه مما يشغل القلب. وهذ إذا كان فى الوقت سعة، فإن ضاق صلّى على جوعه محافظةً على حُرمة الوقت. وفى مثل ذلك فى حق النائم والناسى. والعلّة فى ذلك تشوّف النفس إلـى الطعام، فينبـغى أن يدار الحُكم مع علّته وجـوداً وعدماً، صـيانةً لحق الحق، ليدخل الخلق فى عبادته بقلوب مقبلة. ولا ينبـغى أن ننسى أن طعام القوم كان شيئاً يسيراً لا يقطع عن لحاق الجماعة غالباً.

•••

١٩٠٠ - ﴿ليؤمّ الصلاة أكبر المصلين﴾

فى الحديث عمّن يؤم الصـلاة، قال ﷺ: «يؤم القوم أقرؤهم لكتـاب الله، فإن كانت قراءته سواء فليؤمهم أقدمهم هجرة، فإن كـانوا فى الهجرة سواء فليؤمهم أكبرهم سناً» أخرجـه مسلم، والقاعدة أن الأفقه مقدَّم على الأقرأ. ويقدَّم الأقـرأ من حيث كان عارفاً بأحوال الصلاة، فإن كان جاهلاً فلا يقدَّم. والإمام ليـؤتم به، ويقتضى متابعة المأموم له فى أحوال الصلاة.

•••

١٩٠١ - ﴿الصلاة الواحدة تجوز بإمامين﴾

صلى أبو بكر فى مرض الرسول ﷺ، وحضر الرسول ﷺ أثناء الصلاة فاستأخر أبو بكر وتقدّم الرسول ﷺ، وكان الناس قد صفّقوا وأكـثروا التصفيق ليلفتوا سمع أبى بكر وينبّهـوه لحضـور الرسول ﷺ، فلما انتـهت الصلاة نبّـه الرسول ﷺ الناس إلى

أنهم أكثروا التصفيق فقال: من رابه شيء في الصلاة فليسبّح، فإنه إذا سبّح التُفت إليه، فإنما التصفيق للنساء»، وقال: «إذا نابكم أمر فليسبّح الرجال وليصفّح النساء» يعني يصفّقن. والواقعة فيها جواز الصلاة الواحدة بإمامين أحدهما بعد الآخر، وأنه إذا غاب الإمام الراتب يُستخلَف غيره، وإذا حضر بعد أن دخل نائبه في الصلاة له أن يتم أو يصير النائب مأموماً من غير قطع الصلاة، ولا يبطل شيء من ذلك صلاة أحد من المأمومين.

***

١٩٠٢- ﴿إمام العامة وإمام الفتنة﴾

الإمامة: هي إمامة الصلاة، وهي أيضاً رياسة الدولة؛ والصبي في الإسلام لا إمامة له ولا رياسة، وفي حديث ابن عباس: «لا يؤُم الغلام حتى يحتلم»، وفي التنزيل: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا (٥٩)﴾(النور)، يعني لا يُكلَّف الأطفال حتى يبلغوا الحلم، وبالتبعية لا إمامة لهم فإنما يَؤُم مَن له الأمر من البالغين، والصبي لا يؤم لأن القلم رُفع عنه. وكذلك لا رئاسة لإمام العامة، ولا لإمام الفتنة، والأول هو الذي يعقدُ له العامة الرئاسة، وليس في الغالب ممن يفقهون، فيغلب عليه الجهل، والثاني هو رئيس الفتنة، أو رئيس «وقت فتنة»، وهو في الغالب «خارجي» أي متمرد منشق، ولا تنعقد الإمامة أو الرئاسة إلا لأحد العالمين أو العاملين من أهل الذكر، وفي الحديث يقول ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فليؤمّهم أحدهم، وأحقّهم بالإمامة أقرؤهم»، وفي رواية: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»، وفي رواية: «ولو استُعمل عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله»، والمقصود أن الإمامة والرئاسة لأتقى الناس وأخشاهم لله، وقارىء كتاب الله هو العالم به، وكتاب الله المقروء هو القرآن، والمنظور هو الكون بآياته، والعلماء أعلم الناس بهذا وبذاك، وهم لذلك أخشى الناس لله، وأحقُّهم بالإمامة والرياسة. وطاعة الإمام لا تكون إلا فيما وافق الحق، فهي ليست طاعة مطلقة، وقد يؤم الناس البرّ والفاجر. فيجوز الطاعة للفاجر إذا كان صاحب شوكة وترأس الدولة أو أمّ الصلاة، وخاف منه الناس، فلا تُعطّل الجماعة بسببه، ولا تنقسم الأمة بفتنته، وفي الحديث: «لعلكم تدركون أقواماً يصلّون الصلاة لغير وقتها، فإذا أدركتموهم فصلّوا في بيوتكم في الوقت، ثم صلّوا معهم واجعلوها سُبحة» أخرجه النسائي وغيره، والسُّبحة: الصلاة النافلة. وصلاة إمام الفتنة، وإمام العامة، ورياستهما، غير صحيحة، لأنهما فاسقان ويتوخيان غير الله، ولا يحكمان بكتابه - يعني لا عِلْم لهما. وقيل تجوز الطاعة لهما والصلاة خلفهما، حضّاً على تماسك الجماعة، ولاسيما في زمن الفتنة، لئلا يزداد تفرّق الكلمة. ومن أقوال عثمان بن عفان - عندما تحرّج الناس أن يتّبعوا «أئمة الغوغاء

والفتنة»: الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسَنَ الناس فأحسنْ معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم»، يعنى بذلك جواز إمامة البَرّ والفاجر كما فى الحديث: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»، وعلى ذلك تجوز إمامة أو رئاسة صاحب البدعة طالما له شوكة، كما قيل: صلُّوا خلفه وعليه بدعته. وليس ذلك من باب النفاق ولكنه الحرص على الأمة، وفى زمن ينبغى فيه التحرُّز والاحتراس والحذر.

●●●

٩. ﴿صلاة الجمعة﴾

●●●

١٩٠٣- ﴿فريضة الجمعة وآدابها﴾

من خطبة النبىّ ﷺ فى صلاة أول جمعة فى الإسلام: «واعلموا أن الله قد فرضَ عليكم الجمعة، فى مقامى هذا، فى شهرى هذا، فى عامى هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها فى حياتى أو بعد مماتى وله إمام عادل أو جائر، استخفافاً بها، أو جحوداً لها، فلا جَمَع الله شمله، ولا بارك له فى أمره. ألا ولا صلاة له، ولا زكاة له، ولا حجّ له. ألا ولا صوم له، ولا برّ له، حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه. ألا لا تَؤُمَنّ امرأةٌ رجلاً، ولا يؤم أعرابىٌّ مهاجراً،ولا يؤم فاجرٌ مؤمناً، إلا أن يقهره سلطانٌ يخاف سيفه أو سوْطه» أخرجه ابن ماجة.

●●●

١٩٠٤- ﴿يوم الجمعة يوم المزيد﴾

فى الحديث عن أنس: أن النبىّ ﷺ أبطأ علينا ذات يوم ، فلما خرج قلنا: احتبستَ! قال: «ذلك أن جبريل أتانى بهيئة المرآة البيضاء، فيها نكتةٌ سوداء، فقلت ما هذه ياجبريل؟ قال: هذه الجمعة، فيها خيرٌ لك ولأمّتك، وقد أرادها اليهود والنصارى فأخطأوها، وهداكم الله لها، قلت: ياجبريل، ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة التى فى يوم الجمعة، لا يواقعها عبدٌ مسلم، يسأل الله فيها خيراً، إلا أعطاه إياه،أو ادّخر له مثله يوم القيامة، أو صرف عنه من السوء مثله، وإنه خير الأيام عند الله، وإن أهل الجنة يسمونه يوم المزيد»، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾(ق). والحديث ضعيف وغالباً موضوع.

●●●

١٩٠٥- ﴿الجمعة عيد المسلمين﴾

فى الحديث: «إن هذا يومٌ جعله الله عيداً للمسلمين» يقصد الجمعة، فهو عيد ولكنه يختلف عن الفطر والأضحى، فلم يلزم من تسمية يوم الجمعة عيداً أن يشتمل على أحكام العيد، فيوم العيد مثلاً يحرم صومه مطلقاً، سواء صام قبله أو بعده بخلاف يوم الجمعة،

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨﴾ (الجمعة)، الخطاب للمؤمنين بالجمعة دون الكافرين، تشريفًا لهم وتكريمًا، وخصّه بالنداء ليدل على وجوب الصلاة المخصوصة بهذا اليوم، وتأكيد فرضها.

١٩٠٦ - ﴿الجمعة واجبة على كل قرية﴾

في الحديث: «الجمعة واجبة على كل قرية وإن لم يكن فيها إلا أربعة» أخرجه الدارقطني، وفي رواية أخرى: «الجمعة واجبة على أهل كل قرية وإن لم يكونوا إلا ثلاث رابعهم إمامهم» أخرجه الدارقطني. ووجوبها من قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الجمعة٩)، ونداء الجمعة اختص به هذا اليوم دون سواه.

•••

١٩٠٧ - ﴿الوضوء والاغتسال يوم الجمعة﴾

أوجب الله تعالى السعي إلى الجمعة مطلقاً من غير شرط إلا شرط الوضوء في جميع الصلوات لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ⑥﴾ الآية (المائدة)، وقال النبيّ ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور» أخرجه البخاري، وغُسل الجمعة أفضل، وفيما رواه مسلم: «من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت. ومَن اغتسل فالغُسل أفضل» أخرجه أبو داود. وقد أمر رسول الله ﷺ عمر بالغُسل على الاستحباب.

١٩٠٨ - ﴿غسل الجمعة﴾

الأحاديث كثيرة في غُسل الجمعة، لقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»، وقوله: «غُسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم». وكان الناس يغدون في أعمالهم، فإذا كانت الجمعة جاءوا وعليهم ثياب متغيّرة، فشكوا ذلك للرسول ﷺ، فقال: «من جاء منكم الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل»، والحكمة في الأمر بالغُسل في هذا اليوم هو التنظيف، ورعاية الحاضرين من التأذّي بالرائحة الكريهة. ويُجزيء غُسل الجنابة عن غُسل الجمعة. وعلى كل محتلم أن يستن يوم الجمعة، وأن يمسّ الطيب إنْ وَجَد. والاستنان هو دلك الأسنان بالسواك. والجماع ليلة الجمعة سُنّة ليغتسل فيه من الجنابة، فتسكن النفس والجسم معاً، فأما الجسم فيسكن بالجماع، وأما النفس فتسكن بالرواح إلى الصلاة.

•••

١٩٠٩ - ﴿المنبر في خطبة الجمعة﴾

كان الرسول ﷺ يخطب في صلاة الجمعة إلى خشبة، فلما كثر الناس، وزاد وزنه

قيل له: ألا تتخذ لك منبراً يحمل عظامك؟ وقيل: كان يخطب وهو مستند إلى جـذع، وكان القيام يشق عليـه، فعرض عليه تميـم الدارى أن يضع له منبراً كـالذى رآه فى الشام، وصنع المنبر غلام من الأنصار أو من بنى ساعدة. وكان ثلاث درجات، وزاده مروان فى خلافة معاوية إلى ست درجات كما هو اليوم، وحكاية أن تميماً هو الذى صنع المنبر،وأنه استـحضر فكرته من الشـام خطأ للترويج لفكرة تأثيـر النصرانيـة فى الإسلام، وخطأ هذا الإدعاء، لأن المنبـر فى المساجد لا يشـبهه شىء عند اليهـود والنصارى، فهـو إبداع عربى محض وعمارة عربية خـالصة؛ ونسبة المنبر إلى تميـم لأنه كـان راهباً قبل أن يُعـرف عنه إسلامه فى السنة التاسعة، والصحيح أن المنبر صنعه الأنصار قبل ذلك بكثير، فقد قيل أنه - فى خبر الإفك - ارتقى النبىّ ﷺ منبر المسجد وخطب فى الناس. وخبر الإفك كان عقب غزوة المريسيع فى شعبان سنة ست. وهم الذين اقترحوا فكرته.

●●●

١٩١٠- ﴿الأذان يوم الجمعة﴾

كـان الأذان على عهـد رسول الله ﷺ وأبى بكر أذانيـن يوم الجمـعة، يعنى الأذان والإقامة، وكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر، فلما كان عهد عثمان، وكثر الناس، زاد عثمان النداء الثالث قبل خروج الإمام، ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت.

●●●

١٩١١- ﴿النبىّ ﷺ إذا خطب الجمعة﴾

كان رسـول الله ﷺ إذا خطب فى الحـرب خطب عـلى قـوس، وإذا خطـب فى الجمعة خطب على عصا، أخرجه ابن ماجة، أى يستند عليها.

●●●

١٩١٢- ﴿النبىّ ﷺ إذا صعد المنبر﴾

كان النبى ﷺ إذا صعد المنبر يخطب للجمعة: سلّم، أخرجه ابن ماجة، يعنى يقول: «السلام عليكم».

●●●

١٩١٣- ﴿هل كان النبىّ ﷺ يخطب الجمعة قائما؟﴾

كان يخطب قـائمًا ثم يقعد، ثم يـقوم، ولا يتكلم فى قعدته. أورده البـخارى ورواه ابن عمر.

●●●

١٩١٤- ﴿خطبة الجمعة﴾

أقل ما يجزى في الخطبة الأولى أن يحمد الخطيب لله ، ويُصلّى على نبيّه ﷺ ، ويوصي بتقوى الله ، ويقرأ آية من القرآن ، ثم في الخطبة الثانية بدلاً من آية القرآن في الأولى يكون الدعاء في الثانية. ولمّا خطب «عثمان» أول مرة ارتج عليه فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يُعدّان لهذا المقام مقالاً ، وإنكم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال ، وستأتيكم الخطب. ثم نزل فصلى.

وكان صدر خطبة النبيّ ﷺ : «الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا. مَن يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يديّ الساعة. مَن يطع الله ورسوله فقد رَشَد ، ومَن يعصهما فقد غوى. نسأل الله ربّنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتّبع رضوانه ، ويجتنب سخطه ، فإنما نحن به وله».

ومن أقواله في خطبة الجمعة: «كل ما هو آت قريب ، ولا بُعْدَ لما هو آت ، لا يعجل الله لعجلة أحد ، ولا يَخِفّ لأمر الناس. ما شاء الله لا ما شاء الناس. يريد الله أمراً ويريد الناس أمراً. ما شاء الله كان ولو كره الناس. ولا مُبْعِدَ لما قرّب الله ، ولا مُقرِّب لما بَعّد الله. لا يكون شيء إلا بإذن الله جلّ وعزّ».

ومن أقواله: «أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجَلٍ قد مضى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ، وبين أجلٍ قد بقي لا يدرى ما الله صانعٌ فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكِبَر ، ومن الحياة قبل الممات. والذى نفسي بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَب ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

ومن خطبته يوم الجمعة قال: «يا أيها الناس ، توبوا إلى الله من قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة من قبل أن تُشغلوا ، وصِلُوا الذى بينكم وبين ربّكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السرّ والعلانية ، تُرزقوا وتُنصروا وتُؤجروا. واعلموا أن الله قد فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في شهري هذا ، في عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي وله إمام عادل أو جائر ، استخفافاً بها أو جحوداً لها ، فلا جَمَع الله شَمْله ، ولا بارك له في أمره. ألا ولا صلاة له ، ولا زكاة له ، ولا حَجّ له. ألا ولا صوم له ، ولا برّ له ، حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه ، ألا لا تَؤُمّنّ امرأةٌ رجلاً ، ولا يؤم أعرابيٌّ مهاجراً ، ولا يَؤُمّ فاجرٌ مؤمناً ، إلاّ أن يقهره سلطانٌ يخاف سيفه أو سوطه». أخرجه ابن ماجة.

***

١٩١٥- ﴿صلاة الجمعة﴾

سميت الجـمعة «الجمـعة»: لاجتـماع الناس فيها للصلاة، وكـان فرض صلاة الجمعة بنزول سورة الجمعة وفيها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)**﴾(الجـمعـة)، والخطاب لكل المؤمنين، رجالاً ونســاء وأطفالاً، شيباً وشبـاناً، إلا غير القادرين لسـبب أو لآخر؛ والنداء لصلاة الجـمعة: يعني أنها واجبـة على مَنْ كان في المصر وسمع الأذان أو يعلم بوقت أدائها؛ والنداء أو الصـلاة لا تكون إلا بدخول وقتها؛ وهي فرضُ عين على كل مسلم ومسلمة، وأوجب الله السعي إليها؛ والذكر: هو سماع الخطبة وأداء الصـلاة، و«منع البـيع والشـراء» في وقت الصلاة: للتفرغ لها والاشـتغال بها. فإذا قُضِيت الصلاة يباح الانتشــار في الأرض ابتغاءً للرزق أو طلباً للعلم، أو لأي سبب آخر، كزيارة الأهـل، وصلة الرحم، والسيـر في الجنائز، وزيارة المرضى إلخ؛ و«ذكـر الله بـعـد الصـلاة»: بالطاعة له والشكر باللسان. وتجوز صـلاة الجمعة بأي عـدد ولو كـان المصلون ثلاثة، وتقام في القرية كما في الحضر. ويصحّ أن يخطب الخطيب واقفاً، أو قاعداً، وقد خطب معاوية قاعداً لِكِبَر سنه، وخطب عثمان قائماً، فلمّا كبر في السن خطب قاعداً، وكان النبيّ ﷺ يخطب قائماً فإذا لم يكن هناك كلام قعد، ثم يستأنف الخطبة قائماً.



١٩١٦- ﴿فرض الجمعة﴾

فرضت صلاة الجمعة بالتنزيل وبالسُّنَّة، فقال تعالى: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)**﴾(الجمعة)، وقال ﷺ: «أضلّ الله عن الجمعة مَنْ كان قبلنا»، وقال: «إن الله فرض على اليهود الجمعة فأبوا، وقالوا: يا موسى، إن الله لم يخلق يوم السبت شيئاً فاجعله لنا، فـجُعل عليهم»، وقيل: إن يوم الجـمعة عرفـه الأنصــار في المدينة قبل أن يقـدم النبيّ ﷺ، وجعلوه يومــهم، أي يوم عيـدهم الأسبـوعي، وصلّوا فيـه، وأنزل الله لذلك: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ**﴾ الآيــة، فاختيارهم للجمعـة وتسميتهم لها، كانا اجتـهاداً، ولا يمنع ذلك أن يـكون النبيّ ﷺ علمه بالوحي، فحصلت الهداية للجمعة بالبيان والتوفيق.



١٩١٧- ﴿ركعتا الجمعة﴾

في صحيح مسلم من حديث جابر عن النبيّ ﷺ، قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما».

●●●

١٩١٨- ﴿السكوت لخطبة الجمعة واجب﴾

وجوبُ السكوت للخطبة سُنَّة، والسُّنَّة أن يسكت لها مَن يسمع ومَنْ لا يسمع، وهما إن شاء الله في الأجر سواء، ومَنْ تكلم حينئذ لغا، ولا تفسد صلاته بذلك، وفي الحديث: «إذا قلتَ لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوْت» أخرجه مسلم. وكذلك إذا غلا الخطيب فقد لغا، وهذا من غُربة الإسلام ونكد الأيام.

●●●

١٩١٩- ﴿الساعة التي في يوم الجمعة﴾

في الحديث عن يوم الجمعة: «فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه». والأحاديث في هذه الساعة حديثان، الأول: عيّنها بأنها من جلوس الخطيب على المنبر إلى انصرافه من الصلاة؛ والثاني: حدّدها بأنها بعد العصر إلى غروب الشمس في كل جمعة. والسبب في إخفاء وقتها أن تكون ـ مثل ليلة القدر ـ في الوقت كله، والحكمة في ذلك: حثّ العباد على الاجتهاد في الطلب واستيعاب الوقت في العبادة.

١٩٢٠- ﴿ما بعد صلاة الجمعة﴾

في الآية: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾(الجمعة) أنه بعد صلاة الجمعة يكون الانتشار في الأرض، يعني الفسحة، وابتغاء فضل الله: بمشاهدة آياته في كونه؛ وذكر الله كثيراً: بأداء العبادات وعمل الطاعات، كعيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة الإخوان، وصلة الأرحام.

●●●

٧١. ﴿السجود والمساجد والقبلة﴾

●●●

١٩٢١- ﴿سجود الصلاة وسجود التعظيم﴾

السجود من شعائر الصلاة، وسجود الملائكة لآدم هو سجود تعظيم كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾(الحجر)، وفي الوقوع توضيح

الواقع، وتشريف لمن وقع له، ولقد سجد الملائكة: ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)** ﴾ (الأعراف)، لأنه استكبر وتنازعته الغيرة والحسد، ولم يكن ذلك حال الملائكة كما جاء في وصفهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)**﴾ (الأعراف)، وقوله **يسبحونه**: أى يعظّمونه وينزّهونه عن كل سوء، **وله يسجدون**: يعنى يصلون ويُذلّون طاعةً وولاءً، وفى القرآن من ذلك النوع من السجود للتعظيم نحوٌ من خمس عشرة سجدة، أولها **خاتمة الأعراف** السابقة، وآخرها **خاتمة العلق**، وقد يزاد عليها سجدة سورة الحجر: ﴿ **وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨)** ﴾، فيكون عدد السجدات **ست عشرة**، وهى فى سُور: **الأعراف، والرعد، والنحل، والحجر، والإسراء وبنى إسرائيل،ومريم، والحج، والفرقان، والنمل،والسجدة، وص، وحم تنزيل،والنجم، والعلق.**

وسجود التلاوة ليس بواجب، وكان النبىّ ﷺ يحافظ عليه، ومواظبته تدل على الاستحباب، ويحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حَدَث ونجس،ونية، واستقبال قبلة، ووقت. وقيل كان **عمر** يسجد على غير طهارة، وكان النبىّ ﷺ إذا سجد كبّر، وإذا رفع كبّر، **ولا سلام لسجود التلاوة أو سجود التعظيم**،والتكبير فى أوله للإحرام للسجود فحسب.

والسجود من هذا النوع فى سائر الأوقات مطلقاً، لأنها صلاة لسبب،وإذا سجد يقول: «**اللهم احفظ عنى بها وزراً، واكتب لى بها أجراً، واجعلها لى عندك ذخراً**». وإذا قرأها فى **صلاة نافلة** سجد إن كان منفرداً، أو فى جماعة يأمن التخليط فيها، فإن لم يأمن ذلك فى جماعة قيل لا يسجد. وفى **الفريضة** سواء كانت صلاة سرّ أو جهر، ولا يُمنَع منها الفرادى ولا الجماعة طالما يُؤمَن فيها التخليط. وفى السجود فى الحضر يستقبل المصلى القبلة، فإن كان راكباً فلا عليه حيثما كان وجهه.

●●●

١٩٢٢ - ﴿ما خلق الله من شىء إلا ويسجد لله﴾

سجود الأشياء: هو انقيادها، وفى الآية: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)** ﴾(النحل)، أن كل ما له ظل يسجد له تعالى؛ وقوله عن اليمين والشمائل أن ظله يتحرك مع حركة الشمس،ودوران الشمس نفسها هو سجودها، وكل سجود لله من الأشياء يعنى انصياعها، وأن تكون فى عملها على أسبابه تعالى لا تخرج عنها.

●●●

١٩٢٣- ﴿السجود على سبعة أعظم﴾

شرط السجود فى الصلاة: أن يكون على سبعة أعظم: اليدين، والرجلين، والركبتين، والجبهة.

١٩٢٤- ﴿السجود لله طوعاً وكرهاً﴾

السجود لله يكون طوعاً، فما شأن السجود كَرْها؟ يقول تعالى: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ⑮﴾**(الرعد)، ولا أحد يكره كافراً على السجود لله تعالى؛ والإسلام لا يدخله المؤمن إلا رغبةً، وأما السجود رهبةَ السيف فليس إيماناً؛ غير أن بعض من يؤمن بالله قد يكون من العُصاة الذين يكسلون عن الصلاة، أو لا يرونها ضرورية، فإذا قاموا إليها قاموا رياء الناس، وهؤلاء سجودهم كرهاً، لأن التزام التكليف مشقة، والآية إذن مخصوصٌ بها هذان النوعان من المؤمنين؛ غير أن الآية يمكن أن تكون كذلك على التعميم، فكلا المؤمن والكافر يسجد من حيث أنه مخلوق، ويسجد دلالةً وحاجةً إلى الصانع، فتصدق عليهما الآية: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ⊕﴾**(الإسراء)، وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. وحتى ظلالهم تسجد مع سجودهم كلما سجدوا من أول النهار حتى آخره، كقوله تعالى: **﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ㊽﴾**(النحل). وسجود الظلال هو ميلها من جانب إلى جانب مع ميل أصحاب الظلال.

●●●

١٩٢٥- ﴿سجود الصلاة﴾

جاء عن السجود فى القرآن ٦٣ مرة، وهو فرض وسنة، وكان النبىّ ﷺ إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض، ونحّى يديه عن جنبيه، ووضع كفّيه حذو منكبيه، وفى الحديث: «اعتدلوا فى السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب»، وقال: «إذا سجدتَ فَضَع كفّيك وارفع مرفقيك». وعن ميمونة زوجة رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله إذا سجد خَوّى بيديه ـ يعنى جنح حتى يُرَى وَضَح إبطيه من ورائه، والصحيح أن تقول: خَوّى بين يديه ، وقالت: وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى. أخرجه مسلم. ويجزىء السجود على الجبهة دون الأنف، والصحيح وضع الجبهة والأنف.

●●●

١٩٢٦- ﴿سجود النجم والشجر﴾

فى الآية: **﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥﴾**(الرحمن)، قيل: النجم ليس ما نعرف من النجوم، ولكنه فصيلة نباتية ليست لها سوق، وعلى ذلك يكون السجود للنبات والشجر؛

أو أن النجم هو ما نعرف مما يكون في السماء يزيّنها؛ وقيل: **سجود الشجر**: **انبساط ظله**، وسجود النجم: **انطفاؤه وأفوله**؛ وقيل: **سجود الشجر**: **أن يتيسر قطف ثمارها**؛ **وسجود الإنسان** أوالجان **بالاختيار**، بينما **سجود الأشياء** بالتسخير، كقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** (١٥)﴾ (الرعد)، وقوله: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّموات وَمَا فِي الْأَرْضِ** (٤٩)﴾(النحل)، والفرق بين الآيتين أن الأولى فيها «مَن» وهى لكل ما هو عاقل كالإنس والجن والملائكة، والثانية فيها «ما» لكل ما هو ليس بعاقل كالجماد والنبات والطير والحيوان؛ والسجود لمن يعقل عملٌ اختيارى، ولمن لا يعقل سُخرة،، وهى **مسخرةٌ**، وسجودها هو أن **تفعل المنوط بها**، وأن تأتى ما هى مخلوقة له، وبلغة العصر فإنها «مبرمجة» كما فى الغرائز، فكيف يطير العصفور، أو تلد القطة؟ فهى لا تفعل ما تفعل إلا لأنها مبرمجة، وبلغة القرآن هو **التسخير**، وسجود النجم والشجر من ذلك، وإن من شىء فى الأرض ولا فى السماء إلا وبحُسبان وغاية، وهو **يفعل** هذه الغاية **بتلقائية وعفوية وغريزية**، وهذا هو سجوده.

●●●

١٩٢٧- ﴿سورة النجم أول آية فيها سجدة التلاوة﴾

فى الآية: ﴿**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** (٦٢)﴾(النجم)المراد بالسجود **سجود تلاوة القرآن**، وقد سجد النبىّ ﷺ فى هذه الآية وسجد معه المشركون. وكان **ابن عمر** لا يراها من عزائم **السجود**. وقيل سجود التلاوة فى **عشرة** مواضع، وهى متوالية، إلا ثانية الحج، والانشقاق، وص، وما فى المفصّل؛ وقيل الجميع مشروع ولكن **العزائم** هى: **الأعراف، وسبحان، وثلاث المفصّل**؛ وقيل: **الم تنزيل، وحم تنزيل، والنجم، واقرأ**؛ وقيل: يُشرع السجود عند كل لفظ وقع فيه الأمر بالسجود أو الحث عليه والثناء على فاعله، أو سيق مساق المدح، وهذا يبلغ عدداً كثيراً. وقيل: سجد أهل مكة فى **النجم** إلا رجلين من قريش أرادا بذلك الشهرة. وسورة النجم **أول** سورة **أنزلت فيها سجدة**، واستشكل بأن: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ (سورة العلق) أول السور نزولاً، وفيها أيضاً **سجدة**، فى قوله: ﴿**كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ (العلق١٩) فهى سابقة على النجم، وأجيب بأن السجدة وردت فى أواخرها، والنجم أول سورة استعلن بها رسول الله **السجود فى التلاوة**. وفى سورة ص قال تعالى: ﴿ **وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ** (٢٤)﴾(ص)، والركوع ينوب عن السجود، فهذه سجدة أخرى؛ وسجدة **الانشقاق** فى قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ** (١) **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** (٢) ﴾ (الانشقاق) وسجد عندها النبىّ ﷺ. والسجدة على مَنْ استمعها، ولا يسجد إلا أن

ويستقبل القبلة إلا إن كان راكباً، وكانوا لا يسجدون لسجود القاص، ولم يسجد عمر، ولا إثم على مَنْ لم يسجد.

•••

١٩٢٨- ﴿سُجُود الشكر﴾

يُستحب **سجود الشكر** عند تجدد النِّقم وزوال النِّعم، ويشترط له الطهارتان من الحدث والنجس، وستر العورة، واستقبال القبلة، والنيّة. ولا يُسجَد للشكر فى الصلاة.

•••

١٩٢٩- ﴿سجود السهو﴾

لا يشرع السجود للمصلي لشيء تركه عامداً، والسجود كله قبل السلام، إلا إذا سلّم من نقص فى صلاته، أو تحرَّى الإمام فبنى على غالب ظنه، وما عداهما يسجد له قبل السلام، مثل المنفرد إذا شك فى صلاته فى موضع جلوس، أو جلس فى موضع قيام، أو جهر فى موضع تخافت، أو خافت فى موضع جهر،أو صلى خمساً. ومن ترك ركناً ثم ذكره ولم يعلم موضعه بَنَى الأمر على أسوأ الأحوال، كأن ينسى سجدة فلا يعلم أمن الركعة الرابعة أو التى قبلها، فإن جعلها من الركعة الثالثة فتلزمه الركعة كلها، وإن جعلها من الرابعة أجزأته سجدة واحدة، وإن لم يعلم إن كان ما نسيه من الركوع أو من السجود جعله ركوعاً ليلزمه الإتيان به وبما بعده، ولو ترك سجدة من الأول فذكرها فى التشهد الأخير أتى بركعة وأجزأته، وإذا سلّم وقد بقى عليه شيء من صلاته سجد سجدتى السهو ثم تشهّد وسلّم، ومن سجد للسهو فإنه يكبّر للسجود والرفع منه، وإن شكّ فى ترك ركن فحكمه حُكم من لم يأت به، وإن شكّ فى زيادة فلا سجود عليه، وإن سها سهوين فى الصلاة الواحدة فيكفيه سجدتان، وينبّه الإمام إذا سها بالتسبيح إن كان المأمومون رجالاً، فإن كانوا نساء صفّقن ببطن الكف على ظهر اليد الأخرى؛ وعلى الإمام أن يستجيب للتنبيه، ويقال فى سجود السهو ما يقال فى سجود الصلاة عموماً.

•••

١٩٣٠- ﴿سجود التلاوة﴾

سجود التلاوة: سُنّة مؤكدة، ويكون السجود لتالى القرآن وللذى يسمعه قصداً، ولا يستحب لمن يسمعه غير قاصد أن يسجد، ويشترط فيمن يتلو القرآن أن يكون ممن يصلح له إماماً، فإن كان طبيباً أو امرأة فلا يسجد، وإن قرأ الأُمّى سجدةً فعلى المستمع المنصت أن يسجد معه، فإن كان التالى فى صلاة والمستمع فى غير صلاة، سجد معه، فإن كان فى صلاة أخرى لم يسجد معه، ولا ينبغى له أن يستمع بل يشتغل بصلاته، ولا يسجد إذا فرغ من الصلاة؛ **ويشترط لسجود التلاوة**: الطهارة من الحَدَث والنجس، وستر العورة،

واستـقبال القبلة، والنيـة؛ وإن سمع السجـدة وهو غير طاهر لم يلزمه السـجود، ولا أن يتيمم أو يتوضأ. ومواضع السجود في المشهور أربع عشرة سجـدة، أو خمس عشرة، منها: سجـدة سـورة ص، عند قولـه تعالى: ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ** (٢٤)﴾؛ وسجدة سورة الرعد عند قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** (١٥)﴾؛ وسجدة سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** (٤٩)﴾؛ وسـجدة سـورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** (١٠٧) **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** (١٠٨) **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** (١٠٩)﴾؛ وسجدة سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** (٥٨) ﴾؛ وسجدة سورة الحج عند قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ** (١٨)﴾، وعند قـوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٧٧)﴾؛ وسجدة سورة الفرقان عند قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا** (٦٠)﴾؛ وسجدة سورة النمل عند قوله تعالى: ﴿**أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** (٢٥) ﴾، وسجدة سـورة السجدة عند قولـه تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** (١٥)﴾؛ وسجـدة سورة فصلت عند قـوله تعـالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (٣٧)﴾؛ وسجدة سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** (٦٢)﴾؛ وسجدة سورة الانشقاق عند قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ** (٢١)﴾؛ وسجدة سورة العلق عند قولـه تعالى: ﴿**كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** (١٩)﴾.

ومن سجد للتلاوة فعليه التكبير للسجود والرفع، سواء كان في صلاة أو في غيرها، ويقول في سجوده «**سبحان ربّي الأعلى**»، و«**سجد وجهي للذي خلقه وصوّره، وشقّ سمعه وبصره بحوله وقوته**» كما كان النبيّ ﷺ يقول برواية عائشة. وإن كان في سفر جاز أن يومـيء بالسجود حيثما كـان وجهه كصلاة النافلة، وإن كان ماشـياً يوميء أو يسـجد على الأرض.

●●●

١٩٣١- ﴿المسجد﴾

المسجد: هو كل موضع يمكن أن يُعبَد الله فيه ويُسجد له، والجمع مساجد، ويقابله عند اليهود: **الكنيس**، وعند النصارى: **الكنيسة**، وهما كُنُوشتا فى الأرامية، ومعناها مكان الاجتماع والمجمع، والجمع كنائس. وفى الإسلام فإن البقعة إذا عُينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بصاحبها وصارت عامة لجميع المسلمين، وحُكمها حُكم سائر المساجد العامة وتخرج عن اختصاص الأملاك. وفى الحديث: «**جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً**»، يعنى كل الأرض مسجد يُصلَّى فيها طالما هى طاهرة. والمسجد تكرر فى القرآن ٢٢ مرة، والجمع مساجد وتتكرر ٦ مرات.

•••

١٩٣٢- ﴿الإذن ببناء المساجد﴾

فى قوله تعالى: ﴿**فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)**﴾(النور)، **الإذن**: هو الأمر والقضاء، وحقيقته العلم والتمكين والإنفاذ؛ والرفع: هو البناء والعلو والتعظيم؛والبيوت: هى المساجد، وفى الحديث قوله ﷺ: «**من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً فى الجنة**»، وقوله: «**من أحب القرآن فليحبّ المساجد فإنها أفنية الله، وأبنيته أذن الله فى رفعها وبارك فيها؛ ميمونةٌ ميمونٌ أهلها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلها، هم فى صلاتهم والله عزّ وجلّ فى حوائجهم، وهم فى مساجدهم والله من ورائهم**». وكل المساجد سواء، وتصان عن البيع والشراء، والأصل ألا يُعمَل فيها غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن، وفى الحديث: «**إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له**»، وفيه أيضاً «**إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين**».

•••

١٩٣٣- ﴿مسجد الضرار ومسجد التقوى﴾

فى الآية: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا**﴾(التوبة١٠٧)، أى يكون به **الضرر** لأهل المسجد. وكان «**مسجد الضرار**» هذا مجاوراً لمسجد **قُباء** فى المدينة زمن الرسول ﷺ، بناه اثنا عشر من بنى غنم بن عوف، **كُفراً منهم بسبب نفاقهم، وإضراراً بالمسلمين لأنهم به يحققون مأرب أبى عامر الراهب**: أن يحارب الدعوة والرسول ﷺ، وأن يفرّق المسلمين ويشتتهم بين الصلاة فيه، وبين الصلاة فى «**مسجد قُباء**» و«**مسجد المدينة**». وكان بناء هذا المسجد انتظاراً لمجىء ابن عامر هذا ليصلى فيه، فيدلّس على المسلمين ويخدعهم عن حقيقته كنصرانى عتيد، غير مؤمن بالإسلام، مع أن ابنه حنظلة كان مؤمناً واستشهد فى

أُحد لمّا دعا الداعي إلى الجهاد، وكان قد خرج جُنباً، فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسّلته، فاشتهر باسم «**حنظلة غسيل الملائكة**». وفي الحديث عن الضرر والضرار: «**لا ضرر ولا ضرار. مَن ضار ضار الله به، ومن شَاقّ شاقّ الله عليه**» أخرجه الدارقطني. والفرق بين **الضرر والضرار**: هو أن **الضرر**: الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة؛ **والضرار**: الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة. وفي **مسجد الضرار** يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا**﴾(التوبة)، يعني يُقصد به المضرّة وغير الله، فلا تقام فيه صلاة في وقت من الأوقات، ولا في حين من الأحيان، ونقيضه «**مسجد التقوى**»، أي المؤسس على التقوى منذ البداية، وهو الأحق أن يصلّي فيه المطهَّرون، ومثله «**مسجد قُباء**»، وهو أسبق زمناً من «**مسجد الرسول**» ﷺ، لأنه أُسس في المدينة منذ اليوم الأول لوصول النبيّ ﷺ إليها. وفي ذلك قال أبو هريرة: نزلت في **مسجد أهل قُباء** هذه الآية: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** (١٠٨)﴾(التوبة)، كانوا يتوضأون للصلاة، ويغتسلون من الجنابة، وإذا خرجوا من الغائط يستنجون بالماء، فذلك هو **التطهُّر من القذارات والنجاسات المادية**، على أن هناك **مستقذرات روحية أو نفسية** كانوا يتطهّرون منها ولا يأتونها: كالكذب والنميمة والشُحّ، والبُغْض، والتحاسُد، وسلاطة اللسان إلخ، وذلك التطهُّر هو ما أحبه الله فيهم. ونقيض ذلك أهل «**مسجد الضرار**» أو «**مسجد النفاق**»، يقول تعالى مقارناً بينهما: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (١٠٩) **لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (١١٠)﴾(التوبة)، والمقارنة **استفهام إنكاري على سبيل التشبيه**، والمعنى: أن التأسيس على التقوى ليس كالتأسيس على الجُرف المتصدّع، فينهار في نار جهنم. والتمثيل لعمل **أهل الإخلاص** وعمل **أهل النفاق**، والأخيرون لا يزال بنيانهم ريبةً في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا على الحق، وأن مسجدهم هُدم وحُرق ظلماً، فلا يبارحهم الغيظ والحَنَق إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا. وقيل: إن رسول الله ﷺ لمّا نزلت هذه الآيات، كان لا يمر بالطريق التي فيها بقايا المسجد، وأنه أمر أن تُتخذ مكانه كُناسة، أي مقلب زبالة، تلقى فيها الجيف والأقذار والقمامات.

●●●

١٩٣٤ - ﴿أربعة مساجد لم يبنهن إلا نبيّ﴾

عن عبد الله بن بريدة في قوله تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** (٣٦)﴾(النور) قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنهن إلا نبيّ: الكعبة ـ بناها إبراهيم

وإسماعيل عليهما السلام؛ وبيت المقدس ـ بناه داود وسليمان عليهما السلام؛ ومسجد المدينة، ومسجد قُباء ـ أسّسا على التقوى، وبناهما الرسول ﷺ . وفى الحديث: «لا تُشَدّ الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى»، والمراد النهى عن السفر إلى غيرها. والمسجد الأقصى سُمّى كذلك لبعده عن المسجد الحرام فى المسافة، وقيل فى الزمان؛ وقيل: هو أقصى لأنه بعيد عن مسجد المدينة. وفى الحديث: «صلاة فى مسجدى هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»، والاستثناء أنه مساوٍ لمسجد المدينة، أو فاضلاً، أو مفضولاً، والأخير أصحّ، فلا شىء يفضل المسجد الحرام. ومسجد قباء فى عوالى المدينة، وسمى باسم بئر هناك،وهو مسجد بنى عمرو بن عوف (وهؤلاء غير بنى غنم بن عوف الذين بنوا مسجد الضرار)، وكان أول مسجد أسّسه الرسول ﷺ .

١٩٣٥- ﴿هل يقال مسجد فلان؟﴾

يجوز إضافة المساجد إلى بانيها، ويلتحق به جواز إضافة أعمال البِرّ إلى أربابها، وكان بالمدينة مسجد يقال له مسجد بنى زُرَيْق بناه بنو زريق، ولا تعارض بين ذلك والآية: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن)، لأن الآية تعنى أن المساجد سواء نُسبت لهذا أو لذاك، هى أولاً وأخيراً لله وللدعوة إليه، وكان المسجد الذى بناه الرسول ﷺ يُنسَب إليه، كقوله: «صلاة فى مسجدى هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه»، ونسبةُ المسجد له ﷺ أو لغيره تعريفاً،ونسبتُها لله تعالى مِلْكاً وتشريفاً.



١٩٣٦- ﴿مَن بنَى مسجداً لله﴾

كان بناء عثمان للمسجد النبوى سنة ثلاثين تقريباً، وقيل فى آخر سنة من خلافته؛ وفى الحديث: «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله، بنى الله له مثله فى الجنة» أخرجه البخارى. ويقال «مسجد» لكل موضع بُنِى محاطاً إلى جهة القِبْلة مهما صَغُر، ولو كان كمِفْحَص قطاة، والقطاة طائر كالحمام إذا أرادت أن تبيض حفرت حفرة فهذا هو المفحص. وعثمان لم يبنِ المسجد إنشاءً ولكنه وسّعه وحسّنه، وكانوا لا يريدون منه ذلك، وأحبوا أن يَدَعُوه على هيئته، وبناه عثمان بالحجارة المنقوشة وزخْرفَه. وكان النبىّ ﷺ قد استعمل النجّارين والصنّاع فى بناء هذا المسجد، وعمل له غلام النجّار منبراً، وكان الصحابة يحملون الطوب اللبن مع عمّار لإتمام البناء. وأمر عمر بترميم المسجد بحيث يصون الناس من المطر، ونهى عن الزخرفة، وأن يتباهى الناس ببناء المساجد ثم لا يعمرونها، ومثل ذلك

فعله النبىّ ﷺ مع الثوب الذى أهداه له **أبو جهم** من أجل **الخطوط الزخرفية فيه**، **فخشى** أن تلهيه زخارفها عن الصلاة فأعاد الثوب لصاحبه؛ وكذلك عمر خشى أن تلهى الزخارف فى المسجد المسلمين عن الصلاة. وللرسول ﷺ حديث يقول: «**يأتى على أمتى زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلاً**» أخرجه أبو داود. **والعمارة**: المراد بها الصلاة وذكْر الله، وليس البنيان. وفى شرح ابن عباس قال: لتزخرفنّها كما زخرفت اليهود والنصارى»، **والزخرفة** الزينة، وأصل الزخرف الذهب، ولم تزخرف اليهود والنصارى معابدهم إلا حين حرّفوا كتُبهم وبدّلوها، فتركوا المعانى واهتموا بالمبانى. وكان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعَمَدُه خشب النخل.

●●●

١٩٣٧ - ﴿الأرض مسجد المسلمين﴾

فى الصحيح عن النبىّ ﷺ قال: «**جُعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً**»؛ وقال: «**جُعلت لى الأرض مسجداً وتُرابها طَهُورا، أينما أدركتنى الصلاة صلّيت**». وفى الآية: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ** (١٨)﴾(الجن) أراد بالمساجد كل البقاع، والأرض عموماً، فكلها جعلت مسجداً للمسلمين. وشَرْطُ مكان المُصلّى: أن لا يكون نجسًا، وغير مغصوب. ويجوز الصلاة فى البِيَع والكنائس. **وللمرأة** أن تصلى فى المسجد بحذاء الرجل من محارمها أو خلف الرجال. وتجوز الصلاة فى المسجد وفى غير المسجد على سجادة، وأى شىء يجوز السجود عليه طالما كان طاهراً.

●●●

١٩٣٨ - ﴿المساجد فى البيوت﴾

كان **للبراء بن عازب** مسجدٌ فى داره، وكثيرون غيره كانت لهم مساجدهم فى دورهم، وقد طلب **عتبان بن مالك** ـ وكان ضعيف البصر ويخشى المطر ـ من الرسول ﷺ: أن يصلى فى داره تبركاً، لتكون داره ـ حيث صلى الرسول ﷺ ـ مسجداً. وكان أول مسجد يقام فى الدور هو مسجد **أبى بكر الصدّيق** فى مكة.

●●●

١٩٣٩ - ﴿لا تتخذوا قبور الأولياء مساجد﴾

الحديث: «**قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»ـ ويشمل ذلك قبور الأولياء، فيه ذمّ من يفعل فعل اليهود، ويحذّر الحديث مما صنعوا. وفى مصر يعظّم يهود إسرائيل قبر أبى حصيرة فى دمتيوة، ويزورونه تبركاً كل عام، وكان أبو حصيرة من أوليائهم؛ والغريب أن الحكومة والأهالى لم يمنعا ذلك ولم يزيلا القبر! وإنا لندعو الله أن يفصل

أولوا الأمر فى مصر بين قبور أهل البيت والأولياء وبين المساجد المسماة باسمهم فصلاً تاماً، وحسبنا الله.

●●●

١٩٤٠- ﴿صلاة تحية المسجد﴾

فى الحديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»، وركعتا المسجد يقال لهما صلاة تحية المسجد، ويمكن أن تتأدى بأقل من ركعتين، والأمر للندب. ولمّا دخل أحدهم المسجد ورآه الرسول ﷺ لم يركعهما، سأله: «أركعتَ ركعتين»؟ قال: لا. قال: «قم فاركعهما»، فسنّ الرسول ﷺ لمن يدخل المسجد أن لا يجلس حتى يصلّى هاتين الركعتين قبل جلوسه، فإذا جلس قبل الصلاة سُنّ له أن يقوم فيصلّى.

●●●

١٩٤١- ﴿البيت مثابة للناس وأمن﴾

بيت المقدس والبيت الحرام مسجدان، إلا أن البيت الحرام يُحَج إليه، وبيت المقدس لا يُحج إليه، والمكان الوحيد الذى يتوجه إليه الناس فى صلواتهم أينما كانوا فى الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب من العالم هو المسجد الحرام، كقوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**(١٤٤)﴾(البقرة). وفى قوله: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾(البقرة) تأكيد للأمر باستقبال الكعبة، فمن استعاذ بالحَرَم أمِن وثاب، كقوله: ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**(٩٧)﴾(آل عمران)، والمثابة: هى المعاودة إليه المرة تلو الأخرى، أو أن المثابة من الثواب، أى يثابون بالصلاة فيه؛ والأمن فيه: أن لا يلحق من يدخله ضرر أو مظلمة، كقوله: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ**(٩٧)﴾(المائدة)، وجعلها: أى خلقها؛ وقياماً للناس: أى صلاحاً ومعاشاً، لأمن الناس بها، فعظّم الله فى قلوبهم البيت الحرام، وأوقع فى نفوسهم هيبته، وعظّم حُرمته، فمن يلجأ إليه يُعصَم به، ومن يُضطهد كان به محمياً، كقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**(٦٧)﴾(العنكبوت)، فلما كان البيت قد لا يدركه كل مظلوم، ولا يدركه كل خائف، جعل الشهر الحرام ملجأ آخر.

●●●

١٩٤٢- ﴿حكم المساجد كلها هو حكم البيت الحرام﴾

الأمر للمؤمنين أن يُطهّروا مساجدهم، كقوله تعالى: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**(١٢٥)﴾(البقرة)، والطائفون: الذين يطوفون

بالبيت؛ **والعاكفون**: الملازمون للبيت؛ **والرُّكَّع السجود**: المُصلّون يفعلون الركوع والسجود. وتطهير البيت فيه معنى تطهير كل بيوت تُتخذ مُصلّى، وحُكمها حُكمه في التطهير والنظافة، وإنما خصّ الكعبة بالذكر لأنه لم يكن غيرها، ولكونها الأكثر حرمة: وفى الحديث: «**إن المسجد لينزوى من النجاسة كما ينزوى الجلد من النار**»، وقال ﷺ: «**مَن أخرج أذى من المسجد بنى الله له بيتاً فى الجنة**». وعن **عائشة** قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في الدور، وأن تُطهَّر من كل قذر ووسخ، وتُنزَّه عن الروائح الكريهة، وتُطيَّب، ويُمنع فيها كلام الناس. وفى القياس: أن كل من يتأذّى منه جيرانه فى المسجد، كأن يكون سفيهاً أو ذا رائحة قبيحة لسوء صناعته، أو لعاهة مؤذية، وكذلك كل من يتأذّى به المصلون في المسجد، فلهم إخراجه من سكنه أو محله؛ ومثله من يُعرَف عنه الكذب والتقوّل بالباطل، فإن ذلك يؤذى، ويُكرَه منه لذلك التردد على المساجد، لأنه لن يتحدث أو ينقل عنها إلا العورات والمعايب. والسؤال الآن: فهل تُزيَّن المساجد وتُنقش؟ والجواب: أن **عمر بن العزيز** نقش المسجد النبوى وبالغ فى عمارته وتزيينه، وأن **الوليد بن عبد الملك** أنفق فى عمارة **مسجد دمشق** وتزيينه مثل خراج الشام ثلاث مرات. وكذلك فعل النبىّ **سليمان** عندما بنى **بيت المقدس**، وقد فُطر الناس على حُبّ الجمال وطلبه.

●●●

١٩٤٣ - ﴿التزيّن للصلاة فى المساجد﴾

لم يكن الناس فى **الجاهلية** يتزينون **للطواف**، وكانوا على البدعة، فطوافهم إما عرايا، أو فى غير ثيابهم، أو فى ثياب مِهنتهم، فنزلت الآية: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** (٣١)﴾(الأعراف)، والخطاب فيها عام، ولجميع العالم، وإن كان كما قيل قد قُصد به **العرب** الذين كانوا يطوفون بالبيت عرايا، لكن **العبرة للعموم لا للسبب**، والطواف لا يكون إلا فى بيت واحد هو **البيت الحرام**، لكن الآية تتحدث عن **مسجد**، والذى يعم كل مسجد هو **الصلاة**، وعن النبىّ ﷺ قال: «**خذوا زينة الصلاة**»، فالمسألة فى الصلاة فى المساجد ليست مجرد ما يستر العورة كما قيل، ولكنها **أحسن الثياب**، **وأحسن سمت ثياب ينبغى أن يكون عليه المسلم**، وفى ذلك قال عمر: إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم. يعنى البسوا وتزيّنوا.

●●●

١٩٤٤ - ﴿لكل نبىّ قبلة﴾

فى الآية: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** (١٤٨)﴾(البقرة). الوجهة هى القِبْلة حددّها الله لكل صاحب ملّة وولاّه إياها، **والمسجد الحرام** هو قبلة المسلمين، واستباقهم إليه

بالخيرات، وقيامهم فيه أو إليه فى القبلة، وهى عرفاً ما يُصلَّى نحوها من الأرض أينما كانت إلى السماء مما يحاذى الكعبة. و«أهل القبلة» هم أهل مكة، والكعبة قبلتهم، ثم قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة العالم كله أو الآفاق، توسعةً على الناس، وفى الاصطلاح يقال المغرب قبلة أهل المشرق، وبالعكس، والجنوب قبلة لأهل الشمال وبالعكس. وقوله تعالى: ﴿**وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾ (يونس ٨٧)، القبلة هى المساجد، فاجعلوها كالمساجد ووجهوا الصلاة فيها إلى القبلة، وذلك إذا أخافهم الحاكم الظالم أو المحتلّ لبلادهم، فأُذن لهم أن يصلوا فى البيوت ما داموا فيها سيكونون على أمن، وفى الحديث: «**جُعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً**» أى ليس البيوت فقط يمكن الصلاة فيها بدلاً من المساجد، وإنما الأرض كلها مسجد للمسلمين، فحيثما أدركتم الصلاة صلّوا، **وصلاة النافلة فى البيوت** أفضل منها فى المساجد، ولما أتى النبىّ ﷺ مسجد بنى الأشهل صلى فيه المغرب، فلما قضوا الصلاة رآهم يصلون بعدها، فقال لهم: «**هذه صلاة البيوت**». وسواء كانت الصلاة فى المسجد أو البيت أو الخلاء فالتوجُّه للقبلة اجتهاداً.



١٩٤٥ - ﴿المسجد الحرام قبلة ترضى النبىّ ﷺ﴾

القِبْلة التى يرضاها النبىّ ﷺ فى الآية: ﴿ **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** (١٤٤) ﴾(البقرة) هى الكعبة، وهى المسجد الحرام؛ والشطر هو الناحية، يعنى أن ما يرضيه ﷺ هو أن يولّى وجهه ناحية المسجد الحرام، وقد ولاّه الله تعالى ذلك وأمر المسلمين به حيثما كانوا، فهُم يتوجهون كلٌّ حسب موقع بلاده، فموقع أهل المدينة بالنسبة للمسجد الحرام يجعل قِبلتهم إلى المشرق، وقبلة هؤلاء بخلاف قبلة أهل المغرب العربى مثلاً، وبخلاف قبلة أهل تركستان وكازاخستان ومسلمى الصين والهند إلخ. وفى الحديث: «**البيت كله قِبلة لأهل المسجد، والمسجد قِبْلة لأهل الحَرَم، والحَرَم قِبْلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أُمّتى**». وقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**(١٤٢)﴾(البقرة) لأن المسجد الحرام بالنسبة إلى بعض الناس يكون فى اتجاه المشرق، ولبعضهم فى اتجاه المغرب بحسب مواقع بلادهم. ولا خلاف أن **الكعبة قِبْلةٌ فى كل أفق**، ويُفرض على مَنْ يشاهدها ويعاينها أن يستقبلها، ومن يَغب عنها فعليه أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها وجِهَتها. واستخلص من ذلك **مالك**: أن المُصلّى حُكمه أن ينظر أمامه ـ شطر ـ لا إلى موضع سجوده.



١٩٤٦ - ﴿قبلة المسلمين عربية﴾

القِبلة: هي الجهة؛ وقِبْلة المصلي: هي الجهة التي يصلي نحوها، والجمع في التكسير قِبَل، وفي التسليم قبلات، وقبَلات، وقبْلات. وفي الآية: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**(١٤٤)﴾(البقرة)، قيل: إن النبيّ ﷺ ظل يصلي في مكة وقبلته إلى الكعبة كما كان يصلي إبراهيم وإسماعيل، فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، أراد أن يستألف اليهود فتوجه إلى قِبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم، ولم يكن الله تعالى قد أمره بشيء بعد بهذا الخصوص، وكان قلبه مع القبلة في مكة، فلما استيقن عناد اليهود ويأس منهم، كان كلما صلّى يرفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر به، وكان يحب أن يُوجّه إلى الكعبة، فكان ما تمنّى وأنزل الله: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ** ﴾. وكانت الكعبة قبلة إبراهيم ولم تكن كذلك بيت المقدس، وما صلّى إسماعيل وإسحق ويعقوب إلى بيت المقدس، وكان توجه الجميع إلى «المشرق» في صلاتهم وما يزال، واليهود والنصارى هذا توجههم. والكعبة عربية وأولى بالعرب في دينهم الإسلام، وفي التوجه إليها مخالفة لليهود. وقيل كان سليمان يصلي إلى صخرة الهيكل وتوجهه إلى المشرق ـ يعني إلى الكعبة، والكعبة بوضعها كانت قبلة كل الأنبياء. وقال المستشرق فينسنك: إن الساميين جميعهم يصلّون إلى المشرق. وميزة الكعبة أنها عربية، وتوجُّه اليهود إلى المشرق كان كأنما يتوجهون إلى الكعبة، وكأن النبيّ ﷺ وهو في المدينة، في توجهه إلى بيت المقدس كان ما يزال يتوجه إلى الكعبة في مكة. وكانت بعض المساجد في المدينة تجعل قبلتها إلى الكعبة كمسجد صالح. والفرق بين التوجه إلى الكعبة، أو إلى بيت المقدس طفيفٌ للغاية و قد يفوت على كثيرين. والمهم: أن القبلة صارت رسمياً إلى الكعبة العربية بنزول هذه الآية، فكأن هذه الآية كانت تعريباً صريحاً للقبلة.

●●●

١٩٤٧ - ﴿تحويل القبلة كبُر على المتشككين﴾

لّما نزل الأمر بالقِبلة، وكانت هذه هي التحويلة أو التولية الثانية، تشكك البعض من أهل النفاق، وحنق اليهود، وسُرّ المشركون، وكانوا جميعاً على قول واحد: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**(١٤٢)﴾(البقرة)، فنزلت: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**(١٤٣)﴾(البقرة)، وذلك دليل على أن البعض فعلاً ترك الإسلام بسبب ذلك، ولم يثبت إلا المؤمنون الذين

هدى الله وصدّقوا الرسول، ومن تشكك كانت حجته أن الأمر فى الإسلام غير مستقر، فتارة مكة هى القبلة، وتارة بيت المقدس، وتارة يأتى الأمر بالعودة إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قُل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ (١٤٢)﴾(البقرة)، أى أيّما اتجاه يأمركم به الله فهو قبلتكم، وأينما تولوا وجوهكم فثمة وجه الله، وله الأمر جميعاً، فإن شاء أمر بالكعبة أو ببيت المقدس أو بالكعبة ثانية، وما الإيمان إلا الامتثال لأمره تعالى، وبالطاعة أو العصيان يتميز المؤمن من الكافر، وتحويل القبلة قد يعظم عند البعض، وهؤلاء يدفعهم المرض فى قلوبهم إلى ما يقولون، كمثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ (١٢٥)﴾(التوبة)، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (٤٤)﴾(فصلت)، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢)﴾(الإسراء).



١٩٤٨ - ﴿القبلة نسختها السنة مرة والقرآن مرة﴾

فى الآية: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾(البقرة) أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة كان موضع تساؤل السفهاء، جمع سفيه وهو الخفيف العقل البهّات الكذّاب، والظلوم الجهول، والمراد بالسفهاء يهود المدينة: قالوا: محمد قد التبس عليه أمره وتحيّر؛ والمنافقون قالوا: محمد اشتاق إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم. فماذا كانت قبلة النبىّ ﷺ فى مكة، ثم فى المدينة؟ قيل: فى مكة كانت قبلته إلى الكعبة، ثم صارت إلى بيت المقدس فى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، ثم صُرف إلى الكعبة. وقيل: أول ما افتُرضت الصلاة عليه، توجّه فى صلاته إلى الكعبة، وكان يصلى فى الكعبة نفسها، ولم يزل يصلى إليها طوال مقامه بمكة، ولم يكن قد فُرض عليه أن يولّى وجهه فى الصلاة نحو الكعبة أو غيرها، ولكنه فعل ذلك اجتهادًا بحكم العادة وما كان يفعله أهل مكة، فلما قدم إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس إلى أن صُرف عنها إلى الكعبة، ولم يكن قد صدر إليه أمرٌ بذلك، ولكنه فعل ذلك اجتهاداً منه، وكما كان يفعل الناس فى المدينة، يقلدّون اليهود، فكأن توجُّهه فى مكة إلى الكعبة كان من السُّنة - أى من عنده - ثم توجُّهه فى المدينة إلى بيت المقدس كان من السُّنة أيضاً، أى من عنده، فكأن السُّنة بشأن القبلة نسختها السنة مرة، لما حوّلت القبلة من الكعبة إلى بيت المقدس، ثم نسخ القرآن النسخ مرة أخرى عندما حوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فدلّ ذلك على أن القرآن ينسخ السنة. وكان

النبىّ ﷺ أول ما صلى، صلّى إلى بيت المقدس وليس فى ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة، ثم نُسخ ذلك بالقرآن.

•••

١٩٤٩ - ﴿لماذا اختيار بيت المقدس قبلة بدلا من الكعبة﴾

قيل: **القبلة فى المدينة** ظلت طوال ستة عشر شهراً أو سبعة عشر إلى بيت المقدس، عن رأى **واجتهاد** من النبىّ ﷺ، وكان له الخيار بين بيت المقدس وبين **الكعبة**، فاختار **القدس** طمعاً فى إيمان اليهود واستمالتهم، وامتحاناً لقريش، لأنهم ألفوا الكعبة فأراد أن يمتحنهم بغير ما ألفوه، لينكشف من يتبعه ممن لا يتبعه، ثم نسخ الله اجتهاده وأمره بالصلاة إلى الكعبة، كقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ(١٤٣)** ﴾(البقرة)، والمعنى كما قيل: ليميز الله **أهل** اليقين من **أهل الشك**. وعلمه تعالى علم معاينة يوجب الجزاء، وإلا فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، ويعلم ما يكون قبل أن يكون، مثل قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ**﴾ (آل عمران ١٤٠)، وقوله: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ(٣١)**﴾ (محمد).

•••

١٩٥٠ - ﴿بيت المقدس لم يبنه إبراهيم ولا صلى إليه﴾

فى التوراة: أن **إبراهيم** لمّا هاجر من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان، اجتاز إلى موضع شكيم وإلى بلوطة مورة، وتجلّى له الربّ هناك، فبنى مذبحاً للربّ، ثم بنى مذبحاً غربى بيت إيل وشرقى العاى (التكوين ١٢/ ٦ ـ ٨)، وبنى مذبحاً آخر فى **بلوط ممرا** بنابلس (تكوين ١٣/ ١٨). ولما أُمر بذبح ابنه كان ذلك فى أرض مورية بالقرب من بئر سبع. وأما **إسحق** فإن الربّ تجلّى له فى بئر سبع وهناك بنى مذبحاً (التكوين ٢٦/ ٢٥)، وفى لوز أقام يعقوب نصباً وأطلق على المكان **بيت إيل** (تكوين ٢٨/ ١٩)، وأقام مذبحاً فى **شكيم** مدينة **أهل شكيم** أى نابلس (تكوين ٣٣/ ٢٠)، وآخر فى بيت إيل (تكوين ٣٥/ ٧) عبارة عن نصب من حجر. وأما **موسى** فبنى مذبحاً أسفل جبل سيناء (الخروج ٣٠/ ١)، وبنى **بلعام** سبعة مذابح فى **بعل** (العدد ٢٣/ ١). والذى فكر فى بناء البيت فى القدس هو **داود**، وأعدّ له العدّة والمكان فوق **جبل مورية**، وأكمله **سليمان** (١أخبار ١٧/ ١٢) حوالى سنة ٩٦٨ ق.م، وهدمه **البابليون** سنة ٥٨٧ ق.م، ثم بناه **زربابل** سنة ٥٣٨ق.م، ورمّمه **هيرودس** سنة ٢٠ق.م، وتم الترميم فى عهد **أغريباس الثانى** سنة ٦٤م. وبيت المقدس ـ ولا أى بيت لله يهودى ـ لم يأمر به الله كما رأينا، ولكنه كان اجتهاداً من كل منهم فلا تثريب على النبىّ ﷺ إذن أن يتمنى لو يُصرف عن بيت المقدس إلى الكعبة، لأن **الكعبة** هى **ميراث إبراهيم** وليس بيت المقدس، كقوله: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ(١٢٧)**﴾

(البقرة). والدليل على صدق رواية القرآن أنه يصادق على ما ورد فى التوراة عن إبراهيم، حيث كان دأبه أن يقيم المذابح والأنصاب لله، والآية تقول بالضبط ما كان يفعله فى كل ما كان يبنيه أو يقيمه بالحجارة ويرفع قواعده، وفى هذه المرة لم يقم مذبحاً ولا نُصباً وإنما بنى بيتاً حقيقياً بقواعد. وهذا البيت نفسه هو الذى كان يتمناه النبىّ ﷺ للمسلمين، لأنه فعلاً بيت لله بكامل معنى البيت.

•••

١٩٥١ - ﴿هوى اليهود أن يكون بيت المقدس قبلة المسلمين﴾

قبلة بيت المقدس كانت إلى المشرق، وقبلة الكعبة كانت إلى المشرق، وفى مكة كانت قبلة النبىّ ﷺ مكة، وفى المدينة توجه إلى بيت المقدس لعل اليهود يؤيدون الإسلام، فيمكن من بعد توجيهم إلى الكعبة، ولكنهم عادوه وهزئوا من الإسلام، فنزلت الآية: **﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾**(البقرة)، لأن أهل الكتاب ما آمنوا بأية آية أتى بها لإقناعهم، وقوله: **﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾** دليل على أن الكعبة كانت قبلته ﷺ، وإن بدا أنه يتوجه إلى بيت المقدس، فكما قلنا إن بيت المقدس والكعبة كلاهما يتوجه إلى المشرق، فلا تدرى هل المصلى يصلى إلى الكعبة أم إلى بيت المقدس، والفرق فى التوجه ضعيف. وقوله: **﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾** فيه نفى أنه كان يتبع قبلتهم على الحقيقة، أو أنه منذ الآن لن يتبع قبلتهم. وقوله: **﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾** دليل على أن إجماع اليهود لم يكن ينعقد على بيت المقدس قِبْلة، ولكن قبلتهم كانت المشرق، وكان يهود السامرة يجعلون قبلتهم إلى جبل جرزيم حيث اعتقادهم أن الهيكل بُنى هناك، وقوله: **﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** دليل على أن هوى اليهود كان أن يتخذ المسلمون بيت المقدس قبلةً لهم، ففى ذلك إقرار بتبعية الإسلام لليهودية؛ والعِلْم: هو ما أعلمه به الله: أن تكون الكعبة هى قبلته. والحمد لله ربّ العالمين!

•••

١٩٥٢ - ﴿الحق الذى يعرفه اليهود كأبنائهم﴾

لم يُفرض على اليهود فى كُتبهم التوجه فى الصلاة إلى بيت المقدس، فهذا شىء جديد لم يعرفوه إلا فى حُكم داود وسليمان، وكانوا قبل ذلك يصلون حيثما يوجّه تابوت العهد أو خيمة الشهادة، أو أنهم كانوا يتوجهون فى صلاتهم ناحية المشرق كما فعل إبراهيم وإسحق ويعقوب عندما كانوا يقيمون الأنصاب لله ويصلون إليها، وفى الآية: **﴿وَلِكُلٍّ**

اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة)، إخبارٌ بأنهم يعلمون ذلك، وأن الحق ليس معهم فـي مماراتهم للمسلمين حول تحويل القـبلة عن بيت المقدس، بنزول الأمر للمسلمين بالانصراف عن استقبال بيت المقدس إلى الكعبة، فبيت المقدس كقبلة لم يكن فرضاً على اليهود، ولا على النصارى، وإنما كان اليهود إذا صلوا **يصلون فرادى أو جماعات إلى أى اتجاه،** وغالباً ناحية **المشرق،** وإذا كانت هناك **خيمة شهادة أو تابوت الشهادة** استقبلوهما كما قلنا سابقاً، **وصلاتهم دعاء،** إلا ما علمّ المسيح النصارى فيما يسمونه **الصلاة الربّانية** والتى يبدأونها بالدعاء: «**أبانا الذى فى السموات**»، فهذا هو ما يعلمه اليهود والنصارى أنه الحق من ربّهم: «**أن التوجه لبيت المقدس ليس فرضاً**». فإذا كان الأمر كذلك، **فلماذا ينتقدون المسلمين لمّا نزل عليهم تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة؟ وكانوا يعلمون أن الله لم يقرر بيت المقدس كقبلة للمسلمين، وأن محمداً** ﷺ **قرره على المسلمين باجتهاده ولم يكن راضياً رغم ذلك، وكان يرفع رأسه إلى الله يدعوه ويبتهل له أن يلزم المسلمين بقبلة تخصّهم، وأن يأتى الأمر منه تعالى بذلك،** وهذا كله كان يعرفه أهل الكتاب، ويعلمون أنه الحق من ربّهم، لا انتحال فيه ولا اعتذار. **وهذا الأمر من الله بالقبلة حدث لأول مرة فى تاريخ الديانات، ولم تسبق إليه ديانة قبل الإسلام،** ونبّه إلى ذلك الرسول ﷺ فقال: «حسدتكم اليهود على القبلة»، ونزل به القرآن فقال: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٤٦)﴾(البقرة)، فهذا الذى يعرفونه كأبنائهم هو أن **بيت المقدس لم تكن قبلة** بمعنى القبلة، **وأن القبلة بالمعنى الإسلامى شيء جديد تماماً،** ولكن اليهود كدأبهم ظلوا يمارون ويجحدون ويجادلون بالباطل، وكتموا الحق وهم يعلمون أنهم يكتمون الحق، ومثل ذلك حدث معهم لما أنكروا **الرجم** فى التوراة، فشهد عليهم بالكذب عبد الله بن سلام، وكان يهودياً وأسلم، وفى ذلك نزل القرآن: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ** (١٠)﴾(الأحقاف).

●●●

١٩٥٣ - ﴿استقبال الكعبة هو الحق لا مراء فيه﴾

يقول تعالى مخاطباً النبيّ ﷺ، وإنما حقيقة الخطاب **لأمة محمد،** يطمئنهم أن الكعبة كقبلة هى الحق من عند الله وليس بيت المقدس: ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (١٤٧)﴾(البقرة)، **والامترار** فى الشيء هو الشك فيه، وكذا **التمارى، والممترون** هم الشاكون، **والمِرْيَة** هى الشك. وفى الآية أن **الامتراء** يمكن أن يحدث بإصرار اليهود بادعائهم العلم وتلبيسهم على من يستمع إليهم.

●●●

١٩٥٤- ﴿اليهود يحسدوننا على القبلة﴾

لَمّا جاء الأمر بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب، ارتيابٌ وزيغٌ عن الهدى، وتخبيطٌ وشك، وقال اليهود: **﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...(١٤٢)﴾**(البقرة)، كأنهم يقولون: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فكان الجواب عليهم منه تعالى، قال: **﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ(١٤٢)﴾**(البقرة) أي له الحكم والتصرف، وقال: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ(١١٥)﴾** (البقرة)، فحيثما يُوجهنا نتوجه، والطاعة له في امتثال أوامره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة لفعلنا. وقال: **﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾**(البقرة)، وفي ذلك الحديث عن عائشة في أهل الكتاب قوله ﷺ: **«إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى القِبْلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين»**.

•••

١٩٥٥- ﴿حقيقة نسخ القول بأن القبلة إلى أي اتجاه﴾

إذا كان استقبال الكعبة أمراً من الله تعالى، كقوله: **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (١٤٤)﴾**(البقرة)، فلماذا كان قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾**(البقرة)؟ والجواب: أن البعض قال إن آية: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾**، نزلت كردٍّ على اليهود لما تساءلوا مستهزئين: **﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا(١٤٢)﴾**(البقرة)، ونزلت: **﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ(١١٥)﴾**(البقرة)، تعني قِبلة الله أينما تتوجهون شرقاً أو غرباً، فما من ناحية تتوجهون إليها بصلواتكم إلا كان الله تعالى في ذلك الوجه وتلك الناحية، لأنه تعالى له المشارق والمغارب ولا يخلو منه مكان، كما قال: **﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا(٧) ﴾**(المجادلة). وقيل: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرضه تعالى بالتوجه إلى المسجد الحرام. **ولا نرى أن الآية قد نسخت**، لأنها نزلت في شيء آخر وهو **صلاة السفر**، فيمكن للمسافر **أن يصلي في السفر لأي اتجاه**، وروى عن ابن عمر أنه كان يصلي وهو راكب راحلته، إلى أي اتجاه تكون عليه ناقته، فكذلك المسافر **بالسيارة والقطار، وبالمركب والطائرة**، والجندي داخل الدبابة، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك ويتأوّل هذه الآية. وكذلك من تعمى عليه القبلة فلا يعرف شطرها، فله أن يصلي في أي اتجاه، وصلاته ماضية. وكذلك من يصلي في الغيم، أو في **الظلام**، أو في **الخوف الشديد**، وفي **المرض**، فصلاته جائزة لغير

القبلة. وكذلك في غير السفر على الدابة أو في السيارة يومىء إيماءً، وكان أنس بن مالك يصلــي على حمــار في أروقة المدينة ويومىء إيماءً، ويجــوز لكل راكب وماش، سواء في الحضر أو في السفر، أن يصلي إيماءً في وسيلة المواصلات التي يتخذها أو وهو ماش على رجليه.

●●●

١٩٥٦ - ﴿في الأسفار لا يلزم استقبال القبلة﴾

في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** (١٤٩) ﴾(البقرة) **وجوب استقبال المسجد الحرام في السفر**، وعن أنس: أن النبيَّ ﷺ إذا كان في سفر فأراد أن يصلى على راحلته استقبل القبلة وكبّر ثم صلّى حيث توجهت به. وقيل: **لا يلزمه الاستقبال**، وعن ابن عمر: أن النبيَّ ﷺ كان يصلى وهو مُقبل من مكة إلى المدينة على راحلته، وقال: وفيه نزل: ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** (١١٥) ﴾(البقرة).

●●●

١٩٥٧ - ﴿وقت تحويل القبلة﴾

عن ابن عمر قال: كان أهل قباء يصلون الصبح فجاءهم من يبلغهم أن النبيَّ ﷺ أُوحي إليه أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وعن البراء، قال: صلّى النبيّ ﷺ إلى بيت المقدس **ستة عشر شهراً أو سبعة عشر**، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وصلّى أول صلاة صلاها إلى الكعبة في المدينة: **صلاة العصر**. وعن آخرين قالوا: إن النبيّ ﷺ كان يصلى الظهر **في مسجد بني سلمة**، فنزل عليه بعد ركعتين منها، فتحوّل في الصلاة، فسميّ ذلك المسجد: **مسجد القبْلتين**. وأكثر الروايات على أن الآية نزلت في غير صلاة. وقيل: **إن أول صلاة في المدينة إلى الكعبة كانت العصر**، وروى أن أول من صلى إلى الكعبة حين صُرفت القبلة عن بيت المقدس: **أبو سعيد بن المُعلّى**، سمع رسول الله ﷺ يعلن الناس بتحويل القبلة، فأسرع وصلى ركعتين قبل أن ينتهى النبيّ ﷺ من خطبته، فلما انتهى صلى بالناس **الظهر**.

وقيل: إن تحويل القبلة كان في **رجب من سنة اثنتين**، وقيل: صلى في المدينة إلى بيت المقدس **سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام سواء**، لأن قدومه إلى المدينة كان **يوم الاثنين لاثنتي عشرة** ليلة خلت من **شهر ربيع الأول**، وأمره الله تعالى باستقبال الكعبة **يوم الثلاثاء للنصف** من شعبان.

●●●

١٩٥٨ - ﴿طريق المعرفة إلى القبلة﴾

معنى الآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة ١٤٤): أن الصلاة تكون إلى المسجد الحرام لو كان مرئيًا، وإن كان محجوبًا فبالدلائل والأعلام، أو أن يصلى المسلم باجتهاد، وطالما أنه مكلّفٌ وملزمٌ بالصلاة إلى المسجد الحرام، فعليه أن يبحث ويتحرّى ليحصل له العلم بالقِبْلة، ومن يترك البحث والفحص فكأنه تَركَ واجبًا، وإن عَجَز أخذ بالظن حيث لا طريق إلى العلم، وإن عجز عن تحصيل الظن قلّد سواه، وإن لم يجد من يقلّده، عمل بالاحتياط على قدر إمكانه، ويجب عليه إن أراد أن يصلى، أو يعمل عملاً يتطلب استقبال القبلة، كالذبح أو الصلاة على الميت ودفنه، أن يحصّل العلم بوجهته إلى القبلة بأية طريقة كانت، سواء بالمعاينة أو أية قرينة من القرائن. ويجزى التحرّى أبداً إن لم يعلم وجه القبلة. ويسقط الاستقبال شرعاً مع العجز عنه، أو مع عدم الاستقرار، كالصلاة فى الطائرة تحلق فى السماء، أو المركب تمخر البحر، فحيثما كانتا كانت قبلته، وأما فى حال الاستقرار فشرط القبلة شيء آخر.

•••

١٩٥٩ - ﴿عشرة ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة﴾

الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس، فبمكة من قريش: عبد الله بن شهاب، والمطّلب بن أزهر، والسكران بن عمرو العامرى، فهؤلاء ثلاثة؛ والذين ماتوا بأرض الحبشة: حطّاب بن الحارث الجمحى، وعمرو بن أمية الأسدى، وعبد الله بن الحارث السهمى، وعروة بن عبد العزّى، وعدىّ بن نضلة، فهؤلاء خمسة؛ ومن الأنصار بالمدينة: البراء بن معرور، وأسعد بن زرارة، فهؤلاء عشرة. ومات أيضاً إياس بن معاذ الأشهلى ولكنه مختلَفٌ فى إسلامه. وهؤلاء جميعاً ماتوا ولم يُقتلوا، لأنه لم يُقتل أحد من المسلمين قبل تحويل القبلة، إلا سويد بن الصامت، فهذا التقَى النبىّ ﷺ، واستمع إليه، واستحسن قوله، ولكنا لم نعرف أنه أسلم، وانصرف إلى المدينة بعد لقائه بالنبىّ ﷺ، وفيها قتل فى وقعة بُعاث، وكانت قبل الهجرة، ولأسباب بعيدة عن الإسلام، وأكد أهله من بعد أنه قتل وهو مسلم. ومن المستضعفين مات بمكة من التعذيب والدا عمّار، ولكنا لا نعرف هل ماتا قبل الإسراء أم بعده؟

•••

١٩٦٠ - ﴿مقام إبراهيم﴾

المقام: من قام يقوم، وهو مُقام من أقام، ويكون مصدراً واسماً للموضع. ومقام إبراهيم: هو الحَجَر الذى يصلون عنده ركعتى طواف القدوم فى الكعبة. وعند مسلم من

حديث جابر: أن النبيّ ﷺ لمّا رأى البيت، استلم الركن، فرمَل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقـام إبراهيم فقرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴿١٢٥﴾﴾(البقرة)، فصلّى ركعتين قرأ فيهما: «**قل هو الله أحد**»، و«**قل يأيها الكافرون**». وفي البخارى أن **مقام إبراهيم**: هو الحجر الذى ارتفع عليه إبراهيم حين ضَعُف عن رفع الحجارة التى كان إسماعيل يناولها إياه فى بناء **البيت الحرام**. واتخاذ المقام مُصلًّى عند البعض مَدْعى يُدعَى فيه؛ وعند البعض موضعُ صلاةٍ يُصلَّى عنده. وقيل المقام: قِبلة يقف الإمام عندها.



١١ ١٢. ﴿الذكروالتسبيح والدعاء﴾



١٩٦١- ﴿حقيقة الذكر﴾

فى الآيـة: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا**﴿٢٤﴾﴾ (الكهف)، أن آفة الذكر **النسيان**، فإذا نسيت اذكره تعالى، ولكى لا تنسى استثن باسمه تعالى وقل: «**لا إلـه إلا الله**» فلا تنسى، أو قل: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، أو قل: «الله» وكفى، وفى القرآن يقول تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ (البقرة ١٥٢)، ويقول: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ (العنكبوت ٤٥)، وفى الحديث: «مَثَل الذى يذكر ربّه والذى لا يذكـر ربّه مثل الحيّ والميت». والصلاة ذكـر، ولكن **الذكر ـ كما فى الآية ـ أكبر من الصلاة**، أو قمة الصلاة. والمراد بالذكر ألفاظ مثل: **سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله**، والله أكبر، وما يلتحق بها من **الحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستغفار** ونحـو ذلك، والدعاء بخير الدنيا والآخرة، وكتلاوة القرآن والحديث، ومدارسة العلم، والتنفّل بالصلاة. ثم الذكر يقع تارة **باللسان**، وتارة **بالقلب** وهو الأكمل. والمراد **بذكر اللسان**: ألفاظ التسبيح والتحميد والتمجيد؛ **وبذكر القلب**: التفكّر فى أدلة الذات والصفات، وأدلة تكاليف الأمر والنهى، وأسرار مخلوقات الله. **والذكر بالجوارح**: هو الاستغراق فى الصلاة ومختلف الطاعـات كالتسبيـح وغيره، ولذلك سميت الصـلاة ذكراً، لأنها تذكّـــر بالله وبالطاعات، كقوله تعالى: ﴿**فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴿٩﴾﴾(الجمعة). وقيل الذكر سبعة أنواع: **فذكر العينين**: بالبكاء؛ **وذكر الأذنين**: بالإصغاء؛ **وذكر اللسان**: بالثناء؛ **وذكر اليدين**: بالعطاء؛ **وذكر البدن**: بالوفاء؛ **وذكر القلب**: بالخوف والرجاء؛ **وذكر النفس**: بالتسليم والرضاء. ـ وما من عمل صالح إلا والذكر مشترط فى تصحيحه، فمن لم يذكر الله بقلبه عند صدقته أو صيامه مثلاً، فليس عملاً كاملاً، فصار **الذكر أفضل الأعمال** من هذه

الحيثية، وقيل: الذكر خروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة، وحقيقته: أن تنسى سوى المذكور؛ وأقسامه: **ذكر العوام**: وهو ذكر اللسان؛ **وذكر الخواص**: وهو ذكر القلب؛ وذكر **خاصة الخاصة**: وهو غيبة الذاكر في المذكور. ومن الذكر ما يكون فردياً وهو الغالب، وما يكون **جماعيًا**. وليس كل من ادّعى الذكر بذاكر، والذكر مختلف والمذكور واحد، ومحل قلوب الذاكرين متفاوت. ووجه الذكر: **الأول** هو التهليل والتسبيح وتلاوة القرآن؛ **والثاني**: تنبيه القلب بالتذكير بالله وأسمائه وصفاته، **فذكر الراجين على وعده**، وذكر **الخائفين** على وعيده، وذكر **المتوكلين** على ما كشف لهم من كفايته، وذكر **المراقبين** على مقدار ما طلع عليهم باطّلاعه عليهم، وذكر **المحبين** على قدر تصفُّح النعماء.

●●●

١٩٦٢ - ﴿كيف يكون الذكر؟ ومتى يكون؟﴾

في الآية: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** (٢٠٥)﴾(الأعراف)، قيل الذكر: الدعاء، وقيل هو القراءة في الصلاة، ونظيره: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** (٥٥)﴾(الأعراف)، ومعنى خُفية: سراً في النفس ليبعد عن الرياء، وفَعَل ذلك النبيّ زكريا: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** (٣)﴾(مريم)، ومثله قول النبيّ ﷺ من رواية أحمد وابن حبان والبيهقي: «**خَيْر الذكر: الخفيّ؛ وخير الرزق: ما يكفي**». وفي الآية: **الذكر الخفي**: هو الذي يكون في النفس؛ **والتضرع**: هو أن يكون في خشوع؛ **وخيفة**: هو أن يكون عن خوف؛ **ودون الجهر**: أي لا يُرفَع فيه الصوت، بين الجهر والمخافتة؛ والآية دليل على أن **رفع الصوت بالذكر كما يفعل الصوفية** ليس هو المطلوب. والزمن الأمثل للذكر **بالغدو**، أي الفجر، **والآصال**: أي العشيات.

●●●

١٩٦٣ - ﴿الصلاة ذكر لله تعالى﴾

في صلاة الخوف، لما نزلت الآية: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** (١٠٣)﴾(النساء)، قَرَن الناس بين الذكر **وهذه الصلاة**، باعتبار الذكر مأمورٌ به إثر هذه الصلاة، أي إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله بالقلب واللسان، على أي حال كنتم، قياماً أو قعوداً أو على جنوبكم، والذكر المأمور به عقب صلاة الخوف من نوع **التكبير والتهليل والدعاء بالنصر**، ونظيره: ﴿ **إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٤٥)﴾(الأنفال). وقيل: إن الصلاة في دار الحرب تكون والمعركة محتدمة، بذكر الله بالتكبير والتسبيح والحمد، قياماً أو

قعـوداً، أو على جنوبكم، أو على أى وضع تكونون، واذكـروه فى مشيـكُم أو عَدْوكم، والذكـر صلاة. أو أن الذكــر فى الآيـة هو الصـلاة المكتـوبة وقد اشتـملت على الأذكار المفروضـة والمسنونة، فإذا صليتم صـلاة الخوف، ثم بعد ذلك اطمـأننتم وأمنتم، فأقيـموا الصلاة بأركـانها دون تقصـير، وبكمال هيـئتها وعـددها، والسبب كمـا تقول الآية: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** (١٠٣)﴾(النســاء)، أى موقّـتة بأوقاتها المفـروضة. والصحـيح أن الذكر فى الحـروب يأتى قبل صلاة الخـوف وبعدها، تسلية للمـؤمن، ورفعاً لروحه المعنوية، وتثبيتاً لإيمانه، وتقوية لقلبه، وبثاً لشجاعته.



١٩٦٤- ﴿الذكر بالطاعة﴾

الذكـر: هو التنبّه بالقلب المذكور والتيقُّظ له، وسمى الذكر باللسـان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبى، فلما كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم، وفى الآية: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** (١٥٢)﴾(البقرة): أن الذكر هو طاعته تعالى، فيذكرهم بالثواب والمغفرة، ومن لم يطع الله لم يذكره وإن أكثرَ التسبيح والتهليل، وفى الحـديث: «**مَن أطاع الله فقد ذكر الله ،وإنْ أقلّ صلاته وصومـه وصنيعه للخير، ومن عصى الله فقد نسـى الله، وإن كثّر صلاته وصومه وصنيعه للخير**»، وفى الحديث كذلك: «**أنا مع عبدى إن هو ذكرنى، وتحرّكت بى شفتاه**».



١٩٦٥- ﴿التسبيح لله تعالى﴾

التسـبيح لله: هو تنزيهه عمّـا يصفه به المشركون، كـقولهم أنه اتخذ ولداً، أو أن له البنات، كقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ** (٥٧)﴾(النحل)، وقولهـم: ﴿**اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** (٢٦)﴾(الأنبياء) وأما تنزيهه فكقولهم: ﴿**سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ (البقرة٣٢)، أى تنزيهاً لله عن أن يعلم الغيب أحد سواه، وكقوله: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** (١٧)﴾(الــروم)، والخطاب فى الآية للمؤمنين بالأمـر بالعبادة والحضّ على الصلاة فى هذه الأوقات: الصـبح والمساء؛ وقوله: **وحيـن تصبـحون**: هـى صلاة الفـجر؛ **وحـين تمسـون**: هى صلاة العصر، والتسبـيح هو حقيقة هذه الصلوات، ولذلك سُمّيت هذه الصلوات بالتسبيح أو التسابيح، ولهذه التسمية وجهان: **أحدهما**: لما تضمنته من تسابـيح فى الركوع والسجود، **والثـانى**: مأخوذ من السُّبحة، **والسُّبـحة** هـى الصـلاة، ومنهـا قـوله ﷺ: «**تكون لهم سُبحـة يوم القيامـة**» أى صـلاة. وفى قـوله

تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝﴾ (المزمل): السبح: هو الجرى والدوران، ومنه السابح في الماء لحركته فيه، يعنى أنك فى النهار لك شغل كثير، فالنهار للمعاش، وأما الليل فاجعله لعبادتك؛ وإن فاتك من صلاة الليل شىء، فلك فى النهار فراغ الاستدراك. وقوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝﴾ (النازعات) هى الملائكة، تسبح فى نزولها وصعودها، أو هى الخيل الغزاة تجرى فى نشاط وهمّة، أو النجوم تسبح فى أفلاكها، وكذا الشمس والقمر: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾(يس)؛ والسفن تسبح فى الماء، وأرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله، والجميع يفعل ذلك بأمر الله وإذنه. وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ۝﴾(الإنسان): يعنى صلاة التطوع فى الليل، وكل تسبيح فى القرآن فهو صلاة، وقيل التسبيح هو الذكر المطلق، سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها، كقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ۝﴾(الطور) يعنى التسبيح كلما نقوم من مجلس فنقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك؛ أو هو التسبيح حين القيام للصلاة، تقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً. وقيل: التسبيح هو ذكر الله باللسان حين القيام من الفراش إلى دخول صلاة الفجر، ومنه حديث النبىّ ﷺ : «مَن تعارّ فى الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، والحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لى، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلّى قُبلت صلاته» أخرجه البخارى. وتعارّ فى الليل: هبّ من نومه . وكان ﷺ إذا قام من الليل سبّح الله فقال: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك» أخرجه البخارى. وفى تسبيحات الصلاة قولان، أحدهما أن نقول: «سبحان ربّى العظيم» فى الركوع، و«سبحان ربّى الأعلى» فى السجود؛ والثانى: أن نقول مع التوجّه فى الصلاة، «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك». ومعنى التوجّه أن نقول كما قال علىّ بن أبى طالب: «وجّهت وجهى» الحديث. ولمّا سأل أبو بكر الرسول سُبحةً يقولها، قال له: «قل اللهم إنى ظلمتُ نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم». وأما قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ

دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ (٧٩)﴾(الأنبياء) فقيل: إن داود كان يمر بالجبال مسبّحاً، فيأتيه صدى الصوت مسبّحاً، وكذلك الطير، فكان يغنى لها بصوته الرخيم، وينفخ فى المزمار، فكان الطير يصدح بغنائه والحمام يسجع. وقوله: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ (١٣)** ﴾ (الرعد)، جعل صوت الرعد تسبيحًا لله، يعنى طاعةً، فيسوق السحاب وينزل المطر. وفى قوله: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ(٤٤)**﴾(الإسراء)، أسند التسبيح إلى قوى الطبيعة وعمّ به كل الأشياء، مع أن التسبيح فعل عاقل، والمراد به تسبيح الدلالة، فكلُّ مُحدَث يشهد على نفسه أنه أثر صنعة الله، وأنه تعالى الخالق القادر.

●●●

١٩٦٦- ﴿الدعاء﴾

الدعاء إلى الشىء الحثّ على فعله؛ ودعوتُ فلاناً سألته؛ ودعوته استغثته؛ ويطلق على رفعة القدر، كقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ(٤٣)**﴾(غافر)، ويطلق على العبادة، كقوله: ﴿**إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)**﴾(الطور)؛ والدعوى هى الدعاء، كقوله تعالى: ﴿**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ (١٠)**﴾(يونس)؛ والدعاء هو التسمية، كقوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا (٦٣)**﴾(النور). وقيل: الدعاء فى القرآن على وجوه، منها العبادة، كقوله: ﴿**وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ (١٠٦)**﴾(يونس)؛ومنها الاستغاثة، كقوله: ﴿**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم**﴾ (البقرة٢٣)، ومنها السؤال، كقوله: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠)**﴾(غافر)؛ ومنها القول كما فى الآية: ﴿**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ (١٠)**﴾(يونس)؛ ومنها النداء كقوله: ﴿**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ (٥٢)**﴾(الإسراء)، ؛ ومنها الثناء كقوله: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ(١١٠)**﴾ (الإسراء). وفى الحديث: «**الدعاء مُخّ العبادة**»، والإتيان بما هو عبادة أولى من تركه. ثم إن الدعاء مفتاح الحاجة، ومستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين. وأقرب الدعاء إلى الإجابة «**دعاء الحال**»، وهو أن يكون صاحبه مضطراً.

●●●

١٩٦٧- ﴿النداء هو الدعاء﴾

يقول تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)**﴾(مريم)، والنداء هو الدعاء، كقوله تعالى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً(٥٥)**﴾(الأعراف)، **وتضرُّعاً**: أى فى خشوع؛ **وخفية**: أى فى السرّ أو فى النفس.

●●●

١٩٦٨- ﴿دعوى المؤمنين فى الجنة﴾

الدعوى: هى الدعاء، يقول تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩﴾(يونس)، والدعوى مصدر دعا يدعو، ودعاؤهم فى الجنة أن يقولوا: سبحانك اللّهم. وقيل: إذا أرادوا أن يسألوا شيئاً أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد. وقيل الدعاء بمعنى التمنىّ، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ⑶١﴾ (فصلت)، أى ما تتمنون؛ وآخر دعواهم: «الحمد لله»، يعنى أن أصحاب الجنة إذا اشتهوا الشىء قالوا: سبحانك، فيأتيهم الملَك بما يشتهون، فإذا أكلوا حمدوا الله، فسؤالهم بلفظ التسبيح، وختامهم بلفظ الحمد. والتسبيح والحمد والتهليل قد يسمى دعاء. وكان رسول الله ﷺ يدعو عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم. لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض، ربّ العرش الكريم»، وكانوا يسمون هذا الدعاء «دعاء الكرب»، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شىء، إلا أنه فى الحديث: «دعوة ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين، فإنه لن يدعو بها مسلم فى شىء إلا استجيب له»، فاعتبرها الرسول ﷺ دعاءً.

●●●

١٩٦٩- ﴿الدعاء هو العبادة﴾

فى الحديث: «الدعاء هو العبادة. قال ربكم ادعونى استجب لكم»، فسمّى الدعاء عبادة، وفى القرآن: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ⑱٦﴾(البقرة)، وسبب الآية أن قوماً سألوا النبىّ ﷺ: أقريبٌ ربّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية. وقيل نزلت الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ⑥٠﴾(غافر) فسألوه: فى أى ساعة ندعوه؟ فنزلت: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ⑱٦﴾(البقرة)، فالدعاء هو العبادة، والإجابة هى القبول؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ⑥٠﴾(غافر)، وفى الآية أن العبادة هى الدعاء، فأمرَ الله بالدعاء، وحضّ عليه، وسمّاه عبادة، ووعد بالاستجابة له.

●●●

١٩٧٠- ﴿دعاؤكم إيمانكم﴾

الدعاء: عمل وإيمان وعبادة وطاعة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان٧٧)، والمعنى ما يبالى الله بكم لولا دعاؤكم له، أى إيمانكم وطاعتكم له، كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ⑭٧﴾(النساء)، فالشكر عن إيمان دعاء، والخطاب للمسلمين.

●●●

١٩٧١ - ﴿كل داع يستجاب﴾

يستحب للداعي أن يدعو لغيره ويترك الدعاء لنفسه، وكل دعاء مستجاب، كقوله: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ** ﴿٤١﴾﴾(الأنعام)، وتتنوع الإجابة، فتارةً تكون بعين ما دعا به، وتارةً تكون بما يُعوِّض ما دعا به، وفي الحديث: «**ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا أتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، إما أن يعجّلها له، وإما أن يدّخرها له**»، وفي رواية: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجّل له دعوته، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**».

●●●

١٩٧٢ - ﴿مَن لم يسأل الله يبغضه﴾

التفويض لله هو الاستسلام للقضاء، وبعض أصحاب الرأي يؤثرون التفويض على الدعاء، ويفضلون ترك الدعاء، ويفسرون قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴿٦٠﴾﴾(غافر) بأن الدعاء المقصود به العبادة لا غير. والجمهور على أن الدعاء من أعظم العبادات، وليس الحديث: «**الدعاء هو العبادة**» إلا كالحديث الآخر: «**الحج عرفة**»، فكما أن معظم الحج وركنه الأكبر هو عرفة، فكذلك العبادة، فإن معظمها وركنها الأكبر الدعاء، والنبيّ ﷺ لم يوصِ بشيء ويلح عليه بقدر ما أوصى بالدعاء، فقال: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**» أخرجه الترمذي وابن ماجة، وقال: «**مَنْ لم يسأل الله يغضب عليه**»، والمعنى: أن مَنْ لا يسأل الله يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه، والله يحب أن يُسأل، والنبيّ ﷺ قال: «**سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل**» أخرجه الترمذي، وقال: «**إن الله يحبّ الملحّين في الدعاء**».

●●●

١٩٧٣ - ﴿لماذ ندعو ولا نجاب؟﴾

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴿١٨٦﴾﴾(البقرة)، وقوله: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴿٦٠﴾﴾(سبأ) لا يقتضي الإجابة مطلقاً لكل داعٍ على التفصيل، ولا بكل مطلوب على التفصيل، فقد قال: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿٥٥﴾﴾(الأعراف)، فكل مصرّ على كبيرة، عالماً بها أو جاهلاً، فهو معتد، والله كما قال لا يحب المعتدين، فيحتمل أن الذي يدعو من **المعتدين**، فكيف يستجيب له؟! وربما كان من الظالمين أو ممن **يستعجلون**؟ وفي الحديث: «**لا يزال عبدي يُستجاب له ما لم يستعجل. يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أره يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء**». ومعنى يستحسر: يملّ. وربما كان ممن يأكلون الحرام وما في معناه، وفي الحديث: «**الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب! يارب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه**

حرام، وغُذّى بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟!» فمن شروط الداعي: أن يكون الداعي عالماً أنه لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط في قبضته، ومُسخّرة بتسخيره، وأن يدعو بنيّة صادقة وحضور قلب، فإن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ، وأن يجتنب أكل الحرام، وألا يملّ من الدعاء. ومن شروط المدعو فيه: أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً. وقيل: شروط الدعاء سبعة: أولها التضرّع، والخوف، والرجاء، والمداومة، والخشوع، والعموم، وأكل الحلال. ولا يمنعن أحداً من الدعاء ما يعلمه من نفسه، فإن الله قد أجاب دعاء شرّ الخلق إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحجر).

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة: وذلك كالسَّحَر، ووقت الإفطار في الصيام، وما بين الأذان والإقامة في الصلاة، وأوقات الاضطرار، وحالتي السفر والمرض، وفي الجهاد في سبيل الله. وفي الحديث عن كيفية الدعاء، قال ﷺ: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله تعالى والثناء عليه، ثم يصلي على النبيّ عليه الصلاة والسلام، ثم ليدعُ ما يشاء».

●●●

١٩٧٤- ﴿الدعاء المستجاب﴾

هو دعاء الإنسان لنفسه بالخير، والدعاء المرفوض هو دعاؤه على نفسه وولده عند الضجر، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴿١١﴾﴾(الإسراء)، ولو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر لهلك، ولكن بفضله تعالى لا يستجيب له فيه. ونظير ذلك قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ ﴿١١﴾﴾(يونس). وفي الحديث: «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟»، وعنه ﷺ قال: أقرب ما يكون الربّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكُن». وعنه قال: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء».

●●●

١٩٧٥- ﴿الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل﴾

في الآية: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (غافر): أن الدعاء أخصّ من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، والوعيد في حقّ الذي يترك الدعاء استكباراً، ومن يفعل ذلك يكفر. وفي الحديث: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»؛ وملازمة الدعاء والاستكثار منه

تصرف عن الداعي السوء في عاجله وآجله. والآية تشترط الإجابة **بالإخلاص**، كقوله تعالى: ﴿**وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴿٢٩﴾﴾(الأعراف)، والدعاء بحسب الآية هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، والعبادات شُرعت للخضوع للبارى وإظهار الافتقار إليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**﴾، فعبّر عن عدم التذلل والخضوع **بالاستكبار**، ووضع «**عبادتى**» موضع «دعائى»، وجعل جزاء ذلك الاستكبار: الصغار والهوان.

•••

١٩٧٦ - ﴿الدعاء أولى أو السكون والرضا؟﴾

الدعاء هو الذى ينبغى ترجيحه لما فيه من إظهار الخضوع والافتقار. وقيل السكون والرضا أوْلى، لما فى التسليم من الفضل، لأن الداعى لا يعرف المقدور له، فإما أن دعاؤه يوافق المقدور فيكون الدعاء تحصيل حاصل، وإما أنه على خلاف المقدور فيكون الدعاء معاندة، كقوله تعالى فى الحديث: «**من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**». والصحيح أن الدعاء من جملة العبادة لما فيه من الخضوع والافتقار، فلا على الداعى إن دعا، ثم إنه إن اعتقد بأنه لا يقع إلا المقدور، فإن الدعاء يكون إذعاناً للمقدور وليس معاندة له. وإذن فالدعاء فى كل الأحوال **يترجم عن الحال**، ويفيد تحصيل الثواب، بامتثال الأمر والإقرار بأنه تعالى خالق الأسباب ومسبباتها. والدعاء أفضل إذا دعا الداعى بلسانه وقلبه راض، ولا يتأتى ذلك لكل أحد وإنما يختص به **الكُمَّل**، وما كان لله أو للمسلمين فيه نصيب فالدعاء أفضل، وما كان للنفس فيه حظ فالسكون أفضل.

•••

١٩٧٧ - ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾

نزلت الآية: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴿١١٠﴾﴾ (الإسراء) لتبيّن أن **أسماء الله** الحسنى لمسمى واحد هو الله، فإنْ دعاه الناس **بالله** فهو ذاك، وإن دعوه بالرحمن فهو ذاك. والدعاء لا يكون إلا **بالحسنى من الأسماء**، وحُسنُها يقتضى أن تكون معانيها حساناً شريفة، والأسماء الحسنى بتوقيف لا يصحّ وضع اسم له تعالى بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع.

•••

١٩٧٨ - ﴿فإنكم لا تدعون أصمَ ولا غائبا﴾

الدعاء إلى الله **بالرفق**، وفى الحديث لما صار المسلمون يكبّرون فى الغزاة، كلما توغلوا فى الأرض، أو صعدوا تلاً، أو هبطوا فى واد، فيرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل

قال: «يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم (أى كفّوا)، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً»، وأمرهم أن يقولوا: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، يريد أن الدعاء لا يفيد إلا بقوة الله، وأن الحول هو حول الله.

•••

١٩٧٩ - ﴿التأمين بعد الدعاء﴾

فى الحديث: «لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم إلا أجابهم الله تعالى»، وآمين مثل الطابع على الصحيفة، والداعى إذا كان ظالماً على مَنْ دعا عليه لا يستجاب دعاؤه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)﴾(الرعد).

•••

١٩٨٠ - ﴿لكل نبىّ دعوة مستجابة﴾

دعوة كل نبىّ لأمته، فهذه دعوته العامة، وله دعوات خاصة قد يستجاب لها أو لا يستجاب، وفى الحديث: «لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعةً لأمتى يوم القيامة» أخرجه البخارى، ومثل ذلك دعوة نوح، قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ (نوح)، ودعوة زكريا، قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥)﴾ (مريم)، ودعوة سليمان، قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي(٣٥)﴾(ص). ودعوة النبىّ العامة لأمته قد تكون بالإهلاك، أو تكون بالهداية كدعوة إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ (١٢٨)﴾(البقرة)، ونبيّنا ﷺ ادّخر دعوته لأمته يوم القيامة، والمراد بالأمة: أمة الدعوة لا أمة الإجابة، ولما دعا على بعض أُمتّه فى حياته نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ(١٢٨)﴾(آل عمران)، فبقيت تلك الدعوة المستجابة مدّخرة للآخرة.

•••

١٩٨١ - ﴿من أدعياته ﷺ﴾

كان النبىّ ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك ربىّ وضعت جنبى وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»؛ وكان إذا قام من نومه قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

- وإذا قام من الليل قال: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومَنْ فيهن، ولك الحمد، أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدُك حق، وقولُك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت،

فاغـفر لي مـا قدّمت ومـا أخّرت، ومـا أسررت ومـا أعلنـت. أنت المقدّم وأنت المؤخـرّ، لا إله إلا أنت».

ـ وكـان يدعو في الصـلاة: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغـفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم».

ـ وكـان يدعو إذا سلّم من الصـلاة: «اللهم أنت السـلام، ومنك السـلام، تبـاركت يا ذا الجلال والإكرام».

ـ وكان يدعو إذا انصرف من الصلاة: «اللهم أصلح لي ديني».

ـ وقـال يعظ أحبـابه: «تسبّحون، وتكبّرون، وتحمدون، دُبر كل صـلاة: ثلاثاً وثلاثين ـ إحدى عشرة، إحدى عشرة، إحدى عشرة، فذلك كله ثلاث وثلاثون».

- وكـان يدعـو عند الكرب يقـول: «لا إلـه إلا الله العـظيـم الحليم. لا إلـه إلا الله ربّ السموات والأرض وربّ العرش العظيم».

- ولقّنه الله تعالى أن يدعو فـيقول: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وهذا الدعاء هو ختام سورة الأنبياء، يأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يفوّض الأمر إليه، وأن لا يستعيـن على أعدائه إلا به، وأن لا يتوقع الفرج إلا من عنده، وكانت الأنبياء قبل ذلك يدعون ربّهم: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴿٨٩﴾﴾ (الأعراف)، فأمر الله نبيّـه ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾، فكان إذا لقي العدو يـقول وهو يعلم أنه على الحق، وعدوه على الباطل: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي اقضِ به.

•••

١٩٨٢ - ﴿الاستغفار والتوبة دعاء﴾

دعاء الاستـغـفار: هو طلب المغفرة، كـقوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (البقرة ٢٨٦)، وقول موسى: ﴿اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ (الأعراف ١٥١)، وقول إبراهيم: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الشعراء)، وقول نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾(نوح)، وقول هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾(هود٥٢)، وقوله تعالى للنبيّ ﷺ: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ (الممتحنة ١٢)، وقول بعضهم للنبيّ ﷺ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ (الفتح ١١) وفي الحديث: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي. اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، وكان النبيّ ﷺ يستغفر لنفسـه ويتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبـعين مرة، ويستغـفر للناس، وأمر الله بالتوبة الصادقة فقال: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٨﴾﴾(التحريم) وسميت نصوحاً أو ناصحة

لأن العبد ينصح نفسه فيها، **والتوبة**: هي أن يذنب الذنب فيستغفر ويندم ولا يرجع. **والله أسرع بإجابة الدعوة إذا سبقتها التوبة والاستغفار، وتوبة العوام** من الذنوب، **وتوبة الخواص** من الغفلة، **والتوبة** صفة عامة للمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون**﴾ (النور ٣١). والتوبة أقسام: **الأول التوبة**: يدعو بها التائب أن يعينه **الله** عليها؛ **والثاني**: الإنابة، **والثالث**: الأوبة، فمن يتوب لمراعاة أمر الله من غير خوف العقاب وليس طمعاً في الثواب فهو **صاحب توبة**. **والاستغفار**: من الغفران، وأصله **الغفر** وهو إلباس الشيء ما يصونه عما يدنّسه، والغفران من الله للعبد أن يصونه عن العذاب.



١٩٨٣ - ﴿من جوامع الدعاء﴾

قوله تعالى: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** (٢٠١)﴾(البقرة)، قيل: هذا الدعاء يعمّ الدنيا والآخرة، ولذا كان من **جوامع الدعاء**، وكان أكثر ما يدعو به النبيّ ﷺ، وكان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم في الموقف بهذه الآية.



١٩٨٤ - ﴿أي الدعاء أسمع؟﴾

سئل النبيّ ﷺ، قيل: يارسول الله: أي الدعاء أسمع؟ قال: «**جوف الليل الأخير ودُبر الصلوات المكتوبات**» أخرجه الترمذي. وأخرج الطبراني: «**الدعاء بعد المكتوبة أفضل من الدعاء بعد النافلة كفضل المكتوبة على النافلة**». وقال ﷺ: «**تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة، وعند رؤية الكعبة**»، وقال: «**من كانت له إلى الله حاجة فليدعُ بها دُبر كل صلاة مفروضة**». وقال: «**ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل؛ والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الربّ تبارك وتعالى: وعزّتي لأنصرنك ولو بعد حين**».



١٩٨٥ - ﴿دعاء حملة العرش﴾

حملة العرش هم أشراف الملائكة وأفاضلهم، يطوفون بالعرش مهللين مكبّرين، ينزّهون الله عمّا يقوله الكفّار، ويسألون المغفرة للذين آمنوا، يقولون: ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** (٧) **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم** (٨) **وقهم**

السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾(غافـر). وفي هـذا الدعاء أن أنصح عباد الله لعباد الله هم الملائكة. وأغش عباد الله لعباد الله هو الشيطان.

●●●

١٩٨٦- ﴿دعاء إبراهيم لنفسه ولوالديه وللمؤمنين﴾

قال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)** ﴾(إبراهيم)، فدعا ربّه أن يتقبّل دعاءه، **والدعاء** عبادة، وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، وشكر الله على الولد، واستغفر لوالديه وللمؤمنين يوم الحساب.

●●●

١٩٨٧- ﴿دعاء إبراهيم في البيت الحرام﴾

قال إبراهـيم: ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾(البـقرة١٢٦) فسأله تعالى أن يجـعل مكة آمنة من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهلها، وفي الحديث: «**إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها، وإني حـرّمتُ المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صـاعها ومُدّها بمثليّ ما دعا إبراهيم لأهل مكة**». وقـال إبراهيم: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾(البـقـرة)، يدعو ربّه أن يتقبـل إسهامه وابنه إسماعيل في رفع قـواعد البيت، وهي دعوة كل من **يستهل** عـملاً لوجه الله. قـال: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)**﴾(البقرة)، يقصد نفسه وابنه إسماعيل، **وإسلامه** يعني به **الإيمان** كما في قوله تعالى: ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)** ﴾(الذاريات)، فالمسلمون هم المؤمنون. ولم يدعُ لنفسه وأمته سوى إبراهيم، **والأمة المسلمة** اصطلاح إبراهيم، وقوله «**ومن ذريتنا**» حيث من للتبعيض، لأنه من هذه الأمـة سيكون البعض من الظالمين، **وذرية إبراهيم وإسمـاعيل** هـم العرب: **بنو نبت بن إسماعيل**، أو **بنو تيمن بن إسماعيل**؛ **والعرب العدنانية** من بني نبت بن إسمـاعيل بن إبراهيم، **والعرب القحطانية** من بني قيد أو تيمن بـن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم. **والأمّة** هي الجماعة. **والمناسك** هي العبادات، والمراد بها **مناسك الحج** ومعالمه، قيل: إن جبريل حجّ بإبراهيم بعد إتمامه بناء البيت، فوقف به في عرفة، وفي رجوعه من عرفة عرض له إبليس فحصبه **سبع حصيات** كأمر جبريل، ثم علا جبل شبير وأذّن للحج، فقال الناس: **لبيك اللهم لبيك**. وأراه **الطواف**، **والصفا والمروة، والعقبة**، وعلّمه أن يكبّر، وأن يحصب الشيطان سبع حـصيات عند جمرة **العقبة، والجمرة الوسطى**، وعنـد **الجمـرة القصوى**، والصلاة جمعاً، وقدوم **منى والمزدلفة**. وسُمّيت «**عرفات**» كذلك لأن إبراهيم فيها

عَرَف. وقيل المناسك هى: الصفا والمروة، وحَصْب إبليس بجمرة العقبة، ثم بالجمرة الوسطى، ثم بالجمرة القصوى سبع حصيات فى كل مرة. وعلّمه الطواف سبعاً، واستلام الأركان كلها فى كل طواف، والصلاة خلف المقام ركعتين. وقيل فى المسجد الحرام قبران: قبر إسماعيل فى الحِجْر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود. وكان طلب إبراهيم للتوبة للتثبيت والدوام. وقال إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾(البقرة)، والرسول هو محمد ﷺ، والكتاب هو القرآن، والحكمة هى السُّنّة - وقيل الفقه - ويزكّيهم يطهّرهم من الشرك.

●●●

١٩٨٨ - ﴿دعاء إبراهيم يعلم المؤمنين﴾

هو قوله: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) ﴾(الممتحنة)، نتأسّى ونقتدى به فى الدعاء، يعلّم المؤمنين أن يدعوا به، وأن يتبرءوا من الكفر والكفّار ويتوكلوا على الله. وقولنا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى اعتمدنا، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أى رجعنا، ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أى لك الرجوع فى الآخرة، وقوله: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى لا تظهر عدونا علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك، أو لا تسلطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا.

●●●

١٩٨٩ - ﴿دعاء قوم طالوت﴾

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) ﴾(البقرة)، وكانوا يواجهون قوم جالوت، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا (١٤٧)﴾(آل عمران)، وفى ذلك كان رسول الله ﷺ إذا لقى العدو يقول فى القتال: «اللهم بك أصول وأجول» أخرجه أبو داود، وكان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم وأجعلك فى نحورهم» أخرجه أبو داود. وما وَهَن أصحاب طالوت وكانوا ربيين - أى علماء صابرين، والله يحب الصابرين، ودعوا فأحسنوا الدعاء: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾(آل عمران)، والذنوب هى الصغائر، والإسراف هو الإفراط ومجاوزة الحد، يعنى الكبائر، وفى الحديث أن النبىّ ﷺ كان يدعو: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى»، فعلى كل مسلم أن يستعمل ما فى كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، وقد اختار الله لنبيّه ﷺ هذا الدعاء.

●●●

١٩٩٠ - ﴿دعاء الراسخين فى العلم﴾

هو قـولهم: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾(آل عمران)؛ وإزاغـة القلـب هى الفساد والميل عن الدين. وكان أبو بكر يكثر من القراءة بهذه الآية: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾، نوعاً من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردّة.

●●●

١٩٩١ - ﴿دعاء المؤمنين﴾

هو دعاؤهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾(آل عمران)، قيل إنه لما نزلت هذه الآيات على النبىّ ﷺ بكى وقـام يصلى، وكان يقـرأها كل ليلة، ويذكر الله على كل أحـيانه، وأنه ما خلق الكون عبـثاً وهزلاً، ومعنى «سبـحانك» تنزيهه تعالى عن السوء؛ و«المنـادى للإيمان» هو النبىّ ﷺ؛ و«الأبرار» فى الآية من البرّ وأصله من الاتساع، فطاعة الله فى البرّ مـتسـعة، والأبرار متـسعـة لهم رحمة الله، ووعـدُ الله أن الجنة لمن آمن، والمؤمنون يسألونه أن يكونوا ممن وُعدوا بذلـك دون الخزى والعقاب، ودعوا بهذا الدعـاء على جهة العبادة والخضوع، والدعاء مخ العبادة، وسألوه النصر على عدوهم فاستجاب لهم، فدعوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾(البـقـرة)، كـقـوله ﷺ: «رُفع عن أمتى الخطأ والنسيـان وما استُكرهوا عـليه»، و«الإصـــر» هو الثقل، أو شدة العمل، فقد كـانوا يحملون أموراً شداداً، وهو ضيق الحال والذنوب. وفى الحديث: «من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة، كَفَتاه» من أول «آمن الرسـول» إلى آخر سورة البقرة.

●●●

١٩٩٢ - ﴿دعاء التابعين ومن دخل الإسلام إلى يوم القيامة﴾

الناس فى الإسلام بحسب إسهامهم فيه، وهم ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوءوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم (الحشر ٨- ١٠)، كالمثل الذى يقول: كن شمساً، فإن لم تستطع فكن قمراً، فإن لم تـستطع فكن كوكباً مضيئاً، فإن لم تستطع فكن كـوكباً صغيراً. والمؤمن قدوته المهاجرون فليكن مهاجراً، فإن لم يجد فليكن أنصارياً، فإن لم يجد فليعمل

أعمالهم، فإن لم يستطع فليحبهم ويستغفر لهم. وقد مضت منزلتان من هذه المنازل الثلاثة وبقيت منزلة هي التى نحن فيها، وهى منزلة «من جاءوا بعدهم»، أى التابعين، وهؤلاء يدعون: **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾**(الحشر).

●●●

١٩٩٣- ﴿دعاء أهل الكهف﴾

هؤلاء اشتغلوا بالدعاء ولجأوا إليه تعالى فقالوا: **﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾**(الكهف)، والرحمة فى حالتهم هى: المغفرة والرزق؛ والرَّشَد: هو التوفيق للرشاد، يسألونه مخرجاً من ورطتهم والمأزق الذى هم فيه، ومن ذلك أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. كأهل الكهف قالوا: **﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)﴾** (الكهف)، أى ذكروا الله على هدايته، وشكروه لما أولاهم من نعم، ووحّدوه، ولو فعلوا غير ذلك لكان ضلالاً منهم.

●●●

١٩٩٤- ﴿دعاء أولى الألباب﴾

أولوا الألباب هم أصحاب العقول، وبالمصطلح المعاصر العقلانيون، وهؤلاء يستعملون عقولهم فى تأمل الدلائل، ودعاؤهم فيه من ذلك الكثير، يقولون: **﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾**(آل عمران)، فالكون لم يخلق عبثاً وهزلاً، ودلل بخلقه على قدرته وحكمته ووحدانيته، والمنادى فى الآية هو محمد ﷺ، والأبرار هم الأنبياء.

●●●

١٩٩٥- ﴿دعاء أيوب﴾

هو قوله: **﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾**(الأنبياء)، والدعاء أصلاً إخبار عن حالة وليس شكوى لبلاء، وإقرار بالعجز لا ينافى الصبر، ودعاء أيوب أجراه الله على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح عمّا ينزل بهم.

●●●

١٩٩٦- ﴿دعاء نوح﴾

فى هذا الدعاء ذِكر البسملة عند كل فعل، قال نوح: **﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ**

ربى لغفور رحيم (٤١)﴾(هود)، وفى قراءة بضم الميم فى **مُجريها ومُرساها** على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها، وفى قراءة بفتح **مَجريها** وضم **مُرساها**، وفى رواية: «**بسم الله مَجراها ومَرساها** بفتح الميم فيهما. وفى الحديث: «**أمانٌ لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى الفلك قالوا: «بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم»**.

●●●

١٩٩٧- ﴿الدعاء بالولد﴾

الولد يجوز الدعاء به كقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)** ﴾(الفرقان)، والقُــرّة: ما تستريح له العين وتطمئن وتهدأ، ولا يكون الداعى إماماً إلا لو اتّقى وكان قدوة، وكان الصحابة لذلك يدعون: «**اللهم اجعلنا من أئمة المتقين**»، والإمام هو الأمير، **والإمامة بالدعاء لا بالدعوى**، وبتوفيق الله وتيسيره ومنّته، لا بما يدّعيه كل أحد لنفسه، والداعى لم يطلب الرياسة بل أن يكون قدوة فى الدين وإماماً للهدى، كقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا(٢٤)**﴾(السجدة)، والآية دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندب.

●●●

١٩٩٨- ﴿الدعاء عند الكرب﴾

هو قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)**﴾(آل عمران). وقيل: هذا الدعاء، ما من مسلم يدعو به وهو مكروب أو غارم أو ذو دين، إلا قضى الله عنه وفرّج همّه، فهكذا علّم رسول الله معاذ بن جبل.

●●●

١٩٩٩- ﴿دعاء زكريا﴾

هو دعاء طلب الذرية، يقول: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)**﴾ (آل عمران)، والذرية تكون واحداً وتكون جمعاً، ذكراً وأنثى، وهو فى هذا الدعاء **واحد** بدليل قوله: ﴿ **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥)** ﴾(مريم) ولم يقل أولياء. ودعاء زكريا: ﴿**لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)**﴾(الأنبياء)، سأله الولد ليرثه، قيل يرث **علمه**، وقيل ماله فقد كان غنياً، ولذا قال: «**وأنت خير الوارثين**»، فالمال مال الله، وهو الذى يرث الأرض وما عليها ومن عليها، ولكنه دعاه يؤكد به فضيلة الميراث فى عقبه، ليحمل اسمه وعلمه ورسالته.

●●●

٢٠٠٠- ﴿دعاء ذى النون﴾

دعا ربّه فقال: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾الانبياء)، وفى الحديث عن هذا الدعاء، قال: «لم يدعُ به رجل مسلم فى شيء قط إلا استجيب له» أخرجه الترمذى. وفى الخبر أن فى هذا الدعاء شَرَط الله لمن دعــاه أن يجيبه كما أجاب يــونـس، وينجّـيه كـما نجّـاه وهو قوله تعـالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء٨٨).

٢٠٠١- ﴿التعوّذ دعاء﴾

التعوّذ من عاذ أى التجأ واعتصم، يقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أى التجىء وأعتصم؛ وأعيذك بالله، أى حفظك الله؛ والتعوّذ دعاء، وكان النبىّ ﷺ يتعوّذ من الفتن فيقول: «نعوذ بالله من الفتن»، ومن غلبة الرجال فيقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهمّ والحَزَن، والعجز والكسل، والبُخل والجُبن، وضَلَع الدَّين، وغلبة الرجال»؛ ومن عذاب القـبر فيقول: «اللهم إنى أعوذ بك من عـذاب القبر»، وتعوّذ من فتنة المحيـا والممات، ومن المأثم والمغرم، وفتنة النار وعـذاب النار، وفتنة الغنى والفقـر، وفتنة المسيح الدجّال، ومن أرذل العـمر، وفتنة الدنيا.

●●●

١٢ ﴿الصيام والفطر والطعام والشراب﴾

●●●

أولاً: ﴿الصيام والفطر﴾

٢٠٠٢- ﴿هل الصوم فى الإسلام مأخوذ عن اليهودية؟﴾

ذلك افتراء المبـشّرين النصارى والمستشرقـين اليهود، وجـولدتسـيهـر ألدّهم عــداوة للإسلام، وأكثـرهم تجنّياً على الرسول ﷺ. ولو قارنا بين الصيـام عندنا وعندهم لتبين كذب كل هؤلاء، ولاتضحت المغالطات التى ساقوها برهاناً على افتراءاتهم. والصيام فى اللغتين العـبرية والعربية قد يعنى الإمـساك عن الطعام، أو عن الكلام، أو عن الوطء، أو عن ذلك كله، ولكنه شرعاً لم يفرض كشريعة فى اليهودية، ولم يرد لفظ الصوم فى أسفار موسى الخـمسة التى يُطلق عليها اسم التـوراة، وإنما هناك يوم واحـد اصطلح اليهود على الصوم فيه وهو يوم الكفّارة، اعتماداً على أنه قد ورد فى سفر الأحبار أو اللاويين: «فى اليوم العاشر من الشهـر السابع تذللّون نفوسكم ولا تعملون» (١٦/ ٢٩)، و«فتـذللون نفوسكم فى التاسع من الشهر من العشاء إلى العشاء» (٢٣/ ٢٧)، وفى سفر العدد: «وفى اليوم العاشر من الشهـر السابع هذا محفل مـقدس يكون لكم تقمـعون فيه نـفوسكم وعمل خدمـة لا تعملوا»

(٧/٢٩). وكما ترى فإنه لا توجد لفظة صيام ضمن هذه النصوص، إلا أن بعض المفسرين ـ وليسوا جميعاً ـ قالوا إن «تذليل النفس» لا يكون إلا بالصيام، وعلى ذلك جعلوا يوم الكفارة هو يوم صيام، أي امتناع عن الطعام والملذات، من العشاء حتى العشاء، وهذا هو الصيام الوحيد المفروض، وهو عبارة عن يوم واحد، ولم يكن هناك سواه إلا الصيام التطوعي، فقد ورد أن داود صام لله علّه يُبقى له ولده، فلما مات لم يجد مبرراً لصيامه فقال: «لمّا كان الصبى حياً صُمتُ وبكيتُ، لأني قلت من يعلم، لعل الله يرحمني ويحيا الصبي، وأما الآن فقد مات، فلماذا أصوم؟» (الملوك الثاني ١٢/ ٢٢ ـ ٢٣). ولعله لهذا قد يكون الحديث النبوى عن صيام داود حديثاً موضوعاً لا أصل له، أو تكون قصة التوراة عن داود ملفقة ولا أساس لها، وتتصادم بشدة مع مزامير داود، وفيها تظهر شدة تقواه وخوفه من الله. وكلام داود السابق في سفر الملوك لا ينبيء عن تقوى ولا حتى إيمان بالله. والصيام كان اليهود ينادون به أحياناً في الشدائد لعلها تنفرج ـ كما فعل عزرا (٨/ ٢١)، وقد تفعل الجماعة الصوم معاً ـ الصوم الجماعى ـ كصيام بنى إسرائيل فى سفر نحميا (٩/ ١)، فكلما استشعرت الجماعة الخطأ لجأت إلى الصيام تكفيراً، ولم يكن مجرد الإمساك عن الطعام، وإنما العزوف عن الملذات طلباً للرحمة (إشعيا ٥٨/ ٣)، وقد صام الناس فى عهد زكريا الشهور: الرابع، والخامس، والسابع، والعاشر، تذكاراً لحصار أورشليم، وكانوا يفترشون المسح والرماد ولا يغتسلون، ويصرخون ويتضرعون ويبكون (أشعيا ٢٢/ ١٢)؛ وكانت حنّة النبيّة تتعبّد دوماً بالصوم والصلاة؛ وصام الفريسيون يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (لوقا ١٨/ ١٢)، وكانوا فى صيامهم يراءون (متىّ ٦/ ١٦ ـ ١٨). ولم يكن اليهود يصومون السبت، ولا الأهلّة، ولا الأعياد. ولما جاء المسيح ـ وهو يهودي أصلاً ـ وأمه مريم يهودية، لم يصم ـ لا هو ولا تلاميذه فى حياته، إلا أن المسيحيين من بعده صاموا فى مناسبات خاصة (أعمال الرسل ١٣/ ١ و ٢٣ /١٤)، وذلك هو كل الصيام عند اليهود والنصارى. وجاء فى التوراة عن موسى أنه على طور سيناء: «أقام أربعين يوماً وليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء وكان يكتب كلام العهد على اللوحين» (الخروج ٣٤/ ٢٨)، فلم يُذكَر صراحة أنه صيام بالمعنى الاصطلاحي، ولم يكن إمساكه أو عزوفه عن تكليف ولكنه طوعى. وفى القرآن عن ذلك: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ (البقرة ٥١)، فلو كان إمساكه عن الطعام والشراب صياماً، لَذَكَرهُ صراحةً. وفى سفر الملوك الأول، أن إيليا أمره المَلَك أن يأكل ويشرب استعداداً للطريق الطويل أمامه: «فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين يوماً وأربعين ليلة إلى جبل حوريب» (١٩/ ٨)، وذلك ليس صياماً بالمعنى الاصطلاحي، لأنه كصيام موسى يخلو من النية، وليس كذلك الصيام فى الإسلام، لأنه

فريضة، وله زمن محدد شهر رمضان، وله مواصفات خاصة وشروط، وهو ركن من أركان الدين، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)**﴾ (البقرة). وتبرير كتابته أو تقريره على المسلمين أنه خير، لأن فيه تزكية للنفس وطهارتها، والسيطرة عليها والتحكُّم فيها، وتنقيتها من الأخلاط الدنيئة والصفات الرذيلة، ثم إن الله قد أوجبه على المسلمين لأنه أوجبه على الأمم السابقة، فهو فطرة، ولنا فيهم أسوة، ولتجتهد كل أمة فى أداء هذا الفرض على أكمل وجه كما قال تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾(البقرة ١٤٨). وينبّه الرسول ﷺ إلى مزايا الصيام فيقول فى حديث الحضّ على الزواج: «**ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»، و«**الصوم الوجاء**» هو الذى ينجو بصاحبه من التردِّى فى مسالك الشيطان. ومعنى أن الصيام أيام معدودات، لأنه أول ما فُرض فى ابتداء الإسلام والناس لم تعتده، فكان لثلاثة أيام من كل شهر، ثم صار التكليف بصيام شهر رمضان كله، كقوله: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)**﴾ (البقرة)، وعلى ذلك كان الصيام شهراً بالإضافة إلى الأيام المعدودات من بقية الشهور. واختيار رمضان للصيام لأنه الشهر الذى أُنزل فيه القرآن العظيم: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)**﴾ (القدر)، و﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾(الدخان ٣)، وليلة القدر كانت فى رمضان. وللصيام أكبر المنزلة فى الإسلام، فعن النبىّ ﷺ عن ربّه عزَّ وجلّ: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به**»، وعنه قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام أى ربٌ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفّعنى به، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفّعنى فيه - فيُشفّعان**» رواه أحمد. والشهوات هى التى يتضمنها حديثه ﷺ: «**فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث** (يعنى يفحش)، **ولا يصخب** (يعنى يتصايح ويشخط فى الناس بعصبية بسبب الامتناع عن الطعام)، **ولا يجهل** (يعنى يسفه)، **فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم**». والصوم عند المسلمين على ذلك أكبر وأهم وأشمل مما عند اليهود والنصارى، ولا ينبغى أن يقارن ما عندنا بما عندهم، فالصوم عندنا فرضٌ وتطوع، ويشمل صوم رمضان، وصوم الكفّارات، وصوم النذر. وأركان الصوم: إمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولا يكون الإمساك إلا بنية الصوم، فعن الرسول ﷺ: «**من لم يُجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له**» رواه أحمد. وتجزىء نية صيام التطوع

من النهار. والصيام واجب على كل مسلم عاقل بالغ. ولا صيام على مجنون، ولا صبى، ولا **حائض**، ولا **نُفَساء**. **والشيخ الكبير**، **والمرأة العجوز**، **والمسافر**، **والمريض**: يُرخَص لهم الفطر إذا كان الصيام يجهدهم. وكذلك **الحُبلى والمرضع** إذا خافتا على نفسيهما التلف وأن يتأثر الجنين أو الرضيع. وعلى الشيخ والعجوز الفداء، وعلى **الحبلى والمرضع**: **الفداء والقضاء** إن خافتا على الولد، وعليهما **القضاء فقط** إن خافتا على نفسيهما أو على نفسيهما والولد. **والحائض والنُفَساء**: عليهما **القضاء**. والمسلم **منهىٌ عن الصوم**: يومى العيد، وأيام التشريق، ويوم الجمعة منفرداً، ويوم السبت منفرداً. **ويُكره التعجيل** بصيام يوم قبل دخول رمضان مخافة أن يكون رمضان قد حان قبل بدايته بيوم. **ونُهى عن صيام الدهر**، **وصيام الوصال**؛ **ورُغِّب فى صيام التطوع**: ستة أيام من شوال، **وعشر** ذى الحجة. ولما سُئل الرسول ﷺ عن أفضل الصيام بعد رمضان قال: «**شهر الله الذى تدعونه المحرم**» رواه أحمد. وأوصى ﷺ **بصيام يوم عاشوراء**، **واليوم التاسع**، **والحادى عشر**. وكان يصوم أكثر **شعبان**. ومن **المستحبات**: الإكثار من الصيام فى الأشهر الحُرم: **ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم، ورجب، ويومى الاثنين والخميس** من كل أسبوع، **وصيام يوم وفطر يوم**. ومن **آداب الصيام**: **السحور**، **والتعجيل** بالفطر عند الغروب، والدعاء عند الفطر وأثناء الصيام، ونظافة الفم، والتصدّق، ومدارسة القرآن، والاجتهاد فى العبادة فى العشر الأواخر من رمضان. وللصيام **مباحات**: كتعاطى قطرة العين، والحقنة للتداوى. ويُبطل الصيام الأكل والشُّرب العمد. ومن مات وعليه صوم فإن وليّه يُطعم عنه. ويستحب قيام **ليلة القدر** من رمضان والدعاء فيها. وكان النبىّ ﷺ **يعتكف** فى رمضان **عشرة أيام**، وكذلك يفعل المسلمون. **والاعتكاف** مسنون، ومنه الواجب بالنذر.

فهذا هو صيام المسلمين، فأى شىء من ذلك عند اليهود أو النصارى؟ ولماذا هذا الحقد حتى ليتّهمنا اليهود بأننا أخذنا عنهم كلَّ ديننا، وبالأمس ادّعوا بأن الأهرام هم بُناتُها وليس المصريون! وهى خصلة رديئة فيهم، لاحظها أهل الفكر من أمم أوروبا ونوّهوا بها: أن اليهود دائمو السطو على ثقافات ومنجزات غيرهم!

●●●

٢٠٠٣. ﴿شهر رمضان﴾

أهل التاريخ على القول بأن كل الشعوب عندها صيام، وأول من استن الصيام كان نوح. وكان اسم رمضان فى الجاهلية «**ناتق**»، وجمع رمضان **رمضانات وأرمضاء**. وعنه ﷺ قال: «**إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الرحمة، وغلّقت أبواب النار، وصفّدت الشياطين**»، وقال: «**أتاكم رمضان، شهر مبارك، فرَضَ الله عزّ وجلّ صيامه، تُفتح فيه أبواب**

السماء. وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغلّ فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، مَن حُرِم خيرها فقد حُرِم»، وقال: «إذا كان رمضان فاعتمرى، فإن عمرة فيه تعدل حجّة»، وقال: «إن الله تعالى فرض صيام رمضان عليكم، وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

والشهر: مشتق من الإشهار، لأنه مشتهر لا يتعذّر علمه، ومنه يقال شهرتُ السيف إذا سللته. ورمضان مأخوذ من رَمَض الصائم يَرْمَضُ، إذا حرّ جوفه من شدة العطش. والرمضاء شدة الحر، ومنه الحديث: «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال»، ورَمْضُ الفصال: أن تحرق الرمضاء أخفافها، فتبرك من شدّة حرّها. والفصيل صغار النوق. وقيل إن أول ما فُرض رمضان على العرب فى الجاهلية وافق شدّة الحر، فسمّوا الشهر رمضان من الرمضاء. ولم يكن اسمه رمضان وإنما كان اسمه «ناتق»، والعرب أخذوا «الشهر» ميراثاً عن اللغة السامية الأم، وسمّوا الشهور عندهم بالأزمنة التى وافقتها، فوافق شهر رمضان شدة الحرّ فسمى بذلك، أو أنه سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها، من الإرماض وهو الإحراق. وقيل: لأن القلوب ترمض فيه من شدة الموعظة والتفكير فى أمر الآخرة كما يرمض الرمل والحجارة من حرّ الشمس. والرمضاء الحجارة المحماة. وقيل: هو من رمضتُ النصل أرمضُه رمضاً، إذا سويته ليرق، ومنه نَصْلٌ رميض، ومرموض، وسمى الشهر به لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم فى رمضان، ليحاربوا بها فى شوّال قبل دخول الأشهر الحُرم. ويُنسَب رمضان إلى الشهر، وفى الحديث: «لا تقولوا رمضان بل انسبوه كما نسبه الله فى القرآن فقال: «شهر رمضان». ويجوز إطلاقه من غير إضافة شهر.

ويعنى صيام شهر رمضان مدة هلاله، وبه سمى الشهر كما فى الحديث: «فإن غُمى عليكم الشهر»، أى الهلال، وفُرض علينا عند غُمّة الهلال إكمال عدّة شعبان ثلاثين يوماً، وإكمال رمضان ثلاثين يوماً، وفى الحديث: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فأكملوا العدة» أو قال: «فإن غُمى عليكم الشهر فعدُّوا ثلاثين». ويثبت الهلال بشهادة اثنين، والأسلم الآن التعويل على المناظير الفلكية ووسائل الإعلام. وقال بعضهم لو صام أهل بلد تسعة وعشرين يوماً فالواجب قضاء يوم، لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾(البقرة ١٩٥) طالما أنه قد ثبت برؤية أهل بلد أن العدة ثلاثون يوماً فيجب إكمالها على من أنقصوها. والبعض يحتجّون بالحديث: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وهذا يوجب اعتبار عادة كل قوم فى بلدهم.



٢٠٠٤. ﴿أول ما فرض صيام عاشوراء﴾

كان النبىّ ﷺ يصوم عاشوراء وأمر بصيامه. فلما فُرض رمضان تُرك فلا فرض إلا

رمضان، وفيه حُصر الفرض. وكانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، ولم يأمر النبيّ ﷺ بصيامه إلا بعد هجرته إلى المدينة في ربيع الأول، وأمر بصيامه في أول السنة الثانية، وفيها فرض شهر رمضان، وعلى ذلك لم يقع الأمر بصيام عاشوراء إلا في سنة واحدة. فلما فرض رمضان قال رسول الله ﷺ: «من شاء فليصمه، ومن شاء أفطره، وأنا صائم»، يعني أنه في صومه آثر التطوع. وأما صيام قريش لعاشوراء فلعلهم تلقوه من الشرع السالف، ولهذا كانوا يعظّمونه بكسوة الكعبة فيه. وصامه المسلمون لأنهم رأوا نبيّهم ﷺ يصومه، حتى قال ابن عباس: ما رأيتُ النبيّ ﷺ يتحرّى صيام يوم فضّله على غيره إلا هذا اليوم: يوم عاشوراء، وهذا الشهر: شهر رمضان.

واسم عاشوراء معدول عن عاشرة للمبالغة والتعظيم، وهو في الأصل صفة لليلة العاشرة، لأنه مأخوذ من العشر الذى هو اسم العقد، فإذا قيل يوم عاشوراء فكأنه يوم الليلة العاشرة، وعلى ذلك فيوم عاشوراء هو العاشر، وهو مقتضى الاشتقاق والتسمية. وكان رسول الله ﷺ يصوم العاشر وهَمّ بصوم التاسع معه، قيل: ليخالف اليهود في صومهم لهذا اليوم، وقال: «صوموا يوماً قبله أو يوماً بعده»، وكانت اليهود تصومه بدعوى أن الله نجّى بنى إسرائيل من عدوهم في ذلك اليوم، وصامه موسى، فلما قيل ذلك للنبيّ ﷺ أول قدومه المدينة قال: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه. والصحيح أن هذا التبرير من تلفيقات الإسرائيليات، لأن التقويم الهجرى لا يوافق التقويم العبرى، وعاشوراء عند المسلمين في العاشر من محرّم لا توافق عيد اليهود هذا المنوّه عنه، وقد نبّه إلى ذلك زيد بن ثابت فقال: ليس يوم عاشوراء باليوم الذى يقول الناس: إنما كان يوم تُستَّر فيه الكعبة، وكان يدور في السنة، فالعرب كانت تحتفل بيوم غسل الكعبة وسترها بالسترة الجديدة، فكانت تصوم، فشنّع اليهود هذه التشنيعة: أن عاشوراء يوم نجىّ الله موسى ليُظهروا هيمنة اليهودية على الإسلام، وعاشوراء العربية لا يمكن أن توافق عيد اليهود هذا حتى يُنسب للنبيّ ﷺ أن يقول: أنا أولى بصيام هذا اليوم منهم!!!



٢٠٠٥. ﴿كتب الصيام على المسلمين كما كتب على غيرهم﴾

في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة١٨٣)، ومعنى «كُتب» أى تقرر عليهم الصيام وألزمهم إياه وأوجبه عليهم بالفطرة إلا في الإسلام فكان بالتكليف، وفي الحديث: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج» أخرجه البخارى، وكل الشعوب بطريقة أو بأخرى - تصوم، ولا يوجد دين ولا عقيدة إلا وفيه

الصوم، ومن معانيه الصمت، والإمساك عن الطعام، واجتناب المحظورات، وعدم الوقوع في المحرّمات. ومن أفضال الصوم في الإسلام أن أضافه الله إليه، وفي الحديث: «**يقول الله تبارك وتعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به**»، وإنما خصّ الصوم لأنه سرّ بين العبد وبين ربّه لا يظهر إلا له، فلربما يصوم الصائم رياءً لا يعلمه إلا الله.

●●●

٢٠٠٦. ﴿الصوم لله﴾

في الحديث: «**الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها**»، أن الأعمال كلها لله، وفيها جميعاً يقع الرياء، إلا الصوم، لأنه شيء في القلب، والأعمال كلها لا تكون إلا بالحركات إلا الصوم فإنه بالنية التي تَخفى عن الناس. والأعمال كلها معلومة الأجر والثواب، إلا عمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله، وهو الصيام. وكل الصوم كفّارة، ومن ذلك الحديث عن صيام عرفة، وصيام عاشوراء، قال: : «**صيام عرفة يكفّر سنتين، وصيام عاشوراء يكفّر سنة**».

●●●

٢٠٠٧. ﴿في الجنة باب اسمه الريان يدخل منه الصائمون﴾

هذا حديث لرسول الله ﷺ، والجنة أبواب، فمن كان من **أهل الصلاة** دعي من **باب الصلاة**، ومن كان من **أهل الجهاد** دعي من **باب الجهاد**، ومن كان من **أهل الصيام** دُعي من **باب الريّان**، ومن كان من **أهل الصدقة** دعي من **باب الصدقة**، واسم **الريّان** ضد العطشان، مشتق من الرِّيّ وهو التزوّد بالماء، وهو مناسب لحال الصائمين، فهو اسم مما وقعت المناسبة بين لفظه ومعناه.

●●●

٢٠٠٨. ﴿صوموا تصحّوا﴾

في الحديث: «صوموا تصحّوا»، وفي الآية: **﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾**(البقرة): أن فضل الصوم عظيم، وثوابه جسيم، ولذلك خصّه الله تعالى بالإضافة إليه كما في الحديث: «**يقول الله تبارك وتعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» أخرجه البخاري، **فالصوم لله تعالى**، وإن كانت كل العبادات له، **لأمرين** باين الصوم بهما سائر العبادات، **أحدهما**: أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا تمنع منه سائر العبادات؛ **والثاني**: أن الصوم سرٌّ بين العبد وبين ربّه لا يظهر إلا له، فاختصّ به، وأما ما سواه من العبادات فظاهر للناس، فربما فعلها المرء تصنّعاً ورياءً. وتأكد بالعلم الحديث أن «**الصوم**» أفضل ما كتب الله على الإنسان من العبادات، وأظهرت الدراسات أن

الأداء البدنى للصائم من طلوع الفجر الصادق إلى الغروب، أفضل من أداء غير الصائم، فإن السبب فى ذلك أن تحمّل بدن الصائم للمجهودات العضلية يزيد، ويتحسن عنده أداء القلب وبقية الجهاز الدورى، والجهاز الهضمى، والجهاز التنفسى، وكل ما عداها من أجهزة الجسم، فلا يكاد يشعر الصائم بالإجهاد طوال اليوم، فإذا امتد الصوم إلى ما بعد المغرب وتجاوز متوسط مدة الصوم التى شرعها الله، وهى من إحدى عشرة إلى أربع عشرة ساعة فى المتوسط، يبدأ الأداء فى التأثر، ويبدأ الشعور بالإعياء. والصيام يسبب انصهار الدهون فى الجسم، فتزيد الأحماض الدهنية الحرة فى الدم لتصبح المصدر الرئيسى لطاقة الصائم بدلاً من سكر الجلوكوز عند المقطر، ويقل بذلك استهلاك الجليكوچين فى العضلات وفى الكبد كلما قام الصائم بعمل مجهد، وكذلك ينضبط مستوى سكر الجلوكوز فى الدم، فلا يشعر الصائم بالإعياء، على عكس المفطر الذى يتوقف ما يبذله من جهد على مستوى هذا السكر، فإن انخفض عن مستواه أضناه الجهد بسرعة. وأيضاً فإن الحالة النفسية للصائم أفضل من مثيلتها عند المفطر، لشعور الصائم أنه يتعبّد لله بصومه، وان صومه قُربات من الله، وهذا الشعور بالرضا النفسى يزيد عنده إفراز العديد من الهرمونات النافعة، مثل الأندروفين، التى من شأنها تحسين الأداء البدنى وقلة الشعور بالإعياء. ويوقف الصيام سيطرة العادة اليومية فى تناول الوجبات الثلاث، فلا يصبح الإنسان عبداً لما اعتاده، ولا لبطنه يتحكم فيه الجوع ويوجه سلوكه، ويعلّم الصيام صاحبه أن يسيطر على نفسه ويملك زمام أمره لمدة شهر كامل، فضلاً عن أن توقفه عن تناول الوجبات اليومية بانتظام يريحه مما تراكم فيه على مدار السنة من دهون وشحوم وفضلات وسموم، وفيروسات وطفيليات، وغيرها، ولذلك شرع الله الصيام وجعله شهراً، وشرع نبيّه صوم التطوع، وصوم الكفّارات، وصوم النذر على مدار السنة، وكان النبىّ ﷺ من المواظبين على صوم التطوع، وأوصى به أُمتّه، وقال قولته المشهورة: «صوموا تصحّوا»، وحذّر من النَّهَم، والتُّخمة، والجشع، والإسراف، سواء فى الطعام والشراب أو غير ذلك من وجوه الإسراف، وكان ذلك قبل ألف وأربعمائة سنة من الآن، وأكدت صدْقه الكشوف العلمية، وهذا إعجاز علمى فيه الدليل الثابت على أن القرآن من عند الله تعالى، وأنه منزّل على محمد وحياً وصدقاً، وكان علِمه ﷺ الذى ما صادرت الكشوف على مقولة واحدة منه، وحياً من الله تعالى لنبيّه.



٢٠٠٩. ﴿ليل رمضان ظرف للأكل والشرب والجماع﴾

جعل الله الليل فى رمضان ظرفاً للأكل والشرب والجماع فى الآية: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ

إلى الليل﴾ (البقرة ١٨٧)، كما جعل **النهار** ظرفاً للصيام، فبيّن أحكام الزمانين وغاير بينهما، فلا يجوز في النهار شيء مما أباحه بالليل، إلا لمسافر أو مريض، فمن أفطر في رمضان من غير هذين، عامداً بأكل أو بشرب أو بجماع، فعليه القضاء والكفّارة. وأما من شرب أو أكل ناسياً فعليه إتمام اليوم ولا قضاء عليه، وصومه تام. وقال الرسول ﷺ لمن أكل أو شرب ناسياً: «**يتمّ صومه**». **والجماع** من محظورات الصيام، وتكرَه **القُبلة والجسّة** وغيرهما لمن لا يأمن على نفسه ولا يملكها. **والنَّظَر** إن قصد به الاستمتاع كان كالقبلة، ولا تجب الكفّارة إلا على من قصد الفطر وانتهاك حرمة الصوم، ولا تفسده **الجنابة** لمن يصبح جنباً من جماع غير احتلام في الليل، وكذلك **الحائض** التي ينقطع حيضها قبل الفجر ولم تطهر بعد فعليها الصوم. وإتمام الصيام إلى الليل أمرٌ يقتضي الوجوب، ومن تمام الصوم استصحاب **النية**، فإذا تبيّن الليل سُنّ الفطر شرعاً، أكَلَ أم لم يأكل، والاعتماد على **الرؤية** يجبّه العلم بأوقات الغروب والشروق من طريق الساعة أو الراديو أو التلفزيون، وخاصة في بلاد كبلاد الشمال الأوروبي والآسيوي حيث تكون الأيام أغلبها غَيْم. وقوله تعالى: **﴿إلى الليل﴾** فيه نهيٌ عن **الوصال**، إذ الليل غاية الصيام، والليل ليس بزمان صوم شرعي، وكان **ابن الزبير** يواصل **سبعاً**، وقد نهى الرسول عن الوصال فقال: «**إياكم والوصال وإياكم والوصال**»، والتكرار تأكيداً للمنع، لأن فيه ضعف القُوَى وإنهاك الأبدان، وفي الحديث: «**إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَر**».

والوصال يعني أن يتصل صيام اليوم بصيام اليوم الذي يليه دون طعام أو شراب، وكان هو يفعله لأنه ليس مثلهم، وما أراد لهم أن يحاكوه فيه ويتكلّفوه فيضعفوا عن الجهاد، وأما هو فكان يلتزم أعلى مقامات الطاعات، فلما رسخ الإسلام في القلوب وعَمَرت بالإيمان صار لهم أن يواصلوا مثله. ويستحب للصائم أن يُفطر على **رُطبات أو تمرات**، وإذا لم يوجد ذلك يشرب **حسوات من الماء**، وكان النبيّ ﷺ إذا أفطر قال: «**اللّهم لك صُمنا، وعلى رزقك أفطرنا، فتقبّل منا إنك أنت السميع العليم**»، أو يقول: «**ذهب الظمأ، وابتلّت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله**»، وإذا دُعي للإفطار عند أحدهم دعا له بعد الطعام فقال: «**أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلّت عليكم الملائكة**»، وفي الحديث: «**إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُرَدّ**». والبعض يستحب أن يصوم بعد رمضان **ستة أيام من شوال**، وفي الحديث: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان له كصيام الدهر**»، وكره ذلك بعضهم مخافة أن يلحق أهل الجهالة برمضان ما ليس منه.

•••

٢٠١٠. ﴿الإمساك يجب بتبين الفجر﴾

يتوجب **الإمساك عن الطعام** في رمضان إذا تبيّن الفجر في الطُّرق وعلى رءوس

المرتفعات؛ والفجر فجران: **الأول**: **المعترض الوقتي**، **والثاني**: **المستعرض المستطير**، أي المنتشر، وفيه تحلّ الصلاة ويحرم الطعام. وفي القرآن: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ﴾(البقرة ١٨٧)، ومجرد التبيّن لا يصح، وإنما ينبغي أن يمضى لطلوع الفجر قدر حتى يكون ذلك مؤكداً، وفي عهد الرسول ﷺ كانوا يعدّون الفجر المقصود هو الذى يملأ البيوت إلا أن الشمس فيه لم تطلع. وبطلوع الشمس يبدأ النهار، والصوم زمنه **النهار**، والنهار من طلوع الشمس، وآخره غروبها، وفسّر رسول الله ﷺ الآية بقوله: «**إنما هو سواد الليل وبياض النهار**»، وهذا هو جوابنا على **جارودي** الفرنسي في معضلة تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر في البلاد الأوروبية، وخاصة بلاد الشمال، حيث الشمس نادراً ما تطلع، فطالما هناك الليل فهو إفطار، ويبدأ الإمساك عن الطعام مع طلوع النهار، وحتى في الشمال هناك نهار يغلب أو ليل يغلب، ويستمر الصيام إلى أفول النهار وبداية الليل، وكان الناس في أول الإسلام يربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيّن له التمييز بينهما، فأنزل الله «**من الفجر**» فعلموا أنه إنما يعنى بذلك بياض النهار لا بياض الخيط. والخيط في كلامهم هو اللون.



٢٠١١. ﴿مفطرات الصيام﴾

الصائم هو الذى يصوم ـ أي يمتنع ـ عن أشياء، كالأكل والشُّرب والجماع، في أوقات مخصوصة، تبدأ بطلوع الفجر وتنتهي بالغروب، بنية التقرّب إلى الله وطاعته وامتثال أمره. والصوم منه **الواجب**: كصوم رمضان وقضائه؛ **والصوم المحرّم**: كصوم يومي العيدين؛ **والصوم المندوب**: كصوم الأيام البيض من كل شهر، وهي ١٣ و١٤ و١٥؛ **والصوم المكروه**: كصوم يوم الجمعة مفرداً، وصوم أيام أعياد الأغيار، وكل ما يتناوله الصائم **عامداً** من مأكل أو مشرب فهو من **المفطرات**، وكل ما يدخل جوفه منه، وما ينفذ إلى معدته باختياره وكان يمكن التحرز منه، سواء وصل من الفم على العادة **كالدواء** يؤخذ من الفم، أو الأنف، أو الأذن، أو العين، أو الدُّبر، أو الجروح. وقليل الدواء في الأذن لا يفطر، **وقطرة العين** إن وجد طعمها في حلقه، تفطره، **والكحل** تكتحل به النساء إن وجدن طعمه في حلوقهن أفطرن، وإن اكتفين منه بالقليل لم يفطرن. **والريق** لا يفطر، ومثله **غبار الطريق**، **والدقيق**، وإذا اجتمع الريق في الفم فابتلعه لم يفطره، فإن خرج ريقه إلى **شفتيه فعاد فابتلعه** أفطر، وكذلك **النخامة**، **والقيء**، **والدم يسيل من فمه فيبلعه**، وإن كان القيء قد غلب عليه بغير اختياره فلا قضاء عليه، ولا فرق أن يكون القيء طعاماً أو بلغماً. ولا يفطر الصائم **بالمضمضة**، **والاستنشاق في الطهارة**، وإن دخل الماء في الغسل

المشروع فى أذنيه، فحكمه حكم الماء الداخل إلى الحلق فى المضمضة والاستنشاق، إذ زاد عن الحدّ فإنه يفطر، ولا يفطر منه اليسير. والعلك الذى يتحلل فى الفم بمضغة يحرُم، فإن كان مما لا يتحلل فهذا يُكره مضغه ولا يحرُم، وإن مَضَغ منه ولم يكن له طعم فى حلقه لم يفطر. ويُكره ذوق الطعام إلا لحاجة، فإن وجد طعمه فى حلقه أفطر، ولا تفطر المرأة تمضع الخبز لولدها، وتزق الفرخ. ويُكره السواك الرطب للصائم، وإن كان طعام كثير يتخلل الأسنان فلفظه، فليس شىء عليه، وإن ابتلعه أفطر. والقُبلة والمسّ فيهما أن يقبّل زوجته ولا ينزل، فصيامه مقبول؛ وأن يقبّل فيمْنى فهذا مفطر بلا خلاف؛ وأن يقبّل فيمذي فيفطر. ولا تحل القُبْلة لمن كان ذا شهوة، وتحل للشيخ الهرم ممن لا تحرك القبلة شهوته. ولا يُكره اللمس لغير شهوة، كلمس الطبيب للمريضة. والاستمناء باليد يفطر، ولا تفطره ملامسته لعورته. وإذا أنزل لغير شهوة، كأن يكون ذلك من مرض، فلا شىء عليه. وتكرار النظر، لمن يُباح له النظر إليهن، مكروهٌ لمن يحرك النظر شهوته، فإن أنزل بسبب ذلك أفطر، ولا يفطر إن فكّر فأنزل، أو خطرت له خواطر. والمفسد للصوم من هذا كله ما كان عن عمد وقصد، ومن يُكرَه على شىء منه لا يفطر، ولا يفطره الأكل عن نسيان. ومن يرتد عن الإسلام وهو صائم يفسد صومه، وإذا نوى الصائم الإفطار فقد أفطر. وإذا الصائم نافلةً، نَوَى الفطرَ ثم لم ينو الصوم بعد ذلك، لم يصحّ صومه، فإن عاد ونوى الصوم صحّ. ومتى أفطر لأى من الأسباب السابقة عليه القضاء دون الكفارة، وتجب الكفّارة على مَنْ أنزل بلمس أو قُبلة أو تكرار النظر.

والمفطرات الموجبة للكفّارة: أولها الجماع فى الفرج فى رمضان عامداً، أنزل أو لم ينزل، وأما الجماع فى قضاء الصوم فلا كفارة عليه. والجماع فى رمضان دون الفرج فيه روايتان، وإن ساحق المجبوب فأنزل، فحكمه حكم من جامع دون الفرج فأنزل، وإذا جامع الصائم ناسياً أو مكرهاً فلا قضاء ولا كفّارة، ولا فرق فى وجوب الكفارة بين الوطء فى القُبُل أو فى الدُبُر، وبين وطء الصغيرة أو الصبي، ووطء البهيمة. وإن أكرهت المرأة على الجماع فلا كفارة عليها، وعليها القضاء، وكذلك إذا وُطئت نائمة. والناسية للصوم كالنائمة. وإن تساحقت امرأتان فأنزلتا فَسَد صومهما، وإن لم ينزلا فلا شىء عليهما. وكذلك إذا أُكره الرجل على الجماع فَسَد صومه، وفى وجوب الكفارة عليه روايتان. وإذا طلع عليه الفجر وهو يجامع واستمر فى الجماع فعليه القضاء والكفارة، ومن ظن أن الفجر لم يطلع وجامع، ثم تبين أنه طلع، فعليه القضاء والكفارة. وقيل: إن تعمّد الكذب يفسد الصوم ويوجب الكفارة، وقيل: الكذب ينقض الصوم والوضوء، ويفسد الصيام بالجماع أول الليل وعدم الاغتسال حتى يطلع النهار عامداً، فإن نوى الاغتسال فى الفجر ونام حتى

الصباح لا يفسد صيامه لأنه لم يتعمد عدم الاغتسال من الجنابة. **والحائض والنفساء** إذا انقطع عنهما الدم في أول الليل في شهر رمضان، وتركا الاغتسال عامدتين أفطرتا ووجب عليهما القضاء كالجنب، وإن نامتا على نية الاغتسال والصيام ولم تنتبها حتى الصباح، فلا شيء عليهما. **والجاهل المقصّر** عليه القضاء والكفارة إن تناول شيئاً من المفطرات جاهلاً أنها تفسد الصوم. ومن استمنى بيده فقد ارتكب محرماً وأفسد صيامه ويقتضي القضاء.

•••

٢٠١٢. ﴿الأيام المستحب صومها (صيام التطوع)﴾

يستحب صيام: **ستة أيام من شوال** متتابعة أو متفرقة، في أول الشهر أو من آخره؛ **واليوم التاسع والعشر من المحرم؛ ويوم عرفة** لغير الواقف فيها، فأما الواقف فيها فيستحب له الفطر؛ **وثلاثة أيام من كل شهر قمري**، ويستحب أن يجعلها **الأيام البيض**، وهي أيام ١٣ و١٤ و١٥ من كل شهر، وسميت **البيض** لابيضاض ليلها كله بالقمر؛ وكذلك **الأيام الستة من شوال** يستحب فيها الصوم لقوله ﷺ: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان له كصيام الدهر**» رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة، وقوله: «**جعل الله الحسنة بعشر أمثالها، فشهر رمضان بعشرة أشهر، وستة أيام بعد الفطر تمام السنة**» رواه النسائي، وكره مالك هذه الأيام الستة مخافة أن يلحقها أهل الجهالة برمضان وهي ليست منه، واستحب صيامها الشافعي، والناس في بعض البلاد يعاملونها فعلاً معاملة رمضان ويقومون لسحورها على عادتهم فيه. وأفضل صيام التطوع: أن يصوم المرء يوماً ويفطر يوماً.

•••

٢٠١٣. ﴿الأيام المكروه صومها﴾

يُكره صوم الأيام التالية: **إفراد يوم الجمعة بالصوم** إلا أن يوافق عادة له، كمن اعتاد صيام أول كل شهر فكان يوم الجمعة أول الشهر، فإنْ وَصَلَهُ بيومٍ قبله أو بعده فلا كراهة؛ **وأيام أعياد غير المسلمين**، فيُكره صيام يوم السبت منفرداً لأنه يوم اليهود، أو يوم الأحد منفرداً لأنه يوم النصارى، فإن صام معه غيره أو صادف هذا اليوم أول الشهر مثلاً وكانت عادته صوم أول الشهر فلا كراهة.

•••

٢٠١٤. ﴿الأيام التي يحرم صيامها﴾

يحرم صيام الأيام التالية: **يوم الشك**، وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا كانت السماء صافية ولم يُر الهلال، إلا أن يكون يوم الثلاثين من الأيام المعتاد صيامها، أو أن يصل هذا اليوم

بيوم قبله أو يوم بعده؛ ويوما العيدين يحرم صيامهما فى التطوع والنذر والقضاء والكفّارة؛ وأيام التشريق لا يحل صيامها تطوعاً، وأما صومهما تطوعاً ففيه روايتان.

●●●

٢٠١٥. ﴿صيام النذر﴾

من نذر صوم الدهر، أو صوم السنة، لزمه، ولا يدخل فى نذره رمضان، ولا أيام العيد والتشريق، فإن أفطر لعذر أو غيره لم يقضه وتلزمه الكفّارة، وإن لزمه قضاء من رمضان أو كفارة قدّمه على النذر؛ وإن مات وعليه صيام نذر فيستحب أن يصوم عنه وليُّه. ومن نذر صيام شهر من يوم قدوم فلان فصادف قدومه رمضان، فإن صيامه الشهر يجزئه عن صيام النذر وصيام رمضان، وإذا وافق نذره بعض رمضان وبعض شهر آخر، لزمه صوم ما خرج عن رمضان، وإذا نذر صياماً مطلقاً فأقل ذلك صيام يوم؛ ومن نذر الصيام عن الكلام لم يلزمه الوفاء به، لأنه ليس من شريعة الإسلام؛ ومن نذر صوم شهر بعينه وشَرَط التتابع، فأفطر منه يوماً لغير عذر، فإنه ينقطع صومه ويلزمه استئنافه، وإن لم يشترط التتابع يكفّر عن فطره ويقضى يوماً مكانه بعد إتمام صومه. وإذا أفطر لعذر وقد اشترط التتابع فمرض، فإنه إذا عوفى يصوم من جديد ولا كفارة عليه، أو يبنى على ما سبق ويكفّر كفارة يمين، وكذلك المرأة إذا حاضت؛ ومن نذر صوم يوم معين أبداً، كأن يكون يوم الخميس، لزمه ذلك.

●●●

٢٠١٦. ﴿من قام رمضان إيماناً واحتساباً﴾

فى الحديث: «مَنْ قَام رمضان إيمانًا واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه»، ومعنى إيماناً واحتساباً: أن يكون مؤمناً محتسباً، والإيمان: هو الاعتقاد بفرضية الصيام، والاحتساب: هو طلب الثواب من الله، وهو أن يصومه على معنى الرغبة فى ثوابه، وقيام رمضان: صلاة التراويح، فيحصل بها المطلوب من القيام.

●●●

٢٠١٧. ﴿صلاة التراويح﴾

التراويح جمع ترويحة: وهى المرة الواحدة من الراحة، كتسليمة من السلام، وسميت الصلاة فى الجماعة فى ليالى رمضان التراويح، لأنهم أول ما اجتمعوا عليها كانوا يستريحون بين كل تسليمتين. وفى قيام رمضان ـ أى الصلاة فيه ـ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، وكان النبىّ ﷺ يصلّى فى رمضان فى المسجد والناس يصطفون خلفه ويزداد عددهم، حتى لم يعد المسجد يتّسع لهم، فصلّى

بهم أُبيّ بن كعب، ولم يكن النبيّ ﷺ قد جمعهم لذلك، فلما رآهم يصلون ناحية المسجد، قال: ما هذا؟ فقيل: ناسٌ يُصلّي بهم أُبيّ بن كعب، فقال: «أصابوا ونِعْم ما صنعوا»، ولكنه امتنع عن مشاركتهم مخافة أن يقال أنها فرضت عليهم. واستمر الناس فى كل رمضان حتى خلافة عمر يصلّون جماعات، كل جماعة وحدها، فجمعهم عمر على أُبيّ بن كعب، فقام بهم فى رمضان، فكان ذلك أول اجتماع الناس على قارىء واحد فى رمضان، واستنّ عمر ذلك عن النبيّ ﷺ، وسُميت هذه الصلوات بالتراويح. وقراءة أُبيّ للناس، تعنى أنه كان يؤمّهم عملاً بقوله ﷺ: «يؤمّهم أقرؤهم لكتاب الله»، وكان أُبيّ يصلّي بالرجال، وتميم الداري يصلّي بالنساء، وقيل: سليمان بن أبي حثمة. ولمّا شاهد عمر الناس يصلّون كما أمر، سُرّ لذلك، وقال: نِعْمَ البدعة هذه! والبدعة أصلها ما أُحدث على غير مثال سابق، وتطلق فى الشرع فى مقابل السُنّة فتكون مذمومة، وأما البدعة المستحسنة فهى التى توافق الشرع.

•••

٢٠١٨. ﴿عدد ركعات التراويح﴾

روى أن الناس فى عهد عمر كانوا يصلون التراويح إحدى عشرة ركعة، وكانوا يقرأون بالمائتين، ويقومون على العصى من طول القيام. وقيل: كانوا يصلون ثلاث عشرة؛ وقيل: إحدى وعشرين، أو عشرين غير الوتر، والوتر ثلاث ركعات، فيصير المجموع ثلاث وعشرين، وهذا الاختلاف بحسب التطويل فى القراءة وتخفيفها، فحينما تطول القراءة تقل الركعات وبالعكس. وفى عهد عمر بن عبد العزيز صلّى الناس ستاً وثلاثين ركعة فى المدينة، وأوتروا بثلاث ركعات، وفى مكة صلوا ثلاثاً وعشرين ركعة، يطيلون القيام ويقلّون السجود، أو يكثرون السجود ويخففون القراءة، وأكثر ما قيل أنها كانت تُصلّى إحدى وأربعين ركعة بالوتر، وقيل: أربعين ركعة والوتر سبع ركعات، وقيل: ثمان وثلاثين بانضمام ثلاث للوتر، أو ثمان وثلاثين والوتر ركعة، فتصير تسعاً وثلاثين، أو أنها تسع وثلاثون يوترون منها بثلاث، وقد يصلّون أربعاً وثلاثين والوتر ركعة، وقيل: ست عشرة غير الوتر، وأحسن ما قيل: كانت التراويح فى زمن عمر ثلاث عشرة، وهذا هو الأثبت، وعن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ صلّى فى رمضان عشرين ركعة والوتر، وأصدق قول هو قول عائشة: أنه كان لا يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلى أربعاً، ثم أربعاً، ثم ثلاثاً، بخلاف الوتر.

•••

٢٠١٩ ﴿الصيام جنة﴾

فى الحديث: «**الصيام جنّة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم**»، والجُنّة: الحصن يقى صاحبه الشهوات، وهو جنّة من النار، والرفث: الجماع ومقدماته، وقوله: **لا يجهل**، أى لا يفعل شيئاً من أفعال الجهل كالسَفَه والسَبّ، وفى رواية: «**فلا يرفث ولا يجادل**»، وإن سابّه أحد فليقل: **إنى صائم**.

●●●

٢٠٢٠. ﴿شهر رمضان أيام معدودات﴾

فى قوله تعالى: ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾(البقرة ١٨٤) تعلّقها بالصوم، أى كُتب الصوم على المؤمنين فى أيام، والأيام المعدودات هى شهر رمضان.

●●●

٢٠٢١. ﴿خلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك﴾

هذا حديث لرسول الله ﷺ، والخلوف رائحة فم الصائم، وقوله إنه عند الله أطيب من ريح المسك مجاز، لأنه جرت العادة بتقريب الروائح الطيبة، فاستعير ذلك للصوم، والمعنى أنه أطيب عند الله من ريح المسك عندكم، أى يقرب إليه أكثر من تقريب المسك إليكم.

●●●

٢٠٢٢. ﴿الحائض تترك الصوم والصلاة﴾

الحائض تقضى الصيام ولا تقضى الصلاة، والصلاة تتكرر فيشق قضاؤها، بخلاف الصوم الذى لا يقع فى السنة إلا مرة.

●●●

٢٠٢٣. ﴿الصوم والمرض والسفر﴾

فى قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾(البقرة ١٨٤)، أن المريض قد تكون حالته بحيث يُنصح له بالفطر، فيكون الفطر عليه واجباً، أو أن يَقْدر رغم مرضه على الصوم بضرر ومشقة، فيستحب له الفطر، فإذا صام دلّ ذلك على أنه جاهل. وكل حال تحصل للإنسان يستحق بها اسم المرض ويُخشى عليه التلف من الصيام يصحّ له بها الفطر، قياساً على المسافر لعلّة السفر، ومن خشى على نفسه وهو صائم إن لم يفطر أن يزداد وجعه أو تزداد الحمى به شدة، فعليه أن يفطر. والمسافر يفطر طالما لم يقصد أن ينتهك حرمة الصوم. ويقضي المفطر في المرض أو في السفر، ويستوفى عدد أيام ما أفطر فيه، وفى الحديث: «ليس من البرّ الصيام فى السفر» أخرجه البخارى. والصوم فى

السفر أفضل لمن قوى عليه، كقوله تعالى: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾**(البقرة ١٨٥). ويصوم رمضان متتابعاً من أفطره متتابعاً من مرض أو سفر، وإن فرّقه أجزأه، وفي الآية: «فعدة من أيام أخر» لم يخصّ متفرقة من متتابعة، و يجزيه أن يصومها متفرقة، وإنما وجب التتابع فى الشهر لكونه معيناً. ومع ذلك فالقضاء واجب من غير تعيين لزمان، لأن اللفظ مسترسل على الأزمان لا يختص ببعضها دون بعض، ويستحب **تعجيل القضاء** خوف المنيّة، وغاية زمان القضاء شهر شعبان، ومن فرّط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر يصوم هذا مع الناس، ويصوم الذى فرّط فيه، ويطعم لكل يوم مسكيناً، فإن تمادى به المرض فلم يصحّ حتى جاء رمضان آخر فإنه يطعم كل يوم مسكيناً ثم ليس عليه قضاء. ومن **أفطر في القضاء** فعليه قضاء ما أفطر. ومن أفطر في رمضان لعلّة، فمات من علّته، أو سافر فمات فى سفره، فلا شيء عليه، ولا يصوم عنه أحد. لأنه **لا يصوم أحد عن أحد**، لقوله تعالى: **﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾**(الزمر)، وعن النبيّ ﷺ: «**لا يصلّى أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدّاً من حنطة**»، ويبدو أنه لا يصوم أحد عن أحد فيما يخص رمضان، فأما **صوم النذر** فيجوز. والصوم إطلاقاً عبادة بدنية لا مدخل للمال فيه، فلا يصام عمّن وجب عليه، كالصلاة، ولا يُنقَض هذا بالحج، لأن الحج للمال فيه مدخلٌ، ويجوز أن **يحج أحدٌ عن أحد**. والخلاصة: **أن صوم رمضان فى السفر جائز**، وثبت أن من صحب الرسول ﷺ فى السفر وصام لم يعبه، كما لم يعب المفطر، ومن غزا معه صام بعضهم وأفطر بعضهم، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم.



٢٠٢٤. ﴿النهى عن الوصال﴾

الوصال هو أن يترك الصائم ما يفطر عند الإفطار ويظل صائماً بالليل ويمسك عن الطعام. وليس فى الليل صيام لقوله تعالى: **﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾**(البقرة)، والله لم يكتب الصيام بالليل، فمن صام فقد تعنّى **ولا أجر له**، ونهى النبيّ ﷺ عن هذا، وقال: «**صوموا كما أمركم الله تعالى،و أتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا**». وقالت **عائشة**: نهى النبيّ ﷺ عن الوصال رحمةً لهم وإبقاءً عليهم، وقال: «**اكلفوا ما تطيقون**». وإذا كان النبيّ ﷺ قد واصل فالوصال من خصائصه كنبيّ، على أن غيره ممنوع منه. والإمساك إلى السَحَر ليس وصالاً، ولكن الوصال أن يمسك الليل جميعه والنهار. ورخّص رسول **الله** ﷺ فى الوصال حتى السحر، ولما قالوا له: إنك تواصل؟ قال: «**لست كهيئتكم. إنى أبيت، لى مُطعِمٌ يُطعمنى ويسقينى**».



٢٠٢٥. ﴿صيام الدهر وصيام النبيّ داود﴾

لما بلغ النبيّ ﷺ أن عبد الله بن عـمرو بن العاص يسرد الصوم (أى يتـابعه) ويصلّى الليل، قال له: «صُمْ وأفْطر، وقُمْ ونَمْ، فإن لجسدك عليك حـقاً، وإن لعينيك عليك حـقاً، وإن لزوجك عليك حـقا، وإن لزَوْرك (أى زوارك وضيوفك) عليك حقـاً، وبحسبك أن تصوم كل شهـر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسـنة عشـرة أمثالهـا، فإذنْ ذلك صيـام الدهر كله (يعنى كأنك صُمتَ الدهر كله)». والحديث له عـدة روايات، ففى رواية قال له: «فصم من كل جـمعة ثلاثة أيام»، وفي رواية: «فصم يومـاً وأفطر يومين»، وفى رواية: «يكفيك من كل شـهر ثلاثة أيام» فقال له: يارسول الله! قال: «خمسة»، قال: يارسول الله! قال: «سبعة» قال: يارسول الله! قال: «تسعة»، قال: يارسول الله! قال: «أحد عشر». وفى رواية قال: «صم يوماً من كل عشرة أيام ولك أجر ما بقى». قال: إنى أطيق أكثر من ذلك! قال: «صم يومين ولك أجر ما بقى»، قال: إنى أطيق أكثر من ذلك! قال: «صم ثلاثة أيام ولك أجر ما بقى»، قال: إنى أطيق أكـثـر من ذلك! قال: «صم أربعـة أيام ولك أجر مـا بقى»، قال: إنى أطيق أكـثـر من ذلك. قال: «صـم صيام داود». يقول: عـبد الله: فلم يزل يناقصنى وأناقـصه. وفى رواية قال: «صم الاثنين والخميس من كل جـمعة»، وفى رواية قال: «صم من كل عشـرة أيام يوماً ولك أجر تلك التـسعة»، ثم قال: «صم من كل تسعـة أيام يوماً ولك أجر تلك الثمـانية»، ثم قال: «من كل ثمـانية أيام يومـاً ولك أجر السـبعـة»، فلم يزل حـتى قال: «صم يوماً وأفطر يوماً». وفى رواية أن النبىّ ﷺ لمّا سمع أن عبد الله بن عمر يقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل مـا عشت! قال له: «فإنك لا تسـتطيع ذلك، فصُمْ وأفطر، وقُم ونَم، وصُمْ من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشرة أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر»، فقال عبد الله: إنى أطيق أفضل من ذلك! قال: «فصُمْ يوماً وأفطر يومين»، قال: فإنما أطيق أفـضل من ذلك! قال: «فصُمْ يومـاً وأفطر يوماً، فذلك صيـام داود عليه السلام، وهو أفضل الـصيام»، قال: إنى أطيق أفضل من ذلك! فقال النبيّ: «لا أفضل من ذلك». وقوله: «مثل صيام الدهر» فإن المثلية لا تستلزم التسـاوى من كل جهة، لأن المراد هنا هو التضـعيف الحاصل من الفعل، فـيصدق على فاعل ذلـك أن صيامـه كصيـام الدهر مجـازاً. وفى قوله: «لا أفضل من ذلك»، فى رواية: «أحَبُّ الصـيام إلى الله صـيام داود»، وفى رواية: «أفـضل الصيـام صيـام داود». وفى رواية: «فصُمْ صيام داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى». وقال: «لا صام من صـام الأبد»، فاسـتدلّ بهذا على كـراهية صوم الدهر. وقوله: «لا صام» كقوله تعالى: ﴿فلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾(القيامة).

وفى الرواية أن عمر بن الخـطاب بلغه أن رجلاً يصوم الدهر، فأتاه فعلاه بالدّرة (أى

بالسَّوْط)، وجعل يقول: كُلْ يادهريّ! ـ وفى الحديث: «**من صام الدهر ضُيِّقت عليه جهنم ـ** وعقد بيده» أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان، وظاهره أنها تضيق عليه حصراً لتشديده على نفسه ورغبته عن سنة نبيّه ﷺ، واعتقاده أن غير سنّته أفضل، فيكون حراماً. وقوله: «**لا صام من صام الأبد**» دعاءٌ من النبيّ ﷺ على مَنْ يفعل ذلك، ويا ويل من أصابه دعاؤه؛ أو هو خبر، فيا ويل من أخبر عنه النبيّ ﷺ وشهد عليه أنه لم يصم؛ أو أن معناه أنه لم يصم شرعاً، ولم يُكتب له الثواب لأنه نُفى عنه الصوم. ولا يعنى الحديث: «**من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر**» أن صيام الدهر أمرٌ مطلوب وهو الأفضل، فالمراد حصول الثواب على تقدير مشروعية صيام السنة كلها، والمكلّف لا يجوز له صيام السنة.

وبقيت كلمة عن **صيام داود، فإنه فى كل أسفار اليهود** لم يكن داود يصوم يوماً ويفطر يوماً، والصيام الوحيد الذى صامه لما مات ابنه من **الحيثية** ـ وكان **ولد سفاح**، وظل صائماً طوال فترة مرض الولد (الملوك الثاني ١٢/ ١٦) ولم يفطر إلابعد أن أخبروه أنه مات، فلم يجد فائدة للصيام ولا جدوى. وعلى أىٍّ فصورة داود فى الإسلام بخلافها تماماً فى أسفار اليهود، وذلك هو الشأن مع كل أنبياء بنى إسرائيل فى القرآن وفى الأسفار، فالقرآن ينزّه الأنبياء ويعلى من أقدارهم، والأسفار تحط من قدرهم وتسخّفهم وتخطّئهم، والأولياء فى الأسفار أعلى من الأنبياء قدراً وأفضل أفعالاً.



٢٠٢٦. ﴿صيام الثلاثة أيام البيض﴾

هى بيض لأنها الأيام **ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة**، وهى التى يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره، فالليل يكون كالنهار، واليوم بطوله كالنهار، وليس فى الشهر يوم أبيض كله إلا هذه الأيام، لأن ليلها أبيض ونهارها أبيض، فصحّ قول «**الأيام البيض**» على الوصف. وأعطاها النبيّ ﷺ اسم «**الغُرّ**»، فكان يصوم ثلاثة أيام من غُرة كل شهر. وقال فى صيامها إنها «**كهيئة الدهر**»، وقال: «**صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر: الأيام البيض صبيحة الثالث عشر**»؛ وقيل: كان يصوم من كل شهر **ثلاثة أيام: الاثنين والخميس**، ثم **الاثنين** من الجمعة التالية؛ وقيل: كان يصوم من كل شهر **ثلاثة أيام** ما يبالى من أى الشهر صام، وكان ينوّع أيام صيامه ليبيّن للناس جواز ذلك، وكل ذلك **فى حقّه** أفضل، غير أن **البيض** تترجّح بكونها **وسط الشهر**، ووسط الشىء أعدله؛ ورجّح بعضهم صيام **الثلاثة أيام فى أول الشهر**، لأن المرء لا يدرى ما يعرض له من الموانع، أو صيام يوم

من أول كل عشرة أيام؛ أو صيام يوم السبت، والأحد، والاثنين من كل شهر، ثم من الشهر التالي: الثلاثاء، والأربعاء، والخميس، ليستوعب غالب أيام الأسبوع كل شهرين. واختار بعضهم الصيام ثلاثة أيام من آخر الشهر، لتكون كفارةً لما مضى. واختار النبيّ ﷺ في تسمية الأيام البيض اسم سُرَر الشهر، جمع سُرّة فقال: «أما صمت سُرَر الشهر؟ والسُرّة وسط الشهر، وسؤاله ﷺ يؤيد الندب لصيام الأيام البيض وهي وسط الشهر.

●●●

٢٠٢٧. ﴿النهى عن صيام يوم الجمعة﴾

يوم الجمعة يوم عيد المسلمين، والصيام فيه محرّمٌ إلا من صام يوماً قبله أو بعده. وثبت النهى عن صوم يوم الجمعة، كما ثبت النهى عن صوم يوم العيد، والفرق بين العيد والجمعة: أن الإجماع منعقد على تحريم صوم يوم العيد، ولو صام قبله أو بعده، بخلاف يوم الجمعة، فالإجماع منعقد على جواز صومه لمن صام قبله أو بعده. ولو جاز صوم الجمعة لتضاعف تعظيمه، ولكان عيداً للمسلمين ويوم صيام، فيفتتن به الناس كما افتتن اليهود بالسبت، فلو صام المسلمون الجمعة لكانوا يقلدونهم، والمفروض ترك موافقتهم، وفي الحديث: «لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو بعده»، وفى رواية: نهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة مفرداً؛ وفى رواية: نهى رسول الله ﷺ أن يُفرَد يوم الجمعة بالصيام. وفى الحديث: «لا تخصّوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصّوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم»، وفى رواية: «لا يصوم أحدكم يوم الجمعة وحده إلا فى أيام معه»، وفى رواية: «لا تصم يوم الجمعة إلا فى أيام هو أحدها».

●●●

٢٠٢٨. ﴿صوم يوم الشك﴾

النيّة شرط لصحة الصيام، فمتى قام فى نفس الإنسان فى الليل أن غداً من رمضان، وأنه صائم، فقد صحّت نيّته، وإنْ شكّ فى أنه من رمضان، ولم يكن له أصل يبنى عليه، مثل أن يكون ليلة الثلاثين من شعبان، ولم يَحُل دون مطلع الهلال غيمٌ أو نحوه، فعزم أن يصوم غداً من رمضان لم تصحّ النيّة، ولا يُحسَب له ذلك صياماً عن رمضان، بخلاف ليلة الثلاثين من رمضان فتصحّ نيّته فيها وإن احتمل أن يكون من شوال.

●●●

٢٠٢٩. ﴿صيام الصغير والصغيرة﴾

لا يجب صيامهما حتى يبلغ الصبى وتحيض البنت، وقيل يجب الصيام على الصبى المطيق إذا بلغ عشر سنين، ولا قضاء عليهما قبل البلوغ والحيض. ولا صيام على المجنون.

●●●

٢٠٣٠. ﴿الصوم للحائض والجنب والمستحاضة والحامل والنفساء﴾

يحرم الصيام على الحائض، وإذا انقطع حيضها في الليل فلها أن تنوى الصيام وتؤخر غُسلها للصباح، وكذلك الجُنب، تنوى الصيام وتؤخر غُسلها للصباح. **والحامل** تصوم إذا استطاعت، وإذا رأت الدم فقد يكون دم فاسد - يعنى نزيفاً بسبب مرض - فتستمر فى الصيام، وإن كان من علامات **الوضع** تركت الصوم. والمرأة الحائض متى رأت الطهر تغتسل وتلزمها الصلاة والصيام، وإن كان الدم دم استحاضة تتوضأ لكل صلاة أو تغتسل لها وتصوم، وعليها أن تراجع طبيباً لعلاج استحاضتها. والنفساء والحائض لا يجب عليهما الصيام، وعليهما أن يقضيا، ومتى وجد الحيض في جزء من النهار فسد صوم ذلك اليوم.

●●●

٢٠٣١. ﴿من مات وعليه صوم صام عنه وليه﴾

قال بعضهم الصيام عن الميت جائز، وقال آخرون لا يصام عن الميت، وقيل: إن دَيْن الله أحقّ أن يُقضى، فينبغى أن يُطعم عن رمضان بالنسبة لميّت عليه صيام، أو يتخير الوليّ بين الصيام عن الميت أو الإطعام، وقالت عائشة: **لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم** - واختلفوا فيمن يكون الولى، وقيل: هو الوارث خاصة، وقيل: عُصبته.

●●●

٢٠٣٢. ﴿الفدية على مَنْ لا يطيقون الصوم﴾

الصيام فريضة على من يطيقه، ومن يفطر فعليه فدية، كقوله تعالى: **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾** (البقرة)، ومن الناس مَنْ يطيقون الصيام ويفطرون، وهؤلاء عليهم فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطرونه - إذا كانوا يطيقون الفداء. وقد يقدر المريض والحامل والمرضع على الصيام لكن بمشقة تلحقهم فى أنفسهم، وهؤلاء إن صاموا أجزأهم، وإن افتدوا فلهم ذلك، والآية رخصة لهؤلاء، وخاصة للشيخ الكبير، **والمرأة الكبيرة** وهما يطيقان الصوم، ولهما أن يفطرا بشرط **أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً**، ولا قضاء عليهما، وكذلك **الحبلى والمرضع**. وروى أن هؤلاء عليهم الجزاء ولا عليهم القضاء؛ وروى أن الحامل والمرضع بمنزلة **المريض** الذى يفطر ويقضى؛ وقيل: إن **الشيخ الكبير والعجوز** يفطران لعذر موجود فيهما وهو **الشيخوخة والكبر**، فلا يلزمهما إطعام، كالمسافر والمريض. **والتطوع** فى الآية هو الإطعام مع القضاء، وخير من ذلك كله **الصيام** وعدم الإفطار، سواء فى السفر أو المرض، أو الشيخوخة والكبر، أو بالنسبة للحبلى والمرضع.

●●●

٢٠٣٣. ﴿الرفث فى رمضان كان محرمًا﴾

لمّا نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء خلال رمضان كله، وكان البعض يخونون أنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة ١٨٧)، والرفث هو المباشرة، وخانَ واختانَ بمعنى واحد، من الخيانة، أى تخونون أنفسكم بالمباشرة فى ليالى الصوم، فصرّح الله تعالى بالرفث للرجال والنساء، وهو كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وهو هنا بمعنى الجماع خاصة، فقد كانوا يفعلون ذلك وهم يعلمون بإثم ما يفعلون، فخفف الله عنهم. والرفث مسموح به فى غير نهار الصوم، وليس فى الديانات الأخرى مثل ذلك، وإباحته فى وقت الإفطار خصيصة إسلامية، وعبّر عن ذلك تعبيراً جميلاً بتشبيه الزوج والزوجة باللباس فى الثياب، وامتزاج كل واحد منهما بصاحبه سمّاه لباساً، لانضمام الجسد وتلازمهما تشبيهاً بالثوب، ولأن كل واحد منهما سترٌ لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع.



٢٠٣٤. ﴿ليلة القدر من رمضان﴾

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾(البقرة ١٨٥)، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢﴾(القدر) أى أَنْزَلَ القرآن، وكان نزوله فى رمضان فى ليلة القدر، ونزوله فى زمان معين يقتضى فضل ذلك الزمان، وسميت ليلة القدر بهذا الاسم لأنها ذات قدر بنزول القرآن، وتتنزّل الملائكة فيها، ولما يتنزل فيها من البركات والرحمات والمغفرات، أو أنها ليلة القدر لأن الذى يحييها ذو قدر، وقيل القدر هو التضييق، كقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾(الطلاق ٧)، فهى الليلة التى يضيّق الله فيها العلم بتعيينها ويخفيه، وقيل: القدر بمعنى القَدَر المؤاخى للقضاء، والمعنى المشهور أنه يُقدَّر فيها أحكام تلك السنة، لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾(الدخان). وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ من أساليب القرآن، قيل: فكلما جاءت «وما أدراك» فى الخطاب للنبىّ ﷺ فقد أخبره به ربّه، وأما إن جاء «وما يدريك» فإنه عن شىء لم يخبره به، وقيل: وهذا دليل على أن النبىّ ﷺ كان يعرف تعيين ليلة القدر، وهذا غير صحيح لأن موعدها من الغيب ولا يعرفه إلا الله، ومثلها مثل «الساعة»، و«الأجل». وفى الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه» أخرجه البخارى، فاجتمع لليلة القدر فضلان: فضل رمضان، وفضل أنها ليلة القرآن، فمن أقامها، أى قضاها فى الصلاة والذكر والدعاء، تصديقاً بوعد الله ووعد

رسوله ﷺ ، واحتساباً للأجر لا لقصدٍ آخر من رياء أو غيره، غفر له ماتقدم من ذنبه، وجعلها تعادل فى ذلك رمضان كله.

●●●

٢٠٣٥. ﴿الكفّارة﴾

الكفّارة: هى ما يُغطَّى به الإثم، ويقال: كفّر الله ذنبه: أى محاه، وكفّر عن يمينه أو إثمه: أى أعطى الكفّارة من صَدَقة أو صوم أو نحوهما. والكفّارة فى حق الناس جميعاً، يستوى فيها الرجل والمرأة، وتجب فى الصيام على كل مفطر كان يجب عليه الإمساك عن المفطرات من الفجر حتى المغرب فأفسد هذا الإمساك، وقد تكون الكفارة مع قضاء كما فى الإمناء، كالذى يعبث بأهله فى نهار رمضان، ويقبلّ ويتحسّس فيمنى ويفسد صيامه، فعليه القضاء والكفارة، مثل الذي يجامع فى نهار رمضان، وقد تكون الكفّارة بدون قضاء كما عند الشيخ أو الشيخة حينما يعجزان عن الصيام، كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾(البقرة ١٨٤)، فعليه إطعام مسكين عن كل يوم يفطره، وكذلك الحبلى والمرضع، فإنهما من الذين لا يطيقون الصيام، وعليهما الجزاء ولا عليهما القضاء، وهو معنى «الفداء».

وقد يُكتفى بالكفّارة دون القضاء، كما فى كفّارة الظهار، فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ (المجادلة). وكفّارة الوطء في رمضان: هى التصدُّق بما يوازى عتق رقبة، فإن عجز عن العتق فصيام شهرين متتابعين، فإن عجز فإطعام ستين مسكيناً. وإنْ جامع مرة ولم يكفّر، وعاد إلى الجماع مرة أخرى فى نفس اليوم فعليه كفارة واحدة، وإن جامع فى يوم ثان فعليه كفّارتان، فإن لم يكن قد كفّر أولاً واجتمعت عليه الكفّارتان فتكفى كفّارة واحدة عنهما معاً. وكل من جامع فى نهار رمضان، سواء فى الفرج أو دونه، وسواء أنزل أو لم ينزل، عليه كفّارة، لأنه قد تعمّد الجماع فى رمضان ولم يعتبر حرمة الصيام، وكذلك كل من جامع وهو معتكف فى غير رمضان فعليه كفّارة كالذى يفطر يوماً من شهر رمضان متعمداً، فإن جامعها نهاراً فى رمضان وهو معتكف، فعليه كفارتان، واحدة للاعتكاف، وواحدة للإفطار فى شهر رمضان. وحُكم المجبوب الذى يساحق وينزل هو نفس حُكم من يجامع دون الفرج فينزل. وتسقط الكفّارة مع الإكراه والنسيان، سواء كان المُكره أو الناسى رجلاً أو امرأة. ولا كفّارة على المرأة يطؤها زوجها وهى نائمة. وإن تساحقت امرأتان فأنزلتا، أو لم تنزلا، فسد صومهما ووجبت عليهما الكفّارة، لتعمدهما هذا العمل الشنيع

بشهوة فى رمضان. ومن يجامع فيطلع عليه الفجر فيستمر فى الجماع وجبت عليه الكفارة، وكذلك من ظنّ أن الفجر لم يطلع، ثم يتبين له أنه طلع وهو يجامع، لأنه أهوج، وغير حريص على دينه، وكان عليه أن يتحرّز، فمثله عليه القضاء والكفّارة. ولا فرق فى وجوب الكفارة على من يطىء فى القُبل أو فى الدُبر، وسواء كان الموطوء ذكراً أو أنثى، أو كانت الموطوءة امرأته أو أجنبية، كبيرة أو صغيرة، بهيمة أو إنسانة.

ومن وطىء الحائض فى الفرج فى أى من أوقات السنة أو فى ليل رمضان، فعليه كفارة توازى ديناراً لو كان الدم أحمر، ونصف دينار لو كان أصفر. ولا كفّارة على مَنْ وطىء الحائض بعد طهرها وقبل أن تغتسل. والحائض التى تطاوع زوجها عليها كفّارة، إلا أن تُكره أو تجهل. والنفساء كالحائض. ولا كفّارة على وطء المستحاضة.

والجاهل الذى يتناول شيئاً من المفطرات جاهلاً بأنها تفسد الصوم، فعليه القضاء والكفّارة، وتصدق عليه أدلة المقصّر. وقيل: إن الجاهل معذورٌ دائماً ولا عليه إن فعل محرّماً غير قاصد وعن جهالة حقيقية، ومثل ذلك الذى يسهو، والذى يُخاف عليه التلف من العطش والجوع، فإن أفطر فعن سهو أو اضطرار، وعلى المضطر أن يقضى مثل المريض والمُكره، ولا كفّارة عليه.

والنية شرط فى صحة الكفّارة. ويكفّر المحجور عليه بالصيام لا غير. ويعطى صاحب الكفّارة أقاربه منها ممن يجوز إعطاؤهم من زكاة ماله، وتجزىء الكفارة لو وضعت فى يد غنى على الظن بأنه مسكين.

والأصل فى كفّارة اليمين قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾(المائدة٨٩)، و«اليمين المنعقدة» هى التى يُكفّر عنها، وهى يمين عهد على صاحبها، وأما «يمين الغموس» فهى يمين مكر وخديعة وكذب ولا كفّارة فيها، ومثلها مثل «اليمين اللغو»، كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (البقرة٢٢٥). ولا تجزىء فى كفارة اليمين كسوة أقل من عشرة أشخاص. وكفارة النذر كفارة يمين. والمولى إذا فاء من إيلائه وراجع امرأته بالوطء، لزمته الكفارة عن يمينه، ولم تذكر الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) ﴾(البقرة) الكفارة على المولى، وقيل: إنه لذلك لا كفارة عليه إذا فاء، غير أن أغلب أهل العلم قالوا عليه كفارة، لقوله ﷺ : «من حلف على يمين فرأى غيرها منها، فليأت الذى هو خير وليكفّر عن يمينه»، فإذا كفّر سقط عنه الإيلاء.

والكفّارة عن الجماع في الحج بدَنة، وعلى الموطوءة بدنة مثلها إن كانت **مطاوعة**، وقد يجزئها هدىٌ واحد، ولاهدى على **المُكرَهة**، وليس لرجلها أن يهدى عنها، والنائمة كالمكرهة، وإذا تكرر الجماع فإن كفّر عن الأول فعليه للثانى كفّارة ثانية، وإن لم يكن كفّر عن الأول، فكفّارة واحدة تكفى عن المرتين. وروى لكل كفّارة. ومن وطىء **قبل التحلل من العمرة** فسدت عمرته وعليه شاة مع **القضاء**. ويكفّر عن الوطء بعد رمي جمرة العقبة **بشاة**. ووطء المحرم فيما دون الفرج مع عدم الإنزال عليه شاة، وإن أنزل عليه بدنة. والمرأة كالرجل في هذا. وصوم المتمتع إن لم يستطع تقديم الهدى في موضعه، وجبت عليه كفّارة بصيام **ثلاثة** أيام في الحج وسبعة إذا رجع بلا خلاف. وفى **الصيد في الحج** كفّارة. لقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾**(المائدة ٩٥)، والمراد بالمماثلة المماثلة في الخلقة، ففي طائر مثل النعامة تكون الكفّارة بدنة - أي ناقة، وبقرة فى حمار الوحش وشبهه، **وشاة** فى الظبى أو الأرنب. **والاستظلال وتغطية الرأس** عليه كفّارة. **وقطع الشجر والحشائش والنبات** عموماً، وعلى الشجرة الكبيرة بقرة، والشجرة الصغيرة شاة، وفى أبعاضها قيمته. **والكذب في الحج**، والجدال، عليه كفارة شاة. وفى **القتل الخطأ** كفّارة، كقوله تعالى: **﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾**(النساء ٩٢)، والآية من أمهات الأحكام، وعلى القاتل أن يكفّر عن خطئه سواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، وسواء باشر هو القتل، أو تسبب في قتله بسبب يضمن به النفس، كأن يكون قد حفر بئراً فتسبب له فى القتل، أو شهد عليه زوراً فتسبب في الحكم عليه بالإعدام؛ وتلزم **الشاهدين** الكفّارة، سواء قالا أخطأنا أو تعمّدنا. ومن قُتِلَ فى **دار الحرب مسلماً يعتقده كافراً** فعليه كفارة. ولا كفّارة فى **القتل المباح**، كقتل الحربى، والباغى؛ ومن **قتل نفسه** خطأً لم تجب على أهله الكفّارة عنه في ماله؛ ومن **ضرب امرأة فأجهضها** عليه كفّارة؛ **ومن تُجهض نفسها** عليها كفّارة؛ ولا كفارة فى **قتل العمد**، وتجب فى شبه العمد. ويكفّر القاتل بثمن رقبة مؤمنة. فإن لم يجد **فصيام شهرين** متتابعين، فإن لم يستطع فبإطعام ستين مسكيناً، فإن عجز عن كل ذلك تثبت الكفّارة فى ذمته. **والصبي، والمجنون، والكافر**، إذا قتلوا، وجبت الكفّارة فى أموالهم. وتجب الكفّارة على من **يشارك** فى القتل.

●●●

٢٠٣٦. ﴿الكفّارة على الحانث في الحلف بالقرآن﴾

الحالف بحق القرآن تلزمه بكل آية كفّارة يمين، فإن عجز عن ذلك أجزأته كفّارة واحدة.

●●●

٢٠٣٧. ﴿كفّارة القتل الخطأ صيام شهرين متتابعين﴾

الكفّارة بالصيام لمن لم يجد مالاً يتسع للدية أو غيرها، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ**﴾ (النساء ٩٢)، والصيام للفقير، وشرطه التتابع، إلا ما كان لمرض أو غيره، وصيام الشهرين يجزىء عن الدية وغيرها لمن لم يجد، وليس لأحد وجب عليه صيام شهرين متتابعين فى كتاب الله أن يفطر إلا من عذر أو مرض، أو حيض إذا كانت امرأة، ويقضى بعد المرض أو الحيض أو السفر، وقيل لا يسافر، وإذا قطع عليه الصيام شهر رمضان فإنه يبنى بعد الشهر، والتتابع فرض لا يسقط إلا لعذر غالب، والصيام لكفّارة تخفيف من الله كقوله: ﴿**عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾(البقرة ١٨٧)، أى خفف عليكم.

●●●

٢٠٣٨. ﴿كفّارة الظهار صيام شهرين متتابعين﴾

الظهار أن يقول الرجل لامرأته: «**أنت عليّ كظهر أمي**»، فذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً، والمعنى أنت عليّ كأمي لا أقربك جماعاً، وهو منكرٌ وزور، ومن كفّارته الصيام لمن لم يجد، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا**﴾(المجادلة). والتتابع شرط فى الصيام، فإن أفطر فى أثناء الشهرين بغير عذر استأنفهما، وإن أفطر بعذر من سفر أو مرض بنى ولا يطأ امرأته أثناء ذلك، وإذا وطئها قبل انقضائهما فليس هو الصيام المأمور به فلزمه استئنافه.

●●●

٢٠٣٩. ﴿الصيام كفّارة المحرم يقتل الصيد عمداً﴾

المحرم يحرم عليه كل فعل من شأنه أن يقتل روحاً بأى وسيلة كانت، وقتل الصيد من محظورات الإحرام، ومن كفّارته على غير القادر الصوم؛ كقوله تعالى: ﴿**لَا تَقْتُلُوا**

الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ (المائدة ٩٥)، والعَدل والعدل هما المثل، وهو الكفّارة لمن لا يقدر على غيرها، وهو أن يصوم أياماً، يعادل فيها ما تحصّل من الطعام من الصيد، فيعرف كم رجل شبع من هذا الصيد، وكم من الطعام يشبع هذا العدد، ويصوم بقدر هذا العدد، وأهل العلم لا يرون أن يتجاوز في صيام الجزاء شهرين، قالوا: لأنها أعلى الكفّارات.

•••

٢٠٤٠. ﴿الصيام كفّارة الأيمان﴾

الكفّارة في اليمين المنعقدة، ومنها صيام ثلاثة أيام لمن لم يجد غير ذلك، كقوله تعالى: **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾**(المائدة ٨٩)، ويمكن أن يكون صيام الأيام الثلاثة متتابعة أو مفرّقة، لأنه لم يَنص على تتابعها، والفقير ليس عليه غير الصوم.

واليمين: في اللغة اليد، وأُطلقت على الحَلِف، لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كلٌّ بيمين صاحبه، واليد اليمنى شأنها حفظ الشيء، فسمى الحَلف بها، وسمي المحلوف عليه يميناً لتلبسه بها. والنذور: جمع نذر، وأصله الإنذار بمعنى التخويف.

•••

٢٠٤١. ﴿الاعتكاف في رمضان﴾

الاعتكاف في اللغة هو الإقامة على الشيء بالمكان؛ ولزوم الشيء وحبس النَّفس عليه برّاً كان أو غيره، يقال عكف فلان مكان كذا إذا أقام فيه ولم يخرج منه، كقوله تعالى: **﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾**(الأنبياء)، أي مقيمون على عبادتها؛ وقوله: **﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾**(طه ٩٧)، أي ملازماً؛ وقوله: **﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾**(طه٩١)، أي لا نزال مقيمين على عبادته؛ وقوله: **﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾**(الفتح ٢٥)، أي محبوساً موقوفاً، ومنه الاعتكاف في المسجد وهو الاحتباس.

والاعتكاف في الشرع هو الإقامة في المسجد على صفة مخصوصة، ودليل مشروعيته في القرآن قوله تعالى: **﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾**(البقرة)، والعاكفون هم «المجاورون» للحرم، يلازمون فيه العمل بطاعةالله مدة اعتكافهم، ولذا لزمهم الاسم، واعتكافهم إنما بملازمة طاعة مخصوصة، وفي وقت مخصوص، وعلى شرط مخصوص، وفي موضع مخصوص. والإجماع على أن الاعتكاف ليس بواجب، وهو قُربة من القُرَب، ونافلة من النوافل، عمل بها رسول الله ﷺ وأصحابه وأزواجه،

وقد اعتكف فى شهر رمضان فى العشرة الأولى، ثم اعتكف فى العشرة الثانية أي الوسطى، ثم اعتكف فى الثالثة فى العشرة الأخيرة، ثم لم يزل يعتكف فى هذه الأخيرة.

ومن شروط الاعتكاف: **الإيمان، والعقل، ونيّة التقرّب إلى الله**، لأن الاعتكاف عبادة، ولا تصحّ العبادة إلا بهذه الأوصاف، وأن يكون فى رمضان، لأن رسول الله ﷺ لم يكن يعتكف إلا فيه، وعن **عائشة** أن النبيّ ﷺ قال: «**لا اعتكاف إلا بصيام**»، والدليل على أنه «بصيام» قوله تعالى: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾**(البقرة ١٨٧) فذكر الله تعالى «**الاعتكاف مع الصيام**»، غير أنه ليس من شرطه أن يكون فى رمضان، فالاعتكاف يصحّ لنذر، ولغيره، وقيل لذلك إن الاعتكاف ينقسم إلى **واجب ومندوب**، و«**الاعتكاف الواجب**» ما وَجَب بنذر، أو عهد، أو يمين؛ و«**الاعتكاف المندوب**» ما يتطوع به بدافع العبادة المُقربة من الله تعالى؛ **والواجب**: إذا تعيّن بزمان ـ كمن ينذر أن يعتكف الأيام البيض من شعبان ـ فمتى باشر الاعتكاف لا يجوز له العدول عنه، لا فى اليوم الأول ولا الذى يليه؛ وأما **المندوب** وهو للتطوّع: فله أن يعدل عنه قبل انقضاء اليومين الأول والثانى، فإذا انقضيا وجب الثالث حتماً. وفى كل الأحوال يجب عليه الصيام.

وفى **اعتكاف العشر الأواخر من رمضان**: يبدأ المعتكف قبل غروب الشمس من ليلة الحادي والعشرين، ويصحّ بعد صلاة الصبح من اليوم نفسه، ويستحب أن يبيت ليلة العيد فى معتكفه. وإن نذر **اعتكاف يوم** لزمه الدخول فيه قبل فجره، ولا يخرج إلا بعد غروب شمسه، ولا يصح **الاعتكاف** ليلة مفردة ولا بعض ليلة أو بعض يوم، لأن الصيام شرط فى الاعتكاف، ولا صيام لأقل من يوم. وإن نذر **الاعتكاف شهراً** لزمه شهر بالأهلّة، أو ثلاثون يوماً، ولا يتعيّن **المسجد** بنذر المعتكف، إلا أن يكون التعيّن لأحد المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد النبوى بالمدينة، **والمسجد الأقصى**، وأفضل الثلاثة المسجد الحرام، ثم المسجد النبوى، ثم **المسجد الأقصى**. ولا يجوز الاعتكاف عموماً إلا فى مسجد لقوله تعالى: **﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾**(البقرة ١٨٧)، وقيل المقصود بها أن يكون الاعتكاف فى **مسجد جامع تُجمَع فيه الجمعة**، وقيل بل أى **مسجد جائز**، لأن الآية تُحمَل على عمومها على أي مسجد له إمام ومؤذن، وفى الحديث عن **حذيفة** أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مسجد له مؤذن وإمام فالاعتكاف فيه يصلح**».

وليس للمعتكف أن **يخرج** من معتكفه إلا لما لابد منه، ودليل ذلك من السُّنّة أن النبيّ ﷺ كان يُدني رأسه إلى **عائشة** لترجّله ولا يخرج من المسجد لهذا السبب، ولا يتركه

إلى البيت إلا لحاجة التبرز أو التبول، والمعتكف إذا فعل ذلك فعليه العودة من فوره بعد زوال الضرورة، ويبنى على ما مضى من اعتكافه. والمرض البيّن من الضرورة، وكذلك الحيض عند المرأة. وقيل فى **الاعتكاف الواجب**: أن المعتكف لا يعود المرضى، ولا يشهد الجنائز؛ وقيل فى **الاعتكاف المندوب أو التطوعى** أن يشترط المعتكف وهو ينوى الاعتكاف أن يحضر الجنائز إذا وجبت، وأن يعود المرضى إذا استلزم الأمر، والجماعة على القول بأنه لا يكون شرط فى الاعتكاف، وأن المعتكف لا يخرج من اعتكافه إلا لما لابد منه، وهو نفسه الذي كان النبىّ ﷺ يخرج له. وإذا كان الاعتكاف فى مسجد لا تقام فيه **الجمعة**، فعلى المعتكف أن يخرج ليؤديها فى المسجد الجامع ويرجع مكانه. وإذا أتى كبيرة فسد اعتكافه، لأن الكبيرة ضد العبادة، وترك ما حرّم الله أعلى منازل الاعتكاف فى العبادة، وتحرم مباشرة النساء في المساجد ليلاً ونهاراً، وحتى **اللمس والتقبيل شهوة**، ومن وطأ امرأته **ليلاً** وهو معتكف فعليه كفّارة، وإن وطأها نهاراً فعليه **كفّارتان**: واحدة للإفطار في شهر رمضان، والثانية للاعتكاف، والكفّارة فيها التصدُّق بالمال بما يوازى عتق رقبة (نحو ستمائة جنيهًا)، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً (أو التصدّق بثمن ذلك وأقلُّه ستمائة جنيه). واعتكاف المرأة جائز فى أى مسجد، **وليس لها الاعتكاف فى بيتها**، وعليها أن تستأذن أهل بيتها، **وتتحيّض** المعتكفة فى بيتها، فإذا طهرت رجعت فأتمت وقضت ما فاتها. ولا تُمنع **المستحاضة** من الاعتكاف المسجد، وعليها أن تتحفظ كما ينبغى لئلا تلوّث المسجد، فإن لم يمكنها خرجت منه. **والمتوفى عنها زوجها** وهى معتكفة تخرج لقضاء **العدة**، فإذا انقضت عدّتها رجعت وأكملت.

ويحرم على المعتكف الاستمناء، والبيع والشراء، والمماراة - أي الجدل والمنازعة، ولأن الصوم شرط الاعتكاف، فكل ما يفسد الصوم يفسد الاعتكاف، فإن كان الاعتكاف واجباً فلابد من إعادته بنية القضاء إن كان وقته معيناً، وبنية الأداء إن لم يمض الوقت.

●●●

٢٠٤٢. ﴿الاعتكاف فى رمضان فى المساجد﴾

الاعتكاف: كما سبق - هو الملازمة، تقول عكَف على الشيء إذا لازمه مقبلاً عليه، والمعتكف في رمضان يلازم العمل بطاعة الله مدة اعتكافه، فلزمه الاسم؛ وفى الآية: **﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾**(البقرة ١٨٧) أن الجماع - كما أسلفنا - وإن كان فى الليل يفسد الاعتكاف، ولا تثريب على المعتكف أن يلامس امرأته الملامسة العادية. ولا يكون الاعتكاف لذلك إلا فى المساجد حتى لا يحدث من ذلك شيء، وفى الحديث: «**كل مسجد له مؤذن وإمام فالاعتكاف فيه يصلح**»، ولا اعتكاف إلا بصيام، وليس للمعتكف

أن يخرج من معتكفه إلا لما لابد منه كالغائط والبول، ثم يرجع من فوره بعد زوال الضرورة. ومن الضرورة المرض البيّن والحيض. والاعتكاف ليس بواجب ولكنه سُنّة، وللمعتكف أن يخرج لصلاة الجمعة، وإذا أتى كبيرة فسد اعتكافه، لأن الكبيرة ضد العبادة، كما أن الحَدَث ضد الطهارة والصلاة، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه. والاعتكاف نذر، وقد ينذر أن يعتكف ولو ساعة، وقد ينذر أن يعتكف شهراً، واعتكاف رمضان للعشرة الأواخر، ويستحب للمعتكف أن يبيت ليلة الفطر في المسجد حتى يغدو منه إلى المصلى. وظل النبيّ ﷺ يعتكف كل رمضان حتى توفّاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده، وقيل كان يعتكف العشر الأواخر، واعتكف العشر الأواسط، ونصح بالاعتكاف فى العشر الأواخر لالتماس ليلة القدر، وقال: «فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر». وقيل: للمرأة أن تعتكف فى بيتها في مصلاها، غير أن الآية تنصّ على أن الاعتكاف للجنسين فى المساجد، كما فى قوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾(البقرة ١٨٧)، وأقل الاعتكاف ما يطلق عليه اسم «اللَّبث»، وهو المُكث والإقامة، غير أن اللبث أو المُكث أقل من الإقامة ولا يزيد عن عشرة أيام، تقول: «ما لَبِثَ أن فعل كذا» اى ما تأخّر ولا أبطأ وإنما فعله بسرعة. ولا يشترط للاعتكاف القعود فى المسجد وملازمته طوال العمر. وللزوجة أن ترجّل رأس المعتكف، وكان النبىّ ﷺ يُصغى رأسه إلى عائشة وهو مجاور فى المسجد فترجله مع أنها حائض. وقيل لا يشترط الصيام للمعتكف، ولا يشترط للاعتكاف شهر رمضان، لأن النبيّ ﷺ لما لم يعتكف في رمضان، اعتكف في العشر الأول من شوال، وأول شوال هو يوم فطر كما هو معروف وصومه حرام، فكيف اعتكف فى شوال؟ وآية الاعتكاف (البقرة ١٨٧) تقصره على رمضان، والأحاديث تقول إنه لم يعتكف إلا فى رمضان. وللنساء أن يزرن أزواجهن وهم معتكفون، وزارت النبىّ ﷺ صفية بنت حيىّ وتحدثت معه ساعة ثم أوصلها إلى باب المسجد. وللمستحاضة أن تعتكف فى المسجد مع زوجها، واعتكفت أم سلمة مع النبىّ ﷺ وهى مستحاضة، وله أن يدرأ عن نفسه بالقول ويلحق به الفعل.

●●●

٢٠٤٣. ﴿قضاء الصوم والحج والاعتكاف﴾

يتوجب القضاء عن كل يوم نفطره من رمضان، فإن اضطررنا لمرض أو غيره أن نفطر الشهر كله جاز قضاؤه متفرقاً، وأفضل من ذلك قضاؤه متتابعاً. ويجوز قضاء الصوم في أيام عشر ذي الحجة، ويمكن تأخير القضاء ما لم يدخل رمضان آخر، أو رمضانات ولم نقض، فليس أمامنا إلا القضاء، وإن كان الإفطار لغير عذر يتوجب مع القضاء إطعام مسكين عن كل يوم؛ ومن دخل فى صيام تطوع استحب له إتمامه، فإن خرج منه فلا قضاء عليه وإنما

يستحب له القضاء؛ والمسلم الجاهل الذي لا يدري وجوب الصيام، إن عَلم من بعد، كان عليه قضاء ما فاته؛ وكذلك من يعلن إسلامه ولم يصم، فعليه القضاء من بعد إسلامه، وشأنهما شأن مَنْ ترك الصلاة جاهلاً بوجوبها. ولا يجب القضاء على من لا يقدر على الصوم لمرض مزمن، أو شيخوخة. ويجب القضاء بلا كفّارة على مَنْ أكل وشرب ليلة الصيام دون أن يبحث وينظر هل طلع الفجر، ثم تبين له أنه قد طلع فعلاً؛ ومن ذلك أن يخبره مخبر بدخول الليل فيأكل ويشرب اعتماداً على خبره ثم يتبين له بقاء الليل؛ وإذا تمضمض لغير الوضوء فسبقه الماء إلى جوفه؛ وإذا تعمّد القيء؛ وإذا كان مسافراً وأفطر بدون مراعاة شروط الإفطار في السفر. وأما من مات وعليه صومٌ من رمضان أو صيام نذر لم يقضه، فقد ذكروا أن وليّه يصوم عنه، للحديث: «من مات وعليه صيام صام عنه وليّه»، وقال ﷺ لامرأة سألته إن كانت تصوم عن أمها التي ماتت وعليها صوم نذر؟ فقال: «فصومي عن أمك»، وقيل: لا يصوم أحد عن أحد لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(الزمر ٧)، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾(النجم)، وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾(الأنعام ١٦٤)، وفي الحديث من ذلك: «لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدّاً من حنطة»، والمُدّ قدر وجبة من طعام. وفي قضاء الحجّ عن الميت، قال ﷺ للمرأة التي سألته إن كانت تحجّ عن أمها؟: «حجّي عنها». والحجّ الفاسد فيه القضاء. وقيل ربما قوله: «لا يصوم أحد عن أحد» المقصود به رمضان، ولكن صوم النذر يجوز قضاؤه عن الميت. والحامل والمرضع تفطران في رمضان ولا إطعام عليهما ولكنهما تقضيان، بمنزلة المريض يفطر ويقضي، وقيل الحامل والمرضع تطعمان وتقضيان. والمعتكف: إذا أفسد اعتكافه وكان تطوعاً فلا قضاء عليه، فإن كان اعتكافه نذراً، لزمه النذر، فإن فسد فعليه القضاء، وإن خرج لعذر وزال العذر، فعليه أن يستأنف، وإذا أتى كبيرة فسد اعتكافه وعليه القضاء والكفّارة، والمباشرة لأهله في الاعتكاف تبطل اعتكافه، وعليه ما على المواقع أهله في رمضان: القضاء والكفّارة. والمرأة التي تحيض وهي معتكفة يمكنها أن تتحيض في بيتها، فإذا طهرت رجعت وأتمت وقضت ما فاتها ولا كفّارة عليها.

•••

٢٠٤٤. ﴿صيام شعبان﴾

قيل: كان النبيّ ﷺ يصوم شعبان إلا قليلاً. وقيل: كان يصوم شعبان كله ويصله برمضان، وقيل: كان تارة يصوم شعبان كله، وتارة يصوم معظمه لئلا يتوهمون أنه واجب كرمضان. وقيل: كان يصوم من أوله تارة، ومن آخره أخرى. وقيل: كان يصوم ثلاثة أيام

من كل شهر، فأحيانًا ينشغل في السفر فلا يصومهـا فيقضيها في شعبـان. وشعبان عنده أفضل شهر بعد رمضان. وذلك كله من سماحة الدين وتيسيره على الناس، فعلى أى وجه أردتَ الصوم فى شعبان فَصُم.

٢٠٤٥. ﴿لا صوم يوم عرفة فى عرفة﴾

كان صوم يوم عرفة معروفـاً عند العرب ومعتاداً لهم في الحضـر قبل الإسلام، ومن جزم منهم فى الإسلام بأنه صائم استـند إلى ما ألفه من العبادة، والنبيّ ﷺ لم يصم يوم عرفة، وقال بعضهم: إن السبب أنه كان فى سـفر، وقد عُرِف نهى النبىّ ﷺ عن صوم الفرض في السفر فـضلاً عن النفل. وقيل: إن الفطر يوم عرفة يكون بعرفة، وأن رسول الله ﷺ نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة، ويستحب فطره ليتقوّى به الحاج على الذكر ولا يضعف عن الدعاء المطلوبين يوم عرفـة. وقيل: إنما أفطر لموافقته يوم جمعة وقد نهى عن إفراده بالصوم. وقيل: إنما كره صيام يوم عرفة لأنه يوم عيد لأهل الموقف لاجتماعهم فيه، ثم إن يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام منى من أعياد أهل الإسلام.

●●●

٢٠٤٦. ﴿لا صوم يومى الفطر والنحر﴾

نهى النبىّ ﷺ عن صوم يومى الفطر والنحر، والعلّة فى وجوب فطر يوم الفطر هو فصله عن الصــوم، وإظهار تمامه وحـدّه بفطر ما بعد الصــوم. وأما يوم النحر فعلّة فِطْره النُّسك المُتقـرَّب بذبحه ليؤكل منه، فلو شُـرِع صومه لم يكن لمشـروعية الذبح فيـه معنى، فعبّر عن علّة التحريم بالأكل من النسك، لأنه يستلزم النحر والمراد بالنسك الذبيحة المُتقرّب بها، ولمثل ذلك تعـيّن السلام للفـصل ختامـاً للصلاة ، فكذلك الفطر تعـيّن للفصل من الصـوم. وفي كل الأحـوال يُحرّم صوم يومي العيد هذين: الفطر والنحر، سواء للنذر، أو للكفـارة، أو للتطوع، أو للـتمـتع، أو للقـضـاء. وقـيل: لا صــوم فى يومين: الفطر، والأضحى (يوم النحر).

●●●

٢٠٤٧. ﴿الفطر يوم عيد﴾

المسلمون على الصيام لرؤية هلال رمضان، والإفطار لرؤية هلال شوال، فإذا رأوه آخر يوم من رمضــان غدوا إلى مـصلاهم، ولا تُصَلِّي صـلاة العيـد في غـير يوم العـيد، ولا تُقـضَى، وفي الآية: ﴿وَلِتُكَبِّـرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾(البـقرة ١٨٥)، يكبّـرونه ليلة الفطر ويحمّدونه، وشبهها ليلة النحر، وحقٌّ على المسلمين إذا رأوا هلال شوال أن يكبّروا لرؤيته إلى انقضاء الخطبة، ثم يعودون وقت خـروج الإمام ويكبّرون بتكبيره، فإذا انقضت الصلاة انقضى العيد، وإن خرجوا قبل طلوع الشمس فـلا يكبّرون في طريقهم ولا جلوسهم حتى

تطلع الشمس، وإن غدوا بعد الطلوع فليكبّروا في طريقهم إلى المصلّى، وإذا جلسوا حتى يخرج الإمام. وكان رسول الله ﷺ يكبّر يوم الفطر أشد منه في الأضحى، وكان يكبّر يوم الفطر في حين يخرج من بيته حتى يأتي المصلى، والناس يكبرون **جماعات وفرادى**، ولا يزالون يكبرون ويُظهرون التكبير حتى يغدوا إلى المصلى، وحين يخرج الإمام إلى الصلاة. ولفظ التكبير: **الله أكبر الله أكبر الله أكبر**، ثلاثاً، وقد يكبرون ويهللون ويسبّحون أثناء التكبير، وقد يقولون: **الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً**. وقال بعضهم: **الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا**.

●●●

٢٠٤٨. ﴿صيام أيام التشريق﴾

رخّص رسول الله ﷺ للمتمتّع إذا لم يجد الهدي أن يصوم **أيام التشريق**، كقوله تعالى: **﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾**(البقرة ١٩٦)، وقوله تعالى «في الحج»: يعمّ ما قبل يوم النحر وما بعده فتدخل أيام التشريق، واستدل من الآية على أنها ثلاثة أيام غير يوم الأضحى.

●●●

ثانياً: ﴿الطعام والشراب﴾

الكلام في الصيام من شأنه أن يؤدي إلى الكلام في **الطعام والشراب**: حلاله وحرامه كما تنزّل به القرآن، وما أُحِلّ من الأنعام، وما حُرِّم، وقد يجرّ ذلك إلى الكلام في آداب **الطعام وأوصاف المسلمين في أكلهم**...

●●●

٢٠٤٩. ﴿الأضحية﴾

الأضحية من ضحا، تقول ضحا الشيء، وضحيَ: أصابته الشمس، وبرز لها؛ **وضَحّى** فلاناً: أطعمه في **الضحوة**، وهي ارتفاع النهار بعد طلوع الشمس؛ **وضَحّى الغنم**: رعاها في الضحى، **وضحّى بالشاة**: ذبحها في الضحى، **والأضحية**، والجمع أضاحي: هي **الضحية**؛ ويوم **الأضحى**: يوم النحر؛ ويأتي عن الضحية في القرآن في قوله تعالى: **﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾**(الصافات)، **والذِّبح** هو الضحية، وجمعه **ذبوح**، وهو «**عظيم**» لأنه كان كبشاً ضخمًا، ذبحه إبراهيم فداءً لابنه **إسماعيل**، وكان قد رأى في ليلة **التروية** كأن قائلاً يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح «رَوّى» في نفسه، أي فكّر: أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسُمّي «**يوم التروية**»، فلما كانت الليلة الثانية رأى نفس الحلم، فلما استيقظ «**عرف**» أن ذلك من الله، فسُمّي «**يوم عرفة**»، وفي الليلة الثالثة رأى

مثله فَهَمّ بنحر ابنه ففداه الله بكبش، فذبحه، فسُمّي «يوم النحر» أو «يوم الأضحى». وروى أن جبريل قال وإبراهيم يهمّ بذبح ابنه: الله أكبر، الله أكبر، فقال إسماعيل: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر والحمد لله ـ فبقيت هذه الكلمات سنّة. وفي الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر، وأن أفضل الضحايا الفحول من الضأن، وفي السّنّة أن إناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز خيرٌ من إناثها، وإناث المعز خيرٌ من الإبل والبقر، ولا جدال أنه في وقتنا هذا يفضل التصدّق بثمن الضحية، برغم أن الضحية سنّة مؤكدة، ولكنها ليست واجبة، وكان ابن عباس يشتري يوم الأضحى لحماً بدرهمين ويتصدّق به، ويقول: هذه أضحية ابن عباس؛ ولم يكن: أبو بكر وعمر يضحيان حتى لا يُظن أن المواظبة على الأضحية واجب وفرض، ومع ذلك فلا يُرَخّص بترك هذه السُنّة لمن وجد السبيل إليها، مسافراً كان أومقيماً، إلا أن يكون له عذر، والذي يُضحّى به الأزواج الثمانية: الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، وضحّى النبيّ ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده، وسمّى وكبّر، ووضع رجله على صفاحهما وقال: «بسم الله، اللهم تقبلّ من محمد، وآل محمد، وأمة محمد». ويُتّقى من الضحايا: العرجاء، والعوراء، والمريضة، والعجفاء، والهتماء، وكل نقص في الأضحية مكروه؛ وهى بقيمتها أفضل من الصدقة. ومن أراد أن يضحّى فدخل أول شهر ذي الحجة فيحرم عليه أن يقصّ شعره وأظفاره حتى يضحّى، فإن فعل عامدًا أو ناسياً فلا فدية فيه. وقيل يُكره له ذلك ولا يحرم. وتجزىء البقرة أو البَدَنة عن سبعة، سواء كان المشتركون أهل بيت واحد أو لا، وسواء كانوا مفترضين أو متطوعين، أو كان بعضهم يريد القُربة أو يريد اللحم، ويجوز لهم تقسيم اللحم، وأن يذبح الرجل عن أهل بيته شاةً واحدة، أو بقرة واحدة، أو بَدَنةً، وليس للمولى أن يضحّى عن اليتيم من ماله إلا أن يكون موسراً، ولا يضحى عن الجنين في البطن، ولا يجزيء إلا الجَذَع من الضأن ـ أي صغيرها، والثّنيّ من غير الضأن ـ وهو الولد الثانى. ويُسَنّ استسمان الأضحية واستحسانها، وإذا أوجبت الأضحية فيجوز استبدالها بخير منها، فإن أوجبت ثم مات صاحبها، لا تباع في دَيْنه، ويقوم ورثته مكانه، وإذا سُرقت بلا تفريط منه فلا ضمان عليه، ومن يتلف أضحية عليه قيمتها، وينتفع بلبن الشاة المعنية للتضحية، ويجوز جزّ صوفها والانتفاع به، وإذا ولدت يتبعها ولدها، ويبدأ وقت ذبح الأضحية منذ أن يمضي من نهار يوم العيد قدرٌ تحلّ فيه الصلاة، وأما الذبح في اليوم الثاني فيكون من أول النهار، وآخر وقت لذبحها اليوم الثاني من أيام التشريق، وبذلك تكون أيام النحر ثلاثة: يوم العيد، ويومان بعده؛ والذبح في النهار دون الليل، ولا يجزئه أن يذبحها في غير هذه الأيام الثلاثة، فإن ذبحها قبل ذلك أو بعد ذلك فهي شاة لحم وليست أضحية، ويستحب

أن يقــول وقت الذبح: «بسم الله والله أكبــر. اللهــم هذا منك وإليك، اللهم تـقـبّل منى أو من فلان»، ويستحب أن لا يذبحـها إلا مسـلم، ويـفضـل لو ذبحـها المضحـيّ بيده، ويستـحب من استناب غيره أن يحـضر ذبحها، ويستحب أن يأكل ثلثها، ويهدي ثلثها، ويتصدّق بثلثها، ويجوز أن يعطى منهـا الكافر، ولا يجوز بيع شيء منها، ولا يعطى الجزار شيـئًا منــها كأجر. وإن نذر أضحية ثم ذبحها فله أن يأكل منها.

•••

٢٠٥٠. ﴿التذكية﴾

في الآية: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾(المائدة ٣): أن الذكـاة عند المسلمـين أصلٌ في الذبح، والاصطلاح لا يوجد مثـيله في اللغات الأخرى، ولم تقل التوراة ولا الأنـاجيل بالذكاة، وهي في اللغـة تعني «التـمـام»، ومنه «الذكـاء» وهو حدّة الذهــن، ويقال ذكَي ويُذكّى، والفعل ذكى، وذَكاً، والذّكْوَة ما تذكو به النار، وتسمى الشمس ذُكاء، لأنها تذكو كالنار، والصُّبح ابن ذُكاء، لأنه من ضوئها، ومعنى «ما ذكّيتم»: أدركتم ذكاته ـ أي ذبحه ـ على التمام، تقول ذكّيت الذبيحة أذكّيها مشتقة من التطيّب والرائحة الذكية، فالحيوان إذا أسيل دمه فقـد طُيّب وطَهُر، وفي الحديث: «ذكاة الأرض يُبْسُها» يريد طهارتهـا من النجاسة، فالذكاة في الذبيحة تطهير لها، وإباحة لأكلها، وكذلك يُبس الأرض بعد النجاسة تطهير لها وإباحة للصــلاة فيها، وذلك بمنزلة الذكاة لـلذبيحة. والتذكـية في الشرع عبارة عن إنهار الدم، وفَرْى الأوداج فى المذبوح، والنحر في المنحور، والعَقْر في غير المقدور عليه، ويُقرن بنية القصد لله وذكْره عليه، ويُفعل بآلة ذبح صحيحة، لأنه ليس المقـصود في التذكية مجرد الذبح، وإنما التذكية ضربٌ من التعـبُّد لله، وفي الحديث: «ما أنْهَر الدّم وذُكـر اسم الله عليه فكُل»، فـإذا أُهمل ذلك ولم يقع الذبح بنيـة، ولا بشرط، ولا بصـفة الذبح الإسـلاميـة المخصـوصة، زال منهـا حظ التعبّـد، فلم تؤكل لذلك. ويستـحب ألا يَذبح إلا من أطاق الذبح، وجاء به علـى السُّنّة، ذَكرًا كان أو أنثى، مـسلماً كان أو كـتابيـاً، بشرط أن يكون بالغاً مميزًا، والأفضل ذبح المسلم عن الكتـابى، ولا يذبح نسكاً إلا المسلم، ولا تحل ذبيحة المغالى، ولا المـشرك، ولا المرتد والملحـد، وفى الحديث: «إن الله كـتب الإحسـان على كل شيء، فإذا قـتلتم فأحـسنوا القـتلة، وإذا ذبحتم فـأحسنوا الذبح، ولْيُـحدّ أحـدكم شَفْرتـه، ولْيُرح ذبيحته» أخرجه مسلم. وإحـسان الذبح هو الرفق بالبهائم والطيور. فلا يـصرعها بعنف، ولا يجرّها، وأن يـحدّ الآلة، ويُحضـر نية القُـربة، ويستـقبل القبلة، فـإذا قطع الودجين والحلقوم أجهـز، والودجان وهى العرقان الغليظان المحيطـان بالحلقوم، فإذا أتم ذلك يريح الذبيحـة إلى أن تبرأ، ويشكر الله، ولا يذبح بهيمـة أمام أخرى. ولا يصلح للتزكـية كل

حيوان نجس العين كالخنزير، وكذلك الحشرات كالفئران، وكذلك السباع والطيور المفترسة كالبومة والنسر والحدأة والصقر، والحيوانات المسوخ كالفيل والدب والقرد، ولا يحل الذبح من القفا، ولا يتعمد **قطع الرأس**، والنهي تحريم ولا يعنى الفساد، وقطع **الأوداج** لا يتحقق شرعاً إلا إذا كان الذبح من تحت العقدة المسماة عرفاً **بالجوزة**. وتحرم الذبيحة بدون **التسمية** عمدًا، ولا تحرم بنسيان التسمية، ويكفى فيها قول: «**الله أكبر، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وبسم الله**»، وتكون التسمية فى غير **الصيد وذبيحة الاضطرار**، وتجوز ذبيحة **الجُنُب**. ولا يحل أكل كل ما يعيش في البر من **دواب البحر** بغير ذكاة، كالسلحفاة، إلا ما لا دمّ له كالجنبرى فإنه يباح بغير ذكاة، وأما ما لا يعيش إلا في الماء **كالسمك** وشبهه فإن ذكاته إخراجه من الماء حيًا، والميت من السمك غير مباح، ولا تشترط التسمية فى صيد السمك. ولا يُقطع **عضو** مما ذُكّى حتى تزهق نفسه، وتُحرم **المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وأكيلة السبع أو الذئب أو أي حيوان مفترس، والمشرفة على الموت**، إلا إن أُدركت ذكاتها وفيها حياة مستقرة، فإن لم يبق من حياتها إلا مثل حركة المذبوح لم تُبح بالذكاة.

والنحر مختص **بالإبل**، ومحل النحر **اللَّبة**: وهي المكان المنخفض الكائن بين أصل العنق والصدر، وأما **الذبح**: فهو في الحلق أي الحلقوم، ويستحب فى **الغنم والبقر والجاموس والطير**؛ وفى **الغنم**: تُربط اليدان مع إحدى الرجلين، ومثله **الماعز**؛ وفى **الإبل**: تنحر قائمة بعد أن تُربط إحدى اليدين إلى الركبتين وتترك اليد الأخرى، ويجوز نحرها مضطجعة إلى **القبْلة**. ويُستحب إرسال **الطير** بعد الذبح حتى يرفرف. ومن المستحبات سرعة الذبح، وأن يُسقى الحيوان قبل الذبح، ويُكره **قطع الرأس** أو مسح الجلد قبل **خروج الروح**.



٢٠٥١ - ﴿الحلال من الصيد﴾

الأكل من الصيد **بالكلاب والصقور المعلَّمة المدرَّبة** حلال، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾(المائدة ٤)، وفي صيد الصقور قال ﷺ: «**ما أمسك عليك فكُل**» أخرجه الترمذي. وجواز الأكل يترتب على نية الصائد، وأنه قصد عند إرسال الكلب أو الصقر **التزكية والإباحة**، وفي الحديث: «**إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكُل**»، فأما لو كان يصيد بقصد **اللهو** فهو حرام، فمن باب الفساد إتلاف حيوان أو طير لغير منفعة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الحيوان أو الطير إلا لمأكلة. **والجوارح** كالكلاب والصقور، سُمّيت جوارح لأنها **تجرح** وتُسيل الدم. وشرط الأكل من الصيد أن يُعلّم الكلب أو الصقر أن يُمسك الصيد ولا يأكل منه، فهذا دليل على أنه مُعلَّم كما فى الآية، وإنْ أكَل الكلب

أو الصقر منه فلا يجوز أكله، **وعقر الجارح للصيد** إذا تحقق لا يجيز الأكل منه، ولو مات الصيد في أفواه الكلاب لا يؤكل منه، لأنه مات **خنقاً**، فإذا عاد الكلب أو الصقر بالصيد حياً ذبحه الصائد وأفرى حلقه. وإن مات الصيد من صدمة الكلب لم يأكل. ويغنى عن الذبح أن يكون **الصيد** بالرصاص وهو يتكفّل بالإذكاء، وما يحل من الصيد هو **اللحم** دون الفرث والدم. والكلاب لا تُقتل فى الإسلام، وأخصّها **كلاب الصيد والرعى والحراسة**. وفى الآية دليل على أن العالِم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأن الكلب والصقر إذا عُلّما يكون لهما ميزة على سائر الكلاب والطيور، ويرتفع ثمنهما، **وفى تعليمهما دليل** إمكان تعليم الإنسان مهما كان غباؤه، وتعليمه أولى من تعليم الحيوان والطير. **والتسمية عند الإرسال على الصيد**، فيها أن فقه الصيد والذبح فى معنى التسمية واحد، وأما الأمر بالتقوى فى الآية ففى كل ما سبق، وفيما تضمنته الآية من الأوامر. وتدل الآية **على جواز بيع الكلب، والانتفاع به بسائر وجوه الانتفاع، إلا ما خصّه الدليل**. ومن العرب المشهورين باقتناء كلاب الصيد: **عديّ، وكانت له خمسة** كلاب سمّاها بأسماء أعلام: سهلب، وغلاب، والمُخَيلس، والمُتناعس، ووثّاب.

والمكلِّبون فى الآية هم أصحاب الكلاب ومعلموهم. ولا يحرم الأكل من صيد الكلب الأسود، فالحديث: «**الكلب الأسود شيطان**» **لا يعنى** تحريم صيده، وكل كلب يجوز الأكل من صيده طالما **عُلّم** مهما كان لونه، طالما أنه يأتمر إذا أُمر، وينزجر إذا زُجر، فإذا تعلم الكلب بذلك **فهو المعلَّم**. وتدل الآية على جواز اتخاذ الكلاب واقتنائها **لحراسة الماشية والأملاك** كالبيوت والزرع، والأحاديث كثيرة فى ذلك، وأما الكلاب المنهى عنها فهى التي تستخدم لترويع المسلمين، أو التي دأبها التشويش على الناس وتلويث البيئة سمعياً بنباحها. وفي قوله تعالى: ﴿**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** ﴿١٨﴾﴾ (الكهف) دليل آخر على أن الكلاب يُباح اقتناؤها وتربيتها لحراسة **الأفراد**. ومن أشهر الكلاب فى القرآن **كلب سورة الكهف**، ويستخلص من السورة أن طاقة الكلب الواحد لحراسة الأفراد تكون من **ثلاثة إلى سبعة**. والكلب عموماً نجسٌ عينه وسؤره وعرقه، وجميع ما خرج منه، وإذا تنجّس إناء أو غيره بنجاسة من كلب أو متولد منه، وَجَبَ غسله **سبع مرات** بالماء والصابون، سواء كان ذلك بولوغ الكلب **فى الإناء، أو تبوله، عليه** أو لغير ذلك من الأسباب المسببة للنجاسة، وروى أنه يُغسل **ثمانية**، فإذا لم يوجد الصابون يكون الغُسل فى هذه المرات **بالتراب** ـ وهو مُطهر أشدّ من الصابون، ولذا كان **التيمم** به. وحُكم نجاسة سائر أجزاء الكلب **كشعره، وجلده، ويده، ورجله**، حُكْم ولوغه وبوله. **والنجس**: هو الذى يحتاج إلى تطهيره، فلا يُؤكل باليد التى مسحت على شعر كلب، وإنما ينبغى غسلها ولا تُقبَل

الكلاب كما يفعل البعض، ويُغسل أثر فم الكلب في الصيد. ويجوز بيع كلب الصيد أو الحراسة، والوصية به. وقتل الكلب المعلمّ حرام، وفاعله مسيء وظالم، ويُغرّم لأنه اعتداء على ملك. ويباح قتل الكلاب الضالة، والعقورة ولو كانت معلّمة؛ وأما ما لا مضرة فيه فلا يباح قتله. واقتناء الكلب يوجب عدم إطلاقه فيعقر الناس والدواب، ويروّع الأطفال، وقد يمزّق ثياب هذا أو ذاك، وعلى صاحبه الضمان في مثل هذه الأحوال، إلا أن يدخل إنسان دار صاحب الكلب بغير إذنه، فيعقره الكلب، فلا ضمان له، وإن دخل بإذنه ضمنه.



٢٠٥٢. ﴿صيد البرّ حلال أكله إلا للمحرم﴾

كل ما يعيش في البرّ وله فيه حياة فهو صيد البرّ، وفي الآية: **﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾**(المائدة ١) إباحة الصيد لمن ليس بمُحرم، وقال تعالى: **﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾**(المائدة ٩٦)، وقال: **﴿لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾**(المائدة ٩٥)، فجعل على المحرم الذي يصيد متعمداً دية هَدْي، أو كفّارة طعام، أو الصيام لمدة تعادل طعام الكفارة، وأكثر مدة للصوم شهران. والتحريم في الآية ليس صفة الأعيان وإنما يتعلق بالأفعال، ومعنى **﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾** أي فعل الصيد، وهو المنع من الاصطياد، أو يكون الصيد بمعنى المصيد، فلا يجوز أن يقبل المُحرم صيداً وُهب له، ولا يجوز له شراؤه، ولا يجوز له قتله، ولا أن يمسكه حياً، ولا يُذكّيه.



٢٠٥٣. ﴿صيد البحر وطعامه﴾

أُحلّ أكل أي حيوان بحرى، بقوله تعالى: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾**(المائدة ٩٦)، وقوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾**(النحل ١٤)، **﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾**(فاطر ١٢)، وصيد البحر: ما صيد منه، ويستوى في ذلك البحر والنهر؛ وطعامه: ما مُلّح منه وبقى، وتسخير البحر: هو تمكين البشر من الصيد منه والتصرّف فيه وتذليله؛ واللحم الطرى: هو السمك الطازج بأنواعه لم يفسد، والقشريات ما لم يَرد في ذلك مانع. واللحم أجناس: فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس، ولحم ذوات الماء جنس. وتختلف اللحوم باختلاف أصولها، فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف، وكذلك لحم الطير، ولحم السمك، والكل من النّعم،

ولا يؤكل أي حيوان بحري إلا صنف السمك، فالتمساح لا يؤكل لحمه، وكذلك القرش والدلفين، وكل ما له ناب، لنهيه ﷺ عن أكل ذي ناب. والسمك هو الذي له قشر، وما في جوفه من بيض وخلافه، حلالٌ مثله. ولا يؤكل السمك الطافي لأنه ميت، وفي التنزيل: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ**﴾(المائدة٣)، وفي الحديث: «**كلوا ما حَسَر عنه البحر، وما ألقاه؛ وما وجدتموه ميتاً أو طافياً فوق الماء فلا تأكلوه**» أخرجه الدارقطني، وأما الحديث الآخر في البحر: «**هو الطهور ماؤه الحلّ ميّته**» أخرجه البخاري، **وميتُه** هو السمك إذا أخرج حياً ثم مات بعد ذلك، فطالما أنه أخرج حياً فهو حلال إذا مات من بعد، والفيصل في تحليل أو تحريم السمك طافياً أو ميتاً هو فساده من عدمه، فإن كان طيّباً لم يتغير فهو مباح. ولما اصطاد موسى وفتاه السمكة لغذائهما، كانت حية وليست ميتة، وذلك دليل على أن أكل السمك المقصود به الذي صيد حياً، قال تعالى: ﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا** (٦١)﴾(الكهف). والذي يتخذ له طريقاً إلى البحر لابد أنه سمكٌ حي. وما صاده يهودي أو نصراني فهو حلال، وفي الحديث: «**كلوا رزقاً أخرجه الله**». والجمبري لا يحلله اليهود، وهو حلال عند المسلمين، وكذلك سلاحف الماء، وسمك الثعبان مع أنه لا قشر له، وكذلك لحم الحيتان. والضفدع حرام.

●●●

٢٠٥٤. ﴿صيد المؤمنين مع الإحرام والحرم﴾

كان الصيد أحد معايش العرب وشائعاً بينهم، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام والحرم كما ابتلي بني إسرائيل في ألا يعتدوا يوم السبت، وأنزل الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٩٤)﴾ (المائدة) بياناً لأحكام أحوالهم ومحظورات حجهم وعمرتهم.

●●●

٢٠٥٥. ﴿كل لذيذ من مطعم ومشرب مباح طالما هو حلال﴾

المباح من الشهوات واللذات هو الذي حلّله الله كقوله: ﴿**لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ (المائدة ٨٧)، ونظيره قوله: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ (الأعراف ٣٢). وقوله: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**﴾ (المائدة ٩٣)، وفي هذه الآيات أن المسلم لا يطعم إلا المباح، وله أن ينتفع بكل لذيذ من مطعم ومشرب ومنكح وإن بولغ فيه وتنوهي في ثمنه طالما هو حلال، ومع التقوى والإيمان وإتيان الصالحات يكون اجتناب ما حرّم الله.

●●●

٢٠٥٦. ﴿كلوا الحلال الطيب﴾

كان بعض الناس يحرّمون على أنفسهم أطعمة بعينها فنزل فيهم القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(البقرة ١٦٨)، والحلال: هو ما لم يحرّمه الله، والطيّب: هو السليم النظيف المستلذ، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر. والحلال سمى حلالاً لانحلال عقدة الخطَر عنه. وقيل: النجاة في ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبيّ ﷺ. وقيل: «خمس خصال بها تمام العلم: معرفة الله، ومعرفة الحقّ، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنّة، وأكل الحلال، فإن فُقدت واحدة لم يُرفع العمل. ولا يصحّ أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون الحلال حلالاً حتى يصفو من ست خصال: الربا، والحرام، والسُّحت، والغُلول، والمكروه، والشُّبهة». والسحت: المال الحرام؛ والغلول: ما أُخذ خيانة.

●●●

٢٠٥٧. ﴿أحلت الأنعام للمسلمين﴾

الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم، وهي حلال للأكل كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾(الحج ٣٠)، يعنى إلا ما يتلى في الكتاب من المحرّمات، وهي الميتة والموقوذة وأخواتها. وتسميتها بالأنعام للين مشيها، وهي ثمانية أزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوان يقال له أنعام بمجموعه معها، وليس منها الخيل والبغال والحمير.

●●●

٢٠٥٨. ﴿البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام﴾

في القرآن: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾(المائدة)، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام: أسماء من الجاهلية لأحوال من الحيوان حرّموه بها أو درجوا على العمل بمقتضاها، ولا يهم المسلم الآن أن يلم بها لولا أن يعرف لماذا ذكرها الله في كتابه وحرّمها. وكانوا في الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جذعوا آذانها فقالوا هذه بحيرة: يعني مشقوقة الأذنين، والشق في الأذن يسمى بحراً، ومن ثم فهى بحيرة، ويخصّص درُّها للطواغيت (بيوت الأصنام، يعنى أهل الله) فلا يتعرض لها إنسان، ولا يحلبها أحد من الناس بمقتضى الشق في أذنها وهو علامة التخلية؛ وأما السائبة فهي الناقة تلد عشر إناث ليس بينها ذكر فتسيَّب ولا تُركَب ولا يُجَزُّ وبرها، ولا يُحلَب لبنها إلا لضيف. وقيل: كان الرجل إذا خرج لحاجة فقضيت، سيّب من ماله ناقة أو نعجة فجعل لبنها للطواغيت، وما تلد من شيء

يُسيِّب كذلك وقيل: كان الرجل إذا قُضيت حاجته أو عوفى من مرضه أو كثر ماله، سيّب ناقةً للآلهة لا يُحمَل عليها شيء. وفى الحديث: «أول من سيّب السوائب وعَبَدَ الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وفى رواية أخرى: إن **أول من سيّب السوائب، وأول من غيّر دين** إبراهيم، هو: **عمرو** بن **لحى أخو** بنى **كعب. و أول من بَحَر البحائر** رجل مِن بنى مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرّم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك». **وعمرو ابن لحى** كان أحد رؤساء **خزاعة** الذين كانت لهم ولاية البيت بعد جرْهم، وكان أول من غيّر دين إبراهيم فأدخل الأصنام، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرّب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية فى الأنعام وفى غيرها كما فى قوله تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾**(الأنعام ١٣٦). وأما **الوصيلة** فهي الناقة البكر، تلد أنثى في أول بطن، ثم «تصلها» بأنثى أخرى في البطن الثانية وليس بينهما ذكر فيُسيّبونها لطواغيتهم، وهي من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين فى كل بطن، «تصل» بينها فتسمى «الوصيلة» وتُترك. والحام: هو الفحل الذي يولد لولده، فيقال حَمَى ولد الولد ظهره، فهو حام، ولا يحملون عليه، ولا يجزّون له وبراً، ولا يمنعونه من مرعى يرعاه، ولا حوض يشرب منه، حتى وإن كان الحوض لغير صاحبه، وهذه العادات جاهلية وما شرعها الله، ولا هى عنده قُربة كما ادّعوا. ولا يوجد من ذلك شيء الآن، **والقرآن يؤرّخ لهذه العادات الاجتماعية، وأبطلها فى حينها.**



٢٠٥٩. ﴿تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع﴾

هذه جميعاً تنطبق على الحيوان والطيور، وهي من المحرّمات، **والمنخنقة**: هي التى تموت خنقًا، والخنق هو حبس النَّفَس، سواء فعل بها ذلك آدمى، أو اتفق لها ذلك فى حبل، أو بين عودين أو نحوه، وكان **أهل الجاهلية** يخنقون الشاة ويأكلونها كنوع من الذبح. **والموقوذة**: هى التى تُرمى، أو تُضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية. يقال **وَقَذَهُ وَقْذاً** وهو وقيذ. **والوَقْذ**: شدة الضرب، وفلان **وقيذ** أى مثخن ضرباً، وكان **أهل الجاهلية** يقتلون الحيوان بضربه ثم يأكلونه. والصيد بالبندقية، أو النبلة، أو الحجر، ليس وقذاً، وهو حلال. **والمتردية**: هى التى تسقط من العلو فتموت، كأن تسقط من سطح البيت، أو فى بئر، أو من جبل، **والرَدَى** هو الهلاك، سواء تردّت بنفسها، أو أرداها غيرها. وإذا أصابتها البندقية فتردّت من الجبل إلى الأرض فهى حرام، لأنها ربما ماتت بالصدمة، وإن تردّت في بحر أو نهر فلا تؤكل، لأنك لا تعلم إن كانت قد ماتت بالبندقية أو غرقاً، وكانوا فى **الجاهلية** يأكلون المتردّية، لأنهم ما كانوا يعتقدون الميتة إلا ما مات من مرض، وأما هذه الأسباب **فهى كالذكاة**، والشرع حَصر الذكاة فى صفة

مخصوصة وهي الذبح أو النحر. **والنطيحة**: هي الشاة أو الغزالة أو الجـدْي، ينطحه آخر فيمـوت قبل أن يُزَكّى. **وما أكل السبع**: هو كل ما افـترسه ذو ناب وأظفار من الحـيوان، كالأسد، والـثعلب، والذئب، والكلب، والقط، والعرسة، والضـبع، فهذه كلهـا سباع، وفي الكلام إضمار: أي ما أكل منه السبع. ويستثنى من كل ذلك ما يُذكّى، أي ما أُدركت ذكاته وفيه حياة، فإن الذكاة عاملة فيـه، والأكل منه مع ذلك مكروه وغير صحي، لأن ما بقى قد تنتقل إليه عدوى من الحيوان المفـترس، من الفيروسات أو الأمراض، وتتفشى في لحم الحيوان، والذكاة عند العرب هو الذبح، والذبح لا يطّهر لحم الحيوان من الميكروبات.

●●●

٢٠٦٠. ﴿العتيرة نسخها الإسلام﴾

العتيرة: ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب، وقد نسخها الإسلام ولا يعني ذلك كراهية الذبيحة في رجب، بل تباح فيه كغيره من الشهور.

●●●

٢٠٦١. ﴿لحوم الحُمر الوحشية والخيل والبغال والإبل﴾

قيل تبريراً لإباحـتها الآية: **﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾**(الأنعام ١٤٥)، فالمحـرمات هي هذه، وكل محـرّم حرّمـه رسول الله ﷺ، أو جاء في الكتـاب، مضـمومٌ إليها. وقيل: إن الآية تضـمنت تحصيل كل شيء من الحيوان وغيره إلا مـا استثنت، وقد يقال لذلك: تـباح لحوم الســباع وسائر الحـيوان إذن سوى الإنســان والخنزير، إلاَّ أن هذه الحيوانات ذوات ناب وهى محرمة لذلك، ويُجمَع إليـها كل ما دلّ عليه الدليل بالتحريم. وقيل: إن رســول الله ﷺ نهى عن لحوم الحُمـر الأهلية وأمر بلحـوم الخيل، والأحرى النهي أيضًا عن الخيل والبغال، لشبهها الخلقي بالحمـير، ومن ذلك هيأتها وزهومة لحمها، وغلَظه، وصفـة أرواثها، وأنها لا تجـتر، وإذا تأكد الشـبه الخلقي والتـحق به نفى الفارق بينها، وبُعد الشبه بالأنعـام المتفق على أكلها، تأكد القول بالمنع، وفي الرواية عن خالد بن الوليد: أن النبيّ ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الخيل، ولا ينتقص من الرواية أن خالداً لم يسمع الرسول ﷺ بنفسه يوم خيبر، لأنه لم يشهده ولم يكن قد أسلم. والنهى عن أكل الخيل والبغال والحمير كان عاماً، والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾** (النحل ٨)، فلو كانت يُنتفع بها فى الأكل، لكان امتنان الله بالأكل أعظم من امتنانه بالركوب والزينة، لأن الأكل به بقاء الإنسان، وحياة البنية، وأما الركوب والزينة فمن الأمور الثانوية، والامـتنان لا يكون بأدنى النّعم وتَرْك أعلاها. وعلى العكس جاء فى

الأنعام: ﴿**وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ**﴾(الحج ٣٠)، ومنها الإبل والبقر والجاموس والغنم والمعز (الأنعام ١٤٣/ ١٤٤)، والأنعام عموماً هى المواشى، والخيل والبغال والحمير ليست مواشٍ، ولكنها للركض والعدو. وألبان الأنعام حلال بعكس ألبان الخيل والحمير، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾**﴾ (المؤمنون) فنبّه إلى أن الأنعام للألبان وللحم، وأما الخيل والبغال والحمير كما فى الآية الأسبق، فللركوب والزينة، والخيل كذلك للحرب، كقوله: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾(الأنفال ٦٠). وعلى ذلك فالروايات فى تحليل لحم الخيل والحُمر متهافتة، وكذلك الروايات فى كراهية لحم الإبل.

•••

٢٠٦٢. ﴿لحم الميتة﴾

المَيْتَة: ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يُذبح ويؤكل، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**﴾ (البقرة ١٧٣)، وفي الحديث: «**أحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد...**»، والحوت أي السمك في قوله: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ**﴾(المائدة ٩٦)، وتحليل السمك ميتاً بشرط أن لا يكون قد فسد، والطافي منه فاسد وهو دليل الموت من مرض. ويُنتفع بالميتة فيُدبغ جلدها، **والدبغ يطهّره** لأنه يزيل الأوساخ عن الجلد فيُنتفع به يابساً، **والطهارة فى اللغة** تتوجه نحو إزالة أوساخه؛ وإن خُشى منه المرض من الميتة فلا يجوز الانتفاع به، وفى الحديث: «**لا تنتفعوا من الميتة بشيء**»، «**ولا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب**»، **وفي القرآن:** ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ**﴾(المائدة ٣) فلم يخصّ وجهاً من وجه، وفي الحديث: «**أيّما إهاب دُبغ فقد طَهُر**»، **والإهاب** هو الجلد. **وشعرالميتة وصوفها** طاهر طالما الحيوان ليس نجساً من قبل الموت، وفي الحديث: «**لا بأس بِمَسْك الميتة إذا دُبغ، وصوفها وشعرها إذا غُسل، ومَسْكُها هو الجلد**». **والفأرة والحشرة** إذا وقعت فى الطعام وماتت فإنها تنجسّه وتفسده وتنقل إليه المرض، وينبغى إلقاؤه، وكذلك لو وقع طائر أو حيوان أو ذباب في القدر فلا يؤكل ما فيه. **وأنفحة الميتة ولبنها وعظمها وبيضها** نجس، ومثلْها **القرن، والظفر، والحافر**، إلا إذا كانت قد ذُكّيت. ولا يُطعَم **الكلب المعلّم ولا الطير المعلّمة** الميتة، ويباح للمضطر أن يأكل من الميتة مقدار ما يسد رمقه ويأمن معه الموت، كقوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾(البقرة ١٧٣)، والاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم، أو بجوع فى مَخْمَصة يصيّره إليه العُدم والغَرَث ـ أى الجوع، فإذا أكل المسلم هذه المحرمات فإنه يكون قد أُكره وغُلب، ومن ذلك إكراه المسلمين من الأسرى أو الدارسين أن يطعموا لحم الخنزير.

•••

٢٠٦٣. ﴿لحم الخنزير محرّم﴾

حُرِّم لحم الخنزير أربع مرات في القرآن، كقوله: **﴿حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾**(البقرة ١٧٣)، وفي المرات الأربع خُصّ اللحم من الخنزير، ليدل على تحريم عين الخنزير، ذُكّى أو لم يُذَكّ، وليعمّ الشحم واللحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها. واسم اللحم يقع على اللحم مع الشحم، وناب اللحمُ عن الشحم لأنه دخل تحت اسم اللحم، وجاء عند اليهود تحريم لحم الخنزير في سفر الأحبار: «والخنزير فإنه ذو ظفر مشقوق ولكنه لا يجتر فهو رجسٌ لكم»، فشمل التحريم اللحم والشحم جميعاً، والشحم عموماً من المحرّمات في اليهودية، كقوله: «كل شحم من بقر أو ضأن أو معز لا تأكلوه» (احبار ٧/ ٢٣)، وفي القرآن عن ذلك: **﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾**(الانعام ١٤٦)، والكلام في الآية عن اليهود، فإن كانت شحوم البقر والغنم محرّمة فمن باب أولى أن يكون شحم الخنزير محرّماً. ولا خلاف في الإسلام أن جملة الخنزير محرمة. وخنزير الماء اسمٌ على غير مسمى، فإن كان اسمه خنزيراً إلا أنه من دواب البحر، والمحرم هو خنزير البرّ، ولا بأس أن يندرج معه خنزير الماء. وقيل: إن لفظة الخنزير في العربية رباعية ولكنها مشتقة من خَزَر العين، واللفظة على ذلك ثلاثية. تقول: تخازر الرجل إذا ضيّق جفنه ليحدد النظر؛ والخَزَر: ضيق العين وصغرها، ورجل أخزر أي بيّن الخَزَر، وكأنه ينظر بمؤخرة عينيه كالخنزير. وجمع الخنزير خنازير؛ ويقال تخنزر أي فعل كالخنازير. والخنزير حيوان خُلطة، يعني يمكن أن يأتي الذكر الذكر، وأن يأتي الكبير الصغير، وأن تقوم الأنثى على الأنثى، ولهذا كرهه المصريون القدماء والمسلمون، إلا النصارى، يحبون تربيته لأكل لحمه وشحمه وأعضائه جميعاً. وقيل: إن الخنزير كان محرّماً عند قدماء المصريين، لأن إله الشر ست تلبّس به، ولأن الخنزير يفعل أي شيء، وقد يقتل الخنزير مثله، وقد يقتل راعيه، ونقل اليهود ذلك عن المصريين ونسوا سبب كراهيتم له إلا أنه محرّم، فتعللوا لتحريمه ولم يذكروا ما ذكرناه عنه، إلا فقهاء الإسلام، فإنهم يذهبون إلى ما نذهب إليه، لأن الإسلام دين عقل، وعقيدته مبنية على المقدمات السليمة، ويستوي الخنزير في التحريم مع الميتة والدم، وكلها ناقلة للأمراض ومجلبة للأوبئة، كأمراض ضعف المناعة، والتهابات الكبد الوبائي، والطفيليات، بل ربما كانت هذه المحرمات أخطر مصادر العدوى للإنسان.

●●●

٢٠٦٤. ﴿اللحم كطعام﴾

اللحم من جسم الحيوان أو الطير خلاف العظم، وليس منه الشحم ولا الدهن. واللحم في القرآن في قوله تعالى: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ③﴾**(المائدة)، ولحم الحيوانات والطيور الميتة حرام، واللحم المباح هو اللحم المذكّى، وهو

المشتهى في الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)﴾(الطور)، وكذلك لحم الأسماك، كقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢)﴾(فاطر).

٢٠٦٥. ﴿لحم الطير﴾

الطيور منها المحلل أكل لحمه كالطيور الداجنة، ومنها المحرّم أكله مما يطعم الجيف كالنسور والغربان والخطاطيف والوطواط، والرسول ﷺ حرّم لحم كل ذي مخلب وهي الطيور الجوارح، وكل طير صفيفه أكثر من رفيفه، والصفيف هو بسط الجناحين من غير رفيف، وكل طير برياً أو بحرياً ليس له قانصة ولا حوصلة ولا صيصة - وهي الشوكة خلف رجل الطير خارجة عن الكف. ويباح من الطيور الدجاج، والحبارى، والبط، والأوز، والحمام، والرومي، والعصافير، والقطا، وطير الماء، والطاووس، والنعام. ويحرم ما يتغذى على الجلال (أي الروث أو البراز)، والاستبراء يذهب الجلل، وهو في البط خمسة أيام، وفي الفراخ ثلاثة، وفي الغنم عشرة أيام، وفي البقر ثلاثين يوماً.

•••

٢٠٦٦. ﴿البيض وما يحلّ ويحرم منه﴾

البيض يتبع الطيور في التحليل والتحريم، ويُعرف من شكله بالنظر إلى طرفيه، فإن تساويا فالبيضة لطائر حرام أكله، وإن اختلف فكان أحد الطرفين عريضاً مفرطحاً كبيض الدجاج، فهو لطائر حلال أكله. والبيض أكثر غذاء من كثير من الأطعمة، وأخفّ في الهضم من اللحوم، والمسلوق منه أفضل.

•••

٢٠٦٧. ﴿الدم نجس حرام لا يؤكل﴾

الدم محرّمٌ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾(البقرة ١٧٣)، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾(المائدة ٣)، وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾(النحل ١١٥)، وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾(الأنعام ١٤٥)، فلا يؤكل الدم، ولكن قد ينتفع به في عمليات نقل الدم، ويباح الدم في اللحم والعروق، واليسير من الدم في البدن، والدم على الثوب يُصلّى فيه، والمضطر قد يطعم الدم بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(البقرة ١٧٣)، وقوله تعالى «الدم المسفوح» تقييد للدم، لأن ما خالط اللحم من الدم محرّم بالإجماع، وكذلك الكبد والطحال غير محرّمين وهما من الدم، ودم الحيوانات البحرية كالسمك والحيتان غير محرم، وإلا لشرعت ذكاتها، أي ذبحها.

•••

٢٠٦٨. ﴿المحرّمات في الطعام﴾

هذه شملتها الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة ٣)، وكل ذلك لم يعد وارداً الآن حيث يأكل الناس مما يُذبَح فى المجازر وتضطلع به الحكومات، إلا أن يكون ذبحها فى البيوت. وكان أهل الجاهلية يخنقون الحيوان ولا يذبحونه، فإذا مات أكلوه، فهذه هى **المنخنقة**، ومثل ذلك ما يفعل الآن فى الخارج من قبل البهيمة، بمسدس فى الرأس، فلا تذبح ولا يسيل لها دم. ومثل ذلك **الموقوذة**: وهى التى ترمى أو تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية؛ ومثله **المتردّية**: التى تسقط من حالق فتموت، كأن يكون ذلك من فوق سطح مرتفع. والتحريم للتردّي، أي للموت بالصدمة؛ ومثل ذلك **النطيحة**: وهى البهيمة تنطحها أخرى أو تضربها سيارة أو يسقط عليها جدار فتموت قبل أن تُذكّى. ويُحرَّم الأكل من فريسة لذى ناب أو ظفر كالذئب والثعلب؛ ومثل ذلك فى المريضة فإنها كالفريسة، تُحذَر لما فيها من أمراض. **والذكاة** فى اللغة أصلها التمام، والذكاء الفطنة، وأذكى النار أجّجها، والرائحة الذكية هي الطيبة. والذكاة في الاصطلاح هو الذبح، فإذا سال دم الحيوان فقد طُيِّب فيطهر من أمراض الدم، ومن النجاسة إذا كان بنية القصد لله وذُكر عليه اسمه. وإذا كان المقصود من الذكاة إنهار الدم فذلك ضربٌ من التعبّد، للحديث: «**إنما الذكاة فى الحلق واللَّبَّة**» فبيّن محل الذبح وعيّن موضعه، وفائدته: «**ما أنهر الدمَ وذُكر اسم الله عليه فكُل**» أخرجه البخاري، فإذا لم يجر الذبح بهذه النية ولا بصفته المخصوصة الضامنة للطهارة، زال معه حظّ التعبّد، فليس يؤكل الحيوان. ومن تمام التعبّد الحديث: «**إن الله كَتَب الإحسان على كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، ولْيُحدّ أحدُكم شَفْرته وليُرح ذبيحته**». وحُسن القِتْلة إذا اضطر المسلم إلى قتل حيوان أو طير. وما ذُبح على النُّصب حرام، لأنه وما أُهل لغير الله واحد، وكانت النُّصب حجارة حول الكعبة يذبحون عليها لأصنامهم، فحُرِّم ذلك على المسلمين.



٢٠٦٩. ﴿المضطر قد يأكل المحرّم﴾

المحرّمات حصرتها الآية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(البقرة ١٧٣)، و«إنما» كلمة موضوعة للحصر، تتضمن النفي والإثبات، فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه، وقد حصرت التحريم، لا سيما وقد جاء بعد التحليل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(البقرة ١٧٢)، فأفادت الآية الإباحة على الإطلاق، ثم عقبها بذكر المحرم بكلمة «إنما» الحاصرة، فلا محرم يخرج عن هذه الآية، وتؤكدها الآية الأخرى التي نزلت بعدها بعرفة. ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾(الانعام ١٤٥). والميتة: هى ما فارقته الروح من

غير ذكاء مما يُذبح؛ **وصيد البحر** من الميتة ولكنه حلال، وينتفع **بإهاب الميتة** بعد دبغه. والدَّبغ يطهِّره، وشَعْرُها وصوفُها طاهر. **والدم**: حرامٌ نجس لا يؤكل.**وما خالط اللحم** فغير محرّم. ونعلم أن الدم ناقل **للإيدز والتهاب الكبد الوبائى**. وأما لحم الخنزير: فمحرمٌ سواء ذكي أو لم يُذكّى. فمن اضطر إلى شيء من هذه المحرمات فلا إثم عليه إذا أخذ منها **بقدر ما يقيم أوده** أو يُذهب مجاعته، فلا يسرف ولا يؤثرها ولديه البديل. **وعمليات التصنيع** قد يكون بها تطهير النجس منها. **والاضطرار** لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم، أو بجوع في مخمصة، كقوله: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾**(المائدة)، **والمخمصة**: هي الجوع وخلاء البطن، والاضطرار إلى أكل الميتة وسائر المحرمات لا يكون بنية الميل إلى الحرام، وهو معنى «**غير متجانف لإثم**» و«**غير باغ ولا عاد**».

***

٢٠٧٠. ﴿الأمر بالتسمية على الطعام﴾

المسلم مأمورٌ أن يذكر اسم الله على الطعام والشراب والذبح وكل مطعوم بقوله تعالى: **﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾**(الأنعام ١١٨)، وقوله: **﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾**(الأنعام ١١٩)، وقوله: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾**(الأنعام ١٢١)، وهذا نهيٌ صريح على تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه، وفي الحديث: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكُلْ**»، والخطاب لا يشمل الناسي، والشرط ليس بواجب عليه، والرافض للتسمية متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته. وقيل للنبيّ ﷺ: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «**سمّوا عليه أنتم وكلوه**»، وفي رواية قالوا: أعاريب يأتوننا بلحمان وجبن وسمن ما ندري ما كنه إسلامهم؟ قال: «**انظروا ما حرّم الله عليكم فأمسكوا عنه، وما سكت عنه فقد عفا لكم عنه وما كان ربُّك نسياً، اذكروا اسم الله عليه**»، وقال: «**المؤمن يذبح على اسم الله سمّى أو لم يسم**»، وقال: «**ذبيحة المسلم حلال، ذكراسم الله أو لم يذكر**».

***

٢٠٧١. ﴿الزروع والخضرة﴾

الزروع: ما زَرَع الزارع بإلقاء البذر في الأرض وتعهده بالسقيا، كقوله تعالى: **﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝﴾**(الواقعة). وتختلف الزروع **في الألوان والطعوم** كقوله: **﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾**(الزمر ٢١)، وقوله: **﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾**(الأنعام ١٤١)، والخَضِر والخُضْرة سواء، كقوله تعالى: **﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾**(الأنعام ٩٩) كالبقدونس والجرجير،

والشيح والخسّ، والنعناع، ومن شأنها تسكين العطش، وتساعد على النوم الهادي»، وتؤكل؛ وتعصر للزيت ، وتستخدم في الصناعات، وجميعها تمتاز بالخواص الكيميائية عالية القيمة، سواء كأغذية،أو كمصادر للعناصر الدوائية أو الصناعية، ومنها ما لا غنى للإنسان عنه كالحنطة، والذرة، والشعير، والأرز، وبعضها يحلّ أكلُه طالما يخلو من السُمّيات، ولا تحلّ إذا رعا الدود فيها والسوس، وتُكره ذوات الرائحة الكريهة كالفجل والبصل والثوم، وتُحرّم التي تُسقَى بالنجاسات أو تسمّد بها، والتي تُروَى بماء الصرف الصحي، **وزكاة الزروع والخضرة** تجب إذا بلغ إيرادها النصاب، ومقدارها **العُشر** فيما يُروَى بالمطر أو مياه الأنهار، وربع العُشر إذا رويت بالسواقي والمواتير. **(انظر أيضاً المزارعة والمساقاة)**.

•••

٢٠٧٢. ﴿أمثلة من الأطعمة من الزروع﴾

تأتي الآية: **﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾**(البقرة ٦١) ضمن تحسُّر بنى إسرائيل على ما كان لهم من أطعمة فى مصر، فطلبوا من موسى أن يدعو لهم الله أن ينبت لهم من خيرات أرض مصر **البقل**: وهو كل نبات ليس له ساق مقارنة بالأشجار التي لها سوق، **والبقول** غنية بالبروتينات، وبها الكثيرمن المعادن والدهون، وهي علاج للكثير من أمراض الهضم، وسوء التغذية، والسكر، وضغط الدم؛ **والقثاء**: وهو من أنواع الخيار ويتميز بالفيتامينات، ومليّن، ومنشّط للخلايا، وفاتح للشهية؛ **والفوم**: لغةً هو **الثوم**، وقيل هو **الحُمّص**، والأول مطهّر للمعدة، ويشفى التهابات اللثة، ويخفض الدهون والكولسترول فى الدم، وضغط الدم، والسكر، وأما **الحمص**: فمن القطّانيات، ويؤكل نيئًا ومطبوخاً، وهو غنى بالبروتينات ويخفض الكولسترول والضغط، ويعتبر غذاء كاملاً؛ **والعدس**: من أغنى البقول بالسعرات الحرارية، وهو غذاء كامل للفقراء ولذا يُعطَى في السجون، فضلاً عن أنه طعام شهي، ويضاف أحياناً إلى الأرز أو الفول، ويسهل هضمه، ويعطى الصحة والعافية، وفى الحديث: **«عليكم بالعدس فإنه مبارك مقدس، وأنه يرقّ القلب، ويكثرالدم، وباركه سبعون نبياً، آخرهم عيسى ابن مريم»**. وكان **عمر بن عبد العزيز** يأكل يوماً خبزًا بزيت، ويوماً بلحم، ويوماً بعدس. **والعدس والزيت** طعام الصالحين. وهو مما يخفّف البدن، ولا تسوء به المعدة كما تسوء من اللحم، وثبت أن من يأكل عدساً طوال عمره يمكن أن يستغنى عن كل طعام آخر؛ **والثوم والبصل**: من أعظم فاتحات الشهية، ومن أشهر الأدوية لكل الأمراض، ومن **عصيرهما** مع الزبادي وزيت الزيتون تزيد مناعة الجسم للأمراض، ويقل الكولسترول فى الدم، ونسبة كبيرة من

السكر، وتلتئم الالتهابات في الجسم. وثبت أنهما مطهران للرئتين، ويعالجان الربو وضيق التنفّس، بسبب تأثيرهما المضاد لمادة **الهستامين** المسببة للضيق والربو، ويميتان الميكروبات والبكتريا، ويعالجان النزلات الشعبية. ولم تعرف فوائد الثوم والبصل إلا مؤخراً، فسبحان الذي نبّه إلى ذلك في القرآن منذ ما يزيد على **ألف وأربعمائة** سنة، وفي سنة **٩٢٧** نشرت **المجلة الطبية الأمريكية** أنهما ينقيّان الدم، ولهما تأثير مهدىء، وطارد للبلغم، ومعالج للأرق، ولاضطراب الأعصاب، والسعال، ومتاعب الشعب الهوائية. وأثبت العالم **باستير** أنهما ذوا فعالية ضد الميكروبات التي تسبب متاعب الجهاز الهضمي، وضد ميكروب الدرن، والسُّل، والدوسنتاريا، ويحتويان على مركبات لهما فعالية المضادات الحيوية ومضادات الفيروسات، ويفيدان لذلك في علاج البرد ونزلاته، وأمكن أن يستخلص منهما مركب **دايفينيل أمين** المستخدم في علاج السكر، ويخفضان سكر الدم، ويزيدان إفراز البنسلين وتقليل هدمه في الجسم، وعلاج مضاعفات مرض السكر مثل زيادة دهون الدم والجلطة وضغط الدم المرتفع، ويفيد مضغ الثوم والبصل لمدة من **ثلاث دقائق إلى ثماني دقائق** في القضاء تماماً على ميكروبات الفم المسببة للأمراض، واستخدم **الجنود الروس** بخار البصل المتصاعد من معالجته على النار، علاجاً للجروح والشفاء منها سريعاً، وتسكين آلامها، وثبت أنهما يفيدان في علاج حَبّ الشباب والدمامل، ويفيد خليط شراب البصل مع عسل النحل في علاج البرد والكحة بتناول ثلاث أو أربع ملاعق للكبار، وملعقة واحدة للأطفال كل أربع ساعات. واستخدم البصل منذ القدم في علاج أمراض القلب، سواء طازجاً أو حساءً، أو مطبوخاً، أو مشوياً، وكمنشط للرغبات الجنسية. ومن شأن المادة الطيّارة بهما إذابة أغلب الكوليسترول في الدم في زمن قياسي، وكذلك الجلطات على جدران الشرايين التاجية، والدهون الثلاثية على أجهزة الجسم وأنسجته. ولو قارنا البصل **بالفياجرا** مثلاً، لوجدنا أن للفياجرا تأثيراً ضاراً على القلب بما يبذل الإنسان من جهد في العمليات الجنسية لا يتناسب مع حالته الصحية، بينما تعاطي البصل يزيد القدرة الجنسية وكفاءة الدورة الدموية على أداء الجهد المطلوب. ويزيد تناول **نصف بصلة من الحجم المتوسط أو ما يعادلها من عصير البصل** يومياً، من مستوى **الدهون عالية الكثافة HDL في نحو ٧٥٪ من المرضى، وهذا مؤشرعلى أن البصل مفيد في علاج جلطة القلب، بشرط أن يؤخذ طازجاً وليس مطبوخاً. ويمنع الثوم** تكوين مادة **الفيبرين** المسببة للجلطة. والثوم والبصل كلاهما مصدر **لمضادات الأكسدة** التي تساعد على الوقاية من **السرطان**، وخاصة سرطان الفم، والبصل **الأخضر** أو **الأبيض** أقوى من **الأحمر** في ذلك، ويفيد البصل في علاج تورمات وآلام المفاصل، وذلك بِشيّ **ست** بصلات متوسطة الحجم في فرن البوتاجاز، وتوضع على المفصل ويضغط عليها برباط ضاغط.

٢٠٧٣. ﴿الثمار والفاكهة﴾

الثمر في اللغة جَنْى الشجر، فالتمر مثلاً هو ثمر النخل، والفاكهة هي الثمار كلها، ومن شأن تناولها أن تفكه لها النفس، أي تطيب وتلتذ. وفي الآية: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾(فاطر ٢٨) أن الثمرات فيها الأحمر والأصفر، والأخضر والأبيض، والأسود وغير ذلك، ومثلما نوّع في الألوان نوّع في المذاق، ويحفل القرآن بأصناف الفاكهة، كالأعناب، والرمان؛ والزيتون زراعة، كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾(الانعام ١٤١). وتُحرّم الثمار والفواكه إذا سقيت بالنجاسة أو سمّدت بها. ومن يعبرعلى شجر مثمر فله أن يأكل منه بشرط أن لا يحمل، إن لم يكن الشجر داخل حديقة مسوّرة وكان جائعاً، ولو لم يكن مضطراً، فإنْ كان الشجر داخل مزرعة أو بستان لم يجز الدخول إلا للضرورة، وليس له أن يضرب الشجر بالأحجار ليتزل الثمر.



٢٠٧٤. ﴿التمر كغذاء﴾

التمر: ثمر النخل، ويأتي عن النخل فى القرآن ٢٠ مرة، ومن أوصافها فيه قوله: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ⑪﴾ (الرحمن) أي ذات الليف، فإن النخلة تُكَمّ بالليف؛ وقوله: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ⑩﴾(ق) والباسقات هي الطوال، وصفاً للنخل، لاستقامة سوقها واستوائه وامتداده؛ وطَلْعه هو أول ما يخرج من ثمره قبل أن ينشق، والنضيد هو المتراكب قد نُضِّد بعضه على بعض، فإذا خرج من أكمامه لم يعد نضيداً، وفى الآية: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ⑭⑧﴾(الشعراء)، أن الطلعة تطلع من النخلة كنصل السيف، فى جوفها شماريخ، ويقال للطلع هضيم طالما لم يخرج من كُفُرّيه، ويتهشّم فى الفم، والكُفُرّى هو وعاء طلع النخل. وفى الآية: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ (الانعام ٩٩)، والقنوان جمع قِنو وهو العذق وهو عنقود النخلة، وقيل هو الجُمّار، ومنه الدانى القريب، والنائى البعيد، وخصّ الدانية بالذكر لأن من الامتنان بالنِّعَم أن تكون فى متناول اليد. وفي الآية: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾(الانعام ٩٩) تنبيه إلى ما يطرأ على ثمر النخل من تغيرات لابد لها من مغيّر، وهى دليل على وجود الله تعالى، وعلى علمه وقدرته، فالنخلة؛ إذا أثمرت كانت أولاً طَلْعًا، ثم إغريضًا، ثم بَلَحاً، ثم سَيَابًا، ثم جَدَالاً إذا اخضرّ واستدار قبل أن يشتد، ثم بُسْرًا إذا عظم، ثم زَهْواً إذا احمر، ثم مُوكّتاً إذا بدت فيه نقط الإرطاب، فإذا كان الإرطاب من جهة الذَّنب فهى مُذَنّبة، فإذا لانت فهي ثَعْدة، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مُجَزّعة، فإذا بلغ ثلثيها فهى حُلقانة، فإذا عمّها الإرطاب فهي

مُنْسبتة، ثم تيبس فتصير تمراً. وكما ترى فإن لكل حالة اسماً، وكثرة الأسماء بحسب الأحوال من دلائل عبقرية اللغة، وكان الرسول ﷺ يحب الرطب، ولا يرى أن البيت تكتمل له الأسباب إلا لو كان به التمر، وكان يحب **الرطب بالقثّاء**، وقال في النخلة: «**من الشجر شجرة تكون مثل المسلم، وهي النخلة**»، وفي القرآن عن مريم لما ولَدت عيسى: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)**﴾ (مريم)، وفي الرواية أنه ﷺ قال: «**لو علم الله أن شيئًا للنفساء خير من الرطب لأمر مريم به**»، وقال: «**ليس للنفساء مثل الرطب، ولا للمريض مثل العسل**»، وقال: «**أطعموا نُفساءكم الوُلْد، الرُّطَب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم**»، وفي حديث عائشة: **توفي رسول الله ﷺ وقد شبعنا من الأسودين: «التمر والماء»**، فكأن أغلب طعامه ﷺ كان هذين، وقرنت التمر بالماء لمضرة شرب الماء صرفاً بدون أكل، ولا يُستمتَع بالتمر إلا بالماء. وكان ﷺ ينصح بتعاطي **سبع تمرات** في الصباح لما في التمر من فوائد صحية بالغة وقيمة غذائية عظيمة.



٢٠٧٥. ﴿طعام أهل الكتاب حلٌ للمسلمين﴾

أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، **والطعام**: اسمٌ لما يؤكل، والذبائح منه، وفي الآية: ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ**﴾(المائدة٥) إخبارٌ بأن جميع ما يأكله أهل الكتاب حلٌّ، إلا ما حرّمه الله على المسلمين كلحم الخنزير والميتة والدم، وما لم يُذكر اسم الله عليه، لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾(الأنعام ١٢١)، وتحليل الأكل من ذبيحة النصارى واليهود باعتبار أنهم يذكرون اسم الله عند الذبح، فإن كانوا ممن لا يذكرون اسم الله كما هو الحال الآن، **فالأكل من ذبائحهم فسق**، إلا الفاكهة والأسماك فجائزٌ أكلها، فأمّا ما كان صُنعه لا تعلُّق فيه بالدِّين، كخبز الدقيق، وعَصْر الزيت ونحو ذلك فهذا جائزٌ أكله، وأمّا ما تدخل فيه التزكية التي تحتاج إلى الدِّين والنيّة، فما لم يُذبح ويُذكر عليه اسم الله فأكله حرام. ويحلّ للمسلم من **ذبائح أهل الكتاب** ما يحل لهم منها، فاليهود لا يأكلون **الطريف** من الحيوان، وهو الرئتان إن كانتا مصابتين بمرض كالدرن وغيره، ولا يطعمون **الشحوم** المحضة من الذبائح. ولا بأس بأكل طعام **الهندوس والصينيين واليابانيين والملاحدة** ما لم يكن من ذبائحهم ويحتاج إلى ذكاة، وجُبنهم حرامٌ أكله لما فيه من أنفحة الميتة.



٢٠٧٦. ﴿العقيقة وهل تجب على المسلم؟﴾

العَقيقة: هي اسمٌ لما يُذبح عن المولود، قيل هي اسم الشاة المذبوحة عن الولد، أصلها الشعر الذي يخرج على رأس المولود، وسميت الشاة التي تذبح عنه بذلك لأن هذا الشعر يُحلق عند الذبح. وقيل: الاسم مأخوذ من العق وهو الشق والقطع، وهي عقيقة لأنها تُشق وتقطع. وقيل: الشاة التي تذبح، والشعر، كلٌ يسمى عقيقة، ويقال عقّ يعق إذا حلق عن ابنه عقيقته وذبح شاةً. وقيل: هي عقيقة لأنها معقوقة ـ بمعنى مذبوحة، وسُمى الشعر باسمها لأنها تَعق عنه. وقيل: كل مولود من البهائم فشعره عقيقة، فإذا سقط ذهب عَقّه، وفي الحديث: «للغلام عقيقتان، وللجارية عقيقة»، وفي رواية: «عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة» ، وقيل: العقيقة من الجاهلية، بدعة ولا تجب، وليست سُنة. وقيل: إن النبيّ ﷺ سُئل عنها فقال: «لا أحب العُقوق»، كأنه كره الاسم، يقصد به عقوق الوالدين وهو أن يعصيهما الولد ويشق عصا طاعتهما، وقال: «من وُلد له ولد فأحبَّ أن ينسك عنه فليفعل»، فكأن الأوْلى تسميتها «نسيكة» أو «ذبيحة»، وأن لا تسمى عقيقة. ، وقيل: العقيقة من باب ذبيحة الأضحى، من قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾(الصافات)، وقيل: الأمر فيها الحديث: «نَسَخ الأضحى كل ذبح» أخرجه الدارقطني، وهو حديث في إسناده ضعف، والصحيح أن العقيقة مستحبة لأنها من أعمال البرّ، وقد عقّ إبراهيم عن ابنه إسماعيل بكبش سمين، ويعقّ اليهود لذلك عن الولد كبشاً ولا يعقّون عن البنت، وقد عقّ النبىّ ﷺ عن الحسن والحسين كبشاً كبشًا، والغنم تتعيّن للعقيقة، ويجزيء الإبل والبقر والجاموس، ولا فرق بين ولد وبنت فكلاهما يُعق عنه، غير أن الولد يعق عنه بكبش فهذا أنسب باعتبار الذكورة! والبنت يعق عنها بشاة باعتبار الأنوثة! وقد يستعاض للولد عن الكبش بشاتين! والفلسفة في الذبح للعقيقة أنها إماطة للأذى، أي استجلاباً للبركة، واستبعاداً للشرّ والمرض، وفي الحديث: «في الغلام عقيقة فاهرقوا عنه الدم، وأميطوا عنه الأذى»، وقيل: الأذى آثار الولادة من دم وغيره فينظّف ويتطهّر. وكانوا في الجاهلية إذا أهرقوا الدم مسحوا به رأس الغلام، فنهى النبيّ ﷺ عن ذلك وأمر بأن يمسح على رأسه بالطّيب، وأن يُسمّى عند الذبح، فيقال: «بسم الله والله أكبر، عقيقة فلان»، وتُؤدّى العقيقة فى الأسبوع الأول، ويستحب في اليوم السابع، فإن لم يتيسر ففي اليوم الرابع عشر، أو الواحد والعشرين، وأول السبعة اليوم الذي يلي الولادة. ويُكره حلق رأس البنت. ويبدو أن الرسول ﷺ أمر فاطمة أن تعق عن ولديها بزنة شعر الولد فضة، ويحتمل أنه قال لها ذلك لضيق ما عندهم حينئذ، فأرشدها إلى نوع من الصدقة أخفّ، ثم إنه لمّا تيسّر له عن قرب عقّ عنهما بكبشين، وإذن فالمسألة بحسب الوسع، والأنسب الصدقة.

٢٠٧٧ . ﴿هل يأكل المسلم إلى أن يشبع؟﴾

المسلم يجوز له أن يأكل حتى يشبع، وفي حديث أنس عن تكثير الطعام ببركة النبيَّ ﷺ قال إنهم أكلوا حتى شبعوا، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: **شبعنا من الأسودين، التمر والماء**. وقالت: **الآن نشبع من التمر**. ووصف أنس صوت النبيَّ ﷺ فقال: سمعته ضعيفاً أعرف فيه الجوع، وكأن أنس لم يسمع في صوته ﷺ لما تكلم وقتها ـ الفخامة المعهودة فيه، فحمل ذلك على الجوع بقرينة الحال التي كانوا فيها. وقيل: وفي ذلك ردٌّ على مَنْ يكذّب الأحاديث التي يذكر فيها أن النبيَّ ﷺ كان يجوع، ويحتجون بالحديث: «**أبيتُ يطعمني ربّي ويسقيني**». وربما كان جوعه ﷺ ليتأسّى به أصحابه، ولا سيما من لا يجد مدداً وأدركه ألم الجوع، لعله يصبر فيُضاعَف له الأجر. وإذا كان **الشبع** جائز في الإسلام فتركُه أفضل صحياً ونفسياً واقتصادياً وتربوياً، والأكثر من ذلك أن تركه مندوب إليه دينياً، فعن سلمان وأبي جحفة أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة**». والشبع وإن كان مباحاً، فله حدّ لابد أن ينتهي إليه، وما زاد على الحدّ **فهو سرف**، والمطلق منه ما عان الآكل على طاعة ربّه، والمنهيّ عنه هو الشبع الذي يُثقل المعدة ويثبّط صاحبه عن القيام للعبادة أو أداء ما يجب عليه، ويفضي إلى البطر والأشَر والنوم والكسل. وقد ينتهي الأمر بكراهية الشبع إلى التحريم بحسب ما يترتب عليه من المفسدة. وشبع المسلم على أي حال هو الشبع الذي يحضّ عليه الحديث: «**ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًا من بطن! حَسْبُ ابن آدم لُقيمات يُقمن صُلبه، فإن غَلَب الآدمي نفسه فثلثٌ للطعام، وثلثٌ للشراب، وثُلثٌ للنَفَس**». ولو سمع حكيم الأطباء بقراط **أو إبقراط** هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. وقال **الغزالي**: ما سمعتُ كلاماً في قلة الأكل أحكم من هذا! ـ ولقد بلغ من حكمة المسلمين أن اختلفوا **في حدّ الجوع**، فلو أن الجائع أقبل على الخبز وحده ولم يبال إن كان معه أدم أم لا، فهو قطعاً جائع، وإن طلب معه الأدم ـ أى الغموس، فهو ليس بجائع هذا الجوع المعهود، وهو الجوع الذي جعلوا من علاماته أنه إذا وقع ريق الجائع على الأرض لم يقع عليه الذباب! والشبع عند المسلمين مراتب، وليس من ذلك شيء في **اليهودية** ولا في **النصرانية**، ولا في أى من **المذاهب الفلسفية والنفسية** فى الجوع والشبع فى أى من بلاد الدنيا إلا عندنا نحن المسلمين، وخاصةً عند **الصوفية**، ومنهم **أهل الصفّة** المشهورين. ومراتب الشبع عند المسلمين تنحصر فى سبع: المرتبة **الأولى**: ما تقوم به الحياة والشبع فيها واجب؛ **والثانية**: أن يزيد حتى يصوم ويصلى عن قيام ـ وهو واجبٌ أيضاً؛ **والثالثة**: أن يزيد الشبع حتى يقوى المسلم على أداء النوافل ـ وهذا مستحب؛ **والرابعة**: أن يزيد الشبع حتى يقدر على التكسّب ـ وهو

مستحبٌ أيضاً؛ والخامسة: أن يملأ ثُلث بطنه كما في الحديث، وهذا جائز؛ والسادسة: أن يزيد الشبع على ذلك، وبه يثقل البدن ويكثر النوم ـ وهذا مكروه؛ والسابعة: أن يزيد الشبع حتى يتضرر وهو ما يسمى البِطْنة، وهذه منهيٌ عنها وحرام.

•••

٢٠٧٨. ﴿لماذا يقال طعام المسلم يكفي الاثنين؟﴾

في الحديث عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «**طعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة**»، والمعنى أن الطعام الذي يشبع الواحد يكفي قوت الاثنين، وأن قوت الاثنين يشبع الأربعة. والمراد المواساة، وأنه ينبغي للاثنين إدخال ثالث لطعامهما، وإدخال رابع أيضاً بحسب من يحضر. والحديث عند ابن ماجة: «**طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة، وطعام الأربعة يكفي الخمسة والستة**». وفي قصة أضياف أبي بكر قال النبيّ ﷺ: «**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس**» ويشرح ذلك الحديث: «**كلوا جميعاً ولا تفرّقوا فإن طعام الواحد يكفي الاثنين**»، بمعنى أن الكفاية تنشأ عن بركة الاجتماع، وأن الجمع كلما كثر ازدادت البركة، وهذا هو ما يميز الإسلام كفلسفة، فهو يختلف عن سائر الأديان والمذاهب التي تحض على الفردية وتنمّيها وترسّخها. والإسلام دين «جماعي» ـ أو أنه ـ لمن لا يؤمن به ديناً ـ مذهبٌ فلسفي وإيديولوجية تطبيقية «جماعية». وهذه الأحاديث للرسول ﷺ تحضّ على الاجتماع على الطعام، وتستحب من المسلمين أن لا يأكل كلٌّ منهم وحده، ولا يساكن نفسه ويعتزل الناس، ولا يعمل بمعزل عن الآخرين، ويحفل القرآن بالآيات التي تحض على «الجماعية»، كقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦**﴾، والدعاء فيها من الجماعة ولصالح الجماعة. ويسمي المسلمون ذلك «مواساة»، فإذا تحققت المواساة حصلت معها البركة الموعودة التي قال الله تعالى فيها: ﴿**لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾(الأعراف ٩٦)، فتتنزّل البركات وتعمّ الحاضرين. ومن دروس هذه الأحاديث: أن المرء لا ينبغي أن يستحقر ما عنده فيمتنع من تقديمه، فإن القليل قد يحصل به الاكتفاء، ولو بسدّ الرمق، وإقامة البنية، وليس حقيقة الشبع. و«المواساة» و«البركة» من المصطلح الإسلامي المتفرّد.

•••

٢٠٧٩. ﴿هل يفرق الإسلام بين الأعمى والبصير على الطعام؟﴾

في القرآن لا ينجس بالمرض أو العَمَى أو العَرَج، وعلى عكس ذلك في اليهودية والنصرانية، ففي سفر الأحبار، الفصل الثالث عشر، يعدّ المرض نَجَساً (العبارة ٤٥ مثلاً)،

وليس كذلك الحال في الإسلام، فلقد كان الناس من قبل الإسلام على طريقة اليهود أو النصارى، فإذا اجتمعوا للأكل عزلوا **الأعمى** على حدة، **والأعرج** على حدة، **والمريض** على حدة، لتقصيرهم عن أكل الأصحاء، فإذا اجتمعوا بهم تفضّلوا عليهم إذا شاءوا، وكان الأعمى يتحرّج أن يأكل طعام غيره، وأن يدس يده في الطعام فتصطدم بأيدي غيره، ولذلك كانوا يعزلونهم، وكان **الزّمْني** يتحرجون كذلك ويؤثرون العزلة، فنزلت الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(النور ٦١)، لرفع الحرج عن هؤلاء، وإباحة أن يشاركوا الآخرين طعامهم، وساووا بينهم، وذلك من الأدب العالي، وفيه من الرقي الحضاري والإنساني ما يجعل الإسلام لا شبيه له ولا ضريب.

•••

٢٠٨٠. ﴿هل المسلم أكول؟﴾

من مأثورات الإسلام رداً على المتخرّسين الحديث عن نافع قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يُؤتَى بمسكين يأكل معه، فأدخلتُ رجلاً يأكل معه، فأكل كثيراً فقال: يا نافع، لا تُدخل هذا عليّ، سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «**المؤمن يأكل في مَعيّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**». والمعنى أن **المؤمن قنوع**، ونزوعه إلى الزهد والأخروية، بينما الكافر - ومثله العلماني والعولمي وأشباههم من الماديين، يفرطون في الطعام، ويتهافتون على الماديات، ولا يسأمون ولا ترتوي شهواتهم إليها. والحديث في رواية أخرى: «**إن المؤمن يأكل في معيّ واحد، وإن الكافر** - أو المنافق فلا أدرى أيهما - **يأكل في سبعة أمعاء**»، وفي رواية أخرى قال: «**يأكل المسلم في معيّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**». وعن أبي هريرة: أن رجلاً كان يأكل أكلاً كثيراً فأسلم، فكان يأكل أكلاً قليلاً، فُذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «**إن المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**». وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلي والبزار والطبراني أن هذا الرجل هو **جهجاه الغفاري**، قَدِم في نفر من قومه يريدون الإسلام، فحضروا مع رسول الله ﷺ المغرب، فلمّا سلّم قال: «**ليأخذ كل رجل بيد جليسه**»، وكان **الجهجاه** هذا طويلاً عريضاً لم يتقدم ليأخذه أحد، فذهب به رسول الله ﷺ إلى منزله، فحلب له عنزاً، فأتى عليه، فحلب له آخر حتى حَلَب سبعة أعنز، فأتى عليها، ثم أُتي له بصنيع برمة فأتى عليها، حتى قالت أم أيمن: أجاع الله من أجاع رسول الله! فقال لها رسول الله ﷺ: «**مه يا أم أيمن: «أكل رزقه، ورزقنا على الله!**». فلما كانت الليلة الثانية وصلّى المغرب صنع ما صنع في التي قبلها، فحلب له الرسول ﷺ عنزاً واحداً وارتوى الرجل وشبع ولم يطلب آخر، وتعجبت أم أيمن، فقال لها الرسول ﷺ: «**إنه أكل في معي واحد الليلة وهو مؤمن، وأكل قبل ذلك في سبعة أمعاء.**

الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد». وعند الطبراني الرجل اسمه غزوان، وحلب له سبعة شياه فشرب لبنها كله، فلمّا أسلم مسح رسول الله ﷺ على صدره، فلما أصبح حلب له شاةً واحدة فلم يتم لبنها، وسأله النبيّ ﷺ: «مالك يا أبا غزوان»؟ قال: والذي بعثك نبياً لقد رويت. قال له: «إنك أمس كان لك سبعة أمعاء وليس لك اليوم إلا معيّ واحد». وبرواية أحمد فإن الرجل هو أبو بصرة الغفاري، أو أنه أبو فضلة أو نضرة الغفاري. والمراد بالحديث ليس ظاهره، وإنما هو مَثَلٌ يُضرَبُ للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكان المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معى واحد، والكافر لشدّة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء، ولاخصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها، فعبّر عن الدنيا بالأكل، وعن أسباب ذلك بالأمعاء. أو ان المعنى أن المؤمن يأكل الحلال، والكافر يأكل الحرام. والحلال أقل من الحرام في الوجود. أو أن الحديث يُحتمل على الرغبة في الدنيا، كما نقول فلان يأكل الدنيا أكلاً، بينما المؤمن لا يتناول منها إلا القليل ،ويستكثر منها الكافر. والحديث يحضّ على قلة الأكل إذا علمنا أن كثرة الأكل صفة الكافر، والمؤمن يأنف أن يتصف بصفة للكافر، كما يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾(محمد ١٢). غير أنه يوجد بين الكفّار من يأكل أقل، وعكسه بين المؤمنين، وكم من كافر أسلم فلم يتغير مقدار أكله. والحديث في مجمله: أن الإيمان قد غيّر هذا الرجل، وكان في كفره يأكل في سبعة أمعاء ، فصار في إسلامه يأكل في جزء من سبعة أجزاء مما كان يكفيه وهو كافر. ومن شأن المؤمن التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه أن مقصود الشرع من الأكل ما يسدّ الجوع ويمسك الرمق ويعين على العبادة، بينما الكافر لا يقف مع مقصود الشرع بل هو تابع لشهوة نفسه، فصار أكل المؤمن إذا قورن بأكل الكافر كأنه بقدر السُبع منه. والمراد بالمؤمن في الحديث: التام الإيمان، والذي يحسُن إسلامه ويكمل إيمانه، ويشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فتمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته، كما في الحديث: «من كثُر تفكّره قلّ طعامه، ومن قلّ تفكُّره كثر طعامه وقسا قلبه»، والحديث الآخر: «إن هذه الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بإشراق نفَسٍ كان كالذي يأكل ولا يشبع»، وعلى هذا فالمؤمن من يقتصد في مطعمه، والكافر من شأن كُفره الشَرَه فيأكل بالنهم كما تأكل البهيمة، ولا يأكل بالمصلحة لقيام البنية. والمؤمن يسمى الله عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان، فيكفيه القليل، والكافر لا يسمى فيشركه الشيطان. وفي الحديث عند مسلم: «إن الشيطان يستحق الطعام إن لم يُذكَر اسم الله تعالى عليه». والمؤمن يقل حرصه على الطعام فيبارك له فيه، وفي مأكله، فيشبع

من القليل، والكافر طامح البصر إلى المأكل كالأنعـام، فلا يشبعه القليل. **وتفاوت الأمعاء حقيقة في التشريح**، وهي **سبعة في الإنسان**: **المعدة**، ثم ثلاثة أمعاء متصلة بها هي **البواب، والصائم، والرقيق**، وكلها أمعاء رقيقة أو دقيقة، ثم الأمعاء الغليظة وهي **ثلاثة** أيضاً: **الأعور والقولون، والمستقيم**، وكل ذلك سبعة. والمؤمن يشبعه ملء معي واحد. ويحتمل أن الأمعاء السبعة هي **صفات سبع**، وهي: **الحرص، والشره، وطول الأمل، والطمع، وسوء الطبع، والحسد، وحُبّ السمَن**، وكلها صفات للكافر، بينما للمؤمن خلة ظاهرة هي **الزهد في الدنيا**. وربما كانت الأمعاء السبعة إشارة إلى **الشهوات السبع** الملازمة للطعام وهي: **شهوة الطبع، وشهوة النفس، وشهوة العين، وشهوة الفم، وشهوة الأذن، وشهوة الأنف، وشهوة الجوع** وهي الضرورية التي يأكل بها المؤمن، وأما الكافر فيأكل بالجميع. أو أن الأمعاء السبعة كناية عن **الحواس الخمس والشهوة والحاجة**. وكما ترى أيها المسلم أن الحديث فيه فلسفة عظيمة وحكمة بالغة. وكان العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدحون بقلة الأكل، و يُذَمّون بكثرة الأكل، وعن **حاتم الطائي** قال:

فإنك إن أعطيت بطنَك سُؤله ∴ وفرْجَك، نالا منتهى الذم أجمعا

•••

٢٠٨١. ﴿كيف يستقبل المسلم طعامه؟﴾

عن أبي هريرة قال: ما **عاب النبيّ** ﷺ طعاماً قطّ: إنْ اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه. ـ والطعام الذي لا يعاب هو **الحلال**، فأما الحرام فيُذمّ ويُنهى عنه. وقد يعاب الطعام من جهة **الصَّنعة** ولا يعاب من جهة **الخِلْقة**، لأن ما خلَق الله لا يُعاب، ويعاب ما صنع البشر. وربما كان التوقف عن الحُكم أصحّ، لأن العيب في صنعة الصانع يكسر قلبه، ومن **آداب الطعام** أن لا يُعاب. وتَرْكُ النبيّ ﷺ للطعام المعيب يعني أن لا يقربه ولا يشتهيه، ويسكت عنه فلا يذمّه، وذلك من حُسن الأدب، فقد لا يشتهي المرء شيئاً ويشتهيه غيره، وكلُّ مأذون في أكله من قِبَل الشرع ليس فيه عيب. والطعام لا يحلو إلا إذا أتاه المرء عن جوع، ومن فلسفة **الصيام التربوية** أنه لتعويد الخَلْق على أن يجوعوا عن حق، فإذا طعموا كانت للأكل حلاوة ولو كان صُنعه معيباً.

•••

٢٠٨٢. ﴿كيف يبدأ المسلم طعامه؟﴾

من آداب **الطعام** عند اليهود التسمية وهي ذِكْر الله في ابتداء الأكل، ونقله عنهم النصارى. والمسلمون على **التسمية**، فعن **عائشة** فيما أخرجه أبو داود والترمذي عن النبيّ

ﷺ قوله: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل بسم الله، فإن نسى في أوله فليقل بسم الله في أوله وآخره». والمسلم على قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإن قال «بسم الله» كفاه ونهج على السُّنّة. وعند الغزالي أن المسلم الجيد هو من يقول بسم الله مع كل لقمة! ويستحب الغزالي للمسلم أن يقول مع اللقمة الأولى بسم الله، ومع الثانية بسم الله الرحمن، ومع الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم! والغزالى مغال. وعن عمر بن أبى سلمة أنه لما كان غلاماً أكل مع الرسول ﷺ، فكان من تربيته ﷺ أن قال له: «يا غلام: سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، والمسلمون على وجوب التسمية والأكل باليمين، ومما يلي الأكل. ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال ـ إلا إذا كان أعسر أي يستخدم الشمال دائماً. وعن سلمة بن الأكوع فيما أورده مسلم: أن النبيّ ﷺ رأي رجلاً يأكل بشماله فقال له: «كُلْ بيمينك». ومضمون هذه الأحاديث: استحباب الأكل والشُرب باليمين، وكراهة ذلك بالشمال، وكذلك كل أخذ وعطاء، إلا في حالات العذر من مرض أو جراحه فلا كراهة. واليمين مباركة، وشرّفَ الله أصحاب الجنّة ونسبهم إلى اليمين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ (الواقعة)، وقال: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ (الواقعة)، ونسب أهل الكفر والعصيان إلى الشمال فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾(الواقعة). ومن الآداب المناسبة لمكارم الأخلاق والسيرة الحسنة عند المسلمين، اختصاص اليمين بالأعمال الشريفة والأحوال النظيفة. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبيّ ﷺ يحبّ التيمن ما استطاع فى طهوره وتنعلّه وترجُّله، وفي شأنه كله». ومن مشمولات اليمين ان يكون الأكل من جهة اليمين، وتقديمه كذلك مَن على اليمين. والمسلمون الأوائل كانوا يأكلون على الموائد والسُفَر والأخونة. وقال أنس بإخراج البخارى: أن النبىّ ﷺ كان يأكل على السُفْرة وهى المائدة، وأصلها ما كان يتخذه المسافر لزاده.



٢٠٨٣. ﴿كيف ينهى المسلم طعامه؟﴾

إذا كان اليهود والنصارى يسمون الله على الطعام كالمسلمين، فإن المسلمين ينفردون بحمد الله بعد الطعام، وعن أبى أمامة: أن النبىّ ﷺ كان إذا رَفَع مائدته قال: «الحمد لله كثيراً حمداً طيباً مباركاً فيه، غير مَكْفيّ، ولاَمودَّع، ولا مُستَغنَى عنه ربّنا». وقال مرة: «الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مَكْفيّ ولا مكفور»، وقال مرة: «لك الحمد ربَّنا غير مَكْفيّ ولا مُوَدَّع ولا مُستغنَى ربّنا». وقوله «غير مكفيّ» يعنى غير مردود عليه إنعامه، أو غير محتاج إلى أحد، ولكنه الذى يكفي الآخرين، أو أن غير مكفي أى غير مكافأ على نِعَمه. وللنسائي عن طريق عبد الرحمن بن جبير أن النبىّ كان إذا قُرّب إليه طعامه يقول: «بسم الله»، فإذا

فرغ قال: «اللهم أطعمتَ، وسقيتَ، وأغنيت، وأقنيتَ، وهديتَ، وأحييتَ، فلك الحمد على ما أعطيت». وهذا تعليم لم يرد مثله في أي من أسفار اليهود الخمسة والأربعين ولا أسفار النصارى الواحد والعشرين، ولم تتضمنه أية نصوص فرعونية ولا بابلية ولا أشورية. فالحمد لله على الإسلام، وعلى القرآن، وعلى نبيّنا محمد ﷺ.

●●●

١٣ ~~١٤~~. ﴿الحجّ والعُمرة﴾

●●●

٢٠٨٤. ﴿ما هي العُمرة؟ وهل هي واجبة أم سنّة؟﴾

العُمْرة: في اللغة: الزيارة؛ وقيل إنها مشتقة من عمار المسجد الحرام. وقيل: إنها واجبة، وقيل: إنها تطوّع، وسئل النبيّ ﷺ: هل العمرة واجبة؟ فقال: «**لا، وأن تعتمر خيرٌ لك**» أخرجه الترمذي. غير أنه في الآية: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** (١٩٦)﴾ (البقرة) دليلٌ على وجوب العُمرة، لأنه تعالى أمر باتمامها كما أمر بإتمام الحج. وقيل: الآية لا حُجة فيها للوجوب، لأنه تعالى قرنها في وجوب الإتمام لا في الابتداء. فأمر أن يتم العمرة مَن بدأها، ولم يأمر بابتدائها، ولو حجّ عشر حجج، أو اعتمر عشر عُمَر، لزم الإتمام في جميعها، **فالآية إذن لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء**. ثم إن العمرة لو كانت كالحج لكان بها **الوقوف بعرفة**، ولتساوت مع الحج في أفعاله، فعلمنا أن **العمرة ليست كالحج**.

ومن الذين قالوا: إن العمرة واجبة وجوب الحج من استطاع إليه سبيلاً: **عمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، وابن عباس، والشافعي، ومسروق، والشعبي**؛ وقال الثوري: سمعنا أنها واجبة؛ وقال مالك: **العمرة سُنّة**، ولانعلم أحداً أرخص في تركها؛ وقال أبو حنيفة: **هي سنة ثابتة**؛ وقال ابن عمر: ليس من خلَقْ الله أحدٌ إلا عليه حجة وعُمرَة واجبتان من استطاع إلى ذلك سبيلاً، فما زاد بعدهما فهو خير وتطوُّع. وفي الحديث: «**العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما**»، والمراد **تكفير الصغائر دون الكبائر**، لأن التكفير عن الكبائر يكون باجتنابها، والاجتناب عام لجميع العُمْر، وأما العُمرة فتكفيرها مقيّد بزمانها. وفي الحديث «**تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعةً بينهما تنفي الذنوب والفقر**»، وفي ذلك دلالة على استحباب الاستكثار من العمرة، والرسول ﷺ لم يفعلها إلا من سنة إلى سنة، وهي جائزة في جميع الأيام لمن لم يكن متلبساً بأعمال الحج باجتنابها.

●●●

٢٠٨٥. ﴿العمرة يفعل بها بعض ما يفعل بالحج﴾

للمسلمين في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، والرسول ﷺ في عُمرة طاف بالبيت **سبعاً**، وصلّى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة **سبعاً، فإذا طاف المعتمر وسعى حلّ**، فهذه هي العمرة بخلاف الحج.

●●●

٢٠٨٦. ﴿أجر العمرة على قدر النّصب والنفقة﴾

يكثر الصواب في العبادة بكثرة النَّصَب أو النفقة، والمراد بالنصب الذى لا يذمّه الشرع، وكذا النفقة. والمعتمر الذى إذا طاف فخرج إلى بلده يجزئه من طواف الوداع.

●●●

٢٠٨٧. ﴿كم اعتمر النبىّ ﷺ ؟﴾

اعتمر النبىّ ﷺ **أربعاً**: **عُمرة الحديبية في ذى القعدة** حيث صدّه المشركون فسمّيت أيضاً عمرة **الحَصْر**؛ **وعُمرة القضاء من العام المقبل في ذى القعدة** حيث صالحهم؛ **وعمرة الجعْرانة في ذى القعدة** إذ قسم غنائم حنين؛ والعُمَر الثلاث كانت قبل الحج، والعمرة الأخيرة مع حجّته في **ذى القعدة**. ولم يعتمر في رجب ولا في رمضان. وقوله ﷺ: «**فإن عمرةً في رمضان تعدل حجة**»: المقصود به أن **العمرة في رمضان تعدل حجة في** الثواب، لا أنها تقوم مقامها وتسقط الفرض، فالعمرة لاتجزىء عن حجة الفريضة.

●●●

٢٠٨٨. ﴿مايقول المعتمر إذا رجع من العمرة أو الحج؟﴾

كلما أهلّ على مكان كبّر ثلاث تكبيرات ثم يقول: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربّنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهَزَم الأحزاب وحده**.

●●●

٢٠٨٩. ﴿معنى الحج ووجوبه﴾

الحجّ في اللغة: القصد، وفي الشرع: القصد إلى البيت الحرام بأعمال مخصوصة. ويقال الحَجّ والحِجّ بالفتح والكسر، وقيل بالفتح الاسم، وبالكسر المصدر. **والإسلام** هو شرط صحة الحج، وهو يجب على المكلّف المستطيع المميّز لقوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾** (آل عمران)، واللام في «لله»، لام الإيجاب والإلزام، أكدها بقوله «على» التى هى من أوكد ألفاظ الوجوب. وقيل وجوب الحج كل أربعة أعوام أو خمسة، والملاحدة ينكرونه، بدعوى أن تجرّد الحاج من

الثياب مُحرِماً يخالف الحياء، **والسعي** يناقض الوقار، ورمي الجمار لغير مرمى يضاد العقل، فصاروا إلى أن **أفعال الحج باطلة وليست لها حكمة ولاعلة**، ونسوا أن المكلَّف قد لايرى فائدة من شرح تكليفه، ويتعيّن على المكلَّف أن يتمثّل التكليف، ولهذا كان النبيّ ﷺ يلبّي فيقول: «**لبّيك حقاً حقاً، تعبُّداً ورقاً، لبيك إله الحق**»، وفي الحديث: «**أيها الناس، قد فرَض الله عليكم الحج فحجّوا**». والصحيح أنه يكفي في الحج مرة. وكان الحج معلوماً عند العرب، ويُرغَب فيه لأسواقها، وجاء الإسلام وخاطبهم بما علموا، وألزمهم بما عرفوا، وحجّ النبيّ ﷺ قبل حجّ الفرض مرتين إجابةً لنداء إبراهيم، كقوله: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ** ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج). وسورة الحج مكية، والآية: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾ نزلت عام أُحد سنة ثلاث من الهجرة بالمدينة. ووقت الحج موسّع فيه، وعلى التراخي لا على الفور، والآية عامة لجميع الناس، سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، والجمهور على أن الصبي إذا حج ثم بلغ وجبت عليه **حجة الإسلام**. ولما سئل الرسول ﷺ ما إذا كان الحج كل عام قال: «**لا، بل حجّة**»، يعني **واحدة** تكفي، وما يوجب الحج القُدرة عليه، وشقّاها **الاستطاعة بالمال، والاستطاعة بالنفس** - أي القوة، ويجوز للابن أن يحجّ عن أبيه المتوفى، وكذلك البنت، من باب التطوعات وإيصال البرّ والخيرات للأموات، ومن مات ولم يحجّ فعلى ولده أن يحجّ عنه وإن لم يوص به أبواه، ولم يرد بذلك شيء في القرآن. ومن ترك الحج وهو قادر فحاله كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩﴾ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴿١٠﴾ ﴾ (المنافقون)، وفي تفسيرها قالوا: التعجيل بالحجّ أزكى وأحجّ. ومن تقاعس صدق عليه قوله: ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴿٩٧﴾ ﴾ (آل عمران).

●●●

٢٠٩٠- ﴿هل أمر إبراهيم أن يؤذن للناس بالحج، أو كان الأمر للنبيّ ﷺ﴾؟

قيل: الذي دعا الناس إلى الحج إبراهيم، أمره به الله تعالى، كقوله: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج). وقيل: أذّن إبراهيم **على جبل أبي قبيس** قال: يا أيها الناس، إن الله أمركم بالحج إلى هذا البيت فحجوا». وقيل: بل الخطاب في الآية للنبيّ ﷺ وهو الصحيح، لأن القرآن أُنزل على النبيّ ﷺ، فكل ما فيه من المخاطبة فهي له، وسياق الآية خطاب للنبيّ ﷺ وللمسلمين، ووعده تعالى فيه بإجابة الناس إلى حجّ البيت ما بين راجل وراكب.

●●●

٢٠٩١ـ ﴿الحج أشهر معلومات﴾

لما قرن الله تعالى الحج بـالعمرة فى الآية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (١٩٦)﴾ (البقرة)، بيّن اختلافهما فى الوقت، فجميع السنة وقتٌ للإحرام بالعمرة، وأما الحج فيقع فى السنة مرة فى أشهر بعينها: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ (١٩٧)﴾(البقرة)، ولم يسمّها الله تعالى فى كتابه لأنها معلومة عند العرب، وأشهُر الحج هى: شوال، وذو القعدة، وعشرة من ذى الحجة، أو ذو الحجة كله ،يعنى أن من أراد الحج لايُحرم إلا فى هذه الشهور، فمن أحرم قبلها لم يجزه وتكون نافلة، بشرط أن يدرك الوقوف بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة حتى غروب الشمس، فمن أدرك عرفة فى شىء من هذا الوقت فقد تمّ حجّه.



٢٠٩٢ـ ﴿مستحبات وواجبات الإحرام﴾

يقال «أحرم الرجل »أى دخل فى الحَرَم، أو البلد الحرام، أو فى الشهر الحرام؛ وأحرم بالصلاة: أي دخل فيها. والإحرام للحج يتحقق بالنيّة، والتلبية، ولبس ثوبىّ الإحرام. والإحرام واحد سواء فىالعمرة، أو فى الحج، وله مستحبات وواجبات؛ ومن مستحباته: أن ينظّف المُحرم نفسه من الوسخ، ويزيل الشعر عنه، فينتف الإبط، ويحلق العانة، ويقلّم أظافره، ويأخذ من شاربه، ويغتسل، ويتطيّب، ويوفر شعر رأسه، ويخلع الثياب المخيطة ويلبس إزاراً ورداء، ويستحب أن يكونا أبيضين ويُطيّبهما، والأولى أن يُحرم عقب صلاة الظهر أو أيه فريضة أخرى، وإلا صلى ست ركعات للإحرام، اثنتين اثنتين كصلاة الصبح، أو يصلى أربعاً، أو اثنتين على الأقل .ويستحب للمرأة ما يستحب للرجل، والشابة مثل الكبيرة فى ذلك. ومن واجبات الإحرام:(١) ـ النية: فإن لَبّى المُحرم أو ساق الهدى من غير نية، لم ينعقد إحرامه، ويستحب له أن ينطق بما أحرم فيقول: اللهم إنى أريد العمرة فيسّرها لى وتقبّلها منى، ومحلّى حيث تحبسنى، أو يقول: اللهم إنى أريد الحج، إن كان مُفرداً ؛ أو يقول: اللهم إنى أريد العمرة والحج، إن كان قارناً. وإن أطلق نية الإحرام ولم يعين حجاً ولاعمرة صحّ وصار مُحرِماً، ثم يصرفه من بعد إلى أىّ من أنواع النُّسك شاء، والأولى صرفه إلى العمرة. ولكل من العمرة والحج إحرام مستقل، ونية مستقلة، ففى «التمتع»: يهلّ المحرم بعمرة مفردة من الميقات، فإذا فرغ منها أحرم بالحج؛ وفى «الإفراد» يهلّ بالحج منفرداً؛ وفى «القران» يُحرم بالعمرة ثم يُدخل عليها الحج قبل الطواف؛ (٢) ـ التلبية: وصيغتها: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والمُلك، لاشريك لك؛ وكان رسول الله ﷺ يلبّى بها؛ ويبتدأ الحاج بالتلبية الرباعية هذه عند الإحرام، ويستمر بها إلى رمى جمرة العقبة، ويقطعها إذا شاهد مكة. وقيل توجب

الإحرام ثلاثة أشياء: التلبية، والإشعار للإبل، والتقليد لغيرها من الهَدْى؛ (٣) ـ اللباس: وهو للمُحرم ثوبان، يأتزر بأحدهما ويستتر به من سُرّته إلى ركبته، ويرتدى الآخر على ظهره وصدره وكتفيه. ويشترط فى اللباس الطهارة، وأن لايكون من الحرير أو الجلد، ولا يجوز للمُحرم أن يغطى رأسه ووجهه، على عكس المرأة فلها أن تغطى رأسها وأن تكشف وجهها، وعليها ألاّ تلبس القفاز، ولها أن تلبس المخيط، والحرير، والخُمُر، والخِفاف، ويُكره لها لبس الأساور وغيرها من الحلى.

●●●

٢٠٩٣ـ «متروكات الإحرام»

يجب على المُحرم أن يترك الأشياء التالية: (١) ـ صيد البر، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴿٩٥﴾**﴾(المائدة)، وقوله: ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴿٩٦﴾**﴾(المائدة). ولا يحل الصيد، فى الحلّ ولافى الحرم. ويجوز للمُحرم أن يقتل المؤذيات: كالحية، والعقرب، والفأرة، والذئب، والكلب العقور إلخ، وكذلك الهوام كالقمل، والبق ،والبراغيث ولا فدية عليه. ومن اصطاد شيئاً فعليه الفداء أو الكفّارة، لقوله تعالى: ﴿**وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴿٩٥﴾**﴾(المائدة)؛(٢) ـ النكاح: فلا يَنكح المحرم، ولايُنكح، ولايخطب، ولايشهد النكاح، وإن نكح فنكاحه باطل، ويجوز له أن يطلّق. وإن جامع المُحرم زوجته ـ فإن كان جاهلاً فلا شىء عليه، وإن لم يكن جاهلاً فعليه بَدَنة، ويُفرّق بينهما حتى يقضيا المناسك، وعليهما قضاء الحج من قابل. وإنْ قبّل ولامس إلى أن أنزل وهو مُحرم فعليهما الكفّارة مثل ما على الذى يجامع، ومن قبّل امرأته على شهوة وهو مُحرم فعليه شاة، وإن أمْنَى فعليه جزور ويستغفر ربّه؛ (٣) ـ التطيّب والخضاب وغيرهما: فلايجوز للمحرم أن يتطيّب، فإنْ فعل فعليه فدية. والخضاب، والاكتحال مكروهان، وإن قلّم أظافره متعمداً، أو أزال شعره، أو نتف، فعليه فدية؛ (٤) ـ قلع الأشجار: فلايجوز له أن يقلع شجراً أو نباتاً أو خُضرة، وكفارةُ الشجرة الكبيرة بقرة، والصغيرة شاة؛ (٥) ـ النظر فى المرآة وخلافه: فلايجوز له أن ينظر فى المرآة، ولا أن يلبس الخاتم، ولايحمل السلاح، ولايجادل، لقوله تعالى: ﴿**فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴿١٩٧﴾**﴾(البقرة).

●●●

٢٠٩٤ـ «الشروع فى الحج بالنية»

في قوله تعالى: ﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴿١٩٧﴾**﴾(البقرة)، أى فى أشهر الحج،

والفرض: هو أن يُلزم المسلم نفسه بالشروع في الحجَ بالنية قصداً باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتلبية نطقاً مسموعاً.

●●●

٢٠٩٥. ﴿الحج والعُمرة لله﴾

قولُنا: الحجّ والعمرة لله: يعني أنهما ليسا لشخص أو اعتقاد غير الله، والإيمان به: واحداً، أحداً، لاشريك له. والنية في الحجَ والعمرة هي إظهار العبادة لله تعالى لا لغيره، وذلك معنى: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**(١٩٦)﴾ (البقرة)، أي لاتكون التلبية إلا له تعالى، نقول: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك بحج وعمرة**».

●●●

٢٠٩٦. ﴿منافع الحج﴾

للحج منافع بقوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)**﴾(الحج)، ومنافع الحجّ: هي كل ما يرضى الله من أمور الدنيا والآخرة؛ فمن أمور الدنيا: التجارة، ومن أمور الآخرة: المناسك، كعرفات، والمَشْعَر الحرام، وطلب المغفرة. ودليل التجارة قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ**(١٩٨)﴾ (البقرة)، **والفضل هو التجارة. ومن منافع المناسك**: ذِكْر اسم الله، عند التسمية، بقولنا: «**بسم الله، والله أكبر**»، وقولنا: «**اللهم منك ولك**»، وشُكرُه على ما رزقنا من الأنعام والمطاعم. ومن المنافع: **الوفاء بالنذور** إن كان دماً أو هدياً أو غيره، **وإطعام** البائس الفقير، **والطواف** بالبيت العتيق، **وقضاء التفث**: أى التمكين من أداء ما بقى من المناسك، من الرمى، والحلق، والتقصير، وقصّ الأظافر والشارب والإبط.

●●●

٢٠٩٧. ﴿التقوى خير الزاد فى الحج﴾

كان بعض الناس يخرجون للحج دون مال، ويقولون: **نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة** افترشوا الحرم، وسألوا الناس، فنزلت الآية: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ**(١٩٧)﴾ (البقرة)، أى تزوّدوا واتقوا أذى الناس بسؤالكم إياهم والإثم فى ذلك. **والتوكل لايكون مع** السؤال، وإنما التوكل **المحمود** أن لايستعين المتوكل بأحد فى شىء؛ وهو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب، وفى الحديث: «**اعقلها وتوكل**». ولايلزم الحج لو بذل غيره المال، ومن يعمل فى الحج ليكسب ما يعينه عليه استُحب له الحج، وتكلفة الحج شرطها أن تكون مما يفضل عمّا يحتاج إليه لنفسه ولنفقة عياله أثناء غيابه، وما يفضل عن قضاء دينه ـ سواء كان الدين للناس أو لله لزكاة فى ذمته.

●●●

٢٠٩٨ـ ﴿لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾

الرفث: هو الجماع، أو هو الإفحاش بذكر النساء، أو ما يقال بحضرتهن ونهى الله تعالى عن إتيانه وإتيان مثله ـ **الفسوق والجدل**، فقال: ﴿**فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ (١٩٧)**﴾ (البقرة)، فهذه **ثلاثة** نواه غير مأذون بها في الحج. **والرفث**: كلمة جامعة لما يريده الرجل من أهله، وهو أيضاً اللّغو في الكلام؛ **والفسوق**: هو جميع المعاصي؛ وفي الحديث: «**من حجّ فلم يرفُث ولم يفسُق رجع** كيوم ولدته أمه» أخرجه البخاري؛ **والجدال**: من المجادلة، وهي المماراة والسباب والاختلاف. وظاهر الآية أن **الحج يغفر الصغائر** والتبعات.

●●●

٢٠٩٩ـ ﴿شعائر الله هي الدين كله﴾

الشعائر جمع **شعيرة**، على وزن فعيلة، ويقال للواحدة **شعارة** أيضاً، **والشعائر**: هي كل شيء أشعر به فأعلم عنه، ومن ذلك قولنا: **شعار القوم** في الحرب، أي علامتهم؛ ومنه شعار البَدَنَة، وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة، فتسمى البَدَنَة: شعيرة، بمعنى المشعورة. **وشعائر الله**: هي **أعلام** دينه، وفي الآية: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)**﴾ (الحج)، **وتعظيمها** بتقديرها وإعطائها حقّها من التبجيل والاهتمام، فالبُدن مثلاً تُسَمَّى للذبح ويغالى في الاعتناء بها. وفي الآية: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ (١٥٨)**﴾ (البقرة) أي من **المناسك**، وعن عائشة قالت: سنّ رسول الله ﷺ الطواف بين الصفا والمروة، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما». **والشعائر** المتعبّدات، أشعرها الله وجعلها أعلاماً للناس، كالموقف، والسعي، والنحر: ﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ (٣٦)**﴾ (الحج)، **والبُدن** واحدتها بَدَنَة، مأخوذة من البدانة وهي الضخامة تكون في الإبل وفي البقر. والبَدَنَة تُهدى، وإشعارها أن يُجَزّ السنام إذا كانت من الإبل حتى يسيل منه الدم فيُعلَم أنها **هَدْي**. **والإشعار** هو الإعلام من طريق الإحساس، يقال أشْعَرَ هَدْيه، أي جعل له علامة ليُعرف أنه هَدْي، ومنه **المشاعر** أي المعالم، واحدها مَشْعر، كقوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ (١٩٨)**﴾ (البقرة)، وهو «**المشعر**» لأنه يُشعر بالحج، وعنده يصلون ويدعون، ويسمى أيضاً «**الجمع**»، لأنه **يُجمع** فيه بين المغرب والعشاء، وهو «**المزدلفة**» لأن العبد فيه يزدلف إلى الله، أي يتقرّب إليه، ووصف بالحرام لحُرمته، ومن ذلك «**شعائر الله**»، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ (٢)**﴾ (المائدة)، والخطاب للمؤمنين، يأمرهم أن لا يتعدّوا حدوده، والحدود هي جميع مناسك الحج: **الصفا والمروة، والهَدْي والبُدن**، وكلها من **الشعائر**، وقيل: «**شعائر الله**» هي كل **أوامره تعالى ونواهيه**، وهي **الدين كله**، وهذا هو القول الراجح.

●●●

٢١٠٠ـ ﴿مناسك الحج عند كل الأمم﴾

مناسك الحج: وهي التي يتردد الناس إليها كالوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى، كقوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا** ٣٤﴾ (الحج)، أى مذهباً في طاعة الله، يقال نَسَكَ نَسْك قومه إذا سلك مذهبهم. والمنسك التضحية، كقوله: ﴿**لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** ٣٤﴾(الحج) أى على ذبح الأضحية، فأمر تعالى عند الذبح بذكره، وأن يكون الذبح له، لأنه رازق ذلك، فذلك هو المنسك، وقال: ﴿**فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا** ٣٤﴾ (الحج)، يعنى مثلما أنه إله واحد للجميع، فكذلك الذبح عند كل الأمم لله وحده، ولوجهه وإنعامه يكون إسلامهم جميعاً، فذلك قوله إن مناسك الحج عند كل الأمم، وهى عندهم جميعاً لله وحده وإن انحرف البعض بها.

●●●

٢١٠١ـ ﴿مواقيت الحج ولباس المحرم﴾

وقّت النبىّ ﷺ لأهل المدينة «ذا الحليفة»، ولأهل الشام «الجُحفة»، ولأهل نجد «قرن المنازل»، ولأهل اليمن «يَلَمْلم»، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ، حتى أهل مكة. وهذه الأسماء السابقة هى مواقيت الحج، والمواضع التى يكون منها الإحرام بالنسبة لمختلف الأقوام، **والتوقيت والتأقيت**: أى يجعل له وقتاً يختص به، **ويوقّت الشىء**: يبيّن مُدّته، ثم اتسع المعنى فقيل للموضع **ميقات**: ويكون الإحرام من الميقات، ويُستحَب للمُحرِم أن يغتسل قبله، رجلاً كان او امرأة، وله أن يتنظّف، ويقصّ الشارب، ويقلّم الأظافر، ويحلق العانة، وينتف الإبط، ويخلع الثياب المخيطة، ويلبس إزاراً ورداء أبيضين نظيفين، ويتطيّب فى بدنه، ويحرُم عقب صلاة مفروضة . ويلبس نعلين، والخُفّ للمرأة، ولا يغطى رأسه، ولا تلبس المُحرمة القفازين والسراويل، ولاتتبرقع،و لاتلثّم، وتلبس ما شاءت من الثياب، من خزّها وبَزّها، وأصباغها وحليها، وتلبس المخيط كله، ولها أن تغطى رأسها وتستر شعرها إلا وجهها، ولاتخمّره ، ولها أن تسدل ثوبها سدلاً خفيفاً على وجهها تستتر به عن نظر الرجال.

●●●

٢١٠٢ـ ﴿الإهلال والتلبية﴾

التلبية: هى رفع الصوت بالتهليل، ومن يفعله فهو مُهلّ ،من الهلال، وكانوا يهلّونه، أى يحيونه لدى رؤيته. **وإهلال المُحرِم**: بالحجّ والعمرة؛ والتّلبية: إجابة لقوله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ** ٢٧ ﴾(الحج)، وكانت تلبية رسول الله ﷺ : «**لبّيك اللّهم لبّيك . لبّيك لاشريك لك لبّيك. إن الحمد والنعمة لك والمُلك، لاشريك لك**». وقوله «لبّيك» : يعنى اتجاهى وقصدى إليك، مأخوذٌ من قولهم: دارى تلبّ دارك ـ أى تواجهها؛ أو أن المعنى

محبتي لك. مأخوذ من قولهم: امرأة لبّة، أي مُحبّة؛ أو أن المعنى إخلاصي لك، من قولهم حُبٌّ لُباب، أي خالص؛ أو معناه الإقامة على الطاعة، من قولهم: لَبّ الرجل بالمكان إذا أقام فيه؛ أو معناه قُرباً منك، من **الإلباب** وهو القُرب. ومن دُعِي فقال «**لبيك**» فقد استجاب. وكان **عمر** يهلّ بتلبيه الرسول ﷺ ويزيد: «**لبيك اللهم لبيك وسعديك، والخير في يديك، والرغباء إليك والعمل**»، ويقول: «**لبيك مرغوباً ومرهوباً إليك ذا النعماء والفضل الحسن**». ويُستحب استدامة التلبية والإكثار منها، وإذا فرغ المُحرم من التلبية يصلى على النبيّ ﷺ، ويدعو بما يحب من خير الدنيا والآخرة. ولابأس أن يلبّي غير المُحرِم.

•••

٢١٠٣. ﴿الإفراد والتمتُّع والقران في الحج﴾

الإفراد، والتمتُّع، والقِران في الحجّ، كل ذلك جائز بالإجماع وباركه النبيّ ﷺ، ولم ينكره على أحد من أصحابه، وأجازه لهم، فإذا كان قد اختار لنفسه «**الإفراد**»، فلأن **الإفراد** أفضل من **القران**، والقران أفضل من التمتُّع. وفى الحديث عن **عائشة** أن الرسول ﷺ قال: «**من أراد منكم أن يهلّ بحج وعمرة فليفعل، ومن أراد أن يهل بحج فليُهل، ومن أراد أن يُهلّ بعمرة فليُهل**» وأهَلّ الرسول ﷺ بحجّ، وأهلّ ناسٌ بالعمرة والحج، وأهلّ ناسٌ بالعمرة. وأهلّت **عائشة** بالعمرة، وقال الرسول ﷺ: «**وأما أنا فأُهلّ بالحج**»، والحديث حُجّة من قال بفضل **الإفراد**. واحتج مَن فضّل **التمتع** بآية **متعة الحج**، تقول: ﴿**فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ**(١٩٦)﴾ (البقرة)، ولم تنسخها آية أخرى، ولم ينه عنها رسول الله ﷺ حتى مات، ومع ذلك نهى **عمر** و**عثمان** عن التمتُّع ليِنتجع البيت مرتين - أي ليأتيه الزوار مرتين فى السنة، ولأنهما رأيا الناس مالوا إلى التمتُّع ليسارته وخفّته، فخشيا أن يضيع الإفراد والقران. وفضّلت جماعة **القران**، لأن فيه الفرضين، وقالوا إن رسول الله ﷺ قَرَن ولبّى بعمرة، وبعُمرة وحجة؛ وقيل إنه كذلك أفرد، لأن الإفراد أكثر عملاً، وفيه عُمرة وحجّ، والاثنان طاعة والأكثر طاعة هو الأفضل، والمُفرد أكثر تعباً من **المتمتّع**، لإقامته على الإحرام، وذلك أعظم لثوابه. **والخلاصة**: أن النبيّ ﷺ رآه بعضهم تمتّع، ثم أهل بحجة، ورآه آخرون أفرَدَ ثم قال «**لبيك بحجة وعمرة**»، ومن ثم اتّفقت الأحاديث، وربما أن الرسول ﷺ جمع فى هذه الحجة بالحج والعمرة لأنه علم أنه ليس بحاج بعدها. وإنما كل ذلك جائز بالإجماع.

•••

٢١٠٤. ﴿المتمتع بالعمرة إلى الحَجّ﴾

فى الآية: ﴿**فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**(١٩٦)﴾ (البقرة): أن التمتّع بالعمرة يكون إلى الحج، وله ثمانية شروط: ١- أن يحرم الرجل بعمرة فى أشهر الحج؛

٢- وأن يكون من غير أهل مكة؛ ٣- وأن يقدُم مكة فيفرغ من العمرة ثم يقيم بها حلالاً - أى غير محرم، إلى أن يأتى موعد الحج فى عامه؛ ٤- وأن يؤدّى الحج فيكون قد أدّى العمرة والحج؛ ٥- وأن يكون ذلك فى سفر واحد؛ ٦- وفى عام واحد؛ ٧- وفى أشهر الحج؛ وألا يمزجهما ـ أى الحج والعمرة ـ بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة؛ ٨- وأن تكون العمرة والحج عن شخص واحد.



٢١٠٥ـ ﴿القران فى الحج﴾

هو أن يجمع المُقرن بين العمرة والحج فى إحرام واحد، فيهلّ بهما جميعاً فى أشهر الحج أو فى غيرها، يقول: «لبيّك اللهم بحجة وعُمرة معاً»، فإذا قدِم مكة طاف لحجته وعُمرته طوافاً واحداً، وسعَى سعياً واحداً، وفى حديث عائشة تقول: **وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنما طافوا طوافاً واحداً**؛ وفى حديث الرسول ﷺ لها يوم النفر ـ أى الانصراف مِن مِنًى: «**يَسَعُك طوافك لحجك وعُمرتك**»، أو قال: **يجزىء عنك طوافك بالصفا والمروة عن حجّك وعُمرتك**». والقران على ذلك من باب التمتع، لأن **القارن** يتمتع بترك النَّصَب فى السفر إلى العمرة مرة، وإلى الحج مرة أخرى، ويتمتع بجمعهما، ولم يُحرم لكلٍ واحدة من ميقاته، وضمّ الحج إلى العمرة، فدخل تحت قول الله تعالى: **﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (١٩٦)﴾**(البقرة)، وهذا وجهٌ من التمتُّع لا خلاف فيه، ولذلك كان القران لغير أهلِ مكة ممن يُسمَّون فى المصطلح الإسلامى: **أهل الآفاق**، كقوله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** (البقرة ١٩٦)، وقيل إنه لم يوجد مكّى قرَن، ولايجوز للمُقرن الجمع بين العمرة والحج إلابسياق الهدى.



٢١٠٦ـ ﴿متعة الحج﴾

هى النوع الثالث من الحجّ، حيث الأول «**الإفراد**»، والثانى «**القران**»، والثالث «**التمتُّع**»: وهو أن يُحرم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجّه فى عمرة، ثم حلّ وأقام حلالاً حتى يُهلّ بالحج يوم التروية ـ أى اليوم الثامن من ذى الحجة. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه ممن لم يكن معه هَدْى، ولم يَسُقْهُ، وقد كان أحرم بالحج، أن يجعلها عمرة. وقد أعمر رسول الله ﷺ عائشة فى ذى الحجة ليقطع أمر أهل الشرك الذين كانوا يحرّمون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة، وبذلك نقض قولهم، وأراهم **أن العمرة فى أشهر الحج لا بأس بها**. ولم يكن ذلك لأصحاب النبىّ ﷺ ولا لعائشة خصوصاً لعامهم ذاك، ولكنه للناس، ولأبد الأبد.



٢١٠٧ـ ﴿مَنْ قلد الهَدْى ونوى الإحرام صار مُحرماً﴾

هذا صحيح، فإنّ مَنْ يقلّد الهَدْى وينوى الإحرام يصير مُحرماً، بدليل الآية: **﴿لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ (٢)﴾** (المائدة)، فهذه الأحكام معطوف بعضها على بعض وتوجب إتمام أمور المناسك، ولهذا قالوا: من دخل فى الحج ثم أفسده، فعليه أن يعيد جميع أفعال الحج ولايجوز أن يترك منها شيئاً.

●●●

٢١٠٨ـ ﴿لا قتل للصيد فى الإحرام﴾

القتل: هو كل فعل تُزهَق به روح، وهو أنواع، منه الذبح، والنحر، والخنق، والرضخ وأشباه ذلك، كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ (٩٥)﴾**(المائدة). والخطاب فى الآية لكل مسلم ومسلمة، فلا يجوز فى الإسلام ذبح المحرم للصيد، لنهيه تعالى المحرم عن قتله، فقال: «**لاتقتلوا الصيد**»، فلايحلّ له أكله، ولفظ الصيد عام فى كل صيد برّى وبحرى، حتى جاء قوله تعالى: **﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا (٩٦)﴾**(المائدة)، فأباح صيد البحر إباحة مطلقة بقوله: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ (٩٦)﴾**(المائدة). وفى الحديث: «**خمسٌ من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور**»، أي أن هذه لأنها مؤذية لا يحرم قتلها للمُحرِم، وأما غير ذلك فهو حرام. والجزاء على الصيد يجب بقتله، والصيد نوعان: **دواب وطير**، ويجزَى من الدواب نظيره فى الخِلْقة والصورة، ففى النعامة بَدَنَة، وفى حمار الوحش وبقرة الوحش بقرة، وفى الظبى شاة، وفى الحمام كله قيمته، إلا حمام مكة ففى الحمامة شاة، وكذلك حمام الحرم، ويقوّم الصيد مالاً فى المكان الذى قُتل فيه، فإن كان لايباع الصيد فى ذلك الموضع فيشترى بالقيمة هدياً إن شاء، أو طعاماً للمساكين: **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا﴾**(المائدة ٩٥)، ويلزم لتقدير القيمة حَكَمان ذوا عدل، وتكون على الجماعة المشتركة فى قتل صيد واحد كفّارة واحدة يشتركون فيها، كأن يكون هدياً، أو كفارة طعام لمن لم يجد الهدى، وإن لم يجد فيصوم عدل ذلك بحيث لايتجاوز الجزاء الشهرين.

●●●

٢١٠٩ـ ﴿البيت الحرام هو الكعبة﴾

يأتى ذلك فى الآية: **﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ (٩٧)﴾**(المائدة)، والبيت حرام لأنه لايُقتل فيه، ولايستَبى، ولايُغار عليه، ولا تقام فيه الحدود. والبيت الحرام: هو

ما حول الكعبة من الحرم؛ وقيل: هو مكة كلها. ومعنى: قيام البيت، أنه أقيم ليخشع الناس لرؤيته، وتعظم فى نفوسهم وقلوبهم هيبته، فيكون لهم أمناً وأماناً، ولأنه يقوم بحياتهم ومماتهم، ويلجأون إليه فيعصمهم ربه، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿٦٧﴾﴾ (العنكبوت)، يقارن بين الأمن فى الحرم والأمن خارجه، ويقول: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿١٢٥﴾﴾ (البقرة)، والمثابة هى رجوع الناس إلى زيارة البيت المرة تلو الأخرى، ويعرفون أنهم به آمنوا، وأنه مكان صلواتهم؛ وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ (البقرة)، لأنهما استنّا تطهيره، يعنى أن يمتنع فيه الرجس والرفث، وظل قائماً مطهّراً إلى أن أدخلت الأصنام فيه حتى زحمته، وقبل ذلك ناسبت طهارته منذ عهد إبراهيم وإسماعيل، الطائفين الأغراب، والعاكفين المقيمين، والمصلّين من الركّع السجود، وصار التقليد بعد إبراهيم أن يُطهِّر البيت من حين لآخر، وفعل ذلك النبىّ ﷺ، وكان من بُناة البيت مثل إبراهيم وإسماعيل. والقول بأن الملائكة هى التى بَنَت البيت، أو الذى بناه هو آدم أو شيث، هو قولٌ غريب لا يُعتَدّ به، وروّج له أهل الكتاب فيما يسمى بالإسرائيليات. وفى عهد إبراهيم وإسماعيل صار البيت مثابة للناس وأمناً، وهذه ميزةٌ للبيت الحرام على بيت المقدس، فكل من استعاذ بالبيت الحرام وتعوّذ به، أى التجأ إليه واعتصم، أعاذه الله، فهو آمن، وأهله - أى سكان مكة، آمنون به ومرزقون، وهو معنى دعاء إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴿١٢٦﴾﴾ (البقرة). وإبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد البيت، أى أظهراه وأطالا جدرانه، كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة)، والقواعد هى الأساس، وبناؤهما للبيت من الأساس من أعمالهما الصالحة، وسألا الله أن يتقبّله منهما، وكان قبلهما لا يوجد بيت، بل مجرد ربوة(تلة) حمراء مَدَرة(طينية)، بواد غير ذى زرع. ولمّا جدّدته قريش بعد إبراهيم اقتصرت على قواعد إبراهيم، ولولا أن قريشاً كانت حديثة العهد بالإسلام - وربما ترفض الإنفاق على تجديد البيت - لأعاد الرسول ﷺ بناءه، ولردّه إلى قواعد إبراهيم وأدخل به الحِجْر. وكان ﷺ فى الخامسة والثلاثين عندما جدّدت قريش البيت أول مرة قبل الإسلام، وتجزّأت العمل فى البناء قبائل :عبد مناف، وزهرة، وبنو مخزوم، وبنو جمح،وسهم، وبنو عبد الدار؛ وبنو أسد، وبنو عدىّ بن كعب. وبدأ عملية الهدم «الوليد بن المغيرة»، وكان الناس يهابون أن يشتركوا معه لقداسة البيت، فلما رأوا الوليد سليماً بعد يوم من الهدم تابعوه عليه، إلى أن انتهوا إلى أساس إبراهيم، ثم شرعوا فى البناء إلى أن بلغوا موضع الركن -

أى الحجر الأسود، وعندئذ اختصموا، فكانت كل قبيلة تريد أن يكون لها دون غيرها رفع الحجر إلى موضعه، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدىّ بن كعب، وقربوا جفنة مملوءة دماً، أدخلوا أيديهم فيها، فسُمُّوا «لَعَقَة الدم»، وأقسموا أن يحظوا لأنفسهم بهذا الشرف، واحتدم الخلاف لمدة أربعة أو خمسة أيام، ثم اجتمعت القبائل كلها فى الحرم يتشاورون، واتفقوا أن أول من يدخل من باب البيت الحرام يقضى بينهم، فكان ذلك الداخل هو النبىّ ﷺ، فاقترح عليهم ثوباً، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً. ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه، وضعه بيده ثم بنى عليه. وفى الآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾(آل عمران)، و«بكة» اسم سريانى بمعنى المدينة، ومن ذلك «بعلبك» فى لبنان وهى «مدينة بعل»، والعرب تجعل بكة من أسماء مكة، ومعنى الاسم كما قالوا. أنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة، يعنى أنهم يُذَلُّون بها ويخضعون؛ أو أنها بكة لأن الناس تُبَكّ فيها، أى تزدحم فى موسم الحج. وقيل بكة هى موضع البيت، وما سوى ذلك مكة. وللبيت أسماء عدة، منها «الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ» (الطور ٤)، «وَالْبَيْتَ الْحَرَامَ» (المائدة٩٧)، «وَالْبَيْتِ الْمُحَرَّمِ» (إبراهيم ٣٧)، والأول: قيل بيت فى السماء تعمره الملائكة، غير أن سياق السورة لا يوحى بذلك، فقبل ذلك يأتى عن «جبل الطور» الذى كلّم الله عنده موسى، وعن «الكتاب المسطور والمنشور فى الرّق»، وهو «كتاب القرآن»، أى «المصحف»، والطور والمصحف من العَيْنيات التى مكانها الأرض وليس السماء، ومن ثم كان «البيت المعمور» هو أيضاً اسمٌ من أسماء البيت الحرام الذى نعرفه ونعاينه على الأرض، وهو «معمور» بالناس يحَجّون إليه من كل مكان، والمقصود به الكعبة؛ وهو أيضاً «المسجد المحرَّم»، و«المسجد الحرام»، حرّم الله فيه ارتكاب المعاصى، سواء للعاكف، يعنى من أهل مكة، أو البادى، أى من غير أهل مكة، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم يذيقه الله أشدّ العذاب(الحج٢٥)، بمجرد أن يَهِمّ فيه بارتكاب المعصية عن قصد أو عن شرك، أو أن تُستَحل فيه الحرمات. وقوله: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴿٢﴾﴾(المائدة)، الآمون هم المتّجهون إلى بيت الله الحرام الذى مَن دخله كان آمناً، وكذلك من قصده طالباً فضل الله وراغباً فى رضوانه، فلا يُمنع ولا يُصَدّ. وفى البيت الحرام لا يُؤتى الظلم، ولا القتل، ولا يُلحد فيه، ولا يُنكر الله. وهذا البيت المقدور له أن يكون معموراً أبد الآبدين، أرشد الله إليه إبراهيم. وقوله تعالى ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾(الحج) استدل بها البعض على أن «إبراهيم أول من بنى البيت». ومن أسمائه أنه ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج ٣٣)، أى القديم الموغل فى القدم، قيل: إنه أول بيت بُنى لله فى العالم أجمع. وفى قوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾(الحج) قرن الطواف بالصلاة فى البيت ولايقترنان إلا فيه.

●●●

٢١١٠. ﴿كانت كسوة الكعبة فى عاشوراء﴾

فى حديث لعائشة قالت: «كانوا يصومـون عاشوراء قبل أن يُفرض رمضـان، وكان يوماً تُستَر فيه الكعبة» أخرجه البخارى، ويستفاد من الحديث أن الكعبة كانت تُكسَى فى الجاهلية من كل سنة يوم عاشوراء (اليوم العاشـر من شهر المحرم)، ثم صـارت تُكسَى فى الإسلام يوم النحر فى ذى القعدة، فيعلقون كـسوتها إلى نحو نصفها، ثـم صاروا يقطّعون الكسوة كهيئـة المحرم، فإذا حلّ الناس يوم النحر كسوها الكـسوة الجديدة، وقيل: أول ما كُسيت الكعبـة كان بالوصائل، جمع وصيلة، وهى ما يوصـل بها الشىء، وهى أقمـشة حـبرة خضراء مخططة يمـانية، والذى كساها هو أسعد، وهو نفسه تُبّع؛ وقيل: هو إسماعيل بن إبراهيم؛ وقـيل: عـدنان بن أد أول من كـسـاها ووضـع أنصـاب الحـرم، ثم رسـول الله ﷺ كساها الثيـاب اليمانية، ثم عمر وعثمان كسياها القباطى، ثم الحجّاج بأمر عبدالملك كسـاها الديباج. وقيل: أول من كسـاها الديباج عبـد الله بن الزبير، وقيل: يزيد بن معاوية؛ وقيل: نُتَيْلَة بنت جناب والدة العباس بن عـبدالمطلب؛ وقيل: معاوية بن أبى سـفيان؛ وقيل: كانت تُكسَى بالديباج يوم عاشوراء، وبالقباطى فى آخر رمـضان؛ وقيل: أول من كساها خالد بن الوليد؛ وقيل المأمون بن الرشيد؛ وكُسيت أيام الفاطميين الأبيض إلخ.

●●●

٢١١١. ﴿الكعبة قيام للناس﴾

فى الآية: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ (٩٧)﴾ (المائدة)، كأنه يقول: إن الكعبة مـا دامت موجودة فالدين قـائم. وفى الحديث: «لاتقوم السـاعةحتـى لا يُحَجّ البيت» أخرجه البخارى وأحمد والحاكم، يعنى: أن من أشراط الساعة أن البيت يتوقف الناس عن الحج إليه. (أنظر عن الكعبة فى باب الإيمان ضمن أحاديث الزمان).

●●●

٢١١٢. ﴿البيت العتيق﴾

البيت العـتيق هو البيـت الحرام بمكة، كقـوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ (الحج)، والعتيق هو القديم، تقول عتُق السـيف أى قَدُم، وفى الحديث: «إنه أول مسـجد وُضع فى الأرض» أخرجه مسلم، وهذا هو الـصحيح. وقيل: هو عتيق، لان الله أعتقه أن يتـسلط عليه جبّـار من النصارى أو اليهود؛ وأما الزعم بأن الحجّاج بن يـوسف الثقفى نصب المنجنيق على الكعبة حتى كسرها، فإن الحجّاج كان مسلماً، والمسلم منهىّ أن يُلحِق الأذى بالبيت أو يُظهر فـيه الفساد، ومع ذلك فإن النهى والوعيد بإزاء المسـلم لم يتجاوزهما الله إلى الصرف عن البيت بالإلجـاء والاضطرار، وموعد الحجّاج هو الساعة، والـساعة أدهى وأمرّ؛ وأما النصارى واليهود فهؤلاء صُرِفوا عن البـيت قسراً. وقيل: سمى عتيقاً لأنه لم

يملكه أحد لنفسه قطّ، وقيل هو عتيق بمعنى كريم، **والعتق** هو الكرم. وقيل: هو عتيق لأن طوفان نوح لم يلحقه.

•••

٢١١٣. ﴿أول بيت وضع للناس للذى ببكة﴾

سأل أبو ذرّ رسول الله ﷺ عن: أول مسجد وضع فى الأرض؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: ثم أى؟ قال: «**المسجد الأقصى**» قال: كم بينهما؟ قال: «**أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصلّ**» أخرجه مسلم. غير أن **سليمان** الذى بنى **المسجد الأقصى**، حكم بين سنتى ٦٩١ و ٦٢٠ ق.م، بينما **إبراهيم** الذى بنى **المسجد الحرام** كان فى بداية الألفية الثانية قبل الميلاد، يعنى أنه بين إبراهيم وسليمان أكثر من **ألف** سنة. **والحديث من الإسرائيليات**، وكأن النبىّ ﷺ لا يعرف سلسلة ذرية إبراهيم، وأنه لا يمكن أن يكون بين إبراهيم وسليمان أربعون سنة!! وفى الآية: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧)﴾** (آل عمران)، يعنى أنه قبل **المسجد الحرام** لم يوضع قبله بيت للعبادة. وكان اليهود والمسلمون قد تفاخروا، فقالت اليهود: **بيت المقدس** أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، وفى الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل. فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن فكرة بيت المقدس لم تكن فكرة **داود**، وأنه إنما أراد أن يحقق فكرة **موسى ويشوع**، وأما **سليمان** فقد جدّد ما كان أسّسه **داود** وأكمله. وأما **المسجد الحرام** فقد أسسه وبناه **إبراهيم وإسماعيل** كأمر الله. وروى أن أول من بناه آدم، فيجوز أن يكون من ولده مَن وضَع أيضاً أساس بيت المقدس بعده بأربعين عاماً كما فى الحديث! **وبكة فى الآية هى موضع** البيت، **ومكة** سائر البلد. وأيضاً فإن بكة هى مكة وإنما **بالسريانية**، وفى بلاد الشام مدينة **بعلبك** (بعل وبك) أى مدينة البعل، فمعنى **بكة** أو **مكة** هو المدينة، ولذلك أطلق النبىّ على يثرب الاسم العربى «**المدينة**» المضاهى للاسم السريانى بكة أو مكة. وقيل مكة تصحيف عربى **لبكة**. وقيل إن اسم **بكة** مشتق من **البك** وهو الازدحام، وسميت بذلك لازدحام الناس فيها فى الطواف. وقيل هى تَبكّ المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة، أو تَبكّ مَن ظَلَم فيها، أى تهلكه. **وآيات المسجد البيّنات** هى: **مقام إبراهيم، والحجر الأسود، والحطيم، وزمزم، والمشاعر كلها**. ومن يدخل الحرم يأمن، وذلك من آياته، لأن الناس كانوا يُتخطّفون من حوله، وقد فعل الله ما فعل **بأصحاب الفيل** من أجل الحرم، وفيه لا رفث ولافسوق ولا جدال.

•••

٢١١٤. ﴿إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعد البيت﴾

البيت هو البيت الحرام، وقواعده أساسه، وهى الجُدُر، وفى الحديث: «إن البيت لمّا هُدم أُخرجت منه حجارة عظام»، وهذه هى القواعد التى رفعها إبراهيم، وكانت قد اندرست، وكان إبراهيم قد تبيّنها وجوّدها. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ (٢٦)﴾ (الحج) أى عرّفناه مكانه وأين يقيمه، وأطلعناه عليه؛ ويقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (١٢٧)﴾ (البقرة)، فَرفعَ إبراهيم وإسماعيل البيت حتى انتهيا إلى موضع الركن. وقيل: بنى إبراهيم البيت أولاً بالطين والحجارة، ثم إن قريشاً هدمت ما بناه إبراهيم وبنوا الكعبة بالحجارة، وقيل إنهم لما بلغوا الركن اختلفوا فيمن يحمله، فجاء النبىّ ﷺ فحكّموه، فأمر بالركن فوُضع فى ثوب، ثم أمر كل سيد قبيلة أن يمسك بطرف من الثوب، ثم ارتقى هو ورفع إليه الركن ووضعه. وكان باب الكعبة على عهد إبراهيم بالأرض حتى بنته قريش. والجَدْر - أى أصل الجدار من البيت، لم تُدخله قريش، لأن النفقة قصرت بهم، وجعلوا الباب مرتفعاً ليدخلوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن يتقوّل العرب لنقض النبّى ﷺ الكعبة وجعلها على أساس إبراهيم، ولجعل لها خلفاً (باباً من الخلف) أو خلفين. ثم إن ابن الزبير هدم الكعبة وبناها على ما أخبرته عائشة، وزاد فى الحجر خمسة أذرع، حتى أبدى أُساً نظر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فزاده عشرة أذرع، وجعل بابين أحدهما يُدخَل منه، والآخر يُخرَج منه. ولما أحضر ابن الزبير العمال ليهدموا، خافوا، فصعد بنفسه وهدم، ورأوا أنه لم يُصَب بشىء فتجرّأوا. وأقرّ عبدالملك بن مروان ما فعله ابن الزبير فى الطول، ولكنه ردّ الحجْر إلى بنائه، وسدّ الباب الذى فتحه. وقيل: نهى النبىّ ﷺ عن سبّ أسعد الحميرى - أىَ تُبَّع: وهو أول من كسا البيت؛ وكانت الكعبة تُكسَى القباطى، ثم كُسيت البُرد، وكان الحجّاج: أول من كساها الديباج.



٢١١٥. ﴿مقام إبراهيم من البيت﴾

المقام فى اللغة موضع القدمين، من قام يقوم، والمقام اسمٌ للموضع، من أقام. ومقام إبراهيم هو الحَجَر الذى يصلى الناس عنده فى الكعبة ركعتى طواف القدوم. وعن جابر أن النبىّ ﷺ لما رأى البيت، استلم الركن فرمَل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾ (البقرة) فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، قرأ منهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾، ومفاد ذلك أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى ارتفع عليه إبراهيم حين ضَعُف عن رفع الحجارة التى كان

إسماعيل يناولها له ليضعها بيده فيرتفع الجدار، فكلما كَمُلت ناحية انتقل إلى الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقفٌ عليه، وكلما فرغ من جدار، نقله إلى الناحية التي تليها حتى تمت جدران الكعبة، وكان يترك أثر قدميه على الحجر، وهذا غريب، فقيل فيه:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ∴ على قدميه حافياً غير ناعل

وهذا المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنةَ الداخل من الباب، وكان إبراهيم لمّا فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عند البناء فتركه هناك، ولهذا أُمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف. وناسب أن يكون الحجر عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وأخّره عمر عن الجدار، وكان زمن أبي بكر ملتصقاً بالبيت. وقوله: **﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾** (البقرة)، قيل: اتخذوه مثابة تثوبون إليه، وكان عمر يقول: أنه وافق ربّه فى ثلاث، منها قوله لرسول الله ﷺ: **لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى**؟ فنزلت الآية: **﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾**. وقيل: إن عمر قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله، لو صلّينا خلف المقام؟ فأنزل: **﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾**، فكان المقام عند البيت، فحوّله رسول الله ﷺ إلى موضعه الحالى، فكان رسول الله ﷺ هو الذى أخّره، والصحيح أن الذى أخّره عن الجدار هو عمر فى خلافته. وقيل: معنى اتخذوا المقام مُصلّى، اتّخذوه يُدعَى فيه، والدليل على ذلك ما قاله جابر: أن رجلا توقّف بين الركن أو الباب والمقام يدعو لصاحب له، يقول: اللهم اغفر لفلان، فقال له النبىّ ﷺ: «**قد غُفر لصاحبك**»؛ أو أن المقام مُصلّى، أى موضع للصلاة يُصلَّي عنده، فيصبح الحجر قِبلةً يقف الإمام عندها. وفى الآية: **﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ (٩٧)﴾** (آل عمران): أن مقام إبراهيم هو من آيات البيت. ولما كان معنى مقام إبراهيم هو موضع إقامة إبراهيم وهو يبنى البيت، **فالبيت كله يصبح مقامه**، فحيثما أقام فهو المقام، **وصلاته لذلك كانت فى كل البيت**، لأنه صلى فى كل مكان فيه، والمقام على ذلك هو: الركن، وعند **الحجر الأسود، وفى الحطيم، وعند زمزم، والمشاعر**، أى كل مكان فى البيت.

●●●

٢١١٦. ﴿آداب رؤية الكعبة﴾

يستحب رفع اليدين عند رؤية الكعبة والدعاء.

●●●

٢١١٧. ﴿صلاة النبىّ ﷺ فى الكعبة﴾

كانت صلاته ﷺ في الكعبة فى عام الفتح، وقال لعثمان: «**ائتنا بمفتاح الكعبة**»، ودخلها وصلّى بين العمودين اليمانيين، وليس على أحد بأس أن يصلى فى أى نواحى

البيت شاء، غير أن الصلاة بين العمودين مستحبة. وفي عام الفتح أمر النبيّ ﷺ بإزالة كل الصور من الكعبة، وعند دخولها يستحسن التكبير في نواحيها.

●●●

٢١١٨.﴿الطواف﴾

يقال: طاف بالمكان وحوله، أي دار حوله. والطواف في الحج: هو الدروان حول الكعبة، كقوله تعالى:﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾(الحج) والبيت العتيق هو الكعبة. وللحج ثلاثة أطواف: طواف القدوم، وطواف الإفاضة، وطواف الوداع. والطواف في هذه الآية المقصود به طواف الإفاضة؛ وأما طواف القدوم فسُنّة، ويسقط عن المكّي، وعن كل من يُحرم بالحج من مكة. والطواف الواجب الذي لايسقط هو طواف الإفاضة الذي يكون بعد عرفة، وهو المفترض في القرآن، وبه يحل الحاج من إحرامه كله. والطوافان واجبان، والسعي أيضاً واجب، وكذلك طواف الصَّدَر المسمى بطواف الوداع. وليس لأحد أن يترك الطواف بين الصفا والمروة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾(البقرة)، فالصفا والمروة من المتعبَّدات التي أشعرها الله، مثلهما مثل الحجر الأسود، والكعبة والطواف حولها، والموقف، والنحر، فهاتان مثل ذلك ومن علامات الحج.

●●●

٢١١٩.﴿مستحبات الطواف ومكروهاته﴾

من مستحبات الطواف إذا دنوتَ من الحجر الأسود: أن ترفع يديك، وتحمد الله، وتُثنى عليه، وتصلّى على النبيّ ﷺ، وتدعو، ثم تستلم الحجر وتقبّله، فإن لم تستطع فاستلمه بيدك، فإن لم تستطع فأشِر إليه بيدك.

ومن مكروهات الطواف: كراهية الكلام بغير ذكر الله، ومدافعة الأخبثين: البول والغائط، والأكل والشُّرب، وكل ما يمكن أن يُفسد الصلاة.

●●●

٢١٢٠.﴿موالاة الطواف والسعي﴾

تشترط الموالاة بين أشواط الطواف، فإن ترك الحاج الموالاة لمدة طويلة بلا عذر، لم يُعتَبر ما مضى من الطواف، ويبدأ من جديد، وإن تركه لمدة قصيرة بنَى على ما تقدّم، وإن أعيا في الطواف فله أن يستريح. ولا تشترط الموالاة في السعي بين الصفا والمروة. فإن أقيمت صلاة أو حضرت جنازة وهو يطوف أو يسعى، صلّى مع الجماعة، فإذا انتهى عاد إلى طوافه أو سعيه وبنَى على ما تقدم.

●●●

٢١٢١. ﴿استحباب الاضطباع﴾

الاضطباع مستحبٌ في طواف القدوم، وهو أن تجعل وسط ردائك تحت كتفك الأيمن، وتردّ طرفيه على كتفك الأيسر، وتُبقي كتفك الأيمن مكشوفاً، فإذا فرغت من الطواف سوّيت رداءك.

•••

٢١٢٢. ﴿الطواف لمن دخل المسجد الحرام﴾

يُستحب لمن يدخل المسجد الحرام أن لا يبدأ بشيء قبل الطواف بالبيت لأن التحية للمسجد الحرام، وإن شاء أن يصلي صلّى بعد ذلك. وإذا دخل فذكر فريضة أو فائتة، أو أقيمت الصلاة المفروضة، قدّمها على الطواف. ويشترط للطواف الطهارة وستر العورة، وإن تذكّر أنه كان على غير طهارة ـ سواء في طواف الحج أو طواف العمرة ـ لزمه إعادة الطواف، ويستحب له الدنو من الكعبة أثناء الطواف، فإذا فرغ من الطواف يُسَنّ للطائف أن يصلي ركعتين ويكررهما بعد كل طواف، وصلاة الفريضة تجزيء عن ركعتي الطواف، أو أنه يصليهما بعد المكتوبة خلف المقام.

•••

٢١٢٣. ﴿الرمل في الطواف والسعي﴾

الرَّمَل:هو إسراع المشي مع مقاربة الخطو من غير وثب، ولايُسَنَ في غير الأشواط الثلاثة الأوَل من طواف القدوم أو طواف العمرة ، فإن تركه لم يقضه بعد ذلك، ويبتديء الحاج بالرمل من الحجر الأسود إلى أن يعود إليه، دون أن يمشي أثناء ذلك؛ وإن ترك الرمل في شوط من الثلاثة الأوَل أتى به في الاثنين الباقيين، وإن تركه في الاثنين أتى به في الثالث. ومن ترك الرمل نسياناً أو عمداً فلا إعادة عليه، ولايُسَن الرمل لأهل مكة ولا لمن يُحرم من مكة، ولا للنساء.

ولما قدم الرسول ﷺ وأصحابه مكة عام الفتح، كان منهم من قد وهنتهم حُمّى يثرب، فأمرهم أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة الأول، وأن يمشوا بين الركنين الأشواط الأربعة الباقية، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. وقد استلم الرسول ﷺ الركن الأسود في أول طوافه، يخبُ ثلاثة أطواف من السبع. والخَبب هو العدو السريع. وقال عمر في تبرير الرمل: إنما كنا راءينا به المشركين. وقال: هو شيء صنعه النبيّ ﷺ فلا نحب أن نتركه.

•••

٢١٢٤. ﴿الحجر الأسود والركن اليماني﴾

يُشترط أن يبتديء الحاج الطواف بالحجر الأسود ، وعليه أن يحاذيه بجميع بدنه، ويستحب أن يستلمه ـ أي يمسحه بيده، ويقبّله، فإن لم يمكنه تقبيله استلمه وقبلّ يده،وإن

كان في يده شيء كالعصا مثلاً، فيمكن أن يستلم الحجر به، فإن لم يمكنه استلامه وتقبيله، قام بحذائه واستقبله بوجهه فكبّر وهلّل، ويقول عند استلامه: باسم الله، والله أكبر، إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتّباعاً لسُنّة نبيّك محمد ﷺ». ولا يستحب للمرأة مزاحمة الرجال لاستلام الحجر الأسود، وإنما تشير بيدها إليه. ويستلم الحاج الركنين الأسود واليماني في كل طوافه، ولا يستلم من الأركان غيرهما، وعليه أن يكبّر كلما أتى الحجر أو حاذاه، ويدعو بين الركنين اليماني والأسود. والنبيّ ﷺ استلم الركن، من الاستلام أي التحية، وكان الصحابة إذا استلموا الحجر الأسود قبلّوا أيديهم، وإن لم يستلموه بأيديهم أومأوا إليه بعصيّهم حتى يصيبوه. وقيل: كانوا يستلمون كل الأركان فليس شيء من البيت مهجوراً. وفي البيت أربعة أركان، الأول: على قواعد إبراهيم وفيه الحجر الأسود؛ والثاني: على قواعد إبراهيم؛ والثالث والرابع ليس فيهما شيء من ذلك، ولذلك يُقبَّل الأول، ويُستلم الثاني، ولايقبّل الآخران ولا يستلمان.

•••

٢١٢٥. «الرسول ﷺ قبل الحجر الأسود»

تقبيل الحجر الأسود للحاج سنّة، والصحابة قبّلوه لمّا قبّله النبيّ ﷺ واستلمه، وقال ابن عمر: أنه رأى النبيّ ﷺ قد وضع شفتيه عليه طويلاً، ولم ير ابن عمر أن الزحام عذرٌ لترك الاستلام، وكان يزاحم على الركن حتى يدمي، وكان يقول: هوت الأفئدة إليه، فأريد أن يكون فؤادي معهم، وفي رواية أن النبيّ ﷺ طاف بالبيت على بعير، فكلما أتى على الركن أشار إليه وكبّر، ولم يطف سبوعاً قط (أي سبعة أشواط) إلا صلى ركعتين. ولمّا استلم عمر بن الخطاب الركن قال: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله عليه السلام استلمك ما استلمتك»، وقال ذلك مخافة أن يقال أنه أثر من آثار عبادة الأصنام لم يتخلص منه الإسلام، كما قالوا ذلك أيضاً عن الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والحجّ عموماً، مع أن ذلك كله إحياء للماضي، ولديانة إبراهيم، وربطها بالحاضر. والحجر الأسود: يربط بين السماء والأرض، وبين الزمن الدنيوي والزمن الأخروي. وعناصر الحجر الأسود فيها من عناصر النجوم، وقد أقسم الله بالنجوم ومواقعها، وتسخيرها، وانكدارها وطمسها، وسجودها، وأقسم بالنجم الثاقب، وجميع ذلك من آياته الكبرى، وأصل الحجر الأسود من النجوم، وتقبيله إقرار بعظمة الله تعالى، ثم إن تقبيل الحجر اختبار لطاعة العباد كاختبار طاعة إبليس بالسجود لآدم، فبالعقل لا فائدة من هذا السجود، وكذلك لا فائدة من تقبيل الحجر الأسود، وإنما هو مظهر من مظاهر الإيمان: فإنهما ـ أي السجود لآدم، وتقبيل الحجر ـ من الطاعات، والطاعات الحُكم فيها ليس للعقل. وكل ما ورد قديماً من نقد للحج وشعائره، وأنه من بقايا الوثنية، هو نفسه ما يردده المستشرقون، سواء منهم اليهود والنصارى، أو مَن يقال عنهم مسلمون

علمانيون، أو عرب أو مسلمون مستشرقون. والسؤال الذى يطرح نفسه هو: لِمَ لم يُقَل إن **تابوت العهد** أثر من عبادة اليهود للأوثان؟ وتقبيل **الصليب** أثر ثان من عبادة الأوثان؟ والجواب: أن العنصرية والانحياز هما شيمة هؤلاء اليهود والنصارى. والنبيّ ﷺ فيما فعل كان يلتزم آثار ديانة إبراهيم، ويتّبعها، وتقبيل الحجر من ذلك، ومثله **شُرب ماء زمزم**، وهو أيضًا اتّباعٌ، **والتواصل بين الأديان** هو أصل من أصول الإسلام، كقوله تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾**(البقرة ٢٨٥)، وقوله: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾**(البقرة). والحمد لله ربّ العالمين!.

•••

٢١٢٦. ﴿السعي بين الصفا والمروة﴾

السعي ركن، وقيل سُنّة، وقيل واجب. والسعي يتبع الطواف، ولا تستحب الموالاة بين السعي والطواف، ويؤخّر الحاج السعي إلى أن يستريح، فإذا طاف وصلّى ركعتين، واستلم الحجر الأسود، عندئذيستحب له أن يخرج إلى الصفا، فيرقى عليها، ويستقبلها، ويكبّر الله ويهلله، ويدعو ما يحب، ثم يسعى إلى المروة، ولا يُسَنّ للمرأة أن ترقى حتى لا تزاحم الرجال، فإذا انحدر من الصفا مشى إلى أن يحاذى العَلَم، فإذا كان بالقرب منه سَعَى سعياً شديداً حتى يحاذى العَلَم الآخر، ثم يترك السعي ويمشى حتى يأتى المروة، فيستقبل القِبْلة ويدعو، ثم يكرر ذلك فى كل شوط، حتى يُكمل **سبعة أشواط، والذهاب شوط، والرجوع شوط**. وسعى النساء مشىٌ كله.

•••

٢١٢٧. ﴿الصفا والمروة من شعائر الله﴾

الطواف بالصفا والمروة من شعائر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسك المسلمون عنهما، فأنزل الله: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾** (البقرة) فجعل الطواف بهما تطوّعاً، إلا أن الرسول ﷺ طاف بهما، وكذلك طاف المسلمون، وقالت عائشة فى الآية: **لو كان الأمر تطوعاً لكانت الآية بشكل مختلف، هكذا: «فلا جناح عليه ألاّ يطوف بهما»**، يعنى كانت الآية **تنهى** عن الطواف بهما، ولكن الآية كما هى: **﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾** تنفى أن يكون على المطوّف إثم كما ظن أهل الجاهلية. وقالت عائشة: وقد سنّ الرسول ﷺ **الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما**.

والصفا : فى اللغة هو الحجر الأملس، وهو جبل بمكة؛ وكذلك المروة. وقيل سمى الصفا، لأن آدم المصطفى وقف عليه، ووقفت حواء على المروة، فسُمّى جبل المروة باسم امرأة وأُنّث. وقيل: كان على الصفا صنمٌ يقال له إسافٌ، وعلى المروة صنم يدعى نائلة. وما كان من كراهية عند المسلمين الأوائل للطواف بينهما إنما لهذا السبب، فلما نزلت الآية رُفع الحرج. وقيل : إن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة، وزنيا بالكعبة، فمسخهما الله حجرين، ووضعهما العرب على الصفا والمروة، ثم نزل القرآن يجعلهما من شعائر الله، أى من معالم الحج، ومواضع العبادة فيه! والشعائر جمع شعيرة، وهى المتعبِّدات التى جعلها الله أعلاماً للحج، كالمواقف، والسعى، والنّحر. والحج فى اللغة: هو القصد، والعُمرة: هى الزيارة. والسعى بين الصفا والمروة إذن من أركان الحج والعمرة. وفى الحديث : «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى» أخرجه الدارقطنى، ولايكون السعى إلا متصلاً بالطواف، سواء كان فى حجّ أو فى عمرة، وهو ما أورثتنا إياه أمّنا: أم إسماعيل.

•••

٢١٢٨.﴿الشرب من زمزم﴾

يستحب أن يأتى الحاج زمزم فيكثر الشرب من مائه على نية ما يحب، ويقول: «بسم الله، اللهم اجعلها لنا علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، ورياً وشبعاً، وشفاء من كل داء، واغسل به قلبى واملأه من حكمتك». ولابأس بالشرب فى الطواف. ولا يُكره الوضوء والغسل بماء زمزم على الصحيح. والاسم زمزم من زمّ الماء أى اجتمع وتدفق، ويقال: زمّ القربة أى ملأها ماءً. والزمزم الماء المجتمع، ويقال للماء زمزم إذا كان بين الملح والعذب، وهو صفة ماء بئر زمزم. وكما قلنا: فالشُّرب من زمزم ليس مجلبة لنفع وإنما هو اتّباع للنبىّ ﷺ، وتواصُلٌ بالديانات، وإحياءٌ لملّة إبراهيم.

•••

٢١٢٩.﴿الخروج إلى مِنَى﴾

المستحب خروج الحاج مُحرِماً من مكة يوم التروية فيصلى الظهر بمنى، ثم يقيم حتى يصلى بها الصلوات الخمس ويبيت بها . فإذا صادف يوم التروية يوم جمعة فلا يخرج من مكة حتى يصلى الجمعة.

٢١٣٠.﴿يوم التروية﴾

هو اليوم الثانى من ذى الحجة.

•••

٢١٣١. ﴿عرفات هى الحج﴾

عرفات علمٌ على مؤنث، وهو فى الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سُمّيت به

بقعة معينة، لأن الناس **يتعارفون بها**. **وفى** القرآن يأتى ذكر عرفات مرة واحدة: ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ**(١٩٨)﴾ (البقرة)، والخطاب للجمع، لأن الناس كانوا يجتمعون بعرفات يوم عرفة، وقد أتوا من أماكن بعيدة وبعد مشقة أسفار، **فيتعارفون** وهم الأغراب، فسمى يوم اجتماعهم «**عرفة**»، وسُمّى الموضع «**عرفات**». والصحيح أن الاسم مرتجل من زمن الجاهلية؛ وعند المسلمين عرفات من **العُرْف** وهو الطيب (بكسر الطاء)، كقوله تعالى: ﴿**عَرَّفَهَا لَهُمْ** (٦)﴾ (محمد) أى طيّبها، **فهى** مطيّبة، بخلاف منى التى فيها **الفُروث والدماء** (بقايا الذبح)، فذلك سبب تسميتها «**عرفات**»، وتسمية يوم الوقوف «**يوم عرفة**». وقيل: إن أصل الاسمين من **الصبر**، يقال **رجلٌ عارف** أى صابر خاشع، وفى المَثَل: **النَّفْس عَروف**، أى صبور، وما حَمَّلْتَها تتحمل، فسمى المكان بهذا الاسم لأن الناس فيه يخضعون ويتذللون ويصبرون على الدعاء والبلاء، ويحتملون الشدائد من أجل أن يقيموا الشعائر. والحج هو هذه **الإفاضة من عرفات**. يستوى فيها أن تفيض ليلاً أو نهاراً، وفى الحديث: «**من صلّى معنا** (أى مع المسلمين) **صلاة الغداة بجَمْع، وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد قضى تَفَثَهُ وتمّ حجه**» أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى، وفى الحديث: «**الحج عرفات**» ـ قالها ثلاثاً ـ «**فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك**». **والوقوف بعرفة** ركنٌ لايتم الحج إلا به، والمستحب أن يقف فيها عند **الصخرات وجبل الرحمة**. ويستقبل **القِبْلة**، كما يستحب أن **يغتسل** الحاج للوقوف. **ووقت الوقوف**: من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر، لأن النبىّ ﷺ وقف فى حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «**لتأخذوا عنى مناسككم**». وتكون **الإفاضة** على مهل، لأن فى استعجال السير إلى **المزدلفة** استعجال الصلاة بها، ولايُصلَّى المغرب تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة. والمستحب للحاج أن يخرج إلى الموقف من منى إذا طلعت الشمس يوم عرفة، وهو **اليوم التاسع من ذى الحجة**، فيقيم بنمرة ـ وهو اسم الموضع الذى عليه أنصاب الحرم بعرفات، وفيه الآن المسجد المعروف، وإن شاء يقيم بعرفة حتى تزول الشمس. وفى الحديث: «**عرفة كلها موقف**». وكانوا فى الماضى يفضلون الوقوف بها راكبين لا قائمين، ولابأس الآن أن يستريح مَنْ وقف قائماً، وقيل: الواقف أفضل من الراكب. ويستحب له يوم عرفة الإكثارمن ذكر **الله**، والدعاء بما يحب أو بالمأثور، كأن يقول: «**لا إله إلا الله وحده، لاشريك له، له المُلك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير**». ويجب عليه الوقوف إلى غروب الشمس. **ووقت الغروب** ـ كما سبق ـ من طلوع فجر يوم عرفة أو من الزوال، إلى طلوع الفجر يوم النحر. فمن **أدرك** عرفة فى شيء من هذا الوقت ـ وهو عاقل ـ فقد تمّ حجّه. وقيل: أول وقته تأكيداً **زوال الشمس** من يوم عرفة، ولو وقف بعرفة نهاراً وجب

عليه البقاء إلى الغروب، فإن خرج قبل الغروب ولم يعد حتى غربت الشمس فعليه دم وحجُّه صحيح، ومن لم يدرك جزءاً من النهار ولاجاء عرفة حتى غربت الشمس فحجُّه تام ولاشيء عليه. ومن لم يدرك الوقوف بعرفة حتى طلوع فجر ليلة النحر فات حجُّه بلا خلاف، ويتحلل بطواف وسعي وحَلْق على الصحيح، ويمضي في حجّه الفاسد، ويجعل إحرامه إحراماً بعمرة، ويلزمه القضاء في العام التالي سواء كان الفائت واجباً أم تطوعاً، ويلزمه هدى على الأصح، والهدى ما استيسر، وإن فات القارن الحج حلّ، ويلزمه هديان - هدْى للقران، وهَدْى للفوات.

والاجتماع في الأمصار في المساجد يوم عرفة، بغير عرفة، سُنّةٌ طيبة، ويخطب الإمام ويجتمع الناس إليه، وكان التابعون يشهدون المساجد يوم عرفة. وفي الحديث عن فضل هذا اليوم: «**صوم يوم عرفة يكفرّ السنة الماضية والباقية**». والصوم المقصود هو ما كان خارج عرفة، وأما في عرفة، فعن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ **أفطر بعرفة**، ويستحب للواقف بعرفة الفطر ليتقوّى على الدعاء، كما يستحب الدعاء في الأمصار يوم عرفة، فادعوا عباد الله للمسلمين لتزول عنهم هذه الغُمّة التي هي اضطهاد الغربيين للإسلام والمسلمين، وإرهاب الدولة الذي يمارسونه علينا، وفي الحديث: «**أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لاشريك له**».

●●●

٢١٣٢. ﴿يوم النفر﴾

أي يوم الانصراف من منى.

●●●

٢١٣٣. ﴿أيام منى﴾

هي **أيام التشريق الثلاثة** التي تلي **يوم النحر**. وسميت منَى أو مُنَى بهذا الاسم لما يُمنَى فيها من الدماء، أي يُراق. والمُنى جمع مُنية ومِنيـة وهي البُغية. وقيل: سُميت كذلك لأن جبريل قال لآدم فيها: تمنّ. قال: أتمنى الجنة، فسميت منى، والأصّح ما ذكرناه أولاً؛ وسميت «**جَمْعاً**» لأنه اجتمع بها **حواء وآدم** عليهما السلام، والأصح لأن الحجيج يكون اجتماعهم فيها. والجمع أيضاً هو **المزدلفة**، وهو **المَشْعَر الحرام**.

●●●

٢١٣٤. ﴿المزدلفة يزدلف فيها الحجاج إلى الله تعالى﴾

المزدلفة: هي الجَمْع لأنه فيها يُجمَع المغرب إلى العشاء في الصلاة، ولاصلاة في المزدلفة قبل أن يغيب الشفق، لقوله ﷺ: «**الصلاة أمامك**»، ثم صلاّها بالمزدلفة بعد

مغيب الشفق. وهى المزدلفة : لأن المسلمين فيها منذ آدم يزدلفون إلى الله بالصلاة، أى يتقرّبون. والثابت أن الرسول ﷺ صلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين. وقيل يُصليان بأذانين وإقامتين، وكذلك الظهر والعصر بعرفة، والصحيح أن الرسول ﷺ سنّ فى الصلاتين بالمزدلفة أن الوقت لهما جميعاً وقتٌ واحد، فتصلى الأولى بأذان وإقامة، وتصلى الثانية بلا أذان ولا إقامة، وإنما أمر عمر بالتأذين الثانى لأن الناس تفرّقوا لعشائهم فأذّن ليجمعهم، وإذا أذّن أقام. وقال ابن عمر. جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بَجَمْع، وصلى المغرب ثلاثاً، والعشاء ركعتين بإقامة واحدة. والأقوال مختلفة فى ذلك. وليس المبيت فى المزدلفة ركناً من الحج، غير أنه سُنّة مؤكدة، وكذلك الوقوف فيها . والمستحب للحاج أن يقف بعرفة حتى يدفع الإمام، ثم يسير نحو المزدلفة فى سكينة ووقار، ويكبّر فى الطريق، ويذكر الله ويُلبىّ. ومن بات بالمزدلفة لم يَجُز له الدفع قبل نصف الليل، فإن دفع بعده فلا شىء عليه، والمستحب له المبيت إلى أن يُصبح، فإذا كان الصبح دفع، ويستحب تقديم الضَعَفة والنساء، ثم يسير بسكينة إلى منى قبل طلوع الشمس، ثم يسرع عند وادى محسر، ويلبّى فى الطريق، ولايقف حتى يأتى منى - وهى بين وادى محسر وجمرة العقبة.

●●●

٢١٣٥. ﴿المشعر الحرام هو المزدلفة﴾

المَشْعَر الحرام من مصطلحات الحج، وهو الجَمْع، لأنه فيه يجُمع المغرب والعشاء، وهو المزدلفة أيضًا لأن آدم ازدلف فيه إلى الله، وكذلك يفعل المؤمنون ، يعنى يتقرّبون بالوقوف فى هذا المكان. والمَشْعَر من الشّعار وهو العلامة، فهو معلمٌ للحج والصلاة والمبيت به، والدعاء عنده، وكلها من شعائر الحج، ووُصف بالحرام لحُرمته.

●●●

٢١٣٦. ﴿حصى الجمار﴾

يُستحب للحاج أن يجمع حَصَى الجمار من طريقه إلى مِنَى، أو من المزدلفة، ويجزئ أخذها من أى مكان شاء، والتقاط الحَصَى أوْلى من تكسيره،والمستحب أن تكون الحصاة صغيرة تُمسك بطرفىّ الإبهام والسبابة، وقيل الحَصَى أكبر من الحُمّص ودون البندق. والجِمار أو حَصَى الجمار: هو الحَصَى التى يرمى بها الحجّاج فى مناسك الحج. وعدد الحصى سبعون حصاة، يرمى منها سبعاً يوم النحر، وسائرهن فى أيام منى.

●●●

٢١٣٧. ﴿رمْى جمْرة العقبة﴾

يرمى الحاج جمرة العقبة بسبع حَصَيات يكبّر مع كل حصاة، ويدعو: «اللهم اجعله

حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وعملاً مشكوراً». ويستبطن الوادى، ويستقبل القبلة، ثم ينصرف ولايقف، ولايجزئه الرمى إلا أن تقع الحصاة التى رماها فى المرمى، ولايجزئه أن يرمى الحصيات كلها مرة واحدة. ويكون الرمى فى وقت فضيلة بعد طلوع الشمس، أو وقت جواز، وأوله منتصف الليل من ليلة النحر، وإنْ أخّر الرمى إلى آخر النهار جاز، وإنْ أخّره إلى الليل لم يرمها حتى تزول الشمس من الغد، ولا تلبية عند رمى أول حصاة من جمرة العقبة.

وجَمْرة العقبة: هى الجمرة الكبرى، وليست من منى، بل هى حدّ منى من جهة مكة، وهى التى بايع النبىّ ﷺ الأنصار عندها على الهجرة. والجمرة: اسمٌ لمجتمع الحَصَى، وسميت بذلك لاجتماع الناس بها، ويقال تجمّر بنو فلان إذا اجتمعوا، وتسمى العرب الحَصَى الصغير جماراً. وقيل: إن آدم أو إبراهيم لمّا التقى إبليس حَصَبه، فَجَمَر إبليس - أى أسرع، فسُمّى الحصى جماراً لأنه تسبب فى إسراعه.



٢١٣٨. ﴿رمى الجمرات أيام التشريق﴾

تُرمَى الجمرة الأولى فى اليوم الأول من أيام التشريق بعد زوال الشمس. والجمرة الأولى: أبعدُ الجمرات عن مكة، وتلى مسجد الخيف، فيجعلها عن يساره ويستقبل القبلة ويرميها بسبع حصيات ويرفع يديه ويدعو. ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى فيفعل نفس الشيء، إلا أنه يجعلها عن يمينه، ثم يرمى جمرة العقبة كذلك، ويستبطن الوادى، ويستقبل القبلة، ثم يسير ولا يقف، ويفعل نفس الشيء فى اليوم الثانى، فإن أحب التعجيل بالرمىَ فى يومين فله ذلك على أن يخرج من منى قبل الغروب. فإن غربت الشمس قبل خروجه من منى لم يُجز له الخروج حتى يرمى فى اليوم التالى بعد الزوال كما رمَى بالأمس. والترتيب فى الرمى واجب .ووقت الرمى أيام التشريق بعد الزوال، فإن رمَى قبل الزوال أعاد، وآخر وقت الرمى هو آخر أيام التشريق، فإن مضى الوقت ولم يرم فعليه فدية. وإن ترك الرمى أو واحدة منها من غير عذر فعليه دم، والأولى ألا ينقص فى الرمى عن سبع حصيات . ويترك السنّة مَن يؤخّر الرمى، وعليه أن يرمى اليوم الأول، ثم الثانى ثم الثالث، ومن كان لديه عذر جاز أن يستنيب من يرمى عنه.



٢١٣٩. ﴿أيام التشريق والأيام المعدودات وحكم الجمار﴾

الأيام المعدودات فى الآية: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ (٢٠٣)﴾ (البقرة) للقليل والكثير، وتقال لأيام

منَى من أيام الحَجّ، وهى «**أيام التشريق**»، و«**أيام رمى الجمار**»، وهى أيام ثلاثة يَتعجّل الحاج منها فى يومـين بعد «**يوم النحر**». وقيل: «**الأيام المعدودات**» هى **أيام التشريق**، بينما «**الأيام المعلومات**» (الحج ٢٨) : هى «**الأيام العشر**» (البقرة ١٩٦). وفى الحديث :«**أيام التشريق أيام أكل وشُرب وذِكر لله**»، يعنى لاصيام فيها. وعن **عائشة** قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم **أيام التشريق**، قيل: هى **ثلاثة: يوم النحر، ويومـان بعده**، يذبح الحاج فى أيهن يشاء، وأفضلها أولها، والأصح ما دلّ عليه ظاهر الآية وهو **ثلاثة أيام** بعد النحر، وفى أيها يمكن التضحيـة. ووقت الذكْر فيها **من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق** وهو آخر النَّفْر الآخر. وفى الحديث: «**الحج عرفة، فمن جاء ليلة جمع** (وهى المزدلفة) **قبل طلوع الفجر، فقد أدرك أيام منى ثلاثة، فمن تعجّل فلا إثم عليه**»، أخرجه الترمذى، أى مَن تعجَل من يومين من أيام منى صار مُقامه بمنى **ثلاثة أيام بيوم النحر**، ويصير جميع رميه **بتسع وأربعين حصاة**، ويسقط عنه رمى **اليوم الثالث**، ومن لم ينفر من منى إلا فى آخر اليوم الثالث حصل له بمنى مقام **أربعة أيام** بما فيها يوم النحر، واستوفى العدد من الرمى. **وأيام الرمى على ذلك هى الأيام المعدودات**، وأما **الأيام المعلومات فهى أيام النحر**. وقيل إن **الأيام المعدودات والمعلومات يجمعها** أربعة أيام، هى: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم ولكنه غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود وليس معلوماً. وقيل: **إن النحر** فى اليوم الأول وهو **الأضحى**، وفى الثانى والثالث، وليس فى الرابع نحر، فكأن الرابع لايدخل فى الأيام المعلومات، لأنه لا يُنحر فيه وإنما يُرمى فيه، فصار معدوداً لأجل الرمى، وغير معلوم لعدم النحر فيه: والإجماع على أن **وقت رمى الجمرات** فى أيام التشريق يوم النحر بعد الزوال إلى الغروب. فإذا مضت **أيام الرمى فلا رمى**. وقيل **وقت الرمى** من طلوع الشمس إلى زوالها. ولاتكون **البيتوته** بمكة أو بغيرها أيام التشريق إلا فى منى، إلا لمن يؤدون الخدمات، ومَن ترك المبيت ليلة من ليالى منى من غير هؤلاء **فعليه الفدية**. وأيام التشريق أيام رمى كلها، ويرمون يوم النحر - يعنى **جمرة العقبة**، ثم لايرمون من الغد، وهو الثانى من أيام التشريق الذى يتعجّل فيه النفرمن يسريد التعجيل أو من يجوز له التعـجيل كقوله: ﴿**فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**(٢٠٣)﴾ (البقرة)، فيرمى اليـومين لذلك اليوم ولليوم الذى قبله، لأنه يقضى ما كان عليه. وثبت أن رسول الله ﷺ رمى **جمرة العقبة** يوم النحر على راحلته. ويرمى الحاج فى كل يوم من الثلاثة **إحدى وعشرين حصاة**، ويكبّر مع كل حصاة، ويوجه وجهه فى حال الرمى إلى الكعبة، ويرتب الجمرات، ويبدأ **بالجمرة الأولى** فيرميها **بسبع حَصَيات**، واحدة واحدة، فإذا فرغ منها تقدّم أمامها فوقف يدعو، ثم يرمى **الثانية - وهى الوسطى** -

وينصرف عنها ذات الشمال ويدعو، ثم يرمى الثالثة من أسفلها ولايقف عندها، ويكبّر فى ذلك كله مع كل حصاة يرميها ، وسُنّة الذكر فى رمى الجِمار: التكبير،ويرميها ماشياً بخلاف جمرة يوم النحر. وكان رسول الله ﷺ إذا رمى الجمرة الأولى يرميها بسبع حصيات، يكبّر كلما رمى بحصاة، ثم يتقدم أمامها فيقف مستقبلاً القبلة، رافعاً يديه بالدعاء، وكان يطيل الوقوف، ثم يأتى الجمرة الثانية فيرميها بسبع حصيات، يكبّر كلما رمى حصاة، ثم ينحدر ذات اليسار فيقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه ثم يدعو. ثم يأتى الجمرة التى عند العقبة فيرميها بسبع حصيات، يكبّر كلما رمى بحصاة، ثم ينصرف ولايقف عندها. وحُكم الجِمار أن تكون طاهرة غير نجسة ولا مما رُمى به، وتؤخذ استحباباً من المزدلفة من حَصَى المسجد، ولا يُغسل، ولايجزئ فى الجمار غير الحَجَر أو الطين اليابس، وكل شىء من الأرض فهو يجزئ. والحصى أصغر من الأنملة طولاً وعرضاً، ويجوز الرمى بأى حجم طالما اسمه حصاة، والغلو فى الدين منهىٌ عنه. ويُرمَى عن المريض والصبى اللذين لايطيقان الرمى. ومن أراد من النفر الأول الخروج من منى شاخصاً، إلى بلده، خارجاً عن الحرم، أن ينفر بعد زوال الشمس إذا رمى فى اليوم الذى يلى يوم النحر قبل أن يمسى، فلينفر فى النهار ولا إثم عليه.



٢١٤٠. ﴿الأيام المعلومات فى الحج﴾

الأيام المعلومات فى قوله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ (٢٨) ﴾ (الحج)، هى الأيام العشر من أول من ذى الحجة، وآخرها يوم النحر. وفى الحديث: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحبّ إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد». والمراد بالتكبير الحُجّاج وغيرهم وخصوصاً فى أوقات الصلوات، فيكبّر عند انقضاء كل صلاة، سواء كان المصلى وحده أو فى جماعة، تكبيراً ظاهراً فى هذه الأيام، ويكبّر النساء كذلك دُبُر كل صلاة، وصيغة التكبير: «لا إله إلا الله، والله أكبر، ولله الحمد». وقيل هى: «الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد». وكان رسول الله يصوم الأيام المعلومات، ومنها: يوم عرفة فكان يصومه فى غير عرفة، ويوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر. وقيل إن الأيام المعلومات هى أفضل أيام السنة. وأما الليالى العشر فهى الأيام العشرة الأخيرة من رمضان التى يكون فيها الاعتكاف، ومنها ليلة القدر التى هى خيرٌ من الف شهر. وفضل الأيام العشر أن فيها الحج، وفضل الليالى العشر أن فيها رمضان شهر الصوم. و عن ابن عمر: الأيام المعلومات هى يوم النحر ويومان بعده - يعنى هى ثلاثة أيام. وعن ابن عباس: هى يوم النحر - وثلاثة أيام بعده - يعنى هى أربعة أيام. وقيل: الأيام المعلومات: عشر ذى الحجة وأيام التشريق - يعنى اليوم الثانى والثالث

والرابع من أيام عيد الأضحى، فأما اليوم الأول فهو يوم النحر. وسميت أيام التشريق: لأن الناس فيها يشرقون لحوم الأضاحى شرائح يجففونها.

•••

٢١٤١. ﴿الليالي العشر هي أيام الحج﴾

قيل **الأيام العشر**: من أول يوم ذى الحجة إلى عشرة منه وهو يوم النحر، وهى أيام **الحج** المشار إليها بالأيام **المعلومات** كقوله تعالى: ﴿**وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ**(٢٨)﴾(الحج)، وأما **الليالى العشر** فى الآية: ﴿**وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)**﴾(الفجر) فالمقصود بها **ليالى رمضان العشر الأخيرة** التى فيها **الاعتكاف**، ومنها ليلة القدر خير من ألف شهر. وقيل أيضاً إن الليالى العشر هى **ليالى ذى الحج** من أوله إلى اليوم **العاشر** وفيه النحر؛ وقيل هى **الأضحى**، لأن ليلة النحر داخلة فيها؛ وقيل **هى العشر** التى ذكرها **الله** فى قصة موسى: ﴿ **وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ**(١٤٢)﴾(الاعراف)؛ وقيل هى **العشر الأولى من المحرّم**؛ وقيل **إنها عشر ذى الحجة** لأنه تعالى فى الآية قبلها اقسم **بالفجر**، وهو فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالى العشر، ويقصد بالفجر صلاة الفجر، وأقسم لذلك بعدها **بالشفع والوتر، والوتر** يوم عرفة لكونه التاسع، **والشفع** يوم النحر أو ليلة الأضحى لكونه العاشر.

•••

٢١٤٢. ﴿الحج الأكبر والحج الأصغر﴾

يأتى هذا المصطلح ـ الحجّ **الأكبر** ـ مرة واحدة فى الآية: ﴿**وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ**(٣)﴾(التوبة)؛ وقيل هو **يوم عرفة**، وفى الحديث: «**يوم الحج هو يوم عرفة**»، وقيل هى **أيام منى** كلها؛ وقيل: **يوم الحج الأكبر يوم النحر**، فقد سأل النبىّ ﷺ: «**أى يوم هذا**»؟ فقالوا: يوم النحر. فقال: «**هذا يوم الحج الأكبر**» أخرجه أبو داود والبخارى. وقيل إنه «**الأكبر**» من أجل قول الناس: «**الحج الأصغر**»، وفيه ـ أى فى يوم الحج الأكبر ـ يهراق الدم، ويوضع الشّعْر، ويُلقى فيه التَّفَث(أى الوسخ)، وتحلّ فيه الحُرُم، وفى هذا اليوم ـ **يوم النحر** ـ الحج كله، لأن: الوقوف فى ليلته، والرمى، والنحر، والحلق؛ **والطواف** فى صبيحته. وقيل **الحج الأكبر**: الذى فيه الوقوف بعرفة، **والحج الأصغر**: هو العمرة. وقيل إنما هذا اليوم من السنة قبل حجة الوداع، أذنَ فيه للمشركين لآخر مرة أن يطوفوا بالبيت عراة، وسُمّى يوم **الحج الأكبر**، لأن المسلمين والمشركين حجّوا فيه معاً، وفيه اتفقت يومئذ أعياد الملل: **اليهود، والنصارى، والمجوس، والمسلمين**؛ وقيل: إنه **الأكبر** لأنه نبذت فيه العهود مع المشركين والكفّار؛ وقيل: سُمّى **الأكبر** لأنه كان فى العام الذى حجّ فيه النبىّ ﷺ **حجة الوداع**، وحجّت معه فيه الأمم.

•••

٢١٤٣. ﴿الهدى ومايجوز منه ومتى ينحره﴾

الهَدْى: ما يُهدَى من بهيمة الأنعام، وأفضلها الإبل، ثم البقر، ثم الغنم، والضأن أفضل من المعز، والشاة الواحدة أفضل من اشتراكه مع غيره فى بُدنة بسُبعها، والذكَر والأنثى فى الهدى سواء. ويحصل الإيجاب للهدى بقول المُهدى: «هذا هدْيى»، أو تقليده ناوياً به الهدى، ويُسَنّ تقليد الهدى بأن يجعل فى أعناقها النعال أو أى علّاقة. والسُّنّة إشعار الإبل والبقر، أى أن يشق صفحة السنام الأيمن للإبل حتى يدميها، ولايسن إشعار الغنم. ويُنحر الهدى متى فرغ الحاج من رمى جمرة العقبة يوم النحر، والسُّنّة النحر بمنى، ويُجزئه حيث نحر من الحرم، ويُستحب للمهدى أن يشهد النحر، ويجوز أن يشترك السبعة فى البَدَنة والبقرة. وإن عجز المتمتع عن الهدى يصوم ثلاثة أيام فى الحج بعد إحرامه آخرها يوم عرفه، وسبعة إذا رجع إلى بلده، وله أن يصوم العشرة أيام جميعها بين أهله وفى بلده.

●●●

٢١٤٤. ﴿الفداء والفدية﴾

من فَدَى، تقول: فدى الرجل من الأسر، أى استنقذه بمال أو سواه، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ (٨٥)﴾(البقرة)، يعنى تقبلون الفدية فى الأسرى، والفدية: هى ما يُعطى عوض المَفْدى. والفدية والفداء والفَدَى بمعنى واحد؛ وفاديتُ نفسى إذا أطلقتها بعد أن دفعتُ شيئاً كقولَه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ (١٨)﴾(الرعد)، ومنه قول العباس للنبىّ ﷺ: فاديت نفسى وفديتُ عقيلاً؛ والعرب تقول: جُعلتُ فداك. ومَن نَذَر ذبح ابنه يفديه بكبش كما فدّى إبراهيم ابنه، كقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾(الصافات)، وقيل: ينحر مائه من الإبل كما فدىّ عبدالمطلب ابنه! وفى الأحوال الشخصية يقال: فَدت المرأة نفسها من زوجها: أى أعطته مالاً حتى تخلصت منه بالطلاق، كقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ (٢٢٩)﴾(البقرة)، وفى الآية جواز أن يخلع الزوج زوجته نظير أن تعطيه ما انفقه عليها، وقيل: يجوز أن تفتدى منه بما يتراضيان عليه سواء كان أقل مما أعطاها أو أكثر منه، وكان الناس فيه لايأخذون من النساء أكثر مما يعطونهن، وقد رفض النبىّ ﷺ الزيادة فقال: «أما الزيادة فلا ولكن حديقته»، والحديقة هى ما دفعه لها فافتدت بها المرأة نفسها، وقيل: الفداء فى العينى لا فى المال. وقد تكون الفدية الطعام عن الإفطار فى رمضان، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ (١٨٤)﴾(البقرة)، والآية نزلت رخصة للشيوخ والعجزة خاصة، والمرضى والحوامل والمرضعات، إذا أفطروا لعدم قدرتهم على الصوم، ولقدرتهم على أن يطعموا إذا أفطروا، أن يطعم كل منهم عن نفسه مسكيناً عن كل يوم.

والفداء في الحج كقوله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** (١٩٦) ﴾(البقرة) وذلك لمن أراد أن يحلق، فلا يفتدى حتى يحلق، وشعر الرأس وغيره فى وجوب الفدية سواء، وإذا حلق المحرم رأسه ثم حلقه ثانية فعليه فدية واحدة؛ وجعل رسول الله ﷺ **فدية الأذى**: أن يفدّى ستة مساكين ويعشيّهم، أو يهدى شاة أو يصوم **ثلاثة** أيام. **والنسك** هى الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى. **وقصّ المُحرم أظفاره** كالحلق، فيه الفدية عن كل ظفر، والمرأة إذا لبست القفاز. والفدية فى **الحج الفاسد بالجماع حال الإحرام** بَدنَة ـ أى ناقة أو بقرة مُسمّنة، على كل من الواطىء والموطوءة. والدم **فدية لبس المخيط** عامداً، والقميص يستديم لبسه، والمنطقة، والقباء، وكذلك الذى **يتطيّبَ** ثم ينزع ثوبه ثم يلبسه. ولايتقيد صيام الفدية بالحرم. وجزاء ما كان من الصيد ولو كان طيراً، نظيره من المال يفديه به، وإذا أتلف جزءاً من الصيد وجب ضمانه، وحتى بيض الصيد وفراخه يُفتدى. ولا فدية على قتل الحيوان المؤذى والأهلى.

•••

٢١٤٥. ﴿أعمال النحر﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** (٢٨) ﴾(الحج)، أن ذكر اسم الله هو التسمية عند الذبح والنحر، كقولك: ﴿ **إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) ﴾ (الأنعام)، فكل ما نؤدّيه كعبادة، لله وباسم الله. وفى الجاهلية كان الناس يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيّنت الآية أن الذبح لايكون إلا على اسم الله، لأنه الذى يرزق بهيمة الأنعام. **ووقت الذبح** هو انصراف الإمام، وفى عهد النبىّ ﷺ لم يكن يُنحر إلا بعد نحر النبىّ ﷺ، وفى الحديث: من ذبح بعد الصلاة فقد **تمّ نُسكه وأصاب سُنة المسلمين**» أخرجه مسلم. **وأيام النحر** ثلاثة أو أربعة: يوم النحر ويومان بعده، أو ثلاثة أيام بعده. ويوم النحر هو العاشرمن ذى الحجة. والنحر فى **الأمصار** يوم واحد، وفى منى ثلاثة أيام. **والأيام المعلومات** هى هذه الأيام الثلاثة. ويوم النحر لا يُرمى فيه غير جمرة العقبة، لأن رسول الله ﷺ لم يرمِ من الجمرات غيرها يوم النحر. **وأعمال يوم النحر أربعة أعمال**: **الرمى**، ثم النحر، ثم الحلق، ثم الطواف. والسُّنّة ترتيبها هكذا، وإن أخلّ الحاج بالترتيب فلا شىء عليه.

•••

٢١٤٦. ﴿الأضحية وتوزيع لحمها﴾

المرخّص بذبحه فى الحج هى الأنعام كقوله تعالى: ﴿ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** (٢٨) ﴾(الحج)، وهى: **الإبل، والبقر، والغنم**. ويستحب لمن يذبح أن يقوم بذلك بنفسه، وأن يأكل من هَدْيه وأضحيته، ويدّخر منها ويتصدّق بالأكثر، وفى

الحديث: «فكلوا وادّخروا وتصدّقوا»، والأكل فى الذبائح لا يحلّ فى أربع: الكفّارات، والصيد، والنذر، وفدية الأذى. وفي الجاهلية كانوا يحرّمون الأكل من لحوم الضحايا؛ وفى الإسلام أمرنا بالأكل منها: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ﴾ (الحج ٢٨)، وفى الحديث: «مَن ضحّى فليأكل من أضحيته». ويستحب التصدّق بالثلث، وإطعام الثلث، وإهداء الأهل من الثلث؛ وقيل يأكل النصف ويدّخر منه، ويتصدّق بالنصف، لقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾(الحج)، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴿٣٦﴾﴾(الحج) والفقير يوصف بالبؤس من شدّة الفقر؛ والقانع هو السائل، ويقنع يعنى يسأل؛ والمُعتر الذى يتعرض لمن يذبح يسأله منه، من اعتراه وعراه، يعنى يطيف بصاحب الأضحية وقد يسأله، وقد يظل ساكتاً. والسنّة فى النحر أن تُنحر الإبل قياماً مقيدة، وتُنحر البُدن قياماً، ولايعطى الجزّار أجره من الهَدْى، وقد يعطى من الهدى صدقة أو هدية أو زيادة على حق. ولايباع لحم الهدى ولا جلودها ولا جِلالها - أى كسوتها، ويتصدَّق بها.

•••

٢١٤٧. ﴿الْبُدْنَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾

البُدْن هى الإبل، ومفردها بَدَنة، مأخوذة من البدانة وهى الضخامة، وقيل البدانة فى الإبل والبقر، وقيل البقر لايقال عليها بُدْناً، وقيل البُدْن تُهدَى إلى الكعبة، والهدى فى الإبل والبقر والغنم، وفيها قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾(الحج). والخير فى البدن هو منافعها، ونحرها لايكون إلا على اسم الله؛ وصواف أى تُصَفّ قوائمها، والبعير إذا أرادوا نحره تُعقَل إحدى يديه، فإذا وجبت جنوبها، أى سقطت بعد نحرها، فعندئذ يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجر وامتثال، وأن يطعم القانع وهو السائل، والمُعتر الذى يطيف بالضحية ولايسأل.

•••

٢١٤٨. ﴿النحر عام الحديبية﴾

نحر المسلمون مع رسول الله ﷺ عام الحديبية سنة ست هجرية فى ذى القعدة: البَدَنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، واشتركوا معه ﷺ فى الحج والعمرة كل سبعة فى بدنة، ونحروا يومئذ سبعين بدنة، ونحر رسول الله ﷺ بدنةً، وحلَق رأسه. وقيل إن الذى حلق رأسه يومئذ خراشى بن أمية بن أبى العيص الخزاعى، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلّوا، ففعلوا بعد توقُّف أغضب رسول الله ﷺ، فقالت له أم سلمة: لو نحرتَ لنحروا، فنحر رسول الله ﷺ هديه، ونحروا بنحره، وحلق رأسه ودعا للمحلقين ثلاثاً، وللمقصّرين مرة.

٢١٤٩. ﴿نحر الهدى حيث حلّ صاحبه﴾

عن الهدى فى الآية: ﴿**حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ**﴿١٩٦﴾﴾ (البقرة) أن التحلل من الإحرام حتى يُنحَر الهــدى ـ وهذا فى أحوال السلم والظروف العادية؛ **والمحل**: الموضع الذى يحلّ فيه الذبح، فإذا كان هناك **حصر من العدو أو** من مرض يقعد بصاحبه، فالمحل حيث **موضع الحصر**، اقتــداءً برسول الله ﷺ زمن الحديبيــة، كقــوله تعالى: ﴿**وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**﴾(الفتح ٢٥)، **والمعكوف** هو المحبوس فى حالة الحصر، ممنوعاً من الوصول إلى البيت الحرام، وقوله: ﴿ **ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ﴿٣٣﴾ ﴾ (الحج)، والمخاطب بكل ذلك: الآمن الذى يجد الوصــول إلى البيت، بدليل أن الـنبىّ ﷺ لما أحُصِر وأصــحابه نحــر الهدى بالحديبية وليست من الحرم.

●●●

٢١٥٠. ﴿المنحر منى ومكة﴾

المَنحَر للحاج: مِنَى، **والمنحر للمعـتمر**: مكة، وإذا نحر الحاج بمكة، والمعـتمر بمنى لم يَحرَج واحد منهما ـ أى لم يأثم.

●●●

٢١٥١. ﴿الإحصار فى الحج﴾

الإحصار: هو المنع من الوجه الذى تقصده بالعوائق بأى عــذر كان، كأن يكون الحصر بالعدو، أو بـالمرض، أو بالفقر، أو بمـنع السفر إلى الحــج من حكومة جائــرة، وفى حالة العدو نقول **حُصر بالعدو** كما فى حــالة فلسطين ومَنْع اليهود للمــسلمين من الحج، وفى حالة المرض أو الفــقر نقول **أُحْصِر بالمرض** أو بالفقــر، ويصح أن نقول: **أحصــر بالعدو، وحُصر بالـفقر أو المرض**، والغالب أنه فى العدو نقول: **حُصر**، **وفى المرض أو الفقر** نقول أُحصر. والمُحصَر الذى نيــته الحج ولايستطيعه للأسـباب السابقة، فعليه الهــدى، كقوله: ﴿**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴿١٩٦﴾﴾ (البقرة)، ويحلّ المُحصَر حيث أُحصر، وينحر هديه فى مكانه إن كــان ثمّ هدى، ويحلق رأســه، أو يبعث بهــديه إن أمكن، وليس على الفقيــر هدى. وكل من مُنع من الوصول إلى البيت الحرام، سواء بعــدو يحاصر بلاده، أو بعدو يحــتل أرضه ويتحكم فــيه، أو بمرض يمنعه من الســفر، أو بالفقر يعــوقه عن الحج والوفاء بالتزاماته، أو يــكون قد فقد ماله فى بداية السفر، فــإنه يقف مكانه على إحرامه، ويبعث بثمن هديه إن كان معه مــال، وحينئذ يستطيع أن يحل فى وقت الحل، وأن يشترط فى تلبيته فيقول: **لبيك اللهم لبيك، ومحلى حيث حبستنى من الأرض**، كما قال النبىّ ﷺ **لضباعة بنت الزبـير بن عبد المطلب** بنت عمّ النبىّ، وكانت زوجة **للمقداد بن الأسود**، حين

أتته تقول: يارسول الله، إنى أردت الحج، أشترط؟ قال: «نعم». قالت: فكيف أقول؟قال: «قولي لبيك اللهم لبيك، ومحلي من الأرض حيث حبستني» أخرجه أبو داود والدارقطني وغيرهما. وهذه بشرى للفقراء والمرضى حيثما كانوا، فما عليهم إلا أن ينووا الحج لله ويتابعوا شعائره في وسائل الإعلام، ويلبوا مع الملبين وإنما حيث حبسهم الله، وهو تعالى ذو الفضل، وله الحمد والمنّة. وكانت ضباعة سمينة ولاتستطيع أن تسافر للحج، وجاءت إلى النبيّ ﷺ كما يقول ابن عباس وقالت له: إنى امرأة ثقيلة وإنى أريد أن أحج، فكيف تامرنى أن أهِل؟ قال: «أهلّي واشترطى أن محلي حيث حبستني». وعُذر ضباعة قائم ولن يتغير، وقول القائلين أنه يتوجب على من أحصر قضاء الحج أو العمرة، ولا قضاء فى مثل ذلك إلا إذا تغيرت الأحوال، كأن يجلو العدو، أو يُشفَى من المرض، أو تتغير أحواله المالية، فحينئذ يتوجب القضاء، وفى الحديث: «من عَرَج أو كُسر فقد حلّ وعليه حجة أخرى» أخرجه الدارقطني، فذلك شأن من يصاب بمرض مفاجىء أو حادث طارىء. وفى عام الحديبية حلّ النبيّ ﷺ والمسلمون حيث هم، ثم قضوا فى العام المقبل، ولذلك قيل لعمرة النبيّ ﷺ من العام التالى لعام الحديبية: «عمرة القضاء» أو «عمرة القضية»، وإنما لم يأمر النبيّ ﷺ أحداً من أصحابه أن يقضوا شيئاً، ولا حُفظ ذلك عنه، ولا قال فى العام المقبل: إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصرتُ فيها، ولم يُنقل ذلك عنه، والصحيح أن اسم «عمرة القضاء» أو «القضية» لم يكن لأنها تقضى عن العمرة السابقة التى لم تتم، وإنما لأن رسول الله ﷺ قاضى قريشاً وصالَحهُم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت على أن يقصده من قابل، فسميت بذلك عُمرة القضية».

والخلاصة: أن مَن أُحصر يحلّ بالنية ويفعل ما يتحلل به، ولا قضاءعليه، والله أعلم.

●●●

٢١٥٢. ﴿حلق الشعر والتقصير﴾

الحلق والتحليق والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك يغلب المذكر على المؤنث فى الآية: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾(الفتح). والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير. وفى الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبيّ ﷺ على المروة وهذا كان فى العُمرة لافى الحج، لأن النبيّ ﷺ حلق فى حجته.

●●●

٢١٥٣. ﴿الحلق بعد النحر﴾

لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴿١٩٦﴾ ﴾(البقرة)، فعلى المُحرم أن لايحلّ قبل أن ينحر هديه، وكذلك المحُصَر؛ والموسر ينحر، والمُعسر يُنحَر عنه؛ وأقل الهدى شاة؛ والمحُصَر بمرض أو بعدو يَنحر مكانه؛ وإن لم يجد هدياً فعليه الإطعام أو

الصيام، وإن لم يجد لا الهدى، ولا الإطعام، ولم يستطع الصيام، **فلا شيء عليه**؛ وليس عليه أن يحلق لأنه قد ذهب عنه النُسْك، فلمّا سقطت عنه بالإحصار جميع المناسك كالطواف والسعى، سقط عنه سائر ما يحل به المحرم من أجل أنه مُحصَر، وليس عليه تقصير ولا حلاق، وإن حلق فلا شيء أيضاً، **والحلق أفضل** لأنه من النسك الذى يقدر عليه، فإن لم يقدر عليه من مرض أو ضعف أو غيره فلا شيء. **والحلاق** أحسن من التقصير، لأن النبىّ ﷺ دعا ثلاثاً للمحلِّقين، ودعا مرة واحدة للمقصِّرين، وفي ذلك دليل على أن الحلق فى الحج والعمرة أفضل من التقصير، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ**(١٩٦)﴾ (البقرة) الآية، فلم يقل تقصّروا. ولا تدخل النساء فى الحلق، **والتقصير للنساء سُنَّة**، وفى الحديث: «**ليس على النساء حلق إنما عليهن التقصير**» أخرجه أبو داود. وتقصّر المرأة من كل ضفيرة مثل **الأنملة**، أو **ثلاثة أصابع مقبوضة**، أو **الثلث أو الربع**، والشابه خلاف القاعدة.

●●●

٢١٥٤. ﴿فماذا لو اضطر أن يحلق وهو فى الحل؟﴾

الحلاق بعد نحر الهدى، فمن يضطر أن يحلق أو يأتى بشيء من الحل قبل الهدى، فعليه فدية: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**(١٩٦)﴾ (البقرة)، ولما رأى النبىّ ﷺ **كعب بن عُجرة** وقد تفشىّ القمل فى رأسه أثناء الإحرام، وقمله يتساقط على وجهه، أمره أن يحلق وهو فى الحديبية قبل أن ينحر الهدى، وأنزل الله **الفدية**، فأمره أن يطعم **ستة مساكين**، أو يهدى **شاة**، أو يصوم **ثلاثة أيام**، والموجب للفدية الحلق للأذى والمرض. وفى الرواية أن النبىّ ﷺ قال لكعب: «**أحلق واهد هدياً**» فقال: ما أجد هدياً. قال: «**فأطعم ستة مساكين**»، فقال: ما أجد. قال: «**صُم ثلاثة أيام**». وظاهر الحديث الترتيب، أي الاختيار أولاً فأولاً، وأن المحرم ممنوع من حلق رأسه أو جزءه أو إتلافه بحلق أو نورة أو غير ذلك إلا فى حالة **العلّة**، **وعليه الفدية** حينئذ، **ومثل ذلك مَن لبس المخيط، أو غطى رأسه أو بعضه، أو لبس الخفّين، أو قلّم الأظافر، أو** مسّ **الطيب، أو حلق شعر جسده، أو اطّلى، أو حلق مواضع المحاجم**، والمرأة مثل الرجل، وعلى الرجل **الفدية**، وعلى المرأة مثل ذلك فى الحلق ـ وإن لم يكن فيه طيب، وعلى المرأة الفدية إذا غطّت وجهها أو لبست القفازين، وأكثر أهل العلم يساوون فى الفدية بين العامد والناسى، إلا الشافعى فلايجعل فدية على الناسى. وفى الحديث أن الناسى مُعفَى فلا شيء عليه. **والفدية** تكون فى أى مكان، وما يُذبح كفدية سمّاه القرآن **نُسُكاً** ولم يسمه **هدياً**، فلا يقاس على الهدى، ولايعتبر هدياً، ولما أمر النبىّ ﷺ **كعباً** بالفدية لم يكن بالحرم. **والنُّسُك**: جمع **نسيكة** وهى الذبيحة **يَنْسُكُها** العبد لله تعالى، ويُجمَع أيضاً على

نسائك. والنُّسك: العبادة فى الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿وأرِنا مناسِكَنا﴾(١٢٨)(البقرة) أى متعبّداتنا.

●●●

٢١٥٥. ﴿استحباب تقليم الأظافر﴾

مَنَ حلَق أو قصّر يُستحب له تقليم أظافره، والأخذ من شاربه.

●●●

٢١٥٦. ﴿طواف الزيارة﴾

طواف الزيارة من أركان الحج، **كطواف القدوم**، سوى أنه ينوى به طواف الزيارة، ويسمى أيضاً **طواف الإفاضة**، لأنه يأتى بعد الإفاضة من منى. ولا رَمْل فيه ولا اضطباع، ووقته المفضّل يوم النحر بعد الرمي والنحر والحلق، ووقته الجوازى منتصف ليلة النحر، ولا حدّ لآخره. **والمُفرِد أو القارن**،إذا رمى ونحر وحلق، أفاض من منى إلى مكة فطاف طواف الزيارة، ولايحل من إحرامه حتى يفعله. والمتمتّع يطوف بالبيت سبعاً، وهو **طواف القدوم** لأنه لم يطفه قبلاً، وإنما طاف وسعى للعمرة، ويسعى بين **الصفا والمروة** سبعاً كما فعل فى العمرة، ثم يعود فيطوف بالبيت طوافاً آخر ينوى به الزيارة.

●●●

٢١٥٧. ﴿خطبة الإمام ووصية النبىّ ﷺ إلى أمته﴾

خطبة منى يوم النحر، يُسَنّ أن تكون لتعليم الناس مناسكهم من النحر والإفاضة والرمى. **وخطبة اليوم الثانى من أيام التشريق**، يُستحب أن تكون لتعليم الناس حكم التعجيل بالخروج من منى وتوديع الكعبة بالطواف. وعن ابن عباس أن النبىّ ﷺ خطب الناس يوم النحر ـ أى خطبة منى، فقال: «**يأيها الناس، أى يوم هذا**»؟ قالوا: يومٌ حرام. قال: «**فأى بلد هذا**»؟ قالوا: بلدٌ حرام. قال: «**فأى شهر هذا؟**» قالوا: شهرٌ حرام. قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا**». فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «**اللهم هل بلّغت؟ فليبلغ الشاهد الغائب. لاترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**». قال ابن عباس: فوالذى نفسى بيده **إنها لوصيته إلى أُمّته**. وفى رواية أخرى قال النبىّ ﷺ: «**فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحُرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلّغت؟اللهم أشهد، فليبلّغ الشاهد الغائب، فُربّ مُبلّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» وقيل: لمّا سمع الناس خطبته ﷺ قالوا: هذه **خطبة الوداع**، وهذه حجّة الوداع.

●●●

٢١٥٨. ﴿الصلاة فى مسجد الخيف﴾

يستحب الصلاة فيه بمنى مع الإمام، أو مع رفقة.

•••

٢١٥٩. ﴿الحج عن الغير﴾

قيل: يجوز **الاستئجار على الحج**، ولايجوز الحج أو العمرة فرضاً أو تطوعاً عن إنسان حىّ إلاّ بإذنه، وليس للزوج منع امرأته من الحج، وإن لم يأذن لها **خرجت بغير إذنه**، ولاتخرج المعتدّة إلى الحج فى **عدّة الوفاة**، ولها أن تخرج فى **عدّة الطلاق**، وإن كان الصبى مميزاً وأحرم بإذن وليّه صحّ حجه. ولايجوز للمُحرم أن يتزوج أو يكون وكيلاً ولا وليا فيه عن غيره طالما هو محرم، ولايجوز تزويج المحرمة، وتُكره الخطبة للمحرم والمحرمة، وأن يشهد على زواج. وله أن يتّجر ويصنع الصنائع.

•••

٢١٦٠. ﴿التحلل من الإحرام﴾

إذا فرغ المتمتع الذى أحرم بالعمرة من الميقات، من الطواف والسعى، قصّر أو حلق شعره، فيحل من عمرته إن لم يكن معه هدى، فإن كان معه هدى فليس له أن يتحلل، ويقيم على إحرامه، ويُدخل **الحج على العمرة**، ثم لايحل إلا إذا أحل منهما جميعاً. **ويقصر** المتمتع عند حله من عمرته ليبقى الحلق للحج، وإن أحرم بالحج قبل التقصير فقد أدخل الحج على العمرة فيصير **قارناً**. وأما المعتمر غير المتمتع فإنه يحل سواء كان معه هدى أو لم يكن، وسواء كان فى أشهر الحج أو فى غيرها، وإذا كان معه هدى له أن ينحره حيثما كان. والمفرد **أو القارن**، إن كان معه هدى فليس له أن يحل من إحرام الحج، وإن لم يكن معه هدى يستحب له إذا طاف وسعى أن يفسخ نيته بالحج وينوى عمرة مفردة، فيقصر ويحلّ من إحرامه ليصير متمتعاً إن لم يكن وقف بعرفة. **والتحلل من الإحرام** لايقع إلا بإتمام الحج، أو التحلل عند الحصر، أو العذر.

•••

٢١٦١. ﴿الصلاة بالأبطح﴾

يستحب عند النفر من منى إلى مكة إذا أتى الحاج **المحصب وهو الأبطح**، فيصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم يستريح، ويتوجه إلى مكة.

•••

٢١٦٢. ﴿دخول الكعبة بعد الحج﴾

يستحب لمن حجّ أن يدخل الكعبة فيكبّر فى نواحيها، ويصلى ركعتين، ويدعو الله، ولا يدخلها بنعليه، وللحِجر حُكم ذلك لأنه من البيت.

•••

٢١٦٣. ﴿طواف الوداع﴾

سُمّي أيضاً **الصَّدر**، أي الرجوع، ومنه **الصادر** أي العائد، ويقابله **الوارد** أي القادم. وهو يجب على الحاج الذى يريد الخروج من مكة، فليس له أن يخرج حتى **يودّع الكعبة** بالطواف **سبعة أشواط**، ويصلى **ركعتين**، ووقت هذا الطواف بعد تمام فراغه من كل أموره، إلا من كان منزله بالحرم فليس عليه طواف وداع، وإن خرج من مكة ثم دخل إليها لحاجة فيستحب ألا يدخل إلا محرماً. وإذا حاضت المرأة قبل طواف الوداع فلا وداع عليها ولا فدية.

•••

٢١٦٤. ﴿حج النساء﴾

المرأة تسافر وحدها للحج أو **لأى سبب آخر** إذا كان الطريق آمناً، وكذلك فى **الضرورة**، وسفر الضرورة لايقاس عليه الاختيار، وكذلك السفر الذى يدفع ضرراً متيقناً بتحمل ضرر متوهم، وفي زمن النبيّ ﷺ كان لابد من المحرم مع المرأة، ولذا قال: «**لا تحجّنّ امرأة إلا ومعها مُحرم**»، أو يكون معها زوج أو نسوة ثقات فيسافرن صحبة، وتكفى امرأة واحدة ثقة. والمرأة عموماً لها أن تسافر فى غير الفرض إذا تواجدت فى **دار حرب** فلها أن تخرج، أو إذا أخذوها أسيرة، أو معتقلة، فلها أن تتخلّص، وإذا انقطعت من الرفقة. والآية: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** (٣٣)﴾ (الأحزاب) تنهى المرأة عن **خروج التبرّج** وليس الخروج مطلقاً، والرسول ﷺ أمر النساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن، ولم يمنعهن المساجد، فقال: «**لاتمنعوا إماء الله مساجد الله**» ، وهو **قول عام** فى المساجد، ومنه المسجد الحرام، وليس للزوج منع امرأته من حجّ الفرض، وقال ابن حزم بجواز سفر المرأة بغير زوج ولامحرم لكونه ﷺ لم يأمر بردّها ولاعاب سفرها.

•••

٢١٦٥. ﴿التجارة فى موسم الحج﴾

التجارة فى الحج حلال، وكانت **ذو المجاز**، و**عكاظ**، و**مجنة**، متاجر للناس فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك، حتى نزلت الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ** (١٩٨)﴾ (البقرة) عن **البيع والشراء** فى موسم الحج، والموسم سمى بذلك لأنه معلم يجتمع إليه الناس، مشتق من **السمة** وهى العلامة. وهذه الأسواق كانت بناحية عرفة إلى جانبها، أو كانت بمنى، وقيل: كانت **عكاظ** وراء **قرن المنازل**، وقيل بين **نخلة والطائف** فى بلد يقال له **الفتق**. وقيل: **مجنة** كانت بمر **الظهران**، أو بأسفل مكة غربى **البيضاء**. وهذه الأسواق هى التى كانت تقام فى مواسم الحج، وفى غير ذلك كات هناك أسواق أخرى

كسوق حباشة على طريق مكة اليمن، وتقام في شهر رجب، وظلت أسواق مواسم الحج فى الإسلام إلى أن زالت **سوق عكاظ** فى زمن الخوارج سنة ١٢٩هـ، وكانت أعظم هذه الأسواق جميعها، وتقام صُبح هلال ذى القعدة إلى أن يمضى عشرون يوماً، ثم يقام **سوق مجنة** عشرة أيام، إلى هلال ذى الحجة، ثم يقام **سوق ذى المجاز** ثمانية أيام، ثم يتوجهون إلى منى للحج، وقد ظل النبى ﷺ عشر سنين يتبع الناس فى مواسم الحج، فى أسواق **مجنة وعكاظ**، يبلّغ رسالات ربّه. والتجارة التى أمر بها المسلمون فى هذه المواسم لم تكن بمنى، ولكن إذا أفاضوا من عرفات. وكان المنع فى الأول بدعوى أن أيام الحج أيام ذِكْر، ولايرون أن يُدخلوا التجارة فى حجّهم، إلى أن نزلت الآية.

●●●

٢١٦٦. ﴿مايقوله الحاج إذا رجع﴾

يستحب لمن حجّ وعاد أن يكبّر عند وصوله إلى بلده ويقول: **لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له المُلك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. آيبون تائبون عابدون، لربّنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.**

●●●

٢١٦٧. ﴿ باب الزكاة ﴾

(انظر الزكاة ضمن الإسلام الاقتصادى من المعاملات فى الباب الثامن عشر)

●●●

وينتهى باب الحج والعمرة، وبانتهائه ينتهى باب العبادات، وهو الباب السابع عشر، ويبدأ الباب الثامن عشر عن القرآن والمعاملات، ونسأل الله التوفيق.

●●●

الباب الثامن عشر

﴿ المعاملات ﴾

●●●

أولاً: ﴿ الإسلام السياسى ﴾

●●●

﴿ القرآن والسياسة ﴾

٢١٦٨. ﴿ الأساس الموضوعى للدولة الإسلامية ﴾

الآيــة: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾** (النساء ٥٨)، من **أمهات الأحكام**، وتتضمن جميع الدين والشرع، والخطاب فيها لحكّام المسلمين خاصة، ولمن يدرسّون القانون فى الجـامعات، والآية وإن كانت لها أسباب النزول، إلا أنهـا **عـامـة** فى جميع الناس، فـهى تتناول مختلف **الــولاة** فيـما لديهم من الأمانات فى الحُكم، وفى القضاء، وفى تعاملات الشرطة، وتحقيقات النيابات، وعلاجات المرضى، والتدريس لطلاب العلم، والتربية للأولاد، وتأدية الوظائف، والتعاملات العائلية بين الأزواج والأبناء والآباء، وعلاقة الدولـة بالمواطنين، وعلاقات الدول ببعضــها البعض إلخ، فكل شئون الناس ودائع فـى أيدى المتصرّفين، وكذلك الصــلاة، والزكاة، والصوم، والإفتاء، كل ذلك **أمانات**. **والأمانة** تكون فى كل شىء، وتردّ إلى أصحابها، سواء الأبرار أو الفجّار، فالآية شاملة لكل أمانة، وفى الحديث: «**عهد الله أحق ما أدّى**»، والمسئولية فى الحُكم من نصيب الجمـيع، كقوله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»، فـالأب والأم، والمرأة والرجل، والحاكم والمحكـوم، والناس جميـعاً رعاةٌ وحكّام على مـراتبهم، **والحُكم من أكبر الأمانات**.

●●●

٢١٦٩. ﴿ الإسلام ضد الترف والبذخ ﴾

يأتى عن الترف فى القرآن ثمانى مرات، وفيها جميعاً تدين الآيات المترفين وتسفههم، وتحطّ من شأن الترف. **والتـرف** هو التنعُّم المُبطر المُفسد المُطغى، يقال: **أترفـه المال** يعنى أبطره وأفسـده وأطغاه؛ **وأتـرف الرجلُ**، أى أصرّ علـى البغى؛ **واستـترف**: بغى وطـغى وتغـطرس؛ **والمُتـرَف**: المتنعِّم، يصنع ما يشاء ولا يُمنَع، وهو الجـبّار. يقول تعالى: **﴿وَإِذَا**

أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)﴾(الإسراء)، يعنى هلاك الأمم إنما بمترفيها، وهم الفسّاق فى كل شعب، والظالمون به، والسماح لهؤلاء بأن يتلفوا سُدّة الحكم، وأن تكون بأيديهم مقاليد الدولة، هو إعمالٌ لدمار الدولة بإرادة الشعب، لأنه الذى انتخبهم، أو لأنه لم يعترض عليهم، فسبّبَ الأسبابَ وساقها إلى غاياتها ليحق على الشعب الوعيد. والمترفون يشكّلون الطبقة الغنية فى كل شعب، وهم شراره، وتأميرهم على الشعب هو أن يصبحوا فيه أمراء، أى حاكمين مُسَلّطين، وفى قراءة أخرى للآية: «**أمّرْنا مُتْرفيهَا**» يعنى أكثرناهم فى الدولة فصارت لهم السلطة، وفى قراءة أخرى للآية: «**أمّرْنا مُتْرفيهَا**» يعنى مكّناهم أن يملكوا ثروة البلد ويقبضوا على زمام الحكم فيه، وما فاز شعبٌ كان الحُكم فيه للمترفين، وهم المسرفون، جُباة المال، وفارضو الضرائب، وأصحاب القوانين الجائرة، وفى معنى ذلك قول القائل فى الآية: إذا أراد الله أن يهلك أمة أو دولة، غَضَباً منه تعالى على أهلها، مكّن لأكابر مجرميها فمكروا فيها، فحقّ عليها الوعيد، كقوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا**﴾ (الأنعام ١٢٣). **وتدميرها** هو استئصالها بالهلاك، وفى رواية **لزينب بنت جحش**: أن الرسول ﷺ خرج يوماً فزعاً مُحْمَر الوجه، يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب**»، قالت له: يارسول الله، أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُر الخبث**»، **والخبث** هو فساد الحكم، وظهور طبقة المستغلين دعاة الإلحاد والإباحية، وبظهورهم تظهر المعاصى، فإذا لم يرفضها الشعب ويغيِّرها، كانت مدعاة لهلاك الجميع، الطالحين والصالحين على السواء.

والترف ـ يعنى الاشتغال بالمال والللذات، يقول تعالى: ﴿**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)**﴾(هود)، فالترف يؤدى إلى ارتكاب المظالم، وما ظلم الظالمون إلا لأنهم يريدون المال ليترفوا، فلما آل المال إليهم ارتكبوا الجرائم فصاروا مجرمين.

والمترفون دائماً وأبداً مع الباطل ضد الحق، ومع الشرّ ضد الخير، ومع الكفر ضد الدين، ومع الشيطان ضد الله، وحزبُهم هو **حزب الشيطان**، وهم طغمة من الطغاة، وما كان نبىّ ولا مصلح، ولا داعية حق أو خير أو إصلاح، إلا خرج المترفون ضده، والغوا فيه، يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤)**﴾ (المؤمنين)، فانظر إلى منطقهم المغلوط ومذهبهم المادى الخائب، وتأمل احتفالهم بالأكل والشُرب كالبهائم، فما أن يحلّ بهم عذاب الدنيا إذا هم

يجأرون ويولون الدبر، وأمثالهم دُمّروا بما أترفوا فيه، واستبدلهم الله بأقوام غيرهم، يقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾ (الأنبياء)، مثل أقوام نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وعيسى، من الأمم القديمة، والاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا من الأمم الحديثة، وما نتوقعه لأمم أخرى حالية على رأسها أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، ودول حلف الأطلنطى، والكثير من أمة محمد، وعلى رأسها دول بعينها كتركيا وغيرها، وكل هؤلاء والغون فى الترف. وركضهم فى الآية إنما فرارٌ من الثورة، أو من ملاحقات شعوبهم، أو انقلاب المخابرات عليهم فى بلادهم وفى بلاد غيرهم.

ويقاوم المترفون التغيير، لأنه قد يأتى بنُظم قد تقضى على امتيازاتهم ونفوذهم، أو تقوّض طبقتهم، أو تصادر ثرواتهم، فكرهوا التغيير وقاوموه جهدهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ (سبأ)، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾(الزخرف)، والأمة يعنى وجدوا آباءهم مجمعين على مذهبهم هذا الفاسد. والأمة أيضاً هى الطريقة والدين، فهم سائرون على طريقة الآباء فى الاستئثار بكل شىء، وآخذون بملّتهم فى دحض الحق، وإعلاء الطغيان وسحق المطحونين والفقراء، يعوّقون ما فيه صلاح أممهم، وتقدّم شعوبهم، ولا أعدى للتقدم والعلم والمنطق والعقل، ولحركة الحياة، من المترفين.

●●●

٢١٧٠. ﴿التعاون الطبقى وليس الصراع الطبقى﴾

الطبقة class هى المرتبة، والاصطلاح محدث، منه الطبقة الاجتماعية، وطبقة العمال، والقرآن يستخدم اصطلاحاً أفضل من اصطلاح الطبقة هو الدرجة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام)؛ والطبقة اصطلاح فيزيائى، والدرجة اصطلاح كيفى قيمى، بمعنى الرتبة والمنزلة والقيمة، نقول «الطبقة العليا من المجتمع» ونقصد شريحة الأغنياء والحكّام، ولا نقول الدرجة العليا من المجتمع، بينما نقول درجة الحرارة، والدرجة المئوية، ونقصد الحالة، ونقول استدرجه، أى رقّاه من درجة إلى درجة أعلى، فالدرجة للكيف والقيمة، بينما الطبقة للوضع الاجتماعى، وفى القرآن يقول تعالى فى الأنبياء: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾(البقرة٢٥٣)،

بمعنى فضّل بعضهم على بعض، فكأن استخدام مصطلح الدرجة به معنى المفاضلة، بينما استخدام مصطلح الطبقة هو استخدام توصيفى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١)﴾ (المجادلة)، أى يرفعهم فى الثواب فى الآخرة، وفى الكرامة فى الدنيا، ويرفع المؤمن العالم والطالب للحق على المؤمن العامى المفرّط فى الحق، ويرفع المؤمنين الذين أوتوا العلم على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم، وفى الحديث: «فَضْل العالم العابد مائة درجة». وهذه المفاضلة من الفضل وهو التقوى والبرّ، والقرآن يأمر بالتعاون فى البِرّ، وليس التعادى والتصارع، وفلسفة القرآن هى التعاون بين مختلف فئات الأمة، وطبقات المجتمع، كقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (٢)﴾ (المائدة)، والكلام فى الآية مقطوع من أوله، فهو أمر لجميع الخلق بالتعاون فى الخير، والتحاث على ما يزيده، والنهى عمّا يعارضه، وفى الحديث: «الدال على الخير كفاعله»، وأيضاً «الدال على الشرّ كصانعه»، فكأن شعار القرآن: التعاون الطبقى class co-operation، وليس الصراع الطبقى class struggle الذى تقول به الاشتراكية العلمية، والحوار والجدل هما منهج التعاون، ولذلك كانا منهج القرآن، وليس الصراع strife إذن هو منهج القرآن. والقرآن يسمى «الرسُل» النصارى «حواريين»، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ (آل عمران٥٢)، وفى الإغريقية هم «رُسل»، ومفردها «رسول apostolos»، وهم فى اللاتينية discipuli أى رسُل، واسم «الحواريين» ينفرد به القرآن، من الحوار: وهو السؤال والجواب، فمنهج المسيح فى رؤية القرآن، كان التعليم من خلال الحوار، والحوار فيه إقرار بالأنت أو الآخر فى مقابل الأنا، على عكس الإملاء dictation، وهو الأمر يصدر عن المُملى للتنفيذ، ومنها الكلمة الإفرنجية dictator، أى الطاغية أو الديكتاتور الذى دأبه إصدار الأوامر وعدم الاعتراف بالأنت أو الآخر، فلا وجود إلا لأنا الديكتاتور، وهو أنا متضخّم يشغل المساحة كلها بما فيها المساحة التى كان ينبغى أن تكون للأنت أو الآخر. فانظر إلى طريقة القرآن فى إطلاق الأسماء، حيث يجعل الحواريين من الحوار، فى حين انهم عند النصارى مجرد أتباع المسيح أو تلاميذه المتلقين عنه! والذى يعنى القرآن هو هذا الحوار، وفى القرآن هناك سورة تسمى «سورة المجادلة» (السورة ٥٨)، يأتى فى بدايتها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة١)، والمجادلة امرأة عرضت على الرسول ﷺ مشكلتها وحاورته وجادلته فيها، فسكت، فلما عاودت كلامها قال لها «ما أوحى إلىّ فى هذا شىء»، فقالت: أُوحى إليك فى كل شىء وطوى عنك هذا؟! قال: «هو ما قلت» قالت: إلى الله إذن أشكو لا إلى رسوله! والمجادلة بالفتح هى المساءلة للتعلم

أو للمحاجاة، وهى الحوار أساسه المواجهة والمساءلة والمجاوبة والمناقشة والبحث لمعرفة الحق وإحقاقه. وقد أخطأ المفسرّون إذ جعلوا معنى الحواريين أنهم كانوا يشتغلون بالحوارة أى القصارة، أى تبييض الثياب، وقال الصوفية هم الحواريون لأنهم بيّضوا قلوبهم ونفوسهم وطهّروهما عن كل دنس ! والصواب أنهم أصحاب الحوار مع المسيح، وهو مفهوم القرآن عنهم، وهنتنجتون الذى قال بصراع الحضارات أوحت إليه الفكرة قراءاته فى التوراة، فالصراع بين الحضارات وبين الأمم والطبقات هو مذهب التوراة، ولذلك قال بالصراع اثنان من أشهر اليهود: «فرويد، وماركس»، والأول فى مجالى النفس والاجتماع، والثانى فى مجالى الاقتصاد والحضارة؛ وبتأثير تعاليم التوراة قال« داورن» المسيحى بالصراع للبقاء متابعًا «بولس الرسول» ـ وكان يهوديًا قبل أن يتنصّر؛ واستمد فوكوياما نظريته فى نهاية التاريخ من نبوءة ملاخى فى العهد القديم، ومن رؤيا يوحنا فى العهد الجديد، وقوامها الصراع الحضارى، فالثقافة اليهودية النصرانية الأوروبية لُحمتها وسُداها إذن القول بالصراع؛ وأمّا الثقافة الإسلامية القرآنية، وثقافة أهل السُنّة، فقوامها الحوار بين الحضارات والتعاون بين الشعوب والأفراد، وفى القرآن: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (١٣)﴾(الحجرات)، والتعارف أساسه التعاون الحضارى والاجتماعى والطبقى، والأفضل هو الأتقى، والمتّقون وصفهم فقال: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ(٦٦)﴾(يس)، وقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ(١٤٨)﴾(البقرة)؛ وهذه إذن نظرية الأجناس فى القرآن: أنه تعالى خلَق الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، للتعارف والتعاون والتلاقح الحضارى والتثاقف، وذلك هو طريق إعمار الأرض، بينما هذه النظرية فى التوراة أساسها الاستكبار العنصرى، والاستقواء والغزو، وحرق الأرض، وتدمير الأخضر، وقتل الحياة. وفى الإنجيل أن المسيح استعلى على الكنعانية ولم يشف ولدها بدعوى أنها كنعانية من قوم كالخنازير، ولولا حجاج بطرس لمّا عاب عليه انصرافه عنها، وذكّره بأن إيمانها يشفع لها، لما شفى لها ولدها، وكانت حجة المسيح أنه لم يُبعث إلا لخراف إسرائيل الضالة، ففرّق بين الأمم، وفاضل بينها على أساس أجناسى وليس بمعيار التقوى، أى البرّ كما جاء فى القرآن. وفى التوراة أن سام وذريته هم الأرفع شأناً، واليهود على رأسهم، وأن الشعوب دون سلالة سام هى الأدنى منزلةً، وتخدم اليهود، فهذا هو قدرها وقدرهم، فالثقافة العبرانية الأوروبية قوامها الحتمية التاريخية والفيزيائية، والثقافة العربية الإسلامية قوامها الفكر المنفتح، والمجتمع غير المغلق، والاختيار الحر، والمسئولية، والتطور إلى الأحسن، والقول بالعالمية؛ والربّ فى اليهودية هو ربّ بنى إسرائيل، وفى النصرانية هو المسيح، وأتباعه هم المسيحيون، كما أن اليهود أولاد يهوذا، والإسرائيليين بنو إسرائيل؛ وفى القرآن الربّ هو ربّ العالمين، أى ربّ جميع الناس، والمسلمون هم الذين أسلموا أمرهم له. فيا أيها المسلمون، أرأيتم ما أنتم فيه من خير، وما أوتيتم من رحمة، وما أصدقتم من بيّنة؟! ولله الحمد والمنّة!

٢١٧١. ﴿القرآن يساوى بين الخادم وسيده﴾

ليست الاشتراكية بشىء إن كانت تساوى بين الناس فى المظهر دون المخبر، وفى الملكية دون السلوك، فأما الإسلام فإنه الدين الذى حررّ الرقيق وأعلن أن الكل سواء، وساوى بين الخادم والسيد مَخْبراً لا مظهراً. فعن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال: «**إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإنْ لم يجلسه معه فليناوله أكْلَةً أو أكلتين، أو لقمةً أو لقمتين، فإنه وَلِىَ حَرَّهُ وعلاجه**». وفى رواية مسلم قال: «**فليقعده معه فليأكل**»، وبرواية أحمد والترمذى قال: «**فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه فليناوله**»، وفى رواية لأحمد قال: «**فادعه فإن أبى فأطعمه منه**»، وعند ابن ماجه: «**فليدْعُه فليأكل معه**»، وقوله: «**فليناوله أكلة أو أكلتين**» يعنى إنْ رفض فليعطه بعض الطعام. والتعليل فى كل الأحوال بسبب أنه عانى من حَرّ الطبخ على النار فلا أقل من أن يطعم منه، وفى ذلك تسكينٌ لنفسه وكفٌّ عن شرّه. والتسوية مع الخادم فى المسكن، وكذلك فى الملبس من خصائص الإسلام، وفى قوله فى حديث أبى ذرّ: «**أطعموهم مما تطعمون**» إلزامٌ بمواكلة الخادم، وأهل العلم على وجوب إطعامه من غالب قوت صاحب البيت أو المال، وكذلك كسوته، وأن لا يستأثر عليه بشىء، وإجلاسه معه أفضل أو هو بالخيار.

•••

٢١٧٢. ﴿ما ملكت أيمانكم فى المصطلح العمالى الإسلامى﴾

لاصطلاح «ما ملكت أيمانكم» معان كثيرة، فقد يعنى الإماء، كقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ③﴾(النساء). وملك اليمين فى العدل، قائمٌ بوجوب حُسن الملكة والرفق بالرقيق، وهؤلاء هم طبقة العمال من العهد القديم، فُرض على المسلمين فيهم حُسن الملكة والمعاشرة، وطيب الرعاية والمعاملة؛ واليمين مخصوصة بالمحاسن، وتقدر عليها، وهى المُنفقة والمُتصدّقة؛ والقَسَم يُسمى يميناً؛ والتعبير بملك اليمين من أجمل ما قرأت فى اللغات. وفى الآية: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا** ㊱ ﴾(النساء) قَرَن تعالى بين عدم الشرك به وبين الإحسان إلى كل هؤلاء ومنهم ملك اليمين، وهم الشغّيلة، وكانوا يعملون عمّالاً فى مهنهم، وخدماً وفلاحين، فهم البروليتاريا الإسلامية، إلا أن البروليتاريا فى الاصطلاح الاشتراكى هى طبقة المضطهدين، بينما البروليتاريا الإسلامية طبقة متميزة لها عملها الخاص، والحراك الاجتماعى فيها سريع، وتحرير الرقاب فضل ومنّة وكفّارة ذنوب. والمسلم مأمور أن يُحسن إلى عمّاله، والعمال عند المسلمين هم إخوة أصحاب الأعمال، يقول أبو ذرّ: كان بينى وبين رجل من «إخوانى» كلام (يعنى من

الرقيق)، فشكانى إلى النبىّ ﷺ، فقال له النبىّ ﷺ - أى قال لأبى ذر: «**يا أبا ذرّ! إنك امرءٌ فيك جاهلية. هم إخوانكم** (يقصد الرقيق)، **جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم**» أخرجه مسلم، فنَهَى عن الإساءة إليهم، وحضّ على مشاركتهم الطعام واللباس، ورفع شعار «**المذهب الاشتراكى**» بفارق فى الزمن يزيد عن ألف وأربعمائة سنة، حيث يقول شعار الاشتراكية: «**من كل حسب جهده إلى كل حسب عمله**»، وهو فى القرآن: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** (٢٨٦)﴾(البقرة)، يتكرر ست مرات. وروى أبو هريرة: أنه ركب بغلة ذات يوم، فأردف غلامه خلفه، فقال له قائل: لو أنزلته يسعى خلفك! فقال أبو هريرة: لأن يسعى معى ضغثان من نار (يعنى موقدان من نار)، يحرقان منى ما أحرقا، أحبّ إلىّ من أن يسعى غلامى خلفى!». فالفارق بين **العدل الاجتماعى والمساواة فى الاشتراكية العلمية**، وبينهما فى اشتراكية الإسلام، أنهما فى اشتراكية الإسلام عن «**اعتقاد إيمانى**»، ومن صميم الاعتقاد فى إلهية الله ووحدانيته، وهما أساس الإسلام، وهى أمور تعوز الاشتراكية العلمية. وفى الحديث عند أبى داود: «**من لا يحكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون، واكسوه مما تكسون، ومَن لا يلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذّبوا خلْق الله**»، **ولا يلايمكم**» يعنى ولا يوافقكم، **والملايمة** هى الموافقة، فلا وجود لعقد الإذعان أو السخرة فى الإسلام! وعن أبى هريرة الحديث: «**للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلَّف من العمل إلا ما يطيق**» أخرجه مسلم. وقال ﷺ: «**لا يقل أحدكم عبدى وأَمَتى، بل ليقل فتاى وفتاتى**» وهو قمة فى أدب التخاطب والإشارة إلى **طبقة العمال**، ويندب أصحاب الأعمال والمالكين لليمين. إلى مكارم الأخلاق، ويحضّهم عليها، ويرشدهم إلى الإحسان والتواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزية على عبيدهم أو بالأحرى عمّالهم، لأن الكل عبيد الله، والمال مال الله، ولكنه تعالى سخّر بعضهم لبعض، ولذلك جعلهم طبقات أو درجات، فلمّا كانوا طبقات سخّرهم لبعضهم البعض، قال: ﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا** (٣٢)﴾(الزخرف)، يعنى ليعمل بعضهم عند بعض، فيكون كل واحد سبباً لمعاش الآخر، فلا سيد ولا مسود، وكان عمر يكره أن يقال لأحد سيدٌ، ونهى عن ذلك، إتماماً للنعمة وتنفيذاً للحكمة، وهو القائل: **لقد خَلَقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تُراثاً وعقارات، فمتى استعبدتم الناس وقد خلقهم الله أحراراً؟!!** بالله كم هو رائع عمر هذا! - وفى رواية مسلم - الحديث: أن قهرمان للنبىّ ﷺ (**والقهرمان** أعجمية بمعنى الخازن والوكيل والحافظ لما تحت يده) دخل عليه، فسأله النبىّ ﷺ أول ما سأله: «**أعطيت الرقيق قُوتهم**»؟ فقال القهرمان: لا. فقال له النبىّ ﷺ: «**فانطلق فأعطهم**» وقال: «**كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قُوتَهم**»! ومرة ثانية فلنلاحظ الفرق بين مصطلح «**العمال**» أو «**الشغّيلة**» كما يرد

عنهم فى التاريخ الاقتصادى فى أمريكا وأوروبا، وكانوا يسمونهم «العبيد» أيضاً كما جاء عنهم فى كُتب التاريخ، وكما روت عنهم التوراة والأناجيل والرسائل النصرانية، وبين اصطلاح «ملك اليمين» فى القرآن والإسلام، **فالأول** ـ أى اصطلاح **«العمال»** ـ اصطلاح اقتصادى واجتماعى، **والثانى** ـ أى **«ملك اليمين»** ـ اصطلاح **دينى أخلاقى**. ثم انظر إلى اصطلاح **«الرقيق»** الإسلامى بمعنى العبيد أو المماليك، وابحث كيفما شئت فى كافة اللغات، فلن تجد له مثيلاً ولا ضريباً، ولا فى التوراة والأناجيل، **والرقيق** من رقّ ضد غلظ وثخن، تقول رقيق الحال يعنى فقيراً، ومنه رُقاقة الخبز المنبسطة، **والرِقّة** هى الرحمة، **ورَقّ وجهه** استحيا، **ورقّ قلبه** أى حنّ، فكما ترى أن العربية لغةٌ عبقرية، ولذلك جاء القرآن بما هو معروف عن لغته هذه الجميلة، ودلّت اللغة العربية كما يعرضها القرآن، على الروح العربية، على عظمة أهلها ورفعة أخلاقهم، والحمد لله ربّ العالمين.



٢١٧٣. ﴿السُخرة فى القرآن تبادلٌ للمنافع وليست استعباداً للناس﴾

اصطلاح القرآن لتقسيم العمل هو السُخرة، وهى فى اللغة استعبادٌ للعامل، فقناة السويس شُقَّت **بالسخرة**، أى لم يكن العمال يحصلون على أجور لقاء عملهم، وفى القرآن: **﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾**(الزخرف)، **يعنى أن الله قضى بقسمة العمل divison of labour** بين الناس، بحيث يحتاج كل إنسان إلى آخرين يقدمون له مختلف الخدمات، ويبيعونه ما يحتاج من أدوات وسلع، فلا يستغنى أحدهم عن غيره، وكلٌ يعمل فى اختصاصه، وبحسب وسعه ،ويتبادل والآخرين المنافع، وهذا هو **المعنى الجديد** الذى يقدّمه القرآن **للسخرة**. وكان **التقسيم الطبيعى للعمل** وفق الجنس والسن، **فالرجال** اختصوا بالقنص لأنهم أشداء، وكبار السن وُكل إليهم صيد البر والبحر، **والنساء** كان من نصيبهن تربية الصغار وجنى الثمار وجمع المحاصيل. ولمّا اكتُشفت المعادن جرى **التقسيم الثانى** للعمل فاشتغل النساء بالحقول، والرجال بتشييد المبانى وأعمال التعدين، وانفصلت **الحرف** عن **الزراعة**. ثم ظهرت الصناعات اليدوية وجرى معها **التقسيم الثالث** للعمل، وصار هناك آلات وعمّال مدربون يعملون جماعات عليها، وانفصل **العمل الذهنى** عن **العمل اليدوى**، وتولّدت طبقة جديدة هى طبقة التجار والصيارفة، واستوجب الأمر لاستمرار التطور أن تقوم المدن الصناعية والطرق التجارية، وأن يتبادل الناس الخدمات على أوسع نطاق ضمن **عقد اجتماعى** يضمن للجميع حكومة تحافظ على الأمن وتوصّل للسلام

الاجتماعى، وتضمن حماية الحدود، وأن تقوم على المجتمع دولة قوية لها جيش يحمى الحدود والذمار والمصالح، وفى هذا الإطار الضخم من العلاقات الاجتماعية المتشابكة فإن كل إنسان مُسَخَّر لكل الناس، ومن هذا المعنى فإن العمل واجب وضرورة، والعمل المقصود هو العمل الاجتماعى، ومعنى السخرة فيه أن الإنسان محكوم عليه بالعمل **condemned to work**، وفى قراءة لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)** ﴾(الذاريات) قال ابن عباس «إلا ليعملون» ، وفى الأمثال: «العمل عبادة **laborare est orare**»، والله يقول: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا (١١٥)**﴾(المؤمنون)، فلم يكن الخلق عبثاً، ولا هو سُدًى، والله تعالى عَمِلَ ويعمل، وهو العامل الأكبر، والبنّاء الأكبر، والمهندس الأكبر، والعمل آصرة اجتماعية تجمع الناس وبها يرتقون عن مرتبة البهائم، لأن عمل الإنسان مقصود، وعن إرادة واختيار، ولنفع الناس، ومن أجل ذلك كان تحيُّز الناس لبعضهم البعض، فيكون بعضهم سبباً لمعايش آخرين.

وقد تُقرأ «سخرياً» بالكسر وليس بالضم، من السخرية أى الاستهزاء، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا (٦٣)** ﴾(ص)، وفى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)**﴾(المؤمنون)، فكأن «سخرياً» بالضم والكسر مثل عُصِىّ وعِصِىّ، والمعنى إذن المعروف والمتداول للسخرة، أى الاستعباد، ليس من معانى القرآن فيما يخص عمل الإنسان للإنسان، إلا فيما يخص تسخيره للطبيعة، أى استغلالها،، وقد سخّر الله الشمس والقمر دائبين (إبراهيم ٣٣)، يعنى لمن يجعل لهما إرادة فى ذلك؛ وسخّر البّحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتأكلوا منه لحماً طرياً (النحل ١٤)، وسخّر الأنهار والسحاب والنجوم والطير، وسخّر للإنسان كل ما فى الأرض، فسخّر الإنسان بدوره الطبيعة لمصلحته، فلما سَخَّر الإنسانُ الإنسانَ كتسخيره للطبيعة قامت الثورات، لأن السُّخرة استعباد، ولم يتحدث في ذلك بشكل مستفيض إلا القرآن، فألغى السخرة بتاتاً، وساوى بين الجميع، وجعل العمل مشاعاً وتبادُل منافع بين الناس لا غير، وهذا هو المعنى الجديد الذى صرف القرآن إليه مصطلح السخرة: تبادل المنافع، والحمد لله ربّ العالمين.



٢١٧٤. ﴿للفقراء حقٌ فى مال الأغنياء﴾

الآية: ﴿ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)** ﴾(الذاريات) أصلٌ من أصول اشتراكية الإسلام، والمجتمع الاشتراكى كما فى المراجع الاشتراكية، فيه أن الحكم لديكتاتورية

العمال، يعني أن المجتمع الاشتراكي ما يزال فيه النزاع والصراع، بخلاف **المجتمع الإسلامي**، ويزيد **المجتمع الإسلامي** على المجتمع الاشتراكي بأنه مجتمع متكافل ومتعاون، والاشتراكية فيه **اشتراكية تعاونية تكافلية**، والمال في المجتمع الإسلامي التعاوني هو **مال الله**، والإنسان **مُستخلَف** عليه، **والسائل** في الآية هو الذي يسأل الناس لفاقته، فوجبت نفقته على المجتمع أو الدولة؛ **والمحروم** في الآية هو الذي حُرِم العمل لبطالة متفشية، فوجَبَ على الدولة أو المجتمع أن يوجد له العمل، أو يوجب له النفقة، ويقوم النظام الاقتصادي الإسلامي على **التقريب بين الطبقات والدخول، وتسهيل الحراك الاجتماعي**، ومن شأن تطبيق عدالة الإسلام الاجتماعية، أن يمتنع وجود فئتي **السائلين والمحرومين**، ولا شك أن **نظام الضريبة التصاعدية، ونظام زكاة الأموال**، خير نظام يضمن أن يكون في مال الغني حقٌ لكل سائل ومحروم. لأنه من خلال النظام الضرائبي العادل، والزكاة المفروضة، لا يصبح المال دُولةً بين الأغنياء، فيُحرَم منه الفقراء، فيتكففون الناس ويسألون.

●●●

٢١٧٥. ﴿الناس مختلفون ولذلك خلقوا﴾

في فلسفة الإسلام أن الله تعالى لم يشأ أن يخلق الناس على لغة واحدة، أو ثقافة واحدة، أو حضارة واحدة، أو من جنس واحد، أو ملّة واحدة، قال: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾**(هود)، يعني خلقهم على مذاهب وملل، وأجناس وشِيَع، وأمم وشعوب ودول، وأفراد وجماعات، وتوجهات شتّى، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربُّك ونأى به عن الاختلاف فلم يجعله ديدنه، وارتقى عليه وتجاوزه، وتسامح وتراضى. وقانون الحياة إذن هو **الاختلاف**، ولم يُخلَق الناس للائتلاف، فلا بُد من التباين، وبه تكون استمرارية الحياة.

●●●

٢١٧٦. ﴿من فلسفة الإسلام السياسي أن خلقنا الله أمماً﴾

يقول تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً (١١٨)﴾** (هود)، فنبّه إلى أنه جعلنا أمما شتّى، بلغات شتّى، وألوان شتى، فمنا الأحمر، والأبيض، والأصفر، والأسود، ومنا الأمم الغنية، والأمم الفقيرة، والمتقدمة والمتخلفة، والنامية، والمستعبَدة (بالفتح) والمستعبِدة (بالكسر)، لنتمايز وتتباين حضاراتنا فنتبادل المنافع.

●●●

٢١٧٧. ﴿الحكومة ضرورة لكل أمة﴾

الناس لابد لهم من وازع، أي حكومة تحكمهم وتكفُّهم عن بعضهم البعض. ومصطلح «الوازع» من مصطلحات الإسلام السياسي، كقوله تعالى: **﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ**

جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾(النمل)، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾(فصلت)، و«يوزعون» تعنى يُردّ أولهم إلى آخرهم ويكَفّون. وفى كل المهن والحرف، والأمم والدول، يوجد الوزعة من كل الرتَب، ولكل صنف من الناس وَزَعةٌ فى رُتبتهم ومواضعهم. ويقال وَزَعتُه أوزعه وزَعاً أى كففته. والوازع فى الحرب: المُوكَل بالتنسيق بين وحدات الجيش وفصائله وكتائبه؛ وفى الشعر:

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى .·. من الناس إلا وافرُ العقل كاملُه

والآية دليل على ضرورة الحكومة كنظام من شأنه أن يزع الناس ويمنعهم من إيقاع الظلم ببعضهم البعض. والقرآن وازع أكثر من الحكومة، لأن القرآن يربّى الضمير، والضمير وزاع أكثر من القانون، وطلب رضا الله وازع أكثر من الخوف من عقابه أو العقاب العام.

•••

٢١٧٨. ﴿ظلم الأمم والحكام مهلكة لهم﴾

فى الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده»، وفى القرآن: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾(هود)، يهلكهم بالفساد، والفساد مدعاة للكفر، كما أهلك قوم شعيب ببخس الميكال والميزان، وقوم لوط بالشذوذ الجنسى وإتيان الذكران، وآل فرعون بالجبروت والطاغوت، وقوم نوح بالاستكبار والاستعلاء إلخ، وهكذا تكون الأمم والشعوب والدول، فهى إما هؤلاء وإما هؤلاء؛ ومعنى الظلم انتقاص الحقوق، وخاصة حقوق الطبقات الفقيرة، والعَمَلة المستضعفين، والنساء المغبونات، والأطفال المنبوذين.

•••

٢١٧٩. ﴿القرآن ضد الشعوبية﴾

الشعوبية: تعنى العنصرية. والشعوبية: فرقة من الفرق السياسية فى تاريخ الإسلام، وكانت تقول بأفضلية العجم على العرب، وسبق الثقافة الأعجمية على العربية، وتزعم - كما هو الآن - أن لغاتها لغات حضارات، والعربية لغة بدو تقصر تعابيرها عن مواكبة التطور. والقول بالشعوبية مستمد من الآية من القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات). والشعوب مفردها شعب، وأصله القبيلة العظيمة، فالشعب العربى أبو القبائل والأمم والدول العربية؛ والشعوب الجرمانية هى القبائل من أصول جرمانية أو هندوأوروبية. والشعب هو الجمهور والسواد، والشعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. والآية نزلت تعارض العنصرية والاستعلاء الاجتماعى، وكان الرسول ﷺ قد أمر بنى بياضة أن يزوّجوا أبا هند وكان من الموالى، يعنى العَمَلة أو الشغّيلة، فرفضوا وقالوا نزوّج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله الآية. أو أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن

شمّاس، رفض أن يفسح مكاناً لأحدهم، وقال ابن فلانة؟! فطلب منه الرسول ﷺ أن ينظر فى وجوه الناس، وسأله: **ما رأيت؟** قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر. فقال: **«فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى»**! فنزلت الآية فى **ثابت**، كما نزل فى الرجل الذى لم يتفسّحوا له: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١)** ﴾(المجادلة)، ففى الآية الأولى: رفضٌ للعنصرية، وأن معيار المفاضلة هو **التقوى** أى البرّ، وفى **الآية الثانية** المعيار هو الإيمان والعلم. **والقرآن لا يدعو إلى المساواة بين الناس عشوائياً، فهناك مفاضلة**، وهناك الفاضل والأفضل، ولكن وجه الفضل ليس المال **أو** الحسب والنسب، وإنما هو **خشية الله**، **والعمل الطيب، والعلم؛ والهرم الاجتماعى فى الإسلام** لا يقوم الأغنياء وأصحاب السلطة على قمته، وإنما **المؤمنون الأتقياء**، العاملون فى صلاح الناس، والدائبون على العلم يتعلمونه ويعلّمونه؛ **والحكومة المناسبة** التى يدعو إليها القرآن، هى هذه الحكومة التى هذا المعيار هو معيارها، **واليوتوبيا الإسلامية** أساسها **ثلاثة** لا رابع لها: **الإيمان، والعلم، والعمل؛ فلا شعوبية ولا عنصرية فى القرآن**، ومن ثم فى الإسلام. ولما كان فتح مكة، اعتلى **بلال** ظهر الكعبة فأذّن، فقال أحدهم - وهو **بن أُسيد بن أبى العيص**: الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم! وقال **الحارث بن هشام**: ما وجَد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً؟! وقيل كلام كثير من غيرهم، وبلغ الرسول ﷺ، فدعاهم فأقرّوا، فنزلت الآية تزجر عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، وتجعل رأس الأمر فى **التقوى**، وقد كَذَب **اليهود** عندما ادّعوا أنهم الأصلح بلا سبب، وكذبوا لما قالوا: حتى لو فعلوا الشرّ فهم الأفضل! وكذبت **الأناجيل** لمّا جعلت **الكنعانية** أقل شأناً من **الإسرائيلية**، لا لشىء إلا لأن الأولى كنعانية، والثانية عبرانية! وكَذَب من قال بعلو **الجنس الأبيض**، أو **الجنس الآرى**، عن كل الأجناس، وانظر إلى تعاليم رسول الله ﷺ حين يقول خطيباً فى أهل مكة: **«يا أيها الناس**: إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجلٌ برّ، تقىٌ، كريمٌ على الله؛ وفاجرٌ، شقىٌ، هيّنٌ على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)** ﴾ (الحجرات)، فجعل الرسول ﷺ **الجاهلية** بمعنى **الحضارة العنصرية**، وهى **الحضارة النصرانية الأوروبية الأمريكية** الآن - **حضارة العولمة**، ونبّه إلى عيبة هذه الحضارة الجاهلية: **الاستعلاء والاستكبار العنصريين**. ونادى الرسول ﷺ **بإعلانه العالمى universal declaration** لحقوق الإنسان، وأسميّه **البيان** أو **البلاغ** أو **المانيفستو الإسلامى Islamic manifesto**، قال: **«يأيها الناس، ألا إن ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربىّ على عجمىّ، ولا لعجمىّ**

على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى. ألا هل بلّغت»؟ قالوا: نعم. قال: «ليبلّغ الشاهد الغائب»، يبلّغه قديماً وحديثاً: قيل وفى هذا الإعلان ورد: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلبٌ صالح تحنّن الله عليه. وإنما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم».

ويلخص ذلك علىّ بى أبى طالب، ويجمع مذهب وفلسفة القرآن أو الإسلام فى اللاعنصرية، شِعْراً، فيقول:

الناس من وجهة التمثيل أكفاء ∴ أبوهم آدم والأم حواء

نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكلةٌ ∴ وأعظمٌ خُلِقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من أصلهم حَسَبٌ ∴ يفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم أنهمُ ∴ على الهُدَى لمن استهدى أدلاّء

وَقَدْرُ كلّ امرىء ما كان يُحسنه ∴ وللرجال على الأفعال سيماء

وضدُّ كلّ امرىءٍ ما كان يجهله ∴ والجاهلون لأهل العلم أعداء

وبعد، فهذه هى ثقافة القرآن اللاعنصرية، أفترون لها مثيلاً فى الثقافات اليهودية أو النصرانية، أو فى ثقافة العولمة، وثقافة التنويريين والعلمانيين والملحدين، وثقافة أوروبا وأمريكا؟ فالحمد لله على القرآن والإسلام.

●●●

٢١٨٠. ﴿الخليفة ونظرية الخلافة فى القرآن﴾

الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣٠)﴾(البقرة) أصل القول بوجوب قيام الحكومة الإسلامية، وأن يكون على رأسها خليفة، وهو فى اللغة من يقوم مقام آخر، وفى الفقه الإسلامى هو رئيس الدولة الذى له سلطات الفصل فى المنازعات، ومراعاة التوازن بين الطبقات، ومحاربة الفساد، ومقاومة الظلم، وإقامة العدل، وحفظ الأمن والحدود، وإشاعة السلام، وإتاحة التعليم للجميع، والتقريب بين الناس فى الدخول، ومنع الاستقلال والاحتكار، وحفظ وحدة الدولة، وإنشاء المستشفيات والمدارس ودور الأيتام إلخ، والمساكن لمحدودى الدخل، وهو أمر لا يستطيعه واحدٌ بمفرده، وإنما تُؤلّف له حكومةٌ هى حكومة الخلافة، والمعنىّ بالخلافة فى الآية هو آدم، أو البشر من أولاده وذريته، تصير لهم الخلافة من الله فى الأرض، ومهمتهم فيها: ١ ـ الإعمار، كقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ

الأرض واستعمركم فيها(٦١)﴾(هود)، وهو الإصلاحُ والارتقاء والتحضُّر؛ ٢ ـ السيطرة على المقدَّرات وتنميتها والهيمنة على الأرض ومصادرها، كقوله: ﴿**وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً(١٣)**﴾ (الجاثية)؛ ٣ ـ التمكين من هذه السيطرة، كقوله: ﴿**ولقد مكّناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش(١٠)**﴾(الأعراف)؛ ٤ ـ معرفة الله وشكره وعبادته، كقوله: ﴿**وليعلموا أنما هو إله واحد(٥٢)**﴾(إبراهيم)، وقوله: ﴿ **واشكروا لى ولا تكفرون(١٥٢)**﴾(البقرة)، وقوله: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦)**﴾(الذاريات). وفى تاريخ مصطلح «الخليفة»، وهو مصطلحٌ قرآنيٌّ خالص ويخصّ الإسلام وحده لا غير، يأتى أنه لمّا مات رسول الله ﷺ وتولى أبو بكر بعده، نادوه فقالوا: «يا خليفة الله»، باعتبار الآية: ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة (٣٠)**﴾(البقرة)، أو الآية: ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض(٢٦)**﴾(ص)، فقال لهم أبو بكر مصححاً: «لستُ خليفة الله! ولكنى خليفة رسول الله ﷺ»، وذلك هو الصحيح، فما ينبغى أن يُنسب البشر إلى مَن «ليس كمثله شىء»، والبشر يخلفون ويستخلفون بعضهم البعض، ولكنه تعالى لا يخلفه أحد، وفى الآيتين اللتين ذُكر فيهما الخليفة، لم يأتِ أنه جعل آدم ولا نصّب داود خليفة له، وعلى العكس فإنه الذى يستخلفهم، أى ينصّبهم خلفاء، أو يجعلهم خلائفاً لبعضهم البعض، كقوله: ﴿**إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء (١٣٣)**﴾(الأنعام)، وقوله: ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض(١٦٥)**﴾(الأنعام).

ونظرية الخلافة فى القرآن ليست من النظريات الثيوقراطية التى تقول بولاية الفقيه، فالخلافة متاحة لأىٍّ من أفراد الشعب طالما تتوفر فيه شروطها، ومنها: العلم، وطلاقة اللسان، ورحابة الصدر، واتساع الأفق الفكرى، والمعرفة بأصول الحكم، وممارسة الخدمة العامة، والاشتغال بأمور السياسة، والتمكن فى علم الاقتصاد، وإتقان اللغات، وإتقان الكلام والخطابة إلخ. والفقيه قد يمهر فى الدين ولكنه يجهل فى العلوم الأخرى. ولمّا سأل قوم طالوت نبيّهم أن يعين لهم رئيساً عليهم، لم يرشح نفسه للرئاسة، واقترح عليهم طالوت رئيساً، وأسس اقتراحه على ثلاث ميزات فيه، قال: ﴿ **إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم (٢٤٧)**﴾(البقرة). وفى القرآن أن الخلائف ـ جمع خليفة ـ يتمايزون، كقوله: ﴿ **الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض(١٦٥)** ﴾(الأنعام). فبحسب مفهوم كل خليفة عن الخلافة، واتساع وضيق هذا المفهوم، وعمله بمقتضاه، تكون درجته بين الخلفاء. ومهمة الخلافة فى المقام الأول: حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى، ويتضمن ذلك التزام الحاكم والمحكوم بمبدأ الشورى، وأن الحاكم وكيل عن الأمة أو

الشعب، وللأمة أو الشعب حق **إلغاء** هذه الوكالة وعزل الخليفة أو الحاكم، كما أن له حق محاسبته، ومساءلته. وتُستَمد شرعية إقامة الحكومة الإسلامية من إجماع المسلمين بعد وفاة النبيّ ﷺ على وجوب انتخاب رئيس للدولة، ولم يعوّلوا على **القوة**، وأن **يغتصب** أحدهم الحكم عنوة، ولم يرضوا بتحكيم **العقل**، وإنما كان إصرارهم على تحكيم **الشرع**، وضمان أن يكون **الحكم لله ولرسوله بالقرآن والسنّة**. ورفضت **المعتزلة** فكرة قيام حكومة إسلامية، بدعوى أن **العقل** وحده يمكن أن يُرجع إليه فى كل مسائل الدنيا مثلما يُرجع إليه فى كل مسائل الآخرة، والقاعدة الشرعية التى يحتكمون إليها: **أن كل ما هو شرعى لا يصادر العقل، وكل ما هو عقلى لا يصادم الشرع، ولا خصومة بين العقل والشرع**. وذهب البعض إلى القول بأن الدولة الإسلامية قد يكون من الواجب إقامتها، ولكن نظام **الخلافة** ليس أنسب أنظمة الحكم، وكان **الخوارج** على الرأى بأنه ما من ضرورة لوجود خلافة ولا أية حكومة، فكانت هذه الفرقة **هى أول فرقة فوضوية** فى العالم قبل مجىء **الفوضويين الروس فى القرن التاسع عشر**. ومن أكبر المعارضين لنظام الخلافة والدولة الإسلامية الشيخ **على عبد الرازق** فى كتابه **«الإسلام وأصول الحكم»**، بدعوى أن الإسلام نظام دينى لا شأن له بالحكم، وأن **أبا بكر** لم يخلف الرسول ﷺ حقاً بعد وفاته، فالوحى انقطع بوفاة الرسول ﷺ ، وإنما كان أبو بكر **منشىء دولة**، وهو عمل سياسى محض لا عملٌ دينى. وساعد الخلفاء من بعد أبى بكر على تثبيت فكرة الخلافة لميول فى أنفسهم **للحكم الاستبدادى**، فعلّموا الناس **أن طاعة الخلفاء** يوجبها الدين، وواضح أن هذا الكلام متأثر بالفكر الأوروبى القائم على فكرة **فصل الدين عن الدولة**، والأمر يختلف فى الإسلام، فالنبيّ ﷺ كان المبشّر والنذير **ومؤسّس الدولة الإسلامية**، وهو الذى أرسى **قواعد دعائم الوحدة الدينية للأمة**، وأول من صاغ **مصطلح الأمة الإسلامية**، والدين والدولة إذن متلازمان فى الإسلام.

وإذا كان الأمر **شورى فى الخلافة** فقد أكد ذلك **عمر بن الخطاب** حينما حدد صفات معينة ينبغى أن تتوافر فى كل من الناخب والمرشح للخلافة. وفى كتاب **«الأحكام السلطانية» للماوردى** من هذه الشروط: أن لا يكون الناخب ولا المرشح للخلافة فاسقاً فيما يعمل أو يعتقد، وأن يكونا على درجة من العلم. ومن شروط الناخب أن يكون لديه الوعى والقدرة على اختيار الخليفة من بين المرشحين وإنْ كثروا، وأن تكون للمرشح الرخصة والصلاحية لتولى منصب الخلافة والرئاسة. وكانت الطريقة التى اتبعها عمر بن الخطاب، من أحسن طرق انتخاب الخليفة، وكانت على مرحلتين، فى الأولى تُرشّح

أهل الشورى القادرون على التمييز فعلاً بين المرشحين للخلافة، وفى الثانية يُكلَّف هؤلاء باختيار الأصلح من بين أصحاب الأسماء المعروضة، ومن شروط الترشيح بالإضافة إلى ما سبق: أن يكون المرشح **ذكراً**، لأن المرأة تقصر جهودها دون الوفاء بمتطلبات أعباء المهنة وخاصة فى الحرب، إلا أنها يمكن أن تنتخب، وليس من بين آيات القرآن ما يمنع أن تكون المرأة خليفة، وخاصة أن **ملكة سبأ** أظهرت من الحنكة والدراية ما يفوق ما يتمتع به الرجال منهما. ويجوز للمرأة فى الإسلام أن تؤم النساء دون الرجال. وهناك الحديث الذى يمنع صراحة رياسة المرأة للرجال - وإن كان حديثاً ضعيفاً. وقد ثبت أنه لا إجماع على بطلان خلافة المرأة، **فبنجلادش حكمتها** امرأة، **وتركيا، وإندونيسيا، وباكستان**. ومن شروط الخليفة اكتمال العقل، وأن لا يشكو عاهة، وأن يكون مسلماً، وفى بلد كمصر هناك **أقلية نصرانية**، ومن غير المعقول أن يُختار خليفة من بينهم وليس من الأغلبية. كما أن النصرانى لا يصلح خليفة لبلد توجهاته إسلامية. والخليفة المرتقب من أهم صفاته المعنوية: حبه للعدل بالمعنى المطلق، أو بالمعنى الاجتماعى، وأن يشتهر عنه العزوف عن الجور، وأن يتصف بالحكمة وبُعد النظر والميل إلى الإنصاف، وأن يكون وطنياً صادقاً فى وطنيته، شجاعاً غير هيّاب، كيّساً فطناً أريباً. ويتم ترشيحه للمنصب من قِبلَ جماعة، ويكون انتخابه بالأغلبية، ثم تكون **البيعة** له من قِبَل **أهل الحلّ والعقد**. وفى الخلافة الصحيحة تقوم سلطة الخليفة على **صحة عقد الوكالة** من الأمة له، **بأغلبية** الأصوات، وبموافقة **أهل الحلّ والعقد**، وهم نوّاب الشعب الذين يضعون للخلافة شروطها فى كل حين، ويؤكدون على بعضها بحسب حاجات الوقت، فإذا رأى هؤلاء أن من بين المنتخبين من قد لا يوافقه شرط، فيلزم حينئذ أن يعرضوا عليه شرطهم أولاً ليروا رأيه فيه، فإن لم يوافق أسقطوه من الاختيار وعهدوا بذلك إلى التالى عليه فى الحصول على الأصوات المؤيدة. وإذا تساوى عندهم اثنان من المرشحين فى عدد الأصوات، وفى توافق الصفات طبقاً للشروط، فقد يأتى **اختيارهم للأنسب بحسب حاجات الوقت**. فإن كانت البلد فى وقت حرب اختير **الأشجع**، أو فى وقت كثر فيه الجدل فى مختلف الموضوعات فقد يكون الأنسب للاختيار هو **الأعلم**. وفى كل الأحوال فإن الدافع للاختيار هو **الصالح العام**، وإذا كان الدستور يشترط تعيين **نائب للخليفة**، وهذا ضرورى، فإن من الأصلح أن يكون انتخاب النائب مترافقاً مع انتخاب الخليفة، ولمّا كان هذا النائب يمكن أن يئول إليه الحكم فى حالة مرض أو وفاة الخليفة، فإن شروط اختياره يجب أن تكون بنفس القدر من الدقة التى لشروط اختيار الخليفة، مع التنبيه إلى أن **نظام الوراثة** للخلافة باطل شرعاً بطلاناً تاماً، وأن الخلافة لمدة أربع أو خمس أو ست سنوات لا غير، ثم يعاد النظر فى الخليفة،

فإن كان محسناً وأفضل من المرشح الجديد لها، أعيد اختياره، وفي كل الأحوال لا يزيد استمراره في الحكم لأكثر من مدتين. وبمجرد إعلان اختيار الأمة للخليفة، تلتزم بمبايعته والخضوع له في حدود الشرع، والمبايعة هي إقرار للاختيار، فإذا تولى الخلافة يصبح رئيساً للدولة، وبذلك يصبح الخليفة مفوضاً منها في كل الأمور العامة في غير افتيات عليه أو معارضة له، ليقوم بما وُكل إليه من وجوه المصالح وتدبير الأعمال، واختيار الوزراء المناسبين، بشرط موافقة أهل الحل والعقد ونواب الأمة على اختياراته.

●●●

٢١٨١. «الاستخلاف من أصول الحكم في الإسلام»

في كل الدول الديموقراطية يحكم الرئيس وله نائب، ويتم انتخاب الاثنين معاً، ونائب الرئيس هو المستخلف بعد الرئيس. وفي الإسلام: قيل إن العمل جرى على الاستخلاف بثلاث طرق، **الأولى: طريقة النبيّ ﷺ**، وفيها أشار وألمح إلى أن يخلفه أبو بكر ولكنه لم يصرّح، وقال لعائشة لمّا مرض واشتد مرضه: «**ادعى لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً**»، ثم قال: «**ويأبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر!**»، وقال: «**معاذ الله أن يختلف الناس على أبي بكر!**» فتأكد أن المراد بالخلافة هو أبو بكر؛ **والثانية: طريقة أبي بكر**، وقد سمىّ عمر خليفةً من بعده؛ **والثالثة: طريقة عمر**، وكان يرى ضرورة الاستخلاف وقال لابنه: «**لو كان لك راعي غنم، ثم جاءك وتركها، لرأيت أن قد ضيّع، فرعاية الناس أشد**». وقال: **إن الله يحفظ دينه**». وفي رواية قال: «**أنْ لا أستخلف فإنّ رسول الله ﷺ لم يستخلف؛ وأنْ استخلفُ فإن أبا بكر قد استخلف**»، فالفعل والترك عند عمر كان مشكلاً، وإنما يزيله أن دليل الترك فعله النبيّ ﷺ فلم يستخلف، **ودليل الفعل يؤخذ من عزمه** ﷺ على الاستخلاف، بما قاله لعائشة عن عزمه، وهو لا يعزم إلا على جائز، ولقد فَهِم أبو بكر من عزمه ﷺ **جواز الاستخلاف**، فاستعمله، وقَبِله الناس؛ ورجح عند عمر الترك، ولكنه لم يرد أن يترك الناس كالراعي الذي يترك غنمه، فحصر الاستخلاف في ستة، أمرهم أن يختاروا منهم واحداً، واختار عمر الستة بحيث اجتمع في كل واحد منهم أنه من أهل بدر، ومن أهل أُحد، وترك لهم أن يقدّموا منهم الأفضل للخلافة، فكان طريق عمر طريقاً وسطاً، فقد رأى أن الاستخلاف أضبط لأمر المسلمين، فجعل الأمر معقوداً للستة، اقتداءً بالنبيّ ﷺ وأبي بكر، فأخذ طرفاً من فعل النبيّ ﷺ وهو ترك التعيين، وأخذ طرفاً من فعل أبي بكر وهو العقد لأحد الستة وإن لم ينصّ عليه.

وعلى ذلك فإن الأمر في الإسلام بشأن الرئيس يجوز فيه: أن يُسمِّى الرئيس مَن يخلفه، بشرط أن لا يكون من أهله ولا أولاده، وأن يكون أفضل من يراه صالحاً للرئاسة

بعده؛ أو أن يعهد الرئيس إلى جماعة لينتخبوا من بينهم أفضلهم للرئاسة كما فعل عمر.

وبناءً عليه فالاستخلاف جائز فى الإسلام، وينعقد بعقد الصفوة، أهل الحل والعقد، لواحد لا يُستخلف غيره، أو ينعقد بجعل الأمر شورى بين عدد محصور أو غير محصور، وفى كل الأحوال يجب تنصيب رئيسٍ للبلد، فذلك واجبٌ شرعاً وعقلاً، لمن يستحق عقد الرئاسة له.



٢١٨٢.﴿الشورى من أسس الإسلام السياسى﴾

الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شُرت الدابة، وشوّرتُها؛ إذا أحطتُ بها علماً عن تجربة، كأن أُجريها لأعلم كيف تجرى وسرعتها إلخ، والمسافة التى تقطعها يقال لها مشواراً.

والشورى من قواعد الشريعة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ (٣٨)﴾(الشورى)، وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (١٥٩)﴾(آل عمران)، وفى الخبر. ما تشاور قومٌ قط إلاّ هُدُوا لأرشد أمورهم، ويقال:

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى لبيب أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فإن الخوافىَ قوةٌ للقوادم

والمشاورة تكون من كل أمور الدنيا وأخصّها السياسة، والنبىّ ﷺ كان يستشير، وكذلك الصحابة من بعده، وتشاوروا فى نظام الخلافة، وفى الردّة، وفى الميراث، والحدود، وفى الحرب والسلام. وما أخطأ امرىء قط إذا حزبه أمر فشاور فيه ذوى الرأى وفعَل الذى يرون، فإن أصابَ فهم المصيبون، وإن أخطأ فهم المخطئون. والمشورة بركة، واصطلاح الشورى أكبر وأعمق من اصطلاح الديموقراطية. والديموقراطية أو حكم الشعب يقوم على الشورى ظاهراً، وتطبيقاً فإن مجالس الشعب هى مجالس أصحاب المصلحة الواحدة. وفى التاريخ الإسلامى كان أهل الحلّ والعقد المرجعية فى الشورى، بينما فى المجالس النيابية المرجعية للحزب الذى يمثّل أصحاب المصلحة، فبئست شورى الديموقراطية! وفى الحديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاؤكم، وأمركم شورى بينكم، فظَهْر الأرض خيرٌ لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها». وحتى فى الزواج فإن البكر تُستأمر، يعنى تستشار، والمشورة حقّ فى الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ (٢٣٣)﴾(البقرة). وفى كل الأمم فإنهم إذا لم يتشاوروا شقّ عليهم، كقول ملكةسبأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾(النمل).

والأمر من الله بالشورى حتى بالنسبة للنبيّ ﷺ وهو الموحى إليه، كما فى الآية السابقة من سورة آل عمران. والشأن مع **المستشار** كالشأن فى الشورى، والاختيار للمجالس النيابية **فى** ظل الديموقراطية **لا يشترط له الأصلح ولا الأكثر علماً**، بينما فى الإسلام تشترط **العلمية** كصفة أساسية فى المستشارين الذين هم أعضاء المجالس النيابية، فما بالنا بمجلس نيابى فيه **أميون**، ونصفه لا يحملون الابتدائية؟! وفى الحديث: «**المستشار مؤتمن**»، لأنه من أهل العلم والخبرة، وقلما يكون ذلك إلا فى عاقل، وما كَمُل عِلم امرىء ولا دينه ما لم يكمل عقله، فإذا استشير العاقل، العالم، الخبير، التقيّ، واجتهد فى الصلاح، وبَذَل جهده، حَسُنت مشورته، ويقال:

شاور مُشيرَكَ فى الخفىّ المُشكل ... واقبل نصيحةَ ناصح متفضّل

فالله قد أوصى بذاك نبيَّه ... فى قوله «شاورهم» و«توكّل»

وما أحرى أن يكون هذان البيتان شعاراً للمجلس النيابى فى بلادنا! وإنه لأمرٌ غريب أن تؤلف وزارات فى بلادنا، ويختار لها وزراء، **بلا استشارة** من أحد، مع أنه ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار، وما شقى عبدٌ بمشورة، وما سعد باستغناء رأى. واستن عمر الشورى لانتخاب رئيس الدولة **لأول مرة فى العالم**. والشورى تقوم على **اختلاف** الآراء، والرأى فيها بالأغلبية، وما ينتهى إليه المشيرون من رأى يُلزِم الكل، وعلى الحاكم أن يعزم على تنفيذه، وينهض عليه، ويمضى فيه، ويتوكل على الله كقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴿١٥٩﴾﴾(آل عمران)، والعزم هو ما بعد الشورى، وهو الحزم، أى التنفيذ بلا هوادة.



٢١٨٣. ﴿البيعة لولي الأمر والانتخاب الحر﴾

المبايعة مصطلح إسلامى ويضاهى إدلاء الناخب بصوته فى الانتخابات الرئاسية وفى أوقات الأزمات والاستفتاءات الوقتية؛ وفى اللغة المبايعة **معاهدة**، سميت بذلك تشبيهاً للمعاوضة المالية، كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴿١١١﴾﴾(التوبة). وانتخاب الرئيس أو مبايعته يعاوضها أن يكون هذا الرئيس فى خدمة شعبه، وأن لا يطغى ولا يظلم، ولا يطمع أن يكون رئيساً أبدياً، أو أن يئول الحكم إلى أبنائه من بعده، وأن يقوم بما هو مفروض عليه من تأمين الناس والبلاد، وأن يضمن لغير القادر التعليم والعلاج ومعاش البطالة والشيخوخة، وأن تكون الملكية من حق الجميع، وفُرَص الحُكم على المشاع بين الناس، ومصادر الثروة القومية فى أيدى أبناء الأمة، وأن

يرسّخ وطنية الحُكم وشعبيته، ويحارب الفقر والجهل. ويضمن للناس فُرَص العمالة، ويدعو إلى تشريع ضرائبى عادل يوازن توزيع الثروة القومية بين الشعب، وأن يسهّل الحراك الاجتماعى، ويقرّب بين الطبقات والدخول، فلمثل هذا الرئيس تبايع الأمة.

ونحن كمسلمين علينا واجب الانتخاب. وفى الحديث: «**ما من مسلم إلا ولله عزّ وجلّ فى عنقه بيعة**»، وللرئيس المرشّح أن «يشترط لنفسه»، يعنى أن يكون له «**برنامج انتخابى**»، فعن **عبد الله بن رواحة** أنه قال للنبىّ ﷺ ليلة العقبة: اشترط لربّك ولنفسك ما شئت». يعنى أنه حرّ أن يقنن للبيعة بما يرى، فقال النبىّ ﷺ: «**اشترط لربىّ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». يعنى أن برنامج الرسول ﷺ كان الإقرار بوحدانية الله، وبما يفرضه هذا الإقرار من التزامات معينة، والأخذ بتشريعات محددة، وأن يكفل الناس للدعوة والدعاة الأمن والأمان. وسألوا النبىّ ﷺ: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ - يعنى ما هو المقابل الذى سيعود علينا؟ فقال: «**الجنة**»، يعنى رضا الله فى الدنيا والآخرة، ولهم فيهما ثوابهما. فقالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. - يعنى نعم العوض، ويلزمنا هذا العهد لا نتحلل منه ولا نتهاون بشأنه، ونزلت الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم**(١١١)﴾ (التوبة)، والآية ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**(١٠)﴾(الفتح). والبيعة المشار إليها هى بيعة الرضوان، **وكانت تحت** شجرة سمرة بالحديبية، والذين بايعوه ﷺ **ألف وأربعمائة** من الصحابة، فنزلت الآية: ﴿**لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**(١٨)﴾(الفتح).

وللبيعة صيغة قولية، وهى البيعة على **السمع والطاعة** فيما يستطيعون، وعلى **الهجرة**، وعلى **الجهاد**، وعلى **الصبر وعدم الفرار** ولو وقع الموت، وعلى **بيعة النساء** على الإسلام.

ويبدو أن البيعات فى الإسلام كانت **ثلاثاً**، **فالأولى**: «**بيعة العقبة أو الرضوان**»، وتسمى «**بيعة الأنصار**»، وكانت قبل الهجرة إلى المدينة، وبايعوا على السمع والطاعة فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن يقولوا الحق ولا يخافون فى الله لومة لائم، وعلى أن يمنعوه إذا قدم عليهم يثرب، فيمنعونه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، فهذه **بيعة الأنصار** له؛ والبيعة **الثانية**: هى «**بيعة الحرب**»، وكانت بعد فرض الحرب على المسلمين بعد الهجرة، وبايعوه على **الإسلام** والجهاد، وعلى **عدم الفرار والموت**، ومن ذلك كانت الأنصار تقول يوم الخندق.

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما حيينا أبداً

والبيعة **الثالثة**: هى «**بيعة النساء**»، وكانت بعد فتح مكة، بعد أن نزلت الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**

إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن﴾(الممتحنة)، وفى رواية أحمد عن إحداهن قالت: أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما فى القرآن، وقال: **فما استطعتن وأطقتن**. وفى رواية أخرى قالت: فلما شرط علينا أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف، قال: «**ولا تغششن أزواجكن**». وفى رواية أخرى بزيادة: «**فيما استطعتن**». وفى رواية أخرى قالت: ونهانا عن النياحة.

فهذه هى الصيغ القولية للبيعة الإسلامية، وهى برنامج عمل تنصلح به المجتمعات فى السلم والحرب، وتندرج تحتها صيغ فعلية فى كل مجالات النشاط الإنسانى: التعليمى والاقتصادى والاجتماعى والحربى، وعلى مثل ذلك تكون المبايعة لرئيس الدولة هى مبايعة على السُّنّة، ومن قِبَل الله تعالى، وتخلو من العورات التى تحفل بها الدساتير والشرائع الوضعية. وواضح أن حق الانتخاب مكفول للنساء دون تمييز، ومطلوبات المرأة فى المبايعة وإن كانت توافق مطلوبات الرجال، إلا أن بها بعض الخصوصية التى تتعلق بطبيعة النساء، كما أن مطلوبات الجميع فى السلم تتباين عن مطلوباتهم فى الحرب، والبيعات الثلاث لذلك من أجَلّ ما يُمتَدَح به الإسلام، وليس لهن نظير البتة فى اليهودية ولا فى النصرانية، ورحم الله شوقى وهو يقول:

الدين يسرٌ والخلافة بيعةٌ ∴ والأمر شورى والحقوق قضاء

فهذا هو الإسلام، وهذا هو القرآن الذى تضمّن كل ذلك ودعا إليه! والحمد لله على نعمة الإسلام ونعمة القرآن!

●●●

١٧. دليلٌ على خلافة أبى بكر

الآية: ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩)** ﴾(النساء) دليلٌ على خلافة أبى بكر، وذلك أن الله تعالى لمّا ذكر مراتب أوليائه فى كتابه، فبدأ بالأعلى منهم وهم النبيون، ثم ثنّى بالصدّيقين ولم يجعل بينهما واسطة، والمسلمون مجمعون على تسمية أبى بكر بالصدّيق، كما أجمعوا على تسمية محمد ﷺ رسولاً، وإذا ثبت هذا وصحّ أنه الصدّيق، وأن اسم الصدّيق ليس لأحد غيره فى الإسلام، وأنه الثانى بعد رسول الله ﷺ، لم يجز أن يتقدم بعده أحد فى الخلافة، وبذلك تصحّ خلافته للرسول ﷺ.

●●●

٢١٨٤. ﴿دليل على أن أبا بكر هو الخليفة﴾

فى قوله تعالى: ﴿ **إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا(٤٠)** ﴾(التوبة)، أن «ثانى اثنين» تدل على أن الخليفة بعد النبىّ ﷺ هو أبو بكر الصدّيق، لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا الرجل الثانى، ليقوم بالأمر بعد وفاة النبىّ ﷺ، كقيام النبىّ ﷺ به أولاً، فلما مات النبىّ ﷺ ارتدت العرب كلها، ولم يبق الإسلام إلابالمدينة ومكة، فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام، ويقاتلهم على الدخول فى الدين كما فعل النبىّ ﷺ، فاستحق من هذه الجهة أن يقال فى حقّه «ثانى اثنين» و«خليفة رسول الله».

•••

٢١٨٥. ﴿أبو بكر خليفة رسول الله وليس خليفة الله﴾

خلقنا الله تعالى خَلَفاً بعد خَلَف، يقول: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ(٣٩)** ﴾(فاطر)، **والخَلَف** هو التالى للمتقدّم، فلما قيل لأبى بكر: **يا خليفة الله**، قال: «لست بخليفة الله، ولكنى **خليفة رسول الله** ﷺ، وأنا راضٍ بذلك»، وقياساً، يكفى حديثاً أن يسمى رئيس الدولة الإسلامية «**خليفة**» فقط، أو أن يعطى أى اسم آخر، كاسم رئيس الجمهورية، أو الأمير، أو الإمام، أو حتى الملك، بشرط العمل بمقتضى الشرع، وفى إطار ثقافتنا وتاريخنا.

•••

٢١٨٦. ﴿آية الخلافة فى استخلاف الشعوب وليس الحكام﴾

الآية: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا(٥٥)** ﴾(النور) يفسّرها الحديث: «**زُويَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلك أمتى ما زُوى لى منها**»، فالمعنىُّ فى الآية هو الأمة أو الشعوب الإسلامية، والاستخلاف هو استخلافٌ للشعوب وليس لأفراد الحكام، واستخلاف الشعوب هو أن يُملّكوا البلاد وينفرد أهلها بحكمها. وهذا ما وُعِد به نبيّنا ﷺ، وما يترسّمه نظام الخلافة أو نظام الحكم، وما تنهض له الدعوة، وما تطبّقه الشريعة، وأثبتت الأيام أن كل ما وُعِدَ منها نُفِّذ بقدره وعلى حاله. والخلافة **للخلفاء الأربعة** تعنى أنها «**خلافة النخبة**» بمبايعة الشعب، وأن يكون أساس الحكم الشورى، فالمبدأ إذن فى الإسلام: أن **الحاكم يُنتَخب من النخبة**، والآية عامة لأمة الإسلام غير مخصوصة بالخلفاء الأربعة فقط، ومن الأصل المعلوم التمسُّك **بالعموم**. وقوله ﷺ: «**الخلافة من بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكاً**» ليس المقصود به أن يُملَّك على

المسلمين ملوكاً، وإنما الخلافة من بعد وفاته تكون لأصحابه من النخبة، وتدور فى دائرتهم، لاستكمال ما بدأه، ولترسيخ المفاهيم والدين، ثم تكون مُلكاً للشعب ينتخب من يشاء من الأصلح. والحديث صادق فى مجموع سنين خلافة الخلفاء: سنتان لأبى بكر، وعشر سنوات لعمر، واثنتا عشرة سنة لعثمان، وست سنوات لعلىّ، فالمجموع ثلاثون سنة، ثم بعد ذلك غُلبت الشعوب للأسف على أمرها، وصار المُلك نهباً لمن يغتصبه، ثم صاروا يحتكرونه لأبنائهم، وحسبنا الله!

•••

٢١٨٧. «بيعة الرضوان تحت الشجرة أول انتخاب حرّ فى التاريخ»

الرضوان: مصدر من الرضا؛ والبيعة: هى التولية؛ وبيعة الرضوان: هى التى دعا إليها الرسول ﷺ لمّا أرسل عثمان بن عفان ليبلّغ عنه أنه يريد مكة لأداء العمرة، وأنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظّماً لحرمته، فاحتبست قريش عثمان عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أنهم قتلوه، وقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، أى التى يُبتغَى بها «رضوان الله»، وتمت «تحت الشجرة»، فكان الناس يقولون: إن رسول الله ﷺ بايعهم على الموت، وقال آخرون: لم نبايع على الموت ولكنا بايعنا على أن لا نفر. ولم يتخلّف أحد من المسلمين ممن كانوا مع الرسول ﷺ إلا الجد بن قيس، وكان تعداد من معه نحو ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة. وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان فى حاجة الله تعالى وحاجة رسوله»، وضرب بإحدى يديه على الأخرى. وكان الناس قبل أن يسألهم البيعة قد تفرّقوا يطلبون ظلال الشجر، فلما سألهم البيعة أحدقوا به، وكانت هذه البيعة أول انتخاب حرّ فى التاريخ. وقال رسول الله ﷺ لمن بايعوا: «أنتم خير أهل الأرض اليوم»، وقال: «لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾(الفتح)، وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾(الفتح)، فالذى بايع إنما بايع الله بواسطة رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴿١١١﴾﴾(التوبة)، وفى الحديث: «من سلّ سيفه فى سبيل الله فقد بايع الله»، وتمت البيعة تحت شجرة سَمُرَة بالحديبية. وكان أول من بايع رسول الله ﷺ أبو سفيان الأسدى، فهو أول حرّ ينتخب فى أول انتخاب حرّ فى التاريخ.

•••

٢١٨٨ ﴿أول دعاية انتخابية في التاريخ﴾

هي دعاية **عمر بن الخطاب** لأبي بكر، فلما مات النبي وارتبك الناس من يختارون بعده خليفة، اعتلى عمر المنبر، وكان ذلك في الغد من وفاة رسول الله ﷺ، فتشهّد وأبو بكر صامت لا يتكلم، فقال: «**كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدبُرَنا** ـ يريد بذلك أن تكون وفاته ﷺ بعدهما: عمر وأبي بكر، وقال: «**فإن يكُ محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً، به تهتدون بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولَى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه**» ـ فقاموا وبايعوه.

وكانت طائفة من الناس قد بايعوه قبل ذلك في **سقيفة بني ساعدة**، وأما في هذه البيعة، فبايعه الناس عامة. **وكانت خطبة عمر أول دعاية انتخابية في التاريخ**، وجرت وقائعها في **التاسع من مايو سنة ٦٣٢ ميلادية**، أي منذ نحو ١٣٧٠ سنة!! ولم تكن الانتخابات معروفة في أي مكان في العالم في ذلك الوقت!



٢١٨٩. ﴿الردّة وأهلها والمرتد﴾

الردّة الاسم من الارتداد، والمرتد الذي حاد عن دينه، وفي الآية: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢١٧) ﴾(البقرة)، تحذيرٌ من المشركين أنهم سيدأبون على قتال المسلمين ليردّوهم عن دينهم إن كان بوسعهم ذلك؛ **والمرتد** هو الذي يطاوعهم عليه فيبطُل عمله ويحبط ويفسد في الدنيا والآخرة، **والحَبْط** أصلاً نوعٌ من الفساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها الكلأ، فتنتفخ أجوافها وربما تموت من ذلك، والآية إذن نوع من التهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام، وإلا **فالمرتد بعد إيمان** فإنه كافر، إلا إن كان مكرهاً، كقوله تعالى: ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٠٦) ﴾ (النحل)، و«**الكفر من بعد إيمان**» في الآية تاريخياً، هو الذي كان من بعض المسلمين لما ارتدوا عن بيعة الرسول ﷺ، وقيل كانوا أربعة، هم: **عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن خطل، وقيس بن الوليد بن المغيرة**. وأما «**الكفر عن إكراه**» فهو الذي أباه **عمّار بن ياسر**، وكانت قريش قد أخذوه وأباه **ياسر**، وأمه **سمية**، وصهيباً، وبلالاً، وخبّاباً، وسالماً، فعذّبوهم، وقُتل **ياسر وسمية فكانا أول قتيلين في الإسلام**، وكانت قريش تغصبهم على أن ينطقوا كلمة الكفر، فأبوا رغم العذاب، إلا

عمّاراً، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه، وهذه هنة فى شخصية عمار، وسنجده من بعد بسبب هذا الضعف فيه، ينضم إلى الفتنة ويقاتل المسلمين مع علىّ. وقيل إن الرسول قال لعمّار من بعد يطمئنه: «**كيف تجد قلبك؟**» قال عمار: مطمئن بالإيمان! فقال رسول الله ﷺ: «**فإنْ عادوا فَعُدْ**». وفى الارتداد عن غصب قيل إن النبىّ ﷺ قال: «**رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه**»، **والغصب** هو أن يخشى المسلم على نفسه القتل، فيُظهر الشرك ويكون مرتداً فى الظاهر، بينما هو على الإسلام فيما بينه وبين الله، ومثلْ **﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾** (النحل ١٠٦) قوله: «**إلا أن تتقوا منهم تُقاةً**» (آل عمران ٢٨)، **والمكرَهون** على الكفر هم «المستضعفون» فى الآية: **﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴿٩٨﴾﴾**(النساء)، والمكره المستضعف هو الذى لا يمتنع عن فعل ما يؤمر به سواء كان رجلاً أو امرأة أو ولداً. والإكراه فى **الفعل والقول** سواء، ولا إثم على من يُكره فى هذه الحالة، كدليل على الكفر، على أن يشرب الخمر مثلاً، أو أن يترك الصلاة، أو يفطر فى رمضان، إلا أن يؤمر بقتل، فعليه فى هذه الحالة، الصبر على البلاء ويسأل الله العافية. وأما من يؤمر بزنا فيستحيل أن يفعله، لأنه لن ينتصب أصلاً مع التهديد، ولا زنا بلا انتصاب، فإذا كان المُكره امرأة وأُكرهت على الزنا فلا حدّ عليها، لقوله تعالى: **﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾**، ولقوله: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾**(النور). ولما عذّب المشركون **سمية أم عمار**، سبّوها وقالوا لها إنها أسلمت من أجل الرجال، فحاولوا معها الزنا، وربطوها بين بعيرين، وعرّوها، وطعنوا فَرجها بحربة حتى خرجت الحربة من فمها، ولم تنطق سمية كلمة الكفرْ. والذى يُكره على الكفر ويجريه على لسانه، عليه أن ينطق به **كالمعاريض** - جمع معرض، من **التعريض** وهو خلاف **التصريح**، تقول عرفت ذلك فى معراض كلامه، ومعرض كلامه، يعنى أثناء كلامه، فإن قيل له: قل: لا أقر بمحمد نبياً، أو قل: إن عيسى ابن الله، فليقل ذلك بلا اكتراث ولا احتفال، وكأن الكلام لا يعنيه، وقيل لى إن **المسلمين فى البوسنة** كانوا: يُجبرون على نطق الكفر، فكانوا يقولونه بلا اهتمام، ويحرّفون فى الكلام، وقلوبهم تستغفر، والقرف يتملكهم. فمن يُجبَر على الكفر واختار القتل فأجرُه عند الله. وأما من شرح صدره للكفر ونطق به عن رضا، محبةً فى الحياة الدنيا على الأخرة، فهؤلاء طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ولم يكونوا من المسلمين أصلاً، وكانوا من الغافلين الخاسرين والمنافقين.

فأمّا الآية: **﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾**(التوبة)، فلم يكن كُفر هؤلاء المعتدين أو المعذبين ارتداداً، وكان جُرمهم كما تقول الآية: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ**

كنتم تستهزءون (٦٥)﴾(التوبة)، والآية نزلت في غزوة تبوك، فبينما كان المسلمون متجهين إليها سخر منهم نفر من **المنافقين** كانوا في صحبتهم، وقالوا: انظروا هذا، يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر! يريدون بذلك الرسول ﷺ، فالتفت إليهم معاتباً، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فقال لهم نبي الله: «**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**»؟!، وقيل الذي كان يخوض ويلعب هو **وديعة بن ثابت** وكان من المنافقين. والهزل بالكفر كفر، والهزل أخو الباطل والجهل. وقوله: «**لا تعتذروا**» دليل على أنهم أكثر من واحد، وقيل كانوا **ثلاثة**، هزىء اثنان، وضحك واحد، فالذي عُذر هو الذي ضحك ولم يتكلم، قيل هو **مخشَى بن حُمير**، أو ابن **مَخْشي**، أو هو مخاشن بن حمير، أو ابن خمير، والإجماع على أنه تاب وسمّى نفسه **عبد الرحمن**، ودعا أن يُقتل شهيداً، واستشهد باليمامة فيما بعد، والمؤكد أنه كان منافقاً قبل أن يتوب، لأن الآية التالية تقول: **﴿المُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)﴾**(التوبة)، فثبت ذلك عليه وعلى شريكيه، وكُفر هؤلاء لم يكن إذن من باب الارتداد ولكنه من **الطبع**، فإن يكن قد أعلنوا الإسلام إلا أنهم لم يكونوا قد آمنوا. وقد عفا الله عن **مخاشن** هذا لمّا تاب: لأنه فقط **لم ينطق كلمة الكفر** واكتفى **بالضحك**، وأما الاثنان الآخران فكانا منافقين عن حق، فصدق عليهم الكفر عن حق، واستحقا اللعنة ووُعدا النار خالدين فيها.

و«**المرتد بعد إيمان**» يستتاب ولو **مائة مرة**، والأمر فيه على اختلاف بين الفقهاء وقالوا يُقتل، بالحديث: «**من بدّل دينه فاقتلوه**»، **ولا يوجد في القرآن نصٌّ** بذلك، إلا أن **عمله يحبط**، والإجماع على أن **المرتدة لا تُقتل**، وقد نهى الرسول ﷺ عن قتل النساء والصبيان، **وابن عباس** لم يقتل المرتدة، وفعل **عليّ** نفس الشيء. ومن قال بالقتل يحتج بالحديث: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: كُفر بعد إيمان...**» الحديث. ومن قال بأن أعماله تحبط في الدنيا والآخرة، قال إنه إذا عاد إلى الإسلام لم يحبط عمله، فإذا **مات وهو مرتد**، قيل: يرثه أهله من المسلمين، وإلاّ ورثه أهله من الكفّار.

وفي الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾** (المائدة) دليل آخر عن أن **القتل ليس شرعة الله في المرتد**، وقيل **الآية** من إعجاز القرآن لأنها أنبأت عن الردّة تكون في غير عهد النبيّ ﷺ كحركة كبرى، وقد جرت في عهد أبي بكر، **وأهل الردّة** كانوا بعد موته ﷺ، فلما قُبض ارتدت العرب إلا مسجدين: **مسجد المدينة**، ومسجد **مكة**، وقيل **ومسجد جؤاثي**

ـ من جواثا بالمدينة، ومنه جُمعت أول صلاةَ جمعة. وكان المرتدون على قسمين، فقسمٌ نبذ الشريعة كلها وخرج عنها كما يطالب العلمانيون الآن، وقسمٌ نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها، وقالوا نصوم ونصلى ولا نزكّى، فقاتلهم أبو بكر جميعاً، وبعث خالد بن الوليد إليهم بالجيوش على ما هو مشهور من أجنادهم، وكانت عاقبة المرتدين استبدالهم من الله بمن يحبهم ويحبونه، ويلتزمون بشريعته ويؤدون الزكاة على ما شرع، والمقصود بهم مستقبلاً أبو بكر وأصحابه، ونعتهم بأن من أخلاقهم أن يرأفوا بالمؤمنين ويرحموهم ويلينوا لهم، ويغلظوا على الكافرين، ويجاهدوا فى سبيل الله بلا خوف من ملامة، وهى صفات ألصق بأبى بكر وعمر وعثمان، والأحرى أن الآية عامة فى كل من يجاهد الكُفر إلى قيام الساعة.

●●●

٢١٩٠. ﴿لم ترتد امرأة من المهاجرات بعد إسلامها﴾

لما نزلت الآية: ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ (١٠) ﴾(الممتحنة) هاجرت نساء كثيرات من مكة إلى المدينة، وهربن من أزواجهن، منهن: سُبيعة بنت الحارث الأسلمية وكانت تحت صيفى بن الراهب، وقيل مسافر المخزومى؛ وأم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيْط، هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها؛ وأميمة بنت بشر امرأة ثابت بن الشمراخ، فتزوجها سهل بن حنيف.

ولم يُعرف أن مسلمة ارتدت بعد إسلامها إلا ثلاث: أم الحكم بنت سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد فقيل إنها ارتدت؛ وبروع بنت عقبة وكانت تحت شماس بن عثمان؛ وعَبْدة بنت عبد العُزّى بن نضلة، وكانت تحت عمرو بن عبدود، وهؤلاء لم يكنّ مهاجرات، ولكن كافرات، ولم يُعرف لهن إسلام، وكل امرأة كافرة ظلت بمكة فلا يُعتَد بها زوجةً لمسلم، وقد طلق عمر امرأتين له بمكة مشركتين هما: قُريبة بنت أبى أمية فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وهما على شركهما بمكة، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية، أم عبد الله بن المغيرة، فتزوجها أبو جهم بن حذافة وهما على شركهما. فكما أن كل امرأة قيل إنها ارتدت لم تكن فى الحقيقة مسلمة، ومنهن من كانت تضمر الإضرار بزوجها، أو تلتمس الدنيا، على عكس المهاجرات من مكة اللاتى أعلنّ إسلامهن وتقدّمن للامتحان وأثبتن أنهن إنما هاجرن حباً لله ولرسوله.

●●●

٢١٩١. ﴿تغيير المجتمعات للأفضل بتحضير الرأى العام للثورة﴾

هذه قاعدة من قواعد الاجتماع الإنسانى، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١)﴾**(الرعد)، فلكى تنجح الدعوة للإصلاح وتؤتى ثمارها لابد أولاً أن يفهمها الكافة ويعلموا بصحة ما تنادي به، وعندئذ يوجد الميل القوى فى المجتمعات للتحوّل عن الوضع الذى هى عليه، فالاشتراكية مثلاً لابد لكى تنجح أن يكون هناك رأى عام يساندها، ورؤية واضحة لما تدعو إليه، ويتم ذلك خلال ما يقال أنه **مرحلة التحول الاشتراكى**، والآية تخبر أن الله لا يفرض الصواب على الناس فرضاً، فلابد أن يتوفر الميل إلى إتيانه أولاً، والله لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم التغيير أولاً، وهذا المبدأ من النواميس الكونية، وهو حقيقة أو بدهية، كقوله: **﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾**(الأحزاب).



٢١٩٢. ﴿المجتمعات كالأفراد لها آجال﴾

تبيّن بعد لأىٍّ لعلماء الاجتماع أن **المجتمعات كالأفراد لها آجال**، وفى القرآن: **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾**(الأعراف)، **والأمم تشيخ**، ولها مراحل شباب، وطفولة، وكذلك **الحضارات**، فالحضارة **اليونانية** سادت لفترة ثم شاخت ومرضت وانتهى أمرها، وتلتها الحضارة **الرومانية**، وقبل ذلك كانت الحضارة **المصرية** القديمة، **والفارسية**، ثم كانت الحضارة **الأوروبية** وهى حضارة **يهودية نصرانية**، وحتى الآن لم يزل الإسلام يحاول أن يبسط نفوذه، ولا تزال الحضارة الإسلامية فى عنفوانها، والناس يخلطون بين الحضارة **الإسلامية** والحضارة **العربية**، وكلاهما لم يمت، فما تزال الحضارة العربية تستوعب غيرها من الحضارات ولها إسهاماتها العالمية؛ ولم تمت الحضارة الإسلامية ولكنها تمتد، وتظهر عند شعوب لم يكن لها حساب، كالألبان، والبوسنيين، والشيشان، والأفغان إلخ. **وفلسفة القرآن فى قيام الحضارات وازدهار الشعوب تختلف مثلاً عن فلسفة «شبنجلر»** الذى يقول بمثل ذلك، غير أنه لا يربط بين الحضارات، وعنده أن نهاياتها جبرية كما يقول **فوكوياما**. فالحضارة لها **صيف وربيع وخريف وشتاء** تفقد فيه روحها وتجف، ولم يقل لنا شبنجلر لماذا تجف وتصبح **مدنية** بعد أن كانت حضارة؟ والإسلام والقرآن يبين ذلك ويفسّره ويوضحه ويوجزه فى هذه العبارة: **أن كل حضارة مآلها إلى الزوال فقط إذا عتت وظلمت، وأنكرت الله كما تفعل أمريكا الآن.**



٢١٩٣. ﴿نظام الحكم الملكى والجمهورى الوراثى﴾

فى الآية: **﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾**(النمل ٣٤)،

المقصود بالملوك الطغاة، ويجمع في يده كل السلطات، ويقيل الوزارات ويكلّفها، ويختار الوزراء، ويفصّل القوانين على هواه، ويزوّر الانتخابات، ويعيّن المحافظين والنواب وقواد الجيش والشرطة، ويجعل من نفسه حاكماً أبد الدهر، ولا يستقيم له ذلك إلا بالإفساد، وإذلال الرافضين، واتهام المنكرين، وممالأة الأعداء، وأن يكون عميلاً للمخابرات الأجنبية، وحافظاً لمصالح الدول الكبرى.

والنظامان الملكي والاستبدادى من أسوأ أنظمة الحكم، وهذا شأن كل نظام سياسى يفرضه شخص واحد، أو حزب واحد، أو أسرة واحدة، والأدهى أن يكون نظاماً وراثياً، وهو فى الغالب هكذا، ومن شأنه الحط من أقدار الشعب، فأن يملك رجل واحد أو يحكم حزب واحد أو أسرة واحدة، بلداً بأسره، فهذا هو نظام الرقيق على مستوى سياسى كبير. والإسلام لا يعرف هذا النظام، لأن الإسلام مبنى على الشورى الملزمة، والسلطة فيه لأهل الذكر والحل والعقد، وهم أصحاب أعلى الثقافات وأوسع الخبرات، بمعنى أن الحكومة فى ظل النظام الإسلامى هى «حكومة خبراء»، ولم تسقط الدولة الإسلامية إلا عندما فُهمت الخلافة أو الإمامة أو سلطة الحكم فى الدولة، على أنها نظام ملكى، أو استبدادي، أو جمهورى وراثي.



٢١٩٤. ﴿الهدية للحاكم وحكم الإسلام فيها﴾

الحاكم الدنيوى يقبل الهدية من مرءوسيه وأصحاب المصلحة، والحاكم بشرع الله لا يقبلها، وإذا قبلها فبشروط. ولمّا أرسلت ملكة سبأ إلى سليمان بهدية، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ (٣٥)﴾(النمل)، كان ذلك من حُسن نظرها وتدبيرها، لأن الصالحين لا يرضيهم المال. وكان النبىّ ﷺ يقبل الهدية، ولكنه كان يثيب عليها، يعنى يردّ الهدية بهدية، ولم يكن يقبل الصدقة، وكذلك سائر الأنبياء والصالحين، وأهل الفكر، وأصحاب المذاهب والمبادىء. وفى الحديث: «نُهيت عن زَبْد المشركين»، يعنى عطايا من لا يؤمنون بالله. والهدية فى حدّ ذاتها، وبين الأنداد والإخوان، مندوبٌ إليها، وتورث المودة، وتُذهب العداوة، وفى الحديث: «تصافحوا يَذهب الغلُّ، وتهادوا تحابوا تذهب الشحناء»، والشحناء هى البغضاء، وفى رواية: «تهادوا فإنه يُضَعِّف الود ويُذهب بغوائل الصدر»، ويضعّفه يعنى يزيده، وفى رواية قال ﷺ: «تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السخيمة»، والسخيمة الغِلّ. والخلاصة: أن الهدية لا تجب من صغير إلى كبير، ولا من متعلم إلى عالم، ولا من تابع إلى سيده، فهذه رشوة، وأما الهدية فتكون بين الإخوان والأنداد وهى آصرة.



٢١٩٥. ﴿من دلائل نبوة النبيّ ﷺ خلافة الخلفاء﴾

في الآية: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** (٥٥)﴾(النور) وعدٌ من الله تعالى أن يستخلف المؤمنين فى الأرض، يعنى أن يرثوا الحُكم وتكون لهم الغلبة، ويسود دينهم، وتعلو ثقافتهم.

وهذا الوعد قد حققه الله تعالى للمسلمين، فأظهر الله نبيّه على جزيرة العرب، فوضع العرب جميعاً السلاح وآمنوا، واتّسع مُلك المسلمين من الصين حتى الأمريكتين، وما يزال يتسع يومياً. وفى ذلك دلالة، **أولاً**: على صدق القرآن وأنه من عند علاّم الغيوب؛ **وثانياً**: على صدق النبيّ ﷺ وأنه مرسلٌ من عند الله ويُوحَى إليه، ثم إن الآية **ثالثاً**: دليلٌ على **خلافة الخلفاء بعد النبيّ** ﷺ، استخلفهم ربُّهم ورضى أمانتهم، وكانوا على الدين الذى ارتضى لهم، ولم يفضّل عليهم أحداً، واستقر الأمر لهم وقاموا بسياسة المسلمين.

•••

٢١٩٦. ﴿لا حكم إلا لله: كلمة حق أريد بها باطل﴾

هى قول العاصى يتعلّل بها: ﴿**لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** (٥٧)﴾ (الزمر)، كتعلّل القدرية فى قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا** (١٤٨)﴾(الأنعام)، إلا أنها كما قال **علىّ بن أبى طالب** للخوارج: «**كلمة حق أريد بها باطل**»، فقد قالوا: «**لا حُكم إلا لله**»، وقولهم ظاهر البطلان، لأن من سيتولى الحكم هم أنفسهم وليس الله، وكذلك الذى يقول: «**لو أن الله هدانى**»، أو «**لو شاء الله**»، فإن الله لا يضلّ، ولا يشاء الكُفر، والذى ضلّ هو المتعلل بهذا القول المتهافت، فالله يهدى بإرسال الرسُل، وهذه **هداية الدلالة**، ثم يهدى بإعانة من يريد الهداية، وهذه **هداية المعونة**، وكذلك فى الأحكام، فالله تعالى يُشرّع، ولكن الحاكم هو الذى يطبّق الشرع، فقد يفعل ذلك عن حقّ، وقد يفعله عن باطل، فإذا فعله عن حق أعانه الله، وإذا فعله عن باطل أبلسه وأرداه فى النار.

•••

٢١٩٧. ﴿الأراذل والأرذلون من مصطلحات الإسلام الثورة﴾

هذا مصطلح إسلامى خالص، وهو فى التاريخ من **مصطلحات الثورات**، ولأن كتّاب الثورات من الطبقة المثقفة الذين تربّوا على الاستكبار على ثقافة الشعب، ولغته وعاداته، فقد وصفوا **الطبقات الدنيا** من الشعب، وهم عصب الثورات الشعبية عبر التاريخ كله، بأنهم **الرعاع**، أو **الدهماء**، أو **الغوغاء**، فأما **الرعاع** فهم العامة، وأما **الدهماء** فهم

السواد، وأما الغوغاء فهم السفلة؛ وفى اللغات الأوروبية هم **populace**، او **mob** أو **populaccio**، أو **Volk** ؛ وفى المصطلح السياسى فإن حكومة أو حُكم الرعاع هو **mobocracy**، ومثل هذه الحكومة لا تسود إلا بالانقلابات الشعبية، كالتى كانت أيام الرومان،وفى الثورة الفرنسية،الثورة والروسية، والثورة الصينية، والثورة المصرية، ويضيف المقريزى والجبرتى إلى هذا الاسم للحكومة الشعبية، اسم «حكومة الأوباش»، فأما القرآن، فمصطلحه هو الأراذل، والأرذلون ،كقوله: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الشعراء)، وقالوا: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴿٢٧﴾﴾(هود)، من رَذُلَ ورَذَل رذالةً، أى استحق الاحتقار، فالأراذل هم المحتَقَرون،وهم كذلك بسبب احترافهم للحرف، ومنهم عند الجبرتى الحمّارون، والحجّامون، والحطّابون، والحمّالون، والسوقة عموماً، وفى المصطلح الدينى كذلك هم «ضعفاء الأمة»، من طبقة العبيد، والموالى، والرقيق، والإماء، والمكاتبين،والأُجراء،وبالاختصار هم «الشغّيلة»، والناس بحسب هذا المصطلح إما «مستكبِرون» وإما «مستضعَفون»، والمستضعفون:هم الأتباع والأجراء، والمستكبرون: هم الأسياد. والإسلام دين وثورة؛ والإسلام الثورة: جاء يخلّص هؤلاء الضعفاء أو المستضعفين، كقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴿٦﴾﴾(القصص)، أى أن هدف الإسلام هو: إقامة الميزان الاجتماعى والسياسى على الأرض، وأن يكون النظام الحاكم هو النظام الذى يمثّل الأغلبية،وهم الذين دأب المستكبرون العرب على تسميتهم بالأراذل، والمستكبرون الإفرنج دأبوا على تسميتهم بالرعاع **mob**؛ والأراذل فى عهد النبىّ ﷺ كانوا «الموالى»، والموالى هم الرقيق والعبيد والأجراء: كعمّار بن ياسر، وبلال، وسلمان، وصهيب إلخ، وقد رفض النبىّ ﷺ أن يطردهم من صحبته كما طَلَب كبراء أهل مكة، بدعوى خساسة أحوالهم وأشغالهم،ولما دعا نوح مثلاً لنفسه قال: ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (الشعراء)، يقصد «الأراذل»،وهم الذين آمنوا به دون غيرهم، وقال فيهم: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾(الشعراء)، فالداعية لا يسأل عمّا يعمل الذين يتّبعوه، وإنما هو مكلّف بدعوتهم إلى ما يدعو إليه، والاعتبار بأن يؤمنوا بدعوته، وليس بالحِرَف والصنائع التى يمتهنونها، وكأن كل هؤلاء الناقدين فى القديم والحديث، يتوجّه نقدهم لأشياع الثورة، سواء كانت دينية أو دنيوية،سياسية أو اجتماعية، بأنهم ضعفاء يطمعون فى العزّة والمال. والناس يُحاسَبون عند الله لا بحجم ثرواتهم، ولا بأنسابهم، ولا بصنائعهم، وإنما بإيمانهم وبأعمالهم الصالحة فى خدمة إعمار الكون، ولم يحدث فى التاريخ كله أن طُرِدت جموع

العامل من دائرة المواطنة لأنهم الأقل فى التحصيل أو فى المنصب الاجتماعى. وحسبنا الله.

•••

٢١٩٨. ﴿معنى طاعة أولى الأمر﴾

حقٌّ على رءوساء الحكومات والوزراء أن يسيّروا نظام الدولة بالعدل، والحُكم أمانة، ومن يتولى الحكم عليه أن يؤدى الأمانة، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (٥٨)﴾**(النساء) والآية أصلٌ من أصول الحكم، وتخاطب كل الحكّام، وفى المقابل فإن لهم عند الناس **حُسن الطاعة**، كقوله: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)﴾**(النساء)، والتقدير فى الآية أن يطيع الناس الله فيما نصّ عليهم من العدل، ويطيعوا الرسول فيما بيّن لهم من ذلك، ويطيعوا أولى الأمر لأنهم قد آل إليهم الأمر أمانةً، **فكل من يأمر بحق وكان عادلاً، فهو من أولى الأمر**، لأنه يحكم بما لا يخالف ما أوصى به الله، وفى الحديث: «**من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى**»، والأمير فى الحديث معناه القانون، **والطاعة**: هى الإتيان بالمأمور، والانتهاء عن المنهى عنه، وهى العمل بالقانون وفى إطاره. ولم تكن للعرب حكومات ولا رؤساء حكومات، فكانوا يمتنعون على أمراء الرسول ﷺ وهم المسئولون عن تدبير الأمور لهم. وتقوم **المجالس الشرعية** اليوم بتقنين الشريعة وتطبيقها على مقتضيات الأحوال، **والشريعة**: هى العقل المستنير، والرأى الراجح، وصالح الناس، وأساس ذلك **العدل**، ولا توجد دولة بمعنى الدولة إلا إذا قامت على العدل. وحقيقة **الطاعة**، امتثال العدل، كما أن **المعصية** ضدها، **والحاكم العادل** هو الذى يرعى شعبه ويسوسهم للحق وبالحق، ويشرّع ما يضمن لهم حقوقهم، وفى الحديث: «**ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**»، **والمسئولية** إذن موزّعة بين الحاكم والشعب: «**وما من راعٍ إلا يُسأل يوم القيامة: أقام أمر الله أم أضاعه**»، أى هو أدّى الأمانات وحكم بالعدل أم لا؟ كالحديث: «**إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه، حفظ ذلك أو ضيّعه**»، والحكم لذلك ليس استبداداً، ولا هو احتكاراً للسلطة، ولكنه **شورى، ومسئولية، وتداولٌ** للسلطة.

•••

٢١٩٩. ﴿الطاعة للحاكم فى المعروف﴾

لا يحكم الحاكم بهواه وإنما بالقانون، ولا يفصّل الحاكم القوانين تفصيلاً ثم يحكم بها فهذا احتيال ونصب، وأية قوانين توافق عليها المجالس التشريعية ما لم تكن فى صالح

الشعب فهي جائرة وباطلة، والذين يصوغونها يسميهم القرآن «المسرفين»، وفيهم يقول تعالى: ﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ** (١٥١)﴾ (الشعراء)، ويصفهم وهم المفسدون فيقول: ﴿**أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ** (٢٥٧)﴾(البقرة)، والطاغوت من الطغيان، والطاغوت هو الحاكم المستبد رأس الضلال في أمّته، والمسلم ـ كما جاء في الحديث: «**عليه السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»، «**إنما الطاعة في المعروف**»، «**ولا طاعة لمن لم يطع الله**»، والله هو الحق ولا يأمر إلا بالحق، والحاكم إذا كان طاغية وجب عزله إجماعاً، **وعلى كل مسلم القيام بواجبه ذلك، فمن قَوِيَ على الاضطلاع بواجبه فله الأجر والثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض.**

●●●

٢٢٠٠ ﴿الساسة من طلاب الحكم﴾

هؤلاء هم «**المنافقون**» في المصطلح القرآني، لأنهم في سبيل الاستحواذ على الحكم لهم طرقهم الملتوية، وأساليبهم غير الشريفة، وتمكين هؤلاء من الحكم منهيٌّ عنه، وفي الحديث: «**من سأل الإمارة وُكِل إليها**»، «**ومن لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها**»، فطلب الحكم إذن مكروه، ومن يحرص على طلبه ويسعى فيه لا يُعان، فمثله يخشى أن لا يحصل منه العدل إذا ولي، وفي الحديث: «**إنّا لا نولّي مَن حرص**»، **والحريص على الحكم إن لم يكن له من الله العون، لا يكون فيه كفاية عليه، فلا ينبغي أن يجيبه الشعب على سؤله، ولا أن ينتخبه، وعليه أن يقاطعه ويعتزله، ويعتزل من يعينه. والحُكم فيه مشقة، وله غواية ومنافع، ويرضي النزعات إلى السلطة، فما لم يكن الله قد أصفى نفس طالب الحكم من كل ذلك، ووهبه حُبّ الناس وخدمتهم، لم يكن له منه عون، فإذا فاز فإنه لا يفوز برضا الله، ويبوء بسخطه، ويخسر دنياه وعقباه، وتزيد كراهية الناس له، وما لم يكن المرشح للحكم يتصف بالتقوى، فليس له أن يتعرض لطلب الترشيح أصلاً، وإن كان يريد الحكم ليعمل صالحاً، ويقيم معوجاً، ويعيد الحقوق لأصحابها، ويرفع عن الناس الظلم والقهر، ويمنع سلطان الأغنياء، ويحمي البلد من الأجانب الطامعين، ويعلّم الفقراء، ويتيح لهم فرص العلاج والعمل، ويعيد توزيع الثروة، ويفرض الضرائب بالحق، فلا ينبغي له أصلاً أن يتعرض للطلب، لأنه كما في الحديث: «**لو غلب جَوْره على عدله فله النار**»، وفي **الانتفاضات الشعبية** فإن الأمم تختار حكامها تلقائياً، ولا يرشّح الحكام أنفسهم، وتُظهر الأحداث مصداقية **الحكومات الشعبية** التي يختارها الشعب. وأما في أنظمتنا شبه الإسلامية، فإن نظام الأحزاب يرشّح للحكم أعضاءه، ويستعين لفوزهم بالشفعاء، ويقال فيهم «**وُكلوا إلى أنفسهم**»، ومن وُكل إلى نفسه هلك، ولذلك كان الدعاء: «**ولا تكلني إلى**

نفسى»، وقيل: إن الزعماء حقاً هم الذين تختارهم شعوبهم للحكم، وهم يخشون أن يحكموا، وللحكم عندهم هيبة وخوف من الوقوع فى المحذور، فهؤلاء هم الذين نحن مأمورون بإعانتهم عليه إذا دخلوا فيه، والأصل فى ذلك أن من تواضع لله رفعه، وهذا محمول على غالب الزعماء، لأن يوسف قال: ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾(يوسف)، فزكّى نفسه استثناءً من قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ(٣٢)** ﴾(النجم)، والصحيح أنه لم يطلب الحكم للدنيا، ولا للحسب والنسب والأبهة والمُلك، وإنما سأله بالحفظ والعلم، فقال: «إنى حفيظ عليم»، فلو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحكم بالحقّ، وليس هناك من يصلح له غيره، ولا من يقوم مقامه، لتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يرشّح نفسه له، ويخبر بصفاته التى يستحقها من العلم والكفاية وغير ذلك. وقيل إن يوسف كان نبياً، ولا يُعتدّ بقول نبىّ، وإنما نحن بحيال بشر ولا ينبغى للبشر أن يزكّوا أنفسهم للحكم، وإنما يزكّيهم الناس.

•••

٢٢٠١. ﴿حكومة الجاهلية﴾

من قوله تعالى: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ(٥٠)** ﴾(المائدة)، وهى الحكومة التى تقوم فى غير زمن الجاهلية ولكنها تعمل بنظام الجاهلية، فتسنّ التشريعات لصالح **الأغنياء** ضد **الفقراء**، وتُملّك الأغنياء وترشّحهم للمناصب والمجالس التشريعية، وفى **علم السياسة**: **فإن من يحكم هو من يملك، وحكومة الأغنياء** أو «**الحكومة البلوتوقراطية**» هى التى يتولاها الأغنياء، وهم فى أى مجتمع قلّة، وهم الكبار من المُلاّك ورجال الأعمال، وحكومتهم لذلك تسمى أيضاً **حكومة القلة**، أو **الحكومة الأوليجاركية**، والأغنياء كانوا يحكمون ويتحكمون فى الجاهلية، وكل زمن يسود فيه الأغنياء ويحكمون ويتحكمون يطلق عليه اسم **الجاهلية**، ولم يُسقط حكومة الأغنياء إلا **النبىّ محمد** ﷺ، ومحا عن الإنسانية الجاهلية، وعادت الجاهلية مرة أخرى تتحكم فى العالم الإسلامى مع غلبة الرأسمالية، ثم صار تحالف أغنياء العالم فيما يسمى «**النظام العالمى الجديد**» أو «**نظام العولمة**»، وهو «**إمبريالية جديدة**»، وأخضعت الأقلية الغنية حياة الأمة الأخلاقية والدينية والثقافية لمُثل وقيم تجارة الجملة والسوق. والحكومة أو «**الإمارة الجاهلية**» قال فيها رسول الله ﷺ: «**أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة**»، ونقيضها «**إمارة الشورى**»، أو «**حكومة الشورى**»، وقوامها **الشورى، والعدل، والانتخاب الحرّ النزيه، وتداول السلطة**، وفيها قال الرسول ﷺ: «**نِعْمَ الشيء الإمارة لمن أخذها بحقّها وحلّها، وبئس الشيء الإمارة لمن أخذها بغير حقّها، فتكون عليه حسرة يوم القيامة**». وفى الرواية عن **أبى ذرّ** بإخراج مسلم: أن أبا ذرّ

قال للنبىّ ﷺ: يا رسول الله، ألا تستعملنى؟ - يعنى سأله أن يخصّه بمنصب من مناصب الحكم، فقال: **«إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزىٌ وندامة، إلا من أخذها بحقّها، وأدّى الذى عليه فيها»**. وقوله ﷺ **أصل عظيم من أصول الحُكم**، فالحكم **أولاً**: لا ينبغى أن يتولاه ضعيف؛ وهو **ثانياً**: أمانة؛ ثم هو **ثالثاً**: مسئولية سيُسأل عنها يوم القيامة، فمن طلب الحكم ودخل فيه بلا أهلية، وبلا تقوَى، فلم يعدل، وبغى وظلم، وجار وطغى واستبدّ، سيندم يوم القيامة ويُجازَى بالخزى، وأما من كان أهلاً له، وعدل فيه، فأجرُه عظيم، وتظاهرت به الآيات والأحاديث، وأفاض فيه القرآن، ونوّهت به السنّة، ولعل هذا هو سبب هرب **الأكابر** من تقلّد مناصب الحكم. وفى بلادنا يقتتل الناس على كرسى الحكم، وتُسفك بسببه الدماء، وتُستباح الأموال والفروج، ويعظم الفساد فى الأرض بذلك، ومن نكد الأيام أن حكّامنا لا يتركون الحكم إلا بالثورة عليهم وعزلهم، أو بقتلهم، أو بالموت يأتيهم من الله فيعسر حسابهم فى القبر ويوم القيامة، ويتركون الحسرة والندامة لأولادهم ولأهليهم من بعدهم، ودعاء الناس عليهم ولعنتهم لأسمائهم، وسوء سمعتهم، وسقوطهم من التاريخ.

•••

٢٢٠٢. ﴿بطانة الحاكم ومستشاروه﴾

نهى الله تعالى عن استخدام غير المسلمين كمستشارين للحاكم، قال: **﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ (١١٨)﴾**(آل عمران)، وبطانة الحاكم خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصلها من **البَطْن** خلاف **الظهر**، والآية فيها تحذير من **الدخلاء**، جمع **دخيل**، وهو الذى يدخل على الحاكم أو الرئيس فى مكان خلوته، ويفضى إليه بسرّه، فيصدّقه فيما يخبره به مما يخفى عليه من أمر الشعب والناس، ثم يعمل بمقتضاه. وفى الحديث: **«ما بعث الله من نبىّ، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشرّ وتحضّه عليه، فالمعصوم من عَصَم الله تعالى»**، والنبىّ معصوم، ولا يلزم أن يقبل الشر ممن يشير به عليه، ولكن الخوف على **الحاكم أو الرئيس** أن يقبل قول من لا يوثق به ومع ذلك يُحسن الظن به، وبطانته هم أولياؤه وأصفياؤه وهؤلاء قد يضمرون له الشرّ ويسيئون له النصح، أو قد تكون لهم مصالح يراعونها، وأهداف أخرى ومقاصد يتوخونها، وربما منهم العملاء للدول الأجنبية، واختراق حاشية الرئيس من الأعمال التى تجيدها مخابراتها، حتى قيل: **إنه ما من دولة من دول العالم النامى إلا كان حاكمها نفسه من عملاء المخابرات، وكانت بطانته من جواسيسهم عليه**، والآية والأحاديث تحذرنا من ذلك كل التحذير.

•••

٢٢٠٣. ﴿في الإسلام: رئيس الدولة من أفراد الأمة ويسري عليه ما يسري عليهم﴾

رئيس الدولة في الإسلام «**وكيل عن الأمة**»، أو هو كالوصي، ولا ميزة له على غيره من أفراد الشعب إلا باعتباره هذا: أنه «**وكيل الأمة**»، أو «**الوصي على أمورها**». فإذا تعدّى الرئيس على أحد، كان من الواجب أن يُقتص منه، وأن يكفل ذلك الدستور، لأن القرآن والسُّنّة - ولهما المرجعية - قد فرضا ذلك، فطالما أن الحاكمية لله فلا فرق بين رئيس وعامل أمام أحكام الله، وهي أحكام عامة تنطبق على الآحاد والجماعات، وتسري على الجميع. وفي القرآن مثلان للرؤساء: الأول **بلقيس** ملكة سبأ، وحكومتها ملكية مستنيرة، والأمر فيها شورى، قالت لشعبها: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** ﴿٣٢﴾﴾ (النمل)؛ والمثل الثاني فرعون، وحكومته ملكية مطلقة، وأمور الدولة فيها يستأثر بها واحد دون الشعب، يقول: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴿٢٩﴾﴾(غافر)، وحكومة المستبد لا تستشير، ولا تشاور، ولا تقبل معارضة، **والمعارضة** أصل من أصول نظام الشورى، والمستبد دأبه أن ينكّل بالمعارضة، وليس واجب رئيس الدولة تلمّس الأخطاء للمعارضة، وتفصيل القوانين التي تُلقي بالناس في السجون، وإنما واجبه كما نصّ على ذلك **عمر بن الخطاب**: توعية الناس بحقوقهم، وصون هذه الحقوق، ورعاية «صالحهم»، وليس إنزال العقاب بهم، وفرض الضرائب على فقرائهم، لصالح الأغنياء، وإعفاء الأغنياء من كل ضرائب ورسوم جمارك، وتسهيل استيلائهم على أموال البنوك، وعلى الأراضي بالمجان. وكان رسول الله ﷺ ينصف الناس من نفسه، ويُعطي القَوَد من نفسه، وفعل ذلك **أبو بكر وعمر**. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

●●●

٢٢٠٤. ﴿في الإسلام: لكلّ درجات بحسب العمل﴾

في قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴿١٩﴾﴾ (الأحقاف)، وقوله: ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات**﴾ (يوسف): أن الناس درجات في الحياة الدنيا - وحتى في الآخرة، وإنما ليس بالمال، أو بالحسب والنسب، وإنما **بالأعمال**، كقوله: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴿١١﴾﴾ (المجادلة)، والإيمان والعلم من الأعمال، ولكل إنسان مهما كان - مرتبته عند **الله**، والقول **بالمراتب والدرجات** من أساسيات الإسلام، والدنيا والجنة درجات، والنار دركات.

●●●

٢٢٠٥. ﴿القرآن ورجال السلطة والنظام﴾

ينهَى الله عن **مجالسة رجال السلطة** ورموز النظام، لأنهم يعادون الإسلام ولا ينصرونه ولا ينتصرون للمسلمين، وفيهم يقول تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ**

مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٢٢﴾(المجادلة)، يعنى من يحب الله ورسوله، ويدعو أن يموت على الإسلام، لا يمكن أن يوالى، ولا أن يواد، ويظاهر، ويؤيد، ويتعاون، مع هؤلاء الذين يخالفون الإسلام، ويبدون البُغض للمسلمين، ويشاقّون آيات الله وأحكام رسوله.

•••

٢٢٠٦. ﴿صلح الحديبية كنموذج للصلح فى الحروب﴾

هو الصلح الذى تم بين الرسول ﷺ وأهل مكة **سنة ست هجرية**، وكان قد خرج **إلى مكة فى ذى القعدة**، واستنفر الأعراب حول المدينة للخروج معه فأبطأ عنه أكثرهم، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار وعددهم **ألف وأربعمائة**، أو **ألف وخمسمائة**، يقصد مكة معتمراً، وساق معه الهدى وأحرم ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب، فلما بلغ خروجه قريشاً خرج جمعهم صادّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وورد الخبر بذلك إلى الرسول ﷺ وهو **بعُسْفان**، فسلك طريقاً يخرج فى ظهور قريش، وخرج إلى **الحديبية** من أسفل مكة، ثم جرت السفراء بين رسول الله وبين كفّار قريش، وطال التراجع والتنازع، إلى أن جاء **سُهيل بن عمرو العامرى**، فاتفقا على أن ينصرف النبىّ ﷺ عامه ذلك، فإذا كان من قابل جاء معتمراً ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح، على أن يكون بينه وبينهم **صلح عشرة أعوام**، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً، وإذا جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً - من رجل أو امرأة، رُدّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردّوه إلى المسلمين، فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وقال لهم رسول الله ﷺ : **«اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سبباً إلى ظهور دينه»**، فأنس الناس إلى قوله بعد نفار منهم. وأبى **سُهيل بن عمرو** أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح: **من محمد رسول الله**، وقالوا له: **لو صدّقناك بذلك ما دفعناك عمّا تريد، فلابد أن تكتب: باسمك اللهم»**، فأبى علىّ أن يمحو بيده **«محمد رسول الله»**، فقال له رسول الله ﷺ : **«أعرضه علىّ»**، فأشار إليه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وأمره أن يكتب: **«من محمد بن عبد الله»**، وردّ رسول الله ﷺ - نتيجةً لهذا الصلح - **أبا جندل بن سهيل** إلى الكفار، وعظم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ - وأخبر أبا جندل - أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً. وفى رواية أخرى أن علياً هو الذى كتب الصلح بين النبىّ ﷺ والمشركين، فكتب: **«هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ﷺ»**، فقالوا: لا تكتب **«رسول الله»**، فلو نعلم أنك **«رسول الله»** لم نقاتلك. فقال النبىّ ﷺ لعلىّ : **«امحُه»**، فقال علىّ: ما أنا بالذى أمحوه، فمحاه النبىّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: **أن يدخل المسلمون مكة فيقيموا فيها ثلاثاً**، وفى رواية أخرى: أن النبىّ ﷺ أملى علياً:

«اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: أما، «الرحمن الرحيم»، فما تدرى ما «الرحمن الرحيم»! ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال النبىّ ﷺ: «اكتب: من محمد رسول الله»، قال سهيل: لو علمنا أنك رسوله لاتّبعناك، ولكن اكتب اسمك، واسم أبيك، فقال النبىّ ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله»، فاشترطوا على النبىّ ﷺ: أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا. فقال المسلمون: يارسول الله، أنكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهَب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». فجاء عمر بن الخطاب فأتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار؟ قال: «بلى»، قال. ففيم نُعطَى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يُضيّعنى الله أبداً»، فانطلق عمر وأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال أليس قتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطَى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيّعه الله أبداً! فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال عمر: يارسول الله، أوَ فتحٌ هو؟ قال: «نعم»، فطابت نفسه ورجع.



٢٢٠٧ ﴿الناس سواء تحت لواء القرآن﴾

المساواة مبدأ مقرر فى الإسلام، ففى القرآن: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (١٣)﴾(الحجرات)، وفى الحديث: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى»، وقال ﷺ: «إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم، لأن الناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم». والمسلم كالذمّى سواء بسواء حتى فى العقيدة، فالقاعدة فى الإسلام أنه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦)﴾(البقرة). وتشريعات الملل الأخرى بحسب كُتبهم يقر بها الإسلام، ومن أصوله الإيمان بكل الرسالات، كقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ (١٣٦)﴾(البقرة)، فالقرآن يصادق على ما سبقه من كُتب ويهيمن عليها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ (٤٨)﴾(المائدة)، وكل أصحاب ديانة إذن فى أرض الإسلام ـ طبقًا لذلك ـ يحكّمون نصوص ديانتهم ولا يخضعون لما يخالف

شريعتها، وهذه هي المساواة التي ما بعدها مساواة، وانظر مثلاً إلى النصراني المصري عندما يهاجر إلى أمريكا أو انجلترا، أو النصراني الذي يعيش في إسرائيل، فهل تحكمه شريعته؟ أبداً، بل هو خاضع لشريعة البلاد التي يعيش فيها، إلا في بلاد الإسلام، فإن النصارى لهم شريعتهم وأحكامهم ومحاكمهم المِلّية ومدارسهم، وهذه هي ميزة الإسلام.

•••

٢٢٠٨. ﴿طلب اللجوء السياسي﴾

هو أن يطلب فردٌ أو جماعة أجنبية الأمان من عدوان الدولة التابع لها، لآراء يبديها معارضةً، وحق المعارضة يكفله الإسلام، والرأي الآخر أصل من أصول الشورى، ومن حق أفراد البلد المعادي أن يطلبوا الأمان في بلاد الإسلام، ويسمى ذلك عقد الأمان، بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۝٦﴾ (التوبة)، ومن حق أي مسلم أو مسلمة أن يؤمّن أي فرد من الأعداء أو غيرهم يطلب منه الأمان أو اللجوء، وفي الحديث: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»، وأجار الرسول ﷺ من أجارته أم هانيء، ومن أجارته ابنته زينب، وأمر أن يؤمَّن، و«المؤمَّن»: لا يجوز القبض عليه، ولا تسليمه، ولا أن يُقتل، ولا يُعتَدى على ماله؛ ويسري «عقد الأمان» بمجرد موافقة الدولة عليه، وهو حقٌ من الحقوق الإنسانية في بلاد الإسلام، ولا يجوز طرد اللاجيء المؤمَّن، أو سحب حقّ اللجوء منه، ما لم يثبت استغلاله لهذا الحق في التجسّس أو الإضرار بالمسلمين. ويقال «للحربي» الذي يلجأ لديار الإسلام طالباً الأمان واللجوء أنه «مُستأمَن»، ومدة إقامته سنة لا تزيد، وطالما هو مقيمٌ خلالها فهو مستأمَن، فإذا زاد عليها ونوى الاستيطان فهو «ذمّي»، وله حكم الذمّي في تبعيته للدولة الإسلامية، ولا يحق طردّه بأي حال من الأحوال، ولا إلغاء حقّه في اللجوء، ولزوجته وأولاده حق اللحاق به. والذمّي له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وكذلك المستأمَن اللاجيء، وإذا مات لا تذهب ملكيته عن ماله وتذهب إلى ورثته، فإذا لم يكن له ورثه ضُمّ هذا المال إلى مال الدولة.

•••

٢٢٠٩. ﴿الذمة هي العهد والأمان﴾

الذّميون أو أهل الذمة: هم من لا يدينون بالإسلام من أهل البلد الذي أغلبه من المسلمين؛ وعقد الذمة: هو أن يلتزم أهل بلد ما أغلبهم من غير المسلمين بأحكام الإسلام جملةً، وإذا دخل الكتابي أو غيره في «عقد الذمة»، وصار من «أهل الذمة»، أَمِن على نفسه وماله وأهله، وضمن حريته. والمسلمون يدفعون الزكاة، والذميون يدفعون الجزية،

وسمّيت كذلك لأنها **تجزىء** عنهم، أى تكفيهم أن يدفعوا الزكاة وأن ينخرطو فى الجيش، وتعادل «البدلية» التى يدفعها المسلم إذا أراد أن يُستعفى من الجندية. **وللذمّى ما للمسلم، وعليه ما عليه**، ولا يجوز له أن يتصرف فى معاملاته المالية إلا وفق تعاليم الإسلام، فلا يتعامل مثلاً بالربا، وفى القصاص يُقتص منه كما يُقتص من المسلمين، وتقام عليه الحدود مثلهم. **وللذمّيين كامل الحرية** فى إقامة ديانتهم وتأدية شعائرها، ومراعاة شرائع الزواج والطلاق عندهم، والقاعدة الإسلامية المطبقة معهم هى: «**اتركوهم وما يدينون**». فإن لجأ الذمّى إلى محاكم المسلمين وطلب أن تطبّق عليه شريعة الإسلام، فالأمر معه إما بالقبول أو بالرفض، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** (٤٢) ﴾(المائدة).

•••

٢٢١٠. ﴿الجزية زكاة وضريبة دفاع﴾

لا تَقابُل ولا تشابه بين **الزكاة** فى الإسلام، وبين **الضرائب** التى تتقاضاها الدولة الآن من المواطنين؛ **والجزية** من الضرائب، ويدفعها الذمّى نظير إعفائه من الجندية؛ والفرق بين **الزكاة والضريبة والجزية**: أن **الزكاة** تُدفع **لله** ونبيّه، وهى حقُّ الله فى المال؛ وأما **الضرائب** فهى حقُّ الدولة فى المال،وتدفع للدولة بنيّة أنها واجبة، للصرف منها على وجوه إنفاقها، وهى مورد من موارد **الدخل العام وميزانية الدولة**، وأما **الزكاة**: فهى فرضٌ على كل مسلم ومسلمة، ولم تكن فى دولة الإسلام ضرائب إلا ما عرفته بعد ذلك من طريق تقليدها للأمم؛ وأما **الجزية** فهى أولاً المقابل للزكاة التى يدفعها غير المسلم، بالإضافة إلى أنها **ضريبة دفاع** فى مقابل أن الدفاع عن البلد منوط بالمسلمين وحدهم دون غيرهم، **والنصاب المالى** الذى يدفعه الذمى هو المقابل **لنصاب الدم** الذى يدفعه المسلم زوداً عن الوطن. ولذلك لم تُفرض الجزية على **النساء** الذمّيات، ولا على **الصبيان** الذمّيين غير المكلّفين، ولا على **الأرقاء** من أهل الذمة. وشرطها قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** (٢٩)﴾(التوبة)، يعنى عن **قدرة وغنى ورضا**، فلا يدفعها **الفقير غير القادر**، ولا **صاحب العاهة** الذى لا يتكسّب، ولا **الراهب** الذى لا يعمل، ولا **المجنون** فاقد الأهلية. وكان النبىّ ﷺ **قد فرضها ديناراً فى السنة، على كل راشد قادر** من أهل الكتاب من **أهل اليمن** الذكور، وضاعفها **عمر** على **الكتابيين** من **أهل الشام، فراعى الرسول** ﷺ رقة أحوال أهل اليمن، وراعى **عمر** غنى أهل الشام، وجعل عمر ذلك فيهم من قبل اليسار، ومن ثم صارت الجزية تُفرض **بحسب الأحوال** المادية لدافعها، **ولا حدّ لأقلها ولا لأكثرها**، والقاعدة فيها أنها لا يُكلَّف بها **إلا قادر وفى حدود طاقته**، ولم يحدث أن فُرضت جزية

فوق أربعة دنانير فى السنة على الموسرين، وكان آخر ما أوصى به النبىّ ﷺ بخصوص أهل الذمة، قوله: «احفظونى فى ذمتى»، وفى الحديث: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»، وقضى ﷺ أن لا تؤخذ جزية إلا فيما زاد عن حاجة الذمّى من ماله، وقال: «ليس فى أحوال أهل الذمة إلا العفو»، وتسقط الجزية عن الذمّى إذا أسلم وتصبح زكاة مال، وفى الحديث: «ليس على المسلم جزية»، وكان يهودياً قد أسلم فى عهد عمر، فطولب بالجزية فقال: «إنما أسلمت تعوّذاً»، يريد أنه أسلم ليُعفَى من الجزية، وكان النبىّ ﷺ قد قال: «إن فى الإسلام معاذاً»، وأقرّ عمر اليهودى، وأكد الحديث: «إن فى الإسلام معاذاً»، وفرض ألاّ تؤخذ جزية ممن يسلم من الذميين.



«ثانياً: الإسلام الاقتصادى»

١. «الكنز والإنفاق والزكاة والصدقة والخراج والجزية»



٢٢١١. «فى اشتراكية الإسلام، الكنز والإنفاق»

المال هو مال الله، والناس مستخلفون فيه، لينفقوه فى وجوه البرّ والإحسان، ومن البر استثمار المال فى التجارة والزراعة والصناعة ليكثر وينمو فيجد الناس الأعمال، ويعود عليهم خيرها، فأما أن يكنز الأغنياء أموالهم مثل اليهودى قارون، فذلك هو المنهى عنه فى القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾(التوبة). والكَنز: كل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها. ومن الطريف فى تعريف الذهب والفضة، أن الذهب سمى ذهباً: لأنه يُذهب العقول، أو لأنك مهما احتفظتَ به فمصيره أن يذهب عنك، فلا تغتر به. وأما الفضة: فتسميتها كذلك لأنها تُنفَض عن صاحبها وتتفرق بالنفقة. والمال المختزن كنز حتى لو أدّيت زكاته، لأن الأصل فى المال استثماره اجتماعياً، ووظيفة المال اجتماعية بحتة، ومعنى اجتماعية أن المال ملك للمجتمع عن الله، ووكالة للأفراد، وما عند الأفراد هو الحيازة وليس الملكية. ولا يجوز الكنز فى أوقات الشدّة خصوصاً. وكل مال يفيض عن الحاجة، ولا تؤدّى منه الحقوق العارضة، ولا يُستثمَر اجتماعياً فهو كَنز. والحكمة فى ذلك أن التنمية الاجتماعية والاقتصادية وصلاح المجتمع لا يتحققان إلا بالاستثمار. ودليل الاستثمار الاجتماعى هو الإنفاق فى وجوه تنمية المجتمع، التحذير فى الآية السابقة فى قوله: ﴿وَلا يُنفِقُونَهَا﴾ أى الأموال جميعاً، سواء كانت ذهباً أو فضة، أو

أملاكا أو أوراقاً مالية مـقوَّمة بالذهب والفضة. **والكنز وعـدم الإنفـاق** هما احتـباسٌ للمال عقوبته العذاب الأليم. وشبيه **بالكانز** كل من يختص نفسه بالمال حتى وإن أسرف، فطالما قد قصر المال على نفســه دون المجتمع **فهو كـانزٌ للمـال**. وفي الحـديث، «بشّـر الـكنّازين **برضف**»، **والرَّضْف** هي الحجارة التي تُحمَّى في الشمس أو بالنار، واحدتها رَضْفَة. وفي رواية قـال: «**بشّر الكنّازين بكَيٌّ في ظهورهم يَخرُج من جنوبهم، وبـكَيٌّ من قِبَل أقفائهم يخرج من جباهم**». وقيل إن رجلاً من **أهل الصفّة** (فقراء المسلمين) مات، وعثروا في بردته على دينار، فقال النبيّ ﷺ: «**كَيَّةٌ**»، ومات آخر كان في بردته **ديناران** فقال: «**كَيّتان**»، **فالمال مهما قلّ لابد أن يعمل ولا يُختزن**.



٢٢١٢. ﴿الإنفاق الاشتراكي في الإسلام﴾

روى عن **عمر** قوله: **لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلتُ أكباداً وصلاءً وصـنّاباً وصـلائق، ولكني اسـتبقي حـسناتي، فـإن الله تعالى وصـف أقوامـاً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا (٢٠)﴾**(الأحقاف). **والصِّلاء**: الشواء، سُمّي بذلك لأنه يُشوَى بالنار، من صَلَى اللحم يعنى شواه؛ **والصِّنّاب**: سلطة الخردل والزيت؛ **والصلائق**: البقول المصلوقة، أي المجمورة، وهي أيضاً الخبـز الرقاق العريض المُقمّر والمفرد **الصَّليـقة**؛ وكـل ذلك من نعيم العيـش وطيب الطعام. وقال عـمـر: **لو شئتُ كنـت أطيبكم طعامـاً، وألينكم لباسـاً، ولكنى استبقى طـيباتى لـلآخرة**. ـ ولمّا قدم الشـام قدّموا له طعامـاً لم ير قطّ مثله، قـال: **فماذا لفقراء الناس؟** فقال **خالد بن الـوليد**: لهم الجنة! فبكى عمر وقال: لئن كان حظنا من الدنيـا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظهم بالجنة، ، فـلقد باينونا بوْناً بعـيداً! ـ وفي الخبر: أن عمر دخل إلى مشربية النبيّ ﷺ، فلم يجد شيئاً يستهوى البصر إلا أُهُباً جلوداً معطونـة، قد سطع ريحهـا، فقال: يارسـول الله! أنت رسول الله وخـيرتُه، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير؟؟! فاستوى النبيّ ﷺ جالساً وقال: «**أفيَ تشكّ يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجّلت لهم طيبـاتهم في حياتهم الدنيا**»! وكـان عمـر يأكل الخـشن من الطعـام، لأنه حاكـم وقدوة ومـسئـول، ولا يريد أن يأكل حـسناته، لأنه يؤمن بالآخـرة والحساب والمسـئولية، **وأما حكام اليـوم فيأكلون حسناتهم فـي الدنيا، وهذا دليل على أنهم لا يؤمنون في أعمـالهم بالآخرة ولا بالمسـئولية والحـساب**، وأنهم يُظهـرون الإسلام نفاقـاً، فلا تصدقوهم إن أظهروا الإسلام! ولمّا لاموا عمـر أن باستطاعته أن يكون له الطعام الشهيّ، قال: أعلم اني أستطيع أن آمر بالماعز السمين المشوى، والصاع والصاعين من الزبيب يُلقَى في السقاء ويُشن عليه الماء فيصبح كأنه دم الغزال! إنى والله الذى لا إله إلا هو، أخاف أن

تنقص حسناتي يوم القيامة! ولقد سمعت الله يقول في أقوام: **﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾**(الأحقاف)». وفي الرواية أن جابراً اشترى لحما لأهله اشتهوه، فمر بعمر، فسأله عمّا بيده، فأخبره، فقال: «أوَ كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: «أذهبتم طيباتكم»؟ - فهذا مثال مما ينبغي أن يكون عليه السلوك المسلم القويم، ويسمون ذلك بلغة العصر «السلوك الاشتراكي»، وأهل الحكمة يقولون إنه مقتضى الحكمة للحاكم والمحكوم، فالناس سواء، والثروة الاجتماعية لابد أن توزّع بالعدل، ولم تكن الثورات والقلاقل في المجتمعات إلا بسبب سوء توزيع الثروة. وبلغة العلم: فإن الغنى إذا اعتاد البذخ، استحال أن يُمنَع عنه، والذي يضبط سلوك الأفراد والمجتمعات هو القاعدة الإسلامية أو الاشتراكية: على المرء أن يأكلُ ويلبس وينفق ويعيش ما وجد طيّباً من طعام أو شراب، فإن لم يجد فعليه الزهد والتقشف، ولا يتكلّف الطيّب - أي المترف - فيصبح عنده عادة. وقد كان النبيّ ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عَدِم، ويأكل الحلوى إذا قَدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، والبصير من تحكّم في نفسه ولا تتحكم فيه شهواته، والفارق بين الاشتراكية العلمية وبين اشتراكية الإسلام: أن الأولى غير إيمانية ولا تحفل بالإنسان، واشتراكية الإسلام إيمانية وإنسانية أولاً، وفردية وجماعية ثانياً، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة، وفي الصحابة قدوة. واليوم غلب الحرام في اقتصاد الخصخصة، وتمر بلادنا التي تذهب مذهب الخصخصة وتتابع أمريكا وسياسة العولمة، وتطبّق الانفتاح الليبرالي، وفصل الدين عن الدولة، بأسوأ فترات تاريخها، حتى أن الفساد عمّ وطمّ، وبات الخلاص عسيراً، ولم يعد ثم منجاة لأحد إلا من رحم ربُّك!

●●●

٢٢١٣. ﴿الصدقة والزكاة﴾

لفظ الصدقة يعمّ الفرض والنفل، كقوله تعالى: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾**(التوبة ١٠٣)؛ والزكاة كذلك تعمّ الفرض والنفل، لكن الزكاة لا تطلق غالباً إلا على الفرض دون التطوع، فهي أخصّ من الصدقة من هذا الوجه، كقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾**(المؤمنون)، وقوله: **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٨٣)﴾**(البقرة). ولفظ الصدقة من حيث الإطلاق على الفرض مرادف للزكاة، والأحاديث كثيرة وفيها لفظ الصدقة على الفرض، كقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا (٦٠)﴾**(التوبة) والأغلب التفرقة.

●●●

٢٢١٤. ﴿آية الصدقة﴾

هي الآية: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾(التوبة)، قيل: هى **صدقة الفرض**، وقيل: **صدقة التطوع**، لأن النبىّ ﷺ أخذ منهم **ثلث** أموالهم وليست هذه هى الزكاة المفروضة، وفى **التطوع** للمرء أن يتصدّق **بثلث** ماله لو أراد. **والمال** الذى يستوجب الصَّدقة هو كل ما تُمُوِّل وتُمُلِّك، لقوله فى الحديث: «**يقول ابن آدم مالى مالى، وإنما له من ماله ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى**» أخرجه مسلم. ولا تبيّن الآية **مقدار المأخوذ، ولا المأخوذ منه**، وبيان ذلك فى السُّنّة **والإجماع**. وأما **الزكاة** فتؤخذ من **جميع الأموال**، وأوجبها النبىّ ﷺ فى **المواشى والحبوب والعين** وهو ما كان معروفاً فى زمانه، وهى الآن تجب فى **كل شىء** مما يكون مالاً أو يُقيّم بالمال. **والصدقة** مأخوذة من **الصدق**، مثلما **الزكاة** مأخوذة من **التزكية** أى **التطهُّر**، ومعنى ذلك أن **الصدقة دليل صدق إيمان المتصدّق**، وأن **الزكاة هى المُطهِّرة لنفسه وماله**. وكل إمام، أو حاكم، وجامع لزكاة، أو صدقات، يمكنه أن **يدعو** للمتصدّق بالبركة، لقوله: «**وصلّ عليهم**»، **والصلاة على المتصدّق** أصلٌ فى أخذ الصدقة أو الزكاة، وكان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «**اللهم صلّ عليهم**»، وأتاه ابن **أبى أوْفَى** بصدقته فقال: «**اللهم صلّ على آل ابن أوفى**» أخرجه مسلم. والصلاة على المتصدّق تسكّن قلبه. والصلاة هى الرحمة والترحُّم، وهى فى كلام العرب الدعاء. ولما نزلت آية الصدقة لم يكن المسلمون يجدون ما يتصدّقون به، فكانوا يمتهنون مهناً يتكسّبون منها ليتصدّقوا، وكانوا ينطلقون إلى الأسواق يحاملون ـ أى يتكلفون الحَمْل بالأجرة ـ فكان الفتى يأتى إلى الرسول ﷺ ويتصدّق بالكثير فيقولون فيه: مرائى، ويأتى الفقير فيتصدّق بصاع فيقولون: إن الله لغنىٌّ عن الصاع هذا، فنزلت: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)**﴾(التوبة).

●●●

٢٢١٥. ﴿الصدقات على وفق الشرع تزكو﴾

الصدقات لله طلباً لمرضاته: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ (٢٦٥)**﴾ (البقرة)، وقوله: «**وتثبيتاً**» أن **المتصدّقين يتثبّتون** أين يضعون صدقاتهم؟ فكانوا إذا همّوا بالصدقات تثبّتوا، فإن أيقنوا أمضوها، وإن خالطهم شك أمسكوا. والآية تشبّه نمو نفقات المُخلص الذى يُربّى الله له صدقاته، بنمو نبات الجنة **بالربوة**، بخلاف **الصفوان** الذى انكشف عنه التراب فبقى صلداً فشبّه به إنفاق المرائى. والصدقة فيما يُستطاع.

●●●

٢٢١٦. ﴿شرط الصدقة الكسب الطيب﴾

لقوله تعالى: ﴿**إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)**﴾(الحديد)، والقرض لا يكون حسناً إلا لأنه من كسب طيب، وكان مصرفه فى الوجوه الطيبة، وكل ما فى القرآن من «قرض حسن» فهو صدقة التطوع والنفقة فى سبيل الله، وفى الحديث: «**من تصدّق بعَدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبّلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبها كما يُربّى أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل**»، والفلو هو الُمهْر، أو كل فطيم من ذات حافر، وضَرَب به المثل لأنه بالتربية يزيد بسرعة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أحسنَا العناية به انتهى إلى حدّ الكمال، وكذلك الصدقة إذا كانت من كسب طيب، لا يزال الله راضياً عنها يضاعفها إلى الحدّ الذى تصبح بالمقارنة كالتمرة إلى الجبل، كقوله: ﴿**وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)**﴾(البقرة).



٢٢١٧. ﴿الصدقة الواجبة وصدقة التطوع﴾

الصدقة: تمليكٌ للمحتاج فى الحياة بغير عوض على وجه القُربة إلى الله، كقوله تعالى: ﴿**فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ (١٩٦)**﴾(البقرة)؛ وأمّا إن كانت قُربة إلى إنسان فهى هدية؛ و«**الصدقة الواجبة**»: هى التى تؤخذ من مال المسلم، لا على وجه القُربة، وإنما تطهيراً للمال، كقوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ (١٠٣)**﴾(التوبة) وتُخَصّ باسم **الزكاة**. وأما «**صدقة التطوع**»: فالأمر فيها اختيارى، وتستحب فى **جميع الأوقات** وليس كالزكاة فى آخر كل عام؛ و«**صدقة السّر**» أفضل من **صدقة العلانية**، لقوله تعالى: ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ (٢٧١)**﴾(البقرة)؛ ويستحب الإكثار من «**صدقة السّر**» وقت الحاجة، وخاصةً على ذى القرابة، وعلى من اشتدت حاجته. والأوْلى أن تكون الصدقة من «**الفاضل**» عن كفاية المتصدّق ومن يعولهم، فإن تصدّق بما يُنقص من كفاية مَن تلزمه نفقتهم ولا كسب لهم، أثم؛ وإن لم يكن له من يعولهم وأراد التصدّق بكل ماله، واثقاً من صبره على نفسه، ومن توكله وتعففه، فله ذلك، وإلاّ فهو مكروه؛ ومن نذر التصدّق بماله كله أجزأه **الثلث**. ويجوز **للمرأة** أن تتصدّق من مال زوجها بالشىء **اليسير** دون إذنه، ويجوز ذلك بكل من يعولهم. وإذا دفع الزوج لزوجته **نفقتها**، فلها أن تتصرف فيها بما أحبّت من الصدقة، ما لم يعد ذلك عليها بالضرر؛ وإن دفع إليها **كسوتها**، فلها كذلك أن تتصدّق بها. ولا تحلّ الصدقة على **النبىّ** ﷺ **وآله**. ويجوز دفع **صدقة التطوع** لكل من تحرم عليه **صدقة الفرض**؛ ولا يجوز دفع **الصدقة الواجبة** لغير المسلم، وأما صدقة التطوع فتجوز. ولا يجبر

المفلس على قبول الصدقة. وكل ما له فيه شبهة وجَبَ التصدّق به. وإذا لم يطلب الرهون أصحابها، وما من سبيل إلى معرفتهم، فالأولى أن تباع ويُتصدّق بثمنها. والمتصدّق فى كل الأحوال لا يجوز له الرجوع فى الصدقة.

•••

٢٢١٨. ﴿لا صدقة من غلول﴾

الغُلول هو الخيانة، وفى قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾**(آل عمران)، ويَغُل: يعنى يخون ويختلس ويأخذ الشىء فى الخفاء، فمن الخيانة يقال أغلّ يغلّ، ومن الحقد يقال غلّ يغُلّ. وفى الحديث: «**لا إغلال ولا إسلال**»، أى لا خيانة ولا سرقة، والآية فى النهى عن الغلول، وفى الحديث: «**لا يقبل الله صلاة إلا بطَهور، ولا صدقة من غُلول**»، ولا يقبل الله الصدقة بالحرام، لأن الحرام غير مملوك للمتصدّق.

•••

٢٢١٩. ﴿المبادرة بالصدقة قبل أن يأتى الموت﴾

فى الوصايا لمّا سئل النبىّ ﷺ: أى الصدقة أفضل؟ قال: «**أن تصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تَمهَل حتى إذا بَلَغَت الحُلقوم قلتَ: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان...**». وتمهل يعنى تتريث. وفى القرآن: **﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ (١٠)﴾**(المنافقون)، وفى ذلك تحذير من التسويف بالإنفاق استبعاداً لحلول الأجل، واشتغالاً بطول الأمل، وفيه ترغيب فى المبادرة بالصدقة قبل هجوم المنية وفوات الأمنية. وفى الحديث: «**وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول**». والدَّين أحقّ أن يُقضَى من الصدقة، وليس للمتصدّق أن يتصدّق بكل ماله فيضيّع أموال الناس بعلّة الصدقة، وفى الحديث: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**».

•••

٢٢٢٠. ﴿فمن لم يجد الصدقة؟﴾

فى القرآن: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (٢٦٧)﴾**(البقرة)، فإن لم يجد المسلم ما يكسب ولا ما يتصدّق به، فعليه بقوله ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**»، فسألوه: «فمن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدّق**»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بالمعروف، وليُمسك عن الشرّ، فإنها له صدقة**». والحديث فيه: أن الصدقة أعمّ من إنفاق المال، ولو بإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف؛ والإمساك عن الشرّ ـ وهو من الخير، فإن كان شرّه لا يتعدّى نفسه فقد تصدّق

على نفسه بمنعها من الإثم. وأعمال الخير تنزل منزل الصدقات فى الأجر، والشفقة على خلق الله ـ وهى مقصود الصدقة ـ تكون إما بالمال أو بغيره، والمال إما حاصل أو مكتسب، وغير المال إما فعل كالإغاثة، وإما ترك وهو الإمساك. فإذا عجز المرء عن التصدّق بالمال نُدب إلى ما يقوم مقامه وهو الإغاثة، وعند عدم ذلك نُدب إلى فعل المعروف كإماطة الأذى، وعند عدم ذلك نُدب إلى الصلاة، فإن لم يطق فَتَرْكُ الشرّ وذلك آخر المراتب.

●●●

٢٢٢١. ﴿الوقف صدقة﴾

الوَقْف: معناه تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة، وصيغته أن يقول الواقف: «**وقفتُ كذا صدقةً موقوفة**، أو **محبوسة أو مسبّلة**، أو **محرّمة**، أو **مؤبّدة**»، أو يقول: «**وقفت كذا صدقة لا تباع، ولا توهب، ولا تورث**». وشرط الوقف: النية، ويحصل بالفعل مع القرائن الدالة عليه، مثل أن يبنى مسجداً ويأذن للناس بالصلاة فيه. ويجوز وقف ما يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه كالعقار، وأما ما لا يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه كالمال السائل فلا يصحّ وقفه، وكذلك ما يسرع الفساد إليه. وفى الوقت الصحيح تنتقل منافعه للموقوف عليه، ويزول عن الواقف ملكه وملك منافعه، ويصحّ أن يشترط فيه أن ينفق منه على نفسه مدة أو مدى الحياة، وأن ينفق منه على أهله فينتقل منه عند الموت إلى ورثته. ويصحّ أن يقف لورثته، كولده وأقاربه، أو على جهة البرّ لبناء المساجد والقناطر وكتُب العلم. ويصحّ الوقف على أهل الذّمة، وإذا وقف الواقف على أولاده ثم أولادهم وعقبهم ونسلهم، كان الوقف بينهم، وإن خصّ بعضهم دون بعض كان الوقف كمقتضى لفظه، وإن كثروا كثرة تخرج على الحصر، يعمم الوقف عليهم ما أمكن ذلك ويُسوّى بينهم. و«**الوقف فى مرض الموت**» كالوصية فى اعتباره من الثلث، وإذا خرج عن الثلث جاز من غير رضا الورثة ولزم فى الوقت إلى أقارب الواقف ، أو بيت المال. وإن حصل للموقوف عليهم نصاب ففيه الزكاة. و«**ناظر الوقف**» يسميه الواقف، ثم وزارة الأوقاف من بعده، وتكون نفقة الوقف من الجهة التى عيّنها الواقف.

●●●

٢٢٢٢. ﴿المنفق له الخلف﴾

المنفق ينفق مما عنده، و«**الإنفاق الممدوح**» ما كان فى الطاعات، وعلى العيال، والضيفان، والتطوّعات، والواجبات، والمندوبات، كقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ**

﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (الليل)، **والحسنى هى الخلف من الله على عطائه؛ والعسرى** هى التلف، كقوله ﷺ: «**اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً**»، وقوله: «**مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد، فأما المنفقَ فلا ينفق إلا سَبَغت** ـ أى وَفَرت ـ **على جلده حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسّعها ولا تتسع**»، والمراد أن الجواد إذا همّ بالصدقة انفسح لها صدره، وطابت نفسه، فتوسّعت فى الإنفاق؛ والبخيل إذا حثّ نفسه بالصدقة شحّت فضاق صدره وانقبضت يداه، فالمنفق مستور فى الدنيا والآخرة، والشحيح مفضوح فيهما.

•••

٢٢٢٣. ﴿الزكاة واجبة كالصلاة﴾

يأتى عن الزكاة فى القرآن ٣٩ مرة، منها ٢١ مرة جُمعت إليها الصلاة، كقوله: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴿٥٥﴾ ﴾(المائدة)، وفى الحديث أمر الرسول ﷺ بالزكاة قال: «**وتؤدّى الزكاة المفروضة**». والزكاة فى اللغة: **هى النماء**، يقال **زكا** الزرع إذا نما، **وزكا** المال؛ وترد بمعنى **التطهير**، كقوله: ﴿ **وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ** ﴿١٨﴾ ﴾(فاطر). وفى **الاصطلاح** الزكاة بالاعتبارين معاً، فإخراجها سببٌ لنماء المال، ويكثر بها الأجر، **ومتعلقها** الأموال ذات النماء كالتجارة والصناعة والزراعة، ودليله قوله ﷺ: «**ما نقص مالٌ من صدقة**»، وقوله: «**إن الله يُربى الصدقة**». وكذلك فإنها مطهّرة للنفوس من البخل والذنوب. والزكاة هى الركن **الثالث** من الأركان التى بُنى عليها الإسلام، وتطلق على **الصدقة الواجبة، والمندوبة، والنفقة، والعفو**؛ **وتعريفها**: إعطاء جزء من النصاب إذا مرّ عليه عام، إلى فقير يستحقه؛ **وشرطها**: الإخلاص؛ **وحكمها**: العمل بأمر الله؛ **وحكمتها**: التخفيف عن الناس وإزكاء التكافل بينهم. والزكاة هى« حقّ المال»، وكان فرضها **بعد الهجرة** فى **السنة الأولى**، وقيل فى **السنة الثانية قبل فرض رمضان**، وقبلها جاء أمر رسول الله ﷺ **بصدقة الفطر**. والزكاة شرطٌ **لبيعة الإسلام**، بقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** ﴿١١﴾ ﴾(التوبة)، ومن يمنع الزكاة أو لا يأتيها ناقضٌ لعهد البيعة.

•••

٢٢٢٤. ﴿من تجب عليه الزكاة؟﴾

تجب على المسلم، تام الملك، متى ملك نصاباً خالياً عن الدَّين عند تمام حوله، سواء كان كبيراً أو صغيراً، عاقلاً أو مجنوناً، كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ (المؤمنون)، وقوله: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**

﴿٣٧﴾(النور)، ويقوم وليّ الصبي والمجنون مقامهما فى أداء ما عليهما، وتعتبر نيّة الولى فى الإخراج كما تعتبر النية من ربّ المال. ولا يجزىء إخراج الزكاة إلا بالنيـة ومحلـها القلب، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾(النمل)، واليقين محله القلب، ولا يقيم الصلاة ولا يؤتى الزكاة إلا من كان عنده اليقين.

•••

٢٢٢٥. ﴿الأعيان التى تجب فيها الزكاة﴾

الزكاة تجب فى كل شىء يقيّم بالمال، وسَنّ الرسول ﷺ الزكاة فى تسعة أشياء تحتاج إلى التأويل لتناسب العصر، هى: الذهب، والفضة، والإبل، والبقر، والغنم، والحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب، وعفا عمّا سوى ذلك. وهذه التسعة هى مناط الثروات فى عهده ﷺ، وهى بشكل عام: ما يكال ويوزن من الحبوب؛ وأموال التجارة؛ والعقارات التى تستثمر وتؤجر لأنها تدخل فى مال التجارة؛ وفى كل مال مهما قلّ طالما أنه أوفَى النصاب. ويشترط «الحول» فى أموال التجارة وفى المال عموماً، ولا يشترط فى الزروع. ويعتبر وجود النصاب فى جميع الحول. ولا زكاة فى غير بهيمة الأنعام وبشرط أن تبلغ النصاب، ولا زكاة قديماً فيما دون الثلاثين من البقر، ومثلها الجواميس، وزكاة الغنم شاة على كل أربعين منها إلى عشرين ومائة، فإذا زادت واحدة ففيها شاتان إلى مائتين، فإذا زادت واحدة ففيها ثلاث شياه، فإذا كانت أربعمائة فتجب واحدة فى كل مائة شاه، وروى أنها إذا زادت على ثلاثمئة وواحدة ففيها أربع شياه، فإذا كانت خمسمائة فتكون شاة فى كل مائة. ولا يجزىء من الضأن إلا الجَذَع وهو ماله ستة أشهر؛ ومن الماعز الثنِّى وهو ما له سنة. وتُضَم عروض التجارة والذهب والفضة إلى بعضها البعض فى تكميل النصاب، وليس فى حلىّ المرأة زكاة. وزكاة المال المكنوز ربع العشر، وزكاة التجارة فى النصاب، ونماؤه يوجب الزكاة فى الأصل مع النماء. ويجب العُشر على مستأجر الأرض دون مالكها فى النبات الذى يُسقَى بالمطر والأنهار والترع، ونصف العشر فيما يُسقَى بغير ذلك كالآبار الارتوازية والسواقى والمواتير، وكل زرع وثمر فيه العشر إذا بلغ النصاب وكان يسقى عادياً، ونصف العشر إذا كانت السقيا بروافع.

•••

٢٢٢٦. ﴿الحلىّ وزكاتها﴾

الحُلِىّ: ما يُتحلَّى به من المصوغات المعدنية أو الحجارة الكريمة، من حَلَى المرأة حَلْياً أى جعل لها حُلِيّاً تتزيّن بها. وفى القرآن: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴿١٤٨﴾﴾(الأعراف)، ويقال حُلِيّهم بضم الحاء، وحِليهم بكسرها، وحَليهم بفتحها،

جمع حَلْىَ وحُلِىّ وحلِىّ، مثل ثَدْى، وثُدُى، وثِدْى، والأصل «حلوى» ثم أُدْغمت الواو في الياء. والحلىّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون واعتبروه غنيمة، وجمعه السامري وأساله بالنار، وصاغ منه عجلاً مُصْمتاً له خوار. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ (١٧)﴾**(الرعد)، وقوله: **﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا(١٤)﴾**(النحل)، وقوله: **﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾**(الزخرف)، والحلية المقصود بها **حلية الذهب والفضة**، والرسول ﷺ اتخذ خاتماً من الذهب فقلّده الناس، فرمى به وقال: «**لا ألبسه أبداً**»، واتخذ خاتماً من فضة، فاتخذ الناس خواتيم الفضة، ولبس الخاتم بعد النبىّ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان. والتَختُّم بالوَرِق، (أى الفضة) على الجملة للرجال، وكُره للنساء لأنه زىّ الرجال، ولهن الذهب، فإن لم يجدن فليصفّرن الفضة. وتنشئة النساء فى الحلية ـ أى فى الزينة، لأن زيُّهن غير زىّ الرجال، ورُخّص لهن فى **الذهب والحرير**، وفى الآية دليل على **إباحة الحلىّ للنساء**، وجرى العُرف بذلك فى **السوار، والخاتم، والعقد، والحلق، والقلادة، والسلسلة، والخلخال** وغير ذلك، وما لم تَجرِ به العادة فهو محرّم. ويباح للمرأة قليل الحلى وكثيره؛ **وعلاّقة المصحف ذهباً أو فضة**؛ وللرجال ما دعت الضرورة إليه: كطاقم الأسنان من الذهب حتى لا تسقط، وتحلية المصاحف به وبالفضة. والمرأة فى الحداد ليس لها الحلىّ حتى الخاتم، **ولا زكاة عليها طالما هى تلبسها ولو فى المناسبات**، فإذا كانت تدّخر المال بشراء الحلى لتبيعها وقت الحاجة، فعليها زكاة متى بلغت النصاب، وهو قيمة ٨٥ جراماً ذهباً، وفيه ربع العُشر من قيمته.

●●●

٢٢٢٧. ﴿الدَّيْن والزكاة﴾

الزكاة لا تجوز إلا بالنية، ومحل النية القلب، ولو تصدّق الإنسان بجميع ماله تطوعاً ولم ينو به الزكاة لم يجزئه؛ **ومانع الزكاة كمنكرها؛ وزكاة الرهن** على الراهن ويخرجها من غير الرهن؛ وعلى المَهْر الذى تقتضيه الزوجة ويمر عليه حول؛ ويَمنع الدَّيْن وجوب الزكاة إذا كان يستغرق النصاب أو يُنقصه؛ وتسقط الزكاة بتلف المال قبل التمكّن من الأداء.

●●●

٢٢٢٨. ﴿وقت دفع الزكاة﴾

يجب إخراج الزكاة على الفور بعد التمكُّن من الأداء، وبحلول الحول، وإن أخّرها تأخيراً يسيراً ليدفعها إلى من هو أحوج إليها فلا بأس، ولا يجوز تأخيرها كثيراً. وتسقط الزكاة بتلف المال قبل التمكُّن من الأداء على الصحيح، ولا تسقط بموت ربّ المال، وتُخرَج من ماله وإن لم يوص بها.

●●●

٢٢٢٩. ﴿مصاريف الزكاة﴾

عدّدتها الآية ثمانية أصناف: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** (٦٠) ﴾(التوبة)، بعضها لم يعد قائماً، والأمر يحتاج لتأويل الآية تأويلاً جديداً يناسب العصر والحاجات فيه. وتؤخذ الصدقات من أغنياء المسلمين لتُردّ على فقرائهم، وفي الحديث: «**إن الله فرضَ على أغنياء المسلمين في أموالهم، بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يُجهد الفقراء إذا جاعوا أو عُروا إلا بما يصنع أغنياؤهم**». والفقير أحسن حالاً من المسكين؛ والعاملون عليها هم السعاة والجباة؛ وكانت **المؤلفة قلوبهم** لضعف يقينهم يُتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم، ولا شيء من ذلك الآن؛ وكذلك لم تعد حاجة لفكّ الرقاب لإبطال الرق بالكلية؛ والغارمون هم المدينون الذين أضاعوا أموالهم في الطاعات؛ وابن السبيل هو المسافر الذى انقطعت به الأسباب عن بلده وماله. ويعطى الغارم قدر دينه، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالهما. وتُرد الزكاة على الفقراء حيث كانوا، ووصفتهم الآية: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** (٢٧٣) ﴾(البقرة) وحاصلها أن شرط إعطاء الفقير الصدقة أن يكون مجاهداً، فمنعه ذلك من الاشتغال بالكسب، وعلامته التعفف، وفي الحديث: «**من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار**». والغنى هو مَن ملك نصاباً فيحرم عليه أخذ الزكاة، وفي الحديث: «**لا تحل الصدقة لغنى**». والمحروم في الآية: ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** (١٩) ﴾(الذاريات) أنه المتعفّف الذى لا يسأل، وفي الحديث: «**ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يُغنه الله**»، والعفيف له أن يأخذ الصدقة وهو لم يسأل ولا تعرّض، كقوله ﷺ: «**إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مُشرف ولا سائل فخذه**». وفي الزكاة على الأقارب أجران: أجر صلة الرحم وأجر الصدقة. ويجوز للمرأة أن تنفق على أولادها اليتامى من مال صدقتها، وعلى زوجها الفقير. وتختلف الزكاة في الأنعام عنها في الزروع، والعقارات، والتجارة، وهي ربع العُشر في الأموال.

•••

٢٢٣٠. ﴿زكاة الفطر واجبة﴾

لا نصّ في القرآن على زكاة الفطر، إلا ما تأوله مالك، قال في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ** (١٤) ﴾(الأعلى) قال الزكاة هي زكاة الفطر، وقد فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر في رمضان فأضافها إلى رمضان. والجمهور على أن الآية: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ** (١٤) **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ** (١٥) ﴾(الأعلى) نزلت في زكاة الفطر، والمعنى أنه بعد ما أخرج زكاة

الفطر، يصلي العيد. وقيل إن الآية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ (البقرة) عن «زكاة الفطر»، والمراد بصدقة الفطر: «صدقة النفوس»، وتسمى «زكاة الأبدان»، و«زكاة الرقاب»، وتجب بالفطر من رمضان، مأخوذة من الفطرة التي هي أصل الخلقة، وكان الرسول ﷺ قد أمر بها قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت لم يأمرهم ولم ينههم فظلوا يفعلونها، وأمر أن تؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة، وفَرَض على كل مسلم ذكراً أو أنثى، فقيراً أو غنياً، صغيراً أو كبيراً، صاعاً من حنطة أو تمر أو شعير، يعني نحو ثلاثة كيلو جرامات، أي ما يقرب من خمسة جنيهات أو أكثر بحسب الأسعار، وهي على الأب مطلقاً، وعن كل من يعول، كالأبوين، والإخوة والأخوات، والأقارب، والأولاد، والزوجة، والخدم، وكان ابن عمر يعطيها للذين يقبلونها، وتُفرَّق في البلد الذي فيه المكلف، سواء كان ماله فيه أم لم يكن، بنية التقرّب إلى الله، لأنها عبادة، ويستحب اختصاص ذوي القرابة ممن لا يعودهم، فلا صدقة وذو رحم محتاج، ثم الجيران، ويرجَّح أهل الفضل في الدِّين والعلم والعقل.



٢٢٣١. ﴿الزكاة على غير المسلمين﴾

كانوا يسمون زكاة غير المسلمين الجزية، لأنها تُجزِي عنها، والجزية تُجبَى قسْراً، وأما الزكاة فهي عن تطوّع، ولا يأتيها إلا من يؤمن بالله واليوم الآخر وليست كذلك الجزية، ولذا قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ (فصلت)، فعلامة كفرهم أنهم لا يأتون الزكاة، ولا يؤمنون باليوم الآخر؛ فإن قيل ولِمَ خصّ من بين أوصافهم منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة؟ فالجواب: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على إيمانه وثباته واستقامته، وصدق نيته، ونصوع طويته. وقد يتصدّق الكافر وينفق ولكنه لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يشهد أن لا إله إلا الله، وزكاته هي زكاة الأنفس، وشرط الزكاة أنها من مؤمن، وفي سبيل الله، كقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ (٢٦٥)﴾ (البقرة)، فهم ينفقونها ليثبّتوا بها أنفسهم، ويدلّوا بها على إيمانهم وثباتهم، بإنفاق الأموال لمرضاته تعالى.



٢٢٣٢. ﴿الخمس﴾

من أكبر الكبائر أن يذهب المغرضون إلى تفسير الفيء والغنائم والأنفال، بأن الخُمْس فيها للحكام المسلمين وللأئمة! وقيل: الخُمْس نصّت عليه الآية: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ

أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(الحشر)، والآية: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾**(الأنفال)، فلما توفى الرسول ﷺ خصّ الحكام أنفسهم والأئمة **بخُمس الله** والرسـول؟! وهذا هو المعمول به فى دول الخليج، وفى الدولة الإسلامية التى لرءوساء الجمهورية فيها ميزانيات مفتوحة لا حدّ لها. والمتأمل للآيتين يتبين أن كل دخل الدولة، سواء كان فيئاً، أو مغانم، أو ضرائب وزكاة، هو لأبنائها من المسلمين وغيرهم، وكلهم سواء، ولهم نصيب من هذا الدخل، ومما يُنفَق عليه منه من أوجه الصرف، كالتعليم
٢ وفُرص العلاج والعمل، ولابد أن يتساوى فيها الناس، لأنهم جميعاً مواطنون. وفى الآية: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ①﴾**(الأنفال). والفىء هو عائد الغزوات، بالصلح أو الجزية أو بالعشور أو بالخراج، بينما المغانم هى العائد بالقتال، **والأنفال** هى الأراضى التى تضم للدولة بالصلح، وكل أرض خربة باد أهلها. وهذا **التقسيم الخماسى للفىء والمغانم**، كان معمولاً به زمن الرسول ﷺ، وتوقف العمل به الآن، لاتساع رقعة الدولة،وتشابك اقتصادها، وعِظَم مواردها، والرسول فى حياته ما كان يكنز المال، ولا يتأثّله، وكان لا يأخذ من مال الزكاة ـ وهى التى تضاهى الآن الضرائب على الأموال إلا ما يحتاج إليه فى معيشته وأهله، وهذا المبدأ هو نفسه **المبدأ الاشتراكى الذى يقضى بأن يعطى الفرد بقدر جهده ثم يأخذ بقدر حاجته**، وكان يقول: «**ليس لى من غنائمكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**». وعند الشافعى فإن خُمس الرسول كان ينبغى أن يُرَدّ بعد وفاته إلى الدولة ويدخل فى مواردها وفى الميزانية العامة، ويُصرف منه على مصالح المسلمين. ولم يورّثه الرسول ﷺ لحاكم، ولا لإمام، ولا لقرابة له كما يقول الشيعة، وقال: «**إنّا لا نورث؛ ما تركناه صدقة**».



٢٢٣٣. ﴿الفقير شريك للغنى فى العين بحصته من الزكاة﴾

هل الفقير شريك للغنى فى العين ويملك فيها بمقدار حصته من الزكاة، تماماً كما يملك الغنى، أو أن الفقير صاحب حق فى العين دون أن يملك شيئاً منها، تماماً كصاحب الرهن؟ وهل الغنى مسئول عن الزكاة تجاه الفقير، كما أن صاحب العين مسئول تجاه صاحب الرهن؟

وأهل الإسلام على **أن الزكاة تتعلق بالعين، والفقير شريك للغنى فى العين، ويملك منها بمقدار حصته** على النحو الذى يملكه الغنى، **وليس للغنى أن يتلف ماله كما يحب، لأن** فى ذلك ضياع لحق الفقير فيه. والمقصود بذلك أن الله تعالى قد جعل للفقراء حقاً فى أموال الأغنياء كحقّ غرماء الميت المتعلق بتركته، بحيث إذا امتنع الأغنياء عن أداء هذا الحق

كان للدولة أن تتدخل من باب الحسبة، وأن تستوفى هذا الحق قهراً عن الأغنياء. وفارق بين القول بأن الفقير شريك الغنى حقيقة، وبين أن يقال أنه شريكه واقعاً. وهذا هو الإسلام! وهذه هي اشتراكية الإسلام!

•••

٢٢٣٤. ﴿المؤلفة قلوبهم﴾

هؤلاء كانوا فى صدر الإسلام ممن يُظهرون الإسلام، ويتألَّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم؛ وقيل: هم من أسلم من اليهود أو النصارى وإن كان غنياً؛ وقيل: هم صنف من غير المسلمين يُعطَوْن ليتألفوا على الإسلام، ورأى المسلمون فيهم أنهم يُسلمون بالعطاء والإحسان؛ وقيل: هم الذين أسلموا فى الظاهر ولم تستيقن قلوبهم، فيُعطَوْن ليتمكن الإسلام فى صدورهم. وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه إلا بالعطاء، أو ليُمنَع أذاهم عن المسلمين، وتقصر ألسنتهم عن الإسلام، وقد يكون ذلك من باب الرشوة، إلا أنها تشبه اليوم ـ المخصصات لبعض الدول تُعطى كمعونات، أو لبعض الكُتّاب والمسئولين، لتأليفهم على رأى الحكومات، أو اتجاهات الأحزاب، أو سياسات الدول، وقد يكون من تُعطَى له هذه الأموال أو الخدمات من نفس الدولة أو من دول إسلامية أو غير إسلامية، فذلك كله جائز، وهو ضربٌ من الجهاد. والدول والناس ثلاثة أصناف: فصنف يُجدى معه الحوار وإقامة البرهان، وصنف ينفع معه الإحسان، وصنفٌ لا يُدفَع أذاه إلا أن تتناوله وسائل الإعلام بالذّم، وتنبّه إليه وإلى مخازيه، وما من أحد من هؤلاء إلا وله مخاز يمكن البحث عنها، وتحرّى أمرها، ونشرها على الملأ، لتهتز صورة هذا العدو للإسلام، فلا يؤبه لكلامه من بَعْد، ولا يعود مطاعاً فى قومه. ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة، وقد أعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير (يعنى نحو نصف مليون جنيه)؛ وحكيم بن حزام، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العُزّى، وصفوان بن أمية، ومالك بن عوف، والعلاء بن جارية، مائة بعير لكلٍّ منهم، وهؤلاء هم أصحاب المئين، وأعطى آخرين دون ذلك، منهم: مخرمة بن نوفل الزهرى، وعمير بن وهب الجمحى،وهشام بن عمرو العامرى، وسعيد بن يربوع، وعباس بن مرداس السلمى، وهذا الأخير لم يرضَ واستمر يهجو المسلمين، فقال الرسول ﷺ: «اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه»، يعنى زيدوا له، فأعطوه حتى رضى، فكان ذلك قَطْع لسانه، ولعل ذلك كان يجدى أكثر مع سليمان رشدى، ونيبول، وكثير غيرهما من الصحفيين والروائيين والسياسيين. سواء فى إسرائيل، أو تركيا، أو بريطانيا، أو أمريكا، أو كندا، أو مصر نفسها. فالمسألة سواء، وقد ذُكر فى المؤلفة قلوبهم: النضر بن الحارث، ومالك بن عوف، وحكيم بن حزام. وعكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومالك بن

عـوف، وبعض هؤلاء كان على اليهودية، وبعضـهم على النصرانية، وبعضهم من أقطاب الشرك، وكان منهم شدّة العـداء للإسلام، فهدأوا بعد أن أُعطوا، وقد اجتـمعت الصحابة فى حُكم أبى بكر على توقُّف الدفع لهم، وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم، وفعل عمر ذلك، إلا أن هذا المصرف من الإنفـاق تحتّمـه الضرورة وحُسـن السياسـة، وكما أجـراه الرسول ﷺ لحـاجة المسلمـين إلى تأليف أعـدائهم ممن يُخَـشى أن تلحق المسلمـين منهم آفـة، فكذلك ينبغى أن نستمر على العمل به، ولنا الدافع إلى ذلك من الحديث الصحيح: «بدأ الإسلام غريبـاً وسيعود كـما بدأ» أخرجه مسـلم، فكمـا فعل رسولنا ﷺ بالأمس، نفعل اليوم.

●●●

٢٢٣٥. ﴿ابن السبيل﴾

السبيل هى الطريق، ويُنسَب المسافر إليها لملازمـته إياها ومروره عليها، والمراد بابن السبـيل: المسـافر الذى انقطعت به الأسـباب فى سفره عـن بلده ومستقره وماله، فإنه يُعطَى من الزكـاة وإن كان غنياً فى بلده. وابن السبيل لا يلزمه وهو فى دار الإسـلام، أن يشغل ذمّته بالسلف، ولا أن يدخل تحت مِنّة أحد وقد وَجَد مِنّة الله تعالى. وإن أخذ ابن السبيل من مال الزكاة فلا يلزمه ردّه إذا صار إلى بلده، و لا أن يخرجه. ويأتى ذكر ابن السبيل فى القرآن ثمانى مرات، كقوله تعالى: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴿١٧٧﴾ ﴾(البـقرة)، وقـوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴿٢١٥﴾ ﴾(البقرة)، وفيها جميعاً يوصى الله تعالى بابن السبيل ويجعله من وجوه الإنفاق للزكاة، شأنه فى ذلك شأن المسكين والفقير واليتيم، إلا أنه لم يعد هناك اليوم أبناء سبيل، وإنما هناك فقراء ومرضى تقطّعت بهم الأسباب كأبناء السبيل فى الماضى، وصاروا بذلك يستحقون هذا المصرف ـ مصرف ابن السبيل ـ للتخفيف عنهم وإعانتهم على الحياة ومواجهة المصاعب والأمراض.

●●●

٢٢٣٦. ﴿العاملون عليها﴾

«العاملون عليها» فى الآية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴿٦٠﴾ ﴾(التوبة): هم كل موظفى الدولة، وينفق عليهم بيت مال المسلمين، وهو الآن وزارة المالية، أو الخزانة العامة للـدولة، وقيل لـهؤلاء الثُّـمن كما فى الآية، باعتبـار مصارف الزكاة ـ وهى الدخل العام للدولة ـ تشمل هذه الفـئات الثمـانية، وروى البخارى أن النبىّ ﷺ اسـتعمل رجلاً من

بنى الأسد على صدقات بنى سليم، يدعى ابن اللتبية وكان يعطيه الثُّمن، وكذلك يُعطَى موظفو الدولة قدر عملهم من الأجرة، وهى كفايتهم من المال، وفلسفة ذلك: أن حق موظف الدولة فى الأجرة كحق الزوجة، تكون نفقتها ونفقة أتباعها من خادم أو خادمين على زوجها، ولا تُقدَّر بالثُّمن، بل تُعتبر الكفاية ثُمُناً، ومن ذلك أجرة القاضى، ونفقات ملاجىء الأيتام، وبيوت المسنين، والمستشفيات العامة، والمساجد، وأئمتها، والمدارس والجامعات، وسائر موظفى الدولة وخَدَمها، وقيل: يشترط ألاَّ يزيد الإنفاق العام على كل الأجور عن ثُمن الدخل العام، غير أن الثمن فيه إجحاف وتقصير، فهذه الفئات المذكورة فى الآية للتمثيل وليست للتعديد والحصر، والمسألة فى الإنفاق العام بحسب الميزانية العامة، ولم يعد دخل الدولة قاصراً على الصدقات، فهو أوسع من ذلك كثيراً، والكلام فى الآية قاصر على ثُمن الصدقات لما كان كل دخل الدولة هو هذه الصدقات، ولما كانت هذه الفئات الثمانى هى فقط الفئات القائمة ولا يوجد غيرها، وضربت الآية بها المثل لما يستجد من فئات، كما ضربت المثل للدخول بالصدقات، وكما ضربت المثل للإنفاق الشرعى بهذا الإنفاق. والمبدأ فى الإسلام: أن كل ما كان من فروض الكفايات، فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه، ولا جرم فى ذلك، يعنى أنه لابد من الأجر لكل عمل، حتى لو كان هذا العمل من هوامش الأعمال، كما فى حالات موظفى الضرائب. وإلى مثله أشار النبىّ ﷺ بقوله: «ما تركت بعد نفقة نسائى ومؤنة عاملى فهو صدقة»، فقرر للعاملين على جمع الزكاة أجراً واجباً.

●●●

٢٢٣٧. ﴿فى المال حقٌ سوى الزكاة﴾

فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى المال حقاً سوى الزكاة»، ثم تلا الآية: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ (١٧٧)﴾(البقرة)، وفيها تُقرن الصلاة بالزكاة، وهو دليل على أن المراد بقوله: «وآتى المال على حبه» ليس المقصود بها الزكاة المفروضة وإلا كان تكراراً. والقاعدة: أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها، وهذه هى صدقة التطوع.

●●●

٢٢٣٨ ﴿.توصية القرآن بالمستضعفين من المجتمع﴾

يوصى القرآن بالفئات المحتاجة من الشعب، كاليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وهؤلاء يُضرَب بهم المثل لما يستجد من الفئات، كقوله: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ (٢١٥)﴾(البقرة)، وأشرك الوالدين فى الإنفاق لأنه من غير المعقول أن يستوفى المنفق حاجات المجتمع ويترك أبويه يتسولان الناس. ومن شروط الإنفاق أن لايتبعه مَنٌّ ولا أذى، وأن يؤتى فى السراء والضراء؛ وفى السرّ والعلن، والأفضل أن يكون خفية، وأن لايكون عن إسراف ولا تقتير، ولا تكون مصادره خبيثة وأصله حرام، وأن ينفق كل ذو سعة من سعته، ومما فضل بعد استيفاء حاجاته وأسرته، ومثّله الله تعالى بالحبّة تنبت سبع سنابل، وفى كل سنبلة مائة حبة، فهكذا أجر المنفق عند الله، وهو الذى لاينفق رياء، ولاوهو كاره، ولايؤثر أن يكنز ماله عن أن ينفقه فى سبيل الله والمستحقون للإنفاق عليهم فى الآية خمس فئات، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والتعداد.

●●●

٢٢٣٩. ﴿حدّ الفقر فى الإسلام﴾

اختلف فقهاء المسلمين فى الفقراء والمساكين فى آية مصارف الصداقات، فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)**﴾(التوبة)، وفى الآية أن الله تعالى خصّ بعض الناس بالأموال دون بعض، نعمةً منه عليهم، وجعل شُكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لامال له، نيابة عنه سبحانه، بقوله: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (٦)**﴾(هود) يعنى أن الرزق يكفى العالم حالياً ومستقبلاً وإنما سبب الكوارث والمجاعات والفروق الاجتماعية فيه، أن البعض - وهم القلّة - يستولون غصباً على رزق الغالبية ويحوزونه لأنفسهم، فيختل الميزان الاجتماعى وتُخلَق طبقة الفقراء والمساكين والمستضعفين إلخ. **والفقراء والمساكين** هم الذين يستحقون الصدقة أكثر من غيرهم، **والفقير** عند العرب من نُزعت فقار ظهره من شدة الفقر، فلا حال أشدّ من هذه؛ والمسكين أحسن حالاً منه، وكان النبىّ ﷺ يؤثر أن يكون مسكيناً على أن يكون فقيراً إن كان الاختيار بين أن يكون هذا أو ذاك، فكأنه يتعوّذ من الفقر وهو يقول: «**اللهم أحيِنى مسكيناً وأمتنى مسكيناً**» أخرجه الترمذى، فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لتناقض الخبران، إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ منه. والمسلمون مختلفون فى حدّ الفقر الذى يجوز معه أن يعان الفقير من أموال الزكاة، وفى مصر مثلاً هناك أكثر من ٨٨٪ من السكان تحت خط الفقر، ويبلغ متوسط دخل الفرد من طبقة العمال والفلاحين دولاراً ونصف فى اليوم، ومن طبقة الموظفين من خريجى الجامعات نحو ذلك، وهناك ١٢ مليون

عاطل، وأكثر من ذلك من النساء، وكل هؤلاء فى حاجة إلى أن يعانوا من أموال الزكاة، وعلماء المسلمين متفقون على أن: من له سكن وزوجة وأولاد، ودخله أقل من عشرة دولارات فى اليوم، فله أن يأخذ من الزكاة، وفى الحديث: «**لا تحلّ الصدقة لرجل له خمسون درهما**». وكان هذا المبلغ ربما يكفى فى الماضى. ووجه الحديث على المسألة، فإذا كان الرجل قوياً، وعلى علم، وذا خبرة، ولكن لايكفيه دخله، ولايسد حاجة أولاده، فهو فقير، ولكل واحد من أفراد الأمة، أنثى أو ذكراً، نصيب من الزكاة، وله أن يأخذ منها، فيما لابد منه. وقد حرّم الرسول ﷺ الزكاة على من كان عنده «**ظَهْر غنَى**» ، وهو «**عشاء ليلة**» . ومن كان دخله وأولاده دولاراً ونصف فى اليوم، هل يكون عنده «**عشاء ليلة**»؟!

●●●

٢٢٤٠. ﴿العمل أصلح ما يأتيه المسلم﴾

كان أصحاب رسول الله ﷺ «**عمّال أنفسهم**» ، لأن العمل أشرف ما يأتيه المسلم، وبالعمل يبلو الله الناس أيهم أحسن عملاً، ومن أحسن عملاً لايضيع أجره، وأحسن العمل هو **العمل الصالح**، و ليس أصلح من **عمل اليد**، والأنبياء كانوا عمالاً: **فآدم** كان حرّاثاً، وداود زرّاداً، **ونوح** نجّاراً، **وإدريس** خيّاطاً، **وإبراهيم** ، **وإسحق**، **ويعقوب**، **وإسماعيل** رعاة: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**(٩٠) ﴾(الأنعام)، وفى الحديث : «**ما أكل أحد طعاماً خيرٌ من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان لايأكل إلا من عمل يده**»، وفى كُتب اليهود داود كان راعى أغنام (صمويل ١٦/١١)، ويجىء أيضاً أن **شاول** عيّن داود على السلاح (صمويل ١٦/١٩)، يعنى أنه كان من **صنّاع السلاح**. **وقوله** ﷺ : «**لأنْ يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خيرٌ من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه**»، فإن الكسب أعمّ من أن يكون عملاً باليد أو بغيرها، وقيل أصل المكاسب **ثلاثة**، هى **المكاسب الأصول**: **الزراعة، والتجارة، والصناعة**، والأمة التى يمهر أبناؤها فى التجارة تراها تمتهن أطيب الأعمال، لأن التجارة شطارة وحركة وعلم وإدارة وعلاقات عامة، وعلاقات مع الدول والأفراد والحكومات؛ والتى يمهر أبناؤها فى **الزراعة** إنما لأن الزراعة هى الأصل، والتى يشتغل شعبها **بالصناعة** تراها تمتهن أمهر الأعمال، وفى الخبر أن علماء بعض البلدان عابوا على أهلها أن براءات اختراعاتهم صارت **أقل** من غيرها للأمم الأخرى، وعاب بعضهم على تدنّى مستوى التعليم، وتوجهات الشباب للدراسات النظرية دون العملية والتطبيقية، والانصراف عن تكنولوجيا المعلومات. والصواب أن أطيب الكسب ما كان عن **تقوى الله**، فى أى من المجالات، سواء كانت تجارية أو زراعية أو صناعية، وما تعدّى فيه النفع، والنفع الُمتعدّى من مبادىء الإسلام، وتعدّيه لأنه يتجاوز النفع لصاحبه إلى الناس وما

يحتاجونه، وفي ذلك تكون المجتمعات والأمم والأفراد والدول مراتب، وتختلف باختلاف الأحوال. وعمل المؤمن يفضُل سائر الأعمال، ومن شرطه أن لايعتقد أن الرزق من الكسب بل من الله تعالى بهذه الواسطة. ويعلّمنا الإسلام أن نرضى بالمتاح من الأعمال حتى يتهيأ الأحسن والأنسب، وأن نُقبل على المباح عن أن نتبطّل، أو ننصرف إلى اللهو. والعمل أمان ضد كسر النفس، وذُلّ الحاجة، وفيه تعفّف عن السؤال. والجزاء عند الله بالعمل، كقوله: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ⦗١٦⦘﴾(الطور)، وقوله: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**⦗١٣٢⦘﴾(الانعام). وبالعمل تعلو الأمم ويستخلفهم الله، كقوله: ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ**⦗١٢٩⦘﴾(الاعراف)، وبعض الأمم تشتهر بالمفاسد في الكون كشأن الأمم الاستعمارية واليهود في العالم، وهؤلاء قال الله تعالى في أشباهها: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ**⦗٧٤⦘﴾(الانبياء) ، وليس أخبث منها أمم لاهَمّ لها إلا أسلحة الفتك والدمار.

●●●

٢٢٤١.﴿ للعامل أن يأخذ من عَرَض المال الذى يعمل فيه قدر حاجته﴾

فَعَل ذلك أبو بكر وأكل من مال المسلمين قدر حاجته، وكان الصحابة قد فرضوا له ما يحتاجه بقدر مطلبه. ولما استُخلف عمر أكل هو وأهله من مال المسلمين بقدر ما يحتاج، وكان أبو بكر وعمر قبل أن يستُخلفا يحترفان لتحصيل مئونة أهلهما، ويتّجران في مالهما حتى يعود عليهما من ربحه بقدر ما يتكلف هو وعياله أو أكثر. ونفهم أن الأجور لابد أن تكفي العمال لقاء عملهم، وتكفي احتياجات أولادهم وعائلاتهم، إعالةً، وتعليماً، وتطبيباً، وسكناً، ورعاية، **وإلا فالقاعدة في الإسلام: أن يأخذ العامل من عَرَض المال الذى يعمل فيه قدر حاجته**، إن لم يقطع له صاحب العمل أو الحكومة **أجراً معلوماً متزايداً يكفيه وأهله**.

●●●

٢٢٤٢.﴿ مصارف الإنفاق ومقاديره﴾

الإنفاق في الإسلام هو التصرُّف عن طواعية، كقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**⦗٢١٥⦘﴾(البقرة)، يعنى أن الإنفاق الاجتماعي ينبغي أن يتوجه إلى **مواضع الضعف** في تكوين المجتمعات، ويقال لها مواضع **التخلخل الاجتماعي**، فحيثما كانت الحاجة إلى الإنفاق لعلاج آفة اجتماعية، توجّب الإنفاق، سواء على الدولة أو المجتمع أو الأفراد، ومن ذلك إعالة الأرامل، ومصارف التعليم، والعلاج، والتدريب على الصنائع، ومحو الأمية المهنية. فلمّا سألوا

عن مصارف الصدقة نزلت الآية بالجواب فيما ينبغى تجاه هذه الطبقات المستضعفة فى المجتمع كمثال، وليس على سبيل العدّ والحصر، ثم كان سؤالهم مرة ثانية وإنما هذه المرة عن مقدار النفقة، وهو قوله: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾(البقرة٢١٩)، فلمّا عيّن لهم مصارف النفقة فى الآية الأولى، سألوا فى الآية الثانية: كم ينفقون؟ فنزلت: «قل العفو» أى مما فضل عن حوائجهم، وفى الحديث: «**خير الصدقة ما أنفقت عن غنى**».

•••

٢٢٤٣. ﴿الفرق بين إنفاق المسلم وغير المسلم﴾

المسلم ينفق لله كقوله: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**(٢٦٥)﴾(البقرة)، وغير المسلم ينفق رياء، أو بوازع سياسى أو اجتماعى: ﴿ **كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**(٢٦٤)﴾(البقرة)، والأول تهمُّه مرضاة الله، ويتثبت لذلك أين يضع صدقته، و أما الذى ينفق لغير ذلك من الأسباب فهو لما ذهب إليه من الإنفاق، كما فى الحديث عن الذى يحج، فحجُّه لما ذهب إليه، إن كان لله، أو للتجارة والمنافع، أو لامرأة ينكحها. والمسلم ينفق تصديقاً ويقيناً واحتساباً من نفسه.

•••

٢٢٤٤. ﴿المنّ والأذى يبطل الصدقة﴾

فى الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**(٢٦٤)﴾(البقرة) يشبّه الله تعالى المنّ والأذى بالصدقة، بإنفاق الكافر المرائى، وفى الأمثال: ومَن مَنّ بمعروفه سقط شكره، من أعجب بعمله حبط أجرُه، ويقال عن يد مَن يَمُنّ: «يدُه سوداء»، ولمن يعطى من غير مسألة: «يدُه بيضاء»، ولمن يعطى عن مسألة: «يده خضراء». وفى الحديث: «**إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر**»، ثم تلا: «**لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**».

•••

٢٢٤٥. ﴿الإنفاق من الطيبات﴾

المأمور به فى الإنفاق أن يكون من الطيبات، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**(٢٦٧)﴾(البقرة)، والمراد بالإنفاق الزكاة المفروضة وكذلك التطوع، والآية خطاب لجميع أمّة محمد ﷺ، وتعم الوجهين، والأمر فى الزكاة على الوجوب، وليس كذلك فى التطوع، وفى الحالتين تنهى الآية عن الإنفاق من المال الخبيث، وهو نقيض المال الطيب، وأى كسب فى الإسلام ينبغى أن يكون من الحلال، ويتوجه إلى الحلال، وإنفاقه

هو الإنفاق الحلال، ونقيضه الإنفاق الحرام. ويذهب البعض إلى أن الآية فى الزكاة فقط، وليست فى الإنفاق، لأنها ذكرت ما يخرج من الأرض وهو النبات والمعادن، وفى كلٍّ نصيبٌ مفروض من الزكاة، ولذلك فهى آية زكاة وليست آية إنفاق، ولذا قلنا إن المراد بالإنفاق فيها الزكاة المفروضة وكذلك زكاة التطوع.

•••

٢٢٤٦. ﴿الدَّيْن والدولة﴾

يقول الله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴿٦﴾ ﴾(الأحزاب) فأزال الإسلام بهذه الآية أحكاماً كانت فى صدر الإسلام، منها: أنه لايُصلَّى على ميّت عليه دَيْن، إلا أن ذلك نُهِى عنه بهذه الآية، وقال ﷺ مقالة ربّه: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى وعليه دين فعلىّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته» أخرجه الصحيحان، والدَّيْن هو القرض المؤجّل، وأهل العلم على الرأى أن الحاكم عليه أن يقضى دَيْن الفقراء من مال الحكومة اقتداءً بالنبىّ ﷺ، فإنه قد شدّد بوجوب ذلك فقال «فعلىّ قضاؤه»، وفى حديث آخر قال: «فأيكم ترك ديناً أو ضَياعاً فأنا مولاه» أخرجه البخارى، والضَّياع بفتح الضاد - مصدر ضاع، جُعل اسماً لكل ماهو بصدد أن يضيع من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قيّم له، والأرض سميت ضَيْعة لأنها معرضة للضياع، والحديث تأكيد آخر بمعنى أوسع، فقد يترك الميت عيالاً لاعائل لهم، فالحكومة أولى بهم، وقد يتركهم ولهم مال ولاقيمّ له، فتكون الحكومة هى القيمّة عليه. فهذا هو الإسلام الاجتماعى!

•••

٢٢٤٧. ﴿بيت المال﴾

بيت المال فى الإسلام يعادل وزارة المالية أو الخزانة العامة للدولة، وهو المنوط به جمع الزكاة، والمكوس والضرائب، ويرث من لاورثة له، وتئول إليه دخول أملاك الحكومة إلخ، ويدفع أجور موظفى الدولة والحكام، ويدفع الدية فى حالة إعسار المحكوم عليه بها، ومن لم يثبت على أحد قتله، وينفق على التعليم، وإيواء اللقطاء، والأرامل، والأيتام، والمسنين، ولايرد ذكر بيت المال فى القرآن، وأكثر وروده ضمن تفسير آياته فى الدِّين. وفى البيوع، والمعاملات إلخ، وفى الآية: ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴿٦٠﴾ ﴾ (التوبة) فإنهم من مصارف الزكاة، وهم كل موظفى الدولة، من سُعاة، وجُباة وقضاة، وكتبة، والولاة والجنود إلخ، ولذا لزم التنويه به.

•••

٢٢٤٨. ﴿الخراج﴾

الخـــــراج من ألفـاظ القـرآن، كقـوله تعـالي: ﴿أَمْ تَسْـأَلُهُمْ خَـرْجًـا فَـخَـرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ⟨٧٢⟩﴾(المؤمنون)، **والخرج هو الجُعل**، وما تبرعت به، ويؤدَّى عن الأموال؛ **والخراج** هو العطاء، ويـؤدَّى عن الأرض، وهو من **المصطلحات المهجورة** بإبطال النـظام الذى يدلّ عليه، و كان المعمول به في الدولة الإسلامـية القديمة أن البلاد إذا فُتحت **صلحاً** وصـولح أهلها كانت الأرض لهم، يؤدون عنها **خراجاً معلوماً**، وحُكمه حُكم **الجزية**، ومتى أسلموا سقط عنهم،وتظل الأرض فى كل الأحوال ملكاً لهم يتصرفون فيها بالبيع والرهن والهبة. وإذا فُتحت البلاد **عنوةً** صارت أرضها **وقفاً** على المسلمين، ويُضرب عليها **الخراج** كأجرة لها تؤخذ كل عام،سواء كـان أهلها مسلمين أو ذميين، ولا يسقط خـراجها بإسلام أهلها ولابيعـها إلى مسلم.ولم تقسم أرض فُـتحت عنوة إلا خـيبـر، والمعـوّل عليـه في ذلك **المصلحة العامة**، فإن رؤى أن تقسيمها بين المسلمين خير، كان ذلك، وإن رؤى وقفها على الصالح العام كان. **والزكاة** واجبة على غلّة الأرض المفتوحة عنوة التى يملكها مسلم، بعد دفع الخراج، متى بلغ المتبقى النصاب، فإن لم يبلغ النصاب، أو كانت الأرض لغير مسلم فلا زكاة عليها. **وزكاة الأرض العُشر**، فإن كان فيها ثمر أو خضروات مما لا زكاة فيه، كان يُجعل خراجها من الثمر والخضروات، بينمـا تجعل الزكاة على الزروع متى استوفت غلّتها النصـاب. وكان يُكره بيع أرض المسلم من ذمّى وإجـارتها منه، لأن ذلك كـان يؤدى إلى إسقاط زكاتها، إلا أن البيع والإجارة يصحّان.

●●●

٢. ﴿البيع والربا﴾

●●●

٢٢٤٩. ﴿تحليل البيع وتحريم الربا﴾

البيع: نقل ملك إلى الغير بثمن،**والشراء** قبوله. والإجماع على جواز البيع، وتقتضيه الحكمـة. والربـا: هو الزيادة، إما فى نفس الشيء، كـقوله تعالي: ﴿اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ ⟨٥⟩﴾



(الحج)، وإما فى مقابله كجنيه بجنيهين.**والربا فى الأشياء** حقيقة، وفى **المال** مجاز وحقيقة شرعـية.وكان الربا فى الجاهلـية أن يكون للرجل على الرجل حقّ إلى أجل مسـمّى، فإذا حلّ قضاهُ أخذه وإلا زاده في حقّه، وزاده الآخر فى الأجل. **والربـا** من ربًا يـربو. وفى التنزيل: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ⟨٢٧٥⟩﴾(البقرة)، والربا الذى حرّمه هو ما قصد إليه يوم



عرفه لمّا قال: «**ألا إن كل ربا موضوع، وإن أول ربا أضعه ربانا، ربا عباس بن عبدالمطلب، فإنه موضـوع كله**» أخرجه مسلم، فبدأ بعمه وأخصّ الناس به. وهذا من سنن العدل أن يفيض

الحاكم العدل على نفسه وخاصته أولاً، ثم يستفيض حينئذ فى الناس، والآية من عموم القرآن، وإذا ثبت أن البيع عام، فهو مخصص بما نهى عنه ومنع العقد عليه، كالخمر وغيرها مما هو ثابت فى السُّنّة وبالإجماع. وهى أيضاً من مجمل القرآن ويفسّرها المحلّل والمحرّم من البيع، وهذا فرقٌ ما بين العموم والمجمل، فالعموم يدل على إباحة البيوع فى الجملة والتفصيل مالم يخصّ بدليل، والمجمل لايدل على إباحتها فى التفصيل حتى يقترن بها بيان . وأركان البيع أربعة: البائع، والمبتاع، والثمن، والمثمّن. والبيع: قبول وإيجاب، ويقع بالصريح والكتابة. وبيع الربا جائزٌ بأصله من حيث هو بيع، ممنوعٌ بوصفه من حيث هو ربا، فيسقط الربا ويصحّ البيع.



٢٢٥٠. ﴿مشروعية البيع من طريق عموم ابتغاء الفضل﴾

يؤخذ ذلك من الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ (١٩٨) ﴾(البقرة)، ويشمل الفضل التجارة وأنواع التكسّب فى مواسم الحج وغيرها. وكانت أسواق العرب: عُكاظ، ومَجَنّة، وذا المجاز ، فلما جاء الإسلام ،فكأنهم تأثّموا التجارة، فجاءت الآية: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ (١٠) ﴾(الجمعة) تبيح التجارة، ونزلت الآية: ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾(النساء٢٩) فقيّدت التجارة المباحة بالتراضى، وفى الحديث عنه ﷺ قال: «إنما البيع عن تراض»، وقال: «التجارة رزقٌ من رزق الله لمن طلبها بصدقها». وقد تنبأ النبىّ ﷺ بزمان لايُراعَى فيه الحلال والحرام فقال: «يأتى على الناس زمان لايبالى المرء ما أخَذ منه: أمِنَ الحلال أم من الحرام».



٢٢٥١. ﴿من يترك الصلاة من أجل تجارة أو لهو﴾

قد تُذَم التجارة ـ وإن كانت ممدوحة ـ إذا قُدّمت على ما يجب تقديمه، والنّبى ﷺ انفضّ الناسُ من حوله فى خطبة الجمعة لمّا سمعوا بالتجارة القادمة من الشام، حتى أنه لم يبق معه إلا أربعة عشر من أصحابه، فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾(الجمعة)، وخروجهم إلى التجارة اعتبر لهواً، لأنه ألهاهم عن الصلاة، فغلّظ وكَبُر، ونزل فيه القرآن تهجيناً حتى أطلق عليه اسم اللهو، وكانوا إذا سمعوا طبلاً ومزامير، تركوا المسجد وخرجوا يستطلعون الأمر، واللهو مذموم لهذا السبب، ولأنه باطل ويصرف عن الحق، والمؤمنون حقاً هم الذين لاتلهيهم التجارة ولا اللهو عن ذكر الله، كقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ

تجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ (٣٧)﴾(النور)، فكانوا إذا أذّن المؤذن للصلاة أغلقوا حوانيتهم ودخلوا المساجد، وفى هؤلاء نزلت الآية، وفى التنزيل: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ(١٨)**﴾(التوبة)، وهذا عام فى كل مسجد. والمساجد تصان عن البيع والشراء، وفى الحديث: «**إنما بنيت المساجد لما بنيت له**» أخرجه مسلم، فلا بيع ولاشراء فى المسجد. وفى اللهو قال عمر: **ألهانى الصفق فى الأسواق**». والصفق أى التجارة، فكانوا إذا تبايعوا وتراضوا يتصافحون صفقاً، وأطلق عمر على التجارة لهواً، لأنها ألهته عن طول ملازمة النبىﷺ، حتى سمع غيره منه ما لم يسمعه، ولم يقصد عمر ترك الملازمة، ولكنه كان محتاجاً إلى الخروج للسوق من أجل الكسب لعياله والتعفف عن الناس.

•••

٢٢٥٢. ﴿الربا أضعافاً مضاعفة﴾

خصّ الله تعالى الربا من بين سائر المعاصى فى الآية: ﴿**لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ (١٣٠)**﴾(آل عمران)، وهو الذى كانوا يضعّفون فيه الدين عاماً بعد عام، فأمرهم بتقوى الله، تأكيداً على شنعة فعلهم وقبحه، فإن استحلال الربا يُخرج عن الدين وينزع عن الفاعل الإيمان.

•••

٢٢٥٣. ﴿آكل الربا طعمته من الربا﴾

لم يقل الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا(٢٧٥)**﴾(البقرة) إلا لأن «آكل الربا» كانت طعمته من الربا. وفى الآية الأخرى: ﴿ **وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ(١٦١)**﴾(النساء) فإن «**الأخذ**» يراد للأكل، و«**الأكل**» هو أقوى مقاصد الإنسان فى المال، وفيه الجشع والحرص والشُّح، وجميعها تدخل ضمن الآية: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا(٢٧٥)**﴾!

•••

٢٢٥٤. ﴿قولهم ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾(البقرة٢٧٥)

قال المرابون ذلك لأنهم كانوا يكتبون الدَّين فى أول العقد، فإذا كانت نهاية العقد انتظروا ليُدفَع الدين ولازيادة فيه، فإذا لم يُدفَع، يقولون: إما أن تقضى وإما أن تُربى ـ أى تزيد فى الدين، فإن كان عاجزاً عن القضاء فإنهم يستكتبونه عقداً جديداً، لابالمبلغ الأول وإنما بأضعافه، فلأنهم كانوا يقولون له أولاً اقضِ دون زيادة، قالوا: « **إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**»، وكانوا يقولون: لافرق إن زدنا الثمن فى أول البيع أو عند محله.

•••

٢٢٥٥. ﴿لاكتابه ولاإشهاد فى الربا﴾

فى الدَّيْن والبيوع أمر الله تعالى بالكتابة والإشهاد، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾(البقرة)، ذلك بأنه أحلَّ البيع، ولكن الربا حرّمه فمنع فيه الكتابة والإشهاد، وورد فى الكاتب والشاهد صريحاً عند مسلم والترمذى وأصحاب السنن من حديث جابر وعبدالله بن مسعود: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم فى الإثم سواء».

•••

٢٢٥٦. ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(البقرة٢٧٦)

هو حكمٌ من الله تعالى فى الربا والمرابين؛ والمحق هو الإبطال والمحو والنقص والذهاب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه. و«محق الربا» إما فى الدنيا، بذهاب بركته وإن كان كثيراً، وفى الحديث «إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قلّ»، وإما فى الآخرة فلا تقبل من المرابى الصدقة ولا الحجة ولاالصلاة. و«ربا الكافر» هو هذا الربا الباطل، و«ربا المسلم» هو الصدقات، وصدقات المسلم تربو، أى ينمّيها الله فى الدنيا بالبركة، ويكثر ثوابها فى الآخرة، وفى صحيح مسلم: «إن صدقة أحدكم لتقع فى يد الله فيربّيها له كما يُربّى أحدكم فَلُوّه، أو فصيله، حتى يجىء يوم القيامة، حتى إن اللُّقمة لتصير مثل أُحد»، والفَلو هو المُهْر فطيماً، والفصيل ولد الناقة أو البقرة إذا فُصل عن أمه.

•••

٢٢٥٧.﴿آية الربا من آيات الإسلام الاشتراكى﴾

هى الآية: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾(البقرة) وهذا مبدأ من المبادىء الاشتراكية لم يؤسَّس له إلا حديثاً فى القرآن التاسع عشر الميلادى، أى منذ نحو ١٢٥ سنة، وبينما هو فى الإسلام أصل من أصول الاقتصاد الإسلامى، وفيه قال رسول الله ﷺ فى حجّة الوداع: «ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولاتُظلَمون»، فردّهم الله تعالى ورسوله إلى رءوس أموالهم، وبعد

ذلك حاولت نفس المحاولة **الاشتراكيات الإصلاحية**، ودالت جميعها إلا **الاشتراكية الإسلامية**، لأنها لم **تظلم صاحب رأس المال، وأنصفت المقترض العادي**، فردّت للأول رأسماله، وأعفت الثاني من الأرباح الربوية. **والربا حلال في اليهودية** طالما أنه بين اليهود وبين **الأغيار**، ولايجوز بين اليهود بعضهم البعض، ونصّ ذلك: «**لاتقرض أخاك بربا في فضة أو طعام أو شيء آخر مما يُقرض بالربا، بل الأجنبي إياه تُقرض بالربا، وأخاك لاتقرضه بالربا**» (تثنية الاشتراع ٢٣ / ١٩-٢٠)، وجاء عن ذلك في التنزيل: ﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ** (١٦١)﴾(النساء)، أي اليهود، وكان قوم شعيب يرابون، و لمّا منعهم قالوا: ﴿**أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** (٦٢)﴾(هود) أي نفعل الربا.

●●●

٢٢٥٨. ﴿الحكم في أهل الربا كالحكم في المرتدين﴾

أوعد الله أهل الربا فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٢٧٨) **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** (٢٧٩)﴾(البقرة)، **فهم حربٌ لله** ولرسوله، أي أعداء، وإذا اصطلح أهل بلد على الربا استحلالاً كانوا مرتدين، والحكم فيهم كالحكم في أهل الردّة، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالاً جاز للمسلمين محاربتهم. وقوله: «**فأذنوا بحرب من الله ورسوله**» على معنى فأعلِموا غيركم أنكم على حربهم.

●●●

٢٢٥٩. ﴿الربا موبقة﴾

في الحديث: «**يأتي على الناس زمان لايبقى أحد إلا أكل الربا، ومن لم يأكل الربا أصابه غباره**» أخرجه النسائي، وبرواية الدارقطني أن النبيّ ﷺ قال: «**لَدرْهم ربا أشّد عند الله تعالى من ست وثلاثين زَنْيَة في الخطيئة**»، وقال: «**الربا تسعة وتسعون باباً أدناها كإتيان الرجل بأُمّه**»، يعني كالزنا بأمه، وقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات...**»، ومنها «**وآكل الربا**»، **والموبقات** هي المهلكات، من وَبَقَ يَبق أي هَلَك. والآية تدل على أن أكل الربا من الكبائر، والعمل به من الكبائر.

●●●

٢٢٦٠. ﴿الحلال بيّن والحرام بيّن﴾

في البيوع شُبهة في المعاملات يقع فيها الناس كثيراً، وفي الحديث: «**الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتَبهة، فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترَك، ومن اجترأ**

على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصى حمَى الله: ومن يرتع حول الحمَى يوشك أن يواقعه»، تنقسم الأحكام إلى ثلاثة أقسام: **الأول: الحلال البيّن**:وهو الشيء ينصّ على طلبه مع الوعيد على تركه؛ **والثانى: الحرام البيّن**: وهو الشيء يُنص على تركه مع الوعيد على فعله، أو لا ينصّ على واحد منهما فذلك هو **المُشتَبه**، وهو القسم الثالث. ومعنى قوله «**الحلال بيّن**» أنه لايحتاج إلى بيان، والناس تعرفه وتشترك فى معرفته، وكذلك قوله «**الحرام بيّن**»: يعنى أن كل الناس تعرف أنه حرام ولايختلف أحدٌ فى حُرمانيته، وأما **الثالث فهذا هو المُشكل، لأنه مُشتَبهٌ** بسبب خفاء أمره على الناس، فلا يدرون هل هو حلال أم حرام. وفى الحديث أن ما كان هذا سبيله ينبغى اجتنابه، لأنه إن كان حراماً فقد برىء من تبعته، وإن كان حلالاً فقد أُجر على تركه. وتشتبه المعاملات على بعض الناس أو الكثير من الناس، ويؤثر بعضهم لذلك منع إطلاق الحلال والحرام على ما لانصّ فيه، لأنه من جملة ما لم يستبن. وقوله ﷺ «**أوشك**» أى قَرُب، لأن متعاطى الشبهات قد يصادف الحرام وإن لم يتعمده، أو يقع فيه لاعتياده التساهل، وما أسهل أن يَعْمَى أمر المشبِّهات على الناس، فهى من وجه تشبه الحلال، ومن وجه تشبه الحرام، فيلتبس أمرها على قليل الخبرة؛ **ويرتع حول الحمى**: أى المعاصى يدور حولها، يوشك أن يرتكبها، فالأوْلى إذن أن ننأى عنها.

●●●

٢٢٦١.﴿فى المعاملات دَعْ ما يريبك إلى مالا يريبك﴾

هذا الحديث أخرجه الترمذى والنسائى وأحمد وابن حبان والحاكم. ويقال رابه يريبه، وأرابه يُريبه ريبةً، **والريبة هى الشك والتردد**، وموضعهما القلب، كقوله تعالى: **﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾**(التوبة)، والتردد من أهم صفات الإسراف فى الريبة، والحديث دعوة إلى حسم هذا التردد، ومعناه: إذا شككت فى شيء فدعه، والتركُ لما يُشَك فيه أصل فى الورع، وفى الحديث الآخر: «**لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس**»، يعنى أن كل ما يُشك فيه فمن الواجب اجتنابه. والمعاملات ثلاثة أقسام: **واجب، ومستحب، ومكروه**؛ فالواجب: اجتناب ما يستلزمه ارتكاب المحرَّم؛ والمندوب: اجتناب معاملة مَن أكثر ماله حرام؛ والمكروه: اجتناب الرخص المشروعة على سبيل التنطُّع.

●●●

٢٢٦٢.﴿القرض الحسن﴾

فى قوله تعالى: **﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴿٢٠﴾﴾** (المزمل) أن القروض يمكن أن تكون

حسنة، ويمكن أن تكون قبيحة؛ **والقرض الحسن** اصطلاح من الاقتصاد الإسلامى، ويأتى فى القرآن **ست** مرات، وهو النفقة فى سبيل الله، أو النفقة فى أفعال الخير أياً كانت، وسميت **قرضاً** لأن القرض يُخرَج لاسترداد بدل، والذى يُنفق فى سبيل الله يبدّله الله بالأضعاف الكثيرة. **والقرض** هو الصدقة، وصفها **بالحُسن** لأن مُنفقها يحتسبها من قلبه بلا مَنّ ولا أذى، فيضاعفها له الله، كقوله: **﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ (١١)﴾**(الحديد)، **والمضاعفة** بين **السبع إلى السبعمائة** إلى ما شاء الله من الأضعاف. وهو **قرضٌ حسن** لأنه عنى تطوّع. والعرب تقول: **لى عند فلان** «قرض صدق» **أو** «قرض سوء» لأنه عنى تطوّع. والعرب تقول: **لى عند فلان** «قرض صدق» **أو** «قرض سوء». - ومن القرض الحسن: صدق النيّة، وطيب النفس، وأن يكون من الحلال، ويبتغى وجه الله دون رياء ولا سُمعة، وليس من خبيث المال. وفى الحديث عن **أفضل الصدقة** قال ﷺ: «**أن تعطيها وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش..**»، وفى الآية كنّى الله عن الفقير بنفسه العلية المنزهّة ترغيباً فى الصدقة، وإلا فالله تعالى لا يقترض فهو الغنى سبحانه. ولما نزلت **آية القرض الحسن** انقسم الناس إزاءها **ثلاث** فرق: **الأولى** الرَّذْلى، قالوا: إن ربّ محمد محتاج فقير إلينا ونحن أغنياء! وهؤلاء هم **اليهود** أصحاب الجهالة، وردّ الله عليهم قال: **﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ (١٨١)﴾**(آل عمران)؛ **والثانية** آثرت الشّح والبخل ولم تنفق فى سبيل الله، ولا تصدّقت ولا أعانت؛ **والثالثة** لما سمعت بادرت وامتثلت، وهؤلاء هم المسلمون حقاً وصدقاً. **والقرض** فى اللغة **البلاء**، وكل امرىء سوف يُجزى قرضه حسناً أوسيئا ومديناً أو دائناً، والقروض تُجازى بأمثالها، فبالخير خيراً وبالشرّ شراً.

●●●

٢٢٦٣. ﴿الرشوة وأكل الأموال بالباطل﴾

فى الآية: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾**(البقرة) أن الباطل هو نقيض الحق، ويدخل فيه المال المغصوب بالقمار والنصب وجحد الحقوق، ومن أخذ مالاً لا على وجه الشرع فقد أخذه بالباطل، ومنه أن تكون على الباطل ولكنك تقف أمام القاضى وتجعل الحرام حلالاً فيحكم لك، لأنه يقضى بما هو ظاهر. والذى نكر الوديعة والقرض، ويتقاضى الرشوة، إنما يأكل بالباطل. والرشوة من **الرشاء**، وقوله: **﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾** تشبيهاً بالذى

يرسل الدلو في البئر، والإدلاء **بالتصريحات المغلوطة والحجج** الفاسدة من ذلك، كقوله: **﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾**(البقرة)، وسمّى ذلك إثماً، لأنهم يأكلون عن علم أموال فريق من الناس لمصلحة فريق آخر، والمسلمون على اعتبار من يأخذ بالباطل ما وقع عليه اسم مال، قلّ أو كثر، قد فسق.

●●●

٢٢٦٤. ﴿من أين لك هذا؟﴾

القانون المشهور: «**من أين لك هذا**»أصله إسلامي، ففي الرواية أن **عمّال الصدقة** جاءوا بالمال فقالوا: هذا لكم، وسكتوا عن الباقي. قيل، فسأل خازن بيت المال أحدهم: **وهذا؟** من أين لك هذا؟ **قال المسئول**: أُهدى لي! وسمع بذلك الرسول ﷺ، فقال له: «**ألا جلستَ في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً**»، وقال: «**هدايا العمال غُلول**»، أي رشوة، وسطو وسرقة، وفي التنزيل: **﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١٦١)﴾**(آل عمران)، وفي الحديث: «**لا إغلال ولا إسلال**»، فقرن **الإغلال**، أي الرشوة، **بالإسلال**، أي السرقة! وقدّم الإغلال على السرقة! لأنها أخطر من السرقة، وأدعَى للفتنة وفساد الضمائر. وهذا هو الإسلام! ولمّا وجد النبيّ زكريا الرزق يتوالى على مريم في المحراب، ولم يعرف مصدراً له سألها: **﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا (٣٧)﴾**(آل عمران)، أي: **من أين لك هذا؟** قيل إن «**أين**» سؤال عن المواضع،و لكن «**أنّى**» سؤال عن الجهات والمذاهب، وكأنه يسألها من أى **الجهات جاءك هذا تحديداً، ولماذا بعثوه إليك؟** والسؤال فيه تشديد، **وهو أصل من أصول الإدارة والحُكم في الإسلام**، ولو أن كل حاكم، وكل مسئول، سأله شعبُه متمثلاً في مجالسه النيابية وصُحفه، والأجهزة الرقابية المختصة، وسأله المعنيون بالأمر، وسألته الرعية وعامة الناس، وسألت كل زوجة زوجها،وسأل كل زوج زوجته: «**أنّى لك هذا؟**» لما كانت الرشوة والاختلاسات والسرقات وغيرها، ولما كان أكلُ السُّحت واستحلال الحرام!

●●●

٣٠. ﴿المواريث﴾

●●●

٢٢٦٥. ﴿الفرائض نصف العلم فتعلموها﴾

الفرائض جمع فريضة، وهى ما ألزم الله به عباده، وخُصّت **المواريث** بهذا الاسم من قوله تعالى: **﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ (١١)﴾**(النساء)، وقوله: **﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)﴾**(النساء). والآية:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾(النساء): تسمى «آية المواريث» ، وتتضمن الفرائض، وتؤخذ بالعلم، وعلم الفرائض أساسه هذه الآية، وفى الحديث: «تعلّموا الفرائض فإنها نصف العلم»، وفى رواية: «تعلّموا القرآن والفرائض وعلّموهما الناس» ، وفى رواية: «تعلّموا الفرائض كما تتعلمون القرآن»، وفى رواية : «تعلموا الفرائض فإنها من دينكم»، والناس إما فى حالة حياة وإما فى حالة موت، والفرائض تتعلق بالحالتين.



٢٢٦٦. ﴿الفرض والفريضة﴾

الفرض: هو القطع، كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا (١)﴾(النور)، قطّعها الله تعالى نُجُماً نُجُماً، أى أحكاماً أحكاماً، ومن ذلك فرائض الميراث، وفرائض النفقة، ووصفه تعالى لسورة النور بأنها «سورة الفرائض» ، لكثرة ما فيها من الأحكام. والمفروض هو المقدّر الواجب، كقوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)﴾(النساء) أى حقاً لازماً. تقول فَرَضَ الله الأحكام على العباد، أى سنّها وأوجبها، كقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ (٢)﴾(التحريم) والفرض هو ما أوجبه الله، والجمع فروض، نقول: «فروض الصلاة»، و«فروض الحج»، أى سُنَنه. والفريضة، وجمعها فرائض، فى الصدقات هى ما فُرِض منها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ (٦٠)﴾(التوبة)؛ وما فُرِض من المواريث يسمى فرائض؛ وقيل: علم الفرائض هو ثلث العلم الإسلامى، وفى الحديث هو نصف هذا العلم، ومن أقواله ﷺ «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فَضْل: آية محكمة، أو سُنّة قائمة، أو فريضة عادلة». والفريضة فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً (٢٣٧)﴾(البقرة) هى المهر أو الصداق. والفرض عموماً ينقسم قسمين: «فرض كفاية»، و«فرض عين»: والأول إن لم يقم به من يكفى، أَثِم الناسُ كلهم، كالجهاد فإنه يسقط بفعل بعض الناس

له؛ بينما الثاني لا يسقط عن أحد بفعل غيره، كالصلاة فإنها واجبة عيناً على كل مسلمة ومسلم بالغ عاقل.

●●●

٢٢٦٧. ﴿ألحقوا الفرائض بأهلها﴾

هذا الحديث لرسول الله ﷺ بحسب آية المواريث، والفرائض هي الأنصباء المقدّرة في آية المواريث، وهي: النصف، ونصفه، ونصف نصفه، والثلثان، ونصفهما، ونصف نصفهما. والمراد بأهلها من يستحقها بنصّ القرآن، و في الحديث: «اقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله» أي وفق ما أنزله في كتابه.

●●●

٢٢٦٨. ﴿التركة﴾

التَّركة: هي ما يتركه الميت من ميراث، كقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ (١٨٠)﴾(البقرة)، وتقسّم على الورثة على مصحّ المسألة، فما خرج فهو حصة السهم منها، فيضرب في سهام كل وارث لمعرفة حصته. وإذا كان الميت قد أوصى بأجزاء من المال، أُخذت من مخرجها وقُسّم الباقي على الورثة، فإذا اقتسموه ثم ظهر عليه دين لاوفاء له إلا مما اقتسموه لم تبطل القسمة بشرط أن يوفّوا الدين من نصيب كلٌ بقدر حصته، وإن شاءوا نُقضت القسمة وبيعت التركة في الدين، فإن أجاب أحدهم لوفاء نصيبه من الدين وامتنع آخر، بيع نصيب الممتنع وحده، وبقى نصيب المجيب، وإذا أقرّ الوارث لرجل بدين على الميت يستغرق ميراثه، فقد أقرّ بتعلق دَينه بجميع التركة واستحقاقه لها. وإذا أقرّ أحد الورثة بدين على التركة لزمه من الدين بقدر ميراثه، ويشهد بالباقي على بقية الورثة. ومؤونة تجهيز الميت مقدّمة على الدّيْن والوصية. وليس للولد مطالبة أبيه في حياته بدين عليه؛ وإن مات الابن لم يجز لورثته أن يطالبوا الأب بما كان يمكن أن يرثه الابن عن أبيه لو مات الأب قبله، وإن مات الأب وهو مدين للابن، رجع الابن على تركته بدينه. والدين المؤجّل يحلّ بموت المدين، وينتقل الحق إلى ذمم الورثة بموت مورثهم.

●●●

٢٢٦٩. ﴿الميراث والورثة﴾

الوراثة والورث والتراث، هو ما يخلفه الميت لورثته، والفعل ورث أى انتقل إليه المال بعد وفاة المورّث، ويقال ورث عنه يعنى صار إليه الميراث، وفى التنزيل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ (١٦)﴾(النمل) حيث داود هو أبو سليمان، وفى دعاء زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا

﴿٥﴾ **يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ﴿٦﴾ ﴾(مريم)، والولى هو الابن، وقوله : ﴿**وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا** ﴿١٩﴾ ﴾(الفجر) يعنى **الميراث**. وفى الحديث : «**من ترك مالاً فلورثته**» **وفى رواية** :«**فليرثه عُصبته من كانوا**» ، **وفى رواية** «**فإلى العُصبة من كان**»، **والعُصبة** هم الورثة من قرابته ممن يلتقون مع الميت فى أب ولو علا، سُمّوا بذلك لأنهم يحيطون به كالعصابة، والمراد العصبة بعد أصحاب الفروض.

•••

٢٢٧٠.﴿كانوا لايورثون البنات فى الجاهلية﴾

قيل نزلت آية : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴿١١﴾ ﴾(النساء) لأنهم كانوا فى الجاهلية **لايورثون البنات**، وقيل: كان بعض عقلائهم كعامر بن جُشَيْم، يساوى بين البنات والبنين، فجاء الإسلام فجعل نصيب الولد كنصيب البنتين، يعنى له **ثلثا** التركة وللبنت **الثلث**. فإذا كان الورثة من البنات فقط، فوق اثنتين، فلهن **الثلثان**، كقوله: ﴿ **فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ** ﴿١١﴾ ﴾ (النساء)، ولم يفرض للثنتين، فقال العلماء الثنتان لهما الثلثان أيضاً، لأن البنت مع الولد لها الثلث، فمن باب أولى أنهما لو كانتا بنتين اثنتين فلهما الثلثان أيضاً، يعنى كل واحدة الثلث كميراث البنت لو كان معها ولد، وإن كانتا بنتاً واحدة بدون ولد، قال: ﴿ **وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** ﴾(النساء١١).

•••

٢٢٧١.﴿ميراث الزوجين﴾

يتوارث **الزوجان** إذا كان هناك **عقد**، سواء كان الموت قبل الدخول بالزوجة أو بعده، ولا فرق بين ما إذا كان الزواج قد تم فى الصحة أو فى المرض، ولا يثبت التوارث بين الزوجين فى النكاح الفاسد. وللزوجة أو للزوجات **الربع** إن لم يكن للزوج ولد ولاولد ابن، ولهن **الثمن** إن كان له ولد أو ولد ابن، وفرض الزوجة الواحدة والزوجات المتعددات واحد يقتسمنه بالتساوى. وترث **المطلقة الرجعية** زوجها، ويرث كل منهما صاحبه.

•••

٢٢٧٢.﴿ميراث الأولاد﴾

إذا انفرد **الولد** أخذ المال كله، ذكراً كان أو أنثى، سوى أن **الذكر** يأخذ المال بالقرابة، **والأنثى** تأخذ نصفه بالفرض، ونصفه بالردّ، وإذا تعددت الذكور من الأولاد ولا إناث معهم، اقتسموا بالسوية، وكذا إذا تعددت الإناث ولاذكور معهن، وإذا تعددوا ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل حظ الأنثيين. وإذا كان مع الأولاد **أبوان** أو **أحدهما** فلكل منهما **السدس** ولهما السدسان، **والباقى** للأولاد. وإذا كان مع الأولاد زوج أو زوجة، أخذ الزوج **الربع**،

والزوجة الثمن، والباقى للأولاد. و إذا كان مع البنت الواحدة أبوان فلها ثلاثة أخماس، ولهما خمسان مع عدم الحاجب للأم، وإذا وجد الحاجب كان لها السدس، وما بقى من الخمسين فللأب. وإذا كان مع البنتين فأكثر أبوان، فللبنات الثلثان، ولكل من الأبوين السدس. وإذا كان معهن أحد الأبوين فلهن أربعة أخماس.

•••

٢٢٧٣.﴿ميراث الأب﴾

للأب الميراث كله إذا لم يوجد وارث آخر سواه؛ وإذا كان معه أحد الزوجين أخذ الأعلى نصيبه، والباقى للأب بالقرابة حيث لم يفرض له شىء فى القرآن إن لم يكن له ولد؛ وذا كان معه بنت واحدة فله السدس بالفرض ولها النصف، ويبقى الثلث يرد عليهما معاً وتكون الفريضة من أربعة؛ وإذا كان معه بنتان فأكثر فله الخمس، وللبنات أربعة أخماس، لأن السدس الباقى عن فرضه وفرضهن يُردّ على الجميع؛ وإذا كان معه أم أخذت فرضها وهو الثلث مع عدم الحجب، وله السدس، والباقى أيضاً؛ وإذا كان معه بنت ابن فحكمها حكم أبيها وله السدس والباقى لها، وإذا كان معه ابن بنت كان حُكمه حكم وجود الأم.

•••

٢٢٧٤.﴿ميراث الإخوة﴾

هؤلاء يسمون «الكلالة»، من الإكليل، لإحاطتهم بالرجل كما يحيط الإكليل بالرأس؛ فإذا كان للميت أخ واحد فله المال كله بالقرابة؛ وإذا كان له إخوة ذكور فالمال بينهم بالسوية؛ وإذا كانت معهم أنثى أو إناث فللذكر مثل حظ الأنثيين؛ وإذا كان للميت أخت واحدة شقيقة أخذت الكل ـ النصف بالفرض، والنصف بالردّ؛ وإذا كانت له أختان فأكثر أخذن الكل: الثلثين بالفرض والثلث بالردّ؛ وإذا لم يكن له إلا إخوة لأبيه قاموا مقام إخوته لأمه وأبيه، والحكم فى ميراثهم واحد؛ وإذا كان له إخوة من الأب والأم، ومن الأب فقط، ومن الأم فقط، أخذ الإخوة من الأب والأم المال كله؛ وإذا كان له أخ أو أخت واحدة من أمه أخذ أو أخذت المال كله: السدس بالفرض، والباقى بالردّ؛ وإذا كانوا إخوة وأخوات من الأم أخذوا الثلث بالفرض والباقى بالردّ، واقتسموا بالسوية، للذكر مثل حظ الانثيين.

•••

٢٢٧٥.﴿الكلالة من مات وليس له ولد ولا والد﴾

تأتى الكلالة فى آيتين من آيات المواريث: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ

آية الصيف: **﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (١٧٦)﴾**(النساء)؛ ولم تُذكر الكلالة في موضع آخر في القرآن سوى هذين الموضعين. **والكلالة** في اللغة: مصدر **تكلّله** أي أحاط به، وبه سمى **الإكليل**، وهي منزلة من منازل القمر لإحاطتها به؛ **والإكليل** التاج والعصابة المحيطة بالرأس، فإذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته **كلالة**، يعني يتكلله النسب وترثه قرابته، **فالكلالة** إذن هو هذا الرجل سواء في حياته أو بعد مماته؛ أو أن **الكلالة** هم قرابة الرجل من أنسبائه، أو إخوته يحيطون به، أو أن الكلالة من **الكلال** وهو الإعياء، لأن الميراث يصير إلى ورثة عن بُعد وإعياء.

ويُختلف في إعراب الكلالة بحسب المعنى المراد بها، فإن قُرئ قبلها «يورِّث» بكسر الراء وتشديدها، أو «**يورث**» بكسر الراء وتخفيفها، تكون الكلالة الورثة، أو **المال**؛ وإن قُرئ «**يورَث**» بفتح الراء، تكون الكلالة **المال**، أو **الورثة**، أو **الميت**. وفي كل الأحوال فالكلالة هم الذين يرثون الميت عدا ولده ووالده. ويقال للرجل كلالة، وللمرأة كلالة، ولا يُثنّى ولايجمع.



٢٢٧٦.﴿العَوْل في المواريث﴾

العَوْل من **عال**، تقول: **عال في حكمه**: أي جار ومال؛ **وعالت الفريضة**: ارتفع حسابها وزادت سهامها فنقصت أنصباء الورثة؛ **والعَوْل** إذن هو: أن تزدحم الفروض ولا يتسع المال لها، فيدخل النقص عليهم كلهم، ويقسّم المال بينهم بنسبه فروضهم. وطريقة العمل في العول أن نأخذ الفرض من أصل المسألة ونجمعها، فما بلغت السهام فإليه ينتهي، ففي زوج وأختين لأبوين: أصل المسألة **ستة**، للزوج **النصف**: ثلاثة، وللأختين الثلثان: أربعة، فيجمع الثلاثة والأربعة فتكون سبعة، وبذلك يكون ما يأخذه الزوج **ثلاثة من سبعة**، والأختان **أربعة من سبعة**. **والمسائل في الأساس ثلاث**: **عادلة** وهي التي يستوي مالها وفروضها؛ **وعائلة**: وهي التي تزيد فروضها على مالها؛ **وردّية**: وهي التي يفضل مالها عن فروضها ولاعصبة فيها. وأصل المسائل التي تعول:٣و٦و١٢و٢٤، وأما **٢و٤و٨ فلا تعول** أبداً. **فالستة تعول إلى سبعة**، كما في مسألة زوج وشقيقتين، **وإلى ثمانية** كما في مسألة **المباهلة**؛ **وإلى تسعة** كما في **المسألة الغرّاء**، **وإلى عشرة** كما في مسألة **أم الفُروخ**؛ **والاثنا عشر** تعول إلى ١٣و١٥و١٧، ومن أمثلة عولها إلى ١٧ مسألة **أم الأرامل**؛ **والأربعة والعشرون** تعول إلى ٢٧ كما في **المسألة المنبرية** أو **البخيلة**.

ومسألة أم الفروخ: سميت كذلك لكثرة عولها، لأن نصف الزوج، ونصف الأخت الشقيقة يكمل بهما المال، وتبقى سهام الباقين كلُّها عَوْلاً، وأصلها من ستة فتعول إلى عشرة. والفُروخ بضم الفاء جمع فَرْخ وهو ولد الطائر. وهى أم الفُروخ لأنها تجمع فيها كثيرين. والمسألة الأكدرية: هى زوج، وأم، وأخت ،وجدّ؛ وللزوج النصف ، وللأم الثلث، وللأخت النصف، وللجدّ السدس، ثم يقسّم سدس الجد ونصف الأخت بينهما على ثلاثة أسهم، للجدّ سهمان، وللأخت سهم، فتصبح الفريضة من ٢٧ سهماً، للزوج منها ٩، وللأم ٦ ، وللجدّ ٨، وللأخت ٤ ، ولايُفرَض للجدّ مع الأخوات فى غير هذه المسألة. والمسألة المشرّكة أو الحمارية: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة لأب وأم: فللزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة لأم الثلث، والإخوة لأب وأم عصبة فلا يبقى لهم شيء، لأن الفروض قد استغرقت المال كله. وهكذا كل مسألة اجتمع فيها: زوج، وأم أو جدة، واثنان فصاعداً من ولد الأم، وعصبة من ولد الأبوين. وتسمى هذه المسألة المشرّكة، لأنهم شرّكوا فيها بين ولد الأبوين وولد الأم فى فرض ولد الأم، فقسمه بينهم بالسوية. وتسمى أيضاً المسألة الحمارية، لأنه يُروى أن عمر بن الخطاب أسقط ولد الأبوين، فقالوا له: هب أن أبانا كان حماراً، أليست أمنّا واحدة؟ فشرّك بينهم.

●●●

٢٢٧٧.﴿الوارثات من النساء﴾

هن : البنت، وبنت الابن، والأم، والجدّة، والأخت ، والزوجة. ومن هؤلاء من يرث بفرض، منهن من يرثن بتعصيب. والعصبات منهن كلهن إذا انفردن عن إخوتهن يرثن بالفرض، إلا الأخوات مع البنات. وكلهن قد يُحرَمن الميراث ما عدا الأم،والبنت، والزوجة.

●●●

٢٢٧٨.﴿الوارثون من الرجال﴾

يرث من الرجال: الابن، ثم ابن الابن وإن سفل؛ و الأب، ثم الجدّ وإن علا؛والأخ، ثم ابن الأخ؛ والعمّ، ثم ابن العم؛ والزوج ،وهؤلاء كلهم عصبات، إلا الزوج، والأخ من الأم، وإلا الأب والجدّ إذا كانا مع الابن.

●●●

٢٢٧٩.﴿ميراث الأم﴾

للأم الثلث: عند عدم الولد، وولد الابن، وعند عدم الإخوة والأخوات من أى جهة كانوا ذكوراً أو إناثاً، وفى هذه الحالة يشترط أن يكون الإخوة أو الأخوات أكثر من واحد. ولها السدس : إن كان للميت ولد، أو ولد ابن، أو اثنان فأكثر من الإخوة أو الأخوات .

وإن كان زوج وأم وأب، أو زوجة وأم وأب، فللأم ثلث الباقى بعد فرض الزوجين . وهاتان المسألتان تسميان المسألتين العمريتين . فإذا كان مكان الأب جدّ، أخذت الأم ثلث جميع المال.

•••

٢٢٨٠. ﴿العَصَبات﴾

الجمع عَصَبة، والواحدة العَصَب: وهم قوم الرجل الذين يتعصّبون له، وهم عاقلته، أى الذين يحملون عنه الدّية، وسميت الدّية عقلاً لأنها تعقل أو تمنع لسان ولىّ المقتول، وسميت العَصَبة عاقلة، لأنهم يمنعون عن القاتل. وغير العَصَبة ليسوا من العاقلة، كالإخوة لأم، والزوج، وذوى الأرحام. والعَصَبة فى المواريث: هم الذكور من ولد الميت وآبائه وأولادهم ، وليس لهم إرث مقدّر، وإذا كان معهم ذو فرض أخذوا ما فضل عنه، وإن انفردوا أخذوا الكل، وإن استغرقت الفروض سقطوا ولم يأخذوا شيئاً، وأولادهم بالميراث أقربهم، ويسقط الأبعد بالأقرب. وهناك أربعة من الذكور يعصّون أخواتهم فيمنعوهن الفرض، ويقتسمون ما ورثوا، للذكر مثل حظ الأنثيين، وهم: الابن؛ وابن الابن وإن نزل؛ والأخ من الأبوين؛ والأخ من الأب. أما بقية العصبات فينفرد الذكور منهم بالميراث دون الإناث، وهم: بنو الأخ، والأعمام، وبنو الأعمام. والأخوات لأبوين أو لأب عصبات إذا كن مع البنات. والعَصَبات من النساء هن من يرث بتعصيب، وإذا انفردن عن إخوتهن يرثن بالفرض، إلا الأخوات مع البنات.

وللرجال من العصبات مدخل فى الحضانة، وأولاهم الأب، ثم الجدّ أبو الأب وإن علا، ثم الأخ من الأبوين، ثم الأخ من الأب، ثم بنوهم وإن سفلوا على ترتيب الميراث، ثم العمومة، ثم بنوهم، ثم عمومة الأب، ثم بنوهم، ولاتسلّم البنت إلى ابن العم إذا بلغت لأنه ليس بمحرم.

•••

٢٢٨١. ﴿ذوو الأرحام﴾

هم الأقارب الذين لا فروض لهم ولاتعصيب، وهم أحد عشر حيزاً: أولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الإخوة، وأولاد الإخوة من الأم، والعمّات من جميع الجهات، والعمّ من الأم، والأخوال، والخالات، وبنات الأعمام، والجدّ أبو الأم، والجدّة. وذوو الأرحام يرثون إذا لم يكن هناك ذو فرض، ولاعَصَبة، ولا أحد من الورثة إلا الزوج والزوجة؛ فإذا كان هناك عَصَبة أو ذو فرض من الأقارب، أخذ المال كله ولا شىء لذوى الأرحام. ويرث ذوو الأرحام مع الزوجين ما فضل عن فرضهما.

•••

٤. ﴿البيوع والأمانات والقروض والدعاوى﴾

●●●

٢٢٨٢. ﴿الآية المخصوصة بأمة الإسلام﴾

هى الآية : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (٧٨)﴾(الحج)، والحرج هو الضيق. والآية تدخل فى كثير من الأحكام، وهى مما خصّ الله بها أمة الإسلام، وقد خصّها بثلاثة أشياء لم يعطها أى نبىّ إلا محمداً: الأول ـ كان يقال للنبىّ ـ أى نبىّ ـ اذهب فلا حرج عليك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (٧٨)﴾(الحج)، أى كان الخطاب للأمة لا للنبىّ ﷺ ؛ وكان الأنبياء شهداء على أممهم، وقيل لهذه الأمة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (١٤٣)﴾(البقرة)؛ وكان يقال للأنبياء: سَلُوا تُعطوا، وقيل لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠)﴾(غافر)، فالمعنىّ دائماً أُمة الإسلام، وهذا هو تميّزها عن سائر الأمم.

●●●

٢٢٨٣. ﴿العقود مُلزمة﴾

العقود هى الرّبوط، واحدها عَقْد، يقال عقدت العهد، وعقدت الحبل، وعقدت العَسل، والعقد إذن كمصطلح يستعمل فى المعانى والأجسام، وفى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة١) والعقود ستة، هى: عقد الله، وعقد الحلف والصلح، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. ومن الوفاء بالعقود لزوم العقد، والعقود هى العهود، والمقصود بها فى الآية عموم العهود، يعنى ما يُلزمه الله مما أحلّ وحرّم، وما فَرَض، وما حدّ، وما أخذ من الميثاق على المُقرّ بالإيمان: أن يوفى ولايغدر ولاينكث، وشدّد على ذلك فقال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ (٢٧)﴾(البقرة). ونَقْض العهد يقابل الوفاء به، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ (١١١)﴾(التوبة)، وفى كتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران، وفى صدره: «هذا بيان للناس من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة١)»، فجعل الوفاء بالعقود إعلاناً عالمياً إلهياً نبوياً ـ يعنى إعلاناً عالمياً مقدّساً، والعقود منها ما هو مع الله، ومنها ما هو مع الناس بعضهم على بعض، والقول بالعموم إذن هو القول الصحيح، وفى الحديث: «المؤمنون عند شروطهم» أخرجه البخارى، و«كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط» أخرجه الطبرانى، فبيّن أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله ودينه، وأن: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» أخرجه مسلم. وفى الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾(النجم) أى الذى قام بشرط ادّعى. (انظر العهود فى المصطلحات).

●●●

٢٢٨٤. ﴿العهود والوفاء بها﴾

كل ما أمـر الله به ونهى عنه فهو من العهـد، وقوله: ﴿ **إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**(٣٤)﴾ (الإسراء)، أن سؤال العهد تبكيت لمن ينقضه، كتبكيت الموءودة لوائدها. والعهد في الآية: ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**(٢٧)﴾(البقرة) هو وصية الله إلى خلقه، وأمرُه إياهم بطاعته فيما أمرهم به، ونهيه إياهم عمّا نهاهم عنه في معصيته، ونقضهم ذلك هو تركهم العـمل به، والنقض للعـهد هو جَحْدٌ للحق بعد معرفتهم بحـقيقته، وكتمانٌ له عن الناس استئثاراً به، واليـهود هم المقصودون بذلك، لأنهم أنكروا ما جاء في التـوراة على لسان نبيهم. والأحرى أن تكون الآية عامة على اليهود وغيرهم ممن ينكرون التوحيد، ويلحدون في الله، ويمـارون في الحق، ويصرون على البـاطل، ويأتون الظلم، فنقـضوا عهـد الله وتركوا الإقرار به. فما المراد بعهد الله ؟ قيل هو ما ركَزَ في العقول من الحجّة على التوحيد، كـأنه الأمر وصّى الله به بنـي البشـر، ووثّقه علـيهم، وهو العـهـد الذي أخذه علـيهم، وأشهدهم به على أنفسهم أنه ربّهم لمّا أخرجهم من صُلب آدم، يقول: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا**(١٧٢)﴾ (الأعراف)، فذلك هو العـهد. وكل عهد كان قبل الإسـلام ولاظلم فيه أقرّه، ومن ذلك حلف الفُضُول عندما اجتـمعت قريش في دار عبد الله بـن جُدْعان لشرفه ونسبـه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومـاً من أهلها أو من غير أهلها إلا قامـوا معه حتى تُردَّ عليه مظلمته، فسمّت قريش هذا الحلف لذلك حلف الفضول، والفضول هي الفضائل،وقال فيه الرسول ﷺ : «**لقد شهدتُ في دار عبدالله بن جـوعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النَّعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ**» ، وقال فيه: «**وأيّما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شـدّة**»، طالما أنه موافق للشرع، وينصف المظلوم من الظالم، بينما يهـدم كل عهد وعقد وحلف فاسد.

•••

٢٢٨٥. ﴿الأمر بتأدية الأمانات﴾

هذه الآية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**(٥٨)﴾(النسـاء) من أمهات الأحكام في الـقرآن، وتضمنت جـميع الدين والشـرع، والخطاب فيها لحكّام المسلمين خاصة ولكافة الناس عامة فيما يئول إليهم من الأمانات، وفي ردّ الظلامـات، والعدل في الحكومـات،وحفـظ الودائع، والتحـرّز في الشهـادات، وفي الصلاة والـزكاة وسائر الـعبادات ـ وهي أمـانة الله تعالى عنـد عباده، وفي الحـديث عن النبيّ ﷺ يخوّف من خيانة الأمانة قال: «كل شيء إلا الأمانة: والأمانة في الصلاة،والأمانة في

الصوم، والأمانة فى الحديث ،وأشد ذلك الودائع». وقيل علاوة على ما سبق: الأمانة فى كل شىء: فى الوضوء، والزكاة، والغُسل، والكيل، والوزن، والودائع، وفى الأقوال والأفعال. والأمانات تُرَدّ لأربابها، سواء كانوا أبراراً أو فجّاراً، ولا يجوز لمعسر أن يحتفظ بأمانة. وأمهات الأمانة فى التشريع الإسلامى أربعٌ: الوديعة واللقطة، والرهن، والعارية. وفى الحديث قال ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»، وقال: «العارية مؤدّاة، والمنحة مردودة، والدين مقضى، وعهد الله أحقّ ما أدّى». والحُكم بين الناس أمانة، والبيّنة أمانة على من ادّعى، واليمين أمانة على من أنكر. والمُقسطون عند الله هم الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وَلُوا، وفى الحديث: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، ومن الرعاة: الإمام، وربّ البيت، والمرأة مع زوجها وأولادها، والخادم على مال سيده إلخ، فهؤلاء رعاة كلٌّ على قَدْره، وهم أمناء فى اختصاصاتهم، وكل الناس أمناء، وجميع من أفتى وقضى وحكم من الأمناء.

●●●

٢٢٨٦.﴿الإقرار﴾

الإقرار لغةً وعُرفاً وشرعاً واحد، وهو الاعتراف بحقّ ثابت، سواء كان لله، كالإقرار بما يوجب الحدّ والتعزير، أو للناس، عيناً كان، أو منفعةً، أو قصاصاً، ومنه الإقرار المعلّق على شىء، كأن يقول: علىّ لفلان كذا إذا حصل الشئ الفلانى، فيثبت الحق وإن كانت المطالبة به لاتكون إلا مستقبلاً. والإقرار ثابت بالقرآن والسنّة، فى قوله تعالى: ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا(٨١)﴾(آل عمران)، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾(البقرة)، وقوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ(١٠٢)﴾(التوبة)، وفى الحديث فى قوله ﷺ: «إقرار العقلاء على أنفسهم جائز».

ويقوم الإقرار بأربعة أركان: الصيغة، والمُقرّ، والمُقرّ له، والمقرّ به. ومن الإقرار باللفظ أن يقول المقرّ: لك عندى، أو: علىّ كذا لك. والقول مثله مثل الكتابة، غير أن الكتابة أفيد للمعلم بالمراد. وإن قال المقر: هذا لك إن شاء الله، أو إن شاء زيد، لايكون قوله إقراراً، لأنه معلّق. ويلزم إقرار العاقل البالغ، ولايصح إقرار الطفل والمجنون والنائم، وأما الصبى المميز إن كان محجوراً عليه، فإنْ أذن له وليّه أُخذ بإقراره؛ وقيل: لايصح إقراره لأنه وإن كان مراهقاً ومميزاً إلا أنه مسلوب العبارة إقراراً وإنشاءً. ولاعبرة بإقرار النائم، والسكران، والمغمى عليه، والهازل إذا ثبت أنه يهزل، والمُكره، فشرط صحة الإقرار أن يكون المقرّ عالماً بمدلول إقراره. ويؤخذ بإقرار المريض إن كان مأموناً فى إقراره. والشك فى وجود الأهلية شكٌ فى

وجود الإقرار. وإذا أقرّ الوارث بديْن على مورّثه قُبل إقراره، ويلزمه من الدين بقدر ميراثه، ويشهد بالباقى على بقية الورثة؛ وإذا أقر أحد الورثة بوارث جديد مشارك في الميراث، لا يثبت بإقراره النسب ولكنه يشارك في الميراث. **وإقرار المريض فى مرض الموت** لغير الوارث جائز. **ويصحّ بإقراره أنه أحبل امرأة معينة**، ويجوز إقرار **الوكيل** بعيب المبيع. ومَن أقرّ بما يوجب الحّد - كالزنا - ثم أنكر، يُسمع منه الإنكار ويسقط الحدّ، لأن الحدود تُدرأ بالشبهات. والإنكار لايُردّ فى جميع أنواعه وشتّى صوره، بل يقبل الإنكار إذا لم يزاحم حق الغير، ويُقبَل إذا اقترن بدعوى ممكنه ومعقولة، كإنكار القبض بعد الاعتراف به، ولايقبل الإنكار بالولد بعد الإقرار، وإذا انعكس الوضع فأقر بعد أن أنكر، قبل منه، لأن **الإقرار بعد الإنكار** لايزاحم حقّ المدّعى بل يتفق معه، بعكس الإنكار بعد الإقرار فإنه يزاحمه ويضاده. **والإقرار بالجناية** يجعل الدية على الجانى. ولايُقبل **إقرار المريض بالطلاق البائن لزوجته** وحرمانها من الميراث. **والإقرار بالزنا** يوجب الحدّ بعد تكرار الإقرار **أربع** مرات، وإن كذّبت المرأة وقوع الزنا فعلى الرجل الحدّ دونها. ومن شروط إقامة الحدّ البقاء على الإقرار إلى تمام الحدّ. ولو ادّعى على رجل بدين فأنكره، فدفع إليه شيئاً ليقرّ له بالديْن لم يصحّ، فإنْ أقرّ لزمه ما أقرّ به ويردّ ما أخذه .



٢٢٨٧. ﴿الإقرار بالنسب﴾

إن أقرت المرأة بولد ولم تكن ذات زوج ولا نسب، قُبِل إقرارها؛ وإن كانت ذات زوج ففى قبول إقرارها **قولان**. وإذا أقرّ رجل بنسب **ميت أو مجنون** ثبت نسبه وورثه. وقيل يثبت نسبه دون ميراثه. وإن أقرّ جميع الورثة بوارث، أو أقرّ به الميت ليثبت نسبه منه، ثبت نسبه ويجب دفع ميراثه إليه. ومن أقر من الورثة بوارث صحّ إقراره **على نفسه**. وإذا ثبت النسب بالإقرار ثم أنكر المفسّر، لم يُقبل إنكاره . وإذا أقرّ الزوج أن زوجته أخته من الرضاعة انفسخ نكاحه ويُفرَّق بينهما. والإقرار بالنسب إما عن الشخص نفسه، أو عنه وعن غيره، فإن أقرّ على نفسه - كأن يقر بولد - لزم فى ثبوت نسبه أربع شرائط : أن يكون المقرّ له مجهول النسب؛ وأن لاينازعه فيه منازع، ويمكن تصديقه باحتمال أن يولد لمثله، ولايكون للمقرّ له قول كالصغير والمجنون، فإن كبر المقرّ له أو عقل فأنكر النسب، لم يسمع إنكاره؛ وإن اعترف إنسان بأن هذا أبوه فهو كاعترافه بأنه ابنه. وأما إذا كان إقرار المقر عليه وعلى غيره، كإقراره بأخ، **فتعتبر** فيه الشرائط **الأربع**، وشريطة **خامسة**: هى أن المقر هو جميع الورثة، فإن أقرّ به جميع الورثة شاركهم فى الميراث وثبت نسبه، سواء كانوا واحداً أو جماعة. وإن كان أحد الوارثين غير مكلّف، كالصبى أو المجنون، لم يثبت نسبه

إلا بعد بلوغ الصبى أو إفاقة المجنون وإقـرارهما به أيضاً، وإن أنكرا لم يثبت النسب، وإن ماتا قبـل أن يصيرا مكلفين، ثبت نسب المقـرّ به، لأنه قد صار له الآن الإقرار مـن جميع الورثة. وإذا خلف ابنـاً فأقر الابن بابن آخر، ثبت نسـبه؛ وإذا خلف امرأة وأخاً، فأقرّت المرأة بابن للميت، وأنكر الأخ، لم يثـبت نسبه. وإن خلف ولديْـن، فأقر أحـدهما بامرأة أبيه وأنكر الآخر، وأعوزتها البيّنة لم تثبت الزوجية. ولو قدمت امرأة من دار الحرب ومعها طفل فأقرّ به رجل، لحقه، لوجود الإمكان وعدم المنازع، وإقراره بنسب الصغير ليس إقراراً بزوجية أمـه، وإذا أقرّ بنسب أحد التوأمين، ثبت نـسب الآخر. وإن أقر بأن الولد له من الـزنـا، يُلحق به ويحكم بأنه ولده الشرعى، رغم أن قوله من الزنـا يستلزم نفيه عنه. ولا تلازم بين النسب والزوجية، فإذا قال هذا ابن زوجتى فلانه، فلا يكون الإقرار بزوجية الأم إقراراً ببنوة الولد، إذ من الجائز أن يكون ابـنها من غيره. وإذا مات إنسان مـجهول النسب فقال شخص: هذا ابنى، ولم ينازعه فى ذلك أحـد، وكانت ولادته منه ممكنة، يثبت نسبه ويرثه، لأن الإقرار به وإن كان بعد الموت، يثبت به النسب .ومتى توافرت الشروط بثبوت النسب تترتب عليه جميع آثاره من التـوارث، وتحريم الزواج، ووجوب الإنفاق،والمشاركة فى الوقف والوصيـة، وما إلى ذلك، وتتعـدى هذه الآثار إلى جميع الأقـارب والأرحام. والإقرار بالبنوة يثبت به النسب فلا يرتفع، وأما الإقرار بغير البنوة ـ كالإقرار بالأخوّة ـ فلا يثبت به النـسب،وإنما يؤخذ المقـرّ بإقراره، ولايتعدّى أثر الإقرار إلى غيـر المقرّ، كالأقارب والأرحام، فلايرثهـم ولايرثونه، ولا يحرم الزواج منهم والزواج به وللمقر بغـير الولد أن يرجع فى إقراره إذا لم يثبت النسب، وأما فى الولـد فالإقرار به يعنى النسـب، ومتى ثبت دام.



٢٢٨٨.﴿الشهادة﴾

الشهادة فى اللغة هى الخبر القاطع، واليمين؛ والفعل شَهِد أى أخبر به خبراً قاطعاً، فهـو شـاهد، والجـمع شهود، وشُـهّد: وهو الذى يخبر بما شهـده، أى بما رآه أو سمعه، أو عَلمه، والمؤنث الشـاهدة، والجمع شاهدات، وشواهـد، وأشهد فلاناً: جعله شاهداً عليه، كَـقوله تعـالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(البـقـرة١٨٥)، أى فـمن حضـره، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾(البروج٩). والشهادة واجبة الأداء، وأداؤها فرضٌ على الكفاية، ومن دُعى إليها لزمته، فإن قام بها اثنان سقطت عن الجميع، وإن امتنع الكل أثموا، وإنما يأثم الممتنع إذا لم يكن عليه ضرر وكانت شهادته نافعة، فإن كان عليه ضرر، أو كان ممن لاتقبل شهادته، أو يحتاج إلى التـبذُّل فى التزكية لم يلزمه.والدليل على ذلك

فى القرآن قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا**﴾(البقرة٢٨٢)، وقوله: ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾(البقرة٢٨٣)، فأمَر الشاهد ألاّ يأبى إذا دُعى إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دُعى لأدائها، ولايقصرّ عن أدائها إلى أن تُطلَب منه، فيضيع الحق، ونهى الشاهد عن أن يضر **بكتمان الشهادة**، وهو نهىٌ على الوجوب لأنه توعد كاتمها، فعلى الشاهد أن يشهد حيثما استشهد، ويخبر حيثما استُخبر. وخصّ إثم الكتمان بالقلب لأنه من أفعاله، والقلب هو الآمر للسان وسيلة أداء الشهادة، والله تعالى يقول فى وجوب أداء الشهادة : ﴿**وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ**﴾(الطلاق٢)، وقال: ﴿**إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٨٦﴾﴾(الزخرف٨٦)، والنبىّ ﷺ يقول: «**خير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها**»، إلا أن تكون **شهادة زور**، وفيها يقول ﷺ : «**إن خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. ثم يكون بعدهم قومٌ يشهدون ولايستشهدون**»، وفى رواية أخرى قال: «... **ثم يفشو الكذب وشهادة الزور**» أخرجه الشيخان.

والشهادة بخلاف **الرواية** ، كاختلاف **الحُكم** عن **الفتوى**؛ **والرواية** هى ما تثبت بها الأحكام الشرعية العامة، وأما **الشهادة فهى** ما يفصل بين المتخاصمين فى حوادث بعينها، ويشترط لها العدد فى الشهود، كما تُشترط فيهم **الذكورية**، وليست كذلك الرواية.

وشروط الشهادة: **الوضوح والصراحة**، وتكون بلفظ مثل: **أشهد، وأعرف، وأعلم، وأنا على يقين** ـ وما إلى ذلك. وتُردّ شهادة الشهود **باختلافهم** وعدم تواردهم على الشىء الواحد. ولاتجوز شهادة الشاهد إلا بما علمه، ويُدرك العلم **بالرؤية، أو السماع، أو بهما معاً**، وبغير ذلك من وسائل الإدراك. وما يقع فى **الرؤية**: كالغصب والإتلاف، والزنا، وشُرب الخمر، والعيوب فى المبيع؛ وما يقع فى **السماع**: كالقذف؛ وما يُعلم **بالاستفاضة** وتصح الشهادة به : كالنسب، والولادة، والنكاح، والملك المطلق، والموت، والولاية، والعزل، ولايُشهد بالاستفاضة حتى تكثر به الأخبار ويسمعه الشاهد من عدد كبير **فيحصُل** له العلم به. ومن شهد بالنكاح فلا بد من ذكر شرائطه، ومَن شهد بالقتل فلا بد من وصفه، ومن شهد بالزنا فلا بد من توصيف الزاني والزانية، والمكان، وكذلك فى كل فعل. ولاتكون **الشهادة على النفى المحض**، لأن الشاهد يجب أن يكون عالماً بما يشهد به، فمن شهد بأن فلاناً لايمكن أن يستدين من فلان، **بَطلُت** شهادته، لأنه يجوز أن يستدين منه دون أن يعلم أحد بذلك، ويستثنى من ذلك الشهادة **بالإعسار**، بشرط معرفة الشاهد بأحوال المعسر.

ولابد أن تقوم الشهادة على **العلم واليقين** وليس على **الظن**، كقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾(الإسراء٣٦)، وفى الآية نهىٌ عن أن تقول **رأيتُ** وأنت لم تر، **وسمعتُ** وأنت لم تسمع، **وعلمتُ** وأنت لم تعلم، وأن تشهد زوراً، وأن تتبع الحَدْس والظنون، وأصل

القَفْو البُهْت والقذف بالباطل، وفى الحديث أنه ﷺ قال: «هل ترى الشمس؟ على مثلها فاشهد أو دَعْ».

ويشترط فى الشاهد: أن يكون عاقلاً ، فيميز المشهود به، والمشهود عليه، والمشهود له؛ فلا تجوز شهادة المجنون؛ ولا تجوز شهادة الفاسق؛ والفسوق نوعان :الأول: فسوق من حيث الأفعال، ولاخلاف فى ردّ شهادته؛ والثانى: فسوق من جهة الاعتقاد، فيوجب ردّ الشهادة. وقد قال تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾(الطلاق٢)، وقال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾(البقرة٢٨٢)، فلا تجوز شهادة الظالم؛ والشهود نوعان: فنوعٌ لا يُرضى لأنهم غير محمولين على العدالة، ونوعٌ يُرضى وهم العدول؛ و«منكم» فى الآية الخطاب فيها للمسلمين، وشهادة العدول تقتضى أن معنى العدالة زائد على الإسلام ضرورةً، لأن الصفة زائدة على الموصوف، فينبغى أن لايُكتفى فى الشاهد بأن يكون على ظاهر الإسلام، وإنما يُختبر حاله ليكون مما يرضاه الناس للشهادة. والعدالة فى الدين هى الاعتدال، بأن يكون المسلم مجتنباً للكبائر، ومحافظاً على مروءته على ترك الصغائر، وظاهر الأمانة وغير مُغفَل. ولما كانت الشهادة ولاية عظيمة، ومرتبة منيفة، وهى قبول قول الغير على الغير، شَرَط تعالى فيها الرضا والعدالة ، فمن حُكْم الشاهد أن تكون له الصفات النفسية والعقلية التى ينفرد بها، والفضائل التى يتحلّى بها، حتى تكون له المزية على غيره، فتتوجب له رتبة الاختصاص بقبول شهادته. وقد أمرنا تعالى بأن لا نغتر بقول القائل أنه مسلم، ففى الشهادة لا يُقتصر على كون الشاهد مسلماً، فربما انطوت شخصيته على ما يوجب ردّ شهادته، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾(البقرة٢٠٤) إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾(البقرة٢٠٥)، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾(المنافقون٤).

ولاتجوز شهادة أهل الذمة إلا على أهل ملّتهم، وللمسلم إذا كان فى سفر، ولم يكن عنده أحد من المسلمين، فله أن يُشهد اثنين من أهل الكتاب، ويُستحلفان بعد الصلاة بحضور جمع من الناس، أنهما ما خانا،ولاكتما، كقوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾(المائدة١٠٦)وقيد السفر فى الآية على الغالب، وتجوز شهادة غير المسلمين فى الوصية فى غير السفر، طالما لم يجد الموصى شاهدين مسلمين يشهدان على وصيته.

ولاتقبل شهادة ذى شحناء ، وتردّ شهادة الظنين، والمتهم، والخصم، والخائن والخائنة، والعدو، ومن يكثر غلطه وسهوه، والمغفل الذى يغلب عليه البله، والطفيلى، والمتسوّل الذى يسأل فى كفه، فإذا أعطى رضى، وإذا مُنع سخط، والوكيل فيما هو وكيل فيه، والشريك

فيما هو شريك فيه، وشهادة **الوالدة أو الوالد** لولده، والولد لوالدته أو والده وإن سفل، سواء في ذلك أولاد البنين وأولاد البنات، **والأخ لأخيه** وعليه، وأحد الزوجين للآخر وعليه، وتجوز شهادة **الولد لوالده، والوالد لولده، والأخ لأخيه** إذا كان مُرضياً، وتجوز شهادة **الرجل لامرأته، والمرأة لزوجها** إذا كان معها غيرها، **والصديق لصديقه**. وقيل: لاتجوز شهادة الولد على والده لأنها عقوق للوالد، والصحيح أنها تقبل، لقوله تعالى: **﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾**(النساء١٣٤). وتجوز شهادة العم وابنه، والخال وابنه، وسائر الأقارب، وبعض الورثة على بعض، **والوصي** على من هو موصى عليهم.

ولاتقبل شهادة **تجرّ نفعاً** للشاهد، وشهادة **الدافع** عن نفسه ضرراً. وإذا تاب **القاذف** قُبلت شهادته، وتقبل شهادة **ولد الزنا** في الزنا وغيره، وشهادة **الأعمى والأخرس** فيما يمكنهما العلم به، ويشهد **الأخرس** بالإشارة مع وجود مترجم، كالترجمة من لغة إلى أخرى. وتجوز شهادة المرأة في إثبات هلال رمضان، **والطبيب الواحد** تجزئ شهادته، وتقبل شهادة رجل وامرأتين في المال، كقوله تعالى: **﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾** (البقرة٢٨٢). والاستشهاد هو طلب الشهادة، **والشهادة بشاهدين** في الحقوق المالية، والبدنية، وفي الحدود، وفي كل فن إلا في الزنا؛ وأدخلت **شهادة النساء مع الرجال** في الأموال خاصةً، وتجوز شهادتهن **منفردات فيما** لايطلّع عليه غيرهن للضرورة، **وشهادة المرأة الواحدة** في عيوب المرأة التي **يثبت بها فسخ** النكاح، وإثبات الحمل، والرضاع، إذا كانت مُرضية؛ ولاتقبل شهادة المرأة **لبنتها أو أمها** برضاع مع زوج؛ وقد تقبل **شهادة أم الزوج أو ابنته**، ولايثبت **القتل** بالشهادة إلا إذا كان تعبير الشاهدين لاشُبهة في دلالته، نحو: نشهد أنه ضربه فقتله، أو فأوضحه. وإن شهد أحد الشاهدين أنه أمّر بقتله عمداً، وشهد الآخر أنه أمر بقتله ولم يقل عمداً ولاخطأ، ثبت القتل ولم تثبت صفته، وإن تعارضا في الشهادة لا تثبت. ولاتقبل **شهادة رجل وامرأتين** فيما أوجب القصاص في النفس، كالقتل العمد ونحوه، إلا شهادة رجلين عدلين، وأما ما كان موجبه المال من الجنايات، كقتل الخطأ، والجائفة، ونحو ذلك، فيقبل فيه شهادة رجل وامرأتين، وقيل لايثبت إلا بشهادة عدلين، ولاتسمع فيه شهادة النساء. وجعل الله تعالى الشهادة على **السحاق - وهو اللواط الأنثوي - بأربعة شهود** عدول، فقال: **﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾**(النساء١٥)، وعلى **القذف** كذلك، فقال: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾**(النور٤)، وقد لايتوفر الشهود كما في اللعان، كقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ**

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾(النور). ولايقبل فى الزنا أقل من أربعة شهود، وقيل اثنين، ويشترط كونهم رجالاً مسلمين، عدولاً، ظاهراً وباطناً، وسواء كان المشهود عليه مسلماً أو ذمياً، ولاتقبل شهادة النساء، وإن لم يكمل عددهم فعليهم حدّ القذف، وعليهم أن يصفوا ما شاهدوه، والزانى والزانية، ومكان الواقعة، وإن رجعوا فى شهادتهم،أو رجع واحد منهم، أو اختلفوا فى الشهادة، حُدّوا جميعاً، وإن شهدوا على امرأة بالزنا، فشهدت ثقات من النساء أنها عذراء، فلا حدّ عليها ولاعلى الشهود. والشهادة فى الحرابة لاتجوز إلا بشاهدين. وتثبت الردّة بشهادة عدلين. والسنّة على اليمين مع الشاهد الواحد. ويثبت المال لمدّعيه بشاهد ويمين، ويثبت الحق بيمين المدعى أو المرأة مع شاهد واحد. وإذا مات الشاهد بعد أن أدى شهادته حكم القاضى بها. وإذا تاب شاهد الزور، ومضت على توبته مدة، وتبين صدقه وعدالته، قُبلت شهادته. والخطأ فى الشهادة يجوز فيه الرجوع على الشاهد بالضمان. وإذا رجع فى شهادته أو أقرّ بالخطأ وكان ذلك فى مال عُزِّر وغُرِّم. ومن تُرَدّ شهادته لفسق لاتقبل مرة ثانية. ويُغرَّم شاهد الزور ويُحبس. ولايقبل الجَرْح والتعديل للشهود إلا من اثنين، وإن عدل الشاهد اثنان وجرحه اثنان، فالجرح أولى. ويكفى فى التعديل أن يقال: أشهد أنه عدل؛ وقيل الأفضل أن يقول: هو عدلٌ علىّ ولى، أى أن الشاهد مقبول علىّ ولى، ولايقبل التعديل إلا من أهل الخبرة بالشاهد والمعرفة المتقادمة به . وأما الجَرْح للشاهد فلا يسمع إلا مفسّراً، فيقول مثلاً: إنه يتعاطى الخمر وشاهدته بنفسى يفعل ذلك، أو سمعته يقذف الناس، ولابد أن يذكر الواقعة ويعيّنها. وربما يقبل القاضى الجرح المطلق وهو أن يشهد أنه فاسق وليس بعدل. ولايقبل الجرح والتعديل من النساء ،ولا من الخصم.

●●●

٢٢٨٩.﴿الاحتكار﴾

الاحتكار من أبواب الاقتصاد ويتبع البيع والشراء، وشأنه شأن الربا فهو حرام بالقواعد الشرعية: لا ضرر ولاضرار، ودفع المفسدة أولى من جلب المصلحة، والأهم مقدّم على المهم. والاحتكار تقوم عليه الرأسمالية العالمية، وهو أساس الإمبريالية، ومحور نظام العولمة، وأصله احتكار كبار التجار، وكبريات الشركات، والاتحادات التجارية، والشركات الكبرى عابرة القارات، للتجارة المحلية والدولية ، وللسلع الغذائية، والصناعات الاستراتيجية .وكان الاحتكار سبباً رئيسياً لتفشّى الاستعمار، واندلاع حروب التجارة

والأســـواق، واستعبـاد الشعوب، وقتل الملايين، وإيقاظ الفتن، وانتـشار البدع فى الدين والفـتاوى الظالمة، وحَبْس الناس عن الاكـتسـاب، والجـور فى اقتـسام الأرزاق، وإنفـاق ميزانيات الشعوب على شراء آلات الحرب والدمار. وفى القرآن قوله تعالى: ﴿ **كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ⑦ ﴾(الحشر)، **والدُّولة** هو ما يُتداوَل من الأموال وما شابهها، وهو **الاسم القرآنى لـلاحتكار**. وحذر النبىّ ﷺ من مغبـة احتكار الطعام، ونهى عنه، وأنذر من يحـتكر بالموت بالأمـراض العـضـال، والإفـلاس، وروى أن فى جـهنم وادٍ خـاص بالمحتكرين، وقال: «**إن جالب الطعام مرزوق، و المحتكر ملعون**»، وقال: «**أيّما رجل اشترط طعاماً، فـحبسه أربعين صبـاحاً، يريد الغلاء، ثم باعه، وتصدّق بثـمنه، لم يكن كفّارة لما صنع**».

ولايختص الاحـتكار بسلعة دون أخـرى، فكل ما يحتـاجه الناس مـهما كـان نوعه دون استثناء، يَحْرُم احتكاره. وإذا تجاوز المحتكرون الحدّ فى الثمن كان **التسعيـر الجبرى ضرورة**، ولاتثريب على الحكومات أن تلجـأ إليه منعاً للغلاء. و علّة تحريم الاحـتكار حاجة الناس، ولايجوز أن يقال إن الدين منع الاحتكار فى الطعام دون غيره، فمن غير المعقول أن يكون الكلام عن الاحتكار **للشعير والنبيذ** ويترك أمر **الكهرباء** مثلاً، أو **الغـاز**، بلا تـسعير، بدعوى أن الأحاديث لم تـشملهما ولـم يتحـدث القرآن فيهما !؟ وكذلك **احتكـار الـسلاح**، **والتعليم الجـامعى، والعلاج** وأهل العلم على الاتفاق بإجبار المحـتكر على عرض سلعته، وقد أجـبر الرسـول ﷺ تاجراً أن يخرج الـطعام ليـبيعـه للناس لما تهددتهم المجـاعة، وللحـاكم أن يُسـعّر على المحـتكر إن أجـحف فى الثـمن لرفع الضـرر عن الناس، وفى الحـديث: «**مجـارى الأمور والأحكام بأيدى العـلماء**»، فإن رأى أهل العلم والذكر التـسعير وجب على الحاكم الانصياع.

●●●

٢٢٩٠.﴿الهبة﴾

الهبة من مصطلحات القرآن، وتتكرر مشتقاتها فيه ٢٥ مرة، واسمه تعالى **الوهّاب** من الهبة، لأنه الذى يهب فى الأول والآخر، وفى الدعاء: ﴿**وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ⑧ ﴾(آل عمران)، ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ㉟ ﴾ (ص). **والهـبة** فى المصطلح الاقتصادى القرآنى: تمليكٌ فى الحياة بغير عوض، وشرطـها: الإيجاب والقبول؛ **والقبض** من لوازمها، وهى فيما ينقل بالنقل، وفيما لاينقل بالتخلية، ولايصحّ تعليقها على شرط، وإلا كان وعداً، وتصحّ **هبة المشاع**، ويجوز للزوجة أن تهب

نفقتـها لزوجها، ولايصحّ أن يهب الصبى؛ وإن مـات الواهب أو الموهوب له قبل القبض بطلت الهبة، ويجب التسوية بين الأولاد فى الهبـة إن كانوا متساويين فى المواهب وتقوى الله، ولايجوز الهبة للسفيـه أو المجرم أو الكافر، أو العاصى لأبيه. **والرقـبَى**: نوعٌ مـن الهبة، وهى أن يقول الواهب: هذا لك عمـرك، فإن متّ قبلى رجع إلىّ، وإن متّ قبلك فهو لك، أى أنـها لآخرهما موتـاً، وسميت «رقـبى»، لأن كل واحـد منهمـا يـرقـب صاحبه. وهبة الثواب: هى الهبة المشروطة بعوض معلوم، وحكمها حكم البيع. وإن وُهب الموهوب هبة فاسدة، ثم وهب هو بدوره تلك العين أو باعها بعقد مستوف شروط الصحة مع علمه بفساد العقد الأول، صحّ العقد الثانى. **ولايحل لواهب أن يرجع فى هبته، ولا لمُهد أن يرجع فـى هديتـه**، ماعدا الوالد أو الوالـدة فيما يعطى ولده، وأما مـا أُعطى على وجه الصـدقة فلا رجوع فيه بحال. وللرجوع فى هبة أن يقول الأب أو الأم: قد رجعت فيها، أو ارتجعتها أو نحو ذلك.

●●●

٢٢٩١.﴿العطية﴾

العطيـة تمليكٌ فى الحياة بغير عوض، وتشمل **الهبة، والصدقـة، والهدية**، فإن أعطى المسلم شيئاً يتـقرّب به إلى الله **فهو صـدقـة**، وإن أعطى شيئاً لإنسان يتـقرّب به إليه فهو هدية، وجميع ذلك مندوب إليه،ولاتجوز هدية المقترض إلى المقرض قبل الوفاء. **والعطية** فى اللغة : ما يُعطَى ، والجمع **عطايا وعطيات**،والفعل **عطا** أى تناول الشيء،**وأعطى، وتعطّى، وتعاطى، واستعطى** أى سأل العطاء، **والمعطاء** كثير العطاء. والعطاء من البرّ، كقوله تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾**(الليل). ومن عطاء أبى بكر، أنه كان يشترى العجائز ليعتقهم، وأُعطى النبىّ ﷺ **كثرة أُمّته** بديلاً عن وفاة ابنه وعوضـاً عن قول القائل: صاحبكم صار أبتـر، أى لاولد له، فكان قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾**(الكوثر) فجعل أُمة الإسلام منذ أن كان الإسلام وحتى تحين الساعة، أولاداً للنبىّ ﷺ، وهو معنى «الكوثر» أى الكثرة العددية والنوعية للمسلمين. وفى قوله: **﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾**(الإسـراء)، وقـوله: **﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾**(هـود)، فـإن «**عطـاء ربّك**» هو الرزق يرزق من يشاء بغيـر حساب، ويرزق الكافر والمؤمن رزقاً لاينقطع، ولايحبسه على أيهما وإن فضّل بعض الناس على بعض (**انظر أيضاً الهبة والهـدية، والصدقة**).ولاتجوز العطية إلا بإيجاب وقـبول،والقبض شـريطة **اللزوم** فى

جميع أنواعـها، ويجب على العاطى السوية بين أولاده فى العطية، مـالم يُختص أحدهم بمعنى يبيح التفضيل،والأم كالأب فى المنع من المفاضلة بين الأولاد، **والتسوية المستحبة** أن يقسم بينهم بحسب قسمة الله فى الميراث، ويجوز للأب أن يعطى ماله قبل موته لأولاده، وتثبت العطية بموت الوالد وإن فاضل بين ولده فى العطايا، أو خصّ بعضهم بعطية وليس لبقية الورثة الرجوع عليه، وأما سائر الأقارب كالإخوة والأخوات فلا يشترط مساواتهم فى العطية، وهى فى **مـرض الموت** وما فى حكمه **بمنزلة الوصـية**، أى من **الثـلـث** إذا كانت لأجنبى ، ولاتنفّذ فى حق الوارث.

●●●

٢٢٩٢.﴿البيع﴾

البيع فى اللغة مصدر باع، أي دفع عوضاً وأخذ معوضاً، ويقتضى **بائعاً** وهو المالك، **ومبتـاعاً** وهو الذى يبذل الثمن، **ومبيعاً** وهو المثمون، وهو الذى يُبذل فـى مقابله الثَّمن؛ **وأركان البـيع** إذن أربعة : **البائع ، والمبتاع، والثـمن، والمثمَن. والمعوَّض** إذا كان لسلعـة سميت المعاوضة بيعاً، وإن كانت مهراً سـميت **نكاحاً**، وإن كانت لمنفعة سـميت **إجارة**، وإن كانت عيناً بعين فهى بيع النقد، وإن كانت بدين مؤجل سـميت **سَلَماً**.

والبـيع **قـبول وإيجـاب**، ويقع باللفظ المستقـبل والماضى، وبالصريح والكناية. وفى الآيـة: ﴿**قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** (٢٧٥)﴾ (البـقرة) بيانٌ بأن الـبيع بخلاف الربا، وكانوا يقولون إن الربا هو بيع، **وعقد الربا** مفسوخ ولايجوز بحال، والبيع جائز بالكتاب والسنّة **والإجماع**، والحكمة تقتضيه دفعاً للحاجة، وله **شروط**، منها ما هو من مقـتضى العقد كـاشتراط التسـليم، ومنها ما تتعلـق به مصلحة العاقـدين، كالأجل، والخيار، والرهن، والكفيل، والشـهادة، أو اشتراط صفة مقصـودة فى المبيع، كالصناعة، ومنها ما ليس من مقتـضاه ولا من مصلحته. ويستحب الإشهاد فى البيع فـيما له أهمية، وأما الأشيـاء القليلة الأهمية، كحـوائج البقالة والعطارة ومـا شابهها، فلا يسـتحب ذلك فيها، وفى التنزيل: ﴿**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** (٢٨٢)﴾ (البقرة)، قيل : لا يحل لمسلم إذا باع أو اشترى إلا أن يُشهد، فإن كان البيع الى أجل فعليه أن يكتب ويشهد إن وجد كاتباً، وقيل: **الكتابة والشهادة** على الندب والإرشاد وليس على الحتم، وقد اشترى الرسول ﷺ ورهن ولم يكتب ولم يشـهد، وإنما عدم الكتـابة وعدم الإشهـاد للمسائـل الصغيـرة والدقائق، لصعوبة كتـابتها والإشهاد عليها، وقد يسـتحى التاجر أن يشهد على أحد المشـترين لمعرفة بينهما، أو لمكانته. والبيع قد يكون **بكتاب**، أو بالرهن، وقد يكون **بالإشهاد**، وقد يكون **بكتاب وإشهاد**. والبيع بشرط الرهن أو الكفيل صحيح، ويصح **عقد بيع المريض مرض الموت**

من غير محاباة. ولا يجوز بيع ما تُجهَل صفته، ولا أن يبيع شخصٌ ما لا يملك، ولا أن يبيع السمك فى الماء، ولا ما تُجهَل ذاته، ولا ما يحرُم أو يُقصَد به حرام، ولا ما يعرف المشترى أنه من مالٍ حرام أو غصب، فإن علم أنه من الحرام فشراؤه حرام، ويُكرَه بيع أرض المسلم لغير المسلمين. **والبيع الصورى - بيع التلجئة - باطل، وبيع التولية** جائز، وهو بيع السلعة بمثل ثمنها المشتراة به من غير نقص ولا زيادة، يوالى البائع المشترى، أى يتودد إليه أو يؤثره، وعكسه **بيع المرابحة** : كما سيأتى من بعده.

ومن البيوع : **بيع السَّلَم** : وهو البيع بالسلف؛ **وبيع الصبرة**: والصبرة هى الكومة من الأشياء كأن يكون حبّاً، فيجوز بيعها جزافاً مع جهل البائع والمشترى بقدرها؛ **وبيع الصَّرْف**: وهو بيع النقد بالنقد، وتقوم به مكاتب الصرف؛ **وبيع النجش** : وهو أن يزيد فى السلعة من لا يريد شراءها ليغرر بالمساوم فيقتدى به، وهذا حرام وخداع، وإن اشترى المغرر به فالشراء صحيح، ولكن إن كان فى البيع غبن لم تجر العادة بمثله، فله الخيار بين الفسخ والإمضاء. وروى أن البيع من أصله باطل، وبيع الرجل على بيع آخر والشراء على شراء آخر: غير جائز. ومن البيوع **بيع المرابحة** - الذى سبق التنويه به:وهو أن يبيع البائع الشيء برأسماله مع هامش ربح مقداره مثلاً عشرة فى المائة، ويخبر المشترى، فإذا قامت عليه البينة أو الإقرار أن رأس ماله كان تسعين وليس مائة، فالبيع صحيح، وللمشترى الرجوع على البائع بما زاد فى رأس المال وهو العشرة، بالإضافة الى حظها من الربح وهو ١٪ ، فيبقى المبيع على المشترى بتسعة وتسعين وليس بمائة وعشرة، وللمشترى حينئذ أن يأخذ المبيع برأسماله من الربح، أو يتركه، ولا خيار للبائع. وفى **بيع المرابحة** يشترط علم المتعاقدين برأس المال والربح، وعلى العكس فى **بيع التولية** وهو أن تباع السلعة بمثل ثمنها من غير نقص ولا زيادة، ويُخبَر المشترى بذلك ويعلن عنه.

●●●

٢٢٩٣-﴿توابع البيع: المساومة، والتولية، والوضيعة، والمرابحة﴾

البيع من حيث إخبار البائع للمشترى بثمن السلعة - أربعة أنواع : **بيع المساومة، وبيع التولية، وبيع الوضيعة، وبيع المرابحة. والمساومة** من قولهم سام السلعة أى عرضها بثمن حدّده لها؛ **وساوم بالسلعة** أى عرضها بثمن غال فنزل به المشترى الى أن يتفقا على الثمن، ويقال **تساوما السلعة** أى جرت بينهما مقاولة فى بيعها، ومثل ذلك فى القرآن: **﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴿٢٠﴾﴾** (يوسف)، وقوله : **﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٤١﴾﴾** (البقرة)، فالمشترى يعرض **الثمن القليل**، ويبخس السلعة ثمنها، والبائع يعرض الثمن المرتفع ويغالى فيه، ويكون الأمر بينهما شداً وجذباً حتى يتفقا. ويفضل **بيع المساومة** سائر البيوع، لأن

البائع لا يحتاج فيه إلى أن يذكر للمشترين ثمن شرائه للسلعة وغالباً ما يكذب فيه. ومن شأن بيع المساومة أن يخفض الثمن، والربح القليل هو البيع الحلال، والكثير أقرب إلى الربا، كقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا (٢٧٥)﴾ (البقرة)، وربح المؤمن على المؤمن ربا إلا أن يبيع ويرفق بالناس، وأسوأ البيع ما كان الربح فيه الجنيه جنيهاً. ويدخل بيع المزايدة ضمن بيع المساومة، وهو أن ينادى البائع على سلعته طلباً للزيادة فيها.

والتولية هى أن يصدق البائع مع المشترى ويطلعه على الثمن الذى اشترى به السلعة، وما يرجوه من ربح عند بيعها يعوضه عن نفقاته من غير زيادة ولا نقصان، فكأنه جعل المشترى وليه، يلى أمره ويقوم بكفايته، كقوله تعالى: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ (١١٥)﴾ (النساء)، فإذا ظهر كذب البائع لا يبطل البيع، لأنه عقد على شىء معلوم، بثمن معلوم، مع التراضى. وأما الكذب بالثمن فيستدرك بالخيار، كشراء المعيب مع الجهل بالبيع، والخيار هنا بين فسخ العقد وإلغاء البيع، أو الإمضاء بالثمن المسمى. وليس للمشترى أن يمسك المبيع ويخفض من الثمن الزيادة، لأن البيع وقع على الثمن الذى أخبره به البائع، فإما أن يرضى بالثمن المسمى، وإما أن يردّ السلعة، ولا شىء على البائع سوى الإثم.

والوضيعة: هى أن يخبر البائع المشترى عن الثمن الذى اشترى به السلعة، ثم يتفقان على البيع على أن يخفض له قدراً من الثمن الذى اشترى به البائع، وذلك معنى الوضيعة: أنه يضع له الثمن، أى يخفضه ويبيع له بأقل من رأس المال، فإذا تبين للمشترى من بعد أن البائع كذب عليه، وأنه اشترى بأقل من ذلك، وباع له بأكثر منه، فله أن يرجع فى البيع ويردّ له السلعة ويأخذ ماله، أو يرضى بالأمر الواقع، وفى هذه الحالة يأثم البائع الكذّاب.

وأما بيع المرابحة فهو عكس الوضيعة، فيحدد البائع لنفسه ربحاً معيناً يضيفه الى رأس المال ويخبر به المشترى، فإذا تبين للمشترى أن البائع كذب عليه، وإن ربحه أكثر مما حدّده، وأن الثمن الذى اشترى به أقل مما ذكر، وذلك مؤثم كقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ (١٦)﴾ (البقرة)، فللمشترى الخيار، فإما أن يعيد السلعة إليه ويتقاضى ما دفع، وإما أن يرضى، وإما أن يتفقا على أن يخفض البائع له الثمن ويكون ربحه على الحقيقة وليس كذباً.

وفى بيوع التولية والوضيعة والمرابحة لابد أن يعلم المشترى الثمن الحقيقى الذى اشترى به البائع السلعة قبل أن يعرضها للبيع، وما تكلّفه فيها، ومقدار ربحه بعد إضافه التكاليف.

●●●

٢٢٩٤.﴿السَّلَم هو الدين المؤجل﴾

السَّلَم: قيل هو البيع المعلوم فى الذمة، المحصور بالصفة، بعين حاضرة أو ما هو فى حُكمها، الى أجل معلوم. وقيل : هو أن يسلّم عوَضاً حاضراً فى عوض موصوف فى الذمة الى أجل، ويسمى سَلَماً، وسَلَفاً، وهو نوع من البيع ينعقد بما ينعقد به البيع، وبلفظ السلَّم أو السلف، وشروطه هى شروط البيع. ومن شروطه أن يكون مؤجلاً، والأجل معلوماً، وأن يكون فيما ينضبط بالصفات التى يختلف الثمن باختلافها كالثمار مثلاً، وأما الجواهر فلا يصحّ فيها السَّلم لأن صفاتها لا تنضبط، وأن يكون الاختلاف فى الصفات ظاهراً ولا تُستقصَى كل الصفات، وأن يكون المسلَّم فيه مكيلاً، أو موزوناً، أو معدوداً، وأن يكون عام الوجود فى زمن حلوله، وإذا لم يتواجد جاز فسخ عقد السَّلم، وإذا أفلس المسلَّم إليه يحق للمسلِّم أن يحصل على بضاعته المسلَّمة.

•••

٢٢٩٥.﴿الحوالة من العقود﴾

الحوالة : مشتقة من التحويل، كقوله تعالى: **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾﴾** (فاطر)، و«التبديل» هو التغيير والتعويض فى الشىء، و«التحويل» هو النقل من حال الى حال، ومنه الحَوَال وهو التغير والانقلاب؛ والحَوالة: وهى نقل الدين وتحويله من ذمّة الغريم الى ذمّة المحال عليه، ومنها حالياً «الحوالة المسطّرة» التى لا يقبضها إلا صاحب مصرف؛ و«الحوالة المعتمدة» التى تحمل إمضاء صاحبها وتؤكد أن مئونتها المالية موجودة وتجمدها أيضاً؛ و«الحوالة لأمر» هى التى يمكن لحاملها أن يحوّلها لغيره؛ و«الحوالة لمسمّى» هى التى لا يمكن تحويلها إلا بالتخلى عنها للمديون. وقيل : الحوالة فى الإسلام من البيوع، فإن المحيل يشترى ما فى ذمته بماله فى ذمة المحال عليه، والصحيح أنها عقد للإرفاق بالناس، وتلزم بمجرد العقد، ويعتبر فى صحتها رضا المحيل، والثلاثة: الحوالة والمحيل والمحال عليه هم أطراف الحوالة، وتصحّ بمال معلوم، ودين مستقر، ومن أحال رجلاً فى دين على زيد، فأحاله زيد به على عمرو، فالحوالة صحيحة. وإذا كان لرجل على آخر دين، فأذن لآخر فى قبضه، ثم اختلف هو والمأذون له، فقال : وكلتك فى قبض دينى - بلفظ التوكيل، فقال : بل أحلتنى بدينى عليك بلفظ الحوالة، أو كان الأمر بالعكس فقال : بل وكلتنى، فإن كان لأحدهما بيّنة حُكم بها. وتبرأ ذمة المحيل بصحة الحوالة متى رضى بها المحال عليه ولم يشترط اليسار.

•••

٢٢٩٦.﴿الخيار فى العقود وحكم الأرش﴾

الخيار فى اللغة: هو المفاضلة بين أمرين وانتقاء أحدهما، ويقال : أنت بالخيار، وأنت بالمختار: أى اختر ما شئت. والخيار ملك إمضاء العقد، وأصله إفساح المجال

للمتعاقد ليتروى ويتدبّر **مدة الخيار**، ويفعل ما يراه خيراً له، ويثبت باشتراط المتعاقدين وهو **خيـار الشـرط**، وبحكم الشرع والقانون كخـيار البيع. والخيارات في مجال العقـود كثيرة ومتنوعة، ومنها: **عقد الزواج**، ولا يقبل الخيار والإقالة؛ **والعارية**: والعقد فيها جائز من غير خيـار ولو اشترط اللزوم؛ **وعقـد البيع**: والأصل فيه اللزوم. وقـيل في عدد الخيارات **أربعـة عشـر** خيـاراً، منها : **خـيـار المجلس**: فلكل واحد من المتبايعـين فسخ البيع ما داما مجتـمعين لم يتفـرقا، فإذا تفرّقا من غـير فـسخ، لم يكن لأحدهمـا ردّ البيع إلا لعيب أو خيار، والحديث المشهور : «**البيعان بالخيـار ما لم يفترقا**»، والحديث الآخر :«**المؤمنـون عند شـروطهم**»، فلو اشترى رجل بيعاً من رجل، فهما بالخيار ما لم يفترقا، فإن افترقا وجب البيع. وإن اشـترطا ضـمن العقد وفي المجلـس أنه لا خيار لأحـدهما في ردّ البـيع سقط الخيـار. وفي «**خيـار الشرط**»: يشترط أحد المتعاقدين أو كـلاهما الخيار في فسخ العقد أو إمضائه أمـداً محدداً يرفع الغُرر، ويُبـعد الاشتباه المفـضي الى التنازع، وإذا انقضت المدة، ولم يردّ البائع الثمن يبطل الخيار، ويصير المبيع ملكاً للمشترى. وهناك «**خيار الاشتراط** »: والفرق بين الخيارين أن الشرط هو الخيار نفـسه في خيار الشرط، وأما في خيار الاشتراط فهو أن يشترط المشترى أو البائـع أمراً معيناً غير الخيار. و«**خيـار الغَبْن**» : هو أن يشـترى المشتـرى بأكثر من قيـمة السوق ولا يعرف، أو يبـيع البائع بقيـمة أقل عن جهل بالقيـمة الحقـيقيـة، وعندئذ يكون لأى منهما أن يرجع فى الـبيع، وأما إذا كانـا عالمين بالزيادة أو النقص وأقدما على التعاقد فلا خيار لهما، والدليل على ذلك قوله تعالى : **﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴿٢٩﴾﴾** (النساء)، وبديهى أن **المغـبون** ـ أى المخدوع، **والغبن** ـ هو الخداع ـ لو علم بالتفاوت الفاحش لم يرض بالتعـامل، وأكْلُ ماله يكون حينئذ أكلاً للمال بالباطل، من قوله تعالى : **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴿١٨٨﴾﴾** (البقرة)، **وغبن المؤمن** حرام، **والمسترسل** ـ أى الذى يثق بك ـ لا ينبغى أن يغبنه مؤمن، وغبنه سُحت. و«**خيار التـأخير**» : هو أن يكون للمشترى والبائع الخيـار فى فسخ البيع، إذا لم يسلم المشترى ما باعه، أو لم يقبض البائع الثمن كامـلاً ولم يشترط التأجيل. ويقوم «**خـيـار الرؤية**» علـى مـشاهدة المبـيع، ومطابقـة أوصافـه فى العـقد مع أوصـافه فى الواقـع، فإن لم يتطابقـا فللمشترى الخيار، فإن شاء أمضى البيع ، وإن شاء طلب فسخ العقد. وفى «**خيار العيب**» : فإن العيب المقصود به هو العيب الموجب للفسخ، وإطلاق العـقد يقتضى سلامة المبيع، لأن الأصل فيه أن يكون سـالماً من العيوب، وإن اشترط السلامة فى مـتن العقد فإن ذلك يكون توضيحاً للمعنى الذى اقتضاه الـعقد لا تأسيساً بمعنى جديد، وفى الحديث : «**مـن غـشّنا فليس منا**»، فلا يحلّ لمسلم أن يبيع مسلماً سلعة وهو يعلم أن فـيها عيباً قلّ أو كثر،

حتى يبيّن ذلك لمبتاعها ويقفه عليها، وإذا علم المشترى بالعيب من بعد الخيار إليه، إن شاء ردّ، وإن شاء أخذ، ويوجب ظهور العيب في المبيع تسلّط المشترى وأخذ الأرْش بلا خلاف، وهو فى اللغة الديّة، والمال المأخوذ عوضاً عن نقص مضمون مادياً، وتجوز المطالبة به لكل من تملّك عيناً بعوض وثبت أنها كانت معيبة قبل القبض، سواء كانت مهراً فى عقد زواج أو عوضاً فى عقد الصلح أو عقد الإجارة، ويسقط خيار العيب لمن علم بالعيب قبل التعاقد، وإذا حدث عيب بعد استلام العين ثم تبين العيب فيها، وأنه سابق على التسلّم، ثبت الأرش دون الردّ، ويسقط خيار العيب بكلا شقيه : الردّ والأرش، بإسقاطه بعد العقد، وباشتراط سقوطه في متن العقد، ومنه أن يُنصّ فى العقد أن المشترى قد اشترى العين على الزيادة والنقصان. وكل مبيع يتلف قبل قبضه فهو من مال بائعه.

●●●

٢٢٩٧.﴿الصَّرْف﴾

الصَّرْف بيعٌ بنقد، **والصرافة** حرفة الصرّاف، والجمع صيارفة، مِن صَرَف ردّ ودَفَع، ومن ذلك تصريف الكلمات وهو تغيير صيغتها بإلحاق الجر والتنوين، وتصريف الرياح تحويلها، وكل ذلك بمعنى واحد؛ وفى القرآن: ﴿ **صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم** ﴾ (التوبة١٢٧) بدّلها وغيرها، **والصَّرف** فى المصطلح: هو تغيير العملة بعملة مثلها وفى قيمتها، وهو جائز شرعاً، ومن شرط المصارفة أن يكون العوضان معلومين؛ ولايجوز البيع الربوى فى الصرف، ولايصحّ بيع دين بدين، وتصحّ المصارفة بالوديعة،ولابد من اعتبار سعر السوق عند قضاء الدين بنقد مغاير، ويصحّ قضاء الدين المؤجل بنقد آخر مع الالتزام بسعر السوق.

●●●

٢٢٩٨.﴿القرض﴾

القَرْض، بالفتح، وبالكسر أيضاً، وهو ما تعطيه غيرك من المال بشرط أن يعيده لك بعد أجل معلوم، وهو نوع من السلف، ويجوز بالكتاب والسُّنّة والإجماع، كقوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** (٢٤٥)﴾ (البقرة)، كما فعل عثمان فى جيش العُسْرة الذى أعدّه الرسول ﷺ لغزوة تبوك، وسُمى بذلك لأن الناس كانوا فى عُسْرة من العيش والجدب والقيظ، فجاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بثلاثمائة بعير، وبألف دينار، فنثرها فى حجر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : «لايضر عثمان ما فعل بعدها»! والحديث كأنه مفصّل على ما لحق من أحداث في حياة عثمان

وتمييزه لأقاربه، وكأنه يعفيه من ذنوب ذلك! ولما نزلت الآية تصدّق أبو الدحداح بماله ابتغاء ثواب ربّه.

والقرض في الشرع : اسمٌ لكل ما يُلتمس عليه الجزاء، من أقرَضَ: أي أعطى المقترض ما يتجازاه؛ ونقول : استقرضتُ من فلان - أي طلبت منه القرض فأقرضني، واقترضت منه أي أخذت منه قرضاً. والقرض في اللغة : البلاء الحسن. وأصل الكلمة : القطع، ومنه المقراض؛ وأقرضته : أي قطعت له من مالي قطعة، والمراد بالآية : الحثّ على الصدقة، وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتوسعة عليهم. وفي الخبر :« النفقة في سبيل الله تُضاعَف الى سبعمائة ضعف وأكثر»، كقوله تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾** (البقرة)، وفي هذه الآية يجيء الثواب : **﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾**، يعني أنه لا نهاية له، وسمّته القرض الحسن، لأن المحسن يقرض محتسباً، طيّبةً به نفسه، لا يمنّ، ولايؤذي، ولا يطلب في قرضه عوضاً. والمضاعفة للقرض من لدن الله، أما قرض الأدمي للواحد فواحد، أي يردّ عليه مثل ما أقرضه، واشتراط الزيادة في السلف ربا، ولكن يجوز أن يردّ أفضل مما يستلف من باب المعروف، كما في الحديث : «إن خياركم أحسنكم قضاءً» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. ولا يجوز أن يهدي من استقرض هدية للمقرض، ولا يحل للمؤمن قبولها، فبهذا جاءت السنة، وفي الحديث: «إذا أقرض أحدكم أخاه، فأهدى له، أو حمله على دابته، فلا يقبلها، ولا يركبها، إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك»، يعني كان قد سبق له أن جامله، كأن يكون قد ركب معه، أو سبق له أن أهداه قبل القرض.

والقرض مندوب إليه في حقّ المقرض ، ومباحٌ للمقترض، ولا إثم على من يُسأل القرض فلم يُقرض. ولا يصحّ القرض إلا من جائز التصرف، وحكمه في الإيجاب والقبول حكم البيع، ويصحّ بلفظ السلف، وبلفظ القرض، أو بغير ذلك من الألفاظ مما يؤدي المعنى. ويجوز إقراض كل ما يثبت في الذمة سَلَماً (يعني بالأجل)، ويمكن تحديد مقداره. ويثبت ملك المقترض بمجرد قبض القرض، وهو عقد لازم في حق المقرض، وجائز في حق المقترض.

•••

٢٢٩٩. ﴿النسيئة والنقد﴾

النسيئة والنسيء في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ**

وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾ (التوبة) وكانوا فى الجاهلية يحرّمون القتال فى المحرّم، فإذا احتاجوا الى ذلك حرّموا صفراً بدله وقاتلوا فى المحرّم، فكانوا كذلك شهراً شهراً حتى استدار التحريم عن السنة كلها، **فالنسيئة والنسيء** إذن هو التأخير، مستق من **نسأه وأنسأه** إذا أخّره، فهو منسوء، ثم يحول المنسوء إلى نسيء ونسيئة، كما يحول مقتول الى قتيل وقتيلة، ومنه **أنسأ الله فى أجلك** أى أخّره. **والنسيئة عن البيع والشراء** : هو أن تشترى الشيء بثمن مسمى وتؤجل الدفع، وينَص عليه صراحة فى العقد، ويضبط الأجل بما لا يقبل الزيادة والنقصان، ولا تحديد لطوله أو قصره؛ ويجوز له التصرف فى المبيع قبل تسلمه. وقيل تأجيل الثمن لا يزيد على ثلاث سنوات، لأن المال يذهب ويضيع بالتأجيل الطويل، وأن من باع بثمن حالاً، وبأكثر مؤجلاً بطل البيع، وأن الدّين لا يباع نسيئاً ولا يصحّ إلا نقداً، ويسمون ذلك بيع الكالى بالكالى ومعناه، لغةً المراقبة، لأن كُلاً من الغريمين فى هذه الحالة يرتقب صاحبه من أجل دينه.

●●●

٢٣٠٠.﴿الدَّيْن﴾

آية الدّين فى القرآن هى الآية : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾** (البقرة)، ومدارها على الأمر بالإشهاد فى الدين المؤجل وهو السَّلَم. وحقيقة الدين : عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر فى الذمة نسيئة. و«**الدين**» عند العرب ما كان غائباً، ونقيضه «**العين**» وهو ما كان حاضراً، وبيّن ذلك قوله تعالى: **﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾**، فلا يجوز الدين إلى الأجل المجهول، وفى السُّنَّة قوله ﷺ : «**من أسلف فى تمر فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، وإلى أجل معلوم**»، وفى حديث آخر قال : «**بدنانير أو دراهم معلومة**»، فاشترط المعلومية فى كل شيء. والسلف يقال على القرض. وأمر الله تعالى بكتابة الدّين : **﴿فَاكْتُبُوهُ﴾** يعنى **الدين والأجل**، وأمر بالإشهاد عليه، لأن الكتابة بدون شهود لا تكون حجة، إلا أن يأمن الدائن

المدين، كقـوله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا**﴾(البقرة ٢٨٣)، والأمر بالكتابة ندبٌ إلى حفظ الأموال، وإزالة الريب، فإذا كـان الغريم تقياً فما تضرّه الكتـابة. وإذا كان غير ذلك فالكتابة ثقافٌ في دَيْنه، أي إثبات، فيطمئن صاحب الحق. وفي الأثر: **إن أشهدتَ فحزمٌ، وإن ائتمنتَ ففي حلٍّ وسعَة**». ويشترط في كـاتب الدين أن يكون عـدلاً فلا يكتب ما فيه مصلحـة لأحد الغريمـين، ولا يكون في قلبه مـودّة، ولا في قلمة موادّة لأحـدهما على الآخر، وأوجب الله تعالى الكتابة على من يعرف الكتابة إذا طلب منه الغريمان ذلك، كما أوجب الشهادة على الشاهد. والناس يتـعاملون ومنهم من يكتب ومن لا يكتب، فأمر الله تعالى أن يكتب بينهم **كاتب بالعدل** حتى لا يشذ أحدهم عن المعاملة، ولا يأبى الكاتب أن يكتب إذا طُلب منه ذلك، ولا يُضـار بكتابتـه، وليُفـضِل الكاتب كمـا أفضل الله علـيه، وليُملل المديون مقراً بما عليه بلسانه، فإن كان سفيهاً لا يدري، أو كبيراً أو ضعيفاً لايدرك، أو لا يستطيع أن يمل لعجـز بلسانه، أو عدم دراية بالصيغة القانونيـة، فليملل وليّه ـ وهو الذي يوكّله عنه وله خبرة أكثر بهذه المسائل، ويشهد على صك الدَّين **شاهدان من الرجال، أو رجل وامرأتان من عدول المسلمين**، ممن يرضى بهما الدائن والمدين. ولا يأبى **الشاهد** إذا دعى لتحصيل الشهادة، ولا إذا دعى إلى أدائها. ولا يأبى الدائن أن يكتب الدين قليلاً كان أو كثيراً، فـلا يمل كتابته، فالكتـابة أعدل عند الله، وأصحّ وأحفظ، وأدعى أنه لا يرتاب الدائن ولا المدين. ومن أحكام الإسلام في الدَّيْن أن قـضاء ديـن الميـت لا يجب عـلى الولي، وإنما يتعلق بالتركة، كقوله تعالى: ﴿**مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ (النساء١١)، فإذا مات المدين أخرجت من تركـته الحقوق المعينات، ثم ما يلزم من تكفـينه وتقبيره، ثم الديون على مراتبها، ويكون الباقي ميراثاً للورثة. ويصير الدين المؤجل حالاً بموت المدين، لأن الميت لا ذمة له، والوارث غير مسئول، ولا يؤاخذ الإنسان بموت غيره، ولذلك يتعلق الدين بأعيان التركة بوفاة المدين، وإذا مـات الدائن ينتقل المال الذي اشتغلت به ذمة المدين إلى الورثة. ويجوز تقسـيط الدين على أقساط، تُستوفىَ في أوقات معـينة، وهو ما يسمى «**التنجيم**». ولا يسقط الدين بترك المطالبة به مهما طال الزمن. لأنه متى ثبت بسبب شرعي لايسقط إلا بمسقط شرعي، ومرور الزمن ليس من الأسباب المسقطة في الشريعة، وإذا كان لأحدهم دين على آخر فيجحده، ثم يظفر من ماله بقـدر الذي جحد، فإن الفقهاء يسمون هذا «**مقاصة**». وتحرم المماطلة بالوفاء مع القدرة، كما تحرم مضايقة المدين مع الإعسار بقوله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ**﴾(البقرة ٢٨٠). وفي الحديث: «**ليّ الواجد يحلّ عرضه وعقوبته**»، **والليّ** المماطلة. وإذا لم تجز المماطلة مع العسر فبالأولى عدم جواز الحبس مع العسر، ومن المشهور: **المفلسون لا يحبَسون**». وعلى المدين أن يسعى في قضاء ديونه

كما عليه أن يسعى من أجل قوته. وفى الحديث: «من أقرض مؤمناً ينتظر به ميسرة كان ماله زكاة، وكان هو فى صلاة الملائكة حتى يؤدى إليه»، وقال ﷺ: «مكتوب على باب الجنة الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر»، وإنما صار القرض أفضل من الصدقة، لأن المستقرض لايستقرض إلا من حاجة، بينما الصدقة قد تُطلَب من غير حاجة إليها.

•••

٢٣٠١. ﴿العارية من الأمانات﴾

فى الحديث: «العارية مؤدّاة»، والعارية أمانة، والأمانات مؤدّاه بمقتضى الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا (٥٨) ﴾ (النساء) والعارية لغة: من عار الشىء إذا ذهب وجاء، واصطلاحاً: هى إباحة الانتفاع بعين من الأعيان. ولأن العارية أمانة، والأمانة إذا تلفت يلزم المؤتمن غُرمها، فكذلك العارية إذا تلفت من غير تعدّ، لأنه لم يأخذها على الضمان، فإذا تلفت بتعدّيه عليها لزمته قيمتها لجنايته عليها. وقيل العارية نوعان: مضمونة، ومؤدّاه، لسؤال صفوان للنبىّ ﷺ هذا السؤال لمّا استعار منه الأدراع، فقال له: «بل عارية مؤدّاة». والعارية مندوبٌ إليها وليست بواجبة، وتنعقد بكل لفظ وفعل يدل عليها. وكل عين يمكن أن ينتفع بها يُباح إعارتها، فإن استعار المستعير مالاً لينفقه فهو قرض وليس عارية، ولاتكون العارية فى المال، ولا إعارة للزوجة، ولا للبنت، ولاتصحّ العارية إلا من جائز التصرُّف. والمستعير لا يؤخّر ما استعار، ولاينتفع به فى غير الغرض الذى استعاره بسببه. وتجوز العارية مطلقة ومؤقتة، وللمعير أن يرجع فى العارية فى أى وقت، ويجب ردّها إن كانت باقية، ويجب ضمان العارية إن تلفت سواء تعدّى فيها المستعير أو لم يتعدّ، إلا لو شرط المستعير إسقاط الضمان، أو أذن له المعير بالإتلاف، وإن تلفت منها أجزاء مع الضمان وجب تكملة النقص. وفى الحدود لاتقطع يد جاحد العارية.

•••

٢٣٠٢. ﴿الوديعة من الأمانات﴾

الوديعة: من وَدَع الشىء إذا تركه، والوديعة هى المتروكة عند الوديع، ويد الوديعة يد أمانة، والوديع أمين، والوديعة «أمانة» مردودة إلى أهلها بنصّ الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا (٥٨) ﴾ (النساء). وقبول الوديعة: مستحب لمن يعلم من نفسه الأمانة، فإن أراد الوديع ردّها على صاحبها لزمه قبولها؛ ولايصحّ الإيداع إلا من جائز التصرّف، فإن أودع طفل أو معتوه إنساناً وديعة ضمنها الوديع بقبضها. والوديع: هو المُودَع لديه الذى استُودع المال. ولايزول الضمان عن الوديع بردّ الوديعة إلى المودع الطفل، ويزول بدفعها إلى وليّه الناظر فى ماله، فإن كان الصبى مميزاً صحّ إيداعه لما أُذن له فى التصرف فيه. وإذا

تلفت **الوديعة** بغير تفريط من الوديع **فليس عليه ضمان**، سواء ذهب معها شيء من مال **المستودع** أو لم يذهب، وفي رواية: إن ذهبت الوديعة من بين ماله غرمها. وإن تعدّى المستودع عليها، أو فرّط في **حفظها فتلفت**، فإنه يضمنها. وإذا شرط ربّ الوديعة على المستودع ضمان الوديعة فقبله، **أو** قال أنا ضامن لها، فلا شيء عليه إن سُرقت، ما لم يكن متهاوناً في حفظها. وإذا ضمن الوديعة **بالاستعمال**، ثم ردّها إلى صاحبها، زال عنه الضمان، فإن ردّها إليه صاحبها كانت بداية **استئمان**، وإن لم يردّها إليه الوديع ولكن جدّد له صاحبها الاستئمان، أو أبرأه من الضمان، برىء. وإذا أُودعت وديعة عند وديع، **فأودعها** عند غيره لغير عذر **فعليه الضمان**، وإن أودعها لعذر كما لو كان مسافراً، أو خاف من حريق أو سرقة، وَجَب عليه ردّها إلى صاحبها، فإن لم يكن متواجداً دفعها إلى وكيله، أو أودعها **خزينة المحكمة** أمانة، **أو** أحد البنوك. **وودائع البنوك** مضمونة من البنك، والبنك مضمونٌ من **البنك** المركزى. وإذا كانت الوديعة **بهيمة** مثلاً، واضطر **إلى الإنفاق** عليها، فله الحق أن يطالبه بنفقاتها، وإن اختلفا فالقول في مقدار **النفقة** للوديع بالمعروف، وإن ادّعى أكثر لم يثبت له. وإذا أودع وديعة بنكاً من البنوك وجعله وكيله أثناء سفره، فنقلها من البنك إلى غيره، فإنه يضمنها . وتُردّ الوديعة في كل الأحوال عند طلبها وبدون ضرر. **وجَحْد الوديعة** خيانةٌ للأمانة وإنكارٌ للحق، فإن لم تكن هناك **كتابة ولاشهود** يلزم المنكر **الحلف**، ولاتثبت الوديعة إلا بإقرار الوديع أو ورثته، أو ببيّنة تشهد بها. وإذا مات الوديع وعنده وديعة لاتتميز عن ماله، فهي دين عليه يغرم من تركته، وإن كان عليه دين سواها فهي والدين سواء، **والوصية واجبة** على من عنده وديعة، وعلى الورثة إعلام صاحبها بموت الوديع، وليس عليهم إمساكها عنه.

•••

٢٣٠٣.﴿اللُقطة واللقيط﴾

يقال **لقَط الشيء**: بمعنى أخذه من الأرض بلا تعب؛ **والتقط الشيء**: عثر عليه من غير قصد ولاطلب؛ **واللاقط**: هو الذى **يلقط أو يلتقط** ، والمؤنثة **اللاقطة**، وفي الأمثال : لكل **ساقطة لاقطة**: أي لكل كلمة سقطت من فم الناطق نفسٌ تسمعها فتلتقطها فتذيعها؛ **واللُقْطة واللُقَطة** (بسكون القاف أو فتحها) ما تجده ملقى فتلتقطه، أو هو الشيء المتروك لا يُعرف له مالك. وفي القرآن: ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا**﴿٨﴾﴾(القصص)، إشارةً إلى عثور آل فرعون على موسى طفلاً لقطة، وكان يوسف كذلك لقطة كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ**﴿١٠﴾﴾(يوسف). **والملقوط** إما آدمى ـ كموسى ويوسف، وإما حيوان، وإما مال . والآدمى يسمى **لقيطاً** : وهو الذى نبذه أهله

ورموه وأعرضوا عنه لسبب من الأسباب، ولذا سمّى منبوذاً. وأما الطفل «الضائع» الذى فقده أهله ولم ينبذوه، فليس لقيطاً، ويسلّم إليهم فى حال العثور عليه. واللقيط هو من اجتمع فيه النبذ وعدم الكافل، وأن يكون غير مميز، لأن الصبى المميّز لا يسمى لقيطاً فى نظر العُرف، لأنه غنىٌ عن الحضانة والتعهد، ولأن الالتقاط يقتضى الولاية الشرعية للملتقط على اللقيط فى الحفظ والتربية، والأصل عدم ولاية إنسان على إنسان، فإن كان الطفل مميزاً وغير مجنون لم تجب لأحد الولاية عليه، وإنما تنبغى الولاية فى حالة الطفل الضائع، ويقتضى الأمر، من باب الحسبة، أن يُبلغه مأمنه من يجده، وذلك شىء آخر عن الالتقاط؛ وإجمالاً تتبع أحكام اللقيط صدق هذا الاسم، لأن الأحكام تتبع الأسماء، وليس كل ضائع، ولا كل من احتاج أن يدلّه آخرون، يقال له لقيط، ولايصدق ذلك إلا على الطفل غير المُميِّز الذى نبذه أهله ولايُعلم لهم مكان.

والتقاط الطفل المنبوذ واجب على الكفاية، وإن تركه الجماعة أثموا، وإذا كان الملتقط أميناً أقرّ اللقيط فى يده، وفى كل الأحوال يجب إبلاغ الشرطة وتحرير محضر بذلك، ويصحّ للشرطة أن تدفعه إلى آخر، أو إلى جمعية خيرية أولى منه، وليس لكافر التقاط مسلم، وإن وُجد مع اللقيط مال فهو له، ويُنفق عليه منه، وتلزم الدولة بالإنفاق عليه إن تعذّر ذلك على الملتقط، أو تجب نفقته فرض كفاية على المسلمين. ولقيط دار الإسلام مسلم، ولاتوارث بينه وبين الملتقط، وإن ترك ميراثاً فهو لبيت المال. وإن ادّعى نسب اللقيط واحد ينفرد بدعواه، فإن كان مسلماً لحق نسبه به إذا أمكن أن يكون منه، وفى هذه الحالة يتوارثان، وإن كان المُقر به هو نفسه ملتقطه، أُقرّ فى يديه، ولا حقّ للذمّى فى حضانته، وتقبل دعوى المرأة بنسبه بإقرار زوجها أو إخوتها، وإن ادّعته امرأتان فهو لمن كانت لها البيّنة، وإن ادّعاه رجل وامرأة فهو لهما ويلحق بهما ويكون ابنهما بمجرد دعواهما، وإذا جنى اللقيط جناية فحكمه حكم غير اللقيط، فإن كانت توجب القصاص وهو بالغ عاقل، اقتُصّ منه، وإن كانت موجبة للمال، وله مال، استوفى منه، وإلا كانت فى ذمته حتى يوسر. وإن جنى أحد على اللقيط فى النفس جناية توجب الدية فهى للدولة، وإن كانت الجناية عمداً فللقاضى أن يستوفى القصاص أو يعفو على المال أيهما أحسن للقيط. وإن كانت الجناية عليه دون النفس وبما يوجب الأرش، قبل بلوغه، فلوليه أخذ الأرش.

وأما لقطة الحيوان فجائزة على كراهية، والحيوان الضائع يسمى ضالة، وفى الحديث: «لايأوى الضالة إلا الضال»، وترتفع الكراهة إذا كانت الضالة فى معرض الهلاك، فيكون التقاطها أفضل من تركها، فإن كانت مما لايخشى هلاكه لم يحلّ أخذها، وإن أخذها فليسلمها للشرطة، وقد تبقيها الشرطة فى يده أمانة، والشرطة نائب الغائب

صاحبها، وهى المنصوبة لحفظ مصالح الناس، فإن حفظها للمالك ثم تلفت دون تعدّ أو تفريط فلا ضمان عليه، لأنه أمين محسن. وقد روى عن النبىّ ﷺ لّما سئل عن الرجل أصاب شاةً فى الصحراء، هل تحل له؟ فقال: «**هى لك، أو لأخيك، أو للذئب، فخذها وعرّفها حيث أصبتها، فإن عُرفت فردّها إلى صاحبها، وإن لم تُعرف فَكُلها وأنت ضامن لها إنْ جاء صاحبها يطلب ثمنها أن تردّها عليه**»، يعنى أن الملتقط عليه قبل أن يتصرّف فيها أن يعى أوصافها جيداً ويعرّضها، حتى إذا جاء صاحبها وأقام البيّنة على ملكيته وفقاً للأوصاف دفع إليه قيمتها. ولا يُشترط فى ملتقط **الضالة** شروط كملتقط **اللقيط**، لأن الالتقاط فى اللقيط يوجب نوعاً من الولاية على **اللقيط**، وبديهى أن فاقد الأهلية يحتاج إلى من يتولى أمره، وأما من يلتقط **الحيوان فلا** يشترط فيه شيء من ذلك، فالتقاطه اكتساب **للمال**، ويصحّ من العاقل والمجنون، والكبير والصغير، والرشيد والسفيه، والمسلم وغير المسلم، ولذا قيل فى لُقطة الحيوان: **لايشترط فى الآخذ إلا الأخذ** ـ أى لايشترط فيه إلا أن يلتقط. وفى كل الأحوال لايجوز التقاط الحيوان فى **العمران**، وليس من اللقطة **الطيور والدواجن** كالدجاج والحمام، وعلى الملتقط أن يبحث عن المالك المجهول، فإن لم يجده تصدّق بها أو بثمنها عن المالك. وقيل يجوز التقاط الحيوان من العمران، وعلى الملتقط احتباسه **ثلاثة أيام**، ويسأل عن صاحبه، فإن لم يجده باعه وتصدّق بثمنه.

ولقطة المال:هى كل مال ضائع ولايد لأحد عليه، والفرق بين **المال اللقطة، والمال مجهول المالك**، أن اسم **الضياع** ينطبق على المال الأول، وأمّا **المال المجهول المالك** كأن يجلس أمامك إنسان وينسى حافظته، فأنت تعرف صاحبها، وهذا إذن ليس مالاً ضائعاً. **والمال فى مكة لايحل للقطة**، ويباح أن تأخذه لتسلمه للشرطة أو لتبحث عن صاحبه، أو قد تبقيه فى يدك أمانة فى حرز أمثالها، كالوديعة، أو قد يتصدّق به عن المالك، فإن حضر المالك كان عليه أن يدفع عوضه من المثل أو القيمة. وقيل يعرّفه حولاً وإلا تصدّق به. وإذا التقط الملتقط ما يسرع إليه الفساد **كاللحم والفاكهة،** فله أن يتملكه بقيمته ويأكله، أو يبيعه ويحفظ ثمنه أمانة شرعية لصاحبه. ولايشترط فى ملتقط المال العقل، ولا البلوغ، ولا الرشد، ولا الإسلام، لأن التقاط المال **مجرد اكتساب**. وأما الكنز **بلا صاحب من أهل هذا الزمان، وفى** المكان الخرب، أو الأرض تملكها الدولة، **فهو للدولة** يجرى عليه حُكم اللقطة. ومن اشترى سمكة فوجد فى جوفها لؤلؤة فهى له بالحيازة. وفى الحديث أن اللقطة من المال: «**إن جاء ناعتها فعرف عقاصها** ـ أى الخيط الذى ربطت به ـ **وعددها، فادفعها إليه**»، وإذا مات الملتقط قام ورثته مقامه، وعرّفوا باللقطة، ويجوز لهم أن يتملكوها بشرط ضمان المالك إن وُجد.

●●●

٢٣٠٤.﴿القسمة﴾

القسمة اسمٌ من الاقتسام وهو النصيب؛ وفى الشرع هى تمييز الأنصبة، وليست بيعاً ولاصلحاً، ويجب فيها أن يكون كل نصيب بقدر الآخر دون زيادة أو نقصان. والقسمة فى القرآن كقوله تعالى: **﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴿٨﴾﴾**(القمر) وكانت بين قوم ثمود والناقة، فكان لهم يوم وللناقة يوم، وعن ذلك قال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس لاتسألوا فى هذه الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيّهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عزّوجلّ إليهم الناقة، فكانت ترد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وِرْدها، ويحلبون منها مثل الذى كانوا يشربون يوم غِبّها.** (والغِبّ هو أن تأتيهم يوماً وتغيب عنهم يوماً). والقسمة فى الميراث، كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾**(النساء). والقسمة الضِّيزَى فى قوله تعالى: **﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾** (النجم) هى الجائرة عن العدل، ويقال ضاز فى الحكم أى جار. والقسمة فى الرحمة والرزق، كقوله تعالى: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٢﴾﴾**(الزخرف) يعنى أنه مايز بين الناس ليكون بعضهم سبباً لمعاش بعض. والنبىّ ﷺ قَسَم خيبر. والمسلمون أجمعوا على جواز القسمة، وهى على ضربين: قسمة إجبار وقسمة تراضٍ. فأمّا **قسمة الإجبار**: كأن يطلب أحد الشركاء التخارج عن الشركة، فيرفض الثانى، فإن كانت القسمة سهلة ميسرة بينهما ويمكن فيها تعديل السهام من غير ضمّ شىء آخر مع بعضها، يُجبر الممتنع عن القسمة، وتقسَّم الشركة ليُعطى كل ذى حقّ حقّه متى طلبه، ولايجوز منعه عنه .وأمّا **قسمة التراضى**: فهى التى لا يمكن تعديل السهام فيها إلا بأن يُجعل مع بعضها عوض مالى، فهذه لا إجبار فيها، وكذلك سائر ما لا تجب قسمته، وما يدخل الضرر على الشركاء بقسمته،وأشباه ذلك. فإذا تمت القرعة فى قسمة التراضى فإنها تلزم كقسمة الإجبار، وقيل : لاتلزم لأنها بيع طالما فيها عوض مالى، وليست القرعة فى هذه الحالة إلا لتعريف البائع من المشترى. ولو تراضى الشركاء أن يأخذ كل واحد منهم من السهام بغير قرعة، جاز؛ولو خيَّر أحدهم أصحابه فاختاروا، جاز أيضاً. فإذا كان بينهم أرضٌ، واتفقوا على أن يكون بعضها فى يد أحدهم، والبعض الباقى فى يد الآخر، أو أن يستثمر كل منهما العين كاملة لمدة سنة بالتناوب، فتسمى هذه **«قسمة بالمهاياة»**، أى **بالموافقة**، وإذا طلبها أحد الشريكين وامتنع الآخر فلا يُجبر الممتنع، لأنها بمنزلة **المعاوضة** التى يعتبر فيها التراضى. وتلزم **القسمة** ولايجوز العدول فيها إذا اقتسم الشركاء فيما بينهم من غير قاسم ولا قرعة، فيرضى كل منهم بِقَسْم معين يُلزَم به، ولايجوز له العدول بعد الرضا. وكذلك إذا اختار الشركاء **قاسماً** يميز الحصص ، وأجروا

القرعة برضا الجميع، فإذا رفعوا الأمر إلى القضاء فعيّن لهم قاسماً، فيجب العمل بقوله بمجرد خروج القرعة ولايشترط رضا الشركاء بالقسمة، لا قبل القرعة ولابعدها.

والقسمة على قدر الملك، فإذا بيع الملك المشترك قُسّم الثمن على قدر ملكهم فيه. والحكم في المياه المشتركة كالحكم في الحائط المشترك ،وتكون الأولوية فى الرى لمن هو فى أول الترعة ثم الذى يليه وهكذا، وإن كان مصدر الماء لجماعة، فالماء بينهم بحسب النفقة والعمل، ولايتصرف أحدهم فى نصيبه إلا بإذن الشركاء. وفى الشركة الفاسدة يقسّم الشركاء الربح على قدر أموالهم، أو يقتسمون الربح على ما اشترطوا. وللأب والوصى قسمة مال الصغير مع شركائه، ويجوز لهم قسمة التراضى. ويجوز للمشتركين أن يقتسموا بأنفسهم، ولكل منهم كافة الحقوق الارتفاقية فيما آل إليه من القسمة . وإذا ادّعى أحد المتقاسمين أنه أُعطِى دون حقه فلا تقبل دعواه إلا ببيّنة، إلا أن تكون القسمة بالتراضى فلا تُسمع دعواه. وإن ظهر فى نصيب أحد المقتسمين عيب فى نصيبه لم يعلمه قبل القسمة، فله فسخ القسمة أو الرجوع بأَرْش (تعويض) العيب. وإن ظهر حق للغير فى نصيب أحد المقتسمين بَطُلت القسمة. وإن قُسّم مال المفلس بين غرمائه، ثم ظهر غريم آخر رجع على الغرماء بقسطه. وتُقسّم التركات على مصحّ المسألة، فما خرج فهو حصة السهم من التركة، فيُضرب فى سهام كل وارث. وإذا بان للغير حق على التركة بعد اقتسامها، يقسّم الدين عليهم بحسب أسهمهم، فإن أجاب أحدهم لوفاء نصيبه من الدين وامتنع الآخرون، بيعت أنصبة الممتنعين وحدهم، وبقى نصيب المجيب بحاله، وإذا كانت هناك وصية لم يُعلَم بها ثم ظهرت بعد القسمة، فحكمها حكم الدين.



٢٣٠٥.﴿القسَم﴾

القَسَم هو اليمين، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الواقعة)، وقوله: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾(الفجر) والقسامة هى الأيمان تُقسَم على أولياء القتيل إذا ادّعوا الدم، ويقال: حكَم القاضى بالقسامة ـ أى بالأيمان، وهو اسم من أقسَمَ، وُضع موضع المصدر، كقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الأنعام)، أى حلفوا به، ومثل ذلك التقاسم بالله، كقوله : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (النمل). أى التحالف به. والاستقسام به هو طلب الحلف به، كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة) وهى أقداح الميسر يستقسمونها، أى يسألونها النصيب والرزق، كحال المنجّمين الذين يقرأون الطالع والكف والفنجان ويضربون الرمل والودع، وكل ذلك ضربٌ من التكهن والتعرّض لدعوى علم الغيب. (انظر اليمين).



٢٣٠٦.﴿القرعة﴾

القُرْعة: هى السهم والنصيب؛ وإلقاء القـرعة: حيلة يتعين بها سهم الإنسـان ونصيـه. ودليل القرعـة في القرآن الآية: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾(آل عمران). والاقتراع أصل لكل مـن أراد العدل فى القسمة، وبه ترتفع الظنّة عمن يتـولى القسمة فـلا يفضل أحد على أحد، ورأى البـعض ردّ القرعة وأنها تشـبه الأزلام التى نهى الله عنها، ولاتستقيم القرعة فى القياس، وعمل بها ثلاثة من الأنبيـاء: يونس، وزكريا، ومـحمد ﷺ، واستعمال القرعة فـيما يُقسم بين الشركاء فلا معنى لمن ردّها، وفى الحديث: «مثل القائم على حدود الله والمُدهن فيها، مثل قوم استهموا على سفينة..»، الحديث، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها. وعن أبى هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: «لو يعلـم الناس ما فى النـداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يسـتهمـوا عليه لاستهمـوا» . وفائدة القـرعة: استـخراج الحكم الخفى عند التشـاحّ ـ أى التنازع، ولاتكون مع التراضى وإنما تكون فـيما يتشاحّ الناس فيه ويُضَنّ به.



٢٣٠٧.﴿الرهان المقبوضة﴾

الرهان فى الآية: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ (٢٨٣) ﴾(البقرة)، قيل: الرهن فى السفر بنصّ التنزيل السابق، وفى الحضر الرهان ثابتٌ بالسنّة. وليس كون الرهن فى الآية فى السفر أنه محظور فى غيره. والرهان جمع رهن، ورُهُن جمعٌ للجمع. ومـعنى الرهن: احتباس العين وثيقةً بالحق، ليُـستوفى الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها، عند تعذّر أخذه من الغريم. وفى اللغة، الرهن: بمعنى الدوام والاستـمرار، ورهنه أدامه، وتقول: أرهنتُ فى المغالاة؛ وفى القرض والبيع تقول: رهنتُ. والمرتَهِن (بكسر الهاء) الذى يأخذ الرهن، ويقال للشىء أنه مرهون، ورهين، والأنثى رهينة؛ وراهنتُ فلاناً على كذا: يعنى خاطرته؛ والرهينة واحدة الرهائن. ولما كان الرهن بمعنى الثبوت فقد قيل: إن الرهن يبطل إذا خـرج من يد المرتهن إلى يد الراهن، لأن شرطه أن يكون مقبوضاً. والراهن إذا رهن الشىء قولاً ولم يقبضه المرتهن فعلاً، لم يوجب ذلك حكماً، فالله تعالى لم يجعل الحكم إلا برهن موصوف بالقبض، فإذا عدمت الصفة وَجَب أن يُعدم الحكم. غير أن الرهن يلزم بالعـقـد، ويُجبر الراهن على دفع الرهن ليـحوزه المرتهن، لقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (١)﴾(المائدة) والرهن عقد، وفى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ (٣٤)﴾(الإسراء)، أن الرهن عهد

أيضاً. وفي الحديث: «**المؤمنون عند شروطهم**» وهذا شرط. ورهن المشاع جائز، كالأرض أو البيت، إذا قبضه المرتهن. وكذلك يجوز رهن ما في الذمة، لأنه مقبوض، ولأنه يجوز بيعه، ولأنه مال تقع الوثيقة به، قياساً على سلعة موجودة، بخلاف من منع ذلك لأنه لايتحقق إقباضه، والقبض شرط في لزوم الرهن، لأنه لابد أن يستوفي الحق منه عند المحل. و**الرهن لا يجوز غلقه**، وهو أن يشترط المرتهن أن المرهون بحقه إن لم يأت الراهن بحقه عند أجله يجوز له غلقه، وكان هذا من شائع الجاهلية، فأبطله النبيّ ﷺ وقال: «**لايُغلَق الرهن**»: ويُقدَّم المرتهن على سائر غرماء المفلس.



٢٣٠٨. ﴿الغارمون والإفلاس﴾

الغارمون مصطلح قرآني يرد في آية منصرفات الزكاة، في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** (٦٠) ﴾(التوبة)، من غَرِم الدين أي أدّاه؛ **وغَرِم في التجارة** يعني خسر؛ **والغرم والغرامة** ما يلزم أداؤه من المال؛ **وتغرّم** تحمَّل وتكلّف الغرامة؛ **والغريم** - والجمع غرماء - هو المديون؛ **والغارمون**: هم إذن الذين ركبهم الدين ولاوفاء عندهم فأفلسوا، وقد يكون عندهم المال إلا أن ديونهم أكثر من أموالهم، وخَرجهُم أكثر من دخولهم. وسُمّوا **مفلسين** لأنهم صاروا من ذوي **الفلوس** بعد أن كانوا من ذوي **الجنيهات والدنانير**، إشارةً إلى أنهم صاروا لايملكون إلا أدنى الأموال - وهي **الفلوس**؛ أو أنهم مفلسون لأنهم مُنعوا التصرف إلا في الشيء التافه وهي **الفلوس**، أو لأنهم صاروا إلى حالة لا يملكون فيها **فلساً** - أي مليماً أو قرشاً. **والغارمون والمفلسون لهم نصيب من بيت المال**، وهو شيء ينفرد به الإسلام دون سائر القوانين الوضعية أو الشرعية للملل الأخرى بشرط أن لا تكون ديونهم من سفاهات، وأن تكون محيطة بهم تستغرق أموالهم. **والغارم أو المفلس**: إن لم يكن له مال، أو كان دينه أكبر من ماله، **فهو فقير وغارم معاً فيُعطى** من بيت مال المسلمين بالوصفين . وفي الرواية أن أحدهم أصيب في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول الله ﷺ: «**تصدّقوا عليه**»، من باب أن المسلمين **متكافلون**، فتصدّق الناس عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال الرسول ﷺ لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك**»، وهو **مبدأ قانوني في أحكام التفليس** .ويجوز أن يُعطَى المتحمل في الصلاح والبرّ من بيت المال ما يؤدّي ما تحمّل به وإن كان غنياً، بشرط أن يكون ما تحمّله يُجحف بماله كالغريم. وكان **قبيصة بن مخارق قد تحمّل حمّالة** - وهي أن يضمن إنساناً في دين، أو يدفع عنه ديّة - فأتى النبيّ ﷺ يسأله فيها، فقال له: «**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك**

بهـا»، ثم قال:«يا قبيصة، إن المسألة لاتَحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمّالة، فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألةُ حتى يصيب قواماً من عيش؛ ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه (أى أصحاب الرأى والسداد): لقد أصابت فلاناً فاقة فحلّت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش. فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحْتاً، يأكلها صاحبها سُحتاً» أخرجه مسلم ، والسُّحت هو الحرام. وروى عنه ﷺ أنه قال: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: ذى فقر مُدْقِع، أو لذى غرم مُفظِع، أو لذى دم مُوجِع»، والفقر المدقع هو الشديد، والمفظع يعنى الشنيع، وذو الدم الموجع الذى عليه دية. والغارم من هؤلاء هو الذى عليه دين، سواء من تجارة، أو من غرامة، والدولة تدفع عن الغارم، للنصّ الشرعى القرآنى فى الآية، وحتى الغارم الميّت تتولى الدولة الدفع عنه، للنصّ الشرعى فى الحديث: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه: مَن ترك مالا فلأهله، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً (يعنى العيال يتهددهم الضياع والهلاك) فإلىّ وعلىّ». ولعمرى إنه لأعظم نصّ إنسانى فى التاريخ! ومن أعظم ما سنّته الشريعة الإسلامية أنه فى أحكام الإفلاس، بالحجر على المفلس والتصرف بالبيع فى ماله، يُترك له مسكنه الذى يقطن فيه وأولاده، ولا يُخرج منه، فإن كان السكن فيلا مثلاً أو قصراً، تصرّف السنديك المشرف على بيع مال المفلس، فاشترى سكناً بسيطاً له ولأولاده يناسب أحواله الجديدة، ولايخرجه من سكنه القديم إلا بعد إعداد السكن الجديد وانتقاله إليه. وأكثر من ذلك يترك له السنديك ما يفى بحاجاته إن كان شيخاً أو من ذوى الهيئات، إلا أن يكون قادراً على الكسب بما يفى بنفقته وأولاده، فإن كان كسبه دون ذلك كمّله له، وتُقدَّم نفقة الزوجة والأولاد والأبوين والأخوات على حقوق الغرماء عند توزيع أموال التفليسة. وإذا كان المفلس متوفياً ترك السنديك للعيال ما يكفيهم ويقوم به معاشهم. ويُقسَّم حاصل بيع مال المفلس «قسمة الغرماء»، فيحصل كل غريم منهم بقدر دينه، وعندئذ ينفك الحجر عنه بحكم القاضى، وإن ثبت إعساره لم يكن لأحد مطالبته وينفك الحجر عنه فى كل الأحوال.

وللمفلس فى مجال الأخلاق تعريفٌ لرسول الله ﷺ ، قال: «أتدرون مَن المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «إن المفلس من أُمّتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضَى ما عليه، أُخِذ من خطاياهم فطُرِحت عليه، ثم طرح فى النار». أخرجه مسلم.



٢٣٠٩المساقاة والمزارعة من العقود*

المساقاة : أن يدفع صاحب الأرض أرضه إلى آخر ليقوم بسقى شجرها، وعمل سائر ما يحتاج إليه نظير جزء معلوم له من نتاجه، والأصل فى جوازها السُّنّة والإجماع، ويستثنى الشجر الذى لا ثمر له كالصفصاف فلا تجوز المساقاة عليه. والمساقاة من العقود الجائزة أو اللازمة، ومدة العقد يُتفق عليها، وأقلها ما تكمل به الثمرة، ولاتصحّ المساقاة إلا على جزء معلوم من الثمر مشاع، كالنصف، والثلث، ويد العامل فيها يد أمانة، والقول قوله فيما يدّعيه من هلاك وما يُدّعَى عليه من خيانة، وإن اتُّهم أُحلف. ويلزم العامل صلاح الثمر وزيادته، ويلزم ربّ المال ما فيه حفظ الأصل، وضريبة المال. وأما **المزارعة**:فهى أن يدفع المالك الأرض لمن يزرعها أو يعمل عليها والزرع بينهما، وحُكم المزارعة هو حكم **المساقاة فى جوازها** ولزومها،وما يلزم العامل والمالك، ويجوز أن يكون جزء من الأرض مساقاة شجر، وجزء مزارعة فى المسافات بين الشجر، وإن قال المالك زارعتك الأرض بالنصف، وساقيتك على الشجر بالربع جاز؛ وتصحّ المزارعة إذا كان البذر على المالك والعمل على العامل، ويجوز أن يكون البذر من العامل، والمهم أن لايُجهَل نصيب أيهما من المحصول. **وزكاة الزرع** فى المزارعة، أو الثمر فى المساقاة على المستأجر والمالك بقدر حصة كلّ لو بلغت النصاب، وهى **العُشر** فى النبات الذى يسقى بغير متونة، كأن يُسقى من النهر أو المطر، **ونصف العشر** فيما يُسقَى بالمئونة كالسواقى والمواتير.

●●●

٢٣١٠.*القضاء*

للقضاء معان فى اللغة، منها **الإتمام**، كقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴿٦٨﴾ ﴾(يوسف) أى أتمها؛ ومنها القتل، كقوله: ﴿**فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴿١٥﴾﴾ (القصص)؛ ومنها الحكم كقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** ﴿٢٠﴾﴾(غافر)، وهذاالمعنى الأخير هو الذى أفرد له **أهل الفقة** باباً خاصاً **هو باب القضاء** ، يريدون به حُكم الشرع بالعدل والحق بين المتخاصمين، **قطعاً** للخصومة، ورفعاً للنزاع، ومنعاً للظلم، وتكلموا فى هذا الباب عن الأحكام وشروطها، وما يتعلق بها وتقوم به،كالإقرار، والشهادة، واليمين أو النكول عنها، والاستفاضة أو القرائن.

والقاضى: هو المنوط به الفصل فى القضايا، تقول: **قضى** بين الخصمين، **وقضى له** أو **عليه** ، أى حكَم له أو عليه؛ **وقاضى القضاة** هو رئيسهم،**والقضية** اسمٌ من **قضى**، والجمع قضايا. **والمفتى** بخلاف القاضى، وهو الفقيه الذى يعطى الفتوى، وقد تأخذ بها أو لا

تأخذ بها، وأما الحُكم الذى يصدره القاضى فهو نافذ المفعول. ولاتعنى الفتوى وجود خصومة، ولكنها استيضاح لرأى الدين، مِن أفتى إفتاءً فى المسألة، أى أبان الحكم فيها وأخرج له فيها فتوى.

والمجتهد: هو من يستدل على الحكم؛ فى حين أن **المفتى** يبيّن الحكم؛ **والقاضى** يُلزم بالحكم؛ وأما **الفقية**: فهو العالم بالحكم عن دليله، والجمع **فقهاء**، مِن **فَقَه** أى عَلِم وفَهِم. وصفات الجميع: القاضى، والمفتى، والمجتهد، والفقيه، واحدة، والتغاير بينهم بالحيثية، فالشخص الجامع لهذه الصفات باعتبار حكمه على الأفراد بالأحكام يسمى **قاضياً**، وباعتبار إخباره عن الحكم يسمى **مفتياً**، وباعتبار استدلاله عليه يسمى **مجتهداً**، وباعتبار علمه به يسمى **فقيهاً**.

ومن أقواله ﷺ : «**القضاة ثلاثة: قاضيان فى النار، وقاضٍ فى الجنة: قاضٍ قضى بالحق فهو فى الجنة، وقاضٍ قضى بالهوى فهو فى النار، وقاضٍ قضى بغير علمٍ فهو فى النار**»؛ وقال: «**القاضى على شفير جهنم**»، وقال: «**من جُعل قاضياً بين الناس فقد ذُبح بغير سكين**». والقضاء من **فروض الكفايات**، كالجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونُصره المظلوم، فإذا قام به البعض سقط عن الكل، وإنْ تركه الكل أثموا، وقد يصير واجباً عينياً إذا رفضه الكل ودعت إليه الحاجة، ولذلك تولاه النبىّ ﷺ معلّماً، وتولاه قبله الأنبياء، فكانوا يحكمون لأممهم، وكان يقال: **أعلم الناس بالقضاء أشدُّهم له كراهة**. ومن شروط القاضى: **العقل والبلوغ، وأما الإسلام** فاستدلوا على شرطيته بقوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** (١٤١)﴾(النساء)، ومن ثم لا ينبغى التحاكم إلى **أهل الجور**.

والعدل من أهم الشروط فى القاضى، ولايجدى العلم بدون العدل، ومن العدل أن تجتمع للقاضى صفات الكمال الخلقى (بالكسر)والخُلقى (بالضم). **والقاضى الكامل**: من تمّت صفاته؛ **وكماله فى خلقته**: أن يكون متكلماً، سميعاً، بصيراً؛ **وكماله فى خُلُقه**: أن يكون عادلاً، فلا يجوز تولية من له سوابق فى الظلم، أو من كانت له سيرة حياة يتسم فيها بالعنف، أو الحَيْد عن الحق. ولايجوز أن يتولى القضاء الفاسق، ولا أولاد السفلة، ولا من فيه نقص يمنع الشهادة. ومن الكمال أن يكون القاضى من أهل الاجتهاد، ويقتضى ذلك منه أن يعلم القانون والشريعة ومصادرهما، وأن يكون عارفاً بالدين وملماً بالعُرف، ومحيطاً بالسوابق القضائية، ومجيداً للاستنباط والقياس، ومُبيناً فى لغته، وقوياً من غير عنف، وليناً من غير ضعف، لايطمع القوى فى باطله، ولاييأس الضعيف من عدله، وأن تكون العفة، والورع والنزاهة، والحلم، والتأنّى، والفطنة، واليقظة من

سجاياه. فلا يؤتى فى غفلة، ولايُخدع لغرة، ويكون ذا هيبة إذا أوعد، ووفاءً إذا وَعَد، وصدوقاً إذا نصح، وصادقاً إذا أشار، ولايُعيَّن بالواسطة، ولايُختار إذا زكّى نفسه وسعى للمنصب،ويسبق تعيينه اختبار لياقة، فإذا اختير فعلى المسئولين أن يستقسموه أن يتولى عمله بنزاهة واقتدار، وأن ينأى بنفسه أن يكون جبّاراً أو عسوفاً يقطع ذا الحجة عن حجته، ولايستنكف عن سؤال أهل العلم، وتحرّى شهادة الشهود، فإذا عُرف عنه الفسق، أو زوال العقل، أو أصيب بمرض يمنعه من القضاء، أو اختلفت فيه بعض شرائط القضاء، فإنه ينعزل. ويجوز له عيادة المرضى، وشهود الجنائز، وزيارة الإخوان والصالحين من الناس، بشرط أن لايخل ذلك بواجبات وظيفته، أو ينقص من هيبته، ولايشتغل بالتجارة، ولايلبى الولائم إذا كثرت، ولا أن يشارك فى انتخاب إلا ما يخص عمله، ولا أن يقبل الهدية، وتحرم عليه الرشوة، وراشيه ملعون. ويُكره من القاضى أن يفتى، ويستحب له حضور أهل العلم مجلسه، وأن يشاور الموافقين والمخالفين،ويسألهما عن حجتهما، ولايحكم إلا عن بيّنة وإقرار، وقد يحتاج الأمر إلى أن يقضى باليمين مع الشاهد، فإذا قضى فيلزم أن يكتب صيغة الحكم مبيّنة.

●●●

٢٣١١.﴿الدعوى﴾

الدعوى: هى مطالبة شخص شخصاً آخر بحقّ يدعيه عليه، وقد يكون هذا الحق عيناً، أو ديْناً، أو خياراً، أو شفعة، أو بنوةً، أو زوجيةً، أو جناية، إلخ، **وأركانه ثلاثة: المدّعى، والمدّعَى عليه، والمدّعَى به.** والدعوى فى القرآن هى المطالبة ،كقوله تعالى: ﴿ **ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** (٧٣) ﴾ (الحج)،**والطالب: هو المدّعى،** وهو من يلتمس بقوله أخذ شيء من غيره، أو إثبات حقّ فى ذمته؛ **والمطلوب: هو المدَّعى به ،** يطلبه المدّعى من المدّعى عليه، ملكاً، أو استحقاقاً،أو صفقةً أو نحو ذلك، ولا تصحّ الدعوى إلا من جائز التصرف، ويُشترط فيه: **العقل، والبلوغ، والرشد،** وأن تكون الدعوى لنفسه أو لمن له الدعوى عنه، بالولاية، أو الوكالة، أو الوصاية، أو القيمومة، أو الأمانة، أو الحسبة، بمعنى أن يكون المدّعى «**صاحب مصلحة**» على نحو من الأنحاء، فإن لم تكن له علاقة من أى وجه فلا تُسمع دعواه، وتسمى هذه الدعوى **تبرعية.** والقول المشهور فى الدعاوى: **البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر،** وقد تكون البينة بالعكس، بأن يُظهر المدّعَى عليه بالبينة عكس الادعاء، كأن تدّعَى امرأة أنها زوجة رجل، فينكر ويقيم البينة على أنها زوجة آخر. وكذلك يُشترط فى **المدّعَى عليه: العقل، والبلوغ،** والرشد. ويُشترط فى المدّعَى به

أن يكون معلوماً، ومعقولاً، ويصحّ تملكه، فلا تسمع دعوى دين القمار، ودين الربا، أو أى شيء محرّم، وعموماً لاتجوز الدعوى العقيمة غير المنتجة، كالادعاء بدَيْن على ميت لاميراث له ولاورثة. وللمفلس حق إقامة الدعوى كغيره، وله أن يدّعى حقاً له به شاهد عدل. ولايسمع القاضى الدعوى إلا محرّرة، فإن كان المدّعى به أثماناً فينبغى أن يذكر المدّعى فى صحيفة الدعوى نوعها وقدرها،وإن كان يميناً ضبطها بالصفات وبقيمتها، وإن كان عقاراً يبينّ موضعه وحدوده،وإن كان زوجة يذكر شروط زواجه منها؛ وإن ادعت امرأة الزواج برجل ذكرت حقوقها كالصداق والنفقة ونحوها،ويثبت لها ما تدعيه بالبيّنة ، فإن ادّعت ملكية الإثاث ونازعها الرجل أو ورثته فى دعواها، ولم تكن لها بينة، حُكم له أو لهم بما يصلح للرجال، ولها بما يصلح للنساء ولأولادها منه؛ ومن ادّعى زوجية امرأة فأنكرته، ولم تكن له بينّه فُرّق بينهما.



٢٣١٢.﴿دعوى الزواج﴾

إذا ادّعى رجل زوجية امرأة فأنكرت، أو إذا ادّعت هى ذلك فأنكر، فعلى المدّعى البيّنة وعلى المنكر اليمين ، ويفرّق بينهما إن لم يقدّم أيهما بيّنة. وإذا حلف المنكر وحكم القاضى بنفى الزوجية، أو أهملت الدعوى ولم يحصل فيها البتّ سلباً ولا إيجاباً، فعلى المدّعى أن يلتزم بأحكام الزوجية وآثارها التى استدعاها الإقرار والاعتراف، لأن إقرار العقلاء على أنفسهم جائز، غير أن النفقة لا تجب عليه لعدم التمكين الذى هو شرط فى وجوبها. وإن كانت المرأة هى المدّعية، فلا يجوز لها أن تتزوج بغيره، ولا أن تفعل ما يتوقف على إذن الزوج. وإن رجع مدّعى الزواج عن دعواه وأنكر الزواج فإنكاره جائز لأنه جاء وفق ما يقوله الغير ولم يزاحمه حقه. وإذا أقرّ منكر الزوجية بها صحّ إقراره وقُبل منه، لأن الإقرار بعد الإنكار لايزاحم حق المدّعى. ويثبت الزواج بالمعاشرة مع البينّة، فإن عجز المدّعى عن إقامة البيّنة يحلف المنكر وتُردّ الدعوى، وإن كان ذلك لايتضمن الحكم بفساد المعاشرة. وحَمْل المعاشرة على الصحة لايثبت وجود العقد، ولكنه يستلزم الحكم بأن الأولاد شرعيون، لأن المعاشرة إما عن زواج وإما عن شبهة، وأولاد الشبهة كأولاد الزواج فى كل الآثار الشرعية، ولذلك إذا ادّعت امرأة على رجل بأنه زوجها ووالد أولادها، فأنكر الزوج واعترف بالولد، يُقبل منه، إذ من الممكن أن يكون عن شبهة. والأصل فى مدعى الزواج الإشهار. وإذا ادّعى رجل على امرأة متزوجة بأنه عقد عليها قبل الثانى فلا تسمع دعواه إلا مع البينّة.



٢٣١٣.﴿موانع عقد الزواج﴾

الشروط فى المرأة التى يراد العقد عليها: أن تكون محلاً صالحاً للعقد، وأن تتحلّى بالعقل، والبلوغ، والرشد، وأن تخلو من الموانع،ومنها ما هو بالنسب وماهو بالسبب، ومن السبب ما يُوجِب **التحريم المؤبد**، كزوجة الأب والابن، ومنه ما يوجب **التحريم المؤقت**، كأخت الزوجة. ومن حرّم **القرآن والسنّة** العقد عليهن: المرأة يزنى بها؛ وامرأة الأب؛ والأم؛ والبنت؛ والأخت؛ والعمّة؛ والخالة؛ وبنت الأخ؛ وبنت الأخت؛ والأم بالرضاع؛ والأخت بالرضاع؛ وأم الزوجة؛ والربيبة فى رعاية أُمها المدخول بها، فإن لم يدخل بأمها لم تحرّم البنت؛ وزوجة الابن؛ وأخت الزوجة؛ والملاعنة بعد اللعان؛ والمعتدّة؛ والمحُرِمة؛ والمطلقة طلاقاً بائناً؛ والمشُركة حتى تؤمن؛ والمرأة يتزوجها على عمّتها.

والمصاهرة علاقة تحدث بعد الزواج ويحرم بها بعض أقارب الزوجة أو الزوج، فتحرم **زوجة الأب** على الابن مؤبداً وإن نزل بمجرد العقد، بقوله تعالى: **﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ(٢٢)﴾**(النساء)؛ **وزوجة الابن** على الأب مؤبداً وإن علا بمجرد العقد، بقوله تعالى: **﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ(٢٣)﴾**(النساء)؛ **وأم الزوجة** وإن علت بقوله تعالى: **﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ(٢٣)﴾**(النساء) ؛ **وبنت الزوجة المدخول بها**، بقوله تعالى: **﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ(٢٣)﴾**(النساء)؛ **والجمع بين الأختين**، بقوله تعالى: **﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ(٢٣)﴾**(النساء)؛ **والجمع بين المرأة وعمّتها أو خالتها**؛ ولايحرم الجمع بين ابنتى العم وابنتى الخال. وليس للرجل أن يجمع أكثر من أربع زوجات بقوله تعالى: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ(٣)﴾**(النساء)، ولا أن يتزوج ابنته، ولا أخته، ولا بنت أخته ولا أخته من الزنا، فالوطء الحرام المحض هو **الزنا**، وتثبت به حرمة المصاهرة؛ **والتلوط بالمرأة**،أى إتيانها فى الدبر؛ **والتلوط بغلام؛ ووطء الميتة، ووطء الصغيرة** ـ لا تحرُم بأىّ من ذلك المصاهرة. ولايحرُّم النظر واللمس المصاهرة؛ وكل امرأة محرّمة فى النكاح تحرُم ابنتها؛ ومن طلق زوجته طلاقاً رجعياً يبقى بحاله تحريم أختها ونحوها، وكذا أن ينكح خامسة، وكذلك إن كان طلاقه **بائناً أو فسخاً**، حتى تنقضى عدّة مطلقته.ولايحرّم النكاح نقص الكفاءة بين الزوجين ، وكفى بكفاءة الإسلام جامعاً من غير فرق.، ولا نحسب أن ذلك صحيح **فالقدرة على النكاح** شرط أساسى فى الزواج،ولازواج بدون ذلك. ومن شروط الكفاءة وصحة الزواج **القُدرة على الإنفاق**، وفى قوله تعالى: **﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ(٣٢)﴾**(النور) أن الفقر لا يعنى دائماً عجزاً عن الإنفاق. ويحرُم فى الإسلام نكاح الشِغار: وهو أن يقول أحد الوليين: زوّجتك ابنتى

أو أختي، على أن تزوّجني ابنتك أو أختك وإن سمّيا صداقاً. وفساد النكاح يتأتى بالشرط الفاسد. ولايجب الحدّ بالوطء في نكاح الشغار، وفي كل نكاح مختلَف فيه، كنكاح المتعة، ونكاح التحليل؛ وكل نكاح يُجتمع على بطلانه، كنكاح الزوجة الخامسة، إذا وطيء فيه عالماً بالتحريم، فهو زنا موجب للحدّ. ونكاح التحليل فاسد يثبت فيه سائر أحكام العقود الفاسدة.

•••

٢٣١٤. ﴿الشركة وأنواع الشركات﴾

الشركة في اللغة هي اجتماع حقوق المُلاّك في الشيء الواحد على سبيل الشياع فيه، وقد يكون سبب ذلك اضطرارياً، كالإرث، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ (١٢)** ﴾(النساء)، أو اختلاط الأموال من غير قصد، اختلاطاً لايمكن الفصل معه بينهما. وقد يكون السبب اختيارياً، كما إذا اشترك اثنان في شراء أرض، أو قبلاها من الغير بالهبة أو الوصية، وتسمى هذه الشركة شركة الملك، وشركة الشيوع أيضاً، لأن المال المشترك يكون للجميع، ولايتصرف أحد الشريكين إلا بإذن الآخر، وله أن يطالب بالقسمة.

والنوع الآخر من الشركات هو شركات العقود، ومنها شركة العنان، وتكون في الأموال، ولكل شريك من الأرباح والخسارة على قدر حصته من رأس المال، وسميت بشركة العنان لأن الشريكين يتساويان في التصرف لتساويهما في رأس المال، كالفارسين إذا استويا في السير، فإن العنانين يكونان سواء. والعنان: هو سير اللجام للفارس، سُمّي بذلك لأنه يعترض الفم فلا يلجه، من عَنّ أي ظهر واعترض. وشركة العنان إذن أساسها الوكالة والأمانة، ومن شروط صحتها أن كل شريك يأذن لصاحبه في التصرف، فإن أذن له مطلقاً في جميع التجارات تصرّف فيها، وقد يفوّض شريكه في جميع أنواع التصرف، بأجرة أو بدون أجرة، وليس لأحدهما خلط مال الشركة بماله ولا مال غيره، ولا أن يستدين على مال الشركة، أو يقرض، أو يحابي منه، أو يسقط ديناً عن غريم، ولا أن يبيع أو يشتري نسيئة، ولا أن يرهن أو يرتهن بلا إذن، ولا أن يقر على مال الشركة، ولا أن يضارب به.

ومن الشركات شركة الأبدان: وهي أن يشترك اثنان فأكثر فيما يكتسبونه بأبدانهم أي بمجهودهم، وقد تكون لهم حرفة أو مهنة واحدة، كالمحامين، أو تكون لهم حرف أو مهن مختلفة متكاملة كالمحامين والمحاسبين. وتنعقد الشركة على ما يتقبلان من عمل، والأجرة

بينهما على ما يشترطان. وما يتقبّل الشركاء من الأعمال فهو من ضمانهم، ويطالب به كل واحد منهم، ويلزمه عمله، وما يتلفه أيهم أو يقصّر فيه مما هو من اختصاصه وتحت يده، فعليه وحده، وجواز هذه الشركة مرهون بما يتفق عليه الشركاء، وتقسمّ الأرباح بحسب تعاقدهم سواء بالمساواة بينهم أو متفاضلين.

ومن الشركات: **شركة المفاوضة**: يعنى أن تكون الشركة بين شركاء قد **فوّضوا بعضهم** البعض فى كل الاختصاصات، وبذلك يجمع هذا النوع من الشركات بين كل أنواع الشركات: **العنان، والأبدان، والوجوه**، ،فيلتزم كل منهم بالغُنم والغُرم معاً، ويلزم كل واحد منهم فى ماله الخاص ما يلزم الآخر أرشاً أو ضماناً. وهذه الشركة **باطلة بالإجماع**، لأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت.

ومن الشركات: **شركة الوجوه**: وهى أن يشترك اثنان أو أكثر فيما يشتريان، بجاههما وثقة التجار بهما، باعتبارهما من **وجوه** القوم أو الأعيان، من غير أن يكون لهما رأس مال، على أن يقتسما ما يشتريان ويبيعان، ويكون الربح بينهما، وذلك كله بحسب ما يشترطان من شروط، وكل منهما وكيل عن الآخر وبمنزلة شريكى **العنان**.

ومن شروط الشركات: أن تنصّ عليها **صيغة** قيام الشركة، بما يدل على أن الشركاء قد قبلوا المشاركة؛ وأن يكونوا **أهلاً للتوكيل**، لأن كل شريك سيكون وكيلاً عن صاحبه وموكلاً له؛ وأن يكون **محل الشركة** مالاً من الشركاء، وموجوداً بالفعل، وأهلاً للالتزام به شرعاً. فلا يصح أن يحدثا شركة على مال فى الذمة، ولا فى الخمر أو الخنزير؛ وأن **تمتزج** الأموال فلا يمكن الفصل بينها، **والمزج** شرطٌ فى الصحة، فإن لم يخلطوه لم تصحّ الشركة. والمزج وحده لايكفى ما لم يكن بقصد إقامة الشركة وإرادتها، وإن قالوا فى العقد «**اشتركنا**»، كانت **الشركة بالعقد**، وإلا **فهى شركة بالمعاطاة**. ومتى توافرت للشركة جميع ما يعتبر فيها صحّت وترتبت عليها **أحكام الشركات**، ومنها أن للشريك أن **يرجع عن الشراكة** ويطالب بالقسمة متى شاء، **لأن الناس مسلّطون على أموالهم**؛ ومنها **إفراز أملاكهم عن** أملاك الغير؛ ولايجوز لأحد الشركاء التصرف فى مال **الشركة إلا بإذن شركائه**، لحرمة التصرف فى مال الغير، ومجرد الاشتراك لا يدل على إباحة التصرف فى مال الشريك. وإذا أطلق الشركاء العقد ولم يبينوا مقدار الأسهم، يقسّم الربح على أصحاب الأموال بنسبة **أموالهم**. ولا **تنتهى الشركة إلا** بالقسمة،أو تلف المال ،وينتهى **الإذن بالتصرف** بانتهاء الشركة، وإذا مات أحد الشركاء **تنتقل حصته إلى ورثته**.

●●●

٢٣١٥.﴿المضاربة والقراض﴾

المضاربة فى الشرع: هى أن يتفق اثنان على أن يكون المال من أحدهما، والعمل بهذا المال فى التجارة من الآخر، على أن يكون الربح بينهما، من قوله تعالى: ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ** ⟨٢٠⟩﴾(المزمل)؛ وفى الاقتصاد: هى عملية البيع أو الشراء يقوم بها الخبراء فى السوق للانتفاع من فروق الأسعار. وتسمى المضاربة أحياناً قراضاً، ومقارضة، تقول: قارضه أعطاه مالاً ليتّجر فيه ويكون الربح بينهما على ما يشترطان. والقرض الحسن فى قوله تعالى:﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ⟨٢٤٥⟩﴾(البقرة)، هو الدّين بلا ربح، وتقول: ضَرَب لفلان ماله، أى اتّجر له فيه نظير حصة من الربح، أو اشترى فى الرُّخص وتربّص حتى يرتفع السعر ليبيع، فلو هبط السعر حدثت الخسارة، وهذه هى المضاربة. ووجه التسمية بالقراض أن معنى القرض: القطع، تقول قرضُت الشىء أى قطعته، وصاحب المال فى القراض أو المضاربة أو المقارضة، يقتطع قدراً من ماله، يسلمه إلى العامل، والفرق فى المعنى بين المصطلحات الثلاثة: أن الربح فى المضاربة بين الشريكيين، فإن اتفقا على أن يكون الربح للعامل والخسارة عليه، ولاشىء للمالك إلا رأس المال فهو قرض ويُعرَف أيضاً باسم الدّين، وإن اتفقا على أن الربح للمالك والخسارة عليه، ولاشىء للعامل إلا أجرة المثل أو الأجر المسماة فهو بضاعة.

ودليل المضاربة من القرآن قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ** ⟨٢٨٢⟩﴾(البقرة)، وفى الرواية أن الرسول ﷺ أجازها، والمضاربة على ذلك غير لازمة، ويجوز لصاحب المال والعامل عليه العدول عنها، سواء تحوّل المال إلى سلعة أو لم يتحوّل، وحصل الربح أو لم يحصل، واشترط فيها وقت معين أو كانت مطلقة. ويشترط فى المضاربة الإيجاب من المالك، والقبول من العامل ، بشرط أن يكونا بالغين، عاقلين، مخيّرين، ولايكون مال المضاربة ديناً، ويكون معلوماً ، لأن الجهل به يستدعى الجهل بالربح، وهو بينهما، والوضيعة على المال، وليس بشرط أن يوزّع الربح بمقدار رأس المال، فقد يتفق الشريكان على غير ذلك. وفى المضاربة المحصنة يكون العمل كله من المضارب، والمال كله من الشريك الآخر، فإن اشترك العامل بمجهوده وماله صحّ وتكون مضاربة وشركة. وُحكم المضاربة كحكم شركة العنان فى أن كل ما جاز للشريك فى شركة العنان أن يفعله، فللعامل فى المضاربة أن يفعله، وما مُنع منه شريك العنان يُمنع منه المضارب. وإن اشترط الشريكان أن لايضارَب بالمال فى الخارج، أو فى بلد معين، أو أن لايُتاجَر إلا بنوع خاص من السلع، أو أن لايبيع إلا نقداً، لم تجز مخالفته، وليس له أن يبيع بأقل من

ثمن المثل. ولايشترى بأكثر منه، وله أن يشترى المعيب إذا كان فيه مصلحة، وليس له أن يشترى بأكثر من رأس المال، ولا أن يخلط ماله الخاص به، ولايشترى محرّمات كالخمر والخنزير. **والخسارة** فى مال المضاربة على المال خاصة وليس على العامل منها شىء، إلا لو اتفقا على غير ذلك، كالحديث: «**المؤمنون عند شروطهم**»، و الآية: ﴿**تجارة عن تراض**﴾ (النساء). وتنقضى المضاربة بتلف رأس المال، وتنفسخ بالموت، ويقوم الورثة أو الوصى مقام الميت، وتُقدّم حصة العامل على الغرماء. والعامل أمين فى المال، ولايضمن شيئاً مما يطرأ عليه إلا مع التعدّى أو التفريط. وإذا انتهت المضاربة أثناء العمل، وقبل حصول الربح، يعود المال إلى صاحبه، ولاشىء على العامل أو عليه، وإذا انتهت بعد العمل وكان فيها ربح، يأخذ العامل حصته حسب الشرط، والباقى للمالك.

•••

٢٣١٦.﴿الشفعة﴾

الشُّفعة بخلاف **الشفاعة**، والأولى فى الشركة وهى استحقاق أحد الشريكين حصة شريكه بسبب انتقالها بالبيع، على أن يتملكها من المشترى، رضى أو لم يرض، ومثال ذلك أن يشترك اثنان فى عقار، فيبيع أحدهما حصته المشاعة لثالث، فللشريك الثانى أن يتملك الحصة المبيعة من المشترى جبراً عنه بما لزمه من الثمن. **والشفعة** من شَفَع أى زاد، لأن **الشفيع** يضم المبيع ملكه فيشفعه به، كأنه كان واحداً وِتْراً، فصار زوجاً شفعاً. كذلك **الشفاعة**، فأنْ تشفع لفلان أو فيه هو أن تزيده وتعينه وتسعى له، فكأنه قد صار اثنين يؤيدان مطلبه، ويسمى من يتشفّع **شفيعاً**، والجمع **شفعاء**، والآخر **مشفوعاً له**، والذى يقبل الشفاعة **المشفِّع**، والمقبول الشفاعة **المشفَّع**. وأما فى الشفعة فالشريك الذى يطالب بها هو **الشفيع**، والمشترى الذى اشترى من الشريك الآخر **المشفوع منه**، والعقار المبيع **المشفوع به**. وفى القرآن قوله تعالى: ﴿**شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ**(٩٤)﴾(الأنعام)، وقوله: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ**(١٣)﴾(الروم). وفى الرواية أن رسول الله ﷺ قضى بالشفعة بين الشركاء فى **الدور والمساكن والأراضى**، وهى إذن تثبت فيما يقبل القسمة، وتُنفَى عمّا لايقبل القسمة، وفى الخبر أن النبىّ ﷺ قال: «**لاشفعة فى سفينة، ولا نهر، ولاطريق، ولا رحى، ولا حمّام**»، وفى رواية أخرى قال: «**ليس فى الحيوان شفعة**»، وفى رواية ثالثة قال: «**لاتكون الشفعة إلا فى الأرضين والدور**».

ولا شفعة **للجار**، لأنها مخصصة بالشريك، إلا إذا كان شريكاً فى المرافق فيسمى خليطاً للآخر، فإذا باع أحدهما عقاره منضماً مع الطريق المشترك بينهما، فلجاره الأخذ بالشفعة، على أن لايكون الشريك وقفاً، لأن الوقف لامالك له، وإنما أربابه أشبه

بالشفعة، على أن لايكون الشريك وقفاً، لأن الوقف لامالك له، وإنما أربابه أشبه بالمستأجر، ويملكون المنفعة فقط، فلا شفعة لهم. ويشترط فى الشفيع أن يكون شريكاً فى العيْن ، فلا شفاعة لمستأجر، ولاالجار، ولا تجوز إلا بين شريكين لم يقتسما، فأما لو اقتسما فلا شفعة بينهما، وقد قضى رسول الله ﷺ بالشفعة مالم تورف ـ أى ما لم يُقتسم العقار ويوضع الحد؛ وأن يكون قادراً على دفع الثمن ،ووفياً غير مماطل. ولاتثبت الشفعة إذا تعدد الشركاء وزادوا عن الواحد. ولايحل للشريك أن يبيع حتى يستأذن شريكه، فإن باع ولم يأذن فلا حق له. ولايملك الشفيع إلا بدفع الثمن، ولايتحمل أكثر من الثمن الذى دفعه المشترى للبائع، وإن كان فى عقد البيع تأجيل الثمن أو الدفع بالأقساط فإن الشفيع يستفيد من ذلك، وتثبت الشفعة على الفور لا على التراخى، فإذا لم يبادر الشفيع بطلب الأخذ بالشفعة من غير عذر، بَطُل حقه فيها.

●●●

٢٣١٧.﴿الغصب﴾

الغَصْب: هو الاستيلاء على مال الغير قهراً بغير حق، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾(الكهف)، ومَن غصب شيئاً لزمه ردّه إن كان باقياً، فإن تلف لزمه بدله أو قيمته. ولا يزول مِلْك صاحب الشىء له لو غُصب منه وتمّ التصرُّف فيه، ولايصحّ أخذ الرهن به، وإذا وجد المرتهن أن المرهون مستحق، لزمه ردّه على مالكه، والرهن باطل من أصله، فإن أمسكه رغم علمه بأنه مغصوب، ثم تلف فى يده، استقر عليه الضمان، ويجوز بيع المغصوب للغاصب. ويُغصَب العقار والدار بالاستيلاء عليه، ويُضمن بالإتلاف؛ وزوائد المغصوب مضمونة فى يد الغاصب، كثمار الشجر، وتصرفات الغاصب فيما غصب كتصرفات الفضولى . ولاتقطع يد الغاصب. وغاصب الأرض عليه زكاة العشر.

●●●

٢٣١٨.﴿الإقالة﴾

من «قَلّ» بمعنى حَمَل، وعلا، و«أقَلّ» الشىء رفعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴿٥٧﴾﴾(الأعراف) والإقالة فى الشريعة: اتفاق المتعاقدين على نقد العقد وفسخه بعد إبرامه، وَرَدّ كل شىء إلى ما كان عليه قبل العقد، وتصحّ قبل القبض وبعده، وفى جميع المعقود عليه، وفى بعضه دون بعض. ولم يأذن رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام فى تجارته حتى ضمن له إقالة النادم، وإنظار المُعسر، وأخذ الحق وافياً وغير واف، ويشترط فيها أن يكون بنفس الثمن المسمى دون زيادة أو نقصان.

●●●

٢٣١٩.﴿التحكيم﴾

التحاكم: هو التخاصُم إلى حَكَم، والحَكَم غير الحاكم، فالحاكم قاض يحكم ويفصِّل وحُكمه نافذ؛ والحَكَم صاحب رأى، ومن أهل العدالة وحُسن النظر، وله الدراية والبصر، واسم الحَكَم لذلك أبلغ من اسم الحاكم، ولايستحقه إلا من يفصل فى الأمور بالحق من غير تحيُّز لأحد المتحاكمين، والله تعالى وصف نفسه بأنه ﴿**خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** (٨٧)﴾(الأعراف)، وقال تعالى عن نفسه كحاكم: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** (٨)﴾(التين)، وقال عن نفسه تعالى كحكَم: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾(الانعام)، فجعل تسمية الحكم صفة تعظيم فى مدح، بينما كانت تسميته تعالى بالحاكم صفة جارية على الفعل تحتاج إلى صفة أخرى لبيانها . وفى الشريعة يُلجأ إلى الحكم من البشر فى المنازعات الدولية، والمعاملات التجارية، وفى الأحوال الشخصية، ومن ذلك قول تعالى : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا** (٣٥)﴾(النساء)، وكأن كل واحد من الزوجين قد أخذ شقاً غير شق صاحبه. أى ناحية،وهو المقصود **بالشقاق**، أى الخلاف وتباعُد العشرة والصُحبة، والحَكَم ينتدبه **القاضى** ، والحَكَمان عن كل واحد من الزوجين من أهلهما، ولا يُبعثان إلا مأمونين برضا الزوجين،وعندما تُستنفد كل وسائل الصلح الأخرى، وحُكمهما قد يخالف حُكم الزوجين، ويجب أن يكون غيره، فتتحقق به **الغيرية**. والآية دليل على إثبات **التحكيم**، **وليس** كما يقول البعض أنه ليس لأحد التحكيم سوى الله تعالى، فهذه **كلمة حق يراد بها باطل**. وتقسم الآية الأزواج، ذكوراً، وإناثاً، تقسيما عقلياً، لانهم إما على وفاق وإما على **خلاف**، وأحدهما **ناشز** بالقطع. ولايكون الحكمان إلا عاقلين،بالغين، عدلين، مسلمين، وهما ليسا **وكيلين** للزوجين، لأن الله تعالى فى الآية يخاطب غير الزوجين إذا خافوا الشقاق بين الزوجين ، بإرسال الحكمين للتحقيق فى شقاقهما، فإذا كان المخاطب غير الزوجين فكيف يكون ذلك بتوكيلهما؟ وإذن فهما ليسا وكيلين عن الزوجين، ولكنهما **محققان**، وما يتوصل إليه الحكمان يبلغان به القاضى، إما ليحكم به، أو ليسترشد به فى حكمه .

●●●

٢٣٢٠.﴿الصلح﴾

الصُلح: هو المعاقدة للإصلاح بين المختلفين، وعكسه **الخصومة**، ومنه الصلح بين دولتين متحاربتين، والصلح بين أهل العدل وأهل البغى، والصلح بين الزوجين إذا خيف

الشقاق بينهما. **والصُلح** في اللغة هو السلم ضد الحرب، وهو اسمٌ من **المصالحة**. وفي الاصطلاح **الصلح**: رفع الحرب على شروط تعرف بشروط **الصلح**. وفي التنزيل: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ①﴾**(الأنفال)، كقوله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة**»؟ قالوا: بلى، قال: «**إصلاح ذات البين. وفساد ذات البين الحالقة**»، ومعنى الحالقة القاضية التي تلغى كل الحسنات. والقائم بأمر الصلح بين الناس قد يلجأ إلى الكذب الأبيض، وفي الحديث: «**ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيراً» أو نمى خيراً**»، وعن أم كلثوم بنت عقبة قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخّص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: كان رسول الله ﷺ يقول: «**لا أعدّه كاذباً الرجل يصلح بين الناس، يقول القول ولايريد إلا الإصلاح..**» الحديث. وقد تعرض الدولة التدخل للصلح بين دولتين إسلاميتين، أو بين فئات محلية متنازعة داخل نطاق سلطاتها، وربما تكون هذه الفئات قد لجأت إلى القتال، ولايخلو الأمر معها في اقتتالها: إمّا أن تُقتل على سبيل البغي منها جميعاً، وإما أن تكون إحداها باغية، كقوله تعالى: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨﴾**(الحجرات)، وفي الآية وجوب التدخل لفض النزاع بين فئات المسلمين، فلا يتركون لشأنهم ليصل الأمر بينهم إلى القتال، وإن استوجب الأمر التدخل المسلّح لردع الفئة الباغية المعلوم بغيها. وقد يقال لاينبغي مدافعة البغي بقتال الدولة أو الفئة المسلمة، لأن المسلم لا يرفع السلاح في وجه أخيه المسلم، كما في الحديث: «**قتال المؤمن كفر**»، والردّ على ذلك: أن المؤمن إذا ظلم بغى، فإن قتاله ألزم، وقد قاتل **الصدّيق** المسلمين الذين امتنعوا من الزكاة، وميّز بين أن يقاتلهم وبين أن يقاتل الكفّار، فأمر ألاّ يُتبع من يولي الأدبار، ولا أن يُجهَز على جريح، ولم يُحِلّ أموالهم، وكذلك أمر عليٌّ ألا تُسبى نساءهم، وهو دليل على أن حرب المسلمين **للمسلمين بخلاف حربهم مع الكافرين**، ولو كان الواجب في كل اختلاف بين فئتين من المسلمين أن يترك الأمر لهم، ونلزم منازلنا، ونهرب بأنفسنا طلباً للسلامة، لما أُقيم حدّ، ولا أُبطل باطل، ولاستعلى أهل النفاق والفجور واستحلّوا كل ما حرّم الله من أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم، ولتحزّبوا عليهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «**خذوا على أيدي سفهائكم**». وهذه الآية ـ **آية التدخل للصلح بين فئات المسلمين المتناحرة** ـ أصلٌ في وحدة المسلمين، وأنهم **يدٌ واحدة في الحق**. وليس على كل المسلمين أن ينهضوا بواجب التدخل، لأنه **فرض على الكفاية**، **إذا قام به البعض سقط عن الباقين**. وقيل في رأي أنه

لاينبغى أن يدفع المعتدى عوضاً عمّا أتلف وقتل ودمّر، حتى لاينفر عن الصلح ويستشرى فى البغى، وفى رأى أنه ينبغى أن يدفع **العوض** حتى لايقتدى به آخرون، والرأى الغالب أنهم يضمنون، أى يدفعون العوض، ويُردّ ما كان قائماً بعينه، وهذا هو معنى **الصلح بالعدل** فى الآية، بحُسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط، وهذا هو أساس فكرة **محكمة العدل الإسلامية**، والفكرة تدعو إليها الآية: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ⑩ ﴾ (الحجرات)، وأخوة المسلمين فى الدين والحرمة، وهما أقوى من النسب والجنس، وفى الحديث: «**المسلم أخو المسلم لايظلمه ...**» الحديث ،وهذا هو معنى الأخوة، ويترتب عليها واجب التدخل للصلح بين **أى مسلمَيْن** يتخاصمان. ومثل ذلك الصلح بين **الزوجين**، وأحرى بهما أن يتصالحا دون تدخل من آخرين، كقوله تعالى: ﴿**فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ⑫⑧﴾ (النساء)، **والصلح الذى هو خير هو الصلح الحقيقى** الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف، بينما التمادى فى الخصومة مدعاة للشحناء والمباغضة، ومجلبة للشرّ، وينبه القرآن إلى أن دافع الخصومات بين الأزواج هو فى الأصل **الشُّحّ** يكون فى الزوج، فينتقل من مجال الأموال والنفقة إلى المعتقدات والإرادة والهمم، وإلى ذمّة الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ⑨﴾(الحشر)، فإذا صار الشح إلى حيز منع الحقوق الشرعية، أو التى تقتضيها المروءة، صار **بخلاً**، والبخل مرذولٌ، وبه يصير الزوج على الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة، فلا يبقى معه خير ترجوه زوجه، ولاصلاح تأمله فيه .وتخاطب الآيات **الأزواج**، من حيث أن بوسعهم أن يشحّوا وأن يحسنوا، وتدعوهم أن يتّقوا الله فى عشْرة النساء ، وذلك معنى قوله تعالى: «**الصلح خير**» ، وهو قولٌ عام مطلق فى كل شىء، ومن ذلك الصلح بين المتعاملين فى **الأموال**، فقد يتصالحان على المعاوضة ، أو على **الإبراء**، أو على **الهبة**، بأن يعوض أحد المتخاصمين الآخر عما خسره، أو أن يبرئه من بعض دينه على أن يعطيه الباقى، فيتراضيان على ذلك، أو أن يكون نزاعهما على عيْن، فيتراضيان على أن يهبه نصفها ويعطيه بقيتها؛ وقد تتصالح الزوجة مع زوجها فتتنازل له عن بعض حقوقها.

•••

٢٣٢١.﴿الحَجْر﴾

الحِجْر فى اللغة المنع والتضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** ㉒ ﴾ (الفرقان)، **والحِجْر المحجور** هو الحرام المحرّم، أى دخول الجنة على المشركين والكافرين،

وهى صيغة استعاذة كانت فى الجاهلية، كقولنا بُعْدَ الشرّ، بمعنى نعوذ بالله منكم أو من الشر، فكان إذا لقى الرجل من يخافه يقول : حِجراً محجوراً. وفى قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴿١٣٨﴾﴾**(الأنعام)، قيل: الحاء ثلاثية وفيها الكسر والفتح والضم؛ وقيل: إن الحِجر لغةً فى الحَرَج وهو الضيق والإثم، فيكون معناه الحرام، ومنه فلان يتحرّج أى يضيّق على نفسه الدخول فيما يشتبه عليه من الحرام. ويسمى **العقل** حِجراً لمنعه من القبائح كقوله تعالى: **﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾**(الفجر)، ويقال : فلان فى حجر القاضى، أى فى حماه، **وحَجرتُ** على الصبى حِجراً، أى منعته التصرف. وقوله :«**وحرث حِجر**» هو الحرث المحرّم على الناس، لا يطعمونه إلا من يشاءون. **والحِجر** اسم السورة **الخامسة عشرة** من القرآن، **وأصحاب الحجر** فيها هم **قوم صالح**، وكانوا بين الحجاز والشام، وقيل أرضها أرض سخط لاتجوز الصلاة فيها، غير أن الصلاة للمسلمين جائزة فى كل أرض، والرسول ﷺ يقول: «**وجُعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا**» ، ولما بَنَى مسجده ﷺ الذى أُسسّ على التقوى بناه فى مقبرة للمشركين.

والحَجْر بالمعنى الاصطلاحى بالفتح غالباً، وهو منع الإنسان من التصرف فى ماله لسبب شرعى، كقوله تعالى: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿٦﴾﴾**(النساء)، فبيّنت الآية أن السفيه، وغير البالغ، لايجوز دفع مالهما إليهما، ودلّت على ثبوت **الوصىّ والولىّ والكفيل**. **والسفهاء**: هم كل من يستحق الحَجْر، ولهم أحوال، فحالٌ يُحجر على السفيه لصغر سنّه وقلّة إدراكه وخبرته؛ وحالٌ لعدم عقله بجنون أو غيره، وحالٌ لسوء نظره لنفسه فى ماله. ويكون الحجر مرة فى حق الإنسان، ومرة فى حق غيره ،فأما الذى فى حق نفسه **كالصغير والمجنون** فلا خلاف فى الحَجْر عليهما؛ والكبير الذى لايُحسن النظر لنفسه فى ماله، ولايُؤمَن منه إتلاف ماله فى غير وجه، وهو فى ذلك أشبه بالصبى، ولافرق بين أن يُتلف ماله فى المعاصى أو فى القُرَب والمباحات. **والمديان** يُنزع ما بيده لغرمائه، وقد فعل عمر ذلك بأُسَيْفع جهينة. **والجاهل بالأحكام** لايدفع إليه المال لجهله بفاسد البيانات وصحيحها، وما يحل وما يحرم منها. وقيل: إن **المرأة ذات الزوج** محجورٌ عليها لحق الزوج، وللحديث بشأنها:«**لايجوز لامرأة مَلَك زوجُها عصمتها قضاءٌ فى مالها إلا فى ثلثه**»،والكلام فى الحديث عن المرأة غير المتعلمة والتى ليست لديها خبرة بالحياة. وقيل: إن **البكر** ما دامت فى الخدر محجورٌ عليها لقلة خبرتها، وعدم درايتها، ولأنها لا تحسن النظر لنفسها. وأثبتت الآية: **﴿فَإِن كَانَ الَّذِي**

عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا(٢٨٢)﴾(البقرة) الولاية على السفيه كما أثبتها على الضعيف، وهو **الصغير**، بينما السفيه تنصرف إلى الكبير البالغ، لأن **السفه** اسم ذمّ، ولايُذَم الإنسان على مال لم يكتسبه، والقلم مرفوع عن غير البالغ،و الذمّ والحرج مرفوعان عنه. وقيل: **أفعال السفيه قبل الحجر عليه**، لا تجاز؛ وقيل: إن كان ظاهر السَفَه فأفعاله مردودة، وإن كان غير ظاهر السفه فلا تُردّ حتى يُحجر عليه. ولا يحجر على الراشد إلا أن يكون مفسداً لما له، وقد طلب **عليّ** الحجر على **عبدالله بن جعفر**، كما طلب **عبدالله بن الزبير** الحجر على **عائشة**. والآية دليل على أن المال هو مال الله ونحن مستخلفون فيه، وللمجتمع فيه حق، وذلك في قوله تعالى: ﴿**الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا(٥)**﴾(النساء)، أي لمعاشكم وصلاح دينكم كمجتمع. ورزق المحجور عليه وكسوتُه فيهما وجوب **نفقة المحجور عليه من ماله**. **وتستحب الشهادة** على المحجور عليه وإعلان الحجر عليه ليتجنب الناس الشراء منه والبيع له، ويتولى الأب أو وصيّه مال **الصبي والمجنون** في الحجر. ومتى حُجر على المفلس لم ينفذ تصرفه في شيء، وينفك الحجر عنه بقسمة ماله على الغرماء ويشبه **المُسنّ المختل** ـ الصبي والسفيه، وبيعه وشراؤه فاسدان. وإن أحرم المحجور عليه صحّ **إحرامه**، وإن نذر عبادة بدنية لزمه فعلها، وإن نذر **صدقة مال** لم يصحّ منه وكفرّ بالصيام. ولايقبل **إقرار السفيه المحجور عليه** بدين، أو جناية خطأ أو شبه عمد، أو إتلاف مال، أو غَصْبه، أو سرقته، ويُقبل منه إقراره بما يوجب حداً أو قصاصاً، وإن أقرّ بنسب ولَد قُبل منه. وهذا رأي قديم غير مقبول حالياً، فالسفيه غير مؤتمن على شيء. وقيل: إذا كانت له **حاجة للزواج** زُوِّج، وللولي أن يأذن له في التزويج في **حالة الحاجة فقط**! ولايجوز للولي **تزويج المجنونة** إلا إذا قال أهل الطب أن علتّها تزول بالتزويج، أو إذا ظهرت منها شهوة للرجال، والقول في **ذلك** للمختصين.

وقد يشمل الحجر **المريض مرض الموت**: وقد يتصرف في ماله تصرفاً معيباً، أو يجبره الآخرون على ذلك، أو يحصلون على توقيعه وهو لايدري، ولذلك لايجازى بيعه إلا في حدود **الثلث**، للحديث: «**للرجل عند موته الثلث، والثلث كثير**»، فإن كان التصرف مضراً بالورثة ومزاحماً لحقوقهم ـ كأن يهب، أويحابي، أو يبيع بأقل من ثمن المثل، أو يتنازل، أو يشتري بأكثر من ثمن المثل، فللورثة الطعن في التصرف. وإن كان التصرف لايضر الورثة، ولايزاحمهم في حقوقهم، كأن يبيع بثمن المثل، صحّ تصرفه ولزم، حتى لو عارض الورثة ذلك.

•••

٢٣٢٢.﴿الهبة﴾

الهبة:في اللغة التبرُّع والتفضُّل، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ**

بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾(ص)، وهو تعالى «الوهاب»، كقوله: **﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾**(الشورى). والهبة في الاصطلاح تمليك مال في الحال بلا عوض، فخرج «بالتمليك» **الوقف** لأنه ليس تمليكاً. وخرجت «بالمال» **العارية**، لأنها تمليك منفعة، وخرجت **الوصية** بقوله «**في الحال**»، لأنها تمليك بعد الموت، وخرج **البيع** بقوله «**بلا عوض**»، لأن الهبة تمليك بعوض.

والهبة يجوز أن تكون معوضة وغير معوضة، فيهب شخص شيئاً لآخر بشرط أن يقوم له بالتزام معين مشروع. وتشترك الهبة مع **الصدقة** في أن كلاً منهما تمليك بلا عوض، وتختلف عنها في أن **الصدقة** بنية التقرّب إلى الله، وليس هذا الشرط في الهبة؛ وتلزم الصدقة بالقبض، ولايجوز الرجوع فيها، وتجوز الصدقة على الجميع، وتُقبل من الصبي؛ وأما الهبة فشرطها: الإيجاب من الواهب، والقبول من الموهوب له، وأن يكونا عاقلين بالغين مختارين، فلا تصحّ من قاصر، ولا مكره، ولا المُحجور عليه لسفه أو فلس؛ وتصحّ للوصي والولي لمصلحة القاصر، ولاتصحّ هبة ما سيوجد، ولاتنعقد إلا بقبض الشيء الموهوب، ويجوز أن يكون عيناً، أو جزءاً مشاعاً من عين، وتصح **هبة الدين** في ذمة الموهوب له وتفيد الإبراء منه، ولاتصحّ هبته لغير من هو عليه، لأن القبض شرط في الهبة. وتلزم **هبة الأقارب**، وارثاً كان أو غير وارث، بمجرد القبض، ولايجوز **الرجوع** فيها، ماعدا الوالد والوالدة فيما يعطيان ولديهما، وروى لايجوز لهما الرجوع، والرجوع فيها أن يقول قد رجعتُ فيها أو ارتجعتها؛ ولايلزم القبض في **هبة أحد الزوجين** للآخر، ويجوز لكل منهما الرجوع فيها، وإذا مات الواهب أو الموهوب قبل القبض بطلت الهبة، لأنها لاتنعقد إلا به. **والقبض** فيما يُنقل بالنقل، وفيما لاينقل بالتخلية بينه وبين الموهوب له؛ ولاتصحّ الهبة، فيما لايمكن تسليمه، كالسمك في الماء؛ ولاتصحّ إن شُرِط فيها بشرط ينافي مقتضاها، كأن يقال: وهبتك هذا الشيء على أن لا تبيعه، وكذلك إن عُلِّقت على شرط، فحينئذ تصبح وعداً وليست هبة؛ وللزوجة أن تهب نفقتها الواجبة على زوجها.

●●●

٢٣٢٣. ﴿الهدية﴾

الهدية كالبيوع، وهي تمليك في الحياة ولكن بغير عوض، للتقرّب إلى المُهدَى إليه وإظهار المحبة له، كقوله تعالى عن ملكة سبأ: **﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾**(النمل)، وفي الآية دليل على إمكان ردّ الهدية، وكان النبيّ ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولايقبل الصدقة. وتجتمع في **العطيّة** معاني الهبة، **والصدقة**، **والهدية**،

والفرق بينها: أن **الهدية** عطية للتقرّب إلى إنسان؛ والصدقة عطية للتقرّب إلى الله؛ **والهبة** عطية بلا عوض. وقد ردّ **سليمان** الهدية لأنه قال لملكة سبأ: ﴿**أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** (٣١)﴾(النمل). وهذا كلام لاتقبل فيه فدية ولاهدية، وإنما هي رشوة وبيع للحق بالباطل، ولاتحلّ. وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، إن لم تكن من **مشرك**، وتجوز من **الكتابي**. وفي الحديث: «**تصافحوا يذهب الغلّ، وتهادوا تحابّوا وتذهب الشحناء**»، وفي رواية: «**تهادوا،فإنه يضعّف الود، ويُذهب بغوائل الصدر**»، وفي رواية: «**تهادوا بينكم فإن الهدية تذهب السخيمة**».



٢٣٢٤.﴿الرشوة﴾

الرشوة من **رشا**، أي أعطى **الرشوة**، بضم الراء أو فتحها أو كسرها، والجمع رُشَى، بضم الراء أو كسرها، وهي ما يُبذَل لإبطال الباطل أو إحقاقه، وأصلها **الرشاء** وهو حبل الدلو. وفي الأمثال يقال «**أتبع الدلو رشاءها**»، أي أتبع أحد المتصاحبين الآخر. وفي القرآن: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (١٨٨)﴾ (البقرة). والآية نصٌّ صريح في تحريم مصانعة **أصحاب** النفوذ والسلطان، ورشوتهم بالأموال لتسيير المظالم، وهؤلاء مظنة الرشاء، إلا من عُصم، وهم الأقل. وقوله تعالى: «**تدلوا**» من إرسال الدلو، والرشوة كما سبق، من الرشاء وهو حبل الدلو، يمدّونه لهم ليتقضوا حاجاتهم. وحكامنا اليوم لم يعودوا **مظنة الرشا** وإنما هم عين الرشا، ولاحول ولاقوة إلا **بالله**! وقيل إنْ طلَبَ الحكام رشاً للإذن لطلاب الحج بأداء هذه الفريضة، فلا داعي للحج حينئذ، وإن كان المبلغ المطلوب كرشوة زهيداً فلطالب الحج الخيار، وإن كان مما لا يجحف بماله لزمه الحج ودفع الرشوة.



٢٣٢٥.﴿الإجارة﴾

الأجر والأجرة: بمعنى واحد: وهو الثواب والمكافأة، والجمع **أُجَر**؛ **والأجير** من خدم بأجرة. وفي الاصطلاح **الأجرة** عوض عن قول أو فعل، أو منفعة بيت، أو حانوت، أو سيارة، أوثوب ، وما إلى ذلك. **والإجارة هي الكراء**: وما شُرع لتمليك منفعة معلومة بعوض معلوم. وبقيد **المنفعة** يخرج **البيع** لأنه تمليك للعين؛ وبقيد **العوض** تخرج **الهبة والوصية** لأنهما بغير عوض. ويفرّقون بين **ملك** المنفعة وبين **حق الانتفاع**، ويختص ملك المنفعة **بالمستأجر** ولايشاركه فيه أحد، **بينما حق الانتفاع** مجرد ترخيص بالتصرف لجهة معينة، كالسباحة في البحار والأنهار.

والإجارة: مشروعة كمشروعية البيع، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً (٢٤)﴾(النساء)، والأجر فى الآية هو المهر، سُمّى كذلك لأنه فى مقابل منفعة الزوجية، وهو إما مهرٌ مُسَمّى أو مهر المثل. وفى الآية: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ (٢٧)﴾(القصص) أن الأجرة تكون على العمل محدد المدة، والعمل الموكول بموسى فى الآية كان معلوماً عندهم: وهو السقيا والحرث والرعى، وما شاكل من أعمال البادية، وأجرته عليها كما اتفق وشعيب، والإجارة بالعوض المجهول لاتجوز. وتثبت الآية: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ (القصص) أن الإجارة كانت من قديم الزمان معلومة ومشروعة قبل موسى، وكانت فى كل مِلّة، وهى من ضروريات التمدُّن ومقتضيات الاجتماع، وظاهر من قصة موسى أن الزواج بالإجارة جائز، أو أجازه النبىّ ﷺ لمن لم يكن عنده من المال شيءٌ ليمهر به امرأته، إلا ما يحفظ من القرآن، فقال له: «فعلّمها عشرين آية وهى امرأتك». وقيل: يجوز عقد الزواج بلفظ الإجارة لقوله تعالى: «فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ». وقيل: إنه لايصحّ لأن الإجارة عقد مؤقت بينما عقد الزواج عقدٌ مؤبد، فهما متنافيان، ومع ذلك إن تُرِك مضى على كل حال، بدليل قصة موسى مع بنت شعيب، غير أنه يُكره أن تكون الإجارة مهراً، لأنه ينبغى أن يكون المهر مالاً، كقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ (٢٤)﴾ (النساء). وفى الآية اجتماع الإجارة والزواج، وقيل: إن ذلك يُكره ابتداءً، فإن وقع مضى. وقيل: لايجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده، لاختلاف مقاصد الإجارة ومقاصد الزواج، وتباين عقديهما. وقيل: الزواج أشبه شيء بالبيوع، ولا فرق بين إجارة وبيع، أو بين بيع وزواج.

والأجر قد يكون الثواب الأخروى، كما هو فى الدنيا الثواب الدنيوى، كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾(آل عمران)، وفى المقارنة بينهما قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ (٥٧)﴾(يوسف)، وقال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾(النحل)، وهو: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾ (فصلت)، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾(يس).

والأجور كما تكون فى الزواج فهى للرضاعة كقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (٦)﴾(الطلاق)، وفى الآية: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾(الزخرف) فإن«سخرياً» تعنى أن يستسخر بعض الناس البعض الآخر لقاء أجر معين. وتقوم الصراعات على الأجور وساعات العمل بين طبقات العمال، وهم المشتغلون بالأجور، وطبقات الرأسمالية والمُلاّك. والإسلام يحضٌ كما فى الآية السابقة، على ممارسة الأعمال الحرة، كالتجارة والصناعة، ولا يميل المسلم أن يؤجِّر نفسه، لميل الأجور إلى التدنّى، واتجاه

الرأسمالى والمالك إلى استغلال العمال والتسويف فى إعطاء الأجر، لذلك كان حديث رسول الله ﷺ: «**اعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه**». والإجارة فيها تحديد للرزق، ومن أجّر نفسه فقد ظلمها، لأن فائدة عمله يحصل عليها غيره، وأولى بالمسلم أن لايؤاجر نفسه ولكن يسترزق ويتّجر، وإن أجّر نفسه فقد حظر أى منع الرزق عن نفسه، ولايؤاجر نفسه إلا مضطراً، وزعموا أن **علىّ بن أبى** طالب اضطر أن يؤاجر نفسه **ليهودى فى** أول قدومه إلى المدينة، لأنه أبى أن يكون عالةً على أحد، وهذه كذبة كبرى من كذبات اليهود ليبدو أنهم يهيمنون على الإسلام!

وللإجارة **شروط**، أولها **العقد**، وهو ما دلّ على الرضا بين الطرفين، قولاً وفعلاً، وإيجاباً وقبولاً، ولاتكون إلا بين **بالغين عاقلين رشيدين**، غير محجور عليهما لسفه أو فلس كما فى البيع. والإجارة **عقد لازم**، **والعين المستأجرة** بمقتضاها يشترط أن تكون معلومة، وكذلك الجهة التى يستوفيها المستأجر، وأن تكون المنفعة منها حلالاً، وتكون عيناً يملكها المؤجّر، وداخلة تحت قدرته وتصرفه، وقابلة للمنفعة، وتصحّ إن كانت مشاعة. والإجارة عقد زمنى لابد فيها من قياس المنفعة وتقديرها بالزمن، مثل **سكنى الدار وزراعة الأرض**، فتصحّ لمدة سنة، ولأية مدة وإن كثرت، فإن تُركت المدة فهى **للإطلاق**، وللمتعارف بين الناس، وعلى ذلك يحق للمستأجر مواصلة السكن بنفس الأجر، ولاسبيل إلى إخراجه من الدار ولا من الأرض، والعُرف فى مصر مثلاً **للإطلاق** وليس للتحديد. وإن ذكر فى الإجارة أن إيجار الدار بكذا كل شهر، أو كل يوم، فيجوز ذلك ويُفهَم منه أن نهاية الإجارة **مطلقة**، طالما يدفع المستأجر الأجرة بحسب الاتفاق، والقاعدة فى الإسلام قوله تعالى: ﴿**أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ (المائدة)، وقوله ﷺ: «**المؤمنون عند شروطهم**»، فطالما أن الأجرة معلومة، وجهة المنفعة معلومة، فمجرد **الجهل** بنهاية الإجارة لايستلزم بطلانها، وليس كل جهل موجب للبطلان، أو مؤد للضرر، ومثل ذلك أن يقول المالك للعامل: انقل صناديق هذه البضاعة ولك كذا عن كل صندوق، مثل ذلك شائع ومعروف مع جهل المالك والعامل بعدد الصناديق ومجموع الأجرة عليها، وعلى ذلك فعقود السكن والزراعة عقود صحيحة ولازمة وتجوز مدتها بلا نهاية وإن كانت الأجرة المنصوصة بها فى كل سنة، ولايجوز فسخها لعدم تحديد المدة النهائية، وإنما يفسخ العقد بدخول الشهر أو السنة الجديدين وانقضائهما فحينئذ يجوز الفسخ وإنهاء المدة. وفى أيامنا هذه يحكم العلاقة بين المالك والمستأجر **قانون الإيجار** وطبقاً لهذا القانون فإن المالك لايحق له أن يخرج المستأجر حتى لو انتهت المدة المضروبة بينه وبين المستأجر، ومن الممكن أن يُنصّ فى العقد على أن

المالك يؤجر الدار بكذا مدة حياة الساكن من باب السكنى **بالعمرى**، أو يؤجرها له على أن يكون انتهاء عقد الإيجار بيد الساكن، فإذا أجّرها لمدة معينة نُصّ عليها في العقد على أن يسلّم له العين بانتهائها، وجب على المستأجر التقيد بالاتفاق. ولايجوز أن يؤجر المستأجر العين لآخر طالما ذلك منهى عنه في العقد، ومالم يوافق المالك على الإيجار من الباطن، فأى اتفاق بين المستأجر وآخرباطل. وفي بطلان الإجارة أن تكون الأجرة مجهولة، والمنفعة مجهولة أو محرّمة، وإذا هلكت العين المستأجرة وتعذر استيفاء المنفعة المطلوبة منها. ولاتبطل الإجارة بموت المؤجر أو المستأجر، لعموم الآية: «اوفوا بالعقود» ، وكونها من «العقود اللازمة»، والموت ينقل آثار العقد إلى الورثة. ولاتبطل الإجارة ببيع العين المؤجرة. وإذا وجد المستأجر عيباً في العين تتفاوت به الأجرة، ولم يكن على علم به حين الإيجار، فهو بالخيار بين فسخ الإجارة وبين إمضائها والرضا من غير نقصان في الأجرة، ولايسقط الخيار الناشيء عن الضرر مع الجهل به. ومثل خيار العيب خيار الشرط، إذا اشترط المؤجر على المستأجر شرطاً مثل أن لايُسكن معه عائلة أخرى، أو لايستعمله للتجارة. ومن أحكام الإجارة: أنه طالما أن المنفعة ملكٌ للمستأجر فله أن يتصرف بها بالتنازل لمن يشاء بغير عوض أو بعوض مساو، أو أقل، أو أكثر من العوض الذى دفعه للمؤجر، إلا أن يشترط هذا على المستأجر استيفاء المنفعة بنفسه، فإن وردت الإجارة على العمل لم يشترط المالك على المستأجر المباشرة بنفسه. ولايحق للمستأجر أن يؤاجر العين ـ كالدار مثلاً ـ بأكثر مما يستأجرها به، إلا إذا أحدث فيها شيئاً، وأما الأرض فيجوز له تأجيرها من الباطن دون إصلاح فيها إلا إذا اشترط في العقد على غير ذلك، وإذا اشترط فيه أن تكون المنفعة لوجه معين دون غيره. ويُسأل المستأجر من الباطن نحو المستأجر الأول، ويسأل الأول نحو المالك.

وينقسم **الأجير** بالنظر إلى التقييد والإطلاق إلى **مقيد ومطلق**، ويسمون ذلك الخاص **والمشترك**؛ **والأجير الخاص**: هو الذى يُؤجر جميع منافعه لمدة معينة لشخص آخر، ولايجوز له من ثم أن يعمل أى شيء لغير المستأجر؛ **والأجير المشترك**: هو الذى يعمل لنفسه ولغيره، ولايملك المستأجر منفعته إلا لوقت معين يخصصه له، وبعد ذلك هو يؤجر نفسه لمن يشاء.

وتكون العين المستأجرة **أمانة** في يد المستأجر لايضمن هلاكها أو نقصها، إلا أن يتعدّى حقه في الانتفاع بها، أو يقصّر في حفظها. وإذا تضررت أو هلكت بعد انتهاء الإجارة وطلبها منه فعليه الضمان مطلقاً. ومن ادّعى الطب وهو ليس بطبيب يعتبر ضامناً

بالاتفاق، ويستأهل العقوبة، وإن كان من أهل الاختصاص فلا ضمان عليه إذا اجتهد واحتاط، بشرط أن يأخذ الإذن من أهل المريض قبل إجراء العملية الجراحية مثلاً، وإذا وصف دواء ومات المريض بسببه فلا ضمان على الواصف إن كان توصيفه للمرض سليماً. وكذلك الأجير. ويجوز أن يشترط صاحب العمل على الأجير أن ينقصه الأجرة بمقدار كذا لو قصّر فى عمله، ويبطل أن يسقطه كل الأجرة، لأنه شرط مناف لمقتضى عقد الإجارة؛ لأن معناه حينئذ أن **الإجارة بلا أجرة**. ولايجب تسليم الأجرة إلا بعد انتهاء العمل، وعلى المستأجر عند نهاية الإجارة أن يسلم العين خالية. وتجب **الضريبة العقارية**، وأية أنواع أخرى من الضرائب، على **المالك إلا إذا اشترط غير ذلك فى العقد**، ويدفعها المستأجر حتى لو كان جاهلاً بمقدارها، **وزكاة العشر على** مستأجر الأرض. وللزوجة أن تؤجرنفسها **للرضاع** وغيره من الأعمال السائغة بإذن زوجها، أو بغير إذنه، طالما أن عملها لايتنافى مع الحقوق الزوجية، لأن المرأة لها أن تملك منافعها وتتصرف فيها، وتصرفها إلى من تشاء بعوض أو بغير عوض، ما دام ذلك لايتعارض مع حق، والأم أحق برضاع ولدها بأجر المثل ويجوز استئجار الأجير بطعامه وكسوته، وأن يأخذ الأجير أجره عيناً مما يحصد من زروع مثلاً، وأن يكون أجر وكيل البيع ما زاد من ثمن البيع عن حد معلوم، وأن يكون **الأجير كافراً**، أو أن يكون **مسلماً يستأجره ذمّى**؛ ويجوز استئجار **الجنود المرتزقة** للحرب، وتُكره إجارة أرض المسلم من ذمّى. والأجير ضامن لما يتكلفه لو كان عن تقصير أو تعدّ. ولايجوز للمفلس إسقاط أجرة المأجور.

•••

٢٣٢٦.﴿الجُعالة﴾

الجُعالة بتثليث الجيم، **والجعيلة والجُعل**، بمعنى واحد فى اللغة، من جَعَل أى أعطى، كقوله تعالى: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** (٨٤)﴾(الشعراء) بمعنى اعطنى. والجعالة هى ما يُعطى لأى إنسان على شىء يفعله، وفيها التزام بمال معين لقاء العمل، لأى عامل كان، مجهولاً أو معلوماً، كقوله تعالى: ﴿**وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** (٧٢)﴾(يوسف)، والآية فيها جواز الجُعالة للضرورة، وأن تكون فيها من الجهالة مالايجوز فى غيرها، فإذا قال الرجل: مَن فَعَل كذا فله كذا، صحّ. والشأن فى الجُعالة أن يكون **الجاعل** معلوماً، **والمجعول له** مجهولاً للضرورة إليه. وقد تبدو الجعالة شبيهة **بالإجارة**، إلا أنها تختلف عنها، فالجُعالة من **العقود الجائزة**، فللمجعول له أن يفسخها قبل الشروع وبعده إذا رضى بإسقاط حقه، وليس **للجاعل** أن يفسخها إذا شرع فالمجعول له فى العمل. ولا يشترط فى

هذا العقد حضور المتعاقدين كسائر العقود، لقوله : ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ (٧٢)﴾، فمتى قال اسلإنسان: من جاء بفرسى الضائع فله مائة جنيه، لزمه ما جعله في إذا جاء به أحدهم، ولو كان ذلك من غير ضمان، طالما أن الآخر جاء به على طلب الأجرة، وفى الحديث: «من جاء بآبق فله أربعون درهماً»، والآبق هو الهارب، ولا يفصل الحديث بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. وعلى ذلك يجوز أن يأمر أحدهم إنساناً أن يشترى له أرضاً أو داراً، ويجعل له جعلاً. والفرق بين **الجعالة والإجارة**، أنه فى الإجارة يملك الأجير الأجرة بنفس العقد، سواء استعمله المالك أو تركه بغير عمل، وأما فى الجعالة فإن المجعول له لايستحق شيئاً إلا بعد العمل. ويجوز أن يكون الملتزم في الجعالة غير مالك

هذا العقد حضور المتعاقدين كسائر العقود، لقوله : ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ (٧٢)﴾، فمتى قال الإنسان: من جاء بفرسى الضائع فله مائة جنيه، لزمه ما جعله فيه إذا جاء به أحدهم، ولو كان ذلك من غير ضمان، طالما أن الآخر جاء به على طلب الأجرة، وفى الحديث: «من جاء بآبق فله أربعون درهماً»، والآبق هو الهارب، ولا يفصل الحديث بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. وعلى ذلك يجوز أن يأمر أحدهم إنساناً أن يشترى له أرضاً أو داراً، ويجعل له جعلاً. والفرق بين **الجعالة والإجارة**، أنه فى الإجارة يملك الأجير الأجرة بنفس العقد، سواء استعمله المالك أو تركه بغير عمل، وأما فى الجعالة فإن المجعول له لايستحق شيئاً إلا بعد العمل. ويجوز أن يكون الملتزم فى الجعالة غير مالك
فالأجنبى يمكنّ أن يقول: من عثر على ابن هذا الرجل فله عندى كذا، وأما فى الإجارة فلا يجوز لأجنبى أن يقول: مَن أجّر داره لفلان بكذا فعليّ الأجرة. والعامل المجعول له يمكن أن يكون صبياً أو سفيهاً ، وأما المستأجر فيشترط فيه البلوغ والرشد. والشيء الذى جُعل المال من أجله يمكن أن يكون فى الجعالة مجهولاً، ولايمكن ذلك في الإجارة، فمن قال: من وَجَد سيارتى فله كذا، يصحّ، بدون أن يبين نوع السيارة، وأما فى الإجارة فلايجوز أن يقول المؤجر للمستأجر قد أجرتك سيارتى دون أن يميزّها بالوصف، ولايحق لمن يجد محفظة مثلاً فيلتقطها ويسلمها للشرطة أو لصاحبها قبل أن يعلن صاحبها جعالة لمن يجدها، أن يطالب بجعالة، لأنها أمانة في يده، وعليه أن يردّها لصاحبها. ومن ردّ الضالة بقصد التبرع وعمل الخير فلا شيء له، سواء كان ذلك قبل فرض الجعالة أو بعدها. ويشترط فى الجاعل أن يكون بالغاً وراشداً وغير محجور عليه، وأما المجعول له فلا يشترط فيه إلا إمكان القيام بالعمل، فيصحّ أن يكون صبياً، أو سفيهاً، أو حتى مجنوناً، ولاتصحّ الجعالة لمحُرم .ويشترط فى الجعل أن يكون معلوماً كالأجرة فى عقد الإجارة، فإذا كان مجهولاً بطلَت الجعالة، وللجاعل أن يقول: من وجد محفظتى فله نصف أو ربع ما فيها؛ وإذا وجدها جماعة فلهم الجعالة بالسوية!

***

٢٣٢٧ـ ﴿الضمان﴾

الضمان كفالة، وهو معنى الآية: ﴿**إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ (٧٨)**﴾ (يوسف) وأخْذُه لأحدهم نوع من **الحمالة**، أى أن يحمل أحدهم الحبس عن أخيه المطلوب، **ويكفل** أن يحضر هذا الأخ من بعد، **فهو** ضامن له، **والكفالة هى ضمان بالنفس، بينما الضمان هو كفالة بالذمة**، وهو قسمان: **ضمان معاوضة، وضمان يد، والأول**: هو أن يضمن البائع المبيع فإذا تلف قبل أن يسلمه للمشترى، فإنه يضمن تعويضه؛ **والثانى**: هو أن يضمن البائع فى حالة تلف المبيع قبل أن يقبضه المشترى، أن يدفع له قيمة ما قبضه من ثمن أو مثله. لقاعدة: **أن اليد عليها ما أخذت حتى تؤدى**، و التلف دائماً **على القابض**، أى مَن بيده المبيع. وفى **الضمان** فإنك طالما ضمنت مديناً، فإن تعهدك بالسداد عنه هو **ضمان** منك للدين، ويقال أنت **ضامن**، والدائن **مضمون له**، والمدين **مضمون عنه**. وفى القرآن عن الضمان: ﴿**وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)**﴾(يوسف). **والزعيم** هو الضامن، وفى الحديث: «**من ضمن لأخيه حاجة، لم ينظر الله عزّوجلّ فى حاجته حتى يقضيها**».

وأركان الضمان: العقد، والضامن، والمضمون، والمضمون له، والمضمون عنه، والحق المضمون. والعقد لازم بين **الموجب والقابل. ويُشترط فى الضامن**: أن يكون **أهلاً للتصرف المالى** فلا يكون صبياً، ولامجنوناً، ولامكرهاً، ولاسكراناً. ويجوز ضمان **السفيه** بإجازة الولى .ولايجوز أن تكون ذمة الضامن مشغولة بدين للمضمون عنه وإلاّ يكون التعهد **حواله** لاضماناً .وينبغى أن يكون الضامن مليئاً قادراً على الوفاء، فإذا كان أكثر من واحد يُوزّع الدين عليهم على السواء بحسب عددهم. ويجوز ضمان ما ثبت فى الذمة ثبوتاً جائزاً كالمهر قبل الدخول،ولازماً بعد الدخول، **والنفقة** المحكوم بها للزوجة. ولايُلزَم الضامن بالوفاء إلا بما يثبت من دين بالبينة. وفى الحديث: «**الزعيم غارم**» ، أى أن ضمانه شامل لكل شىء تعهدّ به، سواء كان ديناً أو عيناً. و يرجع الضامن على المضمون عنه بما أدّاه للمضمون له. ويصحّ أن يضمن ثان عن الضامن الأول. ويضمن عن الثانى ثالث وهكذا، ويرجع الثالث على الثانى، والثانى يرجع على الأول،والأول على المضمون له الأصلى. ويجوز للضامن أن يضمن الدين بأقل منه برضا المضمون له، ولايرجع على المضمون عنه إلا بما أدّاه. وفى رواية القرآن عن **داود وسليمان** مسألة ضمان ما تتلفه البهيمة من الزرع، فى قوله تعالى: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ (٧٩)**﴾(الأنبياء) فصاحب الغنم كان عليه ضمانها، **والبهائم** عموماً إن لم تكن يد أحد عليها فإن على مالكها ضمان ما تفسده من الزرع طالما أن

أصحاب الأرض ليسوا فيها، فإن كانوا فيها كان عليهم حفظها. ولاضمان على صاحب الحَمَام إذا أطلقه فلقط حبّا من حقل؛ والطبيب والجراح مسئولان عمّا يهلكان بالجراحة أو التشخيص الخاطئ، وكذلك الخاتن؛ وفى حوادث المرور على محدث الضرر التعويض عنه، وفى حالة القتل الخطأ عليه الدية؛ وكذلك فى تصادم السفن والسيارات والطائرات؛ ويسقط الضمان فى حالات القتل دفاعاً عن النفس أو العرض أو المال، ومَن جَنَى على امرأة أو بهيمة فألقت جنينها فعليه التعويض أو الدية. وتضمن الحكومة ما يتلف أو يُقتل فى التعدّى الجائر لقوات الشرطة، وفى حالات الحوادث المفضية للعاهة أو الموت أثناء تأدية العمل. ويُضمن المبيع فى مدة الخيار طالما لم يقبضه المشترى، وإن تلف فى مدة الخيار بعد القبض، يكون تلفه من ضمان المشترى؛ والعين المستأجرة أمانة فى يد المستأجر، فإن تلفت بغير تفريط منه ولا تعدّ لم يضمنها، فإن شرَط المؤجر على المستأجر ضمان العين فالشرط فاسد. ويضمن الأجير ما يتلف بفعله أو تحت يده، فإن كان التلف بغير تفريط منه ولا تعدّ فلا ضمان.

•••

٢٣٢٨.﴿الكفالة﴾

الكفالة فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾﴾(آل عمران)، وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴿٤٠﴾﴾(طه) هى الضمان، تقول كفله: أي ضمنه وأعاله وأنفق عليه وقام بأمره، وكفل زيدٌ عمراً: ضمن المال له، وتكافل القوم: ضمن بعضهم بعضاً، والكفيل هو الضامن. وفى الكفالة تُضَمّ ذمة المكفول عنه إلى ذمة الكفيل فى التزام الحق، فيثبت فى ذمتهما جميعاً، ولصاحب الحق أن يطالب من يشاء منهما. وتصحّ الكفالة ببدن كل من يلزم حضوره بدين لازم، فإن قال الكفيل أنا كفيل بفلان، أو بنفسه، أو ببدنه، كان كفيلاً به. والكفالة تعهدٌ من الكفيل للمكفول له بإحضار غريمه متى طلبه، ولاتصح فى الحدود، سواء كان حقاً لله كحدّ الزنا أو السرقة، أو حداً لآدمى كحدّ القذف، لقوله ﷺ: «لاكفالة فى حدّ». وأركان الكفالة: ثلاثة أشخاص: كفيل، ومكفول له، ومكفول، ومن مقوماتها: العقد: ويتحقق بالإيجاب من الكفيل والقبول من المكفول له؛ وأن يكون الكفيل عاقلاً رشيداً قادراً على الوفاء، فلاتجوز كفالة الضعيف، والصبى، والمجنون؛ وأن يكون المكفول معيّناً. ويبرأ الكفيل من حق الكفالة إذا أوفى بعهده، وللقاضى أن يحبسه إن امتنع عن الأداء، لأن الكفالة وثيقة على الحق. كالرهن ـ فإن تعذّر الاستيفاء ممن عليه الحق استوفى من الوثيقة، وإن عجز الكفيل

عن الوفاء لايجوز حبسه، وَوَجب الصبر والانتظار إلى حين القدرة. ويجوز ترامى الكفالات كما هو الشأن فى الضمان والحوالة، لأن المعيار ثبوت الحق على المكفول، كأن يكفل أحدهم المدين، ثم يكفل الكفيل ثان، والثانى يكفله ثالث، وهكذا .وإذا مات المكفول برىء الكفيل من الكفالة، لارتفاع موضوعها، وتبطل كذلك بموت الكفيل، وإذا مات المكفول له انتقل الحق إلى ورثته، ولهم مطالبة الكفيل به .ولايجوز بيع عقد الكفالة، لأنه بين الكفيل والمكفول له وحدهما، ويبطل العقد لارتفاع موضوعه.وتصحّ الكفالة بكل ما يجوز أخذ الرهن به، وتجوز فى الأعيان المضمونة، والشركة، والمضاربة، وفى الحقوق المالية الواجبة أو التى تؤول إلى الوجوب، كثمن المبيع فى مدة الخيار وبعده، والأجرة، والمهر قبل الدخول أو بعده. ويصحّ فى الحق المجهول، كأن يقول : أنا أكفله فى مالك عليه، أو ما يُقضَى به لك عليه، أو ما تقوم به البيّنة لك عليه، أوما يقرّ به لك. وتصحّ الكفالة فى نفقة الزوجة . وإن قال المكفول له للكفيل: أبرأتك من الكفالة، برىء، ولايكون ذلك إقراراً بقبض الحق. وتصحّ الكفالة الحالّة والمؤجلة، وأما إذا أُطلقت فتكون حالّه، وإذا تكفل الكفيل حالاً كان للمكفول له مطالبته بإحضار المكفول، وإذا كانت مؤجلة لم يلزم إحضاره قبل الأجل، وإن كانت الكفالة إلى اجل مجهول لم تصحّ.

●●●

٢٣٢٩. ﴿الوكالة﴾

يأتى عن الوكالة فى القرآن تسعون مرة، والتوكيل فى اللغة التفويض والاستنابة، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴿١١﴾﴾(السجدة)، وقوله: ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾(الشورى)،وقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾(المائدة)، وقوله: ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾﴾(الزمر).فالمستناب هو الوكيل ،والمستنيب هو الموكّل، ومحل الوكالة هو الشىء الموكل فيه؛ وفى الإسلام فإن تصرف الوكيل فيما وُكل به يصبح بعد تمام الوكالة نافذاً على الموكل، تماماً كما لو باشره بنفسه. والوكالة مشروعة بالكتاب والسنّة والإجماع، وقد وكل رسول الله ﷺ فى قضاء الديون ، وفى أداء الصدقة، وفى التضحية، وَوَكل ابن عمر من يزكّى عنه، ووكلت المرأة الرسول ﷺ أن يزوّجها. والوكالة من العقود الجائزة والملزمة، ومن وَكَل رجلاً على إمضاء أمر من الأمور فالوكالة ثابتة أبداً حتى يعلمه بالخروج منها، ويعتبر فيها الإيجاب والقبول، بشرط أن يكون الوكيل والموكل كلاهما عاقلا بالغاً مختاراً، وأن تكون الوكالة منجزة غير معلقة،ومبينة للشىء الموكل فيه، ويجوز التوكيل فى كل شىء إلا ما خرج بالدليل، وتنقسم الوكالة باعتبار محلها إلى عامة وخاصة . ووظيفة الوكيل

الحرص على مصلحة الموكل، وأن لايتعدّى فى تصرفّه محل الوكالة .والوكيل أمين، وتنتهى وكالته بإتمام العمل الموكل به،أو موت الموكل ، أو أن يعزل نفسه أو يعزله الموكل. ويجوز التوكيل: فى البيع والشراء، والحوالة والرهن، والضمان والكفالة، والشركة والوديعة، والمضاربة والجُعالة، والإجارة، والقرض، والصلح، والوصية، والهبة، والصدقة، والفسخ، والإبراء، وعقد النكاح، فى الإيجاب والقبول، والطلاق والخلع، والرجعة وتحصيل المباحات، وإثبات القصاص، والمطالبة بالحقوق وإثباتها والمحاكمة فيها. ولايصح التوكيل فى الشهادة، ولا الأيمان والنذور، ولا الإيلاء والقسامة واللعان، ولا القسم بين الزوجات، ولاالرضاع ، ولا الظهار، ولا الغصب، ولا الجنايات. وأما حقوق الله فما كان منها حدأ جاز التوكيل في استيفائه، وفى العبادات يجوز التوكيل فى الزكاة والكفّارات والحج، ولايجوز فى العبادات البدنية كالصلاة.

●●●

٢٣٤٠.﴿الوصية﴾

الوصية والجمع وصايا، تقول وصّى توصيّة فلاناً بكذا، أى عهد إليه فيه. ووصايا الله ألزم بها عباده وأوجبها عليهم، ووصية المتوفى تسمى كذلك لاتصالها بأمر الميت، وتقول: يصى الشيء بآخر، يعنى يصله به؛ وتقول أوصيت إلى فلان بكذا، أى فوّضت، فهو موص،وذلك وصيٌّ، ويقال له المُوصَى إليه، والمُوصَى له، والمُوصَى به، ويقال للفعل الوصية؛ وهى بعد الموت إيجاب، أى إلزام بشيء من مال أو منفعة لأحد بعد الموت. والإيصاء طلبُ شيء من الغير ليفعله فى غيبته حال حياته وبعد وفاته. فإذا قلت: أوصى فلان لفلان بكذا، معناه: أملكه له بعد موته. وإذا قلت: أوصى فلان إلى فلان، معناه: جعله وصياً له يتصرف في ماله وأطفاله بعد موته، فما كان «باللام» معناه جعل الغير مالكاً لماله بعد موته، وما كان «بإلى» معناه تفويض التصرف فى ماله ومصالح أطفاله إلى غيره بعد موته. والفرق بين الوصي والقيّم، أن الوصي:من فُوّض إليه الحفظ والتصرف؛ والقيّم: من فُوّض إليه الحفظ دون التصرف. وهذا ما فهمناه من معاني الوصية في القرآن.

والآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾(البقرة) تشتهر بأنها آية الوصية ، وليس فى القرآن ذكرٌ للوصية إلا فى سور البقرة والنساء، وآية سورة البقرة فى الوصية هى أتمّها وأكملها، ونزلت عامة قبل نزول الفرائض والمواريث. فلما كانت الآية التى قبلها تتحدث عن الموت فقد ناسب ذلك الكلام فى الوصية، والآية لذلك مرتبطة بما قبلها. وسببها حضور الموت، وحضور السبب يُكنّى به عن المسبّب، وقوله «كُتب» يعنى أن الوصية واجبةٌ وفرضٌ؛

و«الخيـر» هو الكلمة الطيبة يقـولها لأولاده كما فعل يعـقوب مع بنيه عند الموت؛ والخـير أيضاً هو المال بأى قدر كان ،وليس كما حدد الفقـهاء مقداره. ثم إن الوصية واجبة كذلك على من له أو عليـه ديـون، ولذلك نبّه الله تعالى أنه لاميـراث إلا بعد الوصية، والدين خلاف الوصية، كقوله: ﴿**مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾(النساء١١)، والوصية هى التى تنبّه إلى الدين، وتنبه إلى الميـراث جميعه، ومن ثم كان إيجـابها فى الحديث: «**مـا حق امرىء مسلم له شيء يريد أن يوصى فـيه، يبيت ليلتين أو ثلاث ليال إلا ووصيـته مكتوبة عنده**». وليس صحيـحاً إن النبىّ ﷺ لم يوص، فقد أوصى قبل أن يمـوت، ولم تكن الوصية فى مال أو ديون ولكنها فيما يخص المسلمين. وعلى نهجه سار **أبو بكر وعمر**. والفقهاء مهتمون بالوصية فى المال، أى فى الشق المادى من الخير، دون الشق المعنوى، وليس الخير كما فسّـروه هو المال فقط. ولكل ما سبق **تسبق الوصـية** الفـرائض والمواريث، وحكاية أنه لايجوز لأحـد أن يوصى بأكـثر من الـثلـث ، كـانت من أجل أن يترك الموصى ورثتـه «لايتكفـفـون الناس» كما فى الحديث ، مخافة أن يظلمـهم بوصيته ويجور عليهم. وليس صحيحاً أن الآية: ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧**﴾(النساء) نسـخت الآية: ﴿**الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝١٨٠**﴾(البقرة) وإنما تفسّرها، **والأقربون** أعم ممن يرث ومن لايرث، فُـرفع حُكـم من يرث بما عـين له، وبقى الآخـر علـى مـا دلت عليـه آية الأقربين. وفى الوصية يمكن للموصى أن ينبّه إلى أوضاع معينة من أحوال ورثته تستوجب أن يزيد بعضهم على ما يرثه وجوباً، فهذا من حقه، وهو معنى **الإنصاف**، وهو أن لايترك بعض الورثة يتكففون بـينما آخرون يزدادون غنى بالميراث، والعدل فى الإسـلام استوجب الوصية، والموصى أعرف الناس باستحقاق ورثته أو عـدم استحقاقهم. فهل نصدق محدّث واحد هو **عمرو بن خارجة** فيما نقل من الحديث: «**إن الله قد أعطى كل ذى حقّ حقّه فلا وصية لـوارث**»، ونكذّب القرآن، والقرآن لاتنسخه السُنة ولكنها تشرحه وتبيّنه. وقد يرى الموصى أن يخصّ والديه أو أياً من أقربائه بشيء اسـتثناءً لظروف خاصـة، كأن تكون الوالدة على غير الإسـلام ولن ترثه، فيوصى لها، فلمـاذا يُمنع من ذلك؟ ولماذا ينصرف الذهن إلى أن الوصية لاتكون إلا فى المال؟ ولماذا لاتكون شروطاً يفرضها على ابنه مثلاً أن يُئوى أمه إليه ولايعهد بها إلى بيت مسنين، فإن فعل فيسقط حقه فى أن يرثه؟ ولماذا لايشترط على ورثته أن لايبيعوا بيت العائلة، وأن يتركوه مشاعاً بينهم ، يتعهدونه وتأوى إليه أيما ابنة تُطلّق، أو قـريب أخنى عليه الزمن؟وما المانع أن يرث الورثة عن المورث بالوصـية، فـإن لم يوص فبالميراث؟ ومـاذا يمنع أن يرثوا بالوصية ما بقى من الميراث؟وقد أكـدت الآية على الوصية

للأقربين، وقوله«بالمعروف» هو شرط فى كتابه الوصية، وهو أن يكون فيها عادلاً ورفيقاً فى نفس الوقت، ومنصفاً ومحسناً فى الآن نفسه، وذلك معنى «حقاً على المتقين»، فإذا أوصّى لأحد فلا يجحف بالباقين، وفى الحديث أن الوصية فى: «**الثلث، والثلث كثير**» مخافة الحيف وكذلك الآية: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا**(١٨٢)﴾(البقرة)، والجنف هو الحيف، وفى الحديث: «**الجنف فى الوصية من الكبائر**» ، والحديث: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة** (أى عمره كله)، **فإذا أوصى حاف فى وصيته، فيختم له بشرّ عمله فيُدخله النار. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشرّ سبعين سنة، فيعدل فى وصيته، فيُختم له بخير عمله فيدخل الجنة**». ولا مجال الآن للآية: ﴿ **فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (١٨١) ﴾ (البقرة) لأن الوصية الآن لاتبدّل ولاتحرّف ولاتغيرً أحكامها، لإشهارها كوثيقة رسمية وليس كورقة عرفية. والآية عن نوع من الوصايا من الماضى وتكون بالسماع وليس عن الوصية المكتوبة التى يشهد عليها الشهود. وتبديل الوصية أو تحريفها الآن يجعلها محل طعن بالتزوير، والطعن فى الوصية تحكمه قوانين الدولة ولايترك للأفراد. وللمسلم أن يغيرّ فى وصيته فى حياته ويرجع فيما شاء منها بشرط تسجيل ذلك، وله أن يلغيها بالكلية. ودليلنا على أن الوصية ليست فى الأموال فقط، وأن «الخير» فى الآية ليس المال، وإنما هو الخير مطلقاً، أن المسلمين الأوائل كانوا يكتبون فى وصاياهم: **هذا ما أوصى به فلان ابن فلان، أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله،وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور**» وهذا ما كانوا يبدأون به وصاياهم وهو الأهم، وكانوا يوصون أهلهم بتقوى الله حقّ تقاته، وأن يصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، ويوصونهم بما وصىّ به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿**يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٣٢) ﴾ (البقرة) وتلك هى وصية المسلم الحقيقية، والحمد لله ربّ العالمين.

●●●

٢٣٤١.﴿الإضرار فى الوصية﴾

فى الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «**الإضرار فى الوصية من الكبائر**»، فإن خاف الأهل والأصحاب ممن يعلمون بأمر وصيةٍ من موصٍ، ميلاً وعدولاً عن الحق، ووقوعاً فى إثم، وأنه لم يخرجها بالمعروف، فتحايل وأوصى مثلاً لولد ابنته لينصرف المال إلى ابنته، وأوصى لابن ابنه بغرض أن ينصرف المال إلى ابنه، أو لابن زوجته كى ينصرف المال من بعده لها، فعليهم السعى فى الإصلاح بين الموصى وبين الورثة، لقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**(١٨٢)﴾(البقرة)، بهدف تعديل الوصية

فى حياته، أو السعى بين المُوصَى لهم لتعديلها وفق شرع الله بعد وفاة الموصى، ومن يفعل ذلك فلا إثم عليه، لأن الإصلاح فرضٌ على الكفاية، فإذا قام الأهل والأصحاب به سقط عن كل من يعرف بأمر الوصية ولم يسع فى تعديلها، وإن لم يقم أحدٌ بذلك أثمَ الكل .

●●●

٢٣٤٢.﴿عشر وصايا كالعشر التى أنزلت على موسى﴾

الآيات : ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)**﴾(الأنعام) أمرٌ من الله تعالى لنبيـه ﷺ بأن يدعو كل الخلق إلى سماع تلاوة مـا حرّم الله، ومن ثم كان على كل المسلمين القادرين أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهـم ماحرّم الله عليهم مما حلّل. كقوله تعالى: ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**﴾(آل عمران١٨٧)، وهو مما أجمعت عليه كل الشرائع، ولم تنسخه ملّة، وتشـمله هذه الآيات الثلاث ، وتشكّل عشـر وصايا إسـلامية **كالوصـايا العشر** المنزّلة على موسى، **الأولى**: تحريم الشرك بالله؛ **والثانية**: تحريم الإساءة إلى الوالدين؛ **والثالـثة**: تحريم وأد الأولاد خشية العيلة ، ومنه **الوأد الخـفى** وهو العزل؛ **والرابعـة**: تحريم الفـواحش وظاهر الإثم وباطنه؛ **والخامـسـة** :تحريم قتل النفس مؤمنة كانت أو غير مؤمنة، إلادفاعاً عن النفس؛ **والسادسة**: تحريم استقراض مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره، فإذا بلغ الرشد يُدفع إليه ماله؛ **والسابعة**: تحريم التطفيف فى الكيل والميزان، يعنى تحرّى العدل فى كل شىء؛ **والثامنة**: تحريم الشهادة الزور وقول غير الحق؛ **والتاسعة**: تحريم نقض العهد؛ **والعـاشـرة**: تحريم كل طريق غـير الصراط المستقـيم، والصراط هو الطريق الذى هو دين الإسلام، واتباع شرعه، شبهّه رسول الله ﷺ بخط على الأرض إلى جواره خطوط عن يمين وعن يسار، فالخط الأوسط هو الطريق المستقيم ـ طريق الإسلام، والخطوط عن يمين وعن يسار فهذه هى السُّبُل التى تفرّق بين الناس كما فى النصرانية واليـهودية والهندوسية والبـوذية وغـيـر ذلك مما يروّج له أهـل البـدع والضـلالات من أهل الأهواء والشـذوذ، كالعلمانية والعولمـة، والليبيرالية، والإباحية، والإلحاد. فهـذه عشر وصايا لايصح الإقرار ببعضها والكفر ببعضها. وروى أن **كعب الأحبار** اليهودى صاحب الإسرائيليات المشهور، قال فى هذه الآية الجـامعة: هذه الآية **مفتتح التوراة** ـ يعنى قد سبق إلى معـانيها التوراة، ولم نجد من ذلك شيئاً فى التوراة على الإطلاق، لا من قريب ولامن بعيد!

●●●

٢٢٤٣.﴿شرعية الوصية﴾

الوصية مشروعة بالكتاب والسُّنّة والإجماع، وبضرورة الدين، والجمع وصايا، وتستعمل بمعنى **التقدمّ إلى الغير بما يُطلب منه**، كقوله تعالى: ﴿ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ** (٣١)﴾(مريم)؛ وبمعنى التفويض بتصرف خاص بعد الموت؛ وبمعنى تمليك عين أو منفعة بعد الموت، تمييزاً عن التصرفات المنجزة فى الحياة اليومية والتى لا تتناولها الوصايا.

والوصية واجبة مطلقاً بقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ** (١٨٠) ﴾(البقرة)، ووجوبها على مَن عليه حقوق لله أو للناس، ويظن الموت، ويخاف ضياعها من بعده، وعلى هذا المعنى يُحمل الحديث: «**من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية**». ولاتحتاج الوصية فى بعض الأحوال إلى قبول من المُوصى إليه، كأن يوصيه المُوصِي بأولاده وأن يفى ديونه، وتسمى هذه **وصية عهدية** ، ولو كانت الوصية للنفع العام فلا يشترط فيها القبول، وإذا كانت لمنفعة شخص احتاجت إلى القبول، وتسمى **وصية تمليكية**، فتكون عقداً مرة، وإيقاعاً مرة بحسب موضوعها، ولايترتب عليها أى أثر حال حياة الموصى، فهى ليست ملزمة عقداً كانت أو إيقاعاً، لأن المفروض أنها تمليك بعد الموت، وعلى ذلك **يصحّ للموصى أن يرجع فيها ويغيّر ويُحدث**، ولايجوز ذلك لغيره، بقوله تعالى: ﴿ **فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ** (١٨١)﴾ (البقرة)، غير أن المُوصَى له يمكنه أن يردّ الوصية فى حياة صاحبها، فإذا قبلها فى حياته فليس عليه أن يجدّد قبوله بعد موت المُوصى، وإذا ردّها فى حياته فله أن يقبلها بعد وفاته لأنها تمليك بعد الوفاة، وإذا ردّها بعد الموت ثم قبلها بطلت الوصية، وإذا قبلها بعد الموت وقبضها ثم أعلن ردّها فليس بشيء لثبوت الملك واستقراره، وله أن يقبل **بعض الموصَى به** ويردّ بعضه، لأن الوصية تبرعٌ محض. **والشرط فى المُوصِي**: أن يكون أهلاً للتصرفات المالية، فلا تصحّ الوصية من الصغير غير المميز، ولا المجنون، ولا المُكره، ولا السفيه، وتصحّ وصية المحجور عليه لفلس إذا تعلقت وصيته بغير المال المحجور عليه. ولاتصحّ **وصية المنتحر** إذا أوصى بعد انتحاره وقبل أن يموت، وتصحّ إذا كانت وصيته قبل الانتحار. وتجوز **وصية الغلام** إذا أتمّ **العشرة**. ويشترط فى الموصى له: أن يكون موجوداً حين الوصية فلا تصح الوصية لمعدوم، لأنها تمليك، ولايتصور التمليك فيما لاوجود له، وتصحّ الوصية للفقراء، **وللعلماء**، لأن نوعهم موجود بوجود أفرادهم، وتصحّ للحمل بشرط أن يكون موجوداً حين الوصية، ولايهم فى الوصية إن كان الحمل ذكراً أو أنثى لأن الوصية عطية وليست إرثاً؛ **وتصحّ الوصية للأجنبى، وللذمّى**، بقوله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** (٨)﴾

(الممتحنة)، وكما تصح الهبة للحربى تصحّ الوصية له، والفرق بين الاثنين أن الهبة فى الحياة والوصية تمليك بعد الموت. وإذا توفى الموصَى له قبل الموصى، وأصرّ الموصى على وصيته، فإنه بعد موته تئول الملكية لورثة الموصَى له وتقسم بينهم كميراث، ولهم حق قبول الوصية أو رفضها. والموصَى به: هو محل الوصية، ويشترط فيه أن يصحّ قصده عرفاً، فلا تصح الوصية بشيء لا قيمة له، ولا يباع، ولايوهب، ولايوصى به، ولايجوز شرعاً - كأن يكون مصنع خمر، أو مربى خنازير. ولايشترط أن يكون موجوداً حال الوصية، كالوصية بما تحمله الدابة، أو بالثمرة المقبلة، أو بعمارة المسجد، أو بالبراءة من دين . وتخرج الوصية من أصل المال الذى تركه الموصى إن كانت واجباً مالياً، كالوصية بديون الله كالزكاة، وردّ المظالم، والكفّارات؛ وإن كانت واجباً مالياً وبدنيا معاً كالحجّ فإنه واجبٌ مالى يحتاج إلى النفقة، وواجبٌ بدنى يحتاج إلى الطواف والسعى والسفر، فمن مات وأوصى بحجة الإسلام ولم يكن قد حجّ، فيحج عنه الأقرب من أقاربه، فإن كان قد حجّ وأوصى بحجة ثانية، فتكون تكاليفها من الثلث . وتُخرَج كل واجبات الميت المالية من الأصل حتى ولو لم يوص. وقد تكون الوصية واجباً بدنياً فقط كالصوم والصلاة، يوصى ابنه أن يقضيهما عنه مما فاته. والوصية الواجبة لاتجب إلا على من عليه دين، أو عنده وديعة، أو عليه واجب يوصى بالخروج منه. وأما الوصية بجزء من ماله فليست بواجبة؛ وتجب الوصية للأقربين غير الوارثين، وتستحب لمن ترك خيراً ، كقوله تعالى: ﴿ **إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ** (١٨٠)﴾(البقرة)، ومتى كان المتروك لايفضل عن غنى الورثة فلا تستحب له الوصية. ويختلف الحال باختلاف الورثة فى قلّتهم وكثرتهم، وغناهم وحاجتهم. وتصحّ الوصية مطلقة ومقيدة، فالمطلقة : أن تقول: إن مت، فثلث ما أملك للمساكين ، فلو كان مريضاً فشفى ثم مات، فالوصية ماضية، والمقيدة أن يقول: إن مت من مرضى هذا فثلث ما أملك للمساكين، فإن شفى من مرضه بطلت الوصية. وقيل المستحب فى الوصية أن لايزيد الموصى به عن الخُمس ، ولايستوعب الثلث. وإن اقتسم الورثة تركة الميت ثم ظهرت وصية بجزء من المقسوم، فالحكم فى التركة كما لو ظهر مستحق. وقيل: يقف نفوذ الوصية فى مرض الموت على خروجها من الثلث. وما يخرج فى الوصية عن الواجب المالى ينفَّذ بمقدار الثلث مع وجود الوارث، وإن زادت عنه احتاج ذلك إلى موافقة الورثة، وفى حديث رسول الله ﷺ لمن جاءه يقول إنه ذو مال وليس له إلا ابنة واحدة، فهل يتصدّق بثلثى المال؟ قال: «لا» ، فقال الرجل: فالشطر؟ أى النصف، قال: «لا» ، فقال الرجل: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» ويُشعر ذلك بأنه إنْ لم يوجد ورثة جازت الوصية بأكثر من الثلث. ولا

ميراث ولاوصية مع الدين ، لقوله تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾(النساء) وإذا كانت الوصية بأكثر من الثلث، وتعددت الوصايا وتزاحمت، فإن الثلث يقسّم بين الموصى لهم على قدر سهامهم، ويقسّم الثلثان على الورثة.

وتبطل الوصية لقاتل الموصى ،وإن أوصى له بعد أن أصابه صحّت وصيته كما لو عفا عنه. ويقدّم من أوصى له الميت بالصلاة عليه . وبعد الموت يشرع فى تنفيذ الوصية والمسارعة في قضاء دين الميت. وتصحّ الوصية بالمنفعة المؤبدة، كإيجار الدار، وثمرة الأرض. ويستحب أن يكتب الوصي وصيته ويشهد عليها شاهدان عدلان لعموم ما دلّت عليه حجيّة البيِّنة ووجوب العمل بها، وتثبت عند الضرورة بشهادة أهل الذمة بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾(المائدة) وتثبت الوصية بشهادة عدل ويمين، وبشهادة عدل وامرأتين ثقتين . وتأخذ بعض المذاهب بثبوت الوصية بالمال كله بشهادة أربع نسوة، وبثلاثة أرباع المال بشهادة ثلاث نسوة، وبنصف المال بشهادة اثنتين ،وبربع المال بشهادة امرأة واحدة. ويعمل بدلالة ألفاظ المُوصَى فى الموصى به. ولاتصحّ وصاية أهل الذمة بما هو محرّم فى الإسلام. ومن أوصى لقرابته أو آله أو قومه أو عترته ونحو ذلك، كانت الوصية للأقرب ثم الأقرب، وهم: الأب والأم، والأبناء والبنات، وبعد الأولاد أولاد البنين وإن سفلوا، الذكور والإناث، وأولاد البنات، ثم من بعد الأولاد الأجداد للأب والأم ، الأقرب فالأقرب، ثم الإخوة والأخوات، ثم أولادهم وإن سفلوا، ثم الأعمام، ثم بنوهم وإن سفلوا. وإن كانت الوصية لأهل بيته، تعطى أمه وأقاربها: الأخوال والخالات، وآباء أمه وأولادهم. وإن أوصى لآله فهم مثل قرابته . وإن أوصى لعترته فهم عشيرته الأدنون وولده الذكور والإناث وإن سفلوا. وإن وصّى لقومه، أو لنسبائه، فهم بمثابه أهل بيته. وإن قال لرحمى أو أرحامى، أو أبنائى، أو أنسبائى أو مناسبى، صرفت الوصية إلى قرابته من قبل أبيه وأمه. وإن أوصى لأصناف أهل الزكاة كما فى القرآن، فهم الذين يستحقون الزكاة، فيُجعل لكل صنف ثُمن الوصية، و يقتصر الصرف على المستحق من أهل بلده، وإن أوصى للفقراء وحدهم دخل فيهم المساكين. وإن أوصى للمساكين وحدهم دخل فيهم الفقراء لأنهم صنف واحد، إلاّ أنْ الصنفين كلٌّ على حدة. وإن أوصى لوارث، فإنها تجوز لو أجازها الورثة، وإن أجازها بعضهم نفذت الوصية فيهم بقدر نصيبهم. وإن أوصى بمثل نصيب وارث، فله مثل نصيبه إضافةً على الفريضة، فإن كان له ابنان وأوصى لأحدهما، فتكون القسمة بين ثلاثة وليس بين اثنين.

●●●

٢٣٤٤.﴿الوصاية والوصى﴾

الوصاية: هي أن يعهد إنسان لآخر بالإشراف على تنفيذ وصية له بعد موته، كأن يفي بديونه، أو يرعى أطفاله وينفق عليهم ويحافظ على أموالهم؛ ويعبّر عن الوصاية أحيانًا **بالولاية**، **وبالوصية العهدية**، ويسمى الشخص المعهود إليه **بالوصى**.

والوصاية ولاية على إخراج حق، أو على طفل أو مجنون يملك الموصى الولاية عليه بالأصالة من الأب، أو بالواسطة، **كالوصى المأذون**. وتصحّ الوصية إلى **العاقل**، **المسلم**، **العدل**، **والمرأة**، ولاتصح إلى **مجنون**، **ولا إلى الطفل**، وتجوز إلى **الصبى المميز**، وتسقط عن **الفاسق** لأنه غير أهل **للوصاية**. ويصحّ للوصى قبول الوصاية أو ردّها **فى** حياة الموصى، وتأخير القبول إلى ما بعد الموت، ومتى قبلها صارت لازمة لايجوز له ردّها، وله أن يعزل نفسه، ويجوز أن يكون له جُعل معلوم على وصايته؛ وإذا لم يكن الميت قد عيّن وصيًا، تولى **المجلس الحسبى** تعيين أحد الأمناء الصالحين من المؤمنين، مثل: الأب أو الجد، أو الأم، ليكونوا أوصياء على أطفالهم، بالنظر إلى ولايتهم الجبرية، وللوصى أن يوصى بما أوصاه به الوصى ولايتعدى ذلك. ولاتؤخذ بشهادة الوصى للأطفال أو للميت، ولاينفذ إقراره بدين على الميت فى حق الصغير أو الورثة، وله أن ينيب غيره فى أعمال الوصاية، ويجوز أن يكون الأوصياء اثنين فلا ينفرد أحدهما بالتصرف، وتزول الوصاية على الصغير بسن الرشد، وعليه أن يلحقه **بالتعليم**، وأن يتّجر بماله بعد استئذان المجلس الحسبى.

•••

٢٣٤٥.﴿الولاية﴾

الولاية هى الوصاية، وفى الآية: **﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ(٤٤)﴾**(الكهف) يعني الأمر له، يجوز كسر الواو وفتحها، من **الموالاة** أى المحالفة، كقوله: **﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا(٢٥٧)﴾**(البقرة) أى نصيرهم وقوله: **﴿اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا(١١)﴾**(محمد) أى الحفيظ عليهم. **وولىّ اليتيم والمجنون والسفيه**:هو الذى يلى أمره ويقوم بكفايته، ولابد لكل مَن **يُحجَر** عليه من ولىّ أو قيّم. وتثبت الولاية **للأب**، **والجد**، فإن لم يكن جد، ولا أب، ولا وصى، فالولاية للدولة. **ولا** ولاية **للأب رضاعاً**، ولا لمن **أولده سفاحاً**. وإن احتلم السفيه ولم يؤنس منه رشد لم يُدفع إليه مالهُ. **ويشترط فى الولى**: البلوغ، والرشد، والإسلام، والعدالة. وبديهى أن العدالة وسيلة للحفظ، ولكن تكون تصرفات الولى لمنفعة **المولى عليه**، وفى الحديث: «**أنت ومالك لأبيك**»، وفيه: «**لايجب أن يأخذ الأب من مال ابنه إلا ما يحتاج إليه مما لابد منه**». وفى أى الأحوال لاينفذ تصرّف الولى إلا فيما فيه المصلحة، كقوله تعالى: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(١٥٢)﴾**(الانعام). وللولى أو القيمّ أن يتجرّ بمال القاصر،

أو يعطيه لمن يتّجر به، أو أن يشترى له عقاراً، أو يبيع من ماله، أو يرهنه، بشرط المصلحة، وأن لامفسدة، ولايجوز له الإقراض من ماله مخافة الضياع، ولا يبيع من ماله نسبة بأقل من قيمته، وليس له القصاص، ولا العفو والصلح إلا ببعض المال مع المصلحة. وللأب والجد أن يزوّجاه، وليس للوصى ذلك، ولاتملك المرأة تزويج نفسها ولاغيرها ولاتوكيل غير وليّها في تزويجها، وأحق الناس بذلك أبوها، ولا ولاية لأحد معه، ولايجوز للأب أن يطلّق، لعموم: «**الطلاق بيد من أخذ بالساق**». وللولى أن يأخذ للقاصر بالشفعة أو يدع، وله أن يرشى الظالم من مال القاصر لتخليصه وإطلاقه، وأن يُخرج من ماله الحقوق الواجبة كالديون والعوض، وعليه أن ينفق عليه بالمعروف، وله أن يأكل من ماله بالمعروف إن كان فقيراً، لقوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**(٦)﴾(النساء)، ويجوز له أن يشترى من مال المولى عليه لنفسه وأن يبيعه ماله، بشرط المصلحة وعدم المفسدة، ويجوز للأب أن يشترى من مال ولده الصغير. وإذا بلغ الصغير الرشد ودفع الولى إليه ماله أشهد على ذلك لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ**﴾(النساء٦)، ولاتصحّ ولاية كافر على مسلم، ولا ولاية الفاسق، وإذا طرأ الفسق فإنه يزيل الولاية، وإذا تغيّر حال الولى بجنون، أو كفر، أو سفه، زالت ولايته. ويصحّ قبول الولى للولاية، ويصح له ردّها، وله عزل نفسه، وأن يتخذ وكيلاً، ويجوز أن يكون الولاة أكثر من واحد، وله أن يشترى لليتيم أضحية من ماله، وعليه أن يلحقه بالتعليم، وتُقبل شهادته على وليّه.

●●●

٢٣٤٦. ﴿النذر﴾

النَّذر من العبادات، وهو ما أوجبه المكلّف عن نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه، نقول: نَذر الرجل كذا، إذا التزم فعله، وفى قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**(٣٥)﴾(آل عمران)، أن أم مريم نَذَرت نَذْر الأحرار من الأبرار، فقد أوجبت على نفسها أن توقف ما تلده على خدمة الله، وأرادته محرَّراً من كل شواغل الدنيا، من الحرية التى هى ضد العبودية، وفى قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** (٢٦)﴾(مريم)، أنها نذرت الصوم عن الكلام، إلا بالإشارة، ولايجوز ذلك فى الإسلام وإن كان فى شريعة اليهود، والذى فى شريعتنا الإمساك عن الكلام القبيح، بقوله ﷺ: «**إن كان أحدكم صائماً فلا يرفُث ولايجهل، فإنْ امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم**»، وقوله: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»، والحديثان أخرجهما البخارى. وصيغة النذر أن يقول: « لله علىّ أن أفعل

كذا، وإن قال: «**عليّ نذر كذا**» لزمه، ومثل ذلك إن قال: «**إن شفاني الله فعليّ** صوم شهر». **والمنذور** قد يُعيّن بالنيّة، وإن نذر فعلين أحدهما طاعة والآخر ليس بطاعة، لزمه فعل الطاعة وكفّر عمّا ترك، وإن كان المتروك خصالاً كثيرة أجزأته كفّارة واحدة. ومن نذر أن يعصى الله لم يجز له ذلك ويكفّر **كفّارة يمين**. و«نذر اليمين» يخرجه صاحبه مخرج اليمين غير قاصد به **النذر** ولاالقربة؛ و«**نذر المستحيل**» لايوجب شيئاً؛ و«نذر المعصية» لايحل الوفاء به؛ و«**نذر الطاعة**» ـ سواء كانت طاعة مشروطة ـ أو غير مشروطة واجب، إلا أن تكون الطاعة لاأصل لها فى الوجوب كعيادة المريض؛ و«**نذر ما لا يطاق**» كأن يعجز عنه فعليه كفارة يمين، وإن كان بعذر انتظر زواله ولاتلزمه كفارة؛ و«**نذر الواجب**» كالصلاة المكتوبة لاينعقد؛ ومن نذر **أن يتصدّق** بماله كله أجزأه **الثلث**؛ وإذا نذر **هدياً مطلقاً** لم يجزئه إلا ما يجزىء فى الأضحية، وإنْ عيّن الهدى أجزأه ما عينّه؛ ومن نذر **صوم الدهر** لزمه؛ ومن نذر **الاعتكاف** في مسجد بعينه لم يجز إلا فى أحد المساجد الثلاثة: **المسجد الحرام بمكة، ومسجد النبىّ** ﷺ **بالمدينة، والمسجد الأقصى بالقدس**، وأفضلها **المسجد الحرام**؛ ولاتنذر المرأة الاعتكاف إلا بإذن زوجها؛ ومن ينذر **اعتكاف يوم أو شهر** لزمه، ومن نذر **الطلاق** يكفرَ كفارة يمين؛ ومن **نذر حجاً**، أو **صلاةً**، أو صياماً، أو **صدقةً** أو غيرها من الطاعات، ومات قبل فعله، فعله **الوليّ** عنه؛ وإن كان المنذَر **مالاً** وللميت تركة وجب الوفاء منها؛ ومن نذر الصدقة بإبراء مدين من الدين لايجزئه ؛ويجوز **الأكل من الأضحية المنذورة**؛ وأخذ ذوى **القربى** من النذر.



٢٣٤٧.﴿المسئولية فى إنفاق المال فردية واجتماعية﴾

كُل من لم يحسن إنفاق ما في يده من مال فهو مسرف، وقد حرّم الله أن يوضع المال تحت تصرّف المسرفين فقال: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ** ⑤﴾(النساء)، والآية عامة فى حق كل سفيه، صغيراً كان أو كبيراً، ذكراً كان أو أنثى. **والسفيه**: هو الذى يضيع المال، ويفسده بسوء تدبيره، كقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ⑳⑤﴾(البقرة)، وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ⑧①﴾(يونس)، ومن ثم كان **الحجر** على السفيه واجباً؛ **والحجر** هو المنع من التصرف فى المال، يقع تارة لمصلحة المحجور عليه؛ وتارةً لحق غير المحجور عليه، ويصحّ الحجر على **اليتيم** طالما يعجز عن إدارة ماله، وعن ابن عباس لمّا سألوه: متى ينقضُى يُتم اليتيم؟ قال: فلعمرى إن الرجل لتنبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه، ضعيف العطاء، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما أخذ الناس فقد ذهب عنه اليتم. وفى الحديث: «**إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات، ومنَع وهات، وكرِهَ لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة**

المال» ، أراد بإضاعة المال السرف فى إنفاقه، وكلنا مسئولون عمّا فى أيدينا من أموال، وفى الحديث: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل فى أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعية، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته». تأكيدٌ على مسئولية الجميع إزاء إنفاق المال، كلٌّ فيما عُهد إليه به، فالمسئولية فرديه بقدر ما هى جماعية أو اجتماعية.

●●●

٢٣٤٨.﴿الأيمان﴾

الأيمان جمع يمين، من اليُمن وهو البركة، سُمِّيت كذلك لأنها تحفظ الحقوق؛ واليمين هى الحَلف، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تقاعدت أخذ الرجل يمين صاحبه بيمينه، ثم كثر ذلك حتى سمى الحلف والعهد نفسه يميناً.وفى الآية: ﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** (٨٩)﴾(المائدة)، واللغو مصدر لغا يلغو ويَلغَى، إذا أتى ما لايُحتاج إليه فى الكلام، أو بما لاخير فيه، و«يمين اللغو» : هى قول الرجل فى الدارج من كلامه: لا والله، وبلَى والله، دون قصد لليمين. ومن أقوال عائشة: أيمان اللغو: ماكانت فى المِراء، والهزل، والمزُاحة، والحديث الذى لاينعقد عليه القلب». وقيل : إن أيمان اللغو: ما يُحلف به على الظن، وهو أن يحلف الرجل على الشىء لايظن إلا أنه إياه، فإذا هو ليس هو، وليس فى هذا الحلف كفّارة. وقيل: «لغو اليمين»: أن تحلف وأنت غضبان، وفى الحديث: «لايمين فى غضب» أخرجه مالك. وقيل: هو اليمين تحلف بها تحرّم الحلال، كأن تقول: مالى علىّ حرام إن فعلتُ كذا؛ وقيل هو «يمين المعصية»: كالذى يحلف ليشربنّ الخمر، أو ليقطعنّ الرحم، فبِرُّه تَرْكُ ذلك، ولاكفّارة عليه، وفى الحديث: «مَن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليتركها، فإنّ تركها كفّارتها» أخرجه ابن ماجة. وقيل :لغو اليمين: هى اليمين المكُفَرَّة، أى إذا كُفِّرت اليمين سقطت وصارت لغواً، ولايؤاخذ الله بتكفيرها مع الرجوع إلى الذى هو خير. وقيل: اللغو أيمان المُكْره، ويمين المكره بمثابتها. وأصل الأيمان أربعة أقسام: قسمان فيهما الكفّارة، وقسمان لاكفّارة فيهما، واللذان يُكَفَران: مثل الرجل يحلف والله لا أفعل كذا ويفعل، والرجل يحلف والله لأفعلن كذا ولايفعل؛ واللذان لايُكفَّران: كقول الرجل والله ما فعلت وقد فعل، أو يقول والله لقد فعلت وما فعل. و«اليمين المنعقدة» : من العقد وهو عقد القلب فى المستقبل ألا يفعل ففعل، أو

ليفعلن فلا يفعل، فهذه التى تحلّهـا الكفّارة، أو أن يستثنى فيقول إلا لو كذا. وفى **اليمين المنعقدة** يحدث أن يكرر الحالف، فإذا كرر زادت الكفارة، كأن يحنث الرجل فى يمينه، فيطعم عشرة مساكين، فإذا وكّد اليمين كفّر بأكثر من ذلك، **وتأكيد اليمين** أن يحلف على الشىء مراراً. و«**اليمين الغَمُوس**»: يمين مكر وخديعة وكذب، فلا تنعقد ولاكفّارة لها، لأن الكفارة إنما تجب فيمن حلف على فعل يفعله مما يستقبل فلا يفعله، أو على فعل ألايفعله فيما يستقبل فيفعله، وعلى ذلك فاليمين الغموس لاكفارة فيها .وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ**(٢٢٤)﴾(البقرة): هو الرجل يحلف ألا يصل قرابته، فجعل الله له مخرجاً فى التكفير. والرسول ﷺ أدرج **اليمين الغموس** ضمن الكبائر، وفسّرها فقال: «**التى تُقتَطع بها مال امرىء مسلم هو فيها كاذب**»، وقال: «**من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة**»، فسأله رجلٌ: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «**وإن كان قضيباً من أراك**» أخرجه مسلم. و«**اليمين الغموس المصبورة**»: هى التى أُلزم بها الحالف وحُبس عليها وكانت لازمة له، وهى **مصبورة** لأنه صُبِر من أجلها، أى حُبس، فوصفت بالصبر وأضيف إليها مجازاً، وتسمى أيضاً «**يمين صبر**»، وفى هذه اليمين نزلت الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا**(٧٧)﴾(آل عمران). وقيل سميت **اليمين الغموس** غَمُوساً لأنها تغمس صاحبها فى النار. **والكفّارة فى اليمين** لرفع الإثم، وتجزىء بالإطعام والكسوة، أو بصدقات تساوى تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

واليمين من أهم الطرق التى يبتنى عليها الحكم فى باب القضاء، وشُرّعت للفصل فى الخصومات، لا لإثبات الواقع ولا للكشف عنه؛ **والمدّعى**: هو من لو تَرك تُرك؛ **والمدّعَى عليه**: هو من لو تَرَك لم يُترك. **ووظيفة المدَّعى**: الإدلاء بالبيّنة؛ **ووظيفة المُنكر**: **حلف اليمين**؛ وقد تتجه اليمين إلى المدعى كأن يكون أميناً فيدّعى تلف العين بلا تعدّ ولاتفريط. وقد لايُقبل اليمين من المنكر كأن يكون وكيلاً أو ولياً أو وصياً. والغالب في **الحالف** أن يكون منكراً، وفى صاحب البيّنة أن يكون مدعياً ويُشترط فى الحالف **العقل، والبلوغ، والاختيار، والمسئولية**. وإن كانت الدعوى متعلقة بفعل الحالف حلف عليها واقعاً، وإن كانت متعلقة بفعل الغير حلف على نفى العلم. **وموضوع اليمين**: هو الحقّ المحلوف من أجله، ويُشترط صحة الحكم به إثباتاً أو نفياً، بحيث لو حلف المنكر حُكم ببراءته، أوحلف المدعى حُكم بثبوت حقّه. و يشمل هذا الحق: العين، والدين، والعقود ، والموجبات، والجنايات، والأحوال الشخصية وما إليها، ماعدا حقوق الله وهى الحدود. و«**اليمين العقيمة**»: هى التى لايصحّ بناء الحكم عليها، فلا تتجه على أحد مدعياً أو مدّعًى عليه، كأن ينكر الشاهد

علمه بواقعة فلا تتجه اليمين على المنكر. وصيغة اليمين بالحلف بالله تعالى وبأسمائه الحسنى، كالرحمن والسميع، والعليم، والحليم، ونحو ذلك من أسمائه وصفاته، كعزّته، وقدرته، وعلمه، وإرادته، وكبريائه، وعظمته، لأنه يمين بقديم غير مخلوق، فكأن الحالف بها كالحالف بالذات. ومن يحلف بالله، أو قال: والله، أو تالله، فحنث عليه كفّارة. وفي الحديث: «لاتحلفوا إلا بالله، ومن حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، فإن لم يرضَ فليس من الله»، وقال: «من حلف فليحلف بالله أو ليصمت». ولايُحلف بالقرآن، ولابالرسُل، والكعبة، ولا بالمصحف، ولاكفّارة على الحلف بذلك. والحلف بالنبيّ ﷺ قيل فيه يجوز، لأنه حلف بما لايتم الإيمان إلا به فتلزمه الكفّارة. والصواب أن الحلف لايكون إلا بالله؛ ولايجوز الحلف بالآباء وبالأمهات، وفي الحديث: «لاتحلفوا بآبائكم وأمهاتكم ولابالأنداد، ولاتحلفوا إلا بالله، ولاتحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون». ومن قال إني بريء من الإسلام، أو النبيّ، أو القرآن، تلزمه الكفارة. وقيل إن الحلف بعزة الله، أو بحق الله ليست بيمين ولاكفّارة فيها. واليمين في مسائل القضاء إما قضائية أو غير قضائية، والأولى منها «اليمين الحاسمة» التي يوجهها الخصم إلى خصمه عند عجزه عن إثبات حقّه، حسماً للنزاع؛ ومنها «اليمين المتممة» التي يوجهها القاضي من تلقائه لأحد الخصمين تتميماً لما بين يديه من الأدلة. و«اليمين الحاسمة» قسمان: «يمين الإنكار»، و«يمين الإثبات»، فالمدّعى عليه يمكن أن يسكت، أو يقرّ، أو ينكر، فإذا أنكر فللمدّعَى الحقّ أن يطلب من القاضي أن يحلّفه اليمين، فإذا حلف سقطت الدعوى، للحديث: «ذهبت اليمين بحق المدّعي»، وإن لم يحلف فإمّا أن يردّ اليمين على المدعي وهذه هي «اليمين المردودة»، وإما أن ينكل ويمتنع عن الحلف والردّ معاً، ومن امتنع عن الاختيار فقد اختار، ويكون الناكل هو الذي حكم بنفسه على نفسه. و«اليمين المنضمة» هي أيضاً المتممة: وهي التي تُضَم إلى شهادة شاهد واحد، أو إلى شهادة امرأتين، لإثبات الحقوق المالية. و«يمين الاستظهار»: هي التي تُسمع في الدعاوى على الورثة في دَيْن على مورّثهم، ولايثبت الدين إلا بالبيّنة ويمين المدّعي معاً. و«الحلف الكاذب» إثمٌ كبير، وقيل إنه من الكبائر.

●●●

٢٣٤٩. ﴿المسلم عند شروطه﴾

الشروط جمع شرط، وهو ما يستلزم نفيه نفي أمر آخر غير السبب. والشرط في البيوع إذا نافى مقتضى العقد يبطل البيع؛ والشرط في المهور عند عُقدة النّكاح؛ وفي الحديث: «أحق الشروط أن توافوا بها ما استحللتم به الفروج»، وكل شرط وقع في رفع حدّ من حدود الله فهو باطل، وكل صلح فيه فهو مردود؛ ولايصحّ أن تشترط المرأة طلاق أختها، وتصح الشروط بالقول.

●●●

٢٣٥٠.﴿الباطل فى المعاملات لايجوز﴾

الباطل في اللغة هو الذاهب الزائل، وجمعه بواطل، وتبطّل أى اتّبع اللهو، وأبطَلَ إذا جاء بالباطل، كقوله تعالى: ﴿**لا يأتيه الباطلُ**﴾(فصلت٤٢)، قيل الباطل هو إبليس، وقوله: و«**يمح الله الباطل**» (الشورى ٢٤)، يعنى الشرك. **والبَطَلة والمبطلون** هم أهل الباطل، ومنهم أهل الكتاب، سُمّوا كذلك لأنهم يعلون الباطل على الحق كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ** (٧١)﴾(آل عمران). والآية: ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾(البقرة١٨٨) هى ستمسك كل مخالف للباطل فى المعاملات وفى غيرها، وهى دليلهم على عدم جواز الباطل فى الحقوق وفى غيرها. ولاتعيين للباطل فى الآية. ولكنه مطلق الباطل، فكل باطل لايجوز.

•••

٢٣٥١.﴿الاضطرار والمضطر﴾

الاضطرار من ضرّ ضد نفع؛ **والضرورة** الحاجة، والمشهور أن «**الضرورات تبيح المحظورات**»، أى أن الحاجة قد تضطر صاحبها إلى أن يفعل ما هو ممنوع عمله، كقوله تعالى: ﴿**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** (١١٩)﴾(الانعام)، وقوله: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** (١٧٣)﴾(البقرة) أى من اضطر إلى شيء من المحرّمات وأُحوج إليها؛ وقد لايخلو الاضطرار أن يكون بإكراه من ظالم، أو بجوع فى مخمصة، كالمسلم يُؤسر فيكرهه العدو أن يأكل لحم الخنزير، أو أن يزنى؛ **والسرقة** يرخّص بها للجائع المضطر الذى لا شيء معه يشترى به، بشرط أن يأكل ما يزيل عنه الجوع ولايأخذ شيئاً فى وعاء، فلايحمل إلا ما كان فى بطنه، ويباح ذلك فقط فى أوقات المجاعة والضرورة، لأن الأصل تحريم مال الغير إلا بطيب نفس من الغير. وأباح الرسول ﷺ **أكل الميتة** بقدر ما يسدّ الرمق، وبُشرب الخمر إن ردّت فى الشارب الجوع أو العطش، وحتى البول قد يُكره عليه أو يضطر إليه، ولايجوز له قتل إنسان والأكل منه. ويجوز شرب الخمر **للعطش لا للتداوى**. وفى قوله«**غير باغٍ ولاعاد**» أنه **لايأكل فوق حاجته، ولايعتدى على أحد إلا مدافعةً لأذاه**؛ **والعادى** هو الذى يُغير على الناس، أو يقطع الطريق، بدعوى أنه مضطر، فيتمادى فى المعصية. وليس فعل المحرمات عند الضرورة رخصة، بل هو **عزيمة واجبة**، ولو امتنع المشرف على الموت من شدّة الجوع، من أكل الميتة مثلاً كان عاصياً، فإن إتلاف المرء لنفسه أشد معصية من الاضطرار إلى المحرّمات. **والخلاصة** : أن المضطر غير باغ ولا عاد ولا إثم عليه. وإذا اشتدت المخمصة فى سنَة المجاعة وأصابت الضرورة الناس، وكان عند البعض قدر كفايته وعياله، لم يلزمه بذله للمضطرين، وليس لهم أخذه منه؛ غير أن من كان عنده

مال أو طعام زائد عن حاجته ولن يضطر إليه، يلزمه بذله للمضطر، فإن لم يفعل فللمضطر أخذه منه ولو بالقتال، فإن قُتل المضطر فهو شهيد، وعلى قاتله ضمانُه. وهذا المبدأ هو قاعدة فى ثورات الخبز والطعام، وحيثما كانت الفوارق الطبقية شديدة، وتوزيع الثروة القومية مختلاً اختلالاً بشعاً كما هو الآن فى بلادنا حيث متوسط دخل الفرد أقل من دولار ونصف بينما آخرون يزيد دخلهم فى اليوم الواحد عن الآلاف المؤلفة. وفى مثل هذه الثورات إن قتل صاحب الطعام أو الثروة فدمه هدر. غير أنه فى الإسلام فإن أخْذ المال للضرورة يُلزم الآخذ عوضه عند اليسر، ويبقى فى ذمته. والمُحرم المُعدِم قد يضطر إلى ذبح الصيد وأكله، ولأنه مضطر فذبحه يكون ذكياً، والصيد يكون طاهراً.



ثالثاً: «الإسلام الجنائى»



٢٣٥٢. «الثواب والعقاب من فلسفة الإسلام»

يقول تعالى: ﴿ **تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** ﴿٣٥﴾ ﴾(الرعد)، أى عاقبة أمر المتقين الجنة، وعاقبة أمر المكذّبين النار، جزاءً وفاقاً. والثواب هو الجزاء على الأعمال خيرها وشرّها، من أثاب أى جازى، كقوله فى الثواب على الشر: ﴿ **هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾(المطففين٣٦)، وقوله فى الثواب على الخير: ﴿ **فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ** ﴾(آل عمران ١٤٨). والعقاب هو الجزاء بالشرّ، والعرب يقولون: أعقبه أى جازاه بخير، وعاقبه أي جازاه بشرّ، فالعاقبة الجزاء بالخير، والعقاب الجزاء بالشر. وفى القرآن: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ** ﴾(النحل١٢٦)، ومن أسمائه تعالى أنه قوى شديد العقاب (غافر ٢٢)، وسريع العقاب(الأنعام١٦٥)، وذو عقاب أليم (فصلت٤٣). والجزاء من جَزَى يعنى المكافأة على الشيء، وتستعمل بمعنى الثواب، كقوله: ﴿ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٨٥﴾ ﴾(المائدة ٨٥)، وبمعنى العقاب كقوله: ﴿ **كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾(البقرة ١٩١). والثواب العقاب والجزاء فى القرآن قد يكون جسدياً، أو إلهياً، أو شرعياً، أو معنوياً، أو ذاتياً، أو اجتماعياً، وفى كل الأحوال فإن الثواب والعقاب والجزاء يكون بما يلائم الطبع كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾(النساء٧٩). وفى نظرية القانون أن كل فعل مجرّم لابد له من عقوبة، وفى نظرية التعلّم أن الثواب يعزّز السلوك الصائب، والعقاب ينفّر من السلوك المشين، وأن كل كائن حيّ بما فى ذلك الإنسان ينشد الثواب ويطلبه حثيثاً، ويتعلم من خلال توقّع الثواب واجتناب العقاب.



٢٣٥٣.﴿نظرية الحدود فى القرآن﴾

الحدود جمع حدّ، وهو فى اللغة ما يحجز بين شيئين فيمنع اختلاطهما، وحدّ الدار ما يميّزها. وحدّ الشيء وصفه المحيط به المميز له. وحدود الله: هى أحكامه الواجب مراعاتها، وهى أوامره ونواهيه، وسميت «حدود الله» لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هومنها، كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** (١٤)﴾(النساء)، فالحدود أحكام قد بيّنها ليعرفها الناس ويعملوا بها، **فلا يتعدّوها**، وفى آية أخرى قال فلا يقربوها:﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا** (١٨٧)﴾(البقرة). فقسّم الحدود قسمين، منها **حدود الأمر بالامتثال، وحدود النهي بالاجتناب، والأولى**، مثل الأمر بجميل العشرة وحُسن الصحبة للزوجين؛ **والثانية**:مثل القتل والزنا، والسرقة، وشُرب الخمر؛ وفى الحالتين فإن الحدود هى التى تفصل بين الحلال والحرام، ومنها ما زجر عن فعله، ومنها ما زجر من الزيادة عليه أو النقصان منه.

•••

٢٣٥٤.﴿الحدود والدية والتعزير من مصطلحات القرآن دون التوراة﴾

هذه **المصطلحات القانونية الجنائية** من مصطلحات القرآن، ولاتوجد مبانيها فى التوراة والأناجيل وإن كانت بعض معانيها تأتى فى التوراة عرضاً،والإسلام وحده هو الذى انفرد بهذه المصطلحات بشكل واضح وصريح، ويحفل بها القرآن والسُّنّة، ومنها مصطلحات كالحرمان، والعزل، والنفى، ويوجد منها ما يشبهها فى اليهودية ، وهى من وضع **الأحبار** فيما يسمى **عهود ما بعد التوراة Post - biblical - times**، ويسمون ذلك **شريعة الأحبار rabbinic law** ،فعندهم مثلاً أن من لايقدر على الدية ولا الكفّارة فله أن يصوم . والجلد كذلك عندهم، وأقصى عقوبة جلد لا تزيد عن ٣٩ جلدة، ويعاقب به نحو ١٦٨ ذنباً.

•••

٢٣٥٥.﴿آية السرقة﴾

من سرَق يسرق سَرقاً، وأصل اللفظ هو أخذ الشيء فى خُفية من الأعين ، ومن ذلك أن تقول **استرق السمع، وسارَقهُ النظر**. وقيل: **السارق** هو من جاء مستتراً إلى حرْز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو **مختلس، ومُستلب**، من **الاستلاب، ومُنتهب** من **الانتهاب، ومُحترس** ـ والحريسة هى ما يُسرق ظاهراً، فإن تمنّع بما فى يده ـ أى تقوّى ـ فهو غاصب، وليس على أيّ من هؤلاء قَطْع .وتعقب الآية: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٣٨) **فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ**

عليه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ (٣٩)﴾(المائدة) آية الحرابة التي تقول: ﴿ إنَّما جزاءُ الَّذين يُحاربُونَ اللهَ ورسُولَهُ ويسْعَوْنَ في الأرْضِ فسادًا أن يُقتَّلُوا أوْ يُصلَّبُوا أوْ تُقطَّعَ أيْديهِمْ وأرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أوْ يُنفَوْا مِنَ الأرْضِ (٣٣)﴾(المائدة)، فبعد أخذ الأموال بطريق السعي في الأرض بالفساد، كانت: آية السرقة، وحدّ السرقة فيها هو قطع يد السارق، وكان هذا الحدّ معروفاً في الجاهلية ومعمولاً به، فلم يكن جديداً في الإسلام، وقيل إن أول من حُكم بقطع يده في الجاهلية كان: الوليد بن المغيرة؛ أما في الإسلام فكان أول سارق قطعه رسول الله ﷺ من الرجال: الخيار بن عدّي بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء: مُرّة بنت سفيان بن عبدالأسد من بني مخزوم، وقَطَع أبو بكرٍ اليمنيّ (من اليمن) الذي سرق عقد أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر، وقطع عمر ابن سَمُرة.

وظاهر الآية العموم في كل سارق، ولكن النبيّ ﷺ لم يطبق ذلك على كل سارق، فهناك نصاب لايقطع من تقل سرقته عنه، يختلف مقداره وقيمته باختلاف البلدان والأزمان. والسرقة نوعان: سرقة صغرى: كالذي يسرق ما مقداره المال القليل استغفالاً، وسرقة كبرى: وهي أخذ المال الكثير مغالبةً أو احتيالاً كالذين يسرقون الآن المليارات من البنوك في شكل قروض، ثم إن من السرقة مايوجب التعزير، وهي التي لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد، ومنها ما يوجب الحدّ وهي على ظاهر الآية كل ما له قيمة وفيه إضرار شديد بالناس وبالاقتصاد الوطني.



٢٣٥٦- ﴿متى يسمى السارق سارقاً؟﴾

يسمى سارقاً إذا سرق فاستوجب الحدّ، وذلك بأن يكون بالغاً، عاقلاً، وأن لايكون مكرهاً على السرقة مسلوب الاختيار، ولايكون فيما سرقه شبهة فلايقطع أحد الزوجين إذا سرق أحدهما الآخر، لشبهة اختلاط ماليهما، وأن يكون المال المسروق غير محرّز تماماً، فذلك ما يجعل الشبهة في المسروق فيسقط القطع. ولايقطع الخادم الذي يعيش مع المالك في بيته ويخدمه بنفسه، وليس صحيحاً أن مَن سرق من المال العام، لا يُجرّم بدعوى أن له حقاً فيه، فالضرر في المال العام لا يلحق بفرد وإنما بالمجتمع والأمة كلها والدولة برمتها. ويجرّم من يسرق من مال له شركة فيه، والذي يسرق المدين المماطل في السداد أو الجاحد للدّين، بدعوى أنه استرداد للدين، فربما كان الدين باطلاً ولا حقّ له عند المسروق منه. ولا يُجرّم من سرق طعاماً يحتاجه، وتسقط تهمة السرقة في عام المجاعة. والشركة العامة في الأشياء لاتوجب سرقتها التجريم، كالكلأ والماء والنار، وهي ليست أموالاً تُملّك ويحل بيعها وتُمّول.



٢٣٥٧.﴿لماذا يقطع الذى يسرق ما قيمته ربع دينار، ولا يقطع المختلس للملايين؟﴾

قيل الجواب: أن الاختلاس قليل بالنسبة إلى السرقة، وفى الاختلاس تسهل إقامة البيّنة، واستعادة المال المختلس، بخلاف السرقة، فبمجرد أن يخرج السارق بالمال من حيازة المالك يصعب جداً إقامة البيّنة عليه، ولايمكن الاحتراز منه، لأنه يسطو على المنازل، ويكسر الأقفال، ويهتك الأحراز، وينشر الخزائن، ولايستعصى عليه شيء رغم كل احتياطات المالك، وأما فى الاختلاس فالمختلس يفعل ذلك جهاراً نهاراً وإنما استغفالاً للمالك، فيمكن الاحتراز منه مع التنبُّه واليقظة، ولكثرة السرقات شدّدت عقوبتها عن أى من جرائم المال الأخرى، وجعلت في القليل كالكثير، والسارق يضرّ بسرقة القليل، فلو عوقب العقاب الرادع يمتنع عن سرقة الكثير. ومع ذلك فهذا التمييز بين السارق والمختلس من أقوال الفقهاء، وأما فى القرآن فالسرقة يُقصَد بها مطلق السرقة وكل عدوان على المال، وسرقة الأفكار من ذلك.

•••

٢٣٥٨.﴿جاحد العارية ليس بسارق لغة ولكنه سارق شرعاً﴾

جاحد العارية هو الذى يستعير الشيء ثم يجحده، وواقعة المخزومية مشهورة فإنها كانت تفعل ذلك مع الناس فشكوها للرسول ﷺ، فقضى فيها بالقطع، وأراد أسامة بن زيد أن يشفع فيها، لأنه لم يعتبرها سارقة. وقيل: إن إدخال النبيّ ﷺ جاحد العارية تحت اسم السارق، كإدخال سائر أنواع المغيّبات للوعى تحت اسم الخمر، فالجاحد للعارية إن لم يكن سارقاً لغةً، فهو سارق شرعاً، والشرع مقدّم على اللغة. والمهم فى هذه الواقعة ليس ما سرقته المخزومية، وإنما أنها كانت من أُسرة كبيرة فأرادوا تمييزها، فقضى الرسول ﷺ بأن الكل سواء أمام القانون.

•••

٢٣٥٩.﴿ما حكمة بداية آية السرقة بالسارق قبل السارقة، وآية الزنا بالزانية قبل الزانى؟﴾

الحكمة فى ذلك أن حب المال يغلب على الرجال فيميل بهم إلى السرقة أكثر من النساء، فبدأت آية السرقة لذلك بالسارق قبل السارقة تنبيهاً إلى هذه الحقيقة، بينما تغلب على النساء شهوة الاستمتاع، وقد تميل بهن إلى الزنا، ولذلك تفشّى الزنا فيهن أكثر من الرجال. وهذه حقيقة علمية. ثم جعل الله حدّ السرقة قطع اليد لتناول المال، ولم يجعل حدّ الزنا قطع الذكر مع مواقعة الفاحشة به، لأن السارق لديه يدان فإذا قطعت إحداهما اعتاض عنها بالثانية، وليس للزانى مثل ذكره فإذا قطع لم يعتض بغيره. والقطع غايته

الزجر فلايعود للجُرم، فلو قُطعت يد، انزجر السارق وحرص على يده الثانية، ولكن الزانى إذا قطع ذكره فماذا يفيد ذلك من الزجر؟! وأيضاً فإن القطع ظاهر فى السرقة فيذكرَ السارق باستمرار، ويرى أثره على وجوه الناس، ولكن الذكَر لو قُطع ، فقطعه غير ظاهر ولن يراه أحد ،وسينساه صاحبه. وأيضاً فإن قطع اليد ليس فيه إبطال للعمل، فهناك اليد الأخرى، ولكن قطع الذكر فيه إبطال النسل وهو حياة الرجل كلها.

●●●

٢٣٦٠. ﴿الحُرُمات قِصاص﴾

الآية : ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة) أصلٌ فى العقاب بالمثل، وخصوص الآية أن المشركين استحلوا قتال المسلمين فى الشهر الحرام اعتماداً على أنهم ممنوعون من القتال فيه، فنزلت الآية تقول: إنْ استحلّوا ذلك فقاتلوهم، فأباح الله بالآية مدافعتهم. وعموم الآية: أن مَن تُعدِّى عليه فى مال أو جرح، له أن يتعدىّ بمثل ما تُعدِّىَ به عليه إذا ظهر له ذلك، وليس بينه وبين الله تعالى فى ذلك شىء. والحُرمات فى الآية جمع حُرمة وهى ما نُمنع من انتهاكه. والحرمات قصاص قال به أحبار اليهود وحكموا بمقتضاه. والقصاص هو العقاب، والآية موجهة لعموم المسلمين، أى للحكومات والحكام، فإذا انتهكت الحرمة يُعاقَب منتهكها بقَدْرها أو بمثلها. وأمور القصاص فى الدولة الإسلامية وقفٌ على الحكومات والحكام، غير أنه فيما يتعذر إثباته بالبينة يجوز لصاحب الحق أن يتوصل إلى أخذ حقه بطريقته ما لم يعدّ سارقاً، وقيل لا يعد ذلك جُرماً وإنما هو وصولٌ إلى الحق، غير أن صاحب الحق قد لا يكون على حقّ فعلاً، ولكنه يظن أنه على حق. وفى الحديث أن زوجة أبى سفيان لمّا اشتكت من شُحّه فسألت الرسول ﷺ هل يجوز لها أن تأخذ من مال زوجها الشحيح دون علمه؟ قال لها: «خذى ما يكفيك ويكفى ولَدَك بالمعروف»، يعنى لاتجور ولاتزيد، وقوله تعالى: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» قاطعٌ فى موضع الخلاف، إلا أن العقاب موكول للجماعة فى الآية ـ أى للدولة ـ وليس للأفراد كلٌ على حدة. ومقابلة العدوان بالعدوان عدوانٌ لاشك فيه، ولكنه فى حالة الجماعة أو الأمة عدوانٌ مباحٌ.

●●●

٢٣٦١. ﴿المماثلة فى القصاص﴾

آية المماثلة فى القصاص هى الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴿١٢٦﴾﴾ (النحل)، والآية: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة) ، وكلتاهما بمعنى واحد، وهما أصلٌ للمماثلة فى القصاص، والأمر فيه وقفٌ على الحكومات

كما ذكرنا. **والقصاص البسيط قد يقوم به صاحبه، فمن ظلمك يجوز لك أن تأخذ حقك** منه بقدر مظلمتك، ومن شتمك يجوز لك أن تردّ عليه مثل قوله، بشرط أن لاتتعدى إلى الأبوين أو الأسرة والأقارب، وليس للمسلم أن يكذب على الناس وإنْ كذبوا عليه، والمعصية لا تُقابل بالمعصية، فلو قال لك أحدهم: يا كافر، جاز لك أن تقول له أنت الكافر؛ وإن قال لك: يا زانٍ، فقصاصك أن تقول له: يا كذّاب. ولوقلت له يا زانٍ، كنت كاذباً وأثمت في الكذب. و إن ماطلك دون عذر في دفع ما عليه وهو غنيٌّ، فيجوز أن تقول له: يا ظالم! يا آكل أموال الناس؛ وفي الحديث: «**ليّ الواجد يُحلّ عرضه وعقوبته**» **والليّ** هو المَطْل، **والواجد** الغنيّ، **والعرض** ما تعلق بشرفه وليس بشرف أبويه ولا أهل بيته. والمعنى أن الغنى المدين الذي يتهرّب من الدفع تحلّ إهانته، وإنزال العقاب به، وعقوبة هذا الغنى المماطل في الدفع هي السجن، وعلى صاحب الدين أن يشكوه إلى الجهات المختصة فتأتيه بحقه، فعندما توجد حكومة وقانون لايحل لأحد أن يقتص من أحد، والخطاب في الآيتين لجماعة المسلمين كما ذكرنا، أي للحكومة أو النظام الحاكم.

●●●

٢٣٦٢. ﴿جزاء العقوبة عقوبة مثلها﴾

في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ**(٦٠)﴾(الحج) أن الظالم يجازى بمثل ما ظَلَم، فسمي جزاء العقوبة عقوبة، لاستواء الفعلين في الصورة، كقوله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**(٤٠)﴾(الشورى)، وقوله: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**(١٩٤)﴾(البقرة).

●●●

٢٣٦٣. ﴿من يعمل سوءاً يُجزَ به﴾

هو مبدأ إسلامي عام، **فالكل سواء أمام المساءلة والجزاء**: البَرّ والفاجر، والعدو والولي، والمؤمن والكافر. وفي الآية: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**(١٢٣)﴾(النساء)، **والسوء** هو الجُرم أياً كان، والجزاء عليه قد يكون لمرة واحدة وقد يتعدد، وقد يقتصر جزاء التقي في الدنيا، وأما **العصيّ** فقد يتعدّد جزاؤه في الدنيا والآخرة ويجتمع عليه الجزاء في الموطنين. ولما نزلت هذه الآية أثار هذا النص جدلاً عنيفاً وانتاب الناس الخوف، **فقال أبو بكر**: كل شيء عملناه جُزينا به؟ وردّ عليه النبيّ ﷺ يفسّر الآية: «**ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء** (يعني الشدة)، **فذلك مما تجزون به. أما انت يا أبا بكر والمؤمنون، فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة**»، وقال: «**قاربوا وسدّدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفّارة، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها**».

●●●

٢٣٦٤. ﴿الجزاء بالكسب﴾

يقول تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧) ﴾(غافر) واليوم المقصود هو يوم الحساب، والكسب إما خير أو شرّ، والله لايظلم أحداً. والمعنى العام أن الجزاء بالكسب، أو بما اكتسب كلٌّ من الأعمال.

●●●

٢٣٦٥. ﴿في الدماء لافرق بين مسلم وكافر﴾

نسبوا إلى عليّ بن أبي طالب قوله عن النبيّ ﷺ: «لايُقتل مسلم بكافر»، والصحيح ما رواه ربيعة قال: إن النبيّ ﷺ قتل يوم خيبر مسلماً بكافر، ثم إن الحديث عن عليّ ينسخ القرآن وهذا لايجوز، وفي القرآن: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (٤٥) ﴾(المائدة)، أي أن النفس مكافئة للنفس، ويكافىء الطفل فيها الكبير، والإجماع على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، والمسلم بالكافر، والكافر بالمسلم، ويقتل الحر بالعبد، وفي الحديث: «من قتل عبده قتلناه»، وحتى الأب يُقتل بابنه، كما يُقتل الابن بأبيه، وجملة الآية في ذلك: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى (١٧٨) ﴾(البقرة)، والمراد بالقصاص قَتْل مَن قَتَل كائناً من كان، وحتى الجماعة تُقتَل بالواحد، وفي الحديث: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم» ، بل إن الناس جميعاً تتكافأ دماؤهم، وفي الحديث: «القتل سواء»، يعني أنه: في القتل فإن القصاص على من قتل مهما كان.

●●●

٢٣٦٦. ﴿معنى التكافؤ في القصاص﴾

قالوا إن الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ (١٧٨) ﴾(البقرة) أصلٌ في اشتراط التكافؤ في القصاص، وذهب البعض إلى أن الحر لايقتل بالعبد، والرجل لا يقتل بالمرأة، وإنما العبد يقتل بالعبد والمرأة تقتل بالمرأة. ومن قال بالتكافؤ في القصاص احتج بالآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (٤٥) ﴾ (المائدة)، فالحرّ إذن يُقتل بالعبد، كما يُقتل المسلم بالكافر والذميّ، ويقتل الذكر بالأنثى. وقيل إن علياً ذهب إلى عدم المساواة بين الحر والعبد، وبين الذكر والأنثى، ولم يثبت ذلك عن عليّ.

●●●

٢٣٦٧. ﴿القصاص قتل مَن قتل كائناً من كان﴾

الكثيرون وخاصة في صعيد مصر يقتلون بمن قُتل من لم يَقتُل، ويقتلون في مقابلة الواحد مائة، افتخاراً واستظهاراً بالجاه والمقدرة، وكان هذا هو شأن العرب أيضاً قبل

الإسلام، وقبل نزول الآية: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ**(٤٥)﴾(المائدة)، يعنى من قَتَل يُقتل، ولايؤخذ آخر بجريمته، وقد أمر الله فى الآية بالعدل والمساواة، بأن يُقتل من قَتَل لاغير.

•••

٢٣٦٨. ﴿النهى عن قتل النفس المحرمة﴾

القتل منهيٌ عنه، سواء للنفس المؤمنة، أو لأى نفس، إلا بالحق الذى يوجب قتلها: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**(١٥١)﴾(الانعام)، والكثير من الأحاديث توجب القتل فى الردّة، وعند منع الزكاة، وعدم إقامة الصلاة، وفى اللواط، **وليس فى القرآن من ذلك شىء**، كالحديث الذى يقول: «**لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى. والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**» ، فليس فى القرآن أن الثيب الزانى يُقتل! وليس فيه أن التارك لدينه يُقتل! والحديث الذى يقول: «**لايُقتل مسلم بكافر**»، يخالف القرآن مخالفة صريحة، وهو غير مبيّن للقرآن وإنما يناقضه، فالنفس هى النفس سواء كانت لكافر أو مؤمن، ويحرُم قتلها.

•••

٢٣٦٩. ﴿فى القصاص حياة﴾

الآية: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**(١٧٩)﴾(البقرة) من **الوجيز البليغ**، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال، **فلهم فى ذلك حياة**. والقصاص إذا أقيم وتحقق الحُكم فيه، ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يُقتص منه، فحييا بذلك معاً.

•••

٢٣٧٠. ﴿تحريم قتل الأولاد من إملاق﴾

كان قتل الأولاد مخافة الفقر قبل زمن الرسول ﷺ، وقبل أن تنزل الآية: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**(١٥١)﴾(الانعام)، والآية: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** (٣١)﴾ (الإسراء)، والإملاق: هو الفقر، والمعنى لاتئدوا ـ من الموءودة ـ بناتكم خشية العَيْلة، فالله هو الرزّاق، وجاء فى الآية الأولى أنه «**يرزقكم وإياهم**»، وفى الثانية «**يرزقهم وإياكم**» بحسب السياق، وفى الحالتين يُرزق الجميع، فالآباء يُرزقون من أجل أولادهم، والأولاد يُرزقون فيُرزق الآباء بهم، فقد كان من العرب فى ذلك الوقت من يئد **الإناث والذكور** خشية الفقر، ومنهم من كان يئد الإناث دون الذكور. ولاشك أن **العَزْل** نوعٌ من الوأد، والذين يعزلون يقللون من عدد الأمة الإسلامية ويشتركون فى جريمة جعل المسلمين أقلية، وأيّما زوجين من المسلمين فإن عليهما واجب

إنجاب أكثر من اثنين، لأن إنجاب الاثنين لايعدو إحلالاً، يحل فيه الاثنان محل الأبوين بموتهما، فكأن عدد المسلمين يظل كما هو، فإن قلّ الإنجاب عن اثنين قلّ عدد المسلمين بالتبعية، وإن زاد عن اثنين زاد كذلك، وواجب المسلمين أولاً إعمار الكون بالنسل ، ومع الإعمار بالنسل الإعمار بنشر العلم وإتاحة فرص العمل وتنمية الفرد المسلم، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة، والأمة الإسلامية، وبذلك تزيد أمة لا إله إلا الله زيادة كمية وكيفية، والعزل باسم **تنظيم الأسرة** وأد للكم والكيف معاً. والجدير بالذكر أن حلف الأطلنطي والولايات المتحدة قد وصفا الكثرة العددية للمسلمين بأنها **خطر استراتيجي**، ولذلك تنفق دول أوروبا وأمريكا على **مراكز تنظيم الأسرة في مصر** لتقليل عدد المسلمين. وقد حذرنا النبيّ ﷺ من **الوأد الخفي** ولو كان تحت اسم جديد هو **تنظيم الأسرة**، فقال: «**ذلك الوأد الخفي**»، وقال: «**لا عليكم ألا تفعلوا**» أي ليس عليكم جناح ألاتعزلوا وتنظّموا: «**فإنما هو القدر**»، وقال: «**وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء**».

●●●

٢٣٧١. ﴿من قُتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية﴾

هذا حديث لرسول الله ﷺ، ويعني أن وليّ المقتول بالخيار إن شاء اقتصّ، وإن شاء أخذ الديَة ـ وهي من مصطلحات القانون الجنائي الإسلامي، من وَدَى، يدي، وَدْياً، ودِيَة القاتل القتيل، وأصلها وَدْيٌ، والتاء عوض الواو المحذوفة كما في عِدَة. والدية لم تعرفها الأمم الأخرى إلا أمة الإسلام. وقوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ (١٧٨)** ﴾(البقرة)، أي من العفو أن يترك المسلم لأخيه دمه ويرضى بالدية. وعلى القاتل أداءها بإحسان من غير مماطلة، وفي الحديث: «**من قُتل له قتيل فهو بخير النّظرين، إن أحب أخذ العقل** (أي الدية)، **وإن أحبّ فله القَوَد** (أي القصاص)» أخرجه أبو داود، فكأنه قال: مَن بُذل له شيء من الديّه فليقبل وليتبع بالمعروف: ﴿**فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ (٤٥)**﴾(المائدة) فندب إلى رحمة العفو والصدقة.

●●●

٢٣٧٢. ﴿القتل الخطأ والدية﴾

من أمهات الأحكام في القرآن الآية: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ (٩٢)**﴾(النساء)، فلم يجز الله تعالى أن يُقتَل المؤمن إلا خطأ، تحريماً للقتل ونهياً عنه، وإعظاماً للقتل العمد، وإبرازاً لبشاعة

شأنه، فإن كان لايجوز لمؤمن أن يقتل مؤمناً، فأحرى أنه لايجوز البتة لكافر أن يقتل مؤمناً، وإنما خصّ المؤمن بالذكر تأكيداً لحنان المؤمن على المؤمن وإكباراً لأخوّتهما. **والخطأ**: اسمٌ من **أخطأ خطأ** إذا لم يُصنع عن عمد، **وحُكم المؤمن يُقتل خطأ هو الدية**، ولم يفرق الله تعالى بين مؤمن ومؤمن فالجميع سواء، وفى الحديث: «**المسلمون تتكافأة دماؤهم**». **والكفّارة** واجبة، وكانت **تحرير رقبة مؤمنة**، ولارقيق اليوم - وبدلاً من ذلك تكون الكفّارة مالاً يوزع على المسلمين المحتاجين، **والديّة** المسّلمة إلى أهل المقتول هى ما يُعطَى عوضاً عن دمه إلى وليّه أو ورثته، صلحاً وتسديداً، ويُعجَّل بها تأليفاً، إلا أن يبرىء ورثة المقتول، القاتل مما أوجب الله؛ وأما **الكفّارة فهى لله فلا تسقط**، وإنما **تسقط الدية** التى هى حق للورثة إذا أسقطوها. **والدية والكفّارة** كلاهما يُدفعان من مال الجانى، **فإن كان القتيل مؤمناً ولكنه من قوم من الأعداء، استحق الكفّارة فقط** من غير دّية؛ وإن كان من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق - وهذا فى الذمى والمعاهد يُقتَل خطأ، فتجب **الدية والكفّارة**. وليس بصحيح أن المرأة ديتها نصف دية الرجل لأن لها نصف ميراث الرجل، فذلك مالم تتضمنه الآية، فالمرأة والرجل على السواء فى القتل الخطأ، وكذلك فى القصاص، كقوله تعالى: ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾. وكذلك فإن **دية أهل العهد كدية المسلم**، لاتبالى مؤمناً كان أوكافراً. وإن لم يكن للقاتل مالٌ تستقطع منه كفارةٌ، فعليه **صيام شهرين متتابعين**، إلا مَن اضطر أن يفطر من عذر أو مرض أو حيض فيقضى ما أفطره. وإذا اشترك جماعة فى قتل إنسان خطأ، فعليهم كلهم الدية والكفّارة، وإن كانوا لايجدون فعلى كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين.

•••

٢٣٧٣. ﴿وجوب الدية وقيمتها﴾

العقوبات إما أدبية أو مادية، **والأدبية**: تشمل عقوبةالزنا، والقذف بالزنا والسرقة والسُّكر، وقطع الطريق، واللواط، والسحاق، والقيادة، والارتداد، ونصّ الشارع على عقوبة هذه الجرائم عقوبات مقدرة ومنصوصةٌ، وتسمى **حدوداً**. والعقوبات على الكبائر غير المقدّرة من العقوبات الادبية، وهى عقوبات مفوضة وغير منصوصة، كالعقوبة على التزوير، أى لم يُنَصّ عليها، وعُهِد أمر تقدير عقوباتها إلى القاضى، وتسمى تعزيراً. **والقصاص** من العقوبات الأدبية، ومعناه: معاقبة الجانى على جريمته فى حالات القتل، أو القطع، أو الجرح، عمداً، مثلاً بمِثْل، ولاتشمل الضرب والشتم. **والديات من العقوبات المادية**، ومعنى **الدية**: المال الواجب بسبب الجناية على النفس أو غيرها، ومنه ما قدّره الشرع، كدية النفس وأكثر الأعضاء، ومنه ما فوّض تقديره إلى القاضى.

والأصل فى الدية قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)** ﴾(النساء). وحكَمَ الرسول ﷺ بذلك، فإن شاء أولياء المقتول أن يعفوا عن القاتل فعلوا، وإن شاءوا قبلوا الدية. والجناية ثلاثة أنواع: عمدٌ محض، وخطأٌ محض، وشبهُ عمد، وتسمى كذلك عمد الخطأ.والأصل فى جناية العمد: **القصاص**، ولايثبت المال إلا بالتراضى، ويجوز أن يكون بقدر الدية أو أقل منها. وأما القتل الخطأ المحض، وشبه العمد، فالأصل فيهما الدية، ونصَّ الشارع على الدية فيهما وفى قتل العمد. ودية المسلم ألف دينار ـ يعنى ثلاث كيلوات ونصف و ٢٩ جراماً من الذهب، مقوّمة بسعر اليوم أى نحو ٣٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى، تدفع لأهل المقتول، كبيراً كان أو صغيراً، عاقلاً أو مجنوناً، سليم الأعضاء أو مفقودها، عملاً بإطلاق النص. والفرق بين الدية فى جناية العمد وجناية شبه العمد، أن الجانى فى الأولى يُمهل سنة للوفاء، وفى الثانية يمهل سنتين، ويمكن تقسيط الدية، ومن لايستطيع الدية يتحملها عنه المجتمع ممثلاً فى الدولة. ودية ابن الزنا كدية غيره من المسلمين. ويتساوى الرجل والمرأة قصاصاً ودية. وتجب **الكفّارة** فى القتل العمد، والقتل الخطأ، وشبه العمد. وكل ما لاتقدير فيه فى الدية، ففيه **الأرش** المسمى **بالحكومة**، لأنه تعويض يُختلف عليه، ويُتحاكم فيه للحكومة ولأهل الخبرة، لتقدير مبلغ الضرر، **والأرش** هو الدية، والتقدير فى الآية: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ** ﴾(المائدة٤٥)، فكأن الدية تكون لخمسة أعضاء، وأهل الشرع جعلوها قياساً ثمانية عشر عضواً من أعضاء الإنسان، هى : **الشعر** لمن يتسبب فى إزالته بحيث لاينبت أبداً وفيه الدية الكاملة؛ **والعين** : وكل ما يكون فى الإنسان اثنان ففى التسبيب فى تلفهما الدية، وفى واحد منهما نصف الدية؛ **كالأنف** ومنخاريها، ؛ **والأذنين**،وفى كل واحدة منهما النصف، ولا فرق بين الأذن الصحيحة والصماء؛ **والشفتين**؛ وفى **اللسان**: الدية كاملة؛ وفى **الأسنان** جميعها: الدية كاملة، وفى بعضها دون بعض كالثنيتين، والرباعيتين، والنابين، والأضراس؛ **والعنق** إذا كسر فمال، أو تعذر عليه البلع، فعليه تمام الدية؛ **واللحيان**: فيهما الدية كاملة، وفى الواحد نصف الدية؛ وكذلك **اليدان**؛ **والأصابع العشر**: سواء فى اليدين أوالقدمين؛ **والظهر**: فيه الدية كاملة إذا كُسر؛ **والنخاع**؛ **والثديان**: فيهما الدية كاملة، وفى أحدهما نصف الدية؛ وفى **الخصيتين والقضيب** وشفرتى فرج المرأة: فيهما الدية كاملة، وفى الواحدة النصف؛

وكـذلك فى الإليتين؛ والـقدمين؛وإذا دخل رجل على امرأة أجنبية عليه، وتسـبب لها فيما يسمى الإفضاء. وهو أن يصبح مسلك البول والغائط واحداً من فرجها، فتجب عليه الدية؛ ولكل ضلـع من الأضـلاع فى الصدرية إذا كُسر، وكذلك كل عـظم من عضو له دية مقدرة خُمس دية ذلك العضو؛ وهناك دية فى الظُفر؛ وفى الترقوة إذا كسرت؛ وفى المخ إذا أصيب بأذى دية كاملة؛ وكذلك السمع، والبصر، والشم، والتذوق، والنطق، وجميعها يطلق عليها اسـم المنـافع؛ وتجب الدية الكاملة فى الجناية على رجل بحيث يتـعذر عليه إنزال المنـى حين الجمـاع، أو يتسبب له فى الإصـابة بسلس البول، وهو رشحه لعـدم القوة الماسكة له. والقـصاص فى الشجاج - جمع شجّة - وهى الجرح بالرأس، أو الوجه، إذا كان القصاص ممكناً، وإلا فالدية، وشجاج الرجل والمرأة سواء، ومن أنواع ذلك : الخارصة : التى تقشر الجلد وتخدشه؛ والدامية: التى تقطع الجلد؛ والباضعة: التى تنفذ فى اللحم ولاتصل إلى العظم؛ والسمحاق: هى الجلدة الرقيقة على العظم، وقد يبلغها الجرح؛ والموضحة: وهى الجرح الذى يكشف عن العظم ويوضّـحه؛ والهاشـمة: وهى التى تهشم الـعظم وتكسره؛ والمنقّـلة: وهى التى تنقل العظم؛ والمأمـومة وهى التى تبلـغ أم الرأس. وإذا جنى رجل أو امرأة على امرأة حامل فأسقطت فلها دية كاملة إذا كان الجنين قد نُفخت فيه الروح، ونقل الدية إذا كان تام الخلقة ولم تلجه الروحم،أو كان عظماً، أو مضغة ، أو علقة، أو نطفة. والاعتداء على الميت له دية. وفى الضرب على الوجه فيكون للضربة أثر أسود، أو أزرق، أو أحمر، تكون الدية مخـتلفة فى كل حالة؛ وللضـرب فـى البدن نصف دية الضـرب على الوجه، وتختلف إذا كان أثر الضرب أسود، أو أزرق، أو أحمر.

•••

٢٣٧٤.﴿الدية فى الأعضاء والجروح﴾

نزلـت الآية: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ** ﴾(المائـدة) فى اليـهود وأوجبت عليهم العـقاب بالمثل، وأخطأ مَنْ جَعَل نفس العقـاب على المسلمين، لأن الآية توجب أن تؤخذ العـين بالعين،والسن بالسـن،والأذن بالأذن والجروح قصـاص، وهذا ما لايتيسر إطلاقاً. فـالاستيفاء من الجانى بما يماثل الضرر الواقع على المجنى عليـه مستحيل، لأنه فى إنزال العقاب لايجوز له أن يتعدّى إلى غيره، وهو نفس ما ذهب إليه قاضى تاجر البندقية لشكسبير، عندما طلب منه اليهـودى تنفيذ العقد بينه وبين غريمـه، وكان يقضى باستقطاع رطل من اللحم من جسمه، فاشـترط القاضى عليه أن يكون استقطاع الرطل مرة واحدة بلازيادة ولانقصـان وإلا انقلب الأمر عليه، وكان اليهودى يطمع أن يطبـق شريعته

على غريمه، وبالمثل فى هذه الآية يستحيل المماثلة فى العقاب، ولذلك استنّ الرسول ﷺ الدية فى العينين، وفى الأنف، والأذن، والسن، والشفتين، والأصابع، واليدين وسائر عظام الجسد، وفى الجروح، أخذاً بعموم القرآن وهذا أولى، وحتى اللطمة لها الدية، والمرأة فى ذلك كالرجل، فمن تصدّق بالقصاص فعفا فهو كفّارة له، . وقيل إن ذلك مقصود به اليهود، وقيل إن الآية عن اليهود تنتهى عند «والجروح قصاص»، والباقى مقصود به أمة الإسلام، غير أنه فى التلمود يوجد نفس الشىء، حيث يمكن دفع الدية، وأيضاً العفو فيكون كفّارة.

●●●

٢٣٧٥.﴿القسامة والدية﴾

القسامة لم ترد فى القرآن، والمقصود بها الأيمان، من أقْسَمَ يُقسم إقساماً، وقسامة، وهى أن يوجد قتيل لا يُعرف قاتله، فتُجرَى القسامة على المشتبه فيهم أنهم قتلوه، بشرط أن يتوافر دليل أو أثر يدل على القاتل، أو يبرر أن يُشتبه فيه، كأن تكون بين القتيل وبين المشتبه فيهم عداوة، أو أن يُقتل بين ظهرانيهم وفى حيّهم أو بلدهم، أو بالقرب من بيوتهم، ووجه القسامة: أن يختار ولىّ المقتول خمسين رجلاً من أهل هذه القرية أو الناحية ليحلفوا أنهم ما يعرفون من قتله، وأنه من معرفتهم ببلدهم متأكدون أن أحداً منها لم يقتله، وحينئذ تسقط عنهم الدية، فإنْ رفضوا أن يقسموا وجبت ديته عليهم، ونظام القسامة هذا لم يقل به الإسلام وإنما كان من الجاهلية. وكان رجلٌ من الأنصار فى زمن النبىّ ﷺ قد جاء إليه يشكو أن نفراً من قومه انطلقوا إلى خيبر وتفرقّوا فيها، فوجدوا واحداً منهم قد قُتل، ولم يُعرف قاتله، وأنكر اليهود قتله أو العلم به، فعندئذ سأل النبىّ ﷺ صاحب الشكوى: «تأتون بالبيّنة على من قتله؟ قالوا: ما لنا بيّنه؟ فقال: «فيحلفون»؟ يقصد اليهود، فلم يرضوا بأيمان اليهود، فكره النبىّ ﷺ ذلك، فوداه مائة من إبل الصدقة. وهذا الحَلف الذى سألهم أن يحلفه اليهود هو القسامة. وقيل إن القسامة فى الجاهلية أخَذَ بها أبو طالب، وفرض أن يقسم خمسون من أهل المتهم بالقتل، أنه ما قتلوه. وهؤلاء الخمسون هم الشرط فى القسامة، وعمر بن عبدالعزيز لم يجد أن القسامة شىء، فما لم يقدم أصحاب القتل بيّنة على اتهامهم، فإنه لايستطيع أن يظلم الناس بأن يجعلهم يقسمون، وهم لم يروا شيئاً أصلاً ليقسموا عليه، وقال فى هذا النوع من القتل غير المعروف فيه القاتل: أنه قتلٌ لا يُقضى فيه إلى يوم القيامة. والرأى فى القسامة رأيان: فجماعة قالوا إن للناس فى القسامة حياة، وأنها تجعلهم يخشون أن يُقتل عندهم قتيل فيكون اتهامهم به؛ وجماعة رأت أن القَوَد بالقسامة جَوْر، وأنه يخالف أصول الشرع، حيث الأصل أن لايُحلَف على شىء إلا

ما عُلم قطعاً، والمُقسِمون لم يروا القتيل يُقتل، وربما كانوا فى بلد آخر وقت أن قُتل، ولو كان الرسول قد قبل القسامة لفرضها على الناس، ولكنه لم يرض بها، وأعطى ديّة القتيل من مال الصدقة منعاً للفتنة. والخلاصة: **أن القسامة لم يقل بها القرآن، ولا الرسول، وهى ليست من الإسلام فى شىء.**

•••

٢٣٧٦.﴿الدية فى الإسلام وليست فى اليهودية ولا النصرانية﴾

القصاص فى التوراة، وليست فيها الدية، وإنما الدية عند الأحبار، وأما فى القرآن فقد اختص بها الله تعالى أمة الإسلام فقال: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ(١٧٨)﴾**(البقرة)، **والعفو** هو أن يقبل الدية فى القتل العمد، وإذا قُبلت الدية حَرُم الدم وارتفع القصاص، وعلى الولىّ أن يتّبع بالمعروف، وعلى الجانى الأداء بالإحسان، وذلك تخفيفٌ منه تعالى ورحمة كما قال: **﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ(٤٥)﴾** (المائدة)، فندب إلى رحمة **العفو والصدقة**، كما ندب إلى قبول الدية إذا بذلها الجانى. **والتخفيف** والرحمة فى الآية لأن **أهل التوراة** كان لهم القتل ولم تكن لهم الدية، ولا العفو، **وأهل الإنجيل** كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَد ولا دية، فجعل الله ذلك تخفيفاً لأمة الإسلام، فمن شاء ترك الحكومة تأخذ له حقه بالقتل، ومن شاء قبل الدية، ومن شاء عفا.

•••

٢٣٧٧.﴿الحمالة﴾

من حَمَل يَحْمِلُ وهو أن يَرْفَع الشىء، ومنه استحمل أى قَوِىَ على الحمل، والحمالة: هى أن يقع بين بعض الناس عداوة وضغائن، تتلف فيها الأنفس والأموال، ويتوقف صُلحهم على من **يتحمل** ذلك، ويسعى فى الإصلاح بينهم، **ويتحمل** ماخسروا، فيُسمى ذلك **حمالة**، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ(١٢)﴾**(العنكبوت). وكانت العرب تعرف الحمالة، وكان بعضهم يرى أنها تجب عليهم فيخرجون إلى القبائل يؤدونها عنهم، فورد الشرع بإباحتها وجعل لها نصيباً من الزكاة، واعتبر من يحملها من الغارمين، فى قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ(٦٠)﴾**(التوبة)، والغارمون:هم الذين ركبهم الدين ولاوفاء عندهم، ويُعطَى المتحمّل فى الصلاح والبرّ من الصدقة ما يؤدى به ما تحمّل به وإن كان غنياً، إذا كان ذلك فوق طاقة ماله ويجحف به فيصبح كالغريم، ومن هؤلاء كان قبيصة بن مخارق، قال: تحملتُ حمالة فأتيت النبىّ ﷺ أسأله فيها،

فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ، ثم قال: «يا قبيصة: إن المسألة لاتحل إلا لأحد ثلاثة، رجلٌ تحمل حمالة فحلّت به المسألة حتى يصيبها ثم يمسك؛ ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من العيش، ورجل أصابته فاقة حتى ليقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلّت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، فما سواهن من المسألة ياقبيصة: سُحتاً يأكلها صاحبها سُحتاً» ، فجعل المتحمّل للحمالة الذى تحل له المسألة بسببها من الغارمين الذين يحل لهم مال الصدقة تعويضاً لهم.

●●●

٢٣٧٨.﴿العاقلة﴾

العاقلة : هم الذين يتحملون العقل - أى الديّة، وسميت الدية التى يتحملون دفعها عقلاً لأنها تعقل لسان ولِىّ المقتول؛ والعاقلة هم عَصَبة الرجل، سموا عاقلة لأنهم يمنعون عن القاتل، وغير العصبة ليسوا من العاقلة، كالإخوة لأم، والزوج، وذوى الأرحام. وتحمُّل العاقلة دية الجناية كان فى الماضى، وكانوا لايضمنون القاتل إذا كانت جنايته متعمدة، والعاقلة إذن مصطلح مهجور.

●●●

٢٣٧٩.﴿القتل وأنواعه وعقابه﴾

القَتْلَ:مصدر قَتَل، ويقال «قتله الله»، و«قاتلة الله» فى مقام الدعاء عليه، أى لعنة الله، أو فى مقام المدح والثناء والاستحسان. وقاتل: يعنى حارب، والقَتْل: هو الإماتة، ومجازاً الضرب الشديد؛ والمَقْتل:موضع القتل. والقتل يجىء فى القرآن على أقسام، ومنه: القتل العمد، والقتل شبه العمد؛ والقتل الخطأ؛ والقتل القضاء: نحو أن ينقلب النائم على شخص فيقتله أو يقع عليه من علو؛ والقتل بالسبب : كحفر بئر يتسبب فى قتل إنسان؛ والقتل من غير المكلّف. والقتل بغير حق محرّمٌ، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿١٥١﴾ ﴾ (الانعام)؛ وكذلك القتل العمد، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴿٩٥﴾ ﴾(المائدة)، كأن يضرب الجانى القتيل ضرباً مبرحاً فيه موته،فيجب فيه القصاص، أو أن يضربه ضرباً خفيفاً ولكنه يموت به لضعفه، ففيه القَوَد؛ وإن كانت الوفاة لغَير ذلك فهو عمد الخطأ وفيه الدية؛ إلا أن يصغر الضرب جداً، كأن يكون مجرد صفعة على الوجه، أو وكزة يموت بها كما جرى مع موسى والأشورى فى مصر، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴿١٥﴾ ﴾(القصص)، فذلك اعتداء لا يُتوهم القتل فيه، ويسمى قتلاً شبه عمد، أو قتلاً عمداً خطأ، وقتلا خطأ عمداً،وفيه الدية ولا قود فيه. ويجب الضمان فى القتل بالسبب. ولا قصاص على مَن يقتل من وجده يزنى بامرأته، ولا دية عليه،

وإن كانت المرأة مطاوعة فلا **ضمان** عليه فيها، وإن كانت مكرهة فعليه **القصاص**. ولايثبت القتل **بالشهادة**، إلا إذا كان تعبير الشاهدين لا شبهة فى دلالته. وفى **قتل العمد** لا تُقبل إلا شهادة رجلين عدلين، **وفى القتل الخطأ والجائفة** ونحوهما، تقبل شهادة رجل وامرأتين. ولاتقبل شهادة **ورثة المجنى عليه**. ومن قدر على إحياء نفس فـفرّط فى ذلك، كأن يمنعه الطعام والشراب مع غناه، **فعليه الضمان**، وكذلك من رأى إنساناً **فى مهلكة** فلم يُنجه منها مع قدرته. وإذا أرسل وكيل النيابة إلى امرأة يطلبها للتحقيق أو فى تهمة، وكانت **حاملاً فأسقطت** خوفاً وفزعاً، وجبت ديّتها على **الدولة**. و من يروّع إنساناً **فيتسبب فى موته فعليه الضمان**. ولو زنى رجل بامرأة **مكرهة، فحملت** فماتت من الولادة، ضمنها، وعاد أهلها **بالتعويض** على ماله. وإن **شهد** رجلان على رجل بما يوجب قصاصاً، أو حدّاً، فأقيم عليه، **فأفضى** إلى موته، ثم رجعا عن الشهادة، لزمهما ضمانه. وإن **ضرب** معلم تلميذه فمات، فعليه ضمانه، وفيه **القود**، إلا إن كان الضرب بسيطاً ولكن الولد لم يحتمله لأسباب أخرى ففيه **الديه**. وإن جنى اثنان على شخص، **فالقاتل** منهما هو من ضربه بحيث أخرجه من حكم الحياة . ولايقبل القول **بالدفاع المشروع** فى القتل إلا إذا أثبت القاتل ذلك بالبيّنة، فإن ثبت مثلاً أن من دخل بيته لم يدخله بسلاح، وأنما يقصد السرقة، ولكنه مع ذلك قتله، فعليه القصاص، وإن كان معه سلاح فقتله به، فدمه هدر، ولا قصاص ولا دية عليه. **والدفاع عن النفس، أو العرض، أو المال**، لايكون إلا بأسهل ما يعلم أنه يمكن أن يدفع به، فإن استخدم أداة لا تناسب ذلك **فعليه ثلث الدية**، وإن لم يتيسر له مدافعة إلا بالقتل، أو خاف أن يبدره بالقتل إن لم يقتله، فله قتله ودمه هدر. وإن أراد رجلٌ امرأةً على نفسها، فقتلته، فلا شيء عليها، ويجب أن تدفع عن نفسها ولو تأدّت إلى قتله. وأما من أُريدت نفسه أو أريد ماله، فلا يجب عليه **قتال المعتدى**، فإن أمكنه الهرب وجب عليه، وإن لم يمكنه واضطر إلى قتله فله ذلك. ولاقصاص على **قاتل المحارب**، ولادية، ولاكـفّارة ويجب القصاص على **السكران** إذا قتل حال سُكره. ولا قصاص على **المجنون**، ولا على كل زائل العقل **بسبب** يعذر فيه، كالنائم، والمغمى عليه. والدماء أحق ما احتيط له فى الإسلام، والأصل صيانتها فلا تستباح إلا لأمر بيّن لا إشكال فيه. والقتل فى القرآن يقصد به **القتل الخطأ والقتل العمد**، وقال الفقهاء **بقتل شبه عمد**، مثل الضرب المُفضى إلى **الموت** الذى لايقصد به الضارب القتل إلا أن الموت يتحقق به. وقيل فى **القتل شبه العمد**، أنه ضرب يتردد بين العمد والخطأ، **فحُكم** له بشبه العمد فالضرب مقصود والقتل غير مقصود وإنما وقع بغير القصد، **فيسقط القَود وتُغلّظ الديّة**. ومثله القتل فى مشاجرة يتحارج فيها قوم مع آخرين، فيقتل بعضهم بعضاً، ولايعرف القاتل تحديداً، فذلك هو «القتل فى عمية» كما

فى الحديث، أى القتل الذى يعمَى أمرُه ويلتبس فلا يُعرَف القاتل، وفيه الديّة المغلّظة. والدية تلزم الجانى فى ماله فى القتل العمد، وشبه العمد، وفى قتل العمية تلزم الجماعة التى تسبب أفرادها فى قتل القتيل. والقاتل عمداً عليه الكفّارة إذا عفى أهل القتيل عنه فلم يُقتل بمن قتل، كقوله تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ(١٧٨)﴾**(البقرة)، فأما إذا اقتُصّ منه بالقتل فلا كفارة عليه، لأن الكفّارات لاتجب إلا حيث أوجبها الله، وفى القتل العمد وشبه العمد لم يوجب الكفارة. وفى توبة قاتل العمد ـ قال البعض ـ إنه لاتوبة له، والصحيح أن له التوبة لأنه تعالى يقول: **﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ(٤٨)﴾**(النساء)، ويقول: **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ(١١٤)﴾** (هود)، ويقول: **﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ(٢٥)﴾**(الشورى)، وحلٌّ هذا الإشكال يكون بالجمع بين المعنيين: فجزاء القتل العمد كذا، إلا من تاب فهو فى المشيئة، إن شاء عاقبة الله تعالى، وإن شاء عفا عنه.

●●●

٢٢٨٠.﴿الجنون والمسئولية﴾

الجنون: زوال العقل؛ والمجنون هو فاسد العقل، والجمع مجانين؛ والجنون المُطبق هو التام، ومعنى ذلك أن هناك جنوناً غير تام، كأن يكون فساد العقل فى مجال دون بقية المجالات، كما فى البارانويا وهى جنون الاضطهاد أو العظمة. والرسول ﷺ اتهموه بالجنون، فقد اعتبروا الإغماءة التى كانت تأتيه عندما يُوحَى إليه نوعاً من الصَرَع، وقالوا فى الوحى إنه من الهلاوس، وما يزال اليهود والنصارى يزعمون ذلك حتى اليوم، كقوله تعالى: **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾**(الحجر)، والحق أن هذا الزعم لم يقتصر على نبيّنا بل تعدّاه إلى كل الرسُل، كقوله تعالى: **﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)﴾**(الذاريات) . وما كانوا مجانين، ولاكهنة، ولاسحرة، وإنما كانوا أنبياء من لدن عليم حكيم، قال تعالى: **﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾** (التكوير)، وكيف يكونون مجانين وهم مشرّعون، وحكماء، وأطباء نفوس وأبدان، ومبشّرون، ومنذرون؟! والمجنون إن أسلم أو تنصّر أو تهوّد لايصحّ منه أىٌّ من ذلك، وفى القرآن من حالات المجنون: **﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ(٢٧٥)﴾**(البقرة)، والمسّ أو الخُباط حالة من حالات الحواز، ولم يكن النبىّ ﷺ به شىء من أعراضه. والمجنون لايؤاخذ بالردّة، ولايجب عليه الصيام، ولاالصلاة، ولاالزكاة، لأنها جميعاً لاتجب إلا على العاقل، وليس له أن يتزوج ولا أن يزوّجه الناس، ولا يصحّ منه طلاق، ولا حق لمجنونة فى طلب الخلع، ولا فى حضانة طفلها، ويحجر على المجنون، ولا تصح وصيته، وعمده خطأ، ويُكفَّر من ماله إذا جنى بقتل إنسان، ولاتقبل شهادته.

●●●

٢٣٨١. ﴿القصاص والقَوَد﴾

القصاص: هو الجزاء على الذنب، تقول قاص قصاصاً يعنى أوقع به القصاص، وجازاه وفعل به مثلما فعل، والقَوَد: القصاص، وقَتْل القاتل في مقابل القتيل. ونصّ الشارع على القصاص فى الكتاب والسنّة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(البقرة١٧٨)، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(البقرة١٧٨)، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(المائدة٤٥)، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣)﴾ (الإسراء٣٣)، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى ٤٠)، وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(البقرة١٩٥)، وفى الحديث: «لو اجتمعت ربيعة ومضر على قتل امرئى مسلم قيدوا به» ويجب القصاص فى حالتين: قتل النفس، وما دون القتل كقطع عضو كالأنف أو الأذن أو الجروح. ويجب القصاص فى القتل العمد، وأما قتل الخطأ وشبه العمد فيوجبان الدية. واشتراك أكثر من واحد فى القتل يوجب الحكم عليهم بالقتل؛ وقيل لا يقتل أبٌ ولا أم بولدهما. ولا قصاص على المجنون، والصبى وإن كان مميزاً. ويسقط القصاص فى حالات الدفاع المشروع، وعند العفو، وإن عفا بعض الورثة صحّ عفوهم وسقط القصاص، ويبقى لبقية الورثة الدية. ويصحّ عفو المقتول قبل موته عن الجانى، وعفو المريض مرض الموت، وعفو المفلس، والمحجور عليه لسفه، والعفو عن بعض المشتركين فى القتل دون البعض، وعفو ولىّ الصغير والمجنون، ويُقبل الصلح عن القصاص بالمال، وبأكثر من الدية. ولاقصاص على شريك القاتل خطأ، ولا على حامل قبل وضعها، ولا على من قتل أحداً من أهل البغى، ولايقتص الشخص من نفسه.

●●●

٢٣٨٢. ﴿القصاص فى العين والأنف والأذن والسن﴾

فى قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ(٤٥)﴾(المائدة) دلالة على جريان القصاص فيما ذُكر، فإذا كانت الإصابة عن خطأ ففى ذلك الدية، ولاخلاف بين أهل الطب على أن المماثلة فى القود مستحيلة ومن ثم تكون عل الجانى الدية، ويُختلَف فيها، والأولى أن تتوسط فيها الحكومة - أى أن يؤخذ فيها التحكيم. وفى الآية النصّ على أمهات الأعضاء وتركت بقية الأعضاء للقياس عليها، فكل عضو فيه قصاص إذا أمكن ولم يخش عليه الموت، فإذا خشى فيه الموت، أو اضطراب العقل، أو أن يصاب عضو آخر من أعضائه، وما إلى ذلك، ففيه الدية.

●●●

٢٣٨٣. ﴿الجروح والقصاص﴾

الجرائم التي توجب القصاص على نوعين: قتل النفس، وما دون القتل، كالجروح، كقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ (٤٥)﴾(المائدة) أى متقاصة مثلاً بمِثل، وكلما كانت المماثلة ممكنة، وسواء كانت الجروح معها قطع عضو أو لم يكن. وشروط قصاص الجروح مثل شروط قصاص القتل، ومَنْ يقتص منه فى قتل النفس، يُقتص منه فيما دون النفس، ومن لا يقتص منه فى قتل النفس، لايقتص منه فيما هو دونها؛ ومن هذه الشروط أن يكون المعتدى بالغاً عاقلاً، والمعتدَى عليه محقون الدم، والمعتدِى ليس أباً. ويتحقق العمد: بالمباشرة والتسبيب، وبترتب الجرح مع قصده وإن لم تكن الآلة جارحة، أو بقصد الضرب المؤدى إلى الجرح وإن لم يكن الجرح مقصوداً. ويُقتصّ للرجل من الرجل مِثلاً بمِثل، وللرجل من المرأة إذا جنت عليه مثلاً بمِثل، وللمرأة من الرجل إذا جنى عليها مثلاً بمِثل، وإن شاءا أن يصطلحا على مبلغ من المال فلهما ذلك، وليس صحيحاً أن المرأة لها نصف دية الرجل، وأنه إذا قطع لها أربع أصابع لايقطع له نظيرها إلا إصبعان فقط، والصحيح أن المرأة تقتل بالرجل، ويُقتل بها، لأن النفس بالنفس إطلاقاً، وهما يتساويان قصاصاً ودية. ويقاد فى جراح العمد إذا كان ممن يمكن القَوَد منه، وأما الخطأ فالدية، وإذا كانت الدية فى قتل الخطأ فكذلك فى الجراح.

●●●

٢٣٨٤. ﴿الضرب كقصاص﴾

الضرب من باب القصاص، ولاقصاص فى الضرب الذى لايجرح، كاللطم والوكز، وقد ضرب موسى الأشورى بأن وكزه فقتله، ولم يكن عليه قصاص ولا دية، والملائكة تلجأ أحياناً إلى الضرب كما فى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ﴾ (محمد)؛ وفى الحروب يباح الضرب المقصود به القتل، كقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ (١٢)﴾(الانفال)، ويُسمح بضرب المرأة إذا نشزت كقوله: ﴿ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ (٣٤)﴾(النساء)، وضرب المرأة هو الضرب للتذكير وليس على سبيل الإيلام، وهو ضربٌ غير مُبرِّح، لايكسر عظماً، ولايشين جارحة، كاللَّكزة ونحوها، والمقصود به الصلاح وليس العقاب، كضرب المؤدِّب للصبيان فى المدرسة، وقد أمر الرسول ﷺ بالتَّقوَى فى النساء، وقال في الناشزات: «فأضربوهن ضرباً غير مُبرِّح» أخرجه مسلم، واشترط لهذا الضرب شروطاً فقال: «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة»، وقال: «فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولايأذنّ فى بيوتكم من تكرهون»، وقال: «اضربوا النساء إذا عصينكم فى معروف ضرباً غير مبرح»، فاشترط المعروف. وعرّف ابن عباس هذا النوع من الضرب

للنساء فقال: بالسواك ونحوه ـ يعنى أن تسميته بالضرب تجاوزاً ، والصحيح أنه أمرٌ بلفت نظر المرأة إلى الخطأ بتنبيهها حسّياً. والخطاب فى الآية للمؤمنين المتقين وليس لعامة المسلمين، ويختلف حال كل امرأة مع زوجها بحسب رفعتها أو دناءتها، فأدب الرفيعة الوعظ، وأدب الدنيئة أن يلفت نظرها بأكثر من الوعظ والهجر. والضرب الذى يترك علامة فى الجسم فيه حكومة ـ أى تحكيم، وغرامة تتناسب مع ما فى الجلد من علامات، فإن تسبب الضرب فى جروح للزوجة من زوجها، أو للابن من أحد أبويه، أو للتلميذ من معلمه، استوجب حكومة وغرامة تتناسب مع ما يتركه الضرب من علامات بالجسم، لأن الضرب عدوان وقد نهى الله عن العدوان، وأما الضرب الذى يؤدى إلى إصابات، كقطع عضو أو مجرد جروح كبيرة أو صغيرة، فذلك يستوجب القصاص.

●●●

٢٣٨٥. ﴿الحبس كقصاص﴾

الحبس مشروع فى الإسلام، كقوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾(المائدة ١٠٦)، ويمكن أن يكون كتعذير على الجنايات التى لاحدّ لها، ويُحبس السارق للمرة الثانية حبساً مؤبداً، ويُقضَى بالسجن المؤبد حداً لا تعزيراً على من يمسك شخصاً ليقتله آخر. ومن الجائز حبس الفسّاق من العلماء، والجُهّال من الأطباء، والمفاليس الذين لايعملون لتغيير أحوالهم، ويُحبس الغاصب، وآكل مال اليتيم ظلماً، وخائن الأمانة. ويُفرَج عن المحبوسين فى الدَّين كل جمعة، وأيام الأعياد، ويُرسل معهم حُرّاس، فإذا قضوا الصلاة والعيد ردّوهم إلى السجن؛ وكان النبىّ ﷺ يحبس فى تهمة الدم ستة أيام على ذمة التحقيق، ، إلى أن تظهر براءة المتهم بالبيّنة. ومن كان له مال ظاهر وعليه ديون، يجوز للحاكم أن يحبسه حتى يؤدى ما عليه، كقوله ﷺ «الواجد تحل عقوبته وعرضه».ويحبس من يخلّص قاتلاً حتى يُعاد؛ والكفيل الذى يكفل إحضار مطلوب للعدالة؛ والآمر بالقتل المحرّض عليه يُحبس حبساً مؤبداً، ويُقتل المباشر للقتل . ويُسجن العراف والكاهن إلى أن يقرّا برجوعهما عن غيّهما؛ والغريم إلى أن تثبت عدالة الشهود بالحق.

●●●

٢٣٨٦. ﴿لامَساس هو الحكم فى صاحب البدعة﴾

لمّا عاد موسى من الجبل ومعه ألواح التوراة، وجد اليهود يعبدون عجلاً من الذهب ويحتفلون حوله، وكان السامرى قد صنعه لهم لمّا طالت عليهم غيبة موسى، وكان قد طلب من اليهود أن يعطوه حَلىّ المصريين الذى سرقوه، فقذفه فى النار، وسبك عجلاً وكان قد قبض قبضة من أثر الملك جبريل فى لقائه بموسى دون أن ينتبه إليه أحد، وألقى

بتراب القبضة على ما سبكه، فصار للعجل خوارٌ أوصفير، ولكنه ليس عجلاً على الحقيقة وإنما صنم فى هيئة عجل على طريقة المصريين وغيرهم من الشعوب فى التعبّد للعجول، فكانت تهمة الســامرى أنه صاحب بدعة وليس مرتداً، وقضى فيه موسى فقال: ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) ﴾(طه). وفى الآية ثلاثة أحكام: الأول: فكما أخذ السامرىَ من أثر الرسول ومسّ ما لم يكن له أن يمسّه، فعقوبته فى الدنيا أن يقول«لامساس» Touch me not، وبالعبرية herem أى محرمٌ، ومعنى «لامساس» أن عليه أن لايمس الناس ولايمســونه، يعنى يُعزل، والعزل عند الأحبار وليس فى التوراة. والحكم الثانى: يتضمن عقوبته يوم القيامة، وموعده معها لن يُخلَفه. والحكم الثالث: يشمل العمل البدعى ـ وهو السبب فى الحكم. وقيل فى «لامساس»: أن لايخالطه الناس ولايكلموه، ولايعاملوه، ولايُبايَع، ولا يُشارَى، وفى ذلك إجبار له على أن ينفى نفسه اختياراً .ولَعَمْرِى إنه لحكم رادعٌ أقوى من القتل أو السجن، وفيه ما يسميه الفلاسفة «الغُرْبة فى الوطن»، يعنى أن يكون فى وطنه ومع ذلك فهو كالغريب أو أنكى!

●●●

٢٣٨٧.﴿آية المحاربين﴾

هى الآية: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾(المائدة)، فإن الرسول ﷺ لمّا سرق العرَنيون ـ من عُرَينة ـ لقاحه فــمل أعينهم بالنار، كما قال المتقوّلون، والصحيح أن الاتجاه بين المسلمين كان إلى الاقتصاص منهم بهذه الطريقة، فنزلت الآية تنهى عن ذلك، ولم يحدث أن سمل النبىّ ﷺ أعين أحد كقصاص؛ وحكاية السمل هذه من الإسرائيليات التى روّج لها ضعاف الرواة وأعجبت المستشرقين. قيل: فلما عاتبه الله أنزل فى ذلك الآية، فلما وعظَ ونُهىَ عن المُثْلة لم يعد. وقيل كان سَمْله لأعينهم لأنهم سملوا أعين رعاته، فكان هذا قصاصاً كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة ١٩٤)، فلما مثّلوا مُثّل بهم. وحُكم الآية مترتب فى المحاربين من المسلمين.

واسم المحارب يصدق على من يعتدى على المسلمين فى أنفسهم وأموالهم دون سبب من عداوة أوثأر . والمغتال كالمحارب، وهو الذى يحتال فى قتل إنسان ليأخذ ماله، كأن يطعمه السٍّم. ويقام الحدّ على المحارب بقدر فعله، فإن أخاف السبيل، وأخذ المال، قُطعت يده

ورجله من خلاف؛ وإن أخذ المال وقَتَل، قُطعت يده ورجله ثم صُلب؛ فإذا قَتَل ولم يأخذ المال - قُتل؛ وإن هو لم يأخذ المال ولم يقتل - نُفي. وما كان فى القرآن «أو» فللمشرّع فيه الخيار. وفى الحديث: «من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يده للأخذ، ورجله للإخافة؛ ومن قتل فاقتله؛ ومن جمع ذلك فاصلبه» ويبقى النفى للمخيف فقط. والنفى هو الخروج من دار الإسلام هرباً ممن يطلبه. والمحارب الذى يقطع الطريق تجب مقاتلته. ويستثنى من ذلك من تاب قبل أن يُقدَر عليه، فيسقط حقّ الله فيه، ويبقى القصاص وحقوق الآدمين فلا تسقط. وهذه المواد من قانون العقوبات الإسلامى لم يُعمل بها لا فى عهد النبىّ، ولا فى عهد الخلفاء الأربعة، وكان فرضها فى القرآن للتخويف، ولم يطبقها إلا ولاة الدولة من بعد ذلك فى عهود الانحطاط وفى بلاد العجم. وتغليظ العقوبة كان أنسب فى بداية الدولة الإسلامية، وينجى منها إعلان المحاربين للتوبة.

•••

٢٣٨٨. ﴿التعزير والحدود﴾

التعزير بمعنى المنع، كقوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩)﴾(الفتح)، أى: تنصروه وتمنعوه وتزودوا عنه؛ ومنه التعزير فى الشرع، لأنه مانع، وهو التأديب على الذنب إذا لم يكن فيه حدّ ولاكفّارة. والتعزير غيرموجود فى التوراة، ولكن الأحبار قالوا به وحكموا بمقتضاه. والمعاصى أنواع: منها ما له حدّ ولاكفّارة فيه، ومنها ما فيه كفّارة ولا حدّ فيه، ومنها ما لاحدّ فيه ولا كفّارة، وهذه هى المقصودة بالتعزير؛ وقيل: الأصل فيه أن النبىّ ﷺ حبس متهماً حبساً احتياطياً إلى أن تظهر الحقيقة. وعزّر عمر وأدّب، ولجأ إلى حلق الرأس، والضرب، والنفى، وحرق حوانيت الخمّارين. ويختلف التعزير عن الحدّ، فالناس فى الحدود سواء، ولكنهم فى التعزير يختلفون بحسب منزلة كلّ ومكانته الاجتماعية، ونوع الزّلة التى ارتكبها، وما إذا كانت أول زلّة أم أنها تكررت معه، وهل هى متعمدة أم أنها كانت عن حُسن نية، وفى الحديث: «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود». والتعزير مخصوص بالعثرات، ومنه التوبيخ، والوعظ، والحبس، والنفى، والعزل، فهو عقوبة خفيفة مقارنةً بالحدود، وفى الجلد مثلاً لا يجوز أن يزيد على عشر جلدات، ويجوز التعزير بالغرامة المالية، وللقاضى أن يعزّر، وكذلك الأب، والزوج، وصاحب العمل، والمعلّم فى الفصل، بشرط عدم الزيادة فيه وإلا اعتبر متعدياً.

•••

٢٣٨٩. ﴿عمر أول من حبَس فى السجن فى الإسلام﴾

اشترى عمر دار صفوان بن أمية بأربعة آلاف وجعلها سجناً، فكان عمر أول من حبّس

فى السجن فى الإسلام. والمحارب الذى يُحكم عليه بالنفى يُغرَّب إلى بلد آخر ويُحبَس فيه، ولذا كانت الحاجة للسجن. والسجن من العقوبات بالتعزير.

●●●

٢٣٩٠.﴿الزنا فى اليهودية والنصرانية والإسلام﴾

الزنا فى اليهودية:هو الاتصال الجنسى غير الشرعى، وعقوبته القتل: «فأيّما رجل يزنى بامرأة قريبة فليقتل الزانى والزانية، وإن ضاجع زوجة أبيه، أو زوجة عمه، أو زوجة أخيه، فليقتلا كلاهما، وإن زنا بحماته فليحرق الاثنان (الاحبار٢٠ / ١٠ـ٢١)، وإن زنا بامرأة متزوجة يقتل معها، وإذا زنا بفتاة بكر مخطوبة يُرجمان بالحجارة حتى الموت، فإذا ضاجعها غصباً يقتل وحده، وإذا لم تكن الفتاة بكراً ولم تخطب، فعلى الذى زنا بها أن يتزوجها ويمهر أباها تعويضاً، وليس له أن يطلقها أبداً».(تثنية الاشتراع ٢٢ / ٢٣ـ٢٩): وفى المسيحية أمر المسيح أن لاتُطلّق المرأة إلا لعلّة الزنا، وإذا طلّقها لغير ذلك فقد جعلها زانية، ومن تزوّج مطلقة فقد زنا، وصرف المسيح الزانية لما أحضروها ليه ليدينها، ورفض أن يأمر برجمها كما فى ناموس موسى، وقال لمن قبضوا عليها وأحضروها إليه، أنهم لايحق لهم رجمها لأنهم خطّاءون مثلها، وإدانتهم لها إدانة بحسب الجسد (يوحنا٨ / ٣ـ١٦)، ومذهب المسيح فى الزنا أكبر من ذلك: فالذى ينظر إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه(متّى٥ / ٢٧ـ٢٨) . والزنا عند إرميا يوجب طلاق المرأة، وشبّه بها شعب إسرائيل وشعب يهوذا لّما تركا عبادة الله واستسهلا عبادة الأحجار، فكان كامرأة قد زنت، فاستحقا التبرؤ منهما كالتبرؤ من الزانية. (إرميا٣٠ / ٨ـ٩)، فأضاف إرميا إلى معنى الزنا معنى «مجازياً»، هو الانحراف عن عبادة الله إلى التعبّد للأوثان. وهذا الاتجاه المجازى أخذ به حزقيال فقال عن السامرة وأورشليم أنهما زنتا، والمقصود أنهما تعبّدتا لأصنام أشور. والغريب فى كلام حزقيال أنه ينسب ما تعلّموه من الزنا ـ أى عبادة الأوثان ـ إلى مصر، مع أن اليهود لم يدخلوا سوى أرض جاسان (محافظة الشرقية)، وكانت أصلاً مستعمرة أشورية !(حزقيال ٢٣ / ٣٧ـ٤٣): ونفس الاتجاه المجازى قال به هوشع، فنسب الزنا إلى يهوذا وإسرائيل على زعم أنهما عبدا أصنام أشور (هوشع٢ / ٢ـ١٣) . والخلاصة: أن الزنا مرفوض عند اليهود، ولكنه مكروه عند النصارى ولا عقاب عليه. وأما فى الإسلام فالزنا مُحرَّم، ومن الكبائر، ويعاقب عليه فى القرآن بالجلد فى الدنيا، وقيل فى السُّنّة بالرجم للمحصن والمحصنة، والجلد مائة جلدة لغير المحصن وغير المحصنة، والتغريب عاماً،وهو للرجل دون المرأة .وعقوبة القرآن وهى الجلد لاشبيه لها فى اليهودية ولا فى النصرانية، وهى عقوبة تتوسط الإفراط فى القتل والرجم فى اليهودية، والتفريط واللاعقوبة فى النصرانية.

●●●

٢٣٩١.﴿آيات الجلد، والحبس، والأذى﴾

آية الجلد للزنا هي الآية: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② ﴾(النور)، وكما ترى فإنها في حدّ الزاني البالغ؛ والزنى: هو الوطء في الفرج من غير نكاح، ولاشبهة نكاح، وبمطاوعة المرأة.

وآية الحبس في اللواط الأنثوي هي الآية: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ⑮﴾(النساء)، واللواط الأنثوي، أي المساحقة، يكون بين المرأة والمرأة، وأطلقت عليه الآية اسم الفاحشة، وفي الطب النفسي هو أيضاً السحاق يكون بين النساء، فتساحق المرأة المرأة في فرجها. وآية الأذى في اللواط بين الذكور هي الآية: ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ⑯ ﴾(النساء)، واللواط: هو أن يأتي الذكر الذكر في الشرج كما كان يفعل قوم لوط. والآيات الثلاث كما ترى، مختلفات في العقوبة وفي موضوعها.



٢٣٩٢.﴿اللواط عند الذكور والإناث ليس بزنى ولكنه فاحشة﴾

اللواط: هو إتيان الذكر للذكر من الدُّبر، وهو شذوذ جنسي يدفع إليه اضطراب في الشخصية، له أسبابه الفسيولوجية والتربوية، وله أصوله في الميول والاستعدادات. واللواط في الذكور يقال له «السحاق» في الإناث، وهو أن تساحق الأنثى الأنثى في الفرج، ويسمى أيضاً «اللواط الأنثوي» **female sodomy**، و«اللزبيانية» **Lesbianism**، نسبةً إلى امرأة من لزبوس **Lesbos**ـ إحدى جزر اليونان، وكانت كما قيل شاعرة تشبّب بالنساء وتأتيهن، وتشجّع على ذلك، فسمي الاضطراب باسمها، فيقال **Saphism**، نسبةً إلى اسمها سافو **Sapho**. ويجيء الحديث في هذا النوع الأنثوي من اللواط في الآية: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ⑮ ﴾ (النساء)، وقوله «اللاتي» للمؤنث، دليل على أنه فاحشة يمارسها النساء مع النساء، لأن «اللاتي» للجمع، فالممارسات يكن جمعاً من النساء عادة. والشهادة بأربعة تغليظاً على المدّعي، وستراً على العباد. وحُكم اللواط، الأنثوي والذكري، في التوراة هو القتل (الأحبار ٢٠ / ١٤). ولاخلاف أن الشهود ينبغي أن يكونوا عدولاً. وأما آية اللواط عند الذكور في القرآن فهي: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ⑯ ﴾(النساء) وقوله «واللذان» هو

دليلنا على أنهما اثنان من الذكور. والعقاب فى حالة الإناث بالحبس فى البيوت، وفى حالة الذكور بالإيذاء وهو التوبيخ وغيره.

●●●

٢٣٩٣.﴿الجلد عقوبة الزانى والزانية﴾

كان الزنا معروفاً فى اللغة قبل الشرع، مثله مثل السرقة والقتل. ويقال الزنى والزنا: وهو اسمٌ لوطء الرجل المرأة فى الفرج من غير نكاح ولاشبهة نكاح، وبمطاوعتها، وعندئذ يجب الحدّ، وهو مائة جلدة، بشرط أن يكون الزانى حراً بالغاً، والزانية حرة بالغة ،فإن كانت أمة فالحد خمسون جلدة، لأن الأمة إن أتت بفاحشة فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب، وكذلك العبد .ولايصح الجلد والرجم معاً،ولا الرجم وحده، ولم يرد بذلك نصّ، وإن كان البعض يقول إنه ثابت بالسّنّة، فلما كان القرآن يقضى بالجلد، فإن من يقول بالرجم فقط يخالف القرآن، وكذلك من يقول بالجلد والرجم . والدولة هى السلطة المخاطبة بتوقيع العقوبة وليس الأفراد، وكذلك خوطب بها عامة المسلمين، لأن إقامة الدين واجبة عليهم، ثم الدولة تنوب عنهم، والقاضى والشرطة ينوبان عن الدولة. ويشترط فى الجلد أن يكون مبرحاً، يُنفرّ الزانى من إتيان الجُرْم مرة أخرى، ولكنه لايجرح، ويكون فى الظهر. والجَلْد ليس من عقوبات الزنا فى اليهودية وعقوبته عندهم الرجم.

●●●

٢٣٩٤.﴿ثبوت الحد بالإقرار أو الشهود﴾

الإقرار بالزنا سيد الأدلة، ويكفى فيه اعتراف الزانى أو الزانية مرة واحدة، والبعض يشترط لصحة الإقرار أن يتكرر من المعترف أربع مرات، سواء كان فى مجلس واحد أو مجالس متفرقة، فإن أقرّ الزانى أنه زنى بامرأة فكذّبته فعليه الحدّ دونها، ولايصحّ الإقرار إلا من بالغ عاقل، وأن يكون من الممكن أن يقع الوطء منه فى وقته، ولو أقرّ بالزنا فى وقت معين لايتصور وقوعه منه فيه لم يصحّ إقراره، ولو قامت بيّنة عليه فهى كاذبة، وإن أقرّ ثم رجع فى إقراره أو هرب تُرِك.

ويشترط لشهادة الشهود أن يكونوا أربعة ذكور عدول مسلمين، يصفون الزنا ويعيّنون الزانى والمزنّى بها،ومكان الزنا، وإن لم يكمل عددهم أربعة فعليهم حدّ القذف، وإن رجعوا عن الشهادة، أو رجع واحد منهم، أو اختلفوا فى الشهادة، فعليهم جميعاً حدّ القذف. وإذا حملت امرأة ولم يعلم لها زوج، ولا أنها أُكرهت، فإنها تحدّ. والزنا زنيان: زنا السّر: وهو الذى يشهد به الشهود، وزنا العلانية : وهو أن يظهر الحمْل وتقر به المرأة.

●●●

٢٣٩٥.﴿الحد في رمي المحصنات﴾

نزلت الآية: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤**﴾(النور) في القاذفين،بسبب ما قيل في **عائشة أم المؤمنين**. وقيل: بل نزلت في **القَذَفَة** عموماً لافي تلك النازلة. **والرَّمْي** هو السبّ واستعير له اسم الرمي لأنه إذاية. **والرمي للمحصنة** وكذلك للمحصن، ولكن الآية اقتصرت على النساء من حيث أنهن أهَمّ،ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى، **وقَذْف الرجال** داخل في حكم الآية بالمعنى، والإجماع على ذلك. **والمحصنات** هن العفائف .ويشترط في **القاذف العقل، والبلوغ والإسلام**، والحرية والعفة؛ ودون **العقل والبلوغ** يسقط التكليف، لأنهما الأصل فيه. **والتعريض** كالتصريح إذا فُهِم منه القذف، والشهادة عليه **بأربعة** رحمةً بالعباد وستراً لهم، وتقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين، ولا عبرة بالشهادة إلا إذا كانت معاينة ،وعقوبة القاذف **الجلد** ثمانين جلدة، ويحكم عليه بالفسق والخروج عن طاعة الله، ومن ثم لاتُقبل له شهادة مدة عُمره، إلا من تاب وأصلح. وعلى ذلك فالأحكام في القاذف ثلاثة: **جلْدُه، وردُّ شهادته أبداً، وفسقُه؛ والتوبة** تكون بتكذيبه لنفسه في القذف، وبعد التوبة تجوز شهادته. **وقيل فيمن يشهد عذاب المجلودين**: أقل العدد **أربعة** قياساً على شهادة الزنا. وقيل في قوله «**طائفة من المؤمنين**» أن الطائفة حتى الألف. والمراد من حضور الجماعة هو الإغلاظ على الزناة بحضرة الناس، وأن ذلك يردع المحدود، ومن شهده وحضره يتّعظ به ويزدجر، أو يدعو لهما بالتوبة والرحمة.



٢٣٩٦.﴿اللعان يمين الذين يرمون أزواجهم﴾

لمّا ذكر الله تعالى حدّ القذف للمحصنات، تلا ذلك باللعان بين الأزواج إذا شهد أحدهم على الآخر بالزنا ولم يكن لهما شهداء إلا أنفسهم، قال: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⑥ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑦ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑧ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑨**﴾(النور).
وقوله «**لعنة الله عليه**» كان منه اسم **اللعان**، وهو أن يقسم بالله ويستنزل عليه لعناته إن كان كاذباً. ويكفي لإيجاب اللعان مجرد **القذف** من غير رؤية، وللعان أيمان وليس شهادات كالزنا، وفي التلاعن يقول الزوج: «**أشهد بالله أني رأيتها تزني، وأني ما وطأتها بعد رؤيتي**».

فإذا كانت حاملاً يشهد بالله أن هذا الحمل عندها ليس منه، ويشير إليه، ويحلف بذلك أربع مرات، وفي كل مرة يقول: «وإني لمن الصادقين في قولي هذا عليها». ثم يقول في الخامسة: و«عليّ لعنة الله إن كنتُ من الكاذبين». ثم تحلف المرأة بعده أربعة أيمان، تقول فيها: «أشهد بالله إنه لكاذب فيما ادّعاه وذكره عني». وإن كانت حاملاً قالت: «وإن حملي هذا منه». ثم تقول في الخامسة: «وعليّ غضب الله إن كان صادقاً أو من الصادقين». ولاحدّ على من يرمي زوجته. وبتمام اللعان تقع الفُرقة بين المتلاعنين، فلا يجتمعان، ولايتوارثان، ولايحلّ له مراجعتها أبداً، لا قبل زوج ولابعده. ووقت اللعان يكون عصراً بالمسجد، ويتوفر له جمعٌ من الناس.

واللعان في اليهودية كما هو في الإسلام، وطقوسه مختلفة تماماً (العدد ٥ / ١٢ ـ ٢٩) وتشبه السحر، وترده التوراة لغيرة الرجل، ولذا تسمية شريعة الغيرة. واللعان للمرأة وليس للرجل، واسم اللعان اسم إسلامي محض، والكاهن اليهودي يُحلّف المرأة يمين اللعنة ويقول لها: يجعلك الربّ لعنة وعبرة بين الناس، ويصيبك بالمرض في أحشائك لو كنتِ قد زنيت، وتؤمّن المرأة على كلامه تقول: آمين آمين.

●●●

٢٣٩٧. ﴿من زنى في دار الحرب أو في دار الإسلام يُحَدّ﴾

الزواج من البغايا مُحَرّمٌ على المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾(النور)، إلا إذا تُبْنَ. والزنا حرّمه الله، وحيثما زنى الرجل فعليه الحَدّ، سواء كان في دار حرب أو في دار إسلام، وهذا هو ظاهر الآية: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴿٢﴾ ﴾(النور).

●●●

٢٣٩٨. ﴿إقرار الممتحنات أن لايزنين﴾

كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمتحنّ بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ﴿١٢﴾ ﴾ (الممتحنة)، وكان الرسول ﷺ يبايعهن في «بيعة النساء» بعد «بيعة الرجال»، ومن ذلك اشتراطه عليهن أن «لايزنين»، وكان من نساء الجاهلية كثيرات يرتكبن الفحشاء وخاصة الزنا ولايحجزهن عنه شرف النسب، فخصّه وغيره من المناهي بالذكر لهذا السبب.

●●●

٢٣٩٩.﴿الزنا ومايكفره﴾

نهى الله تعالى عن الزنا فقال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ (٣٢)﴾ (الإسراء)، وقوله «ولاتقربوا الزنى» أبلغ من أن يقول: «ولاتزنوا»، فإن معناه «لاتدنوا من الزنى»، لامن قريب، ولامن بعيد، فيشمل النهى حتى مقدماته. والزنا فى اللغة الفُجْر، تقول زَنَى أى فَجَر، فهو زان والجمع زناة، وهى زانية والجمع زوان، والزَنّاءة الكثيرة الزنا، ويقال الزنى والزنا، بالمدّ والقصر. وخطورة الزنا أنه يُنسَب به ابن الغير إلى الزوج ويرثه بلا حق، وتفسد به الأنساب. ومن صفات عباد الرحمن ضمن صفات أخرى، أنهم: ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الفرقان)، فجُعِل الزنا مساوٍ للكفر وللقتل، وجعلت عقوبة الزنى فى الآخرة كعقوبتهما: العذاب المضاعف والخلود فيه. وفى الآية كانت الصفات الأولى لعباد الرحمن صفات التحلّى، ثم أعقبتها صفات التخلّى، فهم عباد الرحمن لأن من صفاتهم أنهم تخلوا عن الزنى. والزنا كالقتل، لأن القتل إزهاق نفس. والزنا وأد كوأد البنات، لأن الزانى يضع ماءه فى غير ما حلله الله ولم يقصد به الإنجاب، فقتل نفساً لم تخلق بعد، ولو كان قد تزوج لكان هذا الماء الضائع بشراً سوياً.

وفى الحديث: أن رسول الله ﷺ لما سئل: أى الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خَلَقَك» ،قيل: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم» ، فقيل: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك» أخرجه مسلم. ودلت الآية والحديث على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق، ثم الزنا، ولهذا ثبت فى حدّ الزنا الجلد فى الدنيا، ويضاعف له العذاب فى الآخرة ويخلد فيه: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾(الفرقان)، والتوبة تكون بالتبديل فى الدنيا، من الشرك إلى الإيمان، ومن الشك إلى الإخلاص، ومن الفجور إلى الإحصان، وإذا صحّت التوبة صحّ تبديل السيئات حسنات. وفى الحديث: «اتبع السيئة الحسنة تمحها»، وسأل أحدهم رسول الله ﷺ: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً، ولم يترك حاجّة ولا داجّة إلا فعلها (والحاجّة هى التى تعن فى الذهاب، والداجّة التى تعن فى الإياب) فهل له من توبة؟ قال: «هل أسلمت؟» قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أنك عبد الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «نعم، تفعل الخيرات وتترك السيئات، يجعلهن الله كلهن خيرات». ولا توجد سيئة أسوأ من الكفر وقتل النفس ثم الزنا كما سبق فى الحديث.

***

٢٤٠٠.﴿الدليل على أن الرجم ليس مما أنزله الله﴾

رجم الزانية والزانى لم يوجد فى القرآن وإنما فى التوراة، فالمحصنة وغير المحصنة ترجمان بالزنا (تثنية الاشتراع ٢٢ / ٢١-٢٣). وفى القرآن لا رجم للزنا، وإنما الجلد، يقول تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾(النور ٢). والمحصنة فى القرآن يقابلها **الأمة**، والأولى تجلد مائة جلدة، بينما الإماء كان الحكم فى الزوانى منهن مختلفاً، يقول تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**(٢٥)﴾(النساء): أراد إنْ زنت **الأمة**، فعليها نصف ما على المحصنة إذا زنت، فنبّه إلى أن **المحصنات**، هن الحرائر العفيفات، وسُميت كذلك لأن أخلاقها تحصنها، فهى مُحْصَنَة، فإن قلنا إن على المحصنة الرجم إذا زنت، فكيف يكون على الأمة «**نصف رجم**» ؟! فالرجم لايتبعّض!! ومن قال إن المحصنة هى **البكر**،والبكر إذا زنت عليها **مائة** جلدة، فيكون على الأمة إذن **خمسون** جلدة، أخطأ وبنى حُكمه على مقدمات غير سليمة، لأن الإحصان يكون للرجل والمرأة على السواء، فيقال رجل محصن أى عفيف وامرأة محصنة أى عفيفة، فالقول بأن المحصنة هى البكر قول غير سليم، فالعفاف لا يقتصر على الأبكار وحدهن، والمرأة المحصنة إذن هى الحرة العفيفة وتجلد فى الزنا مائة جلدة، بينما الأمة إذا زنت تجلد نصف ذلك. والمهم أنه **لا رجم للزانية فى القرآن** .**سواء كانت عفيفة حرة أو أمة**.



٢٤٠١.﴿قوله تعالى ﴿الزانية والزانى﴾، و﴿السارق والسارقة﴾

قيل لماذا تقديم **الأنثى على الذكَر فى آية الزنى** بقوله تعالى:﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي**(٢)﴾(النور)، وتقديم **الذكر على الأنثى فى آية السرقة** بقوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ**(٣٨)﴾(المائدة)؟ والجواب: أن الزنا متفشٍ بين النساء، والزانيات يجاهرن به، وهو فى النساء مجلبة للعار، والمرأة تحمل به ولايحمل الرجل، فالزنى يضر بالمرأة صحياً وفسيولوجياً واجتماعياً ونفسياً، وتبعاته عليها جسيمة، ونتائجه منها على المجتمع وخيمة، ولذلك توجه الخطاب إلى المرأة أولاً. وأما فى **السرقة** فإنها أكثر تفشياً **فى الرجال**، والإحصاءات على أن السرقات يقوم بها الذكور أكثر من الإناث، وقد تتسم بالعنف، وتصحبها الكثير من الاعتداءات والمخالفات. و إقدام الرجال على السرقة أكثر من إقدام النساء، ولذلك بدأت الآية بذكر السارق قبل ذكرها للسارقة.



٢٤٠٢.﴿من يتزوج الزانية فهو زان﴾

قوله تعالى: ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ**

ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾(النور)، من الآيات التى يمكن أن نخلص إليها بكثيرمن الدراسات الاجتماعية: فالزنا لايكون إلا بزانية وزان، والزنا يوافقهما ويناسبهما، ووطء الزانية لايقع إلا من زان أو مشرك، لأن أيهما لايهمه إن كان ينكح زانية أومشركة، فهذه مسائل لا تهمه لاعتياده الزنا حتى صار طبعاً فيه، وبديهى أنه لن ترضى به إلا من كانت زانية مثله أو مشركة، والمشرك والمشركة لايحفلان بالعفاف، لأنه قيمة، وجماعة المشركين يحيون بلا قيم، ودعاة الليبرالية أو الإباحية لايجدون غضاضة فى أن يتزوجوا أو يطأوا الزوانى، أو أن تتزوج النساء من مجتمعاتهم من مشركين زناة. ثم إن من يتزوج الزانية لابد أن يكون قد واقع الزنا مثلها، وإلا ما قبل الزواج منها، وهو لا ينكحها إلا وهو راض بزناها وغالباً يساعدها عليه، والناس من طبائع واحدة يألفون بعضهم البعض، والطيور على أشكالها تقع، والزنا تنفر منه طبيعة المسلم والمسلمة ويضاد مبادئهما وما نُشّئا عليه من أخلاق وقيم، والغيرة من الفطرة، والزنا دليل فساد الفطرة، لأن الزانى والزانية لا غيرة عندهما، وعلماء النفس والطب النفسى يصفون من لا غيرة عنده بأنه كالذى لا ضمير عنده، ولاأخلاق، ويسمونه مجنوناً خُلقياً **morally insane**، وافتقاده للغيرة كافتقاد المجنون للعقل. والمنطقى إذن أن المسلم والمسلمة لايجدا نفسيهما مع الزانية أوالزانى خِلقياً وخُلقياً، وعملياً ونظرياً، فالزنا ضد الإسلام.



٢٤٠٣.﴿القوادة﴾

القوادة فاحشة: وهى التوسط فى الزنا؛ **والقوّاد** هو سمسار الفاحشة. وكان العرب يكْرِهون إماءهم على الفاحشة، وكان بعضهم يمتهن القوادة، وفى الآية: **﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾**(النور) تحريمٌ للقوادة، والآية خطاب للرجال، لأن الإكراه يتصور فيهم ولايتصور فى النساء إن أردن الزنا، **والتحصن** يكون رغبة عند المرأة وتأتيه إرادةً، فإذا كانت راغبةً فى الزنا فهى تفعله دون إكراه. وقد تعمل المرأة **قوّادة** تستغل النساء نظير ما تتقاضاه، وهو المقصود **بعرَض الحياة الدنيا. والبغاء**: هو الفحشاء، من **بَغَى يعنى** اعتدى وتجاوز، **و البَغِيّ**: هى التى تتجاوز الآداب وتفجُر، **والقوّاد** سُمّى كذلك لأنه يقود المرأة إلى طريق الفجور والبغاء ويتقدمها فيه لاستجلاب العملاء. والمرأة إذا **أكرهت على الزنا لا حدّ عليها**، ويُحَدّ القوّاد أو القوّادة **خمساً وسبعين جلدة، أى يضرب ثلاثة أرباع حدّ الزنا، ويُنفَى من البلدة، وقيل**: يُحلق للقواد رأسه، ويُشهّر به، ويُنفَى من بلده، وأما **القوّادة**: فتضرب

دون الحلق والنفى والتشهير لما يجب من ستر المرأة. و هذا العقاب مكافىء للفعل، وهو علاجٌ بالتنفير من أنواع العلاج فى الطب النفسى ،وتثبت القوادة بالإقرار،مع كمال المقرّ بالعقل والبلوغ والاختيار والمسئولية وبشهادة شاهدين عدلين، أو بإقرار البغايا تحت إمرة وإدارة القوّاد أو القوّادة، وبالضبط من واقع الحال، وبطرق الإثبات الأخرى كالتسجيل والتصوير، وشهادة النساء كشهادة الرجال فى ذلك، ومثلها إقرار القوّادة على نفسها.

•••

٢٤٠٤.﴿القذف﴾

القذف: هو الرّمْى بالزنا، واصطلاح القرآن «الرمى» ، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④﴾(النور) والآية نزلت فى القاذفين، وكان سببها ما قُذفت به عائشة أم المؤمنين، فنزلت فى القَذَفَة عموماً، وظاهرها يدل على القذف الذى يوجب الحدّ كما سبق أن قلنا فى رمى المحصنات. واستعير اسم الرَّمْى للقذف، لأنه إذاية بالقول، كقول الشاعر: وجرح اللسان كجرح اليد، ومن أمثلته: قذف ابن أمية لامرأته بشريك بن السحماء. وقَذْفُ الرجال داخل فى قذف النساء فى الآية، حيث المحصنات تعُمّ النساء والرجال، ويدل على ذلك قوله عن النساء، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ②④﴾(النساء) فكأن «المحصنات» فقط يقصد بها الجنسين .والحدّ فى القذف لإزالة المعرّة التى أوقعها القاذف بالمقذوف، والتعريض كالتصريح، والتعريض كما فى الآية: ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ⑧⑦﴾(هود)، والآية: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ②⑧﴾(مريم)، فَعُرِّض فى الآية الأولى بشعيب، بالسّب، بكلام ظاهره المدح، وفى الآية الثانية عُرِّض بمريم فمُدح أبوها ونُفى عن أمها البغاء. و يستوى فى القذف أن تقذف زوجة من زوجات النبىّ ﷺ أو امرأة من العامة، لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، ولا يقتضى شرف زوجات الرسول ﷺ ، أو زوجة الوزير إلخ، الزيادة فى حدّ من قذفهن، فشرف المنزلة لايؤثر فى الحدود، ولايؤثر نقصها فى الحد بتنقيص، ولا صحة لقول القائل إن قاذف زوجة النبّى ﷺ حُدّ حدّين، فهو حدّ واحد، ويفتقر فى الشهادة إلى أربعة شهداء، مخافة أن يُظلم المتهم بالقذف، وتُقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين،والخلاف حول ما إذا كان حدّ القذف من حقوق الله أو من حقوق الآدميين، لأنه لو كان من حقوق الله لكان على القائمين على الأمن والعدالة إقامته، ولو لم يطلب ذلك المقذوف، وإن كان من حقوق الآدميين فلا يقام إلا بمطالبة المقذوف ويسقط بعفوه. وفى الآية ثلاثة أحكام فى القاذف: جلده، وردّ

شـهـادته أبداً، وفسـقـه؛ وإن تاب من بعد ذلـك تقبل شهـادته، وتوبته أن يكذّب نفـسه، ويندم، ويستغفر، ويترك العودة إلى مثله، والتائب من الذنب كمن لاذنب له.

●●●

٢٤٠٥. ﴿رمى البرىء بهتانًا له﴾

ترد الخطيئة والإثـم معاً فى الآية: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾ (النساء)، قيل: الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد، والإثـم لايكون إلا عن عمد، فالقتل بالخطأ خطـيئة، والسرقة إثم. وفى الآية رمى البـرىء بخطيئة أو إثم ارتكبهمـا غيره بُهِتَ له. يقـال بهته بـهتاناً إذا قال عليه مـا لـم يفعله. وفى الحديث: «اتدرون ما الغـيبة؟» قـال: «ذكرُك أخاك بما يكره. إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيـه فقد بهتَه» أخرجـه مسلم.

●●●

٢٤٠٦. ﴿الخمر والميسر فيهما إثم كبير﴾

سأل المؤمنون عن الخمـر كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا (٢١٩)﴾ (البقرة)، والخمر من خَمَر أى ستر، ومنه خمار المرأة، والجمع أخمرة؛ وكل شىء غطى شيئاً فقد خَمَره. فالخمر تخمّر العقل، أى تغطيه وتستره، وقيل سميت خمراً لأنها تُركت حتى أدركت، كما يقال اختمر العجين يعنى بلغ إدراكـه؛ وقيل بل سُمّيت خمراً لأنها تخالط العقل، من المخامـرة أى المخالطة، فـالمعانى الثلاثة متقـاربة، فالخمر تُركت وخُمِّرت حتى أدركت، ثم خـالطت العقل، ثم خَمَرْتهُ أى غطّته وسترته. وما أسـكر كثيره، فمحرمٌ قليله وكثيـره. ومن كرم الله مع أمة الإسلام أنه لم يوجب عليـها الشرائع دفـعة واحدة، ولكنهـا مرة بعد مـرة، وكذلك فـعل فى تحريم الخمـر. وهذه الآية أول ما نزل فى أمر الخمـر، ثم نزلت بعدها: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ (٤٣)﴾ (النساء)، ثم نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ (المائدة)، ثم نزلت: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ (٩٠)﴾ (المائدة).

والميـسر هو القمار، من قولهم: الرجلُ قَمَـر الرجل، يعني راهنه على ماله وعياله، وقيل: كانوا يلعبون فى الليالى القمرية فسمى قماراً، ولأنه لعبٌ يسير وأداؤه سهل فسمى ميسراً. والميسر ميسران: ميسر اللهو وميسر القمار، والشطرنج والنرد كلاهما من ميسر اللهو،

وميسر القمار، يتراهن الناس فيه. وفى الميسر والخمر إثمٌ كما فيهما منافع. وإثم الخمر: ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والفُحش والزُّور، وزوال العقل، وتعطيل الصلوات، وتأخير ذكر الله، وإبطال العمل النافع، ويصير ضُحكة الناس. والخمر أم الخبائث. ومنافعها : ربح التجارة، ؛وقيل إنها تهضم الطعام، وتقوى الضعف، وتعين على الجماع، وتشجّع الجبان. ومنفعة الميسر: الربح من غير كدّ ولا تعب. وإثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما، وأعوَد بالضرر في الآخرة؛ والإثم بعد التحريم، والمنافع قبل التحريم. وجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام، وقد لعن النبيّ ﷺ الخمر، ولعن معها عشرة: بائعها، ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، والمعصورة له، وساقيها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة له، وآكل ثمنها. والذنب في القمار والخمر من الكبائر. وطالما وصفهما الله تعالى بالإثم فقال: «فيهما إثم كبير» فهما محرّمان، فقد حرّم الله الإثم فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ (٣٣) ﴾(الأعراف)، والخمر والقمار ليس فيهما مجرد إثم ولكنه إثم كبير.

●●●

٢٤٠٧.﴿خمس من المحرمات﴾

هى: الفواحش، والإثم، والبغى، والشرك، والتقوّل على الله، وتجمعها الآية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾(الاعراف)، و«الفواحش»:هى المقبّحات؛ و«ما ظهر منها» كنكاح المشركة؛ و«ما بطن» كالزنا؛ و«الإثم»: قيل هو ما دون الحدّ،وكل المعاصى إثم ؛«والبغى» الظلم والفساد وما تجاوز الحدّ فيهما؛ و«الشرْك بالله »: أن تجعل له شريكاً. و«التقوُّل عليه تعالى» كما يفعل النصارى، فقد جعلوا له زوجة وولداً.

●●●

٢٤٠٨.﴿الحرية تمنع الحرة مما يتعاطاه العبيد﴾

الناس الآن فرضاً كلهم أحرار، والواقع أن العبودية مازالت موجودة، حسيّاً ومعنوياً، والإماء ما زلن فى كل مكان من العالم بدءاً من أمريكا وانتهاء بالصين، وكان إماء الأمس يُشترين بالمال، وإماء اليوم يشترين بالمال وبالهدايا وبالحظوة،و نساء اليوم عَبَدة ما يسمونه الحرية، وهى فى جوهرها الانحلال، فالأخلاق والمحرّمات والمباحات لازمة كإشارات المرور ولزومها لحركة الناس والسيارات فى الحياة، شأنها شأن القوانين التى تحدد للناس قواعد التعامل. وإذا كان للإماء عُذرهن قديماً، فإنه لا عذر لبغايا اليوم؛ وكذلك الحرة فإنها

تتحرر من كل ما يمكن أن يقسرها على السلوك بالإباحية أو الانزلاق إلى المشاعية الجنسية. والحرية إن كانت حقيقية تمنع الحرّة وتحول بينها وبين ما تُقسر عليه البغي وما كانت تُغصب عليه، والقرآن يميز بين نوعين من الرجال والنساء، قال: ﴿**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**﴿٢٤﴾﴾(النساء)، وقال كذلك: ﴿**مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴿٢٤﴾﴾(النساء)، والإحصان هو **العفة**، وهو ضد الحرية بمعنى الانحلال، وكانوا يسمون النساء غير المنحلاّت «**الحرائر**»، وهو من المصطلحات الإسلامية الرائعة، وكان عرف الإماء في **الجاهلية الأولى** الزنا، كما أن **الانحلال** هو عرف النساء في هذه **الجاهلية الثانية** التي فرضتها علينا أوروبا وأمريكا. والانحلال العلماني هو تحلّل من كل الشرائع؛ ولما جاءت **هند بنت عتبة** تبايع الرسول ﷺ واستقسمها أن لا تزنى قالت: **وهل تزنى الحرة؟** فالحرة بالمعنى الإسلامى هى **المُحْصَنَة**: أى العفيفة المحفوظة الممنوعة، **فهى عفيفة** - من عفّ أى لاتأتى إلا ما يجمُل - **ومحفوظة**، أى من الدنس وأن تأثم وتأتى الخطيئة، **وممنوعة** أى من أن تقرب الحرام أو يقربها.

•••

٢٤٠٩. ﴿الاغتصاب﴾

يقال **غصبه على الشيء** أى قهره، **وغَصَب الشيء** أى أخذه قهراً، كقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا** ﴿٧٩﴾﴾(الكهف ٧٩)، ومن ذلك أن تقول: **اغْتُصِبت المرأة**: أى زُنى بها كرهاً، ومَن استكره امرأة على الزنا فعليه الحدّ دونها، وإن أُكره الرجل على الزنا فزنى فعليه الحدّ.

•••

٢٤١٠. ﴿وطء الأموات﴾

الوطء من وطأ يعنى داس كقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا**﴾(التوبة ١٢٠)، وقوله: ﴿**هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا** ﴾(المزمل٦) أى لها ضغطة. **والوطء** الجماع ومنه **وطء الأموات**، وقيل: من **وطأ زوجته بعد موتها** فقد فعل محرّماً، ولايُحَدّ حدّ الزانى، ويسقط عنه الحدّ للعلاقة الزوجية، ويعزّر لانتهاك **حرمة الموتى**، وهذا الوطء محرمٌ إجماعاً وإن لم يكن زنا لغةً. وفى وطء الميتة يجب الحدّ فى وجه، وفى آخر لايجب.

•••

٢٤١١. ﴿الوطء فى الدُّبُر﴾

الوطء هو إتيان النساء، ومنه **الوطء فى القُبُل**، **والوطء فى الدُّبُر**. **والوطء الحلال**: هو ما كان للزوجة فى القُبُل، والحرام ماكان دون ذلك. ولايحل **وطء الزوجة فى الدبر**، لقوله

تعالى: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴿٢٢٢﴾ ﴾(البقرة) أى أن مباشرة النساء لاتكون إلا فى القُبُل دون الدبر، ومن يفعل عكس ذلك فَفِعْله من الشذوذ الجنسى، ودليل اضطراب نفسى يعانى منه الرجل، والنساء لايرضين به، وإذا فعله فمن رضوخ وكراهية شديدة، ومن حق المرأة أن تطلب الطلاق إذا تكرر ذلك من زوجها، ومن حقّها أن ترفض شذوذه بإباء. وحُكم وطء الأجنبية فى الدبر هو حُكم اللواط، بقوله تعالى: ﴿فَآذُوهُمَا ﴿١٦﴾ ﴾(النساء)، وفى حالة وطء النساء فى الدبر فالذى يُؤذَى هو الرجل، وقيل يُؤذَى بالتوبيخ والتعيير، وبالسّب والجفاء، وليس هذا الوطء من الزنا، والإحصان المعاقب عليه بحدّ الزنا لايكون إلا فى الوطء الكامل، أى الوطء فى القُبُل.

●●●

٢٤١٢. ﴿وطء الصغيرة والصغير﴾

الوطء للصغيرة التى يمكن وطؤها يوجب الحدّ لأنه زنا، فإن كانت ممن لايصلح وطؤها ففى وجه يجب عليه الحدّ، وفى آخر لا يجب، ووطؤها جُرمٌ لاشك فيه يعاقب عليه، وللأب أن يدّعى فيه بالحق المدنى، ولو امرأة استدخلت ذكر صبى لم يبلغ عشراً فإنها تُجرّم وتعاقب. والوطء للصغير فى الدُّبُر لواطٌ ويعاقب المكلّف عقاب اللواط. وكذلك إن ساحقت المرأة طفلة فتعاقب عقاب السحاق.

●●●

٢٤١٣. ﴿وطء البهيمة﴾

من وطئ بهيمة عُزّر ولاحدّ عليه، وقيل حُكمه حُكم اللائط، أى يُؤذَى بالتوبيخ والسبّ والضرب والتعيير، ويجب قتل البهيمة، سواء كانت له أو لغيره، وهذا سليم علمياً، لأن الوطء قد يكون منه نقل الأمراض والعدوى، فإن كانت البهيمة لغيره فعليه ضمانها ـ أى ثمنها. وفى إباحة أكل البهيمة وجهان.

●●●

انتهى بحمد الله باب المعاملات، وبانتهائه بمنّة الله ينتهى كتاب موسوعة القرآن، وما انتهت موضوعاته، وإلى المزيد منها فى طبعات تالية إن شاء الله تعالى.

عبد المنعم الحفنى

الجيزة ت: ٧٦١٣٣٥٥

١١٨ ش محيى الدين أبو العز الدقى

فهرس موضوعات القرآن

فهرس موضوعات القرآن

الجزء الثانى

انتهى الفهرس بحمد اللّه

من مؤلفات الدكتور الحفنى

أولاً: فى الإسلام والتصوّف

- رابعة العدوية : إمامة المحزونين والعاشقين.
- الإمام الفيلسوف حجّة الحق الشاعر عمر الخيام والرباعيات.
- الموسوعة الصوفية.
- المعجم الصوفى.
- موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات والأحزاب الإسلامية حتى العصر الحالى.
- فرق الشيعة للنوبختى والقمى. تحقيق.
- قوت القلوب للمكى. تحقيق.
- تجلّيات فى أسماء الله الحسنى.
- الدعاء لله.
- موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر.

ثانياً: فى الفلسفة

- موسوعة الفلسفة والفلاسفة (مجلدان).
- معجم الفلسفة : عربى ـ إنجليزى ـ فرنسى ـ ألمانى - لاتينى - روسى - يونانى - عبرى - أسبانى - إيطالى.
- موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية.
- ما هى الوجودية.
- الوجودية والماركسية.
- البيركامى : الفلسفة والأدب والحياة.
- ثلاث مسرحيات لكامى : العادلون ـ الحصار ـ سوء تفاهم.
- التمرد لكامى.
- أسطورة سيسيف لكامى.

- چان بول سارتر. الفلسفة والأدب والحياة.
- ثلاث مسرحيات لسارتر : الشيطان والرحمن ـ سجناء ألطونا ـ الممثل كين.
- سيناريو فيلم الدوّامة لسارتر.
- سارتر : الوجودية مذهب إنسانى.
- سيمون دى بفوار : الأفواه اللامجدية.

ثالثاً: فى علم النفس والطب النفسى

- موسوعة علم النفس والتحليل النفسى.
- المعجم الموسوعى للتحليل النفسى : عربى ـ إنجليزى ـ فرنسى ـ ألمانى.
- موسوعة الطب النفسى : مجلدان.
- الموسوعة النفسية الجنسية.
- موسوعة أعلام علم النفس.
- موسوعة مدارس علم النفس.
- تفسير الأحلام : الترجمة عن الألمانية لتحفة فرويد.
- التحليل النفسى للأحلام : نظرياته وطريقة جديدة فى التفسير.
- تعبير المنام لعمر الخيام.
- تعبير الرؤيا لأرطيميدورس الإفسى : ترجمة حنين بن إسحق. تحقيق ودراسة.
- ما فوق مبدأ اللذة لفرويد.
- ليوناردو دافنشى لفرويد.
- موسى والتوحيد لفرويد.

